UNIVERSAL
LIBRARY

OU-234543

UNIVERSAL
LIBRARY



صحيفه

٢ (سورة طه عليه السلام وفيها المسائل الآتية)
٤ المسئلة الثانية في قول ابطال المشبهة ان الاله جالس على العرش
١٢ المسئلة السادسة في بيان الخلاف في أن موسى كيف عرف أن المنادي هو الله تعالى
١٣ المسئلة التاسعة في بيان استدلال المعتزلة على ان كلام الله تعالى ليس بقديم والجواب عنه
٢٣ الكلام في قوله تعالى رب اشرح لي صدري
٢٦ الفصل الثاني في قوله تعالى رب اشرح لي صدري
٢٩ الفصل الثالث في قوله تعالى رب اشرح لي صدري
٣٠ الفصل الرابع في قوله تعالى رب اشرح لي صدري
٣٢ الفصل الخامس في بيان حقيقة شرح الصدر
٣٤ الفصل السادس في معنى الصدر
الفصل السابع في بقية الابحاث عن هذه الآية
٣٥ المسئلة الاولى في بيان أن النطق فضيلة عظيمة
٤٧ المسئلة السابعة في بيان استدلال موسى على اثبات الصانع باحوال المخلوقات
٦١ المسئلة الثانية في بيان عدد سحرة فرعون
٩٨ المسئلة الثالثة في بيان احتجاج أهل السنة على أن الوجوب لا يتحقق الا بالشرع
٩٨ (سورة الانبياء عليهم الصلاة والسلام وفيها المسائل الآتية)
١٠٥ المسئلة الثانية في بيان أن القول بوجود الهين يفضي الى المحال
١٠٩ المسئلة الثانية في بيان الدلالة على انه سبحانه وتعالى لا يسئل عما يفعل
١١٦ المسئلة الاولى في بيان شبهة من علم الجملة
١١٨ المسئلة الثالثة في بيان معنى الفلك في كلام العرب
المسئلة الرابعة في بيان اختلاف الناس في حركات الكواكب
المسئلة السادسة في بيان احتجاج أبي علي بن سينا على أن الكواكب أحياء ناطقة
١٣٠ المسئلة الثانية في بيان كيفية قصة ابراهيم عليه السلام مع النمرود
١٣١ المسئلة الثانية في بيان ان النار كيف بردت على ابراهيم عليه السلام
١٣٥ المسئلة الرابعة في بيان قصة داود وسليمان عليهما السلام
١٤٦ المسئلة الاولى في بيان قصة أيوب عليه السلام
١٤٨ المسئلة الثانية في بيان قصة يونس عليه السلام
١٤٩ المسئلة الثالثة في بيان احتجاج من يجوز الذنب على الانبياء والجواب عنه
١٥٩ المسئلة الثالثة في بيان الاختلاف في كيفية الاعادة
١٦٢ (سورة الحج وفيها المسائل الآتية)
١٦٤ المسئلة الخامسة في بيان احتجاج المعتزلة على قولهم بأن المعدوم شيء والجواب عنه
١٩٣ المسئلة الثانية في كون النبي عليه السلام هل تكلم في أثناء قراءته بقوله تلك الغرانيق العلى أم لا
٢١١ (سورة المؤمنون وفيها المسائل الآتية)
٢١٦ الكلام في أدوار خلقة الانسان وعوارضها

صحيفة
٢٤٤ (سورة النور وفيها المسائل الآتية)
٢٤٥ المسئلة الاولى فى بيان الاختلاف فى أن اللواطة هل ينطلق عليها اسم الزنا أم لا
٢٦١ المسئلة الثانية فى بيان حكم تعدد القذف
٢٦٢ المسئلة الثالثة فى بيان ما يهيج القذف
٢٧٧ المسئلة الرابعة فى بيان قصة أصحاب الافك
٢٨٩ المسئلة التاسعة فى بيان الخصال التى فضلت بها عائشة سائر أزواج النبى عليه الصلاة والسلام
٢٩٥ المسئلة الثانية فى بيان أقسام العورات وفى بيان حكم النظر الى كل واحد منها
٣١٠ الكلام على قوله تعالى الله نور السموات والارض وفيه فصول
الفصل الاول فى اطلاق اسم النور على الله تعالى
٣١٦ الفصل الثانى فى تفسير قوله عليه السلام ان لله سبعين حجابا النور
٣١٧ الفصل الثالث فى شرح كيفية التمثيل
٣٢٠ الفصل الرابع فى بقية المباحث المتعلقة بهذه الآية
٣٢٧ الكلام فى بيان ادراكات الحيوانات
٣٤٩ (سورة الفرقان وفيها المسائل الآتية)
٣٥٢ الكلام على تزييف مذهب عبدة الاوثان
الكلام فى احتجاج أهل السنة والمعتزلة فى مسئلة خلق الافعال
٣٥٣ الكلام فى بيان شبه منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والجواب عنها
٣٥٦ المسئلة الثانية فى بيان احتجاج أهل السنة على أن الجنة مخلوقة الآن
المسئلة الثانية فى بيان استدلال أهل السنة على أن البنية ليست شرطا للحياة
٣٥٨ المسئلة الثانية فى بيان احتجاج أهل السنة على ان الثواب غير واجب على الله تعالى
٣٦٤ المسئلة الثالثة فى بيان الرد على القائلين بالتجسيم
٣٦٦ المسئلة الثانية فى بيان استدلال المعتزلة على عدم جواز رؤية الله تعالى والجواب عنه
٣٧١ المسئلة الاولى فى بيان احتجاج أهل السنة على أن الله تعالى فاعل للخير والشر
٣٧٢ الكلام فى بيان الحكمة فى نزول القرآن مفرقا منجما
٣٧٤ المسئلة الرابعة فى حكاية أقوال المفسرين فى أصحاب الرس
٣٧٨ المسئلة الرابعة فى بيان وجه الاستدلال بالظل على وجود الصانع
٣٨٠ المسئلة الثالثة فى بيان تقسيم المياه وحكم كل قسم
٣٩٧ (سورة الشعراء)
٤٢٦ الكلام على أن المخاطب فى الحقيقة هو القلب وأن سائر الاعضاء مسخرة له
٤٣٣ (سورة النمل وفيها المسائل الآتية)
٤٤٣ الكلام على قصة بلقيس مع سليمان عليه السلام
٤٥٠ الكلام فى ذكر منافع الارض
٤٥٤ الكلام فى الاستدلال على صحة المعاد
٤٥٥ الكلام فى بيان اعجاز القرآن وفى الاستدلال به على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم
٤٥٦ الكلام فى بيان صفة الدابة وفى شرح أحوال القيامة
٤٦٠ (سورة القصص وفيها المسائل الآتية)
٤٦٢ الكلام على كيفية ولادة موسى والقائه فى اليم وأخذ فرعون له

صحيفة
٤٦٧ المسئلة الخامسة فى بيان استدلال المعتزلة على ان المعاصى لا تنسب الى الله والجواب عنه
٤٧٣ المسئلة الاولى فى بيان احتجاج المعتزلة على قولهم بحدوث القرآن والجواب عنه
٤٧٤ المسئلة الرابعة فى بيان حكاية أقوال الناس فى عصا موسى عليه السلام
٤٧٨ الكلام فى بيان أن سحر فرعون هل حصل بتأثير أم لا وفى كيفيته
٤٩٥ الكلام فى قصة قارون مع موسى عليه السلام
٤٩٨ المسئلة الاولى فى بيان اختلافهم فى قوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه
٤٩٩ المسئلة الثالثة فى تزييف القول بالتجسيم
٥٠٠ (سورة العنكبوت وفيها المسائل الآتية)
المسئلة الثانية فى بيان حكمة افتتاح بعض السور بحروف مقطعة
٥٠٢ المسئلة السادسة فى بيان الفوائد المعنوية التى فى قوله الم أحسب الناس الآية
٥٣١ المسئلة الثالثة فى بيان أن الصلاة كيف تنهى عن الفحشاء والمنكر
٥٤٥ (سورة الروم وفيها المسائل الآتية)
٥٤٧ الكلام فى حسن خلقة الانسان التى يجب التفكر فيها
٥٥٠ المسئلة الاولى فى بيان معنى سبحان الله ولفظه
٥٥١ المسئلة الثانية فى بيان حكمة تخصيص بعض الاوقات بالامر بالتسبيح فيه
٥٥٢ المسئلة الثالثة فى بيان فضيلة التسبحة والحمدلة فى المساء والصباح
٥٥٣ الكلام فى الاستدلال بخلق الاشياء من التراب على قدرة الصانع
٥٧٢ (سورة لقمان عليه السلام)
٥٨٩ (سورة السجدة وفيها المسائل الآتية)
٥٩٠ الكلام فى تأويل الاستواء فى قوله تعالى ثم استوى على العرش
٦٠٤ الكلام فى بيان حكمة أفعاله سبحانه وتعالى على سبيل الاجمال
٦٠٣ (سورة الاحزاب وفيها المسائل الآتية)
٦١٣ الكلام على مسائل فقهية تتعلق بتخيير النساء
٦٣١ الكلام على ذكر لطائف قوله تعالى انا عرضنا الامانة الآية

(تمت)

(فهرسة ما بالهامش من تفسير العلامة أبى السعود الهمادى رحمه الله تعالى)

صحيفة
٧٩ سورة يوسف عليه السلام
١٨١ سورة الرعد
٢٢٧ سورة ابراهيم عليه السلام
٢٨٣ سورة الحجر
٣٣٤ سورة النحل
٤٣٠ سورة الاسراء
٥٠٩ سورة الكهف
٥٩٢ سورة مريم

(تمت)

﴿الجزء السادس﴾

من مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير

للإمام محمد فخر الدين ابن

العلامة ضياء الدين عمر المشتهر

بخطيب الري رحمه الله

ونفع به المسلمين

آمين

﴿وبهامشه تفسير العلامة أبي السعود﴾

﴿رحمه الله تعالى﴾

﴿محل بيعه بالمطبعة الازهرية﴾

﴿عند حضرة السيد محمد رمضان﴾

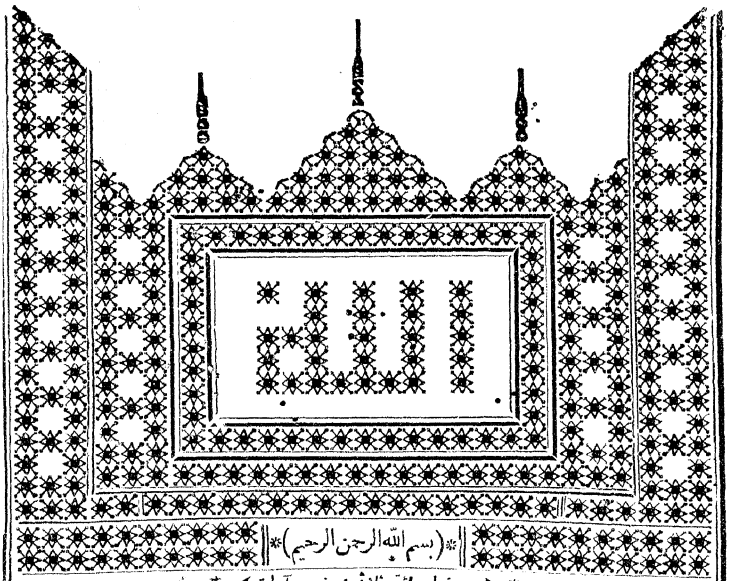
﴿صاحب امتياز المطبعة﴾

﴿المذكور هو ملتزمه﴾

﴿الطبعة الاولى﴾

﴿بالمطبعة العامرة الشرفية﴾

﴿سنة ١٣٠٨ هجرية﴾



(وما أنا بطارد الذين آمنوا) جواب عما لوحوا به بقولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا من أنه لو اتبعه الاشراف لوافقوهم وأن اتباع الفقراء مانع لهم عن ذلك كما صرحوا به في قولهم أنؤمن لك واتبعك الارذلون فكان ذلك التماسا منهم لطردهم وتعليقا لايمانهم به عليه الصلاة والسلام بذلك أنفة من الانتظام معهم في سلك واحد (انهم ملاقو ربهم) تعليل لامتناعه عليه السلام عن طردهم أي انهم فائزون في الآخرة بلقاء الله عز وجل كما تفيد لا أطردهم ولا أبعدهم عن مجلسي لانهم مقربون في حضرة القدس والتعرض لوصف الربوبية للتربية وجوب رعايتهم وتحتم الامتناع عن طردهم أو مصدقون في الدنيا بلقاء ربهم موقنون به عالمون انهم ملاقوه لامحالة فكيف أطردهم وحمله على معنى أنهم يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من ايمان صحيح ثابت كما ظهر لي

﴿سورة طه مائة وثلاثون وخمس آيات﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى﴾ اعلم ان قوله طه فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو بفتح الطاء وكسر الهاء وقرأ أهل المدينة بين الفتح والكسر وقرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الطاء والهاء وقرأ حمزة والكسائي بكسر الطاء والهاء قال الزجاج وقرئ طه بفتح الطاء وسكون الهاء وكلها لغات قال الزجاج من فتح الطاء والهاء فلان ما قبل الالف مفتوح ومن كسر الطاء والهاء فأمال الكسرة لان الحرف مقصور والمقصور يغلب عليه الامالة الى الكسرة ﴿المسئلة الثانية﴾ للمفسرين فيه قولان (أحدهما) انه من حروف التهجي والآخر أنه كلمة مفيدة أما على القول الاول فقد تقدم الكلام فيه في أول سورة البقرة والذي زادوه ههنا أمور (أحدها) قال الثعلبي طاشجرة طوبى والهاء الهاوية فكأنه أقسم بالجنة والنار (وثانيها) يحكى عن جعفر الصادق رضي الله عنه الطاء طهارة أهل البيت والهاء هدايتهم (وثالثها) يا مطمع الشفاعة للامة ويا هادي الخلق الى الملة (ورابعها) قال سعيد بن جبير هو افتتاح اسمه الطيب الطاهر الهادي (وخامسها) الطاء من الطهارة والهاء من الهداية كأنه قيل يا طاهرا من الذنوب ويا هاديا الى علام الغيوب (وسادسها) الطاء طول القراء والهاء هيبتهم في قلوب الكفار قال الله تعالى سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب (وسابعها) الطاء تسعة في الحساب والهاء خمسة تكون أربعة عشر ومعناه يا أيها البدر وقد عرفت فيما تقدم أن أمثال هذه الاقوال لا يجب أن يعتمد عليها (القول الثاني) قول من قال انها كلمة مفيدة وعلى هذا القول ذكروا وجهين (أحدهما) معناه يا رجل وهو مروي عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبي رضي الله عنهم ثم قال سعيد بن

أو على خلاف ذلك مما تعرفونهم به من بناء امانهم على بادي الرأى من غير نظر وتفكر وما على أن أشق عن قلوبهم وأعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم ان كان الامر كما تزعمون بأيا ما لجزم بترتب غضب الله عز وجل على طردهم كما سيأتي وايضا فهم انما قالوا ان اتباعهم لك انما هو بحسب بادي الرأى بلا تأمل وتفكر وهذا لا يكاد يصلح مدارا للطرد في الدنيا ٣ ولا للمؤاخذة في الآخرة غاية ما في أن لا يكونوا في مرتبة الموقنين وادعاء أن بناء الايمان على ظاهر الرأى يؤدى الى الرجوع عنه عند التأمل فكانهم قالوا انهم اتبعوك بلا تأمل فسلا يثبتون على دينك بل يرتدون عنه تعسف لا يخفى (ولكنى أراكم قوما تجهلون) بكل ما ينبغى أن يعلم ويدخل فيه جهلهم بلقاء الله عز وجل وبمنزلتهم عنده وباستيجاب طردهم لغضب الله كما سيأتى وبركاكة رأيهم فى التماس ذلك وتوقف ايمانهم عليه أنفة عن الانتظام معهم فى سلك واحد وزعمانهم أن الزالة بالفقر والشرف بالغنى وايثار صيغة الفعل للدلالة على التجدد والاستمرار أو تنساقهون على المؤمنين بنسبتهم الى الخساسة (وياقوم من ينصرنى من الله) يدفع حلول سخطه عنى (ان طردتهم) فان ذلك أمر لا مرد له لكون الطرد ظلما موجبا لحلول السخط قطعا وانما لم يصرح به اشعارا بانه غنى عن البيان لاسيما عقب ما قدم

حمير بلسان النبطية وقال قتادة بلسان السريانية وقال عكرمة بلسان الحبشة وقال الكلبى بلغة عك وأنشد الكلبى لشاعرهم

ان السفاهة طه فى خلائقكم ✽ لا قدس الله أرواح الملاعين

وقد تكلم الناس على هذا القول من وجهين (الاول) انه يعنى يا رجل فى اللغة حل عليه لكنه لا يجوز ان يثبت على هذا المعنى الا فى لغة العرب اذ القرآن بهذه اللغة نزل فيحتمل أن تكون لغة العرب فى هذه اللفظة موافقة لسائرا للغات التى حكيناها فاما على غير هذا الوجه فلا يحتمل ولا يصح (الثانى) قال صاحب الكشاف ان كان طه فى لغة عك بمعنى يا رجل فلعلهم تصرفوا فى ياهذا فقلبوا الياء طاء فقالوا طاها ثم اختصروا فى هذا واقتصروا على ها فقوله طه بمعنى ياهذا واعترض بعضهم عليه وقال لو كان كذلك لوجب أن يكتب أربعة أحرف طاها (وثانيهما) انه عليه السلام كان يقوم فى تهجده على أحد شقى رجليه فأمر أن يطأ الارض بقدميه معا وكان الاصل طأ فقلبت همزته هاء كما قالوا هراق فى باب هرقت فى أرقت ويجوز أن يكون الاصل من وطئ على ترك الهمزة فيكون أصله طا يا رجل ثم أثبت الهاء فيها للوقف والوجهان ذكرهما الزجاج ✽ أما قوله تعالى ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف ان جعلت طه تعديدا للاسماء الحروف فهذا ابتداء كلام وان جعلتها اسما للسورة احتمل أن يكون قوله ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى خبرا عنها وهى فى موضع المبتدأ والقرآن ظاهر أو قع موقع المضمر لانها اقرآن وأن يكون جوابا لها وهى قسم (المسئلة الثانية) قرئ ما نزل عليك القرآن لتشقى (المسئلة الثالثة) ذكر وافى سبب نزول الآية وجوها (أحدها) قال مقاتل ان أبا جهل والوليد بن المغيرة وطعيمة بن عدى والنضر بن الحرث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك لتشقى حيث تركت دين آبائك فقال عليه السلام بل بعثت رحمة للعالمين قالوا بل أنت تشقى فأنزل الله تعالى هذه الآية ردا عليهم وتعريفا لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن دين الاسلام هو السلام وهذا القرآن هو السلام والسبب فى ادراك كل سعادة وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها (وثانيها) انه عليه السلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام أبق على نفسك فان لها عليك حقا أى ما أنزلنا ه لتتم لك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة العظيمة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة وروى أيضا انه عليه السلام كان اذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام وقال بعضهم كان يقوم على رجل واحدة وقال بعضهم كان يسهر طول الليل فأراد بقوله لتشقى ذلك قال القاضى هذا بعيد لانه عليه السلام ان فعل شيأ من ذلك فلابد وأن يكون قد فعله بأمر الله تعالى واذا فعله بأمره فهو من باب السعادة فلا يجوز أن يقال له ما أمرناك بذلك (وثالثها) قال بعضهم يحتمل أن يكون المراد لا تشق على نفسك ولا تعذبها بالاسف على كفرهؤلاء فانا انما أنزلنا عليك القرآن لتذكر به فمن آمن وأصلح فلنفسه ومن كفر فلا يحزنك كفره فما عليك الا البلاغ وهو كقوله تعالى لعلك باخع نفسك الآية ولا يحزنك قولهم (ورابعها) انك لا تلام على كفر قومك كقوله تعالى لست عليهم بمسيطر وما أنت عليهم بوكيل أى ليس عليك كفرهم اذا بلغت ولا تؤاخذ بذنبهم (وخامسها) ان هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة وفى ذلك الوقت كان عليه السلام مقهورا تخت ذل أعدائه فكأنه سبحانه قال له لا تظن انك تبقى على هذه الحالة أبدا بل يعلو أمرك ويظهر قدرك فانا ما أنزلنا عليك مثل هذا القرآن لتبقى شقيا فيما بينهم بل تصير معظما مكرما ✽ وأما قوله تعالى الا تذكرة لمن يخشى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى كلمة الا ههنا قولان (أحدهما) انه استثناء منقطع بمعنى لكن (والثانى) التقدير ما أنزلنا عليك القرآن لتحمل متاعب التبليغ الا ليكون تذكيرا كما يقال ما شافهنا بهذا الكلام لتتأذى الا ليعتبر بك غيرك (المسئلة الثانية)

ما يلوح به من أحوالهم فكأنه قيل من يدفع عنى غضب الله تعالى ان طردتهم وهم بتلك المثابة من الكرامة والزلفى كما ينبئ عنه قوله تعالى (أفلا تذكرون) أى أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل المذكور فلا تتذكرون ماذكر من حالهم حتى تعرفوا أن ما تأتونه بمعزل عن الصواب ولكون هذه العلة مستقلة بوجه مخصوص ظاهر الدلالة على وجوب الامتناع عن الطرد أفردت عن التعليل السابق

وصدرت بياقوم (ولا أقول لكم) حين أدعي النبوة (عندي خزائن الله) أي رزقه وأموالـه حتى تستدلوا بعدمها على كذبي بقولكم وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين فان النبوة أعز من أن تنال باسباب دنيوية ودعواها بمعزل عن ادعاء المال والجاه (ولا أعلم الغيب) أي لا أدعي في قولي ٤ اني لكم نذير مبين اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم علم الغيب حتى تسارعوا الى الانكار والاستبعاد (ولا أقول اني ملك) حتى تقولوا ما نراك الا بشرا مثلنا فان البشرية ليست من موانع النبوة بل من مبادیها يعني انكم اتخذتم فقد ان هذه الامور الثلاثة ذريعة الى تكذيبي والحال اني لا أدعي شيأ من ذلك ولا الذي أدعيه يتعلق بشئ منها وانما يتعلق بالفضائل النفسانية التي بها تتفاوت مقادير البشر (ولا أقول) مساعدة لكم كما تقولون (للذين تزدري أعينكم) أي تقتحمهم وتحتقرهم من زراه اذا عابه واستاذل الازدراء الى أعينهم بالنظر الى قولهم ومانراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا واما للاشعار بأن ذلك لقصور نظرهم ولو تدبروا في شأنهم ما فعلوا ذلك أي لا أقول في شأن الذين استرذلتموهم لفقرهم من المؤمنين (ان يؤتيهم الله خيرا) في الدنيا أوفي الآخرة فعسى الله أن يؤتيهم خيرى الدارين ان قلت هذا القول ليس مما تستنكره الكفرة ولا مما يتوهمون صدوره عنه عليه السلام أصالة أو استتباعا كادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن مما نفاه عليه الصلاة والسلام عن نفسه بطريق

اغا خص من يخشى بالتذكرة لانهم المنتفعون بها وان كان ذلك عاما في الجميع وهو كقوله هدى للمتقين وقال سبحانه وتعالى تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا وقال لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون وقال وتنذر به قوما لدا وقال وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين (المسئلة الثالثة) وجه كون القرآن تذكرة انه عليه السلام كان يعظهم به و ببيانه فيدخل تحت قوله تعالى يخشى الرسول صلى الله عليه وسلم لانه في الحشية والتذكرة بالقرآن كان فوق الكل وأما قوله تعالى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا في نصب تنزيلا وجوها (أحدها) تقديره نزل تنزيلا ممن خلق الارض فنصب تنزيلا بمضمر (وثانيها) أن ينصب بأنزلناه لان معنى ما أنزلناه الا تذكرة أنزلناه تذكرة (وثالثها) أن ينتصب على المدح والاختصاص (ورابعها) أن ينتصب بيخشى مفعولا به أي انزله الله تعالى تذكرة لمن يخشى تنزيل الله وهو معنى حسن واعراب بين وقرئ تنزيل بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف (المسئلة الثانية) وائدة الانتقال من لفظ التكلم الى لفظ الغيبة أمور (أحدها) ان هذه الصفات لا يمكن ذكرها الا مع الغيبة (وثانيها) انه قال أولا أنزلنا ففخم بالاسناد للمتكلم ضمير الواحد المطاع ثم ثنى بالنسبة الى المختص بصفات العظمة والتمجيد فتضاعفت الفخامة من طريقين (وثالثها) يجوز أن يكون أنزلناه حكاية لكلام جبريل عليه السلام والملائكة النازلين معه (المسئلة الثالثة) انه تعالى عظم حال القرآن بأن نسبه الى أنه تنزيل ممن خلق الارض وخلق السموات على علوها وانما قال ذلك لان تعظيم الله تعالى يظهر بتعظيم خلقه ونعمه وانما عظم القرآن ترغيبا في تدبره والتأمل في معانيه وحقائقه وذلك معتاد في الشاهد فانه تعظم الرسالة بتعظيم حال المرسل ليكون المرسل اليه أقرب الى الامتثال (المسئلة الرابعة) يقال سماء عليا وسموات عـلا وفائدة وصف السموات بالعلا الدلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها * أما قوله تعالى الرحمن على العرش استوى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ الرحمن مجرورا صفة لمن خلق والرفع أحسن لانه اما أن يكون رفعا على المدح والتقدير هو الرحمن واما ان يكون مبتدأ مشارا بلامه الى من خلق فان قيل الجملة التي هي على العرش استوى ما محلها اذا جررت الرحمن أو رفعته على المدح قلنا اذا جررت فهو خبر مبتدا محذوف لا غير وان رفعت جاز أن يكون كذلك وأن يكون مع الرحمن خبرين للمبتدا (المسئلة الثانية) الشبهة تعلقت بهذه الآية في أن معبودهم جالس على العرش وهذا باطل بالعقل والنقل من وجوه (أحدها) انه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان ولما خلق الخلق لم يحتج الى مكان بل كان غنيا عنه فهو بالصفة التي لم يزل عليها الآن لو زعم زاعم أنه لم يزل مع الله عرش (وثانيها) ان الجالس على العرش لابد وأن يكون الجزء الحاصل منه في يمين العرش غير الحاصل في يسار العرش فيكون في نفسه مؤلفا مركبا وكل ما كان كذلك احتاج الى المؤلف والمركب وذلك محال (وثالثها) أن الجالس على العرش اما أن يكون متمكنا من الانتقال والحركة أولا يمكنه ذلك فان كان الاول فقد صار محل الحركة والسكون فيكون محدثا لامحالة وان كان الثاني كان كالمربوط بل كان كالزمن بل أسوأ حالا منه فان الزمن اذا شاء الحركة في رأسه وحدقته أمكنه ذلك وهو وغيره ممكن على معبودهم (ورابعها) هب ان معبودهم اما أن يحصل في كل مكان أو في مكان دون مكان فان حصل في كل مكان لزمهم أن يحصل في مكان النجاسات والقاذورات وذلك لا يقوله عاقل وان حصل في مكان دون مكان افتقر الى مخصص يخصصه بذلك المكان فيكون محتاجا وهو على الله محال (وخامسها) ان قوله ليس كمثله شئ يتناول نفي المساواة من جميع الوجوه بدليل صحة الاستثناء فانه يحسن أن يقال ليس كمثله شئ الا في الجلوس والا في المقدار والا في اللون وصحة الاستثناء تقتضي دخول

جميع

التبرؤ والتنزه عنه فمن أي وجه عطف نفيه على نفيها قلت من جهة أن كلا النفيين رد لقياسهم الباطل الذي تمسكوا به فيما سلف فانهم زعموا أن النبوة تستتبع الامور المذكورة وأنها لا تتسنى ممن ليس على تلك الصفات فان العثور على امكانها واعتنام معناها ليس من دأب

الاراذل فأجاب عليه السلام بنفي ذلك جميعا فكأنه قال لا أقول وجود تلك الاشياء من موانع النبوة ولا عدم المال والجاه من موانع الخير (الله أعلم بما في أنفسهم) من الايمان وانما اقتصر على نفي القول المذكور مع أنه عليه الصلاة والسلام جازم بأن الله سبحانه سيؤتيهم خيرا عظيما في الدارين وأنهم على يقين راسخ في الايمان جريا على سنن ٭ الانصاف مع القوم واكتفاء بخالقة

جميع هذه الامور تحته فلو كان جالسا متصلا من مماثله في الجلوس فحينئذ يبطل معنى الآية (وسادسها) قوله تعالى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية فاذا كانوا حاملين للعرش والعرش مكان معبودهم فيلزم أن تكون الملائكة حاملين لهذا القوم ومعبودهم وذلك غير معقول لان الخالق هو الذي يحفظ المخلوق أما المخلوق فلا يحفظ الخالق ولا يحمله (وسادسها) انه لو جاز أن يكون المستقر في المكان الها فكيف يعلم ان الشمس والقمر ليس بالله لان طرق بقائنا الى نفي الهية الشمس والقمر أنهما موصوفان بالحركة والسكون وما كان كذلك كان محدثا ولم يكن الها فاذا أبطلتم هذا الطريق انسد عليكم باب القدح في الهية الشمس والقمر (وثامنها) ان العالم كرة فالجهة التي هي فوق بالنسبة الينا هي تحت بالنسبة الى ساكني ذلك الجانب الآخر من الارض وبالعكس فلو كان المعبود مختصا بجهة فتلك الجهة وان كانت فوقا لبعض الناس لكنها تحت لبعض آخرين وبالتفليق العقلاء لا يجوز أن يقال المعبود تحت جميع الاشياء (وتاسعها) أجمعت الامة على ان قوله قل هو الله أحد من المحكمات لا من المتشابهات فلو كان مختصا بالمكان لكان الجانب الذي منه يلي ما على يمينه غير الجانب الذي منه يلي ما على يساره فيكون مركبا منقسما فلا يكون أحدا في الحقيقة فيبطل قوله قل هو الله أحد (وعاشرها) أن الخليل عليه السلام قال لا أحب الآفلين ولو كان المعبود جسما لكان آفلا أبدا غائبا أبدا فكان يندرج تحت قوله لا أحب الآفلين فثبت بهذه الدلائل ان الاستقرار على الله تعالى محال وعند هذا للناس فيه قولان (الاول) انا لا نشتغل بالتأويل بل نقطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة ونترك تأويل الآية وروى الشيخ الغزالي عن بعض أصحاب الامام أحمد بن حنبل انه أول ثلاثة من الاخبار قوله عليه السلام الحجر الاسود يمين الله في الارض وقوله عليه السلام قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وقوله عليه السلام اني لاجد نفس الرحمن من قبل اليمن واعلم ان هذا القول ضعيف لوجهين (الاول) انه ان قطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة فقد قطع بأنه ليس مراد الله تعالى من الاستواء الجلوس وهذا هو التأويل وان لم يقطع بتنزيه الله تعالى عن المكان والجهة بل بقي شاكا فيه فهو جاهل بالله تعالى اللهم الا أن يقول انا قاطع بأنه ليس مراد الله تعالى ما يشعر به ظاهره بل مراده به شيء آخر ولكني لا أعين ذلك المراد خوفا من الخطأ فهذا يكون قريبا وهو أيضا ضعيف لانه تعالى لما خاطبنا بلسان العرب وجب أن لا يريد باللفظ الا موضوعه في لسان العرب واذا كان لا معنى للاستواء في اللغة الا الاستقرار والاستيلاء وقد تعذر حمله على الاستقرار فوجب حمله على الاستيلاء والا لزم تعطيل اللفظ وانه غير جائز (والثاني) وهو دلالة قاطعة على انه لا بد من المصير الى التأويل وهو أن الدلالة العقلية لما قامت على امتناع الاستقرار ودل ظاهر لفظ الاستواء على معنى الاستقرار فاما أن نعمل بكل واحد من الدليلين واما أن نترك كلا منهما واما أن نرجح النقل على العقل واما أن نرجح العقل ونؤول النقل (والاول) باطل والا لزم أن يكون الشيء الواحد منزها عن المكان وحاصلا في المكان وهو محال (والثاني) أيضا محال لانه يلزم رفع النقيضين معا وهو باطل (والثالث) باطل لان العقل أصل النقل فانه لو لم يثبت بالدلائل العقلية وجود الصانع وعلمه وقدرته وبعثته للرسل لم يثبت النقل فالقدح في العقل يقتضي القدح في العقل والنقل معا فلم يبق الا أن نقطع بصحة العقل ونشتغل بتأويل النقل وهذا برهان قاطع في المقصود اذا ثبت هذا فنقول قال بعض العلماء المراد من الاستواء الاستيلاء قال الشاعر

قد استوى بشر على العراق ٭ من غير سيف ودم مهراق

(فان قيل) هذا التأويل غير جائز لوجوه (أحدها) ان الاستيلاء معناه حصول الغلبة وبعد المجز وذلك في

كلامهم وارشادا لهم الى مسلك الهداية بان اللائق لكل أحد أن لا يثبت القول الا فيما يعلمه يقينا ويبني أموره على الشواهد الظاهرة ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة (الى اذا) أي اذا قلت ذلك (لمن الظالمين) لهم بحط مرتبتهم ونقص حقوقهم أو من الظالمين لانفسهم بذلك فان وبال راجع الى أنفسهم وفيه تعريض بأنهم ظالمون في ازدرائهم واستزرائهم وقيل اذا قلت شيأ مما ذكرمن ادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن وهو بعيد لان تتمة تلك الاقوال معتنى عن التعليل بلزوم الانتظام في زمرة الظالمين (قالوا يا نوح قد جادلتنا) خاصمتنا (فأكثرت (جدلنا) أي أطلته أو أتيته بأنواعه فانا كنا رأس الجدال يتحقق بعد وقوع أصله فلذلك عطف عليه بالفاء أو أردت ذلك فأكثرته كما في قوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله والمجهم عليه

الصلاة والسلام وأبرز لهم بينات واضحة المدلول وحججا تتلقاها العقول بالقبول وألقمهم الحجر بردشبههم الباطلة ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وقالوا (فائتنا بما تعدنا) من العذاب المعجل أو العذاب الذي أشرت اليه في قوله اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم على تقدير أن لا يكون المراد باليوم يوم القيامة (ان كنت من الصادقين) فيما تقول (قال انما يأتيكم به الله ان شاء) يعني ان ذلك ليس موكولا

الى ولا هو مما يدخل تحت قدرتى وانما يتولاه الله الذى كفرتم به وعصيتموه يأتيكم به عاجلا أو آجلا ان تعلق به مشيئته التابعة للحكمة وفيه مالا يخفى من تهويل الموعود فكأنه قيل الاتيان به أمر خارج عن دائرة القوى البشرية وانما يفعله الله عز وجل (وما أنتم بمعجزين) بالهرب أو بالممانعة ٦ كما تدافعونني فى الكلام (ولا ينفعكم نصحى) النصح كلمة جامعة لكل ما يدور عليه الخير من

قول أو فعل وحقيقته المحاض ارادة الخير والدلالة عليه ونقيضه الغش وقيل هو اعلام موقع الغى ليتقى وموضع الرشد ليتبع (ان أردت أن أنصح لكم) شرط حذف جوابه لدلالة ماسبق عليه والتقديران أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى وهذه الجملة دليل على ماحذف من جواب قوله تعالى (ان كان الله يريد أن يغويكم) والتقديران كان الله يريد أن يغويكم فان أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى هذا على مذهب اليه البصريون من عدم تقديم الجزاء على الشرط وأما على مذهب اليه الكوفيون من جوازه فقوله عز وعلا ولا ينفعكم نصحى جواب للشرط الاول والجملة جزاء للشرط الثانى وعلى التقديرين فالجزاء متعلق بالشرط الاول وتعلقه به معلق بالشرط الثانى وهذا الكلام متعلق بقولهم قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فصدر عنه عليه الصلاة والسلام اظهار العجز عن الزامهم بالحجج والبينات لتماديهم فى العناد وايذانا بأن ماسبق منه ليس بطريق الجدال والخصام بل بطريق النصيحة لهم والشفقة عليهم وبأنه لم يأل جهدا فى ارشادهم الى الحق وهدايتهم الى سبيله المستبين واخلاص النصح لهم لكن لا ينفعهم ذلك عند ارادة الله تعالى لاغوائهم وتقييد عدم نفع النصح بارادته مع أنه محقق لامحالة للايذان بأن ذلك النصح منه مقارن للارادة والاهتمام به ولتحقيق المقابلة

حق الله تعالى محال (وثانيها) انه انما يقال فلان استولى على كذا اذا كان له منازع ينازعه وكان المستولى عليه موجودا قبل ذلك وهذا فى حق الله تعالى محال لان العرش انما حدث بتخليقه وتكوينه (وثالثها) الاستيلاء حاصل بالنسبة الى كل المخلوقات فلا يبقى لتخصيص العرش بالذكر فائدة (والجواب) انا اذا فسرنا الاستيلاء بالاقتدار زالت هذه المطاعن بالكلية قال صاحب الكشاف لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك لا يحصل الا مع الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا استوى فلان على البلد يريدون ملك وان لم يقعد على السرير البتة وانما عبروا عن حصول الملك بذلك لانه أصرح وأقوى فى الدلالة من أن يقال فلان ملك ونحوه قولك يد فلان مبسوطة ويد فلان مغلولة يعنى انه جواد وبخيل لا فرق بين العبارتين الا فيما قلت حتى ان من لم تبسط يده قط بالنوال أولم يكن له يد أصلا قيل فيه يده مبسوطة لانه لا فرق عندهم بينه وبين قوله جواد ومنه قوله تعالى وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم أى هو بخيل بل يداه مبسوطتان أى هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط والمفسر بالنعمة والتفضل للتسمية من ضيق العطن * وأقول انا لو فتحنا هذا الباب لانفتحت تأويلات الباطنية فانهم أيضا يقولون المراد من قوله فاخلع نعليك الاستغراق فى خدمة الله تعالى من غير تصور فعل وقوله بانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم المراد منه تخليص ابراهيم عليه السلام من يد ذلك الظالم من غير أن يكون هناك نار وخطاب البتة وكذا القول فى كل ما ورد فى كتاب الله تعالى بل القانون انه يجب حمل كل لفظ ورد فى القرآن على حقيقته الا اذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب الانصراف عنه وليت من لم يعرف شيأ لم يخض فيه فهذا تمام الكلام فى هذه الآية ومن أراد الاستقصاء فى الآيات والاخبار المتشابهات فعليه بكتاب تأسيس التقديس وبالله التوفيق * أما قوله تعالى له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى فاعلم انه سبحانه لما شرح ملكه بقوله الرحمن على العرش استوى والملك لا ينتظم الا بالقدرة والعلم لاجرم عقبه بالقدرة ثم بالعلم أما القدرة ففى هذه الآية والمراد انه سبحانه مالك لهذه الاقسام الاربعة فهو مالك لما فى السموات من ملك ونجم وغيرهما ومالك لما فى الارض من المعادن والنفوس ومالك لما بينهما من الهواء ومالك لما تحت الثرى * فان قيل الثرى هو السطح الاخير من العالم فلا يكون تحته شئ فكيف يكون الله مالكا له * قلنا الثرى فى اللغة التراب الندى فيحتمل أن يكون تحته شئ وهو اما الثور أو الحوت أو الصخرة أو البحر أو الهواء على اختلاف الروايات أما العلم فقوله تعالى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى وفيه قولان (أحدهما) ان قوله وأخفى بناء المبالغة وعلى هذا القول نقول انه تعالى قسم الاشياء الى ثلاثة أقسام الجهر والسر والاخفى فيحتمل أن يكون المراد من الجهر القول الذى يجهر به وقد يسر فى النفس وان ظهر البعض وقد يسر ولا يظهر على ما قال بعضهم ويحتمل أن يكون المراد بالسر والاخفى ما ليس بقول وهذا أظهر فكأنه تعالى بين انه يعلم اسرار الذى لا يتكلم وما هو أخفى منه فكيف لا يعلم الجهر والمقصود منه زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت أو باطنة والترغيب فى الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة فعلى هذا الوجه ينبغى أن يحمل السر والاخفى على ما فيه ثواب أو عقاب والسر هو الذى يسر والمرء فى نفسه من الامور التى عزم عليها والاخفى هو الذى لم يبلغ حد العزيمة ويحتمل أن يفسر الاخفى بما عزم عليه وما وقع فى وهمه الذى لم يعزم عليه ويحتمل ما لم يقع فى سره بعد فيكون أخفى من السر ويحتمل أيضا ما سيكون من فعل الله تعالى من الامور التى لم تظهر وان كان الاقرب ما قدمناه مما يدخل تحت الزجر والترغيب (القول الثانى) ان أخفى فعل يعنى انه يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم ما يعلمه وهو كقوله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ

بين ذلك وبين ما وقع بازائه من ارادته تعالى لاغوائهم واقتصر في ذلك على مجرد ارادة الاغواء دون نفسه حيث لم يقل ان كان الله يغويكم مبالغة في بيان غلبة جنابه عزوعلا حيث دل ذلك على أن نصحه المقارن للاهتمام به لا يجديهم عند مجرد ارادة الله سبحانه لاغوائهم فكيف عند تحقيق ذلك وخلقه فيهم وزيادة كان للاشعار بتقدم ارادته تعالى زمانا تقدمها ٧ رتبة وللدلالة على تجددها واستمرارها

واغا قدم على هذا الكلام ما يتعلق بقولهم فأتنا بما تعدنا من قوله تعالى انما يأتيكم به الله ان شاء ردا عليهم من أول الامر وتسجيلا عليهم بحلول العذاب مع ما فيه من اتصال الجواب بالسؤال وفيه دليل على أن ارادته تعالى يصح تعلقها بالاغواء وان خلاف مراده غير واقع وقيل معنى أن يغوبكم أن يهلككم من غوى الفصيل غوى اذا بشم وهلك (هو ربكم) خالقكم ومالك أمركم (واليه ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم لا محالة (أم يقولون افتراه) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعني نوحا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أي يقول قوم نوح ان نوحا افترى ما جاء به مسندا الى الله عز وجل (قل) يا نوح (ان افتريته) بالفرض البعت (فعلي اجرامي) اثمي ووبال اجرامي وهو كسب الذنب وقرئ بلفظ الجمع وينصره أن قسيره الاتون بالتاء (وأنا بريء مما

بشيء من علمه فان قيل كيف يطابق الجزاء الشرط قلنا معناه ان تجهروا بذكر الله تعالى من دعاء أو غيره فاعلم انه غني عن جهرك واما أن يكون نهيا عن الجهر كقوله واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول واما تعليما للعباد ان الجهر ليس لاستماع الله تعالى وانما هو لغرض آخر واعلم ان الله تعالى لذاته عالم وانه عالم بكل المعلومات في كل الاوقات بعلم واحد وذلك العلم غير متغير وذلك العلم من لوازم ذاته من غير أن يكون موصوفا بالحدوث أو الامكان والعبد لا يشارك الرب الا في السدس الاول وهو أصل العلم ثم هذا السدس بينه وبين عباده أيضا نصفان خمسة دوانيق ونصف جزء من العلم مسلم له والنصف الواحد لجملة عباده ثم هذا الجزء الواحد مشترك بين الخلائق كلهم من الملائكة الكروبية والملائكة الروحانية وحملة العرش وسكان السموات وملائكة الرحمة وملائكة العذاب وكذا جميع الانبياء الذين أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين وكذا جميع الخلائق كلهم في علومهم الضرورية والكسبية والحرف والصناعات وجميع الحيوانات في ادراكاتها وشعورانها والاهتداء الى مصالحها في أغذيتها ومضارها ومنافعها والحاصل لكل من ذلك الجزء أقل من الذرة المؤلفة ثم انك بتلك الذرة عرفت أسرار الهيته وصفاته الواجبة والجائزة والمستحيلة فاذا كنت بهذه الذرة عرفت هذه الاسرار فكيف يكون علمه بخمس دوانيق ونصف أقل وما علم بذلك العلم أسرار معبود يتلك فهذا تحقيق قوله وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى بل الحق ان الديناران تمامه له لان الذي علمته فانما علمته بتعليمه على ما قال انزله بعلمه وقال الا يعلم من خلق ولهذا قال وهو الشمس فان ضوءها يجعل العالم مضيئا ولا ينقص البتة من ضوئها شيء فكذا هنا فكيف لا يكون عالما بالسر والاخفى فان من تدبر آياته في خلق الاشجار وانواع النبات انها ليس لها فم ولا سائر آلات الغذاء فلا جرم أصولها مركوزة في الارض تمتص بها الغذاء فتؤدي ذلك الغذاء الى الاغصان ومنها الى العروق ومنها الى الاوراق ثم انه تعالى جعل عروقها كالانابيب التي يهاكمن ضرب الخيام وكما أنه لابد من مد الطنب من كل جانب لتبقى الخيمة واقفة كذلك العروق تذهب من كل جانب لتبقى الشجرة واقفة ثم لو نظرت الى كل ورقة وما فيها من العروق الدقيقة المبثوثة فيها لوصل الغذاء منها الى كل جانب من الورقة ليكون ذلك تقوية لجرم الورقة فلا يتمزق سريعا وهي شبه العروق المخلوقة في بدن الحيوان لتكون مسالك للدم والروح فتكون مقوية للبدن ثم انظر الى الاشجار فان أحسنها في المنظر الدلب والخلاف ولا حاصل لهما واقبحها شجرة التين والعنب وانظر الى منفعتهما فهذه الاشياء وأشباهها تظهر أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض * أما قوله تعالى الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى فالكلام فيه على قسمين (الاول) في التوحيد اعلم أن دلائل التوحيد سنأتي ان شاء الله في تفسير قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وانما نذكر هنا لبيان ان الموصوف بالقدرة وبالعلم على الوجه الذي تقدم وبالجود لا شريك له وهو الذي يستحق العبادة دون غيره وانما نذكر ههنا نكتا متعلقة بهذا الباب وهي أبحاث (البحث الاول) اعلم أن مراتب التوحيد أربع (أحدها) الاقرار باللسان (والثاني) الاعتقاد بالقلب (والثالث) تأكيد ذلك الاعتقاد بالحجة (والرابع) أن يصير العبد مغمورا في بحر التوحيد بحيث لا يدور في خاطره شيء غير عرفان الاحد الصمد أما الاقرار باللسان فان وجد خاليا عن الاعتقاد بالقلب فذلك هو المنافق وأما الاعتقاد بالقلب اذا وجد خاليا عن الاقرار باللسان ففيه صور (الصورة الاولى) ان من نظر وعرف الله تعالى وكما عرفه مات قبل أن يمضي عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بكلمة الشهادة فقال قوم انه لا يتم ايمانه والحق انه يتم لانه أدى ما كلف به وعجز عن التلفظ به فلا يبقى مخاطبا ورأيت في الكتب ان ملك الموت

رسون) من اجرامكم في اسناد الافتراء الي فلا وجه لاعراضكم عني ومعاداتكم لي وقال مقاتل يعني محمدا عليه الصلاة والسلام بل أيقول مشركو مكة افترى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر نوح فكأنه اتاهم بي في تضاعيف القصة عند سوق طرف منها تحقيقا لحقيتها وتأكيدا لوقوعها وتشويقا للسامعين الى استماعها الاسيما وقد نص منها طائفة متعلقة بما جرى بينه عليه السلام وبين قومه

من المحاجة وبقيت طائفة مستقلة بعذابهم (وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك) أى المصرين على الكفر وهو اقناط له عليه السلام من ايمانهم واعلام لكونه كالمحال الذى لا يصح توقعه (الا من قد آمن) الا من قد وجد منه ما كان يتوقع من ايمانه وهذا الاستثناء على طريقة قوله تعالى ٨ الا ما قد سلف (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) أى لا تحزن حزن بائس مستكين ولا تغتم

مكتوب على جبهته لا اله الا الله لكى اذا رآه المؤمن تذكر كلمة الشهادة فيكفيه ذلك التذكر عن الذكر (الصورة الثانية) ان من عرف الله وهضى عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بالكلمة ولكنه قصر فيه قال الشيخ الغزالى يحتمل أن يقال اللسان ترجمان القلب فاذا حصل المقصود فى القلب كان امتناعه من التلفظ جاريا مجرى امتناعه من الصلاة والزكاة وكيف يكون من أهل النار وقد قال عليه السلام يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان وقلب هذا الرجل مملوء من الايمان وقال آخرون الايمان والكفر أمور شرعية نحن نعلم ان الممتنع من هذه الكلمة كافر (الصورة الثالثة) من أقر باللسان واعتقد بالقلب من غير دليل فهو مقلد والاختلاف فى صحة ايمانه مشهور (أما المقام الثالث) وهو اثبات التوحيد بالدليل والبرهان فقد بيناه فى تفسير قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ثم بينا ان اثبات هذا المطلوب بالدلائل العقلية والسمعية واستقصينا القول فيها هناك (أما المقام الرابع) وهو الفناء فى بحر التوحيد فقال المحققون العرفان مبتدأ من تفريق ونقض وترك ورفض ممكن فى جميع صفات هى من صفات الحق للذات المريد بالصدق منتهى الى الواحد القهار ثم وقوف هذه الكلمات محيطة بأقصى نهايات درجات السائرين الى الله تعالى (البحث الثانى) فى الاخبار الواردة فى التهليل (أولها) عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء استغفار الله ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات (وثانيها) قال عليه السلام ان الله تعالى خلق ملكا من الملائكة قبل أن خلق السموات والارض وهو يقول أشهد أن لا اله الا الله ما دام هو ناطقا ولا يتنفس فيها ولا يتمها فاذا أتمها أمر اسرافيل بالنفخ فى الصور وقامت القيامة تعظيما لله عز وجل (وثالثها) عن أنس رضى الله عنه قال قال عليه السلام مازلت أشفع الى ربى ويشفعنى وأشفع اليه ويشفعنى حتى قلت يارب شفعنى فيمن قال لا اله الا الله قال يا محمد هذه ليست لك ولا لأحد وعزتى وجلالى لأدعن أحدا فى النار قال لا اله الا الله (ورابعها) قال سفيان الثورى سألت جعفر بن محمد عن حم عسق قال الحاء حكمه والميم ملكه والعين عظمته والسين سناؤه والقاف قدرته يقول الله جل ذكره بحكمى وملكى وعظمتى وسنائى وقدرتى لأعذبن بالنار من قال لا اله الا الله محمد رسول الله (وخامسها) ان عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قام فى السوق فقال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له بيتا فى الجنة (البحث الثالث) فى النكت (أحدها) ينبغى لأهل لا اله الا الله أن يحصلوا أربعة أشياء حتى يكونوا من أهل لا اله الا الله التصديق والتعظيم والاخلاص والحرية فمن ليس له التصديق فهو منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له الاخلاص فهو مرائى ومن ليس له الحرية فهو فاجر (وثانيها) قال بعضهم قوله ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة انه لا اله الا الله اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه لا اله الا الله وتواصوا بالحق لا اله الا الله قل انما أعظكم بواحدة لا اله الا الله وقفوهم انهم مسئولون عن قول لا اله الا الله بل جاء بالحق وصدق المرسلين هو لا اله الا الله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة هو لا اله الا الله ويضل الله الظالمين عن قول لا اله الا الله (وثالثها) ان موسى بن عمران عليه السلام قال يارب علمنى شيأ أذكرك به قال قل لا اله الا الله قال كل عبادك يقولون لا اله الا الله فقال قل لا اله الا الله قال انما أردت شيأ تخصنى به قال يا موسى لو أن السموات السبع ومن فيهن فى كفة ولا اله الا الله فى كفة لمالت بهن لا اله الا الله (البحث الرابع) فى اعرابه قالوا

عما كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء والايذاء فى هذه المدة الطويلة فقد انتهى أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم (واصنع الفلك) ملتبسا (باعيننا) أى بحفظنا وكلاءتنا كائنا معه من الله عز وجل حافظا وحراسا يكلؤنه باعينهم من التعدى من الكفرة ومن الزيغ فى الصنعة (ووحينا) اليك كيف تصنعها وتعليمنا والهامنا * عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله تعالى اليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر والامر للوجوب اذ لا سبيل الى صيانة الروح من الغرق الا به فيجب كوجوبها واللام اما للعهد بأن يحمل على أن هذا مسبوق بوحى الله تعالى اليه عليه السلام أنه سيهلكهم بالغرق ويخبره ومن معه بشئ سيصنعه بأمره تعالى ووحيه من شأنه كيت وكيت وامه كذا واما للجنس قيل صنعها عليه الصلاة والسلام فى سنتين وقيل فى أربعمائة سنة وكانت من خشب الساج وجعلت ثلاثة بطون جعل فى البطن الاول الوحوش والسباع والهوام كلها

وفى البطن الاوسط الدواب والانعام وفى البطن الاعلى جنس البشر هو مع من معه مما يحتاجون اليه من الزاد وجعل معه جسد آدم عليه الصلاة والسلام وقيل جعل فى الاول الدواب والوحوش وفى الثانى الانس وفى الاعلى الطير قيل كان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها

خمسين ذراعا وسمكها ثلاثين ذراعا وقال الحسن كان طولها ألفا ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وقيل ان الحواريين قالوا لعيسى عليه الصلاة والسلام لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى الى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا كعب بن حام قال فضرب بعصاه فقال ٩ قم باذن الله تعالى فاذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه الصلاة والسلام أهكذا هلكت قال لا مت وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثمة شبت فقال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألفا ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة للدواب والوحش وطبقة للانس وطبقة للطير ثم قال عد باذن الله تعالى كما كنت فعاد ترابا (ولا تخاطبني في الذين ظلموا) أي لا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل ولا تدعني فيهم وحيث كان فيه ما يلوح بالسببية أكد التعليل فقيل (انهم مغرقون) أي محكوم عليهم بالاغراق قد مضى به القضاء ووجف القلم فلا سبيل الى كفه ولزمتهم الحجة فلم يبق الا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين ومثلا للآخرين (ويصنع الفلك) حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة وقيل تقديره وأخذ يصنع الفلك أو أقبل يصنعها فاقتصر

كلمة لا ههنا دخلت على الماهية فانتفت الماهية واذا انتفت الماهية انتفت كل افراد الماهية وأما الله فانه اسم علم للذات المعينة اذ لو كان اسم معنى لكان كلها محتملا للكثرة فلم تكن هذه الكلمة مفيدة للتوحيد فقالوا لا استحقت جعل ان اشباههم الهاما من وجهين (أحدهما) ملازمة الاسماء (والآخر) تناقضهما فان أحدهما التأكيد الثبوت والآخر تأكيد النفي ومن عادتهم تشبيه أحد الضدين بالآخر في الحكم اذا ثبت هذا فنقول لمن قال لغير زيد اذا هب كان يجب أن يقولوا لا رجلا اذا هب الا أنهم بنوا مع ما دخل عليه من الاسم المفرد على الفتح أما البناء فلشدة اتصال حرف النفي بما دخل عليه كأنهما صارا اسما واحدا وأما الفتح فلانهم قصدوا البناء على الحركة المستحقة توفيقا بين الدليل الموجب للاعراب والدليل الموجب للبناء (الثاني) خبره محذوف والاصل لا اله في الوجود ولا حول ولا قوة لنا وهذا يدل على ان الوجود زائد على الماهية (البحث الخامس) قال بعضهم تصور الثبوت مقدم على تصور السلب فان السلب ما لم يضف الى الثبوت لا يمكن تصوره فكيف قدموا ههنا السلب على الثبوت وجوابه أنه لما كان في هذا السلب من مؤكدات الثبوت لا جرم قدم عليه (القسم الثاني) من الكلام في الآية البحث عن أسماء الله تعالى وفيه أبحاث (البحث الاول) قال عليه السلام اذا كان يوم القيامة نادى مناد أيها الناس أنا جعلت لكم نسبا وأنتم جعلتم لانفسكم نسبا أنا جعلت أكرمكم عندي أتقاكم وأنتم جعلتم أكرمكم أغناكم فالآن أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون واعلم أن الاشياء في قسمة العقول على ثلاثة أقسام كامل لا يحتمل النقصان وناقص لا يحتمل الكمال وثالث يقبل الامرين أما الكامل الذي لا يحتمل النقصان فهو الله تعالى وذلك في حقه بالوجوب الذاتي وبعده الملائكة فان من كمالهم أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ومن صفاتهم انهم عباد مكرمون ومن صفاتهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا وأما الناقص الذي لا يحتمل الكمال فهو الجمادات والنبات والبهائم وأما الذي يقبل الامرين جميعا فهو الانسان تارة يكون في الترقي بحيث يخبر عنه بأنه في مقعد صدق عند مليك مقتدر وتارة في التسفل بحيث يقال ثم رددناه أسفل سافلين واذا كان كذلك استحال أن يكون الانسان كاملا لذاته وما لا يكون كاملا لذاته استحال أن يصير موصوفا بالكمال الى أن يصير منتسبا الى الكامل لذاته لكن الانتساب قسمان قسم يعرض للزوال وقسم لا يكون يعرض للزوال أما الذي يكون يعرض للزوال فلا فائدة فيه ومثاله الصحة والمال والجمال وأما الذي لا يكون يعرض للزوال فهو يشبه ذلك لله تعالى فانه كما يمتنع زوال صفة الالهية عنه يمتنع زوال صفة العبودية عنك فهذه النسبة لا تقبل الزوال والمنتسب اليه وهو الحق سبحانه لا يقبل الخروج عن صفة الكمال ثم اذا كنت من بلد أو منتسبا الى قبيلة فانك لا تزال تبالغ في مدح تلك البلدة والقبيلة بسبب ذلك الانتساب العرضي فلان تشتغل بذكر الله تعالى ونعوت كبريائه بسبب الانتساب الذاتي كان أولى فلهذا قال ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وقال الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى (البحث الثاني) في تقسيم أسماء الله تعالى اعلم أن اسم كل شئ اما أن يكون واقعا عليه بحسب ذاته أو بحسب أجزاء ذاته أو بحسب الامور الخارجة عن ذاته (أما القسم الاول) فقد اختلفوا في أنه هل لله تعالى اسم على هذا الوجه وهذه المسئلة مبنية على ان حقيقة الله تعالى هل هي معلومة للبشر أم لا فمن قال انها غير معلومة للبشر قال ليس لذاته المخصوصة اسم لان المقصود من الاسم أن يشار به الى المسمى واذا كانت الذات المخصوصة غير معلومة امتنعت الاشارة العقلية اليها فامتنع وضع الاسم لها وقد تكلمنا في تحقيق ذلك في تفسير اسم الله وأما الاسم الواقع عليه بحسب أجزاء ذاته فذلك محال لانه ليس لذاته شئ من الاجزاء لان كل مركب ممكن وواجب الوجود لا يكون ممكنا

(٢ - خ رس) على يصنع وأيا ما كان ففيه ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة حالا من ضميره أعني قوله تعالى (وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) أي استهزؤا به لعمله السفينة اما لانهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية انتفاعها فيتعجبوا من ذلك وسخروا منه واما لانه كان يصنعها في برية بهماء في أبعد موضع من الماء وفي وقت عزته عزة شديدة وكانوا يتضاحكون ويقولون

يانوح صرت نجارا بعدما كنت نبيا وقيل لانه عليه الصلاة والسلام كان يدرهم الغرق فما طال مكثه فيهم ولم يشاهد وامنه عينا ولا أثرا عدوه من باب المحال ثم لما رأوا الاشتغاله بأسباب الخلاص من ذلك فعلوا ما فعلوا ومدارا لجميع انكاران يكون اعماله عليه الصلاة والسلام عاقبة جميدة مع ما فيه من تحمل ١٠ المشاق العظيمة التي لا تكاد تطاق واستحهاله عليه السلام في ذلك (قال ان تسخروا منا

فلا يكون مركبا واما الاسم الواقع بحسب الصفات الخارجة عن ذاته فالصفات اما ان تكون ثبوتية حقيقية أو ثبوتية اضافية أو سلبية أو ثبوتية مع اضافية أو ثبوتية مع سلبية أو اضافية مع سلبية أو ثبوتية واضافية وسلبية ولما كانت الاضافات الممكنة غير متناهية وكذا السلوب غير متناهية أمكن أن يكون للباري تعالى أسماء متباينة لامترادفة غير متناهية فهذا هو التنبيه على المأخذ ﴿البحث الثالث﴾ يقال ان لله تعالى أربعة آلاف اسم ألف لا يعلمها الا الله تعالى وألف لا يعلمها الا الله والملائكة وألف لا يعلمها الا الله والملائكة والانبياء وأما الالف الرابع فان المؤمنين يعلمونه فثلثمائة منها في التوراة وثلثمائة في الانجيل وثلثمائة في الزبور ومائة في الفرقان تسع وتسعون منها ظاهرة وواحد مكتوم فمن أحصاها دخل الجنة ﴿البحث الرابع﴾ الاسماء الواردة في القرآن منها ما ليس بأنه فرد ثناء ومدحا كقوله جاعل وخالق وصانع فاذا قيل فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا صار مدحا وأما الاسم الذي يكون مدحا فقد ما اذا قرن بغيره صار أبلغ نحو قولنا حي فاذا قيل الحي القيوم أو الحي الذي لا يموت كان أبلغ وأيضا قولنا بديع فانك اذا قلت بديع السموات والارض أفاد المدح ومن هذا الباب ما كان اسم مدح ولكن لا يجوز افراده كقولك دليل وكاشف فاذا قيل يا دليل المتحيرين ويا كاشف الضر والبلوى جاز ومنه ما يكون اسم مدح مفردا أو مقرونا كقولنا الرحمن الرحيم ﴿البحث الخامس﴾ من الاسماء ما يكون مقارنتها أحسن كقولك الاول الآخر المبدئ المعيد الظاهر الباطن ومثاله قوله تعالى في حكاية قول المسيح ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم وبقية الابحاث قد تقدمت في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم ﴿البحث السادس﴾ في النكت رأى بشر الحافي كاغدا مكتوبا فيه بسم الله الرحمن الرحيم فرفعه وطيبه بالمسك وبلعه فرأى في النوم قائلا يقول يا بشر طيبت اسمنا فحن نطيب اسمك في الدنيا والآخرة (وثانيها) قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى وليس حسن الاسماء لذواتها لانها ألفاظ وأصوات بل حسنها لحسن معانيها ثم ليس حسن أسماء الله حسنا يتعلق بالصورة والخلقة فان ذلك محال على من ليس بجسم بل حسن يرجع الى معنى الاحسان مثل اسم الستار والغفار والرحيم انما كانت حسناء لانها دالة على معنى الاحسان وروى أن حكيما ذهب به قبيح وحسن والقسما الوصية فقال للحسن أنت حسن والحسن لا يليق به الفعل القبيح وقال للآخر أنت قبيح والقبيح اذا فعل الفعل القبيح عظم قبحه فنقول الهنا أسماؤك حسنة وصفاتك حسنة فلا تظهر انا من تلك الاسماء الحسنة والصفات الحسنة الا الاحسان الهنا بكيفما قبح أفعالنا وسيرتنا فلا تضم اليه قبح المعاقب ووحشة العذاب (وثالثها) قوله عليه السلام اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه الهنا حسن الوجه عرضي أما حسن الصفات والاسماء فباق فلا ترد ناعين احسانك خائبين خاسرين (ورابعها) ذكر ان صيادا كان يصيد السمك فصاد سمكة وكان له ابنة فأخذتها ابنته فطرحتها في الماء وقالت انها ما وقعت في الشبكة الا لغفلتها الهنا فتلك الصبية رحمت غفلة هذه السمكة وكانت تلقيها مرة أخرى في البحر ويحن قداصطادتنا وسوسة ابليس وأخرجتنا من بحر رحمتك فارحمنا بفضلك وخلصنا منها وألقنا في بحار رحمتك مرة أخرى (وخامسها) ذكرت من الاسماء خمسة في الفاتحة وهي الله والرب والرحمن والرحيم والملك فهذه ذكرت الالهية وهي اشارة الى القهارية والعظمة فعلم أن الارواح لا تطيق ذلك القهر والعلو فذكرت بعده أربعة أسماء تدل على اللطف الرب وهو يدل على التربية والمعتاد أن من ربى أحدا فانه لا يهمل أمره ثم ذكر الرحمن الرحيم وذلك هو النهاية في اللطف والرأفة ثم ختم الامر بالملك والملك العظيم لا ينتقم من الضعيف العاجز ولان عائشة قالت لما دخل عليه السلام ما ملكت فاسجح فأنت أولى بأن تعفو عن هؤلاء

مستجهلين لنا فيما نحن فيه (فانا نسخر منكم) أي نستجهلكم فيما أنتم عليه واطلاق السخرية عليه للمشاكلة وجمع الضمير في منا اما لان سخريتهم منه عليه الصلاة والسلام سخرية من المؤمنين أيضا أو لانهم كانوا يسخرون منهم أيضا الا أنه اكتفى بذكر سخريتهم منه عليه الصلاة والسلام ولذلك تعرض الجميع للجازاة في قوله تعالى فانا نسخر منكم الخ فتكافأ الكلام من الجانبين وتعليق استجهاله عليه الصلاة والسلام اياهم بما فعلوا من السخرية باعتبار اظهاره ومشافهته عليه الصلاة والسلام اياهم بذلك والا فقد علم عليه الصلاة والسلام اياهم جاهلين فيما يأتون ويذرون أمر مطرد لا تعلق له بسخريتهم منهم لكنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يتصدى لاظهاره جريا على نهج الاخلاق الجميدة وانما اظهره جزاء بما صنعوا بعد للتباوا الى فان سخريتهم كانت مستمرة ومتجددة حسب تجدد مرورهم عليه ولم يكن يجيبهم في كل مرة والا لقيل ويقول ان تسخروا منا الخ بل انما أجابهم بعد بلوغ اذاهم الغاية

الضعفاء

كما يؤذن به الاستئناف فكأن سائلا سأل فقال فما صنع نوح عند بلوغهم منه هذا المبلغ فقيل قال ان تسخروا منا أي ان تنسبونا فيما نحن بصدده من الذهاب والمباشرة لاسباب الخلاص من العذاب الى الجهل وتسخروا منا لاجله فانا ننسبكم اليه فيما أنتم فيه من الاعراض عن استدفاعه بالايمان والطاعة ومن الاستمرار على الكفر والمعاصي والتعرض لاسباب حلول بخط الله تعالى التي من جملتها

استحقارهم اياناوسخريتكم منا والتشبيه فى قوله تعالى (كما تسخرون) انما فى مجرد التحقق والوقوع أوفى التجدد والتكرر حسبما صدر عن ملاحظة ملائمة لاحد الامرين واقع فى الحال وقيل تسخرون منكم فى المستقبل سخريتكم مثل سخريتكم اذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والحرق فى الآخرة ١٢ ولعل مراده تعاملكم معاملة من يفعل ذلك لان نفس السخرية مما لا يكاد يليق بمنصب النبوة ومع ذلك لا سداد له لان حالهم اذ ذاك ليس مما يلائمها السخرية أو ما يجرى مجراها فتأمل (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) وهو عذاب الغرق (ويحل عليه) حلول الدين المؤجل (عذاب مقيم) هو عذاب النار الدائم وهو تهديد بليغ ومن عبارة عنهم وهى اما استفهامية فى حيز الرفع أو موصولة فى محل النصب بتعلمون وما فى حيزها سادة مسد مفعولين أو مفعول واحد ان جعل العلم بمعنى المعرفة ولما كان مدار سخريتهم استحقارهم اياه عليه الصلاة والسلام فى مكابدة المشاق الفادحة لدفع ما لا يكاد يدخل تحت الوجود على زعمهم من الطوفان ومقاساة الشدائد فى بناء السفينة وكانوا يهدونه عذابا قبل بعد استحقارهم فسوف تعلمون من يأتيه العذاب يعنى أن ما أبا شره ليس فيه عذاب لاحق بى فسوف تعلمون من المعذب ولقد أصاب العلم

الضعفاء (وسادسها) عن محمد بن كعب القرظى قال موسى عليه السلام الهى أى خلقك أكرم عليك قال الذى لا يزال لسانه رطبا من ذكرى قال فأى خلقك أعلم قال الذى يلتمس الى علمه علم غيره قال فأى خلقك أعدل قال الذى يقضى على نفسه كما يقضى على الناس قال فأى خلقك أعظم جرما قال الذى يتهمنى وهو الذى يسألنى ثم لا يرضى بما قضيته له الهنا انا لا نتهمك فاتانا علم ان كل ما أحسنت به فهو فضل وكل ما تفعله فهو عدل فلا تؤاخذنا بسوء أعمالنا (وسابعها) قال الحسن اذا كان يوم القيامة نادى مناد سيعلم الجمع من أولى بالكرم أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون فيتخطون رقاب الناس ثم يقال أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ثم ينادى مناد أين الحامدون الله على كل حال ثم تكون التبعة والحساب على من بقى الهنا فنحن حمدناك وأثنينا عليك بمقدار قدرتنا ومنتهى طاقتنا فاعف عنا بفضلك ورحمتك ومن أراد الاستقصاء فى الاسماء والصفات فعليه بكتابنا الموسوم بالبينات فى الاسماء والصفات وبالله التوفيق ﴿قوله تعالى﴾ وهل أتاك حديث موسى اذ رأى نارا فقال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها نودى يا موسى انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى ﴿اعلم أنه تعالى لما عظم حال القرآن وحال الرسول فيما كلفه أتبع ذلك بما يقوى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذكر أحوال الانبياء عليهم السلام تقوية لقلبه فى الابلاغ كقوله وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وبدأ بموسى عليه السلام لان المحنة والفتنة الحاصلة له كانت أعظم ليسلى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ويعمره على تحمل المكاره فقال وهل أتاك حديث موسى وههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله وهل أتاك يحتمل أن يكون هذا أول ما أخبر به من أمر موسى عليه السلام فقال وهل أتاك أى لم يأتك الى الآن وقد أتاك الآن فتنبه له وهذا قول الكلبى ويحتمل أن يكون قد أتاه ذلك فى الزمان المتقدم فكأنه قال أليس قد أتاك وهذا قول مقاتل والضحاك عن ابن عباس ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله وهل أتاك وان كان على لفظ الاستفهام الذى لا يجوز على الله تعالى لكن المقصود منه تقرير الجواب فى قلبه وهذه الصيغة أبلغ فى ذلك كما يقول المرء لصاحبه هل لعلمك خبر كذا فيتطلع السامع الى معرفة ما يوحى اليه ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قبل النبى عليه السلام لا من قبل الله تعالى ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله تعالى اذ رأى نارا أى هل أتاك حديث حين رأى نارا قال المفسرون استأذن موسى عليه السلام شعيبا فى الرجوع الى والدته فاذن له فخرج فولد له ابن فى الطريق فى ليلة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد حاد عن الطريق فقدح موسى عليه السلام النار فلم تور المقدحة شيأ فبيناهو فى مزاولة ذلك اذ نظر نارا من بعيد عن يسار الطريق قال السدى ظن انها نار من فيران الرعاة وقال آخرون انه عليه السلام رآها فى شجرة وليس فى لفظ القرآن ما يدل على ذلك واختلفوا فقال بعضهم الذى رآه لم يكن نارا بل تخيله نارا والصحيح انه رأى نارا لكون صادقا فى خبره اذ الكذب لا يجوز على الانبياء قيل النار أربعة أقسام نار تأكل ولا تشرب وهى نار الدنيا ونار تشرب ولا تأكل وهى نار الشجر لقوله تعالى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا وانتم منه توقدون ونار لا تأكل ولا تشرب وهى نار موسى عليه السلام وقيل أيضا النار على أربعة أقسام (أحدها) نار لها نور بلا حرقة وهى نار موسى عليه السلام (وثانيها) حرقة بلا نور وهى نار جهنم (وثالثها) الحرقة والنور وهى نار الدنيا (ورابعها) لا حرقة ولا نور وهى نار الاشجار فلما أبصر النار توجه نحوها فقال لاهله امكثوا فيحتمل أن يكون الخطاب للمرأة وولدها والخادم الذى معها ويجوز أن يكون للمرأة وحدها ولكن خرج على ظاهر لفظ الاهل فان

واستحقارهم مخرج وصف العذاب بالاخزاء لما فى الاستهزاء والسخرية من لحوق الخزى والعار عادة والتعرض لحلول العذاب المقيم بالغة فى التهديد وتخصيصه بالمؤجل وايراد الاول بالاتيان فى غاية الجزالة (حتى اذا جاءا أمرنا) حتى هى التى يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية وهى مع ذلك غاية لقوله ويصنع وما بينهما حال من الضمير فيه وسخر وامنه جواب لكلما وقال استئناف على تقدير

سؤال سائل كما ذكرناه وقيل هو الجواب وحضروا منه بدل من مر أو صفة للنار وقد عرفت أن الحق هو الاول لان المقصود بيان تناهيهم في ايذائه عليه الصلاة والسلام وتحمله لاذيتهم لا مسارعته عليه الصلاة والسلام الى جوابهم كما وقع منهم مايؤذيه من الكلام (وفار التنور) نبع منه الماء وارتفع بشدة ١٢ كما تفوروا القدر بغليانها والتنور تنور الخبز وهو قول الجمهور وروى أنه قيل لنوح عليه الصلاة والسلام اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب ومن معك في السفينة فلما نبع الماء أخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم عليه الصلاة والسلام وكان من حجارة فصار الى نوح وانما نبع منه وهو أبعد شئ من الماء على خرق العادة وكان في الكوفة في موضع مسجدها عن يمين الداخل مما يلي باب كنده وكان محل السفينة في ذلك الموضع أو في الهند أو في موضع بالشام يقال له عين وردة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وعكرمة والزهري أن التنور وجه الارض وعن قتادة أشرف موضع في الارض أي أعلاه وعن علي رضي الله تعالى عنه فار التنور طلع الفجر (قلنا احمل فيها) أي في السفينة وهو جواب اذا (من كل) أي من كل نوع لابد منه في الارض (زوجين) الزوج ماله مثل كل من نوعه فالذكر زوج للانثى كما هي زوج له وقد يطلق على مجموعهما فيقابل الفرد ولا زائد لذلك الاحتمال قيل (اثنين) كل منهما زوج للآخر وفرق على الاضافة وانما قدم ذلك على أهله وسائر المؤمنين لكونه عريقا فيما وجود أمر به من الحمل لانه يحتاج الى مزاولة الاعمال منه عليه الصلاة والسلام في تمييز بعضه من بعض وتعيين الازواج فانه روى أنه عليه الصلاة والسلام قال يارب كيف أحمل من كل زوجين اثنين فحشر الله تعالى اليه السباع والطير وغيرها فجعل يضرب بيديه في كل

الاهل يقع على الجمع وأيضا قد يخاطب الواحد بلفظ الجماعة تفخيما أي أقيموا في مكانكم اني آنست نارا أي أبصرت والايناس الابصار البين الذي لا شبهة فيه ومنه انسان العين فانه يبين به الشئ والانس لظهورهم كما قيل الجن لاستتارهم وقيل هو أيضا ما يؤنس به ولما وجد منه الايناس وكان متنفيا حقيقة لم أت بكلمة اني لتوطين أنفسهم ولما كان الايناس بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بني الامر فيهما على الرجاء والطمع فقال لعلي آتيكم ولم يقطع فيقول اني آتيكم لئلا يعد مالم يتقن الوفاء به والنكتة فيه ان قوما قالوا كذب ابراهيم للصلحة وهو محال لان موسى عليه السلام قبل نبوته احترز عن الكذب فلم يقل آتيكم ولكن قال لعلي آتيكم ولم يقطع فيقول اني آتيكم لئلا يعد مالم يتقن الوفاء به والقبس النار المقتبسة في رأس عود أو فتيلة أو غيرهما أو أجد على النار هدى والهدى ما يهتدى به وهو اسم مصدر فكأنه قال أجد على النار ما أهتدي به من دليل أو علامة ومعنى الاستعلاء على النار أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها ولان المصطلين بها اذا أحاطوا بها كانوا مشرفين عليها فلما أتاها أي أتى النار قال ابن عباس رأى شجرة خضراء من أسفلها الى أعلاها كأنها نار بيضاء فوقف متعجبا من شدة ضوء تلك النار وشدة خضرة تلك الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوء النار فسمع تسبيح الملائكة ورأى نورا عظيما قال وهب فظن موسى عليه السلام انها نار أو قدت فأخذ من دقاق الحطب ليقتبس من لهبها فمالت اليه كأنها تريده فتأخر عنها وهابها ثم لم تزل تطمسه ويطمع فيها ثم لم يكن أسرع من خمودها فكأنها لم تكن ثم رمى موسى بنظره الى فرعها فاذا اخضرته ساطعة في السماء واذا نور بين السماء والارض له شعاع تكل عنه الابصار فلما رأى موسى ذلك وضع يده على عينيه فنودي يا موسى قال القاضي الذي يروى من أن الزند ما كان يورى فهذا جائز وأما الذي يروى من أن النار كانت تتأخر عنه فان كانت النبوة قد تقدمت له جاز ذلك والا فهو ممتنع الا أن يكون معجزة لغيره من الانبياء عليهم السلام وفي قوله وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى دلالة على أن في هذه الحالة أوحى الله اليه وجعله نبيا وعلى هذا الوجه يبعد ما ذكروه من تأخر النار عنه وبين فساد ذلك قوله تعالى قيل لها نودي يا موسى وان كانت تتأخر عنه حالا بعد حال لما صح ذلك ولما بقي لفناء التعقيب فائدة قلنا القاضي انما بنى هذا الاعتراض على مذهبه في أن الاعراض غير جائز وذلك عندنا باطل فبطل قوله وأما التمسك ببقاء التعقيب فقريب لان تخلل الزمان القليل فيما بين المجيء والنداء لا يقدح في فائدة التعقيب ﴿المسئلة الرابعة﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير انى بالفتح أي نودي بأني أنا ربك والباقون بالكسر أي نودي فقيل يا موسى أولان النداء ضرب من القول فهو مثل معاملته ﴿المسئلة الخامسة﴾ قال الاشعري ان الله تعالى أسمعه الكلام القديم الذي ليس بحرف ولا صوت وأما المعتزلة فانهم أنكروا وجود ذلك الكلام فقالوا انه سبحانه خلق ذلك النداء في جسم من الاجسام كالشجرة أو غيرها لان النداء كلام الله تعالى والله قادر عليه وهو حي شاء فعله وأما أهل السنة من أهل ماوراء النهر فقد أثبتوا الكلام القديم الا أنهم زعموا أن الذي سمعه موسى عليه السلام صوت خلقه الله تعالى في الشجرة واحتجوا بالآية على أن المسموع هو الصوت المحدث قالوا انه تعالى رتب النداء على أنه أتى النار والمرتب على المحدث محدث فالنداء محدث ﴿المسئلة السادسة﴾ اختلفوا في أن موسى عليه السلام كيف عرف أن المنادي هو الله تعالى فقال أصحابنا يجوز أن يخلق الله تعالى له علما ضروريا بذلك ويجوز أن يعرفه بالمعجزة قالت المعتزلة أما العلم الضروري فغير جائز لانه لو حصل العلم الضروري بكون هذا النداء كلام الله تعالى لحصل العلم الضروري بوجود الصانع العالم القادر لاستحالة أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات تكون معلومة بالاستدلال ولو كان

جنس فيقع الذكر في يده اليمنى والانثى في اليسرى فيجعلهما في السفينة وأما البشر فانما يدخل الفلك باختياره فيخف فيه معنى الحمل أولانها انما تحمل بمباشرة البشر وهم انما يدخلونها بعد حملهم اياها (وأهلك) عطف على زوجين أو على اثنين والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم (الا من سبق عليه القول) بانه من المغرقين بسبب ظلمهم في قوله تعالى ولا تخاطبني ١٣ في الذين ظلموا الآية والمراد ابنه كنعان وأمه واعلة فانهما كانا كافرين والاستثناء منقطع ان أريد بالاهل الاهل اعيانا وهو الظاهر كما ستعرفه أو متصل ان أريد به الاهل قرابة ويكفي في صحة الاستثناء المعلومية عند المراجعة الى أحوالهم والتفحص عن أعمالهم وجيء بعلى لكون السابق ضارا لهم كما جيء باللام فيما هو نافع لهم من قوله عز وجل ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين وقوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى (ومن آمن) من غيرهم وافراد الاهل مع للاستثناء المذكور وايثار صيغة الافراد في آمن محافظة على لفظ من للايذان بقلتهم كما أعرب عنه قوله عز قائلا (وما آمن معه الا قليل) قيل كانوا ثمانية نوح عليه الصلاة والسلام وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم وعن ابن اسحق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وعنه أيضا أنهم كانوا عشرة سوى نسائهم وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلا وامرأة وأولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء واعتبار المعية في اعيانهم للايذان بالمعية في مقر الامان والنجاة (وقال) اى نوح عليه الصلاة والسلام لمن معه من المؤمنين كما ينبئ عنه قوله تعالى ان ربي لغفور رحيم ولو رجع الضمير الى الله تعالى لناسب أن يقال ان ربكم واعمل ذلك بعد ما دخل ما أمر بحمله في الفلك من الازواج كأنه قيل فعمل الازواج

وجود الصانع تعالى معلوما له بالضرورة فخرج موسى عن كونه مكلفا الان حصول العلم الضروري ينافي التكليف وبالاتفاق لم يخرج موسى عن التكليف فعلمنا أن الله تعالى عرفه ذلك بالمعجز ثم اختلفوا في ذلك المعجز على وجوه (أولها) منهم من قال قطعا ان الله تعالى عرفه ذلك بواسطة المعجز ولا حاجة بنا الى أن نعرف ذلك المعجز ما هو (وثانيها) يروى أن موسى عليه السلام لما شاهد النور الساطع من الشجرة الى السماء وسمع تسبيح الملائكة وضع يديه على عينيه فنودي يا موسى فقال لبيك انى أسمع صوتك ولا أراك فأين أنت قال أنا معك وأمامك وخلفك ومحيط بك وأقرب اليك منك ثم ان ابليس أخطر بباله هذا الشك وقال ما بدريك أنك تسمع كلام الله فقال لأني أسمعه من فوق ومن تحتي ومن خلفي ومن يميني ومن شمالي كما أسمعه من قدامي فعلمت أنه ليس بكلام المخلوقين ومعنى اطلاقه هذه الجهات انى أسمعه بجميع أجزائي وابعاضي حتى كأن كل جارحة مني صارت أذنا (وثالثها) لعله سمع الشداء من جماد كما نقضي وغيرها فيكون ذلك معجزا (ورابعها) انه رأى النار في الشجرة الخضراء بحيث ان تلك الخضرة ما كانت تطفئ تلك النار وتلك النار ما كانت تضر تلك الخضرة وهذا لا يقدر عليه أحد الا الله سبحانه (المسئلة السابعة) قالوا ان تكرير الضمير في انى أنا ربك كان لتوكيد الدلالة وازالة الشبهة (المسئلة الثامنة) ذكروا في قوله فاخلع نعليك وجوها (أحدها) كانتا من جلد حمار ميت فلذلك أمر بخلعهما ما صيانة للوادي المقدس ولذلك قال عقيبه انك بالوادي المقدس طوى وهذا قول علي رضي الله عنه وقول مقاتل والكلبي والضحاك وقتادة والسدي (والثاني) انما أمر بخلعهما لينال قدميه بركة الوادي وهذا قول الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد (وثالثها) أن يحمل ذلك على تعظيم البقعة من أن يطأها الا حافيا ليكون متعظما لها وخاضعا عند سماع كلام ربه والدليل عليه أنه تعالى قال عقيبه انك بالوادي المقدس وهذا يفيد التعليل فكأنه قال تعالى اخلع نعليك لانك بالوادي المقدس طوى وأما أهل الاشارة فقد ذكروا فيهما وجوها (أحدها) ان النعل في النوم يفسر بالزوجة والولد فقوله اخلع نعليك اشارة الى أن لا يلتفت خاطره الى الزوجة والولد وأن لا يبقى مشغول القلب بامرهما (وثانيها) المراد بخلع النعلين ترك الالتفات الى الدنيا والآخرة كأنه أمره بان يصير مستغرق القلب بالكلية في معرفة الله تعالى ولا يلتفت بخاطره الى ما سوى الله تعالى والمراد من الوادي المقدس جلال الله تعالى وطهارة عزته يعني انك ما وصلت الى بحر المعرفة فلا تلتفت الى المخلوقات (وثالثها) ان الانسان حال الاستدلال على الصانع لا يمكنه أن يتوصل اليه الا بمقدمتين يتوصل اليه بمقدمتين مثل أن يقول العالم محسوس محدث وكل ما كان كذلك فله مدبر ومؤثر وصانع وهاتان المقدمتان يشبهان النعلين لان بهما يتوصل العقل الى المقصود وينتقل من النظر في الخلق الى معرفة الخالق ثم بعد الوصول الى معرفة الخالق وجب أن لا يبقى ملتفتا الى تينك المقدمتين لان بقدر الاشتغال بالغير يبقى محروما عن الاستغراق فيه فكأنه قيل له لا تكن مشتغل القلب والخاطر بتينك المقدمتين فانك وصلت الى الوادي المقدس الذي هو بحر معرفة الله تعالى وجلة أولوهيته (المسئلة التاسعة) استدلت المعتزلة بقوله اخلع نعليك على ان كلام الله تعالى ليس بقديم اذ لو كان قديما لكان الله قائلا قبل وجود موسى اخلع نعليك يا موسى ومعلوم ان ذلك سفه فان الرجل في الدار الخالية اذا قال لي بازيد افعل و يا عمرو لا تفعل مع ان زيدا وعمرا لا يكونان حاضرين بعد ذلك بعد ذلك جنونا وسفها فكيف يليق ذلك بالاله سبحانه وتعالى * وأجاب أصحابنا عنه من وجهين (الاول) ان كلامه تعالى وان كان قديما الا أنه في الازل لم يكن أمرا ولا نهيا (والثاني) انه كان أمرا بمعنى انه وجد في الازل شيئ لما استمر الى ما لا يزال صار الشخص به مأمورا من غير

أو أدخلها في الفلك وقال للثمانين (اركبوا فيها) كما سيأتي مثله في قوله تعالى وهي تجري بهم والركوب العلو على شئ متحرك ويتعدى بنفسه واستعماله ههنا بكلمة في ليس لان المأمور به كونهم في جوفها الا فوقها كما ظن فان أظهر الروايات أنه عليه السلام جعل الوحوش وتقاثرها في البطن الاسفل ١٤ والانعام في الاوسط وركب هو ومن معه في الاعلى بل لرعاية جانب المجانسة والمكانية في الفلك والسر فيه ان معنى الركوب العلو على شئ له حركة اما ارادية كالحيوان أو قسرية كالسفينة والحمولة ونحوهما فاذا استعمل في الاول يوفر له حظ الاصل فيقال ركبت الفرس وعليه قوله عز من قائل والخيل والبغال والحمير لتركبوها وان استعمل في الثاني يلوح بجعلية المفعول وكلمة في فيقال ركبت في السفينة وعليه الآية الكريمة وقوله عز قائلا وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها وقوله تعالى فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة خرقها (بسم الله) متعلق باركبوا حال من فاعله أي اركبوا مسمين الله تعالى أو قائلين بسم الله (مجريها ومرساها) نصب على الظرفية أي وقت جريها وارسائها على انهما اسما زمان أو مصدران كالاجراء والارساء بحذف الوقت كقولك آتيك خفوق النجم أو اسما مكان انتصبا بما في بسم الله من معنى الفعل أو ارادة القول ويجوز أن يكون بسم الله مجريها ومرساها مستقلة من مبتدا وخبر في موضع الحال من ضمير الفلك أي اركبوا فيها مجراة ومرساة باسم الله بمعنى التقدير كقوله تعالى ادخلوها خالدين أو جملة مقتضية على أن نوحا أمرهم بالركوب فيها ثم أخبرهم بان اجراءها وارساءها باسم الله تعالى فيكونان كلامين له عليه الصلاة والسلام قيل كان عليه السلام اذا أراد أن يجريها يقول بسم الله فتجري واذا أراد أن يرسيها يقول بسم الله فترسو ويجوز أن يكون

وقوع التغيير في ذلك الشئ كان القدرة تقتضي صحة الفعل ثم انها كانت موجودة في الازل من غير هذه الصحة فلما استمرت الى ما لا زال حصلت الصحة كذا ههنا وهذا الكلام فيه غموض وبحث دقيق ﴿المسئلة العاشرة﴾ ليس في الآية دلالة على كراهة الصلاة والطواف في النعل والصحيح عدم الكراهة وذلك لانا ان علمنا الامر بخلع النعلين بتعظيم الوادي وتعظيم كلام الله كان الامر مقصورا على تلك الصورة وان علمناه بان النعلين كانا من جلد حمار ميت فجائز أن يكون قد كان محظورا لبس جلد الحمار الميت وان كان مدبوغا فان كان كذلك فهو منسوخ بقوله عليه السلام أيما اهاب دبغ فقد طهر وقد صلى النبي صلى الله عليه وسلم في نعليه ثم خلعهما في الصلاة فخلع الناس نعالهم فلما سلم قال ما لكم خلعتم نعالكم قالوا رأيناك خلعتها قال فان جبريل أخبرني أن فيهما قذرا فكره النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة في النعل وأنكر على الخالعين خلعهما وأخبرهم بأنه انما خلعهما لما فيهما من القذر ﴿المسئلة الحادية عشرة﴾ قرئ طوى بالضم والكسر منصرفا وغير منصرف فمن نونه فهو اسم الوادي ومن لم ينونه ترك صرفه لانه معدول عن طاوى فهو مثل عمر المعدول عن عامر ويجوز أن يكون اسما للبقعة ﴿المسئلة الثانية عشرة﴾ في طوى وجوه (الاول) انه اسم للوادي وهو قول عكرمة وابن زيد (والثاني) معناه مرتين نحو مثنى أي قدس الوادي مرتين أو نودي موسى عليه السلام نداءين يقال نادى ثنيه طوى أي مثنى (والثالث) طوى أي طيا قال ابن عباس رضي الله عنهما انه سمي بذلك الوادي لما فطواه فكان المعنى بالوادي المقدس الذي طويته طيا أي قطعته حتى ارتفعت الى أعلاه ومن ذهب الى هذا قال طوى مصدر خرج عن لفظه كأنه قال طويته طوى كما يقال هدى يهدى هدى والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ قرأ حمزة وأنا اخترناك وقرأ أبي بن كعب وانى اخترتك وههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ معناه اخترتك للرسالة وللكلام الذي خصصتك به وهذه الآية تدل على أن النبوة لا تحصل بالاستحقاق لان قوله وأنا اخترتك يدل على ان ذلك المنصب العلي انما حصل لان الله تعالى اختاره له ابتداء لا انه استحقه على الله تعالى ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله فاستمع لما يوحى فيه نهاية الهيبة والجلالة فكأنه قال لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفا اليه فقوله وأنا اخترتك يفيد نهاية اللطف والرحمة وقوله فاستمع يفيد نهاية الهيبة فيحصل له من الاول نهاية الرجاء ومن الثاني نهاية الخوف ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني يدل على ان علم الاصول مقدم على علم الفروع لان التوحيد من علم الاصول والعبادة من علم الفروع وأيضا الفاء في قوله فاعبدني تدل على ان عبادته انما لزمت لاجله وهذا هو تحقيق العلماء ان الله هو المستحق للعبادة ﴿المسئلة الرابعة﴾ انه سبحانه بعد أن أمره بالتوحيد أولا ثم بالعبادة ثانيا أمره بالصلاة ثالثا احتج أصحابنا بهذه الآية على ان تأخير البيان عن وقت الحاجة جائز من وجهين (الاول) انه أمره بالعبادة ولم يذكر كيفية تلك العبادة فثبت انه يجوز ورود المجمل منفكا عن البيان (الثاني) انه قال وأقم الصلاة لذكري ولم يبين كيفية الصلاة قال القاضي لا يمتنع ان موسى عليه السلام قد عرف الصلاة التي تعبد الله تعالى بها شعيبا عليه السلام وغيره من الانبياء فصار الخطاب متوجها الى ذلك ويحتمل انه تعالى بين له في الحال وان كان المنقول في القرآن لم يذكر فيه الا هذا القدر * والجواب أما العذر الاول فانه لا يتوجه في قوله تعالى فاعبدني وأيضا فدخول مثل هذا الخطاب العظيم على فائدة جديدة أولى من حمله على أمر معلوم لان موسى عليه السلام ما كان يشك في وجوب الصلاة التي جاء بها شعيب عليه السلام فلو حملنا قوله وأقم الصلاة على ذلك لم يحصل من هذا الخطاب

الاسم معقما كما في قوله * الى الحول ثم اسم السلام عليكما * ويراد بالله اجراؤها وارساؤها أي بقدرته وأمره وقرئ بجريها ومرسيها على صيغة الفاعل مجرورى المحل صفتين لله عز وجل ومجراها ومرساها بفتح الميم مصدرين أو زمانين أو مكانين من جرى ورسا (ان ربي لغفور) للذنوب والخطايا (رحيم) لعباده ولذلك تجاكم من هذه الطامة والداهية العامة ١٥ ولولا ذلك لما فعله وفيه دلالة على

الخطاب العظيم فائدة زائدة أما لو جلناه على صلاة أخرى لحصلت الفائدة الزائدة قوله لعل الله تعالى بينه في ذلك الموضع وان لم يحكه في القرآن قلنا الاشكال ان البيان أكثر فائدة من المجمل فلو كان مذكورا لكان أولى بالحكاية (المسئلة الخامسة) في قوله لذكري وجوه (أحدها) لذكري بمعنى لتذكرني فان ذكري أن أعبد ويصلى لي (وثانيها) لتذكرني فيها الاشتمال الصلاة على الاذكار عن مجاهد (وثالثها) لاني ذكرتها في الكتب وأمرت بها (ورابعها) لان أذكرك بالمدح والثناء واجعل لك لسان صدق (وخامسها) لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري (وسادسها) لاخلاص ذكري وطلب وجهي لا ترائي بها ولا تقصد بها غرضا آخر (وسابعها) لتكون لي ذكرا غير ناس فعل المخلصين في جملتهم ذكر ربهم على بال منهم كما قال تعالى لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله (وثامنها) لاوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة لقوله تعالى ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا (وتاسعها) أقم الصلاة حين تذكرها أي انك اذا نسيت صلاة فاقضها اذا ذكرتها روى قتادة عن أنس رضي الله عنه مرفوعا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسي صلاة فليصلها اذا ذكرها لا كفارة لها الا ذلك ثم قرأ وأقم الصلاة لذكري قال الخطابي يحتمل هذا الحديث وجهين (أحدهما) انه لا يكفرها غير قضائها والا خوان لا يلزم في نسيانها غرامة ولا كفارة كما تلزم الكفارة في ترك صوم رمضان من غير عذر وكما يلزم المحرم اذا ترك شيأ من نسكه فدية من طعام أو دم وانما يصلي ما ترك فقط فان قيل حق العبارة أن يقول أقم الصلاة لذكرها كما قال عليه السلام فليصلها اذا ذكرها قلنا قوله لذكري معناه للذكر الحاصل بخلقي أو بتقدير حذف المضاف أي لذكر صلاتي (المسئلة السادسة) لو فاتته صلوات يستحب أن يقضيهم على ترتيب الاداء فلو ترك الترتيب في قضائها جاز عند الشافعي رحمه الله ولو دخل عليه وقت فريضة وتذكر فائتة نظر ان كان في الوقت سعة استحب أن يبدأ بالفائتة ولو بدأ بصلاة الوقت جاز وان ضاق الوقت بحيث لو بدأ بالفائتة فات الوقت يجب أن يبدأ بصلاة الوقت حتى لا تفوت ولو تذكر الفائتة بعد ما شرع في صلاة الوقت أتمها ثم قضى الفائتة ويستحب ان يعيد صلاة الوقت بعدها ولا يجب وقال أبو حنيفة رحمه الله يجب الترتيب في قضاء الفوائت سالم تزل على صلاة يوم وليلة حتى قال لو تذكر في خلال صلاة الوقت فائتة تركها اليوم يبطل فرض الوقت فيقضي الفائتة ثم يعيد صلاة الوقت الا ان يكون الوقت ضيقا فلا تبطل حجة أبي حنيفة رحمه الله الآية والخبر والاثر والقياس أما الآية فقوله تعالى أقم الصلاة لذكري أي لتذكرها واللام بمعنى عند كقوله أقم الصلاة لدلوك الشمس أي عند دلوكها فمعنى الآية أقم الصلاة المتذكرة عند تذكرها وذلك يقتضي رعاية الترتيب * وأما الخبر فقوله عليه السلام من نسي صلاة فليصلها اذا ذكرها والفاء للتعقيب وأيضا روى جابر بن عبد الله قال جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنهما الى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق فجعل يسب كفار قريش ويقول يا رسول الله ما صليت صلاة العصر حتى كادت تغيب الشمس قال النبي صلى الله عليه وسلم وأنا والله ما صليتها بعد قال فنزل الى البطحاء وصلى العصر بعد ما غابت الشمس ثم صلى المغرب بعدها وهذا الحديث مذكور في الصحيحين قالت الحنفية والاستدلال به من وجهين (أحدهما) انه عليه الصلاة والسلام قال صلوا كما رأيتموني أصلي فلما صلى الفوائت على الولاء وجب علينا ذلك (والثاني) ان فعل النبي صلى الله عليه وسلم اذا خرج مخرج البيان للمجمل كان حجة وهذا الفعل خرج بيانا للمجمل قوله أقيموا الصلاة ولهذا قلنا ان الفوائت اذا كانت في حد القلة يجب مراعاة الترتيب فيها واذا دخلت في حد الكثرة يسقط الترتيب وأما الاثر فما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما انه قال من فاتته صلاة فليذكرها الا في صلاة الامام فليمض في

أن نجاتهم ليست بسبب استحقاقهم لها بل بمحض فضل الله سبحانه وغفرانه ورحمته على ما علمه من رأى أهل السفينة (وهي تجري بهم) متعلق بمحذوف دل عليه الامر بالركوب أي فركبوا فيها مسمين وهي تجري ملتبسة بهم (في موج كالجبال) وهو ما ارتفع من الماء عند اضطرابه كل موجة من ذلك كالجبل في ارتفاعها وتراكمها ما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والارض وكانت السفينة تجري في جوفه كالحوت فغير ثابت والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعا أو أربعين ذراعا ولئن صح ذلك فهذا الجريان انما هو قبل أن يتفاقم الخطب كما يدل عليه قوله تعالى (ونادى نوح ابنه) فان ذلك انما يتصور قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والبر اذ حينئذ يمكن جريان ما جرى بين نوح عليه الصلاة والسلام وبين ابنه من المفاوضة بالاستدعاء الى السفينة والجواب بالاعتصام

بالجبل وقرئ ابنها وابنه بحذف الالف على أن الضمير لامرأته وكان ربيبه وما يقال من أنه كان لغير رشدة لقوله تعالى انه عمل غير صالح فارتكاب عظيمة لا يقادر قدرها فان جناب الانبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه أرفع من أن يشار اليه باصبع الطعن وانما المراد بالخيانة الخيانة في الدين وقرئ ابناه على التثنية ولعلهما حكاية سوء حذف حرفها وأنت خبير بأنه لا يلائمه الاستدعاء الى السفينة فانه

صريح في أنه لم يقع في حياته يأس بعد (وكان في معزل) أي في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وإخوته وقومه بحيث لم يتناوله الخطاب باركبوا واحتاج الى النداء المذكور وقيل في معزل عن الكفار قد انفرد عنهم وظن نوح أنه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه الى السفينة وقيل كان ينافق أباه فظن أنه مؤمن وقيل ١٦ كان يعلم أنه كافر الى ذلك الوقت لكنه عليه الصلاة والسلام ظن أنه عند مشاهدة تلك

صلاته فاذا قضى صلاته مع الامام يصلي ما فاته ثم يعيد التي صلاها مع الامام وقد يروى هذا مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم * وأما القياس فهو أنهما صلاتان فريضتان جمعهما واحد في اليوم والليلة فاشبهتا صلاتي عرفة والمزدلفة فلما لم يجب اسقاط الترتيب فيهما وجب أن يكون حكم الفوائت فيما دون اليوم والليلة كذلك حجة الشافعي رحمه الله انه روى في حديث أبي قتادة انهم لما ناموا عن صلاة الفجر ثم انتبهوا بعد طلوع الشمس أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يقودوا رواحلهم ثم صلاها ولو كان وقت التذكر معينا للصلاة لما جاز ذلك فدلنا أن ذلك الوقت وقت لتقرر الوجوب عليه لكن لا على سبيل التضييق بل على سبيل التوسع اذا ثبت هذا فنقول ايجاب قضاء الفوائت وايجاب أداء فرض الوقت الحاضر يجري مجرى التخيير بين الواجبين فوجب أن يكون المكلف مخيرا في تقديم أيهما شاء ولانه لو كان الترتيب في الفوائت شرطا لما سقط بالنسيان الا ترى أنه اذا صلى الظهر والعصر بغير طهارة في يوم غيم ثم تبين انه صلى الظهر قبل الزوال والعصر بعد الزوال فانه يعيدهما جميعا ولم يسقط الترتيب بالنسيان لما كان شرطا فيهما فههنا أيضا لو كان شرطا فيما لما كان يسقط بالنسيان ﴿ قوله تعالى ﴿ ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾ اعلم أنه تعالى لما خاطب موسى عليه السلام بقوله فاعبدني وأقم الصلاة لذكري أتبعه بقوله ان الساعة آتية أكاد أخفيها وما ألبق هذا بما قبل من تأول قوله لذكري أي لأذكرك بالامانة والكرامة فقال عقيب ذلك ان الساعة آتية لانها وقت الاثابة ووقت المجازاة ثم قال أكاد أخفيها وفيه سؤالان ﴿ السؤال الاول ﴾ هو ان كاد نفيه اثبات واثباته نفي بدليل قوله وما كادوا يفعلون أي وفعلوا ذلك فقوله أكاد أخفيها يقتضي انه ما أخفاها وذلك باطل لوجهين (أحدهما) قوله ان الله عنده علم الساعة (والثاني) ان قوله لتجزى كل نفس بما تسعى انما يليق بالاخفاء لا بالاظهار (والجواب) من وجوه (أحدها) ان كاد موضوع للقاربة فقط من غير بيان النفي والاثبات فقوله أكاد أخفيها معناه قرب الامر فيه من الاخفاء وأما انه هل حصل ذلك الاخفاء أو ما حصل فذلك غير مستفاد من اللفظ بل من قرينة قوله لتجزى كل نفس بما تسعى فان ذلك انما يليق بالاخفاء لا بالاظهار (وثانيها) ان كاد من الله واجب فمعنى قوله أكاد أخفيها أي أنا أخفيها عن الخلق كقوله عسى أن يكون قريبا أي هو قريب قاله الحسن (وثالثها) قال أبو مسلم أكاد بمعنى أريد وهو كقوله كذلك كدنا ليوسف ومن أمثالهم المتداولة لا أفعل ذلك ولا أكاد أي ولا أريد أن أفعله (ورابعها) معناه أكاد أخفيها من نفسي وقيل انهما كذلك في مصحف أبي وفي حرف ابن مسعود أكاد أخفيها من نفسي فكيف أعلنكم قال القاضي هذا بعيد لان الاخفاء انما يصح فيمن يصح له الاظهار وذلك مستحيل على الله تعالى لان كل معلوم معلوم له فالاظهار والاسرار منه مستحيل ويمكن أن يجاب عنه بأن ذلك واقع على التقدير يعني لو صح مني اخفاؤه على نفسي لاخفيته عني والاخفاء وان كان محالا في نفسه الا أنه لا يمتنع أن يذكر ذلك على هذا التقدير مبالغة في عدم اطلاع الغير عليه قال قطرب هذا على عادة العرب في محاطبة بعضهم بعضا ية ولون اذا بالغوا في كتمان الشيء كتمته حتى من نفسي فالله تعالى بالغ في اخفاء الساعة فذكره بابلغ ما تعرفه العرب في مثله (وخامسها) أكاد صلة في الكلام والمعنى ان الساعة آتية أخفيها قال زيد الخيل

سريع الى الهيجاء شاك سلاحه * فان يكاد قرنه يتنفس

والمعنى فان يتنفس قرنه (وسادسها) قال أبو الفتح الموصلي أكاد أخفيها تأويله أكاد أظهرها وتخميص هذه اللفظة أكاد أزيل عنها خفاءها لان أفعل قد يأتي بمعنى السلب والنفي كقولك أعجمت الكتاب

الاهوال يزجر عما كان عليه ويقبل الايمان وقيل لم يكن الذي تقدم من قوله تعالى الامن سبق عليه القول نصا في كون ابنه داخلا تحته بل كان كالمحتمل فحملته شفقة الابوة على ذلك (يا بني) بفتح الياء اقتصارا عليه من الالف المبدلة من ياء الاضافة في قولك يا بنيا وقرئ بكسر الياء اقتصارا عليه من ياء الاضافة أو سقطت الياء والالف لالتقاء الساكنين لان الراء بعدهما ساكنة (اركب معنا) قرأ أبو عمرو والكسائي وحفص بادغام الباء في الميم لتقاربهما في المخرج وانما أطلق الركوب عن ذكر الفلك لتعينها وللايذان بضيق المقام بحيث حال الجريض دون القريض مع اغناء المعية عن ذلك (ولا تكن مع الكافرين) أي في المكان وهو وجه الارض خارج الفلك لا في الدين وان كان ذلك مما يوجبه كما يوجب ركوبه معه عليه الصلاة والسلام كونه معه في الايمان لانه عليه الصلاة والسلام بصدد التحذير عن المهلكة فلا يلائمه النهي عن الكفر (قال سآوي الى جبل) من الجبال (يعصمني) . واشكلته

بارتفاعه (من الماء) زعما منه أن ذلك كسائر الماء في أزمنة السيول المعتادة التي ربما يبقى منها بالصعود الى الرابي فأجابه بأن ذلك قد بلغ السيل الزبى وجها بأن ذلك انما كان لاهلاك الكفرة وان لا محيص من ذلك سوى الالتجاء الى ملجأ المؤمنين فلذلك أراد عليه الصلاة

والسلام ان يبين له حقيقة الحال ويصرفه عن ذلك الفكر المحال وكان مقتضى الظاهر أن يجيب بما ينطبق عليه كلامه ويتعرض لنفي ما أثبته للجبل من كونه عاصما له من الماء بأن يقول لا يعصمك منه مفيد النفي وصف العصمة عنه فقط من غير تعرض لنفيه عن غيره ولا لنفي الموصوف أصلا لكنه عليه الصلاة والسلام حيث (قال لا عاصم اليوم من أمر الله) ١٧ سلك طريقة نفي الجنس المنتظم لنفي جميع افراد العاصم ذاتا وصفة كما في قولهم ليس فيه داع ولا مجيب أي أحد من الناس للبالغة في نفي كون الجبل عاصما بالوجهين المذكورين وزاد اليوم للتنبيه على انه ليس كسائر الايام التي تقع فيها الوقائع وتلم فيها الملمات المعتادة التي ربما يتخلص من ذلك بالالتجاء الى بعض الاسباب العادية وعبر عن الماء في محل اضماره بامر الله أي عذابه الذي أشير اليه حيث قيل حتى اذا جاء أمرنا تفخيما لشأنه وتهويلا لامره وتنبيها لانه على خطته في تسميته ماء وتوهم انه كسائر المياه التي يقتضي منها بالهرب الى بعض المهارب المعهودة وتعليلا للنفي المذكور فان أمر الله لا يغالب وعذابه لا يرد وتعميدا لحصر العصمة في جناب الله عز جاره بالاستثناء كأنه قيل لا عاصم من أمر الله الا هو وانما قيل (الا من رحم) تفخيما لشأنه الجليل بالابهام ثم التفسير وبالاجمال ثم التفصيل

وأشكلته أي أزالت عجمته واشكاله واشكيته أي أزلت شكواه (وسابعها) قرئ أخفيها بفتح الالف أي أكاد أظهرها من خفاه اذا أظهره أي قرب اظهارها كقوله اقتربت الساعة قال امرؤ القيس

فان تدفنوا الداء لا نخفه * وان تمنعوا الحرب لا نقعد

أي لا نظهره قال الزجاج وهذه القراءة أبين لان معنى اكاد أظهرها يفيد أنه قد أخفاها (وثامنها) أراد أن الساعة آتية اكاد واقطع الكلام ثم قال أخفيها ثم رجع الكلام الاول الى أن الاولى الاخفاء لتجزى كل نفس بما تسعى وهذا الوجه بعيد والله أعلم (السؤال الثاني) ما الحكم في اخفاء الساعة واسقاط وقت الموت (الجواب) لان الله تعالى وعد قبول التوبة فلو عرف وقت الموت لاشتغل بالمعصية الى قريب من ذلك الوقت ثم يتوب فيتخلص من عقاب المعصية فتعريف وقت الموت كالاغراء بفعل المعصية وانه لا يجوز (أما قوله لتجزى كل نفس بما تسعى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى لما حكم بمجيء يوم القيامة ذكر الدليل عليه وهو انه لولا القيامة لما تميز المطيع عن العاصي والمحسن عن المسيء وذلك غير جائز وهو الذي عناه الله تعالى بقوله أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار (المسئلة الثانية) احتجت المعتزلة بهذه الآية على أن الثواب مستحق على العمل لان الباء للالصاق فقوله بما تسعى يدل على أن المؤثر في ذلك الجزاء هو ذلك السعي (المسئلة الثالثة) احتجوا بها على ان فعل العبد غير مخلوق لله تعالى وذلك لان الآية صريحة في اثبات سعي العبد ولو كان الكل مخلوقا لله تعالى لم يكن للعبد سعي البتة * أما قوله فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها فالصد المنع وههنا مسائل (المسئلة الاولى) في هذين الضميرين وجهان (أحدهما) قال أبو مسلم لا يصدنك عنها أي عن الصلاة التي أمرتك بها من لا يؤمن بها أي بالساعة فالضمير الاول عائد الى الصلاة والثاني الى الساعة ومثل هذا جائز في اللغة فالعرب تلف الخبرين ثم ترمي بجوابهما جملة ليرد السامع الى كل خبر حقه (وثانيهما) قال ابن عباس فلا يصدنك عن الساعة أي عن الايمان بمجيئها من لا يؤمن بها فالضميران عائدان الى يوم القيامة قال القاضي وهذا أولى لان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورين وههنا الاقرب هو الساعة وما قاله أبو مسلم فانما يصار اليه عند الضرورة ولا ضرورة ههنا (المسئلة الثانية) الخطاب في قوله فلا يصدنك يحتمل أن يكون مع موسى عليه السلام وان يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم والاقرب انه مع موسى لان الكلام أجمع خطاب له وعلى كلا الوجهين فلا معنى لقول الزجاج انه ليس بمراد وانما أريد به غيره وذلك لانه ظن أن النبي صلى الله عليه وسلم لما لم يجز عليه مع النبوة أن يصده أحد عن الايمان بالساعة لم يجز أن يكون مخاطبا بذلك وليس الامر كما ظن لانه اذا كان مكلفا بأن لا يقبل الكفر بالساعة من أحد وكان قادرا على ذلك جاز أن يخاطب به ويكون المراد هو وغيره ويحتمل أيضا أن يكون المراد بقوله فلا يصدنك عنها النهي له عن الميل اليهم ومقاربتهم (المسئلة الثالثة) المقصود نهي موسى عليه السلام عن التكذيب بالبعث ولكن ظاهر اللفظ يقتضي نهي من لم يؤمن عن صد موسى عليه السلام وفيه وجهان (أحدهما) ان صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على المسبب (والثاني) ان صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين فذكر المسبب ليدل حمله على السبب كقوله لا أرينك ههنا المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته فكذا ههنا كأنه قيل لا تكن رخوا بل كن في الدين شديدا صلبا (المسئلة الرابعة) الآية تدل على ان تعلم الاصول واجب لان قوله فلا يصدنك يرجع معناه الى صلابته في الدين وتلك الصلابة ان كان المراد بها التقليد لم يتميز المبطل فيه من المحق فلابد وأن يكون المراد بهذه الصلابة كونه

(٣ - تفسير س) واشعارا بعلية رحمته في ذلك بموجب سعتها على غضبه وكل ذلك لكمال عناية عليه الصلاة والسلام بتحقيق ما يتوخاه من نجاة ابنه ببيان أن الداهية قطع اطماعه المارغة وصرفه عن التعلل بما لا يغني عنه شيأ وارشاده الى الميادي المعاد الحق عز جماه وقيل لا مكان يعصم من أمر الله الا مكان من رحمه الله وهو الفلك وقيل معنى لا عاصم لاذا عصمة الا من رحمه الله تعالى (وحال بينهما

الموج) أى بين نوح وبين ابنه فانقطع مابينهما من المحاورة لابين ابنه وبين الجبل لقوله تعالى (فكان من المغرقين) اذ هو انما يتفرع على حمل لولة الموج بينه عليه الصلاة والسلام وبين ابنه لا بينه وبين الجبل لانه بمعزل من كونه عاصما وان لم يحل بينه وبين الملتجئ اليه موج وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة ١٨ على أبلغ وجه فكان ذلك أمرا مقررا الوقوع غير مفتقر الى البيان وفى ايراد كان دون صار مبالغة فى كونه منهم (وقيل يا أرض ابلعى) أى انشفى استعير له من ازدراد الحيوان ما يأكله للدلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد التدريجى (ماءك) أى ماء على وجهك من ماء الطوفان دون المياه المعهودة فيهما من العيون والانهار وعبر عنه بالماء بعد ما عبر عنه فيما سلف بامر الله تعالى لان المقام مقام النقص والتقليل لا مقام التفخيم والتهويل (ويا سماء أقلعى) أى امسكى عن ارسال المطر يقال أقلعت السماء اذا انقطع مطرها وأقلعت الحمى اذا كفت (وغيض الماء) أى نقص ما بين السماء والارض من الماء (وقضى الامر) أى أنجز ما وعده الله تعالى نوحا من اهلاك قومه وانجائه بأهله (وأوتأم الامر (واستوت) أى استقرت الفلك (على الجودى) هو جبل بالموصل أو بالشام أو بأرمل روى أنه عليه الصلاة والسلام ركب فى الفلك فى عاشر رجب ونزل عنها فى عاشر المحرم فصام ذلك اليوم شكرا فصار سنة (وقيل بعدا للقوم الظالمين) أى هلاكا لهم والتعرض لوصف الظلم للاشعار بعلية

قوى بانى تقرير لدلائل وازالة الشبهات حتى لا يتمكن الخصم من ازالته عن الدين بل هو يكون متمكنا من ازالة الباطل عن بطلانه (المسئلة الخامسة) قال القاضى قوله فلا يصدنك يدل على أن العباد هم الذين يصدون ولو كان تعالى هو الخالق لافعالهم لكان هو الصاد دونهم فدل ذلك على بطلان القول بالجبر والجواب المعارضة بمسئلة العلم والداعى والله أعلم أما قوله تعالى واتبع هواه فالمعنى ان منكر البعث انما أنكره لاتباع الهوى لا لدليل وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد لان المقلد متبع للهوى لا للحجة أما قوله فتردى فهو يعنى ولا يصدنك فتردى وان صدوك وقيل فليس الا الهلاك بالنار واعلم ان المتوغلين فى أسرار المعرفة قالوا المقام مقامان (أحدهما) مقام المحو والفناء عما سوى الله تعالى (والثانى) مقام البقاء بالله والاول مقدم على الثانى لان من أراد ان يكتب شيأ فى لوح مشغول بكتابة أخرى فلا سبيل له اليه الا بازالة الكتابة الاولى ثم بعد ذلك يمكن اثبات الكتابة الثانية والحق سبحانه راعى هذا الترتيب الحسن فى هذا الباب لانه قال لموسى عليه السلام أولا فاخلع نعليك وهو اشارة الى تطهير السر عما سوى الله تعالى ثم بعد ذلك أمره بتحصيل ما يجب تحصيله واصول هذا الباب ترجع الى ثلاثة علم المبدا وعلم الوسط وعلم المعاد فعلم المبدا هو معرفة الحق سبحانه وتعالى وهو المراد بقوله انى أنا الله لا اله الا أنا وأما علم الوسط فهو علم العبودية ومعناها الامر الذى يجب أن يشتغل الانسان به فى هذه الحياة الجسمانية وهو المراد بقوله فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ثم فى هذا أيضا نعتران قوله فاعبدنى اشارة الى الاعمال الجسمانية وقوله لذكرى اشارة الى الاعمال الروحانية والعبودية أولها الاعمال الجسمانية وآخرها الاعمال الروحانية وأما علم المعاد فهو قوله ان الساعة آتية أكاد أخفيها ثم انه تعالى افتتح هذه التكاليف بمحض اللطف وهو قوله انى أنا ربك واختتمها بمحض القهر وهو قوله فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى تنبيها على ان رحمته سبقت غضبه واشارة الى أن العبد لا بد له فى العبودية من الرغبة والرهبة وللرجاء والخوف وعند الوقوف على هذه الجملة تعرف ان هذا الترتيب هو النهاية فى الحسن والجودة وان ذلك لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات ۞ قوله تعالى ﴿وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى قال ألقها يا موسى فألقاها فاذا هى حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى﴾ اعلم أن قوله وما تلك بيمينك أمفتان فقوله وما تلك اشارة الى العصا وقوله بيمينك اشارة الى اليد وفى هذا سكت (واحدهما) انه سبحانه لما أشار اليهما جعل كل واحدة منهما معجزا قاهرا وبرهانا باهرا ونقله من حد الجمادية الى مقام الكرامة فاذا صار الجماد بالنظر الواحد حيوانا وصار الجسم الكثيف نورانيا لطيفا ثم انه تعالى ينظر كل يوم ثلثمائة وستين نظرة الى قلب العبد فاى عجب لو انقلب قلبه من موت العصيان الى سعادة الطاعة ونور المعرفة (وثانيهما) ان بالنظار الواحد صار الجماد ثعبانا يبتلع سحر السحرة فاى عجب لو صار القلب بمدد النظار الالهى بحيث يبتلع سحر النفس الامارة بالسوء (وثالثهما) كانت العصا فى يمين موسى عليه السلام فبسبب بركة يمينه انقلبت ثعبانا وبرهانا وقلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن فاذا حصلت اليمين موسى عليه السلام هذه الكرامة والبركة فاى عجب لو انقلب قلب المؤمن بسبب اصبعى الرحمن من ظلمة المعصية الى نور العبودية (ثم ههنا سؤالات) * الاول قوله وما تلك بيمينك يا موسى سؤال والسؤال انما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة فيه * والجواب فيه فوائد (احداها) ان من أراد أن يظهر من الشئ الحقير شيأ شريفا فانه يأخذه ويعرضه على الحاضرين ويقول لهم هذا ما هو فيقولون هذا هو الشئ الفلانى ثم انه بعد اظهار صفته الفائدة فيه يقول لهم خذوا منه كذا وكذا فان الله تعالى

الكلام في هذا الباب ونفوض الامر الى تأمل أولى الالباب والله عنده علم الكتاب (ونادى نوح ربه) أى أراد ذلك بدليل الفاء في قوله تعالى (فقال رب ان ابنى من أهلى) وقد وعدتنى انجاءهم فى ضمن الامر بحملهم فى الفلك أو النداء على الحقيقة والفاء لتفصيل ما فيه من الاجمال (وان وعدك الحق) أى وعدك ذلك أو ان كل وعد تعده حق لا يتطرق اليه ١٩ خلف فيدخل فيه الوعد المعهود دخولا

لما أراد أن يظهر من العصا تلك الآيات الشريفة كانت قد لاها حية وكضربه البحر حتى انفلق وفى الحجر حتى انفجر منه الماء عرضه أولا على موسى فكأنه قال له يا موسى هل تعرف حقيقة هذا الذى بيدك وانه خشبة لا تضر ولا تنفع ثم انه قلبه ثعبانا عظيما فيكون بهذا الطريق قد نبهه العقول على كمال قدرته ونهاية عظمته من حيث انه أظهر هذه الآيات العظيمة من أهون الاشياء عنده فهذا هو الفائدة من قوله وما تلك بيمينك يا موسى (وثانيها) انه سبحانه لما أطلعه على تلك الانوار المتصاعدة من الشجرة الى السماء وأسمعه تسبيح الملائكة ثم أسمعه كلام نفسه ثم انه مزج اللطف بالقهر فلاطفه أولا بقوله وأنا اخترتك ثم قهره بايراد التكاليف الشاقة عليه والزامه علم المبدا والوسط والمعاد ثم ختم كل ذلك بالتهديد العظيم تحير موسى ودهش وكاد لا يعرف اليمين من الشمال فقيل له وما تلك بيمينك يا موسى ليعرف موسى عليه السلام ان يمينه هى التى فيها العصا أولا ثم انه لما تكلم معه أولا بكلام الالهية وتحير موسى من الدهشة تكلم معه بكلام البشر ازالة لتلك الدهشة والحيرة والنكتة فيه انه لما غلبت الدهشة على موسى فى الحضرة أراد رب العزة ازالتها فاسأله عن العصا وهو أمر لا يقع الغلط فيه كذلك المؤمن اذا مات ووصل الى حضرة ذى الجلال فالدهشة تغلبه والحياء يمنعه عن الكلام فيسأله عن الامر الذى لم يغلط فيه فى الدنيا وهو التوحيد فاذا ذكره زالت الدهشة والوحشة عنه (وثالثها) انه تعالى لما عرف موسى كمال الالهية أراد أن يعرفه نقصان البشرية فسأله عن منافع العصا فذكر بعضها فعرفه الله تعالى ان فيها منافع أعظم مما ذكر تنبيها على ان العقول قاصرة عن معرفة صفات الشئ الحاضر فكيف لولا التوفيق والعصمة كيف يمكنهم الوصول الى معرفة أجل الاشياء وأعظمها (ورابعها) فائدة هذا السؤال أن يقرر عنده انه خشبة حتى اذا قلبها ثعبانا لا يخافها

(السؤال الثانى) قوله وما تلك بيمينك يا موسى خطاب من الله تعالى مع موسى عليه السلام بلا واسطة ولم يحصل ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم فيلزم أن يكون موسى أفضل من محمد (الجواب) من وجهين (الاول) انه تعالى كما خاطب موسى فقد خاطب محمدا عليه السلام فى قوله فأوحى الى عبده ما أوحى الا أن الفرق بينهما ان الذى ذكر مع موسى عليه السلام أشياء الى الخالق والذى ذكره مع محمد صلى الله عليه وسلم كان سؤالا لم يستأهل له أحد من الخلق (والثانى) ان كان موسى تكلم معه وهو مع موسى فأمة محمد صلى الله عليه وسلم يخاطبون الله فى كل يوم مرات على ما قال صلى الله عليه وسلم المصلى يناجى ربه والرب يتكلم مع آحاد أمة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة بالتسليم والتكريم والتكليم فى قوله سلام قولا من رب رحيم

(السؤال الثالث) ما اعراب قوله وما تلك بيمينك يا موسى * الجواب قال صاحب الكشاف تلك بيمينك كقوله وهذا بعلى شيخا فى انتصاب الحال يعنى الاشارة ويجوز أن يكون تلك اسما موصولا وصلته بيمينك قال الزجاج معناه وما التى بيمينك قال الفراء معناه ما هذه التى فى يمينك واعلم انه سبحانه لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك أجاب موسى عليه السلام بأربعة أشياء ثلاثة على التفصيل وواحد على الاجمال (الاول) قوله هى عصاى قرأ ابن أبى اسحق هى عصى ومثله يابشرى وقرأ الحسن هى عصاى بسكون الياء والنكت ههنا ثلاثة (أحدها) أنه قال هى عصاى فذكر العصا ومن كان قلبه مشغولا بالعصا ومنافعها كيف يكون مستغرقا فى بحر معرفة الحق ولكن محمد صلى الله عليه وسلم عرض عليه الجنة والنار فلم يلتفت الى شئ مازاغ البصر وما طغى ولما قيل له اهد حمنا قال لا أحصى ثناء عليك ثم نسى نفسه ونسى ثناءه فقال أنت كما أثنيت على نفسك (وثانيها) لما قال عصاى قال الله سبحانه وتعالى ألقها فلما ألقاها فاذا هى حية تسعى ليعرف ان كل ما سوى الله فالالتفات اليه شاغل وهو كالحية المهلكة لك ولهذا قال الخليل عليه السلام فانهم

كما فى قول الخنساء * فانما هى اقبال وادبار * وايثار غير صالح على فاسد اما لان الفاسد ربما يطرق على ما فسد ومن شأنه الصلاح فلا يكون نصا فيما هو من قبيل الفاسد المحض كالقتل والمظالم واما للتلويح بان نجاة من نجا فانما هى لصلاحه وقرأ الكسائى ويعقوب انه عمل غير صالح أى عملا غير صالح ولما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام مبنيا على ما ذكره من اعتقاد كون كنعان من أهله وقد نفى ذلك

وحقق ببيان علته فرع على ذلك النهي عن سؤال انجائه الا أنه جيء بالنهي على وجه عام يندرج فيه ذلك اندراجا أوليا فقيل (فلا تسألني) أي اذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب مني (ما ليس لك به علم) أي مطلبا لا تعلم يقينا أن حصوله صواب وموافق للحكمة على تقدير كون ما عبارة عن المسؤل الذي هو مفعول ٢٠ للسؤال أو طلبا لا تسلم أنه صواب على تقدير كونه عبارة عن المصدر الذي هو مفعول

عدو لي الارب العالمين وفي الحديث يجاء يوم القيامة بصاحب المال الذي لم يؤد زكاته ويؤتى بذلك المال على صورة شجاع أقرع الحديث بتمامه (وثالثها) انه قال هي عصاي فقد تم الجواب الا انه عليه السلام ذكر الوجوه الاخر لانه كان يحب المكالمة مع ربه فعمل ذلك كالوسيلة الى تحصيل هذا الغرض (الثاني) قوله أتوكأ عليها والتوكي والاتكاء واحد كالتوقي والاتقاء معناه أعتمد عليها اذا عييت أو وقفت على رأس القطيع أو عند الطفرة فجعل موسى عليه السلام نفسه متوكئا على العصا وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اتكئ على رحمتي بقوله تعالى يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين وقال والله يعصمك من الناس فان قيل أليس قوله ومن اتبعك من المؤمنين يقتضي كون محمد يتوكأ على المؤمنين قلنا قوله ومن اتبعك من المؤمنين معطوف على الكاف في قوله حسبك الله والمعنى الله حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين (الثالث) قوله وأهش بها على غنمي أي أخبط بها فأضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها على غنمي فتأكله وقال أهل اللغة هش على غنمه يهش بضم الهاء في المستقبل وهششت الرجل أهش بفتح الهاء في المستقبل وهش الرغيف يهش بكسر الهاء قاله ثعلب وقرأ عكرمة وأهس بالسين غير المنقوطة والهش زجر الغنم واعلم ان غنمه رعيته فهد أصالح نفسه في قوله أتوكأ عليها ثم بصالح رعيته في قوله وأهش بها على غنمي فكذلك في القيامة يبدأ بنفسه فيقول نفسي نفسي ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يشتغل في الدنيا الا باصلاح أمر الامة وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون فلا جرم يوم القيامة يبدأ أيضا بامته فيقول أمتي أمتي (والرابع) قوله ولي فيها مآرب أخرى أي حوائج ومنافع واحدتها مأربة بفتح الراء وضمها وحكى ابن الاعرابي وقطرب بكسر الراء أيضا والارب بفتح الراء والاربة بكسر الالف وسكون الراء الحاجة وانما قال أخرى لان المآرب في معنى جماعة فكأنه قال جماعة من الحاجات أخرى ولو جاءت أخر لكان صوابا كما قال فعدة من أيام أخر * ثم ههنا تمت (احداها) انه لما سمع قول الله تعالى وما تلك بيمينك عرف ان لله فيه أسرارا عظيمة فذكر ما عرف وعبر عن البواقي التي ما عرفها اجمالا لا تفصيلا بقوله ولي فيها مآرب أخرى (وثانيها) ان موسى عليه السلام أحس بانه تعالى انما سأله عن أمر العصا لمنافع عظيمة فقال موسى الهي ما هذه العصا الا كغيرها فكيف لما سألت عنها عرفت أن لي فيها مآرب أخرى ومن جملتها أنك كلمتني بسببها فوجدت هذا الامر العظيم الشريف بسببها (وثالثها) ان موسى عليه السلام أجمل رجاء أن يسأله ربه عن تلك المآرب فيسمع كلام الله مرة أخرى ويطول أمر المكالمة بسبب ذلك (ورابعها) انه بسبب الالطاف انطلق لسانه ثم غلبته الدهشة فانقطع لسانه وتشوش فكره فأجمل مرة أخرى ثم قال وهب كانت ذات شعبتين كالمحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا حاول كسره لواه بالشعبتين واذا أراد وضعها على عاتقه يعلق فيها أداواته من القوس والكنانة والشياب واذا كان في البرية ركزها وألقى كساءه عليها فكانت ظلا وقيل كان فيها من المعجزات أنه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا وتصيران شمعتين في الليالي واذا ظهر عدو حاربت عنه واذا اشتهى ثمرة ركزها فاورقت وأثمرت وكان يحمل عليها زاده ومائه وكانت تماشيه وبركزها فينبع الماء فاذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام واعلم ان موسى عليه السلام لما ذكر هذه الجوابات أمره الله تعالى بالقاء العصا فقال ألقها يا موسى وفيه نكت (احداها) انه عليه السلام لما قال ولي فيها مآرب أخرى أراد الله أن يعرفه أن فيها مآربة أخرى لا يفطن لها ولا يعرفها وأنها أعظم من سائر ما ربه فقال ألقها يا موسى فألقاها فاذا هي حية تسعى (وثانيتها) كان في رجله شئ وهو النعل وفي يده شئ وهو العصا والرجل آلة الهرب واليد

مطلق فيكون النهي واردا بصيغة في كل من معلوم الفساد ومشتبه الحال ويجوز أن يكون المعنى ما ليس لك علم بأنه صواب أو غير صواب فيكون النهي واردا في مشتبه الحال ويفهم منه حال معلوم الفساد بالطريق الاولى وعلى التقديرين فهو عام يندرج تحته ما نحن فيه كما ذكرناه وهذا كما ترى صريح في أن نداءه عليه الصلاة والسلام ربه عز وعلا ليس استفسارا عن سبب عدم انجائه ابنه مع سبق وعده بانجاء أهله وهو منهم كما قيل فان النهي عن استفسار ما لم يعلم غيره موافق للحكمة اذ عدم العلم بالشئ داع الى الاستفسار عنه لا الى تركه بل هو داع منه لانجائه ابنه حسبن حال الموج بينهما ولم يعلم سهلا كه بعد ما بين قريبه الى الفلك بتلاطم الامواج أو بتقريبها اليه وقيل أو بانجائه في قلة الجبل وبأباه تذكير الوعد في الدعاء فانه مخصوص بالانجاء في الفلك وقوله تعالى لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ومجرد حيلولة الموج بينهما لا يستوجب هلاكه فضلا عن العلم به لظهور امكان عصمة الله تعالى اياه برحمته وقد وعد بانجاء أهله ولم يكن ابنه مجاهرا بالكفر كما ذكرناه حتى لا يجوز عليه عليه السلام أن يدعوه الى الفلك أو يدعو ربه لانجائه واعتزاله عنه عليه الصلاة والسلام وقصده الانجاء الى الجبل ليس بنص في الاصرار على الكفر لظهور جواز أن يكون ذلك لجهله

بانحصار النجاة في الفلك وزعمه أن الجبل أيضا يجري مجراه وانكراهة الاحتباس في الفلك بل قوله سآوي الى جبل يعصمني من الماء بعد ما قال له نوح عليه الصلاة والسلام ولا تكن مع الكافرين ربما يطمعه عليه السلام في أعماقه حيث لم يقل أكون معهم أو سنأوي أو يعصمنا فان افراد نفسه بنسبة العاصم المذكور بن ربما يشعر بانفراده ٢١ من الكافرين واعتزاله عنهم وامتثاله بعض

آلة الطلب فقال أولا اخلع نعليك اشارة الى ترك الهرب ثم قال ألقها يا موسى وهو اشارة الى ترك الطلب كأنه سبحانه قال انك مادمت في مقام الهرب والطلب كنت مشتغلا بنفسك وطالبا لحظك فلا تكون خالصا لمعرفتي فكن تاركا للهرب والطلب لتكون خالصا لي (وثالثها) أن موسى عليه السلام مع علو درجته وكمال منقبته لما وصل الى الحضرة لم يكن معه الا النعلان والعصا أمره بالقائهما حتى أمكنه الوصول الى الحضرة فأنت مع أنفسك وقر من المعاصي كيف تمكنك الوصول الى جنابه (ورابعتها) أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان مجردا عن الكل ما زاغ البصر فلا جرم وجد الكل لعدمك أما موسى لما بقي معه تلك العصا لا جرم أمره بالقاء العصا واعلم ان الكعبي تمسك به في أن الاستطاعة قبل الفعل فقال القدرة على القاء العصا اما أن توجد والعصا في يده أو خارجة من يده فان أتته القدرة وهي في يده فذاك قولنا وان الله ليس بظلام للعبيد واذا أتته وليست في يده وانما استطاع أن يأتي من يده ما ليس في يده فذلك محال أما قوله فالقاها فاذا هي حية تسعى ففيه أسئلة (السؤال الاول) ما الحكمة في قلب العصا حية في ذلك الوقت * والجواب فيه وجوه (أحدها) انه تعالى قلبها حية لتكون معجزة لموسى عليه السلام يعرف بها نبوة نفسه وذلك لانه عليه السلام الى هذا الوقت ما سمع الا النداء والنداء وان كان مخالفا للعادات الا أنه لم يكن معجزا لاحتمال أن يكون ذلك من عادات الملائكة أو الجن فلا جرم قلب الله العصا حية ليصير ذلك دليلا قاهرا والعجب أن موسى عليه السلام قال أتوكأ عليها فصدقه الله تعالى فيه وجعلها معتكأ له بأن جعلها معجزة له (وثانيها) ان النداء كان اكراما له فقلب العصا حية مزيدا في الكرامة ليكون تواليا لطلع والكرامات سببا لزوال الوحشة عن قلبه (وثالثها) أنه عرض عليه ليشاهده أولا فاذا شاهده عند فرعون لا يخافه (ورابعها) أنه كان راعيا فقيرا ثم انه نصب للمنصب العظيم فلعله بقي في قلبه تعجب من ذلك فقلب العصا حية تنبيها على أني لما قدرت على ذلك فكيف يستبعد مني نصرة مثلك في اظهار الدين (وخامسها) أنه لما قال هي عصاي أتوكأ عليها الى قوله ولي فيها مآرب أخرى فقيل له ألقها فلما ألقاها وصارت حية فر موسى عليه السلام منها فكأنه قيل له ادعيت أنها عصاك وأن لك فيها مآرب أخرى فلم تفر منها تنبيها على سر قوله ففروا الى الله وقوله قل الله ثم ذرهم (السؤال الثاني) قال ههنا حية وفي موضع آخر ثعبان وجان أما الحية فاسم يتناول على الذكر والانثى والصغير والكبير وأما الثعبان والجان فبينهما تناف لان الثعبان العظيم من الحيات والجان الدقيق وفيه وجهان (أحدهما) أنها كانت وقت انقلابها حية صغيرة دقيقة ثم ورمت وتزايد جرمها حتى صارت ثعبانا فارا بذيل الجان أول حالها وبالثعبان ما آلها (والثاني) انها كانت في شخص الثعبان ومرعة حركة الجان والدليل عليه قوله تعالى فلما رآها تهتز كأنها جان (السؤال الثالث) كيف كانت صفة الحية * الجواب كان لها عرف كعرف الفرس وكان بين لحييها أربعون ذراعا وابتلعت كل ما مر به من الصخور والاشجار حتى سمع موسى صرير الحديد في فمها وجوفها أما قوله تعالى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى ففيه سؤالات (السؤال الاول) لما نودي موسى وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم أنه مبعوث من عند الله تعالى الى الخلق فلم خاف (والجواب) من وجوه (أحدها) ان ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لانه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط وأيضا فهذه الاشياء معلومة بدلائل المعقول وعند الفزع الشديد قد يذهل الانسان عنه قال الشيخ أبو القاسم الانصاري رحمه الله تعالى وذلك الخوف من أقوى الدلائل على صدقه في النبوة لان الساحر لم أن الذي أتى به تعويه فلا يخافه البتة (وثانيها) قال بعضهم خافها لانه عليه السلام عرف ما لقي آدم منها (وثالثها) ان مجرد قوله

ما أمره به نوح عليه الصلاة والسلام الا أنه عليه الصلاة والسلام لو تأمل في شأنه حق التأمل وتفحص عن أحواله في كل ما يأتي ويذر لما اشتبه عليه أنه ليس بمؤمن وأنه المستثنى من أهله ولذلك قيل (اني أعظك أن تكون من الجاهلين) فعبر عن ترك الاولى بذلك وقرئ فلا تسألن بغير ياء الاضافة وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء (قال رب اني أعوذ بك أن أسألك) أي أطلب منك من بعد (ما ليس لي به علم) أي مطلوبا لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة أو طلبا لا أعلم أنه صواب سواء كان معلوم الفساد أو مشتبه الحال أولا أعلم أنه صواب أو غير صواب على ما مر وهذه توبة عنه عليه السلام مما وقع منه وانما لم يقل أعوذ بك منه أو من ذلك صيانة في التوبة واظهارا للرغبة والنشاط فيها وتبركا بذكر ما لقنه الله تعالى وهو أبلغ من أن يقول أتوب اليك أن أسألك لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمرا هائلا

محذورا لا محيص منه الا بالعوذ بالله تعالى وأن قد ربته قاصرة عن النجاة من المكاره الا بذلك (والا تغفر لي) ما صدر مني من السؤال المذكور (وترحمني) بقبول توبتي (أكن من الخاسرين) أعما لا بسبب ذلك فان الذهول عن شكر الله تعالى لا سيما عند وصول مثل هذه النعمة الجليلة التي هي النجاة وهلاك الاعداء والاشتغال بما لا ينبغي خصوصا بجادي خلاص من قبيل في شأنه انه عمل غير صالح والتضرع

الى الله تعالى فى أمره مقام التغير رابحة وخسران مبين وأخبر ذكر هذا النداء عن حكاية الامر الوارد على الارض والسماء وما يتلوه من زوال الطوفان وقضاء الامر واستواء الفلك على الجودى والدعاء بالهلاك على الظالمين مع أن حقه أن يذكر عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين حسبما وقع فى الخارج ٢٢ اذ حينئذ يتصور الدعاء بالانجاء لا بعد العلم بالهلاك ليس لما قيل من استقلاله بغرض

لا تخف لا يدل على حصول الخوف كقوله تعالى ولا تطع الكافرين لا يدل على وجود تلك الطاعة لكن قوله فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا يدل عليه ولكن ذلك الخوف انما ظهر اظهر الفرق بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم فانه عليه السلام أظهر تعلق القلب بالعصا والنفرة عن الثعبان وأما محمد عليه السلام فما أظهر الرغبة فى الجنة ولا النفرة عن النار ﴿السؤال الثانى﴾ متى أخذها بعد انقلابها عصا أو قبل ذلك (والجواب) روى أنه أدخل يده بين اسنانها فانقلبت خشبة والقرآن يدل عليه أيضا فانه قوله سنعيدها سيرتها الاولى وذلك يقع فى الاستقبال وأيضا فهذا أقرب للكرامة لانه كما أن انقلاب العصا حية معجزة فكذلك ادخال يده فى فمها من غير ضرر معجزة وانقلابها خشبا معجزا خر فكون فيه توالى المعجزات فيكون أقوى فى الدلالة ﴿السؤال الثالث﴾ كيف أخذه مع الخوف أو بدونه (والجواب) روى مع الخوف ولكنه بعد لان بعد توالى الدلائل يبعد ذلك واذا علم موسى عليه السلام أنه تعالى عنها لاخذ سنعيدها سيرتها الاولى فكيف يستمر خوفه وقد علم صدق هذا القول وقال بعضهم لما قال له ربه لا تخف بقى من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه الى أن أدخل يده فى فمها وأخذ يلعبها ﴿السؤال الرابع﴾ ما معنى سيرتها الاولى (والجواب) قال صاحب الكشاف السيرة من السير كالركبة من الركوب يقال سار فلان سيرة حسنة ثم اتسع فيها فنقلت الى معنى المذهب والطريقة ﴿السؤال الخامس﴾ علام انتصب سيرتها (الجواب) فيه وجهان (أحدهما) ينزع الخافض يعنى الى سيرتها (وثانيهما) أن يكون سنعيدها مستقلا بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى أنها كانت أولا عصا فصارت حية فسنجعلها عصا كما كانت فنصب سيرتها بفعل مضمر أى تسير سيرتها الاولى يعنى سنعيدها سائرة بسيرتها الاولى حيث كنت تتوكأ عليها وتلك فيها المآرب التى عرفتها ﴿قوله تعالى﴾ ﴿واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى لنريك من آياتنا الكبرى اذهب الى فرعون انه طغى﴾ اعلم أن هذا هو المعجزة الثانية وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحى العسكر لطرفيه وجناحا الانسان جنباه والاصل المستعار منه جناحا الطائر لانه يضمهما عند الطيران وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما الى جناحك الى صدرك والاول أولى لان يدى الانسان يشبهان جناحى الطائر لانه قال تخرج بيضاء ولو كان المراد بالجناح الصدر لم يكن لقوله تخرج معنى ﴿واعلم ان معنى ضم اليد الى الجناح مخالف فى آية أخرى وأدخل يدك فى جيبك لانه اذا أدخل يده فى جيبه كان قد ضم يده الى جناحه والله أعلم ﴿المسئلة الثانية﴾ السوء الرداءة والقبح فى كل شئ فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة والبرص أبغض شئ الى العرب فكان جديرا بأن يكنى عنه روى أنه عليه السلام كان شديد الادمة فكان اذا أدخل يده البيضاء فى جيبه وأدخلها تحت أبطه لا يسر وأخرجها كانت تبرق مثل البرق وقيل مثل الشمس من غير برص ثم اذا ردها عادت الى لونها الاول بلا نور ﴿المسئلة الثالثة﴾ بيضاء وآية حالان معاومن غير سوء من صلة البيضاء كما تقول ابيضت من غير سوء وفى نصب آية وجه آخر وهو أن يكون باضمار نحو خذ ودونك وما أشبه ذلك حذف لدلالة الكلام وقد تعلق بهذا المحذوف لنريك أى خذ هذه الآية أيضا بعد قلب العصا لنريك بها بين لآيتين بعض آياتنا الكبرى أو لنريك بها الكبرى من آياتنا أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك فان قيل الكبرى من نعت الآيات فلم يقل الكبرى قلنا بل هى نعت الآية والمعنى لنريك الآية الكبرى ولئن سلمنا ذلك فهو كما قدمنا فى قوله ما نرب أخرى والاسماء الحسنى ﴿المسئلة الرابعة﴾ قال الحسن اليد أعظم فى الاعجاز من العصا لانه تعالى ذكر لنريك من آياتنا الكبرى عقيب ذكر اليد وهذا ضعيف لانه ليس فى اليد الا تغير اللون وأما العصا ففيه تغير اللون

مهم هو جعل قرابة الدين غامرة لقرابة النسب وأن لا تقدم فى الامور الدينية الاصولية الا بعد اليقين قياسا على ما وقع فى قصة البقرة من تقديم ذكر الامر بذبحها على ذكر القتيل الذى هو أول القصة وكان حقها أن يقال واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها كما قرر فى موضعه فان تغيير الترتيب هناك للدلالة على كمال سوء حال اليهود بتعديد جناياتهم المتنوعة وتثنية التقريع عليهم بكل نوع على حدة فقوله تعالى واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة الخ لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة الى الامتثال وما يتبع ذلك وقوله تعالى واذ قتلتم نفسا الخ للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الامور العظيمة ولو قصت القصة على ترتيبها لفات الغرض الذى هو تثنية التقريع وانظن أن المجموع تقريع واحد وأما ما نحن فيه فليس مما يمكن أن يراعى فيه مثل تلك النكتة أصلا وما ذكره من جعل القرابة الدينية غامرة للقرابة النسبية الخ لا يفوت على تقدير سوق الكلام وخلق على ترتيب الوقوع أيضا بل لان ذكر هذا النداء كما ترى مستتبع لذكر ما مر من الجواب المستدعى لذكر ما مر من توبته عليه الصلاة والسلام المؤدى ذكرها الى ذكر قبولها فى ضمن الامر الوارد بنزوله عليه الصلاة والسلام من الفلك بالسلام والبركات الفائضة عليه

وعلى المؤمنين حسبما يجيء مفصلا ولا ريب في أن هذه المعاني آحاد بعضها بحيث لا يكاد يفرق في الآيات الكريمة المنطوية عليها بعضها من بعض وارد ذلك انما يتم بتمام القصة ولا ريب أن ذلك انما يكون بتمام الطوفان فلا جرم اقتضى الحال ذكرها مفصلا قبل هذا النداء وذلك انما يكون عند ذكر كون كل منهما من المغرقين ولهذه النكتة أزداد ٢٣ حسن موقع الايجاز البليغ وفيه فائدة أخرى هي التصريح بهلاكه من أول الامر ولولا ذكر النداء الثاني عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين لربما توهم من أول الأمر انى أن يرد قوله انه ليس من أهلك أنه يخيب دعائه عليه الصلاة والسلام فنص على هلاكه من أول الامر ثم ذكر الامر الوارد على الارض والسماء الذي هو عمارة عن تعلق الارادة الربانية لازليه بما ذكر من الغيض والاقلاع وبين بلوغ أمر الله محله وجريان قضائه ونفوذ حكمه عليهم بهلاك من هلك ونجاة من نجا بتمام ذلك الطوفان واستواء الفلك على الجودي فقصت القصة الى هذه المرتبة وبين ذلك أي بيان ثم تعرض لما وقع في تضاعيف ذلك مما جرى بين نوح عليه السلام وبين رب العزة جلت حكمته فذكر بعد توبته عليه الصلاة والسلام قبولها بقوله (قيل يانوح اهبط) أي انزل من الفلك وقرئ بضم الباء (بسلام) ملتبسا بسلامة من المكاره كائنة (منا) أو بسلام وتحية منا عليك كما قال سلام على نوح في العالمين (وبركات عليك) أي خيرات نامية في نسلك وما يقوم به معاشك ومعادهم من أنواع الارزاق وقرئ بركة وهذا اعلام وبشار من الله تعالى بقبول توبته وخلاصه من الخسران بفيضان أنواع الخيرات عليه في كل ما يأتي ويذر (وعلى أمم) ناشئة (ممن معك) الى يوم القيامة متشعبة منها فرق ابتدائية والمراد الامم المؤمنة المتناسلة ممن معه الى يوم القيامة

وخلق الزيادة في الجسم وخلق الحياة والقدرة والاعضاء المختلفة وابتلاع الحجر والشجر ثم عاد عصا وبعد ذلك فقد وقع التغيير مرة أخرى في كل هذه الامور فكانت العصا أعظم وأما قوله لنريك من آياتنا الكبرى فقد بينا انه عائد الى الكل وانه غير مختص باليد (المسئلة الخامسة) انه سبحانه وتعالى لما أظهر له هذه الآية عقبها بأن أمره بالذهاب الى فرعون وبين العلة في ذلك وهي أنه طغى وانما خص فرعون بالذكر مع أن موسى عليه السلام كان مبعوثا الى الكل لأنه ادعى الالهية وتكبر وكان متبوعا فكان ذكره أولى قال وهب قال الله تعالى لموسى عليه السلام اسمع كلامي واحفظ وصيتي وانطق برسالتي فانك بعيني وسمعي وان معك يدي وبصري واني البستك جنتي من سلطاني لتستكمل بها القوة في أمري أبعثك الى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتي وأمن مكري وغرته الدنيا حتى جحد حقي وأنكر بريتي وانى أقسم بعزتي لولا الحجة والعذر الذي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار ولكن هان علي وسقط من عيني فبلغه عني رسالتي وادعه الى عبادتي وحذره نقمتي وقل له قولا لينا لا يغترن بلباس الدنيا فان ناصيته بيدي لا يطرف ولا ينتفس الا بعلمي في كلام طويل قال فسكت موسى سبعة أيام لا يتكلم ثم جاءه ملك فقال أجب ربك فيما أمرك بعبده ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيرا من أهلي هرون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا انك كنت بنا بصيرا﴾ اعلم أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب الى فرعون وكان ذلك تكليفا شاقا فلا جرم سأل ربه أمورا ثمانية ثم ختمها بما يجري مجرى العلة لسؤال تلك الاشياء (المطلوب الاول) قوله رب اشرح لي صدري * واعلم أنه يقال شرحت الكلام أي بينته وشرحت صدره أي وسعته والاول يقرب منه لان شرح الكلام لا يحصل الا بسطه والسبب في هذا السؤال ما حكى الله تعالى عنه في موضع آخر وهو قوله ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فسأل الله تعالى أن يبدل ذلك الضيق بالسعة وقال رب اشرح لي صدري فافهم عنك ما أنزلت علي من الوحي وقيل شجعني لاجتري به على مخاطبة فرعون ثم الكلام فيه يتعلق بامور (أحدها) فائدة الدعاء وشرائطه (وثانيها) ما السبب في أن الانسان لا بد كم ووقت الدعاء من أسماء الله تعالى الا الرب (وثالثها) ما معنى شرح الصدر (ورابعها) عما ذا يكون شرح الصدر (وخامسها) كيف كان شرح الصدر في حق موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم (وسادسها) صفة صدر موسى عليه السلام هل كان منشرحا أو لم يكن منشرحا فان كان منشرحا فان كان منشرحا كان طلب شرح الصدر تحصيلا للحاصل وهو محال وان لم يكن منشرحا فهو باطل من وجهين (الاول) انه سبحانه بين له فيما تقدم كل ما يتعلق بالاديان من معرفة الربوبية والعبودية وأحوال المعاد وكل ما يتعلق بشرح الصدر في باب الدين فقد حصل ثم انه سبحانه تلطف له بقوله وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ثم كلمه على سبيل الملاطفة بقوله وما تلك بيمينك يا موسى ثم أظهر له المعجزات العظيمة والكرامات الجسيمة ثم أعطاه منصب الرسالة بعد ان كان فقيرا وكل ما يتعلق به الاعزاز والاكرام فقد حصل ولو أن ذرة من هذه المناصب حصلت لاحد من الناس لصار منشرح الصدر فبعد حصولها للكليم الله تعالى يستحيل أن لا يصير منشرح الصدر (والثاني) انه لما لم يصر منشرح الصدر بعد هذه الاشياء لم يجز من الله تعالى تفويض النبوة اليه فان من كان ضيق القلب مشوش الخاطر لا يصلح للقضاء على ما قال عليه السلام لا يقضي القاضي وهو غضبان فكيف يصلح للنبوة التي أقل مراتبها القضاء فهذا مجموع الامور التي لا بد من البحث عنها في هذه الآية (أما البحث الاول) وهو فائدة الدعاء وشرائطه فقد تقدم في تفسير قوله ربنا

(وأمم سنمتعهم) أي ومنهم على انه خبر محذوف لدلالة ما سبق عليه فان ايراد الامم المبارك عليهم المتشعبة منهم نكرة يدل على ان بعض من يتشعب منهم ليسوا على صفتهم يعني ليس جميع من تشعب منهم مسلما ومباركا عليه بل منهم أمم ممتعون في الدنيا معذبون في الآخرة وعلى هذا لا يكون الكائنون مع نوح ٢٤ عليه السلام مسلما ومباركا عليهم صريحا وانما يفهم ذلك من كونهم مع نوح عليه

لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا الا أنه يذكر منها هنا بعض الفوائد المتعلقة بهذا الموضع فنقول * اعلم أن للكمال مراتب ودرجات وأعلاها أن يكون كاملا في ذاته مكملا لغيره أما كونه كاملا في ذاته فكل ما كان كذلك كان كماله من لوازم ذاته وكل ما كان كذلك كان كاملا في الازل ولكنه يستحيل أن يكون مكملا في الازل لان التكميل عبارة عن جعل الشئ كاملا وذلك لا يتحقق الا عند عدم الكمال فانه لو كان حاصلا في الازل لاستحال التأثير فيه فان تحصيل الحاصل محال وتكوين الكائن ممتنع فلا جرم انه سبحانه وان كان كاملا في الازل الا أنه يصير مكملا فيما لا يزال * فان قيل اذا كان التكميل من صفات الكمال بحيث لم يكن مكملا في الازل فقد كان عاريا عن صفات الكمال فيكون ناقصا وهو محال * قلنا النقصان انما يلزم لو كان ذلك ممكنا في الازل لكنا بينا ان الفعل الازلي محال فالتكميل الازلي محال فعدمه لا يكون نقصانا كما أن قولنا انه لا يقدر على تكوين مثل نفسه لا يكون نقصانا لانه غير ممكن الوجود في نفسه وكقولنا انه لا يعلم عددا مفصلا كحركات أهل الجنة لان كل ما له عدد مفصل فهو متناه وحركات أهل الجنة غير متناهية فلا يكون له عدد مفصل فامتنع ذلك لا لقصور في العلم بل لكونه في نفسه ممتنع الحصول اذا ثبت هذا فنقول انه سبحانه وتعالى لما قصد الى التكوين وكان الغرض منه تكميل الناقصين لان الممكنات قابلة للوجود وصفة الوجود صفة كمال فاقتضت قدرة الله تعالى على التكميل وضع مائدة الكمال للممكنات فاجلس على هذه المائدة بعض المعدومات دون البعض لاسباب (أحدها) أن المعدومات غير متناهية فلو أجلس الكل على مائدة الوجود لدخل ما لا نهاية له في الوجود (وثانيها) انه لو أوجد الكل لما بقي بعد ذلك قادرا على الايجاد لان ايجاد الموجود محال فكان ذلك وان كان كمالا للناقص لكنه يقتضي نقصان الكامل فانه ينقلب القادر عن الوجوب والقدرة كمال والايجاب بالطبع نقصان فلهذه الاسباب أخرج بعض الممكنات الى الوجود (فان قيل) عليه سؤالان (أحدهما) ان الموجودات متناهية والمعدومات غير متناهية ولا نسبة للمتناهي الى غير المتناهي فتكون أيضا الاضافة ضائعة للاقل وأما الخرمان فانه عدم لما لا نهاية له وهذا لا يكون وجودا (والثاني) ان البعض الذي خصه بهذه الاضافة ان كان لاستحقاق حصل فيه دون غيره فذلك الاستحقاق ممن حصل وان كان لا لهذا الاستحقاق كان ذلك عبثا وهو محال كما قيل * يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما * وانه لا يليق بأكرم الاكرمين (والجواب) عن الكل ان هذه الشبهات انما تدور في العقول والخيالات لان الانسان يحاول قياس فعله على فعلنا ودلك باطل لانه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون اذا عرفت هذا فنقول الوجود لما أفاض من نور رحمته على جميع الممكنات هو الاضافة العامة والمائدة الشاملة وهو المراد من قوله ورحمتي وسعت كل شئ ثم ان الموجودات انقسمت الى الجمادات والى الحيوانات ولا شك أن الجماد بالنسبة الى الحيوان كالعدم بالنسبة الى الوجود لان الجماد لا خبر عنده من وجوده فوجوده بالنسبة اليه كالعدم وعدمه كالوجود وأما الحيوان فهو الذي يميز بين الموجود والمعدوم ويتفاوتان بالنسبة اليه ولان الجماد بالنسبة الى الحيوان آلة لان الحيوانات تستعمل الجمادات في اغراض أنفسها ومصالحها وهي كالعبد المطيع المسخر والحيوان كالمالك المستولي فكانت الحيوانية أفضل من الجمادية فلما كان احسان الله ورحمته اقتضيا وضع مائدة الوجود لبعض المعدومات دون البعض كذلك اقتضيا وضع مائدة الحياة لبعض الموجودات دون البعض فلا جرم جعل بعض الموجودات أحياء دون البعض والحياة بالنسبة الى الجمادية كالنور بالنسبة الى الظلمة والبصر بالنسبة الى العمى والوجود بالنسبة

الصلاة والسلام ومن كون ذرياتهم كذلك بدلالة النص ويجوز أن تكون من بيانية أي وعلى أمم هم الذين معك وانما سموا أمما لانهم أمم متحيزة وجماعات متفرقة أو لان جميع الامم انما تشعبت منهم فحينئذ يكون المراد بالامم المشار اليهم في قوله تعالى وأمم سنمتعهم بعض الامم المتشعبة منهم وهي الامم الكافرة المتناسلة الى يوم القيامة ويبقى أمر الامم المؤمنة الناشئة منهم مهما غير متعرض له ولا مدلول عليه ومع ذلك ففي دلالة المذكور على خبره المحذوف خفاء لان من المذكورة بيانية والمحذوفة تبعيضية أو ابتدائية فتأمل (ثم يمسهم) أماتي الآخرة أو في الدنيا أيضا (منا عذاب أليم) عن محمد بن كعب القرظي دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وعن ابن زيد هبطوا والله منها راض ثم أخرج منهم نسلا منهم من رحم ومنهم من عذب وقيل المراد بالامم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام وبالعذاب ما نزل بهم (تلك) اشارة الى ما قص من قصة نوح عليه الصلاة والسلام اما لكونها بتقضيها في حكم البعيد أو للدلالة على بعد منزلتها وهي مبتدأ خبره (من أنباء الغيب) أي من جنسها أي ليست من قبيل سائر الانباء بل هي نبأ وحدها منفردة عما عداها أو بعضها (نوحيها اليك) خبر ثان

والضمير لها أي موحاة اليك أو والخبر ومن أنبائه متعلق به فالتعبير تصيغة المضارع لاستحضار الصورة أو حال من أنباء الغيب أي موحاة اليك (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك) خبر آخر أي مجهولة عندك وعند قومك (من قبل هذا) أي من قبل ايحائنا اليك واخبارك بها أو من قبل هذا العلم الذي كسيته بالوحي أو من قبل هذا الوقت ٢٥ أو حال من الهاء في نوحيها أو الكاف في اليك أي جاهلا أنت وقومك بها وفي ذكر جهلهم تنبيه على أنه عليه الصلاة والسلام لم يعلمه أذلم يخالط غيرهم وأنهم مع كثرتهم لما لم يعلموه فكيف بواحد منهم (فاصبر) متفرع على الايحاء أو العلم المستفاد منه المدلول عليه بقوله ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا أي واذ قد أوحينا ها اليك أو علمناك بذلك فاصبر على مشاق تبليغ الرسالة وأذية قومك كما صبر نوح على ما سمعته من أنواع البلايا في هذه المدة المتطاولة وهذا ناظر الى ما سبق من قوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك الخ (ان العاقبة) بالظفر في الدنيا وبالفوز في الآخرة (للمتقين) كما شاهدته في نوح عليه الصلاة والسلام وقومه ولك فيه أسوة حسنة فهي تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليل للأمر بالصبر فان كون العاقبة الحميدة للمتقين وهو في أقصى درجات التقوى والمؤمنون كلهم

الى العدم فعند ذلك صار بعض الموجودات حيا مدركا للملائم والمنافي واللذة والالم والخير والشر فمن ثم قالت الاحياء عند ذلك يارب الارباب انا وان وجدنا خلعة الوجود وخلعة الحياة وشرفتنا بذلك لكن ازدادت الحاجة لنا حال العدم وحال الجماد عما كنا نحتاج الى الملائم والمرافق وما كنا نخاف المنافي والمؤذي ولما حصل الوجود والحياة احتجنا الى طلب الملائم ودفع المنافي فان لم تمكن لنا قدرة على الهرب والطلب والدفع والجذب لبقينا كالزمن الملقى على الطريق عرضة للآفات وهدفا لسهام البليات فأعطنا من خزائن رحمتك القدرة والقوة التي بها نتمكن من الطلب تارة والهرب أخرى فاقتضت الرحمة التامة تخصيص بعض الاحياء بالقدرة كما اقتضت تخصيص بعض الموجودات بالحياة وتخصيص بعض المعدومات بالوجود فقال القادرون عند ذلك الهنا الجواد الكريم ان الحياة والقدرة بلا عقل لا تمكون الا لاحد القسمين اما للحيوانين المقيدين بالسلاسل والاغلال واما للبهائم المستعملة في حمل الاثقال وكل ذلك من صفات النقصان وأنت قد رقيتنا من حضيض النقصان الى أوج الكمال فأفض علينا من العقل الذي هو أشرف محلوقاتك وأعز مبدعاتك الذي شرفته بقولك لك أهين ولك أثيب ولك أعاقب حتى نفوز من خزائن رحمتك بالخلع الكاملة والفضيلة التامة فأعطاهم العقل وبعث في أرواحهم نور البصيرة وجوهر الهداية فعند هذه الدرجة فازوا بالخلع الاربعة الوجود والحياة والقدرة والعقل وهو أشمل خاتم الكل والخاتم يجب أن يكون أفضل الاتري ان رسولنا صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم النبيين كان أفضل الانبياء عليهم الصلاة والسلام والانسان لما كان خاتم المخلوقات الجسمانية كان أفضلها فكذلك العقل لما كان خاتم الخلع الفائضة من حضرة ذي الجلال كان أفضل الخلع واكملها ثم نظر العقل في نفسه فرأى نفسه كالجفنة المملوءة من الجواهر النفيسة بل كانها سماء مملوءة من الكواكب الزاهرة وهي العلوم الضرورية البديهية المركوزة في بدائه العقول وصرائح الاذهان وكما أن الكواكب المركوزة في السموات علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر فكذلك الجواهر المركوزة في سماء العقل كواكب زاهرة يهتدى بها السائرون في ظلمات عالم الاجسام الى أنوار العالم الروحانية وقبة السموات وأضواؤها فلما نظر العقل الى تلك الكواكب الزاهرة والجواهر الباهرة رأى رقم الحدوث على تلك الجواهر وعلى جميع تلك الخلع فاستدل بتلك الارقام على رقم وبتلك النقوش على ناقش وعند ذلك عرف ان النقاش بخلاف النقش والباني بخلاف البناء فانفتح له من أعلى سماء عالم المحدثات روازن الى أضواء لوائح عالم القدم وطالع عالم الازلية والجلال وكان العقل انف نظر الى أضواء عالم الازلية من ظلمات عالم الحدوث والامكان فغلبته دهشة أنوار الازلية فعميت عيناه فبقي متحيرا فالتجأ بطبعه الى مفيض الانوار فقال رب اشرح لي صدري فان البحار عميقة والظلمات متكاثفة وفي الطريق قطاع من الاعداء الداخلة والخارجة وشياطين الانس والجن كثيرة فان لم تشرح لي صدري ولم تمكن لي عونا في كل الامور انقطعت وصارت هذه الخلع سببا للنيل الآفات لا للفوز بالدرجات فهذا هو المراد من قوله رب اشرح لي صدري ثم قال ويسر لي أمري وذلك لان كل ما يصدر من العبد من الافعال والاقوال والحركات والسكنات فالعالم بصير مريد له استحال أن يشير فاعلا له فهذه الارادة صفة محدثة ولا بد لها من فاعل وفاعلها ان كان هو العبد افتقر في تحصيل تلك الارادة الى ارادة أخرى ولزم التسلسل بل لا بد من الانتهاء الى ارادة يخلقها مدبر العالم فتكون في الحقيقة هو الميسر للامور وهو المتمم لجميع الاشياء وتمام التحقيق ان حدوث الصفة لا بد له من قابل وفاعل فعبر عن استعداد القابل بقوله رب اشرح لي صدري

متقون مما يسلبه عليه الصلاة والسلام ويهون عليه الخطوب ويذهب عنه ما عسى يعتريه من ضيق صدره وهذا على تقدير أن يراد بالتقوى الدرجة الاولى منه أعني التوقي من العذاب المخلد بالتبرؤ من الشرك وعليه قوله تعالى والزمهم كلمة التقوى ويجوز أن يراد الدرجة الثالثة منه وهي أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل اليه بشراشره وهو التقوى الحقيقي المطلوب

بقوله تعالى اتقوا الله حق تقاته فان التقوى بهذا المعنى منطوى على الصبر المذكور فكانه قيل فاصبروا فان العاقبة للصابرين (والى عاد) متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى أرسلنا فى قصة نوح وهو الناصب لقوله تعالى (أخاهم) اى وأرسلنا الى عاد أخاهم أى واحدا منهم فى النسب كقولهم يا أخا العرب ٢٦ وتقديم المجرور على المنصوب ههنا للحذار عن الاضمار قبل الذكر وقبل متعلق بالفعل المذكور فيما سبق وأخاهم معطوف على نوحا وقد مر فى سورة الاعراف وقوله تعالى (هودا) عطف بيان لاخاهم وكان عليه الصلاة والسلام من جلتهم فانه هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود ابن الغوص بن ارم بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام وقيل هود بن شالخ بن ارخشد ابن سام بن نوح ابن عم أبى عاد وانما جعل منهم لانهم أفهم لكلامه وأعرف بحاله وأرغب فى اقتفائه (قال) لما كان ذكر ارساله عليه الصلاة والسلام اليهم مظنة للسؤال عما قال لهم ودعاهم اليه أجيب عنه بطريق الاستئناف فقيل قال (ياقوم اعبدوا الله) أى وحدوه كما ينبئ عنه قوله تعالى (ما لكم من اله غيره) فانه استئناف يجرى مجرى البيان للعبادة المأمور بها والتعليل للامر بها كانه قيل خصوه بالعبادة ولا تشركوا به شيأ اذ ليس لكم من اله سواه وغيره بالرفع صفة لاله باعتبار محله وقرئ بالجر حملا له على لفظه (ان أنتم) ما أنتم باتخاذكم الاصنام شركاء له (الا مفترون) عليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا (ياقوم لا أسألكم عليه أجرا ان أجرى الا على الذى فطرنى) خاطب به كل نبى قومه ازاحة لما عسى يتوهمونه واحتاضا للنصيحة فانها ما دامت مشوبة بالمطامع تعزل عن التأثير وايراد الموصول للتفخيم وجعل الصلة فعل

وعبر عن حصول الفاعل بقوله و يسرلى أمرى وفيه التنبيه على أنه سبحانه وتعالى هو الذى يعطى القابل قابليته والفاعل فاعليته ولهذا كان السلف رضى الله عنهم يقولون يامبتدئا بالنعم قبل استحقاقها ومجموع هذين الكلامين كالبرهان القاطع على ان جميع الحوادث فى هذا العالم واقعة بقضائه وقدره وحكمته وقدرته ويمكن أن يقال أيضا كأن موسى عليه السلام قال الهى لا أكتفى بشرح الصدر ولكن أطلب منك تنفيذ الامر وتحصيل الغرض فلهذا قال ويسرلى أمرى أو يقال انه سبحانه وتعالى لما أعطاه الخلع الاربع وهى الوجود والحياة والقدرة والعقل فكأنه قال له ياموسى أعطيتك هذه الخلع الاربع فلابد فى مقابلتها من خدمات أربع لتقابل كل نعمة بخدمة فقال موسى عليه السلام ما لك الخدمات فقال وأقم الصلاة لذكرى فان فيها أنواعا أربعة من الخدمة القيام والقراءة والركوع والسجود فاذا أتيت بالصلاة فقد قابلت كل نعمة بخدمة ثم انه تعالى لما أعطاه الخلعة الخامسة وهى خلعة الرسالة قال رب اشرح لى صدرى حتى أعرف أنى بأى خدمة أقابل هذه النعمة فقيل له بأن تجتهد فى أداء هذه الرسالة على الوجه المطلوب فقال موسى يارب ان هذا لا يتأتى منى مع عجزى وضعفى وقلة آلاتى وقوتى بحصى فاشرح لى صدرى و يسرلى أمرى ﴿الفصل الثانى فى قوله رب اشرح لى صدرى﴾ اعلم ان الدعاء سبب القرب من الله تعالى وانما اشتغل موسى بهذا الدعاء طلبا للقرب فنفتقر الى بيان أمرين الى بيان ان الدعاء سبب القرب ثم الى بيان أن موسى عليه السلام طلب القرب بهذا الدعاء أما بيان ان الدعاء سبب القرب فيدل عليه وجوه (الاول) ان الله تعالى ذكر السؤال والجواب فى كتابه فى عدة مواضع منها أصولية ومنها فروعية ﴿أما الاصولية (فأولها) فى البقرة يسئلونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج (وثانيها) فى بنى اسرائيل و يسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى (وثالثها) و يسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا (ورابعها) و يسئلونك عن الساعة أيان مرساها﴾ وأما الفروعية فستة منها فى البقرة على التوالى (أحدها) يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والاقربين (وثانيها) يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير (وثالثها) يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير (ورابعها) و يسئلونك ماذا ينفقون قل العفو (وخامسها) و يسئلونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير (وسادسها) و يسئلونك عن المحيض قل هو أذى (وسابعها) يسئلونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول (وثامنها) و يسئلونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا (وتاسعها) و يستنبئونك أحق هو قل اى و ربى انه لحق (وعاشرها) يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة (والحادية عشرة) واذا سألك عبادى عنى فانى قريب اذا عرفت هذا فنقول جاءت هذه الاسئلة والاجوبة على صور مختلفة فالاغلب فيها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر السؤال قال لمحمد صلى الله عليه وسلم قل وفى صورة أخرى جاء الجواب بصيغة قل مع فاء التعقيب وفى صورة ثالثة ذكر السؤال ولم يذكر الجواب وهو قوله تعالى يسئلونك عن الساعة أيان مرساها وفى صورة رابعة ذكر الجواب ولم يذكر فيه لفظ قل ولا لفظ فقل وهو قوله تعالى واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ولابد لهذه الاشياء من الفائدة فنقول ﴿أما الاجوبة الواردة بلفظ قل﴾ فلا اشكال فيها لان قوله تعالى قل كالتوقيع المحدد فى ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكالتشريف المحدد فى كونه مخاطبا من الله تعالى باداء الوحى والتبليغ ﴿وأما الصورة الثانية﴾ وهى قوله فقل ينسفها ربى نسفا فالسبب ان قوله و يسئلونك عن الجبال سؤال اما عن قدمها أو عن وجوب بقائها وهذه المسئلة من أمهات مسائل أصول الدين فلاجرم أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ان يجيب بلفظ الفاء

الفطرة لكونه أقدم النعم الفائضة من جناب الله تعالى المستوجبة للشكر الذى لا يتأتى الا بالجريان على موجب أمره الغالب معرضا عن المطالب الدنيوية التى من جملتها الاجر (أفلا تعقلون) أى أتغفلون عن هذه القضية أو الا تتفكرون فيها فلا تعقلونها أو تتعقلون كل شئ فلا تعقلون شيأ أصلا فان هذا مما لا ينبغى أن يخفى على أحد من العقلاء ٤٧ (ويا قوم استغفروا ربكم) أى اطلبوا مغفرته لما سلف منكم من الذنوب بالايمان والطاعة (ثم توبوا اليه) أى توسلوا اليه بالتوبة وايضا التبرؤ من الغير انما يكون بعد الايمان بالله تعالى والرغبة فيما عنده (يرسل السماء) أى المطر (عليكم مدرارا) أى كثير الدرور (ويزدكم قوة) مضافة ومنضمة (الى قوتكم) أى يضاعفها لكم وانما رغبهم بكثرة المطر لانهم كانوا أصحاب زروع وعمارات وقبل حبس الله تعالى عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين فوعدهم عليه الصلاة والسلام كثرة الامطار وتضاعف القوة بالتناسل على الايمان والتوبة (ولا تتولوا) أى لا تعرضوا عما دعوتكم اليه (مجرمين) مصرين على ما كنتم عليه من الاجرام (قالوا ياهود ما جئتنا ببينة) أى بحجة تدل على صحة دعواك وانما قالوه لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من البينات الفائقة للحصر (وما نحن بتاركى آلهتنا) أى بتاركى عبادتها (عن قولك) أى صادرين عنه أى صادرا تركنا من ذلك باسناد حال الوصف الى الموصوف ومعناه التعليل على أبلغ وجه لدلالته على كونه علة فاعلية ولا يفيده الباء واللام وهذا كقولهم المنقول عنهم فى سورة الاعراف أحنتنا لتعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا (وما نحن لك بمؤمنين) أى بمصدقين فى شئ مما تأتى وتذر فيندرج تحته ما دعاهم اليه من التوحيد وترك عبادة الاصنام وفيه من الدلالة على شدة الشكيمة

الفاء المفيد للتعقيب كأنه سبحانه قال يا محمد أجب عن هذا السؤال فى الحال ولا تقتصر فان الشك فيه كفر ولا تمهل هذا الامر ثلاثة يقع فى الشك والشبهة ثم كيفية الجواب انه قال فقل بنفسها ربى نسفا ولا شك ان النسف ممكن لانه يمكن فى حق كل جزء من أجزاء الجبل والحس يدل عليه فوجب أن يكون ممكنا فى حق كل الجبل وذلك يدل على انه ليس بقديم ولا واجب الوجود لان القديم لا يجوز عليه التغير والنسف فان قيل انهم قالوا أخبرنا عن الله أهو ذهب أو فضة أو حديد فقال قل هو الله أحد ولم يقل فقل هو الله أحد مع ان هذه المسئلة من المهمات قلنا انه تعالى لم يحك فى هذا الموضع سؤالهم وحرف الفاء من الحروف العاطفة فيستدعى سبق الكلام فلما لم يوجد ترك الفاء بخلاف ههنا فانه تعالى حكى سؤالهم فحسن عطف الجواب عليه بحرف الفاء (وأما الصورة الثالثة) فانه تعالى لم يذكر الجواب فى قوله يسئلونك عن الساعة أيان مرساها فالحكمة فيه ان معرفة وقت الساعة تحلى التعيين مشتملة على المفاسد التى شرحناها فيما سبق فلهذا لم يذكر الله تعالى ذلك الجواب وذلك يدل على ان من الاسئلة ما الاجحاب عنها (وأما الصورة الرابعة) وهى قوله فانى قريب ولم يذكر فى جوابه قل ففيه وجوه (أحدها) ان ذلك يدل على تعظيم حال الدعاء وانه من أعظم العبادات فكأنه سبحانه قال يا عبدى أنت انما تحتاج الى الواسطة فى غير الدعاء أما فى مقام الدعاء فلا واسطة بينى وبينك يدل عليه أن كل قصة وقعت لم تكن معرفتها من المهمات قال لرسوله صلى الله عليه وسلم اذكر لهم تلك القصة كقوله تعالى واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها واذكر فى الكتاب موسى واذكر فى الكتاب اسمعيل واذكر فى الكتاب ادريس ونبئهم عن ضيف ابراهيم ثم قال فى قصة يوسف نحن نقص عليك أحسن القصص وفى أصحاب الكهف نحن نقص عليك نبأهم بالحق وماذاك الا لما فى هاتين القصتين من العجائب والغرائب والحاصل كانه سبحانه وتعالى قال يا محمد اذا سئلت عن غيرى فكن أنت المجيب واذا سئلت عنى فاسكت حتى أكون أنا القائل (وثانيها) ان قوله واذا سألك عبادى عنى يدل على ان العبد لله وقوله فانى قريب يدل على ان الرب قريب من العبد (وثالثها) لم يقل فالعبد منى قريب بل قال أنا منه قريب وهذا فيه سر نفيس فان العبد ممكن الوجود فهو من حيث هو هو فى مركز العدم وحضيض الفناء فكيف يكون قريبا بل القريب هو الحق سبحانه وتعالى فانه بفضله واحسانه جعله موجودا وقربه من نفسه فالقريب منه لا من العبد فلهذا قال فانى قريب (ورابعها) ان الداعى مادام يبقى خاطره مشغولا بغير الله تعالى فانه لا يكون داعيا لله تعالى فاذا فنى عن الكل وصار مستغرقا بمعرفة الله الاحد الحق أمتنع أن يبقى فى مقام الفناء عن غير الله مع الالتفات الى غير الله تعالى فلا جرم رفعت الواسطة من البين فلما قال انى قريب بل قال فانى قريب فثبت بما تقرر فضل الدعاء وانه من أعظم القربات ثم من شأن العبد اذا أراد أن يتحف مولاه ان لا يتحفه الا بأحسن التحف والهدايا فلا جرم أول ما أراد موسى ان يتحف الحضرة الالهية بتحف الطاعات والعبادات اتحفها بالدعاء فلا جرم قال رب اشرح لى صدرى (والوجه الثانى) فى بيان فضل الدعاء قوله عليه السلام الدعاء مخ العبادة ثم ان أول شئ أمر الله تعالى به موسى عليه السلام العبادة لان قوله انى أنا الله اخبار وليس بأمر انما الامر قوله فاعبدنى فلما كان أول ما أورد على موسى من الاوامر هو الامر بالعبادة لا جرم أول ما اتحف به موسى عليه السلام حضرة الربوبية من تحف العبادة هو تحفة الدعاء فقال رب اشرح لى صدرى (والوجه الثالث) وهو ان الدعاء نوع من أنواع العبادة فكما انه سبحانه وتعالى أمر بالصلاة والصوم فكذلك أمر بالدعاء وبدل عليه قوله تعالى واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب وقال ربكم ادعونى أستجب لكم

وتجاوز الحد فى العتو ما لا يخفى (ان نقول الا اعتراك) أى ما نقول الا قولنا اعتراك أى أصابك (بعض آلهتنا بسوء) بجنون لسبك اياها وصدك عن عبادتها وسلطك لها عن رتبة الالوهية والمعبودية بما مر من قولك ما لكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون والتنكير فى سوء للتقليل كأنهم لم يبالغوا فى السوء كما ينبئ عنه نسبة ذلك الى بعض آلهتهم دون كلها واجابة مقول القول والا لغو لان الاستثناء

مفرغ وهذا الكلام مقرر لما مر من قولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين فان اعتقادهم ذلك يوجب عدم الاعتداد بقوله وعده من قبيل الخرافات فضلا عن التصديق والعمل بمقتضاه يعنون انا لا نعتد كلامك الا من قبيل ما لا يحتمل الصدق والكذب من الهذيانات الصادرة عن المجانين فكيف نصدقه ونؤمن به ونعمل بموجبه ولقد سلكوا فى طريقة المخالفة والعناد الى سبيل الترقى من الادنى الى الاعلى حيث أخبروا أولا عن عدم مجيئه بالبينة مع احتمال كون ما جاء به عليه الصلاة والسلام حجة فى نفسه وان لم تكن واضحة الدلالة على المراد وثانيا عن ترك الامتثال بقوله عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك مع امكان تحقق ذلك بتصديقهم له عليه الصلاة والسلام فى كلامه ثم نفوا تصديقهم له عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن لك بمؤمنين مع كون كلامه عليه الصلاة والسلام مما يقبل التصديق فيتبعون ثم نفوا عنه تلك المرتبة أيضا حيث قالوا ما نقول الا قالوا نلهم الله أنى يؤفكون (قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه) أى من اشراككم من دون الله أى من غير أن ينزل به سلطانا كما قال فى سورة الاعراف أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل

وادعوه خوفا وطمعا ادعوا ربكم تضرعا وخفية هو الذى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة وقال صلى الله عليه وسلم ادعوا بايذاء الجلال والاكرام فبهذه الآيات عرفنا أن الدعاء عبادة قال بعض الجهال الدعاء على خلاف العقل من وجوه (أحدها) انه علام الغيوب يعلم ما فى الانفس وما تخفى الصدور فأى حاجة بنا الى الدعاء (وثانيها) ان المطلوب ان كان معلوم الوقوع فلا حاجة الى الدعاء وان كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه (وثالثها) الدعاء يشبه الامر والنهى وذلك من العبد فى حق المولى سوء أدب (ورابعها) المطلوب بالدعاء ان كان من المصالح فالحكيم لا يهمله وان لم يكن من المصالح لم يجز طلبه (وخامسها) فقد دعاء ان أعظم مقامات الصديقين الرضا بقضاء الله تعالى وقد يندب اليه والدعاء ينافى ذلك لانه اشتغال بالالتماس والطلب (وسادسها) قال عليه السلام رواية عن الله تعالى من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين فدل على ان الاولى ترك الدعاء والآيات التى ذكرتموها تقتضى وجوب الدعاء (وسابعها) ان ابراهيم عليه السلام لما ترك الدعاء اكتفى بقوله حسبى من سؤالى علمه بحالى استحقى المدح العظيم فدل على أن الاولى ترك الدعاء (والجواب عن الاول) انه ليس الغرض من الدعاء الاعلام بل وقوع تضرع كسائر التضرعات (وعن الثانى) انه يجرى مجرى أن نقول للجائع والعطشان ان كان الشبع معلوم الوقوع فلا حاجة الى الاكل والشرب وان كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه (وعن الثالث) ان الصيغة وان كانت صيغة الامر الا ان صورة التضرع والخشوع تصرفه عن ذلك (وعن الرابع) يجوز أن يصير مصلحة بشرط سبق الدعاء (وعن الخامس) انه اذا دعا ظهر التضرع ثم رضى بما قدره الله تعالى فذاك أعظم المقامات وهو الجواب عن البقية اذا ثبت انه من العبادات ثم انه تعالى أمر به العبادة وبالصلاة أمرا ورد مجملا لا جرم نتبع فى أجمل العبادات وهو الدعاء ﴿الوجه الرابع﴾ فى فضل الدعاء انه سبحانه لم يقتصر فى بيان فضل الدعاء على الامر به بل بين فى آية أخرى انه يغضب اذا لم يسئل فقال فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون وقال عليه السلام لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لى ان شئت ولكن يجزم فيقول اللهم اغفر لى فلهذا السر جزم موسى عليه السلام بالدعاء وقال رب اشرح لى صدرى ﴿الوجه الخامس﴾ فى فضل الدعاء قوله تعالى وقال ربكم ادعونى أستجب لكم وفيه كرامة عظيمة لأمتنا لان بنى اسرائيل فضلهم الله تفضيلا عظيما فقال فى حقهم وانى فضلتكم على العالمين وقال أيضا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين ثم مع هذه الدرجة العظيمة قالوا لموسى عليه السلام ادع لنا ربك يبين لنا ما هى وان الحوار بين مع جلالتهم فى قولهم نحن أنصار الله سألوا عيسى عليه السلام أن يسأل لهم مائدة تنزل من السماء ثم انه سبحانه وتعالى رفع هذه الواسطة فى أمتنا فقال مخاطبا لهم من غير واسطة ادعونى أستجب لكم وقال واسألوا الله من فضله فلهذا السبب لما حصلت هذه الفضيلة لهذه الامة وكان موسى عليه السلام قد عرفها لا جرم قال اللهم اجعلنى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلا جرم رفع يديه ابتداء فقال رب اشرح لى صدرى واعلم أنه تعالى قال واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ثم انه تعالى جعل العباد على سبعة أقسام (أحدها) عبد العصمة ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وموسى عليه السلام كان مخصوصا بمزيد العصمة واصطنعتك لنفسى فلا جرم طلب زوائد العصمة فقال رب اشرح لى صدرى (وثانيها) عبد الصفوة وسلام على عباده الذين اصطفى وموسى عليه السلام كان مخصوصا بمزيد الصفوة يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فلا جرم أراد مزيد الصفوة فقال رب اشرح لى صدرى (وثالثها) عبد البشارة فبشر عبادى الذين يستمعون القول

الله بهما من سلطان أو مما تشركونه من آلهة غير الله أجاب بما عن مقالتهم الحمقاء المبنية على اعتقاد كون آلهتهم مما ضرا وينفع وانها بمعزل من ذلك ولما كان ماوقع أولا منه عليه الصلاة والسلام فى حق آلهتهم من كونها بمعزل عن الالوهية انما وقع فى ضمن الامر بعبادة الله تعالى واختصاصه بها وقد شق عليهم ذلك وعدوه مما يورث شينا حتى زعموا أنها تعيبه عليه الصلاة والسلام وسوء مجازاة

فيتبعون أحسنه وكان موسى عليه السلام مخصوصا بذلك وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى فاراد مزيد البشارة فقال رب اشرح لى صدرى (ورابعها) عبد الكرامة ياعبادى لاخوف عليكم وموسى عليه السلام كان مخصوصا بذلك لانخافانى معكما فاراد الزيادة عليها فقال رب اشرح لى صدرى (وخامسها) عبد المغفرة نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وكان موسى عليه السلام مخصوصا بذلك رب اغفر لى فغفر له فاراد الزيادة فقال رب اشرح لى صدرى (وسادسها) عبد الخدمة اعبدوا ربكم وموسى عليه السلام كان مخصوصا بذلك واصطنعتك لنفسى فطلب الزيادة فيها فقال رب اشرح لى صدرى (وسابعها) عبد القربة واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعانى وموسى عليه السلام كان مخصوصا بالقرب وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا فاراد كمال القرب فقال رب اشرح لى صدرى (الفصل الثالث) فى قوله رب اشرح لى صدرى وفيه وجوه (أحدها) أنه تعالى لما خاطبه بالاشياء الستة (أحدها) معرفة التوحيد انى أنا الله لا اله الا أنا (وثانيها) أمره بالعبادة والصلاة فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى (وثالثها) معرفة الآخرة ان الساعة آتية (ورابعها) حكمة أفعاله فى الدنيا وما ثالث بيمينك ياموسى (وخامسها) عرض المعجزات الباهرة عليه لتريك من آياتنا الكبرى (وسادسها) ارساله الى أعظم الناس كفرا وعتوا فكانت هذه التكاليف الشاقة سببا للقهر فاراد موسى عليه السلام جبر هذا القهر بالمعجزة فعرفه ان كل من سأله قرب منه فقال رب اشرح لى صدرى فاراد جبر القهر الحاصل من هذه التكاليف بالقرب منه فقال رب اشرح لى صدرى أو يقال خاف شياطين الانس والجن فيدعا بالصل بسبب الدعاء الى مقام القرب فيصير مأمونا من غوائل شياطين الجن والانس (وثانيها) ان المراد أنه أراد الذهاب الى فرعون وقومه فاراد أن يقطع طمع الخلق عن نفسه بالكلية فعرف ان من دعا ربه لدبه فحينئذ تنقطع الاطماع بالكلية فقال رب اشرح لى صدرى (وثالثها) الوجود كالنور والعدم كالظلمة وكل ماسوى الله تعالى فهو عدم محض فكل شئ هالك الا وجهه فالكل كانهم فى ظلمات العدم واطلال عالم الاجسام والامكان فقال رب اشرح لى صدرى حتى يجلس قلبى فى بهمى ضوء المعرفة ويوساوس شرح الصدر والجالس فى الضوء لايرى من كان جالسا فى الظلمة فحين جلس فى ضوء شرح الصدر لايرى أحدا فى الوجود فلهذا عقبه بقوله ويسرلى أمرى فان العبد فى مقام الاستغراق لايتفرغ لشئ من المهمات (ورابعها) رب اشرح لى صدرى فان عين العقل ضعيفة فأطلع يالهى شمس التوفيق حتى أرى كل شئ كما هو وهذا فى معنى قول محمد صلى الله عليه وسلم أرنا الاشياء كما هى واعلم أن شرح الصدر مقدمة لسطوع الانوار الالهية فى القلب والاستماع مقدمة الفهم الحاصل من سماع الكلام فالله تعالى أعطى موسى عليه السلام المقدمة الثانية وهى قوله فاستمع لما يوحى فلا جرم نسخ موسى على ذلك المنوال فطلب المقدمة الاخرى فقال رب اشرح لى صدرى ولما آل الامر الى محمد صلى الله عليه وسلم قيل له وقل رب زدنى علما والعلم هو المقصود فلما كان موسى عليه السلام كالمقدمة لمقدم محمد صلى الله عليه وسلم لاجرم أعطى المقدمة ولما كان محمد كالمقصود لاجرم أعطى المقصود فسبحانه ما أدق حكمته فى كل شئ (وسادسها) الداعى له صفتان (احداهما) أن يكون عبدا للرب واذا سألك عبادى عنى فانى قريب (وثانيهما) أن يكون الرب له وقال ربكم ادعونى أستجب لكم أضاف نفسه الينا وما أضافنا الى نفسه والمشتغل بالدعاء قد صار كاملا من هذين الوجهين فاراد موسى عليه السلام أن يرتع فى هذا البستان فقال رب اشرح لى صدرى (وسابعها) ان موسى عليه السلام شرفه الله تعالى بقوله وقربناه نجيا فكأن موسى عليه السلام قال الهى لما قلت وقربناه نجيا عرت قريبا منك

الضمير والجمع الكثير من عتاة عاد الغلاظ الشداد وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقرهم وآلهتهم وهيجهم على مباشرة مبادى المضادة والمضارة وحثهم على التصدى لأسباب المماتة والمهارة فلم يقدروا على مباشرة شئ مما كانوا عزموا وظهر بعجزهم عن ذلك ظهورا بينا كيف لا وقد التجأ الى ركن منيع رفيع واعتصم بحبل متين حيث قال (انى توكلت على الله ربى وربكم) يعنى انكم وان بذلتم فى مضارتى

اصنيعه معها صرح عليه الصلاة والسلام بالحق وصدع به حيث أخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسمية المصدرة بان وأشهد الله على ذلك وأمرهم بأن يسمعوا ذلك ويشهدوا به استهانة بهم ثم أمرهم بالاجتماع والاحتشاد مع آلهتهم جميعا دون بعض منها حسبما يشعر به قولهم بعض آلهتنا والتعاون فى ايصال الكيد اليه عليه الصلاة والسلام ونهاهم عن الانظار والامهال فى ذلك فقال (فكيدون جميعا ثم لاتنظرون) أى ان صح مالوحى به من كون آلهتكم مما يقدر على اضرار من ينال منها ويصدعن عبادتها ولو بطريق ضمنى فانى برئ منها فكونوا أنتم معها جميعا وباشروا كيدى ثم لاتمهلونى ولا تسامحونى فى ذلك فالقاء التفريع الامر على زعمهم فى قدرة آلهتهم على ماقالوا وعلى البراءة كليهما وهذا من أعظم المعجزات فانه عليه الصلاة والسلام كان رجلا مفردا بين الجم

مجهودكم لا تقدرون على شئ مما تريدون لى فانى متوكل على الله تعالى واعلم ايها الحافظ لما مضى لكونه أدل على الانشاء المناسب للمقام وواثق بكلاءتى وحفظى عن عوائلكم وهوما لكى وما لكم لا يصدر عنكم شئ ولا يصيبنى أمر الا بارادته ومشيئته ثم برهن عليه بقوله (ما من دابة الا وهو آخذ بناصيتها) أى الا هو مالك لها قادر عليم ببصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه فان الاخذ بالناصية تمثيل

ولكن أريد قربك منى فقال يا موسى أما سمعت قولى واذا سألك عبادى عنى فانى قريب فاشتغل بالدعاء حتى أصير قريبا منك فعند ذلك قال رب اشرح لى صدرى (وثانيها) قال موسى عليه السلام رب اشرح لى صدرى وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم ألم نشرح لك صدرك ثم انه تعالى ما تركه على هذه الحالة بل قال وسراجا منيرا فانظر الى التفاوت فان شرح الصدر هو أن يصير الصدر قابلا للنور والسراج المنير هو أن يعطى النور فالتفاوت بين موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم كالتفاوت بين الآخذ والمعطى ثم نقول الجنان دينها وهو كلمة لا اله الا الله نور والوضوء نور والصلاة نور والصبر نور والجنة نور فبقى أنوارك التى أعطيتك فى الدنيا لا تخرمنا أنوار فضائلك واحسانك يوم القيامة (الفصل الرابع فى قوله رب اشرح لى صدرى) سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال نور يقذف فى القلب فقيل وما أمارته فقال التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل النزول وبدل على ان شرح الصدر عبارة عن النور قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه واعلم أن الله تعالى ذكر عشرة أشياء ووصفها بالنور (أحدها) وصف ذاته بالنور الله نور السموات والارض (وثانيها) الرسول قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين (وثالثها) القرآن واتبعوا النور الذى أنزل معه (ورابعها) الايمان يزيدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم (وخامسها) عدل الله وأشرقت الارض بنور ربها (وسادسها) ضياء القمر وجعل القمر فيهن نورا (وسابعها) النهار وجعل الظلمات والنور (وثامنها) البينات انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور (وتاسعها) الانبياء نور على نور (وعاشرها) المعرفة مثل نوره كمشكاة فيها مصباح اذا ثبت هذا فنقول كان موسى عليه السلام قال رب اشرح لى صدرى بمعرفة أنوار جلالك وعظمتك (وثانيها) رب اشرح لى صدرى بالانقطاع بأخلاق رسلك وأنبيائك (وثالثها) رب اشرح لى صدرى باتباع وحيك واهتمثال أمرك ونهيك (ورابعها) رب اشرح لى صدرى بنور الايمان واليقان بالهيبتك (وخامسها) رب اشرح لى صدرى بالاطلاع على أسرار عدلك فى قضائك وحكمك (وسادسها) رب اشرح لى صدرى بالانتقال من نور شمسك وقمرك الى أنوار جلال عزتك كما فعله ابراهيم عليه السلام حيث انتقل من الكوكب والقمر والشمس الى حضرة العزة (وسابعها) رب اشرح لى صدرى من مطالعة نهارك وليلك الى مطالعة نهار فضلك وليل عدلك (وثامنها) رب اشرح لى صدرى بالاطلاع على مجامع آياتك ومعاقد بيناتك فى أرضك وسمواتك (وتاسعها) رب اشرح لى صدرى فى أن أكون خلف صور الانبياء المتقدمين ومشبهها بهم فى الانقياد لحكم رب العالمين (وعاشرها) رب اشرح لى صدرى بأن تجعل سراج الايمان فى قلبى كالمشكاة التى فيها المصباح واعلم أن شرح الصدر عبارة عن ايقاد النور فى القلب حتى يصير القلب كالسراج وذلك النور كالنار ومعلوم أن من أراد أن يستوقد سراجا احتاج الى سبعة أشياء زند وحجر وحراق وكبريت ومسرجة وفتيلة ودهن فالعبد اذا طلب النور الذى هو شرح الصدر افتقر الى هذه السبعة (فأولها) لابد من زند المجاهدة والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (وثانيها) حجر التضرع ادعوا ربكم تضرعا وخفية (وثالثها) حراق منع الهوى ونهى النفس عن الهوى (ورابعها) كبريت الانابة وأنيبوا الى ربكم (وخامسها) مسرجة الشهامات بكبريت توبوا الى الله (وخامسها) مسرجة الصبر واستعينوا بالصبر والصلاة (وسادسها) فتيلة الشكر لئن شكرتم لازيدنكم (وسابعها) دهن الرضا واصبر لحكم ربك أى ارض بقضاء ربك فاذا صلحت هذه الادوات فلا تعول عليها بل ينبغى أن لا تطلب المقصود الا من حضرته ما يفتح الله للناس من رحمة فلا يمسك لها سماء اطلبها بالخشوع والخضوع وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا فعند ذلك ترفع يد

لذلك (ان ربى على صراط مستقيم) تعليل لما يدل عليه التوكل من عدم قدرتهم على اضراره أى هو على الحق والعدل فلا يكاد يسلطكم على اذلا يضيع عنده معتصم ولا يفلت عليه ظالم والاقتصار على اضافة الرب الى نفسه اما بطريق الاكتفاء لظهور المراد واما لان فائدة كونه تعالى مالكا لهم أيضا راجعة اليه عليه الصلاة والسلام (فان تولوا) أى تتولوا بحذف احدى التاءين أى ان تستمروا على ما كنتم عليه من التولى والاعراض (فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم) أى لم أعاتب على تفريط فى الابلاغ وكنتم محجوجين بان بلغكم الحق ذا بينة الا التكذيب والجحود (ويستخلف ربى قوما غيركم) استئناف بالوعيد لهم بأن الله تعالى يهلكهم ويستخلف فى ديارهم وأموالهم قوما آخرين أو عطف على الجواب بالفاء ويؤيده قراءة ابن مسعود رضى الله عنه بالجزم عطفا على الموضع كأنه قيل فان تولوا يعذرنى ويهلكهم ويستخلف بمكانكم آخرين وفى اقتصار اضافة الرب عليه عليه الصلاة والسلام رمز الى اللطف به والتدمير للمخاطبين (ولا تضرونه) بتولكم (شيأ) من الضرر لاستحالة ذلك عليه ومن جزم ويستخلف أسقط منه النون (ان ربى على كل شئ حفيظ) أى رقيب مهيمن فلا تخفى عليه أعمالكم فيجازيكم بحسبها أو حافظ مستول على كل شئ فكيف يضره شئ وهو الحافظ

للكل (ولما جاءه أمرنا) أي نزل عذابنا وفي التعبير عنه بالامر مضافا الى ضميره جل جلاله وعن نزوله بالمجيء مالا يخفى من التفخيم والتهويل أو ورد أمرنا بالعذاب (نجينا هودا والذين آمنوا معه) وكانوا أربعة آلاف (برحمة) عظيمة كائنة له (منا) وهي الايمان الذي أسعفهم به عليهم بالتوفيق له والهداية اليه (ونجيناهم من عذاب غليظ) أي كائن ٣١ تلك النجية تنجية من عذاب غليظ وهي السموم التي كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطعهم ارب ارب بارقيل أو يد بالثانية التخييب من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه وأشد وهذه التنجية وان لم تكن مقيدة بمجيء الامر لكن جيء بها تكملة للنعمة عليهم وتعريضا بان المهلكين كما عذبوا في الدنيا بالسموم فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الغليظ (وتلك عاد) أنث اسم الاشارة باعتبار القبيلة أولان الاشارة الى قبورهم وآثارهم (جحدوا بآيات ربهم) كفروا بها بعد ما استيقنوها (وعصوا رسله) جمع الرسل مع انه لم يرسل اليهم غير هود عليه الصلاة والسلام تفظيعا لما الهم واظهارا لكمال كفرهم وعنادهم ببيان أن عصيانهم له عليه الصلاة والسلام عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد لا تفرق بين أحد من رسله فيجوز أن يراد بالآيات ما أتى به هود وغيره من الانبياء عليهم السلام ويميز بإضافة ملة لما تقدم من جميع الآيات وما تأخر من قوله (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) من كبرائهم ورؤسائهم الداعا الى الضلال والى تكذيب الرسل فكأنه قيل عصوا كل رسول واتبعوا أمر كل جبار وهذا الوصف ليس كما سبق من جحود الآيات وعصيان الرسل في الشمول لكل فرد فرد منهم فان الاتباع للاشرار من أوصاف الاسافل دون الرؤساء وعنيد فعيل من

التضرع وتقول رب اشرح لي صدري فهنالك تسمع قد أوتيت سؤلك يا موسى ثم تقول هذا النور الروحاني المسمى بشرح الصدر أفضل من الشمس الجسمانية لوجوه (أحدها) الشمس تصحبها غمامة ربما تمس المعرفة لا يصحبها السموات السبع اليه يصعد الكلم الطيب (وثانيها) الشمس تغيب ليلا وتعود نهارا قال ابراهيم عليه السلام لا أحب الآفلين أما شمس المعرفة فلا تغيب ليلا ان ناشئة الليل هي أشد وطأ والمستغفرين بالاسحار بل أكمل الطلع الروحانية تحصل في الليل سبحان الذي أسرى بعبده ليلا (وثالثها) الشمس تفنى اذا الشمس كورت وشمس المعرفة لا تفنى سلام قولا من رب رحيم (ورابعها) الشمس اذا قابلها القمر انكسفت أما ههنا فشمس المعرفة وهي معرفة أشهد أن لا اله الا الله ما لم يقابلها قمر أشهد أن محمدا رسول الله لم يصل نوره الى عالم الجوارح (وخامسها) الشمس تسود الوجوه والمعرفة تبيضها يوم تبيض وجوه وتسود وجوه (وسادسها) الشمس تحرق والمعرفة تنجي من الحرق جز يا مؤمن فان نورك قد أطفأ لهبي (وسابعها) الشمس تصدع والمعرفة تصعد اليه يصعد الكلم الطيب (وثامنها) الشمس منفعتها في الدنيا والمعرفة منفعتها في العقبى والباقيات الصالحات خير (وتاسعها) الشمس في السماء زينة لاهل الارض والمعرفة في الارض زينة لاهل السماء (وعاشرها) الشمس فوقاني الصورة تحتاني المعنى وذلك بدل على الحسد مع التكبر والمعارف الالهية تحتاني الصورة فوقاني المعنى وذلك بدل على التواضع مع الشرف (وحادي عشرها) الشمس تعرف أحوال الخلق وبالمعرفة يصل القلب الى الخالق (وثاني عشرها) الشمس تقع على الولي والعدو والمعرفة لا تحصل الا للولي فلما كانت المعرفة موصوفة بهذه الصفات النفيسة لا جرم قال موسى رب اشرح لي صدري * وأما النكت (فاحداها) الشمس سراج استوقدها الله تعالى للفناء كل من عليها فان والمعرفة استوقدها للبقاء فالتي خلقها للفناء لو قرب الشيطان منها لاحترق شهابا رصدا والمعرفة التي خلقها للبقاء كيف يقرب منها الشيطان رب اشرح لي صدري (وثانيتها) استوقد الله الشمس في السماء وانها تزيل الظلمة عن بيتك مع بعدها عن بيتك وأوقد شمس المعرفة في قلبك أفلا تزيل ظلمة المعصية والكفر عن قلبك مع قربها منك (وثالثتها) من استوقد سراجا فانه لا يزال يتعهده ويعده والله تعالى هو الموقد لسراج المعرفة ولكن الله حبب اليكم الايمان أفلا يمده وهو معنى قوله رب اشرح لي صدري (ورابعتها) اللص اذا رأى السراج يوقد في البيت لا يقرب منه والله قد أوقد سراج المعرفة في قلبك فكيف يقرب الشيطان منه فلهذا قال رب اشرح لي صدري (وخامستها) المحوس أوقدوا نارا فلا يريدون اطفاءها والملك القدوس أوقد سراج الايمان في قلبك فكيف يرضى باطفائه * واعلم انه سبحانه وتعالى أعطى قلب المؤمن تسع كرامات (أحدها) الحياة أو من كان ميتا فاحييناه فلما رغب هو موسى عليه السلام في الحياة الروحانية قال رب اشرح لي صدري ثم النكتة انه عليه السلام قال من أحيا رضا ميتة فهي له فالعبد لما أحيا أرضا فهي له فالرب لما خلق القلب وأحياه بنور الايمان فكيف يجوز أن يكون لغيره فيه نصيب قال الله تعالى ذرهم وكما أن الايمان حياة القلب فالكفر موته أموات غير أحياء وما يشعرون (وثانيتها) الشفاء ويشف صدور قوم مؤمنين فلما رغب موسى في الشفاء رفع الايدي قال رب اشرح لي صدري والنكتة انه تعالى لما جعل الشفاء في العسل بقي شفاء أبدا فههنا لما وضع الشفاء في الصدر فكيف لا يبقى شفاء أبدا (وثالثتها) الطهارة أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى فلما رغب موسى عليه السلام في تحصيل طهارة التقوى قال رب اشرح لي صدري والنكتة ان الصائغ اذا امتحن الذهب مرة فبعد ذلك لا يدخله في النار فههنا لما امتحن الله قلب المؤمن فكيف يدخله النار ثانيا ولكن الله يدخل في النار قلب

عند عندا وعندا اذا ظفا والمعنى عصوا من دعاهم الى الهدى وأطاعوا من حداهم الى الردى (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة) ابعادا عن الرحمة وعن كل خير أى جعلت اللعنة لازمة لهم وعبر عن ذلك بالتبعية للبالغة فكأنها الا تفارقهم وان ذهبوا كل مذهب بل تدور معهم حيثما داروا ولو قوعه فى صحبة اتباعهم ٣٢ رؤساءهم يعنى انهم لما اتبعوهم أتبعوا ذلك جزاء اصنيعهم جزاء وفاقا (ويوم القيامة) أى أتبعوا

يوم القيامة أيضا لعنة وهى عذاب النار الخلد حذفت لدلالة الاولى عليها ولا يبعد ان يكون كل من اللعنتين نوعا برأسه لم تجمعا فى قرن واحد بأن يقال وأتبعوا فى هذه الدنيا ويوم القيامة لعنة كما فى قوله تعالى واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ايذانا باختلاف نوعى الحسنتين فان المراد بالحسنة الدنيوية نحو الصحة والكفاف والتوفيق للخير وبالحسنة الاخروية الثواب والرحمة (ألا ان عادا كفروا ربهم) أى بربهم أو نعمة ربهم حملا له على نقيضه الذى هو الشكر أو جحدوه (الا بعدا لعاد) دعاء عليهم بالهلاك مع كونهم هالكين أى هلاك تسحيقا عليهم باستحقاق الهلاك واستيجاب الدمار وتكرير حرف التنبيه واعادة عاد للبالغة فى تفظيع حالهم والحث على الاعتبار بقصتهم (قوم هود) عطف بيان لعاد فائدته التمييز عن عاد الثانية عاد ارم والاحياء الى أن اسحقاقهم للبعد بسبب ما جرى بينهم وبين هود عليه الصلاة والسلام وهم قومه (والى ثمود أخاهم صالحا) اما عطف على ما سبق من قوله تعالى والى عاد أخاهم هودا وثمود قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الاكبر ثمود بن عابر بن ارم بن سام وقيل انما سموا بذلك لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وصالح عليه الصلاة والسلام هو ابن عبيد بن أسف بن ماشج بن عبيد بن جادر بن

الكافر لغير الله الخبيث من الطيب (ورابعها) الهداية ومن يؤمن بالله يهد قلبه فرغب موسى عليه السلام فى طلب زوائد الهداية فقال رب اشرح لى صدرى والنكتة أن الرسول يهدى نفسك والقرآن يهدى روحك والمولى يهدى قلبك فلما كانت الهداية من الكفر من محمد صلى الله عليه وسلم لاجرم تارة تحصل وأخرى لا تحصل انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهداية الروح لما كانت من القرآن فتارة تحصل وأخرى لا تحصل يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وأما هداية القلب فلما كانت من الله تعالى فانها لا تزول لان الهادى لا تزول ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم (وخامسها) الكتابة أوائلك كتب فى قلوبهم الايمان فلما رغب موسى عليه السلام فى تلك الكتابة قال رب اشرح لى صدرى * وفيه نكت (الاولى) ان الكاغد ليس لها خطر عظيم وانما كتب فيها القرآن لم يجز لنا حراقها فقلب المؤمن كتب فيه جميع أحكام ذات الله تعالى وصفاته فكيف يليق بالكريم احراقه (الثانية) بشر الحافى أكرم كاغدا فيه اسم الله تعالى فقال سعادة الدارين فاكرام قلب فيه معرفة الله تعالى أولى بذلك (والثالثة) كاغد ليس فيه خط اذا كتب فيه اسم الله الاعظم عظم قدره حتى انه لا يجوز للجنب والحائض ان يمسه بل قال الشافعى رحمه الله تعالى ليس له ان يمس جلد المصحف وقال الله تعالى لا يمسه الا المطهرون فالقلب الذى فيه أكرم المخلوقات ولقد كرمنا بنى آدم كيف يجوز للشيطان الخبيث أن يمسه والله أعلم (وسادسها) السكينة هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين فلما رغب موسى عليه السلام فى طلب السكينة قال رب اشرح لى صدرى والنكتة ان أبا بكر رضى الله عنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان خائفا فلما نزلت السكينة عليه قال لا تحزن فلما نزلت سكينة الايمان فرحوا أن يسمو اخطاب ان لا تخافوا ولا تحزنوا وأيضا لما نزلت السكينة صار من الخلفاء وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض أى ان يصيروا خلفاء الله فى أرضه * (وسابعها) المحبة والزينة ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم والنكتة ان من ألقى حبة فى أرض فانه لا يفسدها ولا يحرقها فهو سبحانه وتعالى ألقى حبة المحبة فى أرض القلب فكيف يحرقها (وثامنها) وألف بين قلوبكم والنكتة أن محمدا صلى الله عليه وسلم ألف بين قلوب أصحابه ثم انه ما ترك هم غيبة ولا حقدا ولا سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فالرحيم كيف يترك هم (وتاسعها) الطمأنينة ألا بذكر الله تطمئن القلوب وموسى طلب الطمأنينة فقال رب اشرح لى صدرى والنكتة ان حاجة العبد لا نهاية لها فلهذا لو أعطى كل ما فى العالم من الاجسام فانه لا يكفيه لان حاجته غير متناهية والاجسام متناهية والمتناهى لا يصير قط الا لغير المتناهى بل الذى يكفى فى الحاجة الغير المتناهية الكمال الذى لا نهاية له وما ذاك الا اللحق سبحانه وتعالى فلهذا قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب ولما عرفت حقيقة شرح الصدر للمؤمنين فاعرف صفات قلوب الكافرين لوجوه (أحدها) فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم (وثانيها) ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم (وثالثها) فى قلوبهم مرض (ورابعها) جعلنا قلوبهم قاسية (وخامسها) انا جعلنا على قلوبهم اكنة أن يفقهوه (وسادسها) ختم الله على قلوبهم (وسابعها) أم على قلوب أقفالها (وثامنها) كلا بل ران على قلوبهم (وتاسعها) أوائك الذين طبع الله على قلوبهم الهنا وسيدنا بفضلك واحسانك أغلق هذه الابواب التسعة من خذلانك عنا واجبرنا بإحسانك وافتح لنا تلك الابواب التسعة من احسانك بفضلك ورحمتك انك على ما تشاء قدير (الفصل الخامس) فى حقيقة شرح الصدر ذكر العلماء فيه وجهين (الاول) أن لا يبقى للقلب التفات الى الدنيا الا بالرغبة ولا بالرهبة

ثم ردوا ما كان الاخبار بارساله اليهم مظنة لان يسئل ويقال ماذا قال لهم قيل جيء باعنه بطريق الاستئناف (قال ياقوم اعبدوا الله) أى وحدوه وعلل ذلك بقوله (ما لكم من اله غيره) ثم زيد فيما بينهم على الايمان والتوحيد ويحثهم على زيادة الاخلاص فيه بقوله (هو انشأكم من الارض) أى هو كونكم وخلقكم منها لا غير وقصر قلب أو قصر افراد فان ٢٣ خلق آدم عليه الصلاة والسلام منها خلق لجميع أفراد البشر منها ممتزاوا ممن أن خلقه عليه الصلاة والسلام لم تكن مقصورة على نفسه بل كانت أعم وذا جانظير ما على خلق جميع ذريانه التى ستوجد الى يوم القيامة انطواء اجماليا وقيل ان خلق آدم عليه الصلاة والسلام وانشاء مواد النطف التى منها خلق نسله من التراب انشاء لجميع الخلق من الارض فتدبر (واستعمركم) من العمر أى عمركم واستبقاكم (فيها) أو من العمارة أى أقدركم على عمارتها أو أمركم بها وقيل هو من المعمرى بمعنى أعمركم فيها ديارا كم وبرئها منكم بعد انصرام أعماركم أو جعلكم معمرين ديارا كم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لمن بعدكم (فاستغفروه ثم توبوا اليه) فان ما فصل من فنون الاحسان داع الى الاستغفار عما وقع منهم من التفريط والتوبة عما كانوا يباشرونه من القبائح وقد مر بدى فى بيان ما يوجب ذلك فقيل (ان ربى قريب) أى

أما الرغبة فهى أن يكون متعلق القلب بالاهل والولد وبتحصيل مصالحهم ودفع المضار عنهم وأما الرهبة فهى أن يكون خائفا من الاعداء والمنازعين فاذا شرح الله صدره صغر كل ما يتعلق بالدنيا فى عين همته فيصير كالذباب والبق والبعوض لا تدعوه رغبة اليها ولا تمنعه رهبة عنها فيصير الكل عنده كالعدم وحينئذ يقبل القلب بالكلية نحو موضحا ذلك الله تعالى فان القلب فى المثال كينبوع من الماء والقوة البشرية اضعفها كالينبوع الصغير فاذا وقعت ماء المين الواحدة على الجداول الكثيرة ضعفت الكل فاما اذا انصب الكل فى موضع واحد قوى فسأل موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره بان يوقفه على معايب الدنيا وقبح صفاتها حتى يصير قلبه نفورا عنها فاذا حصلت النفرة توجه الى عالم القدس ومنازل الروحانيات بالكلية (الثانى) ان موسى عليه السلام لما نصب لذلك المنصب العظيم احتاج الى تكاليف شاقة منها ضبط الوحى والمواظبة على خدمة الخالق سبحانه وتعالى ومنها اصلاح العالم الجسدانى فكأنه صار مكلفا بتدبير العالمين والالتفات الى أحدهما يمنع من الاشتغال بالآخر الا ترى ان المشتغل بالابصار يصير ممنوعا عن السماع والمشتغل بالسماع يصير ممنوعا عن الابصار والخيال فهذه القوى متجاذبة متنازعة وان موسى عليه السلام كان محتاجا الى الكل ومن استأنس بجمال الحق استوحش من جمال الخلق فسأل موسى ربه أن يشرح صدره بان يفيض عليه كالا من القوة لتكون قوته وافية بضبط العالمين فهذا هو المراد من شرح الصدر وذكر العلماء لهذا المعنى أمثلة (المثال الاول) اعلم ان البدن بالكلية كالمملكة والصدر كالقلعة والفؤاد كالقصر والقلب كالتخت والروح كالملك والعقل كالوزير والشهوة كالعامل الكبير الذى يجلب الدنيا الى البلدة والغضب كالاسفهسالار الذى يشتغل بالضرب والتأديب أبدا والحواس كالجواسيس وسائر القوى كالخدم والعملة والصناع ثم ان الشيطان خصم لهذه البلدة ولهذه القلعة ولهذا الملك فالشيطان هو الملك والهوى والحرص وسائر الاخلاق الذميمة جنوده فأول ما أخرج الروح وزيره وهو العقل فهكذا الشيطان أخرج فى مقابلته الهوى فجعل العقل يدعو الى الله تعالى والهوى يدعو الى الشيطان ثم ان الروح أخرج القطعة اعانة للعقل فاخرج الشيطان فى مقابلة القطعة الشهوة فالقطعة توقفك على معايب الدنيا والشهوة تجرك الى لذات الدنيا ثم ان للروح أمدا القطعة بالفكرة لتقوى القطعة بالفكرة فتقف على الحاضر والغائب من المعايب على ما قال عليه السلام تفكر ساعة خير من عبادة سنة فاخرج الشيطان فى مقابلة الفكرة الغفلة ثم أخرج الروح الحلم والثبات فان العجلة تريك الحسن قبيحا والقبيح حسنا والحلم يوقف العقل على قبح الدنيا فاخرج الشيطان فى مقابلته العجلة والسرعة فلهذا قال عليه السلام ما دخل الرفق فى شئ الا زانه ولا الخرق فى شئ الا شانه ولهذا خلق السموات والارض فى ستة أيام ليتعلم منه الرفق والثبات فهذه هى الخصومة الواقعة بين الشقين وقابلك وصدرك هو القلعة ثم ان لهذا الصدر الذى هو القلعة خندقا وهو الزهد فى الدنيا وعدم الرغبة فيها وله سور وهو الرغبة فى الآخرة ومحبة الله تعالى فان كان الخندق عظيما والسور قويا يعجز عسكر الشيطان عن تخريبه فرجعوا وراءهم وتركوا القلعة كما كانت وان كان خندق الزهد غير عميق وسور حب الآخرة غير قوى قدر الخصم على استفتاح قلعة الصدر فدخلها وبيت فيها جنوده من الهوى والعجب والكبر والبخل وسوء الظن بالله تعالى والنميمة والغيبة فيخصر الملك فى القصر ويضيق الامر عليه فاذا جاءه مدد التوفيق وأخرج هذا العسكر من القلعة انفسح الامر وانشرح الصدر وخرجت ظلمات الشيطان ودخلت أنوار هداية رب العالمين وذلك هو المراد بقوله رب اشرح لى صدرى (المثال الثانى) اعلم ان معدن النور هو القلب واشتغال الانسان

(٥ - نخر س) قريب الرحمة كقوله تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين (مجيب) لمن دعاه وسأله وقد رومى فى النظم الكريم نكتة حيث قدم ذكر العلة الباعثة المتقدمة على الامر بالاستغفار والتوبة وأخر عنه ذكر الغائية المتأخرة عنهما فى الوجود أعنى الاجابة (قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا) أى كنا نرجو منك لما كنا نرى منك من دلائل السداد وتحايل الرشاد أن تكون لنا

سدادا ومستشارا في الامور عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فاضلا خيرا تقدمك على جميعنا وقبل كنا نرجو أن تدخل في ديننا ونوافقنا على ما نحن عليه (قبل هذا) الذي باشرته من الدعوة الى التوحيد وترك عبادة الآلهة أو قبل هذا الوقت فكانهم لم يكونوا الى الآن على يأس من ذلك ولو بعد ٣٤ الدعوة الى الحق فالآن قد انصرم عنك رجاؤنا وقرأ طلحة مرجوا بالمد والهمزة (أتنهانا أن نعبد

بالزوجة والولد والرغبة في مصاحبة الناس والخوف من الاعداء هو الحجاب المانع من وصول نور شمس القلب الى فضاء الصدر فاذا قوى الله بصيرة العبد حتى طالع عجز الخلق وقلة فائدتهم في الدارين صغروا في عينه ولا شك في أنهم من حيث هم عدم محض على ما قال تعالى كل شئ هالك الا وجهه فلا يزال العبد يتأمل فيما سوى الله تعالى الى أن يشاهد انهم عدم محض فعند ذلك يزول الحجاب بين قلبه وبين أنوار جلال الله تعالى واذا زال الحجاب امتلأ القلب من النور فذلك هو انشراح الصدر (الفصل السادس) في الصدر اعلم انه يجيء المراد منه القلب فأن شرح الله صدره للاسلام رب اشرح لي صدري وحصل ما في الصدور يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور وقد يجيء والمراد الفضاء الذي فيه الصدر فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور واختلف الناس في ان محل العقل هل هو القلب أو الدماغ وجهور المتكلمين على انه القلب وقد شرحنا هذه المسئلة في سورة الشعراء في تفسير قوله نزل به الروح الامين على قلبك وقال بعضهم المراد أربعة الصدر والقلب والفؤاد واللب فالصدر مقر الاسلام أفمن شرح الله صدره للاسلام والقلب مقر الايمان ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم والفؤاد مقر المعرفة ما كذب الفؤاد ما رأى ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا واللب مقر التوحيد اما يتذكر أولوا الالباب واعلم أن القلب أول ما يبعث الى هذا العالم يبعث خاليا عن النقوش كاللوح الساذج وهو في عالم البدن كاللوح المحفوظ ثم انه تعالى يكتب فيه بقلم الرحمة والعظمة كل ما يتعلق بعالم العقل من نقوش الموجودات وصور الماهيات وذلك يكون كالسطر الواحد الى آخر قيام القيامة لهذا العالم الاصغر وذلك هو الصورة المجردة والحالة المطهرة ثم ان العقل يركب سفينة التوفيق ويلقيها في بحار أمواج المعقولات وعوالم الروحانيات فيحصل من مهاب رياح العظمة والكبرياء رخاء السعادة تارة ودبور الادبار أخرى فربما وصلت سفينة النظر الى جانب مشرق الجلال فتستطع عليه أنوار الالهية ويتخلص العقل عن ظلمات الضلالات وربما توغلت السفينة في جنوب الجهالات فتنكسر وتغرق فيشمات تكون السفينة في ملتطم أمواج العزة يحتاج حافظ السفينة الى التماس الانوار والهدايات فيقول هناك رب اشرح لي صدري واعلم ان العقل اذا أخذ في الترقي من سفل الامكان الى علو الوجوب كثر اشتغاله بمطالعة الماهيات ومقارنة المجردات والمفارقات ومعلوم ان كل ماهية فهي اما هي معه أو هي له فان كانت هي معه امتلأت البصيرة من أنوار جلال العزة الالهية فلا يبقى هناك مستطلعا لمطالعة سائر الانوار فيصير حصل كل ما سواه من بصر وبصيرة وان وقعت المطالعة لما هو له حصلت هناك حالة تجريبية وهي انه لو وضعت كرة صافية من البلور فوقع عليها شعاع الشمس فينعكس ذلك الشعاع الى موضع معين فذلك الموضع الذي اليه تنعكس الشعاعات يحترق بخميع الماهيات الممكنة كالبلور الصافي الموضوع في مقابلة شمس القدس ونور العظمة وعشرق الجلال فاذا وقع للقلب التفات اليها حصلت للقلب نسبة اليها بأسرها فينعكس شعاع كبرياء الالهية عن كل واحد منها الى القلب فيحترق القلب ومعلوم انه كلما كان المحرق أكثر كان الاحتراق أتم فقال رب اشرح لي صدري حتى أقوى على ادراك درجات المكنات فأصل الى مقام الاحتراق بأنوار الجلال وهذا هو المراد بقوله عليه السلام أرنا الاشياء كما هي فلما شاهدا احتراقها بأنوار الجلال قال لا أحصي ثناء عليك (الفصل السابع) في بقية الابحاث اعلم قال رب اشرح لي صدري ولم يقل ربي اشرح صدري ليظهر ان منفعة ذلك الشرح عائدة الى موسى عليه السلام لا الى الله وأما كيفية شرح صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمفاضلة بينه وبين شرح صدر موسى عليه السلام فنذكره ان شاء

مايعبد آباؤنا) أي عبدوه والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية (وانناني شك مما تدعونا اليه) من التوحيد وترك عبادة الاوثان وغير ذلك من الاستغفار والتوبة (مريب) أي موقع في الريبة من أرابه أي أوقعه في الريبة أي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة أو من أراب اذا كان ذا ريبة وأيهما كان فالاسناد مجازي والتنوين فيه وفي شك للتفخيم (قال ياقوم أرأيتم) أي أخبروني (ان كنت) في الحقيقة (على بينة) أي حجة ظاهرة وبرهان وبصيرة (من ربي) مالكي ومتولي أمري (وآتاني منه) من جهته (رحمة) نبوة وهذه الامور وان كانت محققة الوقوع لكنها صدرت بكلمة الشك اعتبارا لحال المخاطبين ورعاية لحسن المحاورة لاستنزالهم عن المكابرة (فمن ينصرني من الله) أي ينجيني من عذابه والعدول الى الاظهار لزيادة التهويل والفاء لترتيب انكار النصرة على ماسبق من ايتاء النبوة وكونه على بينة من ربه على تقدير العصيان حسبما يعرب عنه قوله تعالى (ان عصيته) أي بالمساهلة في تبليغ الرسالة والمجاراة معكم فيما تأتون وتذرون فان العصيان ممن ذلك شأنه أعد والمؤاخذة عليه ألزم وانكار نصرته أدخل (فما تزيدونني) اذن باستتباعكم اياي كما ينبئ عنه قولهم قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أي

الله

لا تفيدوني اذلم يكن فيه أصل الخسران حتى يزيدوه (غير تخسير) أي غير ان تجعلوني خاسرا بابطال أعمالي وتعريضي لسخط الله تعالى أوفيما تزيدونني بما تقولون غير أن أنسبكم الى الخسران وأقول لكم انكم لخاسرون فلا زيادة على معناه والفاء لترتيب عدم الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم من انكاره على تقدير العصيان مع تحقق ما ينفيه من كونه ٣٥ عليه الصلاة والسلام على بينة من ربه وايتائه

الله في تفسير قوله ألم نشرح لك صدرك والله أعلم بالصواب (المطلوب الثاني) قوله ويسرلي أمري والمراد منه عند أهل السنة خلق قدرة وعند المعتزلة تحريك الدواعي والبواعث بفعل الالطاف المسهلة فان قيل كل ما أمكن من اللطف فقد فعله الله تعالى فأي فائدة في هذا السؤال قلنا يحتمل أن يكون هناك من الالطاف ما لا يحسن فعلها الا بعد هذا السؤال فظاهر السؤال حسن فعل تلك الالطاف (المطلوب الثالث) قوله واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان النطق فضيلة عظيمة ويدل عليه وجوه (أحدها) قوله تعالى خلق الانسان علمه البيان ولم يقل وعلمه البيان لانه لو عطفه عليه لكان مغايرا له اما اذا ترك الحرف العاطف صار قوله علمه البيان كالتفسير لقوله خلق الانسان كأنه انما يكون خالقا للانسان اذا علمه البيان وذلك يرجع الى الكلام المشهور من ماهية الانسان هي الحيوان الناطق (وثانيها) اتفاق العقلاء على تعظيم أمر اللسان قال زهير

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وقال علي ما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة والمعنى انا لولا زلة الادراك الذهني والنطق اللساني لم يبق من الانسان الا القدر الحاصل في البهائم وقالوا المرء يأصغريه قلبه ولسانه وقال صلى الله عليه وسلم المرء مخبوء تحت لسانه (وثالثها) ان في مناظرة آدم مع الملائكة ما ظهرت الفضيلة الا بالنطق حيث قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والارض (ورابعها) ان الانسان جوهر مركب من الروح والقالب وروحه من عالم الملائكة فهو يستفيد أبدا صور المعنيات من عالم الملائكة ثم بعد تلك الاستفادة يفيضها على عالم الاجسام وواسطته في تلك الاستفادة هي الفكر الذهني وواسطته في هذه الافادة هي النطق اللساني فيكفي ان تلك الواسطة أعظم العبادات حتى قيل تفكر ساعة خير من عبادة ستة فكذلك لواسطة في الافادة يجب أن تكون أشرف الاعضاء فقوله رب اشرح لي صدري اشارة الى طلب النور الواقع في الروح وقوله ويسرلي أمري اشارة الى تحصيل ذلك وتسهيل ذلك التحصيل وعند ذلك يحصل الكمال في تلك الاستفادة الروحانية فلا يبقى بعد هذا الا المقام البياني وهو افاضة ذلك الكمال على الغير وذلك لا يكون الا باللسان فلهذا قال واحلل عقدة من لساني (وخامسها) وهو ان العلم أفضل المخلوقات على ما تبين والجود والاعطاء أفضل الطاعات وليس في الاعضاء أفضل من اليد فاليد لما كانت آلة في المعطية الجسمانية قيل اليد العليا خير من اليد السفلى فالعلم الذي هو خير من المال لما كانت آلة اعطائه اللسان وجب أن يكون أشرف الاعضاء ولا شك أن اللسان هو الآلة في اعطاء المعارف فوجب أن يكون أشرف الاعضاء ومن الناس من مدح الصمت لوجوه (أحدها) قوله عليه السلام الصمت حكمة وقليل فاعله ويروى ان الانسان تفكر أعضاؤه اللسان ويقلن اتق الله فينا فانك ان استقمت استقمنا وان أعوججت اعوججنا (وثانيها) ان الكلام على أربعة أقسام منه ما ضرره خالص أو راجح ومنه ما يستوي الضرر والنفع فيه ومنه ما نفعه راجح ومنه ما هو خالص النفع اما الذي ضرره خالص أو راجح فواجب الترك والذي يستوي الامران فيه فهو عيب فبقي القسمان الاخيران وتخليصهما عن زيادة الضرر عسر فالاولى ترك الكلام (وثالثها) ان ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق معلوم أو مفهوم الا واللسان يتناوله ويتعرض له باثبات أو نفي فان كل ما يتناوله الضمير يعبر عنه اللسان بحق أو باطل وهذه خاصية لا توجد في سائر الاعضاء فان العين لا تصل الى غير الالوان والصور والاذان لا تصل الا الى الاصوات والحروف واليد لا تصل الى غير الاجسام وكذا سائر الاعضاء بخلاف اللسان فانه رحب الميدان

روى أنهم طلبوا منه أن يخرج من صخرة تسمى الكاثبة ناقة عشراء مختارة جسيمة جوفاء وبراء وقالوا ان فعلت ذلك صدقناك فأخذ صالح عليه الصلاة والسلام عليهم مواثيقهم لئن فعلت ذلك لنؤمنن فقالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء كما وصفوا وهم ينظرون ثم أنتجت ولدا مثلها في العظم فآمن به جندع بن عمرو في جماعة وامتنع الباقون من

الايمان دواب بن عمرو ولبطان صاحب أوثانهم وربابكا منهم فكثرت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غبا فاترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها ثم تنفجج فيحلبون ما شاؤا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدخرون وكانت تسيف بظهر الوادى فتهرب منها أنعامهم الى بطنه وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم الى ظهره فشق عليهم ذلك (فعقروها) قيل زينت عقرها لهم عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار فعقروها واقتسموا لحمها فرقى سقبها جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا فقال صالح لهم ادركوا الفصيل عسى ان يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه وانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها (فقال) لهم صالح (تمتعوا) أى عيشوا (فى داركم) أى فى منازلكم أو فى الدنيا (ثلاثة أيام) قيل قال لهم تصبح وجوهكم غدا مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب (ذلك) اشارة الى ما دل عليه الامر بالتمتع ثلاثة أيام من نزول العذاب عقيبها والمراد بما فيه من معنى البعد تفخيمه (وعد غير مكذوب) أى غير مكذوب فيه فحذف الجار للاتساع المشهور كقوله

ويوم شهدناه سليما وعامرا

أو غير مكذوب كائن الواعد قال له أفى بك فان وفى به صدقه والا كذبه أو وعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلود والمعقول (فلما جاء أمرنا) أى عذابنا أو أمرنا بنزوله وفيه ما لا يخفى من التهويل (نجينا صالحا والذين آمنوا معه) متعلق بنجينا أو بآمنوا (برحمة) بسبب رحمة عظيمة والتظاهر (منا) وهى بالنسبة الى صالح النبوة والى المؤمنين الايمان كما مر أو ملتبسين برحمة ورأفة منا (ومن خزى يومئذ) أى ونجيناهم من خزى يومئذ وهو ولا كهم بالصيحة كقوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ على معنى أنه كانت تلك النجية نجية من خزى يومئذ أى من ذلته

ليس له نهاية ولا حد قلله فى الخير مجال رحب وله فى الشر مجال رحب وانه خفيف المؤنة سهل التحصيل بخلاف سائر المعاصى فانه يحتاج فيها الى مؤن كثيرة لا يتيسر تحصيلها فى الاكثرة ذلك كان الاولى ترك الكلام (ورابعها) قالوا ترك الكلام له أربعة أسماء الصمت والسكوت والانصات والاصاغة فأما الصمت فهو أعمها لانه يستعمل فيما يقوى على النطق وفيما لا يقوى عليه ولهذا يقال مال ناطق وصامت وأما السكوت فهو ترك الكلام ممن يقدر على الكلام والانصات سكوت مع استماع ومتى انفك أحدهما عن الآخر لا يقال له انصات قال تعالى فاستمعوا له وأنصتوا والاصاغة استماع الى ما يصعب ادراكه كالسر والصوت من المكان البعد واعلم ان الصمت عديم ولا فضيلة فيه بل النطق فى نفسه فضيلة والرذيلة فى محاورته ولولا ما لسائل كائنا ما كان ذلك فى قوله تعالى واحلل عقدة من لسانى (المسئلة الثانية) اختلفوا فى تلك العقدة التى كانت فى لسان موسى عليه السلام على قولين (الاول) كان ذلك التعقد خلقة الله تعالى فسأل الله تعالى ازالته (الثانى) السبب فيه انه عليه السلام حال صباه أخذ لحية فرعون ونتفها فهم فرعون بقتله وقال هذا هو الذى يزول ملكى على يده فقالت آسية انه صبى لا يعقل وعلامته ان تقرب منه التمرة والجمرة فقربا اليه فأخذ الجمرة فجعلها فى فيه وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال لم تحترق اليد ولا اللسان لان اليد لما أخذ العصا وهى الحية واللسان آلة الذكر فكيف يحترق ولان ابراهيم عليه السلام لم يحترق بنار نمروذ وموسى عليه السلام لم يحترق حين ألقى فى التنور فكيف يحترق هناك ومنهم من قال احترقت اليد دون اللسان لئلا يحصل حق المواكلة والمماثلة (الثالث) احترق اللسان دون اليد لان اليد لما صلحت للاصالة ظهرت باليد أما اللسان فقد خاطبه بقوله يا أبت (والرابع) احترقا معا لئلا تحصل المواكلة والمخاطبة (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى أنه عليه السلام لم طلب حل تلك العقدة على وجوه (أحدها) لئلا يقع فى أداء الرسالة خلل البتة (وثانيها) لازالة التنفير لان العقدة فى اللسان قد تفضى الى الاستخفاف بقائلها وعدم الالتفات اليه (وثالثها) اظهار المعجزة فكما ان حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزا فى حقه فكذا اطلاق لسان موسى عليه السلام معجز فى حقه (ورابعها) طلب السهولة لان ايراد مثل هذا الكلام على مثل فرعون فى جبروته وكبره عسير جدا فاذا انضم اليه تعقد اللسان بلغ العسر الى النهاية فسأل ربه ازالة تلك العقدة تخفيفا وتسهيلا (المسئلة الرابعة) قال الحسن رحمه الله ان تلك العقدة زالت بالكلية بدليل قوله تعالى قد أوتيت سؤلك يا موسى وهو ضعيف لانه عليه السلام لم يقل واحلل العقدة من لسانى بل قال واحلل عقدة من لسانى فاذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله والحق انه افصل أكثر العقد وبقى منها شئ قليل لقوله حكاية عن فرعون أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين أى يقارب أن لا يبين وفى ذلك دلالة على ان كان يبين مع بقاء قدر من الانعقاد فى لسانه وأجيب عنه من وجهين (أحدهما) المراد بقوله ولا يكاد يبين أى لا يأتى ببيان ولا بحجة (والثانى) ان كاد بمعنى قرب ولو كان المراد هو البيان اللسانى لكان معناه أنه لا يقارب البيان فكان فيه نفى البيان بالكلية وذلك باطل لانه خاطب فرعون فى الجمع وكانوا يفقهون كلامه فكيف يمكن نفى البيان أصلا بل انما قال ذلك تمويها لئلا يصرف الوجوه عنه قال أهل الاشارة انما قال واحلل عقدة من لسانى لان حل العقد كلها نصيب محمد صلى الله عليه وسلم وقال تعالى ولا تستعجل لهم الا بالتى هى أحسن فلما كان ذلك حقا لنبينا أى طالبه لا جرم ما دار حوله والله أعلم (المطلوب الرابع) قوله واجعل لى وزيرا من أهلى واعلم ان طلب الوزير اما أن يكون لانه خاف على نفسه العجز عن القيام بذلك الامر فطلب المعين أو لانه رأى أن للتعاون على الدين

ومهانته أو ذلهم وفضيحتهم يوم القيامة كما فسر به العذاب الغليظ فيما سبق فيكون المعنى ونجينا هم من عذاب يوم القيامة بعد تنجيتنا اياهم من عذاب الدنيا وعن نافع بالفتح على اكتساب المضاف البناء عن المضاف اليه هنا وفي المعارج في قوله تعالى من عذاب يومئذ وقرئ بالتنوين ونصب يومئذ (ان ربك) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ٣٧ (هو القوي العزيز) القادر على كل شئ والغالب عليه لا غيره ولكون الاخبار بتنجية الانبياء لاسيما عند الاباء بحلول العذاب أهم ذكرها أولا ثم أخبر بهلاك الاعداء فقال (وأخذ الذين ظلموا) عدل عن المضمر الى المظهر تسجيلا عليهم بالظلم واشعارا بعلته لنزول العذاب بهم (الصيحة) أي صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شئ في الارض فتقطعت قلوبهم في صدورهم وفي سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة ولعلها وقعت عقيب الصيحة المستتبعة لتموج الهواء (فأصبحوا) أي صاروا (في ديارهم) أي بلادهم أو مساكنهم (جاثمين) هامدين موتى لا يتحركون والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم من غير اضطراب وحركة كما يكون ذلك عند الموت المعتاد ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شدة الاخذ وسرعته

والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة مزيد عظيمة في أمر الدعاء الى الله ولذلك قال عيسى بن مريم من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين وقال عليه السلام ان لي في السماء وزيرين ومن في الارض وزيرين فاللذان في السماء جبريل وميكائيل واللذان في الارض أبو بكر وعمر وههنا مسائل (المسئلة الاولى) الوزير من الوزر لانه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه أو من الوزر وهو الجبل الذي يتحصن به لان الملك يعتصم برأيه في رعيته ويفوض اليه أموره أو من المؤازرة وهي المعاونة والموازرة مأخوذة من ازار الرجل وهو الموضع الذي يشده الرجل اذا استعد لعمل أمر صعب قاله الاصمعي وكان القياس أزر افقلبت الهمزة الى الواو (المسئلة الثانية) قال عليه السلام اذا أراد الله بالك خيرا قيض له وزيرا صالحا ان نسي ذكره وان ينو خيرا أعانه وان أراد شرا كفه وكان أبو شروان يقول لا يستغني أجود السيوف عن الصقل ولا أكرم الدواب عن الصوت ولا أعلم الملوك عن الوزير (المسئلة الثالثة) ان قيل الاستعانة بالوزير انما يحتاج اليها الملوك أما الرسول المكلف بتبليغ الرسالة والموحى من الله تعالى الى قوم على التعيين فمن أين ينفعه الوزير وأيضا فانه عليه السلام سأل ربه أن يجعله شريكا له في النبوة فقال وأشركه في أمري فكيف يصح أن يكون وزيرا والجواب عن الاول ان التعاون على الامر والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة له مزية عظيمة في تأثير الدعاء الى الله تعالى فكان موسى عليه السلام واثقا بأخيه هرون فسأل ربه أن يشد به أزره حتى يتحمل عنه ما يمكن من الثقل في الابلاغ (المطلوب الخامس) أن يكون ذلك الوزير من أهله أي من أقاربه (المطلوب السادس) أن يكون الوزير الذي من أهله هو أخوه هرون وانما سأل ذلك لوجهين (أحدهما) أن التعاون على الدين متقنة عظيمة فأراد أن لا تحصل هذه الدرجة الا لاهله أولان كل واحد منهما كان في غاية المحبة لصاحبه والموافقة له وقوله هرون في انتصابه وجهان (أحدهما) انه مفعول الجعل على تقدير اجعل هرون أخي وزيرا لي (والثاني) على البدل من وزيرا وأخي نعت لهرون أو بدل واعلم ان هرون عليه السلام كان مخصوصا بأمور منها الفصاحة لقوله تعالى عن موسى وأخي هرون هو أفصح مني لسانا ومنها انه كان فيه رفق قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ومنها انه كان أكبر سنا منه (المطلوب السابع) قوله اشدد به أزري وفيه مسائل (المسئلة الاولى) القراءة العامة اشدد به وأشركه على الدعاء وقرأ ابن عامر وحده أشد به وأشركه على الخبر والجواب حكاية عن موسى عليه السلام أي أنا أفعل ذلك ويجوز لمن قرأ على لفظ الامر ان يجعل أخي مرفوعا على الابتداء واشدد به خبره ويوقف على هرون (المسئلة الثانية) الازر القوة وآزره قواه قال تعالى فآزره أي أعانه قال أبو عبيدة أزري أي ظهري وفي كتاب الخليل الازر الظهر (المسئلة الثالثة) انه عليه السلام لما طلب من الله تعالى أن يجعل هرون وزيرا له طلب منه أن يشد به أزره ويجعله ناصرا له لانه لا اعتماد على القرابة (المطلوب الثامن) قوله وأشركه في أمري والامر ههنا النبوة وانما قال ذلك لانه عليه السلام علم انه يشد به عضده وهو أكبر منه سنا وأفصح منه لسانا ثم انه سبحانه وتعالى حكى عنه ما لاجله دعا بهذا الدعاء فقال كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا والتسبيح يحتمل أن يكون باللسان وان يكون بالاعتقاد وعلى كلا التقديرين فالتسبيح تنزيه الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله عما لا يليق به وأما الذكر فهو عبارة عن وصف الله تعالى بصفات الجلال والكبرياء ولا شك ان النفي مقدم على الاثبات أما قوله تعالى انك كنت بنا بصيرا ففيه وجوه (أحدها) انك عالم بانا لا نريد بهذه الطاعات الا وجهك ورضاك ولا نريد بها أحدا سواك (وثانيها) كنت بنا بصيرا لان هذه الاستعانة بهذه الاشياء لاجل حاجتي في النبوة اليها

اللهم انا نعوذ بك من حلول غضبك قبل لما رأوا العلامات التي بينها صالح من اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا الى قتله عليه الصلاة والسلام فنجاه الله تعالى الى أرض فلسطين ولما كان صحو اليوم الرابع وهو يوم السبت تحنطوا وتكفنوا بالانطاع فأتتهم الصيحة فتقطعت قلوبهم فهلكوا (كأن لم يغنوا) أي كأنهم لم يقيموا (فيها) في بلادهم أو في مساكنهم وهو في موقع الحال أي

أصبحوا جاثمين مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم في مقام قط (ألا ان ثمود) وضع موضع الضمير لزيادة البيان ونونه أبو بكر هنا وفي النجم وقرأ حفص هنا وفي الفرقان والعنكبوت بغير تنوين (كفروا ربهم) صرح بكفرهم مع كونه معلوما مما سبق من أحوالهم تقبيحا لحالهم وتعليلا لاستحقاقهم بالدعاء ٣٨ عليهم بالبعد والهلاك في قوله تعالى (ألا بعدا لثمود) وقرأ الكسائي بالتنوين (ولقد جاءت

(وثالثها) انك تصير بوجوه مصالحنا فأعطنا ما هو أصلح لنا وانما قيد الدعاء بهذا الجلال ربه عن أن يتحكم عليه وتقدم ايضا الامر بالكلمة اليه ﴿قوله تعالى﴾ قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ولقد منا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني اذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسي اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴿اعلم ان السؤل هو الطلب فعل بمعنى مفعول كقولك خبز بمعنى مخبوز وأكل بمعنى مأكول واعلم ان موسى عليه السلام لما سأل ربه تلك الامور الثمانية وكان من المعلوم ان قيامه بما كلف به تكليف لا يتكامل الا باجابته اليها جرم أجابه الله تعالى اليها ليكون أغدر على الابلاغ على الحد الذي كلف فقال قد أوتيت سؤلك يا موسى وعدد ذلك من النعم العظام عليه لما فيه من وجوه المصالح ثم قال ولقد منا عليك مرة أخرى فنبه بذلك على أمور (أحدها) كأنه تعالى قال اني رأيت مصلحتك قبل سؤالك فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال (وثانيها) اني كنت قدير بينك فلو صنعتك الآن مطلوبك لكان ذلك ردا بعد القبول وإساءة بعد الاحسان فكيف يليق بكرمي (وثالثها) انا لما أعطيناك في الازمنة السالفة كل ما احتجت اليه ورقيناك من حالة نازلة الى درجة عالية دل هذا على أنا نصينك لمنصب عال ومهم عظيم فكيف يليق بمثل هذه الرتبة المنع من المطلوب وهنا سؤالان ﴿السؤال الاول﴾ لم ذكر تلك النعم بلفظ المنة مع ان هذه اللفظة لفظة مؤذية والمقام مقام التلطف (والجواب) انما ذكر ذلك ليعرف موسى عليه السلام أن هذه النعم التي وصلت اليه ما كان مستحقا لشئ منها بل انما خصه الله تعالى بها بمحض التفضل والاحسان ﴿السؤال الثاني﴾ لم قال مرة أخرى مع أنه تعالى ذكر منا كثيرة (والجواب) لم يعن بمرة أخرى مرة واحدة بل من لان ذلك قد يقال في القليل والكثير واعلم ان المنن المذكورة ههنا ثمانية ﴿المنة الاولى﴾ قوله اذ أوحينا الى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له أما قوله اذ أوحينا فقد اتفق الاكثرون على ان أم موسى عليه السلام ما كانت من الانبياء والرسل فلا يجوز أن يكون المراد من هذا الوحي هو الوحي الواصل الى الانبياء وكيف لا نقول ذلك والمرأة لا تصلح للقضاء والامامة بل عند الشافعي رحمه الله لا تمكن من تزويجها نفسها فكيف تصلح للنبوة ويدل عليه قوله تعالى وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم وهذا صريح في الباب وأيضا فالوحي قد جاء في القرآن لا بمعنى النبوة قال تعالى وأوحى ربك الى النحل وقال واذ أوحيت الى الحواريين ثم اختلفوا في المراد بهذا الوحي على وجوه (أحدها) المراد رؤيا رأتها أم موسى عليه السلام وكان تأويلها وضع موسى عليه السلام في التابوت وقذفه في البحر وأن الله تعالى يرده اليها (وثانيها) ان المراد عزيمة جازمة وقعت في قلبها دفعة واحدة فكل من تفكر فيما وقع اليه ظهر له الرأي الذي هو أقرب الى الخلاص ويقال لذلك الخاطر انه وحي (وثالثها) المراد منه الالهام لكنا متى بحثنا عن الالهام كان معناه خطور رأي بالبال وغلبة على القلب فصيرنا هذا هو الوجه الثاني وهذه الوجوه الثلاثة يعترض عليها بأن الالقاء في البحر قريب من الاهلاك وهو مما والخوف الحاصل من القتل المعتاد من فرعون فكيف يجوز الاقدام على أحد هما لاجل الصيانة عن الثاني * والجواب لعلها عرفت بالاستقراء صدق رؤياها فكان اقضاء الالقاء في البحر الى السلامة أغلب على ظنها من وقوع الولد في يد فرعون (ورابعها) لعله

رسلنا ابراهيم) وهم الملائكة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم جبريل وملكان وقيل هم جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن محمد بن كعب جبريل ومعه سبعة وعن السدي أحد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل كانوا اثني عشر ملكا وانما أسند اليهم مطلق المجيء بالبشرى دون الارسال لانهم لم يكونوا مرسلين اليه عليه السلام بل الى قوم لوط لقوله تعالى انا أرسلنا الى قوم لوط وانما جاؤه لداعية البشرى ولما كان المقصود في السورة الكريمة ذكر سوء صنيع الامم السالفة مع الرسل المرسلة اليهم ولحوق العذاب بهم بسبب ذلك ولم يكن جميع قوم ابراهيم عليه الصلاة والسلام ممن لحق بهم العذاب بل انما لحق قوم لوط منهم خاصة غير الاسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى والى عاد أخاهم هودا والى ثمود أخاهم صالحا ثم رجع اليه حيث قيل والى مدين أخاهم شعيبا (بالبشرى) أي ملتبسين بها قيل هي مطلق البشرى المنقطعة للبشارة بالولد من سارة لقوله تعالى فبشرناها باسحق الآية وقوله تعالى وبشرناه بغلام حليم وقوله وبشروه بغلام عليم وللبشارة بعدم لحوق الضرر به لقوله تعالى فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى أظهر رتفرع المجادلة على جميعها كما سيأتي وقيل هي البشارة بهلاك قوم لوط وبأباه مجادلته عليه

اوحى

الصلاة والسلام في شأنهم والاظهر أنها البشارة بالولد وستعرف سر تفرع المجادلة على ذلك ولما كان الاخبار بمعنى مظنة لسؤال السامع بأنهم ماقالوا أجيب بأنهم (قالوا سلاما) أى سلمنا أونسلم عليك سلاما ويجوز أن يكون نصبه بقالوا أى قالوا قولا ذا سلام أوذكروا سلاما (قال سلام) أى عليكم سلام أوسلام عليكم حياهم باحسن من تحيتهم وقرئ سلم ٣٩ لتحرم فى حرام وقرأ ابن أبى عبلة قال سلاما وعنه أنه قرأ بالرفع فيهما (فما لبث) أى ابراهيم (أن جاء بعجل) أى فى المجىء به أومالبث مجيئه بعجل (حنيذ) أى مشوى بالرصف فى الاخدود وقيل سمين يقطر ودكه لقوله بعجل سمين من حنذت الفرس اذا عرقته بالجلال (فلما رأى أيديهم لاتصل اليه) لايمدون اليه أيديهم للاكل (نكرهم) أى أنكرهم يقال نكره وأنكره واستنكره بمعنى وانما أنكرهم لانهم كانوا اذا نزل بهم ضيف ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجئ بخير وقد روى أنهم كانوا يهابون بقداح كانت فى أيديهم فى اللحم ولاتصل اليه أيديهم وهذا الانكار منه عليه الصلاة والسلام راجع الى فعلهم المذكور وأما انكاره المتعلق بأنفسهم فلا تعلق له برؤية عدم أكلهم وانما وقع ذلك عند رؤيته لهم لعدم كونهم من جنس ما كان يعهده من الناس الا يرى الى قوله تعالى فى سورة الذاريات سلام قوم منكرون (وأوجس منهم) أى أحس أوأضمر من جهتهم (خيفة) لما ظن أن نزولهم لامر أنكره الله تعالى عليه أولتعذيب قومه وانما أخر للفصل الصريح عن الظرف لان المراد الاخبار بانه عليه الصلاة والسلام أوجس من جهتهم شيأ هو الخيفة لا أنه أوجس الخيفة من جهتهم لامن جهة غيرهم وتحقيقه أن تأخير ماحقه التقديم يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن (قالوا لاتخف)

أوحى الى بعض الانبياء فى ذلك الزمان كشعيب عليه السلام أوغيره ثم ان ذلك النبى عرفها اما مشافهة أوبرسالة واعترض عليه بأن الامر لو كان كذلك لما فهمها من أنواع الخوف ما فهمها والجواب ان ذلك الخوف كان من لوازم البشرية كما أن موسى عليه السلام كان يخاف فرعون مع ان الله تعالى كان يأمره بالذهاب اليه مرارا (وخاصمها) لعل الانبياء المتقدمين كابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام أخبروا بذلك وانتهى ذلك الخبر الى تلك المرأة (وساءتها) لعل الله تعالى بعث اليها ملكا الاعلى وجه النبوة كما بعث الى مريم فى قوله فتمثل لها بشرا سويا واما قوله ما يوحى فمعناه وأوحينا الى أملك ما يجب أن يوحى وانما وجب ذلك الوحى لان الواقعة واقعة عظيمة ولاسبيل الى معرفة المصلحة فيها الا بالوحى فكان الوحى واجبا وأما قوله تعالى أن اقذفيه ففيه مسائل (المسئلة الاولى) أن هى المفسرة لان الوحى بمعنى القول (المسئلة الثانية) القذف مستعمل فى معنى الالقاء والوضع ومنه قوله تعالى وقذف فى قلوبهم الرعب (المسئلة الثالثة) روى أنها اتخذت تابوتا وجعلت فيه قطنا محلوجا ووضعت فيه موسى عليه السلام وقيرت رأسه وشقوقه بالقار ثم ألقته فى النيل وكان يشرع منه نهر كبير فى دار فرعون فبيناهو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية اذ تابوت يجىء به الماء فلما رآه فرعون أمر الغلمان والجوارى باخراجه فاخرجوه وفتحوا رأسه فاذا صبى من أصبح الناس وجها فلما رآه فرعون أحبه وسيأتى تمام القصص فى سورة القصص قال مقاتل ان الذى صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون (المسئلة الرابعة) اليم هو البحر والمراد به ههنا نيل مصر فى قول الجميع وأليم اسم يقع على البحر وعلى النهر العظيم (المسئلة الخامسة) قال الكسائى الساحل فاعل بمعنى مفعول سمى بذلك لان الماء يسحله أى يقذفه الى أعلاه (المسئلة السادسة) قال صاحب الكشاف الضمائر كلها راجعة الى موسى عليه السلام ورجوع بعضها اليه وبعضها الى التابوت يؤدى الى تنافر النظم فان قيل المقذوف فى البحر هو التابوت وكذا الملقى الى الساحل قلنا لا بأس بأن يقال المقذوف والملقى هو موسى عليه السلام فى جوف التابوت حتى لا تتفرق الضمائر ولا يحصل التنافر (المسئلة السابعة) لما كان تقدير الله تعالى أن يجرى ماء اليم ويلقى بذلك التابوت الى الساحل سلك فى ذلك سبيل المجاز وجعل اليم كأنه ذو تمييز أمر بذلك ليطيع الامر ويمتثل رسمه فقيل فليلقه اليم بالساحل أما قوله يأخذه عدو لى وعدو له ففيه أبحاث (البحث الاول) قوله يأخذه جواب الامر أى اقذفيه يأخذه (البحث الثانى) فى كيفية الاخذ قولان (أحدهما) ان امرأة فرعون كانت بحيث تسقى الجوارى فبصرت بالتابوت فأمرت به فأخذت التابوت فهكذا المراد من أخذ فرعون التابوت قوله له واستحبابها اياه (الثانى) ان البحر ألقى التابوت بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون ثم أداه النهر الى بركة فرعون فلما رآه أخذه (البحث الثالث) قوله يأخذه عدو لى وعدو له فيه اشكال وهو ان موسى عليه السلام لم يكن ذلك الوقت بحيث يعادى وجوابه اما كونه عدوا لله من جهة كفره وعتوه فظاهر وأما كونه عدوا لموسى عليه السلام فيحتمل من حيث انه لو ظهر له حاله لقتله ويحتمل انه من حيث يئول أمره الى ما آل اليه من العداوة (المنة الثانية) قوله وألقيت عليك محبة منى وفيه قولان (الاول) وألقيت عليك محبة هى منى قال الزمخشرى منى لا يخلوا ما أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى على انى أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب واما أن يتعلق بمحذوف وهذا هو القول الثانى ويكون ذلك المحذوف صفة لمحبة أى وألقيت عليك محبة حاصلة منى واقعة بخلقى فلذلك أحبتك امرأة فرعون حتى قالت قرة عين لى ولك لا تقتلوه وروى انه كانت على وجهه مسحة جمال وفى عينيه ملاحة لا يكاد يصبر عنه من رآه وهو كقوله تعالى سيجعل لهم الرحمن ودا قال القاضى هذا الوجه أقرب لانه فى حال صغره لا يكاد يوصف بمحبة الله

ما قالوه بمجرد ما رأوا منه محايل الخوف ازالة له عنه بل بعد اظهاره عليه الصلاة والسلام له قال تعالى في سورة الحجر قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين صريح في انهم قالوه جوابا عن سؤاله عليه الصلاة والسلام وقد أوجز الكلام اكتفاء بذلك (وامرأته قائمة) وراء الستر بحيث تسمع محاورتهم أو على رؤوسهم للخدمة حسبما هو المعتاد والجملة حال من ضمير قالوا اى قالوه وهي قائمة تسمع مقالتهم (فضحكت) سرورا بزوال الخوف او بهلاك أهل الفساد أو بهما جميعا وقيل بوقوع الامر حسبما كانت تقول فيما سلف فانها كانت تقول لابراهيم اضمم اليك لوطا فاني أرى أن العذاب نازل بهؤلاء القوم وقيل ضحكت حاضت ومنه ضحكت الشجرة اذا سال صمغها وهو بعيد وقرئ بفتح الحاء (فبشرناها باسحق) أي عقبنا سرورها بسرورأتم منه على ألسنة رسلنا (ومن وراء اسحق يعقوب) بالنصب على أنه مفعول لمادل عليه قوله ننبئها أي ووهبنا لها من وراء اسحق يعقوب وقرئ بالرفع على الابتداء خبره الظرف أي من بعد اسحق يعقوب مولودا أو موجودا وكذا الامعين داخل في البشارة كيحيى أو واقع في الحكاية بعد أن ولدا فسمي بذلك وتوجيه البشارة في ذلك ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد وجهت اليه حيث قيل وبشرناه بغلام حليم وبشروه بغلام عليم للايذان بأن ما بشر به يكون منهما ولكونها عقيمة حريصة على الولد (قالت) استئناف ورد جوابا عن سؤال من سأل وقال فماذا علمت اذ بشرت بذلك

تعالى التي ظاهرها من جهة الدين لان ذلك انما يستدعي عمل في المكلف من حيث استحقاق الثواب والمراد ان ماذكر من كيفيته في الخلقة يشتمل و يغتبط به فكذلك كانت حاله مع فرعون وامرأته وسهل الله تعالى له منهما في التربية مالا مزيد عليه و يمكن أن يقال بل الاحتمال الاول أرجح لان الاحتمال الثاني يحوج الى الاضمار وهو أن يقال والقيت عليك محبة حاصلة مني بواقعة بتخليقي وعلى التقدير الاول لاحاجة الى هذا الاضمار بقي قوله انه حال صباه لا يحصل له محبة الله تعالى قلنا لانسلم فان محبة الله تعالى يرجع معناها الى ايصال النفع الى عباده وهذا المعنى كان حاصلا في حقه في حال صباه وعلم الله تعالى أن ذلك يستمر الى آخر عمره فلاجرم أطلق عليه لفظ المحبة المنة الثالثة قوله ولتصنع على عيني قال القفال لترى على عيني أي على وفق ارادتي ومجاز هذا ان من صنع لانسان شيأ وهو حاضر ينظر اليه صنعه له كما يحب ولا يمكنه أن يفعل ما يخالف غرضه فكذا ههنا وفي كيفية المجاز قولان (الاول) المراد من العين العلم أي ترى على علم مني ولما كان العالم بالشيء يحرسه عن الآفات كما أن الناظر اليه يحرسه عن الآفات أطلق لفظ العين على العلم لاشتباههما ومما من هذا الوجه (الثاني) المراد من العين الحراسة وذلك لان الناظر الى الشيء يحرسه عما يؤذيه فالعين كأنها سبب الحراسة فاطلق اسم السبب على المسبب مجازا وهو كقوله تعالى انني معكما أسمع وأرى ويقال عين الله عليك اذا دعا لك بالحفظ والحياطة قال القاضي ظاهر القرآن يدل على أن المراد من قوله ولتصنع على عيني الحفظ والحياطة كقوله تعالى اذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كي تقر عينها ولا تحزن فصار ذلك كالتفسير لحياطة الله تعالى له * بقي ههنا بحثان (الاول) الواو في قوله ولتصنع على عيني فيه ثلاثة أوجه (أحدها) كأنه قيل والقيت عليك محبة مني لتصنع على عيني ثم يكون قوله اذ تمشي أختك متعلقا بأول الكلام وهو قوله ولتصنع على عيني (وثانيها) يجوز أن يكون قوله اذ تمشي أختك ما يوحي الى أمك ما يوحى (وثالثها) يجوز أن يكون قوله ولتصنع على عيني متعلقا بما بعده وهو قوله اذ تمشي وذكرنا مثل هذين الوجهين في قوله وليكون من الموقنين (وثالثها) يجوز أن تكون الواو مقحمة أي والقيت عليك محبة مني لتصنع وهذا ضعيف (الثاني) قرئ ولتصنع بكسر اللام وسكونها والجزم على انه أمر وقرئ ولتصنع بفتح التاء والنصب أي وليكون عملك وتصرفك على علم مني (المنة الرابعة) قوله اذ تمشي أختك واعلم أن العامل في اذ تمشي ألقيت أو تصنع روى أنه لما فشا الخبر بمصر ان آل فرعون أخذوا غلاما في النيل وكان لا يرتضع من ثدي كل امرأة يؤتى بها الان الله تعالى قد حرم عليه المراضع غير امه اضطروا الى تتبع النساء فلما رأت ذلك أخت موسى جاءت اليهم متنكرة فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ثم جاءت بالام فقبل ثديها فرجع الى أمه بما لطف الله تعالى له من هذا التدبير أما قوله تعالى فرجعناك الى أمك أي رددناك وقاله في موضع آخر فرددناه الى أمه وهو كقوله قال رب ارجعون أي ردوني الى الدنيا أما قوله كي تقر عينها ولا تحزن فالمراد أن المقصود من ردك اليها حصول السرور لها وزوال الحزن عنها * فان قيل لو قال كي لا تحزن وتقر عينها كان الكلام مفيدا لانه لا يلزم من نفي الحزن حصول السرور لها وأما لما قال أولا كي تقر عينها كان قوله بعد ذلك ولا تحزن فضلا لانه متى حصل السرور وجب زوال الغم لا محالة * قلنا المراد انه تقر عينها بسبب وصولك اليها فيزول عنها الحزن بسبب عدم وصول ابن غيرها الى باطنك (والمنة الخامسة) قوله وقتلت نفسا فنجيناك من الغم فالمراد به وقتلت بعد كبرك نفسا وهو الرجل الذي قتله خطأ بأن وكزه حيث استغاثه الاسرائيلي عليه وكان قبطيا فحصل له الغم من وجهين (أحدهما) من عقاب الدنيا وهو اقتصاص فرعون منه على ما حكى الله تعالى عنه فأصبح

فما خطبكم أيها المرسلون قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين صريح في انهم قالوه جوابا عن سؤاله عليه الصلاة والسلام وقد أوجز الكلام اكتفاء بذلك (وامرأته قائمة) وراء الستر بحيث تسمع محاورتهم أو على رؤوسهم للخدمة حسبما هو المعتاد والجملة حال من ضمير قالوا اى قالوه وهي قائمة تسمع مقالتهم (فضحكت) سرورا بزوال الخوف أو بهلاك أهل الفساد أو بهما جميعا وقيل بوقوع الامر حسبما كانت تقول فيما سلف فانها كانت تقول لابراهيم اضمم اليك لوطا فاني أرى أن العذاب نازل بهؤلاء القوم وقيل ضحكت حاضت ومنه ضحكت الشجرة اذا سال صمغها وهو بعيد وقرئ بفتح الحاء (فبشرناها باسحق) أي عقبنا سرورها بسرورأتم منه على ألسنة رسلنا (ومن وراء اسحق يعقوب) بالنصب على أنه مفعول لمادل عليه قوله ننبئها أي ووهبنا لها من وراء اسحق يعقوب وقرئ بالرفع على الابتداء خبره الظرف أي من بعد اسحق يعقوب مولودا أو موجودا وكذا الامعين داخل في البشارة كيحيى أو واقع في الحكاية بعد أن ولدا فسمي بذلك وتوجيه البشارة في ذلك ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد وجهت اليه حيث قيل وبشرناه بغلام حليم وبشروه بغلام عليم للايذان بأن ما بشر به يكون منهما ولكونها عقيمة حريصة على الولد (قالت) استئناف ورد جوابا عن سؤال من سأل وقال فماذا علمت اذ بشرت بذلك

فقيل قالت (ياويلتا) أصل الويل الحزن ثم شاع في كل أمر فظيع والالف مبدلة من ياء الاضافة كما في يالهفا ويا عجبا وقرأ الحسن على الاصل وأما لها أبو عمرو وعاصم في رواية ومعناه ياويلتي احضري فهذا أوان حضورك وقيل هي ألف الندبة ويوقف عليها بها، السكت (ألد وأنا عجوز) بنت تسعين أو تسع وتسعين سنة (وهذا) الذي تشاهدونه (بعلي) ٤١ أي زوجي وأصل البعل القائم بالامر (شيخا) وكان ابن مائة وعشرين سنة ونصبه على الحال والعامل معنى الاشارة وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدا محذوف أي هو شيخ أو خبر بعد خبر أو هو الخبر وبعلي بدل من اسم الاشارة أو بيان له وكلما الجملتين وقعت حالا من الضمير في ألد لتقرير ما فيه من الاستبعاد وتعليله أي ألد وكلا نا على حالة مناقضة لذلك وانما قدمت بيان حالها على بيان حاله عليه الصلاة والسلام لان مباينة حالها لما ذكر من الولادة أكثر اذ ربما يولد للشيوخ من الشواب أما العجائز ذوات عقام ولان البشارة متوجهة اليها صاحبة الحاول لان العكس في البيان ربما يوهم من أول الامر نسبة المانع من الولادة الى جانب ابراهيم عليه الصلاة والسلام وفيه ما لا يخفى من المحذور وانتصارها الاستبعاد على ولادتها من غير تعرض لحال الفاعلة لانها المستبعد وأما ولادة ولدها فسيلا يتعلق بها الاستبعاد (ان هذا) أي ما ذكر من حصول الولد من هرمين

في المدينة خائفا يترقب (والآخر) من عقاب الله تعالى حيث قتله لا بأمر الله فنجاه الله تعالى من الغمين أما من فرعون فحين وفق له الهجرة الى مدين وأما من عقاب الآخرة فلأنه سبحانه وتعالى غفر له ذلك (المنة السادسة) قوله وفتناك فتونا وفيه أبحاث (البحث الاول) في قوله فتونا وجهان (أحدهما) أنه مصدر كالكوف والجلوس والمعنى وفتناك حقا وذلك على مذهبهم في تأكيد الاخبار بالمصادر كقوله تعالى وكلم الله موسى تكليما (والثاني) أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحيض وبدور في حيزة وبدرة أي فتناك ضروبا من الفتن وههنا سؤالان (السؤال الاول) أن الله تعالى عدد أنواع منته على موسى عليه السلام في هذا المقام فكيف يليق بهذا الموضع قوله وفتناك فتونا (الجواب) عنه من وجهين (أحدهما) أن الفتنة تشديد المحنة يقال فتن فلان عن دينه اذا اشتهت عليه المحنة حتى رجع عن دينه قال تعالى فاذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله وقال تعالى ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وقال أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله فالزلزلة المذكورة في الآية ومس البأساء والضراء هي الفتنة والفتون ولما كان التشديد في المحنة مما يوجب كثرة الثواب لاجرم عدد الله تعالى من جملة النعم (وثانيها) فتناك فتونا أي خلصناك تخليصا من قولهم فتنت الذهب من الفضة اذا أردت تخليصه وسأل سعيد بن جبير ابن عباس عن الفتون فقال نستأنف لك نهارا يا ابن جبير ثم لما أصبح أخذ ابن عباس يقرأ عليه الآيات الواردة في شأن موسى عليه السلام من ابتداء أمره فذكر قصة فرعون وقتله أولاد بني اسرائيل ثم قصة القاء موسى عليه السلام في اليم والتقاط آل فرعون اياه وامتناعه من الارتضاع من الاجانب ثم قصة أن موسى عليه السلام أخذ غيظ فرعون ووضعه الجمرة في فيه ثم قصة قتل القبطي ثم هربه الى مدين وصيرورته أجيرا للشعيب عليه السلام ثم عوده الى مصر وأنه أخطأ الطريق في الليلة المظلمة واقتبس نارا بالنار من الشجرة وكان عند تمام كل واحد من هذه الوقائع يقول هذا من الفتون يا ابن جبير (السؤال الثاني) هل يصح اطلاق اسم الفتان عليه سبحانه اشتقاقا من قوله وفتناك فتونا (والجواب) لا لانه صفة ذم في العرف وأسماء الله تعالى توقيفية لا سيما فيما يوهم ما لا ينبغي (المنة السابعة) قوله تعالى فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى وعلم أن التقدير وفتناك فتونا فخرجت خائفا الى أهل مدين فلبثت سنين فيهم أما مدة اللبث فقال أبو مسلم انها عشر وحجته في قوله تعالى ولما توجه تلقاء مدين الى قوله فلما قضى موسى الاجل وهي اما عشرة واما ثمان لقوله تعالى على أن تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وقال وهب لبث موسى عليه السلام عند شعيب عليه السلام ثمانيا وعشرين سنة منها عشرين مهر امرأته والآية تدل على أنه عليه السلام لبث عنده عشرين وليس فيها ما ينفي الزيادة على العشر واعلم أن قوله فلبثت سنين في أهل مدين بعد قوله وفتناك فتونا كالدلالة على أن لبثه في مدين من الفتون وكذلك كان فانه عليه السلام تحمل بسبب الفقر والغربة محنا كثيرة واحتاج الى أن آجر نفسه أما قوله تعالى ثم جئت على قدر يا موسى فلا بد من حذف في الكلام لانه على قدر أمر من الامور وذكروا في ذلك المحذوف وجوها (أحدها) أنه سبق في قضائي وقدري أن أجعلك رسولا الى فرعون في وقت معين عند تلك فما جئت الا على ذلك القدر لا قبله ولا بعده ومنه قوله انا كل شيء خلقناه بقدر (وثانيها) على مقدار من الزمان يوحى فيه الى الانبياء وهو رأس أربعين سنة (وثالثها) ان القدر هو الموعد فان ثبت أنه تقدم هذا الموعد صح حمله عليه

مثلة (لشيء عجيب) بالنسبة الى سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده وهذه الجملة لتعليل الاستبعاد بطريق الاستئناف التحقيقي ومقصد هامة مقام تعظيم نعمة الله تعالى عليهم في ضمن الاستعجاب المادي لا ذات ما ذكر بالنسبة الى قدرته سبحانه وتعالى (قالوا أتعجبين من أمر الله) أي قدرته وحكمته أو تكوينه أو شأنه أنكروا عليها التعجب لما من ذلك لانها كانت ناشئة في

بيت النبوة وموهبط الوحي والآيات ومظاهر المعجزات والامور الخارقة للعادات فكان حقها أن تتوفر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء من أمثال هذه الخوارق من ألطاف الله تعالى الخفية ولطائف صنعه الفائضة على كل أحد مما يتعلق بذلك بمشيئته الازلية لاسيما على أهل بيت النبوة الذين ليست مرتبتهم عند الله ٤٢ سبحانه كمراتب سائر الناس وأن تسبح الله تعالى وتحمده وتمجده والى ذلك أشاروا

ولا يمتنع ذلك لاحتمال أن شعيبا عليه السلام أو غيره من الانبياء كانوا قد عينوا ذلك الموعد فان قيل كيف ذكر الله تعالى يحيى وموسى عليهما السلام في ذلك الوقت من جملة من منه عليه قلنا لانه لولا توفيقه لما تهيأ له شئ من ذلك ﴿المنة الثامنة﴾ قوله تعالى واصطنعتك لنفسي والاصطناع اتخاذ الصنعة وهي اقتعال من الصنع يقال اصطنع فلان فلانا أي اتخذه صنيعة فان قيل انه تعالى غني عن الكل فما معنى قوله لنفسي والجواب عنه من وجوه (الاول) ان هذا تمثيل لانه تعالى لما أعطاه من منزلة التقريب والتكريم والتكليم مثل حاله بحال من يراعي الملوك لجوامع خصال فيه أهلا لأن يكون أقرب الناس منزلة اليه وأشدهم قربا منه (وثانيها) قالت المعتزلة انه سبحانه وتعالى اذا كلف عباده وجب عليه أن يلطف بهم ومن جملة الالطاف ما لا يتم الا بهما فلو لم يصطنعه بالرسالة لبقي في عهدة الواجب فصار موسى عليه السلام كالنائب عن ربه في أداء ما وجب على الله تعالى فصح أن يقول واصطنعتك لنفسي قال القفال واصطنعتك أصله من قولهم اصطنع فلان فلانا اذا أحسن اليه حتى يضاف اليه فيقال هذا صنيع فلان وجريح فلان وقوله لنفسي أي لأصرفك في أوامري الخ لا تشتغل بغير ما أمرتك به وهو اقامة حجتي وتبليغ رسالتي وأن تكون في حركاتك وسكناتك لي لا لنفسك ولا لغيرك واعلم أنه سبحانه وتعالى لما عدد عليه المنن الثمانية في مقابلة تلك الالتفاتات الثمانية رتب على ذكر ذلك أمرا ونهيا أما الامر فهو انه سبحانه وتعالى أعاد الامر بالاول فقال اذهب أنت وأخوك بآياتي واعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال واصطنعتك لنفسي عقيبه بذكر ما له اصطنعه وهو الابلاغ والاداء ثم ههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ الباء ههنا بمعنى مع وذلك لانهما لو ذهبا اليه بدون آياته معهما لم يلزمه الايمان وذلك من أقوى الدلائل على فساد التقليد ﴿المسئلة الثانية﴾ اختلفوا في الآيات المذكورة ههنا على ثلاثة أقوال (أحدها) انها اليد والعصا لانهما اللذان جرى ذكرهما في هذا الموضع وفي سائر المواضع التي اقتص الله تعالى فيها حديث موسى عليه السلام فانه تعالى لم يذكر في شئ منها أنه عليه السلام قد أوتي قبل مجيئه الى فرعون ولا بعد مجيئه حتى اتى فرعون فالتمس منه آية غيرهاتين الآيتين قال تعالى عنه قال فأت بآية ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين وقال فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه فاذا قيل لم قال لا كيف يطابق لفظ الجمع على الاثنين أجابوا بوجوه (الاول) ان العصا ما كانت آية واحدة بل كانت آيات فان انقلاب العصا حيوانا آية ثم انها في أول الامر كانت صغيرة لقوله تعالى تهتز كأنها جان ثم كانت تعظم وهذه آية أخرى ثم كانت تصير ثعبانا وهذه آية أخرى ثم ان موسى عليه السلام كان يدخل يده في فيها فما كانت تضره وموسى عليه السلام فهذه آية أخرى ثم كانت تنقلب خشبة فهذه آية أخرى وكذلك اليد فان بياضها آية وشعاعها آية أخرى ثم زوالهما بعد حصولهما آية أخرى فصح انهما كانتا آيات كثيرة لا آيتين (الثاني) هب أن العصا أمر واحد لكن فيها آيات كثيرة لان انقلابها حية يدل على وجود الله قادر على الكل عالم بالكل حكيم وبدل على نبوة موسى عليه السلام ويدل على جواز الحشر حيث انقلب الجماد حيوانا فهذه آيات كثيرة ولذلك قال ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا الى قوله فيه آيات بينات مقام ابراهيم فاذا وصف الشئ الواحد بان فيه آيات فالشيآن أولى بذلك (الثالث) من الناس من قال أقل الجمع اثنان على ما عرفت في أصول الفقه ﴿القول الثاني﴾ ان قوله اذهبا بآياتي معناه اني أمدكما بآياتي وأظهر على أيديكما من الآيات ما تزاح به العلل من فرعون وقومه فاذهبا فان آياتي معكما كما يقال اذهب فان جندي معك أي اني أمدك بهم متى احتجت ﴿القول الثالث﴾ ان الله تعالى آتاه العصا واليد وحل عقدة لسانه وذلك أيضا معجز فكانت الآيات

بقوله تعالى (رحمة الله) اتى وسعت كل شئ واستتبعت كل خير وانما وضع المظهر موضع المضمر لزيادة تشريفها (وبركاته) أي خيراته النامية المتكاثرة في كل باب التي من جملتها هبة الاولاد وقيل الرحمة النبوة والبركات الاسباط من بني اسرائيل لان الانبياء منهم وكلهم من ولد ابراهيم عليه الصلاة والسلام (عليكم أهل البيت) نصب على المدح أو الاختصاص لانهم أهل بيت خليل الرحمن وصرف الخطاب من صيغة الواحدة الى جمع المذكر لتعميم حكمه لابراهيم عليه الصلاة والسلام أيضا ليكون جوابهم لها جوابا له أيضا ان خطر بباله مثل ما خطر ببالها والجملة كلام مستأنف علل به انكار تعجبها كأنه قيل ليس المقام مقام التعجب فان الله تعالى على كل شئ قدير واسع يا أهل بيت النبوة والكرامة والزلفى كسائر الطوائف فضل رحمته المستتبعة لكل خير الواسعة لكل شئ وبركاته أي خيراته النامية المتكاثرة في كل باب التي من جملتها هبة الاولاد وقيل الرحمة النبوة والبركات الاسباط من بني اسرائيل لان الانبياء منهم وكلهم من ولد ابراهيم عليه الصلاة والسلام (عليكم أهل البيت) نصب على المدح أو الاختصاص لانهم أهل بيت خليل الرحمن وصرف الخطاب من صيغة الواحدة الى جمع المذكر لتعميم حكمه لابراهيم عليه الصلاة والسلام أيضا ليكون جوابهم لها جوابا له أيضا ان خطر بباله مثل ما خطر ببالها والجملة كلام مستأنف علل به انكار تعجبها كأنه قيل ليس المقام مقام التعجب فان الله تعالى على كل شئ قدير واسع يا أهل بيت النبوة والكرامة والزلفى كسائر الطوائف فضل رحمته المستتبعة لكل خير الواسعة لكل شئ وبركاته أي خيراته النامية الفائضة منه بواسطة تلك الرحمة الواسعة لازمة لكم لا تفارقكم

الآيات

(انه حميد) فاعل ما يستوجب الحمد (مجيد) كثير الخير والاحسان الى عباده والجملة لتعليل ما سبق من قوله رحمة الله وبركاته عليكم (فلما ذهب عن ابراهيم الروع) أي ما أوجس منهم من الخيفة واطمأن قلبه بعرفانهم وعرفان سبب مجيئهم والفاء لربط بعض أحوال ابراهيم

عليه الصلاة والسلام بعض غيب انفصالها بما ليس بأجنبي من كل وجه بل له مدخل تام في السياق والسياق وتأخير الفاعل عن الظرف لانه معصب الفائدة فان بتأخير ما حقه التقديم يبقى النفس متطلعة الى وروده فيتمكن فيها عند وروده اليها فضل تمكن (وجاءته البشرى) ان فسرت البشرى بقولهم لا تخف فسببه اذهاب الخوف ومجيء السرور لدلالة المدلول عليها بقوله تعالى

(يجادلنا في قوم لوط) أي جادل رسلنا في شأنهم وعدل الى صيغة الاستقبال لاستحضار صورتها أو وفق يجادلنا ظاهرة وأما من فسرت بشارة الولد أو بما يعمها فالمراد سببيتها لها من حيث انها تفيد زيادة اطمئنان قلب بسلامته وسلامة أهله كافة ومجادلته اياهم أنه قال لهم حين قالوا له انا مهلكو أهل هذه القرية أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال أرأيتم ان كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله ان قيل المتبادر من هذا الكلام أن يكون ابراهيم عليه السلام قد علم أنهم مرسلون لاهلاك قوم لوط قيل ذهاب الروع عن نفسه ولكن لم يقدر على مجادلتهم في شأنهم لاشتغاله بشأن نفسه فلما ذهب عنه الروع فرغ لها مع أن ذهاب الروع انما هو قبل العلم بذلك

الآيات ثلاثة هذا هو شرح الامر أما النهي فهو قوله تعالى ولا تنافي ذكري الفتور والتقصير قوي ولا تنابا بكسر حرف المضارعة للاتباع ثم قيل فيه أقوال (أحدها) النهي لا تتهاونا أو تتوانيا في ذكري آلة التفعيل المقاصد واعتقد ان أمرا من الامور لا يتمشى لاحد الا بذكري والحكمة فيه ان من ذكر جلال الله استحقر غيره فلا يخاف أحدا ولان من ذكر جلال الله تقوى وجده بذلك الذكر فلا يضعف في المقصود ولان ذاكر الله تعالى لا بد وأن يكون ذاكرا لاحسانه وذاكر احسانه لا يفتر في أداء أوامره (وثانيها) المراد بالذكر تبليغ الرسالة فان الذكر يقع على كل العبادات وتبليغ الرسالة من أعظمها فكان جديرا بان يطلق عليه اسم الذكر (وثالثها) قوله ولا تنابا في ذكري عند فرعون وكيفية الذكر هو أن يذكر الفرعون وقومه ان الله تعالى لا يرضى منهم بالكفر ويذكر لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب (ورابعها) أن يذكر لفرعون آلاء الله ونعماءه وأنواع احسانه اليه ثم قال بعد ذلك اذهبا الى فرعون انه طغى وفيه سؤالان الاول ما الفائدة في ذلك بعد قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي قال القفال فيه وجهان (أحدهما) أن قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي يحتمل أن يكون كل واحد منهما مأمورا بالذهاب على الانفراد فقيل مرة أخرى اذهبا ليعلم ان المراد منه أن يشتغلا بذلك جميعا لا أن يتفرد به هرون دون موسى (والثاني) ان قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي أمر بالذهاب الى كل الناس من بني اسرائيل وقوم فرعون ثم ان قوله اذهبا الى فرعون أمر بالذهاب الى فرعون وحده السؤال الثاني قوله اذهبا الى فرعون خطاب مع موسى وهرون عليهما السلام وهذا مشكل لان هرون عليه السلام لم يكن حاضرا هناك وكذا في قوله تعالى قالا ربنا انا نخاف ان يفرط علينا أو أن يطغى ❊ أجاب القفال عنه من وجوه (أحدها) أن الكلام كان مع موسى عليه السلام وحده الا أنه كان متبوعا هرون فجعل الخطاب معه خطابا مع هرون وكلام هرون على سبيل التقدير فالخطاب في تلك الحالة وان كان مع موسى عليه السلام وحده الا أنه تعالى أضافه اليهما كما في قوله واذ قتلتم نفسا وقوله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل وحكى ان القائل هو عبد الله بن أبي وحده (وثانيها) يحتمل أن الله تعالى لما قال قد أوتيت سؤلك يا موسى سكت حتى لقي أخاه ثم ان الله تعالى خاطبهما بقوله اذهبا الى فرعون (وثالثها) أنه حكى انه في مصحف ابن مسعود وحفصة قال ربنا انا نخاف أي قال موسى أنا وأخي نخاف فرعون ❊ أما قوله تعالى فقولا له قولا لينا ففيه سؤالان ❊ (الاول) لم أمر الله تعالى موسى عليه السلام باللين مع الكافر الجاحد ❊ الجواب لوجهين (الاول) أنه عليه السلام كان قد رباه فرعون فأمره أن يخاطبه بالرفق رعاية لتلك الحقوق وهذا تنبيه على نهاية تعظيم حق الابوين (الثاني) ان من عادة الجبابرة اذا غلظ لهم في الوعظ أن يردوا واعتزوا وتكبروا والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر فلهذا أمر الله تعالى بالرفق ❊ (السؤال الثاني) كيف كان ذلك الكلام اللين ❊ الجواب ذكر وا فيه وجوها (أحدها) ما حكى الله تعالى بعضه فقال هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى وذكر أيضا في هذه السورة بعض ذلك فقال فأتيا فقولا انا رسولا ربك الى قوله والسلام على من اتبع الهدى (وثانيها) ان تعدا شبابا لا يهرم بعده ولا كالا ينزع منه الا بالموت وان يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح الى حين موته (وثالثها) كنياه وهو من ذوي الكنى الثلاث أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة (ورابعها) حكى عن عمرو بن دينار قال بلغني ان فرعون عمر أربعمائة سنة وتسع سنين فقال له موسى عليه السلام ان أطعتني عمرت مثل ما عمرت فاذا مت فلك الجنة واعترضوا على هذه الوجوه الثلاثة الاخيرة (أما الاول) فقيل لو حصلت له هذه الامور الثلاثة في هذه المدة الطويلة لما ارذلك كالالجاء الى معرفة الله تعالى وذلك

قوله تعالى قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط ❊ قلنا كان لوط عليه السلام على شريعة ابراهيم عليه السلام وقوم مكلفين بها فلما رأى من الملائكة ما رأى خاف على نفسه وعلى كافة أمته التي من جملتهم قوم لوط ولا ريب في تقدم هذا الخوف على قولهم لا تخف وأما الذي علمه عليه السلام بعد النهي عن الخوف فهو اختصاص قوم لوط بالهلاك لا دخولهم تحت العموم فتأمل والله الموفق (ان ابراهيم لحليم) خبر

يحمل على الانتقام ممن أساء اليه (أواه) كثيرا التأوه على الذنوب والتأسف على الناس (منيب) راجع الى الله تعالى والمقصود بتعداد صفاته الجميلة المذكورة بيان ماحمله عليه السلام على ماصدر عنه من المجادلة (يا ابراهيم) أى قالت الملائكة يا ابراهيم (أعرض عن هذا الجدال (انه) أى الشأن (قد جاء أمر ربك) ٤٤ أى قدره الجارى على وفق قضائه الازلى الذى هو عبارة عن الارادة الازلية والعناية الالهية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص حسب تعلقها بالاشياء فى أوقاتها وهو المعبر عنه بالقدر (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) لايجدال ولايدعاء ولا بغيرهما (ولما جاءت رسلنا لوطا) قال ابن عباس رضى الله عنهما انطلقوا من عند ابراهيم عليه السلام الى لوط عليه السلام وبين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه فى صورة غلمان مرد حسان الوجوه فلذلك (ساىء بهم) أى ساءه مجيئهم لظنه أنهم أناس فخاف أن يقصدهم قومه ويجد زعن مدافعتهم وقرأ نافع وابن عامر والكسائى وأبو عمر وسىء وسيئت باشمام السين الضم * روى أن الله تعالى قال للملائكة لاتهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فلما مشى معهم منطلقا بهم الى منزله قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرها قال أشهد بالله انها لشر قرية فى الارض عملا يقول ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فغرت حتى امرأته فأخبرت به قومها وقالت ان فى بيت لوط رجلا مارأيت مثل وجوههم قط (وضاق بهم (احدها) ذرعا) أى ضاق بمكانهم صدره أوقلبه أووسعه وطاقته وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه وقيل ضاقت نفسه عن هذا الحادث وذكر الذرع مثل وهو المساحة وكأنه قدر البدن مجازا أى ان بدنه ضاق قدره من احتمال ماوقع وقيل الذراع

لايصح مع التكليف (وأما الثانى) فلان خطابه بالكتابة أمر سهل فلا يجوز أن يجعل ذلك هو المقصود من قوله فقولا له قولا لينا بل يجوز أن يكون ذلك من جملة المراد (وأما الثالث) فالاعتراض عليه كما فى الاول أما قوله تعالى لعله يتذكر أو يخشى فاعلم أنه ليس المراد أنه تعالى كان شاكا فى ذلك لان ذلك محال عليه تعالى وانما المراد فقولا له قولا لينا على أن تكونا راجين لان يتذكر وأو يخشى * واعلم ان أحوال القلب ثلاثة (أحدها) الاصرار على الحق (وثانيها) الاصرار على الباطل (وثالثها) التوقف فى الامرين وان فرعون كان مصرا على الباطل وهذا القسم أردأ الاقسام فقال تعالى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى فيرجع من انكاره الى الاقرار بالحق وان لم ينتقل من الانكار الى الاقرار لكنه يحصل فى قلبه الخوف فيترك الانكار وان كان لاينتقل الى الاقرار فان هذا خير من الاصرار على الانكار واعلم أن هذا التكليف لايعلم سره الا الله تعالى لانه تعالى لما علم انه لايؤمن قط كان اعلامه ضد ذلك العلم الذى يمتنع زواله فيكون سبحانه عالما بامتناع ذلك الايمان واذا كان عالما بذلك فكيف أمر موسى عليه السلام بذلك الرفق وكيف بالغ فى ذلك الامر بتلطيف دعوته الى الله تعالى مع علمه باستحالة حصول ذلك منه ثم هب ان المعتزلة يتازعون فى هذا الامتناع من غير أن يذكروا شبهة قادحة فى هذا السؤال ولكنهم سلموا أنه كان عالما بانه لايحصل ذلك الايمان رسلموا ان فرعون لايستفيد بعثة موسى عليه السلام الا استحقاق العقاب والرحيم الكريم كيف يليق به أن يدفع شكيبا الى من علم قطعا انه يمزق بهما بطن نفسه ثم يقول انى ماأردت بدفع السكين اليه الا الاحسان اليه يا أخى العقول قاصرة عن معرفة هذه الاسرار ولا سبيل فيها الا التسليم وترك الاعتراض والسكوت بالقلب واللسان وروى عن كعب انه قال والذى يحلف به كعب انه لمكتوب فى التوراة فقولا له قولا لينا رسلوا نفسى قلبه فلا يؤمن * قوله تعالى * (قالا ربنا انا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لاتخافا انى معكما أسمع وأرى فأتيا فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى) * اعلم أن قوله قالا ربنا انا نخاف فيه أسئلة (السؤال الاول) قوله قالا ربنا يدل على ان المتكلم بذلك موسى وهرون عليهما السلام وهرون لم يكن حاضرا هذا المقال فكيف ذلك وجوابه قد تقدم (السؤال الثانى) أن موسى عليه السلام قال رب اشرح لى صدرى فأجابه الله تعالى بقوله قد أوتيت سؤلك يا موسى وهذا يدل على انه قد اشرح صدره ويسر أمره فكيف قال بعد هذا نخاف فان حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر (والجواب) ان شرح الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الاوامر والنواهى وحفظ تلك الشرائع على وجه لايتطرق اليه السهو والتحريف وذلك شئ آخر غير زوال الخوف (السؤال الثالث) اما علم موسى وهرون وقد حملهما الله تعالى الرسالة انه تعالى يؤمنهما من القتل الذى هو مقطعة عن الاداء (الجواب) قد أمنا ذلك وان جوزا أن يناله ما السوء من قبل تمام الاداء أو بعده وأيضا فانهما استظهرا بأن سألا ربهما مايزيد فى ثبات قلبهما على دعائه وذلك بان يضاف الدليل النقلى الى العقلى زيادة فى لطمأنينة كما قال ولكن ليطمئن قلبى (السؤال الرابع) لما تكرر الامر من الله تعالى بالذهاب فعدم الذهاب والعمل بالخوف هل يدل على المعصية (الجواب) واقتضى الامر الفور لكان ذلك من أقوى الدلائل على المعصية لاسيما وقد أكثر الله تعالى من أنواع التشريف وتقويه القلب وازالة الغم ولكن ليس الامر على الفور فزال السؤال وهذا من أقوى الدلائل على ان الامر لايقتضى الفور اذا ضممت اليه مايدل على ان المعصية غير جائزة على الرسل أما قوله تعالى أن يفرط علينا أو أن يطغى فاعلم أن فى أن يفرط وجوها

اسم للعارضة من المرفق الى الانامل والذرع مدها ومعنى ضيق الذرع فى قوله تعالى ضاق بهم ذرعا قصرها كأن معنى سعتم او سعاها طولها ووجه التمثيل بذلك أن القصير الذراع اذا مد يده لم يتناول ما يتناول الطويل الذراع فتقاصر عنه وعجز عن تناوله فضرب به مثلا للذى قصرت طاقته دون بلوغ الامر (وقال هذا يوم عصيب) شديد من عصبه اذا شده (وجاءه) ٤٥ أى لوطا وهو فى بيته مع أضيافه (قومه يهرعون اليه) أى يسرعون كأنما يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه والجملة حال من قومه وكذا قوله تعالى (ومن قبل) أى من قبل هذا الوقت (كانوا يعملون السيآت) أى جاؤا مسرعين والحال أنهم كانوا منهمكين فى عمل السيآت فصاروا بها وتمرنوا فيها حتى لم يبق عندهم قباحتها ولذلك لم يستحيوا مما فعلوا من مجيئهم مهرعين مجاهرين (قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) فتزوجوهن وكانوا يطلبونهن من قبل ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم للعدد مشروعيته فان تزويج المسلمات من الكفار كان جائزا وقد زوج النبى عليه الصلاة والسلام ابنتيه من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص بن الربيع قبل الوحى وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه وما ما كان فقد أراد به وقاية ضيفه وذلك غاية الكرم وقيل ما كان ذلك القول منه مجرى على الحقيقة من ارادة النكاح بل كان ذلك مبالغة فى التواضع لهم واظهار الشدة واعتماضه مما أوردوا عليه طمعا فى أن يستحيوا منه ويرقوا له اذا سمعوا ذلك فيتزجروا عما أقدموا عليه مع ظهور الامر واستقرار العلم عنده وعندهم جميعا بأن لا مناكحة بينهم وبينه الا بسبب يقرلهم لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق كما ستقف عليه (فاتقوا الله) بترك الفواحش أو بايثارهن عليهم (ولا تخزون فى ضيفى)

(أحدها) فرط سبق وتقدم ومنه الفارط الذى يتقدم الوارد وفرس فرط يسبق الخيل والمعنى نخاف ان يعجل علينا بالعقوبة (وثانيها) انه مأخوذ من أفرط غيره اذا حمله على العجلة فكان موسى وهرون عليهما السلام خافا من أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقوبة وذلك الحامل هو اما الشيطان أو ادعاؤه للربوبية أو حمله للرياسة أو قومه وهم القبط المتمردون الذين حكى الله تعالى عنهم قال الملأ من قومه (وثالثها) يفرط من الافراط فى الاذية أما قوله أو أن يطغى فالمعنى يطغى بالتخطى الى أن يقول فيك ما لا ينبغى لجراءته عليك * واعلم أن من أمر بشئ فخاول دفعه بما عذا رد كرها فلا بد وأن يختم كلامه بما هو الاقوى وهذا كما أن الهدهد ختم عذره بقوله وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فكذا ههنا بدأ موسى بقوله أن يفرط علينا وختم بقوله أو أن يطغى لما أن طغيانه فى حق الله تعالى أعظم من افراطه فى حق موسى وهرون عليهما السلام أما قوله قال لا تخافا انني معكما أسمع وأرى فالمراد لا تخافا مما عرض فى قلبكما من الافراط والطغيان لان ذلك هو المفهوم من الكلام بين ذلك انه تعالى لم يؤمنهما من الرد ولا من التكذيب بالآيات ومعارضة السحرة أما قوله انني معكما فهو عبارة عن الحراسة والحفظ وعلى هذا الوجه يقال الله معك على وجه الدعاء وكذلك قوله أسمع وأرى فان من يكون مع الغير وناصرا له وحافظا يجوز أن لا يعلم كل ما يناله وانما يحرسه فيما يعلم فبين سبحانه وتعالى انه معهما بالحفظ والعلم فى جميع ما يناله مما ذلك هو النهاية فى ازالة الخوف قال الفقال قوله أسمع وأرى يحتمل أن يكون مقابلا لقوله أن يفرط علينا أو أن يطغى والمعنى يفرط علينا بأن لا يسمع منا أو أن يطغى بأن يقتلنا فقال الله تعالى انى معكما أسمع كلامه معكما فأحضره للاستماع منكما وأرى أفعاله فلا أترككما حتى يفعل بكما ما تكرهانه * واعلم أن هذه الآية تدل على أن كونه سميعا بصيرا صفتان زائدتان على العلم لان قوله انني معكما دل على العلم فقوله أسمع وأرى لو دل على العلم لكان ذلك تكريرا وهو خلاف الاصل ثم انه سبحانه أعاد ذلك التكليف فقال فأتيا فلانه سبحانه وتعالى قال فى المرة الاولى لغريك من آياتنا الكبرى اذهب الى فرعون وفى الثانية اذهب أنت وأخوك وفى الثالثة قال اذهبا الى فرعون وفى الرابعة قال ههنا فأتياه * فان قيل انه قبل انه تعالى أمرهما فى المرة الثانية بأن يقولا له قولا لينا وفى هذه المرة الرابعة أمرهما أن يقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل وفيه تغليط من وجوه (أحدها) ان قوله انا رسولا ربك فيه ايحاش (البحث الاول) انقياده اليهما والتزامه لطاعتهما وذلك ينظم على الملك المتبوع (البحث الثانى) قوله فأرسل معنا بنى اسرائيل فيه ادخال النقص على ملكه لانه كان محتاجا اليهم فيما يريده من الاعمال من بناء أو غيره (البحث الثالث) قوله ولا تعذبهم (البحث الرابع) قوله قد جئناك بآية من ربك فما الفائدة فى التلبيس أولا والتغليط ثانيا * قلنا ان الانسان اذا ظهر لحاجه فلا بد له من التغليظ فان قيل أليس كان من الواجب أن يقولا انا رسولا ربك قد جئناك بآية فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم لان ذكر المعجز مقرونا بادعاء الرسالة أولى من تأخيره عنه * قلنا ان هذا أولى من تأخيره عنه لانهم ذكروا مجموع الدعاوى ثم اتبعوا على ذلك المجموع بالمعجزة أما قوله قد جئناك بآية من ربك ففيه مسؤل وهى أنه تعالى أعطاه آيتين وهما العصا واليد ثم قال اذهب أنت وأخوك بآياتى وذلك يدل على ثلاث آيات وقال ههنا جئناك بآية وهذا يدل على انها كانت واحدة فكيف الجمع أجاب الفقال بان معنى الآية الاشارة الى جنس الآيات كأنه قال قد جئناك ببيان من عند الله ثم يجوز أن يكون ذلك بحجة واحدة أو بحجج كثيرة وأما قوله والسلام على من اتبع الهدى فقال بعضهم هو من قول الله تعالى لهما كأنه قال فقولا انا رسولا ربك وقولا له والسلام على من اتبع الهدى وقال آخرون

أى لا تفضحونى فى شأنهم فإن أخزاء ضيف الرجل وجاره أخزاه أولا تخجلونى من الخزاية وهى الحياء (أليس منكم رجل رشيد) يهتدى الى الحق الصريح ويرعوى عن الباطل القبيح (قالوا) معرضين عما نصحهم به من الامر بتقوى الله والنهى عن اخزائه مجيبين عن أول كلامه (لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق) ٤٦ مستشهدين بعلمه بذلك يعنون أنك قد علمت أن لا سبيل الى المناكحة بيننا وبينك

بل كلام الله تعالى قد تم بقوله قد جئتك بآية من ربك فقوله بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى وعيد من قبلهما لمن لم يصدق بالسلامة له من عقوبات الدنيا والآخرة والسلام بمعنى السلامة كما يقال رضاع ورضاعة واللام وعلى ههنا بمعنى واحد كما قال لهم اللعنة ولهم سوء الدار وعلى معنى عليهم وقال تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وفى موضع آخر ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها أما قوله انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى فاعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل على أن عقاب المؤمن لا يدوم وذلك لان الالف واللام فى قوله العذاب تفيد الاستغراق او تفيد الماهية وعلى التقديرين يقتضى انحصار هذا الجنس فمن كذب وتولى فوجب فى غير المكذب المتولى أن لا يحمل هذا الجنس أصلا وظاهر هذه الآية يقتضى القطع بانه لا يعاقب أحد من المؤمنين بترك العمل به فى بعض الاوقات فوجب أن يبقى على أصله فى نفى الدوام لان العقاب المتناهى اذا حصل بعده السلامة فقد صار غير متناهية صار ذلك العقاب كالعدم لا عقاب ذلك يحسن مع حصول ذلك القدر أن يقال انه لا عقاب وأيضا قوله والسلام على من اتبع الهدى وقد فسرنا السلام بالسلامة فظاهره يقتضى حصول السلامة لكل من اتبع الهدى والعارف بالله قد اتبع الهدى فوجب أن يكون صاحب السلامة ﴿قوله تعالى﴾ قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الاولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لاولى النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴿اعلم أنهما عليهما السلام لما قالا انا رسولا ربك قال لهما فمن ربكما يا موسى وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ان فرعون كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير العسكر ثم ان موسى عليه السلام لما دعاه الى الله تعالى لم يشتغل معه بالبطش والايذاء بل خرج معه فى المناظرة لما أنه لو شرع أولا فى الايذاء انسب الى الجهل والسفاهة فاستنكف من ذلك وشرع أولا فى المناظرة وذلك يدل على أن السفاهة من غير الحجة شئ ما كان يرتضيه فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف بما يليق ذلك بمن يدعى الاسلام والعلم ثم ان فرعون لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك قبل موسى ذلك السؤال واشتغل باقامة الدلالة على وجود الصانع وذلك يدل على فساد التقليد ويدل أيضا على فساد قول التعليمية الذين يقولون نستفيد معرفة الاله من قول الرسول لان موسى عليه السلام اعترف ههنا بأن معرفة الله تعالى يجب أن تكون متقدمة على معرفة الرسول ويدل على فساد قول الحشوية الذين يقولون نستفيد معرفة الله والدين من الكتاب والسنة ﴿المسئلة الثانية﴾ تدل الآية على انه يجوز حكاية كلام المبطل لانه تعالى حكى كلام فرعون فى انكاره الاله وحكى شبهات منكرى النبوة وشبهات منكرى الحشر الا أنه يجب الملك متى أوردت السؤال فاقرنه بالجواب لئلا يبقى الشك كما فعل الله تعالى فى هذه المواضع ﴿المسئلة الثالثة﴾ دلت الآية على أن المحق يجب عليه استماع كلام المبطل والجواب عنه من غير ايذاء ولا ايحاش كما فعل موسى عليه السلام بفرعون ههنا وكما أمر الله تعالى رسوله فى قوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وقال وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴿المسئلة الرابعة﴾ اختلف الناس فى أن فرعون هل كان عارفا بالله تعالى فقيل انه كان عارفا الا أنه كان يظهر الانكار تكبرا وتجبرا وزورا وهو ما نقلناه واحتجوا على ذلك بوجوه (أحدها) قوله لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض فثبت بهذا أنه علم كان ذلك خطابا من موسى عليه السلام مع فرعون فيدل ذلك على أن فرعون كان عالما بذلك وكذا قوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما

وما عرضت الاعرض سابرى ولا مطمع انا فى ذلك (وانك لتعلم ما نريد) من اتيان الذكران وما ئيس عليه السلام من ارعوائهم عما هم عليه من البغى (قال لو أن لى بكم قوة) أى لفعلت بكم ما فعلت وصنعت ما صنعت كقوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى (أو آوى الى ركن شديد) عطف على أن لى بكم الى آخره لما فيه من معنى الفعل أى لو قويت على دفعكم بنفسى أو آويت الى ناصر عزيز قوى أمنع به عنكم شهوبركن الجبل فى الشدة والمنعة وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله أخى لوطا كان يأوى الى ركن شديد وروى أنه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب (قالوا) أى الرسل لما شاهدوا عجزه عن مدافعة قومه (يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك) بضرر ولا مكروه فافتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه برب العزة وعلوا جل جلاله فى عقوبتهم فأذن له فقام فى الصورة التى يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من درمنظوم وهو براق الثنايا فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم كما قال عز وعلا فطمسنا أعينهم فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون

انضماء انضماء فان في بيت لوط قوما معصرة (فأسر بأهلك) بالقطع من الاسراء وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث جاء في القرآن من السرى والفاء لترتيب الامر بالاسراء على الاخبار برسالتهم المؤذنة بورود الامر الالهي من جانبه عز وجل اليه عليه السلام (بقطع من الليل) بطائفة منه (ولا يلتفت منكم) أي لا يتخلف أولا ينظر الى ورائه (أحد) منك ومن أهلك وانما نهوا عن ذلك ليجدوا في السير فان من يلتفت الى ما وراءه لا يخلو عن أدنى وقفة أو ثلاثة لا بد وأما نزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم (الا امرأتك) استثناء من قوله تعالى فأسر بأهلك وتأييده أنه قرئ فاسر بأهلك بقطع من الليل الا امرأتك وقرئ بالرفع على البدل من أحد فالالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر الى الخلف كيلا يلزم التناقض بين القراءتين المتواترتين فان النصب يقتضي كونه عليه السلام غير مأمور بالاسراء بها والرفع كونه مأمورا بذلك والاعتذار بأن مقتضى الرفع انما هو مجرد كونها معهم وذلك لا يستدعي الامر بالاسراء بها حتى يلزم المنافضة لجواز أن تسري هي بنفسها كما يروى أنه عليه السلام لما أسرى بأهله تبعتهم فلما سمعت شدة العذاب التفتت وقالت يا قوماه فأدركها حجر فقتلها وأن يسري بها عليه السلام من غير أمر بذلك انما هو بموجب النصب انما هو عدم الامر بالاسراء بها الا النهي عن الاسراء بها حتى يكون عليه السلام بالاسراء بها مخاطبا بالنهي لا بجدي نفعا لأن انصراف الاستثناء الى الالتفات يستدعي بقاء الاهل على العموم فيكون الاسراء بها أمرا به قطعا وفي حمل الاهلية في احدى القراءتين على الاهلية الدينية وفي الاخرى على النسبية مع أن فيه ما لا يخفى من التحكم والاعتساف كر على ما فر منه من المناقضة فالاولى حينئذ حمل الاستثناء على القراءتين من قوله لا يلتفت مثل الذي في قوله تعالى

وعلوا (وثانيها) انه كان عاقلا والا لم يجز تكليفه وكل من كان عاقلا فقد علم بالضرورة انه وجد بعد العدم وكل من كان كذلك افتقر الى مدبر وهذان العلمان الضروريان يستلزمان العلم بوجود المدبر (وثالثها) قول موسى عليه السلام هو ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وكلمة الذي تقتضي وصف المعرفة بجملة معلومة فلا بد وأن تكون هذه الجملة قد كانت معلومة له (ورابعها) قوله في سورة القصص في صفة فرعون وقومه وظنوا أنهم الينا لا يرجعون فذلك يدل على انهم كانوا عالمين بالمبدإ الا أنهم كانوا منكرين للمعاد (وخامسها) ان ملك فرعون لم يتجاوز القبط ولم يبلغ الشام ولما هرب موسى عليه السلام الى مدين قال له شعيب لا تخف نجوت من القوم الظالمين فمع هذا كيف يعتقد انه اله العالم (وسادسها) انه لما قال ومارب العالمين قال موسى عليه السلام رب السموات والارض وما بينهما قال ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون يعني أنا أطلب منه الماهية وهو يشرح الوصف فهو لم ينازع موسى في الوجود بل طلب منه الماهية فدل هذا على اعترافه بأصل الوجود ومن الناس من قال انه كان جاهلا به وأنفقوا على ان العاقل لا يجوز أن يعتقد في نفسه انه خالق هذه السموات والارض والشمس والقمر وانه خالق نفسه لانه يعلم بالضرورة عجزه عنها ويعلم بالضرورة انها كانت موجودة قبله فيحصل العلم الضروري بانه ليس موجدا لها ولا خالقا لها واختلفوا في كيفية جهله بالله تعالى فيحتمل انه كان دهريا ينافي الموثر أصلا ويحتمل انه كان فلسفيا قائلا بالعلة الموجبة ويحتمل انه كان من عبدة الكواكب ويحتمل انه كان من الحلولية ممن يجسمه واما ادعاؤه الربوبية لنفسه فبمعنى انه يجب عليهم طاعته والانقياد له وعدم الاشتغال بطاعة غيره ﴿المسئلة الخامسة﴾ انه سبحانه حكى عنه في هذه السورة أنه قال فمن ربكما يا موسى وقال في سورة الشعراء ومارب العالمين فالسؤال ههنا بمن وهو عن الكيفية وفي سورة الشعراء بما وهو عن الماهية وهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة والاقرب أن يقال سؤال من كان مقدما على سؤال ما لانه كان يقول اني أنا الله والرب فقال فمن ربكما فلما أقام موسى الدلالة على الوجود وعرف أنه لا يمكنه أن يقاومه في هذا المقام لظهوره وجلائه عدل الى المقام الثاني وهو طلب الماهية وهذا أيضا مما ينبه على أنه كان عالما بالله لانه ترك المنازعة في هذا المقام لعلمه بغاية ظهوره وشرع في المقام الصعب لان العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر ﴿المسئلة السادسة﴾ انما قال فمن ربكما ولم يقل فمن الهكما لانه أثبت نفسه ربا في قوله ألم نربك فينا وليدا وليثت فينا من عمرك سنين فذكر ذلك على سبيل التعجب كأنه قال له أنا ربك فلم تدعي ربا آخر وهذا الكلام شبيه بكلام نمرود لان ابراهيم عليه السلام لما قال ربي الذي يحيي ويميت قال نمرود أنا أحيي وأميت ولم يكن الاحياء والاماتة اللتين ذكرهما ابراهيم عليه السلام هما اللتين عارضه بهما نمرود الا في اللفظ فكذا ههنا لما ادعى موسى الربوبية الله تعالى ذكر فرعون هذا الكلام ومراده اني أنا الرب لا أنت ربك ومعلوم أن الربوبية التي ادعاها موسى لله سبحانه وتعالى غير هذه الربوبية في المعنى وانه لا مشاركة بينهما الا في اللفظ ﴿المسئلة السابعة﴾ اعلم أن موسى عليه السلام استدل على اثبات الصانع بأحوال المخلوقات وهو قوله ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وهذه الدلالة هي التي ذكرها الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم في قوله سبح اسم ربك الاعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى وقال ابراهيم عليه السلام فانهم عدو لي الا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين وان موسى عليه السلام في أكثر الامور يتوسل على دلائل ابراهيم عليه السلام وسيأتي تقرير ذلك في سورة الشعراء ان شاء الله تعالى واعلم أنه يشبه أن يكون الخلق عبارة عن تركيب القوالب والابدان والهداية عبارة عن ايداع القوى المدركة والمحركة في تلك الاجسام وعلى هذا

ما فعلوه الا قليل منهم فان ابن عامر قرأه بالنصب وان كان الاصح الرفع على البدل ولا بعد في كون أكثر القراء على غير الافصح ولا يلزم من ذلك أمرها بالالتفات بل عدم نهيها عنه بطريق الاستصلاح ولذلك علله على طريقة الاستئناف بقوله (انه مصيبهم اما أصابهم) من العذاب وهو امطار الاحجار وان لم ٤٨ يصبهم الخسف والصيحة والضمير في انه للشأن وقوله تعالى مصيبها خبر وقوله ما أصابهم مبتدأ والجملة خبر لان الذي اسمه ضمير الشأن وفيه ما لا يخفى من تفخيم شأن ما أصابهم ولا يحسن جعل الاستئناف منقطعا على قراءة الرفع (ان موعدهم الصبح) أي موعد عذابهم وهلاكهم تعليل للامر بالاسراء والنهي عن الالتفات المشعر بالحث على الاسراع (أليس الصبح بقريب) تأكيد للتعليل فان قرب الصبح داع الى الاسراع في الاسراء للتباعد عن مواقع العذاب وروي أنه قال للملائكة متى موعد هلاكهم قالوا الصبح قال أريد أسرع من ذلك فقالوا ذلك وانما جعل ميقات هلاكهم الصبح لانه وقت الدعة والراحة فيكون سلول العذاب حينئذ أفظع ولانه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين (فلما جاء أمرنا) أي وقت عذابنا وموعده وهو الصبح (جعلنا عاليها) أي عالي قرى قوم لوط وهي الى عبر عنها بالمؤتفكات وهي خمس مدائن فيها أربعمائة ألف ألف (سافلها) أي قلبناها على تلك الهيئة وجعل عاليها سافلها مفعولا أول للجعل وسافلها مفعولا ثانيا له وان تحقق القلب بالعكس أيضا لكنه هو بل الامر والواجب ونضع ما غلب لان جعل عاليها الذي هو مقارنه هم وساكنهم سافلها أشد تأثيرا هم وأشق من جعل سافلها عاليها وان كان مستلزما له وروي أنه جعل جبريل عليه السلام جناحه في أسفلها ثم رفعها الى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها

التقدير يكون الخلق مقدما على الهداية ولذلك قال فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فاقتسوه راجعة الى المقالب ونفخ الروح اشارة الى ابداع القوى وقال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين الى أن قال ثم أنشأناه خلقا آخر فظهر ان الخلق مقدم على الهداية والشروع في بيان عجائب حكمة الله تعالى في الخلق والهداية شروع في بحر لا ساحل له ولنذكر منه أمثلة قريبة الى الافهام (أحدها) ان الطبيعي يقول الثقيل هابط والخفيف صاعد وأشد الاشياء ثقلا الارض ثم الماء وأشدها خفة النار ثم الهواء فلذلك وجب أن تكون النار أعلى العنصريات والارض أسفلها ثم انه سبحانه قلب هذا الترتيب في خلقة الانسان فجعل أعلى الاشياء منه العظم والشعر وهما أيبس ما في البدن وهما بمنزلة الارض ثم جعل تحته الدماغ الذي هو بمنزلة الماء وجعل تحته النفس الذي هو بمنزلة الهواء وجعل تحته الحرارة الغريزية التي في القلب التي هي بمنزلة النار فجعل مكان الارض من البدن الاعلى وجعل مكان النار من البدن الاسفل ليعرف ان ذلك بتدبير القادر الحكيم الرحيم لا باقتضاء العلة والطبيعة (وثانيها) انك اذا نظرت الى عجائب النحل في تركيب البيوت المسدسة وعجائب أحوال البق والبعوض في اهتدائها الى مصالح أنفسها عرفت أن ذلك لا يمكن الا بالهام مدبر عالم بجميع المعلومات (وثالثها) انه تعالى هو الذي أنعم على الخلائق بما به قوامهم من المطعوم والمشروب والملموس والمنكوح ثم هداهم الى كيفية الانتفاع بها ويستخرجون الحديد من الجبال والاكالي من البحار وتركبون الادوية والدرياقات النافعة ويجمعون بين الاشياء المختلفة فيستخرجون لذات الاطعمة فثبت انه سبحانه هو الذي خلق كل الاشياء ثم أعطاهم العقول التي بها يتوصلون الى كيفية الانتفاع بها وهذا غير مختص بالانسان بل عام في جميع الحيوانات فأعطى الانسان انسانة والحمار حمارة والبعير ناقة ثم هداه لما لابد وم التناسل وهذا وى الاولاد لتلك الامهات بل هذا غير مختص بالحيوانات بل هو حاصل في أعضائها فانه خلق اليد على تركيب خاص وأودع فيها قوة الاخذ وخلق الرجل على تركيب خاص وأودع فيها قوة المشي وكذا العين والاذن وجميع الاعضاء ثم ربط البعض بالبعض على وجوه يحصل من ارتباطها مجموع واحد وهو الانسان وانما دلت هذه الاشياء على وجود الصانع سبحانه لان اتصاف كل جسم من هذه الاجسام بتلك الصفة أعني التركيب والقوة والهداية اما أن يكون واجبا أو جائزا والاول باطل لانا نشاهد تلك الاجسام بعد الموت منفكة عن تلك التراكيب والقوى فدل على أن ذلك جائز والجائز لا بد له من مرجح وليس ذلك المرجح هو الانسان ولا أبواه لان فعل ذلك يستدعي قدرة عليه وعلما بما فيه من المصالح والمفاسد والامران نائيان عن الانسان لانه بد كمال عقله يعجز عن تغيير شعرة واحدة وبعد البحث الشديد عن كتب التشريح لا يعرف من منافع الاعضاء ومصالحها الا القدر القليل فلا بد أن يكون المتولي لتدبيرها وترتيبها موجودا آخر وذلك الموجود لا يجوز أن يكون جسما لان الاجسام متساوية في الجسمية فاختصاص ذلك الجسم بتلك المؤثرية لا بد وأن يكون جائزا وان كان جائزا افتقر الى سبب آخر والدور والتسلسل محالان فلا بد من الانتهاء في سلسلة الحاجة الى موجود مؤثر ومدبر ليس بجسم ولا جسماني ثم تأثير ذلك المؤثر اما أن يكون بالذات أو بالاختيار والاول محال لان الموجب لا يمكنه الاتيان بمثل هذه الاجسام متساوية في الجسمية فلم اختص بعضها بالصورة الفلكية وبعضها بالصورة العنصرية وبعضها بالنباتية وبعضها بالحيوانية فثبت أن المؤثر والمدبر قادر والقادر لا يمكنه مثل هذه الافعال العجيبة الا اذا كان عالما بأسرار هذا المدبر الذي ليس بجسم ولا جسماني لا بد وأن يكون واجب الوجود في ذاته وفي صفاته والا لافتقر الى مدبر آخر ويلزم التسلسل وهو محال واذا كان واجب الوجود في قادريته وعالميته

عليهم واسناد الجعل والامطار الى ضميره سبحانه باعتبار أنه المسبب لتفخيم الامر وتهويل الخطب (وأمطرنا عليهم) على أهل المدائن أو شذاذهم (حجارة من سجيل) من طين متحجر كتوله حجارة من طين وأصله سنك كل فعرب وقيل هو من أسجله اذا أرسله أو أدر عطيته والمعنى من مثل الشئ المرسل أو مثل العطية في الادرار أو من السجل أى مما كتب الله ٤٩ تعالى أن يعذبهم به وقيل أصله من

والواجب لذاته لا يختص ببعض الممكنات دون البعض وجب أن يكون عالما بكل ما صح أن يكون معلوما وقادرا على كل ما صح أن يكون مقدورا فظهر بهذه الدلالة التي تمسك بها موسى عليه السلام وبنى على تقريرها استدلال العالم الى مدبر ليس بجسم ولا جسماني وهو واجب الوجود في ذاته وفي صفاته عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات وذلك هو الله سبحانه وتعالى (المسئلة الثامنة) ان فرعون خاطب الاثنين بقوله فمن ربكما ثم وجه النداء الى أحدهما وهو موسى عليه السلام لانه الاصل في النبوة وهرون وزيره وتابعه واما الان فرعون كان نلثغ يعلم الرتة التي في لسان موسى عليه السلام فأراد استنطاقه دون أخيه لما عرف من فصاحته والرتة التي في لسان موسى عليه السلام وبدل عليه قوله أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين (المسئلة التاسعة) في قوله الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وجهان (أحدهما) التقديم والتأخير أى أعطى خلقه كل شئ يحتاجون اليه ويرتفقون به (وثانيهما) أن يكون المراد من اخلق الشكل والصورة المطابقة للمنفعة فكأنه سبحانه قال أعطى كل شئ الشكل الذي يطابق منفعته ومصلحته وقرئ خلقه صفة للمضاف أو المضاف اليه والمعنى أن كل شئ خلقه الله لم يخله من اعطائه وانما مسه وأما قوله تعالى قال فما بال القرون الاولى فاعلم أن لارتباط هذا الكلام بما قبله وجوها (أحدها) أن موسى عليه السلام لما قرر على فرعون أمر المبدأ والمعاد قال فرعون ان كان لابناء المبدأ في هذا الحد من الظهور فما بال القرون الاولى ما أبتوه وتركوه فكأن موسى عليه السلام لما استدل بالدلالة القاطعة على اثبات الصانع قدح فرعون في تلك الدلالة بقوله ان كان الامر في قوة هذه الدلالة على ما ذكرت وجب على أهل القرون الماضية أن لا يكونوا غافلين عنها فعارض الحجة بالتقليد (وثانيها) ان موسى عليه السلام هدد بالعذاب أولا في قوله انا قد أوحي الينا أن العذاب على من كذب وتولى فقال فرعون فما بال القرون الاولى فانها كذبت ثم انهم ما عذبوا (وثالثها) وهو الاظهر أن فرعون لما قال فمن ربكما يا موسى فذكر موسى عليه السلام دليلا ظاهرا وبرهانا باهرا على هذا المطلوب فقال ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى خاف فرعون أن يزيد في تقرير تلك الحجة فيظهر للناس صحته وفساد طريق فرعون فأراد أن يصرفه عن ذلك الكلام وأن يشغله بالحكايات فقال فما بال القرون الاولى فلم يلتفت موسى عليه السلام الى ذلك الحديث بل قال علمها عند ربي في كتاب ولا تعلق غرضي بأحوالهم فلا أشتغل بها ثم عاد الى تتميم كلامه الاول وأراد الدلائل الباهرة على الوحدانية فقال الذي جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وهذا هو الوجه المعتمد في صحة هذا النظم ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا في قوله علمها عند ربي في كتاب فان العلم الذي يكون عند الرب كيف يكون في الكتاب وتحقيقه هو أن علم الله تعالى صفته وصفة الشئ قائمة به فاما أن تكون صفة الشئ حاصلة في كتاب فذلك غير معقول فذكروا فيه وجهين (الاول) معناه انه سبحانه أثبت تلك الاحكام في كتاب عند ملكوته ما كتبه فيه يظهر للائكة فيكون ذلك زيادة لهم في الاستدلال على أنه تعالى عالم بكل المعلومات منزه عن السهو والغفلة ولقائل أن يقول قوله في كتاب يوهم احتياجه سبحانه وتعالى في ذلك العلم الى ذلك الكتاب وهذا وان كان غير واجب لاحالة ولكنه لا أقل من أنه يوهمه في أول الامر لا سيما للكفار فكيف يحسن ذكره مع ما هذا مثل فرعون في وقت الدعوة (الوجه الثاني) ان تفسير ذلك بأن بقاء تلك المعلومات في علمه سبحانه كبقاء المكتوب في الكتاب فيكون الغرض من هذا الكلام تأكيد القول بأن أسرارها معلومة لله تعالى بحيث لا يزول شئ منها عن علمه وهذا التفسير مؤكد بقوله بعد ذلك لا يضل ربي ولا ينسى (المسئلة الثانية)

سجين أى من جهنم فأبدلت نونه لاما (منضود) نضد في السماء نضد معدا للعذاب وقيل يرسل بعضه اثر بعض كقطار الامطار (مسومة) معلمة للعذاب وقيل معلمة ببياض وحمرة أو بسيما تتميز به عن حجارة الارض أو باسم من يرمى به (عند ربك) في خزائنه التي لا يتصرف فيها غيره عز وجل (وما هي) أى الحجارة الموصوفة (من الظالمين) من كل ظالم (ببعيد) فانهم بسبب ظلمهم مستحقون لها وملابسون بها وفيه وعيد شديد لاهل الظلم كافة ٥٠ وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سأل جبريل عليه السلام فقال يعني ظالمي أمتك ما من ظالم منهم الا وهو يعرض عجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير للقرى أى هي قريبة من ظالمي مكة يمرون بها في مسايرهم وأسفارهم الى الشام وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو اجرائه على موصوف مذكر أى بشئ بعيد أو يمكان فانها وان كانت

في السماء وهي في غاية البعد من الارض اذا نها حين هوت منها فهي أسرع شئ لوقوعها فكأنها بمكان قريب منهم أولانه على زنة المصدر كالزفير والصهيل والمصادر يستوى في الوصف بها المذكر والمؤنث (وإلى مدين) أى أولاد مدين بن ابراهيم عليه السلام أو جعل اسما للقبيلة بالغلبة أو أهل مدين وهو بلد بناه مدين فسمى باسمه (أخاهم) أى نسيبهم

(شعيبا) وهو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين وكان يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه والجملة معطوفة على قوله تعالى والى ثمود أخاهم صالحا أى وأرسلنا الى مدين أخاهم شعيبا (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن صدر الكلام فكأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال كما قال من قبله من الرسل ٥٠ عليهم السلام (ياقوم اعبدوا الله) وحده ولا تشركوا به شيأ (مالكم من اله غيره)

اختلفوا فى قوله لا يضل ربى ولا ينسى فقال بعضهم معنى اللفظين واحد أى لا يذهب عليه شئ ولا يخفى عليه وهذا قول مجاهد وقتادة وأكثرون على الفرق بينهما ثم ذكروا وجوها (أحدها) وهو الاحسن ما قاله الفقال لا يضل عن الاشياء ومعرفتها وما علم من ذلك لم ينسه فاللفظ الاول اشارة الى كونه عالما بكل المعلومات واللفظ الثانى وهو قوله ولا ينسى دليل على بقاء ذلك العلم أبدا لا آباد وهو اشارة الى نفى التغير (وثانيها) قال مقاتل لا يخطئ ذلك الكتاب ربى ولا ينسى ما فيه (وثالثها) قال الحسن لا يخطئ وقت البعث ولا ينساه (ورابعها) قال أبو عمرو أصل الضلال الغيبوبة والمعنى لا يغيب عن شئ ولا يغيب عنه شئ (وخامسها) قال ابن جرير لا يخطئ فى التدبير فيعتقد فى غير الصواب كونه صوابا واذا عرفه لا ينساه وهذه الوجوه متقاربة والتحقيق هو الاول ﴿المسئلة الثالثة﴾ انما سأله عن الاله وقال فمن ربكما يا موسى وكان ذلك مما سبيله الاستدلال أجاب بما هو الصواب أو جرى مجرى جوابه وأحسن معنى وانما سأله عن شأن القرون الاولى وكان ذلك مما سبيله الاخبار ولم يأته فى ذلك خبر وكله الى علام الغيوب واعلم ان موسى عليه السلام لما ذكر الدلالة الاولى وهى دلالة عامة تتناول جميع المعلومات من الانسان وسائر الحيوانات وأنواع النبات والجمادات ذكر بعد ذلك دلائل خاصة وهى ثلاثة (أولها) قوله تعالى الذى جعل لكم الارض مهدا وفيه أبحاث ﴿البحث الاول﴾ قرأ أهل الكوفة مهادا هنا وفى الزخرف مهدا والباقون قرؤا مهادا فيهما قال أبو عبيدة فالذى اختاره مهادا وهو اسم والمهد اسم الفعل وقال غيره المهد الاسم والمهاد الجمع كالفرش والفراش أجاب أبو عبيدة بأن الفراش اسم والفرش فعل وقال المفضل هما مصدران لمهد اذا وطأله فراشا يقال مهد مهدا ومهادا وفرش فرشا وفراشا ﴿البحث الثانى﴾ قال صاحب الكشاف الذى جعل مرفوع لانه خبر مبتدا محذوف أو لانه صفة لربى أو منصوب على المدح وهذا من مظانه وبجازه واعلم أنه يجب الجزم بكونه خبر المبتدا المحذوف اذ لو حملناه على الوجهين الباقيين لزم كونه من كلام موسى عليه السلام ولو كان كذلك لفسد النظم بسبب قوله فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى على ما سيأتى بيانه ان شاء الله تعالى ﴿البحث الثالث﴾ المراد من كون الارض مهدا انه تعالى جعلها بحيث يتصرف العباد وسيرهم عليها بالقعود والقيام والنوم والزراعة وجميع وجوه المنافع وقد ذكرنا مستقصى فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء (وثانيها) قوله تعالى وسلك لكم فيها سبلا قال صاحب الكشاف سلك من قوله ما سلككم فى سقر كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين أى جعل لكم فيها سبلا ووسطها بين الجبال والاودية والبراري (وثالثها) قوله وأنزل من السماء ماء والكلام فيه قد مر فى سورة البقرة فهذا ما قاله فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله فأخرجنا فيه وجوه (أحدها) أن يكون هذا من تمام كلام موسى عليه السلام كأنه يقول ربى الذى جعل لكم كذا وكذا وأخرجنا نحن معاشر عباده بذلك الماء بالحراثة أزواجا من نبات شتى (وثانيها) ان عند قوله وأنزل من السماء ماء تم كلام موسى عليه السلام ثم بعد ذلك أخبر الله تعالى عن صفة نفسه مستقلا بالكلام الاول بقوله فأخرجنا به ويدل على هذا الاحتمال قوله كلوا وارعوا انعامكم (وثالثها) قال صاحب الكشاف انتقل فيه من لفظ الغيبة الى لفظ المتكلم المطاع للايذان بانه سبحانه وتعالى مطاع تنقاد الاشياء المختلفة لامره ومثله قوله تعالى وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها أمن خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة واعلم ان قوله فأخرجنا اما أن يكون من كلام موسى عليه السلام أو من

تحقيق للتوحيد وتعليل للامر به وبعدما أمرهم بما هو ملاك أمر الدين وأول ما يجب على المكلفين نهاهم عن ترتيب مبادى ما اعتادوه من التجسيم والتطفيف عادة مستمرة فقال (ولا تنقصوا المكيال والميزان) كى تتوسلوا بذلك الى بخس حقوق الناس (انى أراكم بخير) أى ملتبسين بثروة وسعة تغنيكم عن ذلك أو بنعمة من الله تعالى حقها أن تقابل بغير ما تأتونه من المماحكة والتفضل على الناس شكرا عليها أو أراكم بخير فلا تزيلوه بما أنتم عليه من الشر وهو على كل حال علة للنهى عقيب بعلة أخرى أعنى قوله عز وجل (وانى أخاف عليكم) ان لم تنتهوا عن ذلك (عذاب يوم محيط) لا يشذ منه شاذ منكم وقيل عذاب يوم مهلك من قوله تعالى وأحيط بثمره وأصله من احاطة العدو والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال ووصف اليوم بالاحاطة وهى حال العذاب على الاسناد المجازى وفيه من المبالغة ما لا يخفى فان اليوم زمان يشتمل على ما وقع فيه من الحوادث فاذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما اذا أحاط بنبيه ويجوز أن يكون هذا تعليلا للامر والنهى جميعا (ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط) أى بالعدل من غير زيادة ولا نقصان فان الزيادة فى الكيل والوزن وان كان تفضلا منه وبالبه لكنها فى الآلة محظورة

كالنقص فاعل الزائد للاستعمال عند الاكتيال والناقص للاستعمال وقت التكميل وانما أمر بتسويتهما وتعديلهما مع بعد النهي عن نقصهما مبالغة في الحمل على الايفاء والمنع من البخس وتنبيها على انه لا يكفيهم مجرد الكف عن النقص والبخس بل يجب عليهم اصلاح ما أفسدوه وهو حملهم ومعيار الظلم وقانون لمعدلتهم (ولا تبخسوا الناس) نسيب نقصهما ٥١ وعدم اعتدالهما (أشياءهم) التي

من كلام الله تعالى والاول باطل لان قوله بعد ذلك كلوا وارعوا أنعامكم ان في ذلك لآيات لاولي النهى منها لقنا كم وفيها نعيدكم لا يليق بموسى عليه السلام وأيضا فقوله فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى لا يليق بموسى لان اكثر ما في قدرة موسى عليه السلام صرف الماء الى سقي الاراضي وأما اخراج النبات على اختلاف ألوانها وطبائعها فليس من موسى عليه السلام فثبت ان هذا كلام الله تعالى ولا يجوز أن يقال كلام الله ابتداؤه من قوله فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى لان الفاء يتعلق عما قبله فلا يجوز جعل هذا كلام الله تعالى وجعل ما قبله كلام موسى عليه السلام فليس الا أن يقال ان كلام موسى عليه السلام تم عند قوله لا يضل ربي ولا ينسى ثم ابتدئ كلام الله تعالى من قوله الذي جعل لكم الارض مهدا وبكون التقدير هو الذي جعل لكم الارض مهدا فيكون الذي خبر مبتدا محذوف ويكون الانتقال من الغيبة الى الخطاب في التفاتا ﴿المسئلة الثانية﴾ ظاهر الآية يدل على أنه سبحانه انما يخرج النبات من الارض بواسطة انزال الماء فيكون للماء فيه أثر وهذا بتقدير ثبوته لا يقدح في شئ من أصول الاسلام لانه سبحانه وتعالى هو الذي أعطاها هذه الخواص والطبائع لكن المتقدمين من المتكلمين ينكرونه ويقولون لا تأثير له فيه البتة ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله تعالى أزواجا أي أصنافا سميت بذلك لانها مزدوجة مقرونة بعضها مع بعض شتى صيغة للازواج جمع شتيت كمرضى ومرضى ويجوز أن يكون صفة للنبات والنبات مصدر سمي به النابت كما يسمى بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع يعني انها شتى مختلفة النفع والطعم والطبع بعضها يصلح للناس وبعضها يصلح للبهائم أما قوله كلوا وارعوا أنعامكم فهو حال من الضمير في أخرجنا والمعنى أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وترعاها بعضها وقد تضمن قوله كلوا سائر وجوه المنافع فهو كقوله ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وقوله ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما وقوله كلوا أمرا باحة ان في ذلك أي فيما ذكرت من هذه النعم لآيات أي لدلالات لذوي النهى أي العقول والنهية العقل قال أبو علي الفارسي النهى يجوز أن يكون مصدرا كالهدى ويجوز أن يكون جمعا أما قوله منها خلقناكم فاعلم أنه سبحانه لما ذكر منافع الارض والسماء بين أنها غير مطلوبة لذاتها بل هي مطلوبة لتكونها وسائل الى منافع الآخرة فقال منها خلقناكم وفيه سؤالان ﴿السؤال الاول﴾ ما معنى قوله منها خلقناكم مع انه سبحانه وتعالى خلقنا من نطفة على ما بين ذلك في سائر الآيات * والجواب من وجهين (الاول) انه لما خلق أصلنا وهو آدم عليه السلام من التراب على ما قال كمثل آدم خلقه من تراب لا جرم أطلق ذلك علينا (الثاني) ان تولد الانسان انما هو من النطفة ودم الطمث وهما يتولدان من الاغذية والاغذية اما حيوانية أو نباتية والحيواني ينتهي الى النبات والنبات انما يحدث من امتزاج الماء والتراب فصح انه تعالى خلقنا منها وذلك لا ينافي كوننا مخلوقين من النطفة (والثالث) ذكر نا في قوله تعالى هو الذي يصوركم في الارحام خبرا بين مسعود ان الله يأمر ملك الارحام أن يكتب الاجل والرزق والارض التي يدفن فيها وانه أخذ من تراب تلك البقعة وبذره على النطفة ثم يدخلها في الرحم ﴿السؤال الثاني﴾ ظاهر الآية يدل على أن الشئ قد يكون مخلوقا من الشئ وظاهر قول المتكلمين يأباه * والجواب ان كان المراد من خلق الشئ من الشئ ازالة الصفة الشئ الاول عن الذات واحداث صفة الشئ الثاني فيه فذلك جائز لانه لا منافاة فيه أما قوله تعالى وفيها نعيدكم فلا شبهة في أن المراد الاعادة الى القبور حتى تكون الارض مكانا وظرفا لكل من مات الا من رفعه الله الى السماء ومن هذا حاله يحتمل أن يعاد اليها أيضا بعد ذلك أما قوله تعالى ومنها نخرجكم تارة أخرى ففيه وجوه (أحدها)

أمر آخرتكم ومصالح دينكم (بقيت الله) أي ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزه عن تعاطي المحرمات (خير لكم) مما تجمعون بالبخس والتطفيف فان ذلك هباء منثور بل شر محض وان زعمتم أن فيه خيرا كقوله تعالى يمحق الله الربا ويربي الصدقات (ان كنتم مؤمنين) بشرط أن تؤمنوا فان خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالايمان لا محالة أو ان كنتم مصدقين لي في مقالتي لكم وقيل

يشترونها بهما وقد صرح بالنهي عن البخس بعد ما علم ذلك في ضمن النهي عن نقص المعيار والامر بايفائه اهتماما بشأنه وترغيبا في ايفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها ويجوز أن يكون المراد بالامر بايفاء المكيال والميزان الامر بايفاء المكيلات والموزونات ويكون النهي عن البخس عاما للقدر في المقدار وغيره تعميما بعد التخصيص كما في قوله تعالى (ولا تعثوا في الارض مفسدين) فان العثي يعم نقص الحقوق وغيره من أنواع الفساد وقيل البخس المكس كأخذ العشور في المعاملات قال زهير بن أبي سلمى

أفي كل أسواق العراق اتاوة
وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

والعثي في الارض السرقة وقطع الطريق والغارة وفائدة المجال اخراج ما يقصد به الاصلاح كما فعله الخضر عليه السلام من خرق السفينة وقتل الغلام وقيل معناه ولا تمشوا في الارض مفسدين

البقية الطاعة كقوله عز وجل والباقيات الصالحات خير عند ربك وقرئ بقية الله بالفوقانية وهي تقواه عن المعاصي (وما أنا عليكم بحفيظ) أحفظكم من القبائح أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم وانما أنا ناصح مبالغ وقد أعذرت اذ أنذرت ولم آل في ذلك جهدا أو ما أنا بحافظ ومستبق عليكم نعم الله تعالى ٥٢ ان لم تتركوا ما أنتم عليه من سوء الصنيع (قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك

وهو الاقرب ومنها لفرحكم يوم الحشر والبعث (وثانيها) ومنها لفرحكم ترابا وطينا ثم تحيكم بعد الاخراج وهذا مذكور في بعض الاخبار (وثالثها) المراد عذاب القبر عن البراء قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الانصار فذكر عذاب القبر وما يخاطب به المؤمن والكافر وانه ترد روحه في جسده ويرد الى الارض وأنه تعالى يقول عند اعادتهم الى الارض اني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى واعلم أن الله تعالى عدد في هذه الآيات منافع للارض وهي انه تعالى جعلها لهم فراشا ومهادا يتقلبون عليها وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف أرادوا وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم وعلف دوابهم وهي أصلهم الذي منه يتفرعون ثم هي كفاتهم اذا ماتوا ومن ثم قال عليه السلام بروا بالارض فانها أمكم برة ﴿ قوله تعالى ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى ﴾ اعلم أنه تعالى بين أنه أرى فرعون الآيات كلها ثم انه لم يقبلها واختلفوا في المراد بالآيات فقال بعضهم أراد كل الادلة ما يتصل بالتوحيد وما يتصل بالنبوة أما التوحيد فقد ذكر في هذه السورة من قوله ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وقوله الذي جعل لكم الارض مهدا الآية وما ذكر في سورة الشعراء قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض الآيات وأما النبوة ففي الآيات التسع التي خص الله بها موسى عليه السلام وهي العصا واليد وفلق البحر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل وعلى هذا التقدير يمتنع أن يريد بعرفناه صحتها وأرضحناه وجه الدلالة فيها ومنهم من حمل ذلك على ما يتصل بالنبوة وهي هذه المعجزات وانما أضاف الآيات الى نفسه سبحانه وتعالى مع ان المظهر لها موسى عليه السلام لانه أجراها على يديه كما أضاف نفخ الروح الى نفسه فقال فنفخنا فيها من روحنا مع ان النفخ كان من جبريل عليه السلام فان قيل قوله كلها يفيد العموم والله تعالى ما أراه جميع الآيات لان من جملتها الآيات ما أظهرها على الانبياء عليهم السلام الذين كانوا قبل موسى عليه السلام والذين كانوا بعده قلنا لفظ الكل وان كان للعموم لكن قد يستعمل في الخصوص عند القرينة كما يقال دخلت السوق فلم تر بها كل شئ أو يقال ان موسى عليه السلام أراه آيات بالله وعدد عليه آيات غيره من الانبياء عليهم السلام فكذب فرعون بالكل أو يقال تكذيب بعض المعجزات يقتضي تكذيب الكل فحكى الله تعالى ذلك عنه على الوجه الذي يلزم ثم انه سبحانه وتعالى حكى عنه انه كذب وأبى قال القاضي الاباء الامتناع وانه لا يوصف به الا من يتمكن من الفعل والترك ولان الله تعالى ذم بأنه كذب وأبى ولو لم يقدر على ما هو فيه لم يصح واعلم ان هذا السؤال مر في سورة الاعراف في قوله الا ابليس أبى واستكبر والجواب مذكور هناك ثم حكى الله تعالى شبهة فرعون وهي قوله أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى وتركيب هذه الشبهة يجيب وذلك لانه ألقى في مسامعهم ما يصيرون به مبغضين له جدا وهو قوله أجئتنا لتخرجنا من أرضنا وذلك لان هذا مما يشق على الانسان في النهاية ولذلك جعله الله تعالى مساويا للقتل في قوله ان اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ثم لما صار وافي نهاية البغض له أوردوا الشبهة لغاية خسة في نبوته عليه السلام وهي ان ما جئتنا به سحر لا معجز واعلم ان المعجز انما يتميز عن السحر اذا كون المعجز مما يتعذر معارضته والسحر مما يمكن معارضته قال فلنأتينك بسحر مثله أما قوله تعالى فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت فاعلم ان الموعد يجوز أن يكون مصدرا ويجوز أن يكون اسم مكان كقوله وان جهنم لموعدهم أجمعين وأن يكون اسم زمان كقوله ان موعدهم الصبح والذي في هذه الآية يحتمل المصدر رأى اجعل بيننا

وبينك مكانا نتعاهد نحن وأنت هي من بين سائر شعائر الدين ضحكة لهم وقرئ

أصلواتك (أوان نفعل في أموالنا ما نشاء) جواب عن أمره عليه السلام بايفاء الحقوق ونهيه عن البخس والنقص معطوف على ما أأن تترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء من الاخذ والاعطاء والزيادة والنقص وقرئ بالتاء في الفعلين عطفا على مفعول تأمرك أي

أصلانك تأمرك أن تفعل أنت في أموالنا ما تشاء ويجوز العطف على ماقبل يستدعي أن يراد بالترك معنيان متغايران ويراد بفعله عليه السلام إيجاب الإيقاع والعدل في معاملاتهم لا نفس الإيقاع فان ذلك ليس من أفعاله عليه السلام بل من أفعالهم وإنما لم نقل عطفا على أن نترك لان الترك ليس مأمورا به على الحقيقة بل المأمور به تكليفه عليه السلام ٣٠ اياهم وأمره بذلك والمعنى أصلاتك تأمرك أن تكلفنا أن نترك ما يعبد آباؤنا وحمله على معنى أصلاتك تأمرك بما ليس في وسعنا وعهدتك من أماعيل غير بعيد لكون ذلك تعريضا منهم بركاكة رأيه عليه السلام واستهزاء به من تلك الجهة بإباه دخول الهمزة على الصلاة دون الامر ويستدعي أن يصدر عنه عليه السلام في أثناء الدعوة ما يدل على ذلك أو يوهمه وأني ذلك فتأمل وقرئ بالنون في الاول والتاء في الثاني عطفا على أن نترك أي أوان نفعل نحن في أموالنا عند المعاملة ماتشاء أنت من التسوية والايفاء (انك لانت الحليم الرشيد) وصفوه عليه السلام بالوصفين على طريقة التهكم وانما أرادوا بذلك وصفه بضديهما كقول الحزين ذهب انك أنت العزيز الكريم ويجوز أن يكون تعليلا لما سبق من استبعاد ما دعاهم إلى استهزائه من تلك الجهة أي إنك لانت الحليم الرشيد على زعمك وأما وصفهم بهما على الحقيقة فيأباه مقام الاستهزاء

وبينك وعدا لا نخلفه لان الوعد هو الذي يصح وصفه بالخلف أما الزمان والمكان فلا يصح وصفهما بذلك ومما يؤكد ذلك ان الحسن قرأ يوم الزينة بالنصب وذلك لا يطابق المكان والزمان وانما نصب مكانا لانه هو المفعول الثاني للجعل والتقدير اجعل مكان موعد لا نخلفه مكانا سوى أما قوله سوى فاعلم انه قرأ عاصم وحمزة وابن عامر سوى بضم السين والباقون بكسرها وهما لغتان مثل طوى وطوى وقرئ أيضا متونا وغير منون وذكروا في معناه وجوها (أحدها) قال أبو علي مكانا تستوي مسافته على الفريقين وهو المراد من قول مجاهد قال قتادة منصفا بيننا (وثانيها) قال ابن زيد سوى أي مستو بالا يحجب العين ما فيه من الارتفاع والانخفاض فسوى على التقدير الاول صفة المسافة وعلى هذا التقدير صفة المكان والمقصود انهم طلبوا موضعا مستويا بالا يكون فيه ارتفاع ولا انخفاض حتى يشاهد كل الحاضرين كل ما يجري (وثالثها) مكانا يستوي حالنا في الرضا به (ورابعها) قال الكلبي مكانا سوى هذا المكان الذي نحن فيه الآن ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى﴾ اعلم أن في الآية مسائل (المسئلة الاولى) يحتمل أن قوله تعالى قال موعدكم أن يكون من قول فرعون فبين الوقت ويحتمل أن يكون من قول موسى عليه السلام قال القاضي والاول أظهر لانه المطالب بالاجتماع دون موسى عليه السلام وعندي الاظهر أنه من كلام موسى عليه السلام لوجوه (أحدها) انه جواب لقول فرعون فاجعل بيننا وبينك موعدا (وثانيها) وهو ان تعيين يوم الزينة يقتضي اطلاع الكل على ما سيقع فتعيينه انما يليق بالمحق الذي يعرف انه لا يبطله الذي يعرف أنه ليس معه الا التلبيس (وثالثها) أن قوله موعدكم خطاب للجميع فلو جعلناه من فرعون الى موسى وهرون لزم اما حمله على التعظيم وذلك لا يليق بحال فرعون معهما أو على ان أقل الجمع اثنان وهو غير جائز أو لو جعلناه من موسى عليه السلام الى فرعون وقومه استقام الكلام ﴿المسئلة الثانية﴾ يوم الزينة قرأ بضمهم بضم الميم وقرأ الحسن بالنصب قال الزجاج اذا رفع فعلى خبر المبتدا والمعنى وقت موعدكم يوم الزينة ومن نصب فعلى الظرف معناه موعدكم يقع يوم الزينة وقوله وأن يحشر الناس ضحى معناه موعدكم حشر الناس ضحى فوضع أن يكون رفعا ويجوز فيه الخفض عطفا على الزينة كأنه قال موعدكم يوم الزينة ويوم يحشر الناس ضحى فان قيل الستم قلتم في تفسير قوله اجعل بيننا وبينك موعدا ان التقدير اجعل مكان موعد لا نخلفه مكانا سوى فهذا كيف يطابقه الجواب يذكر الزمان قلنا هو مطابق معنى وان لم يطابق لفظا لانهم لا بد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان معين مشهور باجتماع الناس في ذلك اليوم فبذكر الزمان علم المكان ﴿المسئلة الثالثة﴾ ذكر المفسرون في يوم الزينة وجوها (أحدها) انه يوم عيد لهم يتزينون فيه (وثانيها) قال مقاتل يوم النيروز (وثالثها) قال سعيد بن جبير يوم سوق لهم (ورابعها) قال ابن عباس يوم عاشوراء وانما قال يحشر الناس يجتمعون ذلك اليوم بأنفسهم من غير حاشر لهم وقرئ وأن يحشر الناس بالياء والتاء بيد وأن تحشر الناس يا فرعون وأن يحشر الناس ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة أما على العادة التي تخاطب بها الملوك أو خاطب القوم بقوله موعدكم وجعل ضمير يحشر لفرعون وانما أوعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله تعالى وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤس الاشهاد في المجمع العام ليكثر المحدث بذلك الامر العجيب في كل بدو وحضر ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر قال القاضي انه عين اليوم بقوله يوم الزينة ثم عين من اليوم وقته بقوله وأن يحشر الناس ضحى أما قوله فتولى فرعون فجمع

اللهم الا أن يراد بالصلاة الدين كما قبل (قال ياقوم ارأيتم ان كنت على بينة) أي حجة وبرهان نير عبر بها عما آتاه الله تعالى من النبوة والحكمة ردا على مقالتهم الشنعاء في جعلهم أمره ونهيه غير مستندا الى سند (من ربي) ومالك أموري وايراد حرف الشرط مع جزمه عليه السلام بكونه على ما هو عليه من البينات والحجج لاعتبار حال المخاطبين ومراعاة حسن المحاورة معهم كما ذكرناه في نظائره (ورزقني

منه) أى من لدنه (رزقا حسنا) هو النبوة والحكمة أيضا عبر عنهما بذلك تنبيها على أنهما مع كونهما بينة رزق حسن كيف لا وذلك مناط الحياة الابدية له ولامته، وجواب الشرط محذوف يدل عليه مجموع الكلام أى أتقولون فى شأنى ما تقولون والمعنى انكم نظمتمونى فى سلك السفهاء والغواة وعددتم ٥٤ ما صدر عنى من الاوامر والنواهى من قبيل ما لا يصح أن يتفوه به عاقل وجعلتموه من أحكام الوسوسة

كيده ثم أتى فاعلم أن التولى قد يكون اعراضا وقد يكون انصرافا والظاهر ههنا انه بمعنى الانصراف وهو مفارقته موسى عليه السلام على الموعد الذى واعدوا للاجتماع قال مقاتل فتولى أى أعرض وثبت على اعراضه عن الحق ودخل تحت قوله يجمع كيده السحرة وسائر من يجتمع لذلك ويدخل فيه الآلات وسائر ما أوردته السحرة ثم أتى دخل تحته أتى الموضع بالسحرة وبالقوم وبالآلات قال ابن عباس كانوا اثنين وسبعين ساحرا مع كل واحد منهم حبل وعصا وقيل كانوا أربعمائة وقيل أكثر من ذلك ثم ضربت لفرعون قبة خلس فيها ينظر اليهم وكان طول القبة سبعين ذراعا ثم بين تعالى أن موسى عليه السلام قدم قبل كل شئ الوعيد والتحذير مما قالوه وأقدموا عليه فقال ويلكم لا تفتروا على الله كذبا بأن تزعموا بأن الذى جئت به ليس بحق وأنه سحر فيهلككم بعذاب بمعارضتى قال الزجاج يجوز فى انتصاب ويلكم أن يكون المعنى ألزمهم الله ويلا ان افتروا على الله كذبا ويجوز على النداء كقولك يا ويلتا ألبتوا أنا نجوز يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا وقوله فيسحتكم بعذاب أى يعذبكم عذابا يأتى على جميعكم يقال سحته وأسحته لغتان وقرأ أحمد وعاصم والكسائى برفع الباء من الاسحات والباقون بفتحها من السحت والاسحات لغة أهل نجد وبنى تميم والسحت لغة أهل الحجاز فكأنه تعالى قال من افترى على الله كذبا حصل له أمران (أحدهما) عذاب الاستئصال فى الدنيا أو العذاب الشديد فى الآخرة وهو المراد من قوله فيسحتكم بعذاب (والثانى) الخيبة والحرمان عن المقصود وهو المراد بقوله وقد خاب من افترى ثم بين سبحانه وتعالى انه لما قال موسى عليه السلام ذلك أعرضوا عن قوله وتنازعوا أمرهم بينهم وفى تنازعوا قولان (أحدهما) تفاوضوا وتشاوروا والمستقر على شئ واحد (والثانى) قال مقاتل اختلفوا فيما بينهم ثم قال بعضهم دخل فى التنازع فرعون وقومه ومنهم من يقول بل هم السحرة وحدهم والكلام محتمل وليس فى الظاهر ما يدل على الترجيح وذكروا فى قوله وأسروا النجوى وجوها (أحدها) انهم أسروها من فرعون وعلى هذا التقدير فيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان نجواهم قالوا ان غلبنا موسى اتبعناه (والثانى) قال قتادة ان كان ساحرا فسنغلبه وان كان من السماء فله أمر (الثالث) قال وهب لما قال ويلكم لا تفتروا أما هذا فيقول ساحر (القول الثانى) انهم أسروا النجوى من موسى وفرعون ونجواهم هو قولهم ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم وهو قول السدى (الوجه الثالث) انهم أسروا النجوى من موسى وهرون ومن فرعون وقومه أيضا وكان نجواهم انهم كيف يجب تدبير أمر الحبال والعصى وعلى أى وجه يجب اظهارها فيكون أوقع فى القلوب وأظهر للعيوب وهو قول الخليل ﴿قوله تعالى﴾ قالوا ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) القراءة المشهورة ان هذان لساحران ومنهم من ترك هذه القراءة وذكر واوجوها أخر (أحدها) قرأ أبو عمرو وعيسى بن عمر ان هذين لساحران وقالوا هى قراءة عثمان وعائشة وابن الزبير وسعيد بن جبير والحسن رضى الله عنهم واحتج أبو عمرو وعيسى على ذلك بما روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها انها سئلت عن قوله ان هذان لساحران وعن قوله ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى فى المائدة وعن قوله لكن الراسخون فى العلم منهم الى قوله والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة فقالت يا ابن أختى هذا خطأ من الكاتب وروى عن عثمان انه نظر فى المصحف فقال أرى فيه لحنا وستقيمه العرب بالسنتها وعن أبى عمرو انه قال انى لاستحى أن أقرأ ان هذان لساحران (وثانيها) قرأ ابن كثير ان هذان بتخفيف ان وتشديد نون هذان (وثالثها) قرأ حفص

والجنون واستهزأتم بى وبأفعالى حتى قلتم ان ما أمرتكم به من التوحيد وترك عبادة الاصنام والاجتناب عن المحرمات والتطفيف ليس مما يأمر به أمر العقل ويقضى به قاضى الفطنة وانما يأمر به صاحب تلك التى هى من أحكام الوسوسة والجنون فاخبرونى ان كنت من جهة ربى ومالك أموري ثابتا على النبوة والحكمة التى ليس وراءهما غاية للكمال ولا مطمع لطامع ورزقنى بذلك رزقا حسنا أتقولون فى شأنى وشأن أفعالى ما تقولون مما لا خير فيه ولا شر وراءه هذا هو الجواب الذى يستدعيه السباق والسياق ويساعده النظم الكريم وأما ما قيل من أن المحذوف أيصح لى أن لا آمركم بترك عبادة الاوثان والكف عن المعاصى أو هل يسع لى مع هذا الانعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أحون فى وحيه وأخالفه فى أمره ونهيه فيمزل من ذلك وانما يناسب تقديره ان

حمل كلامهم على الحقيقة وأريد يا اسلاة الدين على معنى أدينك يأمرك أن نتكلفنا نترك عبادة آلهتنا عن القدعة وترك التصرف المطلق فى أموالنا وتخالفنا فى ذلك وتشق عصانا ومذاهبنا لا ينبغى أن يصدر عنك قال أنت المشهور بالحلم الفاضل والرشد الكامل فيما بيننا كما كان قول قوم صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ممرودا على ذلك النمط فاجيبوا بما أجيبوا به وعلى هذا الوجه

يكون المراد بالرزق الحسن الحلال الذى آتاه الله تعالى والمعنى حينئذ أجيبونى ان كنت نبيا من عند الله تعالى ورزقنى مالا حلالا أستغنى به عن العالمين أو صح أن أخالف أمره وأواقعكم فيما تأتون وما تذرون (وما أريد) بنهيى اياكم عما أنهاكم عنه من البخس والتطفيف (أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه) أى أقصده بعد ما وليتم عنه وأستبد به دونكم يقال ٥٥ خالفت زيدا الى كذا اذا قصدته وهو ول عنه وخالفته عن كذا اذا كان الامر على العكس (ان أريد) أى ما أريد بما آمركم به وأنهاكم عنه (الا الاصلاح) الا أن أصلحكم بالنصيحة والموعظة (ما استطعت) أى مقدارما استطعته من الاصلاح والتقييد به للاحتراز عن الاكتفاء بالاصلاح فى الجملة لا عن ارادة ما ليس فى وسعه منه (وما توفيقى) أى كرنى موفقا لتحقيق ما نحميه من اصلاحكم (الا بالله) أى بتأييده ومعونته بل الاصلاح من حيث الخلق مستند اليه سبحانه وانما أنا من مبادىء الظاهرة فالله عليه السلام شقيقا للحق وازاحة لما عسى يوهمه اسناد الاستطاعة اليه بارادته من استبداده بذلك (عليه توكلت) فى ذلك معرضا عما عداه فانه القادر على كل مقدور وما عداه عاجز محض فى حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار بمعزل عن مرتبة الاستناد به والاستظهار (واليه أنيب) أى أرجع فيما أنابه من مهماتى ويجوز أن يكون المراد ما ذكر فى موفقا لاصابة الحق والصواب فى كل ما آتى وأذر الا بهدايته ومعونته عليه توكلت وهو اشارة الى محض التوحيد الذاتى والفعلى واليه أنيب أى عليه أقبل بشراشر نفسى فى جماع أمورى وايثار صيغة الاستقبال على الماضى الانسب للتقرر والتحقق كما فى التوكل لاستحضار السرورة والدلالة على الاستمرار ولا يخفى ما فى جوابه عليه السلام من مراعاة لطف المراجعة ورفق الاسترزال

عن عاصم ان هذان بتخفيف النونين (وراءها) قرأ عبد الله بن مسعود وأسروا النجوى أن هذان ساحران بفتح الالف وجزم نونه ساحران بغير لام (وخامسها) عن الاخفش ان هذان لساحران خفيفة فى معنى ثقيلة وهى لغة قوم يرفعون بها ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التى تكون فى معنى ما (وسادسها) روى عن أبى بن كعب ما هذان الا ساحران وروى عنه أيضا ان هذان الا ساحران وعن الخليل مثل ذلك وعن أبى أيضا ان ذان الا ساحران فهذه هى القراآت الشاذة المذكورة فى هذه الآية واعلم ان المحققين قالوا هذه القراآت لا يجوز تصحيحها لانها منقولة بطريق الآحاد والقرآن يجب أن يكون منقولا بالتواتر ولو جوزنا اثبات زيادة فى القرآن بطريق الآحاد لما أمكننا القطع بأن هذا الذى هو عندنا كل القرآن لانه لما جاز فى هذه القراآت انها مع كونها من القرآن مما نقلت بالتواتر جاز فى غيرها ذلك فثبت ان تحرير كون هذه القراآت من القرآن بطريق جواز الزيادة والنقصان والتغيير فى القرآن وذلك يخرج القرآن عن كونه حجة ولما كان ذلك باطلا فكذلك ما أدى اليه وأما الطعن فى القراءة المشهورة فهو أسوأ مما تقدم من وجوه (أحدها) انه لما كان نقل هذه القراءة فى الشهرة كنقل جميع القرآن فلو حكمنا ببطلانها جاز مثله فى جميع القرآن وذلك يفضى الى القدح فى التواتر والى القدح فى جميع القرآن وانه باطل واذا ثبت ذلك امتنع صيرورته معارضا بخبر الواحد المنقول عن بعض الصحابة (وثانيها) ان المسلمين أجمعوا على ان ما بين الدفتين كلام الله تعالى وكلام الله تعالى لا يجوز أن يكون لحنا وغلطا فثبت فساد ما نقل عن عثمان وعائشة رضى الله عنهما ان فيه لحنا وغلطا (وثالثها) قال ابن الانبارى ان الصحابة هم الائمة والقدوة فلو وجد فى المصحف لحنا لما فوضوا اصلاحه الى غيرهم من بعدهم مع تحذيرهم من الابتداع وترغيبهم فى الاتباع حتى قال بعضهم اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم فثبت انه لا يلزم من تصحيح القراءة المشهورة وأخذ المختلف النحويون فيه وذكروا وجوها (الوجه الاول) وهو الاقوى ان هذه لغة لبعض العرب وقال بعضهم هى لغة بلحارث بن كعب والزجاج نسبها الى كنانة وقطرب نسبها الى بلحارث بن كعب ومراد وخثعم وبعض بنى عذرة ونسبها ابن جنى الى بعض بنى ربيعة أنشد الفراء على هذه اللغة

فاطرق اطراق الشجاع ولو يرى * مساغا لناباه الشجاع لصمما

وأنشد غيره

تزود منا بين أذناه ضربة * دعته الى هاب التراب عقيم

قال الفراء وحكى بعض بنى أسد انه قال هذا خط يد أخى أعرفه وقال قطرب هؤلاء يقولون رأيت رجلان واشتريت ثوبان قال رجل من بنى ضبة جاهلى

أعرف منه الجيد والعيانا * ومخبرين أشبها ظبيانا

وقوله ومخبرين على اللغة الفاشية وما وراء ذلك على لغة هؤلاء وقال آخر

طاروا علاهن فطر علا * واشدد بمثنى حقب حقواها

وقال آخر

كان صريف نابا ه اذا ما * أمرهما صرير الاخطبان

قال بعضهم الاخطبان ذكر الصردان فصيرهما واحدا فبقى الاستدلال بقوله صريف نابا ه قال وأنشدنى يونس لبعض بنى الحرث

كان عينا حصل ومصيفه * مراق دم ان يبرح الدهر ثاوما

وأنشدوا أيضا

ان أباها وأبا أباها * قد بلغا فى المجد غايتاها

وقال ابن جنى روينا عن قطرب

والمحافظة على قواعد حسن الجوار والمحاورة وتمهيد معاقد الحق بطلب التوفيق من جناب الله تعالى والاستعانة به فى أموره وحسم اطماع الكفار واظهار الفراغ عنهم وعدم المبالاة بمعاداتهم وأما تهديدهم بالرجوع الى الله تعالى للجزاء كما قيل فلان الانابة انما هى الرجوع الاختيارى بالفعل الى الله تعالى ٥٦ لا الرجوع الاضطرارى للجزاء أو مايعمه (وياقوم لايجرمنكم) أى لايكسبنكم

هنالك أن تبكى بشعشعان * رحب الفؤاد طائل اليدان

ثم قال الفراء وذلك وان كان قليلا أقيس لان ماقبل حرف التثنية مفتوح فينبغى أن يكون مابعده ألفا ولو كان مابعده ياء ينبغى أن تنقلب ألفا لانفتاح ماقبلها وقطرب ذكر أنهم يفعلون ذلك فرارا الى الالف التى هى أخف حروف المد هذا أقوى الوجوه فى هذه الآية ويمكن أن يقال أيضا الالف فى هذا من جوهر الكلمة والحرف الذى يكون من جوهر الكلمة لايجوز تغييره بسبب التثنية والجمع لان مابالذات لايزول بالعرض فهذا الدليل يقتضى أن لايجوز أن يقال ان هذين قلما جوزنا ذلا أقل من أن يجوز معه أن يقال ان هذان (الوجه الثانى) فى الجواب أن يقال ان ههنا بمعنى نعم قال الشاعر

ويقلن شيب قد علا * ك وقد كبرت فقلت انه

أى فقلت نعم فالهاء فى انه هاء السكت كما فى قوله تعالى هلك عنى سلطانيه وقال أبو ذؤيب

شاب المفارق ان من المبلى * شيب القذال مع العفار الواصل

أى نعم ان من المبلى فصار كأنه قال نعم هذان لساحران واعترضوا عليه فقالوا اللام لاتدخل فى الخبر على الاستحسان الا اذا كانت ان داخلة فى المبتدا فاما اذا لم تدخل ان على المبتدا فحصل اللام المبتدأ اذ يقال لزيد أعلم من عمرو ولا يقال زيدا لأعلم من عمرو أجابوا عن هذا الاعتراض من وجهين (الاول) لانسلم ان اللام لايحسن دخولها على الخبر والدليل عليه قوله

أم الحليس لعجوز شهربه * ترضى من اللحم بعظم الرقبة

وقال آخر

خالى لانت ومن جرير خاله * ينل العلاء ويكرم الاخوالا

وأنشد قطرب

ألم تكن حلفت بالله العلى * ان مطايانا لمن خير المطى

وان روى بالكسر لم يبق الاستدلال الا ان قطربا قال سمعناه مفتوح الهمزة وأيضا فقد أدخلت اللام فى خبر امسى قال ابن جنى أنشدنا أبو على

مروا بحالى فقالوا كيف صاحبكم * فقال من سألوا أمسى لجهود

وقال قطرب وسمعنا بعض العرب يقول لرأيت لمالى وانى رأيته لشيخا وزيد والله لواثق بك وقال كثير

ومارأت من ليلى لدن أن عرفتها * لكالهائم المقصى بكل بلاد

وقال آخر * ولكننى من حبها لعميد * وقال المعترض هذه الاشعار من الشواذ وانما جاءت كذا ضرورة الشعر وجل كلام الله تعالى من الضرورة وانما نقرر هذا الكلام اذا بينا ان المبتدأ اذا لم يدخل عليه ان وجب ادخال اللام عليه لا على الخبر وشحقيقه ان اللام تفيد تأكيد موضوعية المبتدا بالخبر واللام تدل على حالة من حالات المبتدا وصفة من صفاته فوجب دخولها على المبتدا لان العلة الموجبة لحكم فى محل لابد وأن تكون مختصة بذلك المحل لا يقال هذا مشكل بما اذا دخلت ان على المبتدا فان ههنا يجب ادخال اللام على الخبر مع ان ماذكرتموه حاصل فيه لانا نقول ذلك لاجل الضرورة وذلك لان كلمة ان للتأكيد واللام للتأكيد فلو قلنا ان لزيدا قائم لكنا قد أدخلنا حرف التأكيد على حرف التأكيد وذلك ممتنع فلما تعذر ادخالها على المبتدا لاجرم أدخلناها على الخبر لهذه الضرورة وأما اذا لم يدخل حرف ان على المبتدا كانت هذه الضرورة زائلة فوجب ادخال اللام على المبتدا لايقال اذا جاز دخال حرف النفى على حرف النفى فى قوله

ماان رأيت ولاسمعت به * كاليوم طالبنى أنيق أجرب

والغرض به تأكيد النفى فلم لايجوز ادخال حرف التأكيد على حرف التأكيد والغرض به تأكيد الاثبات

من جرمته ذنبا مثل كسبته مالا (شقاق) معاداتى وأصلهما ان أحد المتعاديين يكون فى عدوة وشق والآخر فى آخر (أن يصيبكم) مفعول ثان لايجرمنكم أى لايكسبنكم معاداتكم لى أن يصيبكم (مثل ما أصاب قوم نوح) من الغرق (أو قوم هود) من الريح (أو قوم صالح) من الصيحة والرجفة وقرأ ابن كثير بضم الباء من أجرمته ذنبا اذا حملته جارما له أى كاسبا وهو منقول من جرم المتعدى الى مفعول واحد كما نقل أكسبه المال من كسب المال فكما لافرق بين كسبته مالا وأكسبته اياه لافرق بين جرمته ذنبا وأجرمته اياه فى المعنى الا أن الاول أصح وأورد على السنة الفصحاء وقرأ أبو حيوة بفتل ما أصاب بالفتح لاضافته الى غير متمكن كقوله

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت * حمامة فى غصون ذات أوقال

وهذا وان كان يحسب الظاهر من نهيهم للشقاق عن كسب اصابة العذاب لكنه فى الحقيقة نهى للكفرة عن مشاقته عليه السلام على ألطف أسلوب وأبدعه كما ترى فى سورة المائدة عند قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم الآية (وياقوم لوط منكم ببعيد) زمانا أو مكانا فان لم تعتبروا بمن قبلكم من الامم المعدودة فاعتبروا بهم فكأنه انما غير أسلوب التحذير بهم ولم يصرح بما أصابهم بل اكتفى بذكر قربهم ايذانا بان ذلك مغن عن ذكره لانا

لانا نقول الفرق بين البابين ان قولك زيد قائم يدل على الحكم موصوفية زيد بالقيام فاذا قلت ان زيدا قائم فكانه ان تفيدا تأكيد ذلك الحكم فلو ذكرت مؤكدا آخر مع كل ان صار عينا أما لو علت رأيت فلانا فهذا للثبوت فاذا أدخلت عليه حرف النفي أفاد حرف النفي معنى النفي ولا يفيد التأكيد لانه مستقل بافادة الاصل فكيف يفيد الزيادة فاذا ضممت اليه حرف نفي آخر صار الحرف الثاني مؤكدا للاول فلا يكون عينا فهذا هو الفرق بين البابين فهذا منتهى تقرير هذا الاعتراض وهو عندي ضعيف لان الكل اتفقوا على انه اذا اجتمع النقل والقياس فالنقل أولى ولان هذه العلل في نهاية الضعف فكيف يدفع بها النقل الظاهر (والوجه الثاني) في الجواب عن قولهم اللام لا يحسن دخولها على الخبر الا اذا دخلت كلمة ان على المبتدا كما ذكره الزجاج فقال ان وقعت موقع نعم واللام في موقعها والتقدير نعم هذان لهما سحران فكانت اللام داخلة على المبتدا الا على الخبر قال وعرضت هذا القول على محمد بن يزيد وعلى اسمعيل بن اسحق فارتضياه وذكرا أنه أجود ما سمعناه في هذا قال ابن جني هذا القول غير صحيح لوجوه (الوجه الاول) ان الاصل ان المبتدا انما يجوز حذفه لو كان أعرف معلوما جليا ولولا ذلك لكان في حذفه مع الجهل به ضرب من تكليف علم الغيب للمخاطب واذا كان معروفا فقد استغنى بمعرفته عن تأكيده باللام لان التأكيد انما يحتاج اليه حيث لم يكن العلم به حاصلا (الوجه الثاني) ان الحذف من باب الاختصار والتأكيد من باب الاطناب فالجمع بينهما غير جائز ولان ذكر المؤكد وحذف التأكيد أحسن في العقول من العكس (الوجه الثالث) امتناع أصحابنا البصريين من تأكيد الضمير المحذوف العائد على المبتدا في نحو قولك زيد ضربت فلا يجيزون زيد ضربت نفسه على أن يجعل النفس توكيدا للهاء المؤكدة للقدرة في ضربت أي ضربته لان الحذف لا يكون الا بعد التحقق والعلم به واذا كان كذلك فقد استغنى عن تأكيده فكذا ههنا (الوجه الرابع) ان جميع النحويين حملوا قول الشاعر * أم الحليس لعجوز شهربه * على ان الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة ولو كان ما ذهب اليه الزجاج جائزا لما عدل عنه النحويون ولما حملوا الكلام عليه على الاضطرار اذا وجدوا له وجها ظاهرا ويمكن الجواب عن اعتراض ابن جني بأنه انما حسن حذف المبتدا لان في اللفظ ما يدل عليه وهو قوله هذان أما لو حذف فيما لا تأكيد فيه في اللفظ ما يدل عليه فلا يلزم كان حذف المبتدا أولى من حذف التأكيد وأما امتناعهم من تأكيد الضمير في قولهم زيد ضربت نفسه فذاك انما كان لان اسناد الفعل الى المظهر أولى من اسناده الى المضمر فاذا قال زيد ضربت نفسه كان قوله نفسه مفعولا فلا يمكن جعله تأكيدا للضمير فتأكيد المحذوف انما امتنع ههنا لهذه العلة لا لان تأكيد المحذوف مطلقا ممتنع وأما قوله النحويون حملوا قول الشاعر * أم الحليس لعجوز شهربه * على ان الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة فلو جاز ما قاله الزجاج لما عدل عنه النحويون فهذا اعتراض في نهاية السقوط لان ذهول المتقدمين عن هذا الوجه لا يقتضي كونه باطلا فأكثر مذاهل المتقدم عنه وأدركه المتأخر فهذا تمام الكلام في شرح هذا (الوجه الثالث) في الجواب ان كلمة ان ضعيفة في العمل لانها تعمل بسبب مشابهة الفعل فوجب كونها ضعيفة في العمل واذا ضعفت جاز بقاء المبتدا على اعرابه الاصلي وهو الرفع (المقدمة الاولى) انها تشبه الفعل وهذه المشابهة حاصلة في اللفظ والمعنى أما اللفظ فلانها تركبت من ثلاثة أحرف وانفتح آخرها ولزمت الاسماء كالافعال واما المعنى فلانها تفيد حصول معنى في الاسم وهو تأكيده وموصوفيته بالخبر كما انك اذا قلت قام زيد فقد قولك قام أفاد حصول معنى في الاسم (المقدمة الثانية) انها لما أشبهت الافعال وجب ان تشبهها في العمل فذلك ظاهر بناء على الدوران (المقدمة الثالثة) انها لم

(٨ - خامس) الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف من قبيل ما لا يفهم معناه ولا يدرك فحواه وادمجوا في ضمن ذلك أن في تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون من المؤاخذة والعقاب ولعل ذلك ما فيه من التحذير من عواقب الامم السالفة ولذلك قالوا (وانا لنراك فينا) فيما بيننا (ضعيفا) لا قوة لك ولا قدرة على شئ من الضر والنفع والايقاع والدفع (ولولا رهطك) لولا مراعاة جانبهم

المصادر كالنهيق والشهيق واما أنذرهم عليه السلام بسوء عاقبة صنيعهم عقيب ما سمعوا في ارعوائهم عما كانوا فيه مع ما هم من طغيانهم بالحمل على الاستغفار والتوبة فقال (واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه) مر تفسيره مثله في أول السورة (ان ربي رحيم) عظيم الرحمة للتائبين (ودود) مبالغ في فعل ما يفعل البليغ المودة بمن يوده من اللطف والاحسان وهذا تعليل للامر بالاستغفار والتوبة وحث عليهما (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه أي ما نفهم مرادك وانما قالوا ذلك بعد ما سمعوا منه دلائل الحق المبين على أحسن وجه وأبلغه وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل فلم يجدوا الى محاورته سبيلا سوى الصدود عن منهاج الحق والسلوك الى سبيل الشقاء كما هو دين المفحم المحجوج يقابل البينات بالسب والابراق والارعاد فجعلوا كلامه المشتمل على فنون

لا لولا ام مما نعونناو بد افعونا (لرجنالك) فان ممانعة الرهط وهواسم للثلاثة الى التسعة أوالى العشرة لهم وهم ألوف مؤلفة مما لا يكاد يتوهم وقد أيد ذلك بقوله عزوجل (وما أنت علينا بعزيز) مكرم محترم حتى يمتنع من رجمك وانما نكف عنه للمحافظة على حرمة رهطك الذين تتواعلى دينناولم يختاروك ٥٨ علينا ولم يتبعوك دوننا وايلاء الضمير حرف النفي وان لم يكن الخبر فعليا غير خال عن الدلالة

على رجوع النفي الى الفاعل دون الفعل لا سيما مع قرينة قوله ولولا رهطك كأنه قيل وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الاعزة علينا وحيث كان غرضهم من عظيم هم هذه عائدا الى نفي ما فيه عليه السلام من القوة والعزة الربانيتين حسبما يوجبه كونه على بينة من ربه مؤيدا من عنده ويقتضيه قضية طلب التوفيق منه والتوكل عليه والانابة اليه والى اسقاط ذلك كله عن درجة الاعتداد به والاعتبار (قال) عليه السلام في جوابهم (ياقوم أرهطي أعز عليكم من الله) فان الاستهانة بمن لا يتعزز الا به عزوجل استهانة بجنابه العزيز وانما أنكر عليهم أعزية رهطه منه تعالى مع أن ما أثبتوه انما هو مطلق عزة رهطه لا أعزيتهم منه عزوجل مع الاشتراك في أصل العزة لتثنية التقريع وتكرير التوبيخ حيث أنكر عليهم أولا ترجيح جهة الرهط على جهة الله تعالى وثانيا نفي العزة بالمرة والمعنى أرهطي أعز عليكم من الله فانه مما لا يكاد يصح والحال انكم لم تجعلوا له تعالى حظا من العزة أصلا (واتخذتموه) على

تنصب الاسم وترفع الخبر فتقرير وان يقال انها لما صارت عاملة تارة ان ترفع المبتدا والخبر معا أوتنصبهما معا أوترفع المبتدا وتنصب الخبر أوبالعكس (والاول باطل) لان المبتدا والخبر كانا قبل دخول ان عليهما مرفوعين فلو بقيا كذلك بعد دخولها عليهما لما ظهر له اثر البتة ولانها أعطيت عمل الفعل والفعل لا يرفع الاسمين فلا معنى للاشتراك (والقسم الثاني) أيضا باطل لان هذا أيضا مخالف لعمل الفعل لان الفعل لا ينصب شيأ مع خلوه عما يرفعه (والقسم الثالث) أيضا باطل لانه يؤدي الى التسوية بين الاصل والفرع فان الفعل يكون عمله في الفاعل أولا بالرفع وفي المفعول بالنصب فلو جعل النصب ههنا كذلك لحصلت التسوية بين الاصل والفرع ولما بطلت الاقسام الثلاثة تعين القسم الرابع وهو انها تنصب الاسم وترفع الخبر وهذا مما ينبغي على أن هذه الحروف دخيلة في العمل لا أصلية لان تقديم المنصوب على المرفوع في باب العمل عدول عن الاصل فذلك يدل على أن العمل بهذه الحروف ليس بثابت بطريق الاصالة بل بطريق عارض (المقدمة الرابعة) لما ثبت أن تأثيرها في نصب الاسم بسبب مشابهتها بالفعل فيكون الاول أولى فثبت بمجموع ما قررنا ان الرفع أولى من النصب فان لم تحصل الاولوية فلا أقل من أصل الجواز ولهذا السبب اذا جئت بخبران ثم عطفت على الاسم اسما آخر جاز فيه الرفع والنصب معا (الوجه الرابع) في الجواب قال الفراء هذا أصله ذا زيدت الهاء لان ذا كلمة منقوصة فكملت بالهاء عند التثنية وزيدت الفا للتثنية فصارت هذان فاجتمع ساكنان من جنس واحد فاحتيج الى حذف واحد ولا يمكن حذف ألف الاصل لان أصل الكلمة منقوصة فلا تجعل أنقص بحذف ألف التثنية لان النون بدل عليه فلا جرم لم تعمل ان لان عملها في ألف التثنية وقال آخرون الالف الباقي اما ألف الاصل أو ألف التثنية فان كان الباقي ألف الاصل لم يجز حذفها لان العامل انما رجي لا يتصرف في ذات الكلمة وان كان الباقي ألف التثنية فلا شك أنهم أتوا بها مناب ألف الاصل وعوض الاصل أصل لا محالة فهذا الالف أصل فلا يجوز حذفه وبرجيح حاصل هذا الى الجواب الاول (الوجه الخامس) في الجواب حكى الزجاج عن قدماء النحويين ان الهاء ههنا مضمرة والتقدير انه هذان لساحران وهذه الهاء كناية عن الامر والشان فهذا ما قيل في هذا الموضع فأما من خفف فقرأ ان هذان لساحران فهو حسن فان ما بعد الخفيفة رفع واللام بعدها في الخبر لازمة واجبة وان كانت في ان الثقيلة جائزة ليظهر الفرق بين ان المؤكدة وان النافية قال الشاعر

وان مالك لمرتجى ان تضعضعت * ورحا الحرب أودارت على حطوب

وقال آخر

ان القوم والحي الذي أنا منهم * لاهل مقامات وشاء وجامل

الجامل جمع جمل ثم من العرب من يعمل ان ناقصة كما يعملها تامة اعتبارا بكان فانها تعمل وان نقصت في قولك لم يكن ليقاء معنى التأكيد وان زال الشبه اللفظي بالفعل لان العبرة للمعنى وهذه اللغة تدل على ان العبرة في باب الاعمال الشبه المعنوي بالفعل وهو اثبات التركيب دون الشبه اللفظي كما أن التعويل في باب كان على المعنى دون اللفظ لكونه فعلا محضا وأما اللغة الظاهرة وهي ترك اعمال ان الخفيفة دالة

على سبب عدم اعتدادكم بمن لا يرد ولا يصدر الا بأمره (وراءكم ظهريا) أي شيأ منبوذا وراء الظهر منسيا لا يبالى به منسوب الى الظهر والكسر لتغيير النسب كالامسي في النسبة الى الامس (ان ربي بما تعملون) من الاعمال السيئة التي من جملتها عدم مراعاتكم لجانبه

(محيط) لايخفى منها على عاقل وان جعلتموه منسيا فيجازيكم عليها او يحتمل أن يكون الانكار للرد والتكذيب فانهم لما ادعوا أنهم لا يكفون عن رجمه عليه السلام لقوته وعزته بل لمراعاة جانب رهطه رد عليهم ذلك بأنكم ما قدرتم الله حق قدره العزيز ولم تراعوا جانبه القوى فكيف تراعون جانب رهطي الاذلة (وياقوم اعملوا) لما رأى عليه السلام اصرارهم ٥٩ على التكفر وأنهم لا يرعوون عما هم عليه من المعاصي حتى اجتمعوا على العظيمة التي هي الاستهانة به والعزيمة على رجمه لولا حرمة رهطه قال لهم على طريقة التهديد اعملوا (على مكانتكم) أي على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ التمكن وانما قاله عليه السلام ردا لما ادعوا أنهم اقوياء قادرون على رجمه وأنه ضعيف فيما بينهم لا عزة له أو على ناحيتكم وجهتكم التي أنتم عليها من قولهم مكان ومكانة كمقام ومقامة والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقة لي وساثر ما أنتم عليه مما لا خير فيه وابذلوا جهدكم في مضارتي وايقاع ما في نيتكم واخراج ما في أمنيتكم من القوة الى الفعل (اني عامل) على مكانتي حسبما يؤيدني الله ويوفقني بأنواع التأييد والتوفيق (سوف تعلمون) لما هددهم عليه السلام بقوله اعملوا على مكانتكم أي عامل منهم مظنة أن يسأل منهم سائل فيقول فماذا يكون بعد ذلك فقيل سوف تعلمون (من يأتيه عذاب يخزيه) وصف العذاب بالاخزاء تمريضا لما أوعدوه عليه السلام به من الرجم فانه مع كونه عذابا فيه مخزى ظاهر حيث لا يكون الا بجناية عظيمة توجبه (ومن هو كاذب) عطف على من يأتيه لا على أنه قسيمه بل حيث أوعدوه بالرجم وكذبوه قيل سوف تعلمون من المعذب ومن الكاذب وفيه تعريض بكذبهم في ادعائهم القوة والقدرة على رجمه عليه السلام وفي نسبته الى الضعف

على أن الشبه للفظي في ان الثقيلة أحد جزأي العلة في حق عملها وعند الخفة زال الشبه فلم تعمل بخلاف المكون فانه عامل بمعناه لكونه فعلا محضا ولا عبرة للفظه (المسئلة الثانية) انه سبحانه وتعالى لما ذكر ما أمروه من النهوى حكى عنهم ما أظهروه من وجوه يدل على التنفير عن موسى عليه السلام ومتابعة دينه (فأحدها) قولهم هذان لساحران وهذا طعن منهم في معجزات موسى عليه السلام ثم مبالغة في التنفير عنه لما أن كل طبع سليم يقتضي النفرة عن السحر وكراهة رؤية الساحر ومن حيث ان الانسان يعلم ان السحر لا بقاء له فاذا اعتقد واقبه السحر قالوا كيف تتبعه فانه لا بقاء له ولا لدينه ولا لمذهبه (وثانيها) قوله يريد أن يخرجكم من أرضكم وهذا في نهاية التنفير لان المفارقة عن المنشأ والمولد شديدة على القلوب وهذا هو الذي حكاه الله تعالى عن فرعون في قوله أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى وكان السحرة تلقفوا هذه الشبهة من فرعون ثم أعادوها (وثالثها) قوله ويذهبا بطريقتكم المثلى وهذا أيضا له تأثير شديد في القلب فان العدو اذا جاء واستولى على جميع المناصب والاشياء التي يرغب فيها فلذلك يكون في نهاية المشقة على النفس فهم ذكروا هذه الوجوه للمبالغة في التنفير عن موسى والترغيب في دفعه وابطال أمره وههنا بحثان (البحث الاول) قال الفراء الطريقة الرجال الاشراف الذين هم قدوة لغيرهم يقال هم طريقة قومهم ويقال للواحد أيضا هو طريقة قومه وجعل الزجاج الآية من باب حذف المضاف أي ويذهبا بأهل طريقتكم المثلى وعلى التقديرين فالمراد انهم كانوا يحرضون القوم بان موسى وهرون عليهما السلام يريدان ان يذهبا بأشراف قومكم وأكابركم وهم بنو اسرائيل لقول موسى عليه السلام أرسل معنا بني اسرائيل وانما سموا بني اسرائيل بذلك لانهم كانوا اكثر القوم بومئذ عددا وأموالا ومن المفسرين من فسر الطريقة المثلى بالذين سموا دينهم بالطريقة المثلى وكل حزب بما لديهم فرحون ومنهم من فسرها بالجاه والمنصب والرياسة (البحث الثاني) المثلى مؤنثة لمذكر أنث الطريقة واختلفوا في أنه لم سمي الافضل بالامثل فقال بعضهم الامثل الاشبه بالحق وقيل الامثل الاوضح والاظهر ثم انه تعالى لما حكى انهم مبالغتهم في التنفير عن موسى عليه السلام والترغيب في ابطال أمره حكى عنهم انهم قالوا فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صافا قرأ أبو عمرو بوصل الالف وفتح الميم من أجمعوا بمعنى لا تدعوا شيأ من كيدكم الا جئتم به دليله قوله فجمع كيده وقرأ الباقون بقطع الالف وكسر الميم وله وجهان (أحدهما) قال الفراء الاجماع الاحكام والعزيمة على الشيء يقال أجمعت على الخروج مثل أزمعت (والثاني) بمعنى الجمع وقد مضى الكلام في هذا عند قوله فأجمعوا أمركم وشركاءكم قال الزجاج ليكن عزمكم كلكم كالرأي واحدا مجمعا عليه لا تختلفوا ثم ائتوا صفا عاد كر أبو عبيدة والزجاج وجهين (أحدهما) ان الصف موضع الجمع والمعنى ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم والمعنى ائتوا مصلى من المصليات أو كان الصف علما للمصلى بعينه فأمروا بأن يأتوه (والثاني) أن يكون الصف مصدرا والمعنى ثم ائتوا مصطفين مجتمعين لكي يكون أنظم لامركم وأشد لهيبتكم وهذا قول عامة المفسرين وقوله وقد أفلح اليوم من استعلى اعتراض يعني وقد فاز من غلب فكانوا يقولون بذلك أنفسهم فيما بينهم من اظهار ما يظهرونه من السحر ﴿قوله تعالى﴾ قالوا يا موسى اما أن تلقي واما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف انك أنت الاعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴿اعلم أنه لما تقدم ذكر الموعد وهو يوم الزينة وتقدم أيضا قوله ثم ائتوا صفا صار ذلك مقتضيا عن قوله فحضروا هذا الموضع وقالوا اما أن تلقي لدلالة ما تقدم عليه وقوله اما أن

والمد وان وفى ادعائهم الابتداء عليه لرعاية جانب الربط والاختلاف بين المعطوفين بالفعلية والاسمية لان كذب الكاذب ليس بمرتقب كاتيان العذاب بل انما المرتقب ظهور الكذب الشائق المستمر ومن اما استفهامية معلقة للعلم عن العمل كانه قيل سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه وأينا كاذب ٦٠ واما موصولة أى سوف تعرفون الذى يأتيه عذاب والذى هو كاذب (وارتقبوا) وانتظروا

تلقى واما أن تكون أول من ألقى مهنا واما أن تلقى ما معك قلنا واما أن تلقى ما معناه قبلك وهذا التفهيم مع تقديمه فى الذكر حسن أدب منهم وتواضع له فلا جرم رزقهم الله تعالى الايمان بركته ثم ان موسى عليه السلام قابل أدبهم بادب فقال بل ألقوا أما قوله بل ألقوا فانه سؤالان (السؤال الاول) كيف يجوز أن يقول موسى عليه السلام بل ألقوا فيأمرهم بما هو سحر وكفر لانهم اذا قصدوا بذلك تكذيب موسى عليه السلام كان كفرا والجواب من وجوه (أحدها) لانسلم ان نفس الالقاء كفر ومعصية لانهم اذا ألقوا وكان غرضهم ان يظهروا الفرق بين ذلك الالقاء وبين معجزة الرسول عليه السلام وهو موسى كان ذلك الالقاء اعانا وانما الكفر هو القصد الى تكذيب موسى وهو عليه السلام انما أمر بالالقاء لا بالقصد الى التكذيب فزال السؤال (وثانيها) ذلك الامر كان مشروطا والتقدير ألقوا ما أنتم ملقون ان كنتم محقين كما فى قوله تعالى فأتوا بسورة من مثله ان كنتم صادقين أى ان كنتم قادرين (وثالثها) انه لما تبين ذلك طريقا الى كشف الشبهة صار ذلك جائزا وهذا كالمحق اذا علم ان فى قلب واحد شبهة وانه لو لم يطالبه بذكرها وتقريرها بأقصى ما يقدر عليه لبقيت تلك الشبهة فى قلبه ويخرج بسببها عن الدين فان للمحق أن يطالبه بتقريرها على أقصى الوجوه ويكون غرضه من ذلك ان يجيب عنها ويزيل أثرها عن قلبه فقط البتة بذكر الشبهة لهذا الغرض تكون جائزة فكذا ههنا (ورابعها) أن لا يكون ذلك أمرا بل يكون معناه انكم ان أردتم فعله فلا مانع منه حسا لكى ينكشف الحق (وخامسها) أن موسى عليه السلام لما شك انه كان كارها لذلك ولا شك انه نهاهم عن ذلك بقوله ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب واذا كان الامر كذلك استحال أن يكون قوله أمرا لهم بذلك لان الجمع بين كونه ناهيا وآمرا بالفعل الواحد محال فعلمنا ان قوله غير محمول على ظاهره وحينئذ يزول الاشكال (السؤال الثانى) لم قدمهم فى الالقاء على نفسه مع ان تقديم استماع الشبهة على استماع الحجة غير جائز فكذا تقديم ايراد الشبهة على ايراد الحجة وجب أن لا يجوز لاحتمال أنه ربما أدرك الشبهة ثم لا يتفرغ لادراك الحجة بعده فيبقى حينئذ فى الكفر والضلال وليس لاحد أن يقول ان ذلك كان بسبب أنهم لما قدموه على أنفسهم فهو عليه السلام قابل ذلك بان قدمهم على نفسه لان أمثال ذلك انما يحسن فيما يرجع الى حظ النفس فأما ما يرجع الى الدليل والشبهة فغير جائز والجواب أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزة مرة واحدة فلما كان به حاجة الى اظهارها مرة أخرى والقوم انما جاؤا للمعارضة فقال عليه السلام لو أنى بدأت باظهار المعجزة أولا لكنت كالسبب فى اقدامهم على اظهار السحر وقصد ابطال المعجزة وذلك غير جائز ولكنى أفوض الامر اليهم حتى انهم باختيارهم يظهرون ذلك السحر ثم أنا أظهر المعجز الذى يبطل سحرهم فيكون على هذا التقدير سببا لازالة الشبهة وأما على التقدير الاول فانه يكون سببا لوقوع الشبهة فكان ذلك أولى أما قوله فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس رضى الله عنهما ألقوا حبالهم وعصيهم ميلا من هذا الجانب وميلا من هذا الجانب تخيل الى موسى عليه السلام ان الارض كلها حيات وانها تسعى تخاف فلما قيل له ألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ألقى موسى عصاه فاذا هى أعظم من حياتهم ثم أخذت تزداد عظما حتى ملأت الوادى ثم صعدت وعلت حتى علقت ذنبها بطرف القبة ثم هبطت فأكلت كل ما عملوا فى المدائن والناس ينظرون اليها لا يحسبون الا أنه سحر ثم أقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاقتحم فاها فلما بين ذراعا فصاح موسى عليه السلام فأخذها فاذا هى عصا كما كانت ونظرت السحرة فاذا هى لم تدع من حبالهم وعصيهم شيئا الا أكلته فعرفت السحرة أنه ليس بسحر وقالوا لأن حبالنا وعصينا لم تكن سحرا لبقيت تخر واسجدا وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى

ما أقول ما أقول (الى مكم رقيب) منتظر فعيل بمعنى الراقب كالصريم أو المراقب كالعشير أو المرتقب كالرقيع وفى زيادة ميمه كم اظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره (ولما جاء أمرنا) أى عذابنا كما ينبئ عنه قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه أو وقته فان الارتقاب مردف بذلك (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا) وهى الايمان الذى وفقناهم له أو برحمة كائنة منا لهم واقتدكر بالواو كما فى قصة عاد لما لم يسبقه فيها ذكر وعد يجرى مجرى السبب المقتضى لدخول الفاء فى معلوله كما فى قصتى صالح ولوط فانه قد سبق هناك سابقة الوعد بقوله ذلك وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم الصبح (وأخذت الذين ظلموا) عطف السبب عن الضمير تسجيلا عليهم بالظلم واشعارا بأن ما أخذهم انما أخذهم بسبب ظلمهم الذى فصل فيما سبق فتنوه (الصيحة) قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا وفى سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة أى الزلزلة ولعلها من وهرون رواد فى الصيحة المستتبعة لتموج الهواء المفضى اليها كما مر فيما قبل (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) ميتين لازمين لاماكنهم لا براح لهم منها وانما لم يجعل متعلق العلم فى قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب الخ نفس مجىء العذاب بل من يحيئه ذلك جعل مجيئه بعد ذلك أمرا

مسلم الوقوع غنيا عن الاخبار به حيث جعل شرطا وجعل تعيبة شعيب عليه السلام واهلاك الكفرة جوابا له ومقصود الافادة
وانما قدم تعيبته اهتماما بشأنها وايذانا بسبق الرحمة التي هي مقتضى الربوبية على الغضب الذي يظهر اثره بوجوب جزائهم وجزائهم
(كان لم يغنوا) اي لم يقيموا (فيها) متمتعين في اطرافها متقلبين في اكنافها ٦١ (الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) المدول عن
الاضمار الى الاظهار ليكون
ادل على طغيانهم الذي
اداهم الى هذه المرتبة
وليكون انسب بمن شبه
هلاكهم بهلاكهم اعني
ثمود واغاشبه هلاكهم
بهلاكهم لانهما اهلكتا
بنوع من العذاب وهو
الصيحة غير ان هؤلاء صيح
بهم من فوقهم وأولئك
من تحتهم وقرئ بعدت
بالضم على الاصل فان
الكسر تغيير لتخصيص
معنى البعد بما يكون سبب
الهلاك والبعد مصدر
لهما والبعد مصدر
للمكسور (ولقد أرسلنا
موسى بآياتنا) هي
الآيات التسع المفصلات
التي هي العصا واليد
البيضاء والطوفان والجراد
والقمل والضفادع والدم
ونقص الثمرات والانفس
ومنهم من جعلهما آية
واحدة وعد منها اظلال
الجبل وليس كذلك فانه
لقبول أحكام التوراة حين
أباه بنو اسرائيل والباء
متعلقة بمحذوف وقع حالا
من مفعول أرسلنا أو قدمنا
لمصدره المؤكد أي ارسلناه
حال كونه ملتبسا بآياتنا
أو أرسلناه ارسالا ملتبسا
بها (وسلطان مبين) هو
المعجزات الباهرة منها أو هو العصا والافراد لذكرها لاظهار شرفها لكونها أم بقيتها أو المراد بالآيات ما عداها أو هما عبارتان عن شئ واحد
أي أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وبين كونه سلطانا مبينا على نبوته واضحا في نفسه أو موضحا لها من ابان لازما ومتعديا أو هو الغلبة
والاستيلاء كقوله تعالى ولنجعل لكما سلطانا ويجوز أن يكون المراد ما بينه عليه السلام في تضاعيف دعوته حين قال له فرعون من ربكما

وهرون (المسئلة الثانية) اختلفوا في عدد السحرة قال الناسم بن سلام كانوا سبعين الفا مع كل واحد
عصا وحبل وقال السدي كانوا بضعة وثلاثين الفا مع كل واحد عصا وحبل وقال وهب كانوا خمسة عشر الفا
وقال ابن جريج وعكرمة كانوا تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية
وقال الكلبي كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان منهم من القبط وسبعون من بني اسرائيل أكرههم فرعون
على ذلك واعلم ان الاختلاف والتفاوت واقع في عدد كثير وظاهر القرآن لا يدل على شئ منه والاقوال اذا
تعارضت تساقطت (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف يقال في اذا هذه اذا المفاجأة والتحقيق فيها انها
اذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصبا لها وجملة تضاف اليها اختصت في بعض المواضع بأن تكون ناصبا فعلا
مخصوصا وهو فعل المفاجأة فالجملة ابتدائية لا غير فتقدير قوله تعالى فاذا حبالهم وعصيهم فاجأ موسى
وقت تخييل سعي حبالهم وعصيهم وهذا تمثيل والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة اليه كذا نية عن
موسى عليه السلام والمراد انهم بلغوا في سحرهم المبلغ الذي صار يخيل الى موسى عليه السلام أنها تسعى كسعي
ما يكون حيا من الحيات لا انها كانت حية في الحقيقة ويقال انهم حشوها عما اذا وقعت الشمس عليه
يضطرب ويتحرك ولما كثرت واتصل بعضها ببعض فمن رآها كان يظن انها تسعى فأما ما روى عن وهب
انهم سحروا أعين الناس وعين موسى عليه السلام حتى تخيل ذلك مستدلا بقوله تعالى فلما القوا سحروا
أعين الناس وبقوله تعالى يخيل اليه من سحرهم انها تسعى فهذا غير جائز لان ذلك الوقت وقت اظهار
المعجزة والادلة وازالة الشبهة فلو صار بحيث لا يميز الموجود عن الخيال الفاسد لم يتمكن من اظهار المعجزة
حينئذ فيفسد المقصود فان المراد انه شاهد شيئا ولا علم له بانه لا حقيقة لذلك الشئ الظن فيها انها تسعى
أما قوله تعالى فأوجس في نفسه خيفة موسى فالايحاس استشعار الخوف أي وجد في نفسه خوفا فان قيل
انه لا مزيد في ازالة الخوف على ما فعله الله تعالى في حق موسى عليه السلام فانه كلمه أولا وعرض عليه
المعجزات الباهرة كالعصا واليد ثم انه تعالى صيرها كما كانت بعد أن كانت كاعظم ثعبان ثم انه أعطاه
الانفراجات الثمانية وذكر ما أعطاه قبل ذلك من الاذن الثمانية ثم قال له بعد ذلك كلا اني معكما أسمع
وأرى فمع هذه المقدمات الكثيرة كيف وقع الخوف في قلبه والجواب عنه من وجوه (أحدها) ان ذلك
الخوف انما كان لما طبع الآدمي عليه من ضعف القلب وان كان قد علم موسى عليه السلام انهم لا يبلغون
اليه وان الله ناصره وهذا قول الحسن (وثانيها) أنه خاف أن تدخل على الناس شبهة فيما يرونه فيظنوا انهم
قد ساووا موسى عليه السلام ويشتبه ذلك عليهم وهذا التأويل متأكد بقوله لا تخف انك أنت الاعلى
وهذا قول مقاتل (وثالثها) انه خاف حيث بدؤا وتأخر القاؤه ان ينصرف بعض القوم قبل مشاهدة ما يلقيه
فيدوموا على اعتقاد الباطل (ورابعها) لعله عليه السلام كان مأمورا بان لا يفعل شيأ الا بالوحي فلما تأخر
نزول الوحي عليه في ذلك الوقت خاف ان لا ينزل عليه الوحي في ذلك الوقت فيبقى في الخجالة (وخامسها) لعله
عليه السلام خاف من انه وأبطل سحرا وثالث الحاضرين فلعل فرعون قد أعد أقواما آخرين قد أتوا بمثلهم
فيحتاج مرة أخرى الى ابطال سحرهم وهكذا من غير ان يظهر له مقطع وحينئذ لا يتم الامر ولا يحصل
المقصود ثم انه تعالى أزال ذلك الخوف بالاجمال أولا وبالتفصيل ثانيا أما الاجمال فقوله تعالى قلنا لا تخف

انك أنت الاعلى ودلالته على أن خوفه كان لامر يرجع الى ان أمره لا يظهر للقوم فامنه الله تعالى بقوله انك أنت الاعلى وفيه أنواع من المبالغة (أحدها) ذكر كلا التأكيد وهي ان (وثانيها) تكرير الضمير (وثالثها) لام التعريف (ورابعها) لفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة وأما التفصيل فقوله وألق ما في يمينك وفيه سؤال وهو انه لم يقل وألق عصاك والجواب جاز ان يكون تصغيرا لها أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العود الفرد الصغير الحرم الذي بيمينك فانه بقدرة الله تعالى يتلقفها على وحدته وكثرتها وصغره وعظمها وجائز أن يكون تعظيما لها أي لا تحتفل بهذه الاجرام الكثيرة فان في يمينك شيأ أعظم منها كلها وهذه على كثرتها أقل شيء عندها فالقه يتلقفها باذن الله تعالى ويمحقها أما قوله تلقف أي فانك اذا ألقيتها فانها تلقف ما صنعوا قراءة العامة تلقف بالجزم والتشديد أي فالقها تتلقفها وقرأ ابن عامر تلقف بالتشديد وضم الفاء على معنى الحال أي ألقها متلقفة أو بالرفع على الاستئناف وروى حفص عن عاصم يسكون اللام مع التخفيف أي تأخذ بفم البلاعة بسرعة واللقف والتلقف جميعا ترجمان الى هذا المعنى وصنعوا ههنا بمعنى اختلقوا وزوروا والعرب تقول في الكذب هو كلام مصنوع وموضوع وصحة قوله تلقف انه اذا ألقى ذلك صارت حية تلقفت ما صنعوه وفي قوله فألقي السحرة سجدا دلالة على أنه ألقى العصا وصارت حية وتلقفت ما صنعوه وفي التلقف دلالة على ان جميع ما ألقوه تلقفته وذلك لا يكون الا مع عظم من جسدها وشدة قوتها وقد حكى عن السحرة انهم عند التلقف أيقنوا بان ما جاء به موسى عليه السلام ليس من مقدور البشر من وجوه (أحدها) ظهور حركة العصا على وجه لا يكون مثله بالحيلة (وثانيها) زيادة عظمه على وجه لا يتم ذلك بالحيلة (وثالثها) ظهور الاعضاء عليه من العين والمخرين والفم وغيرها ولا يتم ذلك بالحيلة (ورابعها) تلقف جميع ما ألقوه على كثرته وذلك لا يتم بالحيلة وخامسها عوده خشبة صغيرة كما كانت وشيء من ذلك لا يتم بالحيلة ثم بين سبحانه وتعالى ان ما صنعوه كيد ساحر والمعنى ان الذي معك يا موسى معجزة الهية والذي معهم تمويهات بأطلة فكيف يحصل التعارض وقرئ كيد ساحر بالرفع والنصب فمن رفع فعلى ان ما موصولة ومن نصب فعلى انها كافة وقرئ كيد سحر بمعنى ذي سحر أو ذوي سحر أو هم لتوغلهم في سحرهم كانهم السحر بعينه وبذاته أو بين الكيد لانه يكون سحرا وغير سحر كما بين المئة بدرهم ونحوه علم فقه وعلم نحو بقي سؤالات ﴿السؤال الاول﴾ لم وحد الساحر ولم يجمع ﴿الجواب﴾ لأن القصد في هذا الكلام الى معنى الجنسية لا الى معنى العدد فلو جمع لخيل ان المقصود هو العدد الا ترى الى قوله ولا يفلح الساحر حيث أتى أي هذا الجنس ﴿السؤال الثاني﴾ لم نكر ولا تم عرف ثانيا ﴿الجواب﴾ كأنه قال هذا الذي أتوا به قسم واحد من أقسام السحر وجميع أقسام السحر لا فائدة فيه ولا شك ان هذا الكلام على هذا الوجه أبلغ ﴿السؤال الثالث﴾ قوله ولا يفلح الساحر حيث أتى يدل على ان الساحر لا يحصل له مقصوده بالسحر خيرا كان أو شرا وذلك يقتضي نفي السحر بالكلية والجواب الكلام في السحر وحقيقته قد تقدم في سورة البقرة فلا وجه للاعادة والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى قال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ﴿اعلم ان في قوله فألقي السحرة سجدا دلالة على انه ألقى ما في يمينه وصار حية وتلقف ما صنعوه وانظهر الامر وتحقق وعند ذلك سجدوا وذلك لانهم كانوا في الطبقة العليا من علم السحر فلما رأوا ما فعله موسى عليه السلام خارجا عن صناعتهم عرفوا انه ليس من السحر البتة وبقال قال رئيسهم كنا نغالب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا ولا تبقى علينا فلو كان هذا سحرا فأين ما ألقيناه فألقته الباقية وبارسال بني اسرائيل من الاسر والقسر وتخصيص هذه بالذكر مع عموم رسالته عليه السلام لقومه كافة لاصالتهم في الرأي وتدبير الامور واتباع غيرهم لهم في الورود والصدور وانما لم يصرح بكفر فرعون بآيات الله تعالى وانهما كانا فيها كان عليه من الضلال والاضلال بل اقتصر على ذكر شأن مائه فقيل (فاتيا فرعون) أي أمره بالكفر بما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين للايذان بوضوح حاله فكان كفره وأمر مائه بذلك أمرا محققا الوجود غير محتاج الى الذكر صريحا وانما المحتاج الى ذلك شأن مائه المترددين بين هاديا الى الحق وداع الى الضلال فنعى عليهم سوء اختيارهم وايراد الفاء في اتباعهم المترتب على أمر فرعون المبني على كفره المسوق لتبليغ الرسالة للاشعار بفجاجة تهم في الاتباع ومسارعة فرعون الى الكفر وأمرهم به فكان ذلك كله من الارسال والتبليغ بل وقع جميع ذلك في وقت واحد فوقع اثر ذلك اتباعهم ويجوز ان يراد بامر فرعون شأنه المشهور وطريقته الزائغة فاستدلوا فيكون معنى فاتيا فاستمرا وعلى الاتباع والفاء مثل ما في قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر فان الاتيان بالشيء بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث فتأمل وترك الاضمار لدفع توهم الرجوع الى موسى

عليه السلام من أول الامر ولزيادة تقبيح حال المتبعين فان فرعون علم في الفساد والافساد والضلال والاضلال فاضاعه لفرط الجهل وعدم الاستبصار وكذا الحال في قوله تعالى (وما أمر فرعون برشيد) الرشد ضد الغي وقد يراد به محمودية العاقبة فهو على الاول بمعنى المرشد أو ذي الرشد حقيقة لغوية والاسناد مجازي وعلى الثاني مجازي والاسناد حقيقي (يقدم قومه) جميعا من الاشراف وغيرهم (يوم القيامة) أي يتقدمهم من قدمه بمعنى تقدمه وهو استئناف لبيان حاله في الآخرة أي كما كان قدوة لهم في الضلال كذلك يتقدمهم الى النار وهم يتبعونه أو لتوضيح عدم صلاح ما آل أمره وسوء عاقبته (فأوردهم النار) أي يوردهم وايثار صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع لامحالة شبه فرعون بالفارط الذي يتقدم الواردة الى الماء وأتباعه بالواردة والنار بالماء الذي يردونه ثم قيل (وبئس الورد المورود) أي بئس الورد الذي يردونه النار لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الاكباد والنار على ضد ذلك (وأتبعوا) أي الملأ الذين اتبعوا أمر فرعون (في هذه) أي في الدنيا (لعنة) عظيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الامم الى يوم القيامة (ويوم القيامة) أيضا حيث يلعنهم أهل الموقف قاطبة فهي تابعة لهم حيثما سارواداثرة معهم أيضا دار وافي الموقف فكما اتبعوا فرعون

فاستدلوا بتغير أحوال الاجسام على الصانع العالم القادر وبظهورها على يده موسى عليه السلام على كونه رسولا صادقا من عند الله تعالى فلا جرم تابوا وآمنوا وأتوا بما وأتوا به والنهاية في الخضوع وهو السجود أما قوله تعالى فألقي السحرة سجدا فليس المراد منه انهم أجبروا على السجود والا لما كانوا ممدوحين بل التأويل فيه ما قال الاخفش وهو أنهم من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا وقال صاحب الكشاف ما أنجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا وجوههم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الالقاءين وروي انهم لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها وعن عكرمة لما خروا سجدا أراهم الله في سجودهم منازلهم التي يصيرون اليها في الجنة قال القاضي هذا بعيد لانه تعالى لما أراهم عيانا النار وأهلها حين وذلك لا يليق به قولهم انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وجوابه لما جاز لابراهيم عليه السلام مع قطعه بكونه مغفورا له أن يقول والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي فلم لا يجوز مثله في حق السحرة واعلم ان هذه القصة تنبه على أسرار عجيبة من أمور الربوبية ونفاذ القضاء الالهي وقدره في جملة المحدثات وذلك لان ظهور تلك الادلة كانت بمرأى من الكل ومسمع فكان وجه الاستدلال فيها جليا ظاهرا وهو انه حدثت أمور لا بد لها من مؤثر والعلم بذلك ضروري وذلك المؤثر اما الخلق واما غيرهم والاول يدعيه المبطلان لان كل عاقل يعلم بالضرورة من نفسه انه لا يقدر على ايجاد الحيوانات وتعظيم جثثها فدمه واحدة ثم يصغرها مرة أخرى كما كانت وهذه العلوم الجلية متى حصلت في العقل أفادت القطع بانه لا بد من مدبر لهذا العالم فاذا يقول الاترى ان أولئك المنكرين جهلوا صحة هذه المقدمات وهذا في نهاية البعد لانا بينا ان كل واحد منها بحيث لا يمكن ارتياب العاقل فيه واذا عرفوا صحتها لكنهم أصروا على الجهل وكرهوا تحصيل العلم والسعادة لانفسهم وأحبوا تحصيل الجهل والشقاوة لانفسهم فما أرى ان عاقلا يرضى بذلك لنفسه قط فلم يبق الا أن يقال العقل والدليل لا يكفي بل لا بد من مدبر يخلق هذه المقدمات في القلوب ويخلق الشعور بكيفية ترتيبها وبكيفية استنتاج النتيجة حتى انه متى فعل ذلك حصلت النتائج في القلوب وذلك يدل على ان الكل بقضائه وقدره فانه لا اعتماد على العقول والقلوب في مجاريها وتصرفاتها ومن طرح التعصب عن قلبه ونظر الى أحوال نفسه في مجاري أفكاره وانظاره ازداد يقينا بما ذكرناه أما قوله قالوا آمنا برب هرون وموسى فاعلم ان السلطنة احتجوا بهذه الآية وقالوا انهم آمنوا بالله الذي عرفوه من قبل هرون وموسى فضل ذلك على ان معرفة الله لا تستفاد الا من الامام وهذا القول ضعيف بل في قولهم آمنا برب هرون وموسى فائدة ثانية سوى ما ذكروه (الفائدة الاولى) وهي ان فرعون ادعى الربوبية في قوله أنا ربكم الاعلى والالهية في قوله ما علمت لكم من اله غيري فلو أنهم قالوا آمنا برب العالمين لكان فرعون يقول انهم آمنوا لا بغيري فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة والدليل عليه انهم قدموا ذكر هرون على موسى لان فرعون كان يدعي ربوبيته لموسى بناء على أنه رباه في قوله ألم نربك فينا وليدا فالقوم لما احترزوا عن ايهامات فرعون لا جرم قدموا ذكر هرون على موسى قطعا لهذا الخيال (الفائدة الثانية) وهي انهم لما شاهدوا ان الله تعالى خصهما بتلك المعجزات العظيمة والدرجات الشريفة لا جرم قالوا رب هرون وموسى لاجل ذلك ثم ان فرعون لما شاهد منهم السجود والاقرار خاف أن يصير ذلك سببا لاقتداء سائر الناس بهم في الايمان بالله تعالى وبرسوله ففي الحال ألقى شبهة أخرى في النبي فقال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر وهذا الكلام مشتمل على شبهتين (احداهما) قوله آمنتم له قبل أن آذن لكم وتقريره أن الاعتماد على الخاطر الاول غير جائز بل لا بد فيه من البحث والمناظرة والاستعانة

بتعتهم اللعنة في الدارين جزاء وفاقا واكتفى ببيان حالهم المفظيع وشأنهم الشنيع عن بيان حال فرعون اذ حين كان حالهم هكذا فما بالك بحال من أغراهم وأقامهم في هذا الضلال البعيد وحيث كان شأن الاتباع أن يكونوا أعوانا للمتبوع جعلت اللعنة وقودا لهم على طريقة التهكم فقيل (بئس الرفد المرفود) أي بئس العون المعان وقد فسر الرفد بالعطاء ولا يلائمه المقام وأصله ما يضاف الى غيره ليعمده

والمخصوص بالذم محذوف، أى رذلهم وهى اللعنة فى الدارين وكونه مرفودا من حيث ان كل لعنة منها معينة ومعدة لصاحبتها ومؤيدة لها (ذلك) اشارة الى ماقص من أنباء الامم وبعده باعتبار تقضيه فى الذكر والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره (من أنباء القرى) المهلكة بما جنته أيدى ٦٤ أهلها (نقصه عليك) خبر بعد خبر أى ذلك النبأ بعض أنباء القرى مقصوص عليك

بالخواطر فلم تفعلوا شيأ من ذلك بل فى الحال آمنتم له دل ذلك على ان ايمانكم ليس عن البصيرة بل عن سبب آخر (وثانيها) قوله انه لكبيركم الذى علمكم السحر يعنى انكم تلامذته فى السحر فاصطلحتم على أن تظهروا العجز من أنفسكم ترويجا لامره وتفخيما لشأنه ثم بعد ايراد الشبهة اشتغل بالتهديد تنفيرا لهم عن الايمان وتنفيرا لغيرهم عن الاقتداء بهم فى ذلك فقال لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف قرئ لاقطعن ولاصلبن بالتخفيف والقطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لان كل واحد من العضوين خلاف الآخر فان هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال وقوله من خلاف فى محل النصب على الحال أى لاقطعنها مختلفات لانها اذا خالف بعضها بعضا فقد اتصفت بالاختلاف ثم قال ولأصلبنكم فى جذوع النخل فشبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكن الشئ الموعى فى وعائه فلذلك قال فى جذوع النخل والذى يقال فى المشهور ان فى بمعنى على فضعيف ثم قال ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى أراد بقوله أينا نفسه لمنعه الله لان قوله أينا يشعر بانه أراد نفسه وموسى عليه السلام بدليل قوله آمنتم له وفيه تسلف باقتداره وقهره وما ألفه من تعذيب الناس بأنواع العذاب واستضعاف موسى عليه السلام مع العجز به لان موسى عليه السلام قط لم يكن من التعذيب فى شئ * فان قيل ان فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا الحية بتلك العظامة التى شرحتموها وذكرتم انها قصدت ابتلاع قصر فرعون وآل الامر الى أن استغاث موسى عليه السلام من شر ذلك الثعبان فمع قرب عهده بذلك وعجزه عن دفعه كيف يعقل أن يهدد السحرة ويبالغ فى وعيدهم الى هذا الحد ويستمر تزئ موسى عليه السلام فى قوله أينا أشد عذابا وأبقى * قلنا لم يجوز أن يقال انه كان فى أشد الخوف فى قلبه الا أنه كان يظهر ذلك الجلادة والوقاحة تمشية لما موسوه وترويجا لامره ومن استقرأ أحوال أهل العالم علم أن العاجز قد يفعل أمثال هذه الاشياء ومما يدل على صحة ذلك أن كل عاقل يعلم بالضرورة ان عذاب الله أشد من عذاب البشر ثم انه مع أنكر ذلك وأيضا فقد كان عالما بكذبه فى قوله انه لكبيركم الذى علمكم السحر لانه علم ان موسى عليه السلام ماخالطهم البتة وبما لقيهم وكان يعرف من سحرته ان أستاذ كل واحد من هو وكيف حصل ذلك العلم ثم انه مع ذلك كان يقول هذه الاشياء فثبت ان سبيله فى كل ذلك ماذكرناه وقال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا فى أول النهار سحرة وفى آخره شهداء ۞ قوله تعالى ﴿قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ۞ اعلم أنه تعالى لما حكى تهديد فرعون لاولئك المؤمنين حكى جوابهم عن ذلك بما يدل على حصول اليقين التام والبصيرة الكاملة لهم فى أصول الدين فقالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات وذلك يدل على ان فرعون طلب منهم الرجوع عن الايمان والافعل بهم ما أوعدهم فقالوا لن نؤثرك جوابا لما قاله وبينوا العلة وهى ان الذى جاءهم بينات وأدلة والذى يذكره فرعون محض الدنيا ومنافع الدنيا ومضارها لا تعارض منافع الآخرة ومضارها أما قوله والذى فطرنا ففيه وجهان (الاول) ان التقدير لن نؤثرك بافرعون على ماجاءنا من البينات وعلى الذى فطرنا أى وعلى طاعة الذى فطرنا وعلى عبادته (الوجه الثانى) يجوز أن يكون خفضا على القسم * واعلم أنهم لما علموا انهم متى أصروا على

الايمان

(ومنها) أى من تلك القرى (قائم وحصيد) أى ومنها حصيد حذف لدلالة الاول عليه شبه مابقى منها بالزرع القائم على ساقه وما عفا وبطل بالحصيد والجملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب (وما ظلمناهم) بان أهلكناهم (ولكن ظلموا أنفسهم) بان جعلوها عرضة للهلاك باقتراف مايوجبه (فما أغنت عنهم) فما نفعتهم ولا دفعت بأس الله تعالى عنهم (آلهتهم التى يدعون) أى يعبدونها (من دون الله) أو ترصيغة المضارع حكاية للحال الماضية أو دلالة على استمرار عبادتهم لها (من شئ) فى موضع المصدر أى شيأ من الاغناء (لما جاء ربك) أى حين جاء عذابه وهو منصوب باغنت وقرئ آلهتهم اللاتى يدعون على البناء للمفعول (وما زادوهم غير تتبيب) أى أهلاك وتخسيرا نهم انما هلكوا وخسروا بسبب عبادتهم لها (وكذلك) ومثل ذلك الاخذ الذى مر بيانه وهو رفع على الابتداء وخبره قوله (أخذ ربك) وقرئ أخذ ربك فمحل الكاف النصب على انه مصدر مؤكد (اذا أخذ القرى) أى أهلها وانما أسند الم الاشعار بسرعان أثره الم احساسه ذكر وقرئ اذ أخذ (وهى ظالمة) حال من القرى وهى فى الحقيقة لاهلها لكنها لما أقيمت مقامهم فى الاخذ أجريت الحال عليها وفائدتها الاشعار بانهم انما أخذوا بظلمهم ليكون ذلك عبرة لكل

الم (ان أخذه أليم شديد) وجميع صعب على المأخوذ لا يرجى منه الخلاص وفيه ما لا يخفى من التهديد والتحذير (ان في ذلك) أي في هذه تعالى للامم الهالكة أو في قصصهم (لآية) لعبرة (لمن خاف عذاب الآخرة) فانه المتعبر به حيث يستدل بما حاق بهم من العذاب أشد يدبب ما علموا من السيئات على أحوال عذاب الآخرة وأما من أنكر الآخرة وأحال فناء العالم وزعم أن ليس هو ولا شيء من أحواله مستندا الى انفعال المختار وأن ما يقع فيه من الحوادث فانما يتبع لاسباب تقتضيه من أوضاع فلكية تتفق في بعض الاوقات لا لما ذكر من المعاصي التي يقترفها الامم الهالكة فهو بمعزل من هذا الاعتبار بنبائهم ولما لهم من الافكار (ذلك) اشارة الى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة (يوم مجموع له الناس) أي يجمع له الناس للمحاسبة والجزاء والتعبير للدلالة على ثبات معنى الجمع وتحقق وقوعه لاحالة وعدم انفكاك الناس عنه ففيه أبلغ من قوله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع (وذلك) أي يوم القيامة مع ملاحظة عنوان جمع الناس له (يوم مشهود) أي مشهود فيه حيث يشهد فيه أهل السموات والارضين فالتنوين فيه باعتبار الظرف مجرى المفعول به كما في قوله

* في شمأل من نواحي الناس مشهود *

أي كثير شاهدوه ولو جعل نفس اليوم مشهودا لفات ما هو الغرض من تعظيم اليوم وتهويله

وتمييزه عن غيره فان سائر الايام أيضا كذلك (وما نؤخره) أي ذلك اليوم المحوط بعنوان الجمع والشهود (الا لاجل معدود) الا لانقضاء مدة قابلة مضروبة حسبما تقتضيه الحكمة (يوم يأت) أي حين يأتي ذلك اليوم المؤخر بانقضاء أجله كقوله تعالى أن تأتيهم الساعة

الايمان فعل فرعون ما أوعدهم به فقالوا اقض ما أنت قاض ما أنت قاض لا على معنى أمرهم بذلك لكن أظهروا ان ذلك الوعيد لا يزيلهم البتة عن ايمانهم وعما عرفوه من الحق علما وعملا ثم بينوا ما لاجله يسهل عليهم احتمال ذلك فقالوا انما تقضي هذه الحياة الدنيا وقرئ تقضي هذه الحياة الدنيا ووجهها ان الحياة في القراءة المشهورة منتصبة على الظرف فاتسع في الظرف باجرائه مجرى المفعول به كقولك صمت يوم الجمعة صيم يوم الجمعة والمعنى ان قضاءك يحكمك انما يكون في هذه الحياة الدنيا وهي كيف كانت فانية واما حياتنا بعد الآخرة وهي باقية والعقل يقتضي تحمل الضرر الفاني المتوصل به الى السعادة الباقية ثم قالوا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر وقد ذكروا في ذلك الاكراه وجوها (أحدها) ان الملك في ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ويكلفونهم تعلم السحر فاذا شاخ بعثوا اليه أحداثا ليتعلم لهم ليكون في كل وقت من يحسنه فقالوا وهذا القول لا يحل ذلك أي كما في التعلم أولا والتعليم ثانيا مكرهين قاله ابن عباس (وثانيها) ان رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين اثنان من القبط والباقي من بني اسرائيل فقالوا لفرعون أرنا موسى نائما فرأوه فوجدوه يخر عصاه فقالوا ما هذا بساحر الساحر اذا نام بطل سحره فأبى الا أن يعارضوه (وثالثها) قال الحسن ان السحرة حشروا من المدائن ليعارضوا موسى عليه السلام فأحضروا بالحشر وكانوا مكرهين في الحضور وربما كانوا مكرهين أيضا في اظهار السحر (ورابعها) قال عمرو بن عبيد دعوة السلطان اكراه وهذا ضعيف لان دعوة السلطان اذا لم يكن معها خوف لم تكن اكراها ثم قالوا والله خير ثوابا لمن أطاعه وأبقى عقابا لمن عصاه وهذا جواب لقوله ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى قال الحسن سبحان الله القوم كفارهم أشد الكافرين كفرا ثبت في قلوبهم الايمان في طرفة عين فلم يتعاظم عندهم أن قالوا اقض ما أنت قاض في ذات الله تعالى والله ان أحدكم اليوم ليحصب القرآن ستين عاما ثم انه يبيع دينه بملء حقيبة ثم ختموا هذا الكلام بشرح أحوال المؤمنين وأحوال المجرمين في عرصة القيامة فقالوا في المجرمين انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى وفيه مسائل (المسألة الاولى) الهاء في قوله انه ضمير الشأن يعني ان الامر والشأن كذا وكذا (المسألة الثانية) استدلت المعتزلة بهذه الآية في القطع على وعيد أصحاب الكبائر قالوا لصاحب الكبيرة مجرم وكل مجرم فان له جهنم لقولنا انه من يأت ربه مجرما وكلمة من في معرض الشرط تفيد العموم بدليل انه يجوز استثناء كل واحد منها والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل واعترض بعض المتكلمين من أصحابنا على هذا الكلام فقال لا نسلم ان صاحب الكبيرة مجرم والدليل عليه انه تعالى جعل المجرم في مقابلة المؤمن فانه قال في هذه الآية ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات وقال ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وأيضا فانه قال فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى والمؤمن صاحب الكبيرة وان عذب بالنار لا يكون بهذا الوصف وفي الخبر الصحيح يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الايمان واعلم أن هذه الاعتراضات ضعيفة أما قوله تعالى ان الله تعالى جعل المجرم في مقابلة المؤمن فهذا مسلم لكن هذا انما ينفع لو ثبت ان صاحب الكبيرة مؤمن ومذهب المعتزلة انه ليس بمؤمن فهذا المعترض كأنه بنى هذا الاعتراض على مذهب نفسه وذلك ساقط قوله ثانيا انه لا يليق بصاحب الكبيرة أن يقال في حقه ان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى قلنا لا نسلم فان عذاب جهنم في غاية الشدة قال تعالى ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وأما الحديث فيقال القرآن متواتر فلا يعارضه خبر الواحد ويمكن أن يقال ثبت في أصول الفقه انه يجوز تخصيص القرآن بخبر الواحد فلم لا يجوز تخصيصه

وقيل يوم يأتي الجزاء الواقع فيه وقيل أعني الله عز وجل فالمقام مقام تفخيم شأن اليوم وقرئ بالنصب على الاصل (لا تكلم نفس) أي لا تتكلم بما ينفع ويشفع من جواب أو شفاعة وهو العامل في الظرف أو الانتهاء المحذوف في قوله تعالى الا بالاجل معلوم أي ينتهي الامر يوم يأتي أو المعمر المعهود ٦٦ (الا باذنه) عز سلطانه في التكلم كقوله تعالى لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن

أن يجيب فيقول ذلك يفيد الظن بجواز الرجوع اليه في العمليات وهذه المسئلة ليست من العمليات بل من الاعتقادات فلا يجوز المصير اليها ههنا فان اعترض انسان آخر وقال أجمعنا على أن هذه الآية مشروطة بنفي التوبة وبأن لا يكون عقابه محبطا بثواب طاعته والقدر المشترك بين الصورتين هو أن لا يوجد ما يحبط ذلك العقاب ولكن عندنا ان العفو محبط للعقاب وعندنا ان المجرم الذي لا يوجد في حقه العفو لا بد وأن يدخل جهنم واعلم أن هذا الاعتراض أيضا ضعيف أما نحن نفي التوبة لا حاجة اليه لانه قال من يأت ربه مجرما أي حال كونه مجرما والتائب لا يصدق عليه أنه أتى ربه حال كونه مجرما وأما صاحب الصغيرة فلانه لا يسمى مجرما لان المجرم اسم للذم فلا يجوز اطلاقه على صاحب الصغيرة بل الاعتراض الصحيح أن نقول عموم هذا الوعيد معارض بما جاء بعده من عموم الوعد وهو قوله تعالى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى وكلا منا فيمن أتى بالايمان والاعمال الصالحة ثم أتى بعد ذلك ببعض الكبائر * فان قيل عقاب المعصية يحبط ثواب الطاعة * قلنا لم لا يجوز أن يقال ثواب الايمان يدفع عقاب المعصية فان قالوا لو كان كذلك لوجب أن لا يجوز لمن تعمد اقامة الحد عليه فلنا أما اللعن فغير جائز عندنا وأما اقامة الحد عليه فقد تكون على سبيل المحنة كما في حق التائب وقد تكون على سبيل التنكيل قالت المعتزلة قوله تعالى والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله فالله تعالى نص على انه يجب عليه اقامة الحد على سبيل التنكيل وكل من كان كذلك استحال أن يكون مستحقا للمدح والتعظيم واذا لم يبق ذلك لم يبق الثواب كما قلنا فقد دللنا ذلك على ان عقاب الكبيرة أولى بازالة ثواب الطاعة المتقدمة من الطاعات بدفع عقاب الكبيرة الطارئة هذا منتهى كلامهم في مسئلة الوعيد * قلنا حاصل الكلام يرجع الى أن النص الدال على اقامة الحد عليه على سبيل التنكيل صار معارضا للنص الدال على كونه مستحقا للثواب فلم كان ترجيح أحدهما على الآخر أولى من العكس وذلك لان المؤمن كان ينقسم الى السارق وغير السارق فالسارق ينقسم الى المؤمن والى غير المؤمن فلم كان لاحدهما مزية على الآخر في العموم والخصوص فاذا تعارضا تساقطا ثم نقول لا نسلم ان كل من في آية قطع السارق عموم قطعية بل ظنية ومسئلتنا قطعية فلا يجوز التعويل على ما ذكرته وتمام الكلام فيه مذكور في كتاب المحصول في الاصول (المسئلة الثالثة) تمسكت المجسمة بقوله انه من يأت ربه مجرما فقالوا الجسم اما يأتي ربه لو كان الرب في المكان وجوابه ان الله تعالى جعل اتيانهم موضع الوعد اتيانا لنفسه كقول ابراهيم عليه السلام اني ذاهب الى ربي سيهدين (المسئلة الرابعة) الجسم لحين لا بد وأن يبقى اما حيا أو يصير ميتا خلوه عن الوصفين محال فمعناه في الآية انه يكون في حقهم بأسوأ حال لا يموت موتة مريحة ولا يحيا حياة منعمة ثم ذكر حال المؤمنين فقال ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى * واعلم أن قوله قد عمل الصالحات يقتضي أن يكون آتيا بكل الصالحات وذلك بالاتفاق غير معتبر ولا يمكن فنحن نحمله على أداء الواجبات ثم ذكر ان من أتى بالايمان والاعمال الصالحات كانت له الدرجات العلى ثم فسرها فقال جنات عدن تجري من تحتها الانهار وفي الآية تنبيه على حصول العفو لاصحاب الكبائر لانه تعالى جعل الدرجات العلى من الجنة لمن أتى ربه بالايمان والاعمال الصالحة فسائر الدرجات التي هي غير عالية لا بد وأن تكون لغيرهم وعامة أهل الايمان أما قوله وذلك جزاء من تزكى فقال ابن عباس يريد من قال لا اله الا الله وأقول لما دلت هذه الآية على أن الدرجات العالية هي جزاء من تزكى أي تطهر عن الذنوب وجب بحكم ذلك الخطاب ان الدرجات التي لا تكون عالية أن لا تكون جزاء من

وهذا في موطن من مواطن ذلك اليوم وقوله عز وجل هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون في موقف آخر من مواقفه كما أن قوله سبحانه يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها في آخر منها والمأذون فيه الجوابات الحقة والممنوع عنه الاعتذار الباطل لانهم قد يؤذن فيها أيضا لاظهار بطلانها كما في قول الكفرة والله ربنا ما كنا مشركين ونظائره (فمنهم شقي) وجبت له النار بموجب الوعيد (وسعيد) أي ومنهم سعيد حذف الخبر لدلالة الاول عليه وهو من وجبت له الجنة بمقتضى الوعد والضمير لاهل الموقف المدلول عليهم بقوله لا تكلم نفس أو للناس وتقديم الشقي على السعيد لان المقام مقام التحذير والانذار (فأما الذين شقوا) أي سبقت لهم الشقاوة (ففي النار) أي مستقرون فيها (لهم فيها زفير وشهيق) الزفير اخراج النفس والشهيق رده واستعمالهما في أول النهيق وآخره قال الشماخ يصف حمارا الوحش

بعيد مدى التطريب أول صرته * زفير ويتلوه شهيق محشرج وانما ذكر هما وصف شدة كربهم وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه المرارة وانضم رقيه روحه أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير وقرئ شقوا بالضم والجملة مستأنفة كأن سائلا قال ما شأنهم فيها فقيل لهم فيها كذا وكذا أو منصوبة المحل على الحالية من النار أو من الضمير في الجار والمجرور كقوله عز اسمه (خالدين فيها)

خلا أنه ان أريد حدوث كونهم في النار فالحاصل مقدرة (ما دامت السموات والارض) أي مدة دوامهما وهذا التوقيت عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع بناء على منهاج قول العرب ما دام ثبير وما أقام ثبير وما لاح كوكب وما اختلف الليل والنهار وما طما البحر ونحو ذلك من كلمات التأبيد لا تعليق قرارهم فيها بدوام هذه السموات والارض فان النصوص ٦٧ القاطعة دالة على تأبيد قرارهم فيها وانقطاع دوامهما وان اريد التعليق فالمراد سموات الآخرة وأرضها كما يدل على ذلك النصوص كقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقوله تعالى وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وجزم كل أحد بأن أهل الآخرة لا بد لهم من مظلة ومقلة دائمتين يكفي في تعليق دوام قرارهم فيها بدوامهما ولا حاجة الى الوقوف على تفاصيل أحوالهما وكيفياتهما (الا ماشاء ربك) استثناء من الخلود على طريقة قوله تعالى لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى وقوله ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف وقوله تعالى حتى يلج الجمل في سم الخياط غير أن استحالة الامور المذكورة معلومة بحكم العقل واستحالة تعلق المشيئة بعدم الخلود معلومة بحكم العقل يعني انهم مستقرون في النار في جميع الازمنة الا في زمان مشيئة الله تعالى لعدم قرارهم فيها واذلا

تركي فهي لغيرهم ممن يكون قد أتى بالمعاصي وعفا الله بفضله ورحمته عنهم * واعلم أنه ليس في القرآن ان فرعون فعل بأوائل القوم المؤمنين ما أوعدهم به ولكن ثبت ذلك في الاخبار * قوله تعالى * وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى * اعلم أن في قوله وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادي دلالة على ان موسى عليه السلام في تلك المدة كثر مستجيبوه فأراد الله تعالى تمييزهم من طائفة فرعون وخلاصهم فأوحى اليه أن يسري بهم ليلا والسري اسم لسير الليل والاسراء لغة * قال قيل سار الحكمة في أن يسري بهم ليلا * قلنا لوجوه (أحدها) لأن يكون اجتماعهم لا يشهد من البعد فلا يمنعهم عن استكمال مرادهم في ذلك (وثانيها) ليكون عائقا عن طلب فرعون ومتبعيه (وثالثها) لكون اذا تقارب العسكران لا يرى عسكر موسى عسكر فرعون فلا يهابونهم أما قوله فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا ففيه وجهان (الاول) أي فاجعل لهم من قولهم ضرب له في ماله سهما ومنه ضرب اللبن على (والثاني) بين لهم طريقا في البحر بالضرب بالعصا وهو أولى بضرب البحر بالعصا حتى ينفلق فعدى الضرب الى الطريق والحاصل انه أريد بضرب الطريق جعل الطريق بالضرب يبساً ثم بين تعالى ان جميع أسباب الامن كان حاصلا في ذلك الطريق (أحدها) انه كان يبساً قرئ يابسا بفتح الباء وتسكين الباء فمن قال يابسا جعله بمعنى الطريق ومن قال يبسا بتحريك الباء فالبيس والبابس شئ واحد والمعنى طريقا ذا يبس ومن قال يبسا بتسكين الباء فهو مخفف عن البيس والمراد انه ما كان فيه وحل ولا نداوة فضلا عن الماء (وثانيها) قوله لا تخاف دركا ولا تخشى أي لا تخاف أن يدركك فرعون فاني أحول بينك وبينه بالتأخير قال سيبويه قوله لا تخاف رفعه على وجهين (أحدهما) على الحال كقولك غير خائف ولا خاش (والثاني) على الابتداء أي أنت لا تخاف وهذا قول الفراء قال الاخفش والزجاج المعنى لا تخاف فيما تعكف قوله وائتوا به مالا تجزى نفس عن نفس أي لا تجزى فيه نفس وقرأ حمزة لا تخف وفيه وجهان (أحدهما) انه نهي (والثاني) قال أبو علي جعله جواب الشرط على معنى ان تضرب لا تخف وعلى هذه القراءة ذكر في قوله ولا تخشى ثلاثة أوجه (أحدها) أن يستأنف كأنه قيل وأنت لا تخشى أي ومن شأنك انك آمن لا تخشى (وثانيها) أن لا تكون الالف هي الالف المنقلبة عن الياء التي هي لام الفعل ولكن زائدة للاطلاق من أجل الفاصلة كقوله تعالى وأضلونا السبيلا وتظنون بالله الظنونا (وثالثها) أن يكون مثل قوله * كأن لم ترى قبلي أسيرا يمانيا * (ورابعها) قوله ولا تخشى والمعنى انك لا تخاف ادراك فرعون ولا تخشى الغرق بالماء أما قوله فأتبعهم فرعون بجنوده قال أبو مسلم زعم رواة اللغة أن أتبعهم وتبعهم واحد وذلك جائز ويحتمل أن تكون الباء زائدة والمعنى أتبعهم فرعون بجنوده كقوله تعالى لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي أسري بعبده وقال الزجاج قرئ فأتبعهم فرعون وجنوده أي ومعه جنوده وقرئ بجنوده ومعناه ألحق جنوده بهم ويجوز أن يكون بمعنى معهم أما قوله فغشيهم فالمعنى علاهم وتررهم وما غشيهم تعظيم للامر أي غشيهم ما لا يعلم كنهه الا الله تعالى وقرئ فغشاهم من اليم ما غشيهم وفاعل غشاهم اما الله سبحانه وتعالى أو ما غشيهم أو فرعون لان الذي ورط جنوده وتسبب في هلاكهم أما قوله وأضل فرعون قومه وما هدى فاحتج القاضي به وقال لو كان الضلال من خلق الله تعالى لما جاز أن يقال وأضل فرعون قومه بل وجب أن يقال الله تعالى أضلهم ولان الله تعالى ذمه بذلك فكيف يجوز أن يكون خالقا للكفر لان من ذم غيره شيئا لا بد وأن يكون هو غيره فاعل لذلك الفعل والا لاستحق ذلك الذم وقوله وما هدى نهكم به في قوله وما أهديكم الا سبيل الرشاد ولنذكر القصة

امكان ذلك المشيئة ولا زمانها يحكم النصوص القاطعة الموجبة للخلود فلا امكان لانتهاء مدة قرارهم فيها ولدفع ما عسى يتوهم من كون استحالة تعلق مشيئة الله تعالى بعدم الخلود بطريق الوجوب على الله تعالى قال (ان ربك فعال لما يريد) يعني انه في تخليد الاشقياء في النار بحيث يستحيل وقوع خلافه فعال بموجب ارادته فاض بمقتضى مشيئته الجارية على سنن حكمته الداعية الى ترتيب الاجر به على

أفعال العباد والعدول من الاضمار الى الاظهار لتربية المهابة وزيادة التقرير وقيل هو استئناف من الخلود في عذاب النار فانهم لا يخلدون فيه بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع أخر من العذاب وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله تعالى عليهم وخسؤه لهم وإهانته إياهم وأنت تدري أنا وإن سلمنا أن المراد بالنار ليس ٦٨ مطلق دار العذاب المشتملة على أنواع العذاب بل نفس النار فما خلا عذاب الزمهرير من تلك الانواع مقارن لعذاب النار فلا مصداق في ذلك للاستثناء ولك أن تقول انهم ليسوا مخلدين في العذاب الجسماني الذي هو عذاب النار بل لهم من أفانين العذاب ما لا يعلمه الا الله سبحانه وهو العقوبات والآلام الروحانية التي لا يقف عليها في هذه الحياة الدنيا المنغمسون في أحكام الطبيعة المقصور ادراكهم على ما ألفوا من الاحوال الجسمانية وليس لهم استعداد لتلقي ما وراء ذلك من الاحوال الروحانية اذا ألقي اليهم ولذلك لم يتعرض لبيانه واكتفى بهذه المرتبة الاجمالية المنبئة عن التهويل وهذه العقوبات وان كانت تدوم بهم وهم في النار لكنهم ينسون بها عذاب النار ولا يحسون به وهذه المرتبة كافية في تحقيق معنى الاستثناء هذا وقد قيل الاستثناء سوى وهو أوفق بما ذكر وقيل ما بمعنى من على ارادة معنى الوصفية فالمعنى ان الذين شقوا في النار مقدرين الخلود فيها الا الذين شاء الله عدم خلودهم فيها وهم عصاة المؤمنين (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض) الكلام فيه كالكلام فيما سبق خلا أنه لم يذكر هناك أن لهم فيها نعمة وسرورا كما ذكر في أهل النار من أنه لهم فيها زفير وشهيق لان المقام مقام التحذير والانذار (الا ما شاء ربك) ان حمل على طريقة التعليق بالمحال فقوله سبحانه (عطاء غير مجذوذ) نصب على المصدرية من معنى

وما فيها من المباحث قال ابن عباس رضي الله عنهما لما أمر الله تعالى موسى أن يقطع بقومه البحر وكان موسى عليه السلام وبنو اسرائيل استعاروا من قوم فرعون الحلي والثياب لعيد يخرجون اليه فخرج بهم لياليهم سبعمائة ألف وثلاثة آلاف ونيف ليس فيهم ابن عشرين ولا عشرين وقد كان يوسف عليه السلام عهد اليهم عند موته أن يخرجوا عظامه معهم فلما خرجوا بها فتحيروا القوم حتى دلتهم عجوز على موضع العظام فأخذوها فقال موسى عليه السلام للعجوز احتكمي فقالت أكون معك في الجنة وذكر ابن عباس أن محمدا صلى الله عليه وسلم وأبا بكر هجموا على رجل من العرب وامرأته ليس لهم الا عنز فذبحوها لهما فقال عليه السلام اذا سمعت برجل قد ظهر بيثرب فأته فلعل الله يرزقك منه خيرا فلما سمع بظهور الرسول صلى الله عليه وسلم أتاه مع امرأته فقال أتعرفني قال نعم عرفتك فقال له احتكم فقال ثمانون ضانية فأعطاه اياها وقال له أما ان عجوز بني اسرائيل خير منك وخرج فرعون في طلب موسى عليه السلام وعلى مقدمته ألف ألف وخمسمائة ألف سوى الجنيبين واتاه فلما التقى موسى والبحر قال ههنا أمرت ثم قال موسى عليه السلام لبحر انفرق فأبى فأوحى الله اليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فقال لهم موسى عليه السلام ادخلوا فيه فقالوا كيف وأرضه رطبة فدعا الله فهبت عليه الصبا فجفت فقالوا نخاف الغرق في بعضنا فعمل بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضا حتى جاوز والبحر فاقبل فرعون الى تلك الطرق فقال قومه له ان موسى قد سحر البحر فصار كما ترى وكان على فرس حصان واقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى في لاثة وثلاثين من الملائكة فصار جبريل عليه السلام بين يدي فرعون وأبصر الحصان الفرس الجرة فتقدم بفرعون على أثرها وصاحت الملائكة في الناس الحقوا الملك حتى اذا دخل آخرهم وكاد أولهم أن يخرج التقى البحر عليهم فغرقوا فسمع بنو اسرائيل خفقة البحر عليهم فقالوا ما هذا يا موسى قال قد أغرق الله فرعون وقومه فرجعوا ينظرون اليهم فقالوا يا موسى ادع الله أن يخرجهم لنا حتى ننظر اليهم فدعا فانظهم البحر الى الساحل وأصابوا من سلاحهم وذكر ابن عباس ان جبريل عليه السلام قال يا محمد لو رأيتني وأنا أدس فرعون في الماء والطين مخافة أن يتوب فيناله رحمة قوله فغشيهم من اليم ما غشيهم وفي القصة بحثان (البحث الاول) روي في الاخبار ان موسى عليه السلام لما ضرب بعصاه البحر حصل اثنا عشر طريقا ماء بين كل طريقين كالطود العظيم وبقي الماء قائما بين الطريق والطريق كالطود العظيم وهو الجبل فأخذ كل سبط من بني اسرائيل في طريق من هذه الطرق فقال بعضهم من قال بل حصل طريق واحد وهو الحق والقول الاول الاخبار ومن القرآن قوله تعالى فصار كل فرق كالطود العظيم وذلك لا يحصل الا اذا حصل هناك طرق حتى يكون الماء القائم بين الطريقين كالطود العظيم وحجة القول الثاني ظاهر قوله فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا وذلك يتناول الطريق الواحد وان أمكن حمله على الطرق نظرا الى الجنس (البحث الثاني) روي ان بني اسرائيل بعد أن أظهره موسى عليه السلام لهم الطريق وبينها لهم تعنتوا وقالوا نريد أن نرى بعضنا بعضا هذا كالبعيد وذلك ان القوم لما أبصروا يحيى فرعون صاروا في نهاية الخوف والخائف اذا وجد طريق الفرار والخلاص كيف يتفرغ للتمتع البارد (البحث الثاني) ان فرعون كان عاقلا بل كان في نهاية الدهاء فكيف اختار القاء نفسه الى التهلكة فانه كان يعلم من نفسه ان انفلاق البحر ليس بأمره فعند هذا ذكروا وجهين (أحدهما) ان جبريل عليه السلام كان على الرمكة فتبعه فرس فرعون ولقائل أن يقول هذا بعيد لانه يبعد أن يكون خوض الملك في أمثال هذه المواضع مقدما على خوض جميع العسكر وما ذكروه انما يتم اذا كان الامر كذلك وأيضا فلو كان الامر على ما قالوه لكان

الجملة لان قوله ففي الجنة حالة من فيها يقتضي اعطاءها وانعامها فكأنه قيل يعظيهم عطاء وهو اما اسم مصدر هو لا عطاء أو مصدر بحذف الزوائد كقوله تعالى أنبتكم من الارض نباتا وان حمل على ما أعد الله لعباده الصالحين من النعيم الروحاني الذي عبر عنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فهو نصب على الحالية من المفعول المقدر للمشيئة ٦٩ أو تمييز فان نسبة مشيئة الخروج الى الله تعالى يحتمل أن تكون على جهة عطاء مجذوذ وعطاء على جهة غير مجذوذ فهو رافع للابهام عن النسبة قال ابن زيد أخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لاهل الجنة فقال عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذي يشاء لاهل النار وهو جوز ان يتعلق بكلا النعيمين أو بالاول دفعا لما يتوهم من ظاهر الاستثناء من انقطاعه (فلا تك في مرية) أي في شك والفاء لترتيب النهي على ما قص من القصص وبين في اضاعيفها من العواقب الدنيوية والاخروية (مما يعبد هؤلاء) أي من جهة عبادة هؤلاء المشركين وسوء عاقبتهم أو من حال ما يعبدونه من الاوثان من عدم نفعه لهم ولما كان مساق النظم الكريم قبيل الشروع في القصص لبيان غاية سوء حال الكفرة وكمال حسن حال المؤمنين وقد ضرب لهم مثل قتيل مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون وقد قص عقيب ذلك من أنباء الامم السالفة مع رسلهم المبعوثة اليهم ما يتذكر به المتذكر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كونه في شك من مصير أمر هؤلاء المشركين في العاجل والآجل ثم علل ذلك بطريق الاستئناف فقيل (ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم) الذين قصت علينا قصصهم (من قبل) أي هم وآباؤهم سواء في الشرك ما يعبدون عبادة الا كعبادتهم أو ما يعبدون شيأ الا مثل ما عبدوه من الاوثان

فرعون في ذلك الدخول كالجمهور وذلك مما يزيده خوفا ويحمله على الامساك في أن لا يدخل وأيضا فأي حاجة لجبريل عليه السلام الى هذه الحيلة وقد كان يمكنه أن يأخذ معه قومه ويرميه في الماء ابتداء بل الاولى أن يقال انه أمر مقدمة عسكره بالدخول فدخلوا وما غرقوا فغلب على ظنه السلامة فلما دخل الكل أغرقهم الله تعالى ﴿البحث الرابع﴾ ان الذي نقل عن جبريل عليه السلام انه كان يدسه في الماء والطين خوفا من أن يؤمن فبعيد لان المنع من الايمان لا يليق بالملائكة والانبياء عليهم السلام ﴿البحث الخامس﴾ الذي روي ان موسى عليه السلام كلم البصر وقال له انفلق لي لاعبر عليك فقال البصر لا عبر على رجل عاص فهو غير ممتنع على أصولنا لان عندنا البنية ليست شرطا للحياة وعند المعتزلة ان ذلك على لسان الحال لا على لسان المقال والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿يا بني اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الايمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى﴾ اعلم أنه تعالى لما أنعم على قوم موسى عليه السلام بأنواع النعم فذكرهم اياها ولا شك أن ازالة المضرة يجب أن تكون متقدمة على ايصال المنفعة ولا شك ان ايصال المنفعة الدينية أعظم في كونه نعمة من ايصال المنفعة الدنيوية فلهذا مدد الله تعالى بقوله أنجيناكم من عدوكم وهو اشارة الى ازالة الضرر فان فرعون كان ينزل بهم من أنواع الظلم كثيرا من القتل والاذلال والاحراج والاتعاب في الاعمال ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية وهي قوله وواعدناكم جانب الطور الايمن ووجه المنفعة فيه انه أنزل في ذلك الوقت عليهم كتابا فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية وهي قوله ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم زجرهم عن العصيان بقوله ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ثم بين ان من عصى ثم تاب كان مقبولا عند الله بقوله وانى لغفار لمن تاب وهذا بيان المقصود من الآية ثم ههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ حمزة والكسائي قد أنجيتكم ووعدتكم الى قوله من طيبات ما رزقناكم كلها بالتاء الا قوله ونزلنا عليكم المن والسلوى فانها بالنون وقرأ الباقون كلها بالنون وقرأ نافع وعاصم وواعدناكم وقرأ حمزة والكسائي وواعدتكم ﴿المسئلة الثانية﴾ قال الكلبي لما طاوز موسى عليه السلام بني اسرائيل البحر قالوا له ألیس وعدتنا أن تأتينا من ربنا بكتاب فيه الفرائض والاحكام قال بلى ثم ذهب موسى الى ربه ليأتيهم بالكتاب ووعدهم أن يأتيهم الى أربعين ليلة من يوم انطلق وانما قال وواعدناكم لانه انما واعد موسى أن يأتيه التوراة لاجلهم وقال مقاتل انما قال واعدناكم لان الخطاب له وللسبعين المختارة والله أعلم ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال المفسرون ليس للجبل يمين ولا يسار بل المراد ان طور سيناء عن يمين من انطلق من مصر الى الشام وقرئ الايمن بالجر على الجوار نحو جحر ضب خرب وانتفاع القوم بذلك اما لان الله تعالى أنزل فيها التوراة عليهم وفيها شرح دينهم واما لان الله تعالى لما كلم موسى على الطور حصل للقوم بسبب ذلك شرف عظيم ﴿المسئلة الرابعة﴾ قوله كلوا ليس أمرا ايجاب بل أمر اباحة كقوله واذا حللتم فاصطادوا ﴿المسئلة الخامسة﴾ في الطيبات قولان (أحدهما) اللذائذ لان المن والسلوى من لذائذ الاطعمة (والثاني) وهو قول الكلبي ومقاتل الحلال لانه شيء أنزله الله تعالى لبني آدم ولم تمسه يد الآدميين ويجوز الجمع بين الوجهين لان بين المعنيين معنى مشتركا وتمام القول في هذه القصة تقدم في سورة البقرة ﴿المسئلة السادسة﴾ في قوله تعالى ولا تطغوا فيه وجوه (أحدها) قال ابن عباس رضي الله عنهما لا تطغوا أي لا تظلموا بعضكم بعضا فيأخذه من صاحبه (وثانيها) قال مقاتل والضحاك لا تظلموا فيه أنفسكم بأن تجاوزوا حد الاباحة (وثالثها) قال الكلبي لا تكفروا النعمة أي لا تستعينوا بنعمتي

والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها أو مثل ما كانوا يعبدونه فحذف كان لدلالة قوله من قبل عليه ولقد بلغك ما لحق بآبائهم فسيلحقهم مثل ذلك وان تماثل الاسباب يقتضي تماثل المسببات (وانا لموفوهم) أي هؤلاء الكفرة (نصيبهم) أي حظهم المعين لهم حسب جرائمهم ٧٠ وجرائرهم من العذاب عاجلا وآجلا كما وفينا آباءهم انصباءهم المقدرة لهم أو من الرزق

المقسوم لهم فيكون بيانا لوجه تأخر العذاب عنهم مع تحققه ما يوجبه (غير منقوص) حال مؤكدة من النصيب كقوله تعالى ثم ولّيتم مدبرين وفائدته دفع توهم التجوز وجعلها مقيدة له لدفع احتمال كونه منقوصا في حد نفسه مبني على الذهول عن كون العامل هو التوفية فتأمل (ولقد آتينا موسى الكتاب) أي التوراة (فاختلف فيه) أي في شأنه وكونه من عند الله تعالى فآمن به قوم وكفر به آخرون فلا تبال باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن وهولهم لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وزعمهم انك افتريته (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهي كلمة القضاء بانظارهم الى يوم القيامة على حسب الحكمة الداعية الى ذلك (لقضي بينهم) أي لاوقع القضاء بين المختلفين من قومك بانزال العذاب الذي يستحقه المبطلون ليتميزوا بعد عن المحقين وقيل بين قوم موسى ولميس بذاك (وانهم) أي وان كفار قومك أو بدله بعض من جميع اليهم ضمير يعود للامن من الالباس (لفي شك) عظيم (منه) أي من القرآن وان لم يجر له ذكر فان ذكر أبناء كتاب موسى ووقوع الاختلاف فيه لاسيما صدد التسلية ينادي به نداء غير خفي (مريب) موقع في الريبة (وان كلا) التنوين عوض عن المضاف اليه وان كل المختلفين فيه المؤمنين منهم والكافرين وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع

على هذا الفتى ولا تمرضوا عن الكبر ولا تعدلوا عن الحلال الى الحرام (المسئلة السابعة) قرأ الاعمش والكسائي فيحل ومن يحلل كلاهما بالضم وروى الاعشي عن أصحاب عبد الله فيحل بالكسر ومن يحلل بالرفع وقراءة العامة بالكسر في الكلمتين أما من كسر فمعناه الوجوب من حل الدين يحل اذا وجب أداؤه ومنه قوله تعالى حتى يبلغ الهدي محله والمضموم في معنى النزول وقوله فقد هوى أي شقي وقيل فقد وقع في الهاوية يقال هوى يهوي هويا اذا سقط من علو الى أسفل (المسئلة الثامنة) اعلم أن الله تعالى وصف نفسه بكونه غافرا وغفورا وغفارا وبأن له غفرانا ومغفرة وعبر عنه بلفظ الماضي والمستقبل والامر أما انه وصف نفسه بكونه غافرا فقوله غافر الذنب وأما كونه غفورا فقوله ورب ك الغفور ذو الرحمة وأما كونه غفارا فقوله واني لغفار لمن تاب وأما الغفران فقوله غفرانك ربنا وأما المغفرة فقوله وان ربك لذو مغفرة للناس وأما صيغة الماضي فقوله في حق داود عليه السلام فغفرنا له ذلك وأما صيغة المستقبل فقوله ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله ان الله يغفر الذنوب جميعا وقوله في حق محمد صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله وأما لفظ الاستغفار فقوله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وفي حق نوح عليه السلام فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا وفي الملائكة ويستغفرون لمن في الارض واعلم أن الانبياء عليهم السلام كلهم طلبوا المغفرة أما آدم عليه السلام فقال وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وأما نوح عليه السلام فقال والا تغفر لي وترحمني وأما ابراهيم عليه السلام فقال والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين وطلبها لابيه سأستغفر لك ربي وأما يوسف عليه السلام فقال في اخوته لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وأما موسى عليه السلام ففي قصة القبطي رب اغفر لي ولاخي وأما داود عليه السلام فاستغفر ربه وأما سليمان عليه السلام رب اغفر لي وهب لي ملكا وأما عيسى عليه السلام وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم وأما محمد صلى الله عليه وسلم فقوله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وأما الامة فقوله والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا واعلم أن بسط الكلام ههنا أن نبين أولا حقيقة المغفرة ثم نتكلم في كونه تعالى غافرا وغفورا وغفارا ثم نتكلم في أن معنى غفرته عامة ثم نبين ان مغفرته في حق الانبياء عليهم السلام كيف تمثل مع انه لا ذنب لهم ويتفرع على هذه الجملة استدلال أصحابنا في اثبات العفو وتقريره ان الذنب اما أن يكون صغيرا أو كبيرا بعد التوبة أو قبل التوبة والقسمان الاولان يقبح من الله عدم ايعاد ما يوصف عليه الخلف وترك التجاوز عنهما وترك القبيح لا يسمى غفرانا فثبت بهذين أن لا يتحقق الغفران الا في القسم الثالث وهو المطلوب فان تمثيل هذا استدلال ناقص صريح الآية لانه أثبت الغفران في حق من استجمع أمورا أربعة التوبة والايمان والعمل الصالح والاهتداء قلنا ان من تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ثم أذنب بعد ذلك كان تائبا وهو مؤمنا وآتيا بالعمل الصالح ومهتديا ومع ذلك يكون مذنبا فحينئذ يستقيم كلامنا وههنا نكتة وهي ان العبد له أسماء ثلاثة الظالم والظلوم والظلام فالظالم فيهم ظالم لنفسه والظلوم انه كان ظلوما جهولا والظلام اذا كثر ذلك منه وتلك في مقابلة كل واحد من هذه الاسماء اسم فكأنه تعالى يقول ان كنت ظالما فأنا غافر وان كنت ظلوما فأنا غفور وان كنت ظلاما فأنا غفار واني لغفار لمن تاب وآمن (المسئلة التاسعة) كثر اختلاف المفسرين في قوله تعالى ثم اهتدى وسبب ذلك ان من تاب وآمن وعمل صالحا فلابد وأن يكون مهتديا فما معنى قوله ثم اهتدى بعد ذكر هذه الاشياء والوجوه المختصة فيه ثلاثة (أحدها) المراد منه الاستمرار على تلك الطريقة لان المهتدي في الحال لا يكفيه ذلك في الفوز بالنجاة حتى يستمر عليه في المستقبل وتحوت عليه ونظيره قوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وكقوله

الاعمال اعتبارا للاصل (لما ليوفينهم ربك أعمالهم) أى أجزية أعمالهم واللام الاولى موطئة للقسم والثانية جواب للقسم المحذوف ولما مركبة من من الجارة وما الموصولة أو الموصوفة وأصلها لمن ما فقلبت النون ميما للادغام فاجتمع ثلاث ميمات فحذفت أولاهن والمعنى لمن الذى أو لمن خلق أو لمن فريق والله ليوفينهم ربك وقرئ لما بالتخفيف على أن ما ٧١ مامزيدة للفصل بين اللامين والمعنى وان كلا لمن الذين ليوفينهم ربك أعمالهم (انه بما يعملون خبير) بحيث لا يخفى عليه شئ من جلائلها ودقائقها وهو تعليل لما سبق من توفية أجزية أعمالهم فان الاحاطة بتفاصيل أعمال الفريقين وما استوجبه كل عمل يقتضى الحكمة من الجزاء المخصوص توجب توفية كل ذى حق حقه ان خيرا فخير وان شرا فشر (فاستقم كما أمرت) لما بين فى تضاعيف القصص المحكية عن الامم الماضية سوء عاقبة الكفر وعصيان الرسل وأشير الى أن حال هؤلاء الكفرة فى الكفر والضلال واستحقاق العذاب مثل أولئك المعذبين وأن نسبتهم من العذاب واصل اليهم من غير نقص فى شئ من ذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستقامة كما أمر به فى العقائد والاعمال المشتركة بينه وبين سائر المؤمنين ولا سيما الاعمال الخاصة بنفسه المقتضية لمزيد الاهتمام بشأنها (ومن تاب معك) عطف على الضمير المستكن فى استقم وسوغ العطف وجود الفاصل وقيل على المرفوع فى أمرت أى ومن تاب معك فليستقم كما أمر (ولا تطغوا) فى شئ مما أمرتم به ونهيتم عنه (انه بما تعملون بصير) فيجازيكم على حسب أعمالكم (ولا تركنوا) أى لا تميلوا أدنى ميل (الى الذين ظلموا) بوضع العبادة فى غير موضعها (فتمسكم النار) بركونكم اليهم (وما لكم من دون الله من أولياء) يمنعونكم من عذابه (ثم لا تنصرون) ثم لا يقع نصركم عليه بل يقع خذلانكم وتعذيبكم (وأقم الصلوة طرفى النهار) أى الغداة والعشى (وزلفا من الليل) أى ساعات قريبة من النهار جمع زلفة كغرفات وغرف أو جمع زلف كطنب وأطناب (ان الحسنات يذهبن السيئات) أى الصغائر بدليل ما روى أن رجلا قال يا رسول الله ان لى حدا فأقمه على فلم يسأله عنه وحضرت الصلاة فصلى فقال يا رسول الله ان لى حدا فأقمه على فقال ألم تصل معنا آنفا قال بلى قال فان الله قد غفر لك حدك أو ذنبك وقيل نزلت فى أبى اليسر أتى امرأة تبتاع تمرا فقال ان فى البيت تمرا أطيب من هذا فدخلت معه البيت فقبلها فأتى أبا بكر فقال له ذلك فقال ويحك اتق الله وكفر عن يمينك فأتى عمر فقال له ذلك فقال له مثل ما قال أبو بكر فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له ذلك فقال له مثل ما قالا فأتى الشيخ فقال له ذلك فقال له مثل ما قالا

به عليه السلام من تبليغ الاحكام الشرعية والقيام بوظائف النبوة وتحمل أعباء الرسالة بحيث يدخل تحته مما أمر به فيما سبق من قوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك الآية وبالجملة فهذا الامر منتظم لجميع محاسن الاحكام الاصلية والفرعية والكمالات النظرية والعملية ٧٢ والخروج عن عهدته فى غاية ما يكون من الصعوبة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

شيبتنى سورة هود (ومن تاب معك) أى تاب من الشرك والكفر وشاركك فى الايمان وهو المعنى بالمعية وهو معطوف على المستكن فى قوله فاستقم وحسن من غير تأكيد لمكان الفصل القائم مقامه وفى الحقيقة هو من عطف الجملة على الجملة اذ المعنى ولستقم من تاب معك وقيل هو منصوب على انه مفعول معه كما قاله أبو البقاء والمعنى استقم صاحبا لمن تاب معك (ولا تطغوا) ولا تتجاوزوا حدود الشرع فى الافراط أو التفريط فان كلا طرفى قصد الامور ذميم وانما سمى ذلك طغيانا وهو تجاوز الحد تغليظا أو تغليبا لحال سائر المؤمنين على حاله عليه السلام (انه بما تعملون بصير) فيجازيكم على ذلك وهو تعليل للامر والنهى وفى الآية دلالة على وجوب اتباع المنصوص عليه من غير انحراف بمجرد الرأى فانه طغيان وضلال وأما العمل بمقتضى الاجتهاد التابع لعلل المنصوص فذلك من باب الاستقامة

رب لترضى (الثانى) أنه عليه السلام لما ورد عليه من هيبة عتاب الله تعالى ما ورد ذهل عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام واعلم ان فى قوله وما أعجلك عن قومك يا موسى دلالة على انه تعالى أمره بحضور الميقات مع قوم مخصوصين واختلفوا فى المراد بالقوم فقال بعضهم هم النقباء السبعون الذين قد اختارهم الله تعالى ليخرجوا معه الى الطور فتقدمهم موسى عليه السلام شوقا الى ربه وقال آخرون القوم جملة بنى اسرائيل وهم الذين خلفهم موسى مع هرون وأمره ان يقيم فيهم خليفة له الى أن يرجع هو مع السبعين فقال هم أولاء على أثرى يعنى بالقرب منى ينتظرونى وعن أبى عمرو ويعقوب اثرى بالكسر وعن عيسى بن عمر أثرى بالضم وعنه أيضا أولى بالقصر والاثر أفصح من الاثر وأما الاثر فجمع فى فرند السيف وهو بمعنى الاثر غريب ﴿قوله تعالى﴾ قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فاخلفتم موعدى قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى فاخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا الهكم والله موسى فنسى أفلا يرون الا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ﴿اعلم انه تعالى لما قال لموسى وما أعجلك عن قومك وقال موسى فى جوابه وعجلت اليك رب لترضى عرفه الله تعالى ما حدث من القوم بعد أن فارقهم مما كان يبعد أن يحدث لو كان معهم فقال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى وههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قالت المعتزلة لا يجوز أن يكون المراد ان الله تعالى خلق فيهم الكفر لوجهين (الوجه الاول) الدلائل العقلية الدالة على انه لا يجوز من الله أن يفعل ذلك (الثانى) انه قال وأضلهم السامرى ولو كان الله خلق الضلال فيهم لم يكن لفعل السامرى فيه أثر وكان مبطلا قوله وأضلهم السامرى وأيضا فلان موسى عليه السلام لما طالبهم بذكر سبب تلك الفتنة قال أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فلو حصل ذلك بخلق الله تعالى لكان لهم أن يقولوا السبب فيه ان الله خلقه فنسأل الاماذ كرت فكان يبطل تقسيم موسى عليه السلام وأيضا فقال أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ولو كان ذلك بخلقه لاستحال أن يغضب عليهم فيما هو بخلقه ولما بطل ذلك وجب أن يكون لقوله فتنا معنى آخر وذلك لان الفتنة قد تكون بمعنى الامتحان يقال فتنت الذهب بالنار اذا امتحنته بالنار لكى يتميز الجيد من الردى وقد يشاهد انه التكليف عليهم وذلك لان السامرى لما أخرج لهم ذلك العجل صار واما كلفين بأن يستدلوا بحدوث جملة العالم والاجسام على ان لها الها ليس بجسم وحينئذ يعرفون ان العجل لا يصلح للالهية فكان هذا التعبد تشديدا فى التكليف فكان فتنة والتشديد فى التكليف هو جود قال تعالى أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون هذا تمام كلام المعتزلة قال الاصحاب ليس فى ظواهر هذه النصوص عن العجل شبهة أعظم مما فى الشمس والقمر والدليل الذى ينفى كون الشمس والقمر الها هو الذى ينفى كون ذلك العجل الها غير ذلك لا يكون حدوث ذلك العجل تشديدا فى التكليف فلم يصح حمل الآية عليه فوجب حمله على خلق الضلال فيهم قولهم أضاف الاضلال الى السامرى قلنا أليس ان جميع المسببات العادية تضاف الى أسبابها فى الظاهر وان كان الموجد لها هو الله تعالى فكذا ههنا وأيضا قرئ وأضلهم السامرى أى وأشدهم ضلالا السامرى وعلى هذا لا يبقى للمعتزلة الاستدلال ثم الذى يحسم مادة الشغب أن نقول الداعى على ما سبق تقريره فى هذا الكتاب مرارا كثيرة ﴿المسئلة الثانية﴾ المراد بالقوم ههنا هم الذين خلفهم مع هرون عليه السلام على ساحل البحر وكانوا ستمائة ألف فاتخذوا بالعجل غير اثنى عشر ألفا ﴿المسئلة

كما أمر على موجب النصوص الآمرة بالاجتهاد (ولا تركنوا) أى لا تميلوا أدنى ميل (الى الذين ظلموا) أى الى الثالثة

الذين وجد منهم الظلم فى الجملة ومدار النهى هو الظلم والجمع باعتبار جمعية المخاطبين وما قيل من أن ذلك للمبالغة فى النهى من حيث ان كونهم جماعة مظنة الرخصة فى مداهنتهم اذ ما يتم النهى عن الركون اليهم من حيث انهم جماعة وليس كذلك (فتمسكم)

بسبب ذلك (النار) واذا كان حال الميل في الجملة الى من وجد منه ظلم ما في الافضاء الى مماس النار هكذا فما ظنك بمن يميل الى الراسخين في الظلم والعدوان ميلا عظيما ويتم لك على مصاحبتهم ومعاداتهم ويلقى شراشرك على مؤانستهم ومعاشرتهم ويتهيج بالتزيي بزيهم وعد عينيه الى زهرتهم الفانية ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية وهو في الحقيقة من الخسة ٧٣ طفيف ومن جناح البعوض خفيف بمنزل عن أن تميل اليه القلوب ضعف الطالب والمطلوب والآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل فان الميل الى أحد طرفي الافراط والتفريط ظلم على نفسه أو على غيره وقرئ تركنوا على لغة تميم وتركنوا على صيغة البناء للمفعول من أركنه (وما لكم من دون الله من أولياء) أي من أنصار ينقذونكم من النار والجملة نصب على المعالية من قوله فتمسكم النار ونفي الاولياء ليس بطريق نفي أن يكون لكل واحد منهم أولياء حتى يصدق أن يكون له ولي بل لم كان لكم بطريق انقسام الآحاد على الآحاد لكن لا على معنى نفي استقلال كل منهم بتيسير ولي على معنى نفي أن يكون لواحد منهم نصير بقرينة المقام (ثم لا تنصرون) من جهته سبحانه اذ قد سبق في حكمه أن بعذبكم وكونكم اليهم ولا يبقى عليكم ومع ذلك لتراخي رتبة كونهم غير منصورين من جهة الله بعدما أوعدهم بالعذاب وأوجبه عليهم ويجوز أن يكون منزلا منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فانه لما بين أن الله تعالى معذبهم وأن غيره لا ينقذهم أفتح أنهم لا ينصرون أصلا (وأقم الصلوة طرفي النهار) أي غدوة وعشية وانتصابه على الظرفية لكونه مضافا الى الوقت (وزلفا من الليل) أي ساعات منه قريبة من النهار

الثالثة) قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية سعيد بن جبير كان السامري عجلا من أهل كرمان وقع الى مصر وكان من قوم يعبدون البقر والذي عليه الاكثرون انه كان من عظماء بني اسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة قال الزجاج وقال عطاء عن ابن عباس بل كان رجلا من القبط جارا لموسى عليه السلام وقد آمن به (المسئلة الرابعة) روي في القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوها أربعين مع أيامها وقالوا قد أكملنا العدة فلم كان أمر العجل بعد ذلك والتوفيق بين هذا وبين قوله لموسى عند مقدمه فانا قد فتنا قومك من بعدك من وجهين (الاول) انه تعالى أخبر عن الفتنة المترقبة بلفظ الموجود الكائنة على عادته (الثاني) ان السامري شرع في تدبير الامر لما غاب موسى عليه السلام وعزم على اضلالهم حال مفارقة موسى عليه السلام وكأنه قد رأى الفتنة موجودة (المسئلة الخامسة) لما رجع موسى عليه السلام بعد ما استوفى الاربعين ذا العقدة وعشرذى الحجة (المسئلة السادسة) ذكر وا في الأسف وجوها (أحدها) انه شدة الغضب وعلى هذا لا تتكرر لان قوله غضبان يفيد أصل الغضب وقوله أسفا يفيد كماله (وثانيها) قال الاكثرون حزينا وجزعا يقال أسف يأسف أسفا اذا حزن فهو آسف (وثالثها) قال قوم الآسف المغتاظ وفرقوا بين الاغتياظ والغضب بأن الله تعالى لا يوصف بالغيظ ويوصف بالغضب من حيث كان الغضب ارادة الاضرار بالمغضوب عليه والغيظ تغير يلحق المغتاظ وذلك لا يصح الا على الاجسام كما تقدم (والبكاء) ان الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام انه عاتبهم بعد رجوعه اليهم قالت المعتزلة وهذا يدل على انه ليس المراد من قوله فانا قد فتنا قومك من بعدك أنه تعالى خلق الكفر فيهم والا لما عاتبهم بل يجب أن يعاتب الله تعالى قال الاصحاب وقد فعل ذلك بقوله ان هي الا فتنتك ومجموع تلك المعاتبات أمور (أحدها) قوله ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا وفيه سؤالان (السؤال الاول) قوله ألم يعدكم ربكم هذا الكلام انما يتوجه عليهم لو كانوا معترفين بالله آخر سوى العجل أما لما اعتقدوا الا الله سواه على ما أخبر الله تعالى عنهم انهم قالوا هذا الهكم والهه موسى كيف يتوجه عليهم هذا الكلام (الجواب) انهم كانوا معترفين بالاله لكنهم عبدوا العجل على التأويل الذي يذكر عبدة الاصنام (السؤال الثاني) ما المراد بذلك الوعد الحسن (الجواب) ذكروا وجوها (أحدها) ان المراد ما وعدهم من انزال التوراة عليهم ليقفوا على الشرائع والاحكام ويحصل لهم بسبب ذلك مزية فيما بين الناس وهو الذي ذكره الله تعالى أنهما تقدم من قوله ووعدناكم جانب الطور الايمن (وثانيها) ان الوعد الحسن هو الوعد الصدق بالثواب على الطاعات (وثالثها) الوعد هو العهد وهو قول مجاهد وذلك العهد هو قوله تعالى ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي الى قوله ثم اهتدى والدليل عليه قوله بعد ذلك أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فكأنه قال أفنسيتم ذلك الذي قال الله لكم ولا تطغوا فيه (ورابعها) الوعد الحسن ههنا يحتمل أن يكون وعدا حسنا في منافع الدين وأن يكون في منافع الدنيا أما منافع الدين فهو الوعد بانزال الكتاب الشريف الهادي الى الشرائع والاحكام والوعد بحصول الثواب العظيم في الآخرة وأما منافع الدنيا فهو أنه تعالى قبل اهلاك فرعون كان قد وعدهم أرضهم وديارهم وقد فعل ذلك ثم قال أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فالمراد أفنسيتم ذلك العهد أم تعمدتم المعصية واعلم ان طول العهد يحتمل أمورا (أحدها) أفطال عليكم العهد فنسيتم الله تعالى من انجائه اياكم من فرعون وغير ذلك من النعم المعدودة المذكورة في أوائل سورة البقرة وهذا كقوله فطال عليهم الامد فقست قلوبهم (وثانيها) يروى انهم عرفوا ان الاجل أربعون ليلة فحملوا كل يوم بازاء ليلة وردوه الى عشرين قال القاضي هذا ركيك لان

فانه من أزلفه اذا قربه جمع زلفه عطف على طرفى النهار والمراد بصلاتهما صلاة الغداة والعصر وقيل الظهر والعصر لان ما بعد الزوال عشى وصلاة الزلف المغرب والعشاء وقرئ زلفا بضمتين وضمة وسكون كبسر وبسر وزلفى بمعنى زلفة كقربى بمعنى قربة (ان الحسنات) التى من جملتها ما أمرت به من الصلوات (يذهبن السيئات) التى قلما يخلو منها البشر أى يكفرنها

وفى الحديث ان الصلاة الى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنب الكبائر وقيل نزلت فى أبى اليسر الانصارى اذ قبل امرأة ثم ندم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل فقال عليه السلام انتظر أمر ربى فلما صلى صلاة العصر نزلت قال عليه السلام نعم اذهب فانها كفارة لما عملت أو يمنعن من اقترافها كقوله تعالى ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (ذلك) اشارة الى قوله تعالى فاستقم فما بعده وقيل الى القرآن (ذكرى للذاكرين) أى عظة للمتعظين (واصبر) على مشاق ما أمرت به فى تضاعيف الاوامر السابقة وأما ما نهى عنه من الطغيان والركون الى الذين ظلموا فليس فى الانتهاء عنه مشقة فلا وجه لتعميم الصبر له اللهم الا أن يراد به ما لا يمكن عادة خلو البشر عنه من أدنى ميل بحكم الطبيعة عن الاستقامة المأمور بها ومن يسير ميل بحكم البشرية الى من وجد منه ظلم ما فان فى الاحتراز عن أمثاله من المشقة ما لا يخفى (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) أى يوفيهم أجور أعمالهم من غير بخس أصلا وانما عبر عن ذلك بنفى الاضاعة مع أن عدم اعطاء الاجر ليس باضاعة حقيقة كيف لا والاعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها وانما كان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه من القباح وابراز

ذلك لا يكاد يشتبه على أحد (وثالثها) ان موسى عليه السلام وعدهم ثلاثين ليلة فلما زاد الله تعالى فيها عشرة أخرى كان ذلك طول العهد وأما قوله أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فهذا لا يكون اجراؤه على الظاهر لان أحدا لا يريد ذلك ولكن المعصية لما كانت توجب ذلك ومريد السبب مريد للمسبب بالعرض صح هذا الكلام واجتمع العلماء على ذلك على ان الغضب من صفات الافعال لا من صفات الذات لان صفة ذات الله تعالى لا تنزل فى شئ من الأجسام أما قوله فأخلفتم موعدى فهذا يدل على موعد كان منه عليه السلام مع القوم وفيه وجهان (أحدهما) ان المراد ما وعدوه من اللحاق به والمجئ على أثره (والثانى) ما وعدوه من الاقامة على دينه الى أن يرجع اليهم من الطور فعند هذا قالوا ما أخلفناك موعدك بملكنا وفى أن قائل هذا الجواب من هو وجهان (الاول) انهم الذين لم يعبدوا العجل فكانهم قالوا انا ما أخلفنا موعدك بملكنا أى بأمر كنا نملكه وقد يضيف الرجل فعل قريبه الى نفسه كقوله تعالى واذ قتلتم نفسا وان كان القاتل غيره لذلك أنا بعدهم لانهم فكأنهم قالوا الشبهة قويت على عبدة العجل فلم نقدر على منعهم عنه ولم نقدر ايضا على مفارقتهم لانا خفنا أن يصير ذلك سببا لوقوع الفرقة وزيادة الفتنة (الوجه الثانى) ان هذا قول عبدة العجل والمراد ان غيرنا أوقع الشبهة فى قلوبنا وفاعل السبب فاعل المسبب وخالف الوعد هو الذى أوقع الشبهة فانه كان كالمالك لنا فان قيل كيف يعقل رجوع قريب من ستمائة ألف انسان من العقلاء المكلفين عن الدين الحق دفعة واحدة الى عبادة العجل الذى يعرف فساده بالضرورة ثم ان مثل هذا الجمع لما فارقوا الدين وأظهروا الكفر فكيف يعقل رجوعهم دفعة واحدة عن ذلك الدين بسبب رجوع موسى عليه السلام وحده اليهم قلنا هذا غير ممتنع فى حق البله من الناس واعلم ان فى عاصم ثلاث قراآت قرأ حمزة والكسائى بضم الميم ونافع وعاصم بفتح الميم وأبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالكسر أما الكسر والفتح فهما واحد وهما لغتان مثل رطل ورطل وأما الضم فهو السلطان ثم ان القوم فسروا ذلك العذر المجمل فقالوا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم قرأ حمزة والكسائى وأبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر حملنا مخففة من الحمل وقرأ ابن كثير ونافع وحفص وابن عامر حملنا مشددة فمن قرأ بالتخفيف فمعناه حملنا معنا ما كنا استعرناه من القوم ومن قرأ بالتشديد ففيه وجوه (أحدها) ان موسى عليه السلام حملهم على ذلك أى أمرهم باستعارة الحلى والخروج بها فكأنه ألزمهم ذلك (وثانيها) جعلنا كالضامن لها الى أن نؤديها الى حيث يأمرنا الله (وثالثها) ان الله تعالى حملهم ذلك على معنى انه ألزمهم فيه حكم المغنم أما الاوزار فهى الاثقال ومن ذلك سمى اللاعب وزرا لانه ثقل ثم فيه احتمالات (أحدها) انه لكثرتها كانت أثقالا (وثانيها) ان المغانم كانت محرمة عليهم فكان يجب عليهم حفظها من غير فائدة فكانت أثقالا (وثالثها) المراد بالاوزار الاثام والمعنى حملنا آثاما روى فى الخبر ان هرون عليه السلام قال انها نجسة فتطهروا منها وقال السامرى ان موسى عليه السلام انما احتبس عقوبة بالحلى فيجوز أن يكون انما أراد وا هذا القول وقد يقول الانسان للشئ الذى يلزمه رده هذا كلامك وأنت وذنب (ورابعها) ان ذلك الحلى لقيط يتزينون به فى مجامعهم فسمى فيها الكفر لاجرم انها وصفت بكونها أوزارا كما يقال مثله فى آلات المعاصى أما قوله فقذفناها فقد ذكرنا فيه وجوها فى أنهم أين قذفوها (الوجه الاول) قذفوها فى حفرة كان هرون عليه السلام أمرهم بجمع الحلى فيها انتظارا لعود موسى عليه السلام (والوجه الثانى) قذفوها فى موضع أمرهم السامرى بذلك (والوجه الثالث) فى موضع جمع فيه النار ثم قالوا فكذلك ألقى السامرى أى فعل السامرى مثل ما فعلنا أما قوله فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فاختلفوا فى أنه هل كان ذلك الجسد حيا أم لا فالقول الاول لا ينبغى أن يجوز اظهار خرق العادة على يد

الاثابة فى معرض الامور الواجبة عليه وانما عدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع افادة فائدة عامة لكل من يتصف به وهو تعليل للامر بالصبر وفيه اشعار الى أن الصبر على ما ذكر من باب الاحسان (فلولا كان) فهلا كان (من القرون) الكائنة (من قبلكم) على رأى من جوز تعلق الموصول مع بعض صلته أو كائنة من قبلكم (أولوبقية) من الرأى ٧٥ والعقل وألوفضل وخير وسميا بها لان الرجل انما يستبقى مما يخرجه عادة أجوده وأفضله فصار مثلا فى الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم ومنه ماقيل فى الروايا خمسا يا وفى الرجال بقا يا ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى أى فهلا كان منهم ذو وارتقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه وترئيده أنه قرئ أولو بقية وهى المرة من مصدر بقاه يبقيه اذا راقبه وانتظره أى أولو مراقبة وخشية من عذاب الله تعالى كائنهم ينتظرون نزوله لاشفاقهم (ينهون عن الفساد فى الارض) الواقع منهم حسب ما حكى عنهم (الاقليلا ممن أنجينا منهم) استثناء منقطع أى لكن قليلا منهم أنجيناهم لكونهم على تلك الصفة على أن من للبيان لا للتبعيض لان جميع الناجين ناهون ولاصحة للاتصال على ظاهر الكلام لانه يكون تحضيضا لاولى البقية على النهى المذكور الا للقليل من الناجين منهم كما اذا قلت هلا قرأ قومك القرآن الا الصلحاء منهم مريد الاستثناء الصلحاء من المحضضين على القراءة فانهم يصح ذلك ان جعل استثناء من النفى اللازم للتحضيض فكانه قيل ما كان من القرون أولو بقية الا اقليلا منهم لكن الرفع هو الافصح حينئذ على البدلية (واتبع الذين ظلموا) بمباشرة الفساد وترك النهى عنه (ما أترفوا فيه) أى أنعموا من الشهوات

الضال بل السامرى صور صورة على شكل العجل وجعل فيها مناقيد ومخارق بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل (والقول الثانى) انه صار حيا وخار كما يخور العجل واخبروا عليه بوجوه (أحدها) قولة فقبضت قبضة من أثر الرسول ولو لم يضر حيا لما بقى لهذا الكلام فائدة (وثانيها) أنه تعالى سماه عجلا والعجل حقيقة فى الحيوان وسماه جسدا وهو انما يتناول الحى (وثالثها) أثبت له الخوار وأخبروا عن جحدة الاولين بان ظهور خوارق العادة على يد مدعى الالهية جائز لانه لا يحصل الالتباس وههنا كذلك فوجب أن لا يمتنع وروى عكرمة عن ابن عباس أن هرون عليه السلام مر بالسامرى وهو يصنع العجل فقال ما تصنع فقال أصنع ما ينفع ولا يضر فادع لى فقال اللهم أعطه ما سأل فلما مضى هرون قال السامرى اللهم انى أسألك أن يخور فخار وعلى هذا التقدير يكون ذلك معجزا للنبى * أما قولك فقالوا هذا الهكم والله موسى ففيه اشكال وهو ان القوم ان كانوا قائلين بالهية العجل فحيث اعتقدوا ان ذلك العجل المعمول فى تلك الساعة هو الخالق للسموات والارض فهم مجانين وليسوا بعكلفين ولان مثل هذا الجنون على مثل ذلك الجمع العظيم محال وان لم يعتقدوا ذلك فكيف قالوا هذا الهكم والله موسى وبحوابه لعلهم كانوا من الحلولية فجوزوا حلول الاله أو حلول صفة من صفاته فى ذلك الجسم وان كان ذلك أيضا فى غاية البعد لان ظهور الخوار لا يناسب الالهية ولكن لعل القوم كانوا فى نهاية البلادة والجلافة وأما قوله فنسى ففيه وجوه (الاول) انه كلام الله تعالى كانه أخبر عن السامرى انه نسى الاستدلال على حدوث الاجسام وان الاله لا يحل فى شئ ولا يحل فيه شئ ثم انه سبحانه بين المعنى الذى يجب الاستدلال به وهو قوله أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا أى لم يخطر ببالهم ان من لا يتكلم ولا يضر ولا ينفع لا يكون الها ولا يكون الاله تعالى به فى الحالة والمحلية (الوجه الثانى) ان هذا قول السامرى وصف به موسى عليه السلام والمعنى ان هذا الهكم والله موسى فنسى موسى ان هذا هو الاله فذهب يطلبه فى موضع آخر وهو قول الاكثرين (الوجه الثالث) فنسى وقت الموعد فى الرجوع أما قوله أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فهذا استدلال على عدم الهيتها بانها لا تتكلم ولا تنفع ولا تضر وهذا يدل على ان الاله لا بد وأن يكون موصوفا بهذه الصفات وهو كقوله تعالى فى قصة ابراهيم عليه السلام لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيأ وان موسى عليه السلام فى أكثر الامر لا يعول الا على دلائل ابراهيم عليه السلام * بقى ههنا بحثان (البحث الاول) قال الزجاج الاختيار أن لا يرجع بالرفع بمعنى أنه لا يرجع وهذا كقوله وحسبوا أن لا تكون فتنة فعموا وصموا بمعنى أنه لا تكون وقرئ بالنصب أيضا على أن أن هذه هى الناصبة للافعال (البحث الثانى) هذه الآية تدل على وجوب النظر فى معرفة الله تعالى وقال فى آية أخرى ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا وهو قريب فى المعنى من قوله فى ذم عبدة الاصنام ألهم رجل يمشون بها وليس المقصود من هذا ان العجل لو كان يكلمهم لكان الها لان الشئ يجوز أن يكون مشروطا بشروط كثيرة فقوات واحد منها يقتضى فوات المشروط ولكن حصول الواحد قد يمنع الا يقتضى حصول المشروط (الثالث) قال بعض اليهود لعلى عليه السلام ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فقال انما اختلفنا عنه وما اختلفنا فيه وأنتم ما جفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم لنبيكم اجعل لنا الها كما لهم آلهة * قوله تعالى * ولقد قال لهم هرون من قبل ياقوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى * اعلم ان هرون عليه السلام انما قال ذلك شفقة منه على نفسه وعلى الخلق أما شفقته على نفسه فلانه كان مأمورا من عند الله بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر وكان مأمورا من عند أخيه موسى عليه السلام بقوله اخلفنى فى قومى وأصلح ولا

واهتموا بتحصيلها اما المباشرون فظاهر وأما المساهلون فلما لهم في ذلك من ثيل حظوظهم الفاسدة وقيل المراد بهم تاركوا النهي وأنت خبير بأنه يلزم منه عدم دخول مباشري الفساد في الظلم والاجرام عبارة (وكانوا مجرمين) أي كافرين فهو بيان لسبب استئصال الامم الهالكة وهو فشو الظلم واتباع ٧٦ الهوى فيهم بشيوع ترك النهي عن المنكرات مع الكفر وقوله واتبع عطف على مضمر

دل عليه الكلام أي لم ينهوا واتبع الخ فيكون العدول الى المظهر لادراج المباشرين معهم في الحكم والتسجيل عليهم بالظلم وللاشعار بعلة ذلك لما حاق بهم من العذاب أو على استئناف يترتب على قوله الا قليلا أي الا قليلا من أنجيناهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا من مباشري الفساد وتاركي النهي عنه فيكون الاظهار مقتضى الظاهر وقوله وكانوا مجرمين عطف على أترفوا أي اتبعوا الاتراف وكونهم مجرمين لان تابع الشهوات مغمور بالآثام أو أريد بالاجرام اغفالهم للشكر أو على اتبع أي اتبعوا شهواتهم وكانوا بذلك الاتباع مجرمين ويجوز أن يكون اعتراضا وتسجيلا عليهم بأنهم قوم مجرمون وقرئ وأتبع أي اتبعوا جزاء ما أترفوا فتكون الواو للحال ويجوز أن يفسر به المشهور وبعضده تقدم الاشعار (وما كان ربك ليهلك القرى) أي ما صح وما استقام بل استحال في الحكمة أن يهلك القرى التي أهلكها حسبما بلغك أسأؤها ويعلم من ذلك حال باقيها من القرى الظالمة واللام لتأكيد النفي وقوله (بظلم) علمنا أي ملتبسا به قيل هو حال من الفاعل أي ظالما لها والتنكير للتفخيم والايذان بأن اهلاك المصلحين ظلم عظيم والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى والا فلا ظلم فيما فعله الله تعالى بعباده كائنا ما كان لما تقرر من قاعدة

تتسع سبيل المفسدين فلو لم يشتغل بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر لكان مخالفا لامر الله تعالى ولامر موسى عليه السلام وذلك لا يجوز أوحى الله تعالى الى يوشع بن نون اني مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم فقال يارب هؤلاء الاشرار فما بال الاخيار فقال انهم لم يغضبوا لغضبي وقال ثابت البناني قال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح وهمه غير الله تعالى فليس من الله في شئ ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم وعن الشعبي عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى وقال أبو علي الحسن الغوري كنت في بعض المواضع فرأيت زورقا فيه دانات مكتوب عليهم الطف فقلت للملاح ايش هذا فقال أنت صوفي فضولي وهذه خمور المعتضد فقلت له أعطني ذلك المدري فقال لغلامه أعطه حتى نصطرايش يعمل فأخذت المدري وصعدت الزورق فكيفت أكسر دانا دانا والملاح يصيح حتى بقي واحد فامسكت غطاء صاحب السفينة فأخذني وحملني إلى المعتضد وكان سيفه قبل كلامه فلما وقع بصره علي قال من أنت قلت المحتسب قال من ولاك الحسبة قلت الذي ولاك الخلافة قال لم كسرت هذه الدنان قلت شفقة عليك أفلم تصل يدي الى دفع مكروه عنك قال فلم أبقيت هذا الواحد قلت اني لما كسرت هذه الدنان فاني انما كسرتها جميعها في دين الله فلما وصلت الى هذا أعجبت فأمسكت ولو بقيت كما كنت لكسرته فقال اخرج ياشيخ فقد وليتك الحسبة فقلت كنت أفعله لله تعالى فلا أحب أن أكون شرطيا وأما الشفقة على المسلمين فلان الانسان يجب أن يكون رقيق القلب مشفقا على أبناء جنسه وأي شفقة أعظم من أن يرى جماعتها فتون على النار فيمنعهم منها وعن أبي سعيد الخدري عنه عليه السلام يقول الله تعالى اطلبوا الفضل عند الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم فاني جعلت فيهم رحمتي ولا تطلبوها في القاسية قلوبهم فان فيهم غضبي وعن عبد الله بن أبي أوفى قال خرجت أريد النبي صلى الله عليه وسلم فاذا أبو بكر وعمر معه غلام صغير فبكى فقال لعمر ضم الصبي الينا فانه صال فأخذه عمر فاذا امرأة تولول كاشفة عن رأسها جزعا على ابنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أدرك المرأة فنادها غلام فأخذت ولدها وجعلت تبكي والصبي في حجرها فالتفتت فرأت النبي صلى الله عليه وسلم فاستحيت فقال عليه السلام عند ذلك أترون هذه رحيمة بولدها قالوا يارسول الله كفى برحمة فقال والذي نفسي بيده ان الله أرحم بالمؤمنين من هذه بولدها وروي انه بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أصحابه اذ نظر الى شاب على باب المسجد فقال من أراد أن ينظر الى رجل من أهل النار فلينظر الى هذا فسمع الشاب ذلك فولى فقال الهي وسيدي هذا رسولك يشهد علي بأني من أهل النار وأنا أعلم أنه صادق فاذا كان الامر كذلك فأسألك أن تجعلني فداء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا تشغل النار بي حتى تبرىء منه ولا تشغل النار بأحد آخر فهبط جبريل عليه السلام وقال يا محمد بشر الشاب بأني قد أنقذته من النار بتصديقه لك وفدائه أمتك بنفسه وشفقته على الخلق اذا ثبت ذلك فاعلم ان الامر بالمعروف والشفقة على المسلمين واجب ثم ان هرون عليه السلام رأى القوم متهافتين على النار ولم يمال بكثرتهم ولا بقوتهم بل صرح بالحق فقال ياقوم انما فتنتم به الآية وههنا دقيقة وهي ان الرافضة تمسكوا بقوله عليه السلام لعلي أنت مني بمنزلة هرون من موسى ثم ان هرون ما منعته التقية في مثل هذا الجمع بل صعد المنبر وصرح بالحق ودعا الناس الى متابعة نفسه والمنع من متابعة غيره فلو كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الخطأ لكان يجب على علي عليه السلام أن يفعل ما فعله هرون عليه السلام وأن يصعد على المنبر من غير تقية وخوف وأن يقول فاتبعوني وأطيعوا أمري فلما لم يفعل ذلك

أهل السنة وقد مر تفصيله في سورة آل عمران عند قوله تعالى وان الله ليس بظلام للعبيد وقوله تعالى (وأهلها مصلحون) حال من المفعول والعامل عامله ولكن لا باعتبار تقيده بما وقع حالا من فاعله أعني بظلم لدلالته على تقييد نفي الاهلاك ظلما بحال كون أهلها مصلحين ولا ريب في فساده بل مطلقا عن ذلك وقيل المراد بالظلم الشرك والباء للسببية أي لا يهلك ٧٧ القرى بسبب اشراك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون الى شركهم فسادا آخر وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه تعالى ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد الفقراء على حقوق الله تعالى الغني الحميد وقيل الملك يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم وأنت تدري أن مقام النهي عن المنكرات التي أقبحها الاشراك بالله لا يلائمه فان الشرك داخل في الفساد في الارض دخولا أوليا ولذلك كان ينهى كل من الرسل الذين قصت أنباؤهم أمته أولا عن الاشراك ثم عن سائر المعاصي التي كانوا يتعاطونها فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من أصناف المعاصي وحمل الاصلاح على اصلاحه والاقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهي عنه وبعضهم متوجهين الى الاتعاظ غير مصرين على ما هم عليه من الشرك وغيره

علمنا أن الامة كانوا على الصواب واعلم ان هرون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه لانه زجرهم عن الباطل أولا بقوله انما فتنتم به ثم دعاهم الى معرفة الله تعالى ثانيا بقوله وان ربكم الرحمن ثم دعاهم ثالثا الى معرفة النبوة بقوله فاتبعوني ثم دعاهم الى الشرائع رابعا بقوله وأطيعوا أمري وهذا هو الترتيب الجيد لانه لا بد قبل كل شيء من إماطة الاذى عن الطريق وهو ازالة الشبهات ثم معرفة الله تعالى فانها هي الاصل ثم النبوة ثم الشريعة فثبت ان هذا الترتيب على أحسن الوجوه وانما قال وان ربكم الرحمن لخص هذا الموضع باسم الرحمن لانه كان ينبغي بأنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لانه هو الرحمن الرحيم ومن رحمته أن خلصهم من آفات فرعون ثم انهم لجهلهم قابلوا هذا الترتيب الحسن في الاستدلال بالتقليد والجمود فقالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى كأنهم قالوا لا نقبل حجتك ولكن نقبل قول موسى وعادة المقلد ليس الا ذلك ﴿قوله تعالى﴾ قال يا هرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا ان لا تتبعني أفعصيت أمري قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي اني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي ﴿اعلم ان الطاعنين في عصمة الانبياء عليهم السلام يتمسكون بهذه الآية من وجوه (أحدها) ان موسى عليه السلام ما أمر أن يكون قد أمر هرون باتباعه أولم يأمره فان أمره به فاما أن يكون هرون قد اتبعه أولم يتبعه فان اتبعه كانت ملامة موسى لهرون معصية ونحن الآن ملامة غير المحرم معصية وان لم يتبعه كان هرون تاركا للواجب فكان فاعلا للمعصية وأما ان قلنا ان موسى عليه السلام ما أمره باتباعه كانت ملامته اياه بترك الاتباع معصية فثبت أن على جميع التقديرات يلزم استناد المعصية اما الى موسى أو الى هرون (وثانيها) قول موسى عليه السلام أفعصيت أمري استفهام على سبيل الانكار فوجب أن يكون هرون قد عصاه وأن يكون ذلك العصيان منكرا والا لكان موسى عليه السلام كاذبا وهو معصية فاذا فعل هرون ذلك فقد فعل المعصية (وثالثها) قوله يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي وهذا معصية لان هرون عليه السلام قد فعل ما قدر عليه من النصيحة والوعظ والزجر فان كان موسى عليه السلام قد بحث عن الواقعة وبعد أن علم أن هرون قد فعل ما قدر عليه كان الاخذ برأسه ولحيته معصية وان فعل ذلك قبل تعرف الحال كان ذلك أيضا معصية (ورابعها) ان هرون عليه السلام قال لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي فان كان الاخذ بلحيته وبرأسه جائزا كان قول هرون لا تأخذ منعا لغيره كان له أن يفعله فيكون ذلك معصية وان لم يكن ذلك الاخذ جائزا كان موسى عليه السلام فاعلا للمعصية فهذه أسئلة لطيفة في هذا الباب * والجواب عن الكل اثابنا في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى فأزلهما الشيطان عنها أنواعا من الدلائل الجلية في أنه لا يجوز صدور المعصية من الانبياء وحاصل هذه الوجوه تمسك بظواهر قابلة للتأويل ومعارضة ما يمكن التأويل بما يتسارع اليه التأويل غير جائز اذا ثبتت هذه المقدمة فاعلم انا نذكر في الجواب عن هذه الاشكالات وجوها (أحدها) انا وان اختلفنا في جواز المعصية على الانبياء لكن اتفقنا على جواز ترك الاولى عليهم واذا كان كذلك فالفعل الذي يفعله أحدهما ويتمنه الآخر وأعني بهما موسى وهرون عليهما السلام لعله كان أحدهما أولى والآخر كان ترك الاولى فاذا ذلك فعله أحدهما وتركه الآخر فان قيل هذا التأويل غير جائز لان كل واحد منهما كان جازما فيما يأتي به فعلا كان أو تركا وفعل المندوب وتركه لا يجزم به قلنا نقيد اطلاق الدليل غير ممتنع فنحن نحمل ذلك الجزم في الفعل والترك على أن المراد فعل ذلك أو تركه ان كنت تريد الاصلح وقد يترك ذلك الشرط اذا كان تواطؤهما على رعايته معلوما مقررا (وثانيها) ان موسى عليه السلام أقبل وهو غضبان على قومه فأخذ برأس أخيه ووجوهه اليه كما يفعل الانسان بنفسه مثل ذلك عند الغضب فان

من أنواع الفساد (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) مجتمعة على الحق ودين الاسلام بحيث لا يكاد يختلف فيه أحد ولكن لم يشأ ذلك فلم يكونوا مفتقين على الحق (ولا يزالون مختلفين) في الحق أي مختلفين له كقوله تعالى وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم (الا من رحم ربك) الا قوما قد هداهم الله تعالى بفضله الى الحق فاتفقوا عليه ولم يختلفوا فيه أي لم يخالفوه وحمله على

مطلق الاختلاف الشامل لما يصدر من المحق والمبطل بإباه الاستثناء المذكور (ولذلك) أي ولما ذكر من الاختلاف (خلقهم) أي الذين يقوا بعد الفناء وهم المختلفون فاللام للعاقبة أو للترحم فالضمير لمن واللام في معناها أو لهما معا فالضمير للناس كافة واللام بمعنى مجازي عام لكلا المعنيين (وتمت كلمة ربك) ٧٨ أي وعيده أو قوله للملائكة (لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) أي من عصاتهما أجمعين أو منهما أجمعين لا من أحدهما (وكلا) أي وكل نبأ فالتنوين عوض عن المضاف اليه (نقص عليك) نخبرك به وقوله تعالى (من أنباء الرسل) بيان لكلا وقوله تعالى (ما نثبت به فؤادك) بدل منه والاظهر أن يكون المضاف اليه المحذوف في كلا المفعول المطلق لنقص أي كل اقتصاص أي كل أسلوب من أساليب نقص عليك من أنباء الرسل وقوله تعالى ما نثبت به فؤادك مفعول نقص وفائدته التنبيه على أن المقصود بالاقتصاص زيادة يقينه عليه السلام وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذية الكفار بالوقوف على تفاصيل أحوال الامم السالفة في تعاديهم في الضلال ومالقي الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق (وجاءك في هذه) السورة أو الانباء المقصوصة عليك (الحق) الذي لامحيد عنه (وموعظة وذكرى للمؤمنين) أي الجامع بين كونه حقا في نفسه وكونه موعظة وذكرى للمؤمنين ولكون الوصف الاول حالا له في نفسه حسن باللام دون ما هو وصف له بالقياس الى غيره وتقديم الظرف أعني في هذه على العامل لان المقصود بيان منافع السورة أو الانباء المقصوصة فيها والاشتمال لها على ما ذكر من المنافع المفصلة لا بيان كون ذلك فيها لا في غيرها ولان عند تأخير ما حقه التقديم

الغضبان المتفكر قد يعض على شفقه ويقبل أصابعه ويقبض على لحيته فأجرى موسى عليه السلام أخاه هرون مجرى نفسه لانه كان أخاه وشريكه فصنع به ما يصنع الرجل بنفسه في حال الفكر والغضب فأما قوله لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي فلا يمتنع أن يكون هرون عليه السلام خاف من أن يتوهم بنو اسرائيل من سوء ظنهم أنه منكر عليه غير معاون له ثم أخذ في شرح القصة فقال اني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل (وثانيها) ان بني اسرائيل كانوا على نهاية سوء الظن بموسى عليه السلام حتى ان هرون غاب عنهم غيبة فقالوا لموسى عليه السلام أنت قتلته فلما وعد الله تعالى موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر وكتب له في الالواح من كل شئ ثم رجع فرأى قومه ما رأى فأخذ برأس أخيه لينحيه فيتخلص عن كيفية الواقعة خاف هرون عليه السلام أن يسبق الى قلوبهم بالا أصل له فقال اشفاقا على موسى لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي لئلا يظن القوم ما لا يليق بك (ورابعها) قال صاحب الكشاف كان موسى عليه السلام رجلا حديدا جيولا على الحدة والشرة والتصلب في كل شئ شديد الغضب لله تعالى ولدينه فلما رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله تعالى من بعد ما رأوا من الآيات العظام ان أبقى ألواح التوراة لما غلب على ذهنه من الدهشة العظيمة غضبا لله تعالى وحمية وعنف بأخيه وخليفته على قومه فأقبل عليه اقبال العدو المكاشر واعلم أن هذا الجواب ساقط لانه يقال هب انه كان شديد الغضب لكن ذلك الغضب الشديد هل كان يبقى معه عاقلا مكلفا أم لا فان بقي عاقلا مكلفا لا سئلة باقية بقي ما مها أكثر مما في الباب انك ذكرت انه أتى بغضب شديد وذلك من جملة المعاصي فقد زدت اشكالا آخر فان قلتم بأنه في ذلك الغضب لم يبق عاقلا ولا مكلفا فهذا مما لا يرتضيه مسلم البتة فهذه أجوبة من لم يجوز الصغائر وأما من جوزها فلا شك في سقوط السؤال والله أعلم أما قوله ما منعك أن لا تتبعني أذر أيتهم ضلوا أن لا تتبعني ففيه وجهان (الاول) أن لا صلة والمراد ما منعك أن تتبعني (والثاني) أن يكون المراد ما دعاك الى أن تتبعني فأقام منعك مقام دعاك وفي الاتباع قولان (أحدهما) ما منعك من اتباعي بمن أطاعك والحوق في وترك المقام بين أظهرهم وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء (والثاني) ان تتبعني في وصيتي اذ قلت لك اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فلم تركت قتالهم وتأديبهم وهذا قول مقاتل ثم قال أفعصيت أمري ومعناه ظاهر وهذا يدل على ان تارك المأمور به عاص والعاصي مستحق للعقاب لقوله ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها ولقوله ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها فجميع الآيتين يدل على ان الامر للوجوب فأجاب هرون عليه السلام وقال يا ابن أم قيل انما خاطبه بذلك ليدفعه عنه فيترك وقيل كان أخاه لامه لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي واعلم انه ليس في القرآن دلالة على انه فعل ذلك فان النهي عن الشئ لا يدل على كون المنهي فاعلا للمنهي عنه كقوله ولا تطع الكافرين والمنافقين وقوله لئن أشركت ليحبطن عملك والذي فيه انه أخذ برأس أخيه يجره اليه وهذا القدر لا يدل على الاستخفاف به بل قد يفعل ذلك لسائر الاغراض على ما بيناه ومن الناس من يقول انه أخذ ذؤابته بيمينه ولحيته بيساره ثم قال اني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي ولقائل أن يقول ان قول موسى عليه السلام ما منعك أن لا تتبعني أفعصيت أمري يدل على انه أمره بشئ فكيف يحسن في جوابه ان يقال انما لم أمتثل قولك خوفا من أن تقول ولم ترقب قولي فهل يجوز مثل هذا الكلام على العاقل (والجواب) لعل موسى عليه السلام انما أمره بالذهاب اليه بشرط أن لا يؤدي ذلك الى فساد القوم فلما قال موسى ما منعك أن لا تتبعني قال لانك انما أمرتني باتباعك اذا لم يحصل الفساد فلو جئتك مع حصول الفساد ما كنت مراقبا لقولك

تبقى النفس مترقبة اليه فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن ولان فى المؤخر نوع طول يخل تقدمه بتجاوب أطراف النظم الكريم (وقال الذين لا يؤمنون) بهذا الحق ولا يتعظون به ولا يتذكرون (اعملوا على مكانتكم) على حالكم وجهتكم التى هى عدم الايمان (انا عاملون) على حالنا وهو الايمان به والاتعاظ والتذكر به (وانتظروا) بنا الدوائر ٧٩ (انا منتظرون) أن ينزل بكم نحو ما نزل بامثالكم من الكفرة (ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله) فيرجع لا محالة أمرك وأمرهم اليه وقرئ على البناء للفاعل من رجع رجوعا (فاعبده وتوكل عليه) فانه كافيك والفاء لترتيب الامر بالعبادة والتوكل على كون مرجع الامور كلها الى الله تعالى وفى تأخير الامر بالتوكل عن الامر بالعبادة اشعار بانه لا ينفع دونها (وما ربك بغافل عما يعملون) فيجازيهم بوجهه وقرئ تعملون على تغليب المخاطب أى أنت وهم فيجازى كلا منك ومنهم بموجب الاستحقاق * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة هود أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق كل واحد من الانبياء المعدودين فيها عليهم السلام والسلام وبعدد من كذبهم وكان يوم القيامة من السعداء بفضل الله سبحانه وتعالى

لقوله * قال الامام أبو القاسم الانصارى الهداية أنفع من الدلالة فان السحرة كانوا أجانب عن الايمان ومارأوا الا آية واحدة فآمنوا وتحملوا العذاب الشديد فى الدنيا ولم يرجعوا عن الايمان وأما قومه فانهم رأوا انقلاب العصا ثعبانا والتقم كل ما جمعه السحرة ثم عاد عصا ورأوا اعتراف السحرة بأن ذلك ليس بسحر وانه أمر الهى ورأوا الآيات التسع مدة مديدة ثم رأوا انفراق البحر اثنى عشر طريقا وان الله تعالى أنجاهم من الغرق وأهلك أعداءهم مع كثرة عددهم ثم ان هؤلاء مع ما شاهدوا من هذه الآيات كيف خرجوا من البحر ورأوا قوما يعبدون البقر قالوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة ولما سمعوا صوتا من عجل عكفوا على عبادته وذلك يدل على انه لا يحصل الغرض بالدلائل بل بالهداية قرأ حمزة والكسائى بالبين أم بكسر الميم والاضافة ودلت كسرة الميم على الياء والباقون بالفتح وتقديره بالبين أما والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ (قال فما خطبك ياسامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى قال فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس وان لك موعدا لن تخلفه وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شئ علما) اعلم أن موسى عليه السلام لما فرغ من مخاطبة هرون عليه السلام وعرف العذر له فى التأخير أقبل على السامرى ويجوز أن يكون قد كان حاضرا مع هرون عليه السلام فلما قطع موسى الكلام مع هرون أخذ فى التكلم مع السامرى ويجوز أن يكون بعد ثم حضر السامرى من بعد أو ذهب اليه موسى ليخاطبه فقال موسى عليه السلام ما خطبك ياسامرى والخطب مصدر خطب الامر اذا طلبه فاذا قيل لمن يفعل شيأ ما خطبك معناه ما طلبك له والغرض منه الانكار عليه وتعظيم صنعه ثم ذكروا السامرى عذره فى ذلك فقال بصرت بما لم يبصروا به وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ قرئ بصرت بما لم يبصروا به بالكسر وقرأ حمزة والكسائى بما لم تبصروا بالتاء الجمعة من فوق والباقون بالياء أى بما لم يبصر به بنو اسرائيل ﴿المسئلة الثانية﴾ فى الابصار قولان قال أبو عبيدة علمت بما لم يعلموا به ومنه قولهم رجل بصير أى عالم وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وقال الزجاج فى تقريره أبصرته بمعنى رأيته وبصرت به بمعنى صرت به بصيرا عالما وقال آخرون رأيت ما لم يروه فقوله بصرت به بمعنى أبصرته وأرادانه رأى دابة جبريل عليه السلام فاخذ من موضع حافر دابته قبضة من تراب ثم قال فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ الحسن قبضة بضم القاف وهى اسم للمقبوض كالغرفة والمضغة وأما القبضة فالمرة من القبض واطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الامير وقرئ أيضا فقبست قبسة بالضاد والساد نظائر فى جميع الكلف والصاد باطراف الاصابع ونظيرهما الخضم والقضم انما يجمع جميع الفم والقاف بعقده وقرأ ابن مسعود من أثر فرس الرسول ﴿المسئلة الثانية﴾ عامة المفسرين قالوا المراد بالرسول جبريل عليه السلام وأراد باثره التراب الذى أخذه من موضع حافر دابته ثم اختلفوا انه متى رآه فقال الاكثرون انما رآه يوم فلق البحر وعن على عليه السلام ان جبريل عليه السلام لما نزل ليذهب بموسى عليه السلام الى الطور أبصره السامرى من بين الناس واختلفوا فى ان السامرى كيف اختص برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين سائر الناس فقال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية الكلبى انما عرفه لانه رآه فى صغره وحفظه من القتل حين أمر فرعون بذبح أولاد بنى اسرائيل فكانت المرأة تلد وتطرح ولدها حيث لا يشعر به آل فرعون فتأخذ الملائكة الولدان فيربونهم حتى يترعرعوا ويختلطوا بالناس فكان السامرى ممن أخذه جبريل عليه السلام وجعل كف نفسه فى فيه وارتضع منه العسل واللبن فلم يزل يختلف اليه حتى عرفه فلما

* سورة يوسف عليه السلام وهى مائة واحدى عشرة آية * (بسم الله الرحمن الرحيم) (الر) الكلام فيه وفى محله وفيما أريد بالاشارة والآيات والكتاب فى قوله تعالى (تلك آيات الكتاب) عين ما سلف فى مطلع سورة يونس (المبين) من أبان بمعنى بان أى الظاهر أمره فى كونه من عند الله تعالى وفى اعجازه بنوعيه لا سيما الاخبار عن الغيب أو الواضح معانيه للعرب بحيث لا يشتبه عليهم حقائقه

ولا يلتبس لديهم دقائقه ليزوله على الفهم أو بمعنى بين أى المبين لما فيه من الاحكام والشرائع وغيرها بالملك والملكوت وأسرار النشأتين
فى الدارين وغير ذلك من العلم والمعارف والقصص وعلى تقدير كون الكتاب عبارة عن السورة فاما نبأه عن قصة يوسف عليه
السلام فانه قد روى أن أحبار ٨٠ اليهود قالوا لرؤساء المشركين سلوا محمدا صلى الله عليه وسلم لماذا انتقل آل يعقوب من الشام

رآه عرفه قال ابن جريج فعلى هذا قوله بصرت بما لم يبصروا به بمعنى رأيت ما لم يروه ومن فسر الكلمة بالعلم
فهو صحيح ويكون المعنى علمت ان تراب فرس جبريل عليه السلام له خاصية الاحياء قال أبو مسلم الاصفهانى
ليس فى القرآن تعريج بهذا الذى ذكره المفسرون فيهما وجه آخر وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه
السلام وباثر مشيته ورسمه الذى أمر به فقد يقول الرجل فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره اذا كان يمتثل
رسمه والتقدير ان موسى عليه السلام لما أقبل على السامرى باللوم والمسئلة عن الامر الذى دعاه الى اضلال
القوم فى باب العجل فقال بصرت بما لم يبصروا به أى عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق وقد كنت قبضت
قبضة من أثرك أيها الرسول أى شيأ من سنتك ودينك فقذفته أى طرحته فعند ذلك أعلمه موسى عليه
السلام بما له من العذاب فى الدنيا والآخرة انما أورد بلفظ الاخبار عن غائب كما يقول الرجل لرئيسه وهو
مواجهه له ما يقول الامير فى كذا وبماذا يأمر الامير وأما دعاؤه موسى عليه السلام رسولا مع جحده وكفره
فعلى مثل مذهب من حكى الله تعالى عنه قوله يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون وان لم يؤمنوا
بالانزال واعلم ان هذا القول الذى ذكره أبو مسلم ليس فيه الا مخالفة المفسرين ولكنه أقرب الى التحقيق
لوجوه (أحدها) ان جبريل عليه السلام ليس بمشهور باسم الرسول ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام
التعريف اشارة اليه فاطلاق لفظ الرسول لارادة جبريل عليه السلام كانه تكليف بعلم الغيب (وثانيها) أنه
لابد فيه من الاضمار وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول والاضمار خلاف الاصل (وثالثها) انه لابد من
التعسف فى بيان أن السامرى كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته ثم
كيف عرف ان تراب حافر فرسه هذا الاثر الذى ذكروه من ان جبريل عليه السلام هو الذى رباه فبعيد
لان السامرى ان عرف جبريل حال كمال عقله عرف قطعا ان موسى عليه السلام نبى صادق فكيف يحاول
الاضلال وان كان ما عرفه حال البلوغ فاى منفعة لكون جبريل عليه السلام مربيا له حال الطفولية
فى حصول تلك المعرفة (ورابعها) انه لو جاز اطلاع بعض الكفرة على تراب هذا شأنه لكان لقائل أن يقول
فلعل موسى عليه السلام اطلع على شئ آخر يشبهه ذلك فلا جله أتى بالمعجزات وبرجع حاصله الى سؤال
من يطعن فى المعجزات ويقول لم لا يجوز أن يقال انهم لاختصاصهم بمعرفة بعض الادوية التى لها خاصية أن
تفيد حصول تلك المعجزة أتوا بتلك المعجزة وحينئذ ينسد باب المعجزات بالكلية أما قوله وكذلك سولت لى
نفسى فالمعنى فعلت ما دعتنى اليه نفسى وسولت ما خوذ من السؤال فالمعنى لم يدعنى الى ما فعلته أحد
غيرى بل اتبعت هواى فيه ثم ان موسى عليه السلام لما سمع ذلك من السامرى أجابه بان بين حاله فى الدنيا
والآخرة وبين حال الهه أما حاله فى الدنيا فقوله فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس وفيه وجوه
(أحدها) ان المراد انى لا أمس ولا أمس قالوا واذا مسه أحد حم المماس والممسوس فكان اذا أراد أحد أن
يمسه صاح خوفا من الحمى وقال لا مساس (وثانيها) ان المراد بقوله لا مساس المنع من أن يخالط أحدا أو
يخالطه أحد وقال مقاتل ان موسى عليه السلام أخرجه من محلة بنى اسرائيل وقال له اخرج أنت وأهلك
فخرج طريدا الى البرارى * اعترض الواحدى عليه فقال الرجل اذا صار مهجورا فلا يقول هو لا مساس
وانما يقال له ذلك وهذا الاعتراض ضعيف لان الرجل اذا تبع طريدا فربما قيل له كيف حالك فله أن
يقول لا مساس أى لا تماسنى أحد ولا أماس أحدا والمعنى انى أجعل ملك يا سامرى فى المطرودية بحيث
لو أردت أن تخبر غيرك عن حالك لم تقل الا انه لا مساس وهذا الوجه أحسن وأقرب الى نظم الكلام من
الاول (وثالثها) ما ذكره أبو مسلم وهو أنه يجوز فى جملة ما أريد مسى النساء فيكون من تعذيب الله اياه انقطاع

نسله

طمعا وتخييطوا عجافيه من البدائع خبرا وتطلعوا على أنه خارج عن طوق البشر منزل
من عند خلاق القوى والقدر (نحن نقص عليك) أى نخبرك ونحدثك واشتقاقه من قص أثره اذا أتبعه لان من يقص الحديث
يتبع ما حفظ منه شيأ فشيأ كما يقال تلا القرآن لانه يتبع ما حفظ منه آية بعد آية (أحسن القصص) أى أحسن الاقتصاص

فنصبه على المصدرية وفيه مع بيان الواقع ايهام لما في اقتصاص أهل الكتاب من القبح والخلل وترك المقبول لها فلا اعتماد على انفهامه من قوله عز وجل (بما أوحينا) أي بايحائنا (اليك هذا القرآن) أي هذه السورة فان كونها موحاة مبني عن كون ما في ضمنها مقصوصا والتعرض لعنوان قرآنيتها للتحقيق أن الاقتصاص ليس بطريق الالهام أو الوحي

نسله فلا يكون له ولد يؤنسه فيخلفه الله تعالى من زينتي الدنيا اللتين ذكرهما بقوله المال والبنون زينة الحياة الدنيا وقرئ لامساس بوزن خفار وهو اسم علم للمرة الواحدة من المس وأما شرح حاله في الآخرة فهو قوله وان لك موعدا ان تخلفه والموعد يعني الوعد أي هذه عقوبتك في الدنيا ثم لك الوعد بالمصير الى عذاب الآخرة فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين قرأ أهل المدينة والكوفة ان تخلفه بفتح اللام أي ان تخلف ذلك الموعد أي سيأتيك به الله ولن يتأخر عنك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والحسن بكسر اللام أي تجيء اليه ولن تغيب عنه ولن تتخلف عنه وفتح اللام اختيار أبي عبيد كأنه قال موعدا حقا لا تخلف فيه وعن ابن مسعود ان تخلفه بالنون فكأنه عليه السلام حكى قول الله تعالى بلفظه كما مر بيانه في قوله لاهب لك وأما شرح حالي الهه فهو قوله وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا قال المفضل في ظلت انه يقرأ بفتح الظاء وكسرها وكذلك فظلتم تفكهون وأصله ظللت بخذفت اللام الاولى وذلك انما يكون اذا كانت اللام الثانية ساكنة تستعقب العرب طرح الاولى ومن كسر الظاء نقل كسرة اللام الساقطة اليها ومن فتحها ترك الظاء على حالها وكذلك يفعلون في المضاعف يقولون مسته ومسسته ثم قال لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا وفي قوله لنحرقنه وجهان (أحدهما) المراد احراقه بالنار وهذا أشد مايدل على أنه صار لحما ودما لان الذهب لا يمكن احراقه بالنار وقال السدي أمره موسى عليه السلام بذبح العجل فذبح فسال منه الدم ثم أحرق ثم نسف رماده وفي حرف ابن مسعود لنذبحنه ولنحرقنه (وثانيهما) لنحرقنه أي لنبردنه بالمبرد يقال حرقه بحرقه اذا برده وهذه القراءة تدل على انه لم ينقلب لحما ولا دما فان ذلك لا يصح أن يبرد بالمبرد ويمكن أن يقال انه صار لحما فذبح ثم برد بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها قراءة العامة بضم النون وتشديد الراء ومعناه لنحرقنه بالنار وقرأ أبو جعفر وابن محيصن لنحرقنه بفتح النون وضم الراء خفيفة يعني لنبردنه واعلم أن موسى عليه السلام لما فرغ من ابطال ما ذهب اليه السامري عاد الى بيان الدين الحق فقال انما الهكم أي المستحق للعبادة والتعظيم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شيء علما قال مقاتل يعلم من يعبده ومن لا يعبده ﴿ قوله تعالى ﴾ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرا نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما ﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى لما شرح قصة موسى عليه السلام مع فرعون أراد أن يجمع السامري ثانيا أتبعه بقوله كذلك نقص عليك من سائر أخبار الامم وأحوالهم تكثيرا لشأنك وزيادة في معجزاتك ولتكثير الاعتبار والاستبصار لكلفين بها في الدين وقد آتيناك من لدنا ذكرا يعني القرآن كما قال تعالى وهذا ذكر مبارك أنزلناه وانما لذكر لك وللقرآن ذي الذكر ما يأتيهم من ذكر يأيها الذي نزل عليه الذكر ثم في تسمية القرآن بالذكر وجوه (أحدها) انه كتاب فيه ذكر ما يحتاج اليه الناس من أمر دينهم ودنياهم (وثانيها) انه يذكر أنواع آلاء الله تعالى ونعمائه فهو في التذكير والمواعظ (وثالثها) فيه الذكر والشرف لك ولقومك على ما قال وانه لذكر لك ولقومك واعلم أن الله تعالى سمى كل كتبه ذكرا فقال فاسئلوا أهل الذكر وكما بين نعمته بذلك بين شدة الوعيد لمن أعرض عنه ولم يؤمن به من وجوه (أولها) قوله من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا والوزر هو العقوبة الثقيلة سماها وزرا تشبيها في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها الذي يثقل على الحامل وينقض ظهره أو لانها جزاء الوزر وهو الاثم وقرئ يحمل ثم بين تعالى صفة ذلك الوزر من وجهين (أحدهما) انه يكون خالدا مؤبدا (والثاني) قوله وساء لهم يوم القيامة حملا أي وما

عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قط وهو تعليل لكونه موحى والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لاجلال شأن النبي عليه السلام وان غفل عنه بعض الغافلين (اذ قال يوسف) نصب باضمار اذكر وشروع في القصة لنجاز الوعد بأحسن الاقتصاص أو بدل من أحسن القصص على تقدير كونه مفعولا بدل اشتمال فان اقتصاص الوقت المشتمل على المقصوص من

المشركين بملقين علماء اليهود أحسنيته لانه قد اقتص على أبدع اطرائق الرائعة الرائقة وأعجب الاساليب الفائقة اللائقة كما لا يكاد يخفى على من طالع القصة من كتب الاولين والآخرين وان كان لا يعرف الغث من السمين ولا يفرق بين الشمال واليمين وفي كلمة هذا العماد الى مغايرة هذا القرآن لما في قوله تعالى قرآنا عربيا بيان يكون المراد بذلك المجموع فتأمل أو نقص عليك أحسن ما نقص من الانباء وهو قصة آل يعقوب عليه السلام على أن القصص فعل بمعنى المفعول كالنباء والخبر أو مصدر سمي به المفعول كالخلق والصيد ونصب أحسن على المفعولية وأحسنيتها لتضمنها من الحكم والعبر ما لا يخفى كمال حسنه (وان كنت) ان مخففة من الثقيلة وضمير الشأن الواقع اسمها محذوف واللام فارقة والجملة خبر وأما هي وان الشأن كنت (من قبله) من قبل ايحائنا اليك هذه السورة (لمن الغافلين)

حيث اشتمال عليه اقتصاص للقصص ويوسف اسم عبري لا عربي للعلموه عن سبب آخر غير التعريف وفتح السين وكسرها على بعض القراآت بناء على التلعب به لا على أنه مضارع بني للمفعول أو الفاعل من آسف لشهادة المشهورة بعجمته (لابيه) يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام ٨٢ وقد روى عنه عليه السلام ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم (يا أبت) أصله يا أبي فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة فلذلك قلبت هاء في الوقف على قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب وكسرتها لانها عوض عن حرف يناسبها وفتحها ابن عامر في كل القرآن لانها حركة أصلها أولان الاصل يا أبتا فحذف الالف وبقي الفتحة وانما لم يجز يا أبي لانه جمع بين العوض والمعوض وقرئ بالضم اجراء لها مجرى الالفاظ المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويض وعدم تسكينها كاصلها لانها حرف صحيح منزل منزلة الاسم فيجب تحريكها كالكاف الخطاب (اني رأيت) من الرؤية بالامن الرؤية لقوله لا تقصص رؤياك هذا تأويل رؤياي ولان الظاهر أن وقوع مثل هذه الامور البديعة في عالم الشهادة لا يختص برؤيته رأى دون رأى فيكون طامة كبرى لا يخفى على أحد من الناس (أحد عشر كوكبا والشمس والقمر) روى عن جابر رضي الله عنه أن يهوديا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآها يوسف عليه السلام فسكت النبي عليه السلام فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقال عليه السلام اذا أخبرتك بذلك هل تسلم فقال نعم قال عليه السلام جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف عليه

اسم أو هذا الوزن جملا أي محمولا وحالا منصوب على التمييز (وثانيها) يوم ينفخ في الصور فالمراد بيان ان يوم القيامة هو يوم ينفخ في الصور وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو وينفخ بفتح النون كقوله ونحشر وقرأ الباقون ينفخ على مالم يسم فاعله ونحشر بالنون لان النافخ ملك المقام الصور والحاشر هو الله تعالى وقرئ يوم ينفخ بالياء المفتوحة على الغيبة والضمير لله تعالى أو لاسرافيل عليه السلام واما يحشر المجرمين فلم يقرأ به الا الحسن وقرئ في الصور بفتح الواو جمع صورة (المسئلة الثانية) في الصور قولان (أحدهما) انه قرن ينفخ فيه يدعى به الناس الى المحشر (والثاني) انه جمع صورة والنفخ نفخ الروح فيه وبدل عليه قراءة من قرأ الصور بفتح الواو والاول أولى لقوله تعالى فاذا نقر في الناقور والله تعالى يعرف الناس أمور الآخرة بأمثال ما شوهد في الدنيا ومن عادة الناس النفخ في البوق عند الاسفار وفي العساكر (المسئلة الثالثة) المراد من هذا النفخ هو النفخة الثانية لان قوله بعده لذلك ونحشر المجرمين يوم مذ زرقا كالدلالة على ان النفخ في الصور كما أن السبب لحشرهم فهو نظير قوله يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا أما قوله ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة قوله المجرمين تناول الكفار والعصاة فيدل على عدم العفو عن العصاة وقال ابن عباس رضي الله عنهما يريد بالمجرمين الذين اتخذوا مع الله الها آخر وقد تقدم هذا الكلام (المسئلة الثانية) اختلفوا في المراد بالزرقة على وجوه (أحدها) قال الضحاك ومقاتل يعني زرق العيون سود الوجوه وهي زرقة تشوه بها خلقتهم والعرب تتشاءم بذلك فان قيل أليس ان الله تعالى أخبر انهم يحشرون عميا فكيف يكون أعمى وأزرق قلنا لعله يكون أعمى في حال وأزرق في حال (وثانيها) المراد من الزرقة العمى قال الكلبي زرقا أي عميا قال الزجاج يخرجون بصراء في أول مرة ويعمون في المحشر وسوادا لعين اذا ذهب تزرق فان قيل كيف يكون أعمى وقد قال تعالى انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار وتخصيص البصر من الاعمى محال وقد قال في حقهم اقرأ كتابك والاعمى كيف يقرأ فالجواب أن أحوالهم قد تختلف (وثالثها) قال أبو مسلم المراد بهذه الزرقة تخصيص أبصارهم والازرق شاخص لانه لضعف بصره يكون محدقا نحو الشيء يريد ان يتبينه وهذه حال الخائف المتوقع لما يكره وهو كقوله انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار (ورابعها) زرقا عطاشا هكذا رواه ثعلب عن ابن الاعرابي قال لا بد من شدة العطش يتغير سوادعيونهم حتى تزرق و يدل على هذا التفسير قوله تعالى وقد سوق المجرمين الى جهنم وردا (وخامسها) حكى ثعلب عن ابن الاعرابي قال طامعين فيما لا ينالونه (الصفة الثالثة) من صفات الكفار يوم القيامة قوله تعالى يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) يتخافتون أي يسارون يقال خفت يخفت وتخافت تخافتا والتخافت السرار وهو نظير قوله تعالى فلا تسمع الا همسا وانما يتخافتون لانه امتلأت صدورهم من الرعب والهول أولا نهم صاروا بسبب الخوف في نهاية الضعف فلا يطيقون الجهر (المسئلة الثانية) اختلفوا في ان المراد بقوله ان لبثتم اللبث في الدنيا أو في القبر فقال قوم أرادوا به اللبث في الدنيا وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك واحتجوا عليه بقوله تعالى قال كم لبثتم في الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين فان قيل أما أن يقال انهم نسوا قدر لبثهم في الدنيا أو ما نسوا ذلك والاول غير جائز اذ لو جاز ذلك لجاز أن يبقى الانسان خمسين سنة في بلدتم ينساه والثاني غير جائز لانه كذب وأهل الآخرة لا يكذبون لاسيما وهذا الكذب لا فائدة فيه قلنا وجوه (أحدها) لعلهم اذا حشروا في أول الامر وعاينوا تلك الاهوال فلشدة وقعها عليهم ذهلوا عن مقدار عمرهم في الدنيا وما ذكروا الا القليل فقالوا ليتنا ما عشنا الا تلك الايام القليلة في الدنيا حتى لا نقع في هذه الاهوال

السلام والشمس والقمر نزلن من السماء ساجدات له فقال اليهودي اى رأته انها الاسماء وعاوقيل الشمس والقمر أبواه وقيل أبوه وخالته والكواكب اخوته وانما أخر الشمس والقمر عن الكواكب لانظهارهما بعد غيبتهما وشرفهما على سائر الطوالع بعطفهما عليها كما في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام وقد جوز أن تكون الواو بمعنى مع ٨٣ اى رأيت الكواكب مع الشمس والقمر ولا يبعد أن يكون ذلك اشارة الى تأخر ملاقاته عليه السلام لهما عن ملاقاته لاخوته ومن وهب ان يوسف عليه السلام رأى وهو ابن سبع سنين أن احدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة في الارض كهيئة الدارة واذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها فوصف ذلك لابيه فقال له يا بني لا تذكر هذا لاخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال لا تقصصها عليهم فيبغوا لك الغوائل وقيل كان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه أربعون سنة وقيل ثمانون (رأيتهم لي ساجدين) استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها كأن سائلا سأل فقال كيف رأيتهم فاجاب بذلك وانما أجريت مجرى العقلاء في الضمير لوصفها بوصف العقلاء أعني السجود وتقديم الجار والمجرور لاظهار العناية والاهتمام بما هو الاهم مع ما في تضمنه من رعاية الفاصلة (قال يا بني) صغره للشفقة أو لصغر سنه وهو أيضا استئناف مبني على سؤال من قال فماذا قال يعقوب بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة ولما عرف يعقوب عليه السلام من هذه الرؤيا أن يوسف يبلغه الله تعالى ما يبلغ جليل الامر من الحكمة ويصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه الكرام خاف عليه حسد الاخوة وبغيهم فقال صيانة لهم من ذلك ولهم من معاناة المشاق ومقاساة

الاهوال والانسان عند الهول الشديد قد يذهل عن أظهر الاشياء وتمام تقديره مذكور في سورة الانعام في قوله ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين (وثانيها) انهم علموا ان مقدار عمرهم في الدنيا الا أنهم لما قابلوا أعمارهم في الدنيا بأعمار الاخرة وجدوها في نهاية القلة فقال بعضهم ما لبثنا في الدنيا الا عشرة أيام وقال أعقلهم بل ما لبثنا الا يوما واحدا أي قدر لبثنا في الدنيا بالقياس الى قدر لبثنا في الاخرة كعشرة أيام بل كاليوم الواحد بل كالعدم وانما خص العشرة والواحد بالذكر لان القليل في أمثال هذه المواضع لا يعبر عنه الا بالعشرة والواحد (وثالثها) انهم لما عاينوا الشدائد تذكروا أيام النعمة والسرور وتأسفوا عليها فوصفوها بالقصر لان أيام السرور قصار (ورابعها) ان أيام الدنيا قد انقضت وأيام الاخرة مستقبلة والذاهب وان طالت مدته قليل بالقياس الى الآتي وان قصرت مدته فكيف والامر بالعكس ولهذه الوجوه رجح الله تعالى قول من بالغ في التقليل فقال اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما (القول الثاني) ان المراد منه اللبث في القبور يعضده قوله تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث فأما من جوز الكذب على أهل القيامة فلا اشكال له في الآية أما من لم يجوز قال ان الله تعالى لما أحياهم في القبور وعذبهم ثم أماتهم ثم بعثهم يوم القيامة لم يعرفوا أن قدر لبثهم في القبر كم كان فخطر ببال بعضهم انه في تقدير عشرة أيام وقال آخرون انه يوم واحد فلما وقعوا في العذاب مرة اخرى تمنوا ثمان الموت الذي هو زمان اخلاص لما نالهم من هول العذاب (المسئلة الثالثة) الاكثرون على ان قوله ان لبثتم الا عشرا أي عشرة أيام فيكون قول من قال ان لبثتم الا يوما أقل وقال مقاتل ان لبثتم الا عشرا أي عشر ساعات كقوله كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها وعلى هذا التقدير يكون اليوم أكثر والله أعلم وعلمه أتم سبحانه وتعالى وبين بهذا القول عظم ما نالهم من الحيرة التي دفعوا عندها الى هذا الجنس من التخافت ﴿قوله تعالى﴾ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضي له قولا يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما ﴿اعلم انه تعالى لما وصف أمر يوم القيامة حكى سؤال من لم يؤمن بالحشر فقال ويسألونك عن الجبال وفي تقرير هذا السؤال وجوه (أحدها) ان قوله يتخافتون وصف من الله تعالى لكل المجرمين بذلك فكأنهم قالوا كيف يصح ذلك والجبال حائلة وبائنة من هذا التخافت (وثانيها) قال الضحاك نزلت في مشرك مكة قالوا يا محمد كيف تكون الجبال يوم القيامة وكان سؤالهم على سبيل الاستهزاء (وثالثها) لعل قومه قالوا يا محمد انك تدعي ان الدنيا ستنقضي فلو صح ما قلته لوجب أن تبتدئ أولا بالنقصان ثم تنتهي الى البطلان لكن أحوال العالم باقية كما كانت في أول الامر فكيف يصح ما قلته من خراب الدنيا وهذه شبهة تمسك بها جالينوس في ان السموات لا تفنى قال لانها لو فنيت لابتدأت في النقصان أولا حتى ينتهي نقصانها الى البطلان فلما لم يظهر فيها النقصان علمنا ان القول بالبطلان باطل ثم أمر الله تعالى رسوله بالجواب عن هذا السؤال وضم الى الجواب أمورا أخرى شرح أحوال القيامة وأهوالها ﴿الصفة الاولى﴾ قوله فقل ينسفها ربي نسفا وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ انما قال فقل مع فاء التعقيب لان مقصودهم من هذا السؤال الطعن في الحشر والنشر فلا جرم أمره بالجواب مقرونا بفاء التعقيب لان تأخير البيان في مثل هذه

الاحزان وان كان واثقا بان الله تعالى سيحقق ذلك لامحالة وظهر مافى حصوله بلا مشقة (لا تقصص رؤياك) هى مافى المنام كما أن الرؤية مافى اليقظة فرق بينهما بحرفى التأنيث كما فى القربى والقربة وحقيقتها ارتسام الصورة المصدرة من أفق المخيلة الى الحس المشترك والصادقة منها اما تكون باتصال النفس ٨٤ بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتصور

عما فيها مما يليق من المعانى الحاصلة هناك ثم ان المخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها الى الحس المشترك فتصير مشاهدة ثم اذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت الا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير والا احتاجت اليه (على اخوتك فيكيدوا) انصب باضمار أن أى فيفعلوا (لك) أى لاجلك ولاهلاكك (كيدا) متنازا اضحا لاتقدر على التقصى عنه أو خفيا عن فهمك لاتتصدى لمدافعته وهذا أوفق بمقام التحذير وان كان يعقوب عليه السلام يعلم أنهم ليسوا بقادرين على نحو بل مادلت الرؤيا على وقوعه وهذا الاسلوب آكد من أن يقال فيكيدوك كيدا اذ ليس فيه دلالة على كون نفس الفعل مقصودا بالايقاع وقد قيل انما جىء باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدى باللام لقصد معنى المضمن والمتضمن فيه للتأكيد أى فيحتالوا لذلك ولاهلاكك حيلة وكيدا والمراد باخوته ههنا الذين يخشى غوائلهم ومكايدهم بنو علاته الاحد عشر وهم روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا ويشجر ودينة بنو يعقوب من ليا بنت خاله ودان ونفتالى وجاد وآشر بنو من سريتين زلفة وبلهة وهؤلاء هم المشار اليهم بالكواكب الاحد عشر وأما بنيامين الذى هو شقيق يوسف عليه السلام وأمهما راحيل التى تزوجها يعقوب

المسئلة الاصولية غير جائز أما فى المسائل الفروعية فجائز فلذلك ذكرهناك قال من غير حرف التعقيب (المسئلة الثانية) الضمير فى قوله ينسفها عائد الى الجبال والنسف التذرية أى تصيرالجبال كالهباء المنثور تذرى تذرية فاذا زالت الجبال زالت الحوائل فيعلم صدق قوله يتحافتون قال الخليل ينسفها أى يذهبها ويطيرها أما الضمير فى قوله فيذرها فهو عائد الى الارض فاستغنى عن تقديم ذكرها كما فى عادة الناس من الاخبار عنها بالاضمار كقولهم ما عليها أكرم من فلان وقال تعالى ماترك على ظهرها من دابة وانما قال فيذرها قاعا صفصفا ليبين أن ذلك النسف لايزيل الاستواء ثم لما زالت من موضع الى موضع آخر صارت هناك حائلة هذا كلامه اذا كان المقصود من سؤالهم الاعتراض على كيفية المحافة أما لو كان الغرض من السؤال ماذكرنا من انه لا نقصان فيها فى الحال فوجب أن لاينتهى أمرها الى البطلان كان تقرير الجواب أن بطلان الشئ قد يكون بطلانا يقع نوليدا بعد ذلك فحينئذ يجب تقديم النقصان على البطلان وقد يكون بطلانا يقع دفعة واحدة وههنا لايجب تقديم النقصان على البطلان فبين الله تعالى انه بفرق تركيبات هذا العالم الجسمانى دفعة بقدرته ومشيئته فلا حاجة ههنا الى تقديم النقصان على البطلان (المسئلة الثالثة) انه تعالى وصف الارض فى ذلك الوقت بصفات (احداها) كونها قاعا وهو المكان المطمئن وقيل مستنقع الماء (وثانيها) الصفصف وهو الذى لانبات عليه وقال أبو مسلم القاع الارض المستوية وكذلك الصفصف (وثالثها) قوله لاترى فيها عوجا ولا أمتا وقال صاحب الكشاف قد فرقوا بين العوج والعوج فقالوا العوج بالكسر فى المعانى والعوج بالفتح فى الاعيان فان قيل الارض عين فكيف صح فيها المكسور العين قلنا اختيار هذا اللفظ له موقع بديع فى وصف الارض بالاستواء ونفى الاعوجاج وذلك لانك لو عمدت الى قطعة أرض فسويتها وبالغت فى التسوية فاذا قابلتها بالمقاييس الهندسية وجدت فيها أنواعا من العوج خارجة عن الحسن البصرى قال فذلك القدر من الاعوجاج لما لطف حده الحق بالمعانى فقيل فيه عوج بالكسر واعلم أن هذه الآية تدل على أن الارض تكون ذلك اليوم كرة حقيقية لان المضلع لابد وأن يتصل بعض سطوحه بالبعض لاعلى الاستقامة بل على الاعوجاج وذلك يبطله ظاهر الآية (ورابعها) الامت النتوء اليسير يقال مد حبله حتى ما فيه أمت * وتحصل من هذه الصفات الاربع أن الارض تكون ذلك اليوم ملساء خالية عن الارتفاع والانخفاض وأنواع الانحراف والاعوجاج (المسئلة الثانية) ليوم القيامة قوله يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له وفى الداعى قولان (الاول) ان ذلك الداعى هو النفخ فى الصور وقوله لاعوج له أى لايعدل عن أحد بدعائه بل يحشر الكل (الثانى) انه ملك قائم على صخرة بيت المقدس ينادى ويقول أيتها العظام الفخرة والاوصال المتفرقة واللحوم الممزقة قومى الى ربك للحساب والجزاء فيسمعون صوت الداعى فيتبعونه ويقال انه اسرافيل عليه السلام يضع قدمه على الصخرة فان قيل هذا الدعاء يكون قبل الاحياء أو بعده قلنا ان كان المقصود بالدعاء اعلامهم وجب أن يكون ذلك بعد الاحياء لان دعاء الميت عبث وان لم يكن المقصود اعلامهم بل المقصود مقصود آخر مثل أن يكون لطفا للملائكة ومصلحة لهم فذلك جائز قبل الاحياء (المسئلة الثالثة) قوله وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا وفيه وجوه (أحدها) خشعت الاصوات من شدة الفزع وخضعت وخفيت فلا تسمع الا همسا وهو الذكر الخفى قال أبو مسلم وقد علم الانس والجن بان لا مالك لهم سواه فلا يسمع لهم صوت يزيد على الهمس وهو أخفى الصوت ويكاد يكون كلاما بنفسهم بتعريك الشفتين اضعفه وحق لمن كان الله محاسبه أن يخشع طرفه ويضعف صوته ويختلط قوله ويطول غمه (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما والحسن وعكرمة وابن زيد الهمس

عليه السلام بعد وفاة أختها ليا أو في حياتها اذ لم يكن جمع الاختين اذ ذاك محرما فليس بداخل تحت هذا النهي اذ لا يتوهم مضرته ولا يخشى معرته ولم يكن معدودا منهم في الرؤيا اذ لم يكن معهم في السجود ليوسف والمراد نهيه عن اقتصاص الرؤيا عليهم كلا أو بعضا (ان الشيطان للانسان عدو مبين) ظاهر العداوة فلا يألو جهدا في اغواء اخوتك واضلالهم ٨٥ وحملهم على ما لا خير فيه وهو استئناف

وطء الاقدام فالمعنى انه لا تسمع الا خفق الاقدام ونقلها الى المحشر ﴿الصفة الرابعة﴾ قوله يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضي له قولا قال صاحب الكشاف من يصلح أن يكون مرفوعا ومنصوبا فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف اليه أي لا تنفع الشفاعة الا شفاعة من أذن له الرحمن والنصب على المفعولية * وأقول الاحتمال الثاني أولى لوجوه (الاول) ان الاول يحتاج فيه الى الاضمار وتغيير الاعراب والثاني لا يحتاج فيه الى ذلك (والثاني) ان قوله تعالى لا تنفع الشفاعة مراده من يشفع بها والاستثناء يرجع اليهم فكأنه قال لا تنفع الشفاعة أحدا من الخلق الا شخصا مرضيا (والثالث) وهو أن من المعلوم بالضرورة ان درجة الشافع درجة عظيمة فهي لا تحصل الا لمن أذن الله له فيها وكان عند الله مرضيا فلو حملنا الآية على ذلك صارت جارية مجرى ايضاح الواضحات أما لو حملنا الآية على المشفوع له لم يكن ذلك ايضاح الواضحات فكان ذلك أولى اذا ثبت هذا فنقول المعتزلة قالوا الفاسق غير مرضي عند الله تعالى فوجب أن لا يشفع الرسول في حقه لان هذه الآية دلت على ان المشفوع له لا بد وأن يكون مرضيا عند الله تعالى واعلم ان هذه الآية من أقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة في حق الفساق لان قوله ورضي له قولا يكفي في صدقه أن يكون الله تعالى قد رضي له قولا واحدا من أقواله والفاسق قد رضي الله تعالى قولا واحدا من أقواله وهو شهادة أن لا اله الا الله فوجب أن تكون الشفاعة ثابتة له لان الاستثناء من النفي اثبات * فان قيل انه تعالى استثنى عن ذلك النفي بشرطين (أحدهما) حصول الاذن (والثاني) أن يكون قد رضي له قولا فهب ان الفاسق قد حصل فيه أحد الشرطين وهو انه تعالى قد رضي له قولا لكن لم قلتم انه اذن فيه وهذا أول المسئلة * قلنا هذا القيد وهو انه رضي له قولا كاف في حصول الاستثناء بدليل قوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى فاكتفى هناك بهذا القيد ودلت هذه الآية على انه لا بد من الاذن فظهر من مجموعها انه اذا رضي له قولا يحصل الاذن في الشفاعة واذا حصل القيد ان حصل الاستثناء وتم المقصود الصفة الخامسة قوله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الضمير في قوله بين أيديهم عائد الى الذين يتبعون الداعي ومن قال ان قوله لمن أذن له الرحمن المراد به الشافع قال ذلك الضمير عائد اليه والمعنى لا تنفع شفاعة الملائكة والانبياء الا لمن أذن له الرحمن في أن تشفع له الملائكة والانبياء ثم قال يعلم ما بين أيديهم يعني ما بين أيدي الملائكة كما قال في آية الكرسي وهذا قول الكلبي ومقاتل وفيه نظر لان بعد الملائكة ليس شفيعا له قال مقاتل يعلم ما كان قبل ان يخلق الملائكة وما كان منهم بعد خلقهم (المسئلة الثانية) ذكروا في قوله تعالى يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وجوها (أحدها) قال الكلبي ما بين أيديهم من أمر الآخرة وما خلفهم من أمر الدنيا (وثانيها) قال مجاهد ما بين أيديهم من أمر الدنيا والاعمال وما خلفهم من أمر الآخرة والثواب والعقاب (وثالثها) قال الضحاك يعلم ما مضى وما بقي ومتى تكون القيامة (المسئلة الثالثة) ذكروا في قوله ولا يحيطون به علما وجهين (الاول) انه تعالى بين انه يعلم ما بين أيدي العباد وما خلفهم ثم قال ولا يحيطون به علما أي العباد لا يحيطون بما بين أيديهم وما خلفهم علما (الثاني) المراد ولا يحيطون بالله علما والاول أولى لوجهين (أحدهما) ان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورات والاقرب ههنا قوله ما بين أيديهم وما خلفهم (وثانيهما) انه تعالى أورد ذلك مورد الزجر ليعلم ان سائر ما يقدمون عليه وما يستحقون به المجازاة معلوم لله تعالى ﴿الصفة السادسة﴾ قوله وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما ومعناه ان ذلك اليوم تعنو الوجوه أي تذل وتصير الملك والقهر له تعالى دون غيره ومن لفظ العنو أخذوا

كأن يوسف عليه السلام قال كيف يصدر ذلك عن اخوتي الناشئين في بيت النبوة فقيل ان الشيطان يحملهم على ذلك ولما نبه عليهما السلام على ان رؤياه شأنا عظيما يستتبع منافع وخدرا شاعتها المؤدية الى أن يحول اخوته بينها وبين ظهور آثارها وحصولها أو يوعر واسبيل وصولها شرع في تعبيرها وتأويلها على وجه اجمالي فقال (وكذلك) أي ومثل ذلك الاجتباء البديع الذي شاهدت آثاره في عالم المثال من سجود تلك الاجرام العلوية النيرة لك وبحسبه وعلى وفقه (يجتبيك ربك) يختارك لجناب كبريائه ويستنهلك لافتعال من جباه اذا جمعه ويصطفيك على أشراف الخلائق وسراة الناس فاطمة ويبرز مصداق تلك الرؤيا في عالم الشهادة حسب ما عاينته من غير قصور والمراد بالتشبيه بيان المشاهاة المحققة بين الصور المرئية في عالم المثال وبين ما وقعت هي صورا وأشباحا له من الكائنات الظاهرة بحسبها في عالم الشهادة أي كما حضرت لك تلك الاجرام العظام بسخرلك وجوه الناس ونواصيهم منقادة عنن لطاعتك خاضعة من لك على وجه الاستكانة ومراده بيان طاعة أبويه واخوته له لكنه انما لم يصرح به حذرا من اذاعته (ويعلمك) كلام مبتدأ غير داخل تحت التشبيه أراد به عليه السلام تأكيد ما قبله وتحقيقها وتوطين نفس يوسف عليه السلام على ما أخبر به

على طريقة التعبير والتأويل كأنه قال وهو يعلمك (من تأويل الاحاديث) أي ذلك الجنس من العلوم أو طرفا صالحا منه فتطلع على حقيقة ما أقول ولا يخفى ما فيه من تأكيد ما سبق والبعث على تلقي ما سيأتي بالقبول والمراد بتأويل الاحاديث تعبير الرؤيا أو الذهبي أحاديث الملك ان كانت صادقة ٨٦ أو أحاديث النفس أو الشيطان ان لم تكن كذلك والاحاديث اسم جمع للحديث كالاباطيل اسم جمع للباطل لا جمع أحدوثة وقيل كأنهم جمعوا حديثا على أحدوثة ثم جمعوا الجمع على أحاديث كقطيع وأقطيع وأقاطيع وقيل هو تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الانبياء عليهم السلام والاول هو الاظهر وتسمية التعبير تأويلا لانه حمل المرئي آئلا الى ما يذكره المعبر بسبب التعبير ورجعه اليه فكأنه عليه الصلاة والسلام أشار بذلك الى ما سيقع من يوسف عليه السلام من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك وكون ذلك ذريعة الى ما بلغه الله تعالى اليه من الرياسة العظمى التي عبر عنها بإتمام النعمة وانما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحي أو أراد كون هذه الخصلة سببا لظهور أمره عليه السلام على الاطلاق فيجوز حينئذ أن تكون معرفته عليه السلام لذلك بطريق الفراسة والاستدلال من الشواهد والدلائل والامارات والمخايل بان من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا الباهرة لتعبيرها وتأويل أمثالها وتمييز ما هو آفاقي منها مما هو أنفسي هيهنا كيف لا وهي تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام في عالم المثال وقوة تصرفاتها فيه فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم وبما يحاكيه من الامور الواقعة بحسبها في عالم الشهادة وأقوى وقوفا على النسب الواقعة بين الصور المعاينة في أحد ذينك العالمين وبين

المعاني وهو الاسير يقال عناية به عناء اذا سار أسيرا وذكر الله تعالى الوجوه وأراد به المكلفين أنفسهم لان قوله وعنت من صفات المكلفين لا من صفات الوجوه وهو كقوله وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية وانما خص الوجوه بالذكر لان الخضوع بها يبين ويفهم إبظهر وتفسير الحي القيوم قد تقدم وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اطلبوا اسم الله الاعظم في هذه السور الثلاث البقرة وآل عمران وطه قال الراوي فوجدنا المشترك في السور الثلاث الله لا اله الا هو الحي القيوم قيل تعالى على وجه التحذير ذلك اليوم لا يصح الامتناع مما ينزل بالمرء من المجازاة وان حاله مخالفة لحال الدنيا التي يختار فيها المعاصي ويمتنع من الطاعات أما قوله تعالى وقد خاب من حمل ظلما فالمراد بالظلمة المرمان أي حرم الثواب من حمل ظلما والمراد به من وافى بالظلم ولم يتب عنه واستدلت المعتزلة بهذه الآية في المنع من العفو فقالوا لو قدر خاب من حمل ظلما ثم كل ظالم وقد حكم الله تعالى فيه بالظلمة والعقوبة ونافيه والكلام على عمومات الوعيد قد تقدم مرارا واعلم انه تعالى لما شرح أحوال يوم القيامة ختم الكلام فيها بشرح أحوال المؤمنين فقال ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما يعني ومن يعمل شيأ من الصالحات والمراد به الفرائض فيكون عمله مقرونا بالايمان وهو كقوله ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فقوله فلا يخاف في موضع جزم لكونه في موضع جواب الشرط والتقدير فهو لا يخاف ونظيره ومن عاد فينتقم الله منه فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا وقرأ ابن كثير فلا يخف على النهي وهو حسن لان المعنى فليأمن والنهي عن الخوف أمر بالامن والظلم هو أن يعاقب لا على جريمة أو يمنع من الثواب على الطاعة والهضم أن ينقص من ثوابه والهضيمة النقيصة ومنه هضيم الكشح أي ضامر البطن ومنه طلعها هضيم أي لازق بعضه ببعض ومنه انهضم طعامي وقال أبو مسلم الظلم أن ينقص من الثواب والهضم أن لا يوفى حقه من الاعظام لان الثواب مع كونه من اللذات لا يكون ثوابا الا اذا قارنه التعظيم وقد يدخل النقص في بعض الثواب ويدخل فيما يقارنه من التعظيم فنفى الله تعالى عن المؤمنين كلا الامرين ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا﴾ قال تعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه وقل رب زدني علما ﴿اعلم ان قوله وكذلك عطف على قوله كذلك نقص أي ومثل ذلك الانزال وعلى نحوه أنزلنا القرآن كله ثم وصف القرآن بأمرين (أحدهما) كونه عربيا لتفهمه العرب فيقفوا على اعجازه ونظمه وخروجه عن جنس كلام البشر (والثاني) قوله وصرفنا فيه من الوعيد أي كررناه وفصلناه ويدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم لان الوعيد فعل يتعلق فتكريره يقتضي بيان الاحكام فلذلك قال لعلهم يتقون والمراد اتقاء المحرمات وترك الواجبات ولفظ لعل قد تقدم تفسيره في سورة البقرة في قوله والذين من قبلكم لعلكم تتقون أما قوله أو يحدث لهم ذكرا ففيه وجهان (الاول) أن يكون المعنى انا انما أنزلنا القرآن لاجل أن يصير وا متقين أي محترزين عما لا ينبغي أو يحدث القرآن لهم ذكرا يدعوهم الى الطاعات ويفعل ما ينبغي وعليه سؤالات (السؤال الاول) القرآن كيف يكون محدثا للذكر (الجواب) لما حصل الذكر عند قراءته أضيف الذكر اليه ﴿السؤال الثاني﴾ لم أضيف الذكر الى القرآن وما أضيفت التقوى اليه (الجواب) ان التقوى عبارة عن أن لا يفعل القبيح وذلك أمر عدمي العدم الاصلي فلم يجز اسناده الى القرآن أما حدوث الذكر فأمر حدث بعد أن لم يكن فجاز اضافته الى القرآن ﴿السؤال الثالث﴾ كلمة أو للمنافاة ولا منافاة بين التقوى وحدوث الذكر بل لا يصح الاتقاء الا مع الذكر فما معنى كلمة أو (الجواب) هذا كقولهم جالس الحسن أو ابن سيرين أي لا تكن خاليا منهما وهكذا

الكائنات الظاهرة على وفقها في العالم الآخر وأن هذا الشأن البديع لابد أن يكون انموذجا لظهور أمر من أتصف به ومدار الخبر بان أحكامه فان الكل نبي من الانبياء عليهم الصلاة والسلام معجزته اظهار آثاره وتجري أحكامه (ويتم نعمته عليك) بأن يضم الى النبوة المستفادة من الاجتباء الملك ويجعله تتمتها وتوسيط ذكر التعليم المذكور بينهما لكونه من لوازم النبوة والاجتباء ولرعاية ترتيب الوجود الخارجي ولما أشرنا اليه من كون اثر وسيلة الى تمام النعمة ويجوز أن يعد نفس الرؤيا من نعم الله تعالى عليه فيكون جميع النعم الواصلة اليه يحسبها مصدقا لها تماما لتلك النعمة (وعلى آل يعقوب) وهم أهله من بنيه وغيرهم فان رؤية يوسف عليه السلام اخوته كواكب يهتدي بانوارها من نعم الله تعالى عليهم لدلالتها على مصير أمرهم الى النبوة فيقع كل ما يخرج من القوة الى الفعل من كمالاتهم بحسب ذلك تماما لتلك النعمة لا محالة وأما اذا أريد بتمام تلك النعمة الملك فكونه كذلك بالنسبة اليهم باعتبار أنهم يتمتعون آثاره من العز والجاه والمال (كما أتمها على أبويك) نصب على المصدرية أي وتم نعمته عليك اتماما كائنا كاتمام نعمته على أبويك وهي نعمة الرسالة والنبوة واتمامها على ابراهيم عليه السلام باتخاذه خليلا وانجائه من النار ومن ذبح الولد وعلى اسحق بانجائه من الذبح وفدائه بذبح عظيم وباخراج يعقوب والاسباط من صلبه وكل ذلك نعم جليلة وقعت تتمة لنعمة النبوة ولا يجب في تحقيق التشبيه كون ذلك في جانب المشبه به مثل ما وقع في جانب المشبه من كل وجه (من قبل) أي من قبل هذا الوقت أو من قبلك (ابراهيم واسحق) عطف بيان لابويك والتعبير عنهما بالاب مع كونهما أباه وأبا أبيه للاشعار بكمال ارتباطه بالانبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام

ههنا (الوجه الثاني) أن يقال انا أنزلنا القرآن ليتقووا فان لم يحصل ذلك فلا أقل من أن يحدث القرآن لهم ذكرا وشرفا وصيتا حسنا فعلى هذين التقديرين يكون انزاله تقوى منه تعالى لما عظم أمر القرآن أردفه بان عظم نفسه فقال فتعالى الله الملك الحق تنبيها على ما يلزم خلقه من تعظيمه وانما وصفه بالحق لان ملكه لا يزول ولا يتغير وليس يستفاد من قبل الغير ولا غيره أولى به فلهذا وصف بذلك وتعالى تفاعل من العلو وقد ثبت ان علوه وعظمته ور بوبيته بهوني واجب وهو اتصافه بنعوت الجلال وانه لا تكيفه الاوهام ولا تقدره العقول وهو منزه عن المنافع والمضار فهو تعالى انما أنزل القرآن ليحترز واعما لا ينبغي ويقدموا على ما ينبغي وانه تعالى منزه عن التكاسل بطاعاتهم والتضرر بمعاصيهم فالطاعات انما تقع بتوفيقه وتيسيره والمعاصي انما تقع عند أمنه وكل ميسر لما خلق له أما قوله ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه ففيه مسائل (المسئلة الاولى) في تعلقه بما قبله وجهان (الوجه الاول) قال أبو مسلم ان من قوله ويسألونك عن الجبال الى هنا يتم الكلام ويقطع ثم قوله ولا تعجل بالقرآن خطاب مستأنف فكأنه قال ويسألونك ولا تعجل بالقرآن (الوجه الثاني) روى انه عليه السلام كان يخاف من أن يفوته منه شئ فيقرأ مع الملك فأمره بأن يسكت حال قراءة الملك ثم يأخذ بعد قراءته في القراءة فكأنه تعالى شرح كيفية نفع القرآن له كأنه قيل وبين انه سبحانه متعال عن كل ما لا ينبغي وانه موصوف بالاحسان والرحمة ومن كان كذلك وجب أن يدون رسوله عن السهو والنسيان في أمر الوحي واذا حصل الامان عن السهو والنسيان قال ولا تعجل بالقرآن (المسئلة الثانية) قوله ولا تعجل بالقرآن يحتمل أن يكون المراد لا تعجل بقراءته في نفسك ويحتمل أن لا تعجل في تأديته الى غيرك ويحتمل في اعتقاد ظاهره ويحتمل في تعريف التفسير ما يقتضيه ظاهره وأما قوله من قبل أن يقضى اليك وحيه فيحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى اليك تمامه ويحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى اليك بيانه لان هذين الامرين لا يمكن تحصيلهما الا بالوحي ومعلوم انه عليه السلام لا ينهى عن قراءته ليحفظه ويؤديه فالمراد اذن ان لا يبعث نفسه ولا يبعث غيره عليه حتى يتبين بالوحي تمامه أو بيانه أو هما جميعا لانه يجب التوقف في معنى الكلام ما لم يأت عليه الفراغ لما يجوز أن يحصل عقيبه من استثناء أو شرط أو غيرهما من المخصصات فهذا هو التحقيق في تفسير الآية ولنذكر أقوال المفسرين (أحدها) ان هذا كقوله تعالى لا تحرك به لسانك لتعجل به وكان عليه السلام يحرص على أخذ القرآن من جبريل عليه السلام فيعجل بقراءته قبل استتمام جبريل فخافة النسيان فقيل له لا تعجل به الى ان يستتم وحيه فيكون أحفظ لك أو عن تثبت وسكون والله تعالى يزيدك فهما وعلما وهذا قول مقاتل والسدي ورواه عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما (وثانيها) ولا تعجل بالقرآن فتقرأه على أصحابك قبل أن يوحى اليك بيان معانيه وهذا قول مجاهد وقتادة (وثالثها) قال الضحاك ان أهل مكة وأسقف نجران قالوا يا محمد أخبرنا عن كذا وكذا وقد مضى لنا الك أجلا ثلاثة أيام فأبطأ الوحي عليه وفشت المقالة أن اليم ود قد غلبوا محمدا فانزل الله تعالى هذه الآية ولا تعجل بالقرآن أي بتنزيله من قبل أن يقضى اليك وحيه من اللوح المحفوظ الى اسرافيل ومنه الى جبريل ومنه اليك وقل رب زدني علما (ورابعها) روى الحسن أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت زوجي اطم وجهي فقال بينكما القصاص فنزل قوله ولا تعجل بالقرآن فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القصاص حتى نزل قوله تعالى الرجال قوامون على النساء وهذا بعيد والاعتماد على التفسير الاول أما قوله تعالى وقل رب زدني علما فلمعنى انه سبحانه وتعالى أمره بالفزع الى الله سبحانه في زيادة العلم التي تظهر بتمام القرآن أو بيان ما نزل عليه

وتذكير معنى الولد سر أبيه ليطمئن قلبه بما أخبر به في ضمن التعبير الاجمالي لرؤياه والاقتصار في المنسبه به على ذكر اتمام النعمة من غير تعرض للاجتباء من باب الاكتفاء فان اتمام النعمة يقتضي سابقة النعمة المستدعية للاجتباء لاستحالة (ان ربك) استئناف لتحقيق مضمون الجمل المذكورة أي يفعل ٨٨ ماذكر لانه (عليم) بكل شئ فيعلم من يستحق الاجتباء وما يتفرع عليه من التعليم

(المسئلة الثالثة) الاستحمال الذي نهى عنه ان كان فعله بالوحي فكيف نهى عنه (الجواب) لعله فعله بالاجتهاد وكان الاولى تركه فلهذا نهى عنه ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ اعلم ان هذا هو المرة السادسة من قصة آدم عليه السلام في القرآن أولها في سورة البقرة ثم في الاعراف ثم في الحجر ثم في الاسراء ثم في الكهف ثم ههنا واعلم ان في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوها (أحدها) انه تعالى لما قال كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ثم انه عظم أمر القرآن وبالغ فيه ذكر هذه القصة اعجازا للموعد في قوله كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق (وثانيها) انه لما قال وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا اردفه بقصة آدم عليه السلام كانه قال ان طاعة بني آدم للشيطان وتركهم التحفظ من وساوسه أمر قديم فانا عهدنا الى آدم من قبل أي من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد وبالغنا في تنبيههم حيث قلنا له ان هذا عدو لك ولزوجك ثم انه مع ذلك نسي وترك ذلك العهد فأمر البشر في ترك التحفظ من الشيطان أمر قديم (وثالثها) انه لما قال لمحمد صلى الله عليه وسلم وقل رب زدني علما ذكر بعده قصة آدم عليه السلام فانه بعد ما عهد الله اليه وبالغ في تجديد العهد وتحذيره من المدنوسي فقد دل ذلك على ضعف القوة البشرية عن التحفظ فيحتاج حينئذ الى الاستعانة بربه في ان يوفقه لتحصيل العلم ويجنبه عن السهو والنسيان (ورابعها) ان محمدا صلى الله عليه وسلم لما قيل له ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه دل على انه كان في الجد في أمر الدين بحيث زاد على قدر الواجب فلما وصفه بالافراط وصف آدم بالتفريط في ذلك فانه تساهل في ذلك ولم يتحفظ حتى نسي فوصف الاول بالتفريط والآخر بالافراط ليعلم ان البشر لا ينفك عن نوع زلة (وخامسها) ان محمدا صلى الله عليه وسلم لما قيل له ولا تعجل ضاق قلبه وقال في نفسه لولا اني أقدمت على ما لا ينبغي والا لما نهيت عنه فقيل له ان كنت قبلت ما نهيت عنه فانما قبلته حرصا منك على العبادة وحفظا للاداء الوحي ولان أباك أقدم على ما لا ينبغي للتساهل وترك التحفظ فكان أمرك أحسن من أمره أما قوله تعالى ولقد عهدنا الى آدم من قبل فلا شك ان المراد بالعهد أمر من الله تعالى أو نهي منه كما يقال في أوامر الملوك ووصاياهم كما أشار الملك اليه وعهد اليه قال المفسرون عهدنا اليه أن لا يأكل من الشجرة ولا يقربها وفي قوله تعالى من قبل وجوه (أحدها) من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد في القرآن (وثانيها) قال ابن عباس من قبل أن يأكل من كل الشجرة عهدنا اليه أن لا يأكل منها (وثالثها) أي من قبل محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وهو قول الحسن أما قوله فنسي فقد تكلمنا فيه على سبيل الاستقصاء في سورة البقرة ونعيد ههنا منه شيأ قليلا وفي النسيان قولان (أحدهما) المراد ما هو نقيض الذكر وانما عوتب على ترك التحفظ والمبالغة في الضبط حتى تولد منه النسيان وكان المحسن وحمه الله يقول والله ما عصى قط الا بالنسيان (والثاني) أن المراد بالنسيان الترك وانه ترك ما عهد اليه من الاحتراز عن الشجرة وأكل ثمرتها وقرئ فنسي أي فنساه الشيطان وعلى هذا التقدير يحتمل أن يقال أقدم على المعصية من غير تأويل وان يقال قد تقدم عليها مع التأويل والكلام فيه قد تقدم في سورة البقرة وأما قوله ولم نجد له عزما ففيه بحثان ﴿البحث الاول﴾ الوجود يجوز أن يكون بمعنى العلم ومنه ولم نجد له عزما وأن يكون بمعنى العدم كانه قال وعدمنا له عزما ﴿البحث الثاني﴾ العزم هو التصميم والتصلب ثم قوله ولم نجد له عزما يحتمل ولم نجد له عزما على المقام على المعصية فيكون الى المدح أقرب ويحتمل أن يكون المراد ولم نجد له عزما على ترك

الذكور واتمام النعمة العامة على الوجه المذكور (حكيم) فاعل لكل شئ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فيفعل ما يفعل كما يفعل جزيا على سنن علمه وحكمته والتعرض لعنوان الربوبية في الموضعين لتربيته تحقق وقوع ما ذكر من الافاعيل هذا وقد قيل في تفسير الآية الكريمة أي وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس يجتبيك ربك للنبوة والملك أو لامور عظام ويتم نعمته عليك بالنبوة أو بان يوصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة حيث جعلهم في الدنيا أنبياء وملوكا وتقلهم عنها الى الدرجات العلا في الجنة كما أتمها على أبويك بالرسالة فتأمل والله الهادي (لقد كان في يوسف واخوته) أي في قصتهم والمراد بهم ههنا أما جميعهم فان المنامين أيضا حضروا القصة أو بنو علات المعدودون فيما سلف اذ عليهم يدور رحاها (آيات) علامات عظيمة الشأن دالة على قدرة الله تعالى القاهرة وحكمته الباهرة (للسائلين) لكل من سال عن قصتهم وعرفها أو الطالبين للآيات المعتبرين بها فافهم الواقفون عليها المعصية

والمتفوهون بها دون من عداهم ممن اندرج تحت قوله تعالى وكاين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون فالمراد بالقصة نفس المقصوص أو على نبوته عليه السلام لمن سأله من المشركين أو اليهود عن قصتهم فاخبرهم بذلك على ما هي عليه من غير

سماع من أحد ولا ممارسة شئ من الكتب فالمراد بها اقتصاصها وجمع الآيات حينئذ للاشعار بأن اقتصاص كل طائفة من القصة آية بينة كافية فى الدلالة على نبوته عليه السلام على نحو ما ذكر فى قوله تعالى مقام ابراهيم على تقدير كونه عطف بيان لقوله تعالى آيات بينات لا ما قيل من انه لتعدد وجهة الاعجاز لفظا ومعنى وقرأ ابن كثير آية ٨٩ وفى بعض المصاحف عبرة وقيل اغاقاص الله تعالى على النبى صلى الله عليه وسلم خبر يوسف وبنى اخوته عليه لما رأى من بنى قومه عليه ما تأسى به (اذ قالوا ليوسف وأخوه) أى شقيقه بنيامين وانما لم يذكر باسمه تلويحا بأن مدار المحبة اخوته ليوسف من الطرفين لا بريا الى أنهم كيف اكتفوا باخراج يوسف من البين من غير تعرض له حيث قالوا اقتلوا يوسف (أحب الى أبينا منا) وحد الخبر مع تعدد المبتدا لان أفعل من كذا لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه ولا بين المذكر والمؤنث نعم اذا عرف وجب المرق واذا أضيف جاز الامران وفائدة لام الابتداء فى يوسف تحقيق مضمون الجملة وتأكيده (ونحن عصبة) أى والحال أنا جماعة قادرون على الحل والعقد احقاء بالمحبة والعصبة والعصابة العشرة من الرجال فصاعدا سموا بذلك لان الامور تعصب بهم (ان أبانا) فى ترجيحهما علينا فى المحبة مع فضلنا عليهما وكوننا معه مزيل من كفاية الامور بالصغر والقلة المعصية أولم تجد له عزما على التحفظ والاحتراز عن الغفلة أولم تجد له عزما على الاحتياط فى كيفية الاجتهاد اذا قلنا انه عليه السلام اغا أخطأ بالاجتهاد * وأما قوله واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى فهذا يشتمل على مسائل (احداها) ان المأمورين كل الملائكة أو بعضهم (وثانيتها) انه ما معنى السجود (وثالثتها) أن ابليس هل كان من الملائكة أم لا وان لم يكن فكيف صح الاستثناء وبأى شئ صار مأمورا بالسجود (ورابعتها) ان هذا هل يدل على ان آدم أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم أم لا (وخامستها) ان قوله فى صفة ابليس انه أبى كيف يلزم الكفر من ذلك الاباء وانه هل كان كافرا بذلك الاباء أو كفر بسبب ذلك واعلم ان هذه المسائل مرت على سبيل الاستقصاء فى سورة البقرة * أما قوله فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ففيه مسؤلات (الاول) ما سبب تلك العداوة (الجواب) من وجوه (أحدها) ان ابليس كان حسودا فلما رأى آثار نعم الله تعالى فى حق آدم عليه السلام حسده فصار عدوا له (وثانيها) ان آدم كان شابا عالما لقوله وعلم آدم الاسماء كلها وابليس كان شيخا جاهلا لانه ثبت فضله بفضيلة أصله وذلك جهل وملا شيخ الجاهل أبدا يكون عدوا للشاب العالم (وثالثها) ان ابليس مخلوق من النار وآدم مخلوق من الماء والتراب فبين أصليهما عداوة فبقيت تلك العداوة (السؤال الثانى) لم قال فلا يخرجنكما من الجنة مع أن المخرج له ما من الجنة هو الله تعالى (الجواب) لما كان بوسوسته هو الذى فعل ما ترتب عليه من الخروج صح ذلك (السؤال الثالث) لم أسند الى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء مع اشتراكهما فى الفعل * الجواب من وجهين (أحدهما) ان فى ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم كما ان فى ضمن سعادته سعادتهن فاختص الكلام باسناده اليه دونها مع المحافظة على رعاية الفاصلة (الثانى) أريد بالشقاء التعب فى طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة وروى انه أهبط الى آدم ثور أحمر وكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه * أما قوله ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرئ وانك بالفتح والكسر ووجه الفتح العطف على ان لا تجوع فيها فان قيل ان لا تدخل على أن فلا يقال ان أن زيدا منطلق والواو نائبة عن ان وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها قلنا الواو لو وضع لتكون أبدا نائبة عن ان اما هى نائبة عن كل عامل فلما لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق خاصة كان لها منع اجتماعهما كما امتنع اجتماع ان وان (المسئلة الثانية) الشبع والرى والكسوة والاكتنان فى الظل هى الاقطاب التى يدور عليها أمر الانسان فذكر الله تعالى حصول هذه الاشياء له فى الجنة من غير حاجة الى التكسب والطلب وذكرها بلفظ النفى لاضدادها التى هى الجوع والعرى والظمأ والضحى ليطرق سمعه شئ من أصناف الشقوة التى حذره منها حتى يبالغ فى الاحتراز عن السبب الذى يوقعه فيها وهذه الاشياء كلها كأنها تفسير الشقاء المذكور فى قوله فتشقى * قوله تعالى * (فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) ذكرا فى سورة طه فى قصة آدم ما يتعلق بهذه الآية فلا نعيدها هاهنا * قوله تعالى * (فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) واعلم انه سبحانه بين انه عظم آدم عليه السلام بأن حمله مسجود الملائكة وبين انه عرفه شدة عداوة ابليس له وأزوجه وانه لعداوته يدعوهم الى المعصية التى اذا وقعت زالت تلك النعم بأسرها ثم انه مع ذلك اتفق منه ومن حواء من الاقدام على الزلة ما اتفق والعجب ما روى عن أبى امامة الباهلى قال لو ان أحلام بنى آدم الى قيام الساعة وضعت فى كفة ميزان ووضع حلم آدم فى الاخرى لرجح حلمه بأحلامهم ولكن الملك اكتفاه مع قضاء الله تعالى ممتنعة واعلم ان واقعة آدم عجيبة وذلك لان الله تعالى رغبه فى دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله فلا

(فى ضلال) أى ذهاب عن طريق التعديل اللائق وتنزيل كل صنف منزلته (مبين) ظاهر المال روى أنه كان أحب اليه ما يرى فيه من مخايل الخير وكانت اخوته يحسدونه فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه فتضاعف حسدهم حتى حملهم على مباشرة ما قص عنهم (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا) من جملة ما حكى بعد قوله اذ قالوا وقد قال بعض

منهم محاط بالباقين بقضية الصيغة فكأنهم رضوا بذلك كما يروى أن القائل شمعون أو دان والباقون كانوا راضين الا من قال لا تقتلوا الخ فجعلوا كأنهم القائلون وادرجوا تحت القول المسند الى الجميع أو قاله كل واحد منهم محاطا بالبقية وهو أدل على مسارعتهم الى ذلك القول وتتكير أرضا واخلأوها ٩٠ من الوصف للايهام أى أرضا منكورة مجهولة بعيدة من العمران ولذلك نصبت نصب الظروف المبهمة (يخل) بالجزم جواب للامر أى يخلص (لكم وجه أبيكم) فيقبل عليكم بكليته ولا يلتفت عنكم الى غيركم ولا يساهمكم فى محبته أحد فذكر الوجه لتصوير معنى اقباله عليهم (وتكونوا) بالجزم عطفا على يخل أو بالنصب على اضمار أن أو الواو بمعنى مع مثل قوله وتكتموا الحق وايثار الخطاب فى لكم وما بعده للمبالغة فى حملهم على القبول فان اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل (من بعده) من بعد يوسف أى من بعد الفراغ من أمره أو قتله أو طرحه (قوما صالحين) تائبين الى الله تعالى عما جنيتم أو صالحين مع أبيكم باصلاح ما بينكم وبينه بعذر تعتذرونه أو صالحين فى أمور دنياكم بانتظامها بعد مخلوجه أبيكم (قال قائل منهم) هو يهودا وكان أحسنهم فيه رأيا وهو الذى قال فلن أبرح الارض الخ وقيل روبيل وهو اسم مشتق مبنى على سؤال من سأل وقال أفتقتلون (على ما عرض عليهم من خصلتى الصيغ أم خالفهم فى ذلك أحد فقيل قال قائل منهم (لا تقتلوا يوسف) أظهره فى مقام الاضمار استجلابا لاستغراق جميع ما عرض عليهم (واستغفارا لقتله وهو فاسد يروى أنه قال لهم القتل عظيم ولم يصرح بنهيهم عن الخصلة الاخرى وأحاله على أولويته مما عرضه عليهم بقوله (وألقوه فى غيابت الجب) أى فى قعره وغوره سمى بها لغيبته عن عين الناظر والجب البئر التى لم تطو بعد

يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ورغبه ابليس أيضا فى دوام الراحة بقوله هل أدلك على شجرة الخلد وفى انتظام المعيشة بقوله وملك لا يبلى فكان الشئ الذى رغب الله آدم فيه هو الذى رغبه ابليس فيه الا أن الله تعالى وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة وابليس وقفه على الاقدام عليها ثم ان آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن الله تعالى مولاه وناصره ومربيه وأعلم بان ابليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته كيف قبل فى الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول ابليس مع علمه بكمال عداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بانه هو الناصر والمربى ومن تأمل فى هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الامر ان هذه القصة كالتنبيه على انه لا دافع لقضاء الله ولا مانع لقضه وان الدليل وان كان فى غاية الظهور وغاية القوة فانه لا يحصل النفع به الا اذا اقتضى الله تعالى ذلك وقدره وأما قوله فوسوس اليه الشيطان فقد تقدم فى سورة البقرة انه كيف وسوس وبماذا وسوس فان قيل كيف عدى وسوس تارة باللام فى قوله فوسوس لهما الشيطان وأخرى بالى قلنا قوله فوسوس له معناه لاجله وقوله وسوس اليه معناه أنهى اليه الوسوسة كقوله حدثت له وأسر اليه ثم بين ان تلك الوسوسة كانت بتطويعه فى أمرين (أحدهما) قوله هل أدلك على شجرة الخلد أضاف الشجرة الى الخلد وهو الخلود لان من أكل منها صار مخلد ابزعمه (الثانى) قوله وملك لا يبلى أى من أكل من هذه الشجرة دام ملكه قال القاضى ابيس فى الظاهر ان آدم قبل ذلك منه بل لو وجدت هذه الوسوسة حال كون آدم عليه السلام نبيا لاستحال أن يكون آدم عليه السلام قبل ذلك منه لانه لا بد وأن تحصل بين حال التكليف وحال المجازاة فترة بالموت وبالمعنى قادما كان نبيا امتنع أن لا يعلم ذلك فلما لم يعلم بانه لا بد من حصول هذه الفترة بين حال التكليف وحال المجازاة ولم لا يجوز أن يقال لا حاجة الى الفترة أصلا وان كان ولا بد فيكفى حصول الفترة بغشى أو نوم خفيف ثم ان كان ولا بد من حصول الفترة بالموت فلم قلت انى لا بد وأن يعلم ذلك أليس قوم منكم يقولون ان موسى عليه السلام انما سأل الرؤية لانه ما كان يعرف امتناعها على الله تعالى فاذا جاز ذلك الجهل فلم لا يجوز هذا الجهل ثم ما الدليل على ان آدم كان نبيا فى ذلك الوقت فان مذهبنا ان واقعة الزلة انما حصلت قبل رسالته لا بعدها ثم ان الذى يدل على ان آدم عليه السلام قبل ذلك قوله تعالى عقيب ذكر الوسوسة فأكلا منها وهذا الترتيب منبئ عن العلية كقولهم زنى فرجم وسها رسول الله فسجد فان هذه الاماءة تدل على ان الرجم كالمسبب للزنا والسجود كالمسبب للسهو فكذلك ههنا يجب أن يكون الاكل كالمعلل باستماع قوله هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى وانما يحصل هذا التعليل لو قبل آدم ذلك منه فانه لو رد قوله لما أقدم على الاكل بناء على قوله فثبت ان آدم عليه السلام قبل ذلك من ابليس ثم انه سبحانه بين انهما لما أكلا بدت لهما سوآتهما قال ابن عباس عريا من النور الذى كان الله ألبسهما حتى بدت فروجهما وانما جمع وقيل سوآتهما كما قال صغت قلوبكما فان قيل هل كان ظهور سوآتهما كالجزاء على معصيتهما قلنا لا شك ان ذلك كالمعلل على ذلك الاكل لكن يحتمل أن لا يكون عقابا عليه بل انما ترتب عليه لمصلحة أخرى أما قوله وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ففيه ابحاث (الاول) قال صاحب الكشاف طفق يفعل كذا مثل جعل يفعل وأخذ وأنشأ وعكدها حكم كاد فى وقوع الخبر فعلا مضارعا وبينها وبينه مسافة قصيرة وهى للشروع فى أول الامر وكاد لمقاربته ولذلك نفوه بلن (البحث الثانى) قرئ يخصفان للتكثير والتكرير من خصف النعل وهو أن يخرز عليها الخصاف أى المزقان الورقة على سوآتهما للستر وورق التين أما قوله

لانها أرض جبت جبا من غير أن يزاد على ذلك شئ وقرأ نافع في غيابات الجب في الموضعين كأن لتلك الجب غيابات أو أراد بالجب الجنس
أي في بعض غيابات الجب وقرئ غيابات وغيبة (يلتقطه) يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف فان الالتقاط أخذ شئ
مشرف على الضياع (بعض السيارة) أي بعض طائفة تسير في الارض واللام في السيارة ٩١ كما في الجب وما فيهما وفي البعض

وعصى آدم ربه فغوى فمن الناس من تمسك بهذا في صدور الكبيرة عنه من وجهين (الاول) ان العصيان
اسم للذم فلا يطلق الا على صاحب الكبيرة لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا
خالدا فيها ولا معنى لصاحب الكبيرة الا من فعل فعلا يعاقب عليه (والوجه الثاني) ان الغواية والضلالة
اسمان مترادفان والنبي ضد الرشد ومثل هذا الاسم لا يتناول الا الفاسق المتهمك في فسقه أجاب قوم على
الكلام الاول فقالوا المعصية مخالفة الامر والامر قد يكون بالواجب والندب فانهم يقولون أشرت عليه
في أمر ولده في كذا فعصاني وأمرته بشرب الدواء فعصاني واذا كان الامر كذلك لم يمتنع اطلاق اسم
العصيان على آدم لا لكونه تاركا للواجب بل لكونه تاركا للمندوب فأجاب المستدل عن هذا الاعتراض
بأنا بينا ان ظاهر القرآن يدل على أن العاصي مستحق للعقاب والعرف يدل على انه اسم ذم فوجب
تخصيص اسم العاصي بتارك الواجب ولانه لو كان تارك المندوب عاصيا لوجب وصف الانبياء بأسرهم
بأنهم عصاة في كل حال لانهم لا ينفكون من ترك المندوب فان قيل وصف تارك المندوب بأنه عاص مجاز
والمجاز لا يطرد قلنا لما سلمت كونه مجازا لا نسلم عدمه أما قوله أشرت عليه في أمر ولده في كذا فعصاني
وأمرته بشرب الدواء فعصاني قلنا لم نسلم ان هذا الاستعمال مروي عن العرب ولئن سلمنا ذلك ولكنهم
انما يطلقون ذلك اذا جزموا على المستشير بأنه لابد وأن يفعل ذلك الفعل وأنه لا يجوز الاخلال بذلك الفعل
وحينئذ يكون معنى الايجاب حاصلا وان لم يكن الوجوب حاصلا وذلك يدل على ان لفظ العصيان لا يجوز
اطلاقه الا عند تحقق الايجاب لكنا أجمعنا على أن الايجاب من الله تعالى يقتضي الوجوب فيلزم أن يكون
اطلاق لفظ العصيان على آدم عليه السلام انما كان لكونه تاركا للواجب ومن الناس من سلم ان الآية
تدل على صدور المعصية منه لكنه زعم أن المعصية كانت من الصغائر لا من الكبائر وهذا قول عامة
المعتزلة وهو أيضا ضعيف لانا بينا ان اسم العاصي اسم للذم ولان ظاهر القرآن يدل على انه يستحق العقاب
وذلك لا يليق بالصغيرة وأجاب أبو مسلم الاصفهاني بأنه عصى في مصالح الدنيا لا في ما يتصل بالتكاليف
وكذلك القول في غوى وهذا أيضا ضعيف لان مصالح الدنيا تكون مباحة فمن يفعلها لا يوصف بالعصيان
الذي هو اسم للذم ولا يقال قد لا يعاقب المرء وأما التمسك بقوله تعالى فغوى فأجابوا عنه من وجوه (أحدها)
انه خاب من نعيم الجنة وذلك لانه لما أكل من تلك الشجرة لم صير ملكه دائما مما أكل نزل فلما خاب
سعيه وما نجح قيل انه غوى وتحقيقه ان الغي ضد الرشد والرشد هو أن يتوصل بشئ الى شئ يوصل الى
المقصود فمن توصل بشئ الى شئ يحصل له ضد مقصوده كان ذلك غيا (وثانيها) قال بعضهم غوى أي
بشم من كثرة ما أكل قال صاحب الكشاف هذا وان صح على اللغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفا
فيقول في فني وبقي فنا وبقاوهم بنو طيئ فهو تفسير بعيد وأعلم أن الاولى عندي في هذا الباب
والله أعلم للمنصف أن يقال هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد شرحنا ذلك في سورة البقرة وهو هنا بحيث
لا بد منه وهو ان ظاهر القرآن وان دل على ان آدم عصى وغوى ولكن ليس لاحد أن يقول ان آدم
كان عاصيا غاويا بل يدل على صحة قولنا أمور (أحدها) قال العتبي يقال لرجل قطع ثوبا وخاطه
قد قطعه وخاطه ولا يقال خائط ولا خياط حتى يكون معاودا لذلك العمل معروفا به وهو لوم ان هذه الزلة
لم تصدر عن آدم عليه السلام الا مرة واحدة فوجب أن لا يجوز اطلاق هذا الاسم عليه (وثانيها) ان على
تقدير أن تكون هذه الواقعة انما وقعت قبل النبوة لم يجز بعد أن قبل الله توبته وشرفه بالرسالة والنبوة
اطلاق هذا الاسم عليه كما لا يقال لمن أسلم بعد الكفر انه كافر بمعنى انه كان كافرا بل ويتقدير أن يقال هذه

بينهم وبين ربهم وتذكير الزلة الاثرة بينهم وبين يوسف عليه الصلاة والسلام لتعديها بذلك الى استغزاله عليه السلام عن رأيه في حفظه
منهم لما أحس منهم بأمارات الحسد والبغي فكأنهم قالوا (مالك) أي أي شئ لك (لا تأمنا) أي لا تجعلنا أمناء (على يوسف) مع أنك أبونا
ونحن بنوك وهو أخونا (وانا له لناصحون) مريدون له الخير وشدة نون عليه ليس فيها ما يخل بالفصيحة والقراءة المشهورة

من الايهام لتحقيق
ما يتوخاه من ترويج
كلامه عوا فقته لغرضهم
الذي هو تنائي يوسف
عنهم بحيث لا يدري
أثره ولا يروى خبره
وقرئ يلتقطه على
التأنيث لان بعض
السيارة سيارة كقوله
كاشرقت صدر القناة
من الدم
وهذه قطعت بعض
أصابعه (ان كنتم
فاعلين) عشورني لم يبت
القول عليهم بل انما
عرض عليهم ذلك تألفا
لقلوبهم وتوجيها لهم الى
رأيه وحذرا من تسببهم
له الى الفكر والاقتناص
أو ان كنتم فاعلين
ما ألزمتم عليه من ازالته
من عند أبيه لاحالة
ولما كان هذا مظنة
لسؤال سائل يقول فما
فعلوا بعد ذلك هل قبلوا
ذلك منه أولا أجيب
بطريق الاستئناف
على وجه أدرج في
تضاعيفه قيلهم لما
سيجيء من قوله
وأجمعوا أن يجعلوه في
غيابات الجب فقيل (قالوا
يا أبانا) خاطبوه بذلك
تحريكا لسلسلة النسب

بالادغام والاشمام وعن نافع رضي الله عنه ترك الاشمام ومن الشواذ ترك الادغام (ارسله معنا غدا) الى الصحراء (يرتع) أي يتسع في أكل الفواكه ونحوها فان الرتع هو الاتساع في الملاذ (ويلعب) بالاستباق والتناضل ونظائرهما مما بعد من باب التأهب للغزو وانما عبروا عن ذلك باللعب لكونه على هيئته تحقيقا ٩٢ لما رأوه من استحواذ يوسف عليه السلام بتصويرهم له بصورة ما يلائم حاله

الواقعة وقعت بعد النبوة لم يجز أيضا أن يقال ذلك لانه عليه السلام تاب عنها وكما ان الرجل المسلم اذا شرب الخمر أو زنى ثم تاب وحسنت توبته لا يقال له بعد ذلك انه شارب خمر أو زان فكذا ههنا (وثالثها) ان قولنا عاص وغاو يوهم كونه عاصيا في أكثر الاشياء وغاويا عز ومعرفة الله تعالى ولم ترد هاتان اللفظتان في القرآن مطلقتين بل مقرونتين بالقصة التي عصى فيها فكأنه قال عصى في كيت وكيت وذلك لا يوهم التوهم الباطل الذي ذكرناه (ورابعها) أنه يجوز من الله تعالى ما لا يجوز من غيره كما يجوز للسيد في عبده وولده عند معصيته من اطلاق القول ما لا يجوز لغير السيد في عبده وولده أما قوله ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى فالمعنى ثم اصطفاه فتاب عليه أي عاد عليه بالعفو والمغفرة وهداه رشده حتى رجع الى الندم والاستغفار وقد سئل الله منه ذلك روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لو جمع بكاء أهل الدنيا الى بكاء داود كان بكاؤه أكثر ولو جمع كل ذلك الى بكاء نوح لكان بكاء نوح أكثر وانما سمي نوحا لنوحه على نفسه ولو جمع كل ذلك الى بكاء آدم لكان بكاء آدم على خطيئته أكثر وقال وهب انه لما كثر بكاؤه أوحى الله تعالى اليه وأمره أن يقول لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسي فاغفر لي انك أنت خير الغافرين فقالها آدم عليه السلام ثم قال قل لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسي فارحمني انك أنت أرحم الراحمين ثم قال قل لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسي فتب علي انك أنت التواب الرحيم قال ابن عباس رضي الله عنهما هذه الكلمات هي التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه ﴿ قوله تعالى ﴾ ﴿قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ اعلم أن على أول هذه الآية سؤالا وهو ان قوله اهبطا اما أن يكون خطابا مع شخصين أو أكثر فان كان خطابا مع الشخصين فكيف قال بعده فاما يأتينكم مني هدى وهو خطاب الجمع وان كان خطابا لاكثر من شخصين فكيف قال اهبطا وذكروا في جوابه وجوها (أحدها) قال أبو مسلم الخطاب لآدم وحده وذريته ولابليس ومعه ذريته فلكونهما جنسين صح قوله اهبطا ولاجل اشتمال كل واحد من الجنسين على الكثرة صح قوله فاما يأتينكم (وثانيها) قال صاحب الكشاف لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلا للبشر والسبب الذين منهما تفرعوا جعلا كأنهما البشر أنفسهم فخوطبا خطابهم فقال فاما يأتينكم على لفظ الجماعة أما قوله بعضكم لبعض عدو فقال القاضي يكفي في توفية هذا الظاهر حقه أن يكون ابليس وانشياطين أعداء للناس والناس أعداء لهم فاذا انضاف الى ذلك عداوة بعض الفريقين لبعض لم يمتنع دخوله في الكلام وقوله فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فيه دلالة على أن المراد الذرية وقد اختلفوا في المراد بالهدى فقال بعضهم الرسل وبعضهم قال الآيات والادلة وبعضهم قال القرآن والتحقيق ان الهدى عبارة عن الدلالة فيدخل فيه كل ذلك وفي قوله فلا يضل ولا يشقى دلالة على أن المراد بالهدى الذي ضمن الله على اتباعه ذلك اتباع الادلة واتباعها لا يتكامل الا بأن يستدل بها وبأن يعمل بها ومن هذا حاله فقد ضمن الله تعالى له أن لا يضل ولا يشقى وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة (وثانيها) لا يضل ولا يشقى في الآخرة لانه تعالى يهديه الى الجنة ويمكنه فيها (وثالثها) لا يضل ولا يشقى في الدنيا فان قيل المتبع لهدى الله قد يلحقه الشقاء في الدنيا قلنا المراد لا يضل في الدين ولا يشقى بسبب الدين فان حصل الشقاء بسبب آخر فلا بأس

عصا حيته وهراصلته ليوسف والثاني الى ما يتوقع نزوله من أكل الذئب وقيل رأى في المنام أنه قد شد عليه ولما عليه السلام ذئب وكان يحذره فقال ذلك وقد لقنهم الملك ان البلاء موكل بالمنطق وقرأ ابن كثير ونافع في رواية البزي بالهمز على الاصل وأبو عمرو بوقفا وعاصم وابن عامر وحمزة در جا وقيل اشتقاقه من تذاءبت الريح اذا هاجت من كل جانب وقال الاصمعي الامر بالعكس

الواقعة وقعت بعد النبوة لم يجز أيضا أن يقال ذلك لانه عليه السلام تاب عنها وكما ان الرجل المسلم اذا شرب الخمر أو زنى ثم تاب وحسنت توبته لا يقال له بعد ذلك انه شارب خمر أو زان فكذا ههنا (وثالثها) ان قولنا عاص وغاو يوهم كونه عاصيا في أكثر الاشياء وغاويا عز ومعرفة الله تعالى ولم ترد هاتان اللفظتان في القرآن مطلقتين بل مقرونتين بالقصة التي عصى فيها فكأنه قال عصى في كيت وكيت وذلك لا يوهم التوهم الباطل الذي ذكرناه (ورابعها) أنه يجوز من الله تعالى ما لا يجوز من غيره كما يجوز للسيد في عبده وولده عند معصيته من اطلاق القول ما لا يجوز لغير السيد في عبده وولده أما قوله ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى فالمعنى ثم اصطفاه فتاب عليه أي عاد عليه بالعفو والمغفرة وهداه رشده حتى رجع الى الندم والاستغفار وقد سئل الله منه ذلك روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لو جمع بكاء أهل الدنيا الى بكاء داود كان بكاؤه أكثر ولو جمع كل ذلك الى بكاء نوح لكان بكاء نوح أكثر وانما سمي نوحا لنوحه على نفسه ولو جمع كل ذلك الى بكاء آدم لكان بكاء آدم على خطيئته أكثر وقال وهب انه لما كثر بكاؤه أوحى الله تعالى اليه وأمره أن يقول لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسي فاغفر لي انك أنت خير الغافرين فقالها آدم عليه السلام ثم قال قل لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسي فارحمني انك أنت أرحم الراحمين ثم قال قل لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسي فتب علي انك أنت التواب الرحيم قال ابن عباس رضي الله عنهما هذه الكلمات هي التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه ﴿ قوله تعالى ﴾ ﴿قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ اعلم أن على أول هذه الآية سؤالا وهو ان قوله اهبطا اما أن يكون خطابا مع شخصين أو أكثر فان كان خطابا مع الشخصين فكيف قال بعده فاما يأتينكم مني هدى وهو خطاب الجمع وان كان خطابا لاكثر من شخصين فكيف قال اهبطا وذكروا في جوابه وجوها (أحدها) قال أبو مسلم الخطاب لآدم وحده وذريته ولابليس ومعه ذريته فلكونهما جنسين صح قوله اهبطا ولاجل اشتمال كل واحد من الجنسين على الكثرة صح قوله فاما يأتينكم (وثانيها) قال صاحب الكشاف لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلا للبشر والسبب الذين منهما تفرعوا جعلا كأنهما البشر أنفسهم فخوطبا خطابهم فقال فاما يأتينكم على لفظ الجماعة أما قوله بعضكم لبعض عدو فقال القاضي يكفي في توفية هذا الظاهر حقه أن يكون ابليس وانشياطين أعداء للناس والناس أعداء لهم فاذا انضاف الى ذلك عداوة بعض الفريقين لبعض لم يمتنع دخوله في الكلام وقوله فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فيه دلالة على أن المراد الذرية وقد اختلفوا في المراد بالهدى فقال بعضهم الرسل وبعضهم قال الآيات والادلة وبعضهم قال القرآن والتحقيق ان الهدى عبارة عن الدلالة فيدخل فيه كل ذلك وفي قوله فلا يضل ولا يشقى دلالة على أن المراد بالهدى الذي ضمن الله على اتباعه ذلك اتباع الادلة واتباعها لا يتكامل الا بأن يستدل بها وبأن يعمل بها ومن هذا حاله فقد ضمن الله تعالى له أن لا يضل ولا يشقى وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة (وثانيها) لا يضل ولا يشقى في الآخرة لانه تعالى يهديه الى الجنة ويمكنه فيها (وثالثها) لا يضل ولا يشقى في الدنيا فان قيل المتبع لهدى الله قد يلحقه الشقاء في الدنيا قلنا المراد لا يضل في الدين ولا يشقى بسبب الدين فان حصل الشقاء بسبب آخر فلا بأس

شيرترتع من ارتعى ونافع بالكسر والياء فيه وفي يلعب وقرئ يترتع من أرتع ماشيته ويرتع بكسر العين ويلعب بالرفع على الابتداء (وانا له لحافظون) من أن يناله مكروه أكدوا مقالتهم بأصناف التأكيد من ايراد الجملة اسمية وتحليتها بان واللام واسناد الحفظ الى كلهم وتقديمه له على الخبر احتيالا في تحصيل مقصدهم (قال) استئناف مبني على سؤال من يقول فاذا قال يعقوب عليه السلام فقيل قال (اني ليحزنني) اللام للابتداء كما في قوله عز وجل ان ربك ليحكم بينهم (أن تذهبوا به) لشدة مفارقته على وقلة صبري عنه (و) مع ذلك (أخاف أن يأكله الذئب) لان الارض كانت مذأبة والحزن ألم القلب بفوت المحبوب والخوف انزعاج النفس لنزول المكروه ولذلك أسند الاول الى الذهاب به الفوت لا ـــــ مرار

وهو أظهر لفظا ومعنى (وأنتم عنه غافلون) لاشتغالكم بالرتع واللعب أولذلك اهتمامكم بحفظه (فأكله الذئب ونحن عصبة) أى والحال أنا جماعة كثيرة جديرة بأن نعصب بنا الامور العظام وتتكفى الخطوب بآرائنا وتدبيرنا واللام الداخلة على الشرط موطئة للقسم وقوله (انا اذا لخاسرون) جواب مجرئ عن الجزاء أى لما لكون ضعفا ٩٣ وخورا وعجزا أو مستحقون للهلاك اذا غلبناه عندنا ولا جدوى فى حياتنا أو مستحقون لان يدعى علينا بالخسار والدمار ويقال خسرهم الله تعالى ودمرهم حيث أكل الذئب بعضهم وهم حضور وقيل ان لم نقدر على حفظه وهو أعز شئ عندنا فقد هلكت مواشينا اذن وخسرناها وانما اعتصروا على جواب خوف يعقوب عليه السلام من أكل الذئب لانه السبب القوى فى المنع دون الحزن لقصر مدته بناء على أنهم يأتون به عن قريب (فلما ذهبوا به وأجمعوا) أى أزمعوا (أن يجعلوه) مفعول لاجمعوا يقال أجمع الامر ومنه فأجمعوا أمركم ولا يستعمل ذلك الا فى الافعال التى قويت الدواعى الى فعلها (فى غيابة الجب) قيل هى بئر بأرض الاردن وقيل بين مصر ومدين وقيل على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام بكنعان التى هى من نواحى الاردن كما أن مدين كذلك وأما ما يقال من أنها بئر بيت المقدس فبرده التعليل بالتقاط السيارة ومجيئهم أباهم عشاء ذلك اليوم فان بين منزل يعقوب عليه السلام وبين بيت المقدس مراحل وجواب لما محذوف أيذانا بظهوره واشعارا أن تفصيله مما لا يحوم به ذلك العبار وتجمله فعلوا به من الاذية ما فعلوا وروى أنهم لما مروا بالصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه بفعل يصغر ويستغيث فقال يهودا أما عاهدتونى أن لا تقتلوه فأتوا به الى البئر فعلق بثيابهم فنزعوها من

ولما وعد تعالى من يتم الهدى أتبعه بالوعيد فيمن أعرض فقال ومن أعرض عن ذكرى والذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى على ما تقدم بيانه ويحتمل أن يراد به الادلة وقوله فان له معيشة ضنكا فالضنك أصله الضيق والشدة وهو مصدر ثم يوصف به فيقال منزل ضنك وعيش ضنك فكأنه قال معيشة ذات ضنك واعلم أن هذا الضيق الموعود به اما أن يكون فى الدنيا أو فى القبر أو فى الآخرة أو فى الدين أو فى كل ذلك أو أكثره (أما الاول) فقال به جمع من المفسرين وذلك لان المسلم لتوكله على الله يعيش فى الدنيا عيشا طيبا كما قال فلنحيينه حياة طيبة والكافر بالله يكون حريصا على الدنيا طالبا للزيادة أبدا فهو عيشه ضنك وحالته مظلمة وأيضا فان الكفرة مع ضرب الله عليه الذلة والمسكنة لكفرهم قال تعالى وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله وقال ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقال تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض وقال استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين وقال وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا (وأما الثانى) وهو عذاب القبر فهذا قول عبد الله بن مسعود وأبى سعيد الخدرى وعبد الله بن عباس ورفعه أبو هريرة الى النبى صلى الله عليه وسلم قال ان عذاب القبر للكافر قال والذى نفسى بيده انه ليسلط عليه فى قبره تسعة وتسعون تنينا قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما تنين له تسعة رؤس ينفخون فى جسده ويلسعونه ويخدشونه الى يوم القيامة ثم يكون ذلك عليه كذلك وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ما من ميت يموت الا حضر جنازته صنفان من الملائكة ملائكة الارض وملائكة السماء فما من شئ منهم الا وهو يدعو الله أن يكون من أصحابه فيؤمن الله دعاءهم فيه فيبعث الله عز وجل عنه ملكين فيقعدانه فيسألانه عن ربه وعن نبيه وعن دينه وعن عمله وعن كتابه وعن قبلته وعن كل شئ كان يعبد فى الدنيا فيقول ربى الله وحده لا شريك له ونبى محمد صلى الله عليه وسلم وديني الاسلام وكتابى القرآن وقبلتى الكعبة وعملى كذا وكذا فيقولان له انا كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له فى قبره مد بصره ثم يقال له نم نومة العروس على فراشه ثم يقال له على سبيل التهكم نم نومة لا حلم فيها ولا غم ولا حزن ولا هم ولا ترع ولا فزع ولا وجع ولا سقم ولا بؤس ولا نصب ولا كرب ولا ضيق ولا شدة ولا ضنك ولا ظلمة ولا ظلام ولا شغل ولا لغب ولا لعب أولذلك اهتمامكم بحفظه (فأكله الذئب ونحن عصبة) أى والحال أنا جماعة كثيرة جديرة بأن نعصب بنا الامور العظام وتتكفى الخطوب بآرائنا وتدبيرنا واللام الداخلة على الشرط موطئة للقسم وقوله (انا اذا لخاسرون) جواب مجرئ عن الجزاء أى لما لكون ضعفا ٩٣ وخورا وعجزا أو مستحقون للهلاك اذا غلبناه عندنا ولا جدوى فى حياتنا أو مستحقون لان يدعى علينا بالخسار والدمار ويقال خسرهم الله تعالى ودمرهم حيث أكل الذئب بعضهم وهم حضور وقيل ان لم نقدر على حفظه وهو أعز شئ عندنا فقد هلكت مواشينا اذن وخسرناها وانما اعتصروا على جواب خوف يعقوب عليه السلام من أكل الذئب لانه السبب القوى فى المنع دون الحزن لقصر مدته بناء على أنهم يأتون به عن قريب (فلما ذهبوا به وأجمعوا) أى أزمعوا (أن يجعلوه) مفعول لاجمعوا يقال أجمع الامر ومنه فأجمعوا أمركم ولا يستعمل ذلك الا فى الافعال التى قويت الدواعى الى فعلها (فى غيابة الجب) قيل هى بئر بأرض الاردن وقيل بين مصر ومدين وقيل على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام بكنعان التى هى من نواحى الاردن كما أن مدين كذلك وأما ما يقال من أنها بئر بيت المقدس فبرده التعليل بالتقاط السيارة ومجيئهم أباهم عشاء ذلك اليوم فان بين منزل يعقوب عليه السلام وبين بيت المقدس مراحل وجواب لما محذوف أيذانا بظهوره واشعارا أن تفصيله مما لا يحوم به ذلك العبار وتجمله فعلوا به من الاذية ما فعلوا وروى أنهم لما مروا بالصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه بفعل يصغر ويستغيث فقال يهودا أما عاهدتونى أن لا تقتلوه فأتوا به الى البئر فعلق بثيابهم فنزعوها من

بالطعام كل يوم ويروى أن ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار وجرد عن ثيابه أتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعل يعقوب فى عضده وعلقها فى عنق يوسف فجاء جبريل عليه السلام فأخرجه من القميص فألبسه اياه (وأوحينا اليه) عند ذلك تبشيره له بما يؤل اليه أمره وازالة لوحشته وايناسا له قبل كان ذلك قبل ادراكه كما أوحى الى يحيى وعيسى وقيل كان اذ ذاك مدركا قال الحسن رضى الله عنه كان له سبع عشرة سنة (لتنبئنهم بأمرهم هذا) أى لتخلصن مما أنت فيه من سوء الحال وضيق المجال ولتعدن اخوتك عما فعلوا بك (وهم لا يشعرون) بأنك يوسف لتباين حاليك حالك هذا وحالك بوعد الله لعلو شأنك وكبر سلطانك وبعد حالك عن أوهامهم وقيل لبعد العهد المبدل للهيآت المغير للأشكال دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف وكان يدنيه دونكم وانكم انطلقتم به وألقيتموه فى غيابة الجب وقائم لا يبكم أكله الذئب وبعتموه بثمن بخس وبجوزان يتعلق وهم لا يشعرون بالايحاء على معنى أنا

بديه فدلوه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه لما عزموا عليه من تلطيخه بالدم احتيالا لابيه فقال يا اخوتاه ردوا علىّ قميصى لأتوارى به فقالوا ادع الشمس والقمر والاحد عشر كوكبا تؤانسك فدلوه فيها فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة فقام عليها وهو يبكى ٩٤ فناداه وظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه فمنعهم يهوذا وكان يأتيه

طريقة القاضى المبنية على أصول الاعتزال بون شديد (وثالثها) قال الجبائى المراد من حشره أعمى أنه لا يهتدى يوم القيامة الى طريق ينال منه خيرا بل يبقى واقفا متحيرا كالاعمى الذى لا يهتدى الى شئ أما قوله قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ففى تقرير هذا الجواب وجهان (أحدهما) انه تعالى انما أنزل به هذا العمى جزاء على تركه اتباع الهدى والاعراض عنه (والثانى) هو ان الارواح البشرية اذا فارقت أبدانها جاهلة ضالة عن الاتصال بالرب وحانبان بقيت على تلك الحالة بعد المفارقة وعظمت الآلام الروحانية فلهذا علل الله تعالى حصول العمى فى الآخرة بالاعراض عن الدلائل فى الدنيا وقوله ومن يعرض عن ذكرى فان له معيشة الضنك بالضد يدل فى الدنيا قال انه تعالى بين ان من أعرض عن ذكره فى الدنيا فله المعيشة الضنك فى الدنيا والعمى فى الآخرة أما قوله وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه فقد اختلفوا فيه فبعضهم قال أشرك وكفر وبعضهم قال أسرف فى أن عصى الله وقد بين تعالى المراد بذلك بقوله ولم يؤمن بآيات ربه لان ذلك كالتفسير لقوله أسرف وبين أنه يجزى من هذا حاله بما تقدم ذكره من المعيشة الضنك والعمى وبين بعد ذلك أن عذاب الآخرة أشد وأبقى أما الاشد فلعظمه وأما الابقى فلانه غير منقطع ﴿ قوله تعالى ﴾ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لآيات لاولى النهى ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴿ اعلم أنه تعالى لما بين ان من أعرض عن ذكره كيف يحشر يوم القيامة أتبعه بما لا يعتبر المكلف من الاحوال الواقعة فى الدنيا بمن كذب الرسل فقال أفلم يهد لهم والقراءة العامة أفلم يهد بالياء المعجمة من تحت وفاعله مرفوعه كم أهلكنا قال القفال جعل كثرة ما أهلك من القرون مبينا لهم كما جعل مثل ذلك واعظا لهم وزاجرا وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى أفلم نهد لهم بالنون قال الزجاج يعنى أفلم نبين لهم بيانا يهتدون به لو تدبروا وتفكروا وأما قوله كم أهلكنا فالمراد به المبالغة فى كثرة من أهلكه الله تعالى من القرون الماضية وأراد بقوله يمشون فى مساكنهم أن من قريش يشاهدون تلك الآيات العظيمة الدالة على ما كانوا عليه من النعم وما حل بهم من ضروب الهلاك ولما شاهدة فى ذلك من الاعتبار ليس لغيره وبين ان فى تلك الآيات آيات لاولى النهى أى لاهل العقول والالتزام ان للعقل مزية على العقل والنهى لا يقال الا فيمن له عقل ينتهى به عن القبائح كما أن لقولنا أولوا الرأى لزم مزية على أولوا العزم فلذلك قال بعضهم أهل الورع وأهل التقوى ثم بين تعالى الوجه الذى لاجله لا ينزل العذاب معجلا على من كذب وكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى وفيه تقديم وتأخير والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما ولا شبهة فى أن الكلمة هى اخبار الله تعالى ملائكته وكتبه فى اللوح المحفوظ ان أمته عليه السلام وان كذبوا سيؤخرون ولا يفعل بهم ما يفعل بغيرهم من الاستئصال واختلفوا فى الاجل لم فعل ذلك بأمة محمد صلى الله عليه وسلم قال بعضهم لانه علم أن فيهم من يؤمن وقال آخرون علم أن فى نسلهم من يؤمن ولو أنزل بهم العذاب لعمهم الهلاك وقال آخرون المصلحة فيه خفية لا يعلمها الا هو وقال أهل السنة له حكم الملك أن يخص من شاء بفضله ومن شاء بعذابه من غير علة اذ لو كان فعله لعلة لكانت تلك العلة ان كانت قديمة لزم قدم الفعل وان كانت حادثة افتقرت الى علة أخرى ولزم التسلسل فلهذا قال أهل التحقيق كل شئ صنعه لا لعلة وأما الاجل المسمى ففيه قولان (أحدهما) ولولا أجل مسمى فى الدنيا لذلك العذاب وهو يوم بدر (والثانى) ولولا أجل مسمى فى الآخرة

لذلك

أنسناه بالوحي وأزلناعن قلبه الوحشة التي أورثوهم لايشعرون بذلك ويحسبون انه مرعى ومستوحش لاأنيس له وقرئ لتنبئنهم بالنون على انه وعيد لهم فقوله تعالى وهم لايشعرون متعلق بأوحينا لاغير (وجاؤا أباهم عشاء) آخر النهار وقرئ عشيا وهو تصغير عشي وعشي بالضم والقصر جمع أعشى أي عشوا من البكاء (يبكون) متباكين روى انه لما سمع يعقوب عليه السلام بكاءهم قزع وقال مالكم يابني وأين يوسف (قالوا ياأبانا انا ذهبنا نستبق) أي متسابقين في العدو والرمي وقد يشترك الافتعال والتفاعل كالانتضال والتناضل وتناظرهما (وتركنا يوسف عند متاعنا) أي ماننتفع به من الثياب والازواد وغيرها (فأكله الذئب) عقيب ذلك من غير مضي زمان يعتاد فيه التفقد والتعهد وحيث لايكاد يطرح المتاع عادة الافي مقام يؤمن فيه الغوائل لم يعتمد تركه عليه السلام عنده من باب الغفلة وترك الحفظ الملتزم لاسيما اذا لم يرجحوه ولم يفهموا عنه صريحا فلما لم ينتصر في محافظته ولم يشغل عن مراقبته بل تركناه في مامتنا برجمعنا يجري منا لان مبدان السباق لايكون عادة الابحيث يتراءى غايتاه ومافارقناه الاساعة يسيرة بيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان (وما أنت بمؤمن لنا) بمصدق لنا في هذه المقالة الدالة على عدم تقصيرنا في أمره (ولو كنا) عندك وفي اعتقادك (صادقين) موصوفين بالصدق والثقة الشديدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيئ الظن بنا غير واثق بقولنا وكلمة لو في أمثال هذه المواقع لبيان تحقق مايفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفي على كل حال مفروض من الاحوال المغايرة له على الاجمال بادخالها على أبعد هامنه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع غيره من الاحوال بطريق



للذلك العذاب وهو أقرب ويكون المراد ولو لا كلمة سبقت تتضمن تأخيرا لعذاب الى الآخرة كقوله بل الساعة موعدهم لكان العقاب لازما لهم فيما يقدمون عليه من تكذيب الرسول وأذيتهم لهم انه تعالى لما أخبر نبيه بأنه لايهلك أحدا قبل استيفاء أجله أمره بالصبر على مايقولون ولا شبهة في أن المراد أن يصبر على مايكرهه من أقوالهم فيحتمل أن يكون ذلك قول بعضهم انه ساحر أو مجنون أو شاعر الى غير ذلك ويحتمل أن يكون المراد تكذيبهم له فيما يدعيه من النبوة ويحتمل أيضا تركهم التعرض منه لان كل ذلك مما يغمه ويؤذيه فرغبه تعالى في الصبر وبعثه على الادامة على الدعاء الى الله تعالى وابلاغ ماحمل من الرسالة وأن لايكون مايقدمون عليه صارفا له عن ذلك ثم قال الكلبي ومقاتل هذه الآية منسوخة بآية القتال ثم قال فسبح بحمد ربك وهو نظير قوله واستعينوا بالصبر والصلاة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) بحمد ربك في موضع الحال أي وأنت حامد لربك على ان وفقك للتسبيح وأعانك عليه (المسئلة الثانية) انما أمر عقيب الصبر بالتسبيح لان ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة اذ لاراحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى (المسئلة الثالثة) اختلفوا في التسبيح على وجوه فلا كثرون على أن المراد منه الصلاة وهو قولا ختلفوا على ثلاثة أوجه (أحدها) ان الآية تدل على ان الصلوات الخمس لا أزيد ولا أنقص فقال ابن عباس رضي الله عنهما دخلت الصلوات الخمس فيه فقبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر وقبل غروبها هو الظهر والعصر لانهما جميعا قبل الغروب ومن آناء الليل فسبح المغرب والعشاء الاخيرة ويكون قوله وأطراف النهار كالتوكيد للصلاتين اللواقعتين في طرفي النهار وهما صلاة الفجر وصلاة المغرب كما اختصت في قوله والصلاة الوسطى بالتوكيد (القول الثاني) ان الآية تدل على الصلوات الخمس بزيادة أمر دلا انها على الصلوات الخمس فلان الرسالة انما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها فالليل والنهار داخلان في هاتين العبارتين فأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيهما بقي قوله ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى وأطراف النهار للتوكيد فلا قل (القول الثالث) انها تدل على أقل من الخمس فقوله قبل طلوع الشمس للفجر وقبل غروبها للعصر ومن آناء الليل للعشاء وفي الظهر خلاف جاء القول الاول أقوى وبالاعتبار الاول هذا كله اذا حملنا التسبيح على الصلاة قال الجبائي يحمله على التنزيه والاجلال والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الاوقات وهذا القول أقرب الى الظاهر وفي ماتقدم ذكره وذلك لانه تعالى صبره أولا على مايقولون من تكذيبه ومن اظهار الشرك والكفر والذي يليق بذلك ان يأمر بتنزيهه تعالى عن قولهم حتى يكون داعيا مظهرا لذلك وداعيا اليه فلذلك قال ماجمع كل الاوقات (المسئلة الرابعة) أفضل الذكر ما كان بالليل لان الجمعية فيه أكثر وذلك لسكون الناس وهدوء حركاتهم وتعطيل الحواس عن الحركات وعن الاعمال ولذلك قال سبحانه وتعالى ان ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا وقال أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ولان الليل وقت السكون والراحة فاذا صرف الى العبادة كانت على النفس أشق وللبدن أتعب فكانت أدخل في استحقاق الاجر والفضل (المسئلة الخامسة) لقائل أن يقول انهار له طرفان فكيف قال وأطراف النهار بل الاولى أن يقول كما قال وأتم الصلاة طرفي النهار وجوابه من الناس من قال أقل الجمع اثنان فسقط السؤال ومنهم من قال انما جمع لانه يتكرر في كل نهار ويعود أما قوله تعالى لعلك ترضى ففيه وجوه (أحدها) ان هذا كما يقول الملك الكبير ياقلان اشتغل بالخدمة فلعلك تنتفع به ويكون المراد اني أوصلك الى درجة عالية في النعمة وهو اشارة الى قوله ولسوف يعطيك ربك فترضى وقوله عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا (وثانيها) لعلك ترضى مانال من

الاولى بما كان الشيء مثيرا ثم مع المنافي القوى فلان يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شيء من سائر الاحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجمع على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الاحوال المغايرة لها عند تعددها وقد مر تفصيله في سورة البقرة عند قوله تعالى أولو كان آباؤهم لا يعقلون ٩٦ شيأ ولا يهتدون وفي سورة الاعراف عند قوله تعالى أولو كنا كارهين (وجاؤا على قميصه) محله النصب على الظرفية من قوله (بدم) أى جاؤا فوق قميصه بدم كما تقول جاء على جماله بأحمال أو على الحالية منه والحلاف في تقدم الحال على المجرور فيما اذا لم يكن الحال ظرفا (كذب) مصدر وصف به الدم مبالغة أو مصدر بمعنى المفعول أى مكذوب فيه أو بمعنى ذى كذب أى ملابس الكذب وقرئ كذبا على أنه حال من الضمير أى جاؤا كاذبين أو مفعول له وقرأت عائشة رضى الله تعالى عنها بغير المعجمة أى كدر وقيل طرى قال ابن جنى أصله من الكذب وهو الفوف أى البياض الذى يخرج على أظفار الاحداث كأنه دم قد أثر في قميصه روى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها وزل عنهم أن يمزقوه فلما سمع يعقوب بخبر يوسف عليهما السلام صاح بأعلى صوته وقال أين القميص فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه وقيل لان

الثواب (وثالثها) لعلك ترضى ما تنال من الشفاعة وقرأ الكسائى وعاصم لعلك ترضى بضم التاء والمعنى لا يختلف لان الله تعالى اذا أرضاه فقد رضيه واذا رضيه فقد أرضاه ﴿قوله تعالى﴾ ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الاولى ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى ﴾ اعلم انه تعالى لما صبر رسوله عليه السلام على ما يقولون وأمره بان يعدل الى التسبيح أتبع ذلك بنهيه عن مد عينيه الى ما متع به القوم فقال تعالى ولا تمدن عينيك وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ في قول ولا تمدن عينيك وجهان (أحدهما) المراد منه نظر العين وهؤلاء قالوا مد النظر نحو ما يستحسنا للغة والمراد النهى عنه والعجب منه كما قال في نظارة قارون حيث قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم حتى واجههم أولوا العلم والايمان بقولهم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا وفيه أن النظر غير المدود ممنوع عنه وذلك كما اذا نظر الانسان الى شيء مرة ثم غض ولما كان النظر الى الزخارف كالمركوز في الطباع قيل ولا تمدن عينيك أى لا تفعل ما أنت معتاد له ولقد شدد المتقون في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة في اللباس والمركوب وغير ذلك لانهم اتخذوا هذه الاشياء ليعين النظارة فالناظر اليها محصل لغرضهم ركالمقوى لهم على اتخاذها (القول الثانى) قال أبو مسلم الذى نهى عنه بقوله ولا تمدن عينيك ليس هو النظر بل هو الاسف أى لا تأسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا ﴿المسئلة الثانية﴾ قال أبو راقع نزل ضيف بالنبى صلى الله عليه وسلم فبعثنى الى يهودى ليسلف أو يبيع فقال والله لا أفعل ذلك الا برهن فأخبرته بقوله فامرنى ان أذهب بردعه اليه فنزل قوله تعالى ولا تمدن عينيك وقال عليه السلام ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى أموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم والى أعمالكم وقال أبو الدرداء الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعن الحسن لو لا حمق الناس لخربت الدنيا وعن عيسى بن مريم عليه السلام قال لا تتخذوا الدنيا فتفتقروا لها عبيدا وعن عروة بن الزبير انه كان اذا رأى ما عند السلاطين يتلو هذه الآية وقال الصلاة رحمكم الله أما قوله عز وجل الى ما متعنا به أى الذ نابه والامتاع الالذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ويسمع من الاصوات المطربة ويشم من الروائح الطيبة وغير ذلك من الملابس والمناكح يقال أمتعه امتاعا رضيه عقيبها والتفعيل يقتضى التكثير أما قوله أزواجا منهم أى اشكالا وأشباها من الكفار وهى من المزاوجة بين الاشياء وهى المشاكلة وذلك لانهم أشكال في الذهاب عن الصواب وقال ابن عباس رضى الله عنهما أصنافا منهم وقال الكلبى والزجاج رجالا منهم أما قوله زهرة الحياة الدنيا ففى انتصابه اربعة أوجه (أحدها) على الذم وهو النصب على الاختصاص أو على تضمين متعناهم معنى أعطينا وكونه مفعولا ثانيا له أو على ابدال الهاء من محل الجار والمجرور أو على ابدال الهاء من أزواجا على تقدير ذوى فان قيل ما معنى الزهرة فعين حرك قلنا معنى الزهرة نضرته وهو الرونق والبهجة كما جاء في الجهرة قرئ أرنا الله جهرة وأن يكون جمع زاهر وصفها بأنهم زهرة هذه الدنيا لصفاء ألوانهم وتهلل وجوههم بخلاف ما عليه الفساق من شحوب الالوان والتقشف في الثياب أما قوله لنفتنهم فيه فذكر وا فيه وجوها (أحدها) لنعذبهم به كقوله فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما اضلالا منى لهم (وثالثها) قال الكلبى ومقاتل تشديدا في التكليف عليهم (بل) استئناف مبنى على سؤال فكأنه قيل ما قال يعقوب هل صدقهم فيما قالوا أم لا فقيل قال لم يكن ذلك

سولت لكم أنفسكم) أي زينت وسهلت قاله ابن عباس رضي الله عنهما والتسويل تقدير شيء في النفس مع الطمع في اتمامه قال الأزهري كأن التسويل تفعيل من سؤال الانسان وهو أمنيته التي يطلبها فتزين له الباطل وغيره وأصله مهموز وقيل من السول وهو الاسترخاء (أمرا) من الامور منكرا لا يوصف ولا يعرف (فصبر جميل) أي فأمري صبر ٩٧ جميل أو فصبر جميل أجمل وأمثل

لان الاعراض عن الدنيا عند حضورها والاقبال الى الله أشد من ذلك عند عدمها حضورها ولذلك كان رجوع الفقراء الى خدمة الله تعالى والتضرع اليه أكثر من تضرع الاغنياء ولان على من أوتي الدنيا ضررا بما من التكاليف لولاها لما لزمتهم تلك التكاليف ولان القادر على المعاصي يكون الاجتناب عن المعاصي أشق عليه من العاجز الفقير فان هذه الجهات تكون الزيادة في الدنيا تشديدا في التكليف ثم قال لرسوله ورزق ربك خير وأبقى والاظهر أن المراد ان مطلوبك الذي تجده من الثواب خير من مطلوبهم وأبقى لانه يدوم ولا ينقطع وليس كذلك حال ما أوتوه من الدنيا ويحتمل أن يكون المراد ما أوتيته من يسير الدنيا اذا قارنته بالطاعة خير لك من حيث العاقبة وأبقى فذكر الرزق في الدنيا ووصفه بحسن عاقبته اذا رضي به وصبر عليه ويحتمل ان يكون المراد ما أعطى من النبوة والدرجات الرفيعة وأما قوله وأمر أهلك بالصلاة فنهم من حمله على أقاربه ومنهم من حمله على كل أهل دينه وهذا أغرب وهو كقوله وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وان احتمل ان يكون المراد من يضمهم المسكن اذا لتمسه على الصلاة والامر بها في أوقاتها تمكن فيهم دون سائر الامة يعني كما أمرناك بالصلاة فأمر أنت قومك بها أما قوله واصطبر عليها فالمراد كما تأمرهم فحافظ عليها فهذا ان الوعظ بلسان الفعل أتم منه بلسان القول وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يذهب الى فاطمة وعلي عليهما السلام كل صباح ويقول الصلاة وكان يفعل ذلك أشهرا ثم بين تعالى انه انما يأمرهم بذلك لمنافعهم والله متعال عن المنافع بقوله لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى وفيه وجوه (أحدها) قال أبو مسلم المعنى الله تعالى انما يريد منه ومنهم العبادة ولا يريد منه أن يرزقه كما يريد السادة من العبيد الخراج وهو كقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون (وثانيها) لا نسألك رزقا لنفسك ولا لأهلك بل نحن نرزقك ونرزق أهلك ففرغ بالك لامر الآخرة وفي معناه قول الناس من كان في عمل الله كان الله في عمله (وثالثها) المعنى انا انما أمرناك بالصلاة فليس ذلك لانا ننتفع بصلاتك فعبر عن هذا المعنى بقوله لا نسألك رزقا بل نحن نرزقك في الدنيا بوجوه والنهي في الآخرة بالثواب قال عبد الله بن سلام كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا نزل بأهله ضيق أو شدة أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية واعلم أنه ليس في الآية رخصة في ترك التكسب لانه تعالى قال في وصف المتقين رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله أما قوله والعاقبة للتقوى فالمراد والعاقبة الجميلة لاهل التقوى يعني تتقوى الله تعالى ثم انه سبحانه بعد هذه الوصية حكى عنهم شبهتهم فكأنه من تمام قوله فاصبر على ما يقولون وهي قولهم لولا يأتينا بآية من ربه أو هم وا بهذا الكلام انه يكلمهم الاعيان من غير آية وقالوا في موضع آخر فلما أتتنا بآية كما أرسل الاولون وهو أجاب الله تعالى عنه بقوله أولم تأتهم بينة ما في الصحف الاولى وفيه وجوه (أحدها) ان ما في القرآن اذا وافق ما في كتبهم مع أني الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشتغل بالدراسة والتعلم وما رأى أستاذا البتة كان ذلك اخبارا عن الغيب فيكون معجزا (وثانيها) ان بينة ما في الصحف الاولى ما فيها من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وبنبوته وبعثته (وثالثها) ذكر ابن جرير والعقيلي المعنى أولم تأتهم بينة ما في الصحف الاولى من أنباء الامم التي أهلكناهم لما سألوا الآيات وكفروا بها كيف عاجلناهم بالعقوبة فما يؤمنهم أن يكون حالهم في سؤال الآيات كحال أولئك وانما أنا مع هذا البيان في القرآن فلهذا وصف القرآن بكونه بينة ما في الصحف الاولى واعلم أنه انما ذكر الضمير الراجع الى البينة لانها في معنى البرهان والدليل ثم بين الله تعالى ازاح لهم كل عذر وعلة في التكليف فقال ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا والمراد كان لهم أن يقولوا ذلك فيكون عذرا لهم فأما الآن

(١٣ - خمر س) قد غلبت في وصف الشيء بما ليس فيه كما أشير اليه (وجاءت) نعوج في بيان ما جرى على يوسف في الجب بعد الفراغ من ذكر ما وقع بين اخوته وبين أبيه والتعبير بالجي عليس بالنسبة الى مكانهم فان كنعان ليس بالجانب المصري من مدين بل بمكان يوسف وفي اشارة على المرور أو الاتيان أو نحوهما مما الى كونه عليه السلام في الكرامة والزلفى عند مالك مقتدر وانظر هل أن

الجب كان فى أم المتناة فان المتبادر من اسناد المجىء الى السيارة مطلقا فى قوله عز وجل وجاءت (سيارة) أى رفقة تسير من جهة مدين الى مصر وقوعه باعتبار سيرهم المعتاد وهو الذى يقتضيه قوله تعالى فيما سلف يلتقطه بعض السيارة وقد قيل انه كان فى قفرة بعيدة من العمران لم تكن الا للرعاة فأخطؤا

(فأرسلوا واردهم) الذى يرد الماء ويستقى لهم وكان ذلك مالك بن ذعر الخزاعى وانما لم يذكر منتهى الارسال كما لم يذكر منتهى المجىء أعنى الجب للايذان بان ذلك معهود لا يضرب عنه الذكر صفحا (فأدلى دلوه) أى أرسلها الى الجب والحذف لما عرفته فتدلى بها يوسف فخرج (قال) استئناف مبنى على سؤال يقتضيه الحال (يا بشرى هذا غلام) كأنه نادى البشرى وقال تعالى فهذا أوانك حيث فاز بنعمة بادرة وأى نعمة مكان ما يوجد صباحا من الماء وقيل اسم صاحب له نادام ليعينه على اخراجه وقرأ غير الكوفيين يا بشراى وأمال فتحة الراء حمزة والكسائى وقرأ ورش بين اللفظين وقرئ يا بشرى بالادغام وهى لغة و بشراى على قصد الوقف (وأسروه) أى أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الرفقة وقيل أخفوا أمره ووجدانهم له فى الجب وقالوا لهم دفعه الينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر وقيل الضمير لاخوة يوسف وذلك أن يهودا كان يأتيه كل يوم بطعام فاتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر اخوته فأتوا الرفقة وقالوا العبد هذا غلامنا أبق منا فاشتروه منهم وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ولا ينفى ما فيه من البعد (بضاعة) نصب على الحالية أى أخفوه حال كونه بضاعة أى متاعا للتجارة فانها قطعة من المال يضمت عنه أى قطعت لتجارة (والله عليم بما يعملون) وعيد لهم على ما صنعوا من جعلهم

وقد أرسلناك و بنينا على لسانك لهم ما علمهم ومالهم فلا حجة لهم البتة بل الحجة عليهم وهو معنى من قبله يحتمل من قبل ارساله ويحتمل من قبل ما أظهره من البينات فان قيل فما معنى قوله ولو أنا أهلكناهم لقالوا لولا أرسلت الينا رسولا لا يصح أن يقول قلنا المعنى لكان لهم أن يقولوا ذلك يوم القيامة ولذلك قال من قبل أن نذل ونخزى وذلك لا يليق الا بعذاب الآخرة روى أن أبا سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال قال عليه الصلاة والسلام يحتج على الله تعالى يوم القيامة ثلاثة الهالك فى الفترة يقول لم يأتنى رسول والا كنت أطوع خلقك لك وتلا قوله لولا أرسلت الينا رسولا والمغلوب على عقله يقول لم تجعل لى عقلا أنتفع به و يقول الصبى كنت صغير الا أعقل فترفع لهم نار و يقال لهم ادخلوها فمن دخلوها فمن كان فى علم الله تعالى أنه شقى و يبقى من فى علمه أنه سعيد فيقول الله تعالى لهم عصيتم اليوم فكيف برسلى لو أتوكم والقاضى طعن فى الخبر وقال لا يحسن العقاب على من لا يعقل واعلم أن فى هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الجبائى هذه الآية تدل على وجوب فعل اللطف اذ المراد انه يجب أن يفعل بالمكلفين ما يؤمنون عنده ولو لم يفعله لكان لهم أن يقولوا هلا فعلت ذلك بنا لنؤمن وهلا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك وان كان فى المعلوم أنهم لا يؤمنون ولو بعث اليهم الرسول لم يكن فى ذلك حجة فصح انه انما يكون حجة لهم اذا كان فى المعلوم انهم يؤمنون عنده اذا اطاعوه (المسئلة الثانية) قال الكعبى قوله لولا ارسلت الينا رسولا أوضح دليل على ان الله تعالى يقبل الاحتجاج من عباده وانه ليس قوله لا يسئل عما يفعل كما ظنه أهل الجبر من ان ما هو جور منا يكون عدلا منه بل تأويله انه لا يقع منه الا العدل فاذا ثبت انه تعالى يقبل الحجة فلو لم يكونوا قادرين على ما أمروا به لكان لهم فيه أعظم حجة (المسئلة الثالثة) قال أصحابنا الآية تدل على أن الوجوب لا يتحقق الا بالشرع اذ لو تحقق العقاب قبل مجىء الشرع لكان العقاب حاصلا قبل مجىء الشرع والآية تنفى تحقق العقاب قبل مجىء الشرع ثم انه سبحانه ختم السورة بضرب من الوعيد فقال قل كل متربص أى كل منا ومنكم منتظر عاقبة أمره وهذا الانتظار يحتمل أن يكون قبل الموت اذ سبب الامر بالجهاد أو بسبب ظهور الدولة والقوة و يحتمل أن يكون بالموت فان كل واحد من الخصمين ينتظر موت صاحبه و يحتمل أن يكون بعد الموت وهو ظهور أمر الثواب والعقاب فانه يتميز فى الآخرة المحق من المبطل بما يظهر على المحق من أنواع كرامة الله تعالى وعلى المبطل من أنواع اهانته فستعلمون عند ذلك من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى اليه وليس هو بمعنى الشك والترديد بل هو على سبيل التهديد والزجر للكفار والله أعلم

﴿سورة الانبياء عليهم السلام مائة واثنتا عشرة آية مكية﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾ اعلم أن قوله تعالى اقترب للناس حسابهم فيه مسائل (المسئلة الاولى) القرب لا يعقل الا فى المكان والزمان والقرب المكانى ههنا يمتنع فتعين القرب الزمانى والمعنى اقترب للناس وقت حسابهم (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول كيف وصف بالاقتراب وقد غبر بعد هذا القول قريب من ستمائة عام (الجواب) من ثلاثة أوجه (أحدها) انه مقترب عند الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى و يستعجلونك بالعذاب وان يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون (وثانيها) أن كل آت قريب وان طالت أوقات ترقبه وانما

مثل يوسف وهو معروضة للابتذال بالبيع والشراء ومادبر طاف ذلك من الحيل (وشروه) أى باعوه والضمير للوارد وأصحابه (بثمن بخس) زيف ناقص العيار (دراهم) بدل من ثمن أى لادنانير (معدودة) أى غير موزونة فهو بيان لقلته ونقصانه مقدارا بعد بيان نقصانه فى نفسه اذ المعتاد فيما لا يبلغ أربعين العدد دون الوزن فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها ٩٩ كانت عشرين درهما وعن السدى رضى الله عنه أنها كانت اثنين وعشرين درهما (وكانوا) أى البائعون (فيه) فى يوسف (من الزاهدين) من الذين لا يرغبون فيما يابدهم فلذلك باعوه بما ذكر من الثمن البخس وسبب ذلك أنهم التقطوه والتقاط الشئ مظنة أن يظهر له مستحق فينتزعه منه فيبيعه من أول مساوم باوكس ثمن ويجوز أن يكون معنى شروه اشتروه من اخوته على ما حكى وهم غير راغبين فى شرائه خشية ذهاب مالهم لما طن فى آذانهم من الاباق والعدول عن صنعة الاغتمال المنبئة عن الاتخاذ لما مر من أن أسنهم انما كان يطرق الصناعة دون الاحتماء والاقتناء وقيه متعلق بالزاهدين ان جعل اللام للتعريف وبيان لما زهدوا فيه أن جعلت موصولة كأنه قيل فى أى شئ زهدوا فقيل زهدوا فيه لان ما يتعلق بالصلة لا يتقدم على الموصول (وقال الذى اشتراه من مصر) وهو العزيز الذى كان على خزائنه واسمه قطفير أو اطفير وبيان كونه من مصر لقرينة ما يتفرع عليه من الامور مع الاشعار بكونه غير من اشتراه من الملتقطين بما ذكر من الثمن البخس وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد العمليقى ومات فى حياة يوسف عليه السلام بعد أن آمن به فلك بعده قابوس بن مصعب فدعاه الى الاسلام فأبى وقيل كان الملك فى أيامه فرعون موسى عليه السلام

البعيد هو الذى انقرض قال الشاعر

فلا زال ما تهواه أقرب من غد ... ولا زال ما اقتضاه أبعد من أمس

(وثالثها) أن المعاملة اذا كانت مؤجلة الى سنة ثم انقضى منها شهر فانه لا يقال اقترب الاجل أما اذا كان الماضى أكثر من الباقى فانه يقال اقترب الاجل فعلى هذا الوجه قال العلماء ان فيه دلالة على قرب القيامة ولهذا الوجه قال عليه السلام بعثت أنا والساعة كهاتين ولهذا الوجه قبل انه عليه السلام ختم به النبوة كل ذلك لاجل أن الباقى من هذه التكليف أقل من الماضى (المسئلة الثالثة) اعلم أن تعالى هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين فيكون أقرب الى تلافى الذنوب والتحرز عنها وخوفا من ذلك والله اعلم (المسئلة الرابعة) اعلم ان مع ان الوقت لاجل أن كل انسان أصلح كما أن كتمان وقت الموت أصلح (المسئلة الخامسة) الفائدة فى تسمية يوم القيامة بيوم الحساب ان الحساب هو الكاشف عن حال المرء فالخوف من ذكره أعظم (المسئلة السادسة) يجب أن يكون المراد بالناس من له مدخل فى الحساب وهم المكلفون دون من لا مدخل له ثم قال ابن عباس المراد بالناس المشركون وهذا من اطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات المشركين أما قوله تعالى وهم فى غفلة معرضون فاعلم أنه تعالى وصفهم بأمرين الغفلة والاعراض أما الغفلة فالمعنى انهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون فى عاقبتهم مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء المحسن والمسىء ثم اذا انتبهوا من سنة الغفلة ورقدة الجهالة تمادى تلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا وسدوا أسماعهم أما قوله ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن أبى عبلة محدث بالرفع صفة للحمل (المسئلة الثانية) اعلم أن الله تعالى ذلك بيانا لكونهم معرضين وذلك لان الله تعالى يجدد لهم الذكر وقتا وقتا ويظهر لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرر على اسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون فيما يزيدهم ذلك الا لعبا واستهزاء (المسئلة الثالثة) المعتزلة احتجوا على حدوث القرآن بهذه الآية فقالوا القرآن ذكر والذكر محدث فالقرآن محدث بيان ان القرآن ذكر قوله تعالى فى صفة القرآن انه هو الا ذكر للعالمين وقوله وانه لذكر لك ولقومك وقوله ص والقرآن ذى الذكر وقوله انا نحن نزلنا الذكر وقوله ان هو الا ذكر وقرآن مبين وقوله وهذا ذكر مبارك أنزلناه وبيان ان الذكر محدث قوله فى هذا الموضع ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث وقوله فى سورة الشعراء ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث ثم قالوا فصار مجموع هاتين المقدمتين المنصوصتين كالنص فى أن القرآن محدث والجواب من وجهين (الاول) أن قوله ان هو الا ذكر للعالمين وقوله وهذا ذكر مبارك اشارة الى المركب من الحروف والاصوات فاذا ضممنا اليه قوله ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث لزم حدوث المركب من الحروف والاصوات وذلك مما لا نزاع فيه بل حدوثه معلوم بالضرورة وانما النزاع فى قدم كلام الله تعالى بمعنى آخر (الثانى) ان قوله ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث لا يدل على حدوث كل ما كان ذكرا بل على ذكر ما هو محدث كما ان قول القائل لا يدخل هذه البلدة رجل فاضل لا يبغضونه فانه لا يدل على ان كل رجل يجب أن يكون فاضلا بل على ان فى الرجال من هو فاضل واذا كان كذلك فالآية لا تدل الا على ان بعض الذكر محدث فيصير نظم الكلام هكذا القرآن ذكر وبعض الذكر محدث وهذا لا ينتج شيأ كما ان قول القائل انسان حيوان وبعض الحيوان فرس لا ينتج شيأ فظهر ان الذى ظنوه قاطعا لا يفيد ظنا ضعيفا فضلا عن القطع أما قوله الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان ذلك ذم للكفار وز جر لغيرهم عن مثله لان الانتفاع بما يسمع لا يكون الا

عاش اربعمائة سنة لقوله عز وجل ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء واختلف في مقدار ما اشتراه به العزيز فقيل بعشرين دينارا وزوجي نعل وثوبين أبيضين وقيل ادخلوه في السوق يعرضونه فيزايدون فيه حتى بلغ ثمنه ١٠٠ وزنه مسكا ووزنه ورقا ووزنه حريرا فاشتراه قطفير بذلك المبلغ وكان سنه اذذاك سبع عشرة سنة وأقام في منزله مع علمه علمه من مدة لبثه في السجن ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة (لامرأته) راعيل أو زليخا وقيل اسمها هو الاول والثاني لقبها واللام متعلقة بقال لا باشتراه (أكرمي مثواه) اجعلي محل اقامته كريما مرضيا والمعنى أحسني تعهده (عسى أن ينفعنا) في ضياعنا وأمورنا والتاء تظهر به في مصالحنا (أو نتخذه ولدا) أي نتبناه وكان ذلك لما تفرس فيه من مخايل الرشد والنجابة ولذلك قيل أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر وابنة شعيب التي قالت يا أبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما (وكذلك) نصب على المصدرية وذلك اشارة الى ما يفهم من كلام العزيز وما فيه من معنى البعد لتفخيمه أي مثل ذلك التمكين البديع (مكنا ليوسف في الارض) أي جعلناله فيها مكانا يقال مكنه فيه أي أثبته فيه ومكن له فيه أي جعل له فيه مكانا ولتقاربهما وتلازمهما يستعمل كل منهما في محل الآخر قال عز وجل ولقد أهلكناهم من قبلهم من قرن مكناهم في الارض ما لم نمكن لكم أي ما لم نمكنكم فيها أو مكنا لهم في الارض الخ والمعنى كما جعلناله مثوى كريما في منزل العزيز أوممكنا عاليا في قلبه حتى أمر امرأته دون سائر حواشيه باكرام مثواه

بما يرجع الى القلب من تدبر وتفكر واذا كانوا عند استماعه لا عين حصلوا على مجرد الاستماع الذي قد تشارك البهيمة فيه الانسان ثم أكد تعالى ذمهم بقوله لاهية قلوبهم والاهية من لهى عنه اذا ذهل وغفل وانما ذكر اللعب مقدما على اللهو وكافى قوله تعالى انما الحياة الدنيا لعب ولهو وتنبيها على ان اشتغالهم باللعب الذي معناه السخرية والاستهزاء بعمل باللهو الذي معناه الذهول والغفلة فانهم أقدموا على اللعب للهوهم وذهولهم عن الحق والله أعلم بالصواب (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف وهم يلعبون لاهية قلوبهم حالان مترادفان أو متداخلان ومن قرأ لاهية بالرفع فبالحمل على واحد لان لاهية قلوبهم خبر بعد خبر لقوله وهم أما قوله وأسروا النجوى الذين ظلموا ففيه سؤالان (الاول) النجوى وهي اسم من التناجي لا تكون الا خفية فما معنى قوله وأسروا النجوى (الجواب) معناه بالغوا في اخفائها وجعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم (السؤال الثاني) لم قال وأسروا النجوى الذين ظلموا (الجواب) أبدل الذين ظلموا من أسروا اشعارا بأنهم هم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به أو جاء على لغة من قال أكلوني البراغيث أو هو منصوب المحل على الذم أو هو مبتدأ خبره أسروا النجوى قدم عليه والمعنى وهؤلاء أسروا النجوى فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بأنه ظلم أما قوله هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف هذا الكلام كله في محل النصب بدلا من النجوى أي وأسروا هذا الحديث ويحتمل أن يكون التقدير وأسروا النجوى وقالوا هذا الكلام (المسئلة الثانية) انما أسروا هذا الحديث لوجهين (أحدهما) أنه كان ذلك شبهة التشاور فيما بينهم والتحاور في طلب الطريق الى هدم أمره وعادة المتشاورين أن يجتهدوا في كتمان سرهم عن أعدائهم (الثاني) يجوز أن يسروا فيما بينهم ذلك ثم يقولوا للرسول الله والمؤمنين ان كان ما تدعونه حقا فأخبرونا بما أسررناه (المسئلة الثالثة) انهم طعنوا في نبوته بأمرين (أحدهما) انه بشر مثلهم (والثاني) ان الذي أتى به سحر وكلا الطعنين فاسد (أما الاول) فان النبوة تثبت بصحتها على المعجزات والدلائل لا على الصور اذ لو بعث الملك اليهم لما علم كونه نبيا الصورته وانما كان يعلم بالمعجز فاذا ظهر ذلك على من هو بشر فيجب أن يكون نبيا بل الاولى أن يكون المبعوث الى البشر بشرا لان المرء الى القبول من أشكاله أقرب وهو به آنس (وأما الثاني) وهو ان ما أتى به الرسول عليه السلام سحر فانهم يرون كونه سحرا يفضل أيضا لان كل ما أتى به الرسول من القرآن وغيره ظاهر الحال لا تمويه فيه ولا تلبيس فيه فقد كان عليه السلام يتحداهم بالقرآن طالما بعد حال مدة من الزمان وهم أرباب الفصاحة والبلاغة وكانوا في نهاية الحرص على ابطال أمره وأقوى الامور في ابطال أمره معارضة القرآن فلو قدروا عليها لعارضوه لا محالة لان العاقل عند توفر الدواعي وارتفاع الصارف واجب الوقوع فلما لم يأتوا بها دل ذلك على أنه في نفسه معجز وانهم عرفوا حاله فكيف يجوز أن يقال انه سحر والحامل على ما ذكرناه وكل ذلك يدل على انهم كانوا عالمين بصدقه الا انهم كانوا يموهون على ضعفائهم بمثل هذا القول وان كانوا فيه مكابرين ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قال ربي يعلم القول في السماء والارض وهو السميع العليم بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فلياتنا بآية كما أرسل الاولون ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون﴾ أما قوله قال ربي يعلم القول في السماء والارض وهو السميع العليم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ قال ربي حكاية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وقرأ الباقون قل بضم القاف وحذف الالف وسكون اللام (المسئلة الثانية) انه تعالى لما أورد هذا الكلام عقيب ما حكى عنهم وجب أن يكون كالجواب لما قالوه فكأنه قال

جعلنا له مكانة رفيعة في أرض مصر ولعله عبارة عن جعله وجيها بين أهلها أو محببا في قلوبهم كافة كما في قلب العزيز لانه الذي يؤدي الى الغاية المذكورة في قوله تعالى (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) أي نوفقه لتعبير بعض المنامات التي عند تمام رؤيا الملك وصاحبي السجن لقوله تعالى ذلكما مما علمني ربي سواء جعلناه معطوفا على غاية مقدرة يتساق اليها الكلام ويستدعيها النظام كأنه قيل

انكم وان أخفيتم قولكم وطعنتم فان ربي عالم بذلك وانه من وراء عقوبته فتوعدوا بذلك لكي لا يعودوا الى مثله ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال صاحب الكشاف فان قلت فهلا قيل يعلم السر لقوله وأسروا النجوى قلت القول عام يشتمل السر والجهر فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة فكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول يعلم السر كما ان قوله تعالى يعلم السر آكد من أن يقول يعلم سرهم فان قلت فلم ترك الآكد في سورة الفرقان في قوله قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض قلت ليس بواجب أن يجيء بالآكد في قوله في كل موضع ولكن يجيء بالتوكيد مرة وبالآكد مرة أخرى ثم الفرق انه قدم ههنا انهم أسروا النجوى فكانه أراد أن يقول ان ربي يعلم ما أسروه فوضع القول موضع ذلك للبلاغة وثقة بقصده ووصف ذاته بان قال أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض فهو كقوله علام الغيوب عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة ﴿المسئلة الرابعة﴾ انما قدم السميع على العليم لانه لابد من سماع الكلام أولا ثم من حصول العلم بمعناه أما قوله بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون فاعلم أنه تعالى عاد الى حكاية قولهم المتصل بقوله هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر ثم قال بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فحكى عنهم ثم هذه الاقوال الخمسة فترتيب كلامهم كانهم قالوا لا ندعي ان كونه بشرا مانع من كونه رسولا لله تعالى سلمنا انه غير مانع ولكن لا نسلم ان هذا القرآن معجز ثم اما أن يساعد على أن فصاحة القرآن خارجة عن مقدور البشر قلنا لم لا يجوز أن يكون ذلك سحرا وان لم يساعد عليه فان ادعينا كونه في نهاية الركاكة قلنا انه أضغاث أحلام وان ادعينا انه متوسط بين الركاكة والفصاحة قلنا انه افتراه وان ادعينا انه كلام فصيح قلنا انه من جنس فصاحة سائر الشعراء وعلى جميع هذه التقديرات فانه لا يثبت كونه معجزا ولما فرغوا من تمهيد هذه الاحتمالات قالوا فليأتنا بآية كما أرسل الاولون فلما رادانهم طلبوا آية جلية لا يتطرق اليها شائبة من هذه الاحتمالات كالآيات المنقولة عن موسى وعيسى عليهما السلام ثم ان الله تعالى بدأ بالجواب عن هذا السؤال الاخير بقوله ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون والمعنى انهم في التعنت أشد من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعهدوا انهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا وتحاثوا فاهلكهم الله فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أشد نكثا قال الحسن رحمه الله تعالى انهم لم يجابوا الى حكم الله تعالى ان من كذب بعد الاجابة الى ما اقترحه من الآيات فلابد من أن ينزل به عذاب الاستئصال وقد مضى حكمه في أمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة بخلافه فلذلك لم يجبهم ﴿قوله تعالى﴾ وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ اعلم أنه تعالى أجاب عن سؤالهم الاول وهو قولهم هل هذا الا بشر مثلكم بقوله وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم فبين ان هذه عادة الله تعالى في الرسل من قبل محمد صلى الله عليه وسلم ولم يمنع ذلك من كونهم رسلا للآيات التي ظهرت عليهم فاذا صح ذلك فيهم فقد ظهر على محمد مثل آياتهم فلا معقال عليه في كونه بشرا فأما قوله تعالى فاسئلوا أهل الذكر فالمعنى انه تعالى أمرهم أن يسألوا أهل الذكر وهم أهل الكتاب حتى يعلموهم ان رسل الله الموحى اليهم كانوا بشرا ولم يكونوا ملائكة وانما أحالهم على هؤلاء لانهم كانوا يتابعون المشركين في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا فان قيل اذا لم يوثق باليهود والنصارى فكيف يجوز أن يأمرهم بأن يسألوهم عن الرسل قلنا اذا تواتر خبرهم وبلغ حد الضرورة جاز ذلك

وعلى ذلك جعلنا كم أمة وسطا من أن ذلك اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده دلالة الى جعل آخر يقتضيه هذا الجعل به فالكاف مقحم للدلالة على فخامة شأن المشار اليه اقتحاما لا يكاد يترك في لغة العرب ولا في غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يفعل وهكذا ينبغي أن يحقق المقام وأما التمكين بمعنى جعله ملكا يتصرف في أرض مصر بالامر والنهي فهو من آثار ذلك التعليم ونتائجه المتفرعة

وعلى ذلك جعلنا كم أمة وسطا من أن ذلك اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده دلالة الى جعل آخر يقتضيه هذا الجعل به فالكاف مقحم للدلالة على فخامة شأن المشار اليه اقتحاما لا يكاد يترك في لغة العرب ولا في غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يفعل وهكذا ينبغي أن يحقق المقام وأما التمكين بمعنى جعله ملكا يتصرف في أرض مصر بالامر والنهي فهو من آثار ذلك التعليم ونتائجه المتفرعة

ومثل ذلك التمكين مكنا ليوسف في الارض وجعلنا قلوب أهلها كافة تميل محبتها اليه ترتب عليه ما ترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولتعلمه بعض تأويل الاحاديث وهو تأويل الرؤيا المذكورة فيؤدي ذلك الى الرياسة العظمى ولعل ترك المعطوف عليه للاشعار بعدم كونه مرادا بالذات أو جعلناه علة لمحذوف كانه قيل ولهذه الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكين دون غيرها مما ليس له عاقبة حميدة هذا ولا يخفى عليك أن الذي عليه تدور هذه الامور انما هو التمكين في جانب العزيز وأما التمكين في جانب الناس كافة فانما يتناوله ذلك انما هي باعتبار اشتماله على ذلك التمكين فاذن الحق أن يكون ذلك اشارة الى مصدر قوله تعالى مكنا ليوسف على أن يكون هو عبارة عن التمكين في قلب العزيز أو في منزله وكون ذلك تمكينا في الارض بملابسة أنه عزيزها الاعم تمكين آخر يشبه به كما في قوله

عليه كما عرفته لان مبادىء المؤدية اليه فلا سبيل الى جعله غاية له ولم يعهد منه عليه السلام في تضاعيف قضاياه العمل بموجب المنامات المنبهة على الحوادث قبل وقوعها وادامة صحبة الجعل غايه لولايته وما وقع من التدارك في امر السنين فانما هو على موجب الرؤيا السابقة المعهودة انتهى الا أن يراد بتعليم ١٠٢ تأويل الاحاديث ما سبق من تفهيم غوامض اسرار الكتب الالهية ودقائق سنن الانبياء عليهم السلام فيكون المعنى حينئذ مكنا له في أرض مصر ليتصرف فيها بالعدل والنعلم معاني كتب الله تعالى وأحكامها ودقائق سنن الانبياء عليهم السلام فيقضي بها فيما بين أهلها والتعليم الاجمالي لتلك المعاني والاحكام وان كان غير مناخر عن تمكينه بذلك المعنى الا أن تعليم كل معنى شخصي يتفق في ضمن الحوادث والارشاد الى الحق في كل نازلة من النوازل مما أخر عن ذلك صالح لان يكون غاية له (والله غالب على أمره) لا يستعصى عليه أمر ولا يمانعه شيء بل اذا أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون فيدخل في ذلك شؤنه المتعلقة بيوسف دخولا أوليا أو متوغلا على أمر يوسف لا يكله الى غيره وقد أراد به من الفتنة ما أراد مرة وغلب مرة فلم يكن الا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الامر كذلك فيأتون ويذرون زعما منهم أن لهم من الامر شيأ وأنى لهم ذلك وان الامر كله لله عز وجل أو لا يعلمون الطائف صنعه وخفايا فضله (ولما بلغ أشده) أي منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو من الوقوف ما بين الثلاثين الى الاربعين وقيل سن الشباب وقيد بأبلوغ الحلم والاول هو الاظهر لقوله تعالى (آتيناه حكما) حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل أو حكما بين الناس وفقها أو نبوة (وعلما) أي تفقها في الدين وتنكيرهما للتفخيم أي حكما وعلما لا يكتنه

كما قد يعمل بخبر الكفار اذا تواتر مثل ما يعمل بخبر المؤمنين ومن الناس من قال المراد بأهل الذكر أهل القرآن وهو بعيد لانهم كانوا طاعنين في القرآن وفي الرسول صلى الله عليه وسلم فانما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية في أن للعامي أن يرجع الى فتيا العلماء وفي أن للمجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر فبعيد لان هذه الآية خطاب مشافهة وهي واردة في هذه الواقعة المخصوصة ومتعلقة بالهم ود والنصارى على التعيين ثم بين تعالى انه لم يجعل الرسل قبله جسدا لا يأكلون الطعام وفيه احتمالات (الاول) قوله لا يأكلون الطعام صفة جسدا والمعنى وما جعلنا الانبياء ذوي جسد غير طاعمين (الثاني) وحد الجسد لارادة الجنس كانه قال ذوي ضرب من الاجساد (الثالث) انهم كانوا يقولون ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا فأجاب الله بقوله وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام فبين تعالى ان هذه عادة الله تعالى في الرسل من قبل وانه لم يجعلهم جسدا لا يأكلون بل جسدا يأكلون الطعام ولا يخلدون في الدنيا بل يموتون كغيرهم ونبه بذلك على أن الذي صار وابه رسلا غير ذلك وهو ظهور المعجزات على أيديهم وبراءتهم عن الصفات القادحة في التبليغ أما قوله تعالى ثم صدقناهم الوعد فقال صاحب الكشاف هو مثل قوله واختار موسى قومه سبعين رجلا والاصل في الوعد ومن قومه ومنه صدقوهم القتال ومن نشاء هم المؤمنون قال المفسرون المراد منه أنه تقدم وعده جل جلاله بأنه انما يهلك بعذاب الاستئصال من كذب الرسل دون نفس الرسل ودون من صدق بهم وجعل الوفاء بما وعد صدقا من حيث يكشف عن الصدق ومعنى وأهلكنا المسرفين أي بعذاب الاستئصال وليس المراد عذاب الآخرة لانا اخبرنا عما مضى وتقدم ثم بين تعالى بقوله لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم كأنه قيل لهم نعته عليهم بالقرآن في الدين والدنيا فالذي قال فيه ذكركم وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) ذكركم شرفكم وصيتكم كما قال وانه لذكر لك ولقومك (وثانيها) المراد فيه تذكرة لكم لتحذروا ما لا يحل وترغبوا فيما يحب ويكون المراد بالذكر الوعد والوعيد كما قال وذكرهان الذكرى تنفع المؤمنين (وثالثها) المراد ذكر دينكم وما يلزمكم لتفوزوا بالجنة اذا تمسكتم به وكل ذلك محتمل وقوله أفلا تعقلون كالبعث على التدبر في القرآن لانهم كانوا عقلاء فلا بد لان الخوض من لوازم الغفلة والتجرد قاطع لذلك الخوض ودفع الضرر عن النفس من لوازم العقل فلم لم يتدبروا فكانه خرج عن العقل ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم تلك الاعتراضات وكانت تلك الاعتراضات ظاهرة السقوط لان شرائط الاعجاز لما تمت في القرآن ظهر حينئذ لكل عاقل كونه معجزا وعند ذلك ظهر ان اشتغالهم بايراد تلك الاعتراضات كان لاجل حب الدنيا وحب الرياسة فيها فبالغ سبحانه في زجرهم عن ذلك فقال وكم قصمنا من قرية قال صاحب الكشاف القصم أقطع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الاجزاء بخلاف الفصم وذكر القرية وانها ظالمة وأراد أهلها توسعا للدلالة العقل على انها لا تكون ظالمة ولا مكلفة والدلالة قوله تعالى وأنشأنا بعدها قوما آخرين فالمعنى أهلكنا قوما وأنشأنا قوما آخرين وقال فلما أحسوا بأسنا الى قوله قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين وكل ذلك لا يليق الا بأهلها الذين كانوا يتصدى الرسل فكذبوهم ولولا هذه الدلائل لما جاز منه سبحانه ذكر المجاز لانه يكون ذلك موهما للكذب واختلفوا في هذا الاهلاك فقال ابن عباس المراد منه القتل بالسيوف والمراد بالقرية حضور وهي وسهول قريتان باليمن يقسب اليهما

كنهما ولا يقادر قدرهما فهما ما آتاه الله تعالى عند تكامل قواهما وكانا عبارة عن النبوة والحكم بين الناس أو عبرهما كيف لا وقد جعل إيتاؤهما جزاء لعمله عليه السلام حيث قيل (وكذلك) أي مثل ذلك الجزاء العجيب (نجزي المحسنين) أي كل من يحسن في عمله فيجب أن يكون ذلك بعد انقضاء أعماله الحسنة التي من جملتها معاناة الأحزان ١٠٣ والشدائد وقد فسر العلم بتأويل الأحاديث ولا محسنة له إلا أن يخص بعلم تأويل رؤيا الملك فإن ذلك حيث كان عند تناهي أيام البلاء صح أن يعد إيتاؤه من جملة الجزاء وأما رؤيا صاحبي السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرها في السجن بضع سنين وفي تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعار بعلية الإحسان له وتنبيه على أنه سبحانه إنما آتاه ما آتاه لكونه محسنا في أعماله متقيا في عنفوان أمره فصل جزاء الإحسان إلا الإحسان (وراودته) التي هي في بيتها) رجوع إلى شرح ما جرى عليه في منزل العزيز بعد ما أمر امرأته بإكرام مثواه وقوله تعالى وكذلك مكنا ليوسف إلى هنا اعتراض جيء به تمهيدا للقصة ليعلم السامع من أول الأمر أن ما لقيه عليه السلام من الفتن التي ستحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة وأنه عليه السلام تمكن في جميع أعماله لم يصدر عنه في حالتي السراء والضراء ما يخل بنزاهته ولا يخفى أن مدار حسن التخلص إلى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة إنما هو التمكين البالغ المفهوم من كلام العزيز فادراج الاحتراس السابق تحت الإشارة بذلك في قوله تعالى وكذلك مكنا كما فعلناه الجهورنا من التقريب فتأمل والمراد به المطالبة من راد يرود إذا جاء وذهب لطلب شيء ومنه الرائد لطلب الماء والكلأ وهي مفاعلة من واحد نحو عاطلت المدين رمدا واراوة الطيب ونظائرها مما يلزمون من أحد

الثياب وفي الحديث كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثوبين سحوليين وروى حضور بن يعث الله اليهم بيافقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر كما سلطه على أهل بيت المقدس فاستأصلهم وروى أنه لما أخذتهم السيوف نادى مناد من السماء يا ثارات الأنبياء فندموا واعترفوا بالخطأ وقال الحسن المراد عذاب الاستئصال واعلم أن هذا أقرب لأن إضافة ذلك إلى الله تعالى أقرب من إضافته إلى القاتل ثم يتقدير أن يحمل ذلك على عذاب القتل فما الدليل على قول ابن عباس ولعل ابن عباس ذكر حضور يا أحدى القرى التي أرادها الله تعالى بهذه الآية وأما قوله تعالى فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون فالمعنى لما علموا شدة عذابنا وتيقنا علم حس ومشاهدة ركضوا في ديارهم والركض ضرب الدابة بالرجل ومنه قوله تعالى اركض برجلك فيجوز أن يكونوا ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من حضرتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ويجوز أن يشبهوا في سرعة قدومهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين أما قوله لا تركضوا قال صاحب الكشاف القول محذوف فإن قلت من القائل فلعله يحتمل أن يكون بعض الملائكة ومن ثم من المؤمنين أو يكونوا خلقا يأبان يقال لهم ذلك وإن لم يقل أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعهم في دينهم أو يلهمهم ذلك فيحدثون به نفوسهم أما قوله وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم أي من العيش والرفاهية والحال الناعمة والإسراف بطر النعمة وهي الترفه أما قوله تعالى لعلكم تسئلون فهو تهكم بهم وتوبيخ ثم فيه وجوه (أحدها) أي ارجعوا إلى نعمكم ومساكنكم لعلكم تسئلون غدا عما جرى عليكم وتؤدبوا بما نالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة (وثانيها) ارجعوا كما كنتم في مجالسكم حتى تسألكم عبيدكم ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم بم تأمرون وماذا ترسمون كعادة المخدومين (وثالثها) تسألكم الناس في أنديتكم لتعاونوهم في نوازل الخطوب ويستشيرونكم في المهمات ويستفتونكم بآرائكم (ورابعها) يسألكم الوافدون عليكم والطامعون فيكم أما لأنهم كانوا أغنياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلب الثناء أو كانوا ضعفاء فقيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم وتوبيخا إلى توبيخ أما قوله تعالى فما زالت تلك دعواهم فقال صاحب الكشاف تلك إشارة إلى ياويلنا إلا هذا دعوى كانه قيل فما زالت تلك الدعوى دعواهم والدعوى بمعنى الدعوة قال تعالى وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين فإن قلت لم سميت دعوى قلت لأنهم كانوا يدعونها ويلنا فقالوا يا ويلنا أي يا ويل احضر فهذا وقتك وتلك مرفوع أو منصوب اسما أو خبرا وكذلك دعواهم قال المفسرون لم يزالوا يكررون هذه الكلمة فلم ينفعهم ذلك كقوله تعالى فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا أما قوله حتى جعلناهم حصيدا خامدين فالحصيد الزرع المحصود أي جعلناهم مثل الحصيد شبههم به في استئصالهم كما تقول جعلناهم رمادا أي مثل الرماد فإن قيل كيف يتصور جعل ثلاثة مفاعيل قلت حكم الاثنين الأخيرين حكم الواحد والمعنى جعلناهم جامعين لهذين الوصفين والمراد أنهم أهلكوا بذلك العذاب حتى لم يبق لهم حس ولا حركة وجعلوا كالحصيد والخمد واحد كما تخمد النار ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون﴾ اعلم أن فيه مسائل (المسئلة الأولى) في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان (الأول) أنه تعالى لما بين أدلة أهل القرية لاجرم تكذيبهم أتبعه بما يدل على أنه فعل ذلك عدلا منه وجزاء على ما فعلوا فقال وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين أي وما سويناهذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب والغرائب كما نرى الجماد سقوفهم وفروشهم للهو واللعب وإنما سويناها

الجانبين الفعل ومن الآخر به فان هذه الافعال وان كانت صادرة عن أحد الجانبين لكن لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر جعلت كأنها صادرة عنهما وهذا باب لطيف المسلك مبني على اعتبار دقيق تحقيقه أن سبب الشيء يقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما في قولهم كما تدين تدان ١٠٤ أي كما تجزي تجزى فان فعل البادئ وان لم يكن جزاء لكنه لكونه سببا للجزاء أطلق عليه

لفوائد دينية ودنيوية أما الدينية فليتفكر المتفكرون فيها على ما قال تعالى ويتفكرون في خلق السموات والارض وأما الدنيوية فلما يتعلق بها من المنافع التي لا تعد ولا تحصى وهذا كقوله وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا وقوله ما خلقناهما الا بالحق (والثاني) ان الغرض منه تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والرد على منكريه لانه أظهر المعجزة عليه فان كان محمد كاذبا كان اظهار المعجزة عليه من باب اللعب وذلك منفي عنه وان كان صادقا فهو المطلوب وحينئذ يفسد كل ما ذكروه من المطاعن ﴿المسئلة الثانية﴾ قال القاضي عبد الجبار دلت الآية على ان اللعب ليس من قبله تعالى اذ لو كان كذلك لكان لاعبا فان اللاعب في اللغة اسم لفاعل اللعب فنفي الاسم الموضوع للفعل يقتضي نفي الفعل (والجواب) يبطل ذلك مسئلة الداعي على ما مر غير مرة أما قولك لو أردنا أن نتخذه والاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين فاعلم أن قوله لاتخذناه من لدنا معناه من جهة قدرتنا وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل المرأة وقيل من لدنا أي من الملائكة لا من الانس رد المن قال بولادة المسيح وعزير اما قوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فاعلم أن قوله بل اضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته كأنه قال سبحانا أن نتخذ اللهو واللعب بل من عادتنا وموجب حكمتنا أن نغلب اللعب بالجد ونحض الباطل بالحق واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرا لابطاله بفعل كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو فدمغه فأماقوله تعالى ولكم الويل مما تصفون يعني من تمسك بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ونسب القرآن الى أنه سحر وأضغاث أحلام الى غير ذلك من الاباطيل وهو الذي عناه بقوله مما تصفون ﴿قوله تعالى ﴿وله من في السموات والارض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان (الاول) انه تعالى لما نفى اللعب عن نفسه ونفى اللعب لا يصح الا لمن به الحاجة ونفى الحاجة لا يصح الا بالقدرة التامة لاجرم عقب تلك الآية بقوله وله من في السموات والارض لدلالة ذلك على كمال الملك والقدرة (الثاني) وهو الاقرب انه تعالى لما حكى كلام الطاعنين في النبوات وأجاب عنها وبين أن غرضهم من تلك المطاعن التمرد وعدم الانقياد بين في هذه الآية انه تعالى منزه عن طاعتهم لانه هو الملك لجميع المحدثات والمخلوقات ولاجل ان الملائكة مع جلالتهم مطيعون له خائفون منه فابشعر مع نهاية الضعف أولى أن يطيعوه ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله وله من في السموات والارض معناه ان كل المكلفين في السماء والارض فهم عبيده وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم فيجب على الكل طاعته والانقياد لحكمه ﴿المسئلة الثالثة﴾ دلالة قوله ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته على ان الملك أفضل من البشر من ثلاثة أوجه قد تقدم بيانها في سورة البقرة ﴿المسئلة الرابعة﴾ قوله ومن عنده المراد بهم الملائكة باجماع الامة ولانه تعالى وصفهم بانهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهذا لا يليق بالبشر وهذه العندية عندية الشرف والرتبة لا عندية المكان والجهة فكأنه تعالى قال الملائكة مع كمال شرفهم ونهاية جلالتهم لا يستكبرون عن طاعته فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد عن طاعته ﴿المسئلة الخامسة﴾ قال الزجاج ولا يستحسرون ولا يتعبون ولا يعيون قال صاحب الكشاف فان قلت الاستحسار مبالغة في الحسور فكان الابلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور قلت في الاستحسار بيان ان ما هم فيه لو جميع غاية الحسور وأقصاه لرأيتهم أحقاء لتلك العبادات الشاقة بان يستحسروا فيها فيفعلون أما قوله تعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون فالمعنى ان تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفراغ أو بشغل آخر روى عن عبد الله بن الحرث بن نوفل قال قلت لكعب

اسمه وكذلك ارادة القيام الى الصلاة وارادة قراءة القرآن حيث كانتا سببا للقيام والقراءة عبر عنهما بهما فقيل اذا قمتم الى الصلاة فاذا قرأت القرآن وهذه قاعدة مطردة مستمرة ولما كانت أسباب الافعال المذكورة فيما نحن فيه صادرة عن الجانب المقابل لجانب فاعلها فان مطالبة الدائن للمماطلة التي هي من جانب الغريم وهي منه للمطالبة التي هي من جانب الدائن وكذا مداواة الطبيب للمرض الذي هو من جانب المريض وكذلك مرادوتها فيما نحن فيه لجاز يوصف عليه السلام بنزول صدورها عن محالها بمنزلة صدور مسبباتها التي هي تلك الافعال فبني الصيغة على ذلك ورجعي جانب الحقيقة بان أسند الفعل الى الفاعل وأوقع على صاحب السبب فتأمل ويجوز أن يراد بصيغة المفاعلة مجرد المبالغة وقيل الصيغة على بابها بمعنى أنها طلبت منه الفعل وهو منها الترك

ويجوز أن يكون من الرويد وهو الرفق والعمل وتعديتها بمن لتضمينها معنى المخادعة فالمعنى خادعته (عن نفسه) ارايت

أي فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن شيء لا يريد اخراجه من يده وهو يحتال أن يأخذه منه وهي عبارة عن التحيل في مواقعتها اياها والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر أو للاستهجان يذكره وايراد الموصول لتقرير ما أراوده فان كونه في بيتها مما يدعو الى

ذلك قيل لواحد مما حملك ما أنت عليه مما لا خير فيه قالت قرب الوساد وطول السواد ولاطهار كان تراه عليه السلام فان عدم سؤاله اليها
مع دوام مشاهدته لها مع انها واسعة عليها مع كونه تحت ملكتهم ينادي بكرمه عليه السلام في أعلى معارج العفة والنزاهة (وغلقت
الابواب) قيل كانت سبعة ولذلك جاء الفعل بصيغة التفعيل دون الافعال وقيل للمبالغة ١٠٥ في الايثاق والاحكام (وقالت هيت
لك) قرئ بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبناؤه كبناء أين وعيط وهيت كخير وهيت كعيط اسم فعل معناه أقبل وبادروا للام للبيان أي لك أقول هذا كما في هلم لك وقرئ هئت لك على صيغة الفعل بمعنى تهيأت يقال هاء يهيء كهاء يجيء اذا تهيأ وهيئت لك واللام صلة للفعل (قال معاذ الله) أي أعوذ بالله معاذا مما تدعوني اليه وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه واشارة الى التعليل بأنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه وماذاك الا لانه عليه السلام قد شاهد مما أراه الله تعالى من البرهان النير على ما هو عليه في حد ذاته من غاية القبح ونهاية السوء وقوله عز وجل (انه ربي أحسن مثواي) تعليل للامتناع ببعض الاسباب الخارجية مما عسى يكون مؤثرا عند هاودا عيا لها الى اعتبار بعد التنبيه على سببه الذاتي الذي لا اشكال تنبيه لما سولته له نفسها والضمير للشأن

أرأيت قول الله تعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون ثم قال جاعل الملائكة رسلا أفلا تكون تلك الرسالة
مانعة لهم عن هذا التسبيح وأين قال أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين فكيف يشتغلون
باللعن حال اشتغالهم بالتسبيح أجاب كعب الاحبار فقال التسبيح لهم كالتنفس لنا فكما أن اشتغالنا
بالتنفس لا يمنعنا من الكلام فكذا اشتغالهم بالتسبيح لا يمنعهم من سائر الاعمال فان قيل هذا القياس غير
صحيح لان الاشتغال بالتنفس بما لهيمنع من الكلام لان آلة التنفس غير آلة الكلام أما التسبيح واللعن
فهما من جنس الكلام فاجتماعهما محال والجواب أي استبعاد في أن يخلق الله تعالى لهم ألسنة
كثيرة يسبح بعضها ويسبحون الله ويسبح بعضها يلعنون أعداء الله أو يقال معنى قوله لا يفترون انهم لا يفترون عن
العزم على أدائه في أوقاته اللائق به كما يقال ان فلانا يواظب على الجماعات لا يفتر عنها الا ارادته انه أبدا
مشتغل بها بل يراد به أنه مواظب على العزم على أدائها في أوقاتها ﴿قوله تعالى﴾ ﴿أم اتخذوا آلهة من
الارض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسئل عما
يفعل وهم يسئلون أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم
لا يعلمون الحق فهم معرضون وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون﴾ اعلم
أن الكلام من أول السورة الى ههنا كان في النبوات وما يتصل بها من الكلام في الوحي والاوامر والنواهي
الآيات فانها في بيان التوحيد ونفي الاضداد والانداد أما قوله تعالى أم اتخذوا آلهة من الارض هم
ينشرون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف أم ههنا هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل
والهمزة قد أذنت بالانكار لما بعدها والانكار لما بعدها وأنكر هو اتخاذهم آلهة من الارض ينشرون
الموتى ولعمري ان من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات فان قلت كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة
ينشرون وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم بل كانوا في نهاية البعد عن هذه الدعوى فانهم كانوا مع اقرارهم
بالله وبانه خالق السموات والارض منكرين للبعث ويقولون من يحيي العظام وهي رميم فكيف يدعونه
للعباد الذي لا يوصف بالقدرة البتة قلت لانهم لما اشتغلوا بعبادتها ولا بد للعبادة من فائدة هي الثواب
فاقدامهم على عبادتها يوجب عليهم الاقرار بكونهم قادرين على الحشر والنشر والثواب والعقاب فذكر
ذلك على سبيل التهكم بهم والتجهيل يعني اذا كانوا غير قادرين على أن يحيوا ويميتوا ويثيبوا ويعاقبوا فأي
عقل يجوز اتخاذهم آلهة (المسئلة الثانية) قوله من الارض كقولك فلان من مكة أو من المدينة تريد ممكي
أو مدني اذا نسبتها الى الارض الا بدان بانها الاصنام التي تعبد في الارض لان الآلهة على ضربين
أرضية وسماوية ويجوز أن يراد آلهة من جنس الارض لانها اما أن تكون منحوتة من بعض الحجارة
أو معمولة من بعض جواهر الارض (المسئلة الثالثة) النكتة في هم ينشرون معنى الخصوصية كأنه قيل
أم اتخذوا آلهة من الارض لا يقدر على الانشار الا هم وحدهم (المسئلة الرابعة) قرأ الحسن ينشرون
وهما لغتان أنشر الله الموتى ونشرها أما قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ففيه مسئلتان (المسئلة
الاولى) قال أهل الصواب انه معنى غير أي لو كان يتولاهما سوى مدبر أمورهما شيئ غير الواحد الذي هو
فاطرهما لفسدتا ولا يجوز أن يكون بمعنى الاستثناء لانا لو حملناه على الاستثناء لكان المعنى لو كان فيهما آلهة
ليس معهم الله لفسدتا وهذا لو جب بطريق المفهوم انه لو كان فيهما آلهة معهم الله أن لا يحصل الفساد
وذلك باطل لانه لو كان فيهما آلهة فسواء لم يكن الله معهم أو كان فالفساد لازم والملزوم باطل حمله على الاستثناء
ثبت أن المراد ما ذكرناه (المسئلة الثانية) قال المتكلمون القول بوجود اثنين يفضي الى المحال فوجب

(١٤ - خطيب) ومبادروضعه وضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصدير الجملة به الايذان بفخامة مضمونها مع ما فيه
من زيادة تقريره في الذهن فان الضمير لا يفهم منه من أول الامر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن متوقفا بالما بعقبه فيتمكن عند وروده له
فضل تمكن فكأنه قيل ان الشأن الخطير هذا وهو ربي أي سيدي العزيز أحسن مثواي أي أحسن ثوائي حيث أمرك باكرامي

فكيف يمكن أن أسيء الظن بالله في حرمه وفيه ارشاد لها الى رعاية حق العزيز بالطف وجه وقيل الضمير لله عز وجل وربي خير ان وأحسن معنى خبر ثان أو هو الخبر والاول بدل من الضمير والمعنى ان الحال هكذا فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة وفيه تحذير لها من عقاب الله عز وجل ١٠٦ وعلى التقديرين ففي الاقتصار على ما ذكر هذا لها تنبيه غير تعرض لاقتضائها الامتناع

عما دعته اليه بايذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية في الدلالة على استحالته وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلا وقوله تعالى (انه لا يفلح الظالمون) تعليل للامتناع المذكور غب تعليل والفلاح الظفر وقيل البقاء في الخير ومعنى الظلم دخل فيه كما صح واخواته والمراد بالظالمين كل من ظلم كائنا من كان فيدخل في ذلك المجازون للاحسان بالاساءة والعصاة لامر الله تعالى دخولا أوليا وقيل الزناة لانهم ظالمون لانفسهم ولمازني بأهله (ولقد همت به) بمقارفة الفاحشة اذالهم لا يتعلق بالاعيان أي قصدتها وعزمت عليها عزما جازما لا يلوي عنه صارف بعد ما باشرت مباديها وفعلت ما فعلت من المراودة وتغليق الابواب ودعوته عليه السلام الى نفسها بقولها هيت لك ولعلها قصدت هنالك لافعال أخر من بسط يدها اليه وقصد المعانقة وغير ذلك مما يضطره عليه السلام الى الهرب نحو الباب والتأكيد لدفع ما عسى يتوهم من احتمال اقلاعها عما كانت عليه بما في مقالته موجودين عليه السلام من الزواجر (وهم بها) بمقارفتها أي مال اليها بمقتضى الطبيعة البشرية وشوهوة الشباب وقرمه ميلا جبليا لا يكاد يدخل تحت التكليف لانه قصد واقصد الختيار با ألا يرى الى ما سبق من استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته له ونفرته عنه وحكمه بعدم افلاح

أن يكون القول بوجود الهين محالا انما قلنا انه يفضي الى المحال لانا لو فرضنا وجودالهين فلابد وأن يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات لو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه فلو فرضنا ان أحدهما أراد تحريكه والآخر تسكينه فاما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أو لا يقع واحد منهما وهو محال لان المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا الا عند وجود مراد ذلك وبالعكس فلو امتنع مالو جد لما وقع ذلك محال أو يقع مراد أحدهما دون الثاني وذلك محال أيضا لوجهين (أحدهما) انه لو كان كل واحد منهما قادرا على ما لا نهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر بل لابد وأن يستويا في القدرة واذا استويا في القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثاني والا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح (وثانيهما) انه اذا وقع مراد أحدهما دون الآخر فالذي وقع مراده يكون قادرا والذي لم يقع مراده يكون عاجزا والعجز نقص وهو على الله محال فان قيل الفساد انما يلزم عند اختلافهما في الارادة وأنتم لا تدعون وجوب اختلافهما في الارادة بل أقصى ما تدعونه ان اختلافهما في الارادة ممكن فاذا كان الفساد مبنيا على الاختلاف في الارادة وهذا الاختلاف ممكن والمبني على الممكن ممكن فكان الفساد ممكنا لا واقعا فكيف جزم الله تعالى بوقوع الفساد قلنا الجواب من وجهين (أحدهما) لعله سبحانه أجرى الممكن مجرى الواقع بناء على الظاهر من حيث ان الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب (والثاني) وهو الاقوى أن نبين لزوم الفساد لا من الوجه الذي ذكرناه بل من وجه آخر فنقول لو فرضنا الهين لكان كل واحد منهما قادرا على جميع المقدورات فيفضي الى وقوع مقدور بين مستحيلين من وجه واحد وهو محال لان استناد الفعل الى الفاعل لامكانه فاذا كان كل واحد منهما مستقلا بالايجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل اسناده الى هذا لكونه حاصلا منهما جميعا فيلزم استغناؤه عنهما معا واحتياجه اليهما معا وذلك محال وهذه بحمد الله تامة في مسئلة التوحيد فنقول القول بوجود الالهين يفضي الى امتناع وقوع المقدور لواحد منهما واذا كان كذلك وجب أن لا يقع البتة وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعا أو نقول لو قدرنا الهين فاما أن يتفقا أو يختلفا فان اتفقا على الشيء الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومرادهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال وان اختلفا فاما أن يقع المرادان أو لا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الآخر والكل محال فثبت ان الفساد لازم على كل التقديرات فان قلت لم لا يجوز ان يتفقا على الشيء الواحد ولا يلزم الفساد لان الفساد انما يلزم لو أراد كل واحد منهما أن يوجده وهو هذا الخلاف أما اذا أراد كل واحد منهما أن يكون الموجد له أحدهما بعينه فهناك لا يلزم وقوع مخلوق بين خالقين قلت كونه موجدا له اما أن يكون نفس القدرة أو ارادة أو نفس ذلك الاثر أو أمرا ثالثا فان كان الاول لزم الاشتراك في القدرة والارادة والاشتراك في الموجد ان كان الثاني فليس وقوع ذلك الاثر بقدرة أحدهما وارادته أولى من وقوعه بقدرة الثاني لان لكل واحد منهما ارادة مستقلة بالتأثير وان كان الثالث وهو أن يكون الموجد له أمرا ثالثا فذلك الثالث ان كان قديما استحال كونه متعلق الارادة وان كان حادثا فهو نفس الاثر ويصير هذا القسم هو القسم الثاني الذي ذكرناه واعلم انك لما وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت ان جميع ما في هذا العالم العلوي والسفلي من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى بل وجود كل واحد من الجواهر والاعراض دليل تام على التوحيد من الوجه الذي بيناه وهذه الدلالة قد ذكرها الله تعالى في مواضع من كتابه واعلم ان ههنا أدلة أخرى على وحدانية الله تعالى (أحدها) وهو الاقوى أن يقال لو فرضنا

الظالمين وهل هو الاستحالة المقصود لهم منه عليه السلام تسجيلا محكما وانما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه في صحبة همها في الذكر بطريق المشاكلة لا لشبهه به كما قيل ولقد أشير الى تباينهما حيث لم يلزا في قرن واحد من التعبير بأن قيل ولقد هما بالمخالطة أو هم كل منهما بالآخر وصدر الاول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمي وعقب الثاني ١٠٧ بما يفوأثره من قوله عز وجل

(ولولا أن رأى برهان ربه)
أي حجته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا وسوء سبيله والمراد بريه ما له كمال ايقانه بها ومشاهدته لها مشاهدة واصلة الى مرتبة عين اليقين الذي تتجلى هناك حقائق الاشياء بصورها الحقيقية وتطلع عن صورها المستعارة التي بها تظهر في هذه النشأة على ما نطق به قوله عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنا بموجب ذلك البرهان النير على ما هو عليه في حد ذاته أقبح ما يكون وأوجب ما يجب أن يحذر منه ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام والحكم بعدم افلاح من يرتكبه وجواب لولا محذوف بدل عليه الكلام أي لولا مشاهدته برهان ربه في شأن الزنا لجرى على موجب ميله الجبلي ولكنه حيث كان مشاهدا له من قبل استمر على ما هو عليه من قضية البرهان وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام لم يكن لعدم مساعد من جهة طبيعته بل لمحض العفة والتزاهة مع وفور الدواعي الداخلية وترتيب المقدمات الخارجية الموجبة لظهور الاحكام الطبيعية هذا وقد نص أئمة الصناعة على ان لولا في أمثال هذه المواقع جارية من حيث المعنى لا من حيث الصيغة مجرى التقييد للحكم المطلق كما في مثل قوله تعالى ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها فلا يتحقق هناك هم

موجودين واجبي الوجود لذاتهم مما فلا بد وأن يشتركا في الوجود ولا بد وأن يمتاز كل واحد منهما عن الآخر بنفسه وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيكون كل واحد منهما مركبا مما به يشارك الآخر ومما به امتاز عنه وكل مركب فهو مفتقر الى جزئه وجزؤه غيره فكل مركب فهو مفتقر الى غيره وكل مفتقر الى غيره ممكن لذاته فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود لذاته هذا خلف فاذن واجب الوجود ليس الا الواحد وكل ما عداه فهو ممكن مفتقر اليه وكل مفتقر في وجوده الى الغير فهو محدث فكل ما سوى الله تعالى محدث وممكن جعل هذه الدلالة تفسيرا لهذه الآية لانا نفاد للناعلى انه يلزم من فرض موجودين واجبين أن لا يكون شيء منهما واجبا واذا لم يوجد الواجب لم يوجد شيء من هذه الممكنات وحينئذ يلزم الفساد فثبت انه يلزم من وجود الهين وقوع الفساد في كل العالم (وثانيها) انا لو قدرنا الهين لوجب أن يكون كل واحد منهما مشاركا للآخر في الالهية ولا بد وأن يتميز كل واحد منهما عن الآخر بأمر ما والا لما حصل التعدد بقي به الممايزة اما أن يكون صفة كمال أو لا يكون فان كان صفة كمال فالمسمى عنه يكون خاليا عن الكمال فيكون ناقصا والناقص لا يكون الها وان لم يكن صفة كمال فالموصوف به يكون موصوفا بما لا يكون صفة كمال فيكون ناقصا وممكن أن يقال ما به الممايزة ان كان معتبرا في تحقق الالهية فالخالي عنه لا يكون الها وان لم يكن معتبرا في الالهية لم يكن الاتصاف به واجبا فيفتقر الى المخصص فالموصوف به مفتقر وممتاج (وثالثها) أن يقال لو فرضنا الهين لكان لا بد وأن يكونا بحيث يتمكن الغير من التمييز بينهما لكن الامتياز في عقولنا لا يحصل الا بالتباين في المكان أو في الزمان أو في الوجوب والامكان وكل ذلك على الاله محال فيمتنع حصول الامتياز (ورابعها) ان أحد الالهين اما أن يكون كافيا في تدبير العالم أو لا يكون فان كان كافيا كان الثاني ضائعا غير محتاج اليه وذلك نقص والناقص لا يكون الها (وخامسها) ان العقل يقتضي احتياج المحدث الى الفاعل ولا امتناع في كون الفاعل الواحد مدبرا لكل العالم فأما ما وراء ذلك فليس عدد أولى من عدد فيفضي ذلك الى وجود أعداد لا نهاية لها وذلك محال فالقول بوجود الآلهة محال (وسادسها) أن أحد الالهين اما أن يقدر على أن يخص نفسه بدليل يدل عليه ولا يدل على غيره أو لا يقدر عليه والاول محال لان دليل الصانع ليس الا بالمحدثات وليس في حدوث المحدثات ما يدل على تعيين أحدهما دون الثاني والثاني محال لانه يفضي الى كونه عاجزا عن تعريف نفسه على التعيين والعاجز لا يكون الها (وسابعها) ان أحد الالهين اما أن يقدر على أن يسترشيء من أفعاله عن الآخر أو لا يقدر فان قدر لزم أن يكون المستور عنه جاهلا وان لم يقدر لزم كونه عاجزا (وثامنها) لو قدرنا الهين لكان مجموع قدرتهما بينهما أقوى من قدرة كل واحد منهما وحده فيكون كل واحد من القدرتين متناهيا والمجموع ضعف المتناهي فيكون الكل متناهيا (وتاسعها) العدد ناقص لاحتياجه الى الواحد والواحد الذي يوجد من جنسه عدد ناقص ناقص لان العدد أزيد منه والناقص لا يكون الها فالاله واحد لا محالة (وعاشرها) انا لو فرضنا عددا ممكن الوجود ثم قدرنا الهين فان لم يقدر واحد منهما على ايجاده كان كل واحد منهما عاجزا والعاجز لا يكون الها وان قدر أحدهما دون الآخر فهذا الآخر يكون الها وان قدرا جميعا فاما ان يوجداه بالتعاون فيكون كل واحد منهما محتاجا حالة الاجتماع الى اعانة الآخر وان قدر كل واحد على ايجاده بالاستقلال فاذا أوجده أحدهما فاما أن يبقى الثاني قادرا عليه وهو محال لان ايجاد الموجود محال وان لم يبق فحينئذ يكون الاول قد أزال قدرة الثاني وعجزه فيكون متقدما بالصفة تصرفه فلا يكون الها فان قيل الواحد اذا أوجد مقدوره تقدرت قدرته عنه فيلزم كونه عاجزا قلنا الواحد اذا أوجد فقد نفذت قدرته فنفاذ القدرة لا يكون عجزا

أصلا وقد جوزان يكون وهم جواب لولا جريا على قاعدة الكوفيين فى جواز التقديم فالمعنى حينئذ على معناه الحقيقى فالمعنى لولا أنه قد شاهد برهان ربه لهم بها كما هممت به ولكن حيث انتفى عدم المشاهدة بدليل استعصامه وما يتفرع عليه انتفى الهم رأسا هذا وقد فسر همه عليه السلام بأنه

حل الهميان وجلس مجلس الختان وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها ورؤيته للبرهان بأنه سمع صوتا اباك واباها فلم يكترث ثم وثم الى أن تمثل له يعقوب عليه السلام عاضا على أنامله وقيل ضرب على صدره فخرجت شهوته من أنامله وقيل بدت كف فيما بينهما ليس فيها عضو ولا معصم مكتوب فيها وان عليكم لحافظين كراما كاتبين فلم ينصرف ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا فلم ينته ثم رأى فيها واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فلم يرجع فقال الله عز وجل لجبريل ادرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة فلحظ جبريل عليه السلام وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب فى ديوان الانبياء وقيل رأى تمثال العزيز وقيل وقيل الى كل ذلك الأخر فان وأباطيل فمعها الآذان وترد بها العقول والاذهان ويل لمن لاكها ولفقها أو سمعها وسيدفها (كذلك) الكاف منصوب المحل وذلك اشارة الى الارائة المدلول عليها بقوله تعالى لولا أن رأى برهان ربه أى مثل ذلك التصوير والتعريف عرفناه برهاننا فيما قبل أوالى التثبيت اللازم له أى مثل ذلك التثبيت ثبتناه (لنصرف عنه السوء) على الاطلاق فيدخل فيه خيانة السيد خولا أوليا (والفحشاء) والزنا لانه مفرط فى القبح وفيه آية بينة وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجهها البتة ولا لقبل لنصرفه عن

أما الشريك فانه لما انفلت قدرته لم يبق لشريكه قدرة البتة بل زالت قدرته بسبب قدرة الاول فيكون تعجيزا (الحادى عشر) أن نشير هذه الدلالة على وجه آخر وهو أن نبين جسما ونقول هل يقدر كل واحد منهما على خلق الحركة فيه بدلا عن السكون وبالعكس فان لم يقدر كان عاجزا وان قدر فنسوق الدلالة الى أن نقول اذا خلق أحدهما فيه حركة امتنع على الثانى خلق السكون فالاول أزال قدرة الثانى وعجزه فلا يكون الها وهذان الوجهان يفيدان العجز نظرا الى قدرتيهما والدلالة الاولى افادت العجز بالنظر الى ارادتيهما (وثانى عشرها) انهما لما كانا عالمين بجميع المعلومات كان علم كل واحد منهما متعلقا بعين معلوم الآخر فوجب تماثل علميهما والذات القابلة لاحد المثلين قابلة للمثل الآخر فاختصاص كل واحد منهما بتلك الصفة مع جواز اتصافه بصفة الآخر على البدل يستدعى مخصصا يخصص كل واحد منهما بعلمه وقدرته فيكون كل واحد منهما عاجزا فقيرا ناقصا (وثالث عشرها) ان الشركة عيب ونقص فى الشاهد والفردانية والتوحد صفة كمال ونرى الملوك يكرهون الشركة فى الملك الحقير المختصر أشد الكراهية ونرى انه كلما كان الملك أعظم كانت النفرة عن الشركة أشد فما ظنك بملك الله عز وجل وملكوته فلو أراد أحدهما استخلاص الملك لنفسه فان قدر عليه كان المغلوب فقيرا عاجزا فلا يكون الها وان لم يقدر عليه كان فى أشد الغم والكراهية فلا يكون الها (ورابع عشرها) انا لو قدرنا الهين لكان اما أن يحتاج كل واحد منهما الى الآخر أو يستغنى كل واحد منهما عن الآخر أو يحتاج أحدهما الى الآخر والآخر يستغنى عنه فان كان الاول كان كل واحد منهما ناقصا لان المحتاج ناقص وان كان الثانى كان كل واحد منهما مستغنيا عنه والمستغنى عنه ناقص الا ترى ان البلد اذا كان له رئيس والناس يحصلون مصالح البلد من غير رجوع منهم اليه ومن غير التفات منهم اليه عد ذلك الرئيس ناقصا فالاله هو الذى يستغنى به ولا يستغنى عنه وان احتاج أحدهما الى الآخر من غير عكس كان المحتاج ناقصا والمحتاج اليه هو الاله واعلم أن هذه الوجوه طنية اقناعية والاعتماد على الوجوه المتقدمة أما الدلائل السمعية فمن وجوه (أحدها) قوله تعالى هو الاول والآخر والظاهر والباطن فالاول هو الفرد السابق ولذلك لو قال أول عبد اشتريته فهو حر فلو اشترى أولا عبدين لم يحنث لان شرط الاول أن يكون فردا وهذا ليس بفرد فلو اشترى بعد ذلك واحدا لم يحنث أيضا لان شرط الفرد أن يكون سابقا وهذا ليس بسابق فما وصف الله تعالى نفسه بكونه أولا وجب أن يكون فردا سابقا فوجب أن لا يكون له شريك (وثانيها) قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو فالنص يقتضى أن لا يكون أحد سواه عالما بالغيب ولو كان له شريك لكان عالما بالغيب وهو خلاف النص (وثالثها) ان الله تعالى صرح بكلمة لا اله الا هو فى سبعة وثلاثين موضعا من كتابه وصرح بالوحدانية فى مواضع نحو قوله وإلهكم إله واحد وقوله قل هو الله أحد وكل ذلك صريح فى الباب (ورابعها) قوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه حكم بهلاك كل ما سواه ومن عدم بعد وجوده لا يكون قديما ومن لا يكون قديما لا يكون الها (وخامسها) قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وهو كقوله ولعلا بعضهم على بعض وقوله اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا (وسادسها) قوله وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شئ قدير ولو كان له شريك لكان ذلك الشريك حاليا للنفع ودافعا للضر فبطل الحصر المذكور فى الآية وقال فى آية أخرى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله وقال فى آية أخرى قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته (وسابعها) قوله تعالى قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم

السوء والفحشاء وانما توجه اليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتأمل وقرئ ليصرف على اسناد الصرف الى ضمير الرب (انه من عبادنا المخلصين) تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق والمخلصون هم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته بأن عصمهم عما هو فادح فيها وقرئ على صيغة الفاعل وهم الذين ١٠٩ أخلصوا دينهم لله سبحانه وعلى كلا المعنيين فهو منتظم في سلكهم داخل في زمرتهم من أول أمره بمقتضى الجملة الاسمية لان ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك فالحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء عنه عليه السلام بالكلية (واستبقا الباب) متصل بقوله ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وقوله كذلك الى آخره اعتراض جيء به بين المعطوفين تقريرا لنزاهته عليه السلام كقوله تعالى وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض والمعنى لقد هممت به وأبى هو واستبقا الباب أي تسابقا الى الباب البراني الذي هو المخلص ولذلك وحد بعد الجمع فيما سلف وحذف حرف الجر وأوصل الفعل الى المجرور ضمنوا ذا كالوهم أو ضمن الاستباق معنى الابتدار واسناد السبق في ضمن الاستباق اليهما مع ان مرادها مجرد منع يوسف وذا لا يوجب الانتهاء الى الباب لانها انما أرادت أنه يسرع الى الباب ليتخلص منها أسرعت هي أيضا فتقدمته عليه وشقت القميص

على قلوبكم من الله غير الله يأتيكم به وهذا الحصر يدل على نفي الشريك (وثانيها) قوله تعالى الله خالق كل شئ فلو وجد الشريك لم يكن خالقا فلم يكن فيه فائدة واعلم أن كل مسئلة لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليها فانه يمكن اثباتها بالسمع والوحدانية لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليهم افلا جرم يمكن اثباتها بالدلائل السمعية واعلم أن من طعن في دلالة التمانع فسر الآية بأن المراد لو كان في السماء والارض آلهة تقول بالهيتهم عبيدة الاوثان لزم فساد العالم لانها جمادات لا تقدر على تدبير العالم فيلزم فساد العالم قالوا وهذا أولى لانه تعالى حكى عنهم قولهم أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب أن يختص الدليل به وبالله التوفيق أما قوله تعالى فسبحان الله رب العرش عما يصفون ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) انه سبحانه لما أقام الدلالة القاطعة على التوحيد قال بعده فسبحان الله رب العرش عما يصفون أي هو منزه لاجل هذه الادلة عن وصفهم بأن معه آلهة اخر بل تنبيه على ان الاشتغال بالتسبيح انما ينفع بعد اقامة الدلالة على كونه تعالى منزها وعلى أن طريقة التقليد طريقة مهجورة (المسئلة الثانية) اقائل أن يقول أي فائدة لقوله فسبحان الله رب العرش عما يصفون ولم يكتف بقوله فسبحان الله عما يصفون وجوابه ان هذه المناظرة انما وقعت مع عبدة الاصنام الا أن الدليل الذي ذكره الله تعالى يعم جميع المخالفين ثم انه تعالى بعد ذكر الدليل العام نبه على نكتة خاصة بعبدة الاصنام وهي انه كيف يجوز للعاقل أن يجعل الجماد الذي لا يعقل ولا يحس شريكا في الالهية للحي العرش العظيم وهو موجد السموات والارضين ومدبر الخلائق من النور والظلمة والروح والقلم والذات والصفات والجماد والنبات وأنواع الحيوانات أجمعين أما قوله تعالى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فاعلم أنه مشتمل على بحثين (أحدهما) ان الله تعالى لا يسئل عن شئ من أفعاله ولا يقال له لم فعلت (والثاني) أن الخلائق مسؤلون عن أفعالهم وأما البحث الاول ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) وجه تعلق هذه الآية بما قبلها ان عبدة الاصنام لما أثبتوا لله شريكا ليست الاطالب الالهية في أفعال الله تعالى وذلك لان الثنوية والمجوس وهم الذين أثبتوا الشريك لله تعالى قالوا لولا أن لي النافي العالم خيرا وشرا ولذة وألما وحياة وموتا وصحة وسقما وغنى وفقرا وفاعل الخير خير وفاعل الشر شرير ويستحيل أن يكون الفاعل الواحد خيرا وشرا مع انا فلا بد من فاعلين ليكون أحدهما فاعلا للخير والآخر فاعلا للشر ويرجع حاصل هذه الشبهة الى أن مدبر العالم لو كان واحدا لما خص هذا بالصحة والغنى وخص ذلك بالموت والالم والفقر فير جع حاصله الى طلب اللية في أفعال الله تعالى فلما كان مدار أمر القائلين بالشريك على طلب اللية لا جرم انه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الدليل على التوحيد ذكر ما هو النكتة الاصلية في الجواب عن شبهة القائلين بالشريك لان الترتيب الجيد في المناظرة أن يقع الابتداء بذكر الدليل المثبت للمطلوب ثم يذكر بعده ما هو الجواب عن شبهة الخصم (المسئلة الثانية) في الدلالة على انه سبحانه لا يسئل عما يفعل أما أهل السنة فانهم استدلوا عليه بوجوه (أحدها) انه لو كان كل شئ معللا لعلة لكانت علية تلك العلة معللة بعلة أخرى ويلزم التسلسل فلا بد في قطع التسلسل من الانتهاء الى ما يكون غنيا عن العلة وأولى الاشياء بذلك ذات الله تعالى وصفاته وكما ان ذاته منزهة عن الافتقار الى المؤثر والعلة وصفاته مبرأة عن الافتقار الى المبدع والمخصص فكذا فاعليته يجب أن تكون منقدسة عن الاستناد الى الموجب والمؤثر (وثانيها) أن فاعليته لو كانت معللة بعلة لكانت تلك العلة اما أن تكون واجبة أو ممكنة فان كانت واجبة لزم من وجوبها وجوب كونه فاعلا وحينئذ يكون موجبا بالذات لا فاعلا بالاختيار وان كانت ممكنة كانت تلك العلة فعلا لله تعالى أيضا فتفتقر فاعليته لتلك العلة الى علة أخرى ولزم التسلسل وهو محال (وثالثها) ان علة

اليه وتمنعه عن الفتح والخروج أو يعبر عن اسراعها أثر ذلك مبالغة (وقدت قميصه من دبر) اجتذبته من وراء فانشق طولا وهو القد كما أن الشق عرضا هو القط وقد قيل في وصف علي رضي الله عنه انه كان اذا اعتلى قدا واذا اعترض قطا واسناد القد اليها خاصة مع أن القوة يوسف أيضا خلافه اما لانها الجزء الاخير للعلة التامة واما للايذان بما التهما في منعه عن الخروج وبذل مجهودها في ذلك لقوت المجهود

أرخلوف الافتضاح (وألفيا باسيدها) أى صادفا زوجها وألفيا بمعنى وجدا (لدى الباب) أى الجوانى كما مر وروى كعب رضى الله عنه أنه لما هرب يوسف عليه السلام جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الابواب (قالت) استئناف مبنى على سؤال سائل يقول فماذا كان حين ألفيا العزيز عند الباب فقيل قالت (ما جزاء من أراد بأهلك سوأ) من الزنا ونحوه (الا أن يسجن أو عذاب أليم) ما نافية أى ليس جزاؤه الا السجن أو العذاب الاليم قيل المراد به الضرب بالسياط أو استقهامية أى أى شئ جزاؤه غير ذلك أو ذلك ولقد أتت فى تلك الحالة التى تدهش فيها الفطن حيث شاهدها العزيز على تلك الهيئة المريبة بحيث لم تجمع فيها غرضيها وهما تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر الحال واستنزال يوسف عن رأيه فى استعصائه عليها وعدم مواتاته على مرادها بالقاء الرعب فى قلبه من مكرها حاسما فى مواد عتها كرها عندياسها عن ذلك اختيارا كما قالت ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ثم انها جعلت صدر الارادة المذكورة عن يوسف عليه السلام أمرا محققا مفروغا عنه غنيا عن الاخبار بوقوعه وأن ما هى عليه من الافاعيل لاجل تحقيق جزائها هى

فاعلية الله تعالى للعالم ان كانت قديمة لزم أن تكون فاعليته للعالم قديمة فيلزم قدم العالم وان كانت محدثة افتقرت الى علة أخرى ولزم التسلسل (ورابعها) ان من فعل فعلا لغرض فاما أن يكون متمكنا من تحصيل ذلك الغرض بدون تلك الواسطة أو لا يكون متمكنا منه فان كان متمكنا منه كان توسط تلك الواسطة عبثا وان لم يكن متمكنا منه كان عاجزا والعجز على الله تعالى محال أما اذا لم يجز علينا فغير ممتنع فلذلك كانت أفعالنا معللة بالاغراض وكل ذلك فى حق الله تعالى محال (وخامسها) انه لو كان فعله معللا بغرض لكان ذلك الغرض اما أن يكون عائدا الى الله تعالى أو الى العباد والاول محال لانه منزه عن النفع والضر واذا بطل ذلك تعين أن الغرض لابد وأن يكون عائدا الى العباد ولا غرض للعباد الا حصول اللذات وعدم حصول الآلام والله تعالى قادر على تحصيلها ابتداء من غير شئ من الوسائط واذا كان كذلك استحال أن يفعل شيأ لاجل شئ (وسادسها) هو انه لو فعل فعلا لغرض لكان وجود ذلك الغرض وعدمه بالنسبة اليه اما أن يكون على السواء أو لا يكون فان كان على السواء استحال أن يكون غرضا وان لم يكن على السواء لزم كونه تعالى ناقصا بذاته كاملا بغيره وذلك محال * فان قلت وجود ذلك الغرض وعدمه وان كان بالنسبة اليه على السواء اما بالنسبة الى العباد فالوجود أولى من العدم قلنا تحصيل تلك الاولوية للعبد وعدم تحصيلها له اما أن يكون بالنسبة اليه على السوية أو لا على السوية ويعود التقسيم الاول (وسابعها) وهو ان الموجود اما هو سبحانه أو ملكه وملكه ومن تصرف فى ملك نفسه لا يقال له لم فعلت ذلك (وثامنها) وهو أن من قال لغيره لم فعلت ذلك فهذا السؤال انما يحسن حيث يحتمل أن يقدر السائل على منع المسؤل منه عن فعله وذلك من العبد فى حق الله تعالى محال فانه لو فعل أى شئ فعل شاء فلا يعبد كيف يمنعه عن ذلك اما بان يهدده بالعقاب والايلام وذلك على الله تعالى محال أو بان يهدده باستحقاق الذم والخروج عن الحكمة والاتصاف بالسفاهة على ما يقوله المعتزلة وذلك أيضا محال لان استحقاقه للمدح واتصافه بصفات الحكمة والجلال أمور ذاتية له وما ثبت للشئ لذاته يستحيل أن يتبدل لاجل تبدل الصفات العرضية الخارجية فثبت بهذه الوجوه انه لا يجوز أن يقال لله فى أفعاله لم فعلت هذا الفعل فان كل شئ صنعه ولا علة لصنعه وأما المعتزلة فانهم سلموا انه لا يجوز أن يقال لله لم فعلت هذا الفعل ولكنهم يتوصلون بذلك على أصل آخر وهو انه تعالى عالم بقبح القبائح وعالم بكونه غنيا عنها ومن كان كذلك فانه يستحيل أن يفعل القبيح ولما عرفت ذلك عرفنا اجمالا أن كل ما يفعله الله تعالى فهو حكمة وصواب واذا كان كذلك لم يجز للعبد أن يقول لله لم فعلت هذا (أما البحث الثانى) وهو قوله تعالى وهم يسئلون فهو ايدال على كون المكلفين مسؤلين عن أفعالهم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ان الكلام فى هذا السؤال اما فى الامكان العقلى أو فى الوقوع السمعى أما الامكان العقلى فانه لا خلاف فيه مع منكرى التكاليف واحتجوا على قولهم بوجوه (أحدها) قالوا التكليف اما أن يتوجه على العبد حال استوداعيته الى الفعل والترك أو حال رجحان أحدهما على الآخر والاول محال لان حال الاستواء يمتنع الترجيح وحال امتناع الترجيح يكون التكليف بالترجيح تكليفا بالمحال والثانى محال لان حال الرجحان يكون الراجح واجب الوقوع والمرجوح ممتنع الوقوع والتكليف بايقاع ما يكون واجب الوقوع عبث وبايقاع ما هو ممتنع الوقوع تكليف بما لا يطاق (وثانيها) قالوا كل ما علم الله وقوعه فهو واجب الوقوع فيكون التكليف به عبثا وكل ما علم الله تعالى عدمه كان ممتنع الوقوع فيكون التكليف به تكليفا بما لا يطاق (وثالثها) قالوا سؤال العبد اما أن يكون لفائدة أولا لفائدة فان كان لفائدة فتلك الفائدة ان عادت الى الله تعالى كان محتاجا وهو محال وان عادت الى العبد فهو محال لان سؤاله لما كان سببا لتوجيه

تزيد ايقاعه حسبما يقتضيه قانون الامثال وفى ايهام المريد تهويل شأن الجزاء المذكور بكونه قانونا مطردا فى حق كل أحد كائنا من كان وفى ذكر نفسها بعنوان أملة العزيز اعظام للخطب واغراء له على تحقيق ما نوخاه بحكم الغضب والحمية (قال) استئناف وجواب عما يقال فماذا قال يوسف حينئذ فقيل قال (هى راودتنى عن نفسى) أى طالبتنى لمواتاتها لانى أردت بها سوأ كما

العقاب

قالت وانما قاله عليه السلام لتبرئ به نفسه عما أسند اليه من الخيانة وعدم معرفة حق السيد ودفع ما عرضه له من الامرين الاخيرين وفى التعبير عنها بضمير الغيبة دون الخطاب أو اسم الاشارة مراعاة لحسن الادب مع الاعراض عنها الى الاعتراض على الملك (وشهد شاهد من أهلها) قيل هو ابن عمها وقيل هو الذى كان حاضرا مع زوجها لدى الباب وقيل كان حكيما يرجع اليه الملك ويستشيره وقد جوز أن يكون بعض أهلها قد

العقاب عليه لم يكن هذا نفيا عائدا الى العبد بل ضررا عائدا اليه وان لم يكن فى السؤال فائدة كان عبثا وهو غير جائز على الحكيم بل كان اضرارا وهو غير جائز على الرحيم والجواب عنهما من وجهين (الاول) ان غرضكم من ايراد هذه الشبهة النافية للتكليف أن تلزمونا نفى التكليف فكانكم تكافوننا نفى التكليف وهو متناقض (والثانى) وهو ان مدار كلامكم فى هذه الشبهات على حرف واحد وهو أن التكاليف كلها تكاليف بما لا يطاق فلا يجوز من الحكيم أن يوجهها على العباد فير جع حاصل هذه الشبهات الى أنه يقال له تعالى لم كلفت عبادك الا أنا قد بينا انه سبحانه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فظاهر بهذا ان قوله لا يسئل عما يفعل كالاصل والقاعدة لقوله وهم يسئلون فتأمل فى هذه الدقائق العجيبة لتقف على طرف من أسرار علم القرآن وأما الوقوع السمعى فلقائل أن يقول ان قوله وهم يسئلون وان كان متأكدا بقوله فوربك لنسئلنهم أجمعين وبقوله وقفوهم انهم مسئولون الا أنه يناقضه قوله فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان والجواب ان يوم القيامة يوم طويل وفيه مقامات فيصرف كل واحد من السلب والايجاب الى مقام آخر دفعا للتناقض (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة فيه وجوه (أحدها) انه تعالى لو كان هو الخالق للحسن والقبيح لوجب أن يسئل عما يفعل بل كان يذم بما حقه الذم كما يحمد بما حقه المدح (وثانيها) انه كان يجب أن لا يسئل عن الامور اذا كان لا فاعل سواه (وثالثها) انه كان لا يجوز أن يسئلوا عن عمائهم اذ لا عمل لهم (ورابعها) ان أعمالهم لا يمكنهم أن يعدلوا عنها من حيث خلقها وأوجدها فيهم (وخامسها) انه تعالى صرح فى كثير من المواضع بانه يقبل حجة العباد عليه كقوله رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وهذا يقتضى أن لهم عليه الحجة قبل بعثة الرسل وقال ولولا أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ونظائر هذه الآيات كثيرة وكلها تدل على ان حجة العبد متوجهة على الله تعالى (وسادسها) قال ثمامة اذا وقف العبد يوم القيامة فيقول الله تعالى ما حملك على معصيتى فيقول على مذهب الجبر يارب انك خلقتنى كافرا وأمرتنى بما لا أقدر عليه وحلت بينى وبينه ولا شك انه على مذهب الجبر يكون صادقا وقال الله تعالى هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم فوجب أن ينقطع هذا الكلام فقيل له ومن يدعه يقول هذا الكلام أو يصيح فقال ثمامة أليس اذا منعه الله الكلام والحجة فقد علم انه منعه مما لو لم يمنعه منه لا تقطع فى يده وهذا نهاية الانقطاع (والجواب) عن هذه الوجوه أنها معارضة بمسئلة الداعى ومسئلة العلم ثم بالوجوه المائية التى بنا فيها انه يستحيل طلب لمية أفعال الله تعالى وأحكامه وأما قوله تعالى أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم فاعلم انه سبحانه كرر قوله أم اتخذوا من دونه آلهة استعظاما لما لكمرهم أى وصفتم الله بأن له شريكا فهاتوا برهانكم على ذلك اما من جهة العقل أو من جهة النقل فانه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد أولا وقرر الاصل الذى عليه تخريج شبهات القائلين بالتثنية ثانيا أخذ يطالبهم بذكر شبهتهم ثالثا أما قوله تعالى هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى تفسيره وفيه أقوال (أحدها) هذا ذكر من معى أى هذا هو الكتاب المنزل على من معى وهذا ذكر من قبلى أى الكتاب المنزل على من تقدمنى من الانبياء وهو التوراة والانجيل والزبور والصحف وليس فى شئ منها أنى أذنت بأن تتخذوا الها من دونى بل ليس فيها الا الى أنا الله لا الها الا أنا كما قال بعد هذا وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا الها الا أنا فاعبدون وهذا قول ابن عباس واختيار الفراء والزجاج (الثانى) وهو قول سعيد بن جبير وقتادة ومقاتل والسدى ان قوله وذكر من قبلى صفة للقرآن فانه كما يشتمل على أحوال هذه الامة فكذا

باحسانى السابق اليك (فصدقت) بتقدير قد لانها تقرب الماضى الى الحال أى فقد صدقت وكذا الحال فى قوله فكذبت وهى وان لم تصرح بانه عليه السلام أراد بهما سوأ الان كلامها حيث كان واضح الدلالة عليه أسند اليهما الصدق والكذب بذلك الاعتبار فانهما كما يعرضان للكلام باعتبار مطوقه يعرضان له باعتبار ما يستلزمه وبذلك الاعتبار يعترضان للانشاآت (وهو من الكاذبين) وهذه

يكون بعض أهلها قد يصير بهما من حيث لا تشعر فاغضبه الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له والقيام بالحق واغا ألقى الله سبحانه الشهادة الى من هو من أهلها ليكون أدل على نزاهته عليه السلام وأبقى للتهمة وقيل كان الشاهد ابن خال لها صبيا فى المهد أنطقه الله تعالى ببراءته وهو الاظهر فانه روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى عليه السلام رواه الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه وقال صحيح على شرط الشيخين وذكر كونه من أهلها البيان الواضح اذ لا يختلف الحال فى هذه السورة بين كون الشاهد من أهلها أو من غيرهم (ان كان قميصه قد من قبل) أى ان علم أنه قد من قبل من قبل ونظيره ان أحسنت الى فقد أحسنت الىّ فيما قبل فان معناه ان تعتد باحسانك الى فاعتد

الشرطية حيث لا ملازمة عقلية ولا عادية بين مقدمها وتاليها ليست من الشهادة في شيء وإذا ذكرت توسيعا للدائرة وارخاء للعنان الى جانب المرأة بإجراء ما عسى يحتمله الحال في الجملة بأن يقع القدر من قبل بداقعتم الله عليه السلام عن نفسها عند إرادته المخالطة والتكشف مجرى الظاهر الغالب الوقوع تقريبا لما هو ١١٢ المقصود بإقامة الشهادة أعني مضمون الشرطية الثانية التي هي قوله عز وجل (وان

يشتمل على أحوال الامم الماضية (الثالث) ما ذكره القفال وهو ان المعنى قل لهم هذا الكتاب الذي جئتكم به قد اشتمل على بيان أحوال من مضى من المخالفين والموافقين وعلى بيان أحوال من قبلي من المخالفين والموافقين فاختاروا لانفسكم كأن الغرض منه التهديد (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بالتنوين ومن مفعول منصوب بالذكر كقوله أو اطعام في يوم ذي مسغبة يتيما وهو الاصل والاضافة من اضافة المصدر الى المفعول كقوله غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون وقرئ ذكر من معي ومن قبلي بكسر ميم من على ترك الاضافة في هذه القراءة وادخال الجار على مع غرابة رفعه أنه اسم هو ظرف نحو قبل وبعد فدخل من عليه كما يدخل على أخواته وقرئ ذكر معي وذكر قبلي وأما قوله بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) انه سبحانه لما ذكر دلائل التوحيد وطالبهم بالدلالة على ما ادعوه وبين انه لا دليل لهم البتة عليه لامن جهة العقل ولا من جهة السمع ذكر بعده أن وقوعهم في هذا المذهب الباطل ليس لاجل دليل ساقهم اليه بل ذلك لان عندهم ما هو أصل الشرور والفساد كله وهو عدم العلم ثم ترتب على عدم العلم الاعراض عن استماع الحق وطلبه (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ الحق بالرفع على توسط التوكيد بين السبب والمسبب والمعنى ان اعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل أما قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون فاعلم أن بوحي ونوحي قراءتان مشهورتان وهذه الآية مقررة لما سبقها من آيات التوحيد ﴿ قوله تعالى ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين بالدلائل الباهرة كونه منزها عن الشريك والضد والند أردف ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد فقال وقالوا اتخذ الرحمن ولدا نزلت في خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله وأضافوا الى ذلك انه تعالى صاهر الجن على ما حكى الله تعالى عنهم فقال وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ثم انه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله سبحانه لان الولد لا بد وان يكون شبيها بالوالد فلو كان لله ولد لاشبهه من بعض الوجوه ثم لا يكون مخالفا له من وجه آخر وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيقع التركيب في ذات الله سبحانه وتعالى وكل مركب ممكن فاتخاذه للولد يدل على كونه ممكنا غير واجب وذلك يخرجه عن حد الالهية ويدخله في حد العبودية ولذلك نزه نفسه عنه أما قوله بل عباد مكرمون فاعلم انه سبحانه لما نزه نفسه عن الولد أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافي الولادة الا أنهم مكرمون مفضلون على سائر العباد وقرئ مكرمون لا يسبقونه من سابقه فسبقته أسبقه والمعنى انهم يتبعونه في قوله ولا يقولون شيأ حتى يقوله فلا يسبق قولهم قوله وكان قولهم تابعا لقوله فعملهم أيضا كذلك مبني على أمره لا يعملون عملا ما لم يؤمروا به ثم انه سبحانه ذكر ما يجري مجرى السبب لهذه الطاعة فقال يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم والمعنى انهم لما علموا كونه سبحانه عالما بجميع المعلومات علموا كونه عالما بظواهرهم وبواطنهم فكان ذلك داعيا لهم الى نهاية الخضوع وكمال العبودية وذكر المفسرون فيه وجوها (أحدها) قال ابن عباس يعلم ما قدموا وما أخروا من أعمالهم (وثانيها) ما بين أيديهم الآخرة وما خلفهم الدنيا وقيل على عكس ذلك (وثالثها) قال مقاتل يعلم ما كان قبل أن يخلقهم وما يكون بعد خلقهم وحقيقة المعنى انهم يتقلبون تحت قدرته في ملكوته وهو محيط بهم وإذا كانت هذه حالتهم فكيف يستحقون العبادة وكيف يتقدمون بين يدي الله تعالى فيشفعون

كان قبيصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) الى التسليم والقبول عند السامع لكونه أقرب الى الوقوع وأدل على المطلوب وان لم يكن بين طرفيها أيضا ملازمة وحكاية الشرطية بعد فعل الشهادة لكونها من قبيل الاقوال أو بتقدير القول أي شهد قائلا الخ وتسميتها شهادة مع انه لا حكم فيها بالفعل بالصدق والكذب لتاديتها مؤداها بل لانها شهادة على الحقيقة وحكم بصدقه وكذبها أما على تقدير كون الشاهد هو الصبي فظاهر اذ هو اخبار بهما من قبل علام الغيوب والتصوير بصورة الشرطية للايذان بأن ذلك ظاهر من العلائم أيضا وأما على تقدير كونه غيره فلان الظاهر ان صورة الحال معلومة له على ما هي عليها اما مشاهدة أو اخبارا فهو متمكن بعدم مقدم الشرطية الاولى وبوجود مقدم الشرطية الثانية ومن ضرورته الجزم بانتفاء تالي الاولى وبوقوع تالي الثانية فاذن هو اخبار بكذبها وصدقه عليه السلام لكنه ساق شهادته مساقا مأمونا من الجرح والطعن حيث صورها بصورة الشرطية المتردد فظاهرا بين نفعها ونفعه لمن

وأما حقيقة فلا تردد فيها قطعا لان الشرطية الاولى تعليق لصدقها بما يستحيل وجوده من قد القميص من قبل فيكون محالا لامحالة ومن ضرورته تقرر كذبها والثانية تعليق لصدقه عليه السلام بأمر محقق الوجود وهو التقدم من دبر فيكون محققا البتة وهذا كما قيل فيمن قال لامرأة

تزوجيني نفسك فقالت لي زوج فكذبهما في ذلك فقالت ان لم يكن لي زوج فقدري حتى تنفسي فقبل الرجل فاذا الازواج لهما فهو نكاح اذ تعليق الشيء بأمر مقرر تحصيل له وقرئ من قبل ومن دبر بالضم لانهما قطعا عن الاضافة كقبل وبعد وبالفتح كأنهما جعلا علمين للجهتين فمنعهما الصرف للتأنيث والعلمية وقرئ بسكون العين (فلما رأى قميصه قد من دبر) ١١٣ كأنه لم يكن رأى ذلك بعد أولم يتدبره فلما نبه له وعلم حقيقة الحال (قال انه) أي الأمر الذي وقع فيه التشاجر وهو عبارة عن ارادة السوء التي أسندت الى يوسف وتدبير عقوبته بقولها ما جزاء من أراد بأهلك سوأ الى آخره لكن لا من حيث صدور تلك الارادة والاستعاذة منها بل مع قطع النظر عن ذلك لئلا يخلو قوله تعالى (من كيدكن) أي من جنس حيلتكن ومكركن أيتها النساء لا من غيركن عن الافادة وتدبير العقوبة وان لم يكن تحريد عن الاضافة اليها الا أنها لما صورته بصورة الحق أفاد الحكم بكونه من كيدهن افادة ظاهرة فتأمل وتعميم الخطاب للتنبيه على أن ذلك خلق لهن عريق ولا تحسبها هذا لها القدر وحدها

سعجبة نفس كل غانية هند ورجع الضمير الى قولها ما جزاء من أراد بأهلك سوأ فقط عدول عن البحث عن أصل موقع فيه النزاع من أن ارادة السوء عن هي الى البحث عن شعبة من شعبه وجعله للسوء أو لان لم أذن الله تعالى له ثم كشف عن هذا المعنى فقال ولا يشفعون الا لمن ارتضى أي لمن هو عند الله مرضى وهم من خشيته مشفقون أي من خشيتهم منه فأضيف المصدر الى المفعول ومشفقون خائفون ولا يأمنون مكره وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج ساقطا كالحلس من خشية الله تعالى ونظيره قوله تعالى لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن أما قوله تعالى ومن يقل منهم اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم فالمعنى أن كل من يقول من الملائكة ذلك القول فانا نجازي ذلك القائل بهذا الجزاء وهذا لا يدل على انهم قالوا ذلك أو ماتوا ولو وقع مثل هذا القول من أحد لجازيناه بمثل هذا الجزاء وهذا هو المسألة الاولى (هذه الصفات تدل على العبودية وتنافي الولادة لوجوه (أحدها) انهم لما بالغوا في الطاعة الى حيث لا يقولون قولا ولا يعملون عملا الا بأمره فهذه صفات للعبيد لا صفات الاولاد (وثانيها) أنه سبحانه لما كان عالما بأسرار الملائكة وهم لا يعلمون أسرار الله تعالى وجب أن يكون الاله المستحق للعبادة هو لا هؤلاء الملائكة وهذه الدلالة هي نفس ما ذكره عيسى عليه السلام في قوله تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك (وثالثها) انهم لا يشفعون الا لمن ارتضى ومن يكن الها أو ولدا للاله لا يكون كذلك (ورابعها) انهم على نهاية الاشفاق والوجل وذلك ليس الا من صفات العبيد (وخامسها) نبه تعالى بقوله ومن يقل منهم اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم على ان حالهم حال سائر العبيد الممكنين في الوعد والوعيد فكيف يصح كونهم آلهة (المسألة الثانية) احتجت المعتزلة بقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى على ان الشفاعة في الآخرة لا تكون لاهل الكبائر لانه لا يقال في أهل الكبائر ان الله يرتضيهم (والجواب) قال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك الا لمن ارتضى أي لمن قال لا اله الا الله واعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل لنا في اثبات الشفاعة لاهل الكبائر وتقريره هو ان من قال لا اله الا الله فقد ارتضاه الله تعالى في ذلك ومتى صدق عليه أنه ارتضاه الله تعالى في ذلك فقد صدق عليه انه ارتضاه الله لان المركب متى صدق فقد صدق لا محالة كل واحد من أجزائه واذا ثبت ان الله قد ارتضاه وجب اندراجه تحت هذه الآية فثبت بالتقرير الذي ذكرنا ان هذه الآية من أقوى الدلائل لنا على ما قرره ابن عباس رضي الله عنهما (المسألة الثالثة) هذه الآية تدل على أمور ثلاثة (أحدها) تدل على كون الملائكة مكلفين من حيث قال لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وهم من خشيته مشفقون ومن حيث الوعيد (وثانيها) تدل أيضا على ان الملائكة معصومون لانه قال وهم بأمره يعملون (وثالثها) قال القاضي عبد الجبار قوله كذلك نجزي الظالمين يدل على أن كل ظالم يجزيه الله جهنم كما توعد الملائكة به وذلك يوجب القطع على انه تعالى لا يغفر لاهل الكبائر في الآخرة (والجواب) اقصى ما في الباب ان هذا العموم مشعر بالوعيد وهو معارض بعموم الوعد

﴿ قوله تعالى ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما شرع الآن في الدلائل الدالة على وجود الصانع وهذه الدلائل أيضا دالة على كونه منزها عن الشريك لانها دالة على حصول الترتيب العجيب في العالم ووجود الالف من يقتضي وقوع الفساد فهذه الدلائل تدل من هذه الجهة على التوحيد فتكون كالتوكيد لما تقدم وفيها أيضا رد على عبدة الاوثان من حيث ان الاله القادر على مثل هذه المخلوقات الشريفة كيف يجوز في العقل أن يعدل عن عبادته الى عبادة حجر لا يضر ولا ينفع وهذا وجه تعلق هذه الآية بما قبلها واعلم انه سبحانه وتعالى ذكر ههنا ستة أنواع من

(١٥ ـ خازن س) للامر المعبر به عن طمعها في يوسف عليه السلام يأباه الخبر فان الكيد يستدعي أن يعتبر مع ذلك هناك أخر من قبلها كما أشرنا اليه (ان كيدكن عظيم) فانه ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيرا في النفس وعن بعض العلماء اني أخاف من النساء مالا أخاف من الشيطان فانه تعالى يقول ان كيد الشيطان كان ضعيفا وقال للنساء ان كيدكن عظيم ولان الشيطان يوسوس مسارقة ومن

يراجعهن به الرجال (ويستحيي) حذف منه حرف النداء لقربه وكمال تقطنه للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله (أعرض عن هذا) أي عن هذا الامر وعن التحدث به واكتمه فقد ظهر صدقك وتبين كذبهم (واستغفري) أنت بأن تقولي (لذنبك) الذي صدر عنك وثبت عليك (إن كنت) بسبب ذلك (من الخاطئين) ١١٤ من جملة القوم المتعمدين الذنب أو من جنسهم يقال خطئ اذا أذنب عمدا أو هو تعليل للامر بالاستغفار والتذكير لتغليب الذكور على الاناث وكان العزيز رجلا حليما فاكتفى بهذا القدر من مؤاخذتها وقيل كان قليل الغيرة (وقال نسوة) أي جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقي وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي كما أنيث الثلة وهي اسم لجماعة النساء والثلة وهي اسم لجماعة الرجال ولذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث (في المدينة) ظرف لقال أي أشهر من الامر في مصر أو صفة لنسوة (امرأة العزيز) أي الملك يردن قطفير واضافتهن لها اليه بذلك العنوان دون أن يصرحن باسمها واسمه ليست لقصد المبالغة في اشاعة الخبر بحكم أن النفوس الى سماع أخبار ذوي الاخطار أميل كما قيل اذ ليس مرادهن تفضيح العزيز بل هي اقصد الاشاعة في لومها بقولهن (تراود فتاها) أي فتا اليه بمواقعته لها وتتحمل في ذلك وتخادعه (عن نفسه) التأويل

الدلائل ﴿النوع الاول﴾ قوله أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ ابن كثير ألم ير بغير الواو والباقون بالواو وادخال الواو يدل على العطف لهذا القول على أمر تقدمه قال صاحب الكشاف قرئ رتقا بفتح التاء وكلاهما في معنى المفعول كالخلق والنفض أي كانتا مرتوقتين فان قلت الرتق صالح أن يقع مرتوقتين لانه مصدر فما بال الرتق قلت هو على تقدير موصوف أي كانتا شيأ رتقا ﴿المسئلة الثانية﴾ القائل أن يقول المراد من الرؤية في قوله تعالى أولم ير الذين كفروا الرؤية وأما العلم والاول مشكل أما أولا فلان القوم ما رأوهما كذلك البتة وأما ثانيا فلقوله سبحانه وتعالى ما أشهدتهم خلق السموات والارض وأما العلم فمشكل لان لاجسام قابلة للفتق والرتق في أنفسها فالحكم عليها بالرتق أولا وبالفتق ثانيا لا سبيل اليه الا السمع والمناظرة مع الكفار الذين ينكرون الرسالة فكيف يجوز التمسك بمثل هذا الاستدلال (والجواب) المراد من الرؤية هو العلم وما ذكروه من السؤال قد قدمنا من وجوه (أحدها) انا ثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسائر المعجزات ثم نستدل بقوله ثم نجعله دليلا على حصول النظام في العالم وانتفاء الفساد عنه وذلك يؤكد الدلالة المذكورة في التوحيد (وثانيها) أن يحمل الرتق والفتق على امكان الرتق والفتق والعقل يدل عليه لان الاجسام يصح عليها الاجتماع والافتراق فاختصاصها بالاجتماع دون الافتراق أو بالعكس يستدعي مخصصا (وثالثها) ان اليهود والنصارى كانوا عالمين بذلك فانه جاء في التوراة ان الله تعالى خلق جوهرة ثم نظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم خلق السموات والارض منها وفتق بينهما وكان بين عبده الاوثان وبين اليهود نوع صداقة بسبب الاشتراك في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم فأحتج الله تعالى عليهم بهذه الحجة بناء على انهم يقبلون قول اليهود في ذلك ﴿المسئلة الثالثة﴾ انما قال كانتا رتقا ولم يقل كن رتقا لان السموات لفظ الجمع والمراد به الواحد الدال على الجنس قال الاخفش للسموات نوع والارض نوع ومثله ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ومن ذلك قولهم أصلحنا بين القومين ومرت بنا غنمان أسودان لان هذا القطيع غنم وذلك غنم ﴿المسئلة الرابعة﴾ الرتق في اللغة السد يقال رتقت الشيء فارتتق والفتق الفصل بين الشيئين المتلصقين قال الزجاج الرتق مصدر والمعنى كانتا ذواتي رتق قال المفسرون انما لم يقل كانتا رتقين كقوله وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام لان كل واحد جسد كذلك فيما نحن فيه كل واحد رتق ﴿المسئلة الخامسة﴾ اختلف المفسرون في المراد من الرتق والفتق على أقوال (أحدها) وهو قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ورواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم ان المعنى كانتا شيأ واحدا ملتزقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء الى حيث هي وأقر الارض وهذا القول يوجب ان خلق الارض متقدم على خلق السماء لانه تعالى لما فصل بينهما ترك الارض حيث هي وأصعد الاجزاء السماوية قال كعب خلق الله السموات والارض ملتصقتين ثم خلق ريحا تحاوز وسطهما ففتقهن بها (وثانيها) وهو قول أبي صالح ومجاهد ان المعنى كانت السموات مرتتقة فجعلت سبع سموات وكذلك الارضون (وثالثها) وهو قول ابن عباس والحسن وأكثر المفسرين ان السموات والارض كانتا رتقا بالاستواء والصلابة ففتق الله السماء بالمطر والارض بالنبات والشجر ونظيره قوله تعالى والسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع ورجح هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك وجعلنا من الماء كل شيء حي وذلك لا يليق الا بالماء تعلق بما تقدم ولا يكون كذلك الا اذا كان المراد ما ذكرنا فان قيل هذا الوجه مرجوح لان المطر لا ينزل من السموات بل من سماء واحدة وهي من سماء الدنيا قلنا انما أطلق عليه لفظ الجمع لان كل قطعة منها سماء كما يقال ثوب أخلاق وبرمة أعشار واعلم أن على هذا

وقيل تطلب منه الفاحشة وايثارهن لصيغة المضارع للدلالة على دوام المراودة وافتى من الناس الشاب وأصله فتى لقولهم فتيان وفتية شاذة وجمعه فتية وفتيان ويستعار للمملوك وهو المراد ههنا وفي الحديث لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي وتعبيرهن عن

يوسف عليه السلام بذلك مضافا اليهم الا الى العزيز الذى لا تستلزم الاضافة اليه الهوان بل ربما يشعر بنوع عزة لاباينة ما بينهما من التباين البين الناشئ عن المالكية والمملوكية وكل ذلك لتربية ما مر من المبالغة والاشباع فى اللوم فان من لا تزوج لها من النساء أو لها زوج دنىء قد تعذر فى مراودة الاخدان لاسيما اذا كان فيهم علو الجناب وأما التى لها زوج ١١٥ وأى زوج عزيز مصر فراودتها لغيره لاسيما لعبدها الذى لا كفاءة بينها وبينه أصلا وعاديها فى ذلك غايته الى ونهاية السلال (قد شغفها حبا) أى شق حبه شغاف قلبها وهو حجابه أو جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب حتى وصل الى فؤادها وقرئ شعفها بالعين من شعف البعير اذا هناه فأحرقه بالقطران وعن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما الشغف الحب القاتل والشعف حب دون ذلك وكان الشعبى يقول الشغف حب والشعف جنون والجملة خبر ثان أو حال من فاعل تراود أو من مفعوله وأيا ما كان فهو تكرير للوم وتأكيد للعذل ببيان اختلال أحوالها القلبية كأحوالها القالبية وجعلها نهبا للسلال المراودة من حيث الانتهاء مصيرا الى الاستدلال على الاجلى بالاخفى ومن حيث الليمة ميلا الى تمهيد العذر من قبلها ولسن بذلك القمام وانتصاب حبا على التمييز لنقله عن الفاعلية اذ الاصل قد شغفها حبه كما أشير اليه (انا لنراها) أى نعلمها علما متاخما للمشاهدة والعيان فيما صنعت من المراودة والمحبة المفرطة مستقرة (فى ضلال) عن طريق الرشد والصواب أو عن سنن العقل (مبين) واضح لا يخفى كونه ضلالا على أحد أو مظاهر لامرها بين الناس فالجملة مقررة لمضمون الجملتين السابقتين المسوقتين للوم والتشنيع وتسجيل عليها بأنها فى أمرها على خطأ عظيم واعلم يقال انها فى ضلال مبين

التأويل يحرز حمل الرؤية على الابصار (ورابعها) قول أبى مسلم الاصفهانى يجوز أن يراد بالفتق الايجاد والاظهار كقوله فاطر السموات والارض وكقوله قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن فأخبر عن الايجاد بلفظ الفتق وعن الحال قبل الايجاد بلفظ الرتق أقول وتحقيقه أن العدم نفى محض فليس فيه ذوات متميزة وأعيان متباينة بل كأنه أمر واحد متصل متشابه فاذا وجدت الحقائق فعند الوجود والتكوين يتميز بعضها عن بعض وينفصل بعضها عن بعض فبهذا الطريق حسن جعل الرتق مجازا عن العدم والفتق عن الوجود (وخامسها) ان الليل سابق على النهار لقوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار وكانت السموات والارض مظلمة أولا ففتقهما الله تعالى باظهار النهار المبصر * فان قيل فأى الاقاويل أليق بالظاهر قلنا الظاهر يقتضى ان السماء على ما هى عليه والارض على ما هى عليه كانتا رتقا ولا يحوز كونهما كذلك الا وهما موجودان والرتق ضد الفتق فاذا كان الفتق هو المفارقة فالرتق يجب أن يكون هو الملازمة وبهذا الطريق صار الوجه الرابع والخامس مرجوحا ويسير الوجه الاول أولى الوجوه ويتلوه لوجه الثانى وهو ان كل واحد منهما كان رتقا ففتقهما بان جعل كل واحد منهما سبعا وتلوه الثالث وهو انهما كانا صلبين من غير فطور وفرج ففتقهما بالمنزل المطر من السماء ويظهر النبات على الارض (المسئلة السادسة) دلالة هذه الوجوه على اثبات الصانع وعلى وحدانيته ظاهرة لان أحدا لا يقدر على مثل ذلك والاقرب انه سبحانه خلقهما رتقا لما فيه من المصلحة للملائكة ثم لما أسكن الله الارض أهلها جعلهما فتقا لما فيه من منافع العباد (النوع الثانى من الدلائل) قوله تعالى وجعلنا من الماء كل شئ حى أفلا يؤمنون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قوله وجعلنا لا يخلو اما أن يتعدى الى واحد أو اثنين فان تعدى الى واحد فالمعنى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله والله خلق كل دابة من ماء أو انا خلقنا من الماء فرطا حتياجه اليه وحبه له وذلة صبره عنه كقول خلق الانسان من عجل وان تعدى الى اثنين فالمعنى صيرنا كل شئ حى بسبب من الماء لابد له منه ومن هذه مضمومين فى قوله عليه السلام ما أنا من دد ولا الدد منى وقرئ حيا وهو المفعول الثانى (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول كيف قال وخلقنا من الماء كل حيوان وقد قال والجان خلقناه من قبل من نار السموم وجاء فى الاخبار ان الله تعالى خلق الملائكة من النور وقال تعالى فى حق عيسى عليه السلام واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى وقال فى حق آدم خلقه من تراب (والجواب) الالفاظ وان كانت عامة الا أن القرينة المخصصة قائمة فان الدليل لابد وأن يكون مشاهدا محسوسا ليكون أقرب الى المقصود وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة والجن وآدم وقصة عيسى عليهم السلام لان الكفار لم يروا شيأ من ذلك (المسئلة الثالثة) اختلف المفسرون فقال بعضهم المراد من قوله كل شئ حى الحيوان فقط وقال آخرون بل يدخل فيه النبات والشجر لانه من الماء صار ناميا وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر وهذا القول أليق بالمعنى المقصود كأنه تعالى قال فتقنا السماء لانزال المطر وجعلنا منه كل شئ فى الارض من النبات وغيره حيا حجة القول الاول ان النبات لا يسمى حيا قلنا لا نسلم والدليل عليه قوله تعالى كيف يحيى الارض بعد موتها أما قوله تعالى أفلا يؤمنون فالمراد أفلا يؤمنون بأن يتدبروا هذه الادلة فيعلموا بها الخالق الذى لا يشبه غيره ويتركوا طريقة الشرك (النوع الثالث) قوله تعالى وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أن تميد بهم كراهة أن تميد بهم أو لئلا تميد بهم فحذف لا واللام الاولى وانما جاز حذف لا لعدم الالتباس كما ترى ذلك فى قوله لئلا يعلم أهل الكتاب (المسئلة الثانية) الرواسى الجبال والراسى هو الداخل فى الارض (المسئلة الثالثة) قال ابن عباس رضى

اشعارا بأن ذلك الحكم غير صادر منهن مجازفة بل عن علم ورأى مع التلويح بأنهن منزهات عن أمثال ما هى عليه (فلما سمعت بمكرهن) باغتيابهن وسوء قالتهن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى وهو فتاها وتسميته مكرا لكونه خفية منها كمكر الماكر وان كان ظاهرا للغير هذا وقيل استكتمتهن سرها ١١٦ وأفشينه عليها وقيل انما قلن ذلك لترين يوسف عليه السلام (أرسلت اليهن)

تدعوهن قيل دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات (وأعتدت) أى أحضرت وهيأت (لهن متكأ) أى ما يتكئن عليه من الفارق والوسائد أو رتبت لهن مجلس طعام وشراب لانهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك نهى الرجل أن يأكل متكئا وقيل متكأ طعاما من قولهم اتكأنا عند فلان أى طعمنا قال جميل

فظل لثانيه متكأ واتكأنا

وشربنا الحلال من قلله وعن مجاهد متكأ طعاما يحز وكان المعنى يعتمد بالسكين عند القطع لان القاطع يتكئ على المقطوع بالسكين وقرئ بغير همز وقرئ بالمد باشباع حركة الكاف كمتزاح فى متزح وبإشباع فى يتبع وقرئ متكاوه والاترج وأنشدوا

وأهدت متكأ لبنى أبيها تخب بها العشمة الوفاح

أو ما يقطع من متك التى اذا استكه ومتكأ من تكى اذا اتكى (وآتت كل واحدة منهن سكينا) لتستعمله فى قطع ما يعهد قطعه مما قدم بين أيديهن وقرب اليهن من اللحوم والفواكه ونحوها وهن متكئات وتقريره وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن (وقالت) ليوسف وهن مشغولات بمباشرة المتكآت وأعمالها فيما بأيديهن من الفواكه وأضرابها والله غالب على أمره ولا يبعد أن يقال (اخرج عليهن) أى ابرز لهن لم يكن عقيب ترتيب أمورهن ليتم غرضها من

الله عنهما ان الارض بسطت على الماء فكانت تتكفأ بأهلها كما تتكفأ السفينة لانها بسطت على الماء فارساها الله تعالى بالجبال الثقال (النوع الرابع) قوله تعالى وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الفج الطريق الواسع فان قلت فى الفجاج معنى الوصف فما لها قدمت على السبل ولم تؤخر كما فى قوله تعالى لتسلكوا منها سبلا فجاجا قلت لم تقدم وهى صفة ولكنها جعلت حالا كقوله * لمية موحشا طلل قديم * والفرق من جهة المعنى ان قوله سبلا فجاجا اعلام بأنه سبحانه جعل فيها طرقا واسعة وأما قوله فجاجا سبلا فهو اعلام بأنه سبحانه حين خلقها جعلها على تلك الصفة فهو تقدمة الآية بيان لما أبهم فى الآية الاولى (المسئلة الثانية) فى قوله فيها قولان (أحدهما) انها عائدة الى الجبال أى وجعلنا فى الجبال التى هى رواسى فجاجا سبلا أى طرقا واسعة وهو قول مقاتل والضحاك ورواية عطاء عن ابن عباس وعن ابن عمر قال كانت الجبال متضمة فلما أغرق الله قوم نوح فرقها فجاجا وجعل فيها طرقا (الثانى) انها عائدة الى الارض أى وجعلنا فى الارض فجاجا وهى المسالك والطرق وهو قول الكلبى (المسئلة الثالثة) قوله لعلهم يهتدون معناه لكى يهتدوا والاشك لا يجوز على الله تعالى (المسئلة الرابعة) فى يهتدون قولان (الاول) ليهتدوا الى البلاد (والثانى) ليهتدوا الى وحدانية الله تعالى بالاستدلال قالت المعتزلة وهذا التأويل يدل على أنه تعالى أراد من جميع المكلفين الاهتداء والكلام عليه قد تقدم وفيه قول ثالث وهو ان الاهتداء الى البلاد والاهتداء الى وحدانية الله تعالى يشتركان فى مفهوم واحد وهو أصل الاهتداء فيحمل اللفظ على ذلك المشترك وحينئذ تكون الآية متناولة للامرين ولا يلزم منه كون اللفظ المشترك مستعملا فى مفهوميه معا (النوع الخامس) قوله تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) سمى السماء سقفا لانها للارض كالسقف للبيت (المسئلة الثانية) فى المحفوظ قولان (أحدهما) انه محفوظ من الوقوع والسقوط اللذين يجريان مثلهما على سائر السقوف كقوله وعسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه وقال ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره وقال تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا وقال ولا يؤده حفظهما (الثانى) محفوظ من الشياطين قال تعالى وحفظناها من كل شيطان رجيم ثم ههنا قولان (أحدهما) انه محفوظ بالملائكة من الشياطين (والثانى) انه محفوظ بالنجوم من الشياطين والقول الاول أقوى لان حمل الآيات عليه مما يزيد هذه النعمة عظما لانه سبحانه كما تكفل بحفظ وسقوطه على المكلفين بخلاف القول الثانى لانه لا يخاف على السماء من استراق سمع الجن (المسئلة الثالثة) قوله تعالى وهم عن آياتها معرضون معناه عما وضع الله تعالى فيها من الادلة والعبر فى حركاتها وكيفية حركاتها وجهات حركاتها وسطالعها ومغاربها واتصالات بعضها ببعض وانفصالاتها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة (المسئلة الرابعة) قرئ عن آياتها على التوحيد والمراد الجنس أى هم معرضون عما يراد عليهم من السماء من المنافع الدينوية كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها وحماية الارض بأمطارها وهم عن كونها آية بينة على وجود الخالق ووحدانيته معرضون (النوع السادس) قوله تعالى وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه سبحانه لما قال وهم عن آياتها معرضون فصل تلك الآيات ههنا لانه تعالى لو خلق السماء والارض ولم يخلق الشمس والقمر ليظهر بهما الليل والنهار ويظهر بهما من المنافع بتعاقب الحر والبرد لم تتكامل نعم الله تعالى على عباده بل انما يكون ذلك بسبب حركاتها فى أفلاكها فلهذا قال كل فى فلك يسبحون

استغفالهن (فلما رأينه) عطف على مقدر يستدعيه الامر بالخروج ويتسبب عليه الكلام أى فخرج عليهن فرأينه وانما حذف تحقيقا لفاجأة رؤيتهن كأنها تفوت عند ذكر خروجه عليهن كما حذف لتحقيق السرعة فى قوله عز وجل فلما أن جاء البشير ألقاه مستقرا عده بعد قوله أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك وفيه أيذان بسرعة امتثاله عليه السلام ١١٧ بأمرها فيما لا يشاهد مضرته من الافاعيل

وتقرير أن تقول قد ثبت بالارصاد أن للكواكب حركات مختلفة فمنها حركة تشملها بأسرها آخذة من المشرق الى المغرب وهى حركة الشمس اليومية ثم قال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة وهذه حركة أخرى من المغرب الى المشرق قالوا وهى ظاهرة فى السبعة السيارة خفية فى الثابتة واستدلوا عليه بأنا وجدنا الكواكب السيارة كل ما كان منها أسرع حركة اذا قارن ما هو أبطأ حركة فانه بعد ذلك يتقدمه نحو المشرق وهذا فى القمر ظاهر جدا فانه يظهر بعد الاجتماع بيوم أو يومين من ناحية المغرب على بعد من الشمس ثم يزداد كل ليلة بعدا منها الى أن يقابلها على قريب من نصف الشهر وكل كوكب كان شرقيا منه على طريقته فى ممر البروج يزداد كل ليلة قربا منه ثم اذا أدركه سيره بطرفه الشرقى وتنكسف تلك الكواكب عنه بطرفه الغربى فعرفنا أن لهذه الكواكب السيارة حركة من المغرب الى المشرق وكذلك وجدنا للكواكب الثابتة حركة بطيئة على توالى البروج فعرفنا أن لها حركة من المغرب الى المشرق هذا ما قالوه ونحن نخالفهم فيه وقلنا ان ذلك محال لان الشمس مثلا لو كانت متحركة بذاتها من المغرب الى المشرق حركة بطيئة ولا شك انها متحركة بسبب الحركة اليومية من المشرق الى المغرب لزم كون الجرم الواحد متحركا حركتين الى جهتين مختلفتين دفعة واحدة وذلك محال لان الحركة الى الجهة تقتضى حصول المتحرك فى الجهة المنتقل اليها فلو تحرك الجسم الواحد دفعة واحدة الى جهتين لزم حصوله دفعة واحدة فى مكانين وهو محال فان قيل لم لا يجوز أن يقال الشمس حال حركتها الى الجانب الشرقى تنقطع حركتها الى الجانب الغربى وبالعكس وأيضا فانا ذكرنا وهو ينتقض بحركة الرحى الى جانب والفلك التى تكون عليها تتحرك الى خلاف ذلك الجانب قلنا أما الاول فلا يستقيم على أصولكم لان حركات الافلاك مصونة عن الانقطاع عندكم وأما الثانى فهو مثل محتمل وما ذكرناه برهان قاطع فلا يتعارضان أما الذى احتججنا به على أن للكواكب حركة من المغرب الى المشرق فهو ضعيف فانه يقال لم لا يجوز أن يقال ان جميع الكواكب متحركة من المشرق الى المغرب الا أن بعضها أبطأ من البعض فيختلف بعضها عن بعض بسبب ذلك التخلف فيظن أنها تتحرك الى خلاف تلك الجهة مثلا الفلك الاعظم استدارته من أول اليوم الاول الى أول اليوم الثانى دورة تامة وذلك الثوابت استدارته من أول اليوم الاول الى أول اليوم الثانى دورة تامة الا مقدارا ثانية فيظن ان فلك الثوابت تحرك من الجهة الاخرى مقدار ثانية ولا يكون كذلك بل ذلك تخلف بمقدار ثانية وعلى هذا التقدير فجميع الجهات شرقية وأسرعها الحركة اليومية ثم يليها فى السرعة فلك الثوابت ثم يليها زحل وهكذا الى أن ينتهى الى فلك القمر فهو أبطأ الافلاك حركة وهذا الذى قلناه مع ما يشهد له البرهان المذكور فهو أقرب الى ترتيب الوجود فان على هذا التقدير تكون نهاية الحركة الفلك المحيط وهو الملك الاعظم ونهاية السكون الجرم الذى هو فى غاية البعد وهو الارض ثم ان كل ما كان أقرب الى الفلك المحيط كان أسرع حركة وما كان منه أبعد كان أبطأ فهذا ما نقوله فى حركات الافلاك فى أطوالها وأما حركاتها فى عروضها فظاهرة وذلك بسبب اختلاف ميولها الى الشمال والجنوب اذا ثبت هذا فنقول لو لم يكن للكواكب حركة فى الميل لكان التأثير مخصوصا بمقعر واحد فكان سائر الجوانب تخلو عن المنافع الحاصلة منه وكان الذى يقرب منه متشابه الاحوال وكانت القوة هناك لكيفية واحدة فان كانت حارة أفنت الرطوبات فاحالتها كلها الى النارية وبالجملة فيكون الموضع المحاذى لممر الكواكب على كيفية وخط مالا يحاذيه على كيفية أخرى وخط المتوسط بينهما على كيفية أخرى فيكون فى موضع شتاء دائم ويكون فيه الهواء والحجارة وفى موضع آخر صيف دائم يوجب الاحتراق وفى موضع آخر ربيع أو خريف لا يتم فيه النضج ولو لم تكن

لم يبالين بذلك ولم يشعرن به (وقلن حاش لله) تنزيها له سبحانه عن صفات النقص والعجز وتعجبا من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع وأصله حاشا كما قرأه أبو عمرو فى الدرج فحذفت ألفه الاخيرة تخفيفا وهو حرف جر يفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء فلا يستثنى به الا ما يكون موجب التنزيه فوضع موضعه معنى حاشا الله تنزيه الله وبراءة الله وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه واللام لبيان المنزه والمبرأ كما

(أكبرنه) عظمنه وهن حسنه الفائق وجماله الرائع الرائق فان فضل جماله على جمال كل جميل كان كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب * عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر وقيل كان يرى ثلاثة أو وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس على الماء وقيل معنى أكبرن حضن والهاء للسكت أو ضمير راجع الى يوسف عليه السلام على حذف اللام أى حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبى

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع

فان لحت حاضت فى الخدور العواتق

(وقطعن أيديهن) أى جرحنها بما فى أيديهن من السكاكين لفرط دهشتن وخروج حركات جوارحهن عن مناهج الاختيار والاعتياد حتى لم يعلمن بما فعلن وفى التعبير عن الجرح بالقطع مالا يخفى من الدلالة على كثرة جرحهن ومع ذلك

في سقيا لك والدليل على وضعه موضع المصدر قراءة أبي السمال حاشا بالتنوين وقراءة أبي عمرو بحذف الالف الاخيرة وقراءة الاعمش بحذف الاولى فان التصرف من خصائص الاسم فيدل على تنزيله منزلته وعدم التنوين اما رعاية أصله كما في قولك جاست من عن يمينه وقوله غدت من عليه منقلب الالف ١١٨ الى الياء مع الضمير وقرئ حاش لله بسكون الشين اتباعا لفتحة الالف في الاسقاط وحاش الاله وقيل حاشا فاعل من الحشا الذي هو الناحية وفاعله ضمير يوسف أي صار في ناحية من أن يقارف ما رمته به لله أي لطاعته أو لمكانه أو لجانب المعصية لاجل الله (ما هذا بشرا) على اعمال ما بمعنى ليس وهي لغة أهل الحجاز لمشاركتهما في نفي الحال وقرئ بشر على لغة تميم وبشري أي بعبد مشتري لئيم نفين عنه البشرية لما شاهدن فيه من الجمال العبقري الذي لم يعهد مثاله في البشر وقصر على الملكية بقولهن (ان هذا الا ملك كريم) بناء على ما ركز في العقول من أن لا حي أحسن من الملك كما ركب فيها أن لا أقبح من الشيطان ولذلك لا يزال يشبههم ما كل متناه في الحسن والقبح وغرضهن وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال (قالت فذلكن) الفاء فصيحة والخطاب للنسوة والاشارة الى يوسف بالعنوان الذي وصفنه به الآن من الخروج في الحسن والجمال عن المراتب البشرية والاقتدار على الملكية فانهم الاشارة مبتدأ والموصول خبره والمعنى ان كان الامر كما قلتن فذلك الملك الكريم (كافرون) النائي عن المراتب البشرية (الذي لمتنني فيه) أي عيرتني في الالتفات به حيث رأتن تجملي بنسبتي الى العزيز وضعتن قدره بكونه من المماليك أو بالشوان الذي وصفتنه به فيما سبق بقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني فهو خبر لمبتدا محذوف أي فهو ذلك العبد

عودات متتالية وكان الكوكب يقطع بعضا لكان المدبر لذلك المنفعة والتأثير شديد الافراط وكان يعرض قريبا مما لم يكن ميل ولو كانت الكواكب أسرع حركة من هذه لما كملت المنافع وتمت وأما اذا كان هناك ميل يحفظ الحركة في جهة مدة ثم ينتقل الى جهة أخرى بمقدار الحاجة ويبقى في كل جهة برهة ثم بذلك تأثيره بحيث يبقى محفوظا عن طرفي الافراط والتفريط وبالجملة فالمعقول لا تقف الاعلى القليل من اسرار المخلوقات فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقدرة العيرالمتناهية (المسئلة الثانية) انه لا يجوز أن يقول وكل في فلك يسبحون الا بعد دخول في الكلام مع الشمس والقمر لان النجوم ليثبت معنى الجمع ومعنى الكل فصارت النجوم وان لم تكن مذكورة أولا كأنها مذكورة لعود هذا الضمير اليها والله أعلم (المسئلة الثالثة) الفلك في كلام العرب كل شئ دائر وجمعه أفلاك واختلف المقلاء فيه فقال بعضهم الفلك ليس بجسم وانما هو مدار هذه النجوم وهو قول الضحاك وقال الاكثرون بل هي أجسام تدور النجوم عليها وهذا أقرب الى ظاهر القرآن ثم اختلفوا في كيفيته فقال بعضهم الفلك موج مكفوف تجري الشمس والقمر والنجوم فيه وقال الكلبي ماء مجموع تجري فيه الكواكب واصح أن السباحة لا تكون الا في الماء فلذلا نسلم فانه يقال في الفرس الذي عدا يديه في الجري سابح وقال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة انها أجرام صلبة لا تقبل ولا خفيفة غير قابلة للخرق والالتئام والنمو والذبول فاما الكلام على الفلاسفة فهو مذكور في الكتب اللائقة به والحق انه لا سبيل الى معرفة صفات السموات الا بالخبر (المسئلة الرابعة) اختلف الناس في حركات الكواكب والوجوه الممكنة فيها ثلاثة فانه اما أن يكون الفلك ساكنا والكواكب تتحرك فيه كحركة السمك في الماء الراكد واما أن يكون الفلك متحركا والكواكب تتحرك فيه أيضا اما مخالفة لجهة حركته أو موافقة لجهته اما بتحركة مساوية لحركة الفلك في السرعة والبطء أو مخالفة واما أن يكون الفلك متحركا والكوكب ساكنا أما الرأي الاول فقالت الفلاسفة انه باطل لانه يوجب خرق الافلاك وهو محال وأما الرأي الثاني فحركة الكواكب ان فرضت مخالفة لحركة الفلك فذلك أيضا يوجب الخرق وان كانت حركتها الى جهة الفلك فان كانت مخالفة لها في السرعة والبطء لازم الانخراق وان استويا في الجهة والسرعة والبطء فالخرق أيضا لازم لان الكواكب تتحرك بالعرض بسبب حركة الفلك فتبقى حركته الذاتية زائدة فيلزم الخرق فلم يبق الا القسم الثالث وهو أن يكون الكوكب مغروزا في الفلك واقفا فيه والفلك يتحرك فتتحرك الكواكب بسبب حركة الفلك واعلم ان مدار هذا الكلام على امتناع الخرق على الافلاك وهو باطل بل الحق ان الاقسام الثلاثة ممكنة والله تعالى قادر على كل الممكنات والذي يدل عليه لفظ القرآن أن تكون الافلاك واقفة والكواكب تكون جارية فيها كما تسبح السمكة في الماء (المسئلة الخامسة) قال صاحب الكشاف كل التنوين فيه عوض عن المضاف اليه أي كلهم في فلك يسبحون والله أعلم (المسئلة السادسة) احتج أبو علي بن سينا على كون الكواكب أحياء ناطقة بقوله يسبحون قال والجمع بالواو والنون لا يكون الا للعقلاء بقوله تعالى والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين والجواب انما جعل واو الضمير للعقلاء لوصف بفعلهم وهو السباحة قال صاحب الكشاف فان قلت لم قلت ما محلها قلت النصب على الحال من الشمس والقمر ولا محل لها لاستئنافها فان قلت لم قلت الكل واحد من القمر بن فلك على حدة فكيف قيل جميعهم يسبحون في فلك قلت هذا كقولك كساهم الامير حلة وقلدهم سيفا أي كل واحد منهم ﴿قوله تعالى﴾ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم

الكمعانى الذى سورتن فى أنفسكن وقلتن فيه وفى ماقلتن فالآن قد عائتن من هو وماقولكن فيناوأما مايد ل لتهى انكن لم تصونه بحق صورته ولو صورتنه بما عائبتن لعذرتنى فى الافتتان به فلا يلائم المقام فان مراده ابداعورتهن وعيبه بأمهد ته لهن تبكيتهن وتشنيعهن على ماصدر عنهن من اللوم وقد فهمت ذلك بما لامزيد عليه وماذكر من المقال لحق المتذر ١٠٩ قبل ظهور معذرته وقد قيل فى تعليل

كافرون ﴿ اعلم أنه سبحانه وتعالى لما استدل بالاشياء الستة التى شرحناها فى الفصل المتقدم وكانت تلك الاشياء من أصول النعم الدنيوية أتبعها بما يدل على أن هذه الدنيا جعلها كذلك لا لتبقى وتدوم أو يبقى فيها من خلقت الدنيا له بل خلقها سبحانه وتعالى للابتلاء والامتحان ولكى يتوصل بها الى الآخرة التى هى دار الخلود فاما قوله تعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) قال مقاتل ان ناسا كانوا يقولون ان محمدا صلى الله عليه وسلم لا يموت فنزلت هذه الآية (وثانيها) كانوا يقدرون انه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا أى قضى الله تعالى أن لا يخلد فى الدنيا بشرا فلا أنت ولا هم الا عرضة للموت أفان مت أنت أيبقى هؤلاء لا ويدل على معناه قول القائل

فقل للشامتين بنا أفيقوا ❊ سيلقى الشامتون كما لقينا

(وثالثها) يحتمل أنه لما ظهر انه عليه الصلاة والسلام خاتم الانبياء جاز أن يقدر مقدار انه لا يموت اذ لو مات لتغير شرعه فنبه الله تعالى على أن حاله كحال غيره من الانبياء عليهم السلام فى الموت أما قوله تعالى كل نفس ذائقة الموت ففيه أبحاث (الاول) ان هذا العموم مخصوص فانه تعالى نفس لقوله تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك مع أن الموت لا يجوز عليه وكذا الجمادات لها نفوس وهى لا تموت والعام المخصوص حجة فيبقى معمولا به فيما عدا هذه الاشياء وذلك يبطل قول الفلاسفة فى أن الارواح البشرية والعقول المفارقة والنفوس الفلكية لا تموت (والثانى) الذوق ههنا لا يمكن اجراؤه على ظاهره لان الموت ليس من جنس المطعوم حتى يذاق بل الذوق ادراك خاص فيجوز جعله مجازا عن أصل الادراك وأما الموت فمراد منه ههنا مقدماته من الآلام العظيمة لان الموت قبل دخوله فى الوجود يمتنع ادراكه وحال وجوده يصير الشخص ميتا والميت لا يدرك شيأ (والثالث) الاضافة فى ذائقة الموت فى تقدير الانفصال لانه لما استقبل كقوله غير محلى الصيد وهو بايا لغ الكعبة أما قوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) الابتلاء لا يتحقق الا مع التكليف فالآية دالة على حصول التكليف وتدل على انه سبحانه وتعالى لم يقتصر بالمكلف على ما أمر ونهى وان كان فيه صعوبة بل ابتلاه بأمرين (أحدهما) ما سماه خيرا وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من المرادات (والثانى) ما سماه شرا وهو المضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين فبين تعالى ان الغرض مع التكليف بترددين هاتين الحالتين لكى يشكر على الخير ويصبر فى المحن فيعظم ثوابه اذا قام بما يلزم (المسئلة الثانية) انما سمى ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمال العالمين قبل وجودهم لانه فى صورة الاختبار (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف فتنة مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه (المسئلة الرابعة) احتجت المتاسخية بقوله والينا ترجعون فان الرجوع الى موضع مسبوق بالكون فيه (والجواب) انه مذكور مجازا (المسئلة الخامسة) المراد من قوله والينا ترجعون انهم يرجعون الى حكمه ومحاسبته ومجازاته ذبين بذلك بطلان قولهم فى نفى البعث والمعاد واستدلت الثناوية بهذه الآية وقالوا ان الرجوع الى موضع مسبوق بالكون فيه وقد كنا موجودين قبل دخولنا فى هذا العالم واستدلت المجسمة بانا أجسام فرجوعنا الى الله تعالى يقتضى كون الله تعالى جسما والجواب عنه قد تقدم فى مواضع كثيرة أما قوله تعالى واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا قال السدى ومقاتل نزلت هذه الآية فى أبى جهل مر به النبى صلى الله عليه وسلم وكان أبو سفيان مع أبى جهل فقال أبو جهل لابى سفيان هذا نبى بنى عبد مناف فقال أبو سفيان وما تنكر أن يكون نبيا فى بنى عبد مناف فسمع النبى صلى الله عليه وسلم قولهما فقال لابى جهل ما أراك تنتهى

الملكية فان الجمع بين الجمل الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من النواهى الملكية وهو أيضا لا يلائم قولها قد لكن الذى لمتنى فيه فان عذران العصمة مما ينافى عشية مراهما ثم بعد ما اقامت عليهن الحجة وأوضحت لديهن عذرها وقد أصابهن من قبله عليه السلام ما أصابها باحت لهن بقيية سرها فقالت (ولقد راودته عن نفسه) حسبما قلتن وسمعتن (فاستعصم) امتنع طالبا للعصمة وهو بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والحفظ الشديد كما فى عصمة وهو يحتمل فى الاستزادة منها كما فى استمسك واستجمع الرأى وفيه برهان نير على انه لم يصدر عنه عليه السلام شئ محل باستعصامه بقوله معاذ الله من الهم وغيره اعترفت لهن أولا بما كن يسمعنه من مراودتها له وأكدته باظهار الابتهاج بذلك ثم زادت على ذلك أنه أعرض عنها على أبلغ ما يكون ولم يل اليها قط ثم زادت عليه أيضا أنها

مستمرة على ما كانت عليه غير مرعوية عنه لا بلوم العواذل ولا باعراض الحبيب فقالت (ولئن لم يفعل ما آمره) أى آمره فيما سيأتى كما لم يفعل فيما مضى فحذف الجار وأوصل الفعل الى الضمير كما فى أمرتك الخير فالضمير للموصول أو أمرى اياه أى موجب أمرى ومقتضاه فما مصدرية والضمير ليوسف وعبرت عن مراودتها بالامر اظهارا لجريان حكومتها عليه واقتضاء لان تمتثل بأمرها (ليسجنن) بالنون المثقلة

آثرت بناء الفعل للفعول جريا على رسم الملوك أوايها ما الشرعة لترتب ذلك على عدم امتثاله لامرها كأنه لا يدخل بينهما فعل فاعل
(وليكونا) بالخفيفة (من الصاغرين) أي الاذلاء في السجن وقد قرئ الفعلان بالتثقيل ولكن المشهورة أولى لان النون كتبت في
المصحف الفاعلى حكم الوقف ١٢٠ واللام الداخلة على حرف الشرط موطئة للقسم وجوابه ساد مسد الجوابين ولقد أنبت بهذا

حتى ينزل لك ما تنزل بعملك الوليد بن المغيرة وأما أنت يا أبا سفيان فاقما فلت ما فلت حية فنزلت هذه الآية
ثم فسر الله تعالى ذلك بقوله أهذا الذي يذكر آلهتكم والذكر يكون بخير وبخلافه فاذا دلت الحال على
أحدهما أطلق ولم يقيد كقولك لرجل سمعت فلانا يذكرك فان كان الذاكر صديقا فثناء وان كان
عدوا فهو ذم ومنه قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم والمعنى انه يبطل كونهم معبودة ويقبح
عبادتها وأما قوله تعالى وهم بذكر الرحمن هم كافرون فالمعنى انهم بعبيرون عليه ذكر آلهتهم التي لا تضر ولا
تنفع بالسوء مع انهم يذكر الرحمن الذي هو المنعم الخالق المحيي المميت كافرون ولا فعل أقبح من ذلك
فيكون الهزؤ واللعب والذم عليهم يعود من حيث لا يشعرون ويحتمل أن يراد بذكر الرحمن القرآن والكتب
والمعنى في اعادتهم ان الاولى اشارة الى القوم الذين كانوا يفعلون ذلك الفعل والثانية بانه لاختصاصهم به
وأيضا فان في اعادتها تأكيدا وتعظيما لفعلهم ﴿ قوله تعالى ﴿ خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا
تستعجلون ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار
ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ولقد استهزئ
برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن ﴾ أما قوله تعالى خلق الانسان من عجل
ففيه مسائل (المسئلة الاولى) في المراد من الانسان قولان (أحدهما) انه النوع والثاني انه شخص معين
(أما القول الاول) فتقرير مرادهم كانوا يستعجلون عذاب الله تعالى وآياته الملجئة الى العلم والاقرار ويقولون
متى هذا الوعد فأراد زجرهم عن ذلك فقدم أولا ذم الانسان على افراط العجلة ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال
لا سعة منكم أن تستعجلوا فانكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم * فان قيل مقدمة الكلام لابد وأن
تكون مناسبة للكلام وكون الانسان مخلوقا من العجل بناسب كونه معذورا فيه فلم رتب على هذه المقدمة
قوله فلا تستعجلون * قلنا لان الخلائق كلما كان أشد كانت القدرة على مخالفته أكمل فكانه سبحانه نبه بهذا
على ان ترك الاستعجال حالة شريفة عالية مرغوب فيها ﴿ أما القول الثاني ﴾ وهو ان المراد شخص معين فهذا
فيه وجهان (أحدهما) ان المراد آدم عليه السلام وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي
والكلبي ومقاتل والضحاك وروى ابن جريج وليث بن أبي سليم عن مجاهد قال خلق الله آدم عليه السلام بعد
كل شيء من آخر ساعات يوم الجمعة فلما دخل الروح رأسه ولم يبلغ أسفله قال يا رب اسبق خلقي قبل غروب
الشمس قال ليس ذلك في قوله تعالى خلق الانسان من عجل وعن السدي لما نفخ فيه الروح فدخل في
رأسه عطس فقالت له الملائكة قل الحمد لله فقال ذلك فقال الله له يرحمك ربك فلما دخل الروح في عينيه
نظر الى ثمار الجنة ولما دخل الروح في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه الى ثمار الجنة
وهذا هو الذي أورث أولاده العجلة (وثانيهما) قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء نزلت هذه
الآية في النضر بن الحرث والمراد بالانسان هو واعلم أن القول الاول أولى لان الغرض ذم القول وذلك
لا يحصل الا اذا حملنا لفظ الانسان على النوع ﴿ المسئلة الثانية ﴾ من المفسرين من أجرى هذه الآية على
ظاهرها ومنهم من قلبها أما الاولون فلهم فيها أقوال (أحدها) قول المحققين وهو أن قوله خلق الانسان
من عجل أي خلق عجولا ودلك على المبالغة كما قيل للرجل الذكي هو نار تشتعل والعرب قد تسمي المرء بما
يكثر منه فتقول ما أنت الا أكل ونوم وما هو الا اقبال وادبار قال الشاعر

أما اذا ذكرت حتى اذا غفلت * فانما هي اقبال وادبار

وهذا الوجه مما كد بقوله تعالى وكان الانسان عجولا قال المبرد خلق الانسان من عجل أي من شأنه العجلة

الوعيد المنطوي على فنون التأكيد بحضر منهن ليعلم يوسف عليه السلام أنها ليست في أمرها على خفية ولا خيفة من أحد فتضيق عليه الحيل وتعيبه العلل ويتحصن له ويرشدنه الى مواقعتها ولما كان هذا الايراق والارعاد منها مظنة لسؤال سائل يقول فما صنع يوسف حينئذ قيل (قال) مناجيا لربه عز سلطانه (رب السجن) الذي أوعدتني بالالقاء فيه وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر (أحب الي) أي آثر عندي لانه مشقة قليلة فاقد آثرها راجيا جليل أياديه (مما يدعونني اليه) من مواتاتها التي تؤدي الى الشقاء والعذاب الاليم وهذا الكلام منه عليه السلام مبني على ما مر من انكشاف الحقائق لديه وبروز كل منهما بصورتها اللائقة بها فصيغة التفضيل ليست على بابها اذ ليس له شائبة محبة لما دعته اليه وانما هو والسجن شران أهونهما وأقربهما الى الايثار والسجن والتعبير عن الايثار بالمحبة لتحسيم مادة طمعها عن المساعدة خوفا من الحبس والاقتصار على ذكر السجن من حيث أن الصغار من فروعه ومتتبعاته واسناد الدعوة اليهن جميعا لان النسوة رغبنه في مطاوعتهن واوعدنه من مخالفتهن وقيل دعونه الى أنفسهن وقيل اغا ابتلي عليه السلام بالسجن لقوله هذا وكان الاولى به أن يسأل الله تعالى العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم

كقوله

كقوله خلقكم من ضعف أى ضعفاء (وثانيها) قال أبو عبيد العجل الطين بلغة حمير وأنشدوا
* والنخل ينبت بين الماء والعجل * (وثالثها) قال الأخفش من عجل أى من تعجيل من الامر وقوله
كن (ورابعها) من عجل أى من ضعف عن الحسن أما الذين قلبوها فقالوا المعنى خلق العجل من الانسان
كقوله ويوم يعرض الذين كفروا على النار أى تعرض النار عليهم والقول الاول أقرب الى الصواب
وأبعد الاقوال هذا القلب لانه اذا أمكن حمل الكلام على معنى صحيح وهو على ترتيبه فهو أولى من أن يحمل
على انه مقلوب وأيضا فان قوله خلقت العجلة من الانسان فيه وجوه من المجاز فما الفائدة فى تغيير النظم
الى ما يجرى مجراه فى المجاز (المسئلة الثالثة) لقائل أن يقول القوم استعجلوا الوعد على وجه التكذيب
ومن هذا حاله لا يكون مستعجلا على الحقيقة قلنا استعجالهم على هذا الوجه أدخل فى الذم لانه أدل على
على استعجال الامر المعلوم فبأن يذم على استعجال ما لا يكون معلوما له كان أولى وأيضا فان استعجالهم بما
توعدهم من عقاب الآخرة أو هلاك الدنيا يتضمن استعجال الموت وهم عالمون بذلك فكانوا مستعجلين
فى الحقيقة أما قوله تعالى سأريكم آياتى فلا تستعجلون فقد احتملوا فى المراد بالآيات على أقوال
(أحدها) أنها هى الهلاك المعجل فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ولذلك قال فلا تستعجلون أى انها ستأتى
لا محالة فى وقتها (وثانيها) انها أدلة التوحيد وصدق الرسول (وثالثها) انها آثار القرون الماضية بالشام
واليمن والاول أقرب الى النظم أما قوله تعالى ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين فاعلم أن هذا هو
الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء وهو كقوله ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى
لجاءهم العذاب فبين تعالى انهم يقولون ذلك لجهلهم وغفلتهم ثم انه سبحانه ذكر فى رفع هذا الحزن عن
قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهين (الاول) بأن بين ما لصاحب هذا الاستهزاء من العقاب الشديد
فقال لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون قال صاحب
الكشاف جواب لو محذوف وحين مفعول به لمعلوم أى لو يعلمون الوقت الذى يلزمون عنده بقولهم متى هذا
الوعد وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من قدام ومن خلف فلا يقدرون على دفعها عن أنفسهم
ولا يجدون أيضا ناصرا ينصرهم لقوله تعالى فتبهتهم فتبهتهم بأس الله ان جاءنا لما كانوا يملئون الصفة من
الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذى هونه عليهم وانما حسن حذف الجواب لان
ما تقدم يدل عليه وهذا أبلغ وهو كقولهم لو ترى اذ يتوفى الذين كفروا ولو أن قرآنا سيرت به
الجبال وانما خص الوجوه والظهور لان مس العذاب لهما أعظم مرقعا ولكثرة ما يستعمل ذكرهما فى
دفع المضرة عن النفس ثم انه تعالى لما بين شدة هذا العذاب بين ان وقت مجيئه غير معلوم لهم بل تأتيهم
الساعة بغتة وهم لها غير مستعدين ولا لامرها مستعدين فتبهتهم أى تدهمهم حائرين واقفين لا يستطيعون
حيلة فى ردها ولا هم يأتيهم منها مصرف ولا هم ينظرون أى لا يمهلون لتوبة ولا معذرة واعلم ان الله تعالى
انما لم يعلم المكلفين وقت الموت والقيامة لما فيه من المصلحة لان المرء مع كتمان ذلك أشد حذرا وأقرب
الى التلافى ثم انه سبحانه ذكر الوجه الثانى فى دفع الحزن عن قلب رسوله فقال ولقد استهزئ برسل من
قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن والمعنى ولقد استهزئ برسل من قبلك بأعجد كما استهزأ
بك قومك فحاق أى نزل وأحاط بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن أى عقوبة استهزائهم وحاق وحق
بمعنى كزال وزل وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى فكذلك يحيق بهؤلاء ما نال استهزائهم ﴿ قوله
تعالى ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون أم لهم آلهة تمنعهم من

والعفة (انه هو السميع) لدعاء المتضرع اليه (العليم) بأحوالهم وما يصلحهم (ثم يداهم)
أى ظهر لهم ما نزل بأصحابه المتصدين للحل والعقد ريثما كفوا بأمر يوسف بالكفاءة والاعراض عن ذلك (من بعد ما رأوا الآيات)
الدارئة لهم عن ذلك البداء وهى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام وفاعل بدا اما مصدره أو الرأى المفهوم من السياق أو المصدر

المدلول عليه بقوله (ليسجننه) والمعنى بدا لهم بدا لهم امور أى أوجبته الحتوم قائلين والله ليسجننه فالقسم المحذوف وجوابه معمول للقول المقدر حالا من ضمير هم وما كان ذلك البداء الا باستنزال المرأة لزوجها وقتا ما منه فى الذروة الغارب وكان مطواعا لها تقوده حيث شاءت قال السدى انها قالت للعزيز ١٢٢ ان هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يخبرهم بانى راودته عن نفسه فاما أن تأذن لى فأخرج فأعتذر الى الناس واما أن تحبسه فحبسه ولقد اراد ت بذلك تحقيق وعيدها الذين به عريكته وتنقاد لها قرونته لما انصرمت حبال رجائها عن استتباعه بعرض الجمال والترغيب بنفسها وباعوانها وقرئ ليسجننه على صيغة الخطاب بان خاطب بعضهم العزيز ومن يليه أو العزيز وحده على وجه التعظيم أو خاطب به العزيز ومن عنده من أصحاب الرأى المباشرين للسجن والحبس (حتى حين) الى حين انقطاع قالة الناس وهذا بادى الرأى عند العزيز وذويه وأما عندها حتى يذللله السجن ويسخره لها وبحسب الناس أنه المجرم وقرئ عتى حين بلغة هذيل (ودخل معه) أى فى سجنه (السجن فتيان) من فتيان الملك ومماليكه أحدهما ساقيه والآخر خبازه روى أن جماعة من أهل مصر سعوا لهما حالا لنسبهما الملك فى طعامه وشرابه فأجابا بهم الى ذلك ثم ان الساقى نكل عن ذلك ومضى عليه الخباز فسم الخبز فلما حضرا الطعام قال الساقى لا تأكل أيها الملك فان الخبز مسموم وقال الخباز لا تشرب أيها الملك فان الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشربه فشربه فلم يضره وقال للخباز كله فأبى فجرب بداية فهلكت فأمر بحبسهما فاتفق أن أدخلا معه وتأخير الفاعل عن المفعول لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر ليتمكن عند النفس حين ورود عليها فضل

دوننا لا يستطيعون نصرا نفسهم ولا هم منا يصحبون بل متعناهؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الارض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴿اعلم الله تعالى لما بين ان الكفار فى الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار بسائر ما وصفهم به أتبعه بأنهم فى الدنيا أيضا الولا أن الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما بقوا فى السلامة فقال لرسوله قل لهؤلاء الكفار الذين يستهزؤن ويغترون بما هم عليه من يكلؤكم بالليل والنهار وهذا كقول الرجل لمن حمل فى قبضته ولا مخلص له منه الى أين مفرك منى هل لك محيص عنى والكالئ الحافظ وأما قوله من الرحمن ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ فى معناه وجوه (أحدها) من يكلؤكم من الرحمن أى مما يقدر على انزاله بكم من عذاب تستحقونه (وثانيها) من بأس الله فى الآخرة (وثالثها) من القتل والسبى وسائر ما أراده الله لكفرهم فبين سبحانه انه لا حافظ لهم ولا دافع عن هذه الامور لو أنزلها بهم ولولا تفضله بحفظهم لما عاشوا ولما متعوا بالدنيا ﴿المسئلة الثانية﴾ انما خص ههنا اسم الرحمن بالذكر تلقينا للجواب حتى يقول العاقل أنت الكالئ يا الهنا لكل الخلائق برحمتك كما فى قوله ما غرك بربك الكريم انما خص اسم الكريم بالذكر تلقينا للجواب ﴿المسئلة الثالثة﴾ انما ذكر الليل والنهار لان لكل واحد من الوقتين آفات تختص به والمعنى من يحفظكم بالليل اذا نمتم وبالنهار اذا تصرفتم فى معايشكم أما قوله بل هم عن ذكر ربهم معرضون فالمعنى انه تعالى مع انعامه عليهم ليلا ونهارا بالحفظ والحراسة فهم عن ذكر ربهم الذى هو الدلائل العقلية والنقلية ولطائف القرآن معرضون فلا يتأملون فى شئ منها لعرفوا أنه لا كالئ لهم سواه ولم يتركوا عبادة الاصنام التى لا حظ لها فى حفظهم ولا فى الانعام عليهم أما قوله تعالى أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون فاعلم أن الميم صلة يعنى ألهم آلهة تكلؤهم من دوننا والمقدير ألهم آلهة من دوننا تمنعهم ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال لا يستطيعون نصر أنفسهم وهذا خبر مبتدا محذوف أى فهذه الآلهة لا تستطيع حماية أنفسها عن الآفات وحماية النفس أولى من حماية الغير فاذا لم تقدر على حماية نفسها فكيف تقدر على حماية غيرها وفى قوله ولا هم منا يصحبون قولان (الاول) قال المازنى أصحبت الرجل اذا منعته فقوله ولا هم منا يصحبون من ذلك لا من الصحبة (والثانى) ان الصحبة ههنا بمعنى النصرة والمعونة وكلاهما سواء فى المعنى يقال صحبك الله ونصرك الله ويقال للمسافر فى صحبة الله وفى حفظ الله فالمعنى ولا هم منا فى نصرة ولا اعانة والحاصل أن من لا يكون قادرا على دفع الآفات ولا يكون مصحوبا من الله بالاعانة كيف يقدر على شئ ثم بين سبحانه تفضله عليهم مع كل ذلك بقوله بل متعناهؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر يعنى ما جاهلهم على الاعراض الا الاغترار بطول المهلة يعنى طالت أعمارهم فى الغفلة فنسوا عهدنا وجهلوا موقع نعمتنا واغتروا بذلك أما قوله تعالى أفلا يرون أنا نأتى الارض ننقصها فالمعنى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستحقون بالعذاب آثار قدرتنا فى اتيان الارض من جوانبها بأخذ الواحد بعد الواحد وفتح البلاد والقرى مما حول مكة وتزيدها فى ملك محمد صلى الله عليه وسلم ونقيت رؤساء المشركين المتعنين بالدنيا وتنقص من الشرك باهلاك أهله أما كان لهم فى ذلك عبرة فيؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلموا أنهم لا يقدرون على الامتناع من أمر الله وارادته فيهم ولا يقدرون على مغالبته ثم قال أفهم الغالبون أى فهؤلاء هم الغالبون أم نحن وهو استفهام بمعنى التقرير والتقريع والمعنى بل نحن الغالبون وهم المغلوبون وقد مضى الكلام فى هذه الآية فى سورة الرعد وفى تفسير النقصان وجوه (أحدها) قال ابن عباس ومقاتل والكلبى رضى الله عنهم ننقصها بفتح البلدان (وثانيها) قال ابن عباس فى رواية أخرى يريد نقصان اهلها

تمكن ونظيره تقديم الظارف على المفعول الصريح في قوله تعالى فأوجس في نفسه خيفة وتأخير السجن عن الظرف لايهام العكس أن يكون الظرف خبرا مقدما على المبتدا وتكون الجملة حالا من فاعل دخل فتأمل (قال أحدهما) استئناف مبني على سؤال من يقول ماصنعتما بعد مادخلا معه السجن فأجيب بانه قال أحدهما وهو الشرابي (اني أراني) ١٢٣ أي أرأيتني والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية (أعصر خمرا) أي عنبا سماه بما يؤل اليه لكونه المقصود من العصر وقيل الخمر بلغة عمان اسم للعنب وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه أعصر عنبا (وقال الآخر) وهو الخباز (اني أراني أحمل فوق رأسي خبزا) تأخير المفعول عن الظرف للامر آنفا وقوله (تأكل الطير منه) أي تنهش منه صفة للخبز أو استئناف مبني على السؤال (نبئنا بتأويله) بتأويل ماذكر من الرؤيين أو ماترؤى بإجراء الضمير مجرى اسم الاشارة فان أسم الاشارة يشار به الى متعدد كما في قوله

فيها خطوط من سواد وبلق

كأنه في الجلد توليع البهق

أي كان ذلك والضمير المستتر الى اجراء الضمير مجرى اسم الاشارة مع أنه لا حاجة اليه وهذا تأويل المرجع عما ذكر أو بما رؤي أن الضمير انما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو من غير تعرض لحال من أحواله فلا يتأتى تأويل باحد الاعتبارين الا باجرائه مجرى اسم الاشارة الذي يدل على المشار اليه بالاعتبار الذي جيء عليه في الكلام فتأمل هذا اذا قالا ما قالا معا أو قاله أحدهما من جهتهما معا وأما اذا قاله كل منهما اثر ما قص مارآه فالخطاب المذكور ليس عبارتهما ولا عبارة أحدهما من جهتهما لتعدد المرجع بل عبارة كل منهما بيقين بتأويله مستفسرا المارآه وصيغة المتكلم مع الغير واقعة في الحكاية دون المحكي على طريقة قوله عز وجل يا أيها

أهلها وبركتها (وثانيها) قال عكرمة تخرب القرى عند موت أهلها (ورابعها) عوت العلماء وهذه الرواية ان صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يعدل عنها والا فالاظهر من الاقاويل ما يتعلق بالغلبة فلذلك قال أقوم الغالبون والذي يليق بذلك انه ينقصها عنهم ويزيدها في بلاد الاسلام قال القفال نزلت هذه الآية في كفار مكة فكيف يدخل فيها العلماء والفقهاء فبين تعالى ان كل ذلك من العبر التي لو استعملوا عقلهم فيها لأعرضوا عن جهلهم ﴿قوله تعالى﴾ قل انما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا انا كنا ظالمين ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيأ وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴿اعلم انه سبحانه لما ذكر في القرآن الادلة وبالغ في التنبيه عليها على ما تقدم أتبعه بقوله قل انما أنذركم بالوحي أي بالقرآن الذي هو كلام ربكم فلا تظنوا أن ذلك من قبلي بل الله آتيكم به وأمرني بانذاركم فاذا فاتك بما الرضى ربي فلم يقع منكم القبول والاجابة فلا يعظم عليكم بعود وبالكم من حيث لم تنتفعوا بما سمعوا من انذاره مع كثرته وتواليه بالصم الذين لا يسمعون أصلا اذا لغرض بالانذار انما هو السماع بل التمكن منه في اقدام على واجب وتحرز عن محرم ومعرفة بالحق فاذا لم يحصل هذا الغرض صار كأنه لم يسمع قال صاحب الكشاف قرئ ولا تسمع الصم الدعاء بالتاء وبالياء أي لا تسمع أنت أولا يسمع رسول الله أولا يسمع الصم من أسمع فان قلت لا تسمع دعاء البشر كالا يسمعون دعاء المنذر فكيف قال اذا ما ينذرون قلت اللام في الصم اشارة الى هؤلاء المنذرين كأنه قيل ولا يسمعون أصلا ولا يسمعون الدعاء اذا ما ينذرون فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم أسماعهم اذا أنذروا وأي هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصام عن آيات الانذار ثم بين تعالى أن حالهم ستتغير الى أن يصيروا بحيث اذا شاهدوا اليسير مما أنذروا به فعند ذلك يسمعون ويعتذرون ويعترفون حين لا ينفعون وهذا هو المراد بقوله ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا انا كنا ظالمين وأصل النفح من الريح اللينة والمعنى ولئن مسهم شيء قليل من عذاب الله كالرائحة من الشيء دون جسمه لتمادوا بالويل واعترفوا على أنفسهم بالظلم قال صاحب الكشاف في المس والنفحة ثلاث مبالغات لفظ المس ومافي النفح من معنى القلة والنزارة بقال نفحته الدابة وهو مجيء يسير ونفحه بعطية رضخه ولفظ المرة ثم بين سبحانه وتعالى ان جميع ما ينزل بهم في الآخرة لا يكون الا عدلا فهم وان ظلموا أنفسهم في الدنيا فلن يظلموا في الآخرة وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى ونضع الموازين القسط وصفها الله تعالى بذلك لان الميزان قد يكون مستقيما وقد يكون بخلافه فبين ان تلك الموازين تجري على حد العدل والقسط وأكد ذلك بقوله فلا تظلم نفس شيأ وههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ معنى وضعها احضارها قال الفراء القسط صفة الموازين وان كان موحدا وهو كقولك للقوم أنتم عدل وقال الزجاج ونضع الموازين ذوات القسط وقوله ليوم القيامة قال الفراء في يوم القيامة وقيل لاهل يوم القيامة ﴿المسئلة الثانية﴾ في وضع الموازين قولان (أحدهما) قال مجاهد هذا مثل والمراد بالموازين العدل وبروى مثله عن قتادة والضحاك والمعنى بالوزن القسط بينهم في الاعمال فمن أحاطت حسناته بسيآته فقلت موازينه يعني ان حسناته تذهب بسيآته ومن أحاطت سيآته بحسناته فقد خفت موازينه أي ان سيآته تذهب بحسناته حكاه ابن جرير هكذا عن ابن عباس رضي الله عنهما (الثاني) وهو قول أئمة السلف انه سبحانه يضع الموازين الحقيقية فتوزن بها الاعمال وعن الحسن هو ميزان له كفتان ولسان وهو يد جبريل عليه السلام وبروى ان داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فلما رآه غشي عليه فلما أفاق قال يا إلهي من الذي يقدر

الرسل كما وهن الطبيبات فانهن يخاطبن بذلك دفعة بل خوطب كل منهن فى زمانه بصيغة مفردة خاصة به (انا نراك) تعليل لعرض رؤياهما عليه واستفسارها منه عليه السلام (من المحسنين) من الذين يحيدون عبارة الرؤيا لما رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له تأويلا حسنا أو من العلماء لما سمعاه ١٢٤ يذكر للناس ما يدل على علمه وفضله أو من المحسنين الى أهل السجن أى فاحسن

أن يملأ كفته حسنات فقال يا داود انى اذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة ثم على هذا القول فى كيفية وزن الاعمال طريقان (أحدهما) أن توزن صحائف الاعمال (والثانى) يجعل فى كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفى كفة السيئات جواهر سود مظلمة فان قيل أهل القيامة اما أن يكونوا عالمين كرنه سبحانه وتعالى عادلا غير ظالم أو لا يعلمون ذلك فان علموا ذلك كان مجرد حكمه كافيا فى معرفة أن الغالب هو الحسنات أو السيئات فلا يكون فى وضع الميزان فائدة وان لم يعلموا لم يحصل الفائدة فى وزن الصحائف لاحتمال انه سبحانه جعل احدى الصحيفتين أثقل أو أخف ظلما فثبت ان وضع الميزان على كلا التقديرين محال عن الفائدة وجوابه على قولنا قوله تعالى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وأيضا ففيه ظهور رجحان الاولى من العدو فى مجمع الخلائق فيكون لاحدا القبيلين فى ذلك أعظم السرور وللآخر أعظم الغم ويكون ذلك بمنزلة نشر الصحف وغيره اذا ثبت هذا فنقول الدليل على وجود الموازين الحقيقية ان حمل هذا اللفظ على مجرد العدل مجاز وصرف اللفظ عن الحقيقة الى المجاز من غير ضرورة غير جائز لا سيما وقد جاءت الاحاديث الكثيرة بالاسانيد الصحيحة فى هذا الباب (المسئلة الثالثة) قال قوم ان هذه الآية ينافضها قوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا والجواب انه لا يكرمهم ولا يعظمهم (المسئلة الرابعة) اتفقوا على ان جمع الموازين لكثرة من توزن أعمالهم وهو وجمع تفخيم ويجوز أن يرجع الى المرزونات أما قوله تعالى وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها فالمعنى انه لا ينقص من احسان محسن ولا يزاد فى اساءة مسىء وقيه مسئل (المسئلة الاولى) قرئ مثقال حبة على كان التامة كقوله تعالى وان كان ذو عسرة وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما آتينا بها وهى مفاعلة من الاتيان بمعنى المجازاة والمكافأة لانهم أتوه بالاعمال وأتاهم بالجزاء وقرأ حميد أتينا بها من الثواب وفى حرف أبى جئنا بها (المسئلة الثانية) لم أنث ضمير المثقال قلنا لاضافته الى الحبة كقولهم ذهبت بعض أصابعه (المسئلة الثالثة) زعم الجبائى ان من استحق مائة جزء من العقاب فاتى بطاعة يستحق بها خمسين جزأ من الثواب فهذا الاقل يحبط بالاكثر ويبقى الاكثر كما كان واعلم ان هذه الآية تبطل قوله لان الله تعالى قد سوى بين اليسير من الطاعة لا يسقط ولو كان الامر كما قال الجبائى لسقطت الطاعة من غير فائدة (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة قوله فلا تظلم نفس شيأ فيه دلالة على ان مثل ذلك لو ابتداه الله تعالى لكان قد ظلم فدل هذا الوجه على انه تعالى لا يعذب من لا يستحق ولا يفعل المضار فى الدنيا الا للمنافع والمصالح (والجواب) الظلم هو التصرف فى ملك الغير وذلك فى حق الله تعالى محال لانه المالك المطلق ثم الذى يدل على استحالة الظلم عليه عقلا ان الظلم عند الخصم مستلزم للجهل أو الحاجة المحال ان على الله تعالى ومستلزم المحال محال فالظلم على الله تعالى محال وأيضا فان الظالم سفيه خارج عن الالهية فلو صح منه الظلم لصح خروجه عن الالهية فحينئذ يكون كونه الها من الجائزات لا من الواجبات وذلك يقدح فى الالهية (المسئلة الخامسة) ان قيل ألستم أعظم من الخردلة فكيف قال حبة من خردل قلنا لوجهين أن نفرض الخردلة كالدينار ثم نعتبر الحبة من ذلك الدينار والغرض المبالغة وان شيأ من الاعمال صغيرا كان أو كبيرا غير ضائع عند الله تعالى أما قوله تعالى وكفى بنا حاسبين فالغرض منه التحذير فان المحاسب اذا كان فى العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شئ وفى القدرة بحيث لا يعجز عن شئ حقيق بالعاقل أن يكون فى أشد الخوف منه ويروى عن الشبلى رحمه الله تعالى انه رؤى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال حاسبونا فدققوا ثم منوا فاعتقوا ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون﴾ اعلم انه سبحانه لما تكلم

البناء كشف غمتنا ان كنت قادرا على ذلك روى انه عليه السلام كان اذا مرض منهم رجل قام عليه واذا ضاق مكانه أوسع له واذا احتاج جمع له وعن قتادة رضى الله عنه كان فى السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول أبشروا واصبروا تؤجروا فقالوا يا رب الله علمك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك اقدر ورك لنا فى حوارك فمن أنت يا فتى فقال أنا يوسف بن صفى الله يعقوب ابن ذبيح الله اسحق ابن خليل الله ابراهيم فقال له عامل السجن لو استطعت خليت سبيلك ولكنى أحسن جوارك فكن فى أى بيوت السجن شئت وعن الشعبى أنهما تحالما له ليمتحناه فقال الساقى أرانى فى بستان فاذا باصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطعتها وعصرتها فى كأس الملك وسقيته وقال الخباز انى أرانى وفوق رأسى ثلاث سلال فيها أنواع الاطعمة واذا سباع الطير تنهس منها (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه) فى الاحوال أى لا يأتيكما طعام فى حال من الاحوال الا حال ما نبأتكما به بأن يبين لكما ماهيته وكيفيته وسائر أحواله (قبل أن يأتيكما) واطلاق التأويل عليه اما بطريق الاستعارة فان ذلك بالنسبة الى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل بالنظر الى ما رؤى فى المنام وشبهه له فى مقامكما هذا حسب عادتكما المطردة (الا نبأتكما بتأويله) استثناء مفرغ من أعم

وامابطريق المشاكلة حسبما وقع فى عبارتهما من قولهما نبئنا بتأويله ولابعد أن يراد بالتأويل الشئ الآيل اليه والمآل فانه فى الاصل جعل شئ يئيلا الى شئ آخر فحكما يجوز أن يراد به الثانى يجوز أن يراد به الاول فالمعنى الانبأتكما بمايؤل اليه من الكلام والخبر المطابق للواقع وكان عليه السلام يقول له مااليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيجده انه كذلك ١٢٥ ومراده عليه السلام بذلك بيان

فى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع فى قصص الانبياء عليهم السلام تسلية للرسول عليه السلام فيما ينا له من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض دونها وذكر ههنا قصتا (القصة الاولى) قصة موسى عليه السلام ووجه الاتصال انه تعالى لما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول انما أنذركم بالوحى أتبعه بان هذه عادة الله تعالى فى الانبياء فقال ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين واختلفوا فى المراد بالفرقان على أقوال (أحدها) انه هو التوراة فكان فرقانا اذ كان يفرق به بين الحق والباطل وكان ضياء اذ كان اغايته ووضوحه يتوصل به الى طرق الهدى وسبل النجاة فى معرفة الله تعالى ومعرفة الشرائع وكان ذكرى أى موعظة أوذكرا يحتاجون اليه فى دينهم ومصالحهم أوالشرف أما الاول ففى قوله وضياء فروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قرأ ضياء بغير واو وهو حال من الفرقان وأما القراءة المشهورة فالمعنى آتيناهم الفرقان وهو التوراة وآتيناه ضياء وذكرى للمتقين والمعنى انه فى نفسه ضياء وذكرى أوآتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكرى (القول الثانى) ان المراد من الفرقان ليس التوراة ثم فيه وجوه (أحدها) عن ابن عباس رضى الله عنهما الفرقان هو النصر الذى أوتى موسى عليه السلام كقوله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يعنى يوم بدر حين فرق بين الحق وغيره من الاديان الباطلة (وثانيها) هو البرهان الذى فرق به دين الحق عن الاديان الباطلة عن ابن زيد (وثالثها) فالق البحر عن الضحاك (ورابعها) الخروج عن الشبهات قاله محمد بن كعب واعلم انه تعالى انما خص الذكر بالمتقين فى قوله هدى للمتقين أما قوله تعالى الذين يخشون ربهم بالغيب فقال صاحب الكشاف محل الذين جر على الوصفية أونصب على المدح أورفع عليه وفى معنى الغيب وجوه (أحدها) يخشون عذاب ربهم فيما أمروا به ونهوا عنه ويتحرون عن مواقعته وايلامهم بالله غيبى استدلالى فالعباد معلومون لله فى الغيب والله لايغيب عنه شئ عن ابن عباس رضى الله عنهما (وثانيها) يخشون ربهم وهم غائبون عن الآخرة وأحكامها (وثالثها) يخشون ربهم فى الخلوات اذا غابوا عن الناس وهذا هو الاقرب والمعنى ان خشيتهم من عقاب الله لازم لقلوبهم الا أن ذلك مما يظهر ونه فى الملا ودون الخلا وهم من عذاب الساعة وسائر ما يجرى فيها من الحساب والهول مشفقون فيعملون بسبب ذلك الاشفاق عن معصية الله تعالى ثم قال وكما أنزلت عليهم الفرقان فكذلك هذا القرآن أنزل عليك وهو معنى قوله وهذا ذكر مبارك يرتكثيره منافعه وغزارة علومه وقوله أفأنتم له منكرون فالمعنى انه لاانكار فى انزاله وفى عجائب مافيه فقد آتينا موسى وهرون التوراة ثم هذا القرآن معجزا شتماله على النظم العجيب والبلاغة البديعة واشتماله على الادلة العقلية وبيان الشرائع فقل هذا الكتاب مع كثرة منافعه كيف عكستم انكاره (القصة الثانية) لابراهيم عليه السلام فى قوله تعالى ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين اذ قال لابيه وقومه ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴿ اعلم ان قوله تعالى ولقد آتينا ابراهيم رشده قصه مسائل ﴿ (المسئلة الاولى) فى الرشد قولان (الاول) انه النبوة واحتجوا عليه بقوله وكنا به عالمين قالوا لانه تعالى انما يخص بالنبوة من يعلم من حاله انه فى المستقبل يقوم بحقها ويجتنب مالا يليق بها وبخصه بها دون غيره زعما منه فرقومه من القبول (والثانى) انه الاهتداء لوجوه الصلاح فى الدين والدنيا قال تعالى فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم وفيه قول ثالث وهو ان تدخل النبوة والاهتداء تحت الرشد اذ لايجوز أن يبعث نبى الاوقد دله الله تعالى على ذاته وصفاته ودله أيضا على مصالح نفسه ومصالح قومه وكل ذلك من الرشد

كل مايهمهما من الامور المتعرقبة قبيل وقوعها وانما خص الطعام بالذكر لكونه عريقا فى ذلك بحسب الحال مع مافيه من مراعاة حسن التخلص اليهما استعراه من الرؤيين المتعلقتين بالشراب والطعام وقد جعل الضمير لما قبلهما من الرؤيين على معنى لا يأتيكما طعام ترزقانه حسب عادتكما الا أخبرتكما بتأويله قبل ما قصصتما على قبل أن يأتيكما ذلك الطعام الموفق مراداه الاخبار بالاستقبال فى التنزيلة وأنت خبير بان النظم الكريم ظاهر فى تعدد اتيان الطعام والاخبار بالتأويل وتجدد هما وأن المقام مقام اظهار فضله فى فنون العلوم بحيث يدخل فى ذلك تأويل رؤياهما دخولا أوليا وانما لم يكتف عليه السلام بمجرد تأويل رؤياهما مع أن فيه دلالة على فضله لانهما لما نعتاه عليه السلام بالانتظام فى سمط المحسنين وأنهما قد علما ذلك حيث قالا انا نراك من المحسنين توسم عليه السلام فيهما خيرا وتوجها الى قبول الحق فاراد أن يخرج آثر ذى أثير عما فى عهدته من دعوة الخلق الى الحق فهد قبل الخوض فى ذلك مقدمة تزيدهما علما بعظم شأنه وثقة بأمره ووقوفا على علو طبقته فى بدائع العلوم توسلا بذلك الى تحقق ماتوخاه وقد تخلص اليهما من كلامهما فكأنه قال تأويل ماقصصتماه على فى طرف المنام حيث رأيتماه لى فى المنام وانى أبين لكما كل

يا ليل ردد قبل من الامور المستقبلة وان لم يكن هناك مقدمة للمنام حتى ان الطعام الموظف الذى يأتيكما كل يوم أينبئه الكما قبل اتيانه ثم أشار بما أن علم ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والعرافين بل هو فضل الهى يؤتيه من يشاء ممن يصطفيه للنبوة فقال (ذلكما) أى ذلك التأويل والاخبار بالمغيبات ١٢٦ ومعنى البعد فى ذلك للاشارة الى علو درجته وبعد منزلته (مما علمنى ربى) مالوحى

والالهام أى بعض ذلك وأمن ذلك الجنس الذى لا يحوم حول ادراكه العقول ولقد دلهما بذلك على ان له علما جمة ما سمعا قطعة من جملها وشعبة من دوحتها ثم بين أن نيل تلك الكرامة سبب اتباعه ملة آبائه الانبياء العظام واجتنابه عن الشرك فقال (انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله) وهو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من قوله ذلكما مما علمنى ربى وتعليله لا لتعليم الوقع صلة للوصول لأدبيته الى معنى انه مما علمنى ربى لهذا السبب دون غيره ولا لتضمين الجملة الخبرية لان ما ذكر بعد لا تعليل ليس من شأنه ان يكون التأويل المذكور بعضا مما علمه ربه ولكونه من جنسه بل لنفس تعليمهما ما علمه ذلكما أنه قيل لمن ذا علمك ربك تلك العلوم البديعة فقيل لانى تركت ملة الكافرة أى دينهم الذى اجتمعوا عليه من الشرك وعبادة الاوثان والمراد بتركها الامتناع عنها رأسا كما يفصح عنه قوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ لا تركها بعد ما لم نسلم اوانما عبر عنه بذلك لكونه أدخل بحسب الظاهر فى اقتدائهما به عليه السلام اولا والتعبير عن كفرهم بالله تعالى بسلب الايمان به للتعريض على أن عبادتهم له تعالى مع عبادة الاوثار ليست بايمان به تعالى كما هو زعمهم الباطل على ما مر فى قوله تعالى انه على غير صالح (وهم بالآخرة) وما فيه من الجزاء (هم كافرون) على الخصوص دون غيرهم

(المسئلة الثانية) احتج أصحابنا فى ان الايمان مخلوق لله تعالى بهذه الآية فانه لو كان الرشد هو التوفيق والبيان فقد فعل الله تعالى ذلك بالكفار فيجب أن يكون قد آتاهم رشدهم أجاب الكعبى بان هذا يقال فيمن قبل لا فيمن رد وذلك كمن أعطى المال لولدين فقبله أحدهما وثمره وورده الآخر أو أخذه ثم ضيعه فيقال أغنى فلان ابنه فيمن أثمر المال ولا يقال مثله فيمن ضيع (والجواب عنه) هذا الجواب لا يتم الا اذا جعلنا قبوله جزأ من مسمى الرشد وذلك باطل لان المسمى اذا كان مركبا من جزأين ولا يكون أحدهما مقدورا للفاعل لم يجز اضافة ذلك المسمى الى ذلك الفاعل فكان يلزم أن لا يجوز اضافة الرشد الى الله تعالى بالمفعولية لكن النص وهو قوله ولقد آتينا ابراهيم رشده صريح فى أن ذلك الرشد انما حصل من الله تعالى فبطل ما قالوه (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قد يرشد كالعدم والعدم ومعنى اضافته اليه انه رشد مثله وانه رشد له شأن أما قوله تعالى من قبل ففيه وجوه (أحدها) آتينا ابراهيم نبوته واهتداءه من قبل موسى عليه السلام عن ابن عباس وابن جبير (وثانيها) فى صغره قبل بلوغه حين كان فى السرب وظهرت له الكواكب فاستدل بها وهذا على قول من حمل الرشد على الاهتداء والا لزمه أن يحكم بنبوته عليه السلام قبل البلوغ عن مقاتل (وثالثها) يعنى حين كان فى صلب آدم عليه السلام حين أخذ الله ميثاق النبيين عن ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية الضحاك أما قوله تعالى وكنا به عالمين فالمراد انه سبحانه علم منه أحواله الابدعية وأسراره العجيبة وصفات قدر ضيها حتى أهله لان يكون خليلا له وهذا كقولك فى رجل كبير أنا عالم بفلان فان هذا الكلام فى الدلالة على تعظيمه أدل مما اذا شرحت جلال كماله أما قوله تعالى اذ قال لابيه وقومه فقال صاحب الكشاف اذا ما أن تتعلق بآتينا أو برشده أو بمحذوف أى اذكر من أوقات رشده هذا الوقت أما قوله ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) التمثال اسم للشئ المصنوع مشبها لمخلق من خلق الله تعالى وأصله من مثلت الشئ اذا شبهته به واسم ذلك الممثل تمثال (المسئلة الثانية) ان القوم كانوا عبادا أصنام على صور مخصوصة كصورة الانسان أو غيره فجعل عليه السلام هذا القول منه ابتداء كلام لينظر فيما عابهم به ويردونه من شبهة فيبطلها عليهم (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف لم ينوطها كفين مفعولا وأجراه مجرى ما لا يتعدى كقولك فلان لا يكوف أو واقفون لها قال فان قلت هلا قيل عليها عاكفين كقوله يعكفون على أصنام لهم قلت لو قصد التعدية لاعداه بصلته التى هى على أما قوله قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين فاعلم ان القوم لم يجدوا فى جوابه الا طريقة التقليد الذى يوجب مزيد التكبر لانهم اذا كانوا على خطأ من أمرهم لم يعهم من هذا الخطأ أن آباءهم أيضا سلكوا هذا الطريق فلا جرم أجابهم ابراهيم عليه السلام بقوله لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين فبين ان الباطل لا يصير حقا بسبب كثرة المتمسكين به فلما حقق عليه السلام ذلك عليهم ولم يجدوا من كلامه مخلصا اورد أوهنا بناء على الانكار قوى القلب فيه وكانوا يستبعدون أن يجرى مثل هذا الانكار عليهم مع كثرتهم وطول العهد عندهم فعند ذلك قالوا له أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين وهو همين بهذا الكلام انه سبعد أن يقدم على الانكار عليهم جادا فى ذلك فعند ذلك صلى الله عليه وسلم الى بيان التوحيد ﴿ قوله تعالى ﴾ (قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لاكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ﴾ اعلم ان القوم لما أرهبوا انه انما نازع عما خاطبهم به فى أصنامهم أظهر عليه السلام ما يعلمون به انه جد فى اظهار الحق الذى هو التوحيد وذلك بالقول

لافراطهم في الكفر (واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب) يعني أنها اعا حازت هذه الكمالات وفاز بتلك الكرامات بسبب أنها اتبع ملة آبائه الكرام ولم يتبع ملة قوم كفروا بالمبدأ والمعاد وانما قاله عليه السلام ترغيبا لصاحبيه في الايمان والتوحيد وتنفيرا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لان التخلية ١٢٧ متقدمة على التحلية (ما كان) أي ما صح وما استقام فضلا عن الوقوع (لنا) معاشر الانبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا (أن نشرك بالله من شئ) أي شئ كان من ملك أو جني أو انسي فضلا عن الجماد البحت (ذلك) أي التوحيد المدلول عليه بقوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ (من فضل الله علينا) أي ناشئ من بادىء الدنا بالنبوة وتوريثنا اياها لعبادة الامة وهدايتهم الى الحق وذلك مع كونه من موجبات التوحيد ودواعيه نعمة جليلة وفضل عظيم علينا بالذات (وعلى الناس) كافة بواسطتنا وحيث عبر عن ذلك بذلك العنوان عبر عن التوحيد الذي يوجبه بالشكر فقيل (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) أي لا يوحدون فان التوحيد مع كونه من آثار مادة الشكر من التأييد شكر لنعمة عز وجل على تلك النعمة وانما وضع الظاهر موضع الضمير الراجع الى الناس الزيادة توضيح وبيان ولقطع توهم رجوعه الى المجموع الموهم لعدم اختصاص غير الشاكر بالناس وقيل ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث نصب لنا أدلة ننظر فيها ونستدل بها على الحق وقد نصب مثل تلك الادلة لسائر الناس أيضا ولكن أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلون بها اتباعا لاهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين وذلك أن تقول ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث أعطانا عقولا ومشاعر تستعملها في دلائل التوحيد التي مهدها لنا

أولا ثم بالفعل ثانيا أما الطريقة القولية فهي قوله بل ربكم رب السموات والارض الذي فطرهن وهذه لدلالة تدل على أن الخالق الذي خلقها لمنافع العباد هو الذي يحسن أن يعبدلان من يقدر على ذلك يقدر على أن يضر وينفع في الدار الآخرة بالعقاب والثواب فيرجع حاصل هذه الطريقة الى الطريقة التي ذكرها الأئمة في قوله ما أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيأ قال صاحب الكشاف الضمير في فطرهن للسموات والارض أو للتماثيل وكونه للتماثيل أدخل في الاحتجاج عليهم أما قوله وأنا على ذلكم من الشاهدين ففيه وجهان (الاول) ان المقصود منه المبالغة في التأكيد والتحقيق كقول الرجل اذا بالغ في مدح أحد أو ذمه أشهد أنه كريم أو ذميم (والثاني) انه عليه السلام عنى بقوله وأنا على ذلكم من الشاهدين ادعاءه انه قادر على اثبات ما ذكره بالحجة والبرهان لست مثلكم أقول مالا أقدر على اثباته بالحجة كما تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم وأما الطريقة الفعلية فهي قوله وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فان القوم لما لم ينتفعوا بالدلالة العقلية عدل الى أن أراهم عدم المبالاة في عبادتها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قرأ معاذ بن جبل رضي الله عنه وبالله وقرئ تولوا بمعنى تتولوا ويقويها قوله فتولوا عنه مدبرين فان قلت ما الفرق بين الباء والتاء قلت ان الباء هي الاصل والتاء بدل من الواو المبدل منها والتاء فيها زيادة معنى وهو التعجب كأنه تعجب من تسهيل الكيد على يده لان ذلك كان أمرا مقنوطا منه لصعوبته (المسئلة الثانية) ان قيل لما قال لا كيدن أصنامكم والكيد هو الاحتيال على الغير في ضرر لا يشعر به وذلك لا يتأتى في الاصنام وجوابه قال ذلك توسلا لما كان عندهم ان الضرر يجوز عليها وقيل المراد لاكيدنكم في أصنامكم لانه بذلك الفعل قد أنزل بهم النقم (المسئلة الثالثة) في كيفية أول القصة وجهان (أحدهما) قال السدي كانوا اذا خرجوا من عيدهم دخلوا على الاصنام فسجدوا لها ثم عادوا الى منازلهم فلما كان هذا الوقت قال آزر لابراهيم عليه السلام لو خرجت معنا فخرج معهم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال اني سقيم اشتكى رجلي فلما مضوا وبقي ضعفاء الناس نادى وقال تالله لاكيدن أصنامكم واحتج هذا القائل بقوله تعالى فالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم (وثانيها) قال الكعبي كان ابراهيم عليه السلام من أهل بيت ينظرون في النجوم وكانوا قد اخبروا على عيدهم لم يبرحوا الا من بعد فقالوا هم براهيم بالذي هم به من كسر الاصنام نظر قبل يوم العيد الى السماء فقال لاصحابه اني أشتكي غدا فذلك قوله فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم وأصبح من الغد معصوبا رأسه خرج القوم لعيدهم ولم يتخلف أحد غيره فقال أما والله لاكيدن أصنامكم وسمع رجل منهم هذا القول فحفظه عليه ثم ان ذلك الرجل أخبر غيره وانتشر ذلك في جماعة فلذلك قال تعالى قالوا سمعنا فتى يذكرهم واعلم أن كلا الوجهين ممكن ثم تمام القصة ان ابراهيم عليه السلام لما دخل بيت الاصنام وجد سبعين صنما مصطفة وثم صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وكان في عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسرها كلها بفاس في يده حتى لم يبق الا الكبير ثم علق الفاس في عنقه أما قوله تعالى فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان قيل لم قال فجعلهم جذاذا وهذا جمع لا يليق الا بالناس جوابه من حيث اعتقدوا فيها انها كالناس في أنها تعظم وبتقرب اليها راهل كان فيهم من يظن انها تضر وتنفع (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف جذاذا فعال من الجذ وهو القطع وقرئ بالكسر والفتح وقرئ جذذا جمع جذ وجذذا جمع جذة (المسئلة الثالثة) ان قيل ما معنى الاكبير لهم ولم يحمل الكبير على الحقيقة ويحمل في التعظيم ويحمل في الامرين وأما قوله لعلهم اليه يرجعون فيحتمل

الانس والاتفاق وتدأ على سائر الناس ايضا مثلها ولكن أكثرهم لا يشكرون أى لا يصرفون تلك القوى والمشاعر الى ما خلقت هى له ولا يستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيد الآفاقية والانفسية والعقلية والنقلية (ياصاحبى السجن) أى ياصاحبى فى السجن كما تقول ياسارق الليلة ناداهما بعنوان ١٢٨ الصحبة فى مدار الاحزان ودار الاحزان التى تصفو فيها المودة وتخلص النصيحة لقبلا

رجوعهم الى ابراهيم عليه السلام ويحتمل رجوعهم الى الكبير أما الاول فتقريره من وجهين (الاول) ان المعنى انهم لعلهم يرجعون الى مقالة ابراهيم ويعدلون عن الباطل (والثانى) انه غلب على ظنه انهم لا يرجعون الا الى الحق لما سمعوه من انكاره لدينهم وسبه لآلهتهم فيكون مما أجاب به من قوله بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم أما اذا قلنا الضمير راجع الى الكبير ففيه وجهان (الاول) ان المعنى لعلهم يرجعون اليه كما يرجع الى العالم فى حل المشكلات فيقولون ما لهؤلاء عكسوره وما لك صحيح والقياس على عاقل وهذا قول الكلبى وانما قال ذلك بناء على كثرة جهالاتهم فلعلهم كانوا يعتقدون فيها انها تجيب وتتكلم (والثانى) انه عليه السلام قال ذلك مع علمه بانهم لا يرجعون اليه استهزاء بهم وان قياس حال من يسجد له ويتوسل للعبادة أن يرجع اليه فى حل المشكلات (المسئلة الرابعة) ان قيل أولئك الاقوام اما أن يقال انهم كانوا عقلاء أو ما كانوا عقلاء فان كانوا عقلاء وجب أن لا يكونوا عاجزين بالضرورة وان تلك الاصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر فأى حاجة فى اثبات ذلك الى كسرها أقصى ما فى الباب أن يقال القوم كانوا يعظمونها كما يعظم الواحد منا المصحف والمسجد والمحراب وكسر هذا لا يقدح فى كونه معظما من هذه الوجوه وان قلنا انهم ما كانوا عقلاء وجب أن لا تحسن المناظرة معهم ولا بعثة الرسل اليهم والجواب انهم كانوا عقلاء وكانوا عالمين بالضرورة انها جمادات ولكن لعلهم كانوا يعتقدون فيها انها تماثل الكواكب والهة السموات موضوعة بحيث ان كل من عبدها تتفهم بها ما لا تتفهم بها ما لا تتفهم بها ما لا

على - وَال ناشئ من قوله ان الحكم الا لله فكانه قيل فماذا حكم الله في هذا الشأن فقيل أمر على ألسنة الانبياء عليهم السلام (ألا تعبدوا) أي بأن لا تعبدوا (الا اياه) حسبما تقضي به قضية العقل أيضا (ذلك) أي تخصيصه تعالى بالعبادة (الدين القيم) الثابت المستقيم الذي تعاضدت عليه البراهين عقلا ونقلا (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن ذلك هو الدين ١٢٩ القيم لجهلهم بتلك البراهين أولا

ويشهدون عقابه أما قوله تعالى قالوا أأنت فعلت هذا فاعلم ان في الكلام حذفا وهو قرأوا به وقالوا أأنت فعلت طلبوا منه الاعتراف بذلك ليقدموا على ايذائه فظاهر منه ما انقلب الامر عليهم حتى تمنوا الخلاص منه فقال بل فعله كبيرهم هذا وقد عاق الفأس على رقبته لكي يورد هذا القول فيظهر جهلهم في عبادته الاوثان (فان قيل) قوله بل فعله كبيرهم كذب (والجواب) للناس فيه قولان (أحدهما) وهو قول كافة المحققين انه ليس بكذب وذكروا في الاعتذار عنه وجوها (أحدها) ان قصد ابراهيم عليه السلام لم يكن الى أن ينسب الفعل الصادر عنه الى الصنم وانما قصد تقرير نفسه واثباته لها على أسلوب تعريضي يملح فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط أأنت كتبت هذا وصاحبك أي لا يحسن الخط ولا يقدر الا على خربشة فاسدة فقلت له بل كتبته أنت كان قصدك بهذا الجواب تقرير ذلك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك واثباته للاعمى أو المخرمش لان اثباته والامر دائر بينهما للعاجز منهما اكمل استهزاء به واثبات للقادر (وثانيها) ان ابراهيم عليه السلام غاظته تلك الاصنام حين أبصرها مصطفة مزينة وكان غيظه من كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فاسند الفعل اليه لانه هو السبب في استمرائهم لعبادتها وحطمها لها والفعل كما يسند الى مباشره يسند الى الحامل عليه (وثالثها) أن يكون حكاية لما يلزم على مذهبهم كأنه قال لهم ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد ويدعى الهاان يقدر على هذا وأشباهه وهذه الوجوه الثلاثة ذكرها صاحب الكشاف (ورابعها) انه كناية عن غير مذكور أي فعله من فعله وكبيرهم هذا ابتداء الكلام ويروى عن الكسائي انه كان يقف عند قوله بل فعله ثم يبتدئ كبيرهم هذا (وخامسها) انه يجوز أن يكون فيه وقف عند قوله كبيرهم ثم يبتدئ فيقول هذا فاسئلوهم والمعنى بل فعله كبيرهم وعزى نفسه لان الانسان أحيانا يعزو من كل سنخ (وسادسها) أن يكون في الكلام تقديم وتأخير كأنه قال بل فعله كبيرهم هذا ان كانوا ينطقون فاسئلوهم فتكون اضافة الفعل الى كبيرهم مشروطا بكونهم ناطقين فلما لم يكونوا ناطقين امتنع ان يكونوا فاعلين (وسابعها) قرأ محمد بن السميفع فعله كبيرهم أي فلعل الفاعل كبيرهم (القول الثاني) وهو قول طائفة من أهل الحديث بان ذلك كذب واحتجوا بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات كلها في ذات الله تعالى قوله اني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هي أختي وفي خبر آخر ان أهل الموقف اذا سألوا ابراهيم الشفاعة قال اني كذبت ثلاث كذبات ثم قرروا قولهم من جهة العقل وقالوا الكذب ليس قبيحا لذاته فان النبي عليه السلام اذا هرب من ظالم واختفى في دار انسان وجاء الظالم وسأل عن حاله فانه يجب الكذب فيه واذا كان كذلك فأي بعد في أن يأذن الله تعالى في ذلك لمصلحة لا نعرفها الا هو واعلم ان هذا القول مرغوب عنه أما الخبر الاول وهو الذي رووه فلأن يضاف الكذب الى رواته أولى من أن يضاف الى الانبياء عليهم الصلاة والسلام والدليل القاطع عليه انه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة وبأذن الله تعالى فيه فلعله يجوز هذا الاحتمال في كل ما أخبر عنه وفي كل ما أخبر الله تعالى عنه وذلك يبطل الوثوق بالشرائع ويطرق التهمة الى كلها ثم ان ذلك الخبر لو صح فهو محمول على المعاريض على ما قال عليه السلام ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب فأما قوله تعالى اني سقيم فلعله كان به سقم قليل واستقصاء الكلام فيه يجيء في موضعه وأما قوله بل فعله كبيرهم فقد ظهر الجواب عنه أما قوله لسارة انها أختي فالمراد انها أخته في الدين وادا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب الى الانبياء عليهم السلام فحينئذ لا يحكم بنسبة الكذب اليهم الا

يعلمون شيأ أصلا فيعبدون أسماء سموها من تلقاء أنفسهم معرضين عن البرهان العقلي والسلطان النقلي وبعد تحقق الحق ودعوتهم اليه وبيانه لهم غاية بيانه الرفيع ورتبة علمه لواسع شرع في تفسير ما استفسروه ولكونه بعضا مغايرا لما سبق فصله عنه بتكرير الخطاب فقال (يا صاحبي السجن أما أحدكما) وهو الشرابي وانما لم يعينه بتقييد دلالته التعبير وتوسلا بذلك الى ابهام أمر صاحبه حذارا مشافهته بما يسوءه (فيسقي ربه) أي سيده (خمرا) روى أنه عليه السلام قال له ما رأيت من الكرمة وحسنها الملك وحسن حالك عنده وأما القضبان الثلاثة فثلاثة أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعود الى ما كنت عليه وقرأ عكرمة فيسقي ربه على البناء للمفعول أي يسقي ما يروى به (وأما الآخر) وهو الخباز (فيصلب فتأكل الطير من رأسه) روى انه عليه السلام قال له ما رأيته

سارا يأمره من الرؤيين قطعا لما مآله الذي هو عبارة عن نجاة أحدهما وهلاك الآخر كما يومىء اسناد القضاء اليه اذ الاستفتاء انما يكون في الحادثة لا في حكمها يقال استفتى الفقيه في الحادثة أي طلب منه بيان حكمها ولا يقال استفتاه في حكمها وكذا الافتاء فانه يقال أفتى

فلان فى الواقعة الفلانية كذا ولا يقال أدنى فى حكمها أو وجوابها كذا وعما هو علم فى ذلك قوله تعالى يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى ومعنى استفتائهم اياه طلبهم التأويل بقولهما نبئنا بتأويله وانما عبر عن ذلك بالامر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلا للامر وتفخيما لشأنه اذ الاستفتاء انما يكون فى النوازل ١٣٠ المشكلة الحكم المبهمة الجواب وايثار صيغة الاستقبال مع سبق استفتائهما فى ذلك لما

زند بق أما قوله تعالى فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون ففيه وجوه (الاول) ان ابراهيم عليه السلام لما نبههم بما أورده عليهم على قبح طريقهم تنبهوا فعلموا ان عبادة الأصنام باطلة وانهم على غرور وجهل فى ذلك (والثانى) قال مقاتل فرجعوا الى أنفسهم فلاموها وقالوا انكم أنتم الظالمون لابراهيم حيث تزعمون انه كسرها مع ان التفاوت بين يدى الصنم الكبير (وثالثها) المعنى انكم أنتم الظالمون لانفسكم حيث سألتم منه عن ذلك حتى أخذ يستهزئ بكم فى الجواب والاقرب هو الاول أما قوله تعالى ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون فقال صاحب الكشاف نكسه قلبه فجعل أسفله أعلاه وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ فى المعنى وجوه (أحدها) ان المراد استقاموا حين رجعوا الى أنفسهم وأتوا بالفكرة الصالحة ثم انتكسوا فقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا فى الجدال الباطل وأن هؤلاء مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق آلهة معبودة (وثانيها) قلبوا على رؤسهم حقيقة لفرط اطراقهم خجلا وانكسارا واتخذ الاصنام بهتهم به ابراهيم فما أطاروا جوابا الا ما هو حجة عليهم (وثالثها) قال ابن جريج ثم تكسوا على رؤسهم فى الحجة عليهم لابراهيم حين جادلهم أى قلبوا فى الحجة واحتجوا على ابراهيم بما هو الحجة لابراهيم عليهم فقالوا لقد علمت ما هؤلاء ينطقون فاقروا بهذه للحيرة التى لحقتهم قال والمعنى نكست حجتهم فافيم الحيرة عنهم مقام الحيرة عن حجتهم ﴿المسئلة الثانية﴾ قرئ نكسوا بالتشديد ونكسوا على لفظ ما لم يسم فاعله أى نكسوا أنفسهم على رؤسهم وفى قراءة رضوان بن عبد المعبود أما قوله تعالى قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون فالمعنى ظاهر قال صاحب الكشاف أف صوت اذا صوت به علم ان صاحبه متضجر وأن ابراهيم عليه السلام أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل فتأفف بهم ثم يحتمل أنه قال لهم ذلك وقد عرفوا صحة قوله ويحتمل أنه قال لهم ذلك وقد ظهرت الحجة وان لم يعقلوه وذلك هو الاقرب لقوله أفتعبدون وقوله أفلا تعقلون ﴿قوله تعالى﴾ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين ﴿اعلم انه تعالى لما بين ما أظهره ابراهيم عليه السلام من دلائل التوحيد وابطال ما كانوا عليه من عبادة التماثيل أتبعه بما يدل على جهلهم وانهم لما قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم فهو هنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ليس فى القرآن من القائل لذلك والمشهور انه نمرود بن كنعان بن سنحارب بن نمرود بن كوش بن حام بن نوح وقال مجاهد سمعت ابن عمر يقول انما أشار بتحريق ابراهيم عليه السلام رجل من الكرد من أعراب فارس وروى ابن جريج عن وهب عن شعيب الجبائى قال ان الذى قال حرقوه رجل اسمه هيزن بخسف الله تعالى به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة ﴿المسئلة الثانية﴾ أما كيفية القصة فقال مقاتل لما اجتمع نمرود وقومه لاحراق ابراهيم حبسوه فى بيت وبنوا بنيانا كالحظيرة وذلك قوله فالقوه فى الجحيم ثم جمعوا له الحطب الكثير حتى ان المرأة لو مرضت قالت ان عافانى الله لاجمعن حطب ابراهيم ونقلوا له الحطب على الدواب أربعين يوما فلما اشتعلت النار اشتدت وصارا لهواء بحيث لو مر الطير فى أقصى الهواء لاحترق ثم أخذوا ابراهيم عليه السلام ورفعوه على رأس البنيان وقيدوه ثم اتخذوا منجنيقا ووضعوه فيه مقيدا مغلولا فصاحت السماء والارض ومن فيهما من الملائكة الا الثقلين صيحة واحدة أى ربنا ليس فى أرضك أحد يعبدك غير ابراهيم وانه يحرق فيك فأذن لنا فى نصرته فقال سبحانه ان استغاث بأحد منكم أو دعاه فليتبعه وان لم يدع غيرى فانا أعلم به وأنا وليه فخلوا بينى وبينه فلما أرادوا القائه فى النار أتاه خازن الرياح فقال ان شئت

أنهما بصدده الى أن يقضى عليه السلام من الجواب وطرده واستناد القضاء اليه مع أنه من أحوال ما سئل لانه فى الحقيقة عين ذلك السائل وقد ظهر فى عالم المثال بتلك الصورة وأما توحيده مع تعدد رؤياهما فوارد على حسب ما وجداه فى قولهما نبئنا بتأويله لان الامر ما انتهيا به وههنا لاجله من هم الملك فانهما لم يستفتيا فيه ولا فيما هو صورته بل فيما هو صورة لما سئل عاقبته فتأمل وانما أبرهما عليه السلام بذلك تحقيقا لتعبيره وتأكيدا له وقيل لما عبر رؤياه ما جحدا وقالا ما رأينا شيئا أو أخبرهما ان ذلك كائن صدقهما أو كذبهما ولعل الجحود من الخيال أو الدال أو هى الى جحود الشرائى الآن يكون ذلك لمراعاة جانبه (وقال) أى يوسف عليه السلام (للذى ظن أنه ناج) أو ثر على صيغة المضارع مبالغة فى الدلالة على تحقق النجاة حسبما يفيده قوله تعالى قضى الامر الذى فيه تستفتيان وهو السر فى ايثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال للذى ظنه ناجيا (منهما) من صاحبيه وانما ذكر بوصف النجاة تمهيدا

طبرت

لمناط التوصية بالذكر عند الملك وعنوان التقرب المفهوم من التعبير المذكور وان كان أدخل فى ذلك وأدعى الى تحقيق ما رصاه به لكنه ليس بوصف فارق يدور عليه الامتياز بينه وبين صاحبه المذكور بوصف الهلاك والظاهر هو يوسف عليه السلام لاصاحبه لان التوصية

المذكورة لا تدور على ظن الناجي بل على ظن يوسف وهو بمعنى اليقين كما في قوله تعالى ظننت أني ملاق حسابيه فالتعبير بالوحي كما ينبئ عنه قوله تعالى قضي الامر الخ وقيل هو بمعناه والتعبير بالاجتهاد والحكم بقضاء الامر أيضا اجتهادي (اذكرني) مما أنا عليه من الحال والصفة (عند ربك) سيدك وصفني له بصفتي التي شاهدتها (فأنساه الشيطان) أي أنسى الشراني ١٣١ يوسف وسوسته والقائه في قلبه أشغالا تعوقه

طيرت النار في الهواء فقال ابراهيم عليه السلام لا حاجة بي اليكم ثم رفع رأسه الى السماء وقال اللهم أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الارض ليس في الارض أحد يعبدك غيري حسبنا الله ونعم الوكيل وقيل انه حين ألقي في النار قال لا اله الا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم وضعوه في المنجنيق ورموا به في النار فأتاه جبريل عليه السلام وقال يا ابراهيم هل لك حاجة قال أما اليك فلا قال فاسأل ربك قال حسبي من سؤالي علمه بحالي فقال الله تعالى يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم وقال السدي انما قال ذلك جبريل عليه السلام قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية مجاهد ولو لم يتبع برد سلاما لمات ابراهيم من بردها قال ولم يبق يومئذ في الدنيا نار الا طفئت ثم قال السدي فأخذت الملائكة يضعون ابراهيم وأقعدوه في الارض فاذا عين ماء عذب وورد أجرد ونرجس ولم تحرق النار منه الا وثاقه وقال المنهال ابن عمرو أخبرت ان ابراهيم عليه السلام لما ألقي في النار كان فيها اما أربعين يوما أو خمسين يوما وقال ما كنت أيام أطيب عيشا مني اذ كنت فيها وقال ابن اسحق بعث الله ملك الظل في صورة ابراهيم فقعد الى جنب ابراهيم يؤنسه وأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة وقال يا ابراهيم ان ربك يقول أما علمت ان النار لا تضر أحبائي ثم نظر نمرود من صرح له وأشرف على ابراهيم فرآه جالسا في روضة ورأى الملك قاعدا الى جنبه وما حوله نار تضرم الحطب فنادا نمرود يا ابراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال قم فاخرج فقام عشي حتى خرج منها فلما خرج قال له نمرود من الرجل الذي رأيته معك في صورتك قال ذاك ملك الظل أرسله ربي ليؤنسني فيها فقال نمرود اني مقرب الى ربك قربانا مما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فاني ذابح له أربعة آلاف بقرة فقال ابراهيم عليه السلام لا يقبل الله منك ما دمت على دينك فقال نمرود لا أستطيع ترك ملكي ولكن سوف أذبحها له ثم ذبحها له وكف عن ابراهيم عليه السلام ورويت هذه القصة على وجه آخر وهي انهم بنوا لابراهيم بنيانا وألقوه فيه ثم أوقدوا عليه النار سبعة أيام ثم اطلعوا عليه ثم فتحوا عليه من الغد فاذا هو غير محترق يعرق عرقا فقال لهم هاران أولوط ان النار لا تحرقه لانه سحر النار ولكن اجعلوه على شيء وأوقدوا تحته فان الدخان يقتله فجعلوه فوق بئر وأوقدوا تحته فطارت شرارة فوقعت في لحية أبي لوط فأحرقته (المسئلة الثالثة) انما اختاروا المعاقبة بالنار لانها أشد العقوبات ولهذا قيل ان كنتم فاعلين أي ان كنتم تنصرون آلهتكم نصرا شديدا فاختاروا أشد العقوبات وهي الاحراق أما قوله تعالى قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال أبو مسلم الاصفهاني في تفسير قوله تعالى قلنا يا نار كوني بردا المعنى انه سبحانه جعل النار بردا وسلاما لان هناك كلاما كقوله أن يقول له كن فيكون أي يكونه وقد احتج عليه بان النار جماد فلا يجوز خطابه والاكثرون على انه وجد ذلك القول ثم هؤلاء لهم قولان (أحدهما) وهو قول السدي ان القائل هو جبريل عليه السلام (والثاني) وهو قول الاكثرين ان القائل هو الله تعالى وهذا هو الاليق الاقرب بالظاهر وقوله النار جماد فلا يكون في خطابها فائدة قلنا لم لا يجوز أن يكون المقصود من ذلك الامر مصلحة عائدة الى الملائكة (المسئلة الثانية) اختلفوا في أن النار كيف بردت على ثلاثة أقوال (أحدها) أن الله تعالى أزال عنها ما فيها من الحر والاحراق وأبقى ما فيها من الاضاءة والاشراق والله على كل شيء قدير (وثانيها) ان الله تعالى خلق في جسم ابراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار اليه كما يفعل بخزنة جهنم في الآخرة وكما أنه ركب بنية الملائكة بحيث لا يضرها اتلاع الحديدة المحماة ودين السمندل بحيث لا يضره المكث في النار (وثالثها) أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلا يمنع من وصول أثر النار اليه قال المحققون والاول أولى لان ظاهر قوله

عن الذكر والاقالا نساء في الحقيقة لله عز وجل والفاء للسببية فان وسوسته عليه السلام المتضمنة للاستعانة تغيره سبحانه كانت باعثة لما ذكر من الانساء (ذكر ربه) أي ذكر الشراني له عليه السلام عند الملك والاضافة لادنى ملابسة أو ذكر اخبار ربه (فلبث) أي يوسف عليه السلام بسبب ذلك الانساء أو القول (في السجن بضع سنين) البضع ما بين الثلاث الى التسع من البضع وهو القطع وأكثر الاقاويل انه لبث فيه سبع سنين وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم رحم الله أخي يوسف لولم يقل اذكرني عند ربك لما لبث في السجن سبعا بعد الخمس والاستعانة بالعباد وان كانت مرخصة لكن اللائق بمناصب الانبياء عليهم السلام الاخذ بالعزائم (وقال الملك) أي الريان (اني أرى) أي رأيت والمضارع لحكاية الحال الماضية (سبع بقرات سمان) جمع سمين وسمينة ككرام في جمع كريم وكريمة بقال رجال كرام ونسوة كرام (يأكلهن) أي أكلهن والعدول الى المضارع لاستحضار الصورة العجيبة والجملة حال من البقرات أو صفة لها (سبع عجاف) أي سبع بقرات عجاف وهي جمع عجفاء والقياس عجف لان فعلاء وفعل لا يجمع على فعال ولكن عدل به عن القياس حملا لاحد النقيضين على الآخر وانما لم يقل سبع عجاف بالاضافة لان التمييز موضوع

لسان الجنس والصفة ليست بصالحة لذلك فلا يقال ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ وأما قولك ثلاثة فرسان وخمسة ركبان فلجريان الفارس والراكب مجرى الاسماء روى انه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وخرج عقيبهن سبع بقرات عجاف فى غاية الهزال فابتلعت العجاف السمان (وسبع سنبلات خضر) ١٣٢ قد انعقد حبها (وأخر يابسات) أى وسبعا أخر يابسات قد أدركت

يا نار كونى بردا أن نفس النار صارت باردة حتى سلم ابراهيم من تأثيرها الا أن النار بقيت كما كانت فان قيل النار جسم موصوف بالحرارة واللطافة فاذا كانت الحرارة جزأ من مسمى النار امتنع كون النار باردة فاذا وجب أن يقال المراد من النار الجسم الذى هو أحد أجزاء مسمى النار وذلك مجاز فلم كان مجازكم أولى من المجازين الآخرين قلنا المجاز الذى ذكرناه يبقى معه حصول البرد وفى المجازين الذين ذكرتموهما لا يبقى ذلك فكان مجازنا أولى أما قوله تعالى كونى بردا وسلاما على ابراهيم فالمعنى ان البرد اذا أفرط أهلك كالحر بل لابد من الاعتدال ثم فى حصول الاعتدال ثلاثة أوجه (أحدها) أنه يقدر الله تعالى بردها بالمقدار الذى لا يؤثر (وثانيها) ان بعض النار صار بردا وبقى بعضها على حرارته فتعادل الحر والبرد (وثالثها) انه تعالى جعل فى جسمه مزيد حر فسلم من ذلك البرد بل قد انتفع به والتقدير ههنا سؤالات ﴿السؤال الاول﴾ أوكل النار زالت وصارت بردا (الجواب) ان النار هو اسم الماهية فلا بد وأن يحصل هذا البرد فى الماهية ويلزم منه عمومه فى كل افراد الماهية وقيل بل اختص بتلك النار لان الغرض انما تعلق ببرد تلك النار وفى النار منافع للخلق فلا يجوز تعطيلها والمراد خلاص ابراهيم عليه السلام لا ايصال الضرر الى سائر الخلق ﴿السؤال الثانى﴾ هل يجوز ما روى عن الحسن من انه سلام من الله تعالى على ابراهيم عليه السلام (الجواب) الظاهر كما أنه جعل النار بردا جعلها سلاما عليه حتى يخلص فالذى قاله يحسن وفيه تشتيت الكلام المرتب ﴿السؤال الثالث﴾ أفيجوز ما روى من انه لو لم يقل وسلاما لآتى البرد عليه (والجواب) ذلك بعيد لان برد النار لم يحصل منها وانما حصل من جهة الله تعالى فهو القادر على الحر والبرد فلا يجوز ان يقال كان البرد يعظم لولا قوله سلاما ﴿السؤال الرابع﴾ أفيجوز ما قيل من انه كان فى النار أنعم عيشا منه فى سائر أحواله (والجواب) لا يمتنع ذلك لما فيه من مزيد النعمة عليه وكلها ويجوز ان يكون انعاما رأنعم عيشا منه لما لم يظهر مما نالته من السرور بخلاصه من ذلك الامر العظيم ولعظم سروره فظفره بأعدائه وبما أظهره من دين الله تعالى أما قوله تعالى وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين أى أرادوا أن يكيدوه فما كانوا الا مغلوبين غالبوه بالجدال فلقنه الله تعالى الحجة الملكية ثم علوا الى القوة والجبروت فنصره وقراه عليهم ثم انه سبحانه أتم النعمة عليه بان نجاه ونجى لوطا معه وهو ابن أخيه وهو لوط بن هاران الى الارض التى بارك فيها للعالمين وفى الاخبار ان هذه الواقعة كانت فى حدود بابل فتجاه الله تعالى من تلك البقعة الى الارض المباركة ثم قيل انها مكة وقيل أرض الشام لقوله تعالى الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله والسبب فى بركتها أما فى الدين فلان أكثر الانبياء عليهم السلام بعثوا منها وانتشرت شرائعهم وآثارهم الدينية فيها وأما فى الدنيا فلان الله تعالى بارك فيها بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب العيش وقيل ما من ماء عذب الا وينبع أصله من تحت الصخرة التى بيت المقدس ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلوة وإيتاء الزكوة وكانوا لنا عابدين﴾ اعلم انه تعالى بعد ذكره لانعامه على ابراهيم وعلى لوط بان نجاهما الى الارض المباركة أتبعه بذكر غيره من النعم وانما جمع بينهما لان فى كون لوط معه جمع ما كان بينهما من القرابة والشركة فى النبوة مزيد انعام ثم انه سبحانه ذكر النعم التى أفاضها على ابراهيم عليه السلام ثم النعم التى أفاضها على لوط أما الاول فمن وجوه (أحدها) ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة واعلم ان النافلة العطية خاصة وكذلك النفل ويسمى الرجل الكثير العطاء نوفلا ثم للمفسرين ههنا قولان (الاول) أنه هما مصدر من وهبنا له مصدر من غير لفظه ولا فرق بين ذلك وبين قوله ووهبنا له هبة أى وهبنا هما له عطية وفضلا من غير أن يكون جزاء مستحقا وهذا قول مجاهد وعطاء

والثورى على الخضر حتى غلبتها على ما روى ولعل عدم التعرض لذكره للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات (يا أيها الملأ) خطاب للاشراف من العلماء والحكماء (أفتونى فى رؤياى) هذه أى عبروها وبينوا حكمها وما تؤول اليه من العاقبة والتعبير عن التعبير بالافتاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه (ان كنتم للرؤيا تعبرون) أى تعلمون عبارة جنس الرؤيا علما مستمرا وهى الانتقال من الصور الخيالية المشاهدة فى المنام الى ما هى صور وأمثلة لها من الامور الآفاقية أو الانفسية الواقعة فى الخارج من العبور وهو المجاوزة تقول عبرت النهر اذا قطعته وجاوزته ونحوه أولتها أى ذكرت ما تؤل اليه وعبرت الرؤيا عبارة أثبت من عبرتها تعبيرا والجمع بين الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار كما أشير اليه واللام للبيان أو لتقوية العامل المؤخر لرعاية الفواصل أو لتضمين تعبرون معنى فعل متعد باللام كأنه قيل ان كنتم تنتدبون لعبارتها ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان كما يقال فلان لهذا الامر اذا كان مستقلا به (والثانى) ما مكنا منه وتعبرون خبر آخر (قالوا) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فما قال الملأ للملك فقيل قالوا هى (أضغاث أحلام) أى تخاليطها جمع ضغث وهو فى الاصل ما جمع من أخلاط النبات وحزم ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من أحاديث النفس ووساوس

الشيطان وتربهافي المنام والاحلام جمع حلم وهي الرؤيا الكاذبة التي لاحقيقة لها والاضافة بمعنى من أي هي أضغاث من أحلام أخرجوها من جنس الرؤيا التي لها عاقبة تؤول اليها ويجيء بأمرها وجمعوها وهي رؤيا واحد نظيرا لغة في وصفها بالبطلان كما في قولهم فلان يركب الخيل ويلبس النعم أن لا يملك الا فرسا واحدا وعمامة فردة أو لتضمنها أشياء ١٣٣ مختلفة من البشرات السبع السمان والسبع العجاف والسنابل السبع الخضر والاخر اليابسات فتأمل حسن موقع الاضغاث مع السنابل ذلك درشأن التنزيل (وما نحن بتأويل الاحلام) أي المنامات الباطلة التي لا أصل لها (بعالمين) لان لها تأويلا ولكن لا نعلمه بل لانه لا تأويل لها وانما التأويل للمنامات الصادقة ويجوز أن يكون ذلك اعترافا منهم بقصور علمهم وأنهم ليسوا بمهرة في تأويل الاحلام مع أن لها تأويلا كما يشعر به عدولهم عما وقع في كلام الملك من العبارة المعربة عن مجرد الانتقال من الدال الى المدلول حيث لم يقولوا بتعبير الاحلام أو عبارتها الى التأويل المنبئ عن التصرف والتكلف في ذلك لما بين الاكيل والمأكل من البعد ويؤيد قوله عز وجل أنا أنبئكم بتأويله (وقال الذي نجا منهما) أي من صاحبي يوسف وهو الشرابي (وادكر) بغير المعجمة وهو الفصيح وعن الحسن بالمعجمة أي تذكر يوسف عليه السلام وشأنه التي شاهدها ووصيته بتقريب رؤيا الملك واشكال تأويلها على الملا (بعد أمة) أي مدة طويلة وقرئ امة بالكسر وهي النعمة أي بعد ما أنعم عليه بالنجاة وأمه أي نسيان والجملة حال من الموصول أو من ضميره في الصلة وقيل معطوفة على نجا وليس بذاك لان حق كل من الصفة والصلة أن تكون معلومة الانتساب الى الموصوف والموصول عند المخاطب كما عند المتكلم

(والثاني) وهو قول أبي بن كعب وابن عباس وقتادة والفراء والزجاج ان ابراهيم عليه السلام لما سأل الله ولدا قال رب هب لي من الصالحين فأجاب الله دعاءه ووهب له اسحق وأعطاه يعقوب من غير دعائه فكان ذلك نافلة كالشيء المتطوع به من الآدميين فكأنه قال ووهبنا له اسحق اجابة لدعائه ووهبنا له يعقوب نافلة على ما سأل كالصلاة النافلة التي هي زيادة على الفرض وعلى هذا النافلة يعقوب خاصة والوجه الاول أقرب لانه تعالى جمع بينهما ثم ذكر قوله نافلة فاذا صح أن يكون وصفا لهما فهو أولى ﴿النعمة الثانية﴾ قوله تعالى وكلا جعلنا صالحين أي وكلا من ابراهيم واسحق ويعقوب جعلنا أنبياء مرسلين هذا قول الجمهور وقال آخرون عاملين بطاعة الله عز وجل محتنبين محارمه والوجه الثاني أقرب لان لفظ الصلاح يتناول الكل لانه سبحانه قال بعد هذه الآية وأوحينا اليهم فعل الخيرات فلو حملنا الصلاح على النبوة لزم التكرار واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لان قوله وكلا جعلنا صالحين يدل على ان ذلك الصلاح من قبله أجاب الجبائي بانه لو كان كذلك لما وصفهم بكونهم صالحين وبكونهم أئمة وبكونهم عابدين ولما مدحهم بذلك ولما أثنى عليهم واذا ثبت ذلك فلا بد من التأويل وهو من وجهين (الاول) أن يكون المراد انه سبحانه آتاهم من لطفه وتوفيقه ما صلحوا به (والثاني) أن يكون المراد انه سماهم بذلك كما يقال زيد فسق فلانا وضلله وكفره اذا وصفه بذلك وكان مصدقا عند الناس وكما يقال في الحاكم زكى فلانا وعدله وجرحه اذا حكم بذلك ﴿واعلم ان هذه الوجوه محتملة أما اعتمادهم على المدح والذم (فالجواب) المعهود ان نعارضه بمسئلتي الداعي والعلم وأما الحمل على اللطف فباطل لان فعل الالطاف عام في المكلفين فلا بد في هذا التخصيص من مزيد فائدة وأيضا فلان قوله جعلته صالحا كقوله جعلته متمما كما فعله على تحصيل شيء سوى الصلاح ترك للظاهر وأما الحمل على التسمية فهو أيضا مجاز أقصى ما في الباب انه قد صار اليه عند الضرورة في بعض المواضع وهنا لا ضرورة الا أن يرجع به أمرا أخرى الى فصل المدح والذم فحينئذ نرجع أيضا الى مسئلتي الداعي والعلم ﴿النعمة الثالثة﴾ قوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وفيه قولان (أحدهما) أي جعلناهم أئمة يدعون الناس الى دين الله تعالى والخيرات بأمرنا وإذننا (والثاني) قول أبي مسلم ان هذه الامامة هي النبوة والاول أولى لئلا يلزم التكرار ولأنه سبحانه احتج بهذه الآية على أمرين (أحدهما) على خلق الافعال بقوله وجعلناهم أئمة وتقريره ما مضى (والثاني) على بيان الدعوة الى الحق والمنع عن الباطل لا يجوز الا بأمر الله تعالى لان الامر لو لم يكن معتبرا لما كان في قوله بأمرنا فائدة ﴿النعمة الرابعة﴾ قوله تعالى وأوحينا اليهم فعل الخيرات وهذا يدل على انه سبحانه خصهم بشرف النبوة وذلك من أعظم النعم على الاب قال الزجاج حذف الهاء من اقامة الصلاة لان الاضافة عوض عنه وقال غيره الاقام والاقامة مصدر قال أبو القاسم الانصاري الصلاة أشرف العبادات البدنية وشرعت لذكر الله تعالى والزكاة أشرف العبادات المالية ومجموعهما التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله واعلم انه سبحانه وصفهم أولا بالصلاح لانه أول مراتب السائرين الى الله تعالى ثم ترقى فوصفهم بالامامة ثم ترقى فوصفهم بالنبوة والوحي واذا كان الصلاح الذي هو العصمة أول مراتب النبوة دل ذلك على ان الانبياء معصومون فان المحروم عن أول المراتب أولى بان يكون محروما عن النهاية ثم انه سبحانه كما بين أصناف نعمه عليهم بين بعد ذلك اشتغالهم بعبودية فقال وكانوا لنا عابدين كأنه سبحانه وتعالى لما وفى بعهد الربوبية في الاحسان والانعام فهم أيضا وفوا بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة ﴿القصة الثالثة﴾ قصة لوط عليه السلام ﴿قوله تعالى ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم

ولذلك قيل ان الصفات قبل العلم بها أخبار والاخبار بعد العلم بها صفات وأنت تدري أن تذكره بعد أمة غما علم بهذه الجملة فلا مجال لتفاوت مع ثبات المعلومة قبل في ملك العلة (أنا أنبئكم بتأويله) أي أنا أخبركم به بالتلقي عن عنده علمه لامن تلقاء نفسي ولذلك لم يقل أنا أفتيكم فيما وعقبه بقوله (فأرسلون) ١٣٤ أي الى يوسف وانما لم يذكره ثقة بما سبق من التذكر والحق من قوله (يوسف أيها الصديق) أي أرسل اليه فأتاه فقال يا يوسف ووصفه بالمبالغة في الصدق حسبما شاهده وذاق أحواله وجربها لكونه بصدد اعتشام آثاره واقتباس أنواره فهو من باب براعة الاستهلال (أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) أي في رؤيا ذلك وانما لم يصرح به لوضوح مرامه بقرينة ما سبق من معاملتهما ولدلالة مضمون الحادثة عليه حيث لا امكان لوقوعه في عالم الشهادة أي بين لنا ما تأولها وحكمها وحيث عاين عاوتربيته عليه السلام في الفضل عبر عن ذلك بالافتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولا نبئنا بتأويله وفي قوله أفتنا مع أنه المستفتى وحده اشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بأمور الامة وأنه في ذلك معبر وسفير كما آذن بذلك حيث قال (لعلي أرجع الى الناس) أي الى الملك ومن عنده أو الى أهل البلدان كان السجن في الخارج كما يدل عليه قوله (لعلهم يعلمون) ذلك وبه يعلمون بمقتضاه أو يعلمون فضلك ومكانك

ونصرناه

سوء فاسقين وأدخلناه في رحمتنا انه من الصالحين ﴾ اعلم انه سبحانه بعد بيان ما أنعم به على ابراهيم عليه السلام أتبعه بذكر نعمه على لوط عليه السلام لما جمع بينهما من قبل ومهنا مسئلتان (المسئلة الاولى) في الواو في قوله ولوطا قولان (أحدهما) وهو قول الزجاج انه عطف على قوله وأوحينا اليهم (والثاني) قول أبي مسلم انه عطف على قوله آتينا ابراهيم رشده ولا بد من ضمير في قوله ولوطا فكأنه قال وآتينا لوطا فاضمر ذكره ﴿المسئلة الثانية﴾ في أصناف النعم وهي أربعة وجوه (أحدها) الحكم أي الحكمة وهي التي يجب فعلها أو الفصل بين الخصوم وقيل هي النبوة (وثانيها) العلم واعلم ان ادخال التنوين عليهما يدل على علو شأن ذلك العلم وذلك الحكم (وثالثها) قرية ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث والمراد أهل القرية لانهم هم الذين يعملون الخبائث دون نفس القرية ولان الهلاك بهم نزل فنجاه الله تعالى من ذلك ثم بين سبحانه وتعالى بقوله انهم كانوا قوم سوء فاسقين ما أراده بالخبائث وأمرهم فيما كانوا يقدمون عليه ظاهر (ورابعها) قوله وأدخلناه في رحمتنا انه من الصالحين وفي تفسير الرحمة قولان (الاول) انها النبوة أي انه لما كان صالحا للنبوة أدخله الله في رحمته لكي يقوم محقها عن هقاتل (الثاني) انه الثواب عن ابن عباس والضحاك ويحتمل أن يقال انه عليه السلام لما آتاه الله الحكم والعلم وتخلص عن جشاءة السوء فقد حصلت عليه أبواب المكاشفات وتجلت له أنوار الالهية وهي بحر لا ساحل له وهي الرحمة في الحقيقة ﴿القصة الرابعة﴾ قصة نوح عليه السلام ﴿قوله تعالى ﴿ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فاغرقناهم أجمعين﴾ أما قوله تعالى اذ نادى من قبل ففيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ لاشبهة في ان المراد من هذا النداء عاؤه على قومه بالعذاب ويؤكده حكايته الله تعالى عنه ذلك تارة على الاجمال وهو قوله فدعا ربه اني مغلوب فانتصر وتارة على التفصيل وهو قوله وقال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراو يدل عليه أيضا ان الله تعالى أجابه بقوله فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم وهذا الجواب يدل على ان الانجاء المذكور فيه كان هو المطلوب في السؤال فدل هذا على ان نداءه ودعاءه كان بان ينجيه مما يلحقه من جهتهم من ضروب الاذى بالتكذيب والرد عليه وبان ينصره عليهم وأن يهلكهم فلذلك قال بعده ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴿المسئلة الثانية﴾ أجمع المحققون على ان ذلك النداء كان بأمر الله تعالى لانه لو لم يكن بأمره لم يؤمن أن يكون الصلاح أن لا يجاب اليه فيصير ذلك سببا للنقصان حال الانبياء ولان الاقدام على امثال هذه المطالب لو لم يكن بالامر لكان ذلك مبالغة في الاضرار وقال آخرون انه عليه السلام لم يكن مأذونا له في ذلك وقال أبو أمامة لم يحصر أحد من خلق الله تعالى كحسرة آدم ونوح حسرة آدم على قبول وسوسة ابليس وحسرة نوح على دعائه على قومه فأوحى الله تعالى اليه أن لا تحسرني فان دعوتك وافقت قدري أما قوله تعالى فنجيناه وأهله من الكرب العظيم فالمراد بالاهل ههنا أهل دينه وفي تفسير الكرب وجوه (أحدها) انه العذاب النازل بالكفار وهو الغرق وهو قول أكثر المفسرين (وثانيها) انه تكذيب قومه اياه وما لقي منهم من الاذى (وثالثها) انه مجموع الامرين وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وهو الاقرب لانه عليه السلام كان قد دعاهم الى الله تعالى مدة طويلة وكان قد نال منهم كل مكروه وكان الغم يتزايد بسبب ذلك وعند اعلام الله تعالى اياه ان يغرقهم وأمره باتخاذ الفلك كان أيضا على غم وخوف من حيث لم يعلم من الذي يتخلص من الغرق ومن الذي يغرق فأزال الله تعالى عنه الكرب العظيم بان خلصه من جميع ذلك وخلص جميع من آمن به معه أما قوله تعالى ونصرناه من القوم فقد ذكرناه في قصة أبي بن كعب

كأنه قيل فماذا قال يوسف عليه السلام في التأويل فقيل قال (تزرعون سبع سنين دأبا) قرئ بفتح الهمزة وسكونها وكلاهما مصدر دأب في العمل اذا جد فيه وتعب وانتصابه على الحالية من فاعل تزرعون أي دائبين أو تدأبون دأبا على أنه مصدر مؤكد لفعل هو الحال أوّل عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب والجدب واليابسات بسنين مجدبة فأخبرهم بأنهم يواظبون سبع سنين على الزراعة ويسالغون فيها اذ ذلك يتحقق الخصب الذي هو مصداق البقرات السمان وتأويلها ولهم في تضاعيف ذلك أمر نافع لهم فقال (فما حصدتم) أي في كل سنة (فذروه في سنبله) ولا تدرّوه كلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها واعلم عليه السلام استدل على ذلك بالسنبلات الخضر وانما أمرهم بذلك اذ لم يكن معتادا فيما بينهم وحيث كانوا معتادين للزراعة لم يأمرهم بها وجعلها أمرا محققا الوقوع وتأويلا للرؤيا مصداقا لما فيها من البقرات السمان (الا قليلا مما تأكلون) في تلك السنين وفيه ارشاد منه عليه السلام لهم الى التقليل في الاكل والاقتصار على الاستثناء المأكول دون السذر ليكون ذلك معلوما من قوله تزرعون سبع سنين وبعد اتمام ما أمرهم به شرع في بيان بقية التأويل التي يظهر منها حكمة الامر المذكور فقال (ثم يأتي) وهو عطف على تزرعون فلا وجه لجعله بمعنى الامر حثا لهم على الجد والمبالغة في الزراعة على أنه يحصل بالاخبار بذلك أيضا (من بعد ذلك) أي من بعد السنين السبع المذكورات وانما لم يقل من بعدهن قصدا الى الاشارة الى وصفهن فان الضمير سكت عن أوصاف المرجع بالكلية (سبع شداد) أي سبع سنين صعاب على الناس (يأكلن ما قدمتم لهن) من الحبوب المتروكة في سنابلها وفيه

ونصرناه على القوم ثم قال المبرد نقديره ونصرنا ممن مكروه القوم وقال تعالى فمن ينصرنا من بأس الله أي يعصمنا من عذابه قال أبو عبيدة من بمعنى على وقال صاحب الكشاف انه نصر الذي مطاوعه انتصر وسمعت هذا يدعو على سارق اللهم انصرهم منه أي اجعلهم منتصرين منه أما قوله تعالى انهم كانوا قوم سوء فالمعنى انهم كانوا قوم سوء لاجل ردهم عليه وتكذيبهم له فاغرقناهم أجمعين فبين ذلك الوجه الذي به خلصه منهم ﴿القصة الخامسة﴾ قصة داود وسليمان عليهما السلام ﴿قوله تعالى﴾ وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره الى الارض التي باركنا فيها وكنا بكل شئ عالمين ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين ﴿اعلم ان قوله تعالى وداود وسليمان وأيوب وذكريا وذا النون كله نسق على ما تقدم من قوله ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل ومن قوله ولوطا آتيناه حكما وعلما واعلم ان المقصود ذكر نعم الله تعالى على داود وسليمان فذكر أولا النعمة المشتركة بينهما ثم ذكر ما يختص به كل واحد منهما من النعم أما النعمة المشتركة فهي التي ذكروها في قصة الحكومة ووجه النعمة فيها ان الله تعالى زينهما بالعلم والفهم في قوله وكلا آتينا حكما وعلما ثم في هذا تنبيه على ان العلم أفضل الكمالات وأعظمها وذلك لان الله تعالى قدم ذكره ههنا على سائر النعم الجليلة مثل تسخير الجبال والطير والريح والجن واذا كان العلم مقدما على أمثال هذه الاشياء فباطنك بغيرها وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال ابن الكيسان النفش ان تنتشر الغنم بالليل ترعى بلا راع وهذا قول جمهور المفسرين ومن الحسن انه يجوز ذلك ليلا ونهارا ﴿المسئلة الثانية﴾ أكثر المفسرين على ان الحرث هو الزرع وقال بعضهم هو الكرم والاول أشبه بالعرف ﴿المسئلة الثالثة﴾ اجمع من قال أقل الجمع اثنان بقوله تعالى وكنا لحكمهم شاهدين مع أن المراد داود وسليمان (جوابه) ان الحكم كما يضاف الى الحاكم فقد يضاف الى المحكوم له فاذا أضيف الحكم الى الحاكمين كان الجمع واقعا أكثر من الاثنين وقرئ لحكمهما شاهدين ﴿المسئلة الرابعة﴾ في كيفية القصة وجهان (الاول) قال أكثر المفسرين دخل رجلان على داود عليه السلام أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الحرث ان غنم هذا دخلت حرثي وما أبقت منه شيأ فقال داود عليه السلام اذهب فان الغنم لك فخرجا فمرا على سليمان فقال كيف قضى بينكما فأخبراه فقال لو كنت أنا القاضي لقضيت بغير هذا فأخبر بذلك داود عليه السلام فدعاه وقال كيف كنت تقضي بينهما فقال أدفع الغنم الى صاحب الحرث فيكون له منافعها من الدر والنسل والوبر حتى اذا كان الحرث من العام المستقبل كهيئته يوم أكل دفعت الغنم الى أهلها وقبض صاحب الحرث حرثه (الثاني) قال ابن مسعود وشريح ومقاتل رحمهم الله ان راعيا نزل ذات ليلة بجنب كرم فدخلت الاغنام الكرم وهو لا يشعر فأكلت القضبان وأفسدت الكرم فذهب صاحب الكرم من الغد الى داود عليه السلام فقضى له بالغنم لانه لم يكن بين ثمن الكرم وثمن الغنم تفاوت فخرجوا ومروا بسليمان فقال لهم كيف قضى بينكم فأخبراه به فقال غير هذا أرفق بالفريقين فأخبر داود عليه السلام بذلك فدعا سليمان وقال له بحق الابوة والبنوة ألا أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين فقال تسلم الغنم الى صاحب الكرم حتى ينتفع بنمائها وبعمل الراعي في اصلاح الكرم حتى يصير كما كان ثم ترد الغنم الى صاحبها فقال داود عليه السلام انما القضاء ما قضيت وحكم بذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما حكم سليمان بذلك وهو ابن احدى عشرة سنة ﴿وههنا أمور لا بد من البحث عنها

تنبيه على أن أمره عليه السلام بذلك كان لوقت الضرورة واعتاد الاكل اليهن مع انه حال الناس فيهن مجازى كما فى ثمراه صائم وفيه تلويح بأنه تأويل لا كل الجناف السمان واللام فى لهن ترشيح لذلك فكأن ما دخر فى السنابل من الحبوب شئ قدهيئ وقدم لهن كالذى يقدم للنازل والافهو فى الحقيقة مقدم للناس ١٣٦ فيهن (الا قليلا مما تحصنون) تخرزون مبذورا لزراعة (ثم يأتى من بعد ذلك)

أى من بعد السنين الموصوفة بما ذكر من الشدة وأكل العلال المدخرة (عام) لم يعبر عنه بالسنة تحاشيا عن المدلول الاصلى لها من عام القحط وتنبيها من أول الامر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق (فيه يغاث الناس) من الغيث أى يمطرون يقال غيثت البلاد اذا مطرت فى وقت الحاجة أومن الغوث بمعنى أغاثنا الله تعالى أى أمدنا برفع المكاره حين أظلتنا (وفيه يعصرون) أى ما من شأنه أن يعصر من العنب والقصب والزيتون والسمسم ونحوها من الفواكه لكثرتها والتعرض لذكر العصر مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزم له عادة كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم فى المحبوب اما لان استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للمحبوب اذ المذكورات يتوقف صلاحها على مباد أخرى غير المطر واما لمراعاة جانب المستقى باعتبار حالته الخاصة به بشارة له

وهى التى يدور عليها حسن موقع تغليبه على الناس فى القراءة بالفوقانية وقيل معنى يعصرون يحلبون الضروع الاصل

وتكرير فيه اما للاشعار باختلاف أوقات ما يقع فيه من الغيث والعصر زمانا وهو ظاهر وعنوانا فان الغيث والغوث من فضل الله تعالى والعصر من فعل الناس واما لان المقام مقام تعداد منافع ذلك العام ولا يخفى قدم فى الموضعين على المعللين فان المقصود الاصلى بيان أنه

(السؤال الاول) هل فى الآية دلالة على انهما عليهما السلام اختلفا فى الحكم أم لا فان أبا بكر الاصم قال انهما لم يختلفا البتة وانه تعالى بين لهما الحكم لكنه بينه على لسان سليمان عليه السلام (الجواب) الصواب انهما اختلفا والدليل اجماع الصحابة والتابعين رضى الله عنهم على ما رويناه وأيضا فقد قال الله تعالى وكنا لحكمهم شاهدين ثم قال ففهمناها سليمان ولقائل للمعقب فوجب أن يكون ذلك الحكم سابقا على هذا التفهيم وذلك الحكم السابق اما أن يقال اتفقا فيه أو اختلفا فيه فان اتفقا فيه لم يبق لقوله ففهمناها سليمان فائدة وان اختلفا فيه فذلك هو المطلوب (السؤال الثانى) سلمنا انهما اختلفا فى الحكم ولكن هل كان الحكمان صادرين عن النص أو عن الاجتهاد (الجواب) الامران جائزان عندنا وزعم الجبائى انهما كانا صادرين عن النص ثم انه تارة يبنى ذلك على أن الاجتهاد غير جائز من الانبياء وأخرى على ان الاجتهاد وان كان جائزا منهم فى الجملة ولكنه غير جائز فى هذه المسئلة أما المأخذ الاول فقد تكلمنا فيه فى الجملة فى كتابنا المسمى بالمحصول فى الاصول ولنذكره هنا أصول الكلام من الطرفين احتج الجبائى على أن الاجتهاد غير جائز من الانبياء عليهم السلام بأمور (أحدها) قوله تعالى قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان أتبع الا ما يوحى الىّ وقوله تعالى وما ينطق عن الهوى (وثانيها) ان الاجتهاد طريقه الظن وهو قادر على ادراكه يقينا فلا يجوز مصيره الى الظن كالمعاين للقبلة لا يجوز له أن يجتهد (ثالثها) ان مخالفة الرسول توجب الكفر لقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم وقال تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم وقال تعالى ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا وقال تعالى فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ومخالفة المظنون والمجتهدات لا توجب الكفر (ورابعها) لو جاز أن يجتهد فى الاحكام لكان لا يقف فى شئ منها ولما وقف فى مسئلة الظهار واللعان الى ورود الوحى دل على أن الاجتهاد غير جائز عليه (وخامسها) أن الاجتهاد انما يجوز المصير اليه عند فقد النص لكن فقد النص فى حق الرسول كالممتنع فوجب أن لا يجوز الاجتهاد منه (وسادسها) لو جاز الاجتهاد من الرسول لجاز أيضا من جبريل عليه السلام وحينئذ لا يحصل الامان بأن هذه الشرائع التى جاء بها أهى من نصوص الله تعالى أو من اجتهاد جبريل (والجواب عن الاول) ان قوله تعالى قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان أتبع الا ما يوحى الىّ لا يدل على قولكم لانه وارد فى ابدال آية بآية لانه عقيب قوله قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ولا مدخل للاجتهاد فى ذلك وأما قوله تعالى وما ينطق عن الهوى فبعيد لان من يجوز له الاجتهاد يقول ان الذى اجتهد فيه هو عين الوحى على الجملة وان لم يكن كذلك على التفصيل وان الآية واردة فى الاداء عن الله تعالى لا فى حكمه الذى يكون بالعقل (والجواب عن الثانى) ان الله تعالى اذا قال له اذا غلب على ظنك كون الحكم معللا فى الاصل بكذا ثم غلب على ظنك قيام ذلك المعنى فى صورة أخرى فالحكم بذلك فيها الحكم مقطوع به والظن غير واقع فيه بل فى طريقه (والجواب عن الثالث) انا لا نسلم ان مخالفة المجتهدات جائزة مطلقا بل جواز مخالفتها مشروط بصدورها من غيرا لمعصوم والدليل عليه انه يجوز على الامة أن يجمعوا والاجتهاد انما يمتنع مخالفتهم وحال الرسول أوكد (والجواب عن الرابع) لعله عليه السلام كان ممنوعا من الاجتهاد فى بعض الانواع أو كان مأذونا مطلقا لكنه لم يظهر له فى تلك الصورة وجه الاجتهاد فلا يلزم انه توقف (والجواب عن الخامس) لم لا يجوز أن يحبس النص عنه فى بعض الصور فحينئذ يحصل شرط جواز الاجتهاد (والجواب عن السادس) ان هذا الاحتمال مدفوع باجماع الامة على خلافه فهذا هو الجواب عن شبه المنكرين والذى يدل على جواز الاجتهاد عليهم وجوه (أحدها) أنه عليه السلام اذا غلب على ظنه أن الحكم فى الاصل معلل بمعنى ثم علم أو ظن قيام ذلك المعنى فى صورة أخرى فلا بد وأن يغلب على ظنه أن حكم الله تعالى فى هذه الصورة مثل ما فى

يقع فى ذلك العام هذا النفع وذلك النفع لا يدان أم ما يقعان فى ذلك العام كيفيما اتفق خيرو يجوز أن يكون التقديم للقصر على معنى أن عيشهم وعصرهم فى سائر السنين بمنزلة العدم بالنسبة الى عامهم ذلك وأن يكون ذلك فى الاخير لمراعاة الفواصل وفى الاول لرعاية حاله وقرئ يعصرون على البناء للفعول من عصره اذا انجاده وهو المناسب للاغاثة ويجوز ١٣٧ أن يكون المبنى للفاعل أيضا بمعنى أنه

الاصل وعند معتزلة بغداد وهى أن مخالفة حكم الله تعالى سبب لاستحقاق العقاب فيقول من هاتين المقدمتين ظن استحقاق العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون وعند هذا اما أن يقدم على الفعل والترك معا وهو محال لاستحالة الجمع بين النقيضين أو يتركهما وهو محال لاستحالة الخلو عن النقيضين أو يرجح المرجوح على الراجح وهو باطل ببديهة العقل أو يرجح الراجح على المرجوح وذلك هو العمل بالقياس وهذه النكتة هى التى عليها التعويل فى العمل بالقياس وهى قاعدة أيضا فى حق الانبياء عليهم السلام وهذا يتوجه على جواز الاجتهاد من جبريل عليه السلام (وثانيها) قوله تعالى فاعتبروا أمر للكل بالاعتبار فوجب اندراج الرسول عليه السلام فيه لانه امام المعتبرين وأفضلهم (وثالثها) أن الاستنباط أرفع درجات العلماء فوجب أن يكون للرسول فيه مدخل والا لكان كل واحد من آحاد المجتهدين أفضل منه فى هذا الباب فان قيل هذا انما يلزم لو لم تتكن درجة أعلى من الاعتبار وليس الامر كذلك لانه كان يستدرك الاحكام وحيا على سبيل اليقين فكان أرفع درجة من الاجتهاد الذى ليس قطعيا والا لظن قلنا لا يمتنع أن لا يجد النص فى بعض المواضع فلو لم يتمكن من الاجتهاد لكان أقل درجة من المجتهد الذى يمكنه أن يعرف ذلك الحكم من الاجتهاد وأيضا فقد بينا أن الله تعالى لما أمره بالاجتهاد كان ذلك مفيدا للقطع بالحكم (ورابعها) قال عليه السلام العلماء ورثة الانبياء فوجب أن يثبت للانبياء درجة الاجتهاد ليرث العلماء عنهم ذلك هذا تمام القول فى هذه المسئلة (وخامسها) أنه تعالى قال عفا الله عنك لم أذنت لهم فذلك الاذن ان كان باذن الله تعالى استحال أن يقول لم أذنت لهم وان كان بهوى النفس فهو غير جائز وان كان بالاجتهاد فهو المطلوب (المأخذ الثانى) قال الجبائى لو جوزنا الاجتهاد من الانبياء عليهم السلام فى هذه المسئلة يجب أن لا يجوز لوجوه (أحدها) أن الذى وصل الى صاحب الزرع من درا المأشية ومن منافعها مجهول المقدار فكيف يجوز فى الاجتهاد تحمل أحدهما عوضا عن الآخر (وثانيها) ان اجتهاد داود عليه السلام ان كان صوابا لزم أن لا يتناقض لان الاجتهاد لا يتناقض بالاجتهاد وان كان خطأ وجب أن يبين الله تعالى توبته كسائر ما حكاه عن الانبياء عليهم السلام فلما عدمنا هذا وذاك علمنا أنه تعالى ما حكم باجتهاد داود (وثالثها) لو حكم بالاجتهاد لكان الحاصل هناك ظنا لا علما لان الله تعالى قال وكلا آتينا حكما وعلما (ورابعها) كيف يجوز أن يكون عن اجتهاد مع قول ففهمناها سليمان (والجواب عن الاول) ان أحد الحكمين المقدرا لا يمنع من الاجتهاد كالمخالفات وحكم المصراة (وعن الثانى) لعله كان خطأ من باب الصغائر (وعن الثالث) بيان ان عمل بالقياس فالظن واقع فى طريق اثبات الحكم فاما الحكم فمقطوع به (وعن الرابع) انه اذا تأمل واجتهد فاداه اجتهاده الى ما ذكرناه كان الله تعالى فهمه من حيث بين له طريق ذلك فهذا جملة الكلام فى بيان انه لا يمتنع أن يكون اختلاف داود وسليمان عليهما السلام فى ذلك الحكم انما كان بسبب الاجتهاد وأما بيان انه لا يمتنع أيضا أن يكون اختلافهما بسبب النص فطريقه أن يقال ان داود عليه السلام كان مأمورا من قبل الله تعالى فى هذه المسئلة بالحكم الذى حكم به ثم انه سبحانه نسخ ذلك بالوحى الى سليمان عليه السلام خاصة وأمره أن يعرف داود ذلك فصار ذلك الحكم حكمهما جميعا فقوله ففهمناها سليمان أى أوحينا اليه فان قيل هذا باطل لوجهين (الاول) لما أنزل الله تعالى الحكم الاول على داود وجب أن ينزل نسخه أيضا على داود لا على سليمان (الثانى) ان الله تعالى مدح كلا منهما على الفهم ولو كان ذلك على سبيل النص لم يكن فى فهمه كثير مدح انما المدح الكثير على قوة الخاطر وحدة فى الاستنباط (السؤال الثالث) اذا ثبتم أنه يجوز أن يكون اختلافهما لاجل النص وان يكون لاجل الاجتهاد فأى القولين أولى

قيل فيه يعاث الناس وفيه يغيثون أى يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضا وقيل معنى يعصرون يمطرون من أعصرت السحابة اما بعضهم أعصرت عنى مطرت وتعديته واما بحذف الجار وايصال الفعل على أن الاصل أعصرت عليهم وأحكام هذا العام المبارك ليست مستنبطة من رؤيا الملك وانما تلقاها عليه السلام من جهة الوحى فبشرهم بها بعد ما أول الرؤيا بما أول وأمرهم بالتدبير اللائق فى شأنه ايانا لعلو كعبه وروح قدسه فى الفضل وأنه محيط بعالم بخطير بال أحد فضلا عما يرى صورته فى المنام على نحو قوله اصاحبيه عند استفتائهما فى منامهما لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله وانما للنعمة عليهم حيث لم يشاركه عليه السلام فى العلم بوقوعها أحد ولو برؤية مايدل عليها فى المنام (وقال الملك) بعد ما جاءه السفير بالتعبير وسمع منه ما سمع من تفسير

(١٨ ـ نفر س) وتفسير (ائتونى به) لما علم من علمه وفضله (فلما جاءه) أى يوسف (الرسول) واستدعاه الى الملك (قال ارجع الى ربك) أى سيدك (فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) أى فتشه عن شأنهن وانما لم يقل فاسأله أن يفتش عن ذلك حثا للملك على الجد فى التفتيش ايتبين براءته ويتضح نزاهته واذا السؤال مما يهيج الانسان على الاهتمام فى البحث للتفصى عما توجه اليه وأما

الظلم فساقه يتسامح ويتساهل فيه ولا يبالي به واعلم لم يتعرض لامرأة العزيز مع ما لقي منها الى من مقاساة الاحزان ومعاناة الاشجان مع افقة على مواجب الحقوق واحترازا عن مكرها حيث اعتقد حقيقة في عدوة العداوة وأما النسوة فقد كان يطمع في صدقهن بالحق وشهادتهن باقرارها بانها راودته عن نفسه فاستعصم ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الايدي ولم يصرح بمراودتهن له

(والجواب) الاجتهاد ارجح لوجوه (أحدها) انه روى في الاخبار الكثيرة ان داود عليه السلام لم يكن قد بت الحكم في ذلك حتى سمع من سليمان ان غير ذلك أولى وفي بعضها ان داود عليه السلام تاشد له لكي يورد ما عنده وكل ذلك لا يليق بالنص لانه لو كان نصا لكان يظهره ولا يكتمه (السؤال الرابع) بينوا انه كيف كان طريق الاجتهاد (الجواب) ان وجه الاجتهاد فيه ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من أن داود عليه السلام قوم قدر الضرر بالكرم فكان مساويا للقيمة الغنم فكان عليه ان الواجب في ذلك الضرر أن يزال بمثله من النفع فلا جرم سلم الغنم الى المجني عليه كما قال أبو حنيفة رحمه الله في العبد اذا جنى على النفس يدفعه الاولى بذلك أو يفديه وأما سليمان عليه السلام فان اجتهاده أدى الى أنه يجب مقابلة الاصول بالاصول والزوائد بالزوائد فما مقابلة الاصول بالزوائد فغير جائز لانه يقتضي الحيف والجور ولعل منافع الغنم في تلك السنة كانت موازية لمنافع الكرم فحكم به كما قال للشافعي رضي الله عنه فيمن غصب عبدا فآبق من يده انه يضمن القيمة لينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من منافع العبد فاذا ظهر تراد (السؤال الخامس) على تقدير ان ثبت قطعا ان تلك المحاقلة كانت مبنية على الاجتهاد فهل تدل هذه القصة على ان المصيب واحد أو الكل مصيبون (الجواب) أما القائلون بأن المصيب واحد ففيهم من استدل بقوله تعالى ففهمناها سليمان قال ولو كان الكل مصيبا لم يكن لتخصيص سليمان عليه السلام بهذا التفهيم فائدة وأما القائلون بأن الكل مصيبون ففيهم من استدل بقوله وكلا آتينا حكما وعلما ولو كان المصيب واحدا ومخالفه مخطئا لما صح أن يقال وكلا آتينا حكما وعلما واعلم أن الاستدلال بين ضعيفان (أما الاول) فلان الله تعالى لم يقل انه فهمه الصواب فيحتمل انه فهمه الناسخ ولم يفهم ذلك داود عليه السلام لانه لم يبلغه وكل واحد منهم مصيب فيما حكم به على أن أكثر ما في الآية انها دالة على ان داود وسليمان عليهما السلام ما كانا مصيبين وذلك لا يوجب أن يكون الامر كذلك في شرعنا (وأما الثاني) فلانه تعالى لم يقل ان كلا آتيناه حكما وعلما بما حكم به بل يجوز أن يكون آتيناه حكما وعلما بوجوه الاجتهاد وطرق الاحكام على انه لا يلزم من كون كل مجتهد مصيبا في شرعهم أن يكون الامر كذلك في شرعنا (السؤال السادس) لو وقعت هذه الواقعة في شرعنا ما حكمها (الجواب) قال الحسن البصري هذه الآية محكمة والقضاء بذلك يقضون الى يوم القيامة واعلم أن كثيرا من العلماء يزعمون انه مستوح بالاجماع ثم اختلفوا في حكمه فقال الشافعي رحمه الله ان كان ذلك بالنهار لا ضمان لان لصاحب الماشية تسريب ماشيته بالنهار وحفظ الزرع بالنهار على صاحبه وان كان ليلا يلزمه الضمان لان حفظها بالليل عليه وقال أبو حنيفة رحمه الله لا ضمان عليه ليلا كان أو نهارا اذا لم يكن متعديا بالارسال لقوله صلى الله عليه وسلم جرح العجماء جبار واحتج الشافعي رحمه الله بما روى عن البراء بن عازب انه قال كانت ناقة ضاربة فدخلت حائطا فأفسدته فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى ان حفظ الحوائط بالنهار على أهلها وان حفظ الماشية بالليل على أهلها وان على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل وهذا تمام القول في هذه الآية ثم ان الله تعالى ذكر بعد ذلك من النعم التي خص بها داود عليه السلام أمرين (الاول) قوله تعالى وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وفيه مسائل (المسألة الاولى) في تفسير هذا التسبيح وجهان (أحدهما) ان الجبال كانت تسبح ثم ذكروا وجوها (أحدها) قال مقاتل اذا ذكر داود عليه السلام ربه ذكرت الجبال والطير معه (وثانيها) قال الكلبي اذا سبح داود أجابته الجبال (وثالثها) قال سليمان بن حيان كان داود عليه السلام اذا وجد فترة أمر الله تعالى الجبال فسبحت فيزداد نشاطا واشتياقا (القول الثاني) وهو اختيار

وقولهن أطع مولاك تلك واكتفى بالاتهام الى ذلك بقوله (ان ربي بكيدهن عليم) مجاملة معهن واحترازا عن سوء قالتهن عند الملك واتصالهن للعصومة عن أنفسهن مني بمن بنسبته لهن الى الفساد (قال) استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فاذا كان بعد ذلك فقيل قال الملك اثر ما بلغه الرسول الخبر وأحضرهن (ما خطبكن) أي شأنكن وهو الامر الذي يحق لعظمه أن يخاطب المرء فيه صاحبه (اذ راودتن يوسف) وخادعته (عن نفسه) ورغبته في طاعته ولانه هل وجدتن فيه شيأ من سوء وريبة (قلن حاش لله) تنزيها له وتعجبا من تزاهته وعفته (ما علمنا عليه من سوء) بالغن في نفي جنس السوء عنه بالتكبير وزيادة من (قالت امرأت العزيز) وكانت حاضرة في المجلس وقيل أقبلت النسوة عليها يقررنها وقيل خافت أن يشهدن عليها بما قالت لهن وانها راودته عن نفسه فاستعصم وائن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين فأقرت قائلة (الآن حصحص الحق) أي ثبت واستقر بعض أوتين وظهر بعد خفاء قاله الخليل وقيل هو مأخوذ من الحصرهي النقطة من الجلة أي تبين حصة الحق من حصة الباطل كما تتبين حصص الاراضي وغيره اوقيل بان وظهر من حصحص شعره اذا استأصله بحيث ظهرت بشرة رأسه وقرئ على البناء للمفعول من حصحص

البعير مباركه أى ألقاها فى الارض للاناخة قال * فحصص فى صم الصفا فثناها * وناء بسلمى نوأة ثم سمعما والمعنى أفرغ الحق فى مقره ووضع فى موضعه ولم تردبذلك مجرد ظهور ما ظهر بشهادتهن من مطالق نزاهته عليه السلام فيما أحاط به علمهن من غير تعرض لنزاهته فى سائر المواطن خصوصا ومما وقع فيه التشاجر بحضرة العزيز ولا يبحث عن حال نفسها ١٣٩ وما صنعت فى ذلك بل أرادت ظهور

بعض أصحاب المعانى أنه يحتمل أن يكون تسبيح الجبال والطير بمعنى قوله تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده وتخصيص داود عليه السلام بذلك اما كان بسبب انه عليه السلام كان يعرف ذلك ضرورة فيزداد يقينا وتعظيما والقول الاول أقرب لانه لا ضرورة فى صرف اللفظ عن ظاهره وأما المعتزلة فقالوا الوجه حمل الكلام من الجبل لحصل اما بفعله أو بفعل الله تعالى فيه (والاول) محال لان بنية الجبل لا تحتمل الحياة والعلم والقدرة ومالا يكون حيا عالما قادرا يستحيل منه الفعل (والثانى) أيضا محال لان المتكلم عندهم من كان فاعلا للكلام لا من كان محلا للكلام فلو كان فاعل ذلك الكلام هو الله تعالى لكان المتكلم هو الله تعالى لا الجبل فثبت أنه لا يمكن اجراؤه على ظاهره فعند هذا قالوا فى وسخرنا مع داود الجبال يسبحن وبمثله قوله تعالى يا جبال أوبى معه معناه تصرفى معه وسيرى بأمره ويسبحن من التسبيح الذى هو السباحة خرج اللفظ فيه على التكثير ولم يقصد التكثير لقيل يسبحن فلما كثر قيل يسبحن معه أى يسيرى وهو كقوله ان لك فى النهار سبحا طويلا أى تصرفا ومذهبنا اذا ثبت هذا فنقول ان سيرها هو تسبيح لدلالته على قدرة الله تعالى وعلى سائر ما تنزه عنه واعلم أن مدار هذا القول على أن بنية الجبل لا تقبل الحياة وهذا ممنوع وعلى أن التكلم من فعل الله وهو أيضا ممنوع (المسئلة الثانية) أما الطير فلا امتناع فى أن يصدر عنها الكلام ولكن أجمعت الامة على أن المكلفين اما الجن وأما الانس أو الملائكة فيمتنع فيهم أن يبلغ فى العقل الى درجة التكليف بل تكون على حالة كحال الطفل فى أن يؤمر وينهى وان لم يكن مكلفا فصار ذلك معجزة من حيث جعلها فى الفهم بمنزلة المراهق وأيضا فيه دلالة على قدرة الله تعالى وعلى تنزهه عما لا يجوز فيكون القول فيه كالقول فى الجبال (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف يسبحن حال بمعنى مسبحات أو استئناف كان قائلا قال كيف سخرهن فقال يسبحن والطير اما معطوف على الجبال واما مفعول معه فان قلت لم قدمت الجبال على الطير قلت لان تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل فى الاعجاز لانها جماد والطير حيوان ناطق أما قوله وكنا فاعلين فالمعنى انا قادرون على أن نفعل هذا وان كان عجبا عندكم وقيل نفعل ذلك بالانبياء عليهم السلام (الانعام الثالث) قوله تعالى وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اللبوس اللباس قال * ألبس لكل حالة لبوسها * (المسئلة الثانية) ليحصنكم قرئ بالنون والياء والتاء وتخفيف الصاد وتشديدها فالنون لله عز وجل والتاء للصنعة أو اللبوس على تأويل الدرع والياء لله تعالى أو لداود أو للبوس (المسئلة الثالثة) قال قتادة أول من صنع الدرع داود عليه السلام وانما كانت صفائح قبله فهو أول من سردها وحلقها حلقا ذكر الحسن أن لقمان الحكيم عليه السلام حضره وهو يعمل الدرع فأراد أن يسأل عما يفعل ثم سكت حتى فرغ منها ولبسها على نفسه فقال الصمت حكمة وقليل فاعله قالوا وان الله تعالى ألان الحديد لداود يعمل منه كغير نار كأنه طين (المسئلة الرابعة) البأس ههنا الحرب وان وقع على السوء كله والمعنى ليحصنكم ويحرسكم من بأسكم أى من الجرح والقتل والسيف والسهم والرمح (المسئلة الخامسة) فيه دلالة على أن أول من عمل الدرع داود ثم علم الناس منه فتوارث الناس عنه ذلك فعمت النعمة بها كل الخلق بين من الخلق الى آخر الدهر فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة فقال فهل أنتم شاكرون أى اشكروا والله على ما يسر عليكم من هذه الصنعة * واعلم أنه سبحانه لما ذكر النعم التى خص داود بها ذكر بعده النعم التى خص بها سليمان عليه السلام وقال فقادت قورت الله تعالى سليمان من داود ملكه ونبوته وزاده عليه أمرين سخر له الريح والشياطين (الانعام الاول) قوله تعالى ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره أى جعلنا ها طائعة منقادة له يعنى انه ان أرادها

من السجن بل قبل ما ذكر من نقض ما أبرمه ولعله لمراعاة حقوق السيادة لان المباشرة للخروج من حبسه قبل ظهور بطلان ما جعله سببا له وان كان ذلك بأمر الملك مما يوهم الاقتيات على رأيه وأما أن يكون ذلك الذى يتمكن من تنجيح أمره عند الملك تعللا بمضاء ما قضاه فلا يليق بشأنه عليه السلام فى الوثوق بأمره والتوكل على ربه جل جلاله (بالغيب) أى بظهر الغيب وهو حال من الفاعل أو المفعول أى لم

وما أصنعت فى ذلك بل أرادت ظهور ما هو متحقق فى نفس الامر وثبوته من نزاهته عليه السلام فى محل النزاع وحيثيتها فقالت (أنا راودته عن نفسه) لا أنه راودنى عن نفسى (وانه لمن الصادقين) أى فى قوله حين افتريت عليه هى راودتنى عن نفسى وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام لا زمان شهادتهن فتأمل أيها المنصف هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهة حيث لم تتمالك الخصماء من الشهادة بها

* والفضل ما شهدت به الاعداء *

وانما تصدى عليه السلام لتمهيد هذه المقدمة قبل الخروج ليظهر براءة ساحته مما قذف به لا سيما عند العزيز قبل أن يحمل ما عقده كما يعرب عنه قوله عليه السلام لما رجع اليه الرسول وأخبره بكلامهن (ذلك) أى ذلك التثبيت المؤدى الى ظهور حقيقة الحال (ليعلم) أى العزيز (أنى لم أخنه) فى حرمته كما زعمه لاعلما مطلقا لان ذلك لا يستدعى تقديم التفتيش على الخروج

أخذه وأناغائب عنه أوهوغائب عني أوظرف أي بمكان الغيب وراء الاستار والابواب المغلقة وأياما كان فالمقصود بيان كمال نزاهته عن الخيانة وغاية اجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها (وان الله) أي وليعلم أنه تعالى (لايهدي كيد الخائنين) أي لاينفذه ولايسدده بل يبطله ويزهقه أولايهديهم في كيدهم ايقاعا ١٤٠ للفعل على الكيد مبالغة كما في قوله تعالى يضاهئون قول الذين كفروا أي يضاهئونهم

عاصفة كانت عاصفة وان أرادها لينة كانت لينة والله تعالى مسخرها في الحالتين (فان قيل) العاصف الشديدة الهبوب وقد وصفها الله تعالى بالرخاوة في قوله رخاء حيث أصاب فكيف يكون الجمع بينهما (والجواب) من وجهين (الاول) انها كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم فاذا مرت بكرسه أبعدت به في مدة يسيرة على ماقال غدوها شهر ورواحها شهر وكانت جامعة بين الامرين رخاء في نفسها وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان عليه السلام وهبوبها على حسب مايريد ويحكم آية الى آية معجزة (الثاني) انها كانت في وقت رخاء وفي وقت عاصفة لاجل هبوبها على حكم ارادته (المسئلة السادسة) قرئ الريح والرياح بالرفع والنصب فيهما فالرفع على الابتداء والنصب للعطف على الجبال فان قيل قال في داود وسخرنا مع داود الجبال وقال في حق سليمان راسلسليمان الريح فذكره في حق داود عليه السلام بكلمة مع وفي حق سليمان عليه السلام باللام وراعى هذا الترتيب أيضا في قوله ياجبال أوبي معه والطير وقال فسخرنا له الريح تجري بأمره فما الفائدة في تخصيص داود عليه السلام بلفظ مع وسليمان باللام قلنا يحتمل أن الجبل لما اشتغل بالتسبيح حصل له نوع شرف فما أضيف اليه بلام التمليك أما الريح فلم يصدر عنه الا ما يجري مجرى الخدمة فلاجرم أضيف الى سليمان بلام التمليك وهذا القدر هو الذي أراده بقوله الى الارض التي باركنا فيها للعالمين أي الى المنتهى الى بيت المقدس قال الكلبي كانت تسير من اصطخر الى الشام بركب عليها سليمان وأصحابه أما قوله وكنا بكل شئ عالمين أي لعلمنا بالاشياء صح منا أن ندبر هذا التدبير في رسلنا وفي خلقنا وأن نفعل هذه المعجزات القاهرة (الا نعام الثاني) قوله تعالى ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المراد انهم يغوصون له في البحار فيستخرجون الجواهر ويتجاوزون ذلك الى الاعمال والمهن وبناء المدن والقصور واستراع الصنائع العجيبة كما قال يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان وأما الصناعات فكاتخاذ الحمام والنورة وانطواحين والقوارير والصابون (المسئلة الثانية) قوله ومن الشياطين من يغوصون له يعني وسخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له فيكون في موضع النصب نسقا على الريح قال الزجاج ويجوز أن يكون في موضع رفع من وجهين (أحدهما) النسق على الريح وأن يكون المعنى ولسليمان الريح وله من يغوصون له من الشياطين ويجوز أن يكون رفعا على الابتداء ويكون له هو الخبر (المسئلة الثالثة) يحتمل أن يكون من يغوص منهم هو الذي يعمل سائر الاعمال ويحتمل أن يهم قرقة أخرى ويكون الكل داخلين في لفظة من وان كان الاول هو الاقرب (المسئلة الرابعة) ليس في الظاهر الا أنه سخرهم لكنه قد يزوى أنه تعالى سخر كفارهم دون المؤمنين وهو الاقرب من وجهين (أحدهما) اطلاق لفظ الشياطين (والثاني) قوله وكنا لهم حافظين فان المؤمن اذا سخر في أمرا لايجب أن يحفظ لئلا يفسد وانما يجب ذلك في الكافر (المسئلة الخامسة) في تفسير قوله وكنا لهم حافظين وجوه (أحدها) انه تعالى وكل بهم جمعا من الملائكة أوجماعة من مؤمني الجن (وثانيها) سخرهم الله تعالى بأن سهل اليهم طاعتهم وزوى عنهم مخالفته (وثالثها) قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد وسلطانه مقيم عليهم فعمل بهم مايشاء فان قيل وعن أي شئ كانوا محفوظين فلنا فيه ثلاثة أوجه (أحدها) انه تعالى كان يحفظهم عليه لئلا يفسدوا ويتركوه (وثانيها) قال الكلبي كان يحفظهم من أن يجيء أحد في زمانه (وثالثها) كان يحفظهم من أن يفسدوا وأما عملوا فكان دأبهم أنهم يعملون بالنهار ثم يفسدونه في الليل (المسئلة السادسة) مأل الجبائي نفسه وقال كيف يتم بالهم هذه الاعمال وأجسامهم رقيقة لايقدرون على حمل الثقيل وانما يتأتى منهم الوسوسة وأجاب أنه سبحانه كثف أجسامهم خاصة وقواهم وزادفي عظمهم

في قولهم وفيه تعريض بامرأته في خيانتها أمانته وبه في خيانة أمانة الله تعالى حين ساعدها على حبسه بعد مارأوا آيات نزاهته عليه السلام ويجوز أن يكون ذلك لتأكيد أمانته وأنه لو كان خائنا لما هدى الله عز وجل أمره وأحسن عاقبته (وما أبرئ نفسي) أي لاأنزهها عن السوء قاله عليه السلام هضما لنفسه الكريمة البريئة عن كل سوء وربما يكون ذلكما عن التزكية والاعجاب بحالها عند ظهور كمال نزاهتها على أسلوب قوله عليه السلام أنا سيد ولد آدم ولا فخر وتحديثا بنعمة الله عز وجل عليه وابرازا لسره المكنون في شأن أقبال العباد أي لاأنزهها عن السوء من حيث هي هي ولا أسند هذه الفضيلة اليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله عز وعلا (ان النفس) البشرية التي من جملتها نفسي في حد ذاتها (لامارة بالسوء) مائلة الى الشهوات مستعملة للقوى والآلات في تحصيلها بل اغلب تلك بتوفيق الله تعالى وعصمته ورحمته كما يفيده قوله (الا مارحم ربي) من النفوس التي يعصمها من ليكون ألا قوع في المهالك ومن جملتها نفسي أوهي أمارة بالسوء في كل وقت الا وقت رحمة ربي وعصمته لها وقيل الاستثناء منقطع أي لكن رحمة ربي هي التي تصرف عنها السوء كما في قوله تعالى ولا هم ينقذون الا رحمة (ان ربي غفور رحيم) عظيم المغفرة لما يعتري النفوس

لكون ذلك معجزا لسليمان عليه السلام فلما مات سليمان ردهم الله الى الخلقة الاولى لانه لو بقاهم على الخلقة الثانية لصار شبهة على الناس ولمدعي منفي النبوة وجعله دلالة لكان كمعجزات الرسل فلم يردهم الى خلقتهم الاولى واعلم أن هذا الكلام ساقط من وجوه (أحدها) لم قلت ان الجن من الاجسام ولم لا يجوز وجود محدث ليس بمتحيز ولا قائم بالمتحيز ويكون الجن منهم فان قلت لو كان الامر كذلك لكان ممثلا للباري تعالى قلت هذا ضعيف لان الاشتراك في اللوازم الثبوتية لا يدل على الاشتراك في اللوازم فكيف اللوازم السلبية سلمنا أنه جسم لكن لم لا يجوز حصول القدرة على هذه الاعمال الشاقة في الجسم اللطيف وكلامه بناء على أن البنية شرط وليس في يده الا الاستقراء الضعيف سلمنا أنه لا بد من تكثيف أجسامهم لكن لم قلت بأنه لا بد من ردها الى الخلقة الاولى بعد موت سليمان عليه السلام فان قال لانه لا يفضي الى التلبيس قلنا التلبيس غير لازم لان المتنبي اذا جعل ذلك معجزة لنفسه فالمدعو ان يقول لم لا يجوز ان يقال ان قوة أجسادهم كانت معجزة لنبي آخر قبلك ومع قيام هذا الاحتمال لا يتمكن المتنبي من الاستدلال به واعلم أن أجسام هذه العالم اما كثيفة أو لطيفة أما الكثيفة فلا كثيف الاجسام الحجارة والحديد وقد جعلهما الله تعالى معجزة لداود عليه السلام فانطق الحجر والحديد وكل واحد منهما كما يدل على التوحيد والنبوة يدل على صحة الحشر لانه لما قدر على احياء الحجارة فأي بعد في احياء العظام الرميمة واذا قدر على أن يجعل في اصبع داود عليه السلام قوة المارد مع كون الاصبع في نهاية اللطافة فأي بعد في أن يجعل التراب اليابس جسما حيوانيا واطيف الاشياء في هذا العالم الهواء والنار وقد جعلهما الله معجزة لسليمان عليه السلام أما الهواء فقوله تعالى فسخرنا له الريح وأما النار فلان الشياطين مخلوقون منها وقد سخرهم الله تعالى له فكان يأمرهم بالغوص في المياه والنار تنطفئ بالماء وهم كانوا يغوصون في الماء ولا يحترقون بالنار وذلك يدل على قدرته على اظهار الضد من الضد ﴿القصة السادسة﴾ قصة أيوب عليه السلام ﴿قوله تعالى ﴿وأيوب اذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾ اعلم أن في أمر أيوب عليه السلام ما ذكره الله تعالى من شأنه هو ما وفي غيره من القرآن من العبر والدلائل ما ليس في غيره لانه تعالى مع عظيم فضله أنزل به من المرض العظيم ما أنزله بما كان عيره له وغيره ولسائر من سمع بذلك وتسري فالهم أن الدنيا مزرعة الآخرة وأن الواجب على المرء أن يصبر على ما ينالهم من البلاء فيها ويجتهد في القيام بحق الله تعالى ويصبر على حالتي الضراء والسراء وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال وهب بن منبه كان أيوب عليه السلام رجلا من الروم وهو أيوب بن أموص وكان من ولد عيصو بن اسحق وكانت أمه من ولد لوط وكان الله تعالى قد اعطاه وجعله نبيا وكان مع ذلك قد أعطاه من الدنيا حظا وافرا من النعم والدواب والبساتين وأعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء وكان رحيما بالمساكين وكان يكفل الايتام والارامل ويكرم الضيف وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وعرفوا فضله قال وهب وان جبريل عليه السلام بين يدي الله تعالى مقاما ليس لاحد من الملائكة مثله في القربة والفضيلة وهو الذي يتلقى الكلام فاذا ذكر الله عبدا يخير جبريل عليه السلام ثم تلقاه ميكائيل عليه السلام ثم من حوله من الملائكة المقربين فاذا شاع ذلك فيهم يصلون عليه ثم صلت ملائكة السموات ثم ملائكة الارض وكان ابليس لم يحجب عن شئ من السموات وكان يقف فيهن حيثما أراد ومن هنالك وصل الى آدم عليه السلام حتى أخرجه من الجنة ولم يزل على ذلك حتى رفع عيسى عليه السلام فحجب عن أربع فكان بعد ذلك الى ثلاث الى زمان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فحجب عند ذلك عن جميع السموات الا من استرق السمع

ما فعلت ان كل نفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي أي الا نفسا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف ان ربي غفور لمن استغفره لذنبه واعترف به رحيم له فعلى هذا يكون تأييسه عليه السلام في الظروج من السجن لعدم رضاه عليه السلام بلقاء الملك ورأيه بين بين ففعل ما فعل حتى يتبين نزاهته وأنه انما سجن بظلم عظيم مع ما له من الفضل ونباهة الشان ليتلقاه الملك بما يليق به من الاعظام والاجلال ولما وقع (وقال الملك ائتوني به أستخلصه) أجعله خالصا (لنفسي) وخاصا بي (فلما كلمه) أي فاتوا به فحذف للايذان بسرعة الاتيان به فكأنه لم يكن بين الامر باحضاره والخطاب معه زمان أصلا والضمير المستكن في كلمه ليوسف والبارز ذلك أي قبل كلمه يوسف اثر ما أتاه فاستنطقه وشاهد منه ما شاهد (قال انك اليوم لدينا مكين) ذو مكانة ومنزلة رفيعة (أمين) مؤتمن على كل شئ والمراد ليس معيارا لمدة المكانة والامانة بل هو آن التكلم والمراد تحديد مبدئهما احترازا عن احتمال كونهما مدة حين روى أنه عليه السلام لما جاءه الرسول خرج من السجن ودعا لاهله واغتسل ولبس ثيابا جددا فلما دخل على الملك قال اللهم اني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره وشر غيره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال ما هذا اللسان قال لسان آبائي وكان الملك يعرف سبعين لسانا فكلمه بها فاجابه بجميعها

فتعجب منه فقال أحب أن أسمع منك رؤياي فحكاها ونعت له البقرات والسنابل وأما كنها على مارآها فأجلسه على السرير وفوض اليه أمره وقيل توفي قطفير في تلك الليالي فنصبه منصبه وزوجه راعيل فوجدها عذراء وولدت له افرايم وميشا وامثال ذلك انما كان بعد تعيينه عليه السلام لما عين له من ١٤٢ أمر الخزائن كما يعرب عنه قوله عز وجل (قال اجعلني على خزائن الارض) أي أرض مصر أي ولني أمرها من الايراد والصرف (اني حفيظ) لها ممن لا يستحقها (عليم) بوجوه التصرف فيها وفيه دليل على جواز طلب الولاية اذا كان الطالب ممن يقدر على اقامة العدل واجراء أحكام الشريعة وان كان من يد الجائر أو الكافر وعن مجاهد أنه أسلم الملك على يده عليه السلام وامل ايثاره عليه لسلام الملك الولاية خاصة انما كان للقيام بما وراءهم أمور السلطنة اذ ذاك من تدبير أمر السنين جميعا

فصل في التأويل

لكونه من فروع ذلك الولاية لا لمجرد عموم الفائدة وجموم العائدة كما قيل وانما لم يذكر اجابة الملك الى ما سأله عليه السلام من جعله على خزائن الارض ابدانا بيان ذلك أمر لا مرد له غنى عن التصريح لاسيما بعد تقدم ما ينادي بخروج تحته من أحكام السلطنة بعد افراغه من قوله انك اليوم لدينا مكين أمين والتنبيه على أن كل ذلك من الله عز وجل وانما الملك آلة في ذلك قيل (وكذلك) أي مثل ذلك التمكين البالغ (مكنا ليوسف) أي جعلناله مكانا (في الارض) أي أرض مصر ان روى أنها كانت أربعين فرسخا في أربعين وفي التعبير عن الجعل المذكور بالتمكين في الارض مستندا الى ضميره عز سلطانه من تشريفه عليه السلام والمبالغة في كمال ولايته والاشارة الى حصول ذلك من أول الامر لا أنه حصل بعد السؤال مالا يخفى (يتبوأ منها) ينزل من

قال فسمع ابليس فجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب فأدركه الحسد فصعد سريعا حتى وقف من السماء موقفا كان يقف فقال يارب انك أنعمت على عبدك أيوب فشكرك وعافيته فحمدك ثم لم تجربه بشدة ولا بلاء وأنا لك زعم لئن ضربته بالبلاء ليكفرن بك فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض اللعون حتى وقع الى الارض وجمع عفاريت الشياطين وقال لهم ماذا عندكم من القوة فاني سلطت على مال أيوب قال عفريت أعطيت من قوة ما اذا شئت تحولت اعصارا من نار وفي حرقت كل شئ آتي عليه فقال ابليس فأت الابل ورعاتها فذهب ولم يشعر الناس حتى ثار من تحت الارض اعصار من نار لا يدنو منها شئ الا احترق فلم يزل يحرقها ورعاتها حتى أتى على آخرها ثم ذهب ابليس على شكل بعض أولئك الرعاة الى أيوب فوجده قائما يصلي فلما فرغ من الصلاة قال يا أيوب هل تدري ما صنع ربك الذي اخترته بالملك ورعاتها فقال أيوب انها ماله أعاريه وهو أولى به اذا شاء نزعه قال ابليس فان ربك أرسل عليها نارا من السماء فاحترقت ورعاؤها كلها وتركت الناس مبهوتين متعجبين منها فبن قائل يقول ما كان أيوب يعبد شيأ وما كان الا في غرور ومن قائل يقول لو كان له أيوب يقدر على شئ لمنع من وليه ومن قائل آخر بل هو الذي فعل ما فعل ليشمت عدوه به ويتجرع به صديقه فقال أيوب عليه السلام الحمد لله حين أعطاني وحين نزع مني عريانا خرجت من بطن أمي وعريانا أعود في التراب وعريانا أحشر الى الله تعالى وتوعلم الله فيك أيها العبد خير النقل وحلت مع تلك الارواح وصرت شهيدا وآجرني فيك ولكن الله علم منك شرا فما حرك فرجع ابليس الى أصحابه خاسئا فقال عفريت آخر عندي من القوة ما اذا شئت صحت صوتا لا يسمعه ذو روح الا خرجت روحه فقال ابليس فأت الغنم ورعاءها فانطلق فصاح بها فماتت ومات رعاؤها فخرج ابليس محمرا بشهرمان الرعاة لي أيوب فقال له القول الاول ورد عليه أيوب الرد الاول فرجع ابليس صاغرا فقال عفريت آخر عندي من القوة ما اذا شئت تحولت ريحا عاصفة أقلع كل شئ أتيت عليه قال فاذهب الى الحرث والثيران فاتاهم فأهلكهم ثم رجع ابليس محمرا حتى جاء أيوب وهو يصلي فقال مثل قوله الاول فرد عليه أيوب الرد الاول فحمل ابليس بسبب أهواله شيأ فشيأ حتى أتى على جميعها فلما رأى ابليس صبره على ذلك ووقف الموقف الذي كان يقفه عند الله تعالى وقال يا الهي هل أنت مسلطي على ولده فانها الفتنة المضلة فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ولده فأتى أولاد أيوب في قصورهم فلم يزل يزلزلها بهم من قواعده حتى قلب القصر عليهم ثم جاء الى أيوب محمرا بالدم وهو جريح مشدوخ الرأس يسيل دمه ودماغه فقال لو رأيت بنيك كيف انقلبوا ومنكوسين على رؤوسهم تسيل أدمغتهم من أنوفهم لتقطع قلبك فلم يزل يقول هذا ويرققه حتى رق أيوب عليه السلام وبكى وقبض قبضة من التراب ووضعها على رأسه فأغتنم ذلك ابليس ثم لم يلبث أيوب عليه السلام حتى استغفر واسترجع فصعد ابليس ووقف موقفه وقال يا الهي انما يهون على أيوب خطر المال والولد لعلمه انك تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطي على جسده وانك لئن زعم لو ابتليته في جسده ليكفرن بك فقال تعالى انطلق فقد سلطتك على جسده وليس لك سلطان على عقله وقلبه ولسانه فانقض عدو الله سريعا فوجد أيوب عليه السلام ساجدا لله تعالى فأتاه من قبل الارض فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده وخرج به من فرقه الى قدمه ثآليل وقروح فصار حكة لا يملكها وكان يحك باظفاره حتى سقطت أظفاره ثم حكها بالمسوح الخشنة ثم حكها بالحجارة والخزف ولم يزل يحكها حتى تقطع لحمه وتغير ونتن فأخرجه أهل القرية وجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا وقضى الناس كلهم غير امرأته رحمة بنت افرايم بن يوسف عليه السلام فكانت تصلح أموره ثم

بلادها (حيث يشاء) ويتخذ منها مباءة وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيهم أو دخولها تحت ملكه وسلطانه فكأنها منزله يتصرف فيها كما يتصرف الرجل في منزله وقرأ ابن كثير بالنون روى أن الملك توجه وشقه خلفه ورد أمه بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت فقال عليه السلام أما السرير فاشد به ملكك وأما الخاتم فادبر به أمرك ١٤٣ وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي فقال قد وضعته اجلالا لذلك واقرارا بفضلك فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض اليه الملك أمره وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام في السنة الاولى بالدنانير والدراهم وفي الثانية بالحلي والجواهر وفي الثالثة بالدواب ثم بالضياع والعقارثم برقابهم حتى استرقهم جميعا فقالوا ما رأينا كاليوم ملكا أجل وأعظم منه ثم أعتقهم ورد اليهم أموالهم وكان لا يبيع من أحد من المصارين أكثر من حمل بعير تقسيطا بين الناس (نصيب رحمتنا) بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم (من نشاء) بمقتضى الحكمة الداعية الى المشيئة (ولا نضيع أجر المحسنين) بل نوفيه بكماله وفيه اشعار بان مدار المشيئة المذكورة احسان من تصيبه الرحمة لا رقومة وانها أثر له ولدفع توهم انحصار ثمرات الاحسان فيما

ان وهب اطول في الحكاية الى أن قال ان أيوب عليه السلام أقبل على الله تعالى مستغيثا متضرعا اليه فقال ما رب لاي شئ خلقتني يا ليتني كنت حيضة أقذفتني أمي و يا ليتني كنت عرف الذنب الذي أذنبته والعمل الذي عملت حتى صرفت وجهك الكريم عني ألم أكن للغريب دارا وللمسكين قرارا وللتيم وليا وللارملة قيما الهي أنا عبد ذليل ان أحسنت فالمن لك وان أسأت فبيدك عقوبتي جعلتني لبلاءك غرضا وللفتنة نصبا وسلطت علي ما لو سلطته على جبل لضعف من حمله الهي تقطعت أصابعي وتساقطت لهواتي وتناثر شعري وذهب المال وصرت أسأل اللقمة فيمنعني من عن يميني ويعيرني بفقري وهلاك أولادي قال الامام أبو القاسم الانصاري رحمه الله وفي جملة هذا الكلام لمثلك لو كرهتني لم تخلقني ثم قال ولو كان ذلك صحيحا لاغتمه ابليس فان قصده ان يحمله على الشكوى وأن يخرجه عن حالة الصابرين والله تعالى لم يخبر عنه الا بقوله انى مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ثم قال انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب واختلف العلماء في السبب الذي قال لاجله انى مسني الضر وأنت أرحم الراحمين وفي مدة بلائه (فالرواية الاولى) روى ابن شهاب عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أيوب عليه السلام بقي في البلاء ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد الا رجلين من اخوانه كانا يغدوان و يروحان اليه فقال أحدهما للآخر ذات يوم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين فقال له صاحبه وما ذاك فقال منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى ولم يكشف ما به فلما راحا الى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك لايوب عليه السلام فقال أيوب ما أدري ما تقولان غير ان الله تعالى يعلم اني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله عز وجل فارجع الى بيتي فاكفرعنهما كراهية أن يذكرا الله الا في حق وفي روايه أخرى ان الرجلين لما دخلا عليه وجدا ريحه فقالا لو كان لايوب عند الله خير ما بلغ الى هذه الحالة قال فما شفى على أيوب شئ مما ابتلى به أشد مما سمع منهما فقال اللهم ان كنت تعلم اني لم أبت شبعانا وأنا أعلم بمكان جائع فمد قي فصدقه وهما يسمعان ثم خر أيوب عليه السلام ساجدا ثم قال اللهم اني لا أرفع رأسي حتى تكشف ما بي قال فكشف الله ما به (والرواية الثانية) قال الحسن رحمه الله مكث أيوب عليه السلام بعد ما ألقي على الكناسة سبع سنين وأشهرا ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق غير امرأته رحمة صبرت معه وكانت تأتيه بالطعام وتخدمه الله تعالى مع أيوب وكان أيوب مواظبا على حمد الله تعالى والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه فصرخ ابليس صرخة جزعا من صبر أيوب فاجتمع جنوده من أقطار الارض وقالوا له ما خبرك قال أعيا علي هذا العبد الذي سألت الله أن يسلطني عليه وعلى ماله وولده فلم أدع له مالا ولا ولدا ولم يزدد بذلك الا صبرا وحمدا لله تعالى ثم سلطت على جسده فتركته ملقى في كناسة وما يقربه الا امرأته وهو مع ذلك لا يفتر عن الذكر والحمد لله فاستعنت بكم لتعينوني عليه فقالوا له أين مكرك أين حيلك الذي أهلكت به من مضى قال بطل ذلك كله في أيوب فأشيروا علي قالوا ادلك على آدم حين أخرجته من الجنة من أين أتيته قال من قبل امرأته قالوا فاذهب الى أيوب من قبل امرأته فانه لا يستطيع أن يصبر الا لله لا لغيره أحد غيرها قال أصبتم فانطلق حتى أتى امرأته فتمثل لها في صورة رجل فقال أين بعلك يا أمة الله قالت هو هذا يحك قروحه وتتردد الدواب في جسده فلما سمعها طمع أن يكون ذلك كله جزعا فوسوس اليها فذكرها ما كان لها من النعم والمال وذكرها جمال أيوب وشبابه قال الحسن رحمه الله فصرخت فلما صرخت علم أنها قد جزعت فانطلق وقال لينضحن ما في بطنه لي أيوب ويبرأ قال فلما دخلت تصرخ الى أيوب يا أيوب حتى متى يعذبك ربك الا يرحمك أين المال أين الماشية أين الولد أين الصديق أين اللون الحسن أين جسمك الذي قد بلى وصار مثل الرماد وتتردد فيه الدواب اذبح

ذكر من الاجر العامل قيل على سبيل التوكيد (ولأجر الآخرة) أي أجرهم في الآخرة فالاضافة للملابسة وهو النعيم المقيم الذي لا نفاد له (خير) لهم أي للمحسنين المذكورين وانما وضع موضعه الموصول فقيل (للذين آمنوا وكانوا يتقون) تنبيها على أن المراد بالاحسان انما هو الايمان والثبات على التقوى المستفاد من جميع صيغتي الماضي والمستقبل (وجاء اخوة يوسف) ممتارين الى أصاب أرض كنعان

و بلاد الشام ما أصاب أرض مصر وقد كان أرسلهم يعقوب عليه السلام جميعا غير بنيامين (قد خلوا عليه) أى على يوسف وهو فى مجلس ولايته (فعرفهم) لقوة فهمه وعدم مبالاته لأنه العالم بما سبق لهم فارقته اياهم وهم رجال وتشابه هيأتهم وزيهم فى الحالين ولكون همته مستغرقة بتعرفهم وتعرفة أحوالهم لا سيما فى زمن القحط وعن الحسن ما عرفهم حتى تعرفوا له (وهم له منكرون) أى والحال انهم منكرون له لطول العهد وتباين ما بين حاليه عليه السلام فى نفسه وعزته وزيه ولاعتقادهم انه هلك وحيث كان انكارهم له أمرا مستمرا فى حالتى الحضور والمغيب أخبر عنه بالجملة الاسمية بخلاف عرفانه عليه السلام اياهم (ولما جهزهم) أى أعطاهم بعدتهم من الزاد وما يحتاج اليه المسافر وأوقر ركابهم بما جاؤا له من البر وقرئ بكسر الجيم (قال ائتونى باخ لكم من أبيكم) لم يقل باخيكم مبالغة فى اظهار عدم معرفته لهم وانه عليه السلام انما قال لما قيل من انهم سألوه عليه السلام حملا زائدا على المعتاد لبنيامين فاعطاهم ذلك وشرطهم أن يأتوا به لانا قيل من انه لما رأوه وكلوه بالبرية قال له من أنتم فان أنكركم فقالوا له نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لهم لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبى من الانبياء اسمه يعقوب قال كم أنتم قالوا كنا اثنى عشر فهلك منا واحد احداها فقال كم أنتم ههنا قالوا عشرة قال فاين الحادى عشر قالوا هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك قال فمن يشهد لكم أنكم لستم عيونا وان ما تقولون حق قالوا نحن ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا قال فدعوا بعضكم عندى رهينة وائتونى باخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة

هذه السخلة واسترح فقال أيوب عليه السلام أتاك عدو الله ونفخ فيك فاجتمعت و لك أثرين ما تكين عليه مما تذكرين مما كنا فيه من المال والولد والصحة من أعطانا ذلك قالت الله قال فكم متعنا به قالت ثمانين سنة قال فذلكم ابتلانا الله بهذا البلاء قالت منذ سبع سنين وأشهر قال ويلك والله ما أنصفت ربك ألا صبرت فى البلاء ثمانين سنة كما كنا فى الرخاء ثمانين سنة والله لئن شفانى الله لاجلدنك مائة جلدة أمرتينى ان أذبح لغير الله وحرام على أن أذوق بعد هذا شيأ من طعامك وشرابك الذى تأتينى به فطردها فذهبت فلما نظر أيوب فى شأنه وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق رقد ذهبت امرأته خير ساجدا وقال رب انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فقال لرفع رأسك فقد استجبت لك اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل منها فلم يبق فى ظاهر بدنه دابة الا سقطت منه ثم ضرب برجله مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء الا خرج وقام صحيحا وعاد اليه شبابه وجماله حتى صار أحسن ما كان ثم كسى حلة فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيأ مما كان له من الاهل والولد والمال الا وقد ضعفه الله تعالى حتى صار أحسن مما كان حتى ذكر ان الماء الذى اغتسل منه تطاير على صدره جرادا من ذهب قال فجعل يشمه بيده فأوحى الله اليه يا أيوب ألم أغنك قال بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها قال فخرج حتى جلس على مكان مشرف ثم ان امرأته قالت لعله طردنى أفاتركه حتى يموت جوعا وتأكله السباع لارحمن اليه فلما رجعت ما رأت تلك الكناسة ولا تلك الحال وادا بالامور قد تغيرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وذلك رمين أيوب عليه السلام وهابت صاحب الحلة ان تأتيه وتسأله عنه فأرسل اليها أيوب عليه السلام ودعاها وقال ما تريدين يا أمة الله فبكت وقالت أردت ذلك المبتلى الذى كان ملقى على الكناسة فقال لها أيوب عليه السلام ما كان منك فبكت وقالت يعلى فقال أتعرفينه اذا رأيته قالت وهل يخفى على أحد يراه فتبسم وقال أنا هو فعرفته بضحكه فاعتنقته ثم قال انك أمرتينى ان أذبح عناقا للبليس رأى أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله تعالى فرد على مائتين (الرواية الثالثة) قال الضحاك ومقاتل بقى فى البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات وقال وهب رحمه الله بقى فى البلاء ثلاث سنين فلما غلب أيوب ابليس لعنه الله ذهب ابليس الى امرأته على هيئة ليست كهيئة بنى آدم فى العظم والجسم والجمال على مركب ليس كمراكب الناس وقال لها أنت صاحبة أيوب قالت نعم قال فهل تعرفينى قالت لا قال أنا الله الارض انا صنعت يا أيوب ما صنعت وذلك انه عبد الله السماء وتركنى فاغضبنى ولو وجدنى سجد واحدة رددت عليك وعليه جميع ما لكما من مال وولد فان ذلك عندى قال وهب وبلغنى انه قال لو أن صاحبك أكل طعاما ولم يسم الله تعالى لعوفى مما هو فيه من البلاء وفى رواية أخرى ان قال لها لو شئت فاسجدى لى سجدة واحدة حتى أرد عليك المال والولد واعافى زوجك فرجعت الى أيوب فأخبرته بما قال لها فقال لها أيوب أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك ثم أقسم لئن عافانى الله لاجلدنك مائة جلدة وقال عند ذلك مسنى الضر يعنى من طمع ابليس فى سجودى له وجحودى وتركى حتى عافانى الله لا جلدنك وايانا الى الكفر (الرواية الرابعة) قال وهب كانت امرأة أيوب عليه السلام تعمل للناس وتأتيه بقوته فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلم يستعملوها فالتمست ذات يوم شيأ من الطعام فلم تجد شيأ فجزت قرنا من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها أين قرنك فأخبرته بذلك فحينئذ قال مسنى الضر (الرواية الخامسة) قال اسمعيل السدى لم يقل أيوب مسنى الضر الا لاشياء ثلاث (أحدها) قول الرجلين له لو كان علك الذى كنا نرى لله تعالى لما أصابك الذى أصابك (وثانيها) كان لامرأته ثلاث ذوائب فحدث الى

من أيكم شئ أحد فكلم فاقترحوا أصناف القرعة ثم عمون لخافوه عنده اذا لا يساعده ورود الامر بالاتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه بايفاء الكيل ولا الاحسان فى الانزال ولا الاقتصار على منع الكيل على تقدير عدم الاتيان به ولا بجعل بضاعتهم فى رحالهم لاجل رجوعهم ولا عدتهم بالاتيان به بطريق المرادة ولا تعليلهم عند أبيهم ارسال أخيهم بمنع

أحدا هاوقطعتها وباعتها فاعطوها بذلك خبزا ولما خفاءت الى أيوب عليه السلام فقال من أين هذا فقالت كل فانه حلال فلما كان من الغد لم تجد شيأ فباعت الثانية وكذلك فعلت فى اليوم الثالث وقالت كل فانه حلال فقال لا آكل مالم تخبرينى فاخبرته فلما علم ذلك من أيوب ما الله به عليم وغيل اغاباعت ذوائبها لان ابليس تمثل لقوم فى صورة بشر وقال لئن تركتم أيوب فى قريتكم فانى أخاف أن يعدى الكم مابه من العلة فأخرجوه الى باب البلد ثم قال لهم ان امرأته تدخل فى بيوتكم وتعمل وتمس زوجها أما تخافون أن تعدى الكم علته فحينئذ لم يستعملها أحد فباعت ضفيرتها (وثالثها) حين قالت له امرأته ماقالت فحينئذ دعا (الرواية السادسة) قيل سقطت ودة من جسده فرفعها وردها الى موضعها وقال قد جعلنى الله تعالى طعمة لك فعضته عضة شديدة فقال مسنى الضر فأوحى الله تعالى اليه لولا انى جعلت تحت كل شعرة منك صبرا لما صبرت (المسئلة الثانية) اعلم ان المعتزلة قد طعنوا فى هذه القصة من وجوه (أحدها) قال الجبائى ذهب بعض الجهال الى أن ما كان به من المرض كان فعلا للشيطان سلطه الله عليه لقوله تعالى حكاية عنه مسنى الشيطان بنصب وعذاب وهذا جهل أما أولا فلانه لو قدر على احداث الامراض والاسقام وضدها من العافية لتم أله فعل الاجسام ومن هذا حاله يكون الها وأما ثانيا فلان الله تعالى أخبر عنه وعن جنوده بانه قال وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى والواجب تصديق خبر الله تعالى دون الرجوع الى ما يروى عن وهب بن منبه رضى الله عنه واعلم أن هذا الاعتراض ضعيف لان المذكور فى الحكاية أن الشيطان نفخ فى منخره فوقعت الحكة فيه فلم قلتم ان القادر على النفخة التى تولد مثل هذه الحكة لابد وأن يكون قادرا على خلق الاجسام وهل هذا الا محض التحكم وأما القسك بالنص فضعيف لانه انما يقدم على هذا الاصل متى علم انه لو أقدم عليه لما منعه الله تعالى عنه وهذه الحالة لم تحصل الا فى حق أيوب عليه السلام على ما دلت الحكاية عليه من أنه استأذن الله تعالى فاذن له فيه ومتى كان كذلك لم يبق بين ذلك النص وبين هذه الحكاية مناقضة (وثانيها) قالوا ما روى انه عليه السلام لم يسأل الاعتاد أمور مخصوصة فبعيد لان الثابت فى العقل انه يحسن من المرء أن يسأل فى ذلك ربه ويفزع اليه كما يحسن منه المداواة واذا جاز أن يسأل ربه عند الغم مما يراه من اخوانه وأهله جاز أيضا أن يسأل ربه من قبل نفسه فان قيل أفلا يجوز أن الله تعالى تعبده بان لا يسأل الكشف الا فى آخر أمره قلنا يجوز ذلك بان يعلمه بأن انزال ذلك به مدة مخصوصة من مصالحه ومصالح غيره لا تحتمل فلم عليه السلام انه لا وجه لمسئلة فى هذا الامر المتقاص فاذا قرب لوقت جاز أن يسأل ذلك من حيث يجوز أن يدوم ويجوز أن ينقطع (وثالثها) قالوا انتهاء ذلك المرض الى حد التنفير عنه غير جائز لان الامراض المنفرة من القبول غير جائزة على الانبياء عليهم السلام فهذا جملة ما قيل فى هذه الحكاية (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قوله تعالى انى مسنى الضر أى ناداه بانى مسنى الضر وقرئ انى بالكسر على اضمار القول أو لتضمين النداء معناه والضر بالفتح الضر فى كل شئ وبالضم الضرر فى النفس من مرض وهزال (المسئلة الرابعة) أدبه عليه السلام الطف فى السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ولم يذكر به بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب بل قال أليس أن الشكوى تقدح فى كونه صابرا (الجواب) قال سفيان بن عيينة رحمه الله من شكا الى الله تعالى فانه لا يعد ذلك جزعا اذا كان فى شكواه راضيا بقضاء الله تعالى أما سمعت من شرط الصبر استحلاء البلاء ألم تسمع قول يعقوب عليه السلام انما أشكو بثى وحزنى الى الله أما قوله وأنت أرحم الراحمين فالدليل على انه صحت أنه أرحم الراحمين أمور (أحدها) ان كل من رحم غيره فانما أن يرحمه طلبا للثناء فى الدنيا أو الثواب فى

(١٩ - خازن - س) فلا كيل لكم عندى) من بعد فضلا عن ايفائه (ولا تقربون) بدخول بلادى فضلا عن الانزال والضيافة وهو اما نهى أو نفى معطوف على محل الجزاء وفيه دليل على أنهم كانوا على تهمة الاعتبار مرة بعد أخرى وأن ذلك كان معلوما له عليه السلام (قالوا سنراود عنه أباه) أى سنخادعه عنه ونحتال فى انتزاعه من يده ونجتهد فى ذلك وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة

أن استبقاءه مضمون لوقوع الكل طامة ينسى عندها كل قيل وقال (ألا ترون انى أوف الكيل) أنه لكم وايثار صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على ان ذلك عادة له مستمرة (وأنا خير المنزلين) جملة حالية أى الا ترون أنى أوفى الكيل لكم ايفاء مستمرا والحال انى فى غاية الاحسان فى الانزال وضيافتكم وقد كان الامر كذلك وتخصيص الرؤية بالايفاء لوقوع الخطاب فى أثنائه وأما الاحسان فى الانزال فقد كان مستمرا فيما سبق ولحق ولذلك أخبر عنه بالجملة الاسمية ولم يقله عليه السلام بطريق الامتنان بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به والاقتصار فى الكيل على ذكر الايفاء لان معاملته عليه السلام معهم فى ذلك كمعاملته مع غيرهم فى مراعاة مواجب العدل وأما الضيافة فليس للناس فيها حق فخصهم فى ذلك بما شاء (فان لم تأتونى به

منالة (وانا لفاعلون) ذلك غير مقدرين فيه ولا متوانين أو لقادرون عليه لا نتعانى به (وقال) يوسف (لفتيانه) غلمانه الكيالين جمع فتى وقرئ لفتيته وهى جمع قلة له (اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم) فانه وكل بكل رحل رجلا يعيى فيه بضاعتهم التى شروا بها الطعام وكانت نعالا وأدما وانما فعله عليه السلام تفضلا عليهم وخوفا من أن لا يكون عندأبيهما يرجعون به مرة أخرى وكل ذلك لتحقيق

الآخرة أو دفعا للرقة الجنسية عن الطبع وحينئذ يكون مطلوب ذلك الراحم منفعة نفسه أما الحق سبحانه فانه يرحم عباده من غير وجه من هذه الوجوه ومن غير أن يعود اليه من تلك الرحمة زيادة ولا نقصان من الثناء ومن صفات الكمال فكان سبحانه أرحم الراحمين (وثانيها) ان كل من يرحم غيره فلا يكون ذلك الا بمعونة رحمة الله تعالى لان من أعطى غيره طعاما أو وقى بلاء أو دفع عنه بلاء فلولا انه سبحانه خلق المطعوم والملبوس والادوية والاغذية والالماقدر أحد على اعطاء ذلك الشئ ثم بعد وصول تلك العطية اليه فلولا انه سبحانه جعله سببا للراحة لما حصل النفع بذلك فاذا رحمة العباد مسبوقة برحمة الله تعالى وملحوقة برحمته بل رحمتهم فيما بين الطرفين كالقطرة فى البحر فوجب أن يكون تعالى هو أرحم الراحمين (وثالثها) ان الله تعالى لو لم يخلق فى قلب العبد تلك الدواعى والارادات لاستحال صدور ذلك الفعل عنه فكان الراحم هو الحق سبحانه من حيث انه هو الذى أنشأ تلك الداعية فثبت انه أرحم الراحمين (فان قيل) كيف يكون أرحم الراحمين مع انه سبحانه ملأ الدنيا من الآفات والاسقام والامراض والآلام وسلط البعض على البعض بالذبح والكسر والايذاء وكان قادرا على أن يغنى كل واحد عن ايلام الآخر وايذائه (والجواب) ان كونه سبحانه ضارا لا ينافى كونه نافعا بل هو الضار النافع فاضراره ليس لدفع مضرة وانتفاعه ليس لجلب منفعة بل لا يسئل عما يفعل أما قوله تعالى فاستجبنا له فانه يدل على انه دعا ربه لكن هذا الدعاء قد يجوز أن يكون واقعا منه على سبيل التعريض كما يقال ان رأيت أو أردت أو أحببت فافعل كذا ويجوز أن يكون على سبيل التصريح وان كان الاليق بالادب وبدلالة الآية هو الاول ثم انه سبحانه بين انه كشف ما به من ضر وذلك يقتضى اعادته الى ما كان فى بدنه واحواله وبين الله تعالى انه آتاه أهله ويدخل فيه من يشبه السبب من زوجة وولد وغيرهما ثم فيه قولان (أحدهما) وهو قول ابن مسعود وابن عباس ورفقائه ومقاتل والكلبى وكعب رضى الله عنهم ان الله تعالى أحياله أهله بعينهم أولاده باعيانهم (والثانى) روى الليث رضى الله عنه قال أرسل مجاهد الى عكرمة يسأله عن الآية فقال قيل لايوب ان أهلك لك فى الآخرة فان شئت جعلناهم لك فى الدنيا وان شئت كانوا لك فى الآخرة وآتيناك مثلهم فى الدنيا فقال يكونون لى فى الآخرة وأوتى مثلهم فى الدنيا والقول الاول أولى لان قوله وآتيناه أهله يدل بظاهره على أنه تعالى أعادهم فى الدنيا وأعطاه معهم مثلهم أيضا وأما قوله وذكرى للعابدين فيفيد دلالة على أنه تعالى فعل ذلك لكى يتفكر فيه فيكون داعية للعابدين فى الصبر والاحتساب وانما خص العابدين بالذكر لانهم يحتسبون بالانتفاع بذلك (القصة السادسة) ﴿قوله تعالى﴾ ﴿واسمعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين وأدخلناهم فى رحمتنا انهم من الصالحين﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر صبر أيوب عليه السلام وانقطاعه اليه أتبعه بذكر هؤلاء فانهم كانوا أيضا من الصابرين على الشدائد والمحن والعبادة أما اسمعيل عليه السلام فلانه صبر على الانقياد للذبح وصبر على المقام ببلد لا زرع فيه ولا ضرع ولا بناء وصبر فى بناء البيت فلا جرم أكرمه الله تعالى وأخرج من صلبه خاتم النبيين وأما ادريس عليه السلام فقد تقدمت قصته فى سورة مريم عليها السلام قال ابن عمر رضى الله عنهما بعث الى قومه داعيا لهم الى الله تعالى فأبوا فأهلكهم الله تعالى ورفع ادريس الى السماء الرابعة وأما ذو الكفل ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ فيم اختلفوا (اذ قول) قال الزجاج الكفل فى اللغة الكساء الذى يحمل على عجز البعير والكفل أيضا النصيب واختلفوا فى أنه لم سمى بهذا الاسم على وجوه (أحدها) وهو قول المحققين أنه كان له ضعف عمل الانبياء عليهم السلام فى زمانه وضعف ثوابهم (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية ان نبيا من أنبياء بنى اسرائيل آتاه الله الملك

ما يتوخاه من رجوعهم باختياره كما يؤذن به قوله (لعلهم يعرفونها) أى يعرفون حق ردها والتكرم فى ذلك أو لكى يعرفوها وهو ظاهر التعلق بقوله (اذا انقلبوا الى أهلهم) فان معرفتهم لها مفيدة بالرجوع وتفريغ الاوعية قطعا وأما معرفة حق التكرم فى ردها فهى وان كانت فى ذاتها غير مفيدة بذلك لكن لما كان ابتداؤها حينئذ قيد به (لعلهم يرجعون) حسما لامرهم به فان التفضل عليهم باعطاء الدلين ولاسيما عند اعزازا لبضاعة من أقصى الدواعى الى الرجوع وما قيل انما قاله عليه السلام لعلمه برحم الكريم ان يأخذ من أبيه وأخوته ثمنا فكلام حق فى نفسه ولكن يأباه التعليل المذكور وأما أن علية الجعل المذكور لارجوع من حيث ان ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لانهم لا يستحلون اتلافها فغير ظاهر أنها بقيت فى رحالهم نسيانا وظاهر أن ذلك مما لا يخطر ببال أحد أصلا فانه يئنه التعبية تنادى بان ذلك بطريق التفضل الالهى انهم كيف جزموا بذلك والنبوة

حيرا وها وجعلوا ذلك دليلا على التحويلات السابقة كما سيحيط به خبرا (فلما رجعوا الى أبيهم قالوا) قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع (يا أبانا منع منا الكيل) أى فيما بعد وقيه ما لا يخفى من الدلالة على كون الامتيار مرة بعد مرة معهودا فيما بينهم وبينه عليه السلام (فارسل معنا

أخانا) بنيامين الى مصر وقيه ايذان بان مدار المنع عدم كونه معهم (نكتل) نسبيه من الطعام ما نشاء وقرأ حمزة والكسائي بالياء على اسناده الى الاخ لكونه سببا للاكتيال أو نكتل لنفسه معه اكتيالنا (وانا له لحافظون) من أن يصيبه مكروه (قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه) يوسف (من قبل) وقد قالتم في حقه أيضا ما قالتم ثم فعلتم به ما فعلتم فلا أثق بكم ١٤٧ ولا بحفظكم وانما أفوض الامر الى الله (فالله خير حافظا) وقرئ حفظا وانتصابهما على التمييز والحالية على القراءة الاولى توهم تقييد الخيرية بتلك الحالة (وهو أرحم الراحمين) فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يجمع علي مصيبتين وهذا كما ترى ميل منه عليه السلام الى الاذن والارسال لما رأى فيه من المصلحة (ولما فتحوا متاعهم) وجدوا بضاعتهم ردت اليهم) أي تفصلا وقد علموا ذلك بما مر من دلالة المال وقرئ تفعل بحركة الدال المدغمة الى الراء كما قيل في قيل وكيل (قالوا) استئناف مبني على السؤال كأنه قيل ماذا قالوا حينئذ فقيل قالوا لابيهم ولعله كان حاضرا عند الفتح (يا أبانا ما نبغي) اذ ما نبغي بالطلب فما استفهامية منصوبة به فالمعنى ماذا نبتغي وراء ما وصفنا لك من احسان الملك الينا وكرمه الداعي الى امتثال أمره والمراجعة اليه في الحوائج وقد كانوا أخبروه بذلك وقالوا له انا نريد منا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا لكن رجلا من آل بعقوب ما أكرمنا كرامته وقوله تعالى (هذه بضاعتنا ردت الينا) جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الانكار من بلوغ اللطف غايته كأنهم قالوا كيف لا وهذه بضاعتنا عادت الينا فضلا من حيث لا ندري بعد ما من الله العظام هل من مزيد على هذا فنطلبه ولم يريدوا به الاكتفاء بذلك مطلقا أو التقاعد عن طلب نظائر ما أرادوا الا كتفاء به في استجلاب الامتثال

والنبوة ثم أوحى الله اليه اني أريد قبض روحك فاعرض ملكك على بني اسرائيل فمن تكفل لك أنه يصلي بالليل حتى يصبح ويصوم بالنهار فلا يفطر ويقضي بين الناس فلا يغضب فادفع ملكك اليه فقام ذلك النبي في بني اسرائيل وأخبرهم بذلك فقام شاب وقال أنا أتكفل لك بهذا فقال في القوم من هو أكبر منك فاقعد ثم صاح الثانية والثالثة فقام لرجل وقال أتكفل لك بهذه الثلاث فدفع اليه ملكه ووفى بما ضمن فحسده ابليس فأتاه وقت ما يريد أن يقيل فقال ان لي غريما قد مطلني حتى وقد دعوته اليك فأبى فأرسل معي من يأتيك به فأرسل معه وقعد حتى فاتته القيلولة وعاد الى صلاته وصلى ليله الى الصباح ثم أتاه من الغد عند القيلولة فقال ان الرجل الذي استأذنت له هو في موضع كذا فلا تبرح حتى آتيك به فذهب وبقي هو منتظرا حتى فاتته القيلولة ثم أتاه فقال له هرب مني فمضى ذو الكفل الى صلاته فصلى ليلته حتى أصبح فأتاه ابليس وعرفه نفسه وقال له خدعتك على عصمة الله يا لك قاردت أن أخرجك حتى لا تفي بما تكفلت به فشكره الله تعالى على ذلك ونبأه فسمي ذا الكفل وعلى هذا فالمراد بالكفل هنا الكفالة (وثانيها) قال مجاهد لما كبر اليسع عليه السلام قال لو اني استخلفت رجلا على الناس في حياتي حتى أنظر كيف يعمل لجمع الناس وقال من يتقبل مني حتى استخلفه ثلاثا يصلي بالليل ويصوم بالنهار ويقضي فلا يغضب وذكر على كرم الله وجهه نحو ما ذكره ابن عباس رضي الله عنه من فعل ابليس وتفويته عليه القيلولة ثلاثة أيام وزاد أن ذا الكفل قال للبواب في اليوم الثالث قد غلب علي الناس فلا تدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فاني قد شق علي الناس فجاء ابليس فلم يأذن له البواب فدخل من كوة في البيت وتسور فيها فاذا هو يدق الباب من داخل فاستيقظ الرجل وعاتب البواب فقال أما من قبلي فلم تؤت فقام الى الباب فاذا هو مغلق وابليس على صورة شيخ معه في البيت فقال له أتنام والخصوم على الباب فعرفه فقال أنت ابليس قال نعم أعييتني في كل شيء ففعلت هذه الافعال لاغضبك فسميت الله تعالى فسمي ذا الكفل لانه قد وفى بما تكفل به (المسئلة الثانية) قال أبو موسى الاشعري رضي الله عنه ومجاهد ذو الكفل لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا وقال الحسن والاكثرون انه من الانبياء عليهم السلام وهذا أولى لوجوه (أحدها) أن ذا الكفل يحتمل أن يكون نبيا وأن يكون اسما والاقرب أن يكون مفيدا لان الاسم اذا أمكن حمله على ما يفيد فهو أولى من اللقب اذا ثبت هذا فنقول الكفل هو النصيب والظاهر أن الله تعالى انما سماه بذلك على سبيل التعظيم فوجب أن يكون ذلك الكفل هو كفل الثواب فهو انما سمي بذلك لان عمله وثواب عمله كان ضعف عمل غيره وضعف ثواب غيره وانما كان في زمنه أنبياء على ما روى ومن ليس ببني لا يكون أفضل من الانبياء (وثانيها) انه تعالى قرن ذكره بذكر اسمعيل وادريس والفرض ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم وذلك يدل على نبوته (وثالثها) ان السورة ملقبة بسورة الانبياء فيبعد من ذكره الله تعالى فيها أن يذكر فيها غير نبي (المسئلة الثالثة) قيل ان ذا الكفل زكريا وقيل يوشع وقيل الياس ثم قالوا خمسة من الانبياء سماهم الله تعالى باسمين اسرائيل ويعقوب الياس وذو الكفل عيسى والمسيح يونس وذو النون محمد واحد وأما قوله تعالى لكل من الصابرين أي على القيام بأمر الله تعالى واحتمال الاذى في نصرة دينه وقوله وأدخلناهم في رحمتنا قال مقاتل الرحمة النبوة وقال آخرون بل يتناول جميع أعمال البر والخير (القصة الثامنة) قصة يونس عليه السلام ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾ اعلم أن ههنا مسائل (المسئلة الاولى) أنه لا خلاف في أن ذا النون

لامره والانتهاء اليه فى استجلاب المزيد كما أشرنا اليه وقوله تعالى ردت الينا حال من بضاعتنا والعامل معنى الاشارة وايثار صيغة البناء للمفعول للايذان بكمال الاحسان الثانى عن كمال الاحسان المفهوم من كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله وقوله عز وجل (وغير أهلنا) أى نجلب اليهم الطعام من عند ١٤٨ الملك معطوف على مقدر ينسحب عليه رد البضاعة أى فنستظهر بها وغير أهلنا

(ونحفظ أخانا) من المكاره حسبما وعدنا فلا يصيبه من مكروه (ونزداد) أى بواسطته ولذلك وسط الاخبار بحفظه بين الاصل والمزيد (كيل بعير) أى وسق بعير زائدا على أوساق أباعرنا على قضية التقسيط (ذلك) أى ما يحمله أباعرنا (كيل يسير) أى مكيل قليل لا يقوم بأودنا فهو استئناف وقع تعليلا لما سبق كأنه قيل أى حاجة الى الازدياد فقيل ماقبل أو ذلك الكيل الزائد شئ قليل لا يضايق فقايه الملك أو سهل عليه لا يتعاظمه أو أى مطلب طلب من مهما تنا والجملة الواقعة بعده توضيح وبيان لما يشعر به الانكار من كونهم فائزين ببعض المطالب أو ممكنين من تحصيله فكأنهم قالوا بضاعتنا حاضرة فنستظهر بها وغير أهلنا ونحفظ أخانا فلا يصيبه شئ من المكاره ونزداد بسببه غير ما نسكاله لانفسنا كيل بعير فأى شئ يبقى وراء هذه المباغى وقرئ ما نبغى على خطاب يعقوب عليه السلام أى أى شئ تبغى وراء هذه المباغى المشتملة على سلامة أخينا وسعة ذات أيدينا أو وراء ما فعل بنا الملك وتبليغه من الاحسان داعيا الى التوجه اليه والجملة الاستئنافية موضحة لذلك أو أى شئ نبغى شاهدا على صدقنا فيما وصفنا الملك من احسانه والجملة المذكورة عبارة عن الشاهد المدلول عليه بفحوى الانكار والنافية فالمعنى ما نبغى شيأ غير ما رأينا من احسان الملك فى وجوب

هو يونس عليه السلام لان النون هو السمكة وقد ذكرنا أن الاسم اذا دار بين أن لقبا محضا وبين أن يكون مفيدا فحمله على المفيد أولى خصوصا اذا علمت الفائدة التى يصلح لها ذلك الوصف (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ان وقوعه عليه السلام فى بطن السمكة كان قبل اشتغاله بأداء رسالة الله تعالى أو بعده (أما القول الاول) فقال ابن عباس رضى الله عنه كان يونس عليه السلام وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى سبطان ونصف فأوحى الله تعالى الى شعيب النبى عليه السلام أن اذهب الى حزقيل الملك وقل له حتى يوسه نبيا قويا أمينا فانى ألقى فى قلوب أوائك ان يرسلوا معه بنى اسرائيل فقال له الملك فمن ترى وكان فى مملكته خمسة من الانبياء فقال يونس بن متى فانه قوى أمين فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج فقال يونس هل أمرك الله بأخراجى قال لا قال فهل سماني لك قال لا قال فههنا أنباء غيرى فأبطوا عليه فخرج مغاضبا للملك وقومه فأتى بحرا لروم فوجد قوما هيؤا سفينة فركب معهم فلما تلجت السفينة تكفأت بهم وكادوا أن يغرقوا فقال الملاحون ههنا رجل عاص أو عبد آبق لان السفينة لا تفعل هذا من غير ريح الا وفيها رجل عاص ورمز رسمنا انا اذا بلينا بمثل هذا البلاء ان نقترع فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه فى البحر ولان يغرق أحد خير من أن تغرق السفينة فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فيها كلها على يونس عليه السلام فقال أنا الرجل العاصى والعبد الآبق وألقى نفسه فى البحر فخاضت حوت فابتلعه فأوحى الله تعالى الى الحوت لا تؤذ منه شعرة انى جعلت بطنك سجنا له ولم أجعله طعاما لك ثم لما نجاه الله تعالى من بطن الحوت نبذه بالعراء كالفرخ المنتوف ليس عليه شعر ولا جلد فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد فلما يبست الشجرة حزن عليها يونس عليه السلام فقيل له أتحزن على شجرة ولم تحزن على مائة ألف أو يزيدون حيث لم تذهب اليهم ولم تطلب رأفتهم ثم أوحى الله اليه وأمره أن يذهب اليهم فتوجه يونس عليه السلام نحوهم حتى دخل أرضهم وهم منه غير بعيد فأتاهم يونس عليه السلام وقال لملكهم ان الله تعالى أرسلنى اليك لترسل معى بنى اسرائيل فقالوا ما عرفت ما تقول ولو علمنا انك صادق لفعلنا ولقد أتينا كفى ديارنا وسبينا كم فلو كان كما تقول لمنعنا الله عنكم فطاف ثلاثة أيام يدعوهم الى ذلك فأبوا عليه فأوحى الله تعالى اليه قل لهم ان لم تؤمنوا جاءكم العذاب فابلغهم فأبوا فخرج من عندهم فلما فقدوه ندموا على فعلهم فانطلقوا يطلبونه فلم يقدروا عليه ثم تذكروا أمره وأمر يونس للعلماء الذين كانوا فى دينهم فقالوا انظروا واطلبوه فى المدينة فان كان فيها فليس مما ذكر من نزول العذاب شئ وان كان قد خرج فهو كما قال فطلبوه فقيل لهم انه خرج الغشى فلما أيسوا أغلقوا باب مدينتهم فلم يدخلها بقرهم ولا غنمهم وعزلوا الوالدة عن ولدها وكذا الصبيان والامهات ثم قاموا ينتظرون الصبح فلما انشق الصبح رأوا العذاب ينزل من السماء فشقوا جيوبهم ووضعت الحوامل ما فى بطونها وصاح الصبيان وثغت الانعام والبقر فرفع الله تعالى عنهم العذاب فمشوا الى يونس عليه السلام فآمنوا به وبعثوا معه بنى اسرائيل فعلى هذا القول كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت ودليل هذا القول قوله تعالى فى سورة الصافات فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون وفى هذا القول رواية أخرى وهى ان جبريل عليه السلام قال ليونس عليه السلام انطلق الى أهل نينوى وأنذرهم ان العذاب قد حضرهم فقال يونس عليه السلام ألتمس دابة فقال الامر أجل من ذلك فغضب وانطلق الى السفينة وباقى الحكاية كما مر الى أن التقمه الحوت فانطلق الى أن وصل الى نينوى فألقاه هناك (أما القول الثانى) وهو ان قصة الحوت كانت بعد دعائه أهل نينوى

المراجعة اليه أو ماتبغي غيره هذه المباغي وقيل ما تطلب منك بضاعة أخرى والجملة المستأنفة تعليل له وأما اذا فسر البغي بمجاوزة الحد فما نافية فقط والمعنى ما تبغي في القول وما تزيد فيما وصفناك من احسان الملك البناء كره الموجب لما ذكر والجملة المستأنفة لبيان ما ادعوا من عدم البغي وقوله وغير أهلنا عطف على ما تبغي أي ما تبغي فيما ذكرنا من احسانه ١٤٩ وتحصيل أمثاله من مبر أهلنا وحفظ

وتبليغه رسالة الله اليهم قالوا انهم لما لم يؤمنوا وعدهم بالعذاب فلما كشف العذاب عنهم بعد ما وعدهم به خرج منهم مغاضبا ثم ذكر وافي سبب الخروج والغضب أمورا (أحدها) انه استحى أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الكذب (وثانيها) انه كان من عادتهم قتل الكاذب (وثالثها) انه دخلته الانفة (ورابعها) لما لم ينزل العذاب بأولئك وأكثر العلماء على القول بان قصة الحوت وذهاب يونس عليه السلام مغاضبا بعد أن أرسله الله تعالى اليهم وبعد رفع العذاب عنهم (المسئلة الثالثة) احتج القائلون بجواز الذنب على الانبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجوه (أحدها) ان أكثر المفسرين على أنه ذهب يونس مغاضبا لربه وبقال هذا قول ابن مسعود وابن عباس والحسن والشعبي وسعيد بن جبير ووهب واختيار ابن قتيبة ومحمد بن جرير فاذا كان كذلك فيلزم ان مغاضبته لله تعالى من أعظم الذنوب ثم على تقدير أن هذه المغاضبة لم تكن مع الله تعالى بل كانت مع ذلك الملك أو مع القوم فهو أيضا كان محظورا الا ان الله تعالى قال فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت وذلك يقتضي ان ذلك الفعل من يونس كان محظورا (وثانيها) قوله تعالى فظن أن لن نقدر عليه وذلك يقتضي كونه شاكا في قدرة الله تعالى (وثالثها) قوله اني كنت من الظالمين والظلم من أسماء الذم لقوله تعالى ألا لعنة الله على الظالمين (ورابعها) أنه لو لم يصدر منه الذنب فلم عاقبه الله بان ألقاه في بطن الحوت (وخامسها) قوله تعالى في آية أخرى فالتقمه الحوت وهو مليم والمليم هو ذو الملامة ومن كان كذلك فهو مذنب (وسادسها) قوله ولا تكن كصاحب الحوت فان لم يكن صاحب الحوت مذنبا لم يجز النهي عن التشبيه به وان كان مذنبا فقد حصل الغرض (وسابعها) انه قال ولا تكن كصاحب الحوت وقال فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل فلزم أن لا يكون يونس من أولي العزم وكان موسى من أولي العزم ثم قال في سعة لو كان ابن عمران حيا ما وسعه الا اتباعي وقال في يونس لا تفضلوني على يونس بن متى وهذا تخاريج عن تفسير الآية (والجواب عن الاول) انه ليس في الآية ما يدل على غاضبه لكنا نقطع على الله انه لا يجوز على نبي الله أن يغاضب ربه لان ذلك صفة من يجهل كون الله ما لكا للامر والنهي والجاهل بالله لا يكون مؤمنا فضلا عن أن يكون نبيا وأما ما روي انه خرج مغاضبا لامر يرجع الى الاستعداد وتناول الفضل فما يرتفع حال الانبياء عليهم السلام عنه لان الله تعالى اذا أمره بشيء فلا يجوز أن يخالفوه لقوله تعالى وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم وقوله فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم الى قوله ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت فاذا كان في الاستعداد مخالفة لم يجز أن يقع ذلك منهم واذا ثبت انه لا يجوز صرف هذه المغاضبة الى الله تعالى وجب أن يكون المراد انه خرج مغاضبا لغير الله والغالب انه انما يغاضب من يعصيه فيما يأمره به فيحتمل قومه أو الملك أو هما جميعا ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته لما وقع في فهم حلول العذاب عليهم عندها وقرأ أبو شرف مغضبا أما قوله مغاضبة القوم أيضا كانت محظورة لقوله تعالى ولا تكن كصاحب الحوت قلنا لا نسلم انها كانت محظورة فان الله تعالى أمره بتبليغ تلك الرسالة اليهم وما أمره بان يبقى معهم أبدا فالظاهر الامر لا يقتضي التكرار فلم يكن خروجه من بينهم معصية وأما الغضب فلا نسلم انه معصية وذلك لانه لما لم يكن منهيا عنه قبل ذلك فظن ان ذلك جائز من حيث انه لم ينه عنه الا عضب الله تعالى وأنفة منه وبغضا للكفر وأهله بل كان الاولى له أن يصابر وينتظر الاذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم ولهذا قال تعالى ولا تكن كصاحب الحوت كان الله تعالى أراد لمحمد صلى الله عليه وسلم أفضل المنازل وأعلاها (والجواب عن الشبهة الثانية) وهي التمسك بقوله تعالى فظن أن ان نقدر عليه أن نقول من ظن عجز الله تعالى

أخينا فان ذلك أهون شئ براسطة احسانه وقد جوز أن يكون كلاما مبتدأ أي جملة اعتراضية تعليلية على معنى وليبغني أن غير أهلنا وشبهه ذلك يقولك سمعت فلانا يقول في حاجة فلان ويجب أن أسعى وأنت خبير بان شأن الجملة التعليلية أن تكون مؤكدة لمضمون الصدر ومقررة له كما في المثال المذكور وقولك فلان ينطق بالحق فالحق أبلج وان قوله وغير الخ وان ساعدنا في حمله على معنى ينبغي أن غير أهلنا يعزل من ذلك أو ينبغي في الرأي وما نعدل عن الجواب فيما نشير به عليك من ارسال أخينا معنا والجمل الى آخرها تفصيل وبيان لعدم بغيهم وأصابة رأيهم أي بضاعتنا حاضرة فستظهر بها وغير أهلنا وتستمنع كيت وذيت فتأمل (قال لن أرسله معكم) بعد ما عاينت منكم ما عاينت (حتى تؤتون موثقا من الله) أي ما توثق به من جهة الله عز وجل وأما جعله موثقا منه تعالى لان تأكيد الموعود مأذون فيه من جهته تعالى فهو اذن منه عز وجل (لتأتنني به) جواب القسم اذا لمعنى حتى تحلفوا بالله لتأتنني به (الا أن يحاط بكم) أي الا أن تغلبوا فلا تطيقوا به أو الا أن تهلكوا وأصله من احاطة العدو فان من أحاط به العدو فقد هلك غالبا وهو استثناء من أعم الاحوال أو أعم العلل على تأويل الكلام بالنفي الذي يناسق اليه أي لتأتنني به ولا تمتنعون منه في حال من الاحوال أو لعلة من العلل

الاحوال الاحاطة بكم أو لعلة الاحاطة بكم ونظيره قولهم أقسمت عليك لما فعلت والا فعلت أي ما أريد منك الا فعلك وقد جوزوا الاول بلا تأويل أيضا أي لتأتني به على كل حال الاحوال الاحاطة بكم وأنت تدري أنه حيث لم يكن الاتيان به من الافعال المعتدة الشاملة للاحوال على سبيل المعية كما في قولك لازمتك ١٥٠ الا أن تعطيني حقي أو لم يكن مراده عليه السلام مقارنته على سبيل البدل لما عدا الحال المستثناة كما اذا قلت صل الا أن تكون محدثا بل مجرد تحققه ووقوعه من غير اخلال به كما في قولك لاحسنن العام الا أن أحصر فان مرادك انعامه والاخبار بعدم منع ما سوى حال الاحصار عن الحج الا الاخبار بمقارنته لتلك الاحوال على سبيل البدل كما هو مرادك في مثال الصلاة كان اعتبار الاحوال معه من حيث عدم منعها منه فاعل المعنى الى التأويل المذكور (فلما آتوه موثقهم) عهدهم من الله حسبما أراد يعقوب عليه السلام (قال الله على ما نقول) أي على ما فانا في أثناء طلب الموثق وإيتائه من الجانبين وإشارة صيغة الاستقبال لاستحضار صورته المؤدي الى تثبتهم وحفظهم له على تذكره ومراقبته (وكيل) مطلع رقيب يريد به عرض تقته بالله تعالى وحثهم على مراعاة مشاقهم (وقال) ناصحا لهم لما أزمع على ارسالهم جميعا (يابني لا تدخلوا) مصر (من باب واحد) نهاهم عن ذلك حذارا من اصابة العين فانهم كانوا ذوي جمال وشارة حسنة وقد كانوا تحملوا في هذه المرة أكثر مما في المرة الاولى سبحانك وقد اشتهر روائي مصر بالكرامة والزلفى لدى الملك بخلاف النوبة الاولى فكانوا مثنة له نوكل ناظر وطموح كل طامح واصابة العين بتقدير العزيز اياكم ليست مما يكر وقد ورد عنه عليه السلام ان العين حق وعنه عليه السلام ان العير لتدخل الرجل القبر والجمل القدر وقد كان

فهو كافر ولا خلاف انه لا يجوز نسبة ذلك الى آحاد المؤمنين فكيف الى الانبياء عليهم فاذن لا بد فيه من التأويل وفيه وجوه (أحدها) فظن أن لن نقدر عليه أي لن نضيق عليه وهو كقوله تعالى الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر أي يضيق ومن قدر عليه رزقه أي ضيق وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه أي ضيق ومعناه أن لن نضيق عليه واعلم ان على هذا التأويل تصير الآية حجة لنا وذلك لان يونس عليه السلام ظن انه مخير ان شاء أقام وان شاء خرج وأنه تعالى لا يضيق عليه في اختياره وكان في المعلوم ان الصلاح في تأخر خروجه وهذا من الله تعالى بيان لما يجري مجرى العذر له من حيث خرج لا على تعمد المعصية لكن لظنه ان الامر في خروجه موسع يجوز أن يقدم ويؤخر وكان الصلاح خلاف ذلك (وثانيها) أن يكون هذا من باب التمثيل يعني فكانت حالته مماثلة لحالة من ظن أن لن نقدر عليه في خروجه من قومه من غير انتظار لامر الله تعالى (وثالثها) ان نفسر القدرة بالقضاء الملهي فظن أن ان نقضي عليه بشدة وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك والكلبي ورواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهم واختيار الفراء والزجاج قال الزجاج نقدر يعني نقدر يقال قدر الله الشيء قدرا وقدره تقديرا فالقدر يعني التقدير وقرأ عمر بن عبد العزيز والزهري فظن أن لن نقدر عليه بضم النون والتشديد من التقدير وقرأ عبيد بن عمير بالتشديد على المجهول وقرأ يعقوب يقدر عليه بالتخفيف على المجهول وروي انه دخل ابن عباس رضي الله عنهما على معاوية رضي الله عنه فقال معاوية لقد فرجني أمواج القرآن البارحة فعرفت فيها فلم أجد لنفسي خلاصا الا بالهلاك فقال وما هي قال يظن نبي الله أن لن يقدر الله عليه فقال ابن عباس رضي الله عنهما هذا من القدر لا من القدرة (ورابعها) فظن أن لن نقدر أي فظن أن ان نفعل لان تأثير القدرة والفعل مناسبة فلا يبعد جعل أحدهما مجازا عن الآخر (وخامسها) انه استفهام بمعنى التوبيخ معناه أفظن أن ان نقدر عليه عن ابن زيد (وسادسها) ان على قول من يقول هذه الواقعة كانت قبل رسالة يونس عليه السلام كان هذا الظن حاصلا قبل الرسالة ولا بعد في حق غير الانبياء والرسل أن يسبق ذلك الى وهمه بوسوسة الشيطان ثم انه يرد به الحجة والبرهان ﴿والجواب عن الثالث﴾ وهو التمسك بقوله اني كنت من الظالمين فهو أن نقول انا لو حملناه على ما هو الليق بالنبوة فلا كلام ولو حملناه على ما يدل عليه ظاهره واجمعت الامة على التأويل لانا لو أجريناها على ظاهرها لوجب القول بكون النبي مستحقا للعن وهذا لا يقوله مسلم واذا وجب التأويل فنقول لاشك انه كان تاركا للافضل من القدرة على تحصيل الافضل فكان ذلك ظلما ﴿والجواب عن الرابع﴾ انا لا نسلم أن ذلك كان عقوبة اذ الانبياء لا يجوز أن يعاقبوا بل المراد به نحتة لكن كثيرا من المفسرين يذكرون في كل مضرة تفعل لاجل ذنب انها عقوبة ﴿والجواب عن الخامس﴾ ان الملامة كانت بسبب ترك الافضل ﴿المسئلة الرابعة﴾ قال صاحب الكشاف في الظلمات أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت كقوله تعالى ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات وقولهم يخرجونهم من النور الى الظلمات ومنهم من اعتبر أنواعا مختلفة من الظلمات فان كان النداء في الليل فهناك ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت وان كان في النهار أضيف اليه ظلمة أمعاء الحوت أو أن حوتا ابتلع الحوت الذي هو في بطنه أو لان الحوت اذا عظم غوصه في قعر البحر كان ما فوقه من البحر ظلمة في ظلمة اما قول من قال ان الحوت الذي ابتلعه غاص في الارض السابعة فان ثبت ذلك بخبر فلا كلام والا فقد قال بذلك لكي يقع تداوي في الظلمات فما قد منا عنه ينفي عن ذلك أما قوله ان لا اله الا أنت فالمعنى بأنه لا اله الا أنت او بمعنى أي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له وعن الحسن ما نجاه الله تعالى الا باقراره على نفسه بالظلم أما قوله

عليه السلام يعوذ الحسنين رضي الله عنهما بقوله أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة وكان عليه السلام يقول كان أبونا يعوذ بها اسمعيل واسحق عليهم السلام رواه البخاري في صحيحه وقد شهد بذلك التجارب ولما لم يكن عدم الدخول من باب واحد مستلزما للدخول من أبواب متفرقة وكان في دخولهم من بابين أو ثلاثة بعض منافي الدخول من باب واحد من نوع اجتماع صح لوقوع النهي عنه بقوله (وقالوا ادخلوا من أبواب متفرقة) بيانا لما هو المراد بالنهي وانما لم يكتف بهذا الامر مع كونه مستلزما له اظهارا لكمال العناية وايذانا بأنه المراد بالامر المذكور لا تحقيق لشيء آخر (وما أغني عنكم) أي لا أنفعكم ولا أدفع عنكم بتدبيري (من الله من شيء) أي شيأ مما قضى عليكم فان الحذر لا يمنع القدر ولم يرد به عليه السلام الغاء الحذر بالمرة كيف لا وقد قال عز وجل ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وقال خذوا حذركم بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة بل هو تدبير في الجملة وانما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير وأن ذلك ليس بدافع للقدر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه اليه (ان الحكم) مطلقا (الا لله) لا يشاركه أحد ولا يمانعه شيء (عليه) لا على أحد سواه (توكلت) في كل ما آتي وأذر وفيه دلالة على أن ترتيب الاسباب غير مخل بالتوكل (وعليه) دون غيره (فليتوكل المتوكلون) جمع بين الحرفين في عطف الجملة على الجملة مع تقديم الصلة للاختصاص مفيدا بالواو عطف قول غيره من تخصيص التوكل بالله عز وجل على فعل نفسه وبالفاء سببية فعله لكونه نتيجة الفعل غيره من المقتدين به فيدخل فيهم بنو دخولا أوليا وفيه ما لا يخفى من حسن هدايتهم وارشادهم الى التوكل فيما هم بصدده على الله عز وجل غير مفترين بما وصاهم به من التدبير

سبحانك فهو تنزيه عن كل النقائص ومنها العجز وهذا يدل على انه ما كان مراده من قوله فظن أن لن نقدر عليه انه ظن العجز وانما قال سبحانك لان تقديره سبحانك أن تفعل ذلك جوارا أو شهوة للانتقام أو عجزا عن تخلصي عن هذا الحبس بل فعلته بحق الالهية وبمقتضى الحكمة أما قوله انى كنت من الظالمين فالمعنى ظلمت نفسي بفراري من قومي بغير اذن كانه قال كنت من الظالمين وأنا الآن من التائبين النادمين فاكشف عني المحنة بدل عليه قوله فاستجبنا له وفيه وجه آخر وهو انه عليه السلام وصفه بقوله لا اله الا أنت بكمال الربوبية ووصف نفسه بقوله انى كنت من الظالمين بضعف البشرية والقصور في أداء حق الربوبية وهذا القدر يكفي في السؤال على ما قال المتنبي

وفي النفس حاجات وفيك فطانة ✻ سكوتي كلام عندها وخطاب

وروى عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما أراد الله حبس يونس عليه السلام أوحى الى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فأخذه وهوى به الى أسفل البحر فسمع يونس عليه السلام حسا فقال في نفسه ما هذا فأوحى الله اليه هذا تسبيح دواب البحر فقال فسبح فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا مثله وأما قوله فنحيناه من الغم أي من غمه بسبب كونه في بطن الحوت وبسبب خطيئته وكما أنجينا يونس عليه السلام من كرب الحبس اذ دعانا كذلك ننجي المؤمنين من كروبهم اذا استغاثوا بنا روى سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال دعوة ذي النون في بطن الحوت لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين ما دعا بها عبد مسلم قط وهو مكروب الا استجاب الله دعاءه قال صاحب الكشاف قرئ ننجي ونجي ونجي والنون لا تدغم في الجيم ومن تحمل أصحته فحمله فعل وقال نجي الماء المؤمنين فارسل الباء وأسنده الى مصدره ونصب المؤمنين بالجماعة فتعسف بارد التعسف ﴿القصة التاسعة﴾ فصة زكريا عليه السلام ✻ قوله تعالى ﴿وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين﴾ اعلم أنه تعالى بين انقطاع ذكر يا عليه السلام الى ربه تعالى بما سأله الضر بتفرده وأحب من يؤنسه ويقويه على أمر دينه ودنياه ويكون قائما مقامه بعد موته فدعا الله تعالى دعاء خاص عارف بانه قادر على ذلك وان انتهت الحال به ويزوجته من كبر وغيره الى اليأس من ذلك بحكم العادة وقال ابن عباس رضي الله عنهما كان سنه مائة وسن زوجته تسعا وتسعين سنة أما قوله وأنت خير الوارثين ففيه وجهان (أحدهما) أنه عليه السلام انما ذكر هذه الجملة دعائه على وجه الثناء على ربه ليكشف عن عليه بان ما سأل الامور التي الله تعالى (والثاني) كانه عليه السلام قال ان لم ترزقني من يرثني فلا أبالي فانك خير وارث وأما قوله تعالى فاستجبنا له أي فعلنا ما أراده لاجل سؤاله وفي ذلك اعظام له فلذلك تقول العلماء ان الاستجابة ثواب لما فيه من الاعظام وأما قوله تعالى ووهبنا له يحيى فهو كالتفسير للاستجابة وفي تفسير قوله وأصلحنا له زوجه ثلاثة أقوال (أحدها) أصلحها للولادة بان أزال عنها المانع بالمادة وهذا أليق بالقصة (والثاني) انه أصلحها في أخلاقها وقد كانت على طريقة من سوء الخلق وملاطفة اللسان تؤذيه ويجعل ذلك من نعمه عليه (والثالث) أنه سبحانه جعلها مصلحة في الدين فان صلاحها في الدين من أكبر أعوانه في كونه داعيا الى الله تعالى فكانه عليه السلام سأل ربه المعونة على الدين والدنيا بالولد والاهل جميعا هذا كانه أقرب الى الظاهر لانه اذا قيل أصلح الله فلانا فالظاهر فيه ما يتصل بالدين واعلم أن قوله ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه يدل على ان الواو لا تفيد الترتيب لان اصلاح الزوج مقدم على هبة الولد مع أنه تعالى أخره في اللفظ وبين تعالى

(ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) من الابواب المتفرقة من البلد قيل كانت له أربعة أبواب فدخلوا منها وانما اكتفى بذكره لاستلزامه الانتهاء عما نهوا عنه (ما كان) ذلك الدخول (يغني) فيما سيأتي عند وقوع ما وقع (عنهم) عن الداخلين لان المقصود به استدفاع الضرر عنهم والجمع بين صيغتي ١٥٢ الماضي والمستقبل لتحقيق المقارنة الواجبة بين جواب لما ومدخوله فان عدم

مصداق ما ذكرناه فقال انهم كانوا يسارعون في الخيرات وأراد بذلك زكريا وولده وأهله فبين انه آتاهم ما طلبوه وعضد بعضهم بعضا من حيث كانت طريقتهم أنهم يسارعون في الخيرات والمسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء به لانه يدل على حرص عظيم على الطاعة أما قوله تعالى ويدعوننا رغبا ورهبا قرئ رغبا ورهبا وهو كقوله يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه والمعنى انهم ضموا الى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين (أحدهما) الفزع الى الله تعالى لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة من عقابه (والثاني) الخشوع وهو الخلقة الثابتة في القلب فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الامور خوفا من الاثم ﴿القصة الثانية﴾ قصة مريم عليها السلام ﴿قوله تعالى﴾ ﴿واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت﴾ الآية ﴿قوله تعالى﴾ ﴿فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ اعلم أن التقدير واذكر لي أحصنت فرجها ثم فيه قولان (أحدهما) انها أحصنت فرجها حصانا كاملا من الحلال والحرام جميعا كما قالت ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا (والثاني) من نفخة جبريل عليه السلام حيث منعته من جيب درعها فيدل أن تمرفه والاول أولى لانه الظاهر من اللفظ وأما قوله فنفخنا فيها من روحنا فللقائل أن يقول نفخ الروح في الجسد عبارة عن احيائه قال تعالى فاذا سويته ونفخت فيه من روحي أي أحييته واذا ثبت ذلك كان قوله فنفخنا فيها من روحنا ظاهرا لا اشكال لانه يدل على احياء مريم عليها السلام (والجواب) من وجوه (أحدها) معناه فنفخنا الروح في عيسى فيها أي أحييناه في جوفها كما يقول الزمار نفخت في بيت فلان أي في المزمار في بيته (وثانيها) فعلنا النفخ في مريم عليها السلام من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام لانه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ الى جوفها ثم بين تعالى بأخصر الكلام ما خص به مريم وعيسى عليهما السلام من الآيات فقال وجعلناها وابنها آية للعالمين أما مريم فآياتها كثيرة (أحدها) ظهور الحبل فيها لا من ذكر فصار ذلك آية ومعجزة خارجة عن العادة (وثانيها) ان رزقها كان يأتيها الملائكة من الجنة وهو قوله تعالى أنى لك هذا قالت هو من عند الله (وثالثها رابعها) قال الحسن انها لم تلتقم ثديا ولا قطت وتكلمت هي أيضا في صباها كما تكلم عيسى عليه السلام وأما آيات عيسى عليه السلام فقد تقدم بيانها فبين سبحانه أنه جعل ما آية للناس يتدبرون فيها فخصها به من الآيات ويستدلون به على قدرته وحكمته سبحانه وتعالى فان قيل هلا قيل آيتين كما قال وجعلنا الليل والنهار آيتين قلنا لان حالهما مجموعهما آية واحدة وهي ولادتها اياه من غير فحل وههنا آخر القصص. ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم كل الينا راجعون﴾ قال صاحب الكشاف الامة الملة وهو اشارة الى ملة الاسلام أي ان ملة الاسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها اشارة اليها ملة واحدة غير مختلفة وأنا الهكم الله واحد فاعبدون ونصب الحال من أمتكم على البدل من هذه ورفع أمة خبرا وعنه رفعهما جميعا خبرين أو نوى للثاني الابتداء أما قوله تعالى وتقطعوا أمرهم بينهم والاصل وتقطعتم الا أن الكلام صرف الى الغيبة على طريق الالتفات كأنه ينقل عنهم ما أفسدوه الى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ويقول لهم الا ترون الى عظيم ما ارتكبوه ؤلاء والمعنى جعلوا أمرهم بينهم قطعا كما تتوزع الجماعة الشئ ويقتسمونه فصيروا لذلك نصيب ولذلك نصيب تمثيلا لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقا وأحزابا ثم أما قوله تعالى كل الينا راجعون فقد توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة اليه يرجعون فهو يجازيهم ومجازيهم وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال تفرقت بنو اسرائيل على احدى وسبعين فرقة فهلكت سبعون وخلصت فرقة وان أمتي ستفترق على اثنين وسبعين فرقة فتهلك احدى وسبعون فرقة وتخلص فرقة واحدة قالوا يا رسول

الاعتداء بالفعل انما يتحقق عند نزول المحذور لا وقت الدخول وانما المتحقق حينئذ ما أفاده الجمع المذكور من عدم كون الدخول المذكور مغنيا فيما سيأتي فتأمل (من الله) من جهته (من شئ) أي شيأ ما قضاه عليهم مع كونه مغلفة لذلك في بادي الرأي حيث رصاهم به يعقوب عليه السلام وعللوا به وجنبه وانتخبين بعدوا من فضل الله تعالى فليس المراد بيان سببية الدخول المذكور لعدم الاغناء كما في قوله تعالى فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا فان مجيء النذير هناك سبب لزيادة نفورهم بل بيان عدم سببيته للاغناء مع كونها متوقعة في بادي الرأي كما في قولك حلف أن يعطيني حتى عند حلول الاجل فما حل لم يعطني شيأ فان المراد بيان عدم سببية حلول الاجل للاعطاء مع كونها مرجوة يوجب الحلف لا بيان سببيته لعدم الاعطاء فالمآل بيان عدم ترتب الغرض المقصود على التدبير المعهود مع كونه مرجو الوجود لا بيان ترتب عدمه عليه ويجوز أن يراد ذلك أيضا بناء على ما ذكره عليه الله

السلام في تضاعيف وصيته من أنه لا ينفي عنهم من الله شيأ فكأنه قيل وما فعلوا ما وصاهم به لم يفد ذلك شيأ ووقع الامر حسبما قال عليه السلام فلقوا ما لقوا فيكون من باب وقوع المتوقع فتأمل (الا حاجة) استثناء منقطع أي ولكن حاجة وزارته كائنة في نفس (يعقوب

قضاها) أى أظهرها ووصاهم بها ذفع الخاطر غير معتمد أو للتدبير تأبيرا فى تغيير التقدير وقد جعل ضمير الفاعل فى قضاها للدخول على معنى ان ذلك الدخول قضى حاجة فى نفس يعقوب وهى ارادته أن يكون دخولهم من أبواب متفرقة فالمعنى ما كان ذلك الدخول يغنى عنهم من جهة الله تعالى شيأ ولكن قضى حاجة حاصلة فى نفس يعقوب بوقوعه حسب ١٥٣ ارادته فالاستثناء منقطع أيضا وعلى التقديرين لم يكن للتدبير فائدة ـــــــــوى دفع الخاطرة وأما اصابة العين فانما لم تقع لكونها غير مقدورة عليهم لا لانها اندفعت بذلك مع كونها مقتضية عليهم (وانه لذو علم) جليل (لما علمناه) لتعليمنا اياه بالوحى ونصب الادلة حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر وان التدبير له حظ من التأثير حتى يتبين الخلل فى رأيه عند تخلف الاثر وحيث بت القول بأنه لا يغنى عنهم من الله شيأ فكان الحال كما قال وفى تأكيد الجملة بان واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند الى ذاته سبحانه من الدلالة على جلالة شان يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه ونفاسته مالا يخفى (ولكن اكثر الناس لا يعلمون) أسرار القدر ويزعمون انه يغنى عنه الحذر وأما ما يقال من أن المعنى لا يعلمون ايجاب الحذر مع انه لا ينفى شيأ من القدر فأياه مقام بيان تخلف المطلوب عن المبادى (ولما دخلوا على يوسف

الله من تلك الفرقة الناجية قال الجماعة الجماعة الجماعة فنبين بهذا الخبر أن المراد بقوله تعالى وأن هذه أمتكم الجماعة المتمسكة بما بينه الله تعالى فى هذه السورة من التوحيد والنبوات وأن فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الناجية انها الجماعة اشارة الى أن هذه أشار بها الى أمة الايمان والا كان قوله فى تعريف الفرقة الناجية انها الجماعة لغوا اذ لا فرقة تمسكت بباطل أو بحق الا وهى جماعة من حيث العدد وطعن بعضهم فى صحة هذا الخبر فقال ان أراد بالثنتين والسبعين فرقة أصول الاديان فلم يبلغ هذا العدد وان أراد الفروع فانها تتجاوز هذا القدر الى أضعاف ذلك وقيل أيضا قد روى ضد ذلك وهو أنها كلها ناجية الا فرقة واحدة (والجواب) المراد ستفترق أمتى فى حال مارليس فيه دلالة على افتراقها فى سائر الاحوال لا يجوز أن يزيد وينقص ﴿قوله تعالى﴾ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين﴾ اعلم أنه سبحانه لما ذكر أمر الامة من قبل وذكر تفرقهم وانهم أجمع راجعون الى حيث لا أمر الا له أتبع ذلك بقوله فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه بين ان من جمع بين أن يكون مؤمنا وبين أن يعمل الصالحات فهو داخل فى الاول العلم والتصديق بالله ورسوله وفى الثانى فعل الواجبات وترك المحظورات فلا كفران لسعيه أى لا بطلان لثواب عمله وهو كقوله تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا فالكفران مثل فى حرمان الثواب والشكر مثل فى اعطائه وقوله فلا كفران المراد نفى الجنس ليكون فى نهاية المبالغة لان نفى الماهية يستلزم نفى جميع افرادها وأما قوله تعالى وانا له كاتبون فالمراد وانا لسعيه كاتبون فنقبل المراد حافظون لجزائى عليه وقيل كاتبون اما فى أم الكتاب أو فى الصحف التى تعرض يوم القيامة والمراد بذلك ترغيب العباد فى التمسك بطاعة الله تعالى أما قوله وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون فاعلم أن قوله وحرام خبر فلا بد له من مبتدا وهو اما قوله أنهم لا يرجعون أو شئ آخر أما الاول فالتقدير ان عدم رجوعهم حرام أى ممتنع واذا كان عدم رجوعهم ممتنعا كان رجوعهم واجبا فهذا الرجوع اما أن يكون المراد منه الرجوع الى الآخرة أو الى الدنيا (أما الاول) فيكون المعنى ان رجوعهم الى الحياة فى الدار الآخرة واجبا ويكون الغرض منه ابطال قول من ينكر البعث وتحقيق ما تقدم انه لا كفران لسعى أحد فانه سبحانه سيعطيه الجزاء على ذلك يوم القيامة وهو تأويل أبى مسلم بن بحر (وأما الثانى) فيكون المعنى ان رجوعهم الى الدنيا واجب لكن المعلوم انهم لم يرجعوا الى الدنيا فعند هذا ذكر المفسرون وجهين (الاول) ان الحرام قد يجئ بمعنى الواجب والدليل عليه الآية والاستعمال وا شعر أما الآية فقوله تعالى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيأ وترك الشرك واجب وليس بمحرم وأما الشعر فقول الخنساء

وان حراما لا أرى الدهر باكيا * على شجوه الا بكيت على عمرو

يعنى وان واجبا وأما الاستعمال فلان تسمية أحد الضدين باسم الآخر مجاز مشهور كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها اذا ثبت هذا فالمعنى انه واجب على أهل كل قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ثم ذكروا فى تفسير الرجوع أمرين (أحدهما) انهم لا يرجعون عن الشرك ولا يتولون عنه وهو قول مجاهد والحسن (وثانيهما) لا يرجعون الى الدنيا وهو قول قتادة وهو قاتل ﴿الوجه الثانى﴾ أن نترك قوله وحرام على ظاهره ونجعل لا فى قوله لا يرجعون صلة زائدة كما انه صلة فى قوله ما منعك أن لا تسجد والمعنى وحرام على قرية أهلكناها

(٢٠ - خبر س) أوى اليه أخاه) بنيامين أى ضمه اليه فى الطعام أو فى المنزل أو فيهما وروى أنهم لما دخلوا عليه قالوا له هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وستجدون ذلك عندى فأكرمهم ثم أضافهم وأجلسهم مثنى مثنى فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا لاجلسنى معه فقال يوسف بقى أخوكم فريدا وأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ثم أنزل كل اثنين منهم بيتا فقال

هذا الاثنى معه فكيف يضمه اليه ويضم راحلته حتى اصبح وساله على ولده وقال لى عشرة بنين اسمعت احدا منهم من اسم أخى هلك فقال له أحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال من يجد أخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام اليه وعانقه وتعرف اليه وعند ذلك ١٥٤ (قال انى أنا أخوك) يوسف (فلا تبتئس) أى فلا تحزن (بما كانوا يعملون) بنا فيما

رجوعهم الى الدنيا وهو كقوله فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون أو يكون المعنى وحرام عليهم رجوعهم عن الشرك وترك الايمان وهذا قول طائفة من المفسرين هذا كله اذا جعلنا قوله وحرام خبرا لقوله أنهم لا يرجعون أما اذا جعلناه خبر الشئ آخر فالتقدير وحرام على قرية أهلكناها ذاك وهو المذكور فى الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعى المشكور وغير المكفور ثم علل فقال انهم لا يرجعون عن الكفر فكيف لا يمتنع ذلك هذا على قراءة انهم بالكسر والقراءة بالفتح يصح جعلها أيضا على هذا أى انهم لا يرجعون لأنه أما قوله تعالى حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان حتى متعلقة بحرام فاما على تأويل أبى مسلم فالمعنى ان رجوعهم الى الآخرة واجب حتى ان وجوبه يبلغ الى حيث انه اذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا والمعنى انهم يكونون أول الناس حضورا فى محفل القيامة فحتى متعلقة بحرام وهى غاية له ولكنه غاية من جنس الشئ كقولك دخل الحاج حتى المشاة حتى ههنا هى التى يحكى بعدها الكلام والكلام المحكى هو هذه الجملة من الشرط والجزاء أعنى قوله اذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق فهناك يتحقق شخوص أبصار الذين كفروا فان قيل الشرط هو مجموع فتح يأجوج ومأجوج واقتراب الوعد الحق والجزاء هو شخوص أبصار الذين كفروا وذلك غير جائز لان الشرط انما يحصل فى آخر أيام الدنيا والجزاء انما يحصل فى يوم القيامة والشرط والجزاء لابد وأن يكونا متقاربين قلنا التفاوت القليل يجرى مجرى المعدوم وأما على التأويلات الباقية فالمعنى ان امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة (المسئلة الثانية) قوله حتى اذا فتحت المعنى فتح سد يأجوج ومأجوج فحذف المضاف وأدخلت علامة التأنيث فى فتحت لما حذف المضاف لان يأجوج ومأجوج مؤنثان بمنزلة القبيلتين وقيل حتى اذا فتحت جهة يأجوج (المسئلة الثالثة) هما قبيلتان من جنس الانس يقال الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السد (المسئلة الرابعة) قيل السد يفتحه الله تعالى ابتداء وقيل بل اذا جعل الله تعالى الارض دكا زالت الصلابة عن أجزاء الارض عند ذلك ينفتح السد أما قوله تعالى وهم من كل حدب ينسلون خشوعى أثناء الكلام والمعنى اذا فتحت يأجوج وانقرب الوعد الحق شخصت أبصار الذين كفروا والحدب النشز من الارض ومنه حدبة الارض ومنه حدبة الظهر وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما من كل جدث ينسلون اعتبارا بقوله فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون وقرئ بضم السين ونسل وعسل أسرع ثم فيه قولان قال أكثر المفسرين انه كناية عن يأجوج ومأجوج وقال مجاهد هو كناية عن جميع الكافرين أى يخرجون من قبورهم من كل موضع فيحشرون الى موقف الحساب والاول هو الوجه والا لتفكك النظم وان يأجوج ومأجوج اذا كثروا على ما روى فى الخبر فلا بد من أن ينتشروا فيظهروا قهرا لهم على الناس من كل موضع مرتفع أما قوله تعالى واقترب الوعد الحق فلا شبهة أن الوعد المذكور هو يوم القيامة أما قوله فاذا هى فاعلم أن اذا ههنا للفاجاة فسمى الموعد وعدا تجوزا وهى تقع فى المجازاة سادة مسد الفاء كقوله اذا هم يقنطون فاذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل اذا هى شاخصة أو فهى شاخصة كان سديدا أما الفظة هى فقد ذكر النحويون فيها ثلاثة أوجه (أحدها) أن تكون كناية عن الابصار والمعنى فاذا أبصار الذين كفروا شاخصة أبصارهم كنى عن الابصار ثم أظهر (والثانى) ان تكون عمادا ويسلم فى موضعها هو فيكون كقوله انه أنا الله ومثله فانها لا تعمى الابصار وجاز التأنيث لان الابصار مؤنثة وجاز التذكير للعماد

مضى فان الله تعالى قد أحسن الينا وجمعنا بخير ولا تعلمهم بما أعلمتك قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وعن وهب انه لم يتعرف اليه بل قال له أنا أخوك بدل أخيك المفقود ومعنى فلا تبتئس لا تحزن بما كنت تلقى منهم من الحسد والاذى فقد أمنتهم وروى أنه قال له فأنا لا أفارقك قال قد علمت باغتمام والدى بى فاذا حبستك ازداد غمه ولا سبيل الى ذلك الا أن أنسبك الى ما لا يحمل قال لا أبالى فافعل ما بدا لك قال أدس صاعى فى رحلك ثم أنادى عليك بأنك سرقته ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك معهم قال افعل (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية) أى المشربة قيل كانت مشربة جعلت صاعا يكال به وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحبوب وكانت من فضة وقيل من ذهب وقيل من فضة مموهة بالذهب وقيل كانت اناء مستطيلة تشبه المكوك الفارسى الذى يلتقى طرفاه يستعمله الاعاجم وقيل كانت مرصعة بالجواهر (فى رحل أخيه) بنيامين وقرئ وجعل على حذف وهو

جواب لما تقديره أطلقوا هلم حتى انطلقوا (ثم أذن مؤذن) نادى منادا (أيتها العير) وهى الابل التى عليها الاحمال لانها تعير أى تذهب وتجئ وقيل هى قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وأصلها افعل مثل سقف وسقف فعمل به ما فعل ببيض وغيد والمراد

أصحابها كما في قوله عليه السلام يا خيل الله اركبي روى انهم ارتحلوا ومعهم يوسف حتى انطلقوا منزلا وقيل خرجوا من المعارة ثم أمر بهم فأدركوا ونودوا (انكم لسارقون) هذا الخطاب ان كان بأمر يوسف فلعله أراد بالسرقة أخذهم له من أبيه ودخول بنيامين فيه بطريق التغليب والا فهو من قبل المؤذن بناء على زعمه والأول هو الأظهر الأوفق ١٥٥ للسياق وقرأ ابن عامر والكسائي سارقون بلا لام (قالوا)

وهو قول الفراء وقال سيبويه الضمير للقصة يعني فاذا القصة شاخصة يعني ان أبصار الذين كفروا تشخص عند ذلك ومعنى الكلام ان القيامة اذا قامت شخصت أبصار هؤلاء من شدة الأهوال فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم ومن توقع بأخا قونه ويقولون يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا يعني في الدنيا حيث كذبناه وقلنا انه غير كائن بل كنا ظالمين أنفسنا بتلك الغفلة وبتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وعبادة الأوثان واعلم أنه لا بد قبل قوله يا ويلنا من حذف والتقدير يقولون يا ويلنا ﴿قوله تعالى﴾ ﴿انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون﴾ اعلم أن قوله انكم خطاب لمشركي مكة وعبدة الأوثان أما قوله تعالى وما تعبدون من دون الله روى انه عليه السلام دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما فجلس اليهم فعرض له النضر بن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفحمه ثم تلا عليهم انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم الآية فأقبل عبد الله بن الزبعرى فرآهم يتهامسون فقال فيم خوضكم فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله أما والله لو وجدته لخصمته فقد عوه فقال ابن الزبعرى أأنت قلت ذلك قال نعم قال قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة ثم روى في ذلك روايتان (احداهما) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت ولم يجب فضحك القوم فنزل قوله تعالى ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وقالوا آلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ونزل في عيسى والملائكة ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية هذا قول ابن عباس (الرواية الثانية) انه عليه السلام أجاب وقال بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك فانزل الله سبحانه ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية يعني عزيرا والمسيح والملائكة واعلم ان سؤال ابن الزبعرى ساقط من وجوه (أحدها) أن قوله انكم خطاب مشافهة وكان ذلك مع مشركي مكة وهم كانوا يعبدون الاصنام فقط (وثانيها) انه لم يقل ومن تعبدون بل قال وما تعبدون وكلمة ما لا تتناول العقلاء أما قوله تعالى والسماء وما بناها وقوله لا أعبد ما تعبدون فهو محمول على الشيء ونظيره ههنا أن يقال انكم والشيء الذي تعبدون من دون الله لكن لفظ الشيء لا يفيد العموم فلا يتوجه سؤال ابن الزبعرى (وثالثها) ان من عبد الملائكة لا يدعي انهم آلهة وقال سبحانه لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها (ورابعها) هب انه ثبت العموم لكنه مخصوص بالدلائل العقلية والسمعية في حق الملائكة والمسيح وعزير لما رأيتهم من الذنوب والمعاصي ووعد الله اياهم بكل مكرمة وهذا هو المراد من قوله سبحانه ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون (وخامسها) الجواب الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو انهم كانوا يعبدون الشياطين فان قيل الشياطين عقلاء ولفظ ما لا يتناولهم فكيف قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك فلنا كأنه عليه السلام قال لو ثبت لكم انه يتناول العقلاء فسؤالكم أيضا غير لازم من هذا الوجه وأما ما قيل انه عليه السلام سكت عند ايراد ابن الزبعرى هذا السؤال فهو خطأ لانه لا أقل من انه عليه السلام كان يتنبه لهذه الاجوبة التي ذكرها المفسرون لانه عليه السلام كان أعلم منهم باللغة وبتفسير القرآن فكيف يجوز أن تظهر هذه الاجوبة لغيره ولا يظهر شيء منها له عليه السلام فان قيل جوزوا أن يسكت عليه السلام انتظارا للبيان قلنا لما كان البيان حاصلا معه لم يجز عليه السكوت لكي لا يتوهم فيه الانقطاع عن سؤالهم ومن أجاب عن سؤال ابن الزبعرى فقال ان الله تعالى يصور له في النار ملكا على صورة من عبد وحينئذ تبقى الآية على ظاهرها واعلم أن هذا ضعيف من وجهين

من الصياغة ثم قالوا تربصا لما تقوه من قبلهم وارادوا لاعتقاد أنه لما بقي في رحلهم اتفاقا (وان جاء به) من عند نفسه مظهرا له قبل التفتيش (حمل بعير) من الطعام حملا له لا على نية تحقيق الوعد لما زعموا من امتناع وجود الشرط وعزمهم على ما يأتي في أخذه من وجد في رحله (وأنا به زعيم) كذبل أدلي به وهو قول المؤذن (قالوا تالله) الجمهور على أن التاء بدل من الواو ولذلك لا تدخل الا على

أي الاخوة (وأقبلوا عليهم) حالية من ضمير قالوا أي مقبلا عليها للدلالة على ازعاجهم مما سمعوه لما يلتهمه لهم (ماذا تفقدون) أي تعدمون تقول فقدت الشيء اذا عدمته فان ضل عنك لا يفعلك والمآل ماذا ضاع عنكم وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة وقرئ تفتقدون من افتقدته اذا وجدته نقيدا وعلى التقديرين فالعدول عما يقتضيه الظاهر من قولهم ماذا سرق منكم لبيان كمال نزاهتهم بإظهار أنه لم يسرق منهم شيء فضلا أن يكونوهم السارقين له وانما الممكن أن يضيع منهم شيء فيسألونهم انه ماذا وفيه ارشاد لهم الى مراعاة حسن الادب والاحتراز عن المجازفة ونسبة البرآء الى ما لا خير فيه لا سيما بطريق التوكيد فلذلك غيروا كلامهم حيث (قالوا) في جوابهم (نفقد صواع الملك) ولم يقولوا سرق منا صواع أو سرق وقرئ صاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها وباهمال العين وابجامها

الجلالة المعظمة أو الرب المضاف الى الكعبة أو الرحمن فى قول ضعيف ولو قلت تالرحيم لم يجز وقيل من الباء وقيل أصل بنفسها أو أنا ما كان ففيه تعجب (لقد علمتم) علما جازما مطابقا للواقع (ما جئنا لنفسد فى الارض) أى لنسرق فانه من أعظم أنواع الافساد أو لنفسد فيها أى افساد كان عما عز أو هان فضلا عما نسبقونا اليه من السرقة ونفى المجىء للافساد وان لم يكن مستلزما لما هو مقتضى

(الاول) أن القوم لم يعبدوا تلك الصورة وانما عبدوا شيأ آخر لم يحصل معهم فى النار (الثانى) وهوان الملك لا يصير حصب جهنم فى الحقيقة وان صح أن يدخلها فان خزنة النار يدخلونها مع انهم ليسوا حصب جهنم (المسئلة الثانية) الحكمة فى أنهم قرنوا بآلهتهم أمور (أحدها) انهم لا يزالون لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة لانهم ما وقعوا فى ذلك العذاب الا بسببهم والنظر الى وجه العدو باب من العذاب (وثانيها) ان القوم قد روا انهم يشفعون لهم فى الآخرة فى دفع العذاب فاذا وجدوا الامر على عكس ما قدروا لم يكن شئ أبغض اليهم منهم (وثالثها) ان القاءها فى النار يجرى مجرى الاستهزاء بعبادها (ورابعها) قيل ما كان منها حجرا أو حديدا يحمى ويسلرق بعبادها وما كان خشبا يجعل جمرة يعذب بها صاحبها أما قوله تعالى حصب جهنم فالمراد يقذفون فى نار جهنم فشبههم بالحصباء التى يرمى بها الشئ فيلمار مى بهم كرمى الحصباء يجعلهم حصب جهنم تشبيها قال صاحب الكشاف الحصب الرمى وغرئ بسكون الصاد وصفا بالمصدر وقرئ حطب وحصب بالضاد المنقوطة مخترعا وسماعا كما سمعنا أما قوله تعالى أنتم لها واردون فانما جاز مجىء اللام فى لها لتقدمها على الفعل تقول أنت لزيد ضارب كقوله تعالى والذين هم لامانا تهم وعهدهم والذين هم لفروجهم أى أنتم فيها داخلون والمعنى أنه لا بد وأن تردوها ولا معدل لكم عن دخولها أما قوله تعالى لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها فاعلم أن قوله انكم وما تعبدون من دون الله بالاصنام أليق لدخول لفظة ما وهذا الكلام بالشياطين ألبق لقوله هؤلاء ويحتمل أن يريد الشياطين والاصنام فيغلب بأن يذكروا بعبارة العقلاء وبنيه الله تعالى على ان من يرمى الى النار لا يمكن أن يكون الها وههنا سؤال وهو ان قوله لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها لكنهم وردوها فهم ليسوا آلهة حجة وهذه الحجة اما أن يكون ذكرها لنفسه أو لغيره فان ذكرها لنفسه فلا فائدة فيه لانه كان عالما بأنها ليست آلهة وان ذكرها لغيره فان أن يذكرها لمن يصدق بنبوته أو لمن يكذب بنبوته فان ذكرها لمن صدق بنبوته فلا حاجة الى هذه الحجة لان كل من صدق بنبوته لم يقل بالهية هذه الاصنام وان ذكرها لمن كذب بنبوته فذلك المكذب لا يسلم أن تلك الآلهة يردون النار وبكذبونه فى ذلك فيكون ذكر هذه الحجة ضائعا كيف كان وأيضا فالقائلون بالهيتها لم يعتقدوا فيها كونها معبودة للعالم والا لكانوا مجانين بل اعتقدوا فيها كونها تماثيل الكواكب أو صور الشفعاء وذلك لا يمنع من دخولها فى النار وأجيب عن ذلك بأن المفسرين قالوا المعنى لو كان هؤلاء يعنى الاصنام آلهة على الحقيقة ما وردوها أى ما دخل عابدوها النار ثم انه سبحانه وصف ذلك العذاب بأمور ثلاثة (أحدها) الخلود فقال وكل فيها خالدون يعنى العابدين والمعبودين وهو تفسير لقوله انكم وما تعبدون من دون الله (وثانيها) قوله لهم فيها زفير قال الحسن الزفير هو اللهيب أى يرتفعون بسبب لهب النار حتى اذا ارتفعوا ورجوا الخروج ضربوا بمقامع الحديد فهووا الى أسفلها سبعين خريفا قال الخليل الزفير أن يملأ الرجل صدره ثم يتنفس قال أبو مسلم وقوله لهم عام لكل معذب فنقول لهم زفير من شدة ما بهم والضمير فى قوله وهم فيها لا يسمعون يرجع الى المعبودين أى لا يسمعون صراخهم وشكواهم ومعناه انهم لا يغيثونهم وشبهه سمع الله لمن حمده أى أجاب الله دعاءه (وثالثها) قوله وهم فيما لا يشتهون وفيه وجهان (أحدهما) أنه محمول على الاصنام خاصة على ما حكيناه عن أبى مسلم (والثانى) أنها محمولة على الكفار ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) ان الكفار يحشرون صما كما يحشرون عميا زيادة فى عذابهم (وثانيها) انهم لا يسمعون ما ينفعهم لانهم انما يسمعون أصوات المعذبين أو كلام من يتولى تعذيبهم من الملائكة (وثالثها) قال ابن مسعود ان الكفار يحملون فى توابيت من نار والتوابيت فى توابيت أخر فلذلك

القائم من نفى الافساد مطلقا لكنهم جعلوا المجىء الذى يترتب عليه ذلك ولو بطريق الاتفاق بمنزلة الغرض الافساد مفعولا لاجله ادعاء اظهارا لكمال قبحه عندهم وتربية لاستحالة صدوره عنهم كما فصل فى قوله تعالى ما يبدل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد الدال بظاهره على نفى المبالغة فى الظلم دون نفى الظلم فى الجملة الذى هو مقتضى المقام من أن المعنى اذا عذبت من لا يستحق التعذيب كنت ظلاما مفسرطا فى الظلم فكأنهم قالوا ان صدر عنا افساد كان مجيئنا لذلك مريدين به تقبيح حاله واظهار كمال نزاهتهم عنه يعنون انه قد شاع بينكم فى حكمتى مجيئنا ما نحن عليه وقد كانوا على غاية ما يكون من الديانة والصيانة فيما يأتون ويذرون حتى روى أنهم دخلوا مصر وأقاموا وأحلهم مكرمة لثلاثة تناول زرعا أو طعاما لاحد وكانوا مشاربين على فنون الطاعات وعلمهم بذلك أنه لا يصدر

هذا الافساد (وما كنا سارقين) أى ما كنا نوصف بالسرقة قط وانما حكموا بعلمهم ذلك لان العلم بأحوالهم الشاهدة لا يستلزم العلم بأحوالهم الغائبة وانما لم يكتفوا بنفى الامرين المذكورين بل استشهدوا بعلمهم بذلك الزاما للحجة عليهم وتحقيقا للعجب المفهوم من تاه القسم (قالوا) أى أصحاب يوسف عليه السلام (فما جزاؤه) الضمير للسواع على حذف المضاف أى فما جزاء سرقته عندكم

وفى شريعتكم (ان كنتم كاذبين) لافى دعوى البراءة عن السرقة فانهم صادقون فيها بل فيما يستلزمه ذلك من نفى كون الصواع فيهم كما يؤذن به قوله عز وجل (قالوا جزاؤه من وجد) أى أحد من وجد الصواع (فى رحله) حيث ذكر بعنوان الوجدان فى الرحل دون عنوان السرقة وان كان ذلك مستلزما لها فى اعتقادهم المبنى على قواعد ١٥٧ العادة ولذلك أجابوا بما أجابوا من الاخذ والاسترقاق سنة اغاهو جزاء السارق دون من وجد فى يده مال غيره كيفما كان فتأمل واحمل كلام كل فريق على مالا يزاحم رأيه فانه أقرب الى معنى التأكيد وأبعد من الافتراء وقوله تعالى (فهو جزاؤه) تقرير لذلك الحكم أى فأحد جزاؤه كذلك حق الضيف أن يكرم فهو حقه ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هى خبره على اقامة الظاهر مقام المضمر والاصل جزاؤه من وجد فى رحله فهو هو على أن الاول لمن والثانى للظاهر الذى وضع موضعه (كذلك) أى مثل ذلك الجزاء الاوفى (نجزى الظالمين) بالسرقة تأكيد للحكم المذكور غب تأكيد وبيان لقبح السرقة ولقد فعلوا ذلك تقبيحا بكمال براءتهم عنها وهم عما فعل بهم غافلون (فبدأ) يوسف عليه السلام (بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) بتفتيشها (قبل) تفتيش (وعاء أخيه) بنيامين

لا يسمعون شيأ والاول ضعيف لان أهل النار يسمعون كلام أهل الجنة فاذلك يستغيثون بهم على ما ذكره الله تعالى فى سورة الاعراف ﴿قوله تعالى﴾ ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴿اعلم أن من الناس من زعم ان ابن الزبعرى لما أورد ذلك السؤال على الرسول صلى الله عليه وسلم بقى ساكتا حتى أنزل الله تعالى هذه الآية جوابا عن سؤاله لان هذه الآية كالاستثناء من تلك الآية وأما من فقد بنى فساد هذا القول وذكر ان سؤاله لم يكن واردا وانه لا حاجة فى دفع سؤاله الى نزول هذه الآية واذا ثبت هذا لم يبق ههنا الا أحد أمرين (الاول) أن يقال ان عادة الله تعالى انه متى شرح عقاب الكفار أردفه بشرح ثواب الابرار فلهذا السبب ذكر هذه الآية عقيب تلك الآية فهى عامة فى حق كل المؤمنين (الثانى) ان هذه الآية نزلت فى تلك الواقعة لتكون كالتأكيد فى دفع سؤال ابن الزبعرى ثم من قال العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وهو الحق أجراها على عمومها فتكون الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام داخلين فيها الا أن الآية مختصة بهم ومن قال العبرة بخصوص السبب خصص قوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى بمن سبقت لهم منا الحسنى فقال صاحب الكشاف الحسنى الخصلة المفضلة والحسنى تأنيث الاحسن وهى اما السعادة واما البشرى بالثواب واما التوفيق للطاعة والحاصل ان مثبتى العفو حملوا الحسنى على وعد العفو ومنكرى العفو حملوه على وعد الثواب ثم انه سبحانه وتعالى شرح من أحوال ثوابهم أمورا خمسة (أحدها) قوله أولئك عنها مبعدون فقال أهل العفو عنه أولئك عنها مخرجون واحتجوا عليه بوجهين (الاول) قوله وان منكم الا واردها أثبت الورود وهو الدخول فدل على أن هذا الابعاد هو الاخراج (الثانى) ان ابعاد الشئ عن الشئ لا يصح الا اذا كانا متقاربين لانهما لو كانا متباعدين استحال ابعاد أحدهما عن الآخر لان تحصيل الحاصل محال واحتج القاضى عبد الجبار على فساد هذا القول الاول بامور (أحدها) أن قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى يقتضى ان الوعد بثوابهم قد تقدم فى الدنيا وليس هذا حال من يخرج من النار لوضوح ذلك (وثانيها) أنه تعالى قال أولئك عنها مبعدون وكيف يدخل فى ذلك من وقع فيها (وثالثها) قوله تعالى لا يسمعون حسيسها وقوله لا يحزنهم الفزع الاكبر يتمسك من ذلك (والجواب) عن الاول لانسلم أن المراد من قوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى هو أن الوعد بثوابهم قد تقدم ولم لا يجوز أن يكون المراد من الحسنى تقدم الوعد بالعفو سلمنا ان المراد من الحسنى تقدم الوعد بالثواب لكن لم قلتم ان الوعد بالثواب لا يليق بحال من يخرج من النار فان عندنا المحابطة باطلة ويجوز الجمع بين استحقاق الثواب والعقاب (وعن الثانى) انا بينا ان قوله أولئك عنها مبعدون لا يمكن اجراؤه على ظاهره الا فى حق من كان فى النار (وعن الثالث) أن قوله لا يسمعون حسيسها مخصوص بما بعد الخروج أما قوله لا يحزنهم الفزع الاكبر فالفزع الاكبر هو عذاب الكفار وهذا بطريق المفهوم يقتضى أنهم يحزنهم الفزع الاصغر فان لم يدل عليه فلا أقل من أن لا يدل على ثبوته ولا على عدمه ﴿الوجه الثانى فى تفسير قوله أولئك عنها مبعدون﴾ أن المراد الذين سبقت لهم منا الحسنى لا يدخلون النار ولا يمرون بها البتة وعلى هذا القول بطل قول من يقول ان جميع الناس يردون النار ثم يخرجون الى الجنة لان هذه الآية مانعة منه وحينئذ يجب التوفيق بينه وبين قوله وان منكم الا واردها وقد تقدم ﴿الصفة الثانية﴾ قوله تعالى لا يسمعون حسيسها والحسيس الصوت الذى يحس وفيه سؤالان (الاول) أى وجه فى أن لا يسمع وا حسيسها من البشارة ولو

فى الجملة روى أنه لما بلغت النوبة الى وعائه قال ما ظن هذا أخذ شيأ فقالوا والله لا نتركك حتى ننظر فى رحله فانه أطيب لنفسك وأنفسنا (ثم استخرجها) أى السقاية أو الصواع فانه يذكر ويؤنث (من وعاء أخيه) لم يقل منه على رجع الضمير الى الوعاء أو من وعائه على رجعه الى أخيه قصدا الى زيادة كشف وبيان وقرئ بضم الواو وبقلبها همزة كما فى الشاح فى وشاح (كذلك) نصب على

المصدر وما والكاف مقحمة لمجرد المبالغة في المشار اليه وكذا ما في ذلك من معنى البعد أي مثل ذلك الكيد العجيب وهو عبارة عن ارشاد الاخوة الى الافتراء المذكور بأجوائهم على ألسنتهم وبحملهم على مواصفة المستفتين من حيث لم يحتسبوا فمعنى قوله عز وجل (كدنا ليوسف) صنعناه ودبرنا الاجل تحصيل ما غرضه من المقدمات التي رتبها من دس الدواعي وما يليها فاللام ليست كما في قوله

فيكيدوا لك كيدا فانها داخلة على المتضرر على ما هو الاستعمال الشائع وقوله تعالى (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه لا تفسير وبيان له كما قيل كأنه قيل لماذا فعل ذلك فقيل لانه لم يكن ليأخذ أخاه عما فعله له في دين الملك في أمر السارق أي في سلطانه قاله ابن عباس أو في حكمه وقضائه قاله قتادة الا به لان جزاء السارق في دينه اما كان ضربه وتغريمه ضعف ما أخذ دون الاسترقاق والاستعباد كما هو شريعة يعقوب عليه السلام فلم يكن يتمكن مما صنعه من أخذ أخيه بالسرقة التي نسبوها اليه في حال من الاحوال (الا ان يشاء الله) أي الا حال مشيئته التي هي عبارة عن ارادته لذلك الكيد أو الاحال مشيئته للاخذ ذلك الوجه ويجوز أن يكون الكيد عبارة عنه وعن مباديه المؤدية اليه جميعا من ارشاد يوسف وقومه الى مصادرهم من الافعال والاقوال حسبما شرح مرة بالكن لا لي أن يكون القصر المستفاد من تقديم المجرور مأخوذا بالنسبة الى غيره مطلقا على معنى مثل ذلك الكيد كدنا لا كيدا آخر اذ لا معنى لتعليل عجز يوسف عن أخذ أخيه في دين الملك في شأن السارق قطعا اذ لا علاقة بين مطلق الكيد ودين الملك في أمر السارق أصلا بل بالنسبة الى بعضه على معنى مثل ذلك الكيد البالغ الى هذا الحد كدنا له ولم نكتف ببعض

سموه لم يتغير حالهم قلنا المراد تأكيد بعدهم عنها لازم من لم يدخلها وقرب منها قد يسمع حسيسها (السؤال الثاني) أليس ان أهل الجنة يرون أهل النار فكيف لا يسمعون حسيس النار (الجواب) اذا حملناه على التأكيد زال هذا السؤال (الصفة الثالثة) قوله وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون والشهوة طلب النفس للذة يعني تعتريهم شهوة بعد شهوة للنفوس شهوة وللارواح شهوة وقال الجنيد سبقت العناية في البداية فظهرت الولاية في النهاية (الصفة الرابعة) قوله لا يحزنهم الفزع الاكبر وفيه وجوه (أحدها) انها النفخة الاخيرة لقوله تعالى ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الارض (وثانيها) انها الموت والمراد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بدليل ان الله تعالى يجيء بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيقول لاهل الدارين أتعرفون هذا فيقولون لا فيقول هذا الموت ثم يذبحه ثم ينادي يا أهل الجنة خلود ولا موت أبدا وكذلك لاهل النار واحتج هذا القائل بأن قوله لا يحزنهم الفزع الاكبر انما ذكر بعد قوله وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون فلابد وأن يكون لاحدهما تعلق بالآخر والفزع الاكبر الذي هو يأس أهل الخلود هو الموت (وثالثها) قال سعيد بن جبير هو اطباق النار على أهلها فيفزعون لذلك فزعة عظيمة قال القاضي عبد الجبار الاولى في ذلك انه الفزع من النار عند مشاهدتها لانه لا فزع أكبر من ذلك فاذا بين تعالى ان ذلك لا يحزنهم فقد صح ان المؤمن آمن من أهوال يوم القيامة وهذا ضعيف لان عذاب النار على مراتب فعذاب الكفار أشده وعذاب الفساق واذا كانت مراتب التعذيب بالنار متفاوتة كانت مراتب الفزع منها متفاوتة فلا يلزم من نفي الفزع الاكبر نفي الفزع من النار (الصفة الخامسة) قوله وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون قال الضحاك هم الحفظة الذين كتبوا أعمالهم وأقوالهم ويقولون لهم مبشرين هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴿ قوله تعالى ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون ان في هذا لبلاغا لقوم عابدين وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ﴾ اعلم أن التقدير لا يحزنهم الفزع الاكبر يوم نطوي السماء وتتلقاهم الملائكة يوم نطوي السماء وقرئ يوم تطوى السماء على البناء للمفعول والسجل يوزن المثل والسجل يوزن الدلو وروي فيه الكسر وفي السجل قولان (أحدهما) انه اسم للطومار الذي يكتب فيه والكتاب أصله المصدر كالبناء ثم وقع على المكتوب ومعنى جمع فمعناه للكتوبات أي لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة فيكون معنى طي السجل للكتاب كون السجل ساترا للملك الكتابة ومحفيا لها لان الطي ضد النشر الذي يكشف والمعنى نطوي السماء كما يطوى الطومار الذي يكتب فيه ﴿ (القول الثاني) أنه ليس اسما للطومار ثم قال ابن عباس رضي الله عنهما السجل اسم ملك يطوى كتب بني آدم اذا رفعت اليه وهو مروي عن علي عليه السلام ورويي أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما انه اسم كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا بعيد لان كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا معروفين وليس فيهم من سمي بهذا وقال الزجاج هو الرجل بلغة الحبشة وعلى هذه الوجوه فهو على نحو ما يقال كطي زيد الكتاب واللام هو للكتاب زائدة كما في قوله ردف لكم واذا قلنا المراد بالسجل الطومار فالمصدر وهو الطي مضاف الى المفعول والفاعل محذوف والتقدير كطي الطاوي السجل وهذا الاخير هو قول الاكثرين أما قوله تعالى كما بدأنا أول خلق نعيده ففيه مسائل ﴿ (المسألة الاولى) قال الفراء انقطع الكلام عند قوله للكتاب ثم ابتدأ فقال كما بدأنا أول خلق نعيده على ما قال تعالى وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون وعقيبه يقول يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب فوصف اليوم بذلك ثم وصفه بوصف آخر فقال

فقال كابد أنا أول خلق نعيده (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف رحمه الله أول خلق مفعول نعيد الذي يفسره نعيده والكاف مكفوفة بما والمعنى نعيد أول الخلق كما بدأنا تشبيه للاعادة بالابتداء فان الت ما بال الخلق منكرا قلت هو كقولك أول رجل جاءني زيد ترديد أول الرجال والكلك وحدته ونكرته ارادة نفي مثلهم في رجلا رجلا فكذلك معنى أول خلق أول الخلائق لان الخلق مصدر لا يجمع (المسئلة الثالثة) اختلفوا في كيفية الاعادة فمنهم من قال ان الله تعالى يفرق أجزاء الاجسام ولا يعدمها ثم انه يعيد تركيبها فذلك هو الاعادة ومنهم من قال انه تعالى يعدمها بالكلية ثم انه يوجدها بعينها مرة أخرى وهذه الآية دالة على هذا الوجه لانه سبحانه شبه الاعادة بالابتداء ولما كان الابتداء ليس عبارة عن تركيب الاجزاء المتفرقة بل عن الوجود بعد العدم وجب أن يكون الحال في الاعادة كذلك واحتج القائلون بالمذهب الاول بقوله تعالى والسموات مطويات بيمينه فدل هذا على ان السموات حال كونها مطوية تكون موجودة وبقوله تعالى يوم نجعل الارض غير الارض وهذا يدل على أن أجزاء الارض باقية لكنها جعلت غير الارض أما قوله تعالى وعدا علينا فهو مصدر مؤكد لان قوله نعيده عدة للاعادة (الثاني) أن يكون المراد حقا علينا بسبب الاخبار عن ذلك وتعلق العلم بوقوعه مع أن وقوع ما علم الله وقوعه واجب ثم انه تعالى حقق ذلك بقوله انا كنا فاعلين أي سنفعل ذلك لا محالة وهو تأكيد لما ذكره من الوعد أما قوله تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة بضم الزاي والباقون بفتحها يعني المزبور كالحلوب والركوب يقال زبرت الكتاب اي كتبته والزبور بضم الزاي جمع زبر كقشر وقشور بمعنى القراءتين واحد لان الزبر هو الكتاب (المسئلة الثانية) في الزبور والذكر وجوه (أحدها) وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد والكلبي ومقاتل وابن زيد الزبور هو الكتب المنزلة والذكر الكتاب الذي هو أم الكتاب في السماء لان فيها كتابة كل ما سيكون اعتبارا للملائكة وكتب الانبياء عليهم السلام من ذلك الكتاب تنسخ (وثانيها) الزبور هو القرآن والذكر هو التوراة وهو قول قتادة والشعبي (وثالثها) الزبور زبور داود عليه السلام والذكر هو الذي يروى عنه عليه السلام قال كان الله تعالى ولم يكن معه شئ ثم خلق الذكر وهو عندي فيه وجه رابع وهو أن المراد بالذكر العلم أي كتبنا ذلك في الزبور بعد أن كنا عالمين به لا يجوز السهو والنسيان علينا فان من كتب شيأ ولم يتذكره ولم يعلمه يجوز السهو عليه فانه لا يعتمد عليه أما من لم يجز عليه السهو والخطأ فاذا التزم شيأ كان ذلك الشئ واجب الوقوع أما قوله تعالى أن الارض يرثها عبادي الصالحون ففيه وجوه (أحدها) الارض أرض الجنة والعباد الصالحون هم المؤمنون سيورث الجنة من كان صالحا من عباده وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وأبي العالية وهؤلاء أكدوا هذا القول بأمور (أما أولا) فقوله تعالى وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين (وأما ثانيا) فلانها الارض التي يختص بها الصالحون لانها لم خلقت وغيرهم اذا حصل معهم في الجنة فعلى وجه التبع فأما أرض الدنيا فلانها الصالح وغير الصالح (وأما ثالثا) فلان هذه الارض مذكورة عقيب الاعادة وهذه الارض التي هذا وصفها لا تكون الا الجنة (وأما رابعا) فقد روى في الخبر انها أرض الجنة فانها بيضاء نقية (وثانيها) أن المراد من الارض أرض الدنيا فان سبحانه وتعالى سيورثها المؤمنين في الدنيا وهو قول الكلبي وابن عباس في بعض الروايات ودليل هذا القول قوله سبحانه وعد الله الذين آمنوا الى قوله ليستخلفنهم في الارض وقوله تعالى قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا

فنال كابد أنا أول خلق نعيده (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف رحمه الله أول خلق مفعول نعيد الذي يفسره نعيده والكاف مكفوفة بما والمعنى نعيد أول الخلق كما بدأنا تشبيه للاعادة بالابتداء فان الت ما بال الخلق منكرا قلت هو كقولك أول رجل جاءني زيد ترديد أول الرجال والكلك وحدته ونكرته ارادة نفي مثلهم في رجلا رجلا فكذلك معنى أول خلق أول الخلائق لان الخلق مصدر لا يجمع (المسئلة الثالثة) اختلفوا في كيفية الاعادة فمنهم من قال ان الله تعالى يفرق أجزاء الاجسام ولا يعدمها ثم انه يعيد تركيبها فذلك هو الاعادة ومنهم من قال انه تعالى يعدمها بالكلية ثم انه يوجدها بعينها مرة أخرى وهذه الآية دالة على هذا الوجه لانه سبحانه شبه الاعادة بالابتداء ولما كان الابتداء ليس عبارة عن تركيب الاجزاء المتفرقة بل عن الوجود بعد العدم وجب أن يكون الحال في الاعادة كذلك واحتج القائلون بالمذهب الاول بقوله تعالى والسموات مطويات بيمينه فدل هذا على ان السموات حال كونها مطوية تكون موجودة وبقوله تعالى يوم نجعل الارض غير الارض وهذا يدل على أن أجزاء الارض باقية لكنها جعلت غير الارض أما قوله تعالى وعدا علينا فهو مصدر مؤكد لان قوله نعيده عدة للاعادة (الثاني) أن يكون المراد حقا علينا بسبب الاخبار عن ذلك وتعلق العلم بوقوعه مع أن وقوع ما علم الله وقوعه واجب ثم انه تعالى حقق ذلك بقوله انا كنا فاعلين أي سنفعل ذلك لا محالة وهو تأكيد لما ذكره من الوعد أما قوله تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة بضم الزاي والباقون بفتحها يعني المزبور كالحلوب والركوب يقال زبرت الكتاب اي كتبته والزبور بضم الزاي جمع زبر كقشر وقشور بمعنى القراءتين واحد لان الزبر هو الكتاب (المسئلة الثانية) في الزبور والذكر وجوه (أحدها) وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد والكلبي ومقاتل وابن زيد الزبور هو الكتب المنزلة والذكر الكتاب الذي هو أم الكتاب في السماء لان فيها كتابة كل ما سيكون اعتبارا للملائكة وكتب الانبياء عليهم السلام من ذلك الكتاب تنسخ (وثانيها) الزبور هو القرآن والذكر هو التوراة وهو قول قتادة والشعبي (وثالثها) الزبور زبور داود عليه السلام والذكر هو الذي يروى عنه عليه السلام قال كان الله تعالى ولم يكن معه شئ ثم خلق الذكر وهو عندي فيه وجه رابع وهو أن المراد بالذكر العلم أي كتبنا ذلك في الزبور بعد أن كنا عالمين به لا يجوز السهو والنسيان علينا فان من كتب شيأ ولم يتذكره ولم يعلمه يجوز السهو عليه فانه لا يعتمد عليه أما من لم يجز عليه السهو والخطأ فاذا التزم شيأ كان ذلك الشئ واجب الوقوع أما قوله تعالى أن الارض يرثها عبادي الصالحون ففيه وجوه (أحدها) الارض أرض الجنة والعباد الصالحون هم المؤمنون سيورث الجنة من كان صالحا من عباده وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وأبي العالية وهؤلاء أكدوا هذا القول بأمور (أما أولا) فقوله تعالى وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين (وأما ثانيا) فلانها الارض التي يختص بها الصالحون لانها لم خلقت وغيرهم اذا حصل معهم في الجنة فعلى وجه التبع فأما أرض الدنيا فلانها الصالح وغير الصالح (وأما ثالثا) فلان هذه الارض مذكورة عقيب الاعادة وهذه الارض التي هذا وصفها لا تكون الا الجنة (وأما رابعا) فقد روى في الخبر انها أرض الجنة فانها بيضاء نقية (وثانيها) أن المراد من الارض أرض الدنيا فان سبحانه وتعالى سيورثها المؤمنين في الدنيا وهو قول الكلبي وابن عباس في بعض الروايات ودليل هذا القول قوله سبحانه وعد الله الذين آمنوا الى قوله ليستخلفنهم في الارض وقوله تعالى قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا

الصلاة والسلام مما يشعر بعدم الحاجة الى الكيد المذكور فقد بر وقد يجوز الانقطاع أي لكن أخذه بمشيئة الله تعالى وارادته في دين غير دين الملك (نرفع درجات) أي رتبا كثيرة عالية من العلم والنصر بها على المصدرية أو الظرفية أو على نزع الخافض أي الى درجات والمفعول قوله تعالى (من نشاء) أي نشاء رفعه بحسب اقتضاء الحكمة وتسديده الى المصلحة كما رفعنا يوسف عليه

من ذلك لانه لم يكن يأخذ أخاه في دين الملك به الا الحال مشيئة الله بايجاده ما يجري مجرى الجزاء السوري من الحالة التامة وهو ارشاد أخوته الى الافتاء المذكور وعلى هذا ينبغي أن يحمل القصر في تفسير من فسر قوله تعالى كذلك كدنا ليوسف بقوله علمناه اياه وأوحيناه اليه أي مثل ذلك التعليم المستتبع لما شرح مرتبا علمناه دون بعض من ذلك فقط لما وعلى كل حال فالاستثناء من أعم الاحوال كما أشير اليه ويجوز أن يكون من أعم العلل والاسباب أي لم يمكن يأخذ أخاه لعلة من العلل أو بسبب من الاسباب الا لعلة مشيئته تعالى أو الا بسبب مشيئته تعالى وأيا ما كان فهو متصل لان أخذ السارق اذا كان من سنن ذلك الملك وعقائده دينا لا سيما عند رضاه وافتائه به ليس مخالفا لدين الملك وقد قيل معنى الاستثناء الا أن يشاء الله أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك وأنت تدري أن المراد بلغته ما علمناه حينئذ فتغييره محال بالاتصال وارادة مطلق ما يتدين به أعم منه ومما يحدث تفضي الى كون الاستثناء من قبيل التعليق بالمحال اذا المقصود بيان عجز يوسف عليه السلام عن أخذ أخيه حينئذ ولم تتعلق المشيئة بالجعل المذكور اذ ذاك وارادة عجز مطلقا تؤدي الى خلاف المراد فان استثناء حال المشيئة المذكورة من أحوال عجزه عليه

صيغة الاستقبال للاشعار بان ذلك سنة مستمرة غير مختصة بهذه المادة والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب (وفوق كل ذي علم) من أولئك المرفوعين (عليم) لا يبالغون شأوه واعلم أنه ان جعل التكيد عبارة عن المعنيين الاولين فالمراد برفع يوسف عليه السلام ما اعتبر فيه بالشرطية أو الشطر بقوله من ١٦٠ ارشاده عليه السلام الى دس الصواع في رحل أخيه وما يتفرع عليه من المقدمات

ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده (وثالثها) هي الارض المقدسة يرثها الصالحون ودليله قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها تم بالآخرة يورثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم عند نزول عيسى بن مريم عليه السلام أما قوله تعالى ان في هذا لبلاغا لقوم عابدين فقوله هذا اشارة الى المذكور في هذه السورة من الاخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة والبلاغ الكفاية وما تبلغ به البغية وقيل في العابدين انهم العالمون وقيل بل العاملون والاولى انهم الجامعون بين الامرين لان العلم كالشجر والعمل كالثمر والشجر بدون الثمر غير مفيد والثمر بدون الشجر غير كائن أما قوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ انه عليه السلام كان رحمة في الدين وفي الدنيا أما في الدين فلانه عليه السلام بعث والناس في جاهلية وضلالة واهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم فبعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم حين لم يكن لطالب الحق سبيل الى الفوز والثواب فدعاهم الى الحق وبين لهم سبيل الثواب وشرع لهم الاحكام وميز الحلال من الحرام ثم انما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق فلا يركن الى التقليد ولا الى العناد والاستكبار وكان التوفيق قرينا له قال الله تعالى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء الى قوله وهو عليهم عمى وأما في الدنيا فلانهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب وفصروا بركته * فان قيل كيف كان رحمة وقد جاء بالسيف واستباحة الاموال * قلنا الجواب من وجوه (أحدها) انما جاء بالسيف لمن استكبر وعاند ولم يتفكر ولم يتدبر وهو من أوصاف الله الرحمن الرحيم ثم هو منتقم من العصاة وقال وأنزلنا من السماء ماء مباركا ثم قد يكون سببا للفساد (وثانيها) ان كل نبي قبل نبينا كان اذا كذبه قومه أهلك الله المكذبين بالخسف والمسخ والغرق والله تعالى أخر عذاب من كذب رسولنا الى الموت أو الى القيامة قال تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم لا يقال أليس انه تعالى قال قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم وقال تعالى ليعذب الله المنافقين والمنافقات لانا نقول تخصيص العام لا يقدح فيه (وثالثها) أنه عليه السلام كان في نهاية حسن الخلق قال تعالى وانك لعلى خلق عظيم وقال أبو هريرة رضي الله عنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادع على المشركين قال انما بعثت رحمة ولم أبعث عذابا وقال في رواية حذيفة انما أنا شاهر أغضب كما يغضب البشر فأعمل رجل سبته أو لعنته فاجعلها اللهم عليه صلاة يوم القيامة (ورابعها) قال عبد الرحمن بن زيد الآية للعالمين يعني المؤمنين خاصة قال الامام أبو القاسم الانصاري والتولان برجحان الاولى منهي واحد لما بينا أنه كان رحمة للكل لو تدبروا في آيات الله وآثار رسوله ولما من أعرض واستكبر فانما وقع في المحنة من قبل نفسه كما قال وهو عليهم عمى ﴿المسئلة الثانية﴾ قالت المعتزلة لو كان الله تعالى أراد من الكافرين الكفر ولم يرد منهم القبول من الرسول بل ما أراد منهم الا الرد عليه وخالق ذلك فيهم ولم يخلقهم الا لذلك كانوا قوله أهل السنة لو وجب أن يكون ارساله نقمة وعذابا عليهم لا رحمة وذلك على خلاف هذا النص لا يقال ان رسالته عليه السلام رحمة للكفار من حيث لم يعجل عذابهم في الدنيا كما عجل عذاب سائر الامم لانا نقول ان كونه رحمة للجميع على حد واحد وما ذكرتموه للكفار فهو حاصل للمؤمنين أيضا فاذا وجب أن يكون رحمة للكافرين من الوجه الذي صار رحمة للمؤمنين وأيضا فان الذي ذكروه من نعم الدنيا كانت حاصلة للكفار قبل بعثته صلى الله عليه وسلم كما وصلوا بعده بل كانت نعمهم في الدنيا قبل بعثته أعظم لان بعد بعثته نزل بهم الغم والخوف منهم أمر بالجهاد الذي فني أكثرهم فيه فلا يجوز أن يكون هذا هو المراد (والجواب) أن نقول لما علم الله سبحانه وتعالى ان أبا لهب لا يؤمن البتة وأخبر عنه أنه لا يؤمن حكمنا أمره اياه بالايمان

امرا

على طمع منه فان ذلك الى الله

هو مرجل وجودا وعلما والتعرض لوصف العلم لتعيين جهة الفوقية وفي صيغة المبالغة مع التنكير والالتفات الى الغيبة من الدلالة على فخامة شأنه عز وعلا وجلالة مقداره علما لا يخفى وأما ان جعل عبارة عن التعليم المستتبع للافتاء المذكور فالرفع

عبارة عن ذلك التعليم والافتاء وان لم يكن داخلا تحت قدرته عليه السلام لكنه كان داخلا تحت علمه بواسطة الوحي والتعليم والمعنى مثل ذلك التعليم البالغ الى هذا الحد علمناه ولم نقتصر على تعليم ما عدا الافتاء الذي سيصدر عن اخوته اذ لم يكن معتكفا من أخذ أمتعة الاندلاك فقوله نرفع درجات من نشاء توضيح لقوله كذلك وبيان لان ذلك من باب الرفع ١٦١٠ الى الدرجات العالية من العلم ومدح ليوسف برفعه اليها وقوله وفوق كل ذي علم عليم تذييل له أي نرفع درجات عالية من العلم من نشاء رفعه وفوق كل منهم عليم هو أعلى درجة قال ابن عباس رضي الله عنهما فوق كل عالم عالم الى أن ينتهي العلم الى الله تعالى والمعنى ان اخوة يوسف كانوا علماء الا أن يوسف عليه السلام أفضل منهم وقرئ درجات من نشاء بالاضافة والاول أنسب بالتذييل حيث نسب فيه الرفع الى من نسب اليه الفوقية لا الى درجته ويجوز ان يكون العليم في هذا التفسير أيضا عبارة عن الله عز وجل أي وفوق كل من أولئك المرفوعين عليم يرفع كلا منهم الى درجته اللائقة به والله تعالى أعلم

(قالوا ان يسرق) يعنون بنيامين (فقد سرق أخ له من قبل) يريدون به يوسف عليه السلام وما جرى عليه من جهة عمته على ما قيل من انها كانت تحضنه فلما شب أراد يعقوب عليه السلام انتزاعه منها وكانت لا تصبر عنه ساعة وكانت لها منطقة ورثتها من أبيها اسحق عليه السلام فاحتالت لاستبقاء يوسف عليه السلام فعمدت الى المنطقة فحزمتها على من تحت ثيابه ثم قالت فقدت منطقة اسحق عليه السلام فانظروا من أخذها فوجدوها محزومة على يوسف فقالت انه لي سلم فعل به ما شاء فخلاه يعقوب عليه السلام عندها حتى ماتت وقيل كان أخذ في صباه صنما لابي أمه فكسره وألقاه في الجيف وقيل دخل كنيسة

أمر ايقاب علمه بجهلا وخبره الصدق كذبا وذلك محال فكان قد أمره بالمحال وان كانت المشقة مع هذا القول رحمة فلم لا يجوز أن يقال المشقة رحمة مع انه خلق الكفر في الكافر ولان قدرة الكافر ان لم تصلح الا للكفر فقط فالسؤال عليهم لازم وان كانت صالحة للضدين توقف الترجيح على مرجح من قبل الله تعالى فطعا للتسلسل وحينئذ يعود الالزام ثم نقول لم لا يجوز أن يكون رحمة للكافر بمعنى تأخير عذاب الاستئصال عنه قوله أولا لما كان رحمة للجميع على حد واحد وجب أن يكون رحمة للكفار من الوجه الذي كان رحمة للمؤمنين * قلنا ليس في الآية أنه عليه السلام رحمة للكل باعتبار واحد أو باعتبارين مختلفين فدعوالك يكون الوجه واحدا فكيف قوله نعم الدنيا كانت حالة للكفار من قبل * قلنا نعم ولكنه عليه السلام لكونه رحمة للمؤمنين لما بعث حصل الخوف للكفار من نزول العذاب فلما ارتفع ذلك عنهم بسبب حضوره كان ذلك رحمة في حق الكفار (المسئلة الثالثة) تمسكوا بهذه الآية في أنه أفضل من الملائكة قالوا لان الملائكة من العالمين فوجب بحكم هذه الآية أن يكون عليه السلام رحمة للملائكة فوجب أن يكون أفضل منهم (والجواب) أنه معارض بقوله تعالى في حق الملائكة ويستغفرون للذين آمنوا وذلك رحمة منهم في حق المؤمنين والرسول عليه السلام داخل في المؤمنين وكذا قوله تعالى ان الله وملائكته يصلون على النبي * قوله تعالى * قل انما يوحى الي أنما الهكم اله واحد ذهل أنتم مسلمون فان تولوا فقل آذنتكم على سواء وان أدري أقريب أم بعيد ما توعدون انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون وان أدري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون * اعلم أنه تعالى لما أورد على الكفار الحجج أن لا اله سواه من الوجوه التي تقدم ذكرها بين أنه أرسل رسوله رحمة للعالمين أتبع ذلك بما يكون اعذارا وانذارا في مجاهدتهم والاقدام عليهم فقال قل انما يوحى الي وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف انما يقصر الحكم على شئ أو يقصر الشئ على حكم كقولك انما زيد قائم أو انما يقوم زيد وقد اجتمع المثالان في هذه الآية لان انما يوحى الي مع فاعله بمنزلة انما يقوم زيد وانما الهكم اله واحد بمنزلة انما زيد قائم وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على اثبات وحدانية الله تعالى وفي قوله فهل أنتم مسلمون أن الوحي الوارد على هذا الشأن يوجب أن تخلصوا التوحيد له وأن تخلصوا من نسبة الاندلاد وفيه أنه يجوز اثبات التوحيد بالسمع * فان قيل لو دلت انما على الحصر لزم أن يقال انه لم يوح الى الرسول شئ الا التوحيد ومعلوم ان ذلك فاسد * قلنا المقصود منه المبالغة أما قوله فان تولوا فقل آذنتكم على سواء فقال صاحب الكشاف آذن منقول من أذن اذا علم ولكنه كثر استعماله في الحرب يجري مجرى الانذار ومنه قوله فأذنوا بحرب من الله ورسوله اذا عرفت هذا فتقول المفسرون ذكروا فيه وجوها (أحدها) قال ابو مسلم الايذان على السواء الدعاء الى الحرب بمجاهرة لقوله تعالى فانبذ اليهم على سواء وفائدة ذلك أنه كان يجوز أن يقدر على من أنذرك من قريش أن حالهم مخالف لسائر الكفار في المجاهدة فعرفهم بذلك انهم كالكفار في ذلك (وثانيها) ان المراد فقد أعلمتكم ما هو الواجب عليكم من التوحيد وغيره على سواء فلم أفرق في الابلاغ والبيان بينكم لاني بعثت معلما والغرض منه ازاحة العذر لا الاغراء ولو اراد بنا لولا ارسلت الينا رسولا (وثالثها) على سواء على اظهار واعلان (ورابعها) على مهل والمراد اني لا أعاجلكم بالحرب الذي آذنتكم به بل أمهل وأؤخر وجاء الاسلام منكم أما قوله وان أدري أقريب أم بعيد ما توعدون ففيه وجوه (أحدها) أقريب أم بعيد ما توعدون من يوم القيامة ومن عذاب الدنيا ثم قيل نسخه قوله وانتظروا انا معكم منتظرون (وثانيها) المراد ان الذي آذنهم فيه من الحرب لا يدري هو الحق يعني منهم فان مثل هذا الخبر لا يجوز نسخه (وثالثها) المراد ان الذي

فأخذتهما الأصغران ذهب كانوا يعبدونه فدفنه (فأسرها يوسف) أى أكن الحزازة الحاصلة عما قالوا (فى نفسه) لا أنه أسرها البعض أصحابه كما فى قوله تعالى وأسروه لهم اسرارا (ولم يبده لهم) لا قولا ولا فعلا صفحا عنهم وحلما وهو تأكيد لما سبق (قال) أى فى نفسه وهو استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاخبار بالاسرار المذكور كأنه قيل فماذا قال فى نفسه فى تضاعيف ذلك الاسرار

فقيل قال (أنتم شر مكانا) أى منزلة حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البرىء وقيل بدل من أسرها والضمير للمقالة المفسرة بقوله أنتم شر مكانا (والله أعلم بما تصفون) أى عالم علما بالغا الى أقصى المراتب بأن الامر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا بل اتيانه واقتراءه علينا فالاضافة لمجرد المبالغة لا لتفضيل علمه عز وجل على علمهم كيف لا وليس لهم من ذلك من علم (قالوا) عندما شاهدوا مخايل أخذه بنيامين مستعطفين (يا أيها العزيز ان له أبا) لم يريدوا بذلك الا اخبارا بان له أبا فان ذلك معلوم مما سبق وانما أرادوا الاخبار بان له أبا (شيخا كبيرا) فى السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو علالة به يتعلل عن شقيقه الهالك (فخذ أحدنا مكانه) فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة (انا نراك من المحسنين) الينا فاتمم احسانك بهذه الشفقة أو المتعودين بالاحسان فلا تغير عادتك (قال معاذ الله) أى نعيذ بالله معاذا من (أن نأخذ) حذف الفعل وأقيم مقامه المصدر مضافا الى المفعول به بعد حذف الجار (الا من وجدنا متاعنا عنده) (بسم

قريب أم بعيد لئلا يقدر انه يتأخر كأنه تعالى أمره بأن ينذرهم بالجهاد الذى يوحى اليه أن يأتيه من بعد ولم يعرفه الوقت فلذلك أمره أن يقول انه لا يعلم قربه أم بعده وتبين بذلك ان السورة مكية وكان الامر بالجهاد بعد الهجرة (وثالثها) أن ما يوعدون به من غلبة المسلمين عليهم كائن لا محالة ولا بد أن يلحقهم بذلك الذل والصغار وان كنت لا أدرى متى يكون وذلك لان الله تعالى لم يطلعنى عليه أما قوله تعالى انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون فالمقصود منه الامر بالاخلاص وترك النفاق لانه تعالى اذا كان عالما بالضمائر وجب على العاقل أن يبالغ فى الاخلاص أما قوله تعالى وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين ففيه وجوه (أحدها) لعل تأخير العذاب عنكم (وثانيها) لعل ابهام الوقت الذى ينزل بكم العذاب فيه فتنة لكم أى بلية واختبار لكم لينرى صنعكم وهل تحدثون توبة ورجوعا عن كفركم أم لا (وثالثها) قال الحسن لعل ما أنتم فيه من الدنيا بلية لكم والفتنة البلوى والاختبار (ورابعها) لعل تأخير الجهاد فتنة لكم اذا أنتم دمتم على كفركم لان ما يؤدى الى الضرر العظيم يكون فتنة وانما قال لا أدرى لتجويز أن يؤمنوا فلا يكون تبقيتهم فتنة بل ينكشف عن نعمة ورحمة (وخامسها) أن يكون المراد وان أدرى لعل ما بينت وأعلمت وأوعدت فتنة لكم لانه زيادة فى عذابكم ان لم تؤمنوا والان المعرض عن الايمان مع البيان حالا بعد حال يكون عذابه أشد وأدامه الله تعالى بالدنيا يكون ذلك كالحجة عليه أما قوله تعالى قال رب احكم بالحق ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرئ قل رب احكم بالحق على الاكتفاء بالكسرة ورب احكم على الضم ورب أحكم على أفعل التفضيل ورب أحكم من الاحكام ﴿المسئلة الثانية﴾ رب احكم بالحق فيه وجوه (أحدها) أجر بى اقض بينى وبين قومى بالحق أى بالعذاب كأنه قال اقض بينى وبين من كذبنى بالعذاب وقال قتادة أمره الله تعالى أن يقتدى بالانبياء فى هذا الدعوة وكانوا يقولون ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق فلما جرم حكم الله تعالى عليهم بالقتل يوم بدر (وثانيها) افصل بينى وبينهم بما يظهر الحق للجميع وهو أن تنصرنى عليهم أما قوله تعالى وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ففيه وجهان (أحدهما) أى من الشرك والكفر وما تعارضون به دعوتى من الاباطيل والتكذيب كأنه سبحانه قال قل داعيا الى رب احكم بالحق وقل متوعدا للكفار وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون قرأ ابن عامر بالياء المنقوطة من تحت أى قل لاصحابك المؤمنين وربنا الرحمن المستعان على ما يصف الكفار من الاباطيل أى من العون على دفع أباطيلهم (وثانيها) كانوا يطعنون أن تكون لهم الشوكة والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وخذلهم قال القاضى انما ختم الله هذه السورة بقوله قل رب احكم بالحق لانه عليه السلام كان قد بلغ فى البيان الغاية لهم وبلغوا النهاية فى أذيته وتكذيبه فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسلية له وتعريفا أن المقصود مصلحتهم فاذا أبوا الا التمادى فى كفرهم فعليك بالانقطاع الى ربك ليحكم بينك وبينهم بالحق اما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره وانما ينبغى أن يؤخر ذلك فان أمرهم وان تأخر فما هو كائن قريب وما روى انه عليه السلام كان يقول ذلك فى حروبه كالدلالة على انه تعالى أمره أن يقول هذا القول كالاستعجال للامر بجهادهم وبالله التوفيق وصلاته على خير خلقه محمد النبى وآله وصحبه وسلم تسليما آمين

﴿سورة الحج سبعون وست آيات وهى مكية الا ثلاث آيات هذان خصمان الى قوله صراط الحميد﴾

لان أخذ ماله افضاء بقضية فتواكم فليس لنا الاخلال بموجبها وايثار صيغة التكلم مع الغير مع كون الخطاب من جانب أخوته على التوحيد من باب السلوك الى سنن الملوك أو للاشعار بأن الاخذ والاعطاء ليس مما يستبد به بل هو منوط بآرائه أولى الحل والعقد وايثار

من وجدنا متاعنا عنده دون من سرق متاعنا لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب في الكلام مع غمام المرام فانهم لا يحملون وجدان الصواع في الرحل على محمل غير السرقة (انا اذا) أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه (لظالمون) في مذهبكم وما لنا ذلك وهذا المعنى هو الذي أريد بالكلام في أثناء الحوار وله معنى باطن هو أن الله عز وجل ١٦٣ انما أمر في الوحي أن آخذ بنيامين لمصالح

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ اعلم أنه تعالى أمر الناس بالتقوى قد دخل فيه أن يتقي كل محرم ويتقي ترك كل واجب وانما دخل فيه الامران لان المتقي انما يتقي ما يخافه من عذاب الله تعالى فيدع لاجله المحرم ويفعل لاجله الواجب ولا يكاد يدخل فيه التوافل لان المكلف لا يخاف بتركها العذاب وانما يرجو بفعلها الثواب فاذا قال اتقوا ربكم فالمراد اتقوا عذاب ربكم أما قوله ان زلزلة الساعة شيء عظيم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) الزلزلة شدة حركة الشيء قال صاحب الكشاف ولا تخلو الساعة من أن تكون على تقدير ألفاعلة لها كالقاصفة التي تزلزل الاشياء على المجاز الحكمي فتكون الزلزلة مصدرا مضافا الى فاعله أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع في الظرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى بل مكر الليل والنهار وهي الزلزلة المذكورة في قوله اذا زلزلت الارض زلزالها (المسئلة الثانية) اختلفوا في وقتها فمن علقمة والشعبي ان هذه الزلزلة تكون في الدنيا وهي التي يكون معها طلوع الشمس من مغربها وقيل هي التي تكون معها الساعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الصور انه قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعقة ونفخة القيام لرب العالمين وان عند نفخة الفزع يسير الله الجبال وترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة وتكون الارض كالسفينة تضربها الامواج أو كالقنديل المعلق ترجحه الرياح وقال مقاتل وابن زيد هذا في أول يوم من أيام الآخرة واعلم أنه ليس في اللفظ دلالة على شيء من هذه الاقسام لان هذه الاضافة تصح وان كانت الزلزلة قبلها وتكون من أماراتها وأشراطها وتصح اذا كانت فيها ومعها كقولنا آيات الساعة وأمارات الساعة (المسئلة الثالثة) روى ان هاتين الآيتين نزلتا بالليل والناس يسيرون فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمع الناس حوله فقرأهما عليهم فلم يروا باكيا أكثر من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا السرج ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا القدور والناس بين باك وجالس حزين متفكر فقال عليه السلام أتدرون أي ذلك اليوم هو قالوا الله ورسوله أعلم قال ذلك يوم يقول الله لآدم عليه السلام قم فابعث بعث النار من ولدك فيقول آدم وما بعث النار يعني من كم كم فيقول الله عز وجل من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين الى النار ووحدا الى الجنة فعند ذلك يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى فكبر ذلك على المؤمنين وبكوا وقالوا فمن ينجو يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام أبشروا وسددوا وقاربوا فان معكم خليقتين ما كانتا في قوم الا كثرتاهم أجوج ومأجوج ثم قال اني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا ثم قال اني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا ثم قال اني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا وحمدوا الله ثم قال اني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة ان أهل الجنة مائة وعشرون صفا تمانون منها أمتي وما المسلمون في الكفار الا كالشامة في جنب البعير أو كالشعرة البيضاء في الثور الاسود ثم قال ويدخل من أمتي سبعون الفا الجنة بغير حساب فقال عمر سبعون ألفا قال نعم ومع كل واحد سبعون ألفا فقام عكاشة ابن محصن فقال يا رسول الله ادع الله ان يجعلني منهم فقال أنت منهم فقام رجل من الانصار فقال مثل قوله فقال سبقك بها عكاشة فخاض الناس في السبعين ألفا فقال بعضهم هم الذين ولدوا على الاسلام وقال بعضهم هم الذين آمنوا وجاهدوا ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالوا فقال هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون (المسئلة

عليها الله في ذلك فلو أخذت غيره كنت ظالما وعاملا بخلاف الوحي (فلما استيأسوا منه) أي يئسوا من يوسف وأجابته لهم أشد يأس بدلالة صيغة الاستفعال وانما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس لما شاهدوه ومن عوذه بالله مما طلبوه الدال على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة وانه مما يجب أن يحترز عنه ويعاذ منه بالله عز وجل ومن تسميته ظلما بقوله انا اذا لظالمون (خلصوا) اعتزلوا وانفردوا عن الناس (نجيا) أي ذوي نجوى على أن يكون بمعنى النجوى والتناجي أو فوجا نجيا على أن يكون بمعنى المناجي كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى وقربناه نجيا ويجوز أن يقال هم نجي كما يقال هم صديق لانه بزنة المصادر من الزفير والزئير (قال كبيرهم) في السن وهو روبيل أو في العقل وهو يهوذا أو رئيسهم وهو شمعون (ألم تعلموا) كانهم أجموا عند التناجي على الانقلاب جملة ولم يرض

به فقال منكرا عليهم ألم تعلموا (ان أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله) عهدا توثق به وهو حلفهم بالله تعالى وكونه من الله لانه قسم وكون الحالف باسمه الكريم (ومن قبل) أي ومن قبل هذا (ما فرطتم في يوسف) قصرتم في شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم وقد قلتم وأنا له لناصحون وانا له لحافظون وما مزيدة أو مصدرية ومحل المصدر النصب عطفا على مفعول تعلموا أي ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقا

وتفريطكم السابق فى شأن يوسف عليه السلام ولاضير فى الفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف وقد جوز النصب عطفا على اسم ان والخبر فى يوسف أو من قبل على معنى ألم تعلموا ان تفريطكم السابق وقع فى شأن يوسف عليه السلام وان تفريطكم الكائن وكائنا فى شأن يوسف عليه السلام وقع من قبل ١٦٤ وفيه أن مقتضى المقام انما هو الاخبار بوقوع ذلك التفريط لا بكون تفريطهم السابق

الرابعة) انه سبحانه أمر الناس بالتقوى ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة والمعنى ان التقوى تقتضى دفع مثل هذا الضرر العظيم عن النفس ودفع الضرر عن النفس معلوم الوجوب فيلزم أن تكون التقوى واجبة (المسئلة الخامسة) احتجت المعتزلة بقوله تعالى ان زلزلة الساعة شئ عظيم وصفها بانها شئ مع انها معدومة واحتجوا أيضا بقوله تعالى ان الله على كل شئ قدير فالشئ الذى قدر الله عليه اما أن يكون موجودا أو معدوما والاول محال والا لزم كون القادر قادرا على ايجاد الموجود واذا بطل هذا ثبت ان الشئ الذى قدر الله عليه معدوم فالمعدوم شئ واحتجوا أيضا بقوله تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا أطلق اسم الشئ فى الحال على ما يصير مفعولا غدا والذى يصير مفعولا غدا يكون معدوما فى الحال فالمعدوم شئ والله أعلم (والجواب عن الاول) ان الزلزلة عبارة عن الاجسام المتحركة وهى جواهر قامت بها أعراض وتحقيق ذلك فى المعدوم محال فالزلزلة يستحيل أن تكون شيئا حال عدمها فلا بد من التأويل بالاتفاق ويكون المعنى انها اذا وجدت صارت شيأ وهذا هو الجواب عن الباقى (المسئلة السادسة) وصف الله تعالى الزلزلة بالعظيم ولا عظيم أعظم مما عظمه الله تعالى أما قوله تعالى يوم ترونها فهو منصوب بتذهل أى تذهل فى ذلك اليوم والضمير فى ترونها يحتمل ان يرجع الى الزلزلة وأن يرجع الى الساعة لتقدم ذكرهما والاقرب رجوعه الى الزلزلة لان مشاهدتها هى التى توجب الخوف الشديد واعلم انه سبحانه وتعالى ذكر من أهوال ذلك اليوم أمورا ثلاثة (أحدها) قوله تذهل كل مرضعة عما أرضعت أى تذهلها الزلزلة والذهول الذهاب عن الامر مع دهشة فان قيل لم قال مرضعة دون مرضع قلت المرضعة هى التى فى حال الارضاع وهى ملقمة ثديها الصبى والمرضع شأنها أن ترضع وان لم تباشر الارضاع فى حال وصفها به فقيل مرضعة للدلالة على ان ذلك الهول اذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة وقوله عما أرضعت أى عن ارضاعها أو عن الذى أرضعته وهو الطفل فتكون ما بمعنى من على هذا التأويل (وثانيها) قوله وتضع كل ذات حمل حملها والمعنى انها تسقط ولدها لتمام أو لغير تمام من هول ذلك اليوم وهذا يدل على ان هذه الزلزلة لم تكن قبل البعث قال الحسن تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وألقت الحوامل ما فى بطونها لغير تمام وقال الفقهاء يحتمل أن يقال من ماتت حاملا أو مرضعة تبعث حاملا أو مرضعة تضع حملها من الفزع ويحتمل أن يكون المراد من ذهول المرضعة وضع الحمل على جهة المثل كما قد تأول قوله يوما يجعل الولدان شيبا (وثالثها) قوله وترى الناس سكارى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ وترى بالضم تقول رأيتك قائما أو رأيتنى قائما والناس بالنصب والرفع أما النصب فظاهر وأما الرفع فلانه جعل الناس اسم مالم يسم فاعله وأنثه على تأويل الجماعة وقرئ سكرى وسكارى وهو نظير جوعى وعطشى فى جوعان وعطشان سكارى وسكارى نحو كسالى وعجالى وعن الاعمش سكرى وسكرى بالضم وهو غريب (المسئلة الثانية) المعنى وتراهم سكارى على التشبيه وما هم بسكارى على التحقيق ولكن ما أرهقهم من هول عذاب الله تعالى هو الذى أذهب عقولهم وطير تمييزهم وقال ابن عباس والحسن وتراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب فان قلت لم قيل ألا ترون ثم قيل ترى على الافراد قلنا لان الرؤية أولا علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعا رائين لها وهى معلقة آخرا بكون الناس على حال السكر فلابد وأن يجعل كل واحد منهم رائيا السائر هم (المسئلة الثالثة) ان قيل أتقولون ان شدة ذلك اليوم تحصل لكل أحد أو لاهل النار خاصة قلنا قال قوم ان الفزع الاكبر وغيره يختص بأهل النار وان أهل الجنة يحشرون وهم آمنون وقيل بل يحصل لكل لانه سبحانه لا اعتراض لاحد عليه فى شئ من أفعاله وليس

والمعنى فى شأن يوسف كما هو مفاد الاول ولا يكون تفريطهم الكائن فى شأنه واقعا من قبل كما هو مفاد الثانى على أن الظرف المقطوع عن الاضافة لا يقع خبرا ولا صفة ولا صلة ولا حالا عند البعض كما تقرر فى موضعه وقيل محله الرفع على الابتداء والخبر من قبل وفيه ما فيه وقيل ما موصولة أو موصوفة ومحلها النصب أو الرفع والحق هو النصب عطفا على مفعول تعلموا أى ما فرطتموه بمعنى قدمتموه فى حقه من الخيانة وأما النصب عطفا على اسم أن أو الرفع على الابتداء فقد عرفت حاله (فلن أبرح الارض) متفرع على ما ذكره وذكرا باهم من ميثاق أبيه وقوله التأتنى به الآن يحاط بكم أى فلن أفارق أرض مصر جريا على قضية الميثاق (حتى يأذن لى أبى) فى السراح بالانصراف اليه وكان أعمامهم كانت معهودة على عدم الرجوع بغير اذن يعقوب عليه السلام (أو يحكم الله لى) بالخروج منها على وجه لا يؤدى الى نقض الميثاق أو بخلاص أخى بسبب من الاسباب روى انهم كلموا العزيز فى اطلاقه لاحد فقال وربيل أيها الملك لتردن الينا أخانا أو لاصيحن صيحة لا تبقى بمصر حامل الا ألقت ولدها وقفت كل شعرة فى جسده فخرجت من ثيابه وكان جنوبه قوب اذا غضب والايطاقوه خلا انه اذا مس من غضب واحد منهم سكن غضبه فقال يوسف لابنه قم الى جنبه فمسه فسه فقال

لاحد عليه حق ﴿قوله تعالى﴾ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه انه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ في كيفية النظم وجهان (الاول) أخبر تعالى فيما تقدم عن أهوال يوم القيامة وشدتها ودعا الناس الى تقوى الله ثم بين في هذه الآية قوما من الناس الذين ذكروا في الاول وأخبر عن مجادلتهم (الثاني) انه تعالى بين انه مع هذا التحذير الشديد بذكر زلزلة الساعة وشدائدها فان من الناس من يجادل في الله بغير علم ثم في قوله ومن الناس وجهان (الاول) انهم الذين ينكرون البعث و يدل عليه قوله أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة الى آخر الآية وأيضا ان ما قبل هذه الآية في وصف البعث وما بعدها في الدلالة على البعث فوجب أن يكون المراد من هذه المجادلة هو المجادلة في البعث (والثاني) انها نزلت في النضر بن الحرث كان يكذب بالقرآن ويزعم انه أساطير الاولين و يقول ما يأتيكم به محمد كما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ﴿المسئلة الثانية﴾ هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة لان تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل يدل على ان المجادلة مع العلم جائزة فالمجادلة الباطلة هي المراد من قوله ما نحبه لك الا جدلا والمجادلة الحقة هي المراد من قوله وجادلهم بالتي هي أحسن ﴿المسئلة الثالثة﴾ في قوله و يتبع كل شيطان مريد قولان (أحدهما) يجوز أن يريد شياطين الانس وهم رؤساء الكفار الذين يدعون من دونهم الى الكفر (والثاني) أن يكون المراد بذلك ابليس وجنوده قال الزجاج المريد والمارد المرتفع الاملس يقال صخرة مرداء اي ملساء ويجوز أن يستعمل في غير الشيطان اذا جاوز حد مثله أما قوله كتب عليه ففيه وجهان (أحدهما) ان الكتبة عليه مثل أي كأنه كتب اضلال من يتولاه عليه ورقم به لظهور ذلك في حاله (والثاني) كتب عليه في أم الكتاب واعلم ان هذه الهاء بعد ذكر من يجادل و بعد ذكر الشيطان يحتمل أن يكون راجعا الى كل واحد منهما فان رجع الى من يجادل فانه يرجع الى لفظه الذي هو موحد فكأنه قال كتب على من يتبع الشيطان أنه من تولى الشيطان أضله عن الجنة وهداه الى النار وذلك زجر منه تعالى فكأنه قال كتب على من هذا حاله انه يصير أهلا لهذا الوعيد فان رجع الى الشيطان كان المعنى و يتبع كل شيطان مريد فقد كتب عليه أنه متى يقبل منه فهو في ضلال وعلى هذا الوجه أيضا يكون زجرا عن اتباعه وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال القاضي عبد الجبار اذا قيل المراد بقوله كتب عليه قضى عليه فلا جائز أن يرد الا الى من يتبع الشيطان لانه تعالى لا يجوز أن يقضي على الشيطان أنه يضل و يجوز أن يقضي على من يتبعه بقوله قد أضله عن الجنة وهداه الى النار قال أصحابنا رحمهم الله لما كتب ذلك عليه فلو لم يقع لانقلب خبر الله الصدق كذبا وذلك محال ومستلزم المحال محال فكان لا وقوعه محالا ﴿المسئلة الثانية﴾ دلت الآية على ان المجادل في الله ان كان لا يعرف الحق فهو مذموم معاقب فيدل على أن المعارف ليست ضرورية ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال القاضي فيه دلالة على ان المجادلة في الله ليست من خلق الله تعالى و بارادته والا لما كانت مضافة الى اتباع الشيطان وكان لا يصح القول بان الشيطان يضله بل كان الله تعالى قد أضله (والجواب) المعارضة بمسئلة العلم و بمسئلة الداعي ﴿المسئلة الرابعة﴾ قرئ أنه بالفتح والكسر فمن فتح فلان الاول فاعل كتب والثاني عطف عليه ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كأنه قيل كتب عليه هذا الكلام كما يقول كتبت ان الله هو الغني الحميد أو على تقدير قيل أو على أن كتب فيه معنى القول ﴿قوله تعالى﴾ يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى أجل

التسبب فيما نزل به والله لم يصدر عنهم ما يؤدي الى ذلك من قول أو فعل كأنه قيل لم يكن الامر كذلك بل زينت (لكم أنفسكم أمرا) من الامور فأتيتموه بريد ذلك فتبا هم بأخذ السارق بسرقته (فصبر جميل) أي فأمري صبر جميل أو فصبر جميل أجمل (عسى الله أن يأتيني بهم جميعا) يوسف وأخيه والمتوقف بمصر (انه هو العليم) بحالهم (الحكيم) الذي لم يبتلني الا لحكمة بالغة (وتولى) أي أعرض (عنهم)

ويل من هذا ان في هذا البلد لرامن بذر يعقوب (وهو خير الراحمين) اذ لا يحكم الا بالحق والعدل (ارجعوا) أنتم (الى أبيكم فقولوا يا أبانا ان ابنك سرق) على ظاهر الحال وقرئ سرق اي نسب الى السرقة (وما شهدنا) عليه (الا بما علمنا) وشاهدنا ان الصواع استخرجت من وعائه (وما كنا للغيب) أي باطن الحال (حافظين) فما ندري أن حقيقة الامر كما شاهدنا أم خلافه أو ما كنا عالمين حين أعطيناك الموثق انه سيسرق أو ما كنا في هذا الامر الوائك اصاب سكا أصبت يوسف (واسأل القرية التي كنا فيها) أي مصر أو قرية بقربها لحقهم المنادي عندها أي أرسل الى أهلها واسألهم عن القصة (والعير التي أقبلنا فيها) أي أصحابها فان القصة معروفة فيما بينهم وكانوا قوما من الكهان من جيران يعقوب عليه السلام وقيل من صنعاء (وانا لصادقون) تأكيد في محل القسم (قال) أي يعقوب عليه السلام وهو استئناف مبني على سؤال نشأ مما سبق فكأنه قيل فماذا كان عند قول المتوقف لاخوته ما قال فقيل قال يعقوب عند ما رجعوا اليه فقالوا والله ما قالوا وانما حسنت للابذان بأن مسارعتهم الى قبوله ورجوعهم به الى أبيهم أمر مسلم غني عن البيان وانما المحتاج اليه جواب أبيهم (بل سولت) أي زينت وسهلت وهو اضراب لا عن صريح كلامهم فانهم صادقون في ذلك بل عما يتضمنه من ادعاء انبراءة عن التسبب فيما نزل به والله لم يصدر عنهم ما يؤدي الى ذلك من قول أو فعل كأنه قيل لم يكن الامر كذلك بل زينت (لكم أنفسكم أمرا) من الامور فأتيتموه بريد ذلك فتبا هم بأخذ السارق بسرقته (فصبر جميل) أي فأمري صبر جميل أو فصبر جميل أجمل (عسى الله أن يأتيني بهم جميعا) يوسف وأخيه والمتوقف بمصر (انه هو العليم) بحالهم (الحكيم) الذي لم يبتلني الا لحكمة بالغة (وتولى) أي أعرض (عنهم)

كراهة لما سمع منهم (وقال يا أسفا على يوسف) الاسف أشد الحزن والحسرة اضافه الى نفسه والالف بدل من الياء فنادا ه أى يا أسفى تعال فهذا أوانك وانما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخويه لان رزأه كان قاعدة الارزاء غضبا عنده وان تقادم عهده آخذا بجامع قليه لا ينساه ولانه كان واثقا ١٦٦ بحياتهما عالما بمكانهما طامعا فى ايابهما وأما يوسف فلم يكن فى شأنه ما يحرك سلسلة

رجائه سوى رحمة الله تعالى وفضله وفى الخبر لم تعط أمة من الامم انا لله وانا اليه راجعون الا أمة محمد عليه الصلاة والسلام ألا ترى الى يعقوب حين ما أصابه لم يسترجع بل قال ما قال والتجانس بين لفظى الاسف ويوسف مما يزيد النظم الكريم بهجة كما فى قوله عز وجل وهم ينهون عنه وينأون عنه وقوله انا قائم الى الارض أرضيتم وقوله ثم كلى من كل الثمرات وجئتك من سبا بنبإ يقين ونظائرها (وابيضت عيناه من الحزن) الموجب للبكاء فان العبرة اذا كثرت تحقت سواد العين وقلبته الى بياض كدر قليل قد عمى بصره وقيل كان يدرك ادراكا ضعيفا روى انه ما جفت عيناه يعقوب من يوم فراق يوسف الى حين لقائه ثمانين عاما وما على وجه الارض أكرم على الله عز وجل من يعقوب عليه السلام وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سأل جبريل عليه السلام ما بلغ من وجد يعقوب عليه السلام على يوسف قال وجد سبعين ثكلى قال فما كان له من الاجر قال أجر مائة شهيد وما ساعة قط يا لله ساعة قط وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند النوائب فان الكف عن ذلك مما لا يدخل تحت التكليف فانه قل من يملك نفسه عند الشدائد ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب واحتجوا

مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيأ وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من زوج بهيج ذلك بان الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شئ قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور (القراءة) قرأ الحسن من البعث بالتحريك ونظيره الحلب والطرد فى الحلب وفى الطرد ومخلقة وغير مخلقة بجر التاء والراء وقرأ ابن أبى عبلة بنصبهما القراءة المعروفة بالنون فى قوله لنبين وفى قوله ونقر وفى قوله ثم نخرجكم طفلا ابن أبى عبلة بالياء فى هذه الثلاثة أما القراءة بالنون ففيها وجوه (أحدها) القراءة المشهورة (وثانيها) روى السيرافى عن داود عن يعقوب ونقر بفتح النون وضم القاف والراء وهو من قر الماء اذا صبه وفى رواية أخرى عنه كذلك الا أنه بنصب الراء (وثالثها) ونقر ونخرجكم بنصب الراء والجيم أما القراءة بالياء ففيها وجوه (أحدها) يقر ويخرجكم بفتح القاف والراء والجيم (وثانيها) يقر ويخرجكم بضم القاف والراء والجيم (وثالثها) بفتح الياء وكسر القاف وضم الراء أبو حاتم ومنكم من يتوفى بفتح الياء أى يتوفاه الله تعالى ابن عمرة والاعمش العمر بامكان الميم القراءة المعروفة ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر وفى حرف عبد الله ومنكم من يتوفى ومنكم من يكون شيوخا بغير القراءة المعروفة وربت أبو جعفر وربأت أى ارتفعت وروى العمرى عنه بتليين الهمز وقرئ وأنه باعث * المعانى اعلم انه سبحانه لما حكى عنهم الجدال بغير العلم فى اثبات الحشر والنشر وذمهم عليه فهو سبحانه أورد الدلالة على صحة ذلك من وجهين (أحدهما) الاستدلال بخلقة الحيوان أولا وهو موافق لما أجمله فى قوله قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وقوله فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فكأنه سبحانه وتعالى قال ان كنتم فى ريب مما وعدناكم من البعث فتذكروا فى خلقتكم الاولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولا قادر على خلقكم ثانيا ثم انه سبحانه ذكر هن مراتب الخلقة الاولى أمورا ستة (المرتبة الاولى) قوله فانا خلقناكم من تراب وفيه وجهان (أحدهما) انا خلقنا كم أصلكم وهو آدم عليه السلام من تراب لقوله كمثل آدم خلقه من تراب وقوله منها خلقناكم (والثانى) ان خلقة الانسان من المنى ودم الطمث وهما انما يتولدان من الاغذية والاغذية اما حيوان أو نبات وغذاء الحيوان ينتهى قطعا بالتسلسل الى النبات والنبات انما يتولد من الارض والماء فصح قوله انا خلقناكم من تراب (المرتبة الثانية) قوله ثم من نطفة والنطفة اسم للماء القليل أى ماء كان وهو ههنا ماء الفحل فكأنه سبحانه يقول أنا الذى خلقت ذلك التراب اليابس ماء لطيفا مع أنه لا مناسبة بينهما البتة (المرتبة الثالثة) قوله ثم من علقة والعلقة قطعة الدم الجامدة ولا شك أن بين الماء وبين الدم الجامد مباينة شديدة (المرتبة الرابعة) قوله ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الارحام ما نشاء فالمضغة اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ والمخلقة المسواة الملساء السالمة من النقصان والعيب يقال خلق السواك والعود اذا سواه وملسه من قولهم صخرة خلقاء اذا كانت ملساء ثم للمفسرين فيه أقوال (أحدها) أن يكون المراد من تمت فيه أحوال الخلق ومن لم تتم كأنه سبحانه قسم المضغة الى قسمين (أحدهما) تامة الصور والحواس والتخاطيط (وثانيهما) الناقصة فى هذه الامور فبين ان بعد ان صيره مضغة منها ما خلقه انسانا تاما ولا نقص ومنها ما ليس كذلك وهذا قول قتادة والضحاك فكان الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم (وثانيها) المخلقة الولد الذى يخرج حيا وغير المخلقة السقط وهو قول مجاهد (وثالثها) المخلقة المصورة وغير المخلقة أى غير المصورة وهو الذى يبقى فيما من غير تخطيط وتشكيل

وأنا عليك يا ابراهيم لمحزونون وانما الذي لا يجوز ما فعله الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الخدود وشق الجيوب وتمزيق الثياب وعن النبي عليه السلام انه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه فقيل يا رسول الله تبكي وقد نهيتنا عن البكاء فقال انما نهيتكم عن صوتين أحمقين صوت عند الفرح وصوت عند الترح

واحتجوا بما روى علقمة عن عبد الله قال اذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكا وقال يا رب مخلقة أو غير مخلقة فان قال غير مخلقة مجتها الارحام دما وان قال مخلقة قال يا رب فما صفتها أذكر أم أنثى ما رزقها ما أجلها أشقي أم سعيد فيقول الله سبحانه انطلق الى أم الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة فينطلق الملك فينسخها فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفتها (ورائعها) قال الفقال التخليق ما خوذ من الخاق فما تتابع عليه الاطوار وتوارد عليه الخاق بعد الخلق فذلك هو المخاق لتتابع الخاق عليه قالوا فخاتم فهو المخاق وما لم يتم فهو غير المخلق لانه لم يتوارد عليه التخليقات والقول الاول أقرب لانه تعالى قال في أول الآية فانا خلقناكم وأشار الى الناس فيجب أن تحمل مخلقة وغير مخلقة على من سيصير انسانا وذلك بعد في السقط لانه قد يكون ساقطا ولم يتكامل فيه الخلقة فان قيل هلا حملتم ذلك على السقط لاجل قوله ونقر في الارحام ما نشاء وذلك كالدلالة على أن فيه ما لا يقره في الرحم وهو السقط قلنا ان ذلك لا يمنع من صحة ما ذكرنا في كون المضغة مخلقة وغير مخلقة لانه بعد أن تم خلقة البعض ونقص خلقة البعض لا يجب أن يتكامل ذلك بل قد يتم فيه ما يقره الله في الرحم وفيه ما لا يقره وان كان قد أظهر فيه خلقة الانسان فيكون من هذا الوجه قد دخل فيه السقط أما قوله تعالى لنبين لكم ففيه وجهان (أحدهما) لنبين لكم ان تغيير المضغة الى المخلقة هو باختيار الفاعل المختار ولولا ما صار بعضه مخلقا وبعضه غير مخلق (وثانيهما) التقدير ان كنتم في ريب من البعث فانا أخبرناكم أنا خلقناكم من كذا وكذا لتبين لكم ما يزيل عنكم ذلك الريب في أمر بعثكم فان القادر على هذه الاشياء كيف يكون عاجزا عن الاعادة أما قوله تعالى ونقر في الارحام ما نشاء الى أجل مسمى فالمراد منه من بلغه الله تعالى حد الولادة والاجل المسمى هو الوقت المحسوب للولادة وهو أحد ستة أشهر أو تسعة أو أربع سنين أو كما شاء وقدر الله تعالى فان كتب ذلك صار أجلا مسمى (المرتبة الخامسة) قوله ثم نخرجكم طفلا وانما وحد الطفل لان الغرض الدلالة على الجنس ويحتمل أن يخرج كل واحد منكم طفلا كقوله والملائكة بعد ذلك ظهير (المرتبة السادسة) قوله ثم لتبلغوا أشدكم والاشد كمال القوة والعقل والتمييز وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد وكأنها شذت في غير شيء واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع والمراد والله أعلم ثم سهل في تربيتكم وأغذيتكم أمورا لبلوغ أشدكم فقبضه مذلك على الاحوال التي بين خروج الطفل من بطن أمه وبين بلوغ الاشد ويكون بين الحالتين وسايط وذكر بعضهم انه ليس بين حال الطفولية وبين ابتداء حال بلوغ الاشد واسطة حتى جوز أن يبلغ في السن ويكون طفلا كما يكون غلاما ثم يدخل في الاشد (المرتبة السابعة) قوله ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيأ والمعنى أن منكم من يتوفى على قوته وكماله ومنكم من يرد الى أرذل العمر وهو الهرم والخرف فيصير كما كان في أول طفولته ضعيف البنية سخيف العقل قليل الفهم فان قيل كيف قال لكيلا يعلم من بعد علم شيأ مع انه يعلم بعض الاشياء كالطفل قلنا المراد انه يزول عقله فيصير كأنه لا يعلم شيأ الآن مثل ذلك قد يذكر في النفي لاجل المبالغة ومن الناس من قال هذه الحالة لا تحصل للمؤمنين لقوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهو ضعيف لان معنى قوله ثم رددناه أسفل سافلين هو لا لة على الذم فالمراد ما يجري مجرى العقوبة ولذلك قال الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون فهذا تمام الاستدلال بحال خلقة الحيوان على صحة البعث (الوجه الثاني) الاستدلال بحال خلقة النبات على ذلك وهو قوله سبحانه وتعالى وترى الارض هامدة وهو هودها يبس وجمودها عن النبات والخضرة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت والاهتزاز الحركة على سرور فلا يكاد

يملك له في قلبه لا بظهره فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله تعالى وهو مكظوم من كظم السقاء اذا شده على ملئه أو بمعنى فاعل كقوله والكاظمين الغيظ من كظم الغيظ اذا أجرعه وأصله كظم البعير جرته اذا ردها في جوفه (قالوا تالله تفتؤ) أي لا تفتؤ ولا تزال (تذكر يوسف) تفجعا عليه فحذف حرف النفي كما في قوله

فقلت يمين الله أبرح قاعدا

لعدم الالتباس بالاثبات فان القسم اذا لم يكن معه علامة الاثبات يكون على النفي البتة (حتى تكون حرضا) مريضا مشفيا على الهلاك وقيل الحرض من أذابه هم أو مرض وهو في الاصل مصدر ولذلك لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع والتعت منه بالكسر كدنف وقد قرئ به وبضمتين ليعقوب وغرب (أو تكون من الهالكين) أي الميتين (قال انما أشكو بثي) البث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه الى الناس أي ينشره فكأنهم قالوا له ما قالوا بطريق التسلية والاشكاء فقال لهم اني لا أشكو ما بي اليكم أو الى غيركم حتى تنصحوا وتسلوني وانما أشكو همي (وحزني الى الله) تعالى ملتجئا الى جنابه متضرعا الى بابه في دفعه وتريئ بفتحتين وضمتين (وأعلم من الله ما لا تعلمون) من لطفه ورحمته فأرجو أن يرحمني ويلطف بي ولا يخيب رجائي أو أعلم وحيا أوالهاما من جهته ما لا تعلمون من حياة يوسف قيل رأى ملك الموت في المنام فسأله هنه فقال

هو حي وقيل علم من رؤيا يوسف عليه السلام أنه يسجد له أبواه وإخوته سجدا (يا بني اذهبوا فتحسسوا) أي تعرفوا وهو تفعل من الحس وقرئ بالجيم من الجس وهو الطلب أي تطلبوا (من يوسف وأخيه) أي من خبرهما ولم يذكر الثالث لان غيبته اختيارية لا يعسر ارجاعها (ولا تيأسوا من روح الله) لا تقنطوا ١٦٨ من فرجه وتنفيسه وقرئ بضم الراء أي من رحمته التي تحيي بها العباد وهذا ارشاد

يقال اه ترفلان لكيت وكيت الا اذا كان الامر من المحاسن والمنافع فقوله اهتززت وربت أي تحركت بالنبات وانتفخت أما قوله وأنبتت من كل زوج بهيج فهو مجاز لان الارض ينبت منها والله تعالى هو المنبت لذلك لكنه يضاف اليها توسعا ومعنى من كل زوج بهيج من كل نوع من أنواع النبات من زرع وغرس والبهجة حسن الشئ ونضارته والبهيج بمعنى المبهج قال المبرد وهو الشئ المشرق الجميل ثم انه سبحانه لما قرر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة وذكر أمورا خمسة (أحدها) قوله ذلك بأن الله هو الحق والحق هو الموجود الثابت فكأنه سبحانه بين ان هذه الوجوه دالة على وجود الصانع وحاصلها راجع الى ان حدوث هذه الاعراض المتنافية وتواردها على الاجسام يدل على وجود الصانع (وثانيها) قوله تعالى وأنه يحيي الموتى فهذا تنبيه على انه لما لم يستبعد من الاله ايجاد هذه الاشياء فكيف يستبعد منه اعادة الاموات (وثالثها) قوله وانه على كل شئ قدير بين ان الذي يصح منه ايجاد هذه الاشياء لا بد وأن يكون واجب الاتصاف لذاته بالقدرة ومن كان كذلك كان قادرا على جميع الممكنات ومن كان كذلك فانه لا بد وان يكون قادرا على الاعادة (ورابعها) قوله وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور والمعنى انه لما أقام الدلائل على ان الاعادة في نفسها ممكنة وأنه سبحانه وتعالى قادر على كل الممكنات وجب القطع بكونه قادرا على الاعادة في نفسها واذا ثبت الامكان والصادق أخبر عن وقوعه فلا بد من القطع بوقوعه واعلم ان تحرير هذه الدلالة على الوجه النظري أن يقال الاعادة في نفسها ممكنة والصادق أخبر عن وقوعها فلا بد من القطع بوقوعها أما بيان ان الامكان فالدليل عليه ان هذه الاجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات التي كانت قائمة بها حال كونها حية عاقلة والباري سبحانه عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات الممكنة وذلك يقتضي القطع بامكان الاعادة فلما قلنا ان تلك الاجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات لانها لو لم تكن قابلة لها في وقت لما كانت قابلة لها في شئ من الاوقات لان الامور الذاتية لا تزول ولو لم تكن قابلة لها في شئ من الاوقات لما كانت حية عاقلة في شئ من الاوقات لكنها كانت حية عاقلة فوجب أن تكون قابلة أبدا لهذه الصفات وأما ان الباري سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن فلأنه سبحانه عالم بكل المعلومات فيكون عالما بأجزاء كل واحد من الممكنين على التعيين وقادرا على كل الممكنات فيكون قادرا على ايجاد تلك الصفات في تلك الذوات فثبت ان الاعادة في نفسها ممكنة وأنه سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن فثبت ان الاعادة ممكنة في نفسها فاذا أخبر الصادق عن وقوعها فلا بد من القطع بوقوعها فهذا هو الكلام في تقرير هذا الاصل فان قيل فأي منفعة لذكر مراتب خلقة الحيوانات وخلقة النبات في هذه الدلالة قلنا انها تدل على انه سبحانه قادر على كل الممكنات عالم بكل المعلومات ومتى صح ذلك فقد صح كون الاعادة ممكنة فان الخصم لا ينكر المعاد الا بناء على انكار أحد هذين الاصلين ولذلك قال الله تعالى حيث أقام الدلالة على البعث في كتابه بذكر معه كونه قادرا عالما كقوله قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم فقوله قل يحييها الذي أنشأها بيان للقدرة وقوله وهو بكل خلق عليم بيان للعلم والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿القراءة ثاني عطفه بكسر العين الحسن وحده بفتح العين ليضل قرئ بضم الياء وفتحها القراءة المعروفة ونذيقه بالنون وقرأ زيد بن علي وأذيقه * المعاني في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اختلفوا في أن المراد بقوله ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد من هم على وجوه

لهم الى بعض ما أيهم في قوله وأعلم من الله ما لا تعلمون ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله (انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته فان العارف لا يقنط في حال من الاحوال (فلما دخلوا عليه) أي على يوسف بعد ما رجعوا الى مصر بموجب أمر أبيهم وانما لم يذكر ذلك ايذانا بسارعتهم الى ما أمروا به واشعارا بأن ذلك أمر محقق لا يفتقر الى الذكر والبيان (قالوا يا أيها العزيز) أي أيها الملك القادر المتمنع (مسنا وأهلنا الضر) الهزال من شدة الجوع (وجئنا ببضاعة مزجاة) مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا لها من أرجيته اذا دفعته وطردته والريح تزجي السحاب قيل كانت بضائعهم من متاع الاعراب صوفا وسمنا وقيل الصنوبر وحبة الخضراء وقيل سويق المقل والاقط وقيل دراهم زيوفا لا تؤخذ الا بوضيعة واغا قدموا ذلك ليكون ذريعة الى السماحة والرأفة وتحريك سلسلة المرحمة ثم قال (أحدها)

(فأوف لنا الكيل) أي اتمه لنا (وتصدق علينا) برد أخينا الينا قالوا الضحاك وابن جريج وهو الانسب بحالهم نظرا الى أمر أبيهم أو بالايفاء أو بالمسامحة وقبول المزجاة أو بالزيادة فعلى ما يسأ ويها تفضلا وانما سموه تصدقا تواضعا أو أرادوا التصدق فوق ما يعطيهم

بالثمن بناء على اختصاص حرمة الصدقة بنبينا عليه الصلاة والسلام وانما لم يبد وا بما أمروا به — خجلا بالرأفة والشفقة ليبعثوا بما قدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو على أن ما سألوه كالم ذو وجهين فان قوله وتصدق علينا (ان الله يجزي المتصدقين) يحتمل الحمل على الحمل بناء على أن حرمة الصدقة عليه السلام حملوه على المحمل الاول ولذلك (قال) مجيبا لما عرضوا به ١٦٩ وضمنوه كلامهم من طلب رد أخيهم

(أحدها) قال أبو مسلم الآية الاولى وهي قوله ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد واردة في الآتباع المقلدين وهذه الآية واردة في المتبوعين المقلدين فان كلا المجادلين جادل بغير علم وان كان أحدهما متبعا والآخر متبوعا وبين ذلك فرق ولا هدى ولا كتاب منير فان مثل ذلك لا يقال في المقلد وانما يقال فيمن يخاصم بناء على شبهة فان قيل كيف يصح ما قلتم والمقلد لا يكون مجادلا قلنا قد يجادل تصويبا لتقليده وقد يورد الشبهة الظاهرة اذا تمكن منها وان كان معتمده الاصلي هو التقليد (وثانيها) ان الآية الاولى نزلت في النضر بن الحرث وهذه الآية في أبي جهل (وثالثها) ان هذه الآية نزلت أيضا في النضر وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وفائدة التكرير المبالغة في الذم وأيضا ذكر في الآية الاولى اتباعه للشيطان تقليدا بغير حجة وفي الثانية مجادلته في الدين واضلاله غيره بغير حجة والوجه الاول أقرب لما تقدم ﴿المسئلة الثانية﴾ الآية دالة على أن الجدال مع العلم والهدى والكتاب المنير حق حسن على ما مر تقريره ﴿المسئلة الثالثة﴾ المراد بالعلم العلم الضروري وبالهدى الاستدلال والنظر لانه يهدي الى المعرفة وبالكتاب المنير الوحي والمعنى أنه يجادل من غير مقدمة ضرورية ولا نظرية ولا سمعية وهو كقوله ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وقوله ائتوني بكتاب من قبل هذا أما قوله ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله فاعلم أن ثني العطف عبارة عن التكبر والخيلاء كتصعير الخد ولي الجيد وقوله ليضل عن سبيل الله فاما القراءة بضم الياء فدلالة على أن هذا المجادل فعل الجدال وأظهر التكبر لكي يتبعه غيره فيضله عن طريق الحق فجمع بين الضلال والكفر واضلال الغير وأما القراءة بفتح الياء فالمعنى أنه لما أدى جداله الى الضلال جعل كأنه غرضه ثم انه سبحانه وتعالى شرح حاله في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فهو الخزي وأما في الآخرة فقوله ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ثم بين تعالى أن هذا الخزي المعجل وذلك العقاب المؤجل لا يحل ما قدمت يداه قالت المعتزلة هذه الآية تدل على مطالب (الاول) دلت الآية على أنه انما وقع في ذلك العقاب بسبب عمله وفعله فلو كان فعله خلقا له سبحانه وتعالى لكان حين ما خلقه الله سبحانه وتعالى استحال منه أن يتملك عنه وحين ما لا يتملك الله تعالى استحال منه أن يتصف به فلا يكون ذلك العقاب بسبب فعله فاذا عاقبه عليه كان ذلك محض الظلم وذلك على خلاف النص (الثاني) أن قوله بعد ذلك وأن الله ليس بظلام للعبيد دليل على أنه سبحانه انما لم يكن ظلما بفعل ذلك العذاب لاجل أن المكلف فعل فعلا استحق به ذلك العقاب وذلك يدل على أنه لو عاقبه لا بسبب فعل يصدر من جهته لكان ظلما وهذا يدل على أنه لا يجوز تعذيب الاطفال بكفر آبائهم (الثالث) أنه سبحانه تمدح بأنه لا يفعل الظلم فوجب أن يكون قادرا على خلاف ما يقوله المعتظم وأن يصح ذلك منه خلافا لما يقوله أهل السنة (الرابع) وهو أن لا يجوز الاستدلال بهذه الآية على أنه تعالى لا يظلم لان عندهم صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم موقوفة على نفي الظلم فلو أثبتنا ذلك بالدليل السمعي لزم الدور (والجواب) عن الكل المعارضة بالعلم والداعي ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير﴾ القراءة قرئ خاسر الدنيا والآخرة

(هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) وكان الظاهر أن يتعرض لما فعلوا بأخيه فقط وانما تعرض لما فعلوا بيوسف لاشتراكهم في وقوع الفعل عليهما فان المراد بذلك افرادهم له عن يوسف واذلاله بذلك حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم الا بعجز وذلك أي هل تبتم عن ذلك بعد علمكم بقبحه فهو سؤال عن الملزوم والمراد لازمه (اذ أنتم جاهلون) بقبحه فلذلك أقدمتم على ذلك أو جاهلون عاقبته وانما قاله تجاهلا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما رأى عجزهم وتمكنهم لا معاتبة وتثريبا ويجوز أن يكون هذا الكلام منقطعا عن كلامهم وتنبيها لهم على ما هو حقهم ووظيفتهم من الاعراض عن جميع المطالب والتحمض في طلب بنيامين بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحي أو الالهام على وصية أبيه وارساله اياهم للتحسس منه ومن

(٢٢ — خفر — س) أخيه فلما رآهم قد اشتغلوا عن ذلك قال ما قال وقيل أعطوه كتاب يعقوب عليه السلام وقد كتب فيه كتب مريه قرب اسرائيل لله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله الى عزيز مصر أما بعد فانا أهل بيت موكل بنا البلاء أما جدي فضدت يداه ورجلاه ذري به في النار فنجاه الله تعالى وجعلت النار له بردا وسلاما وأما أبي فرضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله تعالى

وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب بإخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخا بالدم فقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناي من بكائي عليه ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا إنه سرق وإنك حبسته وأنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فاغفر رددته علي ١٧٠ والآن أدعوك عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام فلما قرأ لم يتمالك وعيل

بالنصب والرفع فالنصب على الحال والرفع على أنه خبر مبتدا محذوف وفي حرف عبد الله من ضره بغير لام واعلم أنه تعالى لما بين حال المظهرين للشرك المجاهرين فيه على ما ذكرنا عقبه بذكر المنافقين فقال ومن الناس من يعبد الله على حرف وفي تفسير الحرف وجهان (الأول) ما قاله الحسن وهو أن المرء في باب الدين معتمده القلب واللسان فهما مرفا لدين فإذا وافق أحدهما الآخر فقد تكامل في الدين وإذا أظهر بلسانه الدين لبعض الأغراض وفي قلبه النفاق جاز أن يقال فيه على وجه الذم يعبد الله على حرف (الثاني) قوله على حرف أي على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكون وطمأنينة كالذي يكون على طرف من العسكر فإن أحس بغنيمة قر وإلا فر وطار على وجهه وهذا هو المراد فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه لأن الثبات في الدين إنما يكون لو كان الغرض منه إصابة الحق وطاعة الله والخوف من عقابه فإذا كان غرضه الخير العاجل فإنه يظهر الدين عند الرخاء ويرجع عنه عند الضراء فلا يكون الاهتمام فيه دائما وهو معنى قوله تعالى مذبذبين بين ذلك وكقوله فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم (المسألة الثانية) قال الكلبي نزلت هذه الآية في أعراب كانوا يقدمون على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا صح بها جسمه ونتجت فرسه مهرا حسنا وولدت امرأته غلاما وكثر ماله وماشيته رضي به واطمأن إليه وإن أصابه وجع وولدت امرأته جارية أو أجهضت رماكه وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان وقال له ما جاءك في هذه الشر ور إلا بسبب هذا الدين فينقلب عن دينه وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد وقتادة (وثانيها) وهو قول الضحاك نزلت في المؤلفة قلوبهم منهم عيينة بن بدر والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس قال بعضهم لبعض ندخل في دين محمد فإن أصبنا خيرا عرفنا أنه حق وإن أصبنا غير ذلك عرفنا أنه باطل (وثالثها) قال أبو سعيد الخدري أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فقال يا رسول الله أقالني فإني لم أصب من ديني هذا خيرا ذهب بصري وولدي ومالي فقال صلى الله عليه وسلم إن الإسلام لا يقال إن الإسلام ليسبك كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة فنزلت هذه الآية وأما قوله وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ففيه سؤالان (الأول) كيف قال وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه والخير أيضا فتنة لأنه امتحان وقال تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة (والجواب) مثل هذا كثير في اللغة لأن النعمة بلاء وابتلاء لقوله فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ولكن إنما يطلق اسم البلاء على ما يثقل على الطبع والمنافق ليس عنده الخير الا الخير الدنيوي وليس عنده الشر الا الشر الدنيوي لأنه لا دين له فلذلك وردت الآية على ما يعتقده وإن كان الخير كله فتنة لكن أكثر ما يستعمل فيما يشتد ويثقل (السؤال الثاني) إذا كانت الآية في المنافق فما معنى قوله انقلب على وجهه وهو في الحقيقة لم يسلم حتى ينقلب ويرتد (والجواب) المراد أنه أظهر بلسانه خلاف ما كان أظهره فصار يذم الدين عند الشدة وكان من قبل يمدحه وذلك انقلاب في الحقيقة (السؤال الثالث) قال مقاتل الخير هو ضد الشر فلما قال فإن أصابه خير اطمأن به كان يجب أن يقول وإن أصابه شر انقلب على وجهه (الجواب) لما كانت الشدة ليست بقبيحة لم يقل تعالى وإن أصابه شر بل وصفه بما لا يفيد إلا القبح أما قوله تعالى خسر الدنيا والآخرة فذلك لأنه يخسر في الدنيا العز والكرامة وإصابة الغنيمة وأهلية الشهادة والإمامة والقضاء ولا يبقى ماله ودمه مصونا وأما في الآخرة فيفوته الثواب الدائم ويحصل له العقاب الدائم وذلك هو الخسران المبين أما

صبره فقال لهم قال وقيل لما قرأه بكى وكتب الجواب اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا (قالوا أئنك لأنت يوسف) استفهام تقرير ولذلك أكدوه بأن واللام قالوه استقرارا وتحقيقا وقرئ أئنك بالإيجاب قيل عرفوه برؤياه وشمائله حين كلمهم به وقيل تبسم فعرفوه ثغره أو أقحوانه قيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب مثلها وقرئ أئنك أو أنت بوسف على معنى أئنك ليوسف وأنت يوسف حذف الأول لدلالة الثاني عليه وقيء زيادة استغراب (قال أنا يوسف) جوابا عن مسئلتهم وقد زاد عليه قوله (وهذا أخي) أي من أبوي مبالغة في تعريف نفسه وتفخيما لشأن أخيه وتكملة لما أفاده قوله هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه حسبما يفيده قوله (قد من الله علينا) فكأنه قال هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال فأنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا بالخلاص عما ابتلانا به والاجتماع بعد الفرقة والعزة بعد الذلة والأنس بعد الوحشة ولا يبعد أن يكون فيه إشارة إلى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بأنه أخي لا أحوكم فلا وجه لطلبكم ثم علل ذلك بطريق الاستئناف التعليلي بقوله (إنه من يتق) أي يفعل التقوى في جميع أحواله أو يتق نفسه عما يوجب سخط الله تعالى

قوله

وعذابه (ويدبر) على المحن أو على مشقة الطاعات أو عن المعاصي التي تستلذها النفس (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) أي أجرهم وانما وضع المظهر موضع المضمر تنبيها على أن المتصفين بالتقوى والصبر موصوفون بالاحسان (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) اختارك وفضلك علينا بما ذكرت من النبوة الجليلة (وان كنا) وان الشأن كنا (لخاطئين) متعمدين للذنب اذ ١٧١ فعلنا بك ما فعلنا ولذلك أعزك وأذلنا وفيه اشعار بالتوبة والاستغفار ولذلك قال (لا تثريب) أي لا عتب ولا تأنيب (عليكم) وهو تفعيل من الثرب وهو الشحم الغاشي للكرش ومعناه ازالته كأن التعليل ازالة الجلد والتقريع ازالة القرع لانه اذا ذهب كان ذلك غاية الهزال فضرب مثلا للتقريع الذي يذهب ماء الوجه وقوله عزوعلا (اليوم) منصوب بالتثريب أو بالمقدر خبرا للا أي لا أثرب عليكم اولا تثريب مستقر عليكم اليوم الذي هو مظنة له فما ظنكم بسائر الايام أو بقوله (يغفر الله لكم) لانه حينئذ صفح عن جريمتهم وعفا عن جريرتهم بما فعلوا من التوبة (وهو أرحم الراحمين) يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على التائب بالقبول ومن كرمه عليه الصلاة والسلام أن أخوته أرسلوا اليه أنك تدعونا الى طعامك بكرة وعشيا ونحن نستحي منك بما فرط منا قبل فقال عليه الصلاة والسلام ان أهل مصر وان ملكت فيهم

قوله تعالى يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه فالاقرب أنه المشرك الذي يعبد الاوثان وهذا كالدلالة على أن الآية لم ترد في اليهود وكي لا يتوهم أن يدعو من دون الله الاصنام والاقرب أنها واردة في المشركين الذين انقطعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه النفاق وبين تعالى أن ذلك هو الضلال البعيد وأراد به عظم ضلالهم وقربهم ويحتمل أن يعني بذلك بعد ضلالهم عن الصواب لان جميعه وان كان يشترك في أنه خطأ فبعضه أبعد من الحق من البعض واستعير الضلال البعيد من ضلال من أراد شيئا فأتاه ضالا وطالت وبعدت مسافة ضلاله أما قوله تعالى يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اختلفوا في تفسيره على وجهين (أحدهما) أن المراد رؤساؤهم الذين كانوا يفزعون اليهم لانه يصح منهم أن يضروا وجه هذا القول أن الله تعالى بين في الآية الأولى أن الاوثان لا تضرهم ولا تنفعهم وهذه الآية تقتضي كون المذكور فيها ضارا نافعا فلو كان المذكور في هذه الآية هو الاوثان لزم التناقض (القول الثاني) أن المراد الوثن وأجابوا عن التناقض بأمور (أحدها) أنها لا تضر ولا تنفع بأنفسها ولكن عبادتها سبب الضرر وذلك يكفي في اضافة الضرر اليها كقوله تعالى رب انهن أضللن كثيرا من الناس فاضاف الاضلال اليهم من حيث كانوا سببا للضلال فكذا ههنا نفي الضرر عنهم في الآية الاولى بمعنى كونها فاعلة وأضاف الضرر اليهم في هذه الآية بمعنى أن عبادتها سبب الضرر (وثانيها) كأنه سبحانه وتعالى بين في الآية الاولى أنها في الحقيقة لا تضر ولا تنفع ثم قال في الآية الثانية لو سلمنا كونها ضارة نافعة لكن ضررها أكثر من نفعها (وثالثها) كان الكفار اذا أنصفوا علموا أنه لا يحصل منها نفع ولا ضرر في الدنيا ثم انهم في الآخرة يشاهدون العذاب العظيم بسبب عبادتها فكأنهم يقولون لها في الآخرة ان ضرركم أعظم من نفعكم (المسئلة الثانية) اختلف النحويون في اعراب قوله لمن ضره أقرب أما قوله لبئس المولى ولبئس العشير فالمولى هو المولى والناصر والعشير الصاحب والمعاشر واعلم أن هذا الوصف بالرؤساء ألبق لان ذلك لا يكاد يستعمل في الاوثان فبين تعالى أنهم يعدلون عن عبادة الله تعالى الذي يجمع خير الدنيا والآخرة الى عبادة الاصنام والى طاعة الرؤساء ثم ذم الرؤساء فقوله لبئس المولى والمراد ذم من انتصروا بهم والتجأوا اليهم ﴿قوله تعالى ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدي من يريد﴾ اعلم أنه سبحانه لما بين في الآية السابقة حال عبادة المنافقين وحال معبودهم بين في هذه الآية صفة عبادة المؤمنين وصفة معبودهم أما عبادتهم فقد كانت على الطريق الذي لا يمكن صوابه وأما معبودهم فلا يضر ولا ينفع وأما المؤمنون فعبادتهم حقيقية ومعبودهم بعظيم أعظم المنافع وهو الجنة ثم بين كمال الجنة التي تجمع بين الزرع والشجر وأن تجري من تحتها الانهار وبين تعالى أنه يفعل ما يريد بهم من أنواع الفضل والاحسان زيادة على أجورهم كما قال تعالى فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله واحتج أصحابنا في خلق الافعال بقوله سبحانه ان الله يفعل ما يريد قالوا أجمعنا على أنه سبحانه يريد الايمان والفظة ما للعموم فوجب أن يكون فاعلا للايمان لقوله ان الله يفعل ما يريد أجاب الكعبي عنه بأن الله تعالى يفعل ما يريد أن يفعله لا ما يريد أن يفعله غيره والجواب أن قوله ما يريد أعم من قولنا ما يريد أن يفعله ومن قولنا ما يريد أن يفعله غيره فالتقييد خلاف النص أما قوله من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فالهاء الى ماذا يرجع فيه وجهان (الاول) وهو قول ابن عباس والكلبي ومقاتل والضحاك وقتادة وابن زيد والسدي واختيار الفراء

كانوا ينظرون الى العين الاولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت بكم الآن وعظمت في العيون حيث علم الناس أنكم اخوتي وأني من حفدة ابراهيم عليه الصلاة والسلام (اذهبوا بقميصي هذا) قيل هو الذي كان عليه حينئذ وقيل هو القميص المتوارث الذي كان في التعويذ أمر جبريل بارساله اليه وأوحى اليه أن فيح ريح الجنة لا يقع على مبتلى الا عوفي (فألقوه على وجه أبي

يأت بصيرا) يكن بصيرا أو يأت الى بصير او بنصره قوله (وائتوني بأهلكم أجمعين) أي بأبي وغيره ممن ينتظمه لفظ الاهل جميعا من النساء والذرارى قيل انما حمل القميص ليعود اوقال أنا أحزنته بحمل القميص ملطخا بالدم اليه فافرحه كما أحزنته وقيل حمله وهو خاف حاضر من مصر الى كنعان ١٧٣ وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا (ولما فصلت العير) خرجت من عريش مصر يقال فصل من البلد فصولا اذا انفصل منه وجاوز حيطانه وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انفصل العير (قال أبوهم) يعقوب عليه الصلاة والسلام لمن عنده (انى لاجد ريح يوسف) أو وجد الله سبحانه ما عبق بالقميص من ريح يوسف من ثمانين فرسخا حين أقبل به يهوذا (لولا أن تفندون) أي تنسبون الى الفند وهو الخرف وانكار العقل وفساد الرأى من هرم يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة ولم تكن في شبيبتها ذات رأى فتفند في كبرها وجواب لولا محذوف أي لصدقتموني (قالوا) أي الحاضرون عنده (تالله انك لفي ضلالك القديم) انى ذهابك عن الصواب قدماني افراط محبتك ليوسف ولعهدك بذكره ورجائك للقائه وكان عندهم أنه قد مات (فلما أن جاء البشير) وهو يهوذا (ألقاه) أي ألقى البشير القميص (على وجهه) أي وجه يعقوب أو القاء يعقوب على وجه نفسه (فارتد) عاد (بصيرا) لما انتعش فيه من قوة (قال ألم أقل لكم) يعني قوله انى لاجد ريح يوسف فالخطاب لمن كان عنده بكنعان اما أو قوله ولا تيأسوا من روح الله فالخطاب لبنيه وهو الانسب بقوله (انى أعلم من الله ما لا تعلمون) فان مدار النهي المذكور انما هو العلم الذي أوتي يعقوب من جهة الله سبحانه وعلى هذا يجوز أن يكون هذا مقول القول أي ألم أقل لكم حين أرسلتكم الى مصر وأمرتكم بالتجسس

والحجاج انه يرجع الى محمد صلى الله عليه وسلم يريد أن من ظن ان لن ينصر الله محمدا صلى الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا باعلاء كلمته واظهار دينه وفي الآخرة باعلاء درجته والانتقام ممن كذبه والرسول صلى الله عليه وسلم وان لم يجر له ذكر في الآية ففهم مما يدل عليه وهو ذكر الايمان في قوله ان الله يدخل الذين آمنوا والايمان لا يتم الا بالله ورسوله فيجب البحث ههنا عن أمرين (أحدهما) انه من الذي كان يظن أن الله تعالى لا ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم (والثاني) انه ما معنى قوله فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع أما الاول فذكروا فيه وجوها (أحدها) كان قوم من المسلمين اشتد غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد الله رسوله من النصر فنزلت هذه الآية (وثانيها) قال مقاتل نزلت في نفر من أسد وغطفان قالوا نخاف ان الله لا ينصر محمدا فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميرونا (وثالثها) ان حساده وأعداءه كانوا يتوقعون ان لا ينصره الله وان لا يملأ عدائه فبين شاهد وأن الله نصره غاظهم ذلك (وأما الوجه الثاني) فاعلم أن في لفظ السبب قولين (أحدهما) أنه الحبل وهؤلاء اختلفوا في السماء فمنهم من قال هو سماء البيت ومنهم من قال هو السماء في الحقيقة فقالوا المعنى من كان يظن ان لن ينصره الله ثم يغيظه فانه لا يظفر بمطلوبه فليس في وسعه في ازالة ما يغيظه بان يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مد حبلا الى سمائه فاختنق فلينظر أنه ان فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه وعلى هذا القول اختلفوا في القطع فقال بعضهم سمي الاختناق قطعا لان المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه وسمي فعله كيدا لانه وضعه موضع الكيد حيث لم يقدر على غيره أو على سبيل الاستهزاء الا أنه لم يكد به محسوده وانما كاد به نفسه والمراد ليس في يده الا هذا ليس يذهب لما يغيظ وهذا قول الكلبي ومقاتل وقال ابن عباس رضي الله عنه يشد الحبل في عنقه وفي سقف البيت ثم ليقطع الحبل حتى يختنق ويهلك هذا كلام اذا حملنا السماء على سقف البيت وهو قول كثير من المفسرين وقال آخرون المراد منه نفس السماء فانه يمكن حمل الكلام على نفس السماء فهو أولى من حمله على سماء البيت لان ذلك لا يفهم منه الا مقيدا ولان الغرض ليس الا ربان يفعل ذلك بل الغرض أن يكون ذلك صارفا له عن الغيظ الى طاعة الله تعالى واذا كان كذلك فكل ما كان المذكور أبعد من الامكان كان أولى بان يكون هو المراد ومعلوم ان مد الحبل الى سماء الدنيا والاختناق به أبعد في الامكان من مده الى سقف البيت لان ذلك ممكن أما الذين قالوا السبب ليس هو الحبل فقد ذكروا وجهين (الاول) كأنه قال فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع بذلك السبب المساقة ثم لينظر فانه يعلم ان مع تحمل المشقة فيما ظنه خاسر الصفقة كان لم يفعل شيأ وهو قول أبي مسلم (والثاني) كأنه قال فليطلب سببا يصل به الى السماء فليقطع نصر الله اتيه وليتظر هل يتهيأ له الوصول الى السماء بحيلة وهل يتهيأ له أن يقطع بذلك نصر الله عن رسوله واذا كان ذلك ممتنعا كان غيظه عديم الفائدة واعلم أن المقصد على كل هذه الوجوه معلوم فانه زجر للكفار عن الغيظ فيما لا فائدة فيه وهو في معنى قوله فان استطعت أن تبتغي نفقا في الارض أو سلما في السماء ومبنى ذلك انه لا حيلة له في الآيات التي اقترحوها (القول الثاني) ان الهاء في قوله لن ينصره الله راجع الى من في أول الآية لانه المذكور ومن حق الكناية أن ترجع الى مذكور اذا أمكن ذلك ومن قال بذلك حمل النصرة على الرزق وقال أبو عبيدة وقف علينا سائل من بني بكر فقال من ينصرني نصره الله أي من يعطني أعطاه الله فكأنه قال من كان يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فليذهب هل يجد ما يغيظه وقال آخرون المراد لن ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم كما وصفه تعالى في قوله وان أصابته فتنة انقلب على وجهه فليأت بما يقطع به الجزع وهو الاختناق فان ذلك لا يغلب القسمة ويجعله مرزوقا

ونهيتكم عن اليأس من روح الله تعالى وأعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف عليه السلام والسلام روى انه سأل البشير كيف يوسف فقال هو ملك مصر قال ما أصنع بالملك على أي دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين) ومن حق من اعترف بذنبه أن يصفح عنه ويستغفر له فكأنهم كانوا على ثقة من عفوه عليه الصلاة والسلام ولذلك اقتصروا على استدعاء الاستغفار وأدرجوا ذلك في الاستغفار (قال سوف أستغفر لكم ربي انه هو الغفور الرحيم) وهذا مشعر بعفوه وقيل أخر الاستغفار الى وقت السحر وتعمل الى ليلة الجمعة ليتحرى به وقت الاجابة وقيل أخره الى أن يستحل لهم من يوسف عليه الصلاة والسلام أو يعلم أنه قد عفا عنهم فان عفو المظلوم شرط المغفرة ويعضده أنه روى عنه أنه استقبل القبلة قائما يدعو وقام يوسف خلفه وتؤمن وقاموا خلفهما أدلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم وظنوا أنها الهلكة فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال ان الله قد أجاب دعوتك في ولدك وعقدهم وأبقهم بعدك على النبوة فان صح ثبتت نبوتهم وان ما صدر عنهم انما صدر قبل الاستدعاء وقيل المراد الاستمرار على الدعاء فقد روى أنه كان يستغفر كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة وقيل أقام الى الصلاة في وقت السحر فلما فرغ

أما قوله وكذلك أنزلناه آيات بينات فمعناه ومثل ذلك الانزال أنزلنا القرآن كله آيات بينات أما قوله ان الله يهدي من يريد فقد احتج أصحابنا به فقالوا المراد من الهداية اما وضع الادلة أو خلق المعرفة والاول غير جائز لانه تعالى فعل ذلك في حق كل المكلفين ولان قوله يهدي من يريد دليل على ان الهداية غير واجبة عليه بل هي معلقة بمشيئته سبحانه ووضع الادلة عند الخصم واجب فبقي أن المراد منه خلق المعرفة قال القاضي عبد الجبار في الاعتذار عنه يحتمل وجوها (أحدها) يكلف من يريد لان من كلف أحدا شيئا فقد وصفه له وبينه له (وثانيها) أن يكون المراد يهدي الى الجنة والاثابة من يريد من آمن وعمل صالحا (وثالثها) أن يكون المراد أن الله تعالى يلطف بمن يريد من علم انه اذا زاده هدى ثبت على ايمانه كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وهذا الوجه هو الذي أراد الحسن البصري بقوله ان الله يهدي من قبل لان من لم يقبل والوجهان الاولان ذكرهما أبو علي (والجواب عن الاول) ان الله تعالى ذكر ذلك بعد بيان الادلة والجواب عن الشبهات فلا يجوز حمله على محض التكليف وأما الوجهان الاخيران فمدفوعان لانهما عندك واجبان على الله تعالى وقوله يهدي من يريد يقتضي عدم الوجوب ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شئ شهيد ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم ان الله يفعل ما يشاء﴾ القراءة قرئ حق بالضم وقرئ حقا أي حق عليه العذاب حقا وقرئ مكرم بفتح الراء بمعنى الاكرام واعلم انه تعالى لما قال وأن الله يهدي من يريد أتبعه في هذه الآية بيان من يهدي ومن لا يهدي واعلم أن المسلم لا يخالفه في المسائل الاصولية الا طبقات ثلاثة (أحدها) الطبقة المشاركة له في نبوة نبيه كالخلاف بين الجبرية والقدرية في خلق الافعال البشرية والخلاف بين مثبتي الصفات والرؤية ونفاتها (وثانيها) الذين يخالفونه في النبوة ولكن يشاركونه في الاعتراف بالمعاد المختار كالخلاف بين المسلمين واليهود والنصارى في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعيسى وموسى عليهما السلام (وثالثها) الذين يخالفونه في الاله وهؤلاء هم السوفسطائية المتوقفون في الحقائق والدهرية الذين لا يعترفون بوجود مؤثر في العالم والفلاسفة الذين يثبتون مؤثرا موجبا لا مختارا فاذا كانت الاختلافات اقامة في أصول الاديان محصورة في هذه الاقسام الثلاثة ثم لا يشك ان أعظم جهات الخلاف هو من جهة القسم الاخير منها وهذا القسم الاخير باقسامه الثلاثة لا يوجدون في العالم المتظاهرين بعقائدهم ومذاهبهم بل يكونون مستترين ﴿أما القسم الثاني وهو الاختلاف الحاصل بسبب الانبياء عليهم السلام فنقسمه أن يقال القائلون بالفاعل المختار اما أن يكونوا معترفين بوجود الانبياء أو لا يكونوا معترفين بذلك أما المعترفون بذلك فاما أن يكونوا اتباعا لمن كان نبيا في الحقيقة أو لمن كان متنبئا أما اتباع الانبياء عليهم السلام فهم المسلمون واليهود والنصارى وفرقة أخرى بين اليهود والنصارى وهم الصابئون وأما اتباع المتنبئ فهم المجوس وأما المنكرون للانبياء على الاطلاق فهم عبدة الاصنام والاوثان وهم المسمون بالمشركين ويدخل فيهم البراهمة على اختلاف طبقاتهم فثبت أن الاديان الحاصلة بسبب الاختلافات في الانبياء عليهم السلام هي هذه الستة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية قال قتادة وعدّ تاسع الاديان ستة وأحدها لله تعالى وهو الاسلام ونحسبه للشيطان وتمام الكلام في هذه الآية قد تقدم في سورة البقرة أما قوله ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الزجاج هذا خبر لقول الله تعالى ان الذين آمنوا كما تقول ان

رفع يديه فقال اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لولدي ما أتوا الى أخيهم فأوحى الله اليه ان الله قد غفر لك ولهم أجمعين (فلما دخلوا على يوسف) روى أنه وجه يوسف الى أبيه جهازا ومائتي راحلة ليتجهز اليه بمن معه فاستقبل يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر أجمعهم فتلقوا يعقوب عليه الصلاة والسلام وهو يمشي متوكئا على يهوذا فنظر الى الخيل والناس

فقال يا بهوذا هذا قرعون مصر قال لابل ولدك فلما لقيه قال عليه الصلاة والسلام السلام عليك يا مذهب الاحزان وقيل قال له يوسف يا أبت بكيت علي حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا فقال بلى ولكني خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك وقيل ان يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان ١٧٤ وسبعون ما بين رجل وامرأة وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة

وسبعين رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف (آوى اليه أبويه) أى أباه وخالته وتزيلها منزلة الام كما يزيل العم منزلة الاب فى قوله عز وجل وآله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق أولان يعقوب عليه الصلاة والسلام تزوجها بعد أمه وقال الحسن وابن اسحق كانت أمه فى الحياة فلا حاجة الى التأويل ومعنى آوى اليه ضمهما اليه واعتنقهما وكأنه عليه الصلاة والسلام ضرب فى المنتقى مصر بأفنزل به قد خلوا عليه فآواهما اليه (وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين) من الشدائد والمكاره قاطبة والمشيئة متعلقة بالدخول على الامن (ورفع أبويه) عند نزولهم مصر (على العرش) على السرير تكرمة لهما فوق ما فعله لاخوته (وخروا له) أى أبواه واخوته (سجدا) تحية له فانه كان السجود عندهم جاريا مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس الفاشية فى التعظيم والتوقير وقيل ما كان ذلك الا اضطعادون تغفير الجباه وآباء الخرور وقيل خروا لاجله لله سجدا لله شكرا لورده قوله تعالى (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى) التى رأيتها وقد صدقها علمك (من قبل) فى زمن الصبا (قد جعلها ربى حقا) صدقا واقعا مائنه والاعتبار بحصول يوسف عنزلة القبلة وحمل اللام كما فى قوله * لسن أول من صلى لقبلتكم * تعسف

أقول ان الدين عليه لكثير قال جرير

ان الخليفة ان الله سربله * سربال ملك به ترجى الخواتم

(المسئلة الثانية) الفضل مطلق فيحتمل الفضل بينهم فى الاحوال والاماكن جميعا فلا يجازيهم جزاء واحدا بغير تفاوت ولا يجمعهم فى موطن واحد وقيل يفصل بينهم يقضى بينهم أما قوله تعالى ان الله على كل شئ شهيد فانما أراد أنه يفصل بينهم وهو عالم بما يستحقه كل منهم فلا يجرى فى ذلك الفصل ظلم ولا حيف أما قوله سبحانه وتعالى ألم تر أن الله يسجد له فقد سألت (السؤال الاول) ما الرؤية ههنا (الجواب) انها العلم أى ألم تعلم أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الارض وانما عرف ذلك بخبر الله لا انه رآه (السؤال الثانى) ما السجود ههنا قلنا فيه وجوه (أحدها) قال الزجاج أجود الوجوه فى سجود هذه الامور انها تسجد مطيعة لله تعالى وهو كقوله ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها والارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين أى نقول له كن فيكون وان منها لما يهبط من خشية الله وان من شئ الا يسبح بحمده وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والمعنى ان هذه الاجسام لما كانت قابلة لجميع الاعراض التى يحدثها الله تعالى فيها من غير امتناع البتة أشبهت الطاعة والانقياد وهو السجود فاذن قبل هذا التأويل يبطله قوله وكثير من الناس فان السجود بالمعنى الذى ذكرته عام فى كل الناس فاسناده الى كثير منهم يكون تخصيصا من غير فائدة والجواب من وجوه (أحدها) ان السجود بالمعنى الذى ذكرناه وان كان عاما فى حق الكل الا أن بعضهم تمرد وتكبر وترك السجود فى الظاهر فهذا الشخص وان كان ساجدا بذاته لكنه متمرد بظاهره أما المؤمن فانه ساجد بذاته وبظاهره فلاجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر (وثانيها) أن نقطع قوله وكثير من الناس عما قبله ثم فيه ثلاثة أوجه (الاول) أن نقول تقدير الآية ولله يسجد من فى السموات ومن فى الارض ويسجد له كثير من الناس فيكون السجود الاول بمعنى الانقياد والثانى بمعنى الطاعة والعبادة وانما فعلنا ذلك لانه قامت الدلالة على أنه لا يجوز استعمال اللفظ المشترك فى معنييه جميعا (الثانى) أن يكون قوله وكثير من الناس مبتدأ وخبره محذوف وهو مثاب لان خبره قوله بعد علم عليه وهو قوله حق عليه العذاب (والثالث) أن يبالغ فى تكثير المحقوقين بالعذاب فيعطف كثيرا على كثير ثم يخبر عنهم بحق عليهم العذاب كأنه قيل وكثير من الناس وكثير حق عليهم العذاب (وثالثها) أن من يحوز استعمال اللفظ المشترك فى مفهوميه جميعا يقول المراد بالسجود فى حق الاحياء العقلاء العبادة وفى حق الجمادات الانقياد ومن ينكر ذلك يقول ان الله تعالى تكلم بهذه اللفظة مرتين فعنى بها فى حق العقلاء الطاعة وفى حق الجمادات الانقياد (السؤال الثالث) قوله ولله يسجد من فى السموات ومن فى الارض لفظه لفظ العموم فيدخل فيه الناس فلم قال مرة أخرى وكثير من الناس (الجواب) لو اقتصر على ما تقدم لاوهم ان كل الناس يسجدون وكما ان كل الملائكة يسجدون فحين ان كثيرا منهم يسجدون طوعا دون كثير منهم فانه يمتنع عن ذلك وهم الذين حق عليهم العذاب (القول الثانى فى تفسير السجود) أن كل ما سوى الله تعالى فهو ممكن لذاته والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه الا عند الانتهاء الى الواجب لذاته كما قال وان الى ربك المنتهى وكما ان الامكان لازم للممكن حال حدوثه وبقائه فافتقاره الى الواجب حاصل حال حدوثه وحال بقائه وهذا الافتقار الذاتى اللازم للماهية أدل على الخضوع والتواضع من وضع الجبهة على الارض فلا جرم ذلك علامة وضعية للافتقار الذاتى وقد يتطرق اليها الصدق والكذب أما نفس الافتقار الذاتى فانه يمتنع التغير والتبدل فجميع الممكنات ساجدة بهذا المعنى

لايخفى وتأخيره عن الرفيع على العرش ليس بخاص فى ذلك لان الترتيب الذكرى لايجب كونه على وفق الترتيب الوقوعى فلعل تأخيره عنه لاصل به ذكر كونه تعبيرا لرؤياه وما يتصل به من قوله (وقد أحسن بى) المشهور استعمال الاحسان بالى وقد يستعمل بالباء ايضا كما فى قوله عز اسمه و بالوالدين احسانا وقيل هذا يتضمن لطف وهو الاحسان الخفى. ١٧٥ كما يؤذن به قوله تعالى ان ربى لطيف لما

لله تعالى أى خاصة منه لله ممتزجة بالفاقة اليه والحاجة الى تخليقه وتكوينه وعلى هذا تأولوا قوله وان من شئ الا يسبح بحمده وهذا قول القفال رحمه الله (القول الثالث) ان سجود هذه الاشياء سجود ظلها كقوله تعالى يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون وهو قول مجاهد وأما قوله كثير من الناس وكثير حق عليه العذاب فقال ابن عباس فى رواية عطاء كثير من الناس يوحده وكثير حق عليه العذاب من لا يوحده وروى عنه أيضا انه قال وكثير من الناس فى الجنة وهذه الرواية تؤكد ما ذكرنا أن قوله وكثير من الناس مبتدأ وخبره محذوف وقال آخرون الوقف على قوله وكثير من الناس ثم استأنف فقال وكثير حق عليه العذاب أى وجب بإبائه وامتناعه من السجود وأما قوله تعالى ومن يهن الله فما له من مكرم فالمعنى ان الذين حق عليهم العذاب ليس لهم أحد يقدر على ازالة ذلك الهوان عنهم فيكون مكرما لهم ثم بين بقوله ان الله يفعل ما يشاء انه الذى يصح منه الاكرام والاهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد ﴿ القراءة روى عن الكسائى خصمان بكسر الخاء وقرئ قطعت بالتخفيف كان الله يقدر لهم نيرانا على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة قرأ الاعمش كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم ردوا فيها الحسن يصهر بتشديد الهاء للمبالغة وقرئ ولؤلؤا بالنصب على تقدير ويؤتون لؤلؤا كقوله وحورا عينا ولؤلؤا بقلب الهمزة الثانية واوا واعلم انه سبحانه لما بين ان الناس قسمان منهم من يسجد لله ومنهم من حق عليه العذاب ذكر ههنا كيفية اختصامهم وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ احتج من قال أقل الجمع اثنان بقوله هذان خصمان اختصموا ﴿والجواب﴾ الخصم صفة وصف بها الفوج أو الفريق فكأنه قيل هذان فوجان أو فريقان يختصمان فقوله هذان للفظ واختصموا للمعنى كقوله ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا ﴿المسئلة الثانية﴾ ذكروا فى تفسير الخصمين وجوها (أحدها) المراد طائفة المؤمنين وجماعتهم وطائفة الكفار وجماعتهم وان كل الكفار يدخلون فى ذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما يرجع الى أهل الاديان الستة فى دينهم أى فى ذاته وصفاته (وثانيها) روى ان أهل الكتاب قالوا نحن أحق بالله وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المؤمنون نحن أحق بالله آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا فهذه خصومتهم فى دينهم (وثالثها) روى قيس بن عبادة عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه انه كان يحلف بالله ان هذه الآية نزلت فى ستة نفر من قريش تبارزوا يوم بدر حمزة وعلى وعبيدة بن الحرث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة وقال على عليه السلام أنا أول من يجثو للخصومة بين يدى الله تعالى يوم القيامة (ورابعها) قال عكرمة هما الجنة والنار قالت النار خلقنى الله لعقوبته وقالت الجنة خلقنى الله لرحمته فقضى الله بين خيرهما على محمد صلى الله عليه وسلم ذلك والاقرب هو الاول لان السبب وان كان خاصا فالواجب حمل الكلام على ظاهره وقوله هذان كالاشارة الى من تقدم ذكره وهم أهل الاديان الستة وأيضا ذكر صنفين أهل طاعته وأهل معصيته ممن حق عليه العذاب فوجب أن يكون رجوع ذلك اليهما فمن خص به مشركى العرب أو اليهود من حيث قالوا فى كتابهم ونبيهم ما حكيناه فقد أخطأ وهذا هو الذى يدل على أن قوله ان الله يفصل بينهم

يشاء وفيه فائدة لا تخفى أى لطيف فى محسنا الى غير هذا الاحسان (اذ أخرجنى من السجن) بعد ما ابتليت به ولم يصرح بقصة الجب هذا رامن تثريب اخوته لان الظاهر حضورهم لوقوع الكلام عقيب خروجهم مجتباوا كتفاء بما يتضمنه قوله تعالى (وجاء بكم من البدو) أى البادية (من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى) أى افسد بيننا بالاغواء وأصله من نخس الرائض الدابة وحملها على الجرى يقال نزغه ونسغه اذا نخسه ولعله بالغ عليه السلام والسلام فى الاحسان حيث أسند ذلك الى الشيطان (ان ربى لطيف لما يشاء) أى لطيف التدبير لاجله رفيق حتى يجىء على وجها لحكمة والصواب ما من صعب الا وهو بالنسبة الى تدبيره سهل (انه هو العليم) بوجوه المصالح (الحكيم) الذى يفعل كل شئ على قضية الحكمة روى أن يوسف أحدث عند يعقوب عليهما الصلاة والسلام فطاف به

فى خزائنه فأدخله فى خزائن الورق والذهب وخزائن الحلى وخزائن الثياب وخزائن السلاح وغير ذلك فلما دخله خزائن القراطيس قال يا بنى ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت لى على ثمانى مراحل قال أمرنى جبريل قال أوما تسأله قال أنت أبسط للمعنى فسأله قال جبريل أمرنى بذلك لعوك أخاف أن يأكله الدئب قال فهلا خفتنى وروى أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام

سبعة أو ثمانية وعشرين سنة ثم مات وأوصى أن يدفن بالشام الى جنب أبيه اسحق فحمى بنفسه ودفنه ثم عاد الى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة فلما تم أمره وعلم أنه لا بد وله تاقت نفسه الى الملك الدائم الخالد فتمنى الموت فقال (رب قد آتيتني من الملك) أي بعضا منه عظيما وهو ملك مصر (وعلمتني من ١٧٦ تأويل الاحاديث) أي بعضا من ذلك كذلك ان أريد بتعليم تأويل الاحاديث تقويم غوامض أسرار

أراد به الحكم لان ذكر الخواص يقتضي ان توابع بعده يكون سكما فيهن الله تعالى حكمه في الكفار وذكر من أحوالهم أمورا ثلاثة (أحدها) قوله فصلت لهم ثياب من نار والمراد بالثياب احاطة النار بهم كقوله لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش عن أنس وقال سعيد بن جبير من نحاس أذيب بالنار أحدث من قوله تعالى سرابيلهم من قطران وأخرج الكلام بلفظ الماضي كقوله تعالى ونفخ في الصور وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لان ما كان من أمر الآخرة فهو كالواقع (وثانيها) قوله يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود الحميم الماء الحار قال ابن عباس رضي الله عنهما لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لاذابتها يصهر أي يذاب أي اذا صب الحميم على رؤسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر فيذيب امعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم (وثالثها) قوله ولهم مقامع من حديد المقامع السياط وفي الحديث لو وضعت مقمعة منها في الارض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها وأما قوله كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها فاعلم ان الاعادة لا تكون الا بعد الخروج والمعنى كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم يخرجوا أعيدوا فيها ومعنى الخروج ما يروى عن الحسن ان النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى اذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق والحريق الغليظ من النار العظيم الاهلاك ثم نبه سبحانه على ذكر حكمه في المؤمنين من أربعة أوجه (أحدها) المكان وهو قوله ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار (وثانيها) الحلية وهو قوله يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير فبين تعالى أنه موصلهم في الآخرة الى ما حرمه عليهم في الدنيا من هذه الامور وان كان من أحلها لهم أيسا شاركهم فيه لان المحلل للنساء في الدنيا يسير بالاضافة الى ما سيحصل لهم في الآخرة (وثالثها) الملبوس وهو قوله ولباسهم فيها حرير (ورابعها) قوله وهدوا الى الطيب من القول وفيه وجوه (أحدها) أن شهادة أن لا اله الا الله هو الطيب من القول لقوله ومثل كلمة طيبة وقوله اليه يصعد الكلم الطيب وهو صراط الحميد لقوله وانك لتهدي الى صراط مستقيم (وثانيها) قال السدي وهدوا الى الطيب من القول وهو القرآن (وثالثها) قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء هو قولهم الحمد لله الذي صدقنا وعده (ورابعها) أنهم اذا سيروا الى الدار الآخرة هدوا الى البشارات التي تأتيهم من قبل الله تعالى بدوام النعيم والسرور والسلام وهو معنى قوله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وعندي فيه وجه خامس وهو أن العلاقة المدنية جارية مجرى الحجاب للارواح البشرية في الاتصال بعالم القدس فاذا فارقت أبدانها انكشف الغطاء ولاحت الانوار الالهية وظهور تلك الانوار هو المراد من قوله وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد والتعبير عنها هو المراد من قوله وهدوا الى الطيب من القول

﴿قوله سبحانه وتعالى﴾ ﴿ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ اعلم أنه تعالى بعد ان فصل بين الكفار والمؤمنين ذكر عظم حرمة البيت وعظم كفرهم ولا سيما اذا قيل ان الذين كفروا هم الذين جاءوا يوم الحديبية عام صد صلى الله عليه وسلم ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام وذلك بالمنع من العمرة والجهاد لانهم كانوا يأتون ذلك وفيه اشكال وهو أنه كيف عطف المستقبل وهو قوله ويصدون عن سبيل الله على الماضي وهو قوله كفروا (والجواب) عنه من وجهين (الاول) انه يقال فلان يحسن الى الفقراء ويعين الضعفاء لا يراد به حال ولا استقبال وانما يراد

أسرار التكلم الالهية ودقائق سنن الانبياء عليهم الصلاة والسلام فالترتيب ظاهر وأما ان أريد به تعليمهم تعبير الرؤيا كما هو الظاهر فلعل تقديم ايتاء الملك عليه في الذكر لانه يقام تعداد النعم الفائضة عليه من الله سبحانه والملك أعرق في كونه نعمة من التعليم المذكور وان كان ذلك أيضا نعمة جليلة في نفسه ولا يمكن عد شيء من الاعتذار فيما سبق لان التعليم هناك وارد على نهج العلة الغائية للتمكين فان حمل على معنى التقبيل لزم تأخره عنه وأما الواقع هو أو مجرد التأخير في الذكر والعطف بحرف الواو لا يستدعي ذلك الترتيب في الوجود (فاطر السموات والارض) صفة مشبهة من فطر بمعنى خلق والاضافة فيه غير حقيقية فانتصابه على أنه صفة للمنادى أو منادى آخر وصفه تعالى به بعد وصفه بالربوبية مبالغة في ترتيب مبادي ما يعقبه من قوله (أنت وليي) في جميع مالك أموري (في الدنيا والآخرة) أو الذي يتولاني بالنعمة فيهما وقد أتممت علي نعمة الدنيا (توفني) فيما يستقبل من أيامي (مسلما) على دينك (وألحقني بالصالحين) من آبائي أو بعامة الصالحين في الرتبة والكرامة فلما تم استغفار

ولنون يوشع فتى موسى عليه الصلاة والسلام ولقد توارثت القراءتين العامة بعد عصر ولم يزل بنو اسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه الى أن بعث الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام (ذلك) اشارة الى ما سبق من نبأ يوسف وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من الدلالة على بعد منزلته أو كونه بالانقضاء فى حكم البعيد والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره (من أنباء الغيب) الذى لا يعلم حوله أحد وقوله (نوحيه اليك) خبر بعد خبر أو حال من الضمير فى الخبر ويجوز أن يكون ذلك اسما موصولا ومن أنباء الغيب صلته ويكون الخبر نوحيه اليك (وما كنت لديهم) بريد اخوة يوسف عليه الصلاة والسلام (اذ أجمعوا أمرهم) وهو جعلهم اياه فى غيابة الجب (وهم يمكرون) به ويبغون له الغوائل حتى تقف على طواهر أسرارهم وبواطنها وتطلع على سرائرهم طرا وتحيط بما لديهم خبرا وليس المراد بحضوره نفى حضوره عليه الصلاة والسلام فى مشهد اجماعهم ومكرهم فقط بل فى سائر المشاهد أيضا وانما خص بنفسه بالذكر لكونه مطلع القصة وأخبى أحوالها كما ينبئ عنه قوله وهم يمكرون والخطاب وان كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكن المراد الزام المكذبين ونفى ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك اذ لا سبيل الى

استمرار وجود الاحسان منه فى جميع أزمنته وأوقاته فكأنه قيل ان الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله ونظيره قوله الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله (وثانيهما) قال أبو على الفارسى التقدير ان الذين كفروا فيما مضى وهم الآن يصدون ويدخل فيه أنهم يفعلون ذلك فى الحال والمستقبل أما قوله والمسجد الحرام يعنى ويصدون هم أيضا عن المسجد الحرام قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت الآية فى أبى سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية عن المسجد الحرام عن ان يحجوا ويعتمروا وينحروا الهدى فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وكان عمرها عسرة ثم صالحوه على أن يعود فى العام القابل أما قوله الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال أبو على الفارسى أى جعلناه للناس منسكا ومتعبدا وقوله سواء العاكف فيه والبادى رفع على أنه خبر مبتدا مقدم أى العاكف فيه والبادى فيه سواء وتقدير الآية المسجد الحرام الذى جعلناه للناس منسكا فالعاكف فيه والبادى فيه سواء وقرأ عاصم ويعقوب سواء بالنصب بايقاع الجعل عليه لان الجعل يتعدى الى مفعولين والله أعلم (المسئلة الثانية) العاكف المقيم به الحاضر والبادى الطارئ من البدو وهو النازح اليه من غربة وقال بعضهم يدخل فى العاكف القريب اذا جاور ولزمه للتعبد وان لم يكن من أهله (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى أنهما فى أى شئ يستويان قال ابن عباس رضى الله عنهما فى بعض الروايات أنهما يستويان فى سكنى مكة والنزول بها فليس أحدهما أحق بالمنزل الذى يكون فيه من الآخر الا ان يكون واحد سبق الى المنزل وهو قول قتادة وسعيد بن جبير ومن مذهب هؤلاء أن كراء دور مكة وبيعها حرام واحتجوا عليه بالآية والخبر أما الآية فهى هذه قالوا ان أرض مكة لا تملك فانها لو ملكت لم يستو العاكف فيها والبادى فلما استويا ثبت أن سبيله سبيل المساجد وأما الخبر فقوله عليه السلام مكة مباح لمن سبق اليها وهذا مذهب عمر بن عبد العزيز ومذهب أبى حنيفة واسحق الحنظلى رضى الله عنهم وعلى هذا المراد بالمسجد الحرام الحرم كله لان اطلاق لفظ المسجد الحرام والمراد منه البلد جائز بدليل قوله تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام وههنا قد دل الدليل وهو قوله العاكف لان المراد منه المقيم اقامة واقامته لا تكون فى المسجد بل فى المنازل فيجب أن يقال ذكر المسجد وارد بمكة (القول الثانى) المراد جعل الله الناس فى العبادة فى المسجد سواء ليس للمقيم أن يمنع البادى وبالعكس قال عليه السلام يا بنى عبد مناف من ولى منكم من أمور الناس شيأ فلا يمنعن أحدا طاف بهذا البيت أو صلى أية ساعة من ليل أو نهار وهذا قول الحسن ومجاهد وقرأ من آجار بيع دورمكة وقد جرت مناظرة بين الشافعى واسحق الحنظلى بمكة وكان اسحق لا يرخص فى كراء بيوت مكة واحتج الشافعى رحمه الله بقوله تعالى الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق فاضيفت الدار الى مالكها والى غير مالكها وقال عليه السلام يوم فتح مكة من أغلق بابه فهو آمن وقال صلى الله عليه وسلم هل ترك لنا عقيل من ربع وقد اشترى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما دار السجن أترى أنه اشتراها من مالكها أو من غير مالكها قال اسحق فما علمت أن الحجة قد تمتى تركت قولى أما الذى قالوه من حمل لفظ المسجد على مكة بقرينة قوله العاكف فضعيف لان العاكف قد يراد به الملازم للمسجد المعتكف فيه على الدوام أو فى الاكثر فلا يلزم ما ذكروه ويحتمل أن يراد بالعاكف المجاور للمسجد المتمكن فى كل وقت من التعبد فيه فلا وجه لصرف الكلام عن ظاهره مع هذه الاحتمالات أما قوله ومن يرد فيه بالحاد بظلم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ يرد بفتح الياء من الورود ومعناه من أتى فيه بالحاد وعن الحسن ومن يرد الحاده بظلم والمعنى ومن يرد ايقاع الحاد فيه فالاضافة صحيحة على الاتساع فى

معرفتك اياه سوى ذلك اذ عدم سماعك ذلك من الغير وعدم مطالعتك للكتب أمر لا يشك فيه المكذبون أيضا ولم تكن بين ظهرانيهم عند وقوع الامر حتى تعرف كما هو فتبلغه اليهم وتنبههم بالكفار فكأنهم يشكون فى ذلك فيدفع شكهم وفيه أيضا ايذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع وما يتلوه أهل الكتاب ليس على ما هو عليه يعنى

أن مثل هذا التحقيق بلا وحي لا يتصور الا بالحضور والمشاهدة واذا ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي ومثله قوله تعالى وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وقوله وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر (وما أكثر الناس) برغبتك العموم أو أهل مكة (ولو حرصت) أي على ايمانهم ١٧٨ وبالغت في اظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك (بمؤمنين) لتصميمهم على الكفر

الظرف كمكر الليل والنهار ومعناه ومن يرد أن يلحد فيه ظالما ﴿المسئلة الثانية﴾ الالحاد المدخول عن القصد وأصله الحاد الحافر فوذ كر المفسرون في تفسير الالحاد وجوها (أحدها) أنه الشرك يعني من لجأ الى حرم الله ليشرك به عدا به الله تعالى وهو أحد الروايات عن ابن عباس وقول عطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل (وثانيها) قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في عبد الله بن سعد حيث استعمله النبي صلى الله عليه وسلم فارتد مشركا وفي قيس بن ضبابة وقال مقاتل نزلت في عبد الله بن خطل حين قتل الانصاري وهرب الى مكة كافرا فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله يوم الفتح كافرا (وثالثها) قتل مانهى الله تعالى عنه من الصيد (ورابعها) دخول مكة بغير احرام وارتكاب ما لا يحل للحرم (وخامسها) أنه الاحتكار عن مجاهد وسعيد بن جبير (وسادسها) المنع من عمارته (وسابعها) عن عطاء قول الرجل في المبايعة لا والله وبلى والله وعن عبد الله بن عمر انه كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم فاذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل فقيل له فقال كنا نحدث أن من الالحاد فيه أن يقول الرجل لا والله وبلى والله (وثامنها) وهو قول المحققين أن الالحاد بظلم عام في كل المعاصي لان كل ذلك صغير أم كبير يكون هناك أعظم منه في سائر البقاع حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه لو أن رجلا همّ بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذابا أليما وقال مجاهد تضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات فان قيل كيف يقال ذلك مع أن قوله تذقه من عذاب أليم غير لائق بكل المعاصي قلنا لا نسلم فان كل عذاب يكون أليما الا أنه تختلف مراتبه على حسب اختلاف المعصية ﴿المسئلة الثالثة﴾ الباء في قوله بالحاد فيه قولان (أحدهما) وهو الاولى وهو اختيار صاحب الكشاف أن قوله بالحاد بظلم حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال ومن يرد فيه مرادا ما عادلا عن القصد ظالما نذقه من عذاب أليم يعني أن الواجب على من كان قصده أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده (الثاني) قال أبو عبيدة مجازه ومن يرد فيه الحاد او الباء من حروف الزوائد ﴿المسئلة الرابعة﴾ لما كان الالحاد يعني الميل من أمر الى أمر بين تعالى أن المراد بهذا الالحاد ما يكون ميلا الى الظلم فلهذا قرن الظلم بالالحاد لانه معصية كبرت أم صغرت الا وهو ظلم ولذلك قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم أما قوله تعالى نذقه من عذاب أليم فهو بيان الوعيد وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ من قال الآية نزلت في ابن خطل قال المراد بالعذاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله يوم الفتح ولا وجه للتخصيص اذا أمكن التعميم بل يجب أن يكون المراد بالعذاب في الآخرة لانه من أعظم ما يتوعد به ﴿المسئلة الثانية﴾ أن هذه الآية تدل على أن المرء يستحق العذاب بارادته للظلم كما يستحقه على عمل جوارحه ﴿المسئلة الثالثة﴾ ذكروا قولين في خبر ان المذكور في أول الآية (الاول) التقدير ان الذين كفروا ويصدون ومن يرد فيه بالحاد نذقه من عذاب فهو عائد الى كلتا الجملتين (الثاني) أنه محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره ان الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم وكل من ارتكب قبيحا فهو كذلك ﴿قوله تعالى﴾ ﴿واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيأ وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ اعلم أن قوله واذ بوأنا أي واذكر حين جعلنا لابراهيم مكان البيت مباءة أي مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة وكان قد رفع البيت الى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله تعالى ابراهيم عليه

واصرارهم على العناد روى أن اليهود وقريشا لما سألوا عن قصة يوسف وعدوا أن يسلموا فلما أخبرهم بها على موافقة التوراة فلم يسلموا حزن النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له ذلك (وما تسألهم عليه) أي على الانباء أو على القرآن (من أجر) من جعل كما يفعله جهلة الاخبار (ان هو الا ذكر) عظة من الله تعالى (للعالمين) كافة لان ذلك مختص بهم (وكأين من آية) أي كأي عدد شئت من الآيات والعلامات الدالة على وجود الصانع ووحدته وحكمة وعلمه وقدرته وحكمته غير هذه الآية التي جئت بها (في السموات والارض) أي كائنة فيهم مما من الاجرام الفلكية ومافيها من النجوم وتغير أحوالها ومن الجبال والبحار وسائر ما في الارض من العجائب الفائتة للحصر (يمرون عليها) أي يشاهدونها ولا يعتبرون بها وقرئ برفع الارض على الابتداء ويمرون خبره وقرئ بنصبها على معنى ويطؤن الارض يمرون عليها وفي مصحف عبد الله والارض يمشون عليها والمراد ما يرون فيها من آثار الامم الهالكة السلام وغير ذلك من الآيات والعبر (وهم عنها معرضون) غير ناظرين اليها ولا متفكرين فيها (وما يؤمن أكثرهم بالله) في اقرارهم بوجوده وخالقيته (الا وهم مشركون) بعبادتهم لغيره أو باتخاذهم الاحبار والرهبان أربابا أو بقولهم باتخاذه تعالى ولدا سبحانه وتعالى

عن ذلك عاوا كبيرا أو بالنور والظلمة وهي جملة حالية أي لا يؤمن أكثرهم الا في حال شركهم قيل نزلت الآية في أهل مكة وقيل في المنافقين وقيل في أهل الكتاب (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) أي عقوبة تغشاهم وتشملهم (أو تأتيهم الساعة بغتة) فجأة من غير سابقة علامة (وهم لا يشعرون) بإتيانها غير مستعدين لها (قل هذه سبيلي) ١٧٩ وهي الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالإخلاص وفسرها بقوله (أدعو إلى الله على بصيرة) بيان وجهة واضحة غير عمياء أو هي حال من الضمير في سبيلي والعامل فيها معنى الاشارة (أنا) تأكيد للمستكن في أدعو أو على بصيرة لأنه حال منه أو مبتدأ خبره على بصيرة (ومن اتبعني) عطف عليه (وسبحان الله وما أنا من المشركين) مؤكد لما سبق من الدعوة إلى الله (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا) رد لقولهم لو شاء الله لأنزل ملائكة (نوحي إليهم) كما أوحينا إليك وقرئ بالنون (من أهل القرى) لأنهم أعلم وأحلم وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من المكذبين بالرسل والآيات فيحذروا تكذيبك (ولدار الآخرة) أي الساعة أو الحياة الآخرة (خير للذين اتقوا) الشرك والمعاصي (أفلا تعقلون) فتستعملوا عقولكم

السلام مكانه بريح أرسلها فكشفت ما حوله فبناه على وضعه الأول وقيل أمر ابراهيم بأن يأتي موضع البيت فبنى فأطاق ذلك فبنى عليه مكانه فبعث الله تعالى على قدر البيت الحرام في العرض والطول غمامة وقيل رأس يتكلم وله لسان وعينان فقال يا ابراهيم ابن على قدري وحيالي فاجتهد في البناء وذهبت الصحابة وههنا سؤالات (السؤال الأول) لا شك أن أمر البيت مفسرة فكيف يكون النهي عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيرا للتبوئة (الجواب) أنه سبحانه لما قال جعلنا البيت مرجعا لابراهيم فكأنه قيل ما معنى كون البيت مرجعا له فأجيب عنه بأن معناه أن يكون بقاؤه موجودا لرد البيت عن الشريك والتطهير بقاؤه مشتغلا بتنظيف البيت عن الأوثان والأصنام (السؤال الثاني) أن ابراهيم لم يكن يشرك بالله فكيف قال أن لا تشرك بي (الجواب) المعنى لا تجعل في العبادة على شريكا ولا تشرك بي غرضا آخر في بناء البيت (السؤال الثالث) البيت ما كان معمورا قبل ذلك فكيف قال وطهر بيتي (الجواب) لعل ذلك المكان كان معمورا وكانوا يرمون اليه الأقذار فأمر ابراهيم ببناء البيت في ذلك المكان وتطهيره من الأقذار أو كانت معمورة فكانوا قد وضعوا فيه أصناما فأمره الله تعالى بتخريب ذلك البناء ووضع بناء جديد وذلك هو التطهير عن الأوثان أو يقال المراد أنك بعد أن تبنيه فطهره عما لا ينبغي من الشرك وقول الزور وأما قوله للطائفين والقائمين فقال ابن عباس رضي الله عنهما للطائفين بالبيت من غير أهل مكة والقائمين أي المقيمين بها والركع السجود أي من المصلين من الكل وقال آخرون القائمون هم المصلون لأن المصلي لا بد وأن يكون في صلاته جامعا بين القيام والركوع والسجود والله أعلم أما قوله تعالى وأذن في الناس بالحج ففيه مسائل (المسئلة الأولى) قرأ ابن محيصن وأذن بهمزة أعلم (المسئلة الثانية) في المأمور قولان (أحدهما) وعليه أكثر المفسرين أنه هو ابراهيم عليه السلام قالوا لما فرغ ابراهيم عليه السلام من بناء البيت قال سبحانه وأذن في الناس بالحج قال يا رب وما يبلغ صوتي قال عليك الأذان وعلي البلاغ فصعد ابراهيم عليه السلام الصفا وفي رواية أخرى أبا قبيس وفي رواية أخرى على المقام قال ابراهيم كيف أقول قال جبريل عليه السلام قل لبيك اللهم لبيك فهو أول من لبى وفي رواية أخرى أنه صعد الصفا فقال يا أيها الناس ان الله كتب عليكم حج البيت العتيق فسمعه ما بين السماء والأرض فما بقي شئ سمع صوته الا أقبل يلبي يقول لبيك اللهم لبيك وفي رواية أخرى ان الله بعد عوكم إلى حج البيت الحرام ليثيبكم به الجنة ويجيركم من النار فأجابه يومئذ من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء وكل من وصل إلى صوته من حجر أو مدر أو شجر أو مدر أو أكمة أو تراب قال مجاهد فالحاج إنسان ولا يحج أحد حتى تقوم الساعة الا وقد أسمعه ذلك النداء فمن أجاب مرة حج مرة ومن أجاب مرتين أو أكثر فالحج مرتين أو أكثر على ذلك المقدار وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما أمر ابراهيم عليه السلام بالأذان تواضعت له الجبال وخفضت وارتفعت له القرى قال القاضي بعد الجبار يبعد قولهم أنه أجابه الصخر والمدر لأن الاعلام لا يكون الا لمن يؤمر بالحج دون الجماد فما من يسمع من أهل المشرق والمغرب نداءه فلا يمتنع اذا قواه الله تعالى ورفع الموانع ومثل ذلك قد يجوز في زمان الأنبياء عليهم السلام (القول الثاني) أن المأمور بقوله وأذن هو محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول الحسن واختيار أكثر المعتزلة واحتجوا عليه بأن ما جاء في القرآن وأمكن حمله على أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو المخاطب به فهو أولى وتقدم قوله وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت لا يجب أن يكون قوله وأذن برجع اليه اذ قد بينا أن معنى قوله وإذ بوأنا أي واذكر يا محمد اذ بوأنا فهو في حكم المذكور فاذا قال تعالى وأذن فالبه يرجع الخطاب وعلى هذا القول ذكروا في تفسير قوله تعالى وأذن وجوها (أحدها) أن الله تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يعلم

الحرة وآخر بها دار الآخرة وقرئ بالياء على انه غير داخل تحت قل (حتى إذا استيأس الرسل) غاية لمحذوف دل عليه السياق أي لا يغرنهم عماد يهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء فان من قبلهم قد أملوا حتى أيس الرسل عن النصر عليهم في الدنيا أو عن إيمانهم لتمام كفرهم وتمادهم في الطغيان من غير وازع (وظنوا أنهم قد كذبوا) كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم يتصرون عليهم

أو كذبهم رجاؤهم فانه يوصف بالصدق والكذب والمعنى ان مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظارا لنصر من الله تعالى قد تطاولت وعادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا (جاءهم نصرنا) فجأة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وظنوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من ١٨٠ النصر فان صح ذلك عنه فلعله أراد بالظن ما يخطر بالبال من شبه الوسوسة وحديث

الناس بالحج (وثانيها) قال الحبائي أمر الله تعالى أن يعلن التلبية فيعلم الناس أنه حاج فيحجوا معه قال وفي قوله يأتوك دلالة على أن المراد أن يحج فيقتدى به (وثالثها) أنه ابتداء فرض الحج من الله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم أما قوله يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ففيه مسائل (المسئلة الاولى) الرجال المشاة واحدهم راجل كتاجر وتاجر وقرئ رجال بضم الراء مخفف الجيم ومثقلة ورجال كعجال عن ابن عباس رضي الله عنهما وقوله وعلى كل ضامر أي ركبانا والضمور الهزال ضمر يضمر ضمورا والمعنى أن الناقة صارت ضامرة لطول سفرها وانما قال يأتين أي جماعة الابل وهي الضوامر لان قوله وعلى كل ضامر معناه على ابل ضامرة فجعل الفعل بمعنى كل وقيل يأتي على اللفظ صح وقرئ يأتون صفة للرجال والركبان والفج الطريق بين الجبلين ثم يستعمل في سائر الطرق اتساعا والعميق البعيد قر أبو مسعود معيق يقال بئر بعيدة العمق والمعق (المسئلة الثانية) المعنى وأذن ليأتوك رجالا وعلى كل ضامر أي وأذن ليأتوك على هاتين الصفتين أو يكون المراد وأذن فأتوهم على هاتين الصفتين (المسئلة الثالثة) بدأ الله بذكر المشاة تشريفا لهم وروى سعيد بن جبير بأسناده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الحاج الراكب له بكل خطوة تخطو راحلته سبعون حسنة وللماشي سبعمائة حسنة من حسنات الحرم قيل يارسول الله وما حسنات الحرم قال الحسنة بمائة ألف حسنة (المسئلة الرابعة) انما قال يأتوك رجالا لانه هو المنادي فمن أتى بمكة حاجا فكأنه أتى ابراهيم عليه السلام لانه يجيب نداءه أما قوله ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ففيه مسائل (المسئلة الاولى) أنه تعالى لما أمر بالحج في قوله وأذن في الناس بالحج بذكر حكمة ذلك الامر في قوله ليشهدوا منافع لهم واختلفوا فيها فبعضهم حملها على منافع الدنيا وهي أن يتجروا في أيام الحج وبعضهم حملها على منافع الآخرة وهي الغفران والمغفرة عن محمد الباقر عليه السلام وبعضهم حملها على الامرين جميعا وهو الاولى (المسئلة الثانية) انما نكر المنافع لانه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات (المسئلة الثالثة) كنى عن النحر والضربذكر اسم الله تعالى لان أهل الاسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه اذا نحروا وذبحوا وفيه تنبيه على أن الغرض الاصلي فيما يتقرب به الى الله تعالى أن يذكر اسم الله تعالى وان يخالف المشركين في ذلك فانهم كانوا يذبحونها للنصب والاوثان قال مقاتل اذا ذبحت فقل بسم الله والله أكبر اللهم منك ولك وتستقبل القبلة وزاد الكلبي فقال ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين قال القفال وكان المتقرب بها يواظب قائما مستصورا بصورة من يهدي نفسه بما يعادلها فكأنه يبذل تلك الشاة بدل مهجته طلبا لمرضاة الله تعالى واعترافا بأن تقصيره كاد يستحق مهجته (المسئلة الرابعة) أكثر العلماء صاروا الى أن الايام المعلومات عشر ذي الحجة والمعدودات أيام التشريق وهذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والحسن ورواية سعيد بن جبير عن ابن عباس واختيار الشافعي وأبي حنيفة رحمهم الله واحتجوا بأنها معلومة عند الناس لحرصهم على علمها من أجل أن وقت الحج في آخرها ثم للمنافع أوقات من العشر معروفة يوم عرفة والنحر يوم الحرام وكذلك الذبح لها وقت منها وهو يوم النحر وقال ابن عباس في رواية عطاء انها يوم النحر وثلاثة أيام بعده وهو اختيار أبي مسلم قال لانها كانت معروفة عند العرب بعدها وهي أيام التحر وهو قول أبي يوسف ومحمد رحمهما الله أما قوله بهيمة الانعام فقال صاحب الكشاف البهيمة مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر فبينت بالانعام وهي الابل والبقر والضأن والمعز أما قوله تعالى فكلوا منها فمن الناس من قال انه أمر وجوب لان أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون منها

النفس وانما عبر عنه بالظن تهويلا للخطب وأم الظن الذي هو ترجيح أحد الجائزين على الآخر فلا يتصور ذلك من آحاد الامة فما ظنك بالانبياء عليهم الصلاة والسلام وهم هم ومنزلتهم في معرفة شؤن الله سبحانه منزلتهم وقيل الضميران للرسل اليهم وقيل الاول لهم والثاني للرسل وقرئ بالتشديد أي ظن الرسل أن القوم كذبوهم فيما وعدوهم وقرئ بالتخفيف على بناء الفاعل على أن الضميرين للرسل أي ظنوا أنهم كذبوا عند قومهم فيما حدثوا به لما تراخى عنهم ولم يروا له أثرا أو على أن الاول لقومهم (فنجي من نشاء) هم الرسل والمؤمنون بهم وقرئ فنجي على لفظ المستقبل بالتخفيف والتشديد وقرئ فنجا (ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) اذا نزل بهم وفيه بيان لمن تعلق بهم المشيئة (لقد كان في قصصهم) أي قصص الانبياء وأممهم وبصره قراءة من قرأ بكسر القاف أو قصص يوسف وأخوته (عبرة لاولي الالباب) لذوي العقول المبرأة من شوائب أحكام الحس (ما كان) أي القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة (حديثا يفترى ولكن) كان (تصديق الذي بين يديه) من الكتب السماوية وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أي ولكن هو تصديق الذي بين يديه (وتفصيل كل شيء) مما يحتاج اليه في الدين اذ ما من أمر ديني الا وهو يستند الى القرآن بالذات أو ترفعا

وسط (وهدى) من الضلالة (ورحمة) ينال بها خير الدارين (لقوم يؤمنون) أى يصدقونه لانهم المنتفعون به وأما من عداهم فلا يهتدون بهداه ولا ينتفعون بجدواه * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم علموا أرقاءكم سورة يوسف فانه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلما ﴿ سورة الرعد مدنية وقيل مكية الا الاقوله ويقول الذين كفروا الآية وآيها خمس وأربعون ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

(المر) اسم للسورة وجعل لها الرفع على انه خبر لمبتدا محذوف أى هذه السورة مسماة بهذا الاسم وهو أظهر من الرفع على الابتداء اذ لم يسبق للعلم بالتسمية كما مر مرارا وقوله تعالى (تلك) على الوجه الاول مبتدأ أسند اليه ما بعده وعلى الوجه الثانى مبتدأ ثان أو بدل من اسم الاشارة البدل الكل بخاصته وأما النصب بتقدير فعل مناسب المقام نحو اقرأ او اذكر فتلك مبتدأ كما اذا جعل المرسرودا على غط التعديد أو بمعنى أنا الله أعلم وأرى على ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما والخبر على التقادير قوله تعالى ﴿ آيات الكتاب ﴾ أى الكتاب العجيب الكامل الفائق عن الوصف بالمعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به فهو عبارة عن جميع القرآن أو عن جميع المنزل حينئذ حسبما مر فى مطالع سورة يونس

ترفعا على الفقراء فامر المسلمون بذلك لمافيه من مخالفة الكفار ومساواة الفقراء واستنكف مال التواضع وقال الاكثرون انه ليس على الوجوب ثم قال العلماء عن أهدى أو ضحى حسن أن يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله تعالى فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير وغيرهم من قال يأكل الثلث ويدخر الثلث ويتصدق بالثلث ومذهب الشافعى رحمه الله ان الاكل مستحب والاطعام واجب فان أطعم جميعها أجزاه وان أكل جميعها لم يجزه هذا فيما كان تطوعا فاما الواجبات كالنذور والكفارات والجبرانات النقصان مثل دم القران ودم التمتع ودم الاساءة ودم الحلق فلا يأكل منها أما قوله وأطعموا البائس الفقير فلا شبهة فى أنه أمر ايجاب والبائس الذى أصابه بؤس أى شدة والفقير الذى أضعفه الاعسار وهو أحوج من فقار الظهر قال ابن عباس البائس الذى ظهر بؤسه فى ثيابه وفى وجهه والفقير الذى لا يكون كذلك فتكون ثيابه نقية ووجهه وجه غنى أما قوله ثم ليقضوا تفثهم قال الزجاج ان أهل اللغة لا يعرفون التفث الا من التفسير وقال المبرد أصل التفث فى كلام العرب كل قاذورة تلحق الانسان فيجب عليه نقضها والمراد ههنا قص الشارب والاظفار ونتف الابط وحلق العانة والمراد من القضاء ازالة التفث وقال القفال قال نفطويه سألت اعرابيا فصيحا ما معنى قوله ثم ليقضوا تفثهم فقال ما أفسر القرآن ولكنا نقول للرجل ما أتفثك وما أدرنك ثم قال القفال وهذا أولى من قول الزجاج لان القول قول المثبت لا قول النافى أما قوله وليوفوا نذورهم فقرئ بتشديد الفاء ثم حصل ذلك ما أوجبه الدخول فى الحج من أنواع المناسك ويحتمل ان يكون المراد ما أوجبوه بالنذر الذى هو أول القول وهذا القول هو الاقرب فان الرجل اذا حج أو اعتمر فقد يرجب على نفسه من الهدى وغيره ما لولا ايجابه لم يكن الحج يقتضيه فامر الله تعالى بالوفاء بذلك أما قوله وليطوفوا بالبيت العتيق فالمراد طواف الواجب وهو طواف الافاضة والزيارة اما كون هذا الطواف بعد الوقوف ورمى الجمار والحلق ثم هو فى يوم النحر أو بعده ففيه تفصيل وسمى البيت بالعتيق لوجوه (أحدها) العتيق القديم لانه أول بيت وضع للناس عن الحسن (وثانيها) لانه أعتق من الجبابرة فكم من جبار سار اليه ليهدمه فنعه الله تعالى وهو قول ابن عباس وقول ابن الزبير ورووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما قصده أبرهة فعل به ما فعل * فان قيل فقد تسلط الحجاج عليه (فالجواب) قلنا ما قصد التسلط على البيت وانما تحصن به عبد الله بن الزبير فاحتال لاخراجه ثم بناه (وثالثها) لم يملك قط عن ابن عيينة (ورابعها) أعتق من الغرق عن مجاهد (وخامسها) بيت كريم من قولهم عتاق الطير والخيل واعلم أن اللام فى ليقضوا وليوفوا وليطوفوا واللام الامر وفى قراءة ابن كثير ونافع والاكثرين بتخفيف هذه اللامات وفى قراءة أبى عمرو بتحريكها بالكسر ﴿ قوله تعالى ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ﴾ أحلت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ﴾ قال صاحب الكشاف ذلك خبر مبتدا محذوف أى الامر والشان ذلك كما قدم الكاتب جملة من كلامه فى بعض المعانى فاذا أراد الخوض فى معنى آخر قال هذا وقد كان كذا والحرمة ما يحصل هتكه وجميع ما كلفه الله تعالى به هذه الصفة من مناسك الحج وغيرها يحتمل أن يكون عاما فى جميع تكاليفه ويحتمل أن يكون خاصا فيما يتعلق بالحج وعن زيد بن أسلم الحرمات خمس الكعبة الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمشعر الحرام وقال المتكلمون ولا تدخل النوافل فى حرمات الله تعالى فهو خير له عند ربه أى فالتعظيم خير له للعلم بأنه يجب القيام بمراعاتها وحفظها وقوله عند ربه يدل

اذ هو المتبادر من مطلق الكتاب المستغنى عن النعت وبه يظهر ما أريد من وصف الآيات بوصف ما أضيفت اليه من انزلت الكتاب بخلاف ما اذا جعل عبارة عن السورة فانها ليست بتلك المثابة من الشهرة فى الاتصاف بذلك المغنية عن التنصيص بما يوصف على انها عبارة عن جميع آياتها فلا بد من جعل تلك اشارة الى كل واحدة منها وفيه ما لا يخفى من التعسف الذى من تفسيره فى سورة يونس

(والذى أنزل اليك من ربك) أى الكتاب المذكور بكماله لاعذاره وتوحيدها (الحق) الثابت المطابق للواقع فى كل ما نطق به الحقيق بأن يخص به الحقيقة لعراقته فيها وليس فيه ما يدل على أن ما عداه ليس بحق أصلا على أن حقيته مستتبعة لحقية سائر الكتب السماوية لكونه مصدقا ١٨٢ لما بين يديه ومهيمنا عليه وفى التعبير عنه بالموصول واسناد الانزال اليه بصيغة المبنى للفعول والتعرض لوصف الربوبية مضافا الى ضميره عليه السلام من الدلالة على فخامة المنزل لجلالة شأن المنزل وتشريف المنزل اليه والايماء الى وجه بناء الخبر مالا يخفى (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) بذلك الحق المبين لاخلالهم بالنظر والتأمل فيه فعدم ايمانهم متعلق بعنوان حقيته لانه المرجع للتصديق والتكذيب لا بعنوان كونه منزلا كما قيل ولانه وارد على طريقة الوصف دون الاخبار (الله الذى رفع السموات) أى خلقهن مرتفعات على طريقة قولهم سبحان من كبر الفيل وصغر البعوض لا انه رفعها بعد أن لم تكن كذلك والجملة مبتدأ وخبر كقوله وهو الذى مد الارض (بغير عمد) أى بغير دعائم جمع عماد كاهاب وأهب وهو ما يعمد به أى يسند وقال عمدت الحائط أى أدعمته وقرئ عمد على جمع عمود ويعمى عماد كرسل ورسول وايراد صيغة الجمع لجمع السموات لان المنفى عن كل واحدة منها عمد لا عماد (ترونها) استئناف استشهد به على ما ذكر من رفع السموات بغير عمد وقيل صفة العمد جىء بها مالا عمد لها أصلا غير مرئية هى قدرة الله تعالى (ثم استوى) أى استولى (على العرش) بالحفظ والتدبير أو استوى أمره وعن أصحابنا أن الاستواء

على الثواب المدخر لانه لا يقال عند رؤيته فيما قد حصل من الخيرات قال الاصم فهو خير له من التهاون بذلك ثم انه تعالى عاد الى بيان حكم الحج فقال وأحللت لكم الانعام فقد كان يجوز أن يظن أن الاحرام اذا حرم الصيد وغيره فالانعام أيضا تحرم فبين الله تعالى ان الاحرام لا يؤثر فيها فهى محللة واستثنى منه ما يتلى فى كتاب الله من المحرمات من النعم وهو المذكور فى سورة المائدة وهو قوله تعالى غير محلى الصيد وأنتم حرم وقوله حرمت عليكم وقوله ولا آمين البيت الحرام يذكر اسم الله عليه ثم انه سبحانه لما حث على تعظيم حرماته وحد من يعظمها أتبعه بالامر باجتناب الاوثان وقول الزور لان توحيد الله تعالى وصدق القول أعظم الخيرات وانما جمع الشرك وقول الزور فى سلك واحد لان الشرك من باب الزور لان المشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة فكأنه قال فاجتنبوا عبادة الاوثان التى هى رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله ولا تقربوا منه شيأ اتحاديه فى القبح والسماجة وما ظنك بشئ من قبيل عبادة الاوثان وسمى الاوثان رجسا للنجاسة لكن لان وجوب تجنبها أو لكمن وجوب تجنب الرجس ولان عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات ثم قال الاصم انما وصفها بذلك لان عادتهم فى المتقربات أن يتعمدوا اسقوط الدماء عليها وهذا بعيد وقيل انه انما وصفها بذلك استحقارا واستخفافا وهذا أقرب وقوله من الاوثان بيان للرجس وتمييز له كقوله عندى عشرون من الدراهم لان الرجس لما فيه من الابهام يتناول كل شئ فكأنه قال فاجتنبوا الرجس الذى هو الاوثان وليس المراد أن بعضها ليس كذلك والزور من الزور والانزوار وهو الانحراف كما أن الافك من أفكه اذا صرفه والمفسرون ذكروا فى قول الزور وجوها (أحدها) أنه قولهم هذا حلال وهذا حرام وما أشبه ذلك من افترائهم (وثانيها) شهادة الزور عن النبى صلى الله عليه وسلم انه صلى الصبح فلما سلم قام قائما واستقبل الناس بوجهه وقال عدلت شهادة الزور الاشراك بالله وتلا هذه الآية (وثالثها) الكذب والبهتان (ورابعها) قول أهل الجاهلية فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك أما قوله تعالى حنفاء لله فقد تقدم ذكر تفسير ذلك وأنه الاستقامة على قول بعضهم والميل الى الحق على قول البعض والمراد فى هذا الموضع ما قيل من أنه الاخلاص فكأنه قال تمسكوا بهذه الامور التى أمرت ونهيت على وجه العبادة لله وحده لا على وجه اشراك غير الله به ولذلك قال غير مشركين به وهذا يدل على أن الواجب على المكلف أن ينوى بما يأتيه من العبادة الاخلاص فبين تعالى مثلين للكفر لا مزيد عليهما فى بيان أن الكافر مضار بنفسه غير منتفع بها وهو قوله ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق قال صاحب الكشاف ان كان هذا تشبيها مركبا فكأنه قيل من أشرك بالله فقد أهلك نفسه اهلاكا ليس وراءه هلاك بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرقت أجزاؤه فى حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المهالك البعيدة وان كان تشبيها مفردا فقد شبه الايمان فى علوه بالسماء والذى ترك الايمان وأشرك بالله كالساقط من السماء والاهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة والشيطان الذى طرحه فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة وقرئ بكسر الخاء والطاء وبكسر الخاء مع كسر الهاء وهى قراءة الحسن وأصلها تختطفه وقرئ الرياح ثم انه سبحانه أكد ما تقدم فقال ذلك ومن يعظم شعائر الله واختلفوا فقال بعضهم يدخل فيه كل عبادة وقال بعضهم بل المناسك فى الحج وقال بعضهم بل المراد الهدى خاصة والاصل فى الشعائر الاعلام التى جهايعرف الشئ فاذا فسرنا الشعائر بالهدايا فتعظيمها على وجهين (أحدهما) أن يختارها عظام الاجسام حسانا جساما سمانا غالية الاثمان ويتركن المكاس فى شرائها فقد كانوا يتغالون فى ثلاثة ويكرهون

على العرش صفة لله عز وجل بلا كيف وأيا ما كان فليس المراد به القصد الى ايجاد العرش وخلقه فلا حاجة الى حمل كلمة ثم على الترتيبة (وسخر الشمس والقمر) ذللهما وجعلهما طائعين لما أريد منهما من الحركات وغيرها (كل) من الشمس والقمر (يجرى) حسبما أريد منهما (لاجل مسمى) لمدة معينة فيها تتم دورته كالسنة للشمس والشهر للقمر ١٨٣ فان كلا منهما يجرى كل يوم على مدار معين من المدارات اليومية أو لمدة ينتهى فيها حركاتهما ويخرج جميع ما أريد منهما من القوة الى الفعل أو لغاية يتم عندها ذلك والجملة بيان لحكم تسخيرهما (يدبر) عما صنع من الرفع والاستواء والتسخير أى يقضى ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة (الامر) أمر الخلق كله وأمر ملكوته وربوبيته (يفصل الآيات) الدالة على كمال قدرته وبالغ حكمته أى يأتى بها مفصلة وهى ما ذكر من الافعال العجيبة وما يتلوها من الاوضاع الفلكية الحادثة شيأ فشيأ المستتبعة للآثار الغريبة فى السفليات على موجب التدبير والتقدير فالجملتان اما حالان من ضمير استوى وقوله وسخر الشمس والقمر من تتمة الاستواء واما مفسرتان له أو الاولى حال منه والثانية من الضمير فيها أو كلاهما من ضمائر الافعال المذكورة وقوله كل يجرى لاجل مسمى من تتمة التسخير أو خبر بعد خبر والوصول صفة للمبتدا جىء به للدلالة على تحقيق الخبر وتعظيم شأنه كما فى قول العرزدق ان الذى سمك السماء بنى لنا * بيتا دعائمه أعز وأطول (لعلكم) عند معاينتكم لها وعثوركم على تفاصيلها (بلقاء ربكم) بلا قائه للجزاء (توقنون) فان من تدبرها حق التدبر أيقن أن من قدر على ابداع هذه الصنائع البديعة على كل شئ قدير وأن لهذه التدبيرات

المكاس فيهن الهدى والاضحية والرقبة روى عن ابن عمر رضى الله عنهما عن أبيه أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل اهدها واهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فيها جمل لابى جهل فى أنفه برة من ذهب (والوجه الثانى) فى تعظيم شعائر الله تعالى أن يعتقد أن طاعة الله تعالى فى التقرب بها واهدائها الى بيته المعظم أمر عظيم لابد وأن يحتفل به ويتسارع فيه فانها من تقوى القلوب أى فان تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات ولا يستقيم المعنى الا بتقديرها لانه لابد من راجع من الجزاء الى من ارتبط به وانما ذكرت القلوب لان المنافق قد يظهر التقوى من نفسه ولكن لما كان قلبه خاليا منها لا جرم لا يكون مجدا فى أداء الطاعات أما المخلص الذى تكون التقوى متمكنة فى قلبه فانه سيبالغ فى أداء الطاعات على سبيل الاخلاص فان قال قائل ما الحكمة فى أن الله تعالى يالغ فى تعظيم ذبح الحيوانات هذه المبالغة ﴿ فالجواب قوله تعالى ﴿ لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام فالهكم اله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ اعلم أن قوله تعالى لكم فيها منافع الى أجل مسمى لا يليق الا بان تحمل الشعائر على الهدى الذى فيه منافع الى وقت النحر ومن يحمل ذلك على سائر الواجبات يقول لكم فيها أى فى التمسك بها منافع الى أجل ينقطع التكليف عنده والاول هو قول جمهور المفسرين ولا شك انه أقرب وعلى هذا القول فالمنافع مفسرة بالدر والنسل والاوبار وركوب ظهورها فأما قوله الى أجل مسمى ففيه قولان (أحدهما) ان لكم أن تنتفعوا بها وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والضحاك وقال آخرون لكم فيها أى فى البدن منافع مع تسميتها هديا بأن تركبوها ان احتجتم اليها وأن تشربوا ألبانها اذا اضطررتم اليها الى أجل مسمى يعنى الى أن تصيروها هديا وهى الرواية الثانية عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو اختيار الشافعى وهذا القول أولى لانه تعالى قال لكم فيها منافع أى فى الشعائر ولا تسمى شعائر قبل أن تسمى هديا وروى أبو هريرة ان عليه السلام مر برجل يسوق بدنة وهو فى جهد فقال عليه السلام اركبها فقال يا رسول الله انها هدى فقال اركبها ويلك وروى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اركبوا الهدى بالمعروف حتى تجدوا ظهرا واحتج أبو حنيفة رحمه الله على أنه لا يملك منافعها بأن لا يجوز له أن يؤجرها للركوب فلو كان مالكا لمنافعها لملك عقد الاجارة عليها كمنافع سائر المملوكات وهذا ضعيف لان أم الولد لا يملك بيعها ويملك الانتفاع بها فكذا ههنا أما قوله تعالى ثم محلها الى البيت العتيق فالمعنى أن لكم فى الهدايا منافع كثيرة فى دنياكم ودينكم وأعظم هذه المنافع محلها الى البيت العتيق أى وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها منتهيا الى البيت كقوله هديا بالغ الكعبة وبالجملة فقوله محلها يعنى حيث يحل نحرها وأما البيت العتيق فالمراد به الحرم كله ودليله قوله تعالى فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا أى الحرم كله فالمختار على هذا القول كل مكة ولكنها تنزهت عن الدماء الى منى ومنى من مكة قال عليه السلام كل فجاج مكة منحر وكل فجاج منى منحر قال الفقهاء هذا انما يختص بالهدايا التى بلغت منى فاما الهدى المتطوع به اذا عطب قبل بلوغ مكة فان محله موضعه أما قوله تعالى ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله فالمعنى شرعنا لكل أمة من الامم السالفة من عهد ابراهيم عليه السلام الى من بعده ضربا من القربان وجعل العلة فى ذلك أن يذكروا اسم الله تقدست أسماؤه على المناسك وما كانت

أو خبران عن قوله الله خبر بعد خبر والوصول صفة للمبتدا جىء به للدلالة على تحقيق الخبر وتعظيم شأنه كما فى قول العرزدق ان الذى سمك السماء بنى لنا * بيتا دعائمه أعز وأطول (لعلكم) عند معاينتكم لها وعثوركم على تفاصيلها (بلقاء ربكم) بلا قائه للجزاء (توقنون) فان من تدبرها حق التدبر أيقن أن من قدر على ابداع هذه الصنائع البديعة على كل شئ قدير وأن لهذه التدبيرات

المنبئة عواقب وغايات لا بد من وصولها وقد بينت على ألسنة الانبياء عليهم السلام أن ذلك ابتداء المكافين ثم جزاؤهم حسب أعمالهم فلا بد من الايقان بالجزاء ولما قرر الشواهد العلوية أردفها بذكر الدلائل السفلية فقال (وهو الذي مد الارض) أي بسطها طولا وعرضا قال الامام المد هو البسط الى ١٨٤ ما لا يدرك منتهاه فقيه دلالة على بعد مداها وسعة أقطارها (وجعل فيها رواسي) أي

جبالا ثوابت في أحيازها من الرسو وهو ثبات الاجسام الثقيلة ولم يذكر الموصوف لاغناء غلبة الوصف بها عن ذلك وانحصار مجيء فواعل جمعا للفاعل في فوارس وهوالك ونواكس اما هو في صفات العقلاء وأما في غيرهم فلا يراعى ذلك أصلا كما في قوله تعالى أياما معدودات وقوله الحج أشهر معلومات الى غير ذلك فلا حاجة الى أن يجعل مفردها صفة لجمع القلة أعني أجبل ويعتبر في جمع الكثرة أعني جبالا انتظامها الطائفة من جموع القلة وتنزيل كل منها منزلة مفردها كما قيل على أنه لا يحتمال لذلك فان جمعة كل من صيغتي الجمعين انما هي باعتبار الافراد التي تحتها لا باعتبار انتظام جمع القلة للافراد وجمع الكثرة لجموع القلة فكل منهما جمع جبل لا أن جبالا جمع أجبل كما أن طوائف جمع طائفة ولا الى أن يلتجأ الى جعل الوصف المذكور بالغلبة في عداد الاسماء التي تجمع على فواعل كما ظن على أنه لا وجه له أيضا أن الغلبة انما هي في الجمع دون المفرد والتعبير عن الجبال بهذا العنوان لبيان تفرع قرارها على ثباتها (وأنهارا) جمع نهر وسعة والمراد ما يجري فيها من الماء وفي نظمها مع الجبال في معمولية فعل واحد بيان لفائدة أخرى للجبال غير كونها حافظة للارض عن الاضطراب المخل بثبات الاقدام وتقلب

العرب تذبحه للصنم يسمى العبر والعتيرة كالذبيحة والذبيعة وقرأ أهل الكوفة الاعاجم منكسا بكسر السين وقرأ الباقون بالفتح وهو مصدر بمعنى النسك والمكسور بمعنى الموضع أما قوله تعالى فالهكم اله واحد ففي كيفية النظم وجهان (أحدهما) ان الالهين لما اختلفا اختلفت التكاليف باختلاف الازمنة والاشخاص لاختلاف المصالح (والثاني) فالهكم اله واحد فلا تذكروا على ذبائحكم غير اسم الله فله أسلموا أي أخلصوا له الذكر خاصة بحيث لا يشوبه اشراك البتة والمراد الانقياد لله تعالى في جميع التكاليف ومن انقاد له كان مخبتا فلذلك قال بعده وبشر المخبتين والمخبت المتواضع الخاشع قال أبو مسلم حقيقة المخبت من صار في خبت من الارض بقال أخبت الرجل أذا صار في الخبت كما يقال اتجد وأشام وأتهم وانخبت هو المطمئن من الارض وللمفسرين فيه عبارات (أحدها) المخبتين المتواضعين عن ابن عباس وقتادة (وثانيها) المخبتين في العبادة عن الكلبي (وثالثها) الخاشعين عن مقاتل (ورابعها) المطمئنين الى ذكر الله تعالى والصالحين عن مجاهد (وخامسها) هم الذين لا يظلمون واذا ظلموا لم ينتصروا عن عمرو بن أوس ثم وصفهم الله تعالى بقوله الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم فيظهر عليهم الخوف من عقاب الله تعالى والخشوع والتواضع لله ثم لذلك الوجل أثران (أحدهما) الصبر على المكاره وذلك هو المراد بقوله والصابرين على ما أصابهم وعلى ما يكون من قبل الله تعالى لانه الذي يجب الصبر عليه كالامراض والمحن والمصائب فاما ما يصيبهم من قبل الظلمة فالصبر عليه غير واجب بل ان أمكنه دفع ذلك لزمه الدفع ولو بالمقاتلة (والثاني) الاشتغال بالخدمة وأعز الاشياء عند الانسان نفسه وماله أما النفس فهي الصلاة وهو المراد بقوله والمقيمي الصلاة وأما الخدمة بالمال فهو المراد من قوله ومما رزقناهم ينفقون قرأ الحسن والمقيمي الصلاة بالنصب على تقدير النون وقرأ ابن مسعود والمقيمين الصلاة على الاصل ﴿قوله تعالى﴾ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله الكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صوافّ فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ﴿اعلم أن قوله تعالى والبدن فيه مسائل ﴿(المسألة الاولى)﴾ البدن جمع بدنة كخشب وخشبة سميت بذلك لانها أهديت للحرم لعظم بدنها وهي الابل خاصة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم الحق البقر بالابل حين قال البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة ولانه قال فاذا وجبت جنوبها وهذا يختص بالابل فانها تنحر قائمة دون البقر وقال قوم البدن الابل والبقر التي يتقرب بها الى الله تعالى في الحج والعمرة لانه انما سمي بذلك لعظم البدن فالاولى دخولها فيه أما الشاة فلا تدخل وان كانت تجوز في النسك لانها صغيرة الجسم فلا تسمى بدنة ﴿(المسألة الثانية)﴾ قرأ الحسن والبدن بضمتين كثمر في جمع ثمرة وابن أبي اسحق بالضمتين وتشديد النون على لفظ الوقف وقرئ بالنصب والرفع كقوله والقمر قدرناه منازل والله أعلم ﴿(المسألة الثالثة)﴾ اذا قال لله علي بدنة هل يجوز له نحرها في غير مكة قال أبو حنيفة رحمه الله رحمهما الله يجوز وقال أبو يوسف رحمه الله لا يجوز الا بمكة واتفقوا فيمن نذر هدايا ان عليه ذبحه بمكة ولو قال لله علي جزور أو بدنة يجزيه حيث شاء وقال أبو حنيفة رحمه الله البدنة بمنزلة الجزور وجب أن يجوز له نحرها حيث شاء بخلاف الهدي فانه تعالى قال هديا بالغ الكعبة فجعل بلوغ الكعبة من صفة الهدي واحتج أبو يوسف رحمه الله بقوله تعالى والبدن جعلناها لكم من شعائر الله فكان اسم البدنة يفيد كونها قربة فكان كاسم الهدي أجاب أبو حنيفة رحمه الله بأنه ليس كل ما كان ذبحه قربة اختص بالحرم فان الاضحية قربة وهي جائزة في سائر الاماكن أما قوله تعالى جعلناها لكم فاعلم أنه سبحانه لما خلق البدن وأوجب أن

المكاس

وثقله وهي تمشه بالماء واسكلا (ومن كل الثمرات) متعلق بجعل في قوله تعالى (جعل فيها زوجين اثنين) أي اثنينية حقيقية وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر وأكد به الزوجين لئلا يفهم أن المراد بذلك الشفعان اذ يطلق الزوج على المجموع ولكن اثنينية ذلك أثنينية اعتبارية أي جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ١٨٥ ضربين وصنفين اما في اللون كالابيض والاسود أو في الطعم كالحلو والحامض أو في القدر كالصغير والكبير أو في الكيفية كالحار والبارد وما أشبه ذلك ويجوز أن يتعلق بجعل الاول ويكون الثاني استئنافا للبيان كيفية ذلك الجعل (يغشي الليل النهار) استعارة تمثيلية مبنية على تشبيه ازالة نور الجو بالظلمة بتغطية الاشياء الظاهرة بالاغطية أي يستر النهار بالليل والمتركب وان احتمل العكس أيضا بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الاول فان ضوء النهار أيضا ساتر لظلمة الليل الا أن الانسب بالليل أن يكون هو الغاشي وعند هذا في تضاعيف الآيات السفلية وان كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهرا باعتبار أن ظهوره في الارض فان الليل انما هو ظلها وقيما فوق موقع ظلها لا ليل أصلا ولان الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والانضاج على أنهما أعني النهار وجان متقابلان مثلها وفرق ينبغي من التغشية (ان في ذلك)

تهدي في الحج جازأن يقول جعلناها لكم من شعائر الله أما قوله لكم فيها خير فالكلام فيه ما تقدم في قوله لكم فيها منافع واذا كان قوله لكم فيها خير كالترغيب فالاولى أن يراد به الثواب في الآخرة وما أحقاق العاقل بالحرص على شيء شهد الله تعالى بأن فيه خيرا وبأن فيه منافع أما قوله فاذكروا اسم الله عليها فيه حذف أي اذكروا اسم الله على نحرها قال المفسرون هو أن يقال عند النحر أو الذبح بسم الله والله أكبر اللهم منك وإليك أما قوله صوافي فالصوافي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن وقرئ صوافن من صفون الفرس وهو أن تقوم على ثلاث وتنصب الرابعة على طرف سنبكه لان اليد تنقبض أحدى يديها فتقوم على ثلاث وقرئ صوافي أي خوالص لوجه الله تعالى لا تشركوا بالله في التسمية على نحرها أحدا كما كان يفعله المشركون وعن عمرو بن عبيد صوافيا بالتنوين عوضا عن حرف الاطلاق عند الوقف وعن بعضهم صوافي نحو قول العرب أعط القوس باريها ولا يجيد أن تكون الحكمة في اضافة ظهورها كثرتها للناظرين فتقوى نفوس المحتاجين ويكون التقرب بنحرها عند ذلك أعظم اجرا وأقرب الى ظهور التكبير واعلاء اسم الله وشعائر دينه وأما قوله فاذا وجبت جنوبها فاعلم أن وجوب الجنوب وقوعها على الارض من وجب الحائط وجبة اذا سقط ووجبت الشمس وجبة اذا غربت والمعنى اذا سقطت على الارض وذلك عند خروج الروح منها فكلوا منها وقد ذكرنا اختلاف العلماء فيما يجوز أكله منها وأطعموا القانع والمعتر القانع السائل يقال قنع يقنع قنوعا اذا سأل قال أبو عبيدة والرجل يكون مع القوم يطلب فضلهم ويسأل معروفهم ونحوه قال الفراء والذي الثاني القانع هو الذي لا يسأل من القناعة يقال نعم يقنع قناعة اذا رضي بما قسم له وترك السؤال أما المعترفقيل انه المتعرض بغير سؤال وقيل انه المتعرض بالسؤال قال الازهري قال ابن الاعرابي يقال عروت فلانا اذا أعرته وعروته واعتريته اذا أتيته تطلب معروفه ونحوه قال أبو عبيدة والاقرب ان القانع هو الراضي بما يدفع اليه من غير سؤال والحاج والمعتر هو الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالا بعد حال فيفعل ما يدل على أنه لا يقنع بما يدفع اليه أبدا وقرأ الحسن والمعترى وقال أبو رجاء القنع وهو الراضي لا غير يقال قنع فهو قنع وقانع أما قوله كذلك سخرناها لكم فالمعنى انها أجسام وأعظم وأقوى من السباع وغيرها مما يمتنع علينا التمكن منه فالله تعالى جعل الابل والبقر بالصفة التي يمكننا تسخيرها على ما نريد وذلك نعمة عظيمة من الله تعالى في الدين والدنيا ثم لما بين تعالى هذه النعمة قال بعده لعلكم تشكرون والمراد لكي تشكروا فالمعتزلة هذا يدل عندنا على انه سبحانه أراد من جميعهم أن يشكروا فدل هذا على أنه يريد كل ما أمر به من أطاع وعصى لا كما يقوله أهل السنة من أنه تعالى لم يرد ذلك الا من المعلوم انه يطيع والكلام عليه قد تقدم غير مرة أما قوله تعالى ان ينال الله لحومها ولا دماؤها ففيه مسائل (المسئلة الاولى) لما كانت عادة الجاهلية على ما روي في القربان انهم يلوثون بدمائها وجوهها الوثن وحيطان الكعبة بين تعالى ما هو المقصد من التحر فقال ان ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم فبين أن الذي يصل اليه تعالى و يرتفع اليه من صنيع العبد هي من قبيل التقوى وتحرير ما ذكرناه من قراءته هو تقوى الله دون نفس اللحم والدم ومعلوم ان الاشياء لا يوصف بأنه ينالها سبحانه فالمراد وصول ذلك الى حيث يكتب يدل عليه قوله اليه يصعد الكلم الطيب (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة دلت هذه الآية على أمور (أحدها) ان الذي ينتفع به المرء فعله دون الجسم الذي ينتفع بغيره (وثانيها) انه سبحانه غني عن كل ذلك وانما المراد أن يبتهد العبد في امتثال أوامره (وثالثها) انه لما لم ينتفع بالاجسام التي هي اللحوم والدماء وانتفع بتقواه وجب أن تكون تقواه فعلا له والا لكانت تقواه بمنزلة اللحوم (ورابعها) انه

أي فمثل ما ذكر من مد الارض وإيتادها بالرواسي وإجراء الانهار وخلق الثمرات وإغشاء الليل النهار وفي الاشارة بذلك تنبيه على عظم شأن المشار اليه في بابه (لآيات) باهرة وهي آثار تلك الافاعيل البديعة جلت حكمة صانعها ففي على معناها فان تلك الآثار مستقرة في تلك الافاعيل منوطة بها ويجوز أن يشار بذلك الى تلك الآثار المدلول عليها بتلك الافاعيل

ففي تحريره بدية (لقوم يتفكرون) فان التفكر فيها يؤدي الى المكم بأن تكوين كل من ذلك على هذا النمط الرائق والاسلوب اللائق لا بد له من مكون قادر حكيم يفعل ما يشاء ويختار ما يريد لا معقب لحكمه وهو الحميد المجيد (وفي الارض قطع) جملة مستأنفة مشتملة على طائفة أخرى من الآيات أي بقاع ١٨٦ كثيرة مختلفة في الاوصاف فمن طيبة الى سبخة وكريمة الى زهيدة وصلبة الى رخوة الى غير ذلك (متجاورات) أي متلاصقات وفي بعض المصاحف قطعا متجاورات أي جعل في الارض قطعا (وجنات من أعناب) أي بساتين كثيرة منها (وزرع) من كل نوع من أنواع الحبوب وافراده لمراعاة أصله ولعل تقديم ذكر الجنات عليه مع كونه عمود المعاش لظهور حاله في اختلافها وصيانتها لسائر ما يروح ذلك فيها وتأخير قوله تعالى (ونخيل) لئلا يقع بينها وبين صنفها وهي قوله تعالى (صنوان وغير صنوان) فاصلة والصنوان جمع صنو كقنوان وقنو وهي النخلة التي لها رأسان وأصلها واحد وقرئ بضم الصاد على لغة بني تميم وقيس وقرئ جنات بالنصب عطفا على زوجين وبالجر على كل الثمرات فلعل عدم نظم قوله تعالى وفي الارض قطع متجاورات في هذا السلك مع أن اختصاص كل من تلك القطع بما لها من الاحوال والصفات بعض جعل الخلائق الحكيم جاءت قدرته حين مد الارض ودحاها للاشعار بأن كون تلك الاحوال صفات راسخة لتلك القطع وقرئ وزرع ونخيل بالجر عطفا على أعناب أو جنات (يسقى) أي ما ذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل وقرئ بالتأنيث مراعاة للفظ والاول أوفق بمقام بيان اتحاد الكل في حالة السقي (بماء واحد) لاختلاف في طبعه سواء كان السقي بماء الامطار أو بماء الانهار

لما شرط القبول بالتقوى وصاحب الكبيرة غير متق فوجب ان لا يكون عمله مقبولا وانه لا ثواب له (والجواب) أما الاولان فحقان وأما الثالث فمعارض بالدلائل والعلم وأما الرابع فصاحب الكبيرة وان لم يكن متقيا مطلقا ولكنه متق فيما أتى به من الطاعة على سبيل الاخلاص فوجب أن تكون طاعته مقبولة وعند هذا تنقلب الآية حجة عليهم (المسئلة الثالثة) كلهم قرؤا يسأل الله وينزله بالياء الا يعقوب فانه قرأ بالتاء في الحرفين فمن أنث فقد رده الى اللفظ ومن ذكر فللفاصل بين الاسم والفعل ثم قال كذلك سخرها لكم والمراد انه انما سخرها كذلك لتكبروا الله وهو التعظيم بما نعمله عند الضر وقيل ويدعى ما هداكم اليه ولما عليه وبينه لئلا تم قال بعده على وجه الوعد لمن امتثل أمره وبشر المحسنين كما قال من قبل وبشر المخبتين والمحسن هو الذي يفعل الحسن من الاعمال ويتمثل به فيخلص نفسه بتوفير الثواب عليه ﴿قوله تعالى﴾ ان الله يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور ﴿اعلم﴾ أنه تعالى لما بين ما يلزم في الحج ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة وقد ذكرنا من قبل أن الكفار صدوهم اتبع ذلك ببيان ما يزيل الصد ويؤمن معه التمكن من الحج فقال ان الله يدافع عن الذين آمنوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بالالف ومثله ولولا دفع الله وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بغير ألف فيهما وقرأ حمزة والكسائي وعاصم ان الله يدافع بالالف ولولا دفع بغير ألف فمن قرأ يدافع فمعناه يبالغ في الدفع عنهم وقال الخليل يقال دفع الله المكروه عنك فهو دافع عنك دفاعا والدفاع أسهلهما (المسئلة الثانية) ذكر ان الله يدافع عن الذين آمنوا ولم يذكر ما يدفعه حتى يكون أعم وأعظم أعم وان كان في الحقيقة أنه يدافع بأس المشركين فلذلك قال بعده أن الله لا يحب كل خوان كفور فنبه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذا صفته ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال مقاتل ان الله يدافع كفار مكة عن الذين آمنوا بمكة هذا حين أمر المؤمنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين آذوهم فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في قتلهم مرارا فنهاهم ﴿المسئلة الرابعة﴾ هذه الآية بشارة للمؤمنين باعلائهم على الكفار وكف بوائقهم عنهم وهي كقوله لن يضروكم الا أذى وقوله انا لننصر رسلنا والذين آمنوا وقال انهم لهم المنصورون وأخبر تعجبهم النصر من الله وقطع عن ريب أما قوله تعالى ان الله لا يحب كل خوان كفور فالمعنى أنه سبحانه جعل العلة في أنه يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب صدهم وهو الخوان الكفور أي خوان في أمانة الله كفور لنعمته ونظيره قوله تعالى لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم قال مقاتل أقروا بالصانع وعبدوا غيره فأي خيانة أعظم من هذا أما قوله تعالى أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم في رواية حفص أذن بضم الالف والباقون بفتحها أي أذن الله لهم في القتال وقرأ أهل المدينة وعاصم يقاتلون بنصب التاء وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي أذن بنصب الالف ويقاتلون بكسر التاء قال الفراء والزجاج يعني أذن الله للذين يحبون على قتال المشركين في المستقبل ومن قرأ بفتح التاء فالتقدير أذن للذين يقاتلون في القتال (المسئلة الثانية) في الآية محذوف والتقدير أذن للذين يقاتلون في القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه أما قوله بأنهم ظلموا فالمراد أنهم أذنوا في القتال بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان

مشركو

(ونفضل) مع تأخذ أسباب التشابه بمحض قدرتنا واختيارنا (بعضها على بعض) آخر منها (في الاكل) فيما يحصل منها من الثمر والطعم وقرئ بالياء على بناء الفاعل رداعلى يدبر ويفصل ويغشى وعلى بناء المفعول وفيه مالا يخفى من الفخامة والدلالة على أن عدم احتمال استنادا الفعل الى فاعل آخر معين عن بناء الفعل للفاعل (ان في ذلك) الذي

فصل من أحوال القطع والجنات (لآيات) كثيرة عظيمة ظاهرة (لقوم يعقلون) يعملون على قضية عقولهم فان من عقل هذه الاحوال العجيبة لا يتلعثم في الجزم بأن من قدر على ابداع هذه البدائع وخلق تلك الثمار المختلفة في الاشكال والالوان والطعوم والروائح في تلك القطع المتباينة المتجاورة وجعلها حدائق ذات بهجة قادر على اعادة ما أفناه بل هي أهون في القياس وهذه الاحوال وان كانت هي الآيات أنفسها لانها فيها الآلانه قد جردت عنها أمثالها مبالغة في كونها آية ففي تجريده عن مثلها في قوله تعالى لهم فيها دار الخلد أو المشار اليه الاحوال الكلية والآيات أفرادها لهذه شيأ فشيأ في الازمنة وآحادها الواقعة في الاقطار والامكنة المشاهدة لاهلها فقي على معناها وحيث كانت دلالة هذه الاحوال على مدلولاتها أظهر مما سبق علق كونها آيات بمحض التعقل ولذلك لم يتعرض لغير تفضيل بعضها على بعض في الاكل الظاهر للكل

مشركو مكة يؤذونهم أذى شديدا وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون اليه فيقول لهم اصبروا فاني لم أومر بقتال حتى هاجر فأنزل الله تعالى هذه الآية وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهي عنه في نيف وسبعين آية وقيل نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن في مقاتلتهم أما قوله تعالى وان الله على نصرهم لقدير فذلك وعد منه تعالى بنصرهم كما يقول المرء لغيره ان أطعتني فانا قادر على مجازاتك لا يعني بذلك القدرة بل يريد أنه سيفعل ذلك أما قوله تعالى الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق فاعلم أنه تعالى لما بين أنهم انما أذن لهم في القتال لاجل أنهم ظلموا فبين ذلك الظلم بقوله الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله فبين تعالى ظلمهم لهم بهذين الوجهين (أحدهما) أنهم أخرجوا من ديارهم (والثاني) أنهم أخرجوهم بسبب أنهم قالوا ربنا الله وكل واحد من الوجهين عظيم في الظلم فان قيل كيف استثنى من غير حق قولهم ربنا الله وهو من الحق قلنا تقدير الكلام أنهم أخرجوا لغير وجه سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الاقرار والتمكين لا موجب الاخراج والتسيير ومثله هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله ثم بين سبحانه قوله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت أن عادته جل جلاله أن يحفظ دينه بهذا الامر قرأ نافع لهدمت بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد وهو هنا سؤالات (السؤال الاول) ما المراد بهذا الدفاع الذي أضافه الى نفسه (الجواب) هو اذنه لاهل دينه بمجاهدة الكفار فكأنه قال تعالى ولولا دفاع الله الناس أهل الشرك بالمؤمنين من حيث يأذن لهم في جهادهم وينصرهم على أعدائهم لاستولى أهل الشرك على أهل الاديان وعطلوا ما يبنونه من مواضع العبادة ولكنه دفع عن هؤلاء بأن أمر بقتال أعداء الدين لتفرغ أهل الدين للعبادة وبناء البيوت لها ولهذا المعنى ذكر الصوامع والبيع والصلوات وان كانت لغير أهل الاسلام وذكر المفسرون وجوها أخر (أحدها) قال الكلبي يدفع الله بالنبيين عن المؤمنين وبالمجاهدين عن القاعدين عن الجهاد (وثانيها) روى أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال يدفع الله بالمحسن عن المسيء وبالذي يصلي عن الذي لا يصلي وبالذي يتصدق عن الذي لا يتصدق وبالذي يحج عن الذي لا يحج وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن جيرانه ثم تلا هذه الآية (وثالثها) قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما ما يدفع بدين الاسلام وبأهله عن أهل الذمة (ورابعها) قال مجاهد يدفع عن الحقوق بالشهود وعن النفوس بالقصاص (السؤال الثاني) لما ذا جمع الله بين مواضع عبادات اليهود والنصارى وبين مواضع عباداة المسلمين (الجواب) لاجل ما سألت عنها اختلفوا على وجوه (أحدها) قال الحسن المراد بهذه المواضع جميع مواضع المؤمنين وان اختلفت العبارات عنها (وثانيها) قول الزجاج ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت في شرع كل نبي المكان الذي يصلى فيه فلولا ذلك الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كانوا يصلون فيها في شرعه وفي زمن عيسى الصوامع وفي زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم المساجد فعلى هذا الدفاع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف وقبل النسخ (وثالثها) بل المراد لهدمت هذه الصوامع في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم لانها على كل حال يجري فيها ذكر الله تعالى فلمست عمرة عبادة الاوثان (السؤال الثالث) ما الصوامع والبيع والصلوات والمساجد (الجواب) ذكروا فيها وجوها (أحدها) الصوامع للنصارى والبيع لليهود والصلوات للصابئين والمساجد للمسلمين عن أبي العالية رضي الله عنه (وثانيها) الصوامع للنصارى وهي التي بنوها في الصحاري والبيع لهم أيضا وهي التي بنوها في البلد والصلوات لليهود قال

عاقل مع تحقق ذلك في الخواص والكيفيات مما يتوقف العثور عليه على نوع تأمل وتفكر كأنه لا حاجة في ذلك الى التفكر أيضا وفيه تعريض بأن المشركين غير عاقلين (وان تعجب) يا محمد من شئ (فعجب) لا أعجب منه حقيق بان يقصر عليه التعجب (قولهم) بعد مشاهدة ما هدد ذلك من الآيات الشاهدة بأنه تعالى على كل شئ قدير (أئذا كنا ترابا) على طريقة الاستفهام الانكاري المفيد لكمال

الاستبعاد والاستنكار وهو في محل الرفع على البدلية من قولهم على أنه بمعنى المقول أو في محل النصب على المفعولية منه على أنه مصدر فالوجب على الاول كلامهم وعلى الثاني تكلمهم بذلك والعامل في اذا ما دل عليه قوله (أئنا لفي خلق جديد) وهو بعث أو نعاد وتقديم الظرف لتقوية الانكار بالبعث توبيخ له ١٨٨ الهمزة في حاله منافية له وتكرير الهمزة في قولهم أئنا لتأكيد الانكار وليس مدار

الرجاج وهي بالعبرانية صلوتا (وثالثها) الصوامع للصابئين والبيع للنصارى والصلوات للمهود عن قتادة (ورابعها) أنها أسماء المساجد عن الحسن أما الصوامع فلان المسلمين قد يتخذون الصوامع وأما البيع فأطلق هذا الاسم على المساجد على سبيل التشبيه وأما الصلوات فالمعنى أنه لولا ذلك الدفع لانقطعت الصلوات وخربت المساجد ﴿السؤال الرابع﴾ الصلوات كيف تهدم خصوصا على تأويل من تأوله على صلاة المسلمين (الجواب) من وجوه (أحدها) المراد بهدم الصلاة ابطالها واهلاك من يفعلها كقولهم هدم فلان احسان فلان اذا قابله بالكفر دون الشكر (وثانيها) بل المراد مكان الصلوات لانه الذي يصح هدمه كقوله واسئل القرية أي أهلها (وثالثها) لما كان الاغلب فيما ذكر مما يصح أن يهدم حازضم ما لا يصح أن يهدم اليه كقوله يرمقلدا سيفا ورمحا * مقلدا سيفا ورمحا (السؤال الخامس) قوله يذكر فيها اسم الله كثيرا المختص بالمساجد أو عائد الى الكل (الجواب) قال الكلبي ومقاتل عائد الى الكل لان الله تعالى يذكر في هذه المواضع كثيرا والاقرب أنه مختص بالمساجد تشريفا لها بان ذكر الله يحصل فيها كثيرا (السؤال السادس) لم قدم الصوامع والبيع في الذكر على المساجد (الجواب) لانها أقدم في الوجود وقيل آخرها في الذكر كما في قوله ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ولان أول الفكر آخر العمل فلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الرسل وأمته خير الامم لاجرم كانوا آخرهم ولذلك قال عليه السلام نحن الآخرون السابقون أما قوله تعالى ولينصرن الله من ينصره فقال بعضهم من ينصره بنافي الجهاد بالقبول نصرة لدين الله تعالى وقال آخرون بل المراد من يقوم بسائر دينه وانما قالوا ذلك لان نصرة الله على الحقيقة لا تصح وانما المراد من نصرة الله نصرة دينه كما يقال في ولاية الله وعداوته مثل ذلك وفي قوله ولينصرن الله من ينصره وعد بالنصر ان هذه حاله ونصر الله تعالى للعبد أن يقويه على أعدائه حتى يكون هو الظافر ويكون قائما بايضاح الادلة والبينات ويكون بالاعانة على المعارف والطاعات وفيه ترغيب في الجهاد من حيث وعدهم النصر ثم بين تعالى أنه قوي على هذه النصرة التي وعدها المؤمنين وأنه لا يجوز عليه المنع وهو معنى قوله عزيز لان العزيز هو الذي لا يضام ولا يمنع مما يريده ثم انه سبحانه وتعالى وصف الذين أذن لهم في القتال في الآية الاولى فقال الذين ان مكناهم في الارض والمراد من هذا التمكين السلطنة ونفاذ القول على الخلق لان المتبادر الى الفهم من قوله مكناهم في الارض ليس الا هذا أولا ولانا لو حملناه على أصل القدرة لكان كل العباد كذلك وحينئذ يبطل ترتب الامور الاربعة المذكورة عليه في معرض الجزاء لانه ليس كل من كان قادرا على الفعل أتى بهذه الاشياء اذا ثبت هذا فنقول المراد بذلك هم المهاجرون لان قوله الذين ان مكناهم صفة لمن تقدم وهو قوله الذين أخرجوا من ديارهم والانصار ما أخرجوا من ديارهم فصير معنى الآية ان الله تعالى وصف المهاجرين بأنه ان مكنهم من الارض وأعطاهم السلطنة فانهم أتوا بالامور الاربعة وهي اقامة الصلاة وايتاء الزكاة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر لكن قد ثبت أن الله تعالى مكن الائمة الاربعة من الارض وأعطاهم السلطنة عليها فوجب كونهم آتين بهذه الامور الاربعة واذا كانوا آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر وجب أن يكونوا على الحق فمن هذا الوجه دلت هذه الآية على امامة الاربعة ولا يجوز حمل الآية على علي رضي الله عنه وحده لان الآية دالة على الجمع وفي قوله ولله عاقبة الامور دلالة على أن الذي تقدم ذكره من سلطنتهم وملكهم كائن لا محالة ثم ان الامور ترجع الى الله تعالى بالعاقبة فانه سبحانه هو الذي لا يزول ملكه أبدا وهو أيضا يؤكد ما قلناه ۞ قوله تعالى

انكارهم كونهم نابتين في الخلق الجديد بالفعل عند كونهم ترابا بل كونهم بمرضية ذلك واستعدادهم له وفيه من الدلالة على عتوهم وعنادهم في التكبر ما لا يخفى وقيل وان تعجب فعجب من قولهم في انكار البعث فعجب قولهم والمسائل وان تعجب فقد تعجبت في موضع التعجب وقيل وان تعجب من انكارهم البعث فعجب قولهم الدال عليه فتأمل وقد جوز كون الخطاب لكل من يصلح له أي ان تعجب يا من ينظر في هذه الآيات من قدرته من هذه أفعاله فازدد تعجبا ممن ينكر مع هذه الدلائل قدرته تعالى على البعث وهو أهون من هذه والانسب بقوله ويستعجلونك بالسيئة هو الاول وقوله تعالى فتعجب خبر مقدم على المبتدا للقصر والتسجيل من أول الامر بكون قولهم ذلك أمرا عجيبا ويجوز أن يكون مبتدأ لكونه موصوفا بالوصف المقدر كما أشير اليه فالمعنى وان تعجب فالعجب الذي لا يحجب وراءه قولهم هذا فالعجب منه وعلى الاول وان تعجب فقولهم هذا عجيب لا يحجب فوقه (أولئك) مبتدأ والموصول خبره أي أولئك المنكرون (وان

لقدرته تعالى على البعث ريثما فصل من الآيات الباهرة الملجئة لهم الى الايمان لو كانوا يبصرون (الذين كفروا بربهم) وتمادوا في ذلك فان انكارهم لقدرته عز وجل كفر به وأي كفر (وأولئك) مبتدأ خبره قوله (الاغلال في أعناقهم) أي مقيدون بقيود الضلال

لا يرجى خلاصهم أو معذبون يوم القيامة (وأولئك) الموصوفون بما ذكر من الصفات (أصحاب النار هم فيها خالدون) لا ينفكون عنها وتوسيط ضمير الفصل ليس لتخصيص الخلود بهم كما زعمه البعض بل لتأكيد الجميع المدلول عليه بقوله تعالى أولئك الذين كفروا بربهم (ويستعجلونك بالسيئة) بالعقوبة التي أنذر وها وذلك حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره (قبل الحسنة) أي العافية والإحسان اليهم بالإمهال (وقد خلت من قبلهم المثلات) أي عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم لا يعتبرون بها ولا يحترزون حلول مثلها بهم والجملة الحالية لبيان ركاكة رأيهم في الاستعجال بطريق الاستهزاء أي يستعجلونك بها مستهزئين بإنذارك منكرين لوقوع ما أنذرتهم إياه والحال انه قد مضت العقوبات النازلة على أمثالهم من المكذبين والمستهزئين والمثلات توزن السمرة العقوبة سميت بها لما بينها وبين المعاقب عليه من المماثلة من نسبة المثال للمثال وقرئ المثلات بضمتين باتباع الفاء العين والمثلات بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال السمرة والمثلات بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المثلات جمع مثلة كركبة وركبات (وإن ربك لذو مغفرة) عظيمة (للناس على ظلمهم) أنفسهم بالذنوب والمعاصي وجعله النصب على الحالية أي

(وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) اعلم أن الله تعالى لما بين فيما تقدم اخراج الكفار المؤمنين من ديارهم بغير حق وأذن في مقاتلتهم وضمن للرسول والمؤمنين النصرة وبين ان لله عاقبة الامور أردفه بما يجري مجرى التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم في الصبر على ما هم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره فقال وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم سائر الامم أنبياءهم وذكر الله سبعة منهم فإن قيل ولم قال وكذب موسى ولم يقل قوم موسى فالجواب من وجهين (الأول) ان موسى عليه السلام ما كذبه قومه بل اسرائيل وانما كذبه غير قومه وهم القبط (الثاني) كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم وكذب موسى أيضا مع عظم معجزاته فما ظنك بغيره أما قوله تعالى فأمليت للكافرين يعني أمهلتهم إلى الوقت المعلوم عندي ثم أخذتهم بالعقوبة فكيف كان نكير استفهام تقرير أي فكيف كان انكاري عليهم بالعذاب أليس كان واقعا قاطعا ألم أبدلهم بالنعمة نقمة وبالكثرة قلة وبالحياة موتا وبالعمارة خرابا ألست أعطيت الانبياء جميع ما وعدتهم من النصرة على أعدائهم والتمكين لهم في الأرض فينبغي أن تكون عادتك يا محمد الصبر عليهم فانه تعالى انما يعامل للمصلحة فلا بد من الرضا والتسليم وان شق ذلك على القلب واعلم ان بدون ذلك يحصل التسلية لان حاله دون حال الرسول عليه السلام فكيف بذلك مع منزلته لكنه في كل وقت يصل اليه من جهتهم ما يزيد غما فأجرى الله عادته بأن يصبره حالا بعد حال وقد تقدم ذكر هؤلاء المكذبين وبأي جنس من عذاب الاستئصال هلكوا وهنا بحث وهو ان هذه الآية تدل على انه سبحانه يفعل به وبقومه كل ما فعل بهم وبقومهم الاعذاب الاستئصال فانه لا يفعله بقوم محمد صلى الله عليه وسلم وان كان قد مكنهم من قتل أعدائهم وثبتهم قال الحسن السبب في تأخير عذاب الاستئصال عن هذه الامة الى ذلك العذاب مشروط بأمرين (أحدهما) ان عند الله حد من الكفر من بلغه عذبه ومن لم يبلغه لم يعذبه (والثاني) ان الله لا يعذب قوما حتى يعلم أن أحدا منهم لا يؤمن فاما اذا حصل الشرطان وهو أن يبلغوا ذلك الحد من الكفر وعلم الله ان أحدا منهم لا يؤمن حينئذ يأمر الانبياء فيدعون على أممهم فيستجيب الله دعاءهم فيعذبهم بعذاب الاستئصال وهو المراد من قوله حتى اذا استيأس الرسل أي من اجابة القوم وقوله لنوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن واذا عذبهم الله تعالى فانه ينجي المؤمنين لقوله فأما حاء أمرنا أي بالعذاب نجينا هودا واعلم أن الكلام في هذه المسئلة قد تقدم فلا فائدة في الاعادة فان قيل كيف يوصف ما ينزله بالكفار من الهلاك بالعذاب المعجل بأنه نكير قلنا اذا كان رادعا لغيره وصادا له عن مثل ما وجب ذلك صار نكيرا أما قوله فكأين من قرية أهلكناها ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال بعضهم المراد من قوله فكأين فكم على وجه التكثير وقيل أيضا معناه ورب قرية والاول أولى لانه أركد في الزجر فكأنه تعالى لما بين حال قوم من المكذبين وأنه عجل اهلاكهم أتبعه بما دل على أن لذلك أمثالا وان لم يذكر مفصلا (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وأهل الكوفة والمدينة أهلكناها بالنون وقرأ أبو عمرو ويعقوب أهلكتها وهو اختيار أبي عبيد لقوله في الآية الاولى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم (المسئلة الثالثة) قوله أهلكناها أي أهلها ودل بقوله وهي ظالمة على ما ذكرنا ويحتمل أن يكون المراد اهلاك نفس القرية فيدخل تحت اهلاكها اهلاك من فيها لان العذاب النازل اذا

ظالمين والعامل فيه المغفرة والمعنى ان ربك لغفور للناس لا يعجل لهم العقوبة وان كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها (وان ربك لشديد العقاب) يعاقب من يشاء منهم حين يشاء فتأخيرها استعجالا وليس للإهمال وعنه عليه الصلاة والسلام لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لأحد العيش ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد (ويقول الذين كفروا) وهم المستعجلون أيضا وانما عدل عن الاضمار إلى الموصول

ذمائهم ونعمائهم عليهم كفرهم بآيات الله تعالى التي تحير لها صم الجبال حيث لم يرفعوا لها رأسا ولم يعدوها من جنس الآيات (وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه) مثل آيات موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام عنادا ومكابرة والا ففي أدنى آية أنزلت عليه عليه الصلاة والسلام غنية وعبرة لاولي الالباب ١٩٠ (انما أنت منذر) مرسل للانذار من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون كدأب من قبلك من

بلغ أن يهلك القرية فتصير منهدمة حصل بهلاكها هلاك من فيها وان كان الاول أقرب أما قوله وهي خاوية على عروشها ففيه سؤالان (السؤال الاول) ما معنى هذه اللفظة فقال صاحب الكشاف كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة فهو عرش والخاوي الساقط من خوى النجم اذا سقط أو الخالي من خوى المنزل اذا خلا من أهله فان فسرنا الخاوي بالساقط كان المعنى انها ساقطة على سقوفها أي سقوفها على الارض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف وان فسرناه بالخالي كان المعنى انها خالية عن الناس مع بقاء عروشها وسلامتها قال ويمكن أن يكون خبرا بعد خبر كأنه قيل هي خاوية وهي على عروشها يعني أن السقوف سقطت على الارض فصارت في قرار الحيطان وبقيت الحيطان قائمة فهي مشرفة على السقوف الساقطة وباقي الآية قد دللنا على انها بقيت محلا للاعتبار (السؤال الثاني) ما محل هاتين الجملتين من الاعراب أعني وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها (الجواب) الاولى في محل النصب على الحال والثانية لا محل لها لانها معطوفة على أهلكناها وهذا الفعل ليس له محل قال أبو مسلم المعنى فكأين من قرية أهلكناها وهي كانت ظالمة وهي الآن خاوية أما قوله وبئر معطلة وقصر مشيد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الحسن معطلة من أعطله بمعنى عطلة ومعنى المعطلة انها عامرة فيها الماء ويمكن الاستقاء منها الا انها عطلت أي تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها وفي المشيد قولان (أحدهما) انه المجصص لان الجص بالمدينة يسمى الشيد (والثاني) انه المرفوع المطول والمعنى انه تعالى بين ان القرية مع تكاثف بنائهم لها واغتباطهم بها جعلت لاجل كفرهم بهذا الوصف وكذلك البئر التي كانوها وصارت غير بهم صارت معطلة بلا شارب ولا وارد والقصر الذي أحكموه بالجص وطولوه صار ظاهرا خاليا بلا ساكن ويحمل ذلك تعالى عبرة لمن اعتبر وتدبر وفيه دلالة على أن تفسير على مع أولى لان التقدير وهي خاوية مع عروشها ومعلوم أنها اذا كانت كذلك كانت أدخل في الاعتبار وهي كقوله تعالى وانكم لتمرون عليهم مصبحين والله أعلم بالصواب (المسئلة الثانية) روى أبو هريرة رضي الله عنه ان هذه البئر نزل عليها صالح مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم الله تعالى من العذاب وهم يحضرموت وانما سميت بذلك لان صالحا لما حضرها مات ثم دفن بلدة عند البئر اتخذها حاضورا بناها قوم صالح وأمروا عليها حاضر بن جلاس وجعلوا وزيره سنجاريب وأقاموا بها زمانا ثم كفروا وعبدوا صنما وأرسل الله تعالى اليهم حنظلة بن صفوان فقتلوه في السوق فأهلكهم الله تعالى وعطل بئرهم وخرب قصورهم قال الامام أبو القاسم الانصاري وهذا عجيب لاني زرت قبر صالح بالشام ببلدة يقال لها عكة فكيف يقال انه بحضرموت أما قوله تعالى أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فالمقصود منه ذكر ما يتكامل به ذلك الاعتبار لان الرؤية لها حظ عظيم في الاعتبار وكذلك استماع الاخبار قد يعتد خل ولكن لا يكمل هذان الامران الا بتدبر القلب لان من عاين وسمع ثم لم يتدبر ولم يعتبر لم ينتفع البتة ولو تفكر فيما سمع لانتفع فلهذا قال فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وكانه قال لا عمى في ابصارهم فانهم يرون بها لكن العمى في قلوبهم حيث لم ينتفعوا بما أبصروه وهو نظير قوله تعالى (السؤال الاول) قوله أفلم يسيروا في الارض هل يدل على الامر بالسفر (الجواب) يحتمل أنهم لما سافروا لغرض من الاغراض على السفار لير والمصارع من أهلكهم الله كذلك رهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا ويحتمل أن يكونوا قد سافروا وأن ذلك لم يعتبروا فعلوا كان لم يسافروا ولم يروا (السؤال الثاني) ما معنى الضمير في قوله فانها لا تعمى الابصار (والجواب) هذا الضمير ضمير القصة والشان يعني وتحاولوا ذكرا وفي قراءة ابن مسعود فانه ويجوز أن يكون ضميرا مبهما

يفسره

فقط والعلم متعد الى واحد أو الى شئ تحمل وعلى أي حال هو من الاحوال المتوارة عليه طورا فطورا فهي استئنافية معللة لجملة انها تعمى مصدرية (وما تغيض الارحام وما تزداد) أي تنقصه وتزداده في الجثة كالدم والنام وفي المدة كالمولود في أقل مدة الحمل

والمولود فى أكثرها وفيما بينهما قيل ان الاصحاك ولد فى سنتين وهرم بن خيان فى أربع ومن ذلك سنى هرسا وفى المدد كالواحد فيما فوقه يروى أن شريكا كان رابع أربعة أو يعلم نقصها وازديادها لما فيهم اقالة العلان متعديان كما فى قوله تعالى وغيض الماء وقوله تعالى وازدادوا تسعا وقوله وتزداد كيل بعير أولا زمان قد أسند الى الارحام مجازا وهما لما قبلها (وكل شئ) ١٩١ من الاشياء (عنده بمقدار) بقدر لا يمكن تجاوزه عنه كقوله انا كل شئ خلقناه بقدر فان كل حادث من الاعيان والاعراض له فى كل مرتبة من مراتب التكوين وميعاد يهما وقت معين وحال مخصوص لا يكاد يجاوزه والمراد بالعندية الحضور العلمى بل العلم الحضورى فان تحقق الاشياء فى أنفسها فى أى مرتبة كانت من مراتب الوجود والاستعداد لذلك علم له بالنسبة الى الله عز وجل (عالم الغيب) أى الغائب عن الحس (والشهادة) أى الحاضر له عبر عنهما بهما اما لغة وقيل أريد بالغيب المعدوم وبالشهادة الموجود وهو خبر مبتدا محذوف أو خبر بعد خبر وقرئ بالنصب على المدح وهذا كالدليل على ما قبله من قوله تعالى الله يعلم الخ (الكبير) العظيم الشأن الذى كل شئ دونه (المتعال) المستعلى على كل شئ بقدرته أو المنزه عن نعوت المخلوقات وبعد ما بين سبحانه أنه عالم بجميع أحوال الانسان فى مراتب فطرته ومحيط بعالمى الغيب

يفسره الابصار (السؤال الثالث) أى فائدة فى ذكر الصدور مع ان كل أحد يعلم ان القلب لا يكون الا فى الصدر (الجواب) ان المتعارف ان العمى مكانه الحدقة فلما أريد اثباته للقلب على خلاف المتعارف احتيج الى زيادة بيان كما تقول ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذى بين فكيك فقولك الذى بين فكيك تقرير لما ادعيته للسان وتثبيت لان محل المضاء هو هو لا غير وكانك قلت ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك سهوا ولكنى تعمدته على الوجه وعندى فيه وجه آخر وهو أن القلب قد يجعل كناية عن الخاطر والتدبر كقوله تعالى ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب وعند قوم ان محل التفكر هو الدماغ فالله تعالى بين ان محل ذلك هو الصدر (السؤال الرابع) هل تدل الآية على ان العقل هو العلم وعلى ان محل العلم هو القلب (الجواب) نعم لان المقصود من قوله قلوب يعقلون بها العلم وقوله يعقلون بها كالدلالة على ان القلب آلة لهذا التعقل فوجب جعل القلب محلا للتعقل ويسمى الجهل بالعمى لان الجاهل لكونه متحيرا يشبه الاعمى ﴿قوله تعالى ﴾ ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها والى المصير قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين ﴾ اعلم انه تعالى لما حكى من عظم ما هم عليه من التكذيب انهم يستهزؤن باستعجال العذاب فقال ويستعجلونك بالعذاب وفى ذلك دلالة على انه عليه السلام كان يخوفهم بالعذاب ان استمروا على كفرهم ولان قولهم لو ما أنزل علينا الملائكة يدل على ذلك فقال تعالى ولن يخلف الله وعده لان الوعد بالعذاب اذا كان فى الآخرة دون الدنيا فاستعجاله يكون كالخلف ثم بين ان العاقل لا ينبغى أن يستعجل عذاب الآخرة فقال وان يوما عند ربك يعنى فيما يلقاهم من العذاب وشدته كالف سنة لو بقى وعذب فى كثرة الآلام وشدتها فبين سبحانه أنهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة وأنهم بهذا الوصف لما استعجلوه وهذا قول نبى مسلم وهو أولى الوجوه ﴿الوجه الثانى﴾ ان المراد طول أيام الآخرة فى المحاسبة ويرجع معناه الى قريب مما تقدم وذلك ان الايام الكثيرة اذا مرت فى الشدة كانت مستطيلة فكيف تكون الايام المستطيلة اذا مرت فى الشدة ثم ان العذاب الذى يكون طول أيامها فى هذا المعنى للعاقل أن يستعجله ﴿الوجه الثالث﴾ ان اليوم الواحد ألف سنة بالنسبة اليه على السواء لانه انما يقدر الذى لا يخرج شئ فاذا لم يستعمدوا امهال يوم فلا يستعمدوا أيضا امهال ألف سنة أما قوله وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة فالمراد وكم من قرية أخرت امهالكهم مع استمرارهم على ظلمهم فاغتر وا بذلك التأخير ثم أخذتهم بأن أنزلت العذاب بهم ومع ذلك فمذاهبهم مدخرا ذا صاروا الى ربهم وهو تفسير قوله والى المصير فان قيل فلم قال فيما قبل فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة وقال ههنا وكأين من قرية أمليت لها الاولى بالفاء وهذه بالواو قلنا الاولى وقعت بدلا عن قوله فكيف كان نكير وأما هذه فخبر كم ما تقدمها حكم ما تقدمه ها من الجملتين المعطوفتين بالواو أعنى قوله وان يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون أما قوله قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين فالمعنى انه تعالى أمر رسوله بأن يدعهم الى التخويف والانذار وأن لا يبدله ما يكون منهم من الاستعجال للعذاب على سبيل الهزؤ عن ادامة التخويف والانذار وأن يقول لهم انما بعثت للانذار فاستهزاؤكم بذلك لا يعنينى منه ﴿قوله تعالى ﴾ ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم ﴾ اعلم انه تعالى لما بين للرسول صلى الله عليه وسلم أنه يجب أن يقول لهم أنا نذير مبين أردف ذلك بأن أمره بوعدهم ووعيدهم لان الرجل انما يكون منذرا اذا ذكر الوعد للمطيعين والوعيد للعاصين فقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات جمع بين الوصفين وهذا دليل على ان العمل

الشهادة بين انه تعالى عالم بجميع ما يأتون وما يذرون من الافعال والاحوال وانه لا فرق بالنسبة اليه بين السر والعلن فقال (سواء منكم من أسر القول) فى نفسه (ومن جهر به) أظهره لغيره (ومن هو مستخف) مبالغ فى الاختفاء كأنه مختف (بالليل) وطالب للزيادة (وسارب) بارز يراه كل أحد (بالنهار) من سرب سروبا أى برز وهو عطف على من هو مستخف أو على مستخف ومن عبارة عن الاثنين

كما في قوله تعالى فان عاهدتني لا تخونني * لكن مثل من يأتيك يصطحبان كأنه قيل سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار والاستواء وان أسند الى من أمر ومن جهر والى المستخفي والسارب لكنه في الحقيقة مسند الى ما أمر به وما جهر به أو الى الفاعل من حيث هو فاعل كما في الاخيرين وتقديم الاسرار ١٩٢ والاستخفاء لاظهار كمال علمه تعالى فكأنه في التعلق بالخفيات أقدم منه بالظواهر

الصالح خارج عن مسمى الايمان ويبطل قول المعتزلة ويدخل في الايمان كل ما يجب من الاعتقاد بالقلب والاقرار باللسان ويدخل في العمل الصالح أداء كل واجب وترك كل محظور ثم بين سبحانه ان من جمع بينهما فالله تعالى يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم أما المغفرة فاما ان تكون عبارة عن غفران الصغائر أو عن غفران الكبائر بعد التوبة أو عن غفرانها قبل التوبة والاولان واجبان عند الخصم وأداء الواجب لا يسمى غفرانا فبقي الثالث وهو دلالته على العفو عن أصحاب الكبائر من أهل القبلة وأما الرزق الكريم فهو اشارة الى الثواب وكرمه يحتمل أن يكون للصفات السلبية وهو ان الانسان هناك يستغني عن المكاسب ويحصل المشارق والدل فيها وارتكاب المآثم والدناءة بسببها وأن يكون للصفات الثبوتية وهو أن يكون رزقا كثيرا دائما خاليا عن شوائب التكدير مقرونا بالتعظيم والتجليل والاولى حمله على الكريم العالي على كل هذه الصفات فهذا شرح حال المؤمنين * وأما حال الكفار فقال والذين سعوا في آياتنا معاجزين والمراد اجتهدوا في ردها والتكذيب بها حيث سموها سحرا وشعرا وأساطير الاولين ويقال لمن بذل جهده في أمر انه سعى فيه وسعا من حيث بلغ في بذل الجهد النهاية كما اذا بلغ الماشي نهاية طاقته فيقال له سعى وذكر الآيات وارادة التكذيب بها مجازا قال صاحب الكشاف يقال سعى في أمر فلان اذا أصلحه وأفسده وسعيه أما للاعجاز فيقال عاجزته أي طلبت في اعجازه واختلفوا في المراد هل معاجزين لله أو للرسول وللمؤمنين والاقرب هو الثاني لانهم ان أنكروا لله استحال منهم أن يطمعوا في اعجازه وان أثبتوه فيبعد أن يعتقدوا انهم يعجزونه ويغلبونه ويصح منهم أن يظنوا ذلك في الرسول بالحيل والمكايد أما الذين قالوا المراد معاجزين لله فقد ذكروا وجوها (أحدها) المراد معاجزين مغالبين مفوتين لربهم من عذابهم وحسابهم حيث جحدوا البعث (وثانيها) انهم يثبطون غيرهم عن التصديق بالله ويثبطونهم بسبب الترغيب والترهيب (وثالثها) يجحدون الله بادخال الشبهة في قلوب الناس (والجواب عن الاول) ان من جحد أصل الشئ لا يوصف بأنه يغالب لمن يفعل ذلك الشئ ومن تأول الآية على ذلك فيجب أن يكون مراده انهم ظنوا مغالبة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما كان يقرله من أمر النشر والنشر (والجواب عن الثاني والثالث) ان المغالبة في الحقيقة ترجع الى الرسول والامة لا الى الله تعالى أما قوله تعالى أولئك أصحاب الجحيم فالمراد انهم يدومون فيها وشرهم من حيث الدوام بالصاحب فان قيل الله عليه السلام في هذه الآية بشرا المؤمنين أولا وأنذر الكافرين ثانيا فكان القياس أن يقال قل يا أيها الناس انما أنا لكم بشير ونذير قلنا الكلام مسوق الى المشركين وبأيهما الناس نداء لهم وهم الذين قيل فيهم أفلم يسيروا في الارض ووصفوا بالاستعجال وانما ألقى ذكر المؤمنين وثوابهم في البين زيادة لغيظهم وايذائهم ﴿قوله تعالى﴾ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته الآية كان الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفي شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وان الله لهادي الذين آمنوا الى صراط مستقيم ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ أما قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ففيه مسائل (المسئلة الاولى) من الناس من قال الرسول هو الذي حدث وأرسل والنبي هو الذي لم يرسل ولكنه ألهم أو رأى في النوم ومن الناس من قال ان كل رسول نبي وليس كل نبي يكون رسولا

والا فنسبته الى الكل سواء لما عرفته آنفا (له) أي لكل ممن أسر أو جهر والمستخفي أو السارب (معقبات) ملائكة تتعقب في حفظه جمع معقبة من عقبه مبالغة عقبه اذا جاء على عقبه كان بعضهم يعقب بعضا أو لانهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونه أو اعقب فأدغمت التاء في القاف والتاء للمبالغة أو المراد بالمعقبات الجماعات وقرئ معاقيب جمع معقب أو معقبة على تعويض الياء من احدى القافين (من بين يديه ومن خلفه) من جميع جوانبه أو من الاعمال ما قدم وأخر (يحفظونه من أمر الله) من بأسه حين أذنب بالاستمهال والاستغفار له أو يحفظونه من المضار أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله تعالى وقد قرئ به وقيل من تعني الباء وقيل من أمر الله صفة ثانية لمعقبات وقيل المعقبات الحراس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه في نومه من قضاء الله تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم) من النعمة والعافية (حتى يغيروا ما بأنفسهم) من الاعمال الصالحة أو ملكاتها وهو التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها الى أضدادها (واذا أراد الله بقوم سوأ) لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك (فلا مرد له) فلا رد له والعامل في اذا ما دل عليه الجواب (وما لهم من دونه من وال) يلي أمرهم ويدفع عنهم السوء الذي أراده الله بهم بما قدمت أيديهم من

تعميم ما بهم وفيه دلالة على أن مخالف مراد الله تعالى ضال وايذان بأنهم ضالون مبالغون من انكار البعث واستهوال السيئة واقتراح الآيات قد غيروا ما بأنفسهم من الفطرة واستحقوا بذلك حلول غضب الله تعالى وعقابه (هو الذي يريكم البرق خوفا) من الصاعقة (وطمعا) في المطر فوجه تقديم الخوف على الطمع ظاهر لما أن الخوف عليه النفس أو الرزق العتيد والمطموع ١٩٣ فيه الرزق المترقب وقيل الخوف أيضا من المطر لكن الطائف منه غير الطامع فيه كالخراف والحراث وإياه الترتيب اللهم الا أن يتكلف ما أشير اليه من أن الخوف عند والمطموع فيه مترقب وانتصابهما اما على المصدرية أي فتخافون خوفا وتطمعون طمعا أو على الحالية من البرق أو المخاطبين باضمار ذوي أو بجعل المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل مبالغة أو على العلية بتقدير الشاف أي ارادة خوف وطمع أو بتأويل الاخافة والاطماع بحيث فاعل العلة والفعل المعلل وأما جعل المعلل هي الرؤية التي تتضمنها الاراءة على طريقة قول النابغة

وحلت بيوتي في ذباع يمنع ... تخال بها راعي الحمولة طائرا

حذارا على أن لا ينال معاوني ... ولا نسوتي حتى يمسن حوائرا

أي أحلت بيوتي حذارا فلا سبيل البتة الى ما وقع في معرض العلة الغائية لا سيما الخوف لا يصلح علة لرؤيتهم (وينشئ السحاب) الغمام المنسحب في الجو وهو قول الكلبي والفراء وقالت المعتزلة كل رسول نبي وكل نبي رسول ولا فرق بينهما واحتجوا على فساد القول الاول بوجوه (أحدها) هذه الآية فانها دالة على ان النبي قد يكون مرسلا وكذا قوله تعالى وما أرسلنا في قرية من نبي (وثانيها) ان الله تعالى خاطب محمدا مرة بالنبي ومرة بالرسول فدل على انه لا منافاة بين الامرين وعلى القول الاول المنافاة حاصلة (وثالثها) انه تعالى نص على انه خاتم النبيين (ورابعها) ان اشتقاق لفظ النبي اما من النبأ وهو الخبر أو من قولهم نبا اذا ارتفع والمعنيان لا يحصلان الا بقبول الرسالة (أما القول الثاني) فاعلم ان في تلك الوجوه لا سيما على هذه الآية دلالة عليه لانه عطف النبي على الرسول وذلك يوجب المغايرة وهو من باب عطف العام على الخاص وقال في موضع آخر وكم أرسلنا من نبي في الاولين وذلك يدل على انه كان نبيا فجعله الله مرسلا وهو يدل على قولنا وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم كم المرسلون فقال ثلثمائة وثلاثة عشر فقيل وكم الانبياء فقال مائة الف وأربعة وعشرون ألفا الجم الغفير اذا ثبت هذا فنقول ذكر وا في الفرق بين الرسول والنبي أمورا (أحدها) أن الرسول من الانبياء من جمع الى المعجزة الكتاب المنزل عليه والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب وانما أمر أن يدعو الى كتاب من قبله (والثاني) ان من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ من شرع قبله فهو الرسول ومن لم يكن مستجمعا لهذه الخصال فهو النبي غير الرسول وهؤلاء الزمهم أن لا يجعلوا اسحق ويعقوب وأيوب ويونس وهرون وداود وسليمان رسلا لانهم ما جاؤا بكتاب ناسخ (والثالث) ان من جاءه الملك ظاهرا وأمره بدعوة الخلق فهو الرسول ومن لم يكن كذلك بل رأى في النوم أو سمع صوتا أو أخبره أحد من الرسل بانه رسول الله فهو النبي الذي لا يكون رسولا وهذا هو الاولى (المسئلة الثانية) ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية ان الرسول صلى الله عليه وسلم لما رأى اعراض قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به تمنى في نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على ايمانهم فجلس ذات يوم في نادي من أندية قريش كثير أهله وأحب بوشد أن لا يأتيه من الله شئ ينفروا عنه وتمنى ذلك فانزل الله تعالى سورة والنجم اذا هوى فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته فقرأ السورة كلها فسجد وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر الا سجد سوى الوليد بن المغيرة وأبي أحيحة سعيد بن العاصي فانهما أخذا حفنة من التراب من البطحاء ورفعاها الى جبهتيهما وسجدا عليها لانهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت أقريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام فقال ماذا صنعت تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله وقلت ما لم أقل لك فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله خوفا عظيما حتى نزل قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته الآية هذا رواية عامة المفسرين الظاهرين أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول أما القرآن فوجوه (أحدها) قوله تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين (وثانيها) قوله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ان أتبع الا ما يوحى الي (وثالثها) قوله وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى فلو انه قرأ عقيب هذه الآية تلك الغرانيق العلى لكان قد ظهر كذب الله تعالى في

(والسحاب) بالماء وهي جمع بقوله وصف بها السحاب لكونها اسم جنس في معنى الجمع والواحدة سحابة يقال سحابة ثقيلة وسحاب ثقال كما يقال امرأة كريمة ونسوة كرام (ويسبح الرعد) أي سامعوه من العباد الراجين للمطر ملتبسين (بحمده) أي يقولون سبحان الله والحمد لله واسناده الى الرعد لدلالته لهم على ذلك أو يسبح الرعد نفسه على أن تسبيحه عبارة عن دلالته على وحدانية تعالى

وفضله المستوجب لحمده وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يقول سبحان من يسبح الرعد بحمده واذا اشتد يقول اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك وعن علي رضي الله عنه سبحان من سبحت له وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان اليهود سألت النبي عليه الصلاة والسلام ١٩٤ عن الرعد فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها

السحاب وعن الحسن خلق من خلق الله تعالى ليس بملك (والملائكة) أي يسبح الملائكة (من خيفته) من هيبته واجلاله حل جلاله وقيل الضمير للرعد (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) فيهلكه بذلك (وهم) أي الكفرة المخاطبون في قوله تعالى هو الذي يريكم البرق وقد التفت الى الغيبة ايذانا باسقاطهم عن درجة الخطاب واعراضا عنهم وتعديدا لجناياتهم لدى كل من يتأتى خطابه كأنه قيل هو الذي يفعل أمثال هذه الافاعيل العجيبة من اراءة البرق وانشاء السحاب الثقال وارسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته ويعقلها من يعقلها من المؤمنين أو الرعد نفسه أو الملك الموكل به والملائكة الموكلون به يجب ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيبته تعالى وهم أي الكفرة الذين حكيت عتاتهم مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم (يجادلون في الله) أي في شأنه تعالى حيث يفعلون ما يفعلون من انكار البعث واستحالة العذاب استهزاء واقتراح الآيات

السلام

الحال وذلك لا يقوله مسلم (ورابعها) قوله تعالى وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك لتفتري علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا وكلمة كاد عند بعضهم معناه قرب أن يكون الامر كذلك مع انه لم يحصل (وخامسها) قوله ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيأ قليلا وكلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل (وسادسها) قوله كذلك لنثبت به فؤادك (وسابعها) قوله سنقرئك فلا تنسى * وأما السنة فهي ما روي عن محمد بن اسحق بن خزيمة انه سئل عن هذه القصة فقال هذا موضوع من الزنادقة وصنف فيه كتابا وقال الامام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم وأيضا فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي عليه الصلاة والسلام قرأ سورة والنجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والانس والجن وليس فيه حديث الغرانيق وروي هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها البتة حديث الغرانيق * وأما المعقول فمن وجوه (أحدها) ان من جوز على الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيم الاوثان فقد كفر لان من المعلوم بالضرورة ان أعظم سعيه كان في نفي الاوثان (وثانيها) انه عليه السلام ما كان يمكنه في أول الامر أن يصلي ويقرأ القرآن عند الكعبة آمنا اذي المشركين له حتى كانوا يعاملونه ويؤذيهم اليه واذا كان يصلي اذا لم يحضروها لصلاة أو في أوقات خلوة وذلك يبطل قولهم (وثالثها) ان معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة دون أن يقفوا على حقيقة الامر فكيف اجمعوا على أنه عظم آلهتهم حتى خروا سجدا مع انهم لم يظهر عندهم موافقته لهم (ورابعها) قوله فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته وذلك لان احكام الآيات بازالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول أقوى من تسخيره هذه الآيات التي تبقى الشبهة معها فاذا أراد الله احكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنا فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى (وخامسها) وهو أقوى الوجوه انا لو جوزنا ذلك ارتفع الامان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الاحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس فانه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي وبين الزيادة فيه فهذه أوجوه عقلية على سبيل الاجمال ان هذه القصة موضوعة أكثر ما في الباب ان جمعا من المفسرين ذكروها لكنهم ما بلغوا حد التواتر وخبر الواحد لا يعارض الدلائل القطعية والعقلية المتواترة * ولنشرع الآن في التفصيل فنقول التمني جاء في اللغة لامرين (أحدهما) تمي القلب (والثاني) القراءة قال الله تعالى ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني أي الا قراءة لان الاعمى لا يعلم القرآن من المصحف وانما يعلمه قراءة وقال حسان

تمنى كتاب الله أول ليلة * وآخره لاقى حمام المقادر

قيل انما سميت القراءة أمنية لان القارئ اذا انتهى الى آية رحمة تمنى حصولها واذا انتهى الى آية عذاب تمنى أن لا يبتلى بها وقال أبو مسلم التمني هو التقدير وتمني هو تفعل من منيت والمنية وفاة الانسان في الوقت الذي قدره الله تعالى ومن الله لك أي قدر لك وقال رواة اللغة الامنية القراءة واحتجوا ببيت حسان وذلك راجع الى الاصل الذي ذكرناه فان التالي مقدر للحروف يذكرها شيأ فشيأ فحاصل من هذا البحث أن الامنية اما القراءة أو الخاطر أما اذا فسرناها بالقراءة ففيه قولان (الاول) انه تعالى أراد بذلك ما يجوز أن يسمعه الرسول صلى الله عليه وسلم فيه ويشتبه على القارئ دون ما رووه من قوله تلك الغرانيق العلى (الثاني) المراد منه وقوع هذه الكلمة في قراءته ثم اختلف القائلون بهذا على وجوه (الاول) ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بقوله تلك الغرانيق العلى ولا الشيطان تكلم به ولا أحد تكلم به لكنه عليه

و يقول الذين كفروا كما قيل فلا مجال له لان قوله تعالى الله يعلم الخ ابتئاف لبيان بطلان قولهم ذلك ونظائره من استعجال العذاب

وانكار البعث قاطع لعطف ما بعده على ما قبله وقيل للعال أى فيصيب بالصواعق من يشاء وهم فى الجدال وقد أريد به ما أصاب أربد بن ربيعة أخا لبيد فانه أقبل مع عامر بن الطفيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يغيلان الغوائل فدخلا المسجد وهو عليه الصلاة والسلام جالس فى نفر من الاصحاب رضى الله عنهم فاستشرفوا لجمال عامر ١٩٥ وكان من أجمل الناس وقد كان أوصى الى أربد

السلام لما قرأ سورة والنجم اشتبه الامر على الكفار فحسبوا بعض ألفاظه مما رووه من قولهم تلك الغرانيق العلى وذلك على حسب ما جرت العادة به من توهم بعض الكلمات على غير ما يقال وهذا الوجه ذهب اليه جماعة وهو ضعيف لوجوه (أحدها) أمن التوهم فى مثل ذلك انما يصح فيما جرت العادة بسماعه فأما غير المسموع فلا يقع ذلك فيه (وثانيها) أنه لو كان كذلك لوقع هذا التوهم لبعض السامعين دون البعض فان العادة ممتنعة من اتفاق الجم الغفير فى الساعة الواحدة على خيال واحد فاسد فى المحسوسات (وثالثها) لو كان كذلك لم يكن مضافا الى الشيطان (الوجه الثانى) قالوا ان ذلك الكلام كلام شيطان الجن وذلك بأن تلفظ بكلام من تلقاء نفسه أو وقعه فى درج تلك التلاوة فى بعض وقفاته ليظن أنه من جنس الكلام المسموع من الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا ولو الذى يؤكده أنه لا خلاف فى أن الجن والشياطين متكلمون فلا يمتنع أن يأتى الشيطان بصوت مثل صوت الرسول عليه السلام فيتكلم بهذه الكلمات فى أثناء كلام الرسول عليه السلام وعند سكوته فاذا سمع الحاضرون تلك الكلمة بصوت مثل صوت الرسول ما رأوا شيئا آخر فظن الحاضرون أنه كلام الرسول ثم هذا لا يكون قادحا فى النبوة لما لم يكن فعله وهذا أيضا ضعيف فانا اذا جوزنا أن يتكلم الشيطان فى أثناء كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بما يشتبه على كل السامعين كونه كلاما للرسول بقى هذا الاحتمال فى كل ما يتكلم به الرسول فيفضى الى ارتفاع الوثوق عن كل الشرع * فان قيل هذا الاحتمال قائم فى الكل ولكنه لو وقع لوجب فى حكمة الله تعالى أن يشرح الحال فيه كما فى هذه الواقعة ازالة للتلبيس * قلنا لا يجب على الله ازالة الاحتمالات كما فى المتشابهات واذا لم يجب على الله ذلك تعذر الاحتمال من الكل (الوجه الثالث) أن يقال المتكلم بذلك بعض شياطين والانس وهم الكفرة فانه عليه السلام لما انتهى فى قراءة هذه السورة الى هذا الموضع وذكر أسماء آلهتهم وقد علموا من عادته أنه يعيبها فقال بعض من حضر تلك الغرانيق العلى فاشتبه الامر على القوم لكثرة لغط القوم وكثرة صياحهم وطنطنتهم تغليطه واخفاء قراءته ولعل ذلك كان فى صلاته لانهم كانوا يقربون منه فى حال صلاته ويسمعون قراءته ويلغون فيها وقيل انه عليه السلام كان اذا تلا القرآن على قريش توقف فى فصول الآيات فألقى بعض الحاضرين ذلك الكلام فى تلك الوقفات فتوهم القوم انه من قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أضاف الله تعالى ذلك الى الشيطان لانه بوسوسته يحمل أولا ولانه سبحانه يجعل ذلك المتكلم فى نفسه شيطانا وهذا أيضا ضعيف لوجهين (أحدهما) انه لو كان كذلك لكان يجب على الرسول صلى الله عليه وسلم ازالة الشبهة وتصريح الحق وتبكيت ذلك القائل واظهار ان هذه الكلمة منه صدرت (وثانيهما) لو فعل ذلك لكان ذلك أولى بالقبول فان قيل انما لم يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك لانه كان قد أدى السورة بكمالها الى الامة من دون هذه الزيادة فلم يكن ذلك مؤديا الى التلبيس كما لم يؤدسهو فى الصلاة بعد أن وصفها الى الملبس قلنا ان القرآن لم يكن مستقرا على حالة واحدة فى زمان حياته لانه كان يأتيه الآيات فيلحقها بالسورة فلم يكن تأدية تلك السورة بدون هذه الزيادة سببا لزوال الملبس وأيضا فلو كان كذلك لما استحق العتاب من الله تعالى على ما رواه القوم (الوجه الرابع) هو أن المتكلم بهذا هو الرسول صلى الله عليه وسلم ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه فانه اما أن يكون قال هذه الكلمة سهوا أو قسرا أو اختيارا (أما الوجه الاول) وهو أنه عليه السلام قال هذه الكلمة سهوا فكما يروى عن قتادة ومقاتل انهما قالا انه عليه السلام كان يصلى عند المقام فنعس وجرى على لسانه هاتان الكلمتان فلما فرغ من السورة سجد وسجد كل من فى المسجد وفرح المشركون لما سمعوه وأتاه جبريل عليه السلام فاستقرأه فلما انتهى

الله اذا رأيتنى أكلم محمدا عليه الصلاة والسلام فدر من خلفه واضربه بالسيف فجعل يكلمه عليه الصلاة والسلام فدار أربد من خلفه عليه السلام فاخترط من سيفه شبرا فحبسه الله تعالى فلم يقدر على سله وجعل عامر يومئ اليه فرأى النبى عليه الصلاة والسلام المال فقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله عز وجل على أربد صاعقة فى يوم صحو صائف فاحرقته وولى عامر هاربا فنزل فى بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضم عليه سلاحه وتغير لونه وركب فرسه فجعل يركض فى الصحراء ويقول ابرز يا ملك الموت ويقول الشعر ويقول واللات لئن أبصرتنى محمد وصاحبه لتعلمن ملك الموت لانفذنهما برمحى فأرسل الله تعالى ملكا فلطمه بجناحه فأرداه فى التراب فخرجت على ركبته فى الوقت غدة عظيمة فمات فى بيت السلولية وهو يقول غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية ثم دعا بفرسه فركبه فأجراه حتى مات على ظهره وقيل أربد هو ما روى عن الحسن أنه كان رجل من طواغيت العرب فبعث النبى عليه الصلاة والسلام نفرا من أصحابه يدعونه الى الله عز وجل فقال لهم أخبرونى عما تدعوننى اليه ما هو وعما هو ومن ذهب أم من فضة أم من نحاس أم من حديد أم من درنا فشتموا ما قالته فرجعوا الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا ما رأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه

فقال عليه الصلاة والسلام ارجعوا اليه فرجعوا اليه فازداد الامر الاول وأخبث فرجعوا اليه عليه الصلاة والسلام وأخبروه بما صنع فقال عليه الصلاة والسلام ارجعوا اليه فرجعوا اليه فبينما هم عنده يتازعونه اذ رفعت سحابة ورعدت وبرقت ورمت بصاعقة فاحترق الكافر فجاؤا يسعون ليخبروه عليه ١٩٦ الصلاة والسلام بالخبر فاستقبلهم الاصحاب فقالوا احترق صاحبكم قالوا ومن أين علمتم قالوا أوحى الى

النبي صلى الله عليه وسلم (وهو شديد المحال) أي والحال أنه شديد المماحلة والمكابرة والمماكرة لاعدائه من محل اذا كاده وعرضه للهلاك ومنه تحمل اذا تكلف استعمال الحيل وقيل هو محال من المحل بمعنى القوة وقيل محول من الحول أو الحيلة أعل على غير قياس وبعضده أنه قرئ بفتح الميم على انه مفعل من حال يحول اذا احتال ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلا في القوة والقدرة كقولهم فلان أقوى وأقدر كقولهم فساعد الله أشد وموساه أحد (له دعوة الحق) أي الدعوة الثابتة الواقعة في محلها المجابة عند وقوعها والاضافة للاختصاص بلا ستحقاق للحق واختصاصها به وكونه بمنزل من شائبة البطلان والضياع والضلال كما يقال كلمة الحق وقيل له دعوة الله سبحانه أي الدعوة الملائقة بحضرته كما في قوله عليه الصلاة والسلام فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله والتعرض لوصف الحقية لترتيب معنى الاستحابة والاولى هو الاول لقوله تعالى ومادعاء الكافرين الا في ضلال وتعلق الجملتين بما قبلهما من حيث ان اهلاك

ثم

أمر بديع عامر محال من الله تعالى واجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم محلول محاله بهم وتحذير لهم باجابة دعوته عليهم (والذين يدعون) أي الاصنام الذين

الى الفرانيق قال أما ألم آتك بهذا فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن نزلت هذه الآية وهذا ضعيف أيضا لوجوه (أحدها) انه لو جاز هذا السهو لجاز في سائر المواضع وحينئذ تزول الثقة عن الشرع (وثانيها) ان الساهي لا يجوز أن يقيم منه مثل هذه الالفاظ المطابقة لوزن السورة وطريقتها ومعناها فانا نعلم بالضرورة ان واحدا لو أنشد قصيدة لما جاز أن يسهو حتى يتفق منه بيت شعر في وزنها ومعناها وطريقتها (وثالثها) هب انه تكلم بذلك سهوا فكيف لم ينبه لذلك حين قرأها على جبريل عليه السلام وذلك ظاهر (أما الوجه الثاني) وهو انه عليه السلام تكلم بذلك قسرا وهو الذي قال قوم ان الشيطان أجبر النبي صلى الله عليه وسلم على أن يتكلم بهذا فهذا أيضا فاسد لوجوه (أحدها) ان الشيطان لو قدر على ذلك في حق النبي عليه السلام لكان اقتداره علينا أكثر فوجب أن يزيل الشيطان الناس عن الدين ولجاز في أكثر ما يتكلم به الواحد منا أن يكون ذلك باجبار الشياطين (وثانيها) ان الشيطان لو قدر على هذا الاجبار لارتفع الامان عن الوحي لقيام هذا الاحتمال (وثالثها) انه باطل بدلالة قوله تعالى حاكيا عن الشيطان وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم وقال تعالى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه وقال لاغوينهم أجمعين ولا شك انه عليه السلام كان سيد المخلصين (أما الوجه الثالث) وهو انه عليه السلام تكلم بذلك اختيارا فهو ناوجهان (أحدهما) أن نقول ان هذه الكلمة باطلة (والثاني) أن نقول انها ليست كلمة باطلة أما على الوجه الاول فقد ذكروا فيه طريقين (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء ان شيطانا يقال له الابيض أتاه على صورة جبريل عليه السلام وألقى عليه هذه الكلمة فقرأها فلما سمع المشركون ذلك أعجبهم فمضى جبريل عليه السلام فاستعرضه فقرأها فلما بلغ الى تلك الكلمة قال جبريل عليه السلام أنا ما جئتك بهذه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه أتاني آت على صورتك فألقاها على لساني (الطريق الثاني) قال بعض الجهال انه عليه السلام لشدة حرصه على ايمان القوم أدخل هذه الكلمة من عند نفسه ثم رجع عنها وهذان القولان لا يرغب فيهما مسلم البتة لان الاول يقتضي أنه عليه السلام ما كان يميز بين الملك المعصوم والشيطان الخبيث والثاني يقتضي أنه كان خائنا في الوحي وكل واحد منهما خروج عن الدين (أما الوجه الثاني) وهو ان هذه الكلمة ليست باطلة فههنا أيضا طريق (الاول) أن يقال الفرانيق هم الملائكة وقد كان ذلك قرآنا منزلا في وصف الملائكة فلما تو هم المشركون انه يريد آلهتهم نسخ الله تلاوته (الثاني) أن يقال المراد منه الاستفهام على سبيل الانكار فكأنه قال أشافعتهن ترتجى (الثالث) أن يقال انه ذكر الاثبات وأراد النفي كقوله تعالى بين الله لكم أن تضلوا أي لا تضلوا كما قد ذكر النفي ويريد به الاثبات كقوله تعالى ذل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيأ والمعنى أن تشركوا وهذان الوجهان الاخيران يعترض عليهما بأنه لو جاز ذلك بناء على هذا التأويل فلم لا يجوز أن يظهروا كلمة الكفر في جملة القرآن أو في الصلاة بناء على هذا التأويل ولكن الاصل في الدين أن لا يجوز عليهم شئ من ذلك لان الله تعالى قد نصبهم حجة واصطفاهم للرسالة فلا يجوز عليهم ما يطعن في ذلك أو ينفر ومثل ذلك في التنفير أعظم من الامور التي حكمه الله تعالى على تركها كنحو المظاظة والكآبة وقول الشعر فهذه الوجوه المذكورة في قوله تلك الفرانيق العلا قد طهر على القطع كذبهم فهذا كله اذا فسرنا التمني بالتلاوة وأما اذا فسرناها بالخاطر وقلنا القلب فالمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم متى تمنى بعض ما يتمناه من الامور وسوس الشيطان اليه بالباطل و يدعوه الى ما لا ينبغي ثم ان الله تعالى ينسخ ذلك ويبطله و يهديه الى ترك الالتفات الى وسوسته

يدعوهم المشركون فحذف العائد (من دونه) من دون الله عز وجل (لا يستجيبون لهم بشئ) من طلباتهم (الا كباسط كفيه الى الماء) أى الا استجابة كائنة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه من بعيد فالاستجابة مصدر من المبنى للفاعل على ما يقتضيه الفعل الظاهر أعنى لا يستجيبون ويجوز أن يكون من المبنى للمفعول ويضاف الى الباسط بناء على استلزام المصدر من المبنى للفاعل للمصدر من المبنى للمفعول وجودا وعدما فكأنه قيل لا يستجيبون لهم بشئ فلا يستجاب لهم الا استجابة كائنة كاستجابة من بسط كفيه الى الماء حكما فى قوله

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع

من المال الا مسحت أو مجلف

أى لم تدع فلم يبق الا مسحت أو مجلف (ليبلغ) أى الماء بنفسه من غير أن يتناول شيئ من اناء ونحوه (فاه وما هو) أى الماء (ببالغه) ببالغ فيه أبدا لكونه جمادا لا يشعر بعطشه ولا يبسط يده اليه فضلا عن الاستطاعة لما أراده من البلوغ الى فيه شبه حال المشركين فى عدم حصول مطلوبهم فى دعاء آلهتهم على شئ أصلا وركاكة رأيهم فى ذلك بحال عطشان قائم لا يدرى ما يفعل قد بسط كفيه من بعد الى الماء ليتناوله فيه من غير سير ملاحظة التشبيه فى جميع مفردات الاطراف فان الماء فى نفسه شئ نافع بخلاف آلهتهم والمراد فى الاستجابة رأسا الا أنه قد أخرج الكلام مخرج التهكم بهم فقيل لا يستجيبون لهم شيأ من الاستجابة كائنة فى هذه الصورة التى ليست فيها ما ثبتت الاستجابة قطعا فهو فى الحقيقة من باب التعليق بالمحال وقرئ تدعون بالتاء وكباسط بالتنوين (وما دعاء الكافرين الا فى ضلال) أى ذهاب وضياع وخسار (ولله) وحده (يسجد)

ثم اختلفوا فى كيفية تلك الوسوسة على وجوه (أحدها) انه يلقى ما يقرب به الى المشركين من ذكر آلهتهم بالثناء قالوا انه عليه السلام كان يحب أن يتألفهم وكان يرد ذلك فى نفسه فعند ما لحقه من الياس زاد تلك الزيادة من حيث كانت فى نفسه وهذا أيضا خروج عن الدين وبيانه ما تقدم (وثانيها) ما قال محمد بن اسحاق انه عليه السلام كان يتمنى انزال الوحى عليه على سرعة دون تأخير فنبهه الله ذلك بأن عرفه بأن انزال ذلك بحسب المصالح فى الحوادث والنوازل وغيرها (وثالثها) يحتمل انه عليه السلام عند نزول الوحى كان يتفكر فى تأويله ان كان مجملا فيلقى الشيطان فى جملته ما لم يرده فبين تعالى انه ينسخ ذلك بالابطال ويحكم ما أراده الله تعالى بأدلته وآياته (ورابعها) معنى الآية اذا تمنى اذا أراد فعلا مقربا الى الله تعالى ألقى الشيطان فى فكره ما يخالفه فيرجع الى الله تعالى فى ذلك وهو كقوله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طيف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ولكقوله واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ومن الناس من قال لا يجوز حمل الامنية على تمنى القلب لانه لو كان كذلك لم يكن ما يخطر ببال رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة للكفار وذلك يبطله قوله تعالى ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم (والجواب) لا يبعد انه اذا قوى التمنى استغل الخاطر به فحصل السهو فى الافعال الظاهرة بسببه فصار ذلك فتنة للكفار ذهابا آخر القول فى هذه المسئلة (المسئلة الثالثة) يرجع حاصل البحث الى أن الغرض من هذه الآية بيان أن الرسل الذين أرسلهم الله تعالى وان عصمهم عن الخطا فى العلم لم يعصمهم من جواز السهو ووسوسة الشيطان بل حالهم فى جواز ذلك كحال سائر البشر فلو اجب بأن لا يتبعوا لا فيما يفعلونه عن علم فذلك هو المحكم وقال أبو مسلم معنى الآية انه لم يرسل نبيا الا اذا تمنى كأنه قيل وما أرسلنا الى البشر ملكا وما أرسلنا اليهم نبيا الا منهم وما أرسلنا نبيا خلا عند تلاوته الوحى من وسوسة الشيطان وأن يلقى فى خاطره ما يضاد الوحى ويشغله عن حفظه فيثبت الله النبى على الوحى وعلى حفظه ويعلم صواب ذلك وبطلان ما يكون من الشيطان قال وقيما تقدم من قول قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين تقوية لهذا التأويل فكأنه تعالى أمره أن يقول للكافرين أنا لست برأيكم لكنى من البشر لا من الملائكة ولم يرسل الله تعالى الى مثلى ملكا بل أرسل رجلا فقد يوسوس الشيطان اليهم فان قيل هذا انما يصح لو كان السهو لا يجوز على الملائكة قلنا اذا كانت الملائكة أعظم درجة من الانبياء لم يلزم من استيلائهم بالوسوسة على الانبياء استيلاؤهم بالوسوسة على الملائكة * واعلم أنه سبحانه لما شرح حال هذه الوسوسة أردف ذلك ببحثين (الاول) كيفية ازالتها وذلك هو قوله تعالى فينسخ الله ما يلقى الشيطان فالمراد ازالته وازالة تأثيره وهو النسخ للغوى لا النسخ الشرعى المستعمل فى الاحكام أما قوله ثم يحكم الله آياته فاذا حمل القفى على القراءة فالمراد به آيات القرآن والا فيحمل على أحكام الادلة التى لا يجوز فيها الغلط (البحث الثانى) انه تعالى بين أثر تلك الوسوسة ثم انه سبحانه شرح أثرها فى حق الكفار أولا ثم فى حق المؤمنين ثانيا أما فى حق الكفار فهو قوله ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة والمراد به تشديد التعبد لان عند ما يظهر من الرسول صلى الله عليه وسلم الاشتباه فى القرآن سهوا يلزمهم البحث عن ذلك ليميز والسهو من العمد وليعلموا ان العمد صواب والسهو قد لا يكون صوابا أما قوله للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ففيه سؤالان (السؤال الاول) لم قال فتنة للذين فى قلوبهم مرض ولم يخصهم بذلك (الجواب) لانهم مع كفرهم يحتاجون الى ذلك التدبر وأما المؤمنون فقد تقدم علمهم بذلك فلا يحتاجون الى التدبر (السؤال الثانى) ما مرض القلب (الجواب) انه الشك والشبهة وهم المنافقون كما قال فى قلوبهم مرض وأما القاسية قلوبهم فهم المشركون المصرون على جهلهم ظاهرا وباطنا أما قوله

يخدمه وينقاد لما شيء غيره استقلالا ولا اشتراكا فالقصر بمنتظم القلب والافراد (من في السموات والارض) من الملائكة والثقلين (طوعا وكرها) أي طائعين وكارهين أو انقياد طوع وكره أو حال طوع وكره فان خضوع الكل لعظمة الله عز وجل وانقيادهم لاحداث ما أراده فيهم من أحكام التكوين ١٩٨ والاعدام شاؤا أو أبوا وعدم مداخلة لحكم غيره بل غير حكمه تعالى في تلك الشؤن مما لا يخفى

تعالى وان الظالمين في شقاق بعيد بريد أن هؤلاء المنافقين والمشركين فأصله وانهم فوضع الظاهر موضع المضمر قضاء عليهم بالظلم والشقاق والمشاقة والمعاداة والمباعدة سواء وأما في حق المؤمنين فهو قوله وليعلم الذين آووا العلم أنه الحق من ربك وفي الكناية ثلاثة أوجه (أحدها) انها عائدة الى نسخ ما ألقاه الشيطان عن الكلبي (وثانيها) انه الحق أي القرآن عن مقاتل (وثالثها) ان تمكن الشيطان من ذلك الالقاء هو الحق أما على قولنا فلانه سبحانه وتعالى أي شيء فعل فقد تصرف في ملكه وملكه فكان حقا وأما على قول المعتزلة فلانه سبحانه حكيم فتكون كل أفعاله صوابا في مؤمنا به فتخبت له قلوبهم أي تخضع وتسكن لعلمهم بأن المقضي كائن وكل ميسر لما خلق له وان الله لهادي الذين آمنوا الى أن يتأولوا ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة ويطلبوا ما أشكل منه من المحمل الذي تقتضيه الاصول المحكمة حتى لا تلفهم حيرة ولا تعتريهم شبهة وقرئ لهاد الذين آمنوا بالتنوين ولما بين سبحانه حال الكافرين أولا ثم حال المؤمنين ثانيا عاد الى شرح حال الكافرين مرة أخرى فقال ولا يزال الذين كفروا في مرية منه أي من القرآن أو من الرسول وذلك يدل على أن الاعصار الى قيام الساعة لا تخلو من هذا وصفه أما قوله تعالى حتى تأتيهم الساعة بغتة أي فجأة من دون أن يشعروا ثم جعل الساعة غاية لكفرهم وانهم يؤمنون عند أشراط الساعة على وجه الالجاء واختلف في المراد باليوم العقيم وفيه قولان (أحدهما) انه يوم بدر وانما وصف يوم الحرب بالعقيم لوجوه أربعة (أحدها) ان أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن (وثانيها) ان المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب فاذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز (وثالثها) هو الذي لا خير فيه ويقال ريح عقيم اذا لم تنشئ مطرا ولم تلقح شجرا (ورابعها) انه لا مثل له في عظم أمره وذلك لقتال الملائكة فيه ﴿القول الثاني﴾ انه يوم القيامة وانما وصف بالعقيم لوجوه (أحدها) انهم لا يرون فيه خيرا (وثانيها) انه لا ليل فيه فيستمر كاستمرار المرأة على تعطل الولادة (وثالثها) ان كل ذات حمل تضع حملها في ذلك اليوم فكيف يحصل الحمل فيه وهذا القول أولى لانه لا يجوز أن يقول الله تعالى ولا يزال الذين كفروا ويكون المراد يوم بدر لان من المعلوم انهم في مرية بعد يوم بدر ﴿فان قيل لما ذكر الساعة فلو جعلتم اليوم العقيم على يوم القيامة لزم التكرار ﴿قلنا ليس كذلك لان الساعة غير مقدمات القيامة واليوم العقيم هو نفس ذلك اليوم وعلى ان الامر لو كان كما قالتم لم يكن تكرارا لان في الاول ذكر الساعة وفي الثاني ذكر عذاب ذلك اليوم ويحتمل أن يكون المراد بالساعة وقت موت كل أحد وعذاب يوم عقيم القيامة أما قوله الملك يومئذ لله فمن أقوى ما يدل على أن اليوم العقيم هو ذلك اليوم وأراد بذلك انه لا مالك في ذلك اليوم سواه فهو بخلاف أيام الدنيا التي ملك الله الامور غيره وبين انه الحاكم بينهم لا حاكم سواه وذلك زجر عن معصيته ثم بين كيف يحكم بينهم وانه يصير المؤمنين الى جنات النعيم والكافرين في العذاب المهين وقد تقدم وصف الجنة والنار فان قيل التنوين في يومئذ عن أي جملة ينوب فلما تقدير الملك يوم يؤمنون أو يوم نزول مريتهم لقوله تعالى ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة ﴿قوله تعالى ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وان الله لهو خير الرازقين ليدخلنهم مدخلا يرضونه وان الله لعليم حليم ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وان الله سميع بصير ذلك بأن الله هو الحق وان ما يدعون من دونه هو الباطل وان الله هو العلي الكبير﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر ان الملك له يوم القيامة وانه يحكم بينهم ويدخل المؤمنين الجنات أتبعه بذكر وعد المهاجرين وأفردهم بالذكر تفخيما لشأنهم فقال عز من قائل والذين

خلقها للجمال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر فيها آثار التجلي كما قاله ابن الانباري ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهد فيها من هيئة السجود تبعا لاصحابها وأنت خبير بأن اختصاص سجود الكافر حالة الضرورة والشدة بالله سبحانه لا يجدي فان سجودهم لاصنامهم حالة الرخاء محل بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور فالوجه حمل السجود على الانقياد ولان تحقيق انقياد الكل في

هاجروا

الابدع والاعدام لله تعالى ادخل فى التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من لتحقيق جهودهم له تعالى وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضا كذلك لانهم العمدة وانقيادهم دليل انقياد غيرهم على أنه بين ذلك بقوله عز وجل (قل من رب السموات والارض) فانه لتحقيق أن خالقهما ومتولى أمرهما مع ما فيهما على الاطلاق هو الله سبحانه ١٩٩ وقوله تعالى (قل الله) أمر

هاجروا واختلفوا فيمن أريد بذلك فقال بعضهم من هاجر الى المدينة طلبا لنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقربا الى الله تعالى وقال آخرون بل المراد من جاهد فخرج مع الرسول صلى الله عليه وسلم أو أقرى سرا ياه لنصرة الدين ولذلك ذكر القتل بعده وهم من حمله على الامرين واختلفوا من وجه آخر فقال قوم المراد قوم مخصوصون روى مجاهد أنها نزلت فى طوائف غزيرة من مكة الى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون فقاتلوهم وظاهر الكلام للعموم ثم انه سبحانه وتعالى وصفهم برزقهم ومسكنهم أما الرزق فقوله تعالى ليرزقنهم الله رزقا حسنا وان الله لهو خير الرازقين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لاشبهة فى أن الرزق الحسن هو نعيم الجنة وقال الاصم انه العلم والفهم لقول شعيب عليه السلام ورزقنى منه رزقا حسنا فهذا فى الدنيا وفى الآخرة الجنة وقال الكلبى رزقا حسنا حلالا وهو الغنيمة وهذان الوجهان ضعيفان لانه تعالى جعله جزاء على هجرتهم فى سبيل الله بعد القتل والموت وبعدهما لا يكون الا نعيم الجنة (المسئلة الثانية) لابد من شرط اجتناب الكبائر فى كل وعد فى القرآن لان هذا أنها مرارا تكثر كبيرة لكن حكمه فى المشيئة على قولنا وتخرج عن أن يكون أهلا للجنة قطعا على قول المعتزلة * فان قيل فاضله على سائر المؤمنين فى الوعد ان كان كما قلتم فلم اقتضاهم يظهر لان ثوابهم أعظم وقد قال تعالى لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل فعلوم أن من هاجر مع الرسول صلى الله عليه وسلم وفارق داره وأهله للتقوية ونصرة دينه مع شدة قوة الكفار وظهور صولتهم صار فعله كالسبب لقوة الدين وعلى هذا الوجه عظم محل الانصار حتى صارت ذكرهم والثناء عليهم تالى ذكر المهاجرين لما آووه ونصروه (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى معنى قوله وان الله لهو خير الرازقين مع العلم بأن كل الرزق من عنده على وجوه (أحدها) التفاوت انما كان بسبب أنه سبحانه مختص بأن يرزق بما لا يقدر عليه غيره (وثانيها) أن يكون المراد أنه الاصل فى الرزق وغيره انما يرزق بما تقدم من الرزق من جهة الله تعالى (وثالثها) أن غيره ينقل الرزق من يده الى يد غيره لا أنه يفعل نفس الرزق (ورابعها) أن غيره اذا رزق فانما يرزق لانتفاعه به اما لاجل أن يخرج عن الواجب واما لاجل أن يستحق به حمدا أو ثناء واما لاجل دفع الرقة الجنسية فكان الواحد منا اذا رزق فقد طلب العوض أما الحق سبحانه فان كل ما صنعه ذاتية له فلا يستفيد من شئ كما لا زائد فكان الرزق الصادر منه لمحض الاحسان (وخامسها) أن غيره انما يرزق لوجود ما فى قلبه اراده ذلك الفعل وتلك الارادة من الله فالرازق فى الحقيقة هو الله تعالى (وسادسها) أن المرزوق يكون تحت منة الرازق ومنة الله تعالى أسهل تحملا من منة الغير فكان هو خير الرازقين (وسابعها) أن الغير اذا رزق فلولا أن الله تعالى أعطى ذلك الانسان أنواع الحواس وأعطاه السلامة والصحة والقدرة على الانتفاع بذلك الرزق لما أمكنه الانتفاع به ورزق الغير لا بد وأن يكون مسبوقا برزق الله وملكه تابعا حتى يحصل الانتفاع وأما رزق الله تعالى فانه لا حاجة به الى رزق غيره فثبت أنه سبحانه خير الرازقين (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة الآية تدل على أمور ثلاثة (أحدها) أن الله تعالى قادر (وثانيها) أن غيره يصح منه أن يرزق وملك ولولا كونه قادرا فانما لا يصح ذلك (وثالثها) أن الرزق لا يكون الا حلالا لان قوله خير الرازقين دلالة على كونهم محمودين (والجواب) لا نزاع فى كون العبد قادرا ان عندنا القدرة مع الداعى مؤثرة فى الفعل بمعنى الاستلزام وأما الثالث فبحث لفظى وقد سبق الكلام فيه (المسئلة الخامسة) لما قال تعالى ثم قتلوا أو ماتوا فسوى بينهما فى الوعد دل على قوم أن حال المقتول فى الجهاد والميت على فراشه سواء وهذا الذى أخذوه من الظاهر فلا دلالة فيه لان الجمع بينهما فى الوعد لا يدل على تفضيل ولا تسوية كما أن الجمع بين المؤمنين لا يدل على ذلك وان أخذوه من دليل آخر

بالجواب من قبله عليه السلام وأما ما ذكر من أنه تعالى أدخل فى التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من لتحقيق جهودهم له تعالى وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضا كذلك لانهم العمدة وانقيادهم دليل انقياد غيرهم على أنه بين ذلك بقوله عز وجل (قل من رب السموات والارض) فانه لتحقيق أن خالقهما ومتولى أمرهما مع ما فيهما على الاطلاق هو الله سبحانه ١٩٩ وقوله تعالى (قل الله) أمر بالجواب من قبله عليه السلام وأما ما ذكر من أنه تعالى أدخل فى التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من لتحقيق جهودهم له تعالى وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضا كذلك لانهم العمدة وانقيادهم دليل انقياد غيرهم على أنه بين ذلك بقوله عز وجل (قل من رب السموات والارض) فانه لتحقيق أن خالقهما ومتولى أمرهما مع ما فيهما على الاطلاق هو الله سبحانه ١٩٩ وقوله تعالى (قل الله) أمر بالجواب من قبله عليه السلام وأما ما ذكر من أنه تعالى أدخل فى التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من لتحقيق جهودهم له تعالى وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضا كذلك لانهم العمدة وانقيادهم دليل انقياد غيرهم على أنه بين ذلك بقوله عز وجل (قل من رب السموات والارض) فانه لتحقيق أن خالقهما ومتولى أمرهما مع ما فيهما على الاطلاق هو الله سبحانه ١٩٩ وقوله تعالى (قل الله) أمر

قوله تعالى أفلا تعقلون اذ قد رأيتم المعطوف عليه الا تسمعون بل الى ترتب الثانى على الاول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه كما اذا قيل أتسمعون والمعنى أبعد أن علمتم أن ربهما هو الله جل جلاله اتخذتم من دونه أولياء عاجزة والحال أن قضية العلم بذلك انما هو الانتصار على قومه فعكستم الامر كما فى قوله تعالى كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى ووصف الاولياء ههنا بعدم

هاجروا واختلفوا فيمن أريد بذلك فقال بعضهم من هاجر الى المدينة طلبا لنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقربا الى الله تعالى وقال آخرون بل المراد من جاهد فخرج مع الرسول صلى الله عليه وسلم أو أقرى سرا ياه لنصرة الدين ولذلك ذكر القتل بعده وهم من حمله على الامرين واختلفوا من وجه آخر فقال قوم المراد قوم مخصوصون روى مجاهد أنها نزلت فى طوائف غزيرة من مكة الى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون فقاتلوهم وظاهر الكلام للعموم ثم انه سبحانه وتعالى وصفهم برزقهم ومسكنهم أما الرزق فقوله تعالى ليرزقنهم الله رزقا حسنا وان الله لهو خير الرازقين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لاشبهة فى أن الرزق الحسن هو نعيم الجنة وقال الاصم انه العلم والفهم لقول شعيب عليه السلام ورزقنى منه رزقا حسنا فهذا فى الدنيا وفى الآخرة الجنة وقال الكلبى رزقا حسنا حلالا وهو الغنيمة وهذان الوجهان ضعيفان لانه تعالى جعله جزاء على هجرتهم فى سبيل الله بعد القتل والموت وبعدهما لا يكون الا نعيم الجنة (المسئلة الثانية) لابد من شرط اجتناب الكبائر فى كل وعد فى القرآن لان هذا أنها مرارا تكثر كبيرة لكن حكمه فى المشيئة على قولنا وتخرج عن أن يكون أهلا للجنة قطعا على قول المعتزلة * فان قيل فاضله على سائر المؤمنين فى الوعد ان كان كما قلتم فلم اقتضاهم يظهر لان ثوابهم أعظم وقد قال تعالى لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل فعلوم أن من هاجر مع الرسول صلى الله عليه وسلم وفارق داره وأهله للتقوية ونصرة دينه مع شدة قوة الكفار وظهور صولتهم صار فعله كالسبب لقوة الدين وعلى هذا الوجه عظم محل الانصار حتى صارت ذكرهم والثناء عليهم تالى ذكر المهاجرين لما آووه ونصروه (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى معنى قوله وان الله لهو خير الرازقين مع العلم بأن كل الرزق من عنده على وجوه (أحدها) التفاوت انما كان بسبب أنه سبحانه مختص بأن يرزق بما لا يقدر عليه غيره (وثانيها) أن يكون المراد أنه الاصل فى الرزق وغيره انما يرزق بما تقدم من الرزق من جهة الله تعالى (وثالثها) أن غيره ينقل الرزق من يده الى يد غيره لا أنه يفعل نفس الرزق (ورابعها) أن غيره اذا رزق فانما يرزق لانتفاعه به اما لاجل أن يخرج عن الواجب واما لاجل أن يستحق به حمدا أو ثناء واما لاجل دفع الرقة الجنسية فكان الواحد منا اذا رزق فقد طلب العوض أما الحق سبحانه فان كل ما صنعه ذاتية له فلا يستفيد من شئ كما لا زائد فكان الرزق الصادر منه لمحض الاحسان (وخامسها) أن غيره انما يرزق لوجود ما فى قلبه اراده ذلك الفعل وتلك الارادة من الله فالرازق فى الحقيقة هو الله تعالى (وسادسها) أن المرزوق يكون تحت منة الرازق ومنة الله تعالى أسهل تحملا من منة الغير فكان هو خير الرازقين (وسابعها) أن الغير اذا رزق فلولا أن الله تعالى أعطى ذلك الانسان أنواع الحواس وأعطاه السلامة والصحة والقدرة على الانتفاع بذلك الرزق لما أمكنه الانتفاع به ورزق الغير لا بد وأن يكون مسبوقا برزق الله وملكه تابعا حتى يحصل الانتفاع وأما رزق الله تعالى فانه لا حاجة به الى رزق غيره فثبت أنه سبحانه خير الرازقين (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة الآية تدل على أمور ثلاثة (أحدها) أن الله تعالى قادر (وثانيها) أن غيره يصح منه أن يرزق وملك ولولا كونه قادرا فانما لا يصح ذلك (وثالثها) أن الرزق لا يكون الا حلالا لان قوله خير الرازقين دلالة على كونهم محمودين (والجواب) لا نزاع فى كون العبد قادرا ان عندنا القدرة مع الداعى مؤثرة فى الفعل بمعنى الاستلزام وأما الثالث فبحث لفظى وقد سبق الكلام فيه (المسئلة الخامسة) لما قال تعالى ثم قتلوا أو ماتوا فسوى بينهما فى الوعد دل على قوم أن حال المقتول فى الجهاد والميت على فراشه سواء وهذا الذى أخذوه من الظاهر فلا دلالة فيه لان الجمع بينهما فى الوعد لا يدل على تفضيل ولا تسوية كما أن الجمع بين المؤمنين لا يدل على ذلك وان أخذوه من دليل آخر

قوله تعالى أفلا تعقلون اذ قد رأيتم المعطوف عليه الا تسمعون بل الى ترتب الثانى على الاول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه كما اذا قيل أتسمعون والمعنى أبعد أن علمتم أن ربهما هو الله جل جلاله اتخذتم من دونه أولياء عاجزة والحال أن قضية العلم بذلك انما هو الانتصار على قومه فعكستم الامر كما فى قوله تعالى كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى ووصف الاولياء ههنا بعدم

انما الحكمة للنفع والضرفي ترشح الانكار وتأكيده كتقييد الاتخاذ هناك بالجملة الحالية أعني قوله تعالى وهم لكم عدو فإن كلا منهما مما في الاتخاذ المذكور ويؤكد انكاره (قل) قصورا لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس (هل يستوي الاعمى) الذي هو اشرك الجاهل بالسيادة ومستحقها (والبصير) ذو البصر الذي هو الموحد العالم بذلك أو الاول عبارة عن المعبود الغافل والثاني اشارة الى المعبود العالم بكل شئ

(أم هل تستوي الظلمات) التي هي عبارة عن الكفر والضلال (والنور) الذي هو عبارة عن التوحيد والايمان وقرئ بالياء ولما دل النظم الكريم على أن الكفرة فيما فعلوا من اتخاذ الاصنام أولياء من دون الله سبحانه في الضلال المحض والخطإ البحت بحيث لا يخفى بطلانه على أحد وأنهم في ذلك كالاعمى الذي لا يهتدي الى شئ أصلا وليس لهم في ذلك شبهة تصلح أن تكون منشأ لغلطهم وخطئهم فضلا عن الحجة أكد ذلك فقيل (أم جعلوا لله) أي بل أجعلوا له (شركاء خلقوا كخلقه) سبحانه والهمزة للانكار الواقع لا لانكار الواقع مع وقوعه وقوله خلقوا كخلقه هو الذي يتوجه اليه الانكار وأما نفس الجعل فهو واقع لا يتعلق به الانكار وهذا هو المعنى انهم لم يجعلوا لله تعالى شركاء خلقوا كخلقه (فتشابه الخلق عليهم) بسبب ذلك وقالوا هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى فهم مستحقة وابذلك العبادة كما استحقها ليكون ذلك منشأ لغلطهم بل انما جعلوا لله شركاء هو بمعزل من ذلك بالمرة وفيه مالا يخفى من التعريض بركاكة رأيهم والتهكم

الى هم (قل) تحقيقا للحق وارشادا لهم اليه (الله خالق كل شئ) كافة لا خالق سواه فيشاركه في استحقاق العبادة (وهو الواحد) المتوحد بالالوهية المنفرد بالربوبية (القهار) لكل ما سواه فكيف يتوهم أن يكون له شريك وبعد ما مثل المشرك والشرك بالاعمى والظلمات

فهو حق فانه روى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال المقتول في سبيل الله تعالى والمتوفى في سبيل الله بغير قتل هما في الخير والاجر سيان يكاد لفظ الشركة مشعر بالتسوية والا فلا يبقى لتخصيصهما بالذكر فائدة وروى أيضا أن طوائف من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا ان متنا معك فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين وهذا يدل على التسوية لانهم لما طلبوا مقدار الاجر قيل لا التسوية لم يكن الجواب مفيدا أما المسكر فقوله تعالى ليدخلنهم مدخلا يرضونه وان الله لعليم حليم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ مدخلا بضم الميم وهو من الادخال ومن قرأ بالفتح فالمراد الموضع (المسئلة الثانية) قيل في المدخل الذي يرضونه انه خيمة من درة بيضاء لا فصم فيها ولا وصم لها سبعون ألف مصراع وقال أبو القاسم القشيري هو أن يدخلهم الجنة من غير مكروه تقدم وقال ابن عباس رضي الله عنهما انما قال يرضونه لانهم يرون في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيرضونه ولا يبغون عنها حولا ونظيره قوله تعالى ومساكن ترضونها وقوله في عيشة راضية وقوله ارجعي الى ربك راضية مرضية وقول ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر (المسئلة الثالثة) ان قيل ما معنى وان الله لعليم حليم وما تعلقه بما تقدم قلنا يحتمل أنه عليم بما يستحقونه فيفعله بهم ويزيدهم ويحتمل أن يكون المراد أنه عليم بما يرضونه فيه عليهم ذلك في الجنة وأما الحليم فالمراد أنه حلمه لا يعجل بالعقوبة فيمن يقدم على المعصية بل يمهل ليقع منه التوبة فيستحق منه الجنة أما قوله ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ذلك قد مضى الكلام فيه في هذه الآية في هذه السورة وقال الزجاج أي الامر ما قصصنا عليك من اخبار الوعد للهاجرين الذين قتلوا وماتوا (المسئلة الثانية) قوله ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه معناه قاتل من كان يقاتله ثم كان المقاتل مبغيا عليه بأن اضطر الى الهجرة ومفارقة الوطن وابتدئ بالقتال قال مقاتل نزلت في قوم من المشركين لقوا قوما من المسلمين للملتين بقيتا من المحرم فقال بعضهم لبعض ان أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم فناشدهم المسلمون أن يكفوا عن قتالهم لحرمة الشهر فأبوا وقاتلوهم فدل الله بغيهم عليهم وثبت المسلمون لهم فنصرهم واعليهم فوقع في أنفس المسلمين من القتال في الشهر الحرام ما وقع فأنزل الله تعالى هذه الآية وعفا عنهم وغفر لهم وههنا سؤالان (السؤال الاول) أي تعلق لهذه الآية بما قبلها (الجواب) كأنه سبحانه وتعالى قال مع اكرامي لهم في الآخرة بهذا الوعد لا أدع نصرتهم في الدنيا على من بغى عليهم (السؤال الثاني) هل يرجع ذلك الى المهاجرين خاصة أو اليهم والى المؤمنين (الجواب) الاقرب أنه يعود الى الفريقين فانه تقدم ذكرهما وبين ذلك قوله تعالى لينصرنه الله وبعد القتل والموت لا يمكن ذلك في الدنيا (السؤال الثالث) ما المراد بالعقوبة المذكورة (الجواب) فيه وجهان (أحدهما) المراد ما فعله مشركو مكة مع المهاجرين بمكة من طلب آثارهم وردهم الى عبادة الى أن من عاقب هؤلاء الكفار بمثل ما فعلوا فسينصره عليهم وهذا النصر المذكور تقوى تأويل من تأوله على مجاهدة الكفار لا على القصاص لان ظاهر القصاص لا يليق الا بذلك (والجواب الثاني) أن هذه الآية في القصاص والجراحات وهي آية مدنية عن الضحاك (السؤال الرابع) لم سمي ابتداء فعلهم بالعقوبة (الجواب) أطلق اسم العقوبة على الاول للتعلق الذي بينه وبين الثاني كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها يخادعون الله وهو خادعهم (السؤال الخامس) أي تعلق لقوله تعالى وان الله لعفو غفور بما تقدم (الجواب) فيه وجوه (أحدها) ان الله تعالى ندب المعاقب

والوحدة والتوحيد بالبصيرة والنور مثل الحق الذي هو القرآن العظيم في قيضانه من جناب القدس على قلوب خالية عنه متفاوتة الاستعداد وفي جريانه عليها ملاحظة وحفظا وعلى الالسنة مذاكرة وتلاوة وفي ثباته فيها مع كونه مجمد الساعاتها الروحانية ومبايضها من الملكات السنية والاعمال المرضية بالماء النازل من السماء السائل في أودية بأسنة ٢٠١ لم نجر عادتها بذلك سيلا تامقدارا

الى المغفرة عن الجاني بقوله فمن عفا وأصلح فأجره على الله وأن تعفوا أقرب للتقوى ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور فلما لم يأت بهذا المندوب فهو نوع اساءة فكأنه سبحانه قال انى قد عفوت عن هذه الاساءة وغفرتها فانى أنا الذي أذنت لك فيه (وثانيها) أنه سبحانه وان ضمن له النصر على الباغي لكنه عرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو والمغفرة فلو جد كرهاتين الصفتين (وثالثها) أنه سبحانه دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة لانه لا يوصف بالعفو الا القادر على ضده ﴿السؤال السادس﴾ أي تعلق لقوله ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل بما فصله ﴿والجواب﴾ من وجهين (أحدهما) ذلك أي ذلك النصر بسبب أنه قادر ومن آيات قدرته الباهرة كونه محيلا لليل والنهار ومتصرفا فيهما فوجب أن يكون قادرا على ما يشاء في هما واذا كان كذلك كان قادرا على النصر مع مبايفه (وثانيها) المراد أنه سبحانه مع ذلك النصر ينعم في الدنيا بما يفعله من تعاقب الليل والنهار وولوج أحدهما في الآخر ﴿السؤال السابع﴾ ما معنى ايلاج الليل في النهار وايلاج النهار في الليل ﴿الجواب﴾ فيه وجهان (أحدهما) يحصل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك بغيبوبة الشمس وضياء ذلك في مكان ظلمة هذا طلوعا وغروبا كما يشاهد بالبيت بالسراج ويظلم بفقده (وثانيهما) أنه سبحانه يزيد في أحدهما ما ينقص من الآخر من الساعات ﴿السؤال الثامن﴾ أي تعلق لقوله وان الله سميع بصير بما تقدم ﴿الجواب﴾ المراد أنه كما يقدر على ما لا يقدر عليه غيره فكذلك يدرك المسموع والمبصر ولا يجوز المنع عليه ويكون ذلك كالتحذير من الاقدام على ما لا يجوز في المسموع والمبصر ﴿السؤال التاسع﴾ ما معنى قوله ذلك بأن الله هو الحق وأي تعلق له بما تقدم ﴿الجواب﴾ فيه وجهان (أحدهما) المراد أن ذلك الوصف الذي تقدم ذكره من القدرة على هذه الامور انما حصل لاجل أن الله هو الحق أي هو الموجود الواجب لذاته الذي يمتنع عليه التغير والزوال فلا جرم أتى بالوعد والوعيد (ثانيهما) أن ما يفعل من عباده هو الحق وما يفعل من عباده غيره فهو الباطل كما قال ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ﴿السؤال العاشر﴾ أي تعلق لقوله تعالى وأن الله هو العلي الكبير بما تقدم ﴿والجواب﴾ معنى العلي القاهر المقتدر الذي لا يغلب فتنبه بذلك على أنه القادر على النصر والنفع دون سائر من يعبد من غير بأن ذلك في عبادته زاجرا عن عبادة غيره فأما الكبير فهو العظيم في قدرته وسلطانه وذلك أيضا يفيد كمال القدرة ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله لنصرته الله اخبار عن الغيب فانه وجد مخبره كما أخبر فكان من المعجزات ﴿المسئلة الرابعة﴾ قال الشافعي رحمه الله من حرق حرقناه ومن غرق غرقناه وقال أبو حنيفة رحمه الله بل يقتل بالسيف واحتج الشافعي رحمه الله بهذه الآية فان الله تعالى جوز للمظلوم أن يعاقب بمثل ما عوقب به ووعده النصر عليه ﴿المسئلة الخامسة﴾ قرأ نافع وابن عامر تدعون بالتاء ههنا وفي لقمان وفي المؤمنين وفي العنكبوت وقرأ ابن كثير أبو عمرو وكلها بالياء على الخبر والعرب قد تتصرف من الخطاب الى الاخبار ومن الاخبار الى الخطاب ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير له ما في السموات وما في الارض وان الله لهو الغني الحميد ألم تر أن الله سخر لكم ما في الارض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه ان الله بالناس لرؤف رحيم وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور﴾ اعلم أنه تعالى لما دل على قدرته من قبل بما ذكر من ولوج الليل في النهار وتسبيبه على نعمه أتبعه أنواع أخر من الدلائل على قدرته ونعمته وهي ستة (أولها) قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا في قوله ألم تر وجوها ثلاثة

اقتضته الحكمة في احياء الارض وما عليها الباقي فيها حسبما يدور عليه منافع الناس وفي كونه جليه تتجلى به النفوس وتصل الى البهجة الابدية ومتاعا يتمتع به في المعاش والمعاد بالذهب والفضة وسائر الفلزات التي يتخذ منها أنواع الآلات والادوات وتبقى منتفعا بها مدة طويلة ومثل الباطل الذي ابتلى به الكفرة لقصور نظرهم عما يظهر فيهم ما من غير مداخلة له فيهما واخلال بصفائهما من الزيد الرائي فوقهما المضمحل سريعا فقيل (أنزل من السماء) أي من جهتها (ماء) أي كثيرا أو نوعا منه وهو ماء المطر (فسالت) بذلك (أودية) واقعة في مواقعه لاجميع الاودية اذ الامطار لا تستوعب الاقطار وهو جمع واد وهو منفرج بين جبال أو تلال أو آكام على الشذوذ كناد وأندية وناج وأنجية قالوا وجهه أن فاعلا يجيء بمعنى فعيل كناصر ونصير وشاهد وشهيد وعالم

(٢٦ - خفر س) وعليم وحيث جمع فعيل على أفعلة كبعير وأبعرة جمع فاعل أيضا على أفعلة فان أريد بها ما يسيل فيها مجازا فاسناد السيلان اليها حقيقي وان أريد معناها الحقيقي فالاسناد مجازي كما في جرى النهر وايثار التمثيل بها على الاتيان المستقرة الجريان لوضوح المماثلة بين شأنها وشأن ما مثل بها كما أشير اليه (بقدرها) أي سالت ملتبسة بمقدارها الذي عينه الله تعالى

وأقتضته حكمته في نفع الناس أو بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب تفاوت محالها صغرا وكبرا لا كونها ماشئة لها منطبقة عليها بل بمجرد ذلك مع صغرها المستلزم لقلة مواردها وكثرتها لكبرها المستلزم لكثرة واردة أو مورد السيل الجاري في الوادي الصغير أقل من مورد السيل الجاري في الوادي الكبير ٢٠٢ هذا ان أريد بالاودية مايسيل فيها أما ان أريد بها معناها الحقيقي فالمعنى سالت مياهها بقدر تلك الاودية على نحو ماعرفت آنفا أو يراد بضميرها ماءها بطريق الاستخدام ويراد بقدرها ماذكر أولا من المعنيين (فاحتمل السيل) الجاري في تلك الاودية أي حمل معه (زبدا) أي غثاء ورغوة وأعلا وصف ذلك بقوله تعالى (رابيا) أي عاليا منتفخا فوقه بيانا لما أريد بالاحتمال المحتمل لكون الحمل غير طاف كالاشجار الثقيلة وانما لم يقع ذلك الاحتمال بأن يقال فاحتمل السيل فوقه للايذان بأن تلك الفوقية مقتضى شأن الزبد لامن جهة المحتمل تحقيقا للمماثلة بينه وبين ماسيمثل به من الباطل الذي شأنه الظهور في بادي الرأي من غير مداخلة في الحق (ومما يوقدون عليه في النار) أي يفعلون الايقاد عليه كائنا في النار والضمير للناس لاخمر مع عدم سبق الذكر لظهوره وقرئ بالخطاب (ابتغاء حلية أو متاع) أي لطلب اتخاذ حلية وهي مايتزين ويتجمل به كالحلي المتخذ من الذهب والفضة أو اتخاذ متاع وهو ما يتقتع به من الاواني والآلات المتخذة من الرصاص والحديد وغير ذلك من الفلزات وما (زبد) حيث (منه) مثل ماذكر من زبد الماء في كونه رابيا فوقه نحو قوله زيد منطلق أخبر بالظرف المقدم ومن ابتدائية دالة على مجرد كونه مبتدأ ونا شئا منه لا تبعيضية معربة عن كونه بعضا منه كما قيل لاخلال ذلك بالتمثيل وفي التعبير عن ذلك بالموصول والتعرض لما في

(أحدها) أن المراد هو الرؤية الحقيقية قالوا لان الماء النازل من السماء يرى بالعين واخضرار النبات على الارض مرئي واذا أمكن حمل الكلام على حقيقته فهو أولى (وثانيها) أن المراد ألم تخبر على سبيل الاستفهام (وثالثها) المراد ألم تعلم والقول الاول ضعيف لان الماء وان كان مرئيا الا أن كون الله منزلا له من السماء غير مرئي اذا ثبت هذا وجب حمله على العلم لان المقصود من تلك الرؤية هو العلم لان الرؤية اذا لم يقترن بها العلم كانت كالعدم لم تحصل (المسئلة الثانية) قرئ مخضرة كذلك ومسبعة أي ذات خضرة وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم قال فتصبح الارض ولم يقل فأصبحت (الجواب) لنكتة فيه وهي افادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان كما تقول أنعم علي فلان عام كذا فأفاروح وأغدو شاكرا له ولو قلت فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع (السؤال الثاني) لم رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام (والجواب) لو نصب لاعطى عكس ماهو الغرض لان معناه اثبات الاخضرار فعدل بالنصب الى نفي الاخضرار مثاله أن تقول لصاحبك ألم تر أني أنعمت عليك فتشكرون نصيبه فأنت تأف لشكرك مثال لتقريظه وان رفعته فأنت مثبت للشكر (السؤال الثالث) لم أورد تعالى ذلك دلالة على قدرته على الاعادة كما قال أبو مسلم (الجواب) يحتمل ذلك ويحتمل أنه نبه به على عظيم قدرته وواسع نعمته (السؤال الرابع) ماتعلق قوله ان الله لطيف خبير بما تقدم (الجواب) من وجوه (أحدها) أراد أنه رحيم بعباده ولرحمته فعل ذلك حتى عظم انتفاعهم به لان الارض اذا أصبحت مخضرة والسماء اذا أمطرت كان ذلك سببا لعيش الحيوانات على اختلافها أجمع ومعنى خبير أنه عالم بمقادير مصالحهم فيفعل على قدر ذلك من دون زيادة ونقصان (وثانيها) قال ابن عباس لطيف بأرزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط (وثالثها) قال الكلبي لطيف في أفعاله خبير بأعمال خلقه (ورابعها) قال مقاتل لطيف باستخراج النبت خبير بكيفية خلقه (الدلالة الثانية) قوله تعالى له ما في السموات وما في الارض وان الله لهو الغني الحميد والمعنى أن كل ذلك مفتقد له غير ممتنع من التصرف فيه وهو غني عن الاشياء كلها وهو حميد الى خلقه بين أيضا لانه كامل لذاته والكامل لذاته غني عن كل ماعداه في كل الامور ولما كان خلق الحيوان فلابد في الحكمة من قطرونيات تخلق هذه الاشياء رحمة للحيوانات وانما ما عليهم لا لحاجته بها الى ذلك واذا كان كذلك كان انعامه حالما عن غرض عائد اليه فكان مستحقا للحمد فكانه قال انه لكونه غنيا لم يفعل ما فعله الا للاحسان ومن كان كذلك كان مستحقا للحمد فوجب أن يكون حميدا فلهذا قال وان الله لهو الغني الحميد (الدلالة الثالثة) قوله ألم تر أن الله سخر لكم ما في الارض أي ذلل لكم ما فيها فلا تأبى صلبا من الحجر ولا أحد من الحديد ولا أكثر هيبة من النار وقد سخرها لكم وسخر الحيوانات أيضا حتى ينتفع بها من حيث الاكل والركوب والحمل عليها والانتفاع بالنظر اليها فلولا أن سخر الله تعالى الابل والبقر مع قوتها حتى يذللها الضعيف من الناس ويتمكن منها لما كان ذلك نعمة (الدلالة الرابعة) قوله تعالى والفلك تجري في البحر بأمره والاقرب أن المراد سخر لكم الفلك لتجري في البحر وكيفية تسخيره الفلك هو من حيث سخر الماء والرياح لجريها فلولا صفتها على ماهما عليه لما جرت بل كانت تقوص أو تقف أو تغطب فتبه تعالى على نعمه بذلك وبأن خلق ما تعمل منه السفن وبأن سخر كيف تعمل وانما قال بأمره لانه سبحانه لما كان هو المجري لها بالرياح نسب ذلك الى أمره توسعا لان ذلك يفيد تعظيما أكثر مما يفيد لو أضافه الى فعله بناء على عادة الملوك في مثل هذه اللفظة (الدلالة الخامسة) قوله تعالى ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه ان الله بالناس لرؤف رحيم واعلم أن النعم المتقدمة لا تكمل الا بهذه لان السماء مسكن الملائكة فوجب أن يكون صلبا ووجب أن يكون ثقيلا

حيز الصلة من ايقاد النار عليه جرى على سنن التكبر باء باظهار النهاون به كما فى قوله تعالى فأوجفنا لها مآنا على الظن واشارة الى كيفية حصول الزيد منه بذوبانه وفى زيادة فى النار اشعار بالمبالغة فى الاعتمال للاذابة وحصول المزيد كما أشير اليه وعدم التعرض لاخراجه من الارض لعدم دخول ذلك العنوان فى التمثيل كما أن عنوان انزال الماء من السماء ٢٠٣ دخلا فيه حسبما فصل فيما سلف

وما كان كذلك فلا بد له من الهوى لولا مانع منه وهذه الحجة مبنية على ظاهر الاوهام وقوله تعالى أن تقع قال الكوفيون كى لا تقع وقال البصريون كراهية أن تقع وهذا بناء على مسئلة كلامية وهى أن الارادات والكراهات هل تتعلق بالمعدوم من منع من ذلك صار الى التأويل الاول والمعنى أنه أمسكها لكى لا تقع فتبطل النعم التى أنعم بها أما قوله تعالى ان الله بالناس لرؤف رحيم فالمعنى أن المنعم بهذه النعم الجامعة لمنافع الدنيا والدين قد بلغ الغاية فى الاحسان والانعام فهو اذن رؤف رحيم (الدلالة السادسة) قوله وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور والمعنى أن من تفضل هذه الامور وأنعم عليه بها فهو الذى أحياه فنبه بالاحياء الاول على انعام الدنيا على ما بينا بكل ما تقدم ونبه بالاماتة والاحياء الثانى على نعم الدين على ما بيناه ثم هذه النعم سائر أحوالها للآخرة والا لم يكن للنعم على هذا الوجه معنى يبين ذلك أنه لولا أمر الآخرة لم يكن للزراعات وتكلفها ولا لركوب الحيوان وذبحها الى غير ذلك معنى بل كان تعالى يخلقه ابتداء من غير تكلف الزرع والسقى وانما أجرى الله العادة بذلك ليعتبر به فى باب الدين ولما فصل تعالى هذه النعم قال أن الانسان لكفور وهذا كما قيد بعد امرء نعمه على ولده ثم يقول ان الولد لكفور لنعم الوالد زجرا له عن الكفران وبعثا له على الشكر فلذلك أورد تعالى ذلك فى الكفار فبين أنهم دفعوا هذه النعم وكفروا بها وجعلوا الحاقها مع وضوح أمرها ونظيره قوله تعالى وقليل من عبادى الشكور وقال ابن عباس رضى الله عنهما الانسان ههنا هو الكافر وقال أيضا هو الاسود بن عبد الاسد وأبو جهل والعاص وأبى بن خلف والاولى تعميمه فى كل المنكرين ﴿قوله تعالى﴾ لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الامر وادع الى ربك انك لعلى هدى مستقيم وان جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴿اعلم انه تعالى لما قدم ذكر نعمه وبين انه رؤف رحيم بعباده وان كان منهم من يكفر ولا يشكر أتبعه بذكر نعمه بما كلف فقال لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انما حذف الواو فى قوله لكل أمة لانه لا تعلق لهذا الكلام بما قبله فلا حرج حذف العاطف (المسئلة الثانية) فى المنسك أقوال (أحدها) قال ابن عباس عيدا تحون فيه (وثانيها) قرأ بابا ولفظ المنسك مختص بالذابح عن مجاهد (وثالثها) ما ألفناه أفرته اما مكانا معينا أو زمانا معينا لاداء الطاعات (ورابعها) المنسك هو الشريعة والمناهج وهو قول ابن عباس فى رواية عطاء واختيار الفراء وهو الاقرب لقوله تعالى لكل أمة جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولان المنسك مأخوذ من النسك وهو العبادة واذا وقع الاسم على كل عبادة فلا وجه للتخصيص ﴿فان قيل هلا حملتموه على الذبح لان المنسك فى العرف لا يفهم منه الا الذبح وهلا حملتموه على موضع العبادة أو على وقتها (الجواب عن الاول) لا نسلم أن المنسك فى العرف مخصوص بالذبح والدليل عليه أن سائر ما يفعل فى الحج يوصف بأنه مناسك ولاجله قال عليه السلام خذوا عنى مناسككم (وعن الثانى) أن قوله هم ناسكوه أليق بالعبادة منه بالوقت والمكان ﴿المسئلة الثالثة﴾ زعم قوم أن المراد من قوله هم ناسكوه من كان فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم متمسكا بشرع كالهود والنصارى ولا يمتنع أن يريد كل من تعبد من الامم سواء بقيت آثارهم أو لم تبق لان قوله هم ناسكوه كالوصف اللازم وان لم يعبد وافى الحال أما قوله تعالى فلا ينازعنك فى الامر فقرئ فلا ينازعنك أى اثبت فى دينك ثباتا لا يطمعون أن يخدعوك ليزيلوك عنه وأما قوله فلا ينازعنك ففيه قولان (أحدهما) وهو قول الزجاج انه نهى لهم عن منازعتهم كما تقول لا يضارنك فلان أى لا تضاره (والثانى) أن المراد أن عليهم اتباعك وترك مخالفتك وقد استقر الامر الآن على شرعك

بيل له احتلال بذلك (كذلك) أى مثل ذلك الضرب البديع المشتمل على نكت رائقة (يضرب الله الحق والباطل) أى مثل الحق ومثل الباطل والحذف للايذان بكمال التفاوت بين الممثل والممثل به كان الممثل المضروب عين الحق والباطل وبعد تحقيق التمثيل مع الاعماء فى فضاعيف ذلك الى وجوه المماثلة على أبدع وجوه وآنقها حسبما أشير اليه فى مواقعها بين عاقبة كل من الممثلين على وجه التمثيل مع التصريح ببعض مايه المماثلة من الذهاب والبقاء تتمة للغرض من التمثيل من الحث على اتباع الحق الثابت والردع عن الباطل الزائد فقيل (فاما الزبد) من كل منهما (فيذهب جفاء) أى مرميا به وقرئ جفالا والمعنى واحد (وأما ما ينفع الناس) منهما كالماء الصافى والفلز الخالص (فيمكث فى الارض) أما الماء فيثبت بعضه فى مناقعه وبسلك بعضه فى عروق الارض الى العيون والقفار والآبار

وأما الفلز فيصاغ من بعضه أنواع الحلى ويتخذ من بعضه أصناف الآلات والادوات فينتفع بكل من ذلك أنواع الانتفاعات مدة طويلة فالمراد بالمكث فى الارض ما هو أعم من المكث فى نفسها ومن البقاء فى أيدى المنتفعين فيها وتغيير ترتيب اللف الواقع فى الفسلكة الموافق لترتيب الواقع فى التمثيل لمراعاة الملاءمة بين حالتى الذهاب والبقاء وبين ذكريهما فان المعتبر أنما هو

بقاء الباقي بعد ذهاب الذاهب لاقبله (كذلك يضرب الله) أي مثل ذلك الضرب العجيب يضرب الله (الامثال) في كل باب اظهار لكمال اللطف والعناية في الارشاد والهداية وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله كذلك يضرب الله الحق والباطل اما باعتبار ابتنائه على التمثيل الاول أو بجعل ٢٠٤ ذلك اشارة اليه جميعا وبعد ما بين شأن كل من الحق والباطل حالا ومآلا أكمل

بيان شرع في بيان حال أهل كل منهما مآلا تكميلا للدعوة ترغيبا وترهيبا فقال (للذين استجابوا لربهم) اذ دعاهم الى الحق يعني الدعوة التي من جملتها ضرب الامثال فانه ألطف ذريعة الى تفهيم القلوب الغبية وأقوى وسيلة الى تصوير النفوس الأبية كيف لا وهو تصوير للمعقول بصورة المحسوس وابراز لاوابد المعاني في هيئة المانوس فأي دعوة أولى منه بالاستجابة والقبول (الحسنى) أي المثوبة الحسنى وهي الجنة (والذين لم يستجيبوا له) وعاندوا الحق الجلي (لو ان لهم ما في الارض) من أصناف الاموال (جميعا) بحيث لم يشذ منه شاذ في أقطارها أو مجموعا غير متفرق بحسب الازمان (ومثله معه لافتدوا به) أي بما في الارض ومثله معه جميعا ليتخلصوا عما يهم وفيه من تهويل ما يلقاهم مالا يحيط به البيان فالموصول مبتدأ والشرطية كما هي خبره لكن لا على أنها وضعت موضع السوأى فوقعت في مقابلة الحسنى الواقعة في القرينة الاولى لمراعاة حسن المقابلة واذا

وعلى انه ناسخ لكل ما عداه فكأنه تعالى نهى كل أمة بقيت منها بقية أن تستمر على تلك العادة وألزمها ان تتحول الى اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فلذلك قال وادع الى ربك أي لا تخص بالدعاء أمة دون أمة فكلهم أمتك فادعهم الى شرعك فانك على هدى مستقيم والهدى يحتمل نفس الدين ويحتمل أدلة الدين وهو أولى كأنه قال ادعهم الى هذا الدين فانك من حيث الدلالة على طريقة واضحة ولهذا قال وان جادلوك والمعنى فان عدلوا عن النظر في هذه الادلة الى طريقة المراء والتمسك بالعادة فقد بينت وأظهرت ما يلزمك فعل الله أعلم بما تعملون لانه ليس بعد ايضاح الادلة الا هذا الجنس الذي يجري مجرى الوعيد والتهديد يريد حكم يوم القيامة الذي يتردد بين جنة وثواب لمن قبل وبين نار وعقاب لمن رد وانكر فقال الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون فتعرفون حينئذ الحق من الباطل والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والارض ان ذلك في كتاب ان ذلك على الله يسير ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير﴾ اعلم أنه تعالى لما قال من قبل الله يحكم بينكم يوم القيامة أتبعه بما يعلم أنه سبحانه عالم بما يستحقه كل أحد منهم فيقع الحكم منه بينهم بالعدل لا بالجور فقال لرسوله ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والارض وههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله ألم تعلم هو على لفظ الاستفهام لكن معناه تقرير قلب الرسول صلى الله عليه وسلم والوعد له وايعاد الكافرين بأن كل فعلهم محفوظ عند الله لا يضل عنه ولا ينسى ﴿المسئلة الثانية﴾ الخطاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم والمراد سائر العباد ولان الرسالة لا تثبت الا بعد العلم بكونه تعالى عالما بكل المعلومات اذ لو لم يثبت ذلك لجاز أن يشتبه عليه الكاذب بالصادق فحينئذ لا يكون اظهار المعجز دليلا على الصدق واذا كان كذلك استحال أن لا يكون الرسول عالما بذلك فثبت أن المراد أن يكون خطابا مع الغير أما قوله ان ذلك في كتاب ففيه قولان (أحدهما) وهو قول أبي مسلم ان معنى الكتاب الحفظ والضبط والشديقال كتبت المزادة أكتبها اذا شددتها فحفظت بذلك ما فيها ومعناه ومعنى الكتاب بين الناس حفظ ما يتعاملون به فالمراد من قوله ان ذلك في كتاب انه محفوظ عنده (والثاني) وهو قول الجمهور ان كل ما يعلمه الله في السموات والارض فقد كتبه في اللوح المحفوظ قالوا وهذا أولى لان القول الاول وان كان صحيحا نظرا الى الاشتقاق لكن الواجب حمل اللفظ على المتعارف ومعلوم ان الكتاب هو ما تكتب فيه الامور فكان حمله عليه أولى ﴿فان قيل فقد يوهم ذلك ان علمه مستفاد من الكتاب وأيضا أي فائدة في ذلك الكتاب (والجواب عن الاول) ان كتبه تلك الاشياء في ذلك الكتاب مع كونها مطابقة للوجودات من أدل الدلائل على انه سبحانه غني في علمه عن ذلك الكتاب (وعن الثاني) ان الملائكة ينظرون فيه ثم يرون الحوادث داخلة في الوجود على وفقه فصار ذلك دليلا لهم زائدا على كونه سبحانه عالما بكل المعلومات أما قوله ان ذلك على الله يسير فمعناه ان كتبه جملة الحوادث مع انها من الغيب مما يقدر على الخلق لكنها بحيث متى أرادها الله تعالى كانت فيه بحيث لا يتعذر عن ذلك بأنه يسير وان كان هذا الوصف لا يستعمل الا فينا من حيث تسهل وتصعب علينا الامور وتعالى الله عن ذلك ثم بين سبحانه ما يقدم الكفار عليه مع عظيم نعمه ووضوح دلائله فقال ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم فبين ان عبادتهم لغير الله تعالى ليست مأخوذة عن دليل سمعي وهو المراد من قوله ما لم ينزل به سلطانا ولا عن دليل عقلي وهو المراد من قوله وما ليس لهم به علم

(أولئك لهم سوء الحساب) وحيث كان اسم الاشارة الواقع مبتدأ في هذه الجملة عبارة عن الموصول الواقع مبتدأ في الجملة السابقة كان خبرها أعني الجملة الظرفية خبرا عن الموصول في الحقيقة وصيغ الابهام مضمون الشرطية الواقعة خبرا عنه أولا ولذلك ترك العطف فصار كأنه قيل والذين لم يستجيبوا لهم سوء الحساب وذلك في قوة أن يقال والذين لم يستجيبوا له ٢٠٥ سوء الحساب مع زيادة تأكيد فتم

واذا لم يكن كذلك فهو عن تقليد أو جهل أو شبهة فهو محض في كل قول هذا شأنه أن يكون باطلا فمن هذا الوجه يدل على ان الكافر قد يكون كافرا وان لم يعلم كونه كافرا ويدل أيضا على فساد التقليد أما قوله ومالظالمين من نصير ففيه وجهان (أحدهما) أنهم ليس لهم أحد ينتصر لهم من الله كما قد تتفق النصرة في الدنيا (والثاني) مالهم في كفرهم ناصر بالحجة فان الحجة ليست الا للحق واحتجت المعتزلة بهذه الآية في نفي الشفاعة والكلام عليه معلوم أما قوله تعالى واذا تتلى عليهم آياتنا بينات يعني من تقدم ذكرهم وهذه الآيات هي القرآن ووصفها بأنها بينات لكونها متضمنة للدلائل العقلية وبيان الاحكام فبين انهم مع جهلهم اذا تلوا عليهم الادلة وعرضت عليهم المعجزة ظهر في وجوههم المنكر والمراد لالة الغيظ والغضب قال صاحب الكشاف المنكر الفظيع من التهجم بالقبح والشزوز والانكار كالمكر بمعنى الاكراه وقرئ تعرف على مالم يسم فاعله والمفسرين في المنكر عبارات (احداها) قال الكلبي تعرف في وجوههم الكراهية للقرآن (وثانيها) قال ابن عباس رضي الله عنهما التغير والتقرع (وثالثها) قال مقاتل أنكروا ان يكون من الله تعالى أما قوله تعالى يكادون يسطون فقال الخليل والفراء والزجاج السطوشدة البطش والوثوب والمعنى يهمون بالبطش والوثوب تعظيما لانكارما خوطبوا به فحكى تعالى عظيم غرورهم على الانبياء والمؤمنين ثم أمر رسوله بأن يقابلهم بالوعيد فقال قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار قال صاحب الكشاف قوله من ذلكم أي من غيظكم على الناس وسطوكم عليهم أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ماتتلى عليكم فقوله من ذلكم فيه وجهان (أحدهما) المراد ان الذي ينالكم من النار التي تكادون تقتحمونها سوء فما لكم أعظم مما نالكم عند تلاوة هذه الآيات من الغضب وهو من هذا الغم (والثاني) أن يكون المراد بشر من ذلكم ما تهمون به فيمن يحاربكم فان أكبر ما يمكنكم فيه الاهلاك ثم بعده مصيرهم الى الجنة وأنتم تصيرون الى النار الدائمة التي لا فرج لكم عنها وأما النار فقال صاحب الكشاف قرئ النار بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف كأن قائلا يقول ماشر من ذلك فقيل النار أي هو النار وبالنصب على الاختصاص وبالجر على البدل من شر ثم بين سبحانه أنه وعدها الذين كفروا اذا ماتوا على كفرهم وهو بئس المصير قال صاحب الكشاف وعدها الله استئناف كلام ويحتمل أن تكون النار مبتدأ ووعدها خبرا ﴿قوله تعالى﴾ ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ماقدروا الله حق قدره ان الله لقوي عزيز﴾ اعلم أنه سبحانه لما بين من قبل انهم يعبدون من دون الله مالا حجة لهم فيه ولا علم ذكر في هذه الآية مايدل على ابطال قولهم أما قوله تعالى ضرب مثل ففيه سؤالات (السؤال الاول) الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلا (والجواب) لما كان المثل في الاكثر نكتة عجيبة غريبة جاز أن يسمى كل ما كان كذلك مثلا (السؤال الثاني) قوله ضرب فيه فيما مضى والله تعالى هو المتكلم بهذا الكلام ابتداء (الجواب) اذا كان مايورد من الوصف معلوما من قبل جاز ذلك فيه ويكون ذكره بمنزلة اعادة أمر قد تقدم أما قوله فاستمعوا له أي تدبروه حتى تدبروه لان نفس السماع لا ينفع انما ينفع التدبر واعلم أن الذباب لما كان في غاية الضعف احتج الله تعالى به على ابطال قولهم من وجهين (الاول) قوله ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له قرئ تدعون بالياء والتاء وتدعون مبنيا للمفعول ولن أصل في نفي المستقبل الا أنه ينفيه نفيا مؤكدا فكأنه سبحانه قال ان هذه الاصنام وان اجتمعت لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها فكيف يأتي بالعاقل حملها معبودا فقوله ولو اجتمعوا له نصب على الحال كأنه

هذا المعنى أيضا كما في قوله سبحانه ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ونظائره على أن بعض الامثال المضروبة لاسيما المثل الاخير الموصول بالكلام ليس مثل الفريقين بل مثل الحق والباطل ولا مساغ لجعل الفريقين مضروبا بالهم أيضا بأن يجعل في حكم أن يقال كذلك يضرب الله الامثال للناس اذ لا وجه حينئذ لتوبيخهم الى المستجيبين وغير المستجيبين فتأمل (أفمن علم أنما أنزل اليك من

حسن المقابلة على أبلغ وجه وآكده ثم بين مؤدى ذلك فقيل (ومأواهم) أي مرجعهم (جهنم) وفيه نوع تأكيد لتفسيرا لحسنى بالجنة (وبئس المهاد) أي المستقر والمخصوص بالذم محذوف وقيل اللام في قوله تعالى للذين استجابوا لربهم متعلقة بقوله يضرب الله الامثال أي الامثال السالفة وقوله الحسنى صفة للصدر أي استجابوا الاستجابة الحسنى وقوله والذين لم يستجيبوا له معطوف على الموصول الاول وقوله لو أن لهم الخ الكلام مستأنف مسوق لبيان ماأعد لغير المستجيبين من العذاب والمعنى كذلك يضرب الله الامثال للمؤمنين المستجيبين والكافرين المعاندين أي هما مثل الفريقين وأنت خبير بأن عنوان الاستجابة وعدمها الاصالة يزيد وبين مايدور عليه أمر التمثيل وأن الاستعمال المستفيض دخول اللام على من يقصد تكثيره بالمثل نعم قد يستعمل في

ربك) من القرآن الذى مثل بالماء المنزل من السماء والابرالخالص فى المنفعة والجدوى (الحق) الذى لاحق وراءه أو الحق الذى أشير اليه بالامثال المضروبة فيستجيب له (كمن هو أعمى) عمى القلب لايشاهده وهو نازل على عالم ولايقدر قدره وهوفى أقصى مراتب العلوم والعظم فيبقى حائرا فى ظلمات الجهل ٢٠٦ وغياهب الضلال ولايتذكر بما ضرب من الامثال أى كمن لايعلم ذلك الا أنه أريد زيادة تقبيح حاله فعبر عنه بالاعمى وأيراد الباء بعد الهمزة لتوجيه الانكار الى ترتب توهم المماثلة على ظهور حال كل منهما عند ضرب من الامثال وبين المضروب والمماثل كأنه قيل أبعد ما بين حال كل من الفريقين وما ألهما يتوهم المماثلة بينهما ثم استوقف فقيل (انما يتذكر) بما ذكر من المذكرات فيقف عـــلى ما بينهما من التفاوت والتفاوت (أولو الالباب) أى العقول الخالصة المبرأة عن مشابهة الالف ومعارضة الوهم (الذين يوفون بعهد الله) بما عقدوا على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته تعالى حين قالوا بلى أو ما عهد الله عليهم فى كتبه (ولاينقضون الميثاق) ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الايمان بالله وغيره من أنواع التوثيق بينهم وبين الله وبين العباد وهو تعميم بعد تخصيص وقيد تأكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) من الرحم وسائر المؤمنين والايمان بجميع الانبياء المجموعين على الحق من غير تفريق بين أحد منهم ويندرج فيه الاول) مراعاة جميع حقوق الناس بل حقوق كل ما يتعلق بهم من الحيوان الجماد (ويخشون ربهم) خشية جلال وهيبة ورهبة فلا يعصونه فيما أمر به (ويخافون سوء الحساب) فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا وفيه دلالة على كمال فظاعته حسبما ذكر فيما قبل (والذين صبروا) على

قال يستحيل أن يخلقوا الذباب حال اجتماعهم فكيف حال انفرادهم (والثانى) أن قوله وان يسلبهم الذباب شيأ لايستنقذوه منه كانه سبحانه قال أترك أمر الخلق والايجاد وأتكلم فيما هو أسهل منه فان الذباب ان سلب منها شيأ فهى لاتقدر على استنقاذ ذلك الشئ من الذباب واعلم أن الدلالة الاولى صالحة لان يتمسك بها فى نفى كون المسيح والملائكة آلهة أما الثانية فلا فان قيل هذا الاستدلال انما أن يكون لنفى كون الاوثان خالقة عالمة حية مدبرة أو لنفى كونها مستحقة للتعظيم (والاول) فاسد لان نفى كونها كذلك معلوم بالضرورة فأى فائدة فى اقامة الدلالة عليه (وأما الثانى) فهذه الدلالة لاتفيده لانه لايلزم من نفى كونها حية أن لاتكون معظمة فان جهات التعظيم مختلفة فالقوم كانوا يعتقدون فيها انها طلسمات موضوعة على صورة الكواكب أو انها تماثيل الملائكة والانبياء المتقدمين وكانوا يعظمونها على ان تعظيمها هو بعينه تعظيم الملائكة والانبياء المتقدمين (والجواب) اما كونها طلسمات موضوعة على الكواكب بحيث يحصل منها لاضرار والانتفاع فهو يبطل بهذه الدلالة فانها لما لم تنفع نفسها فى هذا القدر فبأن تخلص النفس عن الذباب فلأن لاتنفع غيرها أولى وأما أنها تماثيل الملائكة والانبياء المتقدمين فقد تقرر فى العقل ان تعظيم غير الله تعالى ينبغى أن يكون أقل من تعظيم الله تعالى والقوم كانوا يعظمونها غاية التعظيم وحينئذ كان يلزم القسوية بينها وبين الخالق سبحانه فى التعظيم فمن ههنا صار واستوجبوا للذم واللام أما قوله تعالى ضعف الطالب والمطلوب ففيه قولان (أحدهما) المراد منه الصنم والذباب فالصنم كالطالب من حيث انه لو طلب أن يخلقه ويستنقذ منه ما استلبه لعجز عنه والذباب بمنزلة المطلوب (الثانى) أن الطالب من عبدة الصنم والمطلوب نفس الصنم أو عبادتها وهذا أقرب لان كون الصنم طالبا ليس حقيقة بل هو على سبيل التقدير أما ههنا فعلى سبيل التحقيق لكن المجاز فيه حاصل لان الوثن لايصح أن يكون ضعيفا لان الضعف لايجوز الا على من يصح أن يقوى وههنا وجه ثالث وهو أن يكون معنى قوله ضعف لامن حيث القوة ولكن لظهور قبح هذا المذهب كما يقال للرجل عند المناظرة ما أضعف هذا المذهب ما أضعف هذا الوجه أما قوله ما قدروا الله حق قدره أى ما عظموه حق تعظيمه حيث جعلوا هذه الاصنام على نهاية خساستها شركة له فى المعبودية وهذه الكلمة مفسرة فى سورة الانعام وهو قوى لايقدر عليه فعل شئ وعز بل يقدر أحد على مغالبته فأى حاجة الى التوسل بالشريك قال الكلبى فى هذه الآية ونظيرها فى سورة الانعام انها نزلت فى جماعة من اليهود وهم مالك بن الصيف وكعب بن الاشرف وكعب بن أسد وغيرهم لعنهم الله حيث قالوا ان الله سبحانه لما فرغ من خلق السموات والارض أعيا من خلقها فاستلقى واستراح ووضع احدى رجليه على الاخرى فنزلت هذه الآية تكذيبا لهم ونزل قوله تعالى وما مسنا من لغوب واعلم أن منشأ هذه الشبهات هو التوسل بالتشبيه فيجب تنزيه ذات الله تعالى عن مشابهة سائر الذوات خلاف ما يقوله المشبهة وتنزيه صفاته عن مشابهة سائر الصفات خلاف ما يقوله الكرامية وتنزيه أفعاله عن مشابهة سائر الافعال أعنى الغرض والداعى واستحقاق المدح ولذم خلاف ما تقوله المعتزلة قال الامام أبو القاسم الانصارى رحمه الله فهو سبحانه جبار النعت عزيز الوصف فالاوهام لاتصوره والافكار لاتقدره والعقول لاتمثله والازمنة لاتدركه والجهات لاتحويه ولاتحده صمدى الذات سرمدى الصفات

﴿قوله تعالى﴾ (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ان الله سميع بصير يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم والى الله ترجع الامور) اعلم أنه سبحانه لما قدم ما يتعلق بالالهيات ذكر ههنا ما يتعلق بالنبوات قال مقاتل قال الوليد بن المغيرة أأنزل عليه الذكر من بيننا فأنزل الله تعالى هذه الآية وههنا سؤالان (السؤال

كل ما تكرهه النفس من الافعال والمتروك (ابتغاء وجه ربهم) طلبا لرضاه خاصة من غير أن يشعروا الى جانب الخلق رياء وسمعة ولا الى جانب النفس زينة وتجملا وحيث كان الصبر على الوجه المذكور ملاك الامر في كل ما ذكر من الصلاة السابقة واللاحقة أورد على صيغة الماضي اعتناء بشأنه ودلالة على وجوب تحققه فان ذلك مما لا بد منه اما في نفس كما فيما عدا الاولى والرابعة والخامسة أو في اظهار أحكامها كما في الصلات الثلاث المذكورات فانها وان استغنت عن الصبر في أنفسها حيث لا مشقة على النفس في الاعتراف بالربوبية والخشية والخوف لكن اظهار أحكامها والجرى على موجبها غير خال عن الاحتياج اليه (وأقاموا الصلاة) المفروضة (وأنفقوا مما رزقناهم) أي بعضه الذي يجب عليهم انفاقه (سرا) لمن لم يصرف بالمال أو لمن لم لا يتهم بترك الزكاة أو عند انفاقه واعطائه من تعنفه المروءة ممن أخذه ظاهرا (وعلانية) لمن لم يكن كما ذكر أو الاول في التطوع والثاني في الفرض (ويدرؤن بالحسنة السيئة) أي يجازون الاساءة بالاحسان أو يتبعون الحسنة السيئة فتمحوها عن ابن عباس رضي الله عنهما يدفعون بالحسن من الكلام ما يريد عليهم من سفه غيرهم وعن الحسن أذا سمعوا أعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا وعن ابن كيسان اذا أذنبوا تابوا وقيل اذا ذاروا متذكرا أمروا بتغييره وتقديم المجرور على المنصوب لاظهار كمال العناية بالحسنة (أولئك) المنعوتون بالنعوت الجليلة والملكات الجميلة وهو مبتدأ خبره الجملة الظرفية أعني قوله تعالى (لهم عقبى الدار) أي عاقبة الدنيا وما ينبغي أن يكون مآل أمرأهلها وهي الجنة وقيل الجار والمجرور خبر لاولئك وعقبى الدار فاعل الاستقرار وأيا ما

الاول) كلمة من للتبعيض فقوله الله يصطفي من الملائكة رسلا يقتضي أن تكون الرسل بعضهم لا كلهم وقوله جاعل الملائكة رسلا يقتضي كون كلهم رسلا فوقع التناقض (والجواب) جاز أن يكون المذكور ههنا من كان رسلا الى بني آدم وهم أكابر الملائكة كجبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل والحفظة صلوات الله عليهم وأما كل الملائكة فبعضهم رسل الى البعض فزال التناقض (السؤال الثاني) قال في سورة الزمر لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء فدل على أن ولده يجب أن يكون مصطفى وهذه الآية دلت على أن بعض الملائكة وبعض الناس من المصطفين فيلزم بمجموع الآيتين اثبات الولد (والجواب) أن قوله لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى يدل على أن كل ولد مصطفى ولا يدل على أن كل مصطفى ولد فلا يلزم من دلالة هذه الآية على وجود مصطفى كونه ولدا وفي هذه الآية وجه آخر وهو أن المراد تكليت من عبد غير الله تعالى من الملائكة كأنه سبحانه أبطل في الآية الاولى قول عبدة الاوثان وفي هذه الآية أبطل قول عبدة الملائكة فبين أن علو درجة الملائكة ليس لكونهم آلهة بل لان الله تعالى اصطفاهم لمكان عبادتهم فكأنه تعالى بين أنهم ما قدروا الله حق قدره أن جعلوا الملائكة معبودين مع الله ثم بين سبحانه بقوله ان الله سميع بصير أنه يسمع ما يقولون ويرى ما يفعلون ولذلك أتبعه بقوله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم فقال بعضهم ما تقدم في الدنيا وما تأخر وقال بعضهم ما بين أيديهم أمر الآخرة وما خلفهم أمر الدنيا ثم أتبعه بقوله والى الله ترجع الامور فقوله يعلم ما بين أيديهم اشارة الى العلم التام وقوله والى الله ترجع الامور اشارة الى القدرة التامة والتفرد بالالهية والحكم وجموعهما يتضمن نهاية الزجر عن الاقدام على المعصية ﴿قوله تعالى﴾ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴿اعلم أنه سبحانه لما تكلم في الالهيات ثم في النبوات أتبعه بالكلام في الشرائع وهو من أربعة أوجه (أولها) تعيين المأمور (وثانيها) أقسام المأمور به (وثالثها) ذكر ما يوجب قبول تلك الاوامر (ورابعها) تأكيد ذلك بالتكليف ﴿أما النوع الاول﴾ وهو تعيين المأمور فهو قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا وفيه قولان (أحدهما) المراد منه كل المكلفين سواء كان مؤمنا أو كافرا لان التكليف بهذه الاشياء عام في كل المكلفين فلا معنى لتخصيص المؤمنين بذلك (والثاني) ان المراد بذلك المؤمنون فقط أما أولا فلان اللفظ صريح فيه وأما ثانيا فلان قوله بعد ذلك هو اجتباكم وقوله هو سماكم المسلمين وقوله وتكونوا شهداء على الناس كل ذلك لا يليق الا بالمؤمنين أقصى ما في الباب أن يقال لما كان ذلك واجبا على الكل فاي فائدة في تخصيص المؤمنين لكنا نقول تخصيصهم بالذكر لا يدل على نفي ذلك عما عداهم بل قد دلت هذه الآية على كونهم على التخصيص مأمورين بهذه الاشياء ودلت سائر الآيات على كون الكل مأمورين بها ويمكن أن يقال فائدة التخصيص انه لما جاء الخطاب العام مرة بعد اخرى ثم انه ما قبله الا المؤمنون خصهم الله تعالى بهذا الخطاب ليكون ذلك كالتعريض لهم على المواظبة على قبوله وكالتشريف لهم في ذلك الاقرار والتخصيص ﴿أما النوع الثاني﴾ وهو المأمور به فقد ذكر الله أمورا أربعة (الاول) الصلاة وهو المراد من قوله اركعوا واسجدوا وذلك لان أشرف أركان الصلاة هو الركوع والسجود والصلاة هي المختصة بهذين الركنين فكان ذكرهما جاريا مجرى ذكر الصلاة وذكر ابن عباس رضي الله عنهما أن الناس في أول اسلامهم كانوا يركعون ولا يسجدون

كان فليس فيه قصر حتى يرد أن بعض ما في حيزه له ليس من المزائم التي تخل اخلالها بالموصول الى حسن العاقبة والجملة خبر لموصولات المتعاطفة أو استئناف لبيان ما استوجبوه بتلك الصفات ان جعلت الموصولات المتعاطفة صفات لاولي الالباب على طريقة المدح من غير أن يقصد أن يكون للصلاة المذكورة مدخل في التذكر (جنات عدن) بدل من عقبى الدار ومبتدأ

خبره (يدخلونها) والعدن الاقامة ثم صار علما لجنة من الجنات أي جنات يقيمون فيها وقيل هو بطنان الجنة (ومن صلح من آبائهم) جمع أبوي كل واحد منهم فكأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم (وأزواجهم وذرياتهم) وهو عطف على المرفوع في يدخلونها فاساغ ذلك الفصل بالضمير الآخر أو مفعول معه والمعنى أنه يلحق بهم من صلح من أهلهم وان لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعا لهم تعظيما لشأنهم وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة وأن الموصوف بتلك الصفات يقرن بعضهم بعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنة زيادة في آنسهم وفي التقييد في الصلاح قطع للاطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الانساب (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) من أبواب المنازل أو من أبواب الفتوح والتحف قائلين (سلام عليكم) بشارة لهم بدوام السلامة (بما صبرتم) متعلق بعليكم أو بمحذوف أي هذه الكرامة العظمى بما صبرتم أي بسبب صبركم أو بدل مما تحملتم من مشاق الصبر ومتاعبه والمعنى نعم عقبى الدار لكم فقد استرحتم الساعة وتخصيص الصبر بما ذكر من بين الصلات السابقة لما قدمنا من أن له دخلا في كل منها ومزيد زائدة من حيث انه ملاك الامر في كل منها وان شئت قلت الباء بمعنى في أي في مقابلة ما صبرتم في الدنيا لا

حتى نزلت هذه الآية (الثاني) قوله واعبدوا ربكم وذكر وافيه وجوها (أحدها) اعبدوه ولا تعبدوا غيره (وثانيها) واعبدوا ربكم في سائر الأمور والمنهيات (وثالثها) افعلوا الركوع والسجود وسائر الطاعات على وجه العبادة لانه لا يكفي أن يفعل فانه ما لم يقصد به عبادة الله تعالى لا ينفع في باب الثواب فلذلك عطف هذه الجملة على الركوع والسجود (الثالث) قوله تعالى وافعلوا الخير قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد به صلة الرحم ومكارم الاخلاق والوجه عندي في هذا الترتيب أن الصلاة نوع من أنواع العبادة والعبادة نوع من أنواع فعل الخير لان فعل الخير ينقسم الى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لامر الله والى الاحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة على الفقراء وحسن القول للناس فكأنه سبحانه قال كافتكم بالصلاة قبل كافتكم بما هو أعم منها وهو العبادة قبل كلفتكم بما هو أعم من العبادة وهو فعل الخيرات أما قوله تعالى لعلكم تفلحون فقيل معناه لتفلحوا والفلاح الظفر بنعيم الآخرة وقال الامام أبو القاسم الانصاري لعل كلمة للترجية فان الانسان قلما يخلو في أداء فريضة من تقصير وليس هو على يقين من أن الذي أتى به هل هو مقبول عند الله تعالى والعواقب أيضا مستورة وكل ميسر لما خلق له (الرابع) قوله تعالى وجاهدوا في الله حق جهاده قال صاحب الكشاف في الله أي في ذات الله ومن أجله يقال هو حق عالم وحد عالم أي عالم حقا وجد اومنه حق جهاده وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما وجه هذه الاضافة وكان القياس حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه كما قال وجاهدوا في الله حق جهاده (والجواب) الاضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث انه مفعول لوجهه ومن أجله صحت الاضافة اليه (السؤال الثاني) ما هذا الجهاد (الجواب) فيه وجوه (أحدها) أن المراد قتال الكفار خاصة ومعنى حق جهاده أن لا يفعل الا عبادة لا رغبة في الدنيا من حيث الاسم أو الغنيمة (والثاني) أن يجاهدوا آخرا كما جاهدوا أولا فقد كان جهادهم في الاول أقوى وكانوا فيه أثبت نحو صفهم يوم بدر روى عن عمر رضي الله عنه أنه قال لعبد الرحمن بن عوف أما علمت أنا كنا نقرأ وجاهدوا في الله حق جهاده في آخر الزمان كما جاهدتموه في أوله فقال عبد الرحمن ومتى ذاك يا أمير المؤمنين قال اذا كانت بنو أمية الامراء وبنو المغيرة الوزراء واعلم أنه بعيد أن تكون هذه الزيادة من القرآن والا لنقل كنقل نظائره ولعله ان صح ذلك عن الرسول فانما قاله كالتفسير للآية وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قرأ وجاهدوا في الله حق جهاده كما جاهدتم أول مرة فقال عمر من الذي أمرنا بجهاده فقال قبيلتان من قريش مخزوم وعبد شمس فقال صدقت (والثالث) قال ابن عباس حق جهاده لا تخافوا في الله لومة لائم (والرابع) قال الضحاك واعملوا لله حق عمله (والخامس) استفرغوا وسعكم في احياء دين الله واقامة حدوده بالحرب باليد واللسان وجميع ما يمكن وردوا أنفسكم عن الهوى والميل (والوجه السادس) قال عبد الله بن المبارك حق جهاده مجاهدة النفس والهوى ومار جع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك قال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر والاولى أن يحمل ذلك على كل التكاليف فيكمل ما أمر به ونهى عنه فالحافظة عليه جهاد (السؤال الثالث) هل يصح ما نقل عن مقاتل والكلبي ان هذه الآية منسوخة بقوله فاتقوا الله ما استطعتم كما أن قوله اتقوا الله حق تقاته منسوخ بذلك (الجواب) هذا بعيد لان التكليف مشروط بالقدرة لقوله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها فكيف يقول الله وجاهدوا في الله على وجه لا تقدرون عليه وكيف وقد كان الجهاد في الاول مضيقا حتى لا يصح أن يفر الواحد من عشرة ثم خفف الله بقوله الآن خفف الله عنكم أفيجوز مع ذلك أن يوجبه على وجه

يكون لانتفاء وجه الرب تعالى وتقدس (فنعم عقبى الدار) أى فنعم عقبى الدار الجنة وقرئ فنعم عقبى الدار بنقل حركتها الى النون تارة وبدونه أخرى وعن النبى عليه السلام انه كان يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وكذا عن الخلفاء الاربعة رضوان الله عليهم أجمعين (والذين ينقضون) عهد الله أريد بهم من يقابل الاولين وبعاندهم فى الاتصاف بنقائض صفاتهم (من بعد ميثاقه) من بعد ما أوثقوه من الاعتراف والقبول (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) من الايمان بجميع الانبياء المجمعين على الحق حيث يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعضهم وحقوق الارحام وموالاة المؤمنين وغير ذلك مما لا يراعون حقوقه من الامور المعدودة فيما سلف وأعالم يتعرض لنفى الخشية والخوف عنهم صريحا لدلالة النقض والقطع على ذلك وأما عدم التعرض لنفى الصبر المذكور فلانه انما اعتبر متحققه فى ضمن الحسنات المعدودة ليتعين معتدا بهن فلا وجه لتفيه عن بينه وبين الحسنات بعد المشرفين كالا وجه لنفى الصلاة والزكاة عمن لا يحوم حول أصل الايمان بالله تعالى فضلا عن فروع الشرائع وان أريد بالايمان التطوع فنفيه مندرج تحت قطع ما أمر الله تعالى بوصله

لا يطاق حتى يقال انه منسوخ (النوع الثالث) بيان ما يوجب قبول هذه الاوامر وهو ثلاثة (الاول) قوله هو اجتباكم ومعناه أن التكليف تشريف من الله تعالى للعبد فلما خصكم بهذا التشريف فقد خصكم بأعظم التشريفات واختاركم لخدمته والاشتغال بطاعته فأى رتبة أعلى من هذا وأى سعادة فوق هذا ويحتمل فى اجتباكم خصكم بالهداية والمعونة والتيسير أما قوله تعالى وما جعل عليكم فى الدين من حرج فهو كالجواب عن سؤال يذكر وهو أن التكليف وان كان تشريفا واجبا كما ذكرتم لكنه شاق شديد على النفس فأجاب الله تعالى عنه بقوله وما جعل عليكم فى الدين من حرج روى أن أبا هريرة رضى الله عنه قال كيف قال الله تعالى وما جعل عليكم فى الدين من حرج مع أنه منعنا عن الزنا والسرقة فقال ابن عباس رضى الله عنهما بلى ولكن الاصر الذى كان على بنى اسرائيل وضع عنكم وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما الحرج فى أصل اللغة (الجواب) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لبعض هذيل ما تعدون الحرج فيكم قال الضيق وعن عائشة رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال الضيق (السؤال الثانى) ما المراد من الحرج فى الآية (الجواب) قيل هو الاثم بالحمس فمن لم يستطع أن يصلى قائما فليصل جالسا ومن لم يستطع ذلك فليوم وأباح للصائم الفطر فى السفر والقصر فيه وأيضا فانه سبحانه لم يبتل عبده بشئ من الذنوب الا وجعل له مخرجا منها اما بالتوبة أو بالكفارة وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه من جاءته رخصة فرغب عنها كان يوم القيامة أن يحمل ثقل تسعين حتى يقضى بين الناس وعن النبى صلى الله عليه وسلم اذا اجتمع أمران فاسرهما الى الله تعالى أيسرهما وعن كعب أعطى الله هذه الامة ثلاثا لم يعطهن الا الانبياء جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليهم فى الدين من حرج وقال ادعونى أستجب لكم (السؤال الثالث) استدلت المعتزلة بهذه الآية فى المنع من تكليف ما لا يطاق فقالوا لما خلق الله الكفر والمعصية فى الكافر والعاصى نهاه عنهما كان ذلك من أعظم الحرج وذلك منفى بصريح هذا النص (والجواب) لما أمره بترك الكفر وترك الكفر يقتضى انقلاب علمه جهلا فقد أمر الله المكلف بقلب علم الله جهلا وذلك من أعظم الحرج ولما استوى القدمان زال السؤال (الوجه الثانى) لقبول التكليف قوله ملة أبيكم ابراهيم هو جعلنا المسلمين من قبل وفى نصب الملة وجهان (أحدهما) وهو قول الفراء أنها منصوبة بعقلون ما قدمها كأنه قيل وسع دينكم توسعة ملة أبيكم ابراهيم ثم حذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه (والثانى) أن يكون منصوبا على المدح والتعظيم أى أعنى بالدين ملة أبيكم ابراهيم واعلم أن المقصود من ذكره التنبيه على أن هذه التكاليف واشراتع هى شريعة ابراهيم عليه الصلاة والسلام والعرب كانوا محبين لابراهيم عليه السلام لانهم من أولاده فكان التنبيه على ذلك كالسبب لسرورهم منقادين لقبول هذا الدين وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم قال ملة أبيكم ابراهيم ولم يدخل فى الخطاب المؤمنون الذين كانوا فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يكونوا من ولده (والجواب) من وجهين (أحدهما) لما كان أكثرهم من ولده كالرسول ورهطه وجميع العرب جاز ذلك (وثانيهما) وهو قول الحسن ان الله تعالى جعل حرمة ابراهيم عليه السلام على المسلمين كحرمة الوالد على ولده وضمه قوله تعالى النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم فجعل حرمته كحرمة الولد على الوالد وحرمة نسائه كحرمة الوالدة على ما قال تعالى وأزواجه أمهاتهم (السؤال الثانى) هذا يقتضى أن تكون ملة محمد كملة ابراهيم عليهما السلام سواء فكيف يكون الرسول ليس بشرع مخصوص ويؤكده قوله تعالى أن اتبع ملة ابراهيم (الجواب) هذا الكلام انما وقع مع عبدة الاوثان فكأنه تعالى قال عبادة الله وترك الاوثان هى ملة

وما مادرء السيئة بالحسنة فانتفاؤه منهم ظاهر مما سبق ولحق فان من يجازى احسانه عز وجل بنقض العهد ومخالفة الامر وبإثارة الفساد بدل أحسن ما يحكيه قوله عز وعلا (ويفسدون فى الارض) أى بالظلم وقطع الفتن كيف يتصور منه مجازاة الاساءة بالاحسان على أن ذلك يشعر بأن له دخلا فى الاقضاء الى العقوبة التى ينبئ عنها قوله تعالى (أولئك) الخ أى أولئك

الموصوفون بما ذكر من القبيح (لهم) بسبب ذلك (اللعنة) أي الابعاد من رحمة الله تعالى (ولهم) مع ذلك (سوء الدار) أي سوء عاقبة الدنيا أو عذاب جهنم فانها دار هم لان ترتيب الحكم على الموصول مشعر بعلية الصلة ولا يخفى أنه لا دخل له في ذلك على أكثر التفاسير فان مجازاة السيئة بمثلها مأذون فيه أو دفع الكلام السيئ بالحسن وكذا الاعطاء عند المنع والعفو عند الظلم والوصل عند القطع ليس مما يورث تركه تبعة وأما ما اعتبر اندراجه تحت الصلة الثانية من الاخلال ببعض الحقوق المندوبة فلا ضير في ذلك لان اعتباره من حيث انه من مستتبعات الاخلال بالعزائم بالكفر ببعض الانبياء وعقوق الوالدين وترك سائر الحقوق الواجبة وتكرير لهم للتأكيد والايذان باختلافهما واستقلال كل منهما في الثبوت (الله يبسط الرزق) أي يوسعه (لمن يشاء) من عباده (ويقدر) أي يضيقه على من يشاء حسبما يقتضيه الحكمة من غير أن يكون لاحد مدخل في ذلك ولا شعور بحكمته فربما يبسطه للكافر املاء واستدراجا وربما يضيقه على المؤمن زيادة لاجره فلا يغتر ببسطه الكافر كما لا يقنط بقدره المؤمن (وفرحوا) أي أهل مكة فرح أشر وبطر لا فرح سرور بفضل الله تعالى (بالحيوة الدنيا) وما بسط لهم فيها من نعيمها (وما الحيوة الدنيا) وما يتمتعها من النعيم (في الآخرة) أي في جنب نعيم الآخرة (الا متاع) الا شيء نزر يتمتع به كحالة الراكب وزاد الراعي الشاهد

ابراهيم فاما تفاصيل الشرائع فلا تعلق لها بهذا الموضع (السؤال الثالث) ما معنى قوله تعالى هو سماكم المسلمين من قبل (الجواب) فيه قولان (أحدهما) أن الكناية راجعة الى ابراهيم عليه السلام فان لكل نبي دعوة مستجابة وهو قول ابراهيم عليه الصلاة والسلام ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك فاستجاب الله تعالى له فجعلها أمة محمد صلى الله عليه وسلم وروى أنه عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الله تعالى سمى محمدا وامته بالمسلمين (والثاني) أن الكناية راجعة الى الله تعالى في قوله هو اجتباكم كما روي عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال ان الله سماكم المسلمين من قبل أي في كل الكتب وفي هذا أي في القرآن وهذا الوجه أقرب لانه تعالى قال ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فبين أنه سماهم بذلك لهذا الغرض وهذا لا يليق الا بالله ويدل عليه أيضا قراءة أبي بن كعب الله سماكم (المعنى) كما أنه سبحانه في سائر الكتب المتقدمة على القرآن وفي القرآن أيضا بين فضلكم على الامم وسماكم بهذا الاسم الاكرم لاجل الشهادة المذكورة فلهذا خصكم الله بهذه الكرامة فاجتهدوه ولا تردوا تكاليفه وهذا هو العلة الثالثة الموجبة لقبول التكليف وأما الكلام في أنه كيف يكون الرسول شهيدا علينا وكيف تكون أمته شهداء على الناس فقد تقدم في سورة البقرة وبينا أنه أخذ منه ما يدل على أن الاجماع حجة (النوع الرابع) شرح ما يجري مجرى المؤكد لما مضى وهو قوله فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ويجب صرفها الى المفروف لانها هي المعهودة واعتصموا بالله أي بدلائله العقلية والسمعية والطافه وعصمته قال ابن عباس سلوا الله العصمة عن كل المحرمات وقال القفال اجعلوا الله عصمة لكم مما تحذرون هو مولاكم سيدكم والمتصرف فيكم فنعم المولى ونعم النصير تنكا أنه سبحانه قال أنا مولاك بل أنا ناصرك وحسبك واعلم أن المعتزلة احتجوا بهذه الآيات من وجوه (أحدها) أن قوله وتكونوا شهداء على الناس يدل على أنه سبحانه أراد الايمان من الكل لانه تعالى لا يجعل الشهيد على عباده الا من كان عدلا مرضيا فاذا أراد أن تكونوا شهداء على الناس فقد أراد أن تكونوا جميعا صالحين عدولا وقد علمنا أن منهم فاسقا فدل ذلك على أن الله تعالى أراد من الفاسق كونه عدلا (وثانيها) قوله واعتصموا بالله وكيف يمكن الاعتصام به مع أن الشر لا يوجد الا منه (وثالثها) قوله فنعم المولى لانه لو كان كما يقوله أهل السنة من أنه خلق أكثر عباده ليخلق فيهم الكفر والفساد ثم يعذبهم لما كان نعم المولى بل كان لا يوجد من شرار الموالي أحد الا وهو شر منه فكان يجب أن يوصف بأنه بئس المولى وذلك باطل فدل على أنه سبحانه ما أراد من جميعهم الا الصلاح فان قيل لم لا يجوز أن يكون نعم المولى للمؤمنين خاصة كما أنه نعم النصير لهم خاصة قلنا انه تعالى مولى المؤمنين والكافرين جميعا فيجب أن يقال انه نعم المولى للمؤمنين وبئس المولى للكافرين فان اردتم بهذا الكلام هذا فنحن نقول به وان اردتم شيئا آخر فبينوه (وثالثها) أن قوله سماكم المسلمين من قبل يدل على اثبات الاسماء الشرعية ونحن من قبل الله تعالى لنا نقول لما كانت اللغة لما أضيفت الى الله تعالى على وجه الخصوص (والجواب عن الاول) وهو قوله كونه تعالى مريدا لكونه شاهدا يستلزم كونه مريدا لكونه عدلا فنقول ان كانت ارادة الشيء مستلزمة لارادة لوازمه فارادة الايمان من الكافر توجب أن تكون مستلزمة لارادة جهل الله تعالى فلزم كونه تعالى مريدا لجهل نفسه وان لم يكن ذلك واجبا سقط الكلام وأما قوله واعتصموا بالله فيقال هذا أيضا وارد عليكم فانه سبحانه خلق الشهوة في قلب الفاسق وأكدها وخلق المشتهى وقربه منه ورفع الموانع ثم سلط عليه الشياطين من الانس والجن وعلم أنه لا محالة يقع في الفجور والضلال وفي الشاهد كل من فعل ذلك فانه يكون بئس المولى فان صح قياس الغائب على الشاهد

(و يقول الذين كفروا) أي أهل مكة وايثار هذه الطريقة على الاضمار مع ظهور ارادتهم عقيب ذكر فرحهم بالحياة الدنيا للنعي

والتعجيل عليهم بالكفر فيما حكى عنهم من قولهم (ولو أنزل عليه آية من ربه) فان ذلك فى أقصى مراتب المكابرة والعناد كان ما أنزل عليه عليه السلام من الآيات العظام الباهرة ليس بآية حتى اقترحوا ما لا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التى لا يبقى لاحد بعد ذلك طاقة بعدم القبول ولذلك أمر فى الجواب بقوله تعالى (قل ان الله يضل من يشاء) ٢١١ اضلالا مشيئة تابعة للحكمة الداعية اليها أى يخلق فيه الضلال لصرفه اختياره الى تحصيله وبدعه منهمكا فيه لعلمه بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الارشاد لكن كان على صفتكم فى المكابرة والعناد وشدة الشكيمة والغلو فى الفساد فلا سبيل له الى الاهتداء ولو جاءته كل آية (ويهدى اليه) أى الى جنابه العلى الكبير هداية موصلة اليه لا دلالة مطلقة على ما يوصل اليه فان ذلك غير مختص بالمهتدين وفيه من تشريفهم ما لا يوصف (من أناب) أقبل الى الحق وتأمل فى تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة وحقيقة الانابة الدخول فى توبة الخبر وايثار ايراد ها فى الصلة على ايراد المشيئة كما فى الصلة الاولى للتنبيه على الداعى الى الهداية بل الى مشيئتها والاشعار بما دعا الى المشيئة الاولى المكابرة وقد صح للكفرة على الاقلاع عما هم عليه من العتو والعناد وايثار صيغة الماضى للايماء الى استدعاء الهداية السابقة الانابة كما أن ايثار صيغة المضارع فى الصلة الاولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم (الذين آمنوا) بدل من أناب فان أريد بالهداية الهداية المستمرة فالامر ظاهر لظهور كون الايمان مؤديا اليها وان أريد احداثها فالمراد بالذين صار أمرهم الى الايمان كما فى قوله تعالى هدى للتقين أى الصائرين الى التقوى والا فالايمان لا يؤدى الى الهداية نفسها أو خبر مبتدا محذوف

﴿سورة المؤمنون مائة وثمان عشرة آية مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ اعلم أنه سبحانه حكم بحصول الفلاح لمن كان مستجمعا لصفات سبع وقبل الخوض فى شرح تلك الصفات لا بد من بحثين (البحث الاول) أن قد نقيضة لما فقد تثبت المتوقع وانما تنفيه ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهى الاخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه (البحث الثانى) الفلاح الظفر بالمراد وقيل البقاء فى الخير وأفلح دخل فى الفلاح كأبشر دخل فى البشارة ويقال أفلحه صيره الى الفلاح وعليه قراءة طلحة بن مصرف أفلح على البناء للمفعول وعنه أفلحوا على لغة أكلونى البراغيث أو على الابهام والتفسير (الصفة الاولى) قوله المؤمنون وقد تقدم القول فى الايمان فى سورة البقرة (الصفة الثانية) قوله الذين هم فى صلاتهم خاشعون واختلفوا فى الخشوع فمنهم من حمله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة ومنهم من حمله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات ومنهم من جمع بين الامرين وهو الاولى فالخاشع فى صلاته لا بد أن يحصل له ما يتعلق بالقلب من الافعال نهاية الخضوع والتذلل للمعبود ومن التروك أن لا يكون ملتفت الخاطر الى شئ سوى التعظيم وما يتعلق بالجوارح أن يكون ساكنا مطرقا ناظرا الى موضع سجوده ومن التروك أن لا يلتفت عينا ولا شمالا والمكن الخشوع الذى يرى على الانسان ليس الا ما يتعلق بالجوارح فان ما يتعلق بالقلب لا يرى قال الحسن وابن سيرين كان المسلمون يرفعون أبصارهم الى السماء فى صلاتهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فلما نزلت هذه الآية ما طأطأ وكان لا يجاوز بصره مصلاه فان قيل فهل تقولون ان ذلك واجب فى الصلاة قلنا انه عندنا واجب ويدل عليه أمور (أحدها) قوله تعالى أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها والتدبر لا يتصور بدون الوقوف على المعنى وكذا قوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا معناه قف على عجائبه ومعانيه (وثانيها) قوله تعالى وأقم الصلاة لذكرى وظاهر الامر للوجوب والغفلة تضاد الذكر فكل من غفل فى جميع صلاته كيف يكون مقيما للصلاة لذكره (وثالثها) قوله تعالى ولا تكن من الغافلين وظاهر النهى للتحريم (ورابعها) قوله حتى تعلموا ما تقولون تعليل لنهى السكران وهو مطرد فى الغافل المستغرق الهم بالدنيا (وخامسها) قوله عليه السلام اذا الخشوع من تمكن وتواضع وكلمة اذا للحصر وقوله عليه السلام من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء وقال عليه السلام كم من قائم حظه من قيامه التعب والنصب وما أراد به الا الغافل وقال أيضا ليس للعبد من صلاته الا ما عقل (وسادسها) قال المزنى رحمه الله المصلى ينبغى أن يجر به كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة وبيانه ان الانسان اذا أدى الزكاة حال الغفلة فقد حصل المقصود منها على بعض الوجوه وهو كسر الحرص واغناء الفقير وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر

اى هم الذين آمنوا أو منصوب على المدح (وتطمئن قلوبهم) أى تستقر وتسكن (بذكر الله) بكلامه المعجز الذى لا ريب فيه كقوله تعالى وهذا ذكر مبارك أنزلناه وقوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون و يعلون أن لا آية أعظم منه فيقترحوها والعدول الى صيغة المضارع لافادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب ٢١٢ تجدد الآيات وتعددها (ألا بذكر الله) وحده (تطمئن القلوب) دون غيره من الامور

اسطورة الهوى التى هى عدو والله تعالى فلا بعد أن يحصل منه مقصوده مع الغفلة وكذا الحج أفعال شاقة وفيه من المجاهدة ما يحصل به الابتلاء سواء كان القلب حاضرا أو لم يكن اما الصلاة فليس فيها الا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود وأما الذكر فانه مناجاة مع الله تعالى فاما أن يكون المقصود منه كونه مناجاة او المقصود مجرد الحروف والاصوات ولا شك فى فساد هذا القسم فان تحريك اللسان بالهذيان ليس فيه غرض صحيح فثبت ان المقصود منه المناجاة وذلك لا يتحقق الا اذا كان اللسان معبرا عما فى القلب من التضرع والدعاء والمخاطب هو الله تعالى فاذا كان القلب محجوبا بحجاب الغفلة وكان غافلا عن جلال الله وكبريائه فمن اين لسانه يتحرك بحكم العادة فضلا بعد ذلك عن القبول * وأما الركوع والسجود فالمقصود منهما التعظيم ولو جاز أن يكون تعظيما لله تعالى مع أنه غافل عنه لجاز أن يكون تعظيما للصنم الموضوع بين يديه وهو غافل عنه ولانه اذا لم يحصل التعظيم لم يبق الا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيهما من المشقة ما يصير لاجله عبادا للدين وفاصلا بين الكفر والايمان و يقدم على الحج والزكاة والجهاد وسائر الطاعات الشاقة ويجب القتل بسببه على الخصوص و بالجملة فكل عاقل يقطع بأن مشاهدة الخزائن العظيمة ليس أعمالها الظاهرة الا أن تضاف اليها مقصود هذه المناجاة فقدات هذه الاعتبارات على ان الصلاة لا بد فيها من الحضور (وسابعها) ان الفقهاء اختلفوا فيما ينوبه بالسلام عند الجماعة والانفراد هل ينوى الحضور أو الغيبة والحضور معا فاذا احتيج الى التدبر فى معنى السلام الذى هو آخر الصلاة فلأن يحتاج الى التدبر فى معنى التكبير والتسبيح التى هى الاشياء المقصودة من الصلاة بالطريق الاولى واحتج المخالف بان اشتراط الخضوع والخشوع على خلاف اجماع الفقهاء فلا يلتفت اليه (والجواب) من وجوه (أحدها) أن الحضور عندنا ليس شرطا للاجزاء بل شرط للقبول والمراد من الاجزاء أن لا يجب القضاء والمراد من القبول حكم الثواب والفقهاء انما يبحثون عن حكم الاجزاء لا عن حكم الثواب وغرضنا فى هذا المقام هذا ومثاله فى الشاهد من استعار منك ثوبا ثم رده على الوجه الاحسن فقد خرج عن العهدة واستحق المدح ومن رماه الينك على وجه الاستخفاف خرج عن العهدة ولكنه استحق الذم كذا من عظم الله تعالى حال أدائه العبادة صار مقيما للفرض مستحقا للثواب ومن استهان بها صار مقيما للفرض ظاهرا لكنه استحق الذم (وثانيها) أنا نمنع هذا الاجماع أما المتكلمون فقد اتفقوا على انه لا بد من الحضور والخشوع واحتجوا عليه بأن السجود لله تعالى طاعة وللصنم كفر وكل واحد منهما عمل الآخر فى ذاته ولوازمه فلا بد من أمر لاجله صار السجود فى احدى الصورتين طاعة وفى الاخرى معصية قلنا وما ذاك الا القصد والارادة والمراد من القصد انما يقاع تلك الافعال لداعية الامتثال وهذه الداعية لا يمكن حصولها الا عند الحضور فلهذا اتفقوا على انه لا بد من الحضور أما الفقهاء فقد ذكر الفقيه أبو الليث رحمه الله فى تنبيه الغافلين أن تمام القراءة أن يقرأ بتدبر لمن وان يقرأ بالتفكر وأما الغزالى رحمه الله فانه نقل عن أبى طالب المكى عن

التى تميل اليها النفوس من الدنيا وشهواتها وهذا ظاهر وأما سائر المعجزات فالقصر من حيث انها ليست فى افادة الطمأنينة بالنسبة الى من لم يشاهدها عشابة القرآن الجديد فانه معجزة باقية الى يوم القيامة يشاهدها كل أحد وتطمئن به القلوب كافة وفيه اشعار بأن الكفرة ليست لهم قلوب وأفئدتهم هواء حيث لم يطمئنوا بذكر الله تعالى ولم يعدوه آية وهو أظهر الآيات وأبهرها وقيل تطمئن قلوبهم بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته * قوله تعالى ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته أو بذكره جل وعلا أسابه وتمثلا اليه فالمراد بالجلود دواعيها واستقرارها (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بدل من القلوب على حذف المضاف بدل الكل حسبما مر اليه أى قلوب الذين آمنوا وفيه اعماء الى أن الانسان انما هو القلب أو معتد أخيره الجملة الدعائية على التأويل أعنى قوله (طوبى لهم) أو خبر

مبتدا محذوف أو نصب على المدح فطوبى لهم حال عاملها الفعلان وطوبى مصدر من طاب كبشرى وزنا ولوا ومنقلبة من الياء كتقوى ويسرى وقراها كوزة الاعرابى طوبى لتسلم الياء والمعنى أصابوا خيرا ومحلها النصب كسلاما لك أو الرفع على الابتداء وان كانت نكرة لكونها

في معنى الدعاء كسلام عليك بدل على ذلك القراءة في قوله تعالى (وحسن مآب) بالنصب والرفع واللام في لهم للبيان مثلها في سقيا لك (كذلك) مثل ذلك الارسال العظيم الشأن المحفوف بهذه المعجزة الباهرة (أرسلناك في أمة قد خلت) أي مضت (من قبلها أمم) كثيرة وقد أرسل اليهم رسل (لتتلو) لتقرأ (عليهم الذي أوحينا اليك) من الكتاب العظيم الشأن وتهديهم الى الحق

بشر الحافي انه قال من لم يخشع فسدت صلاته وعن الحسن رحمه الله كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي الى العقوبة أسرع وعن صالح بن حبيل من عرف من على عينه وشماله متعمدا وهو في الصلاة فلا صلاة له وروى أيضا مسندا قال عليه السلام ان العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها واغا يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها وقال عبد الواحد بن زيد أجمعت العلماء على انه ليس للعبد من صلاته الا ما عقل وادعى فيه الاجماع اذا ثبت هذا فنقول هب ان الفقهاء بأسرهم حكموا بالجواز أليس الاصوليون وأهل الورع ضيقوا الامر فيها فلا أخذت بالاحتياط فان بعض العلماء اختار الامامة فقيل له في ذلك فقال أخاف ان تركت الفاتحة أن يعاتبني الشافعي وان قرأتها مع الامام أن يعاتبني أبو حنيفة فاخترت الامامة طلبا للخلاص عن هذا الاختلاف والله أعلم (الصفة الثالثة) قوله تعالى والذين هم عن اللغو معرضون وفي اللغو أقوال (أحدها) أنه يدخل فيه كل ما كان حراما أو مكروها أو كان مباحا ولكن لا يكون بالمرء اليه ضرورة وحاجة (وثانيها) انه عبارة عن كل ما كان حراما فقط وهذا التفسير أخص من الاول (وثالثها) انه عبارة عن المعصية في القول والكلام خاصة وهذا أخص من الثاني (ورابعها) انه المباح الذي لا حاجة اليه واحتج هذا القائل بقوله تعالى لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم فكيف يحمل ذلك على المعاصي التي لا بد فيها من المؤاخذة واحتج الاولون بأن اللغو اغا سمي لغوا لانه ينبغي وكل ما يقتضي الدين الغاءه كان أولى باسم اللغو فوجب أن يكون كل حرام لغوا ثم اللغو قد يكون كفرا كقوله لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وقد يكون كذبا كقوله لا تسمع فيها لاغية وقوله لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ثم انه سبحانه وتعالى مدحهم بأنهم يعرضون عن هذا اللغو والاعراض عنه هو بأن لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يأتيه وعلى هذا الوجه قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما واعلم انه سبحانه وتعالى لما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالاعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الانفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف وهو أعلم (الصفة الرابعة) قوله تعالى والذين هم للزكاة فاعلون وفي الزكاة قولان (أحدهما) قول أبي مسلم ان فعل الزكاة يقع على كل فعل محمود مرضي كقوله قد أفلح من تزكى وقوله فلا تزكوا أنفسكم ومن جملته ما يخرج من حق المال واغا سمي بذلك لانها تطهر من الذنوب اقوله تعالى تطهرهم وتزكيهم بها (والثاني) وهو قول الاكثرين انه الحق الواجب في الاموال خاصة وهذا هو الاقرب لان هذه اللفظة قد اختصت في الشرع بهذا المعنى فان قيل انه لا يقال في الكلام الفصيح انه فعل الزكاة قلنا قال صاحب الكشاف الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى فالعين القدر الذي يخرجه المزكي من النصاب الى الفقير والمعنى فعل المزكي الذي هو التزكية وهو الذي أراده الله تعالى فجعل المزكين فاعلين له ولا يسوغ فيه غيره لانه مصدر الا بمعنى ما يقال فعله فاعل ويقال لحدثه فاعل يقال للضارب فاعل الضرب وللقاتل فاعل القتل وللمزكي فاعل الزكاة وعلى هذا الكلام كله يجوز أن يراد بالزكاة العين ويقدر مضاف محذوف وهو الاداء فان قيل ان الله تعالى هناك لم يفصل بين الصلاة والزكاة فلم فصل ههنا بينهما بقوله والذين هم عن اللغو معرضون قلنا لان الاعراض عن اللغو من متممات الصلاة (الصفة الخامسة) قوله تعالى والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين وفيه مسألتان (السؤال الاول) لم يقل الا عن أزواجهم (الجواب) قال الفراء معناه والا من أزواجهم وذكر صاحب الكشاف فيه ثلاثة أوجه (أحدها) انه في موضع الحال أي الا والين على أزواجهم أو قوامين عليهن من قولك فلان على فلانة ونظيره كان زيادا على البصرة أي واليا عليها وامنه قولهم فلانة تحت فلان ومن ثم سميت المرأة فراشا والمعنى

مراتب الكمال وايراده قبيل قوله (لا اله الا هو) أي لا مستحق للعبادة سواه تنبيه على أن استحقاق العبادة منوط بالربوبية وقيل ان أبا جهل سمع النبي عليه السلام يقول يا الله يا رحمن فرجع الى المشركين فقال ان محمدا يدعو الهين فنزلت ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن الآية (عليه توكلت) في جميع أموري لا سيما في النصرة عليكم لا على أحد سواه (واليه) خاصة (متاب) أي توبتي كقوله

على المنصوب من قبيل الابهام ثم البيان كما في قوله تعالى ووضعنا عنك وزرك وفيه ما لا يخفى من ترتيب النفس الى ما سيرد وحسن قبولها له عند وروده عليها (وهم) أي والحال أنهم (يكفرون بالرحمن) بالبليغ الرحمة الذي وسعت كل شئ رحمته وأحاطت به نعمته والعدول الى المظهر المتعرض لوصف الرحمة من حيث ان الارسال ناشئ منها كما قال تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين فلم يقدروا قدره ولم يشكروا نعمه لاسيما ما أنعم به عليهم بارسال مثلك اليهم وانزال القرآن الذي هو مدار المنافع الدينية والدنياوية عليهم وقيل نزلت في مشركي مكة حين أمروا بالسجود فقالوا وما الرحمن (قل هو) أي الرحمن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته (ربي) الرب في الاصل بمعنى التربية وهي تبليغ الشئ الى كماله شيئا فشيئا ثم وصف به مبالغة كالصوم والعدل وقيل هو نعت أي خالقي ومبلغي الى

تعالى واستغفر لذنبك أمر عليه السلام بذلك ايانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى وأنها صفة الانبياء وبعثا للكفرة على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجه وألطفه فانه عليه السلام حيث أمر بها وهو منزه عن شائبة اقتراف ما يوجبها من الذنب وان قل فتوبتهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصي ٢١٤ مما لا يدمنه أصلا وقد فسر المتاب بمطلق الرجوع فقيل مرجعي ومرجعكم وزيد فيحكم بيني وبينكم وقد قيل فيتبين على معاييرتكم فتأمل (ولو أن قرآنا) أي قرآنا ما وهو واسم أن والخبر قوله تعالى (سيرت به الجبال) وجواب لو محذوف لا نساق الكلام اليه بحيث يتلقفه السامع من التالي والمقصود اما بيان عظم شأن القرآن العظيم وفساد رأي الكفرة حيث لم يقدروا قدره العلي ولم يعدوه من قبيل الآيات فاقترحوا غيره مما أوتي موسى وعيسى عليهما السلام وأما بيان غلوهم في المكابرة والعناد وتمادیهم في الضلال والفساد فالمعنى على الاول لو أن قرآنا سيرت به الجبال أي بانزاله أو بتلاوته عليها وزعزعت عن مقارها كما فعل ذلك بالطور لموسى عليه الصلاة والسلام (أو قطعت به الارض) أي شققت وجعلت أنهارا وعيونا كما فعل بالحجر حين ضربه عليه السلام بعصاه أو جعلت قطعا متصدعة (أو كلم به الموتى) أي بعد أن أحيي بقراءته عليها كما أحييت لعيسى عليه السلام لكان ذلك هذا القرآن لكونه الغاية القصوى في الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته عز وجل الوارثون

أنهم لفروجهم حافظون في كافة الاحوال الا في حال تزوجهم أو تسريهم (وثانيها) انه متعلق بمحذوف وقع بدل عليه غير ملومين كأنه قيل يلامون الا على أزواجهم أي يلامون على كل مباشرة الا على ما أطلق لهم فانهم غير ملومين عليه وهو قول الزجاج (وثالثها) أن تجعله صلة لحافظين (السؤال الثاني) هلا قيل من ملكت (الجواب) لانه استمع في السريه وصفان أحدهما الانوثة وهي مظنة نقصان العقل والآخر كونها مبتاعة تباع وتشترى كسائر السلع فلاجتماع هذين الوصفين فيهم اجملت كأنها ليست من العقلاء (السؤال الثالث) هذه الآية تدل على تحريم المتعة على ما يروى عن القاسم بن محمد (الجواب) نعم وتقريره انها ليست زوجة له فوجب أن لا تحل له وانما قلنا انها ليست زوجة له لانها لا يتوارثان بالاجماع ولو كانت زوجة له لحصل التوارث لقوله تعالى ولكم نصف ما ترك أزواجكم اذ ثبت انها ليست زوجة له وجب أن لا تحل له لقوله تعالى الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم وهو المراد (السؤال الرابع) أليس لا يحل له في الزوجة وملك اليمين الاستمتاع في أحوال كحال الحيض وحال العدة وفي الامة حال تزويجها من الغير وحال عدتها وكذا الغلام داخل في ظاهر قوله تعالى أو ما ملكت أيمانهم (والجواب) من وجهين (أحدهما) ان مذهب أبي حنيفة رحمه الله ان الاستثناء من النفي لا يكون اثباتا واحتج عليه بقوله عليه السلام لا صلاة الا بطهور ولا نكاح الا بولي فان ذلك لا يقتضي حصول الصلاة بمجرد حصول الطهور وحصول النكاح بمجرد حصول الولي وفائدة الاستثناء صرف الحكم لا صرف المحكوم به فقوله والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم معناه انه يجب حفظ الفروج عن الكل الا في هاتين الصورتين فاني ما ذكرت حكمهما لا بالنفي ولا بالاثبات (والثاني) أنا ان سلمنا ان الاستثناء من النفي اثبات فغايته انه عام دخله التخصيص بالدليل فيبقى فيما وراءه حجة أما قوله تعالى فأولئك هم العادون يعني الكاملون في العدوان المتناهون فيه (الصفة السادسة) قوله تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون قرأ نافع وابن كثير لاماناتهم راعل انه يسمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهدا ومنه قوله تعالى ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها وقال وتخونوا أماناتكم وانما تؤدي العين دون المعاني فكأن المؤتمن عليه الامانة في نفسها والعهد ما عاهد عليه نفسه فيما يقربه الى ربه ويقع أيضا على ما أمر الله تعالى به كقوله الذين قالوا ان الله عهد الينا والراعي القائم على الشيء لحفظه أو اصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية ويقال من راعى هذا الشيء أي متوليه واعلم أن الامانة تتناول كل ما تركد يكون داخلا في الامانة وقد قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم فمن ذلك العبادات التي المرء مؤتمن عليها وكل العبادات تدخل في ذلك لانها اما ان تخفى أصلا كالصوم وغسل الجنابة واسباغ الوضوء أو تخفى كيفية اتيانه بها وقال عليه السلام أعظم الناس خيانة من لم يتم صلاته وعن ابن مسعود رضي الله عنه أول ما تفقدون من دينكم الامانة وآخر ما تفقدون الصلاة ومن جملة ذلك ما يلزمه بفعل أو قول فيلزمه الوفاء به كالودائع والعقود وما يتصل بهما ومن ذلك الاقوال التي يحرم بها العبد والنساء لانه مؤتمن في ذلك ومن ذلك ان يراعي أمانته فلا يفسد ما نصب أو غيره وأما العهد فانه دخل فيه المعقود والايمان والنذور فيجب عليه أن يراعيها هذه الامور والقيام بها معتبر في حصول الفلاح (الصفة السابعة) قوله والذين هم على صلواتهم يحافظون وانما أعاد تعالى ذكرها لان الخشوع والمحافظة متغايران غير متلازمين فان الخشوع صفة للمصلي في حال الاداء والمحافظة اتيانها في أوقاتها بشروطها بكمالها والمراد بالمحافظة التعهد بشروطها من وقت وطهارة وغيرهما والقيام على أركانها وأعمالها حتى يكون ذلك دأبه في كل وقت ثم لما ذكر الله تعالى مجموع هذه الامور قال أولئك هم

المجرور في المواضع الثلاثة على المرفوع لما مر غير مرة من قصد الابهام ثم التفسير لزيادة التقرير لان بتقديم ما حقه التأخير يبقى النفس مشرفة ومترقبة الى المؤخر انه ماذا فيتمكن عند ورود عليه لا فضل تمكن وكل أوفى الموضعين لمنع الخلو لا لمنع الجمع والاقتران بهم وان كان متعلقا بمجرد ظهور مثل هذه الافاعيل العجيبة على يده عليه السلام لا بظهورها ٢١٥ بواسطة القرآن لكن ذلك حيث

الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون وههنا سؤالات ﴿السؤال الاول﴾ لم سمى ما يجدونه من الثواب والجنة بالميراث مع انه سبحانه حكم بأن الجنة حقهم في قوله ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴿الجواب﴾ من وجوه ﴿الاول﴾ ما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أبين على ما يقال فيه وهو أنه لا مكلف الا أعد الله له في النار ما يستحقه ان عصى وفي الجنة ما يستحقه ان أطاع وجعل ذلك علامة فاذا آمن منهم البعض ولم يؤمن البعض صاره نزل من لم يؤمن كالمنقول الى المؤمنين وصار مصيرهم الى النار الذي لابد منه من حرمان الثواب كموتهم فسمي ذلك ميراثا لهذا الوجه وقد قال الفقهاء انه لا فرق بين ما لمكنه الميت وبين ما يتقدر فيه الملك في انه يورث عنه كذلك قالوا في الدية التي تجب بالقتل انها تورث مع انها ما ملكها على التحقيق وذلك ينهد بما ذكرنا فان قيل انه تعالى وصف كل الذي يستحقونه ارثا وعلى ما قلتم يدخل في الارث ما كان يستحقه غيرهم لو أطاع قلنا لا يمتنع انه تعالى جعل ما هو منزلة لهذا المؤمن بعينه منزلة لذلك الكافر لو أطاع لانه عند ذلك كان يزيد في المنازل فاذا آمن هذا عدل ذلك اليه ﴿وثانيها﴾ ان انتقال الجنة اليهم بدون محاسبة ومعرفة بمقاديره يشبه انتقال المال الى الوارث ﴿وثالثها﴾ ان الجنة كانت مسكن أبينا آدم عليه السلام فاذا انتقلت الى أولاده صار ذلك شبيها بالميراث ﴿السؤال الثاني﴾ كيف حكم على الموصوفين بالصفات السبع بالفلاح مع أنه تعالى ما تمم ذكر العبادات الواجبة كالصوم والحج والطهارة ﴿والجواب﴾ لان قوله والذين هم لامانا تهم وعهدهم راعون يأتي على جميع الواجبات من الافعال والتروك كما قد مناوالطهارات دخلت في جملة المحافظة على الصلوات الخمس لكونها من شرائطها ﴿السؤال الثالث﴾ أفيدل قوله تعالى أولئك هم الوارثون على انه لا يدخلها غيرهم ﴿الجواب﴾ ان قوله هم الوارثون يفيد الحصر لكنه يجب ترك العمل به لانه ثبت ان الجنة يدخلها الاطفال والمجانين والولدان والحور العين ويدخلها الفساق من أهل القبلة بعد العفو اقوله تعالى ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴿السؤال الرابع﴾ أفكل الجنة هو الفردوس ﴿الجواب﴾ الفردوس هو الجنة بلسان الحبشة وقيل بلسان الروم روى أبو موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الفردوس عقر دورة الرحمن فيها الانهار والاشجار وروى أبو أمامة عنه عليه السلام أنه قال سلوا الله الفردوس فانها أعلى الجنان وان أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش ﴿السؤال الخامس﴾ هل تدل الآية على ان هذه الصفات هي التي لها ولاجلها يكونون مؤمنين أم لا ﴿الجواب﴾ ادعى القاضي ان الامر كذلك بناء على مذهبه من ان الايمان اسم شرعي موضوع لاداء كل الواجبات وعندنا ان الآية لا تدل على ذلك لان قوله قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون مثل قد أفلح الناس الا زكاء العدول فان هذا لا يدل على أن الزكاة والعدالة داخلان في مسمى الناس فكذا ههنا ﴿السؤال السادس﴾ روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لما خلق الله تعالى جنة عدن قال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون وقال كعب خلق الله آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده ثم قال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون وروى أنه عليه السلام قال اذا أحسن العبد الوضوء وصلى الصلاة فلو قام واحتفظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها قالت حفظك الله كما حافظت علي وشفعت لصاحبها واذا أضاعها قالت أضاعك الله كما ضيعتني وتلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها ﴿الجواب﴾ أما كلام الجنة فالمراد به انها أعدت للمؤمنين فصار ذلك كالقول منها وهو كقوله تعالى قالتا أتينا طائعين وأما انه تعالى خلق الجنة بيده فالمراد تولي خلقها الا أنه وكله الى غيره وأما ان الصلاة تثنى على من قام بحقها فهو في الجواز أبعد من كلام الجذلان السلاة حركات وسكنات ولا يصح عليها أن تتصور وتتكلم

ليس بمتوجه الى كون الامر لله سبحانه بل الى ما يؤدي اليه ذلك من كون الشأن على ما كان لما تقتضيه الحكمة من بناء التكليف على الاختبار ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ أي أفلم يعلموا على لغة هوازن أو قوم من النخع أو على استعمال اليأس في معنى العلم لمخالطته له ويؤيده قراءة علي وابن عباس وجماعة من الصحابة وتابعيهم رضي الله عنهم أفلم يتبين بطريق التفسير والبناء

كان مبنيا على عدم اشتماله في زعمهم على الخوارق نيط ظهورها به مبالغة في بيان اشتماله عليها وانه حقيق بأن يكون مصدرا لكل خارق وآية لو كانت رأيهم في شأنه الرفيع كما ينبغي لوان ظهور أمثال ما اقترحوه من مقتضيات الحكمة لكان مظهرها هذا القرآن الذي لم يعدوه آية وفيه من تفخيم شأنه العزيز ووصفهم بركاكة العقل ما لا يخفى ﴿بل لله الامر جميعا﴾ أي له الامر الذي عليه يدور فلك الاكوان وجودا وعدما يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لما يدعوا اليه من الحكم البالغة وهو اضراب عما تضمنته الشرطية من معنى النفي لا يحسب منطوقه بل باعتبار موجبه ومؤداه أي لو أن قرآنا فعل بهذا كر لكان ذلك هذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ما علمه الشأن الآن لان الامر كله لله وحده فالاضراب

لله خلف على مقدر أى أغفلوا عن كون الامر جميعا لله تعالى فلم يعلموا (أن لو يشاء الله) على حذف ضمير الشأن وتخفيف أن (لهدى الناس جميعا) بظهور أمثال تلك الآثار العظيمة فالانكار متوجه الى المعطوفين جميعا أو أعلموا كون الامر جميعا لله فلم يعلموا مايوجبه ذلك العلم مما ذكر فهو متوجه الى ترتب ٢١٦ المعطوف على المعطوف عليه أى تخلف العلم الثانى عن العلم الاول وعلى التقديرين

فالمراد منه ضرب المثل كما يقول القائل لمنعم ان احسانك الى يفوق بالشكر ﴿السؤال السابع﴾ هل تدل الآية على ان الفردوس مخلوقة ﴿الجواب﴾ قال القاضى دل قوله تعالى أكلها دائم على أنها غير مخلوقة فوجب تأويل هذه الآية كأنه تعالى قال اذا كان يوم القيامة يخلق الله الجنة ميراثا للمؤمنين أو واذا خلقها نقول على سبيل مثال ما تأولنا عليه قوله تعالى ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة وهذا ضعيف لانه ليس لاضمار ماذكره فى هذه الآية أولى من ان يضمر فى قوله أكلها دائم ان أكلها دائم يوم القيامة واذا تعارض هذان الظاهران فحن نتمسك فى ان الجنة مخلوقة بقول الله تعالى أعدت للمتقين ﴿قوله تعالى﴾ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون ﴿اعلم أنه سبحانه لما أمر بالعبادات فى الآيات المتقدمة والاشتغال بعبادة الله تعالى لا يصح الا بعد معرفة الاله الخالق لاجرم عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعا ﴿النوع الاول﴾ الاستدلال بتقلب الانسان فى أدوار الخلقة وأكوان الفطرة وهى تسعة ﴿المرتبة الاولى﴾ قوله سبحانه وتعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين والسلالة الخلاصة لانها تسل من بين الكدر فعالة وهو بناء يدل على القلة كالقلامة والقمامة واختلف أهل التفسير فى الانسان فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومقاتل المراد منه آدم عليه السلام فآدم سل من الطين وخلقت ذريته من ماء مهين ثم جعلها الكناية راجعة الى الانسان الذى هو ولد آدم والانسان شامل لآدم عليه السلام ولولده وقال آخرون الانسان ههنا ولد آدم والطين ههنا اسم آدم عليه السلام والسلالة هى الاجزاء الطينية المنبوثة فى أعضائه التى لما اجتمعت وحصلت فى أوعيته المنى صارت منيا وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين وفيه وجه آخر وهو أن الانسان انما يتولد من النطفة وهى انما تتولد من فضل الهضم الرابع وذلك انما يتولد من الاغذية وهى اما حيوانية واما نباتية والحيوانية تنتهى الى النباتية والنبات انما يتولد من صفو الارض والماء فالانسان بالحقيقة يكون متولدا من سلالة من طين ثم ان تلك السلالة تعود تارة على أطوار الخلقة وأدوار الفطرة صارت منيا وهذا التأويل مطابق للفظ ولا يحتاج فيه الى التكلفات ﴿المرتبة الثانية﴾ قوله تعالى ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ومعنى جعل الانسان نطفة انه خلق حيوانا انسانا أولا طينا ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة فى أصلاب الآباء فقذفه الصلب بالجماع الى رحم المرأة فصار الرحم قرارا مكينا لهذه النطفة والمراد بالقرار موضع القرار وهو المستقر فسماه بالمصدر ثم وصف الرحم بالمكانة التى هى صفة المستقر فيها كقولك طريق سائر أو لمكانتها فى نفسها لانها تمكنت من حيث هى رأحرزت ﴿المرتبة الثالثة﴾ قوله تعالى ثم خلقنا النطفة علقة أى حولنا النطفة عن صفاتها الى صفات العلقة وهى الدم الجامد ﴿المرتبة الرابعة﴾ قوله تعالى فخلقنا العلقة مضغة أى جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أى قطعة لحم كأنها مقدار ما يمضغ كالغرفة وهى مقدار ما يتعرف وسمى التحويل خلقا لانه سبحانه يفنى بعض اعراضها ويخلق أعراضا غيرها فسمى خلقا لما كان له سبحانه وتعالى يخلق فيها أجزاء زائدة ﴿المرتبة الخامسة﴾ قوله فخلقنا المضغة عظاما أى صيرناها كذلك وقرأ ابن عامر عظاما والمراد منه الجمع كقوله والملك صفا صفا ﴿المرتبة السادسة﴾ قوله تعالى فكسونا العظام لحما وذلك لان اللحم يستر العظم فجعل كالكسوة لها ﴿المرتبة السابعة﴾ قوله تعالى ثم أنشأناه خلقا آخر أى خلقا مباينا للخلق الاول مباينة

فلم يقنطوا من ايمانهم حتى أحيو ظهور هم قرحاتهم فالانكار متوجه الى المعطوفين أو أعلموا ذلك فلم يقنطوا ما

من ايمانهم فهو متوجه الى وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه أى الى تخلف القنوط عن العلم المذكور والانكار على التقديرين انما هو الواقع كما فى قوله تعالى أفلا تتفكرون ونظائره لا انكار لوقوع ثم ان عدم قنوطهم منه مما لا مرد له وقوله تعالى لو يشاء الله الخ مستقل

محذوف أي أفلم يأسوا من إيمانهم علما منهم أو عما بين بأنه لو يشاء الله لهدى الناس جميعا وانه لم يشأ ذلك أو يأسوا أي أفلم يقنط الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا على معنى أفلم ييأس من إيمانهم المؤمنون بمضمون الشرطية وبعدم تحقق مقدمها المنفهم من مكابرتهم حسبما تحكيه كلمة لو فالوصف المذكور من دواعي انكار يأسهم وقيل ان أبا جهل ٢١٧ وأضرابه قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت نبيا فسير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا وتنخذ فيها البساتين والقطائع وقد سخرت لداود عليه السلام فلست بأهون على الله منه ان كنت نبيا كما زعمت أو سخر لنا ما يهم كما سخرت لسليمان عليه السلام لنتجر عليها إلى الشام فنقدم منها ما قطع الشقة البعيدة أو ابعث لنا بعض من مضى من آبائنا فقد كان فيهم من أبوا ثنا فقرات فنسمع منهم فنقطع الارض حينئذ قطعها بالسير ولا حاجة حينئذ إلى الاعتذار في اسناد الافاعيل المذكورة إلى القرآن كما احتيج اليه في الوجهين الاولين وعن الفراء أنه متعلق بما قبله من قوله وهم يكفرون بالرحمن وما بينهما اعتراض وهو بالحقيقة دال على الجواب والتقدير ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن والتذكير في كلم به للمرتقب لتغليب المذكر من الموتى على غيره (ولا يزال الذين كفروا) من أهل مكة (تصيبهم بما صنعوا) أي بسبب ما صنعوه من الكفر والتمادي فيه وعدم بيانه اما للقصد إليه أو اسم جنسه وهو تصريح بما أشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له مع ما في صيغة المضارع من الايذان برسوخهم فيه (قارعة) داهية تقرعهم وتقلقهم وهو ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل والاسر والنهب والسلب وتقديم المجرور

ما أيدها حيث جعله حيوانا وكان جمادا وناطقا وكان أبكم وسميعا وكان أصم وبصيرا وكان أكمه وأودع باطنه وظاهره بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين ولا شرح الشارحين وروى الوقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال هو تصريف الله اياه بعد الولادة في أطواره في زمن الطفولية وما بعده إلى استواء الشباب وخلق الفهم والعقل وما بعده إلى أن يموت ودليل هذا القول أنه عقبه بقوله ثم انكم بعد ذلك لميتون وهذا المعنى مروي أيضا عن ابن عباس وابن عمر وانما قال أنشأناه لانه جعل انشاء الروح فيه واتمام خلقه انشاء له قالوا في الآية دلالة على بطلان قول النظام في ان الانسان هو الروح لا البدن فانه سبحانه بين ان الانسان هو المركب من هذه الصفات وفيها دلالة أيضا على بطلان قول الفلاسفة الذين يقولون ان الانسان شيء لا يتقسم وانه ليس بجسم أما قوله فتبارك الله أي فتعالى الله فان البركة يرجع معناها إلى الامتداد والزيادة وكل ما زاد على الشيء فقد علاه ويجوز أن يكون المعنى والبركات والخيرات كلها من الله تعالى وقيل أصله من البروك وهو الثبات فكأنه قال والبقاء والدوام والبركات كلها منه فهو المستحق للتعظيم والثناء وقوله أحسن الخالقين أي أحسن المقدرين تقدم ذكر المبرز لدلالة الخالقين عليه وفيها مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة لولا أن غير الله تعالى قد يكون خالقا لما صح قوله اذا قدره لما جاز القول بأنه أحسن الخالقين كما لو لم يكن في عباده من يحكم ويرسم لم يجز أن يقال فيه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين والخلق في اللغة هو كل فعل وجد من فاعله مقدرا لا على سهو وغفلة والعباد قد يفعلون ذلك على هذا الوجه قال الكعبي هذه الآية وان دلت على أن العبد خالق الا أن اسم الخالق لا يطلق الا على العبد الامع القيد كما انه يجوز أن يقال رب الدار ولا يجوز أن يقال رب بلا اضافة ولا يقول العبد لسيده هو ربي ولا يقال انما قال الله تعالى ذلك لانه سبحانه وصف عيسى عليه السلام بانه يخلق من الطين كهيئة الطير فانا نجيب عنه من وجهين (أحدهما) ان ظاهر الآية يقتضي انه سبحانه أحسن الخالقين الذين هم جميع خلقه على عيسى خاصة لا يصح (الثاني) انه اذا صح وصف عيسى بانه يخلق صح وصف غيره من المصورين أيضا بأنه يخلق وأجاب أصحابنا بان هذه الآية معارضة بقول الله تعالى الله خالق كل شيء فوجب حمل هذه الآية على انه أحسن الخالقين في اعتقادكم وظنكم كقوله تعالى وهم أهون عليه أي هو أهون عليه في اعتقادكم وظنكم (والجواب الثاني) هو أن الخالق هو المقدر لان الخلق هو التقدير والآية تدل على انه سبحانه أحسن المقدرين والتقدير يرجع معناه إلى الظن والحسبان وذلك في حق الله سبحانه محال فتكون الآية من المتشابهات (والجواب الثالث) ان الآية تقتضي كون العبد خالقا بمعنى كونه مقدرا لكن لم قلت بانه خالق بمعنى كونه موجدا (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة الآية تدل على ان كل ما خلقه حسن وحكمة وصواب والا لما جاز وصفه بانه أحسن الخالقين واذا كان كذلك وجب أن لا يكون خالقا للكفر والمعصية فوجب أن يكون العبد هو موجدها (والجواب) من الناس من حمل الحسن على الاحكام والاتقان في التركيب والتأليف ثم حملناه على ما قالوه فعندنا أنه يحسن من الله تعالى كل الاشياء لانه ليس فوقه آمر ونهي حتى يكون ذلك لاجله عن فعل شيء (المسئلة الثالثة) روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما ان عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب هذه الآيات لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انتهى الى قوله تعالى خلقا آخر عجب من ذلك فقال فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب فهكذا نزلت فشك عبد الله وقال ان كان محمد صادقا فيما يقول فانه يوحى اليه وان كان كاذبا فلا خير في دينه فهرب

على الفاعل لما مر مرارا من ارادة التفسير اثر الابهام لزيادة التقرير والاحكام مع ما فيه من بيان أن مدار الاصابة من جهتهم آثر ذي أثير
(أو تحل) تلك القارعة (قريبا) أي مكانا قريبا (من دارهم) فيفزعون منها ويتطايرالهم شرارها شبهت القارعة بالعدو المتوجه اليهم
فاسند اليها الاصابة تارة والحلول ٢١٨ أخرى ففيه استعارة بالكناية وتخييل وترشيح (حتى يأتي وعد الله) أي موتهم أو القيامة

فان كلا منهما وعد محتوم لامرد له وفيه دلالة على أن مايصيبهم عند ذلك من العذاب في غاية الشدة وان ماذكر سابقة نقمة يسيرة بالنسبة اليه
ثم حقق ذلك بقوله تعالى (ان الله لايخلف الميعاد) أي الوعد كالميلاد والميثاق بمعنى الولادة والتوثقة لاستحالة ذلك
على الله سبحانه وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها وكانوا بين اغارة واختطاف وتحريق بالهجوم عليهم في دارهم فالاصابة والحلول حينئذ من أحوالهم ويجوز على هذا أن يكون قوله تعالى أو تحل قريبا من دارهم خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم مرادا به حلوله الحديبية والمراد بوعد الله ماوعده به من فتح مكة
(ولقد استهزئ برسل) كثيرة خلت (من قبلك فأمليت للذين كفروا) أي تركتهم ملاوة من الزمان في أمن ودعة كما على البهيمة في المرعى وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما لقي من المشركين من التكذيب والاقتراح على طريقة الاستهزاء به ما ووعيد لهم والمعنى ان ذلك ليس مختصا بك بل هو أمر مطرد قد فعل ذلك برسل كثيرة كائنة من قبلك فأمهلت الذين فعلوه بهم والفاء في الصلة الى وصف الكفر ليس لان المعنى انهم غير المستهزئين بل لارادة الجمع بين الوصفين أي فأمليت للذين كفروا مع استهزائهم

الى مكة فقيل انه مات على الكفر وقيل انه أسلم يوم الفتح وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا نزلت ياعمر وكان عمر يقول وافقني ربي في أربع في الصلاة خلف المقام وفي ضرب الحجاب على النسوة وقولي لهن لتنتهين أو ليبدلنه الله خيرا منكن فنزل قوله تعالى عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن والرابع قلت فتبارك الله أحسن الخالقين فقال هكذا نزلت قال العارفون هذه الواقعة كانت سبب السعادة لعمر وسبب الشقاوة لعبد الله كما قال تعالى يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا فان قيل فعلى كل الروايات قد تكلم الشيرازي ابتداء بمثل نظم القرآن وذلك يقدح في كونه معجزا كما ظنه عبد الله (والجواب) هذا غير مستبعد اذا كان قدره القدر الذي لا يظهر فيه الاعجاز فسقطت شبهة عبد الله (المرتبة الثامنة) قوله ثم انكم بعد ذلك لميتون قرأ ابن أبي عبلة وابن محيصن لمائتون والفرق بين الميت والمائت ان الميت كالحي صفة ثابتة وأما المائت فيدل على الحدوث تقول زيد ميت الآن ومائت غدا كقولك عوت ونحوهما ضيق وضائق في قوله وضائق به صدرك (المرتبة التاسعة) قوله ثم انكم يوم القيامة تبعثون فالله سبحانه جعل الاماتة التي هي اعدام الحياة والبعث الذي هو اعادة ما فقده وبعدمه دليلين أيضا على اقتدار عظيم بعد الانشاء والاختراع وهذا سؤالان (السؤال الاول) ما الحكمة في الموت وهلا وصل نعيم الآخرة وثوابها بنعيم الدنيا فيكون ذلك في الانعام أبلغ (والجواب) هذا كالمفسد في حق المكلفين لانه متى يحصل للمرء الثواب فيتحمله من المشقة في الطاعات صار انما يأتي بالطاعات لاجل تلك المنافع لا لاجل طاعة الله بين ذلك أنه قيل لمن يصلي ويصوم اذا فعلت ذلك أدخلناك الجنة في الحال فانه لا يأتي بذلك الفعل الا لطلب الجنة فاذا جوزم أخره الله تعالى وبعده بالاماتة ثم الاعادة ليكون العبد عابدا لربه بطاعته لا لطلب الانتفاع (السؤال الثاني) هذه الآية تدل على نفي عذاب القبر لانه قال ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون ولم يذكر بين الامرين الا حياء في القبر والاماتة (والجواب) من وجهين (الاول) أنه ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة (والثاني) ان الغرض من ذكر هذه الاجناس الثلاثة الانشاء والاماتة والاعادة والذي ترك ذكره فهو من جنس الاعادة (النوع الثاني) من الدلائل الاستدلال بخلقة السموات ﴿وهو قوله تعالى ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾ فقوله سبع طرائق أي سبع سموات وانما قيل لها طرائق لتطارق بعضها فوق بعض يقال طارق الرجل نعليه اذا أطبق نعلا على نعل وطارق بين ثوبين اذا لبس ثوبا فوق ثوب هذا قول الخليل والزجاج والفراء قال الزجاج هو كقوله سبع سموات طباقا وقال علي بن عيسى سميت بذلك لانها طرائق للملائكة في العروج والهبوط والطيران وقال آخرون لانها طرائق الكواكب فيها مسيرها والوجه في انعامه علينا بذلك انه تعالى جعل موضع الارزاق النازل الماء منها وجعلها مقر الملائكة ولانها موضع الثواب ولانها مكان ارسال الانبياء ونزول الوحي أما قوله تعالى وما كنا عن الخلق غافلين ففيه وجوه (أحدها) ما كنا غافلين بل كنا لهم حافظين من أن تسقط عليهم الطرائق السبع فتهلكهم وهذا قول سفيان بن عيينة وهو كقوله تعالى الله يمسك السموات والارض أن تزولا (وثانيها) انما خلقناها فوقهم لننزل عليهم الارزاق والبركات عن الحسن (وثالثها) انا خلقنا هذه الاشياء فدل خلقنا لها على كمال قدرتنا على كمال العلم بقوله وما كنا عن الخلق غافلين يعني عن أعمالهم وأقوالهم وضمائرهم وذلك يفيد نهاية الزجر (ورابعها) وما كنا عن خلق السموات غافلين بل نحن لها حافظون لئلا تخرج عن التقدير الذي أردنا كونها عليه كقوله تعالى

لا باستهزائهم فقط (ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) أي عقابي اياهم وفيه من الدلالة على تناهي كيفيته في الشدة والفظاعة ما لا يخفى (أفمن هو قائم) أي رقيب مهيمن (على كل نفس) كائنة من كانت (بما كسبت) من خير أو شر لا يخفى عليه شيء من ذلك بل يجازي كلا بعمله وهو الله تعالى والخبر محذوف أي كمن ليس كذلك انكار الدلك وادخال الفاء ٢١٩ لتوجيه الانكار الى توهم المماثلة غب

ما علم مما فصل لله تعالى بالمستهزئين من الاملاء المديد والاخذ الشديد ومن كون الامر كله لله تعالى وكون هداية الناس جميعا منوطة بمشيئته تعالى ومن توافر القوارع على الكفرة الى أن يأتي وعد الله كأنه قيل ألا فاركدلك فمن هذا شأنه كما ليس في عداد الاشياء حتى تشركوه به فالانكار متوجه الى ترتب المعطوف أعني توهم المماثلة على المعطوف عليه المقدر أعني كون الامر كما ذكر كما في قولك أتعلم الحق فلا تعمل به لا الى المعطوف بين جميعا كما اذا قلت ألا تقبله فلا تعمل به وقوله تعالى (وجعلوا لله شركاء) جملة مستقلة جيء بها للدلالة على الخبر أو حالية أي أفمن هذه صفاته كما ليس كذلك وقد جعلوا له شركاء لا شريكا واحدا أو معطوفة على الخبران قدر ما يصلح لذلك أي أفمن هذا شأنه لم يوحدوه وجعلوا له شركاء ووضع المظهر موضع المضمر للتنصيص على وحدانيته ذاتا واسما وللتنبيه على

ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت * واعلم أن هذه الآية دالة على كثير من المسائل (احداها) انها دالة على وجود الصانع وان انقلاب هذه الاجسام من صفة الى صفة أخرى تضاد الاولى مع امكان بقائها على تلك الصفة يدل على انه لابد من محول ومغير (وثانيتها) أنها تدل على فساد القول بالطبيعة فان شيأ من تلك الصفات لو حصل بالطبيعة لوجب بقاؤها وعدم تغيرها ولو قلنا انما تغيرت تلك الصفات لتغير تلك الطبيعة افتقرت تلك الطبيعة الى خالق وموجد (وثالثتها) تدل على ان المدبر قادر عالم لان الموجب والجاهل لا يصدر عنه هذه الافعال العجيبة (ورابعتها) تدل على انه عالم بكل المعلومات قادر على كل الممكنات (وخامستها) تدل على جواز الحشر والنشر نظرا الى صريح الآية ونظرا الى أن الفاعل لما كان قادرا على كل الممكنات وعالما بكل المعلومات وجب أن يكون قادرا على اعادة التركيب الى تلك الاجزاء كما كانت (وسادستها) ان معرفة الله تعالى يجب أن تكون استدلالية لا تقليدية والا لكان ذكر هذه الدلائل عبثا (النوع الثالث) الاستدلال بنزول الامطار وكيفية تأثيراتها في النبات ﴿ قوله تعالى ﴾ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الارض وانا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ﴾ اعلم أن الماء في نفسه نعمة وانه مع ذلك سبب لحصول النعم فلاجرم ذكره الله تعالى أولا ثم ذكر ما يحصل به من النعم ثانيا أما قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء بقدر فقد اختلفوا في السماء فقال الاكثرون من المفسرين انه تعالى ينزل الماء في الحقيقة من السماء وهو الظاهر من اللفظ ويؤكده قوله وفي السماء رزقكم وما توعدون وقال بعضهم المراد السحاب وسماه سماء لعلوه والمعنى ان الله تعالى أصعد الاجزاء المائية من قعر الارض الى البخار ومن البخار الى السماء حتى صارت عذبة صافية بسبب ذلك التصعيد ثم ان تلك الذرات تأتلف وتتكون ثم ينزلها الله تعالى على قدر الحاجة اليه ولو لا ذلك لم ينتفع بتلك المياه لتفرقها في قعر الارض ولاعماء البخار لملوحته ولانه لا سبيل في اجراء مياه البحار على وجه الارض لان البحار هي القابلة في العمق واعلم أن هذه الوجوه انما يحسن حملها من ينكر الفاعل المختار فاما من أقر به فلا حاجة به الى شيء منها أما قوله تعالى بقدر فسنعيد ما يتعلق به بقدر ريستلزم معه من المضرة ويحصلون الى المنفعة في الزرع والغرس والشرب أو بمقدار ما علمنا من حاجاتهم ومصالحهم أما قوله فأسكناه في الارض قيل معناه جعلناه ثابتا في الارض قال ابن عباس رضي الله عنهما أنزل الله تعالى من الجنة خمسة أنهار سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل ثم رفعها عند خروج يأجوج ومأجوج ويرفع أيضا القرآن أما قوله وانا على ذهاب به لقادرون أي كما قدرنا على انزاله فكذلك نقدر على رفعه وازالته قال صاحب الكشاف وقوله على ذهاب به من أوقع النكرات وأوحاها للفضل والمعنى على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه وفيه انذار بكمال اقتدار المذهب وانه لا يعسر عليه شيء وهو أبلغ في الايعاد من قوله قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ثم انه سبحانه لما منه على عظيم نعمته بخلق الماء ذكر بعده النعم الحاصلة من الماء فقال فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب واعاد ذكر تعالى النخيل والاعناب لكثرة منافعهما فانهما يقومان مقام الطعام ومقام الادام ومقام الفواكه رطبا ويابسا وقوله لكم فيها فواكه كثيرة أي في الجنات فتكلما أن فيها النخيل والاعناب ففيها فواكه كثيرة وقوله ومنها تأكلون قال صاحب الكشاف يجوز أن يكون هذا من قولهم فلان يأكل من حرفة يتعرفها ومن صنعة يعالجها يعنون انها طعمته وجهته التي منها تحصل رزقه كأنه قال وهذه الجنات جعلت أرزاقكم ومعايشكم منها تعيشون أما قوله تعالى وشجرة تخرج من طور سيناء فهو عطف على جنات

تعاضده باستحقاق العبادة مع ما فيه من البيان بعد الابهام بايراده موصولا للدلالة على التفخيم وقوله تعالى (قل سموهم) تبكيت لهم تبكيت أي سموهم من هم وعادا أسماؤهم أوصافهم وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة (أم تنبئونه) أي بل أتنبئون الله (بما لا يعلم في الارض) أي بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم الله تعالى ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والارض وقرئ

بالتخفيف (أم بظاهر من القول) أي بل أتسمونهم بشركاء بظاهر من القول من غير أن يكون له معنى وحقيقة كتسمية الزنجي كافورا كقوله تعالى ذلك قولهم بافواههم وهاتيك الاساليب البديعة التي ورد علم الآية الكريمة منادية على أنها اخبار جاءت عن قدرة البشر من كلام خلاق القوى والقدر فتبارك الله رب العالمين ٢٢٠ (بل زين للذين كفروا) وضع الموصول موضع المضمر ذما لهم وتسجيلا عليهم بالكفر (مكرهم) تمويههم الاباطيل أو كيدهم للاسلام بشركهم (وصدوا عن السبيل) أي سبيل الحق من صده صدا وقرئ بكسر الصاد على نقل حركة الدال اليها وقرئ بفتحها أي صدوا الناس أو من صد صدودا (ومن يضلل الله) أي يخلق فيه الضلال بسوء اختياره أو يخذله (فما له من هاد) يوفقه للهدى (لهم عذاب) شاق (في الحياة الدنيا) بالقتل والاسر وسائر ما يصيبهم من المصائب فانها انما تصيبهم عقوبة على كفرهم (ولعذاب الآخرة أشق) من ذلك بالشدة والمدة (وما لهم من الله) من عذابه المذكور (من واق) من حافظ يعصمهم من ذلك فمن الاولى صلة للوقاية والثانية مزيدة للتأكيد (مثل الجنة) أي صفتها العجيبة الشأن التي في الغرابة كالمثل (التي وعد المتقون) عن الكفر والمعاصي وهذا مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه أي فيما قصصنا عليك مثل الجنة وقوله تعالى (تجري من تحتها الانهار) تفسير لذلك المثل على انه حال من الضمير المحذوف من الصلة لعائد الى الجنة أي وعدها واما وهو انظير عند غيره كقولك شأن زيد يأتيه الناس ويعظمونه أو على حذف موصوف أي مثل الجنة جنة تجري الخ (أكلها) ثمرها (دائم) لا ينقطع (وظلها) أيضا كذلك لانتفاء الشمس كما تقدم ظلال الدنيا (تلك) الجنة الموعودة بعد ذكر (عقبى الذين اتقوا) الكفر والمعاصي متقاضي

وقرئت مرفوعة على الابتداء أي ومما أنشأنا لكم شجرة قال صاحب الكشاف طور سيناء وطور سينين لا يخلوا اما أن يضاف فيه الطور الى بقعة اسمها سيناء وسينون واما أن يكون اسما للجبل مركبا من مضاف ومضاف اليه كامرئ القيس وبعلبك فيمن أضاف فمن كسر سينين منعه الصرف للتعريف والعجمة أو التأنيث لانها بقعة وفعلاء لا يكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء ومن فتح لم يصرفه لان ألفه للتأنيث كحمراء وقيل هو جبل فلسطين وقيل بين مصر وأيلة ومنه نودي موسى عليه السلام وقرأ الاعمش سيناء على القصر أما قوله تعالى تنبت بالدهن فهو في موضع الحال أي تنبت وفيها الدهن كما يقال ركب الامير بجنده أي ومعه الجند وقرئ تنبت وفيه وجهان (أحدهما) ان أنبت بمعنى نبت قال زهير

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم * قطينا لهم حتى اذا أنبت البقل

(والثاني) ان مفعوله محذوف أي تنبت زيتونها وفيه الزيت قال المفسرون وانما أضافها الله تعالى الى هذا الجبل لان منها نشأت في البلاد وانتشرت ولان معظمها هناك أما قوله وصبغ للآكلين فمعطوف على الدهن أي ادام للآكلين والصبغ والمصباغ ما يصطبغ به أي يصبغ به الخبز وجملة القول انه سبحانه وتعالى نبه على احسانه بهذه الشجرة لانها تخرج هذه الثمرة التي يكثر بها الانتفاع وهي طرية ومدخرة وبأن تعصر فيظهر الزيت منها ويعظم وجوه الانتفاع به ﴿النوع الرابع﴾ الاستدلال بأحوال الحيوانات ﴿ قوله تعالى ﴿وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر ان فيها عبرة مجملا ثم أردفه بالتفصيل من أربعة أوجه (أحدها) قوله نسقيكم مما في بطونها والمراد منه جميع وجوه الانتفاع بألبانها وهو وجه الاعتبار فيه انها تجتمع في الضروع وتتخلص من بين الفرث والدم باذن الله تعالى فتستحيل الى طهارة والى لون وطعم موافق للشهوة وتصير غذاء في استدلال بذلك على قدرة الله وحكمته كان ذلك معدودا في النعم الدينية ومن انتفع به فهو في نعمة الدنيا وأيضا فهذه الالبان التي تخرج من بطونها الى ضروعها تجدها شاما طيبا اذا ذبحتها لم تجد لها أثرا وذلك يدل على عظيم قدرة الله تعالى قال صاحب الكشاف وقرئ نسقيكم بناء مفتوحة أي نسقيكم الانعام (وثانيها) قوله ولكم فيها منافع كثيرة ذلك بيعها والانتفاع بأثمانها وما يجري مجرى ذلك (وثالثها) قوله ومنها تأكلون يعني كما تنتفعون بها وهي حية تنتفعون بها بعد الذبح أيضا بالاكل (ورابعها) قوله وعليها وعلى الفلك تحملون لان وجه الانتفاع بالابل في المحمولات على البر بمنزلة الانتفاع بالفلك في البحر ولذلك جمع بين الوجهين في انعامه لكي يشكر على ذلك ويستدل به واعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين دلائل التوحيد أردفها بالقصص كما هو العادة في سائر السور وهي ههنا ﴿القصة الاولى﴾ قصة نوح عليه السلام ﴿ قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين ان هو الا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين﴾ قال قوم ارادهم نوحا كان اسمه يشكر ثم سمي نوحا لوجوه (أحدها) انه كثر ما ناح على نفسه حين دعا على قومه بالهلاك فأهلكهم بالطوفان فندم على ذلك (وثانيها) لما رجعت به في شأن ابنه (وثالثها) انه مر بكلب مجدوم فقال له اخسأ يا قبيح فعوتب على ذلك فقال الله أعيبتني اذ خلقته أم عبت الكلب وهذه الوجوه متكلفة لما ثبت أن الانعام لا تقدم صفة في المسمى أما قوله اعبدوا الله فالمعنى انه سبحانه أمره بالدعاء الى عبادة الله تعالى له وحده ولا يجوز أن يدعوهم الى ذلك الا وقد دعاهم الى معرفته أولا لان عبادة من لا يكون معلوما غير جائزة

ما لهم ومنتهى أمرهم (وعقبى الكافرين النار) لا غير وفيه مالا يخفى من اطماع المتقين واقناط الكافرين (والذين آتيناهم الكتاب) هم المسلمون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة (يفرحون بما أنزل اليك) اذ هو الكتاب الموعود في التوراة والانجيل

(ومن الاحزاب) أي من أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة نحو كعب بن الاشرف والسيد والعاقب أسقف نجران وأتباعهما (من ينكر بعضه) وهو الشرائع الحادثة انشاء أو نسخا لما يوافق ما حرفوه والذي عليهم من أول الامر أن مدار ذلك انما هو جنايات أيديهم وأما ما يوافق كتبهم فلم ينكروه وان لم يفرحوا به وقيل يجوز أن يراد بالموصول الاول عامتهم فانهم أيضا يفرحون به لكونه مصدقا لكتبهم في الجملة فحينئذ يكون قوله تعالى ومن الاحزاب الخ تتمة بمنزلة أن يقال ومنهم من ينكر بعضه (قل) الزاما لهم وورد الانكار هم (انما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) أي شيأ من الاشياء أولا أفعل الاشراك به والمراد قصر الامر بالعبادة على الله تعالى لا قصر الامر مطلقا على عبادته تعالى خاصة أي قل لهم انما أمرت كقوله تعالى قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيأ فما لكم تشركون به عزيرا والمسيح وقرئ ولا أشرك به بالرفع على الاستئناف أي وأنا لا أشرك به (اليه) الى الله تعالى خاصة على النهج المذكور من التوحيد أوالى ما أمرت به من التوحيد (أدعو)

وانما يجوز ويجب بعد المعرفة أما قوله ما لكم من اله غيره فالمراد أن عبادة غير الله لا تجوز اذ لا اله سواه ومن حق العبادة أن تحسن لمن أتم بالخلق والاحياء وما بعده مما فاذا لم يصح ذلك لاحد فكيف يعبد ما لا يضر ولا ينفع وقرئ غيره بالرفع على المحل وبالجر على اللفظ ثم انه لما سفع فيهم هذا الدعاء واستمروا على عبادة غير الله تعالى حذرهم بقوله أفلا تتقون لان ذلك جر وعيد بانتفاء التقوى لينصرفوا عما هم عليه ثم انه سبحانه حكى عنهم شبههم في انكار نبوة نوح عليه السلام (الشبهة الاولى) قولهم ما هذا الا بشر مثلكم وهذه الشبهة تحتمل وجهين (أحدهما) أن يقال انه لما كان مساويا لسائر الناس في القوة والفهم والعلم والغنى والفقر والصحة والمرض امتنع كونه رسولا لان الرسول لابد أن يكون عظيما عند الله تعالى وحبيبا له والحبيب لابد وأن يختص عن غيره بمزيد الدرجة والمزية فلما فقدت هذه الاشياء علمنا انتفاء الرسالة (والثاني) أن يقال هذا الانسان مشارك لكم في جميع الامور ولكنه أحب الرياسة والمتبوعية فلم يجد الها سبيلا الا بادعاء النبوة فصار ذلك شبهة لهم في القدح في نبوته فهذا الاحتمال متأكد بقوله تعالى خبرا عنهم يريد أن يتفضل عليكم أي يريد أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم كقوله تعالى وتكون لكما الكبرياء في الأرض (الشبهة الثانية) قولهم ولو شاء الله لانزل ملائكة وشرحه أن الله تعالى لو شاء ارشاد البشر لوجب أن يسلك الطريق الذي يكون أشد افضاء الى المقصود ومعلوم أن بعثة الملائكة أشد افضاء الى هذا المقصود من بعثة البشر لان الملائكة لعلو شأنهم وشدة سطوتهم وكثرة علومهم قد لا يتقادون اليهم ولا يشكون في رسالتهم فلما لم يفعل ذلك علمنا انه ما أرسل رسولا البتة (الشبهة الثالثة) قولهم ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين وقوله بهذا اشارة الى نوح عليه السلام أو الى ما كلهم به من الحث على عبادة الله تعالى أي ما سمعنا بمثل هذا الكلام أو بمثل هذا الذي يدعي وهو بشر أنه رسول الله وشرح هذه الشبهة انهم كانوا أقواما لا يعولون في شيء من مذاهبهم الا على التقليد والرجوع الى قول الآباء فلما لم يجدوا في نبوة نوح عليه السلام هذه الطريقة حكموا بفساد ما قال القاضي يحتمل أن يريد وابذلك كونه رسولا معصوما لانه لا يمتنع فيما تقدم من زمان آبائهم أنه كان زمان فترة ويحتمل أن يريد وابذلك دعاءهم الى عبادة الله تعالى وحده لان آباءهم كانوا على عبادة الاوثان (الشبهة الرابعة) قولهم ان هو الا رجل به جنة والجنة الجنون أو لجن فان جهال العوام يقولون في المجنون زال عقله بعمل الجن وهذه الشبهة من باب التمويه على العوام فانه عليه الصلاة والسلام كان يفعل أفعالا على خلاف عاداتهم فأولئك الرؤساء كانوا يقولون للعوام انه مجنون ومن كان مجنونا فكيف يجوز أن يكون رسولا (الشبهة الخامسة) قولهم فتربصوا به حتى حين وهذا يحتمل أن يكون متعلقا بما قبله أي انه مجنون فاصبروا الى زمان ما يظهر عاقبة أمره فان أفاق والا قتلتموه ويحتمل أن تكون كلاما مستأنفا وهو أن يقولوا لقومهم اصبروا فانه ان كان نبيا حقا فالله ينصره ويقوي أمره فحين حينئذ تتبعه وان كان كاذبا فالله يخذله ويبطل أمره فحينئذ تستريح منه فهذه مجموع الشبه التي حكاها الله تعالى عنهم واعلم أنه سبحانه ما ذكر الجواب عنها لركاكتها ووضوح فسادها وذلك لان كل عاقل يعلم ان الرسول لا يصير رسولا الا لانه من جنس الملك وانما يجب بركذلك بان يتميز من غيره بالمعجزات فسواء كان من جنس الملك أو من جنس البشر فعند ظهور المعجز عليه يجب أن يكون رسولا بل لو أرسل الرسول من جملة البشر أولى لما مر بيانه في السور المتقدمة وهو أن الجنسية مظنة الالفة والمؤانسة وأما تفضلهم يريد أن يتفضل عليكم فان أراد وا به ارادته لاظهار فضله حتى يلزمهم الانقياد لطاعته فهذا واجب على الرسول وان أراد وا به أن يرتفع عليهم على سبيل التجبر والتكبر والانقياد فالانبياء منزهون عن ذلك

(أنزل الي) بعبادة الله وتوحيده موظاهر أن لا سبيل لكم الى انكاره لاطباق جميع الانبياء والكتب على ذلك (الكتاب) فعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيأ فما لكم تشركون به عزيرا والمسيح وقرئ ولا أشرك به بالرفع على الاستئناف أي وأنا لا أشرك به (اليه) الى الله تعالى خاصة على النهج المذكور من التوحيد أوالى ما أمرت به من التوحيد (أدعو)

الناس لا الى غيره أولا الى شئ آخر مما لم يطبق عليه الكتب الالهية والانبياء عليهم الصلاة والسلام فما وجه انكاركم (واليه) الى الله تعالى وحده (مآب) مرجعي للجزاء وحيث كانت هذه الحجة الباهرة لازمة لهم لا يجدون عنها محيصا أمر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبهم بذلك الزاما وتبكيتا لهم ثم شرع في رد انكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداء أو بدلا من الشرائع المنسوخة ببيان الحكمة

وأما قولهم ما سمعنا بهذا فهو استدلال بعدم التقليد على عدم وجود الشئ وهو في غاية السقوط لان وجود التقليد لا يدل على وجود الشئ فعدمه من أين يدل على عدمه وأما قولهم به جنة فقد كذبوا انهم كانوا يعلمون بالضرورة كمال عقله وأما قولهم فتر بعد نبوته فضعيف لانه ان ظهرت الدلالة على نبوته وهي المعجزة وجب عليهم قبول قوله في الحال ولا يجوز توقيف ذلك الى ظهور دولته لان الدولة لا تدل على الحقية وان لم يظهر المعجز لم يجز قبول قوله سواء ظهرت الدولة أولم تظهر ولما كانت هذه الاجوبة في نهاية الظهور لا جرم تركها الله سبحانه ﴿ قوله تعالى ﴾ (قال رب انصرني بما كذبون فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فاذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ان في ذلك لآيات وان كنا لمبتلين) أما قوله رب انصرني بما كذبون ففيه وجوه (أحدها) ان في نصره أهلاكهم فكأنه قال أهلكهم بسبب تكذيبهم اياي (وثانيها) انصرني بدل ما كذبوني كما تقول هذه بذاك أي بدل ذاك وعكانه والمعنى أبدلني من غم تكذيبهم سلوة النصر عليهم (وثالثها) انصرني بانجاز ما وعدتهم من العذاب وهو ما كذبوه فيه حين قال لهم اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ولما أجاب الله دعاءه قال فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا أي بحفظنا وكلائتنا كأن معه من الله حافظا يكلؤه بعينه لئلا يتعرض له ولا يفسد عليه مفسد عليه ومنه قولهم عليه من الله عين كالئة وهذه الآية دالة على فساد قول المشبهة في تمسكهم بقوله عليه السلام ان الله خلق آدم على صورته لان ثبوت الاعين يمنع من ذلك واختلفوا في أنه عليه السلام كيف صنع الفلك فقيل انه كان نجارا وكان عالما بكيفية اتخاذها وقيل ان جبريل عليه السلام علمه عمل السفينة ووصف له كيفية اتخاذها وهذا هو الاقرب لقوله بأعيننا ووحينا أما قوله فاذا جاء أمرنا فاعلم أن لفظ الامر كما هو حقيقة في طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء فكذا هو حقيقة في الشأن العظيم والدليل عليه انك اذا قلت هذا أمر يبقى الذهن يتردد بين المفهومين وذلك يدل على كونه حقيقة فيهما وقد تقدم تقريره مرة كرة في كتاب المحصول في الاصول ومن الناس من قال انما سماه أمرا على سبيل التعظيم والتفخيم مثل قوله فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها أما قوله وفار التنور فاختلفوا في التنور فالاكثرون على أنه هو التنور المعروف روى انه قيل لنوح اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك في السفينة فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب وقيل كان تنورا دم وكان من حجارة فصار الى نوح واختلف في مكانه فمن الشعبي في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان نوح عليه السلام عمل السفينة في وسط المسجد وقيل بالشام موضع يقال له عين وردة وقيل بالهند (والقول الثاني) أن التنور وجه الارض عن ابن عباس رضي الله عنهما (والثالث) انه أشرف موضع في الارض أي أعلاه عن قتادة (والرابع) وفار التنور أي طلع الفجر عن علي عليه السلام وقيل ان فوران التنور كان عند طلوع الفجر (والخامس) هو مثل قولهم حمي الوطيس (والسادس) انه الموضع المنخفض من السفينة الذي يسيل الماء اليه عن الحسن رحمه الله والقول الاول هو الصواب لان العدول عن الحقيقة الى المجاز من غير دليل لا يجوز واعلم أن الله تعالى جعل فوران التنور علامة لنوح عليه السلام حتى يركب عنده السفينة طلبا للنجاة ونجاة من معه من قوله أما قوله فاسلك فيها أي ادخل فيها يقال سلك فيه أي دخل فيه وسلك غيره وأسلكه من كل زوجين اثنين أي من كل زوج من الحيوان الذي يحضره في الوقت اثنين الذكر والانثى لكي لا ينقطع

في ذلك فقيل (وكذلك أنزلناه) أي ما أنزل اليك وذلك اشارة الى مصدر أنزلناه أو أنزل اليك ومحله النصب على المصدرية أي مثل ذلك الانزال البديع المنتظم لاصول مجمع عليها وفروع مختلفة حسبما تقتضيه قضية الحكمة والمصلحة أنزلناه (حكما) حاكما يحكم في القضايا والوقعات بالحق أو يحكم به كذلك والتعرض لذلك العنوان مع أن بعثه ليس بحكم ترتيبه وجوب مراعاته وختم المحافظة عليه (عربيا) مترجما بلسان العرب والتعرض لذلك للاشارة الى أن ذلك احدى مواد المخالفة للكتب السابقة مع أن ذلك مقتضى الحكمة اذ بذلك يسهل فهمه وادراك اعجازه والاقتصار على اشتمال الانزال على أصول الديانات المجمع عليها حسبما يفيده قوله تعالى قل انما أمرت أن أعبد الله الخ بأباه التعرض لاتباع أهوائهم وحديث المحو والاثبات وان لكل أجل كتاب فان المجمع عليه لا يتصور فيه الاستماع والاتباع (ولئن اتبعت أهواءهم) التي يدعونك اليها من نسل تقرير الامور المخالفة لما أنزل اليك من الحق كما صلاة الى بيت المقدس بعد التحويل (بعد ما جاءك من العلم) العظيم الشأن الفائض ذلك الحكم العربي أو العلم بحضوره (ما لك من الله) من جنابه العزيز والالتفات من التكلم الى الغيبة وايراد الاسم الجليل للتهويل ما له

قال الازهري لا يكون الله حتى يكون معبودا وحتى يكون خالقا ورازقا ومدبرا (من ولى) لي أمرك وينصرك على من يبغيك الغوائل (ولا واق) يقيك من مصارع السوء وحيث لم يستلزم نفي الناصر على العدو نفي الواقي من تكايته أدخل على المعطوف حرف النفي للتأكيد كقولك مالي دينار ولا درهم أو مالك من بأس الله من ناصر وواق لاتباعك أهواءهم ٢٢٣ وأمثال هاتيك القوارع انما هي لقطع أطماع الكفرة وتشجيع المؤمنين على الشهات في الدين واللام في الثن موطئة ومالك سادمسد جوابي الشرط والقسم (ولقد أرسلنا رسلا) كثيرة كائنة (من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) نساء وأولادا كما جعلناها لك وهو رد لما كانوا يعيبونه صلى الله عليه وسلم بالزواج والولد كما كانوا يقولون مال هذا الرسول يأكل الطعام الخ (وما كان لرسول) منهم أي ماصح وما استقام ولم يمكن في وسعه (أن يأتي بآية) مما اقترح عليه وحكم مما لم يقترح منه (الا باذن الله) ومشيئته المبنية على الحكم والمصالح التي عليها يدور أمر الكائنات لاسيما مثل هذه الامور العظام والا لتفاقت لما قلمناه ولتحقيق مضمون الجملة بالاعناء الى العلة (لكل أجل) أي لكل مدة ووقت من المدد والاوقات (كتاب) حكم معين يكتب على العباد حسبما تقتضيه الحكمة فان الشرائع كلها لاصلاح أحوالهم

نسل ذلك الحيوان وكل واحد منهما زوج لا كما تقوله العامة من أن الزوج هو الاثنان روى انه لم يحمل الاما يلد ويبيض وقرئ من كل بالتنوين أي من كل أمة زوجين واثنين تأكيد وزيادة بيان أما قوله وأهلك الا من سبق عليه القول منهم أي وأدخل أهلك وافظ على أنها يستعمل في المضار قال تعالى لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت واعلم أن هذه الآية تدل على أمرين (أحدهما) انه سبحانه أمره بادخال سائر من آمن به وان لم يكن من أهله وقيل المراد بأهله من آمن دون من يتصل به نسبا أو سببا وهذا ضعيف والا لما جاز استثناء قوله الا من سبق عليه القول (والثاني) انه قال ولا تخاطبني في الذين ظلموا يعني كنعان فانه سبحانه لما أخبر بأهلاكهم وجب أن ينهاه عن أن يسأله في بعضهم لانه ان أجابه اليه فقد صار خبره الصدق كذبا وان لم يجبه اليه كان ذلك تغيير الشأن نوح عليه السلام فلذلك قال انهم مغرقون أي الغرق نازل بهم لامحالة أما قوله فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك قال ابن عباس رضي الله عنهما كان في السفينة ثمانون انسانا نوح وامرأته سوى التي غرقت وثلاثة بنين سام وحام ويافث وثلاث نسوة لهم واثنان وسبعون انسانا فكل الخلائق نسل من كان في السفينة أما قوله فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انما قال فقل ولم يقل فقولوا لان نوحا كان نبيا لهم وأما ما لهم فكان قوله قولا لهم مع ما فيه من الاشعار بفضل النبوة واظهار كبرياء الربوبية وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى اليها الا ملك أو نبي (المسئلة الثانية) قال قتادة علمكم الله أن تقولوا عند ركوب السفينة بسم الله مجراها ومرساها وعند ركوب الدابة سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وعند النزول وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين قال الانصاري وقال لنبينا وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق وقال اذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم كأنه سبحانه أمرهم أن لا يكونوا عن ذكره وعن الاستعاذة به في جميع أحوالهم غافلين (المسئلة الثالثة) هذا مبالغة عظيمة في تقبيح صورتهم حيث أتبع النهي عن الدعاء لهم الامر باحمد على اهلاكهم ومنهم كقوله تعالى فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين وانما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق لانه سبحانه كان عبرة انه بذلك يجعله ومن تبعه فيصح أن يقول نجانا من حيث جعله آمنا جهذا الفعل ووصف قومه بأنهم الظالمون لان الكفر منهم ظلم لانفسهم لقوله ان الشرك لظلم عظيم ثم انه سبحانه بعد أن أمره بالحمد على اهلاكهم أمره بأن يدعو لنفسه فقال وقل رب أنزلني منزلا مباركا وقرئ منزلا يعني انزالا أو موضع انزال كقوله ليدخلنهم مدخلا يرضونه واختلفوا في المنزل على قولين (أحدهما) ان المراد ونفس السفينة فان ركبها خلصته مما جرى على قومه من الهلاك (والثاني) ان المراد أن ينزله الله بعد خروجه من السفينة من الارض منزلا مباركا والاول أقرب لانه أمر بهذا الدعاء في حال استقراره في السفينة فيجب أن يكون المنزل ذلك دون غيره ثم بين سبحانه بقوله وأنت خير المنزلين ان الانزال في الامكنة قد يقع من غير الله كما يقع من الله تعالى وان كان هو سبحانه خير من أنزل لانه يحفظ من أنزله في سائر أحواله ويدفع عنه المكاره بحسب ما يقتضيه الحكم الحكمة ثم بين سبحانه ان فيما ذكر من قصة نوح وقومه لآيات ودلالات وعبرا في الدعاء الى الايمان والزجر عن الكفر فان اظهار تلك المياه العظيمة ثم الاذهاب بها لا يقدر عليه الا القادر على كل المقدورات وظهور تلك الواقعة على وفق قول نوح عليه السلام يدل على المعجز العظيم وافناء الكفار وبقاء الارض أهل الدين والطاعة من أعظم أنواع العبر أما قوله وان كنا لمبتلين فيمكن أن يكون المراد وان كنا لمبتلين بما قبل ويحتمل أن يكون وان كنا لمبتلين فيما بعد وهذا هو الاغرب لانه كالحقيقة في الاستقبال واذا حمل

المدد والمعاد ومن قضية ذلك انه يختلف حسب اختلاف أحوالهم المتغيرة حسب تغير الاوقات كاختلاف العلاج حسب اختلاف العلل المرضى بحسب الاوقات (يمحو الله ما يشاء) أي ينسخ ما يشاء نسخه من الاحكام لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت (ويثبت) بدله ما يشاء المصلحة أو يبقيه على حاله غير منسوخ أو يثبت ما شاء اثباته مطلقا أعم منها ومن الانشاء ابتداء أو يمحو من ديوان الحفظة الذين

ديدنهم كتب كل قول وعمل مالا يتعلق به الجزاء ويثبت الباقي أو يمحو سيآت التائب ويثبت مكانها الحسنة أو يمحو قرنا ويثبت آخرين أو يمحو الفاسدات من العلم الجسماني ويثبت الكائنات أو يمحو الرزق ويزيد فيه أو يمحو الأجل أو السعادة والشقاوة وبه قال ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهم والقائلون به يقتضرعون الى الله تعالى ان يجعلهم سعداء وهذا رواه جابر عن النبي عليه الصلاة والسلام والانسب تعميم كل من المحو والاثبات ليشمل الكل ويدخل في ذلك مواد الانكار دخولا أوليا وقرئ بالتشديد (وعنده أم الكتاب) أي أصله وهو اللوح المحفوظ اذ ما من شئ من الذاهب والثابت الا وهو مكتوب فيه كما هو (وان ما نرينك) أصله ان نرك وما مزيدة فالتأكيد معنى الشرط ومن ثمة ألحقت النون بالفعل (بعض الذي نعدهم) أي وعدناهم من انزال العذاب عليهم والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية أو نديمهم وعد اعتدادا جمعا تقتضيه الحكمة من انذار غب انذار وفي ايراد البعض رمز الى ارادة بعض الموعود (أو نتوفينك) قبل ذلك (فانما عليك البلاغ) أي تبليغ أحكام الرسالة بتمامها لا تحقيق مضمون ما بلغته من الوعيد الذي هو من جملتها (وعلينا) لا عليك (الحساب) محاسبة أعمالهم السيئة والمؤاخذة بها أي كيفما دارت

على ذلك احتمل وجوها (أحدها) أن يكون المراد المكافين في المستقبل أي فيجب فيمن كلفناه أن يعتبر بهذا الذي ذكرناه (وثانيها) أن يكون المراد لما قبلين لمن سلك في تكذيب الانبياء مثل طريقة قوم نوح (وثالثها) أن يكون المراد كانما قبلين من كذب بالغرق وغيره فقد تخقن بالغرق من لم يكذب على وجه المصلحة لا على وجه التعذيب لكي لا يقدر ان كل الغرق يجري على وجه واحد (القصة الثانية) قصة هود أرصالح عليهما السلام ﴿قوله تعالى ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من الله غيره أفلا تتقون وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحيوة الدنيا ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما نحن بمبعوثين ان هو الا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين قال رب انصرني بما كذبون قال عما قليل ليصبحن نادمين فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين﴾ اعلم أن هذه القصة هي قصة هود عليه السلام في قول ابن عباس رضي الله عنهما واكثر المفسرين واحتجوا عليه بحكاية الله تعالى قول هود عليه السلام واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ويحيى قصة هود عقيب قصة نوح في سورة الاعراف وسورة هود والشعراء وقال بعضهم المراد بهم صالح وثمود لأن قومه الذين كذبوه هم الذين هلكوا بالصيحة اما كيفية الدعوى فكما تقدم في قصة نوح عليه السلام وههنا سؤالات (السؤال الاول) حق أرسل أن يتعدى بالى كما خوانه التي هي وجه وأنفذ وبعث فلم عدى في القرآن بالى تارة وبفي أخرى كقوله تعالى كذلك أرسلناك في أمة وما أرسلنا في قرية فأرسلنا فيهم رسولا أي في عادوفي موضع آخر والى عاد أخاهم هودا (الجواب) لم يعد بفي كما عدى بالى ولكن الامة أو القرية حملت موضعا للارسال وعلى هذا المعنى جاء بعث في قوله ولقد بعثنا في كل قرية رسولا ﴿السؤال الثاني﴾ هل يصح ما قاله بعضهم ان قوله أفلا تتقون غير موصول بالاول وانما قاله لهم بعد أن كذبوه ورد واعلية بعد اقامة الحجة عليهم فمند ذلك قال لهم مخوفا عما هم عليه أفلا تتقون هذه الطريقة مخافة العذاب الذي أنذركم به (الجواب) يجوز أن يكون موصولا بالكلام الاول بأن رآهم معرضين عن عبادة الله مشتغلين بعبادة الاوثان قد عاهم الى عبادة الله وحذرهم من العقاب بسبب اقبالهم على عبادة الاوثان ثم اعلم أن الله تعالى حكى صفات أولئك القوم ثم حكى كلامهم أما الصفات فثلاثة هي شر الصفات (أولها) الكفر بالخالق سبحانه وهو المراد من قوله كفروا (وثانيها) الكفر يوم القيامة وهو المراد من قوله وكذبوا بلقاء الآخرة (وثالثها) الانغماس في حب الدنيا وشهواتها وهو المراد من قوله وأترفناهم في الحياة الدنيا أي نعمناهم فان قيل ذكر الله مقالة قوم هود في جوابه في سورة الاعراف وسورة هود بغير واو وقال الملأ الذين كفروا من قومه بالواو فما الفرق قلنا الذي يغير واو على تقدير سؤال سائل قال فما قال قومه فقيل له كيت وكيت ثم وأما الذي مع الواو فعطف لما قالوه على ما قالوه ومعناه انه اجتمع في هذه الواقعة هذا الكلام الحق وهذا الكلام الباطل * وأما شبهات القوم فثلاثة (أولها) قولهم ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون وقد مر شرح هذه الشبهة في القصة الاولى وقوله مما تشربون أي من مشروبكم أو لما حذف منه الدلالة ما قبله عليه وهو قوله ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون جعلوا اتباع الرسول له خسرانا ولم يجعلوا عبادة الاصنام خسرانا أي لأن كنتم أعطيتموه الطاعة من غير أن يكون لكم بازائها

الحال أرينك بعض ما وعدناهم من العذاب الدنيوي أو لم نرك فعلينا ذلك وما عليك الا تبليغ الرسالة

مقفعة

ذلا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من الظفر ولا يضجرك تأخره فان ذلك لما نعلم من المصالح الخفية ثم طيب نفسه عن ذلك السلام والسلام بطلوع تباشيره فقال (أولم يروا) استفهام انكاري والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أنكروا ونزول ما وعدناه به

أو اشكوا وألم ينظروا في ذلك ولم يروا (أنا نأتي الارض) أي أرض الكفر (ننقصها من أطرافها) بأن نفتحها على المسلمين شيأ فشيأ ونلحقها بدار الاسلام ونذهب منها علمها بالقتل والاسر والاجلاء أليس هذا من ذلك ومثله قوله عز سلطانه أفلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون وقوله ننقصها حال من فاعل نأتي أو من مفعوله وقرئ ٢٢٥ ننقصها بالتشديد وفي لفظ الاتيان

منفعة فذلك هو الخسران (وثانيهما) انهم طعنوا في صحة الحشر والنشر طعنوا في نبوته بسبب اتيانه بذلك أما الطعن في صحة الحشر فهو قولهم أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون معادون احياء للجزاء ثم لم يقتصر واعلى هذا القدر حتى قربوا به الاستبعاد العظيم وهو قولهم هيهات هيهات لما توعدون ثم أكدوا الشبهة بقولهم ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ولم يريدوا بقولهم نموت ونحيا الشخص الواحد بل أرادوا ان البعض يموت والبعض يحيا وأنه لا اعادة ولا حشر فلذلك قالوا وما نحن بمبعوثين وما فيه رد ومن الطعن في صحة الحشر نعيهم على نبوته فقالوا ما اتى به هذا الا الماطل فقد افترى على الله كذبا ثم لما قرروا الشبهة الطاعنة في نبوته قالوا وما نحن له بمؤمنين لان القوم كانوا يتبعونهم واعلم أن الله تعالى ما أجاب عن هاتين الشبهتين لظهور فسادهما (أما الشبهة الاولى) فقد تقدم بيان ضعفها (وأما الثانية) فلانهم استبعدوا الحشر لاستبعاد الحشر لوجهين (الاول) انه سبحانه لما كان قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات وجب أن يكون قادرا على الحشر والنشر (والثاني) وهو انه لولا الاعادة لكان تسليط القوي على الضعيف في الدنيا ظلما وهو غير لائق بالحكيم على ما قرره سبحانه في قوله ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى وههنا مسائل (المسئلة الاولى) انما اتكم للتوكيد وحسن ذلك الفصل ما بين الاول والثاني بالظرف ومخرجون خبر عن الاول وفي قراءة ابن مسعود وكنتم ترابا وعظاما مخرجون (المسئلة الثانية) قرئ هيهات بالفتح والكسر كلاهما بتنوين و بلا تنوين و بالسكون على لفظ الوقف (المسئلة الثالثة) هي في قوله ان هي الا حياتنا الدنيا ضمير لا يعلم ما يعني به الا بما يتلوه من بيانه واصله ان الحياة الا حياتنا الدنيا ثم وضع هي موضع الحياة لان الخبر يدل عليه ومنه * هي النفس ما حملتها تتحمل * والمعنى لا حياة الا هذه الحياة ولان ان النافية دخلت على هي التي في معنى الحياة الدالة على الجنس فمقتها فاوزانت لا التي نفت ما بعدها في الجنس واعلم أن ذلك الرسول لما يئس من قبول الاكابر والاصاغر فزع الى ربه وقال رب انصرني بما كذبون وقد تقدم تفسيره فأجابه الله تعالى فيما سأل وقال عما قليل ليصبحن نادمين والاقرب أن يكون المراد بأن يظهر لهم علامات الهلاك فعند ذلك يحصل منهم الحسرة والندامة على ترك القبول ولكون الوقت وقت ايمان اليأس فلا ينتفعون بالندامة ومن تعالى الهلاك الذي أنزله عليهم بقوله فأخذتهم الصيحة بالحق وقد ذكروا في الصيحة وجوها (أحدها) ان جبريل عليه السلام صاح بهم وكانت الصيحة عظيمة فماتوا عندها (وثانيها) الصيحة هي الرجفة عن ابن عباس رضي الله عنهما (وثالثها) الصيحة هي نفس العذاب والموت كما يقال فيمن يموت ميتة سيئة فأجاب عن الحسن (ورابعها) انه العذاب المصطلم قال الشاعر

صاح الزمان بآل برمك صيحة * خروا لشدتها على الاذقان

والاول أولى لانه هو الحقيقة وأما قوله بالحق فمعناه أنه مر هم بالعدل من قولك فلان يقضي بالحق اذا كان عادلا في قضاياه وقال المفصل بالحق أي عما لا يدفع كقوله وجاءت سكرة الموت بالحق أما قوله فجعلناهم غثاء فالغثاء حمل السيل مما بلي واسود من الورق والعيدان ومنه قوله تعالى فجعله غثاء أحوى وأما قوله تعالى فبعدا للقوم الظالمين ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله بعدا ومعقلا ومرارضا وعما مصادر مرضوعة مواضع أفعالها يأتي من جملة المصادر التي قال سيبويه نصبت بأفعال لا يستعمل اظهارها ومعنى بعدا بعدوا أي هلكوا يقال بعد يبعد بعدا ونحو رشد يرشد رشدا ورشادا والله أعلم (المسئلة الثانية) قوله بعدا عبارة اللعن الذي هو التبعيد من الخير والله تعالى ذكر ذلك على وجه الاستخفاف والاهانة لهم وقد نزل

(٢٩ - نخر س) معقب لانه يقفي غرضه بالافتضاء والطلب (وهو سريع الحساب) فعما قليل يحاسبهم ويجازيهم في الآخرة بأفانين العذاب غب ما عذبهم بالقتل والاسر والاجلاء حسما يرى وقال ابن عباس رضي الله عنهما سريع الانتقام (وقد مكر) الكفار (الذين) خلوا (من قبلهم) من قبل كفار مكة بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لا عبرة

المؤذن بالاستواء المحتوم والاستيلاء المطيم من الفخامة ما لا يخفى كما في قوله عز وجل وقد منا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (والله يحكم) ما يشاء كما يشاء وقد حكم للاسلام بالعزة والاقبال وعلى الكفرة بالذلة والادبار حسبما يشاهد من المحاويل والآثار وفي الالتفات من التكلم الى الغيبة وبناء الحكم على الاسم الجليل من الدلالة على الفخامة وترييه المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالاشارة الى العلة ما لا يخفى وهي جملة اعتراضية جيء بها لتأكيد فحوى ما تقدمها وقوله تعالى (لا معقب لحكمه) اعتراض في اعتراض لبيان علو شان حكمه جل جلاله وقيل نصب على الحالية كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاءني زيد لا عمامة على رأسه أي حاسرا والمعقب من يكر على الشيء فيبطله وحقيقته من يعقبه ويقفيه بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق

نفس) ومن قضيته عصمة أوليائه وعقاب الماكرين بهم توفيه لكل نفس جزاء ما تكسبه ظهر أن ليس لمكرهم بالنسبة الى من مكروا بهم عين ولا أثر وان المكر كله لله تعالى حيث يؤاخذهم بما كسبوا من فنون المعاصي التي من جملتها مكرهم من حيث لا يحتسبون أو لله المكر الذي باشروه جميعا لا لهم على معنى ان ذلك ليس مكرا منهم بالانبياء بل هو بعينه مكر من الله تعالى بهم وهم لا يشعرون حيث لا يحيق المكر السيئ الا بأهله (وسيعلم الكفار) حين يقضى عليه فيوفى كل نفس جزاء ما تكسبه (لمن عقبى الدار) أى العاقبة الحميدة من الفريقين وان جهلوا ذلك بوهمك وقيل السين لتأكيد وقوع ذلك وعلمهم به حينئذ وقرئ سيعلم الكافر على ارادة الجنس والكافر أى أهله والذين كفروا وسيم على صيغة المجهول من الاعلام أى سيخبر (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) قيل قاله رؤساء اليهود وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة كلامهم الشنعاء

بهم العذاب دالا بذلك على أن الذي ينزل بهم في الآخرة من البعد من النعيم والثواب أعظم مما حل بهم حالا ليكون ذلك عبرة لمن يجيء بعدهم ﴿القصة الثالثة﴾ قوله تعالى ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون﴾ اعلم أنه سبحانه يقص القصص في القرآن تارة على سبيل التفصيل كما تقدم وأخرى على سبيل الاجمال كههنا وقيل المراد قصة لوط وشعيب وأيوب ويوسف عليهم السلام فأما قوله ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين فالمعنى أنه ما أخلى الدار من مكلفين أنشأهم وبلغهم حد التكليف حتى قاموا مقام من كان قبلهم في عمارة الدنيا أما قوله ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون فيحتمل في هذا الاجل أن يكون المراد آجال حياتها وتكليفها ويحتمل آجال موتها وهلاكها وان كان الاظهر في الاجل اذا أطلق أن يراد به وقت الموت فبين أن كل أمة لها آجال مكتوبة في الحياة والموت لا يتقدم ولا يتأخر عنها بذلك على أنه عالم بالاشياء قبل كونها فلا توجد الا على وفق العلم ونظيره قوله تعالى ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون وههنا مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ قال أصحابنا هذه الآية تدل على أن المقتول ميت بأجله اذ لو قتل قبل أجله لكان قد تقدم الاجل أو تأخر وذلك ينافيه هذا النص ﴿المسئلة الثانية﴾ قال الكعبي المراد من قوله ما تسبق من أمة أي لا يتقدمون الوقت المؤقت لعذابهم ان لم يؤمنوا ولا يتأخرون عنه ولا يستأصلهم الا اذا علم منهم أنهم لا يزدادون الا عنادا وأنهم لا يلدون مؤمنا وأنه لا نفع في بقائهم لغيرهم ولا ضرر على أحد في هلاكهم وهو كقول نوح عليه السلام انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا أما قوله تعالى ثم أرسلنا رسلنا تترى فالمعنى أنه كما أنشأ أمما بعضهم بعد بعض أرسل اليهم الرسل على هذا الحد قرأ ابن كثير تترى منونة والباقون بغير تنوين وهو اختيار أكثر أهل اللغة لانها فعلى من المواترة وهي المتابعة وفعلى لا يتنون كالدعوى والتقوى والتاء بدل من الواو فانه مأخوذ من الوتر وهو الفرد قال الواحدي تترى على القراءتين مصدر أو اسم أقيم مقام الحال لان المعنى متواترة أما قوله تعالى كلما جاء أمة رسولها كذبوه يعني أنهم سلكوا في تكذيب أنبيائهم مسلك من تقدم ذكره من أهلكه الله بالغرق والصيحة فلذلك قال فأتبعنا بعضهم بعضا أي بالهلاك وجعلناهم أحاديث يمكن أن يكون المراد جمع الحديث ومنه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى أنه سبحانه بلغ في اهلاكهم مبلغا صاروا معه أحاديث فلا يرى منهم عين ولا أثر ولم يبق منهم الا الحديث الذي يذكر ويعتبر به ويمكن أيضا أن يكون جمع أحدوثة مثل الاضحوكة والاعجوبة وهي ما يتحدث به الناس تلهيا وتعجبا ثم قال فبعدا للقوم لا يؤمنون على وجه الدعاء والذم والتوبيخ ودل بذلك على أنهم كأهلكه اعاجلا فهلاكهم بالتعذيب آجلا على التأبيد مترقب وذلك وعيد شديد ﴿القصة الرابعة﴾ قصة موسى عليه السلام ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملائه فاستكبروا وكانوا قوما عالين فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون فكذبوهما فكانوا من المهلكين ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون﴾ اختلفوا في الآيات فقال ابن عباس رضي الله عنهما هي الآيات التسع وهي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفلاق البحر والسنون ونقص من الثمرات وقال الحسن قوله بآياتنا أي بدينا واحتج بأن المراد بالآيات لو كانت هي المعجزات والسلطان المبين أيضا هو المعجز فحينئذ يلزم عطف الشئ على نفسه والاقرب هو الاول لان لفظ الآيات اذا ذكر في الرسل فالمراد منها المعجزات وأما الذي احتجوا به فالجواب عنه من وجوه (أحدها) أن المراد بالسلطان المبين يجوز أن يكون أشرف معجزاته وهو العصا لانه قد تعلقت بها

تعجبا منها أو للدلالة على تجدد ذلك واستمراره منهم (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) فانه قد أظهر على رسالتي من الحجج القاطعة والبينات الساطعة ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر (ومن عنده علم الكتاب) أي علم القرآن وما عليه من النظم المعجز أو من هو من علماء

أهل الكتاب الذين أسلموا لانهم يشهدون بنعته عليه الصلاة والسلام في كتبهم والاية مدنية بالاتفاق أو من عنده علم اللوح المحفوظ وهو الله سبحانه أي كفى به شاهدا بيننا بالذي يستحق العبادة فانه قد شحن كتابه بالدعوة الى عبادته وأيدني بانواع التأييد وبالذي يختص بعلم ما في اللوح من الاشياء الكائنة الثابتة التي من جملتها رسالتي وقرئ من عنده بالكسر ١٢٧ وعلم الكتاب على الاول مرتفع بالظرف المعتمد على الموصول أو مبتدأ خبره الظرف وهو متعين على الثاني ومن عنده علم الكتاب بالكسر وبناء المفعول ورفع الكتاب ﴿عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الرعد أعطى من الاجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون الى يوم القيامة وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله عز وجل والله أعلم بالصواب﴾

﴿سورة ابراهيم عليه السلام مكية وهي احدى وخمسون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(الر) مر الكلام فيه وفي محله غير مرة وقوله تعالى (كتاب) خبره على تقدير كون الر مبتدأ أو مبتدأ مضمر على تقدير كونه خبر المبتدأ محذوف أو مسرود على غير سبيل التعديد ويجوز أن يكون خبرا ثانيا لهذا المبتدأ المحذوف وقوله تعالى (أنزلناه اليك) صفة له وقوله تعالى (لتخرج الناس) متعلق بأنزلناه أي لتخرجهم كافة عما هم فيه من الضلالات الى الايمان والطاعات (باذن ربهم) أي بتيسيره وتوفيقه وللايذان بان كون ذلك منوطا بامثالهم الى صراط العزيز الحميد بدل من الاول بتكرير العامل بدل البعض فان من عبد الله تعالى فقد عبده في ضمن عبادة كل شئ وقرئ بفتح الزاي وهما لغتان كالحمد والحمد وقرئ بالرفع على الابتداء والجر على الاتباع لله على القراءة المشهورة بدل من الصراط بدل كل من كل لان المراد بالصراط الدين أو بيان له كما في قولك مررت بزيد أبي عبد الله أو صفة له لان المضاف اليه نكرة في المعنى لان المراد صراط كل واحد من المؤمنين وقرئ بالرفع على القطع والابتداء (وما في السموات وما في الارض) ملكا وخلقا وتصرفا (وويل للكافرين) وعيد لهم بالعذاب الدائم (من عذاب شديد) صفة له (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الاخرة) أي يختارونها عليها ويحرصون عليها حرص من يظن أنه يخلد فيها (ويصدون عن سبيل الله) أي يمنعون الناس عن الدخول في الاسلام (ويبغونها عوجا) أي يطلبون لها زيغا وميلا عن الاستقامة بالشبه الباطلة والتمويهات الزائغة (أولئك في ضلال بعيد) عن الحق لا يكاد يرجى رجوعهم عنه (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه) أي بلغتهم وقرئ بلغة قومه (ليبين لهم) ما كلفوا به من الشرائع والاحكام فيفهموا ويعملوا بما فهموا (فيضل الله من يشاء) اضلاله لعلمه بانه ممن لا يهتدي (ويهدي من يشاء) هدايته لعلمه بانه ممن يهتدي (وهو العزيز) الذي لا يغالب في شئ من أفعاله (الحكيم) الذي لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة وقد اقتضت حكمته ما ترى من الاضلال والهداية (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) التسع (أن أخرج قومك من الظلمات الى النور) أي بأن الخ أو أرسلناه بالامر بالاخراج (وذكرهم بأيام الله) أي بما أنعم عليهم وعلى آبائهم من الانجاء من آل فرعون وفلق البحر وتظليل الغمام وانزال المن والسلوى وغير ذلك (ان في ذلك) أي فيما ذكر من الامور المعدودة (لآيات) عظيمة (لكل صبار) على البلايا (شكور) على النعماء (وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم) أي اذكروا وقت قوله لهم اذكروا نعمة الله عليكم (اذ أنجاكم من آل فرعون) أي من أتباعه وأشياعه (يسومونكم سوء العذاب) أي يولونكم أشد العذاب ويديمونه عليكم من السوم وهو الذهاب في طلب الشئ (ويذبحون أبناءكم) لئلا يولد فيكم من يغلبهم (ويستحيون نساءكم) أي يتركونهن أحياء للخدمة (وفي ذلكم) أي فيما ذكر من الانجاء وما عطف عليه (بلاء من ربكم) أي نعمة أو محنة (عظيم) ان جعلت الاشارة الى الانجاء أو الى العذاب ان جعلت الاشارة اليه (وإذ تأذن ربكم) أي أعلم إعلاما بليغا بمعنى أقسم وهو تفعل من الايذان وقيل من الاذن بمعنى الاستماع لان القسم يستدعي المقسم به وقيل من الاذان بمعنى النداء لان المؤذن يرفع صوته عند الاذان وقرئ تأذن على الاصل (لئن شكرتم) نعمتي بالايمان والطاعة (لأزيدنكم) من فضلي وقرئ لازيدنكم بالتشديد (ولئن كفرتم) نعمتي بالجحود والعصيان (ان عذابي لشديد) فاحذروا أن تكفروا فتعذبوا (وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن في الارض جميعا) أي ان تكفروا فلن يضر الا أنفسكم فان الله غني عن كل شئ وعن شكر كل شاكر (فان الله لغني) عن خلقه وعن شكرهم (حميد) أي مستوجب للحمد وان لم يحمده أحد (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله) أي لا يعلم أعدادهم وأحوالهم الا الله لكثرتهم وتطاول الزمان بهم (جاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات الظاهرة (فردوا أيديهم في أفواههم) أي عضوا عليها غيظا مما سمعوا من الحق أو أشاروا بها الى أفواه الرسل أن اسكتوا أو أشاروا بها الى أفواههم أنا كفرنا بما أرسلتم به وهو تمثيل لتكذيبهم بالقول بالفعل (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به) على زعمكم (وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب) أي موقع في الريبة (قالت رسلهم أفي الله شك) أي أفي وجوده شك وهو استفهام انكاري (فاطر السموات والارض) أي خالقهما ومبدعهما (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) بعض ذنوبكم وهو ما بينكم وبين الله تعالى لا ما بينكم وبين العباد فان ذلك لا يغفر بالايمان (ويؤخركم الى أجل مسمى) هو وقت الموت لا يتقدم ولا يتأخر (قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين) أي بحجة ظاهرة على ما تدعونه من النبوة (قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) بالنبوة والرسالة وليس ذلك في وسعنا (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان) بحجة (الا باذن الله) أي بمشيئته وارادته (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أي فليثقوا به في كل أمورهم ومن جملتها ما نحن فيه من أمر الهداية (وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا) أي وأي شئ لنا في ترك التوكل عليه والحال أنه قد هدانا سبل النجاة والسعادة (ولنصبرن على ما آذيتمونا) من فنون الايذاء (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) أي فليثبت عليه المتوكلون الراسخون في التوكل (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا) أي من مكة (أو لتعودن في ملتنا) أي لتصيرن الى ملتنا بالاقامة عليها (فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين) أي الكافرين (ولنسكننكم الارض من بعدهم) أي من بعد اهلاكهم (ذلك) أي ما ذكر من الاهلاك والاسكان (لمن خاف مقامي) أي موقفي للحساب أو قيامي عليه بالحفظ والجزاء (وخاف وعيد) أي عذابي الموعود للكافرين (واستفتحوا) أي سألوا الفتح والنصر من الله تعالى على أعدائهم أو استفتح الرسل ربهم عليهم (وخاب كل جبار عنيد) أي خسر كل متكبر معاند للحق وهو عطف على استفتحوا داخل معه في حكم الجواب عن قول الرسل لنهلكن الظالمين الخ (من ورائه جهنم) أي من أمامه جهنم وهو حال من كل جبار عنيد أو من ضميره في خاب أي من بين يديه جهنم مترصدة له (ويسقى من ماء صديد) أي ما يسيل من أجساد أهل النار من القيح والدم (يتجرعه) أي يتكلف جرعه لمرارته وحرارته وغثاثته (ولا يكاد يسيغه) أي يقرب أن لا يسيغه لفرط كراهته ثم يسيغه على مشقة (ويأتيه الموت من كل مكان) أي أسبابه من كل مكان حتى من تحت كل شعرة من شعراته (وما هو بميت) فيستريح (ومن ورائه عذاب غليظ) أي شديد لا يقادر قدره (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف) أي شديد الريح وصف اليوم بوصف ما يقع فيه (لا يقدرون مما كسبوا على شئ) أي لا ينتفعون بشئ مما كسبوه في الدنيا لفقد ما يعتد به من الاعمال (ذلك هو الضلال البعيد) عن الحق الذي لا يكاد يرجى الاهتداء (ألم تر أن الله خلق السموات والارض بالحق) أي ملتبسا بالحكمة الداعية الى خلقهما على ما هما عليه من النظام البديع والاتقان الرفيع (ان يشأ يذهبكم) أي يفنكم (ويأت بخلق جديد) أي بقوم آخرين مطيعين (وما ذلك على الله بعزيز) أي بممتنع أو بشاق (وبرزوا لله جميعا) أي خرجوا من قبورهم للحساب (فقال الضعفاء للذين استكبروا) أي الاتباع للرؤساء (انا كنا لكم تبعا) في الدنيا (فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ) أي بعض الاغناء (قالوا) أي الرؤساء (لو هدانا الله لهديناكم) أي لو هدانا الله الى سبيل النجاة لهديناكم اليها ولكن ضللنا فضللناكم (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) أي الجزع والصبر سيان في حقنا (ما لنا من محيص) أي من مهرب من العذاب أو من منجى منه (وقال الشيطان لما قضي الامر) أي لما فرغ من أمر الحساب وصار الى الفصل بين أهل الجنة وأهل النار (ان الله وعدكم وعد الحق) وهو البعث والجزاء (ووعدتكم فأخلفتكم) أي فكذبتكم في الوعد بالشفاعة وغيرها (وما كان لي عليكم من سلطان) أي من تسلط وقهر (الا أن دعوتكم) الى الضلالة (فاستجبتم لي) بمجرد الدعوة من غير أن يكون لي عليكم حجة (فلا تلوموني) على ما فعلت بكم (ولوموا أنفسكم) على ما فعلتم بها (ما أنا بمصرخكم) أي بمغيثكم (وما أنتم بمصرخي) أي بمغيثي (اني كفرت بما أشركتموني) أي بكفركم وشرككم (من قبل) أي من قبل هذا اليوم أو من قبل هذا الوقت أي تبرأ مني حين دعوته الى الشرك كما تبرأ منكم حين دعوتكم الى الكفر (ان الظالمين) أي الكافرين (لهم عذاب أليم) لا يقادر قدره (وأدخل الذين آمنوا) أي صدقوا الرسل (وعملوا الصالحات) أي الطاعات (جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها باذن ربهم) أي بتيسيره وتوفيقه وللايذان بان كون ذلك منوطا بامثالهم الى

الحق كما يفصح عنه قوله تعالى ويهدى اليه من أناب استعير له الاذن الذى هو عبارة عن تسهيل الحجاب لمن يقصد الورود وأضيف الى ضميرهم اسم الرب المفصح عن التربية التى هى عبارة عن تبليغ الشئ الى كماله المتوجه اليه وشمول الاذن بهذا المعنى للكل واضح وعليه يدور ركون الانزال لاخراجهم جميعا وعدم تحقق الاذن بالفعل فى بعضهم لعدم تحقق شرطه المستند الى سوء اختيارهم

ظهر فيهم مالا انه ظهر على يديهما وهذا أولى من أن يحمل على الآيات التى ظهرت على يده نحو احياء الموتى وذلك لان الولادة فيه وفيها آية فيهما مذكر ذلك ان تطابق المهد وما عهد ذلك من الآيات ظهر على يده لا انه آية فيه (الثانى) انه تعالى قال آية ولم يقل آيتين وجعل هذا اللفظ على الامر الذى لا يتم الا بهما وعهما أولى وذلك هو أمر الولادة لا المعجزات التى كان عيسى عليه السلام مستقلا بها أما قوله تعالى وآويناهما الى ربوة ذات قرار أى جعلناهما واهما الربوة والربوة فى رأيهما المركبات الثلاث وهى الارض المرتفعة ثم قال قتادة وأبو العالية هى ايلياء أرض بيت المقدس وقال أبو هريرة رضى الله عنه انها الرملة وقال الكلبى وابن زيد هى مصر وقال الاكثرون انها دمشق وقال مقاتل والضحاك هى غوطة دمشق والقرار المستقر من أرض مستوية مبسوطة وعن قتادة ذات ثمار وماء يعنى انه لاجل الثمار يستقر فيها لما كنوها والمعين الماء الظاهر الجارى على وجه الارض فنبه سبحانه على كمال نعمه عليهما بهذا اللفظ على اختصاره ثم فى المعين قولان (أحدهما) انه مفعول لانه لظهوره يدرك بالعين من عانه اذا أدركه بعينه وقال الفراء والزجاج ان ثبتت جماعته فعيل من الماعون ويكون أصله من المعن والماعون فاعول منه قال أبو على والمعين السهل الذى يتقاد ولا يتعاصى والماعون ماسهل على معطيه ثم قالوا وسبب الايواء انها فرت بابنها عيسى الى الربوة وبقيت بها اثنتى عشرة سنة وانها ذهبت بهما ابن عمها يوسف ثم رجعت الى أهلها بعد أن مات ملكهم وههنا آخر القصص والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون فذرهم فى غمرتهم حتى حين أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴿اعلم ان ظاهر قوله يا أيها الرسل خطاب مع كل الرسل وذلك غير ممكن لان الرسل انما أرسلوا متفرقين فى أزمنة متفرقة مختلفة فكيف يمكن توجيه هذا الخطاب اليهم فلهذا الاشكال اختلفوا فى تأويله على وجوه (أحدها) ان المعنى الاعلام بأن كل رسول فهو فى زمانه نودى بهذا المعنى ووصى به ليعتقد الناس ان أمرا نودى له جميع الرسل ووصوا به حقيق بأن يؤخذ به ويعمل عليه (وثانيها) ان المراد نبينا عليه الصلاة والسلام لانه ذكر ذلك بعد انقضاء أخبار الرسل وانما ذكر على صيغة الجمع كما يقال للواحد أيها القوم كفوا عنى أذاكم ومثله الذين قال لهم الناس وهو نعيم بن مسعود كانه سبحانه لما خاطب محمدا صلى الله عليه وسلم بذلك بين أن الرسل بأسرهم لو كانوا حاضرين مجتمعين لما خوطبوا الا بذلك ليعلم رسولنا ان هذا التثقيل ليس عليه فقط بل هو لازم على جميع الانبياء عليهم السلام (وثالثها) وهو قول محمد بن جرير ان المراد به عيسى عليه السلام لانه انما ذكر ذلك بعد ما ذكر مكانه الجامع للطعام والشراب ولانه روى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه والقول الاول أقرب لانه أوفق للفظ الآية ولانه روى عن أم عبد الله اخت شداد بن أوس انها بعثت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح من لبن فى شدة الحر عند فطره وهو صائم فرده الرسول اليها وقال من أين لك هذا فقالت من شاتى ثم ردده وقال من أين هذه الشاة فقالت اشتريتها بمالى فاذ ذهبت انها جائعة وقالت يا رسول الله لم رددته فقال عليه السلام بذلك أمرت الرسل أن لا يأكلوا الا طيبا ولا يعملوا الا صالحا أما قوله تعالى من الطيبات ففيه وجهان (الاول) انه الحلال وقيل طيبات الرزق حلال وصاف وقوام فالحلال الذى لا يعصى الله فيه والصافى الذى لا ينسى الله فيه والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل (والثانى) انه استطاب المستلذ من المأكل والفواكه فبين تعالى انه وان تقل عليهم بالنبوة وبما لزمهم القيام بحقها فقد أباح لهم أكل الطيبات كما أباح لغيرهم واعلم انه سبحانه

غير محتمل بذلك والباء متعلقة بتخريج أو بمضمر وقع حالا من مفعوله أى ملتبسين بأذن ربهم وجعله حالا من فاعله بأباه اضافة الرب اليهم لا اليه وحيث كان الحق مع وضوحه فى نفسه وايضاحه لغيره موصلا الى الله عز وجل استعير له النور تارة والصراط أخرى فقيل (الى صراط العزيز الحميد) على وجه الابدال بتكرير العامل كما فى قوله تعالى للذين استضعفوا لمن آمن منهم وانما لزال البدل والبيان بالاستعارة انما هو فى الحقيقة لا فى المجاز كما فى قوله سبحانه حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر وقيل هو استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل الى أى نور فقيل الى صراط العزيز الحميد واضافة الصراط اليه تعالى لانه مقصده أو المبين له وتخصيص الوصفين بالذكر لترغيب فى سلوكه ببيان ما فيه من الامن والعاقبة الحميدة (لله) بالجر عطف بيان للعزيز الحميد لجريانه مجرى الاعلام الغالبة بالاختصاص بالمعبود بالحق كالنجم فى الثريا وقرئ بالرفع على هو الله أى العزيز كما

الحميد الذى أضيف اليه الصراط الله (الذى له) ملكا وملكا (ما فى السموات وما فى الارض) أى ما وجد فيهما مما دخلا فيهما أو خارجا عنهما مما ذكرنا فيهما كما مر فى آية الكرسى ففيه على القراءتين بيان لكمال فخامة شأن الصراط وانظهاره لتحتم سلوكه على الناس قاطبة وتجويز الملحاد

الرفع على الابتداء بجعل الموصول خبرا مبنيا لما لم يقبل عن هذه الشكنة وقوله عز وجل (وويل للكافرين) وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات الى النور بالويل وهو نقيض الوال وهو النجاة وأصله النصب كسائر المصادر ثم رفع ورفعه مما للدلالة على الثبات كسلام عليك (من عذاب شديد) متعلق بويل على معنى يولولون و يضجون منه قائلين يا ويلاه ٢٢٩ كقوله تعالى دعواهنالك ثبورا (الذين

كما قال للرسل يا أيها الرسل كلوا من الطيبات فقال للمؤمنين يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واعلم أن تقديم قوله كلوا من الطيبات على قوله واعملوا صالحا كالدلالة على أن العمل الصالح لا بد وان يكون مسبوقا بأكل الحلال فما بال قوله انى بما تعملون عليم فهو تحذير من مخالفة ما أمرهم به وإذا كان ذلك تحذيرا للرسل مع علوشأنهم فبان يكون تحذيرا لغيرهم أولى أما قوله وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فقد فسرناه فى سورة الانبياء وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) المعنى انه كما يجب اتفاقهم على أكل الحلال والاعمال الصالحات فكذلك هم متفقون على التوحيد وعلى الاتقاء من معصية الله تعالى فان قيل لما كانت شرائعهم مختلفة فكيف يكون دينهم واحدا قلنا المراد من الدين ما لا يختلفون فيه من معرفة ذات الله تعالى وصفاته وأما الشرائع فان الاختلاف فيها لا يسمى اختلافا فى الدين فكما يقال فى الحائض والطاهر من نساء ان دينهن واحد وان افترق تكليفهما فكذلك هاهنا ويدل على ذلك قوله وأنا ربكم فاتقون فكأنه نبه بذلك على أن دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله تعالى وانما معاصيه فلا مدخل للشرائع وان اختلفت فى ذلك (المسئلة الثانية) قرئ وان بالكسر على الاستئناف وان بمعنى ولان وان مخففة من الثقيلة وأمتكم مرفوع عطفا على محل هذه أما قوله تعالى فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا فالمعنى فان أمم الانبياء عليهم السلام تقطعوا أمرهم بينهم وفى قوله تعالى فتقطعوا معنى المبالغة فى شدة اختلافهم والمراد بأمرهم ما يتصل بالدين أما قوله زبرا فقرئ زبرا جمع زبور أى كتبا مختلفة يعنى جعلوا دينهم أديانا وزبرا قطعا استعيرت من زبر الفضة والحديد وزبرا بضمتين كالباء كرسل فى رسل قال الكلبى ومقاتل والضحاك يعنى مشركى مكة والمجوس واليهود والنصارى أما قوله تعالى كل حزب بما لديهم فرحون فمعناه ان كل فريق منهم معتقد بما اتخذه دينا لنفسه معجب به يرى الحق أنه الرأى وان غيره المبطل الخاسر ولما ذكر الله تعالى تفرق هؤلاء فى دينهم أتبعه بالوعيد وقال فذرهم فى غمرتهم حتى حين الخطاب لنبينا صلى الله عليه وسلم يقول فدع هؤلاء الكفار فى جهلهم والغمرة الماء الذى يغمر القامة فكان ماهم فيه من الجهل والحيرة صار غامرا سائر العقول هم وعن على عليه السلام فى عمراتهم حتى حين وذكر وافى الحين وجوها (أحدها) الى حين الموت (وثانيها) الى حين المعاينة (وثالثها) الى حين العذاب والعبادة فى ذلك أن يذكر فى الكلام والمراد به الحالة التى تقترن بها الحسرة والندامة وذلك يحصل اذا عرفهم الله بطلان ما كانوا عليه وعرفهم سوء منقلبهم و يحصل أيضا عند المحاسبة فى الآخرة و يحصل عند عذاب القبر والمساءلة فيجب أن يحمل على كل ذلك ولما كان القوم فى نعم عظيمة فى الدنيا جاز أن يظنوا أن تلك النعم كالثواب المعجل لهم على أديانهم فبين سبحانه ان الامر بخلاف ذلك فقال أيحسبون أن ما نمدهم به من مال و بنين نسارع لهم فى الخيرات قرئ نمدهم و يسارع بالياء والفاعل هو الله سبحانه وفى المعنى وجهان (أحدهما) ان هذا الامداد ليس الاستدراج لهم فى المعاصى واستجرارا لهم فى زيادة الاثم وهم يحسبون مسارعة فى الخيرات وبل لا ستدراك لقوله أيحسبون يعنى بل هم اشباه البهائم لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتفكر وافى ذلك أهو استدراج أم مسارعة فى الخير وهذه الآية كقوله ولا تعجبك أموالهم وأولادهم روى عن يزيد بن ميسرة رحمه الله تعالى انه قال لنبى من الانبياء أيفرح عدوى أن أبسط له الدنيا وهو أبعد له منى و يجزع ان أقبض نفسه الدنيا وهو أقرب له منى ثم تلا أيحسبون أنما نمدهم به من مال و بنين وعن الحسن لما أتى عمر بسواد كسرى فاخذ وضعه فى بيت سراقة فبلغ منكبه فقال عمر اللهم انى قد علمت ان نبيك عليه الصلاة والسلام لم يحب أن يصيب مالا الا ينفقه فى سبيلك فزويت ذلك عنه نظرا منك له وكان أبو بكر كذلك اللهم لا يكن

يستعجلون الخيرات الدنيا) أى يؤثرونها استعمال من المحققين المؤثر للشئ على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب اليها وأفضل عندها من غيره (على الآخرة) أى الحياة الآخرة الأبدية (ويصدون) الناس (عن سبيل الله) التى بين شأنها والاقتصار على الاضافة الى الاسم الجليل المنطوى على كل وصف جميل لزوم الاختصار وهو من صده صدا وقرئ يصدون من أصد المنقول من صد صدودا اذا انكب وهو غير فصيح كاوقف فان فى صده وقفه (ولا يزال الذين كفروا تقدم تفسيره فى سورة الانبياء وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) المعنى انه كما يجب اتفاقهم على أكل الحلال والاعمال الصالحات فكذلك هم متفقون على التوحيد وعلى الاتقاء من معصية الله تعالى فان قيل لما كانت شرائعهم مختلفة فكيف يكون دينهم واحدا قلنا المراد من الدين ما لا يختلفون فيه من معرفة ذات الله تعالى وصفاته وأما الشرائع فان الاختلاف فيها لا يسمى اختلافا فى الدين فكما يقال فى الحائض والطاهر من نساء ان دينهن واحد وان افترق تكليفهما فكذلك هاهنا ويدل على ذلك قوله وأنا ربكم فاتقون فكأنه نبه بذلك على أن دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله تعالى وانما معاصيه فلا مدخل للشرائع وان اختلفت فى ذلك (المسئلة الثانية) قرئ وان بالكسر على الاستئناف وان بمعنى ولان وان مخففة من الثقيلة وأمتكم مرفوع عطفا على محل هذه أما قوله تعالى فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا فالمعنى فان أمم الانبياء عليهم السلام تقطعوا أمرهم بينهم وفى قوله تعالى فتقطعوا معنى المبالغة فى شدة اختلافهم والمراد بأمرهم ما يتصل بالدين أما قوله زبرا فقرئ زبرا جمع زبور أى كتبا مختلفة يعنى جعلوا دينهم أديانا وزبرا قطعا استعيرت من زبر الفضة والحديد وزبرا بضمتين كالباء كرسل فى رسل قال الكلبى ومقاتل والضحاك يعنى مشركى مكة والمجوس واليهود والنصارى أما قوله تعالى كل حزب بما لديهم فرحون فمعناه ان كل فريق منهم معتقد بما اتخذه دينا لنفسه معجب به يرى الحق أنه الرأى وان غيره المبطل الخاسر ولما ذكر الله تعالى تفرق هؤلاء فى دينهم أتبعه بالوعيد وقال فذرهم فى غمرتهم حتى حين الخطاب لنبينا صلى الله عليه وسلم يقول فدع هؤلاء الكفار فى جهلهم والغمرة الماء الذى يغمر القامة فكان ماهم فيه من الجهل والحيرة صار غامرا سائر العقول هم وعن على عليه السلام فى عمراتهم حتى حين وذكر وافى الحين وجوها (أحدها) الى حين الموت (وثانيها) الى حين المعاينة (وثالثها) الى حين العذاب والعبادة فى ذلك أن يذكر فى الكلام والمراد به الحالة التى تقترن بها الحسرة والندامة وذلك يحصل اذا عرفهم الله بطلان ما كانوا عليه وعرفهم سوء منقلبهم و يحصل أيضا عند المحاسبة فى الآخرة و يحصل عند عذاب القبر والمساءلة فيجب أن يحمل على كل ذلك ولما كان القوم فى نعم عظيمة فى الدنيا جاز أن يظنوا أن تلك النعم كالثواب المعجل لهم على أديانهم فبين سبحانه ان الامر بخلاف ذلك فقال أيحسبون أن ما نمدهم به من مال و بنين نسارع لهم فى الخيرات قرئ نمدهم و يسارع بالياء والفاعل هو الله سبحانه وفى المعنى وجهان (أحدهما) ان هذا الامداد ليس الاستدراج لهم فى المعاصى واستجرارا لهم فى زيادة الاثم وهم يحسبون مسارعة فى الخيرات وبل لا ستدراك لقوله أيحسبون يعنى بل هم اشباه البهائم لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتفكر وافى ذلك أهو استدراج أم مسارعة فى الخير وهذه الآية كقوله ولا تعجبك أموالهم وأولادهم روى عن يزيد بن ميسرة رحمه الله تعالى انه قال لنبى من الانبياء أيفرح عدوى أن أبسط له الدنيا وهو أبعد له منى و يجزع ان أقبض نفسه الدنيا وهو أقرب له منى ثم تلا أيحسبون أنما نمدهم به من مال و بنين وعن الحسن لما أتى عمر بسواد كسرى فاخذ وضعه فى بيت سراقة فبلغ منكبه فقال عمر اللهم انى قد علمت ان نبيك عليه الصلاة والسلام لم يحب أن يصيب مالا الا ينفقه فى سبيلك فزويت ذلك عنه نظرا منك له وكان أبو بكر كذلك اللهم لا يكن

أى المعتبرة فى الصراط فالكفر المنهى عن الاستبزاز كونه نورا واستجباب الحياة الدنيا الفانية المضمحلة عن وخامة العاقبة بمقابلة تركه محمودا لعاقبة والصد عنه بازاء كونه مأمونا وفيه من الدلالة على تمادى هم فى الغى ما لا يخفى أو الاصب على الذم أو الرفع على تقدير قوله تعالى (أولئك فى ضلال بعيد) وعلى الاول جملة مستأنفة وقعت معللة لما سبق من لحوق الويل بهم تأكيدا لما أشعر به

بناء الحكم على الموصول أي أولئك الموصوفون بالقبائح المذكورة من استحباب الحياة الدنيا على الآخرة وصد الناس عن سبيل الله المستقيم ووصفها بالاعوجاج وهي منه منزه في ضلال عن طريق الحق بعيد بالغ في ذلك غاية الغايات القاصية والبعد وان كان من احوال الضال الا انه قد وصف به ٢٣٠ ووصفه مجازا للمبالغة كجد جده ودا هيه دهياء ويجوز أن يكون المعنى في ضلال ذي بعد أو فيه بعد

فان الضال قد يضل عن الطريق مكانا قريبا وقد يضل بعيدا وفي جعل الضلال محيطا بهم احاطة الظرف بما فيه ما لا يخفى من المبالغة (وما أرسلنا) أي في الامم الخالية من قبلك كما سنذكر اجمالا (من رسول الا) ملتبسا (بلسان قومه) متكلما بلغة من أرسل اليهم من الامم المتفقة على لغة سواء بعث فيهم أولا وقرئ بلسن وهو لغة فيه كريش ورياش وبلسن بضمتين وضمة وسكون كعمد وعمد (ليبين لهم) ما أمروا به فيبلغوه منه بيسر وسرعة ويعملوا به وجيه من غير حاجة الى الترجمة ممن لم يؤمر به وحيث لم يمكن مراعاة هذه القاعدة في شأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين لعموم بعثته الثقلين كافة على اختلاف لغاتهم وكان تعدد نظم الكتاب المنزل اليه حسب تعدد السنة الامم أدعى الى التسارع واختلاف الكلمة وتطرق أيدي التحريف مع ان استقلال بعض من ذلك بالاعجاز دون غيره مئنة لفدح القادحين واتفاق الجميع فيه أمر قريب من الالجاء وحصر البيان بالترجمة والتفسير اقتضت الحكمة اتحاد النظم المنبئ عن

عليه

المزية وجلالة الشان المستتبع لفوائد غنية عن البيان على أن الحاجة الى الترجمة تتضاعف عند تعدد اللسان لكل أمة من معرفة تواقي الكل ومخاذيه عند القذة بالقذة من غير مخالفة ولو في خصلة فذة وانما يتم ذلك بمن يترجم عن الكل واحدا أو متعددا وفيه من التعذر

ذلك مكرا منك بعمر ثم تلا أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين (الوجه الثاني) وهو أنه سبحانه انما أعطاهم هذه النعم ليكونوا فارغي البال متمكنين من الاشتغال بكاف الحق فاذا أعرضوا عن الحق والحالة هذه كان لزوم الحجة عليهم أقوى فلذلك قال بل لا يشعرون ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ اعلم انه تعالى لما ذم من تقدم ذكره بقوله أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات ثم قال بل لا يشعرون بين بعد ذلك صفات من يسارع في الخيرات ويشعر بذلك وهي أربعة (الصفة الاولى) قوله ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والاشفاق يتضمن الخشية مع زيادة رقة وضعف أنهم من قال جمع بينهما للتأكيد ومنهم من حمل الخشية على العذاب والمعنى الذين هم من عذاب ربهم مشفقون وهو قول الكلبي ومقاتل ومنهم من حمل الاشفاق على أثره وهو الدوام في الطاعة والمعنى الذين هم من خشية ربهم دائمون في طاعته جادون في طلب مرضاته والتحقيق أن من بلغ في الخشية الى حد الاشفاق وهو كمال الخشية كان في نهاية الخوف من سخط الله عاجلا ومن عقابه آجلا فكان في نهاية الاحتراز عن المعاصي (الصفة الثانية) قوله والذين هم بآيات ربهم يؤمنون واعلم أن آيات الله تعالى هي المحدوثات الدالة على وجوده والايمان بها والتصديق بها والتصديق بها ان كان بوجودها دل ذلك معلوم بالضرورة وصاحب هذا التصديق لا يستحق المدح وان كان بكونها آيات ودلائل على وجود الصانع فذلك مما لا يتوصل اليه الا بالنظر والفكر وصاحبه لا بد وأن يصير عارفا بوجود الصانع وصفاته واذا حصلت المعرفة بالقلب حصل الاقرار باللسان ظاهرا وذلك هو الايمان (الصفة الثالثة) قوله والذين هم بربهم لا يشركون وليس المراد منه الايمان بالتوحيد ونفي الشريك لانه تعالى لان ذلك داخل في قوله والذين هم بآيات ربهم يؤمنون بل المراد منه نفي الشرك الخفي وهو أن يكون مخلصا في العبادة لا يقدم عليها الا لوجه الله تعالى وطلب رضوانه والله أعلم (الصفة الرابعة) قوله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة معناه يعطون ما أعطوا وقد دخل فيه كل حق يلزم أداؤه سواء كان ذلك من حق الله تعالى كالزكاة والكفارة وغيرهما أو من حقوق الآدميين كالودائع والديون وأصناف الانصاف والعدل وبين أن ذلك انما ينفع اذا وقع وقلوبهم وجلة لان من يقدم على العبادة وهو وجل من تقصيره واخلاله بنقصان أو غيره فانه يكون لاجل ذلك الوجل مجتهدا في أن يوفيها حقها في الاداء وسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق وهو على ذلك يخاف الله تعالى فقال عليه الصلاة والسلام لا يا بنة الصديق ولكن هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق وهو على ذلك يخاف الله تعالى واعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن لان الصفة الاولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما ينبغي (والصفة الثانية) دلت على ترك الرياء في الطاعات (والصفة الثالثة) دلت على ان المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير وذلك هو نهاية مقامات الصديقين رزقنا الله سبحانه الوصول اليها فان قيل أفتقولون ان قوله وقلوبهم وجلة يرجع الى يؤتون أو يرجع الى كل ما تقدم من الخصال قلنا بل الاولى أن يرجع الى الكل لان العطية ليست بذلك أولى من سائر الاعمال اذا المراد أن يؤدي ذلك على وجل من تقصيره فيكون مبالغا في توفيته حقه فاما اذا قرئ والذين يأتون ما أتوا فالقول فيه أظهر اذا المراد بذلك أي شيء أتوه وفعلوه من محترز عن معصية واقدام على اعيان وعلى فانهم يقدمون

ما يقاربهم الامتناع ثم لما كان أشرف الاقوام وأولاهم بدعوته عليه الصلاة والسلام قومه الذين نبئ فيهم وأفحمهم أفضل اللغات نزل الكتاب المتين بلسان عربي مبين وانتشرت أحكامه فيما بين الامم أجمعين وقيل الضمير في قومه لمحمد صلى الله عليه وسلم فانه تعالى أنزل الكتب كلها عربية ثم ترجمها جبريل عليه الصلاة والسلام أو كل من نزل عليه من ٢٣١ الانبياء عليهم السلام بلغة من نزل

عليه مع الويل ثم انه سبحانه بين علة ذلك الويل وهي علمهم بأنهم الى ربهم راجعون أي للجزاء والمساءلة ونشر الصحف وتتبع الاعمال وان هناك لا تنفع الندامة فليس الا الحكم القاطع من جهة مالك الملك ثم انه سبحانه لما ذكر هذه الصفات للمؤمنين المخلصين قال بعدها أولئك يسارعون في الخيرات وفيه وجهان (أحدهما) أن المراد يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها الثلا تفوت عن وقتها واليكيلا تفوتهم دون الاخرام (والثاني) انهم يتجلون في الدنيا أنواع النفع ووجوه الاكرام كما قال فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين لانهم اذا سورع لهم بها فقد سارعوا في نيلها وتعجلوها وهذا الوجه أحسن طباقا للآية المتقدمة لان فيه اثبات معاني عن الكفار للمؤمنين وقرئ يسرعون في الخيرات أما قوله وهم لها سابقون فالمعنى فاعلون السبق لاجلها أو سابقون الناس لاجلها أو وهم لها سابقون أي ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر والمعنى وهم لها كما يقال أنت لها وفي ذلك ثم قال سابقون أي وهم سابقون ﴿ قوله تعالى ﴾ ولا نكلف نفسا الا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون ﴿ اعلم أنه سبحانه لما ذكر كيفية أعمال المؤمنين المخلصين ذكر حكمين من أحكام أعمال العباد (فالاول) قوله ولا نكلف نفسا الا وسعها وفي الوسع قولان (أحدهما) انه الطاقة عن المفضل (والثاني) انه دون الطاقة وهو قول المعتزلة ومقاتل والضحاك والكلبي واحتجوا عليه بأن الوسع اسم لما سمحت به نفسه لانه يتسع عليه فعله ولا يضيق ولا يصعب فبين ان أولئك المخلصين لم يكلفوا الا كثير مما عملوا قال مقاتل من لم يستطع أن يصلي قائما فليصل جالسا ومن لم يستطع جالسا فليوم ايماء لانا لا نكلف نفسا الا وسعها واستدلت المعتزلة به في نفي تكليف ما لا يطاق وقد تقدم القول فيه (الثاني) قوله ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون ونظيره قوله هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق وقوله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها واعلم انه تعالى شبه الكتاب بمن يصدر عنه البيان فان الكتاب لا ينطق لكنه يعرب بما فيه كما يعرب به ينطق الناطق اذا كان محقا فان قيل هؤلاء الذين يعرض عليهم ذلك الكتاب اما أن يكونوا محملين الكذب على الله تعالى أو مجوزين ذلك عليه فان أحالوه عليه فانهم يصدقونه في كل ما يقول سواء وجدت الكتاب أو لم يوجد وان جوزوه عليه لم يثقوا بذلك الكتاب لتجويزهم انه سبحانه كتب فيه خلاف ما حصل فعلى التقديرين لا فائدة في ذلك الكتاب قلنا يفعل الله ما يشاء وعلى انه لا يبعد أن يكون ذلك مصلحة للمكلفين من الملائكة وأما قوله وهم لا يظلمون فنظيره قوله ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا فقالت المعتزلة الظلم اما أن يكون بالزيادة في العقاب أو بالنقصان من الثواب أو بأن يعذب على ما لم يعلم أو بأن يكلفهم ما لا يطيقون فتكون الآية دالة على كون العبد موجدا لفعله والا لكان تعذيبه عليه ظلما وردا لله على أنه سبحانه لا يكلف ما لا يطاق (والجواب) انه لما كان أبا لهب أن يؤمن والايمان يقتضي تصديق الله تعالى في كل ما أخبر عنه ومما أخبر عنه ان أبا لهب لا يؤمن فقد كلفه بأن يؤمن بانه لا يؤمن فيلزم كل ما ذكرتموه وأما قوله تعالى بل قلوبهم في غمرة من هذا فيه قولان (أحدهما) انه راجع الى الكفار وهم الذين يليق بهم قوله بل قلوبهم في غمرة من هذا ولا يليق ذلك بالمؤمنين اذا المراد في غمرة من هذا الذي بينا في القرآن أو من هذا الكتاب الذي ينطق بالحق أو من هذا الذي هو وصف المتقين ولهم أي لهؤلاء الكفار أعمال من دون ذلك أي أعمال سوى ذلك أي سوى جهالهم وكفرهم ثم

الى ما أمر به وحرمان كل من أهل الخذلان والهداية على سنة أمر محقق غني عن الذكر والبيان والعدول الى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار حسب تجدد البيان من الرسل المتعاقبة عليهم السلام وتقديم الاضلال على الهداية اما لانه ابقاء ما كان على ما كان والهداية انشاء ما لم يكن أو للمبالغة في بيان أن لا تأثير للتبيين والتذكير من قبل الرسل وأن مدار الامر انما هو

علیهم و یرده قوله تعالی لیبین لهم فانه ضمیر القوم وظاهر أن جمیع الکتب لم ینزل لتبیین العرب وفی رجعه الی قوم کل نبی کانه قیل وما أرسلنا من رسول الا بلسان قوم محمد علیه الصلاة والسلام لیبین الرسول لقومه الذین ارسل الیهم مالا یخفی من التکالیف (فیضل الله من یشاء) اضلاله أی یخلق فیه الضلال لمباشرة أسبابه المؤدیه الیه أو یخذله ولا یلطف به لما یعلم انه لا ینجع فیه الالطاف (ویهدی) بالتوفیق ومنع الالطاف (من یشاء) هدایته لما فیه من الانابة والاقبال الی الحق والالتفات باسناد الفعلین الی الاسم الجلیل المنطوی علی الصفات لتفخیم شأنهما وترشیح مناط کل منهما والفاء فصیحة مثلها فی قوله تعالی فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق کانه قیل فضربوه لهم فاضل الله منهم من شاء اضلاله لما لا یلیق الا به وهدی من شاء هدایته لاستحقاقه لها والحذف للایذان بأن مسارعة کل رسول

مشيئة تعالى بإبهام أن ترتب الضلالة على ذلك أسرع من ترتب الاهتداء وهذا محقق لما سلف من تقييد الاخراج من الظلمات الى النور بإذن الله تعالى (وهو العزيز) فلا يغالب في مشيئته (الحكيم) الذي لا يفعل شيأ من الاضلال والهداية الا لحكمة بالغة وفيه أن ما فوض الى الرسل انما هو تبليغ ٢٣٢ الرسالة وتبيين طريق الحق وأما الهداية والارشاد اليه فذلك بيد الله سبحانه

يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد (ولقد أرسلنا موسى) شروع في تفصيل ما أجمل في قوله عز وجل وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم الآية (بآياتنا) أي ملتبسا بها وهي معجزاته التي أظهرها لموسى عليه السلام (أن أخرج قومك) بموسى أي أخرج لان الارسال فيه معنى القول أو بأن أخرج كما في قوله تعالى وأن أقم وجهك فان صيغ الافعال في الدلالة على المصدر سواء وهو المدار في صحة الوصل والمراد بذلك اخراج بني اسرائيل بعد ما هلك فرعون (من الظلمات) من الكفر والجهالات الى ادتهم الى أن يقولوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة (الى النور) الى الايمان بالله وتوحيده وسائر ما أمر به (وذكرهم بأيام الله) أي بنعمائه وبلائه كما ينبئ عنه قوله اذكروا نعمة الله عليكم ليكون لامجاري عليهم فتطول عليهم وعلى من قبلهم من الامم في الايام الخالية حسبما ينبئ عنه قوله تعالى ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم الآيات أو بأيامه المنطوية على ذلك كما يلوح

الله

قال بعضهم أراد أعمالهم في المآل وقال بعضهم بل أراد المستقبل وهذا أقرب لان قوله هم لها عاملون الى الاستقبال أقرب وانما قال هم لها عاملون لانها مثبتة في علم الله تعالى وفي حكم الله وفي اللوح المحفوظ فوجب أن يعملوها ليدخلوا بها النار لما سبق لهم من الله من الشقاوة (القول الثاني) وهو اختيار ابن مسلم ان هذه الآيات من صفات المشفقين كأنه سبحانه قال وهذه صفتهم ولا نكلف نفسا الا وسعها ونحن نأتي بما يأتي به هؤلاء المشفقون ولدينا كتاب يحفظ أعمالهم ينطق بالحق وهم لا يظلمون بل نوفر عليهم ثواب كل أعمالهم بل فلوبهم في غمرة من هذا وأيضا وصف لهم بالحيرة كأنه قال وهم مع ذلك الوجل والخوف كالمتحيرين في جعل أعمالهم مقبولة أو مردودة ولهم أعمال من دون ذلك أي لهم أيضا من النوافل ووجوه البر سوى ما هم عليه اما أعمالا قد عملوها في الماضي أو سيعملونها في المستقبل ثم انه سبحانه رجع بقوله حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب الى وصف الكفار واعلم ان قول أحد مسلم أولى لانه اذا أمكن رد الكلام الى ما يتصل به من ذكر المشفقين كان أولى من رده الى ما بعد مهنه خصوصا وقد يرغب المرء في فعل الخير بان قلبه في غمرة وبرادانه قد استولى عليه الفكر في قبول عمله أو رده وفي انه هل أداه كما يجب أو قصر فان قيل فما المراد بقوله من هذا وهو اشارة الى ماذا قلنا هو اشارة الى اشفاقهم ووجلهم مع انهم امتثليان على قلوبهم أما قوله تعالى حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب فقال صاحب الكشاف حتى هذه هي التي يبتدأ بعدها الكلام والكلام الجملة الشرطية واعلم انه لا شبهة ان الضمير في مترفيهم راجع الى من تقدم ذكره من الكفار لان العذاب لا يليق الا بهم وفي هذا العذاب وجهان (أحدهما) أراد بالعذاب ما نزل بهم يوم بدر (والثاني) انه عذاب الآخرة ثم بين سبحانه ان المتعنتين منهم اذا نزل بهم العذاب يجأرون أي يرتفع صوتهم بالاستغاثة والضجيج لشدة ما هم عليه ويقال لهم على وجه التبكيت لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون فلا يدفع عنكم ما يريد انزاله بكم دل بذلك سبحانه على انهم سيمنعون يوم القيامة الى هذه الدرجة من الحسرة والندامة وهو كالباعث لهم في الدنيا على ترك الكفر والاقدام على الايمان والطاعة فانهم الآن يمتنعون بذلك ﴿ قوله تعالى ﴾ قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين به سامرا تهجرون أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين ﴿ اعلم أنه سبحانه لما بين فيما قبل انه لا ينصر أولئك الكفار أتبعه بعلة ذلك وهي انه متى تليت آيات الله عليهم أتوا بامور ثلاثة (أحدها) انهم كانوا على أعقابهم ينكصون وهذا مثل يضرب فيمن تباعد عن الحق كل التباعد وهو قوله فكنتم على أعقابكم تنكصون أي تنفرون عن تلك الآيات وعن يتلوها كما يذهب الذاكس على عقبيه بالرجوع الى ورائه (وثانيها) قوله مستكبرين به والهاء فيه الى ماذا تعود فيه وجوه (أولها) الى البيت العتيق أو الحرم كانوا يقولون لا يظهر علينا أحد لانا أهل الحرم والذي يسوغ هذا الاضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت وان لم يكن لهم مفخرة الا أنهم ولاته والقائمون به (وثالثها) المراد مستكبرين بهذا القرآن والتباعد (وثالثها) أن تتعلق الباء بسامرا أي يسمرون بذكر القرآن و بالطعن فيه وهذا هو الامر الثالث الذي يأتون به عند تلاوة القرآن عليهم وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا وشعرا وسب رسول

وقائعها التي وقعت على الامم قبلهم وأيام العرب وقائعها وحروبها وملاحمها أي أنذرهم وقائعها التي دهمت الامم الدارجة ويرده ما تصدى له عليه الصلاة والسلام بصدد الامتثال من التذكير بكل من النعماء والضراء مما جرى عليهم وعلى غيرهم حسبما يتلى عليك (ان في ذلك) أي في التذكير بها أو في مجموع تلك النعماء والبلاء وفي أيامها (لآيات) عظيمة ٢٣٣ أو كثيرة دالة على وحدانية الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته فهي على الاول عبارة عن الايام سواء أريد بها أنفسها أو ما فيها من النعماء والبلاء ومعنى ظرفية التذكير لها كونه مناطا لظهورها وعلى الثالث عن تلك النعماء والبلاء ومعنى الظرفية ظاهر وأما على الثاني وهو كونه اشارة الى مجموع النعماء فمن كل واحدة من تلك النعماء والبلاء والمشار اليه المجموع المشتمل عليها من حيث هو مجموع أو كلمة في تحريرية مثلها في قوله تعالى لهم فيها دار الخلد (لكل صبار) على بلائه (شكور) لنعمائه وقيل لكل مؤمن والتعبير عنهم بذلك للاشعار بان الصبر والشكر عنوان المؤمن أي لكل من يليق بكمال الصبر والشكر أو الاعمان ويصير أمره اليها بالآخرة اتصافه بها بالفعل لانه تعليل للامر بالتذكير المذكور السابق على التذكر المؤدي الى تلك المرتبة فان من تذكر ما فاض أو نزل عليه أو على من قبله من النعماء والبلاء وتنبه لعاقبة الشكر والصبر والايمان

(٣٠ - نعم - س) لا يكاد يفارقها وتخصيص الآيات بهم لانهم المنتفعون بها لا لانها خافية عن غيرهم فان التبيين حاصل بالنسبة الى الكل وتقديم الصبار على الشكور لتقدم متعلق الصبر أعني البلاء على متعلق الشكر أعني النعماء وكون الشكر عاقبة صبر (واذ قال موسى لقومه) شروع في بيان تصديه عليه الصلاة والسلام لما أمر به من التذكير للاخراج المذكور وإذ منصوب على

الله صلى الله عليه وسلم وهم يحرون والسامر تحوا الحاضر في الاطلاق على الجمع وقرئ سمرا وسامرا يهجرون من أهجر في منطقه اذا أفحش والهجر بالفتح الهذيان والهجر بالضم الفحش أو من هجر الذي هو مبالغة في هجر اذا هذى ثم انه سبحانه لما وصف حالهم رد عليهم بان بين أن اقدامهم على هذه الامور لا بد وأن يكون لاحد أمور أربعة (أحدها) أن لا يتأملوا في دليل نبوته وهو المراد من قوله أفلا يتدبرون القرآن فبين أن القول الذي هو القرآن كان معروفا لهم وقد مكنوا من التأمل فيه من حيث كان مباينا لكلام العرب في الفصاحة ومبرأ عن التناقض في طول عمره ومن حيث ينبه على ما يلزمهم من معرفة الصانع ومعرفة الوحدانية فلم لا يتدبرون فيه ليتركوا الباطل ويرجعوا الى الحق (وثانيها) أن يعتقدوا ان مجيء الرسول أمر على خلاف العادة وهو المراد من قوله أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين وذلك لانهم عرفوا بالتواتر أن الرسل كانت تتواتر على الامم وتظهر المعجزات عليهم ولو كانت الامم بين مصدق ناج وبين مكذب هالك بعذاب الاستئصال أفهادعاهم ذلك الى تصديق الرسول (وثالثها) أن لا يكونوا عالمين بديانته وحسن خصاله قبل ادعائه للنبوة وهو المراد من قوله أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون نبه سبحانه بذلك على انهم عرفوه من قبل ادعائه الرسالة كونه في نهاية الامانة والصدق وغاية الفرار من الكذب والاخلاق الذميمة فكيف كذبوه بعد أن اتفقت كلمتهم على تسميته بالامين (ورابعها) أن يعتقدوا فيه الجنون فيقولوا انما حمله على ادعائه الرسالة جنونه وهو المراد من قوله أم يقولون به جنة وهذا أيضا ظاهر الفساد لانهم كانوا يعلمون بالضرورة انه أعقل الناس والمجنون كيف يمكنه أن يأتي بمثل ما أتى به من الدلائل القاطعة والشرائع المحكمة ولقد كان من المتعذرين له عليه السلام من سماه بذلك وقيه وجهان (أحدهما) انهم نسبوه الى ذلك من حيث كان يطمع في انقيادهم له وكان ذلك من أبعد الامور عندهم فنسبوه الى الجنون لذلك (والثاني) أنهم قالوا ذلك ايهاما لعوامهم لكي لا ينقادوا له فاورد والذلك مورد الاستخفار له ثم انه سبحانه بعد أن عد هذه الوجوه وبنيه على فسادها قال بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون من حيث تمسكوا بالتقليد ومن حيث علموا أنهم لو أقروا بمحمد صلى الله عليه وسلم لزالت مناصبهم ولاختلت رياساتهم فلذلك كرهوه فان قيل قوله وأكثرهم فيه دليل على ان أقلهم لا يكرهون الحق قلنا كان فيهم من يترك الايمان أنفة من توبيخ قومه وان يقولوا ترك دين آبائه لاكراهة للحق كما يحكى عن أبي طالب ثم بين سبحانه أن الحق لا يتبع الهوى بل الواجب على المكلف أن يطرح الهوى ويتبع الحق فبين سبحانه أن اتباع الهوى يؤدي الى الفساد العظيم فقال ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن وفي تفسيره وجوه (الاول) أن القوم كانوا يرون أن الحق في اتخاذ آلهة مع الله تعالى لكن لو صح ذلك لوقع الفساد في السموات والارض على ما قررناه في دليل التمانع في قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا (والثاني) ان اهواءهم في عبادة الاوثان وتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وهما منشأ المفسدة والحق هو الاسلام فلو اتبع الاسلام قولهم لعلم الله حصول المفاسد عند بقاء هذا العالم وذلك يقتضي تخريب العالم وافناءه (والثالث) ان آراءهم كانت متناقضة فلو اتبع الحق اهواءهم لوقع التناقض ولاختل نظام العالم عن المقال أما قوله بل أتيناهم بذكرهم فقيل انه القرآن والادلة وقيل بل شرفهم وفخرهم بالرسول وكلا القولين متقارب لان مجيء الرسول ببيان الادلة وفي مجيء الادلة بيان الرسول فأحدهما مقرون بالآخر وقيل الذكر هو الوعظ والتحذير وقيل هو الذي كانوا يتمنونه ويقولون لو أن عندنا ذكرا من الاولين لكنا عباد الله المخلصين وقرئ بذكراهم ثم بين سبحانه أنه عليه الصلاة والسلام لا يطمع فيهم حتى يكون ذلك سببا للنفرة فقال أم تسألهم

المفعولية بخبر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر مرة غير مرة أي اذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام لقومه (اذكروا نعمة الله عليكم) بدأ عليه الصلاة والسلام بالترغيب لانه عند النفس أقبل وهي اليه أميل والظرف متعلق بنفس النعمة ان جعلت مصدرا أو بمحذوف وقع حالا منها ان جعلت اسما أي

خرجا لخراج ربك خير وقرئ خراجا قال أبو عمرو بن العلاء الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك أداؤه والوجهان الخرج أخص من الخراج كقولك خراج القرية وخرج الكرد فزيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذلك حسنت قراءة من قرأ خرجا فخراج ربك يعني أم نسألهم على هدايتهم قليلا من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخالق خير فنبه سبحانه بذلك على أن هذه التهمة بعيدة عنه فلا يجوز أن ينفروا عن قبول قوله لاجلها فنبه سبحانه بهذه الآيات على انهم غير معذورين البتة وانهم محجوجون من جميع الوجوه قال الجبائي دل قوله تعالى وهو خير الرازقين على أن أحدا من العباد لا يقدر على مثل نعمه ورزقه ولا يساويه في الافضال على عباده ودل أيضا على أن العباد قد يرزق بعضهم بعضا ولو لا ذلك لما جاز أن يقول وهو خير الرازقين ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى لما زيف طريقة القوم أتبعه ببيان صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فقال وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم لان مادل الدليل على صحته فهو في باب الاستقامة أبلغ من الطريق المستقيم وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون أي لعادلون عن هذا الطريق لان طريق الاستقامة واحدة وما يخالفه فكثير أما قوله تعالى ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر ففيه وجوه (أحدها) المراد ضر الجوع وسائر مضار الدنيا (وثانيها) المراد ضرر القتل والسبي (وثالثها) أن ضرر الآخرة وعذابها فبين أنهم قد بلغوا في التمرد والعناد المبلغ الذي لا رجوع فيه الى دار الدنيا وانهم لو ردوا العاد والما نهوا عنه لشدة ما جاهم فيما هم عليه من الكفر أما قوله تعالى للجوا في طغيانهم يعمهون فالمعمى لتمادي الضلال وهم متحيرون ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد اذا هم فيه مبلسون وهو الذي أنشأ لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون وهو الذي ذرأكم في الارض واليه تحشرون وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون﴾ اختلفوا في قوله ولقد أخذناهم بالعذاب على وجوه (أحدها) انه لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي وحلق باليمامة منع الميرة عن أهل مكة فأجدبوا فأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا الجلود والجيف فجاء أبو سفيان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ألست تزعم انك بعثت رحمة للعالمين ثم قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع فادع الله يكشف عنا هذا القحط فدعا فكشف عنهم فأنزل الله هذه الآية والمعنى أخذناهم بالجوع فما أطاعوا (وثانيها) هو الذي نالهم يوم بدر من القتل والاسر يعني ان ذلك مع شدته ما دعاهم الى الايمان عن الاصم (وثالثها) المراد من عذب من الامم الخوالي فما استكانوا أي ما شكروا العرب لربهم عن الحسن (ورابعها) ان شدة الدنيا أقرب الى الممكلف من شدة الآخرة فاذا لم تؤثر فيهم شدة الدنيا فشدة الآخرة كذلك وهذا يدل على انهم لو ردوا العاد لما نهوا عنه أما قوله تعالى حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ففيه وجهان (أحدهما) حتى اذا فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أشد من القتل والاسر (والثاني) اذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون كقوله ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون لا يفترعنهم وهم فيه مبلسون والابلاس اليأس من كل خير وقيل السكون مع التحير وههنا سؤالان ﴿السؤال الاول﴾ ما وزن استكان ﴿الجواب﴾ استفعل من الكون أي انتقل من كون الى كون كما قيل استحال اذا انتقل من حال الى حال ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحته ﴿السؤال الثاني﴾ لم جاء استكانوا بلفظ الماضي ويتضرعون بلفظ المستقبل ﴿الجواب﴾ لان المعنى امتحناهم فما وجدنا منهم عقيب المحنة استكانة وما من

اذكروا انعامه عليكم أو اذكروا نعمته كائنة عليكم وكذلك كلمة اذ في قوله تعالى (اذ أنجاكم من آل فرعون) أي اذكروا انعامه عليكم وقت انجائه اياكم منهم أو بدل اشتمال من نعمة الله مرادا بها الانعام أو العطية (يسومونكم) يعذبونكم من سامه خسفا اذا أولاه ظلما وأصل السوم الذهاب في طلب الشئ (سوء العذاب) السوء مصدر ساءه يسوءه والمراد به جنس العذاب السيئ أو استعبادهم واستعمالهم في الاعمال الشاقة والاستهانة بهم وغير ذلك مما لا يحصر ونصبه على أنه مفعول ليسومونكم (ويذبحون أبناءكم) المولودين وانما عطفه على يسومونكم اخراجا له عن مرتبة العذاب المعتاد وانما فعلوا ذلك لان فرعون رأى في المنام أو قال له الكهنة انه سيولد منهم من يذهب بملكه فاجتهد وأتى في ذلك فلم يغن عنهم من قضاء الله شيأ (ويستحيون نساءكم) أي يبقونهن في الحياة مع الذل والصغار ولذلك

عادة

عد من جملة البلاء والجمل أحوال من آل فرعون أو منهم وضمير المخاطبين أو منهم جميعا والاول فيهما أظهر كل منهما (وفي ذلكم) أي فيما ذكر من أفعالهم العظيمة (بلاء من ربكم) أي ابتلاء عظيم لا أن البلاء بعين تلك الافعال اللهم الا أن تجعل في تجريد يده فسيبته الى الله تعالى

اما من حيث الخلق أو الاقدار والتمكين (عظيم) لايطاق ويجوز أن يكون المشار اليه الانجاء من ذلك والبلاء الابتلاء بالنعمة وهو الانسب كما يلوح به التعرض لوصف الربوبية وعلى الاول يكون ذلك باعتبار المآل الذى هو الانجاء أو باعتبار أن بلاء المؤمن تربية له (واذ تأذن ربكم) من جملة مقال موسى عليه الصلاة والسلام لقومه معطوف على ٢٣٥ نعمة الله أى اذكروا نعمة الله عليكم

عاد ذه ؤلاء أن يتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد وقرئ فتحنا ﴿السؤال الثالث﴾ العطف لايحسن الامع المجانسة فاى مناسبة بين قوله وهو الذى أنشأ لكم السمع والابصار وبين ماقبله ﴿الجواب﴾ كأنه سبحانه لما بين مبالغة أوائك الكفار فى الاعراض عن سماع الادلة ورؤيه العبر والتأمل فى الحقائق قال للمؤمنين وهو الذى أعطاكم هذه الاشياء ووقفكم عليها تنبيها على ان من لم يستعمل هذه الاعضاء فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها كما قال تعالى فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ اذ كانوا يجحدون بآيات الله تنبيها على ان حرمان أولئك الكفار ووجدان هؤلاء المؤمنين ليس الامن الله واعلم أنه سبحانه بين عظيم نعمه من وجوه (أحدها) باعطاء السمع والابصار والافئدة وخص هذه الثلاثة بالذكر لان الاستدلال موقوف عليها ثم بين أنه يقل منهم الشاكرون قال أبو مسلم وليس المراد أن لهم شكرا وان قل لكنه كما يقال لكفور الحاحد للنعمة ما أقل شكر فلان (وثانيها) قوله وهو الذى ذرأكم فى الارض قيل فى التفسير خلقكم قال أبو مسلم ويحتمل بسطكم فيها ذرية بعضكم من بعض حتى كثرتم كقوله تعالى ذرية من حملنا مع نوح فنقول هو الذى جعلكم فى الارض متناسلين ويحشركم يوم القيامة الى دار الجزاء حاكم فيها سواء يجعل حشرهم الى ذلك الموضع حشرا اليه لاجل المكان (وثالثها) قوله وهو الذى يحيى ويميت أى نعمة الحياة وان كانت من أعظم النعم فهى منقطعة وانه سبحانه وان أنعم بها فالمقصود منها الانتقال الى دار الثواب (ورابعها) قوله وله اختلاف الليل والنهار ووجه النعمة بذلك معلوم ثم انه سبحانه حذر من ترك النظر فى هذه الامور فقال أفلا تعقلون لان ذلك يدل على التهديد وقرئ أفلا يعقلون ﴿قوله تعالى ﴿بل قالوا مثل ما قال الاولون قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين﴾ اعلم أنه سبحانه لما أوضح القول فى دلائل التوحيد عقبه بذكر المعاد فقال بل قالوا مثل ما قال الاولون فى انكار البعث مع وضوح الدلائل ونبه بذلك على انهم انما أنكروا ذلك تقليدا للاولين وذلك يدل على فساد القول بالتقليد ثم حكى الشبهة عنهم من وجهين (أحدهما) قولهم أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون وهو مشهور (وثانيهما) قولهم لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل كأنهم قالوا ان هذا الوعد كما وقع منه عليه الصلاة والسلام فقد وقع قبله مما من سائر الانبياء ثم لم يوجد مع طول العهد فظننا أن الاعادة لم تكون فى دار الدنيا ثم قالوا لما كان كذلك فهو من أساطير الاولين والاساطير جمع اسطار والاسطار جمع سطر أى ما كتبه الاولون مما لاحقيقة له وجمع أسطورة أوفق ﴿قوله تعالى ﴿قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون بل أتيناهم بالحق وانهم لكاذبون﴾ اعلم أنه يمكن أن يكون المقصود من هذه الآيات الرد على منكرى الاعادة وأن يكون المقصود الرد على عبدة الاوثان وذلك لان القوم كانوا مقرين بالله تعالى فقالوا انما عبدنا الاصنام لتقربنا الى الله زلفى ثم انه سبحانه احتج عليهم بأمور ثلاثة (أحدها) قوله قل لمن الارض ومن فيها ووجه الاستدلال به على نفى عبادة الاوثان من حيث ان عبادة من خلقكم وخلق الارض وكل ما فيها من النعم هى الواجبة دون عبادة ما لا يضر ولا ينفع وقوله أفلا تذكرون معناه الترغيب فى التدبر ليعلموا بطلان ما هم عليه (وثانيها) قوله من رب السموات السبع ورب

واذكروا حين تأذن ربكم أى آذن آذانا بليغا لايبقى معه شائبة شبهة لما فى صيغة التفعل من معنى التكلف المحمول فى حقه سبحانه على غايته التى هى الكمال وقيل هو معطوف على قوله تعالى اذ انجاكم أى اذكروا نعمته تعالى فى هذين الوقتين فان هذا التأذن أيضا نعمة من الله تعالى عليهم ينالون بها خيرى الدنيا والآخرة وفى قراءة ابن مسعود رضى الله تعالى عنه واذ قال ربكم ولقد ذكرهم عليه الصلاة والسلام أولا بنعمائه تعالى عليهم صريحا وضمنها تذكير ما أصابهم قبل ذلك من الضراء ثم أمرهم ثانيا بذكر ما جرى من الله سبحانه من الوعد بالزيادة على تقدير الشكر والوعيد بالعذاب على تقدير الكفر والمراد بتذكير الاوقات تذكير ما وقع فيها من الحوادث مفصلة اذ هى محيطة بذلك فاذا ذكرت ذكر ما فيها كأنه مشاهد معاين (لئن شكرتم) يابنى اسرائيل

ماخولتكم من نعمة الانجاء واهلاك العدو وغير ذلك من النعم والآلاء الفائتة للحصر قابلتموه بالاعصان والطاعة (لأزيدنكم) نعمة الى نعمة (ولئن كفرتم) ذلك وغمصتموه (ان عذابى لشديد) فعسى يصيبكم منه ما يمحقكم ومن عادة الكرام التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد فاظنك بأكرم الاكرمين ويجوز أن يكون المذكور تعليلا للجواب المحذوف أى لأعذبنكم واللام فى الموضعين

موطئة للقسم وكل من الجوابين سادمسد جواب الشرط والقسم والجملة اما مفعول تأذن لانه ضرب من القول أو لقول مقدر بعده كأنه قيل واذ تأذن ربكم فقال الخ (وقال موسى ان تكفروا) نعمه تعالى ولم تشكروها (أنتم) يا بني اسرائيل (ومن في الارض) من الخلائق (جميعا فان الله لغني) عن شكركم ٢٣٦ وشكر غيركم (حميد) مستوجب للحمد بذاته لكثرة ما يوجبه من أياديه وان لم يحمده

العرش العظيم ووجه الاستدلال على الامرين كما تقدم وانما قال أفلا تتقون تنبيها على أن اتقاء عذاب الله لا يحصل الا بترك عبادة الاوثان والاعتراف بجواز الاعادة (وثالثها) قوله تعالى قل من بيده ملكوت كل شئ اعلم أنه سبحانه لما ذكر الارض أولا والسماء ثانيا عم الحكم ههنا فقال من بيده ملكوت كل شئ ويدخل في الملكوت الملك والملك على سبيل المبالغة وقوله وهو يجير ولا يجار عليه يقال أجرت فلانا على فلان اذا أغثته منه ومنعته يعني وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ولا يغيث أحد منه أحدا أما قوله تعالى فانى تسحرون فالمعنى أنى تخدعون عن توحيده وطاعته والمدافع هو الشيطان والهوى ثم بين تعالى بقوله بل أتيناهم بالحق انه قد بالغ في الحجاج عليهم بهذه الآيات وغيرها وهم مع ذلك كاذبون وذلك كالتوعد والتهديد وقرئ أتيتهم وأتيتهم بالضم والفتح وههنا سؤالات ﴿السؤال الاول﴾ قرئ قل لله في الجواب الاول باللام لا غير وقرئ الله في الاخيرين بغير اللام في مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام وباللام في مصاحف أهل البصرة فما الفرق ﴿الجواب﴾ لا فرق في المعنى لان قولك من ربه ولمن هو معنى واحد ﴿السؤال الثاني﴾ كيف قال ان كنتم تعلمون ثم حكى عنهم سيقولون لله وفيه تناقض ﴿الجواب﴾ لا تناقض لان قوله ان كنتم تعلمون لا ينفي علمهم بذلك وقد يقال مثل ذلك في الحاج على وجه التأكيد لعلمهم والبعث على اعترافهم بما يورد من ذلك ﴿قوله تعالى﴾ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون قل رب اما ترينى ما يوعدون رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين وانا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ﴿اعلم أنه سبحانه ادعى أمرين (أحدهما) قوله ما اتخذ الله من ولد وهو كالتنبيه على ان ذلك من قول هؤلاء الكفار فان جماعتهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله (والثاني) قوله وما كان معه من اله وهو قولهم باتخاذ الاصنام آلهة ويحتمل أن يريد به ابطال قول النصارى والثنوية ثم انه سبحانه وتعالى ذكر الدليل المعتمد بقوله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض والمعنى لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذى خلقه واستبد به ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزا عن ملك الآخر ولغلب بعضهم على بعض كما نرون حال ملوك الدنيا مما لكل منهم مميزة وهم متغالبون وحيث لم نر وا أثرا لتمانع في الممالك والتغالب فاعلموا أنه اله واحد يبده ملكوت كل شئ فان قيل اذا لا يدخل الا على كلام هو جزاء وجواب فكيف وقع قوله لذهب جزاء وجوابا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل قلنا الشرط محذوف وتقديره ولو كان معه آلهة وانما حذف لدلالة قوله وما كان معه من اله عليه ثم انه سبحانه نزه نفسه عن قولهم بقوله سبحان الله عما يصفون من اثبات الولد والشريك أما قوله عالم الغيب والشهادة فقرئ بالجر صفة لله وبالرفع خبر مبتدا محذوف والمعنى انه سبحانه هو المختص بعلم الغيب والشهادة فغيره وان علم الشهادة فلن يعلم معها الغيب والشهادة التى يعلمها لا يتكامل بها النفع الاعم العلم بالغيب وذلك كالوعيد لهم فلذلك قال فتعالى عما يشركون ثم أمره سبحانه بالانقطاع اليه وان يدعوه بقوله رب اما ترينى ما يوعدون رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين قال صاحب الكشاف ما والنون مؤكدتان أى ان كان ولا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة فلا تجعلني قرينا لهم ولا تعذبني بعذابهم فان قيل كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم قلنا يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله وان يستعيذه مما علم أنه لا يفعله اظهارا للعبودية وتواضعا لربه وما أحسن قول الحسن في قول الصديق ولية كم ولست بخيركم مع انه كان يعلم أنه خيرهم

أحد أو محمود يحمده الملائكة بل كل ذرة من ذرات العالم ناطقة بحمده والحمد حيث كان يقابله النعمة وغيرها من الفضائل كان أدل على كماله سبحانه وهو تعليل لما حذف من جواب ان أى ان تكفروا لم يرجع وباله الا عليكم فان الله تعالى لغنى عن شكر الشاكرين وأهله عليه الصلاة والسلام انما قاله عند ما عاين دونهم دلائل العناد ومخايل الاصرار على الكفر والفساد وتيقن أنه لا يتفعهم الترغيب ولا الترهيب بالبرهيب أو قاله غب تذكيرهم بما ذكر من قول الله عز سلطانه تحقيقا لهمونه وتحذيرا لهم من الكفران ثم شرع في الترهيب بتذكير ما جرى على الأمم الخالية فقال (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم) ليتدبروا ما أصاب كل واحد من خزى المؤمن والكافر فيقلعوا عما هم عليه من الشر ويتوبوا الى الله تعالى وقيل هو ابتداء كلام من الله تعالى خطابا للكفرة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فيختص تذكير موسى عليه الصلاة والسلام بما اختص بنى اسرائيل من السراء ولكن والضراء والايام بالايام الجارية عليهم فقط وقيه ما لا يخفى من البعد وأيضا لا يظهر حينئذ وجه تخصيص تذكير الكفرة الذين في عهد النبي عليه الصلاة والسلام بأصاب أولئك المعدودين مع أن غيرهم أسوة لهم في الحلول قبل هؤلاء (قوم نوح) بدل من الموصول أو عطف بيان

(وعاد) معطوف على قوم نوح (وثمود والذين من بعدهم) أى من بعد هؤلاء المذكورين عطف عام على قوم نوح وما عطف عليه وقوله تعالى (لا يعلمهم الا الله) اعتراض أو الموصول مبتدأ ولا يعلمهم الى آخره خبره والجملة اعتراض والمعنى أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم الا الله سبحانه وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بين عدنان واسمعيل ثلاثون ٢٣٧ أبا لا يعرفون وكان ابن مسعود رضى الله تعالى عنه اذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون يعنى أنهم يدعون علم الانساب وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد (جاءتهم رسلهم) استئناف لبيان نبئهم (بالبينات) بالمعجزات الظاهرة والبينات الباهرة فبين كل رسول لامته طريق الحق وهداهم اليه فخرجهم من الظلمات الى النور (فردوا أيديهم فى أفواههم) مشيرين بذلك الى ألسنتهم وما يصدر عنها من المقالة أعنناء منهم بشأنها وتنبيها للرسل على تلقيها والمحافظة عليها وقيل المعنى عضوا أناملهم من التعجب والاغتياظ بما أعلام أن الجواب لهم سواء (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به) أى على زعمكم وهى البينات التى أظهروها حجة على صحة رسالتهم كقوله تعالى ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ومرادهم بالكفر بها الكفر بدلالتها على صحة رسالتهم أو فعضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى

ولكن المؤمن يهضم نفسه واعاد ذكر رب مرتين مرة قبل الشرط ومرة قبل الجزاء مع القرب للتضرع أما قوله تعالى وانا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ففيه قولان (أحدهما) انهم كانوا ينكرون الوعد بالعذاب ويتحكمون منه فقيل لهم ان الله قادر على انجاز ما وعد ويحتمل عذابا فى الدنيا مؤخرا عن أيامه عليه السلام فلذلك قال بعضهم هو فى أهل البغى وبعضهم فى الكفار الذين قتلوا بعد الرسول صلى الله عليه وسلم (والثانى) ان المراد عذاب الآخرة أما قوله ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون فالمراد منه ان الاولى به عليه السلام أن يعامل به الكفار فأمر باحتمال ما يكون منهم من التكذيب وضروب الاذى وأن يدفعه بالكلام الجميل كالسلام وبيان الادلة على أحسن الوجوه وبين له أنه أعلم بحالهم منه عليه السلام وانه سبحانه لما لم يقطع نعمه عنهم فينبغى أن يكون هو عليه السلام مواظبا على هذه الطريقة قال صاحب الكشاف قوله ادفع بالتى هى أحسن السيئة أبلغ من أن يقال بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل والمعنى الصفح عن اساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الاحسان حتى اذا اجتمع الصفح والاحسان وبذل الطاقة فيه كانت حسنة مضاعفة بازاء السيئة وقيل هذه الآية منسوخة بآية السيف وقيل محكمة لان المداراة محثوث عليها ما لم تؤد الى نقصان دين أو مروءة ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون﴾ اعلم انه سبحانه لما أدب رسوله بقوله ادفع بالتى هى أحسن السيئة أتبعه بما يقوى على ذلك وهو الاستعاذة بالله من أمرين (أحدهما) من همزات الشياطين والهمزات جمع الهمزة وهو الدفع والتحريك الشديد وهو كالهز والازعاج ومنه مهماز الرائض وهمزاته هو كيده بالوسوسة ويكون ذلك منه فى الرسول وجهين (أحدهما) بالوسوسة (والآخر) بان يبعث أعداءه على ايذائه وكذلك القول فى المؤمنين لان الشيطان يكيدهم بهذين الوجهين ومعلوم أن من ينقطع الى الله تعالى ويسأله أن يبعد عنه الشيطان فانه يجب أن يكون متذكرا متيقظا فيما يأتى ويذر فيكون نفس هذا الانقطاع الى الله تعالى داعية الى التمسك بالطاعة وزاجرا عن المعصية قال الحسن كان عليه السلام يقول بعد استفتاح الصلاة لا اله الا الله ثلاثا الله أكبر ثلاثا اللهم انى أعوذ بك من همزات الشياطين همزه ونفثه ونفخه فقيل يا رسول الله وما همزه قال الموتة التى تأخذ ابن آدم أى الجنون الذى يأخذ ابن آدم قيل فما نفثه قال الشعر قيل فما نفخه قال الكبر (وثانيها) قوله وأعوذ بك رب أن يحضرون وفيه وجهان (أحدهما) أن يحضرون عند قراءة القرآن لكى يكون متذكرا فيقل سهوه وقال آخرون بل استعاذ بالله من نفس حضورهم لانه الداعى الى وسوستهم كما يقول المرء أعوذ بالله من خصومتك بل أعوذ بالله من لقائك وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اشتكى اليه رجل أرقا يجده فقال اذا أردت النوم فقل أعوذ بالله وبكلمات الله التامات من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ﴿أما قوله حتى اذا جاء أحدهم الموت ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف حتى متعلق بيصفون أى لا يزالون على سوء الذكر الى هذا الوقت والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للاغضاء عنهم مستعينا بالله على الشيطان ان يستزله عن الحلم ولله أعلم (المسئلة الثانية) اختلفوا فى قوله حتى اذا جاء أحدهم الموت فالاكثرون على انه راجع الى الكفار وقال الضحاك كنت جالسا عند ابن عباس فقال من لم يزك ولم يحج سأل الرجعة عند الموت فقال واحد انما يسأل ذلك الكفار فقال ابن عباس رضى الله عنهما أما أقرأ عليك به قرآنا وأنفوها ما رزقناكم من قبل

عضوا عليكم الانامل من الغيظ أو وضعوها عليها تعجبا منه واستهزاء به كعض علماء الضحك أو اسكاتا للانبياء عليهم السلام وأمرا لهم بالطباق الافواه أو ردوها فى أفواه الانبياء عليهم الصلاة والسلام ممنوعين من التكلم تحقيقا أو تمثيلا أو جعلوا أيدى الانبياء فى أفواههم تعجبا من عتوهم وعنادهم كما ينبئ عنه تعجيبهم بقوله أفى الله شك الخ وقيل الايدى بمعنى الايادى عبر بها عن مواعظهم ونصائحهم وشرائعهم التى

هي مدار النعم الدينية والدنيوية لانهم لما كذبوها لم يقبلوها فكانهم ردوها الى حيث جاءت منه (وانا لفي شك) عظيم (مما تدعونا اليه) من الايمان بالله والتوحيد فلا ينافي شكهم في ذلك كفرهم القطعي بما أرسل به الرسل من البينات فانهم كفروا بها قطعا حيث لم يعتقدوها بها ولم يجعلوها من جنس ٢٣٨ المعجزات ولذلك لما أتوا بسلطان مبين وقرئ تدعون بالادغام (مريب) موقع في الريبة من أرابه أوذى ريبة من أراب الرجل وهي قلق النفس وعدم اطمئنانها بالشيء (قالت رسلهم) استئناف مبني على سؤال ينساق اليه المقال كانه قيل فماذا قالت لهم رسلهم فاجيب بانهم قالوا منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقاء (أفي الله شك) بادخال الهمزة على الظرف للايذان بأن مدار الانكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيما لا يكاد يتوهم فيه الشك أصلا متفاديين عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بان يقولوا أانتم في شك مريب من الله تعالى مبالغة في تنزيه ساحة الاسحقان عن شائبة الشك وتسجيلا عليهم بمضافة المعقول أي أفي شأنه سبحانه من وجوده ووحدته وجوب الايمان به وحده شك ما وهو أظهر من كل ظاهر وأجلى من كل جلي حتى تكونوا من قبله في شك مريب وحيث كان مقصدهم لاقصى الدعوة الى الايمان والتوحيد وكان اظهار البينات وسيلة الى ذلك لم يتعرضوا للجواب عن قول الكفرة انا كفرنا انه بما أرسلتم به واقتصروا على بيان ما هو الغاية القصوى ثم عقبوا ذلك الانكار بما يوجبه من الشواهد الدالة على انتفاء المنكر فقالوا (فاطر السموات والارض) أي مبدعهما ومويا فيهما من المصنوعات على نظام أنيق شاهد بتحقق ما أنتم منه في شك وهو صفة للاسم الجليل

أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني الى أجل قريب فاصدق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حضر الانسان الموت جمع كل شيء كان يمنعه من حقه بين يديه فمنه يقول رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت والاقرب هو الاول اذا عرف المؤمن منزلته في الجنة فاذا شاهد هاله ما يفقد من منزلته غير وأما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من قوله وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فهو اخبار عن حال الحياة في الدنيا لا عن حال الثواب فلا يلزم على ما ذكرنا (المسئلة الثالثة) اختلفوا في وقت مسئلة الرجعة فالاكثرون على انه يسأل في حال المعاينة لانه عندها يضطر الى معرفة الله تعالى والى انه كان عاصيا ويصير ملجأ الى أنه لا يفعل القبيح بان يعلمه الله تعالى انه لو رامه لمنع منه ومن هذا حاله يصير كالممنوع من القبائح بهذا الالجاء فعند ذلك يسأل الرجعة ويقول رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت وقال آخرون بل يقول ذلك عند معاينة النار في الآخرة ولعل هذا القائل انما ترك ظاهر هذه الآية لما أخبر الله تعالى في كتابه عن أهل النار في الآخرة انهم يسألون الرجعة لكن ذلك مما لا يمنع أن يكونوا سائلين الرجعة في حال المعاينة والله تعالى يقول حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون فعلق قولهم هذا بحال حضور الموت وهو حال المعاينة فلا وجه لترك هذا الظاهر (المسئلة الرابعة) اختلفوا في قوله سبحانه وتعالى ارجعون من المراد به فقال بعضهم الملائكة الذين يقبضون الارواح وهم جماعة فلذلك ذكره بلفظ الجمع وقال آخرون بل المراد هو الله تعالى لان قوله رب بمنزلة أن يقول يا رب وانما ذكر بلفظ الجمع للتعظيم كما يخاطب العظيم بلفظه فيقول فعلنا وصنعنا وقال الشاعر * فان شئت حرمت النساء سواكم * ومن يقول بالاول يحمل ذكر الرب للقسم فكانه عند المعاينة قال بحق الرب ارجعون وههنا سؤالات (السؤال الاول) كيف يسألون الرجعة وقد علموا صحة الدين بالضرورة ومن الدين ان لا رجعة (الجواب) انه وان كان كذلك فلا يمتنع ان يسألوه لان الاستعانة بهذا الجنس من المسئلة تحسن وان علم انه لا يقع فأما ارادته للرجعة فلا يمتنع أيضا على سبيل ما يفعله المتمني (السؤال الثاني) ما معنى قوله لعلي أعمل صالحا فيجوز أن يسأل الرجعة مع الشك (الجواب) أيس المراد بلعل الشك فانه في هذا الوقت يأذل للعهد في العزم على الطاعة ان أعطي ما سأل بل هو مثل من قصر في حق نفسه وعرف سوء عاقبة ذلك التقصير فيقول ممكنوني من التدارك لعلي أتدارك فيقول هذه الكلمة مع كونه جازما بانه سيتدارك ويحتمل أيضا أن الامر لما استقبل اذا لم يعرفوه أو دروا الكلام المرضوع للترجي والظن دون اليقين فقد قال تعالى ولو رد الملائكة وانهم لكاذبون (السؤال الثالث) ما المراد بقوله فيما تركت (الجواب) قال بعضهم فيما خلفت من المال ليصير عند الرجعة مؤديا لحق الله تعالى منه وأما المعقول من قوله تركت النار كقوله تعالى ما خلفتم بعدي وقال آخرون بل المراد أعمل صالحا فيما قصرت فيه من خلل فيه العبادات البدنية والمالية والحقوق وهذا أقرب لانهم تمنوا الرجعة ليصلحوا ما أفسدوه ويطيعوا في كل ما عصوا (السؤال الرابع) ما المراد بقوله كلا (الجواب) فيه قولان (أحدهما) أنه كالجواب لهم في المنع مما طلبوا كما يقال لطالب الامر المستصعب هيهات روي انه عليه السلام قال لعائشة رضي الله عنها اذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك الى دار الدنيا فيقول الى دار الهموم والاحزان لا بل قدوما على الله وأما الكافر فيقال له ترجعك فيقول ارجعون فيقال له الى أي شيء ترغب الى جمع المال أو غرس الغراس أو بناء البنيان أو شق الانهار فيقول لعلي أعمل صالحا فيما تركت فيقول الجبار كلا (الثاني) يحتمل أن يكون على وجه الاخبار بانهم يقولون ذلك وان هذا الخبر حق فكانه قال حقا انها كلمة هو قائلها والاقرب الاول أما قوله انها كلمة هو قائلها ففيه وجهان (الاول)

أو بدل منه وشك مرتفع بالظرف لاعتماده على الاستفهام وجعله مبتدأ على أن الظرف خبره يقضي الى الفصل بين الموصوف والصفة بالاجنبي أعني المبتدأ وراافاعل ليس باجنبي من رافعه وقد جوز ذلك أيضا (يدعوكم) الى الايمان بارسالها يا ثالا أنا ندعوكم اليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم مما تدعونا اليه (ليغفر لكم) بسببه أو يدعوكم لاجل ٤٣٩ المغفرة كقولك دعوته لما أكل معي (من ذنوبكم) أي بعضها وهو ما عدا المظالم مما بينهم وبينه تعالى فان الاسلام يجبه قيل هكذا وقع في جميع القرآن في وعد الكفرة دون وعد المؤمنين تفرقة بين الوعدين ولعل ذلك لما أن المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفرة مرتبة على محض الايمان وفي شأن المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصي ونحو ذلك فيتناول الخروج من المظالم وقيل المعنى ليغفر لكم بدلا من ذنوبكم (ويؤخركم الى أجل مسمى) الى وقت سماه الله تعالى وجعله منتهى أعماركم على تقدير الايمان (قالوا) استئناف كما سبق (ان أنتم) أي ما أنتم (الا بشر مثلنا) من غير فضل يؤهلكم لما تدعونه من النبوة (تريدون) صفة ثانية لبشر حملا على المعنى كقوله تعالى أبشر يهدوننا أو كلام مستأنف أي تريدون بما تقصدون له من الدعوة والارشاد (أن تصدونا) بخصوص العبادة بالله سبحانه (عما كان يعبد آباؤنا) أي عن عبادة ما استمر آباؤنا على عبادته من غير شئ يوجبه والا (فأتونا) أي وان لم يكن الامر كما قلنا بل كنتم رسلا من جهة الله تعالى كما تدعونه فأتونا (بسلطان مبين) بدل على فضلكم واستحقاقكم لتلك الرتبة أو على صحة ما تدعونه من النبوة حتى نترك ما لم نزل نعبده آباءنا عن جد وقد كانوا آتوهم من الآيات الظاهرة والبينات الباهرة ما تخر له صم الجبال ولكنهم انما يقولون ما يقولون من

انه لا يخاطبها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه (الثاني) أنه قائلها وحده ولا يحتاج اليها ولا يسمع منه أيا قوله تعالى ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون فالبرزخ هو الحاجز والمانع كقوله في البحرين بينهم ما برزخ لا يبغيان أي فهؤلاء صائرون الى حالة مانعة من التلاقي حاجزة عن الاجتماع وذلك هو الموت وليس المعنى انهم يرجعون يوم البعث انما هو اقتباط كلي لما علم انه لا رجعة يوم البعث الا الى الآخرة ❁ قوله تعالى ﴿فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون﴾ اعلم أنه سبحانه لما قال ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون ذكر أحوال ذلك اليوم فقال فاذا نفخ في الصور وفيه ثلاثة أقوال (أحدها) أن الصور آلة اذا نفخ فيم ايظهر صوت عظيم جعله الله تعالى علامة لخراب الدنيا ولاعادة الأموات روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرن ينتفخ فيه (وثانيها) أن المراد من الصور مجموع الصور والمعنى فاذا نفخ في الصور أرواحها وقول الحسن فكان يقرأ بفتح الواو والفاء والكسر عن أبي رزين وهو حجة لمن فسر الصور بجميع صورة (وثالثها) أن النفخ في الصور استعارة والمراد منه البعث والحشر والاول أولى للخبر وفي قوله ثم نفخ فيه أخرى دلالة على أنه ليس المراد نفخ الروح والاحياء لان ذلك لا يتكرر أما قوله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن المعلوم أنه سبحانه اذا أعاد هم فالانساب ثابتة لان المعاد هو الولد والوالد فلا يجوز أن يكون المراد نفي النسب في الحقيقة بل المراد نفي حكمه وذلك من وجوه (أحدها) أن من حق النسب أن يقع به التعاطف والتراحم كما يقال في الدنيا أسألك بالله والرحم أن تفعل كذا فنفى سبحانه ذلك من حيث ان كل أحد من أهل النار يكون مشغولا بنفسه وذلك يمنعه من الالتفات الى النسب وهكذا الحال في الدنيا لان الرجل متى وقع في الامر العظيم من الآلام ينسى ولده ووالده (وثانيها) أن من حق النسب أن يحصل به التفاخر في الدنيا وأن يسأل بعضهم عن كيفية نسب البعض وفي الآخرة لا يتفرغون لذلك (وثالثها) أن يجعل ذلك استعارة عن الخوف الشديد فكل امرئ مشغول بنفسه عن بنيه وأخيه وهو مثيله التي تؤويه فكيف بسائر الامور قال ابن مسعود رضي الله عنه يؤخذ العبد والامة يوم القيامة على رؤوس الاشهاد وينادي مناد الا ان هذا فلان فمن له عليه حق فليأت الى حقه فتفرح المرأة حينئذ أن يثبت لها حق على أمها أو اختها أو أبيها أو أخيها أو ابنها أو زوجها فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وعن قتادة لا شئ أبغض الى الانسان يوم القيامة من أن يرى من يعرفه مخافة أن يثبت له عليه شئ ثم تلا يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وعن الشعبي قال قالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله أما نتعارف يوم القيامة أسمع الله تعالى يقول فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فقال عليه الصلاة والسلام ثلاث مواطن تذهل فيها كل نفس حين يرمى الى كل انسان كتابه عند الموازين وعلى جسر جهنم وطعن بعض المفسرة فقال قوله ولا يتساءلون وقوله ولا يسأل حميم حميما يناقض قوله وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون وقوله يتعارفون بينهم (الجواب) عنه من وجوه (أحدها) أن يوم القيامة مقداره خمسون الف سنة وفيه أزمنة وأحوال مختلفة فيتعارفون ويتساءلون في بعضها ويتحيرون في بعضها لشدة الفزع (وثانيها) أنا اذا نفخ في الصور نفخة واحدة شغلوا بأنفسهم عن التساؤل فاذا نفخ فيه أخرى أقبل بعضهم على بعض وقالوا يا ويلنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن (وثالثها) المراد لا يتساءلون بحقوق النسب (ورابعها) أن قوله لا يتساءلون صفة للكفار وذلك لشدة خوفهم وأما قوله فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون فهو صفة أهل الجنة اذا دخلوها واعلم أنه سبحانه قد بين أن

الله عظائم مكابرة وعنادا واراءة منهم أن ذلك ليس من جنس ما يطاق عليه السلطان المبين (قالت لهم رسلهم) مجاراة منهم في أول مقالتهم وانما قيل لهم لاختصاص الكلام بهم حيث أريد الزامهم بخلاف ما سلف من انكار ووقوع الشك في الله سبحانه فان ذلك عام وان اختص بهم ما يعقبه (ان نحن الا بشر مثلكم) ٢٤٠ كما تقولون (ولكن الله يمن) بالنبوة (على من يشاء من عباده) يعنون أن ذلك

بعد النفخ في الصور تكون المحاسبة وشرح أحوال السعداء والاشقياء وقيل لما بين سبحانه أنه ليس في الآخرة الا نقل الموازين وخفتها وجب أن يكون كل مكلف لابد وأن يكون من أهل الجنة وأهل الفلاح أو من أهل النار فيبطل بذلك القول بان فيهم من لا يستحق الثواب والعقاب أو من يتساوى له الثواب والعقاب ثم انه سبحانه شرح حال السعداء بقوله فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون وفي الموازين أقوال (أحدها) أنه استعارة من العدل (وثانيها) أن الموازين هي الاعمال الحسنة فمن أتى بما له قدر وخطر فهو الفائز الظافر ومن أتى بما لا وزن له كقوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ فهو خالد في جهنم قال ابن عباس رضي الله عنهما الموازين جمع موزون وهي الموزونات من الاعمال أي الصالحات التي لها وزن وقدر عند الله تعالى من قوله فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا أي قدرا (وثالثها) أنه ميزان له لسان وكفتان توزن فيه الحسنات في أحسن صورة والسيآت في أقبح صورة فمن ثقلت حسناته سبق الى الجنة ومن ثقلت سيآته فر الى النار وقد تقدم الكلام في هذا الباب قد تقدم في سورة الانبياء عليهم السلام وأما الاشقياء فقد وصفهم الله تعالى بأمور أربعة (أحدها) أنهم خسروا أنفسهم قال ابن عباس رضي الله عنهما غبنوها بأن صارت منازلهم للمؤمنين وقيل امتنع انتفاعهم بأنفسهم لكونهم في العذاب (وثانيها) قوله في جهنم خالدون ودلالته على خلود الكفار في النار بينته قال صاحب الكشاف في جهنم خالدون بدل من خسروا أنفسهم أو خبر بعد خبر لاولائك أو خبر مبتدا محذوف (وثالثها) قوله تلفح وجوههم النار قال ابن عباس رضي الله عنهما أي تضرب وتأكل لحومهم وجلودهم قال الزجاج اللفح والنفح واحد الا أن اللفح أشد تأثيرا (ورابعها) قوله وهم فيها كالحون واللوح أن تتقلص الشفتان وتبدو عن الاسنان كالرؤس المشوية وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تشويه النار فتتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته وقرئ كلحون ثم انه سبحانه لما شرح عذابهم حكى ما يقال لهم عنده ذلك تقريعا وتوبيخا وهو قوله تعالى ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون بهامع وضوحها فلاجرم صرتم مستحقين لما أنتم فيه من العذاب الاليم قالت المعتزلة الآية تدل على أنهم انما وقعوا في ذلك العذاب لسوء أفعالهم ولو كان فعل العباد بخلق الله تعالى لما صح ذلك (والجواب) أن القادر على الطاعة والمعصية ان صدرت المعصية عنه لا لمرجح البتة كان صدورها عنه تارة بالاختيار يا فوجب أن لا يستحق العقاب وان كان لمرجح فذاك المرجح ليس من فعله والا لزم التسلسل فحينئذ يكون صدور تلك الطاعة عنه اضطراريا لا اختياريا فوجب أن لا يستحق الثواب ﴿قوله تعالى﴾ (قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال اخسؤا فيها ولا تكلمون انه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون اني جزيتهم اليوم بما صبروا انهم هم الفائزون﴾ اعلم أنه سبحانه لما قال ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ذكروا ما يجري مجرى الجواب عنه وهو من وجهين (الاول) قولهم ربنا غلبت علينا شقوتنا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف غلبت علينا ما كتبناه من قولك غلبني فلان على كذا اذا أخذ منك والشقاوة سوء العاقبة قرئ شقوتنا وشقاوتنا بفتح الشين وكسرها فيهما قال أبو مسلم الشقوة من الشقاء كبؤسى من البأس والمصدر الجري وقد يجيء اللفظ فعله والمراد به الهيئة والحال فيقول جلسة حسنة وركبة وقعدة وذلك من الهيئة وتقول عاش فلان عيشة طيبة ومات ميتة كريمة وهذا هو الحال والهيئة فعلى هذا المراد من الشقوة حال الشقاء (المسئلة

عطية من الله تعالى يعطيها من يشاء من عباده بمحض الفضل والامتنان من غير داعية توجبه قالوه تواضعا وهضما للنفس أو ما نحن من الملائكة بل نحن بشر مثلكم في الصورة أو في الدخول تحت الجنس ولكن الله يمن بالفضائل والكمالات والاستعدادات على من يشاء لمن يهوى ما يشاء ذلك الا لعلمه باستحقاقه لها وتلك الفضائل والكمالات والاستعدادات هي التي يدور عليها ذلك الاصطفاء للنبوة (وما كان) وما صح وما استقام (لنا أن نأتيكم بسلطان) أي بحجة من الحج فضلا عن السلطان المبين شيأ من الاشياء وسبب من الاسباب (الا باذن الله) وأمره يتعلق بمشيئته تعالى ان شاء كان والا فلا (وعلى الله) وحده دون ما عداه مطلقا (فليتوكل المؤمنون) أمرهم للمؤمنين بالتوكل ومقصودهم حمل أنفسهم عليه آثرني أثير الابرى الى قوله عز وجل (وما لنا) أي أي عذر لنا (أن لا نتوكل على الله) أي في أن لا نتوكل عليه والاظهار لاظهار النشاط في التوكل عليه والاستدلال به كراهة تعالى وتعليل التوكل (وقد هدانا) أي والحال انه قد هدى (سبلنا) التي أرشد كلا من سبيله ومنهاجه الذي شرع له وأوجب عليه سلوكه في الدين وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح في التوكل قالوا في سبيل التوكيد القسمي مظهرين لكمال العزيمة (ولنصبرن على

على ما آذيتمونا بالعناد واقتراح الآيات وغير ذلك مما لا خير فيه (وعلى الله) خاصة (فليتوكل المتوكلون) أى فليثبت المتوكلون على ما أحدثوه من التوكل والمراد هو المراد مما سبق من ايجاب التوكل على أنفسهم والمراد بالمتوكلين المؤمنون والتعبير عنهم بذلك لسبق ذكر اتصافهم به ويجوز أن يراد وعليه فليتوكل من يتوكل دون غيره (وقال الذين كفروا) ٢٤١ لعل هؤلاء السائلين بعض المتمردين العاتين

الثانية) قال الجبائى المراد ان طبعنا الذات المحرمة وحوصنا على العمل القبيح ساقنا الى هذه الشقاوة فالطبع اسم السبب والمسبب هذا اعتذارهم لعلهم بأن لا عذر لهم فيه ولكنه اعتراف بقيام حجة الله تعالى عليهم فى سوء صنيعهم فلنا انك حملت الشقاوة على طلب تلك اللذات المحرمة وطلب تلك اللذات حصل باختيارهم أولا باختيارهم فان حصل باختيارهم فذلك الاختيار محدث فان استغنى عن المؤثر فلم لا يجوز فى كل الحوادث ذلك وحينئذ ينسد علينا باب اثبات الصانع وان افتقر الى محدث فمحدثه اما العبد أو الله تعالى فان كان هو العبد فذلك باطل لوجوه (أحدها) أن قدرة العبد صالحة للفعل والترك فان توقف صدور تلك الارادة عنها الى مرجح آخر عاد الكلام فيه ولزم التسلسل وان توقف على المرجح فقد جوزت رجحان أحد طرفى الممكن على الآخر لا لمرجح وذلك يسد باب اثبات الصانع (وثانيها) أن العبد لا يعلم كمية تلك الافعال ولا كيفيتها والجاهل بالشئ لا يكون محدثا له والا لبطلت دلالة الاحكام والاتقان على العلم (والثانى) أن أحداث الدنيا لا يرضى أن يختار الجهل بل لا يقصد الا تحصيل العلم فالكافر ما قصد الا تحصيل العلم فان كان الموجب لفعله هو فوجب أن لا يحصل الا ما قصد ايقاعه لكنه لم يقصد الا ايقاع العلم فكيف حصل الجهل فثبت أن الموجد للدواعى والبواعث هو الله تعالى ثم ان الداعية ان كانت سائقة الى الخير كانت سعادة وان كانت سائقة الى الشر كانت شقاوة (الوجه الثانى) لهم فى الجواب قولهم وكنا قوما ضالين وهذا الضلال الذى جعلوه كالعلة فى اقدامهم على التكذيب ان كان هو نفس ذلك التكذيب لزم تعليل الشئ بنفسه وهو باطل وان لم يبق الا أن يكون ذلك الضلال عبارة عن شئ آخر ترتب عليه فعلهم وما ذاك الا خلق الدواعى الى الضلال ثم ان القوم لما أوردوا هذين العذرين قال لهم سبحانه اخسؤا فيها ولا تكلمون وهذا صريح قولنا فى أن المناظرة مع الله تعالى غير جائزة بل لا يسأل عما يفعل قال القاضى فى قوله ربنا غلبت علينا شقوتنا دلالة على أنهم لا عذر لهم الا الاعتراف فلو كان كفرهم من خلقه تعالى وبارادته وعلموا ذلك لكانوا إذا يذكروا ذلك أحد وإلى العذر أقرب فنقول قد بينا أن الذى ذكروه ليس الا ذلك ولكنهم مقرون أن لا عذر لهم فلا جرم قال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون أما قوله ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون فالمعنى أخرجنا من هذه الدار التى هى دار الدنيا فان عدنا الى الاعمال السيئة فانا ظالمون فان قيل كيف يجوز أن يطلبوا ذلك وقد علموا أن عقابهم دائم قلنا يجوز أن يلهمهم السهو عن ذلك فى أحوال شدة العذاب فيسألون الرجعة ويحتمل أن يكون مع علمهم بذلك يسألون ذلك على وجه العبث والاستهزاء كما قوله اخسؤا فيها فالمعنى ذلوا فيها وانزجروا كما ينزجر الكلاب اذا زجرت يقال خسأ الكلب وخسأ نفسه أما قوله ولا تكلمون فليس هذا نهيا لانه لا تكليف فى الآخرة بل المراد لا تكلمون فى رفع العذاب فانه لا يرفع ولا يخفف قيل هو آخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك الا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن لهم ست دعوات اذا دخلوا النار قالوا ألف سنة ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا فيجابون حق القول منى فيدعون ألف سنة قائمة ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فيجابون ذلك بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم فيدعون ألفا ثانية يا مالك ليقض علينا ربك فيجابون انكم ماكثون فيدعون ألفا رابعة ربنا أخرجنا فيجابون أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال فيدعون ألفا خامسة أخرجنا نعمل صالحا فيجابون أولم نعمركم فيدعون ألفا سادسة رب ارجعون فيجابون اخسؤا فيها ثم بين سبحانه وتعالى أن فريقهم بأمر يتصل بالمؤمنين وهو قوله انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا وصف تعالى أحدهما لاجله عذبوا

(٣١ - تفسير س)

أرضنا كقوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها (من بعدهم) أى من بعد اهلاكهم وقرئ ليهلكن وليسكننكم بالياء اعتبارا للوحى كقولهم حلف زيد ليخرجن غدا (ذلك) اشارة الى الموحى به وهو اهلاك الظالمين واسكان المؤمنين ديارهم أى ذلك الامر محقق ثابت (لمن خاف مقامى) موقفى وهو الموقف الذى يقف

الظالمين فى الكفر من أوائل الامم الكافرة التى نقلت مقالاتهم الشنيعة دون جميعهم كقولهم شعيب واضرابهم ولذلك لم يقل وقالوا (لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا) لم يقنعوا بايسارهم الرسل ومعاندتهم الحق بعد ما رأوا البينات الفائتة للحصر حتى اجترؤا على مثل هاتيك العظيمة التى لا يكاد يحيط بها دائرة الامكان غلظوا على أن يكون أحد الخطابين والعود اما بمعنى مطلق الصيرورة أو باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل وقد مر فى الاعراف وسيأتى فى الكهف (فأوحى اليهم) أى الى الرسل (ربهم) مالك أمرهم عند تناهى كفر الكفرة وبلوغهم من العتو والى غاية لا مطمع بعدها فى ايمانهم (لنهلكن الظالمين) على اضمار القول أو على اجراء الايحاء مجرى قوله لنكونن ضربا منه (ولنسكننكم الارض) أى أرضهم وديارهم عقوبة لهم بقولهم لنخرجنكم من

فيه العباد يوم يقوم الناس لرب العالمين أو قبامي عليه وحفظي لاعمالة وقيل لفظ المقام مفعم (وخاف وعيد) وعيدي بالعذاب أو عذابي الموعود للكفار والمعنى أن ذلك حق للمتقين كقوله والعاقبة للمتقين (واستفتحوا) أى استنصروا الله على أعدائهم كقوله تعالى ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح أو استحكموا وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهى الحكومة كقوله تعالى ربنا افتح بيننا وبين قومنا

بالحق فالضمير للرسل وقيل للكفرة وقيل للفريقين فانهم سألوا أن ينصر المحق ويهلك المبطل وهو معطوف على أوحى اليهم وقرئ بلفظ الامر عطفا على قالوا لكن أى أوحى اليهم وربهم انهاكن الظالمين وقال لهم استفتحوا (وخاب) أى خسر وهلك (كل جبار عنيد) متصف بضد ما اتصف به المتقون أى فنصروا عند استفتاحهم وظفروا بما سألوا واولوا فلهوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم المعاندون فالعنيد بمعنى مطلق الجرمان دون الجرمان عن المطلوب أو ذلك باعتبار أنهم كانوا يزعمون أنهم على الحق أو استفتح الكفار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا وانما قيل وخاب كل جبار عنيد ذما لهم وتسجيلا عليهم بالتجبر والعناد لا أن بعضهم ليس كذلك وأنه لم يصبهم الخيبة أو استفتحوا جميعا فنصر الرسل وأنجز لهم الوعد وخاب كل عات متمرد فالخيبة بمعنى الحرمان غب الطلب وفى اسناد الخيبة الى كل منهم مالا يخفى من المبالغة (من ورائه جهنم) أى بين يديه فانه مرصد لها واقف على شفيرها فى الدنيا سيعوث اليها فى الآخرة ان وقيل من وراء حياته وحقيقته ما توارى عنك (ويسقى) معطوف على مقدر جوابا عن سؤال سائل كأنه قيل فماذا يكون اذن فقيل يلقى فيها ويسقى (من ماء) مخصوص لا كالمياه المعهودة (صديد) وهو قيح أو دم مختلط بدقيق يسيل من الجرح قال مجاهد وغيره هو

مايسيل من أجساد أهل النار وهو عطف بيان لما أبهم أولا ثم بين بالصديد تهويلا لامره وتخصيصه بالذكر من بين عذابها يدل على أنه من أشد أنواعه (يتجرعه) قبل هو صفة لماء أو حال منه والاظهر أنه استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا يفعل به فقيل يتجرعه أي يتكلف جرعه مرة بعد أخرى لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه (ولا يكاد يسيغه) ٢٤٣ أي لا يقارب أن يسيغه فضلا عن الاساغة بل ينغص به فيشربه بعد اللتيا والتي جرعة بعد جرعة فيطول عذابه تارة بالمرارة والعطش وأخرى بشربه على تلك الحال فان السوغ اشتد ارار الشراب في الحلق بسهولة وقبول نفس ونفيه لا يوجب نفي ماذكر جميعا وقيل لا يكاد يدخله في جوفه وعبر عنه بالاساغة لما أنها المعهودة في الاشربة وهو حال من فاعل يتجرعه أو من مفعوله أو منهما جميعا (ويأتيه الموت) أي أسبابه من الشدائد (من كل مكان) ويحيط به من جميع الجهات أو من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وابهام رجله (وما هو بميت) أي والحال أنه ليس بميت حقيقة كما هو الظاهر من مجيء أسبابه لا سيما من جميع الجهات حتى لا يتألم بما غشيه من أصناف الموبقات (ومن ورائه) من بين يديه (عذاب غليظ) يستقبل كل وقت عذاب أشد وأشق مما كان قبله فقيه دفع ما يتوهم من الخلفة بحسب الاعتياد كما في عذاب الدنيا وقيل هو الخلود في النار وقيل هو حبس الانفاس وقيل المراد بالاستفتاح والحمية استسقاء أهل مكة في سنيهم التي أرسلها الله تعالى عليهم بدعوته عليه الصلاة والسلام وخيبتهم في ذلك وقد وعدهم بدل ذلك صديد أهل النار (مثل الذين كفروا بربهم) أي صفتهم وحالهم العجيبة الشأن التي هي كالمثل في الغرابة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (أعمالهم كرماد) كقولك صفة

ان الجواب لابد وأن يكون بحسب السؤال وانما سئلوا عن موت لا حياة بعده لا في الآخرة وذلك لا يكون الا بعد عذاب النار (والثاني) يحتمل أن يكونوا سئلوا عن قدر اللبث الذي اجتمعوا فيه فلا يدخل في ذلك تقدم موت بعضهم على بعض فيصح أن يكون جوابهم لبثنا يوما أو بعض يوم عند أنفسنا أما قوله فاسأل العادين ففيه وجوه (أحدها) المراد بهم الحفظة وانهم كانوا يحصون الاعمال وأوقات الحياة ويحسبون أوقات موتهم وتقدم من تقدم وتأخر من تأخر وهو معنى قول عكرمة فاسئل العادين أي الذين يحسبون (وثانيها) فاسئل الملائكة الذين يعدون أيام الدنيا وساعاتها (وثالثها) أن يكون المعنى سل من يعرف عدد ذلك فانا قد نسيناه (ورابعها) قرئ العادين بالتخفيف أي الظلمة فانهم يقولون مثل ما قلنا (وخامسها) قرئ العادين أي القدماء المعمرين فانهم يستقصرونها فكيف بمن دونهم أما قوله ان لبثتم الا قليلا فالمعنى انهم قالوا البثنا يوما أو بعض يوم على معنى أنا لبثنا في الدنيا قليلا فكأنه قيل لهم صدقتم ما لبثتم فيها الا قليلا لانها انقضت ومضت فظهر أن الغرض من هذا السؤال تعريف قلة أيام الدنيا في مقابلة أيام الآخرة فأما قوله تعالى لو أنكم كنتم تعلمون فيمن في هذا الوجه انه أراد انه قليل لو علمتم البعث والحشر لكنكم لما أنكرتم ذلك كنتم تعدونه طويلا ثم بين تعالى ما هو في التوبيخ أعظم بقوله أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ قال صاحب الكشاف عبثا حال أي عابثين كقوله لاعبين أو مفعول له أي ما خلقناكم للعبث ﴿المسئلة الثانية﴾ انه سبحانه لما شرح صفات القيامة ختم الكلام فيها بإقامة الدلالة على وجودها وهي انه لولا القيامة لما تميز المطيع من العاصي والصديق من الزنديق وحينئذ يكون خلق هذا العالم عبثا وأما الرجوع الى الله تعالى فالمراد الى حيث لا مالك ولا حاكم سواه لانه رجوع من مكان الى مكان لاستحالة ذلك على الله تعالى ثم انه تعالى نزه نفسه عن العبث بقوله تعالى فتعالى الله الملك الحق والملك هو المالك للاشياء الذي لا يبيد ولا يزول ملكه وقدرته وأما الحق فهو الذي يحق له الملك لان كل شيء منه وإليه وهو الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه وبين انه لا الٰه سواه وان ما عداه فمصيره الى الفناء وما يفنى لا يكون الٰها وبين انه تعالى رب العرش الكريم قال أبو مسلم والعرش ههنا السموات بما فيها من العرش الذي تطوف به الملائكة ويحوز أن يعني به الملك العظيم وقال الاكثرون المراد هو العرش حقيقة وانما وصفه بالكريم لان الرحمة تنزل منه والخير والبركة وإسناده الى أكرم الاكرمين كما يقال بيت كريم اذا كان ساكنوه كراما وقرئ الكريم بالرفع ونحوه ذو العرش المجيد ﴿قوله تعالى﴾ ومن يدع مع الله الٰها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴿اعلم أنه سبحانه لما بين انه هو الملك الحق لا الٰه الا هو أتبعه بأن من ادعى الٰها آخر فقد أدعى باطلا من حيث لا برهان لهم فيه وفيه بذلك على ان كل ما لا برهان فيه لا يجوز اثباته وذلك يوجب صحة النظر وفساد التقليد ثم ذكر ان من قال بذلك فجزاؤه العقاب العظيم بقوله فانما حسابه عند ربه كأنه قال ان عقابه بالغ الى حيث لا يقدر أحد على حسابه الا الله تعالى وقرئ أنه لا يفلح بفتح الهمزة ومعناه حسابه عدم الفلاح جعل فاتحة السورة قد أفلح المؤمنون وخاتمتها انه لا يفلح الكافرون وشتان ما بين الفاتحة والخاتمة ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بان يقول رب اغفر وارحم ويثني عليه بانه خير الراحمين وقد تقدم بيان انه سبحانه خير الراحمين فان قيل كيف تتصل هذه الخاتمة بما قبلها قلنا لانه سبحانه لما شرح أحوال الكفار في جهلهم في الدنيا وعنادهم في الآخرة أمر بالانقطاع الى الله تعالى والالتجاء الى دلائل غفرانه ورحمته فانهما العاصمان عن كل الآفات والمخافات وروى ان أول سورة قد أفلح المؤمنون وآخرها من كنوز العرش من عمل

زيد عرضه ممهتوك وماله منهوب وهو استئناف مبنى على سؤال من قال مابال أعمالهم التى عملوها فى وجوه البر من صلة الارحام واعتاق الرقاب وفداء الاسارى واغاثة الملهوفين وقرى الاضياف وغير ذلك مما هو من باب المكارم حتى آل أمرهم الى هذا المآل فأجيب بأن ذلك كرماد (اشتدت به الريح) ٢٤٤ حملته وأسرعت الذهاب به (فى يوم عاصف) العصف اشتداد الريح وصف به زمانها مبالغة حكقولك ليلة ساكرة وانما السكور لريحها شبهت صنائعهم المعدودة لابتنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى والايمان به والتوجه بها اليه تعالى برماد ـــــ برته الريح العاصفة أو استئناف مسوق لبيان أعمالهم للاصنام أو مبتدأ خبره محذوف كما هو رأى سيبويه أى فيما يتلى عليك مثلهم وقوله أعمالهم جملة مستأنفة مبنية على سؤال من يقول كيف مثلهم فقيل أعمالهم كيت وكيت سواء أريد بها صنائعهم أو أعمالهم لاصنامهم وقيل أعمالهم بدل من مثل الذين وقوله كرماد خبره (لا يقدرون) أى يوم القيامة ـــــ (مما كسبوا) من تلك الاعمال (على شئ) مما أى لا يرون له أثرا من ثواب أو تخفيف عذاب كمد أب الرماد الذكور وهو فذلكة المثيل والا كتفاء ببيان عدم رؤيه الاثر لاعمالهم للاصنام مع أن لها عقوبات هائلة للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى وفيه تهكم بهم (ذلك) أى ماذل عليه التمثيل دلالة واضحة من ضلالهم مع والحدوث حسبانهم أنهم على شئ (هو الضلال البعيد) عن طريق الحق والصواب أو عن نيل الثواب (ألم تر) خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته وقيل لكل أحد من الكفرة أقوله تعالى يذهبكم والرؤية رؤيه القلب وقوله تعالى (أن الله خلق السموات والارض) ساد

بثلاث آيات من أولها وانحط بأربع من آخرها فقد نجوا وأفلح والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب والحمد لله وحده وصلاته على خير خلقه سيدنا محمد وآله وأصحابه وأزواجه وعترته وأهل بيته

﴿سورة النور مدنية كلها وهى ثنتان وقيل أربع وستون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾ قرأ العامة سورة بالرفع وقرأ طلحة ابن مصرف بالنصب أما الذين قرؤا بالرفع فالجمهور قالوا الابتداء بالنكرة لا يجوز والتقدير هذه سورة أنزلناها أو تقول سورة أنزلناها مبتدأ موصوف والخبر محذوف أى فيما أوحينا اليك سورة أنزلناها وقال الاخفش لا يبعد الابتداء بالنكرة فسورة مبتدأ وأنزلناها خبره ومن نصب فعلى معنى الفعل يعنى اتبعوا سورة أو تل سورة أو أنزلنا سورة وأما معنى السورة ومعنى الانزال فقد تقدم * فان قيل الانزال انما يكون من صعود الى نزول فهذا يدل على انه تعالى فى جهة * قلنا الجواب من وجوه (أحدها) ان جبريل عليه السلام كان يحفظها من اللوح المحفوظ ثم ينزلها عليه صلى الله عليه وسلم فلهذا جاز أن يقال أنزلناها توسعا (وثانيها) ان الله تعالى أنزلها من أم الكتاب الى السماء الدنيا دفعة واحدة ثم أنزلها بعد ذلك نجوما على لسان جبريل عليه السلام (وثالثها) معنى أنزلناها أى أعطيناها الرسول كما يقول العبد اذا كلم سيده رفعت اليه حاجتى كذلك يكون من السيد الى العبد الانزال قال الله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه أما قوله وفرضناها فالمشهور قراءة التخفيف وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتشديد أما قراءة التخفيف فالفرض هو القطع والتقدير قال الله تعالى فنصف ما فرضتم أى قدرتم ان الذى فرض علينك القرآن أى قدرتم ان السورة لا يمكن فرضها لانها قد دخلت فى الوجود وتحصيل الحاصل محال فوجب أن يكون المراد وفرضنا ما بين فيها وانما قال ذلك لان أكثر ما فى هذه السورة من باب الاحكام والحدود فلذلك عقبها بهذا الكلام وأما قراءة التشديد فقال الفراء التشديد للمبالغة والتكثير اما المبالغة فمن حيث انها حدود وأحكام فلابد من المبالغة فى ايجابها ليحصل الانقياد لقبولها وأما التكثير فلوجهين (أحدهما) ان الله تعالى بين فيها أحكاما مختلفة (والثانى) أنه سبحانه وتعالى أوجبها على كل المكلفين الى آخر الدهر أما قوله وأنزلنا فيها آيات بينات ففيه وجوه (أحدها) انه سبحانه ذكر فى أول السورة أنواعا من الاحكام والحدود وفى آخرها دلائل التوحيد فقوله وفرضناها اشارة الى الاحكام التى بينها أولا ثم قوله وأنزلنا فيها آيات بينات اشارة الى ما بين من دلائل التوحيد والذى يؤكد هذا التأويل قوله لعلكم تذكرون فان الاحكام والشرائع ما كانت معلومة لهم ليؤمروا بتذكرها أما دلائل التوحيد فقد كانت كالمعلومة لهم لظهورها فأمروا بتذكرها (وثانيها) قال أبو مسلم يجوز أن تكون الآيات البينات ما ذكر فيها من الحدود والشرائع كقوله رب اجعل لى آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا سألت ربه أن يفرض عليه عملا (وثالثها) قال القاضى ان السورة كما اشتملت على على الواجبات فقد اشتملت على كثير من المباحات بأن بينها الله تعالى ولما كان بيانه سبحانه لهم مفصلا وصف الآيات بأنها بينات أما قوله تعالى لعلكم تذكرون فقرئ بتشديد الذال وتخفيفها ومعنى لعل قد تقدم فى سورة البقرة قال القاضى لعل بمعنى كى وهذا يدل على انه سبحانه أراد من جميعهم أن يتذكروا (والجواب) أنه سبحانه لو أراد ذلك من الكل لما قوى دواعيهم الى جانب المعصية ولو لم توجد تلك التقوية لزم وقوع الفعل لا لمرجح ولو جاز ذلك لما جاز الاستدلال بالامكان

والحدوث علی وجود المرجح ویلزم نفی الصانع واذا کان کذلک وجب حمل لعل علی سائر الوجوه المذکورة فی سورة البقرة واعلم أنه سبحانه ذکر فی هذه السورة أحکاما کثیرة (الحکم الاول) قوله تعالی ﴿الزانیة والزانی فاجلدوا کل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذکم بهما رأفة فی دین الله ان کنتم تؤمنون بالله والیوم الآخر ولیشهد عذابهما طائفة من المؤمنین﴾ اعلم أن قوله تعالی الزانیة والزانی رفعهما علی الابتداء والخبر محذوف عند الخلیل وسیبویه علی معنی فیما فرض الله علیکم الزانیة والزانی أی فاجلدوهما ویجوز أن یکون الخبر فاجلدوا وأما دخلت الفاء لکون الالف واللام بمعنی الذی وتضمنه معنی الشرط تقدیره التی زنت والذی زنی فاجلدوهما کما تقول من زنا فاجلدوه وقرئ بالنصب علی اضمار فعل یفسره الظاهر وقرئ والزان بلا یاء واعلم أن الکلام فی هذه الآیة علی نوعین (أحدهما) ما یتعلق بالشرعیات (والثانی) ما یتعلق بالعقلیات ونحن نأتی علی البیان بقدر الطاقة ان شاء الله تعالی ﴿النوع الاول﴾ الشرعیات واعلم أن الزنا حرام وهو من الکبائر ویدل علیه أمور (أحدها) أن الله تعالی قرنه بالشرک وقتل النفس فی قوله تعالی والذین لا یدعون مع الله الها آخر ولا یقتلون النفس التی حرم الله الا بالحق ولا یزنون ومن یفعل ذلک یلق أثاما وقال ولا تقربوا الزنا انه کان فاحشة وساء سبیلا (وثانیها) أنه تعالی أوجب المائة فیها بکلمها بخلاف حد القذف وشرب الخمر وشرع فیه الرجم ونهی المؤمنین عن الرأفة وأمر بشهود الطائفة للتشهیر وأوجب کون تلک الطائفة من المؤمنین لان الفاسق من صلحاء قومه أجهل (وثالثها) روی حذیفة عن النبی صلی الله علیه وسلم قال یا معشر الناس اتقوا الزنا فان فیه ست خصال ثلاث فی الدنیا وثلاث فی الآخرة أما التی فی الدنیا فیذهب البهاء ویورث الفقر وینقص العمر وأما التی فی الآخرة فسخط الله سبحانه وتعالی وسوء الحساب وعذاب النار وعن عبد الله قال قلت یا رسول الله أی الذنب أعظم عند الله قال أن تجعل لله ندا وهو خلقک قلت ثم أی قال وأن تقتل ولدک خشیة أن یأکل معک قلت ثم أی قال وأن ترنی بحلیلة جارک فأنزل الله تعالی تصدیقها والذین لا یدعون مع الله الها آخر ولا یقتلون النفس التی حرم الله الا بالحق ولا یزنون واعلم أنه یجب البحث فی هذه الآیة عن أمور (أحدها) عن ماهیة الزنا (وثانیها) عن أحکام الزنا (وثالثها) عن الشرائط المعتبرة فی کون الزنا موجبا لتلک الاحکام (ورابعها) عن الطریق الذی به یعرف حصول الزنا (وخامسها) أن المخاطبین بقوله فاجلدوهم من هم (وسادسها) أن الرجم والجلد المأمور بهما فی الزنا کیف یکون حالهما ﴿البحث الاول﴾ عن ماهیة الزنا قال بعض أصحابنا انه عبارة عن ایلاج فرج فی فرج مشتهی طبعا محرم قطعا والدبر لیس فرجا لما سیأتی فرجا لما فیه من الانفراج وهذا المعنی حاصل فی الدبر أکثر مما فی الفرج لان فی العرف لا تسمی اللواطة زنا ولکن هذا لا یقدح فی أصل اللغة کما یقال هذا طیب ولیس بعالم مع أن الطیب علم وأما المعنی فلان الزنا قضاء للشهوة من محل مشتهی طبعا علی جهة المحرم المحض وهذا موجود فی اللواط لان القبل والدبر یشتهیان لانهما یشترکان فی المعانی التی هی متعلق الشهوة من الحرارة واللین وضیق المدخل ولذلک فان من یقول بالطبائع لا یفرق بین المحلین وانما الفرق هو الشرع فی التحریم والتحلیل فهذا حجة من قال اللواط داخل تحت اسم الزنا وأما الاکثرون من أصحابنا

من قدر علی خلق مثل هاتیک الاجرام العظیمة کان علی تبدیل خلق آخر بهم أقدر ولذلک قال (وماذلک) أی ذهابکم والاتیان بخلق جدید (علی الله بعزیز) بمتعذر أو متعسر بل هو قادر لذاته علی جمیع الممکنات لاختصاص له بمقدور دون مقدور ومن هذا شأنه حقیق بأن یؤمن به ویرجی ثوابه ویخشی عقابه (وبرزوا لله جمیعا) أی یبرزون یوم القیامة وایثار صیغة الماضی للدلالة علی تحقق وقوعه کما فی قوله سبحانه ونادی أصحاب الجنة أصحاب النار أولانه لا ماضی ولا استقبال بالنسبة الیه سبحانه والمراد برزوهم من قبورهم لأمر الله تعالی ومحاسبته أولانه علی ظنهم فانهم کانوا یظنون عند ارتکابهم الفواحش سرا انها تخفی علی الله سبحانه فاذا کان یوم القیامة انکشفوا لله عند أنفسهم (فقال الضعفوا) الاتباع جمع ضعیف والمراد ضعف الرأی وانما کتب بالواو

علی لغة من یفعم الالف قبل الهمزة (للذین استکبروا) لرؤسائهم الذین استتبعوهم واستغووهم (انا کنا) فی الدنیا (لکم تبعا) فی تکذیب الرسل علیهم السلام والاعراض عن نصائحهم وهو جمع تابع کغیب فی جمع غائب أو مصدر نعت به مبالغة أو علی اضمار ای ذوی تبع (فهل أنتم مغنون) دافعون (عنا) والفاء للدلالة علی سببیة الاتباع للاغناء والمراد النوبیخ والتقریع والتبکیت

(من عذاب الله من شئ) من الاولى للبيان واقعة موقع الحال والثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول أى بعض الشئ الذى هو عذاب الله تعالى ويجوز كونهما للتبعيض أى بعض شئ هو بعض عذاب الله والاعراب كما سبق ويجوز أن تكون الاولى مفعولا والثانية مصدرا أى فهل أنتم مغنون عنا بعض ٢٤٦ العذاب بعض الاغناء وبعض الاول قوله تعالى فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار

(قالوا) أى المستكبرون جوابا عن معاتبة الاتباع واعتذارا عما فعلوا بهم (لو هدانا الله) أى للايمان ووفقنا له (لهديناكم) ولكن ضللنا فأضللناكم أى اخترنا لكم ما اخترناه لانفسنا أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنينا عنكم كما عرضنا لكم ولكن سدوا دوننا طريق الخلاص ولات حين مناص (سواء علينا أجزعنا) مما لقينا (أم صبرنا) على ذلك أى مستوعلينا الجزع والصبر فى عدم الانجاء والمغزة وأم لتأكيد التسوية كما فى قوله تعالى سواء عليهم أانذرتهم أم لم تنذرهم وانما أسندوها ونسبوا استواءهما الى ضمير المتكلم المنتظم للخاطبين أيضا مبالغة فى النهى عن التوبيخ باعلام أنهم شركاؤهم فيما ابتلوا به وتسلية لهم ويجوز أن يكون قولهم سواء علينا الخ من كلام الفريقين على منوال قوله تعالى ذلك ليعلم أنى لم أخنه وأن الله لا يهدى كيد الخائنين فيجزعون نحسا ثة عما فعلوا فلا ينفعهم فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون كذلك فلا ينفعهم فعند ذلك يقولون ذلك

ولما كان عتاب الاتباع من باب الجزع ذيلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى فى ذلك فقالوا (ما لنا من محيص) من مفر ومهرب من العذاب من حاص الحمار اذا عدل فى الفرار وهو اما اسم مكان كالمبيت والمصيف أو مصدر كالمغيب والمشيب وهى جملة معترضة لا محل لها من

فقد سلموا أن اللواط غير داخل تحت اسم الزنا واختجوا عليه بوجوه (أحدها) العرف المشهور من أن هذا لواط وليس بزنا وبالعكس والاصل عدم التغيير (وثانيها) لو حلف لا يزنى فلاط لا يحنث (وثالثها) أن الصحابة اختلفوا فى حكم اللواط وكانوا عالمين باللغة فلو سمى اللواط زنا لاغناهم نص الكتاب فى حد الزنا عن الاختلاف والاجتهاد وأما الحديث فهو محمول على الاشتهار لدليل قوله عليه الصلاة والسلام اذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان وقال عليه الصلاة والسلام اليدان تزنيان والعينان تزنيان وأما القياس فبعيد لان الفرج وان كان سببا قريبا لما فيه من الانفراج فلا يجب أن يسمى كل ما فيه انفراج بالفرج الا ترى أن الفم والعين قد يوجد فى بعض أنواعهم سمى الانجم فجما الفهور بما سموا كل ظاهر فجما وسموا الجنين جنينا لاستتاره وما سموا كل مستتر جنينا واعلم أن للشافعى رحمه الله فى فعل اللواط قولان (أصحهما) عليه حد الزنا ان كان محصنا يرجم وان لم يكن محصنا يجلد مائة ويغرب عاما (وثانيهما) يقتل الفاعل والمفعول به سواء كان محصنا أو لم يكن محصنا وهو قول على رضى الله عنه وابن عباس رضى الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام قال من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به ثم فى كيفية قتله أوجه (أحدها) تحرز قبته كالمرتد (وثانيها) يرجم بالحجارة وهو قول مالك وأحمد واسحق (وثالثها) يهدم عليه جدار وروى ذلك عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه (ورابعها) يرمى من شاهق جبل حتى يموت وروى ذلك عن على عليه السلام وأعادوا الوجوه لان الله تعالى عذب قوم لوط بكل ذلك فعال تعالى فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل وعند أبى حنيفة رحمه الله لا يحد اللوطى بل يعذر أما المفعول به فان كان عاقلا بالغا طائعا فان قلنا على الفاعل القتل فيقتل المفعول به على صفة قتل الفاعل للخبر وان قلنا على الفاعل حد الزنا فعلى المفعول به مائة جلدة وتغريب عام محصنا كان أو غير محصن وقيل ان كانت امرأة محصنة تعليها الرجم وليس بصحيح لانها لا تصير محصنة بالتمكين فى الدبر فلا يلزمها حد المحصنات كما لو كان المفعول به ذكرا لحجة الشافعى رحمه الله على وجوب الحد من وجوه (الاول) أن اللواط اما أن يساوى الزنا فى الماهية أو يساويه فى لوازم هذه الماهية واذا كان كذلك وجب الحد (بيان الاول) قوله عليه الصلاة والسلام اذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان واللفظ دل على كون اللائط زانيا واللفظ الدال بالمطابقة على ماهية دال بالالتزام على حصول جميع لوازمها ودلالة المطابقة والالتزام مشتركان فى أصل الدلالة فاللفظ الدال على حصول الزنا دال على حصول جميع اللوازم ثم بعد هذا ان تحقق مسمى الزنا فى اللواط وجب دخول تحت قوله الزانية والزانى فاجلدوا وان لم يتحقق مسمى الزنا وجب أن يتحقق لوازم مسمى الزنا لما ثبت أن اللفظ الدال على تحقق ماهية دال على تحقق جميع تلك اللوازم ترك العمل به فى حق الماهية فوجب أن يبقى معمولا به فى الدلالة على جميع تلك اللوازم لكن من لوازم الزنا وجوب الحد فوجب أن يتحقق ذلك فى اللواط أكثر ما فى الباب أنه ترك العمل بذلك فى قوله عليه الصلاة والسلام اذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان لكن لا يلزم من ترك العمل هناك تركه ههنا (الثانى) أن اللائط يجب قتله فوجب أن يقتل رجما (بيان الاول) قوله عليه السلام من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل منهما والمفعول به (وبيان الثانى) أنه لما وجب قتله وجب أن يكون زانيا والا لما جاز قتله لقوله عليه السلام لا يحل دم امرئ مسلم الا لاحدى ثلاث وههنا لم يوجد كفر بعد اعان ولا قتل نفس بغير حق فلم يوجد الزنا بعد الاحصان لوجب أن لا يقتل واذا ثبت أنه وجد الزنا بعد الاحصان وجب الرجم لهذا الحديث (الثالث) نقيس اللواط على الزنا والجامع أن الطبع داع اليه لما فيه من الالتذاذ وهو قبيح فيناسب الزجر والحد يصلح زاجرا عنه قالوا والفرق من وجهين (أحدهما) أنه وجد فى

الزنا

الاستوء فلا محل لها من الاعراب أو حال مؤكدة أو بدل منه (وقال الشيطان) الذي أضل كلا الفريقين واستتبعهما عند باعتناء بما قاله الاتباع للمستكبرين (لما قضي الامر) أي أحكم وفرغ منه وهو الحساب ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار خطيبا في محفل الاشقياء من الثقلين (ان الله وعدكم وعد الحق) أي وعدا من حقه أن يفي وتجزه ٢٤٧ او وعدا أنجزه وهو الوعد بالبعث والجزاء (ووعدتكم) أي وعد الباطل وهو أن لا بعث ولا جزاء ولئن كان فالاصنام شفعاؤكم ولم يصح ببطلانها لما دل عليه قوله (فأخلفتكم) أي موعدي على حذف المفعول الثاني أي نقضته جعل خلف وعده كالاخلاف منه كأنه كان قادرا على انجازه وأبى له ذلك (وما كان لي عليكم من سلطان) أي نسلط أو حجة تدل على صدقي (الا أن دعوتكم) الا دعائي اياكم اليه وتسويله وهو وان لم يكن من باب السلطان لكنه أبرزه في صورته على طريقة

* تحية بينهم ضرب وجيع *

مبالغة في نفي السلطان عن نفسه كأنه قال انما يكون لي عليكم سلطان اذا كان مجرد الدعاء من بابه ويجوز كون الاستثناء منقطعا (فاستجبتم لي) فأسرعتم اجابتي (فلا تلوموني) بوعدي اياكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القسر والالجاء كما يدل عليه الفاء وقرئ بالياء

الزنا داعيات فكان وقوعه أكثر فسادا فكانت الحاجة الى الزجر أتم (الثاني) أن الزنا يقتضي فساد الانساب (والجواب) الفاؤه ما يوطء المجوز الشوهاء واحتج أبو حنيفة رحمه الله بوجوه (أحدها) اللواط ليس بزنا على ما تقدم فوجب أن لا يقتل لقوله عليه الصلاة والسلام لا يحل دم امرئ مسلم الا لاحدى ثلاث (وثانيها) أن اللواط لا يساوي الزنا في الحاجة الى شرع الزاجر ولا في الجناية فلا يساويه في الحد بيان عدم المساواة في الحاجة أن اللواطة وان كانت ترغب فيهم الفاعل لكن لا يرغب فيهم المفعول طبعا بخلاف الزنا فان الداعي حاصل من الجانبين وأما عدم المساواة في الجناية فلان في الزنا اضاعة النسب ولا كذلك اللواط اذا ثبت هذا فوجب أن لا يساويه في العقوبة لان الدليل ينفي شرع الحد لكونه ضررا ترك العمل به في الزنا فوجب أن يبقى في اللواط على الاصل (وثالثها) أن الحد كالبدل عن المهر فلما لم يتعلق باللواط المهر فكذا الحد (والجواب) عن الاول أن اللواط وان لم يكن مساويا للزنا في ماهيته لكن يساويه في الاحكام وعن الثاني أن اللواط وان كان لا يرغب فيه المفعول لكن ذلك بسبب اشتداد رغبة الفاعل لان الانسان حريص على ما منع وعن الثالث انه لا يدمن الجامع والله أعلم (المسئلة الثانية) أجمعت الامة على حرمة اتيان البهائم وللشافعي رحمه الله في عقوبته أقوال (أحدها) يجب به حد الزنا فيرجم المحصن ويجلد غير المحصن ويغرب (والثاني) انه يقتل محصنا كان أو غير محصن لما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه فقيل لابن عباس ما شأن البهيمة فقال ما أراه قال ذلك الا لانه كره أن يؤكل لحمها وقد عمل بها ذلك العمل (والقول الثالث) وهو الاصح وهو قول أبي حنيفة ومالك والثوري وأحمد رحمهم الله ان عليه التعزير لان الحد شرع للزجر عما تميل النفس اليه وهذا الفعل لا تميل النفس اليه وضعفوا حديث ابن عباس رضي الله عنهما لضعف اسناده وان ثبت فهو معارض بما روى انه عليه السلام نهى عن ذبح الحيوان الا لاكله (المسئلة الثالثة) السحق من النسوان واتيان المرأة والاستمناء باليد لا يشرع فيهما الا التعزير (الجهة الثانية) من أحكام الزنا واعلم انه كان في أول الاسلام عقوبة الزاني الحبس الى الممات في حق الثيب والاذى بالكلام في حق البكر قال الله تعالى واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فاعرضوا عنهما ثم نسخ ذلك بجعل حد الزنى على الثيب الرجم وحدا البكر الجلد والتغريب ولنذكر هاتين المسئلتين (المسئلة الاولى) الخوارج أنكروا الرجم واحتجوا فيه بوجوه (أحدها) قوله تعالى فعليهن نصف ما على المحصنات فلو وجب الرجم على المحصن لوجب نصف الرجم على الرقيق لكن الرجم لا نصف له (وثانيها) أن الله سبحانه ذكر في القرآن أنواع المعاصي من الكفر والقتل والسرقة ولم يستقص في أحكامها كما استقصى في بيان أحكام الزنا الا ترى أنه تعالى نهى عن الزنا بقوله ولا تقربوا الزنا ثم توعد عليه ثانيا بالنار كما في كل المعاصي ثم ذكر الجلد ثالثا ثم خص الجلد بوجوب احضار المؤمنين رابعا ثم خصه بالنهي عن الرأفة عليه بقوله ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله خامسا ثم أوجب على من رمى مسلما بالزنا ثمانين جلدة سادسا ولم يجعل ذلك على من رماه بالقتل والكفر وهما أعظم منه ثم قال سابعا ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ثم ذكر ثامنا من رمى زوجته ما يوجب اللعان واستحقاق غضب الله تعالى ثم ذكر تاسعا أن الزانية لا يتكحها الا الزان أو مشرك ثم ذكر عاشرا أن ثبوت الزنا مخصوص بالشهود الاربعة فمع المبالغة في استقصاء أحكام الزنا قللا وكثيرا لا يجوز اهمال ما هو أجل أحكامها وأعظم آثارها ومعلوم أن الرجم لو كان مشروعا لكان أعظم

على وجه الالتفات كما في قوله تعالى حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم (ولوموا أنفسكم) حيث استجبتم لي باختياركم حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل بمجرد تزيين وتسويل ولم تستجيبوا ربكم اذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبينات والجمع وليس مراده التفصيل عن توجه اللائمة اليه بالمرة بل بيان أنهم أحق بها منه وليس فيه دلالة على استقلال العبد في أفعاله كما زعمت المعتزلة بل يكفي في ذلك أن يكون

القدرية الكاسبة التي علم بها دور ذلك التكليف مدخل فيه فالله سبحانه انما يخالق أفعال حسبما يختاره وعليه تترتب السعادة والشقاوة وما قيل من أنه يستدعي أن يقال فلا تلوموني ولوموا أنفسكم فان الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه مبني على عدم الفرق بين مذهب أهل الحق وبين مسلك الجبرية

(ما أنا بمصرخكم) أي بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب (وما أنتم بمصرخي) مما أنا فيه وانما تعرض لذلك مع أنه لم يكن في حيز الاحتمال مبالغة في بيان عدم اصراخه اياهم وايذانا بانه أيضا مبتلى بمثل ما ابتلوا به ومحتاج الى الاصراخ فكيف من اصراخ الغير ولذلك آثر الجملة الاسمية فكأنه قيل ما مضى كان جوابا منه عن توبيخهم وتقريعهم وهذا جواب عن استغاثتهم واستعانتهم به في استدفاع مادهمهم من العذاب وقرئ بكسر الياء (اني كفرت) اليوم (بما أشركتموني من قبل) أي باشراككم اياي عصى تبرأت منه واستنكرته كقوله تعالى ويوم القيامة يكفرون بشرككم يعني أن أشراكم لي بالله سبحانه هو الذي يطمعكم في نصرتي لكم بان كان لكم علي حق حيث جعلتموني معبودا وكنت أود ذلك وأرغب فيه فاليوم كفرت بذلك ولم أحمده ولم أقبله منكم بل تبرأت منه ومنكم فلم يبق بيني وبينكم علاقة أو كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتموني به وهو الله تعالى كما في قوله سبحان ما تعركن لنا فتكون تعليلا لعدم اصراخه فان الكافر بالله سبحانه يعزل من الاغاثة قال

الآثار فحيث لم يذكره الله تعالى في كتابه دل على أنه غير واجب (وثانيها) قوله تعالى الزانية والزاني فاجلدوا يقتضي وجوب الجلد على كل الزناة ويحاب الرجم على البعض بخبر الواحد فيقتضي تخصيص عموم الكتاب بخبر الواحد وهو غير جائز لان الكتاب قاطع في متنه وخبر الواحد غير قاطع في متنه والمقطوع راجح على المظنون واحتج الجمهور من المجتهدين على وجوب رجم المحصن لما ثبت بالتواتر أنه عليه الصلاة والسلام فعل ذلك قال أبو بكر الرازي روى الرجم أبو بكر وعمر وعلي وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وبريدة الاسلمي وزيد بن خالد في آخرين من الصحابة وبعض هؤلاء الرواة روى خبر رجم ماعز وبعضهم خبر الغامدية والغامدية وقال عمر رضي الله عنه لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لاثبته في المصحف (والجواب عما احتجوا به أولا) أنه مخصوص بالجلد فان قيل فليرجم تخصيص القرآن بخبر الواحد قلنا لما ثبت بالتواتر لما بينا أن الرجم منقول بالتواتر وأيضا فقد بينا في أصول الفقه أن تخصيص القرآن بخبر الواحد جائز (والجواب عن الثاني) أنه لا يستبعد تجدد الاحكام الشرعية بحسب تجدد المصالح فلعل المصلحة التي تقتضي وجوب الرجم حدثت بعد نزول تلك الآيات (والجواب عن الثالث) انه نقل عن علي عليه السلام انه كان يجمع بين الجلد والرجم وهو اختيار أحمد واسحق وداود واحتجوا عليه بوجوه (أحدها) ان عموم هذه الآية يقتضي وجوب الجلد والتخصيص بالتواتر يقتضي وجوب الرجم ولا منافاة فوجب الجمع (وثانيها) قوله عليه السلام البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة (وثالثها) روى أبو بكر الرازي في أحكام القرآن عن ابن جريج عن ابن الزبير عن جابر ان رجلا زنى بامرأة فامر به النبي صلى الله عليه وسلم فجلد ثم أخبر النبي صلى الله عليه وسلم انه كان محصنا فامر به فرجم (ورابعها) روى ان عليا رضي الله عنه جلد شراحة الهمدانية ثم رجمها وقال جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم واعلم ان أكثر المجتهدين متفقون على ان المحصن يرجم ولا يجلد واحتجوا عليه بامور (أحدها) قصة العسيف فانه عليه السلام قال يا أنيس اغد الى امرأة هذا فان اعترفت فارجمها ولم يذكر الجلد ولو وجب الجلد مع الرجم لذكره (وثانيها) ان قصة ماعز روي من جهات مختلفة ولم يذكر في شيء منها مع الرجم جلد ولو كان الجلد معتبرا مع الرجم لجلده النبي عليه السلام ولو جلده لنقل كما نقل الرجم اذ ليس أحدهما بالنقل أولى من الآخر وكذا في قصة الغامدية حين أقرت بالزنا فرجمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن وضعت ولو جلدها لنقل ذلك (وثالثها) ما روى الزهري عن عبيد الله بن عتبة عن ابن عباس رضي الله عنهم قال قال عمر رضي الله عنه قد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم في كتاب الله تعالى فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله تعالى وقد قرأنا الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجمنا بعده فأخبر أن الذي فرضه الله تعالى هو الرجم ولو كان الجلد واجبا مع الرجم لذكره (أما الجواب عن التمسك بالآية) فهو أنها مخصوصة في حق المحصن وتخصيص عموم القرآن بالخبر المتواتر غير ممتنع وأما قوله عليه السلام الثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة فلعل ذلك كان قبل قوله يا أنيس اغد الى امرأة هذا فان اعترفت فارجمها وأما أنه عليه السلام جلد أمرأة ثم رجمها فلعله عليه السلام ما علم احصانها فجلدها ثم لما علم احصانها رجمها وهو الجواب عن فعل علي عليه السلام فهذا ما يمكن من التكلف في هذه الآية والله أعلم (المسألة الثانية) قال الشافعي رحمه الله يجمع بين الجلد والتغريب في حد البكر وقال أبو حنيفة رحمه الله يجلد وأما التغريب ففوض الى رأي الامام وقال مالك يجلد الرجل ويغرب وتجلد المرأة ولا تغرب حجة الشافعي رحمه الله حديث عبادة أنه عليه السلام

والاعانة سواء كان ذلك بالمدافعة أو الشفاعة واما جعله تعليلا لعدم اصراخهم اياه فلاوجه له اذ لا احتمال له حتى يحتاج الى التعليل ولان تعليل عدم اصراخهم بكفرهم يوهم أنهم بسبيل من ذلك لولا المانع من جهته (ان الظالمين لهم عذاب أليم) تتمة كلامه أو ابتداء

كلام من جهة الله عز وجل وفي حكايته أمثاله لطف للسامع في ايقاظ فهم حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها بإذن ربهم) أي بأمرك أو بتوفيقه وهدايته وفي التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة إلى ضميرهم اظهار مزيد اللطف بهم والمدخلون هم الملائكة عليهم السلام ٢٤٩ وقرئ على صيغة المتكلم فيكون قوله تعالى بإذن ربهم متعلقا بقوله تعالى (تحيتهم فيها سلام) أي تحييهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم (ألم تر) الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وقد علق عما بعده من قوله تعالى (كيف ضرب الله مثلا) أي كيف اعتمده ووضعه في موضعه اللائق به (كلمة طيبة) منصوب بمضمر أي جعل كلمة طيبة هي كلمة التوحيد أو كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتسمية والدعوة (كشجرة طيبة) أي حكم بأصالتها لا الله تعالى ضرب مثلها في الخارج وهو تفسير لقوله ضرب الله مثلا لفوائل شرف الامر بيدا كساء حلة وحمله على فرس ويجوز أن يكون كلمة بدلا من مثلا والكشجرة صفتها أو خبر مبتدا محذوف أي هي كشجرة وأن يكون أول مفعولي ضرب أجراه مجرى جعل فلا حاجة إلى تقدير أحد مفعوليه أعني مثلا لئلا يبعد عن صفته التي هي كشجرة وقد قرئت بالرفع على الابتداء (أصلها ثابت) أي ضارب بعروقه في الارض وقرأ أنس بن مالك رضي الله عنه كشجرة طيبة ثابت أصلها وقراءة الجماعة أقوى سبكا وأنسب بقرينتها عني قوله تعالى (وفرعها) أي أعلاها (في السماء) في جهة العلو ويجوز أن يراد وفروعها على الاكتفاء بلفظ الجنس عن الجمع (تؤتي أكلها) تعطي ثمرها (كل حين) وقته الله تعالى لاثمارها (بإذن

قال خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم بالحجارة وبدل أيضا عليه ما روى أبو هريرة رضي الله عنه وزيد بن خالد أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان ابني كان عسيفا على هذا وزنى بامرأته فافتديت منه بوليدة ومائة شاة ثم أخبرني أهل العلم ان على ابني جلد مائة وتغريب عام وان على امرأة هذا الرجم فقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لاقضين بينكما بكتاب الله أما الغنم والوليدة فرد عليك وأما ابنك فان عليه جلد مائة وتغريب عام ثم قال لرجل من أسلم اغد يا أنيس إلى امرأة هذا فان اعترفت فارجمها واحتج أبو حنيفة رحمه الله على نفي التغريب بوجوه (أحدها) ان ايجاب التغريب يقتضي نسخ الآية بوسع القرآن بخبر الواحد لا يجوز وقد روا النسخ من ثلاثة أوجه (الاول) انه سبحانه رتب الجلد على فعل الزنا بالفاء وحرف الفاء للجزاء الا أن أئمة اللغة قالوا اليمين تغير الله ذكر شرط وجزاء وفسروا الشرط بالذي دخل عليه كلمة ان والجزاء بالذي دخل عليه حرف الفاء والجزاء اسم لما يقع به الكفاية ماخوذ من قولهم جازاه بناه أي كافاه ناه وقال عليه السلام تجزيك ولا تجزي أحدا بعدك أي تكفيك ومنه قول القائل احترقت الابل بالعشب عن الماء وانما تقع الكفاية بالجلد اذا لم يجب معه شيء آخر فاما اذا وجب شيء آخر يقتضي نسخ كونه كافيا (الثاني) أن المذكور في الآية انما كان هو الجلد فقط كان ذلك هو كمال الحد فلو جعلنا النفي معتبرا مع الجلد لكان الجلد بعض الحد لا كل الحد فيفضي الى نسخ كونه كل الحد (الثالث) ان يقدر كون الجلد كمال الحد فانه يتعلق بذلك رد الشهادة ولو جعلناه بعض الحد لم يتعلق به ذلك الحكم فثبت أن ايجاب التغريب يقتضي نسخ الآية (وثانيها) قال أبو بكر الرازي لو كان النفي مشروعا مع الجلد لوجب على النبي صلى الله عليه وسلم عند تلاوة الآية أو قت الصحابة عليه لئلا يعتقدوا عند سماع الآية ان الجلد هو كمال الحد ولو كان كذلك لكان اشتهاره مثل اشتهار الآية فلما لم يكن خبر النفي بهذه المنزلة بل كان وروده من طريق الآحاد علم أنه غير معتبر (وثالثها) ماروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الامة اذا زنت فاجلدوها ثم ان زنت فاجلدوها ثم ان زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بظفير وفي رواية أخرى فليجلدها الحد ولا تثريب عليه ووجه الاستدلال به انه لو كان النفي ثابتا لذكره مع الجلد (ورابعها) انه اما أن يشرع التغريب بسبب في حق الامة أو لا يشرع ولا جائز أن يكون مشروعا لانه يلزم منه الاضرار بالسيد من غير جناية صدرت منه وهو غير جائز ولانه قال صلى الله عليه وسلم بيعوها ولو بظفير ولو جعلنا التغريب مشروعا لما جاز بيعها لان الممكنة من تسليمها الى المشتري لا تبقى بالنفي ولا جائز أن لا يكون مشروعا لقوله تعالى فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب (وخامسها) أن التغريب لو كان مشروعا في حق الرجل لكان اما أن يكون مشروعا في حق المرأة أو لا يكون والثاني باطل لان التساوي في الجناية قد وجد في حقهما وان كان مشروعا في حق المرأة فاما أن يكون مشروعا في حقها وحدها أو مع ذي محرم والاول غير جائز للنص والمعقول أما النص فقوله عليه السلام لا يحل لامرأة أن تسافر من غير ذي محرم وأما المعقول فهو أن الشهوة غالبة في النساء والانزجار بالدين انما يكون في الخواص من الناس فان الغالب لعدم الزنا من النساء انما هو لوجود الحفاظ من الرجال وحيائهن من الاقارب وبالتغريب تخرج المرأة من أيدي القرباء والحفاظ ثم يقل حياؤها بعدها عن معارفها فينقطع عليها باب الزنا فربما كانت فقيرة فيشتد فقرها في السفر فيصير مجموع ذلك سببا للفتح باب هذه الفاحشة العظيمة عليها ولا جائز أن يقال انا نغربها مع الزوج أو المحرم لان عقوبة غير الجاني لا تجوز لقوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى (وسادسها) ماروى عن عمر أنه

ربها) بإرادة خالقها والمراد بالشجرة المنعوتة ما النخلة كما روى مرفوعا أو شجرة في الجنة (ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون) لان في ضربها زيادة افهام وتذكير فانه تصوير للمعاني بصور المحسوسات (ومثل كلمة خبيثة) هي كلمة الكفر والدعاء اليه أو تكذيب الحق أو مايعم الكل أو كل كلمة قبيحة ٢٥٠ (كشجرة خبيثة) أي كمثل شجرة خبيثة قيل هي كل شجرة لا يطيب ثمرها كالحنظل والكشوث ونحوهما وتغيير الاسلوب للايذان بأن ذلك غير مقصود بالضرب والبيان وانما ذلك أمر ظاهر يعرفه كل أحد (اجتثت) استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية (من فوق الارض) لكون عروقها قريبة منه (مالها من قرار) استقرار عليها (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكن في قلوبهم وهو الكلمة الطيبة التي ذكرت صفتها العجيبة (في الحياة الدنيا) فلا يزالون عند اذا افتتنوا في دينهم كزكريا ويحيى وجرجيس وشمعون والذين قتلهم أصحاب الاخدود (وفي الآخرة) فلا يتلعثمون اذا سئلوا عن معتقدهم في الموقف ولا تدهشهم أهوال القيامة أو عند سؤال القبر * روى أنه عليه الصلاة والسلام ذكر قبض روح المؤمن فقال ثم يعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره فيقولون من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربي الله وديني الاسلام ونبي محمد صلى الله عليه وسلم فينادي منادمن السماء انه صدق عبدي فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وهذا مثال اثبات الشجرة المذكورة أكلها كل حين قال الثعلبي في تفسيره أخبرني أبو القاسم بن حبيب في سنة ست وثمانين وثلثمائة وقال سمعت أبا الطيب محمد بن علي الخياط يقول سمعت سهل بن عمار العمي يقول رأيت يزيد بن هرون في منامي

غرب ربيعة بن أمية بن خلف في الخمر الى خيبر فلحق بهرقل فقال عمر لا أغرب بعدها أحدا ولم يستثن الزنا وروى عن علي رضي الله عنه أنه قال في البكرين اذا زنيا يجلدان ولا ينفيان وأن نفيهم ما من الفتنة وعن ابن عمر أن أمة له زنت فجلدها ولم ينفها ولو كان النفي معتبرا في حد الزنا لما خفي ذلك على أكابر الصحابة (وسادتها) ماروى أن شيخا وجد على بطن جارية يحنث بها في خربة فأتي به الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اجلدوه مائة فقيل انه أضعف من ذلك فقال خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه بها وخلوا سبيله ولو كان النفي واجبا لنفاه فان قيل انما لم ينفه لانه كان ضعيفا عاجزا عن الحركة قلنا كان ينبغي أن يكفري له دلية من بيت المال وينفى عليها فان قيل كان عسيبي يضعف عن الركوب قلنا من قدر على الزنا كيف لا يقدر على الاستمساك (وثامنها) ان التغريب نظير القتل لقوله تعالى أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ثم لما لم يشرع القتل في زنا البكر وجب أن لا يشرع أيضا نظيره وهو التغريب (والجواب عن الاول) أنه ليس في كلام الله تعالى الا ادخال حرف الفاء على الامر بالجلد فاما ان الذي دخل عليه هذا الحرف فانه يسمى جزاء فليس هذا من كلام الله ولا من كلام رسوله بل هو قول بعض الادباء فلا يكون حجة أما قوله ثانيا لو كان النفي مشروعا لما كان الجلد كل الحد فنقول لا نزاع في انه زال امر مالان اثبات كل شئ لا أقل من أن يقتضي زوال عدمه الذي كان الا أن الزائل ههنا ليس حكما شرعيا بل الزائل محض البراءة الاصلية ومثل هذا الزائل لا يمتنع اثباتها بخبر الواحد وانما قلنا ان الزائل محض العدم الاصلي وذلك لان ايجاب الجلد مفهوم مشترك بين ايجاب الجلد مع ايجاب التغريب وبين ايجابه مع نفي التغريب والقدر المشترك بين القسمين لا شعار له بواحد من القسمين فاذن ايجاب الجلد لا شعار فيه البتة لا بايجاب التغريب ولا بعدم ايجابه الا أن نفي التغريب كان معلوما بالعقل نظرا الى البراءة الاصلية فاذا جاء خبر الواحد دل على وجوب التغريب فما زال البتة شئ من مدلولات اللفظ الدال على وجوب الجلد بل أزال البراءة الاصلية فأما كون الجلد وحده مجزيا وكونه وحده كمال الحد وتعلق رد الشهادة عليه فكل ذلك تابع النفي ووجوب الزيادة فلما كان ذلك النفي معلوما بالعقل جاز قبول خبر الواحد فيه كما أن الفروض لو كانت خمسا لتوقف على أدائها الخروج عن عهدة التكليف وقبول الشهادة ولو زيد فيها شئ آخر لتوقف الخروج عن العهدة وقبول الشهادة على أداء تلك الزيادة مع انه يجوز اثباته بخبر الواحد والقياس فكذا ههنا أما قوله ثالثا لو قال الله تعالى الجلد كمال الحد وعلمنا انها وحدها متعلق رد الشهادة فلا يقبل ههنا في اثبات الزيادة خبر الواحد لان نفي وجوب الزيادة ثبت بدليل شرعي متواتر (والجواب عن الثاني) أنه لو صح ما ذكره لوجب في كل ما خص عن آية عامة أن يبلغ في الاشتهار مبلغ تلك الآية وهو معلوم انه ليس كذلك (والجواب عن الثالث) ان قوله ثم يعودها لا يفيد التعقيب فلعلها تنفى ثم بعد النفي تباع (والجواب عن الرابع) انه معارض بما روى الترمذي في جامعه انه عليه السلام جلد وغرب وأن أبا بكر جلد وغرب (والجواب عن الخامس) ان للشافعي رحمه الله في تغريب العبد قولين (أحدهما) لا يغرب لانه عليه السلام قال اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولم يأمر بالتغريب ولان التغريب للعبرة ولا عبرة في العبد فيه لانه ينقل من يد الى يد ولان منافعه للسيد ففي نفيه اضرار بالسيد (والثاني) وهو الاصح انه يغرب لقوله تعالى فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ولا ينظر الى ضرر المولى كما يقتل العبد بسبب الردة ويجلد العبد في الزنا والقذف وان تضرر به المولى فعلى هذا كم يغرب فيه قولان (أحدهما) يغرب نصف سنة لانه يقبل التنصيف كما يجلد نصف حد الاحرار (والثاني) يغرب سنة لان التغريب المقصود

منه

بعده وتقات ما فعل الله بك قال أتاني في قبري ملكان فقالا من ربك وما دينك ومن نبيك فأخذت بلحيتي البيضاء فقلت لهما ألمثلي يقال هذا وقد علمت الناس جوابكما فما بين ستة فذهبا (ويضل الله الظالمين) أي يخلق فيهم الضلال عن الحق الذي ثبت المؤمنين عليه حسب ارادتهم واختيارهم والمراد بهم الكفرة بدليل ما يقابله ووصفهم بالظلم ٢٥١ أما باعتبار وضعهم للشيء في غير موضعه

منه الايحاش وذلك معنى يرجع الى الطبع فيستوي فيه الحر والعبد كذا الايلاء والعنة (والجواب عن السادس) ان المرأة لا تغرب وحدها بل مع محرم فان لم يتبرع المحرم بالخروج معها أعطى أجرته من بيت المال وان لم يكن لها محرم تغرب مع النساء الثقات كما يجب عليهما الخروج الى الحج معهن قوله التغريب يفتح عليها باب الزنا قلنا لا نسلم فان أكثر الزنا بالالف والمؤانسة وفراغ القلب وأكثر هذه الاشياء تبطل بالغربة فان الانسان يقع في الوحشة والتعب والنصب فلا يتفرغ للزنا (والجواب عن السابع) أي استبعاد في ان يكون الانسان الذي يحترز عن ركوب الدابة يقدر على الزنا (والجواب عن الثامن) انه ينتقض بالتغريب اذا وقع على سبيل التعزير والله أعلم (المسألة الثالثة) اتفقت الامة على ان قوله سبحانه وتعالى الزانية والزاني يفيد الحكم في كل الزناة لكنهم اختلفوا في كيفية تلك الدلالة فقال قائلون لفظ الزاني يفيد العموم والمختار أنه ليس كذلك ويدل عليه أمور (أحدها) ان الرجل اذا قال لبست الثوب أو شربت الماء لا يفيد العموم (وثانيها) انه لا يجوز تأكيده بجميع وكذا بالجمع فلا يقال جاءني الرجل أجمعون (وثالثها) لا يحسن بتة وقوع الجمع فلا يقال جاءني الرجل الفقراء وتكلم الفقيه الصفار فاما قولهم أهلك الناس الدرهم البيض والدينار الصفر فمجاز بدليل انه لا طارد وايضا فان كان الدينار الصفر حقيقة وجب أن يكون الدينار الاصفر مجازا كما ان الدانير الصفر لما كانت حقيقة كان الدانير الاصفر مجازا (ورابعها) ان الزاني جزئي من هذا الزاني فايجاب جلد هذا الزاني ايجاب جلد الزاني فلو كان ايجاب جلد الزاني ايجابا لجلد كل زان لزم أن يكون ايجاب جلد هذا الزاني ايجاب جلد كل زان ولما لم يكن كذلك بطل ما قالوه فان قيل لم لا يجوز أن يقال اللفظ المطلق اذا عارضه العموم بشرط المراعاة عن لفظ التعميم أو يقال اللفظ المطلق وان اقتضى العموم الا ان لفظ التعيين يقتضي الخصوص قلنا اما الاول فباطل لان العدم لا دخل له في التأثير أما الثاني فلانه يقتضي التعارض وهو خلاف الاصل (وخامسها) ان يقال الانسان هو الضحاك فلو كان المفهوم من قولنا الانسان هو كل الانسان لنزل ذلك منزلة ما يقال كل انسان هو الضحاك وذلك متناقض لانه يقتضي حصر الانسانية في كل واحد من الناس وهي الحصة وأن يثبت فيه لا في غيره فلزم ان يصدق على كل واحد من اشخاص الناس انه هو الضحاك لا غير واجيب المخالف بوجهين (الاول) انه يجوز الاستثناء منه لقوله تعالى ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل تحته (الثاني) ان الالف واللام للتعريف وليس ذلك لتعريف الماهية فان ذلك قد حصل بأصل الاسم ولا لتعريف واحد بعينه فانه ليس في اللفظ دلالة عليه ولا لتعريف بعض مراتب الخصوص فانه ليس بعض المراتب أولى من بعض فوجب حمله على تعريف الكل (والجواب عن الاول) أن ذلك الاستثناء مجاز بدليل انه لا يصح أن يقال رأيت الانسان الا المؤمنين (وعن الثاني) انه يشكل بدخول الالف واللام على صفة الجمع فان جعلتها هناك للتأكيد فكذا ههنا ومن الناس من قال ان قوله تعالى الزانية والزاني وان كان لا يفيد العموم بحسب اللفظ لكنه يفيده بحسب القرينة وذلك من وجهين (الاول) أن ترتيب الحكم على الوصف المشتق يفيد كون ذلك الوصف علة لذلك الحكم لا سيما اذا كان الوصف مناسبا وههنا كذلك فيدل ذلك على أن الزنا علة لوجوب الجلد فيلزم أن يقال أينما تحقق الزنا تحقق وجوب الجلد ضرورة ان العلة لا تنفك عن المعلول (الثاني) ان المراد من قوله الزانية والزاني اما أن يكون كل الزناة أو البعض فان كان الثاني صارت الآية مجملة ردلك يمنع من امكان العمل به لكن العمل به مأمور به والايتم الواجب الا به فهو واجب فوجب حمله على العموم حتى يمكن العمل به والله أعلم (البحث الثالث) في الشرائط

(ألم تر) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد مما صنع الكفرة من الاباطيل التي لا تكاد تصدر عن له أدنى ادراك أي ألم تنظر (الى الذين بدلوا نعمة الله) أي شكر نعمة الله تعالى بان وضعوا موضعه (كفرا) عظيما وخصالها أو بدلوا نفس النعمة كفرانهم لما كفروها بلبوها فاروا مبدلين بها كفرا كاملا وملكة حيث خلقهم الله سبحانه وأسكنهم حرمه الآمن الذي يجبى اليه ثمرات كل شيء

وجعلهم قوام بيته وشرفهم بمحمد عليه الصلاة والسلام فكفروا ذلك فقحطوا سبع سنين وقتلوا وأسروا يوم بدر فصاروا أذلاء مسلوبي النعمة باقين بالكفر بدلها وعن عمر وعلي رضي الله عنهما هما الأخران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية أما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين كانهما ينتأ ولان ما سبق لي من قوله عز وجل قل تمتعوا الآية (وأحلوا) أي أنزلوا

(قومهم) بارشادهم إياهم إلى طريقة الشرك والضلال وعدم التعرض لحلولهم لدلالة الاحلال عليه إذ هو فرع الحلول كقوله تعالى يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار (دار البوار) دار الهلاك الذي لا هلاك وراءه (جهنم) عطف بيان لها وفي الايهام ثم البيان ما لا يخفى من التهويل (يصلونها) حال منها أو من قومهم أي داخلين فيها مقاسين حرها أو استئناف لبيان كيفية الحلول أو مفسر لمعنى يقدر ناصبا لجهنم فالمراد بالاحلال المذكور حينئذ تمريضهم للهلاك بالقتل والاسر لكن قوله تعالى قل تمتعوا فان مصيركم إلى النار أنسب بالتفسير الاول (وبئس القرار) على حذف المخصوص بالذم أي بئس المقر جهنم أو بئس القرار قرارهم فيها وفيه بيان أن حلولهم وصليهم على وجه الدوام والاستمرار (وجعلوا) عطف على أحلوا وما عطف عليه داخل معهما في حيز الصلة وحكم التعجيب أي جعلوا في اعتقادهم وحكمهم (لله) الفرد الصمد الذي ليس كمثله شئ وهو الواحد القهار (أندادا) فلا

المعتبرة في كون الزنا موجبا للرجم تارة والجلد أخرى فنقول اجمعوا على أن كون الزنا موجبا للحد بين الحكمين مشروط بالعقل وبالبلوغ فلا يجب الرجم والحد على الصبي والمجنون وهذان الشرطان ليسا من خواص هذين الحكمين بل هما معتبران في كل العقوبات أما كونهما موجبين للرجم فلان مع العقل والبلوغ من أمور أخر (الشرط الاول) الحرية وأجمعوا على أن الرقيق لا يحصن عليه الرجم البتة (الشرط الثاني) التزوج بنكاح صحيح فلا يحصل الاحصان بالاصابة بملك اليمين ولا بوطء الشبهة ولا بالنكاح الفاسد (الشرط الثالث) الدخول ولا بد منه لقوله عليه السلام الثيب بالثيب وانما نص بهما بالوطء وهو هنا مستلزمان (المسئلة الاولى) هل يشترط أن تكون الاصابة بالنكاح بعد البلوغ والحرية والعقل فيه وجهان (أحدهما) لا يشترط حتى لو أصاب عبد أمة نكاح صحيح أو في حال الجنون والصغر ثم كمل حاله فزنى يجب عليه الرجم لانه وطء يحصل به التحلل للزوج الاول فيحصل به الاحصان كالوطء في حال الكمال ولان عقد النكاح يجوز أن يكون قبل الكمال فكذلك الوطء (والثاني) وهو الاصح وهو ظاهر النص وقول أبي حنيفة رحمه الله يشترط أن تكون الاصابة بالنكاح بعد البلوغ والحرية والعقل لانه لما شرط أكمل الاصابات وهو أن يكون بنكاح صحيح شرط أن يكون تلك الاصابة في حال الكمال (المسئلة الثانية) هل يعتبر الكمال في الطرفين أو يعتبر في كل واحد منهما كماله بنفسه دون صاحبه فيه قولان (أحدهما) معتبر في الطرفين حتى لو وطئ الصبي بالغة حرة عاقلة فانه لا يحصنها وهو قول أبي حنيفة ومحمد (والثاني) يعتبر في كل واحد منهما كماله بنفسه وهو قول أبي يوسف رحمه الله (حجة القول الاول) انه وطء لا يفيد الاحصان لاحد الواطئين فلا يفيد في الآخر كوطء الامة (حجة القول الثاني) انه لا يشترط كونهما على صفة الاحصان وقت النكاح وكذا عند الدخول (الشرط الرابع) الاسلام ليس شرطا في كون الزنا موجبا للرجم عند الشافعي رحمه الله وفي أبي يوسف وقال أبو حنيفة رحمه الله شرط احتج الشافعي بامور (أحدها) قوله عليه السلام فاذا قبلوا الجزية فانهم سلموا ان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ومن جملة ما على المسلم كونه بحيث يجب عليه الرجم عند الاقدام على الزنا فوجب أن يكون الذمي كذلك لتحصل التسوية (وثانيها) حديث مالك عن نافع عن ابن عمر أنه عليه السلام رجم يهوديا ويهودية وثالثا فاما أن يقال انه عليه السلام حكم بذلك بشريعته أو بشريعة من قبله فان كان الاول فالاستدلال بيّن وان كان الثاني فكذلك لانه صار شرعا له (وثالثها) ان زنا الكافر مثل زنا المسلم فيجب عليه مثل ما يجب على المسلم وذلك لان الزنا محرم قبيح فيناسب الزجر وايجاب الرجم يصلح زاجرا له ولا يبقى الا التفاوت بالكفر والايمان والكفر وان كان لا يوجب تغليظ الجناية فلا يوجب تخفيفها واحتج أبو حنيفة رحمه الله بوجوه (أحدها) التمسك بعموم قوله الزانية والزاني وجب العمل به في حق المسلم ولا يجب في الذمي لمعنى مفقود في الذمي ووجه الفرق ان القتل بالاحجار عقوبة عظيمة فلا يجب الا بجناية عظيمة والجناية تعظم كفران النعم في حق الجاني عقلا وشرعا أما العقل فلان المعصية كفران النعمة وكلما كانت النعم أكثر وأعظم كان كفرانها أعظم وأقبح وأما الشرع فلان الله تعالى قال في حق نساء النبي صلى الله عليه وسلم يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين فلما كانت نعم الله تعالى في حقهن أكثر كان العذاب في حقهن أكثر وقال في حق الرسول لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات وانما عظمت معصيته لان النعمة في حقه أعظم وهي نعمة النبوة ومن المعلوم أن نعم الله تعالى في حق المسلم المحصن أكثر منها في حق الذمي فكانت معصية المسلم أعظم فوجب أن تكون عقوبته أشد (وثانيها) ان الذمي لم يزن بعد الاحصان

اضلالهم لقومهم المؤدي الى احلالهم دار البوار لتثنية التعجب وتكريروا الانذار بان كلا واحد من وضع الكفر موضع الشكر واحلال القوم دار البوار واتخاذ الانداد للاضلال أمر يقضي منه العجب ولو سبق النظم على نسق الوجود لرجا منهم التعجب من مجموع الثلاث كما في قصة البقرة وقرئ ليضلوا بالفتح وأيا ما كان فليس ذلك غرضا حقيقيا ٢٥٣ لهم من اتخاذ الانداد لكن لما كان

فلا يجب عليه القتل (بيان الاول) قوله عليه السلام من أشرك بالله طرفة عين فليس بمحصن (بيان الثاني) ان المسلم الذي لا يكون محصنا لا يجب عليه القتل لقوله عليه السلام لا يحل دم امرئ مسلم الا لاحدى ثلاث واذا كان المسلم كذلك وجب أن يكون الذمي كذلك لقوله عليه السلام اذا بذلوا عقد الجزية فأعلمهم ان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين (وثالثها) أجمعنا على ان احصان القذف يعتبر فيه الاسلام فكذا احصان الرجم والجامع ما ذكرنا من تكامل النعمة (والجواب عن الاول) أنه خص عنه الثيب المسلم فكذا الثيب الذمي وما ذكروه من حديث زيادة النعمة على المؤمنين فنقول نعمة الاسلام حصلت بكسب العبد فيصير ذلك كالخدمة الزائدة وزيادة الخدمة ان لم تكن سببا للعذر فلا أقل من أن لا تكون سببا لزيادة العقوبة (وعن الثاني) لانسلم ان الذمي مشرك سلمناه لكن الاحصان قد يراد به التزوج لقوله تعالى والذين يرمون المحصنات وفي التفسير فاذا أحصن يعني فاذا تزوجن اذا ثبت هذا فنقول الذمي الثيب محصن بهذا التفسير فوجب رجمه لقوله صلى الله عليه وسلم أو زنا بعد احصان رتب الحكم في حق المسلم على هذا الوصف فدل على كون الوصف علة والوصف قائم في حق الذمي فوجب كونه مستلزما للحكم بالرجم وعن الثالث ان سد القذف لدفع العار كرامة للمقذوف والكافر لا يكون محلا للكرامة وصيانة العرض بخلاف ما ههنا والله أعلم * أما ما يتعلق بالمقدمة فمسائل (المسئلة الاولى) اتفقوا على ان الرقيق لا يرجم واتفقوا على انه يجلد وثبت بنص الكتاب ان على الامة نصف ما على المحصنات من العذاب فلا جرم اتفقوا على ان الامة تجلد خمسين جلدة أما العبد فقد اتفق الجمهور على انه يجلد أيضا خمسين لان أهل الظاهر فانهم قالوا عموم قوله الزانية والزاني يقتضي وجوب المائة على العبد والامة الا أنه ورد النص بالتنصيف في حق الامة فلو قسنا العبد عليها كان ذلك تخصيصا للعموم الكتاب بالقياس وانه غير جائز وهم من قال الامة اذا تزوجت فعليها ما على المحصنات من الحد وان لم تتزوج فعليها خمسون جلدة واذا لم تتزوج فعليها المائة ظاهر قوله تعالى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة وذكروا ان قوله فاذا أحصن أي تزوجن فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب (المسئلة الثانية) قال الشافعي وأبو حنيفة رحمهما الله الذمي يجلد وقال مالك رحمه الله لا يجلد لوجوه (أحدها) عموم قوله الزانية والزاني (وثانيها) قوله عليه السلام اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ولو قال أقيموا الحد ودون على ما ملكت أيمانكم ولم يفرق بين الذمي والمسلم (وثالثها) انه عليه السلام رجم اليهوديين فدل الرجم ان كان من شرع محمد صلى الله عليه وسلم فقد حصل المقصود وان كان من شرعهم فلما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم صار ذلك من شرعه وحقيقة هذه المسئلة ترجع الى ان الكفار مخاطبون بفروع الشرائع (الباعث الرابع فيما يدل على صدور الزنا منه) اعلم ان ذلك لا يحصل الا من أحد ثلاثة أوجه اما بان يراه الامام بنفسه أو بأن يقر أو بأن يشهد عليه الشهود أما الوجه الاول وهو ما اذا رآه الامام قال الامام يحيى السنة في كتاب التهذيب لا خلاف ان على القاضي أن يمتنع عن القضاء بعلم نفسه مثل ما اذا ادعى رجل على آخر حقا وأقام عليه بينة والقاضي يعلم انه قد برأه أو ادعى انه قتل أباه وقت كذا وقد رآه القاضي حيا بعد ذلك أو ادعى نكاح امرأة وقد سمعه القاضي طلقها لا يجوز أن يقضي به وان أقام عليه شهودا وهل يجوز للقاضي أن يقضي بعلم نفسه مثل ان ادعى عليه أنها وقد رآه القاضي أقرضه أو سمع المدعي عليه أقر به فيه قولان أصحهما وبه قال أبو يوسف رحمه والمزني رحمهم الله انه يجوز له أن يقضي بعلمه لانه لما جاز له أن يحكم بشهادة الشهود مع علمه على ظن فلأن يجوز بعلم نفسه وهو منه على علم أولى قال الشافعي رحمه الله في كتاب الرسالة أقضي بعلمي وهو أقوى من شاهدين أو بشاهدين وشاهد وامرأتين

ذلك نتيجة له شبيه بالغرض وأدخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعية (قل) تهديدا لأولئك الضالين المضلين وتبكيتا لهم وايذانا بأنهم لشدة باطنهم قبول الحق وفرط انهماكهم في الباطل وعدم ارعوائهم عن ذلك بحال أسقاه بأن يضرب عنهم صفحا ويعطف عنهم عنان المطية ويخلوا وشانهم ولا ينهوا عنه بل يؤمروا بما شرته مبالغة في التخلية والمتاركة ومسارعة الى بيان عاقبته الوخيمة ويقال لهم (تمتعوا) بما أنتم عليه من الشهوات التي من جملتها كفران النعم العظام واستتباع الناس في عبادة الاصنام (فان مصيركم الى النار) ليس الا فلا بد لكم من تعاطي ما يوجب ذلك ويقتضيه من أحوالكم بل هي في الحقيقة صور ما قد حصلها ومثل له حسبما يليق به قوله سبحانه وأحلوا قومهم دار البوار الخ فهو تعليل للامر المأمور به من التهديد الشديد والوعيد الاكيد مالا

يوصف أو قل لهم تصويرا لحالهم وتعبيرا عما يليق بهم الى ذلك تمتعوا ايذانا بأنهم افرطوا انغماسهم في التمتع عاجلهم فيه من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم مأمورون بذلك من قبل آمر الشهوة مذعنون لحكمه منقادون لامره كذا أب مأمور يساوع في شدة أمر مطاع فليس قوله تعالى فان مصيركم الى النار حينئذ تعليلا للامر بل هو جواب شرط يستوجب عليه الكلام كأنه قيل هذه حالكم فان دمتم عليه فان

مصيرهم الى النار وفيه التهديد والوعيد لا في الامر (قل لعبادي الذين آمنوا) خصهم بالاضافة اليه تشريفا لهم وتنبيها على أنهم المنتفعون بوظائف العبودية الموقنون بحتمية وقوعها وترك العاطف بين الامر بالايذان بتباين حالهما باعتبار المقول تهديدا وتشريفا والمقول ههنا محذوف دل عليه الجواب ٢٥٤ أي قل لهم أقيموا وأنفقوا (يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقناهم) أي يديموا على ذلك وفيه ايذان

وهو أقوى من شاهد ويمين أو شاهد ويمين وهو أقوى من النكول ورد اليمين ﴿والقول الثاني﴾ لا يقضي بعلمه وهو قول ابن أبي ليلى لان انتفاء التهمة شرط في القضاء ولم يوجد هذا في المال أما في العقوبات فينظر ان كان ذلك من حقوق العباد كالقصاص وحد القذف هل يحكم فيه بعلم نفسه يرتب على المال ان قلنا هناك لا يقضي فههنا أولى والا فقولان والفرق ان مبنى حقوق الله تعالى على المساهلة والمسامحة ولا فرق على القولين أن يحصل العلم للقاضي في بلد ولايته وزمان ولايته أو في غيره وقال أبو حنيفة رحمه الله ان حصل له العلم في بلد ولايته أو في زمان ولايته له أن يقضي بعلمه والا فلا فنقول العلم لا يختلف باختلاف هذه الاحوال فوجب أن لا يختلف الحكم باختلافها والله أعلم ﴿الطريق الثاني﴾ الاقرار قال الشافعي رحمه الله الاقرار بالزنا مرة واحدة يوجب الحد وقال أبو حنيفة رحمه الله بل لا بد من الاقرار أربع مرات في أربع مجالس وقال أحمد لا بد من الاقرار أربع مرات لكن لا فرق بين أن يكون في أربع مجالس أو في مجلس واحد حجة الشافعي رحمه الله أمران (الاول) قصة العسيف فانه قال عليه السلام فان اعترفت فارجمها وذلك دليل على أن الاعتراف مرة واحدة كاف (الثاني) انه لما أقر بالزنا وجب الحد عليه لقوله عليه السلام اقض بالظاهر والاقرار مرة واحدة يوجب الظهور لا سيما ههنا وذلك لان الصارف عن الاقرار بالزنا قوي لما أنه سبب العار في الحال والالم الشديد في المآل والصارف عن الكذب أيضا قائم وعند اجتماع الصارفين يقوى الانصراف فثبت انه انما أقدم على هذا الاقرار لكونه صادقا وإذا ظهر اندرج تحت الحديث وتحت الآية أو نقيسه على الاقرار بالقتل والردة واحتج أبو حنيفة رحمه الله بوجوه (أحدها) قصة ماعز والاستدلال بها من وجوه (الاول) انه عليه الصلاة والسلام أعرض عنه في المرة الاولى ولو وجب عليه الحد لم يعرض عنه لان الاعراض عن اقامة حد الله تعالى بعد كمال الحجة لا يجوز (الثاني) انه عليه السلام قال لما شهدت على نفسك أربع مرات ولو كان الواجب هو الاربع في ايجاب الحد كان هذا القول لغوا (والثالث) روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لما عز بعدما أقر ثلاث مرات لو أقررت الرابعة لرجمك رسول الله صلى الله عليه وسلم (والرابع) عن بريدة الاسلمي قال كنا معشر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم نقول لو لم يقر ماعز أربع مرات ما رجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم (وثانيها) انهم قاسوا الاقرار على الشهادة فكما أنه لا يقبل في الزنا الا أربع شهادات فكذا في الاقرار به والجامع السعي في كتمان هذه الفاحشة (وثالثها) ان الزنا لا ينتفي الا بأربع شهادات أو أربع أيمان في اللعان خاز أيضا أن لا يثبت الا بالاقرار أربع مرات وبه يفارق سائر الحقوق فانها تثبت بيمين واحد خاز أيضا أن يثبت باقرار واحد ﴿والجواب عن الاول﴾ انه ليس في الحديث الا أنه عليه السلام حكم بالشهادات الاربع وذلك لا ينافي جواز الحكم بالشهادة الواحدة ﴿وعن الثاني﴾ ان الفرق بينهما ان المقذوف لو أقر بالزنا لم يسقط الحد عن القاذف ولولا أن الزنا ثبت لما سقط كما لو شهد اثنان بالزنا لا يسقط الحد عن القاذف حيث لم يثبت به الزنا والله أعلم ﴿والطريق الثالث﴾ الشهادة وقد أجمعوا على انه لا بد من أربع شهادات ويدل عليه قوله تعالى فاستشهدوا عليهن أربعة منكم والكلام فيه سيأتي ان شاء الله تعالى في قوله ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ﴿البحث الخامس﴾ في أن المخاطب بقوله تعالى فاجلدوا من هو أجمعت الامة على أن المخاطب بذلك هو الامام ثم احتجوا بهذا على وجوب نصب الامام قالوا لانه سبحانه أمر باقامة الحد وأجمعوا على انه لا يتولى اقامته الا الامام وما لا يتم الواجب المطلق الا به وكان مقدورا للمكلف فهو واجب فكان نصب الامام واجبا وقد مر بيان هذه الدلالة في قوله والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما بقي ههنا ثلاث مسائل ﴿المسئلة

لكمال مطاوعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم وغاية مسارعتهم الى الامتثال بأمره وقد يوزوا أن يكون المقول يقيموا وينفقوا بحذف لام الامر عنهما وأنا حسن ذلك دون الحذف في قوله

محمد تفد نفسك كل نفس
اذا ما خفت من أمر تبالا

لدلالة قل عليه وقبل مما جاء بالاقيموا وأنفقوا قد أقيم مقامه ما وليس بذاك (سرا وعلانية) منتصبان على المصدرية من الأمر المقدر لا من جواب الامر المذكور أي أنفقوا انفاق سر وعلانية والاحب في الانفاق اخفاء المتطوع به واعلان الواجب والمراد حث المؤمنين على الشكر لنعم الله سبحانه بالعبادة البدنية والمالية وترك التتبع عتاع الدنيا والركون اليها كما هو صنيع الكفرة (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه) فيتاع المقصر ما يتلافى به تقصيره أو يفتدي به نفسه والمقصود نفي عقد المعاوضة بالمرة وتخصيص البيع بالذكر للايجاز مع المبالغة في نفي الانتفاع بالبيع يستلزم انتفاء الشراء على أبلغ وجه

الاولى)

الله سبحانه والظاهر أن دين متعلقة بأنفسها وتذكيرا تبيان ذلك اليوم أتأكيد مضمونه كما في سورة البقرة من حيث أن كلا من فقدان الشفاعة وما يتدارك به التحسر معاوضة وتبعا وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين في الدنيا وعدم الانتفاع بهما من أقوى الدواعي الى الاتيان بما يبقى عوائده وتدوم فوائده من الانفاق في سبيل الله عز وجل ٢٥٥ أو من حيث أن ادخار المال وترك انفاقه

الاولى) قال الشافعي رحمه الله السيد يملك اقامة الحد على مملوكه وهو قول ابن مسعود وابن عمر وفاطمة وعائشة وعند أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد وزفر رحمهم الله لا يملك وقال مالك يحده المولى في الزنا وشرب الخمر والقذف ولا يقطعه في السرقة وانما يقطعه الامام وهو قول الليث واحتج الشافعي رحمه الله بوجوه (أحدها) قوله عليه الصلاة والسلام أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال عليه السلام اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها وفي رواية أخرى فليجلدها الحد قال أبو بكر الرازي لا دلالة في هذه الاخبار لان قوله أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم هو كقوله الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ومعلوم أن المراد منه رفعه الى الامام لاقامة الحد والمخاطبون باقامة الحد هم الائمة وسائر الناس مخاطبون برفع الامر اليهم حتى يقيموا عليهم الحدود وكذلك قوله أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم على هذا المعنى وأما قوله اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها فانه ليس كل جلد حدا الا ان الجلد قد يكون على وجه التعزير فاذا عزرنا فقد وفينا بمقتضى الحديث (والجواب) ان قوله أقيموا الحدود أمر باقامة الحد فعمل هذا اللفظ على رفع الواو مما لى الامام عند ذول عن الظاهر أدعى ما في الباب انه ترك الظاهر في قوله فاجلدوا لكن لا يلزم من ترك الظاهر هناك تركه ههنا أما قوله فليجلدها المراد منه التعزير فباطل لان الجلد المذكور عقيب الزنا لا يفهم منه الا الحد (وثانيها) ان السلطان انما ملك اقامة الحد عليه فسيده به أولى لان تعلق السيد بالعبد أقوى من تعلق السلطان به لان الملك أقوى من عقد البيعة وولاية السادة على السيد فوق ولاية السلطان على الرعية حتى اذا كان للامة سيد وأب فان ولاية النكاح للسيد دون الاب ثم ان الاب مقدم على السلطان في ولاية النكاح فيكون السيد مقدما على السلطان بدرجات فكان أولى ولان السيد يملك من التصرفات في هذا المحل ما لا يملكه الامام فثبت أن المولى أولى (وثالثها) أجمعنا على أن السيد يملك التعزير فكذا الحد لان كل واحد نظير الآخر وان كان أحدهما مقدرا والآخر غير مقدر واحتج أبو بكر الرازي على مذهب أبي حنيفة بوجوه (أحدها) قال قوله تعالى الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا شك انه خطاب مع الائمة دون عامة الناس فالتقدير فاجلدوا أيها الائمة والحكام كل واحد منهما مائة جلدة ولم يفرق في هذه الآية بين المحدودين من الاحرار والعبيد فوجب أن تكون الائمة هم المخاطبون باقامة الحدود على الاحرار والعبيد دون الموالي (وثانيها) انه لو جاز للولي أن يسمع شهادة الشهود على عبده بالسرقة فيقطعه فلو جمعوا عن شهادتهم لوجب أن يتمكن من تعجيز الشهود لان تعجيز الشهود يتعلق بحكم الحاكم بالشهادة لانه لو لم يكن يحكم بشهادتهم لم يضمنوا شيأ فكان يسيرا كما لنفسه بايجاب الضمان عليهم وذلك باطل لانه ليس لاحد من الناس أن يحكم لنفسه فعلمنا ان المولى لا يملك استماع البينة على عبده بذلك ولا قطعه (وثالثها) ان المال الكثير مما لا يستقل في الحد بكماله لشفقته على ملكه واذا كان متهما وجب أن لا يفوض اليه (والجواب عن الاول) ان قوله فاجلدوا ليس بصريح خطابا مع الامام لكن بواسطة انا انعقد الاجماع على ان غير الامام لا يتولاه حملنا ذلك الخطاب على الامام وههنا لم ينعقد الاجماع على أن غير الامام لا يتولاه فلا نسلم عين النزاع (والجواب عن الثاني) قال محيي السنة في كتاب التهذيب هل يجوز للولي قطع يد عبده بسبب السرقة أو قطع الطريق فيه وجهان أصحهما أنه يجوز نص عليه في رواية البويطي لما روى عن ابن عمر أنه قطع عبد له سرق وكما يجلده في الزنا وشرب الخمر والثاني لا يملك القطع الى الامام بخلاف الجلد لان المولى يملك جنس الجلد وهو التعزير ولا يملك جنس القطع ثم قال وكل حد يقيمه المولى على عبده اذا ثبت باعتراف العبد فان كانت عليه بينة فهل يسمع المولى

والطاعة من النعم العظام والمنن الجسام حتما للامرين عليهم اوتقريرا للكثيرة المخلين بها الواضعين موضعها الكفر والمعاصي وفي جعل المبتدا الاسم الجليل واظهار الاسم الموصول بتلك الافاعيل العظيمة من خلق هذه الاجرام العظام وانزال الامطار واخراج الثمرات وما يتلوها من الآثار الجسيمة ما لا يخفى من تربية المهابة والدلالة على قوة السلطان (وأنزل من السماء) أي السحاب فان كل ما علاك سماه أو من

ذلك فان المطر منه ينبت الى الاسباب ومنه الى الارض على ما دلت عليه ظواهر النصوص اومن أسباب سماوية غير الاحزاء الرطبة من أعماق الارض الى الجو فينعقد سحابا اما طرا واما كان فمن ابتدائية (ماء) أى نوعا منه هو المطر وتقديم المجرور على المنصوب اما باعتبار كونه مبدأ للنزول أو لتشويقه كما فى قولك ٢٥٦ أعطاه السلطان من خزائنه مالا أو لمامر مرارا من التشويق الى المؤخر (فأخرج به) بذلك الماء (من الثمرات) الفائتة للحصر اما لان صيغ الجموع يتعاور بعضها موضع بعض واما لانه أريد بفرد منها جماعة الثمرة التى فى قولك أدركت ثمرة بستان فلان (رزقا لكم) تعيشون به وهو بمعنى المرزوق شامل للطعوم والملبوس مفعول لاخرج ومن للتبيين كقولك أنفقت من الدراهم ألفا ويجوز أن يكون من الثمرات مفعولا ورزقا حالا منه أو مصدرا من أخرج بمعنى رزق أو للتبعيض بدليل قوله تعالى فأخرج به من الثمرات كأنه قيل أنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات فيكون بعض رزقكم اذ لم ينزل من السماء كل الماء ولا أخرج بالمطر كل الثمار ولا جعل كل الرزق ثمرا وخروج الثمرات وان كان بمشيئته عز وجل بقدرته لكن جرت عادته تعالى باضافة صورها وكيفياتها على المواد الممتزجة من الماء والتراب أو أودع فى الماء قوة فاعلة وفى الارض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواع الثمار وهو قادر على ايجاد الاشياء بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس الاسباب كذلك لما ان له تعالى فى انشائها مدرجا من طور الى طور صنائع وحكما يجدد فيح الاولى الابصار عبرا وسكونا الى عظيم قدرته ليس ذلك فى ابداعها دفعة وقوله لكم صفة لقوله رزقا ان أريد به المرزوق ومفعول به ان أريد به المصدر كأنه قيل رزقا ايا كم (وسخر لكم

الشهادة فيه وجهان (أحدهما) يسمع لانه ملك الاقامة بالاعتراف فيملك بالبينة كالامام (والثانى) لا يسمع بل ذلك الى الحكام (والجواب عن الثالث) انه ممنوع بالتعزير (المسئلة الثانية) اذا فقد الامام فليس لآحاد الناس اقامة هذه الحدود بل الاولى أن يعينوا واحدا من الصالحين ليقوم به (المسئلة الثالثة) الخارجى المتغلب هل له اقامة الحدود قال بعضهم له ذلك وقال آخرون ليس له ذلك لان اقامة الحد من جهة من لم يلزمنا ان نترك ولايته أعظم من أن نفوض ذلك الى رجل من الصالحين (البحث السادس فى كيفية اقامة الحد) أما الجلد فاعلم أن المذكور فى الآية هو الجلد وهذا مشترك بين الجلد الشديد والجلد الخفيف والجلد على كل الاعضاء أو على بعض الاعضاء فحينئذ لا يكون فى الآية اشعار بشئ من هذه القيود بل مقتضى الآية أن يكون الآتى بالجلد كيف كان خارجا عن العهدة لانه أتى بما أمر به فوجب أن يخرج عن العهدة قال صاحب الكشاف وفى لفظ الجلد اشارة الى أنه لا ينبغى أن يتجاوز الالم الى اللحم ولان الجلد ضرب الجلد يقال جلده كقولك ظهره وبطنه صورا سواه الا أنا لما عرفنا أن المقصود منه الزجر والزجر لا يحصل الا بالجلد الخفيف لا جرم تكلم العلماء فى صفة الجلد على سبيل القياس ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) المحصن يجلد مع ثيابه ولا يجرد ولكن ينبغى أن يكون بحيث يصل الالم اليه وينزع من ثيابه الحشو والفرو روى أن أبا عبيدة بن الجراح أتى برجل فى حد فذهب الرجل ينزع قميصه وقال ما ينبغى لجسدى هذا الذنب أن يضرب وعليه قميص فقال أبو عبيدة لا تدعوه ينزع قميصه فضربه عليه أما المرأة فلا خلاف فى أنه لا يجوز تجريدها بل يربط عليها ثيابها حتى لا تنكشف ويلى ذلك منها المرأة (المسئلة الثانية) لا بد ولا يربط بل يترك حتى يتقى بيديه ويضرب الرجل قائما والمرأة جالسة قال أبو يوسف رحمه الله ضرب ابن أبى ليلى المرأة القاذفة قائمة فأخطأ أبو حنيفة (المسئلة الثالثة) يضرب بسوط وسط لا جديد يجرح ولا خلق لم يؤلم أو يضرب ضربا بين ضربين لا شديد ولا واه روى أبو عثمان النهدى قال أتى عمر برجل فى حد فضربه بسوط فيه شدة فقال أريد ألين من هذا فأتى بسوط فيه لين فقال أريد أشد من هذا فأتى بسوط بين السوطين فرضى به (المسئلة الرابعة) تفرق السياط على أعضائه ولا يجمعها فى موضع واحد واتفقوا على أنه ينبغى أن يتقى المهالك كالوجه والبطن والفرج ويضرب على الرأس عند الشافعى رحمه الله وقال أبو حنيفة رحمه الله لا يضرب على الرأس وهو قول على حجة الشافعى رحمه الله قال أبو بكر اضرب على الرأس فان الشيطان فيه وعن عمر انه ضرب صبيغ بن عسيل على رأسه حين سأل عن الذاريات ثم على وجهه التعت حجة أبى حنيفة رحمه الله أجمعنا على انه لا يضرب على الوجه فكذا الرأس والجامع الحكم والمعنى أما الحكم فلان الشين الذى يلحق الرأس بتأثير الضرب كالذى يلحق الوجه بدليل ان الموضحة وسائر الشجاج حكمها فى الرأس والوجه واحد وفارقا سائر البدن لان الموضحة فيما سوى الرأس والوجه انما يجب فيها حكومة ولا يجب فيها أرش الموضحة الواقعة فى الرأس والوجه فوجب استواء الرأس والوجه فى وجوب صونهما عن الضرب وأما المعنى فهو انا قد منعنا من ضرب الوجه لما كان فيه من الجناية على البصر وذلك موجود فى الرأس لان ضرب الرأس يظلم منه البصر وربما حدث منه الماء فى العين وربما حدث منه اختلاط العقل * أجاب أصحابنا عنه بأن الفرق بين الوجه والرأس ثابت لان الضربة اذا وقعت على الوجه تعظم الجبهة رقيق فربما انكسر بخلاف عظم القفا فانه فى نهاية الصلابة وأيضا العين فى نهاية اللطافة فالضرب عليها يورث العمى وأيضا الضرب على وجهه يكسر الانف لانه من غضروف لطيف ويكسر الاسنان لانها عظام لطيفة ويقع على الخدين وهما لحمان قريبان من الدماغ والضربة عليهما فى نهاية

المطر

الافلاك) بأن أقدركم على مثلها واستعمالها أيكم كيفية ذلك (لتجري في البحر) جريا ثابتا بالارادة منكم (بأمره) بمشيئته التي تنيط بها كل شئ وتخصيصه بالذكر للتنصيص على أن ذلك ليس بمزاولة الاعمال واستعمال الآلات كما يتراءى من ظاهر الحال (وسخر لكم الانهار) ان أريد بها المياه الغطيمة الجارية في الانهار المعلوم كما يومئ اليه ذكرها عند البحر فتسخيرها جعلها مسخرة لانتفاع

الناس حيث يتخذون منها جداول يسقون بها زروعهم وجناتهم وما أشبه ذلك وان أريد بها نفس الانهار فتسخيرها تسييرها لهم (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) بدأبان في سيرهما وآثارهما أصالة وخلافة واصلاحهما لما نيط بهما صلاحه من المكونات (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان خلفة لما كم ومعاشكم ولعقد النهار وانضاجها ذكر سبحانه وتعالى أنواع النعم الفائضة عليهم وأبرز كل واحدة منها في جملة مستقلة تنويها لشأنها وتنبيها على رفعة مكانها وتنصيصا على كون كل منها نعمة جليلة مستوجبة للشكر وفي التعبير عن التسخير بالتسخير المتعلق بما ذكر من الفلك والانهار والشمس والقمر والليل والنهار بالتسخير من الاشعار بما فيها من صعوبة المأخذ وعزة المنال والدلالة على عظم السلطان وشدة المحال ما لا يخفى وتأخير تسخير الشمس والقمر عن تسخير ما تقدمه من

الخطر لسرعة وصول ذلك الا الى جرم الدماغ وكل ذلك لم يوجد في الضرب على الرأس (المسئلة الخامسة) لو فرق سياط الحد تفريقا لا يحصل به التنكيل مثل أن يضرب كل يوم سوطا أو سوطين لا يحسب وان ضرب كل يوم عشرين أو أكثر يحسب والاولى أن لا يفرق (المسئلة السادسة) ان وجب الحد على الحبلى لا يقام حتى تضع روى عمران بن الحصين ان امرأة من جهينة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي حبلى من الزنا فقالت يا نبي الله أصبت حدا فأقمه علي فدعا نبي الله وليها فقال أحسن اليها فاذا وضعت فأتني بها ففعل فأمر بها نبي الله صلى الله عليه وسلم فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها وان المقصود التأديب دون الاتلاف (المسئلة السابعة) ان وجب الجلد على المريض نظر فان كان به مرض يرجى زواله من صداع أو ضعف أو ولادة يؤخر حتى يبرأ كما لو أقيم عليه حد آخر وقطع لا يقام عليه حد آخر حتى يبرأ من الاول وان كان به مرض لا يرجى زواله كالشلل والزمانة فلا يؤخر ولا يضرب بالسياط فانه يموت وليس المقصود موته وذلك لا يختلف سواء كان زنا في حال الصحة ثم مرض أو في حال المرض بل يضرب بعثكال عليه مائة شمراخ فيقوم ذلك مقام مائة جلدة كما قال تعالى في قصة أيوب عليه السلام وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث وعند أبي حنيفة رحمه الله يضرب بالسياط دليلنا ما روي ان رجلا مقعدا أصاب امرأة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ وامائة شمراخ فضربوه بها ضربة واحدة ولان الصلاة وان كانت تختلف باختلاف حاله فالحد أولى بذلك (المسئلة الثامنة) يقام الحد في وقت اعتدال الهواء فان كان في حال شدة حر أو برد نظر ان كان الحد رجما يقام عليه كما يقام في المرض لان المقصود قتله وقيل ان كان الرجم ثبت عليه باقراره فيؤخر الى اعتدال الهواء وزوال المرض الذي يرجى زواله لانه رجما رجع عن اقراره في خلال الرجم وقد أثر الرجم في جسمه فتهن من شدة الحر والبرد والمرض على اهلاكه بخلاف ما لو ثبت بالبينة لانه لا يسقط وان كان الحد جلد الم يجز اقامته في شدة الحر والبرد كما لا يقام في المرض أما الرجم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الشافعي رحمه الله ومالك رحمه الله يجوز للامام أن يحضر رجمه وأن لا يحضر وكذا الشهود لا يلزمهم الحضور وقال أبو حنيفة رحمه الله ان ثبت الزنا بالبينة وجب على الشهود أن يبدؤا بالرجم ثم الامام ثم الناس وان ثبت باقراره بدأ الامام ثم الناس حجة الشافعي رحمه الله ان النبي صلى الله عليه وسلم أمر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما (المسئلة الثانية) ان ثبت الزنا باقراره فتى رجع تركا ووقع به بعض الحد أو لم يقع وبه قال أبو حنيفة رحمه الله والثوري وأحمد واسحق وقال الحسن وابن أبي ليلى وداود لا يقبل رجوعه وعن مالك رحمه الله روايتان حجة القول الاول ان ماعزا لما مسته الحجارة وهرب فقال عليه السلام والسلام فلا تركتموه (المسئلة الثالثة) يحفر للرأة الى صدرها حتى لا تتكشف ويرمى اليها ولا يحفر للرجل لما روى أبو سعيد الخدري أن ماعزا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني أصبت فاحشة فأقم على الحد فرده النبي عليه الصلاة والسلام مرارا ثم سأل قومه فقالوا لا نعلم به بأسا فأمرنا أن نرجمه فانطلقنا به الى بقيع الغرقد فما أوثقناه ولا حفرنا له قال فرميناه بالعظام والمدر والخزف قال فاشتد واشتددنا خلفه حتى أتى عرض الحرة وانتصب لنا فرميناه بجلاميد الحرة حتى سكت وجه الاستدلال أنه قال فما أوثقناه ولا حفرنا له ولانه هرب ولو كان في حفرة لما أمكنه ذلك (المسئلة الرابعة) اذا مات في الحد يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين فهذا ما أردنا ذكره من بيان الاحكام الشرعية المتعلقة بهذه الآية (أما المباحث العقلية) فاعلم أن من الناس من قال لا شك ان البدن مركب من أجزاء كثيرة فاما أن يقوم بكل جزء حيا وعالما وقادرا على حدة أو يقوم بكل الاجزاء حيا واحدا وعالما واحدا وقادرا واحدا والثاني

الامور المعدودة مع ما بينه وبين خلق السموات من المناسبة الظاهرة لاستتباع ذكر هذا ذكر الارض المستدعي لذكر انزال الماء منها اليها الموجب لذكر اخراج الرزق الذي من جملته ما يحصل بواسطة الفلك والانهار أو للتفاوت عن توهم كون الكل أعني خلق السموات والارض وتسخير الشمس والقمر نعمة واحدة كما مر في قصة البقرة (وآتاكم من كل ما سألتموه)

أى أعطاكم بعض جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة كقوله سبحانه من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد أو آتاكم من كل ذلك ما احتجتم اليه وليط به انتظام أحوالكم على الوجه المقدر فكأنكم سألتموه وكل ما طلبتموه بلسان الاستعداد وكل ما سألتموه على أن من ٢٥٨ للبيان وكلمة كل للتكثير كقولك فلان يعلم كل شئ وأتاه كل الناس وعليه

قوله عز وجل فتحنا عليهم أبواب كل شئ وقيل الاصل وآتاكم من كل ما سألتموه ومالم تسألوه بحذف الثانى لدلالة ما أبقى على ما أبقى وقرئ بتنوين كل على أن ما نافية ومحل ما سألتموه النصب على المالية أى آتاكم من كل غير سائليه (وان تعدوا نعمة الله) التى أنعم بها عليكم (لا تحصوها) لا تطيقوا حصرها ولو اجمالا فانها غير متناهية وأصل الاحصاء أن الحاسب اذا بلغ عقدا معينا من عقود الاعداد وضع حصاة ليحفظ بها فيه ابتدأ من عقد بلوغ مرتبة معتد بها من مراتبها فضلا عن بلوغ غايتها كيف لا ومامن فرد من أفراد الناس وان كان فى أقصى مراتب الفقر والافلاس ممتنوا بأصناف العنايا مبتلى بأنواع الرزايا فهو بحيث لو تأملته ألفيته منقلبا فى نعم لا تحد ومحن لا تحصى ولا تعد كأنه قد أعطى كل ساعة وآن من النعماء ما هو حيطة الامكان وان كنت فى ريب من ذلك فقدر أنه ملك أقطار العالم ودانت له كافة الامم وأدعنت لطاعته الفرقة

السمراء وخضعت لهيبته رقاب العتاة وفاز بكل مرام ونال كل منال وحاز جميع ما فى الدنيا من أصناف الاموال من غير نزاع منه ولا شريك يساهمه بل قدر أن جميع ما فيها من جوهر ومدر ياقيت غالية ونفائس درر تم قدر أنه قد وقع من فقد مشروب أو مطعوم فى حالة بلغت نفسه

محال لاستحالة قيام العرض الواحد بالمحال الكثيرة فتعين الاول واذا كان كذلك كان كل جزء من أجزاء البدن حيا على حدة وعالما على حدة وقادرا على حدة واذا ثبت هذا فنقول الزانى هو الفرج لا الظهر فكيف يحسن من الحكيم أن يأمر بجلد الظهر ولانه ربما كان الانسان حال اقدامه على الزنا عجيفا نحيفا ثم يسمن بعد ذلك فكيف يجوز ايلام تلك الاجزاء الزائدة مع انها كانت بريئة عن فعل الزنا فان قال قائل هذا مدفوع من وجهين (الاول) وهو أنه ليس كل واحد من أجزاء البدن فاعلا على حدة وحيا على حدة وذلك محال بل الحياة والعلم والقدرة تقوم بالجزء الواحد ثم توجب حكم الحيية والعالمية والقادرية لمجموع الاجزاء فيكون المجموع حيا واحدا عالما واحدا قادرا واحدا وعلى هذا التقدير يزول السؤال (الثانى) أن يقال الذى هو الفاعل والمحرك والمدرك شئ ليس بجسم ولا جسمانى وانما هو مدبر لهذا البدن وعلى هذا التقدير أيضا يزول السؤال (والجواب) أما الاول فضعيف وذلك لان العلم اذا قام بجزء واحد فاما أن يحصل بمجموع الاجزاء عالمية واحدة فيلزم قيام الصفة الواحدة بالمحال الكثيرة وهو محال أو يقوم بكل جزء عالمية على حدة فيعود المحذور المذكور وأما الثانى ففى نهاية البعد لانه اذا كان الفاعل للقبيح هو ذلك المباين فلم يضرب هذا الجسد واعلم أن المقصود من أحكام الشرع رعاية المصالح ونحن نعلم أن شرع الحدين يفيد الزجر فكان المقصود حاصلا والله أعلم * أما قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الرأفة الرقة والرحمة وقراءة العامة بسكون الهمزة وقرئ رأفة بفتح الهمزة ورآفة على فعالة (المسئلة الثانية) يحتمل أن يكون المراد أن لا تأخذكم رأفة بأن يعطل الحد أو ينقص منه والمعنى لا تعطلوا حدود الله ولا تتركوا اقامتها للشفقة والرحمة وهذا قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير واختيار الفراء والزجاج ويحتمل أن لا تأخذكم رأفة بأن يخفف الجلد وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وقتادة ويحتمل كلا الامرين والاول أولى لان الذى تقدم ذكره الامر بنفس الجلد ولم يذكر صفته فما يتعقبه يجب أن يكون راجعا اليه وكفى برسول الله أسوة فى ذلك حيث قال لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها وبه يقوله فى دين الله على أن الدين اذا أوجب أمرا لم يصح استعمال الرأفة فى خلافه أما قوله تعالى ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فهو من باب التهييج والتهاب الغضب لله تعالى ولدينه قال الجبائى تقدير الآية ان كنتم مؤمنين فلا تتركوا اقامة الحدود وهذا يدل على أن الاشتغال باداء الواجبات من الايمان بخلاف ما تقوله المرجئة (والجواب) ان الرأفة لا تحصل الا اذا حكم الانسان بطبعه ان الاولى أن لا تقام تلك الحدود وحينئذ يكون منكرا للدين فيخرج عن الايمان فى الحديث يؤتى بزان نقص من الحد سوطا فيقال له لم فعلت ذلك فيقول رحمة لعبادك فيقال له أنت أرحم بهم منى فيؤمر به الى النار ويؤتى بمن زاد سوطا فيقال له لم فعلت ذلك فيقول لينتهوا عن معاصيك فيقول أنت أحكم بهم منى فيؤمر به الى النار أما قوله تعالى وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى وليشهد عذابهما طائفة أمر وظاهره للوجوب لكن الفقهاء قالوا يستحب حضور الجمع والمقصود اعلان اقامة الحد لما فيه من مزيد الردع ولما فيه من رفع التهمة عمن يجلد وقيل أراد بالطائفة الشهود لانه يجب حضورهم ليعلم بقاؤهم على الشهادة (المسئلة الثانية) اختلفوا فى أقل الطائفة على أقوال (أحدها) انه رجل واحد وهو قول النخعى ومجاهد واحتجا بقوله تعالى وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا (وثانيها) انه اثنان وهو قول عكرمة وعطاء واحتجا بقوله تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين وكل ثلاثة فرقة والمخارج من الثلاثة واحد واثنان والاحتياط يوجب الاخذ بالاكثر (وثالثها) انه ثلاثة وهو قول الزهرى وقتادة قالوا الطائفة هى

المحكوم فهل يشترى وهو فى تلك الحال بجميع ماله من الملك والمال لقمة تحبه عن رواه أو شربة ترويه من ظمأ أم يختار الهلاك فتذهب الاموال والاملاك بغير بدل يبقى عليه ولا نفع يعود اليه كلا بل يبذل لذلك كل ما تحويه اليدان كائنا ما كان وليس فى صفقته شائبة الخسران فاذن تلك اللقمة والشربة خير مما فى الدنيا بأسرها لفرتبة مع أنهما ٢٥٩ فى طرف الثمام بنا لهما ما شاء من الليالى والايام أو قد رأنه قد احتبس عليه النفس فلا دخل منه ما خرج ولا خرج منه ما ولج والحين قد حان واتاه الموت من كل مكان أما يعطى ذلك كله بمقابلة نفس واحدة بل يعطيه وهو لا أبه حامد فاذن هو خير من أموال الدنيا بجملتها ومطالبها برمتها مع أنه قد أبيح له كل آن من آنات الليالى والايام حال اليقظة والمنام هذا من الظهور والجلاء بحيث لا يكاد يخفى على أحد من العقلاء وان رمت المشور على حقيقة الحق والوقوف على كل ما جل من السرود ق فاعلم أن الانسان بمقتضى حقيقته الممكنة يعزل عن استحقاق الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائقة بحيث لو انقطع ما بينه وبين العنايات الالهية من العلاقة لما استقر له القرار ولا طمأنت به الدار الآفى مطمورة العدم والبوار وهاوى الهلاك والدمار لكن

الفرقة التى يمكن أن تكون حلقة كأنها الجماعة الحافة حول الشئ وهذه الصورة أقل ما لابد فى حصولها هو الثلاثة (ورابعها) انه أربعة بعد شهود الزنا وهو قول ابن عباس والشافعى رضى الله تعالى عنهم (وخامسها) انه عشرة وهو قول الحسن البصرى لان العشرة هى العدد الكامل ﴿المسئلة الثالثة﴾ تسميته عذابا يدل على انه عقوبة ويجوز أن يسمى عذابا لانه يمنع المعاودة كما سمى نكالا لذلك ونبه تعالى بقوله من المؤمنين على ان الذين يشهدون يجب أن يكونوا بهذا الوصف لانهم اذا كانوا كذلك عظم موقع حضورهم فى الزجر وعظم موقع اخبارهم عما شاهدوا فيخاف الجلود من حضورهم الشهرة فيكون ذلك أقوى فى الانزجار والله أعلم ﴿الحكم الثانى﴾ قوله تعالى ﴿الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ قرئ لا ينكح بالجزم على النهى وقرئ وحرم بفتح الحاء ثم ان فى الآية سؤالات ﴿السؤال الاول﴾ قوله الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة ظاهره خبر ثم انه ليس الامر كما يشعر به هذا الظاهر لانا نرى ان الزانى قد ينكح المؤمنة العفيفة والزانية قد ينكحها المؤمن العفيف ﴿السؤال الثانى﴾ أنه قال وحرم ذلك على المؤمنين وليس كذلك فان المؤمن يحل له التزوج بالمرأة الزانية ﴿والجواب﴾ اعلم أن المفسرين لاجل هذين السؤالين ذكروا وجوها (أحدها) وهو أحسنها ما قاله القفال وهو ان اللفظ وان كان عاما لكن المراد منه الاعم الاغلب وذلك لان الفاسق الخبيث الذى من شأنه الزنا والفسق لا يرغب فى نكاح الصوالح من النساء وانما يرغب فى فاسقة خبيثة مثله أو فى مشركة والفاسقة الخبيثة لا يرغب فى نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها وانما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشركين فهذا على الاعم الاغلب كما يقال لا يفعل الخير الا الرجل التقى وقد يفعل بعض الخير من ليس بتقى فكذا ههنا وأما قوله وحرم ذلك على المؤمنين فالجواب من وجهين (أحدهما) أن نكاح المؤمن الممدوح عند الله الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك فى سلك الفسقة المتهمين بالزنا محرم عليه لما فيه من التشبه بالفساق وحضور مواضع التهمة والقسق لسوء المقالة فيه والغيبة ومجالسة الخاطئين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام فكيف بمزاوجة الزانى والفجار (الثانى) وهو ان صرف الرغبة بالكلية الى الزانى وترك الرغبة فى الصالحات محرم على المؤمنين لان قوله الزانى لا ينكح الا زانية معناه ان الزانى لا يرغب الا فى الزانية فهذا الحصر محرم على المؤمنين ولا يلزم من حرمة هذا الحصر حرمة التزوج بالزانية فهذا هو المعتمد فى تفسير الآية ﴿الوجه الثانى﴾ ان الالف واللام فى قوله الزانى وفى قوله وحرم ذلك على المؤمنين وان كان للعموم ظاهرا لكنه ههنا مخصوص بالاقوام الذين نزلت هذه الآية فيهم قال مجاهد وعطاء بن أبى رباح وقتادة قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء ليس لهم أموال ولا عشائر وبالمدينة نساء بغايا يكرين أنفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة ولكل واحدة منهن علامة على بابها أو كعلامة البيطار ليعرف أنها زانية وكان لا يدخل عليها الا زان أو مشرك فرغب فى كسبهن ناس من فقراء المسلمين وقالوا نتزوج بهن الى أن يغنينا الله عنهن فلما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فتقدير الآية أو ائل الزانى لا ينكحون الا تلك الزانيات وتلك الزانيات لا ينكحهن الا أو ائل الزانى وحرم نكاحهن بأعيانهن على المؤمنين ﴿الوجه الثالث فى الجواب﴾ أن قوله الزانى لا ينكح الا زانية وان كان خبرا فى الظاهر لكن المراد النهى والمعنى ان كل من كان زانيا فلا ينبغى أن ينكح الا زانية وحرم ذلك على المؤمنين وهكذا كان الحكم فى ابتداء الاسلام وعلى هذا الوجه ذكروا قولين (أحدهما) ان ذلك الحكم باق الى الآن حتى يحرم على الزانى والزانية التزوج بالعفيفة والعفيف وبالعكس ويقال هذا

يفيض عليه من الجناب الاقدس تعالى شأنه وتقدس فى كل زمان يمضى وكل آن يمر وينقضى من أنواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانية والنفسانية والجسمانية مما لا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلمه الا العليم الخبير وتوضيحه أنه كما لا يستحق الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء وامتداد ذلك من جناب المبدئ الاول عز وجل فكما لا يتصور وجوده ابتداء مما لم يسند عليه جميع أنحاء عدمه

الاصلى لايتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بدلته مالم يستند عليه جميع أنحاء عدمه الطارئ لان الاستمرار والدوام من خصائص الوجود الواجبي وأنت خبير بان مايتوقف عليه وجوده من الامور الوجودية التي هي علله وشرائطه وان وجب كونها متناهية لوجوب تناهي ماداخل تحت الوجود لكن الامور ٢٦٠ العدمية التي لها دخل في وجوده ليست كذلك اذلا استحالة في أن يكون لشئ واحد

مذهب أبي بكر وعمر وعلي وابن مسعود وعائشة ثم في هؤلاء من يسوي بين الابتداء والدوام فيقول كما لايصل للمؤمن أن يتزوج بالزانية فكذلك لايصل له اذا زنت تحته أن يقيم عليها وهم من يفصل لان في جملة ماعنع من التزويج مالا يمنع من دوام النكاح كالاحرام والعدة ﴿والقول الثاني﴾ ان هذا الحكم صار منسوخا واختلفوا في ناسخه فمن الجبائي ان ناسخه هو الاجماع وعن سعيد بن المسيب أنه منسوخ بعموم قوله تعالى فانكحوا ماطاب لكم من النساء وانكحوا الايامى قال المحققون هذان الوجهان ضعيفان ﴿أما الاول﴾ فلانه ثبت في أصول الفقه ان الاجماع لاينسخ ولاينسخ به وأيضا فالاجماع الحاصل عقيب الخلاف لايكون حجة والاجماع في هذه المسئلة مسبوق بمخالفة أبي بكر وعمر وعلي فكيف يصح وأما قوله تعالى فانكحوا ماطاب لكم فهو لايصلح أن يكون ناسخا لانه لابد من أن يشترط فيه أن لايكون هناك مانع من النكاح من سبب أو نسب أو غيرهما واقائل أن يقول لايدخل فيه تزويج الزانية من المؤمن كما لايدخل فيه تزويجها من الاخ وابن الاخ ونقول ان للزنا تأثيرا في الفرقة مالايكون لغيره الاترى أنه اذا قذفها بالزنا يتبعها بالفرقة على بعض الوجوه ولايجب مثل ذلك في سائر ما يوجب الحد ولان من حق الزنا ان يورث العار ويؤثر في الفراش ففارق غيره ثم احتج هؤلاء الذين يدعون هذا النسخ بانه سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن رجل زنى بامرأة فهل له أن يتزوجها فاجازه ابن عباس وشهد معه سرق ثمر بصرة ثم اشتراه وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن ذلك فقال أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لايحرم الحلال ﴿الوجه الرابع﴾ أن يحمل النكاح على الوطء والمعنى ان الزاني لايطأ حين يزني الا زانية أو مشركة وكذا الزانية وحرم ذلك على المؤمنين أي وحرم الزنا على المؤمنين وعلى هذا تأويل أبي مسلم قال الزجاج هذا التأويل فاسد من وجهين ﴿الاول﴾ أنه ماورد النكاح في كتاب الله تعالى الا بمعنى التزويج ولم يرد البتة بمعنى الوطء ﴿الثاني﴾ ان ذلك يخرج الكلام عن الفائدة لانا لو قلنا المراد ان الزاني لايطأ الا الزانية فالاشكال عائد لانا نرى ان الزاني قد يطأ العفيفة حين يتزوج بها ولو قلنا المراد ان الزاني لايطأ الا الزانية حين يكون وطؤه زنا ففد الكلام لافائدة فيه وهذا آخر الكلام في هذا المقام ﴿السؤال الثالث﴾ أي فرق بين قوله الزاني لاينكح الازانية وبين قوله والزانية لاينكحها الازان ﴿الجواب﴾ الكلام الاول يدل على أن الزاني لارغبة له الا في نكاح الزانية وهذا لايمنع من أن يرغب في نكاح الزانية غير الزاني فلاجرم بين ذلك بالكلام الثاني ﴿السؤال الرابع﴾ لم قدمت الزانية على الزاني في الآية المتقدمة وهنا بالعكس ﴿الجواب﴾ سيقت تلك الآية لعقوبتهما على جنايتهما والمرأة هي المبادة في الزنا وأما الثانية فسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لانه هو الراغب والطالب ﴿الحكم الثالث﴾ القذف ﴿قوله تعالى﴾ ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولاتقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم﴾ اعلم ان ظاهر الآية لايدل على الشئ الذي به رموا المحصنات وذكر الرمي لايدل على الزنا اذ قد يرميها بسرقة وشرب خمر وكفر بل لابد من قرينة دالة على التعيين وقد أجمع العلماء على أن المراد الرمي بالزنا وفي الآية أقوال تدل عليه ﴿أحدها﴾ تقدم ذكر الزنا ﴿وثانيها﴾ أنه تعالى ذكر المحصنات وهن العفائف فدل ذلك على أن المراد بالرمي رميهن بضد العفاف ﴿وثالثها﴾ قوله ثم لم يأتوا بأربعة شهداء يعني على صحة ما رموهن به ومعلوم أن هذا العدد من الشهود غير مشروط الا في الزنا ﴿ورابعها﴾ انعقاد الاجماع على أنه لايجب الجلد بالرمي بغير الزنا فوجب أن يكون المراد هو الرمي بالزنا اذا عرفت هذا فالكلام في هذه الآية يتعلق بالرمي والرامي والمرمي ﴿البحث

موانع غير متناهية وانما الاستحالة في دخولها تحت الوجود فارتفاع تلك الموانع التي لاتتناهى أعني بقاءها على العدم مع امكان وجودها في أنفسها في كل آن من آنات وجوده نعم غير متناهية حقيقة لادعاء وكذلك الحال في وجودات علله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداء وبقاء وكذا في كماله التابعة لوجوده فانصف أنه يفيض عليه كل آن نعما لاتتناهى من وجوه شتى فسبحانك سبحانك ما أعظم سلطانك لا تتلاشى خزائن العيون بأنفارها ولا تطالعك العقول باذكارها شأنك لايضاهى واحسانك لايتناهى ونحن في معرفتك حائرون وفي اقامة مراسم شكرك قاصرون نسألك الهداية الى مناهج معرفتك والتوفيق لاداء حقوق نعمتك لانحصى ثناء عليك لاانت الا أنت نستغفرك ونتوب اليك (ان الانسان لظلوم) يظلم النعمة باغفال شكرها أو برضعه إياها في غير موضعها أو يظلم نفسه بتعريضها للحرمان (كفار) شديد الكفران وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع والام في الانسان للجنس ومصداق الحكم بالظلم والكفران بعض من وجد فيه من أفراده ويدخل في ذلك الذين بدلوا نعمة الله كفرا الخ دخولا أوليا (واذ قال ابراهيم) أي واذكر وقت قوله عليه الصلاة والسلام والمقصود من تذكيره تذكير ما وقع

الاول

فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل والمراد به تأكيد ما سلف من تحميه عليه السلام بيان فن آخر من جناياتهم حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم بعدما كفروا بالنعم العامة وعصوا أباهم ابراهيم عليه السلام حيث أسكنهم بمكة شرفها الله تعالى لاقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الاصنام والشكر لنعم الله تعالى وسأله تعالى أن يجعله بلدا آمنا ويرزقهم ٢٦١ من الثمرات وتهوى قلوب الناس اليهم

الاول فى الرمى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الفاظ القذف تنقسم الى صريح وكناية وتعريض فالصريح أن يقول يازانية أوزنيت أوزنى قبلك أودبرك ولو قال زنى بدنك فيه وجهان (أحدهما) انه كناية كقوله زنى يدك لان حقيقة الزنا من الفرج فلا يكون من سائر البدن الا المجونة (والثانى) وهو الاصح انه صريح لان الفعل انما يصدر من جملة البدن والفرج آلة فى الفعل أما الكتابات فمثل أن يقول يافاسقة يافاجرة ياخبيثة يامؤاجرة يابنية الحرام أوامرأتى لاترد يد لامس ويالعكس فهذا لايكون قذفا الا أن يريده وكذلك لو قال لعربى يانبطى فهذا لايكون قذفا الا أن يريد فان أراد به القذف فهو قذف لام المقول له والا فلا فان قال عنيت به نبطى الدار واللسان وادعت أم المقول له انه أراد القذف فالقول قوله مع يمينه أما التعريض فليس بقذف وان أراده وذلك مثل قوله يابن الحلال أما أنا فما زنيت وليست أمى زانية وهذا قول الشافعى وأبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد وزفر وابن شبرمة والثورى والحسن بن صالح رحمهم الله وقال مالك رحمه الله يجب الحد فيه وقال أحمد واسحق هو قذف فى حال الغضب دون حال الرضا لنا ان التعريض بالقذف محتمل للقذف ولغيره فوجب أن لايجب الحد لان الاصل براءة الذمة فلا يرجع عنه بالشك وأيضا فلقوله عليه السلام ادرؤا الحدود بالشبهات ولان الحدود شرعت على خلاف النص النافى للضرر والايذاء الحاصل بالتصريح فوق الحاصل بالتعريض واحتج المخالف بما روى الاوزاعى عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر قال كان عمر يضرب الحد فى التعريض وروى أيضا ان رجلين استبا فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال أحدهما للآخر والله ما أنا بزان ولا أمى بزانية فاستشار عمر الناس فى ذلك فقال قائل مدح أباه وأمه وقال آخرون قد كان لابيه وأمه مدح غير هذا فجلده عمر ثمانين جلدة (والجواب) ان فى مشاورة عمر الصحابة فى حكم التعريض دلالة على انه لم يكن عندهم فيه توقيف وانهم قالوا برأيهم واجتهادا (المسئلة الثانية) فى تعدد القذف اعلم انه اما أن يقذف شخصا واحدا مرارا أو يقذف جماعة فان قذف واحدا مرارا نظر ان كان أراد بالكل زنية واحدة بان قال زنيت بعمرو قاله مرارا لايجب الا حد واحد ولو انشأ الثانى بعد ما حد للاول عزر للثانى وان قذفها بزنيات مختلفة بأن قال زنيت بزيد ثم قال زنيت بعمرو فهل يتعدد الحد أم لا فيه قولان (أحدهما) يتعدد اعتبارا باللفظ ولانه من حقوق العباد فلا يقع فيه التداخل كالديون (والثانى) وهو الاصح يتداخل فلا يجب فيه الا حد واحد لانهما حدان من جنس واحد لمستحق واحد فوجب أن يتداخل كحدود الزنا ولو قذف زوجته مرارا فالاصح انه يكتفى باللعان واحد سواء قلنا يتعدد الحد أولا يتعدد أما اذا قذف جماعة محدودين بقذف ان قذف كل واحد بكلمة يجب عليه لكل واحد حد كامل وعند أبى حنيفة رحمه الله لايجب عليه الا حد واحد واحتج أبو بكر الرازى على قول أبى حنيفة بالقرآن والسنة والقياس أما القرآن فهو قوله تعالى والذين يرمون المحصنات والمعنى ان كل أحد يرمى المحصنات وجب عليه الجلد وذلك يقتضى ان قاذف جماعة من المحصنات لايجلد أكثر من ثمانين فمن أوجب على قاذف جماعة المحصنات أكثر من حد واحد فقد خالف الآية وأما السنة فما روى عكرمة عن ابن عباس ان هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال النبى عليه السلام البينة أوحد فى ظهرك فلم يوجب النبى صلى الله عليه وسلم على هلال الا حد واحد مع قذفه لامرأته ولشريك بن سحماء الى أن نزلت آية اللعان فاقيم اللعان فى الزوجات مقام الحد فى الاجنبيات وأما القياس فهو ان سائر ما يوجب الحد اذا وجد منه مرارا لم يجب الا حد واحد كمن زنى مرارا أو شرب مرارا أو سرق مرارا فكذا ههنا والمعنى الجامع دفع مزيد الضرر (والجواب عن الاول) ان قوله والذين صيغة

من كل أوب سحيق فاستجاب الله تعالى دعاءه وجعله حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شئ فكفروا بتلك النعم العظام واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار وجعلوا لله أندادا وفعلوا ما فعلوا (رب اجعل هذا البلد) يعنى مكة شرفها الله سبحانه (آمنا) أى ذا أمن أو آمنا أهله بحيث لايخاف فيه على ما عرف سورة البقرة والفرق بينه وبين مافيها من قوله رب اجعل هذا البلد آمنا أن المسؤل هناك البلدية والأمن معا وههنا الامن فقط حيث جعل هو المفعول الثانى للجعل وجعل البلد صفة للمفعول الاول فان حمل على تعدد السؤال فلعله عليه السلام سأل أولا كلا الامرين فاستجيب له فى أحدهما وتأخر الآخر الى وقته المقدر لما يقتضيه من الحكمة الداعية اليه ثم كرر السؤال كما هو المعتاد فى الدعاء والابتهال أو كان المسؤل أولا مجرد الامن المحسوس المشكن كما فى سائر البلاد وقد أجيب اليه وثانيا الامن المعهود

أو كان هو المسؤل فيهما وقد أجيب اليه أيضا لكن السؤال الثانى للاستدامة والاقتصار على ذلك لانه المقصود الاصلى أولان المعتاد فى البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الامن وان حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر فالظاهر ان السؤال كلا الامرين وقد حكى أولا واقتصر ههنا على حكاية سؤال الامن لان مجرد أن نعمة الامن أدخل فى استجلاب الشكر فذكره أنسب بمقام تقريع

الكفر زعلى اغفاله كما قيل بل لان سؤال البلدة قد حكى بقوله تعالى فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم اذا لمسؤل هو بيتهم اليهم للساكنة معهم لا للمسجد فقط وهو عين سؤال البلدية قد حكى بعبارة أخرى وكان ذلك أول ما قدم عليه السلام مكة كما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ٢٦٢ أنه عليه الصلاة والسلام لما أسكن اسمعيل وهاجر هناك وعاد متوجها الى الشام تبعته هاجر

وجعلت تقول الى من تكلنا في هذا البلقع وهو لا يرد عليها جوابا حتى قالت آلله أمرك بهذا فقال نعم قالت اذا لا يضيعنا فرضيت ومضى حتى اذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادي فقال ربنا اني أسكنت الآية وانما فصل ما بينهما بتثنية للامتنان وايذانا بأن كلا منهما نعمة جليلة مستتبعة لشكر كثير كما في قصة البقرة (واجنبني وبني) بعدني وإياهم (أن نعبد الاصنام) واجعلنا منها في جانب بعيد أي تبتنا على ما كنا عليه من التوحيد وملة الاسلام والبعد عن عبادة الاصنام وقرئ وأجنبني من الافعال وهما لغة أهل نجد يقولون جنبني شره وأجنبني شره وأما أهل الحجاز فيقولون جنبني شره وفيه دليل على أن عصمة الانبياء عليهم السلام بتوفيق الله تعالى والظاهر أن المراد بنيه أولاده الصلبية فلا احتجاج به لابن عيينة رضي الله عنه على أن أحدا من أولاد اسمعيل عليه السلام لم يعبد الصنم وانما كان لكل قوم

جمع وقوله المحصنات صيغة جمع والجمع اذا قوبل بالجمع يقابل الفرد بالفرد فيصير المعنى كل من رمى محصنا واحدا وجب عليه الحد وعند ذلك يظهر وجه عمل الشافعي رحمه الله بالآية لان قوله والذين يرمون المحصنات فاجلدوهم يدل على ترتيب الجلد على رمي المحصنات وترتيب الحكم على الوصف لاسيما اذا كان مناسبا فانه مشعر بالعلية فدلت الآية على ان رمي المحصن من حيث انه محصن يوجب الجلد اذا ثبت هذا فنقول اذا قذف واحدا صار ذلك القذف موجبا للحد فاذا قذف الثاني وجب أن يكون القذف الثاني موجبا للحد أيضا ثم موجب القذف الثاني لا يجوز أن يكون هو الحد الاول لان ذلك قد وجب بالقذف الاول وايجاب الواجب محال فوجب أن يجب بالقذف الثاني حد ثان بما أقصى ما في الباب أن يورد على هذه الدلالة قد وجد الزنا لكن قبول ترك العمل هناك بهذا الدليل لان حد الزنا أغلظ من حد القذف وعند ظهور الفارق يتعذر الجمع وأما السنة فلا دلالة فيها على هذه المسئلة لانه قذفهما بلفظ واحد ولنا في هذه المسئلة تفصيل سيأتي ان شاء الله وأما القياس ففاسد لان حد القذف حق الآدمي بدليل أنه لا يحد الا بمطالبة المقذوف وحقوق الآدمي لا تتداخل بخلاف حد الزنا فانه حق الله تعالى هذا كله اذا قذف جماعة كل واحد منهم بكلمة على حدة أما اذا قذفهم بكلمة واحدة فقال أنتم زناة أو زنيتم ففيه قولان أصحهما وهو قوله في الجديد يجب لكل واحد حد كامل لانه من حقوق العباد فلا يتداخل ولانه أدخل على كل واحد منهم معرة فصار كما لو قذفهم بكلمات وفي القديم لا يجب لكل الآحاد وانما واحدا اعتبارا باللفظ فان اللفظ واحد والاول أصح لانه أوفق لمفهوم الآية فعلى هذا لو قال لرجل يا ابن الزانيين يكون قاذفا لأبويه بكلمة واحدة فعليه حدان (المسئلة الثالثة) فيما يبيح القذف القذف ينقسم الى محظور ومباح وواجب وجملة الكلام انه اذا لم يكن ثم ولد يريد نفيه فلا يحل وهل يباح أم لا ينظر ان رآها بعينه تزني أو اقرت هي على نفسها ووقع في قلبه صدقها أو سمع ممن يثق بقوله أو لم تسمع لكنه استفاض فيما بين الناس ان فلانا يزني بفلانة وقد رآه الزوج يخرج من بيتها أو رآها معه في بيت فانه يباح له القذف لتأكد التهمة ويجوز أن يمسكها ويستر عليها لما روى ان رجلا قال يا رسول الله ان لي امرأة لا ترد يد لامس قال طلقها قال اني أحبها قال فامسكها أما اذا سمعه ممن لا يوثق بقوله أو استفاض من بين الناس ولكن الزوج لم يرهما أو بالعكس لم يحل له قذفها لانه قد يذكر ممن لا يكون ثقة فيتشوش ويدخل بيتها خوفا من قاصد أو سرقة أو لطلب فجور فتأبى المرأة قال الله تعالى ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم أما اذا كان ثم ولد يريد نفيه نظر فان تيقن انه ليس منه بان لم يكن وطئها الزوج أو وطئها لكنها أتت به لاقل من ستة أشهر من وقت الوطء أو لاكثر من أربع سنين يجب عليه نفيه باللعان لانه ممنوع من استلحاق نسب الغير كما هو ممنوع من نفي نسبه لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولم يدخلها الله جنته فلما حرم على المرأة أن تدخل على قوم من ليس منهم كان الرجل أيضا كذلك أما ان احتمل أن يكون منه بان أتت به لاكثر من ستة أشهر من وقت الوطء ولدون أربع سنين نظر ان لم يكن قد استبرأها بحيضة أو استبرأها وأتت به لدون ستة أشهر من وقت الاستبراء لا يحل له القذف والنفي وان اتهمها بالزنا قال النبي صلى الله عليه وسلم ايما رجل جحد ولده وهو ينظر اليه احتجب الله منه يوم القيامة وفضحه على رؤوس الاولين والآخرين فان استبرأها وأتت به لاكثر من ستة أشهر من وقت الاستبراء يباح له القذف والنفي والاولى ان لا يفعل لانها قد ترى الدم على الحبل وان أتت امرأته بولد لا يشبهه بأن كانا أبيضين فاتت به أسود نظر ان لم يكن يتهمها بالزنا فليس له نفيه لما روى أبو هريرة

حجر نصبوه وقالوا هو حجر والبيت حجر فكانوا يدورون به ويسمونه الدوار فاستحب أن يقال طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت وليت شعري كيف ذهب عليه ما في القرآن العظيم من قوارع تنبي على قريش عبادة الاصنام على أن فيها ذكره كراعي ما فرضه (رب انهن) أي الاصنام (أضللن كثيرا من الناس) أي تسببن له كقوله تعالى وغرتهم الحياة الدنيا وهو

رضي

تعليل لدعائه وانما صدره بالنداء اظهارا لاعتنائه به ورغبة في استجابته (فمن تبعني) منهم فيما أدعو اليه من التوحيد وملة الاسلام (فانه مني) أي بعضي قاله عليه السلام مبالغة في بيان اختصاصه به أو متصل بي لا ينفك عني في أمر الدين (ومن عصاني) أي لم يتبعني والتعبير عنه بالعصيان للايذان بأنه عليه السلام مستمر على الدعوة وأن عدم اتباع من لم يتبعه انما هو لعصيانه لا لانه لم يبلغه الدعوة (فانك غفور رحيم) قادر على أن تغفر له وترحمه ابتداء أو بعد توبته وفيه أن كل ذنب فالله تعالى أن يغفره حتى الشرك خلا أن الوعيد قضى بالفرق بينه وبين غيره (ربنا) آثر عليه السلام ضمير الجماعة لما مر قبيل من تعظيم ذكره وذكر بنيه والالزاعا في قوله رب انهن الخ بيل لان الدعاء المصدر به وما أورده بصدد تمهيد مبادي اجابته من قوله (اني أسكنت) الآية متعلق بذريته فالتعرض لوصف ربوبيته تعالى لهم أدخل في القبول واجابة المسؤل (من ذريتي) أي بعضهم أو ذريته من ذريتي بحذف المفعول وهو اسمعيل عليه السلام وما سيولد له فان اسكانه حيث كان على وجه الاطمئنان مستمر لاسكانهم روى أن هاجر أم اسمعيل عليه السلام كانت سارة قد وهبتها من ابراهيم عليه السلام فلما ولدت له اسمعيل عليه السلام غارت عليهما فناشدته أن يخرجهما من عندها فأخرجهما

رضي الله عنه أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم ان امرأتي ولدت غلاما أسود فقال هل لك من ابل قال نعم قال ما ألوانها قال حمر قال فهل فيها أورق قال نعم قال فكيف ذلك قال نزعه عرق قال فلعل هذا نزعه عرق وان كان يتم مهابرتنا أو يتم مهاجر حل فأتت بولد يشبهه هل يباح له نفيه فيه وجهان (أحدهما) لا لان العرق ينزع (والثاني) له ذلك لان التهمة قد تأكدت بالشبهة (البحث الثاني في الرامي) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذا قذف الصبي أو المجنون امرأته أو أجنبيا فلا حد عليهما ولا لعان لان الحال لا يعدو البلوغ لقوله عليه الصلاة والسلام رفع القلم عن ثلاث ولكن يعزران للتأديب ان كان لهما تمييز فلو لم تتفق اقامة التعزير على الصبي حتى بلغ قال القفال يسقط التعزير لانه كان للزجر عن اساءة الادب وقد حدث زاجر أقوى وهو البلوغ (المسئلة الثانية) الاخرس اذا كانت له اشارة مفهومة أو كتابة معلومة وقذف بالاشارة أو بالكتابة لزمه الحد وكذلك يصح لعانه بالاشارة والكتابة وعند أبي حنيفة رحمه الله لا يصح قذف الاخرس ولا لعانه وقول الشافعي رحمه الله أقرب الى ظاهر الآية لان من كتب أو أشار الى القذف فقد رمى المحصنة ولحق العار بها فوجب اندراجه تحت الظاهر ولانا نقيس قذفه ولعانه على سائر الاحكام (المسئلة الثالثة) اختلفوا فيما اذا قذف العبد حرا فقال الشافعي وأبو حنيفة ومالك وأبو يوسف ومحمد وزفر وعثمان البتي عليه أربعون جلدة وروى الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عليا عليه السلام قال يجلد العبد في القذف أربعين وعن عبد الله بن عمر انه قال أدركت أبا بكر وعمر وعثمان ومن بعدهم من الخلفاء وكلهم يضربون المملوك في القذف أربعين وقال الاوزاعي يجلد ثمانين وهو مروي عن ابن مسعود وروى أنه جلد عمر بن عبد العزيز العبد في القرية ثمانين ومدار المسئلة على حرف واحد وهو أن هذه الآية صريحة في ايجاب الثمانين فمن رد هذا الحد الى اربعين فطريقه أن الله تعالى قال فاذا أحصن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب فنص على أن حد الامة في الزنا نصف حد الحرة ثم قاسوا العبد على الامة في تنصيف حد الزنا ثم قاسوا تنصيف حد قذف العبد على تنصيف حد الزنا في حقه فرجع حاصل الامر الى تخصيص عموم الكتاب بهذا القياس (المسئلة الرابعة) اتفقوا على دخول الكافر تحت عموم قوله والذين يرمون المحصنات لان الاسم يتناوله ولا مانع فالبيوردي اذا قذف المسلم يجلد ثمانين والله أعلم (البحث الثالث) في المرمي وهي المحصنة قال أبو مسلم اسم الاحصان يقع على المتزوجة وعلى العفيفة وان لم تتزوج لقوله تعالى في مريم والتي أحصنت فرجها وروى أنها خرجت من منتهى الفرج فاذا تزوجت صفتها الامن زوجها وغير المتزوجة تمنعه كل أحد ويتفرع عليه مسائل (المسئلة الاولى) ظاهر الآية يتناول جميع العفائف سواء كانت مسلمة أو كافرة وسواء كانت حرة أو رقيقة الا أن الفقهاء قالوا شرائط الاحصان جملة الاسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة عن الزنا وانما اعتبرنا الاسلام لقوله عليه السلام من أشرك بالله فليس بمحصن وانما اعتبرنا العقل والبلوغ لقوله عليه السلام رفع القلم عن ثلاث وانما اعتبرنا الحرية لان العبد ناقص الدرجة فلا يعظم عليه التعيير بالزنا وانما اعتبرنا العفة عن الزنا لان الحد مشروع لتكذيب القاذف فاذا كان المقذوف زانيا فالقاذف صادق في القذف وكذلك اذا كان المقذوف وطئ امرأة بشبهة أو نكاح فاسد لان فيه شبهة الزنا كما فيه شبهة الحل فكما أن احدى الشبهتين أسقطت الحد عن الواطئ فكذا الاخرى تسقطه عن قاذفه أيضا ثم نقول من قذف كافرا أو مجنونا أو صبيا أو مملوكا أو من قذ رمى امرأة فلا حد عليه بل يعزر للاذى حتى لو زنى في عنفوان شبابه مرة ثم تاب وحسن حاله وشاع في الصلاح لا يحد قاذفه وكذلك لو زنى كافرا ورقيق ثم أسلم وعتق وصلح حاله فقذفه قاذف لا حد عليه بخلاف ما لو زنى

الى أرض مكة فاظهر الله تعالى عين زمزم (بواد غير ذي زرع) لا يكون فيه زرع أصلا وهو وادي مكة شرفها الله تعالى (عند بيتك) ظرف لاسكنت كقولك صليت بمكة عند الركن لا انه صفة لواد أو بدل منه اذا المقصود اظهار كون ذلك الاسكان مع فقدان مبادية بالمرة قصد التقرب الى الله تعالى والالتجاء الى جواره الكريم كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الحرمة المؤذن بعزة الملتجأ وعصمته عن المكاره في قوله

تعالى (الهرم) حيث حرم التعرض له والتأوه به أو لم يزل معظما عنها به الجبابرة في كل عصر ومنع منع الطوفان فلم يستول عليه ولذلك سمي عتيقا وتسميته اذ ذاك بيتا ولم يكن له بناء انما كان نشز امثل الرابية تأتيه السيول فتأخذ ذات اليمين وذات الشمال ليست باعتبار ما سئل اليه الامر من بنائه ٢٦٤ عليه السلام فانه يترع الى اعتبار عنوان الحرمة أيضا كذلك بل انما هي باعتبار ما كان من

قبل فان تعدد بناء الكعبة المعظمة مما لا ريب فيه وانما الاختلاف في كمية عدده وقد ذكرنا ما في سورة البقرة بفضل الله تعالى (ربنا ليقيموا الصلوة) متوجهين اليه متبركين به وهو متعلق بأسكنت و تخصيصها بالذكر من بين سائر شعائر الدين لفضلها وتكرير النداء وتوسطه لاظهار كمال العناية باقامة الصلاة والاهتمام بمرض أن الغرض من اسكانهم بذلك الوادي البلقع ذلك المقصد الاقصى والمطلب الاسنى وكل ذلك انما هو مبادي اجابة دعائه واعطاء مسؤله الذي لا يتسنى ذلك المرام الا به ولذلك أدخل عليه الفاء فقال (فاجعل أفئدة من الناس) أي أفئدة من أفئدتهم فمن للتبعيض ولذلك قيل لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم فارس والروم وأما ما يزيد عليه من قولهم ولحت اليهود والنصارى فغير مناسب لمقام الدعاء اذ المسؤل توجيه القلوب اليهم للسكنة معهم لا توجيهها الى البيت للحج والا لقيل تهوي اليه فانه عين الدعاء بالبلد به فدحكى بعبارة أخرى كما مر ولابتداء الغاية كقولك الله

القلوب مني سقيم أي انه مني أفدته ناس وذرئ آفدة على القلب كآدرى أدؤر وأعلى انه اسم فاعل من أفدت الرجل أي عجلت أي جماعة من الناس وأفدة نكرة محزوة من الافئدة وأعلى الناس أفد (تهوي اليهم) تسرع اليهم شوقا وودادا وقرئ على البناء للمفعول

في حال صغره أو جنونه ثم بلغ أو أفاق فقذفه قاذف يحد لان فعل الصبي والمجنون لا يكون زنا ولو قذف محصنا فقبل أن يحد القاذف زنى المقذوف سقط الحد عن قاذفه لان صدور الزنا بورث ريبة في حاله فيما مضى لان الله تعالى كريم لا يهتك ستر عبده في أول ما يرتكب المعصية فيظهوره بعلم أنه كان متصفا به من قبل روى أن رجلا زنى في عهد عمر فقال والله ما زنيت الا هذه فقال عمر كذبت ان الله لا يفضح عبده في أول مرة وقال المزني وأبو ثور الزنا الطارئ لا يسقط الحد عن القاذف (المسئلة الثانية) قال الحسن البصري قوله والذين يرمون المحصنات يقع على الرجال والنساء وسائر العلماء أنكروا ذلك لان لفظ المحصنات جمع المؤنث فلا يتناول الرجال بل الاجماع دل على أنه لا فرق في هذا الباب بين المحصنين والمحصنات (المسئلة الثالثة) رمي غير المحصنات لا يوجب الحد بل يوجب التعزير الا أن يكون المقذوف معروفا فاذا قذف به فلا حد هنالك ولا تعزير فهذا مجموع الكلام في تفسير قوله سبحانه والذين يرمون المحصنات * أما قوله سبحانه ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ففيه بحثان (البحث الاول) اعلم أن الله تعالى حكم في القاذف اذا لم يأت بأربعة شهداء بثلاثة أحكام (أحدها) جلد ثمانين (وثانيها) بطلان الشهادة (وثالثها) الحكم بفسقه الى أن يتوب واختلف أهل العلم في كيفية ثبوت هذه الاحكام بعد اتفاقهم على وجوب الحد عليه بنفس القذف عند عجزه عن اقامة البينة على الزنا فقال قائلون قد بطلت شهادته ولزمه سمة الفسق قبل اقامة الحد عليه وهو قول الشافعي والليث بن سعد وقال أبو حنيفة ومالك وأبو يوسف ومحمد وزفر شهادته مقبولة مالم يحد قال أبو بكر الرازي وهذا مقتضى قولهم انه غير موسوم بسمة الفسق مالم يقع به الحد لانه لو لزمته سمة الفسق لما جازت شهادته اذ كانت سمة الفسق مبطلة لشهادته ومن وسم بها لم يجز أن يقبل أبو بكر على صحة قول أبي حنيفة رحمه الله بأمور (أحدها) قوله سبحانه والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ظاهر الآية يقتضي ترتب وجوب الحد على مجموع القذف والعجز عن اقامة الشهادة فلو علقنا هذا الحكم على القذف وحده فقد خالفنا ذلك في كونه معلقا على الامرين وذلك بخلاف الآية وأيضا فوجوب الجلد حكم مرتب على مجموع أمرين فوجب أن لا يحصل بمجرد حصول أحدهما كما لو قال لامرأته ان دخلت الدار وكلمت فلانا فأنت طالق فأتت بأحد الامرين دون الآخر لم يوجد الجزاء فكذا هاهنا (وثانيها) أن القاذف لا يحكم عليه بالكذب بمجرد قذفه واذا كان كذلك وجب أن لا ترد شهادته بمجرد القذف * بيان الاول من ثلاثة أوجه (الاول) أن مجرد قذفه لو أوجب كونه كاذبا لوجب أن لا تقبل بعد ذلك بينته على الزنا اذ قد وقع الحكم بكذبه والحكم بكذبه في قذفه حكم بطلان شهادته من شهد بصدقه في كون المقذوف زانيا وقد أجمعوا على قبول بينته ثبت أنه لم يحكم عليه بالكذب بمجرد قذفه (الثاني) أن قاذف امرأته بالزنا لا يحكم بكذبه بنفس قذفه والا لما جاز لمجاب اللعان بينه وبين امرأته ولما مر بأن يشهد بالله انه لصادق فيما رماها به من الزنا مع الحكم بكذبه ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما لاعن بين الزوجين الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب فأخبر أن أحدهما بغير تعيين هو الكاذب ولم يحكم بكذب القاذف وفي ذلك دليل على أن نفس القذف لا يوجب كونه كاذبا (الثالث) قوله تعالى لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون فلم يحكم بكذبهم بنفس القذف فقط فثبت بهذه الوجوه أن القاذف غير محكوم عليه بكونه كاذبا بمجرد القذف واذا كان كذلك وجب أن لا تبطل شهادته بمجرد القذف لانه كان عدلا ناقة الصادر عنه غير معارض ولما كان يجب أن يبقى على عدالته فوجب أن يكون مقبول الشهادة (وثالثها) قوله عليه السلام المسلمون عدول بعضهم على بعض الا المحدود في قذف أخبر النبي صلى

من أهواء غيره وتهوى من باب علم أي تحب وتعديته بالى لتضمنه معنى الشوق والنزوع وأول آثار هذه الدعوة ما روى أنه مرت رفقة من جرهم تريد الشام فرأوا العلم تحوم على الجبل فقالوا ان هذا الطائر لعاكف على الماء فأشرفوا فاذا هم بها جرفقالوا لها ان شئت كنا معك وآنسناك والماء مأوك فأذنت لهم وكانوا معها الى أن شب اسمعيل عليه السلام ٢٦٥ وماتت هاجر فتزوج اسمعيل منهم كما هو المشهور (وارزقهم) أي ذرية الذين أسكنتهم هناك أو مع من يتاخم اليهم من الناس وانما لم يخص الدعاء بالمؤمنين منهم كما في قوله وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر اكتفاء بذكر اقامة الصلاة (من الثمرات) من أنواعها بأن يجعل بقرب منه قرى تجعل فيها ذلك أو يجبى اليه من الاقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى انه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد * روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الطائف كانت من أرض فلسطين فلما دعا ابراهيم عليه السلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى ووضعها حيث وضعها رزقا للحرم وعن الزهري رضي الله عنه أنه تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة ابراهيم عليه السلام (لعلهم يشكرون) تلك النعمة باقامة الصلاة وأداء سائر مراسم العبودية

الله عليه وسلم بقاء عدالة القاذف مالم يحد (ورابعها) ما روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة هلال بن امية لما قذف امرأته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله يجلد هلال وتبطل شهادته في المسلمين فاخبر ان بطلان شهادته متعلق بوقوع الجلد به وذلك يدل على ان مجرد القذف لا يبطل الشهادة (وخامسها) ان الشافعي رحمه الله زعم ان شهود القذف اذا جاؤا متفرقين قبلت شهادتهم فان كان القذف قد أبطل شهادته فواجب أن لا يقبلها بعد ذلك وان شهد معه ثلاثة لانه قد فسق بقذفه ووجب الحكم بكذبه وفي قبول شهادتهم اذا جاؤا متفرقين ما يلزمه أن لا تبطل شهادتهم بنفس القذف وأما وجه قول الشافعي رحمه الله فهو ان الله تعالى رتب على القذف مع عدم الاتيان بالشهداء الاربعة أمورا ثلاثة معطوفا بعضها على بعض بحرف الواو وحرف الواو لا يقتضي الترتيب فوجب أن لا يكون بعضها مرتبا على البعض فوجب أن لا يكون رد الشهادة مرتبا على اقامة الحد بل يجب أن يثبت رد الشهادة سواء أقيم الحد عليه أو ما أقيم والله أعلم (البحث الثاني) في كيفية الشهادة على الزنا قال الله تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء وقال سعد بن عبادة يا رسول الله أرأيت ان وجدت مع امرأتي رجلا أمهله حتى آتي بأربعة شهداء قال نعم * وههنا مسائل (المسئلة الاولى) الاقرار بالزنا هل يثبت بشهادة رجلين فيه قولان (أحدهما) لا يثبت الا بأربعة كفعل الزنا (والثاني) يثبت بخلاف فعل الزنا لان الفعل يفضي الاطلاع عليه فاحتيط فيه باشتراط الاربع والاقرار أمر ظاهر فلا يفضي الاطلاع عليه (المسئلة الثانية) اذا شهدوا على فعل الزنا يجب أن يذكروا الزاني ومن زنى بها لانه قد يراه على جارية له فيظن أنها أجنبية ويجب أن يشهدوا أنها زنا بأسانذكره بدخل في قرجها دخول المدل في المكحلة فلو شهدوا مطلقا أنه زنى لا يثبت لانهم ربما يرون المقاحذة زنا بخلاف ما لو قذف انسانا فقال زنيت يجب الحد ولا يستفسر ولو أقر على نفسه بالزنا هل يشترط أن يستفسر فيه وجهان (أحدهما) نعم كالشهود (والثاني) لا يجب كما في القذف (المسئلة الثالثة) قال الشافعي رحمه الله لا فرق بين أن يجيء الشهود متفرقين أو مجتمعين وقال أبو حنيفة رحمه الله اذا شهدوا متفرقين لا يثبت وعليهم حد القذف حجة الشافعي رحمه الله من وجوه (الاول) أن الاتيان بأربعة شهداء قدر مشترك بين الاتيان بهم مجتمعين أو متفرقين واللفظ الدال على ما به الاشتراك لا اشعار له على ما به الامتياز فلا تعرض فيه لهم متفرقين يكون عاملا بالنص فوجب أن يخرج عن العهدة (الثاني) كل حكم يثبت بشهادة الشهود اذا جاؤا مجتمعين يثبت اذا جاؤا متفرقين كسائر الاحكام بل هذا أولى لانهم اذا جاؤا متفرقين كان أبعد عن التهمة وعن أن يتلقن بعضهم من بعض فلذلك قلنا اذا وقعت رسيسة للقاضي في شهادة الشهود فرقهم ليظهر على عورة ان كانت في شهادتهم (الثالث) أنه لا يشترط أن يشهدوا معا في حالة واحدة بل اذا اجتمعوا عند القاضي وكان يقدم واحد بعد آخر ويشهد فانه تقبل شهادتهم فكذا اذا اجتمعوا على بابه ثم كان يدخل واحد بعد واحد حجة أبي حنيفة رحمه الله من وجهين (الاول) أن الشاهد الواحد لما شهد فقد قذفه ولم يأت بأربعة من الشهداء فوجب عليه الحد لقوله تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء أعصى ما في الباب أنهم عبروا عن ذلك القذف بلفظ الشهادة وذلك لا عبرة به لانه يؤدي الى اسقاط حد القذف رأسا لان كل قاذف لا يجعل لفظ الشهادة ليجعل ذلك وسيلة الى اسقاط الحد عن نفسه ويحصل مقصوده من القذف (الثاني) ما روى أن المغيرة بن شعبة شهد عليه بالزنا عند عمر بن الخطاب أربعة أبو بكرة ونافع ونفيع وقال زياد وكان رابعهم رأيت استا تنبو ونفسا يعلو ورجلاها على عاتقه كاذني حمار ولا أدري

(٣٤ - خفر س)

وقيل اللام في ليقيموا لام الامر والمراد أمرهم باقامة الصلاة والدعاء عن الله تعالى بتوفيقهم لها ولا يناسبه الفاء في قوله تعالى فاجعل الخ وفي دعائه عليه السلام من مراعاة حسن الادب والمحافظة على قوانين الضراعة وعرض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة ما لا يخفى فانه عليه السلام يذكر كون الوادي غير ذي زرع بين كمال افتقارهم الى المسؤل ويذكر كون

سكانهم عند البيت المحرم أشار الى أن جوار الكريم يستوجب افاضة النعم و بعرض كرور ذلك الاسكان مع كمال اعوازهم افاق المعاش لحين اقامة الصلاة وأداء حقوق البيت عهد جميع مبادى اجابة السؤال ولذلك قرنت دعوته عليه السلام بحسن القبول (ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن) من الحاجات وغيرها ٢٦٦ والمراد بما نخفي ما يقابل ما نعلن سواء تعلق به الاخفاء أولا أى تعلم ما نظهره وما لا نظهره فان علمه تعالى متعلق بما لا يخطر ببالنا فضلا عما فيه من الاحوال الخفية فضلا عن اخفائه وتقديم ما نخفي على ما نعلن لتحقيق المساواة بينهما في تعلق العلم بهما على أبلغ وجه فكان تعلقه بما يخفى أقدم منه بما يعلن أولان مرتبة السر وانخفاء متقدمة على مرتبة العلن اذ ما من شئ يعلن الا وهو قبل ذلك خفي فتعلق علمه سبحانه بحالته الاولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية وقصصه عليه السلام أن اظهار هذه الحاجات وما هو من مبادئها و نتائجها ليس لكونها غير معلومة لذلك بل انما هو لاظهار العبودية والتخشع لعظمته والتذلل لعزته وعرض الافتقار الى ما عنده والاستهال لنيل أياديه وتكرير النداء للمبالغة في الضراعة والابتهال وضمير الجماعة لان المراد ليس مجرد علمه تعالى بسره وعلنه بل بجميع خفايا الملك والملكوت وقد حققه بقوله على وجه الاعتراض (وما يخفى على الله من شئ في الارض ولا في السماء) لما أنه العالم بالذات فما من أمر يدخل تحت الوجود كائنا ما كان في زمان من الازمان الا ووجوده في ذاته علم بالنسبة اليه سبحانه وانما قال وما يخفى على الله الخ دون أن يقول و يعلم ما في السموات والارض تحقيقا لما عناه بقوله تعلم ما نخفي من أن علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة الى

ماوراء ذلك فلعدم الثلاثة ولم يسأل هل معهم شاهد آخر فلو قبل بعد ذلك شهادة غيرهم لتوقف لان الحد مما يتوقف فيه ولا يحتاط (المسئلة الرابعة) لو شهد على الزنا أقل من أربعة لا يثبت الزنا وهل يجب حد القذف على الشهود فيه قولان (أحدهما) لا يجب لانهم جاؤا بحجى ء الشهود ولانا لو حددنا لانسد باب الشهادة على الزنا لان كل واحد لا يأمن أن لا يوافقه صاحبه فيلزمه الحد (والقول الثاني) وهو الاصح وبه قال أبو حنيفة رحمه الله يجب عليهم الحد والدليل عليه الوجهان اللذان ذكرناهما في المسئلة الثالثة (المسئلة الخامسة) اذا قذف رجل رجلا فجاء أربعة فساق فشهدوا على المقذوف بالزنا قال أبو حنيفة رحمه الله يسقط الحد عن القاذف ولا يجب الحد على الشهود وقال الشافعي رحمه الله في أحد قوليه يحدون وجه قول أبي حنيفة قوله والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء وهذا قد أتى بأربعة شهداء فلا يلزمه الحد ولان الفاسق من أهل الشهادة وقد وجدت شرائط شهادة الزنا من اجتماعهم عند القاضي الا أنه لم تقبل شهادتهم لاجل التهمة فكما اعتبرنا التهمة في نفي الحد عن المشهود عليه فكذلك وجب اعتبارها في نفي الحد عنهم ووجه قول الشافعي رحمه الله أنهم غير موصوفين بالشرائط المعتبرة في قبول الشهادة فخرجوا عن أن يكونوا شاهدين فبقوا محض القاذفين وههنا آخر الكلام في تفسير قوله تعالى ثم لم يأتوا بأربعة شهداء أما قوله تعالى فاجلدوهم ثمانين جلدة ففيه مسائل (المسئلة الاولى) الخطاب بقوله فاجلدوهم هو الامام على ما بيناه في آية الزنا والمالك على مذهب الشافعي أو رجل صالح ينصبه الناس عند فقد الامام (المسئلة الثانية) خص من عموم هذه الآية صور (أحدها) الوالد يقذف ولده أو أحدا من نوافله فلا يجب عليه الحد كما لا يجب عليه القصاص بقتله (الثانية) القاذف اذا كان عبدا فالواجب جلده أربعين وكذلك المكاتب وأم الولد ومن بعضه حر و بعضه رقيق فحدهم حد العبيد (الثالثة) من قذف رقيقة عفيفة أو من زنت في قديم الايام ثم تابت فهي بموجب اللغة محصنة ومع ذلك لا يجب الحد بقذفها (المسئلة الثالثة) قالوا أشد الضرب في الحدود ضرب الزنا ثم ضرب شرب الخمر ثم ضرب القاذف لان سبب عقوبته محتمل للصدق والكذب الا أنه عوقب صيانة للاعراض وزواجر هتكها (المسئلة الرابعة) قال مالك والشافعي حد القذف يورث فاذا مات المقذوف قبل استيفاء الحد وقبل العفو ثبت لوارثه حد القذف وكذلك اذا كان الواجب بقذفه التعزير فانه يورث عنه وكذا لو أنشأ القذف بعد موت المقذوف ثبت لوارثه طلب الحد وعند أبي حنيفة رحمه الله حد القذف لا يورث ويسقط بالموت حجة الشافعي رحمه الله أن حد القذف هو حق الآدمي لانه يسقط بعفوه ولا يستوفى الا بطلبه و يحلف فيه المدعي عليه اذا أنكر واذا كان حق الآدمي وجب أن يورث لقوله عليه السلام ومن ترك حقا فلورثته حجة أبي حنيفة رحمه الله أنه لو كان موروثا لكان للزوج أو الزوجة فيه نصيب ولانه حق ليس فيه معنى المال والوثيقة فلا يورث كالوكالة والمضاربة (والجواب عن الاول) أن الاصح عند الشافعية أنه يرثه جميع الورثة كالمال وفيه وجه ثان أنه يرثه كلهم الا الزوج والزوجة لان الزوجية ترتفع بالموت ولان المقصود من الحد دفع العار عن النسب وذلك لا يلحق الزوج والزوجة (المسئلة الخامسة) اذا قذف انسان انسانا بين يدي الحاكم أو قذف امرأته برجل بعينه والرجل غائب فعلى الحاكم أن يسمع البينة على المقذوف و يخبره بأن فلانا قذفك وثبت لك حد القذف عليه كما لو ثبت له مال على آخر وهو لا يعلمه يلزمه اعلامه وعلى هذا المعنى بعث النبي صلى الله عليه وسلم أنيسا ليخبرها بأن فلانا قذفها بابنه ولم يبعثه ليتفحص عن زناها قال الشافعي رحمه الله وليس للامام اذا رمى رجل بزنا أن يبعث اليه فيسأله عن ذلك لان الله تعالى قال ولا تجسسوا وأراد به اذا لم يكن القاذف معينا

مثل

علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة الى علوم المخلوقات وكلة فى متعلقة بمحذوف وقع صفة شئ أى من شئ كائن فيهما أعم من أن يكون ذلك على وجه الاستقرار فيهما أو على وجه الجزئية منهما أو يخفى وتقديم الارض على السماء مع توسط لا بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة الى علومنا والالتفات من الخطاب الى اسم ٢٦٧ الذات المستجمعة للصفات لتربية المهابة

مثل أن قال رجل بين يدى الحاكم الناس يقولون ان فلانا زنى فلا يعتد الحاكم البته فبسبب أما قوله تعالى ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا فاختلف الفقهاء فيه فقال أكثر الصحابة والتابعين انه اذا تاب قبلت شهادته وهو قول الشافعى رحمه الله وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورى والحسن بن صالح رحمهم الله لا تقبل شهادة المحدود فى القذف اذا تاب وهذه المسئلة مبنية على أن قوله الا الذين تابوا عائد الى جميع الاحكام المذكورة أو اختص بالجملة الاخيرة فعند أبى حنيفة رحمه الله الاستثناء المذكور عقيب الجمل الكثيرة مختص بالجملة الاخيرة وعند الشافعى رحمه الله يرجع الى الكل وهذه المسئلة قد نظمناها فى أصول الفقه وذكرهناها ما يليق بهذا الموضع ان شاء الله تعالى احتج الشافعى رحمه الله على ان شهادته مقبولة بوجوه (أحدها) قوله عليه السلام التائب من الذنب كمن لا ذنب له ومن لا ذنب له مقبول الشهادة فالتائب يجب أن يكون أيضا مقبول الشهادة (وثانيها) ان الكافر يقذف فيتوب عن الكفر فتقبل شهادته بالاجماع فالقاذف المسلم اذا تاب عن القذف وجب أن تقبل شهادته لان القذف مع الاسلام أهون حالا من القذف مع الكفر فان قيل المسلمون لا يأمنون بسبب الكفار لانهم شهروا بعداوتهم والطعن فيهم بالباطل فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين والشناعة ما يلحقه بقذف مسلم مثله فشدد على القاذف من المسلمين زجرا عن الحاق العار والشناعة وأيضا فالتائب من الكفر لا يجب عليه الحد والتائب من القذف لا يسقط عنه الحد قلنا هذا الفرق ملغى بقوله عليه السلام أينعهم ان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين (وثالثها) أجمعنا على أن التائب عن الكفر والقتل والزنا مقبول الشهادة فكذا التائب عن القذف لان هذه الكبيرة ليست أكبر من تنقيص الزنا (ورابعها) أن أبا حنيفة رحمه الله يقبل شهادته اذا تاب قبل الحد مع أن الحد حق المقذوف فلا يزول بالتوبة فلأن تقبل شهادته اذا تاب بعد اقامة الحد وقد سقطت حالته وزال اسم الفسق عنه كان أولى (وخامسها) ان قوله الا الذين تابوا استثناء مذكور عقيب جمل فوجب عوده اليها بأسرها ويدل عليه أمور (أحدها) أجمعنا على انه لو قال عبيدى وامرأته طالق ان شاء الله فانه يرجع الاستثناء الى الجميع فكذا فيما نحن فيه فان قيل الفرق ان قوله ان شاء الله يدخل لرفع حكم الكلام حتى لا يثبت فيه شئ والاستثناء المذكور يصرف الاستثناء لا يجوز دخوله لرفع حكم الكلام رأسا ألا ترى انه يجوز أن يقول أنت طالق ان شاء الله فلا يقع شئ ولو قال أنت طالق الا طلاقا كان الطلاق واقعا والاستثناء باطلا لاستحالة الدخول لرفع حكم الكلام بالكلية قلنا ثبت انه لا يلزم من رجوع قوله ان شاء الله الى جميع ما تقدم صحة رجوع الاستثناء بحرفه الى جميع ما تقدم * قلنا هذا فرق فى غير محل النزاع لان ان شاء الله جاز دخوله لرفع حكم الكلام بالكلية فلا يلزم جواز رجوعه الى جميع الجمل المذكورة والاجاز دخوله لرفع بعض الكلام فوجب جواز رجوعه الى جميع الجمل على هذا الوجه حتى يقتضى أن يخرج من كل واحد من الجمل المذكورة بعضه (وثانيها) ان الواو للجمع المطلق فقوله فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون صار الجميع كالمذكور معا لا تقدم للبعض على البعض فلما دخل عليه الاستثناء لم يكن رجوع الاستثناء الى بعضها أولى من رجوعه الى الباقى اذ لم يكن لبعضها على بعض تقدم فى المعنى البتة فوجب رجوعه الى الكل ونظيره على قول أبى حنيفة رحمه الله قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم فان فاء التعقيب ما دخلت على غسل الوجه بل على مجموع هذه الامور من حيث ان الواو لا تفيد الترتيب فكذا ههنا كلمة الا ما دخلت على واحد بعينه لان حرف الواو لا يفيد الترتيب بل دخلت على المجموع * فان قيل الواو قد تكون للجمع على ما ذكرت وقد تكون للاستئناف وهى فى قوله فأولئك هم

والاشعار دلالة الحكم على نهج قوله تعالى الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير والايذان بعمومه لانه ليس بشأن يختص به أو تعين يتعلق به بل شامل لجميع الاشياء فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مصحح لبيد الكل وقيل هو من كلام الله عز وجل وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه وكذلك يفعلون ومن للاستغراق على الوجهين (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر) أى مع كبرى وياءس عن الولد قيد الهبة به استعظاما للنعمة واظهارا لشكرها (اسمعيل واسحق) روى انه ولد له اسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة أو مائة وسبع عشرة سنة (ان ربى) وما لك أمرى (لسميع الدعاء) لمجيبه من قولهم سمع الملك كلامه اذا اعتد به وهى من أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل أضيف الى مفعوله أو قائله بأسناد السماع الى دعاء الله تعالى مجازا وهو مع كونه من تتمة الحمد والشكر اذ هو وصف له تعالى بأن ذلك الجميل سنته المستمرة تعليل على طريقة التذييل للهبة المذكورة وفيه ايذان بتضاعف النعمة فيها حيث وقعت بعد الدعاء بقوله رب هب لى من الصالحين فاقترنت الهبة بقبول الدعوة وتوحيد ضمير المتكلم وان كان عقيب ذكر هبتهما لما أن نعمة الهبة قائمة عليه خاصة وهما من النعم لا من المنعم عليهم (رب

اجعلني مقيم الصلاة) مثابرا عليها معتدا لها وتوحيد ضمير المتكلم مع شمول دعوته لذريته أيضا حيث قال (ومن ذريتي) أي بعضهم من المذكور بن ومن يسير سيرتهما من أولاده مما للاشعار بأنه المقتدى في ذلك وذريته أتباع له وأن ذكرهم بطريق الاستطراد لا كما في قوله ربنا اني أسكنت الخ فان اسكانه مع ٢٦٨ عدم تحققه بلا ملابسة لان أسكنه اغا هو مذكور بطريق التمهيد للدعاء الذي هو

الفاسقون لانها اغا تكون للجمع فيما لا يختلف معناه ونظمه جملة واحدة فيصير الكل كالمذكور معا مثل آية الوضوء فان الكل أمر واحد كانه قال فاغسلوا هذه الاعضاء فان الكل قد تضمنه لفظ الامر وأما آية القذف فان ابتداءها أمر وآخرها خبر فلا يجوز أن ينظمهما جملة واحدة وكان الواو للاستئناف فيختص الاستثناء به ويقال لم لا يجوز أن تجعل الجمل الثلاث بمجموعها جزاء الشرط كانه قيل ومن قذف المحصنات فاجلدوهم وردوا شهادتهم وفسقوهم أي فاجمعوا لهم الجلد والرد والفسق الا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا فان الله يغفر لهم فيتقابلون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسقين (وثالثها) ان قوله وأولئك هم الفاسقون عقيب قوله ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا يدل على ان العلة في عدم قبول تلك الشهادة كونه فاسقا لان ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية لاسيما اذا كان الوصف مناسبا وكونه فاسقا مناسب أن لا يكون مقبول الشهادة اذا ثبت ان العلة لرد الشهادة ليست الا كونه فاسقا ودل الاستثناء على زوال الفسق فقد زالت العلة فوجب أن يزول الحكم لزوال العلة (ورابعها) ان مثل هذا الاستثناء موجود في القرآن قال الله تعالى اغا جزاء الذين يحاربون الله ورسوله الى قوله الا الذين تابوا ولا خلاف ان هذا الاستثناء راجع الى ما تقدم من أول الآية وان التوبة حاصلة لهؤلاء جميعا وكذلك قوله لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى الى قوله فلم تجدوا ماء فتيمموا وصار التيمم لمن وجب عليه الاغتسال كانه مشروع لمن وجب عليه الوضوء وهذا الوجه ذكره أبو عبيد في اثبات مذهب الشافعي رحمه الله واحتج أصحاب أبي حنيفة على ان حكم الاستثناء مختص بالجملة الاخيرة بوجوه (أحدها) ان الاستثناء من الاستثناء يختص بالجملة الاخيرة فكذا في جميع الصور طرد الباب (وثانيها) ان المقتضي لعموم الجمل المتقدمة قائم والمعارض وهو الاستثناء يكفي في تخصيصه تعليقه بجملة واحدة لان بهذا القدر يخرج الاستثناء عن أن يكون لغوا فوجب تعليقه بالجملة الواحدة فقط (وثالثها) ان الاستثناء لو رجع الى كل الجمل المتقدمة لوجب انه اذا تاب ان لا يجلد وهذا باطل بالاجماع فوجب أن يختص الاستثناء بالجملة الاخيرة (والجواب عن الاول) ان الاستثناء من النفي اثبات ومن الاثبات نفي فالاستثناء عقيب الاستثناء لو رجع الى الاستثناء الاول والى المستثنى فيه قد رمانفي من أحدهما اثبت في الآخر فيصير الناقص بالزائد ويصير الاستثناء الثاني عديم الفائدة فلهذا السبب قلنا في الاستثناء من الاستثناء انه يختص بالجملة الاخيرة (والجواب عن الثاني) انا بينا ان الواو والعطف لا تقتضي الترتيب فلم يكن بعض الجمل متأخرا في التقدير عن البعض فلم يكن تعليقه بالبعض أولى من تعليقه بالباقي فوجب تعليقه بالكل (والجواب عن الثالث) انه ترك العمل به في حق البعض فلم يترك العمل به في حق الباقي واحتج أصحاب أبي حنيفة رحمه الله في المسئلة بوجوه من الاخبار (أحدها) ما روى ابن عباس رضي الله عنهما في قصة هلال بن أمية حين قذف امرأته بشريك بن سحماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلد هلال وتبطل شهادته في المسلمين فاخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان وقوع الجلد به يبطل شهادته من غير شرط التوبة في قبولها (وثانيها) ان قوله عليه السلام المسلمون عدول بعضهم على بعض الا محدود في قذف ولم يشترط فيه وجود التوبة منه (وثالثها) ما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تجوز شهادة محدود في الاسلام قالت الشافعية هذا معارض بوجوه (أحدها) قوله عليه السلام اذا علمت مثل الشمس فاشهد والامر للوجوب فاذا علم المحدود وجبت عليه الشهادة ولو لم تكن مقبولة لما وجبت لانها تكون عبثا (وثانيها) قوله عليه السلام نحن نحكم بالظاهر وههنا قد حصل الظهور لان دينه وعقله وعفته الحاصلة بالتوبة تفيد ظن كونه صادقا (وثالثها) ما روى عن عمر بن الخطاب

خص وص ذريته وانما خص هذا الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهة الله تعالى أن بعضا منهم لا يكون مقيم الصلاة كقوله تعالى ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك (ربنا وتقبل دعاء) أي دعائي هذا المتعلق بجعلي وجعل بعض ذريتي مقيمي الصلاة تائبين على ذلك مجتنبين عن عبادة الاصنام ولذلك جيء بضمير الجماعة (ربنا اغفرلي) أي ما فرط مني من ترك الاولى في باب الدين وغير ذلك مما لا يسلم منه البشر (ولوالدي) وقرئ بالتوحيد ولابوي وهذا الاستغفار منه عليه السلام اغا كان قبل تبين الامر له عليه السلام وقيل أراد بوالديه آدم وحواء وقيل بشرط الاسلام ويرده قوله تعالى الاقول ابراهيم الآية وقد مر في سورة التوبة نوع تحقيق للقام وسيأتي تمامه في سورة مريم بفضل الله تعالى (وللمؤمنين) كافة من ذريته وغيرهم وللابذان باشتراك الكل في الدعاء بالمغفرة جيء بضمير الجماعة (يوم يقوم الحساب) أي يثبت ويتحقق محاسبة أعمال المكافين على وجه العدل استعير له من ثبوت القائم على الرجل بالاستقامة ومنه قامت الحرب على ساق والمراد نفس أسنده اليه قيام أهله مجازا أو حذف المضاف كما في واسئل القرية واعلم أن ما حكي عنه عليه السلام من الادعية والاذكار ومما يتعلق بها ليس بصادر عنه على الترتيب المحكي بل على وجه المعية بل صدر عنه في أزمنة متفرقة حكي مرتبا للدلالة على سوء حال الكفرة بعد ظهور أمره في الملة وارشاد الناس اليها

والتضرع الى الله تعالى لصالحهم الدينية والدنيوية (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد تثبيته على ما كان عليه من عدم حسبانه عز وجل كذلك ونحو قوله ولا تكونن من المشركين ونظائره مع ما فيه من الايذان بكونه واجب الاحتراز عنه في الغاية حتى نهي عنه من لا يمكن تعاطيه أو نهيه عليه السلام عن حسبانه تعالى تاركا لمقابلتهم على

طريقة العقو والتعبير عنه بذلك للمبالغة في النهي والايذان بأن ذلك الحسبان بمنزلة حسبانه تعالى غافلا عن أعمالهم اذ العلم بذلك مستوجب لعقابهم لا محالة فتركه لو كان لكان للغفلة عما يوجبه من أعمالهم الخبيثة وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووعد له أكيد ووعيد للكفرة وسائر الظالمين شديد أو لكل أحد ممن يستحقل عذابهم أو يتوهم اهمالهم للمهمل بصفاته تعالى والاغترار بامهاله وقيل معناه لا تحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل عما يعامل به الغافل من تأخير العقوبة بهم عما يستحقونه من العذاب الأليم بل انما يؤخرهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين (انما يؤخرهم) أي يمهلهم ويمتعهم بالحظوظ الدنيوية ولا يعجل عقوبتهم حسبما يقتضيه جناياتهم (ليوم تشخص فيه الابصار) أي تبقى مفتوحة لا تكاد تطرف من هول ما ترى (مهطعين) مقبلين نحو الداعي مسرعين (مقنعي رؤسهم) رافعيها (لا يرتد اليهم طرفهم) لا يرجع اليهم بصرهم لشدة شخوصه (وأفئدتهم هواء) خالية عن الفهم والعقل لفرط الدهشة والحيرة وقيل خربة لا رؤس فيها وقيل جوفاء لانها من الجوف وقيل متخرقة كالهواء لا تعي خيرا ولا شرا (وأنذر الناس) يا محمد (يوم يأتيهم العذاب) أي عذاب الآخرة (فيقول الذين ظلموا) أي أشركوا (ربنا أخرنا) أي رد نا (إلى أجل قريب) أي إلى وقت قريب (نجب دعوتك) بالايمان بك (ونتبع الرسل) فيما جاؤا به من التوحيد والطاعة (أولم تكونوا أقسمتم من قبل) في الدنيا (ما لكم من زوال) أي ما لكم انتقال من الدنيا إلى الآخرة أو ما لكم من زوال نعمة وقيل ما لكم من بعث وقيل ما لكم من نهوض من القبور (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم) بالكفر والمعاصي كعاد وثمود وأضرابهم (وتبين لكم كيف فعلنا بهم) من الاهلاك والتدمير (وضربنا لكم الأمثال) أي بينا لكم صفاتهم العجيبة الشأن التي هي كالأمثال في الغرابة وقيل ضربنا لكم الأمثال بما فعلنا بهم فلم تعتبروا (وقد مكروا مكرهم) أي مكروا بالرسل مكرهم العظيم الذي بلغ أقصى الغاية في الشناعة (وعند الله مكرهم) أي جزاء مكرهم أو علم مكرهم الذي لا يخفى عليه شيء منه فيجازيهم عليه (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) أي وإن كان مكرهم في الشدة والفظاعة بحيث تزول منه الجبال لو كانت تزول بمكر أحد فالمراد تهويل أمره وتفظيعه وقيل المراد بالجبال الشرائع والايمان أي وإن كان مكرهم لتزول منه شرائع الاسلام وقرئ لتزول بفتح اللام الأولى ورفع الثانية على أن إن هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) أي لا تحسبن أن الله يخلف رسله ما وعدهم من النصر والتمكين وإهلاك أعدائهم (إن الله عزيز) أي غالب لا يمتنع عليه شيء مما يريده (ذو انتقام) ممن عصاه (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) أي تبدل صفاتهما من الاستواء والاستقامة والاشراق والانارة وعدم الانتفاع بما فيهما بالانتفاع به وتبدل الأرض بأرض بيضاء كالفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة وتبدل السموات بسموات بيضاء كالفضة (وبرزوا لله الواحد القهار) أي خرجوا من قبورهم أو ظهروا لفصل القضاء أو لجزاء الأعمال (وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد) أي مشدودين في القيود والأغلال (سرابيلهم من قطران) أي قمصانهم التي تلبسها جلودهم من قطران وهو ما تهنأ به الابل الجربى فيحرق الجلد بحدته (وتغشى وجوههم النار) أي تعلوها وتلفحها (ليجزي الله كل نفس ما كسبت) من خير وشر (إن الله سريع الحساب) أي يحاسب الخلق في مقدار حلب شاة أو نحو ذلك (هذا بلاغ للناس) أي كفاية لهم في الموعظة والتذكير (ولينذروا به) أي ولينذروا بما فيه من المواعظ والزواجر (وليعلموا أنما هو إله واحد) لا شريك له (وليذكر أولوا الألباب) أي ليتعظ ذوو العقول الخالصة عن شوائب الوهم والخيال

سورة الحجر

مكية وهي تسع وتسعون آية وست مائة وإحدى وسبعون كلمة وألفان وثلاثمائة وستة وثلاثون حرفا (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) أي هذه آيات الكتاب الكامل وقرآن مبين لما يحتاج إليه من الشرائع والأحكام (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) أي ربما يتمنى الكفار الذين حيل بينهم وبين الايمان بالقتل والأسر وغيرهما لو كانوا مسلمين وقرئ ربما بالتخفيف وربما بضم الراء وتشديد الباء وربما بفتح الراء وتخفيف الباء وربما بضم الراء وتخفيف الباء وربما بفتح الراء وتشديد الباء

التأخير اعلامها ولهذه الحكمة وقرئ بالنون وايقاع التأخير عليهم مع أن المؤخر اعذابهم اتهويل الخطب وتفظيع الحال ببيان أنهم متوجهون الى العذاب مرصدون لامرة الا أنهم باقون باختيارهم وللدلالة على أن حقهم من العذاب هو الاستئصال بالمرة وأن لا يبقى منهم في الوجود عين ولا أثر وللايذان ٢٧٠ بأن المؤخر له من جملة العذاب وعنوانه ولو قيل انما يؤخر عذابهم الخ لما فهم ذلك

قم وقل أشهد بالله ان خولة لزانية وانى لمن الصادقين ثم قال فى الثانية قل أشهد بالله انى رأيت شريكا على بطنها وانى لمن الصادقين ثم قال فى الثالثة قل أشهد بالله انها حبلى من غيرى وانى لمن الصادقين ثم قال فى الرابعة قل أشهد بالله انها لزانية وانى ما قربتها منذ أربعة أشهر وانى لمن الصادقين ثم قال فى الخامسة قل لعنة الله على عويمر ان كان من الكاذبين فيما قال ثم قال اقعد وقال لخولة قومى فقامت وقالت أشهد بالله ما أبا زانية وان زوجى عويمر لمن الكاذبين وقالت فى الثانية أشهد بالله ما رأى شريكا على بطنى وانه لمن الكاذبين وقالت فى الثالثة أشهد بالله انى حبلى منه وانه لمن الكاذبين وقالت فى الرابعة أشهد بالله انه ما أتانى قط فاحشة قط وانه لمن الكاذبين وقالت فى الخامسة غضب الله على خولة ان كان عويمر من الصادقين فى قوله ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية الكلبى ان عاصما نزلت يوم رجع الى أهله فوجد شريك بن سحماء على بطن امرأته فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام الحديث كما تقدم (وثالثها) ما روى عكرمة عن ابن عباس لما نزل والذين يرمون المحصنات قال سعد بن عبادة وهو سيد الانصار لو وجدت رجلا على بطنها فانى ان جئت بأربعة من الشهداء يكون قد قضى حاجته وذهب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم فقالوا يا رسول الله لا تلمه فانه رجل غيور فقال سعد يا رسول الله والله انى لأعرف انها من الله وأنها حق ولكنى عجبت منه فقال عليه الصلاة والسلام فان الله يأبى الا ذلك قال فلم يلبثوا الا يسيرا حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم فقال يا رسول الله انى وجدت مع امرأتى رجلا رأيت بعينى وسمعت بأذنى فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به فقال هلال والله يا رسول الله انى لأرى الكراهة فى وجهك مما أخبرتك به والله يعلم انى لصادق وما زلت الا حقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اما البينة واما اقامة الحد عليك فاجتمعت الانصار فقالوا ابتلينا بما قال سعد فينا هكذا اذ نزل عليه الوحى وكان اذا نزل عليه الوحى أرتد وجهه وعلا جسده حمرة فلما سرى عنه قال عليه الصلاة والسلام أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجا قال قد كنت أرجو ذلك من الله تعالى فقر أعليهم هذه الآيات فقال عليه الصلاة والسلام ادعوها فدعيت فجئت هلالا فقال عليه الصلاة والسلام الله يعلم ان أحدكما كاذب فهل منكما تائب وأمر بالملاعنة فشهد هلال أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين فقال عليه الصلاة والسلام له عند الخامسة اتق الله يا هلال فان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فقال والله لا يعذبنى الله عليها كما لم يجلدنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد الخامسة ثم قال رسول الله أشهدين فشهدت أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين فلما أخذت فى الخامسة قال لها اتقى الله فان الخامسة هى الموجبة فتفكرت ساعة وهممت بالاعتراف ثم قالت والله لا أفضح قومى وشهدت الخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ثم قال انظروها ان جاءت به أشيعج أعين أحمش الساقين فهو لهلال وان جاءت به خدلج الساقين أورق جعدا فهو لصاحبه فجاءت به أورق خدلج الساقين فقال عليه الصلاة والسلام لولا الايمان لكان لى ولها شان قال عكرمة لقد رأيته بعد ذلك أمير مصر من الامصار ولا يدرى من أبوه ﴿البحث الثانى﴾ مابتعلق بالقراءة قرئ ولم تكن بالتاء لان الشهداء جماعة أو لانهم فى معنى الانفس ووجه من قرأ أربع أن ينصب لانه فى حكم المصدر والعامل فيه المصدر الذى هو فشهادة أحدهم وهى مبتدأ محذوف الخبر فتقديره فواجب شهادة أحدهم أربع شهادات وقرئ ان لعنة الله وان غضب الله على تخفيف ان ورفع ما بعدها وقرئ ان غضب الله على فعل الغضب وقرئ بنصب الخامسين على معنى

(اليوم) هائل (تشخص فيه الابصار) ترتفع أبصار أهل الموقف فيدخل فى زمرتهم الكفرة المعهودون دخولا أوليا أى تبقى مفتوحة لا تتحرك أجفانهم من هول ما يرونه واعتبار عدم قرارها فى أماكنها اما باعتبار الارتفاع الحسى فى جزم العين واما بحصول الصيغة من شخص من بلد الى بلد وسار فى ارتفاع (مهطعين) مسرعين الى الداعى مقبلين عليه بالطرف والذل والخشوع أو مقبلين بأبصارهم عليه لا يقلعون عنه ولا يطرفون هيبة وخوفا وحيث كان ادامة النظر ههنا بالنظر الى الداعى قيل (مقنعى رؤسهم) أى رافعيها مع ادامة النظر من غير التفات الى شئ قال المنسى وابن عرفة أو ناكسيها ويقال أقنع رأسه أى طأطأها ورافعها فهو من الاضداد وهما حالان مما دل عليه الابصار من أصحابها أو الثانى حال متداخلة من الضمير فى الاول واضافته غير حقيقية فلا بناء فى الحالية (لا يرتد اليهم طرفهم) أى لا يرجع اليهم تحريك أجفانهم حسبما كان يرجع اليهم كل لحظة بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تطرف أو لا ترجع اليهم أجفانهم التى هى آلة الطرف فيكون اسناد الرجوع الى الطرف مجازيا أو هو نفس الجفن قال الفيروزابادى الطرف الدين لا يجمع لانه مصدر فى الاصل أو اسم جامع للعين أو لا يرجع نظرهم الى أنفسهم فضلا عن أن يرجع الى شئ

وبشهد

آخر فيه ويقرؤ مبنيين ودوا أيضا حال أو بدل من مفتنى الخ أو استئناف والمعنى لا يزول ما اعتراهم من خوص الابصار وتأخيره عما هو من تتمته من الاهطاع والاقناع مع ما بينه وبين الخوص المذكور من المناسبة لتربية هذا المعنى (وأفئدتهم هواء) خاليه من العقل والفهم افرط الحيرة والدهش كأنها نفس الهواء الخالي من كل شاغل ومنه قيل للجبان ٢٧١ والاحمق قلبه هواء أي لا قوة ولا رأى فيه

وشهداء الخامسة (البحث الثالث) ما يتعلق بالاحكام والنظر فيه يتعلق بأطراف (الطرف الاول) في موجب اللعان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه اذا رمى الرجل امرأته بالزنا يجب عليه الحد ان كانت محصنة والتعزير ان لم تكن محصنة كما في رمي الاجنبية لا يختلف موجبهما غير انهما يختلفان في المخاص في قذف الاجنبي لا يسقط الحد عن القاذف الا باقرار المقذوف أو ببينة تقوم على زناها وفي قذف الزوجة يسقط عنه الحد بأحد هذين الامرين أو باللعان وانما اعتبر الشرع اللعان في هذه الصورة دون الاجنبيات لوجهين (الاول) انه لا مضرة عليه في زنا الاجنبية والاولى له ستره أما اذا زنى بزوجته فيلحقه العار والنسب الفاسد فلا يمكنه الصبر عليه وتوقيفه على البينة كالمتعذر فلا جرم خص الشرع هذه الصورة باللعان (الثاني) ان الغالب في المتعارف من أحوال الرجل مع امرأته انه لا يقصدها بالقذف الا عن حقيقة فاذا رماها فنفس الرمي يشهد بكونه صادقا الا أن شهادة الحال ليست بكاملة فضم اليها ما يقويها من الايمان كشهادة المرأة اما ضعفت قويت بزيادة العدد والشاهد الواحد يتقوى باليمين على قول كثير من الفقهاء (المسئلة الثانية) قال أبو بكر الرازي كان حد قاذف الاجنبيات والزوجات الجلد والدليل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم لهلال بن أمية حين قذف امرأته بشريك بن سحماء ائتني بأربعة يشهدون لك والا فحد في ظهرك فثبت بهذا ان حد قاذف الزوجات كان كحد قاذف الاجنبيات الا أنه نسخ عن الازواج الجلد باللعان وروى نحو ذلك في الرجل الذي قال أرأيتم لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا فان تكلم جلد فعوه وان قتل قتلوه وان سكت سكت على غيظ فدلت هذه الاخبار على أن حد قاذف الزوجة كان الجلد وان الله أسقطه باللعان (المسئلة الثالثة) قال الشافعي رحمه الله اذا قذف الزوج زوجته فالواجب هو الحد ولكن المخاص منه باللعان كما أن الواجب بقذف الاجنبية الحد والمخاص منه بالشهود فاذا نكل الزوج عن اللعان لزمه الحد للقذف فاذا لاعن ونكلت عن اللعان لزمها حد الزنا وقال أبو حنيفة رحمه الله اذا نكل الزوج عن اللعان حبس حتى يلاعن وكذا المرأة اذا نكلت حبست حتى تلاعن حجة الشافعي وجوه (أحدها) ان الله تعالى قال في أول السورة والذين يرمون المحصنات يعني غير الزوجات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ثم عطف عليه حكم الازواج فقال والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم الآية فبكما أن مقتضى قذف الاجنبيات الاتيان بالشهود أو الجلد فكذا موجب قذف الزوجات الاتيان باللعان أو الحد (وثانيها) قوله تعالى ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله والالف واللام الداخلان على العذاب لا يفيدان العموم لانه لم يجب عليها جميع أنواع العذاب فوجب صرفهما الى المعهود السابق والمعهود السابق هو الحد لانه تعالى ذكر في أول السورة وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين والمراد منه الحد واذا ثبت ان المراد من العذاب في قوله ويدرأ عنها العذاب هو الحد ثبت انها لو لم تلاعن لحدت وانما باللعان دفعت الحد فان قيل المراد من العذاب هو الحبس قلنا قد بينا ان الالف واللام للمعهود المذكور وأقرب المذكورات في هذه السورة الحد وأيضا فلو حملناه على الحد لا تصير الآية مجملة أما لو حملناه على الحبس تصير الآية مجملة لان مقدار الحبس غير معلوم (وثالثها) قال الشافعي رحمه الله ومما يدل على بطلان الحبس في حق المرأة انها تقول ان كان الرجل صادقا فحدوني وان كان كاذبا فخلوني فما بالي والحبس وليس حبسي في كتاب الله ولا في سنة رسوله ولا الاجماع ولا القياس (ورابعها) ان الزوج قذفها ولم يأت بالمخرج من شهادة غيره أو شهادة نفسه فوجب عليه الحد لقوله تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم واذا ثبت ذلك في حق الرجل ثبت في حق المرأة لانه لا قائل

واعتبار خلوها عن كل خير لا يناسب المقام وهو اما حال عاملها لا يرتد مفيدة لكون شخوص أبصارهم وعدم ارتداد طرفهم بلا فهم ولا اختيار أو جملة مستقلة (وأنذر الناس) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد اعلامه أن تأخيرهم لماذا وأمره بانذارهم وتخويفهم منه والمراد بالناس الكفار المعبر عنهم بالظالمين كما يقتضيه ظاهر اتيان العذاب والعدول اليه من الاضمار للاشعار بأن المراد بالانذار هو الزجر عما هم عليه من الظلم شفقة عليهم لا التخويف للازعاج والايذاء فلا تناسب عدم ذكرهم بعنوان الظلم أو الناس جميعا فان الانذار عام للفريقين كقوله تعالى انما تنذر من اتبع الذكر والاتيان بهم هما من حيث كونهما في الموقف وان كان لحوقه بالكفار خاصة أي أنذرهم وخوفهم (يوم يأتيهم العذاب) المعهود وهو اليوم الذي وصف بالا يوصف من الاوصاف الهائلة أعني يوم القيامة وقيل هو يوم موتهم معذبين بالسكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى أو يوم هلاكهم بالقتل وبأيامه القصر السابق (فيقول الذين ظلموا) أي فيقولون والعدول عنه الى ما علمته النظم الكريم للتسجيل عليهم بالظلم وللاشعار بان ما قوله من الشدة انما هو لظلمهم وايثاره على صيغة الفاعل حسبما ذكر أولا للايذان بأن الظلم في الجملة كاف في الافضاء الى ما ذكر من الاهوال من غير حاجة الى الاستمرار عليه

كما ينبئ عنه صيغة الفاعل وعلى تقدير كون المراد بالناس من يعم المسلمين أيضا فالمعنى الذين ظلموا منهم وهم الكفار أو يقال كل من ظلم بالشرك والتكذيب من المنذرين وغيرهم من الأمم الخالية فان اتيان العذاب يعمهم كما يشعر بذلك وعدهم باتباع الرسل (ربنا أخرنا ردنا الى الدنيا وأمهلنا (الى أجل قريب) ٢٧٢ الى أمد وحدته من الزمان قريب (نجب دعوتك) أي الدعوة اليك والى توحيدك أو دعوتك لنا على ألسنة الرسل ففيه اعباء الى أنهم صدقوهم في أنهم مرسلون من عند الله تعالى (ونتبع الرسل) فيما جاؤنا به أي نتدارك ما فرطنا فيه من اجابة الدعوة واتباع الرسل والجمع اما باعتبار اتفاق الجميع على التوحيد وكون عصيانهم للرسول صلى الله عليه وسلم عصيانا لهم جميعا واما باعتبار ان المحكي كلام ظالمي الامم جميعا والمقصود بيان وعد كل أمة باتباع رسولها (أولم تكونوا أقسمتم من قبل) على استمرار القول معطوفا على فيقول أي فيقال لهم توبيخا وتبكيتا ألم تؤخروا في الدنيا ولم تكونوا أقسمتم اذ ذاك بألسنتكم بطرا وأشرا وجهلا وسفها (مالكم من زوال) مما أنتم عليه من التفيع بالحظوظ الدنيوية أو بألسنة الحال حيث بنيتم مشيدا وأملتم بعيدا ولم تحدثوا أنفسكم بالانتقال منها الى هذه الحالة وفيه اشعار باستمداد زمان التأخير وبعد مداه أو مالكم من زوال من هذه الدار الى دار أخرى كقوله تعالى واقسموا بالله جهد أيمانهم ومختلف

بالفرق (وخاصمها) قال عليه الصلاة والسلام ناولة وان رجم أحدهن علك من غضب الله وهو نص في الباب صحة أبي حنيفة رحمه الله أما في حق المرأة فلانها ما فعلت سوى انها تركت اللعان وهذا الترك ليس بينة على الزنا ولا اقرار منها به فوجب أن لا يجوز رجمها لقوله عليه السلام لا يحل دم امرئ مسلم الحديث واذا لم يجب الرجم اذا كانت محصنة لم يجب الجلد في غير المحصن لانه لا قائل بالفرق وأيضا فالمكفول ليس بصريح في الاقرار فلم يجز اثبات الحد به كما للفظ المحتمل للزنا وغيره (المسئلة الرابعة) قال الجمهور اذا قال لها ما زانية وجب اللعان وقال مالك رحمه الله لا يلاعن الا أن يقول رأيتك تزنين أو ينفي حملها أو ولدها منها حجة الجمهور أن عموم قوله والذين يرمون المحصنات يتناول الكل ولانه لا تفاوت في قذف الاجنبية بين الكل فكذا في حق قذف الزوجة (الطرف الثاني) الملاعن قال الشافعي رحمه الله من صح بيمينه صح لعانه فيجري اللعان بين الرقيقين والذميين والمحدودين وكذا اذا كان أحدهما رقيقا أو كان الزوج مسلما والمرأة ذمية وقال أبو حنيفة رحمه الله لا يصح في صورتين (احداهما) أن تكون الزوجة ممن لا يجب على قاذفها الحد اما اذا كان أجنبيا نحو أن تكون الزوجة مملوكة أو ذمية (والثانية) أن يكون أحدهما من غير أهل الشهادة بأن يكون محدودا في قذف أو عبدا أو كافرا ثم زعم ان الفاسق والاعمى مع أنهما ليسا من أهل الشهادة يصح لعانهما وجه قول الشافعي رحمه الله ان ظاهر قوله تعالى والذين يرمون أزواجهم يتناول الكل ولا معنى للتخصيص والقياس أيضا ظاهر من وجهين (الاول) ان المقصود دفع العار عن النفس ودفع ولد الزنا عن النفس وكما يحتاج غير المحدود اليه فكذا المحدود يحتاج اليه (والثاني) أجمعنا على أنه يصح لعان الفاسق والاعمى وان لم يكونا من أهل الشهادة فكذا القول في غيرهما والجامع هو الحاجة الى دفع عار الزنا ووجه قول أبي حنيفة رحمه الله النص والمعنى أما النص فما روى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه عليه السلام قال أربع من النساء ليس بينهن وبين أزواجهن ملاعنة اليهودية والنصرانية تحت المسلم والحرة تحت المملوك والمملوكة تحت الحر أما المعنى فنقول أما في الصورة الاولى فلانه كان الواجب على قاذف الزوجة والاجنبية الحد بقوله والذين يرمون المحصنات ثم نسخ ذلك عن الازواج وأقيم اللعان مقامه فلما كان اللعان مسخ الازواج فأما مقام الحد في الاجنبيات لم يجب اللعان على من لا يجب عليها الحد لو قذفها أجنبي وأما في الصورة الثانية فالوجه فيه ان اللعان شهادة فوجب أن لا يصح الا من أهل الشهادة وانما قلنا ان اللعان شهادة لوجهين (الاول) قوله تعالى ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله فسمى الله تعالى لعانهم شهادة كما قال واستشهدوا شهيدين من رجالكم وقال فاستشهدوا عليهن أربعة منكم (الثاني) انه عليه السلام حين لاعن بين الزوجين أمرهما باللعان بلفظ الشهادة ولم يقتصر على لفظ اليمين اذا ثبت أن اللعان شهادة وجب أن لا تقبل من المحدود في القذف لقوله تعالى ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا واذا ثبت ذلك في المحدود ثبت في العبد والكافر اما للاجماع على انهما ليسا من أهل الشهادة أو لانه لا قائل بالفرق (وأجاب الشافعي رحمه الله بان اللعان ليس شهادة في الحقيقة بل هو يمين لانه لا يجوز أن يشهد الانسان لنفسه ولانه لو كان شهادة لكانت المرأة تأتي بثمان شهادات لانها في النصف من الرجل ولانه يصح من الاعمى والفاسق ولا يجوز شهادتهما فان قيل الفاسق والفاسقة قد يتوبان فلنا وكذلك العبد قد يعتق فتجوز شهادته ثم أكد الشافعي رحمه الله ذلك بان العبد اذا عتق تقبل شهادته في الحال والفاسق اذا تاب لا تقبل شهادته في الحال ثم الزم أبا حنيفة رحمه الله بان شهادة أهل الذمة مقبولة بعضهم على بعض فينبغي أن يجوز اللعان بين الذمي والذمية وهذا كله كلام الشافعي رحمه الله ثم قال بعد ذلك

لا يبعد الله من يموت وصيغة الخطاب في جواب القسم لمراعاة حال الخطاب في أقسمتم كما في قوله حلف بالله ليخرجن وهو أدخل في التوبيخ من أن يقال ما لنا مراعاة لحال المقسم ذكر البيهقي عن محمد بن كعب القرظي انه قال لاهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى

في أربع منها فاذا كانت الخامسة لم يشهدها أبدا يقولون ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل فيجيبهم الله تعالى ذلكم بأنه اذا دعي الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير ثم يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون فيجيبهم الله تعالى فسوف تعلمون ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل فيجيبهم الله تعالى أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ان الله عزيز ذو انتقام يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الاصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزي الله كل نفس ما كسبت ان الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر أولوا الالباب

وتختلف الحدود بمن وقعت له ومعناه ان الزوج ان لم يلاعن تنتف حد القذف عليه لزفه وان لاعن ولم تلاعن اختلف حدها باحصانها وعدم احصانها وحريتها ورقها (الطرف الثالث) الاحكام المرتبة على اللعان قال الشافعي رحمه الله يتعلق باللعان خمسة أحكام درء الحد وفي الولد والفرقة والتحريم المؤبد ووجوب الحد عليها وكلها تثبت بمجرد لعانه ولا يفتقر فيه الى لعانها ولا الى حكم الحاكم فان حكم الحاكم به كان تنفيذا منه لا ايقاعا للفرقة فلنتكلم في هذه المسائل (المسألة الاولى) اختلف المجتهدون في وقوع الفرقة باللعان على أربعة أقوال (أحدها) قال عثمان البتي لا أرى ملاعنة الزوج امرأته تقتضي شيئا يوجب أن يطلقها (وثانيها) قال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد لا تقع الفرقة بفراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما (وثالثها) قال مالك والليث وزفر رحمهم الله اذا فرغا من اللعان وقعت الفرقة وان لم يفرق الحاكم (ورابعها) قال الشافعي رحمه الله اذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان فقد زال فراش امرأته ولا تحصل له أبدا التعنت أولم تلتعن حجة عثمان البتي ونحوه (أحدها) ان اللعان ليس بصريح ولا كناية عن الفرقة فوجب أن لا يقيد الفرقة كسائر الاقوال التي لا اشعار لها بالفرقة لان أكثر ما فيه أن يكون الزوج صادقا في قوله وهو لا يوجب تحريما ألا ترى انه لو قامت البينة عليه الم يوجب ذلك تحريما فاذا كان كاذبا والمرأة صادقة ثبت انه لا دلالة فيه على التحريم (وثانيها) لو تلاعنا فيما بينهما لم يوجب الفرقة فكذا لو تلاعنا عند الحاكم (وثالثها) ان اللعان قائم مقام الشهود في قذف الاجنبيات فكما أنه لا فائدة في احضار الشهود هناك الا اسقاط الحد فكذا اللعان لا تأثير له الا اسقاط الحد (ورابعها) اذا كذب الزوج نفسه في قذفه اياها لم يوجب ذلك فرقة فكذا اذا لاعن لان اللعان قائم مقام درء الحد قال وأما تفريق النبي صلى الله عليه وسلم بين المتلاعنين فكان ذلك في قصة العجلاني وكان قد طلقها ثلاثا فسد اللعان فلذلك فرق بينهما وأما قول أبي حنيفة وهو أن الحاكم يفرق بينهما فلا بد من بيان أمرين (أحدهما) انه يجب على الحاكم أن يفرق بينهما ودليله ما روى سهل بن سعد في قصة العجلاني مضت السنة في المتلاعنين أن يفرق بينهما ولم يجتمعا أبدا (والثاني) أن الفرقة لا تحصل الا بحكم الحاكم واحتجوا عليه بوجوه (أحدها) روى في قصة عويمر انها مما فارغا قال عويمر كذبت عليها يا رسول الله ان أمسكتها هي طالق ثلاثا فطلقها ثلاثا قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستدلال بهذا الخبر من وجوه (أحدها) انه لو وقعت الفرقة باللعان لبطل قوله كذبت عليها ان أمسكتها الان امساكها غير ممكن (وثانيها) ما روى في هذا الخبر انه طلقها ثلاث تطليقات فأنفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنفيذ الطلاق انما يمكن لو لم تقع الفرقة بنفس اللعان (وثالثها) ما قال سعد بن سهل في هذا الخبر مضت السنة في المتلاعنين أن يفرق بينهما ولا يجتمعان أبدا ولو كانت الفرقة واقعة باللعان استحال التفريق بعدها (وثانيها) قال أبو بكر الرازي قول الشافعي رحمه الله خلاف الآية لانه لو وقعت الفرقة باللعان لوقعت للاعنت المرأة وهي أجنبية وذلك خلاف الآية لان الله تعالى انما أوجب اللعان بين الزوجين (وثالثها) ان اللعان شهادة لا يثبت حكمه الا عند الحاكم فوجب أن لا يوجب الفرقة الا بحكم الحاكم كما لا يثبت المشهود به الا بحكم الحاكم (ورابعها) اللعان تستحق به المرأة نفسها كما يستحق المدعي بالبينة فلما لم يجز أن يستحق المدعي مدعاه الا بحكم الحاكم وجب مثله في استحقاق المرأة نفسها (وخامسها) ان اللعان لا اشعار فيه بالتحريم لان أكثر ما فيه انها زنت ولو قامت البينة على زناها وأقرت بذلك فذلك لا يوجب التحريم فكذا اللعان واذا لم يوجد فيهما دلالة على التحريم وجب أن لا تقع الفرقة به فلا بد من احداث التفريق اما من قبل الزوج أو من قبل الحاكم أما

سائر بني سيرتهم في الظلم بالكفر والمعاصي غير محمدين لانفسكم عما اقترفوا سبب ما اجترحوا من الموبقات وفي ايقاع الظلم على أنفسهم بعد اطلاقه فيما سلف ايذان بأن غائلة الظلم آيلة الى صاحبه والمراد بهم أما جميع من تقدم من الامم المهلكة على التقدير اختصاص الاستمهال والخطاب السابق بالمنذرين واما أولئك من قوم نوح وهود على تقدير عمومهما للكل

وهذا الخطاب وما يتلوه باعتبار حال أواخرهم (وتبين لكم) بمشاهدة الآثار وتواتر الاخبار (كيف فعلنا بهم) من الاهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد وكيف منصوب بما بعده من الفعل وليس الجملة فاعلا لتبين كما قاله بعض الكوفيين بل فاعله ما دل عليه ما هنا من معنى العلم أي تبين لكم فعلنا العجيب بهم ٢٧٤ وفيه من المبالغة ما ليس في أن يقال ما فعلنا بهم كما مر في قوله ليسجننه وقرئ وتبين

قول مالك وزفر بحجته انهما لو تراضيا على البقاء على النكاح لم يخليا بل يفرق بينهما فدل على ان اللعان قد أوجب الفرقة أما قول الشافعي رحمه الله فله دليلان (الاول) قوله تعالى ويدرأ عنها العذاب ان تشهد الآية فدل هذا على انه لا تأثير للعان المرأة الا في دفع العذاب عن نفسها وان كل ما يجب باللعان من الاحكام فقد وقع بلعان الزوج (الثاني) ان لعان الزوج وحده مستقل بنفي الولد فوجب أن يكون الاعتبار بقوله في الالحاق لا بقولها ألا ترى انها في لعانها تلحق الولد به ونحن ننفيه عنه فيعتبر بنفي الزوج لا الحاق المرأة ولهذا اذا أكذب الزوج نفسه لحق به الولد ومادام يبقى مصرا على اللعان فالولد منفي عنه اذا ثبت ان لعانه مستقل بنفي الولد وجب أن يكون مستقلا بوقوع الفرقة لان الفرقة لو لم تقع لم ينتف الولد لقوله عليه السلام الولد للفراش فمادام يبقى الفراش الحق به ظاهرا انتفى الولد عنه بمجرد لعانه وجب انه بزول الفراش عنه بمجرد لعانه وأما الاخبار التي استدل بها أبو حنيفة رحمه الله فالمراد بها ان النبي عليه السلام أخبر عن وقوع الفرقة وحكم بها وذلك لا ينافي أن يكون المؤثر في الفرقة شيأ آخر وأما الاقيسة التي ذكرها فمدارها على أن اللعان شهادة وليس الامر كذلك بل هو يمين على ما بينا وأما قوله اللعان لا اشعار فيه بوقوع الحرمة قلنا بينته على نفي الولد مقبولة ونفي الولد يتضمن نفي حلية النكاح والله أعلم (المسئلة الثانية) قال مالك والشافعي وأبو يوسف والثوري واسحق والحسن الملاعنان لا يجتمعان أبدا وهو قول علي وعمر وابن مسعود وقال أبو حنيفة ومحمد اذا أكذب نفسه وحد زال تحريم العقد وحلت له بنكاح جديد حجة الشافعي رحمه الله أمور (أحدها) قوله عليه السلام للملاعن بعد اللعان لا سبيل لك عليها ولم يقل حتى تكذب نفسك ولو كان الاكذاب غاية لهذه الحرمة لردها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هذه الغاية كما قال في المطلقة بالثلاث فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره (وثانيها) ما روى عن علي وعمر وابن مسعود أنهم قالوا لا يجتمع الملاعنان أبدا وهذا قد روى ايضا مرفوعا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم (وثالثها) ما روى الزهري عن سهل بن سعد في قصة العجلاني مضت السنة انهما اذا تلاعنا فرق بينهما ثم لا يجتمعان أبدا حجة أبي حنيفة رحمه الله قوله تعالى وأحل لكم ما وراء ذلكم وقوله فانكحوا ما طاب لكم (المسئلة الثالثة) اتفق أهل العلم على ان الولد قد ينتفي عن الزوج باللعان وحكي عن بعض من شذ أنه للزوج ولا ينتفي نسبه باللعان واحتج بقوله عليه السلام الولد للفراش وهذا ضعيف لان الاخبار الدالة على أن النسب ينتفي باللعان كالمتواترة فلا يعارضها هذا الواحد (المسئلة الرابعة) قال الشافعي رحمه الله لو أتى أحدهما ببعض كلمات اللعان لا يتعلق به الحكم وقال أبو حنيفة رحمه الله أكثر كلمات اللعان تقوم مقام الكل اذا حكم به الحاكم والظاهر مع الشافعي لانه يدل على انها لا تدرأ العذاب عن نفسها الا بتمام ما ذكره الله تعالى ومن قال بخلاف ذلك فانما يقوله بدليل منفصل (المطرف الرابع) في كيفية اللعان والاشهاد له عليها صريحا فالرجل يشهد أربع شهادات بالله بأن يقول أشهد بالله اني لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا ثم يقول من بعد وعليه لعنة الله ان كان من الكاذبين ويتعلق بلعان الزوج تلك الاحكام الخمسة على قول الشافعي رحمه الله ثم المرأة اذا أرادت اسقاط حد الزنا عن نفسها علم ان تلاعن ولا يتعلق بلعانها الا هذا الحكم الواحد * ثم ههنا فروع (الفرع الاول) أجمعوا على ان اللعان كالشهادة فلا ثبت الا عند الحاكم (الثاني) قال الشافعي رحمه الله يقام الرجل حتى يشهد والمرأة قاعدة وتقام المرأة حتى تشهد والرجل قاعد وبأمر الامام من يضع يده على فيه عند الانتهاء الى اللعنة والغضب ويقول لها ان أحلف ان لم تلك صادقا أن تبوء بلعنة الله (الثالث) اللعان يعمه بين المقام والركن وبالمدينة عند المنبر وبيت المقدس في مسجده وفي غيرها في المواضع المعظمة ولعان

(وضربنا لكم الامثال) أي بينا لكم في القرآن العظيم على تقدير اختصاص الخطاب بالمنذرين أو على ألسنة الانبياء عليهم السلام على تقدير عمومه لجميع الظالمين صفات ما فعلوا وما فعل بهم من الامور التي هي في الغرابة كالامثال المضروبة بذلك لكل ظالم لتعتبروا بها وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم وما لكم على مآلهم وتتقلبوا من حلول العذاب العاجل الى حلول العذاب الآجل فترتدعوا عما كنتم فيه من الكفر والمعاصي أو بينا لكم أنكم مثلهم في الكفر وأستحقاق العذاب والجمل الثلاث في موقع الحال من ضمير أقسمتم أي أقسمتم بالخلود والحال أنكم سكنتم في مساكن المهلكين بظلمهم وتبين لكم فعلنا العجيب بهم وبينا لكم على جلية الحال بضرب الامثال وقوله عز وجل (وقد مكروا مكرهم) حال من الضمير الاول في فعلنا بهم أو من الثاني أو منهما جميعا والمقصود عليه قوله تعالى وضربنا لكم الامثال لشد ارتباطه بما قبله أي فعلنا بهم ما فعلنا والحال أنهم قد مكروا في ابطال المشرك الحق وتقرير الباطل مكرهم العظيم الذي استفرغوا في عمله المجهود وجاوزوا فيه كل حد معهود بحيث لا يقدر عليه غيرهم فالمراد بيان تناهيهم في استحقاق ما فعل بهم أو قد مكروا مكرهم المذكور في ترتيب مبادي البقاء ومدافعة أسباب الزوال فالمقصود اظهار عجزهم

واضمحلال قدرتهم وحقارتها عند قدرة الله تعالى (وعند الله مكرهم) أي جزاء مكرهم الذي فعلوه على أن المكر مضاف الى فاعله أو أخذه تعالى بهم على أنهم مضاف الى مفعوله وتسميته مكرا لكونه مقابلة مكرهم وجودا وذكرا أو لكونه في صورة المكر في الاتيان من حيث لا يشعرون وعلى التقديرين فالمراد به ما أفاده قوله عز وجل كيف فعلنا بهم ٢٧٥ لانه وعيد مستأنف والجملة حال من الضمير

المشركة كثيرة في الكيفية وأما الزمان فيوم الجمعة بعد العصر ولا بد من حضور جماعة من الاعيان أظنهم أربعة (الفارف الخامس) في سائر الفوائد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج أصحابنا بهذه الآية على بطلان قول الخوارج في أن الزنا والقذف كفر من وجهين (الاول) ان الرامي ان صدق فهي زانية وان كذب فهو قاذف فلا بد على قولهم من وقوع الكفر من أحدهما وذلك يكون ردة فيجب على هذا ان تقع الفرقة ولا لعان أصلا وان تكون فرقة الردة حتى لا يتعلق بذلك توارث البتة (الثاني) ان الكفر اذا ثبت عليهما بلعانه فالواجب ان تقتل لا ان تجلد أو ترجم لان عقوبة المرتد مباينة للحد في الزنا (المسئلة الثانية) الآية دالة على بطلان قول من يقول ان وقوع الزنا يفسد النكاح وذلك لانه يجب اذا رماها بالزنا أن يكون قوله هذا كأنه معترف بفساد النكاح حتى يكون سبيلا له سبيل من يقر بانها أخته من الرضاع أو بانها كافرة ولو كان كذلك لوجب أن تقع الفرقة بنفس الرمي من قبل اللعان وقد ثبت بالاجماع فساد ذلك (المسئلة الثالثة) قالت المعتزلة دلت الآية على أن القاذف مستحق للعن الله تعالى اذا كان كاذبا وأنه قد فسق وكذلك الزاني والزانية يستحقان غضب الله تعالى وعقابه والا لم يحسن منهما أن يلعنا أنفسهما كما لا يجوز أن يدعو أحد ربه أن يلعن الاطفال والمجانين واذا صح ذلك فقد استحق العقاب والعقاب يكون دائما كالثواب ولا يجتمعان فثوابهما أيضا محبط فلا يجوز اذا لم يتوبا أن يدخلا الجنة لان الامة مجمعة على أن من دخل الجنة من المكلفين فهو مثاب على طاعاته وذلك يدل على خلود الفساق في النار قال أصحابنا لا نسلم أن كونه مغضوبا عليه يفسقه ينافي كونه مرضيا عنه لجهة اعانته ثم لو سلمنا فلم نسلم أن الجنة لا يدخلها الا مستحق الثواب والاجماع ممنوع (المسئلة الرابعة) انما خصصت الاعانة بأن تخمس بغضب الله تغليظا عليها لانها هي أصل الفجور ومنبعه بحيلائها واطماعها ولذلك كانت مقدمة في آية الجلد واعلم أنه سبحانه لما بين حكم الرامي للمحصنات والازواج على ما ذكرنا وكان في ذلك من الرحمة والنعمة ما لا خفاء فيه لانه تعالى جعل باللعان للمرء سبيلا الى مراده ولها سبيلا الى دفع العذاب عن نفسها ولهما السبيل الى التوبة والاناية فلاجل هذا بين تعالى بقوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته عظم نعمه فيما بينه من هذه الاحكام وفيما أهمل وأبقى ومكن من التوبة ولا شبهة في أن في الكلام حذفا اذ لا بد من جواب الا أن تركه يدل على أنه أمر عظيم لا يكتنه ورب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به (الحكم الخامس) قصة الافك ﴿قوله تعالى ﴿ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ الكلام في هذه الآية من وجهين (أحدهما) تفسيره (والثاني) سبب نزوله أما التفسير فاعلم أن الله تعالى ذكر في هذه الآية ثلاثة أشياء (أولها) انه حكى الواقعة وهو قوله ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم والافك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء وقيل هو البهتان وهو الامر الذي لا تشعر به حتى يفجأك وأصله الافك وهو القلب لانه قول مأفوك عن وجهه وأجمع المسلمون على أن المراد ما أفك به على عائشة وانما وصف الله تعالى ذلك الكذب بكونه افكا لان المعروف من حال عائشة خلاف ذلك لوجوه (أحدها) ان كونها زوجة للرسول صلى الله عليه وسلم المعصوم يمنع من ذلك لان الانبياء معصومون الى الكفار ليدعوهم ويستمالوهم فوجب أن لا يكون معهم ما ينفرهم عنهم وكون الانسان بحيث تكون زوجته مساعدة من أعظم المنفرات فان قيل كيف جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط ولم يجز أن تكون فاجرة وأيضا فلم يجز ذلك لكان الرسول أعرف الناس بامتناعه ولو عرف ذلك لما ضاق قلبه ولما سأل عائشة عن كيفية الواقعة قلنا (الجواب) عن الاول أن

في مكروا أي مكروا مكرهم وعند الله جزاؤه أو ما هو أعظم منه والمقصود بيان فساد رأيهم حيث باشروا فعلا مع تحقق ما يوجب تركه (وان كان مكرهم) في العظم والشدة (لتزول منه الجبال) أي وان كان مكرهم في غاية المتانة والشدة وعبر عن ذلك بكونه متنوعا ومعدا لازالة الجبال عن مقارها لكونه مثلا في ذلك والجملة المصدرة بان الوصلية معطوفة على جملة مقدرة والمعنى وعند الله جزاء مكرهم أو المكر الذي يحيق بهم ان لم يكن مكرهم لتزول منه الجبال وان كان الخ وقد حذف ذلك حذفا مطردا لدلالة المذكور عليه دلالة واضحة فان الشئ اذا تحقق عند وجود المانع القوي فلأن تحقق عند عدمه أولى وعلى هذا النكتة بدور ما في ان الوصلية من التأكيد المعنوي والجواب محذوف دل عليه ما سبق وهو قوله تعالى وعند الله مكرهم وقيل ان نافية واللام لتأكيدها كما في قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم

وبنصب قراءة ابن مسعود رضي الله عنه وما كان مكرهم فالجملة حينئذ حال من الضمير في مكروا لا من قوله تعالى وعند الله مكرهم أي مكروا ومكرهم والحال أن مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال على أنها عبارة عن آيات الله تعالى وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدي الرسل السالفة عليهم السلام التي هي بمنزلة الجبال الراسيات في الرسوخ وأما كونها عبارة عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأمر القرآن العظيم كما

قيل فلا يحال له اذا لما كرون هم المهلكون لا الساكنون فى مساكنهم من المخاطبين وان خص الخطاب بالمنذرين وقيل هى مخففة من ان والمعنى انه كان مكرهم ليزول منه ما هو كالجبال فى الثبات مما ذكر من الآيات والشرائع والمعجزات والجملة كما هى حال من ضم مكروا أى مكروا ومكرهم المعهود وان الشأن ٢٧٦ كان مكرهم لازالة الآيات والشرائع على معنى أنه لم يكن يصح ان يكون منهم مكر كذلك وكان شأن الآيات والشرائع ما نعا من مباشرة المكر لازالته وقد قرأ الكسائى لتزول بفتح اللام على أنها الفارقة والمعنى تعظيم مكرهم فالجملة حال من قوله تعالى وعند الله مكرهم أى عنده تعالى جزاء مكرهم أو المكر بهم والحال أن مكرهم بحيث تزول منه الجبال أى فى غاية الشدة وقرئ بالفتح والنصب على لغة من يفتح لام كى وقرئ وان كان مكرهم هذا هو الذى يقتضيه العظم الكريه وينساق اليه الطبع السليم وقد قيل ان الضمير فى مكروا للمنذرين والمراد بمكرهم ما أفاده قوله عز وجل واذ يمكر بك الذين كفروا لينبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك الآية وغيره من أنواع مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ولو على الوجه حينئذ أن يكون قوله تعالى وقد مكروا الخ حالا من القول المقدر أى فيقال لهم ما يقال والحال أنهم مع ما فعلوا من الاقسام المذكور مع ما يأتى فيه من السكون فى مساكن المهلكين وتبين أحوالهم وضرب الامثال قد مكروا مكرهم العظيم أى لم يكن الصادر عنهم مجرد الاقسام الذى العظيم ويجوز أن يجترؤا على مثل هذه العظيمة وقوله تعالى وعند الله مكرهم حال من ضمير مكروا حسبما ذكر نا من قبل وقوله تعالى وان كان مكرهم لتزول منه الجبال مسوق لبيان عدم تفاوت الحال فى تحقيق الجزاء بين كون مكرهم قويا أو ضعيفا كما مر هناك وعلى تقدير كون ان

الكفر ليس من المنفرات أما كونها فاجرة فمن المنفرات (والجواب) عن الثانى أنه عليه السلام كثيرا ما كان يضيق قلبه من أقوال الكفار مع علمه بفساد تلك الاقوال قال تعالى ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فكان هذا من هذا الباب (وثانيها) أن المعروف من حال عائشة قبل تلك الواقعة انما هو الصون والبعد عن مقدمات الفجور ومن كان كذلك كان اللائق احسان الظن به (وثالثها) أن القاذفين كانوا من المنافقين وأتباعهم وقد عرف أن كلام العدو المفترى ضرب من الهذيان فلجموع هذه القرائن كان ذلك القول معلوم الفساد قبل نزول الوحى أما العصبة فقيل انها الجماعة من العشرة الى الاربعين وكذلك العصابة واعصوصبوا اجتمعوا وهم عبد الله بن أبى ابن سلول رأس النفاق وزيد بن رفاعة وحسان ابن ثابت ومسطح بن اثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم أما قوله منكم فالمعنى ان الذين أتوا بالكذب فى أمر عائشة جماعة منكم أيها المؤمنون لان عبد الله كان من جملة من حكم له بالايمان ظاهرا (ورابعها) أنه سبحانه شرح حال المقذوفة وما يتعلق بها بقوله لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم والصحيح أن هذا الخطاب ليس مع القاذفين بل مع من قذفوه وآذوه فان قيل هذا مشكل لوجهين (أحدهما) أنه لم يتقدم ذكرهم (والثانى) أن المقذوفين هما عائشة وصفوان فكيف تحمل عليهما صيغة الجمع فى قوله لا تحسبوه شرا لكم (والجواب عن الاول) أنه تقدم ذكرهم فى قوله منكم (وعن الثانى) أن المراد من لفظ الجمع كل من تأذى بذلك الكذب واغتم ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم تأذى بذلك وكذلك أبو بكر ومن يتصل به فان قيل من أى جهة يصير خيرا لهم مع أنه مضرة فى العاجل قلنا لوجوه (أحدها) أنهم صبروا على ذلك الغم طلبا لمرضاة الله تعالى فاستوجبوا به الثواب وهذه طريقة المؤمنين عند وقوع الظلم بهم (وثانيها) أنه لولا اظهارهم لذلك كان يجوز أن تبقى التهمة كامنة فى صدور البعض وعند الاظهار انكشف كذب القوم على مر الدهر (وثالثها) أنه صار خيرا لهم لما فيه من شرفهم وبيان فضلهم من حيث نزلت ثمان عشرة آية كل واحدة منها مستقلة ببراءة عائشة وشهد الله تعالى بكذب القاذفين وتسميهم الى الافك وأوجب عليهم اللعن والذم وهذا غاية الشرف والفضل (ورابعها) صيرورتها بحال تعلق الكفر والايمان بقدحها ومدحها فان الله تعالى لما نص على كون تلك الواقعة افكا وبالغ فى شرحه فكل من يشك فيه كان كافرا قطعا وهذه درجة عالية ومن الناس من قال قوله تعالى لا تحسبوه شرا لكم خطاب مع القاذفين وجعله الله تعالى خيرا لهم من وجوه (أحدها) أنه صار مما نزل من القرآن مما تلهم من الاستمرار عليه فصار مقطعة لهم عن ادامة هذا الافك (وثانيها) صار خيرا لهم من حيث كان هذا الذكر عقوبة معجلة كالكفارة (وثالثها) صار خيرا لهم من حيث ثاب بعضهم عنده واعلم أن هذا القول ضعيف لانه تعالى خاطبهم بالكاف وبما وصف أهل الافك جعل الخطاب بالهاء قوله تعالى لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم ومعلوم أن نفس ما اكتسبوه لا يكون عقوبة فالمراد لهم جزاء ما اكتسبوه من العقاب فى الآخرة والمذمة فى الدنيا والمعنى ان قدر العقاب يكون مثل قدر الخوض أما قوله والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ كبره بالضم والكسر وهو عظمه (المسئلة الثانية) قال الضحاك الذى تولى كبره حسان ومسطح فجلدهما صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عذرها وجلد معهما امرأة من قريش وروى أن عائشة رضى الله عنها ذكرت حسانا وقالت أرجو له الجنة فقيل لها أليس هو الذى تولى كبره فقالت اذا سمعت شعره فى مدح الرسول رجوت له الجنة وقال عليه الصلاة والسلام ان الله يؤيد حسانا بروح القدس فى شعره وفى رواية أخرى وأى عذاب أشد من العمى واعلم الله جعل ذلك العذاب

نافية فهو حال من ضمير مكروا والجبال عبارة عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم أو وقد مكروا والحال أن مكرهم ما كان لتزول منه هاتيك الشرائع والآيات التي هي في القوة كالجبال وعلى تقدير كونها مخففة من الثقيلة واللام مكسورة يكون حالا منه أيضا على معنى أن ذلك المكر العظيم منهم كان لهذا الغرض على معنى أنه لم يكن يصح أن يكون منهم مكر كذلك لما أن شأن الشرائع أعظم من أن يمكر بها ما مكر وعلى تقدير فتح اللام فهو متعلق بقوله تعالى وعند الله مكرهم كما ذكرنا من قبل فليتأمل (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) لم يريد به والله سبحانه أعلم ما وعده بقوله تعالى انا لننصر رسلنا الآية وقوله كتب الله لأغلبن أنا ورسلي كما قيل فانه لا اختصاص له بالتعذيب لا سيما الاخروي بل ما سلف آنفا من وعده بتعذيب الظالمين بقوله تعالى انما يؤخرهم الآية كما نص عنه الفاء الداخلة على النهي الذي أريد به تثبيته عليه الصلاة والسلام على ما كان عليه من الثقة بالله تعالى والتيقن بانجاز وعده المذكور المقرون بالامر بانذارهم يوم اتيان العذاب المتضمن لذكر تعذيب الامم السالفة بسبب كفرهم وعصيانهم رسلهم بعد ما وعدهم بذلك كما فصلت قصة كل منهم في القرآن العظيم فكأنه قيل واذ قد وعدناك بعذاب الظالمين يوم القيامة وأخبرناك بما يلقونه من الشدائد وبما يأتونه من الرذائل الدنيا وبما أجبناهم به وقرعناهم بعدم تأملهم في أحوال من سبقهم من الامم الذين أهلكناهم بظلمهم بعد ما وعدنا رسلهم باهلاكهم فدم على ما كنت عليه من اليقين بعدم اخلافنا رسلنا وعدنا (ان الله عزيز) غالب لا يمكر وقادر لا يفادر (ذو انتقام) لاوليائه من أعدائه والجملة تعليل للنهي المذكور وتوسيط له وحيث كان الوعد عبارة عما ذكر من

العظيم ذهاب بصره والاقرب في الرواية ان المراد به عبد الله بن أبي سلول فانه كان منافقا يطلب ما يكون قدحا في الرسول عليه الصلاة والسلام وغيره كان تابعا له فيما كان يأتي وكان فيهم من لا يتهم بالنفاق (المسئلة الثالثة) المراد من اضافة الكبر اليه أنه كان مبتدئا بذلك القول فلا جرم حصل له من العقاب مثل ما حصل لكل من قال ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة وقيل سبب تلك الاضافة شدة الرغبة في اشاعة تلك الفاحشة وهو قول أبي مسلم (المسئلة الرابعة) قال الجبائي قوله تعالى لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم أي عقاب ما اكتسب ولو كانوا لا يستحقون على ذلك عقابا لما جاز أن يقول تعالى ذلك وفيه دلالة على أن من لم يتب منهم صار الى العذاب الدائم في الآخرة لان مع استحقاق العذاب لا يجوز استحقاق الثواب (والجواب) أن الكلام في المحاطة قدر غير مرة فلا وجه للاعادة والله أعلم أما سبب النزول فقد روى الزهري عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن أبي وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كلهم رواعن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج اسمها خرج بها معه قالت فأقرع بيننا في غزوة غزاها فقبل غزوتي المصطلق فخرج فيها اسمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد نزول آية الحجاب فحملت في هودج فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرب من المدينة نزل منزلا ثم أذن بالرحيل فقمت حين أذنوا بالرحيل ومشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني وأقبلت الى رحلي فلمست صدري فاذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع فرجعت والتمست عقدي وحبسني طلبه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون فحملوا هودجي وهم يحسبون أني فيه لخفتي فانى كنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل فساروا به فلم أجد في الهودج وذهبوا بالبعير فلما رجعت لم أجد في المكان أحدا جاست وظننت لعلهم سيعودون في طلبي فبينما أنا جالسة في المعسكر يتتبع أمتعة الناس فجعل له الى المنزل الآخر ثلاثة مبتهم شيء فلما رأى أني عرفني وقال ما خلفك عن الناس فأخبرته الخبر فنزل وتنحى حتى ركبت ثم قاد البعير وافتقدني الناس حين نزلوا وماج الناس في ذكري فبينا الناس كذلك اذ هجمت عليهم فتكلم الناس وخاض في حديثي وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ولقيني وجع ولم أر منه عليه السلام ما عهدته من اللطف الذي كنت أعرف منه حين اشتكي انما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول كيف تيكم فذاك الذي يريبني ولا أشعر بعد بما جرى حتى نقهت فخرجت في بعض الليالي مع أم مسطح لمهم لنا ثم أقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت تعس مسطح فانكرت ذلك وقلت أتسبين رجلا شهد بدرا فقالت وما بلغك الخبر فقلت وما هو فقال أشهد انك لمن المؤمنات الغافلات ثم أخبرتني بقول أهل الافك فازددت مرضا على مرضي فرجعت أبكي ثم دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال كيف تيكم فقلت ائذن لي أن آتي أبوي فأذن لي وخفت أبوي وقلت لامي يا أمه ماذا يتحدث الناس قالت يا بنية هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها ثم قالت ألم تكوني علمت ما قيل حتى الآن فأقمت أبكي فبكيت تلك الليلة ثم أصبحت أبكي فدخل علي أبي وأنا أبكي فقال لامي ما يبكيها قالت لم تكن علمت ما قيل فيها حتى الآن فاقبل يبكي ثم قال أسكتي بانية ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي ابن أبي طالب عليه السلام وأسامة بن زيد واستشارهما في فراق أهله فقال أسامة يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم الا خيرا وأما علي فقال لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وان تسأل الجارية تصدقك فدعا

تعذيبهم خاصة لم يذيل بأن يقال ان الله لا يخلف الميعاد بل نعرض لوصف العزة والانتقام المشعرين بذلك والمراد بالانتقام ما أشير اليه بالفعل وبعبرته بالمكر (يوم تبدل الارض غير الارض) ظرف لمضمر مستأنف ينسحب عليه النهي المذكور أي يخترمهم يوم الخ أو معطوف عليه نحو وارتقب يوم تبدل الارض غير الارض أولا لانتقام وهو يوم يأتيهم العذاب فيه ولكن له أحوال جمة

يذكر كل مرة بعنوان مخصوص والتقييد به مع عموم انتقامه للاوقات كلها للافصاح عما هو المقصود من تعذيب الكفرة المؤخر الى ذلك اليوم بموجب الحكمة الداعية اليه وقيل بدل من يوم يأتيهم العذاب أو نصب باذكر أو باضمار لا يخلف وعده يوم تبدل الخ وفيه أيضا ما في الوجه الثالث من الحاجة الى الاعتذار ولا يجوز أن ينتصب بقوله يخلف وعده لان ما قبل أن لا يعمل فيما بعده وقيل وغير مانع لان قوله تعالى ان الله عزيز ذو انتقام جملة اعتراضية فلا يبالى بها فاصلا واعلم أن التبديل قد يكون في الذات كما في بدلت الدراهم دنانير وعليه قوله عز وجل بدلناهم جلودا غيرها وقد يكون في الصفات كما في قولك بدلت الحلقة خاتما اذا غيرت شكلها ومنه قوله تعالى يبدل الله سيئاتهم حسنات على بعض الاقوال والآية الكريمة ليست بنص في أحد الوجهين ذهن على

رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة وسألها عن أمري قالت بريرة يا رسول الله والذي بعثك بالحق ان رأيت عليها أمرا قط أكثر من انها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها حتى تاتي الداجن فتأكله قالت فقام النبي صلى الله عليه وسلم خطيبا على المنبر فقال يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي يعني عبد الله بن أبي فوالله ما علمت على أهلي الا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا وما كان يدخل على أهلي الا معي فقام سعد بن معاذ فقال أعذرك يا رسول الله منه ان كان من الاوس ضربت عنقه وان كان من اخواننا من الخزرج فمر أمرتنا ففعلنا فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن أخذته الحمية فقال لسعد بن معاذ كذبت والله لا تقدر على قتله فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال كذبت لعمر الله لنقتلنه وانك لمنافق تجادل عن المنافقين فثار الحيان الاوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وقالوا ومكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت عندي فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي اذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس قالت ولم يجلس عندي منذ قيل في ما قيل وقد لبثت شهرا لا يوحى الله اليه في شأني شيء قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال أما بعد يا عائشة فانه بلغني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى وان كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه فان العبد اذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لابي أجب عني رسول الله فقال والله ما أدري ما أقول فقلت لامي أجيبي عني رسول الله فقالت والله لا أدري ما أقول فقلت وأنا جارية حديثة السن ما أقرأ من القرآن كثيرا اني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به فان قلت لكم اني بريئة لا تصدقوني وان اعترفت لكم بأمر والله يعلم اني بريئة لتصدقني والله لا أجد لي ولكم مثلا الا كما قال العبد الصالح أبو يوسف ولم أذكر اسمه فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون قالت ثم تحولت واضطجعت على فراشي وأنا والله أعلم أن الله تعالى يبرئني ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحيا يتلى فشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله في بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله في النوم رؤيا يبرئني الله بها قالت فوالله ما قام رسول الله من مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله الوحي على نبيه فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي حتى انه ليتحدر عنه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل الوحي فسجي بثوب ووضعت وسادة تحت رأسه فوالله ما فزعت وما باليت لعلمي ببراءتي وأما أبواي فوالله ما سريء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت أن نفسي أبوي ستخرجان فرقا من أن يأتي الله بتحقيق ما قال الناس فلما سري عنه وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها ان قال أبشري يا عائشة أما والله لقد برأك الله فقلت بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد أصحابك فقالت أمي قومي اليه فقلت والله لا أقوم اليه ولا أحمد أحدا الا الله الذي أنزل براءتي فأنزل الله تعالى ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم العشر آيات فقال أبو بكر والله لا أنفق على مسطح بعد هذا وكان ينفق عليه لقرابته منه وفقره فأنزل الله تعالى ولا يأتل أولوا الفضل منكم الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم فقال أبو بكر بلى والله اني لاحب أن يغفر الله لي فرجع النفقة على مسطح قالت فلما نزل عذري قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فذكر ذلك وتلا القرآن فلما نزل ضرب عبد الله بن أبي ومسطحا وحمنة وحسان الحد واعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر القصة وذكر حال المقذوفين والقاذفين عقبها بما يليق بهما من الآداب والزواجر وهي أنواع (الاول) قوله تعالى ﴿ولولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون

رضي الله عنه تبدل أرضا من فضة وسماوات من ذهب وعن ابن مسعود رضي الله عنه تبدل الارض بأرض كالفضة والمؤمنات بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي تلك الارض وانما تغير صفاتها واوانشد

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ... وما الدار بالدار التي كنت تعلم

وتبدل السموات بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف

قرها واشقاقها وكونها أبرارا وبدل عليه ما روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال تبدل الارض غير الارض فتبسط وتمد مد الاديم العكاظى لا ترى فيها عوجا ولا أمتا (والسموات) أى وتبدل السموات غير السموات حسبما مر من التفصيل وتقديم تبديل الارض لقربها منا ولكون تبديلها أعظم أثرا بالنسبة الينا (وبرزوا) أى الخلائق أو القاطنون

والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين﴾ وهذا من جملة الآداب التى كان يلزمهم الاتيان بها ولولا لامعناه هلا وذلك كثير فى اللغة اذا كان يليه الفعل كقوله لولا أخرتنى وقوله فلولا كانت قرية آمنت فالما اذا وليه الاسم فاليس كذلك كقوله لولا أنتم لكنا مؤمنين وقوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته والمراد كان الواجب على المؤمنين اذ سمعوا قول القاذف أن يكذبوه ويشتموا بإحسان الظن ولا يسرعوا الى التهمة فيمن عرفوا فيه الطهارة وهو هنا سؤالان (السؤال الاول) هلا قيل لولا اذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرا وقلتم فلم عدل عن الخطاب الى الغيبة وعن المضمر الى الظاهر (الجواب) لمبالغ فى التوبيخ بطريقة الالتفات وفى التصريح بلفظ الايمان دلالة على أن الاشتراك فيه يقتضى أن لا يظن بالمسلمين الا خير الان دينه يحكم بحسن المعصية متنبئا للضرر وعقله يهديه الى وجوب الاحتراز عن الضرر وهذا يوجب حصول الظن باحتراز عن المعصية فاذا وجد هذا المقتضى للاحتراز ولم يوجد فى مقابلته راجح يساويه فى القوة وجب احسان الظن وحرم الاقدام على الطعن (السؤال الثانى) ما المراد من قوله بأنفسهم (الجواب) فيه وجهان (الاول) المراد أن يظن بعضهم بعض خيرا ونظيره قوله ولا تلمزوا أنفسكم وقوله فاقتلوا أنفسكم وقوله اذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم ومعناه على أمثالكم من المؤمنين الذين هم كانفسكم روى أن أبا أيوب الانصارى رضى الله عنه قال لام أيوب الا ترين ما يقال فقالت لو كنت بدل صفوان أكنت تظنين بحرمى رسول الله سوأ قال لا قالت ولو كنت بدل عائشة ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعائشة خير منى وصفوان خير منك وقال ابن زيد ذلك صيانة للمؤمنين اذ المؤمن لا يقدر بأمه ولا الام بابنها وعائشة رضى الله عنها هى أم المؤمنين (والثانى) أنه جعل المؤمنين كالنفس الواحدة فيما يجرى عليها من الامور فاذا اجرى على أحدهم كرهوه فكأنه يجرى على جميعهم عن النعمان بن بشير قال عليه السلام مثل المسلمين فى تواصلهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا وجع بعضه بالسهر والحمى وجع كله وعن أبى بردة قال عليه السلام المؤمنون للمؤمنين كالبنيان يشد بعضه بعضا (السؤال الثالث) ما معنى قوله هذا افك مبين وهل يحسن لمن يسمع ما لا يعرفه أن يقول ذلك (الجواب) من وجهين (الاول) كذلك يجب أن يقول الكنه يضيف ذلك عن قول القاذف الذى لا يستند الى أمارة ولا عن حقيقة الشئ الذى لا يعلمه (الثانى) أن ذلك واجب فى أمر عائشة لان كونها زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم المعصوم عن جميع المنفرات كالدليل القاطع فى كون ذلك كذبا قال أبو بكر الرازى هذا يدل على أن الواجب فيمن كان ظاهره العدالة أن يظن به خيرا ويجب أن يكون عقود المسلمين وتصرفاتهم محمولة على الصحة والجواز ولذلك قال أصحابنا فيمن وجد رجلا مع امرأة أجنبية فاعترفا بالتزويج أنه لا يجوز تكذيبهما بل يجب تصديقهما وزعم مالك أنه يحدهما ان لم يسبقا بينة على النكاح ومن ذلك أيضا ما قال أصحابنا رضى الله عنهم فيمن باع درهما ودينارا بدرهمين ودينارين أنه يخالف بينهما لانا قد أمرنا بحسن الظن بالمؤمنين فوجب حمله على ما يجوز وهو الخالفة بينهما وكذلك اذا باع سيفا محلى فيه مائة درهم بمائتى درهم أن نجعل المائة بالمائة والفضل بالسيف وهو بدل أيضا على قول أبى حنيفة رحمه الله فى أن المسلمين عدول ما لم يظهر منهم ريبة لانا مأمورون بحسن الظن وذلك يوجب قبول الشهادة ما لم يظهر منهم ريبة توجب التوقف عنها أو ردها قال تعالى ان الظن لا يغنى من الحق شيأ (النوع الثانى) ﴿قوله تعالى لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾ وهذا من باب الزواجر والمعنى هلا أتوا على ما ذكروه بأربعة شهداء يشهدون على معاينتهم فيما رموها به فاذ لم يأتوا بالشهداء أى حين لم يقيموا بينة على ما قالوا فأولئك عند الله أى فى حكمه هم الكاذبون

والمراد بروزهم من أجداثهم التى فى بطون الارض أو ظهورهم بأعمالهم التى كانوا يعملونها سرا ويزعمون أنها لا تظهر أو يعملون عمل من يزعم ذلك ولعل استدادا البروز اليهم مع أنه لا عالم للا يدان بتشكلهم بأشكال تناسبها وهو معطوف على تبدل والعدول الى صيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوعه أو حال من الارض بتقدير قد والرابط بينها وبين صاحبها الواو (لله الواحد القهار) للحساب والجزاء والتعرض للوصفين لتهويل الخطب وتربية المهابة واظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام فى ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفا له وتحقق اتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلا من يوم يأتيهم العذاب فان الامر اذا كان لواحد غلاب لا يعارض وقادر لا يضار ولا يغالب كان فى غاية ما يكون من الشدة والصعوبة (وترى المجرمين) عطف على برزوا والعدول الى صيغة المضارع لاستحضار الصورة أو للدلالة على الاستمرار وأما البروز فدفعى لا استمرار فيه وعلى تقدير حاليه برزوا فهو معطوف على تبدل ويجوز عطفه على عامل ظرف المقدم على تقدير كونه يجزيه (يومئذ) يوم اذ برزوا له عز وجل أو يوم اذ تبدل الارض أو يوم اذ يجزى وحده (مقرنين) بعضهم مع بعض حسب اقترانهم فى الجرائم والجرائر أو مع أشياعهم الذين أغووهم أو قرنوا معهم من العقائد الزائغة والملكات الرديئة

والاعمال السيئة غب تصور كل منها وتشكلها بما يناسبها من الصورة الموحشة والاشكال الهائلة وأقرنت أيديهم وأرجلهم الى رقابهم وهو حال من المجرمين (في الاصفاد) في القيود والاغلال وهو اما متعلق بمقرنين أو حال من ضميره أي مصفدين (سرابيلهم) أي قمصانهم (من قطران) جملة من مبتدا ٣٨٠ وخبر محلها النصب على الحالية من المجرمين أو من ضميرهم في مقرنين رابطها

الضمير فقط كما في كلمه فوه الى فى أو مستأنفة والقطران ما يتحلب من الابهل فيطبخ فتهنأ به الابل الجربى فيحرق الجرب بما فيه من الحدة الشديدة وقد تسل سرايته الى الجوف وهو أسود منتن يسرع فيه اشتعال النار يطلى به جلود أهل النار حتى يموت طلاؤهم كالسرابيل لتجتمع عليهم الالوان الاربعة من العذاب لانه أبلغ وأفظع وأسرع التارق جلودهم واللون الموحش والنتن على أن التفاوت بينه وبين ما شاهدوه من النار من لا يكاد يقدر قدره فكأن ما شاهدوه منهما أسماء مسمياتها في الآخرة فيكرمه العميم تعوذ ويكفيه الواسع نلوذ ويحتمل أن يكون ذلك تمثيلا لما يحيط بجوهر النفس من الملكات الرديئة والهيئات الوحشية فتجلب اليها الآلام والغموم بل وأن يكون القطران المذكور عين ما لابسوه في هذه الدنيا وجعلوه شعارا لهم من العقائد الباطلة والاعمال السيئة المستجلبة

فان قيل أليس انهم لم يأتوا بالشهداء فانه يجوز كونهم صادقين كما يجوز كونهم كاذبين فلم جزم بكونهم كاذبين والجواب من وجهين (الاول) أن المراد بذلك الذين رموا عائشة خاصة وهم كانوا عند الله كاذبين (الثاني) المراد فأولئك عند الله في حكم الكاذبين فان الكاذب يجب زجره عن الكذب والقاذف ان لم يأت بالشهود فانه يجب زجره فلما كان شأن الكاذب في الزجر لا جرم أطلق عليه لفظ الكاذب مجازا ﴿النوع الثالث﴾ ﴿قوله تعالى ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم﴾ وهذا من باب الزواجر أيضا ولولا ههنا لامتناع الشيء لوجود غيره ويقال أفاض في الحديث واندفع وخاض وفي المعنى وجهان (الاول) ولولا أني قضيت أن أفضل عليكم في الدنيا بضروب النعم التي من جملتها الامهال للتوبة وأن أرحم عليكم في الآخرة بالعفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الافك (والثاني) ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم في الدنيا والآخرة معا فيكون فيه تقديم وتأخير والخطاب للقذفة وهو قول مقاتل وهذا الفضل هو كل الله تعالى من تأخيره العذاب وحكمه بقبول التوبة لمن تاب ﴿النوع الرابع﴾ ﴿قوله تعالى ﴿اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم﴾ وهذا أيضا من الزواجر قال صاحب الكشاف اذ ظرف لمسكم أو لافضتم ومعنى تلقونه يأخذ بعضكم من بعض يقال تلقى القول وتلقفه وتلقفه وهذه قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات وقرئ على الاصل تتلقونه واذ تلقونه بادغام الذال في التاء وتلقونه من لقيه بمعنى لقفه وتلقونه من القاء بعضكم على بعض وتلقونه وتألقونه من الولق والالق وهو الكذب وتلقونه محكية عن عائشة وعن سفيان سمعت أبي تفسر اذ تتلقفونه وكان أبو هريرة يحرف عبد الله بن مسعود واعلم أن الله تعالى وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها (أحدها) تلقي الافك بألسنتهم وذلك أن الرجل كان يلقى الرجل فيقول له ما وراءك فيحدثه بحديث الافك حتى شاع واشتهر فلم يبق بيت ولا نادا الا طار فيه فكأنهم سعوا في اشاعة الفاحشة وهذا من العظائم (وثانيها) أنهم كانوا يتكلمون بما لا علم لهم به وذلك يدل على أنه لا يجوز الاخبار الا مع العلم فاما الذي لا يعلم صدقه فالاخبار عنه كالاخبار عما علم كذبه في الحرمة ونظيره قوله ولا تقف ما ليس لك به علم فان قيل ما معنى قوله بأفواهكم والقول لا يكون الا بالفم قلنا معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب فيترجم عنه باللسان وهذا الافك ليس الا قولا يجري على ألسنتكم من غير أن يحصل في القلب علم به كقوله يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم (وثالثها) أنهم كانوا يستصغرون ذلك وهو عظيم من العظائم ويدل على أمور ثلاثة (الاول) يدل على أن القذف من الكبائر لقوله وهو عند الله عظيم (الثاني) قوله وتحسبونه هينا على أن عظم المعصية لا يختلف بظن فاعلها وحسبانه بل ربما كان ذلك مؤكدا لعظمها من حيث جهل كونها عظيما (الثالث) الواجب على المكلف في كل محرم أن يستعظم الاقدام عليه اذ لا يأمن أنه من الكبائر وقيل لا صغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار ﴿النوع الخامس﴾ ﴿قوله تعالى ﴿ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ وهذا من باب الآداب أي هلا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا وانما وجب عليهم الامتناع منه لوجوه (أحدها) أن المقتضي لكونهم تاركين لهذا الفعل قائم وهو العقل والدين ولم يوجد ما يعارضه فوجب أن يكون ظن كونهم تاركين للمعصية أقوى من ظن كونهم فاعلين لها فلو أنه أخبر عن صدور المعصية لكان قد رجح المرجوح على الراجح وهو غير جائز (وثانيها) وهو أنه يتضمن ايذاء الرسول وذلك سبب للمن لقوله تعالى ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله

الذين العذاب قد تصدت في النشأة الآخرة بتلك الصورة المستتبعة لاشتداد العذاب عصمنا الله سبحانه عن في ذلك بمنه ولطفه وقرئ من قطر آن أي نحاس مذاب متناه حره (وتغشى وجوههم النار) أي تعلوها وتحيط بها النار اذ هي أشرف ما يقبل الاسمرال بالقطران وتخصيص الوجوه بالحكم المذكور مع عمومه لسائر أعضائهم لكونها أعز الاعضاء الظاهرة وأشرفها كقوله تعالى

أعمن يتقي بوجهه سوء العذاب الخ والكون مجمع المشاعر والحواس التي خلقت لادراك الملتي وقد أعرضوا عنه ولم يستعملوها في تدبره كما أن الفؤاد أشرف الاعضاء الباطنة ومحل المعرفة وقد مأوها بالجهالات ولذلك قيل تطلع على الافئدة أو تطلع عن القطران المغني عن ذكر غشيان النار لها ولعل تخليتها عنه ليتعارفوا عند انكشاف اللهب أحيانا ٢٨١ ويقضاعف عذابهم بالمزي على رؤس

الاشهاد وقرئ تغشى أي تغشى بحذف احدى التاءين والجملة نصب على الحالية لا على أن الواو حالية لانه مضارع مثبت بل على أنها معطوفة على الحال قاله أبو البقاء (ليجزي الله) متعلق بمضمر أي يفعل بهم ذلك ليجزي (كل نفس) مجرمة (ما كسبت) من أنواع الكفر والمعاصي جزاء موافقا لعملها وفيه ايذان بأن جزاءهم مناسب لاعمالهم أو بقوله برزوا على تقدير كونه معطوفا على تبدل والضمير للخلق وقوله وترى الخ معترض بين المتعلق والمتعلق به أي برزوا للحساب ليجزي الله كل نفس مجرمة أو عاصية ما كسبت من خير أو شر وقد ذكر في بعض العساة توسيلا على شهادة الحال لاسيما مع ملاحظة سبق الرحمة الواسعة (ان الله سريع الحساب) لا يشغله شأن عن شأن فيحسبهم في أعجل ما يكون من الزمان فيوفي الجزاء بحسبه أو سريع المجيء يأتي عن قريب أو سريع الانتقام

في الدنيا والآخرة (وثالثها) أنه سبب لايذاء عائشة وايذاء أبويها ومن يتصل بهم من غير سبب عرف اقدامهم عليه ولاجناية تعرف صدورها عنهم وذلك حرام (ورابعها) أنه اقدام على ما يجوز أن يكون سببا للضرر مع الاستغناء عنه والعقل يقتضي التباعد عنه لان القاذف متقدر كونه صادقا لا يستحق الثواب على صدقه بل يستحق العذاب لانه أشاع الفاحشة وبتقدر كونه كاذبا فانه يستحق العقاب العظيم ومثل ذلك مما يقتضي صريح العقل الاحتراز عنه (وخامسها) انه تضييع للوقت بما لا فائدة فيه وقال عليه الصلاة والسلام من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه (وسادسها) ان في اظهارها مساءة الناس وستر مقابحهم تخلقا بأخلاق الله تعالى وقال عليه السلام تخلقوا بأخلاق الله فهذه الوجوه توجب على العاقل انه اذا سمع القذف أن يسكت عنه وأن يجتهد في الاحتراز عن الوقوع فيه فان قيل كيف جاز الفصل بين لولا وبين فلتم بالظرف قلنا الفائدة فيه انه كان الواجب عليهم أن يحترزوا أول ما سمعوا بالافك عن التكلم به أما قوله سبحانك هذا بهتان عظيم ففيه سؤالان (الاول) كيف يليق بهاتك بهذا الموضع (الجواب) من وجوه (الاول) المراد منه التعجب من عظم الامر وانما استعمل في معنى التعجب لانه يسبح الله عند رؤية العجيب من صانعه ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه (الثاني) المراد تنزيه الله تعالى عن ان تكون زوجة نبيه فاجرة (الثالث) انه منزه عن أن يرضى بظلم هؤلاء الفرقة المفترين (الرابع) أنه منزه عن أن لا يعاقب هؤلاء القذفة الظلمة ﴿السؤال الثاني﴾ لم أوجب عليهم أن يقولوا هذا بهتان عظيم مع انهم ما كانوا عالمين بكونه كذبا قطعا (والجواب) من وجهين (الاول) انهم كانوا متمكنين من العلم بكونه بهتانا لان زوجة الرسول لا يجوز أن تكون فاجرة (الثاني) انهم لما جزموا بانهم ما كانوا ظانين له بالقلب كان اخبارهم عن ذلك الجزم كذبا ونظيره قوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون ﴿النوع السادس﴾ قوله تعالى ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾ وهذا من باب الزواجر والمعنى يعظكم الله بهذه المواعظ التي هي معروفون عظم هذا الذنب وأن مسه أحد والنكال في الدنيا والعذاب في الآخرة لكي لا تعودوا الى مثل هذا الفعل أبدا وأبد هم ما داموا أحياء مكلفين وقد دخل تحت ذلك من قال ومن سمع فلم ينكر لان حالهما سواء في أن فعلا ما لا يجوز وان كان من أقدم عليه أعظم ذنبا منهما ان الغرض مما عرفهم من هذه الطريقة أن لا يعودوا الى مثل ما تقدم منهم وههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ استدلت المعتزلة بقوله ان كنتم مؤمنين على أن ترك القذف من الايمان وعلى أن فعل القذف لا يبقى معه الايمان لان المعلق على الشرط عدم عند عدم الشرط (والجواب) هذا معارض بقوله ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم أي منكم أيها المؤمنون فدل ذلك على أن القذف لا يوجب الخروج عن الايمان واذا ثبت التعارض حملنا هذه الآية على التهييج في الانماظ والانزجار ﴿المسئلة الثانية﴾ قالت المعتزلة دلت هذه الآية على أنه تعالى أراد من جميع من وعظه بجملته مثل ذلك في المستقبل وان كان فيهم من لا يطيع فمن هذا الوجه تدل على أنه تعالى يريد من كلهم الطاعة وان عصوا والان قوله يعظكم الله أن تعودوا معناه لكي لا تعودوا والمثل وذلك دلالة الارادة (والجواب) عنه قد تقدم مرارا ﴿المسئلة الثالثة﴾ هل يجوز أن يسمي الله تعالى واعظا قوله يعظكم الله أن تعودوا الاظهر أنه لا يجوز أن يسمى معظما لقوله الرحمن علم القرآن أما قوله تعالى ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم فالمراد من الآيات ما به يعرف المرء ما ينبغي أن يتعلق به ثم بين أنه لكونه عليما حكيما يؤثر ما يجب أن يبينه ويجب أن يطاع لاجل ذلك لان من لا يكون عالما لا يجب قبول تكليفه لانه قد يأمر بما لا ينبغي ولان المكلف اذا اطاعه فقد

(٣٦ - خفر س) كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى وهو سريع الحساب (هذا) اي ما ذكر من قوله سبحانه ولا تحسبنه غافلا الى قوله سريع الحساب (بلاغ) كفاية في العظة وانذار كبير من غير حاجة الى ما انطوى عليه السورة الكريمة أو كل القرآن المجيد من فنون العظات والقوارع (للناس) للكفار خاصة على تقدير اختصاص الانذار بهم في قوله تعالى وأنذر الناس أو لهم وللمؤمنين

كافة على تقدير شموله لهم أيضا وان كان ما شرح مختصا بالقائلين (ولينذروا به) عطف على مقدر واللام متعلقة بالبلاغ أى كفاية لهم فى أن ينصحوا وينذروا به أو هذا بلاغ لهم ليفهموه ولينذروا به على أن البلاغ بمعنى الابلاغ كما فى قوله تعالى ما على الرسول الا البلاغ أو متعلقة بمحذوف أى ولينذروا به أنزل ٢٨٢ أو تلى وقرئ لينذروا به من نذر بالشئ اذا علمه وحذره واستعد له (وليعلموا) بالتأمل

لا يعلم أنه أطاعه وحينئذ لا يبقى للطاعة فائدة وأما من كان عالما بكتبه لا يكون حكيما فقد يأمر بما لا ينبغى فاذا أطاعه المكلف فقد يعذب المطيع وقد يثيب العاصى وحينئذ لا يبقى للطاعة فائدة وأما اذا كان عالما حكيما فانه لا يأمر الا بما ينبغى ولا يعمل جزاء المستحقين فلهذا ذكرهاتين الصفتين وخصهما بالذكر وههنا سؤالان (الاول) الحكيم هو الذى لا يأتى بما لا ينبغى وانما يكون كذلك لو كان عالما بقبح القبيح وعالما بكونه غنيا عنه فيكون العليم داخلا فى الحكيم فكان ذكر الحكيم مغنيا عنه هذا على قول المعتزلة وأما على قول أهل السنة والجماعة فالحكمة هى العلم فقط فذكر العليم الحكيم يكون تكرارا محضا (الجواب) يحمل ذلك على التأكيد (السؤال الثانى) قالت المعتزلة دلت الآية على أنه انما يحسن قبول بيان الله تعالى لتجرد كونه عالما حكيما والحكيم هو الذى لا يفعل القبائح فتدل الآية على أنه لو كان خالقا للقبائح لما جاز الاعتماد على وعده ووعيده (والجواب) الحكيم عندنا هو العليم وانما يجوز الاعتماد على قوله لكونه عالما بكل المعلومات فان الجاهل لا اعتماد على قوله البتة (السؤال الثالث) قالت المعتزلة قوله يبين الله لكم أى لا يحل لكم وهذا يدل على أن أفعاله معللة بالاغراض ولان قوله لكم لا يجوز حمله على ظاهره لانه ليس الغرض نفس ذواتهم بل الغرض حصول انتفاعهم وطاعتهم وايمانهم فدل هذا على أنه تعالى يريد الايمان من الكل (والجواب) المراد أنه سبحانه فعل بهم ما لو فعله غيره لكان ذلك غرضا (النوع السابع) ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ اعلم أنه سبحانه لما بين ما على أهل الافك وما على من سمع منهم وما ينبغى أن يتكلموا به من آداب الدين أتبعه بقوله ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة لبعلم أن من أحب ذلك فقد شارك فى هذا الذنب كما شارك فيه من فعله ومن لم ينكره ولبعلم أن أهل الافك كما عليهم العقوبة فيما أظهروه فكذلك يستحقون العقاب بما أسروه من محبة اشاعة الفاحشة فى المؤمنين وذلك يدل على وجوب سلامة القلب للمؤمنين كوجوب كف الجوارح والقول عما يضر بهم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) معنى الاشاعة الانتشار يقال فى هذا العقار سهم شائع اذا كان فى الجميع ولم يكن منقسما وشاع الحديث اذا ظهر فى العامة (المسئلة الثانية) لا شك أن ظاهر قوله ان الذين يحبون يفيد العموم وأنه يتناول كل من كان بهذه الصفة ولا شك أن هذه الآية نزلت فى قذف عائشة الا ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فوجب اجراؤها على ظاهرها فى العموم ومما يدل على أنه لا يجوز تخصيصها بقذفة عائشة قوله تعالى فى الذين آمنوا فانه صيغة جمع ولو أراد عائشة وحدها لم يجز ذلك والذين خصصوه بقذفة عائشة منهم من حمله على عبد الله بن أبى لانه هو الذى سعى فى اشاعة الفاحشة قالوا معنى الآية ان الذين يحبون والمراد عبد الله أن تشيع الفاحشة أى الزنا فى الذين آمنوا أى فى عائشة وصفوان (المسئلة الثالثة) روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال انى لاعرف قوما يضربون صدورهم ضربا يسمعه أهل النار وهم الهماز ون اللمازون الذين يلتمسون عورات المسلمين ويهتكون ستورهم ويشيعون فيهم من الفواحش ما ليس فيهم وعنه عليه الصلاة والسلام لا يستر عبد مؤمن عورة عبد مؤمن الا ستره الله يوم القيامة ومن أقال مسلما صفقته أقال الله عثرته يوم القيامة ومن ستر عورة ستر الله عورته يوم القيامة وعنه عليه الصلاة والسلام المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه وعن عبد الله بن عمر عنه عليه الصلاة والسلام قال من مر به أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ويحب أن يؤتى الى الناس ما يحب أن يؤتى اليه وعن أنس قال قال عليه الصلاة والسلام لا يؤمن العبد حتى يحب لاخيه

فيما فيه من الدلائل الواضحة التى هى أهلاك الامم واسكان آخرين مساكنهم وغير ذلك مما سبق وحق (أنما هو اله واحد) لاشريك له وتقديم الانذار لانه الداعى الى التأمل المؤدى الى ما هو غايته من العلم المذكور والتذكر فى قوله تعالى (وليذكر أولوا الالباب) أى ليتذكروا ما كانوا يهملونه من قبل من التوحيد وغيره من شؤن الله عز وجل ومعاملته مع عباده فيرتدعوا عما يردهم من الصفات التى يتصف بها الكفار ويتدرعوا بما يضطهم من الفضائل الخمسة والاعمال الصالحة وفى تخصيص التذكر بأولى الالباب تلويح باختصاص العلم بالكفار ودلالة على أن المشار اليه بهذا ما ذكر من القوارع المسوقة لشأنهم لا كل السورة المشتملة عليها وعلى ما سبق للمؤمنين أيضا فان فيه ما يفيدهم فائدة جديدة وحين كان ما يفيده البلاغ من التوحيد وما يترتب عليه من الاحكام بالنسبة الى الكفرة أمرا حادثا وبالنسبة الى أولى الالباب الثبات على ذلك حسبما أشير اليه عبر ما

عن الاول بالعلم وعن الثانى بالتذكر وروعى ترتيب الوجود مع ما فيه من الختم بالمتبى والله سبحانه وتعالى أعلم ختم الله لنا بالسعادة والحسنى ورزقنا الفوز بمرضاته فى الاولى والعقبى آمين * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة ابراهيم أعطى من الاجر عشر

حسنات بعد من عبد الاصنام ومن لم يعبد والحمد لله وحده ﴿سورة الحجر مكية وهي تسع وتسعون آية﴾
(بسم الله الرحمن الرحيم) (الر) قدم الكلام فيه وفي محله في مطلع سورة الرعد وأخواتها (تلك) اشارة اليه أي تلك السورة العظيمة الشان (آيات الكتاب) الكامل المعهود الغني عن الوصف به ٢٨٣ المشهور بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به على الاطلاق أي بعض منه متر جم مستقل باسم خاص فهو عبارة عن جميع القرآن أو عن الجميع المنزل اذ ذاك اذ هو المتسارع الى الفهم حينئذ عند الاطلاق وعليه يترتب فائدة وصف الآيات بنعت ما أضيفت اليه من نعوت الكمال لا على جعله عبارة عن السورة اذ هي في الانصاف بذلك ليست بتلك المرتبة من الشهرة حتى يستغنى عن التصريح بالوصف على أنها عبارة عن جميع آياتها فلا بد من جعل تلك اشارة الى كل واحدة منها وفيه من التكلف ما لا يخفى كما ذكر في سورة الرعد (وقرآن) أي قرآن عظيم الشأن (مبين) مظهر لما في قضاياه من الحكم والاحكام أو لسبيل الرشد والغي أو فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام ولقد فخم شأنه العظيم مع ما جمع فيه من وصفي الكتابة والقرآنية على طريقتين احداهما اشتماله على صفات كل جنس الكتب الالهية فكأنه كلها والثانية طريقة كونه ممتازا عن غيره بنسج وحده بديع على بابه خارجا عن دائرة البيان وأخرت الطريقة الثانية لما أن الاشارة الى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على النطوائه على كمالات غيره من الكتب أدخل في المدح

ما يجب لنفسه من الخير ﴿المسئلة الرابعة﴾ اختلفوا في عذاب الدنيا فقال بعضهم اقامة الحد عليهم وقال بعضهم اقامة الحد واللعن والعداوة من الله والمؤمنين ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي وحسانا ومسطحا وقد صفوان لحسان فضربه بضربة بالسيف فكف بصره وقال الحسن عنى به المنافقين لانهم قصدوا أن يغموا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أراد غم رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر وعذابهم في الدنيا هو ما كانوا يحبون فيه وينفقون لمقاتلة أولئك مع أعدائهم وقال أبو مسلم الذين يحبون هم المنافقون يحبون ذلك فأوعدهم الله تعالى العذاب في الدنيا على يد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمجاهدة لقوله جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم والاقرب أن المراد بهذا العذاب ما استحقوه بأفكهم وهو الحد واللعن والذم فأما عذاب الآخرة فلا شك أنه في القبر غدا وبوم القيامة عذاب النار أعاذنا الله منه وأنتم لا تعلمون فهو حسن الموقع بهذا الموضع لان محبة القلب كامنة ونحن لا نعلمها الا بالامارات أما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شئ فصار هذا الذكر نهاية في الزجر لان من أحب اشاعة الفاحشة وان بالغ في اخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه وان علمه سبحانه بذلك الذي أخفاه كعلمه بالذي أظهره ويعلم قدر الجزاء عليه ﴿المسئلة الخامسة﴾ الآية تدل على أن العزم على الذنب العظيم عظيم وان أراد الفسق فسق لانه تعالى علق الوعيد بمحبة اشاعة الفاحشة ﴿المسئلة السادسة﴾ قال الجبائي دلت الآية على أن كل قاذف لم يتب من قذفه فلا ثواب له من حيث استحق هذا العذاب الدائم وذلك يمنع من استحقاق ضده الذي هو الثواب فمن هذا الوجه تدل على مائة قوله في الوعد واعلم أن حاصله يرجع الى مسئلة الاحباط وقد تقدم الكلام عليه ﴿المسئلة السابعة﴾ قالت المعتزلة ان الله تعالى بالغ في ذم من أحب اشاعة الفاحشة فلو كان تعالى هو الخالق لافعال العباد لما كان مستحبا أن لا يستحق الذم على اشاعة الفاحشة الا هو ولانه هو الذي فعل تلك الاشاعة وغيره لم يفعل شيأ منها والكلام عليه أيضا قد تقدم ﴿المسئلة الثامنة﴾ قال أبو حنيفة رحمه الله المصابة بالقهقهة لا تستنطق لان استنطاقها اشاعة للفاحشة وذلك ممنوع منه ﴿النوع الثامن﴾ ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤف رحيم﴾ وفيه وجوه (أحدها) أن جوابه محذوف وكأنه قال لعاجلكم أو لعذبكم أو لاستأصلكم لكنه رؤف رحيم قال ابن عباس الخطاب لحسان ومسطح وحمنة ويجوز أن يكون الخطاب عاما (والثاني) جوابه في قوله ما زكى منكم من أحد أبدا (والثالث) جوابه لكانت الفاحشة تشيع فتعظم المضرة وهو قول أبي مسلم والاقرب أن جوابه محذوف لان قوله من بعد ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد كالمنفصل من الاول فلا يحب أن يكون جوابا للاول خصوصا وقد وقع بين الكلامين كلام آخر والمراد أنه لولا انعامه بأن بقي وأمهل ومكن من التلاق لهلكوا ولكنه لرأفته لا يدع ما هو للعبد أصلح وان جفى عين نفسه ﴿النوع التاسع﴾ ﴿قوله تعالى﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم﴾ قرئ خطوات بضم الطاء وسكونها والخطوات جمع خطوة وهو من خطا الرجل يخطو خطوا فاذا أردت الواحدة قلت خطوة مفتوحة الاول والجمع بفتح أوله وبضم والمراد بذلك السيرة والطريقة والمعنى لا تتبعوا آثار الشيطان ولا تسلكوا مسالكه في الاصغاء الى الافك والتلقي له واشاعته الفاحشة في الذين آمنوا والله تعالى وان خص بذلك المؤمنين فهو نهي لكل المكلفين وهو قوله ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ومعلوم أن كل المكلفين ممنوعون من ذلك وانما قلنا انه تعالى خص المؤمنين بذلك

كي لا يتوهم من اول الامر أن امتيازه عن غيره لاستقلاله باوصاف خاصة به من غير اشتمال على نعوت كمال سائر الكتب السكرعة وهكذا الكلام في فاتحة سورة النمل حلا أنه قدم فيها القرآن على الكتاب لما سيذكر هناك ولما بين كون السورة الكريمة بعض من الكتاب والقرآن لتوجيه الخطاب الى حسن ٢٨٤ تلقي ما فيها من الاحكام والقصص والمواعظ بشرح في بيان ما تتضمنه فقيل (ربما)

لانه توعدهم على اتباع خطواته بقوله ومن يتبع خطوات الشيطان وظاهر ذلك أنهم لم يتبعوه ولو كان المراد به الكفار لكانوا قد اتبعوه فكأنه سبحانه لما بين ما على أهل الافك من الوعيد أدب المؤمنين أيضا بأن خصهم بالذكر ليتشددوا في ترك المعصية لئلا يكون حالهم كحال أهل الافك والفحشاء والفاحشة ما أفرط قبحه والمنكر ما تنكره النفوس فتنفر عنه ولا ترتضيه أما قوله ولولا فضل الله عليكم برحمته ما زكى منكم من أحد أبدا فقرأ يعقوب وابن محيصن ما زكى بالتشديد واعلم أن الزكي من بلغ في طاعة الله مبلغ الرضا ومنه يقال زكى الزرع فاذا بلغ المؤمن من الصلاح في الدين الى ما يرضاه الله تعالى سمي زكيا ولا يقال زكي الا اذا وجد زكيا كما لا يقال لمن ترك الهدى هداه الله تعالى مطاوعا بل يقال هداه الله فلم يهتد واحتج أصحابنا في مسئلة المخلوق بقوله ولكن الله يزكي من يشاء فقالوا التزكية كالتسويد والتحمير فكما أن التسويد تحصيل السواد فكذا التزكية تحصيل الزكاء في المحل قالت المعتزلة تمهلا تأويلان (أحدهما) حمل التزكية على فعل الالطاف (والثاني) حملها على الحكم بكون العبد زكيا قال أصحابنا الوجهان على خلاف الظاهر ثم نقيم الدلالة المقلية على بطلانهما أيضا (أما الوجه الاول) فيدل على فساده وجوه (أحدها) أن فعل اللطف هل يرجح الداعي أو لا يرجحه فان لم يرجحه البتة لم يكن به تعلق فلا يكون لطفا وان رجحه فنقول المرجح لابد وأن يكون منتهيا الى حد الوجوب فانه مع ذلك القدر من الترجيح اما أن يمتنع وقوع الفعل عنده أو يمكن أو يجب فان امتنع كان ما تعالا اذا عيا وان أمكن أن يكون وأن لا يكون فكل ما يمكن لا يلزم من فرض وقوعه محال فليفرض تارة واقعا وأخرى غير واقع فاستواء وقت الوقوع عن وقت اللاوقوع اما أن يتوقف على انضمام قيد اليه أو لا يتوقف فان توقف كان المرجح هو المجموع الحاصل بعد انضمام هذا القيد فلا يكون الحاصل أولا مرجحا وان لم يتوقف كان اختصاص أحد الوقتين بالوقوع والآخر باللاوقوع ترجيحا للممكن من غير مرجح وهو محال وأما ان كان اللطف مرجحا مع جواز كون فاعل اللطف فاعلا للمعلوف فيه فكان تعالى فاعلا للفعل العبد (الثاني) أنه تعالى قال ولكن الله يزكي من يشاء علق التزكية على المشيئة وفعل اللطف واجب والواجب لا يتعلق بالمشيئة (الثالث) أنه علق التزكية على الفضل والرحمة وخالق الالطاف واجب فلا يكون معللا بالفضل والرحمة (وأما الوجه الثاني) وهو الحكم بكونه زكيا فذلك واجب لانه لو لم يحكم به لكان كذبا والكذب على الله تعالى محال فكيف يجوز تعليقه بالمشيئة فثبت أن قوله ولكن الله يزكي من يشاء نص في الباب أما قوله والله سميع عليم فالمراد أنه يسمع أقوالكم في القذف رأقوالكم في اثبات البراءة عالم بما في قلوبكم من محبة اشاعة الفاحشة أم من كراهتها واذا كان كذلك وجب الاحتراز عن معصيته ﴿قوله تعالى﴾ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴿اعلم أنه تعالى كما أدب أهل الافك ومن سمع كلامهم كما قدمنا ذكره فكذلك أدب أبا بكر لما حلف أن لا ينفق على مسطح أبدا قال المفسرون نزلت الآية في أبي بكر حيث حلف أن لا ينفق على مسطح وهو ابن خالة أبي بكر وقد كان يتيما في حجره وكان ينفق عليه وعلى قرابته فلما نزلت الآية قال لهم أبو بكر قد موا فلستم مني ولست منكم ولا يدخل علي أحد منكم فقال مسطح أنشدك الله والاسلام وأنشدك القرابة والرحم أن لا تحرمني الى أحد فما كان لك في أمي من ذنب فقال لمسطح ان لم تتكلم فقد هلكت فقال قد كان ذلك تجيبها من قول حسان فلم يقبل عذره وقال انطلقوا أيها القوم فان الله لم يجعل لكم عذرا ولا فرجا فخرجوا لا يدرون أين يذهبون وأين يتوجهون من الارض فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم

الراء وتخفيف الباء المفتوحة وقرئ بالتشديد وبفتح الراء مخففا وبزيادة التاء مشددا وفيه ثماني لغات فتح الراء وضمها مشددا ومخففا وبزيادة التاء أيضا مشددا ومخففا وربما حرف جر لا يدخل الا على الاسم وما كافة مهيئة لدخوله على الفعل وحقه الدخول على الماضي ودخوله على قوله تعالى (يود الذين كفروا) لما أن المترقب في اخباره تعالى كالماضي المقطوع في تحققه الوقوع فكأنه قيل ربما ودالذين كفروا والمراد كفرهم بالكتاب والقرآن وبكونه من عند الله تعالى (لو كانوا مسلمين) منقادين لحكمه ومذعنين لامره وفيه ايذان بأن كفرهم انما كان بالجحود بعد ما علموا كونه من عند الله تعالى وتلك الودادة يوم القيامة أو عند موتهم أو عند معاينة حالهم وحال المسلمين أو عند رؤيتهم خروج عصاة المسلمين من النار روى عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه أنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة واجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله تعالى من أهل القبلة قال لهم الكفار ألستم مسلمين قالوا بلى قالوا فما أغنى عنكم اسلامكم وقد صرتم معنا الى النار قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغضب الله سبحانه فيخرجهم من النار فضلا منه ورحمة فيأمر بكل من كان من أهل القبلة في النار فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وروى مجاهد عن

يخبره

ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لا يزال الرب يرحم ويشفع اليه حتى يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة فهذا ذلك يتمنون الاسلام والحق أن ذلك محمول على شدة وداد تهم وأما نفس الوداد فليست بمختصة بوقت دون وقت بل هي مقررة مستمرة في كل آن يمر عليهم وأن المراد بيان ذلك على ما هو عليه من الكثرة وانما جيء بصيغة التقابل ٢٨٥ جريا على سنن العرب فيما يقصدون به الافراد فيما يعكسون عنه بقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان فيقول دب فارس عندي أو لا تقدم عندي فارسا وعنده مقانب جمة من الكتائب وقصده في ذلك التمادي في تكثير فرسانه ولكنه يريد اظهار براعته من التجريد وابراز أنه ممن يقلل أعلوا لهمة كثير ما عنده فضلا عن تكثير القليل وهذه طريقة انما تسلك اذا كان الامر من الوضوح بحيث لا يصوم حوله شائبة ريب فيصار اليه هضما للحق دلل النظام الكريم على وداد الكافرين للاسلام في كل آن من آنات اليوم الآخر وأن ذلك من الظهور بحيث لا يشتبه على أحد ولو جيء بكلام يدل على ضده وعلى أن تلك الوداد مع كثرتها في نفسها مما يستقل بالنسبة الى جناب الكبرياء وهذا هو الموافق لمقام بيان حقارة شأن الكفار وعدم الاعتداد بما هم فيه من الكفر والتكذيب كما ينطق به قوله تعالى ذرهم

يخبره بأن الله تعالى قد أنزل على كتابا بأنك فيه ان تخرجهم فكبر أبو بكر وسره وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية فلما وصل الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم قال بلى يا رب اني أحب أن يغفر لي وقد تجاوزت عما كان فذهب أبو بكر الى بيته وأرسل الى مسطح وأصحابه وقال فعلت ما أنزل الله على الرأس والعين وانما فعلت بكم ما فعلت اذ سخط الله عليكم أما اذ عفا عنكم فرحبا بكم وجعل له مثلي ما كان له قبل ذلك اليوم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) ذكر في قوله ولا يأتل وجهين (الاول) وهو الاشهر وأنه من ائتلى اذا حلف افتعل من الالية والمعنى لا يحلف قال أبو مسلم هذا ضعيف لوجهين (أحدهما) أن طاهر الآية على هذا التأويل يقتضي المنع من الحلف على الاعطاء وهم أرادوا المنع من الحلف على ترك الاعطاء فهذا المتأول قد أقام النفي مكان الايجاب وجعل المنهي عنه مأمورا به (وثانيهما) أنه قلما يوجد في الكلام افتعلت مكان أفعلت وانما يوجد مكانه فعلت وهنا آليت من الالية فعلت فلا يقال افتعلت كما لا يقال من ألزمت التزمت ومن أعطيت اعتطيت ثم قال في يأتل ان أصله يأتلي ذهبت الياء للجزم لانه نهي وهو من قولك ما ألوت فلانا نصحا ولم آل في أمري جهدا أي ما قصرت ولا يألل ولا يأتل واحد فالمراد لا تقصروا في أن تحسنوا اليهم ويوجد كثيرا افتعلت مكان فعلت تقول كسبت واكتسبت وصنعت واصطنعت ورضيت وارتضيت فهذا التأويل هو الصحيح دون الاول ويروى هذا التأويل أيضا عن أبي عبيدة أجاب الزجاج عن السؤال الاول بأن لا تحذف في اليمين كثيرا قال الله تعالى ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم أن تبروا وتتقوا وقال امرؤ القيس

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي لا أبرح وأجابوا عن السؤال الثاني أن جميع المفسرين الذين كانوا قبل أبي مسلم فسروا اللفظة باليمين وقول كل واحد منهم حجة في اللغة فكيف الكل وبعد هذه قراءة الحسن ولا يتأل (المسئلة الثانية) أجمع المفسرون على أن المراد من قوله أولوا الفضل أبو بكر وهذه الآية تدل على أنه رضي الله عنه كان أفضل الناس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم لان الفضل المذكور في هذه الآية اما في الدنيا واما في الدين والاول باطل لانه تعالى ذكره في معرض المدح له والمدح من الله تعالى بالدنيا غير جائز ولانه لو كان كذلك لكان قوله والسعة تكرارا فتعين أن يكون المراد منه الفضل في الدين فلو كان غيره مساويا له في الدرجات في الدين لم يكن هو صاحب الفضل لان المساوي لا يكون فاضلا فلما أثبت الله تعالى له الفضل مطلقا غير مقيد بشخص دون شخص وجب أن يكون أفضل الخلق لترك العمل به في حق الرسول صلى الله عليه وسلم فيبقى ما هو ولانه في حق الغير فان قيل تمنع اجماع المفسرين على اختصاص هذه الآية بأبي بكر قلنا كل من طالع كتب التفسير والاحاديث علم ان الاختصاص هذه الآية بأبي بكر بالغ الى حد التواتر ولو جاز منعه جاز منع كل متواتر وأيضا فهذه الآية دالة على ان المراد منها أفضل الناس وأجمعت الامة على ان الافضل أما أبو بكر أو علي فاذا بينا انه ليس المراد عليا تعين الآية لابي بكر وانما قلنا انه ليس المراد منه عليا لوجهين (الاول) ان ما قبل هذه الآية وما بعدها يتعلق بأبي بكر فيكون حديث علي في البين سجعا (الثاني) انه تعالى وصفه بانه من أولي السعة وان عليا لم يكن من أولي السعة في الدنيا في ذلك الوقت فثبت ان المراد منه أبو بكر قطعا واعلم ان الله تعالى وصف أبا بكر في هذه الآية بصفات عجيبة دالة على علو شأنه في الدين (أحدها) انه سبحانه كنى عنه بلفظ الجمع والواحد اذا كني عنه بلفظ الجمع دل على علو شأنه كقوله تعالى انا نحن نزلنا الذكر انا أعطيناك الكوثر فانظر ان الشخص الذي كناه الله سبحانه

والآية أوذها بالى الاشعار بأن من شأن العاقل اذا عن له أمر يكون مظنون الحمد أو قليلا ما يكون كذلك أن لا يفارقه ولا يعارف فكيف اذا كان متيقن الحمد كما في قولهم لعلك ستندم على ما فعلت وربما ندم الانسان على ما فعل فان المقصود ليس بيان كون الشيء مرجو الوجود بل الترقي عن أدنى الرتبة في التنبيه على أن العاقل لا ينبغي أن يرجى فيه الندم أو يقل وقوعه فيه فكيف بقطعي

الوقوع وأنه يكفي قليل الندم في كونه عاجزا عن ذلك الفعل فكيف كثيره والمقصود من سلوك هذه الطريقة اظهار التفرع والاستغناء عن التصريح بالغرض بناء على ادعاء ظهوره فانه لو كانوا يودون الاسلام مرة واحدة لوجب عليهم أن لا يفارقوه فكيف وهم يودونه كل آن وهذا أوفق بمقام استمالتهم ٢٨٦ عما هم عليه من الكفر وهذان طريقان ممتازان ذاتا ومقاما فمن ظنهما واحدا فقد

مع جلالة بصيغة الجمع كيف يكون علوشأنه (وثانيها) وصفه بانه صاحب الفضل على الاطلاق من غير تقييد لذلك بشخص دون شخص والفضل يدخل فيه الافضال وذلك يدل على انه رضي الله عنه كان فاضلا على الاطلاق كان مفضلا على الاطلاق (وثالثها) ان الافضال افادة ما ينبغي لا لعوض فان يهب السكين لمن يقتل نفسه لا يسمى مفضلا لانه أعطى ما لا ينبغي ومن أعطى ليستفيد منه عوضا اما مالا أو مدحا أو ثناء فهو مستفيض والله تعالى قد وصفه بذلك فقال وسيجنبها الاتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى وقال في حق على انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا والانفاق من ربح يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة لرياء لمن أعطى للخوف من العقاب أو بكرما أعطى الا لوجه ربه الاعلى فدرجة أبي بكر أعلى فكانت عطيته في الافضال أتم وأكمل (ورابعها) انه قال أولوا الفضل منكم فكلمة من لتمييز فكانه سبحانه ميزه عن كل المؤمنين بصفة كونه أولي الفضل والصفة التي بها يقع الامتياز يستحيل حصولها في الغير والا لما كانت مميزة له بعينه فدل ذلك على ان هذه الصفة حاصلة فيه لا في غيره البتة (وخامسها) أنكم جعل الفضل على طاعة الله تعالى وخدمته وقوله والسعة على الاحسان الى المسلمين فكانه كان مستجمعا للتعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله وهما من أعلى مراتب الصديقين وكل من كان كذلك كان الله معه لقوله ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ولاجل اتصافهما بهاتين الصفتين قال له لا تحزن ان الله معنا (وسادسها) انما يكون الانسان موصوفا بالسعة لو كان جوادا بذولا ولذا قال عليه الصلاة والسلام خير الناس من ينفع الناس فدل على انه خير الناس من هذه الجهة ولقد كان رضي الله عنه جوادا بذولا في كل شيء ومن جوده انه كما أسلم بكرا لليوم جاء بعثمان بن عفان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعثمان بن مظعون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ان أسلموا على يده وكان جوده في التعليم والارشاد الى الدين والبذل بالدنيا كما هو مشهور فيحق له أن يوصف بانه من أهل السعة وأيضا فيه ان الناس اختلفوا في انه هل كان اسلامه قبل اسلام علي أو بعده ولكن اتفقوا على ان عليا حين أسلم لم يشتغل بدعوة الناس الى دين محمد صلى الله عليه وسلم وان أبا بكر اشتغل بالدعوة فكان أبو بكر أول الناس اشتغالا بالدعوة الى هذا الدين محمد ولا شك ان أجل المراتب في الدين هذه المرتبة فوجب أن تكون أفضل الناس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر من هذه الجهة ولانه عليه السلام قال من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة فوجب أن يكون لابي بكر مثل أجر كل من يدعو الى الله فيدل على الافضلية من هذه الجهة أيضا (وسابعها) ان الظلم من ذوي القربى أشد قال الشاعر

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة * على المرء من وقع الحسام المهند

وأيضا فالانسان اذا أحسن الى غيره فأذاقابله ذلك الغير بالاساءة كان ذلك أشد عليه مما اذا صدرت الاساءة من الاجنبي والجهتان كانتا متعتبرتين في حق مستطرح ثم انه آذى أبا بكر بهذا النوع من الايذاء الذي هو أعظم أنواع الايذاء فانظر أين مبلغ ذلك الضرر في قلب أبي بكر ثم انه سبحانه أمره بان لا يقطع عنه بره وأن يرجع معه الى ما كان عليه من الاحسان وذلك من أعظم أنواع المجاهدات ولا شك ان هذا أصعب من مقاتلة الكفار لان هذا مجاهدة مع النفس وذلك مجاهدة مع الكافر ومجاهدة النفس أشق ولهذا قال عليه الصلاة والسلام رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر (وثامنها) ان الله تعالى لما أمر أبا بكر بذلك لقبه باولي الفضل وأولي السعة كانه سبحانه يقول له أنت أفضل من أن تقابل اساءته بشيء وأنت أوسع قلبا من أن تقنع للدنيا وزنا فلا يليق بفضلك وسعة قلبك أن تقطع برك عنه بسبب ما صدر منه من الاساءة

فالافعال الثلاثة مجوزة على الجوابية للامر حسبما عرفت من تضمن الامر بالترك للامر بها على طريقة ومعلوم

المجاز أو على أن يكون المراد بالافعال المرقومة مباشرتهم لها غافلين عن ولحاقة عاقبتها غير سارمين لسوء عقبتها أصلا ولا ريب في ترتب ذلك على الامر بالترك فان النهي عما هم عليه من ارتكاب القبائح مما يوشوش عليهم عيشهم ويغص عليهم عيشهم فأمر عليه السلام

يتركه ليتمتعوا فيما هم فيه من حظوظهم فيدعهم مايدعهم وهم عنه غافلون (ويوشك يعلمون) سوء صنيعهم أو وخامة عاقبتهم أو حقيقة الحال التي آلت اليها أمرهم الى الفناء المذكور حيث لم يعملوا ذلك من جهتك وهو مع كونه وعيدا عاما وعيدوتهديد اغاب تهديد وتعليل للامر بالترك فان علمهم ذلك علة لترك النهي والنصيحة لهم وفيه الزام للصحة ومبالغة في الانذار ٢٨٧ الاية تحقيق الامر بالصدع بالانذار وتقرير الجحود والانكار وكذلك ماترتب عليه من الاكل والتمتع والالهاء (وما أهلكنا) شروع في بيان سرعة أخذ عذابهم الى يوم القيامة وعدم نظرهم في سلك الامم الدارجة في تعجيل العذاب أي ما أهلكنا (من قرية) من القرى بالخسف بها وبأهلها كما فعل بعضها أو بأخلائها عن أهلها نحو اهلا كهم كما فصل في آخر السورة (الا ولها) في ذلك الشأن (كتاب) أي أجل مقدر مكتوب في اللوح واجب المراعاة بحيث لايمكن تبديله ولوقوعه حسب الحكمة المقتضية له (معلوم) لاينبغي ولا يعقل عنه حتى يتصور التخلف عنه بالتقدم والتأخر فكتاب مبتدأ خبره الظرف والجملة حال من قرية فانها لعمومها لاسيما بعد تأكيده بكلمة من في حكم الموصوفة كما أشير اليه والمعنى ما أهلكنا قرية من القرى في حال من الاحوال الا حال أن يكون لها كتاب أي أجل موقت لاهلاكها قدر كتبناه لاسبيل بلوغ معلوم لايغفل عنه حتى يمكن مخالفته بالتقدم والتأخر أومرتفع بالظرف والجملة كما هي حال أي ما أهلكنا قرية من القرى في حال من الاحوال الاوقد كان لها في حق هلاكها كتاب أي أجل مقدر مكتوب في اللوح معلوم لايغفل عنه أوصفة لكن لا للقرية المذكورة بل للقدرة التي هي بدل من المذكورة على المختار فيكون بمنزلة كونه صفة للمذكورة أي ما أهلكنا قرية من

ومعلوم ان مثل هذا الخطاب يدل على نهاية الفضل والعلو في الدين (وناسبها) ان الالف واللام يفيدان العموم فالالف واللام في الفضل والسعة يدلان على أن كل الفضل وكل السعة لابي بكر كما يقال فلان هو العالم يعني قد بلغ في الفضل الى أن صار كأنه كل العالم وما عداه كالعدم وهذا أيضا منقبة عظيمة (وعاشرها) قوله وليعفوا وليصفحوا وفيه وجوه (منها) ان العفو قريبة التقوى وكل من كان أقوى في العفو كان أقوى في التقوى ومن كان كذلك كان أفضل لقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم (ومنها) ان العفو والتقوى متلازمان فلهذا السبب اجتمعا فيه أما التقوى فلقوله تعالى وسيجنبها الاتقى وأما العفو فلقوله تعالى وليعفوا وليصفحوا (وحادي عشرها) انه سبحانه قال لمحمد صلى الله عليه وسلم فاعف عنهم واصفح وقال في حق أبي بكر وليعفوا وليصفحوا فان هذا الوجه يدل على ان أبا بكر كان ثاني اثنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع الاخلاق حتى في العفو والصفح (وثاني عشرها) قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم فانه سبحانه ذكره بكلمة الجمع على سبيل التعظيم وأيضا مامنه سبحانه على غفرانه له على اقدامه على العفو والصفح فلما حصل الشرط منه وجب ترتيب الجزاء عليه ثم قوله يغفر الله لكم بصيغة المستقبل وانه غير مقيد بشئ دون شئ فدلت الاية على انه سبحانه قد غفر له في مستقبل عمره على الاطلاق فكان من هذا الوجه ثاني اثنين للرسول صلى الله عليه وسلم في قوله ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ودليلا على صحة امامته رضي الله عنه فان امامته لو كانت على خلاف الحق لما كان مغفورا له على الاطلاق ودليلا على صحة ماذكره الرسول صلى الله عليه وسلم في خبر بشارة العشرة بان أبا بكر في الجنة (وثالث عشرها) انه سبحانه وتعالى لما قال الاتحبون أن يغفر الله لكم وصف نفسه بكونه غفورا رحيما والغفور هو المبالغة في الغفران فعظم أبا بكر حيث خاطبه بلفظ الجمع الدال على التعظيم وعظم نفسه سبحانه حيث وصفه بهذه المبالغة في الغفران والعظيم اذا عظم نفسه ثم عظم مخاطبه فالعظمة الصادرة منه لاجله لابد وأن تكون في غاية العظمة ولهذا قلنا بانه سبحانه لما قال انا اعطيناك الكوثر وجب ان تكون العطية عظيمة فدلت الاية على ان أبا بكر ثاني اثنين للرسول صلى الله عليه وسلم في هذه المنقبة أيضا (ورابع عشرها) انه سبحانه لما وصفه بانه أولي الفضل والسعة على سبيل المدح وجب أن يقال انه كان خاليا عن المعصية لان المعصية لايجوز أن يكون من أهل النار ولو كان عاصيا لكان كذلك لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها واذا ثبت انه كان خاليا عن المعاصي فقوله يغفر الله لكم لايجوز أن يكون المراد غفران معصية لان المعصية التي لاتكون لايمكن غفرانها واذا ثبت انه لايمكن حمل الاية على ذلك وجب حملها على وجه آخر فنقول انه سبحانه قال والله أعلم ألا تحبون أن يغفر الله لكم لاجل تعظيمكم هؤلاء الفقراء المساكين فهو جمع حاصل الاية الى انه سبحانه قال لابي بكر ان قبلت هؤلاء المساكين فانا أيضا أقبلهم وان رددتهم فانا أيضا أردهم فكانه سبحانه أعطاه مرتبة الشفاعة في الدنيا فهذا ما حضرنا في هذه الاية والله أعلم فان قيل هذه الاية تقدح في فضيلة أبي بكر من وجه آخر وذلك لانه نهاه عن هذا الحلف فدل على صدور المعصية منه (قلنا) الجواب عنه من وجوه (أحدها) ان النهي لايدل على وقوعه قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ولاتطع الكافرين والمنافقين ولم يدل ذلك على انه عليه الصلاة والسلام أطاعهم بل دلت الاخبار الظاهرة على صدور هذا الحلف منه ولكن على هذا التقدير لاتكون الاية دالة على قولكم (وثانيها) هب انه صدر عنه ذلك الحلف فلم قلتم انه كان معصية وذلك لان الامتناع من التفضل قد يحسن خصوصا فيمن ينبغي عالي من أحسن اليه أوفى حق من يتخذه ذريعة الى الافعال المحرمة لايقال فلو لم تكن معصية لما جاز أن ينهى

الله عنه بقوله ولا يأتل أولوا الفضل لانا نقول هذا النهي ليس نهي زجر وتحريم بل هو نهي عن ترك الاولى كانه سبحانه قال لابي بكر الاتفي بحلفك وسمعة مثلك أن لا تقطع هذا فكان هذا ارشادا الى الاولى لا منعا عن المحرم (المسئلة الثالثة) أجمعوا على ان المراد من قوله أولى القربى واليتامى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله مستحقو ذلك لانه كان قريبا لابي بكر وكان من المساكين ومن المهاجرين واختلفوا في الذنب الذي وقع منه فقال بعضهم قذف كما فعله عبد الله بن أبي قاله عليه الصلاة والسلام حد وانه تاب عن ذلك وقال ابن عباس رضي الله عنهما كان تاركا للنكر وظهر الرضا وأي الامرين كان فهو ذنب (المسئلة الرابعة) احتج أصحابنا بهذه الآية على بطلان الهاطة وقالوا انه سبحانه وصفه بكونه من المهاجرين في سبيل الله بعد ان أتى بالقذف وهذه صفة مدح فدل على أن تواب كونه مهاجرا لم يحبط باقدامه على القذف (المسئلة الخامسة) أجمعوا على ان مسطحا كان من البدريين وثبت بالرواية الصحيحة انه عليه الصلاة والسلام قال لعل الله نظر الى أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم فكيف صدرت الكبيرة منه بعد ان كان بدريا (والجواب) انه لا يجوز أن يكون المراد منه افعلوا ما شئتم من المعاصي فيما مر بها أو يأتيها الا انا نعلم بالضرورة ان التكليف كان باقيا عليهم فلو حملناه على ذلك لاقتضى زوال التكليف عنهم ولانه لو كان كذلك لما جاز أن يحد مسطح على ما فعل ويلعن فوجب حمله على أحد أمرين (الاول) انه تعالى اطلع على أهل بدر وقد علم توبتهم وانابتهم فقال افعلوا ما شئتم من النوافل من قليل أو كثير فقد غفرت لكم وأعطيتكم الدرجات العالية في الجنة (الثاني) يحتمل أن يكون المراد انهم يوافون بالطاعة فكأنه قال قد غفرت لكم لعلمي بأنكم تموتون على التوبة والانابة فذكر حالهم في الوقت وأراد العاقبة (المسئلة السادسة) العفو والصفح عن المسيء حسن مندوب اليه ورد بما وجب ذلك ولم يدل عليه الا هذه الآية لكني الاري الى قوله الا تحبون أن يغفر الله لكم فعلق الغفران بالعفو والصفح وحثه عليه الصلاة والسلام من لم يقبل عذر المتنصل كاذبا كان أو صادقا فلا يرد على حر وضي يوم القيامة وحثه عليه الصلاة والسلام أفضل اخلاق المسلمين العفو وعنه أيضا ينادي مناد يوم القيامة الا من كان له على أجر فليقم فلا يقوم الا أهل العفو ثم لا من عفا وأصلح فأجره على الله وعنه عليه الصلاة والسلام أيضا لا يكون العبد فاضلا حتى يصل من قطعه ويعفو عن ظلمه ويعطي من حرمه (المسئلة السابعة) في هذه الآية دلالة على ان اليمين على الامتناع من الخير غير جائز وانما يجوز اذا حملت داعية للغير لا صارفة عنه (المسئلة الثامنة) مذهب جمهور الفقهاء أن من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه وقال بعضهم ليأت بالذي هو خير وذلك كفارته واحتج ذلك القائل بالآية وبالخبر اما الآية فهي ان الله تعالى أمر أبا بكر بالحنث ولم يوجد عليه كفارة وأما الخبر فما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وذلك كفارته وأما دليل قول الجمهور فأمور (أحدها) قوله تعالى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته وقول ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم وذلك عام في الحانث في الحين وغيره (وثانيها) قوله تعالى في شأن أيوب حين حلف على امرأته أن يضربها وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث وقد علما ان الحنث كان خيرا من تركه وأمره الله بضرب لا يبلغ منها ولو كان الحنث فيها كفارتها لما أمر بضربها بل كان يحنث بلا كفارة (وثالثها) قوله عليه الصلاة والسلام من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه (وأما الجواب عما ذكروه أولا) فهو انه تعالى لم يذكر أمر الكفارة في قصة أبي بكر لانها وان ثبتا لان حكمه كان معلوما في سائر الآيات (والجواب

كان القياس عدمه فلا يجزان بكمال الالتصاق بينهما من حيث ان الواو وشأنها الجمع والربط فان ما نحن فيه من الصفة أقوى أحوالها بالموصوف منها به في قوله تعالى وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون فان امتناع انفكاك الاهلاك عن الاجل المقدر عقلي وعن الانذار عادي جرى عليه السنة الالهية والبين أن الامم الهالكة كان لكل منهم وقت معين لهلاكهم وان هلاكهم لم يكن الا حسبما كان مكتوبا في اللوح بين أن كل أمة من الامم منهم ومن غيرهم لها كتاب لا يمكن التقدم عليه ولا التأخر عنه فتأمل (ما سبق من أمة) من الامم المهلكة وغيرهم (أجلها) المكتوب في كتابها أي لا يجيء هلاكها قبل مجيء كتابها أولا تقضي أمة قبل مضي أجلها فان السابق اذا كان واقعا على زماني فمضاف والمجاوزة والتقليف فاذا قلت سبق زيد عمرا فمعناه أنه جاوزه وخلفه وراءه واذا كان واقعا على زمان كان الامر بالعكس والفرق بذلك أن الزمان يعتبر فيه الحركة

عما

والتوجه الى المتكلم فما سبقه يتحقق قبل تحققه وأما الزمان فانما يعتبر فيه الحركة والتوجه الى ما سيأتي من الزمان فالسابق ما تقدم الى المقصد وايراده بعنوان الاجل باعتبار ما يقتضيه من السبق كما أن ايراده بعنوان الكتاب المعلوم باعتبار ما يوجبه من الاهلاك (وما

يستأخرون) أي وما يتأخرون وصيغة الاستقبال للاشعار بهزهم عن ذلك مع علمهم وإيثار صيغة المضارع في الفعلين بعد ما ذكر في الاهلاك بصيغة الماضي لان المقصود بيان دوامها واستمرارها فيما بين الامم الماضية والباقية وإسنادهما الى الامة بعد إسنادهما الى القرية لما أن السبق والاستئخار حال الامة دون القرية مع مافي الامتين ٢٨٩ العموم لاهل تلك القرى وغيرهم ممن

عما ذكر مثالا) في قوله وأيات الذي هو خبر وذلك كفارته فعناه تكفير الذنب لا الكفارة المذكورة في الكتاب وذلك لانه منهي عن نقض الايمان فأمره ههنا بالحنث والتوبة وأخبر ان ذلك يكفر ذنبه الذي ارتكبه بالحلف (المسئلة التاسعة) روى القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها انها قالت فضلت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بعشر خصال تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرا دون غيري وأبواي مهاجران وجاء جبريل عليه السلام بصورتي في حريرة وأمره أن يتزوجني وكنت أغتسل معه في اناء واحد وجبريل عليه السلام ينزل عليه بالوحي وأنا معه في لحاف واحد وتزوجني في شوال وبني بي في ذلك الشهر وقبض بين سحري ونحري وأنزل الله تعالى عذري من السماء ودفن في بيتي وكل ذلك لم يساوني غيري فيه وقال مجاهد برأ الله أربعة بأربعة برأ يوسف عليه السلام بلسان الشاهد وشهد شاهد من أهلها وبرأ موسى عليه السلام من قول اليهود بالحجر الذي ذهب بثوبه وبرأ مريم بانطاق ولدها وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر وروي انه لما قربت وفاة عائشة جاءها ابن عباس يستأذن عليها فقالت يحبي الآن فيثني على خيره ابن الزبير فقال مالي رجع حتى تأذن لي فأذنت له فدخل فقالت عائشة أعوذ بالله من النار فقال ابن عباس يا أم المؤمنين ذلك والنار قد أعاذك الله منها وأنزل براءتك تقرأ في المساجد وطيبك فقال الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات كنت أحب أساء رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه ولم يحب صلى الله عليه وسلم الا طيبا وأنزل بسببك اليوم فقال قضيتم وأصبتم طيبا وروى ان عائشة وزينب تفاخرتا فقالت زينب أنا التي أنزل ربي تزويجي وقالت عائشة أنا التي برأني ربي حين حملني ابن المعطل على الراحلة فقالت لها زينب ما قالت حين ركبتها قالت قلت حسبي الله ونعم الوكيل فقالت كلمة المؤمنين ﴿قوله تعالى ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اختلفوا في قوله ان الذين يرمون المحصنات الغافلات هل المراد منه كل من كان بهذه الصفة أو المراد منه الخصوص أما الاصوليون فقالوا الصيغة عامة ولا مانع من اجرائها على ظاهرها فوجب حمله على العموم فيدخل فيه قذفة عائشة وقذفة غيرها ومن الناس من حالف فيه وذكر وجوها (أحدها) ان المراد قذفة عائشة قالت عائشة رميت وأنا غافلة وأنا بريئة فحينما رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم عندي أذا وحي الله اليه فقال أبشري وقرأ ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات (وثانيها) ان المراد جملة أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وانهن لشرفهن خصصن بأن من قذفهن فهذا الوعيد لاحق به واحتجوا على هؤلاء بأمور (الاول) ان قاذف سائر المحصنات تقبل توبته لقوله تعالى في أول السورة والذين يرمون المحصنات الى قوله وأولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا وأما القاذف في هذه الآية فانه لا تقبل توبته لانه سبحانه قال لهم في الدنيا والآخرة ولم يذكر الاستثناء وأيضا فهذه صفة المنافقين في قوله ملعونين أينما ثقفوا (الثاني) ان قاذف سائر المحصنات لا يكفر والقاذف في هذه الآية يكفر لقوله تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ردذلك صفة الكفار والمنافقين كقوله ويوم يحشر أعداء الله الى النار الآيات الثلاث (الثالث) انه قال ولهم عذاب عظيم والعذاب العظيم يكون عذاب الكفر فدل على ان عقاب هذا القاذف عقاب الكفر وعقاب قذفة سائر المحصنات لا يكون عقاب الكفر (الرابع) روى عن ابن عباس رضي الله عنهما انه كان بالبصرة قوم عرفة وكان يسئل عن تفسير القرآن فسئل عن تفسير هذه الآية فقال من أذنب ذنبا ثم تاب قبلت توبته الا من خاض في أمر عائشة أبطل

والتي (يا أيها الذي نزل عليه الذكر) خاطبوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسليما لذلك واعتقادا له بل استهزاء به عليه الصلاة والسلام واشعارا بمحل حكمهم الباطل في قولهم (انك لمجنون) كذا في قوله فرعون اذ قال ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون يعنون بامن يدعي مثل هذا الامر البديع الخارق للعادات انك بسبب تلك الدعوى أو بتهادة ما يتراءى عندك مما تدعي أنه

ينزل عليك لمجنون وتقديم الجار والمجرور على القائم مقام الفاعل لان انكارهم متوجه الى كون النازل ذكرا من الله تعالى لا الى كون المنزل عليه رسول الله بعد تسليم كون النازل من الله تعالى كما في قوله تعالى لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم فان الانكار هناك متوجه الى كون المنزل عليه رسول الله تعالى وايراد الفعل على صيغة المجهول لايهام أن ذلك ليس بفعل له فاعل

الاصوليون عنه بأن الوعيد المذكور في هذه الآية لابد وأن يكون مشروطا بعدم التوبة لان الذنب سواء كان كفرا أو فسقا فاذا حصلت التوبة عنه صار مغفورا لقوله تعالى ومن الناس من ذكرفيه قولا آخر وهو أن هذه الآية نزلت في مشركي مكة حين كان بينهم وبين رسول الله عهد فكانت المرأة اذا خرجت الى المدينة مهاجرة قذفها المشركون من أهل مكة وقالوا انما خرجت لتفجر فنزلت فيهم والقول الاول هو الصحيح (المسئلة الثانية) ان الله تعالى ذكر فيمن يرمي المحصنات الغافلات المؤمنات ثلاثة أشياء (أحدها) كونهم ملعونين في الدنيا والآخرة وهو وعيد شديد واحتج الجبائي بأن التقييد باللعن عام في جميع القذفة ومن كان ملعونا في الدنيا فهو ملعون في الآخرة والملعون في الآخرة لا يكون من أهل الجنة وهو بناء على المحابطة وقد تقدم القول فيه (وثانيها) قوله يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ونظيره قوله وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا وعندنا البنية ليست شرطا للحياة فيجوز أن يخلق الله تعالى في الجوارح الفهم والقدرة على الكلام وقد مر الكلام وعند المعتزلة لا يجوز ذلك فلا جرم ذكروا في تأويل هذه الآية وجهين (الاول) انه سبحانه يخلق في هذه الجوارح هذا الكلام وعندهم المتكلم فاعل الكلام فتكون تلك الشهادة من الله تعالى في الحقيقة لا أنه سبحانه أضافها الى الجوارح توسعا (الثاني) انه سبحانه يبني هذه الجوارح على خلاف ما هي عليه ويلجئها أن تشهد على الانسان وتخبر عنه بأعماله قال القاضي وهذا أغرب الى الظاهر لان ذلك يفيد أنها تفعل الشهادة (وثالثها) قوله تعالى يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ولا شبهة في أن نفس دينهم ليس هو المراد لان دينهم هو عملهم بل المراد جزاء عملهم والدين بمعنى الجزاء مستعمل كقولهم كما تدين تدان وقيل الدين هو الحساب كقوله ذلك الدين القيم أي الحساب الصحيح ومعنى قوله الحق أي ان الذي يوفيهم من الجزاء هو الاقدر المستحق لانه الحق ومازاد عليه هو الباطل وقرئ الحق بالنصب صفة للدين وهو الجزاء وبالرفع صفة لله وأما قوله ويعلمون أن الله هو الحق المبين فمن الناس من قال انه سبحانه انما سمى نفسه بالحق لان عبادته هي الحق دون عبادة غيره أو لانه الحق فيما أمر به دون غيره ومعنى المبين يؤيد ما قلنا لان الحق فيما يخاطب به هو المبين من حيث بين الصحيح بكلامه دون غيره ومنهم من قال الحق من أسماء الله تعالى ومعناه الموجود لان نقيضه الباطل وهو المعدوم ومعنى المبين الظاهر ومعناه أن مقدوراته ظاهرة بوجود المكنات فمعنى كونه حقا انه الموجود لذاته ومعنى كونه مبينا انه المعطي وجود غيره ﴿قوله تعالى﴾ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴿اعلم أن الخبيثات يقع على الكلمات التي هي القذف الواقع من أهل الافك ويقع أيضا على الكلام الذي هو كالدم واللعن ويكون المراد من ذلك لا نفس الكلمة الا هي من قبل الله تعالى بل المراد مضمون الكلمة ويقع أيضا على الزواني من النساء وفي هذه الآية كل هذه الوجوه محتملة فان حملناها على القذف الواقع من أهل الافك كان المعنى الخبيثات من قول أهل الافك للخبيثين من الرجال وبالعكس والطيبات من قول عسكري الافك للطيبين من الرجال وبالعكس وان حملناها على الكلام الذي هو كالدم واللعن فالمعنى ان الدم واللعن معدان للخبيثين من الرجال والخبيثون منهم ممرضون للعن والدم وكذا القول في الطيبات وأولئك اشارة الى الطيبين وانهم مبرؤن مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلمات وان حملناه على الزواني فالمعنى الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال وبالعكس على معنى قوله تعالى الزاني لا ينكح الا زانية والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والمعنى أن مثل ذلك الرمي الواقع من المنافقين لا يليق الا بالخبيثات والخبيثين لا بالطيبات والطيبين كالرسول صلى الله عليه وسلم وأزواجه ﴿فان قيل فعلى هذا الوجه يلزم أن لا يتزوج الرجل العفيف بالزانية﴾ والجواب ما تقدم

أولها وجيه الانكار الى كون التنزيل عليه لا الى استناده الى الفاعل (لولا أتينا) كلمة لو عند تركيبها مع ما تفيده ما تفيده عند تركيبها مع لا من معنى امتناع الشئ لوجود غيره ومعنى التحضيض خلا أنه عند ارادته لا يليها الا الفعل ظاهر أو مضمر وعند ارادة المعنى الاول لا يليها الا اسم ظاهر أو مقدر عند البصريين والمراد ههنا هو الثاني أي هلا تأتينا (بالملائكة) يشهدون بصحة نبوتك ويصدقونك في الانذار كقوله تعالى لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى اليه كنز عليه التكذيب كما تأتي الامم المكذبة لرسلهم (ان كنت من الصادقين) في دعواك فان قدرة الله تعالى على ذلك مما لا ريب فيه وكذا احتياجك اليه في تتمة أمرك فانا لا نصدقك بدون ذلك أو ان كنت من جملة تلك الرسل الصادقين الذين عذبت أممهم المكذبة بمثل هذه الآيات لهم (ما ننزل الملائكة) بالنون على بناء الفعل لضمير الجلالة من التنزيل وقرئ من الانزال وقرئ تنزل مضارعا من التنزيل على صيغة البناء للمفعول ومن النزل بحذف احدى التاءين وما ضاهاه ومن التنزيل ومن الثلاثي وهو كلام مسوق الى النبي صلى الله عليه وسلم جوابا لهم عن مقالتهم المحكية وردا لاقتراحهم الباطل ولاشد ما استدعاه ذلك للجواب قدم رده على ما هو جواب عن أولها أعني

قوله انا نحن نزلنا الذكر الآية كما في قوله تعالى قال اغير أبتغي بكم الله فانه منع كونه جوابا عن قولهم فائتنا بما تعدنا قدم على قوله ولا ينفعكم نصحي الآية مع كونه جوابا عن أول كلامهم الذي هو قولهم يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا من شدة اقتضائه للجواب وليكون أحد الجوابين متصلا بالسؤال وفي العكس يلزم انفصال كل من الجوابين عن سؤاله والعدول ٢٩١ عن تطبيقه لظاهر كلامهم وصدد الاقتراح

في قوله الزاني لا ينكح الآية وقوله أولئك مبرؤن يعني الطيبات والطيبين مما يقوله أصحاب الافك سوى قول من حمله على الكلمات فكأنه قال الطيبون مبرؤن مما يقوله الخبيثون ومتى حمل أولئك على هذا الوجه كان لفظه كمعناه في أنه جمع ومتى حملته على عائشة وصفوان وهما اثنان فكيف يعبر عنهما بلفظ الجمع فجوابه من وجهين (الاول) ان ذلك الرمي قد تعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم وبعائشة وصفوان فبرأ الله تعالى كل واحد منهم من التهمة اللائقة به (الثاني) ان المراد به كل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فكأنه تعالى برأهن من هذا الافك لكي لا يقدح فيهن أحد كما أحد مما رمي به عائشة ونزه الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك عن أمثال هذا الامر وهذا أبين كأنه تعالى بين ان الطيبات من النساء للطيبين من الرجال ولا أحد أطيب ولا أطهر من الرسول فأزواجه اذن لا يجوز أن يكن الا طيبات ثم بين تعالى ان لهم مغفرة يعني براءة من الله ورسوله ورزقا كريما في الآخرة ويحتمل أن يكون ذلك خبرا مقطوعا عما قبله ويحتمل ان أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام فمن معه في الجنة وقد وردت الاخبار بذلك ويحتمل أن يكون المراد شرط اجتناب الكبائر والتوبة والاول أولى لانا انما نحتاج الى الشرط اذا لم يمكن حمل الآية عليه أما اذا أمكن فلا وجه لطلب الشرط وهذا يدل على أن عائشة رضي الله عنها تصير في الجنة بخلاف مذهب الرافضة الذين يكفرونها بسبب حرب يوم الجمل فانهم يردون بذلك نص القرآن ﴿ فان قيل القطع بانها من أهل الجنة اغراء لها بالقبيح ﴿ قلنا أليس أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعلمه الله تعالى بانه من أهل الجنة ولم يكن ذلك اغراء له بالقبيح وكذا البشرة بالجنة فكذا ههنا والله أعلم تمت قصة أهل الافك (الحكم السادس) في الاستئذان ﴿ قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴿ اعلم أنه تعالى عدل عما يتصل بالرمي والقذف وما يتعلق بهما من الحكم الى ما لا يليق به لان أهل الافك اغاروا جدوا السبيل الى بهتانهم من حيث انفقت الخلوة فصارت كأنها طريق التهمة فأوجب الله تعالى أن لا يدخل المرء بيت غيره الا بعد الاستئذان والسلام لان في الدخول لا على هذا الوجه وقوع التهمة وفي ذلك من المضرة ما لا خفاء به فقال يا أيها الذين آمنوا الخ وفي الآية سؤالات (السؤال الاول) الاستئناس عبارة عن الانس الحاصل من جهة الحواس فقال تعالى ولا مستأنسين لحديث وانما يحصل ذلك بعد الدخول والسلام فكان الاولى تقديم السلام على الاستئناس فلم جاء على العكس من ذلك (والجواب) عن هذا من وجوه (أحدها) ما يروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير انها هو حتى تستأذنوا فأخطأ الكاتب في قراءة أبي حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم والتسليم خير لكم من تحيه الجاهلية والدمور وهو الدخول بغير اذن واشتقاقه من الدمار وهو الهلاك كان صاحبه دامر لعظم ما ارتكب وفي الحديث من سبقت عينه استئذانه فقد دمر ﴿ واعلم أن هذا القول من ابن عباس فيه نظر لانه يقتضي الطعن في القرآن الذي نقل بالتواتر وبقتضى صحة القرآن الذي لم ينقل بالتواتر وفتح هذين البابين يطرق الشك الى كل القرآن وانه باطل (وثانيها) ما روى عن الحسن البصري أنه قال ان في الكلام تقديما وتأخيرا والمعنى حتى تسلموا على أهلها وتستأنسوا وذلك لان السلام مقدم على الاستئناس وفي قراءة عبد الله حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا وهذا أيضا ضعيف لانه خلاف الظاهر (وثالثها) ان نجري الكلام على ظاهره ثم في تفسير الاستئناس وجوه (الاول) حتى تستأنسوا بالاذن وذلك لانهم اذا

وهو أن يقال ما تأنيثهم للابذان بأنهم قد أخطأوا في التعبير حيث ما أخطأوا في الاقتراح وأن الملائكة لعلو رتبتهم أعلى من أن يتصدى لهم مطلق الانسان الشامل للانثى فالانثى من أحد الامكنة المتساوية الى الآخر منها بل من الاسفل الى الاعلى وأن يكون مقصد حركاتهم أولئك الكفرة وأن يدخلوا تحت ملكوت أحد من البشر وانما الذي يليق بشأنهم النزول من مقامهم العالي وكون ذلك بطريق التنزيل من جناب الرب الجليل (الا بالحق) أي ملتبسا بالوجه الذي يحق ملابسة التنزيل به مما تقتضيه الحكمة وتجري به السنة الالهية كقوله سبحانه وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق والذي اقترحوه من التنزيل لاجل الشهادة لدعواهم ومعجزاتهم في الحقارة والهوان منزلتهم مما لا يكاد يدخل تحت الصحة والحكمة أصلا فان ذلك من باب التنزيل بالوحي الذي لا يكاد يقع

على غير الانبياء الكرام مر أفراد كمل المؤمنين فكيف على أمثال أولئك الكفرة اللئام وانما الذي يدخل في حقهم تحت الحكمة في الجملة هو التنزيل للتعذيب والاستئصال كما فعل باضرابهم من الامم السالفة ولو فعل ذلك لاستؤصلوا بالمرة (وما كانوا اذا منظرين) جزاء الشرط مقدر وفيه ايذان بانتاج مقدماتهم النقيض مطلوبهم كما في قوله تعالى واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا قال صاحب النظم لفظة

استأذنوا وسلموا أنس أهل البيت ولو دخلوا بغير اذن لاستوحشوا وشق عليهم (الثانى) تفسير الاستئناس بالاستعلام والاستكشاف استفعال من آنس الشئ اذا أبصره ظاهرا مكشوفا فالمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم ومنه قولهم استأنس هل ترى أحدا استأنست فلما رأيت أحدا أى تعرفت واستعلمت فان قيل واذا احمل على الانس ينبغى أن يتقدمه السلام كما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول السلام عليكم أأدخل قلنا المستأذن ربما لا يعلم أن أحدا فى المنزل فلا معنى لسلامه وانما التحفه والاقرب أن يستعلم بالاستئذان هل هناك من يأذن فاذا أذن ودخل صار موا جها له فيسلم عليه (والثالث) أن يكون اشتقاق الاستئناس من الانس وهو أن يتعرف هل ثم انسان ولا شك ان هذا مقدم على السلام (والرابع) لو سلمنا أن الاستئناس انما وقع بعد السلام ولكن الواو لا توجب الترتيب فتقديم الاستئناس على السلام فى اللفظ لا يوجب تقدمه عليه فى العمل (السؤال الثانى) ما الحكمة فى ايجاب تقديم الاستئذان (والجواب) تلك الحكمة هى التى نبه الله تعالى عليها فى قوله ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فدل بذلك على أن الذى لاجله حرم الدخول الاعلى هذا الشرط هو كون البيوت مسكونة اذ لا يأمن من يهجم عليهم بغير استئذان أن يهجم على ما لا يحل له أن ينظر اليه من عورة أو على ما لا يحب القوم أن يعرفه غيرهم من الاحوال وهذا من باب العلل المنبه عليها بالنص ولانه تصرف فى ملك الغير فلا بد وأن يكون برضاه والا أشبه الغصب (السؤال الثالث) كيف يكون الاستئذان (الجواب) استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألج فقال عليه الصلاة والسلام لامرأته قومى الى روضة قومى الى هذا فعلميه فانه لا يحسن أن يستأذن قولى له يقول السلام عليكم أأدخل فسمعها الرجل فقالها فقال ادخل فدخل وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء وكان يجيب فقال هل فى العلم ما لا تعلمه فقال عليه الصلاة والسلام لقد آتانى الله خيرا كثيرا وان من العلم ما لا يعلمه الا الله وتلا ان الله عنده علم الساعة الى آخره وكان اهل الجاهلية يقول الرجل منهم اذا دخل بيتا غير بيته حييتم صباحا وحييتم مساء ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف واحد فصد الله تعالى عن ذلك وعلم الاحسن والاجمل وعن مجاهد حتى تستأنسوا هو التنحنح وقال عكرمة هو التسبيح والتكبير ونحوه (السؤال الرابع) كم عدد الاستئذان (الجواب) روى أبو هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستئذان ثلاث بالاولى يستنصتون وبالثانية يستصلحون وبالثالثة يأذنون أو يردون وعن جندب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع وعن أبى سعيد الخدرى قال كنت جالسا فى مجلس من مجالس الانصار فجاء أبو موسى فزعا فقلنا له ما فزعك فقال أمرنى عمر أن آتيه فأتيته فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت فقال ما منعك أن تأتينى فقلت قد جئت فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى وقد قال عليه الصلاة والسلام اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع فقال لتأتينى على هذا بالبينة ولا عاقبنك فقال أبى لا يقوم معك الا أصغر القوم قال فقام أبو سعيد فشهد له وفى بعض الاخبار أن عمر قال لابى موسى انى لم أتهمك ولكنى خشيت أن يتقول الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن قتادة الاستئذان ثلاثة الاول يسمع الحى والثانى ليتأهبوا والثالث ان شاؤا أذنوا وان شاؤا ردوا واعلم أن هذا من محاسن الآداب لان فى أول مرة ربما منعهم بعض الاشغال من الاذن وفى المرة الثانية ربما كان هناك ما يمنع أو يقتضى المنع أو يقتضى التأنى فاذا لم يجب فى الثالثة يستدل بعدم الاذن على مانع ثابت وربما وجب ذلك كراهة قربه من الباب فلذلك يسن له الرجوع ولذلك يقول يجب فى الاستئذان

اذن مركبة من اذو هو اسم بمعنى الحين تقول أتيتك اذ حتى أى حين حتى ثم ضم اليه أن فصار اذ أن ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها فصمى ء لفظة أن دليل على اضمار فعل بعدها والتقدير وما كانوا اذ أن كان ما طلبوه منتظرين والمعنى لو نزلنا لهم ما كانوا مؤخرين كذا ذكر سائر الامم المكذبة المستهزئة ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلم القضاء بتأخير عذابهم الى يوم القيامة حسبما أجمل فى قوله تعالى

ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل الخ وحال حائل الحكمة بينهم وبين استئصالهم لتعلق العلم والارادة بازدياد هم عذابا وما عان بعض ذراريهم وأما نظم اعيان بعضهم فى سمط الحكمة فبأباد مقام بيان تمادي هم فى الكفر وافساد وجاحدهم فى المكابرة والعناد هذا هو الذى يستدعيه اعجاز التنزيل الجليل وأما ما قيل فى تعليل عدم موافقة التنزيل للحكمة من أنهم حينئذ يكونون مصدقين عن اضطرار أو أنه لا حكمة فى أن تأتيكم صور تشاهدونها فانه لا يزيدكم الا يأسا أو أن انزال الملائكة لا يكون الا بالحق وحصول الفائدة بانزالهم وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنه لو أنزل اليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم فيصير انزالهم عبثا باطلا ولا يكون حقا فيقع اخلال كل من ذلك بقطعية الباقى لا يلزم من فرض وقوع شئ من ذلك تعجيل العذاب الذى

يفيده قوله تعالى وما كانوا اذا منتظرين هذا على تقدير كون اقتراحهم لاتيان الملائكة لاجل الشهادة أما على تقدير كون ذلك لتعذيبهم فالمعنى انا ما نزل الملائكة للتعذيب الا تنزيلا ملتبسا بالحق الذى تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة حتما بحيث لا محيد عنه ولو نزلنا لهم حسبما اقترحوا ما كان ذلك التنزيل ملتبسا بمقتضى الحكمة الموجبة لتأخير عذابهم الى يوم

ثلاثا

القيامة لارفقا بهم بل تشديدا عليهم كما مر من قبل وحيث كان في نسبة تنزيلهم للتعذيب الى عدم موافقته لما حكمة نوع إيهام لعدم استحقاقهم التعذيب عدل عما يقتضيه الظاهر الى ما عليه النظم الكريم فكأنه قيل لو نزلناهم ما كانوا منظرين وذلك غير موافق للحكمة الموجبة لتأخير عذابهم لتشديد عقابهم وقيل المراد بالحق الوحي وقيل العذاب ٢٩٣ فتدبر (إنا نحن نزلنا الذكر) رد لانكارهم التنزيل واستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ونسلية له أي نحن بعظم شأننا وعلو جنابنا نزلنا ذلك الذكر الذي أنكروه وأنكروا نزوله عليك ونسبوك بذلك الى الجنون وعلو مترلته حيث بنوا الفعل للفعول اعلاما الى أنه أمر لا مصدر له وقيل لا فاعل له (وإنا له لحافظون) من كل ما لا يليق به فيدخل فيه تكذيبهم له واستهزاؤهم به دخولا أوليا فيكون وعيدا للمستهزئين وأما الحفظ عن تجرد التحريف والزيادة والنقص وأمثالها فليس بمقتضى المقام فالوجه الحمل على الحفظ من جميع ما يقدح فيه من الطعن فيه والمجادلة في حقيقته ويجوز أن يراد حفظه بالاعجاز ليكون دليلا على التنزيل من عنده تعالى اذ لو كان من عند غير الله لتطرق عليه الزيادة والنقص والاختلاف وفي سبيل الجملتين من الدلالة على كمال التكبر والجلالة وعلى غاية شأن التنزيل ما لا يخفى وفي ايراد الثانية بالجملة الاسمية دلالة على دوام الحفظ والله سبحانه أعلم وقيل الضمير المجرور للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى والله يعصمك من الناس وتأخير هذا الكلام وان كان جوابا عن أول كلامهم الباطل رد الما ذكر آنفا ولارتباطه بما يعقبه من قوله تعالى (ولقد أرسلنا) أي رسلا

ثلاثا أن لا يكون متحدا بل يكون بين كل واحدة والاخرى وقت فاما قرع الباب بعنف والصياح بصاحب الدار فذلك حرام لانه يتضمن الايذاء والايحاش وكفى بقصة بني أسد زاجرة ومازل فيهم ما من قوله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴿السؤال الخامس﴾ كيف يقف على الباب (الجواب) روى أن أبا سعيد استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مستقبل الباب فقال عليه الصلاة والسلام لا تستأذن وأنت مستقبل الباب وروى أنه عليه الصلاة والسلام كان اذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الايمن أو الايسر فقول السلام عليكم وذلك لان الدور لم يكن عليها حينئذ ستور ﴿السؤال السادس﴾ ان كلمة حتى للغاية والحكم بعد الغاية يكون بخلاف ما قبلها فقوله لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا يقتضي جواز الدخول بعد الاستئذان وان لم يكن من صاحب البيت اذن فما قولكم فيه (الجواب) من وجوه (أحدها) أن الله تعالى جعل الغاية الاستئناس لا الاستئذان والاستئناس لا يحصل الا اذا حصل الاذن بعد الاستئذان (وثانيها) أنا لما علمنا بالنص أن الحكمة في الاستئذان أن لا يدخل الانسان على غيره بغير اذنه فان ذلك مما يسوءه وعلمنا أن هذا المقصود لا يحصل الا بعد حصول الاذن علمنا أن الاستئذان ما لم يتصل به الاذن وجب أن لا يكون كافيا (وثالثها) أن قوله تعالى فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم حظر الدخول الا باذن فحمل على أن الاذن مشروط بإباحة الدخول في الآية الاولى فان قيل اذا ثبت أنه لا بد من الاذن فهل يقوم مقامه غيره أم لا قلنا روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال رسول الرجل الى الرجل اذنه وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام قال اذا دعي أحدكم فجاء مع الرسول فان ذلك له اذن وهذا الخبر يدل على معنيين (أحدهما) أن الاذن محذوف من قوله حتى تستأنسوا وهو المراد منه (والثاني) أن الدعاء اذن اذا جاء مع الرسول وانه لا يحتاج الى استئذان ثان وقال بعضهم ان من قد جرت العادة له باباحة الدخول فهو غير محتاج الى الاستئذان ﴿السؤال السابع﴾ ما حكم من اطلع على دار غيره بغير اذنه (الجواب) قال الشافعي رحمه الله لو فقئت عينه فهي هدر وتمسك بما روى سهل بن سعد قال اطلع رجل في حجر من حجر النبي صلى الله عليه وسلم ومعه مدرى يحك بها رأسه فقال لو علمت أنك تنظر لطعنت بها في عينك انما الاستئذان قبل النظر وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال من اطلع في دار قوم بغير اذنهم ففقؤا عينه فقد هدرت عينه قال أبو بكر الرازي هذا الخبر يرد لورود ه على خلاف قياس الاصول فانه لا خلاف أنه لو دخل داره بغير اذنه ففقأ عينه كان هدرا وكان عليه القصاص ان كان عامدا والارش ان كان مخطئا ومعلوم أن الداخل قد اطلع وزاد على الاطلاع فظاهر الحديث مخالف لما حصل عليه الاتفاق فان صح فمعناه من اطلع في دار قوم ونظر الى حرمهم ونسائهم فوقع فلم يمتنع فلذهبت عينه في حال الممانعة فهي هدر فاما اذا لم يكن الا النظر ولم يقع فيه ممانعة ولا نهي فجاء انسان ففقأ عينه فهذا جان يلزمه حكم جنايته لظاهر قوله تعالى العين بالعين الى قوله والجروح قصاص واعلم أن التمسك بقوله تعالى والعين بالعين في هذه المسئلة ضعيف لانا أجمعنا على أن هذا النفس مشروط بما اذا لم تكن العين مستحقة فانها لو كانت مستحقة لم يلزم القصاص فلم قلت ان من اطلع في دار انسان لم تكن عينه مستحقة وهذا أول المسئلة أما قوله انه لو دخل لم يجز فقء عينه فكذا اذا نظر قلنا الفرق بين الامرين ظاهر لانه اذا دخل علم القوم دخوله عليهم فاحترزوا عنه وتستروا فاما اذا نظر فقد لا يكونون عالمين بذلك فيطلع منهم على ما لا يجوز الاطلاع عليه فلا يبعد في حكم الشرع أن يبالغ ههنا في الزجر حسما لباب هذه المفسدة

واغنائهم بذكر لدلالة ما بعده عليه (من قبلك) متعلق بأرسلنا أو بمحذوف هو نعت للمفعول المحذوف أي رسلا كائنة من قبلك (في شيع الاولين) أي فرقهم وأجزاءهم جمع شيعة وهي الفرقة المتفقة على طريقة ومذهب من شاعه اذا تبعه واضافته الى الاولين من اضافة الموصوف الى صفته عند الفراء ٢٩٤ ومن حذف الموصوف عند البصريين أي شيع الامم الاولين ومعنى ارسالهم فيهم جعل كل منهم رسولا فيما بين طائفته ليتابعوه في كل ما يأتي ويذر من أمور الدين (وما يأتيهم من رسول) المراد نفي اتيان كل رسول لشيعته الخاصة به لا نفي اتيان كل رسول لكل واحدة من تلك الشيع جميعا أو على سبيل البدل وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة على طريقة حكاية الحال الماضية فان ما لا تدخل في الاغلب على مضارع الا ولو في معنى الحال ولا على ماض الا وهو قريب من الحال أي ما أتى شيعة من تلك الشيع رسول خاص بها (الا كانوا به يستهزؤن) كما يفعله هؤلاء الكفرة والجملة في محل النصب على أنها حال مقدرة من ضمير المفعول في يأتيهم اذا كان المراد بالاتيان سلوكه أو على الرفع على أنها صفة رسول فان محله الرفع على الفاعلية أي الا رسول كانوا به يستهزؤن وأما الجر على أنها صفة شيع باعتبار لفظه فيقتضي الى زيادة من الاستغراقية في الاثبات ويجوز أن يكون منصوبا على الوصفية أن يقدر الموصوف منصوبا على الاستثناء وان كان المختار الرفع على البدلية وهذا كما ترى لا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن هذه عادة الجهال مع الانبياء عليهم السلام وحيث كان الرسول صحوبا بالكتاب من عند الله تعالى تضمن ذكر استهزائهم بالرسول استهزاءهم بالكتاب ولذلك قيل (كذلك) اشارة الى ما دل عليه الكلام السابق من القاء الوحي مقرونا

و باجمله فرد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا القدر من الكلام غير جائز (السؤال الثامن) لما بينتم انه لابد من الاذن فهل يكفي الاذن كيف كان أو لابد من اذن مخصوص (الجواب) ظاهر الآية يقتضي قبول الاذن مطلقا سواء كان الآذن صبيا أو امرأة أو عبدا أو ذميا فانه لا يعتبر في هذا الاذن صفات الشهادة وكذلك قبل أخباره وفتواه في الهدايا ونحوها (السؤال التاسع) هل يعتبر الاستئذان على المحارم (الجواب) نعم عن عطاء بن يسار أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال أستأذن على أختي فقال النبي عليه الصلاة والسلام نعم أتحب أن تراها عريانة وسأل رجل حذيفة أستأذن على أختي فقال ان لم تستأذن عليها رأيت ما يسوءك وقال عطاء سألت ابن عباس رضي الله عنهما أستأذن على أختي ومن أنفق عليها قال نعم ان الله تعالى يقول واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ولم يفرق بين من كان أجنبيا وذا رحم محرم واعلم أن ترك الاستئذان على المحارم وان كان غير جائز الا أنه أيسر ولو ذهب الظان الى شعرها وصدرها وساقها ونحوها من الاعضاء والتحقيق فيه أن المنع من الهجوم على الغير ان كان لاجل أن ذلك الغير ربما كان منكشف الاعضاء فهذا دخل فيه الكل الا الوجه والكفان وان كان لاجل أنه ربما كان مشتغلا بأمر يكره اطلاع الغير عليه وجب أن يعم في الكل حتى لا يكون له أن يدخل على الزوجة والامة الا باذن (السؤال العاشر) اذا عرض أمر في دار من حريق أو هجوم سارق أو ظهور منكر فهل يجب الاستئذان (الجواب) كل ذلك مستثنى بالدليل فهذا جملة الكلام في الاستئذان * وأما السلام فهو من سنة المسلمين التي أمروا بها وأمان للقوم وهو تحية أهل الجنة وجملة المراد تعريف للعهد والعهد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله فحمد الله باذن الله فقال له ربه يرحمك ربك يا آدم اذهب الى هؤلاء الملائكة وهم ملأ منهم جلوس فقل السلام عليكم فلما فعل ذلك رجع الى ربه فقال هذه تحيتك وتحية ذريتك وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حق المسلم على المسلم ست يسلم عليه اذا لقيه ويجيبه اذا دعاه وينصح له بالغيب ويشمته اذا عطس ويعوده اذا مرض ويشهد جنازته اذا مات وعن ابن عمر قال قال رسول الله عليه الصلاة والسلام ان سركم أن يبسل الغل من صدوركم فأفشوا السلام بينكم أما قوله تعالى فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم فالمعنى فيه ظاهر اذ المراد أن فعل ذلك خير لكم وأولى لكم من الهجوم بغير اذن لعلكم تذكرون أي لكي تتذكروا هذا التأديب فتمتثلوه ثم قال فان لم تجدوا فيها أي في البيوت أحدا فلا تدخلوها لان العلة في الصورتين واحدة وهي جواز أن يكون هناك أحوال مكتوبة يكره اطلاع الداخل عليها ثم قال وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا وذلك لانه كما يكون الدخول قد يكرهه صاحب الدار فكذا الوقوف على الباب قد يكرهه فلا جرم كان الاولى والازكى له أن يرجع ازالة للايحاش والايذاء ولما ذكر الله تعالى حكم الدور المسكونة ذكر بعده حكم الدور التي هي غير مسكونة فقال ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة وذلك لان المسلم في الدخول الاباذن زال عنها واختلف المفسرون في المراد من قوله بيوتا غير مسكونة على أقوال (أحدها) وهو قول محمد بن الحنفية انها الخانات والرباطات وحوانيت البياعين والمتاع المنفعة كالاستكنان من المطر والبرد وايواء الرجال والسلع والشراء والبيع يروى أن أبا بكر قال يا رسول الله ان الله قد أنزل عليك آية في الاستئذان وانا نختلف في تجارتنا فنزل هذه الخانات أفلا ندخلها الا باذن فنزلت هذه الآية (وثانيها) أنها الحربات يتبرز فيها والمتاع التبرز (وثالثها) الاسواق (ورابعها) أنها الحمامات والاولى أن يقال انه

بالاستهزاء أي مثل ذلك السلك الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم وبما جاؤا به من الكتب (نسلكه) أي الذكر في قلوب المجرمين) أي أهل مكة أو جنس المجرمين فيدخلون فيه دخولا أوليا برهانه النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أو حال منه أي نسلكه سلكا مثل ذلك السلك أو نسلك السلك حال كونه مثله أي مقرونا بالاستهزاء غير مقبول ٢٩٥ لما تقتضيه الحكمة فانهم من أهل الطبع لان ليس لهم استحقاق لقبول الحق وصيغة المضارع لكون الشيء به مقدما في الوجود وهو السلك الواقع في الامم السالفة أولا دلالة على استحضار الصورة والسلك ادخال الشيء في آخر يقال سلكت الخيط في الابرة والرمح في المطعون (لا يؤمنون به) أي بالذكر حال من ضمير نسلكه أي غير مؤمن به أو بيان للجملة السابقة فلا محل لها وقد جعل الضمير للاستهزاء فيتعين المباينة الآن جعل الضمير المجرور راجعا له على أن الباء للملابسة أي نسلك الاستهزاء في قلوبهم حال كونهم غير مؤمنين بلا بسته والحال اما مقدرة أو مقارنة للابذان بان كفرهم مقارن للاستهزاء كما في قوله تعالى فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به (وقد خلت سنة الاولين) أي قدمضت طريقتهم التي سنها الله تعالى في اهلاكهم حين فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء وهو استئناف جيء به تسلية للتالية وتصبيرا

﴿ الآية تشمع دخول الجميع تحت الآية فيحصل على الكمل والعلة في ذلك أنها اذا كانت كذلك فهي مأذون بدخولها من جهة العرف فكذلك تقول انها لو كانت غير مسكونة ولكنها كانت مغصوبة فانه لا يجوز للداخل أن يدخل فيها لكن الظاهر من حال الخانات انها موضوعة لدخول الداخل وأما قوله تعالى والله يعلم ما تبدون وما تكتمون فهو وعيد للذين يدخلون الخربات والدور الخالية من أهل الريبة ﴿ الحكم السابع ﴾ حكم النظر ﴿ قوله تعالى ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بني اخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ اعلم انه تعالى قال قل للمؤمنين وانما خصهم بذلك لان غيرهم لا يلزمه غض البصر عما لا يحل له وحفظ الفرج عما لا يحل له لان هذه الاحكام كالفرع للاسلام والمؤمنون مأمورون بها بالتداء والكفار مأمورون قبلها بما يزيد هذه الاحكام تاءكيدا له وان كان حالهم كمال المؤمنين في استحقاق العقاب على تركها لكن المؤمن يتمكن من هذه الطاعة من دون مقدمة والكافر لا يتمكن الا بتقديم مقدمة من قبله وذلك لا يمنع من لزوم التكليف له واعلم أنه سبحانه امر الرجال بغض البصر وحفظ الفرج وامر النساء بمثل ما امر به الرجال وزاد فيهن أن لا يبدين زينتهن الا لاقوام مخصوصين ﴿ أما قوله تعالى يغضوا من أبصارهم ففيه مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ قال الاكثرون من ههنا للتبعيض والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل وجوز الاخفش أن تكون مزيدة ونظيره قوله ما لكم من الله غيره وما منكم من أحد عنه حاجزين وأبا عبيدة قال قيل كيف دخلت في غض البصر دون حفظ الفرج قلنا دلالة على أن امر النظر اوسع ألا ترى ان المحارم لا بأس بالنظر الى شعورهن وصدورهن وكذا الجواري المستعرضات وأما امر الفرج فضيق وكذلك فرقا أن أبيح النظر الى ما استثنى منه وحظر أبيح ما استثنى منه ومنهم من قال يغضوا من أبصارهم أي ينقصوا من نظرهم فالمصدر اذا لم يكن من عمله فهو مخفوض ممنوع عنه وعلى هذا من ليست بزائدة ولا هي للتبعيض بل هي من صلة الغض يقال غضضت من فلان اذا نقصت من قدره ﴿ المسئلة الثانية ﴾ اعلم أن العورات على أربعة أقسام عورة الرجل مع الرجل وعورة المرأة مع المرأة وعورة المرأة مع الرجل وعورة الرجل مع المرأة فاما الرجل مع الرجل فيجوز له أن ينظر الى جميع بدنه الا عورته وعورته ما بين السرة والركبة والسرة والركبة ليستا بعورة وعند أبي حنيفة رحمه الله الركبة عورة وقال مالك الفخذ ليست بعورة والدليل على انها عورة ما روى عن جدية أن النبي صلى الله عليه وسلم مر به في المسجد وهو كاشف عن فخذه فقال عليه السلام غط فخذك فانها من العورة وقال العلي رضي الله عنه لا تبرز فخذك ولا تنظر الى فخذ حي ولا ميت فان كان في نظرك الى وجهه أو سائر بدنه شهوة أو خوف فتنة بان كان امرد لا يحل النظر اليه ولا يجوز لرجل مضاجعة الرجل وان كان كل واحد منهما في جانب من الفراش لما روى أبو سعيد الخدري أنه عليه الصلاة والسلام قال لا يفضي الرجل الى الرجل في ثوب واحد ولا تفضي المرأة الى المرأة في ثوب واحد وتكره المعانقة وتقبيل الوجه الا لولد صغير وتستحب المصافحة لما روى أنس قال قال رجل يا رسول الله الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له قال لا قال أيلتزمه ويقبله

بالوعيد والتهديد (ولو فتحنا عليهم) أي على هؤلاء المقترحين المعاندين (بابا من السماء) أي بابا من أبوابها المعهودة كما قيل ويسرنا لهم الرقي والصعود اليه (فظلوا فيه) في ذلك الباب (يعرجون) بالله أو بغيرهم ما يرون مما فيه من العجائب عيانا كما يفيده الظلول أو فظل الملائكة الذين اقترحوا اتيانهم يعرجون في ذلك الباب وهم يرونه عيانا مستوضحين طول نهارهم (لقالوا) افرط عنادهم وغلوهم

في المكابرة وتفاديهم عن قبول الحق (انما سكرت أبصارنا) أي سدت من الاحساس من السكر كما يدل عليه القراءة بالتخفيف أو حيرت كما يعضده قراءة من قرأ سكرت أي حارت (بل نحن قوم مسحورون) قد سحرنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قالوه عند ظهور سائر الآيات الباهرة وفي كلتي الحصر والاضراب ٢٩٦ دلالة على أنهم يبتون القول بذلك وأن ما يرونه لا حقيقة له وانما هو أمر خيل اليهم

قال لا قال أفيأخذ بيده ويصافحه قال نعم أما عورة المرأة مع المرأة فكعورة الرجل مع الرجل فلها النظر الى جميع بدنها الا ما بين السرة والركبة وعند خوف الفتنة لا يجوز ولا يجوز المصافحة والمرأة الذمية مثل يجوز لها النظر الى بدن المسلمة قيل يجوز كالمسلمة مع المسلمة والاصح أنه لا يجوز لانها أجنبية في الدين والله تعالى يقول أو نسائهن وليست الذمية من نسائنا أما عورة المرأة مع الرجل فالمرأة اما أن تكون أجنبية أو ذات رحم محرم أو مسحمة فان كانت أجنبية فاما أن تكون حرة أو أمة فان كانت حرة فجميع بدنها عورة ولا يجوز له أن ينظر الى شيء منها الا الوجه والكفين لانها محتاجة الى ابراز الوجه للبيع والشراء والى اخراج الكف للاخذ والعطاء ونعني بالكف ظهرها وبدنها الى الكوعين وقيل ظهر الكف عورة واعلم انا ذكرنا أنه لا يجوز النظر الى شيء من بدنها ولا يجوز النظر الى وجهها وكفيها وفي كل واحد من القولين استثناء أما قولنا لا يجوز النظر الى وجهها وكفيها فاعلم أنه على ثلاثة أقسام لانها اما أن لا يكون فيه غرض ولا فيه فتنة واما أن يكون فيه فتنة ولا غرض فيه واما أن يكون فيه فتنة وغرض (أما القسم الاول) فاعلم أنه لا يجوز أن يتعمد النظر الى وجه الاجنبية لغير غرض وان وقع بصره عليها بغتة يغض بصره لقوله تعالى قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم وقيل يجوز مرة واحدة اذا لم يكن محل فتنة وبه قال أبو حنيفة رحمه الله ولا يجوز أن يكرر النظر اليها لقوله تعالى ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك عنه مسؤلا ولقوله عليه السلام يا علي لا تتبع النظرة النظرة فان لك الاولى وليست لك الآخرة وعن جابر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري ولان الغالب أن الاحتراز عن الاولى لا يمكن فوقع عفوا قصد أو لم يقصد (أما القسم الثاني) وهو أن يكون فيه غرض ولا فتنة فيه فذلك أمور (أحدها) بان يريد نكاح امرأة فينظر الى وجهها وكفيها روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلا أراد أن يتزوج امرأة من الانصار فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم انظر اليها فان في أعين الانصار شيأ وقال عليه الصلاة والسلام اذا خطب أحدكم المرأة فلا جناح عليه أن ينظر اليها اذا كان انما ينظر اليها للخطبة وقال المغيرة بن شعبة خطبت امرأة فقال عليه السلام نظرت اليها فقلت لا قال فانظر فانه أحرى أن يدوم بينكما فمثل ذلك يدل على جواز النظر الى وجهها وكفيها للشهوة اذا أراد أن يتزوجها ويدل عليه أيضا قوله تعالى لا تحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو تجبك حسنهن ولا يجب حسنهن الا بعد رؤية وجوههن (وثانيها) اذا أراد شراء جارية فله أن ينظر الى ما ليس بعورة منها (وثالثها) أنه عند المبايعة ينظر الى وجهها مستاما ملاحتي يعرفها عند الحاجة اليه (ورابعها) ينظر اليها عند تحمل الشهادة ولا ينظر الى غير الوجه لان المعرفة تحصل به (أما القسم الثالث) وهو أن ينظر اليها للشهوة وذلك محظور وقال عليه الصلاة والسلام العينان تزنيان وعن جابر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري وقيل مكتوب في التوراة النظرة تزرع في القلب الشهوة وربما أورثت شهوة أورثت حزنا طويلا (أما الكلام الثاني) وهو أنه لا يجوز للاجنبي النظر الى بدن الاجنبية فقد استفتوا منه صورا (احداها) يجوز للطبيب الامين أن ينظر اليها للمداجنة كما يجوز للختان أن ينظر الى فرج المختون لانه موضع ضرورة (وثانيتها) يجوز أن يتعمد النظر الى فرج الزانيين لتحمل الشهادة على الزنا وكذلك ينظر الى فرجها لتحمل شهادة الولادة والى ثدي المرضعة لتحمل الشهادة على الرضاع وقال أبو سعيد الاصطخري لا يجوز للرجل أن يقصد النظر في هذه المواضع لان الزنا مندوب الى ستره وفي الولادة والرضاع تقبل شهادة النساء فلا حاجة الى نظر الرجال للشهادة (وثالثتها) لو وقعت في غرق أو حرق فله أن ينظر الى بدنها ليخلصها أما

بالحصر وفي أسمية الجملة الثانية دلالة على دوام مضمونها وارادتها بعد تسكير الابصار وابيان انكارهم لغير ما يرونه فان عروج كل منهم الى السماء وان كان مرئيا لغيره فهو معلوم بطريق الوجدان مع قطع النظر عن الابصار فهم يدعون أن ذلك نوع آخر من السحر غير تسكير الابصار (واقد جعلنا في السماء بروجا) قصورا يتنزلها السيارات وهي البروج الاثنا عشرا لمشهورة المختلفة الهيآت والخواص جسميا يدل عليه الرصد والتجربة مع ما اتفق عليه الجمهور من بساطة السماء والجعل ان جعل بمعنى الخلق والايداع وهو الظاهر فالجار متعلق به وان جعل بمعنى التصيير فهو مفعول ثان له متعلق بمحذوف أي جعلنا بروجا كائنة في السماء (وزيناها) أي السماء بتلك البروج المختلفة الاشكال والكواكب السيارات أو ثوابت (للناظرين) اليها فمعنى التزيين ظاهر أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها وحكمة مدبرها فتزيينها ترتيبها على نظام بديع مستتبع للآثار اذا

المحسة (وحفظناها من كل شيطان رجيم) مرمي بالنجوم فلا يقدر أن يصعد اليها ويوسوس في أهلها ويتصرف فيها ويقف على أحوالها (الا من استرق السمع) بخطفه فانه التفات على الاستثناء المتصل ان فسر الحفظ بمنع الشياطين عن التعرض لها على الاطلاق والوقوف على

ما فيها في الجملة او المنقطع ان فسر ذلك بالمنع عن دخولها والتصرف فيها عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ولما ولد النبي صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها واستراق السمع اختلاسه مراشيه بخطفتهم اليسيرة من قطان السموات عما بينهم من المناسبة ٢٩٧ في الجوهر او بالاستدلال من الاوضاع

اذا كانت الاجنبية أمة فقال بعضهم عورتها ما بين السرة والركبة وقال آخرون عورتها ما لا يبين للهنة تخرج منه ان رأسها وساعديها وساقيها وتحرها وصدرها ليس بعورة وفي ظهرها وبطنها وما فوق ساعديها الخلاف المذكور ولا يجوز لمسها ولا لمسه محال لا لحمامة ولا اكتحال ولا غيره لان اللمس اقوى من النظر بدليل ان الانزال باللمس يفطر الصائم وبالنظر لا يفطره وقال أبو حنيفة رحمه الله يجوز أن يمس من الامة ما يحل النظر اليه أما ان كانت المرأة ذات محرم له بنسب أو رضاع أو صهر بحيث قدر تها معه ما بين السرة والركبة كعورة الرجل وقال آخرون بل عورتها ما لا يبدو عند المهنة وهو قول أبي حنيفة رحمه الله فأما سائر التفاصيل فستأتي ان شاء الله تعالى في تفسير الآية أما اذا كانت المرأة مستنكحة كالزوجة والامة التي يحل له الاستمتاع بها فيجوز له أن ينظر الى جميع بدنها حتى الى فرجها غير أنه يكره أن ينظر الى الفرج وكذا الى فرج نفسه لانه يروى أنه يورث الطمس وقيل لا يجوز النظر الى فرجها ولا فرق بين أن تكون الامة قنة أو مدبرة أو أم ولد أو مرهونة فان كانت مجوسية أو مرتدة أو وثنية أو مشتركة بينه وبين غيره أو متزوجة أو مكاتبة فهي كالاجنبية روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا زوج أحدكم جاريته عبده أو أجيره فلا ينظر الى ما دون السرة وفوق الركبة وأما عورة الرجل مع المرأة فنظران كان أحدهما منهما فعورته معها ما بين السرة والركبة وقيل جميع بدنه الا الوجه والكفين كهي معه والاول أصح بخلاف المرأة في حق الرجل لان بدن المرأة في ذاته عورة بدليل انها لا تصح صلاتها مكشوفة البدن وبدن الرجل بخلافه ولا يجوز لها قصد النظر عند خوف الفتنة ولا تكرير النظر الى وجهه لما روى عن أم سلمة أنها كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم وميمونة اذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليها فقال عليه الصلاة والسلام احتجبا منه فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا فقال عليه الصلاة والسلام أفعمياوان أنتما الستما تبصرانه وان كان محرما لها فعورته معها ما بين السرة والركبة وان كان زوجها أو سيدها الذي يحل له وطؤها فلها أن تنظر الى جميع بدنه غير أنه يكره النظر الى الفرج كهو معها ولا يجوز للرجل أن يجلس عار يا في بيت خال وله ما يستر عورته لانه روى أنه عليه الصلاة والسلام سئل عنه فقال الله أحق أن يستحيا منه وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال اياكم والتعري فان معكم من لا يفارقكم الا عند الغائط وحين يفضي الرجل الى أهله والله أعلم ﴿المسئلة الثالثة﴾ سئل الشبلي عن قوله يغضوا من أبصارهم فقال أبصار الرؤس عن المحرمات وأبصار القلوب عما سوى الله تعالى وأما قوله تعالى ويحفظوا فروجهم فالمراد به عما لا يحل وعن أبي العالية أنه قال كل ما في القرآن من قوله يحفظوا فروجهم ويحفظن فروجهن من الزنا الا التي في النور يحفظوا فروجهم ويحفظن فروجهن أن لا ينظر اليها أحد وهذا ضعيف لانه تخصيص من غير دلالة والذي يقتضيه الظاهر أن يكون المعنى حفظها عن سائر ما حرم الله عليه من الزنا واللمس والنظر وعلى انه ان كان المراد حظر النظر فاللمس والوطء أيضا مرادان بالآية اذ هما أغلظ من النظر فلو نص الله تعالى على النظر لكان في مفهوم الخطاب ما يوجب حظر الوطء واللمس كما ان قوله تعالى ولا تقل لهما أف اقتضى حظر ما فوق ذلك من السب والضرب أما قوله تعالى ذلك أزكى لهم أي تمسكهم بذلك أزكى لهم وأطهر لانه من باب ما يزكون به ويستحقون الثناء والمدح ويمكن أن يقال انه تعالى خص في الخطاب المؤمنين لما أراد منهم من تزكيتهم بذلك ولا يليق ذلك بالكافر أما قوله تعالى وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن فالقول فيه على ما تقدم فان قيل فلم قدم غض الابصار على حفظ الفروج قلنا لان النظر بريد الزنا ورائده الفجور والبلوى فيه أشد وأكثر ولا يكاد يقدر

(فأتبعه) أي تبعه ولحقه (شهاب) لهب محرق وهو شعلة نار ساطعة وقد يطلق على الكواكب والسنان لما قيل من البريق (مبين) ظاهر أمره للبصيرين قال سعيد قلت لابن شهاب الزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية قال نعم وان النجم ينقض ويرمى به الشيطان فمنه ما يقتل أو يخبل لئلا يعود الى استراق السمع ثم يعود الى مكانه قال أفرأيت قوله تعالى وانا كنا نقعد منها مقاعد الآية قال غلظت وشددت أمرها حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن قتيبة ان الرجم كان قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام ولكن لم يكن في شدة المراسة كما بعد مبعثه عليه الصلاة والسلام قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب فلا يخطئ ابدا فانهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه وجنبه ويدمغه

(٣٨ - خطيب س) بشاء الله تعالى ومنهم من يخبله فيصير غولا فيضل الناس في البوادي قال القرطبي اختلفوا في أن الشهاب هل يقتل أم لا قال ابن عباس رضي الله عنهما يحرق ويخبل ولا يقتل وقال الحسن وطائفة يقتل قال والاول أصح (والارض مددناها) بسطناها وهو بالنصب على الحذف على شريطة التفسير ولم يقرأ بالرفع لرجحان النصب للعطف على الجملة الفعلية

أعني قوله تعالى ولقد جعلنا الخ وليوافق مابعده أعني قوله تعالى (وألقينا فيها رواسي) أي جبالا ثوابت وقد مر بيانه في أوائل الرعد (وأنبتنا فيها) أي في الارض أوفيهم اوفي رواسيها (من كل شئ موزون) بميزان الحكمة ذا اوصفة ومقدارا وقيل مايوزن من الذهب والفضة وغيرهما أومن كل شئ معلوم حسن مناسب أومايوزن ويقدر من أبواب النعمة (وجعلنا لكم فيها معايش) ما تعيشون به

من المطاعم والملابس وغيرهما مما يتعلق به البقاء وهي جمع معيشة وقرئ بالهمزة تشبيها له بالشمائل (ومن لستم له برازقين) عطف على معايش أوعلى محل لكم كأنه قيل جعلنا لكم معايش وجعلنا لكم من لستم برازقيه من العيال والمماليك والخدم والدواب وما أشبهها على طريقة التغليب وذكرهم بهذا العنوان لرد حسبانهم انهم يكفون مؤنتهم ونحقيق أن الله تعالى هو الذي يرزقهم واياهم أو وجعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم له برازقين (وان من شئ) ان للنفي ومن مزيدة لتأكيد وشئ في محل الرفع على الابتداء أي ما من شئ من الاشياء الممكنة فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا (الا عندنا خزائنه) الظرف خبر للمبتدا وخزائنه مرتفع به على أنه فاعله لاعتماده أوخبر له والجملة خبر للمبتدا الاول والخزائن جمع الخزانة وهي مايحفظ فيه نفائس الاموال لاغير غلب في العرف على ما للملوك والسلاطين من خزائن أرزاق الناس شبهت مقدوراته تعالى القائمة بالمحصر المندرجة

تحت قدرته الشاملة في كونها مستورة عن علوم العالمين ومصونة عن وصول أيديهم مع كمال افتقارهم اليها وعجزهم فيها وكونها مهيأة متأتية لايجاده وتكوينه بحيث متى تعلقت الارادة بوجودها وجدت بلا تأخير بنفائس الاموال المخزونة في الخزائن السلطانية فذكر

على الاحتراس منه أما قوله تعالى ولا يبدين زينتهن الا ماظهر منها فمن الاحكام التي تختص بها النساء في الاغلب ولقد قلنا في الاغلب لانه محرم على الرجل أن يبدي زينته حليا ولباسا الى غير ذلك للنساء الاجنبيات لما فيه من الفتنة وههنا مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا في المراد بزينتهن واعلم أن الزينة اسم يقع على محاسن الخلق التي خلقها الله تعالى وعلى سائر ما يتزين به الانسان من فضل لباس أو حلى وغير ذلك وأنكر بعضهم وقوع اسم الزينة على الخلقة لانه لا يكاد يقال في الخلقة انها من زينتها وانما يقال ذلك فيما تكتسبه من كحل وخضاب وغيره والاقرب أن الخلقة داخلة في الزينة ويدل عليه وجهان (الاول) ان الكثير من النساء ينفردن بخلقتهن عن سائر ما يعد زينة فاذا حملناه على الخلقة وقعنا العموم سقط ولا يمنع دخول ماعدا الخلقة فيه أيضا (الثاني) ان قوله ولا يضربن بخمرهن على جيوبهن يدل على أن المراد بالزينة ما يعم الخلقة وغيرها فكأنه تعالى منعهن من اظهار محاسن خلقتهن بأن أوجب ستر ها بالخمار وأما الذين قالوا الزينة عبارة عما سوى الخلقة فقد حصروه في أمور ثلاثة (احدها) الاصباغ كالكحل والخضاب بالوسمة في حاجبيها والغمزة في خديها والحناء في كفيها وقدميها (وثانيها) الحلي كالخاتم والسوار والخلخال والدملج والقلادة والاكليل والوشاح والقرط (وثالثها) الثياب قال الله تعالى خذوا زينتكم عند كل مسجد وأراد الثياب (المسئلة الثانية) اختلفوا في المراد من قوله الا ماظهر منها أما الذين حملوا الزينة على الخلقة فقال القفال معنى الآية الا مايظهره الانسان في العادة الجارية وذلك في النساء الوجه والكفان وفي الرجل الاطراف من الوجه واليدين والرجلين فامروا بستر ما لا تؤدي الضرورة الى كشفه ورخص لهم في كشف ما اعتيد كشفه وأدت الضرورة الى اظهاره اذ كانت شرائع الاسلام حنيفية سمحة ولما كان ظهور الوجه والكفين كالضروري لا جرم اتفقوا على انهما ليسا بعورة أما القدم فليس ظهوره بضروري فلا جرم اختلفوا في أنه هل هو من العورة أم لا فيه وجهان الاصح أنه عورة كظهر القدم وفي صوتها وجهان أصحهما أنه ليس بعورة لان نساء النبي صلى الله عليه وسلم كن يروين الاخبار للرجال وأما الذين حملوا الزينة على ماعدا الخلقة قالوا الله سبحانه انما ذكر الزينة لانه لا خلاف أنه يحل النظر اليها حال ما لم تكن متصلة باعضاء المرأة فلما حرم الله سبحانه النظر اليها حال اتصالها بدن المرأة كان ذلك مبالغة في حرمة النظر الى أعضاء المرأة وعلى هذا القول يحل النظر الى زينة وجهها من الوشمة والغمزة وزينة بدنها من الخضاب والخواتيم وكذا الثياب والسبب في تجويز النظر اليها ان تسترها قد يحرج لان المرأة لا بد لها من مناولة الاشياء بيديها والحاجة الى كشف وجهها في الشهادة والمحاكمة والنكاح (المسئلة الثالثة) اتفقوا على تخصيص قوله ولا يبدين زينتهن الا ماظهر منها بالحمارات دون الامام والمعنى فيه ظاهر وهو ان الامة مأمورة بالاحتياط في بيعها وشرائها وذلك لا يمكن الا بالنظر اليها على الاستقصاء بخلاف الحرة أما قوله تعالى وليضربن بخمرهن على جيوبهن فالخمر واحده خمار وهي المقانع قال المفسرون ان نساء الجاهلية كن يشددن خمرهن من خلفهن وان جيوبهن كانت من قدام فكان ينكشف نحورهن وقلائدهن فامرن أن يضربن مقانعهن على الجيوب ليتغطى بذلك أعناقهن ونحورهن وما يحيط به من شعر وزينته من الحلي في الاذن والنحر وموضع العقد منها وفي لفظ الضرب مبالغة في الالقاء والباء للالصاق وعن عائشة رضي الله عنها ما رأيت خيرا من نساء الانصار لما نزلت هذه الآية قامت كل واحدة منهن الى مرطها فشددت منه صدعة فاختمرت فاصبحن على رؤسهن الغربان وقرئ جيوبهن بكسر الجيم لاجل الياء وكذلك بيوتا غير بيوتكم فامتثال قوله تعالى ولا يبدين زينتهن فاعلم أنه سبحانه

الخزائن على طريقة الاستعارة التخييلية (وما ننزله) أي ما توجده وما تكون شأنه من تلك الاشياء ملتبسا شيء من الاشياء (الا بقدر معلوم) أي الا ملتبسا بمقدار معين تقتضيه الحكمة وتستدعيه المشيئة التابعة لها بما تقتضيه القدرة فان ذلك غير ممتنع فان تخصيص كل شيء بصفة معينة وقدر معين ووقت محدد دون ما عداذلك مع استواء الكل في الامكان واستحقاق تعلق القدرة به لا بد له من حكمة تقتضي اختصاص كل من ذلك بما اختص به وهذا البيان سر عدم تكوين الاشياء على وجه الكثرة حسبما هو في خزائن القدرة وهو اما عطف على مقدر أي نتزله وما ننزله الخ أو حال مما سبق أي عندنا خزائن كل شيء والحال أنا ما ننزله الا بقدر معلوم فالاول لبيان سعة القدرة والثاني لبيان بالغ الحكمة وحيث كان انشاء ذلك بطريق التفضل من العالم العلوي الى العالم السفلي كما في قوله تعالى وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج وكان ذلك بطريق التدريج عبر عنه بالتنزيل وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار (وأرسلنا الرياح) عطف على جعلنا لكم فيها معايش وما بينهما اعتراض للتحقيق ما سبق وترشيح ما لحق أي أرسلنا الرياح (لواقح) أي حوامل شبهت الريح التي تجيء بالمطر من انشاء سحاب ما بطريق الحامل كما شبه بالعقيم ما لا يكون كذلك أو ملقحات بالقطر والسحاب وتقديره الطوائح بمعنى الطبخات في قوله * وحتبط ما طبخ الطوائح * أي الملائكات وقرئ وأرسلنا الريح على ارادة الجنس (فأنزلنا من السماء) بعد ما أنشأنا بتلك الرياح سحابا ماطرا (ماء فأسقيناكموه) أي جعلناه لكم عذبا وهو أبلغ من سقيناكموه لما فيه من الدلالة على جعل الماء معدا لهم ينتفعون به متى شاؤا (وما أنتم له بخازنين) نفي عنهم ما أثبته لخزائنه

لما تكلم في مطلق الزينة تكلم بعد ذلك في الزينة الخفية التي نهاهم عن ابدائها للاجانب وبين ان هذه الزينة الخفية يجب اخفاؤها من الكل ثم استثنى اثنتي عشرة صورة (أحدها) أزواجهن (وثانيها) آباؤهن وان علوا من جهة الذكران والاناث كآباء الآباء وآباء الامهات (وثالثها) آباء أزواجهن (ورابعها وخامسها) أبناؤهن وأبناء بناتهن وبدخل فيه أولاد الاولاد وان سفلوا من الذكران والاناث كبني البنين وبني البنات (وسادسها) اخوانهن سواء كان من الاب أو من الام أو منهما (وسابعها) بنو اخوانهن (وثامنها) بنو أخواتهن وهؤلاء كلهم محارم وههنا سؤالات (السؤال الاول) أفيحل لذوي المحرم في المملوكة والكافرة ما لا يحل له في المؤمنة (الجواب) ذا ملك المرأة وهي من محارمه فله أن ينظر منها الى بطنها وظهرها الا على وجه الشهوة لي لامر يرجع الى غريزة الملك على اختلاف بين الناس في ذلك (السؤال الثاني) كيف القول في العم والخال (الجواب) القول الظاهر انهما كسائر المحارم في جواز النظر وهو قول الحسن البصري قال لان الآية لم يذكر فيها الرضاع وهو كالنسب وقال في سورة الاحزاب لا جناح عليهن في آبائهن الآية ولم يذكر فيها اليه ولا تولا أبناءهن وقد ذكروا ههنا وقد ذكر الله البعض لينبه على الجملة قال الشعبي انما لم يذكرهما الله لئلا يصفهما الابن عند بناته والخال كذلك ومعناه ان سائر القرابات تشارك الاب والابن في المحرمية الا العم والخال وأبناءهما فانه ربما وصفها الابن وليس بمحرم فيقرب تصويره لها بالوصف من نظره اليها وهذا أضعف من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهن في التستر (السؤال الثالث) ما السبب في اباحة نظره ؤلاء الى زينة المرأة (الجواب) لانهم مخصوصون بالمخالطة الى مدانة لهن ومخالطتهن وقلة وقع الفتنة بهم لهن ولما في الطباع من النفرة عن مجالسة الغرائب وتحتاج المرأة الى صحبتهم في الاسفار للنزول والركوب (وما ملكت أيمانهن) قوله تعالى أو نسائهن وفيه قولان (أحدهما) المراد نساء المسلمات (وثانيهما) المراد نساؤهن جميع النساء وهذا هو المذهب وقول السلف محمول على الاستحباب والاولى (وعاشرها) قوله تعالى أو ما ملكت أيمانهن وظاهر الكلام يشمل العبيد والاماء واختلفوا انهم من أجرى الآية على ظاهرها وزعم انه لا بأس لهن في أن يظهرن لعبيدهن من زينتهن ما يظهرن لذوي محارمهن وهو مروي عن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما واحتجوا بهذه الآية وهو وظاهر وبما روي أنس أنه عليه الصلاة والسلام أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها وعليها ثوب اذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها واذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بها قال انه ليس عليك بأس انما هو أبوك وغلامك وعن مجاهد كان أمهات المؤمنين لا يحتجبن عن مكاتبهن ما بقي عليه درهم وعن عائشة رضي الله عنها انها قالت لذكوان انك اذا وضعتني في القبر وخرجت فأنت حر وروي ان عائشة رضي الله عنها كانت تنشط والعبد ينظر اليها وقال ابن مسعود ومجاهد والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب رضي الله عنهم ان العبد لا ينظر الى شعر مولاته وهو قول أبي حنيفة رحمه الله واحتجوا عليه بأمور (أحدها) قوله عليه الصلاة والسلام لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفرا فوق ثلاث الا مع ذي محرم والعبد ليس بذي محرم منها فلا يجوز أن يسافر بها واذا لم يجز له السفر بها لم يجز له النظر الى شعرها كالحر الاجنبي (وثانيها) ان ملكها للعبد لا يحل ما يحرم عليه قبل الملك اذ ملك النساء للرجال ليس كملك الرجال للنساء

بقوله وان من شئ الا عندنا خزائنه كأنه قيل نحن القادرون على ايجاده وخزنه فى السحاب وانزاله وما أنتم على ذلك بقادرين وقيل ما أنتم بخازنين له بعد ما أنزلناه فى الغدران والآبار والعيون بل نحن نخزنه فيها ونجعلها مستقيا لكم مع أن طبيعة الماء تقتضى الغور (وانا لنحن نحيى) بايجاد الحياة فى بعض ٣٠٠ الاجسام القابلة لها (ونميت) بازالتها عنها وقد يعم الاحياء والاماتة لما يشمل الحيوان

فانهم لم يختلفوا فى أنها لا تستتبع ملك العبد منه شيأ من التتبع كما ملكه الرجل من الامة (وثالثها) ان العبد وان لم يجز له أن يتزوج بولاية الا أن ذلك التحريم عارض يمكن عند ارتفاع نسوة فانه لا يجوز له التزوج بغيرهن فلما لم تكن هذه الحرمة مؤبدة كان العبد بمنزلة سائر الاجانب اذا ثبت هذا ظهر أن المراد من قوله أو ما ملكت أيمانهن الاماء فان قيل الاماء داخلن فى قوله نسائهن فأى فائدة فى الاعادة قلنا الظاهر انه عنى بنسائهن وما ملكت أيمانهن من فى صحبتهن من الحرائر والاماء وبيانه أنه سبحانه ذكر أولا أحوال الرجال بقوله ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن الى آخر ما ذكر خوفا أن يظن ظان أن الرجال مخصوصون بذلك فلم يكتفوا ذوى المحارم أو غير ذات المحارم ثم عطف على ذلك الاماء بقوله أو ما ملكت أيمانهن لئلا يظن أن الاباحة مقصورة على الحرائر من النساء اذ كان ظاهر قوله أو نسائهن يقتضى الحرائر دون الاماء كقوله نبهد بن من رجالكم على الاحرار لاضافتهم الينا كذلك قوله أو نسائهن على الحرائر ثم عطف عليهن الاماء فأباح لهن مثل ما أباح فى الحرائر (وسادى عشرها) قوله تعالى أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قيل هم الذين يتبعونكم لينالوا من فضل طعامكم ولا حاجة بهم الى النساء لانهم بله لا يعرفون من أمر من شيأ أو شيوخ صلعاء اذا كانوا معهن غضوا أبصارهم ومعلوم ان الخصى والعنين ومن شاكلهما قد لا يكون له اربة فى نفس الجماع ويكون له اربة قوية فيما عداه من التمتع وذلك ينتج من أن يكون هو المراد فيجب أن يحمل المراد على من المعلوم منه أنه لا اربة له فى سائر وجوه التمتع احترازا عن قعد الشهوة وأما المقعد المزمنة وأما للفقر والمسكنة فعلى هذه الوجوه الثلاثة اختلف العلماء فقال بعضهم هم الفقراء الذين يهمهم المعتوه والابله والصبى وقال بعضهم الشيخ وسائر من لا شهوة له ولا يمتنع دخول الكل فى ذلك وروى هشام بن عروة عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها مخنث فاقبل على أخى أم سلمة فقال يا عبد الله ان فتح الله لكم غدا الطائف دللتك على بنت غيلان فانها تقبل بأربع وتدبر بثمان فقال عليه الصلاة والسلام لا يدخلن عليكم هذا فأباح النبى عليه الصلاة والسلام دخول المخنث عليهن حين ظن أنه من غير أولى الاربة فلما علم أنه يعرف أحوال النساء وأوصافهن علم أنه من أولى الاربة فحجبه وفى الخصى والمجبوب ثلاثة أوجه (أحدها) استباحة الزينة الباطنة معهما (والثانى) تحريمها عليهما (والثالث) تحريمها على الخصى دون المجبوب (المسئلة الثانية) الاربة الفعلة من الارب كالمشية والجلسة من المشى والجلوس والارب الحاجة والولوع بالشئ والشهوة له والاربة الحاجة فى النساء والاربة العقل ومنه الاريب (المسئلة الثالثة) فى غير قراءة ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر غير بالنصب على الاستثناء أو الحال يعنى أو التابعين غير مضرين عنهن والقراءة الثانية بالخفض على الوصفية (وثانى عشرها) قوله تعالى أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الطفل اسم للواحد لكنه وضع ههنا موضع الجمع لانه يفيد الجنس وبين مايعده أنه يراد به الجمع ونظيره قوله تعالى ثم نخرجكم طفلا (المسئلة الثانية) الظهور على الشئ على وجهين (الاول) الغلبة كقوله تعالى انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أى ان يشعروا بكم (والثانى) الغلبة له والصولة عليه كقوله فأصبحوا ظاهرين فعلى الوجه الاول يكون المعنى أو الطفل الذين لم يتصوروا عورات النساء ولم يدروا ما هى من الصغر وعلى الثانى الذين لم يبلغوا أن يطيقوا اتيان النساء وهو قول الفراء والزجاج (المسئلة الثالثة) ان الصغير الذى لم يتنبه لصغره على عورات النساء فلا عورة للنساء معه وان تنبه لصغره وراهقته لزم ان تستر عنه المرأة ما بين سرتها وركبتها

والنبات وتقديم الضمير للحصر وهو اما تأكيد للاول أو مبتدأ خبره الفعل والجملة خبر لانا ولا يجوز كونه ضمير الفصل لان اللام مانعة من ذلك كما قيل فان النصاة جوزوا دخول لام التأكيد على ضمير الفصل كما فى قوله تعالى ان هذا لهو القصص الحق بل لانه لم يقع بين اسمين (ونحن الوارثون) أى الباقون بعد فنائه الخلق قاطبة المالكون لذلك عند انقضاء زمان الملك المجازى الما كنون فى الكل أولا وآخرا وليس لهم الا التصرف الصورى والملك المجازى وفيه تنبيه على أن المتأخر ليس بوارث للمتقدم كما يتراءى من ظاهر الحال (ولقد علمنا المستقدمين منكم) من تقدم منكم ولادة وموتا (ولقد علمنا المستأخرين) من تأخر ولادة وموتا أو من خرج عن أصلاب الآباء ومن لم يخرج بعد أو من تقدم فى الاسلام والجهاد وسبق الى الطاعة ومن تأخر فى ذلك لا يخفى علينا شئ من أحوالكم وهو بيان الكمال علمه تعالى والاحتجاج على كمال قدرته فان ما يدل عليه دليل عليه وفى تكرير قوله تعالى ولقد علمنا ما لا يخفى من الدلالة على كمال التأكيد وقيل رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصف الاول فازدحموا عليه فنزلت وقيل ان امرأة حسناء كانت تصلى خلف رسول الله عليه الصلاة والسلام فتقدم بعض الناس لئلا يراها وتأخر آخرون ليريها فنزلت والاول هو

المناسب لما سبق ولما لحق من قوله تعالى (وان ربك هو يحشرهم) أى للجزاء وتوسيط ضمير العظمة للدلالة على أنه هو القادر على حشرهم والمتولى له لا غير لانهم كانوا يستبعدون ذلك ويستنكرونه ويقولون من يحيى العظام وهى رميم أى هو يحشرهم لا غير وفى الالتفات والتعرض لعنوان الربوبية اشعار بعلة الحكم وفى الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام ٣٠١ دلالة على اللطف به علما الصلاة والسلام (انه حكيم) بالغ الحكمة متقن فى أفعاله فانها عبارة عن العلم بحقائق الاشياء على ما هى عليه والاتيان بالافعال على ما ينبغى (عليم) وسع علمه كل شئ ولعل تقديم صفة الحكمة لائق بان يقتضيها للحشر والجزاء (ولقد خلقنا الانسان) أى هذا النوع بأن خلقنا أصله وأول فرد من أفراده خلقا بديعا منطويا على خلق سائر أفراده انطواء اجماليا كما مر تحقيقه فى سورة الانعام (من سلسال) من طين يابس غير مطبوخ يصلصل أى يصوت عند نقره قيل اذا توهمت فى صوته مدا فهو صلصال وان توهمت فيه ترجيعا فهو صلصالة وقيل هو فعلال من صل اذا أنتن (من حما) من طين تغير واسود بطول مجاورة الماء وهو صفة لصلصال أى من صلصال كائن من حما (مسنون) أى مصور من مسنة الوجه وهى صورته أو مصبوب من سن الماء صبه أى مفرغ على هيئة الانسان

وفى لزوم ستر ما سوادوجهان (أحدهما) لا يلزم لان القلم غير جار عليه (والثانى) يلزم كالرجل لانه يشتهى والمرأة قد تشتهيه وهو معنى قوله أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء واسم الطفل شامل له الى أن يحتلم وأما الشيخان بقيت له شهوة فهو كالشاب وان لم يبق له شهوة ففيه وجهان (أحدهما) أن الزينة الباطنة معه مباحة والعورة معه ما بين السرة والركبة (الثانى) أن جميع البدن معه عورة الا الزينة الظاهرة وههنا آخر الصور التى استثناها الله تعالى قال الحسن هؤلاء وان اشتركوا فى جواز رؤية الزينة الباطنة فهم على أقسام ثلاثة فأولهم الزوج وله حرمة ليست لغيره يحل له كل شئ منها والحرمة الثانية للابن والاب والاخ والجد وأبى الزوج وكل ذى محرم والرضاع كالنسب يحل لهم أن ينظروا الى الشعر والصدر والساقين والذراع وأشباه ذلك والحرمة الثالثة هى للتابعين غير أولى الاربة من الرجال وكذا مملوك المرأة فلا بأس أن تقوم المرأة الشابة بين يدى هؤلاء فى درع وخمار صفيق بغير ملحفة ولا يحل لهؤلاء أن يروا منها شعرا ولا بشرا والستر فى هذا كله أفضل ولا يحل للشابة أن تقوم بين يدى الغريب حتى تلبس الجلباب فهذا ضبط هؤلاء المراتب بما قوله تعالى ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن فقال ابن عباس وقتادة كانت المرأة تمر بالناس وتضرب برجلها ليسمع قعقعة خلخالها ومعلوم أن الرجل الذى يغلب عليه شهوة النساء اذا سمع صوت الخلخال يصير ذلك داعية له زائدة فى مشاهدتهن وقد علل تعالى ذلك بأن قال ليعلم ما يخفين من زينتهن فنبه به على أن الذى لاجله نهى عنه أن يعلم زينتهن من الحلى وغيره وفى الآية فوائد (الفائدة الاولى) لما نهى عن استماع الصوت الدال على وجود الزينة فلان يدل على المنع من اظهار الزينة أولى (الثانية) ان المرأة منهية عن رفع صوتها بالكلام بحيث يسمع ذلك الاجانب اذ كان صوتها أقرب الى الفتنة من صوت خلخالها ولذلك كرهوا أذان النساء لانه يحتاج فيه الى رفع الصوت والمرأة منهية عن ذلك (الثالثة) تدل الآية على حظر النظر الى وجهها اذ هو كان ذلك أقرب الى الفتنة بها أما قوله سبحانه وتعالى وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى التوبة وجهان (أحدهما) ان تكاليف الله تعالى فى كل باب لا يقدر العبد الضعيف على مراعاتها وان ضبط نفسه واجتهد ولا يتفلت من تقصير يقع منه فلذلك وصى المؤمنين جميعا بالتوبة والاستغفار وتأميل الفلاح اذا تابوا واستغفروا (والثانى) قال ابن عباس رضى الله عنهما توبوا مما كنتم تعملونه فى الجاهلية لعلكم تسعدون فى الدنيا والآخرة فان قيل قد صحت التوبة بالاسلام والاسلام يجب ما قبله فما معنى هذه التوبة قلنا قال بعض العلماء ان من اذنب ذنبا ثم تاب عنه ربما ذكر أن يجتهد عند التوبة لانه يلزمه أن يستمر على ندمه الى أن يلقى ربه (المسئلة الثانية) قرئ أيه المؤمنون بضم الهاء ووجهه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الالف فلما سقطت الالف لالتقاء الساكنين اتبعت حركتها حركة ما قبلها والله أعلم (المسئلة الثالثة) تفسير لما قد تقدم فى سورة البقرة فى قوله اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون والله أعلم (الحكم الثامن) ما يتعلق بالنكاح ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم﴾ اعلم أنه تعالى لما أمر من قبل بغض الابصار وحفظ الفروج بين من بعد ان الذى أمر به انما هو فيما لا يحل فبين تعالى بعد ذلك طريق الحل فقال وأنكحوا الايامى منكم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الايامى والتامى أصلهما ايايم وتايم فقلبا وقال النضر يقال الايم فى كلام العرب كل ذكر لا أنثى معه وكل أنثى لا ذكر معها وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية الضحاك تقول زوجوا

أفرغ الصور من الجواهر المذابة فى القوالب وقيل منتن فهو صفة لما وعلى الاولين حقه أن يكون صفة لصلصال وانما أخر عن حما تنبيها على أن ابتداء مسنونيته ليس فى حال كونه صلصالا بل فى حال كونه حما كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور من ذلك مثال انسان أجوف ييبس حتى اذا نقر صوت ثم غيره الى جوهر آخر فتبارك الله أحسن الخالقين (والجان) أبا الجن وقيل ابليس ويجوز أن يراد به الجنس

كما هو الظاهر من الانسان لان تشعب الجنس لما كان من فرد واحد مخلوق من مادة واحدة كان الجنس بأسره مخلوقا منها وقريبا بالمه وانتسابه بفعل يفسره (خلقناه) وهو أقوى من الرفع للعطف على الجملة الفعلية (من قبل) من قبل خلق الانسان ومن هذا يظهر جواز كون المراد بالمستقبل من أحد الثقلين ٣٠٢ وبالمستأخرين الآخر والخطاب بقوله منكم للكل (من نار السموم) من نار الحر الشديد النافذ في المسام ولا امتناع من خلق الحياة في الاجرام البسيطة كالامتناع من خلقها في الجواهر المجردة فضلا عن الاجساد المؤلفة التي غالب أجزائها الجزء الهوائي فانها أقبل لها من التي غالب أجزائها الجزء الارضي وقوله تعالى من نار باعتبار الغالب كقوله تعالى خلقكم من تراب وسياق الآية الكريمة كما هو للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وبيان بدء خلق الثقلين فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها امكان الحشر وهو قبول المواد للجمع والاحياء (واذ قال ربك) نصب باضمار اذكر وتذكير الوقت لما مر مرارا من انه أدخل في تذكير ما وقع فيه من الحوادث وفي التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن تبليغ الشئ الى كماله اللائق به شيأ فشيأ مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام اشعار بعلة الحكم وتشريف له عليه الصلاة والسلام أي اذكر وقت قوله تعالى (للملائكة اني خالق) فيما سيأتي وفيه ما ليس في صيغة المضارع من الدلالة على أنه تعالى فاعل له البتة من غير صارف يثنيه ولا عاطف يلويه (بشرا) أي انسانا قيل ليس هذا عين العبارة الجارية وقت الخطاب بل الظاهر ان يكون قد قيل لهم اني خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكن اقتصر عند الحكاية على الاسم وقيل جسما كثيفا يابسا في وبيا مشروقيل خلقا يأدي البشرة بلا صوف

أياما كم بعضكم من بعض وقال الشاعر

فان تنكحي انكح وان تتأيمي * وان كنت أفتى منكم وأتأيم

(المسئلة الثانية) قوله تعالى وأنكحوا الايامى أمر وظاهر الامر للوجوب على ما بيناه مرارا فيدل على أن الولي يجب عليه تزويج مولياته واذا ثبت هذا وجب أن لا يجوز النكاح الا بولي اما لان كل من أوجب ذلك على الولي حكم بانه لا يجوز من المولية واما لان المولية لو فعلت ذلك لفوتت على الولي التمكن من أداء هذا الواجب وانه غير جائز واما التعلق بهذه الآية مع الحديث وهو قوله عليه الصلاة والسلام اذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير فقال أبو بكر الرازي هذه الآية وان اقتضت ظاهرها الايجاب الا أنه أجمع السلف على أنه لم يرد به الايجاب وبدل عليه أمور (أحدها) أنه لو كان ذلك واجبا لورد النقل بفعله من النبي صلى الله عليه وسلم ومن السلف مستفيضا شائعا لعموم الحاجة اليه فلما وجدنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الاعصار بعده قد كان في الناس أيامى من الرجال والنساء ولم ينكروا عدم تزويجهن ثبت أنه ما أريد به الايجاب (وثانيها) أجمعنا على أن الايم الثيب لو أبت التزويج لم يكن للولي اجبارها عليه (وثالثها) اتفاق الكل على أنه لا يجبر على تزويج عبده وأمته وهو معطوف على الايامى فدل على أنه غير واجب في الجميع بل ندب في الجميع (ورابعها) أن اسم الايامى ينتظم فيه فلما وجدنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الاعصار بعده قد كان في الناس أيامى من الرجال والنساء ولم ينكروا عدم تزويجهن ثبت أنه ما أريد به الايجاب (وخامسها) أجمعنا على أن الايم الثيب لو أبت التزويج لم يكن للولي اجبارها عليه (وسادسها) اتفاق الكل على أنه لا يجبر على تزويج عبده وأمته وهو معطوف على الايامى فدل على أنه غير واجب في الجميع بل ندب في الجميع (ورابعها) أن اسم الايامى ينتظم فيه الرجال والنساء وهو في الرجال ما أريد به الاولياء دون غيرهم كذلك في النساء (والجواب) أن جميع ما ذكرتموه تخصيصات تطرق اليها الآية والعام بعد التخصيص يبقى حجة فوجب أن يبقى حجة فيما اذا التمست المرأة الايم من الولي التزويج وجب وحينئذ ينتظم وجه الكلام (المسئلة الثالثة) قال الشافعي رحمه الله الآية تقتضي جواز تزويج البكر البالغة بدون رضاها لان الآية والحديث يدلان على أمر الولي بتزويجها ولولا قيام الدلالة على أنه لا يزوج الثيب الكبيرة بغير رضاها لكان جائزا له تزويجها أيضا بغير رضاها لعموم الآية قال أبو بكر الرازي قوله تعالى وأنكحوا الايامى لا يختص بالنساء دون الرجال على ما بيناه فلما كان الاسم شاملا للرجال والنساء وقد أضمر في الرجال تزويجهم بأنفسهم فوجب استعمال ذلك الاضمير في النساء وأيضا فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم باستئمار البكر بقوله البكر تستأمر في نفسها واذنها صماتها وذلك أمر وان كان في صورة الخبر فثبت أنه لا يجوز تزويجها الا باذنها (والجواب) أما الاول فهو مخصص للنص وهو لا يقدح في كونه حجة والفرق أن الايم من الرجال يتولى أمر نفسه فلا يجب على الولي تعهد أمره بخلاف المرأة فان احتياجها الى من يصلح أمرها في التزويج أظهر وأيضا فلفظ الايامى وان تناول الرجال والنساء فاذا أطلق لم يتناول الا النساء واقعا يتناول الرجال اذا قيد * وأما الثاني ففي تخصيص الآية بغير الواحد كلام مشهور (المسئلة الرابعة) قال أبو حنيفة رحمه الله العم والاخ يليان تزويج البنت الصغيرة ووجه الاستدلال بالآية كما تقدم (المسئلة الخامسة) قال الشافعي رحمه الله الناس في النكاح قسمان منهم من تتوق نفسه في النكاح فيستحب له أن ينكح ان وجد أهبة النكاح سواء كان مقبلا على العبادة أو لم يكن كذلك ولكن لا يجب أن ينكح وان لم يجد أهبة النكاح بكسر شهوته بالصوم لما روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء أما الذي لا تتوق نفسه الى النكاح فان كان ذلك لعلة به من كبر أو مرض أو عجز يكره له أن ينكح لانه يلتزم ما لا يمكنه القيام بحقه وكذلك اذا كان لا يقدر على النفقة وان لم يكن به عجز وكان قادرا على القيام بحقه لم يكره له

ولا شعر (من صلصال) منتن يخالف أو متغير وقع صفة لمحذوف وقع صفة لمفعوله أي بشرا كائنا من صلصال كائن (من حمأ مسنون) تقدم تفسيره ولا ينافي هذا ما في قوله تعالى في سورة ص من قوله بشرا من طين فان عدم التعرض عند الحكاية لوصف الطين من التغير والاسوداد وما ورد عليه من آثار التكوين لا يستلزم عدم التعرض لذلك عند وقوع المحكي ٣٠٣ غايته أنه لم يتعرض له هناك اكتفاء بما

النكاح لكن الافضل أن يتخلى للعبادة الله تعالى وقال أبو حنيفة رحمه الله النكاح أفضل من التخلي للعبادة وصحة الشافعي رحمه الله وجوه (أحدها) قوله تعالى وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين مدح يحيى عليه السلام بكونه حصورا والحصور الذي لا يأتي النساء مع القدرة عليهن ولا يقال هو الذي لا يأتي النساء مع العجز عنهن لان مدح الانسان بما يكون عيبا غير جائز واذا ثبت أنه مدح في حق يحيى وجب أن يكون مشروعا في حقنا لقوله تعالى أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ولا يجوز حمل الهدى على الاصول لان التقليد فيها غير جائز فوجب حمله على الفروع (وثانيها) قوله عليه الصلاة والسلام استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن أفضل أعمالكم الصلاة ويتمسك أيضا بما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال أفضل أعمال أمتي قراءة القرآن (وثالثها) أن النكاح مباح لقوله عليه الصلاة والسلام أحب المباحات الى الله تعالى النكاح ويحمل الامر على الاصلح في الدنيا لئلا يقع التناقض بين كونه أحب وبين كونه مباحا والمباح ما استوى طرفاه في الثواب والعقاب والمندوب ما ترجح وجوده على عدمه فيكون العبادة أفضل (ورابعها) أن النكاح ليس بعبادة فدليل أنه يصح من الكافر والعبادة لا تصح منه فوجب أن تكون العبادة أفضل منه لقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون والاشتغال بالمقصود أولى (وخامسها) أن الله تعالى سوى بين التسري والنكاح ثم التسري مرجوح بالنسبة الى العبادة ومساوي المرجوح مرجوح فالنكاح مرجوح وانما قلنا انه سوى بين التسري والنكاح لقوله تعالى فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم وذكر كلمة أو للتخيير بين الشيئين والتخيير بين الشيئين أمارة التساوي كقول الطبيب للمريض كل الرمان أو التفاح واذا ثبت الاستواء فالتسري مرجوح ومساوي المرجوح مرجوح فالنكاح يجب أن يكون مرجوحا (وسادسها) أن القافلة أشق فتكون أكثر ثوابا بيان أنها أشق أن سبل الطباع الى النكاح أكثر ولولا ترغيب الشرع لما رغب أحد في النوافل واذا ثبت أنها أشق وجب أن تكون أكثر ثوابا لقوله عليه الصلاة والسلام أفضل العبادات أحمزها وقوله صلى الله عليه وسلم لعائشة أجرك على قدر نصبك (وسابعها) لو كان النكاح مساويا للنوافل في الثواب مع أن النوافل أشق منه لما كانت النوافل مشروعة لانه اذا حصل طريقان الى تحصيل المقصود وكان أحدهما شاقا والآخر سهلا فان العقلاء يستهجنون تحصيل ذلك المقصود بالطريق الشاق مع امكانه من الطريق السهل ولما كانت النوافل مشروعة علمنا أنها أفضل (وثامنها) لو كان الاشتغال بالنكاح أولى من النافلة لكان الاشتغال بالحراثة والزراعة أولى من النافلة بالقياس على النكاح والجامع كون كل واحد منهما سببا لبقاء هذا العالم وتحصيلا لنظامه (وتاسعها) أجمعنا على أنه يقدم واجب العبادة على واجب النكاح فيقدم مندوبها على مندوبه لاتحاد السبب (وعاشرها) أن النكاح اشتغال بتحصيل اللذات الحسية الداعية الى الدنيا والنافلة قطع العلائق الجسمانية واقبال على الله تعالى فان أحدهما من الآخر ولذلك قال عليه الصلاة والسلام حبب الي من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة فرجح الصلاة على النكاح تحقيقا لقول أبي حنيفة رحمه الله تعالى من وجوه (الاول) أن النكاح يتضمن صون النفس عن الزنا فيكون ذلك دفعا للضرر عن النفس والنافلة جلب النفع ودفع الضرر أولى من جلب النفع (الثاني) أن النكاح يتضمن العدل والعدل أفضل من العبادة لقوله عليه الصلاة والسلام لعدل ساعة خير من عبادة ستين سنة (الثالث) النكاح سنة مؤكدة لقوله عليه الصلاة والسلام من رغب عن سنتي فليس مني وقال في الصلاة وانها لخير موضوع فمن شاء فليستكثر ومن شاء فليستقل فوجب أن يكون النكاح

شرح هنا (فاذا سويته) أي صورته بالصورة الانسانية والخلقة البشرية أو سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه (ونفخت فيه من روحي) النفخ اجراء الريح الى تجويف جسم صالح لامساكها والامتلاء بها وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل لافاضة مايه الحياة بالفعل على المادة القابلة لها أي فاذا كملت استعداده وأفضت عليه مايحيا به من الروح التي هي من أمري (فقعوا له) أمر من وقع يقع وفيه دليل على أن ليس المأمور به مجرد الانحناء كما قيل أي اسقطوا له (ساجدين) تحية له وتعظيما أو امجدوا الله تعالى على أنه علية الصلاة والسلام بمنزلة القبلة حيث ظهر فيه تعاجيب آثار قدرته تعالى وحكمته كقول حسان رضي الله تعالى عنه

ألبس أول من صلى لقبلكم
واعلم أن الناس بالقرآن والسنن

(فسجد الملائكة) أي فتحقق فيه الروح فسجدوا له (كلهم) بحيث لم يشذ منهم أحد (أجمعون) بحيث لم يتأخر في ذلك أحد منهم عن أحد ولا اختصاص لافادة هذا المعنى بالحالية بل يفيد التأكيد أيضا فان الاشتقاق الواضح يرشد الى أن فيه معنى الجمع والمعية حسب الوضع والاصل في الخطاب التنزيل على أكمل أحوال الشيء ولا ريب في أن السجود معا أكمل أصناف السجود لكن شاع استعمالها تأكيدا وأقيم مقام كل

في افادة معنى الاحاطة من غير نظر الى الكمال فاذا فهمت الاحاطة من لفظ آخر لم يكن بد من مراعاة الاصل صونا للكلام عن الالغاء وقيل أكدبتأكيدين مبالغة في التعميم هذا وأما أن سجودهم هذا هل يترتب على ما حكي من الامر التعليقي كما تقتضيه هذه الآية الكريمة والتي في سورة ص أو على الامر التنجيزي كما يستند عليه ما في غيرهما فقد خرجنا بفضل الله عزوجل عن عهدة تحقيقه في تفسير سورة البقرة (الا ابليس) استثناء متصل اما لانه كان جنسا مفردا مغمورا بالوف من الملائكة فعد منهم تغليبا واما لان من الملائكة جنسا يقال له الجن وهو منهم وقوله تعالى (أبى أن يكون مع الساجدين) استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء فان معنى عدم السجود قد يكون مع التردد وبه علم أنه مع الاباء والاستكبار أو منقطع فيتصل به عامده أي لكن ابليس أبى أن يكون معهم وفيه دلالة على كمال ركاكة رأيه حيث أدمج في معصية واحدة ثلاث معاص مخالفة الامر والاستكبار مع تحقير آدم عليه الصلاة والسلام ومفارقة الجماعة والاباء عن الانتظام في سلك أولئك المقربين الكرام (قال) استئناف مبني على سؤال من قال فماذا قال تعالى عند ذلك فقيل قال (يا ابليس مالك) أي أي سبب لك لا أي غرض لك كما قيل لقوله تعالى مامنعك (أن لا تكون) في أن لا تكون (مع الساجدين) لآدم مع أنهم هم ومنزلتهم في الشرف منزلتهم وما كان التوبيخ عند وقوعه لمجرد تخلفه عنهم بل لكل من المعاصي الثلاث المذكورة قال تعالى في سورة الاعراف قال مامنعك ألا تسجد اذ أمرتك وفي سورة ص قال يا ابليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدي ولكن اقتصر عند اليكاية في كل موطن على ما ذكر فيه اجتزاء بما ذكر في موطن آخر واشعارا بأن كل

أفصل (المسئلة السادسة) قوله تعالى وأنكحوا الايامى وان كانت تتناول جميع الايامى بحسب الظاهر لكنهم اجمعوا على أنه لا يدخل فيها من شروط وقد تقدم شرحها في قوله وأحل لكم ماوراء ذلكم أما قوله تعالى منكم فقد حمله كثير من المفسرين على أن المراد هم الاحرار لينفصل الحر من العبد وقال بعضهم بل المراد بذلك من يكون تحت ولاية المأمور من الولد أو القريب ومنهم من قال الاضافة تفيد الحرية والاسلام أما قوله تعالى والصالحين من عبادكم وامائكم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ظاهره أنه ايضا أمر للسادة بتزويج هذين الفريقين اذا كانوا صالحين وأنه لا فرق بين هذا الامر وبين الامر بتزويج الايامى في باب الوجوب لكنهم اتفقوا على أنه اباحة أو ترغيب فاما أن يكون واجبا فلا وفرقوا بينه وبين تزويج الايامى بأن في تزويج العبد التزام مؤنة وتعطيل خدمة وذلك ليس بواجب على السيد وفي تزويج الامة استعباد مهر وسقوط نفقة وليس ذلك بلازم على المولى (المسئلة الثانية) انما خص الصالحين بالذكر لوجوه (الاول) ليحصن دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم (الثاني) لان الصالحين من الارقاء هم الذين مواليهم يشفقون عليهم يترأوهم منزلة الاولاد في المودة فكانوا مظنة للتوصية بشأنهم والاهتمام بهم وتقبل الوصية فيهم وأما المفسدون منهم فحالهم عند مواليهم على عكس ذلك (الثالث) أن يكون المراد الصلاح لامر النكاح حتى يتهم العبد بما يلزم لها وتقوم الامة بما يلزم للزوج (الرابع) أن كون المراد الصلاح في نفس النكاح بأن لا تكون صغيرة فلا تحتاج الى النكاح (المسئلة الثالثة) ظاهر الآية يدل على أن العبد لا يتزوج بنفسه وانما يجوز أن يتولى المولى تزويجه لكن ثبت بالدليل أنه اذا أمره بأن يتزوج جاز أن يتولى تزويج نفسه فيكون توليه بإذنه بمنزلة أن يتولى ذلك نفس السيد فاما الاماء فلا شبهة في أن المولى يتولى تزويجهن خصوصا على قول من لا يجوز النكاح الا بولي، أما قوله تعالى ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ففيه مسئلتان (الاولى) الاصح أن هذا ليس وعدا من الله تعالى باغناء من يتزوج بل المعنى لا تنظروا الى فقر من يخطب اليكم أو فقر من تريدون تزويجها ففي فضل الله ما يغنيهم والمال غادر ورائح وليس في الفقر ما يمنع من الرغبة في النكاح فهذا معنى صحيح وليس فيه أن الكلام قصد به وعد الغنى حتى لا يجوز أن يقع فيه خلف وروي عن قتادة ما يدل على أنهم رأوا ذلك وعدا من أبي بكر قال أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى وعن عمر وابن عباس مثله قال ابن عباس التمسوا الرزق بالنكاح وشكا رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحاجة فقال عليك بالباءة وقال طلحة بن مطرف تزوجوا فانه أوسع لكم في رزقكم وأوسع لكم في أخلاقكم ويزيد الله في مروءتكم فان قيل فهمن نرى من كان غنيا فيتزوج فيصير فقيرا قلنا الجواب عنه من وجوه (أحدها) أن هذا الوعد مشروط بالمشيئة كما في قوله تعالى وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم والمطلق محمول على المقيد (وثانيها) أن اللفظ وان كان عاما الا أنه يكون خاصا في بعض المذكورين دون البعض وهو في الايامى الاحرار الذين يملكون فيستغنون بما يملكون (وثالثها) أن يكون المراد الغنى بالعفاف فيكون المغنى وقوع الغنى بملك البضع والاستغناء به عن الوقوع في الزنا (المسئلة الثانية) من الناس من استدل بهذه الآية على أن العبد والامة يملكان لان ذلك راجع الى كل من تقدم فتقتضي الآية بيان أن العبد قد يكون فقيرا وقد يكون غنيا فان دل ذلك على الملك ثبت أنهما يملكان ولكن المفسرون تأولوه على الاحرار حاسة فكأنهم قالوا هو راجع الى الايامى أما اذا فسرنا الغنى بالعفاف فالاستدلال به على ذلك ساقط

واحد من تلك المعاصي الثلاث كافية في التوبيخ والاظهار بطلان ما ارتكبه وقد تركت حكاية التوبيخ رأسا في سورة البقرة وسورة بني اسرائيل وسورة الكهف وسورة طه (قال) أي ابليس وهو أيضا استئناف مبني على السؤال الذي يساق اليه الكلام (لم أكن لاسجد) اللام لتأكيد النفي أي ينافي حالي ولا يستقيم مني لاني مخلوق من أشرف العناصر ٣٠٥ وأعلاها أن أسجد (لبشر) أي جسم كثيف (خلقته من صلصال من حمإ مسنون) اقتصر ههنا على الاشارة الاجمالية الى ادعاء الخبيثة وشرف المادة اكتفاء بما صرح به حين قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ولم يكشف اللعين عن سره في ذكر كونه عليه الصلاة والسلام من التراب الذي هو أخس العناصر وأسفلها بل تعرض لكونه مخلوقا منه في أحسن أحواله من كونه طينا متغيرا وقد اكتفى في سورة الاعراف وسورة ص بما حكى عنه ههنا فاقتصر على حكاية تعرضه خلقه عليه الصلاة والسلام من طين وكذا في سورة بني اسرائيل حيث قيل أأسجد لمن خلقت طينا وفي جوابه دليل على أن قوله تعالى مالك ليس استفسارا عن الغرض بل هو استفسار عن السبب وفي عدوله عن تطبيق جوابه على السؤال رموز للمتفهمين عن المناقشة رأفة له ذلك كله قال لم أكن ممتنعا عن امتثال الامر ولا عن الانتظام في سلك الملائكة بل عما لا يليق بشأني من الخضوع للمفضول وقد جرى خذله الله تعالى على سنن قياس عقيم وزال عنه أن ما يدور عليه فلك الفضل والكمال هو التحلي بالمعارف الربانية والتخلي عن الملكات الرديئة التي أقبحها التكبر والاستعصاء على أمر رب العالمين جل جلاله (قال فاخرج منها) أي من زمرة الملائكة المعززين لان السماء فان وسوسته لا تدوم عليها الصلاة

ساقط أما قوله والله واسع عليم فالمعنى أنه سبحانه في الافضال لا ينتهي الى حد تنقطع قدرته على الافضال دونه لانه قادر على المقدورات التي لا نهاية لها وهو مع ذلك عليم بمقادير ما يصلحهم من الافضال والرزق ﴿قوله تعالى﴾ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ﴿اعلم انه سبحانه لما ذكر ترويج الحرائر والاماء ذكر حال من يعجز عن ذلك فقال وليستعفف أي وليجتهد في العفة كان المستعفف طالبا من نفسه العفاف وحاملها عليه وأما قوله لا يجدون نكاحا فالمعنى لا يتمكنون من الوصول اليه يقال لا يجد المرء الشيء اذا لم يتمكن منه قال الله تعالى فمن لم يجد فصيام شهرين والمراد به بالاجماع من لم يتمكن ويقال في أحد اناه وغير واجد لها وان كان موجودا اذا لم يتمكنه أن يشتريه ويجوز أن يراد بالنكاح ما يتمكن به من المال فبين سبحانه وتعالى ان من لا يتمكن من ذلك فليطلب التعفف ولينتظر ان يغنيه الله من فضله ثم يصل الى بغيته من النكاح فان قيل أفليس ملك اليمين يقوم مقام نفس النكاح قلنا لكن من لم يجد المهر والنفقة فيمان لا يجد ثمن الجارية أولى والله أعلم ﴿الحكم التاسع﴾ في الكتابة ﴿قوله تعالى﴾ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴿اعلم انه تعالى لما حث السيد على تزويج العاملين من العبيد والاماء مع الرق رغبهم في أن يكاتبوهم اذا طلبوا ذلك ليصيروا أحرارا فيتصرفوا في أنفسهم كالاحرار فقال والذين يبتغون الكتاب وههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله والذين يبتغون مرفوع على الابتداء أو منصوب بفعل مضمر يفسره فكاتبوهم كقولك زيدا فاضربه ودخلت الفاء لتضمن معنى الشرط ﴿المسئلة الثانية﴾ الكتاب والكتابة كالعتاب والعتابة وفي اشتقاق لفظ الكتابة وجوه (أحدها) ان أصل الكلمة من الكتب وهو الضم والجمع ومنه الكتيبة سميت بذلك لانها تضم الجموع بعضها الى بعض وتضمم ماله الى ماله (وثانيها) يحتمل أن يكون اللفظ مأخوذا من الكتاب ومعناه كتبت لك على نفسي ان تعتق مني اذا وفيت بالمال وكتبت لي على نفسك أن تفي لي بذلك أو كتبت لي كتابا على نفسك بالوفاء بالمال وكتبت على العتق وهذا ما ذكره الازهري (وثالثها) انما سمي بذلك لما يقع فيه من التأجيل بالمال المعقود عليه لانه لا يجوز أن يقع على مال هو في يد العبد حين يكاتب لان ذلك مال لسيده فكيف يكتسبه في حال ما كانت يد السيد غير مرفوعة عن كسبه فلا بد من تأجيل حتى يقع هذا العقد حالا ولكنه يقع مؤجلا ليكون ممتنعا من الاكتساب وغيره حين ما انتقصت يد السيد عنه ثم من آداب الشريعة أن يكتب على من عليه المال المؤجل كتاب فسمي لهذا المعنى هذا العقد كتابا لما يقع فيه من الاجل قال تعالى لكل أجل كتاب ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال مجيء السنة الكتابة أن يقول لمملوكه كاتبتك على كذا وسمى ما لا معلوما يؤديه في نجمين أو أكثر بين عدد النجوم وما يؤدي في كل نجم وقول اذا أديت ذلك المال فانت حر وينوي ذلك بقلبه وهو قول العبد قبلت وفي هذا الضبط بحثان ﴿البحث الاول﴾ قال الشافعي رحمه الله ان لم يقل بلسانه أو لم ينو بقلبه اذا أديت ذلك المال فأنت حر لم يعتق وقال أبو حنيفة ومالك وأبو يوسف ومحمد وزفر رحمهم الله لا حاجة الى ذلك حجة أبي حنيفة رحمه الله أن قوله تعالى فكاتبوهم حال عن هذا الشرط فوجب أن تصح الكتابة بدون هذا الشرط واذا صحت الكتابة وجب أن يعتق بالاداء للاجماع حجة الشافعي رحمه الله أن الكتابة لست عقدا معاوضة محضة لان ما في يد العبد فهو ملك السيد والانسان لا يمكنه بيع ملكه بملكه بل قوله كاتبتك كناية في العتق فلا بد فيه من لفظ العتق أو نيته ﴿البحث الثاني﴾ لا تجوز الكتابة الحالة عند الشافعي وتجوز عند أبي حنيفة وجه قول الشافعي رحمه الله أن العبد لا يقدر له ملك يؤديه في الحال واذا عقد حالا توجهت

والسلام في الجنة انما كانت بعد هذا الطرد وقوله تعالى فاهبط منها ليس نصا في ذلك فان الخروج من بين الملأ الاعلى هبوط وأي هبوط أو من الجنة على أن وسوسته كانت بطريق الندا من بابها كما روى عن الحسن البصري أو بطريق المشافهة بعد أن احتال في دخولها وتوسل اليه بالحية كما روى عن ابن ٣٠٦ عباس رضي الله تعالى عنهما ولا ينافي هذا طرده على رؤوس الاشهاد بما يقتضيه من

المطالبة عليه في الحال فاذا عجز عن الاداء لم يحصل مقصود العقد كما لو أسلم في شيء لا يوجد عند المحل لا يصح بخلاف ما لو أسلم الى معسر فانه يجوز لان حين العقد يتصور أن يكون له مال في الباطن فالعجز لا يتحقق عن أدائه وجه قول أبي حنيفة رحمه الله أن قوله تعالى فكاتبوهم مطلق يتناول الكتابة الحالة والمؤجلة وأيضا لما كان مال الكتابة بدلا عن الرقبة كان بمنزلة أثمان السلع المبيعة فيجوز عاجلا وآجلا وأيضا أجمعوا على جواز العتق معلقا على مال حال فوجب أن تكون الكتابة مثله لانه بدل عن العتق في الحال بين الاثنين في أحدهما العتق معلق على شرط الاداء وفي الآخر معجل فوجب أن لا يختلف حكمهما ﴿البحث الثالث﴾ قال الشافعي رحمه الله تعالى لا تجوز الكتابة على أقل من نجمين يروى ذلك عن علي وعثمان وابن عمر وروى ان عثمان رضي الله عنه غضب على عبده فقال لاضيقن الامر عليك ولا كاتبنك على نجمين ولو جاز على أقل من ذلك لكاتبه على الاقل لان التضييق فيه أشد وانما شرطنا التنجيم لانه عقد ارفاق ومن شرط الارفاق التنجيم ليتيسر عليهم الاداء وقال أبو حنيفة رحمه الله تجوز الكتابة على نجم واحد لان ظاهر قوله فكاتبوهم ليس فيه تقييد ﴿المسئلة الرابعة﴾ تجوز كتابة المملوك عبدا كان أو أمة ويشترط عند الشافعي رحمه الله أن يكون عاقلا بالغا فاذا كان صبيا أو مجنونا لا تصح كتابته لان الله تعالى قال والذين يبتغون الكتاب ولا يتصور الابتغاء من الصبي والمجنون وعند أبي حنيفة رحمه الله تجوز كتابة الصبي ويقبل عنه الولي ﴿المسئلة الخامسة﴾ يشترط أن يكون المولى مكلفا مطلقا فان كان صبيا أو مجنونا أو محجورا عليه بالسفه لا تصح كتابته كما لا يصح بيعه ولان قوله فكاتبوهم خطاب فلا يتناول غير العاقل وعند أبي حنيفة رحمه الله تصح كتابة الصبي باذن الولي ﴿المسئلة السادسة﴾ اختلف العلماء في أن قوله فكاتبوهم أمر ايجاب أو أمر استحباب فقال قائلون هو أمر ايجاب فيجب على الرجل ان يكاتب مملوكا اذا سأله ذلك بقيمته أو أكثر اذا علم فيه خيرا ولو كان بدون قيمته لم يلزمه وهذا قول عمرو بن دينار وعطاء وابنه ذهب داود بن علي ومحمد بن جرير واحتجوا عليه بالآية والاثر أما الآية فظاهر قوله تعالى فكاتبوهم لانه أمر وهو للايجاب ويدل عليه أيضا سبب نزول الآية فانها نزلت في غلام لحويطب بن عبد العزى يقال له صبيح سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه فنزلت الآية فكاتبه على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينارا وأما الاثر فما روى أن عمر أمر أنسا أن يكاتب سيرين أبا محمد بن سيرين فأبى فرفع عليه الدرة وضربه وقال فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وحلف عليه ليكاتبنه ولو لم يكن ذلك واجبا لكان ضربه بالدرة ظلما وما أنكر على عمر أحد من الصحابة فجرى ذلك مجرى الاجماع وقال أكثر الفقهاء انه أمر استحباب وهو ظاهر قول ابن عباس والحسن والشعبي واليه ذهب مالك وأبو حنيفة والشافعي والثوري واحتجوا عليه بقوله عليه السلام لا يحل مال امرئ مسلم الا بطيب من نفسه وانه لا فرق أن يطلب الكتابة أو يطلب بيعه من بعقة في الكفارة فكما لا يجب ذلك فكذا الكتابة ولان طريقة المعاوضات أجمع رهمنا مؤلان ﴿السؤال الاول﴾ كيف يصح أن يبيع ماله بماله قلنا اذا أورد الشرع به فيجب أن يجوز كما اذا عاتق عنقه على مال يكتسبه فيؤديه أو يؤدي عنه صار سببا لعتقه ﴿السؤال الثاني﴾ هل يستفيد العبد بعتق الكتابة ما لا يملكه قلنا نعم لانه لو دفع اليه الزكاة ولم يكاتبه لم يحل له أن يأخذها واذا صار مكاتبا حل له واذا دفع الى مولاه حل له سواء أدى فعتق أو عجز فعاد الى الرق ويستفيد أيضا ان الكتابة تبعثه على الجد والاجتهاد في الكسب فلولاها لم يكن ليفعل ذلك ويستفيد أيضا المولى الثواب لانه اذا باعه فلا ثواب واذا كاتبه ففيه ثواب ويستفيد أيضا الولاء لانه لو عتق من قبل غيره لم يكن له ولاء واذا عتق بالكتابة فالولاء له فورد الشرع بجواز الكتابة لما ذكرناه من الفوائد

الحكم البالغة (فانك رجيم) مطرود من كل خير وكرامة فان من يطرد يرجم بالحجارة أو شيطان يرجم بالشهب وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته فان من عارض النص بالقياس فهو رجيم ملعون (وان عليك اللعنة) الابعاد عن الرحمة وحيث كان ذلك من جهة الله سبحانه وان كان جاريا على السنة العباد قيل في سورة ص وان عليك لعنتي (الى يوم الدين) الى يوم الجزاء والعقوبة وفيه اشعار بأن خير عقابه وجزائه اليه وأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لفعله وانما يتحقق ذلك يوم نذر فيه من التهويل ما لا يوصف وجعل ذلك أقصى أمد اللعنة ليس لانها تنقطع هنالك بل لانه عند ذلك يعذب بما ينسى به اللعنة من أنواع العذاب فتصير هي كالزائل وقيل انما حدت به لانه أبعد غاية يضربها الناس كقوله تعالى خالدين فيها ما دامت السموات والارض وحيث أمكن كون تأخير العقوبة مع الموت كسائر من أخرت عقوباتهم الى الآخرة من الكفرة طلب اللعين تأخير موته كما حكي عنه اما بقوله تعالى (قال رب فأنظرني) أي أمهلني وأخرني ولا تمتني والفاء متعلق بمحذوف يستحب عليه الكلام أي اذا جعلتني رجيما فأمهلني (الى يوم يبعثون) أي آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وأراد بذلك أن يجد فسحة لاغوائهم ويأخذ منهم ثاره ويخيب من الموت لاستحالته

بعد يوم البعث (قال فانك من المنظرين) وورد الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما سأله للآخرين على وجه يؤذن بكون السائل تبعا لهم فى ذلك دليل على أنه اخبار بالانظار المقدر لهم ازلا لا انشاء الانظار خاص به وقع اجابة لدعائه أى انك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين فالفاء ليست لربط نفس الانظار ٣٠٧ بالاستنظار بل لربط الاخبار المذكور به كما فى قوله

بوفان ترحم فانت لذاك أهل

فانه لا امكان لجعل الفاء فيه لربط ما قبله تعالى من الأهلية الناشئة للرحمة بوقوع الرحمة المحادثة بل هى لربط الاخبار بتلك الاهلية للرحمة بوقوعها وان استنظاره كان طلبا لتأخير الموت اذ به يتحقق كونه من جملتهم لا لتأخير العقوبة كما قيل ونظمه فى ذلك فى سلك من أخرت عقوبتهم الى الآخرة فى علم الله تعالى ممن سبق من اللين ولحق من الثقلين لايلائم مقام الاستنظار مع الحياة ولان ذلك التأخير معلوم من اضافة اليوم الى الدين مع اضافته فى السؤال الى البعث كما عرفته وفى سورة الاعراف قال أنظرنى الى يوم يبعثون قال انك من المنظرين بترك التوقيت والنداء والفاء فى الاستنظار والانظار تعويلا على ما ذكر ههنا وفى سورة ص فان ايراد كلام واحد على أساليب متعددة غير عزيز فى الكتاب العزيز

أما قوله تعالى ان علم فيهم خيرا فقد ذكروا فى الخير وجوها (أحدها) ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان علم لهم حرفة فلا تدعوهم كلا على الناس (وثانيها) قال عطاء الخير المال وقال كنت عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا أى تركا مالا قال ويلغنى ذلك عن ابن عباس (وثالثها) عن ابن سيرين قال اذا صلى وقال النخعى وفاء وصدقا وقال الحسن صلاحا فى الدين (ورابعها) قال الشافعى رحمه الله المراد بالخير الامانة والقوة على الكسب لان مقصود الكتابة انما يحصل الا بهما فانه ينبغى أن يكون كسوبا يحصل المال ويكون أمينا يصرفه فى نجومه ولا يضيعه فاذا فقد الشرطان أو أحدهما لا يستحب أن يكاتبه والاقرب أنه لا يجوز حمله على المال لوجهين (الاول) ان المفهوم من كلام الناس اذا قالوا فلان فيه خير انما يريدون به الصلاح فى الدين ولو أرادوا المال لقال ان علمتم لهم خيرا لانه انما يقال فلان مال ولا يقال فيه مال (الثانى) أن العبد لا مال له بل المال لسيده فالاولى أن يحمل على ما يعود على كتابته بالقيام وهو الذى ذكره الشافعى رحمه الله وهو أن يتمكن من الكسب ويوثق به بحفظ ذلك لان كل ذلك مما يعود على كتابته بالقيام ودخل فيه تفسير النبى صلى الله عليه وسلم الخير لانه عليه الصلاة والسلام فسره بالكسب وهو داخل فى تفسير الشافعى رحمه الله أما قوله وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اختلفوا فى المخاطب بقوله وآتوهم على وجوه (أحدها) أنهم الموالى يحط عنه جزأ من مال الكتابة أو يدفع اليه جزأ مما أخذ منه وهؤلاء اختلفوا فى قدره فمنهم من جعل الخيار له وقال يجب أن يحط قدرا يقنع به الاستغناء وذلك يختلف بكثرة المال وقلته ومنهم من قال يحط ربع الكتابة روى عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن أنه كاتب غلاما له فترك له ربع مكاتبته وقال ان عليا كان يأمرنا بذلك و يقول هو قول الله تعالى وآتوهم من مال الله الذى آتاكم فان لم يفعل فالسيد لما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كاتب عبدا له بخمس وثلاثين ألفا ووضع عنه خمسة آلاف وروى ان عمر كاتب عبدا له فاداه بنجمه فقال له اذهب فانت من به على أداء مال الكتابة فقال المكاتب لو تركته الى آخر نجم فقال انى أخاف أن لا أدرك ذلك ثم قرأ هذه الآية وكان ابن عمر يؤخره الى آخر النجوم مخافة أن يعجز (وثانيها) المراد وآتوهم سهمهم الذى جعله الله لهم من الصدقات فى قوله وفى الرقاب وهلى هذا فالخطاب لغير السادة وهو قول الحسن والنخعى ورواية عطاء عن ابن عباس وأجمعوا على أنه لا يجوز للسيد أن يدفع صدقته المفروضة الى مكاتب نفسه (وثالثها) ان هذا أمر من الله تعالى للسادة والناس أن يعينوا المكاتب على كتابته بما عليهم وهذا قول المكاتبى وعكرمة والمفاتانين والنخعى وقال عليه الصلاة والسلام من أعان مكاتبا على فك رقبته أظله الله تعالى فى ظل عرشه وروى أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم علمنى عملا يدخلنى الجنة قال لان كنت أقصرت الخطبة لقد أعظمت المسئلة أعتق النسمة وفك الرقبة فقال أليسا واحدا فقال لا عتق النسمة أن تتفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها قالوا ويؤكد هذا القول وجوه (أحدها) أنه أمر بايتاء عطائه من مال الله تعالى وما أطلق عليه هذه الاضافة فهو ما كان سببه الصدقة وصرفه فى وجوه القرب (وثانيها) أن قوله من مال الله الذى آتاكم هو الذى قد صح ملكه للمالك وأمر باخراج بعضه ومال الكتابة ليس بدين صحيح لانه على عبده والمولى لا يثبت له على عبده دين صحيح (وثالثها) ان ما آتاه الله فهو الذى يحصل فى يده و يمكنه التصرف فيه وما سقط عقيب العتق لم يحصل له عليه بد ملك فلا يستحق الصدقة أن من من مال الله الذى آتاه فهذا قيل ههنا وجهان يقدحان فى صحة هذا التأويل (أحدهما) أنه كيف يحمل هؤلاء اذا كان غنيا أن يأخذ من مال الصدقة (والثانى) ان قوله وآتوهم معطوف على قوله فكاتبوهم فيجب أن يكون المخاطب فى

وأما أن كل أسلوب من أساليب النظم الكريم لا بد أن يكون له مقام يقتضيه مغاير لمقام غيره وأن ما حكى من اللعين انما صدر عنه مرة وكذا جوابه لم يقع الا دفعة فمقام المحاورة ان اقتضى أحد الاساليب المذكورة فهو المقتضى لمقتضى المقال والبالغ الى طبقة الاعجاز وما عداه قاصر عن رتبة البلاغة فضلا عن الارتقاء الى معالم الاعجاز فقدر تحقيقه بتوفيق الله تعالى فى سورة الاعراف (الى يوم الوقت

المعلوم) وهو وقت النفخة الاولى التي علم أنه يصعق عندها من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله تعالى ويجوز أن يكون المراد بالايام واسدادا والاختلاف في العبارات لاختلاف الاعتبارات فالتعبير بيوم البعث لان غرض اللعين به يتحقق وبيوم الدين لما ذكر من الجزاء ويوم الوقت المعلوم ٣٠٨ لما ذكر أولا استئثاره تعالى بعلمه فلعل كلا من هلاك الخلق جميعا وبعثهم وجزائهم

في يوم واحد يموت اللعين في أوله ويبعث في أواسطه ويعاقب في بقيته * يروى أن بين موته وبعثه أربعين سنة من سني الدنيا مقدار ما بين النفختين ونقل عن الاحنف بن قيس رحمه الله تعالى أنه قال قدمت المدينة أريد أمير المؤمنين عمر رضي الله تعالى عنه فاذا أنا بحلقة عظيمة وكعب الاحبار فيها يحدث الناس وهو يقول لما حضر آدم عليه الصلاة والسلام الوفاة قال يارب سيشمت بي عدوي ابليس اذا رآني ميتا وهو منظراني يوم القيامة فاحب أن ما آدم انك سترد الى الجنة ويؤخر اللعين الى النظرة ليذوق ألم الموت بعدد الاولين والآخرين ثم قال لملك صف كيف تذيقه الموت فلما وصفه قال يارب حسبي فضج الناس وقالوا يا أبانا سحق كيف ذلك فأبى فألحوا فقال يقول الله سبحانه لملك الموت عقيب النفخة الاولى قد جعلت قبلك قوة أهل السموات السبع وأهل الارضين السبع وابنى أبلستك اليوم أثواب الحنط والغضب كلها فانزل بغضبي وسطوتي على رجيمي ابليس فاذقه الموت واحمل عليه فيه مرارة على الاولين والآخرين من الثقلين أضعافا مضاعفة ولكن ملك من الزبانية سبعون ألفا قد امتلؤا غيظا وغضبا ولكن مع كل منهم سلسلة من سلاسل جهنم وغل من أغلالها وانزع روحه المنتن بسبعين ألف كلاب من كلابها ونادما الكالئ فتح أبواب النيران فينزل ملك الموت

الموضعين واحدا وعلى هذا التأويل يكون الخطاب في الآية الاولى السادات وفي الثانية سائر المسلمين * قلنا أما الاول فجوابه ان تلك الصدقة تحل لمولاه وكذلك اذا لم تف الصدقة بجميع النجوم وعجز عن أداء الباقي كان للمولى ما أخذه لانه لم يأخذه بسبب الصدقة ولكن بسبب عقد الكتابة لكن اشترى الصدقة من الفقير أو وهبها منه يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في حديث بريرة هو لها صدقة ولنا هدية (والجواب عن الثاني) أنه قد يصح الخطاب للقوم ثم يعطف بمثل لفظه خطابا لغيرهم كقوله تعالى واذ طلقتم النساء فالخطاب للازواج ثم خاطب الاولياء بقوله فلا تعضلوهن وقوله مبرؤن مما يقولون والقائلون غير المخبرين فكذا ههنا قال للسادة فكاتبوهم وقال لغيرهم وآتوهم أو قال لهم ولغيرهم (المسئلة الثانية) قال الشافعي رحمه الله يجب على المولى ابتداء المكاتب وهو أن يحط عنه جزأ من مال الكتابة أو يدفع اليه جزأ مما أخذ منه وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابه انه مندوب اليه لكنه غير واجب حجة الشافعي رحمه الله ظاهر قوله وآتوهم من مال الله الذي آتاكم والامر للوجوب فيقبل عليه أن قوله فكاتبوهم وقوله آتوهم أمران ورد في صورة واحدة فلم جعلت الاول ندبا والثاني ايجابا وأيضا فقد ثبت أن قوله وآتوهم ليس خطابا مع المرالي بل مع عامة المسلمين حجة أبي حنيفة رحمه الله من حيث السنة والقياس أما السنة فاروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه عليه الصلاة والسلام قال أيما عبد كاتب على مائة أوقية فاداها الا عشر أواق فهو عبد فلو كان الحط واجبا لسقط عنه بقدره وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت جاءتني بريرة فقالت ياعائشة اني قد كاتبت أهلي على تسع أواق في كل عام أوقية فاعينيني فلم تكن قدمت من كتابتها شيأ فقالت عائشة رضي الله عنها ارجعي الى أهلك فان أحبوا أن أعطيهم ذلك جميعا ويكون ولاؤك لي فعلت فأبوا فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال لا يمنعك ذلك منها فابتاعي وأعتقي فانما الولاء لمن أعتق وجه الاستدلال انها ما قضت من كتابتها شيأ وأرادت عائشة أن تؤدي عنها كتابتها بالكلية وذكرته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وترك رسول الله النكير عليها ولم يقل انها تستحق أن يحط عنها بعض كتابتها فثبت قولنا وأما القياس فمن وجهين (الاول) لو كان الايتاء واجبا لكان وجوبه متعلقا بالعقد فيكون العقد موجبا له وموجبا له وذلك محال لتنافي الاسقاط والايجاب (الثاني) لو كان الحط واجبا لما احتاج الى أن يضع عنه بل كان يسقط القدر المستحق كما لو كان له على انسان دين ثم حصل لذلك الآخر على الاول مثله فانه يصير قصاصا ولو كان كذلك لكان قدر الايتاء اما أن يكون معلوما أو مجهولا فان كان معلوما وجب أن تكون الكتابة بالفين فيعتق اذا أدى ثلثمائة آلاف والكتابة أربعمائة آلاف وذلك باطل لان أداءجميعها مشروط فلا يعتق بأداء بعضها ولانه عليه السلام قال المكاتب عبد ما بقي عليه درهم وان كان مجهولا صارت الكتابة مجهولة لان الباقي بعد الحط مجهول فصار بمنزلة من كاتب عبده على ألف درهم الا شيأ وذلك غير جائز والله أعلم (الحكم العاشر) الاكراه على الزنا قوله تعالى ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم﴾ اعلم أنه تعالى لما بين ما يلزم من تزويج العبيد والاماء وكتابتهم أتبع ذلك بالمنع من اكراه الاماء على الفجور وههنا مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا في سبب نزولها على وجوه (الاول) كان لعبد الله بن أبي المنافق ست جوار معاذة ومسيكة وأمية وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت ثلثة منهن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزات الآية (والثاني) أن عبد الله بن أبي أمر جلا فرادا لاسير جارية عبد الله وكانت الجارية مسلمة فامتنعت الجارية لاسلامها واكرهها ابن أبي

بصورة لو نظر اليها أهل السموات والارضين لماتوا تابعة من هوله فمنهم من الى ابليس فيقول فعلى يا حبيبا لا ذيقتل الموت كم من عمر أدركت وقرون أصلت وهذا هو الوقت المعلوم قال فيقوم رب العزة الى المشرق فاذا هو بملك الموت بين عينيه فيقوم رب الى المغرب فاذا هو بين عينيه فيغوص البحار فتنزعه البحار فلا تقبله فلا يزال يهرب في الارض ولا يجد ٣٠٩ له ولا ملاذ ثم يقوم في وسط الدنيا عند

على ذلك رجاء أن تحمل من الاسير فيطلب فداء ولده فنزلت (وفاتها) روى أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال جاء عبد الله بن أبي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جارية من أجمل النساء فسمى معاذة فقال يا رسول الله هذه لا يتام فلان أفلا نأمرها بالزنا فيصيبون من مناعها فقال عليه السلام لا فأعاد الكلام فنزلت الآية قال جابر بن عبد الله جاءت جارية لبعض الناس فقالت ان سيدي يكرهني على البغاء فنزلت الآية (المسئلة الثانية) الاكراه انما يحصل متى حصل التخويف على ما يقتضي تلف النفس فاما بالتهديد من الخوف فلا تهديد مكره يحال الاكراه على الزنا كحال الاكراه على كلمة الكفر والنص وان كان مختصا بالاماء الا أن حال الحرائر كذلك (المسئلة الثالثة) العرب تقول للمملوك فتى وللمملوكة فتاة قال تعالى فلما جاوزا قال لفتاه وقال تراود فتاها وقال مما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات وفي الحديث ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي (المسئلة الرابعة) العلماء الزنا يقال بغت تبغي بغاء فهي بغي (المسئلة الخامسة) الذي نقول به أن المعلق بكلمتان على الشيء عدم عند عدم ذلك الشيء والدليل عليه اتفاق أهل اللغة على ان كلمة ان للشرط واتفاقهم على ان الشرط ما يقتضي الحكم عند انتفائه ومجموع هاتين المقدمتين اليقينيتين يوجب الحكم بأن المعلق بكلمتان على الشيء عدم عند عدم ذلك الشيء واحتج المخالف بهذه الآية فقال انه سبحانه علق المنع من الاكراه على البغاء على ارادة التحصن بكلمة ان فلو كان الاكراه كما ذكرتموه لزم أن لا يتحقق المنع من الاكراه على الزنا الا لم توجد ارادة التحصن وذلك باطل فانه سواء وجدت ارادة التحصن أو لم توجد فان المنع من الاكراه على الزنا حاصل (والجواب) لا نزاع ان ظاهر الآية يقتضي جواز الاكراه على الزنا عند عدم ارادة التحصن ولكنه قد سقط ذلك لامتناعه في نفسه لانه متى لم توجد ارادة التحصن في حقها لم تكن كارهة للزنا بحال كونها غير كارهة للزنا يمتنع اكراهها على الزنا فامتنع ذلك لامتناعه في نفسه وذاته ومن الناس من ذكر فيه جوابا آخر وهو أن غالب الحال أن الاكراه لا يحصل الا عند ارادة التحصن والكلام الوارد على سبيل الغالب لا يكون له مفهوم الخطاب كأن انتفاع يجوز في غير حالة الشقاق ولكن لما كان الغالب وقوع الطلاق في حالة الشقاق لا جرم لم يكن لقوله تعالى ان خفتم أن لا يقيما حدود الله دلالة على جواز الخلع عليه ما فيما افتدت به مفهوم ومن هذا القبيل قوله واذا ضربتم في الارض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا والقصر لا يختص بحال الخوف ولكنه سبحانه أجراه على سبيل الغالب فكذا ههنا (والجواب الثالث) معناه اذا أردن تحصنا لان القصة التي وردت الآية فيها كانت كذلك على ما روي ان جارية عبد الله بن أبي أسلمت واعتنعت عليه طلبا للعفاف فأكرهها فنزلت الآية موافقة لذلك نظيره قوله تعالى وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا أي واذا كنتم في ريب (المسئلة السادسة) أنه تعالى لما منع من اكراههن على الزنا ففيه ما يدل على أن لهم اكراههن على النكاح فليس له أن يمنع على السيد اذا رجوا بل له أن يكرهها على ذلك وهذه الدلالة دلالة دليل الخطاب أما قوله ان أردن تحصنا أي تعففا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا يعني كسبهن وأرادهن أما قوله ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم فاعلم أنه ليس في الآية أنه تعالى غفور رحيم للمكره أو للمكرهة بل جرى ذكر واقعة وبين (أحدهما) فان الله غفور رحيم بهن لان الاكراه أزال الاثم والعقوبة لان الاكراه عذر للمكره أما المكرهة فلا عذر لها فيما فعل (والثاني) المراد فان الله غفور رحيم بالمكرهة بشرط التوبة وهذا ضعيف لان على التفسير الاول لا حاجة الى هذا الاضمار وعلى التفسير الثاني يحتاج اليه ﴿ قوله تعالى ﴾ ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات ومثلا من الذين

قبر آدم ويتمرغ في التراب من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق حتى اذا كان في الموضع الذي أهبط فيه آدم عليه الصلاة والسلام وقد نسيت له الزبانية الحكاك ليلب وصارت الارض كالجمرة احتوشته الزبانية وطوقوه بالكلاليب ويسوقون في المنزع والعذاب الى حيث يشاء الله تعالى ويقال لآدم وحواء اطلعا اليوم الى عدوكما حيث يذوق الموت فيطلعان فينظران الى ما هو فيه من شدة العذاب فيقولان ربنا أعنت علينا نفسك (قال رب بما أغويتني) الباء للقسم وما مصدرية والجواب (لازينن لهم) أي أقسم باغوائك اياي لازينن لهم المعاصي (في الارض) أي في الدنيا التي هي دار الغرور كقوله تعالى أخلد الى الارض واقسامه بعزة الله المقسم بسلطانه وقهره لاغوائي أقسامه بهذا فانه فرع من فروعها وأثر من آثارها فاقسم بها وبما هو أعظم منها كما يحكى عن تارة أنه

بهذا وأحرى بذلك أو للسببية وقوله لازينن جواب قسم محذوف والمعنى بسبب تسبيلك لاغوائي أقسم لافعلن بهم مثل ما فعلت بي من التسبيب لاغوائهم بتزيين المعاصي وتسويل الاباطيل والمعتزلة أولوا الاغواء بالتسمية الى النبي أو التسبيب له بأمر الله بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام واعتذروا عن امهال الله تعالى وتسليطه له على اغواء بني آدم بأنه تعالى قد علم منه ومن تبعه أنهم يموتون على

الكفر ويصيرون الى النار أم لم يعمل وان في امهاله تعريضا لمن خلفه لاستحقاق مزيد الثواب (ولاغوينهم أجمعين) لاحملنهم على الغواية (الا عبادك منهم المخلصين) الذين أخلصتهم لطاعتك وطهرتهم من الشوائب فلا يعمل فيهم كيدي وقرئ بكسر اللام أي الذين أخلصوا نفوسهم لله تعالى ٣١٠ (قال هذا صراط) أي حق (علي) أن أراعيه (مستقيم) لا عوج فيه والاشارة الى ما تضمنه

الاستثناء وهو تخلص المخلصين من اغوائه أو الاخلاص على معنى أنه طريق يؤدي الى الوصول الى من غير اعوجاج وضلال والاظهر أن ذلك لما وقع في عباده ابليس حيث قال لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم الآية وقرئ علي من علو الشرف (ان عبادي) وهم المشار اليهم بالمخلصين (ليس لك عليهم سلطان) تسلط وتصرف بالاغواء (الا من اتبعك من الغاوين) وفيه مع كونه تحقيقا لما قاله المحسنين تفخيم لشأن المخلصين وبيان لمنزلتهم ولانقطاع مخالب الاغواء عنهم وأن اغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم (وان جهنم لموعدهم) أي موعد المتبعين أو الغاوين والاول أنسب وأدخل في الزجر عن اتباعه وفيه دلالة على أن جهنم مكان الموعود وأن الموعود بها لا يوصف في الظاهر (أجمعين) تأكيد للضمير أو حال والعامل فيها الموعد أن جعل مصدرا على تقدير المضاف أو معنى الاضافة ان جعل اسم مكان (لها سبعة أبواب) يدخلونها الكثرتهم أو سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في الغواية والمتابعة وهي جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية (لكل باب منهم) من الاتباع أو الغواة (جزء مقسوم) حزب معين مفرز من غيره حسب

خلوا من قبلكم وعظة للمتقين) اعلم أنه سبحانه لما ذكر في هذه السورة هذه الاحكام ووصف القرآن بصفات ثلاثة (أحدها) قوله وانا قد أنزلنا اليكم آيات مبينات أي مفصلات وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم مبينات بكسر الباء على معنى انها تبين للناس كما قال بلسان عربي مبين أو تكون من بين بمعنى تبين ومنه المثل قد بين الصبح لذي عينين (وثانيها) قوله ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وفيه وجهان (أحدهما) أنه تعالى يريد بالمثل ما ذكر في التوراة والانجيل من اقامة الحدود فأنزل في القرآن مثله وهو قوله الفحشاء (والثاني) قوله ومثلا أي شبها من حالهم بحالكم في تكذيب الرسل يعني بينا لكم ما آل اليهم من العقاب أثر دهم على الله تعالى فحذرناكم ذلك لئلا تكونوا مثلهم وأشار الى أن قصتهم في المعصية كقصتهم في استحقاق العقاب وهو قول مقاتل (وثالثها) قوله وموعظة للمتقين والمراد به الوعيد والتحذير من فعل المعاصي ولا شبهة في أنه موعظة للكل لكنه تعالى خص المتقين بالذكر لعلمه انهم الذين ذكرناها في قوله هدى للمتقين وههنا آخر الكلام في الاحكام * القول في الالهيات اعلم أنه تعالى ذكر هاهنا في قوله (أحدهما) في بيان أن دلائل الايمان في غاية الظهور (الثاني) في بيان أن أديان الكفرة في نهاية الظلمة والخفاء * أما المثل الاول فهو قوله سبحانه وتعالى (الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم) اعلم أن الكلام في هذه الآية مرتب على فصول

(الفصل الاول في اطلاق اسم النور على الله تعالى) اعلم أن لفظ النور موضوع في اللغة لهذه الكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على الارض والجدران وغيرهما وهذه الكيفية يستحيل أن تكون الها لوجوه (أحدها) أن هذه الكيفية لو كانت عبارة عن الجسم كان الدليل الدال على حدوث الجسم دالا على حدوثها وان كانت عرضا فقد ثبت حدوث الجسم لزم حدوث جميع الاعراض القائمة به ولكن هذه المقدمة انما ثبت بعد اقامة الدلالة على أن الحلول على الله تعالى محال (وثانيها) انا سواء قلنا النور جسم أو امر حال في الجسم فهو منقسم لانه ان كان جسما فلا شك في أنه منقسم وان كان حالا فيه فالحال في المنقسم منقسم وعلى التقديرين فالنور منقسم وكل منقسم فانه يفتقر في تحققه الى تحقق أجزائه وكل واحد من أجزائه غيره وكل مفتقر فهو في تحققه مفتقر الى غيره والمفتقر الى الغير ممكن لذاته محدث بغيره فالنور محدث فلا يكون الها (وثالثها) أن هذا النور المحسوس لو كان هو الله لوجب أن لا يزول هذا النور لامتناع الزوال على الله تعالى (ورابعها) أن هذا النور المحسوس يقع بطلوع الشمس والكواكب وذلك على الله محال (وخامسها) أن هذه الانوار لو كانت أزلية لكانت اما أن تكون متحركة أو ساكنة لا جائز أن تكون متحركة لان الحركة معناها الانتقال من مكان الى مكان فالمتحرك مسبوقة بالحصول في المكان الاول والازلي يمتنع أن يكون مسبوقا بالغير فالمتحرك الازلية محال ولا جائز أن تكون ساكنة لان الساكن لو كان أزليا لكان يمتنع الزوال ولكن الكوكب جائز الزوال لانا نرى الانوار تنتقل من مكان الى مكان فدل ذلك على حدوث الانوار (وسادسها) أن النور اما أن يكون جسما أو كيفية قائمة بالجسم والاول محال لانا قد نعقل الجسم جسما مع الذهول عن كونه نيرا ولان الجسم قد يستنير بعد أن كان مظلما فثبت الثاني لكن الكيفية القائمة بالجسم محتاجة الى الجسم والمحتاج الى الغير لا يكون الها وبمجموع هذه الدلائل يبطل قول المانوية الذين يعتقدون أن الاله سبحانه هو النور الاعظم وأما المجسمة المعترفون بحصة

يقتضيه استعداده فأعلاها للموحدين والثانية لليهود والثالثة للنصارى والرابعة للصابئين والخامسة للمجوس والسادسة للمشركين والسابعة للمنافقين وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انه سئل عمن ادعى الربوبية فأتى لعبده النار والطعام لعبدة الاصنام وسقر لليهود والسعير للنصارى والجحيم للصابئين والهاوية للموحدين ولعل حصرها في السبع ٣١١ لانحصار المهالك في المحسوسات

القرآن فيصح على فساد قولهم بوحدين (الاول) قوله ليس كمثله شئ ولو كان نور السماوات ذلك لان الانوار كلها متماثلة (الثاني) أن قوله تعالى مثل نوره مبتدأ في أنه ليس ذاته نفس النور بل النور مضاف اليه وكذا قوله يهدي الله لنوره من يشاء فان قيل قوله الله نور السموات يقتضي ظاهره أنه في ذاته نور وقوله مثل نوره يقتضي أن لا يكون هو في ذاته نورا وبينهما تناقض قلنا ظاهر هذه الآية قولك لزيد كرم وجوده ثم تقول بعض الناس بكرمه وجوده وعلى هذا الطريق لا تناقض (الثالث) قوله سبحانه وتعالى وجعل الظلمات والنور وذلك صريح في أن ماهية النور مجعولة لله تعالى فيستحيل أن يكون الاله نورا فثبت أنه لا بد من التأويل والعلماء ذكروا فيه وجوها (أحدها) أن النور سبب للظهور والهداية لما شاركت النور في هذا المعنى صح اطلاق اسم النور على الهداية وهو كقوله تعالى الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور وقوله أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا وقال ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا فقوله الله نور السموات والارض أي ذو نور السموات والارض والنور هو الهداية ولا تحصل الا لاهل السموات والحاصل أن المراد الله هادي أهل السموات والارض وهو قول ابن عباس رضي الله عنهم (وثانيها) المراد أنه مدبر السموات والارض محكمة بالغة وحكمة غيره فوصف نفسه بذلك كما يوصف الرئيس العالم بأنه نور البلد فانه اذا كان هديهم تدبيرا حسنا فهو لهم كالنور الذي يهتدي به في مسالك الطرق قال جرير * وأنت لها نور وغيث وعصمة * وهذا اختيار الاصم والزجاج (وثالثها) المراد نظم السموات والارض على الترتيب الاحسن فانه قد يعبر بالنور عن النظام يقال ما أرى لهذا الامر نورا (ورابعها) سمي منور السموات والارض ثم ذكر وا في هذا القول ثلاثة أوجه (أحدها) أنه منور السماء بالملائكة والارض بالانبياء (والثاني) منورها بالشمس والقمر والكواكب (والثالث) أنه زين السماء بالشمس والقمر والكواكب وزين الارض بالانبياء والعلماء وهو مروي عن أبي بن كعب والحسن وأبي العالية والاقرب هو القول الاول لان قوله في آخر الآية يهدي الله لنوره من يشاء يدل على أن المراد بالنور الهداية بالعلم والعمل * واعلم أن الشيخ الغزالي رحمه الله صنف في تفسير هذه الآية الكتاب المسمى بمشكاة الانوار وزعم أن الله نور في الحقيقة بل ليس النور الا هو وأنا أنقل محصل ما ذكره مع زوائد كثيرة تقوى كلامه ثم نتظر في صحته وفساده على سبيل الانصاف فقال اسم النور اما وضع للكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على ظواهر هذه الاجسام الكثيفة فيقال استنارت الارض ووقع نور الشمس على الثوب ونور السراج على الحائط ومعلوم أن هذه الكيفية انما اختصت بالفضيلة والشرف لان المرئيات تصير بسببها ظاهرة مضيئة ثم من المعلوم أنه كما يتوقف ادراك هذه المرئيات على كونها مستنيرة فكذا يتوقف على وجود العين الباصرة اذ المرئيات بعد استنارتها لا تكون ظاهرة في حق العميان فتساوى الروح الباصرة النور الظاهر في كونه مدركا لا بد منه للظهور ثم يرجع عليه في أن الروح الباصرة هي المدركة بها الادراك وأما النور الخارج فليس بمدرك ولا به الادراك بل على عنده الادراك فكان وصف الاظهار بالنور الباصر أحق منه بالنور المبصر فلا جرم أطلقوا اسم النور على نور العين المبصرة فقالوا في الخفاش ان نور عينه ضعيف وفي الاعمش انه ضعف نور بصره وفي أعمى انه فقد نور البصر اذا ثبت هذا فنقول ان للانسان بصرا وبصيرة فالبصيرة والعين الظاهرة المدركة للاضواء والالوان والبصيرة هي القوة العاقلة وكل واحد من الادراكين يقتضي ظهورا للمدرك فكل واحد من الادراكين نورا لا أنهم عدوا النور العين عدوا بالم يحصل شيئا مما في نور العقل والغزالي رحمه الله تعالى ذكر منها سبعة ونحن جعلناها عشرين (الاول) أن

بالحواس الخمس ومقتضيات القوة الشهوية والغضبية وقرئ بضم الراء وجعف بالهمزة والقاء حركتها الى ما قبلها مع تشديدها في الوقف والوصل ومعنى حال من جزء أو من ضميره في الظرف لانه في المقسوم لان الصفة لا تعمل فيما تقدم موصوفها (ان المتقين) من اتباعه في الكفر والفواحش فان غيرها محتضر (في جنات وعيون) أي مستقرين فيها خالدين لكل واحد منهم جنته وعين أو لكل منهم عدة منهما كقوله تعالى وان خاف مقام ربه جنتان وقرئ بكسر العين حيث وقع في القرآن العظيم (ادخلوها) على ارادة القول أمرا من الله تعالى لهم بالدخول وقرئ أدخلوها أمرا منه تعالى للملائكة بادخالهم وقرأ الحسن أدخلوها مبنيا للمفعول على صيغة الماضي من الادخال (بسلام) ملتبسين بسلام أي سالمين أو مسلما عليكم (آمنين) من الآفات والزوال (ونزعنا ما في

صدورهم من غل) أي حقد كان في الدنيا وعن علي رضي الله تعالى عنه أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين (اخوانا) حال من الضمير في قوله تعالى في جنات أو من فاعل ادخلوها أو من الضمير في آمنين أو الضمير المضاف اليه والعامل فيه معنى الاضافة وكذلك قوله تعالى (على سرر متقابلين) ويجوز كونهما صفتين لاخوانا أو حالين من ضميره لانه بمعنى

القوة الباصرة لا تدرك نفسها ولا تدرك ادراكها ولا تدرك أنها أما أنها لا تدرك نفسها ولا تدرك ادراكها فلان القوة الباصرة غير ادراك القوة الباصرة لنفسها من الامور المبصرة بالعين المبصرة وأما أنها فهي العين والقوة الباصرة بالعين لا تدرك العين وأما القوة العاقلة فانها تدرك نفسها وتدرك ادراكها وتدرك أنها في الادراك وهي القلب والدماغ فثبت أن نور العقل أكمل من نور البصر (الثاني) أن القوة الباصرة لا تدرك الكليات والقوة العاقلة تدركها وهو القياس الكليات وهو القياس أشرف من مدرك الجزئيات أما أن القوة الباصرة لا تدرك الكليات فلان القوة الباصرة لو أدركت كل ما في الوجود فهي ما أدركت الكل لان الكل عبارة عن كل ما يمكن دخوله في الوجود في الماضي والحاضر والمستقبل وأما أن القوة العاقلة تدرك الكليات فلانا نعرف أن الاشخاص الانسانية مشتركة في الانسانية ومتمايزة بخصوصيات تهاويها المشاركة غير ما به المتمايز فالانسانية من حيث هي انسانية أمر مغاير لهذه المشخصات فقد عقلنا الماهية الكلية وأما أن ادراك الكليات أشرف فلان ادراك الكليات يمنع التغير وادراك الجزئيات واجب التغير ولان ادراك الكلي يقتضي ادراك الجزئيات الواقعة تحته لان ما ثبتت الماهية ثبت لجميع أفرادها ولا ينعكس فثبت أن الادراك العقلي أشرف (الثالث) الادراك الحسي غير منتج والادراك العقلي منتج فوجب أن يكون العقل أشرف أما كون الادراك الحسي غير منتج فلان من أحس بشيء لا يكون ذلك الاحساس سببا لحصول احساس آخر له بل لو استعمل له الحس مرة أخرى لا يحس به مرة أخرى ولكن ذلك لا يكون انتاج الاحساس لاحساس آخر وأما أن الادراك العقلي منتج فلانا اذا عقلنا أمورا ثم ركبنا ما في عقولنا تولد لنا بتركيبها الى اكتساب علوم أخر وهكذا كل تعقل حاصل فانه يمكن التوصل به الى تحصيل تعقل آخر الى ما لا نهاية له فثبت أن الادراك العقلي أشرف (الرابع) الادراك الحسي لا يتسع للامور الكثيرة والادراك العقلي يتسع لها فوجب أن يكون الادراك العقلي أشرف أما أن الادراك الحسي لا يتسع لها فلان البصر اذا توالى عليه ألوان كثيرة عجز عن تمييزها فاذا درك لونا كان حاصلا من اختلاط تلك الالوان السمع اذا توالت عليه كلمات كثيرة التبست عليه تلك الكلمات ولم يحصل التمييز وأما أن الادراك العقلي متسع لها فلان كل من كان تحصيله للعلوم أكثر كانت قدرته على كسب المزيد أسهل وبالعكس وذلك يوجب الحكم بأن الادراك العقلي أشرف (الخامس) القوة الحسية اذا أدركت المحسوسات القوية ففي ذلك الوقت تعجز عن ادراك الضعيفة فان من سمع الصوت الشديد ففي تلك الحالة لا يمكنه أن يسمع الصوت الضعيف والقوة العقلية لا يشغلها المعقول عن معقول (السادس) القوى الحسية تضعف بعد الاربعين وتضعف عند كثرة الافكار التي هي موجبة لاستيلاء النفس على البدن الذي هو موجب لخراب البدن والقوى العقلية تقوى بعد الاربعين وتقوى عند كثرة الافكار الموجبة لخراب البدن فدل ذلك على استغناء القوة العقلية عن هذه الآلات واحتياج القوى الحسية اليها (السابع) القوة الباصرة لا تدرك المرئي مع القرب القريب ولا مع البعد البعيد والقوة العقلية لا يختلف حالها بحسب القرب والبعد فانها تترقى الى ما فوق العرش وتنزل الى ما تحت الثرى في أقل من لحظة واحدة بل تدرك ذات الله وصفاته مع كونه منزها عن القرب والبعد والجهة فكانت القوة العقلية أشرف (الثامن) القوة الحسية لا تدرك من الاشياء الا ظواهرها فاذا أدركت الانسان فهي في الحقيقة ما أدركت الانسان لانها ما أدركت الا السطح الظاهر من جسمه والا للون القائم بذلك السطح وبالاتفاق فليس الانسان عبارة عن مجرد السطح واللون فالقوة الباصرة عاجزة عن النفوذ في الباطن أما القوة العاقلة فان باطن الاشياء

متقابلين (وما هم منها بمخرجين) أبدا لان تمام النعمة بالخلود (نبئ عبادي) وهم الذين عبر عنهم بالمتقين (أني أنا الغفور الرحيم وان عذابي هو العذاب الاليم) فذلكة لما سلف من الوعد والوعيد وتقرير له وفي ذكر المغفرة اشعار بان ليس المراد بالمتقين من بلغ في جميع الذنوب كبيرها وصغيرها وفي وصف ذاته تعالى بها وبالرحمة على وجه القصر دون التعذيب ايذان بانهما مما يقتضيهما الذات وان العذاب انما يتحقق بما يوجبه من خارج (ونبئهم) عطف على نبئ عبادي والمقصود اعتبارهم بما جرى عليه ابراهيم عليه الصلاة والسلام مع أهله من البشرى في قضاء سيف الخوف وبما حل بقوم لوط من العذاب وخلاته عليه الصلاة والسلام مع أهله الماضين له في ضمن الخوف وتثبيتهم بحلول انتقامه تعالى من المجرمين وعلمهم بان عذاب الله هو العذاب الاليم (عن ضيف ابراهيم) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انهم جبريل عليه الصلاة والسلام وملكان معه وقال محمد وظاهرها

ابن كعب وسبعة معه وقيل جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم الصلاة والسلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن السدي كانوا أحد عشر على صور الغلمان الرضاء وجوههم وعن مقاتل أنهم كانوا اثني عشر ملكا وانما لم يتعرض لعنوان رسالتهم لانهم لم يكونوا مرسلين الى ابراهيم

عليه الصلاة والسلام بل الى قوم لوط حسبما يأتي ذكره (اذ دخلوا عليه) نصب بفعل مضمر مطوف على نبئ أي واذكر وقت دخولهم عليه أو خبر مقدر مضاف الى ضيف أي خبر ضيف ابراهيم حين دخولهم عليه أو بنفس ضيف على أنه مصدر في الاصل (فقالوا) عند ذلك (سلاما) أي نسلم سلاما أو سلمنا سلاما (قال انا منكم وجلون) أي خائفون ٣١٢ قال أبو حيان اضطراب النفس لتوقع

وظاهرها بالنسبة اليها على السواء انها تدرك البواطن والظواهر وتعرض فيها وفي أجزائها فكانت القوة العاقلة نورا بالنسبة الى الباطن والظاهر أما القوة الباصرة فهي بالنسبة الى الظاهر نور وبالنسبة الى الباطن ظلمة فكانت القوة العاقلة أشرف من القوة الباصرة (التاسع) ان مدرك القوة العاقلة هو الله تعالى وجميع أفعاله ومدرك القوة الباصرة هو الالوان والاشكال فوجب أن تكون نسبة شرف القوة العاقلة الى شرف القوة الباصرة كنسبة شرف ذات الله تعالى الى شرف الالوان والاشكال (العاشر) القوة العاقلة تدرك جميع الموجودات والمعدومات والماهيات التي هي معروضات الموجودات والمعدومات ولذلك فان أول حكمه أن الوجود والعدم لا يجتمعان ولا يرتفعان وذلك مسبوق لا محالة بتصورهما اي الوجود وسمي العدم فكأنه بهذين التصورين قد أحاط بجميع الامور من بعض الوجوه وأما القوة الباصرة فانها لا تدرك الا الاضواء والالوان وهما من أخس عوارض الاجسام والاجسام أخس من الجواهر الروحانية فكان متعلق القوة الباصرة أخس الموجودات وأما متعلق القوة العاقلة فهو جميع الموجودات والمعدومات فكانت القوة العاقلة أشرف (الحادي عشر) القوة العاقلة تقوى على توحيد الكثير وتكثير الواحد والقوة الباصرة لا تقوى على ذلك أما أن القوة العاقلة تقوى على توحيد الكثير فذلك لانها تضم الجنس الى الفصل فيحدث منهما طبيعة نوعية واحدة وأما أنها تقوى على تكثير الواحد فلانها تأخذ الانسان وهي ماهية واحدة فتقسمها الى مفهوم ماهيتها والى عوارضها اللازمة وعوارضها المفارقة ثم تقسم مقولاته الى الجنس وجنس الجنس والفصل وفصل الفصل وجنس الفصل وفصل الجنس والى سائر الاجزاء المقومة التي لا تنقسم الى الاجناس ولا من الفصول ثم لا تزال تأتي بهذا التقسيم في كل واحد من هذه الاقسام حتى تنتهي من تلك المركبات الى البسائط الحقيقية ثم تعتبر في العوارض اللازمة أن تلك العوارض مفردة أو مركبة ولازمة لبسائط أو لوسط أو لغير وسط فالقوة العاقلة كانها نفذت في اعماق الماهيات وتغلغلت فيها وميزت كل واحد من أجزائها عن صاحبه وأزلت كل واحد منها الى المكان اللائق به فاما القوة الباصرة فلا تطلع على أحوال الماهيات بل لا ترى الا أمرا واحدا ولا تدري ما هو وكيف هو فظهر أن القوة العاقلة أشرف (الثاني عشر) القوة العاقلة تقوى على ادراك غير متناهية والقوة الباصرة لا تقوى على ذلك بيان الاول من وجوه (الاول) القوة العاقلة يمكنها أن تتوسل بالمعارف الحاضرة الى استنتاج المجهولات ثم انها تجعل تلك النتائج مقدمات في نتائج أخرى لا الى نهاية وقد عرفت أن القوة الحاسة لا تقوى على الاستنتاج أصلا (الثاني) أن القوة العاقلة تقوى على تعقل مراتب الاعداد ولا نهاية لها (الثالث) أن القوة العاقلة يمكنها أن تعقل نفسها وان تعقل انها عقلت وكذا الى غير النهاية (الرابع) النسب والاضافات غير متناهية وهي معقولة لا محسوسة فظهر أن القوة العاقلة أشرف (الثالث عشر) الانسان بقوته العاقلة يشارك الله تعالى في ادراك الحقائق وبقوته الحاسة يشارك البهائم والنسبة المعتبرة فكانت القوة العاقلة أشرف (الرابع عشر) القوة العاقلة غنية في ادراكها العقلي عن وجود المعقول في الخارج والقوة الحاسة محتاجة في ادراكها الحسي الى وجود المحسوس في الخارج والغني أشرف من المحتاج (الخامس عشر) هذه الموجودات الخارجية ممكنة لذواتها وانها محتاجة الى الفاعل والفاعل لا يمكنه الايجاد على سبيل الاتقان الا بعد تقدم العلم فاذن وجود هذه الاشياء في الخارج تابع لادراك العقل وأما الاحساس بها فلا شك أنه تابع لوجودها في الخارج فاذن القوة الحساسة تبع لتبع القوة العاقلة (السادس عشر) القوة العاقلة غير محتاجة في العقل الى الآلات بدليل أن الانسان لو اختلت حواسه

أهله في عافية وسلامة زمانا طويلا (بغلام) هو اسحق عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى فبشرناها باسحق ولم يتعرض ههنا لبشارة يعقوب عليه الصلاة والسلام اكتفاء بما ذكر في سورة هود (عليم) اذا بلغ وفي موضع آخر بغلام حليم (قال أبشرتموني) بذلك (على أن مسني الكبر) وأثر فيّ تعجب عليه الصلاة السلام من بشارتهم بالولد في حالة مباينة للولادة وزاد في ذلك

فقال (فبم تبشرون) أى بأى أعجوبة تبشرونني فان البشارة بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شئ أو بأى طريقة تبشرونني وقرئ بتشديد النون المكسورة على ادغام نون الجمع فى نون الوقاية (قالوا بشرناك بالحق) أى بما يكون لا محالة أو باليقين الذى لا لبس فيه أو بطريقة هى حق وهو أمر الله تعالى ٣١٤ وقوله (فلا تكن من القانطين) من الآيسين من ذلك فان الله قادر على أن يخلق بشرا بغير أبوين فكيف من شيخ فان ومجوز عاقر وقرئ من القنطين وكان مقصده عليه الصلاة والسلام استعظام نعمته تعالى عليه فى ضمن التعجب العادى المبنى على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده لا استبعاد ذلك بالنسبة الى قدرته سبحانه كما ينبئ عنه قول الملائكة فلا تكن من القانطين دون أن يقولوا من المتعذرين أو نحوه (قال ومن يقنط) استفهام انكارى أى لا يقنط (من رحمة ربه الا الضالون) المخطئون طريق المعرفة والصواب فلا يعرفون سعة رحمته وكمال علمه وقدرته كما قال يعقوب عليه الصلاة والسلام لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ومراده نفى القنوط عن نفسه على أبلغ وجه أى ليس بى قنوط من رحمته تعالى وانما الذى أقول لبيان منافاة حالى لفيضان تلك النعمة الجليلة على وفق التعريض لوصف الربوبية بالرحمة مالا يخفى من المزلة وقرئ بضم النون وبكسرها من قنط بالفتح ولم تكن هذه المفاوضة من الملائكة مع ابراهيم عليه الصلاة والسلام خاصة بل مع سارة أيضا حسبما شرح فى سورة هود ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بما ذكر هناك كأنه لم يذكر هذه هنالك اكتفاء بما ذكر ههنا (قال) أى ابراهيم عليه الصلاة والسلام وتوسيطه بين قوله السابق وبين قوله (فما خطبكم) أى أمركم وشأنكم الخطير الذى لا يبرح

الحس فانه يعقل أن الواحد نصف الاثنين وأن الاشياء المساوية لشئ واحد متساوية وأما القوة الحساسة فانها محتاجة الى آلات كثيرة والغنى أفضل من المحتاج (السابع عشر) الادراك البصرى لا يحصل الا للشئ الذى فى الجهات ثم انه غير متصرف فى كل الجهات بل لا يتناول الا المقابل أو ما هو فى حكم المقابل واحترزنا بقولنا فى حكم المقابل عن أمور أربعة (الاول) العرض فانه ليس بمقابل لانه ليس فى المكان ولكنه فى حكم المقابل لاجل كونه قائما بالجسم الذى هو مقابل (الثانى) رؤية الوجه فى المرآة فان الشعاع يخرج من العين الى المرآة ثم يرتد منها الى الوجه فيصير الوجه مرئيا وهو من هذا الاعتبار كالمقابل لنفسه (الثالث) رؤية الانسان قفاه اذا جعل احدى المرآتين محاذية لوجهه والاخرى لقفاه (والرابع) رؤية ما لا يقابل بسبب انعطاف الشعاع فى الرطوبات كما هو مشروح فى كتب المناظر وأما القوة العاقلة فانها مجردة عن الجهات فانها تعقل الجهة والجهة ليست فى الجهة ولذلك تعقل أن الشئ اما أن يكون فى الجهة واما أن لا يكون فى الجهة وهذا التردد لا يصح الا بعد تعقل معنى قولنا ليس فى الجهة (الثامن عشر) القوة الباصرة تحجز عند الحجاب وأما القوة العاقلة فانها لا تحجبها شئ أصلا فكانت أشرف (التاسع عشر) القوة العاقلة كالامير والخادمة كالخادم والامير أشرف من الخادم وتقرير الامارة والخدمة مشهور (العشرون) القوة الباصرة قد تغلط كثيرا فانها قد تدرك المتحرك ساكنا وبالعكس كالجالس فى السفينة فانه قد يدرك السفينة المتحركة ساكنة والنشط الساكن متحركا ولولا العقل لما تميز خطأ البصر عن صوابه والعقل حاكم والحس محكوم ثبت بما ذكرنا أن الادراك العقلى أشرف من الادراك البصرى وكل واحد من الادراكين يقتضى الظهور الذى هو أشرف خواص النور فكان الادراك العقلى أولى بكونه نورا من الادراك البصرى واذا ثبت هذا فنقول هذه الانوار العقلية قسمان (أحدهما) واجب الحصول عند سلامة الاحوال وهى التعقلات الفطرية (والثانى) ما يكون مكتسبا وهى التعقلات النظرية أما الفطرية فليست هى من لوازم جوهر الانسان لانه حال الطفولية لم يكن عالما البتة فهذه الانوار الفطرية انما حصلت بعد أن لم تكن فلا بد لها من سبب وأما النظريات فمعلوم أن الفطرة الانسانية قد يعتريها الزيغ فى الاكثر واذا كان كذلك فلا بد من هاد مرشد ولا مرشد فوق كلام الله تعالى وفوق ارشاد الانبياء فيكون بمنزلة آيات القرآن نورا عند عين العقل بمنزلة نور الشمس عند العين الباصرة اذ به يتم الابصار فلا جرم أن يسمى القرآن نورا كما يسمى نور الشمس نورا فنور القرآن يشبه نور الشمس ونور العقل يشبه نور اليمن وبهذا يظهر معنى قوله فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا وقوله قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا واذا ثبت أن بيان الرسول أقوى من نور الشمس وجب أن يكون نفسه القدسية أعظم فى النورانية من الشمس وكما أن الشمس فى عالم الاجسام تفيد النور لغيره ولا تستفيد هو من غيره فكذا نفس النبى صلى الله عليه وسلم تفيد الانوار العقلية لسائر الانفس البشرية ولا تستفيد الانوار العقلية من شئ من الانفس البشرية فلذلك وصف الله تعالى الشمس بانها سراج حيث قال وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ووصف صلى الله عليه وسلم بانه سراج منير اذا عرفت هذا فنقول ثبت بالشواهد العقلية والنقلية أن الانوار الحاصلة فى أرواح الانبياء عليهم الصلاة والسلام مقتبسة من الانوار الحاصلة فى أرواح الملائكة قال تعالى ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده وقال نزل به الروح الامين على قلبك وقال قل نزله روح القدس من ربك بالحق وقال تعالى ان هو الا وحى يوحى علمه شديد القوى والوحى لا يكون الا بواسطة الملائكة فاذا جعلنا أرواح الانبياء أعظم استنارة من الشمس فأرواح الملائكة التى هى كالمعادن لانوار عقول الانبياء

أرسلتم سوى البشارة (أيها المرسلون) صريح في أن بينهم ما هالة مطوية لهم أشير بها الى مكانها كما في قوله تعالى قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي الآية فان قوله الا خبر ليس موصولا بقوله الاول بل هو مبني على قوله تعالى فاخرج منها فانك رجيم فان توسيط قال بين قوله لا بد ان يعدم اتصال الثاني بالاول وعدم ابتنائه عليه ٣١٥ بل على غيره ثم خطابه لهم عليهم

لا بد وأن تكون أعظم من أنوار أرواح الانبياء لان السبب لا بد وأن يكون أقوى من المسبب ثم نقول ثبت أيضا بالبراهين العقلية والنقلية أن الارواح السماوية مختلفة فبعضها مستفيدة وبعضها مفيدة قال تعالى في وصف جبريل عليه السلام مطاع ثم أمين واذا كان هو مطاع الملائكة فالمطيعون لا بد وأن يكونوا تحت أمره وقال وما منا الا له مقام معلوم واذا ثبت هذا فالمفيد أولى بان يكون نورا من المستفيد للعلة المذكورة وفراتب الانوار في عالم الارواح مثال وهو أن ضوء الشمس اذا وصل الى القمر ثم دخل في كوة بيت ووقع على مرآة منصوبة على حائط ثم انعكس منها الى حائط آخر نصب عليه مرآة أخرى ثم انعكس منها الى طشت مملوء من الماء موضوع على الارض ثم انعكس منه الى سقف البيت فالنور الاعظم في الشمس انما هي المعدن (وثانيا) في القمر (وثالثا) ما وصل الى المرآة الاولى (ورابعا) ما وصل الى المرآة الثانية (وخامسا) ما وصل الى الماء (وسادسا) ما وصل الى السقف وكل ما كان أقرب الى المنبع الاول فانه أقوى مما هو أبعد منه فكذا الأنوار السماوية لما كانت مرتبة لا جرم كان نور المفيد أشد اشراقا من نور المستفيد ثم تلك الانوار لا تزال تكون مترتبة حتى تنتهي الى النور الاعظم والروح الذي هو أعظم الارواح وأجلها عند الله الذي هو المراد من قوله سبحانه يوم يقوم الروح والملائكة صفا ثم نقول لا شك ان هذه الانوار الحسية ان كانت سفلية كانت كانوار النيران أو علوية كانت كانوار الشمس والقمر والكواكب وكذا الانوار العقلية سفلية كانت كالارواح السفلية التي للانبياء والاولياء أو علوية كالارواح العلوية التي هي الملائكة فانها بأسرها ممكنة لذواتها والممكن لذاته يستحق العدم من ذاته والوجود من غيره والعدم هو الظلمة الحاصلة والوجود هو النور فكل ما سوى الله مظلم لذاته مستنير بانارة الله تعالى وكذا جميع معارفها بعد وجودها حاصل من وجود الله تعالى فالحق سبحانه هو الذي أظهرها بالوجود بعد ان كانت في ظلمات العدم وأفاض عليها أنوار المعارف بعد ان كانت في ظلمات الجهالة فلا ظهور لشيء من الاشياء الا باظهاره وخاصة النور اعطاء الاظهار والتجلي والانكشاف وعند هذا ظهر ان النور المطلق هو الله سبحانه وان اطلاق النور على غيره مجاز اذ كل ما سوى الله فانه من حيث هو هو ظلمة محضة لانه من حيث انه هو عدم محض بل الانوار اذا نظرنا اليها من حيث هي هي فهي ظلمات لانها من حيث هي هي ممكنات والممكن من حيث هو هو معدوم والمعدوم مظلم فالنور اذا نظرا اليه من حيث هو هو ظلمة فاما اذا التفت اليها من حيث ان الحق سبحانه أفاض عليها النور الوجود فبهذا الاعتبار صارت أنوارا فثبت انه سبحانه هو النور وان كل ما سواه فليس بنور الا على سبيل المجاز ثم انه رحمه الله تكلم بعده في أمرين (الاول) انه سبحانه لم أضاف النور الى السموات والارض وأجاب فقال قد عرفت أن السموات والارض مشحونة بالانوار العقلية والانوار الحسية أما الحسية فباشاهد في السموات من الكواكب والشمس والقمر وما شاهد في الارض من الاشعة المنبسطة على سطوح الاجسام حتى ظهرت بها الالوان المختلفة ولولاها لم يكن للالوان ظهور بل وجود وأما الانوار العقلية فالعالم الاعلى مشحون بها وهي جواهر الملائكة والعالم الاسفل مشحون بها وهي القوى النباتية والحيوانية والانسانية وبالنور الانسي السفلي ظهر نظام عالم الاسفل كما بالنور الملكي ظهر نظام عالم العلو وهو المعني بقوله تعالى ليستخلفنهم في الارض وقال ويجعلكم خلفاء الارض فاذا عرفت هذا عرفت ان العالم بأسره مشحون بالانوار الظاهرة البصرية والباطنة العقلية ثم عرفت أن السفلية قائمة بعضها من بعض فيضان النور من السراج فان السراج هو الروح النبوي ثم ان الانوار النبوية القدسية مقتبسة من الارواح العلوية اقتباس السراج من النور وان العلويات مقتبسة بعضها من بعض

الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بعد ما كان خطابه السابق مجردا عن ذلك مع تصديره بالفاء دليل على أن مقالتهم المطوية كانت مضمضة لمبان أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة بل لهم شأن آخر لاجله أرسلوا فكانه قال عليه الصلاة والسلام ان لم يكن شأنكم مجرد البشارة فما شأنكم فلا حاجة الى الالتجاء الى أن علة عليه الصلاة والسلام بأن كل المقصود ليس البشارة بسبب أنهم كانوا ذوي عدد والبشارة لا تحتاج الى عدد ولذلك اكتفى بالواحد في زكريا عليه الصلاة والسلام ومريم ولا الى أنهم يشمرون في تضاعيف المال لازالة الوجل ولو كانت تمام المقصود لابتدؤا بها فتأمل (قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين) هم قوم لوط لكن وصفوا بالاجرام وجيء بهم بطريق التنكير ذما لهم واستهانة بهم (الا آل لوط) استثناء متصل من الضمير في مجرمين أي الى قوم أجرموا جميعا الا آل لوط فالقوم والارسال شاملان للمجرمين وغيرهم والمعنى انا أرسلنا الى قوم أجرم كلهم الا آل لوط لنهلك الاولين وننجي الآخرين ويدل عليه قوله تعالى (انا لمنجوهم) أي لوطا وآله (أجمعين) أي مما يصيب القوم فانه استئناف للاخبار بنجاتهم اعدم اجرامهم أو ايمان ما قوم من الاستثناء من مطلق عدم شمول العذاب لهم فان ذلك قد يكون بكون حالهم بين بين أو لتعلقه بهم فان من تعلق بهم النجية ينجى من شمول العذاب أو

منقطع من قوم وقوله تعالى انا لمنجوهم متصل بآل لوط جار مجرى خبر لكن وعلى هذا فقوله تعالى (الا امرأته) استثناء من آل لوط أو من ضميرهم وعلى الاول من الضمير خاصة لاختلاف الحكمين اللهم الا أن يجعل انا لمنجوهم اعتراضا وقرئ بالتخفيف (قدرنا انها من الغابرين) الباقين مع الكفرة ٣١٦ لتهلك معهم وقرئ قدرنا بالتخفيف وانما علق فعل التقدير مع اختصاص ذلك بافعال القلوب لتضمنه معنى العلم ويجوز حمله على معنى قلنا لانه بمعنى القضاء قول وأصله جعل الشئ على مقدار غيره واستدامه له الى أنفسهم وهو فعل الله سبحانه لما لهم من الزلفى والاختصاص (فلما جاء آل لوط المرسلون) شروع فى بيان كيفية اهلاك المجرمين وتنجية آل لوط حسبما أجمل فى الاستثناء ثم فصل فى التعليل نوع تفصيل ووضع المظهر موضع المضمر للايذان بأن مجيئهم للتحقيق ما أرسلوا به من الاهلاك والتنجية وليس المراد به ابتداء مجيئهم بل مطلق كينونتهم عند آل لوط فان ما حكى عنه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى (قال انكم قوم منكرون) انما قاله عليه الصلاة والسلام بعد اللتيا والتى حين ضاقت عليه الحيل وعيت به العلل لما لم يشاهد من المرسلين عند مقاساته الشدائد ومعاناته المكاره من قومه الذين يريدون بهم ما يريدون ما هو المعهود والمعتاد من الاعانة والامداد فيما يأتى ويذر عند تحشمه فى تخليصهم انكارا لحذلانهم له وترك نصرته فى مثل تلك المضايقة اصناف المعتزلة له بسببهم حيث لم يكونوا معاشرين معه لاسباب المدافعة والممانعة حتى ألجأه الى أن قال لوأن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد مجملا فصل فى سورة هود لانه قاله عند ابتداء ورودهم له خوفا أن يطرقوه بشر كما قيل كيف لا وهم جواب لهم الحكى بقوله تعالى (قالوا يل

وأن بينهما ترتيبا فى المقامات ثم ترقى جلتها الى نورالانوار ومسدنها ومنبعها الاول وأن ذلك هو الله وحده لا شريك له فأذن الكل نوره فلهذا قال الله نور السموات والارض ﴿السؤال الثانى﴾ فاذا كان الله هو النور فلم احتيج فى اثباته الى البرهان ﴿أجاب فقال ان معنى كونه نور السموات والارض معروف بالنسبة الى النور الظاهر البصرى فاذا رأيت خضرة الربيع فى ضياء النهار فلا شك فى أنك ترى الالوان فربما ظننت أنك لا ترى مع الالوان غيرها فانك تقول لست أرى مع الخضرة غير الخضرة الا أنك عند غروب الشمس تدرك تفرقة ضرورية بين اللون حال وقوع الضوء عليه وحال عدم وقوعه عليه فلا جرم تعرف أن النور معنى غير اللون يدرك مع الالوان الا أنه كان لشدة اتحاده به لا يدرك ولشدة ظهوره يخفى وقد يكون الظهور سبب الخفاء اذا عرفت هذا فاعلم أنه كما ظهر كل شئ للبصر بالنور الظاهر فقد ظهر كل شئ للبصيرة الباطنة بالله ونوره حاصل مع كل شئ لا يفارقه ولكن بقى ههنا تفاوت وهو أن النور الظاهر يتصور أن يغيب بغروب الشمس ويحتجب بغيابة الليل ظهرانه غير اللون وأما النور الالهى الذى به يظهر كل شئ لا يتصور غيبته بل يستحيل تغيره فيبقى مع الاشياء دائما فانقطع طريق الاستدلال بالتفرقة ولو تصورت غيبته لانهدمت السموات والارض ولادرك عند ذلك من التفرقة ما يحصل العلم الضرورى به ولكن لما تساوت الاشياء كلها على نمط واحد فى الشهادة على وجود خالقها وان كل شئ يسبح بحمده لا بعض الاشياء وفى جميع الاوقات لا فى بعض الاوقات ارتفعت التفرقة وخفى الطريق اذ الطريق الظاهر معرفة الاشياء بالاستدلال بها عند غيبتها ولا تغيب له بشئ اذ أحواله فلا يبعد أن يخفى ويكون خفاؤه لشدة ظهوره وجلائه فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره واحتجب عنهم باشراق نوره ﴿واعلم أن هذا الكلام الذى رويناه عن الشيخ الغزالى رحمه الله كلام مستطاب ولكن يرجع حاصله بعد التحقيق الى أن معنى كونه سبحانه نورا انه خالق للعالم وانه خالق للقوى الدراكة وهو المعنى من قولنا معنى كونه نور السموات والارض أنه هادى أهل السموات والارض فلا تفاوت بين ما قاله وبين الذى نقلناه عن المفسرين فى المعنى والله أعلم

﴿الفصل الثانى﴾ فى تفسير قوله عليه الصلاة والسلام ان لله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره وفى بعض الروايات سبعمائة وفى بعضها سبعون ألفا أقول لما ثبت أن الله سبحانه وتعالى منزه عن الحلول فى ذاته لذاته كان الحجاب بالاضافة الى المحجوب لا محالة والمحجوب لا بد وأن يكون محجوبا اما بحجاب مركب من نور وظلمة واما بحجاب مركب من نور فقط أو بحجاب مركب من ظلمة فقط أما المحجوبون بالظلمة المحضة فهم الذين بلغوا فى الاشتغال بالعلائق البدنية الى حيث لم يلتفت خاطرهم الى أنه هل يمكن الاستدلال بوجود هذه المحسوسات على وجود واجب الوجود أم لا وذلك لانك قد عرفت أن ما سوى الله تعالى من حيث هو هو مظلم وانما كان مستنيرا من حيث استفاد النور من حضرة الله تعالى فمن اشتغل بالجسمانيات من حيث هى هى وصار ذلك الاشتغال حائلا له عن الالتفات الى جانب النور كان حجابه محض الظلمة ولما كانت أنواع الاشتغال بالعلائق البدنية خارجة عن الحد والحصر فكذا أنواع الحجب الظلمانية خارجة عن الحد والحصر ﴿القسم الثانى﴾ المحجوبون بالحجب الممزوجة من النور والظلمة اعلم أن من نظر الى هذه المحسوسات فاما أن يعتقد فيها انها غنية عن المؤثر أو يعتقد فيها انها محتاجة فان اعتقد انها غنية فهذا حجاب ممزوج من نور وظلمة (أما النور) فلانه تصور ماهية الاستغناء عن الغير وذلك من صفات جلال الله تعالى وهو من صفات النور (وأما الظلمة) فلانه اعتقد حصول ذلك الوصف فى هذه الاجسام مع ان ذلك الوصف لا يليق بهذا الوصف وهذا ظلمة فثبت ان هذا حجاب ممزوج من نور وظلمة ثم

حيثذاك بما كانوا فيه يعمرون) أي بالعذاب الذي كنت تتوعدهم به فيمترون فيه ويكذبونك قد قشروا العصا وبينوا له عليه الصلاة والسلام جلية الامر فأنى يمكن أن يعتريه بعد ذلك المساءة وضيق الذرع وليست كلمة بل اضرابا عن موجب الخوف المذكور على معنى ما حيثذاك بما تنكرنا لاجله بل بما يسرك وتقر به عينك بل هي اضراب عما فهمه

أصناف هذا القسم كثيرة فان من الناس من يعتقد أن الممكن غني عن المؤثر ومنهم من يسلم ذلك لكنه يقول المؤثر قيم اطبائعها أو حركاتها واجتماعها وافتراقها وتسييرها الى حركات الافلاك أو الى محركاتها وكل هؤلاء من هذا القسم (القسم الثالث) الحب النوري المحض واعلم أنه لا سبيل الى معرفة الحق سبحانه الا بواسطة تلك الصفات السلبية والاضافية ولا نهاية لهذه الصفات ومراتبها فالعبد لا يزال يكون مترقيا فيها فان وصل الى درجة وبقي فيها كان آيسا عن مشاهدة تلك الدرجة حجابا له عن الترقي الى ما فوقها ولما كان لا نهاية لهذه الدرجات كان العبد أبدا في السير والانتقال وأما حقيقته المخصوصة فهي محجوبة عن الكل فقد أشرنا الى كيفية مراتب الحب وأنت تعرف انه عليه الصلاة والسلام انما حصرها في سبعين ألفا تقريبا لا تحديدا فانها لا نهاية لها في الحقيقة

(الفصل الثالث في شرح كيفية التمثيل) اعلم أنه لا بد في التشبيه من أمرين المشبه والمشبه به واختلف الناس ههنا في أن المشبه أي شئ هو وذكروا وجوها (أحدها) وهو قول جمهور المتكلمين ونصره القاضي أن المراد الهدى التي هي الآيات البينات والمعنى أن هداية الله تعالى قد بلغت في الظهور والجلاء الى أقصى الغايات وصارت في ذلك بمنزلة المشكاة التي تكون فيها زجاجة صافية وفي الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية في الصفاء فاذا قيل لم شبهت بذلك وقد علمنا أن ضوء الشمس أبلغ من ذلك بكثير قلنا انه سبحانه أراد أن يصف الضوء الكامل الذي يلوح وسط الظلمة لان الغالب على أبصار الخلق وخيالاتهم انما هو الشبهات التي هي كالظلمات وهداية الله تعالى فيما بينها كالضوء الكامل الذي يظهر فيما بين الظلمات وهذا المقصود لا يحصل من ضوء الشمس لان ضوءها اذا ظهر استيلاؤه العالم من النور الخالص واذا غاب استيلاء العالم من الظلمة الخالصة فلا جرم كان ذلك المثل ههنا أليق وأوفق واعلم أن الامور التي اعتبرها الله تعالى في هذا المثال مما توجب كمال الضوء (فأولها) المصباح لان المصباح اذا لم يكن في المشكاة تفرقت أشعته أما اذا وضع في المشكاة اجتمعت أشعته فكانت أكثر انارة والذي يحقق ذلك ان المصباح اذا كان في بيت صغير فانه يظهر من ضوئه أكثر مما يظهر في البيت الكبير (وثانيها) ان المصباح اذا كان في زجاجة صافية فان الاشعة المنفصلة عن المصباح تنعكس من بعض جوانب الزجاجة الى البعض لما في الزجاجة من الصفاء والشفافية وبسبب ذلك يزداد الضوء والنور والذي يحقق ذلك أن شعاع الشمس اذا وقع على الزجاجة الصافية تضاعف الضوء الظاهر حتى انه يظهر فيما يقابله مثل ذلك الضوء فان انعكست تلك الاشعة من كل واحد من جوانب الزجاجة الى الجانب الآخر كثرت الانوار والاضواء وبلغت النهاية الممكنة (وثالثها) أن ضوء المصباح يختلف بحسب اختلاف ما يتقد به فاذا كان ذلك الدهن صافيا خالصا كانت حالته بخلاف حالته اذا كان كدرا وليس في الادهان التي توقد ما يظهر فيه من الصفاء مثل الذي يظهر في الزيت فربما يبلغ في الصفاء والرقة مبلغ الماء مع زيادة بياض فيه وشعاع يتردد في أجزائه (ورابعها) أن هذا الزيت يختلف بحسب اختلاف شجره فاذا كانت لا شرقية ولا غربية بمعنى انها كانت بارزة للشمس في كل حالاتها يكون زيتونها أشد نضجا فكان زيته أكثر صفاء وأقرب الى أن يتميز صفوه من كدره لان زيادة الشمس تؤثر في ذلك فاذا اجتمعت هذه الامور الاربعة وتهاونت صار ذلك الضوء حينئذ الصا كاملا فيصلح أن يجعل مثلا لهداية الله تعالى (وثانيها) ان المراد من النور في قوله مثل نوره القرآن ويدل عليه قوله تعالى قد جاءكم من الله نور وهو قول الحسن وسفيان بن عيينة وزيد بن أسلم (وثالثها) أن المراد هو الرسول لانه المرشد ولانه تعالى قال في وصفه وسراجا منيرا وهو قول عطاء وهذان القولان داخلان في

والمعنى ما خيل لذلك وما خطر ببالك ولا بينهم بل حيثذاك بما يدمرهم من العذاب الذي كانوا يكذبونك حين كنت تتوعدهم به ولعل تقديم هذه المقاولة على ما جرى بينه وبين أهل المدينة من المجادلة للمسارعة الى ذكر بشارة نوط عليه الصلاة والسلام بإهلاك قومه وتنجية آله عقيب ذكر بشارة ابراهيم عليه الصلاة والسلام بهما وحيث كان ذلك مستدعيا لبيان كيفية النجاة وترتيبه مباديها أشير الى ذلك اجمالا ثم ذكر ما فعل القوم وما فعل به وهم ولم يمال بتغيير الترتيب الوقوعي بتغيير اعتباري في مواقع أخر ونسبة المجيء بالعذاب اليه عليه الصلاة والسلام مع أنه نازل بالقوم بطريق تفويض أمره اليه لا بطريق نزوله عليه كما تهم جاؤه وفوضوا أمره اليه ليرسله عليهم حسبما كان يتوعدهم به (وأتيناك بالحق) أي باليقين الذي لا يحوم فيه أدنى امتراء والشك وهو عدا بهم غير عن ذلك تنصيصا على نفي الامتراء عنه أو المراد بالحق الاخبار بمجيء العذاب المذكور وقوله تعالى (وانا لصادقون) تأكيد له أي أتيناك بالخبر الحق أي المطابق للواقع (وانا لصادقون) في ذلك انه خبر أو في كل كلام فيكون كالدليل على صدقهم فيه وعلى الاول تأكيد وقوله تعالى (فأسر بأهلك) شروع في ترتيب مبادي النجاة أي اذهب بهم في الليل وقرئ بالوصل وكلاهما من السرى وهو السير في الليل وقرئ فسر

من السير (بقطع من الليل) بطائفة منه أو من آخره قال افتحي الباب وانظري في النجوم * كم علينا من قطع ليل بهيم
وقيل هو بعد ما مضى منه شيء صالح (واتبع أدبارهم) وكن على أثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على أحوالهم ولعل إيثار الاتباع على
السوق مع أنه المقصود بالأمر للمبالغة ٣١٨ في ذلك إذ السوق ربما يكون بالتقدم على بعض مع التأخر عن بعض ولزمه عادة

القول الأول لان من جملة أنواع الهداية انزال الكتب وبعثة الرسل قال تعالى في صفة الكتب وكذلك
أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان وقال في صفة الرسل رسلا مبشرين
ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (ورابعها) أن المراد منه ما في قلب المؤمنين من معرفة
الله تعالى ومعرفة الشرائع ويدل عليه أن الله تعالى وصف الايمان بانه نور والكفر بأنه ظلمة فقال أفمن شرح
الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وقال تعالى ليخرج الناس من الظلمات الى النور وحاصله انه حمل
الهدى على الاهتداء والمقصود من التمثيل أن ايمان المؤمن قد بلغ في الصفاء عن الشبهات والامتياز عن
خيالات الضلالات مبلغ السراج المذكور وهو قول أبي بن كعب وابن عباس قال أبي مثل نور المؤمن
وهكذا كان يقرأ وقيل انه كان يقرأ مثل نور من آمن به وقال ابن عباس مثل نوره في قلب المؤمن
(وخامسها) ما ذكره الشيخ الغزالي رحمه الله وهو انا بينا أن القوى المدركة أنوار ومراتب القوى المدركة
الانسانية خمسة (أحدها) القوة الحساسة وهي التي تتلقى ما تورده الحواس الخمس وكأنها أصل الروح
الحيواني وأوله اذ به يصير الحيوان حيوانا وهو موجود للصبي الرضيع (وثانيها) القوة الخيالة وهي التي
تستثبت ما أورده الحواس وتحفظه مخزونا عندها بعد التعرض على القوة العقلية التي فوقها عند الحاجة اليه
(وثالثها) القوة العقلية المدركة للحقائق الكلية (ورابعها) القوة الفكرية وهي التي تأخذ المعارف العقلية
فتؤلفها تأليفا تستفيض من تأليفها علما مجهولا (وخامسها) القوة القدسية التي تختص بها الانبياء عليهم
الصلاة والسلام وبعض الاولياء وتتجلى فيها الواقع الغيب وأسرار الملكوت واليه الاشارة بقوله تعالى
وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من
نشاء من عبادنا واذا عرفت هذه القوى فهي بجملتها أنوار اذ بها تظهر أصناف الموجودات وان
هذه الانوار الخمسة يمكن تشبيهها بالامور الخمسة التي ذكرها الله تعالى وهي المشكاة والزجاجة والمصباح
والشجرة والزيت أما الروح الحساس فاذا نظرت الى خاصيته وجدت أنواره نظير حسة من عدة أثقب
كالعينين والاذنين والمنخرين وأوفق مثال له من عالم الاجسام المشكاة (وأما الثاني) وهو الروح الخيالي
فتجعل له خواص ثلاثة (الاولى) انه من طبيعة العالم السفلي الكثيف لان الشيء المتخيل ذو قدر وشكل
وحيز ومن شأن الملائق الجسمانية أن تحجب عن الانوار العقلية المحضة التي هي المعقولات الكلية المجردة
(الثانية) ان هذا الخيال الكثيف اذا صفا ورق رهف صار موازنا للمعاني العقلية ومؤديا الانوارها وغير حائل
عن اشراق نورها ولذلك فان المعبر يستدل بالصور الخيالية على المعاني العقلية كما يستدل بالشمس على الملك
وبالقمر على الوزير ومن يختم فروح الناس وأقوالهم على انه مؤذن يؤذن قبل الصبح (والثالثة) ان الخيال
في بداية الامر محتاج الى ضبط بالمعارف العقلية ولا تضطرب فتتم الامثلات الخيالية الدالة للمعارف
العقلية وأنت لا تحدس شيأ في الاجسام يشبه الخيال في هذه الصفات الثلاثة الا الزجاجة فانها في الاصل من
جوهر كثيف ولكن صفا ورق حتى صار لا يحجب نور المصباح بل يؤديه على وجه لم يحفظه عن الانطفاء
بالرياح العاصفة (وأما الثالث) وهو القوة العقلية فهي القوية على ادراك الماهيات الكلية والمعارف
الالهية فلا يخفى على عاقل وجه تمثله بالمصباح وقد عرفت هذا حيث بينا كون الانبياء سراجا منيرة (وأما
الرابع) وهو القوة الفكرية فمن خواصها انها تأخذ ماهية واحدة ثم تقسمها الى قسمين كقولنا الموجود اما
واجب واما ممكن ثم تجعل كل قسم مرة أخرى قسمين وهكذا الى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية ثم
تفضي بالآخرة الى نتائج وهي ثمراتها ثم تعود فتجعل تلك الثمرات بذورا لامثالها حتى تتأدى الى ثمرات

الغفلة عن حال المتأخر
والالتفات المنهي عنه
بقوله تعالى (ولا يلتفت
منكم) أي منكم ومنهم
(أحد) فيرى ما وراءه من
الهول فلا يطيقه أو يصيبه
ما أصابهم أو ولا ينصرف
منكم أحد ولا يتخلف
لغرض فيصيبه العذاب
وقيل نهوا عن ذلك
ليوطنوا أنفسهم على
المباحرة أو هو نهي عن
ربط القلب بما خلفوه
أو هو للاسراع في السير
فان الملتفت قلما يخلو
عن أدنى وقفة وعدم
ذكر استثناء المرأة من
الاسراء والالتفات
لا يستدعي عدم وقوعه
فان ذلك اما عرفت مرارا
للاكتفاء بما ذكر في
مواضع أخر (وامضوا
حيث تؤمرون) الى حيث
أمركم الله تعالى بالمضي
اليه وهو الشام أو مصر
وحذف الصلتين على
الاتساع المشهور وايثار
المضي الى ما ذكر على
الوصول اليه واللحوق به
للايذان بأهمية النجاة
وامر آخر المناسبة بينه
وبين ما سلف من العابرين
(وقضينا) أي أوحينا
(اليه) مقتضيا ولذلك
عدي بالى (ذلك الامر) مبهم فسر (أن دابر هؤلاء مقطوع) على ان بدل منه وايثار اسم الاشارة على الضمير للدلالة لا
على اتصافهم بصفاتهم القبيحة التي هي مدار بروت الحكم أي دابر هؤلاء المجرمين وايراد صيغة المفعول بدل صيغة المضارع لكونها أدخل
في الدلالة على الوقوع وفي لفظ القضاء والتعبير عن العذاب بالامر والاشارة اليه بذلك وتأخيره عن الجار والمجرور وابهامه أولا ثم تفسيره

ثانيا من الدلالة على خاتمة الامر وفظاعته مما لا يخفى وقرئ بالكسر على الاستئناف والمعنى أنهم يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد (مصبحين) داخلين في الصبح وهو حال من هؤلاء أو من الضمير في مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فان دابر هؤلاء يعني مدبري هؤلاء (وجاء أهل المدينة) شروع في حكاية ما صدر عن القوم عند وقوفهم على مكان ٣١٩ الاضياف من القبح والقول وما ترتب

عليه عند ما أشير الى ذلك اجمالا الاحياء عليه أي جاء أهل سدوم منزل لوط عليه الصلاة والسلام (يستبشرون) أي مستبشرين باضيافه عليه الصلاة والسلام طمعا فيهم (قال ان هؤلاء ضيفي) الضيف حيث كان مصدرا في الاصل أطلق على الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث واطلاقه على الملائكة بحسب اعتقاده عليه الصلاة والسلام لكونهم في زي الضيف والا فكيف ليس لانكارهم بذلك بل لتحقق اتصافهم به وظهارا عتنائه بشأنهم وتشمير لمراعاة حقوقهم وحمايتهم من السوء ولذلك قال (فلا تفضحون) أي عندهم بان تتعرضوا لهم بسوء فيعلموا أنه ليس لي عندكم قدر وحرمة أولا تفضحون بفضيحة ضيفي فان من أسيء الى ضيفه فقد أسيء اليه يقال فضحه فضحا وفضيحة اذا أظهر من أمره ما يلزمه العار (واتقوا الله) في مما شركتكم لما يسوءني (ولا تخزون) أي لا تذلون

ولا تهينوني بالتعرض لمن أجرتهم بمثل تلك المعاملة الخبيثة وحيث كان التعرض لهم بعد أن جاءهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك يقول فلا تفضحون أكثر تأثيرا في جانبه عليه الصلاة والسلام وأجلب للعار انما ذاك التعرض للعار قبل شعور المجبر بذلك ربما يساهم فيه وأما بعد الشعور به والمناصبة لحمايته والذب عنه فذاك أعظم العار وأجبر عليه الصلاة والسلام عما يعتريه من جهتهم بعد انتهى المذكور بسبب

نهايتها فما لحري أن يكون مثاله من هذا العالم الشجرة واذا كانت ثمارها مادة لتزايد أنوار المعارف ونباتها فما لحري أن لا تمثل بشجرة السفرجل والتفاح بل بشجرة الزيتون خاصة لان ثمرتها هو الزيت الذي هو مادة المصابيح وله من بين سائر الادهان خاصية زيادة الاشراق وقلة الدخان واذا كانت الماشية التي يكثر درها وتسلها والشجرة التي تكثر ثمرتها تسمى مباركة فالذي لا يتناهى الى حد محدود أولى أن يسمى شجرة مباركة واذا كانت شعب الافكار العالية المحضة مجردة عن لواحق الاجسام فما لحري أن تكون لا شرقية ولا غربية (وأما الخامس) وهو القوة القدسية النبوية فهي في نهاية الشرف والصفاء فان القوة الفكرية تتقسم الى ما يحتاج الى تعليم وتنبيه والى ما لا يحتاج ولا بد من وجود هذا القسم قطعا للتسلسل فما لحري أن يعبر عن هذا القسم بكماله وصفائه وشدة استعداده بأنه يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار فهذا المثال مع وافق لهذا القسم ولما كانت هذه الانوار مرتبة بعضها على بعض فالخمس هو الاول وهو كالمقدمة للجمال والجمال كالمقدمة للعقل فما لحري أن تكون المشكاة كالظرف للزجاجة التي هي كالظرف للمصباح (وسادسها) ما ذكره أبو علي بن سينا فانه نزل هذه الامثلة الخمسة على مراتب ادراكات النفس الانسانية فقال لا شك ان النفس الانسانية قابلة للعارف الكلية وانما تكون المجردة ثم انها في أول الامر تكون خالية عن جميع هذه المعارف فهناك تسمى عقلا هيولانيا وهي المشكاة (وفي المرتبة الثانية) يحصل فيها العلوم البديهية التي يمكن التوصل بتركيبها الى اكتساب العلوم النظرية ثم ان أمكنة الانتقال ان كانت ضعيفة فهي الشجرة وان كانت أقوى من ذلك فهي الزيت وان كانت شديدة القوة جدا فهي الزجاجة التي تكون كأنها الكوكب الدري وان كانت في النهاية القصوى وهي النفس القدسية التي للانبياء فهي التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار (وفي المرتبة الثالثة) يكتسب من العلوم النظرية الضرورية العلوم النظرية الا أنها لا تكون حاضرة بالفعل ولكنها تكون بحيث متى شاء صاحبها استحضارها قدر عليه وهذا يسمى عقلا بالفعل وهو المصباح (وفي المرتبة الرابعة) أن تكون تلك المعارف الضرورية والنظرية بحاصلة بالفعل ويكون صاحبها كأنه ينظر اليها وهذا يسمى عقلا مستفادا وهو نور على نور لان الملكة نور وحصول ما عليه الملكة نور آخر ثم زعم أن هذه العلوم التي تحصل في الارواح البشرية انما تحصل من جوهر روحاني يسمى بالعقل الفعال وهو مدبر ما تحت كرة القمر وهو النار (وسادسها) قول بعض السوفسطائية هو أنه سبحانه شبه الصدر بالمشكاة والقلب بالزجاجة والمعرفة بالمصباح وهذا المصباح انما توقد من شجرة مباركة وهي الهامات الملائكة لقوله تعالى ينزل الملائكة بالروح من أمره وقول نزل به الروح الامين على قلبك وانما شبه الملائكة بالشجرة المباركة لكثرة منافعهم وانما لا شرقية ولا غربية لانهار وحانيته وانما وصفهم بقوله يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار لكثرة علومها وشدة اطلاعها على أسرار ملكوت الله تعالى والظاهر هنا أن المشبه غير المشبه به (وثامنها) قال مقاتل مثل نوره أي مثل نور الايمان في قلب محمد صلى الله عليه وسلم كمشكاة فيها مصباح فالمشكاة نظير صلب عبد الله والزجاجة نظير جسد محمد صلى الله عليه وسلم والمصباح نظير الايمان في قلب محمد أو نظير النبوة في قلبه (وتاسعها) قال قوم المشكاة نظير ابراهيم عليه السلام والزجاجة نظير اسمعيل عليه السلام والمصباح نظير جسد محمد صلى الله عليه وسلم والشجرة النبوة والرسالة (وعاشرها) أن قوله مثل نوره يرجع الى المؤمن وهو قول أبي بن كعب وكان يقرؤها مثل نور المؤمن وهو قول سعيد بن جبير والضحاك واعلم أن القول الاول هو المختار لانه تعالى ذكر قبل هذه الآية ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات فاذا كان المراد مثل نوره أي مثل هداه وبيانه كان ذلك مطابقا لما

سلفاهم وجماهيرهم بحماقته بالخزي وأمرهم بتقوى الله تعالى في ذلك وأقاتم يصرح بالنهي عن نفس تلك الفاحشة لانه كان يعرف أنه لا يفيدهم ذلك وقيل المراد تقوى الله تعالى في ركوب الفاحشة ولا يساعده توسطه بين النهيين عن أمرين متعلقين بنفسه عليه الصلاة والسلام وكذلك قوله تعالى ٣٢٠ (قالوا أولم ننهك عن العالمين) أي عن التعرض لهم بتعهم عنا وضيافتهم والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر أي ألم نحذرك ولم ننهك عن ذلك فانهم كانوا يتعرضون لكل أحد من الغرباء بالسوء وكان عليه الصلاة والسلام ينهاهم عن ذلك بقدر وسعه وكانوا قد نهوه عليه الصلاة والسلام عن أن يجير أحدا فكأنهم قالوا ماذكرت من الفضيحة والخزي اغا جاءك من قبلك لانا نهيناك اذ لولا تعرضك لما تعرضنا له لما اعتراك تلك الحالة ولما رآهم لا يقلعون عما هم عليه (قال هؤلاء بناتي) يعني نساء القوم فان نبي كل أمة بمنزلة أبيهم أو بناته حقيقة أي فتزوجوهن وقد كانوا من قبيل يطلبونهن ولا يجيبهم لنبشهم وعدم كفاءتهم لا لعدم مشروعية المناكحة بين المسلمات والكفار وقد فصل ذلك في سورة هود (ان كنتم فاعلين) أي قضاء الوطر أو أفعل لكم (لعمرك) قسم من الله تعالى بحياة النبي عليه الصلاة والسلام أو من الملائكة بحياة لوط عليه الصلاة والسلام والتقدير لعمرك قسمي وهي لغة في العمر يختص به القسم ايثارا للخفة لكثرة دورانه على الالسنة (انهم لفي سكرتهم) غوايتهم ووصف أو شدة ظلمتهم التي أزالت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ والصواب (يعمهون) يتحيرون ويترددون فكيف يسمعون النصح وقيل الضمير لقريش والجملة اعتراض (فأخذتهم الصيحة) أي الصيحة العظيمة الهائلة وقيل صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام (مشرقين) داخلين

قبله ولا نالما فسرنا قوله الله نور السموات والارض بأنه هادي أهل السموات والارض فاذا فسرنا قوله مثل نوره بأن المراد مثل هداه كان ذلك عطفا لما قبله

(الفصل الرابع في بقية المباحث المتعلقة بهذه الآية) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المشكاة الكوة في الجدار غير النافذة هذا هو القول المشهور وذكروا فيه وجوها أخر (أحدها) قال ابن عباس وأبو موسى الاشعري المشكاة القائم الذي في وسط القنديل الذي يدخل فيه الفتيلة وهو قول مجاهد والقرظي (والثاني) قال الزجاج هي ههنا قصبة القنديل من الزجاجة التي توضع فيها الفتيلة (الثالث) قال الضحاك انها الحلقة التي يعلق بها القنديل والاول هو الاصح (المسئلة الثانية) زعم ان المشكاة هي الكوة بلغة الحبشة قال الزجاج المشكاة من كلام العرب ومثلها المسكاة وهي الدقيق الصغير (المسئلة الثالثة) قال بعضهم هذه الآية من المقلوب والتقدير مثل نوره كمصباح في مشكاة لان المشبه به هو الذي يكون معدا للنور ومنه مالا يوذ لك هو المصباح لا المشكاة (المسئلة الرابعة) المصباح السراج وأصله من الضوء ومنه اصبح (المسئلة الخامسة) قرئ زجاجة الزجاجة بالضم والفتح والكسر (أما دري) فقرئ بضم الدال وكسرها وفتحها (أما الضم) ففيه ثلاثة أوجه (الاول) ضم الدال وتشديد الراء والياء من غير همز وهو القراءة المعروفة ومعناه أنه يشبه الدر لصفائه ونقائه وقال عليه الصلاة والسلام انكم لترون أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الدري في أفق السماء (الثاني) أنه كذلك الا أنه بالمد والهمز وهو قراءة حمزة وعاصم في رواية أبي بكر وسار بعض أهل العربية الى أنه لحن قال سيبويه وهذا أضعف اللغات وهو مأخوذ من الضوء والتلألؤ وليس ينسوب الى الدر قال أبو علي وجه هذه القراءة أنه فعيل من الدرء يعني الدفع وانه صفة وان في الصفة مثل المري في الاسم (والثالث) ضم الدال وتخفيف الراء والياء من غير همز ولا مد وهي قراءة أبي عمرو (أما الكسر) ففيه وجهان (الاول) دري بكسر الدال وتشديد الراء والمد والهمز وهي قراءة أبي عمرو والكسائي قال الفراء وهو فعيل من الدرء والدفع كالكثير والصديق فكأن نوءه يدفع بعضه بعضا من لمعانه (الثاني) بكسر الدال وتشديد الراء من غير همز ولا مد وهي قراءة ابن كثير ونافع وعيسى بن سليمان وابن عيسى بن سليمان وابن عامر (أما الفتح) ففيه وجوه اربعة (الاول) بفتح الدال وتشديد الراء والمد والهمز عن الاعمش (الثاني) بفتح الدال وتشديد الراء من غير مد ولا همز عن الحسن ومجاهد وقتادة (الثالث) بفتح الدال وتخفيف الراء همزا من غير مد ولا ياء عن عاصم (الرابع) كذلك الا أنه غير مهموز وهي قراءة حمزة أما قوله توقد فقراءة العامة بالتاء على التأنيث وقرئ بالياء لان تأنيث الزجاجة غير حقيقي وقرئ توقد بالتخفيف والتشديد وقرئ تتوقد على الاصل وعن الحسن ومجاهد وقتادة كذلك الا أنه بضم الدال وذكر صاحب الكشاف يوقد بفتح الياء المنقوطة من تحت بنقطتين والواو والقاف وتشديدها ورفع الدال قال وحذف التاء لاجتماع حرفين زائدين وهو غريب وعن سعيد بن جبير بناء مضمومة وسكون الواو وفتح القاف مخففة ورفع الدال وعن نافع وحفص كذلك الا أنه بالتاء وعن عاصم بناء مضمومة وفتح الواو وتشديد القاف وفتحها وعن أبي عمرو كذلك الا أنه بالتاء وعن طلحة توقد بتاء مضمومة وواو ساكنة وكسر القاف وتخفيفها (المسئلة السادسة) قوله كأنها كوكب دري أي منهم مضيء ودراري النجوم عظامها واتفقوا على أن المراد بها كواكب من الكواكب المضيئة كالزهرة والمشتري والثوابت التي في العظم الاول (المسئلة السابعة) قوله من شجرة مباركة أي من زيت شجرة مباركة أي كثيرة البركة والنفع وقيل هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقد بارك فيها سبعون نبيا منهم الخليل وقيل المراد زيتون الشام لانها هي الارض المباركة فلهذا حمل الله هذه شجرة مباركة (المسئلة الثامنة) اختلفوا في معنى

في وقت شروق الشمس (خلفنا عاليها) عالى المدينة أو عالى قراهم وهو المفعول الاول لجعلنا وقوله تعالى (سافلها) مفعول ثان أو هو أدخل في الهول والفظاعة من العكس كما مر (وأمطرنا عليهم) في تضاعيف ذلك قبيل تمام الانقلاب (حجارة) كائنة (من سجيل) من طين متحجر أو طين عليه كتاب وقد فصل ذلك في سورة هود (ان في ذلك) ٣٢٩ أي فيما ذكر من القصة (لآيات) لعلامات يستدل بها على حقيقة الحق (للموحدين) أي المفكرين المتفرسين الذين يتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشيء بسمته (وانها) أي المدينة أو القرى (لبسبيل مقيم) أي طريق ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها (ان في ذلك) فيما ذكر من المدينة أو القرى أو في كونها بمرأى من الناس يشاهدونها في ذهابهم وإيابهم (لآية) عظيمة (للمؤمنين) بالله ورسوله فانهم الذين يعرفون أن ما حاق بهم من العذاب الذي ترك ديارهم بلاقع اما حاق بهم اسوة صنيعهم وأما غيرهم فيحملون ذلك على الاتفاق أو الاوضاع الفلكية واما دلالة الآية بعد جعلها فيما سبق لما أن المشاهد ههنا بقية الآثار لا كل القصة كما فيما سلف (وان كان) ان مخففة من ان وضمير الشان الذي هو اسمها محذوف واللام هي الفارقة أي وان الشان كان (أصحاب الايكة) وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام والايكة

وصف الشجرة بأنها لا شرقية ولا غربية على وجوه (أحدها) قال الحسن انها شجرة الزيت من الفسحة اذ لو كانت من شجر الدنيا لكانت اما شرقية أو غربية وهذا ضعيف لانه تعالى انما ضرب المثل بما شاهدوه وهم شاهدوا شجر الجنة (وثانيها) أن المراد شجرة الزيتون في الشام لان الشام وسط الدنيا فلا يوصف شجرها بأنها شرقية أو غربية وهذا أيضا ضعيف لان من قال الارض كرة لم يثبت المشرق والمغرب موضعين معينين بل لكل بلد مشرق ومغرب على حدة ولان المثل مضروب لكل من يعرف الزيت وقد يوجد في غير الشام كوجوده فيها (وثالثها) أنها شجرة تلتف بها الاشجار فلا تصيبها الشمس في شرق ولا غرب وهم من قال هي شجرة يلتف بها ورقها التفافا شديدا فلا تصل الشمس اليها سواء كانت الشمس شرقية أو غربية وليس في الشجر ما ورق غصنه من أوله الى آخره مثل الزيتون والرمان وهذا أيضا ضعيف لان الغرض صفاء الزيت وذلك لا يحصل الا بكمال نضج الزيتون وذلك انما يحصل في العادة بوصول أثر الشمس اليه لا عند وصوله (ورابعها) قال ابن عباس المراد الشجرة التي تبرز على جبل عال أو هي واسطة فتطلع الشمس عليها حالتي الطلوع والغروب وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة واختيار الفراء والزجاج قالوا ومعناه لا شرقية وحدها ولا غربية وحدها ولكنها شرقية وغربية وهو كما يقال فلان لا ماشر ولا مقيم اذا كان يسافر ويقيم وهذا القول هو المختار لان الشجرة متى كانت كذلك كان زيتها في نهاية الصفاء وحينئذ يكون مقصودا للتمثيل أكل وأتم (وخامسها) المشكاة صدر محمد صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح ما في قلبه صلى الله عليه وسلم من الدين توقد من شجرة مباركة يعني واتباعه ملة أبيهم ابراهيم صلوات الله عليه فالشجرة هي ابراهيم عليه السلام ثم وصف ابراهيم فقال لا شرقية ولا غربية أي لم يكن يصلي قبل المشرق ولا قبل المغرب كاليهود والنصارى بل كان عليه الصلاة والسلام يصلي الى الكعبة (المسئلة الخامسة) وصف الله تعالى زيتها بأنه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار لان الزيت اذا كان خالصا صافيا ثم رؤي من بعيد يرى كأن له شعاعا فاذا مسه النار ازداد ضوءا على ضوء كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم فاذا جاءه العلم ازداد نورا على نور وهدى على هدى قال يحيى بن سلام قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له لموافقته له وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله وقال كعب الاحبار المراد من الزيت نور محمد صلى الله عليه وسلم أي يكاد نور بيين للناس قبل أن يتكلم وقال الضحاك يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يتكلم بالحكمة قبل الوحي وقال عبد الله بن رواحة

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهته تنبيك بالخبر

(المسئلة العاشرة) قوله تعالى نور على نور المراد تراد ف هذه الانوار واجتماعها قال أبي بن كعب المؤمن بين أربع خلال ان أعطي شكر وان ابتلي صبر وان قال صدق وان حكم عدل فهو في سائر الناس كالرجل الحي الذي يمشي بين الاموات يتقلب في خمس من النور كلامه نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره الى النور يوم القيامة قال الربيع سألت أبا العالية عن مدخله ومخرجه فقال سره وعلانيته (المسئلة الحادية عشرة) قال الحمائي دلت الآية على أن كل من جعل فمن قبله أتى والا فالادلة واضحة ولو نظر واقهم العارفون قال اصحابنا هذه الآية صريح مذهبنا فانه سبحانه بعد أن بين أن هذه الدلائل بلغت في الظهور والوضوح الى هذا الحد الذي لا يمكن الزيادة عليه قال يهدي الله لنوره من يشاء يعني وضوح هذه الدلائل لا يكفي ولا ينفع ما لم يخلق الله الايمان ولا يمكن أن يكون المراد من قوله يهدي الله ايضاح الادلة والبيانات لانا لو حملنا النور على ايضاح الادلة لم يجز حمل الهدى عليه أيضا والا لخرج الكلام عن الفائدة فلم يبق الا حمل الهدى ههنا

والملكة الشجرة الملتفة المتكاثفة وكان عامة شجرهم المقل وكانوا يسكنونها فبعث الله تعالى اليهم (ظلمتين) متجاورتين عن الحد (فاشتد ما بينهم) بالعذاب روي ان الله تعالى سلط عليهم الحر سبعة أيام ثم بعث سحابة فاتحوا اليها يتروحون الروح فبعث الله تعالى عليهم منها نارا فاحرقتهم فهو عذاب يوم الظلة (وانهما) يعني سدوم والايكة وقيل الايكة ومدين فانه عليه الصلاة

والسلام كان معصوما فيما فعل كما أحدهما فيه على الآخر (للمام مبين) لطريق واضح والامام اسم لما يؤتم به سمي به الطريق ومطمر البناء واللوح الذي يكتب فيه لانها مما يؤتم به (وانقد كذب أصحاب الحجر) يعني ثمود (المرسلين) أي صالحا فان من كذب واحدا من الانبياء عليهم السلام فقد كذب الجميع ٣٢٢ لاتفاقهم على التوحيد والاصول التي لاتختلف باختلاف الامم والاعصار

وقيل المراد صالح ومن معه من المؤمنين كما قيل الحجر بين مكة وتبوك وهي لثمود بين عبد الله بن الزبير وأصحابه والحجر وادي المدينة والشام كانوا يسكنونه (وآتيناهم آياتنا) وهي الآية المنزلة على نبيهم أو المعجزات من الناقة وسقيها وشربها ودرها أو الادلة المنصوبة لهم (فكانوا عنها معرضين) اعراضا كليا بل كانوا معارضين لها حيث فعلوا بالناقة ما فعلوا (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الاعداء أو ثقتها أو من العذاب لحسبانهم أن ذلك يحميهم منه * عن جابر رضي الله تعالى عنه أنه قال مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم الا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فاسرع حتى خلفها (فأخذتهم الصيحة مصبحين) وهكذا وقع في سورة هود قيل صاح بهم جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شئ

على خلق العلم أجاب أبو مسلم بن حمر عنه من وجهين (الاول) أن قوله يهدي الله لنوره من يشاء محمول على زيادات الهدى الذي هو كالضد للضلال الحاصل للقائل (الثاني) أنه سبحانه يهدي لنوره الذي هو طريق الجنة من يشاء وشرحه بقوله يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات وزيف القاضي عبد الجبار هذين الجوابين (أما الاول) فلان الكلام المتقدم هو ذكر الآيات المنزلة فاذا حملناه على الهدى دخل الكل فيه واذا حملناه على الزيادة لم يدخل فيه الا البعض واذا حمل على طريق الجنة لايكون داخلا فيه أصلا لان حيث المعنى لامن حيث اللفظ ولما زيف هذين الجوابين قال الاولى أن يقال الله تعالى هدى ذلك البعض دون البعض وهم الذين وافقهم حد التكليف واعلم أن هذا الجواب أضعف من الجوابين الاولين لان قوله يهدي الله لنوره من يشاء يفهم منه أن هذه الآيات مع وضوحها لاتكفي وهذا لايقال في الصبي والمجنون فسقط ما قالوه (المسئلة الثانية عشرة) قوله تعالى ويضرب الله الامثال للناس والمراد المكلفون من الناس وهو النبي ومن بعث اليهم فانه سبحانه ذكر ذلك في معرض النعمة العظيمة واستدلت المعتزلة به فقالوا انما يكون ذلك نعمة عظيمة لو أمكنهم الانتفاع به ولو كان الكل بخلق الله تعالى لما أمكنوا من الانتفاع به وجوابه ما تقدم ثم بين أنه سبحانه بكل شئ عليم وذلك كالوعيد لمن لايعتبر ولا يتفكر في أمثاله ولا ينظر في أدلته فيعرف وضوحها وبعدها عن الشبهات ﴿قوله تعالى﴾ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلوة وايتاء الزكوة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب اعلم أن في الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى في بيوت أذن الله يقتضي محذوفا يكون فيما وذكروا فيه وجوها (أحدها) أن التقدير كمشكاة فيها مصباح في بيوت أذن الله وهو اختيار كثير من المحققين اعترض أبو مسلم بن بحر الاصفهاني عليه من وجهين (الاول) أن المقصود من ذكر المصباح المثل وكون المصباح في بيوت أذن الله لا مزيد في هذا المقصود لان ذلك لا مزيد المصباح انارة واضاءة (الثاني) ان ما تقدم ذكره فيه وجوه تقتضي كونه واحدا كقوله كمشكاة وقوله فيها مصباح وقوله في زجاجة وقوله كأنها كوكب دري ولفظ البيوت جمع ولا يصح كون هذا الواحد في كل البيوت (والجواب عن الاول) أن المصباح الموضوع في الزجاجة الصافية اذا كان في المساجد كان أعظم وأضخم فكان أضوأ فكان التمثيل به أتم وأكمل (وعن الثاني) أنه لما كان القصد بالمثل هو الذي له هذا الوصف فيدخل تحته كل مشكاة فيها مصباح في زجاجة تتوقد من الزيت وتكون الفائدة في ذلك أن ضوأها يظهر في هذه البيوت بالليالي عند الحاجة الى عبادة الله تعالى ولو أن رجلا قال الذي يصبح الخ حتى يرجع الى علم وكفاية وقناعة يلتزم به لكان وان ذكره بلفظ الواحد فالمراد النوع فكذا اما ذكره الله سبحانه في هذه الآية (وثانيها) التقدير توقد من شجرة مباركة في بيوت أذن الله أن ترفع (وثالثها) وهو قول أبي مسلم أنه راجع الى قوله ومثلا من الذين خلوا من قبلكم أي ومثلا من الذين خلوا من قبلكم في بيوت أذن الله أن ترفع ويكون المراد بالذين خلوا الانبياء والمؤمنين والبيوت المساجد وقد اقتضى الله أخبار الانبياء عليهم الصلاة والسلام وذكرا ما كانهم فيها مخاربين بقوله اذ تسوروا المحراب ودخل عليهم زكريا المحراب فيقول وقد أنزلنا اليكم آيات مبينات وأنزلنا أقاصيص من بعث قبلكم من الانبياء والمؤمنين في بيوت أذن الله أن ترفع (ورابعها) قول الجبائي انه كلام مستأنف لا تعلق له بما تقدم والتقدير صلوا في بيوت أذن الله أن ترفع (وخامسها) وهو قول الفراء والزجاج انه لاحذف في الآية بل فيه تقديم وتأخير

كأنه في الارض فتقطعت قلوبهم في صدورهم وفي سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة أي الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء تموجا شديدا يفضي اليها كما مر في سورة هود (فما أغنى عنهم) ولم يدفع عنهم ما نزل بهم (ما كانوا يكسبون) من بناء البيوت

الوثيقة والاموال الوافرة والعدد المتكاثرة وفيه تهكم بهم والفاء لترتيب عدم الاغناء الخاص بوقت نزول العذاب حسبما كانوا يرجونه لا عدم الاغناء المطلق فانه أمر مستمر (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق) أي الا خلقا ملتبسا بالحق والحكمة والمصلحة بحيث لا يلائم استمرار الفساد واستقرار الشرور ولذلك اقتضت الحكمة اهلاك أمثال ٣٢٣ هؤلاء عقيب فسادهم وارشاد المتقي الى الاسباب الصالح أو الا سباب العدل والانصاف يوم الجزاء على الاعمال كما ينبئ عنه قوله تعالى (وان الساعة لآتية) فينتقم الله تعالى لك فيهم ممن كذبك (فاصفح) أي أعرض عنهم (الصفح الجميل) اعراضا جميلا وشمل أذيتهم ولا تعجل بالانتقام منهم وعاملهم معاملة الصفوح الحليم وقيل هي منسوخة بآية السيف (ان ربك) الذي يبلغك الى غاية الكمال (هو الخلاق) لك ولهم ولسائر الموجودات على الاطلاق (العليم) بأحوالك وأحوالهم بتفاصيلها فلا يخفى عليه شئ مما جرى بينك وبينهم فهو حقيق بأن تكل جميع الامور اليه ليحكم بينكم أو هو الذي خلقكم وعلم تفاصيل أحوالكم وقد علم أن الصفح اليوم أصلح لي أن يكون السيف أصلح فهو نازل للامر بالصفح على التقديرين وفي مصحف عثمان وأبي رضي الله تعالى عنهما هو الخالق وهو يناسب للتقليل والتكثير والخلاق يختص بالكثير (ولقد آتيناك سبعا) سبع آيات وهي الفاتحة وعليه عمر وعلي وابن مسعود وأبو هريرة رضي الله تعالى عنهم والحسن وأبو العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة رحمهم الله تعالى وقيل سبع سور وهي الطوال التي سابعها الانفال والتوبة فانهما في حكم سورة واحدة ولذلك لم يفصل بينهما بالتسمية وقيل يونس أو الحواميم السبع وقيل المفصل والسبع هي الاسباع (من المثاني) بيان

كأنه قال يسبح في بيوت اذن الله ان ترفع رجال صفتهم كيت وكيت وأما قول أبي مسلم فقد اعترض عليه القاضي من وجهين (الاول) ان قوله وصفا لمن الذين خلوا من قبلكم المراد منهم من تحدى المكذبين للرسل لتعلقه بما تقدم من الاكراه على الزنا ابتغاء للدنيا فلا يليق ذلك بوصف هذه البيوت لانها بيوت أذن الله أن يذكر فيها اسمه (الثاني) ان هذه الآية صارت منقطعة عن تلك الآية بما تخلل بينهما من قوله تعالى الله نور السموات والارض وأما قول الجبائي فقليل الاضمار لا يجوز المصير اليه الا عند الضرورة وعلى التأويل الذي ذكره الفراء والزجاج لا حاجة البتة فلا يجوز المصير اليه فان قيل على قول الزجاج يتوجه عليه اشكال أيضا لان على قوله يصير المعنى في بيوت أذن الله يسبح له فيها فيكون قوله فيها تكرارا من غير فائدة فلم قلتم ان تحمل مثل هذه الزيادة أولى من تحمل ذلك النقصان قلنا الزيادة لاجل التأكيد كثيرة فكان المصير اليها أولى (المسئلة الثانية) أكثر المفسرين قالوا المراد من قوله في بيوت المساجد وعن عكرمة في بيوت هي البيوت كلها والاول أولى لوجهين (الاول) ان في البيوت ما لا يمكن أن يوصف بان الله تعالى أذن أن ترفع (الثاني) انه تعالى وصفها بالذكر والتسبيح والصلاة وذلك لا يليق الا بالمساجد ثم القائلون بان المراد هو المساجد قولان (أحدهما) أن المراد أربع مساجد الكعبة بناها ابراهيم واسمعيل عليهما الصلاة والسلام وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ومسجد المدينة بناه النبي صلى الله عليه وسلم ومسجد قباء الذي أسس على التقوى بناه نبي الله صلى الله عليه وسلم وعن الحسن هو بيت المقدس يسرج فيه عشرة آلاف قنديل (والثاني) ان المراد هو جميع المساجد والاول ضعيف لانه تخصيص بلا دليل فالاولى حمل اللفظ على جميع المساجد قال ابن عباس رضي الله عنهما المساجد بيوت الله في الارض وهي تضيء لاهل السماء كما تضيء النجوم لاهل الارض (المسئلة الثالثة) اختلفوا في المراد من قوله أن ترفع على أقوال (أحدها) المراد من رفعها بناؤه لقوله بناها رفع سمكها فسواها وقوله وأد رفع ابراهيم القواعد من البيت وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي المساجد أمر الله أن تبنى (وثانيها) ترفع أي تعظم وتطهر عن الانجاس وعن اللغويين الاقوال عن الزجاج (وثالثها) المراد مجموع الامرين والقبول الثاني أولى لان قوله في بيوت أذن الله أن ترفع ظاهره أنها كانت بيوتا قبل الرفع فاذن الله أن ترفع (المسئلة الرابعة) اختلفوا في المراد من قوله ويذكر فيها اسمه (فالقول الاول) انه عام في كل ذكر (والثاني) ان يتلى فيها كتابه عن ابن عباس (والثالث) لا يتكلم فيها بما لا ينبغي والاول أولى لعموم اللفظ (المسئلة الخامسة) قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم يسبح مبنيا للمفعول والباقون بكسرها فعلى القراءة الاولى يكون القول معتمدا الى آخر الظروف الثلاثة أعني له فيها بالغدو والآصال ثم قال الزجاج رجال مرفوع لانه لما قال يسبح له فيها فكأنه قيل من يسبح فقيل يسبح رجال (المسئلة السادسة) اختلفوا في هذا التسبيح فالاكثرون حملوه على نفس الصلاة ثم اختلفوا فمنهم من حمله على كل الصلوات الخمس ومنهم من حمله على صلاتي الصبح والعصر فقال كانتا واجبتين في ابتداء الحال ثم نزيد فيهما ومنهم من حمله على التسبيح الذي هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق به في ذاته وفعله واحتج عليه بأن الصلاة والزكاة قد عطفهما على ذلك من حيث قال عن ذكر الله وأقام الصلاة وايتاء الزكاة وهذا الوجه أظهر (المسئلة السابعة) الآصال جمع أصل والاصل جمع أصل وهو الشيء وأما واحد الغدو فلانه في الاصل مصدر لا يجمع والاصيل اسم جمع قال صاحب الكشاف بالغدو أي بأوقات الغدو أي بالغدوات وقرئ والايصال وهو الدخول في الاصيل يقال آصل كأعتم وأظهر قال ابن عباس رحمهما الله ان صلاة الضحى لفي كتاب الله مذكورة

للسبع من المثنية وهي التكرير فان كان المراد الفاتحة وهو الظاهر فتسميتها مثانى لتكرر قراءتها فى الصلاة وأما تكرر قراءتها فى غير الصلاة كما قيل فليس بحيث يكون مدار التسمية ولانها تثنى بما يقرأ بعدها فى الصلاة وأما تكرر نزولها فلا يكون وجها للتسمية لانها كانت مسماة بهذا الاسم قبل نزولها ٣٢٤ الثانى اذا السورة مكية بالاتفاق وان كان المراد غيرها من السور فوجه كونها من المثانى أن

وتلا هذه الآية وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من أحد يغدو او يروح الى المسجد إلا أعد الله له نزله كلما غدا او راح وفى رواية سهل بن سعد مرفوعا من غدا الى المسجد وراح لم يعلم خيرا أو ليتعلمه كان كمثل المجاهد فى سبيل الله يرجع غانما ﴿المسئلة الثامنة﴾ اختلفوا فى قوله تعالى لا تلهيهم تجارة فقال بعضهم نفى كونهم تجارا او باعة أصلا وقال بعضهم بل أثبتهم تجارا او باعة وبين أنهم مع ذلك لا يشغلهم عنها شاغل من ضروب منافع التجارات وهذا قول الاكثرين قال الحسن أما والله ان كانوا ليخرجون ولكن اذا جاءت فرائض الله لم يلههم عنها شئ فقاموا بالصلاة والزكاة وعن سالم نظر الى قوم من أهل السوق تركوا بياعاتهم وذهبوا الى الصلاة فقال هم الذين قال تعالى لا تلهيهم تجارة وعن ابن مسعود مثله واعلم أن هذا القول أولى من الاول لانه لا يقال ان فلانا ما تلهيه التجارة عن كيت وكيت الا وهو تاجر وان احتمل الوجه الاول وهو مناسؤلات ﴿السؤال الاول﴾ لما قال لا تلهيهم تجارة دخل فيه البيع فلم أعاد ذكر البيع ﴿قلنا الجواب عنه من وجوه (الاول) أن التجارة جنس يدخل تحته أنواع الشراء والبيع الا أنه سبحانه خص البيع بالذكر لانه فى الالهاء أدخل لان الربح الحاصل فى البيع يقين ناجز والربح الحاصل فى الشراء شك ومستقبل (الثانى) أن البيع يقتضى تمديل العرض بالنقد والشراء بالعكس والرغبة فى تحصيل النقد أكثر من العكس (الثالث) قال الفراء التجارة لاهل الجلب يقال اتجر فلان فى كذا اذا جلبه من غير بلده والبيع ما باعه على يديه ﴿السؤال الثانى﴾ لم خص الرجال بالذكر (والجواب) لان النساء لسن من أهل التجارات والجماعات ﴿المسئلة التاسعة﴾ اختلفوا فى المراد بذكر الله تعالى فقال قوم المراد الثناء على الله تعالى والدعوات وقال آخرون المراد الصلوات فان قيل فما معنى قوله واقام الصلاة قلنا عنه جوابان (أحدهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد باقام الصلاة اقامتها بمواقيتها (والثانى) يجوز أن يكون قوله واقام الصلاة تفسيرا للذكر الله فهم يذكرون الله قبل الصلاة وفى الصلاة ﴿المسئلة العاشرة﴾ قد ذكرنا فى أول تفسير سورة البقرة فى قوله ويقيمون الصلاة أن اقام الصلاة هو القيام بحقها على شروطها والوجه فى حذف الهاء ما قاله الزجاج يقال أقمت الصلاة اقامة وكان الاصل أقواما ولكن قلبت الواو ألفا فالتقى ساكنان فحذفت احداهما للالتقاء الساكنين فبقى أقمت الصلاة اقاما فاذا حذفت الهاء عوضا من المحذوف وقامت الاضافة ههنا فى التعويض مقام الهاء المحذوفة قال وهذا اجماع من النحويين ﴿المسئلة الحادية عشرة﴾ اختلفوا فى الصلاة فمنهم من قال هى الفرائض ومنهم من أدخل فيه النفل على ما حكيناه فى صلاة الضحى عن ابن عباس والاول أقرب لانه الى التعريف أقرب وكذلك القول فى الزكاة أن المراد المفروض لانه المعروف فى الشرع المنهى بذلك وقال ابن عباس رضى الله عنهما المراد من الزكاة طاعة الله تعالى والاخلاص وكذا فى قوله وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وقوله ما زكا منكم من أحد وقوله تطهرهم وتزكيهم بها وهذا ضعيف لما تقدم ولانه تعالى علق الزكاة بالايتاء وهذا لا يحمل الا على ما يعطى من حقوق المال ﴿المسئلة الثانية عشرة﴾ انه سبحانه بين أن هؤلاء الرجال وان تعبدوا بذكر الله والطاعات فانهم مع ذلك موصوفون بالوجل والخوف فقال يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار وذلك الخوف انما كان لعلمهم بأنهم ما عبدوا الله حق عبادته واختلفوا فى المراد بتقلب القلوب والابصار على أقوال (فالقول الاول) ان القلوب تضطرب من الهول والفزع وتشخص الابصار لقوله واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر (الثانى) أنها تتغير أحوالها فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعا عليها لا تفقه وتبصر الابصار بعد أن كانت لا تبصر فكأنهم انقلبوا من الشك الى الظن ومن الظن الى اليقين

كلا من ذلك تكرر قراءته وأ لفاظه أو قصصه ومواعظه أو من الثناء لاشتماله على ما هو ثناء على الله واحد تها مثناة أو صفة للآية وأما الصحائف وهى الاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ولما فيها من الثناء على الله تعالى كانها تثنى عليه سبحانه بأفعاله وصفاته الحسنى ويجوز أن يراد بالمثانى القرآن لما ذكر أولانه مثنى عليه بالاعجاز أو كتب الله تعالى كلها فان للتبعيض وعلى الاول للبيان (والقرآن العظيم) ان أريد بالسبع الآيات أو السور فمن عطف الكل على البعض أو العام على الخاص وان أريد به الاسباع أو كل القرآن فهو عطف أحد الوصفين على الآخر كما فى قوله

الى الملك القرم وابن الهمام

وليث الكتائب فى المزدحم

أى والقد آتيناك ما يقال له السبع المثانى والقرآن العظيم (لا تمدن عينيك) لا تطمح بصرك طموح راغب ولا تدم نظرك (الى ما متعنا به) من زخارف الدنيا ومن

وزينتها وملاذها وزهرتها (أزواجا منهم) أصنافا من الكفرة فان ما فى الدنيا من أصناف الاموال والذخائر بالنسبة الى ما أوتيته مستحقر لا يعبأ به أصلا وفى حديث أبى بكر رضى الله تعالى عنه من أوتى القرآن فرأى أن أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيرا

وروى أنه وافت من بصرى وأذرعات سبع قوافل لهم وبنى قريظة والنضير فرفع أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الامتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله فقيل لهم قد أعطيتم سبع آيات وهي خير من هذه القوافل السبع (ولا تحزن عليهم) حيث لم يؤمنوا ولم ينتظموا في سلك أشياعك لتقوى بهم ضعفاء ٣٢٥ المسلمين وقيل أراهم المتمنون به وإياه كما

على فان تمنعهم به لا يكون مدار اللهو لن عليهم (وانخفض جناحك للمؤمنين) أي تواضع لهم وارفق بهم وألن جانبك لهم وطب نفسا من اعمان الاغنياء (وقل اني أنا النذير المبين) أي المنذر المظهر لنزول عذاب الله وحلوله (كما أنزلنا على المقتسمين) قيل انه متعلق بقوله تعالى ولقد آتيناك الخ أي أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب الذين جعلوا القرآن عضين) أي قسموه الى حق وباطل حيث قالوا نعتقد ببعضه دون بعضه حق موافق للتوراة والانجيل وبعضه باطل مخالف لهما أو اقتسموه لانفسهم استهزاء حيث كان يقول بعضهم سورة البقرة لي وبعضهم سورة آل عمران لي وهكذا أو قسموا ما قرؤا من كتبهم وحرفوه فآمنوا ببعضه وكذبوا ببعضه وجعل توسط قوله تعالى لا عدن عبدك على أعمالهم هو المراد بالكلام من التسلية وعقب ذلك بأنه حسن المقام عن التشبيه ولقد أوتي عليه الصلاة والسلام

ومن اليقين الى المعاينة لقوله وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وقوله لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك (الثالث) أن القلوب تتقلب في ذلك اليوم على معاني الخوف والرجاء وحذرا من الهلاك والاياس تتقلب من أي ناحية يؤخر بهم أمن ناحية اليمين أم من ناحية الشمال ومن أي ناحية يعطون كتابهم أمن قبل الايمان أم من قبل الشمائل والمعتزلة لا يرضون بهذا التأويل فانهم قالوا ان أهل الثواب لا خوف عليهم البتة في ذلك اليوم وأهل العقاب لا يرجون الغفران لكنا بينا فساد هذا المذهب غير مرة (الرابع) أن القلوب تزول عن أماكنها فتبلغ الحناجر والابصار تصير زرقا قال الضحاك يحشر الكافر وبصره حديد وترزق عيناه ثم يعمى ويتقلب القلب من الخوف حيث لا يجد مخلصا صاحبه رفع في الصورة فهو قوله اذا القلوب لدى الحناجر كاظمين (الخامس) قال الحبائي المراد بتقلب القلوب والابصار تغيرهما من سبب ما يشاهدان من العذاب فتكون مرة بهيئة ما أضيء بالنار ومرة بهيئة ما احترق قال ويجوز أن يريد به تقلبها على جر جهنم وهو معنى قوله تعالى وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة (المسألة الثالثة عشرة) قوله ليجزيهم الله أحسن ما عملوا أي يفعلون هذه القربات ليجزيهم الله ويثيبهم على أحسن ما عملوا وفيه وجوه (الاول) المراد بالاحسن الحسنات أجمع وهي الطاعات فرضها ونفلها قال مقاتل اغا ذكر الاحسن تنبيها على أنه لا يجازيهم على مساوي أعمالهم بل يغفرها لهم (الثاني) أنه سبحانه يجزيهم جزاء أحسن ما عملوا على الواحد عشرا الى سبعمائة (الثالث) قال القاضي المراد بذلك أن تكون الطاعات منهم مكفرة لمعاصيهم وانما يجزيهم الله تعالى بأحسن الاعمال وهذا مستقيم على مذهبنا في الاحباط والموازنة أما قوله تعالى ويزيدهم من فضله فالمعنى على أنه تعالى يجزيهم بأحسن الاعمال ولا يقتصر على قدر استحقاقهم بل يزيدهم من فضله على ما ذكره تعالى في سائر الآيات من التضعيف فان قيل فهذا يدل على أن أقل الطاعة أزاء أي استحقاق الثواب لانه تعالى ميز الجزاء عن الفضل وأنتم لا تقولون بذلك فان عندكم العبد لا يستحق على ربه شيأ قلنا نحن نثبت الاستحقاق لكن بالوعد فذلك القدر هو المستحق والزائد عليه هو الفضل ثم قال والله يرزق من يشاء بغير حساب نبه به على كمال قدرته وكمال جوده ونفاذ مشيئته وسعة احسانه فكان سبحانه لما وصفهم بالجد والاجتهاد في الطاعة ومع ذلك يكونون في نهاية الخوف فاتبعه بوعد سبحانه بعظيم الثواب العظيم على طاعاتهم ويزيدهم الفضل الذي لا حد له في مقابلة خوفهم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ اعلم أنه سبحانه لما بين حال المؤمن وأنه في الدنيا يكون في القربة بسببه يكون متمسكا بالعمل الصالح ثم بين أنه في الآخرة يكون فائزا بالنعيم المقيم والثواب العظيم اتبع ذلك بأن بين أن الكافر يكون في الآخرة في أشد الحسران وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات وضرب لكل واحد منهما مثلا أما المثل الدال على حيرته في الآخرة فهو قوله والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة قال الازهري السراب ما يترائى للعين وقت الضحى الاكبر في الفلوات شبيه الماء الجاري وليس بماء ولكن الذي ينظر اليه من بعيد يظنه ماء جاريا يقال سرب الماء يسرب سربا اذا جرى فهو سارب أما الآل فهو ما يترائى للعين في أول النهار ذهري الناظر الصغير كبيرا وظاهر كلام الخليل أن الآل والسراب واحد وأما القيعة فقال الفراء هو جمع قاع مثل جار وجيرة والقاع المنبسط المستوي من الارض وقال صاحب الكشاف القيعة بمعنى القاع وقال الزجاج الظآن قد يخفف همزه

ما لم يؤت أحد قبله ولا بعده مثله وقيل انه متعلق بقوله اني أنا النذير المبين فانه في قوة الامر بالانذار كأنه قيل أنذر قومك مثل ما أنزلنا على المقسمين يعني اليهود وهو ماجرى على بني قريظة والنضير بأن جعل الموقع كالواقع وقد وقع كذلك وأنت خبير بأن ما يشبه به العذاب المنذر لا بد أن يكون محقق الوقوع معلوم الحال عند المنذرين اذ به تحقق فائدة التشبيه وهي تأكيد الانذار وتشديده وعذاب بني

قرينة والتضرر مع عدم وقوعه اذ ذاك لم يسق به وعد ووعيد فهم منه في غفلة محضة وشك مريب وتنزيل المتوقع منزلة الواقع له موقع جليل من الايجاز لكن اذا صادف مقاما يقتضيه كما في قوله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا ونظائره على أن تخصيص الاقتسام بالبعد وتجريد اختصاص العذاب المذكور بهم مع شركتهم ٣٢٦ للنصارى في الاقتسام المتفرع على الموافقة والمخالفة وفي الاقتسام معنى التعريف

وهو الشديد العطش ثم وجه التشبيه أن الذي يأتي به الكافر ان كان من أفعال البر فهو ولا يستحق عليه ثوابا مع أنه يعتقد أن له ثوابا عليه وان كان من أفعال الاثم فهو يستحق عليه عقابا مع انه يعتقد أنه يستحق عليه ثوابا فكيف كان فهو يعتقد أن له ثوابا عند الله تعالى فاذا وافى عرصات القيامة ولم يجد الثواب بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتناهى غمه فيشبه حاله حال الظمآن الذي تشتد حاجته الى الماء فاذا شاهد السراب تعلق قلبه به ويرجو به النجاة ويقوى طمعه فاذا جاءه وأيس مما كان يرجوه فيه عظم ذلك عليه وهذا المثال في غاية الحسن قال مجاهد السراب عمل الكافر وانما نبه أباه عوته ومفارقة الدنيا بان قبل قوله حتى اذا جاءه بدل على كونه شيأ وقوله لم يجده شيأ منبه على أنه قلنا الجواب عنه من وجوه الثلاثة (الاول) المراد معناه أنه لم يجده شيأ نافعا كما يقال فلان ما عمل شيأ وان كان قد اجتهد (والثاني) حتى اذا جاءه أي جاء موضع السراب لم يجد السراب شيأ فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه (والثالث) الكناية للسراب لان السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كانه ضباب وهباء واذا قرب منه رق وانتشر وصار كالهواء أما قوله ووجد الله عنده فوفاه حسابه أي وجد عقاب الله الذي توعد به الكافر عند ذلك فتغير ما كان فيه من ظن النفع العظيم الى تيقن الضرر العظيم أو وجد زبانية الله عنده يأخذونه فيقبلون به الى جهنم فيسقونه الحميم والغساق وهم الذين قال الله تعالى فيهم عاملة ناصبة يصلون أنهم يحسنون صنعا وقد منا الى ما عملوا من عمل وقيل نزلت في عتبة بن ربيعة من أمية كان قد تعبد وليس المسوح والتمس الدين في الجاهلية ثم كفر في الاسلام أما قوله والله سريع الحساب فذلك لانه سبحانه عالم بجميع المعلومات فلا يشق عليه الحساب وقال بعض المتكلمين معناه لا يشغله محاسبة واحد عن آخر لكن ولو كان يتكلم بآلة كما يقوله المشبهة لما صح ذلك (وأما المثل الثاني) فهو قوله أو كظلمات في بحر لجي وفي لفظة أو ههنا وجوه (أحدها) اعلم أن الله تعالى بين ان أعمال الكفار ان كانت حسنة فمثلها السراب وان كانت قبيحة فهي الظلمات (وثانيها) تدبر الكلام أن أعمالهم اما كسراب بقيعة وذلك في الآخرة واما كظلمات في بحر وذلك في الدنيا (وثالثها) الآية الاولى في ذكر أعمالهم وأنهم لا يتحصلون منها على شيء والآية الثانية في ذكر عقائدهم وانها تشبه الظلمات كما قال يخرجهم من الظلمات الى النور أي من الكفر الى الايمان يدل عليه قوله تعالى ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور وأما البحر اللجي فهو ذو اللجة التي هي معظم الماء الغمر البعيد القعر وفي اللجي لغتان كسر اللام وضمها وأما تقرير المثل فهو أن البحر اللجي يكون قعره مظلما جدا بسبب غمورة الماء فاذا ترادفت عليه الامواج ازدادت الظلمة فاذا كان فوق الامواج سحاب بلغت الظلمة النهاية القصوى فالواقع في قعر هذا البحر اللجي يكون في نهاية شدة الظلمة ولما كانت البلاد التي البدائهم من أقرب ما يراها ومن أبعد ما يظن أنه لا يراها قال تعالى لم يكد يراها ولا بين سبحانه بهذا بلوغ تلك الظلمات الى أقصى النهايات ثم شبه به الكافر في اعتقاده وهو حاله المؤمن في قوله تعالى نور على نور وفي قوله يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ولهذا قال أبي بن كعب الكافر يتقلب في خمس من الظلم كلامه وعمله ومدخله ومخرجه ومصيره الى النار وفي كيفية هذا التشبيه وجوه أخر (أحدها) ان الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات ظلمة البحر وظلمة الامواج وظلمة السحاب وكذا الكافر له ظلمات ثلاث ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل عن الحسن (وثانيها) شبه قلبه وبصره وسمعه بهذه الظلمات الثلاث عن ابن عباس (وثالثها) أن الكافر لا يدري ولا يدري أنه لا يدري ويعتقد أنه يدري فهذه المراتب الثلاث تشبه تلك الظلمات (ورابعها) أن هذه الظلمات متراكمة فكذا الكافر اشتد اصراره على كفره قد تراكمت عليه الضلالات حتى ان أظهر

الشامل للكتابين بل تخصيص العذاب المذكور بهم مع كونه من نتائج الاقتسام تخصيص من غير مخصص وقد جعل الموصول مفعولا أول لاندر أي أنذر المعشر بين الذين يجزؤن القرآن الى سحر وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم فقعد كل منهم في مدخل ليتفرقوا الناس عن الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعضهم لا تغتروا بالخارج منا فانه ساحر ويقول الآخر شاعر والآخر كذاب فاهلكهم الله تعالى يوم بدر وقيل يوم بأسمائهم وفيه مع ما فيه من الاشتراك لما سبق في عدم كون العذاب الذي شبه به العذاب المنذر واقعا ولا معلوما للمنذرين ولا موعود الوقوع أنه لا داعي الى تخصيص وصف التعضية بهم واخراج المقتسمين من بينهم مع كونهم اسوة لهم في ذلك فان وصفهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما وصفوا من السحر والشعر والكذب متفرع على وصفهم للقرآن بذلك وهل هو الا نفس التعضية ولا الى اخراجهم من حكم الانذار على أن ما نزل بهم من العذاب لم يكن من الشدة بحيث يشبه به عذاب غيرهم ولا مخصوصا بهم بل عاما لكل الفريقين وغيرهم مع أن بعض المنذرين كالوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والاسود بن المطلب قد هلكوا قبل مهلك أكثر المقتسمين يوم بدر ولا الى تقديم المفعول الثاني على

الدلائل

الاول كما ترى وقيل انه وصف للعمل النذير أقيم مقامه والمقتسمون هم القاعدون فى مداخل مكة كما مر وقيل هم أصحاب الملك أيضا فالضمير يعم فى أنفسهم من قول الله تعالى لا من قول الرسول عليه الصلاة والسلام والاعتذار بأن ذلك من باب ما يقوله بعض خواص الملك أمرنا بكذا وان كان الآمر هو الملك حسبما سلف فى قوله تعالى قدرنا انها لمن الغابرين ٣٢٧ نعت لا يخفى وأن أعمال الوصف

الموصوف مما لا يجوزه البصريون فلا بد من الهرب الى مسلك الكوفيين أو المصير الى جعله مقولا غير صريح أى أنا النذير المبين بعذاب مثل عذابه المقتسمين وقيل المراد بالمقتسمين الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحا وأهله عليه الصلاة والسلام فأهلكهم الله تعالى وأنت تدرى أن عذابهم حيث كان محققا ومعلوما للمنذرين جميعا تطق به القرآن العظيم صالحا لان يقع مشبها به العذاب المنذر لكن الموصول المذكور عقيبه حيث لم يكن لو نصفة للمقسمين حينئذ فسواء جعلناه مفعولا أول للنذير أو لما دل هو عليه من أنذر لا يكون للتعرض لعنوان التعضية فى حيز العمل ولا لعنوان الاقتسام بالمعنى المزبور فى حيز المفعول الثانى فائدة لما أن ذلك انما يكون للاشعار بعلية الصلة والسمة للحكم الثابت للموصول والموصوف فلا يكون هناك وجه تشبيه عذابهم بدور علة تشبيه عذابهم بعذابهم خاصة لعدم اشتراكهم فى السبب فان المعتبر بمعزل من التقاسم على التبييت الذى هو السبب لهلاك أولئك كما أن أولئك بمعزل من التعضية التى هى السبب لهلاك هؤلاء ولا علاقة بين السببين مفهوما ولا وجودا فتصح وقوع أحدهما فى جانب والآخر فى جانب واتفاق الفريقين على مطلق الاتفاق على الشر المفهوم من الاتفاق على الشر المخصوص الذى هو التبييت المدلول عليه بالتقاسم غير

سمية اذ لا دلالة لعنوان التعجبية على ذلك وانما يدل عليه اقتسام المدلول وجعل الموصول مبتدأ على أن خبره الجملة القسمية لا يليق بجزالة التنزيل وجلالة شأنه الجليل اذا عرفت هذا فاعلم أن الأقرب من الاقوال المذكورة أنه متعلق بالاول وأن المراد بالمتقين أهل الكتابين وأن الموصول مع صلته صفة مبينة لكيفية اتقائهم ومحل الكاف النصب على المصدرية وحديث جلالة المقام عن التشبيه من توابع النظر الجليل والمعنى لقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ابتاء مماثل لايتاء الكتابين على أهلهما وعدم التعرض لذكر ما أنزل عليهم من الكتابين لان الغرض بيان المماثلة بين الايتاءين لا بين متعلقيهما والعدول عن تطبيق ما في جانب المشبه به على ما في جانب المشبه بأن يقال كما آتينا المتقين حسبما وقع في قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب الخ للتنبيه على مابين الايتاءين من التفاوت فان الاول على وجه التكرمة والامتنان وشتان بينه وبين الثاني ولا يقدح ذلك في وقوعه مشبها به فان ذلك انما هو باعتبار تعلقه عندهم وتقدم وجوده على المشبه زمانا لا لمزية تعود الى ذاته كما في الصلاة المطلقة فان التشبيه فيها ليس لتكون رحمة الله تعالى الفائضة على ابراهيم عليه الصلاة والسلام وآله أتم وأكمل مما فاض على النبي عليه الصلاة والسلام وانما ذلك للتقدم في الوجود والتنصيص عليه في القرآن العظيم فليس في التشبيه شائبة اشعار بافضلية المشبه به من المشبه فضلا عن ايهام أفضلية ما تعلق به الاول مما تعلق به الثاني واعتذروا بعنوان الاقتسام انكار الانافهم به مع تحقق ما ينفيه من الانزال المذكور وايذانا بانه كان من حقهم ان يؤمنوا بكله حسب ايمانهم بما أنزل عليهم بحكم الاشتراك في العلة والاتحاد في الحقيقة التي هي مطلق

وأهل الارض يسبحون ذكر ان الذين استقروا في الهواء الذي هو بين السماء والارض وهو الطير يسبحون وذلك لان اعطاء الجرم الثقيل القوة التي بها يقوى على الوقوف في جو السماء صافة باسطة أجنحتها بما فيها من القبض والبسط من أعظم الدلائل على قدرة الصانع المدبر سبحانه وجعل طيرانها سجودها له سبحانه وذلك يؤكد ما ذكرناه من أن المراد من التسبيح دلالة هذه الاحوال على التنزيه لا النطق اللساني أما قوله كل قد علم صلاته وتسبيحه ففيه ثلاثة أوجه (الاول) المراد كل قد علم الله صلاته وتسبيحه قالوا ويدل عليه قوله سبحانه والله عليم بما يفعلون وهو اختيار جمهور المتكلمين (والثاني) أن يعود الضمير في الصلاة والتسبيح على لفظ كل أي أنهم يعلمون ما يجب عليهم من الصلاة والتسبيح (والثالث) أن تكون الهاء راجعة على ذكر الله يعني قد علم كل مسبح وكل مصل صلاة الله التي كلفها اياها وعلى هذين التقديرين فقوله والله عليم استئناف وروى عن أبي ثابت قال كنت جالسا عند محمد بن جعفر الباقر رضي الله عنه فقال لي أتدري ما تقول هذه العصافير عند طلوع الشمس وبعد طلوعها قلت لا قال فانهن يقدسن ربهن ويسألنه قوت يومهن واستبعد المتكلمون ذلك فقالوا الطير لو كانت عارفة بالله تعالى لكانت كالعقلاء الذين يفهمون كلامنا واشاراتنا لكنها ليست كذلك فانا نعلم بالضرورة انها أشد نفورا منا من الصبي الذي لا يعرف هذه الامور فأين يمتنع ذلك فيها أولى واذا ثبت انها لا تعرف الله تعالى استحال كونها مسبحة له بالنطق فثبت انها لا تسبح الله الا بلسان الحال على ما تقدم تقريره قال بعض العلماء انا نشاهد ان الله تعالى ألهم الطيور وسائر الحشرات أعمالا لطيفة يعجز عنها أكثر العقلاء واذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يلهمها معرفته ودعاءه وتسبيحه * وبيان انه سبحانه ألهمها الاعمال اللطيفة من وجوه (أحدها) الهامها كيفية الاصطياد فتأمل في العنكبوت كيف يأتي بالحيل اللطيفة في اصطياد الذباب ويقال ان الذب يستقي في حمر النور فاذا رام نحله شبث ذراعيه وقبرنيه ولا يزال ينهش ما بين ذراعيه حتى يخنقه وانه يرمي بالحجارة ويأخذ العصا ويضرب الانسان حتى يقتلهم انه مات غير كذا ورب ما عاود يتقيه ويتجسس نفسه ويصعد الشجر أخف صعود ويهشم الجوز بين كفيه تهشيما لا واحدة وصلصة بالاخرى ثم ينفخ فيه فيذر قشره ويستخلبه ويحكى عن الفارق سرقته أمور عجيبة (وثانيها) أمر النحل وما لها من الرياسة وبناء البيوت المسدسة التي لا يمكن من بنائها أفاضل المهندسين (وثالثها) انتقال الكراكي من طرف من أطراف العالم الى الطرف الآخر طلبا لما يوافقها من الاهوية ويقال ان من خواص الفيل أن كل واحد منها يعرف صوت الفرس الذي قابله وقتالها والكلاب تتصايح بالعية المعروفة لها والفهد اذا سقي أو شرب من الدواء المعروف بخانق الفهد يعدو الى زبل الانسان فاكله والقاسيح تقع أفواهها الطائر يقع عليها كالعنقيد ويتعلق ما بين أسنانها وهو لي رأس ذلك الطير كالشوك فاذا هم القاسيح بالتقام ذلك الطير تأذى من ذلك الشوك فيقع فاه فيخرج الطائر والسلحفاة تتناول بعد أكل الحية صغيرا جليلا ثم تعود وقد عوفيت من ذلك وحكى بعض الثقات المجربين للصديق انه شاهد الحباري تقاتل الافعى وتهزم عنه الى بقلة تتناول منها ثم تعود ولا يزال ذلك دأبه فكان ذلك الشيخ قاعدا في كمن غائر فعل القنصة وكانت البقلة قريبة من مكمنه فلما اشتغل الحباري بالافعى قلع البقلة فعادت الحباري الى مثلها فافقدته وأخذت تدور حول منبتها دورانا ممتدا بعد حتى ضربت فلم الشيخ انه كان يتعالج بأكلها من اللسعة وتلك البقلة كانت هي الجرجير البري وأما ابن عرس فيستظهر في قتال الحية بأكل السذاب فان النكهة السذابية مما تنفر منها الافعى والكلاب اذا وردت بطونها أكلت سنبل القمح واذا جرحت اللقاق بعضها بعضا داوت جراحها بالسعتر الجبلي

الوحي وتوسط قوله تعالى لا تدن الخ لتكميل اتصاله بما والمقصود من بيان حال ما أوتي النبي عليه الصلاة والسلام ولتدبين أولا علو شأنه ورفعة مكانه بحيث يستوجب اعتباطه عليه الصلاة والسلام بمكانه واستغناءه به عما سواه ثم نهى عن الالتفات الى زهرة الدنيا وعبر عن إيتائها لأهلها بالتمتيع المنبئ عن زوالها عاجلهم ثم عن الحزن بعدم الامان ٣٢٩ الممكن فيها وأمر برعاية المؤمنين والاكتفاء بهم عن غيرهم وباظهار قيامه بواجب الرسالة وبرأسم الانذار حسبما فصل في قصاعف ما أوتي من القرآن العظيم ثم رجع الى كيفية إيتائه على وجه أبدع فيه ما يزيح شبهة المنكرين ويستنزلهم عن العناد من بيان مشاركته لما لا ريب لهم في كونه وحيا صادقا فتأمل والله عنده علم الكتاب هذا وقد قيل المعنى قل اني أنا النذير المبين كما قد أنزلنا في الكتب أنذن سأتي نذيرا على أن المقسمين أهل الكتاب انتهى يريد أن ما في كما موصولة والمراد بالمشابهة المستفادة من الكاف المرافقة وهي مع ما في حيزها في محل النصب على الحالية من مفعول قل أي قل هذا القول حال كونه كما أنزلنا على أهل الكتابين أي مرافقا لذلك فالانسب حينئذ حمل الاقتسام على التحريف ليكون وصفهم بذلك تعريضا عاد فعلوا من تحريفهم وكتمانهم لنعت النبي صلى الله عليه

الجبلي (وراءها) القناة قد تخص بالشمال والجنوب قبيل المغيب فتغير المدخل الى بحيرها وكان بالقسطنطينية رجل قد أثرى بسبب انه كان ينذر بالرياح قبل هبوبها وينتفع الناس بانذاره وكان السبب فيه قنفذا في داره يفعل الصنيع المذكور فيستدل به والخطاف صانع حيدة في اتخاذ العش من الطين وقطع الشعب فان أعوزه الطين ابتل وتمرغ في التراب ليحمل حناحاه قدر ما من الطين واذا أفرخ بالغ في تمهيد الفراخ وياخذ رقها يتقاره و يرميها عن العش ثم يعلمها القاء الذرق خوطرف العش واذا دنا الصائد من مكان فراخ القبجة ظهر له القبجة وقربت منه مطمئنة له لينهبها ثم تذهب الى جانب آخر وهي جانب فراخها وناقب الثعشب قلما يقع على الارض بل على الشجر يقر الموضع الذي يعلم أن فيه دودا والغرانيق تصعد في الجو جدا عند الطيران فان حجب بعضها عن بعض ضباب أو سحاب أحدث عن أجنحتها حفيفا صيبويا يلزمه بعضها بعضا فاذا ناهت على جبل فانها تضع رؤسها تحت أجنحتها الا القائدة فانها بنيام مكشوف الرأس فيسمع انتباهه واذا سمع حرسا صاح وحال الفيل في الذهاب الى مواضعها على خط مستقيم يحفظ بعضها بعضا أمر عجيب واعلم أن الاستقصاء في هذا الباب مذكور في كتاب طبائع الحيوان والمقصود أن الاكياس من العقلاء يعجزون عن أمثال هذه الحيل فاذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يقال انها علمته من عند الله تعالى بمعرفته والثناء عليه وان كانت غير عارفة بسائر الامور التي يعرفها الناس والله در شهاب الاسلام السمعاني حيث قال جل جناب الجلال عن أن يوزن بميزان الاعتزال ﴿ أما قوله سبحانه ولله ملك السموات والارض والى الله المصير فهو مع وجازته فيه دلالة على تمام علم المبدا والمعاد فقوله ولله ملك السموات والارض تنبيه على أن الكل منه لان كل ما سواه ممكن وحدث والممكن والحدث لا يوجد ان الاعند الانتهاء الى القديم الواجب فدخل في هذه القضية جميع الاجرام والاعراض وأفعال العباد وأقوالهم وخواطرهم وأما قوله والى الله المصير فهو عبارة تامة في معرفة المعاد وهو أنه لا بد من مصير الكل اليه سبحانه وله وجوه آخر وهو أن الوجود بدأ من الاشرف فالاشرف نازلا الى الاخس فالاخس ثم يأخذ من الاخس فالاخس مترقيا الى الاشرف فالاشرف فانه يكون جسما ثم يسير موفقا بالنباتية ثم الحيوانية ثم الانسانية ثم الملكية ثم ينتهي الى واجب الوجود لذاته فالاعتبار الاول عود قوله ولله ملك السموات والارض والثاني عود قوله والى الله المصير ﴿ قوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار يقلب الله الليل والنهار ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار ﴾ اعلم أن هذا هو النوع الثاني من الدلائل وفيه مسئلتان ﴿ المسئلة الاولى ﴾ قوله ألم تر معين عقلك والمراد التنبيه والازعاج السوق قليلا قليلا ومنه البضاعة المزجاة التي يزجيها كل أحد وازجاء السير في الابل الرفق بها حتى تسير شيأ فشيأ ثم يؤلف بينه قال الفراء بين لا يصلح الا مضافا الى اثنين فازداد وا عما قال بينه لان السحاب واحد في اللفظ ومعناه الجمع والواحد سحابة قال الله تعالى وينشئ السحاب الثقال والتأليف بينهم شئ الى شئ أي يجمع بين قطع السحاب فيجعلها سحابا واحدا ثم يجعله ركاما أي مجتمعا والركم جعل شئ فوق شئ حتى يجعله مركوما والودق المطر قال ابن عباس وعن مجاهد القطر وعن أبي مسلم الاصفهاني المعنى من خلاله من ثقوبه ومخارقه جمع خلل كجبال في جمع جبل وقرئ من خلله ﴿ المسئلة الثانية ﴾ اعلم أن قوله يزجي سحابا يحتمل أنه سبحانه ينشئه شيأ بعد شئ ويحتمل أن يغيره من سائر الاجسام لافي حالة واحدة فعلى الوجه الاول يكون نفس السحاب محدثا ثم انه سبحانه يؤلف بين أجزائه وعلى الثاني يكون المحدث من قبل الله تعالى تلك الصفات التي باعتبارها

وسلم وقوله تعالى عضين جمع عضة وهي الفرقة أصلها عضوة فعلة من عضى الشاة تعضية اذا جعلها أعضاء وانما جمعت جمع السلامة جبرا للمحذوف كسنين وعزين والتعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية التي هي تفريق الاعضاء من ذي الروح المستلزم لازالة حياته وابطال اسمه دون مطلق التجزئة والتفريق اللذين ربما يوجدان فيما لا يضر التبعيض من المنايات للتضييض

على كمال قبح ما فعلوه بالقرآن العظيم وفيه هي فعلته من عظيم ما أتيه وعن عكرمة العنه السحر باسان قريش فنقصانها على الاول واووعلى الثاني هاء (فوربك لنسألنهم أجمعين) أي لنسألن يوم القيامة أصناف الكفرة من المقتسمين وغيرهم سؤال توبيخ وتقريع (عما كانوا يعملون) في الدنيا من قول ٣٣٠ وفعل وترك فيدخل فيه دخولا أوليا والخبر يعم بذلك

صارت تلك الاجسام سحابا وفي قوله ثم يؤلف بينه دلالة على وجودها متفرقة اذ التأليف لا يصح الا بين موجودين ثم انه سبحانه يجعله ركاما وذلك بتركب بعضها على البعض وهذا مما لا بد منه لان السحاب انما يحمل الكثير من الماء اذا كان بهذه الصفة وكل ذلك من عجائب خلقه ودلالة ما ملكه واقتداره قال أهل الطبائع ان تكون السحاب والمطر والثلج والبرد والطل والصقيع في أكثر الامر يكون من تكاثف البخار وفي الاقل من تكاثف الهواء أما الاول فالبخار الصاعد ان كان قليلا وكان في الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فحينئذ يفصل ويتقلب هواء وأما ان كان البخار كثيرا ولم يكن في الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فحينئذ يتكاثف البخار المتصاعد اما أن يتلاقى في صعوده الى الطبقة الباردة من الهواء أو لا يتلاقى فان بلغت فاما أن يكون البرد هناك قويا أو لا يكون فان لم يكن البرد هناك قويا تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد واجتمع وتقاطر فالبخار المجتمع هو السحاب والمتقاطر هو المطر والدعة والوابل أقسام من أمثال هذه العموم وأما ان كان البرد شديدا فلا يخلو اما أن يصل البرد الى الاجزاء البخارية قبل اجتماعها واتصالها سحابا كبارا أو بعد صيرورتها كذلك فان كان على الوجه الاول نزل ثلجا وان كان على الوجه الثاني نزل بردا وأما اذا لم تبلغ الابخرة الى الطبقة الباردة فهي اما أن تكون كثيرة أو تكون قليلة فان كانت كثيرة فهي قد تنعقد سحابا مطرا وقد لا تنعقد أما الاول فذلك لاحد أسباب خمسة (أحدها) اذا منع هبوب الرياح عن تصاعد تلك الابخرة (وثانيها) أن تكون الرياح ضاغطة اياها الى الاجتماع بسبب وقوف جبال قدام الريح (وثالثها) أن تكون هناك رياح مقابلة متضادة فتمنع صعود الابخرة حينئذ (ورابعها) أن يعرض للجزء المتقدم وقوف لثقله وبطء حركته ثم يلتصق به سائر الاجزاء الكثيرة المدد (وخامسها) شدة برد الهواء القريب من الارض وقد نشاهد البخار يصعد في بعض الجبال صعودا يسيرا حتى كأنه مكلة موضوعة على وهدة ثم يكون الناظر اليها فوق تلك الغمامة والذين يكونون تحت الغمامة يمطرون والذين يكونون فوقها يكونون في الشمس وأما اذا كانت الابخرة قليلة والارتفاع قليلا لطيفة فاذا ضربها برد الليل كثفها وعقدها ما محسوسا فتنزل نزولا مستقرا لا يحس به الا عند اجتماع شيء منه فان لم يجمد كان طلا وان جمد كان صقيعا وأما نسبة الصقيع الى الطل نسبة الثلج الى المطر وأما تكون السحاب من انقباض الهواء فذلك عند ما يبرد الهواء ويتكاثف وحينئذ يحصل منه الاقسام المذكورة (والجواب) أما المداد للناس على حدوث الاجسام وقد سلمنا ذلك الى كونه قادرا باختياره يمكنه ايجاد الاجسام لم يمكنا القطع بما ذكرتموه لاحتمال أنه سبحانه خلق تلك الاجسام عقيب تلك الطبائع وتلك الطبائع مؤثرة في هذه الاحوال وخالق السبب خالق المسبب فكان هو سبحانه هو الذي يزجي سحابا لانه هو الذي خلق تلك الطبائع المحركة لتلك الابخرة من باطن الارض الى جو الهواء ثم ان تلك الابخرة اذا ترادفت في صعودها والتصق بعضها ببعض فهو سبحانه هو الذي جعلها ركاما فثبت على جميع التقديرات أن وجه الاستدلال بهذه الاشياء على القدرة والحكمة ظاهر بين وأما قوله سبحانه وينزل من السماء من جبال فيها من برد فقيه مسئلتان (المسئلة الاولى) في هذه الآية قولان (أحدهما) أن في السماء جبالا من برد خلقها الله تعالى كذلك ثم ينزل منها ما شاء وهذا القول عليه أكثر المفسرين قال مجاهد والكلبي جبال من برد في السماء (والقول الثاني) ان السماء هو الغيم المرتفع على

رؤس

كفكهم فأومأ الى ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظما لاخذه فأصاب عرقا في عقبه فقطعه فمات وأومأ الى أخص العاص فدخلت فيه شوكة فقال لذعت لذعة فانتفخت رجله حتى صارت كالرحا فمات وأشار الى عيني الاسود بن المطلب فعمي والى أنف الحرث فامتخط قيحا فمات

والى الاسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينظح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (الذين يجعلون مع الله الها آخر) وصفهم بذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهويلا للخطب عليه باعلام أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام بل احترؤا على العظيمة التي هي الاشراك بالله سبحانه (فسوف يعلمون) ٢٣١ عاقبة ما يأتون ويذرون (ولقد نعلم أنك

رؤس الناس سمي بذلك لسموه وارتفاعه وأنه تعالى أنزل من هذا الغيم الذي هو سماء البرد وأراد بقوله من جبال السحاب العظام لانها اذا عظمت أشبهت الجبال كما يقال فلان يملك جبالا من مال ووصفت بذلك توسعا وذهبوا الى أن البرد ماء جامد خلقه الله تعالى في السحاب ثم أنزله الى الارض وقال بعضهم انما سمي الله ذلك الغيم جبالا لانه سبحانه خلقها من البرد وكل جسم شديد متحير فهو من الجبال ومنه قوله تعالى واتقوا الذي خلقكم والجبلة الاولين ومنه فلان مجبول على كذا قال المفسرون والاول أولى لان السماء اسم لهذا الجسم المخصوص فحمله اسما للسحاب بطريقة الاشتقاق مجاز وكان يصح أن يجعل الله الماء في السحاب ثم ينزله بردا فقد يصح أن يكون في السماء جبال من برد واذا صح في القدرة كلا الامرين فلا وجه لتنزل الظاهر ﴿المسئلة الثانية﴾ قال أبو علي الفارسي قوله تعالى من السماء من جبال فيها من برد فمن الاولى لابتداء الغاية لان ابتداء الانزال من السماء والثانية للتبعيض لان ما منزله الله من تلك الجبال التي في السماء والثالثة للتبيين لان جنس تلك الجبال جنس البرد ثم قال ومفعول الانزال محذوف والتقدير وينزل من السماء من جبال فيها من برد الا أنه حذف للدلالة عليه أما قوله فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء فالظاهر أنه راجع الى البرد ومعلوم من حاله أنه قد يقع منه ما يقع عليه من حيوان ونبات فمن سبحانه أنه يصيب به من يشاء على وفق المصلحة ويصرفه أي يصرف ضرره عمن يشاء بأن لا يسقط عليه ومن الناس من حمل البرد على الحجر وجعل نزوله جاريا مجرى عذاب الاستئصال وذلك بعيد * أما قوله تعالى يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرئ يكاد سنا برقه على الادغام وقرئ برقه جمع برقة وهي المقدار من البرق وبرقه بضمتين للاتباع كما قيل في جمع خملة خملات كظلمات وسناء برقه على المد والقصر بمعنى الضوء والممدود بمعنى العلو والارتفاع من قولك سنى الرجل يسنو اذا رفع ويذهب بالابصار على زيادة الباء كقوله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة عن أبي جعفر المدني ﴿المسئلة الثانية﴾ وجه الاستدلال بقوله يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ان البرق الذي يكون صفته ذلك لابد وأن يكون نارا عظيمة تخالف صفتها صفة الماء والبرد فظهوره من البرد يقتضي ظهور الضد من الضد وذلك لا يمكن الا بقدرة قادر حكيم ﴿المسئلة الثالثة﴾ اختلف الصوفيون في أنك اذا قلت ذهبت بزيد الى الدار فهل يجب أن تكون ذاهبا معه الى الدار فالمنكرون احتجوا بهذه الآية أما قوله يقلب الله الليل والنهار فقيل فيه وجوه منها تعاقبهما ومجيء أحدهما بعد الآخر وهو كقولك وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ومنها ولوج أحدهما في الآخر وأخذ أحدهما من الآخر ومنها تغير أحوالهما في البرد والحر وغيرهما ولا يمتنع في مثل ذلك أن يريد تعالى معاني الكل لانه في الانعام والاعتبار أولى وأقوى أما قوله تعالى ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار فالمعنى أن فيما تقدم ذكره دلالة لمن يرجع الى بصيرة من هذا الوجه يدل على أن الواجب على المرء أن يتدبر ويتفكر في هذه الامور ويدل أيضا على فساد التقليد ﴿قوله تعالى﴾ ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شئ قدير لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم﴾ اعلم أن هذا هو النوع الثالث من الدلائل على الوحدانية وذلك لانه لما استدل أولا بأحوال السماء والارض وثانيا بالآثار العلوية استدل ثالثا بأحوال الحيوانات ﴿واعلم أن على هذه الآية مسائل﴾ ﴿المسئلة الاولى﴾ لم قال الله تعالى والله خلق كل دابة من ماء مع أن كثيرا من الحيوانات غير مخلوقة من الماء أما الملائكة فهم أعظم الحيوانات عددا وهم مخلوقون من النور وأما الجن فهم مخلوقون من النار وخلق الله آدم من التراب لقوله خلقه من تراب وخلق عيسى من

يضيق صدرك بما يقولون) من كلمات الشرك والطعن في القرآن والاستهزاء به وبك وتعليله الجملة بالباء كيد لافادة تحقيق ما تتضمنه من التسلية وصيغة الاستقبال لافادة استمرار العلم حسب استمرار متعلقه باستمرار سائر وجوهه من أقوال الكفرة (فسبح بحمد ربك) فافزع الى الله تعالى فيما نابك من ضيق الصدر والمرج بالتسبيح والتقديس ملتبسا بحمده وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام مالا يخفى من اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والاشعار بعلة الحكم أعني الامر بالتسبيح والحمد (وكن من الساجدين) أي المصلين يكشف الغم عنك أو فنزهه عما يقولون ملتبسا بحمده على أن هذا للحق المبين وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة (واعبد ربك)

دم على ما أنت عليه من عبادته تعالى وايثار الاظهار بالعنوان السالف آنفا تأكيد ما سبق من اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والاشعار بعلة الامر بالعبادة (حتى يأتيك اليقين) أي الموت فانه متيقن لكل حي محقق واسناد الاتيان اليه للايذان بأنه متوجه الى الحي طالب للوصول اليه والمعنى دم على العبادة مادمت حيا من غير اخلال بها لحظة * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة

﴿سورة النحل مائة وثمان وعشرون آية﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ﴿أتى أمر الله﴾ أي الساعة أو ما يعمها وغيرها من

العذاب الموعود للكفرة عبر عن ذلك وقضائه الغالب واتيانه عبارة عن دنوه واقترابه على طريقة نظم المتوقع في سلك الواقع أو عن اتيان مباديه القريبة على نهج استناد حال الاسباب الى المسببات وأيا ما كان ففيه تنبيه على كمال قربه من الوقوع والله له وتكميل لحسن موقع التفريع في قوله عز وجل ﴿فلا تستعجلوه﴾ فان النهي عن استعجال الشئ وان صح تفريعه على قرب وقوعه أو على وقوع أسبابه القريبة لكنه ليس مثابة تفريعه على وقوعه اذ ما لوقوع يستعجل الاستعجال رأسا انما ذكر من قرب وقوعه ووقوع مباديه والخطاب للكفرة خاصة كما تدل عليه القراءة على صيغة نهي الغائب واستعجالهم وان كان بطريق الاستهزاء لكنه حمل على الحقيقة ونزل عنه بضرب من التهكم لانهم المؤمنين سواء أريد بأمر الله ما ذكر أو العذاب الموعود للكفرة خاصة أما الاول فلانه لا يتصور من المؤمنين استعجال الساعة أو ما يعمها وغيرها من العذاب حتى ينهوا عنه وأما الثاني فلان

استعجالهم له بطريق الحقيقة واستعجال الكفرة بطريق الاستهزاء كما عرفته فلا يتنظمهم صيغة واحدة والاتجاه الى ارادة معنى يجازي يعمهما معا من غير أن يكون هناك رعاية نكتة سرية تعسف لا يليق بشأن التنزيل الجليل وما روى من أنه لما نزلت اقتربت الساعة قال

الريح لقوله فنفخنا فيه من روحنا وأيضا نرى ان كثيرا من الحيوانات متولد لا عن النطفة (والجواب) من وجوه (أحدها) وهو الاحسن ما قاله الففال وهو أن قوله من ماء صلة كل دابة وليس هو من صلة خلق والمعنى أن كل دابة متولدة من الماء ففي مخلوقة لله تعالى (وثانيها) ان أصل جميع المخلوقات الماء على ما يروى أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم من ذلك الماء خلق النار والهواء والنور ولما كان المقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة وكان الاصل الاول هو الماء لا جرم ذكره على هذا الوجه (وثالثها) ان المراد من الدابة التي تدب على وجه الارض ومسكنهم هناك فيخرج عنه الملائكة والجن ولما كان الغالب جدا من هذه الحيوانات كونهم مخلوقين من الماء اما لانها متولدة من النطفة واما لانها لا تعيش الا بالماء لا جرم أطلق لفظ الكل تغليبا للغالب منزلة الكل ﴿السؤال الثاني﴾ لم نكر الماء في قوله من ماء وجاء معرفا في قوله وجعلنا من الماء كل شئ حي ﴿والجواب﴾ انما جاء ههنا منكرا لان المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء يختص بتلك الدابة وانما جاء معرفا في قوله وجعلنا من الماء كل شئ حي لان المقصود هناك كونهم مخلوقين من هذا الجنس وههنا بيان أن ذلك الجنس ينقسم الى أنواع كثيرة ﴿السؤال الثالث﴾ قوله فمنهم ضمير العقلاء وكذلك قوله من فلم استعمله في غير العقلاء ﴿والجواب﴾ انه تعالى ذكر ما لا يعقل مع من يعقل وهم الملائكة والانس والجن فغلب اللفظ اللائق بمن يعقل لان جعل الشريف أصلا والخسيس تبعا أولى من العكس ويقال في الكلام من المقبلان لرجل وبعير ﴿السؤال الرابع﴾ لم سمى الزحف على البطن مشيا وبين صحة هذا السؤال أن الصبي قد يوصف بأنه يحبو ولا يقال انه يمشي وان زحف على حد ما تزحف الحية ﴿والجواب﴾ هذا على سبيل الاستعارة كما قالوا في الامر المستمر قد مشى هذا الامر ويقال فلان لا يمشي له أمر أو على طريق المشاكلة كقوله الزاحف مع الماشين ﴿السؤال الخامس﴾ أنه لم استوفى القسمة لانا نجد ما يمشي على أكثر من أربع مثل العناكب والعقارب والرتيلات بل مثل الحيوان الذي له أربعة وأربعون رجلا الذي يسمى دخال الاذن ﴿والجواب﴾ التقسيم الذي ذكرتم كالنادر فكان ملحقا بالعدم ولان الفلاسفة يقررون بأن ما له قوائم كثيرة فاعتماده انما هو على أربع منها فكأنه يمشي على أربع ولان قوله تعالى يخلق الله ما يشاء كالتنبيه على سائر الاقسام ﴿السؤال السادس﴾ لم جاءت الاجناس الثلاثة على هذا الترتيب ﴿والجواب﴾ قد قدم ما هو أعجب وهو الماشي بغير آلة تمشي من أرجل أو قوائم ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع واعلم أن قوله يخلق الله ما يشاء تنبيه على أن الحيوانات كما اختلفت بحسب كيفية المشي فكذا هي مختلفة بحسب أمور أخر فلنذكر هنا بعض تلك التقسيمات ﴿التقسيم الاول﴾ الحيوانات قد تشترك في أعضاء وقد تتباين بأعضاء أما الشركة فلعل اشتراك الانسان والفرس في أن لهما لحما وعصبا وعظما وأما التباين فاما أن يكون في نفس العضو أو في صفته أما التباين في نفس العضو فعلى وجهين (أحدهما) أن لا يكون العضو حاصلا للآخر وان كانت أجزاؤه حاصلة للثاني كالفرس والانسان فان الفرس له ذنب والانسان ليس له ذنب ولكن أجزاء الذنب ليست الا العظم والعصب واللحم والجلد والشعر وكل ذلك حاصل للانسان (والثاني) أن لا يكون ذلك العضو حاصلا للثاني لا بنفسه ولا بأجزائه مثل أن للسلحفاة صدفة يحيط به وليس للانسان ذلك وكذا للسمك فلوس وللقنفذ شوك وليس شئ منها للانسان ﴿وأما التباين في صفة العضو فاما أن يكون من باب الكمية أو الكيفية أو الوضع أو الفعل أو الانفعال أما الذي في الكم فاما أن يتعلق بالمقدار مثل أن عين البوم كبيرة وعين العقاب صغيرة أو بالعدد مثل ان أرجل ضرب من العناكب ستة وأرجل ضرب آخر ثمانية أو

الكفار فيما بينهم ان هذا زعم أن القيامة قد قربت فامسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا ما نرى شيأ فنزلت اقترب للناس حسابهم فاشفقوا وانتظروا اقربها فلما امتدت الايام قالوا ياحمد ما نرى شيأ مما تخوفنا به فنزلت أتى أمر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع الناس رؤسهم فلما نزل فلا تستعجلوه اطما أنوا فايس ٣٣٣ فيه دلالة على عموم الخطاب كما قبل لانا نقول هم من أن التصدير بالفاء يأباه فانه يعزل عن اباته حسبما تحققته بل لان مناط اطمئنانهم انما هو وقوفهم على أن المراد بالاتيان هو الاتيان الدنيائى لا المتوقى الموجب لاستعجالها الاستعجال المستلزمة لامتناع النهى عنه ولما أن النهى عن الشئ يقتضى امكانه فى الجملة ومدار ذلك الوقوف انما هو النهى عن الاستعجال المستلزم لامكانه المقتضى لعدم وقوع المستعجل بعد ولا يختلف ذلك باختلاف المستعجل كائنا من كان بل فيه دلالة واضحة على عدم العموم لان المراد بأمر الله انما هو الساعة وقد عرفت استحالة صدور استعجالها عن المؤمنين نعم يجوز تخصيص الخطاب بهم على تقدير كون أمر الله عبارة عن العذاب الموعود للكفرة خاصة لكن الذى يقتضيه الايجاز التنزيلى انه خاص بالكفرة كما ستقف عليه ولما كان استعجالهم ذلك من نتائج اثرائهم المستتبع

عشرة والذى فى الكيف فكاختلافها فى الالوان والاشكال والصلابة واللين والذى فى الوضع فمثل اختلاف وضع ندى الفيل فانه يكون قريبا من الصدر وندى الفرس فانه عند السرة وأما الذى فى الفعل فمثل كون أذن الفيل صالحا للذب مع كونه آلة للسمع وليس كذلك فى الانسان وكون أنفه آلة للقبض دون أنف غيره وأما الذى فى الانفعال فمثل كون عين الخفاش سريعة التحريك للضوء وعين الخطاف بخلاف ذلك (التقسيم الثانى) الحيوان اما أن يكون مائيا يعنى ان مسكنه الاصلى هو الماء أو أرضيا أو يكون مائيا برمائيا أما الحيوانات المائية فتتغير أحوالها من وجوه (الاول) انه اما أن يكون مكانه وغذاؤه ونفسه مائيا فله بدل التنفس فى الهواء التنفس المائى فهو يقبل الماء الى باطنه ثم يرده ولا يعيش لحظة فارقه والسمك كله كذلك ومنه ما مكانه وغذاؤه مائى ولكنه يتنفس من الهواء مثل السلحفاة المائية ومنه ما مكانه وغذاؤه مائى وليس يتنفس ولا يستنشق مثل أصناف من الصدف لا تظهر للهواء ولا تستدخل الماء الى باطنها (الوجه الثانى) الحيوانات المائية بعضها مأواها مياه الانهار الجارية وبعضها مياه البطائح مثل الضفادع وبعضها مأواها مياه البحر (الوجه الثالث) منها ملحية ومنها شطة ومنها طينية ومنها صخرية (الوجه الرابع) الحيوان المتنقل فى الماء منه ما يعتمد فى عوصه على رأسه وفى السباحة على أحشائه كالسمك ومنه ما يعتمد فى السباحة على رجله كالضفدع ومنه ما يمشى فى قعر الماء كالسرطان ومنه ما يرحف مثل ضرب من السمك لا جناح له وكالدود وأما الحيوانات البرية فتتغير أحوالها أيضا من وجوه (الاول) أن منها ما يتنفس من طريق واحد كالفم والخيشوم ومنها ما لا يتنفس كذلك بل على نحو آخر من مساميه مثل الزنبور والنمل (الثانى) أن الحيوانات الارضية منها ما له مأوى معلوم ومنها ما مأواه كيف اتفق الآن بلد فيقيم للحضانة واللواتى لها مأوى فبعضها مأواه عش وبعضها حفر وبعضها مأواه قلة رابية وبعضها مأواه وجه الارض (الثالث) الحيوان البرى كل طائر منه ذو جناح فانه يمشى برجله ومن جملة ذلك ما هشمه صعب عليه كالخطاف الكبير الاسود والخفاش وأما الذى جناحه جلدا وغشاء فقد يكون عديم الرجل كضرب من الحيات الحمشية يطير (الرابع) الطير يختلف فبعضها يتعايش معا كالكركى وبعضها يؤثر التفرد كالعقاب وجميع الجوارح التى تتنازع على الطعم لاحتياجها الى الاحتيال لتصيد ومنافستها فيه ومنها ما يتعايش زوجا ويكون معا كالقطا ومنه ما يجتمع ثارة ويتفرد أخرى والحيوانات المتفردة قد تكون مدنية وقد تكون بريه صرفة وقد تكون بستانية والانسان من بين الحيوان هو الذى لا يمكنه أن يعيش وحده فان أسباب حياته ومعيشته تلتئم بالمشاركة المدنية والفعل والعمل وبعض الغرائز يشارك الانسان فى ذلك لكن النحل والكركى تطيعه رئيسا واحدا والنمل لها اجتماع ولا رئيس له (الخامس) الطير منه آكل لحم ومنه لا قط حب ومنه آكل عشب وقد يكون لبعض الطير طعم معين كالنحل فان غذاءه زهر والعنكبوت فان غذاءه الذباب وقد يكون بعضه مستغن الطعم (أما القسم الثالث) وهو الحيوان الذى يكون تارة مائيا وأخرى برمائيا فيقال انه حيوان يكون فى البحر ويعيش فيه ثم انه يرتقى الى البر ويبقى فيه (التقسيم الثالث) الحيوان منه ما هو انسى بالطبع كالانسان ومنه ما هو انسى بالمولد كالهرة والفرس ومنه ما هو انسى بالقسر كالفهد ومنه ما لا يأنس كالنمر والمستأنس بالقسر منه ما يسرع استئناسه وبقى مستأنسا كالفيل ومنه ما يطيع كالاسد ويشبه أن يكون من كل نوع صنف انسى وصنف وحشى حتى من الناس (التقسيم الرابع) من الحيوان ما هو صوت ومنه ما لا صوت له وكل صهوت فانه يسمع عند الاغتلام وحركة شهوة الجماع أشد تسويتا الا الانسان وأيضا البعض الحيوان شبق يشتد كل وقت

لنسبة الله عز وجل الى ما لا يليق به من العجز والاحتياج الى الغير واعتقادات أحدا خيزه عن انجاز وعده وامضاء وعيده وقد قالوا فى تسامحه فان صح مجئ العذاب فالاصنام تخلصنا عنه شفاعتهم اردد ذلك فقيل بطريق الاستئناف (سبحانه وتعالى عما يشركون) أى تنزه وتقدس بذاته وجل عن اشراكهم المؤدى الى صدور أمثال هذه الاباطيل عنهم أو عن أن يكون له شريك فيدفع ما أرادوا بهم من وجه من

الوجود وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد اشراكهم واستمراره والالتفات الى الغيبة للايذان باقتضاء ذكر قبائحهم للاعراض عنهم وطرحهم عن رتبة الخطاب وحكاية شنائعهم لغيرهم وعلى تقدير تخصيص الخطاب بالمؤمنين تفوت هذه النكتة كما يفوت ارتباط النهي عنه بالمتزه عنه وقرئ على ٣٣٤ صيغة الخطاب (ينزل الملائكة) بيان لفخم التوحيد حسبما نبه عليه تنبيها اجماليا بينما

تقدس جناب الكبرياء وتعالى عن أن يحوم حوله شائبة أن يشاركه شئ في شئ وايذان بأنه دين أجمع عليه جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأمر وا بدعوة الناس اليه مع الاشارة الى سر البعثة والتشريع وكيفية القاء الوحي والتنبيه على طريق علم الرسول عليه الصلاة والسلام بأتيان ما أوعدهم به وباقتراب ازاحة لاستعدادهم اختصاصه عليه الصلاة والسلام بذلك واظهارا لبطلان رأيهم في الاستعجال والتكذيب وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بأن ذلك عادة مستمرة له سبحانه والمراد بالملائكة اما جبريل عليه السلام قال الواحدي يسمى الواحد بالجمع اذا كان رئيسا أو هو ومن معه من حفظة الوحي بأمر الله تعالى وقرئ بتنزل من الانزال وتنزل بحذف احدى التاءين وعلى صيغة المبني للمفعول من التنزيل (بالروح) أي بالوحي الذي من جملته القرآن على نهج الاستعارة فانه يحيي القلوب الميتة بالجهل أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد والباء متعلقة بالفعل أو بما هو حال من مفعوله قول

أي ملتبسين بالروح (من أمره) بيان للروح الذي أريد به الوحي فانه أمر بالخير أو حال منه أي حال كونه ناشئا ومبتدأ منه أو صفة له على رأي من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أي بالروح الكائن من أمره الناشئ منه أو متعلق بينزل ومن للسببية كالباء مثل ما في قوله

كالدليل ومنه عفيف له وقت معين (التقسيم الخامس) بحسب الاخلاق بعض الحيوانات هادئ الطبع قليل الغضب مثل البقرة وبعضها شديد الجهل حاد الغضب كالخنزير البري وبعضها حليم خسدوع كالبعير وبعضها ردي الحركات معتال كالحية وبعضها حر ي قوي شهم كبير النفس كريم الطبع كالاسد ومنها قوي معتال وحشي كالذئب وبعضها معتال مكار ردي الحركات كالثعلب وبعضها غضوب شديد الغضب سفيه الا أنه مأتي متودد كالكلب وبعضها شديد الكيس مستأنس كالفيل والقرد وبعضها حسود متباه بحجاله كالطاوس وبعضها شديد التحفظ كالجمل والحمار (التقسيم السادس) من الحيوان ما تناسله بان تلد أنثاه حيوانا وبعضها ما تناسله بان تلد أنثاه دودا كالفصل والعنكبوت فانها تلد دوادا ثم أن أعضاءه تستكمل بعد وبعضها تناسله بان تبيض أنثاه بيضا * واعلم أن المقول قاصرة عن الاحاطة باحوال أصغر الحيوانات على سبيل التكامل ووجه الاستدلال بها على الصانع ظاهر لانه لو كان الامر بتركب الطبائع الاربع فذلك بالنسبة الى الكل على السوية فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات بأعضائها وقواها ومقادير أبدانها وأعمارها وأخلاقها الابد وأن يكون بتدبير مدبر قاهر حكيم سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون وأحسن كلام في هذا الموضع قوله سبحانه يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شئ قدير لانه هو القادر على الكل والعالم بالكل فهو المطلع على أحوال هذه الحيوانات فأي عقل يقف عليها وأي خاطر يصل الى ذرة من أسرارها بل هو الذي يخلق ما يشاء كما يشاء ولا عنه منه مانع ولا دافع * وأما قوله لقد انزلنا آيات مبينات فالاولى حمله على كل الادلة والعبر ولما كان القرآن كالمشتمل على كل ذلك صح أن يكون هو المراد أما قوله والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم فاستدلال أصحابنا به كما تقدم (والجواب) أجاب القاضي عنه بأن المراد يهدي من يلطف به حد التكليف دون غيره أو يكون المراد من أطاعه واستحق الثواب فيهديه الى الجنة على ما تقدم في نظائره وجوابنا عن هذا الجواب أيضا كما تقدم في نظائره والله أعلم * قوله تعالى * (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين وإذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون) اعلم أنه سبحانه لما ذكر دلائل التوحيد أتبعه بذم قوم اعترفوا بالدين بألسنتهم ولكنهم لم يقبلوه بقلوبهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال مقاتل نزلت هذه الآية في بشر المنافق وكان قد خاصم يهوديا في أرض وكان اليهودي يجره الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهما وجعل المنافق يجره الى كعب بن الاشرف ويقول ان محمدا يحيف علينا وقد مضت قصتهما في سورة النساء وقال الضحاك نزلت في المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي بن أبي طالب أرض فتقاسماها فوقع الى علي منها ما لا يسيبه الماء الا بشقة فقال المغيرة بعني أرضك فباعها اياه وثنا رضا فقيل للمغيرة أخذت سيحة لا ينالها الماء فقال لعلي اقبض أرضك فاما اشتريتها ان رضيتها ولم أرضها فلا يناله الماء فقال علي بل اشتريتها ورضيتها وعرفت حالها لا أقالها وامتنع ودعاه الى أن يحاكمه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المغيرة أما محمد فلست آتيه ولا أحاكم اليه فانه يقضي وأنا أخاف أن يحيف علي فنزلت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ويسرون الكفر (المسئلة الثانية) قوله ويقولون آمنا الى قوله وما أولئك بالمؤمنين يدل على أن الايمان لا يكون بالقول اذ لو كان بالقول لما صح أن ينفي كونهم مؤمنين وقد فعلوا ما هو ايمان في الحقيقة فان قيل الله تعالى حكى عن كلامهم انهم يقولون آمنا ثم حكى عن فريق منهم الترلي فكيف يصح أن تقول في جميعهم وما أولئك بالمؤمنين مع أن الذي

تعالى مما خطبتهم أي يترلهم بأمره (على من يشاء من عباده) أن ينزلهم به عليهم لاختصاصهم بصفات تأهلهم لذلك (أن أنذروا) بدل من الروح أي ينزلهم ملتبسين بأن أنذروا أي بهذا القول والمخاطبون به الانبياء الذين نزلت الملائكة عليهم والآمر هو الله سبحانه والملائكة تنقله للامر كما يشعر به الباء في المبدل منه وأن اما مخففة من أو وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف أي

تولى منهم هو البعض قلنا ان قوله ومالم والثلث بالمؤمنين راجع الى الذين تولوا الا الى الجملة الاولى وأيضا فلو رجع الى الاول لصح ويكون معنى قوله ثم تولى فريق منهم أي يرجع هذا الفريق الى الباقين منهم فيظهر بعضهم لبعض الرجوع عما أظهروه ثم بين سبحانه أنهم اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وهذا دليل للرضا بحكم الرسول ربنه بقوله تعالى وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين على انهم انما يعرضون متى عرفوا الحق لغيرهم أو شكوا فأما اذا عرفوه لانفسهم عدلوا عن الاعراض بل سارعوا الى الحكم وأذعنوا بدل الرضا وفي ذلك دلالة على انه ليس بهم اتباع الحق وانما يريدون النفع العاجل وذلك أيضا نفاق ﴿أما قوله تعالى أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ففيه سؤالات ﴿السؤال الاول﴾ كلمة أم للاستفهام وهو غير جائز على الله تعالى (والجواب) اللفظ استفهام ومعناه الخبر كما قال جرير * ألستم خير من ركب المطايا * ﴿السؤال الثاني﴾ انهم لو خافوا أن يحيف الله عليهم فقد ارتابوا في الدين واذا ارتابوا ففي قلوبهم مرض فالكل واحد فأي فائدة في التعديد (الجواب) قوله أفي قلوبهم مرض اشارة الى النفاق وقوله أم ارتابوا اشارة الى أنه حدث هذا الشك والريب بعد تقرير الاسلام في القلب وقوله أم يخافون أن يحيف الله عليهم اشارة الى أنهم بلغوا في حب الدنيا الى حيث يتركون الدين بسببه ﴿السؤال الثالث﴾ هب أن هذه الثلاثة متغايرة ولكنها متلازمة فكيف أدخل عليها كلمة أو ﴿الجواب﴾ الاقرب أنه تعالى ذمهم على كل واحد من هذه الاوصاف فكان في قلوبهم مرض وهو النفاق وكان فيهما شك وارتياب وكانوا يخافون الحيف من الرسول عليه الصلاة والسلام وكل واحد من ذلك كفر ونفاق ثم بين تعالى بقوله بل أولئك هم الظالمون بطلان ما هم عليه لان الظلم يتناول كل معصية كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم اذ الظلم لا يخلو من أن يكون ظلما لنفسه أو ظلما لغيره ويمكن أن يقال أيضا لما ذكر تعالى في الاقسام كونهم خائفين من الحيف أبطل ذلك بقوله بل أولئك هم الظالمون أي لا يخافون أن يحيف الرسول عليه الصلاة والسلام عليهم لمعرفتهم أمانته وصيانته وانما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم وهم لجحودهم ذلك شئ لا يستطيعونه في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يكون انحاكمهم ﴿قوله تعالى ﴿انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة ان الله خبير بما تعملون قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى قول المنافقين وما قالوه وما فعلوه أتبعه بذكر ما كان يجب أن يفعلوه وما يجب أن يسلكه المؤمنون فقال تعالى انما كان قول المؤمنين وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ الحسن قول المؤمنين بالرفع والنصب أقوى لان أولى الاسمين بكونه اسما لكان أوغلهما في التعريف وأن يقولوا أرغل لانه لا سبيل عليه للتنكير بخلاف قول المؤمنين ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله انما كان قول المؤمنين معناه كذلك يجب أن يكون قولهم وطريقتهم اذا دعوا الى حكم كتاب الله ورسوله أن يقولوا سمعنا وأطعنا فيكون اتيانهم المعروف انقيادهم له سمعا وطاعة ومعنى سمعنا أجبنا على تأويل قول المسلمين سمع الله لمن حمده أي قبل وأجاب ثم قال ومن يطع الله ورسوله أي فيما ساءه وسره ويخشى الله فيما صدر عنه من الذنوب في الماضي ويتقه فيما يبقى من عمره فأولئك هم المفلحون وهذه الآية على ايجازها جامعة لكل ما ينبغي للمؤمنين أن يفعلوه أما قوله وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن فقال مقاتل من حلف

فعل تمكن كأنه قيل أنذروا أن الشأن الخطير هذا وأساء مضمونه عن الحذور وليس لذاته بل من حيث اتصاف المنذرين بما يضاده من الاشر الذي وذلك كاف في كون اعلامه انذارا وقوله سبحانه (فاتقون) خطاب للمستعجلين على طريقة الالتفات والفاء فصيحة أي اذا كان الامر كما ذكرته من جريان عادته تعالى بتنزيل الملائكة على الانبياء عليهم السلام وأمرهم بأن ينذروا الناس أنه لا شريك له

يترلهم ملتبسين بأن الشأن أقول لكم أنذروا أو مفسرة على أن تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول كأنه قيل يقول بواسطة الملائكة لمن يشاء من عباده أنذروا فلا محل لها من الاعراب أو مصدرية بتقدير كون صلتها انشائية كما في قوله تعالى وأن أقم وجهك حسبما ذكر في أوائل سورة هود فصلها بالجار على البدلية أيضا والانذار الاعلام خلا أنه مختص بأعلام المحذور من نذر بالشئ اذا علمه فحذره وأنذره بالامر انذارا أي أعلمه وحذره وخوفه في الاغلب كذا في القاموس أي أعلموا الناس (أنه لا اله الا أنا) فاصمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن التصريح به وفائدة تصدير الجملة به الايذان من أول الامر بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقرير له في الذهن فان الضمير لا يفهم منه ابتداء الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن لديه عند وروده

في الالهية فانه وقع في الاخلال بمعظمه ومباشرة ما ينافيه من الاشراك وفروعها التي من جملتها الاستهزاء والاستهزاء به دليل السمعي للتوحيد شرع في تحرير الادلة العقلية فقيل (خالق السموات والارض بالحق) أي أوجدهما على ما هما عليه من الوجه الفائق والنمط الرائق (تعالى) وتقدس بذاته لا سيما بأفعاله التي من جملتها ابداع هذين المخلوقين (عما يشركون) عن اشراكهم

بالله فقد أجهد في اليمين ثم قال لما بين الله تعالى كراهية المنافقين لحكم رسول الله فقالوا والله لئن أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لنظرجنا وان أمرتنا بالجهاد جاهدنا ثم انه تعالى أمر رسوله أن ينهاهم عن هذا القسم بقوله قل لا تقسموا ولو كان قسمهم كما يجب لم يجز النهي عنه لان من حلف على القيام بالبر والواجب لا يجوز أن ينهى عنه واذا ثبت ذلك ثبت أن قسمهم كان لنفاقهم وأن باطنهم خلاف ظاهرهم ومن ترى الصدر لا الوفاء قسمه لا يكون الا قبيحا * أما قوله طاعة معروفة فهو اما خبر مبتدا محذوف أي المطلوب منكم طاعة معروفة لا أيمان كاذبة أو مبتدا خبره محذوف أي طاعة معروفة أمثل من قسمكم بما لا تعتدون فيه وقيل معناه دعوا القسم ولا تغتروا به وعليكم طاعة معروفة فتمسكوا بها وقرأ اليزيدي طاعة معروفة بالنصب على معنى أطيعوا طاعة ان الله خبير بما تعملون أي بصير بما تعملون لا يخفى عليه شئ من سرائركم وانه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم أما قوله قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم فاعلم انه تعالى صرف الكلام عن الغيبة الى الخطاب على طريقة الالتفات وهو أبلغ في تبكيتهم فان تولوا يعني ان تولوا عن طاعة الله وطاعة رسوله فانما على الرسول ما حمل من تبليغ الرسالة وعليكم ما حملتم من الطاعة وان تطيعوه تهتدوا أي تصيبوا الحق وان تعصيوه فما على الرسول الا البلاغ المبين والبلاغ يعني التبليغ والمبين الواضح والموضح لما يكم اليه الحاجة وعن نافع انه قرأ فانما عليه ما حمل بفتح الحاء والتخفيف أي ذنبه وائمه ما حمل من المعصية ﴿ قوله تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيأ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ اعلم ان تقدير النظم بلغ أيها الرسول وأطيعوه أيها المؤمنون فقد وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات أي الذين جمعوا بين الايمان والعمل الصالح أن يستخلفهم في الارض فيجعلهم خلفاء والخالفين والمالكين كما استخلف عليها من قبلهم في زمن داود وسليمان عليهما السلام وغيرهما وأنه يمكن لهم دينهم وتمكينه ذلك هو ان يؤيدهم بالنصرة والاعزاز ويسلطهم من يعدو خوفهم من العدو أمنا بأن ينصرهم عليهم فيقتلوهم ويأمنوا بذلك شرهم فيعبدونني آمنين لا يشركون بي شيأ ولا يخافون من كفر أي من بعد هذا الوعد وارتد فأولئك هم الفاسقون * واعلم ان هذه الآية مشتملة على بيان أكثر المسائل الاصولية الدينية فلنشر الى مماقدها ﴿ المسئلة الاولى ﴾ قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم يدل على أنه سبحانه متكلم لان الوعد نوع من أنواع الكلام والموصوف بالنوع موصوف بالجنس ولانه سبحانه ملك مطاع والملك المطاع لا بد وان يكون بحيث يمكنه وعد أوليائه ووعيد أعدائه فثبت انه سبحانه متكلم ﴿ المسئلة الثانية ﴾ الآية تدل على انه سبحانه يعلم الاشياء قبل وقوعها خلافا لهشام من الحكم فانه قال لا يعلمها قبل وقوعها ووجه الاستدلال به انه سبحانه أخبر عن وقوع شئ في المستقبل اخبارا على التفصيل وقد وقع المخبر مطابقا للخبر ومثل هذا الخبر لا يصح الا مع العلم ﴿ المسئلة الثالثة ﴾ الآية تدل على انه سبحانه حي قادر على جميع الممكنات لانه قال ليستخلفنهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا وقد فعل كل ذلك وصدور هذه الاشياء لا يصح الا من القادر على كل المقدورات ﴿ المسئلة الرابعة ﴾ الآية تدل على انه سبحانه هو المستحق للعبادة لانه قال يعبدونني وقالت المعتزلة الآية تدل على أن فعل الله تعالى معلل بالغرض لان المعنى لكي يعبدوني وقالوا أيضا الآية دالة على انه سبحانه يريد العبادة من الكل لان من فعل فعلا لغرض فلا بد وأن يكون مريدا لذلك الغرض ﴿ المسئلة الخامسة ﴾ دلت الآية على انه تعالى منزه عن الشريك لقوله

المعبود أو عن شركه ما يشركونه به من الباطل الذي لا يسدئ ولا يعيد وبعد ما نبه على صفته الكلي المنطوي على تفاصيل مخلوقاته شرع في تعداد ما فيه من خلائقه فيما أبدعه له المتعلق بالانفس فقال (خلق الانسان) أي هذا النوع غير الفرد الاول منه (من نطفة) جماد لا حس له ولا حراك سيال لا يحفظ شكلا ولا وضعا (فاذا هو) بعد الخلق (خصيم) منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم (مبين) لحجته لقن بها وهذا أنسب بمقام الامتنان باعطاء القدرة على الاستدلال بذلك على قدرته تعالى ووحدته أو هو خاصم خالقه منكرا له قائل من يحيي العظام وهي رميم وهذا أنسب بمقام تعداد هنات الكفرة روي أن أبي بن خلف الجمحي أتى النبي عليه الصلاة والسلام بعظم رميم فقال يا محمد أترى الله تعالى يحيي هذا بعد ما قد مزقت فنزلت (والانعام) وهي الازواج الثمانية من الابل والبقر والضأن والمعز وانتصابها بمضمر يفسره قوله تعالى (خلقها) أو بالعطف على الانسان وما بعده بيان ما خلق لا لاجله والذي بعده تفصيل لذلك وقوله تعالى (لكم) اما متعلق بخلقها وقوله (فيها) خبر مقدم وقوله (دفء) مبتدأ وهو ما يدفأ به قيل من البرد والجملة حال من المفعول أو الظرف الاول خبر للمبتدا المذكور وفيها حال من دفء اذ لو تأخر لكان صفة (ومنافع) في

درها وركوبها وحملها والحراثة بها وغير ذلك وانما عبر عنها بالتناول للكل مع أنه الانسب بمقام الامتنان بالنعم وتقديم الدف على المنافع لرعاية أسلوب الترقي الى الاعلى (ومنها تأكلون) أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم وغير ذلك وتغيير النظم للاعلام الى أنها لاتبقى عند الاكل كما في السابق واللاحق فان الدف والمنافع والجمال يحصل ٢٣٧ منها وهي باقية على حالها ولذلك جعلت

لايشركون بي شيأ وذلك يدل على نفي الآلهة الثاني وعلى انه لايجوز عبادة غير الله تعالى سواء كان كوكبا كما تقوله الصابئة أو صنما كما تقوله عبدة الاوثان ﴿المسئلة السادسة﴾ دلت الآية على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه أخبر عن الغيب في قوله ليستخلفنهم في الارض وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا وقد وجد هذا الخبر موافقا للمخبر ومثل هذا الخبر معجز والمعجز دليل الصدق فدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ﴿المسئلة السابعة﴾ دلت الآية على ان العمل الصالح خارج عن مسمى الايمان خلافا للمعتزلة لانه عطف العمل الصالح على الايمان والمعطوف خارج عن المعطوف عليه ﴿المسئلة الثامنة﴾ دلت الآية على امامة الائمة الاربعة وذلك لانه تعالى وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الحاضرين في زمان محمد صلى الله عليه وسلم وهو المراد بقوله ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وأن يمكن لهم دينهم المرضي وأن يبدلهم بعد الخوف أمنا ومعلوم أن المراد بهذا الوعد بعد الرسول هؤلاء لان استخلاف غيره لا يكون الا بعده ومعلوم انه لانبي بعده لانه خاتم الانبياء فلم يبق المراد بهذا الاستخلاف طريقا الا الامامة ومعلوم أن بعد الرسول الاستخلاف الذي هذا وصفه انما كان في أيام أبي بكر وعمر وعثمان لان في أيامهم كانت الفتوح العظيمة وحصل التمكين وظهور الدين والامن ولم يحصل ذلك في أيام علي رضي الله عنه لانه لم يتفرغ لجهاد الكفار لاشتغاله بمحاربة من خالفه من أهل الصلاة فثبت بهذه الدلالة الآية على صحة خلافة هؤلاء ﴿فان قيل﴾ الآية متروكة الظاهر لانها تقتضي حصول الخلافة لكل من آمن وعمل صالحا ولم يكن الامر كذلك نزلنا عنه لكن لم لايجوز أن يكون المراد من قوله ليستخلفنهم هو انه تعالى يمكنهم في الارض ويمكنهم من التصرف لان المراد منه خلافة الله تعالى وهما يدل عليه قوله كما استخلف الذين من قبلهم واستخلاف من كان قبلهم لم يكن بطريق الامامة فوجب أن يكون الامر في حقهم أيضا كذلك نزلنا عنه لكن ههنا ما يدل على انه لايجوز حمله على خلافة رسول الله لان من سلف منكم انه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف أحدا وروي عن علي عليه السلام أنه قال اتركوكم كما ترككم رسول الله نزلنا عنه لكن لم لايجوز أن يكون المراد منه علما عليه السلام والواحد قد يعبر عنه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم كقوله تعالى انا أنزلناه في ليلة القدر وقال في حق علي عليه السلام والذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون نزلنا عنه ولكن نحمله على الائمة الاثني عشر ﴿والجواب عن الاول﴾ أن كلمة من للتبعيض فقوله منكم يدل أن المراد بهذا الخطاب بعضهم ﴿وعن الثاني﴾ أن الاستخلاف بالمعنى الذي ذكرتموه حاصل لجميع الخلق فلا ذكر وهنا في معرض البشارة لابد وأن يكون بمقدار الله وأما قوله تعالى كما استخلف الذين من قبلهم فالذين كانوا قبلهم قد كانوا خلفاء تارة بسبب النبوة وتارة بسبب الامامة والخلافة حاصلة في الصورتين ﴿وعن الثالث﴾ انه وان كان من مذهبنا انه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف أحدا بالتعيين ولكنه قد استخلف بذكر الوصف والامر بالاختيار فلا يمتنع في هؤلاء الائمة الاربعة أن الله تعالى يستخلفهم وأن الرسول استخلفهم وعلى هذا الوجه فالواو في أي بكر يا خليفة رسول الله الذي قيل انه عليه السلام لم يستخلف أراد به على وجه التعيين واذا قيل استخلف فالمراد على طريقة الوصف والامر ﴿وعن الرابع﴾ أن جعل لفظ الجمع على الواحد مجاز وهو خلاف الاصل ﴿وعن الخامس﴾ انه باطل لوجهين (أحدهما) قوله تعالى منكم يدل على ان هذا الخطاب كان مع الحاضرين وهؤلاء الائمة ما كانوا حاضرين (الثاني) انه تعالى وعدهم القوة والشوكة والنفاذ في العالم ولم يوجد ذلك فيهم فثبت بهذا صحة امامة الائمة الاربعة وبطل قول الرافضة الطاعنين على أبي بكر وعمر وعثمان وعلى بطلان قول الخوارج الطاعنين على عثمان وعلي ﴿ولنرجع الى التفسير أما قوله

(٤٣ - فخر س) الوقتين وأما عند كونها في المراعي فينقطع اضافتها الحسية الى أربابها وعند كونها في الحظائر لايراها ولا ينظر اليها نا ظر وتقديم الاراحة على السرح لتقدم الورود على الصدور ولكونها أظهر منه في استتباع ما ذكر من الجمال وأتم في استجلاب الانس والبهجة اذ فيها حضور بعد غيبة واقبال بعد ادبار على أحسن ما يكون ملأى البطون مرتفعة الضروع حافلة الضروع

عمال لها بخلاف الاكل وتقديم الظرف للايذان بأن الاكل منها هو المعتاد المعتمد في المعاش وأن الاكل مما عداها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر من قبيل التفكه مع أن فيه مراعاة للفواصل ويحتمل أن يكون معنى الاكل منها أكل ما يحصل بسببها فان المطلوب بالذات للمأكولة تكتسب يا كراء الابل وأثمان نتاجها وألبانها وجلودها (ولكم فيها) مع ما فصل من أنواع المنافع (جمال) أي زينة في أعين الناس ووجاهة عندهم (حين تريحون) ترونها من مراعيها الى مراحها بالعشي (وحين تسرحون) تخرجونها بالغداة من حظائرها الى مسارحها فالمفعول محذوف من كلا الفعلين لرعاية الفواصل وتعيين الوقتين لان مايدور عليه أمر الجمال من تزين الافنية والاكناف بها وتجاوب ثغائها وروغانها انما هو عند ورودها وصدورها في ذينك

وقرئ حيث يثقفون وحيثما يسرحون على ان كلا الفعلين وصف لشيء يعني يرعون فيه ويسرحون فيه (وتحمل اثقالهم) جمع ثقل وهو متاع المسافر وقيل أثقالكم أجرامكم (الى بلد) قال ابن عباس رضي الله عنهما أريد به اليمن ومصر والشام ولعله نظر الى أنها متاجر أهل مكة وقال عكرمة اريد به مكة ولعله نظر ٣٣٨ الى أن أثقالهم وأحمالهم عند القفول من متاجرهم أكثر وحاجتهم الى الحمولة أمس والظاهر أنه عام لكل بلد مقصود (لم تكونوا بالغيه) واصلين اليه (بأنفسكم مجردين عن الاثقال ولولا الابل (الا بشق الانفس) فضلا عن أسفاركم بها معكم وقرئ بفتح الشين وهما لغتان بمعنى المكلفة والمشقة وقيل المفتوح مصدر من شق الامر عليه شقا وحقيقته راجعا الى الشق الذي هو الصدع والمكسور النصف كأنه ذهب نصف القوة لما يناله من الجهد فالاضافة الى الانفس مجازية أو على تقدير مضاف أي الا بشق قوى الانفس وهو استثناء مفرغ من اعم الاشياء أي لم تكونوا بالغيه شيئا من الاشياء الا بشق الانفس ولعل تغيير النظم الكريم السابق الدال على كون الانعام مدارا للنعم السابقة الى الجملة الفعلية المفيدة لمجرد الحدوث للاشعار بأن هذه النعمة ليست في العموم بحسب الشأن بحسب المتعلق وفي الشمول للاوقات والاطراد في الاحيان المعهودة بمثابة النعم السالفة فانها بحسب المشأ خاصة بالابل وبحسب المتعلق بالاصار بين في الارض المتقلبين فيها للتجارة وغيرها رضي في أحايين غير معاردة وأما سائر النعم المعدودة فهو جودة في جميع أصناف الانعام وعامة لكافة المخاطبين دائما أو في عامة الاوقات (ان ربكم لرؤف رحيم) ولذلك أسبغ عليكم هذه النعم الجليلة ويسر لكم الامور الشاقة (والخيل) هو اسم جنس للفرس لا واحد له من لفظه

ليستخلفنهم فلقائل أن يقول أين القسم المتلقى باللام والنون في ليستخلفنهم فلنا هو محذوف تقديره وعدهم والله ليستخلفنهم أو نزل وعد الله في تحققه منزلة القسم فتلقى بما يتلقى به القسم كأنه قال أقسم بالله ليستخلفنهم أما قوله كما استخلف الذين من قبلهم يعني كما استخلف هرون ويوشع وداود وسليمان وتقدير النظم ليستخلفنهم استخلافا كاستخلاف من قبلهم من هؤلاء الانبياء عليهم السلام وقرئ كما استخلف بضم التاء وكسر اللام وقرئ بالفتح أما قوله تعالى وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم فالمعنى أنه يثبت لهم دينهم الذي ارتضى لهم وهو الاسلام وقرأ ابن كثير وعاصم ويعقوب وليبدلنهم من الابدال بالتخفيف والباقون بالتشديد وقد ذكرنا الفرق بينهما في قوله تعالى بدلناهم جلودا غيرها أما قوله يعبدونني لا يشركون بي شيأ ففيه دلالة على ان الذين عناهم لا يتقربون عن عبادة الله تعالى الى الشرك وقال الزجاج يجوز أن يكون في موضع الحال على معنى وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات في حال عبادتهم واخلاصهم لله لفعلن بهم كيت وكيت ويجوز أن يكون استئنافا على طريق الثناء عليهم أما قوله ومن كفر بعد ذلك أي جحد حق هذه النعم فأولئك هم الفاسقون أي العاصون ﴿قوله تعالى ﴿واقيموا الصلوة وآتوا الزكوة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الارض ومأواهم النار ولبئس المصير﴾ أما تفسير اقامة الصلاة وايتاء الزكاة ولفظة لعل ولفظة الرحمة فالكل قد تقدم مرارا وأما قوله لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الارض فالمعنى لا تحسبن يا محمد الذين كفروا سابقين فائتين حتى يعجزونني عن ادراكهم وقرئ لا يحسبن بالياء المجمعة من تحتها وفيه أوجه (أحدها) أن يكون معجزين في الارض هما المفعولان والمعنى لا يحسبن الذين كفروا أحدا يعجز الله الارض حتى يطمعوا هم في مثل ذلك (وثانيها) أن يكون فيه ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم لتقدم ذكره في قوله وأطيعوا الرسول والمعنى لا يحسبن الذين كفروا معجزين (وثالثها) أن يكون الاصل ولا يحسبهم الذين كفروا معجزين ثم حذف الضمير الذي هو المفعول الاول وأما قوله ومأواهم النار ولبئس المصير فقال صاحب النظم لا يحتمل أن يكون متصلا بقوله لا تحسبن لان ذلك نهي وهذا اخبار فهو اذن معطوف بالواو على مضمر قبله تقديره لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الارض بل هم مقهورون ومأواهم النار ﴿قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم﴾ اعلم أن في الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال القاضي قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم وان كان ظاهره الرجال فالمراد به الرجال والنساء لان التذكير يغلب على التأنيث فاذا لم يميز فيدخل تحت قوله يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الكل وبين ذلك قوله تعالى الذين ملكت أيمانكم لان ذلك يقال في الرجال والنساء والاولى عندي ان الحكم ثابت في النساء بقياس جلي وذلك لان النساء في باب حفظ العورة أشد حالا من الرجال فهذا الحكم لما ثبت في الرجال فثبوته في النساء بطريق الاولى كما أنا ثبت حرمة الضرب بالقياس الجلي على حرمة التأفيف (المسئلة الثانية) ظاهر قوله الذين ملكت أيمانكم يدخل فيه البالغون والصغار وحكي عن ابن عباس رضي

كالابل وهو عطف على الانعام أى خلق الخيل (والبغال والحمير لتركبوها) لتمليل عظم منافعها والاقالانتفاع بها بالحمل أيضا مما لاريب فى تحققه (وزينة) عطف على محل لتركبوها وتخصيصه بالذكر لكونه فعلا لفاعل الفعل المعلل دون الاول وتأخيره لكون الركوب أهم منه أومصدر لفعل محذوف أى وتتزينوا بها زينة وقرئ بغير واو أى خلقها زينة ٢٣٩ لتركبوها ويجوز أن يكون مصدرا واقعا موقع الحال من فاعل تركبوها أومفعوله أى متزينين بها أومتزينا بها (ويخلق مالا تعلمون) أى يخلق فى الدنيا غير ما عدد من أصناف النعم فيكم ولكم مالا تعلمون كنهه وصيغة خلقه فالعدول الى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجدد أو لاستقصار الصورة أو يخلق لكم فى الجنة غير ماذكر من النعم الدنيوية مالا تعلمون أى مالم يسبق من شأنكم أن تعلموه وهو ما أشار اليه بقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ويجوز أن يكون هذا اخبارا بأنه سبحانه يخلق من الخلائق مالا علم لنا به دلالة على قدرته الباهرة الموجبة للتوحيد كنعمته الباطنة والظاهرة عن ابن عباس رضى الله عنهما ان عين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار السبعة يدخل فيه جبريل عليه السلام كل

رضى الله عنهما أن المراد الصغار واحتجوا بأن الكبير من المماليك ليس له أن ينظر من المالك الا الى ما يجوز للحر أن ينظر اليه قال ابن السيب لا يغرنكم قول ما ملكت أيمانكم لا يبقى للمرأة أن ينظر يعبدها الى قرطها وشعرها وشئ من محاسنها وقال آخرون بل البالغ من المماليك له أن ينظر الى شعر سيدته وما شاكله وظاهر الآية يدل على اختصاص عبيد المؤمنين والاطفال من الاحرار بإباحة ما سطره الله تعالى من قبل على جماعة المؤمنين بقوله لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم فانه أباح لهم الاتى فى الاوقات الثلاثة وجوزد خولهم مع من لم يبلغ بغير اذن ودخول الموالى عليهم بقوله تعالى ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم أى يطرق بعضكم على بعض فيما عدا الاوقات الثلاثة وأكد ذلك بأن أوجب على من بلغ الحلم الجرى على سنة من قبلهم من البالغين فى الاستئذان فى سائر الاوقات وألحقهم عن دخل تحت قوله لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها (المسئلة الثالثة) قوله ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم أن أريد به العبيد والاماء اذا كانوا بالغين فغير ممتنع أن يكون أمرا لهم فى الحقيقة وأن أريد الذين لم يبلغوا الحلم فهو جار أن يكون أمرا لهم ويجب أن يكون أمرا للبالغ أن يأمرهم بذلك وتمتثلهم عليه كما أمرنا بالأمر الصبى وقد عقل الصلاة أن يفعلها الاعلى وجه التكليف لهم لكنه تكليف لما لما فيه من المصلحة لناولهم بعد البلوغ ولا يبعد أن يكون لفظ الامر وان كان فى الظاهر متوجها عليهم الا أنه يكون فى الحقيقة متوجها على الموالى كقولك للرجل ليحفظك أهلك وولدك فظاهر الامر لهم وحقيقة الامر له بفعل ما يحافون عنده (المسئلة الرابعة) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث غلاما من الانصار الى عمر يدعوه فوجده نائما فى بيت فدق الباب وسلم فلم يستيقظ عمر فعاد ورد الباب وقام من خلفه وكبر فلم يستيقظ فقال الغلام اللهم أيقظه لى ودق الباب ثم ناداه فاستيقظ وجلس ودخل الغلام فانكشف من عمر شئ وعرف عمر أن الغلام رأى ذلك منه فقال وددت ان الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا أن يدخلوا علينا فى هذه الساعات الا باذن ثم انطلق معه الى الرسول صلى الله عليه وسلم فوجده قد نزل عليه يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم فحمد الله تعالى عمر عند ذلك فقال عليه السلام وماذاك ياعمر فأخبره بما فعل الغلام فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ساعته وتعرف اسمه وحمده وقال ان الله يحب الحليم الفى العفيف المتعفف ويبغض البذى الجرى السائل الملحف فهذه الآية احدى الآيات المنزلة بسبب عمر وقال بعضهم نزلت فى أسماء بنت أبى مرثد قالت انا لندخل على الرجل والمرأة والعامة ما يكونان فى لحاف واحد وقيل دخل على غلام لها كبير فى وقت كرهت دخوله فيه فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان خدمنا وغلماننا ليدخلون علينا فى محال نكرهها فانزلت الآية (المسئلة الخامسة) قال ابن عمرو مجاهد قوله ليستأذنكم عنى به الذكور دون الاناث لان قوله الذين ملكت أيمانكم صيغة الذكور لا صيغة الاناث وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى فى الرجال والنساء يستأذنون على كل حال بالليل والنهار والصحيح أنه يجب اثبات هذا الحكم فى النساء لان الانسان كما يكره اطلاع الذكور على أحواله فقد يكره أيضا اطلاع النساء عليها ولكن الحكم ثبت فى النساء بالقياس لا بظاهر اللفظ على ما قدمناه (المسئلة السادسة) من العلماء من قال الامر فى قوله ليستأذنكم على الندب والاستحباب ومنهم من قال انه على الايجاب وهذا أولى لما ثبت ان ظاهر الامر للوجوب * أما قوله تعالى والذين لم يبلغوا الحلم منكم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن عمر الحلم بالسكون (المسئلة الثانية) اتفق الفقهاء على أن الاحتلام بلوغ واختلفوا اذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم فقال أبو حنيفة رحمه الله لا يكون

مصرفا فينقل فيزداد نورا الى نور وجمالا الى جمال وعظما الى عظم ثم ينقض فيخلق الله تعالى من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك فيدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور وسبعون ألف ملك الكعبة لا يعودون اليه الى يوم القيامة (وعلى الله قصد السبيل) القصد مصدر بمعنى الفاعل يقال سبيل قصد وقاصد أى مستقيم على طريقة الاستعارة أو على تسمية الشئ باسم حال سالكه اليه كأنه

بقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه أي حق عليه سبحانه وتعالى عوجب رحمته ووعده المحتوم بيان الطريق المستقيم الموصل لمن يسلكه الى الحق الذي هو التوحيد بنصب الادلة وارسال الرسل وانزال الكتب لدعوة الناس اليه أو مصدر بمعنى الاقامة والتعديل قاله أبو البقاء أي عليه عز وجل تقويمها ٣٤٠ وتعديلها أي جعلها بحيث يصل سالكها الى الحق لكن لا بعد ما كانت في نفسها

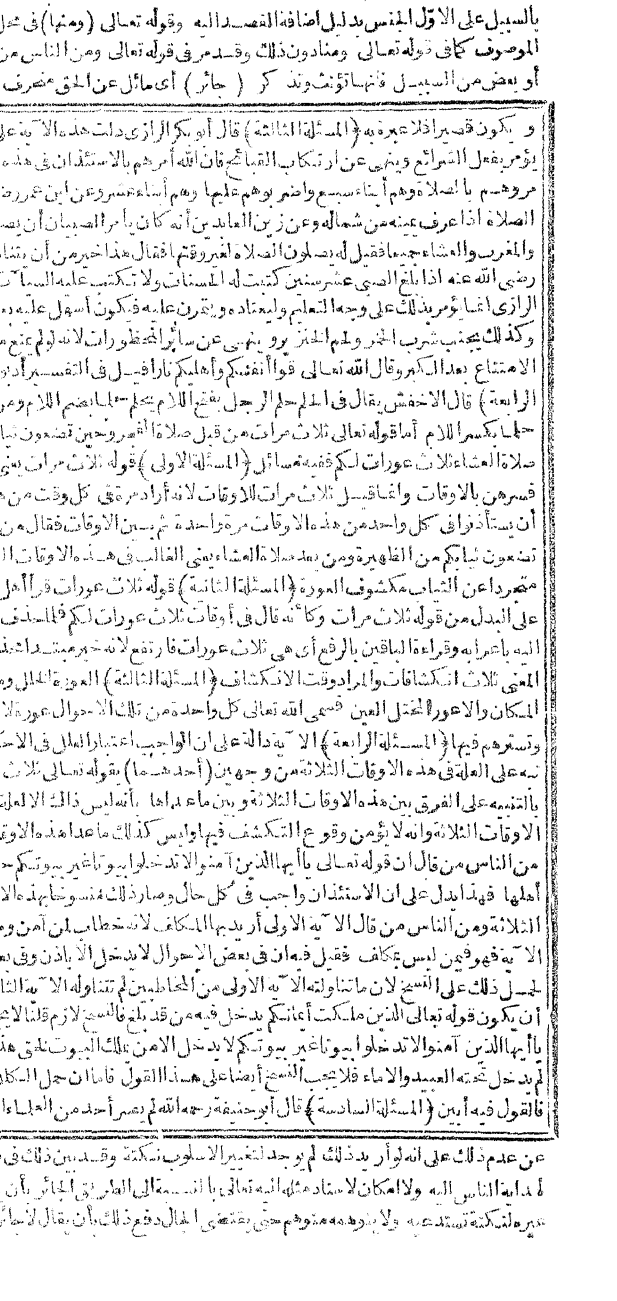
معرفة عنه بل ابداعها ابتداء كذلك على نهج قوله سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل وحقيقته راجعة الى ما ذكر من نصب الادلة وقد فعل ذلك حيث أبدع هذه البدائع التي كل واحد منها لا يحيط بها الا من أبدعه وعلم يستضيء بناره وأرسل رسلا مبشرين ومنذرين وأنزل عليهم كتبا من جملتها هذا الوحي الفاطق بحقيقة الحق الفاصل عن كل ما حال من الاسرار ودق الهادي الى سبيل الاستدلال بتلك الادلة المفضية الى معالم الهدى المفضية عن فيافي الضلالة ومهاوي الردى ألا ترى كيف بين أولا تنزه جناب الكبرياء وتعالية بحسب الذات عن أن يحوم حوله شائبة توهم الاشراك ثم أوضح سر القاء الوحي على الانبياء عليهم الصلاة والسلام وكيفية أمرهم بانذار الناس ودعوتهم الى التوحيد ونهيهم عن الاشراك ثم كر على بيان تعاليه عن ذلك بحسب الافعال مرشدا الى طريقه الاستدلال فيما فعله المتعلق بجميع العالم الجسماني ومركزه بقوله تعالى خلق السموات والارض بالحق تعالى ويكون عما يشركون ثم فصل أفعاله المتعلقة بما يتعهد نفسه المتعلق بأنفس المخاطبين ثم ذكر ما يتعلق بما لا بد لهم منه في معايشهم ثم بين قدرته على خلق ما لا يحيط به علم البشر بقوله ويخلق ما لا تعلمون وكل ذلك كالمرئي بيان لسبيل التوحيد غب بيان وتعديل له أعاد تعديل للمراد

الغلام بالغا حتى يبلغ ثماني عشرة سنة ويستكملها وفي الجارية تسع عشرة سنة وقال الشافعي وأبو يوسف ومحمد رحمهم الله في الغلام والجارية خمس عشرة سنة قال أبو بكر الرازي قوله تعالى والذين لم يبلغوا الحلم منكم يدل على بطلان قول من جعل حد البلوغ خمس عشرة سنة اذ الم يحتلم لان الله تعالى لم يفرق بين من بلغها وبين من قصر عنها بعد أن لا يكون قد بلغ الحلم وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من سبعات كثيرة رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق وعن الصبي حتى يحتلم ولم يفرق بين من بلغ خمس عشرة سنة وبين من لم يبلغها فان قيل فهذا الكلام يبطل التقدير أضا بثماني عشرة سنة أما ساكتا فقد علمنا أن العادة في البلوغ خمس عشرة سنة وكل ما كان ممتنعا على طريق العادات فقد تجوز الزيادة فيه والنقصان منه وقد وجدنا من بلغ في ثنتي عشرة سنة وقد بينا أن الزيادة على المعتاد جائزة كالنقصان منه فجعل أبو حنيفة رحمه الله الزيادة كالنقصان وهي ثلاث سنين وقد حكى عن أبي حنيفة رحمه الله تسع عشرة سنة للغلام وهو محمول على استكمال ثماني عشرة سنة والدخول في التاسعة عشرة حجة الشافعي رحمه الله ما روى ابن عمر أنه عرض على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وله أربع عشرة سنة فلم يجزه وعرض عليه يوم الخندق وله خمس عشرة سنة فأجازه اعترض أبو بكر الرازي عليه فقال هذا الخبر مضطرب لان أحدا كان في سنة ثلاث والخندق في سنة خمس فكيف يكون بينهما سنة ثم مع ذلك فان الاجازة في القتال لا تعلق لها بالبلوغ لانه قد يرد البالغ لضعفه ويؤذن لغير البالغ لقوته واطاقته حمل السلاح ويدل على ذلك أنه عليه الصلاة والسلام ما سأله عن الاحتلام والسن (البحث الثاني) اختلفوا في الانبات هل يكون بلوغا فأبو حنيفة وأصحابه ما جعلوه بلوغا والشافعي رحمه الله جعله بلوغا قال أبو بكر الرازي رحمه الله ظاهر قوله والذين لم يبلغوا الحلم منكم ينفي أن يكون الانبات بلوغا اذ الم يحتلم كما نفى كون خمس عشرة سنة بلوغا وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام وعن الصبي حتى يحتلم حجة الشافعي رحمه الله تعالى ما روى عطية القرظي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل من أنبت من قريظة واستحياء من لم ينبت قال فنظروا الي فلم أكن قد أنبت فاستبقاني قال أبو بكر الرازي هذا الحديث لا يجوز اثبات الشرع به وبمثله لوجوه (أحدها) أن عطية بهذا مجهول لا يعرف الا من هذا الخبر لا سماع اعتراضه على الآية والخبر في نفي البلوغ الا بالاحتلام (وثانيها) أنه مختلف الالفاظ ففي بعضها أنه أمر بقتل من جرت عليه الموسى وفي بعضها من اخضر عذاره ومعلوم أنه لا يبلغ هذا الحال الا وقد تقدم بلوغه ولا يكون قد جرت عليه الموسى الا وهو رجل كبير فجعل الانبات وجري الموسى عليه كناية عن بلوغ القدر الذي ذكرنا من السن وهي ثماني عشرة سنة فأكثر (وثالثها) أن الانبات يدل على القوة البدنية فالامر بالقتل لذلك لا للبلوغ قال الشافعي رحمه الله هذه الاحتمالات مردودة بما روى أن عثمان بن عفان رضي الله عنه سئل عن غلام فقال هل اخضر عذاره وهذا يدل على أن ذلك كان كالامر المتفق عليه فيما بين الصحابة (البحث الثالث) يروى عن قوم من السلف انهم اعتبروا في البلوغ أن يبلغ الانسان في طوله خمسة أشبار روى عنه عليه السلام أنه قال اذا بلغ الغلام خمسة أشبار فقد وقعت عليه الحدود ويقتص له ويقتص منه وعن بن سيرين عن أنس قال أتي أبو بكر بغلام قد سرق فأمر به فشبر فنقص أغلة فخلى عنه وهذا المذهب أخذ به الفرزدق في قوله

ما زال مذ عقدت يداه ازاره * وسما فأدرك خمسة الاشبار

وأكثر الفقهاء لا يقولون بهذا المذهب لان الانسان قد يكون دون البلوغ ويكون طويلا وفوق البلوغ

بالسبيل على الاول الجنس بدليل اضافة القصد اليه وقوله تعالى (ومنها) فى محل الرفع على الابتداء اما باعتبار مضمونه واما بتقدير الموصوف كما فى قوله تعالى ومنا دون ذلك وقد مر فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر الخ أى بعض السبيل أو بعض من السبيل فانها تؤنث وتذكر (جائر) أى مائل عن الحق منحرف ٣٤١ عنه لا يرسل سالكه اليه وهو طرق الضلال التى لا يكاد يخفى عليها المتدرج كلها تحت الجائر وعلى الثانى نفس السبيل المستقيم والتعبير بها باعتبار راجع اليها بتقدير المضاف أى ومن جنسها لما عرفت من أن تبديل السبيل وتقويمه ابتداء ابتداء على رجه الاستئناف والعدالة لا تقويمه بعد اضراف وأما ما كان فليس فى النظم الكريم تغيير الاسلوب رعاية لامر مطلوب كما قيل فان ذلك انما يكون فيما اقتضى الظاهر سكوتا ولكن يعدل ذلك لنكتة أهم منه كما فى قوله سبحانه الذى يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفين فان مقتضى الظاهر أن يقال والذى يسقنى ويشفين ولكن غيرالى ما عليه النظم الكريم قاد ما عن اسناد ما تكرهه النفس اليه سبحانه وليس المراد بيان قصد السبيل مجردا عن الام بأن سلكت أيها المخاطب سبيلا مستقيما حتى يصح اسناد أنه جائر اليه تعالى فيحتاج الى الاعتذار عن عدم ذلك على انه لو أريد ذلك لم يوجد لتغيير الاسلوب نكتة وقد بين ذلك فى مواضع غير معدودة قيل المراد ما من شأنه أن يسلك الناس اليه ولا امكان لاسناد مثله اليه تعالى بالنسبة الى الطريق الجائر بأن يقال لا سالك لها ثم يغير النظم عن ذلك الى ما هو أقوى منه دليل



و يكون قصيرا فلا عبرة به (المسئلة الثالثة) قال أبو بكر الرازى دلت هذه الآية على أن من لم يبلغه وقد عقل يؤمر بفعل الشرائع وينهى عن ارتكاب القبائح فان الله أمرهم بالاستئذان فى هذه الاوقات وقال عليه السلام مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وعن ابن عمر رضى الله عنه قال علمت الصبى الصلاة اذا عرف يمينه من شماله وعن زين العابدين أنه كان يأمر الصبيان أن يصلوا الظهر والعصر جميعا والمغرب والعشاء جميعا فقيل له يصلون الصلاة لغير وقتها فقال هذا خير وأقل من أن يتشاهوا عنها وعن ابن مسعود رضى الله عنه اذا بلغ الصبى عشر سنين كتبت له الحسنات ولا تكتب عليه السيئات حتى يحتلم ثم قال أبو بكر الرازى انما يؤمر بذلك على وجه التعليم وليعتاده ويتمرن عليه فيكون أسهل عليه بعد البلوغ وأقل نفورا منه وكذلك يجنب شرب الخمر ولحم الخنزير وينهى عن سائر المحظورات لانه لو لم يمنع منه فى الصغر اصعب عليه الامتناع بعد الكبر وقال الله تعالى قوا أنفسكم وأهليكم نارا قيل فى التفسير أدبوهم وعلموهم (المسئلة الرابعة) قال الاخفش يقال فى الحلم حلم الرجل بفتح اللام يحلم حلما بضم اللام ومن الحلم يحلم بضم اللام يحلم حلما بكسر اللام أما قوله تعالى ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ثلاث مرات يعنى ثلاث أوقات لانه تعالى فسرهن بالاوقات وانما قيل ثلاث مرات لانه أراد مرة فى كل وقت من هذه الاوقات لانه يكفيهم أن يستأذنوا فى كل واحد من هذه الاوقات مرة واحدة ثم بين الاوقات فقال من قبل صلاة الفجر ومعنى تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء يعنى الغالب فى هذه الاوقات الثلاثة أن يكون الانسان متجردا عن الثياب مكشوف العورة (المسئلة الثانية) قوله ثلاث عورات قرأ أهل الكوفة ثلاث بالنصب على البدل من قوله ثلاث مرات وكأنه قال فى أوقات ثلاث عورات لكم فالمحذوف المضاف أعرب المضاف اليه باعرابه وقراءة الباقين بالرفع أى هى ثلاث عورات فارتفع لانه خبر مبتدا محذوف قال الفراء فكان المعنى ثلاث انكشافات والمراد وقت الانكشاف (المسئلة الثالثة) العورة الخلل ومنه أعور الفارس وأعور المكان والاعور الخلق العين فسمى الله تعالى كل واحدة من تلك الاحوال عورة لان الناس يخل حفظهم وتستترهم فيها (المسئلة الرابعة) الآية دالة على ان الواجب اعتبار الخلل فى الاحكام اذا أمكن لانه تعالى نبه على العلة فى هذه الاوقات الثلاثة من وجهين (أحدهما) بقوله تعالى ثلاث عورات لكم (والثانى) بالتنبيه على الفرق بين هذه الاوقات الثلاثة وبين ما عداها بأنه ليس ذلك الخلل التكشف فى هذه الاوقات الثلاثة وانه لا يؤمن وقوع التكشف فيها وليس كذلك ما عداها من هذه الاوقات (المسئلة الخامسة) من الناس من قال ان قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها فهذا يدل على ان الاستئذان واجب فى كل حال وصار ذلك منسوخا بهذه الآية فى غير هذه الاحوال الثلاثة ومن الناس من قال الآية الاولى أريد بها المكلف لانه خطاب لمن آمن وما ذكر الله تعالى فى هذه الآية فهو فيمن ليس بمكلف فقيل فيها ان كل واحد من هذه الاحوال لا يدخل الا باذن وفى بعضها يغير اذن فلا حاجة لحمل ذلك على النسخ لان ما تناولته الآية الاولى من المخاطبين لم تتناوله الآية الثانية أصلا فان قيل بتقدير أن يكون قوله تعالى الذين ملكت أيمانكم يدخل فيه من قد بلغ فالنسخ لازم قلنا لا يجب ذلك أصلا لان قوله يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم لا يدخل الا من علك البيوت تلقى هذه الاضافة واذا صح ذلك لم يدخل تحته العبيد والاماء فلا يجب النسخ أيضا على هذا القول فاما ان حمل الكلام على صغار المماليك فالقول فيه أبين (المسئلة السادسة) قال أبو حنيفة رحمه الله لم يصر أحد من العلماء الى أن الامر بالاستئذان

الجملة الظرفية اعتراضية جيء بها لبيان الحاجة الى البيان والتمديد واظهار دلالة قدر النعمة في ذلك والمعنى على الله تعالى بيان الطريق المستقيم الموصل الى الحق وتعديل جماعة من نصب الادلة ليسلكه الناس باختيارهم ويصلوا الى المقصد وهذا هو الهداية المفسرة بالدلالة على ما يوصل الى المطلوب لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة فان ذلك مما ليس بحق على الله تعالى لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته بل هو محل بحكمته حيث يستدعي تسوية المحسن والمسيء والمطيع والعاصي بحسب الاستعداد والميه أشير بقوله تعالى (ولو شاء لهداكم أجمعين) أي لو شاء أن يهديكم الى ما ذكر من التوحيد هداية موصلة اليه البتة مستلزمة لاهتدائكم أجمعين لفعل ذلك ولكن لم يشأه لان مشيئته تابعة للحكمة الداعية اليها ولا حكمة في تلك المشيئة لما أن الذي عليه يدور فلك التكليف والميه ينسحب الثواب والعقاب انما هو الاختيار الجزئي الذي عليه يترتب الاعمال التي بها تناط الجزاء هذا هو الذي يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام وقد فسروا كون قصد السبيل عليه تعالى بانتهائه اليه على نهج الاستقامة وايثار حرف الاستعلاء على لي أداة الانتهاء لتأكيد الاستقامة على وجه يمثل من غير أن يكون هناك استعلاء اشيء عليه سبحانه وتعالى عنه علوا كبيرا كما في قوله تعالى هذا صراط علي مستقيم فالقصد مصدر بمعنى الزوج الفاعل والمراد بالسبيل الجنس كما مر وقوله تعالى ومنها جائر معطوف على الجملة الاولى والمعنى ان قصد السبيل واصل اليه تعالى بالاستقامة وبعضها منحرف عنه ولو شاء لهداكم جميعا الى الاول وأنت خبير بأن هذا حق في نفسه ولكنه بمعزل عن نكتة موجبة

منسوخ وروى عطاء عن ابن عباس انه قال تلاث آيات من كتاب الله تركهن الناس ولا أرى أحدا يعمل بهن قال عطاء حفظت اثنتين ونسيت واحدة وقرأ هذه الآية وقوله يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وذكر سعيد بن جبير ان الآية الثالثة قوله واذا حضر القسمة أولوا القربى الآية أقول قوله تعالى ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض ففيه سؤالات (السؤال الاول) أنقولون في قوله ليس عليكم ولا عليهم جناح انه يقتضي الاباحة على كل حال (الجواب) قد بينا ان ذلك هو في الصغار خاصة فيباح لهم الدخول للخدمة بغير الاذن في غير الاوقات الثلاثة ويباح لنا تمكينهم من ذلك والدخول عليهم أيضا (السؤال الثاني) فهل يقتضي ذلك اباحة كشف العورة لهم (الجواب) لا وانما أباح الله تعالى ذلك من حيث كانت العادة أن لا تنكشف العورة في غير تلك الاوقات فتى كشفت المرأة عورتها مع ظن دخول الخدم اليها فذلك يحسم عليها فان كان الخادم ممن يتناوله التكليف فيحرم عليه الدخول أيضا اذا ظن ان هناك كشف عورة فان قيل أليس من الناس من جوز للبالغ من المماليك أن ينظر الى شعر مولاته قلنا من جوز ذلك أخرج الشعر من أن يكون عورة لحق المالك كما يخرج من أن يكون عورة لحق الرسم اذا العورة تنقسم ففيه ما يكون عورة على كل حال وفيه ما يختلف حاله بالاضافة فيكون عورة مع الاجنبي غير عورة مع غيره على ما تقدم ذكره (السؤال الثالث) أتقولون هذه الاباحة مقصورة على الخدم دون غيرهم (الجواب) نعم وفي قوله ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن دلالة على أن هذا الحكم يختص بالصغار دون البالغين على ما تقدم ذكره وقد نص تعالى على ذلك عن بعد فقال واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم والمراد من تجدده البلوغ يجب أن يكون بمنزلة من تقدم بلوغه في وجوب الاستئذان فهذا معنى قوله كما استأذن الذين من قبلهم وقد يجوز أن يظن ظان أن من خدم في حال الصغر فاذا بلغ يجوز له أن لا يستأذن ويفارق حالة حال من لم يخدم ولم يملك فبين تعالى أنه كما خاطر على البالغين الدخول الا بالاستئذان فكذلك على هؤلاء اذا بلغوا وان تقدمت لهم خدمة أو ثبت فيهم ملك لهن (السؤال الرابع) الامر بالاستئذان هل هو مختص بالمملوك ومن لم يبلغ الحلم أو يتناول الكل من ذوي الرحم والاجنبي وأيضا لو كان المملوك من ذوي أرحم هل يجب عليه الاستئذان (الجواب) أما الصورة الاولى فنعم أما العموم فقوله تعالى لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا أو بالقياس على المملوك ومن لم يبلغ الحلم بطريق الاولى وأما الصورة الثانية فيجب عليه الاستئذان لعموم الآية (السؤال الخامس) ما محل ليس عليكم (الجواب) اذا وقعت ثلاث عورات كان ذلك في محل الرفع على الوصف والمعنى هي ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان واذا نصبت لم يكن له محل وكان كلاما مقررا للامر بالاستئذان في تلك الاحوال خاصة (السؤال السادس) ما معنى قوله طوافون عليكم (الجواب) قال الفراء والزجاج انه كلام مستأنف كقولك في الكلام انما هم خدمكم وطوافون عليكم والطوافون الذين يكثرون الدخول والخروج والتردد وأصله من الطواف والمعنى يطوف بعضكم على بعض فيعذران (السؤال السابع) لم ارتفع بعضكم (الجواب) بالابتداء وخبره على بعض على معنى طائف على بعض وانما حذف لان طوافون يدل عليه أما قوله والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا ففيه مسائل (المسألة الاولى) قال ابن السكيت امرأة قاعد اذا قعدت عن الحيض والجمع قواعد واذا أردت القعود قلت قاعدة وقال المفسرون القواعد هن اللواتي قعدن عن الحيض والولد من الكبر ولا مطمع لهن في الازواج والاولى أن لا يعتبر قعودهن عن الحيض لان ذلك ينقطع والرغبة فيهن باقية فالمراد قعودهن عن حال

الموسيط بين ماسبق من ادلة التوحيد وبين ما لحق * وما بين الطريق السبعي للتوحيد على وجه الجمال وفصل بعض أدلته المتعلقة باحوال الميراثات وعقب ذلك ببيان السر الداعي اليه بهذا للخاطبين على التأمل فيما سبق وما على حسن التلقي لما لحق أتبع ذلك ذكر ما يدل عليه من أحوال النبات فقال (هو الذي أنزل) بقدرته الباهرة (من السماء) أي من السحاب أو من جانب السماء (ماء) أي نوعا منه وهو المطر وتأخيره عن المجرور لما مر مرارا من أن المقصود هو الاخبار بأنه أنزل من السماء شيأ هو الماء لا أنه أنزله من السماء والوقوف على ما سلف من أن عند تأخير ما حقه التقديم يبقى الذهن مستشرفا اليه فيتمكن لديه عند وروده عليه فضل تمكن (لكم منه شراب) أي ما تشربونه وشبه ما مر تقع بالظرف الاول أو مبتدأ وهو خبره والجملة صفة الماء والظرف الثاني نصب على الحالية من شراب وصح ذلك لتخصيصه وليس في تقديمه ايهام حصر المشروب فيه حتى يفتقر الى الاعتذار بانه لا بأس به لان سماء السيول والآبار منه لقوله تعالى فسلكه ينابيع في الارض وقوله تعالى فأسكناه في الارض وقيل الظرف الاول متعلق بانزل والثاني في خبر لشراب والجملة صفة الماء وأنت خبير بأن ما فيه من توسيط المنصوب بين المجرورين وتوسيط الفاك

الزوج وذلك لا يكون الا اذا بلغن في السن بحيث لا يرغب فيهن الرجال (المسئلة الثانية) قوله تعالى في النساء اللاتي لا يرجون كقوله الآن يئسن (المسئلة الثالثة) لا شبهة أنه تعالى لم يأذن في أن يضعن ثيابهن أجمع لما قبيه من كشف كل عورة فلذلك قال المفسرون المراد بالثياب ههنا الجلباب والخمار والقناع الذي فوق الخمار وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ أن يضعن جلابيبهن وعن السدي عن شيوخه أن يضعن خمرهن عن رؤسهن وعن بعضهم أنه قرأ أن يضعن من ثيابهن وانما خصص الله تعالى ذلك لان التهمة مرتفعة عنهن وقد يلحقن هذا البلغ فلو غلب على ظنهن خلاف ذلك لم يحل لهن وضع الثياب ولذلك قال وأن يستعففن خير لهن وانما جعل ذلك أفضل من حيث هو أبعد من المظنة وذلك يقتضي أن عند المظنة يلزمهن أن لا يضعن ذلك كما يلزم مثله في الشابة (المسئلة الرابعة) حقيقة التبرج تكلف اظهار ما يجب اخفاؤه ومن قولهم سفينة بارج لاخضاء عليها والتبرج سعة العين التي يرى بياضها محيط سوادها كله لا يغيب منه شئ الا أنه اختص بأن تتكشف المرأة للرجال بابداء زينتها واظهار محاسنها * قوله تعالى * ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت اخوانكم أو بيوت اخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون * اعلم أن في هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا في المراد من رفع الحرج عن الاعمى والاعرج والمريض فقال ابن زيد المراد أنه لا حرج عليهم ولا اثم في ترك الجهاد وقال الحسن نزلت الآية في ابن أم مكتوم وضع الله الجهاد عنه وكان أعمى وهذا القول ضعيف لان الله تعالى عطف عليه قوله أن تأكلوا فثبت بذلك على أنه انما رفع الحرج في ذلك وقال الاكثرون المراد منه أن القوم كانوا يحظرون الاكل مع هؤلاء الثلاثة في هذه المنازل فالله تعالى رفع ذلك الحظر وأزاله واختلفوا في أنهم لأي سبب اعتقدوا ذلك الحظر أما في حق الاعمى والاعرج والمريض فقد ذكروا فيه وجوها (أحدها) أنهم كانوا لا يأكلون مع الاعمى لانه لا يبصر الطعام الجيد فلا يأخذ ولا يلام والاعرج لانه لا يتمكن من الجلوس فلعله أن يأكل لقمة يأكل غيره لقمتين وكذا المريض لانه لا يتأتى له أن يأكل كما يأكل الصحيح قال القراء فعلى هذا التأويل تكون على بمعنى في يعني ليس عليكم في هؤلاء كلهم حرج (وثانيها) أن العميان والعرجان والمرضى تركوا سؤا كلهم الاصحاء أما الاعمى فقال اني لا أرى شيأ فربما أخذ الجيد وأترك الرديء وأما الاعرج والمريض خافا أن يقعد الطعام على الاصحاء لاعوز تقدمي المرضى ولاجل أن الاصحاء يتكرهون منهم ولاجل أن المريض ربما حمله الشره على أن يتعلق نظره وقلبه بلقمة الغير وذلك مما يكرهه ذلك الغير فلهذه الاسباب احترزوا عن هؤلاء كلهم الا أن الله تعالى أطلق لهم في ذلك (وثالثها) روى الزهري عن سعيد ابن المسيب وعبيد الله بن عبد الله في هذه الآية أن المسلمين كانوا اذا غزوا خلفوا زمناهم وكانوا يسلمون اليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا فكانوا يعتذرون من ذلك وقالوا لا ندخلها وهم غائبون فنزلت هذه الآية رخصة لهم وهذا قول عائشة رضي الله عنها فعلى هذا معنى الآية نفي الحرج عن الزمنى في أكلهم من بيت من يدفع اليهم المفتاح اذا خرج الى الغزو (ورابعها) نقل عن ابن عباس ومقاتل بن سليمان نزلت هذه الآية في الحرث بن عمرو وذلك أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازيا وخلف مالك بن زيد على أهله فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال خرجت أن

منها بين الماء وصفته مما لا يلبق بجزالة نظم التنزيل الجليل (ومنه شجر) من اشتقاقية أي ومنه يحصل شجر رعاء الموانى والمراد به ما ينبت من الارض سواء كان له ساق أولا وتسمية مجازا لانه لما كان سقيه من الماء جعل كأنه منه كقوله * أسمعه الآبال في رباله * يعني بالمطر الذي ينبت به الكلأ الذي تأكله الابل فتسمن أنعامهن وفي حديث عكرمة لما تأكلون الشجر فانه سمحت يعني الكلأ (فيه

تسيمون) ترعون من سامت الماشية وأسامها اذا سرحتها وأصلها السومة وهي العلامة لانها تؤثر بالرعي علامات في الارض (ينبت) أي الله عز وجل وقرئ بالنون (لكم به) بما أنزل من السماء (الزرع والزيتون والنخيل والاعناب) بيان للنعم الفائضة عليهم من الارض وطريق الاستئناف وايثار صيغة ٣٤٤ الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار وأنها استنة الجارية على مر الدهور أولا ستحضار

صورة الانبات وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر تفاصيل ما في تقديم أولهما من الاهتمام به لادخال المسرة ابتداء وتقديم الزرع على ما عداه لانه أصل الاغذية وعمود المعاش وتقديم الزيتون لما فيه من الشرف حسن سمت انتدامه من وجه وفاكهة من وجه وتقديم النخيل على الاعناب لظهور أصالتها وتعاشها وجمع الاعناب للاشارة الى مافيها من الاشتمال على الاصناف المختلفة وتخصيص الانواع المعدودة بالذكر مع اندراجها تحت قوله تعالى (ومن كل الثمرات) للاشعار بفضلها وتقديم الشعير عليها مع كونه غذاء للانعام لحصوله بغير صنع من البشر أو للارشاد الى مكارم الاخلاق فان مقتضاها أن يكون اهتمام الانسان بأمر ما تحت يده أكمل من اهتمامه بأمر نفسه أولان أكثر الخياطين من أصحاب المواشي ليس لهم زرع ولا ثمر وقيل المراد تقديم ما يسام لا تقديم غذائه فانه غذاء حيوان للانسان وهو أشرف الاغذية وقرئ بنصب الثلاثة الاخيرة على الزرع بزيد وما عطف عليه (ان في ذلك) أي في انزال الماء وانبات ما فصل (لآية) عظيمة دالة على تفرده تعالى بالالوهية لاشتماله على كمال العلم والقدرة والحكمة (لقوم يتفكرون) فان من تفكر في أن الحبة أو النواة تقع في الارض وتصل اليها نداوة تنفلق فيشق أسفلها

آكل من طعامك لغير اذنك وأما في حق سائر الناس فذكر واو جوهين (الاول) كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوي العاهات الى بيوت أزواجهم وأولادهم وقراباتهم وأصدقائهم فيطعمونهم منها فلما نزل قوله تعالى لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة أي بعافعند ذلك امتنع الناس أن يأكل بعضهم من طعام بعض فنزلت هذه الآية (الثاني) قال قتادة كانت الانصار في أنفسها قرازة وكانت لا تأكل من هذه البيوت اذا استغنوا قال السدي كان الرجل يدخل بيت أبيه أو بيت أخيه أو أخته فتخدمه المرأة بشيء من الطعام فيتحرج لانه ليس بيت ثم ذهب البيت فأنزل الله تعالى هذه الرخصة ﴿المسئلة الثانية﴾ قال الزجاج الحرج في اللغة الضيق ومعناه في الدين الاثم ﴿المسئلة الثالثة﴾ انه سبحانه اباح الاكل للناس من هذه المواضع وظاهر الآية يدل على أن اباحة الاكل لا تتوقف على الاستئذان واختلف العلماء فيه فنقل عن قتادة أن الاكل مباح ولكن لا يحمل وجمهور العلماء أنكروا ذلك ثم اختلفوا على وجوه (الاول) كان ذلك في صدر الاسلام ثم نسخ ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام لا يحل مال امرئ مسلم الا عن طيب نفس منه ويدل على هذا النسخ قوله لا تدخلوا بيوت النبي الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه وكان في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من لهن الآباء والاخوة والاخوات فمع النهي عن دخول بيوتهن الا بعد الاذن في الدخول وفي الاكل ﴿فان قيل انما أذن تعالى في هذا لان المسلم لم يكونوا يعتقون قراباتهم هؤلاء ممن أن يأكلوا من بيوتهم حضروا أو غابوا لخوف أن يرخص في ذلك ﴿قلنا لو كان الامر كذلك لم يكن لتخصيص هؤلاء الاقارب بالذكر معنى لان غيرهم كهم في ذلك (الثاني) قال أبو مسلم الاصفهاني المراد من هؤلاء الاقارب اذا لم يكونوا مؤمنين وذلك لانه تعالى نهى من قبل عن محالطتهم بقوله لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ثم انه سبحانه أباح في هذه الآية ما حظره هناك قال ويدل عليه أن في هذه السورة أمر بالتسليم على أهل البيوت فقال حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها وفي بيوت هؤلاء المذكورين لم يأمر بذلك بل أمر أن يسلموا على أنفسهم والحاصل أن المقصود من هذه الآية اثبات الاباحة في الجملة لا اثبات الاباحة في جميع الاوقات (الثالث) اسلمنا علم بالعادة أن هؤلاء القوم تطيب أنفسهم بأكل من يدخل عليهم والعادة كالاذن في ذلك فيجوز أن يقال خصهم الله بالذكر لان هذه العادة في الاغلب توجد فيهم ولذلك ضم اليهم الصديق ولما علمنا أن هذه الاباحة انما حصلت في هذه السورة لاجل حصول الرضا فيهم فلا حاجة الى القول بالنسخ ﴿المسئلة الرابعة﴾ ان الله تعالى ذكر أحد عشر موضعا في هذه الآية (أولها) قوله ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم ﴿وفيه سؤال وهو أن يقال أي فائدة في اباحة أكل الانسان طعامه في بيته ﴿وجوابه المراد في بيوت أزواجكم وعيالكم أضافه اليهم لان بيت المرأة كبيت الزوج وهذا قول الفراء وقال ابن قتيبة أراد بيوت أولادهم فنسب بيوت الاولاد الى الآباء لان الولد كسب والده وماله كما قال عليه الصلاة والسلام أن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه والدليل على هذا انه سبحانه وتعالى عدد الاقارب ولم يذكر الاولاد لانه اذا كان سبب الرخصة هو القرابة كان الذي هو أقرب منهم أولى (وثانيها) بيوت الآباء (وثالثها) بيوت الامهات (ورابعها) بيوت الاخوان (وخامسها) بيوت الاخوات (وسادسها) بيوت الاعمام (وسابعها) بيوت العمات (وثامنها) بيوت الاخوال (وتاسعها) بيوت الخالات وعاشرها قوله تعالى أو ما ملكتم مفاتحه وقرئ مفتاحه وفيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما وكيل الرجل وفيه في ضيعته وماشيته لا بأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته وملك المفاتح كونها في يده وفي حفظه (الثاني) قال الضحاك

فيخرج منه عروق تنبسط في أعماق الارض وينشق أعلاها وان كانت منتكسة في الوقوع ويخرج منه ساق فيتفرع ويخرج منه الاوراق والازهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الاشكال والالوان والخواص والطبائع وعلى نواة قابلة لتوليد الامثال على النمط المحرر لا الى نهاية مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية بالنسبة الى الكل ٣٤٥ علم أن من هذه أفعاله وآثاره لا يمكن

أن يشبهه شئ في شئ من صفات الكمال فضلا عن أن يشاركه أخس الاشياء في أخص صفاته التي هي الالوهية واستحقاق العبادة تعالى عن ذلك علوا كبيرا وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة الى ترتيب المقدمات الفكرية قطع الآية الكريمة بالتفكر (وسخر لكم الليل والنهار) متعاقبان خلفة لمنافعكم ومعاشكم ولعقد التمار وانضاجها (والشمس والقمر) دائبان في سيرهما وأنارتهما أسألة وخلافة واصلا حهما لما ينبغي بهما صلاحه من المكونات التي من جملتها ما فصل وأجمل كل ذلك لصالحكم وهنا فعكم وليس المراد بتسخيرها لهم تكينهم من تصرفها كيف شاؤا كما في قوله تعالى سبحان الذي سخر لنا هذا ونظائره بل هو تصريفه تعالى لها حسبما يترتب عليه منافعهم ومصالحهم كائنا ذلك تسخيرا لهم وتصرفا من قبلهم حسب ارادتهم وفي التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير اعلام

أريد الزمني الذين كانوا يحرسون للغزاة (الثالث) المراد بيوت المماليك لان مال العبد لمولاه قال الفضل الفتح واحدها مفتح بفتح الميم وواحد المفاتيح مفتح بالكسر (الحادي عشر) قوله أو صديقكم والمعنى أو بيوت أصدقائكم والصديق يكون واحدا وجمعا وكذلك الخليط والقطين والعدو ويحكى عن الحسن أنه دخل داره وأذن لقطين من أصدقائه وقيد أن رجلا سلاما من شحت سمره فيها الجصص وأطناب الاطعمة وهم مكبون عليها يأكلون فتركوا أسارير وجوههم مرورا رفعوا رؤسهم فقال أوحدنا هم يريد كبراء الصحابة وعن ابن عباس رضي الله عنهما الصديق أكثر من الوالدين لان أهل الجنة يتفعون لما استفاثوا لم يستغيثوا بالآباء والامهات بل بالاصدقاء فقالوا ما لنا من شافعين ولا صديق حميم وحكي أن أخا لابي بيع بن خيثم في الله دخل منزله في حال غيبته فانبسط الى جاريته حتى قدمت اليه ما كل فلما عاد أخبرته بذلك فاسرورمه بذلك قال ان صدقت فأنت حرة (المسئلة الخامسة) احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية على أن من سرق من ذي رحم محرم الله لا يقطع لاباحة الله تعالى لهم بهذه الآية الاكل من بيوتهم ودخولها بغير اذنهم فلا يكون مالا محرزا لهم * فان قيل فيلزم أن لا يقطع اذا سرق من مال صديقه * قلنا من أراد سرقة مال لا يكون صديقه مالا * أما قوله تعالى ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فقال أكثر المفسرين نزلت الآية في بني ليث بن عمرو وهم حي من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده يمكث يومه فان لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيأ ورب ما كانت معه الابل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه فاعلم الله تعالى أن الرجل اذا أكل وحده لا حرج عليه هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وقال عكرمة نزلت في رجلين رحمهما الله كانت الانصار اذا نزل بواحدهم ضيف لم يأكل الا وضيفه معه فرخص الله لهم أن يأكلوا كيف شاؤا اجتمعين ومتفرقين وقال الكلبي كانوا اذا اجتمعوا لم يأكلوا طعاما عزلوا للاعمى طعاما على حدة وكذلك للزمن والمريض فبين الله لهم أن ذلك غير واجب وقال آخرون كانوا يأكلون فرادى خوفا من أن يحصل عند الجمعة ما ينفر أو يؤذي فبين الله تعالى أنه غير واجب وقوله جميعا نصب على الحال وأشتاتا جمع شت وشتى جمع شتيت وشتان تثنية شت قاله الفضل وقيل الشت مصدر بمعنى التفرق ثم يوصف به ويجمع أما قوله تعالى فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم فالمعنى أنه تعالى جعل أنفس المسلمين كالنفس الواحدة على مثال قوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم قال ابن عباس فان لم يكن أحد في البيت فليقل السلام علينا من قبل ربنا واذا دخل المسجد فليقل السلام على رسول الله وعلينا من ربنا قال قتادة وحدثنا أن الملائكة ترد عليه قال القفال وان كان في البيت أهل الذمة فليقل السلام على من اتبع الهدى وقوله تحية نصب على المصدر كأنه قال فحيوا تحية من عند الله أي مما أمركم الله به قال ابن عباس رضي الله عنهما من قال السلام عليكم معناه اسم الله عليكم وقوله مباركة طيبة قال الضحاك معنى البركة فيه تضعيف الثواب وقال الزجاج أعلم الله سبحانه أن السلام مبارك ثابت لما فيه من الاجر والثواب وأنه اذا أطاع الله فيما أكثر خيره وأجزل أجره كذلك بين الله لكم الآيات أي فصل الله شرائعه لكم لعلكم تعقلون لتفهموا عن الله أمره ونهيه وروى حميد عن أنس قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي في شئ فعلته لم فعلته ولا قال لي في شئ تركته لم تركته وكنت واقفا على رأس النبي صلى الله عليه وسلم أصب الماء على يديه فرفع رأسه الي وقال ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بهن قلت بأبي وأمي أنت يا رسول الله بلى فقال من لقيت من أمتي فسلم عليهم يطل عمرك واذا دخلت بيتا فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فانها صلاة الاوابين ﴿ قوله تعالى ﴿ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ان الذين

(٤٤ - تفسير - س) الى ما في المسخرات من جمعية المآخذ بالنسبة الى المخاطبين وايثار صيغة الماضي للدلالة على أن ذلك أمر واجب مستمر وان تجدد آثاره (والنجوم مسخرات بأمره) مبتدأ وخبر أي سائر النجوم في حركاتها وأوضاعها من التثليث والتربيع ونحوهما مسخرات لله تعالى أو ساخرات له بارادته ومشيئته وحيث لم يكن عود منافع النجوم اليهم في الظهور بمثابة ما قبلها من الملوين

والتعبير بلم يستعمل فيما انقطع ايهام بادئ الامر اختصاص بل ذكر على وجه يفيد كونها تحت ملكوته تعالى من غير دلالة على شئ آخر ولذلك عدل عن الجملة السابقة الدالة على الحدوث الى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار وقرئ برفع الشمس والقمر ابتداء وقمرى بنصب النجوم على انه مفعول أول لفعل مقدر بنحو ٣٤٦ عنه الفعل المذكور مسخرات مفعول ثان له اى وجعل النجوم مسخرات بأمره أو على

أنه معطوف على المنصوبات المتقدمة ومسخرات حال من الكل والعامل ما فى مسخر من معنى تفع اى نفذكم بها حال كونها مسخرات لله الذى خلقها وبرءها كيف شاء أولما خلقن له بايجاده وتقديره أولحكمه أو مصدر ميمى جمع لاختلاف الانواع اى أنواعا من التسخير وما قيل من أن فيه ايذانا بالجواب عما عسى يقال ان المؤثر فى تكوين النبات وتكوا كب وأوضاعها بان ذلك ان سلم فلا ريب فى أنها أيضا أمور ممكنة لذات والصفات واقعة على بعض الوجوه الممكنة فلا بد لها من مرجح مخصص مختار واجب الوجود دفعا للدور والتسلسل فيناه حسبما ماذكر أدلة على وجود الصانع تعالى وقدرته واختياره وأنت تدرى أن ليس الامر كذلك فانه ليس مما ينازع فيه احد منهم ولا يتلعثم فى قبوله قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فانى يؤفكون وقال تعالى ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيى به الارض من بعد موتها ليقولن الله الآية وانما ذلك أدلة التوحيد من حيث ان من هذا شأنه لا يتوهم أن يشاركه شئ فى شئ فضلا عن أن يشاركه أنجماد فى الالوهية (ان فى ذلك) أى فيما ذكر من التسخير المتعلق بما ذكر مجملا ومفصلا (لآيات) باهرة كثيرة (لقوم يعقلون)

يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ان الله غفور رحيم لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يسلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ألا ان لله ما فى السموات والارض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون اليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شئ عليم ﴾ وفى الآية مسائل ﴿ (المسئلة الاولى) قرئ على أمر جميع ثم ذكر وانى قوله على أمر جامع وجوها (أحدها) أن الامر الجامع هو الامر الموجب للاجتماع عليه فوصف الامر بالجمع على سبيل المجاز وذلك نحو مقاتلة عدو وأشاور فى شخص مهم أو الامر الذى يهم ضرره ونفعه وفى قول اذا كانوا معه على أمر جامع اشارة الى أنه خطب جليل لابد لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أرباب التجارب والآراء المستعين بهم فى مفارقتهم أحدهم فى هذه الحالة مما يشق على قلبه (وثانيها) عن الضحاك فى أمر جامع لجمعة والاعياد وكل شئ يكون فيه خطبة (وثالثها) عن مجاهد فى الحرب وغيره ﴿ (المسئلة الثانية) ﴾ اختلفوا فى سبب نزوله قال الكلبى كان صلى الله عليه وسلم يعرض فى خطبته بالمنافقين ويعيبهم فينظر المنافقون عيانا وشمالا فاذا لم يرهم أحد انسلوا وخرجوا ولم يصلوا وان أبصرهم أحد ثبتوا وصلوا وقافا فنزلت هذه الآية فكان بعد نزول هذه الآية لا يخرج المؤمن لحاجته حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المنافقون يخرجون بغير اذن ﴿ (المسئلة الثالثة) ﴾ قال الجبائى هذا يدل على أن استئذانهم الرسول من أجلهم ولولا ذلك لجاز أن يكونوا كاملى الايمان وان تركوا الاستئذان وذلك يدل على أن كل فرض لله تعالى واجتناب محرم من الايمان (والجواب) هذا بناء على أن كلها ايمان للبصر وأيضا فالمنافقون انما تركوا الاستئذان استخفافا ولا نزاع فى أنه كفر وأما قوله تعالى ان الذين يستأذنونك الى قوله ان الله غفور رحيم ففيه مسائل ﴿ (المسئلة الاولى) ﴾ ان الذين يستأذنونك المعنى تعظيما لك ورعاية للادب أولئك هم الذين يؤمنون بالله ورسوله أى يعملون بموجب الايمان ومقتضاه قال الضحاك ومقاتل المراد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وذلك لانه استأذن فى غزوة تبوك فى الرجوع الى أهله فأذن له وقال له انطلق فوالله ما أنت بمنافق يريد أن يسمع المنافقين ذلك الكلام فلما سمعوا ذلك قالوا اما بال محمد اذا استأذنه أصحابه أذن لهم واذا استأذنا لم يأذن لنا فانه والله ما نراه يعدل وقال ابن عباس رضى الله عنهما ان عمر استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العمرة فأذن له ثم قال يا أباحفص لا تنسنا من صالح دعائك وفى قول واستغفر لهم الله وجهان (أحدهما) أن يستغفر لهم تتميم لما على أن الاولى أن لا يقع الاستئذان منهم وان أذن لان الاستغفار يدل على الذنب وربما ذكر عند بعض الرؤساء (والثانى) يحمل أنه تعالى أمره بأن يستغفر لهم مقابلة على تمسكهم بآداب الله تعالى فى الاستئذان ﴿ (المسئلة الثانية) ﴾ قال قتادة نسخت هذه الآية قوله تعالى لم أذنت لهم ﴿ (المسئلة الثالثة) ﴾ الآية تدل على انه سبحانه فوض الى رسوله بعض أمر الدين ليجتهد فيه برأيه أما قوله تعالى لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ففيه وجوه (أحدها) وهو اختيار المبرد والقفال ولا تجعلوا أمره اياكم ودعاءه لكم كما يكون من بعضكم لبعض اذ كان أمره فرضا لازما والذى يدل على هذا قوله عقيب هذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره (وثانيها) لا تنادوه كما ينادى بعضكم بعضا يا محمد يا أبا القاسم ولكن قولوا يا رسول الله يا نبى الله عن سعيد بن جبير (وثالثها) لا ترفعوا أصواتكم فى دعائه وهو المراد من قوله ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله عن ابن عباس (ورابعها) اذ دعاء الرسول عليكم اذا أخطأتموه فان دعاءه مو جب ليس كدعاء غيره والوجه الاول أقرب الى نظم الآية أما قوله تعالى قد يعلم الله الذين

يتسللون

وحيث كانت هذه الآثار العلوية متعددة ودلالة ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوحدانية أظهر جمع الآيات وعلقت بمجرد العقل من غير حاجة إلى التأمل والتفكر ويجوز أن يكون المراد لقوم يعقلون ذلك فالمشار إليه حينئذ ما حسب الدقائق المودعة في العلويات المدلول عليها بالتسخير التي لا يتصدى لمعرفتها إلا الفهرة من أساطين علماء

يتساءلون منكم لواذا فالمعنى يتسللون قليلا قليلا لواذ ونظيره تسال تدرج وتدحل واللواذ الاوذة وهي أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا يعني يتسللون عن الجماعة على سبيل الخفية واستتار بعضهم ببعض ولواذا حال أي ملاوذين وقيل كان بعضهم يلوذ بالرجل إذا استأذن فيؤذن له فيتطاق الذي لم يؤذن له معه وقرئ لواذا بالفتح ثم اختلفوا على وجوه (أحدها) قال مقاتل كان المنافقون تثقل عليهم خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة فيلوذون ببعض أصحابه ويخرجون من غير استئذان (وثانيها) قال مجاهد يتساءلون من الصف في القتال (وثالثها) قال ابن قتيبة هذا كان في حفر الخندق (ورابعها) يتسللون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن كتابه وعن ذكره وقوله قد يعلم الله معناه التهديد بالمجازاة على أقواله فليحذر الذين يخالفون عن أمره ففيه مسائل (المسألة الاولى) قال الاخفش عن صلة والمعنى يخالفون أمره وقال غيره معناه يعرضون عن أمره ويعملون عن سنته فدخلت عن لتضمين المخالفة معنى الاعراض (المسألة الثانية) كما تقدم ذكر الرسول فقد تقدم ذكر الله تعالى لكن القصد هو الرسول فالهاء ترجع إلى الكناية وقال أبو بكر الرازي الأظهر أنها لله تعالى لانه يليه وحكم الكناية أن يرجعوا إلى ما يليها دون ما تقدمها (المسألة الثالثة) الآية تدل على أن ظاهر الامر للوجوب ووجه الاستدلال به أن نقول تارك المأمور به مخالف لذلك الامر ومخالف الامر مستحق للعقاب فتارك المأمور به مستحق للعقاب ولا معنى للوجوب الا ذلك اعلم أن قولنا ان تارك المأمور به مخالف لذلك الامر لان موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه والمخالفة ضد الموافقة فكانت مخالفة الامر عبارة عن الاخلال بمقتضاه فثبت ان تارك المأمور به مخالف واعلم قولنا ان مخالف الامر مستحق للعقاب لقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم فامر مخالف هذا الامر بالحذر عن العقاب والامر بالحذر عن العقاب اغا يحسن بعد قيام المقتضي لنزول العقاب فثبت أن مخالف أمر الله تعالى أو أمر رسوله قد وجد في حقه ما يقتضي نزول العذاب فان قيل لا نسلم أن تارك المأمور به مخالف للامر قوله موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه ومخالفته عبارة عن الاخلال بمقتضاه قلنا لا نسلم أن موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه في الدليل عليه ثم انا نفسر موافقة الامر بتفسيرين (أحدهما) أن موافقة الامر عبارة عن الاتيان بما يقتضيه الامر على الوجه الذي يقتضيه الامر ان الامر لو اقتضاه على سبيل الندب وأتى به على سبيل الوجوب كان ذلك مخالفة للامر (الثاني) أن موافقة الامر عبارة عن الاعتراف بكون ذلك الامر حقا واجب القبول فمخالفته تكون عبارة عن انكار كونه حقا واجب القبول سلمنا أن ما ذكرته يدل على أن مخالفة الامر عبارة عن ترك مقتضاه لكنه معارض بوجوه أخر وهو انه لو كان ترك المأمور به مخالفة للامر لكان ترك المندوب لا محالة مخالفة للامر الله تعالى وذلك باطل والا لاستحق العقاب على ما بينا فقوله في المقدمة الثانية سلمنا أن تارك المأمور به مخالف للامر قلت ان مخالف الامر مستحق للعقاب لقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره قلنا لا نسلم أن هذه الآية دالة على أمر من يكون مخالفا للامر بالحذر بل هي دالة على الامر بالحذر عن مخالفة الامر فلم لا يجوز أن يكون كذلك سلمنا ذلك لكن لم لا يجوز أن يقال المخالف عن الامر يلزمه الحذر فلم قلت ان مخالف الامر لا يلزمه الحذر فان قلت افظة عن صلة زائدة فنقول الاصل في الكلام لا سيما في كلام الله تعالى أن لا يكون زائدا سلمنا دلالة الآية على أن مخالف أمر الله تعالى مأمور بالحذر عن العذاب فلم قلت انه يجب عليه الحذر عن العذاب أقصى ما في الباب أنه ورد الامر به لكن لم قلت ان الامر للوجوب وهذا أول المسألة فان قلت سبب الحذر لا يدل على وجوب الحذر لكن لا بد وأن يدل على حسن

تصانيع الاالى تذكر ما عسى يعقل عنه من العلوم الضرورية وأما ما يقال من أن اختلافها في الطباع والملكات فليس الا بصنع صانع حكيم فداره مالوحدانية من حيث ما ذكرناه لا على اثبات الصانع تعالى وقد عرفت حقيقة الحال فان ادراك ما يدل على أن خالقه سبحانه عالم كما ذكر من صفات الكمال ليس بطريق الاستدلال عليه بل من حيث ان ذلك من المقدمات المسلمة التي يبنى عليه الاستدلال به على

والتفكر (وما ذرأ) عطف على قوله تعالى والنهوم رفعا ونصبا على أنه مفعول لجعل أي وما خلق (لكم في الارض) من حيوان ونبات حال كونه (مختلفا ألوانه) أي أصنافه فان اختلافها غالبا يكون باختلاف الالوان مسخر لكم تعالى أولما خلق له من المنافع والاحوال والكيفيات أو جعل ذلك مختلف الالوان أي الاصناف لتعتبروا من ذلك بأي صنف شئتم وقد عطف على ما يعقل له من المنصوبات وعقب بان ذكر الخلق لهم مغن عن ذكر التسخير واعتذر بان الاول لا يستلزم الثاني أو بما عقلا بالجواز كون ما خلق لهم عزيز المرام صعب المنال وقيل هو منصوب بفعل مقدر أي خلق وأبرأ على أن قوله مختلفا ألوانه حال من مفعوله (ان في ذلك) الذي ذكر من التسخيرات وخصوصا (لآية) بينة الدلالة على أن من هذا شأنه واحد لا ند له ولا ضد (لقوم يذكرون) فان ذلك غير

مايقتضيه ضرورة من وحدانيته تعالى واستحالة أن يشاركه شئ فى الالوهية (وهو الذى سخر البحر) شروع فى تعداد النعم المتعلقة بالبحر اثر تفصيل النعم المتعلقة بالبر حيوانا ونباتا أى جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب والغوص والاصطياد (لتأكلوا منه لحما طريا) هو السمك والتعبير عنه باللحم مع كونه حيوانا للتلويح بانحصار الانتفاع به فى الاكل ووصفه بالطراوة للاشعار

بلطافته والتنبيه على وجوب المسارعة الى أكله كيلا يتسارع اليه الفساد كما ينبغى عنه حمل البحر بعيد أكله وللايذان بكمال قدرته تعالى فى خلقه عند باطريا فى ماء زعاق ومن اطلاق اللحم عليه ذهب مالك والثورى أن من حلف لا يأكل اللحم حنث بأكله والجواب أن مبنى الايمان العرف ولا ريب فى أنه لا يفهم من اللحم عند الاطلاق ولذلك لو أمر خادمه بشراء اللحم فجاء بالسمك لم يكن ممتثلا بالامر ألا يرى الى أن الله تعالى سمى الكافر دابة حيث قال ان شر الدواب عند الله الذين كفروا ولا يحنث بركوبه من حلف لا يركب دابة (وتستخرجوا منه حلية) كاللؤلؤ والمرجان (تلبسونها) عبر فى مقام الامتنان عن لبس نسائهم بلبسهم لكونهن منهم أو لكونهن لبسهن لاجلهم (وترى الفلك) السفن (مواخر فيه) جوارى فيه مقبلة ومدبرة ومعترضة بريح واحدة شقته بجريه ومرها من المخر وهو شق الماء وقيل هو صوت جرى الفلك (ولتبتغوا) عطف على تستخروا وما عطف عليه وما بينهما اعتراض لتمهيد مبادى الابتغاء ودفع توهم كونه باستخراج الحلية أو على علة محذوفة أى لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا ذكر ابن الانبارى أو متعلقة بفعل محذوف أى وفعل ذلك لتبتغوا (من فضله) من سعة رزقه بركوبها للتجارة (ولعلكم تشكرون) أى تعرفون حق نعمه الجليلة فتقومون بأدائها

الحذر وحسن الحذر انما يكون بعد قيام المقتضى لنزول العذاب قلت لانسلم أن حسن الحذر مشروط بقيام المقتضى لنزول العذاب بل الحذر يحسن عند احتمال نزول العذاب ولهذا يحسن الاحتياط وعندنا مجرد الاحتمال قائم لان هذه المسئلة احتمالية لاقطعية سلمنا دلالة الآية على وجود ما يقتضى نزول العقاب لكن لا فى كل أمر بل فى أمر واحد لان قوله عن أمره لا يفيد الا أمرا واحدا وعندنا أن أمرا واحدا يفيد الوجوب فلم قلت ان كل أمر كذلك سلمنا أن كل أمر كذلك لكن الضمير فى قوله عن أمره يحتمل عوده الى الله تعالى وعوده الى الرسول والآية لا تدل الا على أن الامر للوجوب فى حق أحدهما فلم قلتم انه فى حق الآخر كذلك (الجواب) قوله لم قلتم ان موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه قلنا الدليل عليه أن العبد اذا امتثل أمر السيد حسن أن يقال ان هذا العبد موافق للسيد ويجرى على وفق أمره ولو لم يمتثل أمره يقال انه ما وافقه بل خالفه وحسن هذا الاطلاق معلوم بالضرورة من أهل اللغة فثبت أن موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه قوله الموافقة عبارة عن الاتيان بما يقتضيه الامر على الوجه الذى يقتضيه الامر قلنا لما سلمتم أن موافقة الامر لا تحصل الا عند الاتيان بمقتضى الامر فنقول لا شك أن مقتضى الامر هو الفعل لان قوله افعل لا يدل الا على اقتضاء الفعل واذا لم يوجد الفعل لم يوجد مقتضى الامر فلا توجد الموافقة فوجب حصول المخالفة لانه ليس بين الموافقة والمخالفة واسطة قوله الموافقة عبارة عن اعتقاد كون ذلك الامر حقا واجب القبول قلنا هذا لا يكون موافقة للامر بل يكون موافقة للدليل الدال على ان ذلك الامر حق فان موافقة الشئ عبارة عن الاتيان بما يقتضى تقرير مقتضاه فاذا دل الدليل على حقية الشئ كان الاعتراف بحقيته يقتضى تقرير مقتضى ذلك الدليل أما الامر فما اقتضى دخول الفعل فى الوجود كانت موافقته عبارة عما يقرر ذلك الدخول وادخاله فى الوجود يقتضى تقرير دخوله فى الوجود فكانت موافقة الامر عبارة عن فعل مقتضاه قوله لو كان كذلك لكان تارك المندوب عاصيا قلنا فوجب أن يستحق العقاب قلنا هذا الالزام انما يصح ان لو كان المندوب مأمورا به وهو ممنوع قوله لم يجز أن يكون قوله فليحذر أمرا بالحذر عن المخالف لا أمرا للمخالف بالحذر قلنا لو كان كذلك لصار التقدير فليحذر المتقللون لو اذا عن الذين يخالفون أمره وحينئذ يبقى قوله أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ضائعا لان الحذر ليس فعلا يتعدى الى مفعولين قوله كلامه عن ليست بزائدة قلنا قد ذكرنا الخلاف الناس فيها فى المسئلة الاولى قوله لم قلتم ان قوله فليحذر يدل على وجوب الحذر عن العقاب قلنا لانه يدعى وجوب الحذر وانما لم أقل من جواز الحذر وذلك مشروط بوجود ما يقتضى وقوع العقاب قوله لم قلت ان الآية تدل على أن كل مخالف للامر يستحق العقاب قلنا لانه تعالى رتب نزول العقاب على المخالفة فوجب أن يكون مع الملابسة فلزم عموم العلة قوله هب أن أمر الله أو أمر رسوله للوجوب فلم قلتم ان الامر كذلك قلنا لانه لا قائل بالفرق والله أعلم (المسئلة الرابعة) من الناس من قال لفظ الامر مشترك بين الامر القولى وبين الشان والطريق كما يقال أمر فلان مستقيم واذا ثبت ذلك كان قوله تعالى عن أمره يتناول قول الرسول وفعله وطريقته وذلك يقتضى أن كل ما فعله عليه الصلاة والسلام يكون واجبا علينا وهذه المسئلة مبنية على أن الكناية فى قوله عن أمره راجعة الى النبى صلى الله عليه وسلم أم لو كانت راجعة الى الله تعالى فالبحث ساقط بالكلية وتمام تقرير ذلك ذكرناه فى أصول الفقه والله أعلم أما قوله تعالى أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم فالمراد أن مخالفة الامر توجب أحد هذين الامرين والمراد بالفتنة العقوبة فى الدنيا وبالعذاب الاليم عذاب الآخرة وانما رد الله تعالى حال ذلك المخالف بين هذين الامرين لان ذلك المخالف قد يموت من دون عقاب الدنيا وقد

بالطاعة والتوحيد ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث ان فيها قطع المسافة طويلة مع احمال ثقيلة في مدة قليلة من غير مزاولة أسباب السفر بل من غير حركة أصلا مع أنها في تضاعيف المهالك وعدم توسط الفوز بالمطلوب بين الالتقاء والشكر للايذان باستقلاله عن التصريح به وبحصولهما معا (والقى في الارض رواسى) أى جبالا ثوابت ٣٤٩ وقدم في صفحة في أول سورة الرعد (ان عذبكم) كراهة أن تميل بكم وتضطرب أو لئلا تعذبكم فان الارض قبل أن تخلق فيها الجبال كانت كرة صفيقة بسيطة الطبع وكان من حقها أن تتحرك بالاستدارة كالافلاك أو تتحرك بأدنى سبب تحرك فلما خلقت الجبال تفاوتت حافاتها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالاوتاد وقيل لما خلق الله تعالى الارض جعلت تمور فقالت الملائكة ما هي بمقر أحد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال (وأنهارا) أى وجعل فيها أنهارا الان في أسقى معنى الجعل (وسبلا لعلكم تهتدون) بها الى مقاصدكم (وعلامات) معالم يستدل بها السابلة بالنهار من جبل ومدر ونبع وقد نقل أن جماعة يهتدون بالتراب ويتعرفون به الطريق (وبالنجم هم يهتدون) بالليل في البراري والبحار حيث لا علامة غيره والمراد بالنجم الجنس وقيل هو الثريا والفرقدان وبنات النعش والجدى وقرئ بضمتين وبضمة وسكون وهو جمع كرهن ورهن وقيل الاول بطريق حذف الواو من النجوم للتخفيف ولعل التعبير بقريش فانهم كانوا كثيرى التردد للتجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم في أسفارهم وصرف النظم عن سنن الخطاب وتقديم النجم واقحام الضمير للتخصيص كأنه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون فالاعتبار بذلك والشكر عليه ألزم لهم وأوجب عليهم (أفمن يخلق) هذا المبتدع العجائب

يعرض له ذلك في الدنيا فلهذا السبب أورده تعالى على سبيل التردد ثم قال الحسن الفتنة هي ظهور نفاقهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما القتل وقيل الزلازل والاهوال وعن جعفر بن محمد بسلط عليهم سلطان جائر أما قوله تعالى ألا ان لله ما في السموات والارض فذلك كالدلالة على قدرته تعالى عليهما وعلى ما بينهما وما فيهما واقتداره على المكلف فيما يعامل به من المجازاة بثواب أو بعقاب وعلمه بما يخفيه ويعلنه وكل ذلك كالزجر عن مخالفة أمره أما قوله تعالى قد يعلم ما أنتم عليه فلما أدخل قد لتوكيد علمه بما هم عليه من المخالفة في الدين والنفاق ويرجع توكيد العلم الى توكيد الوعيد وذلك لان قد اذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما فوافقت ربما في خروجها الى معنى التكثير كما في قول الشاعر

فان يمس مهجور الفناء فربما * أقام به بعد الوفود وفود

والخطاب والغيبة في قوله تعالى قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون اليه يجوز أن يكونا جميعا للمنافقين على طريق الالتفات ويجوز أن يكون ما أنتم عليه عاما ويرجعون للمنافقين وقد تقدم في غير موضع أن الرجوع اليه هو الرجوع الى حيث لا حكم الا له فلا وجه لاعادته والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي وعلى آله وصحبه وسلم

﴿سورة الفرقان سبع وسبعون آية مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿قوله تعالى ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذي له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شئ فقدره تقديرا﴾ اعلم أن الله سبحانه وتعالى تكلم في هذه السورة في التوحيد والنبوة وأحوال القيامة ثم ختمها بذكر صفات العباد المخلصين الموقنين ولما كان اثبات الصانع واثبات صفات جلاله يجب أن يكون مقدما على الكل لا جرم افتتح الله هذه السورة بذلك فقال تبارك الذي نزل الفرقان على عبده وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال الزجاج تبارك تفاعل من البركة والبركة كثرة الخير وزيادته وفيه معنيان (أحدهما) تزايد خيره وتكاثر وهو المراد من قوله وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها (والثاني) تزايد عن كل شئ وتعالى عنه في ذاته وصفاته وأفعاله وهو المراد من قوله ليس كمثله شئ وأما تعاليه عن كل شئ في ذاته فيحتمل أن يكون المعنى جل ربنا وجوب وجوده وقدمه عن جواز الفناء والتغير عليه وأن يكون المعنى جل بفردانيته ووحدانيته عن مشابهة شئ من الممكنات وأما تعاليه عن كل شئ في صفاته فيحتمل أن يكون المعنى جل أن يكون عالما ضروريا أو كسبيا أو تصوريا أو تصديقا وفي قدرته أن يحتاج الى مادة ومدة ومثال وجلب غرض ومثال وأما في أفعاله فجل أن يكون الوجود والبقاء وصلاح حال الوجود الا من قبله وقال آخرون أصل الكلمة تدل على البقاء وهو أحد من بروك البعير ومن بروك الطير على الماء وسميت البركة بركة لثبوت الماء فيها والمعنى أنه سبحانه وتعالى باق في ذاته أزلا وأبدا ممتنع التغير والبوار في صفاته ممتنع التبدل ولما كان سبحانه وتعالى هو الخالق لوجود المنافع والمصالح والمبقي لها وجب وصفه سبحانه بانه تبارك وتعالى ﴿المسئلة الثانية﴾ قال أهل اللغة كلمة الذي موضوعة للاشارة الى الشئ عند محاولة تعريفه بقضية معلومة وعند هذا يتوجه الاشكال وهو أن القوم ما كانوا عالمين بانه سبحانه هو الذي نزل الفرقان فكيف حسن ههنا لفظ الذي وجوابه أنه لما قامت الدلالة على كون القرآن معجزا ظهر بحسب الدليل كونه من عند الله فالقوم الدليل وظهوره أجراه سبحانه وتعالى

العظيمة ويفعل هاتيك الافاعيل البديعة أو يخالق كل شئ (كمن لا يخالق) شيأ أصلا وهو تكبيت للكفرة وابطال لاشراكهم وعبادتهم لا اصنامهم بانكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينها وبينه سبحانه وتعالى وبعد تعداد ما يقتضي ذلك اقتضاء ظاهرا وتعقيب الجملة المؤخرة بالفاء لتوجيه الانكار الى ترتب ترهم ٣٥٠ المشابهة المذكورة على ما فصل من الامور العظيمة الظاهرة الاختصاص به تعالى المعلومة

كذلك قيما بينهم حسبما يؤذن به ما تلوناه من قوله تعالى ولئن سألتهم الآيتين والاقتصار على ذكر الخلق من بينها لكونه أعظم ما وأظهر دعوى وانتباعا ياها أو لكون كل منها خلقا مخصوصا أي أبدع مظهور اختصاصه تعالى بعبدئية هذه الشؤن الواضحة دلالة على وحدانيته تعالى وتفرده بالالوهية واستبداده باستحقاق العبادة بتصور المشابهة بينه وبين ما هو بمعزل من ذلك بالمرة كما في قصة اشراكهم ومدارها وان كان في تشبيه غير الخالق بالخالق لكن التشبيه حيث كان نسبة تقوم بالمتشبهين اختير ما عليه النظم الكريم مراعاة لحق سبق الملكة على العدم وتنبيها على كمال قبح ما فعلوه من حيث ان ذلك ليس مجرد رفع الاصنام عن شاكلة الرب بل هو حط لمنزلة الرب بالكلية الى مرتبة الجمادات ولا يخفى أنه أقبح من الاول والمراد بين لا يخالق كل ما هنالك أنه كائنا ما كان والتعبير عنه بما يختص بالعقلاء للمشاكلة وفيه

مجرى المعلوم (المسئلة الثالثة) لا نزاع ان الفرقان هو القرآن وصف بذلك من حيث انه سبحانه فرق به بين الحق والباطل في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبين الحلال والحرام أو لانه فرق في النزول كما قال وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث وهذا التأويل أقرب لانه قال نزل الفرقان وافظة نزل تدل على التفريق وأما الفظة أنزل فتدل على الجمع ولذلك قال في سورة آل عمران نزل عليك الكتاب بالحق وأنزل التوراة والانجيل (واعلم) أنه سبحانه وتعالى لما قال أولا تبارك ومعناه كثرة الخير والبركة ثم ذكر عقيبه أمر القرآن دل ذلك على ان القرآن منشأ الخيرات وأعم البركات لكن القرآن ليس الا منبعا للعلوم والمعارف والحكم فدل هذا على ان العلم أشرف المخلوقات وأعظم الاشياء خيرا وبركة (المسئلة الرابعة) لا نزاع أن المراد من العبد ههنا محمد صلى الله عليه وسلم عن ابن الزبير على عباده وهم رسول الله وأمته كما قال لقد أنزلنا اليكم قولا آمنا بالله وما أنزل الينا وقوله ليكون للعالمين نذيرا فالمراد ليكون هذا العبد نذيرا للعالمين وقول من قال انه راجع الى الفرقان فاضافة الانذار اليه كاضافة الهداية اليه في قوله ان هذا القرآن يهدي فبعيد وذلك لان النذير من صفات الفاعل للتخويف واذا وصف به القرآن فهو مجاز لحمل الكلام على الحقيقة اذا أمكن هو الواجب * ثم قالوا هذه الآية تدل على أحكام (الاول) ان العالم كل ما سوى الله تعالى ويتناول جميع المكلفين من الجن والانس والملائكة لكنا أجمعنا أنه عليه السلام لم يكن رسولا الى الملائكة فوجب أن يكون رسولا الى الجن والانس جميعا ويبطل بهذا قول من قال انه كان رسولا الى البعض دون البعض (الثاني) أن لفظ العالمين يتناول جميع المخلوقات فدلت الآية على انه رسول للخلق الى يوم القيامة فوجب أن يكون خاتم الانبياء والرسل (الثالث) قالت المعتزلة دلت الآية على ان الله سبحانه أراد الايمان وفعل الطاعات من الكل لانه انما بعثه الى الكل ليكون نذيرا للكل وأراد من الكل الاستدلال بالمعجز والاعراض عن القبيح وعارضهم أصحابنا بقوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم الآية (الرابع) لقائل أن يقول ان قوله تبارك كامل على كثرة الخير والبركة لا بد وأن يكون المذكور عقيبه ما يكون سببا لكثرة الخير والمنافع والانذار يوجب الخوف فكيف يليق هذا بالموضع (خواجه) ان هذا الانذار يجري مجرى تأديب الولد وكما أنه كلما كانت المبالغة في تأديب الولد أكثر كان الاحسان اليه أكثر لما أن ذلك يؤدي في المستقبل الى المنافع العظيمة فكذا ههنا كلما كان الانذار أكثر كان رجوع الخلق الى الله أكثر فكانت السعادة الاخروية أتم وأكثر وهذا كالتنبيه على أنه لا التفات الى المنافع العاجلة وذلك لانه سبحانه لما وصف نفسه أنه الذي يعطي الخيرات الكثيرة لم يذكر الا منافع الدين ولم يذكر البتة شيأ من منافع الدنيا * ثم انه سبحانه وصف ذاته بأربع أنواع من صفات الكبرياء (أولها) قوله الذي له ملك السموات والارض وهذا كالتنبيه على الدلالة على وجوده سبحانه لانه لا طريق الى اثباته الا بواسطة احتياج أفعاله اليه فكان تقديم هذه الصفة على سائر الصفات كالامر الواجب وقوله له ما في السموات والارض اشارة الى احتياج هذه المخلوقات اليه سبحانه بزمان حدوثها وفي زمان بقائها في ماهيتها وفي وجودها وانه سبحانه هو المتصرف فيها كيف يشاء (وثانيها) قوله ولم يتخذ ولدا فيه سبحانه أنه هو المعبود أبدا ولا يصح أن يكون غيره معبودا وورائه لذلك عنه فتكون هذه الصفة كالمؤكدة لقوله تبارك وأقوله الذي له ملك السموات والارض وهذا كالرد على النصارى (وثالثها) قوله ولم يكن له شريك في الملك والمراد أنه هو المنفرد بالالهية واذا عرف العبد ذلك انقطع خوفه ورجاؤه عن الكل ولا يبقى مشغول القلب الا بحضرته واحسانه فيه الرد على الثنوية القائلين بمعبودة النجوم والقائلين بمعبود الانوار (ورابعها) قوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا

أو العقلاء خاصة ويعرف منه حال غيرهم بدلالة النص فان من يخالق حيث لم يكن كان لا يخالق وهو من جملة العقلاء فناظمك بالجماد وأيا ما كان فذكر الاصنام في حكم عدم المماثلة والمشابهة اما بطريق الاندراج تحت الموصول العام واما بطريق الانفهام بدلالة النص

على الطريقة البرهانية لانها هي المرادة بالوصول خاصة (أفلا تذكرون) أي ألا تتذكرون فلا تتذكرون ذلك فانه لوضوحه بحيث لا يفتقر الى شيء سوى التذكر (وان تعدوا نعمت الله) تذكير اجمالي لنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها وكان الظاهر ايراده عقيبها تكملة لها على طريقة قوله تعالى وخلقه الا تعلمون واعلم فصل ما بينهما بقوله تعالى أفمن يخلق ٢٥١ كمن لا يخلق أفلا تذكرون للبادرة الى الزام الحجة والقيام الحجر الرتفصيل ما فصل من الاثنا عشر التي هي أدلة الواحدانية مع ما فيه من سر سنتقف عليه ودلالتها عليها وان لم تكن مقصورة على حيثية الخلق ضرورة ظهور دلالتها عليها من حيثية الانعام أيضا لكنها حيث كانت من مستتبعات الحيثية الاولى استغنى عن التصريح بها ثم بين حالها بطريق الاجمال أي ان تعدوا نعمته العائضة عليكم مما ذكر ومالم يذكر حصرا يعرب عنه قوله تعالى هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا (لا تحصوها) أي لا تطيقوا حصرها وضبط عددها ولو اجمالا فضلا عن القيام بشكرها وقد خرجنا عن عهدة تحقيقه في سورة ابراهيم بفضل الله سبحانه (ان الله لغفور) حيث يستر ما فرط منكم من كفرانها والاخلال بالقيام بحقوقها ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك (رحيم) حيث يفيضها عليكم مع استحقاقكم للقطع والحرمان عما تأتون وتذرون من أصناف الكفران التي من جملتها عدم الفرق بين الخالق وغيره وكل من ذلك نعمة وايلاء نعمة فالجملة تعليل للحكم بعدم الاحصاء وتقديم وصف المغفرة على نعت الرحمة لتقدم التخلية على التحلية (والله يعلم ما تسرون) تضمرونه من العقائد والاعمال (وما تعلنون) أي تظهرونه منها مراعاة للفواصل أي يستوي بالنسبة الى علمه المحيط سركم وعلنكم وفيه من الوعيد والدلالة

وفيه سؤالات (الاول) هل في قوله وخلق كل شيء دلالة على أنه سبحانه خالق لاعمال العباد (والجواب) نعم من وجهين (الاول) ان قوله وخلق كل شيء يتناول جميع الاشياء فيتناول أفعال العباد (والثاني) وهو أنه تعالى بعد ان نفى الشريك ذكر ذلك والتقدير أنه سبحانه لما نفى الشريك كان قائلا يقول ههنا أقوام يعترفون بنفي الشركاء والانداد ومع ذلك يقولون انهم يخلقون أفعال أنفسهم فذكر الله تعالى هذه الآية لتكون معينة في الرد عليهم قال القاضي الآية لا تدل عليه لوجوه (أحدها) أنه سبحانه صرح بكون العبد خالقا في قوله واذ تخلق من الطين كهيئة الطير وقال فتبارك الله أحسن الخالقين (وثانيها) أنه سبحانه تمدح بذلك فلا يجوز أن يريد به خلق الفساد (وثالثها) انه سبحانه تمدح بأنه قدره تقديرا ولا يجوز أن يريد به الا الحسن والحكمة دون غيره فثبت بهذه الوجوه انه لا بد من التأويل ولو دلت الآية بظاهرها عليه فكيف ولا دلالة فيها البتة لان الخلق عبارة عن التقدير وهو لا يتناول الا ما يظهر فيه التقدير وذلك انما يظهر في الاجسام لا في الاعراض * والجواب أما قوله واذ تخلق وقوله أحسن الخالقين فهما معارضان بقوله الله خالق كل شيء وبقوله هل من خالق غير الله وأما قوله لا يجوز التمدح بخلق الفساد فلم لا يجوز أن يقع التمدح به نظرا الى القدرة والى أن صفة الايجاد من العدم والاعدام من الوجود ليست الا الله وأما قوله الخلق لا يتناول الا الاجسام فنقول لو كان كذلك لكان قوله خالق كل شيء حطا لانه يقتضي اضافة الخلق الى جميع الاشياء مع أنه لا يصح في العقل اضافته اليها (السؤال الثاني) في الخلق معنى التقدير فقوله وخلق كل شيء فقدره تقديرا معناه وقدر كل شيء فقدره تقديرا (والجواب) المعنى أحدث كل شيء احداثا يراعى فيه التقدير والتسوية فقدره تقديرا وهيأه لما يصلح له مثاله أنه خلق الانسان على هذا الشكل المتدرج المستوي الذي تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في باب الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد طاهيه على الجملة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير فقدره لامرها ومصلحتها مطابقا لما قدر غير متخلف عنه (السؤال الثالث) هل في قوله فقدره تقديرا دلالة على مذهبكم (الجواب) نعم وذلك من وجوه (أحدها) أن التقدير في حقنا يرجع الى الظن والحسبان أما في حقه سبحانه فلا معنى له الا العلم به والاخبار عنه وذلك متفق عليه بيننا وبين المعتزلة فلما علم في الشيء الفلاني انه لا يقع فلو وقع ذلك الشيء لزم انقلاب علمه جهلا وانقلاب خبره الصدق كذبا وذلك محال والمفضي الى المحال محال فاذن وقوع ذلك الشيء محال والمحال غير مراد فذلك الشيء غير مراد وانما مأمور به فثبت أن الامر والارادة لا يتلازمان وظهر أن السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه (وثانيها) أنه عند حصول القدرة والداعية الجازمة ان وجب الفعل كان فعل العبد واجبا بحسب فعل الله تعالى وحينئذ يعود قول المعتزلة وان لم يجب فان استغنى عن المرجح فقد وقع الممكن لا عن مرجح وتجويزه يسد باب اثبات الصانع وان لم يستغن عن المرجح فالكلام يعود في ذلك المرجح ولا يقطع الاعتد الانتهاء الى واجب الوجود (وثالثها) ان فعل العبد لو وقع بقدرته لما وقع الا الشيء الذي أراد تكوينه وايجاده لكن الانسان لا يريد الا العلم والحق فلا يحصل له الا الجهل والباطل فلو كان الامر بقدرته لما كان كذلك فان قيل انما كان لانه اعتقد شبهة أوجبت له ذلك الجهل قلنا ان اعتقد تلك الشبهة لشبهة أخرى لزم التسلسل وهو محال فلا بد من الانتهاء الى جهل أول ووقع في قلب الانسان لا بسبب جهل سابق بل الانسان أحدثه ابتداء من غير موجب وذلك محال لان الانسان قط لا يرضى لنفسه بالجهل ولا يحاول تحصيل الجهل لنفسه بل لا يحاول الا العلم فوجب أن لا يحصل له الا ما قصده وأراده حيث لم يكن كذلك علمنا أن الكل بقضاء الله وقدره فاذن وهو المراد

على اختصاصه بحالة بدون الأولية ولا يخفى وتقديم الضر على العلم لما ذكرنا في سورة البقرة وسورة هود من تحقيق المساواة بين علم المتعلقين بهما على أبلغ وجه وكان علمه تعالى بالمرأقدم منه بالعلم أو لأن كل شئ يعلم فهو قبل ذلك مضمر في القلب فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية ٣٥٢ (والذين يدعون) شروع في تحقيق كون الأصنام بمعزل من استحقاق العبادة

من قوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا ﴿قوله تعالى﴾ ﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيأ وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى لما وصف نفسه بصفات الجلال والعزة والعلو أردف ذلك بتزييف مذهب عبدة الأوثان وبين نقصانها من وجوه (أحدها) أنها ليست خالقة للأشياء والإله يجب أن يكون قادرا على الخلق والإيجاد (وثانيها) أنها مخلوقة والمخلوق محتاج والإله يجب أن يكون غنيا (وثالثها) أنها لا تملك لأنفسها ضرا ولا نفعا وهو من كان كذلك فهو لا يملك لغيره أيضا نفعا وهو من كان كذلك دلالة واضحة في عبادته (ورابعها) أنها لا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا أي لا تقدر على الإحياء والإماتة في زمان التكليف وثالثا في زمان المجازاة وهو من كان كذلك كيف يسمى إلها وكيف يحسن عبادته مع ان حق من يحق له العبادة أن ينعم بهذه النعم المخصوصة ﴿وهيهنا سؤالات﴾ (الأول) قوله واتخذوا من دونه آلهة هل يختص بعبدة الأوثان أو يدخل فيه النصارى وعبدة الكواكب وعبدة الملائكة (والجواب) قال القاضي بعيد أن يدخل فيه النصارى لأنهم لم يتخذوا من دون الله آلهة على الجمع بل الأقرب أن المراد به عباد الأصنام ويجوز أن يدخل فيه من عبد الملائكة لأن لمعبودهم كثرة ولقائل أن يقول قوله واتخذوا صيغة جمع وقوله آلهة جمع والجمع إذا قوبل بالجمع يقابل الفرد بالفرد فلم يكن معبود النصارى واحدا فلا يدخل في دخوله تحت هذا اللفظ ﴿السؤال الثاني﴾ احتج بعض أصحابنا بقوله واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيأ وهم يخلقون على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى فقال ان الله تعالى عاب هؤلاء الكفار من حيث عبدوا ما لا يخلق شيأ وذلك يدل على ان من خلق يستحق أن يعبد فلو كان العبد خالقا لكان معبودا لها (أجاب) الكعبي عنه بأنا لا نطلق اسم الخالق الا على الله تعالى وقال بعض أصحابنا في الخلق انه الاحداث لا العلاج وفكر وتعب ولا يكون ذلك الا لله تعالى ثم قال وقد قال تعالى ألهم أرجل يمشون بها في وصف الأصنام أفيدل ذلك على أن كل من له رجل يستحق أن يعبد فاذا قالوا لا فيل فكذلك ما ذكرتم وقد قال تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين هذا كلامه الكعبي والجواب قوله لا يطلق اسم الخالق على العبد قلنا بل يجب ذلك لان الخلق في اللغة هو التقدير والتقدير يرجع الى الظن والحسبان فوجب أن يكون اسم الخالق حقيقة في العبد مجازا في الله تعالى فكيف يمكنكم منع اطلاق لفظ الخالق على العبد أما قوله تعالى ألهم أرجل يمشون بها فالمراد سلب العجز عنها وقع عليهم بالعجز فلا جرم أن كل من تحقق العجز في حقه من بعض الوجوه لم يحسن عبادته وأما قوله تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين فقد تقدم الكلام عليه واعلم أن هذه الآية لا يقوى استدلال أصحابنا بها لاحتمال أن العبد لا يحصل الا بمجموع أمرين أحدهما أنهم ليسوا بخالقين والثاني أنهم مخلوقون والعبد وان كان خالقا الا أنه مخلوق فلزم أن لا يكون الها معبودا ﴿السؤال الثالث﴾ هل تدل هذه الآية على البعث ﴿الجواب﴾ نعم لانه تعالى ذكر المشروع منها أن المعبود يجب أن يكون قادرا على ايصال الثواب الى المطيعين والعقاب الى العصاة فمن لا يكون كذلك وجب أن لا يصلح للالهية ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤا ظلما وزورا وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض انه كان غفورا رحيما وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا﴾ اعلم أنه سبحانه تكلم أولا في التوحيد وثانيا في الرد على عبدة الأوثان وثالثا في هذه الآية تكلم في مسئلة النبوة وحكى

وتوضيحه بحيث لا يبقى فيه شائبة ريب بتعديد أوصافها وأحوالها المنافية لذلك منافاة ظاهرة وتلك الاحوال وان كانت غنية عن البيان لكنها شرحت للتنبيه على كمال حماقة عبدتها وأنهم لا يعرفون ذلك الا بالتصريح أي والآلهة الذين يعبدهم الكفار (من دون الله) سبحانه وقرئ على صيغة المبني للمفعول وعلى الخطاب (لا يخلقون شيأ) من الاشياء أصلا أي ليس من شأنهم ذلك ولما لم يكن بين نفي الخالقية وبين المخلوقية تلازم بحسب المفهوم وان تلازما في الصدق أثبت لهم ذلك صريحا فقيل (وهم يخلقون) أي شأنهم ومقتضى ذاتهم المخلوقية لانها ذوات ممكنة مفتقرة في ماهياتها وجوداتها الى الموجد وبناء الفعل للمفعول لتحقيق التضاد والمقابلة بين ما أثبت لهم وبين ما نفي عنهم من وصفي المخلوقية والخالقية وللايذان بعدم الاحتقار الى بيان الفاعل لظهور اختصاص الفعل بفاعله

ـ ل بـ لا له ويجوز أن يجعل الخلق الثاني عبارة عن النحت والتصوير رعاية للمشاكلة بينه وبين الاول وعبارة في كونهم ممنوعين لعبدتهم وأعجز منهم وأيضا ذكر كونهم حيث أشركوا بخلقهم وأما جعل الاول أيضا عبارة عن ذلك كما فعل فلا يوافق ما ذكره في مثل ذلك الخلق ليست مما يدور عليه استحقاق العبادة أصلا وأما أن اثبات المخلوقية لهم غير مستدع الى

الحياة عنهم لما أن بعض المخلوقين أحياء صح سلب ذلك فقيل (أموات) وهو خبر ثان للوصول لأن الضمير كما قيل أو خبر مبتدأ محذوف وحيث كان بعض الأموات مما يعتبر به الحياة مآلا أو حقا كأجساد الحيوان والنطف التي ينشئ الله تعالى حيوانا احترز عن ذلك فقيل (غير أحياء) أي لا يعتبر بها الحياة أصلا فهي أموات على الاطلاق وأما قوله تعالى ٣٥٣ (وما يشعرون أيان يبعثون) أي ما يشعر أولئك الآلهة أيان يبعث عبدتهم فعلى طريقة التهكم بهم لان شعور الجماد بالامور الظاهرة بديهي الاستحالة عند كل أحد فكيف بما لا يعلمه الا العليم الخبير وفيه ايذان بأن البعث من لوازم التكليف وأن معرفة وقته مما لا يليق منه في الالوهية (الهكم اله واحد) لا يشاركه شئ في شئ وهو تصريح بالمدعى وتعريض للنتيجة عقب اقامة الحجة (فالذين لا يؤمنون بالآخرة) وأحوالها التي من جملتها ما ذكر من البعث وما يتبعه من الجزاء المستلزم لعقوبتهم وذلهم (قلوبهم منكرة) للوحدانية جاحدة لها أو للآيات الدالة عليها (وهم مستكبرون) عن الاعتراف بها أو عن الآيات الدالة عليها والفاء للايذان بأن اصرارهم على الانكار واستمرارهم على الاستكبار وقع موقع النتيجة للدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة والمعنى أنه قد ثبت بما قررمن الحجج والبينات اختصاص الالهية به سبحانه فكان من سبحانه شبههم في انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (الشبهة الاولى) قولهم ان هذا الا ان افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ونظير قوله تعالى اعلم يعلمه بشر وأعلم أنه يحتمل أن يريدوا به أنه كذب في نفسه ويحتمل أن يريدوا به أنه كذب في اسناده الى الله تعالى ثم وجهه محتمان (الاول) قال أبو مسلم الافتراء افتعال من فريت وقد يقال في تقدير الادم فريت الاديم فاذا أريد قطع الافساد قيل أفريت واختريت وخلقت واختلقت ويقال في ضم شئ الى شئ افتريت عليه (الثاني) قال الكلبي ومقاتل نزلت في النضر بن الحرث فهو الذي قال هذا القول وأعانه عليه قوم آخرون يعني عداسا مولى حويطب بن عبد العزى ويسارا غلام عامر بن الحضرمي وجبرا مولى عامر وهؤلاء الثلاثة كانوا من أهل الكتاب وكانوا يقرؤن التوراة ويحدثون أحاديث منها فلما أسلموا وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر بهم سمع من أجل ذلك قال النضر ما قال واعلم أن الله تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله فقد جاؤا ظلما وزورا وفيه احتمالان (الاول) أن هذا القدر انما يكفي جوابا عن الشبهة المذكورة لانه قد علم كل عاقل أنه عليه السلام تحداهم بالقرآن وهم النهاية في الفصاحة وقد بلغوا في الحرص على ابطال أمره كل غاية حتى آخر جهم ذلك الى ما وصفوه به في هذه الآيات فلو أمكنهم أن يعارضوه لفعلوا ولكان ذلك أقرب الى أن يبلغوا مرادهم فيه مما أوردوه في هذه الآية وغيرها ولو استعان محمد عليه السلام في ذلك بغيره لامكنهم أيضا أن يستعينوا بغيرهم لان محمدا صلى الله عليه وسلم كأولئك المنكرين في معرفة اللغة وفي الامكنة من الاستعانة فلما لم يفعلوا ذلك علمنا أنه هذه علم أن القرآن قد بلغ النهاية في الفصاحة وانتهى الى حد الاعجاز وما تقدم هذه الدلالة المرات وكرات في القرآن وظهر بسببها سقوط هذا السؤال ظهر أن اعادة هذا السؤال بعد تقدم هذه الادلة الواضحة لا يكون الا للتمادي في الجهل والعناد فلذلك اكتفى الله في الجواب بقوله فقد جاؤا ظلما وزورا (البحث الثاني) قال الكسائي قوله تعالى فقد جاؤا ظلما وزورا أي أتوا ظلما وكذبا وهو كقوله لقد جئتم شيئا إدا فانتصب بوقوع المجيء عليه وقال الزجاج انتصب بنزع الخافض أي جاؤا بالظلم والزور (البحث الثالث) ان الله تعالى وصف كلامهم بانه ظلم وبأنه زور أما انه ظلم فلأنهم نسبوا هذا الفعل القبيح الى من كان مبرأ عنه فقد وضعوا الشئ في غير موضعه وذلك هو الظلم وأما الزور فلانهم كذبوا فيه وقال أبو مسلم الظلم تكذيبهم الرسول والرد عليه والزور كذبهم عليه (الشبهة الثانية لهم) قوله تعالى وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا وفيه أبحاث (البحث الاول) الاساطير جمع أسطار وأسطورة كأحدوثة وأحاديث قال الكلبي يعني عامرا ويسارا وجبرا وسمي اكتتب ههنا أمر أن يكتب له كما يقال احتجم واقتصد اذا أمر بذلك فهي تملى عليه أي تقرأ عليه والمعنى أنها كتبت له وهو أمي فهي تملى عليه من كتابه ليحفظها لان صورة الالقاء على الحافظ كصورة الالقاء على الكاتب أما قوله بكرة وأصيلا قال الفراء العرب ما تملي عليه بكرة يقرؤه عليك بكرة عشية وما تملي عليه عشية يقرؤه عليكم بكرة (البحث الثاني) قال الحسن قوله فهي تملى عليه بكرة وأصيلا كلام الله ذكره جوابا عن قولهم كأنه تعالى قال ان هذه الآيات تملى عليه بالوحي لا بهذا الطريق فكيف ينسب الى أنه أساطير الاولين وأما جمهور المفسرين فقد اتفقوا على أن ذلك من كلام القوم وأرادوا به أن أهل الكتاب أملوا عليه في هذه الاوقات هذه الاشياء ولا شك أن هذا القول أقرب لوجوه (أحدها) شدة تعلق هذا الكلام بما قبله فكأنهم قالوا اكتتب أساطير الاولين فهي تملى عليه (وثانيها) أن هذا هو المراد بقولهم وأعانه عليه قوم آخرون (وثالثها) أنه تعالى أجاب بعد ذلك عن كلامهم بقوله قل أنزله الذي يعلم السر قال صاحب

(٤٥ - خطيب س)

نتيجة ذلك اصرارهم على ما ذكر من الانكار والاستكبار وناهيك بهذا الحكم المذكور على الموصول للاشعار بكونه معللا بما في حيز الصلة فان الكفر بالآخرة وبما فيها من البعث والجزاء المتنوع الى الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية يؤدي الى قصر النظر على العاجل والاعراض عن الدلائل الموجبة للايمان والعقوبة الموجب لانكارها وانكارها وداها والاستكبار

عن اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقه وأما الايمان بها وبما فيها فيدعو لا محالة الى التأمل فى الآيات والدلائل رغبة ورهبة فيورث ذلك يقينا بالوحدانية وخضوعا لامر الله تعالى (لا جرم) أى حقا وقد مر تحقيقه فى سورة هود (ان الله يعلم ما يسرون) من قلوبهم (وما يعلنون) من استكبارهم وقولهم ٣٥٤ للقرآن أساطير الاولين وغير ذلك من قبائحهم فيجازيهم بذلك (انه لا يحب المستكبرين) تعليل لما تضمنه الكلام من الوعيد أى لا يحب المستكبرين عن التوحيد أو عن الآيات الدالة عليها أو لا يحب جنس المستكبرين فكيف بمن استكبر عما ذكر (واذا قيل لهم) أى لاوائل المنكرين المستكبرين وهو بيان لاضلالهم غب بيان ضلالهم (ماذا انزل ربكم) القائل الوافدون عليهم والمسلمون أو بعض منهم على طريق التهكم وماذا منصوب بما بعده أو مرفوع أى أى شئ انزل أو ما الذى انزله (قالوا أساطير الاولين) أى ما تدعون نزوله أو المنزل ـــــ ربى السخرية أحاديث الاولين وأباطيلهم وليس من الاوّال فى شئ قيل هؤلاء القائلون هم المقتسمون الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سؤال وفود الحاج عما نزل عليه عليه السلام (ليحملوا) متعلق بقالوا أى قالوا ما قالوا ليحملوا (أوزارهم) الخاصة بهم وهى أوزار ضلالهم (كاملة) لم يكفر منها شئ بكبة اصابتهم فى الدنيا كما يكفر بها أوزار المؤمنين (يوم القيامة) ظرف ليحملوا (ومن أوزار الذين يضلونهم) وبعض أوزار من ضل باضلالهم وهو وزر الاضلال لانهما شريكان هذا يضله وهذا يطاوعه فيتحاملان الوزر واللام للتعليل فى نفس الامر من غير أن يكون غرضا وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرار الاضلال او باعتبار حال

الامثال

الكشاف وقول الحسن انما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذى فى معنى الانكار وحق الحسن أن يقف على الاولين وأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض انه كان غفورا رحيما وفيه أبحاث (البحث الاول) فى بيان ان هذا كيف يصلح أن يكون جوابا عن تلك الشبهة وتقريره ما قدمنا أنه عليه السلام تحداهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها ولو كان عليه السلام أتى بالقرآن بان استعان باحد لتكان من الواجب عليهم أيضا أن يستعينوا باحد فيأتوا بمثل هذا القرآن فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحى الله وكلامه فلهذا قال قل أنزله الذى يعلم السر وذلك لان القادر على تركيب الالفاظ المفيدة لا بد وأن يكون عالما بكل المعلومات ظاهرها وخافيها من وجوه (أحدها) أن مثل هذه الفصاحة لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات (وثانيها) أن القرآن مشتمل على الاخبار عن الغيوب وذلك لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات (وثالثها) أن القرآن مبرأ عن النقص وذلك لا يتأتى الا من العالم بكل ما قال تعالى ولو كان من عند غير الله لوجد فيه اختلافا كثيرا (ورابعها) اشتماله على الاحكام التى هى مقتضية لصالح العالم ونظام العباد وذلك لا يكون الا من العالم بكل المعلومات (وخامسها) اشتماله على أنواع العلوم وذلك لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات فثبت بدلائل القرآن من هذه الوجوه على أنه ليس الا كلام العالم بكل المعلومات لا جرم اكتفى فى جواب شبههم بقوله قل أنزله الذى يعلم السر (البحث الثانى) اختلفوا فى المراد بالسر فهو من قال المعنى أن العالم بكل سرفى السموات والارض هو الذى يمكنه انزال مثل هذا الكتاب وقال أبو مسلم المعنى انه أنزله من يعلم السر فلى كذب عليه لانتقم منه لقوله تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين وقال آخرون المعنى انه يعلم كل سر خفى فى السموات والارض ومن جملته ما تسرونه انتم من التكذيب لرسوله مع علمكم بأن ما يقوله حق ضرورة وكذلك باطن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبراءته مما تتهمونه به وهو سبحانه يجازيكم ويجازيه على ما علم منكم وعلم منه (البحث الثالث) اعادة الغفور الرحيم فى هذا الموضع لوجهين (الاول) قال أبو مسلم المعنى انه انما أنزله لاجل الانذار فوجب أن يكون غفورا رحيما غير مستعجل فى العقوبة (الثانى) أنه نبه على أنهم استوجبوا بمكايدتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبا ولكن صرف ذلك عنهم كونه غفورا رحيما ولا يجعل (الشبهة الثالثة) وهى فى نهاية الركاكة وذكر لها صفات خمسة فنرجع اليها كلها بالمسألة (احداها) قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام (وثانيتها) قولهم ويمشى فى الاسواق يعنى انه لو كان كذلك فمن أين له الفضل علينا وهو مثلنا فى هذه الامور (وثالثتها) قولهم لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا يصدقه أو يشهد له ويرد على من خالفه (ورابعتها) قولهم أو يلقى اليه كنز أى من السماء فينفقه فلا يحتاج الى التردد لطلب المعاش (وخامستها) قولهم أو تكون له جنة يأكل منها فقرأ حمزة والكسائى نأكل منها بالنون وقرأ الباقون بالياء والمعنى ان لم يكن لك كنز فلا أقل من أن تكون له واحد من البساتين فيكون لك بستان تأكل منه (وسادستها) قولهم ان تتبعون الا رجلا مسحورا وقد تقدمت هذه القصة فى آخر سورة بنى اسرائيل فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه (أحدها) قوله انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا وفيه أبحاث (الاول) أن هذا كيف يصلح أن يكون جوابا عن تلك الشبهة وبيانه أن الذى يقيم الرسول به عن غيره هو المعجز وهذه الاشياء التى ذكروها لا يقدح شئ منها فى المعجزة فلا يكون شئ منها قادحا فى النبوة فكأنه تعالى قال انظر كيف اشتغل القوم بضرب هذه

قولهم لا حال الحمل (بغير علم) حال من الفاعل أي يضلونهم غير عالمين بان ما يدعون اليه طريق الضلال وأما حمله على معنى غير عالمين بانهم يحملون يوم القيامة أوزارا الضلال والاضلال على أن يكون العامل في الحال قالوا وتأييده بما سيأتي من قوله تعالى وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون من حيث ان حمل ما ذكر من أوزار الضلال والاضلال من قبيل اتيان ٣٠٥ العذاب من حيث لا يشعرون فيرده أن الحمل المذكور انما هو يوم القيامة والعذاب المذكور انما هو العذاب الدنيوي كما سنقف عليه أو حال من المفعول أي يضلون من لا يعلم انهم ضلال وفائدة التقييد بها الاشعار بان مكرهم لا يروج عند ذي لب وانما يتمشى مع الاغبياء والجهلة والتنبيه على أن جهلهم ذلك لا يكون عذرا اذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين الحق المتبع بالاتباع وبين الباطل (ألا ساء ما يزرون) أي بئس شيئا يزرونه ما ذكر (قد مكر الذين من قبلهم) وعيد لهم برجوع غائلة مكرهم الى أنفسهم كما أتى من قبلهم من الامم الخالية الذين أصابهم ما أصابهم من العذاب العاجل أي قد سووا وأمضوا بات لهم مكروا باهل رسل الله تعالى (فأتى الله) أي أمره وحكمه (بنيانهم) وقرئ بيتهم وبيوتهم (من القواعد) وهي الاساطين التي تعمده أو أساسه فضعضعت أركانه (فخر عليهم السقف من فوقهم) أي سقط عليهم سقف بنيانهم اذ لا يتصور له القيام بعد تهدم القواعد شبهت حال أولئك الماكرين في تسويتهم المكايد والمصوبات التي أرادوا بها الايقاع برسل الله سبحانه وفي ابطاله تعالى ذلك الحيل والمكايد وجعله اياها أسبابا لهلاكهم بحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فأتى ذلك من قبل أساسه بان ضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا وقرئ فخر عليهم السقف بضمتين (وأتاهم العذاب) أي الهلاك

الامثال التي لا فائدة في مثلها الا أنهم لما سلطوا وأرادوا القدح في نبوتك لم يجدوا الى القدح فيه سبيلا البتة اذا الطعن عليه انما يكون بما يقدح في المعجزات التي ادعاها لاجل الجنس من القول وفيه وجه آخر وهو أنهم لما ضلوا لم يبق فيهم استطاعة قبول الحق وهذا انما يصح على مذهبنا وتقريره بالعقل ظاهر وذلك لان الانسان اما أن يكون مستوي الداعي الى الحق والباطل واما أن يكون داعيته الى أحدهما أرجح من داعيته الى الثاني فان كان الاول فحال الاستواء يمتنع الرجحان فيمتنع الفعل وان كان الثاني فحال رجحان أحد الطرفين يكون حصول الطرف الآخر ممتنعا فثبت أن حال رجحان الضلالة في قلبه يستحيل منه قبول الحق وما كان محالا لم يكن عليه قدرة فثبت أنهم لما ضلوا لما كانوا مستطيعين ﴿قوله تعالى﴾ (تبارك الذي ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا) اعلم أن هذا هو الجواب الثاني عن تلك الشبهة فقوله تبارك الذي ان شاء جعل لك خيرا من الذي ذكروه من نعم الدنيا كالكنوز والجنة وقد مر ذلك الخير بقوله جنات تجري من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا نبه بذلك سبحانه على أنه قادر على أن يعطي الرسول كل ما ذكروه ولكنه تعالى يدبر عباده بحسب المصالح أو على وفق المشيئة ولا اعتراض لاحد عليه في شيء من أفعاله فيفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم ويسد عليه أبواب الدنيا وفي حق الآخر بالعكس وماذا لك الا ان فعال لما يريد وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس خير من ذلك ما عيروك به قالوا لانهم عيروك بفقد الجنة الواحدة وهو سبحانه قادر على أن يعطيك جنات كثيرة وقال في رواية عكرمة خيرا من ذلك أي من المشي في الاسواق وابتغاء المعاش ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله ان شاء معناه أنه سبحانه قادر على ذلك لا أنه تعالى شاك لان الشك لا يجوز على الله تعالى وقال قوم ان ههنا يعني اذا أي قد جعلنا ذلك في الآخرة جنات وبينا ذلك قصورا واقعا أدخل ان تنبيها للعباد على أنه لا ينال ذلك الا برحمته وأنه معلق على محض مشيئته وأنه ليس لاحد من العباد على الله حق لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿المسئلة الثالثة﴾ القصور جماعة قصر وهو المكان الرفيع ويحتمل أن يكون الكل جنة قصرا فيكون مسكنا ومتنزها ولا يجوز أن يكون القصور مجموعة والجنات مجموعة وقال مجاهد ان شاء جعل لك جنات في الآخرة وقصورا في الدنيا ﴿المسئلة الرابعة﴾ اختلف القراء في قوله ويجعل فرفع ابن كثير وابن عامر وعاصم اللام وجزمه الآخرون فمن جزم فلان المعنى ان شاء يجعل لك جنات ويجعل لك قصورا ومن رفع فعلى الاستئناف والمعنى سيجعل لك قصورا هذا قول الزجاج قال الواحدي وبين القراءتين فرق في المعنى فمن جزم فالمعنى ان شاء يجعل لك قصورا في الدنيا ولا يحسن الوقوف على الانهار ومن رفع حسن له الوقوف على الانهار واستأنف ويجعل أي ويجعل لك قصورا في الآخرة وفي مصحف أبي وابن مسعود تبارك الذي ان شاء يجعل ﴿المسئلة الخامسة﴾ عن طاوس عن ابن عباس قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وجبريل عليه السلام عنده قال جبريل عليه السلام هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربه في زيارتك فلم يلبث الا قليلا حتى جاء الملك وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان الله يخيرك بين ان يعطيك مفاتيح كل شيء لم يعطها أحدا قبلك ولا يعطيه أحدا بعدك من غير ان ينقص مما ذخر لك شيأ فقال عليه السلام بل يجمعها جميعا لي في الآخرة فنزل قوله تبارك الذي ان شاء الآية وعن ابن عباس قال عليه السلام عرض علي جبريل بطحاء مكة ذهبا فقلت بل شبعة وثلاث جوعات وذلك أكثر لذكري ومسئلتي

والدمار (من حيث لا يشعرون) بأتيانه منه بل يتوقعون اتيان مقابله مما يريدون ويشتهون والمعنى ان هؤلاء الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطير الاولين سيأتيهم من العذاب مثل ما أتاهم ومم لا يحتسبون والمراد به العذاب العاجل لقوله سبحانه (ثم يوم القيامة يخزيهم) فانه عطف ٣٥٦ على مقدر ينسحب عليه الكلام أى هذا الذى فهم من التمثيل من عذاب هؤلاء أو ماهو أعم منه ومما (رمن عذاب أولئك جزاؤهم فى الدنيا ويوم القيامة يخزيهم أى يذلهم بعذاب الخزى على رؤس الاشهاد واصل الخزى ذل يستحيا منه وثم للايماء الى ما بين الجزاءين من التفاوت مع ما يدل عليه من التراخى الزمانى وتغيير السبك بتقديم الظرف ليس لقصر الخزى على يوم القيامة كما هو المتبادر من تقديم الظرف على الفعل بل لان الاخبار بجزائهم فى الدنيا مؤذن بأن لهم جزاء آخر ويا فتبقى النفس مترقبة الى وردوه سائلة عنه بأنه ماذا مع تيقنها بأنه فى الآخرة فسيق الكلام على وجه يؤذن بأن المقصود بالذكر اخزاؤهم لا كونه يوم القيامة والضمير اما للمفترين فى حق القرآن الكريم أو لهم ولمن مثلوا بهم من الماكرين كما أشير اليه وتخصيصه بهم يأباه السياق والسباق كما ستقف عليه (ويقول) لهم تفضيحا وتوبيخا فهو بيان للاخزاء (أين شركائى) أضافهم اليه سبحانه وتعالى اضافة تهكمية فيه توبيخ مع الاستهزاء بهم (الذين كنتم تشاقون فيهم) أى تخاصمون الانبياء والمؤمنين فى شأنهم بأنهم شركاء محقين بينكم وبطلانها والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة أو المدافعة على طريقة الاستهزاء والتبكيت والاستفسار عن مكانهم لا يوجب غيبتهم حقيقة حتى يعتذر بأنه يجوز أن يحال بينهم وبين

لربى وفى رواية صفوان بن سليم عن عبد الوهاب قال عليه السلام أشبع يوما وأجوع ثلاثا فاحمدك اذا شبعت وأتضرع اليك اذا جعت وعن الضحاك لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فنزل جبريل عليه السلام معزيا له وقال ان الله يقرئك السلام ويقول وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام الآية قال فبينما جبريل عليه السلام والنبى صلى الله عليه وسلم يتحدثان اذ فتح باب من أبواب السماء لم يكن فتح قبل ذلك ثم قال أبشر يا محمد هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضا من ربك فسلم عليه وقال ان ربك يخيرك بين أن تكون نبيا ملكا وبين أن تكون نبيا عبدا ومعه سفط من نور يتلألأ ثم قال هذه مفاتيح خزائن الدنيا فاقبضها من غير ان ينقصك الله مما أعد لك فى الآخرة جناح بعوضة فنظر النبى صلى الله عليه وسلم الى جبريل كالمستشير فأومأ بيده أن تواضع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نبيا عبدا قال فكان عليه السلام بعد ذلك لم يأكل متكئا حتى فارق الدنيا أما قوله تعالى بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا فهذا جواب ثالث عن تلك الشبهة كأنه سبحانه قال ليس ما تعلقوا به شبهة علمية فى نفس المسئلة بل الذى حملهم على تكذيبك تكذيبهم بالساعة استثقالا للاستعداد لها ويحتمل أن يكون المعنى أنهم يكذبون بالساعة فلا يرجون ثوابا ولا عقابا ولا يتحملون كلفة النظر والفكر فلذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلائل * ثم قال وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال أبو مسلم وأعتدنا أى جعلناها عتيدا ومعدة لهم والسعير النار الشديدة الاستعار وعن الحسن أنه اسم من أسماء جهنم (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا على أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى أعدت للمتقين وعلى أن النار التى هى دار العقاب مخلوقة بهذه الآية وهى قوله وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا وقوله أعتدنا اخبار عن فعل وقع فى الماضى فدلت الآية على أن دار العقاب مخلوقة قال الجبائى يحتمل وأعتدنا النار فى الدنيا وبها تعذب الكفار والفساق فى قبورهم ويحتمل نار الآخرة ويكون معنى وأعتدنا أى سنعتدها لهم كقوله ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار واعلم أن هذا السؤال فى نهاية السقوط لان المراد من السعير اما نار الدنيا واما نار الآخرة فان كان الاول فاما أن يكون المراد انه تعالى يعذبهم فى الدنيا بنار الدنيا أو يعذبهم فى الآخرة بنار الدنيا والاول باطل لانه تعالى ما عذبهم بالنار فى الدنيا والثانى ايضا باطل لانه لم يقل أحد من الامة انه تعالى يعذب الكفرة فى الآخرة بنيران الدنيا فثبت أن المراد نار الآخرة وثبت أنها معدة وحمل الآية على أن الله سيجعلها معدة ترك للظاهر من غير دليل وعلى أن الحسن قال السعير اسم من أسماء جهنم فقوله وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا صريح فى أنه تعالى أعد جهنم (المسئلة الثالثة) احتج أصحابنا بهذه الآية على ان السعيد من سعد فى بطن أمه فقالوا ان الذين أعدهم الله تعالى لهم السعير وأخبر عن ذلك وحكم به ان صاروا مؤمنين من أهل الثواب انقلب حكم الله بكونهم من أهل السعير كذبا وانقلب ذلك علمه جهلا وهذا انقلاب محال والمؤدى الى المحال محال فصيرورة أولئك مؤمنين من أهل الثواب محال فثبت أن السعيد لا ينقلب شقيا والشقى لا ينقلب سعيدا ثم انه سبحانه وتعالى وصف السعير بصفات (احداها) قوله اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) السعير مذكور ولكن جاء هنا مؤنثا لانه تعالى قال رأتهم وقال سمعوا لها وانما جاء مؤنثا على معنى النار (المسئلة الثانية) مذهب أصحابنا ان الجنة ليست شرطا فى الحياة فالنار على ما هى عليه يجوز ان يخلق الله الحياة والعقل والنطق فيها وعند المعتزلة ذلك غير جائز وهؤلاء المعتزلة ليس لهم فى هذا الباب حجة الا استقراء العادات ولو صدق ذلك لوجب التكذيب بانخراق العادات فى حق الرسل فهؤلاء

عبدتهم حينئذ لبعدها وهاهنا ساعة علقوا بها الرجاء فيها أو بأنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم غيب بل يكفي في ذلك عدم حضورهم بالعذاب الذي كانوا يزعمون أنهم متصفون به من عنوان الالهية فليس هنالك شركاء ولا أما كنها على أن قوله لبعدها ليس بسديد فانه قد تبين عندهم الامر حينئذ فرجعوا عن ذلك الزعم الباطل فكيف يتصور منهم التفوه بذلك (وقرئ ٣٥٧ بكسر النون أي تشاقوني على أن مشاقة الانبياء عليهم الصلاة والسلام ومشاقة المؤمنين لا سيما في شأن متعلق به سبحانه مشاقة له عز وجل (قال الذين أوتوا العلم) من أهل الموقف وهم الانبياء عليهم السلام والمؤمنون الذين أوتوا علما بدلائل التوحيد وكانوا يؤيدونه في الدنيا الى التوحيد فجادلوهم ويتكبرون عليهم أي يقولون قولا يغيظهم واظهارا للسماتة بهم وتقريرا لما كانوا يعظرهم به وايثارا صيغة الماضي للدلالة على تحققه وتحتم وقوعه حسبما هو المعتاد في اخباره سبحانه وتعالى كقوله ونادى أصحاب الجنة ونادى أصحاب الاعراف (ان الخزي) الفضيحة والذل والهوان (اليوم) منصوب بالخزي على رأي من يرى اعمال المصدر المصدر باللام أو بالاستقرار الظرف وفيه فصل بين العامل والمعمول بالمعطوف الا أنه مغتفر في الظروف وايراده الاشعار بأنهم كانوا قبل ذلك في عزة وشقاق (والسوء) العذاب (على الكافرين) بالله تعالى وبآياته ورسله (الذين تتوفاهم الملائكة) بتأنيث الفعل وقرئ بتذكيره وبادغام التاء في التاء والعدول الى صيغة المضارع لاستحضار صورة توفيهم اياهم لما فيها من الهول والوصول في محل الجر على أنه نعت للكافرين أو بدل منه أو في محل النصب أو الرفع على الذم وفائدته تخصيص الخزي والسوء بمن استمر كفرهم الى حين الموت دون من

قولهم متناقض بل انكار العادات لا يليق الا بأصول الفلاسفة فعلى هذا قال أصحابنا قول الله تعالى في صفة النار اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا يجب اجراؤه على الظاهر لانه لا امتناع في أن تكون النار حية رائية مغتاظة على الكفار أما المعتزلة فقد احتاجوا الى التأويل وذكروا فيه وجوها (أحدها) قالوا معنى رأتهم ظهرت لهم من قولهم دورهم تتراءى وتتناظر وقال عليه السلام ان المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما أي لا تتقابلان لما يجب على المؤمن من مجانبة الكافر والمشرك ويقال دور فلان متناظرة أي متقابلة (وثانيها) أن النار لشدة اضطرامها وغليانها صارت ترى الكفار وتطلبهم وتتغيظ عليهم (وثالثها) قال الجبائي ان الله تعالى ذكر النار وأراد الخزنة الموكلة بتعذيب أهل النار لان الرؤية تصح منهم ولا تصح من النار هو كقوله واسأل القرية أراد أهلها (المسئلة الثالثة) لقائل أن يقول التغيظ عبارة عن شدة الغضب وذلك لا يكون مسموعا فكيف قال الله تعالى سمعوا لها تغيظا وزفيرا (والجواب) عنه من وجوه (أحدها) أن التغيظ وان لم يسمع فانه قد يسمع ما يدل عليه من الصوت وهو كقوله رأيت غضب الامير على فلان اذا رأى ما يدل عليه وكذلك يقال في الحمية فكذا ههنا والمعنى سمعوا لها صوتا يشبه صوت المتغيظ وهو قول الزجاج (وثانيها) المعنى علموا أنها تتغيظ وسمعوا لها شهيقا وزفيرا وهذا قول قطرب وهو كقول الشاعر

* متقلدا سيفا ورمحا *

(وثالثها) المراد تغيظ الخزنة (المسئلة الرابعة) قال عبيد بن عمير ان جهنم لتزفر زفرة لا يبقى أحد الا ونعد فرائصه حتى ان ابراهيم عليه السلام يجثو على ركبتيه ويقول نفسي نفسي (المسئلة الثانية للسعير) قوله تعالى واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا واعلم أن الله سبحانه لما وصف حال الكفار حين ما يكونون بالبعد من جهنم ووصف حالهم عند ما يلقون فيها عاد يذكر منه شيئا لائقا بما استكملوا ورتبوا في الجانب الاسفل من النار (المسئلة الاولى) في كيفية قراءة ان التشديد والتخفيف وهي قراءة ابن كثير (المسئلة الثانية) نقل في تفسير الضيق أمور قال قتادة ذكر لنا عبد الله بن عمر قال ان جهنم لتضيق على الكافر كضيق الزج على الرمح وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال والذي نفسي بيده انهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط قال الكلبي الأسفلون يرفعهم اللهيب والاعلون يخفضهم الداخلون فيزدحمون في تلك الابواب الضيقة قال صاحب الكشاف المكروب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والارض وجاء في الاحاديث ان لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا ولقد جمع الله على أهل النار أنواع البلاء حيث ضم الى العذاب الشديد الضيق (المسئلة الثالثة) قالوا في تفسير قوله تعالى مقرنين في الاصفاد ان أهل النار مع ما هم فيه من العذاب الشديد والضيق الشديد يكونون مقرنين في السلاسل قرنت أيديهم الى أعناقهم وقيل يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الاصفاد ثم انه سبحانه حكى عن أهل النار أنهم حين ما يشاهدون هذا النوع من العقاب الشديد دعوا ثبورا والثبور الهلاك ودعاؤهم أن يقولوا واثبورا أي يقولوا يا ثبور هذا حينك وزمانك وروى أنس مرفوعا أول من يكسى حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه ذريته وهو يقول يا ثبوراه وينادون يا ثبورهم حتى يردد النار أما قوله لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا أي يقال لهم ذلك وهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك وان لم يكن ثم قول ومعنى وادعوا ثبورا كثيرا انكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحدا انما هو ثبور كثير اما لان العذاب أنواع وألوان لكل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته أولانهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها أولان ذلك العذاب دائم خالص عن السرور فلهم في كل وقت من الاوقات التي لا نهاية لها ثبور أولانهم ربما يجدون بسبب ذلك القول نوعا من الخفة فان المعذب اذا صاح

آمن منهم ولوفى آخر عمره أى على الكافرين المستمرين على الكفر الى أن يتوفاهم الملائكة (ظالمى أنفسهم) أى حال كونهم مستمرين على الكفر فانه ظلم منهم لانفسهم وأى ظلم حيث عرضوها للعذاب المخلد وبدلوا فطرة الله تبدلا (قالوا ألم تكن) أى قيلة ون والعدول الى صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع ٣٥٨ وهو عطف على قوله تعالى وبقول أين شركائى وبينهما جملة اعتراضية جىء بها

تحقيقا لما سيأتى بهم من الخزى على رؤس الاشهاد أى فيسألون ويتركون المشافهة وينزلون عما كانوا عليه فى الدنيا من الكبر وشدة الشكيمة قائلين (ما كنا نعمل) فى الدنيا (من سوء) أى من شرك قالوه منكرين لصدوره عنهم كقوله والله ربنا ما كنا مشركين واغا عبروا عنه بالسوء اعترافا بكونه سيئا لا انكارا لكونه كذلك مع الاعتراف بصدوره عنهم ويجوز أن يكون تفسيرا للمسلم على أن يكون المراد به الكلام الدال عليه وعلى التقديرين فهو جواب عن قوله سبحانه أين شركائى كما فى سورة الانعام لا عن قول أولى العلم ادعاء لعدم استحقاقهم لما ادعوه من الخزى والسوء (بلى) ردعليهم من قبل أولى العلم وإثبات لما نفوه أى بلى كنتم تعملون ما تعملون (ان الله عليم بما كنتم تعملون) فهو يجازيكم عليه وهذا أو انه (فادخلوا أبواب جهنم) أى كل صنف بابها المعد له وقيل أبوابها أصناف عذابها فالدخول عبارة عن الملابسة والمقاساة (خالدين فيها) ان أريد بالدخول حدوثه فالحال مقدرة وان أريد مطلق الكون فيها فهى مقارنة (فلبئس مثوى المتكبرين) عن التوحيد كما قال تعالى فى قلوبهم منكرة وهم مستكبرون وذكرهم بعنوان التكبر للاشعار بغاية شناعة أثوائهم فيها والمخصوص بالذم محذوف أى جهنم وتأويل قولهم ما كنا نعمل من سوء بأنا ما كنا عاملين

ويبكى وجد بسببه نوعا من الخفة فيجرون عن ذلك ويخبرون بأن هذا الشهر يزداد كل يوم ليزداد حزنهم وغمهم نعوذ بالله منه قال الكلبى نزل هذا كله فى حق أبى جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبهات ﴿قوله تعالى﴾ (قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا لهم فيها ما يشاؤن خالدين كان على ربك وعدا مسؤلا) فى الآية مسائل ﴿(المسئلة الاولى)﴾ اعلم أنه تعالى لما وصف حال العقاب المعد للكذبين بالساعة أتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة فقال لرسوله قل أذلك خير أم جنة الخلد التى يلتمسها بالتصديق والطاعة فان قيل كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد وهل يجوز أن يقول العاقل السكر أحلى أم الصبر قلنا هذا يحسن فى معرض التقريع كما اذا أعطى السيد عبده مالا فتمرد وأبى واستكبر فيضربه بعصا ويقول على سبيل التوبيخ هذا أطيب أم ذاك ﴿(المسئلة الثانية)﴾ احتج أصحابنا بقوله وعد المتقون على أن الثواب غير واجب على الله تعالى لان من قال السلطان وعد فلانا أن يعطيه كذا فانه يحمل ذلك على التفضل فأما لو كان ذلك الاعطاء واجبا لا يقال انه وعده به أما المعتزلة فقد احتجوا به أيضا على مذهبهم قالوا لانه سبحانه أثبت ذلك الوعد للموصوفين بصفة التقوى وترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية فكذا يدل هذا على أن ذلك الوعد انما حصل معللا بصفة التقوى والتفضيل غير مختص بالمتقين فوجب أن يكون المختص بهم واجبا ﴿(المسئلة الثالثة)﴾ قال أبو مسلم جنة الخلد هى التى لا تنقطع نعيمها والخلد والخلود سواء كالشكور والشكور قال الله تعالى لا نريد منكم جزاء ولا شكورا وهو فان قيل الجنة اسم لدار الثواب وهى مخلدة فأى فائدة فى قوله جنة الخلد قلنا الاضافة قد تكون للتمييز وقد تكون لبيان صفة الكمال كما يقال الله الخالق البارئ وما هذا من هذا الباب ﴿أما قوله﴾ كانت لهم جزاء ومصيرا ففيه مسائل ﴿(المسئلة الاولى)﴾ المعتزلة احتجوا بهذه الآية على اثبات الاستحقاق من وجهين (الاول) أن اسم الجزاء لا يتناول الا المستحق فأما الوعد بمحض التفضل فانه لا يسمى جزاء (والثانى) لو كان المراد من الجزاء الامر الذى يصيرون اليه بمجرد الوعد لحينئذ لا يبقى بين قوله جزاء وبين قوله مصيرا تفاوت فيصير ذلك تكرارا من غير فائدة قال أصحابنا رحمهم الله لا نزاع فى كونه جزاء انما النزاع فى أن كونه جزاء ثبت بالوعد أو بالاستحقاق وليس فى الآية ما يدل على التعيين ﴿(المسئلة الثانية)﴾ قالت المعتزلة الآية تدل على أن الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة من وجهين (الاول) أن صاحب الكبيرة يستحق العقاب فوجب أن لا يكون مستحقا للثواب لان الثواب هو النفع الدائم الخالص عن شوب الضرر والعقاب هو الضرر الدائم الخالص عن شوب النفع والجمع بينهما محال وما كان ممتنع الوجود امتنع أن يحصل استحقاقه فاذن متى ثبت استحقاق العقاب وجب أن يزول استحقاق الثواب فنقول لو عفا الله عن صاحب الكبيرة لكان اما أن يخرجه من النار ولا يدخله الجنة وذلك باطل بالاجماع لانهم أجمعوا على أن المكلفين يوم القيامة اما أن يكونوا من أهل الجنة أو من أهل النار لانه تعالى قال فريق فى الجنة وفريق فى السعير واما أن يخرجه من النار ويدخله الجنة وذلك باطل لان الجنة حق المتقين لقوله تعالى كانت لهم جزاء ومصيرا فجعل الجنة لهم ومختصة بهم وبين انها انما كانت لهم لكونها جزاء لهم على أعمالهم فكانت حقا لهم واعطاء حق الانسان لغيره لا يجوز ولما بطلت الاقسام ثبت أن العفو غير جائز (أجاب) أصحابنا لم لا يجوز أن يقال المتقون يرضون بادخال الله أهل العفو فى الجنة فحينئذ لا يمتنع دخولهم فيها ﴿الوجه الثانى﴾ قالوا المتقى فى عرف الشرع مختص بمن اتقى الكفر والكبائر وانما وان اختلفنا فى أن صاحب الكبيرة هل يسمى مؤمنا أم لا لكنا اتفقنا على أنه لا يسمى متقيا ثم قال فى وصف الجنة انها كانت لهم جزاء ومصيرا وهذا للحصر والمعنى انها مصير للمتقين

ذلك فى أعتقادنا روما للحافظة على أن لا كذب فى ما يرده الرد المذكور وما فى سورة الانعام من قوله تعالى انظر كيف كذبوا على أنفسهم (وقيل للذين اتقوا) أى المؤمنون وصفوا بالتقوى اشعارا بأن ما صدر عنهم من الجواب ناشئ عن التقوى (ماذا انزل ربكم قالوا خيرا) سلكوا فى الجواب مسلك السؤال من غير تلعثم ولا تغيير فى الصورة والمعنى ٢٠٩ أى أنزل خيرا فانه جواب مطابق للسؤال

للمتقين لغيرهم واذا كان كذلك وجب أن لا يدخلها صاحب الكبيرة * قلنا أنهى ما فى الباب ان هذا عموم صرح فى الوعيد فخصصه بآيات الوعد (المسئلة الثالثة) لقائل أن يقول ان الجنة تصير للمتقين جزاء ومصيرا لهم بعد ما صارت كذلك فلم قال الله تعالى كانت لهم جزاء ومصيرا جوابه من وجهين (الاول) ان ما وعد الله فهو فى تحققه كأنه قد كان (والثانى) انه كان مكتوبا فى اللوح قبل أن يخلقهم الله تعالى بأزمنة متطاولة ان الجنة جزاؤهم ومصيرهم * أما قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن خالدين فهو نظير قوله ولكم فيها ما تشتهى الانفس وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لقائل أن يقول أهل الدرجات العالية اذا شاهدوا الدرجات العالية لا بد وأن يريدوها اذا سألوها ويريدهم فان أعطاهم ما يهالم يبق بين الناقص والكامل تفاوت فى الدرجة وان لم يعطها فقد منع ذلك فى قوله لهم فيها ما يشاؤن وأيضا فالاب اذا كان ولده فى دركات النيران وأشد العذاب اذا اشتهى أن يخلصه الله تعالى من ذلك العذاب فلا بد وأن يسأل ربه أن يخلصه منه فان فعل الله تعالى ذلك قدح فى أن عذاب الكافر مخلد وان لم يفعل قدح ذلك فى قوله ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم وفى قوله لهم فيها ما يشاؤن * وجوابه ان الله تعالى يزيل ذلك الخاطر عن قلوب أهل الجنة بل يكون اشتغال كل واحد منهم بما فيه من اللذات شاغلا عن الالتفات الى حال غيره (المسئلة الثانية) شرط نعيم الجنة أن يكون دائما اذ لو انقطع لكان مشوبا بأشد ضرب من الغم ولذلك قال المتنبى

أشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبها انتقالا

ولذلك اعتبر الخلود فيه فقال لهم فيها ما يشاؤن خالدين (المسئلة الثالثة) قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن كالتنبيه على أن حصول المرادات بأسرها لا يكون الا فى الجنة فأما فى غيرها فلا يحصل ذلك بل لا بد فى الدنيا من أن تكون راحاتها ممزوجة بأنواع الجراحات ولذلك قال عليه السلام والسلام من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق فقيل وما هو يا رسول الله فقال سرور يوم * أما قوله كان على ربك وعدا مسئولا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) كلمة على للوجوب قال عليه الصلاة والسلام من ندر شيئا فعليه الوفاء بما سمى فقوله كان على ربك يفيد أن ذلك واجب على الله تعالى والواجب هو الذى لو لم يفعل لاستحق تاركه بفعله الذم أو انه الذى يكون عدمه ممتنعا فان كان الوجوب على التفسير الاول كان تركه محالا لان تركه لما استلزم استحقاق الذم واستحقاق الله تعالى الذم محال وما يستلزم المحال محال كان ذلك الترك محالا والمحال غير مقدور فلم يكن الله تعالى قادرا على أن لا يفعل فيلزم أن يكون ملجأ الى الفعل وان كان الوجوب على التفسير الثانى وهو أن يقال الواجب ما يكون عدمه ممتنعا يكون القول بالالجاء لازما ولم يكن الله قادرا فان قيل الله ثبت بحكم الوعد فقد قبل لو لم يفعل لا نقلب خبره الصدق كذبا وعلمه جهلا وذلك محال والمؤدى الى المحال محال فالترك محال فيلزم أن يكون ملجأ الى الفعل والملجأ الى الفعل لا يكون قادرا ولا يكون مستحقا للثناء والمدح هذا تمام السؤال (وجوابه) أن فعل الشئ متقدم على الاخبار عن فعله وعن العلم بفعله فيكون ذلك الفعل فعلا لا على سبيل الالجاء فكان قادرا ومستحقا للثناء والمدح (المسئلة الثانية) قوله وعدا يدل على أن الجنة حصلت بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق وقد تقدم تقريره (المسئلة الثالثة) قوله مسئولا ذكر وا فيه وجوها (أحدها) ان المكلفين سألوه بقولهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك (وثانيها) أن المكلفين سألوه بلسان الحال لانهم لما تحملوا المشقة الشديدة فى طاعته كان ذلك قائما مقام السؤال قال المتنبى

وفى النفس حاجات وفيك فطانة * سكوتى كلام عندها وخطاب

(وثالثها) الملائكة سألوا الله تعالى ذلك بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن (ورابعها) وعد مسئولا أى واجبا

الخبر به الى نفس دار الآخرة (ولنعم دار المتقين) أى دار الآخرة حذف لدلالة ما سبق عليه وهذا كلام مبتدأ مدح الله تعالى به المتقين وعد جوابهم المحكى من جملة احسانهم ووعدهم بذلك ثوابى الدنيا والآخرة فلا محل له من الاعراب أو بدل من خيرا وتفسيره أى أنزل خيرا وهذا الكلام الجامع قلوه ترغيبا للسائل (جنات عدن) خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أى لهم جنات ويجوز أن يكون

سبيكا والواقع فى نفس الامر مضمونا وأما الكفرة فاهم خذلهم الله تعالى كما غيروا الجواب عن نهج الحق الواقع الذى ليس له من دافع غيروا صورته وعدلوا بها عن سنن السؤال حيث رفوا الاساطير رووا لنا ما مر من انكار النزول روى أن أحياء العرب كانوا يمنعون أيام الموسم من يأتيهم بخير النبى عليه الصلاة والسلام فاذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف وقالوا ان لم تلقه كان خيرا لك فيقول أنا شر وافد ان رجعت الى قومى دون أن أستطلع أمر محمد وأراه فيلقى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم فيخبرونه بحقيقة الحال فهم الذين قالوا خيرا للذين أحسنوا) أى أعمالهم أو فعلوا الاحسان (فى هذه) الدار (الدنيا حسنة) أى مثوبة حسنة مكافأة فيها (ولدار الآخرة) أى مثوبتهم فيها (خير) مما أوتوا فى الدنيا من المثوبة أو خير على الاطلاق فيجوز استناد

والدمار (من حيث لا يشعرون) بإتيانه منه بل يتوقعون اتيان مقابله مما يريدون ويشتهون والمعنى ان هؤلاء الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطير الاولين سيأتيهم من العذاب مثل ما أتاهم وهم لا يحتسبون والمراد به العذاب العاجل لقوله سبحانه (ثم يوم القيامة يخزيهم) فانه عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى هذا الذى فهم من التمثيل من عذاب هؤلاء أو ماهو أعم منه ومما (من عذاب أولئك جزاؤهم فى الدنيا ويوم القيامة يخزيهم أى يذلهم بعذاب النار ى على رؤس الاشهاد وأصل الخزى ذل يستحيا منه وتم للاعماء الى ما بين الجزاءين من التفاوت مع ما يدل عليه من القراخى الزمانى وتغيير السبك بتقديم الظرف ليس لقصر الخزى على يوم القيامة كما هو المتبادر من تقديم الظرف على الفعل بل لان الاخبار بجزائهم فى الدنيا مؤذن بأن لهم جزاء آخر ويا قبح النفس مترقبة الى ورود وه سائلة عنه بأنه ماذا مع تيقنها بأنه فى الآخرة فسيق الكلام على وجه يؤذن بأن المقصود بالذكر اخزاؤهم لا كونه يوم القيامة والضمير اما للمتربين فى حق القرآن الكريم أو لهم ولمن ضلوا بهم من الماكرين كما أشير اليه وتخصيصه بهم يأباه السياق والسباق كما ستقف عليه (ويقول) لهم تقريعا وتوبيخا فهو بيان للاخزاء (أين شركائى) أضافهم اليه سبحانه بكمال الاضافة تفخيما لتوبيخ اثر توبيخ مع الاستهزاء بهم (الذين كنتم تشاقون فيهم) أى تخاصمون الانبياء والمؤمنين فى شأنهم بأنهم شركاء حقا حين ينتفى بطلانها والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة أو المدافعة على طريقة الاستهزاء والتبكيت والاستفسار عن مكانهم لا لوجوب غيبتهم حقيقة حتى يتذر بأنه يجوز أن يحال بينهم وبين

الربى وفى رواية صفوان بن سليم عن عبد الوهاب قال عليه السلام أشبع يوما وأجوع ثلاثا فاحمدك اذا شبعت وأتضرع اليك اذا جعت وعن الضحاك لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فنزل جبريل عليه السلام مع ربه فقال ان الله يقرئك السلام ويقول وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام الآية قال فبينما جبريل عليه السلام والنبى صلى الله عليه وسلم يتحدثان اذ فتح باب من أبواب السماء لم يكن فتح قبل ذلك ثم قال أبشر يا محمد هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضا من ربك فسلم عليه وقال ان ربك يخيرك بين أن تكون نبيا ملكا وبين أن تكون نبيا عبدا ومعه سفط من نور يتلألأ ثم قال هذه مفاتيح خزائن الدنيا فاقبضها من غير ان ينقصك الله مما أعد لك فى الآخرة جناح بعوضة فنظر النبى صلى الله عليه وسلم الى جبريل كالمستشير فاومأ بيده أن تواضع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نبيا عبدا قال فكان عليه السلام بعد ذلك لم يأكل متكئا حتى فارق الدنيا أما قوله تعالى بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا فهذا جواب ثالث عن تلك الشبهة كأنه سبحانه قال ليس ما تعلقوا به شبهة علمية فى نفس المسئلة بل الذى حملهم على تكذيبك تكذيبهم بالساعة استثقالا للاستعداد لها ويحتمل أن يكون المعنى أنهم يكذبون بالساعة فلا يرجون ثوابا ولا عقابا ولا يتحملون كلفة النظر والفكر فلهذا لا يتفقهون عما يورد عليهم من الدلائل ثم قال وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال أبو مسلم وأعتدنا أى جعلناها اعتيادا ومعدة لهم والسعير النار الشديدة الاستعار وعن الحسن أنه اسم من أسماء جهنم ﴿المسئلة الثانية﴾ احتج أصحابنا على أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى أعدت للمتقين وعلى أن النار التى هى دار العقاب مخلوقة بهذه الآية وهى قوله وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا وقوله أعتدنا الخبار عن فعل وقع فى الماضى فدلت الآية على أن دار العقاب مخلوقة قال الجبائى يحتمل وأعتدنا النار فى الدنيا وبها لعذب الكفار والفساق فى قبورهم ويحتمل نارا لآخرة ويكون معنى وأعتدنا أى سنعتدها لهم كقوله ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار واعلم أن هذا السؤال فى نهاية السقوط لان المراد من السعير اما نار الدنيا واما نار الآخرة فان كان الاول فاما أن يكون المراد أنه تعالى يعذبهم فى الدنيا بنار الدنيا أو يعذبهم فى الآخرة بنار الدنيا والاول باطل لانه تعالى ما عذبهم بالنار فى الدنيا والثانى أيضا باطل لانه لم يقل أحد من الامة أنه تعالى يعذب الكفرة فى الآخرة بنيران الدنيا فثبت أن المراد نار الآخرة وثبت أنها معدة وحمل الآية على أن الله سيجعلها معدة ترك للظاهر من غير دليل وعلى أن الحسن قال السعير اسم من أسماء جهنم فقوله وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا صريح فى أنه تعالى أعد جهنم ﴿المسئلة الثالثة﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن السعيد من سعد فى بطن أمه فقالوا ان الذين أعدهم الله تعالى لهم السعير وأخبر عن ذلك وحكم به ان صاروا مؤمنين من أهل الثواب انقلب حكم الله بكونهم من أهل السعير كذبا وانقلب ذلك علمه جهلا وهذا الانقلاب محال والمؤدى الى المحال محال فصيرورة أولئك مؤمنين من أهل الثواب محال فثبت أن السعيد لا ينقلب شقيا والشقى لا ينقلب سعيدا ثم انه سبحانه وتعالى وصف السعير بصفات ﴿احداها﴾ قوله اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ السعير مذكر ولكن جاء هنا مؤنثا لانه تعالى قال رأتهم وقال سمعوا لها وانما جاء مؤنثا على معنى النار ﴿المسئلة الثانية﴾ مذهب أصحابنا ان الجنة ليست شرطا فى الحياة فالنار على ما هى عليه يجوز ان يخلق الله الحياة والعقل والنطق فيهم وعند المعتزلة ذلك غير جائز وهؤلاء المعتزلة ليس لهم فى هذا الباب حجة الا استقراء العادات ولو صدق ذلك لوجب التكذيب بانخراق العادات فى حق الرسل فهؤلاء

قولهم

عبدتهم حينئذ لتفقدوها في ساعة علقوا بهم الرجاء فيها أو بأنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم غيب بل يكفي في ذلك عدم حضورهم بالمعنى الذي كانوا يزعمون أنهم متصفون به من عنوان الالهية فليس هنالك شركاء ولا أما كنها على أن قوله لتفقدوها ليس بسديد فانه قد تبين عندهم الامر حينئذ فرجعوا عن ذلك الزعم الباطل فكيف يتصورمنهم التفقد وقرئ ٣٥٧ بكسر النون أي تشاقونني على أن

قولهم متناقض بل انكار العادات لا يليق الا بأصول الفلاسفة فعلى هذا قال أصحابنا قول الله تعالى في صفة النار اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا يجب اجراؤه على الظاهر لانه لا امتناع في أن تكون النار حية رائية مغتاظة على الكفار أما المعتزلة فقد اضطروا الى التأويل وذكروا فيه وجوها (أحدها) قالوا معنى رأتهم ظهرت لهم من قولهم دورهم تتراءى وتتناظر وقال عليه السلام ان المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما أي لا تتقابلان لما يجب على المؤمن من مجانبة الكافر والمشرك ويقال دور فلان متناظرة أي متقابلة (وثانيها) أن النار اشتد اضطرامها وغليانها صارت ترى الكفار وتطلبهم وتتغيظ عليهم (وثالثها) قال الجبائي ان الله تعالى ذكر النار وأراد أهلها لان الموكلة بتعذيب أهل النار لان الرؤية تصح منهم ولا تصح من النار فهو كقوله واسأل القرية أراد أهلها ﴿المسئلة الثالثة﴾ نقائل أن يقول التغيظ عبارة عن شدة الغضب وذلك لا يكون مسموعا فكيف قال الله تعالى سمعوا لها تغيظا وزفيرا والجواب) عنه من وجوه (أحدها) أن التغيظ وان لم يسمع فانه قد يسمع ما يدل عليه من الصوت وهو كقوله رأيت غضب الامير على فلان اذا رأى ما يدل عليه وكذلك يقال في الحمية فكذا ههنا والمعنى سمعوا لها صوتا يشبه صوت المتغيظ وهو قول الزجاج (وثانيها) المعنى علموا لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا وهذا قول قطرب وهو كقول الشاعر

* متقلدا سيفا ورمحا *

(وثالثها) المراد تغيظ الخزنة ﴿المسئلة الرابعة﴾ قال عبيد بن عمير ان جهنم لتزفر زفرة لا يبقى أحد الا وترعد فرائصه حتى ان ابراهيم عليه السلام يجثو على ركبتيه ويقول نفسي نفسي ﴿المسئلة الثانية عشر﴾ قوله تعالى واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا واعلم أن الله سبحانه لما وصف حال الكفار حين ما يكونون بالبعد من جهنم وصف حالهم عند ما يلقون فيها وهو دعاؤهم منه عجبا لا شيء أبلغ منه وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ في ضيقا قراءتان التشديد والتخفيف وهي قراءة ابن كثير ﴿المسئلة الثانية﴾ نقل في تفسير الضيق أمور قال مقاتل ذكر لنا عبد الله بن عمر قال ان جهنم لتضيق على الكافر كضيق الزج على الرمح وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال والذي نفسي بيده انهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط قال الكلبي الأسفلون يرفعهم اللهيب والاعلون يخفضهم الداخلون فيزدحمون في تلك الابواب الضيقة قال صاحب الكشاف الكرب مع الضيق كالروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والارض وجاء في الاحاديث ان لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا ولقد جمع الله على أهل النار أنواع البلاء حيث ضم الى العذاب الشديد الضيق ﴿المسئلة الثالثة﴾ قالوا في تفسير قوله تعالى مقرنين في الاصفاد ان أهل النار مع ما هم فيه من العذاب الشديد والضيق الشديد يكونون مقرنين في السلاسل قرنت أيديهم الى أعناقهم وقيل يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الاصفاد ثم انه سبحانه حكى عن أهل النار انهم حين ما يشاهدون هذا النوع من العقاب الشديد دعوا ثبورا والثبور الهلاك ودعاؤهم ان يقولوا وا ثبوراه أي يقولوا يا ثبور هذا حينك وزمانك وروى أنس مرفوعا أول من يكسى حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه ذريته وهو يقول يا ثبوراه وينادون يا ثبورهم حتى يردوا النار أما قوله لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا أي يقال لهم ذلك وبئس أحقاء بأن يقال لهم ذلك وان لم يكن ثم قول ومعنى وادعوا ثبورا كثيرا انكم وقعتم فيما ليس ثبور كم منه واحدا انما هو ثبور كثير اما لان العذاب أنواع وألوان لكل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته أو لانهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها أو لان ذلك العذاب دائم خالص عن الشوب فلهم في كل وقت من الاوقات التي لا نهاية لها ثبور أو لانهم يعاجلون بسبب ذلك القول نوعا من اللطمة فان العذاب اذا صاح

ذلك في عزة وشقاق (والسوء) العذاب (على الكافرين) بالله تعالى وبآياته ورسله ﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾ بتاء بين الفعل وقرئ بتذكيره وبادغام التاء في التاء والعدول الى صيغة المضارع لاستحضار صورة توفيهم اياهم لما فيها من الهول والوصول في محل الجر على أنه نعت للكافرين أو بدل منه أو في محل النصب أو الرفع على الذم وفائدته تخصيص الخزي والسوء بمن استمر كفره الى حين الموت دون من

مشاقة الانبياء عليهم السلام والمؤمنين لاسيما في شأن متعلق به سبحانه مشاقة له عز وجل (قال الذين أوتوا العلم) من أهل المرتبة وهم الانبياء عليهم السلام والمؤمنون الذين أوتوا علما بدلائل التوحيد وكانوا يدعونهم في الدنيا الى التوحيد فيجادلونهم ويتكبرون عليهم أي يقولون توبيخا لهم واظهارا للشماتة بهم وتقريرا لما كانوا يعظونهم وتحقيقا لما أوعدوهم به وايثار صيغة الماضي للدلالة على تحققه وتحتم وقوعه حسبما هو المعتاد في اخباره سبحانه وتعالى كقوله ونادى أصحاب الجنة ونادى أصحاب الاعراف (ان الخزي) الفضيحة والذل والهوان (اليوم) منصوب بالخزي على رأي من يرى اعمال المصدر المصدر باللام أو بالاستقرار في الظرف وفيه فصل بين العامل والمعمول بالمعطوف الا أنه مغتفر في الظروف وايراده للاشعار بأنهم كانوا قبل ذلك في عزة وشقاق

آمن منهم ولوفى آخر عمره أى على الكافرين المستمرين على الكفر الى أن يتوفاهم الملائكة (ظالمى أنفسهم) أى حال كونهم مستمرين على الكفر فانه ظلم منهم لانفسهم وأى ظلم حيث عرضوها للعذاب الخالد وبدلوا فطرة الله تبديلا (قالوا ألم نكن) أى قيلة ون والسؤال الى صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع ٣٥٨ ومعطوف على قوله تعالى ويقول أين شركائى وما بينهما جملة اعتراضية جىء بها

ويبكى وجد بسببه نوعا من الخفة فيزجرون عن ذلك ويضربون بأن هذا الشهر يزداد كل يوم ليزداد حزنهم وغمهم نعوذ بالله منه قال الكلبى نزل هذا كله فى حق أبى جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبهات ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا لهم فيها ما يشاؤن خالدين كان على ربك وعدا مسؤلا﴾ فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أنه تعالى لما وصف حال العقاب المعد للكذبين بالساعة أتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة فقال لرسوله قل أذلك خير أم جنة الخلد التى يلتمسها بالتصديق والطاعة فان قيل كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد وهل يجوز أن يقول العاقل السكر أحلى أم المرير قلنا هذا يحسن فى معرض التقريع كما اذا أعطى السيد عبده مالا فتمرد وأبى واستكبر فيضربه ضربا وجيعا ويقول على سبيل التوبيخ هذا أطيب أم ذاك ﴿المسئلة الثانية﴾ احتج أصحابنا بقوله وعدا المتقون على أن الثواب غير واجب على الله تعالى لان من قال الساطان وعد فلانا أن يعطيه كذا فانه يحسن ذلك على التفضيل فأما لو كان ذلك الاعطاء واجبا لا يقال انه وعده به أما المعتزلة فقد احتجوا به أيضا على مذهبهم قالوا لانه سبحانه أثبت ذلك الوعد للموصوفين بصفة التقوى وترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية فكذا يدل هذا على أن ذلك الوعد انما حصل معللا بصفة التقوى والتفضيل غير مختص بالمتقين فوجب أن يكون المختص بهم واجبا ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال أبو مسلم لم جنة الخلد هى التى لا ينقطع نعيمها والخلد والخلود سواء كالشكور والشكور فان قيل لانريد منكم جزاء ولا شكورا فهو قيل الجنة اسم لدار الثواب وهى مخلدة فأى فائدة فى قوله جنة الخلد قلنا الاضافة قد تكون للتمييز وقد تكون لبيان صفة الكمال كما يقال الله الخالق البارئ وهاهنا من هذا الباب * أما قوله كانت لهم جزاء ومصيرا ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ المعتزلة احتجوا بهذه الآية على ابطال الاستحقاق من وجهين (الاول) أن اسم الجزاء لا يتناول الا المستحق فأما الوعد بمحض التفضيل فانه لا يسمى جزاء (والثانى) لو كان المراد من الجزاء الامر الذى يصيرون اليه بمجرد الوعد لجعلت تلك الآية بعينها قوله سبحانه وتعالى جزاء وبين قوله مصيرا تفاوت فيصير ذلك تكرارا من غير فائدة قال أصحابنا رحمهم الله لا نزاع فى كونه جزاء انما النزاع فى أن كونه جزاء ثبت بالوعد أو بالاستحقاق وليس فى الآية ما يدل على التعيين ﴿المسئلة الثانية﴾ قالت المعتزلة الآية تدل على أن الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة من وجهين (الاول) أن صاحب الكبيرة يستحق العقاب فوجب أن لا يكون مستحقا للثواب لان الثواب هو النفع الدائم الخالص عن شوب الضرر والعقاب هو الضرر الدائم الخالص عن شوب النفع والجمع بينهما محال وما كان ممتنع الوجود امتنع أن يحصل استحقاقه فاذن متى ثبت استحقاق العقاب وجب أن يزول استحقاق الثواب فيقول لو عفا الله عن صاحب الكبيرة لكان اما أن يخرجه من النار ولا يدخله الجنة وذلك باطل بالاجماع لانهم أجمعوا على أن المكلفين يوم القيامة اما أن يكونوا من أهل الجنة أو من أهل النار لانه تعالى قال فريق فى الجنة وفريق فى السعير واما أن يخرجه من النار ويدخله الجنة وذلك باطل لان الجنة حق المتقين لقوله تعالى كانت لهم جزاء ومصيرا فجعل الجنة لهم وخصه بهم وبين انها انما كانت لهم لكونها جزاء لهم على أعمالهم فكانت حقا لهم واعطاء حق الانسان لغيره لا يجوز ولما بطلت الاقسام ثبت أن العفو غير جائز (أجاب) أصحابنا لم لا يجوز أن يقال المتقون يرضون بأدنى حال الله أهل العفو فى الجنة فحينئذ لا يتنغص عليهم فيها ﴿الوجه الثانى﴾ قالوا المتقى فى عرف الشرع مختص بمن اتقى الكفر والكبائر وانا وان اختلفنا فى أن صاحب الكبيرة هل يسمى مؤمنا أم لا لكنا اتفقنا على أنه لا يسمى متقيا ثم قال فى وصف الجنة انها كانت لهم جزاء ومصيرا وهذا للحصر والمعنى انها مصير

للمتقين

أريد مطلق الكون فيها فهى مقارنة (فلبئس مثوى المتكبرين) عن التوحيد كما قال تعالى قلوبهم منكرة وهم مستكبرون وذكرهم بعنوان التكبر للاشعار بعلية ذلك لثوائهم فيها والمخصوص بالذم محذوف أى جهنم وتأويل قولهم ما كنا نعمل من سوء بأنا ما كنا عاملين

ذلك فى اعتقادنا وما للحافظة على أن لا كذب ثمة يرده الرد المذكور وما فى سورة الانعام من قوله تعالى انظر كيف كذبوا على أنفسهم (وقيل للذين اتقوا) أى المؤمنون وصفوا بالتقوى اشعارا بأن ما صدر عنهم من الجواب ناشئ عن التقوى (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) سلكوا فى الجواب مسلك السؤال من غير تلعثم ولا تغيير فى الصورة والمعنى ٣٥٩ أى أنزل خيرا فانه جواب مطابق للسؤال سببا وللواقع فى نفس الامر معنى وأما الكفرة فانهم حذفوا ما صارت كذلك فلم يقال الله تعالى كانت لهم جزاء ومصيرا جوابه من وجهين (الاول) ان ما وعد الله فهو فى تحققه كأنه قد كان (والثانى) انه كان مكتوبا فى اللوح قبل أن يخلقهم الله تعالى بأزمنة متطاولة ان الجنة جزاؤهم ومصيرهم * أما قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن خالدين فهو نظير قوله ولكم فيها ما تشتهى الانفس وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لقائل أن يقول أهل الدرجات النازلة اذا شاهدوا الدرجات العالية لا بد وأن يريدوها فاذا سألوها يريهم فان أعطاهم اياها يبقى بين الناقص والكامل تفاوت فى الدرجة وان لم يعطها قد منع ذلك فى قوله لهم فيها ما يشاؤن وأيضا فالاب اذا كان ولده فى دركات النيران وأشد العذاب اذا اشتهى أن يخلصه الله تعالى من ذلك العذاب فلا بد وأن يسأل ربه أن يخلصه منه فان فعل الله تعالى ذلك قدح فى أن عذاب الكافر مخلد وان لم يفعل قدح ذلك فى قوله ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم وفى قوله لهم فيها ما يشاؤن * وجوابه ان الله تعالى يزيل ذلك الخاطر عن قلوب أهل الجنة بل يكون اشتغال كل واحد منهم بما فيه من اللذات شاغلا عن الالتفات الى حال غيره (المسئلة الثانية) شرط نعيم الجنة أن يكون دائما اذ لو انقطع لكان مشوبا بضرب من الغم ولذلك قال المتنبى

أشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبها انتقالا

ولذلك اعتبر الخلود فيه فقال لهم فيها ما يشاؤن خالدين (المسئلة الثالثة) قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن كالتنبيه على أن حصول المرادات بأسرها لا يكون الا فى الجنة فأما فى غيرها فلا يحصل ذلك بل لا بد فى الدنيا من أن تكون راحاتها مشوبة بالجراحات ولذلك قال عليه الصلاة والسلام من طلب ما لم يخلق ليتعب نفسه ولم يرزق فقيل وما هو يا رسول الله فقال سرور يوم * أما قوله كان على ربك وعدا مسئولا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) كلمة على للوجوب قال عليه الصلاة والسلام من نذر وسمى فعليه الوفاء بما سمى فقوله كان على ربك يفيد أن ذلك واجب على الله تعالى والواجب هو الذى لو لم يفعل لاستحق تاركه بفعله الذم أو انه الذى يكون عدمه ممتنعا فان كان الوجوب على التفسير الاول كان تركه محالا لان تركه يستلزم استحقاق الذم واستحقاق الله تعالى الذم محال ومستلزم المحال محال فكان ذلك الترك محالا والمحال غير مقدور فلم يكن الله تعالى قادرا على أن لا يفعل فيلزم أن يكون ملجأ الى الفعل وان كان الوجوب على التفسير الثانى وهو أن يقال الواجب ما يكون عدمه ممتنعا يكون القول بالالجاء لازما فلم يكن الله قادرا ان فعل الله ثبت بحكم الوعد فنقول لو لم يفعل لانقلب خبره الصدق كذبا وعلمه جهلا وذلك محال والمؤدى الى المحال محال فالترك محال فيلزم أن يكون ملجأ الى الفعل والملجأ الى الفعل لا يكون قادرا ولا يكون مستحقا للثناء والمدح هذا تمام السؤال (وجوابه) أن فعل الشئ متقدم على الاخبار عن فعله وعن العلم بفعله فيكون ذلك الفعل فعلا لا على سبيل الالجاء فكان قادرا ومستحقا للثناء والمدح (المسئلة الثانية) قوله وعدا يدل على أن الجنة حصلت بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق وقد تقدم تقريره (المسئلة الثالثة) قوله مسئولا ذكر فيه وجوها (أحدها) ان الملائكة سألوه بقولهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك (وثانيها) أن المكلفين سألوه بلسان الحال لانهم لما تحملوا المشقة الشديدة فى طاعته كان ذلك قائما مقام السؤال قال المتنبى

وفى النفس حاجات وفيك فطانة * سكوتى كلام عندها وخطاب

(وثالثها) الملائكة سألوا الله تعالى ذلك بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن (ورابعها) وعد الله سؤالا أى واجبا

الخيرية الى نفس دار الآخرة (ولنعم دار المتقين) أى دار الآخرة حذف لدلالة ما سبق عليه وهذا كلام مبتدأ مدح الله تعالى به المتقين وعد جوابهم المحكى من جملة احسانهم ووعدهم بذلك ثوابى الدنيا والآخرة فلا محل له من الاعراب أو بدل من خيرا أو تفسيره أى أنزل خيرا وهذا الكلام الجامع قالوه ترغيبا للسائل (جنات عدن) خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أى لهم جنات ويجوز أن يكون

هو الخاص بالمدح (يدخلونها) صفة لجنات على تقدير تنكير عدن وكذلك (تجرى من تحتهم الانهار) أو كلاهما حال على تقدير علمية (لهم فيها) في تلك الجنات (مايشاؤن) الفارق الاول خير لما والثاني حال منه والعامل مافي الاول أو متعلق به أي حاصل لهم فيها مايشاؤن من أنواع المشتهيات وتقديمه ٣٦٠ للاحتراز عن توهم تعلقه بالمشيئة أو لما مر مرارا من أن تأخير ماحقه التقديم

يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عند وروده عليه افضل تمكن (كذلك) مثل ذلك الجزاء الاوفى (يجزى الله المتقين) اللام للعهد أي كل من يتقى من الشرك والمعاصي ويدخل فيه المتقون المذكورون دخولا أوليا ويكون فيه تعريض لغيرهم على التقوى أو للعهد فيكون فيه تحسير للكفرة (الذين تتوفاهم الملائكة) نعت للمتقين وقوله تعالى (طيبين) أي طاهرين عن دنس الظلم لانفسهم حال من الضمير وفائدته الايذان بأن ملاك الامر في التقوى هو الطهارة عما ذكر الى وقت توفيهم فهو محث للؤمنين على الاستمرار على ذلك ولغيرهم على تحصيله وقيل فرحين طيبي النفوس ببشارة الملائكة اياهم بالجنة أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية الى جناب القدس (يقولون) حال من الملائكة أي قائلين لهم (سلام عليكم) قال القرطبي رحمه الله اذا اسند عيت نفس المؤمن جاءه ملك الموت عليه السلام فقال السلام عليك يا ولي الله الله تعالى يقرأ عليك السلام ويبشره بالجنة

حرف

(ادخلوا الجنة) اللام للعهد أي جنات عدن الخ ولذلك جردت عن النعت والمراد دخولهم لها في وقته فان ذلك بشارة عظيمة وان تراخى المبشر به لان دخول القبر الذي هو روضة من رياضها اذ يسر في البشارة به مافي البشارة بدخول نفس الجنة (بما كنتم تعملون) بسبب

يقال لا عطينك ألفا وعدا مسؤلا أي واجبا وان لم تسأل قالها الفراء وسائر الوجوه أقرب من هذا لان سائر الوجوه أقرب الى الحقيقة وما قاله الفراء مجاز (وخاسبها) مسؤلا أي من حقه أن يكون مسؤلا لانه حق واجب اما بحكم الاستحقاق على قول المعتزلة أو بحكم الوعد على قول أهل السنة ﴿ قوله تعالى ﴿ويوم نحشرهم ومايعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ماكان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا فقد كذبوكم بما تقولون فما يستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا﴾ اعلم أن قوله تعالى ويوم نحشرهم راجع الى قوله واتخذوا من دونه آلهة ثم ههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ نحشرهم فيه قولان كالوعد ما بالنون والياء وقرئ نحشرهم بكسر الشين ﴿المسئلة الثانية﴾ ظاهر قوله ومايعبدون انها الاصنام وظاهر قوله فيقول أأنتم أضللتم عبادي انه من عبد من الاحياء كالملائكة والمسيح وغيرهما لان الاضلال وخلافه منهم يصح فلاجل هذا اختلفوا فمن الناس من حمله على الاوثان فان قيل لهم الوثن جماد فكيف يخاطبه الله تعالى وكيف قدر على الجواب فعند ذلك ذكروا وجهين (أحدهما) ان الله تعالى يخلق فيهم الحياة فعند ذلك يخاطبهم فيردون الجواب (وثانيهما) أن يكون ذلك الكلام لا بالقول اللساني بل على سبيل لسان الحال كما ذكر بعضهم في تسبيح الموات وكلام الايدي والارجل وكما قيل سل الارض من شق أنهارك وغرس أشجارك فان لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا وأما الاكثرون فزعموا أن المراد هو الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام قالوا ويتأكد هذا القول بقوله تعالى ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون واذا قيل لهم لفظة ما لا تستعمل في العقلاء أجابوا عنه من وجهين (الاول) لا نسلم ان كلمة ما لا يعقل بدليل انهم قالوا من لما لا يعقل (والثاني) أريد به الوصف كأنه قيل وصنموهم وقوله تعالى والسماء وما بناها ولا أنتم عابدون ما أعبد لا نستقيم الا على أحد هذين الوجهين وكيف كان فالسؤال ساقط ﴿المسئلة الثالثة﴾ حاصل الكلام ان الله تعالى يحشر المعبودين ثم يقول لهم أأنتم أوقعتم عبادي في الضلال عن طريق الحق أم هم ضلوا عنه بأنفسهم قالت المعتزلة وفيه كسر بين لقول من يقول ان الله يضل عباده في الحقيقة لانه لو كان الامر كذلك لكان الجواب الصحيح ان يقولوا الهنا هو قاسم ثالث غيرهما هو الحق وهو انك أنت أضللتهم فلما لم يقولوا ذلك بل نسبوا اضلالهم الى أنفسهم علمنا أن الله تعالى لا يضل أحدا من عباده * فان قيل لا نسلم ان المعبودين ما تعرضوا لهذا القسم بل ذكروه فانهم قالوا ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وهذا تصريح بأن ضلالهم انما حصل لاجل ما فعل الله بهم وهو انه سبحانه وتعالى متعهم وآباءهم بنعيم الدنيا * قلنا لو كان الامر كذلك لكان يلزمهم أن يصيروا الله محجوجا في يد أولئك المعبودين ومعلوم انه ليس الغرض ذلك بل الغرض أن يصير الكافر محجوجا فعلمنا ما هذا تمام تقرير المعتزلة في الآية أجاب أصحابنا بأن القدرة على الضلال ان لم تصلح للاهتداء فالاضلال من الله تعالى وان صلحت له لم يترجح مصدريتهم للاضلال على مصدريتهم للاهتداء الا المرجح من الله تعالى وعند ذلك يعود السؤال وأما ظاهر هذه الآية فهو وان كان لهم لكنه معارض بسائر ظواهر المطابقة لقولنا ﴿المسئلة الرابعة﴾ ظاهر الآية يدل على أن هذا السؤال من الله تعالى وان احتمل أن يكون ذلك من الملائكة بأمر الله تعالى * بقي على الآية سؤالان ﴿الاول﴾ ما فائدة أنتم وهم وقد قيل أأضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل (الجواب) ليس السؤال عن الفعل ووجوده لانه لو وجد ما ترتب هذا العتاب وانما هو عن فاعله فلابد من ذكره وايلائه

بياتكم على التقرى والقائلة أو بالذى كنتم تعملونه من ذلك وقيل المراد بالتوفى التوفى للحشر لان الامر بالدخول حينئذ يتحقق (هل ينظرون) أى ما ينتظر كفار مكة المار ذكرهم (الا أن تأتيهم الملائكة) لقبض أرواحهم بالعذاب جعلوا منتظرين لذلك وشتان بينهم وبين انتظاره لانه يلحقهم البتة لحوق الامر المنتظر بل لمباشرتهم لاسبابه الموجبة له (أو يأتى أمر ربك) التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام اشعارا بأن اتيانه لطف به عليه الصلاة والسلام وان كان عذابا عليهم والمراد بالامر العذاب الدنيوى لا القيامة لكن لا لان انتظارها يجامع انتظار اتيان الملائكة فلا يلائمه العطف بأو لانها ليست نفسا فى العناد اذ يجوز أن يعتبر بمنع الخلو ويراد بايرادها تعليق كل واحد من الامرين فى عذابهم بل لان قوله تعالى فيما سيأتى ولكن كانوا أنفسهم يظلمون فأصابهم الآية صريح فى أن المراد به ما أصابهم من العذاب الدنيوى (كذلك) أى مثل فعل هؤلاء من الشرك والظلم والتكذيب والاستهزاء (فعل الذين خلوا) من قبلهم) من الامم (وما ظلمهم الله) بما سيتلى من عذابهم (ولكن كانوا) بما كانوا مستمرين عليه من القبائح الموجبة لذلك (أنفسهم يظلمون) كان الظاهر أن يقال ولكن كانوا هم الظالمين كما فى سورة الزخرف لكنه أوثر ما عليه النظم الكريم لافادة أن غائلة ظلمهم آيلة اليهم وعاقبته مقصورة عليهم مع استلزام اقتصار ظلم كل أحد على نفسه من حيث الوقوع اقتصاره عليه من حيث الصدور وقد مر تحقيقه فى سورة يونس (فأصابهم) عطف على قوله تعالى فعل الذين من قبلهم وما بينهم اعتراض لبيان أن فعلهم ذلك

حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤل عنه (السؤال الثانى) انه سبحانه كان عالما فى الازل بحال المسؤل عنه فما فائدة هذا السؤال (الجواب) هذا الاستفهام على سبيل التقريع للمشركين كما قال لعيسى أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ولان أوائل المعبودين لما برؤا أنفسهم وأحالوا ذلك الضلال عليهم صار تبرؤ المعبودين عنهم أشفى لحسرتهم وحيرتهم (السؤال الثالث) قال تعالى أم هم ضلوا السبيل والقياس أن يقال ضل عن السبيل * الجواب الاصل ذلك الا أن الانسان اذا كان متمادحا فى التفريط وقلة الاحتياط يقال ضل السبيل أما قوله سبحانك فاعلم أنه سبحانه حكى جوابهم وفى قوله سبحانك وجوه (أحدها) أنه تعجبوه منهم فقد تعجبوا مما قيل لهم لانهم ملائكة وأنبياء معصومون فأبعدهم عن الاضلال الذى هو متخصص بأبالسة وحزبه (وثانيها) انهم نطقوا بسبحانك ليدلوا على انهم المسبحون المقدسون المنزهون بذلك فكيف يليق بحالهم أن يضلوا عباده (وثالثها) قصدوا به تنزيهه عن الانداد سواء كان وثنا أو نبيا أو ملكا (ورابعها) قصدوا تنزيهه أن يكون مقصودهم من هذا السؤال استفادة علم أو ايذاء من كان بريئا عن الجرم بل انما قالوا لهم تعريضا للكفار وتوبيخا لهم * أما قولهم ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ففيه مسائل (المسئلة الاولى) القراءة المعروفة أن نتخذ بفتح النون وكسر الخاء وعن أبى جعفر وابن عامر برفع النون وفتح الخاء على مالم يسم فاعله قال الزجاج أخطأ من قرأ أن نتخذ بضم النون لان من انما تدخل فى هذا الباب فى الاسماء اذا كانت مفعولا أولا ولا تدخل على مفعول الى فالمعنى لا تتخذ من أحد وليا ولا يجوز ما اتخذت أحدا من ولى قال صاحب الكشاف اتخذ يتعدى الى مفعول واحد كقولك اتخذوا وليا والى مفعولين كقولك اتخذ فلانا وليا قال الله تعالى واتخذ الله ابراهيم خليلا والقراءة الاولى من المتعدى الى واحد وهو من أولياء والاصل أن تتخذ أولياء فزيدت من لتأكيد معنى النفى والثانية من المتعدى الى مفعولين فالاول ما ينبغى له الفعل والثانى من أولياء من للتبعيض أى لا نتخذ بعضا أولياء وتنكير أولياء من حيث أنهم أولياء مخصوصون وهم الجن والاصنام (المسئلة الثانية) ذكر فى تفسير هذه الآية وجوها (أولها) وهو الاصح الاقوى أن المعنى اذا كنا لا نرى أن نتخذ من دونك أولياء فكيف ندعو غيرنا الى ذلك (وثانيها) ما كان ينبغى لنا أن نكون أمثال الشياطين فى توليهم الكفار كما يتولاهم الكفار قال تعالى فقاتلوا أولياء الشيطان يريد الكفرة وقال والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت عن أبى مسلم (وثالثها) ما كان لنا أن نتخذ من دون رضاك من أولياء أى لما علمنا أنك لا ترضى بهذا ما فعلناه والحاصل أنه حذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه (ورابعها) قالت الملائكة انهم عبيدك فلا ينبغى لعبيدك أن يتخذوا من دون اذنك وليا ولا حبيبا فضلا عن أن يتخذ عبد عبدا آخر الها لنفسه (وخامسها) أن على قراءة أبى جعفر الاشكال زائل فان قيل هذه القراءة غير جائزة لانه لا مدخل لهم فى أن يتخذ غيرهم أولياء قلنا المراد انا لا نصلح لذلك فكيف ندعوهم الى عبادتنا (وسادسها) ان هذا قول الاصنام وانها قالت لا يصح منا أن نكون من المعابدين ثم كيف ندعوهم الى عبادتنا أما من المعبودين (المسئلة الثالثة) الآية تدل على أنه لا تجوز الولاية والعداوة الا بأذن الله فكل ولاية مبنية على ميل النفس وتصيب الطبع فذلك على خلاف الشرع * أما قوله تعالى ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) معنى الآية انك يا الهنا أكثرت عليهم وعلى آبائهم من النعم وهى توجب الشكر والايمان لا الاعراض والكفران والمقصود من ذلك بيان أنهم ضلوا من عند أنفسهم لا ضلالا لنا فانه لولا عنادهم الظاهر والا فنفع ظهور هذه الحجة لا يمكن الاعراض عن طاعة الله تعالى وقال آخرون ان هذا الكلام كالرمز فيما صرح به موسى عليه السلام فى

ظلم لانفسهم (سيئات ما عملوا) أى أجزية أعمالهم السيئة على طريقة تسمية المسبب باسم سببه ايذانا بفظاعته لا على حذف المضاف فانه يوهم ان لهم أعمالا غير سيئاتهم (وحاق بهم) أى أحاط بهم من الحيق الذى هو احاطة الشر وهو أبلغ من الاصابة وأفظع (ما كانوا به يستهزؤن) من العذاب ٣٦٢ (وقال الذين أشركوا) أى أهل مكة وهو بيان لمن آخر من كفرهم والعدول عن الاضمار الى الموصول لتقريعهم بما فى حيز الصلة وذمهم بذلك من أول الامر (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ) أى لو شاء عدم عبادتنا لشئ غيره كما نقول لما عبدنا ذلك (نحن ولا آباؤنا) الذين نقتدى بهم فى ديننا (ولا حرمنا من دونه من شئ) من السوائب والبحائر وغيرها وانما قالوا ذلك تهكما بالرسول عليه الصلاة والسلام وطعنا فى الرسالة رأسا متمكنين بأن ما شاء الله تعالى يجب وما لم يشأ يمتنع ولو أن شاء ان نوحده ولا نشرك به شيأ ولا نحرم مما حرمنا شيأ كما يقوله الرسل ويقولونه من جهة الله عز وجل لكان الامر كما شاء من التوحيد ونفى الاشراك وما يتبعهما وحيث لم يكن كذلك ثبت أنه لم يشأ شيأ من ذلك وانما يقوله الرسل من تلقاء أنفسهم وأجيب عنه بقوله عز وجل (كذلك) أى مثل ذلك الفعل الشنيع (فعل الذين من قبلهم) من الامم أى أشركوا بالله وحرموا حله ورد وا رسله وجادلوهم بالباطل حين نهوهم على الخطأ وهدوهم الى الحق (فهل على الرسل) الذين يبلغون رسالات سبيل

قوله ان هى الا افتراك وذلك لان التعجب قال الهى أنت الذى أعطيته جميع مطالبه من الدنيا حتى صار كالغريق فى بحر الشهوات واستغراقه فيها صار صادا له عن التوجه الى طاعتك والاشتغال بخدمتك فان هى الا افتراك (المسئلة الثانية) الذكر ذكر الله والايمان به والقرآن والشرائع أو ما فيه حسن ذكرهم فى الدنيا والآخرة (المسئلة الثالثة) قال أبو عبيدة يقال رجل بور ورجلان بور ورجال بور وكذلك الانثى ومعناها هالك وقد يقال رجل بائر وقوم بور وهو مثل هالك وهو والبوار الهلاك وقد احتج أصحابنا بهذه الآية فى مسئلة القضاء والقدر ولا شك ان المراد منه وكانوا من الذين حكم عليهم فى الآخرة بالعذاب والهلاك فالذى حكم الله عليه بعذاب الآخرة وعلم ذلك وأثبته فى اللوح المحفوظ وأطلع الملائكة عليه لو صار مؤمنا صار انقلابا لصدق كذا وانصار العلم جهلا وانصارت الكتابة المثبتة فى اللوح المحفوظ باطلة وانصار اعتقاد الملائكة جهلا وكل ذلك محال ومستلزم المحال محال قصدور الايمان منه محال فدل على أن السعيد لا يمكنه أن ينقلب شقيا والشقى لا يمكنه أن ينقلب سعيدا ومن وجه آخر هو انهم ذكروا ان الله تعالى آتاهم أسباب الضلال وهو اعطاء المرادات فى الدنيا واستغراق النفس فيها ودلت الآية على أن ذلك السبب بلغ مبلغا يوجب البوار فان ذكر البوار عقيب ذلك السبب يدل على أن البوار انما حصل لاجل ذلك السبب فرجع حاصل الكلام الى الله تعالى فعل بالكافر ما صار معه بحيث لا يمكنه ترك الكفر وحينئذ ظهر أن السعيد لا ينقلب شقيا وان الشقى لا ينقلب سعيدا * أما قوله تعالى فقد كذبوكم بما تقولون فاعلم انه قرئ يقولون بالياء والتاء فمن قرأ بالتاء فقد كذبوكم بقولكم انهم آلهة أى كذبوكم فى قولكم انهم آلهة ومن قرأ بالياء فالتقوطة من تحت فالمعنى أنهم كذبوكم بقولكم سبحانك ومثاله قولك كتبت بالقلم * أما قوله فما تستطيعون صرفا ولا نصرا فاعلم انه قرئ تستطيعون بالياء والتاء أيضا ومعنى قما تستطيعون أنتم يا أيها الكفار صرف العذاب عنكم وقيل الصرف التوبة وقيل الحيلة من قولهم انه ليتصرف أى يحتال أو فما تستطيعون أنتم أيها الكفار صرف العذاب عنكم والعذاب ان يحتالوا لكم * أما قوله تعالى ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا فهو مستأنف (المسئلة الاولى) قرئ نذقه بالياء وفيه ضمير الله تعالى أو ضمير الظلم (المسئلة الثانية) أن المعتزلة تمسكوا بهذه الآية فى القطع بوعيد أهل الكبائر قالوا ثبت أن من للعموم فى معرض الشرط وثبت ان الكافر ظالم لقوله ان الشرك لظلم عظيم والفاسق ظالم لقوله ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون فثبت بهذه الآية ان الفاسق لا يبقى عفوه بل يعذب لا محالة والجواب انا لا نسلم ان كلمة من فى معرض الشرط للعموم والكلام فيه مذكور فى أصول الفقه سلمنا انه للعموم ولكن قطعا أم ظاهرا والدعوى القطع ممنوعة فانا نرى فى العرف العام المشهور استعمال صيغ العموم مع أن المراد هو الاكثر أو لان المراد أقوام معينون والدليل عليه قوله تعالى ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ثم ان كثيرا من الذين كفروا قد آمنوا فلا دافع له الا أن يقال قوله الذين كفروا ان كان يفيد العموم لكن المراد منه الغالب أو المراد منه أقوام مخصوصون وعلى التقديرين ثبت أن استعمال ألفاظ العموم فى الاغلب صرف ظاهر وإذا كان كذلك كانت دلالة هذه الصيغ على العموم دلالة ظاهرة لا قاطعة وذلك لا ينفى نحو ما نرجو العفو سلمنا دلالته قطعا ولكنا أجمعنا على أن قوله ومن يظلم منكم مشروط بأن لم يوجد ما يزيله وعندنا نقول هذا مسلم لكن لم قلت بان لم يوجد ما يزيله فان العفو عندنا أحد الامور التى تزيله وذلك هو أحد الثلاثة أول المسئلة سلمنا دلالته على ما قال ولكنه معارض بآيات الوعد كقوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا فان قيل آيات الوعد أولى لان السارق يقطع على

لم يدينهم سبلنا وأما الجاؤهم الى ذلك وتنفيذ قولهم عليهم شاؤا أو أبوا كما هو مقتضى استدلالهم فليس ذلك من وظيفتهم ولا من الحكمة التي عليها يدور أمر التكاليف في شئ حتى يستدل بعدم ظهور آثاره على عدم حقيقة الرسل أو على عدم تعلق مشيئته تعالى بذلك فان ما يترتب عليه الثواب والعقاب من أفعال العباد لابد في تعلق مشيئته تعالى بوقوعه ٢٦٣ من مباشرتهم الاختيارية له وصرف اختيارهم الجزئي الى تحصيله والا لكان الثواب والعقاب اضطرارا بين فالغاء للتعليل كانه قيل كذلك فعل اسلافهم وذلك باطل فان الرسل ليس شأنهم الا تبليغ أوامر الله تعالى ونواهيه لا تحقيق مضمونهما ارادوا موجبهما على الناس قسرا والجاء وايراد كلمة على للايذان بانهم في ذلك مأمورون أو بان ما يبلغونه حق للناس عليهم أيضا وبهذا ظهر أن حمل قولهم لو شاء الله لانعم عليهم الاستهزاء لا يلائم الجواب والله تعالى أعلم بالصواب (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا) تحقيق لكيفية تعلق مشيئته تعالى بأفعال العباد بعد بيان ان الالجاء ليس من وظائف الرسالة ولا من باب المشيئة المتعلقة بما يدور عليه الثواب والعقاب من الافعال الاختيارية لهم أي بعثنا في كل أمة من الامم الخالية رسولا خاصا بهم (أن اعبدوا الله) يجوز أن تكون أن مفسرة لما في البعث من معنى القول وان تكون مصدرية أي بعثنا بان اعبدوا الله وحده (واجتنبوا الطاغوت) هو الشيطان وكل ما يدعو الى الضلالة (فمنهم) أي من تلك الامم والفاء فصيحة أي فبلغوا ما بعثوا به من الامر بعبادته تعالى وحده واجتناب الطاغوت فتفرقوا فمنهم (من هدى الله) الى الحق الذي هو عبادته واجتناب الطاغوت بعد ما عرف قدرتهم واختيارهم الجزئي الى تحصيله (ومنهم من حقت عليه الضلالة) أي وجبت وثبت الى حين الموت

سبيل التنكيل ومن لم يكن مستحقا للعقاب لا يجوز قطع يده على سبيل التنكيل فاذا ثبت أنه مستحق للعقاب ثبت أن استحقاق الثواب أحبط ما بيننا أن الجمع بين الاستحقاقين محال قلنا لا نسلم أن السارق يقطع على سبيل التنكيل ألا ترى انه لو تاب فانه يقطع لا على سبيل التنكيل بل على سبيل المحنة تركنا عن هذه المقامات ولكن قوله تعالى ومن يظلم منكم انه خطاب مع قوم مخصوصين معينين فهب انه لا يعفو عنهم فلم قلت انه لا يعفو عن غيرهم * أما قوله تعالى وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق ففيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا جواب عن قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق بين الله تعالى ان هذه عادة مستمرة من الله في كل رسله فلا وجه لهذا الطعن (المسئلة الثانية) حق الكلام ان يقال الا أنهم يفقح الالف لانه متوسط بالمكسورة لا تلقى الا بالابتداء فلاجل هذا ذكروا وجوها (أحدها) قال الزجاج الجملة بعد الا صفة لموصوف محذوف والمعنى وما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين الا آكلين وماشين وانما حذف لان في قوله من المرسلين دليلا عليه ونظيره قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم على معنى وما منا أحد (وثانيها) قال الفراء انها تامة لان الاسم متروك اكتفى بقوله من المرسلين عنه والمعنى الا من أنهم كقولك وما منا الا له مقام معلوم أي من له مقام معلوم وكذلك قوله وان منكم الا واردها أي الامر يردها فعلى قول الزجاج الموصوف محذوف وعلى قول الفراء الموصول هو المحذوف ولا يجوز حذف الموصول وبقية الصلة عند البصريين (وثالثها) قال ابن الانباري تكسران بعد الاستثناء بما ضمار واو على تقدير الاوائهم (ورابعها) قال بعضهم المعنى الاقيل انهم (المسئلة الثالثة) قرئ يمشون على البناء للفعول أي يمشيهم حوائجهم أو الناس ولو قرئ يمشون لكان أوجه لولا الرواية أما قوله تعالى وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فيه أقوال (أحدها) ان هذا في رؤساء المشركين وفقراء الصحابة فاذا رأى الشريف الوضيع قد أسلم قبله أنف ان يسلم فأقام على كفره لئلا يكون للوضيع السابقة والفضل عليه ودليله قوله تعالى لو كان خيرا ما سبقونا اليه وهذا قول الكلبي والفراء والزجاج (وثانيها) ان هذا عام في جميع الناس روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ويل للعالم من الجاهل وويل للسلطان من الرعية وويل للرعية من السلطان وويل للمالك من المملوك وويل للشديد من الضعيف وللضعيف من الشديد بعضهم لبعض فتنة وقرأ هذه الآية (وثالثها) ان هذا في أصحاب البلاء والعافية هذا يقول لم لم أجعل مثله في الخلق والخلق وفي العقل وفي الرزق وفي الاجل وهذا قول ابن عباس والحسن (ورابعها) هذا احتجاج عليهم في تخصيص محمد بالرسالة مع مساواتها إياهم في البشرية وصفاتها فانه تعالى لما أرسل المرسلين اليهم أنواع اذاهم على ما قال ولقد سمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا والمرسل اليهم يتأذون أيضا من المرسل بسب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم وتنفير الناس عنهم وبتبديل الدين والمال بعد ان كان رئيسا محتشما والاولى حمل الآية على الكل لان بين الجميع قدرا مشتركا (المسئلة الثانية) قال أصحابنا الآية تدل على القضاء والقدر لانه تعالى قال وجعلنا بعضكم لبعض فتنة قال الجبائي هذا يدل على هو بعيني الشريف كما يقال فعين سرق ان فلانا لص جعله لصا وهذا التأويل ضعيف لانه تعالى أضاف الجعل الى وصف كونه فتنة الى الحكم بكونه كذلك بل العقل يدل على أن المراد غير ما ذكره وذلك لان فاعل السبب فاعل للمسبب فمن خلقه الله تعالى على مزاج الصفراء والحرارة وخلق الغضب فيه ثم خلق فيه الادراك الذي يطلعه على الشئ المغضب فمن فعل هذا المجموع كان هو الفاعل للغضب لامحالة وكذا القول في الحسد وسائر الاخلاق والافعال وعند هذا يظهر أنه سبحانه هو الذي جعل

لعناده وإصراره عليها وعدم صرف قدرته الى تحصيل الحق وتغيير الاسلوب للاشعار بان ذلك لسوء اختيارهم كقوله تعالى واذا مرضت فهو يشفين فلم يكن من مشيئة الهداية وعدمها الا حصل منهم من التوجه الى الحق وعدمه الا بطريق القسر والالجاء حتى يستدل بعدمها على عدم تعلق مشيئته تعالى بعبادتهم له تعالى وحده (فسيروا) يامعشر قريش (فى الارض فانظروا) فى

البعض فتنة للبعض سلمنا ان المراد ما قاله الجبائى ان المراد من الجعل هو الحكم ولكن المجعول ان انقلب لزم من انقلابه انقلاب حكم الله تعالى من الصدق الى الكذب وذلك محال فانقلاب ذلك الجعل محال فانقلاب المجعول ايضا محال وعند ذلك يظهر القول بالقضاء والقدر ﴿المسئلة الثالثة﴾ الوجه فى تعلق هذه الآية بما قبلها أن القوم لما طاعنوا فى الرسول صلى الله عليه وسلم بانه يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق وبأنه فقير كانت هذه الكلمات جارية مجرى الاعتذارات فانه لما قامت الدلالة على النبوة لم يكن لشئ من هذه الاشياء أثر فى القدح فيها فكان النبى صلى الله عليه وسلم يتأذى منهم من حيث انهم كانوا يشتمونه ومن حيث انهم كانوا يذكرون الكلام المموج الفاسد وكانوا يقهمون الجواب الجيد فلا جرم صبره الله تعالى على كل تلك الاذية وبين أنه جعل الخلق بعضهم فتنة للبعض ﴿أما قوله تعالى أتصبرون وكان ربك بصيرا ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قالت المعتزلة لو كان المراد من قوله وجعلنا بعضكم لبعض فتنة الخبر لما ذكر عقبه أتصبرون لان أمر العاجز غير جائز ﴿المسئلة الثانية﴾ المعنى أتصبرون على البلاء فقد علمتم ما وعد الله الصابرين وكان ربك بصيرا أى هو العالم بمن يصبر ومن لا يصبر فيجازى كلا منهم بما يستحقه من ثواب وعقاب ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله أتصبرون استفهام والمراد منه التقرير وصرفه بعد ذكر الفتنة موقع أيكم بعد الابتلاء فى قوله لنبلوكم أيكم أحسن عملا ﴿قوله تعالى﴾ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا ﴿اعلم أن قوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا هو الشبهة الرابعة لمنكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وحاصلها انهم لم يقولوا الملائكة حتى يشهدوا أن محمدا محق فى دعواه أو نرى ربنا حتى يخبرنا بانه أرسله البتة وتقرير هذه الشبهة أن من أراد تحصيل شئ وكان له الى تحصيله طريقان أحدهما يفضى اليه قطعا والآخر قد يفضى وقد لا يفضى فالحكيم يجب عليه فى حكمته ان يختار فى تحصيل ذلك المقصود الطريق الاقوى والاحسن ولا شك ان انزال الملائكة ليشهدوا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم أكثر افضاء الى المقصود فلو أراد الله تعالى تصديق محمد صلى الله عليه وسلم لفعل ذلك وحيث لم يفعل ذلك علمنا انه ما أراد تصديقه هذا حاصل الشبهة ثم ههنا مسائل ﴿الاولى﴾ قال الفراء قوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا معناه لا يخافون لقاءنا ووضع الرجاء فى موضع الخوف لغة تهامية اذا كان معه جحد ومثله قوله تعالى مالكم لا ترجون لله وقارا أى لا تخافون له عظمة وقال القاضى لا وجه لذلك لان الكلام متى أمكن حمله على الحقيقة لم يجز حمله على المجاز ومعلوم أن من حال عباد الاصنام انهم كما لا يخافون العقاب لتكذيبهم بالمعاد فكذلك لا يرجون لقاءنا وعدنا على الطاعة من الجنة والثواب ومعلوم أن من لا يرجو ذلك لا يخاف العقاب أيضا فلا خوف تابع لهذا الرجا ﴿المسئلة الثانية﴾ المجسمة تمسكوا بقوله تعالى لقاءنا فى تجسيم وقالوا اللقاء والوصول يقال هذا الجسم لقى ذلك أى وصل اليه واتصل به وقال تعالى فالقاهم الماء على أمر قد قدر وقد ذكرنا الآية على انه سبحانه جسم والجواب على طريقين (الاول) طريق بعض أصحابنا قال المراد من اللقاء هو الرؤية وذلك لان الرائى يصل برؤيته الى حقيقة المرئى فسمى اللقاء أحد أنواع الرؤية والنوع الآخر الاتصال والمماسة قد ذكرت الآية من هذا الوجه على جواز الرؤية (الطريق الثانى) وهو كلام المعتزلة قال القاضى تفسير اللقاء برؤية البصر جهل باللغة فيقال فى الدعاء لقاك الله الخير وقد يقول القائل ألم ألق الامير وان رآه من بعد أو حجب عنه ويقال

أكذا فها (كيف كان عاقبة المكذبين) من عاد وثمود ومن سار سيرتهم من حقت عليه الضلالة لعلكم تعتبرون حين تشاهدون فى متاجركم ودياركم آثار الهلاك والعذاب وترتيب الامر بالسير على مجرد الاخبار بثبوت الضلالة عليهم من غير اخبار بحلول العذاب للايذان بانه غنى عن البيان وان ليس الخبر كالعيان وترتيب النظارة على السير لما انه بعده وأن هلاك الامم فى تلك العاقبة هو التكذيب والتعالى بانه لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ (ان تحرص) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرئ بفتح الراء وهى لغة (على هداهم) أى ان تطالب هدايتهم بجهدك (فان الله لا يهدى من يضل) أى فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهداية فيمن يضل اضلالا مبنيا على أن خلق فيه الضلالة بسوء اختياره والمراد به قريش وانما وضع الموصول موضع الضمير للتنصيص على انهم ممن حقت عليه الضلالة وللاشعار بعلة الحكم ويجوز أن يكون المذكور عبارة عن الجزاء المحذوف أى ان تحرص على هداهم فلست بقادر على ذلك لان

فى

الله لا يهدى من يضله وقرئ لا يهدى على بناء المفعول أى لا يقدر أحد على هدايته من يضله الله تعالى وقرئ لا يهدى بفتح الهاء وادغام تاء يهتدى فى الدال ويجوز أن يكون يهدى بمعنى يهتدى وقرئ يضل بفتح الياء وقرئ لا هادى لمن يضل ولمن أضل

(وما لهم من ناصرين) ينصرونهم في الهداية أو يدفعون العذاب عنهم وصيغة الجمع في الناصرين باعتبار الجمعية في الضمير فان مقابلة الجمع تقتضي انقسام الآحاد الى الآحاد لا أن المراد نفي طائفة من الناصرين من كل منهم (وأقسموا بالله) شروع في بيان فن آخر من أباطيلهم وهو انكارهم البعث (جهد أيمانهم) مصدر في موقع الحال أي جاهدين ٢٦٥ في أيمانهم (لا يبعث الله من يموت) ولقدر دالله تعالى عليهم أبلغ رد بقوله الحق (بلى) أي لي بعثهم (وعدا) مصدر مؤكد لما دل عليه بلى فان ذلك وعد من الله سبحانه أو لمحذوف أي وعد ذلك وعدا (عليه) صفة لوعدا أي وعدا ثابتا عليه انجازه لامتناع الخلف في وعده أو لان البعث من مقتضيات الحكمة (حقا) صفة أخرى له أو نصب على المصدرية أي حق حقا (ولكن أكثر الناس) لجهلهم بشؤن الله عز شأنه من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال وبما يجوز عليه وما لا يجوز وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه وعلى ان البعث مما يقتضيه الحكمة التي جرت عادته سبحانه بمراعاتها (لا يعلمون) أنه بعثهم فيبنون القول بدمه أو أنه وعد عليه حق فيكذبونه قائلين انه لم يعدنا ضمن وانما وعد هذا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين (ليبين لهم) غاية ما دل عليه بلى من البعث والتغيير لمن يموت اذ القبيحين يعم المؤمنين أيضا فانهم وان كانوا عالمين بذلك لكنه عند معاينة حقيقة ما دل يتضح الامر فيصل علمهم الى مرتبة عين اليقين أي يعينهم لهم بذلك وبما يحصل لهم من مشاهدة الاحوال كما هي ومعاينتها بصورها الحقيقية الشأن (الذي يختلفون فيه) من أحقية المنتظم لجميع مخالفيه مما جاء به الشرع المبين ويدخل فيه البعث دخولا أوليا (وليعلم الذين كفروا) بالله سبحانه بالاشراك

في الضرير اذا أدن له ولم يجب وقد يلقاه في الليلة الظلماء ولا يراه بل المراد من اللقاء ههنا هو المصير الى حكمه حيث لا حكم لغيره في يوم لا تملك نفس لنفس شيأ لا أثر رؤية البصر * واعلم أن هذا الكلام ضعيف لانا لا نفسر اللقاء برؤية البصر بل نفسره بمعنى مشترك بين رؤية البصر وبين الاتصال والمماسة وهو الوصول الى الشيء وقد بينا أن الرائي يصل برؤيته الى المرئي واللفظ اذا وضع لمعنى مشترك بين معان كثيرة ينطلق على كل واحد من تلك المعاني فيصح قوله لقاء الطير ويصح قول الاعمى لقيت الامير ويصح قول الاسير لقيته بمعنى رأيته وملقيته بمعنى وصلت اليه واذا ثبت هذا فنقول قوله وقال الذين لا يرجون لقاءنا مذكور في معرض الذم فلم يجب ان يكون رجاء اللقاء حاصلا وعسى اللقاء مشترك بين الوصول المكاني وبين الوصول بالرؤية وقد تقدم الاول فتعين الثاني وقوله المراد من اللقاء الوصول الى حكمه صرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل فثبت دلالة الآية على صحة الرؤية بل على وجوبها ولما على ان انكارها ليس الا من دين الكفار (المسئلة الثالثة) قوله لولا أنزل معناه هلا أنزل قال الكلبي ومقاتل نزلت هذه الآية في أبي جهل والوليد وأصحابهم الذين كانوا منكرين للنبوة والبعث * اما قوله تعالى لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا فاعلم أن هذا هو الجواب عن تلك الشبهة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في تقرير كونه جوابا وذلك من وجوه (أحدها) أن القرآن لما ظهر كونه معجزا فقد ثبت دلالة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فبعد ذلك يكون اقتراح امثال هذه الآيات لا لكون الامر محض الاستكبار والتعنت (وثانيها) أن نزول الملائكة لو حصل لكان أيضا من جملة المعجزات ولا يدل على الصدق نص ولا خص كونه نزول الملك بل لعموم كونه معجزا فيكون قبول ذلك المعجز ورد ذلك المعجز الآخر ترجيحا لاحد المثلين على الآخر من غير مزيد فائدة ومرجح وهو محض الاستكبار والتعنت (وثالثها) انهم بتقدير أن يروا الرب ويسألوه عن صدق محمد صلى الله عليه وسلم وهو سبحانه يقول نعم هو رسولي فذلك لا يزيد في التصديق على اظهار المعجز على يد محمد صلى الله عليه وسلم لانا بينا أن المعجز يقوم مقام التصديق بالقول الا أن فرق وقد ادعى النبوة بين أن يقول اللهم ان كنت صادقا فاحي هذا الميت فيحييه الله تعالى والعادة لم تجر له وبين أن يقول له صدقت واذا كان التصديق الحاصل بالاول أو الحاصل بالمعجز سيين في كونه تصديقا للمدعي كان تعيين أحدهما محض الاستكبار والتعنت (ورابعها) وهو الذي نقتصر أن الله سبحانه وتعالى يفعل بحسب المصالح على ما يقوله المعتزلة أو نقول ان الله تعالى يفعل بحسب المشيئة على ما يقوله أصحابنا فان كان الاول لم يجز لهم أن يعينوا المعجز اذ ربما كان اظهار ذلك المعجز مشتملا على مفسدة لا يعرفها الا الله تعالى وكان التعيين استكبارا وعتوا من حيث انه لم يظهر له مصلحة قطع بكونه مصلحة فمن قال ذلك فقد اعتقد في نفسه انه عالم بكل المعلومات وذلك استكبار عظيم وان كان الثاني وهو قول أصحابنا فليس للعبد أن يقترح على ربه فانه سبحانه يفعل ما يريد فكان الاقتراح استكبارا وعتوا وخروجا عن حد العبودية الى مقام المنازعة والمعارضة (وخامسها) وهو أن المقصود من بعثة الانبياء الاحسان الى الخلق فالملك الكبير اذا أحسن الى بعض الضعفاء برحمة عليه فأخذ ذلك الضعيف الى اللجاج والنزاع ويقول لا أريد هذا بل أريد ذلك حسن أن يقال ان هذا الملكي قد استكبر في نفسه وعتا عتوا شديدا من حيث لا يعرف قدر نفسه ومنتهى درجته فكذا ههنا (وسادسها) يمكن أن يكون المراد ان الله تعالى قال لو علمت أنهم ماذكروا هذا السؤال لاجل الاستكبار والعتو الشديد لاعطيتهم مقترحهم ولكني علمت انهم ذكروا هذا الاقتراح لاجل الاستكبار والتعنت فلو أعطيتهم مقترحهم لما انتفعوا به فلا جرم لا أعطيهم ذلك ثم هذا التأويل يعرف من اللفظ (وسابعها) لعلهم سمعوا من

واستكبار البعث وتكذيب وعده الحق (انهم كانوا كاذبين) في كل ما يقولون لاسيما في قولهم لا يبعث الله من يموت والتعبير عن الحق بالموصول للدلالة على تحامته وللاشعار بعلية ما ذكر في حيز الصلة للتبين وما عطف عليه وجعلهما غاية للبعث المشار اليه باعتبار ورود في معرض الرد على المخالفين وابطال

فان الكفرة اذا علموا أن تحقيق البعث اذا كان لتبين أنه حق وليعلموا أنهم كاذبون في انكاره كان ذلك أزجر لهم عن انكاره وأدعى الى الاعتراف به ضرورة أنه يدل على صدق العزيمة على تحقيقه كما تقول لمن ينكر انك تصلي لاصلين ونحو الا لنفسك ولان تكرر الآيات أدل على وقوع الفعل المغيا بها والا فالغاية الاصلية للبعث باعتبار ذاته انما هو الجزاء الذي هو الغاية القصوى للخلق المغيا بمعرفته عز وجل وعبادته وانما لم يذكر ذلك لتكرر ذكره في مواضع أخر وشهرته واعلم بدرج علم الكفار بكذبهم تحت التبيين بأن يقال وان الذين كفروا كانوا كاذبين بدل جيء بصيغة العلم لان ذلك ليس مما تعلق به التبيين الذي هو عبارة عن اظهار ما كان مبهما قبل ذلك بأن يضربه فيختلف فيه كالمعنى الذي تطلق به القرآن فاختلف فيه المختلفون وأما كذب الكافرين فليس من هذا القبيل فما يتعلق به علم ضروري حاصل لهم من قبل أنفسهم وقد مر تحقيقه في سورة التوبة عند قوله تعالى حتى يتبين

أهل الكتاب ان الله تعالى لا يرى في الدنيا وأنه تعالى لا يزال الملائكة في الدنيا على عوام الخلق ثم انهم علقوا ايمانهم على ذلك على سبيل التعنت أو على سبيل الاستهزاء (المسئلة الثالثة) قالت المعتزلة الآية دلت على أن الله تعالى لا يجوز رؤيته لان رؤيته لو كانت جائزة لما كان سؤالها عتوا واستكبارا قالوا وقوله لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ليس الا لاجل سؤال الرؤية حتى لو انهم اقتصروا على نزول الملائكة لما خوطبوا بذلك والدليل عليه ان الله تعالى ذكر أمر الرؤية في آية أخرى على حدة وذكر الاستعظام وهو قوله لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ثم ذكر نزول الملائكة على حدة في آية أخرى فلم يذكر الاستعظام وهو قولهم لولا أنزل علينا الملائكة وهل نرى الملائكة فثبت بهذا ان الاستكبار والعتو في هذه الآية انما حصل لاجل سؤال الرؤية واعلم أن الكلام على ذلك قد تقدم في سورة البقرة والذي نريده ههنا انا بينا ان قوله وقال الذين لا يرجون لقاءنا يدل على الرؤية واما الاستكبار والعتو فلا يمكن أن يدل ذلك على أن الرؤية مستحيلة لان من طلب شيأ محالا لا يقال انه عتا واستكبر الا ترى انهم لما قالوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة لم يثبت لهم بطلب هذا المحال عتوا واستكبارا بل قال انكم قوم تجهلون بل العتو والاستكبار لا يثبت الا اذا طلب الانسان ما لا يليق به ممن فوقه أو كان لا يقابله ولكنه يطلبه على سبيل التعنت وبالجملة فقد ذكرنا وجوها كثيرة في تحقيق معنى الاستكبار والعتو وانما كانت الرؤية ممتنعة أو ممكنة ومما يدل عليه ان موسى لما سأل الرؤية ما وصفه الله تعالى بالاستكبار والعتو لانه عليه الصلاة والسلام طلب الرؤية شوقا وهؤلاء طلبوها تحكما وتعنتا لاجرمه وصفهم بذلك فثبت فساد ما قاله المعتزلة (المسئلة الثالثة) انما قال في أنفسهم لانهم أضمروا الاستكبار في قلوبهم واعتقدوه كما قال ان في صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه وقوله وعتوا عتوا كبيرا أي تجاوزوا الحد في الظلم يقال عتا فلان وقد وصف العتو بالكبر فبالغ في اقراطه يعني انهم لم يجترؤا على هذا القول العظيم الا لانهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو * أما قوله تعالى يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا ففيه وجوه أحدها لو لا أنزل علينا الملائكة فيبين ان الذي سألوه ومسوحه ولكنهم يلقون منه ما يكرهون وههنا مسائل (المسئلة الاولى) ذكر واقي انتصاب يوم وجهين (الاول) أن العامل ما دل عليه لا بشرى أي يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى ويومئذ للتكرير (الثاني) ان التقدير اذكر يوم يرون الملائكة (المسئلة الثانية) اختلفوا في ذلك اليوم فقال ابن عباس يريد عند الموت وقال الباقون يريد يوم القيامة (المسئلة الثالثة) انما يقال للكافر لا بشرى لان الكافر وان كان ضالا مضلا الا انه يعتقد في نفسه انه كان هاديا مهتديا فكان يطمع في ذلك الثواب العظيم ولا يهم رجاءهم لولا ما رجوا فيه النفع كنصرة المظلوم وعطية الفقير وصلة الرحم ولكنه أبطلها بكفره فبين سبحانه انهم في أول الامر يشافهون بما يدل على نهاية الأسر والحسبة وذلك هو النهاية في الايلام وهو المراد من قوله ويقولون حجرا محجورا (المسئلة الرابعة) حتى الكلام ان يقال يوم يرون الملائكة لا بشرى لهم لكنه قال لا بشرى للمجرمين وفيه وجهان (أحدهما) أنه ظاهر في وضع ضمير (والثاني) انه عام فقد تناولهم بعمومه قالت المعتزلة تدل الآية على القطع بوعيد الفساق وعدم العفو لان قوله لا بشرى للمجرمين نكرة في سياق النفي فيعم جميع أنواع البشرى في جميع الاوقات بدليل أن من أراد تكذيب هذه القضية قال بل له بشرى في الوقت الفلاني فلما كان ثبوت البشرى في وقت من الاوقات يذكر لتكذيب هذه القضية علمنا أن قوله تعالى لا بشرى يقتضي نفي جميع أنواع البشرى في كل الاوقات ثم انه سبحانه أكد هذا النفي بقوله حجرا محجورا والعفو من الله من أعظم البشرى والخلاص من النار بعد دخولها من أعظم

البشرى

لك الذين صدقوا وانما خص الاسناد بهم حيث لم يقل ولنعلم ان الكافرين الآية لان علم المؤمن بذلك حاصل قبل ذلك أصلا (انما قولنا) استئناف لبيان كيفية التكوين على الاطلاق ابداء واعادة بعد التنبيه على أنية البعث ومنه يظهر كيفية ما كانة وقولنا لما عند أو قوله

(الشيء) أي أي شيء كان مما عزموا متعلق به على أن اللام للتبليغ كهي في قولك قلت له قم فقام وجملة الرجاء صفة شيء أي لأجل شيء وليس بواضح والتعبير عنه بذلك باعتبار وجوده عند تعلق مشيئة تعالى به لا أنه كان شيأ قبل ذلك (إذا أردناه) ظرف اقولنا أي وقت اراده تعالى لوجوده (أن نقول له كن) خبر للمبتدا (فيكون) اما عطف على مقدر أي فنقصد عنه الفاء ويسحب عليه الكلام أي فنقول ذلك فيكون كقوله تعالى اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون واما جواب لشرط محذوف اي فاذا قلنا ذلك فهو يكون وليس هنالك قول ولا مقول له ولا أمر ولا مأمور حتى يقال انه يلزم منه أحد المحالين اما خطاب المعدوم أو تحصيل الحاصل أو يقال انما يستدعيه انحصار قوله تعالى كن وليس يلزم منه انحصار أسباب التكوين فيه كما يفيده قوله تعالى انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون فان المراد بالامر هو الشان الشامل للقول والفعل ومن ضرورة انحصاره في كلمة كن انحصار أسبابه على الاطلاق فيه بل انما هو بحسب السؤل لسهولة تأتي المقدورات حسب تعلق مشيئته تعالى بها وتصويره لمن عجزوها بما هو علم في ذلك من طاعة المأمور المطيع لامر الآمر المطاع فالمعنى انما ايجاد الشيء عند تعلق مشيئته بأن نوجده في أسرع ما يكون ولما عبر عنه بالامر الذي هو قول مخصوص وجب أن يعبر عن مطلق الايجاد بالقول المطلق فتأمل وفي الآية الكريمة من الفخامة والجزالة ما يحار فيه العقول والالباب وقرئ بنصب يكون عطفا على نقول أو تشبيها له بجواب الامر (والذين هاجروا في الله) أي في شأن الله تعالى ورضاه وفي حقه ولوجهه (من بعد ما ظلموا) واعلهم الذين ظلمهم أهل مكة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرجوهم من ديارهم فهاجروا الى الحبشة ثم

البشري وشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من أعظم البشرى فوجب أن لا يثبت ذلك لاحد من الخلق والكلام على التفصيل لصيغ العموم قد تقدم غير مرة قال المفسرون المراد بالخلق ههنا الكفار بدليل قوله انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة (المسئلة الخامسة) في تفسير قوله هجرا مجهورا وقد ذكرنا سيبويه في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بافعال مضمرة لك اظهارها نحو معاذ الله وقعدك الله وعمرك الله وهذه كلها كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو أو هجوم نازلة ونحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة قال سيبويه يقول الرجل للرجل يفعل كذا وكذا فيقول حجرا وهي من حجره اذا منعه لان المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه فكان المعنى أسأل الله أن يمنع ذلك منعا وحجره حجرا وحجيشه على فعل أو فعل في قراءة الحسن تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد فان قيل بما ثبت انه من باب المصادر فلعله بمعنى وصفه بكونه محجورا قلنا جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا ذابل ذابل فالذبل الهوان رموت مائت وحرام محرم (المسئلة السادسة) اختلفوا في ان الذين يقولون حجرا محجورا من هم على ثلاثة أقوال (القول الاول) أنهم هم الكفار وذلك لانهم كانوا يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه ثم اذا رأوهم عند الموت ويوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم لانهم لا يلقونهم الا بما يكرهون فقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو ونزول الشدة (القول الثاني) أن القائلين هم الملائكة ومعناه حراما محرما عليكم الغفران والجنة والبشرى أي جعل الله ذلك حراما عليكم ثم اختلفوا على هذا القول فقال بعضهم ان الكفار انما يخرجون من قبورهم قالت الحفظة لهم حجرا محجورا وقال الكلبي الملائكة على أبواب الجنة يبشرون المؤمنين بالجنة ويقولون للمشركين حجرا محجورا وقال عطية اذا كان يوم القيامة يلقى الملائكة المؤمنين بالبشرى فاذا رأى الكفار ذلك قالوا لهم بشرونا فيقولون حجرا محجورا (القول الثالث) وهو قول القفال والواحدي وروى عن الحسن ان الكفار يوم القيامة اذا شاهدوا ما يخافونه فيتعوذون منه ويقولون حجرا محجورا فتقول الملائكة لا يعاذ من شر هذا اليوم * أما قوله تعالى وقدمنا فقد استدلت المجسمة بقوله وقدمنا لان القدوم لا يصح الا على الاجسام وجوابه انه لما قامت الدلالة على امتناع القدوم عليه لان القدوم حركة والموصوف بالحركة محدث ولذلك استدل الخليل عليه السلام بأفول الكواكب على حدوثها وثبت أن الله عز وجل لا يجوز أن يكون محدثا فوجب تأويل لفظ القدوم وهو من وجوه (أحدها) وقدمنا الى ما عملوا من عمل أي وقصدنا الى أعمالهم فان القادم الى شيء قاصد له فالقصد هو المؤثر في القدوم اليه وأطلق المسبب على السبب مجازا (وثانيها) المراد قدوم الملائكة الى موضع الحساب في الآخرة ولما كانوا يأمره يقدمون جاز أن يقول وقدمنا على سبيل التوسع ونظيره قوله فلما آسفونا انتقمنا منهم (وثالثها) ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها فلما أراد الله أعمالهم وأفسدها بالكلية صارت شبيهة بالمواضع التي يقدمها الملك فلا جرم قال وقدمنا * أما قوله الى ما عملوا من عمل يعني الاعمال التي اعتقدوها برا وظنوا انها تقربهم الى الله تعالى والمعنى الى ما عملوا من أي عمل كان أما قوله فجعلناه هباء منثورا فالمراد أبطلناه وجعلناه بحيث لا يمكن الانتفاع به كالهباء المنثور الذي لا يمكن القبض عليه ونظيره قوله تعالى كسراب بقيعة كرماد اشتدت به الريح كمصعف ما كول قال أبو عبيدة والزجاج الهباء مثل الغبار يدخل من الكوة مع ضوء الشمس وقال مقاتل انه الغبار الذي يستطير من حوافر الدواب * أما قوله أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا فاعلم أنه سبحانه لما بين حال الكفار في الخسار الكلي والطبيعة التامة شرح وصف أهل الجنة تنبيها على أن الحظ كل الحظ في طاعة الله تعالى وهو هنا سؤالات (الاول) كيف يكون أصحاب الجنة خير امستقرا من أهل

براءهم الله تعالى المدينة حسنا وعد بقوله سبحانه (لنبوئنهم فى الدنيا حسنة) أى مباءة حسنة أو تبوئة حسنة كما قال قتادة وهو الانسب بما هو المشهور من كون السورة غير ثلاث آيات من آخرها مكية وأما ما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنها نزلت فى صهيب وبلال وعمار وخباب وعابس وجبير وأبى جندل بن سهيل أخذهم المشركون فعذبوهم ليردوهم عن الاسلام فأما صهيب فقال لهم أنا رجل كبير ان كنت معكم لم أنفعكم وان كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما رآه أبو بكر رضى الله عنه قال ربح البيع يا صهيب وقال عمر رضى الله عنه نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه فانما يناسب ما حكى عن الاصم من كون كل السورة مدنية وما نقل عن قتادة من كون هذه الآية الى آخر السورة مدنية فيحمل ما نقلناه عنه من نزول الآية فى أصحاب الهجرتين على أن يكون نزولها بالمدينة بين الهجرتين وأما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من جملتهم فلا يساعده نظم التنزيل ولا شأنه الجليل وقرئ لنثوينهم ومعناه اثواءة حسنة أولة تزلنهم فى الدنيا منزلة حسنة وهى الغلبة على من ظلمهم من أهل مكة وعلى العرب قاطبة وأهل الشرق والغرب كافة (ولاجر الآخرة) أى أجر اعمالهم المذكورة فى الآخرة (أكبر) مما يحصل لهم فى الدنيا وعن عمر رضى الله عنه أنه كان اذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له خذ بارك الله تعالى لك فيه هذا ما وعدك الله تعالى فى الدنيا وما ادخر فى الآخرة أفضل (لو كانوا يعلمون) الضمير للكفار أى لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم فى الدين وقيل للمهاجرين أى لو علموا ذلك لزادوا فى الاجتهاد أو لما تألموا لما أصابهم من المهاجرة وشدائدها (الذين صبروا) على الشدائد

النار ولا خير فى النار ولا يقال فى العمل هو أحلى من الحنظل (والجواب) من وجوه (الاول) ما تقدم فى قوله أذلك خير أم جنة الخلد (والثانى) يجوز أن يريد أنهم فى غاية الخيبة لان مستقره خير من النار كقول الشاعر

ان الذى سمك السماء بنى لنا ✻ بيتا دعائمه أعز وأطول

(الثالث) التفاضل الذى ذكر بين المنزلتين انما يرجع الى الموضع والموضع من حيث انه موضع لا شرف فيه (الرابع) هذا التفاضل واقع على هذا التقدير أى لو كان لهم مستقر فيه خير لكان مستقر أهل الجنة خيرا منه (السؤال الثانى) الآية دلت على أن مستقرهم غير مقيلهم فكيف ذلك (والجواب) من وجوه (الاول) ان المستقر مكان الاستقرار والمقيل زمان القيلولة فهذا اشارة الى أنهم من المكان فى أحسن مكان ومن الزمان فى أطيب زمان (الثانى) ان مستقر أهل الجنة غير مقيلهم فانهم يقيلون فى الفردوس ثم يعودون الى مستقرهم (الثالث) أن بعد الفراغ من المحاسبة والذهاب الى الجنة يكون الوقت وقت القيلولة قال ابن مسعود لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار وقرأ ابن مسعود ثم ان مقيلهم لالى الجحيم وقال سعيد بن جبير ان الله تعالى اذا أخذ فى فصل القضاء قضى بينهم بقدر ما بين صلاة الغداة الى انتصاف النهار فيقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار وقال مقاتل يخفف الحساب على أهل الجنة حتى يكون بمقدار نصف يوم من أيام الدنيا ثم يقيلون من يومهم ذلك فى الجنة (السؤال الثالث) كيف يصح القيلولة فى الجنة والنار وعندكم أن أهل الجنة فى الآخرة لا ينامون وأهل النار أبدا فى عذاب يمرحون وأهل الجنة فى نعيم يمرحون (والجواب) قال الله تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وليس فى الجنة بكرة وعشى لقوله تعالى لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ولانه اذا لم يكن هناك شمس لم يكن هناك نصف نهار ولا وقت القيلولة بل المراد منه بيان أن ذلك الموضع أطيب المواضع وأحسنها كما أن موضع القيلولة يكون أطيب المواضع والله أعلم ✻ قوله تعالى ✻ (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا) اعلم أن هذا الكلام مبنى على ما استدعوه من انزال الملائكة فبين سبحانه أنه يحصل ذلك فى يوم له صفات (الصفة الاولى) ان فى ذلك اليوم تشقق السماء بالغمام وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله اذا السماء انفطرت يدل على التشقق وقوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام يدل على الغمام فقوله تشقق السماء بالغمام جامع لمعنى الآيتين ونظيره قوله تعالى وفتحت السماء فكانت أبوابا وقوله فهى يومئذ واهية (المسئلة الثانية) قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة بتخفيف الشين هنا وفى سورة ق والباقون بالتشديد قال أبو عبيدة الاختيار التخفيف كما يخفف قساعلون ومن شدد فمعناه تتشقق (المسئلة الثالثة) قال الفراء الباء من قوله بالغمام أى عن الغمام لان السماء لا تتشقق بالغمام بل عن الغمام وقال القاضى لا يمتنع أن يجعل تعالى الغمام بحيث تتشقق السماء باعتماده عليه وهو كقوله السماء منفطر به (المسئلة الرابعة) لا بد من أن يكون لهذا التشقق تعلق بنزول الملائكة فقبل الملائكة فى أيام الانبياء عليهم السلام كانوا ينزلون من مواضع مخصوصة والسماء على اتصالها فمن أين لها هنا فى ذلك اليوم تتشقق السماء فاذا انشقت خرج من أن يكون حائلا بين الملائكة وبين الارض فنزلت الملائكة الى الارض (المسئلة الخامسة) قوله ونزل الملائكة صيغة عموم فيتناول الكل ولان السماء مقر الملائكة فاذا تشققت وجب أن ينزلوا الى الارض ثم قال مقاتل تتشقق سماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من سكان

من أذية الكفار ومفارقة الأهل والوطن وغير ذلك وهذه التعبير أبلغ الرفع على المدح (وعلى ربهم) خاصة (يتوكلون) منقطعين اليه تعالى معرضين عما سواه متوجهين اليه لا لغيره كما وافق الجملة اسما معطوفة على الجملة وتقديم الجار والمجرور للدلالة على قصر التوكل على الله تعالى وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام التوكل أو حال من ضمير صبروا (وما أرسلنا من قبلك ٢٦٩ الا رجالا نوحي اليهم) وقرئ بالياء مبنيا للمفعول وهو رد لقريش حين قالوا الله أجل من أن يكون لرسول من البشر كما هو منتهى قولهم لو شاء الله ما عبدنا الخ أي جرت السنة الالهية حسبما اقتضته الحكمة بأن لا يبعث للدعوة العامة الا بشرا يوحى اليهم بواسطة الملك أو امره ونواهيه ليبلغوها الناس ولما كان المقصود من الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تنبيه الكفار على مضمونه صرف الخطاب اليهم فقيل (فاسئلوا أهل الذكر) أي أهل الكتاب أو علماء الاخبار أو كل من يذكر يعلم وتحقيق ليعلموكم ذلك (ان كنتم لا تعلمون) حذف جوابه لدلالة ما قبله عليه وفيه دلالة على أنه لم يرسل للدعوة العامة ملكا وقوله تعالى جاعل الملائكة رسلا صفة رسلا الى الملائكة أولى الرسل ولا امرأة ولا صبيا ولا بناقية نبوة عيسى عليه الصلاة والسلام وهو في المهد لانها أعظم من الدنيا كذلك تشقق سماء سماء ثم ينزل الكروبيون وحملة العرش ثم ينزل الرب تعالى وترى الضحاك عن ابن عباس قال تشقق كل سماء وينزل سكانها فيحيطون بالعالم ويصيرون سبع صفوف حول العالم واعلم أن نزول الرب بذاته باطل قطعا لان النزول حركة والموصوف بالحركة محدث والاله لا يكون محدثا وأما نزول الملائكة الى الارض فعليه سؤال وذلك لانه ثبت أن الارض بالقياس الى سماء الدنيا كحلقة في فلاة فكيف بالقياس الى الكرسي والعرش فلائكة هذه المواضع وأسرها كيف تسع لهم الارض جميعا فلعل الله تعالى يزيد في طول الارض وعرضها ويبلغها مبلغا يتسع لكل هؤلاء ومن المفسرين من قال الملائكة يكونون في الغمام حقه والله تعالى يسكن الغمام فوق أهل القيامة ويكون ذلك الغمام مقرا للملائكة قال الحسن والغمام سترة بين السماء والارض تعرج الملائكة فيه بصحف أعمال بني آدم والمحاسبة تكون في الارض (المسئلة السادسة) أما نزول الملائكة فظاهر ومعنى تنزيلا تنزيلا تأكيد للنزول ودلالة على أمر اعظم فيه (المسئلة السابعة) الالف واللام في الغمام ليس للعموم فهو للعهد والمراد ما ذكروه في قوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة (المسئلة الثامنة) قرئ ونزل الملائكة ونزل الملائكة ونزلت الملائكة ونزل الملائكة على حذف النون الذي هو فاء الفعل من نزل قراءة أهل مكة (الصفة الثانية لذلك اليوم) قوله الملك يومئذ الحق للرحمن قال الزجاج الحق صفة للملك وتقديره الملك الحق يومئذ للرحمن ويجوز الحق بالنصب على تقدير أعني ولم يقرأ به ومعنى وصفه بكونه حقا أنه لا يزول ولا يتغير فان قيل مثل هذا الملك لم يكن قط الا للرحمن فما الفائدة في قوله يومئذ فلنا لان في ذلك اليوم لا ملك سواه لا في الصورة ولا في المعنى فتضمحل له الملوك وتعزله الوجوه وتذل له الجبابرة بخلاف سائر الايام واعلم أن هذه الآية تدل على فساد قول المعتزلة في أنه يجب على الله الثواب والعوض وذلك لانه لو وجب لاستحق الذم بتركه فكان خائفا من أن لا يفعل فلم يكن ملكه طلقا وأيضا فقوله الملك يومئذ الحق للرحمن يفيد انه ليس لغيره ملك وذلك لا يتم على قول المعتزلة لان كل من استحق عليه شيأ فانه يكون مالكا له ولا يكون هو سبحانه مالكا لذلك الشيء لانه سبحانه اذا استحق على أحد شيأ امكنه أن يعفو عنه أما غيره اذا استحق عليه شيأ فانه لا يصح ابرأؤه عنه فكانت اليهودية ههنا أتم ولان من كفر بالله الى آخر عمره ثم في آخر عمره عرف الله لحظة ومات فهو سبحانه لو أعطاه ألف ألف سنة أنواع الثواب وأراد بعد ذلك أن لا يعطيه لحظة واحدة صار سفيها وهذا نهاية اليهودية والدل فكيف يليق بمن هذا حاله أن يقال له الملك يومئذ الحق للرحمن وأيضا فكل من فعل فعلا لولم يفعله لكان مستوجبا للذم وكان بذلك الفعل مكتسبا للكمال ومتركه مكتسبا للنقصان فلم يكن ملكا بل فقيرا مستحقا فثبت أن قولي سبحانه الملك يومئذ الحق للرحمن غير لائق بأصول المعتزلة (الصفة الثالثة) قوله وكان يوما على الكافرين عسيرا فان معنى ظاهر لانه تعالى عالم بالاحوال قادر على كل ما يريده وأما غيره فانه لكل في رتبة العجز ولجام القهر فكان في نهاية العسر على الكافر (الصفة الرابعة) قوله يوم يعض الظالم على يديه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الالف واللام في الظالم فيه قولان (أحدهما) انه للعموم (والثاني) أنه للعهد وهو المقاتلون بالعهود على قولين (الاول) قال ابن عباس المراد عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس كان لا يقدم من سفر الا صنع طعاما ودعا اليه جيرته من أهل مكة ويكثر فجاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فصنع طعاما ودعا الرسول فقال صلى الله عليه وسلم ما أنا بآكل من طعامك حتى تأتي بالشهادتين ففعل فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه فبلغ هذا أمية بن خلف فقال صبوت يا عقبة وكان خليلا فقال اشهد كرت ذلك ليأكل من طعامي فقال لا أرضى

الرسالة والاشارة الى وجوب المراجعة الى العلماء فيما لا يعلم (بالبينات والزبر) بالمعجزات والكتب والباء متعلقة بمحذوف وقع جوابا عن سؤال من قال لم أرسلوا فقيل أرسلوا بالبينات والزبر أو بما أرسلناك اليهم لانك أحلت الاستثناء مع رجالا عندمن يجوزه أي ما أرسلنا الا رجالا بالبينات كقولك ما ضربت الا زيدا بالسوط أو على نية التقديم قبل أداة الاستثناء أي

ما أرسلناه من قبلك بالبينات والزبر الا رجالا نحو ما أرسلناك به رجالا مثلك ما هم ولا ما وقع صفة للمثنى أي الا رجالا ملتبسين بالبينات أو بوحي على المفعولية أرسلنا اليهم من الفائم مقام فاعل يوحى وهو اليهم على أن قوله تعالى فاسألوا اعتراض أو بقوله لا تعلمون على أن الشرط لا تبكيت كقول الاخير ٣٧٠ ان كنت عالمت لك فاعطني حقي (وأنزلنا اليك الذكر) أي القرآن وانما سمي به لانه

تذكير وتنبيه للغافلين (لتبين للناس) كافة وبدخل فيهم أهل مكة دخولا أوليا (ما نزل اليهم) في ذلك الذكر من الاحكام والشرائع وغير ذلك من أحوال القرون الهالكة بأفانين العذاب حسب أجرامهم الموجبة لذلك على وجه التفصيل بيانا شافيا كافيا ينبغي عنه صيغة التفعيل في الفعلين لاسيما بعد ورود الثاني أولا على صيغة الافعال ولما أن التبيين أعم من التصريح بالمقصود ومن الارشاد الى ما يدل عليه وحمل بعضهم الناس على الاطلاق سواء كان في الاحكام الشرعية أو غيرها ولعل قوله عز وجل (ولعلهم يتفكرون) اشارة الى ذلك أي ارادة أن يتأملوا فيتنبهوا للحقائق وما فيه من العبر ويحترزوا عما يؤدي الى مثل ما أصاب الاولين من العذاب (أفأمن الذين مكروا السيئات) هم أهل مكة الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وراموا صد أصحابه عن الايمان عليهم الرضوان لا الذين احتالوا لقتله الا نبياء كما قيل ولا عبرة بالفرق بين ما أريد به هؤلاء وبين ما أصاب أوائل من فنون العذاب المعدودة والسيئات نعت لمصدر محذوف أي مكروا المكرات السيئات التي قصت عنهم أو مفعول به للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل أي عملوا السيئات نحو قوله تعالى (أن يخسف الله بهم الارض) مفعول لامن أو السيئات صفة لما هو المفعول أي أفأمن

أبدا حتى تأتيه فتبرق في وجهه وتطأ على عنقه ففعل فقال عليه السلام لا لات خار جا من مكة الا علوت رأسك بالسيف فنزل ويوم بعض الظالم على يديه ندامة يعني عقبة يقول يا ليتني لم أتخذ أمية خليلا لقد أضلني عن الذكر أي صرفني عن الذكر وهو القرآن والايمان بعد اذ جاءني مع محمد عليه السلام فأسر عقبة يوم بدر فقتل صبرا ولم يقتل يومئذ من الاسارى غيره وغير النضر بن الحرث (الثاني) قالت الرافضة هذا الظالم هو رجل بعينه وان المسلمين غيروا اسمه وكتموه وجعلوا فلانا بدلا من اسمه وذكروا فاضلين من أصحاب رسول الله واعلم ان اجراء اللفظ على العموم ليس لنفس اللفظ لانا بينا في أصول الفقه أن الالف واللام اذا دخل على الاسم المفرد لا يفيد العموم بل انما يفيده للقرينة من حيث ان ترتيب الحكم على الوصف مشعر بعلية الوصف فدل ذلك على ان المؤثر في العض على اليدين كونه ظالما وحينئذ يعم الحكم لعموم علته وهذا القول أولى من التخصيص بصورة واحدة لان هذا الذي ذكرناه يقتضي العموم يزيد وله في واقعة أخرى خاصة لا ينافي أن يكون المراد هو العموم حتى يدخل فيه تلك الصورة وغيرها ولان المقصود من الآية زجر الكل عن الظلم وذلك لا يحصل الا بالعموم وأما قول الرافضة فذلك لا يتم الا بالطعن في القرآن واثبات انه غير مبدل لانزاع في أنه كفر (المسئلة الثانية) استدلت المعتزلة بقوله ويوم يعض الظالم على يديه قالوا الظالم يتناول الكافر والفاسق فدل على أن الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة والكلام عليه تقدم (المسئلة الثالثة) قوله يعض الظالم على يديه قال الخضائك يأكل يديه الى المرفق ثم تنبت فلا يزال كذلك كلما أكلها نبتت وقال أهل التحقيق هذه اللفظة مشعرة بالتحسر والتلهف يقال عض أنامله وعض على يديه (المسئلة الرابعة) كما بينا ان الظالم غير مخصوص بشخص واحد بل يعم جميع الظلمة فكذا المراد بقوله فلانا ليس شخصا واحدا بل كل من أطيع في معصية الله واستشهد المقال بقوله وكان الكافر على ربه ظهيرا ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا يعني به جماعة الكفار (المسئلة الخامسة) قرئ يا ويلتي بالياء وهو الاصل لان الرجل ينادي ويلته وهي هلكته يقول لها تعالي فهذا أوانك واما قلبت الياء ألفا كما في محاري وعذاوي (المسئلة السادسة) قوله عن الذكر أي عن ذكر الله أو القرآن وهو عظة الرسول وهجوز أن يريد طعنه بشهادة الحق وغيره على الاسلام والشيطان اشارة الى خليله سماه شيطانا لانه أضله كما يضل الشيطان ثم خذله ولم ينفعه في الناقبة أو أراد ابليس فانه هو الذي حمله على ان صار خليلا لذلك المضل ومخالفة الرسول ثم خذله أو أراد الجنس وكل من تشيطن من الجن والانس ويحتمل أن يكون وكان الشيطان حكاية كلام الظالم وان يكون كلام الله ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وقال الرسول يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا﴾ اعلم أن الكفار لما أكثروا من الاعتراضات الفاسدة ووجوه التعنت ضاق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم وشكاهم الى الله تعالى وقال يارب ان قومي اتخذوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أكثر المفسرين انه قول واقع من الرسول صلى الله عليه وسلم وقال أبو مسلم بل المراد أن الرسول عليه السلام يقوله في الآخرة وهو كقوله فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا والاول أولى لانه موافق للفظ ولان ما ذكره الله تعالى من قوله وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ولا يليق الا اذا كان وقع ذلك القول منه (المسئلة الثانية) ذكروا في المهجور قولين (الاول) انه من الهجران أي تركوا الايمان به ولم يقبلوه وأعرضوا عن استماعه (الثاني) أنه من أهجر أي هجروا فيه ثم حذف الجار ويؤكده قوله تعالى مستكبرين به سامرا تهجرون ثم هجرهم فيه انهم كانوا يقولون انه سحر وشعر وكذب

الماكرون العقوبات السيئة وقوله أن يخسف الخ بدل من ذلك وعلى كل حال فالفاء للعطف على مقدر يستحب عليه النظم الكريم أي أنزلنا الملك الذكر لتبين لهم مضمونه الذي من جملته أنباء الأمم الهالكة فتنون العذاب ويتفكروا في ذلك الم يتفكروا فأمن الذين مكروا السيآت أن يخسف الله بهم الارض كما فعل بقارون على توجيه الانكار الى المعاصرين معه أو اتفكروا فأمنوا على توجيه الى المعطوف عليه أي ان الامن بعد التفكر مما لا يكاد يفعله أحد وقيل هو معطوف على مقدر ينبئ عنه السياق أي أمكر فأمن الذين مكروا الخ (أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) باتيانه أي في حالة غفلتهم أو من مأمنهم أو من حيث يرجون اتيان ما يشعرون كما حكي فيما سلف عما نزل بالماكرين (أو يأخذهم في تقلبهم) أي في حالة تقلبهم في مكاسبهم ومتاجرهم (فما هم بمعجزين) ممتنعين أو فائتين بالهرب والفرار على ما يوهمه حال التقلب والسير والفاء اما للتعليل الاخذ أو لترتب عدم الاعجاز عليه دلالة على شدته وفظاعته حسبما قال عليه السلام ان الله ليملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته واير اد الجملة الاسمية للدلالة على دوام النفي لانافي الدوام (أو يأخذهم على تخوف) أي مخافة وحذر عن الهلاك والعذاب بأن يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم

وهجروا هذيان وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من تعلم القرآن وعلق مصحفا لم يتعهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقا به يقول يارب العالمين عبدك هذا اتخذني مهجورا اقض بيني وبينه ثم انه تعالى قال مسليا لرسوله عليه الصلاة والسلام ومعزيا له وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين بيان لذلك ان له أسوة بسائر الرسل فليصبر على ما يلقاه من قومه كما صبروا ثم فيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى خالق الخير والشر لان قوله تعالى جعلنا لكل نبي عدوا يدل على أن تلك العداوة من جعل الله ولا شك أن تلك العداوة كفر قال الجبائي المراد من الجعل التبيين فانه تعالى لما بين انهم أعداؤه جاز أن يقول جعلناهم أعداءه كما اذا بين الرجل أن فلانا ناقص يقال جعله ناقصا كما يقال في الحاكم عدل فلانا وفسق فلانا وجرحه قال الكعبي انه تعالى لما أمر الانبياء بعداوة الكفار وعداوتهم للكفار تقتضي عداوة الكفار لهم فلهذا جاز أن يقول وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين لانه سبحانه هو الذي حمله ودعاه الى ما استعقب تلك العداوة وقال أبو مسلم يحتمل في العداوة انه البعيد لا القريب اذا المعاداة المعاشرة كما أن النصر القريب والظاهر وقد يا عدا الله تعالى بين المؤمنين والكافرين (والجواب) عن الاول ان التبيين لا يسمونه البتة جعلا لان من بين لغيره وجود الصانع وقدمه لا يقال انه جعل الصانع وجعل قدمه (والجواب) عن الثاني أن الذي أمره الله تعالى به هل له تأثير في وقوع العداوة في قلوبهم أو ليس له تأثير فان كان الاول فقد تم الكلام لان عداوتهم للرسول صلى الله عليه وسلم كفر وذا أمر الله الرسول بما له أثر في تلك العداوة فقد أمره بما له أثر في وقوع الكفر وان لم يكن فيه تأثير البتة كان منقطعا عنه بالكلية فيمتنع اسناده اليه وهذا هو الجواب عن قول أبي مسلم (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول ان قول محمد عليه السلام يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا في المعنى كقول نوح عليه السلام رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي الا فرارا وكما أن المقصود من هذا انزال العذاب فكذا ههنا فكيف يليق هذا بمن وصفه الله بالرحمة في قوله وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ؟ جوابه أن نوحا عليه السلام لما ذكر ذلك دعا عليهم وأما محمد عليه الصلاة والسلام فلما ذكر هذا ما دعا عليهم بل انتظر فلما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين كان ذلك كالامر له بالصبر على ذلك وترك الدعاء عليهم فظهر الفرق (المسئلة الثالثة) قوله جعلنا صيغة العظماء والمعظم اذا ذكر نفسه في كل معرض من التعظيم وذكر أنه يعطي فلابد وأن تكون تلك العطية عظيمة كقوله ولقد آتيناك سبعا من المثاني وقوله انا أعطيناك الكوثر فكيف يليق بهذه الصفة أن تكون تلك العطية هي العداوة التي هي منشأ الضرر في الدين والدنيا وجوابه ان خالق العداوة رتب لازيادا لمشقة التي هي موجبة لمزيد الثواب والله أعلم (المسئلة الرابعة) يجوز أن يكون المدو واحدا وجمعا كقوله فانهم عدو لي وجاء في التفسير أن عدو الرسول صلى الله عليه وسلم أبو جهل أما قوله وكفى بربك هاديا ونصيرا فمثال الزجاج الباء زائدة يعني كفى ربك هاديا ونصيرا مغنيا وبان على الحال هاديا الى مصالح الدين والدنيا ناصرا على الاعداء ونظيره ما أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴿ قوله تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا ﴾ اعلم أن هذا هو الشبهة الخامسة لمنكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وان أهل مكة قالوا نرى أنك رسول من عند الله أفلا تأتينا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة جملة على موسى والانجيل على عيسى والزبور على داود وعن ابن جريج بين

العذاب وهم متخوفون وحيث كانت حالة التقلب والتخوف مظنة للهرب عبر عن اصابة العذاب فيهما بالاخذ وعن اصابته حالة الغفلة المنبئة عن السكون بالاتيان وقيل التخوف التنقص قال قائلهم

تخوف الرحل منها تامكا قردا ✻ كما تخوف عود النبعة السفن

أي يأخذهم على أن ينقصهم شيأ بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا والمراد ذكر الاحوال الثلاث ان قدرة الله سبحانه على

هـلاكهم بأى وجه كان لا لما صرحتم به (فان ربكم لرؤف رحيم) حيث لا يعاجلكم بالعقوبة ويحلم عنكم مع استحقاقكم لها (أولم يروا) استفهام انكارى وقرئ على صيغة الخطاب والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألم ينظروا ولم يروا متوجهين (الى ما خلق الله من شئ) أى من كل شئ (يتفيأ ظلاله) ٣٧٢ أى يرجع شيأ فشيأ حسبما يقتضيه ارادة الخالق تعالى فان التفيؤ مطاوع الافاءة وقرئ بتأنيث الفعل (عن اليمين والشمائل) أى اليمين والاشياء التى لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها أى عن جانبى كل واحد منها استعير لهما ذلك من يمين الانسان وشماله (سجدا لله) حال من الظلال كقوله تعالى وظلالهم بالغدو والآصال والمراد بسجودها قصرفها على مشيئة الله سبحانه وتأتيها لارادته تعالى فى الامتداد والتقلص وغيرهما غير منتهية عليه فيما سخرها له وقوله تعالى (وهم داخرون) أى صاغرون منقادون حال من الضمير فى ظلاله والجمع باعتبار المعنى وايراد الصيغة الخاصة بالعقلاء لما أن الشعور من خصائصهم والمعنى ترجع الظلال من جانب الى جانب بارتفاع الشمس وانحدارها أو باختلاف مشارقها ومغاربها فانها كل يوم من أيام السنة تتحرك على مدار معين من المدارات اليومية بتقدير العزيز العليم منقادة لما قدر لها من التفيؤ وأوقاته على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد وحال أن أصحابها من الاجرام داخرة منقادة لحكمه تعالى ووصفها بالدخور من عن وصف ظلالها به أو كالهما حال من الضمير المشار اليه والمعنى ترجع ظل تلك الاجرام حال كونها منقادة لله تعالى داخرة فوصفها بهما عن وصف ظلالها بهما ولعل المراد بالموصول الجمادات من الجبال والاشجار

أوله وآخره ثنتان أو ثلاث وعشرون سنة وأجاب الله بقوله كذلك لنثبت به فؤادك وبيان هذا الجواب من وجوه (أحدها) أنه عليه السلام لم يكن من أهل القراءة والكتابة فلو نزل عليه ذلك جملة واحدة كان لا يضبطه ولجاز عليه الغلط والسهو وانما نزلت التوراة جملة لانها مكتوبة يقرؤها موسى (وثانيها) أن من كان الكتاب عنده فربما اعتمد على الكتاب وتساهل فى الحفظ فالله تعالى ما أعطاه الكتاب دفعة واحدة بل كان ينزل عليه وظيفة ليكون حفظه له أكمل فيكون أبعد له عن المساهلة وقلة التحصيل (وثالثها) أنه تعالى لو أنزل الكتاب جملة واحدة على الخلق لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة على الخلق فكان يثقل عليهم ذلك اما لما نزل مفرقا نجما نجما لا جرم نزلت التكاليف قليلا قليلا فكان تحملها أسهل (ورابعها) انه اذا شاهد جبريل حالا بعد حال يقوى قلبه بمشاهدته فكان أقوى على أداء ما حمل وعلى الصبر على عوارض النبوة وعلى احتمال أذية قومه وعلى الجهاد (وخامسها) انه لما تم شرط الاعجاز فيه مع كونه منجما ثبت كونه معجزا فانه لو كان ذلك مقدورا للبشر لوجب أن يأتوا بمثله منجما مفرقا (وسادسها) كان القرآن ينزل بحسب أسئلتهم والوقائع الواقعة لهم فكانوا يزدادون بصيرة لان سبب ذلك كان ينضم الى الفصاحة الاخبار عن الغيوب (وسابعها) أن القرآن لما نزل منجما مفرقا وهو عليه السلام كان يتحداهم من أول الامر فكأنه تحداهم بكل واحد من نجوم القرآن فلما عجزوا عنه كان تعجيزهم عن معارضة الكل أولى فبهذا الطريق ثبت فى قوله ان القوم عاجزون عن المعارضة لا محالة (وثامنها) أن السفارة بين الله تعالى وبين أنبيائه وتبليغ كلامه الى الخلق منصب عظيم فيجوز أن يقال انه تعالى لو أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة لبطل ذلك المنصب على جبريل عليه السلام فلما أنزله مفرقا نجما نجما بقى ذلك المنصب العالى عليه فلاجل ذلك جعله الله سبحانه وتعالى مفرقا نجما أما قوله كذلك ففيه وجهان (الاول) انه من تمام كلام المشركين أى جعلوه واحدة كذلك أى كالتوراة والانجيل وعلى هذا لا يحتاج الى اضمار فى الآية وهو أن يقول أنزلناه مفرقا لنثبت به فؤادك (الثانى) أنه كلام الله تعالى ذكر جوابا لهم أى كذلك أنزلناه مفرقا فان قيل ذلك فى كذلك يجب أن يكون اشارة الى شئ تقدم وهو الذى تقدم فهو انزاله جملة فكيف فسرتموه كذلك أنزلناه مفرقا قلنا لان قولهم لولا نزل عليه جملة واحدة معناه لم نزل مفرقا فذلك اشارة اليه أما قوله تعالى ورتلناه ترتيلا ففى الترتيل فى الكلام أن يأتى بعضه على اثر بعض على تؤدة وتمهل وأصل الترتيل فى الاسنان وهو تفلجها يقال ثغر رتل ورمتل وهو حديث المتراص ثم انه سبحانه وتعالى لما بين فساد قولهم بالجواب الواضح قال ولا يأتونك بمثل من الجنس الذى تقدم ذكره من الشبهات الا جئناك بالحق الذى يدفع قولهم كما قال تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق وبين أن الذى يأتى به أحسن تفسيرا لاجل ما فيه من المزية فى البيان والظهور ولما كان التفسير هو الكشف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه ففائدة التفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا وكذا وأما قوله الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس على ثلاثة أصناف صنف على الدواب وصنف على الاقدام وصنف على الوجوه وعنه عليه السلام ان الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (المسئلة الثانية) الاقرب أنه صفة للقوم الذين أوردوا هذه الاسئلة على سبيل التعنت وان كان غيرهم من أهل النار يدخل معهم (المسئلة الثالثة) جملة بعضهم على انهم يمشون فى الآخرة مقلوبين وجوههم الى القرار وأرجلهم الى فوق روى ذلك عن الرسول صلى الله عليه وسلم وقال آخرون المراد انهم يحشرون ويسحبون على وجوههم وهذا أيضا مروى عن الرسول

والاحجار التي لا يظهر الظلال لها أو سوى التفاوت بما ذكر من ارتفاع الشمس وانصداعها أو اختلاف مشارقها ومغاربها وأما الحيوان فظله يتحرك بتحركه وقيل المراد باليمين والشمائل يمين الفلك وهو جانبه الشرقي لان الكواكب منه تظهر أولا في الارتفاع والسطوع وشماله وهو جانبه الغربي المقابل له فان الظلال في أول النهار تبتدئ من الشرق واقعة على الربع الغربي من الارض وعند الزوال تبتدئ من الغرب واقعة على الربع الشرقي منها وبعدما بين معهود الظلال وأضدادها هي الاجرام السفلية الثابتة في احيازها ودورها له سبحانه وتعالى شرع في بيان معهود الظل وقال ثم الظل المتحرك بالارادة سواء كانت له ظلال أو لا فقيل (لله يسجد) أي له تعالى وحده يخضع ويستقاد لا لشئ غيره استقلالا أو اشتراكا فالقصر ينتظم القلب والافراد الأدان الانسب بحال المخاطبين قصر الافراد كما يؤذن به قوله تعالى وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين (ما في السموات) قاطبة (وما في الارض) كائنا ما كان (من دابة) بيان لما في الارض وتقديمه لقلته وائتلافه بين المبين والمبين فصل والافراد مع ان المراد الجمع لافادة وضوح شمول المعهود لكل فرد من الدواب قال الاخفش هو كقولك ما أتاني من رجل مثله وما أتاني من الرجال مثله (والملائكة) عطف على ما في السموات عطف جبريل على الملائكة تعظيما واجلالا أو على أن يراد بما في السموات الخلق الذي يقال له الروح أو يراد به ملائكة السموات وبقوله والملائكة ملائكة الارض من الحفظة وغيرهم (وهم) أي الملائكة مع علو شأنهم (لا يستكبرون) عن عبادته عز وجل والسجود له وتقديم الضمير ليس للقصر والجملة اما حال من ضمير الفاعل في يسجد مسندة الى الملائكة أو استئناف أخبر عنهم بذلك (يخافون ربهم) أي حال

أمرهم وفيه تربية للهابة واشعار بعلة الحكم (من فوقهم) أي بحانوته جل وعلا خوف هيبة واجلال وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى وهو القاهر فوق عباده أو يخافون أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم والجملة حال من الضمير في لا يستكبرون أو بيان له وتقرير لان من يخاف الله سبحانه لا يستكبر عن عبادته ٣٧٤ (ويفعلون ما يؤمرون) أي ما يؤمرون به من الطاعات والتدبيرات وايرادا لفعل مبنيا للمفعول جرى على سنن الجلالة وايذان بعدم الحاجة الى التصريح بالفاعل لاستحالة استناده الى غيره سبحانه وفيه ان الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء ومعدمايين ان جميع الموجودات يخضعون الخشوع والانقياد الطبيعي وما يجري مجراه من عبادة الملائكة حيث لا تتصور منهم عدم الانقياد أصلا لله عز وجل أردف ذلك بحكاية نهيه سبحانه وتعالى للكافرين عن الاشراك فقيل (وقال الله) عطفا على قوله ولله يسجد واظهار الناعل وتخصيص لفظة الجلالة بالذكر للايذان بانه منعين الالوهية وانما المنهي عنه هو الاشراك به لا أن المنهي عنه مطلق اتخاذ الهين بحيث يتحقق الانتهاء عنه برفض أيهما كان أي قال تعالى لجميع المكلفين (لا تتخذوا الهين اثنين) وانما ذكر العدد مع أن صيغة النهي منبئة عن ذلك دلالة على أن مساق النهي هي الاثنينية وأنها منافية للالوهية كما ان وصف الاله بالوحدة في قوله تعالى (انما هو اله واحد) للدلالة على أن المقصود اثبات الوحدانية وأنها من لوازم الالهية وأما الالهية فأمر مسلم الثبوت له سبحانه واليه أشير حيث أسند اليه القول وفيه التفات من التكلم الى الغيبة على رأي من لا يكتفي في تحقق الالتفات بكون الاسلوب الملتفت عنه حق الكلام ولم يشترط سبق الذكر على ذلك الوجه (فاياي

أن يكون ذلك الوادي سكنا لهم والرس عند العرب الدفن ويسمى به الحفر يقال رس الميت اذا دفن وغيب في الحفرة وفي التفسير أنه البئر وأي شئ كان فقد أخبر الله تعالى عن أهل الرس بالهلاك انتهى (المسئلة الرابعة) ذكر المفسرون في أصحاب الرس وجوها (أحدها) كانوا قوما من عبدة الاصنام أصحاب آبار ومواش فبعث الله تعالى اليهم شعيبا عليه السلام فدعاهم الى الاسلام فتمادوا في طغيانهم وفي ايذائه فبينما هم حول الرس خسف الله بهم وبدارهم (وثانيها) الرس قرية بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فهلكوا وهم بقية ثمود (وثالثها) هم أصحاب النبي كمنظلة بن صفوان كانوا مقيمين بالعنقاء وهي أعظم ما يكون من الطير سميت بذلك لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتخ وهي تنقض على صبيانهم فتخطفهم ان أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ثم انهم قتلوا حنظلة فأهلكوا (ورابعها) هم أصحاب الاخدود والرس هو الاخدود (وخامسها) الرس انطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل كذبوه ورسوه في بئر أي دسوه فيها (وسادسها) عن علي عليه السلام أنهم كانوا وما بعدون شجرة الصنوبر وانما سموا بأصحاب الرس لانهم رسوا نبيهم في الارض (وسابعها) أصحاب الرس قوم كانت لهم قرى على شاطئ نهر يقال له الرس من بلاد المشرق فبعث الله تعالى اليهم نبيا من ولد يهودا بن يعقوب فكذبوه فلبث فيهم زمنا فشكا الى الله تعالى فهم فحفروا بئرا ورسوه فيها وقالوا نرجو أن يرضى عنا الهنا وكانوا عامة يومهم يسمعون أنين نبيهم يقول الهي وسيدي ترى ضيق مكاني وشدة كربي وضعف قواي وقلة حيلتي فعجل قبض روحي حتى مات فأرسل الله تعالى زيحا عاصفة شديدة الحمرة فسارت الارض من تحتهم حجرا كبريتا متوقدا فظلتهم سحابة سوداء فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص (وثامنها) روى ابن جرير عن الرسول صلى الله عليه وسلم ان الله بعث نبيا الى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها أحد الا عبد أسود ثم عدوا على الرسول فحفروا له بئرا فألقوه فيها ثم أطبقوا عليه حجرا ضخما وكان ذلك العبد يحتطب فيشتري له طعاما وشرابا ورفع الصخرة ويدليه اليه فكان ذلك ما شاء الله فاحتطب يوما فلما أراد أن يحتمل حزمة الحطب نام فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين نائما ثم انتبه وتمطى وتحول لشقه الآخر فنام سبع سنين أخرى ثم هب فحمل حزمته فظن أنه نام ساعة من نهار فجاء الى القرية فباع حزمته واشترى طعاما وشرابا وذهب الى الحفرة فلم يجد أحدا وكان قومه قد استخرجوه وآمنوا به وصدقوه وكان ذلك النبي يسألهم عن الاسود فيقولون لا ندري حاله حتى قبض الله النبي وقبض ذلك الاسود فقال عليه السلام ان ذلك الاسود لازال من بدخل الجنة (واعلم) أن القول ما قاله أبو مسلم وهو أن شيأ من هذه الروايات غير مذكور بالقرآن ولا بخبر قوي الاسناد ولكنهم كيف كانوا فقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم أهلكوا بسبب كفرهم (المسئلة الخامسة) قال الفخر القرن أربعون سنة وقال علي عليه السلام بل سبعون سنة وقيل مائة وعشرون (المسئلة السادسة) قوله بين ذلك أي بين ذلك المذكور وقد ذكر الذاكرات ما يخالفه ثم يشير اليها لذلك ويحسب الحاسب اعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب أو المعدود أما قوله وكلا ضربنا له الامثال فالمراد بينا لهم وأزحنا علتهم فلما كذبوا تبرناهم تتبيرا ويحتمل وكلا ضربنا له الامثال بأن أحييناهم عما أوردوه من الشبه في تكذيب الرسل كما أورده قوملك يا محمد فلما لم ينجع فيهم تبرناهم تتبيرا فحذر تعالى بذلك قوم محمد صلى الله عليه وسلم في الاستمرار على تكذيبه لئلا ينزل بهم مثل الذي نزل بالقوم عاجلا وآجلا (المسئلة السابعة) كلا الاول منصوب بما دل عليه ضربنا له الامثال وهو أنذرنا أو حذرنا والثاني بتبرنا لانه فارغ له (المسئلة الثامنة) التتبير التفتيت والتكسير ومنه التبر وهو كسارة الذهب والفضة والزجاج (القصة

فارهبون) التفات من الغيبة الى التكلم لتربية المهابة والقاء الرهبة في القلوب ولذلك قدم المعمول وكرر الفعل أي ان كنتم راهبين شيأ فايای ارهبوا فارهبون لا غير فالى ذلك الواحد الذي يسجد له ما في السموات والارض (وله ما في السموات والارض) خلقا وملكا فتقرير لعلة انقياد ما فيهما له سبحانه خاصة وتحقيق لتخصيص الرهبة به تعالى وتقديمها الظرف لتقوية ما في ٣٧٥ اللام من معنى الاختصاص وكذا

الرابعة) ﴿قوله تعالى﴾ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ﴿ واعلم أنه تعالى أراد بالقرية سدوم من قرى قوم لوط عليه السلام وكانت خمسا أهلك الله تعالى أربعا بأهلها وبقيت واحدة ومطر السوء الحجارة يعني أن قريش تمر وامرارا كثيرة في متاجرهم الى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء أفلم يكونوا في مرورهم يتفكرون الى آثار عذاب الله تعالى ونكاله بل كانوا قوما كفرة لا يرجون نشورا وذكروا في تفسير يرجون وجوها (أحدها) وهو الذي قاله القاضي وهو الاقوى أنه محمول على حقيقة الرجاء لان الانسان لا يتحمل متاعب التكاليف ومشاق النظر والاستدلال الا لارجاء ثواب الآخرة فاذا لم يؤمن بالآخرة لم يرج ثوابها فلا يتحمل تلك المشاق والمتاعب (وثانيها) معناه لا يتوقعون نشورا فوضع الرجاء موضع التوقع لانه انما يتوقع العاقبة من يؤمن (وثالثها) معناه لا يخافون على اللغة التهامية وهو ضعيف والاول هو الحق ﴿قوله تعالى﴾ وإذا رأوك إن يتخذونك الا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا ﴿ اعلم أنه سبحانه لما بين مبالغة المشركين في انكار نبوته وفي ايراد الشبهات في ذلك بين بعد ذلك أنهم اذا رأوا الرسول اتخذوه هزوا فلم يقتصروا على ترك الايمان به بل زادوا عليه بالاستهزاء والاستحقار ويقول بعضهم لبعض أهذا الذي بعث الله رسولا وفيه مسائل (المسألة الاولى) قال صاحب الكشاف ان الاولى نافية والثانية مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينهما (المسألة الثانية) جواب اذا هو ما أضمر من القول يعني واذا رأوك يستهزئون قالوا أبعث الله هذا رسولا وقوله ان يتخذونك جملة اعترضت بين اذا وجوابها (المسألة الثالثة) اتخذوه هزوا في معنى استهزؤا به والاصل اتخذوه موضع هزء أو مهزوا به (المسألة الرابعة) اعلم أن الله تعالى أخبر عن المشركين انهم متى رأوا الرسول أتوا بنوعين من الافعال (أحدهما) أنهم يستهزئون به وقصر ذلك الاستهزاء بقوله أهذا الذي بعث الله رسولا وذلك جهل عظيم لان الاستهزاء اما أن يقع بصورته أو بصفته أما الاول فباطل لانه عليه السلام كان أحسن منهم صورة وخلقة وبتقدير انه لم يكن كذلك لكنه عليه السلام ما كان يدعي التميز عنهم بالصورة بل باخفى وأما الثاني فباطل لانه عليه السلام ادعى التميز عنهم في ظهور المعجز عليه ودونهم وانهم ما قدروا على القدح في حقه ولا لله في الحقيقة هم الذين يستحقون أن يهزأ بهم ثم انهم لو تأملوا حق التأمل وتفكروا واستهزؤا بالرسول عليه السلام وذلك يدل على أنه ليس للبطل في كل الاوقات الا السفاهة والوقاحة (وثانيهما) انهم كانوا يقولون فيه ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها وذلك يدل على أمور (الاول) أنهم سموا ذلك ضلالا وذلك يدل على انهم كانوا مبالغين في تعظيم آلهتهم وفي استقلام صنيعه صلى الله عليه وسلم في صرفهم عنه وذلك يدل على انهم كانوا معتقدين أن هذا هو الحق فمن هذا الوجه يبطل قول أصحاب المعارف في انه لا يكفر الا من يعرف الدلائل لانهم جهلوهم نسبهم الله تعالى الى الكفر والضلال وقولهم لولا ان صبرنا عليها يدل أيضا على ذلك (الثاني) يدل هذا القول منهم على جد الرسول عليه السلام واجتهاده في صرفهم عن عبادة الاوثان ولولا ذلك لما قالوا ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها وهكذا كان عليه السلام فانه في أول الامر بالغ في ايراد الدلائل والجواب عن الشبهات وتحمل ما كانوا يفعلونه من أنواع السفاهة وسوء الادب (الثالث) أن هذا يدل على اعتراف القوم بانهم لم يعتمدوا البتة على دلائل الرسول صلى الله عليه وسلم وما عارضوها الا بمحض الجحود والتقليد لان قولهم لولا ان صبرنا عليها اشارة الى الجحود

بأنهاه منه تعالى لا لكونها منه تعالى (ثم اذا مسكم الضر) مس اسم يسيرا (فاليه تجأرون) تتضرعون في كشفه لا الى غيره والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة قال الاعشى يراوح من صلوات الملیك طورا سجودا وطورا جؤارا * وقرئ تجرون بطرح الهمزة والقاء حركتها الى ما قبلها وفي ذكر المساس المنبئ عن أدنى اصابة وايراده بأجلى المعاني المعربة عن المدروث مع تم الدلالة على وقوعه بمجرد

من الله هو جملة اعترض بها الجنس المفيد فاساس أدنى ما يطلق عليه اسم الجنس مع ايراد النعمة بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والتعبير عن ملابستهم للخطايا بتاء المضارعة وايراد المضارعة عن العموم مالا يخفى من الجزالة والفخامة واهل ايراد اداة دون ان للتوسل به الى تحقق وقوع الجواب (ثم اذا كشف ٣٧٦ الضر عنكم) وقرن كاشف الضر وكلمة ثم ليست للدلالة على تمادي زمان مساس

والتقليد ولو ذكروا اعتراضا على دلائل الرسول عليه السلام لكان ذكر ذلك أولى من ذكر مجرد الجحود والاصرار الذي هو دأب الجهال وذلك يدل على أن القوم كانوا مقهورين تحت حجته عليه السلام وانه ما كان في أيديهم الا مجرد الوقاحة (الرابع) الآية تدل على أن القوم صاروا في ظهور حجته عليه السلام عليهم كالمحاجين لانهم استهزؤا به أولا ثم وصفوه بانه كاد يضلنا عن آلهتنا لولا أن قابلنا بالجحود والاصرار فهذا الكلام الاخير يدل على أن القوم سلموا له قوة الحجة وكمال العقل والكلام الاول وهو السخرية والاستهزاء لا يليق الا بالجاهل العاجز فالقوم لما جمعوا بين هذين الكلامين دل ذلك على انهم كانوا كالمتحيرين في أمره فتارة بالوقاحة يستهزؤن منه وتارة يصفونه بما لا يليق الا بالعالم الكامل ثم انه سبحانه لما حكى عنهم هذا الكلام زيف طريقتهم في ذلك من ثلاثة أوجه (أولها) قوله وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا لانهم لما وصفوه بالاضلال في قولهم ان كاد ليضلنا بين تعالى انه سيظهر لهم من المضل ومن الضال عند مشاهدة العذاب الذي لا خلاص لهم منه فهو وعيد شديد لهم على التعامي والاعراض عن الاستدلال والنظر (وثانيها) قوله تعالى أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا والمعنى انه سبحانه بين ان بلوغ هؤلاء في جهالتهم واعراضهم عن الدلائل انما كان لاستيلاء التقليد عليهم وانهم اتخذوا أهواءهم آلهة فكل ما دعاهم الهوى اليه انقادوا له سواء صنع الدليل منه أو لم يصنع ثم ههنا أبحاث (الاول) قوله أرأيت كلمة تصلح للاعلام والسؤال وههنا هي تعجيب من جهل من هذا وصفه ونعته (الثاني) قوله اتخذ الهه هواه معناه اتخذ الهه ما يهواه أو الها يهواه وقيل هو مقلوب ومعناه اتخذ هواه الهه وهذا ضعيف لان قوله اتخذ الهه هواه بمنزلة الحصر أي لم يتخذ لنفسه الها الا هواه وهذا المعنى لا يحصل عند القلب قال ابن عباس الهوى الذي يعبد وقال سعيد بن جبير كان الرجل من المشركين يعبد الصنم فاذا رأى أحسن منه رماه واتخذ الآخر وعبده (الثالث) قوله أفأنت تكون عليه وكيلا أي حافظا تحفظه من اتباع هواه أي لست كذلك (الرابع) نظير هذه الآية قوله تعالى لست عليهم بمسيطر وقوله وما أنت عليهم بجبار وقوله لا اكراه في الدين قال الكلبي نسختها آية القتال (وثالثها) قوله أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون أم ههنا منقطعة بمعنى بل تحسب وذلك يدل على أن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالاضراب عنها اليها وهي كونهم مسلوبي الاسماع والعقول لانهم اشد عنادهم لا يصغون الى الكلام واذا سمعوه لا يتفكرون فيه فكأنه ليس لهم عقل ولا سمع البتة فعند ذلك شبههم بالانعام في عدم انتفاعهم بالكلام وعدم اقدامهم على التدبر والتفكر واقبالهم على اللذات الحاضرة الحسية واعراضهم عن طلب السعادات الباقية العقلية وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم قال أم تحسب ان أكثرهم فحكم بذلك على الاكثر دون الكل (والجواب) لانه كان فيهم من يعرف الله تعالى ويعقل الحق الا انه ترك الاسلام لمجرد حب الرياسة لا للعقول (السؤال الثاني) لم جعلوا أضل من الانعام الجواب من وجوه (أحدها) ان الانعام تنقاد لاربابها وللذي يعلفها ويتعهدها وتميز بين من يحسن اليها وبين من يسيء اليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يميزون بين احسانه اليهم وبين اساءة الشيطان اليهم الذي هو عدو لهم ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يحترزون من العقاب الذي هو أعظم المضار (وثانيها) ان قلوب الانعام كما انها تكون خالية عن العلم فهي خالية عن الجهل الذي هو اعتقاد المعتقد على خلاف ما هو عليه مع التصميم وأما هؤلاء فقلوبهم كما خلت عن العلم فقد اتصفت بالجهل فانهم لا يعلمون ولا يعلمون انهم لا يعلمون بل هم مصرون على انهم يعلمون (وثالثها) ان عدم علم الانعام لا يضر بأحد أما جهل هؤلاء فانه منشأ للضرر

الضر ووقوع الكشف بعد برهة مديدة بل للدلالة على تراخي رتبة ما يترتب عليه من مقاساة الاشراك المدلول عليها بقوله سبحانه (اذا فريق منكم بربهم يشركون) فان ترتبهما على ذلك في الغاية من الضلال ثم ان وجه الخطاب الى الناس جميعا فمن للتبعيض والفريق فريق الكفرة وان وجه الى الكفرة فمن للبيان كأنه قيل اذا فريق كافروهم أنتم وبجوز أن يكون فيهم من اعتبر وازدجر كقوله تعالى فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد فمن تبعيضية أيضا والتعرض لوصف الربوبية للايذان بكمال قبح ما ارتكبوه من الاشراك والكفران (ليكفروا بما آتيناهم) من نعمة الكشف عنهم كانهم جعلوا عروضهم في الشر لكفران النعمة وانكار كونها من الله عز وجل (فتمتعوا) أمر تهديد والالتفات الى الخطاب للايذان بتناهي الغضب وقرئ بالياء عبنيا للمفعول عطفا على ليكفروا على أن يكون كفران النعمة وما تمتع غرضا لهم من الاشراك ويجوز أن يكون اللام لام الامر الوارد للتهديد العظيم

(فسوف تعلمون) عاقبة أمركم وما تنزل بكم من العذاب وفيه وعيد أكيد منبئ عن أخذ شديد حيث لم يذكر المفعول اشعارا بأنه مما لا يوصف (ويجعلون) اما عطف على ما سبق بحسب المعنى تعدادا لجناياتهم أي يفعلون ما يفعلون من الجؤار الى الله تعالى عند مساس الضر ومن

الاشراك به عند كشفه ويجعلون (لما لا يعلمون) أى لما لا يعلمون حقيقته وقدره الخسيس من الجمادات التى يتخذونها شركاء لله سبحانه جهالة وسفاهة ويزعمون انها تنفعهم وتشفع لهم على أن ما موصولة والعائد اليها محذوف أو لما لا علم له أصلا وليس من شأنه ذلك فما موصولة أيضا والعائد اليها ما فى الفعل من الضمير المستكن وصيغة جمع العقلاء لكون ٣٧٧ ما عبارة عن آلهتهم التى وصفوها بصفات العقلاء أو مصدرية واللام للتعليل أى لعدم علمهم والمجعول له محذوف للعلم بمكانه (نصيبا مما رزقناهم) من الزرع والانعام وغيرهما تقربا اليها (تالله لتسئلن) سؤال توبيخ وتقريع (عما كنتم تفترون) فى الدنيا بانها آلهة حقيقة بأن يتقرب اليها وفى تصدير الجملة بالقسم وصرف الكلام عن الغيبة الى الخطاب التنبيه عن كمال الغضب من شدة الوعيد مما لا يخفى (ويجعلون لله البنات) هم خزاعة وكنانة الذين يقولون الملائكة بنات الله (سبحانه) تنزيه وتقديس له عز وجل عن مضمون قولهم ذلك أو تعجيب من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة (ولهم ما يشتهون) من البنين وسائر فروعة المحل على أنه مبتدأ والظرف المقدم خبره والجملة حالية وسبحانه اعتراض فى حاق موقعه وجعلها منصوبا بتابا للعطف على البنات أى يجعلون لانفسهم ما يشتهون من البنين يؤدى الى جعل المفعول بمعنى يسم الزعم

العظيم لانهم يصدون الناس عن سبيل الله ويبغونها عوجا (وبالاخرة) أن الانعام لا تعرف شيأ ولكنهم عاجزون عن الطلب وأما هؤلاء الجهال فانهم ليسوا عاجزين عن الطلب والحرم ذم عن طلب المراتب العالية اذا عجز عنه لا يكون فى استحقاق الذم كالقادر عليه التارك له لسوء اختياره (وخامسها) أن البهائم لا تستحق عقابا على عدم العلم أما هؤلاء فانهم يستحقون عليه أعظم العقاب (وسادسها) أن البهائم تسبح الله تعالى على مذهب بعض الناس على ما قال وان من شئ الا يسبح بحمده وقال ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات الى قوله والدواب وقال والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه واذا كان كذلك فضلال الكفار أشد وأعظم من ضلال هذه الانعام (السؤال الثالث) انه سبحانه لما نفى عنهم السمع والعقل فكيف ذمهم على الاعراض عن الدين وكيف بعث الرسول اليهم فان من شرط التكليف العقل (الجواب) ليس المراد انهم لا يعلمون بل انهم لا ينتفعون بذلك العقل فهو كقول الرجل لغيره اذا لم يفهم انك أنت أعمى وأصم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا﴾ اعلم انه تعالى لما بين جهل المعرضين عن دلائل الله تعالى وفساد طريقهم فى ذلك ذكر بعده أنواعا من الدلائل الدالة على وجود الصانع ﴿النوع الاول﴾ الاستدلال بحال الظل فى زيادته ونقصانه وتغيره من حال الى حال وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله ألم تر فيه وجهان (أحدهما) انه من رؤية العين (والثانى) انه من رؤية القلب يعنى العلم فان حملناه على رؤية العين فالمعنى ألم تر الى الظل كيف مد ربك وان كان تخريجه لفظه على عادة العرب أفصح وان حملناه على العلم وهو اختيار الزجاج فالمعنى ألم تعلم وهذا أولى وذلك أن الظل اذا حملناه من المبصرات فتأثير قدرة الله تعالى فى تمديده غير مرئى بالاتفاق ولكنه معلوم من حيث ان كل متغير جائز وكل جائز فله مؤثر فعمل هذا اللفظ على رؤية القلب أولى من هذا الوجه ﴿المسئلة الثانية﴾ الخطاب بهذا الخطاب وان كان هو الرسول عليه السلام بحسب ظاهر اللفظ ولكن الخطاب عام فى المعنى لان المقصود من الآية بيان نعم الله تعالى بالظل وجميع المكلفين مشتركون فى انه يجب تنبيههم لهذه النعمة وعكنهم من الاستدلال بها على وجود الصانع ﴿المسئلة الثالثة﴾ الناس أكثروا فى تأويل هذه الآية والكلام الملخص يرجع الى وجهين (الاول) أن الظل هو الامر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة وهو ما بين طهور الفجر الى طلوع الشمس وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأقنية الجدران وهذه الحالة أطيب الاحوال لان الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس وأما الضوء الخالص وهو الكيفية القائمة من الشمس فهى لقوتها تبهر الحس البصرى وتفيد السخونة القوية وهى مؤذية فاذن أطيب الاحوال هو الظل ولذلك وصف الجنة به فقال وظل ممدود واذا ثبت هذا فنقول انه سبحانه بين انه من النعم العظيمة والمنافع الجليلة ثم ان الناظر الى الشمس الملون وقت الظل كأنه لا يشاهد شيأ سوى الجسم وسوى اللون ونقول الظل ليس أمرا ثالثا ولا يعرف ولا يعرف به الا انه اذا طلعت الشمس ووقع ضوءها على الجسم زال ذلك الظل فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الاجرام لما عرف ان للظل وجودا وماهية لان الاشياء انما تعرف باضدادها فلولا الشمس لما عرف الظل ولولا الظلمة لما عرف النور فكأنه سبحانه وتعالى لما أطلع الشمس على الارض وزال الظل بحيث ظهر للعقول أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون فلهذا قال سبحانه ثم جعلنا الشمس عليه دليلا أى خلقنا الظل أولا بحيث فيه من المنافع

(٤٨ - نفر س) والاختيار (وادا بشر أحدهم بالانثى) أى أخبر بولادتها (ظل وجهه) أى صار أو دام النهار كله (مسودا) من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشويش (وهو كظيم) ممتلئ حنقا غيظا (يتوارى) أى يستخفى (من القوم من سوء ما بشر به) من أجل سوئه والتعبير عنها بالاسقاط ما عن درجة العقلاء (أيمسكه)

شأنه أمسكه (على هون) ذل وقرئ هوان (أم يدسه) يخفيه (فى التراب) بالوأد والتذكير باعتبار لفظ ما وقرئ بالتأنيث (ألا ساء ما يحكمون) حيث يجعلون ما هذا شأنه عندهم من الهون والحقارة لله تعالى عن الصاحبة والولد والحال انهم يتحاشون عنه ويختارون لانفسهم البنين فبئس ما رأيتم لأنفسكم ولا عدم جعلهم البنين لانفسهم ولا عدم جعلهم له سبحانه ويجوز

أن يكون مداره التعكيس لقوله تعالى تلك اذا قسمة ضيزى (للذين لا يؤمنون بالآخرة) ممن ذكرت قبائحهم (مثل السوء) صفة السوء الذى هو كالمثل فى القبح وهى الحاجة الى الولد ليقوم مقامهم عند موتهم وايثار الذكور للاستظهار بهم ووأد البنات لدفع العار وخشية الاملاق المنادى كل ذلك بالعجز والقصور والشح البالغ ووضع الموصول موضع الضمير للاشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة (ولله) سبحانه وتعالى (المثل الاعلى) أى الصفة العجيبة الشأن التى هى مثل فى العلو مطلقا وهو الوجوب الذاتى والغنى المطلق والجود الواسع والقاهرية عن صفات المخلوقين وما يدخل فيه علوه تعالى عما قالوه علوا كبيرا (وهو العزيز) المتفرد بكمال القدرة لا سيما على مؤاخذتهم بذنوبهم (الحكيم) الذى يفعل كل ما يفعل بمقتضى الحكمة البالغة وهذا أيضا من جملة صفاته العجيبة تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس) الكفار (بظلمهم) بكفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ما عدد من قبائحهم وهذا تصريح بما أفاده قوله تعالى وهو العزيز الحكيم وايذان بأن ما أتوه من القبائح قد تناهى الى أمد لا غاية وراءه (ما ترك عليها) على الارض المدلول عليها بالناس وبقوله تعالى (من دابة) أى ما ترك عليها شيأ من دابة

والملذات ثم انا هديناه الى معرفة وجوده بأن أطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلا على وجود هذه النعمة ثم قبضناه أى ازلنا الظل لا دفعة بل يسيرا يسيرا فان كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل فى جانب المغرب ولما كانت الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيرا يسيرا فكذا زوال الاظلال لا يكون دفعة بل يسيرا يسيرا ولان قبض الظل لو حصل دفعة لاختلت المصالح ولكن قبضنا يسيرا يسيرا يتيسر معه أنواع مصالح العالم والمراد بالقبض الازالة والاعدام هذا أحد التأويلين (التأويل الثانى) وهو انه سبحانه وتعالى لما خلق الارض والسماء وخلق الكواكب والشمس والقمر ووقع الظل على الارض ثم انه سبحانه خلق الشمس دليلا عليه وذلك لان بحسب حركات الاضواء تتحرك الاظلال فانهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما فمقدار مايزداد أحدهما ينقص الآخر وكما أن المهتدى يهتدى بالهادى والدليل ويلازمه فكذا الاظلال كأنها مهتدية وملازمة للاضواء فلهذا جعل الشمس دليلا عليها وأما قوله ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا فاما أن يكون المراد منه انتهاء الاظلال يسيرا يسيرا الى غاية نقصانها فسمى ازالة الاظلال قبضا لها أو يكون المراد من قبضها يسيرا قبضها عند قيام الساعة وذلك بقبض أسبابها وهى الاجرام التى تلقى الاظلال وقوله يسيرا هو كقوله ذلك حشر علينا يسير فهذا هو التأويل المخلص (المسئلة الرابعة) وجه الاستدلال به على وجود الصانع المحسن أن حصول الظل أمر نافع للاحياء والعقلاء وأما حصول الضوء الخالص أو الظلمة الخالصة فهو ليس من باب المنافع بخصوص ذلك الظل اما أن يكون من الواجبات أو من الجائزات والاول باطل والا لما تطرق التغير اليه لان الواجب لا يتغير فوجب أن يكون من الجائزات فلابد له فى وجوده بعد العدم وعدمه بعد الوجود من صانع قادر مدبر يحسن بقدره الوجه النافع وماذلك الا من يقدر على تحريك الاجرام العلوية وتدبير الاجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الاحسن والترتيب الاكمل وما هو الا الله سبحانه وتعالى فان قيل الظل عبارة عن عدم الضوء عما شأنه ان يضئ فكيف استدل بالامر العدمى على ذاته وكيف عده من النعم قلنا الظل ليس عدما محضا بل هو اضواء مخلوطة بظلم والتحقيق أن الظل عبارة عن الضوء الثانى وهو أمر وجودى وفى تحقيقه وبسطه كلام دقيق يرجع فيه الى كتبنا العقلية (النوع الثانى) قوله تعالى وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا اعلم انه تعالى شبه الليل من حيث انه يستر الكل ويغطى بالباس الساتر للبدن وتنبه على ما فيه من النفع بقوله والنوم سباتا والسبات هو الراحة وجعل النوم سباتا لانه سبب للراحة قال أبو مسلم السبات الراحة ومنه يوم السبت لما جرت به العادة من الاستراحة فيه ويقال للعليل اذا استراح من تعب العلة سبوت وقال صاحب الكشاف السبات الموت والمسبوت الميت لانه مقطوع الحياة قال وهذا كقوله وهو الذى يتوفاكم بالليل وانما قلنا ان تفسيره بالموت أولى من تفسيره بالراحة لان النشور فى مقابلته بأباه قال أبو مسلم وجعل النهار نشورا هو بمعنى الانتشار والحركة كما سمى تعالى نوم الانسان وفاة فقال الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها كذلك وفق بين القيام من النوم والقيام من الموت فى التسمية بالنشور وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها اظهار لنعمه على خلقه لان الاحتجاب بستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية والنوم واليقظة شبههما بالموت والحياة وعن لقمان أنه قال لابنه كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتشعر (النوع الثالث) قوله وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وقد تقدم تفسيره فى سورة الاعراف ثم فيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ الريح والرياح قال الزجاج وفى نشرا خمسة أوجه بفتح النون وبضمها وبضم النون والشين وبالباء الموحدة مع ألف المؤنث وبشرا بالتنوين قال أبو مسلم

بل أهلكها بالمرة بشؤم ظلم الظالمين كقوله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بلى والله حتى ان الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم وعن ابن مسعود رضي الله عنه كاد الجعل يهلك في جحره بذنب ابن آدم أو من دابة ظالمة وقيل لو أهلك الآباء لم يكن الابناء فلزم أن لا يكون في الارض دابة لما أنها مخلوقة لمنافع البشر لقوله سبحانه هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا (ولكن لا يؤاخذهم بذلك بل (يؤخرهم الى أجل مسمى) لاعمارهم أو لعذابهم كي يتوالدوا أو يكثر عذابهم (فاذا جاء أجلهم) المسمى (لا يستأخرون) عن ذلك الاجل أي لا يتأخرون وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له (ساعة) فقة وهي مثل في قلة المدة (ولا يستقدمون) أي لا يتقدمون وانما تعرض لذكر مع أنه لا يتصور الاستقدام عند مجيء الاجل مبالغة في بيان عدم الاستئخار بنظمه في سلك ما يمتنع كما في قوله تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار فان من مات كافرا مع أنه لا توبة له رأسا قد نظم في سمط من لم تقبل توبته للايذان بأنهما سيان في ذلك وقد مر في تفسير سورة يونس (ويجعلون لله) أي

من قرأ بشرا أراد جمع بشير مثل قوله تعالى ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وأما بالنون فهو في معنى قوله والناشرات نشرا وهي الرياح والرحمة الغيث والماء والمطر (المسئلة الثانية) قوله وأنزلنا من السماء ماء طهورا نص في أنه تعالى ينزل الماء من السماء لا من السحاب وقول من يقول السحاب سماء ضعيف لان ذلك بحسب الاشتقاق وأما بحسب وضع اللغة فالسماء اسم لهذا السقف المعلوم فصرفه عنه ترك للظاهر (المسئلة الثالثة) اختلفوا في أن الطهور ما هو فقال كثير من العلماء الطهور ما يتطهر به كالفطور ما يفطر به والسحور ما يتسحر به وهو مروي أيضا عن ثعلب وأنكر صاحب الكشاف ذلك وقال ليس فعول من التفعيل في شيء والطهور على وجهين في العربية صفة وهو غير صفة فالصفة قولك ماء طهور كقولك طاهر والاسم قولك طهور لما يتطهر به كالوضوء والوقود لما يتوضأ به ويوقد به النار حجة القول الاول قوله عليه السلام التراب طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر حجج ولو كان معنى الطهور الطاهر لكان معناه التراب طاهر للمسلم وحينئذ لا ينتظم الكلام وكذا قوله عليه السلام طهور اناء أحدكم اذا ولغ الكلب فيه أن يغسله سبعا ولو كان الطهور الطاهر لكان معناه طاهر اناء أحدكم وحينئذ لا ينتظم الكلام ولانه تعالى قال وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به فبين أن المقصود من الماء انما هو التطهر به فوجب أن يكون المراد من كونه طهورا انه هو المطهر به لانه تعالى ذكره في معرض الانعام فوجب حمله على الوصف الاكمل ولا شك أن المطهر أكمل من الطاهر (المسئلة الرابعة) اعلم ان الله تعالى ذكر من منافع الماء أمرين أحدهما ما يتعلق بالنبات والثاني ما يتعلق بالحيوان اما أمر النبات فقوله تعالى فحيي به بلدة ميتا وفيه سؤالات (السؤال الاول) لم قال فحيي به بلدة ميتا ولم يقل ميتة (الجواب) لان البلدة في معنى البلد في قوله فسقناه الى بلد ميت (السؤال الثاني) ما المراد من حياة البلد وموتها (الجواب) الناس يسمون الاعمارة قبه من الارض مواتا وسقيها المقتضي لعمارتها احياء لها (السؤال الثالث) ان جماعة الطبائعيين وكذا الكعبي من المعتزلة قالوا ان بطبع الارض والماء وتأثير الشمس فيهما يحصل النبات وتمسكوا بقوله تعالى فحيي به بلدة ميتا فان الباء في به تقتضي أن للماء تأثيرا في ذلك (الجواب) الظاهر وان دل عليه لكن المتكلمون ذكروا لقيام الدلالة على فساد الطبع وأما أمر الحيوان فقوله سبحانه ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا وفيه سؤالات (السؤال الاول) لما خص الانسان والانعام ههنا بالذكر دون الطير والوحش مع انتفاع الكل بالماء (الجواب) لان الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الانعام لانها قنية الانسان وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الانعام عليهم بسقي انعامهم كالانعام عليهم بسقيهم (السؤال الثاني) ما معنى تنكير الانعام والاناسي ووصفهما بالكثرة (الجواب) معناه ان أكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الادوية والانهار ومنافع المياه فهم في غنية في شرب الماء عن المطر وكثير منهم نازلون في البوادي فلا يجدون الماء للشرب الا عند نزول المطر وذلك قوله فحيي به بلدة ميتا يريد بعض بلاده سؤلا لاتباعه دين عن مظان الماء ويحتمل في كثيرا ان يرجع الى قوله ونسقيه لان الماء حالا بعد حال وهو مخالف للنبات الذي يكفيه من الماء قدر معين حتى لو زيد عليه بعد ذلك لكان الى الضرر أقرب والحيوان يحتاج اليه حالا بعد حال مادام حيا (السؤال الثالث) لم قدم احياء الارض وسقي الانعام على سقي الاناسي (الجواب) لان حياة الاناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم فقدم ما هو سبب حياتهم وميشتهم على سقيهم لانهم اذا ظفروا بما يكون سقي الارض وحواشيهم فقد ظفروا بأسباب سقياهم وأيضا فقوله تعالى ولقد صرفناه بينهم يعني صرف المطر كل سنة الى جانب آخر واذا كان كذلك فلا يسقى

يثبتون له سبحانه وينسبون اليه في زعمهم (ما يكرهون) لانفسهم مما ذكروه وتكرير لما سبق تثنية للتقريع وتوطئة لقوله تعالى (وتصف ألسنتهم الكذب) أي يجعلون له تعالى ما يجعلون ومع ذلك تصف ألسنتهم الكذب وهو (أن لهم الحسنى) العاقبة الحسنى عند الله تعالى كقوله ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى وقرئ الكذب وهو جمع الكذوب على أنه صفة الالسنة (لا جرم) رد لكلامهم ذلك

واثبات النقيضه أى حقا (ان لهم) مكانا أملوا من الحسنى (النار) التى ليس وراء عذابها عذاب وهى علم فى السوأى (وأنهم مفرطون) أى مقدمون اليها من أفرطته أى قدمته فى طلب الماء وقيل منسيون من أفرطت فلانا خلفى اذا خلفته ونسيته وقرئ بالتشديد وفتح الراء من فرطته فى طلب الماء وبكسر الراء المشددة من التفريط فى الطاعات وبكسر المخففة من الافراط فى المعاصى

الكل منه بل يسقى كل سنة أناسى كثيرا منه ﴿السؤال الرابع﴾ ما الاناسى ﴿الجواب﴾ قال الفراء والزجاج الاناسى والاناسى كالكرسى والكراسى ولم يقل كثيرين لانه قد جاء فعيل مفردا ويراد به الكثرة كقوله وقرونا بين ذلك كثيرا وحسن أولئك رفيقا واعلم ان الفقهاء قد استنبطوا أحكام المياه من قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا ونحن نشير الى مهمات تلك المسائل فنقول ههنا نظران (أحدهما) ان الماء مطهر (والثانى) ان غير الماء هل هو مطهر أم لا ﴿النظر الاول﴾ ان نقول الماء اما أن لا يتغير أو يتغير ﴿القسم الاول﴾ وهو الذى لا يتغير فهو طاهر فى ذاته مطهر لغيره الا الماء المستعمل فانه عند الشافعى طاهر وليس بمطهر وقال مالك والثورى يجوز الوضوء به وقال أبو حنيفة فى رواية أبى يوسف انه نجس فههنا مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ فى بيان انه ليس بمطهر ودليلنا قوله عليه الصلاة والسلام لا يغتسل أحدكم فى الماء الدائم وهو جنب ولو بقى الماء كما كان طاهرا مطهرا لما كان للنهى منه معنى ومن وجه القياس ان الصحابة كانوا يتوضؤن فى الأسفار وربما كانوا يجمعون تلك المياه مع علمهم باحتياجهم بعد ذلك الى الماء ولو كان ذلك الماء مطهرا لحلولهم اليوم الحاجة واحتج مالك بالآية والخبر والقياس * أما الآية ففى وجهين (الاول) قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا وقوله وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به فدلت الآية على حصول وصف المطهرية للماء والاصل فى الثابت بقاؤه فوجب الحكم ببقاء هذه الصفة للماء بعد صيرورته مستعملا وأيضا قوله طهورا يقتضى جواز التطهر به مرة بعد أخرى (والثانى) انه أمر بالغسل مطلقا فى قوله فاغسلوا واستعمال كل الماآت غسل لانه لا معنى للغسل الا امرار الماء على العضو قال الشاعر

* فياحسنها اذ يغسل الدمع كحلها * فمن اغتسل بالماء المستعمل فقد أتى بالغسل فوجب أن يكون مجزئا له لانه أتى بما أمر به فوجب أن يخرج عن العهدة (وأما السنة) فما روى انه عليه الصلاة والسلام توضأ فمسح رأسه بفضل ما فى يده وعنه عليه الصلاة والسلام أنه توضأ فأخذ من بلل لحيته فمسح به رأسه وعن ابن عباس انه عليه السلام اغتسل فرأى لمعة فى جسده لم يصبها الماء فأخذ شعرة فعلم بها الماء فأمرها على تلك اللمعة (وأما القياس) فانه ماء طاهر لاقى جسدا طاهرا فأشبه ما اذا لاقى حجارة أو سديدا وكذا الماء المستعمل فى الكرة الرابعة والمستعمل فى البرد والتنظف ولانه لا خلاف انه اذا وضع الماء على أعلى وجهه وسقط به فرض ذلك الموضع ثم نزل ذلك الماء بعينه الى بقية الوجه فانه يجزيه مع أن ذلك الماء صار مستعملا فى أعلى الوجه ﴿المسألة الثانية﴾ الدليل على أن الماء المستعمل طاهر قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا ومن السنة أنه عليه الصلاة والسلام أخذ من بلل لحيته ومسح به رأسه وقال خلق الماء طهورا لا ينجسه شئ الا ما غير طعمه أو لونه وقال الشافعى انه عليه الصلاة والسلام توضأ ولا شك انه أمامه ما تساقط منه ولم ينقل انه غير ثوبه ولا انه غسله ولا أحد من المسلمين فعل ذلك فثبت انهم أجمعوا على أنه ليس بنجس ولانه ماء طاهر لاقى جسما طاهرا فأشبه ما اذا لاقى حجارة ﴿المسألة الثالثة﴾ الماء المستعمل اما ان يكون مستعملا فى أعضاء الوضوء أو فى غسل الشاب اما المستعمل فى أعضاء الوضوء فاما أن يكون مستعملا فيما كان فرضا وعبادة أو فيما كان فرضا ولا يكون عبادة أو فيما كان عبادة ولا يكون فرضا أو فيما لا يكون فرضا ولا عبادة * أما القسم الاول وهو المستعمل فيما كان فرضا وعبادة فهو غير طهور باتفاق أصحاب الشافعى * وأما القسم الثانى فهو كالماء الذى استعمله الذمية التى تحت الزوج المسلم أى فى غسل حيضها ليحل للزوج غشيانها * وأما القسم الثالث فهو كالماء المستعمل فى الكرة الثانية والثالثة والماء المستعمل فى تجديد الوضوء والماء المستعمل فى الاغسال المسنونة فلاصحاب الشافعى فى هذين القسمين وجهان * وأما القسم

الرابع

فلا يكونان حينئذ من أحوالهم الاخروية كما عطف عليه (تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما نالهم من جهالات الكفرة ووعيد لهم على ذلك أى أرسلنا اليهم رسلا فدعوهم الى الحق فلم يجيبوا الى ذلك (فزين لهم الشيطان أعمالهم) القبيحة فتمكنوا عليها مصرين (فهو وليهم) أى قرينهم (اليوم) أى يوم القرين (اليوم) أى يوم زين لهم الشيطان أعمالهم فيه على طريق حكاية الحال الماضية أو فى الدنيا أو يوم القيامة على طريق حكاية الحال الآتية وهى حال كونهم معذبين فى النار والولى بمعنى الناصر أى فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره مبالغة فى نفى الناصر عنهم ويجوز أن يكون الضمير عائدا الى مشركى قريش والمعنى زين للام السالفة أعمالهم فهو ولى هؤلاء لانهم منهم وأن يكون على حذف المضاف أى ولى أمثالهم (ولهم) فى الآخرة (عذاب أليم) هو عذاب النار (وما أنزلنا عليك الكتاب) أى القرآن (الا لتبين) استثناء مفرغ من أعم العلل أى ما أنزلناه عليك لعلة من العلل الا لتبين (لهم) أى للناس (الذى اختلفوا فيه) من التوحيد والقدر وأحكام الافعال وأحوال المعاد (وهدى ورحمة) معطوفان على محل لتبين أى وللهداية والرحمة (لقوم يؤمنون) وانما انتصبا لكونهما أثرى فاعل الفعل المعلل بخلاف التبيين حيث لم ينتصب لفقدان

شرطه وأهل تقدمه عايه المتقدمه في الوجود وتخصيص كونها هدى ورحمة بالمؤمنين لانهم المنتفعون آثاره (والله أنزل من السماء) من السحاب أو من جانب السماء جنسا مر وهذا تذكير بما سبق تأكيدا للمضمون وتوطئة لما يتعقبه من أدلة التوحيد (ماء) نوعا خاصا من الماء هو المطر وتقديم المجرور على المنصوب لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر (فأحيى به الارض) بما أنبت به فيها من أنواع النباتات (بعد موتها) أي يبسها وإنما يفيده الفاء من التعقيب المادي لا ينافيه ما بين الموطوئين من المهلة (ان في ذلك) أي في انزال الماء من السماء واحياء الارض الميتة (لآية) وأية آية دالة على وحدته سبحانه وعلمه وقدرته وحكمته (لقوم يسمعون) هذا التذكير ونظائره سماع تفكر وتدبر فكأن من ليس كذلك أصم (وان لكم في الانعام لعبرة) عظيمة وأي عبرة تحار في درکها العقول وتبهم في فهمها ألباب العقول (نسقيكم) استئناف لبيان ما أبهم أولا من العبرة (مما في بطونه) أي بطون الانعام وانما ذكر هنا لمراعاة جانب اللفظ فانه اسم جمع ولذلك عد سيبويه في المفردات المبنية على أفعال كأكياس وأحلاق كما أن تأنيثه في سورة المؤمنين لرعاية جانب المعنى ومن جعله جمع جمل الضعيف كالبعض فان الذين ليس لجميعها أولها على المعنى فان المراد بعضها الخ وقرئ بفتح النون ههنا وفي سورة المؤمنين (من بين فرث ودم لبنا) الفرث فضلة ما يبقى من العلف في الكرش المنهضمة بعض الانهضام وكثيف ما يبقى في المعي وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان البهيمة اذا علفت وأطيب العلف في كرشها كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما والمراد به ان أوسطه يكون مادة اللبن وأعلاه مادة الدم الذي يغذو البدن لان عدم تكونهما في الكرش بالاريب قبيل

الرابع فهو كالماء المستعمل في الكرة الرابعة وفي التبرد والتنظف فذلك باتفاق أصحاب الشافعي غير مستعمل وهو طاهر مطهر أما الماء المستعمل في غسل الثياب فاذا غسل ثوبا من نجاسة وطهر بغسلة واحدة يستحب أن يغسله ثلاثا فالمنفصل في الكرة الثانية والثالثة مطهر على الاصح (القسم الثاني) الماء الذي يتغير فنقول الماء اذا تغير فاما أن يتغير بنفسه أو بغيره أما الاول فكالمتغير بطول المكث فيجوز الوضوء به لانه عليه السلام كان يتوضأ من بئر قضاعة وكان ماؤها كما أنه نقاعة الحناء أما المتغير بسبب غيره فذلك التغير اما أن لا يكون متصلا به أو يكون متصلا به أما الذي لا يكون متصلا به فهو كما لو وقع بقرب الماء حيفة فصار الماء منتنا بسببها فهو أيضا مطهر وأما اذا تغير بسبب شيء متصل به فذلك المتصل اما أن يكون طاهرا أو نجسا (القسم الاول) اذا كان طاهرا فهو اما أن لا يخالطه أو يخالطه فان لم يخالطه فهو كالماء المتغير بسبب وقوع الدهن والطيب والعود والعنبر والكافور الصلب فيه وهذا أيضا مطهر كما لو كان بقرب الماء حيفة ولان الطهورية ثبتت بقوله وأنزلنا من السماء ماء طهورا والاصل في الثابت بقاؤه وأما المتغير بسبب شيء يخالطه فذلك المخالط اما أن لا يمكن صون الماء عنه أو يمكن أما الذي لا يمكن فكالمتغير بالتراب والحأة والاوراق التي تقع فيه والطحلب الذي يتولد فيه وهذا أيضا مطهر لان الطهورية ثبتت بالآية والاحتراز عن ذلك عسير فيكون مرفوعا لقوله ما جعل عليكم في الدين من حرج وكذا لو جرى الماء في طريقه على معدن زرنيخ أو نورة أو كحل أو وقع شيء منها فيه أو نبع من معادنها أما اذا تغير الماء بسبب مخالطة ما يستغني الماء عن جنسه نظرا ان كان التغير قليلا بحيث لا يضاف الماء اليه بأن وقع فيه زعفران فاصفر قليلا أو دقيق فابيض قليلا جاز الوضوء به على الصحيح من المذهب لانه لم يسلبه اطلاق اسم الماء وأما ان كان التغير كثيرا فان استحدث اسما جديدا كالمرقة لم يجز الوضوء به بالاتفاق وان لم يستحدث اسما جديدا فعند الشافعي لا يجوز الوضوء به وعند أبي حنيفة يجوز (حجة الشافعي) من وجوه (أحدها) أنه عليه السلام توضأ ثم قال هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة الا به فذلك الوضوء ان كان واقعا بالماء المتغير وجب أن لا يجوز الا به وبالاتفاق ليس الامر كذلك فثبت أنه كان ماء غير متغير وهو المطلوب (وثانيها) انه اذا اختلط ماء الورد بالماء ثم توضأ الانسان به فيحتمل أن بعض الاعضاء قد انفصل عنها الورد دون الماء واذا كان كذلك فقد وقع الشك في حصول الوضوء وكان تيقن الحدث قائما والشك لا يعارض اليقين فوجب أن يبقى على الحدث بخلاف ما اذا كان قليلا لا يظهر أثره فانه صار كالمعدوم أما اذا ظهر أثره علمنا أنه باق فيتوجه ما ذكرناه (وثالثها) أن الوضوء تعبد لا يعقل معناه فانه لو توضأ بماء الورد لا يصح وضوءه ولو توضأ بالماء النادر المتعفن صح وضوءه وما لا يعقل معناه وجب الاقتصار فيه على مورد النص وترك القياس (حجة أبي حنيفة) من وجوه (أحدها) قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا دلت الآية على كون الماء مطهرا والاصل في الثابت بقاؤه فوجب بقاء هذه الصفة بعد التغير بالمخالطة (وثانيها) قوله تعالى فاغسلوا أمر مطلق الغسل وقد أتى به فوجب أن يخرج عن العهدة وقد بينا تقريره فيما تقدم (وثالثها) قوله تعالى فلم تجدوا ماء فتيمموا علق جواز التيمم بعدم وجدان الماء والماء المتغير واجد للماء لان الماء المتغير ماء مع صفة التغير والموصوف موجود حال وجود الصفة فوجب أن لا يجوز له التيمم (ورابعها) قوله عليه السلام في البحر هو الطهور ماؤه والطهور ما يتطهر به فيقتضي جواز التطهر به وان خالطه غيره لان النبي صلى الله عليه وسلم أطلق ذلك (وخامسها) أنه عليه السلام أباح الوضوء بسؤر الحمر وسؤرها الحائض وان خالطه شيء من لعابها (وسادسها) لا خلاف في جواز الوضوء بماء المدر والسيول مع تغير لونه بمخالطة الطين وما يكون في المجاري

التكبد تجذب صفارة الطعام المنهضم فى الكرش ويبقى ثفله وهو الفرث ثم يمسكها ريثما يهضمها فيحدث أخلاطا أربعة معها مائية فتميز القوة المميزة تلك المائية بمازاد على قدر الحاجة من المرتين الصفراء والسوداء وتدفعها الى الكلية والمرارة والطحال ثم توزع الباقى على الاعضاء بحسبها فتجرى على كل حقه على ما يليق به بتقدير العزيز العليم ثم ان كان الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها فيفسد فى الرائد أولا لاجل الجنين الى الرحم فاذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه الى الضروع فيبيض لمجاورته لهوهما الغدوية البيض وبلغطمه فصيرانا ومن تدبر فى بدائع صنع الله تعالى تيقن ذكر من الاخلاط والالبان واعداد مقاديرها ومجاريها والاسباب المولدة لها وتسخير القوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به اضطر الى الاعتراف بكمال علمه وقدرته وحكمته وتناهى رأفته ورحمته فمن الاولى تسمية فسقية لما أن الالبان بعض مافى بطونه لانه مخلوق من بعض أجزاء الدم المتولد من الاجزاء اللطيفة التى فى الفرث حسبما فصل والثانية ابتدائية كقوله سقيت من الحوض لان بين الفرث والدم مبدأ الاسقاء وهى متعلقة بنسقيكم وتقديمه على المفعول لما مر مرارا من أن تقديم ما حقه التأخير يبعث للنفس شوقا الى المؤخر وجيء بالفصل تمكنه عند وروده عليهم لا سيما اذا كان المقدم متضمنا لوصف مناف لوصف المؤخر كالذى نحن فيه فان بين وصفى المقدم والمؤخر تناقيا وتنائيا بحيث لا يتراءى ناراهما فان ذلك مما يزيد الشوق والاستشراف الى المؤخر كما فى قوله تعالى الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا أو محال من ابتناء الدم عليه لتنكيره وللتنبيه على انه مرضع العبرة (خالصا) عن

من الحشيش والنبات ومن أجل مخالطة ذلك له يرى تارة متغيرا الى السواد وأخرى الى الحمرة والصفرة فصار ذلك أصلا فى جميع ما خالط الماء اذا لم يغلب عليه فيسلبه اسم الماء (القسم الثانى) اذا كان المخالط للماء شيأ نجسا فان الناس من زعم أن الماء لا ينجس ما لم يتغير بالنجاسة سواء كان قليلا أو كثيرا وهو قول الحسن البصرى والنخعى ومالك وداود وابن حبيب المالكى الشيخ الغزالى فى كتاب الاحياء وقال أبو بكر الرازى مذهب أصحابنا أن كل ما يقع فيه جزأ من النجاسة أو غلب على الظن ذلك لم يجز استعماله ولا يختلف على هذا الحد ماء البحر وماء البئر والغدير والراكد والجارى لان ماء البحر لو وقعت فيه نجاسة لم يجز استعمال الماء الذى فيه النجاسة وكذلك الماء الجارى وأما اعتبار أصحابنا للغدير الذى اذا حرك أحد طرفيه لم يتحرك الطرف الآخر فماء وكلام فى جهة تغلب الظن فى بلوغ النجاسة الواقعة فى أحد طرفيه الى الطرف الآخر وليس هو كلاما فى أن بعض الماء الذى فيه النجاسة قد يجوز استعمالها وبعضها لا يجوز استعماله هذا كله كلام أبى بكر (وأقول) من الناس من فرق بين القليل والكثير فمن عبد الله بن عمر اذا كان الماء أربعين قلة لم ينجسه شئ وعن ابن عباس رضى الله عنهما الحوض لا يغتسل فيه جنب الا أن يكون فيه أربعون غربا وهو قول مجدين كعب القرظى وقال مسروق وابن سيرين اذا كان الماء كثيرا لا ينجسه شئ وقال سعيد بن جبير الماء الراكد لا ينجسه شئ اذا كان قدر ثلاث قلال وقال الشافعى اذا كان الماء قلتين بقلال هجر لم ينجسه الا ما غير طعمه أو ريحه أو لونه وان كان أقل يتنجس لظهور النجاسة فيه (واعلم أنه يمكن التمسك لنصرة قول مالك بوجوه (أحدها) قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا ترك العمل به فى الماء الذى تغير لونه أو طعمه أو ريحه لظهور النجاسة فيه فيبقى فيما عداه على الاصل (وثانيها) قوله عليه الصلاة والسلام خلق الله الماء طهورا لا ينجسه شئ الا ما غير طعمه أو لونه أو ريحه وهو نص فى الباب (وثالثها) قوله تعالى فاغسلوا وجوهكم والمتوضئ بهذا الماء قد غسل وجهه فيكون آتيا بما أمر به فيخرج عن العهدة (ورابعها) أن من شأن كل مختلطين كان أحدهما غالبا على الآخر أن يتكيف المغلوب بكيفية الغالب فالقطرة من الخل لو وقعت فى الماء الكثير بطلت صفة الخلية عنها واتصفت بصفة الماء وكون أحدهما غالبا على الآخر انما يعرف بغلبة الخواص والآثار المحسوسة وهى الطعم أو اللون أو الريح فلا جرم مهما ظهر طعم النجاسة أو لونها أو ريحها كانت النجاسة غالبة على الماء وكان الماء مستهلكا فيها فلا جرم يغلب حكم النجاسة فاذا لم يظهر شئ من ذلك كان الغالب هو الماء وكانت النجاسة مستهلكة فيه فيغلب حكم الطهارة (وخامسها) ما روى عن عمر رضى الله عنه أن نجاسة أوانى النصارى معلومة ونظن قريبا من العلم وذلك يدل على أن عمر لم يعول الا على عدم التغير (وسادسها) أن تقدير الماء بقدر معلوم لو كان معتبرا كالقلتين عند الشافعى وعشر فى عشر عند أبى حنيفة رضى الله عنه لكان أولى المواضع بالطهارة مكة والمدينة لانه لا تكثر المياه مثل الجارية ولا الراكدة الكثيرة ومن أول عصر الرسول صلى الله عليه وسلم الى آخر عصر الصحابة لم ينقل انهم خاضوا فى تقدير المياه بالمقادير المعينة ولا أنهم سألوه عن كيفية حفظ المياه عن النجاسات وكانت أوانى مياههم بتماطاها الصبيان والاماء الذين لا يحترزون عن النجاسات (وسابعها) اصغاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الاناء الهرة وعدم منعه منها هم من شرب الماء من أوانيهم بعد ان كانوا يرون أنها تأكل الفأرة ولم يكن فى بلادهم حياض تلغ السنانير فيها وكانت لا تنزل الى الآبار (وثامنها) أن الشافعى نص على أن عساله النجاسة طاهرة اذا لم تتغير ونجسه اذا تغيرت وأى فرق بين أن يلاقى الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه وأى معنى لقول القائل ان قوة الورود تدفع النجاسة مع أن قوة الورود لم تمنع

شائبة مافي الدم والفرث من الاوصاف يبرز خ من القدرة القاهرة الحاجزة عن بقي أحدهما عليه مع كونهما مكتنفين له (سائغا للشاربين) سهل المرور في حلقهم قيل لم يغص أحد باللبن وقرئ سيغا بالتشديد وبالتخفيف مثل ميت وهين (ومن ثمرات النخيل والاعناب) متعلق بما يدل عليه الاسقاء من مطلق الاطعام المنتظم ٣٨٣ لاعطاء الطعوم والمشروب فان اللبن

المخالطة (وتاسعها) انهم كانوا يستقون على أطراف المياه الجارية القليلة ولا خلاف أن مذهب الشافعي اذا وقع بول في ماء جار ولم يتغير أنه يجوز الوضوء به وان كان قليلا وأي فرق بين الجاري والراكد وليت شعري الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوة الماء بسبب الجريان (وعاشرها) اذا وقع بول في قلتين ثم فرقتا فكل كوز يؤخذ منه فهو طاهر على قول الشافعي ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل فأي فرق بينه اذا وقع ذلك القليل في ذلك القدر من الماء ابتداء وبينه اذا وصل اليه عند اتصال غيره به (وحادي عشرها) أن الحمامات لم تزل في الاعصار الخالية يتوضأ فيها المتقشفون ويغتسل الابدي والاواني في ذلك القليل من الماء من تلك الحياض مع علمهم بأن الايدي الطاهرة والنجسة تكاثرت تتوارد عليها ولو كان التقدير بالقلتين معتبرا لاشتهر ذلك ولبلغ ذلك الى حد التواتر لان الامر الذي تشتد حاجة الجمهور اليه يجب بلوغ نقله الى حد التواتر والما لم يكن كذلك علمنا أنه غير معتبر (وثاني عشرها) أنا لو حكمنا بنجاسة الماء فلا علينا أن نحكم بنجاسة الماء ان كان في غاية الكثرة ومثل ماء الاودية العظيمة والغدران الكبار فان ذلك بالاجماع باطل فلا بد من التقدير بمقدار معين وقد نقلنا عن الناس تقديرات مختلفة فليس بعضها أولى من بعض فوجب التعارض والتساقط أما تقدير أبي حنيفة رحمه الله بعشر في عشر فمعلوم أنه غير صحيح وأما تقدير الشافعي بالقلتين بناء على قوله عليه الصلاة والسلام اذا بلغ الماء القلتين لم يحمل خبثا فضعيف أيضا لان الشافعي لما روى هذا الخبر قال أخبرني رجل فيكون الراوي مجهولا ويكون الحديث مرسلا وهو عندنا ليس بحجة وأيضا زعم كثير من المحدثين أنه موقوف على ابن عمر رضي الله عنه سلمنا صحة الرواية لكنا حالة مجهول على مجهول لان القلة غير معلومة فانها تصلح للكوز والجرة والكل ما يقل بالبد وهو أيضا اسم لمسامة الرجل ولقلة الجبل سلمنا كون القلة معلومة لكن في متن الخبر اضطراب فانه روي اذا بلغ الماء قلتين وروي اذا بلغ قلة وروي أربعين قلة وروي اذا بلغ قلتين أو ثلاثا وروي اذا بلغ كوزين سلمنا صحة المتن ولكنه متروك الظاهر لان قوله لم يحمل خبثا لا يمكن اجراؤه على ظاهره فان الخبث اذا ورد عليه فقد حمله سلمنا امكان اجرائه على ظاهره لكن الخبث على قسمين خبث شرعي وخبث حقيقي والاسم اذا دار بين المسمى اللغوي والمسمى الشرعي كان حمله على المسمى اللغوي أولى لان الاسم حقيقة في المسمى اللغوي مجاز في المسمى الشرعي دفعا للاشتراك والنقل واذا كان كذلك وجب حمله عليه والمسمى اللغوي للخبث المستقذر بالطبع قال عليه الصلاة والسلام ما استخبثته العرب فهو حرام اذا ثبت هذا فنقول معنى قوله لم يحمل خبثا أي لا يصير مستقذرا طبعا ونحن نقول بموجبه لكن لم قلت أنه لا ينجس شرعا سلمنا أن المراد من الخبث النجاسة الشرعية لكن قوله لم يحمل خبثا أي يضعف عن حمله ومعنى الضعف تأثيره فيكون هذا دليلا على صيرورته نجسا لا على بقائه طاهرا (لا يقال) الجواب عن هذه الاسئلة أن يقال ان الشافعي رضي الله عنه لم يذكر اسم الراوي في بعض المواضع فقد ذكره في سائر المواضع فخرج عن كونه مرسلا ولان سائر المحدثين قد عينوا اسم الراوي قوله انه موقوف على ابن عمر قلنا لانسلم فان يحيى بن معين قال انه جيد الاسناد فقيل له فان ابن علية وقفه على ابن عمر فقال ان كان ابن علية وقفه فحماد بن سلمة رفعه وقوله القلة تجمع قلنا لانسلم لان ابن جريج قال في رواية بقلال هجر ثم قال وقد شاهدت قلال هجر فكانت القلة تسع قربتين أو قربتين وشيئا قوله في متنه اضطراب قلنا لانسلم لانا وان تواقفنا على أن سائر المقادير غير معتبرة فيبقى ما ذكرناه معتبرا قوله انه متروك الظاهر قلنا اذا حملناه على الخبث الشرعي اندفع ذلك وذلك أولى لان حمل كلام الشرع على الفائدة الشرعية أولى من حمله على المعنى العقلي لاسيما وفي حمله على المعنى العقلي يلزم التعطيل قوله المراد أنه يضعف عن حمله قلنا

مطعوم كأنه مشروب أي ونطعمكم من ثمرات النخيل ومن الاعناب أي من عصيرهما وقوله تعالى (تتخذون منه سكرا) استئناف لبيان كنه الاطعام وكشفه أو بقوله تتخذون منه وتكرير الظرف للتأكيد أو خبر لمبتدأ محذوف صفته تتخذون أي ومن ثمرات النخيل والاعناب ثمر تتخذون منه وحذف الموصوف اذا كان في الكلام كلمة من سائغ نحو قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم وتذكير الضمير على الوجهين الاولين لانه للمضاف المحذوف أعني العصير أو لان المراد هو والجنس والسكر مصدر سمي به الخمر وقيل هو الطعم (ورزقا حسنا) كالتمر والدبس والزبيب والخل والآية ان كانت سابقة النزول على تحريم الخمر فدلالة على كراهتها والا فخامسة بين العتاب والمنة (ان في ذلك لآية) باهرة (لقوم يعقلون) يستعملون عقولهم في الآيات بالنظر والتأمل (وأوحى ربك الى النحل) أي ألهمها وقذف في قلوبها وعلمها بوجه لا يعلمه الا العليم الخبير وقرئ بفتحتين (أن اتخذي) أي بأن اتخذي على أن أن مصدرية ويجوز أن تكون مفسرة لما في الايحاء من معنى القول وتأنيث الضمير مع أن الفعل مذكر للحمل على المعنى أو لانه جمع تحملة والتأنيث لغة أهل الحجاز (من الجبال بيوتا) أي أوكارا مما فيهن انخلا باوقرئ بيوتا بكسر الباء

(ومن الشجر ومما يعرشون) أى يعرشه الناس أى يرفعه من كرم أو سقف وقيل المراد به ما يرفعه الناس و يبنونه للنحل والمعنى اتخذى لنفسك بيوتا من الجبال والشجر اذا لم يكن لك أرباب والا فاتخذى ما يعرشونه لك وانما خص التبعيض بما لأنه لا ينبغى فى كل جبل وكل شجر وكل عريش ولا فى كل مكان منها (ثم كلى من كل الثمرات) من كل ثمرة تشتهينها حلوها ومرها (فاسلكى

صح فى بعض الروايات أنه قال اذا كان الماء قلتين لم ينجس ولانه عليه السلام جعل القلتين شرطا لهذا الحكم والمعلق على الشرط عدم عند عدم الشرط وعلى ما ذكروه لا يبقى للقلتين فائدة (لا نا نقول) لا شك أن هذا الخبر بتقدير الصحة يقتضى تخصيص عموم قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا وعموم قوله والكن يريد ليطهركم وعموم قوله فاغسلوا وجوهكم وعموم قوله صلى الله عليه وسلم خلق الماء طهورا لا يجسه شئ وهذا التخصيص لابد وأن يكون بمسدد عن الاحتمال والاشتباه وقلا هجر مجهولة وقول ابن جريج القلة تسع قربتين أو قربتين وشيأ ليس بحجة لان الدلالة كما أنها مجهولة فكذا القربة مجهولة فانها قد تكون كبيرة وقد تكون صغيرة ولان الروايات أيضا مختلفة فتارة قال اذا بلغ الماء قلتير وتارة أربعين قلة وتارة كرين فاذا تدافعت وتعارضت لم يجز تخصيص عموم الكتاب والسنة الظاهرة المعتضدة بالاحتمال بمثل هذا الخبر هذا تمام الكلام فى نصرة قول مالك * (والحق من حكم بنجاسة الماء الذى تقع النجاسة فيه بوجوه (أولها) قوله تعالى ويحرم عليهم الطيبات والنجاسات من الخبائث وقال تعالى انما حرم عليكم الميتة والدم وقال فى الخمر ورجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ومر عليه الصلاة والسلام بقبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ان أحدهما كان لا يستبرئ من البول والآخر كان يمشى بالنميمة فحرم الله هذه الاشياء تحريما مطلقا ولم يفرق بين حال انفرادها واختلاطها بالماء فوجب تحريم استعمال كل ما يبقى فيه جزء من النجاسة أكثر ما فى الباب أن الدلائل الدالة على كون الماء مطهرا يقتضى جواز الطهارة به ولكن تلك الدلائل مبهمة والدلائل التى ذكرناها حاظرة والمبيح والحاظر اذا اجتمعا فالغلبة للحاظر ألا ترى أن الجارية بين رجلين لو كان لاحدهما منها مائة جزء وللآخر جزء واحد ان جهة الحظر فيها أولى من جهة الاباحة وأن غير جائز لواحد منهما وطؤها فكذا ههنا (وثانيها) قوله عليه السلام لا يبولن أحدكم فى الماء الدائم ثم يغتسل فيه من الجنابة ذكره على الاطلاق من غير فرق بين القليل والكثير (وثالثها) قوله عليه السلام اذا استيقظ أحدكم من منامه فلا يغمس يده قبل أن يغسلها ثلاثا فانه لا يدرى أين باتت يده فأمر بغسل اليد احتياطا من نجاسة قد أصابته من موضع الاستنجاء ومعلوم أن مثل هذا اذا دخلت الماء لم تغيره ولولا أنها تفسده لما كان للامر بالاحتياط منها معنى (ورابعها) قوله عليه السلام اذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا بدل مفهومه على انه اذا لم يبلغ قلتين وجب أن يحمل الخبث أجاب مالك عن الوجه الاول فقال لا نزاع فى أنه يحرم استعمال النجاسة ولكن الجزء القليل من النجاسة المائعة اذا وقع فى الماء لم يظهر فيه لونه ولا طعمه ولا رائحته فلم قلتم ان تلك النجاسة بقيت ولم لا يجوز أن يقال انها انقلبت عن صفتها وتغيره ما قدمناه وأما قوله عليه السلام لا يبولن أحدكم فى الماء الدائم فلم قلتم ان هذا النهى ليس الا لما ذكرتموه بل لعل النهى انما كان لانه رعا شربه انسان وذلك مما ينفر طبعه عنه وليس الكلام فى نفرة الطبع وأما قوله اذا استيقظ أحدكم من منامه فليغسل يده ثلاثا فقد أجمعنا على أن هذا الامر استحباب فالمرتب عليه كيف يكون أمر ايجاب ثم بتقدير أن يكون أمر ايجاب فلم قلتم انه لم لم يوجه ذلك الايجاب لما ذكرتموه وأما قوله عليه السلام اذا بلغ الماء قلتين فقد سبق الكلام عليه ثم بعد التنزل عن كل ما قلناه فهو تمسك بالمفهوم والنصوص التى ذكرناها منطوقة والمنطوق راجح على المفهوم والله أعلم (النظر الثانى) فى أن غير الماء هل هو طهور أم لا فقال الاصم والاوزاعى يجوز الوضوء بجميع المائعات وقال أبو حنيفة يجوز الوضوء بنبيذ التمر فى السفر وقال أبو يوسف يجوز ازالة النجاسة بجميع المائعات التى تزيل أعيان النجاسات وقال الشافعى رضى الله عنه الطهور به مختصة بالماء على الاطلاق ودليله فى صورة الحدث

ماأكلت منها (سبل ربك) أى مسالكك التى يراها بحيث يحمل فيها بقدرته القاهرة النور الرعسلا من أجوافك أو فاسلكى الطرق التى ألهمك فى عمل العسل أو فاسلكى راجعة الى بيوتك سبل ربك لا تتوعر عليك ولا تلتبس (ذللا) جمع ذلول وهو حال من السبل أى مذللة غير متوعرة ذللها الله سبحانه وسهلها لك أو من الضمير فى اسلكى أى اسلكى منقادة لما أمرت به (يخرج من بطونها) استئناف عدل به عن خطاب النحل لبيان ما يظهر منها من تعاجيب صنع الله تعالى التى هى موضع العبرة بعد ما أمرت بما أمرت (شراب) أى عسل لانه مشروب واحتج به بقوله تعالى فيه شفاء للناس) اما بنفسه كما فى الامراض البلغمية أو مع غيره كما فى سائر الامراض اذ قلما يكون معجون لا يكون فيه عسل مع أن التنكير

ألوانه (مختلف ألوانه) أبيض وأسود وأحمر وأصفر وغير ذلك مما يكون من النحل أو العسل أو الذى أخذت منه العسل (فيه شفاء للناس) اما بنفسه كما فى الامراض البلغمية أو مع غيره كما فى سائر الامراض اذ قلما يكون معجون لا يكون فيه عسل مع أن التنكير

قوله

فيه مشعر بالتبعيض ويجوز كونه للتفخيم وعن قتادة أن رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان أخي يشتكي بطنه فقال عليه الصلاة والسلام اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع فقال اذهب فاسقه عسلا فقد صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبرئ كأنما أنشط من عقال وقيل الضمير للقرآن أو لما بين الله تعالى من أحوال النحل وعن ابن مسعود رضي الله عنه العسل شفاء لكل داء والقرآن شفاء لما في الصدور فعليكم بالشفائين العسل والقرآن (ان في ذلك) الذي ذكر من أعاجيب آثار قدرة الله تعالى (لآية) عظيمة (لقوم يتفكرون) فان من تفكر في اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والافعال العجيبة المشتملة على حسن الصنعة وصحة القسمة التي لا يقدر عليها حذاق المهندسين الا بآلات رقيقة وأدوات أنيقة وأنظار دقيقة جزم قطعا بأن له خالقا قادرا حكيما يلهمها ذلك ويهديها اليه جل جلاله (والله خلقكم) لما ذكر سبحانه من عجائب أحوال ما ذكر من الماء والنبات والانعام والنحل أشار الى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمره الى آخره وتطوراته فيما بين ذلك وقد ضبط أمراتب العمر في أربع الاولى سن النشوء والنماء والثانية سن الوقوف وهي سن الشباب والثالثة سن الانحطاط الى الكهولة وهي سن الاختلاط الكبير وهي سن الشيخوخة (ثم يتوفاكم) جسيما تقتضيه مشيئته المبنية على حكم بالغة بآجال مختلفة أطفالا وشبابا وشيوخا (ومنكم من يرد) قبل توفيه أي يعاد (الى أرذل العمر) أي أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة على ما روي عن علي رضي الله عنه وتسعون سنة على ما نقل عن قتادة رضي الله عنه وقيل خمس وتسعون وايثار الرد على الوصول

قوله تعالى فان لم تجدوا ماء فتيمموا أو جب التيمم عند عدم الماء ولو جاز الوضوء بالخل أو نبيذ التمر لما وجب التيمم عند عدم الماء وأما في صورة الحيض فلان الخل لو أفاد طهارة الحيض لكان طهورا لانه لا معنى للطهور الا المطهر ولو كان طهورا لوجب أن يجوز به طهارة الحدث لقوله عليه السلام لا يقبل الله صلاة أحدكم حتى يضع الطهور مواضعه وكلمة حتى لانتهاء الغاية فوجب انتهاء عدم القبول عند استعمال الطهور وانتهاء عدم القبول يكون بحصول القبول فلو كان الخل طهورا لحصل باستعماله قبول الصلاة وحيث لم يحصل علمنا أن الطهور به في الحيض أيضا مختصة بالماء ﴿ قوله تعالى ﴾ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس الا كفورا ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا ﴿ وفيه مسائل ﴾ (المسئلة الاولى) اعلم أنهم اختلفوا في أن الهاء في قوله ولقد صرفناه الى أي شئ يرجع وذكروا فيه ثلاثة أوجه (أحدها) وهو الذي عليه أكثر المفسرين انه يرجع الى المطر ثم من هؤلاء من قال معنى صرفناه أنا أجريناه في الانهار حتى انتفعوا بالشرب وبالزراعات وأنواع المعاش به وقال آخرون معناه انه سبحانه ينزله في مكان دون مكان وفي عام دون عام ثم في العام الثاني يقع بخلاف ما وقع في العام الاول قال ابن عباس ما عام بأكثر مطرا من عام ولكن الله يصرفه في الارض ثم قرأ هذه الآية وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من عام بأمطر من عام ولكن اذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك الى غيرهم فاذا عصوا جميعا صرف الله ذلك الى الفيافي (وثانيها) وهو قول أبي مسلم أن قوله صرفناه راجع الى المطر والرياح والسحاب والاظلال وسائر ما ذكر الله تعالى من الادلة (وثالثها) ولقد صرفنا أي هذا القول بين الناس في القرآن وسائر الكتب والصحف التي أنزلت على الرسل وهو ذكر انشاء السحاب وانزال القطر ليتفكروا ويستدلوا به على الصانع والوجه الاول أقرب لانه أقرب المذكورات الى الضمير ﴿ المسئلة الثانية ﴾ قال الجبائي قوله تعالى ليذكروا يدل على أنه تعالى مريد من الكل أن يتذكروا ويشكروا ولو أراد منهم أن يكفروا ويعرضوا لما صح ذلك وذلك يبطل قول من قال ان الله تعالى مريد للكفر ممن يكفر قال ودل قوله فأبى أكثر الناس الا كفورا على قدرتهم على فعل هذا التذكر اذ لو لم يقدروا لما جاز أن يقال أبوا أن يفعلوه كما لا يقال في الزمن أبى أن يسعى وقال الكعبي قوله ولقد صرفنا بينهم ليذكروا حجة على من زعم أن القرآن دال على الكافرين وأنه لم يرد بانزاله أن يؤمنوا لان قوله ليذكروا عام في الكل وقوله فأبى أكثر الناس يقتضي أن يكون هذا الاكثر داخلا في ذلك العام لانه لا يجوز أن يقال أنزلناه على قريش ليؤمنوا فأبى أكثر بني تميم الا كفورا واعلم أن الكلام عليه قد تقدم مرارا ﴿ المسئلة الثالثة ﴾ قوله فأبى أكثر الناس الا كفورا المراد كفران النعمة وجحودها من حيث لا يتفكرون فيها ولا يستدلون بها على وجود الصانع وقدرته واحسانه وقيل المراد من الكفور هو الكفر وذلك الكفر انما حصل لانهم يقولون مطرنا بنوء كذا لان من جحد كون النعم صادرة من المنعم وأضاف مثل هذه النعمة الى الافلاك والكواكب فقد كفر به واعلم أن التحقيق ان من جعل الافلاك والكواكب مستقلة باقتضاء هذه الاشياء فلا شك في كفره وأما من قال الصانع تعالى جعلها على خواص وصفات تقتضي هذه الحوادث فلعله لا يبلغ خطؤه الى حد الكفر ﴿ المسئلة الرابعة ﴾ قالوا الآية دلت على أن خلاف معلوم الله مقدور له لان كلمة لو دلت على أنه تعالى ما شاء أن يبعث في كل قرية نذيرا ثم انه تعالى أخبر عن كونه قادرا على ذلك فدل ذلك على أن خلاف معلوم الله مقدور له ﴿ أما قوله تعالى ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا فالاقوى أن المراد من ذلك تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ورد ذلك لوجوه (أحدها) كأنه تعالى بين له أنه مع القدرة على بعثة رسول ونذير في كل قرية

بالغبا حال مختلفة أطفالا وشبابا وشيوخا (ومنكم من يرد) قبل توفيه أي يعاد (الى أرذل العمر) أي أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة على ما روي عن علي رضي الله عنه وتسعون سنة على ما نقل عن قتادة رضي الله عنه وقيل خمس وتسعون وايثار الرد على الوصول

والبلوغ ونحوهما لا يذان بأن بلوغه والوصول اليه رجوع في الحقيقة الى الضعف بعد القوة كقوله تعالى ومن نعمره ننكسه في الخلق ولا عبرة بما لا من عمر الهرم الذي يشبه الطفل في نقصان العقل والقوة (لكل لا يعلم بعد علم) كثير (شيأ) من العلم أو من المعلومات أو لكل لا يعلم شيأ بعد علم بذلك الشيء ٣٨٦ وقيل لئلا يعقل بعد عقله الاول شيأ (ان الله عليم) بمقادير أعمالكم (قدير) على كل شيء

خصه بالرسالة وفضله بها على الكل ولذلك أتبعه بقوله فلا تطع الكافرين أي لا توافقهم (وثانيها) المراد ولو شئنا لخففنا عنك أعباء الرسالة الى كل العالمين ولبعثنا في كل قرية نذيرا ولكنا قاصرنا الامر عليك وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل فقابل هذا الاجلال بالتشدد في الدين (وثالثها) أن الآية تقتضي مزيد اللطف بالعنف لانها تدل على القدرة على أن يبعث في كل قرية نذيرا مثل محمد وانه لا حاجة بالحضرة الالهية الى محمد البتة وقوله ولو بدل على انه سبحانه لا يفعل ذلك فبالنظر الى الاول يحصل التأديب وبالنظر الى الثاني يحصل الاعزاز أما قوله فلا تطع الكافرين فالمراد نهيه عن طاعتهم ودلت هذه الآية على أن النهي عن الشيء لا يقتضي كون المنهي عنه مشتقا لانه وأما قوله وجاهدهم به جهادا كبيرا فقال بعضهم المراد بذل الجهد في الاداء والدعاء وقال بعضهم المراد القتال وقال آخرون كلاهما والاقرب الاول لان السورة مكية والامر بالقتال ورد بعد الهجرة بزمان وانما قال جهادا كبيرا لانه لو بعث في كل قرية نذيرا لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات وكثر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال لله وجاهدهم بسبب كونك نذيرا كافة القرى جهادا كبيرا مجاهدة كل مجاهدة ﴿ قوله تعالى ﴾ وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴿ اعلم أن هذا هو النوع الرابع من دلائل التوحيد وقوله مرج البحرين أي خلاهما وأرسلهما يقال مرجت الدابة اذا خليتها ترعى وأصل المرج الارسال والخلط ومنه قوله تعالى فهم في أمر مريج سمي الماءين الكبيرين الواسعين بحرين قال ابن عباس مرج البحرين أي أرسلهما في مجاريهما كما ترسل الخيل في المرج وهما يلتقيان وقوله هذا عذب فرات والمقصود من الفرات البليغ في العذوبة حتى يصير الى الحلاوة والاجاج نقيضه وأنه سبحانه بقدرته يفصل بينهما وبمنعهما التمازج وجعل من عظيم اقتداره برزخا حائلا من قدرته وههنا سؤالات ﴿ السؤال الاول ﴾ ما معنى قوله وحجرا محجورا (الجواب) هي الكلمة التي يقولها المتعوذ وقد فسرناها وهي ههنا واقعة على سبيل المجاز كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له حجرا محجورا كما قال لا يبغيان أي لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة فانتفاء البغي كالتعوذ وههنا جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوذ منه وهي من أحسن الاستعارات ﴿ السؤال الثاني ﴾ لا وجود للبحر العذب فكيف ذكره الله تعالى ههنا (لا يقال) هذا مدفوع من وجهين (الاول) ان المراد منه الاودية العظام كالنيل وجيحون (الثاني) انه جعل في البحار موضعا يكون أحد جانبيه عذبا والآخر ملحا (لانا نقول) أما الاول فضعيف لان هذه الاودية ليس فيها ماء ملح والبحار ليس فيها ماء عذب فلم يحصل البتة موضع التعجب وأما الثاني فضعيف لان موضع الاستدلال لابد وأن يكون معلوما فاما بعض التجويز فلا يحسن الاستدلال به لانا نقول المراد من البحر العذب هذه الاودية ومن الاجاج البحار الكبار وجعل بينهما برزخا أي حائلا من الارض ووجه الاستدلال ههنا بين لان العذوبة والملوحة ان كانت بسبب طبيعة الارض أو الماء فلابد من الاستواء وان لم يكن كذلك فلابد من قادر حكيم يخص كل واحد من الاجسام بصفة خاصة معينة ﴿ قوله تعالى ﴾ وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴿ واعلم أن هذا هو النوع الخامس من دلائل التوحيد وفيه بحثان (الاول) ذكر في هذا الماء قولين (أحدهما) أنه الماء الذي خلق منه أصول الحيوان وهو الذي عناه بقوله والله خلق كل دابة من ماء (والثاني) أن المراد النطفة لقوله خلق من ماء دافق من ماء مهين ﴿ البحث الثاني ﴾ المعنى انه تعالى قسم البشر قسمين ذوي نسب أي ذكورا ينسب اليهم فيقال فلان ابن فلان

بيت الشاب الشمط ويبقى الهرم الفاني وفيه تنبيه على أن تفاوت الآجال ليس الا بتقدير قادر حكيم ركب أبنيتهم وعدل أمزجتهم على قدر معلوم ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لما بلغ التفاوت هذا المبلغ (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) أي جعلكم متفاوتين فيه فأعطاكم منه أفضل مما أعطى مماليككم (فما الذين فضلوا) فيه على غيرهم (برادي رزقهم) الذي رزقهم اياه (على ما ملكت أيمانهم) على مماليكهم الذين هم شركاؤهم في المخلوقية والمرزوقية (فهم) أي الملاك والمماليك (فيه) أي في الرزق (سواء) أي لا يردونه عليهم بحيث يساوونهم في التصرف ويشاركونهم في التدبير والفاء للدلالة على ترتب التساوي على الرد أي لا يردونه عليهم ردا مستتبعا للتساوي وانما يردون عليهم منه شيأ يسيرا بحيث لا يرضون بمساواة مماليكهم لانفسهم وهم أمثالهم في البشرية والمخلوقية فكيف برضاهم بالله في شيء لا يختص بهم بل يعمهم وإياهم من الرزق الذي هم أسوة لهم في استحقاقه فما وفلانة

بالهم يشركون بالله سبحانه وتعالى فيما لا يليق الا به من الالوهية والمعبودية الخاصة بذاته تعالى لذاته بعض مخلوقاته الذي هو بمنزل من درجة الاعتبار وهذا كما ترى مثل ضرب لكمال قباحة ما فعلوه المشركون تقريعا لهم كقوله تعالى هل لكم مما ملكت أيمانكم من

شركاء فيما رزقنا كم فأنتم فيه سواء الآية (أفبنعمة الله يجحدون) حيث يفعلون ما يفعلون من الاشراك فان ذلك يقتضي أن يضيفوا انعم الله سبحانه الدائمة عليهم الى شركائهم ويجحدوا كونها من عند الله تعالى أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج البالغة بعد ما انعم الله بها عليهم والباء لتضمين الجحود معنى الكفر نحو وجحدوا بها والفاء للعطف على مقدر وهي داخلة ٣٨٧ في المعنى على الفعل أي أيشركون به فيجحدون نعمته وقرئ تجحدون على الخطاب أوليس الموالي برادي رزقهم على ما اليكهم بل انا الذي أرزقهم واياهم فلا يحسبوا أنهم يعطونهم شيأ وانما هو رزق أجريه على أيديهم فهم جعلوا ذلك سواء لاجرية لهم على ما اليكهم الا يفعلون ذلك فيجحدون نعمة الله فهو رد على زعم المفضلين أو على قولهم المؤذن بذلك أو ما المفضلون برادي بعض فضلهم على ما اليكم فيتساووا في ذلك جميعا مع أن التفضيل ليس الا ليبلوهم أيشكرون أم يكفرون الا يعرفون ذلك فيجحدون نعمة الله تعالى كائنة قبل فلم يردوه عليهم والجملة الاسمية للدلالة على استمرارهم على عدم الرد يحكى عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انما هم اخوانكم فاكسوهم مما تلبسون واطعموهم مما تطعمون فما رؤي عبده بعد ذلك الا ورداؤه رداؤه وازاره ازاره من غير تفاوت (والله جعل

وفلانة بنت وذوات صهر أي انا ئاصاهر ون ونحوه قوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى وكان ربك قديرا حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر الذكر والانثى ﴿قوله تعالى﴾ ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا قل ما أسألكم عليه من أجر الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا ﴿واعلم أنه تعالى لما شرح دلائل التوحيد عاد الى تهجين سيرتهم في عبادة الاوثان وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قيل المراد بالكافر أبو جهل لان الآية نزلت فيه والاولى حمله على العموم لان خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ ولانه أوفق لظاهر قوله ويعبدون من دون الله ﴿المسئلة الثانية﴾ ذكر في الظهير وجوها (أحدها) ان الظهير بمعنى المظاهر كالمعين بمعنى المعاون وفعيل بمعنى مفاعل غير غريب والمعنى أن الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة فان قيل كيف يصح في الكافر أن يكون معاونا للشيطان على ربه بالعداوة قلنا الله تعالى ذكر نفسه وأراد رسوله كقوله ان الذين يؤذون الله (وثانيها) يجوز أن يريد بالظهير الجماعة كقوله والملائكة بعد ذلك ظهير كما جاء الصديق والخليط وعلى هذا التفسير يكون المراد بالكافر الجنس وان بعضهم مظاهر لبعض على اطفاء نور الله تعالى قال تعالى واخواهم يمدونهم في الغي (وثالثها) قال أبو مسلم الاصفهاني الظهير من قولهم ظهر فلان بحاجتي اذا نبذها وراء ظهره ومنه من قوله تعالى واتخذتموه وراءكم ظهريا ويقال فيمن يستهين بالشيء نبذه وراء ظهره وقياس العربية أن يقال مظهور أي مستخف به متروك وراء الظهر فقيل فيه ظهير على معنى مظهور ومعناه هين على الله أن يكفر الكافر وهو قوله تعالى مستهينا بكفره ﴿أما قوله تعالى وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا فقد تعلق ذلك بما تقدم من أن الكفار يطلبون العون على الله تعالى وعلى رسوله والله تعالى يبشر رسوله لنفعهم لانه بعثه ليبشرهم على الطاعة وينذرهم على المعصية فيستحقوا الثواب ويحترزوا عن العقاب فلا جعل أعظم من جعل من استفرغ جهده في ايذاء شخص استفرغ جهده في اصلاح مهماته ديناودنيا ولا يسألهم على ذلك البتة أجرا أما قوله الا من شاء فقد ذكروا فيه وجوها متقاربة (أحدها) لا يسألهم على الاداء والدعاء أجرا الا أن يشاؤا أن يتقربوا بالانفاق في الجهاد وغيره فيتخذوا به سبيلا الى رحمة ربهم ونيل ثوابه (وثانيها) قال القاضي معناه لا أسألكم عليه أجرا لنفسي وأسألكم أن تطلبوا الاجر لانفسكم باتخاذ السبيل الى ربكم (وثالثها) قال صاحب الكشاف مثال قوله الا من شاء والمراد الافعل من شاء واستثناء عن الاجر قول ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال ما أطلب منك ثوابا على ما سعيت الا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب ولكن صورته صورة الثواب وسماه باسمه فأفاد فائدتين (احداهما) قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله كأنه يقول لك ان كان حفظك لمالك ثوابا فانى أطلب الثواب (والثانية) اظهار الشفقة البالغة وان حفظك لمالك يجري مجرى الثواب العظيم الذي توصله الي ومعنى اتخاذهم الى الله سبيلا تقربهم اليه وطلبهم عنده الزلفى بالايمان والطاعة وقيل المراد التقرب بالصدقة والنفقة في سبيل الله أما قوله وتوكل على الحي الذي لا يموت فالمعنى انه سبحانه لما بين ان الكفار يظاهرون على ايذائه فأمره بأن لا يطلب منهم أجرا البتة أمره بأن يتوكل عليه في دفع جميع المضار وفي جلب جميع المنافع وانما قال على الحي الذي لا يموت لان من توكل على الحي الذي يموت فاذا مات المتوكل عليه صار المتوكل ضائعا أما هو سبحانه وتعالى فانه حي لا يموت فلا يضيع المتوكل عليه البتة ﴿أما قوله وسبح بحمده فانهم من حمله على نفس التسبيح بالقول ومنهم من حمله على الصلاة ومنهم من حمله على التنزيه لله تعالى عما

لكم من أنفسكم) أي من جنسكم (أزواجا) لتأنسوا بها وتقيموا بذلك جميع مصالحكم ويكون أولادكم أمثالكم وقيل هو خلق حواء من ضلع آدم عليه الصلاة والسلام (وجعل لكم من أزواجكم) وضع الظاهر موضع المضمر للايذان بأن المراد جعل الكل منكم من زوجه لا من زوج غيره (بنين) وبأن نتيجة الازواج هو التوالد (وحفدة) جمع حافد وهو الذي يسرع في الخدمة والطاعة ومنه قول القانت واليك

نسبي وتخصيصا أي جعل لكم خدما يسرعون في خدمتكم وطاعتكم فقيل المراد بهم أولاد الاولاد وقيل البنات عبر عنهن بذلك ابذانا بوجوه المنة فانهن يخدمن البيوت أتم خدمة وقيل أولاد المرأة من الزوج الاول وقيل البنون والعطف لاختلاف الوصفين وقيل الاختان على البنات وتأخيرا المنصوب في الموضعين عن المجرور لما مر من التشويق وتقديم المجرور باللام على المجرور عن للايذان من أول الامر بعود منفعة الجعل اليهم امدادا للتشويق وتقوية له أي جعل لمصلحتكم مما يناسبكم أزواجا وجعل لمنفعتكم من جهة مناسبة لكم بنين وحفدة (ورزقكم من الطيبات) من اللذائذ أو من الحلالات ومن للتبعيض اذا المرزوق في الدنيا أنموذج لما في الآخرة (أفبالباطل يؤمنون) وهو أن الاصنام تنفعهم وأن البحائر ونحوها حرام والفاء في المعنى داخلة على الفعل وهي للعطف على مقدر أي أيكفرون بالله الذي شأنه هذا فيؤمنون بالباطل أو أبعد تحقق ما ذكر من نعم الله تعالى بالباطل يؤمنون دون الله سبحانه (وبنعمت الله) تعالى الفائضة عليهم مما ذكروا ومما لا يحيط به دائرة البيان (هم يكفرون) حيث يضيفونها الى الاصنام وتقديم الصلة على الفعل للاهتمام أو لايهام الاختصاص مما لفسحة أو لرعاية الفواصل والالتفات الى الغيبة للايذان باستجلاب حالهم للاعراض عنهم وصرف الخطاب الى غيرهم من الساهين تعجيبا لهم مما فعلوه (ويعبدون من دون الله) لعله عطف على يكفرون داخل تحت الانكار والتوبيخ أي أيكفرون بنعمة الله ويعبدون من دونه (مالا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيأ) أن جعل الرزق مصدرا فشيأ نصب على المفعولية

لا يليق به في توحيده وعدله وهذا هو الظاهر ثم قال وكفى به بذنوب عباده خبيرا وهذه كلمة رادعة لهم بالغة يقال كفى بالعلم جملا وكفى بالادب مالا وهو بمعنى حسبك أي لا تحتاج معه الى غيره لانه خبير باحوالهم قادر على مكافاتهم وذلك وعيد شديد كانه قال ان أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه في مجازاتكم مما تستحقون من العقوبة ۞ قوله تعالى ﴿الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا﴾ اعلم أنه سبحانه لما أمر الرسول بأن يتوكل عليه وصف نفسه بامور (أولها) بانه حي لا يموت وهو قوله وتوكل على الحي الذي لا يموت (وثانيها) انه عالم بجميع المعلومات وهو قوله وكفى به بذنوب عباده خبيرا (وثالثها) انه قادر على كل الممكنات وهو المراد من قوله الذي خلق السموات والارض فقوله الذي خلق متصل بقوله الحي الذي لا يموت لانه سبحانه لما كان هو الخالق للسموات والارض دون ولكل ما بينهما ثابت انه هو القادر على جميع وجوه المنافع ودفع المضار وان النعم كلها من جهته فحينئذ لا يجوز التوكل الا عليه» وفي الآية سؤالات ﴿السؤال الاول﴾ الايام عبارة عن حركات الشمس في السموات فقبل السموات لا أيام فكيف قال الله خلقها في ستة أيام ﴿الجواب﴾ يعني في مدة مقدارها هذه المدة لا يقال الشيء الذي يتقدر بمقدار محدود يقبل الزيادة والنقصان والجزء لا يكون عدما محضا بل لا بد وان يكون موجودا فلزم من وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضي قدم الزمان «لانا نقول هذا معارض بنفس الزمان لان المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لا تحتمل خمسة أيام والمدة المتوهمة التي تحتمل خمسة أيام لا تحتمل عشرة أيام فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى فلما لم يلزم هذا لم يلزم ما قالوه وعلى هذا نقول لعل الله سبحانه خلق المدة أولا ثم خلق السموات والارض فيها بمقدار ستة أيام ومن الناس من قال في ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم ألف سنة وهو بعيد لان التعريف لا بد وان يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول ﴿السؤال الثاني﴾ لم قدر الخلق والايجاد بهذا التقدير ﴿الجواب﴾ اما على قولنا فالمشيئة والقدرة كافية في التخصيص قالت المعتزلة بل لا بد من داعي حكمة وهو ان تخصيص خلق العالم بهذا المقدار أصلح للكافين وهذا بعيد لوجهين (أحدهما) ان حصول تلك الحكمة اما أن يكون واجبا لذاته أو جائزا فان كان واجبا وجب أن لا يتغير فيكون حاصلا في كل الازمنة فلا يصلح أن يكون سببا لتخصيص زمان معين وان كان جائزا افتقر حصول تلك الحكمة في ذلك الوقت الى تخصيص آخر ويلزم التسلسل ﴿والثاني﴾ أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل اليه خاطر المكلف وعقله فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به كيف يقدح في حصول المصالح واعلم أنه يجب على المكلف سواء كان على قولنا أو على قول المعتزلة أن يقطع الطمع عن أمثال هذه الاسئلة فانه بحر لا ساحل له من ذلك الوقت الى هذا الوقت لم يعلم أصحاب النار تسعة عشر وحملة العرش بالثمانية وشهور السنة باثني عشر والسموات بالسبع وكذا الارض وكذا القول في عدد الصلوات ومقادير النصب في الزكوات وكذا مقادير الحدود والكفارات فالاقرار بان كل ما قاله الله تعالى حق هو الدين وترك البحث عن هذه الاشياء هو الواجب وقد نص عليه تعالى في قوله وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ثم قال ومايعلم جنود ربك الا هو وهذا هو الجواب أيضا في أنه لم يخلقها في لحظة ما وقادر على ذلك وعن سعيد بن جبير انه انما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة تعليما لخلقه الرفق والتثبت قيل ثم خلقها يوم الجمعة فسماها

منه أي مالا يقدر على أن يرزقهم شيأ لان السموات مطر اولا من الارض نباتا وان حمل اسما للمرزوق فنصب على البدلية منه بمعنى قليلا ومن السموات والارض صفة لرزقا أي كائنا منهما ويجوز أن يكون تأكيدا للا يملك أي لا يملك رزقا ما شيأ من الملك (ولا يستطيعون) أن يعملوا ذلا لاستطاعة لهم رأسا لانها موات لا حراك بها فالضمير للآلهة ٣٨٩ ويجوز أن يكون للكفرة على معنى

الله تعالى عبدا لمسابين (السؤال الثالث) ما معنى قوله ثم استوى على العرش ولا يجوز حمله على الاستيلاء والقدرة لان الاستيلاء والقدرة في أوصاف الله لم تزل ولا يصح دخول ثم فيه (الجواب) الاستقرار غير جائز لانه يقتضي التغير الذي هو دليل الحدوث ويقتضي التركيب والبعضية وكل ذلك على الله محال بل المراد ثم خلق العرش ورفعه وهو مستول كقوله تعالى ولنبلونكم حتى نعلم فان المراد حتى يجاهد المجاهدون ونحن بهم عالمون فان قيل فعلى هذا التفسير يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات وليس كذلك لقوله تعالى وكان عرشه على الماء قلنا كلمة ثم ما دخلت على خلق العرش بل على رفعه على السموات (السؤال الرابع) كيف اعراب قوله الرحمن فاسأل به خبيرا (الجواب) الذي خلق مبتدأ والرحمن خبره أو هو صفة للحي أو الرحمن خبر مبتدإ محذوف ولهذا أجاز الزجاج وغيره أن يكون الوقف على قوله على العرش ثم يبتدئ بالرحمن أي هو الرحمن الذي لا ينبغي السجود والتعظيم الا له ويجوز أن يكون الرحمن مبتدأ وخبره قوله فاسأل به خبيرا (السؤال الخامس) ما معنى قوله فاسأل به خبيرا (الجواب) ذكروا فيه وجوها (أحدها) قال الكلبي معناه فاسأل خبيرا به وقوله به يعود الى ما ذكرنا من خلق السماء والارض والاستواء على العرش والباء من صلة الخبير وذلك الخبير هو الله عز وجل لانه لا دليل في العقل على كيفية خلق الله السموات والارض فلا يعلمها أحد الا الله تعالى وعن ابن عباس أن ذلك الخبير هو جبريل عليه السلام ولما قدم لرؤس الآي وحسن النظم (وثانيها) قال الزجاج قوله به معناه عنه والمعنى فاسأل عنه خبيرا وهو قول الاخفش ونظيره قوله سأل سائل بعذاب واقع وقال علقمة بن عبدة

فان تسألوني بالنساء فاني * بصير بادواء النساء طبيب

(وثالثها) قال ابن جرير الباء في قوله به صلة والمعنى فسل خبيرا وخبيرا نصب على الحال (ورابعها) أن قوله به يجري مجرى القسم كقوله واتقوا الله الذي تساءلون به أما قوله واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن فهو خبر عن قوم قالوا هذا القول ويحتمل أنهم جهلوا الله تعالى ويحتمل أنهم وان عرفوه لكنهم جحدوه ويحتمل أنهم وان اعترفوا به لكنهم جهلوا ان هذا الاسم من أسماء الله تعالى وكثير من المفسرين على هذا القول الاخير قالوا الرحمن اسم من أسماء الله مذكور في الكتب المتقدمة والعرب ما عرفوه قال مقاتل ان أبا جهل قال ان الذي يقول محمد شعر فقال عليه الصلاة والسلام الشعر غير هذا ان هذا الا كلام الرحمن فقال أبو جهل يخ يخ لعمري والله انه لكلام الرحمن الذي باليمامة هو يعلمك فقال عليه الصلاة والسلام الرحمن الذي هو الله السماء ومن عنده يأتيني الوحي فقال يا آل غالب من يفترى من محمد يزعم أن الله واحد وهو يقول الله يعلمني والرحمن الستم تعلمون أنهما الهان ثم قال ربكم الله الذي خلق هذه الاشياء أما الرحمن فهو مسيلمة قال القاضي والاقرب أن المراد انكارهم لله لا للاسم لان هذه اللفظة عربية وهم كانوا يعلمون انها تفيد المبالغة في الانعام ثم ان قلنا بأنهم كانوا منكرين لله كان قولهم وما الرحمن سؤال طالب عن الحقيقة وهو يجري مجرى قول فرعون وما رب العالمين وان قلنا بأنهم كانوا مقرين بالله لكنهم جهلوا كونه تعالى مسمى بهذا الاسم كان قولهم وما الرحمن سؤالا عن الاسم * أما قوله أنسجد لما تأمرنا فاعلم أن الذي تأمرنا بسجوده على قوله أمرتك بالخير أو لامرك لنا وقرئ يأمرنا بالياء كأن بعضهم قال لبعض أنسجد لما يأمرنا محمد أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو وزادهم أمره نفورا ومن حقه أن يكون باعثا على القبول والقبول قال الضحاك فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمان بن

أنهم مع كونهم أحياء متصرفين في الامور لا يستطيعون من ذلك شيأ فكيف بالجماد الذي لا حس به (فلا تضربوا لله الامثال) التفات الى الخطاب للايذان بالاهتمام بشأن النهي أي لا تشركوا به شيأ والتعبير عن ذلك بضرب المثل للقصد الى النهي عن الاشراك به تعالى في شأن من الشؤن فان ضرب المثل مبناه تشبيه حالة بحالة وقصة بقصة أي لا تشبهوا بشأنه تعالى شأنا من الشؤن واللام مثلها في قوله تعالى ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون لامثلها في قوله تعالى واضرب لهم مثلا أصحاب القرية وظاهره والله للدلالة على ترتب النهي على ما عدد من النعم الفائضة عليهم من جهته تعالى وكون ما يشركون به تعالى بمعزل من أن يملك لهم من أقطار السموات والارض شيأ من رزق ما فضلا عما فصل من نعمة الخلق والتفصيل في الرزق ونعمة الازواج والاولاد (ان الله يعلم) تعليل للنهي المذكور ووعيد على المنهي عنه أي انه تعالى يعلم كنه ما تأتون وما تذرون وأنه في غاية العظم والقبح (وأنتم لا تعلمون) ذلك والالما فعلتموه وأنه تعالى يعلم كنه الاشياء وأنتم لا تعلمونه فقد عرا أبو بكر فقراء وأقاموا الامثال لما يرد عليكم من الامر والنهي ويجوز أن يراد فلا تضربوا لله الامثال ان الله يعلم كيف تضرب الامثال وأنتم لا تعلمون ذلك فتعدون فيها

تفعون فيه من مهاوى الردى والضلال ثم علمهم كيفية ضرب الامثال فى هذا الباب فقال (ضرب الله مثلا) أى ذكر وأورد شيأ يستدل به على تباين الحال بين جنابه عز وجل وبين ما أشركوا به وعلى تباعدهما حيث ينادى بفساد ما ارتكبوه نداء جليا (عبدا مملوكا لا يقدر على شئ) بدل من مثلا وتفسير له والمثل ٣٩٠ فى الحقيقة حالته العارضة له من المملوكية والعجز التام وبحسبها ضرب نفسه مثلا ووصف العبد بالملوكية للتمييز عن الحر لاشتراكهما فى كونهما عبدالله سبحانه وقد أدمج فيه أن الكل عبيده تعالى وبعدم القدرة لتمييزه عن المكاتب والمأذون اللذين لهما تصرف فى الجملة وفى ابهام المثل أولا ثم بيانه بما ذكر مالا يخفى من الفخامة والجزالة (ومن رزقناه) من موصوفة معطوفة على عبدا أى ورزقناه بطريق الملك والالتفات الى التكلم للاشعار باختلاف حالى ضرب المثل والرزق (منا) من جنابنا الكبير المتعالى (رزقا حسنا) حلالا طيبا أو مستحسنا عند الناس مرضيا (فهو ينفق منه) تفضلا واحسانا والفاء لترتيب الانفاق على الرزق كأنه قيل ومن رزقناه منا رزقا حسنا فانفق وايثار ما عليه النظم الكريم من الجملة الاسمية الفعلية الخبرية للدلالة على ثبات الانفاق واستمراره التجددى (سرا وجهرا) أى حال السر والجهر أو انفاقى سرا وانفاق جهر والمراد بيان عموم انفاقه للاوقات وشمول انعامه لمن يجتنب عن قبوله جهرا والاشارة الى أصناف نعم الله تعالى الباطنة والظاهرة وتقديم السر فى على الجهر للايذان بفضله عليه والعدول عن تطبيق القرينتين بأن يقال وجهرا كالاموال مع كونه أدل على تباين الحال بينه وبين قسيمه لتوخى تحقيق الحق بأن الاحرار أيضا تحت ربقة عبوديته سبحانه وتعالى وان ما لكيتهم لما عليها كونه ليست الا بأن يرزقهم الله تعالى

مطعون وعمرو بن عنبسة ولما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا فى ناحية المسجد مستهزئين فهذا هو المراد من قوله وزادهم نفورا أى فزادهم سجودهم نفورا ﴿قوله تعالى ﴿تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا﴾ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا﴾ اعلم أنه سبحانه لما حكى عن الكفار مزيد النفرة عن السجود ذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود والعبادة للرحمن فقال تبارك الذى جعل فى السماء بروجا أما تبارك فقد تقدم القول فيه وأما البروج فهى منازل السيارات وهى مشهورة سميت بالبروج التى هى القصور العالية لانها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها واشتقاق البرج من التبرج لظهوره وفيه قول آخر عن ابن عباس رضى الله عنهما أن البروج هى الكواكب العظام والاول أولى لقوله تعالى وجعل فيها أى فى البروج فان قيل لم لا يجوز أن يكون قوله فيها راجعا الى السماء دون البروج قلنا لان البروج أقرب فعود الضمير اليها أولى والسراج الشمس لقوله تعالى وجعل الشمس سراجا وقرئ سرجا وهى الشمس والكواكب الكبار فيها وقرأ الحسن والاعمش وقمرا منيرا وهى جمع ليلة قراءة كأنه قيل وذا قمر منير لان الليالى تكون قمرا فأضافها اليها ولا بعد ان يكون القمر جمعنى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب وأما الخلفة ففيها قولان (الاول) انها عبارة عن كون الشيئين بحيث أحدهما يخلف الآخر وياتى خلفه يقال فلان خلفة واختلاف اذا اختلف كثيرا الى منبرة والمعنى جعلهما ذوى خلفة أى ذوى عقبة يعقب هذا ذاك وذاك هذا قال ابن عباس رضى الله عنهما جعل كل واحد منهما يخالف صاحبه فيما يحتاج أن يعمل فيه فمن فرط فى عمل فى أحدهما قضاه فى الآخر قال أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب وقد فاتته قراءة القرآن بالليل يا ابن الخطاب لقد أنزل الله فلانا آية وتلا وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر ما فاتك من الفواقل بالليل فاقضه فى نهارك وما فاتك من النهار فاقضه فى الليل ﴿القول الثانى﴾ وهو قول مجاهد وقتادة والكسائى يقال لكل شيئين اختلفا هما خلفان فقوله خلفة أى مختلفين وهذا أسود وهذا أبيض وهذا طويل وهذا قصير والقول الاول أقرب أما قوله تعالى أن يذكر فقراءة العامة بالتشديد وقراءة حمزة بالتخفيف وعن أبى بن كعب يتذكر والمعنى لينظر الناظر فى اختلافهما فيعلم أنه لابد من انتقالهما من حال الى حال من ناقل ومغير وقوله أن يذكر راجع الى كل ما تقدم من النعم يعنى ان الذين قالوا وما الرحمن لو تفكروا فى هذه النعم وتدبروها لاستدلوا بذلك على عظيم قدرته ولشكروا الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار كما قال تعالى ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله أو ليكونوا فريقين للتذكرين والشاكرين من فاته فى أحدهما ورد من العبادة قام به فى الآخر والشكور مصدر شكر يشكر شكورا ﴿قوله تعالى ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما انها ساءت مستقرا ومقاما والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾ اعلم ان قوله وعباد الرحمن مبتدأ خبره فى آخر السورة كانه قيل وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة ويجوز أن يكون خبره الذين يمشون واعلم أنه سبحانه خص اسم العبودية بالمشتغلين بالعبودية فدل ذلك على أن هذه الصفة من أشرف صفات المخلوقات وقرئ وعباد الرحمن ﴿واعلم أنه سبحانه وصفهم بتسعة أنواع من الصفات ﴿الصفة الاولى﴾ قوله الذين يمشون على الارض هونا وهذا وصف سيرتهم بالنهار وقرئ يمشون هونا حال أو صفة للشى بمعنى هينين أو بمعنى مشاهينا الا أن

اما من غير أن يكون لهم مدخل فى ذلك مع محاولة المبالغة فى الدلالة على ما قصد بالمثل من تباين الحال بين الممثلين فان العبد المملوك حيث لم يكن مثل العبد المالك فما ظنك بالجماد ومالك الملك خلاق العالمين (هل يستوون) جمع الضمير للاذان بأن المراد بما ذكر من اتصف بالاوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين لا فردان معينان منهما أى هل ٣٩١ يستوى العبيد والاحرار الموصوفون

فى وضع المصدر موضع الصفة مبالغة والهون الرفق واللين ومنه الحديث أحب حبيبك هونا ما وقوله المؤمنون هيبنون لينون والمعنى أن مشيهم يكون فى لين وسكينة ووقار وتواضع ولا يضربون بأقدامهم أشرا وبطرا ولا يختبرون لاجل الخيلاء كما قال ولا تمش فى الارض مرحا وعن زيد بن أسلم القصد تفسير هونا قل أحد فرأيت فى النوم فقيل لى هم الذين لا يريدون الفساد فى الارض وعن ابن زيد لا يتكبرون ولا يتجبرون ولا يريدون علوا فى الارض (الصفة الثانية) قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما معناه لا نحاهلكم ولا خير بيننا ولا شر أى نسلم منكم تسليما فأقيم السلام مقام التسليم ثم يحتمل أن يكون مرادهم طلب السلامة والسكوت ويحتمل أن يكون المراد التنبيه على سوء طريقتهم لكى يتنبهوا ويحتمل أن يكون مرادهم العدول عن طريق المعاملة ويحتمل أن يكون المراد اظهار الحلم فى مقابلة الجهل قال الاصم قالوا سلاما أى سلام توديع لا تحية كقول ابراهيم لابيه سلام عليك ثم قال الكلبى وأبو العالية نسختها آية القتال ولا حاجة الى ذلك لان الاعضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن فى العقل والشرع وشتان لسلامة العرض والورع (الصفة الثالثة) قوله والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما (واعلم) أنه تعالى لما ذكر سيرتهم فى النهار من وجهين (أحدهما) ترك الايذاء وهو المراد من قوله عشون على الارض هونا (والآخر) تحمل التأذى وهو المراد من قوله واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما فكأنه شرح سيرتهم مع الخلق فى النهار فبين فى هذه الآية سيرتهم فى الليالى عند الاشتغال بخدمة الخالق وهو كقوله تتجافى جنوبهم عن المضاجع ثم قال الزجاج كل من أدرك الليل قيل بات وان لم ينم كما يقال بات فلان قلقا وهنى يبيتون لربهم أن يكونوا فى ليالهم مصلين ثم اختلفوا فقال بعضهم من قرأ شيأ من القرآن فى صلاة وان قل فقد بات ساجدا وقائما وقيل ركعتين بعد المغرب وأربعا بعد العشاء الاخيرة والاولى أنه وصف لهم باحياء الليل أو أكثره يقال فلان يظل صائما ويبيت قائما قال الحسن يبيتون لله على أقدامهم ويفترشون له وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم خوفا من ربهم (الصفة الرابعة) قوله والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما قال ابن عباس رضى الله عنهما يقولون فى سجودهم وقيامهم هذا القول وقال الحسن خشعوا بالنهار وتهجدوا بالليل فرقا من عذاب جهنم وقوله غراما أى هلاكا وخسرانا لها لازما ومنه الغريم لالحاحه والزامه ويقال فلان مغرم بالنساء اذا كان مولعا بهن وسأل نافع بن الازرق ابن عباس عن الغرام فقال هو الموجع وعن محمد بن كعب فى غراما أنه سأل الكفار ثمن ذمته فما أدوها اليه فأغرمهم فادخلهم النار واعلم أنه تعالى وصفهم باحياء الليل ساجدين وقائمين ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه اذا نانا أنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون الى الله فى صرف العذاب عنهم كقوله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أما قوله تعالى انها ساءت مستقرا ومقاما فقوله ساءت فى حكم بئست وفيها ضمير مبهم تفسيره مستقرا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هى ومستقرا حال أو تمييز (فان قيل) دلت الآية على أنهم سألوا الله تعالى أن يصرف عنهم عذاب جهنم لعلتين (احداهما) أن عذابها كان غراما (وثانيهما) انها ساءت مستقرا ومقاما فما الفرق بين الوجهين وأيضا فما الفرق بين المستقر والمقام (قلنا) المتكلمون ذكروا أن عقاب الكافر يجب أن يكون مضرة خالصة عن شوائب النفع دائمة فقوله ان عذابها كان غراما اشارة الى كونه مضرة خالصة عن شوائب النفع وقوله انها ساءت مستقرا ومقاما اشارة الى كونها دائمة ولا شك فى المغايرة أما الفرق بين المستقر والمقام فيحتمل أن يكون المستقر للعصاة من أهل الايمان فانهم يستقرون فى النار ولا يقيمون فيها وأما الاقامة فللكفار واعلم أن قوله انها ساءت مستقرا ومقاما يمكن أن يكون من

الثانى على وجه أو ضم وأطم وربعد ما أبهم ذلك لتتنظر النفس الى وروده وتتشوقه حتى يتمكن لديها عند وروده بين فقيل (رجلين أحدهما أبكم) وهو من ولد أخرس (لا يقدر على شئ) من الاشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره بحدس أو فراسة لتله فهمه وسوء ادراكه (وهو كل) ثقل وعيال (على مولاه) على من يعوله ويلى أمره وهذا بيان لعدم قدرته على اقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شئ

مطلقا وقوله تعالى (أينما يوجهه) أى حيث يرسله مولاه فى أمر يبان لعدم قدرته على اقامة مصالح مولاه ولو كانت مصلحة يسيرة وقرئ على البناء للمفعول وعلى صيغة الماضى من التوجيه (لا يأت بخير) يصح وكفاية مهم الميتة (هل يستوى هو) مع ما فيه من الاوصاف المذكورة (ومن يأمر بالعدل) ٣٩٢ أى من هو منطيق فهم ذو رأى وكفاية ورشد ينفع الناس بحثهم على العدل الجامع لجوامع

كلام الله تعالى و يمكن أن يكون حكاية لقولهم (الصفة الخامسة) قوله والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما قرئ يقتروا بكسر التاء وضمها و يقتروا بضم الياء وتخفيف القاف وكسر التاء وايضا بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء وتشديدها وكلها لغات والقتر والاقتار والتقتير التضييق الذى هو نقيض الاسراف والاسراف مجاوزة الحد فى النفقة وذكر المفسرون فى الاسراف والتقتير وجوها (أحدها) وهو الاقوى انه تعالى وصفهم بالقصد الذى هو بين الغلو والتقصير و بمثله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وعن وهيب بن الورد قال لعالم ما البناء الذى لا سرف فيه قال ما ستر لك عن الشمس وأكنك من المطر قال له فما الطعام الذى لا سرف فيه قال ما سد الجوعة فقال له فى اللباس قال ما ستر العورة وتك ووقاك من البرد وروى أن رجلا صنع طعاما فى املاك فأرسل الى الرسول عليه السلام فقال حق فأجيبوا ثم صنع الثانية فأرسل اليه فقال خلق فمن شاء فليجب والا فلا فقعد ثم صنع الثالثة فأرسل اليه فقال رياء ولا خير فيه (وثانيها) وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك ان الاسراف الانفاق فى معصية الله تعالى والاقتار منع حق الله تعالى قال مجاهد لو أنفق رجل مثل أبى قبيس ذهبا فى طاعة الله تعالى لم يكن سرفا ولو أنفق صاعا فى معصية الله تعالى كان سرفا وقال الحسن لم ينفق فى معاصى الله ولم يمسك عما ينبغى وذلك قد يكون فى الامساك عن حق الله وهو أقبح التقتير وقد يكون عما لا يجب ولكن يكون مندوبا مثل الرجل الغنى الكثير المال اذا منع الفقراء من أقاربه (وثالثها) المراد بالسرف مجاوزة الحد فى التنعم والتوسع فى الدنيا وان كان من حلال فان ذلك مكروه لانه يؤدى الى الطغيان والاختار هو التضييق فالاكل فوق الشبع بحيث يمنع النفس عن العبادة سرف وان أكل بقدر الحاجة فذلك اقتار وهذه الصفة صفة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة ولكن كانوا يأكلون ما يسد جوعهم و يعينهم على عبادة ربهم و يلبسون ما يستر عوراتهم و يسوتهم من الحر والبرد وههنا مسئلتان (المسئلة الاولى) القوام قال ثعلب القوام بالفتح العدل والاستقامة و بالكسر ما يدوم عليه الامر و يستقر قال صاحب الكشاف القوام العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء وقرئ قواما بالكسر وهو ما يقام به الشئ يقال أنت قواما تعنى ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص (المسئلة الثانية) المنصوبان أعنى بين ذلك قواما جائز أن يكونا خبرين معا وأن يجعل بين ذلك لغوا وقواما مستقرا وأن يكون الظرف خبرا وقواما حالا مؤكدة قال الفراء وان شئت جعلت بين ذلك اسم كان كما تقول كان دون هذا كافيا تريد أقل من ذلك فيكون معنى بين ذلك أى كان الوسط من ذلك قواما أى عدلا وهذا التأويل ضعيف لان القوام هو الوسط فيصير التأويل وكان الوسط وسطا وهذا لغو (الصفة السادسة) ﴿قوله تعالى ﴿والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر ان من صفة عباد الرحمن الاحتراز عن الشرك والقتل والزنا ثم ذكر بعد ذلك حكم من يفعل هذه الاشياء من العقاب ثم استثنى من جملتهم التائب وههنا سؤالات (السؤال الاول) انه تعالى قد ذكر هذه الصفة تنزه عباد الرحمن عن الامور الخفيفة فكيف يليق بعد ذلك أن يطهرهم عن الامور العظيمة مثل الشرك والقتل والزنا أليس انه لو كان الترتيب بالعكس منه كان أولى (الجواب) ان الموصوف بتلك

الفضائل (وهو) فى نفسه مع ذكر من نفسه العام للخاص والعام (على صراط مستقيم) ومقابلة الصفات المذكورة عدم استحقاق المأمورية وملخص هذين استحقاق كمال الآمرية المستتبع لطهارة المحاسن بأجمعها وتغيير الاسلوب حيث لم يقل والآخر آمر بالعدل الآية لمراعاة الملاءمة بينه و بين ما هو المقصود من بيان التباين بين القرينتين واعلم أن كلا من القرينتين ليس المراد بها ما علمت كما أن المراد بالضرب الماضى بل المراد انشاؤه باذكر عقيبه ولا يبعد أن يقال ان الله تعالى ضرب مثلا لخلق الفريقين على ما هما عليه فكان خلقهما كذلك للاستدلال بعدم تساويهما على امتناع التساوى بينه سبحانه و بين ما يشركون فيكون كل من الفعلين حكاية للضرب الماضى (ولله) تعالى خاصة لا لاحد غيره استقلالا ولا اشتراكا (غيب السموات والارض) أى الامور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبة بحيث لا سبيل لهم اليها لا مشاهدة ولا استدلالا ومعنى الاضافة اليهما التعلق بهما السفات اما باعتبار الوقوع فيهما حالا أو مآلا واما باعتبار الغيبة عن أهلهما والمراد بيان الاختصاص به تعالى من حيث المعلومية حسبما ينبئ عنه عنوان الغيبة لا من حيث المخلوقية والملوكية وان كان الامر كذلك فى نفس الامر وفيه اشعار بأن علمه سبحانه حضورى فان تحقق

الغيوب فى أنفسها علم ما بالنسبة اليه تعالى ولذلك لم يقل ولله علم غيب السموات والارض (وما أمر الساعة) التى هى أعظم ما وقع فيه المراء من الغيوب المتعلقة بهما من حيث غيبتهم عن أهلهما أو ظهور آثارها فيهما عند وقوعها فان وقت وقوعها بعينه من الغيوب المختصة به سبحانه وان كان اتيانها من الغيوب التى نصبت عليها الادلة أى ماشأنها ٣٩٣ فى سرعة المجىء (الا كلمح البصر)

السفات السالفة قد يكون متمسكا بالشرك تدينا ومقدما على قتل الموؤدة تدينا وعلى الزنا تدينا فبين تعالى أن المرء لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن حتى يضاف الى ذلك كونه مجانبا لهذه الكبائر وأجاب الحسن رحمه الله من وجه آخر فقال المقصود من ذلك التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار كأنه قال وعباد الرحمن هم الذين لا يدعون مع الله الها آخر وأنتم تدعون ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق وأنتم تقتلون الموؤدة ولا يزنون وأنتم تزنون (السؤال الثانى) ما معنى قوله ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ومعلوم أنه من يحل قتله لا يدخل فى النفس المحرمة فكيف يصح هذا الاستثناء (الجواب) المقتضى لحرمة القتل قائم أبدا وجواز القتل انما ثبت بالمعارض فقوله حرم الله اشارة الى المقتضى وقوله الا بالحق اشارة الى المعارض (السؤال الثالث) بأى سبب يحل القتل (الجواب) بالردة وبالزنا بعد الاحصان وبالقتل قودا على ما فى الحديث وقيل وبالمحاربة وبالبغية وان لم يكن لما شاهدت به حقيقة (السؤال الرابع) منهم من فسر قوله ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق بالردة فهل يصح ذلك (الجواب) لفظ القتل عام فيتناول الكل وعن ابن مسعود قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال ان تقتل ولدك خشية أن يأكل معك قلت ثم أى قال ان تزنى بحليلة جارك فأنزل الله تصديقه (السؤال الخامس) ما الاثام (الجواب) فيه وجوه (أحدها) أن الاثام جزاء الاثام فأطلق اسم الشئ على جزائه (وثانيها) قال الحسن الاثام اسم من أسماء جهنم وقال مجاهد أثاما وادى جهنم وقرأ ابن مسعود اثاما أى شديدا يقال يوم ذو أثام للموم الصعب أما قوله يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) يضاعف بدل من يلق لانه ما فى معنى واحد وقرئ يضعف ويضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحال وكذلك يخلد ويخلد على البناء للفعول مخففا ومثقلا من الاخلاد والتخليد وقرئ ويخلد بالتاء على الالتفات (المسئلة الثانية) سبب تضعيف العذاب أن الشرك اذا ارتكب المعاصى مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصى جميعا فتضاعف العقوبة بتضاعف المعاقب عليه وهذا يدل على ان الكفار مخاطبون بفروع الشرائع (المسئلة الثالثة) قال القاضى بين الله تعالى ان المضاعفة والزيادة يكون حالها فى الدوام كحال الاصل فقوله ويخلد فيه أى ويخلد فى ذلك التضعيف ثم ان ذلك التضعيف انما حصل بسبب العقاب على المعاصى فوجب أن يكون عقاب هذه المعاصى فى حق الكافر دائما واذا كان كذلك وجب أن يكون فى حق المؤمن كذلك لان حاله فيما يستحق به لا يتغير سواء فعل مع غيره أو منفردا (والجواب) لم لا يجوز أن يكون للاتيان بالشئ مع غيره أثر فى مزيد التبع ألا ترى أن الشيئين قد يكون كل واحد منهما فى نفسه حسنا وان كان الجمع بينهما قبيحا وقد يكون كل واحد منهما قبيحا ويكون الجمع بينهما أقبح فكذلك ههنا (المسئلة الرابعة) قوله ويخلد فيه مهانا اشارة الى ما ثبت أن العقاب هو المضرة الخالصة المقرونة بالذل والاهانة كما أن الثواب هو المنفعة الخالصة المقرونة بالتعظيم وأما قوله تعالى الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ففيه مسائل (المسئلة الاولى) دلت الآية على ان التوبة مقبولة والاستثناء لا يدل على ذلك لانه ثبت أنه يضاعف له العذاب ضعفين فكفى لصحة هذا الاستثناء أن لا يضاعف للتائب العذاب ضعفين وانما الدال عليه قوله فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات (المسئلة

أى كرجع الطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها (أو هو) أى بل أمرها فيما ذكر (أقرب) من ذلك وأسرع زمانا بأن يقع فى بعض من زمانه فان ذلك وان قصر عن حركة انسية لها هوية اتصالية منطبقة على زمان له هوية كذلك قابل للانقسام الى أبعاض هى أزمنة أيضا بل فى آن غير منقسم من ذلك الزمان وهو آن ابتداء تلك الحركة أو مآلها من الاكالشئ الذى يستقرب ويقال هو كلمح البصر أو هو أقرب وأيا ما كان فهو تمثيل لسرعة مجيئها حسبما عبر عنها فى فاتحة السورة الشريفة بالاتيان (ان الله على كل شئ قدير) ومن جملة الاشياء أن يجيئ بها أسرع مما يكون فهو قادر على ذلك أو وما أمر اقامة الساعة التى هى كنهها وكيفيتها من الغيوب الخاصة به سبحانه وهى اماتة الاحياء واحياء الاموات من الاولين والآخرين وتبديل صور الاكوان أجمعين وقد أنكرها المشركون

(٥٠ - نفر س) وجعلوها من قبيل ما لا يدخل تحت الامكان فى سرعة الوقوع ومع ولة الثانى الا كلمح البصر أو هو أقرب على ما مر من الوجهين ان الله على كل شئ قدير فهو قادر على ذلك لا محالة وقيل غيب السموات والارض عبارة عن يوم القيامة بعينه لما أن علمه مخصوص غائب عن أهلها فوضع الساعة موضع الضمير لتقرير مضمون الجملة (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم) عطف على

قوله تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا منتظم معه في سلك أدلة التوحيد من قوله تعالى والله انزل من السماء ماء وقوله تعالى والله خلقكم وقوله تعالى والله فضل بعضكم على بعض والامهات بضم الهمزة وقرئ بكسرها أيضا جمع الام زيدت الهاء فيه كما زيدت في اماق من أراق وشذت زيادتها في الواحدة ٣٩٤ قال * أمهتي خندف والياس أبي * (لا تعلمون شيأ) في موقع الحال أي

غير عالمين شيأ أصلا (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) عطف على أخرجكم وليس فيه دلالة على تأخر الجعل المذكور عن الاخراج لما أن مدلول الواو هو الجمع مطلقا لا الترتيب على أن أثر ذلك الجعل لا يظهر قبل الاخراج أي جعل لكم هذه الاشياء آلات تحصلون بها العلم والمعرفة بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الاشياء وتدركوها بأفئدتكم وتنتهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرر الاحساس فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية والافئدة جمع فؤاد وهو وسط القلب وهو من القلب كالقلب من الصدر وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة وتقديم المجرور على المنصوبات لما مر من الانذان من أول الامر بكون المجعول ناقصا لهم وتشويق النفس الى المؤخر ليتمكن عند وروده عليها فضل تمكن (لعلكم تشكرون) كي تعرفوا ما أنعم به عليكم طورا بعد طور فتشكروه وتقديم

الثانية) نقل عن ابن عباس أنه قال توبة القاتل غير مقبولة وزعم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى ومن يقتل مؤمنا متعمدا وقالوا نزلت الغليظة بعد اللينة بمدة يسيرة وعن الضحاك ومقاتل بثمان سنين وقد تقدم الكلام في ذلك في سورة النساء (المسئلة الثالثة) فان قيل العمل الصالح يدخل فيه التوبة والايمان فكان ذكرهما قبل ذكر العمل الصالح حشوا قلنا أفردهما بالذكر لعلو شأنهما ولما كان لابد منهما من سائر الاعمال لا جرم ذكر عقيبهما العمل الصالح (المسئلة الرابعة) اختلفوا في المراد بقوله فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات على وجوه (أحدها) قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة أن التبديل انما يكون في الدنيا فبدل الله تعالى قبائح أعمالهم في الشرك بمحاسن الاعمال في الاسلام فيبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا عفة واحصانا فكأنه تعالى يبشرهم بأنه يوفقهم لهذه الاعمال الصالحة فيستوجبون بها الثواب (وثانيها) قال الزجاج السيئة بعينها الآتي بحسنة ولكن التأويل أن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيئات (وثالثها) قال قوم ان الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت بدلها الحسنة بحكم هذه الآية وهذا قول سعيد بن المسيب ومكحول ويحتجون بما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ليمتنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات قيل من هم يا رسول الله قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات وعلى هذا القول التبديل في الآخرة (ورابعها) قال القفال والقاضي انه تعالى يبدل العقاب بالثواب فذكرهما وأراد ما يستحق بهما واذا حمل على ذلك كانت الاضافة الى الله حقيقة لان الاثابة لا تكون الا من الله تعالى * أما قوله تعالى ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا ففيه سؤالان (السؤال الاول) ما فائدة هذا التكرير (الجواب) من وجهين (الاول) أن هذا ليس بتكرير لان الاول لما كان في تلك الخصال بين تعالى أن جميع الذنوب يتمزتها في صحة التوبة منها (الثاني) أن التوبة الاولى رجوع عن الشرك والمعاصي والتوبة الثانية رجوع الى الله تعالى للجزاء والمكافأة كقوله تعالى عليه توكلت واليه متاب أي مرجعي (السؤال الثاني) هل تكون التوبة الا الى الله تعالى فما فائدة قوله فانه يتوب الى الله متابا (الجواب) من وجوه (الاول) ما تقدم من أن التوبة الاولى الرجوع عن المعصية والثانية الرجوع الى حكم الله تعالى وثوابه (الثاني) معناه أن من تاب الى الله فقد أتى بتوبة مرضية لله مكفرة للذنوب محصلة للثواب العظيم (الثالث) قوله ومن تاب يرجع الى الماضي فانه سبحانه ذكر أن من أتى بهذه التوبة في الماضي على سبيل الاخلاص فقد وعده بأنه سيوفقه للتوبة في المستقبل وهذا من أعظم البشارات (الصفة السابعة) ﴿ قوله تعالى ﴿ والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الزور يحتمل اقامة الشهادة الباطلة ويكون المعنى أنهم لا يشهدون شهادة الزور بحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه ويحتمل حضور مواضع الكذب كقوله تعالى فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ويحتمل حضور كل موضع يجري فيه ما لا ينبغي ويدخل فيه اعياد المشركين ومجامع الفساق لان من خالط أهل الشر ونظر الى أفعالهم وحضر مجامعهم فقد شاركهم في تلك المعصية لان الحضور والنظر دليل الرضا به بل هو سبب لوجوده والزيادة فيه لان الذي حملهم على فعله استحسان النظارة ورغبتهم في النظر اليه وقال ابن عباس رضي الله عنهما المراد مجالس الزور التي يقولون فيها الزور على الله تعالى وعلى رسوله وقال محمد بن الحنفية الزور الغناء واعلم أن كل هذه الوجوه محتملة ولكن استعماله في الكذب أكثر (المسئلة الثانية) الاصح أن اللغو كل ما يجب أن يلغى ويترك ومنهم من فسر اللغو بكل ما ليس بطاعة وهو ضعيف لان المباحات لا تعد

الغوا

اسمع على البصر لما أنه طريق تأتي الرجي أولان ادراكه أقدم من ادراك البصر وافراده باعتبار كونه مصدرا في الاصل (ألم يروا) وقرئ بالتاء (الى الطير) جمع طائر أي ألم ينظروا اليها (مسخرات) مذللات للطيران بما خلق لها من الاجنحة والاسباب المساعدة

له وفيه مبالغة من حيث ان معنى التسخير جعل الشئ منقادا لآخر يتصرف فيه كيف يشاء كتسخير البحر والفلك والدواب للانسان والواقع ههنا تسخير الهواء للطير لتطير فيه كيف تشاء فكان مقتضى طبيعة الطير السقوط فسخره الله تعالى للطيران وفيه تنبيه على أن الطيران ليس بمقتضى طبع الطير بل ذلك بتسخير الله تعالى (في جو السماء) ٣٩٥ أي في الهواء المتباعد من الارض والسكاك واللوح أبعد منه واضافته الى السماء لما أنه في جانبها من الناظر ولاظهار كمال القدرة (ما يمسكهن) في الجو حين قبض اجنحتهن وبسطها ووقوفهن (الا الله) عز وجل بقدرته الواسعة فان ثقل جسد ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها ولا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها وأما حال من الضمير المستتر في مسخرات أو من الطير وامامستأنف (ان في ذلك) الذي ذكر من تسخير الطير للطيران بأن خلقها خلقة تتمكن بها منه بأن جعل لها أجنحة خفيفة وأذنابا كذلك وجعل أجسادها من الخفة بحيث اذا بسطت أجنحتها وأذنابها لا يطيق ثقلها تخرق ما تحتها من الهواء الرقيق القوام وتخرق ما بين يديها من الهواء لانها لا تلاقيه بجسم كبير (لآيات) ظاهرة (لقوم يؤمنون) أي من شأنهم أن يؤمنوا وانما خص ذلك بهم لانهم المنتفعون به (والله جعل لكم) مخلوف

لغوا فقوله واذا مروا باللغو أي بأهل اللغو (المسئلة الثالثة) لاشبهة في قوله مروا كراما معناه أنهم يكرمون أنفسهم عن مثل حال اللغو واكرامهم لها لا يكون الا بالاعراض وبالانكار وبترك المعاونة والمساعدة ويدخل فيه الشرك واللغو في القرآن وشتم الرسول والخوض فيما لا ينبغي وأصل الكلمة من قولهم ناقة كريمة اذا كانت تعرض عند الحلب تكرما كأنها لا تبالي بما يحلب منها للغزارة فاستعير ذلك للصفح عن الذنب وقال الليث يقال تكرم فلان عما يشينه اذا تنزه وأكرم نفسه عنها ونظير هذه الآية قوله واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين وعن الحسن لم تسفههم المعاصي وقيل اذا سمعوا من الكفار الشتم والاذى أعرضوا وقيل اذا ذكر النكاح كنوا عنه ﴿الصفة الثامنة﴾ ﴿قوله تعالى ﴿والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا﴾ قال صاحب الكشاف قوله لم يخروا عليها صما وعميانا ليس بنفي للخرور وانما هو اثبات له ونفي للصمم والعمى كما يقال لا يلقاني زيد مسلما هو نفي للسلام لا للقاء والمعنى أنهم اذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصا على استماعها وأقبلوا على المذكر بها وهم في اكبابهم عليها سامعون بآذان واعية مبصرون بعيون راعية لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكرهم بها مظهرين الحرص الشديد على استماعها وهم كالصم والعميان حيث لا يفهمونها ولا يبصرون ما فيها كالمنافقين ﴿الصفة التاسعة﴾ قوله تعالى ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم ذرياتنا بالالف على الجمع وحده فيها الباقون على التوحيد والذرية تكون واحدا وجمعا ﴿المسئلة الثانية﴾ انه لا شبهة أن المراد أن يكون قرة أعين لهم في الدين لا في الامور الدنيوية من المال والجمال ثم ذكروا فيه وجهين (أحدهما) أنهم سألوا أزواجا وذرية في الدنيا يشاركونهم فأحبوا أن يكونوا معهم في التمسك بطاعة الله تعالى فيتقوى طمعهم في أن يجمعهم معهم في الجنة فيتكامل سرورهم في الدنيا بهذا الطمع وفي الآخرة عند حصول الثواب (والثاني) أنهم سألوا أن يلحق الله أزواجهم وذرياتهم بهم في الجنة ليتم سرورهم بهم ﴿المسئلة الثالثة﴾ فان قيل من في قوله من أزواجنا ما هي قلنا يحتمل أن تكون بيانية كأنه قيل هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله من أزواجنا وهو من قولهم رأيت منك أسدا أي أنت أسد وان تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح فان قيل لم قال قرة أعين فنكر وقال قلنا أما التنكير فلاجل تنكير القرة لان المضاف لا سبيل الى تنكيره الا بتنكير المضاف اليه كأنه قيل هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله من أزواجنا وهو من قولهم رأيت منك أسدا أي أنت أسد وان تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح فان قيل لم قال قرة أعين فنكر وقال قلنا أما التنكير فلاجل تنكير القرة لان المضاف لا سبيل الى تنكيره الا بتنكير المضاف اليه كأنه قيل هب لنا منهم سرورا وفرحا وانما قال أعين دون عيون لانه أراد أعين المتقين وهي قليلة بالاضافة الى عيون غيرهم قال تعالى وقليل من عبادي الشكور ﴿المسئلة الرابعة﴾ قال الزجاج أقر الله عينك أي صادف قولك ما يحبه وقال المفضل في قرة العين ثلاث أقوال (أحدها) برد دمعتها وهي التي تكون مع الضحك والسرور ودمعة الحزن حارة (والثاني) نومها لانه يكون مع ذهاب الحزن والوجع (والثالث) حصول الرضا ﴿المسئلة الخامسة﴾ قوله واجعلنا للمتقين اماما الاقرب أنهم سألوا الله تعالى أن يبلغهم في الطاعة المبلغ الذي يشار اليهم ويقتدى بهم قال بعضهم في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها قال الخليل عليه الصلاة والسلام واجعل لي لسان صدق في الآخرين وقيل نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنة ﴿المسئلة السادسة﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى قالوا لان الامامة في الدين لا تكون الا بالعلم والعمل فدل على أن العلم والعمل انما يكون بجعل الله تعالى وخلقه وقال القاضي المراد من السؤال الالطاف التي اذا كثرت

على ما مر وتقديم لكم على ما سيأتي من المجرور والمنصوب لما مر من الايذان من أول الامر بأنه لمصلحتهم ومنفعتهم لتشويق النفس الى وروده وقوله تعالى (من بيوتكم) أي من بيوتكم المعهودة التي تعرفونها من الحجر والمدر تبيين لذلك المجعول المهم في الجملة وتأكيد لما سبق من التشويق (سكنا) فعل بمعنى مفعول أي موضعا تسكنون فيه وقت اقامتكم أو تسكنون اليه من غير أن يتنقل من مكانه أي جعل بعض

بيوتكم بحيث تسكنون اليه وتقامون بها (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) أى بيوتا أخرى مغايرة لبيوتكم المعهودة هى الخيام والقباب والأخبية والفساطيط (تستخفونها) تجدونها خفيفة سهلة الأخذ (يوم ظعنكم) وقت ترحالكم فى النقض والحمل والنقل وقرئ بفتح العين (ويوم اقامتكم) ٣٩٦ وقت نزولكم فى الضرب والبناء (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها) عطف على قوله تعالى من جلود

صاروا مختارين لهذه الاشياء فصيروين أئمة (والجواب) أن تلك الالطاف مفعولة لامحالة فيكون - والها عيمنا ﴿المسئلة السابعة﴾ قال الفراء قال اماما ولم يقل أئمة كما قال للاثنين انا رسول رب العالمين ويجوز أن يكون المعنى اجعل كل واحد منا اماما كما قال يخرجكم طفلا وقال الاخفش الامام جمع واحده آم كصائم وصيام وقال القفال وعندى أن الامام اذا ذهب به مذهب الاسم وحد كما قيل اجعلنا حجة للمتقين ومثله البينة يقال هؤلاء بينة فلان ﴿واعلم أنه سبحانه وتعالى لما عدد صفات المتقين الخلصين بين بعد ذلك أنواع احسانه اليهم وهى مجموعة فى أمرين المنافع والتعظيم ﴿أما المنافع﴾ فهى قوله ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا﴾ والمراد أولئك يجزون الغرفات والدليل عليه قوله وهم فى الغرفات آمنون وقال لهم غرف من فوقها غرف والغرفة فى اللغة العلية وكل بناء عال فهو غرفة والمراد به الدرجات العالية وقال المفسرون الغرفة اسم الجنة فالمعنى يجزون الجنة وهى جنات كثيرة وقرأ بعضهم أولئك يجزون فى الغرفة وقوله بما صبروا فيه بحثان ﴿البحث الاول﴾ احتج بالآية من ذهب الى أن الجنة بالاستحقاق فقال الباء فى قوله بما صبروا تدل على ذلك ولو كان حصولها بالوعد لما صدق ذلك ﴿البحث الثانى﴾ ذكر الصبر ولم يذكر المصبور عنه ليعم كل نوع فيدخل فيه صبرهم على مشاق التفكر والاستدلال فى معرفة الله تعالى وعلى مشاق الطاعات وعلى مشاق ترك الشهوات وعلى مشاق أذى المشركين وعلى مشاق الجهاد والفقر ورياضة النفس فلا وجه لقول من يقول المراد الصبر على الفقر خاصة لان هذه الصفات اذا حصلت مع الغنى استحق من يختص بها الجنة كما يستحقه بالفقر ﴿وثانيها﴾ التعظيم وهو ﴿قوله تعالى ويلقون فيها تحية وسلاما﴾ قرئ يلقون كقوله ولقاهم نضرة وسرورا ويلقون كقوله ولقى أباه والتحية الدعاء بالتعمير والسلام الدعاء بالسلامة فيرجع حاصل التحية الى كون نعيم الجنة باقيا غير منقطع ويرجع السلام الى كون ذلك النعيم خالصا عن شوائب الضرر ثم هذه التحية والسلام يمكن أن يكون من الله تعالى لقوله سلام قولا من رب رحيم ويمكن أن يكون من الملائكة لقوله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ويمكن أن يكون من بعضهم على بعض ﴿أما قوله﴾ ﴿خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما﴾ فالمراد انه سبحانه لما وعد بالمنافع أولا وبالتعظيم ثانيا بين أن من صفتهما الدوام وهو المراد من قوله خالدين فيها ومن صفتهما الخلوص أيضا وهو المراد من قوله حسنت مستقرا ومقاما وهذا فى مقابلة قوله ساءت مستقرا ومقاما أى ما أسوأ ذلك وما أحسن هذا ﴿أما قوله تعالى﴾ ﴿قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما﴾ فاعلم انه سبحانه لما شرح صفات المتقين وشرح حال ثوابهم أمر رسوله أن يقول قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم فدل بذلك على انه تعالى غنى عن عباداتهم وأنه تعالى انما كلفهم ليتنفعوا بطاعتهم وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال الخليل ما أعبأ بفلان أى ما أصنع به كأنه يستقله ويستحقره وقال أبو عبيدة ما أعبأ به أى وجوده وعدمه عندى سواء وقال الزجاج معناه أى لا وزن لكم عندربكم والعبء فى اللغة الثقل وقال أبو عمرو بن العلاء ما يعبأ بى بكم ربى ﴿المسئلة الثانية﴾ فى ما قولان (أحدهما) أنها متضمنة لمعنى الاستفهام وهى فى محل النصب وهى عبارة عن المصدر كأنه قيل وأى عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم (والثانى) ان تكون ما نافية ﴿المسئلة الثالثة﴾ ذكروا فى قوله لولا دعاؤكم وجهين (أحدهما) لولا دعاؤها كم الى الدين والطاعة والدعاء على هذا مصدره مضاف الى المفعول (وثانيهما) أن الدعاء مضاف الى الفاعل وعلى هذا التقدير ذكروا فيه وجوها (أحدها) لولا دعاؤكم لولا اعانكم (وثانيها) لولا عبادتكم (وثالثها) لولا دعاؤكم اياه فى الشدائد كقوله فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله (ورابعها) دعاؤكم يعنى لولا شكركم له على احسانه

والاعمام عندهم لما مر آنفا (وسرابيل) من الدروع والجواشن (تقيكم بأسكم) أى البأس الذى يصل الى بعضكم من بعض فى الحرب من الضرب والطعن ولقد من الله سبحانه علينا حيث ذكر جميع نعمه الفائضة على جميع الطوائف فبدأ بما يخص المقيمين حيث قال

والضمائر للانعام على وجه التوزيع أى وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الابل وأشعار المعز (أثاثا) أى متاع البيت وأصله الكثرة والاجتماع ومنه شعر أثيث (ومتاعا) أى شيأ يتمتع به يقعون التمتع (الى حين) الى أن تقضوا منه أوطاركم أوالى أن يبلى ويفنى فانه فى معرض البلى والفناء وقيل الى أن تموتوا والكلام فى ترتيب المفاعيل مثل ما مر من قبل (والله جعل لكم مما خلق) من غير صنع من قبلكم (ظلالا) أشياء تستظلون بها من الحر كالغمام والشجر والجبل وغيرها (ومن الجبال أكنانا) مواضع تستكنون فيها من الكهوف والغيران والسروب والكلام فى الترتيب الواقع بين المفاعيل كالذى مر غير مرة (وجعل لكم سرابيل) جمع سربال وهو كل ما يلبس أى جعل لكم

والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ثم عمم المخاطبين بقوله يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ثم خص المسافرين بقوله وإن كنتم على سفر ولم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا ثم عمم الناس بقوله ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ثم خص المقيمين بقوله وإذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ثم عمم الناس بقوله ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ثم خص المقيمين بقوله وإن كنتم جنبا فاطهروا ثم عمم الناس بقوله ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ثم خص المقيمين بقوله فلم تجدوا ماء فتيمموا ثم عمم الناس بقوله ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ثم خص المقيمين بقوله وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين ثم عمم الناس بقوله وإذ قال ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ثم خص المقيمين بقوله وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ثم عمم الناس بقوله وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون ثم خص المقيمين بقوله وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا ثم عمم الناس بقوله وإذ قال موسى لقومه يا قوم

الاعتراف بها الا الانكار واسنادا لمعرفة والانكار المتفرع عليها الى ضمير المشركين على الاطلاق من باب اسناد حال البعض الى الكل كقولهم يموت فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم فان بعضهم ليسوا كذلك لقوله سبحانه (وأكثرهم الكافرون) أى المنكرون بقلوبهم غير المعترفين بعاد كر

والحكم عليهم بمطلق الكفر المؤذن بالكمال من حيث الكمية لا ينافي كمال الفرقة الاولى

عنق من الناس لفوج منهم ﴿المسئلة الرابعة﴾ نظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الكهف فلعلك باخع نفسك وقوله فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن أولم يروا الى الارض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين من تمام قوله ان نشأ ننزل عليهم فنبه تعالى على أنه مع قدرته على أن يجعلهم مؤمنين بالالجاء رحيم بهم من حيث يأتيهم حالا بعد حال بالقرآن وهو الذكر ويكرره عليهم وهم مع ذلك على حد واحد في الاعراض والتكذيب والاستهزاء ثم عند ذلك زجر وتوعد لان المراد اذا استمر على كفره فليس ينفع فيه الا الزجر الشديد فلذلك قال فقد كذبوا أى بلغوا النهاية في ردا يات الله تعالى فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن وذلك اما عند نزول العذاب عليهم في الدنيا أو عند المعاينة أو في الآخرة فهو كقوله تعالى والنعلمن نبأه بعد حين وقد جرت العادة فيمن يسيء أن يقال له ستري حالك من بعد على وجه الوعيد ثم انه تعالى بين أنه مع انزاله القرآن حالا بعد حال قد أظهر أدلة تحدث حالا بعد حال فقال أولم يروا الى الارض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم والزوج هو الصنف والكريم صفة لكل ما يرضى ويحمد في بابه يقال وجه كريم اذا كان مرضيا في حسنه وجماله وكتاب كريم اذا كان مرضيا في فوائده ومعانيه والنبات الكريم هو المرضي فيما يتعلق به من المنافع وفي وصف الزوج بالكريم وجهان (أحدهما) أن النبات على نوعين نافع وضار فقد كرسبحانه كثرة ما أنبت في الارض من جميع أصناف النبات النافع وترك ذكر الضار (والثاني) أنه يعم جميع النبات نافعه وضاره ووصفها جميعا بالكرم ونبه على أنها ما أنبت شيأ الا وفيه فائدة وان غفل عنها الغافلون أما قوله ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين فهو كقوله هدى للمتقين والمعنى ان في ذلك دلالة لمن يتفكر ويتدبر وما كان أكثرهم مؤمنين أى مع كل ذلك يستمر أكثرهم على كفرهم فاما قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم فانما قدم ذكر العزيز على ذكر الرحيم لانه لولم يقدمه لكان ربما قيل انه رحيم لعجزه عن عقوبتهم فأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر ومع ذلك فانه رحيم بعباده فان الرحمة اذا كانت من القدرة الكاملة كانت أعظم وقعا والمراد انهم مع كفرهم وقدرة الله على أن يعجل عقابهم لا يعجل رحمته مع ما تقدم ذكره من خلق كل زوج كريم من النبات ثم من اعطاء الصحة والعقل والهداية ﴿المسئلة الثانية﴾ أنه تعالى وصف الكفار بالاعراض أولا وبالتكذيب ثانيا وبالاستهزاء ثالثا وهذه درجات من أخذ يترقى في الشقاوة فانه يعرض أولا ثم يصرح بالتكذيب ثانيا ثم يبالغ في التكذيب والانكار الى حيث يستهزئ به ثالثا ﴿المسئلة الثالثة﴾ فان قلت ما معنى الجمع بين كم وكل ولم يقل كم أنبتنا فيها من زوج كريم قلت قد دل كل على الاحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل وكم على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة فهذا معنى الجمع ربه على كمال قدرته ﴿فان قلت فلم ذكر الأزواج ودل عليه بكم التي الكثرة والاحاطة وكانت بحيث لا يحصيها الا عالم الغيب فكيف قال ان في ذلك لآية وهلا قال لآيات ﴿قلت فيه وجهان (أحدهما) أن يكون ذلك مشارا به الى معدد أنبتناه فكأنه قال ان في ذلك النبات لآية أى آية (والثاني) أريد ان في كل واحد من تلك الازواج لآية ﴿المسئلة الرابعة﴾ احتجت المعتزلة على خلق القرآن بقوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث فقالوا لله ذكر وهو القرآن لقوله تعالى وهذا ذكر مبارك وبين في هذه الآية أن الذكر محدث فيلزم من هاتين الآيتين أن القرآن محدث وهكذا الاستدلال بقوله تعالى الله نزل

من حيث التكيفية هذا وقد قيل ذكر الاكثر أمالان بعضهم لم يعرفوا لنقصان العقل أو التفريط في النظر أولم يقم عليه الحجة لانه لم يبلغ حد التكليف فتدبر

(ويوم نبعث من كل أمة شهيدا) يشهد لهم بالايمان والطاعة وعليهم بالكفر والعصيان وهو نبيها (ثم لا يؤذن للذين كفروا) في الاعتذار اذ لا عذر لهم ونم للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبئ عن الاقناط الكلي وهو عند ما يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون أشد من ابتلائهم بشهادة الانبياء عليهم السلام عليهم وأطم (ولا هم يستعتبون) يسترضون أى لا يقال لهم ارضوا ربكم اذ الآخرة دار الجزاء لا دار العمل وانتصاب الظرف بمحذوف تقديره اذكر أو خوفهم يوم نبعث الخ أو يوم نبعث يحيق بهم ما يحيق مما لا يوصف وكذا قوله تعالى (واذا رأى الذين ظلموا العذاب) الذي يستوجبونه بظلمهم وهو عذاب جهنم (فلا يخفف عنهم) ذلك (ولا هم ينظرون) أى يمهلون كقوله تعالى بل تأتيهم بغتة فتبهتهم (واذا رأى الذين أشركوا) شركاءهم) الذين كانوا يدعونهم في الدنيا وهم الاوثان أو الشياطين الذين شاركوهم في الكفر بالحمل عليه وقادوهم في الزلل والضلال (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك) أى نعبدهم أو نطيعهم رجاء لهم قالوا ذلك طمعا في توزيع العذاب بينهم كما ينبئ عنه قوله

سبحانه (فألقوا) أى شركاؤهم (اليهم القول انكم لكاذبون) فان تكذيبهم اياهم فيما قالوا ليس الا لانتفاعهم والتخلص عن غائلة مضمونه وانما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم ويطيعونهم لان الاوثان ما كانوا راضين بعبادتهم لهم فكأن عبادتهم لهم كما قالت الملائكة عليهم السلام بل كانوا يعبدون الجن يعنون أن الجن هم الذين ٣٩٩ كانوا راضين بعبادتهم لانفسهم أو كذبوهم فى تسميتهم شركاء وآلهة فتبرأ بها سبحانه عن الشريك والشياطين وان كانوا راضين بعبادتهم اياهم لكنهم لم يكونوا حاملين لهم على وجه القسر والالجاء كما قال ابليس وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فكأنهم قالوا ما عبدتمونا حقيقة بل اتباعكم أهواءكم (وألقوا) أى الذين أشركوا (الى الله يومئذ السلم) الاستسلام والانقياد لحكمه العزيز الغالب بعد الاستكبار عنه فى الدنيا (وضل عنهم) أى ضاع وبطل (ما كانوا يفترون) من ان لله سبحانه شركاء وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم وذلك حين كذبوهم وتبرؤا منهم (الذين كفروا) فى أنفسهم (وصدوا) غيرهم (عن سبيل الله) بالمنع عن الاسلام والحمل على الكفر (زدناهم عذابا فوق العذاب) الذى كانوا يستحقونه بكفرهم قيل فى زيادة عذابهم حيات أمثال الفلك وعقارب أمثال النخل تلسع احداهن فيجد صاحبها ألم أربعين خريفا وقيل يخرجون من النار الى الزمهرير فيبادرون من شدة البرد الى النار (بما كانوا يفسدون) متعلق بقوله زدناهم أى زدناهم عذابا بسبب استمرارهم على الافساد وهو المذكور (ويوم نبعث) تكرير لما سبق تقنية للتهديد (فى كل أمة شهيدا عليهم) أى نبيا (من أنفسهم) من جنسهم قطعا لمعذرتهم وفى قوله تعالى عليهم اشارة بأن شهادة أنبيائهم على

أحسن الحديث كتابا يؤيد بقوله فيأتى حديث بعده يؤمنون واذا ثبت أنه محدث فله خالق فيكون مخلوقا لا محالة (والجواب) أن كل ذلك يرجع الى هذه الالفاظ ونحن نسلم حدوثها فما الذى يمنع قدم أمر آخر وراء هذه الحروف وليس فى الآية دلالة على ذلك ﴿قوله تعالى﴾ ﴿واذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون﴾ اختلف أهل السنة فى النداء الذى سمعه موسى عليه السلام من الله تعالى هل هو كلامه القديم أو هو ضرب من الاصوات فقال أبو الحسن الاشعرى المسموع هو الكلام القديم وكما أن ذاته تعالى لا تشبه سائر الاشياء مع أن الدليل دل على أنها معلومة ومرئية فكذا كلامه منزه عن مشابهة الحروف والاصوات مع أنه مسموع وقال أبو منصور الماتريدى الذى سمعه موسى عليه السلام كان نداء من جنس الحروف والاصوات وذلك لان الدليل دل على أنا رأينا الجوهر والعرض ولا بد من علة مشتركة بينهما لصحة الرؤية ولا علة الا الوجود حكمنا بأن كل موجود يصح أن يرى ولم يثبت عندنا أنا نسمع الاصوات والاجسام حتى يحكم بأنه لا بد من مشترك بين الجسم والصوت فلم يلزم صحة كون كل موجود مسموعا فظهر الفرق أما المعتزلة فقد اتفقوا على أن ذلك المسموع ما كان الا حروفا وأصواتا فعند هذا قالوا ان ذلك النداء وقع على وجه علم به موسى عليه السلام أنه من قبل الله تعالى فصار معجزا علم به أن الله تعالى خاطبه فلم يحتج مع ذلك الى واسطة وكفى فى الوقت أن جعله الرسالة التى هى أن ائت القوم الظالمين لان فى هذه البعثة يجب أن يأمره بالدعاء الى التوحيد ثم بعده يأمره بالاحكام ولا يجوز أن يأمره تعالى بذلك الا وقد عرفه أنه مستظهر عليه بالمعجزات اذا طولب بذلك أما قوله تعالى أن ائت القوم الظالمين فالمعنى أنه تعالى سجل عليهم بالظلم وقد اختلفوا فى هذا الاسم من وجهين من وجه ظلمهم أنفسهم بكفرهم ومن وجه ظلمهم لبنى اسرائيل أما قوله قوم فرعون فقد عطف قوم فرعون على القوم الظالمين عطف بيان كأن القوم الظالمين وقوم فرعون لفظان يدلان على معنى واحد وأما قوله ألا يتقون فقرئ ألا يتقون بكسر النون يعنى ألا يتقونى فحذفت النون لاجتماع النونين والباء للالتفات بالكسرة وقوله ألا يتقون كلام مستأنف أتبعه تعالى ارساله اليهم للانذار والتحويل عليهم بالظلم بتعجيب موسى عليه السلام من حالهم فى الظلم والتعسف ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم ويحتمل أن يكون ألا يتقون حالا من الضمير فى الظالمين أى يظلمون غير متقين الله وعقابه فأدخلت همزة الانكار على الحال ووجه الثالث هو أن يكون المعنى ألا يا ناس اتقون كقوله ألا يا اسجدوا وأما من قرأ ألا تتقون على الخطاب فعلى طريقة الالتفات اليهم وصرف وجوههم بالانكار والغضب عليهم كما يرى من يشكو من ركب جنايتهم واتى الحاضرين حاضرا فالتفع فى الشكاية وحى غضبه قطع مهمة صاحبه وأقبل على الجانى يوبخه ويعاتبه ويقول له ألا تتقى الله ألا تستحيى من الناس فان قلت فما الفائدة فى هذا الالتفات والخطاب مع موسى عليه السلام فى وقت المناجاة والمكالمة اليوم غائبون لا يشعرون قلت اجراء ذلك فى تكليم المرسل اليهم فى معنى اجرائه بحضرتهم والتهائه الى مسامعهم لانه مبلغهم ومنبههم اليهم وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى ولم من أنه نزلت فى شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبرا لها واعتبارا واردادها ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قال رب انى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل الى هرون ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون﴾ وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب الى قوم فرعون طلب موسى عليه السلام أن يبعث معه هرون اليهم ثم ذكر الامور الداعية له الى ذلك السؤال وحاصلها أنه لو لم يكن هرون لاحتملت المصلحة المطلوبة من بعثته موسى عليه السلام وذلك من وجهين (الاول) أن فرعون ربما كذبه

الام تكون بعضهم منهم (وجئنا بك) ايثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه عليه السلام وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع (شهيدا على هؤلاء) الامم وشهدائهم كقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وقيل على أمتك والعامل في الظرف محذوف

باسم الجنس وهو اما استئناف أو حال بتقدير قد (تبيانا) بيانا بليغا (لكل شئ) يتعلق بأمور الدين ومن جملة ذلك أحوال الامم مع أنبيائهم عليهم السلام فيكون كالدليل على كونه عليه السلام شهيدا عليهم وكذا من جملته ما أخبر به هذه الآية الكريمة من بعث أشهد او بعثه عليه السلام شهيدا عليهم عليهم الصلاة والسلام والتبيان كالتلقاء في كسر أوله وكونه تبيانا لكل شئ من أمور الدين باعتبار ان فيه نصا على بعضها واحالة لبعضها على السنة حيث أمر باتباع النبي عليه السلام وطاعته وقيل فيه ما ينطق عن الهوى وحينا على الاجماع وقد رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته باتباع أصحابه حيث قال أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وقد اجتهدوا واختلفوا وروا طرق الاجتهاد فكانت السنة والاجماع والقياس مستندة الى تبيان الكتاب ولم يضر ما في البعض من الخفاء في كونه تبيانا فان المبالغة باعتبار الكمية دون الكيفية كما في قوله تعالى وما أنا بظلام للعبيد اما من قولك فلان ظالم لعبده وظلام للعبيد ومنه قوله سبحانه وما للظالمين من أنصار (وهدى ورحمة) للمؤمنين فان جريان الكفرة من معاصم آثار من تعريضهم لا من جهة الكتاب (وبشرى للمسلمين) خاصة أو يكون كل ذلك خاصا بهم لانهم المنتفعون بذلك

والتكذيب سبب لضيق القلب وضيق القلب سبب لتعسر الكلام على من يكون في لسانه حبسة لان عند ضيق القلب تنقبض الروح والحرارة الغريزية الى باطن القلب واذا انقبضت الى الداخل وخلا منهما الخارج ازدادت الحبسة في اللسان فالتأدي من التكذيب سبب لضيق القلب وضيق القلب سبب للحبسة فلهذا السبب بدأ بخوف التكذيب ثم ثنى بضيق الصدر ثم ثلث بعدم انطلاق اللسان وأما هرون فهو أفصح لسانا مني وليس في حقه هذا المعنى فكان ارساله لائقا (الثاني) أن لهم عندي ذنبا فأخاف أن يبادروا الى قتلي وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة وأما هرون فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة (المسئلة الثانية) قرئ يضيق وينطلق بالرفع لانهما معطوفان على خبر ان وبالنصب لعطفهما على صلة أن والمعنى أخاف أن يكذبون وأخاف أن يضيق صدري وأخاف أن لا ينطلق لساني والفرق أن الرفع يفيد ثلاث علل في طلب ارسال هرون والنصب يفيد علة واحدة وهي الخوف من هذه الامور الثلاثة فان قلت الخوف غير محصل لتوقع مكروه سيقع وعدم انطلاق اللسان كان حاصلا فكيف جاز تعليق الخوف به قلت قد بينا أن التكذيب الذي سيقع يوجب ضيق القلب وضيق القلب يوجب زيادة الاحتباس فتلك الزيادة ما كانت حاصلة في الحال بل كانت متوقعة فجاز تعليق الخوف عليها أما قوله تعالى فأرسل الى هرون فليس في الظاهر ذكر من الذي يرسل اليه وفي الخبر ان الله تعالى أرسل موسى عليه السلام اليه قال السدي ان موسى عليه السلام سار بأهله الى مصر والتقى بهرون وهو لا يعرفه فقال أنا موسى فتعارفا وأمره أن ينطلق معه الى فرعون لاداء الرسالة فساحت أمهما لخوفها عليهما فذهبا اليه ويحتمل أن يكون المراد أرسل اليه جبريل لان رسول الله الى الانبياء جبريل عليه السلام فلما كان هو متعينا لهذا الامر حذف ذكره لكونه معلوما وأيضا ليس في الظاهر أنه يرسل لماذا لكن قوى الكلام يدل على أنه طلبه للمؤنة فيما سأل كما يقال اذا ناتك نائبة فأرسل الى فلان أي ليعينك فيها ولو لم يكن في الظاهر أنه التمس كون هرون نبيا معه لكن قوله فقولا انا رسول رب العالمين يدل عليه وأما قوله ولهم علي ذنب فأراد بالذنب قتله القبطي وقد ذكر الله تعالى هذه القصة مشروحة في سورة القصص واعلم أنه ليس في القاموس موسى عليه السلام أن يضم اليه هرون ما يدل على أنه استعفى من الذهاب الى فرعون بل مقصوده فيما سأل أن يقع ذلك الذهاب على أقوى الوجوه في الوصول الى المراد واختلفوا فقال بعضهم انه وان كان نبيا فهو غير عالم بأنه يبقى حتى يؤدي الرسالة لانه انما أمر بذلك بشرط التمكين وهذا قول الكعبي وغيره من البغداديين لانهم يجوزون دخول الشرط في تكاليف الله تعالى العبد والذي ذهب اليه الاكثرون أن ذلك لا يجوز لانه تعالى اذا أمر فهو عالم بما يتمكن منه المأمور به أو فات تمكنه فاذا علم أنه غير متمكن منه فانه لا يأمره به واذا صح ذلك فالاقرب في الانبياء أنهم يعلمون اذا حملهم الله تعالى الرسالة أنه تعالى يمكنهم من أدائها وانهم سيقومون الى ذلك الوقت ومثل ذلك لا يكون اغراء في الانبياء وان جاز أن يكون اغراء في غيرهم (المسئلة الثالثة) لقائل أن يقول قول موسى عليه السلام ولهم علي ذنب يدل على صدور الذنب منه جوابه لا والمراد لهم علي ذنب في زعمهم (قوله تعالى) قال كلا فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني اسرائيل (اعلم أن موسى عليه السلام طلب أمرين (الاول) أن يدفع عنه مرة (والثاني) أن يرسل معه هرون فأجابه الله تعالى الى الاول بقوله كلا ومعناه ارتدع يا موسى عما تظن واجابه الى الثاني بقوله فاذهبا أي اذهب أنت والذي طلبته وهو هرون فان قيل علام عطف قوله فاذهبا قلنا على الفعل الذي يدل عليه كلا كأنه قال ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت وهرون وأما قوله انا

معكم

(ان الله يأمر) أى فيما نزله تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين وايثاره صيغة الاستقبال فيه وفيما بعده لافادة التجدد والاستمرار (بالعدل) بمراعاة التوسط بين طرفى الافراط والتفريط وهو رأس الفضائل كلها يندرج تحته فضيلة القوة العقلية الملكية من الحكمة المتوسطة بين الجربزة والبلادة وفضيلة القوة الشهوية البهيمية من العفة ٤٠١ المتوسطة بين الخلاعة والجمود وفضيلة القوة الغضبية السبعية من الشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن فمن الحكم الاعتقادية التوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن العدل هو التوحيد والقول بالكسب المتوسط بين الجبر والقدر ومن الحكم العملية التعبد باداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب ومن الحكم الخلقية الجود المتوسط بين البخل والتبذير (والاحسان) أى الاتيان بما أمر به على الوجه اللائق وهو اما بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل أو بحسب الكيفية كما يشير اليه قوله صلى الله عليه وسلم الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (وايتاء ذى القربى) أى اعطاء الاقارب ما يحتاجون اليه وهو تخصيص اثر تعميم اهتماما بشأنه (وينهى عن الفحشاء) الافراط فى مشايعة القوة الشهوية كالزنا مثلا (والمنكر) ما ينكر شرعا أو عقلا من الافراط فى اظهار آثار القوة الغضبية (والبغى) الاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانية التى هى حاصلة من رذيلتى القوتين المذكورتين الشهوية والغضبية وليس فى البشر الا وهو مندرج فى هذه الاقسام صادر عنه براسطة هذه القوى الثلاث ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه هى أجمع آية فى القرآن للخير والشر

معكم مستمعون فان مجاز الكلام يرد انا الكما ولعدوكما كالناصر الظهير لكما عليه اذا حضر واستمع ما يجرى بينكما فاظهر كلا عليه وأعليكما واكثره ولكنه عنكما وانما جعلنا الاستماع مجازا لان الاستماع عبارة عن الاصغاء وذلك على الله تعالى محال * واما قوله انا رسول رب العالمين ففيه مؤال وهو انه هلا ثنى الرسول كما ثنى فى قوله انا رسولا ربك * وجوابه من وجوه (أحدها) ان الرسول اسم للماهية من غير بيان ان تلك الماهية واحدة أو كثيرة والالف واللام لا يفيدان الا الوحدة لا الاستغراق بدليل انك تقول الانسان هو الضحاك ولا تقول كل انسان هو الضحاك ولا أيضا هذا الانسان هو الضحاك واذا ثبت أن لفظ الرسول لا يفيد الا الماهية وثبت أن الماهية محمولة على الواحد وعلى الاثنين ثبت صحة قوله انا رسول رب العالمين (وثانيها) أن رسول قد يكون بمعنى الرسالة قال الشاعر

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم * بسر ولا أرسلتهم برسول

فيكون المعنى اذا فوا رسالة رب العالمين (وثالثها) انهما لاتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما بسبب الاخوة كأنهما رسول واحد (ورابعها) المراد كل واحد منا رسول (وخامسها) ما قاله بعضهم انما عاما قال ذلك لا بلفظ التثنية لكونه هو الرسول خاصة وقوله انا فكما فى قوله تعالى انا أنزلناه وهو ضعيف وأما قوله أن أرسل معنا بنى اسرائيل فالمراد من هذا الارسال التخلية والاطلاق كقولك أرسل البازى يريد خلهم يذهبوا معنا ﴿ قوله تعالى ﴾ قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴿ اعلم ان فى الكلام حذفا وهو انهما أتياه وقالا ما أمرا الله به فعند ذلك قال فرعون ما قال يروى انهما انطلقا الى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب ان ههنا انسانا يزعم انه رسول رب العالمين فقال ائذن له لعلنا نضحك منه فأديا اليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام فعدد عليه نعمه أولها تربيته وايثاره على أبناء جنسه وقتله القبطى وأما الفعلة فلانها وكزة واحدة عدد عليه نعمه من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ورجحنه بما جرى على يديه من قتل خمارجة وعظم ذلك بقوله وفعلت فعلتك التى فعلت وأما قوله وأنت من الكافرين ففيه وجوه (أحدها) يجوز أن يكون حالا أى قتلته وأنت بذلك من الكافرين بنعمتى (وثانيها) وأنت اذذاك ممن تكفر هم الساعة وقد افترى عليه أو جهل أمره لانه كان يعاشرهم بالتقية فان الكفر غير جائز على الانبياء قبل النبوة (وثالثها) وأنت من الكافرين بمعناه وأنت ممن عادته كفران النعم ومن كان هذا حاله لم يستبعد منه قتل خواص ولى نعمته (ورابعها) وأنت من الكافرين بفرعون وآلهيته أو من الذين يكفرون فى دينهم فقد كانت لهم آلهة يعبدونها يشهد بذلك قوله تعالى ويذرك وآلهتك ﴿ قوله تعالى ﴾ قال فعلتها اذا وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل ﴿ اعلم ان فرعون لما ذكر التربية وذكر القتل وقد كانت تربيته له معلومة ظاهرة لاجرم أن موسى عليه السلام ما أنكرها ولم يشتغل بالجواب عنها لانه تقرر فى العقول ان الرسول الى الغير اذا كان معه معجز وجحد لم يتغير حاله بان يكون المرسل اليه أنعم عليه أولم ينعم فلذلك قصر قول فرعون لما قاله غير مؤثر البتة ومثل هذا الكلام الاعراض عنه أولى ولكن أجاب عن القتل بما لا شئ أبلغ منه فى الجواب وهو قوله فعلتها اذا وأنا من الضالين والمراد بذلك الذاهلين عن معرفة ما يؤل اليه من القتل لانه فعل الوكزة

(٥١ ـ خطيب س)

ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت في كونه تبيانا لكل شيء وهدى (يعظكم) بما يأمر وينهى وهو ابلغ استئناف وما حال من الضمير من في الفعلين (لعلكم تذكرون) طلبا لان تتعظوا بذلك (وأوفوا بعهد الله) هو البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانها مبايعة لله سبحانه لقوله تعالى ان الذين يبايعونك ٤٠٣ انما يبايعون الله (اذا عاهدتم) أي حافظوا على حدود ما عاهدتم الله عليه



و بايعتم به رسوله صلى الله عليه وسلم (ولا تنقضوا الايمان) التي تحلفون بها عند المعاهدة (بعد توكيدها) حسبما هو المعهود في أمثاله المعهود لاعلى أن يكون النهي مقيدا بالتوكيد مختصا به (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) شاهدا رقيبا فان الكفيل مراع لحال المكفول به محافظ عليه (ان الله يعلم ما تفعلون) من نقض الايمان والعهود فيجازيكم على ذلك (ولا تكونوا) فيما تصنعون من النقض (كالتي نقضت غزلها) أي ما غزلته مصدر بمعنى المفعول (من بعد قوة) متعلق بنقضت أي كالمرأة التي نقضت غزلها من بعد ابرامه وأحكامه (أنكاثا) طاقات نكثت فتلها جمع نكث وانتصابه على الحالية من غزلها أو على أنه مفعول ثان لنقضت فانه بمعنى صيرت والمراد تقبيح حال النقض بتشبيه الناقض بمثل هذه المخرقة المعتوهة قيل هي ريطة بنت سعد بن تيم وكانت تخرق ما تغزله مع قدر ذراع وصناره مثل اصبع وفلكه عظيمة على قدرها فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تأمرهن تعقلون فينقضن ما غزلن (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) حال من الضمير في لا تكونوا أو في الجار والمجرور الواقع موقع الخبر أي مشابهين لامرأة شأنها هذا حال كونكم متخذين أيمانكم مفسدة ودخلا بينكم وأصل الدخل ما يدخل الشيء وليس منه (أن تكون أمة) أي بان

على وجه التأديب ومثل ذلك رجما حسن وان أدى الى القتل فبين له أنه فعله على وجه لا يجوز معه أن يؤاخذ به أو بعد منه كافرا أو كافر النعمة فأما قوله ففررت منكم لما خفتكم فالمراد اني فعلت ذلك الفعل وأنا اهل عن كونه معلما وكان مني في حكم السهو فلم أستحق التعنيف الذي يوجب الفرار ومع ذلك ففررت منكم عند قولكم ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فبين بذلك انه لا نعمة له عليه في باب تلك الفعلة بل بان يكون مسيئا فيه أقرب من حيث خوف تحتويفا وأوجب الفرار ثم بين نعمة الله تعالى عليه بعد الفرار فكأنه قال أسأتم وأحسن الله الي بان وهب لي حكما وجعلني من المرسلين واختلفوا في الحكم والاقرب انه غير النبوة لان المعطوف غير المعطوف عليه والنبوة مفهومة من قوله وجعلني من المرسلين فالمراد بالحكم العلم ويدخل في العلم العقل والرأي والعلم بالدين الذي هو التوحيد وهذا أقرب لانه لا يجوز أن يسمه تعالى الا مع كماله في العقل والرأي والعلم بالتوحيد وقوله فوهب لي ربي حكما كالتنصيص على أن ذلك الحكم من خلق الله تعالى وقالت المعتزلة المراد منه الالطاف وهو ضعيف جدا لان الالطاف مفعولة في حق الكل من غير تخصيص ولا تقصير فالتخصيص لا بد فيه من فائدة فما قوله وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني اسرائيل فهو جواب قوله ألم نربك فينا وليدا يقال عبدت الرجل وأعبدته اذا اتخذته عبدا فان قيل كيف يكون ذلك جوابه ولا تعلق بين الامرين قلنا بيان التعلق من وجوه (أحدها) أنه اغاوقع في يده وفي تربيته لانه قصد تعبيد بني اسرائيل وذبح أبنائهم فكانه عليه الصلاة والسلام قال له كنت مستغنيا عن تربيتك لو لم يكن منك ذلك الظلم المتقدم علينا وعلى أسلافنا (وثانيها) ان هذا الانعام المتأخر صار معارضا بذلك الظلم العظيم على أسلافنا واذا تعارضا تساقطا (وثالثها) ما قاله الحسن انك استعبدتهم وأخذت أموالهم ومنها أنفقت علي فلا نعمة لك بالتربية (ورابعها) المراد أن الذي تولى تربيتي هم الذين قد استعبدتهم فلا نعمة لك علي لان التربية كانت من قبل أمي وسائر من هو من قومي ليس لك الا انك ما قتلتني ومثل هذا لا يعد انعاما (وخامسها) انك كنت تدعي أن بني اسرائيل عبيدك ولا منة للمولى على العبد في أن يطعمه ويعلمه مما يحتاج اليه واعلم أن في الآية دلالة على ان كفر الكافر لا يبطل نعمته على من يحسن اليه ولا يبطل منته لان موسى عليه السلام انما أبطل ذلك بوجه آخر على ما بينا واختلف العلماء فقال بعضهم اذا كان كافرا لا يستحق الشكر على نعمه على الناس انما يستحق الاهانة بكفره فلو استحق الشكر بانامه والشكر لا يوجد الا مع التعظيم فيلزم كونه مستحقا للاهانة وللتعظيم معا واستحقاق الجمع بين الضدين محال وقال آخرون لا يبطل الشكر بالكفر وانما يبطل بالكفر الثواب والمدح الذي يستحقه على الايمان والآية تدل على هذا القول الثاني (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف انما جمع الضمير في منكم وخفتكم مع افراده في تمنا وعبدت لان الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن دلمائه المؤتمرين بقتله بدليل قوله ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وأما الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد (فان قلت) تلك اشارة الى ماذا وأن عبدت ما محلها من الاعراب (قلت) تلك اشارة الى خصلة شنعاء مبهمة لا يدرى ما هي الا بتفسيرها وهي أن عبدت فان أن عبدت عطف بيان ونظيره قوله تعالى وذهنا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين والمعنى تعبيدك بني اسرائيل نعمة تمنها علي وقال الزجاج ويجوز أن يكون أن في موضع نصب والمعنى انما صارت نعمة على لان عبدت بني اسرائيل أي لو لم تفعل ذلك لكفاني أهلي ﴿ قوله تعالى ﴾ قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الاولين قال ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم

تكون جماعة (هى أربى) أى أزيد عددا وأوفر مالا (من أمة) من جماعة أخرى أى لاتغدروا بقوم لكثرتكم وقلتهم أولكثرة مناليتهم وقوتهم كقريش فانهم كانوا اذا رأوا شوكة فى أعادى حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم (انما يبلوكم الله به) أى بأن تكونوا أمة أربى من أمة أى يعاملكم بذلك معاملة من يختبركم لينظر أتقسكون بحبل الوفاء ٤٠٣ بعهد الله وبعهد رسوله عليه السلام أم

تعملون قال لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشئ مبين قال فأت به ان كنت من الصادقين ﴾ اعلم أن فرعون لم يقل لموسى ومارب العالمين الا وقد دعاه موسى الى طاعة رب العالمين بين ذلك ما تقدم من قوله فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين فلابد عند دخولهما عليه انهما قالا ذلك فعند ذلك قال فرعون ومارب العالمين ثم ههنا بحثان ﴿ الاول ﴾ ان فرعون يحتمل أن يقال انه كان عارفا بالله ولكنه قال ما قال طلبا للملك والرياسة وقد ذكر الله تعالى فى كتابه ما يدل على انه كان عارفا بالله وهو قوله قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض فاذا قرئ بفتح التاء من علمت فالمراد أن فرعون علم ذلك وذلك يدل على انه كان عارفا بالله لكنه كان يستأكل قومه بما يظهره من الجهته والقراءة الاخرى برفع التاء من علمت فهى تقتضى أن موسى عليه السلام هو الذى عرف ذلك وأيضا فان فرعون ان لم يكن عاقلا لم يجز من الله تعالى بعثة الرسول اليه وان كان عاقلا فهو يعلم بالضرورة انه ما كان موجودا الا حيا ولا عاقلا ثم صار كذلك وبالضرورة يعلم أن كل ما كان كذلك فلابد له من مؤثر فلابد وأن يتولد له من هذين العلمين علم ثالث بافتقاره فى تركيبه وفى حياته وعقله الى مؤثر موجد ويحتمل أن يقال انه كان على مذهب الدهريه من أن الافلاك واجبة الوجود فى ذواتها ومتحركة لذواتها وان حركاتها أسباب لحصول الحوادث فى هذا العالم أو يقال انه كان من الفلاسفة القائلين بالعلة الموجبة لا بالفاعل المختار ثم اعتقد أنه بمنزلة الاله لاهل اقليمه من حيث استعبدهم وملك زمامهم وزمام أمرهم ويحتمل أن يقال انه كان على مذهب الحلولية القائلين بأن ذات الاله يتدرع بجسد انسان معين حتى يكون الانسان لذلك الجسد بمنزلة روح كل انسان بالنسبة الى جسده وبهذه التقديرات كان يسمى نفسه الها ﴿ البحث الثانى ﴾ وهو أنه قال لموسى عليه السلام ومارب العالمين واعلم أن السؤال بما طلب لتعريف حقيقة الشئ وتعريف حقيقة الشئ اما أن يكون بنفس تلك الحقيقة أو بشئ من أجزائها أو بامر خارج عنها أو بما يتركب من الداخل والخارج أما تعريفها بنفسها فمحال لان المعرف معلوم قبل المعرف فلو عرف الشئ بنفسه لزم أن يكون معلوما قبل أن يكون معلوما وهو محال وأما تعريفها بالامور الداخلة فيها فهو ناف حق واجب الوجود محال لان التعريف بالامور الداخلة لا يمكن الا اذا كان المعرف مركبا ووجب الوجود يستحيل أن يكون مركبا لان كل مركب فهو يحتاج الى كل واحد من أجزائه وكل واحد من أجزائه فهو غيره فكل مركب يحتاج الى غيره وكل ما يحتاج الى غيره فهو ممكن لذاته وكل مركب فهو ممكن فما ليس بممكن يستحيل أن يكون مركبا فواجب الوجود ليس بمركب واذا لم يكن مركبا استحال تعريفه بأجزائه ولما بطل هذان القسمان ثبت أنه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود الا بلوازمه وآثاره ثم ان اللوازم قد تكون جلية وقد تكون خفية ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية بل لابد من تعريفها باللوازم الجلية وأظهر آثار ذات واجب الوجود هو هذا العالم المحسوس وهو السموات والارض وما بينهما فقد ثبت انه لا جواب البتة لقول فرعون ومارب العالمين الا ما قاله موسى عليه السلام وهو انه رب السموات والارض وما بينهما فأما قوله ان كنتم موقنين فمعناه ان كنتم موقنين باستناد هذه المحسوسات الى موجود واجب الوجود فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه الا بما ذكرته لانكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات الى الواجب لذاته وثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق وثبت أن الفرد المطلق لا يمكن تعريفه الا بآثاره وثبت أن تلك الآثار لابد وأن تكون أظهر آثاره وأبعدها عن الخفاء وما ذاك الا السموات والارض وما بينهما فان أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لا جواب عن ذلك السؤال الا هذا الجواب ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق قال فرعون لمن حوله ألا تستمعون واغا ذكر ذلك على سبيل

بالايمان وافراد القديم وتنكيرها للايذان بأن زال قدم واحدة أى قدم كانت عزت أو هانت محذور عظيم فكيف بأقدام كثيرة (وتذوقوا السوء) أى العذاب الدنيوى (بما صددتم) بصدودكم أو بصدكم غيركم (عن سبيل الله) الذى ينتظم الوفاء بالعهود والايمان فان من نقض البيعة وارتد جعل ذلك سنة لغيره (ولكم) فى الآخرة (عذاب عظيم ولا تشتروا بعهد الله) أى لا تأخذوا بمقابلة عهده تعالى

و بيعة رسوله عليه السلام أو آياته الناطقة بايجاب المحافظة على العهود والأيمان (ثمنا قليلا) أى لا تستبدلوا بها عرضا يسيرا وهو ما كانت قريش يعدون ضعفة المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد من حطام الدنيا (ان ما عند الله) عز وجل من النصر والتمكين والثواب الاخروى (هو خير لكم) مما يعدونكم ٤٠٤ (ان كنتم تعلمون) أى ان كنتم من أهل العلم والتمييز وهو تعليل للنهى على طريقة

التحجب من جواب موسى يعنى أنا أطلب منه الماهية وخصوصية الحقيقة وهو يجيبنى بالفاعلية والمؤثرية وتمام الاشكال أن تعريف الماهية بلوازمها لا يفيد الوقوف على نفس تلك الماهية وذلك لانا اذا قلنا فى الشئ انه الذى يلزمه اللازم الفلانى فهذا المذكور اما أن يكون معرفا لمجرد كونه أمرا ما يلزمه ذلك اللازم أو لخصوصية تلك الماهية التى عرضت لها هذه الملزومية والاول محال لان كونه أمرا يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفا فلو كان المكشوف هو هذا القدر لزم كون الشئ معرفا لنفسه وهو محال والثانى محال لان العلم بأنه أمر ما يلزمه اللازم الفلانى لا يفيد العلم بخصوصية تلك الماهية الملزومة لانه لا يمتنع فى العقل اشتراك الماهيات المختلفة فى لوازم متساوية فثبت أن التعريف بالوصف الخارجى لا يفيد معرفة نفس الحقيقة فلم يكن كونه ربا للسموات والارض وما بينهما جوابا عن قوله وما رب العالمين فأجاب موسى عليه السلام بأن قال ربكم ورب آبائكم الاولين وكأنه عدل عن التعريف بخالقية السماء والارض الى التعريف بكونه تعالى خالقا لنا ولآبائنا وذلك لانه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والارضين واجبة لذواتها فهى غنية عن الخالق والمؤثر ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل فى نفسه وأبيه وأحداده كونهم واجبين لذواتهم لما أن المشاهد دلت على انهم وجدوا بعد العدم ثم عدموا بعد الوجود وما كان كذلك استحال أن يكون واجبا لذاته وما لم يكن واجبا لذاته استحال وجوده الا لمؤثر فكان التعريف بهذا الاثر أظهر فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الاول اليه فقال فرعون ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون يعنى المقصود من سؤال ما طلب الماهية وخصوصية الحقيقة والتعريف بهذه الآثار الخارجة لا يفيد البتة تلك الخصوصية فهذا الذى يدعى الرسالة مجنون لا يفهم السؤال فضلا عن أن يجيب عنه فقال موسى عليه السلام رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون فعدل الى طريق ثالث أوضح من الثانى وذلك لانه أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار والامر ظاهر فى ان هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب لا يتم الا بتدبير مدبر وهذا بعينه طريقة ابراهيم عليه السلام مع نمرود فانه استدل أولا بالاحياء والاماتة وهو الذى ذكره موسى عليه السلام ههنا بقوله ربكم ورب آبائكم الاولين فأجابه نمرود بقوله أنا أحيى وأميت فقال ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر وهو الذى ذكره موسى عليه السلام ههنا بقوله رب المشرق والمغرب وأما قوله ان كنتم تعقلون فكأنه عليه السلام قال ان كنت من العقلاء عرفت انه لا جواب عن سؤالك الا ما ذكرت لانك طلبت منى تعريف حقيقته بنفس حقيقته وقد ثبت انه لا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته فلم يبق الا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته وأنا قد عرفت حقيقته بآثار حقيقته فقد ثبت أن كل من كان عاقلا يقطع بأنه لا جواب عن هذا السؤال الا ما ذكرته واعلم انا قد بينا فى سورة الانعام فى تفسير قوله تعالى وهو القاهر فوق عباده ان حقيقة الاله سبحانه من حيث هى هى غير معقولة للبشر واذا كان كذلك استحال من موسى عليه السلام أن يذكر ما تعرف به تلك الحقيقة الا أن عدم العلم بتلك الخصوصية لا يقدح فى صحة الرسالة فكان حاصل كلام موسى عليه السلام أن ادعاء رسالة رب العالمين تتوقف صحته على اثبات أن للعالمين ربا والها ولا تتوقف على العلم بخصوصية الرب تعالى وماهيته المعينة فكان موسى عليه السلام بقيم الدلالة على اثبات القدر المحتاج اليه فى صحة دعوى الرسالة وفرعون يطالبه ببيان الماهية وموسى عليه السلام كان يعرض عن سؤاله لعلمه بأنه لا تمانع لذلك السؤال نفيا ولا اثباتا فى هذا المطلوب فهذا تمام القول فى هذا البحث والله أعلم ثم ان موسى عليه السلام لما حشن فى آخر الكلام بقوله ان كنتم تعقلون فعند ذلك

الخير من نعيم الدنيا وان جل بل الدنيا وما فيها جميعا (ينفد) وان جم عدده ويتقضى وان طال أمده (وما عند الله) من خزائن رحمته الدنيوية والاخروية (باق) لا نفاد له اما الاخروية فظاهرة واما الدنيوية فحيث كانت موصولة بالاخروية ومستتبعة لها فقد انتظمت فى سمط الباقيات الصالحات وفى ايثار الاسم على صيغة المضارع من الدلالة على الدوام مالا يخفى وقوله تعالى (ولنجزين) بنون العظمة على طريقة الالتفات تكرير للوعد المستفاد من قوله تعالى ان ما عند الله هو خير لكم على نهج التوكيد القسمى مبالغة فى الحمل على الاثبات فى الدين والالتفات لما يقتضيه ظاهر الحال من أن يقال ولنجزينكم أجركم بأحسن ما كنتم تعملون للتوسل الى التعرض لاعمالهم والاشعار بعلتها أى ولنجزين (الذين صبروا) على أذية المشركين ومشاق الاسلام التى من جملتها الوفاء بالعهود والفقر وقرئ بالباء من غير التفات (أجرهم) مفعول ثان لنجزين أى لنعطينهم أجورهم الخاص بهم بمقابلة صبرهم على ما عددنا من الامور المذكورة (بأحسن ما كانوا يعملون) أى لنجزينهم بما كانوا يعملونه من الصبر المذكور وانما أضيف اليه الاحسن

قال

للاشعار بكمال حسنه كما في قوله سبحانه وحسن ثواب الآخرة للافادة فقد صار الجزاء على الاحسن منه دون الحسن فان ذلك مما لا يخطر ببال أحد لا سيما بعد قوله تعالى أجرهم أو نجزيهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الادنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيه بمقابلة الفرد الاعلى منها من الاجر الجزيل لا انا نعطى الاجر بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب الحسن بأن نجزي الحسن منها بالاجر الحسن والاحسن بالاحسن وفيه ما لا يخفى من العدة الجميلة باغتفار ما عسى يعتريهم في تضاعيف الصبر من بعض جزع ونظمهم في سلك الصابرين الجميل أو انجزيهم بجزاء أحسن من أعمالهم وأما التفسير بما ترجح فعله من أعمالهم كالواجبات والمندوبات أو بما ترجح تركه أيضا كالمحرمات والمكروهات دلالة على أن ذلك هو المدار للجزاء دون ما يستوي فعله وتركه كالمباحات فلا يساعده مقام الحث على الثبات على ما هم عليه من الاعمال الحسنة المخصوصة والترغيب في تحصيل ثمراتها بل التعرض لاخراج بعض أعمالهم عن مدار بية الجزاء من قبيل تضعيف الرحمة الواسعة في مقام توسيع حماها (من عمل صالحا) أي عملا صالحا أي عمل كان وهذا شروع في تعريض كافة المؤمنين على كل عمل صالح عجز عنه طائفة منهم في الثبات على ما هم عليه من عمل صالح

قال فرعون لئن اتخذت الها غيري لاجعلنك من المسجونين فانه لما عجز عن الحاج عدل الى التخويف فعند ذلك ذكر موسى عليه السلام كلاما مجملا لعلق قلبه به فيعدل عن وعيده فقال أولو جئتك بشئ مبين أي هل تستحق أن تسجنني مع اقتداري على أن آتيك بأمر بين في باب الدلالة على وجود الله تعالى وعلى اني رسوله فعند ذلك قال فأت به ان كنت من الصادقين * وههنا فروع (الفرع الاول) الآية تدل على انه تعالى ليس بجسم لانه لو كان جسما وله صورة لكان جواب موسى عليه السلام بذكر حقيقته ولكان كلام فرعون لازما له لعدوله عن الجواب الحق (الثاني) الواجب على من يدعو غيره الى الله تعالى أن لا يجيب عن السفاهة لان موسى عليه السلام لما قال له فرعون انه مجنون لم يعدل عن ذكر الدلالة وكذلك لما توعده أن يسجنه (الثالث) انه يجوز للسؤل أن يعدل في حجته من مثال الى مثال لايضاح الكلام ولا يدل ذلك على الانقطاع (الرابع) ان قيل كيف قطع الكلام بما لا تعلق له بالاول وهو قوله أولو جئتك بشئ مبين والمعجز لا يدل على الله تعالى كدلالة سائر ما تقدم قلنا بل يدل لما أراد ان يظهره من انقلاب العصا حية على الله تعالى وعلى توحيده وعلى انه صادق في الرسالة الذي ختم به كلامه أقوى من كل ما تقدم وأجمع (الخامس) فان قيل كيف قال رب السموات والارض وما بينهما على التثنية والمرجوع اليه مجموع جوابه أريد ما بين البلدين (فان قيل) ذكر السموات والارض وما بينهما قد استوعب الخلائق كلهم فما معنى ذكرهم وقد كرر آباءهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب (جوابه) قد عم أولا ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم لان أقرب الاشياء من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد من انتقاله من وقت ميلاده الى وقت وفاته من حالة الى حالة أخرى ثم خصص المشرق والمغرب لان طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها على تقدير مستقيم في فصول السنة من أظهر الدلائل (السادس) فان قيل لم قال لاجعلنك من المسجونين ولم يقل لاسجننك مع انه أخصر (جوابه) لانه لو قال لاسجننك لا يفيد الا صيرورته مسجونا أما قوله لاجعلنك من المسجونين فمعناه اني أجعلك واحدا من عرفت حالهم في سجوني وكان من عادته أن يأخذ من يريد أن يسجنه فيطرحه في بئر عميقة فريدا لا يبصر فيها ولا يسمع فكان ذلك أشد من القتل (السابع) الواو في قوله أولو جئتك واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام معناه أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشئ مبين أي حالتيا بالمعجزة * قوله تعالى * فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين قال للاحوله ان هذا الساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم * وفيه مسائل * (المسئلة الاولى) قرأ الاعمش بكل ساحر عليم * (المسئلة الثانية) * اعلم أن قوله أولو جئتك بشئ مبين يدل على أن الله تعالى قبل أن ألقى العصا عرفه بأنه يصيرها ثعبانا ولولا ذلك لما قال ما قال فلما ألقى عصاه ظهر ما وعده الله به فصار ثعبانا مبينا والمراد انه تبين للناظرين أنه ثعبان بحركاته وسائر العلامات روى انه لما انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة الى فرعون وجعلت تقول يا موسى مرني بما شئت فو يقول فرعون يا موسى أسألك بالذي أرسلك الا أخذتها فعادت عصا * فان قيل كيف قال * ههنا ثعبان مبين وفي آية أخرى فاذا هي حية تسعى وفي آية ثالثة كأنها جان والجان مائل الى الصغر والثعبان مائل الى الكبر * جوابه أما الحية فهي اسم الجنس ثم انها الكبرها صارت ثعبانا وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها فصح الكلامان ويحتمل انه شبهها بالشيطان لقوله تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم ويحتمل انها كانت أولا صغيرة كالجان ثم عظمت فصارت ثعبانا ثم ان موسى عليه السلام لما أتى بهذه الآية قال له فرعون هل غير هذا قال نعم فأراه

بخصوص دفعا لتوهم اختصاص الاجر الموفور بهم وبعملهم المذكور وقوله تعالى (من ذكر أو أنثى) مبالغة في بيان شموله للكل (وهو مؤمن) قيد به لان الاعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب أو تخفيف العذاب لقوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وايثاره بالجملة الاسمية الحالية على نظمه في سلك الصلة لافادة وجوب دوامه ومقارنته للعمل الصالح (فلنحيينه حياة طيبة)

في الدنيا يعيش عيشا طيبا أما ان كان موسرا فظاهر وأما ان كان معسرا فيطيب عيشه بالقناعة والرضا بالقسمة وتوقع الاجر العظيم كالصائم بطيب نهاره بلاحظة نعيم ليله بخلاف الفاجر فانه ان كان مسرا فظاهر وان كان موسرا فلا يدعه الحرص وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه (ولنجزينهم) في الآخرة (أجرهم باحسن ما كانوا يعملون) حسبما نفعل بالصابرين فليس فيه مشائبة تكرار والجمع في الضمائر العائدة الى الموصول لمراعاة جانب المعنى كما ان الافراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ وايثار ذلك على العكس لما أن وقوع الجزاء بطريق الاجتماع المناسب للجمعية ووقوع ما في حيز الصلة وما يترتب عليه بطريق الافتراق والتعاقب الملائم للافراد واذ قد انتهى الامر الى أن مدار الجزاء المذكور هو صلاح العمل وحسنه رتب عليه بالفاء الارشاد الى مابه يحسن العمل الصالح ويخلص عن شوب الفساد فقيل (فاذا قرأت القرآن) أي اذا أردت قراءته عبر بها عن ارادتها على طريقة اطلاق اسم المسبب على السبب ايذانا بان المراد هي الارادة المتصلة بالقراءة (فاستعذ بالله) فاسأله عز وجل أن يعيذك (من الشيطان الرجيم) من وساوسه وخطراته كي لا يوسوسك عند القراءة فان له همة بذلك قال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته الآية ووجه الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخصيص قراءة القرآن من بين الاعمال الصالحة بالاستعاذة عند ارادتها للتنبيه على انها لغيره عليه الصلاة والسلام وفي سائر الاعمال الصالحة أهم فانه عليه السلام حيث أمر بها عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فغيره عليه السلام فيما عدا القراءة من الاعمال والامر للندب وهذا

يده ثم أدخلها جيبه ثم أخرجها فاذا هي بيضاء تضيء الوادي من شدة بياضها من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس فمتى هذا أراد فرعون تعمية هذه الحجة على قومه فذكر فيها أمورا ثلاثة (أحدها) قوله ان هذا الساحر عليم وذلك لان الزمان كان زمان السحرة وكان عند كثير منهم ان الساحر قد يجوز أن ينتهي بسحره الى هذا الحد فلهذا روج عليهم هذا القول (وثانيها) قوله يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره وهذا يجري مجرى التنفير عنه لئلا يقبلوا قوله والمعنى يريد أن يخرجكم من أرضكم بما يلقيه بينكم من العداوات فيفرق جمعكم ومعلوم أن مفارقة الوطن أصعب الامور فتحرفهم عنه بذلك وهذا نهاية ما يفعله المبطل في التنفير عن الحق (وثالثها) قوله فماذا تأمرون أي فماذا تأمرون فيه وما الذي أعلمه يظهر من نفسه أني متبع رأيكم ومنقاد لقولكم ومثل هذا الكلام يوجب حذب القلوب وانصرافها عن العدو فمتى هذه الكلمات اتفقوا على جواب واحد وهو قوله أرجئه قرئ أرجئه وأرجه بالهمز والتخفيف وهما لغتان يقال أرجأته وأرجيته اذا أخرته والمعنى أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة وقيل احبسه وذلك محتمل لانك اذا حبست الرجل عن حاجته فقد أخرته روى أن فرعون أراد قتله ولم يكن يصل اليه فقالوا له لا تفعل فانك ان قتلته أدخلت على الناس في أمره شبهة ولكن أرجئه وأخاه الى أن تحشر السحرة لتهاوموه فلا يثبت له عليك حجة ثم أشاروا عليه بانفاذ حاشرين يجمعون السحرة فظنا منهم أنهم اذا كثروا غلبوه وكسفوا حاله وعارضوا قوله ان هذا الساحر عليم يقولهم بكل سحار عليم فحاؤا بكلمة الاحاطة وبصيغة المبالغة ليطمعوا قلبه وليسكنوا بعض قلقه قال صاحب الكشاف فان قلت قوله تعالى قال للملا حوله ما العامل في حوله قلت هو منصوب نصبين نصب في اللفظ ونصب في المحل والعامل في النصب اللفظي ما يقدر في الظرف والعامل في النصب المحلي هو النصب على الحال ﴿قوله تعالى﴾ (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين قال نعم وانكم اذا لمن المقربين﴾ وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ليوم المعلوم يوم الزينة وميعاته وقت الضحى لانه الوقت الذي وقته لهم موسى عليه السلام من يوم الزينة في قوله موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى والميقات ما وقت به أي حدد من مكان وزمان ومنه مواقيت الاحرام (المسئلة الثانية) اعلم أن القوم لما أشاروا بأن خير أمره وبأن يجمع له السحرة ليظهر عند حضورهم فساد قول موسى عليه السلام رضي فرعون بما قالوه وعنى بما شاهده وحسب الشيء يعني ويعم جمع السحرة ثم أراد أن تقع تلك المناظرة يوم عيدهم ليكون ذلك بمحضر الخلق العظيم وكان موسى عليه السلام يطلب ذلك لتظهر حجته عليهم عند الخلق العظيم وكان هذا أيضا من لطف الله تعالى في ظهور أمر موسى عليه السلام أما قوله وقيل للناس هل أنتم مجتمعون فلعله أراد أنهم يحثونهم على الحضور ليشاهدوا ما يكون من الجانبين وأما قوله لعلنا نتبع السحرة فالمراد انا نرجو أن يكون الغلبة لهم فنتبعهم فلما جاء السحرة ابتدؤا بطلب الجزاء وهو المال والمال اما الجاه فبذل لهم ذلك وأكده بقوله وانكم اذا لمن المقربين لان نهاية مطلوبهم منه البذل ورفع المنزلة فبذل كلا الامرين ﴿قوله تعالى﴾ (قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون فألقى موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون فألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون﴾ اعلم أنهم لما اجتمعوا كان لابد من أن يبدأ موسى أو يبدؤا انهم تواضعوا له فقدموه على أنفسهم وقالوا اما ان تلقي واما أن نكون أول من ألقى فلما تواضعوا له تواضع هو أيضا لهم فقدمهم على نفسه وقال ألقوا ما أنتم ملقون به فان قيل كيف جاز لموسى عليه السلام أن يأمر السحرة بالقاء الحبال والعصي وذلك

مذهب الجمهور وعند عطاء لو جرب وقد أخذ بظاهر النظم الكريم فاستعاذ عقيب القراءة أبو هريرة رضي الله عنه ومالك وابن سيرين وداود وحمزة من القراء وعن ابن مسعود رضي الله عنه قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم فقال علمني السلام قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه ٤٠٧ جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ (انه) الضمير للشان أو للشيطان (ليس له سلطان) تسلط وولاية (على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) أي اليه يفوضون أمورهم ويثقون به يعتمدون في كل ما يأتون وما يذرون فان وسوسته لا تؤثر فيهم ودعوته غير مستجابة عندهم وانما صيغة الماضي في السلة الأولى للدلالة على التحقق كما أن اختيار صيغة الاستقبال في الثانية لافادة الاستمرار التجددي وفي التعرض لوصف الربوبية عدة كريمة باعاذة المتوكلين والجملة تعليل للامر بالاستعاذة أو لجوابه المنوي أي يعيذك أو نحوه (انما سلطانه) أي تسلطه وولايته بدعوته المستتبعة للاستجابة لاسلطانه بالقسر والالجاء فانه منتف عن الفريقين لقوله سبحانه حكاية عنه وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي وقد أفصح عنه قوله تعالى (على الذين يتولونه) أي يتخذونه وليا ويستجيبون دعوته وقيل معنى قوله تعالى

سحره وتلبيس وكفره والامر عنده لا يحوج الى الجواب لاشبهة في أن ذلك ليس بأمر لان مراد موسى عليه السلام منهم كان أن يؤمنوا به ولا يقدموا على ما يجري مجرى المقابلة واذا ثبت هذا وجب تأويل صيغة الامر وفيه وجوه (أحدها) ذلك الامر كان مشروطا والتقدير ألقوا ما أنتم ملقون ان كنتم محقين كما في قوله فأتوا بسوره من مثله ان كنتم صادقين (وثانيها) لما تعين ذلك طريقا الى كشف الشبهة صار جائزا (وثالثها) ان هذا ليس بأمر بل هو تهديد أي ان فعلتم ذلك أتيتكم بنحو ما كقول القائل اتركني حتى لا أفعل ولا صنعت من شيء يفوق له السهم فيقول له ارم فيكون ذلك منه تهددا (ورابعها) ما ذكرنا انهم لما تواضعوا له وقدموه على أنفسهم فهو قدمهم على نفسه على رجاء أن يعيد ذلك التواضع حتى يقبل القول الحق واقدم على بركة ذلك التواضع ذلك المطلوب وهذا تنبيه على أن اللائق بالمسلم في مثل الاحوال التواضع لان مثل موسى عليه السلام لما لم يترك التواضع مع أولئك السحرة فغيره أن يفعل الواحد منا أولى أما قوله تعالى فألقوا حبالهم وعصيهم فروى عن ابن عباس أنهم لما ألقوا حبالهم وعصيهم وقد كانت الحبال مطلية بالزئبق والعصي مجوفة مملوءة من الزئبق فلما حميت اشتد حركتها فصارت كأنها حيات تدب من كل جانب من الارض فهاب موسى عليه السلام ذلك فقيل له ألق ما في يمينك فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ثم فتحت فاها فابتلعت كل ما رأوه من حبالهم وعصيهم حتى أكلت الكل ثم أخذ موسى عصاه فاذا هي كما كانت فلما رأت السحرة ذلك قالت لفرعون كنا نساحر الناس فاذا غلبناهم بقيت الحبال والعصي وكذلك ان غلبونا ولكن هذا شيء فسجدوا وآمنوا برب العالمين * واعلم أن في الآثار اختلافا فمنهم من كثر الحبال والعصي ومنهم من توسط والله أعلم بعدد ذلك والذي يدل القرآن عليه أنها كثيرة من حيث حشروا من كل بلد ولان الامر بلغ عند فرعون وقومه في العظم مبلغا بعيدا أن يدخر عنه ما يمكن من جمع السحرة وأما قوله وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون فالمراد أنهم أظهروا ما يجري مجرى القطع على أنهم يغلبون وكل ذلك لما ظهر كان أقوى لامر موسى عليه السلام أما قوله فألقى موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون فالمراد من قوله ما يأفكون ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم فيخيلون في حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى وسمي تلك الاشياء افكا مبالغة أما قوله فألقي السحرة ساجدين فالمراد خروا سجدا لانهم كانوا في الطبقة العالية من علم السحر فلا جرم كانوا عالمين بمنتهى السحر فلما رأوا ذلك وشاهدوه خارجا عن حد السحر علموا أنه ليس بسحر وما كان ذلك الا بركة شقيقة هم في علم السحر فلم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم الى الارض ساجدين كأنهم أخذوا قهرا طرحا طرحا فان قيل فاعمل الالقاء ما هو لم سمح به * جوابه هو الله تعالى يا محمد في قلوبهم من الدواعي الجازمة الحالة عن المعارضات ولكن الاولى أن لا نقدر فاعلا الا الذي يحمي خر وسقط أما قوله رب موسى وهرون فهو عطف بيان لرب العالمين لان فرعون كان يدعي الربوبية فأراد واعزله ومعنى اضافته اليهما في ذلك المقام أنه الذي دعاه موسى وهرون عليهما السلام اليه * قوله تعالى * قال آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين قالوا لا ضير انا الى ربنا منقلبون انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين * اعلم أنهم لما آمنوا بأجمعهم لم يأمن فرعون أن يقول الناس ان هؤلاء السحرة على كثرتهم وتظاهرهم لم يؤمنوا الا عن معرفة بصحة أمر موسى عليه السلام فيسلكون مثل طريقهم فليس على القوم وبال في التنفير عن موسى عليه السلام من وجوه (أولها) قوله آمنتم له قبل أن آذن لكم وهذا فيه ايهام أن مسارعتكم الى الايمان بدالة على انكم كنتم ماثلين اليه وذلك يطرق التهمة اليكم فلعلهم

المقسور بمعزل من ذلك (والذين هم به) سبحانه وتعالى (مشركون) أو بسبب الشيطان مشركون اذ هو الذي حملهم على الاشراك بالله سبحانه وقصر سلطانه عليهم غير نفيه عن المؤمنين المتوكلين دليل على أن لا واسطة في الخارج بين التوكل على الله تعالى وبين تولي الشيطان وان كان بينهما واسطة في المفهوم وأن من لم يتوكل عليه تعالى ينتظم في سلك من يتولى الشيطان من حيث لا يحتسب أو يحتسب

التمثيل فقيه مبالغة في الحمل على التوكل والتحذير عن مقابله وايثار الجملة الفعلية الاستقبالية في الصلة الاولى لما مر من افادة الاستمرار التجددي كما أن اختيار الجملة الاسمية في الثانية للدلالة على الثبات وتكرير الموصول للاشعار بأن كون الصلة الثانية حالية مفسدة لعدم دخول غير المشركين من أولياء ٤٠٨ الشيطان تحت سلطانه وتقديم الاولى على الثانية التي هي بمقابلة الصلة الأولى

قصر وافي السحر حباله (وثانيها) قوله انه لكبيركم الذي علمكم السحر وهذا تصريح بما مر به أولا وغرضه منه أنهم فعلوا ذلك عن مواطأة بينهم وبين موسى عليه السلام وقصر وافي السحر اظهر أمر موسى عليه السلام والا ففي قوة السحرة أن يفعلوا مثل ما فعل موسى عليه السلام وهذه شبهة قوية في تنفير من يقبل قوله (وثالثها) قوله فلسوف تعلمون وهو وعيد مطلق وتهديد شديد (ورابعها) قوله لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم أجمعين وهذا هو الوعيد المفصل وقطع اليد والرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى والصلب معلوم وليس في الاهلاك أقوى من ذلك وليس في الآية أنه فعل ذلك أم لم يفعل ثم انهم أجابوا عن هذه الكلمات من وجهين (الاول) قولهم لاضير انا الى ربنا منقلبون الضير والضرر واحد وليس المراد ان ذلك ان وقع لم يضر وانما عنوا بالاضافة الى ما عرفوه من دار الجزاء (واعلم) أن قولهم انا الى ربنا منقلبون فيه نكتة شريفة وهي انهم قد بلغوا في حب الله تعالى أنهم ما أرادوا شيأ سوى الوصول الى حضرته وأنهم ما آمنوا رغبة في ثواب أو رهبة من عقاب وانما مقصودهم هو حصول الوصول الى مرضاته والاستغراق في أنوار معرفته وهذا أعلى درجات الصديقين (الجواب الثاني) قولهم انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا فهو اشارة منهم الى الكفر والسحر وغيرهما وانما طمعوا في هذا الموضع بحصول اليقين بكفر السحرة بما خطا ب

عنادا (قل نزله) أى القرآن المدلول عليه بالآية (روح القدس) يعنى جبريل عليه السلام أى الروح المطهر من الأدناس البشرية واضافة الروح الى القدس وهو الطهر كاضافة حاتم الى الجود حيث قيل حاتم الجود للمبالغة فى ذلك الوصف كأنه طبع منه وفى صيغة التفعيل فى الموضعين اشعار بأن التدريج فى الانزال مما تقتضيه الحكم البالغة ٤٠٩ (من ربك) فى اضافة الرب الى ضميره صلى الله عليه وسلم من الدلالة على تحقيق اضافة آثار الربوبية عليه صلى الله عليه وسلم ما ليس فى اضافته الى باء المتكلم المبنية على التلقين المحض (بالحق) أى ملتبسا بالحق الثابت الموافق للحكمة المقتضية له بحيث لا يفارقها انشاء ونسخا وفيه دلالة على أن النسخ حق (ليثبت الذين آمنوا) على الايمان بانه كلامه تعالى فانهم اذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح اللائقة بالحال رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم وقرئ ليثبت من الاثبات (وهدى وبشرى للمسلمين) المنقادين لحكمه تعالى وهما معطوفان على محل ليثبت أى تثبيتا وهداية وبشارة وفيه تعريض بحصول أضداد الامور المذكورة لمن سواهم من الكفار (ولقد نعلم أنهم يقولون) غير ما نقل عنهم من المقالة الشنعاء (انما يعلمه) أى القرآن (بشر) على طريق البت مع ظهور أنه نزله الروح القدس عليه الصلاة والسلام وتعليله الجملة بقنون التأكيد لتحقيق ما تتضمنه من الوعيد وصيغة الاستقبال لافادة استمرار العلم بحسب الاستمرار التجددى فى متعلقه فانهم مستمرون على تلوه تلك العظيمة يعنون بذلك جبرا الرومى غلام عامر بن الحضرمى وقيل جبر ويسار كانا يصنعان

على فرس أدهم حصان وفى عسكره على لون فرسه ثلثمائة ألف (الصفة الثانية) قوله وانهم لنا لغائظون يعنى يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق صدورنا واختلفوا فى تلك الافعال على وجوه (أحدها) ما تقدم من أمر الحلى وغيره (وثانيها) خروج بنى اسرائيل عن عبوديه فرعون واستقلالهم بأنفسهم (وثالثها) مخالفتهم لهم فى الدين وخروجهم عليهم (ورابعها) ليس الا أنهم لم يتخذوا فرعون الها أما الذى وصف فرعون به قومه فهو قوله وانا لجميع حذرون وفيه ثلاث قراآت حذرون وحاذرون وحادرون بالدال غير المعجمة واعلم ان الصفة اذا كانت جارية على الفعل وهى اسم الفاعل واسم المفعول كالضارب والمضروب أفادت الحدوث واذا لم تكن كذلك وهى المشبهة أفادت الثبوت فمن قرأ حذرون ذهب الى اناقوم من عادتنا الحذر واستعمال الحزم ومن قرأ حاذرون فكأنه ذهب الى معنى اناقوم ما عهدنا أن نحذر الا عصرنا هذا وأما من قرأ حادرون بالدال غير المعجمة فكانه ذهب الى نفى الحذر أصلا لان الحادر هو المشمر فأرادانا قوم أقوياء أشداء وأرادانا مدججون فى السلاح والغرض من هذه المعاذير أن لا يتوهم أهل المدائن أنه منكسر من قوم موسى وخائف منهم أما قوله تعالى فأخرجناهم فالمراد اناحملنا فى قلوبهم داعية الخروج فاستوجبت الداعية الفعل فكان الفعل مضافا الى الله تعالى لا محالة وأما قوله من جنات وعيون وكنوز فقال مجاهد سماها كنوزا لانهم لم ينفقوا منها فى طاعة الله تعالى والمقام الكريم يريد المنازل الحسنة والمجالس البهية والمعنى انا أخرجناهم من بساتينهم التى فيها عيون الماء وكنوز الذهب والفضة والمواضع التى كانوا يتنعمون فيها ونسبها الى بنى اسرائيل أما قوله كذلك فيحتمل ثلاثة أوجه النصب على أخرجناهم مثل ذلك الاخراج الذى وصفناهم والجر على أنه وصف لمقام كريم أى مقام كريم مثل ذلك المقام الذى كان لهم والرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف أى الامر كذلك أما قوله فأتبعوهم أى فلحقوهم وقرئ فاتبعوهم مشرقين داخلين فى وقت الشروق من شرقت الشمس شروقا اذا طلعت أما قوله فلما تراءى الجمعان أى رأى بعضهم بعضا قال أصحاب موسى انا لمدركون أى لملحقون وقالوا يا موسى أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا كانوا يذبحون أبناءنا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا نذبح كما كنا نفعل أى فى هذه الساعة فيقتلوننا وقرئ فلما تراءت الفئتان انا لمدركون بتشديد الدال وكسر الراء من ادرك الشئ اذا تتابع فقفى ومنه قوله تعالى بل ادارك علمهم فى الآخرة قال المحسن جهلوا علم الآخرة والمعنى انا لمتتابعون فى الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد فعند ذلك قال لهم كلا وذلك كما لتيقن هلاكهم ثم قوى نفوسهم بأمرين (أحدهما) ان معى ربى وهذا دلالة النصرة والتكفل بالمعونة (والثانى) قوله سيهدين والهدى هو طريق النجاة والخلاص واذا له على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية فى النصرة ﴿ قوله تعالى ﴾ وأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام قوله ان معى ربى سيهدين بين تعالى بعده كيف هداه ونجاه وأهلك أعداءه بذلك ليتدبر الجاهل نعم الدين والدنيا فقال وأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ولا شبهة فى أن المراد فضرب فانفلق لانه كالمعلوم من الكلام اذ لا يجوز أن ينفلق من غير ضرب ومع ذلك يأمره بالضرب لانه كالعبث ولانه تعالى جعله من معجزاته التى ظهرت بالعصا ولان انفلاقه بضربه أعظم فى النعمة عليه وأقوى لعلمهم أن ذلك انما حصل لمكان موسى عليه السلام واختلفوا فى البحر روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن موسى عليه السلام لما

السيف فكذا يقرآن التوراة والانجيل وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يسمع عليهما وما يسمع ما يقرآنه وقيل عاش غلام حمير بعد عيسى نحو ألف سنة وكان صاحب كتب وقيل سلمان الفارسي وانما لم يصرح باسم من زعموا أنه علمه مع كونه أدخل في ظهور كذبهم للايذان بأن مدار خطئهم ليس ٤١٠ نسبته عليه السلام الى التعلم من شخص معين بل من البشر كائنا من كان مع كونه عليه

انتهى الى البحر مع بني اسرائيل أمرهم أن يخوضوا البحر فامتنعوا الا يوشع بن نون فانه ضرب دابته وخاض في البحر حتى عبر بهم وجمع الهم فأبوا أن يخوضوه فقال موسى للبحر انفرق لي فقال ما أمرت بذلك ولا يعبر على العصاة فقال موسى يارب قد أبى البحر أن ينفرق فقيل له اضرب بعصاك البحر فضربه فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم أي كالجبل العظيم وصار فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط منهم طريق فقال كل سبط قتل أصحابنا فعند ذلك دعا موسى عليه السلام ربه بجعلها مناظر كهيئة الطيقات حتى نظر بعضهم الى بعض على أرض يابسة وعن عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بني اسرائيل وبين آل فرعون وكان يقول لبني اسرائيل ليلحق آخركم بأولكم ويستقبل القبط فيقول رويدكم ليلحق آخركم وروى أن موسى عليه السلام قال عند ذلك يا من كان قبل كل شئ فالمكون لكل شئ والكائن بعد كل شئ فأما قوله فكان كل فرق كالطود العظيم فالفرق الجزء المنفرق منه وقرئ كل فلق والمعنى واحد والطود الجبل المتطاول أي المرتفع في السماء وهو معجز من وجوه (أحدها) ان تفرق ذلك الماء معجز (وثانيها) ان اجتماع ذلك الماء فوق كل طرف منه حتى صار كالجبل من المعجزات أيضا لانه كان لا يمتنع في الماء الذي أزيل بذلك التفريق أن يعيده الله تعالى حتى يصيره كأنه لم يكن فلما جمع على الطرفين صار مثل هذا الاعجاز (وثالثها) أنه ان ثبت ما روي في الخبر أنه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الرياح والظلمة ما سترهم فاحتسبوا القدر الذي يتكامل معه عبور بني اسرائيل فهو معجز ثالث (ورابعها) أن جعل الله في تلك الجدران المائية كوى ينظر منها بعضهم الى بعض فهو معجز رابع (وخامسها) أن أبقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب منها آل فرعون وطمعوا أن يتخلصوا من البحر كما تخلص قوم موسى عليه السلام فهو معجز خامس * أما قوله تعالى وأزلفنا ثم الآخرين ففيه بحثان (البحث الاول) قال ابن عباس وابن جريج وقتادة والسدي وأزلفنا أي وقربنا ثم أي حيث انفلق البحر للآخرين قوم فرعون ثم فيه قولان أحدهما (أحدهما) قربناهم من بني اسرائيل (وثانيهما) قربنا بعضهم من بعض وجمعناهم حتى لا يخلو منهم أحد (وثالثها) قدمناهم الى البحر ومن الناس من قال وأزلفنا أي حبسنا فرعون وقومه عند طلبهم موسى عليه السلام بأن أطلمنا عليهم الدنيا بحيث وقفت عليهم فوقفوا حيارى وقرئ وأزلقنا بالقاف أي أزللنا أقدامهم والمعنى أذهبنا عزهم ويحتمل أن يجعل الله طريقهم في البحر على خلاف ما جعله لبني اسرائيل يبسا وأزلقهم (البحث الثاني) انه تعالى أضاف ذلك الازلاف الى نفسه مع أن اجتماعهم هناك في طلب موسى كفر (أجاب) الجبائي عنه من وجهين (الاول) ان قوم فرعون تبعوا بني اسرائيل وبنو اسرائيل انما فعلوا ذلك بأمر الله تعالى فلما كان مسيرهم بتدبيره وهؤلاء تبعوا ذلك أضافه الى نفسه توسعا وهذا كما يقعب أحدنا في طلب غلام له فيجوز أن يقول أنا قعبني الغلام لما حدث ذلك عند فعله (الثاني) قيل وأزلفنا ثم الآخرين أي أزلفناهم الى الموت لا حين انهم في ذلك الوقت قريبا من أجلهم وأنشد

وكل يوم مضى أو ليلة سلفت * فيها النفوس الى الآجال تزدلف

وأجاب الكعبي عنه من وجهين (الاول) أنه تعالى لما علم عنهم وترك البر لهم يبسا وطمعوا في عبوره جازت الاضافة كما لو جل يسقه عليه صاحبه مرارا فيعلم عنه فاذا عادى في غيبه وأراه قدرته عليه قال له أنا أحوجتك الى هذا وصيرتك السبب يحملي لا يريد بذلك انه أراد ما فعل (الثاني) يحتمل أنه أزلفهم أي جمعهم لغرقهم عند ذلك ولكي لا يصلوا الى موسى وقومه (والجواب عن الاول) ان الذي فعله بنو اسرائيل هل له أثر في اعتلاب داعية قوم فرعون الى الذهاب خلفهم أو ليس له أثر فيه فان كان الاول فقد حصل

المقصود

أنهم لا يستحقون ذلك لسوء حالهم (ولهم) في الآخرة (عذاب أليم) وهذا تهديد لهم ووعيد على ما هم عليه من الكفر بآيات الله تعالى ونسبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الافتراء والتعلم من البشر بعد اماطة شبهتهم وردطعنهم وقوله تعالى (انما يفتري الكذب الذين

لا يؤمنون بآيات الله) ردا لقولهم انما أنت مفتر وقلب للامر عليهم ببيان أنهم هم المفترون بعد رده بتحقيق أنه منزل من عند الله بواسطة روح القدس وانما وسط بينهما قوله تعالى ولقد نعلم الآية لما لا يخفى من شدة اتصاله بالرد الاول والمعنى والله تعالى أعلم أن المفترى هو الذى يكذب بآيات الله ويقول انه افتراه ونعلم من البشر اى تكذيبهاعلى الوجه ٤١١ المذكور وهو الافتراء على الحقيقة لان حقيقته الكذب والحكم بان ماهو كلامه تعالى ليس بكلامه تعالى كلامه تعالى والتصريح بالكذب للمبالغة فى بيان قبحه وصيغة المضارع لرعاية المطابقة بينه وبين ماهو عبارة عنه أعنى قوله لا يؤمنون وقيل المعنى انما يفترى الكذب ويليق ذلك بمن لا يؤمن بآيات الله لانه لا يترقب عقابا عليه ليرتدع عنه وأما من يؤمن بها ويخاف ما نطقت به من العقاب فلا يمكن أن يصدر عنه افتراء البتة (وأولئك) الموصوفون بما ذكر من عدم الايمان بآيات الله (هم الكاذبون) على الحقيقة أو الكاملون فى الكذب اذ لا كذب أعظم من تكذيب آياته تعالى والطعن فيها بأمثال هاتيك الاباطيل والسرفى ذلك أن الكذب الصادق الذى هو عبارة عن الاخبار بعدم وقوع ماهو واقع فى نفس الامر مخالف لله تعالى أو بوقوع ما لم يقع كذلك مضاف له تعالى فى

المقصود لان فعل الله تعالى أثرا فى حصول الداعية المستلزمة لذلك الازلاف وان لم يكن له فيه أثر البتة فقد زال العلاق فوجب أن لا تقع من الاضافة وأما اذا تأمل أحد نافى طلب غلام له فاغا يجوز أن يقول أتعبنى ذلك الغلام لما أن فعل ذلك الغلام صار كالمؤثر فى حصول ذلك التعب لانه متى فعل ذلك الفعل فالظاهر أنه يصير معلوما للسيد ومتى علم صار علمه داعيا له الى ذلك التعب ومؤثرا فيه فصحت الاضافة وبالجملة فمنعنا القادر لا يمكنه الفعل الا بالداعى فالداعى مؤثر فى صدور القادر مؤثر فى ذلك الفعل فلا جرم حسنت الاضافة (والجواب عن الثانى) وهو أنه أزلفهم لغيرهم فهو انه تعالى ما أزلفهم بل هم أنفسهم ازدلفوا ثم حصل الفرق بعده فكيف يجوز اضافة هذا الازلاف الى الله تعالى أما على قولنا فانه جائز لانه تعالى هو الذى خلق الداعية المستقلة لذلك الازدلاف (والجواب عن الثالث) وهو أن حمله تعالى عنهم حملهم على ذلك فنقول ذلك الحمل هل له أثر فى استحلاب هذه الداعية أم لا وباقى التقرير كما تقدم (والجواب عن الرابع) هو بعينه الجواب عن الثانى والله أعلم * أما قوله تعالى وأخينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين فالمعنى انه تعالى جعل البحر يبسا فى حق موسى وقومه حتى خرجوا منه وأغرق فرعون وقومه لانه لما تكامل دخولهم البحر انطبق الماء عليهم فغرقوا فى ذلك الماء * أما قوله تعالى ان فى ذلك لآية فالمعنى ان الذى حدث فى البحر آية عجيبة من الآيات العظام الدالة على قدرته لان أحدا من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته من حيث وقع ما كان مصلحة فى الدين والدنيا وعلى صدق موسى عليه السلام من حيث كان معجزة له وعلى اعتبار المعتبرين به أبدا فيصير تحذيرا من الاقدام على مخالفة أمر الله تعالى وأمر رسوله ويكون فيه اعتبار لمحمد صلى الله عليه وسلم فانه قال عقيب ذلك وما كان أكثرهم مؤمنين وفى ذلك تسلية له فقد كان يتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات عليه فنبهه الله تعالى بهذا الذكر على أن له أسوة بموسى وغيره فان الذى ظهر على موسى من هذه المعجزات العظام التى تبهر العقول لم يمنع من أن أكثرهم كذبوه وكفروا به مع مشاهدتهم لما شاهدوه فى البحر وغيره فكذلك أنت يا محمد لا تعجب من تكذيب أكثرهم لك واهم بالعلى أيديهم أن يصلحوا ويكونوا فى هذا المعنى تأكيدا لحجة عليهم وأما قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم فتعلقه بما قبله ان القوم مع مشاهدة هذه الآية الباهرة كفروا مع أنه تعالى كان عزيزا قادرا على أن يهلكهم ثم انه تعالى ما أهلكهم بل أفاض عليهم أنواع رحمته فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله (القصة الثانية) قصة ابراهيم عليه السلام * قوله تعالى * واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لابيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون فانهم عدو لى الا رب العالمين * اعلم انه تعالى ذكر فى أول السورة شدة حزن محمد صلى الله عليه وسلم بسبب كفر قومه ثم انه ذكر قصة موسى عليه السلام ليعرف محمد صلى الله عليه وسلم ان مثل المحنة كانت حاصلة لموسى ثم ذكر عقيبها قصة ابراهيم عليه السلام ليعرف محمد أيضا أن حزن ابراهيم عليه السلام بهذا السبب كان أشد من حزنه لان من عظيم المحنة على ابراهيم عليه السلام أن يرى أباه وقومه فى النار وهو لا يتمكن من انقاذهم الا بمجرد الدعاء والتنبيه فقال لهم ما تعبدون وكان ابراهيم عليه السلام يعلم انهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس ممن استحق العبادة فى شئ كما تقول لتاجر الرقيق ما مالك وأنت تعلم أن ماله الرقيق ثم تقول الرقيق جمال وليس بمال فأجاب ابراهيم عليه السلام بقولهم نعبد أصناما فنظل لها عاكفين والعكوف الاقامة على الشئ وانما قالوا نظل لانهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل وعلم انه كان يكفيهم فى

قوله فقط والتكذيب مداره له سبحانه فى فعله وقوله المنبئ عنه معا أو الذين عادتهم التكذب لا يرتدعون عنه وازع من دين أو مروءة وقيل الكاذبون فى قولهم انما أنت مفتر (من كفر بالله) أى تافظ بكلمة الكفر (من بعد ايمانه) به تعالى وهو استئناف كلام لبيان حال من كفر بآيات الله بعد ما آمن بها بعد بيان حال من لم يؤمن بها ابتداء وأسارمن موصولة ورجحها الرفع على الابتداء والخبر محذوف لدلالة الخبر

الا تى عليه أوهو خبر لما ما أوالنصب على الذم (الا من أكره) على ذلك بأمر يخاف على نفسه أوعلى عضو من أعضائه وهو استثناء متصل من حكم الغضب والعذاب أوالذم لان الكفر لغة يتم بالقول كما أشير اليه وقوله تعالى (وقلبه مطمئن بالايمان) حال من المستثنى والعامل هوالكفر الواقع ٤١٢ بالاكراه لانفس الاكراه لان مقارنة اطمئنان القلب بالايمان للاكراه لاتجدى نفعا

واغا المجدى مقارنته للكفر الواقع أى الا من كفر باكراه أوالا من أكره فكفر والحال أن قلبه مطمئن بالايمان لم تتغير عقيدته واغا لم يصرح به اعباء الى أنه ليس بكفر حقيقة وفيه دليل على أن الايمان هو التصديق بالقلب (ولكن من) لم يكن كذلك بل (شرح بالكفر صدرا) أى اعتقده وطاب به نفسا (فعليهم غضب) عظيم لايكتنه كنهه (من الله) اظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتقوية تعظيم العذاب (ولهم عذاب عظيم) اذ لاجرم أعظم من جرمهم والجمع فى الضمير بن المجرور بن لمراعاة جانب المعنى كما أن الافراد فى المستكن فى الصلة لرعاية جانب اللفظ روى أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه ياسرا وسمية على الارتداد فأباه أبواه فربطوا سمية بين بعيرين ووجئت بحربة فى قبلها اوقالوا انها أسلمت من أجل الرجال فقتلوها وقتلوا ياسرا وهما أول قتيلين فى الاسلام وأما عمار فاعطاهم بلسانه ما أكرهوا عليه فقيل يارسول الله ان عمارا كفر فقال رسول الله يهدين صلى الله عليه وسلم كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال مالك ان عادوا لك فعد لهم بما قلت وهو دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر

الجواب أن يقولوا نعبد أصناما ولكنهم ضموا اليه زيادة على الجواب وهى قولهم فنظل لها عاكفين واغا ذكروا هذه الزيادة اظهارا لما فى نفوسهم من الابتهاج والافتخار بعبادة الاصنام فقال ابراهيم عليه السلام منبها على فساد مذهبهم هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قال صاحب الكشاف لابد فى يسمعونكم من تقدير حذف المضاف معناه هل يسمعون دعاءكم وقرأ قتادة هل يسمعونكم أى هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم وهل يقدرون على ذلك وتقرير هذه الحجة التى ذكرها ابراهيم عليه السلام ان الغالب من حال من يعبد غيره أن يلتجئ اليه فى المسئلة ليعرف مراده اذا سمع دعاءه ثم يستجيب له فى بذل منفعة أودفع مضرة فقال لهم فاذا كان من تعبدونه لايسمع دعاءكم حتى يعرف مقصودكم ولو عرف ذلك لما صح أن يبذل النفع أويدفع الضرر فكيف تستجيزون أن تعبدوا ماهذا وصفه فهذه هذه الحجة القاهرة لم يجد آباءه وقومه بدا فيها فعولوا الى أن قالوا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون وهذا من أقوى الدلائل على فساد التقليد ووجوب التمسك بالاستدلال اذ لولم نقل الامر فيه حنا التقليد وغيرنا الاستدلال لكان ذلك مدحا لطريقة الكفار التى ذمها الله تعالى وذما لطريقة ابراهيم عليه السلام التى مدحها الله تعالى فأجابهم ابراهيم عليه السلام بقوله أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون أرادبه أن الباطل لايتغير بأن يكون قديما أوحديثا ولا بأن يكون فى فاعليه كثرة أوقلة * أما قوله فانهم عدو لى الاربع العالمين ففيه أسئلة ﴿السؤال الاول﴾ كيف يكون الصنم عدوا مع انه جماد ﴿جوابه﴾ من وجوه (أحدها) انه تعالى قال فى سورة مريم فى صفة الاوثان كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا فقيل فى تفسيره ان الله يحيى ما عبدوه من الاصنام حتى يقع منهم التوبيخ لهم والبراءة منهم فعلى هذا الوجه ان الاوثان ستصير أعداء لهؤلاء الكفار فى الآخرة فاطلق ابراهيم عليه السلام لفظ العداوة عليهم على هذا التأويل (وثانيها) أن الكفار لما عبدوها وعظموها ورجوها فى طلب المنافع ودفع المضار نزلت منزلة الاحياء العقلاء فى اعتقاد الكفار ثم انها صارت أسبابا لانقطاع الانسان عن السعادة ووصوله الى الشقاوة فلما نزلت هذه الاصنام منزلة الاحياء وجرت مجرى الدافع للنفعة والجالب للضرة لاجرم جرت مجرى الاعداء فلاجرم أطلق ابراهيم عليه السلام عليها لفظ العدو (وثالثها) المراد من قوله فانهم عدو لى عداوة من يعبدها * فان قيل فلم لم يقل ان من يعبد الاصنام عدو لى ليكون الكلام حقيقة ﴿جوابه﴾ لان الذى تقدم ذكره ما عبدوه دون العابدين ﴿السؤال الثانى﴾ لم قال فانهم عدو لى ولم يقل فانها عدو لكم ﴿جوابه﴾ انه عليه السلام صور المسئلة فى نفسه على معنى انى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو فاجتنبتها ورأيتهم انهم انما نصحتهم نفسه فاذا تفكروا قالوا ما نصحنا ابراهيم الا نصح به نفسه فيكون ذلك ادعى للقبول ﴿السؤال الثالث﴾ لم لم يقل فانهم أعدائى ﴿جوابه﴾ العدو والصديق يجيئان فى معنى الواحد والجماعة قال

وقوم على ذوى مرة * أراهم عدوا وكانوا صديقا

ومنه قوله تعالى وهم لكم عدو تحقيق القول فيه ما تقدم فى قوله انا رسول رب العالمين ﴿السؤال الرابع﴾ ما هذا الاستثناء ﴿جوابه﴾ انه استثناء منقطع كأنه قال لكن رب العالمين ﴿قوله تعالى﴾ الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفين والذى يمتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴿اعلم أنه تعالى لما حكى عنه أنه استثنى رب العالمين حكى عنه أيضا ما وصفه به مما يستحق العبادة لاجله ثم حكى عنه ما سأله عنه * أما الاوصاف فأربعة (أولها) قوله الذى خلقنى فهو

عند الاكراه الملجئ وان كان الافضل أن يتجنب عنه اعزازا للدين كما فعله أبو ذر وروى أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين فقال لاحدهما ما تقول في محمد قال رسول الله قال فما تقول في قال فأنت أيضا فخلاه وقال للآخر ما تقول في محمد قال رسول الله قال فما تقول في قال أنا أصم فأعاد ثلاثا فأعاد جوابه فقتله فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما الاول ٤١٣ فقد أخذ برخصة الله وأما الثاني

يهدين واعلم أنه سبحانه أثنى على نفسه بهذين الامرين في قوله الذي خلقني فسوى والذي قدر فهدى * واعلم أن الخلق والهداية بهما يحصل جميع المنافع لكل من يصح الانتفاع عليه فلنتكلم في الانسان فنقول انه مخلوق من قالب هو من عالم الخلق والجسمانيات ومن قلب هو من عالم الامر والروحانيات وتركيب البدن الذي هو من عالم الخلق مقدم على اعطاء القلب الذي هو من عالم الامر على ما أخبر عنه سبحانه في قوله فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فالتسوية اشارة الى تعديل المزاج وتركيب الاعضاء ونفخ الروح اشارة الى اللطيفة الربانية النورانية التي هي من عالم الامر وأيضا قال واقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ولما تم مراتب تغيرات الاجسام قال ثم أنشأناه خلقا آخر وذلك اشارة الى الروح الذي هو من عالم الملائكة ولا شك أن الهداية انما تحصل من الروح فقد ظهر بهذه الآيات ان الخلق مقدم على الهداية أما تحقيقه بحسب المباحث الحقيقية فهو ان بدن الانسان انما يتولد عند امتزاج المني بدم الطمث وهما انما يتولدان من الاغذية المتولدة من تركب العناصر الاربعة وتفاعلها فاذا امتزج المني بالدم فلا يزال ما فيهما من الحار والبارد والرطب واليابس متفاعلا ومتفي كل واحد منهما من القوى كاسرا سورة كيفية الآخر فحينئذ يحصل من تفاعلهما كيفية متوسطة تستحر بالقياس الى البارد وتستبرد بالقياس الى الحار وكذا القول في الرطب واليابس وحينئذ يحصل الاستعداد لقبول قوى مدبرة لذلك المركب فبعضها قوى نباتية وهي التي تجذب الغذاء ثم تمسكه ثم تهضمه ثم تدفع الفضلة المؤذية ثم تقيم تلك الاجزاء بدل ما تحلل منها ثم تزيد في جوهر الاعضاء طولا وعرضا ثم يفضل عن تلك المواد فضلة يمكن أن يتولد عنها مثل ذلك ومنها قوى حيوانية بعضها مدركة كالحواس الخمس والخيال والحفظ والذكر وبعضها فاعلة اما آمرة كالشهوة والغضب أو مأمورة كالقوى المركوزة في العضلات ومنها قوى انسانية وهي اما مدركة أو عاملة والقوى المدركة هي القوى القوية على ادراك حقائق الاشياء الروحانية والجسمانية والعلوية والسفلية ثم انك اذا فتشت عن كل واحد من مركبات هذا العالم الجسماني ومفرداتها وجدت لها أشياء ثلاثة واتكمل حالها وأشياء تنافرها وتفسد حالها ووجدت فيها قوى جذابة للملائم دفاعة للمنافي فقد ظهر أن صلاح الحال في هذه الاشياء لا يتم الا بالخلق والهداية أما الخلق فبتصويره وجودا بعد ان كان معدوما وأما الهداية فبتلك القوى الجذابة للمنافع والدفاعة للمضار * فثبت أن قوله خلقني فهو يهدين كلمة جامعة حاوية لجميع المنافع في الدنيا والدين * ثم ههنا دقيقة وهو انه قال خلقني فذكره بلفظ الماضي وقال يهدين بذكره بلفظ المستقبل والسبب في ذلك ان خلق الذات لا يتجدد في الدنيا بل لما وقع يبقى الى الابد المعلوم أما هداياته تعالى فهي مما يتكرر كل حين وأوان سواء كان ذلك هداية في المنافع الدنيوية وذلك بأن تحكم الحواس بتميز المنافع عن المضار أو في المنافع الدينية وذلك بأن يحكم العقل بتميز الحق عن الباطل والخير عن الشر فبين بذلك أنه سبحانه هو الذي خلقه بسائر ما تكامل به خلقه في الماضي دفعة واحدة وانه يهديه الى مصالح الدين والدنيا بضروب الهدايات في كل لحظة ولحظة (وثانيها) قوله والذي هو يطعمني ويسقين وقد دخل فيه كل ما يتصل بمنافع الرزق وذلك لانه سبحانه اذا خلق له الطعام وملكه فلو لم يكن معه ما يتمكن به من أكله والانتفاع به نحو الشهوة والقوة والتمييز لم تكمل هذه النعمة وذكر الطعام والشراب ونبه بذكرهما على ما عداهما (وثالثها) قوله واذا مرضت فهو يشفين * وفيه سؤال وهو انه لم قال مرضت دون أمرضني * وجوابه من وجوه (الاول) أن كثيرا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الانسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك ومن ثم قالت الحكماء لولا كثرة الموتى ما سبب آجالكم لقالوا التخم (الثاني) أن المرض انما يحدث باستيلاء بعض

فقد صدع بالحق (ذلك) اشارة الى الكفر بعد الايمان أو الى الوعيد المذكور (بأنهم) بسبب أنهم (استحبوا الحياة الدنيا) آثروها (على الآخرة وأن الله لا يهدي) الى الايمان والى ما يوجب الاثبات عليه هداية قسر والجاء (القوم الكافرين) في علمه المحيط فلا يعصمهم عن الزيغ وما يؤدي اليه من الغضب والعذاب العظيم ولولا أحد الامرين اما ايثار الحياة الدنيا على الآخرة واما عدم هداية الله سبحانه للكافرين هداية قسر بأن آثروا الآخرة على الدنيا أو بأن هداهم الله تعالى هداية قسر لما كان ذلك لكن الثاني مخالف للحكمة والاول مما لا يدخل تحت الوقوع واليه أشير بقوله تعالى (أولئك) أي أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح (الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) فأبت عن ادراك الحق والتأمل فيه (وأولئك هم الغافلون) أي الكاملون في الغفلة

اذ لا غفلة أعظم من الغفلة عن تدبر العواقب (لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون) اذ ضيعوا أعمارهم وصرفوها الى ما يفضي الا الى العذاب الخالد (ثم ان ربك للذين هاجروا) الى دار الاسلام وهم عمار وأصحابه رضي الله عنهم أي لهم بالولاية والنصرة لا علي مع كثير جرمه ظاهر أعمالهم السابقة فالجار والمجرور خبر لان و يجوز أن يكون خبرها محذوفا والدال لانا الخبر الآتي عليه و يجوز أن يكون ذلك خبرا لها و تكون ان الثانية

تأكيد الاولى ثم للدلالة على تباعد رتبة حالهم هذه عن رتبة حالهم التي يفيدها الاستثناء عن مجرد الخروج عن حكم الغضب والعذاب بطريق الاشارة لا عن رتبة حال الكفرة (من بعد ما فتنوا) أي عذبوا على الارتداد وتلفظوا بما يرضيهم مع اطمئنان قلوبهم بالايمان وقرئ على بناء الفاعل أي عذبوا ٤١٤ المؤمنين كالحضرمي أكرهوه ولاه جبراحتى ارتد ثم أسلم وهاجرا (ثم جاهدوا) في سبيل الله

الاخلاط على بعض وذلك الاستيلاء انما يحصل بسبب ما بينها من التنافر الطبيعي أما الصحة فهي انما تحصل عند بقاء الاخلاط على اعتدالها وبقاؤها على اعتدالها انما يكون بسبب قاهر يقهرها على الاجتماع وعودها الى الصحة انما يكون أيضا بسبب قاهر يقهرها على العود الى الاجتماع والاعتدال بعد أن كانت بطباعها مشتاقة الى التفرق والنزاع فلهذا السبب أضاف الشفاء اليه سبحانه وتعالى وما أضاف المرض اليه (والثالث) هو أن الشفاء محبوب وهو من أصول النعم والمرض مكروه وليس من النعم وكان مقصود ابراهيم عليه السلام تعديد النعم ولما لم يكن المرض من النعم لا جرم لم يضفه اليه تعالى فان نقضته بالاماتة فجوابه أن الموت ليس بضرر لان شرط كونه ضررا وقوع الاحساس به وحال حصول الموت لا يقع الاحساس به انما الضرر في مقدماته وذلك هو عين المرض وأيضا فلانك قد عرفت أن الارواح اذا كملت في العلوم والاخلاق كان بقاؤها في هذه الاجساد عين الضرر وخلاصها عنها عين السعادة بخلاف المرض وراءها) قوله والذي يميتني ثم يحيين والمراد منه الاماتة في الدنيا والقيامة عن آفاتها وعقوباتها والمراد من الاحياء المجازاة (وخامسها) قوله والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين فهو اشارة الى ما هو مطلوب كل عاقل من الخلاص عن العذاب والفوز بالثواب واعلم أن ابراهيم عليه السلام جمع في هذه الالفاظ جميع نعم الله تعالى من أول الخلق الى آخر الابد في الدار الاخرة ثم ههنا أسئلة (السؤال الاول) لم قال والذي أطمع والطمع عبارة عن الظن والرجاء وأنه عليه السلام كان قاطعا بذلك (جوابه) أن هذا الكلام لا يستقيم الا على مذهبنا حيث قلنا انه لا يجب على الله لاحد شيء وانه يحسن منه كل شيء ولا اعتراض لاحد عليه في فعله وأجاب الجبائي عنه من وجهين (الاول) أن قوله والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي أراد به سائر المؤمنين لانهم الذين يطمعون ولا يقطعون به (الثاني) المراد من الطمع اليقين وهو مروي عن الحسن وأجاب صاحب الكشاف بأنه انما ذكره على هذا الوجه تعليما منه لامته كيفية الدعاء (واعلم) أن هذه الوجوه ضعيفة (أما الاول) فلأن الله تعالى حكى عنه الثناء أولا والدعاء ثانيا ومن أول المدح الى آخر الدعاء كلام ابراهيم عليه السلام فحمل الشيء الواحد وهو قوله والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين كلام غيره مما يبطل نظام الكلام ويفسده (وأما الثاني) وهو أن الطمع هو اليقين فهذا على خلاف اللغة (وأما الثالث) وهو أن الغرض منه تعليم الامة فباطل أيضا لان حاصله يرجع الى أنه كذب على نفسه لغرض تعليم الامة وهو باطل قطعا (السؤال الثاني) لم أسند الى نفسه الخطيئة مع أن الانبياء منزهون عن الخطأ قطعا وفي جوابه ثلاثة وجوه (أحدها) أنه محمول على كذب ابراهيم عليه السلام في قوله فعله كبيرهم وقوله اني سقيم وقوله لسارة انها أختي وهو ضعيف لان نسبة الكذب الى غير جائز (وثانيها) أنه ذكره على سبيل التواضع وهضم النفس وهذا ضعيف لانه ان كان صادقا في هذا التواضع فقد لزم الاشكال وان كان كاذبا فحينئذ يرجع حاصل الجواب الى المعاتبة به لاجل تحريمه عن المعصية (وثالثها) وهو الجواب الصحيح أن يحمل ذلك على ترك الاولى وقد يسمى ذلك خطأ فان من ملك جوهرة وأمكنه أن يبيعها بألف ألف دينار فان باعها بدينار قبل انه أخذ أو ترك الاولى على الانبياء جائز (السؤال الثالث) لم عاتب مغفرة الخطيئة يوم الدين وانما تغفر في الدنيا (جوابه) لان أثرها يظهر يوم الدين وهو الآن خفي لا يعلم (السؤال الرابع) ما فائدة لي في قوله يغفر لي خطيئتي (جوابه) من وجوه (أحدها) أن الاب اذا عفا عن ولده والسيد عن عبده والزوج عن زوجته فذلك في أكثر الامر انما يكون طلبا للثواب وهربا من العقاب أو طلبا لحسن الثناء والمحمدة أو دفعا للالم الحاصل من الرقة الجنسية واذا كان كذلك لم يكن

(وصبروا) على مشاق الجهاد (ان ربك من بعدها) من بعد المهاجرة والجهاد والصبر فهو تصريح بما أشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له أو من بعد الفتنة المذكورة فهو لبيان عدم انحلال ذلك بالحكم (لغفور) لما فعلوا من قبيل (رحيم) بهم عليهم بمجازاة على ما صنعوا من بعد وفي التعرض لعنوان الربوبية في الموضعين اعماء الى علة الحكم وفي اضافة الرب الى ضميره عليه الصلاة والسلام مع ظهور الاثر في الطائفة المذكورة اظهار لكمال اللطف به عليه الصلاة والسلام واشعار بأن انماضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته عليه الصلاة والسلام ولكونهم أتباعه له (يوم تأتي كل نفس) منصوب برحيم ومارتب عليه أو باذكر وهو يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين (تجادل عن نفسها) عن ذاتها تسعى في خلاصها بالاعتذار لا يهمها شأن غيرها فتقول نفسي نفسي (وتوفى كل نفس) أي تعطى وافيا كاملا (ما عملت) أي جزاء ما عملت وطريق اطلاق المقصود اسم السبب على المسبب اشعارا بكمال الاتصال بين الاجزية والاعمال وايثار الاظهار على الاضمار لزيادة التقرير وللايذان باختلاف وقتي المجادلة والتوفية وان كانتا في يوم واحد (وهم لا يظلمون) لا ينقصون أجورهم أو لا يعاقبون بغير موجب ولا يزاد في عقابهم على

ذوقهم (وضرب الله مثلا قرية) قيل ضرب المثل صنعه والله تعالى وقد مر تحقيقه في سورة البقرة ولا يتعدى الا الى مفعول واحد وانما تعدى الى الاثنين لتضمينه معنى الجعل وتأخير قرية مع كونها مفعولا أول لئلا يحول المفعول الثاني بينها وبين صفتها ومايترتب عليها اذ التأخير عن الاكمل محل بتعاذب أطراف النظم وتجاوبها ولان تأخير ما حقه التقديم ٤١٥ مما يورث النفس ترقبا لوروده وتشوقا

المقصود من ذلك المهم ورعاية جانب المعفو عنه بل رعاية جانب نفسه اما التحصيل ما ينبغي أو لدفع مالا ينبغي ع أما الاله سبحانه فانه كامل لذاته فيستحيل أن تحدث له صفات كمال لم تكن أو يزول عنه نقصان كان واذا كان كذلك لم يكن عفوه الا رعاية لجانب المعفو عنه فقوله والذي أطمع أن يغفر لي يعني هو الذي اذا غفر كان غفرانه لي ولاجلي لا لاجل أمر عائد اليه البتة (وثانيها) كأنه قال خلقتني لاني فانك حين خلقتني ما كنت موجودا واذا لم أكن موجودا استحال تحصيل شئ لاجلي ثم مع هذا فانت خلقتني أما لو عفوت كان ذلك العفو لاجلي فلما خلقتني أولا مع أني ما كنت محتاجا الى ذلك الخلق فلان تغفر لي وتعفو عني حال ما أكون في أشد الحاجة الى العفو والمغفرة كان أولى (وثالثها) أن ابراهيم عليه السلام كان اشد استغراقه في بحر المعرفة شديد الفرار عن الالتفات الى الوسائط ولذلك لما قال له جبريل عليه السلام ألك حاجة قال أما اليك فلا فهنا قال أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين أي لمجرد عبوديتي لك واحتياجي اليك تغفر لي خطيئتي لان تغفر لي بواسطة شفاعة شافع ﴿قوله تعالى﴾ رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم واغفر لابي انه كان من الضالين ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم ﴿اعلم أن الله تعالى لما حكى عن ابراهيم عليه السلام ثناءه على الله تعالى ذكر بعد ذلك دعاءه ومسئلته وذلك تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات وتحقيق الكلام فيه أن هذه الارواح البشرية من جنس الملائكة فكلما كان اشتغالها بمعرفة الله تعالى ومحبته والانجذاب الى عالم الروحانيات أشد كانت مشابهتها للملائكة أتم فكانت أقوى على التصرف في أجسام هذا العالم وكلما كان اشتغالها بلذات هذا العالم واستغراقها في ظلمات هذه الجسمانيات أشد كانت مشابهتها للبهائم أشد فكانت أكثر عجزا وضعفا وأقل تأثيرا في هذا العالم فمن أراد أن يشتغل بالدعاء يجب أن يقدم عليه ثناء الله تعالى وذكر عظمته وكبريائه حتى انه بسبب ذلك الذكر يصير مستغرقا في معرفة الله ومحبته ويصير قريب المشاكلة من الملائكة فتحصل له بسبب تلك المشاكلة قوة قدسية سماوية فيصير مبدأ لحدوث ذلك الشئ الذي هو المطلوب بالدعاء فهذا هو السر الكشف عن ماهية الدعاء وظهر أن تقديم الثناء على الدعاء من الواجبات وظهر به تحقيق قوله عليه السلام حكاية عن الله تعالى من شغله ذكري عن مسئلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين فان قال قائل لم لم يقتصر ابراهيم عليه السلام على الثناء لاسيما ويروى عنه أيضا أنه قال حسبي من سؤالي علمه بحالي (فالجواب) أنه عليه السلام انما ذكر ذلك حين كان مشتغلا بدعوة الخلق الى الحق ألا ترى أنه قال فانهم عدو لي الا رب العالمين ثم ذكر الثناء ثم ذكر الدعاء لان الشارع لا بد له من تعليم الشرع فاما حين ما خلا نفسه ولم يكن غرضه تعليم الشرع كان يقتصر على قوله حسبي من سؤالي علمه بحالي ﴿البحث الثاني﴾ في الامور التي طلبها في الدعاء وهي مطالب ﴿المطلوب الاول﴾ قوله رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين واعلم أن الله تعالى حيث قال وانه في الآخرة لمن الصالحين وقيه مطالب (أحدها) أنه لا يجوز تفسير الحكم بالنبوة لان النبوة كانت حاصلة فلو طلب النبوة لكانت النبوة المطلوبة اما عين النبوة الحاصلة أو غيرها والاول محال لان تحصيل الحاصل محال والثاني محال لانه يمتنع أن يكون الشخص الواحد نبيا مرتين بل المراد من الحكم ما هو كمال القوة النظرية وذلك بادراك الحق ومن قوله وألحقني بالصالحين كمال القوة العملية وذلك بأن يكون عاملا بالخير فان كمال الانسان أن يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به وانما قدم قوله رب هب لي حكما على قوله وألحقني بالصالحين لما أن القوة النظرية مقدمة على القوة العملية بالشرف وبالذات وايضا فانه يمكنه أن يعلم الحق

كفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا الذهاب فاطلق بكفران نعم كثيرة (فاذاقها الله) أي أفاض عليها (لباس الجوع والخوف) شبه أثر الجوع والخوف وضررهما الغير بهم باللباس الغشي للابس فاستعير له اسمه وأوقع عليه الاذاقة استعارة مطلقة الايصال المنبئة عن شدة الاصابة بما قيم امن اجتماع ادراكي اللامسة والذائقة على نحو التجريد فانها الشيوع استعماله في ذلك وكثرة جريانها على الالسنة

جرت مجرى الحقيقة كقول كثير غر الرداء اذا تبسم ضاحكا * غلقت لضحكته رقاب المال فان الغمر مع كونه فى الحقيقة من أحوال الماء الكثير لما كان كثير الاستعمال فى المعروف المشبه بالماء الكثير جرى مجرى الحقيقة فصارت اضافته الى الرداء المستعار للمعروف تجريدا أو شبه أثرهما وظروره هما من حيث ٤١٦ الاحاطة بهم والكراهة لديهم تارة باللباس الغاشى للابس المناسب للخوف

بجامع الاحاطة واللزوم تشبيه معقول بمحسوس فاستعير له اسمه استعارة تصريحية وأخرى بطعم المرا البشع الملائم للجوع الناشئ من فقد الرزق بجامع الكراهة وأومئ اليهما أوقع عليه الاذاقة استعارة لايسال الضار المنبئة عن شدة الاصابة بما فيها من اجتماع ادراكى اللامسة والذائقة وتقديم الجوع الناشئ بما ذكر من فقدان الرزق على الخوف المترتب على زوال الامن المقدم فيما تقدم على اتيان الرزق لكونه أنسب بالاذاقة أو لمراعاة المقارنة بينهما وبين اتيان الرزق وقد قرئ بتقديم الخوف وبنصبه أيضا عطفا على المضاف أو اقامة لمقام مضاف محذوف وأصله ولباس الخسوف (بما كانوا يصنعون) فيما يقبل أو على وجه الاستمرار وهو الكفران المذكور أسند ذلك الى أهل القرية تحقيقا للامر بعد اسناد الكفران اليها وايقاع الاذاقة عليها الارادة للمالغة وفى صيغة الصنعة ايذان بان كفران النعمة صار صنعة راسخة لهم وسنة مسلوكة (ولقد جاءهم) من تتمة المثل جىء بها لبيان أن ما فعلوه من كفران النعم لم يكن مزاحمة نعم لقضية العقل فقط بل كان ذلك معارضة لحجة الله على الخلق أيضا أى ولقد جاء أهل تلك القرية

وان لم يعمل بالخير وعكسه غير ممكن ولان العلم صفة الروح والعمل صفة البدن ولما كان الروح أشرف من البدن كان العلم أفضل من العمل وانما فسرنا معرفة الاشياء بالحكم وذلك لان الانسان لا يعرف حقائق الاشياء الا اذا استحضر فى ذهنه صور الماهيات ثم نسب بعضها الى بعض بالنفى أو بالاثبات وتلك النسبة هى الحكم ثم ان كانت النسب الذهنية مطابقة للنسب الخارجية كانت النسب الذهنية ممتنعة التغير فكانت مستحكمة قوية فتلك هذا الادراك يسمى حكمة وحكما وهو المراد من قوله عليه السلام أرنا الاشياء كما هى وأما السلاح فهو كون القوة العاقلة متوسطة بين رذيلتى الافراط والتفريط وذلك لان الافراط فى أحد الجانبين تفريط فى الجانب الآخر وبالعكس فالصلاح لا يحصل الا بالاعتدال ولما كان الاستدلال الحقيقى شيأ واحدا لا يقبل القسمة البتة والافكار البشرية فى هذا العالم قاصرة عن ادراك أمثال هذه الاشياء لا جرم لا ينفك البشر عن الخروج عن ذلك الحد وان قل الا أن خروج المقربين عنه يكون فى القلة بحيث لا يحس به وخروج العصاة عنه يكون متفاحشا جدا فقد ظهر من هذا تحقيق ما قيل حسنات الابرار سيئات المقربين وظهر احتياج ابراهيم عليه السلام الى أن يقول والحقنى بالصالحين (المطلب الثانى) لما ثبت أن المراد من الحكم العلم ثبت أنه عليه السلام طلب من الله تعالى أن يعطيه العلم بالله تعالى وبصفاته وهذا يدل على أن معرفة الله تعالى لا تحصل فى قلب العبد الا بخلق الله تعالى وقوله والحقنى بالصالحين يدل على أن كون العبد صالحا ليس الا بخلق الله تعالى وجعل هذه الاشياء على الالطاف بعيد لان عند الخصم كل ما فى قدرة الله تعالى من الالطاف فقد فعله فلو صح منا الدعاء لم يكن ذلك طلبا لتحصيل الحاصل وهو فاسد (المطلب الثالث) أن الحكم المطلوب فى الدعاء اما أن يكون هو العلم بالله أو بغيره والثانى باطل لان الانسان حال كونه مستحضرا للعلم بالشئ لا يمكنه أن يكون مستحضرا للعلم بشئ آخر فلو كان المطلوب بهذا الدعاء العلم بغير الله تعالى والعلم بغير الله تعالى شاغل عن الاستغراق فى العلم بالله كان هذا السؤال طلبا لما يشغله عن الاستغراق فى العلم بالله تعالى وذلك غير جائز لانه لا كمال فوق ذلك الاستغراق فاذن المطلوب بهذا الدعاء هو العلم بالله ثم ان ذلك العلم اما أن يكون هو العلم بالله تعالى الذى هو شرط صحة الايمان أو غيره والاول باطل لانه لما وجب أن يكون حاصلا لكل من المؤمنين فكيف لا يكون حاصلا عند ابراهيم عليه السلام واذا كان حاصلا عنده امتنع طلب تحصيله فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء مرتبات فى معرفة الله تعالى أزيد من العلم بوجوده وبأنه ليس بجسم ولا حال فى المتحيز وبأنه عالم قادر حى وبذلك الا الوقوف على صفات الجلال والوقوف على حقيقة الذات أو ظهور نور تلك المعرفة فى القلب ثم هناك أحوال لا يعبر عنها المقال ولا يشرحها المثال ومن أراد أن يصل اليها فليكن من الواصلين دون الساعين للاثر (المطلوب الثانى) قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين وفيه ثلاث تأويلات (التأويل الاول) أنه عليه السلام انما طلب ما هو الكمال الذاتى للانسان فى الدنيا والآخرة وهو طلب الحكم الذى هو العلم ثم طلب بعده كمالات الدنيا وبعد ذلك طلب كمالات الآخرة فأما كمالات الدنيا فبعضها داخلية وبعضها خارجية أما الداخلية فهى الخلق الظاهر والخلق الباطن والخلق الظاهر أشد جسمانية والخلق الباطن أشد روحانية فترك ابراهيم عليه السلام الامر الجسمانى وهو الخلق الظاهر وطلب الامر الروحانى وهو الخلق الباطن وهو المراد بقوله والحقنى بالصالحين وأما الخارجية فهى المال والجاه والمال أشد جسمانية والجاه أشد روحانية فترك ابراهيم عليه السلام الامر الجسمانى وهو المال وطلب الامر الروحانى وهو الجاه الذكر الجميل الباقى على وجه الدهر وهو المراد بقوله واجعل لى لسان صدق فى

الآخرين

(رسول منهم) أى من جنسهم يعرفونه باصله ونسبه فاخبرهم بوجوب الشكر على النعمة وأنذرهم سوء عاقبة ما يأتون ومايذرون (فكذبوه) فى رسالته أوفيما أخبرهم به مما ذكرنا فالفاء فصيحة وعدم ذكره للايذان بما جاءتهم بالتكذيب من غير تلعثم (فاخذهم العذاب) المستأصل لشأفتهم عقيب ماذاقوا نبذة من ذلك (وهم ظالمون) أى حال ٤١٧ اتيانهم بما هم عليه من الظلم الذى هو كفران نعم الله تعالى وتكذيب رسوله غير مقلعين عنه بعد ما ذاقوا من مقدماته الزاجرة عنه وفيه دلالة على عمادهم فى الكفر والعناد وتجاوزهم فى ذلك كل حد معتاد وترتيب العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى حسبما يرشد اليه قوله سبحانه وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وبه يتم التمثيل فان حال أهل مكة سواء ضرب المثل لهم خاصة او لمن سار سيرتهم كافة مخادنة لحال أهل تلك القرية حذو القذة بالقذة من غير تفاوت بينهما ولوفى خصلة فذة كيف لا وقد كانوا فى حرم آمن ويتخطف الناس من حولهم وسائر بلادهم طيف من الخوف وكانت تجبى اليه ثمرات كل شئ ولقد جاءهم رسول منهم وأى رسول يعارف ادراك سموربته المعقول صلى الله عليه وسلم ما اختلف الدهور والقرون فكفروا بانعم الله وكذبوا رسوله عليه السلام فاذاقهم الله لباس الجوع والخوف

الآخرين قال ابن عباس رضى الله عنهما وقد أعطاه الله ذلك بقوله وتركنا عليه فى الآخرين * فان قيل وأى غرض له فى أن يثنى عليه ويمدح بجوابه من وجهين (الاول) وهو على لسان الحكمة أن الارواح البشرية قد بينا أنها مؤثرة فى الجملة الا أن بعضها قد يكون ضعيفا فيجزع من التأثير فاذا اجتمعت طائفة منها فربما قوى مجموعها على ما عجزت الآحاد عنه وهذا المعنى مشاهد فى المؤثرات الجسمانية اذا ثبت هذا فالانسان الواحد اذا كان بحيث يثنى عليه الجمع العظيم ويعدحونه ويعظمونه فربما صار انصراف هممهم عند الاجتماع اليه سببا لحصول زيادة كمال له (الثانى) وهو على لسان الكمال أن من صار ممدوحا فيما بين الناس بسبب ما عنده من الفضائل فانه يصير ذلك المدح وتلك الشهرة داعيا منه الى اكتساب مثل تلك الفضائل (التأويل الثانى) انه سأل ربه أن يجعل من ذريته فى آخر الزمان من يكون داعيا الى الله تعالى وذلك هو محمد صلى الله عليه وسلم فالمراد من قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم (التأويل الثالث) قال بعضهم المراد اتفاق أهل الاديان على حبه ثم ان الله تعالى أعطاه ذلك لانك لا ترى أهل دين الا ويتولون ابراهيم عليه السلام ويقدح بعضهم فيه بأنه لا تقوى الرغبة فى مدح الكافر وجوابه أنه ليس المقصود مدح الكافر من حيث هو كافر بل المقصود أن يكون ممدوحا من كل انسان ومحبوب كل قلب (المطلوب الثالث) قوله واجعلنى من ورثة جنة النعيم اعلم أنه لما طلب سعادة الدنيا طلب بعدها سعادة الآخرة وهو طلب جنة النعيم وشبهها بما يورث لانه الذى يقتنم فى الدنيا فشبهه بغنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا (المطلوب الرابع) قوله واغفر لابى انه كان من الضالين واعلم أنه لما فرغ عن طلب السعادات الدنيوية والاخروية لنفسه طلبها لاشد الناس اتصالا به وهو أبوه فقال واغفر لابى ثم فيه وجوه (الاول) أن المغفرة مشروطة بالاسلام وطلب المشروط متضمن لطلب الشرط فقوله واغفر لابى يرجع حاصله الى أنه دعا لابيه بالاسلام (الثانى) ان أباه وعده الاسلام كما قال تعالى وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فدعا له بهذا الشرط ولا يمتنع الدعاء للكافر على هذا الشرط قبل أن تبين له أنه عدو لله تبرأ منه وهذا ضعيف لان الدعاء بهذا الشرط جائز للكافر فلو كان دعاؤه مشروطا لما منعه الله عنه (الثالث) أن أباه قال له انه على دينه باطنا وعلى دين غيره ظاهرا تقية ونحوها فدعا له لاعتقاده ان الامر كذلك فلما تبين له خلاف ذلك تبرأ منه ولذلك قال فى دعائه انه كان من الضالين فلولا اعتقاده فيه انه فى الحال ليس ضالا لما قال ذلك (المطلوب الخامس) قوله ولا تخزنى يوم يبعثون قال صاحب الكشاف الاخزاء من الخزى وهو الهوان أو من الخزاية وهى الحياء وهنا أبحاث (أحدها) ان قوله ولا تخزنى يدل على انه لا يجب على الله تعالى شئ على ما بيناه فى قوله والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين (وثانيها) ان لقائل أن يقول لما قال أولا واجعلنى من ورثة جنة النعيم وهى حسنات الجنة امتنع حصول الخزى فكيف قال بعده ولا تخزنى يوم يبعثون وأيضا قد قال تعالى ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين فما كان نصيب الكفار فقط فكيف يخافه المعصوم جوابه كما أن حسنات الابرار سيئات المقربين فكذا درجات الابرار درکات المقربين وخزى كل واحد بما يليق به (وثالثها) قال صاحب الكشاف فى يبعثون ضمير العباد لانه معلوم أو ضمير الضالين لانه قوله الا من أتى الله بقلب سليم فاعلم أنه تعالى أكرمه بهذا الوصف حيث قال وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم * ثم فى هذا الاستثناء وجوه (أحدها) أنه اذا قيل لك هل لزيد مال ويكون فتقول ماله وينوه سلامة قلبه تريد نفى المال والبنين عنه واثبات سلامة القلب له بدلا عن ذلك فكذا فى هذه الآية (وثانيها) أن نحمل الكلام على المعنى ونجعل المال والبنين فى معنى الغنى كأنه قيل

(٥٣ - خازن س) حيث أصابهم بدعائه عليه السلام بقوله اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف ما أصابهم من جدب شديد وأزمة حصحصت كل شئ حتى اضطرتهم الى أكل الجيف والكلاب الميتة ولعظام المحرقة والعلهز وهو لو بر المعالج بالدم وقد ضاقت عليهم الارض بما رحبت من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وعيرهم وقرافلهم ثم أخذهم

يوم بدر ما أخذهم من العذاب هذا والذي يقتضيه المقام ويستدعيه حسن النظام وأما ما أجمع عليه أكثر أهل التفسير من أن الضمير في قوله تعالى ولقد جاءهم لأهل مكة قد ذكر حالهم صريحا بعد ما ذكر مثلهم وأن المراد بالرسول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالعذاب ما أصابهم من الجدب ٤١٨ ووقعة بدر فيعزل من التحقيق كيف لا وقوله سبحانه (فكلوا مما رزقكم الله) مفرع

يوم لا ينفع غنى الا غنى من أتى الله بقلب سليم لان غنى الرجل فى دينه سلامة قلبه كما أن غناه فى دنياه بماله وبنيه (وثانيها) أن نجعل من مفعولا لينفع أى لا ينفع مال ولا بنون الا رجلا سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه فى طاعة الله تعالى ومع بنيه حيث أرشدهم الى الدين ويجوز على هذا الامن أتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين أما السليم ففيه ثلاثة أوجه (الاول) وهو الاصح أن المراد منه سلامة القلب عن الجهل والاخلاق الرذيلة وذلك لانه كما أن صحة البدن وسلامته عبارة عن حصول ما ينبغى من المزاج والتركيب والاتصال ومرضه عبارة عن زوال أحد تلك الامور فكذلك سلامة القلب عبارة عن حصول ما ينبغى له وهو العلم أو الخلق الفاضل ومرضه عبارة عن زوال أحدهما فقوله الامن أتى الله بقلب سليم أى يكون خاليا عن العقائد الفاسدة والميل الى شهوات الدنيا ولذاتها * فان قيل فظاهر هذه الآية يقتضى أن من سلم قلبه كان ناجيا وانه لا حاجة فيه الى سلامة اللسان واليد جوابه أن القلب مؤثر واللسان والجوارح تجمع فلو كان القلب سليما لكانا سليمين لاستحالة وجود سليم الا مع سلامة القلب (التأويل الثانى) أن السليم هو اللديغ من خشية الله تعالى (التأويل الثالث) ان السليم هو الذى سلم وأسلم وسالم واستسلم والله أعلم * قوله تعالى ﴿وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا الا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم﴾ اعلم أن ابراهيم عليه السلام ذكر فى وصف هذا اليوم أمورا (أحدها) قوله وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين والمعنى ان الجنة قد تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون اليها ويفرحون بأنهم المحشورون اليها والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء يرى منهم يتحسرون على أنهم المسوقون اليها قال الله تعالى فى صفة أهل الثواب وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد وقال فى صفة أهل العقاب فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وانما يفعل الله تعالى ذلك ليكون سرورا معجلا للمؤمنين وغما عظيما للكافرين (وثانيها) قوله وقيل لهم أينما كنتم الى قوله وجنود ابليس أجمعون والمعنى أين آلهتكم هل ينصرونكم ينصرهم لكم أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لانهم وآلهتهم وقود النار وهو قوله فكبكبوا فيها هم والغاوون أى الآلهة وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير فى اللفظ دليلا على التكرير فى المعنى كأنه اذا ألقى فى جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر قعرها وجنود ابليس متبعوه من عصاة الانس والجن (وثالثها) قوله قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين * واعلم أن ظاهر ذلك ان من عبد خاصم المعبود وخاطبه بهذا الكلام فليس يخلو حال الاصنام من وجهين اما أن يخلقها الله تعالى فى الآخرة جمادا يعذب بها أهل النار فحينئذ لا يصح أن تخاطب ويجب حمل قولهم اذ نسويكم برب العالمين على انه ليس بخطاب لهم أو يقال انه تعالى يحييها فى النار وذلك أيضا غير جائز لانه لا ذنب لها فان عبدها غيرها فالاقرب انهم ذكروا ذلك لما رأوا صورها على وجه الاعتراف بانحطاط العظيم وعلى وجه الندامة لا على سبيل المخاطبة والذى يحمل على أنه خطاب فى الحقيقة قولهم وما أضلنا الا المجرمون وأرادوا بذلك من دعاهم الى عبادة الاصنام من الجن والانس وهو كقولهم ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا فأما قولهم فما لنا من شافعين كما ترى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين ولا صديق كما نرى لهم أصدقاء لانه لا يتصادق فى الآخرة الا المؤمنون وأما أهل النار فبينهم التعادى والتباغض قال تعالى

على نتيجة التمثيل وصد لهم عما يؤدى الى مثل عاقبته والمعنى واذ قد استبان لكم حال من كفر بآنعم الله وكذب رسله وما حل بهم بسبب ذلك من اللتيا والتى أولا وآخرا فانتهوا عما أنتم عليه من كفران النعم وتكذيب الرسول عليه السلام كيلا يحل بكم مثل ما حل بهم واعرفوا حق نعم الله تعالى وأطيعوا رسوله عليه السلام فى أمره ونهيه وكلوا من رزق الله حال كونه (حلالا طيبا) وفروا ما تفترون من تحريم البحائر وغيرها (واشكروا نعمة الله) واعرفوا حقها ولا تقابلوها بالكفران والفاء فى المعنى داخلة على الامر بالشكر وانما أدخلت على الامر بالاكل لتكون الاكل ذريعة الى الشكر فكأنه قيل فاشكروا نعمة الله حتى أكلها حلالا طيبا وقد أدمج فيه النهى عن زعم الحرمة ولا ريب فى أن هذا انما يتصور حين كان العذاب المستأصل متوقعا بعد وقد تمهدت مبادية وبعد ما وقع ما وقع فمن ذا الذى يحذر ومن ذا الذى يؤمر بالاكل والشكر وحمل قوله تعالى فأخذهم العذاب وهم ظالمون على الاخبار الاخلاء بذلك قبل الوقوع بأباه القصدى لاستصلاحهم بالامر والنهى وتوجيه خطاب الامر بالاكل الى المؤمنين مع أن ما يتلوه من خطاب النهى متوجه الى الكفار كما فعله الواحدى حيث قال فكلوا أيها معشر المؤمنين مما رزقكم الله من الغنائم مما لا يليق بشأن التنزيل

الجليل (ان كنتم اياه تعبدون) أى تطيعون أوان صح زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته تعالى (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) تعليل لحل ما أمرهم بأكله مما رزقهم أى انما حرم هذه الاشياء دون ما تزعمون حرمته من البحائر والسوائب ونحوها (فمن اضطر) بما اعتراه من الضرورة فتناول شيأ من ذلك (غير باغ) أى على ٤١٩ مضطر آخر (ولا عاد) أى متجاوز

الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين أوفما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء لانهم كانوا يعتقدون فى أصنامهم انهم شفعاؤهم عند الله تعالى وكان لهم أصدقاء من شياطين الانس أوأرادوا أنهم ان وقعوا فى مهلكة علموا أن الشفعاء والاصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم فقصدوا بنفيهم فى ما تعلق بهم من النفع لان ما لا ينفع فكأنه معدوم حكم المعدوم والحميم من الاحتمام وهو الاهتمام وهو الذى يهمه ما يهمك أو من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخالص وانما جمع الشفعاء ووحد الصديق لكثرة الشفعاء فى العادة وقلة الصديق فان الرجل المتحن بارهاق ظالم قد يهتم جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة له وأما الصديق وهو الصادق فى ودادك فما أعز من بيض الانوق ويجوز أن يريد بالصديق الجمع ثم حكى عنهم قولهم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين وانهم تمنوا الرجعة الى الدنيا ولو فى مثل هذا الموضع فى معنى التمنى كأنه قيل فليت لنا كرة وذلك لما بين معنى لو وليت من التلاقى فى التقدير ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب وهو لفعلنا كيت وكيت قال الجبائى ان قولهم فنكون من المؤمنين ليس بخبر عن اعانهم لكنه خبر عن عزمهم لانه لو كان خبرا عن اعانهم لوجب أن يكون صدقا لان الكذب لا يقع من أهل الآخرة وقد أخبر الله تعالى بخلاف ذلك فى قوله ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقد تقدم فى سورة الانعام بيان فساد هذا الكلام ثم بين سبحانه أن فيما ذكره من قصة ابراهيم عليه السلام لآية لمن يريد أن يستدل بذلك ثم قال وما كان أكثرهم مؤمنين والاكثرون من المفسرين حملوه على قوم ابراهيم ثم بين تعالى أن مع كل هذه الدلائل فأكثر قومه لم يؤمنوا به فيكون هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فيما يجده من تكذيب قومه فاما قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم فمعناه أنه قادر على تعجيل الانتقام لكنه رحيم بالامهال لكى يؤمنوا * (القصة الثالثة) * قصة نوح عليه السلام ﴿ قوله تعالى ﴾ كذبت قوم نوح المرسلين اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون قال وما علمى بما كانوا يعملون ان حسابهم الا على ربى لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين ان أنا الا نذير مبين قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قال رب ان قومى كذبون فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ اعلم انه تعالى لما قص على محمد صلى الله عليه وسلم خبر موسى وابراهيم تسلية له فيما يلقاه من قومه قص عليه أيضا نبأ نوح عليه السلام فقد كان نبؤه أعظم من نبأ غيره لانه كان بدء عوهم ألف سنة الا خمسين عاما ومع ذلك كذبه قومه فقال ﴿ كذبت قوم نوح وانما قال كذبت لان القوم مؤنث وتصغيرها قويعة انما حكى عنهم أنهم كذبوا المرسلين لوجهين (أحدهما) انهم وان كذبوا نوحا لكن تكذيبه فى المعنى يتضمن تكذيب غيره لان طريقة معرفة الرسل لا تختلف فمن حيث المعنى حكى عنهم انهم كذبوا المرسلين (وثانيهما) أن قوم نوح كذبوا بجميع رسل الله تعالى اما لانهم كانوا من الزنادقة أو من البراهمة وأما قوله أخوهم ولانه كان منهم من قول العرب يا أخا بنى تميم يريدون يا واحدا منهم ثم انه سبحانه حكى عن نوح عليه السلام انه أولا خوفهم وثانيا أنه وصف نفسه * اما التخويف فهو قوله ألا تتقون واعلم أن القوم انما قبلوا تلك الاديان للتقليد والمقلد اذا خوف خاف وسالم يحصل الخوف فى قلبه لا يشتغل بالاستدلال فلهذا السبب قدم على جميع كلامه قوله ألا تتقون * وأما وصف نفسه فذلك بأمرين (أحدهما) قوله انى لكم رسول أمين وذلك لانه كان فيهم مشهورا بالامانة كما محمد صلى الله عليه وسلم فى

قدر الضرورة (فان ربك غفور رحيم) أى لا يؤاخذه بذلك فأقيم سببه مقامه وفى التعرض لوصف الربوبية اعباء الى علة الحكم وفى الاضافة الى ضميره عليه السلام اظهار لكمال اللطف به عليه السلام وتصدير الجملة بانما لحصر المحرمات فى الاجناس الاربعة الا ماضم اليه كالسباع والحمر الاهلية ثم أكد ذلك بالنهى عن التحريم والتحليل بأهوائهم فقال (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم) اللام صلة مثلها فى قوله تعالى ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات أى لا تقولوا فى شأن ما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة فى قولكم ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا من غير ترتب ذلك الوصف على ملاحظة وفكر فضلا عن استناده الى وحى أو قياس مبنى عليه (الكذب) منتصب بلا تقولوا وقوله تعالى (هذا حلال وهذا حرام) بدل منه ويجوز أن يتعلق

بتصف على ارادة القول أى لا تقولوا لما تصفه ألسنتكم فتقول هذا حلال وهذا حرام وأن يكون القول المقدر للامن ألسنتهم أى قائلة هذا حلال الخ ويجوز أن ينتصب الكذب بتصف ويتعلق هذا حلال الخ بلا تقولوا واللام للتعليل وما مصدرية أى لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب أى لاجل وصفها الكذب وقد يراد به صورة مستحسنة وتزيينها له فى

المسامع كائن ألسنتهم الكونهم منشأ للكذب ومنبعا للزور شخص عالم بكنهه ومحيط بحقيقته يصفه للناس ويعرفه أوضح وصف وأبين تعريف على طريقة الاستعارة بالكناية كما يقال وجهه يصف الجمال وعينه تصف السحر وقرئ بالجر صفة لما مع مدخولها كأنه قيل لوصفها الكذب بمعنى الكاذب ٤٣٠ كقوله تعالى بدم كذب والمراد بالوصف وصفها البهائم بالحل والحرمة وقرئ الكذب

قريش فكأنه قال كنت أمينا من قبل فكيف تتهمونى اليوم (وثانيهما) قوله وما أسألكم عليه من أجر أى على ما أنا فيه من ادعاء الرسالة لئلا يظن به أنه دعاهم للرغبة (فان قيل) ولماذا كرر الامر بالتقوى (جوابه) لانه فى الاول أراد ألا تتقون مخالفتى وانا رسول الله وفى الثانى ألا تتقون مخالفتى ولست آخذا منكم أجرا فهو فى المعنى مختلف ولا تكرار فيه وقد يقول الرجل لغيره ألا تتقى الله فى عقوقى وقد ربيتك صغيرا ألا تتقى الله فى عقوقى وقد علمتك كبيرا وانما قدم الامر بتقوى الله تعالى على الامر بطاعته لان تقوى الله علة لطاعته فقدم العلة على المعلول ثم ان نوحا عليه السلام لما قال لهم ذلك أجابوه بقولهم أنؤمن لك واتبعك الارذلون قال صاحب الكشاف وقرئ وأتباعك الارذلون جمع تابع كشاهد وأشهاد أو جمع تبع كبطل وابطال وألوا والمحال وحقها ان يضمر بعدها قد فى واتبعك وقد جمع أرذال على الصحة وعلى التكسير فى قولهم الذين هم أراذلنا والرذالة الخسة وانما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا وقيل كانوا من أهل الصناعات الخسيسة كالحياكة والحجامة واعلم ان هذه الشبهة فى نهاية الركاكة لان نوحا عليه السلام بعث الى الخلق كافة فلا يختلف الحال فى ذلك بسبب الغنى والفقر والشرف المكاسب ودناءتها فأجابهم نوح عليه السلام بالجواب الحق وهو قوله وما علمى بما كانوا يعملون وهذا الكلام يدل على انهم نسبوه مع ذلك الى انهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة وانما آمنوا بالهوى والطمع كما حكى الله تعالى عنهم فى قوله الذين هم أراذلنا بادى الرأى ثم قال ان حسابهم الا على ربى لو كانوا يعلمون معناه لا تعتبر الا الظاهر من أمرهم دون ما يخفى وما قال ان حسابهم الا على ربى لو كانوا يعتقدون ذلك أردفه بقوله لو تشعرون ثم قال وما أنا بطارد المؤمنين وذلك كالدلالة على ان القوم سألوه ابعادهم لكى يتبعوه أو ليكونوا أقرب الى ذلك فبين أن الذى يمنعه عن طردهم أنهم آمنوا به ثم بين أن غرضهم بما حمل من الرسالة يمنع من ذلك بقوله ان أنا الا نذير مبين والمراد انى أخوف من كذبنى ولم يقبل منى فمن قبل قبل فهو القريب ومن رد فهو البعيد ثم ان نوحا عليه السلام لما تمم هذا الجواب لم يكن منهم الا التهديد فقالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين والمعنى أنهم خوفوه بان يقتل بالحجارة فعند ذلك حصل اليأس لنوح عليه السلام من فلاحهم وقال رب ان قومى كذبونى فافتح بينى وبينهم فتحا وليس الغرض منه اخبار الله تعالى بالتكذيب لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم ولكنه أراد انى لا أدعوك عليهم لما آذونى وانما أدعوك لاجلك ولاجل دينك ولانهم كذبونى فى وحيك ورسالتك فافتح بينى وبينهم أى فاحكم بينى وبينهم والفتاحة الحكومة والفتاح الحاكم لانه يفتح المستغلق والمراد من هذا الحكم انزال العقوبة عليهم لانه قال عقيبه ونجنى ولولا أن المراد انزال العقوبة لما كان لذكر النجاة بعده معنى وقد تقدم القول فى قصته مشروحا فى سورة الاعراف وسورة هود ثم قال تعالى فانجيناه ومن معه فى الفلك المشحون قال صاحب الكشاف الفلك السفينة وجمعه فلك قال تعالى وترى الفلك فيه مواخر قالوا حد يزون قعل والجمع يزون أسد والمشحون المملوء يقال شحنها عليهم خيلا ورجلا فدل ذلك على أن الذين نجوا معه كان فيهم كثرة وأن الفلك امتلأ بهم وبما صحبهم وبين تعالى انه بعد أن أنجاهم أغرق الباقين وأن اغراقه لهم كان كالتأخر عن نجاتهم (القصة الرابعة) قصة هود عليه السلام ﴿ قوله تعالى ﴿ كذبت عاد المرسلين اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجران أجرى الا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بانعام وبنين وجنات وعيون انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ان

(من قبل) متعلق بقصصنا أو بمحذوف وهو تحقيق لما سلف من حصر المحرمات فيما فصل بأبطال ما يخالفه من قريبة اليهود وتكذيبهم هذا

هذا فى ذلك فانهم كانوا يقولون لسنا أول من حرمت عليه وانما كانت محرمة على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الامر الينا (وما ظلمناهم) بذلك التحريم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) حيث فعلوا ما عوقبوا عليه حسبما نبئ عليهم قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا

حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم الآية واقد ألقمهم الحجر قوله تعالى كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين روى أنه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك بهتوا ولم يجسروا أن يخرجوا التوراة كيف وقد بين فيها أن تحريم ما حرم عليهم من الطيبات لظلمهم وبغيهم عقوبة وتشديدا أو وضح ببيان وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة) أي بسبب جهالة أو ملتبسين بها لان الجهل بالله وبصفاته وعدم التدبر في العواقب لغلبة الشهوة والسوء يعم الافتراء على الله تعالى وغيره (ثم تابوا من بعد ذلك) أي من بعد ما عملوا والتصريح به مع دلالة ثم عليه للتأكيد والمبالغة (وأصلحوا) أي أصلحوا أعمالهم أو دخلوا في الصلاح (ان ربك من بعدها) من بعد التوبة (لغفور) لذلك السوء (رحيم) يثيب على طاعته تركا وفعلا وتكرير قوله تعالى ان ربك لتأكيد الوعد واظهار كمال العناية بانجازه والتعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام مع ظهور الاثر في التائبين للاشعار الى أن افاضة آثار الربوبية من المغفرة والرحمة عليهم بتوسطه عليه السلام وكونهم من أتباعه كما أشير اليه فيما مر (ان ابراهيم كان أمة) على حياله لجلالته من الفضائل البشرية مالا

هذا الاخلاق الاولين) وما نحن بمعذبين فكذبوه فاهلكناهم ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم ﴿ اعلم أن فاتحة هذه القصة وفاتحة قصة نوح عليه السلام واحدة فلا فائدة في اعادة التفسير ثم انه تعالى ذكر الامور التي تكلم فيها هود عليه السلام معهم وهي ثلاثة (فاولها) قوله أتبنون بكل ريع آية تعبثون قرئ بكل ريع بالكسر والفتح وهو المكان المرتفع ومنه قوله كمثل ربوة أرضك وهو ارتفاعها والآية العلم ثم فيه وجوه (أحدها) عن ابن عباس أنهم كانوا يبنون بكل ريع علما يعبثون فيه ممن يمر في الطريق الى هود عليه السلام (والثاني) أنهم كانوا يبنون في الاماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم تفاخرا فنهوا عنه ونسبوا الى العبث (والثالث) انهم كانوا من يهتدون بالنجوم في أسفارهم فاتخذوا في طريقهم أعلاما طوالا فكان ذلك عبثا لانهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم (الرابع) بنوا بكل ريع بروج الحمام (وثانيها) قوله وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون المصانع مأخذ الماء وقيل القصور المشيدة والمعنى لعلكم تخلدون تر جون الخلد في الدنيا أو يشبه حالكم حال من يخلد وفي مصحف أبي كأنكم وقرئ تخلدون بضم التاء خففا ومشددا واعلم أن الاول اتما صار مذموما لدلالته اما على الاسرف أو على الجلاء والثاني اتما صار مذموما لدلالته على الامل الطويل والغفلة عن أن الدنيا دار ممر لا دار مقر (وثالثها) قوله واذا بطشتم بطشتم جبارين بين انهم مع ذلك اسرف والحرص فان معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين وقد بينا في غير هذا الموضع ان هذا الوصف في العباد ذم وان كان في وصف الله تعالى مدحا فكان من يقدم على الغير لا على طريق الحق ولكن على طريق الاستعلاء يوصف بان بطشه بطش جبار وحاصل الامر في هذه الامور الثلاثة ان اتخاذ الابنية العالية يدل على حب العلو واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو فجميع الحاصل الى انهم أحبوا العلو وبقاء العلو والتفرد بالعلو وهذه صفات الالهية وهي ممتنعة الحصول للعبد فدل ذلك على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه وخرجوا من حد العبودية وحاموا حول ادعاء الربوبية وكل ذلك ينبه على أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وعنوان كل كفر ومعصية ثم لما ذكر هود عليه السلام هذه الاشياء قال فاتقوا الله وأطيعون زيادة في دعائهم الى الآخرة وزجرا لهم عن حب الدنيا والاشتغال بالسرف والحرص والتجبر ثم وصل بهذا الوعظ ما يؤكد القبول وهو التنبيه على نعم الله تعالى عليهم بالاجمال أولا ثم التفصيل ثانيا فأجملها عن ستة غفلتهم عنها حيث قال أمدكم بما تعلمون ثم فصلها من بعد بقوله أمدكم بانعام وبنين وجنات وعيون اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم فبلغ في دعائهم بالوعظ والترغيب والتخويف والبيان النهاية فكان جوابهم سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين اظهروا قلة اكتراثهم بكلامه واستخفافهم بما أورده فان قيل لو قال أوعظت أم لم تعظ كان أخصر والمعنى واحد جوابه ليس المعنى بواحد لان المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلا من أهله ومباشرته فهو بالغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ ثم احتجوا على قلة اكتراثهم بكلامه بقولهم ان هذا الا خلق الاولين فمن قرأ خلق الاولين بالفتح فمعناه ان ما جئت به اختلاق الاولين وتخرصهم كما قالوا أساطير الاولين أي ما خلقنا هذا الا خلق القرون الخالية فحياتنا كحياتهم وموتنا كموتهم ولا بعث ولا حساب ومن قرأ خلق بضمتين وبواحدة فمعناه ما هذا الذي نحن عليه من الدين الا خلق الاولين وعادتهم كانوا يعيشون ونحن بهم مقتدون أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت الا عادة لم يزل عليها الناس في قديم الدهر أو ما هذا الذي جئت به من التكذيب الا عادة الاولين كانوا يفعلون مثله ويسلكونه ثم قالوا وما نحن بمعذبين أظهروا بذلك تقوية نفوسهم فيما سكوا به من انكار

تكاد توجد الا متفرقة في أمة جمة حسبما قيل ليس على الله بمستنكر ﴿ أن يجمع العالم في واحد وهو رئيس أهل التوحيد وقدوة أصحاب التحقيق جادل أهل الشرك وألقمهم الحجر ببينات باهرة لا تبقى ولا تذر وأبطل مذاهبهم الزائغة بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة أولانه عليه السلام كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار وقيل هي فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والنخبة من أمه اذا قصده أو اقتدى به فان

الناس كانوا يقصدونه ويقتدون بسيرته لقوله تعالى انى جاعلك للناس اماما واراد ذكره عليه السلام عقيب تزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن فى النبوة وتحريم ما أحله الله تعالى للايذان بأن حقية دين الاسلام وبطلان الشرك وفروعه أمر ثابت لا ريب فيه (فانتالله) مطيعا له قائما بأمره ٤٣٢ (حنيفا) مائلا عن كل دين باطل الى الدين الحق غير زائل عنه بحال (ولم يك من المشركين) فى أمر من أموردينهم أصلا وفرعا صرح بذلك مع ظهوره لاردا على كفار قريش فقط فى قولهم نحن على ملة أبينا ابراهيم بل عليهم وعلى اليهود المشركين بقولهم عزير ابن الله فى افترائهم وادعائهم أنه عليه الصلاة والسلام كان على ماهم عليه كقوله سبحانه ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين اذ به ينتظم أمر ايراد التحريم والبيت سابقا ولاحقا (شاكرا لانعمه) صفة ثالثة لامة وانما أوثر صيغة جمع القلة للايذان بأنه عليه السلام كان لا يخل بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة وللتصريح بكونه عليه السلام على خلاف ماهم عليه من الكفران بأنعم الله تعالى حسبما بين ذلك بضرب المثل (اجتباه) للنبوة (وهداه الى صراط مستقيم) موصل اليه سبحانه وهو الاسلام وليست نتيجة هذه الهداية مجرد اهتدائه عليه السلام بل مع ارشاد الخلق أيضا بمعونة قرينة الاجتباء (وآتيناه فى الدنيا حسنة) حالة حسنة من الذكر الجميل والثناء فيما بين الناس قاطبة حتى أنه ليس من أهل دين الا وهم يتولونه

المعاد فعند هذا بين الله تعالى انه أهلكهم وقد سبق شرح كيفية الهلاك فى سائر السور والله أعلم (القصة الخامسة) قصة صالح عليه السلام ﴿ قوله تعالى ﴾ كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله واطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين أتتركون فيما ههنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الارض ولا يصلحون قالوا انما أنت من المسحرين ما أنت الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ اعلم أن صالحا عليه السلام خاطب قومه بامور (أحدها) قوله أتتركون فيما ههنا آمنين أى أتظنون انكم تتركون فى داركم آمنين وتطمعون فى ذلك وان لا دار للجزاء وقوله فيما ههنا آمنين فى الذى استقر فى هذا المكان من النعيم ثم فسره بقوله فى جنات وعيون وهذا يدل على الحال ثم تفصيل ﴿ فان قيل لم قال ونخل بعد قوله فى جنات والجنة تتناول النخل ﴾ جوابه من وجهين (الاول) انه خص النخل بافراده بعد دخوله فى جملة سائر الشجر تنبيها على فضله على سائر الاشجار (والثانى) ان يراد بالجنات غيرها من الشجر لان اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل والطلع هو الذى يطلع من الفحلة كفصل السيف فى جوفه ثمار يخ والهضيم اللطيف أيضا من قوله كشجر هضيم وقيل الهضيم اللين النضيج كأنه قال ونخل قد أرطب ثمره (وثانيها) قوله تعالى وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين وقرأ الحسن وتنحتون بفتح الحاء وقرئ فرهين وفارهين والفراهة الكيس والنشاط فقوله فارهين حال عن الناحتين واعلم أن ظاهر هذه الآية يدل أن الغالب على قوم هود هو اللذات الحالية وهى طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية وهى طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحسية (وثالثها) قوله تعالى ولا تطيعوا أمر المسرفين وهذا اشارة الى انه يجب الاكتفاء من الدنيا بقدر الكفاف ولا يجوز التوسع فى طلبها والاستكثار من لذاتها وشهواتها فان قيل ما فائدة قوله ولا يصلحون جوابه فائدته بيان أن فسادهم فساد خالص ليس معه شئ من الصلاح كما يكون حال بعض المفسدين مخلوطة بعض الصلاح ثم ان القوم أجابوه من وجهين (أحدهما) قولهم انما أنت من المسحرين وفيه وجوه (أحدها) المسحر هو الذى سحر كثيرا حتى غلب على عقله (وثانيها) من المسحرين أى من له سحر وكل دابة تأكل فهى مسحرة والسحر أعلى البطن وعن الفراء المسحر من له جوف أراد وا أنك تأكل الطعام وتشرب الشراب (وثالثها) عن المؤرج المسحر هو المخلوق بلغة ثمود (وثانيهما) قولهم ما أنت الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين وهذا يحتمل أمرين (الاول) انك بشر مثلنا فكيف تكون نبيا وهذا بمنزلة ما كانوا يذكرون فى الانبياء انهم لو كانوا صادقين لكانوا من جنس الملائكة (الثانى) أن يكون مرادهم انك بشر مثلنا فلا دلالة لك فى اثبات نبوتك من الدليل فقال صالح عليه السلام هذه ناقة لها شرب وقرئ بالضم قالوا انى يأتينا ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فقال صالح يتفكر فقال له جبريل عليه السلام صل ركعتين وسل ربك الناقة ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم وحمل لها سقب مثلها فى العظم وروى أنهم قالوا ان شربها شربت ماءهم كله وشربهم فى اليوم الذى لا تشرب هى (والثانى) قوله ولكم شرب يوم معلوم قال قتادة اذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله وشربهم فى اليوم الذى لا تشرب هى (والثالث) قوله ولا تمسوها بسوء أى بضرب أو عقر أو غيرهما فيأخذكم عذاب يوم عظيم عظم اليوم

لحلول

وقيل هي الحلة والنبوة وقيل قول المصلي منا كما صليت على ابراهيم والالتفات الى المتكلم لاظهار كمال الاعتناء بشأنه وتفخيم مكانه عليه الصلاة والسلام (وانه في الآخرين لمن المقربين) أصحاب الدرجات العالية في الجنة حسبما سأله بقوله واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم (ثم أوحينا اليك) مع علو طبقتك ٤٢٣ وسمو رتبتك (أن اتبع ملة ابراهيم)

الملة اسم لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الانبياء عليهم السلام من أملت الكتاب اذا أمليته وهو الدين بعينه لكن باعتبار الطاعة له وتحققه أن الوضع الالهي مهما نسب الى من يؤديه عن الله تعالى يسمى ملة ومهما نسب الى من يتقيه ويعمل به يسمى دينا قال الراغب الفرق بينهما أن الملة لا تضاف الا الى النبي عليه السلام ولا تكاد توجد مضافة الى الله سبحانه ولا الى آحاد الامة ولا تستعمل الا في جملة الشرائع دون آحادها والمراد بملته عليه السلام الاسلام الذي عبر عنه آنفا بالصراط المستقيم (حنيفا) حال من المضاف المسلما أن المضاف لشدة اتصاله به عليه السلام جرى منه مجرى البعض فعد بذلك من قبيل رأيت وجهه هند قائمة والمأمور به هنا قائمة والمأمور به الاتباع في الاصول دون الشرائع المتبدلة بتبدل الاعصار ومافي ثم من التراخي في الرتبة للايذان بأن هذه النعمة من أجل النعم القائمة عليه

لحلول العذاب فيه وأصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب لان الوقت اذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد ثم ان الله تعالى حكى عنهم انهم عقروها وروى أن مصدعا الجأها الى مضيق فرماها بسهم فسقطت ثم ضربوها قدارها فان قيل لم أخذهم العذاب وقد ندموا * جوابه من وجهين (الاول) أنهم لم يكن ندمهم ندم التائبين لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل (الثاني) أن الندم وان كان ندم التائبين ولكن كان ذلك في غير وقت التوبة بل عند معاينة العذاب وقال تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيآت الآية واللام في العذاب اشارة الى عذاب يوم عظيم ﴿القصة السادسة﴾ قصة لوط عليه السلام ﴿قوله تعالى ﴿كذبت قوم لوط المرسلين اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون اني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري الا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين قال اني لعملكم من القالين رب نجني وأهلي مما يعملون فنجيناه وأهله أجمعين الا عجوزا في الغابرين ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أما قوله تعالى أتأتون الذكران من العالمين فيحتمل عوده الى الآتي أي أنتم من جملة العالمين صرتم مخصوصين بهذه الصفة وهي اتيان الذكران ويحتمل عوده الى المأتي أي أنتم اخترتم الذكران من العالمين لا الاناث منهم وأما قوله تعالى من أزواجكم فيصح أن يكون تبيينا لما خلق وأن يكون للتبعيض ويراد بما خلق العضو المباح منهن وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم والعادي هو المعتدي في ظلمه ومعناه أترتكبون هذه المعصية على عظمها بل أنتم قوم عادون في جميع المعاصي فهذا من جملة ذاك أو بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه الفاحشة فقالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين أي لتكونن من جملة من أخرجناه من بلدنا ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ الاحوال فقال لهم لوط عليه السلام اني لعملكم من القالين القلى البغض الشديد كأنه يقلي الفؤاد والكبد وقوله من القالين أبلغ من أن يقول اني لعملكم قال كما يقال فلان من العلماء فهو أبلغ من قولك فلان عالم ويجوز أن يراد من الكاملين في فلاكم ثم قال تعالى فنجيناه وأهله والمراد فنجيناه وأهله من عقوبتهم فلهم الا عجوزا في الغابرين * فان قيل في الغابرين صفة لها كأنه قيل الا عجوزا غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم * جوابه معناه الا عجوزا مقدرا غبورها قيل انها هلكت مع من خرج من القرية عما أمطر عليهم من الحجارة * قال القاضي عبد الجبار في تفسيره في قوله تعالى وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم دلالة على بطلان الجبر من جهات (أحدها) أنه لا يقال تذرون الا مع القدرة على خلافه ولذلك لا يقال للرجل لم تذر الصعود الى السماء كما يقال له لم تذر الدخول والخروج (وثانيها) أنه قال ما خلق لكم ولو كان خلق الفعل لله تعالى لكان الذي خلقه لهم ما خلقه فيهم وأوجبه لا ما لم يفعلوه (وثالثها) قوله تعالى بل أنتم قوم عادون فان كان تعالى خلق فيهم ما كانوا يعملون فكيف ينسبهم الى أنهم تعدوا وهل يقال للاسود انك معتد في لونك فنقول حاصل هذه الوجوه يرجع الى أن العبد لو لم يكن موجدا لافعال نفسه لما توجه المدح والذم والامر والنهي عليه ولهذه الآية في هذا المعنى خاصية أزيد مما ورد من الامر والنهي والمدح والذم في قصة موسى عليه السلام وابراهيم ونوح وسائر القصص فكيف خص هذه القصة بهذه الوجوه دون سائر القصص واذا ثبت بطلان هذه الوجوه بقي ذلك الوجه الذي ذهب اليه المشهور فنحن نجيب عنها بالجوابين المشهورين (الاول) أن الله تعالى لما علم وقوع هذه الاشياء فقدمها محال لان عدمها يستلزم

عليه السلام (وما كان من المشركين) تكرير لما سبق لزيادة تأكيد وتقرير لبراءته عليه السلام مما دهم عليه من عقد وعمل وقوله تعالى (انما جعل السبت) أي فرض تعظيمه والتخلي فيه للعبادة وترك الصيد فيه تحقيق لذلك النفي الكلي وتوضيح له بابطال ما عسى يتوهم كونه قادحا في كليته حسبما سلف في قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا الخ فان اليهود كانوا يدعون أن السبت من شعائر الاسلام وأن

ابراهيم عليه السلام كان محافظا عليه أى ليس السبت من شرائع ابراهيم وشعائر ملته التى أمرت باتباعها حتى يكون بينه عليه الصلاة والسلام وبين بعض المشركين علاقة فى الجملة وانما شرع ذلك لبنى اسرائيل بعد مدة طويلة وايراد الفعل مبنيا للمفعول جرى على سنن الكبرياء وايذان بعدم الحاجة ٤٢٤ الى التصريح بالفاعل لاستحالة الاسناد الى الغير وقد قرئ على البناء للفاعل وانما عبر عن

انقلاب العلم جهلا وهو محال والمفضى الى المحال محال واذا كان عدمها محالا كان التكليف بالترك تكليفا بالمحال (الثانى) أن القادر لما كان قادرا على الضدين امتنع أن يترجح أحدهما القدورين على الآخر الا المرجح وهو الداعى أو الارادة وذلك المرجح محدث فله مؤثر وذلك المؤثر ان كان هو العبد لزم التسلسل وهو محال وان كان هو الله تعالى فذلك هو الجبر على قولك فبمت بهذين البرهانين القاطعين سقوط ما قاله والله أعلم ﴿القصة السابعة﴾ قصة شعيب عليه السلام ﴿قوله تعالى﴾ كذب أصحاب الايكة المرسلين اذ قال لهم شعيب ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين قالوا انما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين قال ربى أعلم بما تعملون فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ قرئ أصحاب الايكة بالهمزة وبتخفيفها وبالجر على الاضافة وهو الوجه ومن قرأ بالنصب وزعم أن أيكة بوزن ليلة اسم بلد يعرف فتوهم قاد اليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة فى هذه السورة وفى سورة ص بغير ألف لكن قد كتبت فى سائر القرآن على الاصل والقصة واحدة على أن أيكة اسم لا يعرف روى أن أصحاب الايكة كانوا أصحاب شجر ملتف وتلك الشجر هى التى حملها المقل فان قيل هلا قال أخوهم شعيب كما فى سائر المواضع جوابه أن شعيبا لم يكن من أصحاب الايكة وفى الحديث ان شعيبا أخا مدين أرسل اليهم والى أصحاب الايكة ثم ان شعيبا عليه السلام أمرهم بأشياء (أحدها) قوله أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وذلك لان الكيل على ثلاثة أضرب واف وطفيف وزائد فأمر بالواجب الذى هو الايفاء بقوله أوفوا الكيل ونهى عن المحرم الذى هو التطفيف بقوله ولا تكونوا من المخسرين ولم يذكر الزائد لانه بحيث ان فعله فقد أحسن وان لم يفعله فلا اثم عليه ثم انه لما أمر بالايفاء بين أنه كيف يفعل فقال وزنوا بالقسطاس المستقيم قرئ بالقسطاس مضموما ومكسورا وهو الميزان وقيل القرسطون (وثانيها) قوله تعالى ولا تبخسوا الناس أشياءهم يقال بخسه حقه اذا نقصه اياه وهذا عام فى كل حق يثبت لاحد أن لا يهضم وفى كل ملك أن لا يغصب عليه ما لكه ولا يتصرف فيه الا باذنه تصرفا شرعيا (وثالثها) قوله تعالى ولا تعثوا فى الارض مفسدين يقال عثا فى الارض وعثى وعاث وذلك نحو قطع الطريق والغارة واهلاك الزرع وكانوا يفعلون ذلك مع قولهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك (ورابعها) قوله تعالى واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين وقرئ الجبلة بوزن الابلة والجبلة بوزن الخلقة ومعناهن واحد أى ذوى الجبلة والمراد أنه المتفضل بخلقهم وخلق من تقدمهم ممن لولا خلقهم لما كانوا مخلوقين فلم يكن للقوم جواب الا ما ولوه كره لكان أولى بهم وهو من وجهين (الاول) قولهم انما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا وان قبل هل اختلف المعنى باد خال الواو وهنا وتركها فى قصة ثمود جوابه اذا دخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما صفات للرسالة عند هم السحر والبشرية واذا تركت الواو فلم يقصد الا معنى واحد وهو كونه مسحرا لهم قرره بكونه بشرا مثلهم (الثانى) قولهم وان نظنك لمن الكاذبين ومعناه ظاهر حتى ان شعيبا عليه السلام كان يتوعدهم بالعذاب ان استمروا على التكذيب فقالوا فأسقط علينا كسفا من السماء قرئ كسفا بالسكون والحركة وكلاهما جمع كسفة وهى القطعة والسماء السحاب أو الظلة وهى انما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه فظنوا أنه اذا لم يقع ظهر كذبه

ذلك بالجعل موصولا بكلمة على وعنهم بالاسم الموصول باختلافهم فقيل انما جعل السبت (على الذين اختلفوا فيه) للايذان بتضمنه للتشديد والابتلاء المؤدى الى العذاب وبكونه معللا باختلافهم فى شأنه قبل الوقوع ايثارا له على ما أمر الله تعالى به واختيارا للاعكس لكن لا باعتبار شمول العلية لطرفى الاختلاف وعموم العائلة للفريقين بل باعتبار حال منشأ الاختلاف من الطرف المخالف للحق وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام أمر اليهود أن يجعلوا فى الاسبوع يوما واحدا للعبادة وأن يكون ذلك يوم الجمعة فأبوا عليه وقالوا نريد اليوم الذى فرغ الله تعالى فيه من خلق السموات والارض وهو السبت الا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فأذن الله تعالى لهم فى السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه فأطاع أمر الله تعالى الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون وأعقابهم لم يرضوا عن الصيد فمسخهم الله سبحانه قردة دون أولئك المطيعين (وان ربك ليحكم بينهم) أى بين الفريقين المختلفين فيه (يوم فعنده

القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أى يفصل ما بينهما من الخصومة والاختلاف فيجازى كل فريق بما يستحقه من الثواب والعقاب وفيه اياء الى أن ما وقع فى الدنيا من مسخ أحد الفريقين وانجاء الآخر بالنسبة الى ما سيقع فى الآخرة شئ لا يعتد به هذا هو الذى يستدعيه

فمنده قال شعيب عليه السلام ربي أعلم بما تعملون فلم يدع عليهم بل فوض الامر فيه الى الله تعالى فلما استمروا على التكذيب أنزل الله عليهم العذاب على نحو مما اقترحوه من عذاب الظلة ان أراد بها السحاب وان أراد الظلمة فقد خالفهم عن مقترحهم يروى أنه حبس عنهم الريح سبعة أيام وسلط عليهم الرمل فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء فاضطروا الى أن خرجوا الى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا وروى أن شعيبا بعث الى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الايكة فأهلكت مدين بصيحة جبريل عليه السلام وأصحاب الايكة بعذاب يوم الظلة وههنا آخر الكلام في هذه القصص السبع التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم فيما نالهم من الغم الشديد بسبب كفرهم وعنادهم بل كان ذلك بسبب قرانات الكواكب واتصالاتها على ما اتفق عليه أهل النجوم واذا قام هذا الاحتمال لم يحصل الاعتبار بهذه القصص لان الاعتبار انما يحصل ان لو علمنا أن نزول هذا العذاب كان بسبب كفرهم وعنادهم (الثاني) أن الله تعالى قد ينزل العذاب محقة للكافرين وابتلاء لهم على ما قال ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ولان الله تعالى قد يبتلي المؤمنين بالبلاء العظيم في مواضع كثيرة واذا كان كذلك لم يدل نزول البلاء بهم على كونهم مبطلين (والجواب) أن الله تعالى أنزل هذه القصص على محمد صلى الله عليه وسلم تسلية له وازالة للحزن عن قلبه فلما أخبر الله تعالى محمدا أنه هو الذي أنزل العذاب عليهم وأنه انما أنزله عليهم بجزاء على كفرهم علم محمد صلى الله عليه وسلم أن الامر كذلك حينئذ يحصل به التسلي والفرح له عليه السلام * واحتج بعض الناس على القدح في علم الاحكام بأن قال المؤثر في هذه الاشياء اما الكواكب أو البروج أو كون الكوكب في البرج المعين والاول باطل والا لحصلت هذه الآثار أين حصل الكوكب والثاني أيضا باطل والا لزم دوام الاثر بدوام البرج والثالث أيضا باطل لان الدلائل على قولهم بسيط لا مركب فيكون طبع كل برج بسيطا والطبع البرج الآخر في تمام المقابلة فيكون حال الكوكب وهو في برجه كحاله وهو في برج آخر فيلزم أن يدوم ذلك الاثر بدوام الكوكب وللقوم أن يقولوا لم لا يجوز أن يكون صدور الاثر عن الكوكب المعين موقوفا على كونه مساميا مساميا مخصوصة الكوكب آخر فاذا افقدت تلك المسامية فقد شرط التأثير فلا يحصل التأثير ولهم أن يقولوا هذه الدلالة انما تدل على أنها ليست مؤثرة بحسب ذواتها وطبائعها ولكنها لا تدل على أنها ليست مؤثرة بحسب جري العادة اذا أجرى الله تعالى عادته بحصول تأثيرات مخصوصة عقيب اتصالات الكواكب وقرانا تها وأدوارها لم يلزم من حصول هذه الآثار القطع بأن الله تعالى انما خلقها لاجل زجر الكفار بل لعله تعالى خلقها تذكيرا لتلك العادات والله أعلم (القول) فيما ذكره الله تعالى من أحوال محمد عليه الصلاة والسلام * قوله تعالى * وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين وانه لفي زبر الاولين * اعلم أنه تعالى لما ختم ما اقتصه من خبر الانبياء ذكر بعد ذلك ما يدل على نبوته وهو من وجهين (الاول) قوله وانه لتنزيل رب العالمين وذلك لانه اقتصاصه معجز فيكون ذلك من رب العالمين أولانه اخبار عن القصص الماضية من غير تعلم البتة فلا يكون ذلك الا بوحي من الله تعالى وقوله بعده وانه لفي زبر الاولين كالمؤكد لهذا الاحتمال وذلك لانه عليه السلام لما ذكر هذه القصص السبع على ما هي موجودة في زبر الاولين من غير تفاوت أصلا مع انه لم يشتغل بالتعلم والاستعداد دل ذلك على أنه ليس الا من عند الله تعالى فهذا هو المقصود من الآية فأما قوله تعالى وانه

كفرت بأنعم الله تعالى ولا ريب في أن كلمة بينهم تحكم بأن المراد بالحكم هو فصل ما بين الفريقين من الاختلاف وأن توسيط حديث المسخ للانذار المذكور بين حكاية أمر النبي صلى الله عليه وسلم باتباع ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام وبين أمره صلى الله عليه وسلم بالدعوة اليها من قبيل الفصل بين الشجر وطائه فتأمل (ادع) أي من بعثت اليهم من الامة فالطلبة حذف المفعول للتعميم أو افعل الدعوة كما في قولهم يعطي ويمنع أي يفعل الاعطاء والمنع حذفه للقصد الى ايجاد نفس الفعل اشعارا بأن عموم الدعوة غني عن البيان وانما المقصود الامر بايجادها على وجه مخصوص (الى سبيل ربك) الى الاسلام الذي عبر عنه تارة بالصراط المستقيم وأخرى بملة ابراهيم عليه السلام وفي التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية وتبليغ الشئ الى كماله اللائق شيأ فشيأ مع اضافة الرب الى ضمير النبي عليه الصلاة والسلام في مقام الامر بدعوة الامة على الوجه الحكيم وتكميلهم بأحكام الشريعة من الدلالة على اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والاعلاء في وجه بناء الحكم ما لا يخفى (بالحكمة) أي بالمقالة المحكمة الصحيحة وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة (والموعظة الحسنة) أي الخطابات المقنعة والعبر النافعة على وجه

لا يخفى عليهم أنك تناصحهم وتقصد ما ينفعهم فالاولى لدعوة خواص الامة الطالبين للحقائق والثانية لدعوة عوامهم ويجوز أن يكون المراد بهما القرآن المجيد فانه جامع لكلا الوصفين (وجادلهم) أى ناظرهم عانديهم (بالتى هى أحسن) بالطريقة التى هى أحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين ٤٢٨ واختيار الوجه الايسر واستعمال المقدمات المشهورة تسكينا لشغبهم واطفاء لنائرة لجاجهم كما فعل الخليل عليه السلام (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) الذى أمرك بدعوة الخلق اليه وأعرض عن قبول الحق بعد ما عاين ما عاين من الحكم والمواعظ والعبر (وهو أعلم بالمهتدين) اليه بذلك وهو تعليل لما ذكر من الامرين والمعنى والله تعالى أعلم اسلك فى الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة فانه تعالى هو أعلم بحال من لا يرعوى عن الضلال بموجب استعداده المكتسب وبحال من يصير أمره الى الاهتداء لما فيه من خير جبلى فاشرعه لك فى الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة فانه كاف فى هداية المهتدين وازالة عذر الضالين أو ما عليك الا ما ذكر من الدعوة والمجادلة بالاحسن وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فالى الله سبحانه اذ هو أعلم بمن يبقى على الضلال وبمن يهتدى اليه فيجازى كلا منهما بما يستحقه وتقديم الضالين لما أن مساق الكلام لهم وايراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث لما أنه تغيير لفطرة الله التى فطر الناس عليها واعراض عن الدعوة وذلك أمر عارض بخلاف الاهتداء الذى هو عبارة عن الثبات على الفطرة والجريان على موجب الدعوة ولذلك جىء به على صيغة الاسم المنبئ عن الثبات وتكرير هو أعلم للتأكيد والاشعار بتباين حال المعلومين وما لهما من

لتنزيل رب العالمين فالمراد بالتنزيل المنزل ثم قد كان يجوز فى القرآن وهذه القصص أن يكون تنزيلا من الله تعالى الى محمد صلى الله عليه وسلم بلا واسطة فقال نزل به الروح الامين والباء فى قوله نزل به الروح ونزل به الروح على القراءتين للتعدية ومعنى نزل به الروح جعل الله الروح نازلا به على قلبك أى فهمك اياه وأثبته فى قلبك اثبات ما لا ينسى كقوله تعالى سنقرئك فلا تنسى والروح الامين جبريل عليه السلام وسماه روحا من حيث خلق من الروح وقيل لانه نجاة الخلق فى باب الدين فهو كالروح الذى تثبت معه الحياة وقيل لانه روح كله لا كالناس الذين فى أبدانهم روح وسماه أمينا لانه مؤتمن على ما يؤديه الى الانبياء عليهم السلام والى غيرهم وأما قوله على قلبك فقيه قولان (الاول) انه اغا قال على قلبك وان كان اغا أنزله عليه ليؤكد به أن ذلك المنزل محفوظ للرسول متمكن فى قلبه لا يجوز عليه التغير فيوثق بالانذار لواقع منه الذى بين الله تعالى أنه هو المقصود ولذلك قال لتكون من المنذرين (الثانى) أن القلب هو المخاطب فى الحقيقة لانه موضع التمييز والاختيار وأما سائر الاعضاء فمسخرة له والدليل عليه القرآن والحديث والمعقول (أما القرآن) فآيات (احداها) قوله تعالى فى سورة البقرة فانه نزله على قلبك وقال ههنا نزل به الروح الامين على قلبك وقال ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب (وثانيها) أنه ذكر أن استحقاق الجزاء ليس الا على ما فى القلب من المساعى فقال لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم وقال ان ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم والتقوى فى القلب لانه تعالى قال أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى وقال تعالى وحصل ما فى الصدور (وثالثها) قوله حكاية عن أهل النار لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ومعلوم أن العقل فى القلب والسمع منفذ اليه وقال ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا ومعلوم أن السمع والبصر لا يستفاد منهما الا ما يؤدى بانه الى القلب فكان السؤال عنهما فى الحقيقة سؤالا عن القلب وقال تعالى يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ولم تخف الاعين الا بما تضمر القلوب عند التحديق بها (ورابعها) قوله وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون خص هذه الثلاثة بالزام الحجة منها واستدعاء الشكر عليها وقد قلنا الدلائل فى السمع والابصار الا بما يؤدى بان الى القلب ليكون القلب هو القاضى فيه والمتحكم عليه قال تعالى ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ فجعل هذه الثلاثة تمام ما ألزمهم من حجته والمقصود من ذلك هو الفؤاد القاضى فيما يؤدى اليه السمع والبصر (وخامسها) قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فجعل العذاب لازما على هذه الثلاثة وقال لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها وجه الدلالة أنه قصد الى نفى العلم عنهم أولا فلو ثبت العلم فى غير القلب كما بانه فى القلب لم يتم الغرض فهذه الآيات وما شاكلها ناطقة بأن القلب هو المقصود بالزام الحجة وقد بينا أن ما قرن بذكره من ذكر السمع والبصر فذلك لانهما آلتان للقلب فى تأدية صور المحسوسات والمسموعات (وأما الحديث) فما روى النعمان بن بشير قال سمعته عليه السلام يقول الا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب (وأما المعقول) فوجوه (أحدها) أن القلب اذا غشى عليه فلو قطع سائر الاعضاء لم يحصل الشعور به واذا أفاق القلب فانه يشعر بجميع ما يتزل بالاعضاء من الآفات فدل ذلك على أن سائر الاعضاء تبع للقلب ولذلك فان القلب اذا فرح أو حزن فانه يتغير حال الاعضاء عند ذلك وكذا القول فى سائر الاعراض النفسانية (وثانيها) أن القلب منبع المشاق الباعثة على الافعال الصادرة من سائر الاعضاء واذا كانت المشاق مبادى للافعال

العقاب والثواب وبعد ما أمره عليه الصلاة والسلام فيما يختص به من شأن الدعوة بما أمره به من الوجه اللائق عقبه بخطاب شامل لهم ولمن شايعه فيما يعم الكل فقال (وإن عاقبتم) أي إن أردتم المعاقبة على طريقة قول الطبيب للمتمي إن أكلت فكل قليلا (فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) أي بمثل ما فعل بكم وقد عبر عنه بالعقاب على طريقة اطلاق اسم المسبب ٤٢٧ على السبب نحو كاتدين تدان أو على نهج المشاكلة والمقصود ايجاب مراعاة العدل مع من يناصبهم من غير تجاوز حين ما آل الجدال الى القتال وأدى النزاع الى القراع فان الدعوة المأمور بها لا تكاد تنفك عن ذلك كيف لا وهي موجبة لصرف الوجوه عن القبلة المعبودة وادخال الاعناق في قلادة غير معهودة ناهضة عليهم بفساد ما يأتون ويذرون وبطلان دين استمرت عليهم آباؤهم الاولون وقد ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وسدت عليهم طرق المحاجة والمناظرة وأرتجت دونهم أبواب المباحثة والمحاورة وقيل انه عليه الصلاة والسلام لما رأى حمزة رضي الله عنه يوم أحد قد مثل به قال لئن أظفرني الله بهم لامثلن بسبعين مكانك فنزلت فكفر عن يمينه وكف عما أراده وقيل وإن عاقبتم فعاقبوا أي وإن قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم غير متجاوزين عنه والامر وإن دل على اباحة المماثلة في المثلة من غير تجاوز لكن

وصنيعها هو القلب كما أن الامر المطلق هو القلب (وثالثها) أن معدن العقل هو القلب واذا كان كذلك كان الامر المطلق هو القلب (أما المقدمة الاولى) ففيها النزاع فان طائفة من القدماء ذهبوا الى أن معدن العقل هو الدماغ والذي يدل على قولنا وجوه (الاول) قوله تعالى أولم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وقوله لهم قلوب لا يفقهون بها وقوله ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أي عقل أطلق عليه اسم القلب لما أنه معدنه (الثاني) أنه تعالى أضاف أضداد العلم الى القلب وقال في قلوبهم مرض ختم الله على قلوبهم وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم كلا بل ران على قلوبهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها فالمحافظة الاقصى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور فدلت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفلة هو القلب فوجب أن يكون موضع العقل والفهم أيضا هو القلب (الثالث) وهو أنا اذا جربنا أنفسنا وجدنا علومنا حاصلة في ناحية القلب ولذلك فان الواحد منا اذا أمعن في الفكر واكثر منه أحس من قلبه ضيقا وضجرا حتى كأنه يتألم لذلك وكل ذلك يدل على أن موضع العقل هو القلب واذا ثبت ذلك وجب أن يكون المكلف هو القلب لان التكليف مشروط بالعقل والفهم (الرابع) وهو أن القلب أول الاعضاء تكونا وآخرها موتا وقد ثبت ذلك بالتشريح ولانه ممكن في الصدر الذي هو أوسط الجسد ومن شأن الملك المحتاج الى الخدم أن يكون في وسط المملكة لتكتنفهم الحواشي من الجوانب فيكونوا أعدى من الآفات واحتج من قال العقل في الدماغ بأمور (أحدها) أن الحواس التي هي الآلات للادراك تأخذ فالى الدماغ دون القلب (وثانيها) أن الاعصاب التي هي الآلات في الحركات الاختيارية تأخذ منه الى الدماغ دون القلب (وثالثها) ان الآفة اذا حلت في الدماغ اختل العقل (ورابعها) ان في العرف كل من أريد صفه بقلة العقل قيل انه خفيف الدماغ خفيف الرأس (وخامسها) أن العقل أشرف فيكون مكانه أشرف الاعلى هو الاشرف وذلك هو الدماغ لا القلب فوجب أن يكون محل العقل هو الدماغ (والجواب عن الاول) لم لا يجوز أن يقال الحواس تؤدي آثارها الى الدماغ ثم ان الدماغ يؤدي تلك الآثار الى القلب فالدماغ آلة قريبة للقلب والحواس آلات بعيدة فالحس يخدم الدماغ ثم الدماغ يخدم القلب وتحقيقه ما ندل عليه نفسنا اذا ذاقنا علمنا أن الامر الفلاني يجب فعله أو يجب تركه فان الاعضاء تتحرك عند ذلك ونحن نجد أن حركات من جانب القلب لا من جانب الدماغ (وعن الثاني) انه لا يبعد أن يتأدى الاثر من القلب الى الدماغ ثم الدماغ يحرك الاعضاء بواسطة الاعصاب التي تتبعه (وعن الثالث) لا يبعد أن يكون سلامة الدماغ شرطا لوصول تأثير القلب الى سائر الاعضاء (وعن الرابع) ان ذلك العرف انما كان لان القلب انما يعتدي اليه بما يستمده من الدماغ من برودته فاذا لحق الدماغ خروج عن الاعتدال خرج القلب عن الاعتدال أيضا لما بين زيادة حرارته عن القدر الواجب أو نقصانها عن ذلك القدر فحينئذ يختل العقل (وعن الخامس) أنه لو صح ما قالوه لوجب أن يكون موضع العقل هو القحف ولما بطل ذلك ثبت فساد قولهم والله أعلم بالشرع (اعلم أن المعاني التي بينا كونها مختصة بالقلوب قد تضاف الى الصدور تارة والى الفؤاد أخرى أما اضافتها الى الصدور فقوله تعالى وحصل ما في الصدور وقوله وليبتلي الله ما في صدوركم وقوله تعالى انه عليم بذات الصدور وان تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه وأما الفؤاد فقوله ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ومن الناس من فرق بين القلب والفؤاد فقال القلب هو العلقة السوداء في جوف الفؤاد دون ما يكتنفها من اللحم والشحم ومجموع ذلك هو الفؤاد ومنهم من قال القلب والفؤاد لفظان مترادفان وكيف كان فيجب أن يعلم أن

في تقييده بقوله وان عاقبتم حث على العفو تعريضا وقد صرح به على الوجه الاكد فقيل (ولئن صبرتم) أي عن المعاقبة بالمثل (لهو) أي الصبر كما ذكر (خير) لكم من الانتصار بالمعاقبة وانما قيل (للصابرين) مدحا لهم وثناء عليهم بالصبر أو وصفا لهم بصفة تحسل لهم عند ترك المعاقبة ويجوز عود الضمير الى مطلق الصبر المدلول عليه بالفعل فيدخل فيه صبرهم كدخول أنفسهم في جنس الصابرين دخولا

أولياءه أمر عليه الصلاة والسلام صبر يحاءب اليه غيره تعريضا من الصبر لانه أولى الناس بعزائم الامور لزيادة علمه بشؤنه سبحانه ووفور وثوقه به فقيل (واصبر) أي على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والاذية وعاينت من اعراضهم عن الحق بالكلية (وما صبرك الا بالله) استئناف مفرغ ٤٢٨ من أعم الاشياء أي وما صبرك ملابسا ومحفوفا بشيء من الاشياء الا بالله أي بذكره والاستغراق في مراقبة شؤنه والتبتل اليه بجامع الهمة وفيه من تسليته عليه الصلاة والسلام وتهوين مشاق الصبر عليه وتشريفه مالا مزيد عليه أو لا بمشيئته المبنية على حكم بالغة مستتبعة لعواقب حميدة فالتسلية من حيث اشتماله على غايات جليلة وقيل الا بتوفيقه ومعونته فهي من حيث تسهيله وتيسيره فقط (ولا تحزن عليهم) أي على الكافرين بوقوع اليأس من اعانهم بك ومتابعتهم لك نحو فلا تأس على القوم الكافرين وقيل على المؤمنين وما قيل بهم والاول هو الانسب بحز الله النظم الكريم (ولا تك في ضيق) بالفتح وقرئ بالكسر وهما لغتان كالقول والقيل أي لا تكن في ضيق صدر وحرج ويجوز أن يكون الاول تخفيف ضيق كهين ومين أي في أمر ضيق (مما يمكرون) أي من مكرهم بك فيما يستقبل فالاول نهي عن التألم بمطلوب من قبلهم فات والثاني عن التألم بمحذور من جهتهم آت والنهي عنهم مع أن انتفاءهما من لوازم الصبر المأمور به لا سيما على الوجه الاول لزيادة التأكيد والاظهار أو كمال العناية بشأن التسلية والاقول يخاطب بمثل هذا من توجه الى الله سبحانه وتعالى بشراشر نفسه منتزها عن كل ما سواه من الشواغل شيئ من مطلوب فينهى عن الحزن بمفوات أو محذور فيكف عن الخوف من وقوعه (ان الله مع الذين اتقوا) تعليل لما سبق من الامر والنهي والمراد بالمعية

من جملة العضو المسمى قلبا وفؤادا موضعا وما لموضع في الحقيقة للعقل والاختيار وان صح عظم حرم هذا العضو مسخر لذلك الموضع كما ان سائر الاعضاء مسخرة للقلب فان العضو قد تزيد أجزاؤه ومن غير زيادة المعاني المنسوبة اليه أعني العقل والفرح والحزن وقد ينقص من غير نقصان في تلك المعاني فيشبه أن يكون اسم القلب اسما للاجزاء التي تحل فيها هذه المعاني بالحقيقة واسم الفؤاد يكون اسما لمجموع العضو فهذا هو الكلام في هذا الباب والله الموفق للصواب * وأما قوله تعالى لتكون من المنذرين فيدخل تحت الانذار الدعاء الى كل واجب من علم وعمل والمنع من كل قبيح لان في الوجهين جميعا يدخل الخوف من العقاب وأما قوله تعالى بلسان عربي مبين فالباء اما أن تتعلق بالمنذرين فيكون المعنى لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة هود وصالح وشعيب واسمعيل ومحمد عليهم السلام واما أن تتعلق بنزل فيكون المعنى نزله بالسان العربي لتنذر به لانه لو نزله بالسان الاعجمي لقالوا لا نفهمه فلا ينتفعون بالانذار به وفي هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قابل لانك تفهمه ويفهمه قومك ولو كان أعجميا لكان نازلا على سمعك دون قلبك لانك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها وأما قوله تعالى وانه لفي زبر الاولين فيحتمل هذه الاخبار خاصة ويحتمل أن يكون المراد صفة القرآن ويحتمل صفة محمد صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يكون المراد وجوه التخويف لان ذكر هذه الاشياء بأسرها قد تقدم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل﴾ ولو نزلناه على بعض الاعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم فيأتيه بغتة وهم لا يشعرون ﴾ اعلم أن قوله تعالى أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل المراد منه ذكر آية من الآيات الدالة على نبوته عليه السلام وصدقه وتقريره ان جماعة من علماء بني اسرائيل أسلموا ونصوا على الباب في التوراة والانجيل ذكر فيهما الرسول عليه الصلاة والسلام بصفته ونعته وقد كان مشركو قريش يلتمسون الى اليهود ويتعرفون منهم هذا الخبر وهذا يدل دلالة ظاهرة على نبوته لان تطابق الكتب الالهية على الوجه الذي ورد به يتعرفون منهم هذا الخبر وهذا يدل دلالة ظاهرة على نبوته لان تطابق الكتب الالهية على الوجه الذي ورد به يدل قطعا على نبوته واعلم أنه قرئ يكن بالتذكير وآية بالنصب على انها خبره وأن يعلمه وفي رواية أخرى تكن بالتأنيث وجعلت آية اسما وأن يعلمه خبرا وليست كالاولى لوقوع النكرة اسما والمعلمة خبرا ويجوز مع نصب الآية تأنيث يكن كقوله لم تكن فتنتهم الا أن قالوا وأما قوله ولو نزلناه على بعض الاعجمين فاعلم أنه تعالى لما بين بالدلائل المذكورين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق أعجمه عاند ذلك أن هؤلاء الكفار لا تنفعهم الدلائل ولا البراهين فقال ولو نزلناه على بعض الاعجمين يعني الذي لا يقدر على القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته وانه معجز لا يعارض لما راقب شيء مثله والمعنى الى ذلك اشارة كتب الله السالفة فلم يؤمنوا به وجحدوه وسموه شعرا تارة وسحرا مرى فلو نزلناه على بعض الاعجمين الذي لا يحسن العربية لكفروا به أيضا ولجحدوا بالمعجزة وهم عذراهم على ذلك كذلك سلكناه في قلوب المجرمين أي مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم وهكذا مكناه وقررناه فيها ويفعل فعلا بهم فلا سبيل الى أن يتغير واعلم أنهم عليه من الجحود والانكار وهذا أيضا مما يفيد تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم لانه اذا عرف رسول الله اصرارهم على الكفر وانه قد جرى القضاء الازلي بذلك حصل اليأس وفي المثل اليأس احدى الراحتين (المسئلة الرابعة) قوله كذلك سلكناه في قلوب المجرمين يدل على ان الكل بقضاء الله وخلقه قال صاحب الكشاف أراد به انه صار ذلك التكذيب متمكنا في قلوبهم أشد التمكن فصار ذلك كالشيء الجبلي والجواب انا اما أن يكون قد فعل الله فيهم ما يقتضي رسوخ التكذيب على التصديق

بالمعية الولاية الدائمة التي لا تحوم حول صاحبها شائبة شيء من الجزع والحزن وضيق الصدر وما يشعر به دخول كل منهم من متبوعية المتقين اما هي من حيث انهم المباشرون للتقوى وكذا الحال في قوله سبحانه ان الله مع الصابرين ونظائره ما كافة والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منه الجامعة لما تحتها من مرتبة التوقي عن الشرك ومرتبة التجنب ٤٢٩ عن كل ما يؤثم من فعل وترك أعني التنزه

أو ما فعل ذلك فيهم لما ان كان الاول فقد دل لنا في سورة الانعام على ان الترجيح لا يتحقق ما لم يتعالى حد الوجوب وحينئذ يحصل المقصود فان لم يفعل فيهم ما يقتضي الترجيح البتة امتنع قوله كذلك سلكناه كما كان طيران الطائر لما لم يكن له تعلق بكفرهم امتنع اسناد انكفر الى ذلك الطيران ﴿المسئلة الخامسة﴾ قال صاحب الكشاف فان قلت ما موقع لا يؤمنون به من قوله سلكناه في قلوب المجرمين قلت موقعه منه موقع الموضح والمبين لانه مسوق لبيانه مؤكد للجحود في قلوبهم فانبع ما قررهذا المعنى من انهم لا يزالون على التكذيب به حتى يعاينوا الوعيد ﴿قوله تعالى﴾ ﴿فيقولوا هل نحن منظرون أفبعذابنا يستعجلون أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين﴾ اعلم أنه تعالى لما بين انهم لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم وانه يأتيهم العذاب بغتة أتبعه بما يكون منهم عند ذلك على وجه المسرة فقال فيقولوا هل نحن منظرون كما يستحب المرء عند تعذر الخلاص لانهم يعلمون في الآخرة أن لا محيد لهم يدل كرون ذلك استرواحا فاما قوله تعالى أفبعذابنا يستعجلون فالمراد انه تعالى بين انهم كانوا في الدنيا يستعجلون العذاب مع ان حالهم عند نزول العذاب طالب النظرة لمعرف تفاوت الطريقين فيعتبر به ثم بين تعالى ان استعجال العذاب على وجه التكذيب انما يقع منهم ليتمتعوا في الدنيا الا ان ذلك لا يطول وذلك لان مدة التمتع في الدنيا متناهية قليلة ومدة العذاب الذي يحصل بعد ذلك غير متناهية وليس في العقل ترجيح لذات متناهية قليلة على آلام قسم متناهية وعن ميمون بن مهران انه لقي الحسن في الطواف فقال له عظني فلم يزد على تلاوة هذه الآية متعقل ميمون لقد وعظت فبالغت وقرئ يتعنون بالتخفيف ثم بين انه لم يهلك قرية الا وهناك نذر يقيم عليهم بفعل أما قوله تعالى ذكرى ففال صاحب الكشاف ذكرى مصدر بمعنى تذكرنا ما الان أنذروا ذكر آزروما ان فمكانه قيل مذكرون تذكرة واما انها حال من الضمير في منذرون أي ينذرونهم ذوي تذكرة لما ينذرونهم فعلى هذا يكون قوله على معنى انهم ينذرون لاجل الموعظة والتذكرة أو مرفوعة على انها خبر مبتدا محذوف بمعنى هذه ذكرى والجملة اعتراضية أو صفة بمعنى منذرون ذكرى وجملوا ذكرى لانها نهي في الله تعالى اليرة واطنابهم فيها وجوه آخرها وأن يكون ذكرى متعلقة بما هلكنا فعلى الاول والثاني وما أهلكنا من قرية الا بعد ما أزاحت عللها بارسال المنذرين اليهم ليكون اهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم وما كنا ظالمين الا بعد ما أزحنا عللهم والبراهين وأمهلنا عصياتهم وما كنا ظالمين فنهلك قوما غير ظالمين وهذا أوجه عليه المعول فان قلت كيف عطف عليه وما أهلكنا أو عن الجملة بعد الاولم تعزل عنها في قوله وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم قلت الاصل ان تعزل عن الجملة صفة لقرية واذا زيدت ذلك وصل الصفة بالموصوف ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون انهم عن السمع لمعزولون فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين﴾ اعلم انه تعالى لما احتج على صدق محمد صلى الله عليه وسلم بكون القرآن تنزيل رب العالمين وانما يعرف ذلك لو قوعه من الفصاحة في النهاية القصوى ولانه مشتمل على قصص المتقدمين من غير تفاوت مع أنه عليه السلام لم يشتغل بالتعلم والاستفادة فكان الكفار يقولون لم لا يجوز أن يكون هذا من القاء الجن والشياطين كما نزل على الكهنة فأجاب الله تعالى عنه بان ذلك لا يسهل للشياطين لانهم مرجومون بالشهب معزولون عن استماع كلام أهل السماء والقائل أن يقول العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لا يحصل الا بواسطة خبر النبي الصادق فاذا أثبتنا كون محمد صلى الله عليه وسلم صادقا بفصاحة القرآن واخباره عن الغيب ولا يمكن اثبات كون الفصاحة والاخبار عن الغيب معجزا الا اذا ثبت

عن كل ما يشغل سره عن الحق والتبتل اليه بشراشر نفسه وهو التقوى الحقيقي الموروث لولايته تعالى المضروبة بشارة قوله سبحانه ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون والمعنى ان الله ولي الذين تبتلوا اليه بالكلية وتنزهوا عن كل ما يشغل سرهم عنه فلم يخطر ببالهم شيء من مطلوب أو محذور فضلا عن الحزن بفواته أو الخوف من وقوعه وهو المعنى بما به الصبر المأمور به حسبما أشير اليه به يحصل التقريب وتم التعليل كما في قوله تعالى فاصبروا ان العاقبة للمتقين على أحد التفسيرين كما حقق في مقامه والافحرد التوقي عن المعاصي لا يكون مدارا لشيء من الغرائم المرخص في تركها فكيف بالصبر المشار اليه وقد فيه وانما مداره المعنى المذكور فكانه قيل ان الله مع الذين صبروا وانما أوثر ما عليه النظم الكريم مبالغة في الحث على الصبر بالتنبيه على أنه من خصائص

أجل النعوت الجليلة ورواذعه كما أن قوله تعالى (والذين هم محسنون) للاشعار بأن من باب الاحسان الذي يتفاوت فيه المتفاوتون على ما فصل ذلك حيث قيل واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين وقد نبه على أن كلا من الصبر والتقوى من قبيل الاحسان في قوله تعالى انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين وحقيقة الاحسان الاتيان بالاعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي

المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وتكرير الموصول للايذان بكفاية كل من الصلتين فى ولايته سبحانه من غير أن تكون احداهما تتمة للاخرى وايراد الاولى فعلية للدلالة على الحدوث كما أن ايراد الثانية اسمية لافادة كون مضمونها

كون الشياطين ممنوعين عن ذلك لزم الدور وهو باطل وجوابه لانسلم ان العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لايستفاد الا من قول النبى وذلك لانا نعلم بالضرورة ان الاهتمام بشأن الصديق أقوى من الاهتمام بشأن العدو ونعلم بالضرورة ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان يلعن الشياطين ويأمر الناس بلعنهم فلو كان هذا الغيب انما حصل من القاء الشياطين لكان الكفار أولى بأن يحصل لهم مثل هذا العلم فكان يجب أن يكون اقتدار الكفار على مثله أولى فلما لم يكن كذلك علمنا أن الشياطين ممنوعون عن ذلك وأنهم معزولون عن تعريف الغيوب ثم انه تعالى لما ذكر هذا الجواب ابتدأ بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال فلا تدع مع الله الها آخر وذلك فى الحقيقة خطاب لغيره لان من شأن الحكيم اذا أراد أن يؤكد خطاب الغير أن يوجهه الى الرؤساء فى الظاهر وان كان المقصود بذلك هم الاتباع ولانه تعالى أراد أن يتبعه ما يليق بذلك فلهذه العلة أفرده بالمخاطبة ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين انه هو السميع العليم﴾ اعلم أنه سبحانه لما بالغ فى تسلية رسوله أولا ثم أقام الحجة على نبوته ثانيا ثم أورد سؤال المنكرين وأجاب عنه ثالثا أمره بعد ذلك بما يتعلق بباب التبليغ والرسالة وهو هنا أمور ثلاثة (الاول) قوله وأنذر عشيرتك الاقربين وذلك لانه تعالى بدأ بالرسول فتوعده ان دعا مع الله الها آخر ثم أمره بدعوة الاقرب فالاقرب وذلك لانه اذا تشدد على نفسه أولا ثم بالاقرب فالاقرب ثانيا لم يكن لاحد فيه طعن البتة وكان قوله أنفع وكلامه أنجع وروى أنه لما نزلت هذه الآية صعد الصفا فنادى الاقرب فالاقرب وقال يا بنى عبد المطلب يا بنى هاشم يا بنى عبد مناف يا بنى عبس عم محمد باصفية عمة محمد انى لا أملك لكم من الله شيأ سلونى من المال ما شئتم وروى أنه جمع بنى عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلا على رجل شاة وقعب من لبن وكان الرجل منهم يأكل الجذعة ويشرب الفرق فأكلوا وشربوا ثم قال يا بنى عبد المطلب لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدقى قالوا نعم قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد (الثانى) قوله واخفض جناحك وأعلم أن الطائر اذا أراد أن يحط للوقوع كسر جناحه وخفضه واذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه بازاء الانحطاط هضلا فى التواضع ولين الجانب فان قيل المتبعون للرسول هم المؤمنون وبالعكس فلم قال لمن اتبعك من المؤمنين جوابه لانسلم أن المتبعين للرسول هم المؤمنون فان كثيرا منهم كانوا يتبعونه للقرابة لا لأجل الدين فما قوله فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون فمعناه ظاهر قال الجبائى هذا يدل على أنه لم يكن من المعاصى يأتيه السلام كان بريئا من معاصيهم وذلك يوجب أن الله تعالى أيضا برىء من عملهم كالرسول والا كان ذلك اغراء لله كما لو رضى عمن سخط الله عليه لكان كذلك رادا كان تعالى برىء من عملهم فكيف يكون قبوله ومريدا له الجواب أنه تعالى برىء من المعاصى بمعنى انه ما أمر بها بل نهى عنها فلما بمعنى أنه لا يريدها لانسلم والدليل عليه أنه علم وقوعها وعلم أن ما هو معلوم الوقوع فهو واجب الوقوع والا انقلب علمه جهلا وهو محال والمفضى الى المحال محال وعلم أن ما هو واجب الوقوع فانه لا يراد عدم وقوعه فثبت بما قلناه (والثالث) قوله وتوكل والتوكل عبارة عن تفويض الرجل أمره الى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره وقوله على العزيز الرحيم أى على الذى يقهر أعداءه بعزته وينصرك عليهم برحمته ثم أتبع كونه رحيما على رسوله ما هو كالسبب لتلك الرحمة وهو قيامه وتقلبه فى الساجدين وفيه وجوه (أحدها) المراد ما كان يفعله فى جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه فى تصفح أحوال المتهجدين ليطلع على أسرارهم

بالموصولين اما جنس المتقين والمحسنين وهو عليه الصلاة والسلام داخل فى زمرتهم دخولا أوليا واما هو عليه الصلاة والسلام ومن شايعه عبر عنهم بذلك مدحا لهم وثناء عليهم بالنعتين الجليلين وفيه رمز الى أن متبعيه عليه الصلاة والسلام مستتبع لاقتداء الامة به كقول من قال لابن عباس رضى الله عنهما عند التعزية اصبر نكن بك صابرين فانما صبر الرعية عند صبر الراس

عن هرم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار أوصى قال انما الوصية من المال وأوصيكم بخواتيم سورة النحل * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما أنعم عليه فى دار الدنيا وان مات فى يوم تلاها أو ليلته كان له من الاجر كالذى مات وأحسن الوصية والحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله أجمعين

﴿سورة بنى اسرائيل مائة واحدى عشرة آية مكية الا آيات فى آخرها﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(سبحان الذى أسرى بعبده) سبحان علم للتسبيح كعثمان للرجل وحيث كان المسمى معنى لاعينا وجنسا لا شخصا لم تكن اضافته من قبيل هاقى زيد المعارك أو حاتم طيئ وانتصابه بفعل متروك الاظهار تقديره أسبح الله سبحان الله وفيه ما يخفى من الدلالة على التنزيه والتبليغ

من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والابعاد فى الارض ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى ومن جهة النقل الى التفعيل ومن جهة العدول من المصدر الى الاسم الموضوع له خاصة لا سيما وهو علم يشير الى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة قيامه مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كالغفران بمعنى التنزه ففيه مبالغة من حيث اضافة التنزه الى ذاته ٤٣ المقدسة ومناسبة تامة بين المحذوف وبين ما عطف عليه فى قوله تعالى سبحانه وتعالى كأنه قيل تنزه بذاته وتعالى والاسراء السير بالليل خاصة كالسرى وقوله تعالى (ليلا) لافادة قلة زمان الاسراء لمافيه من التنكير الدال على البعضية من حيث الاجزاء دلالته على البعضية من حيث الافراد فان قولك سرت ليلا كما يفيد بعضية زمان سيرك من الليالى يفيد بعضيته من فرد واحد منها بخلاف ما اذا قلت سرت الليل فانه يفيد استيعاب السير له جميعا فيكون معيارا للسير لا ظرفا له ويؤيده قراءة من الليل أى ببعضه وابتاء لفظ العبد للايذان بتحمله عليه الصلاة والسلام فى عبادته سبحانه وسلوكه فى ذلك غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات القاصية حسبما يلوح به مبدأ الاسراء ومنتهاه واضافة التنزيه أو التنزه الى الموصول المذكور للاشعار بعلية ما فى حيز الصلة للاضافة فان ذلك من أدلة كمال قدرته وبالغ حكمته

كما يحكى أنه حين نبع فرض قيام الليل طاف تلك الليلة بيموت أصحابه لينظر ما يصنعون فمر به على ما يوجد منهم من الطاعات فوجدها كبيوت الزنابير مما يسمع منها من دندنتهم بذكر الله تعالى والمراد بالساجدين المصلين (وثانيها) المعنى يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة وتقلبك فى الساجدين تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده اذ كان امامالهم (وثالثها) انه لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين فى كفاية أمور الدين (ورابعها) المراد تقلب بصره فيمن يصلى خلفه من قوله صلى الله عليه وسلم أتموا الركوع والسجود فوالله انى لأراكم من خلفى ثم قال انه هو السميع أى لما تقوله العالم أى بما تنويه وتعمله وهذا يدل على أن كونه سميعا أمر مغاير لعلمه بالمسموعات والا لكان لفظ العليم مفيدا فائدته واعلم أنه قرئ وتقليبك واعلم أن الرافضة ذهبوا الى أن آباء النبى صلى الله عليه وسلم كانوا مومنين وتمسكوا فى ذلك بهذه الآية وبالخبر أما هذه الآية فقالوا قوله تعالى وتقلبك فى الساجدين يحتمل الوجوه التى ذكرتم ويحتمل أن يكون المراد أن الله تعالى ينقل روحه من ساجد الى ساجد كما ينقله نحن واذا احتمل كل هذه الوجوه وجب حمل الآية على الكل ضرورة انه لا منافاة ولا رجحان وأما الخبر فقول عليه السلام لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين الى أرحام الطاهرات وكل من كان كافرا فهو نجس لقوله تعالى انما المشركون نجس قالوا فان عساكتم على فساد هذا المذهب بقوله تعالى واذ قال ابراهيم لابيه آزر قلنا الجواب عنه ان لفظ الاب قد يطلق على العم كما قال أبناء يعقوب له نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق فسموا اسمعيل أباله مع انه كان عمه وقال عليه السلام ردوا على أبى يعنى العباس ويحتمل أيضا ان يكون متخذ الاصنام أبا لأمة من هذا قد يقال له الاب قال تعالى ومن ذريته داود وسليمان الى قوله وعيسى فجعل عيسى من ذرية ابراهيم مع أن ابراهيم كان جده من قبل الام ﴿واعلم أنا انما تمسكنا بقوله تعالى لابيه آزر وما ذكره مصرف للفظ عن ظاهره وأما حمل قوله وتقلبك فى الساجدين على جميع الوجوه فغير جائز لما بينا أن حمل المشترك على كل معانيه غير جائز وأما الحديث فهو خبر واحد فلا يعارض القرآن ﴿قوله تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) اعلم أن الله تعالى أعاد الشبهة المتقدمة وأجاب عنها من وجهين (الاول) قوله تنزل على كل أفاك أثيم وذلك هو الذى قررناه فيما تقدم ان الكفار يدعون الى طاعة الشيطان ومحمد عليه السلام كان يدعو الى الله تعالى لعن الشيطان والبراءة عنه (والثانى) قوله يلقون السمع وأكثرهم كاذبون والمراد انهم كانوا يقيسون حال النبى صلى الله عليه وسلم على حال سائر الكهنة فكأنه قيل لهم أن كان الامر على ما ذكرتم فكما أن الغالب على سائر الكهنة الكذب فيجب أن يكون حال الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك اذ لما لم يظهر فى اخباره الرسول صلى الله عليه وسلم عن المغيبات الا الصدق علمنا أن حاله بخلاف حال الكهنة ﴿اعلم المفسرين ذكروا فى الآية وجوها (أحدها) انهم الشياطين روى انهم كانوا قبل أن حجبوا بالرجم يسمعون الى الملا الاعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما طالعوا عليه من الغيوب ثم يوحون به الى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحى به اليهم لانهم يسمعونهم مالم يسمعوا (وثانيها) يلقون الى أوليائهم السمع أى المسموع من الملائكة (وثالثها) الافاكون يلقون السمع الى الشياطين فيلقون وحيهم اليهم (ورابعها) يلقون المسموع من الشياطين الى الناس وأكثر الافاكين كاذبون يفترون على الشياطين مالم يوحوا اليهم فان قلت يلقون ما محله قلت يجوز أن يكون فى محل النصب على الحال أى تنزل ملقين السمع وفى محل الجر صفة لكل أفاك لانه فى معنى الجمع وأن لا يكون له محل بأن يستأنف كأن قائلا قال لم تنزل على الافاكين فقيل

ونهاية تنزه عن صفات المخلوقين (من المسجد الحرام) اختلف فى مبدأ الاسراء فقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر فانه روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ أتانى جبريل عليه الصلاة والسلام بالبراق وقيل هو دار أم هانئ بنت أبى طالب والمراد بالمسجد الحرام الحرم لاحاطته بالمسجد والتباسه به أولان الحرم كله مسجد فانه روى عن ابن

عباس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام كان نائما في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فكان ما كان فقصه عليهم فلما قام ليخرج إلى المسجد تشبثت به عليه الصلاة والسلام لئلا يفضحه بين القوم قال عليه الصلاة والسلام وان كذبوني فلما خرج جلس اليه أبو جهل فأخبره صلى الله عليه وسلم بحديث الاسراء فقال أبو جهل يا معشر كعب بن لؤي بن غالب هلم فحدثهم فمن مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وانكارا وارتد ناس ممن كان آمن به وسعى رجال الى أبي بكر فقال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا أتصدقه على ذلك قال اني أصدقه على أبعد من ذلك فسمي الصديق وكان قيهم من يعرف بيت المقدس فأستنعتوه المسجد فجلي له بيت المقدس فطفق ينظر اليه وينعته لهم فقالوا أما النعت فقد أصاب فقالوا أخبرنا عن عيرنا فأخبرهم ببعدد جمالها وأحوالها وقال تقدمها يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق فجاءوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم هذه والله الشمس قد أشرقت فقال آخر هذه والله العير قد اقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ثم لم يؤمنوا فاتاهم الله أني يؤفكون * واختلف في وقته أيضا فقيل كان قبل الهجرة بسنة وعن أنس والحسن انه كان قبل البعثة واختلف أيضا أنه في اليقظة أو في المنام فعن الحسن أنه كان في المنام وأكثر الاقاويل بخلافه والحق أنه كان في المنام قبل البعثة وفي اليقظة بعدها واختلف أيضا انه كان بجسمانيته أو روحانيته فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه وعن معاوية أنه قال انما عرج بروحه والحق أن جسمانيته ثابتة على ما ينبئ عنه ظاهر النظم الكريم وما في ضمنه من التعجب فان الروحاني ليس في الامة بعاد

يفعلون كيت وكيت فان قلت كيف قال وأكثرهم كاذبون بعد ما قضى عليهم ان كل واحد منهم أفاك قلت الآفاكون هم الذين يكثرون الكذب لانهم الذين لا يتطقون الا بالكذب فأراد أن هؤلاء الافاكين قل من يصدق منهم ثم ما يحكى عن الجن وأكثرهم يفترى عليهم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ اعلم أن الكفار لما قالوا لم لا يجوز أن يقال ان الشياطين تنزل بالقرآن على محمد كما أنهم ينزلون بالكهانة على الكهنة وبالشعر على الشعراء ثم انه سبحانه فرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين الكهنة فذكر هناك ما يدل على الفرق بينه عليه السلام وبين الشعراء وذلك هو أن الشعراء يتبعهم الغاوون أي الضالون ثم بين تلك الغواية بأمرين (الاول) انهم في كل واد يهيمون والمراد منه الطرق المختلفة كقولك أنا في واد وأنت في واد وذلك لانهم قد يمدحون الشيء بعد أن ذموه وبالعكس وقد يظلمونه بعد ان استقمروه وبالعكس وذلك يدل على انهم لا يطلبون بشعرهم الحق ولا الصدق بخلاف أمر محمد صلى الله عليه وسلم فانه من أول أمره الى آخره بقي على طريق واحد وهو الدعوة الى الله تعالى والترغيب في الآخرة والاعراض عن الدنيا (الثاني) انهم يقولون ما لا يفعلون وذلك أيضا من علامات الغواة فانهم يرغبون في الجود ويرغبون عنه وينفرون عن البخل ويصرون عليه ويقدحون في الناس بأدنى شيء صدر عن واحد من أسلافهم ثم انهم لا يرتكبون الا الفواحش وذلك يدل على الغواية والضلالة وأما محمد صلى الله عليه وسلم فانه بدأ بنفسه حيث قال الله تعالى له فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين ثم بأقاربه فقال وأنذر عشيرتك الاقربين وكل ذلك على خلاف طريقة الشعراء فقد ظهر بهذا الذي بيناه ان حال محمد صلى الله عليه وسلم ما كان يشبه حال الشعراء ثم ان الله تعالى لما وصف الشعراء بهذه الاوصاف الذميمة بين انها لهذا الفرق استثنى عنهم الموصوفين بأمور أربعة (أحدها) الايمان وهو قوله الا الذين آمنوا (وثانيها) العمل الصالح وهو قوله وعملوا الصالحات (وثالثها) أن يكون شعرهم في التوحيد والنبوة ودعوة الخلق الى الحق وهو قوله وذكروا الله كثيرا (ورابعها) أن لا يذكروا هجو أحد الا على سبيل الانتصار ممن هجوه وهو قوله وانتصروا من بعد ما ظلموا وقال الله تعالى لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم ثم ان الشرط فيه ترك الاعتداء لقوله تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وقيل المراد بهذا الاستثناء عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب ابن مالك وكعب بن زهير لانهم كانوا يجيبون قريشا عن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهاشم هم قولا والذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من رشق النبل وكان يقول لحسان بن ثابت قل وروح القدس معك فأما قوله تعالى وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون فالذي عندي فيه والله أعلم انه تعالى لما ذكر في هذه السورة ما يزيل الحزن عن قلب رسول صلى الله عليه وسلم من الدلائل العقلية ومن أخبار الانبياء المتقدمين ثم ذكر الدلائل على نبوته عليه السلام ثم ذكر سؤال المشركين في تسميتهم محمدا صلى الله عليه وسلم تارة بالكاهن وتارة بالشاعر ثم انه تعالى بين الفرق بينه وبين الكاهن أولا ثم بين الفرق بينه وبين الشاعر ثانيا ختم السورة بهذا التهديد العظيم يعني ان الذين ظلموا أنفسهم وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات والتأمل في هذه البينات فلهم سيعلمون بعد ذلك أي منقلب ينقلبون وقال الجمهور المراد منه الرجوع الى الطريقة التي وصف الله بها هؤلاء الشعراء والاول أقرب الى نظم السورة من أولها الى آخرها والله أعلم والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبي الامي وآله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وعلى التابعين

والاستنكار وخرق العادة بهذه المثابة ولذلك تعجبت منه قريش وأحالوه ولاستحالة فيه فانه قد ثبت في الهندسة أن قطر الشمس ضعف قطر الارض مائة وتيفا وستين مرة ثم ان طرفها الاسفل يصل الى موضع طرفها الاعلى بحركة الفلك الاعظم مع مداومة حركته فلكها الذي أقل من ثمانية وقد تقرر أن الاجسام متساوية في قبول الاعراض التي من جملتها الحركة وأن الله سبحانه قادر على كل ما يحيط به حيطة الامكان فيقتدر على أن يخلق مثل تلك الحركة بل أسرع منها في جسد النبي صلى الله عليه وسلم أو فيما يحمله ولو لم يكن مستعدا لم يكن معجزة (الى المسجد الاقصى) أي بيت المقدس سمي به اذ لم يكن حينئذ وراءه مسجد وفي ذلك من تربية معنى التقريب والتعجب ما لا يخفى (الذي باركنا حوله) ببركات الدين والدنيا لانه مهبط الوحي ومتعبد الانبياء عليهم الصلاة والسلام (لنريه) غاية للاسراء (من آياتنا) العظيمة التي من جملتها ذهابه في برهة من الليل مسيرة شهر ولا يقدح في ذلك كونه قبل الوصول الى المقصد ومشاهدة بيت المقدس وقبل الانبياء ووقوفه على مقاماتهم العالية عليهم الصلاة والسلام والالتفات الى التكلم لتعظيم تلك السركات والآيات وقرئ ليريه بالياء (انه هو السميع) لاقواله عليه الصلاة والسلام بلا أذن (البصير) بأفعاله بلا بصر حسبما يؤذن به القصر فيكرمه ويقربه بحسب ذلك وفيه اعماء الى أن الاسراء المذكور ليس الا تكرمة عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته والا فالاحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة من غير حاجة الى التقريب والالتفات الى الغيبة لتربية المهابة (وآتينا موسى الكتاب) أي التوراة وفيه اعماء الى دعوته عليه الصلاة والسلام الى الطرد وما وقع فيه من المناجاة جهارا بين الامرين المتحدين في

التاركين لهم باحسان الى يوم الدين

﴿سورة النمل تسعون وثلاث أو أربع أو خمس آيات مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ اعلم أن قوله تلك اشارة الى آيات السورة والكتاب المبين هو اللوح المحفوظ وايانته انه قد خط فيه كل ما هو كائن فالملائكة الناظرون فيه يبينون الكائنات وانما نكر الكتاب المبين ليصير مبهما بالتنكير فيكون أنجم له كقوله في مقعد صدق عند ملسك مقتدر وقرأ ابن أبي عبلة وكتاب مبين بالرفع على تقدير وآيات كتاب مبين فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه * فان قلت ما الفرق بين هذا وبين قوله الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين * قلت لا فرق لان واو العطف لا تقتضي الترتيب أما قوله هدى وبشرى للمؤمنين فهو في محل النصب او الرفع فالنصب على الحال أي هادية ومبشرة والعامل فيها ما في تلك من معنى الاشارة والرفع على ثلاثة أوجه على معنى هي هدى وبشرى وعلى البدل من الآيات وعلى أن يكون خبرا بعد خبر أي جمعت آياتها آيات الكتاب وانها هدى وبشرى واختلفوا في وجه تخصيص الهدى بالمؤمنين على وجهين (الاول) المراد أن يهديهم الى الجنة وبشرى لهم ﴿قوله تعالى فسيد خلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما فلهذا اختص به المؤمنون (الثاني) المراد بالهدى الدلالة ثم ذكروا في تخصيصه بالمؤمنين وجوها (أحدها) انه انما خصه بالمؤمنين لانهم ذكروا مع الهدى البشرى والبشرى انما تكون للمؤمنين (وثانيها) أن وجه الاختصاص انهم تمسكوا به فخصهم بالذكر كقوله انما أنت منذر من يخشاها (وثالثها) المراد من كونها هدى للمؤمنين انها زائدة في هداهم قال تعالى ويزيد الله الذين اهتدوا هدى أما قوله الذين يقيمون الصلاة فالاقرب انها الصلوات الخمس لان التعريف بالالف واللام يقتضي ذلك واقامة الصلاة أن يؤتى بها باشراطها وكذا القول في الزكاة فانها هي الواجبة واقامتها وضعها في حقها * أما قوله وهم بالآخرة هم يوقنون ففيه سؤال وهو أن المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة لا بد وأن يكونوا موقنين بالآخرة ففائدة ذكره مرة أخرى جوابه من وجهين (الاول) أن يكون من جملة صلة الموصول ثم فيه وجهان (الاول) أن كمال الانسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به وأما عرفان الحق فاقسام كثيرة لكن الذي يستفاد منه طريق الجاة معرفة المبدا ومعرفة المعاد وأما الخير الذي يعمل به فاقسام كثيرة أيضا فقسمان الطاعة بالنفس والطاعة بالمال فقوله للمؤمنين اشارة الى معرفة المبدا وقوله يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة اشارة الى الطاعة بالنفس والمال وقوله وهم بالآخرة هم يوقنون اشارة الى علم المعاد فكانه سبحانه وتعالى جعل معرفة المبدا طرفا أولا ومعرفة المعاد طرفا أخيرا وجعل الطاعة بالنفس والمال متوسطا بينهما (الثاني) ان المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة منهم من هو جازم بالحشر والنشر ومنهم من يكون شاكا فيه الا أنه يأتي بهذه الطاعات للاحتياط فيقول ان كنت صادقا فيما قالوه فقد فزت باسعاده وان كنت مخطئا فيما هم يفتنى الا خيرات قليلة في هذه المدة اليسيرة فمن يأتي بالصلاة والزكاة على هذا الوجه لم يكن في الحقيقة مهتديا بالقرآن أما من كان جازما بالآخرة كان مهتديا به فلهذا السبب ذكر هذا القيد (الثاني) أن يجعل قوله وهم بالآخرة هم يوقنون جملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة هم

المعنى ولم يذكر ههنا الروح بالنبي عليه السلام الى السماء وما كان فيه مما لا يكتنه كنهه حسبما نطقت به سورة النجم تقريبا للاسراء الى قبول السامعين أي آتيناه التوراة بعد ما أمرنا به الى الطور (وجعلناه) أي ذلك الكتاب (هدى لبني اسرائيل) يهتدون بما في مطاويه (أن لا تتخذوا) أي لا تتخذوا وهو ٤٣٤ كتبت اليه أن افعل كذا وقرئ بالياء على أن ان مصدرية والمعنى آتيناه موسى

الكتاب لهداية بني اسرائيل لئلا يتخذوا (من دوني وكيلا) أي ربا تكلون اليه أموركم والافراد لما أن فعيلا مفرد في اللفظ جمع في المعنى (ذرية من حملنا مع نوح) نصب على الاختصاص او النداء على قراءة النهي والمراد تأكيد الحمل على التوحيد بتذكير انعامه تعالى عليهم في ضمن انجاء آبائهم من الغرق في سفينة نوح عليه السلام أو على أنه أحد مفعولي لا يتخذوا على قراءة النفي ومن دوني حال من وكيلا لئلا يكون كقوله تعالى ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف أو بدل من واو لا تتخذوا بإبدال الظاهر من ضمير المخاطب كما هو مذهب بعض المفادة وقرئ ذرية بكسر الذال (انه) أي نوحا عليه الصلاة والسلام (كان عبدا شكورا) كثير الشكر في جميع حالاته وفيما يذان بأن انجاءه من همه كان بمركة شكره عليه الصلاة والسلام وحث لذريته على الاقتداء به وزجر لهم عن الشرك الذي هو أعظم مراتب الكفران

وقيل الخطاب لموسى عليه الصلاة والسلام (وقضينا) أي أمهمنا وأحكمنا متزايين (الى بني اسرائيل) أو وحينا اليهم (في الكتاب) أي في التوراة فان الانزال والوحي الى موسى عليه السلام انزال ووحي اليهم (لتفسدن في الارض) جواب قسم محذوف ويجوز جزاء القضاء

الموقنون بالآخرة وهذا هو الاقرب ويدل عليه انه عقد جملة ابتدائية وكرر فيها المبتدأ الذي هو هم حتى صار معناها وما يوقن بالآخرة حق الايقان الا المؤمنون الجامعون بين الايمان والعمل الصالح لان خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق ﴿ قوله تعالى ﴾ ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الاخسرون ﴿ اعلم أنه تعالى لما بين ما للمؤمنين من البشرى أتبعه بما على الكفار من سوء العذاب فقال ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم واختلف الناس في أنه كيف أسند تزيين أعمالهم الى ذاته مع أنه أسندها الى الشيطان في قوله فزين لهم الشيطان أعمالهم فأما أصحابنا فقد أجروا الآية على ظاهرها وذلك لان الانسان لا يفعل البتة الا لداعه الداعي الى الفعل والمعقول من الداعي هو العلم أو الاعتقاد والظن يكون الفعل مشتملا على منفعة وهذا الداعي لا بد وأن يكون من فعل الله تعالى لوجهين (الاول) انه لو كان من فعل العبد لافتقر فيه الى داع آخر ويلزم التسلسل وهو محال (الثاني) وهو الاهم أن يكون ضروريا أو كسبيا فان كان ضروريا فلا بد فيه من تصورين والتصور يمتنع أن يكون مكتسبا لان المكتسب ان كان شاعرا به فهو متصور له وتحصيل الحاصل محال وان لم يكن شاعرا به كان غافلا عنه والغافل عن الشيء يمتنع أن يكون طالبا له فان قلت هو مشعور به من وجه دون وجه قلت فالمشعور به غير ما هو غير مشعور به فيعود التقسيم المتقدم في كل واحد من هذين الوجهين واذا ثبت أن التصور غير مكتسب البتة والعلم الضروري هو الذي يكون حضور كل واحد من تصوراته كافيا في حصول التصديق فالتصورات غير كسبية وهي مستلزمة للتصديقات فاذن متى حصلت التصورات حصل التصديق لا محالة ومتى لم تحصل لم يحصل التصديق البتة فحصول هذه التصديقات البديهية ليس بالكسب ثم ان تلك التصديقات البديهية ان كانت مستلزمة للتصديقات النظرية لم تكن التصديقات النظرية كسبية لان لازم الضروري ضروري وان لم تكن مستلزمة لها لم تكن تلك الاشياء التي فرضنا ها معلومة نظرية كذلك بل هي اعتقادات تقليدية لانه لا معنى لاعتقاد المقلد الا اعتقاد تحسين يفعله ابتداء من غير أن يكون له موجب فثبت بهذا أن العلوم بأسرها ضرورية وثبت أن مبادي الافعال هي العلوم فافعال العباد بأسرها اضطرارية والانسان مسطر في صورة مختار فثبت أن الله تعالى هو الذي زين لكل عامل عمله والمراد من التزيين هو أنه يخلق في قلبه العلم بما فيه من المنافع واللذات ولا يخلق في قلبه العلم بما فيه من المضار والآفات فقد ثبت بهذه الدلائل القاطعة العقلية وجوب اجراء هذه الآية على ظاهرها أما المعتزلة فانهم ذكروا في تأويلها وجوها (أحدها) أن المراد بيناهم أمر الدين وما يلزمهم أن يتمسكوا به وزيناه بأن بينا حسنه وما لهم فيه من الثواب لان التزيين من الله تعالى للعمل ليس الا وصفه بأنه حسن وواجب وحميد العاقبة وهو المراد من قوله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وهذا ضعيف فهم يعمهون يدل على ذلك لان المراد فهم يعدلون ويحرفون عما بيناه من أعمالهم (وثانيها) أنه تعالى لما منعهم بطول العمر وسعة الرزق جعلوا انعام الله تعالى بذلك عليهم ذريعة الى اتباع شهواتهم وعدم الانقياد لما يلزمهم من التكاليف فكأنه تعالى زين بذلك أعمالهم واليه اشارة الملائكة عليهم السلام في قولهم ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر (وثالثها) ان أمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهر فالتزيين فاسند اليه ﴿ والجواب عن الاول أن قوله تعالى أعمالهم صيغة عموم فوجب أن يكون الله تعالى قد زين لهم كل أعمالهم حسنا كان العمل أو قبيحا وهو في التزيين قد قدمناه ﴿ وعن الثاني ان الله تعالى لما منعهم بطول العمر وسعة الرزق فهل لهذه الامور أثر في ترجيح فاعلية المعصية على تركها أو ليس لها

المحتوم مجرى القسم كانه قيل وأقسمنا لنفسدن (مرتين) مصدر والعامل فيه من غير جنسه أولانهما مخالفة حكم التوراة وقتل شعياء عليه الصلاة والسلام وحبس أرمياء حين أنذرهم سخط الله تعالى والثانية قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليه الصلاة والسلام (ولتعلن علوا كبيرا) لتستكبرن عن طاعة الله سبحانه أولتغلبن الناس بالقلم والعدوان ٤٣٥ وتفرطن في ذلك افراطا مجاوزا للحدود

لما فيه أثر فان كان الاول فقد دلنا على ان الترجيح متى حصل فلا بد وان ينتهي الى حد الاستلزام وحينئذ يحصل الغرض وان لم يكن فيه أثر صارت هذه الاشياء بالنسبة الى أعلامهم كسير الباب وتعيق الغراب وذلك يمنع من اسناد فعلهم اليها وهذا بعينه هو الجواب عن التأويل الثالث الذي ذكروه والله أعلم أما قوله تعالى فهم يعمهون فالعمه التحير والتردد كما يكون حال الضال عن الطريق أما قوله أولئك الذين لهم سوء العذاب ففيه وجهان (الاول) انه القتل والاسر يوم بدر (والثاني) مطلق العذاب سواء كان في الدنيا أو في الآخرة والمراد بالسوء شدته وعظمه وأما قوله هم الاخسرون ففيه وجهان (الاول) انه لا خسران أعظم من أن يخسر المرء نفسه بان يسلب عنها النجاة والسلامة في الدنيا ويسلم في الآخرة الى العذاب العظيم (الثاني) المراد انهم خسروا امتيازهم في الجنة لو أطاعوا فانه لا مكلف الا ومعين له منزل في الجنة لو أطاع فاذا عصى عدل به الى غيره فيكون قد خسر ذلك المنزل ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ اذ قال موسى لاهله اني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين يا موسى انه أنا الله العزيز الحكيم ﴿أما قوله وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم فمعناه لتؤتاه وتتلقاه من عند أي حكيم وأي عليم وهذا معنى جميع ما ذكرناه في هذه الآية بسائط وتركيب بديع أن يسوق بعدها من الاقاصيص واذ منصوب بعليم ﴿ضمر وهو اذكر كأنه قال على أثر ذلك خذ من آثار كثيرة وسلمة قصة موسى ويجوز أن ينتصب بعليم ﴿فان قيل الحكمة اما أن تكون نفس العلم واما أن يكون العلم داخلا فيها فاذا ذكر الحكمة فلم ذكر العلم ﴿جوابه الحكمة هي العلم بالامور العملية فقط والعلم أعم منه لان العلم قد يكون عمليا وقد يكون نظريا والعلوم النظرية أشرف من العلوم العملية فلذكر الحكمة الشاملة على العلوم العملية ثم ذكر العليم وهو البالغ في كمال العلم وكمال العلم يحصل من جهات ثلاثة وحدته وعموم تعلقه بكل المعلومات وبقائه مصونا عن كل التغيرات وما حصلت هذه الكمالات الثلاثة الا في علمه سبحانه وتعالى ﴿واعلم أن الله تعالى ذكر في هذه السورة انواعا من القصص ﴿(القصة الاولى)﴾ ﴿قصة موسى عليه الصلاة والسلام ﴿أما قوله اذ قال موسى لاهله فيدل على انه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته لانه شبه عليه السلام وقد ذكر الله تعالى عنها بالاهل فتسمية ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله امكثوا أما قوله اني آنست نارا فالمعنى انهما كانا يسيران ليلا وقد اخطئا الطريق عليهما والوقت وقت برد وفي مثل هذا الحال تقوى النفس بمشاهدة نار من بعد لما يرجى فيها من زوال الحيرة في أمر الطريق ومن الانتفاع بالنار للاصطلاء فلذلك بشرها فقال اني آنست نارا وقد اختلفوا فقال بعضهم المراد أبصرت ورأيت وقال آخرون بل المراد صادفت ووجدت فآنست هو الاول أقرب لانهم لا يفرقون بين قول القائل آنست بصري ورأيت بصري أما قوله لعلي آتيكم منها بخبر بما يخبر به عن حال الطريق لانه كان قد ضل ثم في الكلام حذف وهو انه لما أبصر النار توجه اليها وقال لعلي آتيكم منها بخبر يعرف به الطريق أما قوله أو آتيكم بشهاب قبس فالشهاب الشعلة والقبس النار المقبوسة وأضاف الشهاب الى القبس لانه يكون قبسا وغير قبس ومن قرأ بالتنوين جعل القبس بدلا أو صفة لما قبله من معنى القبس ﴿ثم ههنا أسئلة ﴿(السؤال الاول)﴾ سآتيكم منها بخبر ولعلي آتيكم منها بخبر كلاهما فعل لمتكلم واحد فما الحكمة في ترك أحدهما الى الآخر ﴿جوابه من وجوه أحدها ان اذا قوي رجاؤه سأفعل كذا وربما كان كذا ومع تجويز الحسبة ﴿(السؤال الثاني)﴾ كيف جاء بسين التسويف ﴿جوابه عدة منه لانه ان أتاهم به وان أبطأ أو كانت

(فاذا جاء وعد أولاهما) أي أولى كرتي الافساد أي حان وقت حلول العقاب الموعود (بعثنا عليكم) لمؤاخذتكم بجنايتكم (عبادا لنا) وقرئ عبيدا لنا (أولي بأس شديد) ذوي قوة وبطش في الحروب هم سنجاريب من أهل نينوى وجنوده وقيل بختنصر عامل لهراسب وقيل جالوت (فجاسوا) أي تردوا والطلب بالفساد وقرئ بالحاء والمعنى واحد وقرئ وجوسوا (خلال الديار) في أوساطها للقتل والغارة وقرئ خلل الديار فقتلوا علماءهم وكبارهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين الفا وذلك من قبيل قوله تعالى الظالمين بعضهم أولياء بعض بما جرت به السنة الالهية (وكان) ذلك (وعدا مفعولا) لامحالة ممتنع لا صارف عنه ولا مبدل (ثم رددنا لكم الكرة) أي الدولة والغلبة (عليهم) على الذين قصدوا بكم ما فعلوا بعد مائة سنة حين تبتم وندمتم عما كنتم عليه من الافساد

والمعلوم قيل هي قتل بختنصر وقيل هي قتل داود عليه السلام جالوت (وأمددناكم بأموال) كثيرة بعد ما منعت أموالكم (وبنين) بعد

ماسيبت أولادكم (وجعلناكم أكثر نفيرا) مما كنتم من قبل أومن عدوكم والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفر وهم القوم المجتمعون للذهاب الى العدو كالعبيد والمعنى (ان أحسنتم) أيها الكم سواء كانت لازمة لانفسكم أومتعدية الى الغير أى علتموها على الوجه اللائق ولا يتصور ذلك الا بعد ٤٣٦ أن تكون الاعمال حسنة فى أنفسها أوان فعلتم الاحسان (أحسنتم لانفسكم) لان ثوابها

المسافة بعيدة (السؤال الثالث) لماذا أدخل أو بين الامرين وهلا جمع بينهما لحاجته اليهما معا * جوابه بنى الرجاء على انه ان لم يظفر بهذين المقصودين ظفر بأحدهما اما هداية الطريق واما اقتباس النار نفقة بعادة الله تعالى لانه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده وأما قوله تعالى لعلكم تصطلون فالمعنى لكى تصطلوا وذلك يدل على حاجتهم الى الاصطلاء وحينئذ لا يكون كذلك الا فى حال برد * أما قوله تعالى نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ففيه ابحاث (البحث الاول) أن أن هى المفسرة لان النداء فيه معنى القول والمعنى قيل له بورك (البحث الثانى) اختلفوا فيمن فى النار على وجوه (أحدها) أن بورك بمعنى تبارك والنار بمعنى النور والمعنى تبارك من فى النور وذلك هو الله سبحانه ومن حولها يعنى الملائكة وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما وان كنا نقطع بأن هذه الرواية موضوعة مختلقة (وثانيها) من فى النار هو نور الله ومن حولها الملائكة وهو مروى عن قتادة والزجاج (وثالثها) أن الله تعالى نادا من كلام سمعه من الشجرة فى البقعة المباركة فكانت الشجرة محلا للكلام والله هو المتكلم له بان فعله فيه دون الشجرة ثم ان الشجرة كانت فى النار ومن حولها ملائكة فلذلك قال بورك من فى النار ومن حولها وهو قول الجبائى (ورابعها) من فى النار هو موسى عليه السلام لقربه منها ومن حولها يعنى الملائكة وهذا أقرب لان القريب من الشئ قد يقال انه فيه (وخامسها) قول صاحب الكشاف بورك من فى النار أى من فى مكان النار ومن حول مكانها وهى البقعة التى حصلت فيها وهى البقعة المباركة المذكورة فى قوله تعالى من شاطئ الوادى الايمن فى البقعة المباركة ويدل عليه قراءة أبى تباركت الارض ومن حولها وعنه أيضا بوركت النار (البحث الثالث) السبب الذى لاجله بوركت البقعة وبورك من فيها وحواليها حدوث هذا الامر العظيم فيها وهو تكليم الله موسى عليه السلام وجعله رسولا واظهار المعجزات عليه ولهذا جعل الله أرض الشام موسومة بالبركات فى قوله وخلصناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين وحقت أن تكون كذلك فهى مبعث الانبياء صلوات الله عليهم ومهبط الوحى وكفاتهم أحياء وأمواتا (البحث الرابع) انه سبحانه جعل هذا القول مقدمة لمناجاة موسى عليه السلام فقوله بورك من فى النار ومن حولها يدل على أنه قد قضى أمر عظيم تنتشر البركة منه فى أرض الشام كلها وقوله وسبحان الله رب العالمين فيه فائدتان (احداهما) انه سبحانه نزه نفسه عما لا يليق به فى ذاته وحكمته ليكون ذلك مقدمة فى صحة رسالة موسى عليه السلام (الثانية) أن يكون ذلك ايذانا بان ذلك الامر مريده وحكمته رب العالمين تنبيها على أن الكائن من جلائل الامور وعظائم الوقائع * أما قوله انه أنا الله العزيز الحكيم فقال صاحب الكشاف الهاء فى انه يجوز أن يكون ضمير الشان وأنا الله مبتدأ وخبر والعزيز الحكيم صفتان للخبر وأن يكون راجعا الى ما دل عليه ما قبله يعنى ان مكالمك أنا والله بيان لانا والعزيز الحكيم صفتان للتعيين وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة يريد أنا القوى القادر على ما يبعد من الاوهام كقلب العصا حية الفاعل ما أفعله بحكمة وتدبير فان قيل هذا النداء يجوز أن يكون من عند غير الله تعالى فكيف علم موسى عليه السلام انه من الله * جوابه لاهل السنة فيه طريقان (الاول) انه سمع الكلام المنزه عن مشابهة الحروف والاصوات فعلم بالضرورة انه صفة الله تعالى (الثانى) قول أئمة ما وراء النهر وهو انه عليه الصلاة والسلام سمع الاصوات من الشجرة فتقول انما عرف ان ذلك من الله تعالى لامور (أحدها) ان النداء اذا حصل فى النار أو الشجرة علم أنه من قبل الله تعالى لان أحدا منا لا يقدر عليه وهو ضعيف لاحتمال أن يقال الشيطان دخل فى النار والشجرة ثم نادى (وثانيها) يجوز فى نفس النداء أن يكون قد بلغ فى العظم مبلغا

عليه أومد علوهم (تتبيرا) تظيعا لا يوصف بان سلط الله عز سلطانه عليهم الفرس فغزاهم ملك بابل من

لا

ملوك الطوائف اسمه جودرز وقيل جودرس وقيل دخل صاحب الجيش هذا مع قرابينهم فوجد فيه دما يغلى فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال لم تصدقونى فقتل على ذلك ألوفا فلم يهدأ الدم ثم قال ان لم تصدقونى ما تركت منكم أحدا فقالوا انه دم يحيى بن زكريا

عليهما الصلاة والسلام فقال لمثل هذا ينتقم منكم ربكم ثم قال يا يحيى قد علم ربي ورب ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ بإذن الله تعالى قبل أن لا أبقي منهم أحدا فهدأ (عسى ربكم أن يرحمكم) بعد المرة الآخرة أن تتوبوا توبة أخرى وأن تنزجروا عما كنتم عليه من المعاصي (وإن عدتم) إلى ما كنتم فيه من الفساد مرة أخرى (عدنا) إلى عقوبتكم ولقد عادوا ٤٢٧ فأعاد الله سبحانه عليهم النقمة بأن سلط

عليهم الاكاسرة فعملوا بهم ما فعلوا من ضرب الأتاوة وغير ذلك وعن الحسن عادوا فبعث الله تعالى محمدا عليه الصلاة والسلام فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون وعن قتادة مثله (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) أي محبسا لا يستطيعون الخروج منها أبدا بينين وقيل بساطا كما يبسط الحصير وإنما عدل عن أن يقال وجعلنا جهنم لكم تسجيلا على كفرهم بالمعبود وإشعارا بعلة الحكم (إن هذا القرآن) الذي آتيناكم (يهدي) أي الناس كافة لا فرقة مخصوصة منهم كذا الكتاب الذي آتيناه موسى (للتي) للطريقة التي (هي أقوم) أي أقوم الطرائق وأسدها أعني ملة الإسلام والتوحيد وترك ذكرها ليس لقصد التعميم لها وللحالة والخصلة وضوحها مما يعين عن المقصد المذكور بل للإيذان بالغنى عن التصريح بها لغاية ظهورها لاسيما بعد ذكر الهداية

إلا يكون الإعجاز وهو أيضا ضعيف لأنا لا نعرف مقادير قوى الملائكة والشياطين فلا قدر إلا ويجوز صدوره منهم (وثالثها) أنه محمد اقترن به معجز دل على ذلك وقيل أن النار كانت مشتعلة في شجرة خضراء لم تحترق فصار ذلك كالمعجز وهذا هو الأصح والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴾ وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ اعلم أن أكثر ما في هذه الآيات قد مر شرحه ولنذكر ما هو من خواص هذا الموضع يقال عسلام عطف قوله وألق عصاك حوابه على تورك لان المعنى نودي ان بورك من في النار وان ألق عصاك كذا هما تفسيرا لنودي أما قوله كأنها جان فالجان الحية الصغيرة سميت جانا لانها تستتر عن الناس وقرأ الحسن جان على لغة من يهرب من التقاء الساكنين فيقول شابة وداية * أما قوله ولم يعقب معناه لم يرجع يقال عقب المقاتل إذا مر بعد الفرار وإنما خاف لظنه أن ذلك لامر أريد به وبدل عليه أني لا يخاف لدي المرسلون وقال بعضهم المراد إني إذا أمرتهم بإظهار معجز فينبغي أن لا يخافوا فيما يتعلق بإظهار ذلك وإلا فالمرسل قد يخاف لا محالة * أما قوله تعالى إلا من ظلم معناه لكن من ظلم وهو محمول على ما يصدر من الأنبياء من ترك الأفضل أو الصغيرة ويحتمل أن يكون المقصود منه التعريض بما وجد من موسى وهو من التعريضات اللطيفة قال الحسن رحمه الله كان والله موسى ممن ظلم بقتل القبطي ثم بدل فإن عليه الصلاة والسلام قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي وقرئ إلا من ظلم بحرف التنبيه * أما قوله تعالى ثم بدل حسنا بعد سوء فالمراد حسن التوبة وسوء الذنب وعن أبي بكر في رواية عاصم حسنا * أما قوله في تسع آيات فهو كلام مستأنف وحرف الجر فيه يتعلق بمحذوف والمعنى اذهب في تسع آيات إلى فرعون وقائل أن يقول كانت الآيات أحدى عشرة فتكون منها اليد والعصا والتسع الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب في بواديهم والنقصان في مزارعهم * أما قوله فلما جاءتهم آياتنا مبصرة فقد جعل الابصار للعباد وفي الحقيقة لمتأملها وذلك بسبب نظرهم وتفكرهم فيها أو جعلت كأنها الظهور بها تبصر فتهتدي وقرأ علي بن الحسين وقتادة مبصرة وهو نحو مجبنة ومبخلة أي مكانا يكثر فيه التبصر أما قوله واستيقنتها أنفسهم قالوا وفيها أو الحال وقد بعدها مضمرة وفائدة ذكر الانفس أنهم جحدوها بألسنتهم واستيقنوها في قلوبهم وخبائثهم والاستيقان أبلغ من الايقان أما قوله ظلما وعلوا فأي ظلم أخس من ظلم من استيقن أنها آيات بينة من عند الله تعالى ثم كابر بتسميتها سحرا بينا وأما العلو ففيه التكبر والترفع عن الايمان بما جاء به موسى كقوله فاستكبروا وكانوا قوما عالين وقرئ علوا وعليا بالضم والكسر كما قرئ عتيا والله أعلم ﴿ القصة الثانية ﴾ قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ﴿ قوله تعالى ﴾ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ إن هذا لهو الفضل المبين وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ أما قوله تعالى علما المراد طائفة من العلم أو علما سنيا عزيزا فإن قيل أليس هذا موضع الفاء دون الواو وكقولك أعطيته فشكر وجواب ان الشكر باللسان انما

التي هي من روادفها والمراد بهدايته إياها كونه بحيث يهتدى اليه من يتمسك به لا تحصيل الاهتداء بالفعل فان خصوص بالمؤمنين حينئذ (ويبشر المؤمنين) عما في تضاعيفه من الاحكام والشرائع وقرئ بالتخفيف (الذين يعملون الصالحات) التي شرحت فيه (أن لهم) أي بأن لهم بمقابلة تلك الاعمال (أجرا كبيرا) بحسب الذات وبحسب التضعيف عشر مرات فصاعدا (وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة)

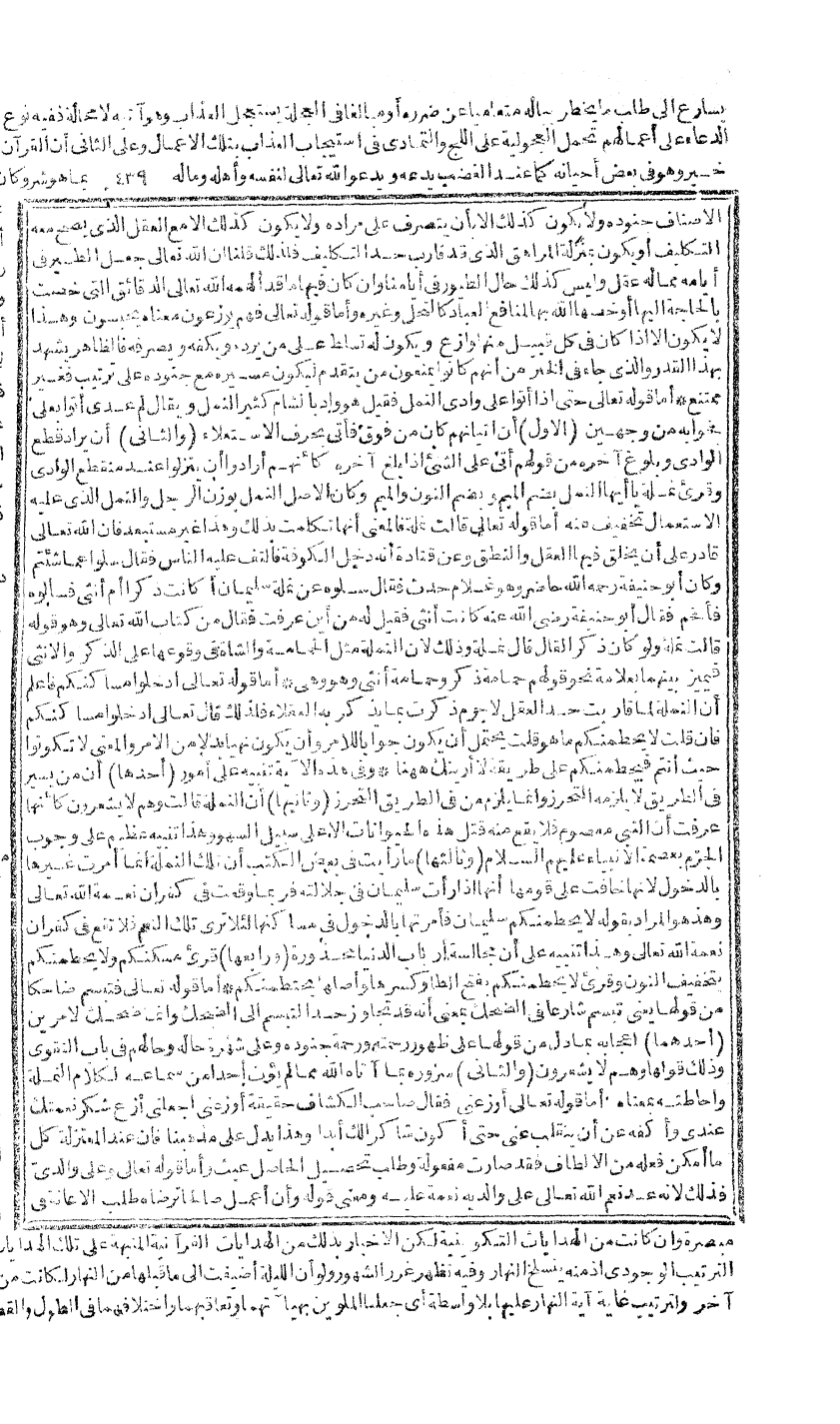
وأحكامها المشروحة فيه من البعث والحساب والجزاء وتخصيصها بالذكر من بين سائر ما كفروا به لكونها معظم ما أمروا بالايمان به
إيذانا بالتناسب بين أعمالهم وجزائها الذي أنبأ عنه قوله عز وجل (أعتدنا لهم عذابا أليما) وهو عذاب جهنم أي أعتدنا لهم فيما
كفروا به وأنكروا وجوده من الآخرة ٤٣٨ عذابا أليما وهو أبلغ في الزجر لما أن ايلام العذاب من حيث لا يحتسب أفظع وأفجع

الجملة معطوفة على جملة
بشر بإضمار يخبر أو
لى قوله تعالى أن لهم
الخلة معه عثت التبشير
لمراد به مجازا مطلق
لاخبار المنتظم للاخبار
الخبر السار والنبأ الخبر
حقيقة فيكون ذلك بيانا
هداية القرآن بالترغيب
والترهيب ويجوز كون
التبشير بمعناه والمراد
تبشير المؤمنين ببشارتين
لهم وعقاب أعدائهم
بقوله تعالى (ويدع
لانسان بالشر) بيان
لمال المهدى اثر بيان
حال الهادي واظهار لما
بينهما من التباين والمراد
الانسان الجنس أسند
المه محال بعض أفراده أو
حكي عنه محاله في بعض
احواله فالمعنى على الأول
ان القرآن يدعو الانسان
لى الخير الذي لا خير
فوقه من الاجر الكبير
وحذره من الشر الذي
لا شر وراءه من العذاب
الاليم وهو أي بعض صنه
وهو الكافر يدعو لنفسه
بما هو الشر من العذاب
المذكور اما باسانه حقيقة
كما دأب من قال منهم
اللهم ان كان هذا هو
الحق من عندك فامطر
علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ومن قال فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين الى غير ذلك مما
سكي عنهم واما بما عاملهم السيئة المقتضية لها الموجب لها مجازا كما هو دين كارم (دعاءه بالشر) أي مثل دعائه بالخير المذكور فرضا
لاتحقيقا فانه مجزل من الدعاء وقيد به رمزا الى أنه اللائق بحاله (وكان الانسان) أي من أسند اليه الدعاء المذكور من أفراده (عجولا)

الاصناف

يحسن موقعه اذا كان مسبوقا بعمل القلب وهو العزم على فعل الطاعة وترك المعصية أو بعمل الجوارح وهو
الاشتغال بالطاعات ولما كان الشكر باللسان يجب كونه مسبوقا بهما فلا جرم صار كانه قال ولقد آتيناهما علما
فعملا به قلبا وقالا باللسان الحمد لله الذي فعل كذا وكذا * وأما قوله تعالى الحمد لله الذي فضلنا على
كثير من عباده المؤمنين ففيه ابحاث (أحدها) ان الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علما أو من لم يؤت مثل
علمهما وفيه انهما فضلا على كثير وفضل علم ما كثير (وثانيها) في الآية دليل على علو مرتبة العلم لانهما أوتيا
من الملك ما لم يؤت غيرهما فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم (وثالثها) أنهم لم يقفوا أنفسهم
على الكل وذلك يدل على حسن التواضع (ورابعها) ان الظاهر يقتضي أن تلك الفضيلة ليست الا ذلك
العلم ثم العلم بالله وبصفاته أشرف من غيره فوجب أن يكون هذا الشكر لاجل الاعلى هذا العلم ثم ان هذا العلم
حاصل لجميع المؤمنين فيستحيل أن يكون ذلك سببا لفضيلتهم على المؤمنين فاذن الفضيلة هو أن يصير العلم
بالله وبصفاته جليا بحيث يصير المرء مستغرقا فيه بحيث لا يخطر بباله شئ من الشبهات ولا يغفل القلب عنه
في حين من الاحيان ولا ساعة من الساعات * أما قوله تعالى وورث سليمان داود فقد اختلفوا فيه فقال
الحسن المال لان النبوة عطية مبتدأة ولا توارث وقال غيره بل النبوة والملك والسياسة ولو
تأمل الحسن لعلم أن المال اذا ورثه الولد ففي هو أيضا عطية مبتدأة من الله تعالى ولذلك يرث الولد اذا كان
مؤمنا ولا يرث اذا كان كافرا فرقا لا لكن الله تعالى جعل سبب الارث فيمن يرث الموت على شرائط وليس
كذلك النبوة لان الموت لا يكون سببا لنبوة الولد فمن هذا الوجه يفترقان وذلك لا يمنع من أن يوصف بأنه ورث
النبوة فلما قام به عند موته كما يرث الولد المال اذا قام به عند موته وعما يبين ما قلناه انه تعالى لو فصل فقال
وورث سليمان داود ما لم يكن لقوله وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير معنى واذا قلنا وورث مقامه من
النبوة والملك حسن ذلك لان تعليم منطق الطير يكون داخلا في جملة ما ورثه وكذلك قوله تعالى وأوتينا
من كل شئ لان وارث الملك يجمع ذلك ووارث المال لا يجمعه وقوله ان هذا لهو الفضل المبين لا يليق أيضا
الا بما ذكرنا دون المال الذي قد يحصل للكامل وللناقص وما ذكره الله تعالى من جنود سليمان بعده
لا يليق الا بما ذكرناه فبطل بما ذكرنا قول من زعم انه لم يرث الا المال فاما اذا قيل ورث المال والملك معا
فهذا لا يبطل بالوجوه التي ذكرناها بل بظاهر قوله عليه الصلاة والسلام نحن معاشر الانبياء لا نورث * فاما
قوله يا أيها الناس فالمقصود منه تشهير نعمة الله تعالى والتنويه بها وعادة الناس الى التصديق بذكر المعجزة
التي هي علم منطق الطير قال صاحب الكشاف المنطق كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير
المفيد وقد يرجع بعد صوت كتابه باصلاح المنطق وما أفصح فيه الا مفردات الكلم وقالت العرب نطقت الحمامة
فالذي علم سليمان عليه السلام من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من مقاصدهم أو أغراضه وأما قوله
تعالى وأوتينا من كل شئ فالمراد كثرة ما أوتي وذلك لان الكل والبعض الكثير يشتركان في صفة الكثرة
والمشاركة سبب جواز الاستعارة فلا جرم يطلق لفظ الكل على الكثير ومثله قوله وأوتيت من كل شئ * أما
قوله ان هذا لهو الفضل المبين فهو تقرير لقوله الحمد لله الذي فضلنا والمقصود منه الشكر والحمد كما قال
عليه السلام أنا سيد ولد آدم ولا فخر فان قيل كيف قال علمنا وأوتينا وهو من كلام المتكبرين حوابه من
وجهين (الاول) أن يريد نفسه وأباه (والثاني) أن هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع وكان ملكا
مطاعا وقد يعلق بعظيم الملك مصالح فيسير ذلك التعظيم واجبا وأما قوله وحشر لسليمان جنوده من
الجن والانس والطير فالحشر هو الاحضار والجمع من الاماكن المختلفة والمعنى انه جعل الله تعالى كل هذه

يسارع الى طلب ما يخطر بباله متعللا بأن ضرره أو هو الناقي العجلة يستجلب المذاب وهو آثم لاحالة فيه نوع تهكم به وعلى تقدير حمل الدعاء على أعمالهم تحمل العجولية على اللجج والتمادي في استجلاب العذاب بتلك الاعمال وعلى الثاني أن القرآن يدعو الانسان الى ما هو خير وهو في بعض أحيانه كما عند الغضب يدعو به ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله ٤٣٩ بما هو شر وكان الانسان بحسب جبلته عجولا فحجر الا يتأنى الى أن يزول عنه ما يعتريه روى انه عليه الصلاة والسلام دفع الى سودة أسيرا فرحمت كتافه رحمة لانينه بالليل من ألم القد فهرب فلما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام قال اللهم اقطع يديها فرفعت سودة يديها تتوقع الاجابة فقال عليه السلام اني سألت الله تعالى أن يجعل دعائي على من لا يستحق من أهلي عند ابارحمة أو يدعو بما هو شر له وهو أن يجعله خيرا وكان الانسان عجولا غير متبصر لا يتدبر في أموره حق التدبر ليحقق ما هو خير حقيق بالدعاء به وما هو شر جدير بالاستعاذة منه (وجعلنا الليل والنهار آيتين) شروع في بيان بعض وجوه ما ذكر من الهداية بالارشاد الى مسالك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية التي كل واحدة منها برهان نير لا ريب فيه ومنهاج بين لا يضل من يتنحيه فان الجعل المذكور وما عطف عليه من محو آية الليل وجعل آية النهار



الاصناف جنوده ولا يكون كذلك الا أن يتصرف على مراده ولا يكون كذلك الا مع العقل الذي يصح معه التكليف أو يكون بمنزلة المراعى الذي قد قارب حد التكليف فلذلك قلنا ان الله تعالى جعل الطير في أيامه بمنزلة عقل وليس كذلك حال الطيور في أيامنا وان كان فيها ما قد ألهمه الله تعالى الدقائق التي خصت بالحاجة اليها أو خصها الله بها لمنافع العباد كالنحل وغيره وأما قوله تعالى وفهم يزعون معناه يحبسون وهذا لا يكون الا اذا كان في كل قبيل منها نوازع ويكون له تسلط على من يرد وبكفه ويصرفه فالظاهر يشهد بهذا التدبر والذي جاء في الخبر من أنهم كانوا يتمنعون من يتقدم ليكون عسكره مع جنوده على ترتيب فغير ممتنع * أما قوله تعالى حتى اذا أتوا على وادي النمل فقيل هو واد بالشام كثير النمل ويقال لم عدى أتوا بعلى جوابه من وجهين (الاول) أن اتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء (والثاني) أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره من قولهم أتى على الشيء اذا بلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي وقرئ نملة بالهمز النمل بضم الميم وبضمتين النون والميم وكان الاصل النمل يوزن الرجل والنمل الذي عليه الاستعمال تخفيف منه أما قوله تعالى قالت نملة يعني أنها تكلمت بذلك وهذا غير مستبعد فان الله تعالى قادر على أن يخلق فيها العقل والنطق وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال سلوا عما شئتم وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضرا وغلام حدث فقال سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكرا أم أنثى فسألوه فأحكم فقال أبو حنيفة رضي الله عنه كانت أنثى فقيل له من أين عرفت فقال من كتاب الله تعالى وهو قوله قالت نملة ولو كان ذكرا لقال قال نملة وذلك لان النملة مثل الحمامة والشاهق وقوعها على الذكر والانثى تميز بينهما بعلامة تخرج قولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهي * أما قوله تعالى ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون * أما قوله تعالى ادخلوا مساكنكم فاعلم أن النملة ما قارب حد العقل لا يجوز ذكر ما يذكر به العقلاء فلذلك قال تعالى ادخلوا مساكنكم فان قلت لا يحطمنكم ما هو قلت يحتمل أن يكون جوابا للامر وأن يكون نهيا بدلا من الامر والمعنى لا تتكونوا حيث أنتم فيحطمنكم على طريقة قولك أرتني ها هنا * وفي هذه الآية تنبيه على أمور (أحدها) أن من يسير في الطريق لا يلزمه التحرز وانما يلزم من في الطريق التحرز (وثانيها) أن النملة قالت وهم لا يشعرون كأنها عرفت أن النبي معصوم فلا يقع منه قتل هذه الحيوانات الا على سبيل السهو وهذا تنبيه عظيم على وجوب الحذر بعصمة الانبياء عليهم السلام (وثالثها) ما رأيت في بعض الكتب أن تلك النملة انما أمرت غيرها بالدخول لانها خافت على قومها أنها اذا رأت سليمان في جلالته فربما وقعت في كفران نعمة الله تعالى وهذا هو المراد بقوله لا يحطمنكم فأمرتها بالدخول في مساكنها لتلا ترى تلك النعم فلا تقع في كفران نعمة الله تعالى وهذا تنبيه على أن جميع الاستبشار بأبواب الدنيا مذمومة (ورابعها) قرئ مساكنكم ولا يحطمنكم بتخفيف النون وقرئ لا يحطمنكم بفتح الطاء وكسرها وأصله يحتطمنكم * أما قوله تعالى فتبسم ضاحكا من قولها يعني تبسم شاكرا على الضحك يعني أنه قد تعاظم وزحمه التبسم الى الضحك وانما ضحك لامرين (أحدهما) اعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته وجنوده وعلى شدة حاله وحالهم في باب التقوى وذلك قولها وهم لا يشعرون (والثاني) سروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحدا من سمعانه لكلام النملة واحاطته بمعناه * أما قوله تعالى أوزعني فقال صاحب الكشاف حقيقته أوزعني احملني أزع شكرك عندي وأكفه عن أن ينقلب عني حتى أكون شاكرا لك أبدا وهذا يدل على ما ذهبنا فان عند المنزلة كل ما أمكن فعله من الالطاف فقد صارت مفعولة وطلب تحصيل الحاصل عبث وأما قوله تعالى وعلى والدي فذلك لانه عد نعم الله تعالى على والديه نعمة عليه ومعنى قوله وأن أعمل صالحا ترضاه طلب الاعانة على

مبصرة وان كانت من الهدايات الشكورية لكن الاخبار بذلك من الهدايات القرآنية المنبهة على تلك الهدايات وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودي اذ منه ينسلخ النهار وفيه يظهر غرر الشهور ولولا أن الليلة أضيفت الى ما قبلها من النهار لكانت من شهر وصاحبها من شهر آخر والترتيب غاية آية النهار عليها بالواسطة أي جعلنا الملوين بهيما تهما وتعاقبهما مختلفين في الطول والقصر على وتيرة عجيبة تحار

في فهمها العقول آيتين تدلان على أن لهما صانعا حكيما قادرا عليما وتهدي بأن الى ما هدى اليه القرآن الكريم من ملة الاسلام والتوحيد (فمحونا آية الليل) والاضافة اما بيانية كما في اضافة العدد الى المعدود أي محونا الآية التي هي المحل وفائدته تحقيق مضمون الجملة السابقة ومحوها جعلها ممحوة الضوء ٤٤٠ مطموسته لكن لا بعد ان لم يكن كذلك بل ابداعها على ذلك كما في قولهم سبحان من

الشكر وفي العمل الصالح ثم قال وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين فلما طلب في الدنيا الاعانة على الخيرات طلب أن يجعل في الآخرة من الصالحين وقوله برحمتك يدل على أن دخول الجنة برحمته وفضله لا باستحقاق من جانب العبد * واعلم أن سليمان عليه السلام طلب ما يكون وسيلة الى ثواب الآخرة أولا ثم طلب ثواب الآخرة ثانيا أما وسيلة الثواب فهي أمران (أحدهما) شكر النعمة السالفة (والثاني) الاشتغال بسائر أنواع الخدمة أما الاشتغال بشكر النعمة السالفة فهي قوله تعالى رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وإنما كان الانعام على الآباء انعاما على الابناء لان انتساب الابن الى أب شريف نعمة من الله تعالى على الابن لاجرم اشتغل بشكر نعم الله تعالى على الآباء بقوله وعلى والدي وأما الاشتغال بسائر أنواع الخدمة فقوله وأن أعمل صالحا ترضاه وأما طلب ثواب الآخرة فقوله وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين فان قيل درجات الانبياء أعظم من درجات الاولياء والصالحين فلا السبب في أن الانبياء يطلبون جعلهم من الصالحين فقال يوسف توفني مسلما وألحقني بالصالحين وقال سليمان أدخلني برحمتك في عبادك الصالحين جوابه الصالح الكامل هو الذي لا يعصي الله تعالى ولا يهم بمعصية وهذه درجة عالية هو الله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لاعذبنه عذابا شديدا أو لاذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين اني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾ اعلم أن سليمان عليه السلام لما تفقد الطير وهم ذلك أنه انما تفقده لامر يختص به ذلك الطير واختلفوا فيما لاجله تفقده على وجوه (أحدها) قول وهب أنه أخل بالنوبة التي كان ينوبها فلذلك تفقده (وثانيها) أنه تفقده لان هدهدا يدل الماء كانت له وكان يعرف الفسل بين قربه وبعده فلحاجة سليمان الى ذلك طلبه وتفقده (وثالثها) أنه كان يظله من الشمس فلما فقد ذلك تفقده أما قوله فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين فاعلم أن المنقطعة نظرا الى مكان الهدهد فلم يبصره فقال مالي لا أراه على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لستر ستره أو غير ذلك ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول أهو غائب كأنه يسأل عن صحة ما لاح له ومثله قولهم انها لابل أم شاء أما قوله لاعذبنه عذابا شديدا أو لاذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين فهذا لا يجوز أن يقوله الا فيمن هو مكلف أو فيمن قارب العقل فصلح لان يؤدب ثم اختلفوا في قوله لاعذبنه فقال ابن عباس انه نتف الريش والالقاء في الشمس وقيل أن يطلى بالقطران ويشمس وقيل أن يلقى للنمل فتأكله وقيل ابداعه القمص وقيل التفريق بينه وبين الفه وقيل لالزمنه صحبة الاضداد وعن بعضهم أضيق السجون معاشرة الاضداد وقيل لالزمنه خدمة أقرانه * أما قوله فمكث فقد قرئ بفتح الكاف وضمها غير بعيد غير زمان بعيد كقولك عن قريب ووصف مكثه بقصر المدة دلالة على اسراعه خوفا من سليمان وليعلم كيف كان الطير مستحضرا له أما قوله أحطت بما لم تحط به فمعناه تنبيه لسليمان على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علما بما لم يحط به فكيف بك في تركك الاعجاب والاحاطة بالشيء علما أن يعلم من جميع جهاته * أما قوله وجئتك من سبإ بنبإ يقين فاعلم أن سبا قرئ بالصرف ومنعه وقد روي بسكون الباء وعن ابن كثير في رواية سبا بالالف كقولهم ذهبوا أيدي سبا وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فمن جعله اسما للقبيلة لم يصرف ومن جعله اسما للحي أو للاب الاكبر صرف ثم سميت مدينة مأرب بسبا وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام والنبأ الخبر الذي له شأن وقوله من سبإ بنبإ من محاسن الكلام الذي تعانق باللفظ وشرط حسنه

صغر البعوض وكبر الفيل أي أنشأهما كذلك والفاء تفسيرية لان المحور المذكور وما عطف عليه ليسا مما يحصل عقيب جعل الجديدين آيتين بل هما من جملة ذلك الجعل ومقتضاه (وجعلنا آية النهار) أي الآية التي هي النهار على نحو ما مر (مبصرة) أي مضيئة يبصر فيها الاشياء وصفا لها بحال أهلها أو مبصرة للناس من أبصره فبصر وإما حقيقية وآية الليل والنهار نيرا هما ومحو القمر اما خلقه مطموسا النور في نفسه فالقفاء كما ذكر واما نقص ما استفاده من الشمس شيأ فشيأ الى المحاق على ما هو معنى المحو والفا للتعقيب وجعل الشمس مبصرة ابداعها مضيئة بالذات ذات أشعة تظهر بها الاشياء المظلمة (لتبتغوا) متعلق بقوله تعالى وجعلنا آية النهار كما أشير اليه أي وجعلناها مضيئة لتطلبوا لانفسكم في بياض النهار (فضلا من ربكم) أي رزقا اذ لا يتسنى ذلك في الليل وفي التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء رمز الى أن التعرض لصفة الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال شيأ فشيأ دلالة على أن ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب وانما الاعطاء الى الله سبحانه لا بطريق الوجوب عليه بل تفضلا بحكم الربوبية (ولتعلموا) متعلق بكلا الفعلين أعني محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة لا باحدهما فقط اذ لا يكون ذلك بانفراده مدارا للعلم المذكور أي لتعلموا بتفاوت

الجديدين أو غيرهما ذاتا من حيث الانظام والاضاءة مع تعاقبهما أو حركاتهما وأوضاعهما وسائر أحوالهما (عدد السنين) التي يتعلق بها غرض علمي لاقامة مصالحهم الدينية والدنيوية (والحساب) أي الحساب المتعلق بما في ضمنهما من الاوقات أي الاشهر والليالي والايام وغير ذلك مما نيط به شيء من المصالح المذكورة ونفس السنة من حيث تحققها ٤٤١ مما ينتظمها الحساب وانما الذي تعلق

صحة المعنى وافقد حاجة ومنازائد على الصحة بحسن لفظا ومعنى ألا ترى أنه لو وضع مكان بنا غيرها لكان المعنى صحيحا ولكن لفظ النا أولى لما فيه من الزيادة التي بطائفها وصف الحال أما قوله اني وجدت امرأة تملكهم فالمرأة بلقيس بنت شراحيل وكان أبوها ملك أرض اليمن وكانت هي وقومها مجوسا يعبدون الشمس والشمير في تملكهم راجع الى سبا فان أريد بالقوم فالامر ظاهر وان أريد المدينة فمعناه تملك أهلها * وأما قوله وأوتيت من كل شيء ففيه سؤال وهو أنه كيف قال وأوتيت من كل شيء مع قول سليمان وأوتينا من كل شيء فكان الهدهد سوى بينهما * جوابه أن قول سليمان عليه السلام يرجع الى ما أوتي من النبوة والحكمة ثم الى الملك وأسباب الدنيا وأما قول الهدهد فلم يكن الا الى ما يتعلق بالدنيا وأما قوله ولها عرش عظيم ففيه سؤال وهو أنه كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان وأيضا فكيف سوى بين عرش بلقيس وعرش الله تعالى في الوصف بالعظيم (والجواب عن الاول) يجوز أن يستصغرها الى حال سليمان فاستعظم لها ذلك العرش ويجوز أن لا يكون لسليمان مع جلالته مثله كما نجد نحن بعض الامراء شيئا لا يكون مثله عند السلطان وعن الثاني أن وصف عرشها بالعظم تعظيم له بالاضافة الى عروش أبناء جنسها من الملوك ووصف عرش الله بالعظم تعظيم له بالنسبة الى سائر ما خلق من السموات والارض * واعلم أن ههنا بحثين (البحث الاول) أن الملحدة طعنت في هذه القصة من وجوه (أحدها) أن هذه الآيات اشتملت على أن الملة والهدهد تكلما بكلام لا يصدر ذلك الكلام الا من العقلاء وذلك يشير الى السفسطة فانا لو جوزنا ذلك لما أمنا في النبوات التي نشاهدها في زماننا هذا أن تكون أعلم بالهندسة من أوقليدس وبالنجوم من بيوبه وكذا القول في القملة والصبيان ويجوز أن يكون قيام الانبياء بالتكاليف والمعجزات ومعلوم أن من جوز ذلك كان الى الجنون أقرب (وثانيها) أن سليمان عليه السلام كان بالشام فكيف طار الهدهد في تلك اللحظة اللطيفة من الشام الى اليمن ثم رجع اليه (وثالثها) كيف خفي على سليمان عليه السلام حال مثل تلك المملكة العظيمة مع ما يقال أن الجن والانس كانوا في طاعة سليمان وأنه عليه السلام كان ملك الدنيا بالكلية وكان تحت رايته بلقيس على ما يقال اثنا عشر ألف ملك تحت راية كل واحد منهم مائة ألف ومع أنه يقال أنه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد الا مسيرة ثلاثة أيام (ورابعها) من أين حصل للهدهد معرفة الله تعالى ووجوب التعبد له وانكار سجودهم للشمس وانه فتنهم الشيطان وزينه (والجواب عن الاول) أن ذلك الاحتمال قائم في أول العقل وانما يدفع ذلك بالاجماع (وعن الثواني) أن الايمان بافتقار العالم الى القادر المختار يزيل هذه الشكوك ﴿ البحث الثاني ﴾ قالت المعتزلة قوله يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم يدل على أن فعل العبد من جهته لانه تعالى أضاف ذلك الى الشيطان بعد اضافته اليهم ولانه أورده مورد الذم ولانه بين أنهم لا يهتدون * والجواب من وجوه (أحدها) أن هذا قول الهدهد فلا يكون حجة (وثانيها) انه متروك الظاهر فانه قال فصدهم عن السبيل وعندهم الشيطان ما صد الكافر عن السبيل اذ لو كان مصدودا عنه وعاجزا لسقط عنه التكليف فلم يبق ههنا الا التمسك بفصل المدح والذم والجواب قد تقدم عنه مرارا فلا فائدة في الاعادة والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والارض ويعلم ما يخفون وما يعلنون الله لا اله الا هو رب العرش العظيم قال ستنظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴾ وفيه مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ اعلم أن في قوله تعالى ألا يسجدوا قراءات (احداها) قراءة من قرأ بالتخفيف ألا للتنبيه وبا حرف النداء ومناداه محذوف كأنه قيل ألا يا اسجدوا لي يا رامي على المثل * (وثانيها)

والحساب أو نيرهما ذاتا من حيث الانظام والاضاءة مع تعاقبهما أو حركاتهما وأوضاعهما وسائر أحوالهما (عدد السنين) التي يتعلق بها غرض علمي لاقامة مصالحهم الدينية والدنيوية (والحساب) أي الحساب المتعلق بما في ضمنهما من الاوقات أي الاشهر والليالي والايام وغير ذلك مما نيط به شيء من المصالح المذكورة ونفس السنة من حيث تحققها ٤٤١ مما ينتظمها الحساب وانما الذي تعلق

(٥٦ - تفسير س) مراتب الاعداد من العشرات والمئات والالوف اعتباري لا يجدي في تفصيل المعدودات وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجودا وعلما على العكس للتنبيه من أول الامر على أن متعلق الحساب ما في ضمن عين السنين من الاوقات أو لان العلم المتعلق بعدد السنين علم اجمالي بما تعلق به الحساب تفصيلا أو لان العدد من حيث انه لم يعتبر فيه

بالعدد طائفة منها وتعلقه في ضمن ذلك بكل واحدة منها ليس من الحيثية المذكورة أعني حيثية تحققها وتحصلها من عدة أشهر فقد تحصل كل واحد منها من عدة أيام فقد حصل كل منها بطائفة من الساعات مثلا فان ذلك بتلك الحيثية الحساب بل من حيث انها أفراد من تلك الطائفة المعدودة بعددها أي بقيتها من غير أن يعتبر في ذلك تحصل شيء معين وتحققه ما مر في سورة يونس من أن الحساب احصاء ما له كمية متصلة بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها له اسم خاص وحكم مستقل كما أشير اليه آنفا والعد احصاؤه بمجرد تكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شيء كذلك ولما أن السنين لم يعتبر فيها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل أضيف اليها العدد وعلق الحساب بأعدادها مما اعتبر فيه تحصل مراتب معينة لها أسام خاصة وأحكام مستقلة وتحصل

تحصل شئ آخر منه حسبما ذكر نازل من الحساب المعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب أولان العلم المتعلق بالاول أقصى المراتب فكان جديرا بالتقديم في مقام الامتنان والله سبحانه أعلم (وكل شئ) تفتقرون اليه في المعاش والمعاد سوى ماذكر من جعل الليل والنهار آيتين وما يتبعه من المنافع الدينية ٤٤٣ والدنيوية وهو منصوب بفعل يفسره قوله تعالى (فصلناه تفصيلا) أي بيناه في القرآن

الكريم بيانا بليغا لا التباس معه كقوله تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ فظهر كونه هاديا للتي هي أقوم فظهر بنا بينا (وكل انسان) مكلف (ألزمناه طائره) أي عمله الصادر عنه باختياره حسبما قدر له كأنه طار اليه من عش الغيب ووكر القدر أو ماوقع له في القسمة الازلية الواقعة حسب استحقاقه في العلم الازلي من قولهم طار له سهم كذا (في عنقه) تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط أي ألزمناه عمله بحيث لا يفارقه أبدا بل يلزمه لزوم القلادة أو الغل للعنق لا ينفك عنه بحال وقرئ بسكون النون (ونخرج له) بنون العظمة وقد قرئ بالياء مبنيا للفاعل على أن الضمير لله عز وجل وللمفعول والضمير للطائر كما في قراءة يخرج من الخروج (يوم القيامة) والبعث للحساب (كتابا) مسطورا فيه ما ذكر من عمله نقيرا وقطميرا وهو مفعول لنخرج على القراءتين

اجمعوا

الاوليين وحال من المفعول المحذوف الراجع الى الطائر وعلى الاخريين حال من المستتر في الفعل من ضمير الطائر (يلقاه) أي يلقى الانسان أو يلقاه الانسان (منشورا) وهما صفتان للكتاب أو الاول صفة والثاني حال منها وقرئ يلقاه مبنيا للمفعول كذا أي

بالتشديد أراد قصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا وأخذف الجار مع أن ويجوز أن تكون لا مزيدة ويكون المعنى فهم لا يهتدون الى أن يسجدوا (وثالثها) وهي حرف عبد الله وقراءة الاعمش هلا بقلب الهمزة هاء وعن عبد الله هلا تسجدون بمعنى ألا تسجدون على الخطاب (ورابعتها) قراءة أبي ألا يسجدون لله الذي يخرج الخبء في السموات والارض ويعلم سركم وما تعلنون (المسئلة الثانية) قال أهل التحقيق قوله ألا يسجدوا يجب أن يكون بمعنى الامر لانه لو كان بمعنى المنع من السجود لم يكن لوصفه تعالى بما يوجب أن يكون السجود له وهو كونه قادرا على اخراج الخبء عالما بالاسرار معنى (المسئلة الثالثة) الآية دلت على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم أما القدرة فقوله يخرج الخبء في السموات والارض وسمى المخبوء بالمصدر وهو يتناول جميع أنواع الارزاق والاموال واخراجه من السماء بالغيث ومن الارض بالنبات وأما العلم فقوله ويعلم ما تخفون وما تعلنون واعلم ان المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وتحرير الدلالة هكذا ألا لله يجب أن يكون قادرا على اخراج الخبء وعالما بالخفيات والشمس ليست كذلك فهي لا تكون الها واذا لم تكن الها لم يجز السجود لها أما انه سبحانه وتعالى يجب أن يكون قادرا عالما على الوجه المذكور فلما أنه واجب لذاته فلا تختص قادريته وعالميته ببعض المقدورات والمعلومات دون البعض وأما أن الشمس ليست كذلك فلانها جسم متناه وكل ما كان متناهيا في الذات كان متناهيا في الصفات واذا كان كذلك فحينئذ لا يعلم كونها قادرة على اخراج الخبء عالمة بالخفيات فاذا لم يعلم من حالها ذلك لم يعلم من حالها كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار فرجع حاصل الدلالة الى ما ذكره ابراهيم عليه السلام في قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيأ وفي قوله لله الذي يخرج الخبء في السموات والارض وجه آخر وهو أن هذا اشارة الى ما استدل به ابراهيم عليه السلام في قوله ربي الذي يحيي ويميت وفي قوله ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب وذلك لانه سبحانه وتعالى هو الذي يخرج الشمس من المشرق بعد أفولها في المغرب فهذا هو اخراج الخبء في السموات وهو المراد من قول ابراهيم عليه السلام لا أحب الآفلين ومن قوله فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ومن قول موسى عليه السلام رب المشرق والمغرب وحاصله يرجع الى أن أفول الشمس وطلوعها يدلان على كونها تحت تدبير مدبر قاهر فكانت العبادة لقاهرها والمتصرف فيها لا لربي وأما اخراج الخبء من الارض فهو يتناول اخراج النطفة من الصلب والترائب وتكوين الجنين منه فان قبل ان ابراهيم وموسى عليهما السلام قد ساعدا لا لة الانفس على دلالة الآفاق فان ابراهيم قال ربي الذي يحيي ويميت ثم قال فان الله يأتي بالشمس من المشرق وموسى عليه السلام قال ربكم ورب آبائكم الاولين ثم قال رب المشرق والمغرب فلم كان الامر ههنا بالعكس فقدم خبء السموات على خبء الارض (جوابه) أن ابراهيم وموسى عليهما السلام ناظرا مع من ادعى الهية البشر فلا جرم ابتدآ بابطال الهية البشر ثم انتقلا الى ابطال الهية السموات وههنا المناظر مع من ادعى الهية الشمس لقوله وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فلا جرم ابتدأ بذكر السماوات ثم بالارضيات أما قوله الله لا اله الا هو رب العرش العظيم فالمراد منه أنه سبحانه لما بين اقتدار السموات والارض وما بينهما الى المدبر ذكر بعد ذلك أن ما هو أعظم الاجسام فهي مملوكة ومربوبة وذلك يدل على أنه سبحانه هو المنتهى في القدرة والربوبية الى ما لا مزيد عليه والله أعلم (المسئلة الرابعة) قيل من أحطت الى العظيم كلام الهدهد وقيل كلام رب العزة (المسئلة الخامسة) الحق أن سجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعا وهو قول الشافعي وأبي حنيفة رحمة الله عليهما لانهم

يا بقي الانسان اياه قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيآتك حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك في قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة (اقرأ كتابك) أي قائلين لك ذلك عن قتادة يقرأ ذلك اليوم من لم يكن في الدنيا قارئا وقيل ٤٤٣ المراد بالكتاب نفسه المتنقشة بآثار أعماله فان كل عمل يصدر من الانسان خيرا أو شرا يحدث منه في جوهر روحه أمر مخصوص الا انه يختفي ما دام الروح متعلقا بالبدن مشتغلا بواردات الحواس والقوى فاذا انقطعت علاقته عن البدن قامت قيامته لان النفس كانت ساكنة مستقرة في الجسد وعند ذلك قامت وتوجهت نحو المصعود الى العالم العلوي فيزول الغطاء وتنكشف الاحوال ويظهر على لوح النفس نقش كل شئ عمله في مدة عمره وهذا معنى الكتابة والقراءة (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) أي كفى نفسك والباء زائدة واليوم ظرف لكفى وحسيبا تمييز وعلى صلته لانه بمعنى الحاسب كالصريم بمعنى الصارم من حسب عليه كذا أو بمعنى الكافي ووضع موضع الشهيد لانه يكفي المدعي ما أهمه وتذكيره لان ما ذكر من الحساب والكفاية مما يتولاه

أجمعوا على أن سجدات القرآن أربع عشرة سجدة وهذا واحد منها ولان مواضع السجدة ما أمر بها أو مدح من أتى بها أو ذم من تركها واحدى القراءتين أمر بالسجود والاخرى ذم للتارك فثبت أن الذي ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد غير ملتفت اليه (المسئلة السادسة) يقال هل يفرق الواقف بين القراءتين (جوابه) نعم اذا خفف وقف على فهم لا يهتدون ثم يبتدأ بالا يسجدوا ان شاء وقف على ألا ثم يبتدأ اسجدوا واذا شدد لم يقف الا على العرش العظيم أما قوله فستنظر فن النظر الذي هو التأمل وأراد صدقت أم كذبت الآن أم كنت من الكاذبين أبلغ لانه اذا كان معروفا بالكذب كان متهما بالكذب فيما أخبر به فلا يوثق به وانما قال فألقه اليهم على لفظ الجمع لانه قال وجدتها وقومها يسجدون للشمس فقال فألقه اليهم الى الذين هذا دينهم أما قوله ثم تول عنهم أي تنح عنهم الى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك ويرجعون من قوله تعالى يرجع بعضهم الى بعض القول ويقال دخل عليها من كوة وألقى اليها الكتاب وتوارى في الكوة ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قالت يا أيها الملأ اني ألقي الي كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وأولو بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين﴾ اعلم أن قوله قالت يا أيها الملأ اني ألقي الى كتاب كريم يعني أن يقال ان الهدهد ألقى اليها الكتاب فهو محذوف كما ثبت روي أنها كانت اذا رقدت غلقت الابواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية وقيل بقرها فانتهت فزعة أما قوله كتاب كريم ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) حسن مضمونه وصافيه (وثانيها) وصفه بالكرم لانه من عند ملك كريم (وثالثها) أن الكتاب كان مختوما وقال عليه السلام كرم الكتاب ختمه وكان عليه السلام يكتب الى العجم فقيل له انهم لا يقبلون الا كتابا عليه خاتم فاتخذ لنفسه خاتما يه أما قوله انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ففيه ابحاث ﴿البحث الاول﴾ انما استأناف وتبين لما ألقي اليها كانها لما قالت اني ألقي كتاب كريم قيل لها ممن هو وما هو فقالت انه من سليمان وانه كيت وكيت وقرأ عبد الله وانه من سليمان وانه بسم الله عطفا على اني وقرئ أنه من سليمان وانه بالفتح وفيه وجهان (أحدهما) انه بدل من كتاب كانه قيل ألقي الى أنه من سليمان (وثانيهما) أن يريد انه من سليمان ولانه بسم الله كانها علمت كرمه بكونه من سليمان وتصدره بسم الله وقرأ أبي ان من سليمان وان بسم الله على أن المفسرة وان في ألا لو مفسرة أيضا ومعنى لا تعلوا لا تتكبروا كما تفعل الملوك وقرأ ابن عباس بالغين معجمة من الغلو وهي مجاوزة الحد ﴿البحث الثاني﴾ يقال لم قدم سليمان اسمه على قوله بسم الله الرحمن الرحيم (جوابه) حاشاه من ذلك بل ابتدأ هو بسم الله الرحمن الرحيم وانما ذكرت بلقيس ان هذا الكتاب من سليمان ثم حكت ما في الكتاب والله تعالى حكى ذلك فالتقديم والتأخير واقع في الحكاية ﴿البحث الثالث﴾ ان الانبياء عليهم السلام لا يطيلون بل يقتصرون على المقصود وهذا الكتاب مشتمل على تمام المقصود وذلك لان المطلوب من الخلق اما العلم أو العمل والعلم مقدم على العمل فقوله بسم الله الرحمن الرحيم مشتمل على اثبات الصانع سبحانه وتعالى واثبات كونه عالما قادرا رحيما بعباده حكيما رحيما وأما قوله ألا تعلوا علي فهو نهي عن الانقياد لطاعة النفس والهوى والتكبر وأما قوله وأتوني مسلمين فالمراد من المسلم اما المنقاد أو المؤمن فثبت أن هذا الكتاب على وجازته يحوي كل ما لا بد منه في الدين والدنيا فان قيل النهي عن الاستعلاء والامر بالانقياد قبل اقامة الدلالة على كونه رسولا حق يدل على الاكتفاء بالتقليد وانه معاذ الله أن يكون هناك تقليد وذلك لان رسول سليمان الرجال أولا وانه مبني على تأويل النفس بالشخص على أنها عبارة عن نفس المذكر كقول جبلة بن حريش

يا نفس ان لك بالذات مسرور * فاذكر فهل ينفعنك اليوم تذكير (من اهتدى فانما يهتدي لنفسه) فذلك مما تقدم من بيان كون القرآن هاديا للاقوام الطرائق ولزوم الاعمال لاصحابها أي من اهتدى بهدايته وعمل بما في تضاعيفه من الاحكام وانتهى عما نهاه عنه

فانما تعود منفعة اهتدائه الى نفسه لا تتخطاها الى غيره ممن لا يهتدى (ومن ضل) عن الطريقة التى يهديه اليها (فانما يضل عليها) أى فانما وبال ضلاله عليها لا على من عداه ممن لم يباشره حتى يمكن مفارقة العمل صاحبه (ولا تزر وازرة وزر أخرى) تأكيد للجملة الثانية أى لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس ٤٤٤ أخرى حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها ويحتمل ما بين العامل وعمله من

التلازم بل انما تحمل كل منهما وزرها وهذا تحقيق لمعنى قوله عز وجل وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه وأما ما يدل عليه قوله تعالى من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وقوله تعالى ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم من حمل الغير وزر الغير وانتفاء عنه بحسنته وتضرر بسيئته فهو فى الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه وتضرر بسيئته فان جزاء الحسنة والسيئة اللتين بعملهما العامل لازم له وانما الذى يصل الى من يشفع جزاء شفاعته لا جزاء أصل الحسنة والسيئة وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين وما يحمله المضلون انما هو جزاء الاضلال لا جزاء الضلال وانما خص الأكيد بالجملة الثانية قطعا للاطماع الفارغة حيث كانوا يزعمون أنهم ان لم يكونوا على الحق فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم (وما كنا معذبين) بيان للعناية لربانية اثر بيان اختصاص آثار الهداية والاضلال بفاعليها وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هدايته وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها أى وما صح وما استقام منا بل استحال فى سنتنا المبنية على الحكم البالغة أو ما كان فى حكمنا الماضى وقضائنا السابق أن نعذب أحدا من أهل الضلال الا وزارا كتفاء بقضية العقل

الى بلقيس كان الهدهد رسولا للهدهد معجزا يدل على وجود الصانع وعلى صفاته ويدل على صدق المدعى فلما كانت تلك الرسالة دلالة تامة على التوحيد والنبوة لا جرم لم يذكر فى الكتاب دليلا آخر أما قوله يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى فالفتوى هى الجواب فى الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتى فى السن أى أجيبونى فى الامر الفتى وقصدت بالانقطاع اليهم واستطلاع رأيهم تطييب قلوبهم ما كنت قاطعة أمرا أى لا أبت أمرا الا بمحضركم أما قوله قالوا نحن أولو قوة فالمراد بقوة الاجسام وقوة الآلات والمراد بالباس النجدة والثبات فى الحرب وحاصل الجواب أن القوم ذكروا أمرين (أحدهما) اظهار القوة الذاتية والعرضية لتظهر أنها ان أرادتهم للدفع والحرب وجدتهم بحيث تريد (والآخر) قولهم والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين وفى ذلك اظهار الطاعة لها ان أرادت السلم ولا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدوننى بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴿اعلم أنها لما عرضت الواقعة على أكابر قومها وقالوا ما تقدم اظهرت رأيها وهو ان الملوك اذا دخلوا قرية بالقهر أفسدوها أى خربوها وأذلوا أعزتها فذكرت لهم عاقبة الحرب وأما قوله وكذلك يفعلون فقد اختلفوا أهو من كلامها أو من كلام الله تعالى كالتصويب لها والاقرب انه من كلامها واما اذ كرته تأكيدا لما وصفته من حال الملوك فاما الكلام فى صفة الهدية فالناس أكثروا فيها لكن لا ذكر لها فى الكتاب وقولها فناظرة بم يرجع المرسلون فيه دلالة على انها لم تثق بالقبول وجوزت الرد وأرادت بذلك أن يتكشف لها غرض سليمان ولما وصلت الهدايا الى سليمان عليه السلام ذكر أمرين (الاول) قوله أتمدوننى بمال فأظهر بهذا الكلام قلة الاكتراث بذلك المال أما قوله بل أنتم بهديتكم تفرحون ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) أن الهدية اسم للمهدى كما أن العطية اسم للعطى فتضاف الى المهدى والى المهدى له والمضاف اليه ههنا هو المهدى اليه والمعنى أن الله تعالى آتانى الدين الذى هو السعادة القصوى وآتانى من الدنيا مالا مزيد عليه فكيف يستقيم مثلى يقبل هذه الهدية بل أنتم تفرحون بما يهدى اليكم لكن حالى خلاف حالكم (وثانيها) بل أنتم بهديتكم هذه التى أهديتموها تفرحون من حيث انكم قدرتم على اهداء مثلها (وثالثها) كأنه قال بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها (الثانى) قوله ارجع اليهم فقيل ارجع خطاب للرسول وقيل للهدهد حملا كما يا آخر أما قوله تعالى لا قبل لهم أى لا طاقة وحقيقة القبل المقارنة والمقابلة أى لا يقدرون أن يقابلوهم وقرأ ابن مسعود لا قبل لهم بهم والضمير فى منها للسبا والذل أن يذهب عنهم ما كان عندهم من العز والملك والصغار أن يقعوا فى أسر واستعباد ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعدان كانوا ملوكا ﴿قوله تعالى﴾ قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم ﴿اعلم أن فى قوله تعالى قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها دلالة على انها عزمت على اللحوق بسليمان ودلالة على ان أمر ذلك العرش كان مشهورا فأحب أن يحصل عنده قبل حضورها واختلفوا فى غرض سليمان عليه السلام من احضار ذلك العرش على وجوه (أحدها) ان المراد أن يكون ذلك دلالة

(حتى نبعث) اليهم (رسولا) يهديهم الى الحق ويردعهم عن الضلال ويقيم الحجج ويهدد الشرائع حسبما تقتضيه الكتاب المنزل عليه والمراد بالعذاب المنفي اما عذاب الاستئصال كما قاله الشيخ أبو منصور الماتريدي رحمه الله ٤٤٥ وهو المناسب للمعدة أو الجنس الشامل للدنيوي والاخروي وهو من أفراده وأيا ما كان فالبعث غاية لعدم صحة وقوعه في وقته المقدر له لا لعدم وقوعه مطلقا حتى لا والاخروي لا يمكن وقوعه عقيب البعث والدنيوي أيضا لا يحصل الا بعد تحقق مايوجبه من الفسق والعصيان لا ترى الى قوم نوح كيف تأخر عنهم حاصل بهم زهاء ألف سنة وقوله تعالى (واذا أردنا أن نهلك قرية) بيان لكيفية وقوع التعذيب بعد البعثة التي جعلت غاية لعدم صحته وليس المراد بالارادة تحققها بالفعل اذ لا يتخلف عنها المراد ولا الارادة الازلية المتعلقة بوقوع المراد في وقته المقدر له اذ لا يشارك الجزاء الآتي بل دنو وقتها كما في قوله تعالى أتى أمر الله أي واذا دنا وقت تعلق ارادتنا باهلاك قرية بأن نعذب أهلها بما ذكرنا من عذاب الاستئصال الذي بينا أنه لا يصح منا قبل البعثة أو نوع مما ذكرنا شأنه من مطلق العذاب أعني عذاب الاستئصال لما لهم من الظلم والمعاصي دون ما تقتضيه الحكمة من غير أن يكون له حد معين (أمرنا) بواسطة الرسول المبعوث الى أهلها (مترفيها) متنعميها وجبابرتها ولوكها خصهم بالذكر لمعرفتهم توجه الامر الى الكل لانهم الاصول في الخطاب والباقي أتباع لهم ولان توجه الامر اليهم آكد وعدم التعرض للمأمور به اما لظهور أن المراد به الحق والخير لان الله لا يأمر بالفحشاء لا سيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهدي اليه واما لان المراد وجده منا الامر كما يقال فلان يعطي ويمنع (ففسقوا فيها) أي خرجوا عن الطاعة وتمردوا (فحق عليها


البلقيس على قدرة الله تعالى وعلى نبوة سليمان عليه السلام حتى تنقاد هذه الدلالة الى سائر الدلائل التي سلفت (وثانيها) أراد أن يؤتى بذلك العرش فيغيره وينكره ثم يعرض عليها حتى اذا سئل تعرفه أو تنكره والمقصود اختبار عقلها وقوله تعالى قال نكروا لها عرشها انظر أتهتدي كالدلالة على ذلك (وثالثها) قال قتادة أراد ان يأخذه قبل اسلامها لعلمه انها اذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها (ورابعها) ان العرش سرير المملكة فأراد أن يعرف مقدار ما كتمها قبل وصولها اليه أما قوله قال عفريت من الجن فالعفريت من الرجال الخبيث المنكر الذي يعفر أقرانه ومن الشياطين الخبيث المارد أما قوله قبل أن تقوم من مقامك فالمعنى من مجلسك ولابد فيه من عادة معلومة حتى يصح أن يؤقت فقيل المراد مجلس الحكم بين الناس وقيل الوقت الذي يخطب فيه الناس وقيل الى انتصاف النهار وأما قوله لقوي أي على حمله أمين أي بما هو كما هو لا أختزل منه شيأ وأما قوله قال الذي عنده علم من الكتاب ففيه بحثان (الاول) اختلفوا في ذلك الشخص على قولين قيل كان من الملائكة وقيل كان من الانس فمن قال بالاول اختلفوا فقيل هو جبريل عليه السلام وقيل هو ملك أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام ومن قال بالثاني اختلفوا على وجوه (أحدها) قول ابن مسعود انه الخضر عليه السلام (وثانيها) وهو المشهور من قول ابن عباس انه آصف بن برخيا وزير سليمان وكان صديقا يعلم الاسم الاعظم اذا دعا به أجيب (وثالثها) قول قتادة رجل من الانس كان يعلم اسم الله الاعظم (ورابعها) قول ابن زيد كان رجلا صالحا في جزيرة في البحر خرج ذلك اليوم يتفرج في سليمان (وخامسها) بل هو سليمان نفسه والمخاطب والعفريت الذي كلمه وأراد سليمان أن عليه السلام اظهار معجزة فتحداهم أولا ثم بين للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الاتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت وهذا القول أقرب لوجوه (أحدها) ان لفظة الذي موضوعة في اللغة للاشارة الى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة والشخص المعروف بأنه عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام فوجب انصرافه اليه أقصى ما في الباب أن يقال كان آصف كذلك أيضا لكنا نقول ان سليمان عليه السلام كان أعرف بالكتاب منه لانه هو النبي فكان صرف هذا اللفظ الى سليمان عليه السلام أولى (الثاني) أن احضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية فلو حصلت لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان عليه السلام وانه غير جائز (الثالث) أن سليمان عليه السلام لو افتقر في ذلك الى آصف لاقتضى ذلك قصور حال سليمان في أعين الخلق (الرابع) أن سليمان قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر وظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان (البحث الثاني) اختلفوا في الكتاب فقيل اللوح المحفوظ والذي عنده علم منه جبريل عليه السلام وقيل كتاب سليمان أو كتاب بعض الانبياء ومعلوم في الجملة أن ذلك مدح وان لم نعلم الوصف تأثيرا في نقل ذلك العرش فلذلك قالوا انه الاسم الاعظم وان عنده وقعت الاجابة من الله تعالى في أسرع الاوقات ❊ أما قوله تعالى أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ففيه بحثان (الاول) آتيك في الموضعين يجوز أن يكون فعلا واسم فاعل (الثاني) اختلفوا في قوله قبل أن يرتد اليك طرفك على وجهين (الاول) انه أراد المبالغة في السرعة كما تقول لصاحبك افعل ذلك في لمحة وهذا قول مجاهد (الثاني) أن ضربه على ظاهره والطرف تحريك الاجفان عند النظر فاذا فتحت الجفن فقد ترتد طرفك أن نورا لعين ممتد الى المرئي واذا غمضت الجفن فقد ترتد طرفك أن ذلك النور ارتد الى العين فهذا هو المراد من ارتداد الطرف (وههنا سؤال) وهو أنه كيف يجوز والمسافة بعيدة أن ينقل العرش في هذا القدر من الزمان وهذا يقتضي اما القول بالطفرة أو حصول

القول) أى ثبت وتحقق موجبه بحلول العذاب اثر ما ظهر منهم من الفسق والطغيان (فدمرناها) بتدمير أهلها (تدميرا) لا يكتنه كنهه ولا يوصف هذا هو المناسب لما سبق وقيل الامر مجاز عن الحمل على الفسق والتسبب له بأن صب عليهم ما أبطرهم وأفضى بهم الى الفسوق وقيل هو بمعنى التكثير يقال أمرت ٤٤٦ الشئ فامرأى كثرته فكثر وفى الحديث خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أى كثيرة

الجسم الواحد دفعة واحدة فى مكانين (جوابه) أن الهندسيين قالوا كرة الشمس مثل كرة الارض مائة وأربعة وستين مرة ثم ان زمان طلوعها زمان قصير فاذا قسمنا زمان طلوع تمام القرص على زمان القدر الذى بين الشام واليمن كانت اللجمة كثيرة فلما ثبت عقلا امكان وجود هذه الحركة السريعة وثبت أنه تعالى قادر على كل الممكنات زال السؤال ثم انه عليه السلام لما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر والكلام فى تفسير الابتلاء قد مر غير مرة ثم انه عليه السلام بين أن نفع الشكر عائد الى الشاكر لا الى الله تعالى أما انه عائد الى الشاكر فلوجوه (أحدها) أنه يخرج عن عهدة ما وجب عليه من الشكر (وثانيها) انه يستحق به المزيد على ما قال لئن شكرتم لازيدنكم (وثالثها) أن المشتغل بالشكر مشتغل بالمنعم والمعرض عن الشكر مشتغل باللذات الحسية وفرق ما بينهما كفرق ما بين المنعم والنعمة فى الشرف ثم قال ومن كفر فان ربى غنى كريم غنى عن شكره لا يضره كفرانه كريم لا يقطع عنه نعمه بسبب اعراضه عن الشكر ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين﴾ اعلم أن قوله نكروا معناه اجعلوا العرش منكرا مغيرا عن شكله كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه وذلك لانه لو ترك على ما كان لعرفته لاحالة وكان لا تدل معرفتها به على ثبات عقلها واذا غيرت لم تعرفها أو توقفها فيه على فضل عقل ولا يمتنع صحة ما قيل ان سليمان عليه السلام ألقى اليها ان فيها تمثالا من عقل لكى لا يتزوجها أو لا تحظى عنده على وجه الحسد فأراد عباد كرنا اختبار عقلها أما قوله ننظر فقرئ بالجزم على الجواب وبالرفع على الاستئناف واختلفوا فى أتهتدى على وجهين (أحدهما) أتعرف انه عرشها أم لا كما قدمنا (الثانى) أتعرف به نبوة سليمان أم لا ولذلك قال أم تكون من الذين لا يهتدون وذلك كالدليل ولا يليق الا بطريقة الدلالة فكأنه عليه السلام أحب أن تنظر فتعرف به نبوته من حيث صار منتقلا من المكان البعيد الى هنالك وذلك يدل على قدرة الله تعالى وعلى صدق سليمان عليه السلام ويعرف بذلك أيضا فضل عقلها الاغراض كانت له فعند ذلك سألها أما قوله أهكذا عرشك فاعلم أن هكذا ثلاث كلمات حرف التنبيه وكاف التشبيه واسم الاشارة ولم يقل أهذا عرشك ولكن أمثل هذا عرشك لئلا يكون تلقينا فقالت كأنه هو ولم تقل هو ولا ليس به وذلك من كمال عقلها حيث توقفت فى محل التوقف ﴿أما قوله وأوتينا العلم من قبلها ففيه سؤالان وهو ان هذا الكلام كلام من وأيضا فعلى أى شئ عطف هذا الكلام وعلى ماذا يعود الضمير فى قبلها (الاول) أنه كلام سليمان وقومه وذلك لان بلقيس لما سئلت عن عرشها ثم انها أجابت بقولها كأنه هو فالظاهر ان سليمان وقومه قالوا انها قد أصابت فى جوابها وهى عاقلة لبيبة وقد رزقت الاسلام ثم عطفوا على ذلك قولهم وأوتينا العلم من قبلها يعنون انا علمنا بالله وبقدرته قبل علمها وكون غرضهم من ذلك شكر الله تعالى فى أن خصهم بمزية التقدم فى الاسلام (الثانى) انه من كلام بلقيس موصولا بقولها كأنه هو والمعنى وأوتينا العلم بالله وبصحة نبوة سليمان قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة بيان ان قولها وصدها ما كانت تعبد من دون الله الى آخر الآية يكون من كلام رب العزة ﴿أما قوله تعالى وصدها ما كانت تعبد من دون الله ففيه وجهان (الاول) المراد وصدها عبادتها لغير الله عن الايمان (الثانى) وصدها الله أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وايصال الفعل وقرئ أنها بالفتح على انه بدل من فاعل صد أو بمعنى لانها واحتجت المعتزلة بهذه الآية فقالوا لو كان تعالى خالق الكفر فيها لم يكن الصادها كفرها المتقدم ولا كونها من جملة الكفار بل كان يكون الصادها

عن

فيعاقب عليها وتقديم الخبر لتقدم ما هو له من الاعتقادات والنيات التى هى مبادى الاعمال الظاهرة أو لعمومه حيث يتعلق بغير المبعوث أيضا وفيه اشارة الى أن البعث والامر وما يقارنهما من فسحة لهم ليس لتحصيل العلم بما صدر عنهم من الذنوب فان ذلك حاصل قبل

ذلك وأغناهم لانقطاع الاعذار ولزام الحجة من كل وجه (من كان يريد) بأعماله التي يعملها سواء كان ترتب المراد عليها بطريق الجزاء كأعمال البر أو بطريق ترتب المعلولات على العلل كالاسباب أو بأعمال الآخرة فالمراد بالمريد على الاول الكفرة وأكثر الفسقة وعلى الثاني أهل الرياء والنفاق والمهاجر للدنيا والمجاهد لمحض الغنيمة (العاجلة) فقط ٤٤٧ من غير أن يريد معها الآخرة كما

عن الايمان تحدد خلق الله الكفر فيها والجواب أما على التأويل الثاني فلا شك في سقوط الاستدلال وأما على الاول فجوابنا أن كونها من جملة الكفار صار سببا لحصول الداعية المستلزمة للكفر وحينئذ يبقى ظاهر الآية موافقا لقولنا والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ اعلم انه تعالى لما حكى اقامتهم على الكفر مع كل ما تقدم من الدلائل ذكر أن سليمان عليه السلام أظهر من الامر ما صار داعيا لها الى الاسلام وهو قوله قيل لها ادخلي الصرح والصرح القصر كقوله باهامان ابن لي صرحا وقيل صحن الدار وقرأ ابن كثير عن سأقيها بالهمز ووجهه أنه سمع ؤقا فأجرى عليه الواحد والممرد الملمس روى أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها بتي له على طريقها قصر من زجاج أبيض كالماء بياضا ثم أرسل الماء تحته وألقى فيه السمك وغيره ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكف عليه الانس والجن والطير وانما فعل ذلك ليزيدها الى سنة نظاما لامره وتثبتا في نبوته وزعموا أن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضي اليه بأسرارهم لانها كانت بنت جنية وقيل خافوا أن يولد له منها ولد فيجتمع له قوة الجن والانس فيخرجون من ملك سليمان الى ملك هو أشد فقالوا ان في عقلها نقصا وانها شعراء الساقين وربما كحا فرجمارا فاختبر سليمان عقلها بتنكير العرش واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ومعلوم من حال الزجاج الصافي انه يكون كالماء فلما أبصرت ذلك ظنته ماء راكدا فكشفت عن ساقيها لتخوضه فاذا هي أحسن الناس ساقا وقدما وهذا على طريقة من يقول تزوجها وقال آخرون كان المقصود من الصرح تهويل المجلس وتعظيمه وحصل كشف الساق على سبيل التبع فلما قيل لها هو صرح ممرد من قوارير استرجعت وعجبت من ذلك واستدلت به على التوحيد والنبوة فقالت رب اني ظلمت نفسي فيما تقدم بالشبات على الكفر ثم قالت وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين وقيل حسبت ان سليمان عليه السلام يغرقها في اللجة فقالت ظلمت نفسي بتعرضي لسليمان واختلفوا في انه هل تزوجها أم لا والذي يدل على أنه تزوجها في هذا الحال أو قبل أن كشفت عن ساقيها والاظهر في كلام الناس انه تزوجها وليس لذلك ذكر في الكتاب ولا في خبر مقطوع بصحته ويروى عن ابن عباس انه لما أسلمت قال لها اختاري من قومك من أزوجك منه فقالت مثلي لا ينكح الرجال مع سلطاني فقال النكاح من الاسلام فقالت ان كان كذلك فزوجني ذا تبع ملك همدان فزوجها اياه ثم ردهما الى اليمن ولم يزل بها ملكا والله أعلم ﴿القصة الثالثة﴾ قصة صالح عليه السلام ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وانا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ قرئ أن اعبدوا الله بالضم على اتباع النون الباء أما قوله فاذا هم فريقان ففيه قولان (أحدهما) المراد فريق مؤمن وفريق كافر (الثاني) المراد قوم صالح قبل أن يؤمن منهم أحد أما قوله يختصمون فلمعنى ان الذين آمنوا انما آمنوا لانهم نظروا في حجته فميزوا صحتها واذا كان كذلك فلا بد وأن يكون خصمهم لم يقبلها واذا كان هذا لاختلافهم في باب الدين دل ذلك على أن الجدال في باب الدين حق وفيه ابطال التقليد ﴿أما قوله ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ففيه

يتبرأ عنه الاستغفار المستفاد من زيادة كان ههنا مع الاقتصار على مطلق الارادة في قسيمه والمراد بالعاجلة الدار الدنيا وبارادتها ارادة ما فيها من فنون مطالبها كقوله تعالى ومن كان يريد حرث الدنيا ونحوه أن يراد الحياة العاجلة كقوله عز وجل من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها لكن الاول أنسب بقوله (عجلنا له فيها) أي في تلك العاجلة فان الحياة واستمرارها من جملة ما عجل له فالانسب بذلك كلمة من كما في قوله تعالى ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها (ما نشاء) أي ما نشاء تعجيله له من نعيمها لا كل ما يريد (لمن نريد) تعجيل ما نشاءه له وهو بدل من الضمير في له باعادة الجار بدل البعض فانه راجع الى الموصول المنبئ عن الكثرة وقرئ لمن يشاء على أن الضمير لله سبحانه وقيل هو لمن فيكون مخصوصا بمن أراد به ذلك وهو واحد من الدهماء وتقييد المعجل والمعجل له بما ذكر من المشيئة والارادة لما أن الحكمة التي عليها يدور فلك التكوين لا تقتضي وصول كل طالب الى مرامه ولا استيفاء كل واصل لما يطلبه بتمامه وأما ما يتراءى من قوله تعالى من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون من نيل كل مؤمل لجميع آماله ووصول كل عامل الى نتيجة أعماله فقد أشير الى تحقيق القول فيه في سورة هود بفضل الله تعالى (ثم جعلنا له) مكان ما عجلنا

له (جهنم) ومافيها من أصناف العذاب (يصلاها) يدخلها وهو حال من الضمير المجرور أو من جهنم أو استئناف (مذموما مدحورا) مطرودا من رحمة الله تعالى وقيل الآية في المنافقين كانوا يراؤن المسلمين ويغزون معهم وليس لهم غرض في الغنائم ونحوها وبأيا ما يقال ان السورة مكية سوى ٤٤٨ آيات معينة (ومن أراد) بأعماله (الآخرة) الدار الآخرة ومافيها من النعيم المقيم

(وسعى لها سعيها) أي السعي اللائق بها وهو الاتيان بما أمر والانتهاء عما نهى لا التقرب بما يخترعون بآرائهم وفائدة اللام اعتبار النيـــــة والاخلاص (وهو مؤمن) ايمانا صحيحا لا يخالطه شئ قادح فيه وأراد الايمان بالجملة الحالية للدلالة على اشتراط مقارنته لما ذكر في حد الصلة (فأولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وما في ذلك من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم والجمعية لمراعاة جانب المعنى كما ان الافراد في المفهومة من الخبر يقع على وجه الاجتماع أي أولئك الجامعون لما مر من الخصال الحميدة أعني ارادة الآخرة والسعي الجميل لها والايمان (كان سعيهم مشكورا) مقبولا عند الله تعالى أحسن القبول مثابا عليه وفي تعليق المشكورية بالسعي دون فاعليه اشعار بأنه المعتد فيها (كلا) التنوين عوض عن المضاف اليه أي كل واحد من الفريقين لا الفريق الآخير المريد للخير الحقيقي بالاسعاف فقط (نمد) أي نزيد مرة بعد مرة بحيث يكون لا آخر مدد السالف وبابه الامداد في الخير والشر (هؤلاء) العاجلة (وهؤلاء) الآخرة (من عطاء ربك) الدنيوي (وما كان عطاء ربك محظورا) ممنوعا عن أحد من البر والفاجر وفهو

يحتمل (الأول) في تفسير استعجال السيئة قبل الحسنة وجهان (أحدهما) ان الذين كذبوا صالحا عليه السلام لما لم ينفعهم الحاح وعدهم صالح عليه السلام بالعذاب فقالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين على وجه الاستهزاء فعنده قال صالح لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة والمراد أن الله تعالى قد مكنكم من التوصل الى رحمته تعالى وثوابه فلما ذا تعدلون عنه الى استعجال عذابه (وثانيهما) أنهم كانوا يقولون لجهلهم ان العقوبة التي يعدها صالح ان وقعت على زعمه بنا حسنة فنحن نستغفر فحينئذ يقبل الله توبتنا ويدفع العذاب عنا فخاطبهم صالح على حسب اعتقادهم وقال هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب لعلكم ان استعجل الخير أولى من استعجال الشر (البحث الثاني) أن المراد بالسيئة العقاب وبالحسنة الثواب فلما وصف العذاب بانه سيئة فهو مجاز وسبب هذا التجويز لما ان العقاب من لوازمه أو لانه يشبهه في كونه مكروها وأما وصف الرحمة بانها حسنة فنهم من قال انه حقيقة ومنهم من قال انه مجاز والاول أقرب ثم ان صالحا عليه السلام لما قرر هذا الكلام الحق أجابوه بكلام فاسد وهو قولهم اطيرنا بك أي تشاءمنا بك لان الذي يصيبنا من شدة وقحط فهو بشؤمك وبشؤم من معك قال صاحب الكشاف كان الرجل يخرج مسافرا فيمر بطائر فيزجره فان مر سانحا تيامن وان مر بارحا تشاءم فلما نسبوا الخير والشر الى الطائر استعير لما كان للخير والشر وهو قدر الله وقسمته فأجاب صالح عليه السلام بقوله طائركم عند الله أي السبب الذي منه يجيء خيركم وشركم عند الله وهو قضاؤه وقدره ان شاء رزقكم وان شاء أحرمكم وقيل بل المراد ان جزاء الطيرة منكم عند الله وهو العقاب والاقرب الوجه الاول لان القوم أشاروا الى الامر الحاصل فيجيب في جوابه ان يكون فيه لا في غيره ثم بين أن هذا الجهل منهم بقوله بل أنتم قوم تفتنون فيحتمل أن غيرهم دعاهم الى هذا القول ويحتمل أن يكون المراد ان الشيطان يفتنكم بوسوسته ثم انه سبحانه قال وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض والاقرب أن يكون المراد تسعة جمع اذ الظاهر من الرهط الجماعة لا الواحد ثم يحتمل أنهم كانوا قبائل ويحتمل أنهم دلت الواقعة لاختلاف صفتهم وأحوالهم لا لاختلاف السبب فبين تعالى أنهم يفسدون في الارض ولا يتركون شيئا من ذلك الفساد ثم قال فلهذا قال يفسدون في الارض ولا يصلحون ثم بين تعالى أن من جملة ذلك ما هموا به من أمر صالح عليه السلام أما قوله تقاسموا بالله فيحتمل أن يكون أمرا أو خبرا في محل الحال باضمار قد أي قالوا متقاسمين والبيات مباغتة العدو ليلا أما قولهم لنقتلنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله يعني لو أتانا منه ومن حلفائه ما أتانا نحضر ونرى مهلك بفتح الميم واللام وكسرهما من هلك ومهلك بضم الميم من أهلك ويحتمل المصدر والمكان والزمان ثم انه سبحانه قال ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون وقد اختلفوا في مكر الله تعالى على وجوه (أحدها) أن مكر الله أملاكهم من حيث لا يشعرون شبه مكرا لما كر على سبيل الاستعارة روي انه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحرف شعب يصلي فيه فقالوا لازعم صالح أنه يفرغ منا الى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فنخرج الى الشعب وقالوا اذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا الى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة فطبقت الصخرة عليهم فهلكوا وهلك الباقون بالصيحة (وثانيها) جاؤا بالليل شاهرين سيوفهم وقد أرسل الله تعالى الملائكة مثل عدد أرض صالح فدمغوهم بالحجارة يرون الاحجار ولا يرون راميها (وثالثها) أن الله تعالى أخبر صالحا بمكرهم فأخبر قومه بذلك مكر الله تعالى في حقهم أما قوله انا دمرناهم استئناف ومن قرأ بالفتح رفعه بدلا من العاقبة أو خبر مبتدا محذوف تقديره هي تدميرهم أو نصبه على معنى لانا أو على انه خبر كان أي كان عاقبة مكرهم الدمار أما قوله خاوية

فهو

عليه وقوله تعالى (هؤلاء) بدل من كلا (وهؤلاء) عطف عليه أى غذه ولاء المعجل لهم وهؤلاء المشكورسيهم فان الاشارة متعرضة لذات المشار اليه بمالة من العنوان لا للذات فقط كالاضمار ففيه تذكير لما به الامداد وتعيين للمضاف اليه المحذوف دفعا للتوهم كونه افراد الفريق الاخير وتأكيد للقصر المستفاد من تقديم المفعول وقوله تعالى (من عطاء ٤٤٩ ربك) أى من معطاه الواسع الذى لاتناهى له متعلق بنمد ومعنى عدم ذكر مايه الامداد ومنعه على ان الامداد المذكور ليس بطريق الاستيجاب بالسعى والعمل بل بمحض التفضل (وما كان عطاء ربك) اى دنيويا كان أو اخرويا وانما أظهر اظهارا لمزيد الاعتناء بشأنه واشعارا بعليته للحكم (محظورا) ممنوعا ممن يريده بل هو فائض على من قدر له بموجب المشيئة المبنية على الحكمة وان وجد منه مايقتضى الحظر كالكفر وهو فى معنى التعليل لشمول الامداد للفريقين والتعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين للاشعار بعلة ثبوتها لماذكر من الامداد وعدم الحظر (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) كيف فى محل النصب بفضلنا على الحالية والمراد توضيح مامر من الامداد وعدم محظورية العطاء بالتنبيه على استحضار مراتب أحد العطائين والاستدلال بها على مراتب الاخرى أى انظر

فهو حال عمل فيها مادل عليه تلك وقرأ عيسى بن عمر بخلاف عنه بالرفع على خبر المبتدا المحذوف والله أعلم
﴿القصة الرابعة﴾ قصة لوط عليه السلام ﴿ قوله تعالى ﴿ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فأنجيناه وأهله الا امرأته قدرناها من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين﴾ قال صاحب الكشاف واذكر لوطا أو أرسلنا لوطا بدلالة ولقد أرسلنا عليه واذ بدل على الاول ظرف على الثانى أما قوله أتأتون الفاحشة فهو على وجه التنكير وان كان بلفظ الاستفهام وربما كان التوبيخ بمثل هذا اللفظ أبلغ ﴿ أما قوله وأنتم تبصرون ففيه وجوه (أحدها) انهم كانوا لايتحاشون من اظهار ذلك على وجه الخلاعة ولا يتكاتمون وذلك أحد ما لاجله عظم ذلك الفعل منهم فذكر فى توبيخه لهم مالة عظم ذلك الفعل (وثانيها) ان المراد بصر القلب أى تعلمون انها فاحشة ثم تسيقوا اليها وان الله تعالى لم يخلق الذكر فهى معاندة لله فى حكمته (وثالثها) تبصرون آثار العصاة قبلكم ومانزل بهم فان قلت فسرت تبصرون بالعلم وبعده بل أنتم قوم تجهلون فكيف يكونون عالمين وجهلاء قلت أراد تفعلون فعل الجاهلين بانها فاحشة مع علمكم بذلك أو تجهلون العاقبة أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التى كانوا عليها ثم انه تعالى بين جهلهم بان حكى عنهم انهم أجابوا عن هذا الكلام بما لايصلح أن يكون جوابا له فقال فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فجعلوا الذى لاجله يخرجون انهم يتطهرون من هذا الصنيع الفاحش وهذا بأن يوجب تعييرهم وتعظيمهم أولى لكن فى المفسرين من قال انما قالوا ذلك على وجه الهزؤ ثم بين تعالى أنه نجاه وأهله الا امرأته وأهلك الباقين وقد تقدم كل ذلك مشروحا والله أعلم وههنا آخر القصص فى هذه السورة والله أعلم
﴿القول﴾ فى خطاب الله عز وجل مع محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قوله تعالى ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون﴾ فى هذه الآية قولان (الاول) انه متعلق بما قبله من القصص والمعنى الحمد لله على اهلاكهم وسلام على عباده الذين اصطفى بأن أرسلهم وبجاهم (الثانى) أنه مبتدأ فانه تعالى لما ذكر أحوال الانبياء عليهم السلام وكان محمد صلى الله عليه وسلم كالمخالفين قبله فى أمر العذاب لان عذاب الاستئصال مرتفع عن قومه أمره تعالى بأن يشكر ربه على ماخصه به من النعم وبأن يسلم على الانبياء عليهم السلام الذين صبروا على مشاق الرسالة فأما قوله آلله خير أما يشركون فهو تبكيت للمشركين وتهكم بحالهم وذلك انهم آثروا عبادة الاصنام على عبادة الله تعالى ولا يؤثر عاقل شيأ على شئ الا لزيادة خير ومنفعة فقيل لهم هذا الكلام تنبيها على نهاية ضلالهم وجهلهم وقرئ يشركون بالياء والتاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا قرأها قال بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم ثم أعلم أى سبحانه وتعالى تكلم بعد ذلك فى عدة فصول ﴿الفصل الاول﴾ فى الرد على عبدة الاوثان ومدار هذا الفصل على بيان أنه سبحانه وتعالى هو الخالق لاصول النعم وفروعها فكيف تحسن عبادة مالا منفعة منه البتة ثم انه سبحانه وتعالى ذكر أنواعا ﴿النوع الاول﴾ مايتعلق بالسموات ﴿ قوله تعالى ﴿أمن خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال صاحب الكشاف الفرق بين أم ورأم فى أما يشركون وأمن خلق ان الاولى منقطعة لان المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والحديقة البستان عليه سور من الاحداق وهو الاحاطة وقيل ذات لان المعنى جماعة حدائق ذات بهجة كما يقال النساء ذهبت والبهجة الحسن لان الناظر يبتهج

بنظر الاعتبار كيف فضلنا بعضهم على بعض فيما أمددناهم به من العطايا الى الماجل فمن وضيع ورفيع وطالع وضليع ومالك ومملوك وموسر وصعلوك تعرف بذلك مراتب العطا والاجلة ودرجات تفاضل أهلها على طريقة الاستشهاد بحال الادنى على حال الاعلى كما أفصح عنه قوله تعالى (وللآخرة أكبر) أى هى وما فيها أكبر من الدنيا وقرئ أكثر (درجات وأكبر

تفضلا) لان التفاوت فيها بالجلة ودرجاتها العالمة التي لا يقادر قدرها ولا يكتنه كنهها كيف لا وقد عبر عنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر هذا ويجوز أن يراد بما يليه الأمداد العطايا العاجلة فقط ويحمل القصر المذكور على دفع توهم اختصاصها بالفريق الاول فان تخصيص ارادتهم لها ٤٥٠ ووصولهم اليها بالذكر من غير تعرض لبيان النسبة بينها وبين الفريق الثاني ارادة ووصولا

به الله مع الله أحد غيره يقرن به ويجعل شريكا له وقرئ ألها مع الله بمعنى تدعون أو تشركون ﴿المسئلة الثانية﴾ انه تعالى بين انه الذي اختص بان خلق السموات والارض وجعل السماء مكانا للماء والارض للنبات وذكر أعظم النعم وهي الدلائل ذات الجهة ونبه تعالى على أن هذا الانبات في الجسد ائق لا يقدر عليه الا الله تعالى لان أحدنا لو قدر على ما احتاج الى غرس ومصابرة على ظهور الثمرة واذا كان تعالى هو المختص بهذا الانعام وجب أن يخص بالعبادة ثم قال بل هم قوم يعدلون وقد اختلفوا فيه فقيل يعدلون عن هذا الحق الظاهر وقيل يعدلون بالله سواه ونظير هذه الآية أول سورة الانعام ﴿المسئلة الثالثة﴾ يقال ما حكمة الالتفات في قوله فأنبتنا جوابه انه لا شبهة للعاقل في أن خالق السموات والارض ومنزل الماء من السماء ليس الا الله تعالى وربما عرضت الشبهة في أن منبت الشجرة هو الانسان فان الانسان يقول أنا الذي ألقي البذر في الارض المرة وأسقيها الماء وأسعى في تشميسها وفاعل السبب فاعل للمسبب فاذن أنا المنبت للشجرة فلما كان هذا الاحتمال قائما لا جرم أزال هذا الاحتمال فرجع من لفظ الغيبة الى قوله فأنبتنا وقال ما كان لكم أن تنبتوا شجرها لان الانسان قد يأتي بالبذر والسقي والكرب والتشميس ثم لا يأتي على وفق مراده والذي يقع على وفق مراده فانه يكون جاهلا بطبعه ومقداره وكيفيته فكيف يكون فاعلا لها فلهذه النكتة حسن الالتفات ههنا ﴿النوع الثاني﴾ ما يتعلق بالارض ﴿قوله تعالى﴾ ﴿أمن جعل الارض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ قال صاحب الكشاف أمن جعل وما بعده بدل من أمن خلق فكان حكمها حكمه واعلم أنه تعالى ذكر من منافع الارض أمورا أربعة ﴿المنفعة الاولى﴾ كونها قرارا ردلك لوجوه (الاول) أنه دحاها وسواها للاستقرار (الثاني) انه تعالى جعلها متوسطة في الصلابة والرخاوة فليست في الصلابة كالحجر الذي يتألم الانسان بالاضطجاع عليه وليست في الرخاوة كالماء الذي يغوص فيه (الثالث) انه تعالى جعلها كثيفة غبراء ليستقر عليها النور ولو كانت لطيفة لما استقر النور عليها ولو لم يستقر النور عليها لصارت من شدة برد هاحيث تموت الحيوانات (الرابع) انه سبحانه يجعل الشمس بسبب ميل مدارها عن مدار منطقة الكل بحيث تبعد تارة وتقرب أخرى من سمت الرأس ولولا ذلك لما اختلفت الفصول ولما حصلت المنافع (الخامس) أنه سبحانه وتعالى جعلها ساكنة فانها لو كانت متحركة لكانت اما متحركة على الاستقامة أو على الاستدارة وعلى التقديرين لا يحصل الانتفاع بالسكنى على الارض (السادس) أنه سبحانه جعلها كفاتا للاحياء والاموات وأنه تطرح عليها كل قبيح ويخرج منها كل مليح ﴿المنفعة الثانية للارض﴾ قوله وجعل خلالها أنهارا فاعلم أن أقسام المياه المتبعثة عن الارض أربعة (الاول) مياه العيون السيالة وهي تنبعث من أحجار كثيرة المادة قوية الانتفاع تفجر الارض بقوة ثم لا يزال يستتبع جرة منها جرا (الثاني) ماء العيون الراكدة وهي تحدث من أحجار لفت من قوتها أن اندفعت الى وجه الارض ولم تباع من قوتها وكثرة مادتها أن يطرد تالبع اسابيقها (الثالث) مياه القنى والانهار وهي متولدة عن أحجار ناقصة القوة عن أن تشق الارض فاذا زال عن وجهها ثقل التراب صادفت حينئذ تلك الاحجار منفذا تندفع اليه بأدنى حركة (الرابع) مياه الآبار وهي تنبعة كمياه الانهار الا أنه لم يجعل له سبيل الى موضع يسيل اليه ونسبة القنى الى الآبار نسبة العيون السيالة الى العيون الراكدة فقد ظهر أنه لولا صلابة الارض لما احتجمت تلك الاحجار في باطنها ولولا اجتماعها في باطنها لما حدثت هذه العيون في ظاهرها ﴿المنفعة الثالثة للارض﴾ قوله وجعل لها رواسي والمراد منها الجبال فنقول أكثر العيون والسحب والمعدنيات انما

مما يوهم اختصاصها بالاولين فالمعنى كل واحد من الفريقين نمد بالعطايا العاجلة لا من ذكرنا ارادته لها فقط من الفريق الاول من عطاء ربك الواسع وما كان عطاؤه الدنيوي محظورا من أحد ممن يريده ومن يريد غيره أنظر كيف فصلنا في ذلك العطاء بعض كل من الفريقين على بعض آخر منهما ولا آخرة الا ثمة واعتبار عدم المحظورية بالنسبة الى الفريق الاول تحقيقا لشمول الامداد له كما قاله الجمهور وحيث قالوا لا يمنعه من عاص لعصيانه يقتضي كون القصر لدفع توهم اختصاص الامداد الدنيوي بالفريق الثاني مع أنه لم يسبق في الكلام ما يوهم ثبوته له فضلا عن ايهام اختصاصه (لا تجعل مع الله الها آخر) الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد منه أمته وهو من باب التهييج والالهاب أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب (فتقعد) بالنصب جوابا للنهي والقعود بمعنى

الصيرورة من قولهم قعدت الشفرة حتى قعدت كأنها حربة أو بمعنى العجز من قعد عنه تكون

أي تعجز عنه (مذموما مخذولا) خبران أو حالان أي جامعا على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين والخذلان من الله تعالى وفيه اشعار بأن الموحد جامع بين المدح والنصرة (وقضى ربك) أي أمر أمرا مبرما وقرئ وأوصى ربك ووصى ربك (ألا تعبدوا) أي بأن لا تعبدوا (الا اياه) على أن أن مصدرية ولا نافية أو أي لا تعبدوا على أنها مفسرة ولا ناهية لان العبادة غاية التعظيم فلا تحق الا

من له غاية العظمة ونهاية الانعام وهو كالتفصيل للسعي للآخرة (و بالوالدين) أي و بأن تحسنوا بهما أو وأحسنوا بهما (احسانا) لانهما السبب الظاهر للوجود والتعيش (اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) امام كبة من ان الشرطية وما المزيدة لتأكيدها ولذلك دخل الفعل نون التأكيد ومعنى عندك في كنفك وكفالتك وتقديمه على المفعول مع أن حقه ٤٥١ التأخير عنه للتشويق الى وروده فانه

مدار تضاعف الرعاية والاحسان واحدهما فاعل للفعل وتأخيره عن الظرف والمفعول لئلا يطول الكلام به وما عطف عليه وقرئ بلغان فاحدهما بدل من ضمير التثنية وكلاهما عطف عليه ولا سبيل الى جعل كلاهما تأكيدا للضمير ولتوحيد ضمير الخطاب في عندك وفيما بعده مع أن ما سبق على الجمع للاحتراز عن التباس المراد فان المقصود نهي كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما ولو قوبل الجمع بالجمع أو بالتثنية لم يحصل هذا المرام (فلا تقل لهما) أي لواحد منهما حالتي الانفراد والاجتماع (أف) وهو صوت ينبئ عن تضجر أو اسم فعل هو أتضجر وقرئ بالكسر بلا تنوين و بالفتح والضم منونا وغير منون أي لا تتضجر عما تستقذر منهما وتستثقل من مؤنهما و بهذا النهي يفهم النهي عن سائر ما يؤذيهما بدلالة النص وقد خص بالذكر بعضه اظهارا للاعتناء بشأنه فقيل (ولا تنهرهما) أي لا تزجرهما عما لا يجمل بك اغلاظا قيل النهي والنهر والنهم أخوات (وقل لهما) بدل التأفيف والنهر (قولا كريما) ذا كرم أو هو وصف له بوصف صاحبه أي قولا صادرا عن كرم ولطف وهو القول الجميل الذي يقتضيه حسن الادب و يستدعيه النزول على المروءة مثل أن يقول يا أباه و يا أماه كما دأب ابراهيم عليه السلام اذ قال لابيه يا أبت مع مابه من الكفر

تكون في الجبال أو فيما يقرب منها أما العيون فلأن الارض اذا كانت رخوة تشققت الابخرة عنها فلا يجتمع منها قدر يعتد به فلا تدخر هذه الابخرة ولا تجتمع الا في الارض الصلبة والجبال أصلب الارض فلا جرم كانت أقواها على حبس هذا البخار حتى يجتمع ما يصلح أن يكون مادة للعيون و يشبه أن يكون مستقر الجبل مملوا ماء و يكون الجبل في حقه الابخرة مثل الانبيق الذي يصاب العمد للتقطير لا يدع شيأ من البخار يتحلل ونفس الارض التي تحته كالقرعة والعيون كالاذناب والبخار كالقوابل ولذلك فان أكثر العيون انما تتفجر من الجبال وأفواهها في البراري وذلك الاقل لا يكون الا اذا كانت الارض صلبة وأما أن أكثر السحب تكون في الجبال فلوجوه ثلاثة (أحدها) أن في باطن الجبال من الدواوين ما لا يكون في باطن الارضين الرخوة (وثانيها) أن الجبال بسبب ارتفاعها أبرد فلا جرم يبقى على ظاهرها من الاندماء من الثلوج ما لا يبقى على ظهر سائر الارضين (وثالثها) أن الابخرة الصاعدة تكون محبوسة بالجبال فلا تتفرق ولا تتحلل واذا ثبت ذلك ظهر أن أسباب كثرة السحب في الجبال أكثر لان المشاهدة فيهم ظاهرا وباطنا أكثر والاحتقان أشد والسبب المحال وهو الحر أقل فلذلك كانت السحب في الجبال أكثر وأما المعدنيات الصاعدة الى الابخرة يكون اختلاطها بالارضية أكثر والى بقاء مدة طويلة تنضج فيها فلا شيء لها في هذا المعنى كالجبال ﴿المنفعة الرابعة للارض﴾ قوله وجعل بين البحرين حاجزا فالمقصود منه أن لا يفسد العذب بالاختلاط وأيضا فانه ينتفع بذلك الحاجز وأيضا المؤمن في قلبه بحران بحر الايمان والحكمة وبحر الطغيان والشهوة وهو بتوفيقه جعل بينهما حاجزا لكي لا يفسد احدهما بالآخر وقال بعض الحكماء في قوله مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان قال عند عدم البرزخ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فعند عدم البرزخ في القلب يخرج الدين والايمان بالشكر فان قيل ولم جعل البحر ملحا قلنا لولا ملوحته لأجن وانتشر فساد أجونته في الارض وأحدث الوباء العام ﴿واعلم أن اختصاص البحر بجانب من الارض دون جانب أمر غير واجب بل الحق أن البحر ينتقل في مدد لا تضبطها التواريخ المنقولة من قرن الى قرن لان استمداد البحر في الاكثر من الانهار والانهار تستمد في الاكثر من العيون والعيون والسماء فان حدوثها في فصل بعينه دون فصل ثم لا العيون ولا مياه السماء يجب أن يتشابه أحوالها في بقاع واحدة بأعيانها تشابها مستمرا فان كثيرا من العيون يغور وكثيرا ما تنقطع السماء فلا بد حينئذ من نضوب الاودية والانهار فيعرض بسبب ذلك تصوب البحار واذا حدثت العيون من جانب آخر حدثت الانهار هناك فحصلت الجحارمن ذلك الجانب ثم انه سبحانه لما بين انه هو المختص بالقدرة على خلق الارض التي فيها هذه المنافع الجليلة وجب أن يكون هو المختص بالالهية فنبه بقوله تعالى بل أكثرهم لا يعلمون على عظيم جهلهم بالذهاب عن هذا التفكر ﴿النوع الثالث﴾ ما يتعلق باحتياج الخلق اليه سبحانه وهو قوله تعالى ﴿أمن يجيب المضطر اذا دعاه و يكشف السوء و يجعلكم خلفاء الارض أإله مع الله قليلا ما يذكرون﴾ اعلم أنه سبحانه نبه في هذه الآية على أمرين (أحدهما) قوله أمن يجيب المضطر اذا دعاه قال صاحب الكشاف الضرورة الحالة الملجئة الى الالتجاء والاضطرار افتعال منها يقال اضطره الى كذا والفاعل والمفعول مضطر ﴿واعلم أن المضطر هو الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر الى التضرع الى الله تعالى وعن السدي الذي لا حول له ولا قوة وقيل المذنب اذا استغفر ﴿فان قيل قد عم المضطرين بقوله أمن يجيب المضطر اذا دعاه وكم من مضطر يدعو فلا يجاب ﴿جوابه قد بينا في أصول الفقه أن المفرد المعرف لا يفيد العموم وانما يفيد الماهية فقط والحكم المثبت للماهية يكفي في صدقه ثبوته في فرد واحد من أفراد الماهية

ولا يدعوهما بأسمائهما فانه من الجفاء وسوء الادب وديدن الدعاء وسائل الفضيل بن عياض عن برالوالدين فقال أن لا تقوم الى خدمتهما عن كسل وقيل أن لا ترفع صوتك عليهما ولا تنظر اليهما شزرا ولا ترمقهما مخالفة في ظاهر ولا باطن وأن ترحم عليهما ما عاشا تدعو لهما اذا ماتا وتقوم بخدمة ٤٥٢ أودائهما من بعدهما فمن النبي عليه الصلاة والسلام ان من أبر البر أن يصل الرجل أهل

وأبيه (واخفض لهما جناح الذل) عبارة عن الانة الجانب والتواضع والتذلل لهما فان اعزازهما لا يكون الا بذلك فكأنه قيل واخفض لهما جناحك الذليل أو جعل لذله جناح كما جعل لبيد في قوله

وغداة ريح قد كشفت وقرة
اذ أصبحت بيد الشمال زمامها

للقر زماما وللشمال يدا تشبيها له بطائر يخفض جناحه لافراخه تربية لها وشفقة عليها وأما جعل خفض الجناح عبارة عن ترك الطيران كما قاله القفال فلا يناسب المقام (من الرحمة) من فرط رحمتك وعطفك عليهما ورقتك لهما لاقتقارهما اليوم الى من كان أفقر خلق الله تعالى اليهما ولا تكتف برحمتك الفانية بل ادع الله لهما برحمته الواسعة الباقية (وقل رب ارحمهما) برحمتك الدنيوية والاخروية التي من جملتها الهداية الى الاسلام فلا ينافي ذلك كافرهما (كما ربياني) الكاف في محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي رحمة مثل تربيتهما لي أو مثل رحمتهما لي على أن التربية رحمة ويجوز أن يكون لهما الرحمة والتربية معا وقد ذكر أحدهما في أحد الجانبين والآخر في الآخر كما يلوح به التعرض لعنوان الربوبية في مطلع الدعاء كأنه قيل رب ارحمهما أو ربهما كما رحماني وربياني (صغيرا) ويجوز أن تكون الكاف للتعليل

وأيضا فانه تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر أنه يستجيب في الحال وقام القول في شرائط الدعاء والاجابة مذكور في قوله تعالى وقال ربكم ادعوني أستجب لكم فأما قوله تعالى ويكشف السوء فهو كالتفسير للاستجابة فانه لا يقدر أحد على كشف ما دفع الله عن فقر الى غنى ومرض الى صحة وضيق الى سعة الا القادر الذي لا يعجزه القاهر الذي لا ينازع (وثانيهما) قوله ويجعلكم خلفاء الارض فالمراد توارثهم سكناها والتصرف فيها قرنا بعد قرن وأراد بالخلافة الملك والتسلط وقرئ يذكرون بالياء مع الادغام وبالتاء مع الادغام وبالحذف وما زيدة أي يذكرون تذكرا قليلا والمعنى نفي التذكر والقلة تستعمل في معنى النفي ﴿النوع الرابع﴾ ما يتعلق أيضا بالاحتياج الخلق ولكنه لحاجة خاصة في وقت خاص ﴿قوله تعالى﴾ أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته الله رفع الله تعالى الله عما يشركون ﴿اعلم انه تعالى نبه في هذه الآية على أمرين (الاول) قوله أمن يهديكم والمراد يهديكم بالنجوم في السماء والعلامات في الارض اذا جن الليل عليكم مسافرين في البر والبحر (الثاني) قوله ومن يرسل الرياح فانه سبحانه هو الذي يحرك الرياح فتثير السحاب ثم تسوقه الى حيث يشاء ﴿فان قيل﴾ لا نسلم أنه تعالى هو الذي يحرك الرياح فان الفلاسفة قالت الرياح انما تتولد عن الدخان وليس الدخان كله هو الجسم الاسود المرتفع مما احترق بالنار بل كل جسم أرضي يرتفع بتصعيد الحرارة سواء كانت الحرارة حرارة النار أو حرارة الشمس فهو دخان قالوا وتولد الرياح من الادخنة على وجهين أحدهما أكثري والآخر أقلي أما الاكثري فهو انه اذا صعدت أدخنة كثيرة الى فوق فمنها ما وصولها الى الطبقة الباردة اما أن ينكسر حرها بيرد ذلك الهواء أو لا ينكسر فان انكسر فلا محالة ينقل وينزل فيحصل من نزولها نوح الهواء فتحدث الريح وان لم ينكسر حرها بيرد ذلك الهواء فلا بد وأن يتصاعد الى أن يصل الى كرة النار المتحركة بحركة الفلك وحينئذ لا يتمكن من الصعود بسبب حركة النار فتجمع تلك الادخنة وتصير بحيالا بقال لو كان اندفاع هذه الادخنة بسبب حركة الهواء العالي لما كانت حركتها الى أسفل بل الى جهة حركة الهواء العالي لانا نقول الجواب من وجهين (أحدهما) انه ربما أوجبت هيئة تصعيد تلك الادخنة وهيئة خلوق المادة بها أن يتحرك الى خلاف جهة التحرك المانع كالسهم يصيب جسما متحركا فيخطفه نارة الى جهته ان كان أقل مما يقتدر على صرف المتحرك عن متوجهه يقدر أيضا على صرفه الى جهة حركته نفسه وتارة الى خلاف تلك الجهة اذا كان المفارق يقتدر على الحبس ولا يقتدر على الصرف (الثاني) انه ربما كان صعود بعض الادخنة من تحت مانعا للادخنة النازلة من فوق الى أن ينسفل ذلك لاجل هذا السبب يتحرك الى سائر الجوانب ﴿واعلم ان لاهل الاسلام ههنا مقامان (الاول) أن يقيم الدلالة على فساد هذه العلة وبيانه من وجهين (الاول) ان الاجزاء الدخانية أرضية فهي أثقل من الاجزاء البخارية المائية ثم ان البخار لما يبرد ينزل على الخط المستقيم مطرا فالدخان لما يبرد فلما لم ينزل على الخط المستقيم بل ذهب يمنة ويسرة (الثاني) ان حركة تلك الاجزاء الى أسفل طبيعية وحركتها يمنة ويسرة عرضية والطبيعية أقوى من العرضية واذا لم يكن أقوى فلا أقل من المساواة ثم ان الريح عند حركتها يمنة ويسرة ربما تقوى على قلع الاشجار وربي الجبال فتلك الاجزاء الدخانية عند ما تحركت حركتها الطبيعية التي لها وهي الحركة الى السفل وجب أن تهدم السقف ولكن ترى الغبار الكثير ينزل من الهواء ويسقط على السقف ولا يحس بنزوله فضلا عن أن يهدمه فثبت فساد ما ذكروه (المقام الثاني) هب أن الامر كما ذكروه ولكن الاسباب الفاعلية والقابلية لها مخلوقة لله سبحانه وتعالى فانه لولا الشمس وتأثيرها في تصعيد الابخرة والادخنة ولولا طبقات الهواء والا لما حدثت

أى لاجل تربيتهم مالى ﴿ قوله تعالى واذكروا كما هدا كم واشد بالغ عز وجل فى التوصية بهما حيث اقترنهما بأن شفع الاحسان اليهما بتوحيده سبحانه ونظمهما فى سلك القضاء بهما مامعا ثم ضيق الامر فى باب مراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تتفلت من المتضجر مع ماله من موجبات الضجر مالا يكاد يدخل تحت الحصر وختمها بأن جعل رحمته التى ٤٥٣ وسعت كل شئ مشيمة بتربيتهما وعن النبى عليه الصلاة والسلام رضا الله فى رضا الوالدين وسخطه فى سخطهما وروى يفعل البار ما يشاء أن يفعل فلن يدخل النار ويفعل العاق ما يشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبوى بلغا من الكبر أنى أتى منهما ما ولى مامنى فى الصغر فهل قضيتهما حقهما قال لا فانهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما وروى أن شيخا أتى النبى عليه الصلاة والسلام فقال ان ابنى هذا قد مال كثيرا والله لا ينفق على من ماله فنزل جبريل عليه السلام وقال ان هذا الشيخ قد أنشأ فى ابنه أبيا ما فقرع مع عقلها فاستنشدها فأنشدها الشيخ فقال

غذوتك مولودا ومنتك يافعا
تعل بما أجنى عليك وتنهل
اذا ليلة ضافتك فيك بالسقم
لم أبت
أسهد لمك الا با كما أتململ

كأنى أنا المطروق دونك بالذى * طرقت به دونى وعينى تهمل
فلما بلغت السن والغاية التى * اليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة * كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك اذ لم ترع حق أبوتى * فعلت كما الجار المجاور يفعل

فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أنت وما لك يا بك (ربكم أعلم بما فى نفوسكم) من البر والعقوق (ان تكونوا صالحين) فاصدين

هذه الامور ومعلوم ان من وضع أسبابا قادته الى منافع عجيبة وحكم بالغة فذلك الواضع هو الذى فعل تلك المنافع فعلى جميع الاحوال لابد من شهادة هذه الامور على مدبر حكيم واسبل الله قطا السلسلة الحاجات ﴿ (النوع الخامس) ﴾ ما يتعلق بالحشر والنشر ﴿ قوله تعالى ﴾ أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض ﴿ أله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ﴾ اعلم أنه تعالى لما عدد نعم الدنيا أتبع ذلك بنعم الآخرة بقوله أمن يبدأ الخلق ثم يعيده لان نعم الآخرة بالثواب لا تتم الا بالاعادة بعد الابتداء والا بلاغ الى حد التكليف فقد تضمن الكلام كل هذه النعم ومعلوم انها لا تتم الا بالارزاق فلذلك قال ومن يرزقكم من السماء والارض ثم قال أله مع الله منكر الساهم عليه بقوله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين أن لا برهان لكم فان هم مبطلون وهذا يدل على انه لا يدل فى الدعوى من البرهان وعلى فساد التقليد ﴿ فان قيل كيف قيل لهم أمن يبدأ الخلق ثم يعيده وهم منكرون للاعادة ﴿ جوابه كانوا معترفين بالابتداء ودلالة الابتداء على الاعادة دلالة ظاهرة قوية فلما كان الكلام مقرونا بالدلالة الظاهرة صاروا كأنهم لم يبق لهم عذر فى الانكار وههنا آخر الدلائل المذكورة على كمال قدرة الله تعالى ﴿ قوله تعالى ﴾ قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله وما يشعرون أيان يبعثون بل أدرك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون ﴾ اعلم انه تعالى لما بين ان المختص بالقدرة كذلك بين انه المختص بعلم الغيب واذا ثبت ذلك ثبت انه هو الاله المعبود لان الاله هو الذى يصح منه مجازاة من يستحق الثواب على وجه لا يلتبس بأهل العقاب ﴿ فان قيل الاستثناء حكمه اخراج ما لولاه لوجب أو لصح دخوله تحت المستثنى منه ودلالة الآية ههنا على استثناء الله سبحانه وتعالى عمن فى السموات والارض فيوجب كونه من فى السموات والارض وذلك يوجب كونه تعالى فى المكان ﴿ والجواب هذه الآية متروكة الظاهر لان من قال انه تعالى فى المكان زعم أنه فوق السموات ومن قال انه ليس فى مكان فقد نزهه عن كل الامكنة فثبت بالاجماع أنه تعالى ليس فى السموات والارض فاذن وجب تأويله فنقول انه تعالى ممن فى السموات والارض كما يقول المتكلمون الله تعالى فى كل مكان على معنى ان علمه فى الاماكن كلها ﴿ لا يقال ان كونه فى السموات والارض مجاز وكونهم فيهن حقيقة واردا المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ومجازا غير جائزة لانا نقول كونهم فى السموات والارض كما انه حاصل حقيقة وهو وصول ذواتهم فى تلك الاحياز فكذلك حاصل مجازا وهو كونهم عالمين بتلك الاماكن فاذا حملنا هذه الآية على المعنى المجازى وهو المكون فيهم بمعنى العلم دخل الرب سبحانه وتعالى والعبد فيه فصح الاستثناء ﴿ أما قوله وما يشعرون فهو صفة لاهل السموات والارض نفى أن يكون لهم علم الغيب وذكر فى جملة الغيب متى البعث فقوله أيان يبعثون فأيان بمعنى متى وهى كلمة مركبة من أى والآن وهو الوقت وقرئ ايان بكسر الهمزة ﴿ أما قوله بل أدرك علمهم فى الآخرة فاعلم أن كلام صاحب الكشاف فيه مرتب على ثلاثة أبحاث ﴿ البحث الاول ﴾ فيه اثنتا عشرة قراءة بل ادّرك بل ادارك بل تدارك بل أدرك بهمزتين بل آدرك بألف بينهما بل ادرك بالتخفيف والنقل بل ادرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله بل أدرك على الاستفهام بل أدرك بلى أدرك أم تدارك أم أدرك ﴿ البحث الثانى ﴾ ادارك أصله تدارك فأدغمت التاء فى الدال وادرك افتعل ﴿ البحث الثالث ﴾ معنى أدرك علمهم انتهى وتكامل وادرك تتابع واستحكم ثم فيه وجوه ﴿ أحدها ﴾ ان أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لا ريب فيها قد حصلت لهم ومكنوا من معرفتها ومع هذا كانوا جاهلين وذلك قوله بل هم فى شك منها بل هم منها عمون يريد المشركين ممن فى السموات والارض لانهم لما كانوا من

للصلاح والمبذرون للعقوق والفساد (فانه) تعالى (كان للأوابين) أى الراجعين اليه تعالى عما فرط منهم مما لا يكاد يخلو عنه البشر (غفورا) لما وقع منهم من نوع تقصير أو أدنى غفلة وفيه ما لا يخفى من التشديد فى الامر بمراعاة حقوقهم ولو يجوز أن يكون عاما لكل تائب ويدخل فيه الجانى على أبويه دخولا أوليا (وآت ذا القربى) أى ذا القرابة (حقه) توصية بالاقارب اثر التوصية

ببر الوالدين ولعل المراد بحقهم المحارم وبحقهم النفقة كما ينبئ عنه قوله تعالى (والمسكين وابن السبيل) فان المأمور به فى حقهما المواساة المالية لا محالة أى وآتهما حقهما مما كان مفترضا بمكة بمنزلة الزكاة وكذا النهى عن التبذير وعن الافراط فى القبض والبسط فان الكل من التصرفات المالية (ولا تبذر تبذيرا) نهى عن صرف المال الى من سواهم ممن لا يستحقه فان التبذير تفريق فى غير موضعه مأخوذ من تفريق حبات والقائها كيفما كان من غير تعهد لها وقد لا يعد الانسان مبذرا الا كثار فى صرفه اليهم والالتفات الى الاسراف الذى هو تجاوز الحد فى صرفه وقد نهى عنه بقوله تعالى ولا تبسطها وكلاهما مذموم (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) تعليل للنهى عن التبذير ببيان انه يجعل صاحبه مأخوذا فى قرن الشياطين والمراد بالاخوة المماثلة التامة فى كل ما لا خير فيه من صفات السوء التى من جملتها التبذير أى كانوا بما فعلوا من التبذير أمثال الشياطين أو الصداقة والملازمة أى كانوا بيان أصدقائهم وأتباعهم فيما ذكر من التبذير والصرف فى المعاصى فانهم كانوا يخرون الابل ويتياسرون عليها ويبذرون أموالهم فى السمعة وسائر ما لا خير فيه من المناهى والملاهى أو المقارنة أى قرناءهم فى النار على سبيل الوعيد (وكان الشيطان لربه كفورا) من تتمة

جماعتهم نسب فعلهم الى الجميع كما يقال بنو فلان فعلوا كذا وانما فعله ناس منهم * فان قيل الآية سيقت لاختصاص الله تعالى بعلم الغيب وان العباد لا علم لهم شيء منه وان وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لا يشعرون به فكيف ناسب هذا المعنى وصف المشركين بانكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة * والجواب كأنه سبحانه قال كيف يعلمون الغيب مع انهم شكوا فى ثبوت الآخرة التى دلت الدلائل الظاهرة القاهرة على ما هو أخفى من هذا الشيء الظاهر كيف يعلم الغيب الذى هو أخفى الاشياء (الوجه الثانى) ان وصفهم باستحكام العلم تهكم بهم كما تقول لأجهل الناس ما أعلمك على سبيل الهزؤ وذلك حيث شكوا فى اثبات ما الطريق اليه واضح ظاهر (الوجه الثالث) أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفى مرّ قولك ادركت الثمرة لان تلك غايتها التى عندها تدرك وقد فسره الحسن باضمحل علمهم وتدارك من تدارك بنو فلان اذا تتابعوا فى الهلاك أما وجه قراءة من قرأ بل أدرك على الاستفهام فهو انه استفهام على وجه الانكار لادراك علمهم وكذا من قرأ أم أدرك وأم تدارك لانها أم هى التى بمعنى بل والهمزة وأما من قرأ بل أدرك فانه لما جاء بلى بعد قوله وما يشعرون كان معناه بلى يشعرون ثم فسر الشعور بقوله أدرك علمهم فى الآخرة على سبيل التهكم الذى معناه المبالغة فى نفى العلم فكأنه قال شعورهم بوقت الآخرة انهم لا يعلمون كونها فكيف يرجع الى نفى الشعور على أبلغ ما يكون وأما من قرأ بلى أأدرك على الاستفهام فمعناه بلى يشعرون متى يبعثون ثم أنكر علمهم بكونها وأنكر علمهم بكونها لم يتصل لهم شعور بوقت كونها فان قلت هذه الاضرابات الثلاث ما معناها قلت ما هى الا بيان درجاتهم وصفهم أولا بانهم لا يشعرون وقت البعث ثم بانهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ثم بانهم يخبطون فى شك ومرية ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى وفى * تنوهى أنه تعالى جعل الآخرة مبدأ أعمالهم فلذلك عداه عن دون عن لان الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذى جعلهم كالبهائم * قوله تعالى * (وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون وان ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وما من غائبة فى السماء والارض الا فى كتاب مبين * اعلم أنه سبحانه لما تكلم فى حال المبدا تكلم بعده فى حال المعاد وذلك لان الشك فى المعاد لا ينشأ الا من الشك فى كمال القدرة أو فى كمال العلم فلما ثبت كونه تعالى قادرا على كل الممكنات وعالما بكل المعلومات ثبت أنه تعالى يمكنه تمييز أجزاء بدن كل واحد من المكلفين عن أجزاء بدن غيره وثبت أنه قادر على أن يعيد التركيب والحياة اليها واذا ثبت امكان ذلك ثبت صحة القول بالحشر فلما بين الله تعالى هذين الاصلين فيما قبل هذه الآية لا جرم لم يحكه فى هذه الآية فحكى عنهم انهم تعجبوا من اخراجهم أحياء وقد صاروا ترابا وأوطنوا أنفسهم من وجهين (الاول) قولهم لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا أى هذا كلام كما قيل لنا فقد قيل لمن قبلنا ولم يظهر له أثر فهو أذان من أساطير الاولين يريدون ما لا يصح من الاخبار فان قيل ذكر ههنا لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا وفى آية أخرى لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا فما الفرق قلنا التقديم دليل على أن المقدم هو المقصود الاصلى وأن الكلام سيق لاجله ثم انه سبحانه لما كان قد بين الدلالة على هذين الاصلين ومن أظهر ان كل من أحاط بهما قد عرف صحة الحشر والنشر ثبت أنهم أعرضوا عنها ولم يتأملوها وكان سبب ذلك الاعراض حب الدنيا وحب الرياسة والجاه وعدم الانقياد للغير لا جرم اقتصر على

التعليل أي مبالغا في كفران نعمه تعالى لان شأنه أن يصرف جميع ما أعطاه الله تعالى من القوى والقدر الى غير ما خلقت هي له من أنواع المعاصي والافساد في الارض واضلال الناس وحملهم على الكفر بالله وكفران نعمه الفائضة عليهم وصرفها الى غير ما أمر الله تعالى به وتخصيص هذا الوصف بالذكر من بين سائر أوصافه القبيحة للايذان بأن ٤٥٥ التبذير الذي هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى الى غير مصرفها من باب الكفران المقابل للشكر الذي هو عبارة عن صرفها الى ما خلقت هي له والتعرض لوصف الربوبية للاشعار بكمال عتوه فان كفران نعمة الرب مع كون الربوبية من أقوى الدواعي الى شكرها غاية الكفران ونهاية الضلال والطغيان (وأما تعرضن عنهم) أي ان أعترانك أمر اضطرك الى أن تعرض عن أولئك المستحقين (ابتغاء رحمة من ربك) أي انتظار رزق من ربك أقامة للسبب مقام المسبب فان الفاقد سبب للابتغاء (ترجوها) من الله تعالى لتعطيهم وكان عليه السلام اذا سئل شيأ وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء فأمر بتعهدهم بالقول الجميل لئلا تعتريهم الوحشة بسكوته عليه السلام فقيل له (فقل لهم قولا ميسورا) سهلا لينا وعدهم وعدا جميلا من يسر الامر تيسر وسهل أو قل لهم رزقنا الله وايا كم من فضله على انه دعاء لهم

بيان ان الدنيا فانية زائلة فقال قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين وقيل سؤالان (السؤال الاول) لم لم يقل كيف كانت عاقبة المجرمين (جوابه) لان تأنيثها غير حقيقي ولان المعنى كيف كان آخر أمرهم (السؤال الثاني) لم لم يقل عاقبة الكافرين (جوابه) الغرض أن يحصل التخويف لكل العصاة ثم انه تعالى صبر رسوله على ما يأتيه من هؤلاء الكفار فقال ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون يجمع بين ازالة الغم عنه بكفرهم وبين ازالة الخوف من جانبهم وصار ذلك كالتكفل بنصرته عليهم وقوله ولا تكن في ضيق أي في حرج قلب يقال ضاق الشيء ضيقا وضيقا بالفتح والكسر والضيق تخفيف الضيق ويجوز أن يراد في أمر ضيق من مكرهم (الوجه الثاني للكفار) قولهم متى هذا الوعد ان كنتم صادقين دل على أنهم ذكروا ذلك على سبيل التعجيز فأجاب الله تعالى بقوله عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون وهو عذاب يوم بدر وزيدت اللام للتأكيد كما للباء في ولا تلقوا بأيديكم وأضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو دنا لكم وأزف لكم ومعناه تبعكم ولحقكم وقرأ الاعرج ردف لكم بوزن ذهب وهما لغتان والكسر أفصح وههنا بحثان (البحث الاول) ان عسى ولعل في وعد الملوك ووعيدهم يدلان على صدق الامر وانما يعنون بذلك اظهار وقارهم وانهم لا يعجلون بالانتقام لوثوقهم بان عدوهم لا يفوتهم فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده (البحث الثاني) انه قد ثبت بالدلائل العقلية ان عذاب الحجاب أشد من عذاب النار ولذلك قال كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم فتقدم الحجاب على الجحيم ثم انهم كانوا محجوبين في المال فكان سبب العذاب بكماله حاصلا الا أن الاشتغال بالدنيا ولذاتها كالعائق عن ادراك ذلك الالم كالمضاد لقدرة استعداد النار فان سبب الالم حاصل في المال لكنه لا يحصل الشعور بذلك الالم لقيام العائق فاذا زال العائق عظم البلاء فكذا ههنا اذا زال اليدن عظم عذاب الحجاب فقوله سبحانه عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون يعني المقتضي له والمؤثر فيه حاصل وتمامه انما يحصل بعد الموت ثم انه سبحانه بين السبب في ترك تعجيل العذاب فقال وان ربك لذو فضل على الناس والفضل الافضال ومعناه انه متفضل عليهم بتأخير العقوبة وأكثرهم لا يعرفون هذه النعمة ولا يشكرونها وهذه الآية تبطل قول من قال انه لا نعمة لله على الكفار ثم بين سبحانه أنه مطلع على ما في قلوبهم فقال وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون * وههنا بحث عقلي وهو أنه قد ما تكنه صدورهم على ما يعلنون من العلم والسبب ان ما تكنه صدورهم هو الدواعي والقصود وهي أسباب لما يعلنون وهي أفعال الجوارح والعلم بالعلة علة للعلم بالمعلول فهذا وجه السبب في ذلك التقديم قرئ تكن يقال كننت الشيء وأكننته اذا سترته وأخفيته يعني أنه تعالى يعلم ما يخفون وما يعلنون من مبارزة الرسول ومكايدهم أما قوله وما من غائبة فقال صاحب الكشاف سمي الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة وخافية فكانت التاء فيهما بمنزلتها في العاقبة والعافية والنطيحة والذبيحة والرمية في أنها أسماء غير صفات ويجوز أن يكونا صفتين وتأويلهما اللغة كالراوية في قولهم هو راوية للشاعر من رواية السوء كأنه تعالى قال وما من شيء شديد الغيبة والخفاء الا وقد علمه الله تعالى وأحاط به وأثبته في اللوح المحفوظ والمبين الظاهر المبين لمن ينظر فيه من الملائكة * قوله تعالى ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون وانه لهدى ورحمة للمؤمنين ان ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم فتوكل على الله انك على الحق المبين انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون * اعلم انه سبحانه لما تم الكلام في اثبات المبدأ والمعاد ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالنبوة ولما كانت العمدة الكبرى في اثبات نبوة محمد

يسر عليهم فقرهم (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط) تمثيلان لمنع الشحيح واسراف المبذر زجرا لهما عنهما وحملا على ما بينهما من الاقتصاد * كلا طرفي قصد الامور ذميم * وحيث كان قبح الشيء مقارنا لما له معلوما من أول الامر روعي ذلك في التصوير بأقبح الصور ولما كان غائلة الاسراف في آخره بين قبحه في اثر ذم فقيل (فتقعد ملوما) أي فتصير ملوما عند الله تعالى وعند

الناس وعند نفسك اذا احتجت وندمت على ما فعلت (محصورا) نادما أو منقطعا بك لا شئ عندك من حسره السفر اذا بلغته وما قيل من انه روى عن جابر رضى الله عنه أنه قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد اذ أتاه صبي فقال ان أمي تستكسيك درعا فقال عليه السلام من ساعة الى ساعة فعد الينا فذهب الى أمه فقالت له قل ان أمي تستكسيك الدرع الذي عليك فدخل صلى الله عليه وسلم

صلى الله عليه وسلم هو القرآن لا جرم بين الله تعالى أولا كونه معجزة من وجوه (أحدها) ان الاقاصيص المذكورة في القرآن موافقة لما كانت مذكورة في التوراة والانجيل مع العلم بأنه عليه الصلاة والسلام كان أميا وانه لم يخالط أحدا من العلماء ولم يشتغل قط بالاستفادة والتعلم فاذن لا يكون ذلك الا من قبل الله تعالى واختلفوا فقال بعضهم أراد به ما اختلفوا فيه وتباينوا وقال آخرون أراد به ما حرفوه بعضهم وقال بعضهم بل أراد به اخبار الانبياء والاول أقرب (وثانيها) قوله وانه لهدى ورحمة للمؤمنين وذلك لان بعض الناس قال انا لما تأملنا القرآن فوجدنا فيه من الدلائل العقلية على التوحيد والحشر والنبوة وشرح صفات الله تعالى وبيان نعوت جلاله ما لم نجده في شئ من الكتب ووجدنا ما فيه من الشرائع مطابقة للعقول موافقة لها ووجدناه مبرأ عن التناقض والتهافت فكان هدى ورحمة من هذه الجهات ووجدنا القوى البشرية قاصرة عن جمع كتاب على هذا الوجه فعلمنا أنه ليس الا من عند الله تعالى فكان القرآن معجزا من هذه الجهة (وثالثها) أنه هدى ورحمة للمؤمنين لبلوغه في الفصاحة الى حيث عجزوا عن معارضته وذلك معجز لم أنه تعالى لما بين كونه معجزا دل الا على الرسالة ذكر بعده أمرين (الاول) قوله ان ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم والمراد أن القرآن وان كان يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون لكن لا تحكم أنت في قيدهم فان ربك هو الذي يقضي بينهم أي بين المصيب والمخطئ منهم وذلك كالزجر للكفار فلذلك قال وهو العزيز الذي اقتدر الذي لا يمنع العليم بما يحكم فلا يكون الا الحق * فان قيل القضاء والحكم شئ واحد فقوله يقضي بحكمه كقوله يقضي بقضائه ويحكم بحكمه * والجواب معنى قوله بحكمه أي بما يحكم به وهو عدله لانه لا يقضي الا بالعدل أو أراد بحكمه ويدل عليه قراءة من قرأ بحكمه جمع حكمة (الثاني) أنه تعالى أمره بعد ظهور حجة رسالته بأن يتوكل على الله ولا يلتفت الى أعداء الله ويشرع في تشيعة مهمات الرسالة بقلب قوي فقال فتوكل على الله ثم علل ذلك بأمرين (أحدهما) قوله انك على الحق المبين وفيه بيان أن الحق حقيق بنصرة الله تعالى وأنه لا يخذل (وثانيهما) قوله انك لا تسمع الموتى وانما حسن جعله سببا للامر بالتوكل وذلك لان الانسان مادام يطمع في أحد أن يأخذ منه شيأ فانه لا يقوى قلبه على اظهار الحق فاذا قطع طمعه عنه قوى قلبه على اظهار الحق فانه سبحانه وتعالى قطع طمع محمد صلى الله عليه وسلم عنهم بأن بين له أنهم كالموتى وكالصم والعمي فلا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا يلتفتون الى شئ من الدلائل وهذا سبب لقوة قلبه عليه الصلاة والسلام على اظهار الدين كما ينبغي فان قيل ما معنى قوله اذا ولوا مدبرين جوابه هو تأكيد لفظ الاسم لانه اذا سمع عن الداعي بأن تولى عنه مدبرا كان أبعد عن ادراك صوته أما قوله تعالى ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فالمعنى ما يجدي اسماعك الا الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته أي يصدقون بها فهم مسلمون أي مخلصون من قولك بلى من أسلم وجهه لله يعني جعله سالما لله تعالى خالصا له والله أعلم * قوله تعالى * واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون حتى اذا جاؤا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أماذا كنتم تعملون ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون * اعلم أن الله تعالى بين بالدلائل القاهرة كمال القدرة وكمال العلم ثم فرع عليهما القول بامكان الحشر بين الوجه في كون القرآن معجزا ثم فرع عليه نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثم تكلم الآن في مقدمات قيام القيامة وانما أخر تعالى الكلام في هذا الباب عن اثبات النبوة لما أن هذه الاشياء لا يمكن معرفتها الا بقول النبي الصادق وهذا هو النهاية في جودة

داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانا وأذن بلالا وانتظروا فلم يخرج للصلاة فنزلت فيه آياه أن السورة مكية خلا آيات في آخرها وكذا ما قيل انه عليه السلام أعطى الاقرع ابن حابس مائة من الابل وكذا عيينة بن حصن الفزاري شاء عباس بن مرداس فانشأ يقول

أتجعل نهبي ونهب العبيـ * ـدبين عيينة والاقرع

وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال عليه السلام يا أبا بكر اقطع لسانه عني أعطه مائة من الابل وكانوا جميعا من المؤلفة القلوب فنزلت (ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) تعليل لما مر أي يوسعه على بعض ويضيقه على آخرين حسبما تتعلق به مشيئته التابعة للحكمة فليس ما يرهقك من الاضاقة التي تحوجك الى الاعراض عن السائلين أو نفاد ما بيدك اذا بسطتها كل البسط الا لمصلحتك (انه كان بعباده خبيرا بصيرا) تعليل لما سبق أي يعلم سرهم وعلنهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم الترتيب

ويجوز أن يراد أن البسط والقبض من أمر الله العالم بالسرائر والظواهر الذي بيده خزائن السموات والارض وأما العباد فعليهم أن يقتصدوا وأن يراد أنه تعالى يبسط تارة ويقبض أخرى فاستنوا بسنته فلا تقبضوا كل القبض ولا تبسطوا كل البسط وأن يراد أنه تعالى

يبسط ويقدر حسب مشيئته فلا تبسطوا على من قدر عليه رزقه وأن يكون تمهيدا لقوله (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق) أى مخافة فقر وقرئ بكسر الخاء كانوا يئدون بناتهم مخافة الفقر فنهوا عن ذلك (نحن نرزقهم وإياكم) لا أنتم فلا تخافوا الفاقة بناء على علمكم بعجزكم عن تحصيل رزقهم وهو ضمان لرزقهم وتعليل للنهى المذكور بابطال موجبه ٤٥٧ فى زعمهم وتقديم ضمير الاولاد على الخاطبين على عكس ما وقع فى سورة الانعام للاشعار باصالتهم فى استحقاق الرزق أو لان الباعث على القتل هناك الاملاق الناجز ولذلك قيل من املاق وههنا الاملاق المتوقع ولذلك قيل خشية املاق فكأنه قيل نرزقهم من غير أن ينتقص من رزقكم شئ فمم تريكم ما تخشونه وإياكم أيضا رزقا الى رزقكم (ان قتلهم كان خطأ كبيرا) تعليل آخر ببيان أن النهى عنه فى نفسه منكر عظيم والخطء الذنب والاثم يقال خطئ خطأ كاثم اثما وقرئ بالفتح والسكون وبفتحتين بمعناه كالحذر والحذر وقيل بمعنى ضد الصواب وبكسر الخاء والمد وبفتحها مع مد وادر بفتحها وحذف الهمزة وبكسرها كذلك (ولا تقربوا الزنا) مباشرة مبادية القبيحة أو البعيدة فضلا عن مباشرته وانما نهى عن قربانه على خلاف ما سبق وحق من القتل للمبالغة فى النهى عن نفسه ولان قربانه داع الى

الترتيب واعلم أنه تعالى ذكر تارة ما يكون كالعلامة لقيام القيامة وتارة الامور التى تقع عند قيام القيامة فذكر أولا من علامات القيامة دابة الارض والناس تكلمهم وافيم هى ونحوه (أحدها) فى مقدار جسمها وفى الحديث ان طولها ستون ذراعا ورؤى أيضا أن رأسها تبلغ السحاب وعن أبى هريرة ما بين قرنيها فرسخ للراكب (وثانيها) فى كيفية خلقتها فروى لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان وعن ابن جريج فى وصفها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هرة وذنب كبش وخف بعير (وثالثها) فى كيفية خروجها عن على عليه السلام أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج الا الثلث الاول وعن الحسن لا يتم خروجها الا بعد ثلاثة أيام (ورابعها) فى موضع خروجها سئل النبى صلى الله عليه وسلم من أين تخرج الدابة فقال من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى المسجد الحرام وقيل تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية (وخامسها) فى عدد خروجها فروى أنها تخرج ثلاث مرات تخرج بأقصى اليمن ثم تكمن ثم تخرج بالبادية ثم تكمن دهرا طويلا فبينما الناس فى أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله تعالى فيما يحسبون لهم الاخير وجهها من بين الركن الحذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهرولون وقوم يقفون (واعلم) أنه لا دلالة فى الكتاب على شئ من هذه الامور نعم صح الخبر فيه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قيل والا لم يلتفت اليه أما قوله تعالى واذا وقع القول عليهم فالمراد من القول متعلقه وهو ما وعد به من قيام الساعة ووقوعه حصوله والمراد مشارفة الساعة وظهور أشراطها أما دابة الارض فقد عرفتها وأما قوله تكلمهم فقرئ تكلمهم من الكلم وهو الجرح روى أن الدابة تخرج من الصفا ومعها عصى موسى عليه السلام وخاتم سليمان فتضرب المؤمن بين عينيه بعصى موسى عليه السلام فتنكت نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة فى وجهه حتى يضئ وجهه وتنكت الكافر فى أنفه فتفشو النكتة حتى يسود وجهه واعلم أنه يجوز أن يكون تكلمهم من الكلم أيضا على معنى التكثير يقال دلان مكلم أى جريح وقرأ أبى تنبئهم وقرأ ابن مسعود تكلمهم بأن الناس والقراء بايان مكسورة حكاية لقول الدابة ذلك أو هى حكاية لقول الله تعالى بين به أن خروج الدابة لهذا العلة فان قيل اذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف يقول بآياتنا جوابه أن قولها حكاية لقول الله تعالى أو على معنى بآيات ربنا أولا خصاصها بالله تعالى أضافت آيات الله الى نفسها كاية قول بعض خاصة الملك خيلى ورجلى تعمل مولاه وبلاده ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار أى تكلمهم بأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون بها وأما قوله ويوم نحشر من كل أمة فوج ممن يكذب بآياتنا فاعلم أن هذا من الامور الواقعة بعد قيام القيامة فالفرق بين من الاولى والثانية أن الاولى للتبعيض والثانية للتبيين كقوله من الاوثان أما قوله فهم يوزعون معناه يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكلموا فى النار وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه كما وصف جنود سليمان بذلك وقوله حتى اذا جاؤا قال أكذبتم بآياتى فهذا وان احتمل معجزات الرسل كما قاله بعضهم فالمراد كل الآيات فيدخل فيه سائر الكفار الذين كذبوا بآيات الله أجمع أو بشئ منها أما قوله ولم تحيطوا بها علما قالوا للعمال كأنه قال أكذبتم بها بادى الرأى من غير فكر ولا نظر يؤدى الى احاطة العلم بكنهها أما قوله أما ذا كنتم تعملون فالمراد لما لم تشتغلوا بذلك العمل المهم فأى شئ كنتم تعملونه بعد ذلك كأنه قال كل عمل سواه فكأنه ليس بعمل ثم قال ووقع القول عليهم بما يريد أن العذاب الموعود يقاسونه بسبب تكذيبهم بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله هذا يوم لا ينطقون ثم انه سبحانه بعد أن خوفهم بأحوال القيامة ذكر كلاما يصلح أن يكون دليلا على التوحيد وعلى الحشر وعلى النبوة فبالغة

مباشرته وتوسيط النهى عنه بين النهى عن قتل الاولاد والنهى عن قتل النفس المحرمة على الاطلاق باعتبار أنه قتل للاولاد لما أنه تضييع للانساب فان من لم يثبت نسبه ببت حكما (انه كان فاحشة) فعلة ظاهرة القبح متجاوزة عن الحد (وساء سبيلا) أى بئس طريقا طريقه فانه غصب الابضاع المؤدى الى اختلال أمر الانساب وهيجان الفتن كيف لا وقد قال النبى عليه

السلام اذا زنى العبد خرج منه الايمان فكان على رأسه كالظلة فاذا انقطع رجع اليه وقال عليه السلام لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن وعن حذيفة رضى الله عنه أنه قال عليه السلام اياكم والزنا فان فيه ست خصال ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة فاما التى فى الدنيا فذهاب البهاء ودوام الفقر ٤٥٨ وقصر العمر وأما التى فى الآخرة فسخط الله تعالى وسوء الحساب والخلود فى النار

(ولا تقتلوا النفس التى حرم الله) قتلوها بان عصموها بالاسلام أو بالعهد (الا بالحق) الا باحدى ثلاث كفر بعد ايمان وزنا بعد احصان وقتل نفس معصومة عمدا فالاستثناء مفرغ أى لا تقتلوها بسبب من الاسباب الا بسبب الحق أو ملتبسين أو ملتبسة بشئ من الاشياء ويجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف أى لا تقتلوها قتلا الا قتلا ملتبسا بالحق (ومن قتل مظلوما) بغير حق يوجب قتله أو بيحه لقاتل حتى انه لا يتيسر اباحته لغير القاتل فان من عليه القصاص اذا قتله غير من له القصاص يقتص له ولا يفيده قول الولى انا أمرته بذلك مالم يكن الامر ملجأ امرا (فقد جعلنا لوليه) لمن يلى أمره من الوارث أو السلطان عند عدم الوارث (سلطانا) تسلطا واستيلاء على القاتل بمؤاخذته بالقصاص أو بالدية حسبما تقتضيه جنايته أو جهة غلبة (فلا يسرف) وقرئ لا تسرف (فى القتل) أى لا يسرف الولى فى أمر القتل بان يتجاوز الحد المشروع بان يزيد عليه المثلة أو بان يقتل غير القاتل والجواب من أقارب أو بان يقتل الاثنين مكان الواحد كما فعله أهل الجاهلية أو بان يقتل القاتل فى مادة الدية وقرئ بصيغة المبالغة فى افادة معنى النهى (انه كان منصورا) تعليل للنهى والضمير للولى على معنى أنه تعالى نصره بان أوجب له القصاص أو الدية وأمر الحكام

فى الارشاد الى الايمان والمنع من الكفر فقال ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا أما وجه دلالته على التوحيد فلما ظهر فى العقول ان التقليب من النور الى الظلمة ومن الظلمة الى النور لا يحصل الا بقدرة عالمة قاهرة وأما وجه دلالته على الحشر فلانه لما ثبتت قدرته تعالى فى هذه الصورة على القلب من النور الى الظلمة وبالعكس فأى امتناع فى ثبوت قدرته على القلب من الحياة الى الموت مرة ومن الموت الى الحياة أخرى وأما وجه دلالته على النبوة فلانه تعالى يقلب الليل والنهار لمنافع المكلفين وفى بعثة الانبياء والرسل الى الخلق منافع عظيمة فالمانع من بعثتهم الى الخلق لاجل تحصيل تلك المنافع فقد تبثت أن هذه الكلمة الواحدة كافية فى اقامة الدلالة على تصحيح الاصول الثلاثة التى منها منشأ كفرهم واستحقاقهم العذاب ثم فى الآية سؤالان ﴿السؤال الاول﴾ ما السبب فى أن جعل الابصار للنهار وهو لاهله ﴿جوابه﴾ تنبيها على كمال هذه الصفة فيه ﴿السؤال الثانى﴾ لما قال جعل لكم الليل لتسكنوا فيه فلم لم يقل والنهار لتبصروا فيه ﴿جوابه﴾ لان السكون فى الليل هو المقصود من الليل وأما الابصار فى النهار فليس هو المقصود بل هو وسيلة الى جلب المنافع الدينية والدنيوية وأما قوله ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون خص المؤمنين بالذكر وان كانت أدلة للكل من حيث اختصوا بالقبول والانتفاع على مازة قدم فى نظائره ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين﴾ اعلم أن هذا هو العلامة الثانية لقيام القيامة أما قوله ويوم ينفخ فى الصور ففيه وجوه (أحدها) أنه شئ شبيه بالقرن وان اسرافيل عليه السلام ينفخ فيه باذن الله تعالى فاذا سمع الناس ذلك الصوت وهو فى الشدة بحيث لا يحتمل طبائعهم يفزعون عنده ويصعقون ويموتون وهو كقوله تعالى فاذا نقر فى الناقور وهذا قول الاكثرين (وثانيها) يجوز أن يكون تمثيلا لدعاء الموتى فان خروجهم من قبورهم كخروج الجيش عند سماع صوت الآلة (وثالثها) أن الصور جمع الصور وجعلوا النفخ فيها نفخ الروح والاول أقرب لدلالة الظاهر عليه ولا مانع يمنع منه أما قوله ففزع من فى السموات ومن فى الارض فاعلم أنه انما قال ففزع ولم يقل فيفزع للاشعار بتحقيق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة لان الفعل الماضى يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به والمراد فزعهم عند النفخة الاولى أما قوله الا من شاء الله فالمراد الا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا هم جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت وقيل الشهداء وعن الضحاك الحور وخزنة النار وحملة العرش وعن جابر موسى منهم لانه صعق مرة ومثله قوله تعالى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله وليس فيه خبر مقطوع والكتاب انما يدل على الجملة أما قوله وكل أتوه داخرين فقرئ أتوه وأتاه وداخرين وداخر ين فالجميع بمعنى واحد والتوحيد على اللفظ والداخر والدخر الصاغر وقيل معنى الاتيان حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية ويجوز أن يراد رجوعهم الى أمر الله تعالى وانقيادهم له ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شئ انه خبير بما تفعلون﴾ اعلم أن هذا هو العلامة الثالثة لقيام القيامة وهى تسيير الجبال والوجه فى حسبانهم أنها جامدة فلان الاجسام الكبار اذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد فى السمت والكيفية ظن الناظر اليها أنها واقفة مع أنها تمر مر السحاب أما قوله صنع الله فهو من المصادر المؤكدة كقوله وعد الله ووعيمة الله الا أن مؤكده محذوف وهو الناصب لليوم ينفخ والمعنى أنه لما قدم ذكر هذه الامور التى لا يقدر عليها سواه جعل هذا الصنع من جملة الاشياء التى أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب قال القاضى عبد الجبار فيه دلالة على أن القبائح ليست من خلقه والاوجب وصفها بأنها متقنة ولكن الاجماع مانع منه

بموته في استيفاء حقه فلا يبلغ ما وراء حقه ولا يستزد عليه ولا يخرج من دائرة أمر الناصر أو المقتول ظلما على معنى انه تعالى نصره عباد كر فلا يسرف وليه في شأنه أو للذي يقتله الولي ظلما واسرافا ووجه التعليل ظاهر وعن مجاهد أن الضمير في لا يسرف للقاتل الاول وبمضده قراءة فلا تسرفوا والضميران في التعليل عائدان الى الولي أو المقتول فالمراد ٤٥٩ بالاسراف حينئذ اسراف القاتل على نفسه بتعريضه لها للهلاك العاجل والآجل لا الاسراف وتجاوز الحد في القتل أي لا يسرف على نفسه في شأن القتل كما في قوله تعالى قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم (ولا تقربوا مال اليتيم) نهى عن قربانه لما ذكر من المبالغة في النهي عن التعرض له ومن اضافاء ذلك اليه وللتوسل الى الاستثناء بقوله تعالى (الا بالتي هي أحسن) أي الا بالخصلة والطريقة التي هي أحسن الخصال والطرائق وهي حفظه واستثماره (حتى يبلغ اشده) غاية لجواز التصرف على الوجه الاحسن المدلول عليه بالاستثناء لا للوجه المذكور فقط (وأوفوا بالعهد) سواء جرى بينكم وبين ربكم أو بينكم وبين غيركم من الناس والايفاء بالعهد والوفاء به هو القيام بمقتضاه والمحافظة عليه ولا يكاد يستعمل الا بالباء فرقا بينه وبين الايفاء الذي معناه الكيل والوزن (ان العهد

والجواب أن الاتقان لا يحصل الا في المركبات فيمتنع وصف الاعراض بها والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون الا ما كنتم تعملون ﴾ اعلم أنه تعالى لما تكلم في علامات القيامة شرح بعد ذلك أحوال المكلفين بعد قيام القيامة والمكلف اما أن يكون مطيعا أو عاصيا أما المطيع فهو الذي جاء بالحسنة وله أمران (أحدهما) أن له ما هو خير منها وذلك هو الثواب * فان قيل الحسنة التي جاء العبد بها ما دخل فيها معرفة الله تعالى والاخلاص في الطاعات والثواب انما هو الاكل والشرب فكيف يجوز أن يقال الاكل والشرب خير من معرفة الله * جوابه من وجوه (أحدها) أن ثواب المعرفة النظر به الحاصلة في الدنيا هي المعرفة الضرورية الحاصلة في الآخرة ولذة النظر الى وجه الكريم سبحانه تعالى وتقدست الدلائل على أن أشرف السعادات هي هذه اللذة ولو لم تحصل الآية على ذلك لزم أن يكون الاكل والشرب خيرا من معرفة الله تعالى وانه باطل (وثانيها) أن الثواب خير من العمل من حيث ان الثواب دائم والعمل منقض ولان العمل فعل العبد والثواب فعل الله تعالى (وثالثها) فله خير منها أي له خير حاصل من جهتها وهو الجنة (السؤال الثاني) الحسنة لفظة مفردة معرفة وقد ثبت أنها لا تفيد العموم بل يكفي في تحققها حصول فرد واذا كان كذلك فلم حملها على أكمل الحسنات شأنا وأعلاها درجة وهو الايمان فلهذا قال ابن عباس من أفراد الحسنة كلمة الشهادة وهذا يوجب القطع بأن لا يعاقب أهل الايمان * جوابه ذلك الخير هو أن لا يكون عقابه مخلدا ﴿ (الامر الثاني) للطبرسي هو أنهم آمنون من كل فزع لا كما قال بعضهم ان أهوال القيامة تعم المؤمن والكافر * فان قيل أليس أنه تعالى قال في أول الآية ففزع من في السموات ومن في الارض فكيف نفى الفزع ههنا * جوابه أن الفزع الاول هو ما لا يخلو منه أحد عند الاحساس لشدة تقع وهول يفجأ من رعب وهيبة وان كان المحسن يأمن وصول ذلك الضرر اليه كما قيل يدخل الرجل بصدر هياب وقلب وجاب وان كانت ساعة اعزاز وتكرمة وأما الثاني فالخوف من العذاب * أما قراءة من قرأ من فزع بالتنوين فهي تحتمل معنيين من فزع واحد وهو خوف العقاب وأما ما يلحق الانسان من الهيبة والرعب عند مشاهدة الاهوال فلا يفلت منه أحد وفي الاخبار ما يدل عليه ومن فزع شديد مفرط الشدة فلا يكتنهه الوصف وهو خوف النار وأمن يعدي بالجار ويتعدى بنفسه كقوله تعالى أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله فهذا شرح حال المطيعين * أما شرح حال العصاة فهو قوله ومن جاء بالسيئة فهو قيل السيئة الاشراك وقوله فكبت وجوههم في النار فاعلم أنه يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة فكأنه قيل فكبوا في النار كقوله فكبكبوا وليجوز أن يكون ذكر الوجوه ابذانا بأنهم يلقون على وجوههم فيها مكبوبين أما قوله هل تجزون الا ما كنتم تعملون فيجوز فيه الالتفات وحكاية ما يقال لهم عند الكب باضمار القول ﴿ قوله تعالى ﴿ انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شئ وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين المبدأ والمعاد والنبوة ومقدمات القيامة وصفة أهل القيامة من الثواب والعقاب وذلك كمال ما يتعلق ببيان أصول الدين ختم الكلام بهذه الخاتمة اللطيفة فقال قل يا محمد اني أمرت بأشياء (الاول) اني أمرت أن أخص الله وحده بالعبادة ولا اتخذ له شريكا وان الله تعالى لما قدم دلائل التوحيد فكأنه أمر محمدا بأن يقول أهم هذه الدلائل التي ذكرتها لكم ان لم تقبلوا القول بالتوحيد فقد أمرت بي ذلك

أظهر في مقام الاضمار لظهار الكمال العناية بشأنه أو لان المراد طائفة العهد المنتظم للعهد المعهود (كان مسؤلا) أي مسؤلا عنه على حذف الجار وجعل الضمير بعد انقلابه مرفوعا مستكنا في اسم المفعول كقوله تعالى وذلك يوم مشهود أي مشهود فيه ونظيره ما في قوله تعالى تلك آيات الكتاب الحكيم على أن أصله الكتاب الحكيم فحذف المضاف وجعل الضمير بعد انقلابه مرفوعا وجعل

أن يكون تخييلا كأنه يقال للعهد لم تبكت وهلا في بلث تبكيتا للنا كث كما يقال للموؤدة بأي ذنب قتلت (وأوفوا الكيل) أي أتموه ولا تخسروه (إذا كلتم) أي وقت كيلكم للمشترين وتقييد الأمر بذلك لما أن التطفيف هناك يكون وأما وقت الاكتيال على الناس فلا حاجة الى الأمر بالتعديل قال تعالى إذا اكتالوا ٤٦٠ على الناس يستوفون الآية (وزنوا بالقسطاس) وهو القرسطون وقيل كل

ميزان صغيرا كان أو كبيرا رومي معرب ولا يقدح ذلك في عربية القرآن لانتظام المعربات في سلك الكلام العربية وقرئ بضم القاف (المستقيم) أي العدل السوي ولعل الاكتفاء بأمر استقامته عن الأمر بإيفاء الوزن لما أن عند استقامته لا يتصور الجور غالبا بخلاف الكيل فانه كثيرا ما يقع التطفيف مع استقامة الآلة كما أن الاكتفاء بإيفاء الكيل عن الأمر بتعديله لما أن إيفاءه لا يتصور بدون تعديل المكيال وقد أمر بتوفيه أيضا في قوله تعالى أوفوا الكيل والميزان بالقسط (ذلك) أي إيفاء الكيل والوزن بالميزان السوي (خير) في الدنيا لما هو أمانة توجب الرغبة في معاملته والذكر الجميل بين الناس (وأحسن تأويلا) عاقبة تفعيل من آل إذا رجع والمراد ما يؤول اليه (ولا تقف) ولا تتبع من قفا أثره إذا تبعه وقرئ ولا تقف من قاف أثره أي قفاه ومنه القافة في جمع القائف (ما ليس لك به علم) أي لا تكن في اتباع ما لا علم لك به من قول أو فعل كمن يتبع مسلكا لا يدري أنه يوصله الى مقصده

فسراء قبيلتهم لهذه الدعوة أو أعرضتم عنها فإني مصرعليها غير مرتاب فيها ثم انه وصف الله تعالى بأمرين (أحدهما) أنه رب هذه البلدة والمراد مكة وانما اختصها من بين سائر البلاد إضافة اليها لانها أحب بلاده اليه وأكرمها عليه وأشار اليها اشارة تفخيم لها دا لا على انها موطن نبيه ومهبط وحيه أما قوله الذي حرمها فقرئ التي حرمها وانما وصفها بالتحريم لوجوه (أحدها) انه حرم فيها أشياء على من يحج (وثانيها) أن الملائكة تحج اليها آمن (وثالثها) لا ينبغي لك حرمتم الاظالم ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها وانما ذكر ذلك لان العرب كانوا معترفين بكون مكة محترمة وعلموا أن تلك الفضيلة ليست من الاصنام بل من الله تعالى فكأنه قال لما علمت وعلمتم أنه سبحانه هو المتولي لهذه النعم وجب علي أن أخصه بالعبادة (وثانيهما) وصف الله تعالى بقوله وله كل شيء وهذا اشارة الى ما تقدم من الدلائل المذكورة في هذه السورة على التوحيد من كونه تعالى خالقا لجميع النعم فاجعل ههنا تلك المفصلات وهذا كمن أراد صفة بعض الملوك بالقوة فيعد تلك التفاصيل ثم بعد التطويل يقول ان كل العالم له وكل الناس في طاعته (الثاني) أمر بأن يكون من المسلمين (الثالث) أمر بأن يتلو القرآن عليهم لقد قام بكل ذلك صلوات الله عليه أتم قيام فمن اهتدى في هذه المسائل الثلاث المتقدمة وهي التوحيد والحشر والنبوة فانما يهتدي لنفسه أي منفعة اهتدائه راجعة اليه ومن ضل فلا علي وما أنا الا رسول منذر ثم انه سبحانه ختم هذه الخاتمة في نهاية الحسن وهي قوله وقل الحمد لله على ما أعطاني من نعمة العلم والحكمة والنبوة وعلى ما وفقني من القيام بأداء الرسالة والانذار سيريكم آياته القاهرة فتعرفونها ولكن حين لا ينفعكم الايمان وما ربك بغافل عما تعملون لانه من وراء جزاء العاملين والله أعلم تم تفسير السورة والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبي الامي وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين

﴿سورة الفتح مدنية كلها الا قوله الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون الى قوله لا يبتغي الجاهلين وقيل الا آية وهي الذي فرض عليك القرآن الآية وهي سبع أو ثمان وثمانون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ اعلم أن قوله تعالى طسم كسائر الفواتح وقد تقدم القول فيها وتلك اشارة الى آيات السورة والكتاب المبين هو اما اللوح واما الكتاب الذي وعد الله انزاله على محمد صلى الله عليه وسلم فبين أن آيات هذه السورة هي آيات ذلك الكتاب ووصفه بأنه مبين لانه بين فيما الحلال والحرام أولانه بين بفصاحته أنه من كلام الله دون كلام العباد أولانه بين صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أولانه يبين خبر الاولين والآخرين أولانه يبين كيفية التخلص عن شبهات أهل الضلال أما قوله تعالى نتلو عليك أي على لسان جبريل عليه السلام لانه كان يتلو على محمد حتى يحفظه وقوله من نبأ موسى وفرعون فهو مفعول نتلو عليك أي نتلو عليك بعض خبرهما بالحق محققين كقوله تنبت بالدهن وقوله لقوم يؤمنون فيه وجهان (أحدهما) أنه تعالى قد أراد بذلك من لا يؤمن أصلا لكنه

خص

والحق به من منع اتباع الظن وجوابه أن المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند قطعيا كان أو ظنيا واستعماله بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه وقيل انه مخصوص بالعقائد وقيل بالرمي وشهادة الزور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام من قفا مؤمنا بما ليس فيه

حبسه الله تعالى فى ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج ومنه قول الكميت ولا أرمى البرىء بغير ذنب * ولا أقفو الحواصن ان رميتا
(ان السمع والبصر والفؤاد) وقرئ بفتح الفاء والواو المثقل بدلا من الهمزة عند ضم الفاء (كل أولئك) أى كل واحد من تلك الاعضاء فأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسؤلة عن أحوالها شاهدة على أصحابها ٤٦١ هذا وان أولا وان غلب فى العقلاء لكنه

خص المؤمنين بالذكر لانهم قبلوا وانتفعوا فهو كقوله هدى للمتقين (والثانى) يحتمل أنه تعالى علم أن الصلاح فى تلاوته هو اسماعهم وتكون ارادته لمن لا يؤمن كالتبع * قوله تعالى ان فرعون علا فى الارض قرئ فرعون بضم الفاء وكسرها والكسر أحسن وهو كالقسطاس والقسطاس علا واستكبر وتجبر وتظلم وبغى والمراد به قوة الملك والعلو فى الارض يعنى أرض مملكته ثم فصل الله تعالى بعض ذلك بقوله وجعل أهلها شيعا أى فرقا يشد معونه على ما يريد ويطيعونه لاملك أحدهم مخالفته قد أغرى بينهم العداوة ليكونوا له أطوع أو المراد ما فسره بقوله يستضعف طائفة منهم أى يستخدمهم ويذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم فهذا هو المراد بالتشييع * قوله يستضعف طائفة منهم تلك الطائفة بنو اسرائيل وفى سبب ذبح الابناء وجوه (أحدها) ان كاهنا قال له يولد مولود فى بنى اسرائيل فى ليلة كذا يذهب ملكك على يده فولد تلك الليلة اثنا عشر غلاما فقتلهم وعند أكثر المفسرين بقى هذا العذاب فى بنى اسرائيل سنين كثيرة قال وهب فقتل القبط فى طلب موسى عليه السلام تسعين ألفا من بنى اسرائيل قالوا بعضهم فى هذا دليل على حمق فرعون فانه ان صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن وان كذب فما وجه القتل وهذا السؤال قد ذكرنى ترتيب علم الاحكام من علم النجوم ونظيره ما يقوله نفاة التكليف ان كان زيد فى علم الله وفى قضائه من السعداء فلا حاجة الى الطاعة وان كان من الاشقياء فلا فائدة فى الطاعة وأيضا فهذا السؤال لو صح لبطل علم التعبير ومنفعته وأيضا فجواب المنجم ان النجوم دلت على انه يولد ولد ولم يقل اصابوا كذا وكذا وعلى هذا التقدير لا يكون السعى فى قتله عبثا واعلم ان هذا الوجه ضعيف لان اسناد مثل هذا الخبر الى الكاهن اعتراف بأنه قد يخبر عن الغيب على سبيل التفصيل ولو جوزنا ذلك لطلت دلالة الاخبار عن الغيب على صدق الرسل وهو باجماع المسلمين باطل (وثانيها) وهو قول السدى ان فرعون رأى فى منامه ان نارا أقبلت من بيت المقدس واشتملت على مصر فأحرقت القبط دون بنى اسرائيل فسأل عن رؤياه فقالوا يخرج من هذا البلد الذى جاء بنو اسرائيل منه رجل يكون على يده هلاك مصر فأمر بقتل الذكور (وثالثها) ان الانبياء الذين كانوا قبل موسى عليه السلام بشروا بمجيئه وفرعون كان قد سمع ذلك فلهذا كان يذبح أبناء بنى اسرائيل وهذا الوجه هو الاولى بالقبول قال صاحب الكشاف يستضعف حال من الضمير فى وجعل أو صفة لشيعا أو كلام مستأنف وبذبح بدل من يستضعف وقوله انه كان من المفسدين بدل على أن ذلك القتل ما حصل منها لافساد وانه لا أثر له فى دفع قضاء الله تعالى أما قوله وتريد أن نمن فهو جملة معطوفة على قوله ان فرعون علا فى الارض لانها نظيرة تلك فى وقوعها تفسيرا لما مر موسى عليه السلام وفرعون واقتصاصا له والفظ فى قوله ونريد للاستقبال ولكن أريد به حكاية حال ماضية ويجوز أن يكون حالا من يستضعف أى يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم فان قيل كيف يجتمع استضعافهم وارادة الله تعالى المن عليهم وإذا أراد الله شيئا كان ولم يتوقف الى وقت آخر قلنا لما كانت منة الله عليهم بتخليصهم من فرعون قريبة الوقوع جعلت ارادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم أما قوله ونجعلهم أئمة أى متقدمين فى الدنيا والدين وعن مجاهد دعاة الى الخير وعن قتادة ولاة كقوله وجعلكم ملوكا ونجعلهم الوارثين يعنى الملك فرعون وأرضه وما فى يديه أما قوله ونمكن لهم فى الارض فاعلم انه يقال مكن له اذا جعل له مكانا بقعد عليه فوطأ موهده ونظيره أرض له ومعنى التمكين لهم فى الارض وهى أرض مصر والشام ان ينفذ أمرهم ويطاع أيديهم وقوله ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون قرئ ويرى فرعون وهامان وجنودهما أى يرون منهم ما كانوا

من حيث انه اسم جمع لذا الذى يعم القبيلين جاء الضمير هم أيضا قال ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الايام
(كان عنه مسؤلا) أى كان كل من تلك الاعضاء مسؤلا عن نفسه على أن اسم كان ضمير يرجع الى كل وكذا الضمير المجرور وقد جوز أن يكون الاسم ضمير القفو يطريق الالتفات اذ الظاهر أن يقال كنت عنه مسؤلا وقيل الجار والمجرور فى محل الرفع قد أسند اليه مسؤلا مع الاصل الا بأن الجار والمجرور لا يلتبس بالمبتدا وهو السبب فى منع تقديم الفاعل وما يقوم مقامه ولكن القياس يحكى الاجماع على عدم جواز تقديم النائم مقام الفاعل اذا كان جارا ومجرورا ويجوز أن يكون من باب الحذف على شريطة التفسير وحذف الجار من المفسر ويعود الضمير مستكنا كما ذكرنا فى قوله تعالى يوم مشهود ويجوز أن يكون مسؤلا مسندا الى المصدر المدلول عليه بالفعل وأن يكون فاعله المصدر وهو السؤال وعنه فى محل النصب وسأل ابن جنى أبا على عن قولهم فيك يرغب وقال لا يرتفع عابده فأين المرفوع فقال المصدر أى فيك يرغب الرغبة يعنى تفعل الرغبة كما فى قولهم يعطى ويمنع أى يفعل الاعطاء والمنع ويجوز أن يكون اسم كان أو فاعله ضمير كل بحذف المضاف أى كان صاحبه عنه مسؤلا أو مسؤلا صاحبه (ولا تمش فى الارض) التقييد لزيادة التقرير والاشعار

بأن المشي عليها مما لا يليق بالمرح (مرحا) تكبرا وبطرا واختيالا وهو مصدر وقع موقع الحال أي ذا مرح أو تمرح مرحا أو لأجل المرح وقرئ بالكسر (انك لن تخرق الارض) تعليل للنهي وفيه تهكم بالمخاطب وايذان بأن ذلك منه فاخرة مع الارض وتكبر عليها أي ان تخرق الارض بدوسك وشدة وطأتك ٤٦٣ وقرئ بضم الراء (ولن تبلغ الجبال) التي هي بعض أجزاء الارض (طولا) حتى يمكن لك أن تتكبر عليها اذ التكبر انما يكون بكثرة القوة وعظم الجثة وكلاهما مفقود وفيه تعريض بما عليه المختال من رفع رأسه ومشيه على صدور قدميه (كل ذلك) اشارة الى ما علم في تضاعيف ذكر الاوامر والنواهي من الخصال الخمس والعشرين (كان سيئه) الذي نهى عنه وهي اثنتا عشرة خصلة (عند ربك مكروها) مبغضا غير مرضى أو غير مراد بالارادة الاولية لا غير مراد مطلقا لقيام الادلة القاطعة على أن جميع الاشياء واقعة بارادته سبحانه وهو الثقة لتعليل الامور المنهي عنها جميعا ووصف ذلك بعلاق الكراهة مع أن البعض من الكبائر للايذان بان مجرد الكراهة عنده تعالى كافية في وجوب الانتهاء عن ذلك وتوجيه الاشارة الى الكل ثم تعيين البعض دون توجيهها اليه ابتداء لما أن البعض المذكور ليس بمذكور جملة بل على وجه الاستقلال وفيه اشعار بكون ما عداه مرضيا عند الله تعالى وانما لم يصرح بذلك ابتداء بما نعى عنه وقيل الاضافة بيانية كما في آية الليل وآية

قتح

النهار وقرئ سيئة على أن ضمير كان وذلك اشارة الى ما نهى عنه من الامور المذكورة ومكروها بدل من سيئة أو صفة لها بحمل الكلام على المعنى فانه بمعنى سيئا وقد قرئ به أو يجري على موصوفه المذكر أي أمرا مكروها أو يجري مجرى الاسماء ازيل عنه معنى الوصفية ويجوز كونه حالا

خائفين منه أن ذهاب ملككم رهلا كهم على يد مولود بني اسرائيل ﴿ قوله تعالى ﴾ ﴿ وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وقالت امرأت فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ﴾ اعلم انه تعالى لما قال ونريد أن نمن على الذين استضعفوا ذكر أوائل نعمه في هذا الباب بقوله وأوحينا الى أم موسى والكلام في هذا الوحي ذكرناه في سورة طه في قوله ولقد مننا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك ما يوحى وقوله ان أرضعيه كالدلالة على أنها أرضعته وليس في القرآن حد ذلك فاذا خفت عليه أن يفطن به جيران لك ويسمعوا صوته عند البكاء فألقيه في اليم قال ابن جريج ان بعد أربعة أشهر صاح فألقي في اليم والمراد باليم ههنا النيل ولا تخافي ولا تحزني والخوف غم يحصل بسبب مكروه يتوقع حصوله في المستقبل والحزن غم يلحقه بسبب مكروه حصل في الماضي فكأنه قيل ولا تخافي من هلاكه ولا تحزني بسبب فراقه فانا رادوه اليك لتكوني أنت المرضعة له وجاعلوه من المرسلين الى أهل مصر والشام وقصة الالقاء في اليم قد تقدمت في سورة طه وقال ابن عباس ان أم موسى عليه السلام لما تقارب ولادها كانت قابلة من القوابل التي وكلهن فرعون بالحبالى مصافية لام موسى عليه السلام فلما حست بالطلق أرسلت اليها وقالت لها قد نزل بي ما نزل وليتفعني اليوم حيلك أتاني فجلست القابلة فلما وقع موسى عليه السلام الى الارض هالها نور بين عينيه فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى عليه السلام قلبها فقالت ما هذا ما جئتك الا لاقتل مولودك ولكني وجدت لابنك هذا حبا شديدا فاحتفظي بابنك فاني أراه عدوا فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاء الى باب البيت فدخل على أم موسى فقالت أخته يا أماه هذا الحرس فألقته ووضعته في تنور مسجور فطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع فدخلوا فاذا التنور مسجور وأم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها اثر فقالوا لم دخلت القابلة عليك قالت انها جيئتني لدخلت للزيارة فخرجوا من عندها ورجع اليها عقلها فقالت لاخت موسى أين الصبي قالت لا أدري فسمعت بكاء في التنور فانطلقت اليه وقد جعل الله النار عليه بردا وسلاما فأخذته فلما ان أم موسى عليه السلام لما رأت فرعون جد في طلب الولدان خافت على ابنها فقذفته في قلبها أن تتخذ له تابوتا ثم تقذف التابوت في النيل فذهبت الى نجار من أهل مصر فاشترت منه تابوتا فقال لها ما تصنعين به فقالت ابن لي أخشى عليه كيد فرعون أخبؤه فيه وما عرفت انه يفشي ذلك الخبر فلما انصرفت ذهب النجار فأخبر به الذابحين فلما جاءهم أصلك الله لسانه وجعل يشير بيده فضربوه وطردوه فلما عاد الى موضعه رد الله عليه نطقه فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فلما عاد الى موضعه رد الله نطقه فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فأخذ الله بصره ولسانه فجعل لله تعالى انه ان رد عليه بصره ولسانه فانه لا يدلهم عليه فعلم الله تعالى منه الصدق فرد عليه بصره ولسانه وانطلقت أم موسى والتقيطه في النيل وكان لفرعون بنت لم يكن له ولد غيرها وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها الى أبيها وكان بها برص شديد وكان فرعون قد شاور الاطباء والسحرة في أمرها فقالوا أيها الملك لا تبرأ هذه الا من قبل البحر يوجد منه شيء الانسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك وذلك في يوم كذا في شهر كذا حين تشرق الشمس فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون الى مجلس كان له على شفير النيل ومعه آسية بنت مزاحم وأهلت بنت فرعون في جواريها حتى جلست على الشاطئ اذ أقبل التيل بتابوت تضربه الامواج وتعلق بشجرة فقال فرعون ائتوني به فأتوه به بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فلما رأوا

من المستمكن في كان أوفي الظرف على الله صفة سيئة وقرئ سيأته وقرئ سيأته (ذلك) أي الذي تقدم من التكاليف المفصلة (مما أوحى إليك ربك) أي بعض منه أو من جنسه (من الحكمة) التي هي علم الشرائع أو معرفة الحق لذاته والعمل به أو من الاحكام المحكمة التي لا يتطرق إليها النسخ والفساد وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآيات الثماني عشرة كانت في ألواح موسى عليه السلام أولها لا تجعل مع الله إلها آخر قال تعالى وكتبنا له في الالواح من كل شئ موعظة وهي عشر آيات في التوراة ومن آما متعلقة بأوحى على أنها تبعيضية أو ابتدائية وإما بمحذوف وقع حالا من الموصول أو من ضميره المحذوف في الصلة أي كائنا من الحكمة وإما بدل من الموصول بإعادة الجار (ولا تجعل مع الله إلها آخر) الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد غيره من يتصور منه صدور المنهي عنه وقد كرر للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الامر ومنتهاه ورأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم ينفعه علومه وحكمه وأن بذ فيها أساطين الحكماء وحلت بأفنوخه عنان السماء وقد رتب عليه ما هو عائدة الشرك أولا حيث قيل (فتقعد) مذموما مخذولا ورتب عليه ههنا نتيجته في العقبى فقيل (فتلقى في جهنم ملوما) من جهة نفسك ومن جهة غيرك (مدحورا) مبعدا من رحمة الله تعالى وفي إيراد الالقاء مبنيا للمفعول جرى على سنن الكبرياء وازدراء بالمشرك وجعل له من قبيل خشية بأسها آخذ بكفه فيطرحها في التنور (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا) خطاب للقائلين بأن الملائكة بنات الله سبحانه والاصفاء بالشئ جعله خالصا والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر يفسره المذكور أي أفضلكم على

فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فنظرت آسية فرأت توراة جوف التابوت لم يروه غيرها فعالجته وفتحته فأذاهي بصبي صغير في المهد وإذا نور بين عينيه فألقى الله محبته في قلوب القوم وعمدت ابنة فرعون إلى ريقه فلطخت به برصها فبرأت وضمته إلى صدرها فقالت الغواة من قوم فرعون إنا نظن أن هذا هو الذي تحذر منه ربي في الصغر فرقا منك فهم فرعون بقتله فاستوهبته امرأة فرعون وتبنته فقرئ قتل

* أما قوله فالتقطه آل فرعون فالالتقاط اصابة الشئ من غير طلب والمراد بآل فرعون جواريه * أما قوله ليكون لهم عدوا وحزنا فالمشهور أن هذه اللام مراد بها العاقبة قالوا والا لنقض قوله وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك ونقض قوله وألقيت عليك محبة مني ونظير هذه اللام قوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم وقول الشاعر

* لدوا للموت وابنوا للخراب * واعلم أن التحقيق ما ذكره صاحب الكشاف وهو أن هذه اللام هي لام التعليل على سبيل المجاز وذلك لان مقصود الشئ وغرضه يؤل إليه أمره فاستعملوا هذه اللام فيما يؤل إليه الشئ على سبيل التشبيه كاطلاق لفظ الاسد على الشجاع والبليد على الحمار قرأ حمزة والكسائي حزنا بضم الحاء وسكون الزاي والباقون بالفتح وهما لغتان مثل السقم والسقم أما قوله كانوا خاطئين ففيه وجهان (أحدهما) قال الحسن معناه كانوا خاطئين ليس من الخطيئة بل المعنى وهم لا يشعرون أنه الذي يذهب ملكهم وأما جمهور المفسرين فقالوا معناه كانوا خاطئين فيما كانوا عليه من الكفر والظلم فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم وقرئ خاطين تخفيف خاطئين أي خاطئين الصواب إلى الخطاو بين تعالى أنها التقطته ليكون قرة عين لها وله جميعا قال ابن اسحق إن الله تعالى ألقى محبته في قلبها لانه كان في وجهه ملاحة كل من رآه أحبه ولانها حين فتحت التابوت رأت النور ولانها لما فتحت التابوت رأته يمص اصبعه ولان ابنة فرعون لما لطخت برصها بريقه زال برصها ويقال ما كان لها ولد فأحبته قال ابن عباس لما قالت قرة عين لي ولك فقال فرعون يكون لك وأما لا فلا حاجة لي فيه فقال عليه الصلاة والسلام والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت لهداه الله تعالى كما هداها قال صاحب الكشاف قرة عين خبر مبتدا محذوف ولا يقوى أن يجعل مبتدا ولا تقتلوه خبرا ولو نصب لكان أقوى وقراءة ابن مسعود دليل على أنه خبر قرأ لا تقتلوه قرة عين لي ولك وذلك لتقديم لا تقتلوه ثم قالت المرأة عسى أن ينفعنا فنصيب منه خيرا ونتخذه ولدا لانه أهل للتبني إما قوله وهم لا يشعرون فأكثر المفسرين على انه ابتداء كلام من الله تعالى أي لا يشعرون ان هلاكهم بسببه وعلى يديه وهذا قول مجاهد وقتادة والضحاك ومقاتل وقال ابن عباس يريد لا يشعرون الى ماذا يصير أمر موسى عليه السلام وقال آخرون هذا من تمام كلام المرأة أي لا يشعرون بأمر اسرائيل وأهل مشورتها التقطناه وهذا قول الكلبي ﴿ قوله تعالى ﴾ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين وقالت لاخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴿ ذكر والى قوله فؤاد أم موسى فارغا وجوها (أحدها) قال الحسن فارغا من كل هم الا من هم موسى عليه السلام (وثانيها) قال أبو مسلم فراغ الفؤاد هو الخوف والاشفاق كقوله وأفئدتهم هواء (وثالثها) قال صاحب الكشاف فارغا من العقل والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والخوف (ورابعها) قال الحسن ومحمد بن اسحق فارغا من الوحي الذي أوحينا إليها أن ألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك فجاءها الشيطان فقال لها كرهت ان يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره تولت اهلاكه ولما أتاها خبر موسى عليه السلام انه وقع في يد فرعون فآسفها عظم البلاء عليها كان من عهد الله اليها (وخامسها) قال أبو عبيدة فارغا من الحزن لعلمها

حسابه تعالى بأفضل الاولاد على وجه الخلوص وآثرلذاته أخسهما وأدناهما كما فى قوله سبحانه ألكم الذكر وله الانثى وقوله تعالى أم له البنات ولكم البنون وقد قصد ههنا بالتعريض لعنوان الربوبية تشديد التكيير وتأكيده واشير بذكر الملائكة عليهم السلام وايراد الاناث مكان البنات الى كفرهم أخرى وهى وصفهم لهم عليهم السلام بالانوثة التى هى أخس صفات الحيوان كقوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا (انكم لتقولون) بمقتضى مذهبكم الباطل الذى هو اضافة الولد اليه سبحانه (قولا عظيما) لا يقادر قدره فى استتباع الاثم وخرقه لعقول العقول بحيث لا يجترئ عليه أحد حيث يجعلونه تعالى من قبيل الاجسام المتجانسة السريعة الزوال وليس كمثله شئ وهو الواحد القهار المنافى ذاته ثم تضيفون اليه ما تكرهون من أخس الاولاد وتفضلون عليه أنفسكم بالبنين ثم تضيفون الملائكة الذين هم من أشرف الملائكة بالانوثة التى هى أخس أوصاف الحيوان فيالها من مثلة ما أقبحها وكفرة ما أشنعها وأفظعها (ولقد صرفنا) هذا المعنى وكررناه (فى هذا القرآن) على وجوه من التصريف فى مواضع منه وانما تركت التغيير تعويلا على الظهور وقرئ بالتخفيف (ليذكروا) ما فيه ويقفوا على بطلان ما يقولونه والالتفات الى الغيبة للايذان باقتضاء المقال أن يعرض عنهم ويحكى للسامعين هناتهم وقرئ بالتخفيف من الذكر

كالعيان

يمنى الذكر ويجوز أن يراد بهذا القرآن ما نطق ببطلان مقالتهم المذكورة من الآيات الكريمة الواردة على أساليب مختلفة ومعنى التصريف فيه جعله مكانا له أى أوقعنا فيه التصريف كقوله * يجرح فى عراقيبها نصلى * وقد جوز أن يراد به ابطال اضافتهم اليه تعالى

يأبانه لا يقتل أعمادا على تكفل الله بعصمته قال ابن فتيبة وهذا من العجائب كيف يكون فؤادها فارغا من الحزن والله تعالى يقول لولا أن ربطنا على قلبها وهل يربط الا على قلب الجازع المحزون ويمكن أن يجاب عنه بأنه لا يمتنع انها اشتد قلقها بعد الله لم تخف عند اظهارها اسمه وأيقنت أنها وان أظهرت فانه يسلم لاجل ذلك الوعد الا انه كان فى المعلوم ان الاظهار يضر فربط الله على قلبها وجعل قولها ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها بالوحى فأمنت وزال عن قلبها الحزن فعلى هذا الوجه يصح ان يتأول على أن قلبها سلم من الحزن على موسى أصلا وفيه وجه ثالث وهو انها لما سمعت أن امرأة فرعون عطفت عليه وتبنته ان كادت لتبدى به أنه ولدها لانها لم تملك نفسها فرحا بما سمعت لولا ان سكنا ما بها من شدة الفرح والابتهاج لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله تعالى لا يبقى امرأة فرعون اللعين ويعطفها وقرئ فرغا أى خاليا من قولهم أعوذ بالله من صفر الاناء وفرغ الفناء وفرغان من قولهم دماؤهم بينهم فرغ أى هدر يعنى بطل قلبها من شدة ما ورد عليها أما قوله ان كادت لتبدى به فاعلم ان على قول من فسر الفراغ بالفراغ من الحزن قد ذكرنا تفسير قوله ان كادت لتبدى وأما على قول من فسر الفراغ بحصول اللوف فقد كروا وجوها (أحدها) قال ابن عباس كادت تخبر بأن الذى وجدوه ابنى وقال فى رواية عكرمة كادت تقول وابناه من شدة وجدها به وذلك حين رأت الموج يرفع ويضع وقال الكلبى ذلك حين سمعت الناس يقولون انه ابن فرعون وقال السدى لما أخذها ما كادت تقول هو ابنى فعصمها الله تعالى ثم قال لولا أن ربطنا على قلبها بالهام الصبر كما يربط على الشئ المتفلت ليستمر ويطمئن لتكون من المؤمنين من المصدقين بوعد الله وهو قوله انا رادوه اليك أما قوله وقالت لاخته قصيه أى اتبعى أثره وانظرى الى أين وقع والى من صار وكانت أخته لابيه وأمه واسمها مريم فبصرت به قال ابن عباس رضى الله عنهما أبصرته قال المبرد أبصرته وبصرت به بمعنى واحد وقوله عن جنب أى عن بعد وقرئ عن جانب وعن جنب والجنب الجانب أى نظرت نظرة مزورة مختلسة وهم لا يشعرون بما لها وغرضها قوله تعالى ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم ان وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ اعلم ان قوله وحرمنا عليه المراضع من قبل يقتضى تحريمها من قبله فاذا لم يصح بالتعبد والنهى لتعذر التعبير فلابد من فعل سواه وذلك الفعل يحتمل أنه تعالى مع حاجته الى اللبن أحدث فيه نفار الطبع عن لبن سائر النساء فلذلك لم يرضع أو أحدث فى لبنهن من الطعم ما ينفر عنه طبعه أو وضع فى لبن أمه لذة فلما تعودته لا جرم كان يكره لبن غيرها ومن الصحابة كانت أمه قد أرضعته الا ثة أشهر حتى عرف ريحها والمراضع جمع مرضع وهى المرأة التى ترضع أو جمع مرضع وهو موضع الرضاع أى الثدى أو الرضاع وقوله من قبل أى من قبل ان رددناه الى امه ومن قبل جمى بأخت موسى عليه السلام ومن قبل ولادته فى حكمنا وقضائنا فلما تعودته لا جرم كان يكره لبن غيرها ومن الصحابة كانت أمه قد أرضعته الا ثة أشهر حتى عرف ريحها والمراضع جمع مرضع وهى المرأة التى ترضع أو جمع مرضع وهو موضع الرضاع أى الثدى أو الرضاع وقوله من قبل أى من قبل ان رددناه الى امه ومن قبل جمى بأخت موسى عليه السلام ومن قبل ولادته فى حكمنا وقضائنا فعند ذلك قالت أخته هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم أى يضمنون رضاعه والقيام بمصالحه وهم له ناصحون لا يغشونه ما يشفيه فى تربيته واغذائه ولا يجتزئون فيه والنصح اخلاص العمل من شائبة الفساد وقال السدى انها لما قالت وهم له ناصحون دل ظاهر ذلك على ان أهل البيت يعرفونه فقال لها ما ما قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله فقالت ما أعرفه ولكنى اغا قلت هم للملك ناصحون ليزول شغل قلبه وكل ما روى فى هذا الباب يدل على ان فرعون كان بمنزلة آسية فى شدة محبته لموسى عليه السلام لا على ما قال من زعم انها كانت مختصة بذلك فقط ثم قال تعالى فرددناه الى أمه بهذا الضرب من اللطف كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق أى فيما كان وعدها من أنه مردوه اليها ولقد كانت عالمة بذلك ولكن ليس الخبر

البنات وأنت تعلم أن ابطالها مما من آثار القرآن وتتابعه (ومايزيدهم) أى والحال انه مايزيدهم ذلك التعريف البالغ (الانفورا) عن الحق واعراضا عنه فضلا عن التذكر المؤدى الى معرفة بطلان ماهم عليه من القبائح (قل) فى اظهار بطلان ذلك من جهة أخرى (لوكان معه) تعالى (آلهة كما يقولون) أى المشركون قاطبة وقرئ بالتاء خطابا ٤٦٥ لهم من قبل النبى عليه الصلاة والسلام والتكلف فى محل النصب على انها نعت لمصدر محذوف أى كونا مشابها لما يقولون والمراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة (اذا لابتغوا) جواب عن مقالتهم الشنعاء وجزاء للو أى لطلبوا (الى ذى العرش) أى الى من له الملك والربوبية على الاطلاق (سبيلا) بالمغالبة والممانعة كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض على طريقة قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقيل بالتقرب اليه تعالى كقوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة والاول هو الاظهر الانسب لقوله (سبحانه) فانه صريح فى أن المراد بيان أنه يلزم مما يقولونه محذور عظيم من حيث لا يحتسبون وأما ابتغاء السبيل اليه تعالى بالتقرب فليس مما نحن بصدد بيانه بهذا التقرير ولا هو مما يلزمهم من حيث لا يشعرون بل هو أمر يعتقدونه

كالعيان فتحققت بوجود الموعود ولكن أكثرهم لا يعلمون فيه وجوه أربعة (أحدها) ولكن أكثر الناس فى ذلك العهد وبعده لا يعلمون لاعراضهم عن النظر فى آيات الله (وثانيها) قال الضحاك ومقاتل يعنى أهل مصر لا يعلمون أن الله وعدها برده اليها (وثالثها) هذا كالتعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى عليه السلام فجزعت وأصبح فؤادها فارغا (ورابعها) أن يكون المعنى انا اغا رددناه اليها لنعلم أن وعد الله حق والمقصود الاصلى من ذلك الرد هذا الغرض الدينى ولكن الاكثر لا يعلمون ان هذا هو الغرض الاصلى وان ماسواه من قرة العين وذهاب الحزن تبع قال الضحاك لما قيل لها قال هامان انك لامه قالت لا قال فما بالك قبل ذلك من بين النسوة قالت أيها الملك انى امرأة طيبة الريح حلوة اللبن ما شم ريحى صبى الا أقبل على ثديى قال لقد صدقت فلم يبق أحد من آل فرعون الا أحدى اليها وأتحفها بالذهب والجواهر ﴿ قوله تعالى ﴾ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾ اعلم أن فى قوله بلغ أشده واستوى قولين (أحدهما) انهما بمعنى واحد وهو استكمال القوة واعتدال المزاج والبنية (والثانى) وهو الاصح انهما معنيان متغايران ثم اختلفوا على وجوه (أحدها) وهو الاقرب ان الاشد عبارة عن كمال القوة الجسمانية البدنية والاستواء عبارة عن كمال القوة العقلية (وثانيها) الاشد عبارة عن كمال القوة والاستواء عبارة عن كمال النفس والخلقة (وثالثها) الاشد عبارة عن البلوغ والاستواء عبارة عن كمال الخلقة (ورابعها) قال ابن عباس الاشد ما بين الثمانية عشرة سنة الى الثلاثين ثم من الثلاثين سنة الى الاربعين يبقى سواء من غير زيادة ولا نقصان ومن الاربعين يأخذ فى النقصان وهذا الذى قاله ابن عباس رضى الله عنهما حق لان الانسان يكون فى أول العمر فى القوة والتزايد ثم يبقى من غير زيادة ولا نقصان ثم يأخذ فى الانتقاص فنهاية مدة الازدياد من أول العمر الى العشرين ومن العشرين الى الثلاثين يكون التزايد قليلا والقوة قوية جدا ثم من الثلاثين الى الاربعين يقف فلا يزداد ولا ينتقص ومن الاربعين الى الستين يأخذ فى الانتقاص الخفى ومن الستين الى آخر الامر يأخذ فى الانتقاص البين الظاهر ويروى انه لم يبعث نبى الا على رأس أربعين سنة والحكمة فيه ظاهرة لان الانسان يكون الى رأس الاربعين قوى الجسمانية من الشهوة والغضب والحس قوية مستكملة فيكون الانسان مجتذبا اليها فاذا انتهى الى الاربعين أخذت القوى الجسمانية فى الانتقاص والقوة العقلية فى الازدياد فهنالك يكون الرجل أكمل ما يكون فلهذا السر اختار الله تعالى هذا السن للوحى ﴿ المسئلة الثانية ﴾ اختلفوا فى واحد الاشد قال الفراء الاشد واحدها شدة كما أن واحدة الانعم نعمة والشدة القوة والجلادة أما قوله آتيناه حكما وعلما ففيه وجهان (الاول) انها النبوة وما يقرن بها من العلوم والاخلاق وعلى هذا التقدير ليس فى الآية دلالة على أن هذه النبوة كانت قبل قتل القبطى أو بعده لان الواو فى قوله ودخل المدينة لا تفيد الترتيب (الثانى) آتيناه الحكمة والعلم قال تعالى واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة وهذا القول أولى لوجوه (أحدها) أن النبوة أعلى الدرجات البشرية فلابد أن تكون مسبوقة بالكمال فى العلم والسيرة المرضية التى هى أخلاق الكبراء والحكماء (وثانيها) ان قوله وكذلك نجزى المحسنين يدل على انه انما أعطاه الحكم

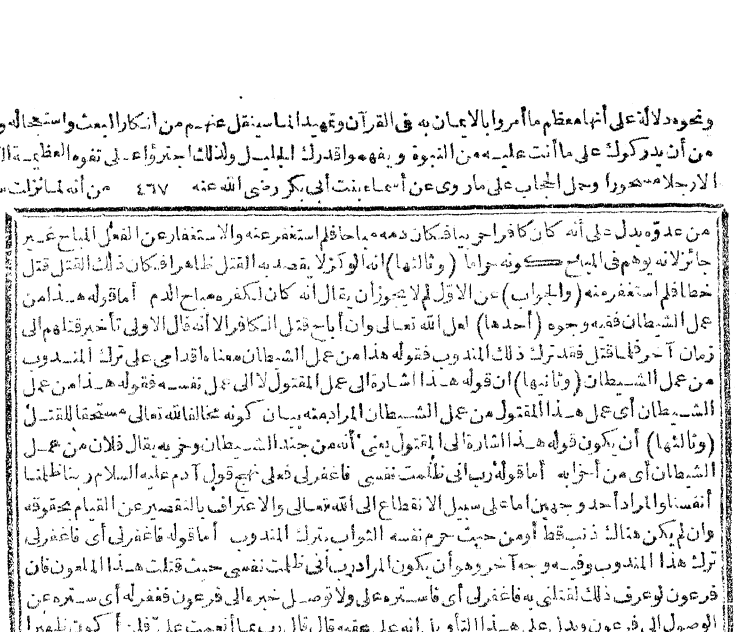
هى ان يكون معه آلهة وأن يكون له بنات (علوا) تعاليا كقوله تعالى والله أنبتكم من الارض نباتا (كبيرا) لا غاية وراءه كيف لا وانه سبحانه فى أقصى غايات الوجود وهو الواجب الذاتى ومايقولونه من أن له تعالى شركاء وأولادا فى أبعد مراتب العدم أعنى الامتناع

رأسا أى تنزه ذاته تنزها حقيقا به (وتعالى) متباعدا (عما يقولون) من العظيمة التى

لانه تعالى فى أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود لذاته واتخاذ الولد من أدنى مراتبه فانه من خواص ما يمتنع بقاؤه كما قيل فان ما يقولونه ليس مجرد اتخاذ الولد بل اتخاذه تعالى له وأن يكون معه آلهة ولا ريب فى أن ذلك ليس بداخل فى حد الامكان فضلا عن دخوله تحت الوجود وكونه من ٤٦٦ أدنى مراتب الوجود اما هو بالنسبة الى من شأنه ذلك (تسبح) بالفوقانية وقرئ بالفتحانية وقرئ سبحت (له السموات السبع والارض ومن فيهن) من الملائكة والثقلين على أن المراد بالتسبيح معنى منتظم لما ينطق به لسان المقال ولسان الحال بطريق عموم المجاز (وان من شئ) من الاشياء حيوانا كان أو نباتا أو جمادا (الا يسبح) متلبسا (بحمده) أى ينزهه تعالى بلسان المقال عما لا يليق بذاته الاقدس من لوازم الامكان ولواحق الحدوث اذ ما من موجود الا وهو بامكانه وحدوثه يدل دلالة واضحة على أن له صانعا عليما قادرا حكيما واجب الذات قطعا للسلسلة (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) أيها المشركون لاخلالكم بالنظر الصحيح الذى به يفهم ذلك وقرئ لا يفقهون على صيغة المبنى للمفعول من باب التفعيل (انه كان حليما) ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة مع ما أنتم عليه من موجبياتها من الاعراض عن التدبر فى الدلائل الواضحة الدالة على التوحيد والانهماك فى الكفر والاشراك (غفورا) لمن تاب منكم (واذا قرأت القرآن) الناطق بالتسبيح والتنزيه ودعوتهم الى العمل بما فيه من التوحيد ورفض الشرك وغير ذلك من الشرائع (جعلنا) بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على دواعى الحكم الخفية (بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة) أو ثرا الموصول على الضمير مما لم يجر فى حيز الصلة وانما خص بالذكر كفرهم بالآخرة من بين سائر ما كفروا به من التوحيد

والعلم مجازا على احسانه والنبوة لا تكون جزاء على العمل (وثالثها) ان المراد بالحكم والعلم لو كان هو النبوة لوجب حصول النبوة لكل من كان من المحسنين لقوله وكذلك نجزى المحسنين لان قوله وكذلك اشارة الى ما تقدم ذكره من الحكم والعلم ثم بين انعامه عليه قبل قتل القبطى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى المدينة فالجمهور على انها هى المدينة التى كان يسكنها فرعون وهى قرية على رأس فرسخين من مصر وقال الضحاك هى عين شمس (المسئلة الثانية) اختلفوا فى معنى قوله على حين غفلة من أهلها على أقوال (فالقول الاول) ان موسى عليه السلام لما بلغ أشده واستوى وآتاه الله الحكم والعلم فى دينه ودين آبائه علم ان فرعون وقومه على الباطل فتكلم بالحق وعاب دينهم واشتهر ذلك منه حتى آل الامر الى أن أخافوه وخافهم وكان له من بنى اسرائيل شيعة يقتدون به ويسمعون منه وبلغ فى الخوف بحيث ما كان يدخل مدينة فرعون الا خائفا فدخلها يوما على حين غفلة من أهلها ثم الاكثرون على انه عليه السلام دخلها نصف النهار وقت ما هم قائلون وعن ابن عباس يريد بين المغرب والعشاء والاول أولى لانه تعالى أضاف الغفلة الى أهلها واذا دخل المرء مستتر الاجل خوف لا تضاف الغفلة الى القوم (القول الثانى) قال السدى ان موسى عليه السلام حين كبر كان يركب مراكب فرعون ويلبس مثل ملابسه ويدعى موسى ابن فرعون فركب يوما فى أثره فأدركه المقيل فى موضع فدخلها نصف النهار وقد خلت الطرق فوجد قوله على حين غفلة (القول الثالث) قال ابن زيد ليس المراد من قوله على حين غفلة من أهلها حصول الغفلة فى تلك الساعة بل المراد الغفلة من ذكر موسى وأمره فان موسى حين كان صغيرا ضرب رأس فرعون بالعصا ونتف لحيته فأراد فرعون قتله فحى عنه فأخذه وطرحه فى فيه فجعله عقدة لسانه فقال فرعون لا أقتله ولكن أخرجوه عن الدار والبلد فأخرج ولم يدخل عليهم حتى كبروا والقوم نسوا ذكره وذلك قوله على حين غفلة ولا مطعم فى ترجيح بعض هذه الروايات على بعض لانه ليس فى القرآن ما يدل على شئ منها اه (المسئلة الثالثة) قال تعالى فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه قال الزجاج قال هذا وهذا وهما غائبان على وجه الحكاية أى وجد فيها رجلين يقتتلان اذا نظر الناظر اليهما قال هذا من شيعته وهذا من عدوه ثم اختلفوا فقال مقاتل الرجلان كانا كافرين الا أن أحدهما من بنى اسرائيل والآخر من القبط واحتج عليه بأن موسى عليه السلام قال له فى اليوم الثانى انك لغوى مبين والمشهور أن الذى من شيعته كان مسلما لانه لا يقال فيمن يخالف الرجل فى دينه وطريقته انه من شيعته وقيل ان القبطى الذى سخره الاسرائيلى كان طباخ فرعون استسخره لحمل الحطب الى مطبخه وقيل الرجلان المقتتلان أحدهما السامرى وهو الذى من شيعته والآخر طباخ فرعون والله أعلم بكيفية الحال فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه أى سأله أن يخلصه منه واستنصره عليه فوكزه موسى عليه السلام الوكز الدفع بأطراف الاصابع وقيل بجمع الكف وقرأ ابن مسعود فلكزه موسى وقال بعضهم الوكز فى الصدر واللكز فى الظهر وكان عليه السلام شديد البطش وقال بعض المفسرين فوكزه بعصاه قال المفضل هذا غلط لانه لا يقال وكزه بالعصا فقضى عليه أى أماته وقتله (المسئلة الرابعة) استخبث هذه الآية من طعن فى عصمة الانبياء عليهم السلام من وجوه (أحدها) ان ذلك القبطى اما أن يقال انه كان مستحقا للقتل أو لم يكن كذلك فان كان الاول فلم قال هذا من عمل الشيطان ولم قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له ولم قال فى سورة أخرى فعلتها اذا وأنا من الضالين وان كان الثانى وهو أن ذلك القبطى لم يكن مستحقا للقتل كان قتله معصية وذنبا (وثانيها) ان قوله وهذا

ونحوه دلالة على أنها معظم ما أمروا بالايمان به في القرآن وتمهيدا لما سينقل عنهم من انكار البعث واستبعاده ونحو ذلك (تحابا) يحبهم من أن يدركوك على ما أنت عليه من النبوة ويفهموا قدرك الجليل ولذلك اجترؤا على تفوه العظيمة التي هي قولهم ان تتبعون الا رجلا مسحورا وحمل الحجاب على ما روى عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه ٤٦٧ من أنه لما نزلت سورة تبت أقبلت العوراء أم جميل امرأة أبي لهب ومعها فهر وهو النبي عليه الصلاة والسلام قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه فلما رآها قال يا رسول الله لقد أقبلت هذه وأخاف أن تراك قال عليه الصلاة والسلام انها لن تراني وقرأ قرآنا فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يقبله الذوق السليم ولا يساعده النظم الكريم (مستورا) ساترا كما في قولهم سيل مفعم أو مستورا عن الحس بمعنى غير حسي أو مستورا في نفسه بحجاب آخر أو مستورا كونه حجابا حيث لا يدرون انهم لا يدرون (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية كثيرة جمع كنان (أن يفقهوه) مفعول لأجله أي كراهة أن يفقهوه أو مفعول لما دل عليه الكلام أي منعناهم ان يفقهوا على كنهه ويعرفوا أنه من عند الله تعالى (وفي آذانهم وقرا) صمما وثقلا مانعا من سماعه اللائق به وهذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشؤن النبي عليه الصلاة والسلام وفرط نبوة قلوبهم عن فهم القرآن الكريم وعجم أسماعهم له حتى عجبا بانا لعدم فقههم لتسبيح لسان المقال أثر بيان عدم فقههم تسبيح لسان الحال وايذانا بأن هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه الا لمانع قوي يستر المشاعر فيبطلها وتنبيها على أن حالهم هذا أقبح من حالهم السابق لاسكابهم لما قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا



من عدوه يدل على أنه كان كافرا حربيا فكان دمه مباحا فلم استغفر عنه والاستغفار عن الفعل المباح غير جائز لانه يوهم في المباح كونه حراما (وثانيها) انا لو تنزلنا وقصدنا القتل ظاهرا فكان ذلك القتل قتل خطأ فلم استغفر منه (والجواب) عن الاول لم لا يجوز أن يقال انه كان لكفره مباح الدم أما قوله هذا من عمل الشيطان ففيه وجوه (أحدها) لعل الله تعالى وان أباح قتل الكافر الا أنه قال الاولى تأخير قتلهم الى زمان آخر فلما قتل فقد ترك ذلك المندوب فقوله هذا من عمل الشيطان معناه اقدامي على ترك المندوب من عمل الشيطان (وثانيها) ان قوله هذا اشارة الى عمل المقتول لا الى عمل نفسه فقوله هذا من عمل الشيطان أي عمل هذا المقتول من عمل الشيطان المراد منه بيان كونه محظورا لله تعالى مستحقا للقتل (وثالثها) أن يكون قوله هذا اشارة الى القتول يعني أنه من جند الشيطان وحزبه يقال فلان من عمل الشيطان أي من أحزابه أما قوله رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فعلى نهج قول آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا والمراد أحد وجهين اما على سبيل الانقطاع الى الله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وان لم يكن هناك ذنب قط أو من حيث حرم نفسه الثواب بترك المندوب أما قوله فاغفر لي أي فاغفر لي ترك هذا المندوب وفيه وجه آخر وهو أن يكون المراد رب اني ظلمت نفسي حيث قتلت هذا المعون فان فرعون لو عرف ذلك لقتلني به فاغفر لي أي فاستره علي ولا توصل خبري الى فرعون فغفر له أي ستره عن الوصول الى فرعون ويدل على هذا التأويل انه على عقبه قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين ولو كانت اعانة المؤمن ههنا سببا للمعصية لما قال ذلك وأما قوله فعلتها اذا وأنا من الضالين فلم يقل اني صرت بذلك ضالا الا ولكن فرعون لما ادعى أنه كان كافرا في حال القتل نفى عن نفسه كونه كافرا في ذلك الوقت واعترف بأنه كان ضالا أي متحيرا لا يدري ما يجب عليه أن يفعله وما يدر به في ذلك أما قوله ان كان كافرا حربيا فلم استغفر عن قتله قلنا كون الكافر مباح الدم أمر مختلف باختلاف الشرائع فلعل قتلهم كان حراما في ذلك الوقت أو ان كان مباحا لكن الاولى تركه على ما قررناه فقوله ذلك القتل كان قتل خطأ قلنا لا نسلم فلعل الرجل كان ضعيفا وموسى عليه السلام كان في نهاية الشدة فوكزه كان قاتلا قطعا ثم ان سلمنا ذلك ولكن لعله عليه السلام كان يمكنه أن يخلص الاسرائيلي من يده بدون ذلك الوكز الذي كان الاولى تركه فلهذا أقدم على الاستغفار على أنا وان سلمنا دلالة هذه الآية على صدور المعصية لكنا بينا أنه لا دليل البتة على انه كان رسولا في ذلك الوقت فيحتمل كون ذلك صادرا منه قبل النبوة وذلك لا نزاع فيه (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة الآية دلت على بطلان قول من نسب المعاصي الى الله تعالى لانه عليه السلام قال هذا من عمل الشيطان فنسب المعصية الى الشيطان فلو كانت بخلق الله تعالى لكانت من الله لا من الشيطان وهو تركيك قول يوسف عليه السلام من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي وقول صاحب موسى عليه السلام وما أنسانيه الا الشيطان وقوله تعالى لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة أما قوله رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين ففيه وجوه (أحدها) ان ظاهره يدل على انه قال ذلك لما أنعمت علي بهذا الانعام فاني لا أكون معاونا للأحمق المجرم بل أكون معاونا للمسلمين وهذا يدل على أن ما أقدم عليه من اعانة الاسرائيلي على القبطي كان طاعة لا معصية اذ لو كانت معصية انزل الكلام منزلة ما اذا قيل انك لما أنعمت علي بقبول توبتي عن تلك المعصية فاني لا أكون مواظبا على مثل تلك المعصية (وثانيها) قال القفال كأنه أقسم بما أنعم الله عليه أن لا يظاهر مجرما ولما لم يقسم أي بنعمة تلك علي (وثالثها) قال الكسائي والفراء انه خبر ومعناه الدعاء كأنه قال فلا جعلني ظهيرا قال الفراء

وبينك حجاب كيف لا وقصدهم بذلك انما هو الاخبار بما اعتقدوه في حق القرآن والنبي عليه الصلاة والسلام جهلا وكفرا من انصافهما بأوصاف مانعة من التصديق والايمان كأن يكون القرآن سحرا وشعرا واساطير وقس عليه حال النبي عليه الصلاة والسلام لا الاخبار بأن هناك أمرا وراء ما أدركوه قد حال بينهم وبين ادراكه حائل من قبلهم ولا ريب في أن ذلك المعنى مما لا يكاد يلائم المقام (واذا ذكرت ربك في القرآن وحده) واحدا غير مشفوع به آلهتهم وهو مصدر وقع موقع الحال أصله يحد وحده (ولوا على أدبارهم) أي هـ ـ ـ ـ ربوا ونفروا (نفورا) أو ولوا ناقرين (نحن أعلم بما يستمعون به) ملتبسين به من اللغو والاستخفاف والهزؤ بك وبالقرآن يروى أنه كان يقوم عن يمينه عليه الصلاة والسلام رجلان من بني عبد الدار وعن يساره رجلان فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار (اذ يستمعون اليك) ظرف لاعلم وفائدته تأكيد الوعيد بالاخبار بأنه كما يقع الاستماع المزبور منهم يتعلق به العلم لا أن العلم يستفاد هناك من أحد وكذا قوله تعالى (واذ هم نجوى) لكن لا من حيث تعلقه بما به الاستماع بل بما به التناجي المدلول عليه بسياق النظم والمعنى نحن أعلم الذي يستمعون ملتبسين به مما لا خير فيه من الامور المذكورة وبالذي يتناجون به فيما بينهم أو الاول ظرف ليستمعون والثاني ليتناجون والمعنى نحن أعلم بما به الاستماع وقت استماعهم من غير تأخير قالت وبما به التناجي وقت تناجيهم ونجوى مرفوع على الخبرية بتقدير المضاف أي ذوو نجوى أو هو جمع نجي كقتلى جمع قتيل أي متناجون (اذ يقول الظالمون) بدل من اذ هم وفيه دليل على أن مايتناجون به غير ما يستمعون به وانما وضع الظالمون موضع المضمر اشعارا بأنهم في

وفي حرف عبد الله فلا تجعلني ظهيرا واعلم أن في الآية دلالة على انه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة وقال ابن عباس لم يستثن ولم يقل فان أكون ظهيرا ان شاء الله فابتلي به في اليوم الثاني وهذا ضعيف لانه في اليوم الثاني ترك الاعانة وانما خاف منه ذلك المدد وقال ان تريد الا أن تكون جبارا في الارض لا انه وقع منه ﴿ قوله تعالى ﴾ فأصبح في المدينة خائفا يترقب فاذا الذي استنصره بالامس يستصرخه قال له موسى انك لغوي مبين فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالامس ان تريد الا أن تكون جبارا في الارض وما تريد أن تكون من المصلحين وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين ﴿ اعلم أن عند موت ذلك الرجل من آل فرعون أو قرب موته أصبح موسى عليه السلام من غد ذلك اليوم خائفا من أن يظهر أنه هو القاتل فيطلب به ويخرج على استتار فاذا الذي استنصره وهو الاسرائيلي بالامس يستصرخه يطلب نصرته ويصياح وصراخ قال له موسى انك لغوي مبين قال أهل اللغة الغوي يجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعل أي أنك لمغوى قومي فاني وقعت بالامس فيما وقعت فيه بسببك ويجوز أن يكون بمعنى الغاوي واحتج به من قدح في عصمة الانبياء عليهم السلام فقال كيف يجوز لموسى عليه السلام أن يقول لرجل من شيعته يستصرخه انك لغوي مبين (والجواب) من وجهين (الاول) ان قوم موسى عليه السلام كانوا غلاظا جفاة ألا ترى الى قولهم بعد مشاهدة الآيات اجعل لنا الها كما لهم آلهة فالمراد بالغوي المبين ذلك (الثاني) أنه عليه السلام انما سماه غويا لان من تكثر منه الخاصمة على وجه يتعذر عليه دفع خصمه عما يروم فهو من ضرره يكون على خلاف طريقة الرشد واختلفوا في قوله تعالى قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت أمس نفسا من كلام الاسرائيلي أو القبطي فقال بعضهم لما خاطب موسى الاسرائيلي بأنه غوي ورآه على غضب ظن انهم يريد بطشه به فقال هذا القول وزعموا انه لم يعرف قتله بالامس للرجل الا هو وصار ذلك سببا لظهور القتل ومزيدا لظرف وقال آخرون بل هو قول القبطي وقد كان عرف القصة من الاسرائيلي والظاهر هذا الوجه لانه تعالى قال فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى فهذا القول اذن منه لامن غيره وأيضا قوله ان تريد الا أن تكون جبارا في الارض لا يليق الا بأن يكون قولا للكافر واعلم أن الجبار الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن وقيل المتعظم الذي لا يتواضع لامر أحد ولما وقعت هذه الواقعة انتشر الحديث في المدينة وانتهى الى فرعون وهمه وايقنه أما قوله وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال صاحب الكشاف يسعى يجوز ارتفاعه وصفا لرجل وانتصابه حالا عنه لانه قد تخصص بقوله من أقصى المدينة والائتمار التشاور يقال الرجلان يأتمران لان كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر والمعنى يتشاورون بسببك وأكثر المفسرين على أن هذا الرجل هو من آل فرعون فعلى وجه الاشفاق أسرع اليه ليخوفه بأن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك أما قوله فخرج منها خائفا يترقب أي خائفا على نفسه من آل فرعون ينتظر لي يلحقه طلب فيرد حتى ثم التجأ الى الله تعالى لعلمه بأنه لا ملجأ سواه فقال رب نجني من القوم الظالمين وهذا يدل على أن قتله للقبطي لم يكن ذنبا والا لكان هو الظالم لهم وما كانوا ظالمين له بسبب طلبهم اياه ليقتلوه قصاصا ﴿ قوله تعالى ﴾ ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب اني لما أنزلت الي من خير فقير فجاءته احداهما تمشي على استحياء أ

ذلك ظالمون متجاوزون للحد أي يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم (أن تتبعون) ما تتبعون (إن وجد منكم الاتباع فرضا أو ما تتبعون) بالفعل وهو الارتزاء (الا رجلا مسحورا) أي مسحورا فزال عقله أو رجلا ذا سحر أي رئة تتنفس أي بشرا مثلكم (انظر كيف ضربوا لك الامثال) أي مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون (فضلوا) في حسم ذلك عن منهاج المحاجة ٤٦٩ (فلا يستطيعون سبيلا) الى طعن يمكن أن يقبله أحد فيتهافتون ويخبطون ويأتون بما لا يرتاب في بطلانه أحد أو الى سبيل الحق والرشاد وفيه من الوعيد وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا) استفهام انكاري مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار للبعث بعد ما آل الحال الى هذا المآل لما بين عضاضة اللحم ورخاوته الرمم من التفاوت كأن استقالة الامر من الظهور بحيث لا يقدر المخاطب على التكلم به والرفات ما يوطأ في دقه وتفتيته وقال الفراء هو التراب وهو قول مجاهد وقيل هو الحطام وإذا متضمنة للظرفية وهو الاظهر والعامل فيها ما دل عليه قوله تعالى (أئنا لمبعوثون) لا نفسه لان ما بعد ان والهمزة واللام لا يعمل فيما قبلها وهو مبعث أو تعاد وهو المرجح للانكار وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيصه بمنافيهم منكرون للاحياء بعد الموت وان كان الدين على حالة بل لتقوية الانكار للبعث بتوجيهه اليه في حالة منافية له وتكرير الهمزة في قولهم أئنا لتأكيد التكبير وتحلية الجملة بان واللام لتأكيد الانكار لانكارهم تأكيد كما عسى يتوهم من ظاهر النظم فان تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما في مثل قوله تعالى أفلا تعقلون وتقاريره على رأي الجمهور فان المنفي عندهم تعقب الانكار لا انكار التعقب كما هو المشهور

قالت ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين قال اني أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني ان شاء الله من الصالحين قال ذلك بيني وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل ﴾ اعلم أن الناس اختلفوا في قوله ولما توجه تلقاء مدين فقال بعضهم انه خرج وما قصد مدين ولكنه سلم نفسه الى الله تعالى وأخذ يمشي من غير معرفة فأوصله الله تعالى الى مدين وهذا قول ابن عباس وقال آخرون لما خرج قصد مدين لانه وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة لانهم من ولد مدين بن ابراهيم عليه السلام وهو كان من بني اسرائيل لكن لم يكن له علم بالطريق بل اعتمد على فضل الله تعالى ومن الناس من قال بل جاءه جبريل عليه السلام وعلمه الطريق وذكر ابن بزيز عن السدي لما أخذ موسى عليه السلام في المسير جاءه ملك على فرس فسجد له موسى من الفرح فقال لا تفعل ولكني فاتبعني فتبعه حتى مدين واحتج من قال انه خرج وما قصد مدين بأمرين (أحدهما) قوله ولما توجه تلقاء مدين ولو كان قاصدا للذهاب الى مدين لقال ولما توجه الى مدين فلما لم يقل ذلك بل قال توجه تلقاء مدين علمنا انه لم يتوجه الا الى ذلك الجانب من غير أن يعلم أن ذلك الجانب الى أين ينتهي (والثاني) قوله عسى ربي أن يهديني سواء السبيل وهذا كلام شاك لا عالم والاقرب أن يقال انه قصد الذهاب الى مدين وما كان عالما بالطريق ثم انه كان يسأل الناس عن كيفية الطريق لانه سمع من موسى عليه السلام في عقله وذكائه أن لا يسأل ثم قال ابن اسحق خرج من مصر الى مدين بغير زاد ولا ظهر وبينهما مسيرة ثمانية أيام ولم يكن له طعام الا ورق الشجر أما قوله عسى ربي أن يهديني سواء السبيل فهو نظير قول جده ابراهيم عليه السلام اني ذاهب الى ربي سيهدين وموسى عليه السلام قلما بذكر كلاما في الاستدلال والجواب والدعاء والتضرع الا ما ذكره ابراهيم عليه السلام وهكذا الخلف الصدق للسلف الصالح صلوات الله عليهم وعلى جميع النبيين المطهرين ولما ورد ماء مدين وهو الماء الذي يسقون منه وكان بئرا فيما روي وورده جميع الواصلون اليه وجد عليه أي فوق شفيره ومستقاه أمة جماعة كثيرة العدد من الناس من أناس مختلفين ووجد من دونهم في مكان أسفل من مكانهم امرأتين تذودان والذود الدفع والطرد فقوله تذودان أي تحبسان ثم فيه أقوال (الاول) تحبسان أغنامهما لاختلافهما في علة ذلك الحبس على وجوه (أحدها) قال الزجاج لان على الماء من كان أقوى منهما فلا يمكنهما من السقي (وثانيها) كانتا تكرهان المزاحمة على الماء (وثالثها) لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم (ورابعها) لئلا تختلطا بالرجال (القول الثاني) كانتا تذودان عن وجوههما نظرا لناظر ابراهما (والقول الثالث) تذودان الناس عن عمهما (القول الرابع) قال الفراء حبستهما نهيا عن أن تتفرقا وتتسربا قال ما خطبكما أي ما شأنكما وحقيقته ما خطوبكما أي مطلوبكما من الذياد فسمي المخطوب خطبا كما يسمى المشؤم شأما في قولك ما شأنك فقالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير وذلك يدل على ضعفهما عن السقي من وجوه (أحدها) ان العادة في السقي للرجال والنساء يضعفن عن ذلك (وثانيها) مظاهرتهن ذودهما المناسبة على طريق التأخير (وثالثها) قولهما حتى يصدر الرعاء (ورابعها) انتظارهما ما يبقى من القوم من الماء (وخامسها) قولهما وأبونا شيخ كبير ودلالة ذلك على انه لو كان قوي لحضر ولو حضر لم يتأخر السقي فعند ذلك سقى لهما قبل صدور الرعاء وعادتا الى أبيهما قبل الوقت المعتاد قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم بفتح الياء وضم الدال وقرأ الباقون بضم

وليس مدار انكارهم كونهم ثابتين في المبعوثية بالفعل في حال كونهم عظاما ورفاتا كما يتراءى من ظاهر الجملة الاسمية بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له ومرجعه الى انكار البعث بعد تلك الحالة وفيه من الدلالة على غلوهم في الكفر وتعاديهم في الضلال مالا مزيد عليه (خلقا جديدا) نصب على المصدر ٤٧٠ من غير لفظه أو الحالية على أن الخلق بمعنى المخلوق (قل) جوابا لهم وتقريبا لما استبعدوه (كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا) آخر (مما يكبر في صدوركم) أي يعظم عندكم عن قبول الحياة لكمال المباينة والمنافاة بينها وبينه فانكم مبعوثون ومعادون لا محالة (فسيقولون من يعيدنا) مع ما بيننا وبين الاعادة من مثل هذه المباعدة والمباينة (قل) لهم تحقيقا للحق وازاحة للاستبعاد وارشادا لهم الى طريقة الاستدلال (الذي) أي يعيدكم القادر العظيم الذي (فطركم) اخترعكم (أول مرة) من غير مثال يحتذيه ولا أسلوب ينتحيه وكنتم ترابا ماشم رائحة الحياة أليس الذي يقدر على ذلك يقادر على أن يعيد العظام البالية الى حالتها المعهودة بلى انه على كل شئ قدير (فسينغضون اليك رؤوسهم) أي سيحركونها نحوك تعجبا وانكارا (ويقولون) استهزاء (متى هو) أي ماذكرته من الاعادة (قل) لهم (عسى أن يكون) ذلك (قريبا) نصب على انه خبر ليكون أو ظرف على أن كان تامة أي أن يقع في زمان قريب ومحل أن مع ما في حيزها اما نصب على انه خبر لعسى وهي ناقصة واسمها ضمير عائد الى ما عاد اليه هو أي عسى اليعث أن يكون قريبا أو عسى اليعث يقع في زمان قريب أو رفع على انه فاعل لعسى وهي تامة أي عسى كونه قريبا أو وقوعه في زمان قريب (يوم يدعوكم) منصوب بفعل مضمر أي اذكروا أو على انه بدل

الياء وكسر الدال فالمعنى في القراءة الاولى حتى ينصرفوا عن الماء ويرجعوا عن سقيهم وصدر ضدر ورد ومن قرأ بضم الياء فالمعنى في القراءة حتى يصدر القوم مواشيهم أما قوله فسقى لهما أي سقى غنمهما لاجلهما وفي كيفية السقي أقوال (أحدها) انه عليه السلام سأل القوم أن يسقوا فسقوا (وثانيها) نزل قوم عد الى البئر على رأسه صخرة لا يقلها الا عشرة وقيل أربعون وقيل مائة فقلعها بنفسه وراستقى الماء من ذلك البئر (وثالثها) ان القوم لما زاحمهم موسى عليه السلام تعمدوا القاء ذلك الحجر على رأس البئر فهو عليه السلام رمى ذلك الحجر وسقى لهما وليس بيان ذلك في القرآن والله أعلم بالصحيح منه لكن المرأة وصفت موسى عليه السلام بالقوة فدل ذلك على انها شاهدت منه ما يدل على فضل قوته وقال تعالى ثم تولى الى الظل وفيه دلالة على انه شفى لهما في ثمس وهو فيه دلالة أيضا على كمال قوة موسى عليه السلام قال الكلبي أتى موسى أهل الماء فسألهم دلوا لهم دلوا من ماء فقالوا له ان شئت انت الدلو فاستقى لهما اقال نعم وكان يجتمع على الدلو أربعون رجلا حتى يخرجوه من البئر فأخذ موسى عليه السلام الدلو فاستقى به وحده وصب في الحوض ودعا بالبركة ثم تقرب غنمهما فشربت حتى رويت ثم سرحهما مع غنمهما فان قيل كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب أن يرضى لابنته بسقي الماشية قلنا ليس في القرآن ما يدل على أن أباهما كان شعيبا والناس مختلفون فيه فقال ابن عباس رضي الله عنهما أن أباهما هو بيرون ابن أخي شعيب وشعيب مات بعد ماعمي وهو أحد نبيار أبي عيسد وقال الحسن انه رجل مسلم قبل الدين عن شعيب على أنا وان سلمنا انه كان شعيبا عليه السلام لكن لا مفسدة فيه لان الدين لا يأباه وأما المروءة فالناس فيها مختلفون وأحوال أهل البادية غير أحوال أهل الحضر لا سيما اذا كانت الحالة حالة الضرورة وأما قوله قال رب اني لما أنزلت الي من خير فقير فالمعنى اني لاي شئ أنزلت الي من خير قليل أو كثير غث أو سمين لفقير وانما عدي فقيرا باللام لانه ضمن معنى سائل وطالب (واعلم) أن هذا الكلام يدل على الحاجة اما الى الطعام أو الى غيره الا أن المفسرين حملوه على الطعام قال ابن عباس ير يد طعاما ما كله وقال الضحاك مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاما الا بقل الارض وروى أن موسى عليه السلام لما قال ذلك رفع صوته ليسمع المرأتين ذلك فعلمتا قيل انه عليه السلام لما رفع معه من القوة ما قدر بها على حمل ذلك الدلو العظيم فكيف يليق بهمته العالية أن يطلب الطعام أليس انه عليه السلام قال لا تحل الصدقة لغني ولا لذي قوة سوي * قلنا أما رفع الصوت بذلك لاسماع المرأتين وطلب الطعام فذلك لا يليق بموسى عليه السلام البتة فلا تقبل تلك الرواية ولكن لعله عليه السلام قال ذلك في نفسه مع ربه تعالى وفي الآية وجه آخر كأنه قال رب اني بسبب ما أنزلت الي من خير الدين صرت فقيرا في الدنيا لانه كان عند فرعون في ملكه ويروه فقال ذلك رضا بهذا البدل وفرحا به وشكرا له وهذا التأويل أليق بحال موسى عليه السلام * أما قوله تعالى فجاءته احداهما تمشي على استحياء فقوله على استحياء في موضع الحال أي مستحيية قال عمر بن الخطاب قد استترت بكم قبصها وقيل ماشية على بعد مائلة عن الرجال وقال عبد العزيز بن أبي حازم على اجلال له ومنهم من يقف على قوله تمشي ثم يبتدئ فيقول على استحياء قالت ان أبي يدعوك يعني انها على الاستحياء قالت هذا القول لان الكريم اذا دعا غيره الى الضيافة يستحي لا سيما المرأة وفي ذلك دلالة على أن شعيبا لم يكن له معين سواهما وروي انهما لما رجعتا الى أبيهما قبل الناس قال لهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لاحداهما اذهبي فادعيه لي أما الاختلاف في أن ذلك الشيخ كان شعيبا عليه السلام أو غيره فقد تقدم والاكثرون على انه شعيب وقال محمد بن اسحق في البنتين اسم الكبرى صفورا والصغرى ليا وقال غيره صفرا

من قريبا على انه ظرف أو يبقى تامة بالاتفاق أو ناقصة عند من يجوز اعمال الناقصة فى الظروف أو ضمير المصدر المستكن فى عسى أو يكون أعنى البعث عنده من يجوز اعمال ضمير المصدر كما فى قول زهير وما الحرب الا ما علمتم وذقتم * وما هو عنها بالحديث المرجم فهو ضمير المصدر وقد تعلق به ما هو عنده من الجار (فتستجيبون) أى يوم يبعثكم ٤٧١ فتجيبون وقد استعير لها الدعاء والاجابة ايذانا بكمال سهولة التأتى وبان المقصود منهما الاحضار للمحاسبة والجواب (بحمده) حال من ضمير تستجيبون أى منقادين له حامدين له تعالى على كمال قدرته عند مشاهدة آثارها ومعاينة أحكامها (وتظنون) عطف على تستجيبون أى تظنون عند ما ترون ما ترون من الامور الهائلة (ان لبثتم) أى ما لبثتم فى القبور (الا قليلا) كالذى مر على قرية أو ما لبثتم فى الدنيا (وقل لعبادى) أى المؤمنين (يقولوا) عند محاورتهم مع المشركين (التى) أى الكلمة التى (هى أحسن) ولا يخاشنوهم كقوله تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن (ان الشيطان ينزغ بينهم) أى يفسد ويهيج الشر والمراء ويغرى بعضهم على بعض لتقع بينهم المشاقة والمشارة والمعارة والمضارة فلعل ذلك يؤدى الى تأكد العناد

صفرا وصفيرا وقال الضحاك صافورا والتى جاءت الى موسى عليه السلام هى الكبرى على قول الاكثرين وقال الكلبى هى الصغرى وليس فى القرآن دلالة على شئ من هذه التفاصيل أما قوله قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فقد اشكلت (أحدها) كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يعمل بقول امرأة وأن يمشى معها وهى أجنبية فان ذلك يورث التهم العظيمة وقال عليه السلام اتقوا مواضع التهم (وثانيها) انه يشق احتمامها تقربا الى الله تعالى فكيف يليق به أخذ الاجرة عليه فان ذلك غير جائز فى المروءة ولا فى الشريعة (وثالثها) انه عرف فقرهن وفقر أبيهن وعجزهم وانه عليه السلام كان فى نهاية القوة بحيث كان يمكنه الكسب الكثير بأقل سعى فكيف يليق بمروءته مطالبة الاجرة على ذلك القدر من السقى من الشيخ الفقير والمرأة الفقيرة (ورابعها) كيف يليق بشعيب النبى عليه السلام أن يبعث ابنته الشابة الى رجل شاب قبل العلم بكون ذلك الرجل عفيفا أو فاسقا (والجواب عن الاول) ان نقول أما العمل بقول امرأة فكما نعمل بقول الواحد حرا كان أو عبدا ذكرا كان أو أنثى فى الاخبار وما كانت الاخبرة عن أبيها وأما المشى مع المرأة فلا بأس به مع الاحتياط والتورع (والجواب عن الثانى) ان المرأة وان قالت ذلك فلعل موسى عليه السلام ما ذهب اليهم طلبا للاجرة بل للنهرك برؤية ذلك الشيخ وروى انها لما قالت ليجزيك كره ذلك وامتنع من الطعام الذى قدم اليه وقال انا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيا ولا نأخذ على المعروف ثمنا حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا وأيضا فليس ينكر أن الجوع قد بلغ الى حيث ما كان يطيق تحمله فتقبل ذلك على سبيل الاضطرار وهذا هو الجواب عن الثالث فان الضرورات تبيح المحظورات (والجواب عن الرابع) انه عليه السلام كان قد علم بالوحى طهارتهما وبراءتهما فكان يعتمد عليهما أما قوله فلما جاءه وقال شعيب لا تخف نجوت من القوم الظالمين فاعلم أن قوله فلما جاءه وقال شعيب ولم قال لا نأمن أهل بيت لا نبيع ديننا بل على الارض ذهبا فقال شعيب ولكن عادتى وعادة آبائى اطعام الضيف فجلس موسى عليه السلام فأكل وانما كره أكل الطعام خشية أن يكون ذلك أجرة له على عمله ولم ينكره ذلك مع الضرورة بل قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا والفرق ان أخذ الاجرة على الصدقة لا يجوز أما الاستئجار ابتداء فغير مكروه أما قوله وقص عليه القصص فالقصص مصدر كالعلل سمى به المقصوص قال الضحاك لما دخل عليه قال له من أنت يا عبد الله فقال أنا موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وذكر له جميع أمره من الدن ولادته وأمر القوابل والمراضع والقذف فى اليم وقتل القبطى وانهم يطلبونه ليقتلوه فقال شعيب لا تخف نجوت من القوم الظالمين أى لا سلطان لك بأرضنا فاسناق مملكته وليس فى الآية دلالة على أنه قال ذلك عن الوحى أو على ما تقتضيه العادة * فان قيل المفسرون قالوا ان فرعون يوم ركب خلف موسى عليه السلام ركب فى ألف ألف وستمائة ألف فالملك الذى هذا شأنه كيف يعقل أن لا يكون فى مملكته قرية على بعد ثمانية أيام من دار مملكته قلنا هذا وان كان نادرا الا أنه ليس بمحال * أما قوله قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) وصفته بالقوة لما شاهدت من كيفية السقى وبالامانة لما حكينا من غض بصره حال ذوده هما الماشية وحال سقيه لهما وحال مشيه بين يديها الى أبيها (المسئلة الثانية) انما جعل خبره من استأجرت اسما والقوى الامين خبرا مع ان العكس أولى لان العناية هى سبب

وعبادى الفساد وهو تعليل للامر السابق وقرئ بكسر الراء (ان الشيطان كان) قديما (للانسان عدوا مبينا) ظاهر العداوة وهو تعليل لما سبق من أن الشيطان ينزغ بينهم (ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم) بالتوفيق للايمان (أو ان يشأ يعذبكم) بالاماتة على الكفر وهذا تفسير التى هى أحسن وما بينهما اعتراض أى قولوا لهم هذه الكلمة وما يشاكلها ولا تصرحوا بأنهم من أهل النار فانه مما يهيجهم على الشر مع

أن العاقبة مما لا يعلمه الا الله سبحانه فعسى يهديهم الى الايمان (وما أرسلناك عليهم وكيلا) موكولا اليك أمورهم تقسرهم على الايمان وانما أرسلناك بشيرا ونذيرا فدارهم وصر أصحابك بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة والمشاقة وذلك قبل نزول آية السيف وقيل نزلت في عمر رضي الله عنه شتمه رجل ٤٧٢ فامر بالعفو وقيل أفرط أذية المشركين بالمؤمنين فشكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

التقديم (المسئلة الثالثة) القرة والامانة لا تكتبان في حصول المقصود بالبضع اليهما اللفظة والكتابة فلم أهمل أمر الكتابة ويمكن أن يقال انها دخلت في الامانة عن ابن مسعود رضي الله عنه أفرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف وأبو بكر في عمر أما قولها قال اني أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين فلا شبهة في أن هذا اللفظ وان كان على التردد لكنه عند التزويج عين ولا شبهة في أن العقد وقع على أقل الاجلين فكانت الزيادة كالتبرع والفقهاء ربما استدلوا به على أن العمل قد يكون مهرا كالمال وعلى ان الخياطة الزيادة بالثمن والثمن مجاز ولكنه شرع من قبلنا فلا يلزمنا ويدل على انه قد كان جائزا في تلك الشريعة أن يشترط للولي منفعة وعلى انه كان جائزا في تلك الشريعة نكاح المرأة دون بذل تستحقه المرأة وعلى أن عقد النكاح لا تفسده الشروط التي لا يوجبها العقد ثم قال علي أن تأجرني ثماني حجج تأجرني من أجرته اذا كنت له أجيرا وثماني حجج ظرف وأمين أجرته كذا اذا أتيته اياه ومنه أجرك الله ورحمك وثماني حجج مفعول به ومعناه رعيه ثماني حجج ثم قال وما أريد أن أشق عليك وفيه وجهان (الاول) لا أريد أن أشق عليك بالزام أتم الاجلين فان قيل ما حقيقة قولهم شققت عليه وشق عليه الامر قلنا حقيقته ان الامر اذا تعاطاه فكانه شق عليه لما ظنك ثانيين تقول تارة أطيقه وتارة لا أطيقه (الثاني) لا أريد أن أشق عليك في الرعي ولكني أساهلك فيها وأسامحك بقدر الامكان ولا أكلفك الاحتياط الشديد في كيفية الرعي وهكذا كان الانبياء عليهم السلام آخذين بالاسمح في معاملات الناس ومنه الحديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شريكي فكان خير شريك لا يداري ولا يماري ثم قال ستجدني ان شاء الله من الصالحين وفيه وجهان (الاول) يريد بالصلاح حسن المعاملة ولين الجانب (والثاني) يريد الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة وانما قال ان شاء الله للاتكال على توفيقه ومعونته فان قيل فالله قد كيف يتقدم هذا الشرط فانه لو قالت امرأتي طالق ان شاء الله لا تطلق قلنا هذا انما يختلف بالشرائع أما قوله تعالى قال ذلك بيني وبينك أعلم أن ذلك مبتدأ وبيني وبينك خبره وهو اشارة الى ما عاهده عليه شعيب عليه السلام يريد ذلك الذي قلته وعاهدتني عليه قائم بيننا جميعا لا يخرج كلانا عنه لا أنا عما شرطت علي ولا أنت عما شرطت على نفسك ثم قال أيما الاجلين قضيت من الاجلين أطولهما الذي هو العشر أو أقصرهما الذي هو الثمان فلا عدوان علي أي لا يعتدى علي في طلب الزيادة أراد بذلك تقرير أمر الخيار يعني ان شاء هذا وان شاء هذا ولم يكن اختيار الاجل الزائد موكولا الى رأيه من غير أن يكون لاحد عليه اجبار ثم قال والله على ما نقول وكيل والوكيل هو الذي وكل اليه الامر لما استعمل الوكيل في معنى الشاهد عدى بعلى لهذا السبب ﴿قوله تعالى﴾ (فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لاهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الايمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى اني أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف انك من الآمنين اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه انهم كانوا قوما فاسقين ﴾ اعلم انه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تزوج صغراهما وقضى أوفاهما أي قضى أوفى الاجلين وقال مجاهد قضى الاجل عشر سنين ومكث بعد ذلك عنده عشر سنين وقوله فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله آنس يدل على ان ذلك الايناس حصل عقيب مجموع الامرين ولا يدل على انه حصل عقيب أحدهما وهو قضاء الاجل فبطل ما قاله القاضي من ان ذلك يدل على انه لم يزد عليه وقوله وسار بأهله

الذي هي أحسن أن يقولوا يهديكم الله يرحمكم الله (ورب أعلم بمن في السموات والارض) وتفاصيل أحوالهم الظاهرة والكامنة التي يهتدي بها العلماء والاجتباء فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء ممن يستقيمه وهو رد عليهم اذ قالوا لا يعبد أن يكون يتيم أبي طالب نبيا وأن يكون العرب أصحابه دون أن يكون ذلك من الاكابر والصناديد وذكرهم في السموات لانطباق قولهم لولا أنزل علينا الملائكة وذكرهم في الارض رد قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) بالفضائل النفسانية والمنزه عن العلائق الجسمانية لا بكثرة الاموال والاتباع (وآتينا داود زبورا) بيان لحيثية تفضيله عليه الصلاة والسلام فان نبوته الجليلة وكونه خاتم النبيين مسطورة في الزبور وأن المراد بعباد الله الصالحين في قوله تعالى ليس

ان الارض يرثها عبادي الصالحون هو النبي عليه الصلاة والسلام وأمته وتعريف الزبور تارة وتنكيره أخرى اما لانه في الاصل فعول بمعنى المفعول كالحلوب أو مصدر بمعناه كالقبول وأما لان المراد آتينا داود زبورا من الزبر أو بعضا من الزبور فيه ذكره عليه الصلاة والسلام

وقرئ بضم الراى على انه جمع ذبر بمعنى مزبور (قل ادعوا الذين زعمتم) انها آلهة (من دونه) تعالى من الملائكة والمسيح وعزير (فلا يملكون) فلا يستطيعون (كشف الضر عنكم) بالمرة كالمرض والفقر والقحط ونحو ذلك (ولا تحويلا) أى ولا تحويله الى غيركم (أولئك الذين يدعون) أى أولئك الآلهة الذين يدعوهم المشركون من المذكورين ٤٧٣ (يبتغون) يطلبون لانفسهم (الى ربهم الوسيلة) القربة بالطاعة والعبادة (أيهم أقرب) بدل من فاعل يبتغون وأى موصولة أى يبتغى من هو أقرب اليه تعالى الوسيلة فكيف بمن دونه أو ضمن الابتغاء معنى الحرص فكأنه قيل يحرصون أيهم يكون أقرب اليه تعالى بالطاعة والعبادة (ويرجون رحمته) بها (ويخافون عذابه) بتركها كدأب سائر العباد فان هم من كشف الضر فضلا عن الالهية (ان عذاب ربك كان محذورا) حقيقا بان يحذره كل أحد حتى الملائكة والرسل عليهم الصلاة والسلام وهو تعليل لقوله تعالى ويخافون عذابه وتقريره بالتعليل لما أن المقام مقام التحذير من العذاب وأن بينهم وبين العذاب بونا بعيدا (وان من قرية) بيان لعظم هول عذابه تعالى عن لا يحذره اثر بيان أنه سحقيق بالحذر وأن أساطين الخلق من الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام على حذر من ذلك وكلمة ان نافية (الا نحن مهلكوه) أى مخربوها البتة بالخسف بها أو باهلاك أهلها بامراض مختلفة وعاهات متنوعة وهو من عظائم الموبقات المستوجبة لذلك وفى صيغة الفاعل وان كانت بمعنى المستقبل مالا يخفى فيه من الدلالة على التحقق والتقرر وانما قيل (قبل يوم القيامة) لان الاهلاك يومئذ غير

ليس فيه دلالة على انه خوج متفرد امعها وقوله امكثوا فيه دلالة على الجمع اما قوله انى آنست نارا فقد مر تفسيره فى سورة طه وسورة النمل * أما قوله لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ففيه بحثان (الاول) قال صاحب الكشاف الجذوة بالثلثات الثلاث وقد قرئ بهن جميعا وهو العود الغليظ كانت فى رأسه نار أو لم تكن قال الزجاج الجذوة القطعة الغليظة من الحطب (الثانى) قد حكينا فى سورة طه انه أظلم عليه الليل فى الصحراء وهبت ريح شديدة فرقت ماشيته وضل وأصابهم مطر وجمد وبرد شديد فعند ذلك أبصر نارا بعيدة فسار اليها يطلب من يدله على الطريق وهو قوله آتيكم منها بخبر أو آتيكم من هذه النار يجذوة من الحطب لعلكم تصطلون وفى قوله لعلى آتيكم منها بخبر دلالة على انه ضل وفى قوله لعلكم تصطلون دلالة على البرد * أما قوله فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى انى أنا الله رب العالمين فاعلم أن شاطئ الوادى جانبه وجاء النداء عن يمين موسى من شاطئ الوادى من قبل الشجرة وقوله من الشجرة بدل من قوله من شاطئ الوادى بدل الاشتمال لان الشجرة كانت نابتة على الشاطئ كقوله لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم وانما وصف البقعة بكونها مباركة لانه حصل فيها ابتداء الرسالة وتكليم الله تعالى اياه وهينا مسائل (المسئلة الاولى) احتجت المعتزلة على قولهم ان الله تعالى متكلم بكلام يخلقه فى جسم بقولهم ان من الشجرة فان هذا صريح فى أن موسى عليه السلام سمع النداء من الشجرة والمتكلم بذلك النداء هو الله سبحانه وهو تعالى منزه أن يكون فى جسم فثبت انه تعالى انما يتكلم بخلق الكلام فى جسم (أجاب القائلون بقدم الكلام) فقالوا النداء هيهنا (الاول) قول أبى منصور الماتريدى وأئمة ماوراء النهر وهو أن الكلام القديم القائم بذات الله تعالى غير مسموع انما المسموع هو الصوت والحروف وذلك كان مخلوقا فى الشجرة ومسموعا منها وعلى هذا التقدير زال السؤال (الثانى) قول أبى الحسن الاشعرى وهو أن الكلام الذى ليس بحرف ولا صوت يمكن أن يكون مسموعا كما أن الذات التى ليست بجسم ولا عرض يمكن أن تكون مرئية فعلى هذا القول لا يبعد أنه سمع الحرف والصوت من الشجرة وسمع الكلام القديم من الله تعالى لا من الشجرة فلا منافاة بين الامرين واحتج أهل السنة بأن محل قوله انى انا الله رب العالمين لو كان هو الشجرة لكان قد قالت الشجرة انى أنا الله والمعتزلة أجابوا بأن هذا انما يلزم لو كان المتكلم بالكلام هو محل الكلام لا فاعله وهذا هو أصل المسئلة أجاب أهل السنة بأن الذراع المسموم قال لا تأكل منى فانى مسموم فما فعل ذلك الكلام هو الله تعالى فان كان المتكلم بالكلام هو فاعل ذلك الكلام لزم أن يكون الله قد قال لا تأكل منى فانى مسموم وهذا باطل وان كان المتكلم هو محل الكلام لزم أن تكون الشجرة قد قالت انى أنا الله وكل ذلك باطل (المسئلة الثانية) يحتمل أن يقال انه تعالى خلق فيه علما ضروريا بأن ذلك الكلام كلام الله والمعتزلة لا يرضون بذلك قالوا لانه لو علم بالضرورة أن ذلك الكلام كلام الله لوجب أن يعلم بالضرورة وجود الله تعالى لانه يستحيل أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات معلومة بالنظر ولو علم موسى أنه الله تعالى بالضرورة لزال التكليف ويحتمل أن يقال انه تعالى لما أسمعه الكلام الذى ليس بحرف ولا صوت عرف أن مثل ذلك الكلام لا يمكن أن يكون كلام الخلق ويحتمل أن يقال ان ظهور الكلام من الشجرة كظهور التسبيح من الحصى فى انه يعلم أن مثل ذلك لا يكون الا من الله تعالى ويحتمل أن يكون المعجز هو انه رأى النار فى الشجرة الرطبة فعلم أن لا يقدر على الجمع بين النار وبين خضرة الشجرة الا الله تعالى ويحتمل أن يصح ما روى أن ابليس لما قال له كيف عرفت أنه نداء الله تعالى قال لانى سمعته بجميع أجزائى فلما وجد حس السمع من جميع الاجزاء

ومن استعرقية والمراد بالقرية المدينة الكافرة أى ما من قرية من قرى الكفار

مختص بالقرى الكافرة ولا هو بطريق العقوبة وانما هو لا تقضاء عمر الدنيا (أو معذبوها) أى معذبو أهلها على الاسناد المجازى (عذابا شديدا) لا بالقتل والسبى ونحوهما من البلايا الدنيوية فقط بل بما لا يكتنه كنهه من فنون العقوبات الاخروية أيضا حسبما يفصح عنه اطلاق التعذيب عما قد يؤديه الاهلاك من قبل يوم القيامة كيف لا وكثير من القرى العاتية العاصية قد أخرت عقوباتها الى يوم القيامة (كان ذلك) الذى ذكر من الاهلاك والتعذيب (فى الكتاب) أى اللوح المحفوظ (مسطورا) مكتوبا بالم يغادر منه شئ الا بين فيه بكيفياته وأسبابه الموجبة له ووقته المضروب له هذا وقد قيل الهلاك للقرى الصالحة والعذاب للظالمة وعن مقاتل وجدت فى كتاب الضحاك بن مزاحم فى تفسيرها أما مكة فتخربها الحبشة وتهلك المدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك والجبال بالسواعق والرى والجبل وأما خراسان فهلاكها ضروب ثم ذكرها بلدا بلدا وقال الحافظ أبو عمرو الدانى فى كتاب الفتن انه روى عن وهب ابن منبه ان الجزيرة آمنة فى الخراب حتى تخرب أرمينية وأرمينية آمنة حتى تخرب مصر ومصر آمنة حتى تخرب الكوفة ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة فاذا كانت الملحمة الكبرى فتحت قسطنطينية على يدى رجل من بنى هاشم وخراب الاندلس من قبل الرنج وخراب افريقية من قبل الاندلس وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف حتى الجيوش فيها وخراب العراق من الجوع وخراب الكوفة من قبل عدو من وراءهم يحصرهم حتى لا يستطيعون أن يشربوا من الفرات قطرة وخراب البصرة من قبل الغرق وخراب الابلة من قبل عدو يحصرهم براو بحرا وخراب الرى من الديلم وخراب خراسان من

علم أن ذلك مما لا يقدر عليه أحد سوى الله تعالى وهذا انما يصح على مذهبنا حيث قلنا المنية ليست شرطا (المسئلة الثالثة) قال فى سورة النمل نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وقال ههنا نودى انى أنا الله رب العالمين وقال فى طه نودى انى أنا ربك ولا منافاة بين هذه الاشياء فهو تعالى ذكر الكل الا أنه حكى فى كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء (المسئلة الرابعة) قال الحسن ان موسى عليه السلام نودى نداء الوحى لا نداء الكلام والدليل عليه قوله تعالى فاستمع لما يوحى قال الجمهور ان الله تعالى كلمه من غير واسطة والدليل عليه قوله تعالى وكلم الله موسى تكليما وسائر الآيات وأما الذى تمسك به الحسن فضعيف لان قوله فاستمع لما يوحى لم يكن بالوحى لانه لو كان ذلك أيضا بالوحى لانتهى آخر الامر الى كلام يسمعه المكلف لا بالوحى والا لزم التسلسل بل المراد من قوله فاستمع لما يوحى وصيته بأن يتشدد فى الامور التى تصل اليه فى مستقبل الزمان بالوحى ثم أماوقوله وأن ألقى عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين فقد تقدم تفسير كل ذلك وقوله كأنها جان صريح فى أنه تعالى شبهها بالجان ولم يقل انه فى نفسه جان فلا يكون هذا مناقضا لكونه ثعبانا بل شبهها بالجان من حيث الاهتزاز والحركة لا من حيث المقدار وقد تقدم الكلام فى خوفه ومعنى لم يعقب لم يرجع يقال عقب المقاتل اذا كر بعد الفر وقال وهب انها لم تدع شجرة ولا حجرة الا ابتلعتها ثم سمع موسى عليه السلام صريرا سنانها وسمع قعقعة الصخر فى جوفها فخيل له ذلك واختلفوا فى العصا على وجوه (أحدها) قالوا ان شعيبا كانت عنده عصى الانبياء عليهم السلام فقال لموسى بالليل اذا دخلت ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى فأخذ عصا هبط بها آدم عليه السلام من الجنة ولم تزل الانبياء تتوارثها حتى وقعت الى شعيب عليه السلام فقال أرنى العصا فلما سها وكان مكفوفا فلمسها ثم قال ائتنى بغيرها فأتاه بها وأراد أن تأخذ غيرها فلم يقع فى يده غيرها فلما رأى الشيخ ذلك رضى به ثم قدم بعد ذلك وخرج يطلب موسى عليه السلام فلما لقيه قال ألقها فألقاها موسى ثم قال فانى أن يعطيها اياها فاختصما ثم تواقفا على أن يحتكما الى أول رجل يلقاهما فأتاهما ملك فى شئ فقضا بينهما فقال ضعوها على الارض فمن حملها فهى له فحملها الشيخ فلم يطق وأخذها موسى عليه السلام بسهولة فتركها الشيخ له ورعى له عشر سنين (وثانيها) روى ابن صالح عن ابن عباس قال كان فى دار يبرون بن أخى شعيب بيت لا يدخله الا يبرون وابنته التى زوجها من موسى عليه السلام وانما كانت تكنسه وتنظفه وكان فى ذلك البيت ثلاث عشرة عصا وكان ليبرون أحد عشر ولدا من الذكور فكلما أدرك منهم ولدا أمره بدخول البيت وأخراج عصا من تلك العصى فرجع موسى ذات يوم الى منزله فلم يجد أهله واحتاج الى عصا لرعيه فدخل ذلك البيت وأخذ عصا من تلك العصى وخرج بها فلما علمت المرأة ذلك انطلقت الى أبيها وأخبرته بذلك فسر بذلك يبرون وقال لها ان زوجك هذا نبى وان له مع هذه العصا شأنا (وثالثها) فى بعض الاخبار أن موسى عليه السلام لما عقد العقد مع شعيب وأصبح من الغد وأراد الرعى قال له شعيب عليه السلام اذهب بهذه الاغنام فاذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك وان كان الكلأ بها أكثر فان بها تنينا عظيما فأخشى عليك وعلى الاغنام منه فذهب موسى بالاغنام فلما بلغ مفرق الطريق أخذت الاغنام ذات اليمين فاجتهد موسى على أن يردها فلم يقدر فسار على أثرها فرأى عشبا كثيرا ثم ان موسى عليه السلام نام والاغنام ترعى واذا بالتنين قد جاء فقامت عصا موسى عليه السلام فقاتلته

قبل التبت وخراب التبت من قبل الصين وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان وخراب مكة من الحبشة وخراب المدينة من قبل الجوع وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال آخر قرية من قرى الاسلام خرابا المدينة وقد أخرجه العمري من هذا الوجه وانت خبير بأن تعميم القرية لا يساعده السياق ولا السياق ٤٧٥ (وما منعنا أن نرسل بالآيات) أي الآيات التي اقترحتها قريش من احياء الموتى وقلب الصفا ذهبا ونحو ذلك (الا أن كذب بها الاولون) استثناء مفرغ من أعم الاشياء أي وما منعنا ارسالها شيء من الاشياء الا تكذيب الاولين بها حين جاءتهم باقتراحهم وعدم ارساله تعالى بها وان كان عشيئته المبنية على الحكم البالغة لا لمنع مانع عن ذلك من التكذيب أو غيره لاستحالة الجبر عليه تعالى لكن تكذيبهم المذكور بواسطة استتباعه لاستئصالهم بحكم السنة الالهية واستلزامه لتكذيب الآخرين بحكم الاشتراك في المنوط والعناد اقتضائه الى أن يحل بهم مثل ما حل بهم بحكم الشركة في الجريرة لما كان مناقضا للارسال ما اقترحوه من الآيات لتعين التكذيب المستدعي للاستئصال المخالف لما جرى به قلم القضاء من تأخير عقوبات هذه الامة الى الآخرة لحكم باهرة من جملتها ما يتوهم من ايمان بعض أعقابهم

حتى قتلته وعادت الى جنب موسى وهي دامية فلما استيقظ موسى عليه السلام رأى العصا دامية والتنين مقتولا فارتاح لذلك وعلم أن الله تعالى في تلك العصا قدرة وآية وعاد الى شعيب عليه السلام وكان ضريرا فمس لاغنام فاذا هي أحسن حالا مما كانت فسأله عن ذلك فأخبره موسى عليه السلام بالقصة ففرح بذلك وعلم ان لموسى عليه السلام وعصاه شأنا فأراد أن يجازي موسى عليه السلام على حسن رعيه اكراما وصلة لابنته فقال اني وهبت لك من السخال التي تضعها أغنامي في هذه السنة كل أباق و بلقاء فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك الماء الذي تسقي الغنم منه ففعل ثم سقى الاغنام منه فما اخطت واحدة منها الا وضعت حملها ما بين أباق و بلقاء فلم شعيب أن ذلك رزق ساقه الله تعالى الى موسى عليه السلام وامرأته فوفى له شرطه (ورابها) قال بعضهم تلك العصا هي عصا آدم عليه السلام وان جبريل عليه السلام أخذ تلك العصا بعد موت آدم عليه السلام فكانت معه حتى لقي بها موسى عليه السلام ليلا (وخامسها) قال الحسن ما كانت الا عصا من الشجر اعترضها اعتراضا أي أخذها من عرض الشجر يقال اعترض اذا لم يتخير وعن الكلبي الشجرة التي منها ودي شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولا مطمع في ترجيح بعض هذه الوجوه على بعض لانه ليس في القرآن ما يدل عليها والاخبار متعارضة والله أعلم بها* أما قوله تعالى اسلك في يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فاعلم ان الله تعالى قد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات (أحدها) هذه (وثانيها) قوله في طه واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء (وثالثها) قوله في النمل وأدخل يدك في جيبك قال العزيزي في غريب القرآن اسلك يدك في جيبك أدخلها فيه* أما قوله واضمم اليك جناحك من الرهب فأحسن الناس كلاما فيه صاحب الكشاف قال فيه معنيان (أحدهما) أن موسى عليه السلام لما قلب الله له العصا حية فزع واضطرب فأراها يده كما يفعل الخائف من الشيء فقيل له ان انقلابك يدك فيه غضاضة عند الاعداء فاذا ألقيتها فاكتمها تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الامران اجتناب ما هو غضاضة عليك واظهار معجزة أخرى والمراد بالجناح اليد لان يدي الانسان بمنزلة جناحي الطائر واذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه اليه (الثاني) أن يراد بضم جناحه اليه تجلده وضبطه نفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعارة من فعل الطائر لانه اذا خافى نشر جناحيه وأرخاهما والا غضاهما مضمومان اليه مشمران ومعنى قوله من الرهب من أجل الرهب أي اذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم اليك جناحك وقوله اسلك يدك في جيبك على أحد التفسيرين واحد ولكن خواص بين العبارتين وانما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني اخفاء الرهب* فان قيل قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموما وفي الآخر مضموما اليه وذلك قوله واضمم اليك جناحك وقوله واضمم يدك الى جناحك فما التوفيق بينهما* قلنا المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى وبالمضموم اليه اليد اليسرى وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما جناح هذا كله كلام صاحب الكشاف وهو في نهاية الحسن أما قوله تعالى فذانك قرينك مخففة ومشددا فالمخفف مثنى ذا والمشدد مثنى ذان قوله برهانان من ربك حجتان نيرتان على صدقه في النبوة وصحة مادعاهم اليه من التوحيد وظاهر الكلام يقتضي أنه تعالى أمره بذلك قبل لقاء فرعون حتى عرف ما الذي يظهره عنده من المعجزات لانه تعالى حكى بعد ذلك عن موسى عليه السلام انه قال اني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون قال القاضي واذا كان كذلك فيجب أن يكون في حال ظهور البرهانين هنالك من دعائه الى رسالته من أهله أو غيرهم اذ

عبر عن تلك المنافاة بالمنع على نهج الاستعارة ابتداء باعتاض مبادي الارسال لا كما زعموا من عدم ارادته تعالى لذلك بيده عليه الصلاة والسلام بالمعجزات وهو السر في ايثار الارسال على الايتاء لما فيه من الاشعار بتداعي الآيات الى النزول لولا أن عسكها ايد التقدير واسناد هذا المنع الى تكذيب الاولين لا الى علمه تعالى بما سيكون من الآخرين كما في قوله تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا

وهم معرضون لاقامة الحجة عليهم بابرازالانموذج وللايذان بان مدار عدم الاحابة الى اتباعه مقترحهم ليس الاصنيعهم (وآتينا ثمود الناقة) عطف على مايفصح عنه النظم الكريم كانه قيل وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون حيث آتيناهم ما اقترحوا من الآيات الباهرة فكذبوها وآتينا ٤٧٦ بانتراحهم ثمود الناقة (مبصرة) على صيغة الفاعل أى بينة ذات ابصار أو بصائر

المعجزات انما تظهر على الرسل فى حال الارسال لا قبله وانما تظهر ليكون يستدل بها غيرهم على الرسالة وهذا ضعيف لانه ثبت أنه لابد فى اظهار المعجز من حكمة ولاحكمة أعظم من أن يستدل بها الغير على صدق المدعى واما كونه لاحكمة ههنا فلا نسلم فلعل هناك أنواعا من الحكم والمقاصد سوى ذلك لا سيما وهذه الآيات منطبقة على أنه لم يكن هناك مع موسى عليه السلام أحد ﴿قوله تعالى﴾ (قال رب انى قتلت منهم نفسا فاخاف أن يقتلون وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردأ يصدقنى انى أخاف أن يكذبون قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين وقال موسى ربى أعلم من جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار انه لا يفلح الظالمون﴾ اعلم أنه تعالى لما قال قد أتتك برهانا من ربك الى فرعون وملئه تضمن ذلك أن يذهب موسى بهذين البرهانين الى فرعون وقومه فعند ذلك طلب من الله تعالى ما يقوى قلبه و يزيل خوفه فقال رب انى قتلت منهم نفسا فاخاف أن يقتلون وأخى هرون هو أفصح منى لسانا لانه كان فى لسانه حبسة اما فى أصل الخلقة واما لانه وضع الجمرة فى فيه عند ما نتف لحية فرعون ﴿أما قوله فأرسله معى ردأ يصدقنى ففيه أبحاث (البحث الاول) الردء اسم ما يستعان به فعل بمعنى مفعول به كأن الدف ء اسم لما يدفأ به يقال ردأت الحائط أردؤه اذا دعمته بخشب أو غيره لئلا يسقط (البحث الثانى) قرأ نافع ردا بغير همز والباقون بالهمز وقرأ عاصم وحمزة يصدقنى برفع القاف ويروى ذلك أيضا عن أبى عمرو والباقون بجزم القاف وهو المشهور عن أبى عمرو فمن رفع فالنعت يتردد أمصدقا هو أم لا ومن جزم كان على معنى الجزاء يعنى ان أرسله يصدقنى ونظيره قوله فهب لى من لدنك وليا يرثنى يجزم الشامى من يرثنى وروى السدى عن بعض شيوخه ردأ كيما يصدقنى (البحث الثالث) الجمهور على أن التصديق هرون وقال مقاتل المعنى كى يصدقنى فرعون والمعنى أرسل معى أخى حتى يعاضدنى على اظهار الحجة والبيان فعند اجتماع البرهانين ربما حصل التصديق والمقصود من تصديق فرعون (البحث الرابع) ليس الغرض بتصديق هرون أن يقول له صدقت أو يقول للناس صدق موسى وانما هو أن يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل و يجيب عن الشبهات و يجادل به الكفار فهذا هو التصديق المفيد ألا ترى الى قوله وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى وفائدة الفصاحة انما تظهر فيما ذكرناه لا فى مجرد قوله صدقت (البحث الخامس) قال الجبائى انما سأل موسى عليه السلام أن يرسل هرون بأمر الله تعالى والا كان لا يدرى هل يصلح هرون للبعثة أم لا فلم يكن ليسأل مالا يأمن أن يجاب أولا يكون حكمة ويحتمل أيضا أن يقال انه سأله لا مطلقا بل مشروطا على معنى ان اقتضت الحكمة ذلك كما يقوله الداعى فى دعائه ﴿(البحث السادس) قال السدى ان نبيين وآتيين أتوى من نبى واحد وآية واحدة قال القاضى والذى قاله من جهة العادة أقوى فأما من حيث الدلالة فلا فرق بين معجزة ومعجزتين وبين نبى ونبيين لان المبعوث اليهما نظر فى أيهما كان علم وان لم ينظر فالحال واحد هذا اذا كانت طريقة الدلالة فى المعجزتين واحدة فأما اذا اختلفت وأمكن فى احداهما ازالة الشبهة مالا يمكن فى الاخرى فغير ممتنع أن يختلفا و يصلح عند ذلك أن يقال انهما بمجموعهما أقوى من احداهما على ما قاله السدى لكن ذلك لا يتأتى فى موسى وهرون عليهما السلام لان معجزتهما كانت واحدة لاغير ﴿أما قوله سنشد عضدك بأخيك فاعلم أن العضد قوام اليد و بشدتها تشتد يقال فى دعاء الخير شد الله عضدك وقوى ضعفه فت الله فى عضدك ومعنى سنشد عضدك بأخيك سنقويك به فلما أن يكون ذلك لان اليد تشتد لشدة العضد والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة

يدركها الناس أو أسند اليها حال من يشاهدها مجازا أو جاعلتهم ذوى بصائر من أبصره جعله بصيرا وقرئ على صيغة المفعول و بفتح الميم والصاد رهى نصب على الحالية وقرئ بالرفع على أنها خبر مبتدا محذوف (فظلموا بها) فكفروا بها ظالمين أى لم يكتفوا بمجرد الكفر بها بل فعلوا بها ما فعلوا من العقر أو ظلموا أنفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقرها ولعل تخصيصها بالذكر لما أن ثمود عرب مثلهم وان لهم من العلم بحالهم ما لا مزيد عليه حيث يشاهدون آثار هلاكهم ومرورا وصدورا أولانها من جهة انها حيوان أخرج من الحجر أوضح دليل على تحقق مضمون قوله تعالى قل كونوا حجارة أو حديدا (وما نرسل بالآيات) المقترحة (الا تخويفا) لمن أرسلت هى عليهم مما يعقبها من العذاب المستأصل كالطمسة له وحيث لم يخافوا ذلك فعل بهم ما فعل فلا محل للجملة حينئذ من الاعراب ويجوز أن تكون حالا من ضمير ظلموا أى فظلموا بها ولم يخافوا عاقبته والحال أن ما نرسل بالآيات التى هى من جملتها الامور الاخوفا لهم من العذاب الذى يعقبها فنزل بهم ما نزل (واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس) أى علما كما قاله الامام الثعلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما فلا يخفى عليه شئ من أفعالهم الماضية والمستقبلة من الكفر والتكذيب وفى قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك

الافتئة للناس) الى آخر الآية تنبيه على تحققها بالاستدلال عليها بما صدر عنهم عند مجيء بعض الآيات لاشتراك الكل في كونها أمورا خارقة للعادات منزلة من جانب الله سبحانه لتصديق النبي عليه الصلاة والسلام فتكذيبهم لبعضها مستلزم لتكذيب الباقي كما أن تكذيب الآخرين بغير المقترحة يدل على تكذيبهم بالآيات المقترحة والمراد بالرؤيا ما عاينه عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج من عجائب الأرض والسماء حسبما ذكر في قصة السورة الكريمة والتعبير عن ذلك بالرؤيا لما الآنه لا فرق بينها وبين الرؤية أو لانها وقعت بالليل أو لان الكفرة قالوا لها هاروياً أي وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إياها إلا فتنة لهم كونها آية عظيمة وأي آية حقيقة بأن لا يتلعثم في تصديقها أحد من له أدنى بصيرة الافتنة افتتن بها الناس حتى ارتد بعضهم (والشجرة الملعونة في القرآن) عطف على الرؤيا والمراد بلعنها قصة لعن طاعمها على الاستئناف المجازي أو ابعادها عن الرحمة فانها نبتت في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة أي وما جعلناها الافتنة لهم حيث أنكروا ذلك وقالوا ان محمداً يزعم أن الجحيم يحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر ولقد ضلوا في ذلك ضلالا بعيداً حيث كابروا وقضية عقولهم فانهم يرون النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد المحماة فلا تضرها ويشاهدون المناديل المتخذة من وبر السمندل تلقى في النار فلا تؤثر فيها ويرون أن في كل شجر ناراً وقرئ بالرفع على حذف الخبر كأنه قيل والشجرة الملعونة في القرآن كذلك (ونخوفهم) بذلك ونظائره من الآيات فان الكل للتخويف وإنما وسط بينهما قوله تعالى للدلالة على التعدد والاستمرار (فما يزيدهم) التخويف (إلا طغياناً كبيراً) متجاوزاً عن الحد فلو أنا أرسلنا بما اقترحوه من الآيات لعدوا بها فعلوا بظائرها وقيل يزيدهم ما فعل

الامور وإما لان الرجل شبه باليد في اشتدادها باشتداد العضد فعمل كذا يد مشتدة وعند شديدة أما قوله فجعل لبكما سلطانا فلا يصلون اليكما فالمقصود أن الله تعالى آمنه مما كان يحذر فان قيل بين تعالى أن السلطان هو بالآيات فكيف لا يصلون اليهما لاجل الآيات أوليس فرعون قد وصل الى ضلب السحرة وان كانت هذه الآيات ظاهرة قلنا ان الآية التي هي قلب العصا حية كما أنها معجزة فهي أيضا تمنع من وصول ضرر فرعون الى موسى وهرون عليهما السلام لانهم اذا علموا أنه متى ألقاها صارت حية عظيمة وان اراد أرسالها عليهم أو لمكنهم من زجرهم ذلك عن الاقدام عليهم فما صارت مانعة من الوصول اليهما بالقتل وغيره وصارت آية معجزة فحصحت بين الامرين فأما اصابة السحرة ففيه خلاف فمنهم من قال ما صابوا وليس في القرآن ما يدل عليه وان سلمنا ذلك ولكنه تعالى قال فلا يصلون اليكما فلم يخص أنهم لا يقدرون على ايصال الضرر اليهما وايصال الضرر الى غيرهما لا يقدح فيه ثم قال أنتما ومن اتبعكما الغالبون والمراد اما الغلبة بالحجة والبرهان في الحال أو الغلبة في الدولة والمملكة في ثاني الحال والاول أقرب الى اللفظ أما قوله فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات فقد بينا في سورة طه أنه كيف أطلق لفظ الآيات وهو جمع على العصا واليد أما قوله قالوا ما هذا إلا سحر مفترى فقد اختلفوا في مفترى فقال بعضهم المراد انه اذا كان سحراً وقد علمتم خلافه فهو لا محالة مفترى وقال الجبائي المراد أنه منسوب الى الله تعالى وهو من قبله فكأنهم قالوا هو كذب من هذا الوجه ثم ضموا اليه ما يدل على جهلهم وهو قولهم وما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين أي ما سمعنا بكونه نبياً ولا يخلو من أن يكونوا كاذبين في ذلك وقد سمعوا مثله أو يريدوا انهم لم يسمعوا بمثله في برهانه وفي اعجازه أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى عليه السلام ومجيئه مما طابعه واعلم أن هذه الشبهة ساقطة لان حاصلها يرجع الى التقليد ولان حال الاولين لا يخلو من وجهين اما أن لا يرد عليهم مثل هذه الحجة عند ذلك الفريق ظاهراً وأوراد عليهم فدفعوه عند ذلك لا يجوز جعل جهلهم وخطئهم حجة ومنبوذ ذلك قال موسى عليه السلام وقد عرف منهم العناد أني أعلم من جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار فان من أظهر الحجة ولم يجد من الخصم اعتراضا عليها وانما وجد منه العناد مع أن يقول ربي أعلم من معه الهدى والحجة منا جميعا ومن هو على الباطل ويضم اليه طريقة الوعيد والتخويف وهو قوله ومن تكون له عاقبة الدار من ثواب على تمسكه بالحق أو من عقاب وعاقبة الدار هي العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن وقوله وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت فان قيل العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار لان الدنيا قد تكون تامتها بخير في حق البعض وبشر في حق البعض الآخر فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر قلنا انه قد وضع الله سبحانه الدنيا جزاء الى الآخرة وأمر عباده أن لا يعملوا فيها الا الخير ليفوزوا بخاتمة الخير وعاقبة الصدق فمن عمل فيها خلاف ما وضعها الله له فقد خرب فاذن عاقبتها الاصلية هي عاقبة الخير وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها لانها من نتائج تحريف الفجار ثم انه عليه السلام أكد ذلك بقوله انه لا يفلح الظالمون والمراد أنهم لا يظفرون بالفوز والنجاة والمنافع بل يحصلون على ضد ذلك وهذا نهاية في زجرهم عن العناد الذي ظهر منهم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع الى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة

(لا ينصرون) واتبعوا في هذه الدار لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر أن فرعون وقومه لم ينتفعوا بالآيات التي جاء بها موسى عليه السلام ذكر أنه آتاه الكتاب بعد ما أهلك القرون الأولى وهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وقوم فرعون وإنما فعل ذلك لان الكتاب لا يكون معجزا لكل أحد لان من لا يعرف الفصاحة لا يعرف كون الكتاب معجزا فلا يكون الكتاب حجة على كل أحد بخلاف سائر المعجزات فان كل أحد يعرفها فلا جرم كانت حجة على كل أحد ثم ان الله تعالى ذكر أنه آتاه الكتاب بعد ما أهلك القرون الأولى

أشياعهم وقد قضينا بتأخير العقوبة العامة لهذه الامة الى الطامة الكبرى هذا هو الذي يستدعيه النظم الكريم وقد حمل أكثر المفسرين الاحاطة على الاحاطة بالقدرة تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما عسى يعتريه من عدم الاجابة الى انزال الآيات التي اقترحوها لان انزالها لما لم يصلحهم من نوع حزن من طعنهم في الكفرة حيث كانوا يقولون لو كنت رسولا حقا لأتيت

لا ينصرون وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴿ اعلم ان فرعون كانت عادته متى ظهرت حجة موسى أن يتعلق في دفع تلك الحجة بشبهة يروجها على أغمار قومه وذكر ههنا شبهتين (الاولى) قوله ما علمت لكم من اله غيري وهذا في الحقيقة يشتمل على كلامين (أحدهما) نفي الهة غيره (والثاني) اثبات الهة نفسه (فأما الاول) فقد كان اعتماده على أن ما الدليل عليه لم يجز اثباته أما انه لا دليل عليه فلان هذه الكواكب والافلاك كانت في اختلاف أحوال هذا العالم السفلي فلا حاجة الى اثبات صانع وأما أن ما لا دليل عليه لم يجز اثباته فالامر فيه ظاهر واعلم أن المقدمة الاولى كاذبة قائلا ان نسلم انه لا دليل على وجود الصانع وذلك لانا اذا عرفنا بالدليل حدوث الاجسام عرفنا حدوث الافلاك والكواكب وعرفنا بالضرورة ان المحدث لا بد له من محدث عند ذلك نعرف بالدليل ان هذا العالم له صانع والعجب ان جماعة اعتمدوا في نفي كثير من الاشياء على أن قالوا لا دليل عليه فوجب نفيه قالوا وانما قلنا انه لا دليل عليه لانا بحثنا وسبرنا فلم نجد عليه دليلا فرجع حاصل كلامهم بعد التحقيق الى أن كل ما لا يعرف عليه دليل وجب نفيه وان فرعون لم يقطع بالنفي بل قال لا دليل عليه فلا أثبته بل أظنه كاذبا في دعواه ففرعون على نهاية جهله أحسن حالا من هذا المستدل (وأما الثاني) وهو اثباته الهية نفسه فاعلم انه ليس المراد منه انه كان يدعي كونه خالقا للسموات والارض والابصار والجبال وخالقا للذوات الناس وصفاتهم فان العلم بامتناع ذلك من أوائل العقول فالشك فيه يقتضي زوال العقل بل الاله هو المعبود فالرجل كان ينفي الصانع ويقول لا تكليف على الناس الا أن يطيعوا ملكهم ويتقادوا لامره فهذا هو المراد من ادعائه الالهية لا ما ظنه الجهور من ادعائه كونه خالقا للسماء والارض لا سيما وقد دللنا في سورة طه في تفسير قوله فمن ربكما يا موسى على أنه كان عارفا بالله تعالى وانه كان يقول ذلك تروجا على الاغمار من الناس ﴿ الشبهة الثانية ﴾ قوله فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع الى اله موسى واني لاظنه من الكاذبين وههنا أبحاث (الاول) تعلقت المشبهة بهذه الآية في أن الله تعالى في السماء قالوا ولا أن موسى عليه السلام دعاه الى ذلك لما قال فرعون هذا القول * والجواب ان موسى عليه السلام دل فرعون بقوله رب السموات والارض ولم يقل هو الذي في السماء دون الارض فأوهم فرعون انه يقول ان الهه في السماء وذلك أيضا من خبث فرعون ومكره ودهائه (الثاني) اختلفوا في ان فرعون هل بنى هذا الصرح فقال قوم انه بناه قالوا انه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الاتباع والاجراء وأمر بقطع الاشجار والجص وتجرد لتشييده وضرب المشاهير فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع قطعة وقعت على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل وقطعة وقعت في البحر وقطعة في المغرب ولم يبق أحد من عماله الا وقد هلك وروي في هذه القصة أن فرعون ارتقى فوقه ورمى بنشابة نحو السماء فأراد الله أن يفتنهم فردت اليهم وهي ملطوخة بالدم فقال قد قتلت اله موسى فعند ذلك بعث الله تعالى جبريل عليه السلام لهدمه ومن الناس من قال انه لم يبن ذلك الصرح لانه يبعد من العقلاء أن يظنوا انهم بصعود الصرح يقربون من السماء مع علمهم بأن من على أعلى الجبال الشاهقة يرى السماء كما كان يراها حين كان على قرار الارض ومن شك في ذلك خرج عن حد العقل وهكذا القول فيما يقال من رمي السهم الى السماء ورجوعه متلطخا بالدم فان كل من كان كامل العقل يعلم انه لا يمكنه ايصال السهم الى السماء

بهذه المعجزات كما أتى بها موسى وغيره من الانبياء عليهم الصلاة والسلام فكأنه قيل اذكر وقت قولنا لك ان ربك اللطيف بك قد أحاط بالناس فهم في قبضة قدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته فهو يحفظك منهم فلا تهتم بهم وامض لما أمرتك به من تبليغ الرسالة الا ترى أن الرؤيا التي أريناك من قبل جعلناها فتنة للناس مورثة للشبهة مع أنها ما أورثت عندها الا مرك وفتورا في حالك وقد فسر الاحاطة بالاهلاك قريب يوم بدر وانما عبر عنه بالماضي مع كونه منتظرا حسما يتبع عنه قوله تعالى سيهزم الجمع ويولون الدبر وقوله تعالى قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وعبر ذلك تحريا على عادته سبحانه في أخباره وأولت الرؤيا بما رآه عليه الصلاة والسلام في المنام من مصارعهم لما روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ورد ماء بدر قال والله لكأني أنظر الى مصارع القوم وهو يومئ الى الارض هذا مصرع فلان فتساعت به قريش فاستحقروا منه وبما رآه عليه الصلاة والسلام أنه سيدخل مكة وأخبر به أصحابه فتوجه اليها فصده المشركون عام الحديبية واعتذر عن كون ما ذكره مدنيا بأنه يجوز أن يكون الوحي بأهلاكهم وكذا الرؤيا واقعا بمكة وذكر الرؤيا وتعيين المصارع واتعين بعد الهجرة وأنت خبير بأنه يلزم منه أن يكون افتتان الناس بذلك واقعا

وان

بعد الهجرة وأن يكون أرد بادهم طفئا نا ضوقعا غير واقع عند نزول الآية وقد قيل الرؤيا مارآه عليه الصلاة والسلام في وقعة بدر من مضمون قوله تعالى اذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولا ريب في أن تلك الرؤيا مع وقوعها في المدينة ما جعلت فتنة للناس (واذ قلنا للملائكة) تذكير لما سوى منه تعالى من الامر ومن الملائكة من الامتثال ٤٧٩ والطاعة من غير تردد وتحقيق لمضمون ما سبق من قوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا ويعلم من حال الملائكة حال غيرهم من عيسى وعزير عليهما السلام في الطاعة وابتغاء الوسيلة ورجاء الرحمة ومخافة العذاب ومن حال ابليس حال من يعاند الحق ويخالف الامر أي واذكر وقت قولنا لهم (اسجدوا لآدم) تحية وتكريما لما له من الفضائل المستوجبة لذلك (فسجدوا) له من غير تلعثم امتثالا للامر وأداء لحقه عليه الصلاة والسلام (الا ابليس) وكان داخلا في زمرتهم منددا رجا نخت الامر بالسجود (قال) أي عند ما وبخ بقوله عز سلطانه يا ابليس ما لك ألا تكون مع الساجدين وقوله ما منعك أن لا تسجد اذ أمرتك بقوله ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي كما أشير اليه في سورة الحجر (أأسجد) وأنا مخلوق من عنصر العالي (لمن خلقت طينا) نصب على نزع الخافض أي من طين أو حال من الراجع الى الموصول أي خلقته وهو طين أو من نفس الموصول أي أسجد له وأصله طين والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بالموصول لتحقيق انكاره بما في حيز الصلة (قال) أي ابليس لكن لا عقيب كلامه المحكي بل بعد الانظار المترتب على استنظاره المتفرع على الامر بخروجه من بين الملا الأعلى باللعن المؤبد وأعلم

وان من حاول ذلك كان من المجانين فلا يليق بالعقل والدين حمل القصة التي حكاها الله تعالى في القرآن على محمل يعرف فساده بضرورة العقل فيصير ذلك مشرعا لمن يأتي بعدنا أحب الطعن في القرآن فالاقرب انه كان أوهم البناء ولم يبن أو كان هذا من تتمة قوله ما علمت لكم من اله غيري يعني لا سبيل الى اثباته بالدليل فان حركات الكواكب كافية في تغيير هذا العالم ولا سبيل الى اثباته بالحس فان الاحساس به لا يمكن الا بعد صعود السماء وذلك مما لا سبيل اليه ثم قال عند ذلك لهامان ابن لي صرحا أبلغ به أسباب السموات وانما قال ذلك على سبيل التهكم فبمجموع هذه الاشياء قررانه لا دليل على الصانع ثم انه رتب النتيجة عليه فقال واني لاظنه من الكاذبين فهذا التأويل أولى مما عداه (الثالث) انا قال أو قدلي ياهامان على الطين ولم يقل اطبخ لي الآجر واتخذ له لانه أول من عمل الآجر فهو وعمله الصنعة ولان هذه العبارة ألبق بفصاحة القرآن وأشبه بكلام الجبابرة وأمرهامان وهو وزيره بالايقاد على الطين منادى باسمه بيانا في وسط الكلام دليل التعظم والتجبر والطبوع والاطلاع الصعود يقال طلع الجبل واطلع بمعنى واحد * أما قوله واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق فاعلم ان الاستكبار بالحق انما هو لله تعالى وهو المتكبر في الحقيقة أي المبالغ في كبر ياء الشأن قال عليه السلام فيما حكى عن ربه الكبر ياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في النار وكل مستكبر سواه فانما استكباره بغير الحق (المسئلة الثانية) قال الجبائي الآية تدل على انه تعالى ما أعطاه الملك والا لكان ذلك بحق وهكذا كل متغلب لا كما ادعى ملوك بني أمية عند تغلبهم ان ملكهم من الله تعالى فان الله تعالى قد بين في كل غاصب لحكم الله انه أخذ ذلك بغير حق واعلم أن هذا ضعيف لان وصول ذلك الملك اليه اما أن يكون منه أو من الله تعالى أو لا منه ولا من الله تعالى فان كان منه فلم لم يقدر عليه غيره فربما كان العاجز أقوى وأعقل بكثير من المتولي للامر وان كان من الله تعالى فقد صح الغرض وان كان من سائر الناس فلم اجتمعت دواعي الناس على نصرة أحدهما وخذلان الآخر واعلم أن هذا أظهر من أن يرتاب فيه العاقل * أما قوله وظنوا أنهم اليناالا يرجعون فهذا يدل على أنهم كانوا عارفين بالله تعالى الا انهم كانوا ينكرون البعث فلاجل ذلك تمردوا وطغوا أما قوله فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فهو من الكلام المفخم الذي دل به على عظم شأنه وكبر ياء سلطانه شبههم باستحقارهم واستقلالا لعددهم وان كانوا الكثير الكثير والجم الغفير بحصيات أخذهن آخذ في كفه فطرحهن في البحر ونحو ذلك قوله وألقينا فيها رواسي شامخات وجبال الارض والجبال قد كتادكة واحدة وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى وليس الغرض منه الا تصوير ان كل مقدور وان عظم فهو حقير بالقياس الى قدرته * أما قوله وجعلناهم أئمة يدعون الى النار فقد تمسك به الاصحاب في كونه تعالى خالقا للخير والشر قال الجبائي المراد بقوله وجعلناهم أي بيناذلك من حالهم وسميناهم به ومنه قوله وسموا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا وتقول أهل اللغة في تفسير قسمة وجعله جعله فاسقا وبخيلا لا أن خلقهم أئمة لانهم حال خلقهم لم كانوا أطفالا * وقال الكعبي انما قال وجعلناهم أئمة من حيث خلى بينهم وبين ما قد علم ولم يعاجل بالعقوبة ومن حيث كفروا ولم يمنعهم بالقهر وذلك كقوله زادتهم رجسا الى رجسهم وانما زادها وانظير ذلك أن الرجل يسئل ما يثقل عليه وان أمكنه فاذا فعل به قيل للسائل بسهلت فلانا بأن خليته وقال أبو مسلم معنى الامامة المتقدم فلما عجل الله تعالى لهم العذاب صاروا متقدمين لمن وراءهم من الكافرين واعلم أن الكلام فيه قد تقدم في سورة مريم في قوله انا أرسلنا الشياطين على الكافرين ومعنى دعوتهم الى النار دعوتهم الى موجبات هم من الكفر والمعاصي فان أحدا

لا يدعو الى النار البتة وانما جعلهم الله تعالى أئمة فى هذا الباب لانهم بلغوا فى هذا الباب أقصى النهايات ومن كان كذلك استحق أن يكون اماما يقتدى به فى ذلك الباب ثم يبين تعالى ان ذلك العقاب سينزل بهم على وجه لا يمكن التخلص منه وهو معنى قوله ولا هم ينصرون أو يكون معناه ويوم القيامة لا ينصرون كما ينصر الائمة الدعاة الى الجنة أما قوله وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة معناه لعنة الله والملائكة لهم وأمره تعالى بذلك فيه التعجب به ما جاء به موسى عليه السلام فقال ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى والكتاب هو التوراة ووصفه تعالى بأنه بصائر للناس من حيث يستبصر به فى باب الدين وهدى من حيث يستدل به ومن حيث ان التمسك به يفوز بطلبته من الثواب ووصفه بأنه رحمة لانه من نعم الله تعالى على من تعبد به وروى أبو سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما أهلك الله تعالى قرنا من القرون بعذاب من السماء ولا من الارض منذ أنزل التوارة غير أهل القرية التى مسخها قردة أما قوله لعلهم يتذكرون فالمراد لكى يتذكروا وقال القاضى وذلك يدل على ارادة التذكر من كل مكلف سواء اختار ذلك أو لم يختره ففيه ابطال مذهب المجبرة الذين يقولون ما أراد التذكر الا من يتذكر فأما من لا يتذكر فقد كره ذلك منه ونص القرآن دافع لهذا القول ﴿قلنا ألیس انكم حلفتم قوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم على العاقبة فلم لا يجوز حمله ههنا على العاقبة فان عاقبة الكل حصول هذا التذكر له وذلك فى الآخرة ﴿قوله تعالى ﴿وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴿ اعلم أن فى الآية سؤالات ﴿السؤال الاول﴾ الجانب موصوف والغربى صفة فكيف أضاف الموصوف الى الصفة (الجواب) هذه مسئلة خلافية بين الكوفيين فعند البصريين لا يجوز اضافة الموصوف الى الصفة الا بشرط خاص سنذكره وعند الكوفيين يجوز ذلك مطلقا حجة البصريين ان اضافة الموصوف الى الصفة تقتضى اضافة الشئ الى نفسه وهذا غير جائز قلنا أيضا غير جائز بيان الملازمة انك اذا قلت جاءنى زيد الظريف فلفظ الظريف يدل على شئ معين فى نفسه مجهول بحسب هذا اللفظ حصلت له الظرافة فاذا نسبت على زيد عرفنا أن ذلك الشئ الذى حصلت له الظرافة هو زيد اذا ثبت هذا فلو أضفت زيدا الى الظريف كنت قد أضفت زيدا الى زيد واضافة الشئ الى نفسه غير جائزة فاضافة الموصوف الى صفته وجب أن لا تجوز الا أنه جاء على خلاف هذه القاعدة بالنقل وهى قوله تعالى فى هذه الآية وما كنت بجانب الغربى وقوله وذلك دين القيمة وقوله حق اليقين ولدار الآخرة ويقال صلاة الاولى ومسجد الجامع وبقلة الحمقاء فقالوا التأويل فيه جانب المكان الغربى ودين الملة القيمة وحق الشئ اليقين ودار الساعة الآخرة وصلاة الساعة الاولى ومسجد المكان الجامع وبقلة الحمقاء ثم قالوا فى هذه المواضع المضاف اليه ليس هو النعت بل المنعوت الا أنه حذف المنعوت وأقيم النعت مقامه فههنا ينظر ان كان ذلك

يصرح بذلك اذ كثيرا ما يعاد ذكر فى مواضع أخر فان توسط قال بين كلامى اللعينين لا يدان بعدم اتصال الثانى بالاول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره كما فى قوله تعالى قال فما خطبكم أيها قوله تعالى قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون (أرأيتك هذا الذى كرمت على) الكاف لتأكيد الخطاب لا محل لها ٤٨٠ من الاعراب وهذا مفعول أول والموصول صفته والثانى محذوف لدلالة الصلة عليه

أى أخبرنى عن هذا الذى كرمته على بأن أمرتنى بالسجود له لم كرمته على وقيل هذا مبتدأ حذف عنه حرف الاستفهام والموصول مع صلته خبره ومقصوده الاستصغار والاستحقار أى أخبرنى أهذا من كرمته على وقيل معنى أرأيتك أتأملت كأن المتكلم يقيسه المخاطب على استحضار ما يخاطبه به عقيبه (لئن أخرنن) حيا (الى يوم القيامة) كلام مبتدأ واللام موطئة للقسم وجوابه قوله (لاحتنكن ذريته) أى لأستأصلنهم من قولهم احتنك الجراد الارض اذا جرد ما عليها أكلا أو لأقودنهم حيث شئت ولاستولين عليهم استيلاء قوى من قولهم حنكت الدابة واحتنكتها اذا جعلت فى حنكها الاسفل حبلا تقود به وهذا كقوله لازينن لهم فى الارض ولاغوينهم أجمعين وانما علم تسنى ذلك المطلب له تلقيا من جهة الملائكة عليهم الصلاة والسلام أو استنباطا من قولهم أجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء أو توسما من خلقه (الا قليلا) منهم وهم المخلصون الذين عصمهم الله تعالى (قال اذهب) أى امض النعت أمرك الذى اخترته وهو طردك وتخلية بينه وبين ما سولت له نفسه (فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم) أى جزاؤك وجزاؤهم فغلب المخاطب على الغائب رعاية لحق المتبوعية (جزاء موفورا) أى جزاء مكملا من قولهم فرا صاحبك عرضه فريا أى وفروه ونصب على انه مصدر

مؤكدا لما فى قوله فان جهنم جزاؤكم من معنى تجازون أو للفعل المقدر أو حال موطئة لقوله موفورا (واستفزز) أى استخف (من استطعت منهم) أن تستفزه (بصوتك) بدعائك الى الفساد (وأجلب عليهم) أى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح (بخيلك ورجلك) أى باعوانك وأنصارك من راكب وراجل من أهل الغى والفساد قال ابن عباس رضى ٤٨١ الله عنهما وجاهد وقتادة ان لله

النعت كالمتعين لذلك المنعوت حسن ذلك والا فلا الا ترى انه ليس لك أن تقول عندى جيد علىّ معنى عندى درهم جيد وبه وزوررت بالفقيه على معنى مررت بالرجل الفقيه لان الفقيه يعلم انه لا يكون الا من الناس والجيد قد يكون درهما وقد لا يكون غيره وادا كان كذلك حسن قوله جانب الغربى لان الشئ الموصوف بالغربى الذى يضاف اليه الجانب لا يكون الا مكانا أو ما يشبهه فلا جرم حسنت هذه الاضافة وكذا القول فى البواقى والله أعلم (السؤال الثانى) ما معنى قوله اذ قضينا الى موسى الامر (الجواب) الجانب الغربى هو المكان الواقع فى شق الغرب وهو المكان الذى وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور وكتب الله له فى الالواح والامر المقضى الى موسى عليه السلام الوحى الذى أوحى اليه والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم يقول وما كنت حاضرا المكان الذى أوحينا فيه الى موسى عليه السلام ولا كنت من جملة الشاهدين للوحى اليه أو على الموحى اليه وهى لان الشاهد لا بد وأن يكون حاضرا وهم تقاولوا الذين اختارهم للميقات (السؤال الثالث) لما قال وما كنت بجانب الغربى ثبت انه لم يكن شاهدا لان الشاهد لا بد أن يكون حاضرا فما الفائدة فى اعادة قوله وما كنت من الشاهدين (الجواب) قال ابن عباس رضى الله عنهما التقدير لم تحضر ذلك الموضع ولو حضرت فما شاهدت تلك الوقائع فانه يجوز أن يكون هناك ولا يشهد ولا رى (السؤال الرابع) كيف يتصل قوله ولكنا أنشأنا قرونا بهذا الكلام ومن أى وجه يكون استدراكا له (الجواب) معنى الآية ولكنا أنشأنا بعد عهد موسى عليه السلام الى عهدك قرونا كثيرة فتطاول عليهم العمر وهو القرن الذى أنت فيه فاندرست العلوم فوجب أرسالك اليهم فأرسلناك وعرفناك أحوال الانبياء وأحوال موسى فالحاصل كأنه قال وما كنت شاهدا لموسى وما جرى عليه ولكنا أوحيناه اليك فذكر سبب الوحى الذى هو اطالة الفترة ودل به على المسبب فاذن هذا الاستدراك شبيه الاستدراك الذى بعده واعلم أن هذا تنبيه على المعجز كأنه قال ان فى اخبارك عن هذه الاشياء من غير حضور ولا مشاهدة ولا تعلم من أهل الدلالة ظاهرة على نبوتك كما قال أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الاولى * أما قوله وما كنت ثاويا فى أهل مدين فالمعنى ما كنت مقيما فيه * وأما قوله تتلو عليهم آياتنا فهو حجة (الاول) قال صاحب النظم يقول لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ولكنا كنا مرسلين أى أرسلناك الى أهل مكة وأنزلنا عليك هذه الاخبار ولولا ذلك لما علمتها (الثانى) قال الضحاك يقول انك ما عجمت لم تكن الرسول الى أهل مدين تتلو عليهم الكتاب وانما كان غيرك ولكنا كنا مرسلين فى كل زمان رسولا فأرسلنا الى أهل مدين شعيبا وأرسلناك الى العرب لتكون خاتم الانبياء * أما قوله وما كنت بجانب الطور اذ نادينا بدء منادأه موسى ليلة المناجاة وتكليمه ولكن رحمة من ربك أى علمناك رحمة وقرأ عيسى بن عمر برفع رحمة وذكر المفسرون فى قوله اذ نادينا وجوها أحدها) اذ نادينا أى قلنا لموسى ورحمتى وسمت كل شئ الى قوله أولئك هم المفلحون (وثانيها) قال ابن عباس اذ نادينا أمتك فى أصلاب آبائهم بأمة محمد أجيبكم قبل أن تدعونى وأعطيتكم قبل أن تسألونى وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى قال وانما قال الله تعالى ذلك حين اختار موسى عليه السلام سبعين رجلا لميقات ربه (وثالثها) قال وهب لما ذكر الله لموسى فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال رب أرنيهم قال انك لن تدركهم وان شئت أسمعتك أصواتهم قال بلى يا رب فقال سبحانه يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب آبائهم فاجابه الله تعالى أمتوا تهم ثم قال أجيبكم قبل أن تدعونى الحديث كما ذكره ابن عباس (ورابعها) روى سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله وما كنت بجانب الطور اذ نادينا قال كتب الله كتابا قبل أن يخلق الخلق بالفى عام ثم وضعه على العرش ثم نادى يا أمة محمد

خيلا ورجلا من الجن والانس فما كان من راكب يقاتل فى معصية الله تعالى فهو من خيل ابليس وما كان من راجل يقاتل فى معصية الله تعالى فهو من رجل ابليس والخيل الخيالة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام يا خيل الله اركبى والرجل اسم جمع للراجل كالصحب والركب وقرئ بكسر الجيم وهى قراءة حفص على أنه فعل بمعنى فاعل كتعب وتاعب وبضمه مثل حذف وحذف ونذس ونذس ونظائرهما أى جعلك الراجل ليطاوع الخيل وقرئ رجالك ورجالك ويجوز أن يكون استفزازه بصوته واجلابه بخيله ورجله تمثيلا لتسلطه على من يغويه فكأنه مغاوير أوقع على قوم فصوت بهم صوتا يزعجهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم (وشاركهم فى الاموال) بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام

والتصرف فيها على ما لا ينبغى (والاولاد) بالحث على التوصل اليهم بالاسباب المحرمة والاشراك كتسميتهم بعبد العزى والتضليل بالحمل على الاديان الزائغة والحرف الذميمة والافعال القبيحة (وعدهم) المواعيد الباطلة كشفاعة الالهة والاتكال على كرامة الآباء وتأخير التوبة بتطويل الامل (وما يعدهم الشيطان الا غرورا) اعتراض لبيان شأن مواعيده

والالتفات الى الغيبة للتقوية بمعنى الاعتراض مع مافيه من صرف الكلام عن خطابه وبيان شأنه للناس ومن الاشعار بعلية شيطنته للغرور وهو تزيين الخطايا بوهم أنه صواب (ان عبادى) الاضافة للتشريف وهم المخلصون وفيه أن من تبعه ليس منهم وأن الاضافة لثبوت الحكم فى قوله تعالى ٤٨٢ (ليس لك عليهم سلطان) أى تسلط وقدرة على اغوائهم كقوله تعالى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (وكفى بربك وكيلا) لهم يتوكلون عليه ويستدعون به فى الخلاص عن اغوائك والتعرض لوسف الربوبية المنبئة عن المالكية المطلقة والتصرف الكلى مع الاضافة الى ضميرابليس للاشعار بكيفية كفايته تعالى لهم أعنى سلب قدرته على اغوائهم (ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر) مبتدأ وخبر والازجاء السوق حالا بعد حال أى هو القادر العظيم الذى يسوق لمنافعكم الفلك ويجريها فى البحر (لتبتغوا من فضله) من رزقه الذى هو فضل من فضله أومن الربح الذى هو معظمه ومن مزيدة أو تبعيضية وهذا تذكير لبعض النعم التى هى دلائل التوحيد وتمهيد لذكر توحيدهم عند مماس الضر تكملة لما مر من قوله تعالى فلا علىكم الآية (انه كان بكم) أزلا وأبدا (رحيما) حيث هيأ لكم ماتحتاجون اليه وسهل عليكم مايعسر من مبادية وهذا تذييل لما سبق من الازجاء لابتغاء الفضل وصيغة الرحيم للدلالة على أن المراد بالرحمة الرحمة الدنيوية والنعمة العاجلة المنقسمة الى الجليلة والحقيرة (واذا مسكم الضر فى البحر) خوف الغرق فيه (ضل من تدعون) أى ذهب عن خواطركم ما كنتم تدعون من دون الله من الملائكة أوالمسيح أوغيرهم (الا اياه) وحده من غير أن يخطر ببالكم

ان رحمتى سبقت غضبى أعطيتكم قبل ان تسألونى وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى من لقينى منكم يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبدى ورسوله أدخلته الجنة أما قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك فالانذار هو التخويف بالعقاب على المعصية (واعلم) أنه تعالى لما بين قصة موسى عليه السلام قال لرسوله وما كنت بجانب الغربى وما كنت ثاويا فى أهل مدين وما كنت بجانب الطور لجمع تعالى بين كل ذلك لان هذه الثلاثة هى الاحوال العظيمة التى اتفقت لموسى عليه السلام اذا المراد بقوله اذ قضينا الى موسى الامر انزال التوراة حتى تكامل دينه واستقر شرعه والمراد بقوله وما كنت ثاويا أول أمره والمراد بناديناه وسط أمره وهو اوان المناجاة ولما بين تعالى أنه عليه السلام لم يكن فى هذه الاحوال حاضرا بين تعالى انه نبه وعرفه هذه الاحوال رحمة للعالمين ثم فسر تلك الرحمة بأن قال لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك واختلفوا فيه فقال بعضهم لم يبعث اليهم نذير منهم وقال بعضهم حجة الانبياء كانت قائمة عليهم ولكنه ما بعث اليهم من يجدد تلك الحجة عليهم وقال بعضهم لا يبعد وقوع الفترة فى التكاليف فبعثه الله تعالى تقريرا للتكاليف وازالة لتلك الفترة أما قوله ولولا أن تصيبهم مصيبة الآية فقال صاحب الكشاف لولا الاولى امتناعية وجوابها محذوف والثانية تحضيضية والفاء فى قوله فيقولوا للعطف وفى قوله فنتبع جواب لولا لكونها فى حكم الامر من قبل أن الامر باعث على الفعل والباعث والمحتض من واد واحد والمعنى ولولا انهم قائلون اذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصى هلا أرسلت الينا رسولا محتجين علينا بذلك لما أرسلنا اليهم يعنى انما أرسلنا الرسول ازالة لهذا العذر وهو كقوله لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ولولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك واعلم أنه تعالى لم يقل ولولا أن يقولوا هذا العذر لما أرسلنا بل قال ولولا أن تصيبهم مصيبة فيقولوا هذا العذر لما أرسلنا وانما قال ذلك لنكتة وهى أنهم لو لم يعاقبوا مع ما وقد عرفوا بطلان دينهم لما قالوا ذلك بل انما يقولون ذلك اذا ألحقهم العقاب فيدل ذلك على انهم لم يذكروا هذا العذر تأسفا على كفرهم بل لانهم ما أطاقوا العذاب وفيه تنبيه على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم كقوله ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج الجبائى على وجوب فعل اللطف قال لو لم يجب ذلك لم يكن لهم أن يقولوا هلا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك اذ من الجائز أن لا يبعث اليهم وان كانوا لا يختارون للايمان الا عنده على قول من خالف فى وجوب اللطف كما أن من الجائز اذا كان فى المعلوم توخلق له لم يمكن الا أن يفعل ذلك (المسئلة الثانية) احتج الكعبى به على أن الله تعالى يقبل حجة العباد وليس الامر كما يقوله أهل السنة من أنه تعالى لا يقبل الحجة وظاهر هذا أنه ليس المراد من قوله لا يسئل عما يفعل ما بيناه أهل السنة واذا ثبت أنه يقبل الحجة وجب أن لا يكون فعل العبد بخلق الله تعالى والا لكان للكافر أعظم حجة على الله تعالى (المسئلة الثالثة) قال القاضى فيه ابطال القول بالجبر من جهات (احداها) أن اتباعهم وايمانهم موقوف على أن يخلق الله تعالى ذلك فهم سواء أرسل الرسول اليهم أم لا (وثانيتها) أنه اذا خلق القدرة على ذلك فيهم وجب سواء أرسل الرسول أم لا (وثالثتها) اذا أراد ذلك وجب أرسل الرسول اليهم أم لا فأى فائدة فى قولهم هذا لو كانت أفعالهم خلقا لله تعالى فيقال للقاضى هب انك نازعت فى الخالق والارادة ولكنك وافقت فى العلم فاذا علم الكفر منهم فهل يجب أم لا فان لم يجب أمكن أن لا يوجد الكفر مع حصول العلم بالكفر وذلك جمع بين الضدين وان وجب لزمك ما أوردته علينا واعلم أن الكلام وان كان قويا لكن ما حسنا الا أنه اذا توجه عليه النقض الذى لا محيص عنه فكيف يرضى العاقل بان يعول عليه ﴿قوله تعالى﴾ (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أولم يكفروا

أحدهم وتدعونه لكشفه استئلالا وأشتراكا أو ضل كل من تدعونه عن اغاثتكم وانقاذكم ولم يقدر على ذلك الا الله على الاستثناء المنقطع (فلما نجاكم) من الغرق وأوصلكم (الى البر أعرضتم) عن التوحيد وأنعمتم في كفران النعمة (وكان الانسان كفورا) تعليل لما سبق من الاعراض (أفأمنتم) الهمزة للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم (أن يخسف بكم جانب البر) الذي هو مأمنكم أي يقلبه ملتبسا بكم أو بسبب كونكم فيه وفي زيادة الجانب تنبيه على تساوي الجوانب والجهات بالنسبة الى قدرته سبحانه وتعالى وقهره وسلطانه وقرئ ينون العظمة (أو يرسل عليكم) من فوقكم وقرئ بالنون (حاصبا) ريحا ترمي بالحصباء (ثم لا تجدوا لكم وكيلا) يحفظكم من ذلك أو يصرفه عنكم فانه لا راد لامره الغالب (أم أمنتم أن يعيدكم فيه) أي في البحر أو ثرت كلمة في على كلمة الى المنبئة عن مجرد الانتهاء للدلالة على استقرارهم فيه (تارة أخرى) استئناف الاعادة الله تعالى مع أن العود اليه باختيارهم باعتبار خلق الدواعي الملجئة لهم الى ذلك وفيه ايماء الى كمال شدة هول ما لاقوه في التارة الاولى بحيث لولا الاعادة لما عادوا (فيرسل عليكم) وأنتم في البحر وقرئ بالنون (قاصفا من الريح) وهي التي لا تمر بشئ الا كسرته وجعلته كالرميم أو التي لها قصيف وهو الصوت الشديد كأنها تتقصف أي تتكسر (فيغرقكم) بعد كسر فلككم كما ينبئ عنه عنوان القصف وقرئ بالنون وبالتاء على الاسناد الى ضمير الريح (بما كفرتم) بسبب اشراككم أو كفرانكم لنعمة الانجاء (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) أي ثائرا يطالبنا بما فعلنا انتصارا منا وذكر كالتأخر من حيث كونه سببا كقوله سبحانه ولا يخاف عقباها (ولقد كرمنا بني آدم) فاطبة شكر عاشملا لابرهم

يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴿ اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم عند الخوف قالوا هلا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك بين أيضا أنه بعد الارسال الى أهل مكة قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى فهؤلاء قبل البعثة يتعللون بشبهة وبعد البعثة يتعللون باخرى فظهر أنه لا مقصود لهم سوى الزيغ والعناد ﴿ أما قوله فلما جاءهم الحق من عندنا أي جاءهم الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى من الكتاب الذي المقول جملة واحدة ومن سائر المعجزات كقلب العصا حية واليد البيضاء وفلق البحر وتظليل الغمام وانفجار الحجر بالماء والمن والسلوى ومن ان الله كلمه وكتب له في الالواح وغيرها من الآيات بقوا بالاقتراحات المبنية على التعنت والعناد كما قالوا لولا أنزل عليه كنزا وجاء معه ملك وما أشبه ذلك واعلم أن الذي اقترحوه غير لازم لانه لا يجب في معجزات الانبياء عليهم السلام أن تكون واحدة ولا فيما ينزل اليهم من الكتب أن يكون على وجه واحد اذ السلاح قد يكون في انزاله مجموعا كالتوراة ومفرقا كالقرآن ثم ان تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل واختلفوا في أن الضمير في قوله أولم يكفروا الى من يعود فذكروا وجوها (أحدها) أن اليهود أمروا قريشا أن يسألوا محمدا أن يأتي بمثل ما أوتي موسى عليه السلام فقال تعالى أولم يكفروا بما أوتي موسى يعني أولم تكفروا بأقوال هؤلاء اليهود الذين استخرجوا هذا السؤال موسى عليه السلام مع تلك الآيات الباهرة (وثانيها) أن الذين أوردوا هذا الاقتراح كفار مكة والذين كفروا بموسى هم الذين كانوا في زمان موسى عليه السلام الا أنه تعالى جعلهم كالشئ الواحد لاتحادهم في الكفر والتعنت كالشئ الواحد (وثالثها) قال الكلبي ان مشركي مكة بعثوا رهطا الى يهود المدينة ليسألهم عن محمد وشأنه فقالوا انا نجده في التوراة بنعته وصفته فلما رجع الرهط اليهم وأخبروهم بقول اليهود قالوا انه كان ساحرا كان محمد ساحرا فقال تعالى في حقهم أولم يكفروا بما أوتي موسى (ورابعها) قال الحسن قد كان العرب أصل في أيام موسى عليه السلام فجناه على هذا أولم يكفروا بأنهم بأن قالوا في موسى وهرون ساحران (وخامسها) قال قتادة أولم يكفر اليهود في عصر محمد بما أوتي موسى من قبل من البشارة بعيسى ومحمد عليهما السلام فقالوا ساحران (وسادسها) روي والاظهر عندي ان كفار قريش ومكة كانوا منكرين لجميع النبوات ثم انهم لما طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم معجزات موسى عليه السلام قال الله تعالى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل بل بما أوتي جميع الانبياء من قبل فعلمنا أنه لا غرض لكم من هذا الاقتراح الا التعنت ثم انه تعالى حكى كيفية كفرهم بما أوتي موسى من وجهين (الاول) قولهم ساحران تظاهرا قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأهل المدينة ساحران بالالف وقرأ أهل الكوفة بغير الف وذكروا في تفسير الساحرين وجوها (أحدها) المراد هرون وموسى عليهما السلام تظاهرا أي تعاونا وقرئ تظاهرا على الادغام وسحران يعني ذوي سحر وجعلوهما سحرين مبالغة في وصفهما بالسحر وكثير من المفسرين فسروا قوله سحران بأن المراد هو القرآن والتوراة واختار أبو عبيدة القراءة بالالف لان المظاهرة بالناس وأفعالهم أشبه منها بالكتب ﴿ وجوابه انا بينا أن قوله سحران

وفاجرهم أى كرمناهم بالصورة والقامة المعتدلة والتسلط على ما فى الارض والتمتع به والتمكن من الصناعات وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة ومن جملته ما ذكره ابن عباس رضى الله عنهما من ان كل حيوان يتناول طعامه بفيه الا الانسان فانه يرفعه اليه بيده وما قيل من شركة القرد له فى ذلك مبنى على ٤٨٤ عدم الفرق بين اليد والرجل فانه متناول له برجله التى يطأ بها القاذورات لا بيده

(وحملناهم فى البر والبحر) على الدواب والسفن من حملته اذا جعلت له ما يركبه وليس من المخلوقات شئ كذلك وقيل حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم الارض ولم نغرقهم بالماء وانت خبير بأن الاول هو الانسب بالتكريم اذ جميع الحيوانات كذلك (ورزقناهم من الطيبات) أى فنون النعم وضروب المستلذات مما يحصل بصنعتهم وبغير صنعتهم (وفضلناهم) فى العلوم والادراكات بما ركبنا فيهم من القوى المدركة التى بها يتميز الحق من الباطل والحسن من القبيح (على كثير ممن خلقنا) وهم من عدا الملائكة عليهم الصلاة والسلام (تفضيلا) عظيما يحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ولا يكفروها ويستعملوا قواهم فى تحصيل العقائد الحقة ويرفضوا ما هم عليه من الشرك الذى لا يقبله أحد ممن له أدنى تمييز فضلا عن فضل على من عدا الملأ الاعلى الذين هم العقول المجردة وانما استثنى جنس الملائكة من هذا التفضيل لان علومهم دائمة عارية عن الخطأ والخلل

العهد

وليس فيه دلالة على أفضليتهم بالمعنى المتنازع فيه فان المراد هنا بيان التفضيل فى أمر مشترك بين جميع أفراد البشر مما لها وما لها ولا يمكن أن يكون ذلك هو الفضل فى عظم الدرجة وزيادة القربة عند الله سبحانه وان قيل أى حاجة الى تعيين ما فيه التفضيل بعد بيان ما هو

يمكن حمله على الرجلين وبتقدير أن يكون المراد الكتابين لكن لما كان كل واحد من الكتابين يتلوى الآخر لم يبعد أن يقال على سبيل المجاز تماونا كما تقول تظاهرت الاخبار وهذه التأويلات انما تصح اذا حملنا قوله أولم يكفروا بما أوتى موسى اما على كفار مكة أو على الكفار الذين كانوا فى زمان موسى عليه السلام ولا شك أن ذلك ألبق بسياق الآية (الثانى) قولهم انا بكل كافرون أى بما أنزل على محمد وموسى وسائر الانبياء عليهم السلام ومعلوم أن هذا الكلام لا يليق الا بالمشركين لا باليهود وذلك مبالغة فى أنهم مع كثرة آيات موسى عليه السلام كذبوه فما الذى يمنع من مثله فى محمد صلى الله عليه وسلم وان ظهرت حجته ولما أجاب الله تعالى عن شبههم ذكر الحجة الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فقال قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه وهذا تنبيه على عجزهم عن الاتيان بمثله قال الزجاج أتبعه بالجزم على الشرط ومن قرأ أتبعه بالرفع فالتقدير أنا أتبعه ثم قال فان لم يستجيبوا لك قال ابن عباس يريد فان لم يؤمنوا بما جئت به من الحجج وقال مقاتل فان لم يعلموا أن يأتوا بكتاب أفضل منهما وهذا أشبه بالآية فان قيل الاستجابة تقتضى دعاء فأين الدعاء ههنا قلنا قوله فأتوا بكتاب أمر والامر دعاء الى الفعل ثم قال فاعلم انما يتبعون أهواءهم يعنى قد صار واملزمين ولم يبق لهم شئ الا اتباع الهوى ثم زيف طريقتهم بقوله ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد وأنه لا بد من الحجة والاستدلال ان الله لا يهدى القوم الظالمين وهو عام يتناول الكافر لقوله ان الشرك لظلم عظيم وأصحاب الاصحاب به فى أن هداية الله تعالى خاصة بالمؤمنين وقالت المعتزلة الالطاف منها ما يحسن فعلها مطلقا ومنها ما لا يحسن الا بعد الايمان والدليل عليه قوله والذين اهتدوا زادهم هدى فقوله ان الله لا يهدى القوم الظالمين محمول على القسم الثانى ولا يجوز حمله على القسم الاول لانه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة أن عدم بعثة الرسول جار مجرى العذر لهم فبأن يكون عدم الهداية عذرا لهم أولى ولما بين تعالى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الدلالة قال ولقد وصلنا لهم القول وتوصيل القول هو اتيان بيان بعد بيان وهو من وصل البعض بالبعض وهذا القول الموصل يحتمل أن يكون المراد منه انا أنزلنا القرآن منجما مفرقا يتصل بعضه ببعض ليكون ذلك أقرب الى التذكير والتنبيه فانهم كل يوم يطالعون على حكمة أخرى وفائدة زائدة فيكونون عند ذلك أقرب الى التذكر وعلى هذا التقدير يكون هذا جوابا عن قولهم هلا أوتى محمد كتابه دفعة واحدة كما أوتى موسى كتابه كذلك ويحتمل أن يكون المراد وصلنا أخبار الانبياء بعضها ببعض وأخبار الكفار فى كيفية هلاكهم تكثيرا لمواضع الاتعاظ والازدجار ويحتمل أن يكون المراد تبيين الدلالة على كون هذا القرآن معجزا مرة بعد أخرى لعلهم يتذكرون ثم انه تعالى لما أقام الدلالة على النبوة أكد ذلك بأن قال الذين آتيناهم الكتاب من قبله أى من قبل القرآن أسلموا محمد فى لا يصرف الكتب أولى بذلك واختلفوا فى المراد بقوله الذين آتيناهم الكتاب وذكروا فيه وجوها (أحدها) قال قتادة انها نزلت فى أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة حقة يتمسكون بها فلما بعث الله تعالى محمدا آمنوا به من جملتهم سلمان وعبد الله بن سلام (وثانيها) قال مقاتل نزلت فى أربعين رجلا من أهل الانجيل وهم أصحاب السفينة جاؤا من الحبشة مع جعفر (وثالثها) قال رباعة بن قرظة نزلت فى عشرة أنا أحدهم وقد عرفت أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فكل من حصل فى حقه تلك الصفة كان داخلا فى الآية ثم حكى عنهم ما يدل على تأكيد ايمانهم وهو قولهم آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين فقوله انه الحق من ربنا يدل على التعليل يعنى أن كونه حقا من عند الله يوجب الايمان به وقوله انا كنا من قبله مسلمين بيان لقوله آمنا به لانه يحتمل أن يكون ايمانا قريب

المراد بالمفضلين فان استثناء الملائكة عليهم الصلاة والسلام من تفضيل جميع أفراد البشر عليهم لا يستلزم استثناءهم من تفضيل بعض أفراده عليهم * قلنا لا بد من تعيينه البتة اذ ليس من الافراد لفاجره للبشر أحد يفضل على أحد من المخلوقات فيما هو المتنازع فيه أصلا بل هم أدنى من كل دنى * حسبما ينبئ عنه قوله تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل ٤٨٥ وقوله تعالى ان شر الدواب عند الله

المهد وبعده فاخبر وا أن اعمالهم به متقادم وذلك لما وجدوه فى كتب الانبياء عليهم السلام المتقدمين من البشارة بمقدمه ثم انه تعالى لما مدحهم بهذا المدح العظيم قال أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا وذكر رافيه وجوها (أحدها) انهم يؤتون أجرهم مرتين باعانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وبعد بعثته وهذا هو الاقرب لانه تعالى لما بين انهم آمنوا به بعد البعثة وبين أيضا انهم كانوا مؤمنين به قبل البعثة ثم أثبت الاجر مرتين وجب أن ينصرف الى ذلك (وثانيها) يؤتون الاجر مرتين مرة باعانهم بالانبياء الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم ومرة أخرى باعانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم (وثالثها) قال مقاتل هؤلاء لما آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم شتمهم المشركون فصفحوا عنهم فلهم أجران أجر على الصفح وأجر على الايمان يروى انهم لما أسلموا قال لهم أبو جهل فسكتوا عنه قال السدى اليهود عاتبوا عبد الله بن سلام وشتموه وهو يقول سلام عليكم ثم قال ويدرؤن بالحسنة السيئة والمعنى بالطاعة المعصية المتقدمة ويحتمل أن يكون المراد ذمهم الصفح الاذى ويحتمل أن يكون المراد من الحسنة استماعهم من المعاصى لان نفس الامتناع حسنة ويدفع به ما لولاه لكان سيئة ويحتمل التوبة والاقابة والاستغفار عليها ثم قال ومما رزقناهم ينفقون واعلم الله تعالى مدحهم أولا بالايمان ثم بالطاعات البدنية فى قوله ويدرؤن بالحسنة السيئة ثم بالطاعات المالية فى قوله ومما رزقناهم ينفقون (قال) القاضى دل هذا المدح على أن الحرام يكون رزقا جوابه ان كلمة من للتبعيض فدل على انهم استحقوا المدح بانفاق بعض ما كان رزقا وعلى هذا التقدير يسقط استدلاله ثم لما بين كيفية اشتغالهم بالطاعات والافعال الحسنة بين كيفية اعراضهم عن الجهال فقال واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه واللغو ما حقه أن يلغى ويترك من العبث وغيره وكانوا يسمعون ذلك فلا يخوضون فيه بل يعرضون عنه اعراضا جميلا فلذلك قال تعالى وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم وما أحسن ما قال الحسن رحمه الله فى أن هذه الكلمة تحية بين المؤمنين وعلامة الاحتمال من الجاهلين ونظير هذه الآية قوله تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ثم أكد تعالى ذلك بقوله حاكيا عنهم لا نبتغى الجاهلين والمراد لا نحتاز بهم بالباطل على باطلهم قال قوم نسخ ذلك بالامر بالقتال وهو بعيد لان ترك المساهلة مندوب وان كان القتال واجبا ﴿ قوله تعالى ﴿ انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ اعلم أن فى قوله تعالى انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء مسائل (المسئلة الاولى) هذه الآية لا دلالة فى ظاهرها على كفر أبى طالب ثم قال الزجاج أجمع المسلمون على انها نزلت فى أبى طالب وذلك أن أبا طالب قال عند موته يا معشر بنى عبد مناف أطيعوا محمدا وصدقوه تفلحوا وترشدوا فقال عليه السلام يا عم تأمرهم بالنصح لانفسهم وتدعها لنفسك قال فما تريد يا ابن أخى قال أريد منك كلمة واحدة فانك فى آخر يوم من أيام الدنيا أن تقول لا اله الا الله أشهد لك بها عند الله تعالى قال يا ابن أخى قد علمت انك صادق ولكنى أكره أن يقال خرع عند الموت ولولا أن يكون عليك وعلى بنى أبيك غضاضة ومسبة بعدى لقلتها ولاقررت بها عينك عند الفراق الا أرى من شدة وجدك وتهالك ولكنى سوف أموت على ملة الاشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف (المسئلة الثانية) انه تعالى قال فى هذه الآية انك لا تهدى من أحببت وقال فى آية أخرى وانك لتهدى الى صراط مستقيم ولا تنافى بينهما فان الذى أثبته وأضافه اليه الدعوة والبيان والذى نفى عنه هدايته التوفيق وشرح الصدر ونور يقذف فى القلب فيحيا به القلب كما قال

وخفاف والحكمة فى دعوتهم بأمهاتهم اجلال عيسى عليه السلام وتشريف الحسنين رضى الله عنهما والستر على أولاد الزنا (فمن أوتى يومئذ من أولئك المدعوين (كتابه) صحيفة أعماله (بيمينه) اما لتخطر الكتاب الاتى وتشريفا لصاحبه وتبشيرا له من أول الامر بما فى مطاويه (فأولئك) أشار الى من باعتبار معناه ايذانا بأنهم حزب مجتمعون على أن جليل أولئك أمرهم لكتبهم تكون

الذين كفروا (يوم ندعو) نصب على المفعولية باضمار اذكر أو ظرف لما دل عليه قوله تعالى ولا يظلمون وقرئ بالياء على البناء للفاعل وللفعول ويدعو بقلب الالف واوا على لغة من يقول فى أفعى أفعو وقد جوز كون الواو علامة الجمع كما فى قوله تعالى وأسروا النجوى أو ضميره وكل بدل من ضميره والنون محذوفة لقلة المبالاة بها فانها ليست للاعلامة الرفع وقد يكتفى بتقديره كما فى يدعى (كل أناس) من بنى آدم الذين فعلناهم فى الدنيا ما فعلنا من التكريم والتفضيل وهذا شروع فى بيان تفاوت أحوالهم فى الآخرة بحسب أحوالهم وأعمالهم فى الدنيا (بامامهم) أى بمن أتموا به من نبى ومقدم فى الدين أو كتاب أو دين وقيل بكتاب أعمالهم التى قدموها فيقال يا أصحاب كتاب الخير يا أصحاب كتاب الشر أو يا أهل دين كذا يا أهل كتاب كذا وقيل الامام جمع أم كخف

على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد كما في حال الابتداء وما فيه من الدلالة على البعد للاشعار برفعة درجاتهم أي أولئك المختصون بتلك الكرامة التي يشعر بها الايتاء المزبور (يقرؤن كتابهم) الذي أوتوه على الوجه المبين تصحيحا بما سطر فيه من الحسنات المستتبعة لفنون الكرامات (ولا يظلمون) ٤٨٦ أي لا ينقصون من أجور أعمالهم المرتسمة في كتبهم بل يؤتونها مضاعفة (فتيلا) أي قدر فتيل وهو القشرة التي في شق النواة أو أدنى شئ فان الفتيل مثل في القلة والحقارة (ومن كان) من المدعوين (في هذه) الدنيا التي فعل بهم فيها ما فعل من فنون التكريم والتفضيل (أعمى) فاقد البصيرة لا يهتدي الى رشده ولا يعرف ما أوليناه من نعمة التكرمة والتفضيل فضلا عن شكرها والقيام بحقوقها ولا يستعمل ما أودعناه فيه من العقول والقوى فيما خلق له من العلوم والمعارف الحقة (فهو في الآخرة) التي عبر عنها بيوم ندعو (أعمى) كذلك أي لا يهتدي الى ما ينجيه ولا يظفر بما يجديه لان العمى الاول موجب للثاني وقد جوز كون الثاني بمعنى التفضيل على أن عماه في الآخرة أشد من عماه في الدنيا ولذلك قرأ أبو عمرو والاول مما والثاني مفخما (وأضل سبيلا) أي من الاعمى لزوال الاستعداد الممكن وتعطل الآلات بالكلية وهذا بعينه هو الذي أوتي كتابه بشماله بدلا لا محال ما سبق من الفريق المقابل له ولعل العدول عن ذكره بذلك للاشعار بأن مع ما له الذي يستدعيه حسن المقابلة حسبما هو الواقع في سورة الحاقة وسورة الانشقاق للايذان بالجهة الموجبة لذلك كما في قوله تعالى وأما ان كان من المكذبين الضالين بعد قوله تعالى فاما ان كان من أصحاب اليمين وللرمز الى علة حال الفريق الاول وقد ذكر في أحد

سبحانه أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا الآية (المسئلة الثالثة) احتج الاصحاب بهذه الآية في مسئلة الهدى والضلال فقالوا قوله انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء يقتضي أن تكون الهداية في الموضعين بمعنى واحد لانه لو كان المراد من الهداية في قوله انك لا تهدي شأ وفي قوله ولكن الله يهدي من يشاء شيأ آخر لاختل النظم ثم اما أن يكون المراد من الهداية بيان الدلالة أو الدعوة الى الجنة أو تعريف طريق الجنة أو خلق المعرفة في القلوب على سبيل الالجاء أو خلق المعرفة في القلوب لا على سبيل الالجاء لا جائز أن يكون المراد بيان الادلة لانه عليه السلام هدى الكل بهذا المعنى فهي غير الهداية التي نفى الله عنهم وكذا القول في الهداية بمعنى الدعوة الى الجنة وأما الهداية بمعنى تعريف طريق الجنة فهي أيضا غير مرادة من الآية لانه تعالى علق هذه الهداية على المشيئة وتعريف طريق الجنة غير معلق على المشيئة لانه واجب على الله تعالى والواجب لا يكون معلقا على المشيئة فان وجب عليه أداء عشرة دنانير لا يجوز أن يقول الى أعطي عشرة دنانير ان شئت وأما الهداية بمعنى الالجاء والقسر فغير جائز لان ذلك عندهم قبيح من الله تعالى في حق المكلف وفعل القبيح مستلزم للجهل أو الحاجة وهما محالان ومستلزم المحال محال فذلك محال من الله تعالى والمحال لا يجوز تعليقه على المشيئة ولما بطلت الاقسام لم يبق الا أن المراد انه تعالى يخص البعض بخلق الهداية والمعرفة ويمنع البعض منها ولا يسئل عما يفعل ومتى أوردت الكلام على هذا الوجه سقط كل ما أورده القاضي عذرا عن ذلك أما قوله وهو أعلم بالمهتدين فالمعنى انه المختص بعلم الغيب فيعلم من يهتدي بعد ومن لا يهتدي ثم انه سبحانه بعد ان ذكر شبههم وأجاب عنها بالاجوبة الواضحة وبين أن وضوح الدلائل لا يكفي ما لم ينضم اليه هداية الله تعالى حكى عنهم شبهة أخرى متعلقة باحوال الدنيا وهي قولهم ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا قال المبرد انتطف الانتزع بسرعة روى أن الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انا لنعلم أن الذي تقوله حق ولكن يمنعنا من ذلك تخطفنا من أرضنا أي يجتمعون علي بمكة بتنا ويخرجونا من أرضنا فاجاب الله سبحانه وتعالى عنها من وجوه ٢ (الاول) قوله أولم نمكن لهم حرما آمنا أي أعطينا كم مسكنا لا خوف لكم فيه اما لان العرب كانوا يحترمون الحرم وما كانوا يتعرضون البتة لسكانه فانه يروى ان العرب خارج الحرم كانوا مشتغلين بالنهب والغارة وما كانوا يتعرضون البتة لسكان الحرم أو لقوله تعالى ومن دخله كان آمنا أما قوله يجبى اليه ثمرات كل شئ فهو تعالى كأنه بين كون ذلك الموضع خاليا عن المخاوف والآفات بين كثرة النعم فيه ومعنى يجبى يجمع من قولهم جبيت الماء في الحوض اذا جمعته قرأ أهل المدينة تجبى بالتاء وأهل الكوفة وأبو عمرو بالياء وذلك أن تأنيث الثمرات تأنيث جمع وليس بتأنيث حقيقي فيجوز تأنيثه على اللفظ وتذكيره على المعنى ومعنى الكلية الكثرة كقوله وأوتيت من كل شئ وحاصل الجواب انه تعالى لما جعل الحرم آمنا وأكثر فيه الرزق حال كونهم معرضين عن عبادة الله تعالى مقبلين على عبادة الاوثان قلوا آمنوا لكان بقاء هذه الحالة أولى قال القاضي ولو أن الرسول قال لهم ان الذي ذكرتم من التخطف لو كان حقا لم يكن عذرا لكم في أن لا تؤمنوا وقد ظهرت الحجة لانقطعوا أو قال لهم ان تخطفهم لكم بالقتل وغيره وقد آمنتم كالشهادة لكم فهو نفع عائد عليكم لا تنقطعوا بل ضار لو قال لهم ما قدر مضرة التخطف في جنب العقاب الدائم الذي أخوفكم منه ان بقيتم على كفركم لانقطعوا ولكنه تعالى احتج بما هو أقوى من حيث ان كفرهم في انهم يتخطفون من حيث عرفوا من حال البقعة بالعادة ان ذلك لا يجري ان آمنوا ومثل ذلك اذا أمكن بيانه للخصم فهو أولى من سائر ما ذكرنا لذلك قدمه الله تعالى والآية دالة على صحة الحجاج الذي

يتوصل

الجاحدين المسبب وفي الآخر السبب ودل بالمذكور في كل منهما على المتروك في الآخر نحو بلا على شهادة العقل كما في قوله عز وعلا وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله (وان كادوا ليفتنونك) نزلت في ثقيف اذ قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب لا نحشر ولا نحشر ولا نصلي ٤٨٧ في صلاتنا وكل ربا لنا فهو لنا وكل ربا علينا فهو موضوع عنا وأن تعتمنا باللات سنة وأن تحرم وادينا وج كما حرمت مكة فاذا قالت العرب لما فعلت فقل ان الله أمرني بذلك وقيل في قريش حيث قالوا اجعل لنا آية عذاب آية رحمة وآية رحمة آية عذاب أو قالوا لا نمكنك من استلام الحجر حتى تلم بآلهتنا فان مخففة من المشددة وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف واللام هي الفارقة بينها وبين النافية أي ان الشأن قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك فاتنين (عن الذي أوحينا اليك) من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا (لتفتري علينا غيره) لتقول علينا غير الذي أوحينا اليك مما اقترحته ثقيف أو قريش حسبما نقل (واذن لاتخذوك خليلا) أي لو اتبعت أهواءهم لكنت لهم وليا ونحرجت من ولايتي (ولولا ان ثبتناك) على ما أنت عليه من الحق بعصمتنا لك (لقد كدت تركن اليهم شيأ قليلا) من الركون الذي هو أدنى

يتوصل به الى ازالة شبهة المبطلين بقي ههنا بحثان (الاول) قال صاحب الكشاف في انتصاب رزقا ان جعلته مصدرا جاز أن ينتصب بمعنى ساقه له لان معنى يجبى اليه ثمرات كل شئ ويرزق ثمرات كل شئ واحد وأن يكون مفعولا له وان جعلته بمعنى مرزوق كان حالا من الثمرات لتخصصها بالاضافة كما ينتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة (الثاني) احتج الاصحاب بقوله رزقا من لدنا في أن فعل العبد خلق الله تعالى وبيانه أن تلك الارزاق انما كانت تصل اليهم لان الناس كانوا يحملونها اليهم فلو لم يكن فعل العبد خلقا لله تعالى لما صحت تلك الاضافة فان قيل سبب تلك الاضافة أنه تعالى هو الذي ألقى تلك الدواعي في قلوب من ذهب بتلك الارزاق اليهم قلنا تلك الدواعي ان اقتضت الرجحان فقد بنينا في غير موضع انه متى حصل الرجحان فقد حصل الوجوب وحينئذ يحصل المقصود وان لم يحصل الرجحان انقطعت الاضافة بالكلية واعلم أنه تعالى انما بين أن تلك الارزاق ما وصلت اليهم الا من الله تعالى لاجل انهم متى علموا ذلك صاروا بحيث لا يخافون أحدا سوى الله تعالى ولا يرجون أحدا غير الله تعالى فحينئذ يقوى نظرهم منقطعا عن الخلق متعلقا بالخالق وذلك يوجب كمال الايمان والاعراض بالكلية عن غير الله تعالى والاقبال بالكلية على طاعة الله تعالى ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى الا وأهلها ظالمون﴾ اعلم أن هذا هو الجواب الثاني عن تلك الشبهة وذلك لانه تعالى لما بين لاهل مكة ما خصهم به من النعم أتبعه بما أنزله الله تعالى بالامم الماضية الذين كانوا في نعم الدنيا فلما كذبوا الرسل أزال الله عنهم تلك النعم والمقصود أن الكفار لما قالوا انا لا نؤمن خوفا من زوال نعمة الدنيا فالله تعالى بين لهم أن الاصرار على عدم قبول الايمان هو الذي يزيل هذه النعم لا الاقدام على الايمان قال صاحب الكشاف البطر سوء احتمال الغنى وهو ان لا يحفظ حق الله تعالى فيه وانتصبت معيشتها اما بحذف الجار واتصال الفعل كقوله واختار موسى قومه أو بتقدير حذف الزمان المضاف وأصله بطرت أيام معيشتها واما تضمين بطرت معنى كفرت فأما قوله فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا ففي هذا الاستثناء وجوه (أحدها) قال ابن عباس رضي الله عنهما لم يسكنها الا المسافر ومار أو طريق يوما أو ساعة (وثانيها) يحتمل ان تكون معاصي المهلكين بقي أثره في ديارهم فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها الا قليلا وكنا نحن الوارثين لها بعد هلاك أهلها واذا لم يبق للشئ مالك معين قيل انه ميراث لله لانه الباقي بعد فناء خلقه ثم انه سبحانه لما ذكر انه أهلك تلك القرى بسبب بطر أهلها فكان سائلا أن يسأل لم أورد السؤال من وجهين (الاول) لماذا ما أهلك الله الكفار قبل محمد صلى الله عليه وسلم مع انهم كانوا مستغرقين في الكفر والعناد (الثاني) لماذا ما أهلكهم بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم مع تمادي القوم في الكفر بالله تعالى والتكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿فأجاب عن السؤال الاول بقوله وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وحاصل الجواب انه تعالى قدم بيان أن عدم الاستعجال بعذاب الاستئصال في حق القوم فوجب أن لا يجوز اهلاكهم الا بعد البعثة ثم ذكر المفسرون وجهين (أحدهما) وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا أي في القرية التي هي أمها وأصلها وقصبتها التي هي أعلاها وتوابعها رسولا لالزام الحجة وقطع المعذرة (الثاني) وما كان ربك مهلك القرى التي في الارض حتى يبعث في أم القرى يعني مكة رسولا وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء ومعنى يتلو عليهم آياتنا يؤدي ويبلغ ﴿وأجاب عن السؤال الثاني بقوله وما كنا مهلكي القرى الا وأهلها ظالمون أنفسهم بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فان بعضهم قد آمن

ميل أي لولا تثبيتنا لك لقاربت أن تميل اليهم شيأ يسيرا من الميل اليسير لقوة خدعهم ورشدا حتيالهم لكن أدركتك العصمة فتعتك من أن تقرب من أدنى مراتب الركون اليهم فضلا عن نفس الركون وهذا صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما هم باجابتهم مع قوة الداعي اليها ودليل على أن العصمة بتوفيق الله تعالى وعنايته (اذا) لو قاربت أن تركن اليهم أدنى ركنة (لاذقناك ضعف الحيوة

وضعف الممات) أى عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ضعف ما يعذب به فى الدارين مثل هذا الفعل غيرك لان خطأ الخطير خطير وكان أصل الكلام عذابا ضعفا فى الحياة وعذابا ضعفا فى الممات بمعنى مضاعفا ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ثم أضيفت اضافة موصوفها وقيل الضعف من أسماء العذاب وقيل المراد بضعف الحياة عذاب الآخرة وبضعف الممات عذاب القبر (ثم لا تجد لك علينا نصيرا) يدفع عنك العذاب (وان كادوا) الكلام فيه كالكلام فى الاول أى كاد أهل مكة (ليستفزونك) أى ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم (من الارض) أى الارض التى أنت فيها وهى أرض مكة (ليخرجوك منها واذا لا يلبثون) بالرفع عطفا على خبر كاد وقرئ لا يلبثوا بالنصب باعمال اذن على ان الجملة معطوفة على جملة وان كادوا لتستفزونك (خلافك) أى بعدك قال

ذهبت الديار خلافهم فكأنما
بسط الشواطب بينهن حصيرا

أى ولو خرجت لا يبقون بعدك وقرئ خلفك (الا قليلا) الا زمانا قليلا وقد كان كذلك فانهم أهلكوا ببدر بعد هجرته عليه الصلاة والسلام وقيل نزلت الآية فى اليهود حسدوا مقام النبى عليه الصلاة والسلام بالمدينة فقالوا الشام مقام الانبياء عليهم الصلاة والسلام فان كنت نبيا فالحق بها حتى نؤمن بك فوقع ذلك فى قلبه عليه الصلاة والسلام فخرج من المدينة فمرت مرحلة فمرت فرجع ثم قتل منهم بنو قريظة وأجلى بنو النضير بقليل (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) نصب على المصدرية أى سن الله تعالى سنة وهى أن يهلك كل أمة أخرجت رسولها من بين أظهرهم فالسنة لله تعالى واضافتهم الى الرسل لانها سنت لاجلهم على ما ينطق به قوله عز وجل (ولا تجد لسنتنا

وبعضهم علم الله منهم انهم سيؤمنون وبعض آخرون علم الله انهم وان لم يؤمنوا لكنه يخرج من نسلهم من يكون مؤمنا ﴿ قوله تعالى ﴿ وما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ اعلم أن هذا هو الجواب الثالث عن تلك الشبهة لان حاصل شبهتهم ان قالوا لو تركنا الدين لما تفوتنا الدنيا فبين تعالى ان ذلك خطأ أعظم لان ما عند الله خير وأبقى أما أنه خير فلوجهين (أحدهما) ان المنافع هناك أعظم (وثانيهما) انها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار وقيل المضار فيها أكثر وأما انها أبقى فلانها دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا منقطعة ومتى قوبل المتناهى بغير المتناهى كان عدما فكيف ونسبة كل أحد بالقياس الى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس الى البحر فظهر من هذا ان منافع الدنيا لا نسبة لها الى منافع الآخرة البتة فكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لاستيفاء منافع الدنيا ولما نبه سبحانه على ذلك قال أفلا تعقلون يعنى ان من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا كانه يكون خارجا عن حد العقل ورحم الله الشافعى حيث قال من أوصى بثلث ماله لاعقل الناس صرف ذلك الثلث الى الاشتغالين بطاعة الله تعالى لان أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم الا المشتغلون بالطاعة فكانه رحمه الله انما أخذ من هذه الآية ثم انه تعالى أكد هذا الترجيح من وجه آخر وهو أنا لو قدرنا ان نعم الله كانت تنتهى الى الانقطاع والفناء وما كانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضى ترجيح نعم الآخرة على نعم الدنيا فكيف اذا اتصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة فأى عقل يرتاب فى ان نعم الآخرة راجحة عليها وهذا هو المراد بقوله أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه فهو يكون كمن أعطاه الله قدرا قليلا من متاع الدنيا ثم يكون فى الآخرة من المحضرين للعذاب والمقصود منهم لما قالوا لو تركنا الدين للدنيا فقال الله لهم لو لم تحصل عقيب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقتضى ترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا فكيف وهذه الدنيا تحصل بعدها العقاب الدائم وأورد هذا الكلام على لفظ الاستفهام ليكون أبلغ فى الاحتراق بالترجيح وتخصيص لفظ المحضرين بالذين أحضروا للعذاب أمر معروف من القرآن قال تعالى لكنت من المحضرين فانهم لمحضرون وفى لفظه اشعار به لان الاحضار مشعر بالتكليف والالزام وذلك لا يليق بمجالس اللذات انما يليق بمجالس التعزير والمكاره ﴿ قوله تعالى ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك ما كانوا إيانا يعبدون وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعميت عليهم الانباء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴾ اعلم انه سبحانه وتعالى ذكر فى هذه الآية انه يسأل الكفار يوم القيامة عن ثلاثة أشياء (أحدها) قوله ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون لما ثبت ان الكفار يوم القيامة قد عرفوا بطلان ما كانوا عليه وعرفوا صحة التوحيد والنبوة بالضرورة فيقول لهم أين ما كنتم تعبدونه وتجعلونه شريكا فى العبادة وتزعمون انه يشفع لكم وينصركم ويخلصكم من هذا الذى نزل بكم ثم بين تعالى ما يقولونه من حق عليه القول والمراد من القول هو قوله لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ومعنى حق عليه القول أى حق عليه مقتضاه واختلفوا فى ان الذين حق عليهم هذا القول من هم فقال بعضهم الرؤساء الدعاة الى الضلال وقال بعضهم الشياطين قوله ربنا هؤلاء الذين أغوينا هؤلاء مبتدأ والذين أغوينا صفته والراجع الى الموصوف محذوف وأغويناهم الخبر والكاف صفة محذوف تقديره أغويناهم فغووا غيا مثل ما غوينا والمراد كما أن غينا باختيارنا فكذا

تحويلا) أى تغييرا (أقم الصلوة لدلوك الشمس) لزوالها كما ينبئ عنه قوله عليه السلام وأتانى جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت فصلى بى الظهر واشتقاقه من الدلك لان من نظر اليها حينئذ يدلك عينه وقيل لغروبها من دلكت الشمس أى غربت وقيل أصل الدلوك الميل فينتظم كلا المعنيين واللام للتأقيت مثلها فى قولك لثلاث خلون ٤٨٩ (الى غسق الليل) الى اجتماع ظلمته وهو وقت صلاة العشاء وليس المراد اقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار بل اقامة كل صلاة فى وقتها الذى عين لها بيان جبريل عليه السلام كما أن أعداد ركعات كل صلاة موكولة الى بيانه عليه السلام ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى فى أوقات الصلوات من غير فصل بينها لما أن الانسان فيما بين هذه الاوقات على اليقظة فبعضها متصل ببعض بخلاف أول وقت العشاء والفجر فانه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ينقطع أحدهما عن الآخر ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الاوقات وقيل المراد بالصلاة صلاة المغرب والتحديد المذكور بيان لمبدئه ومنتهاه واستدل به على امتداد وقته الى غروب الشفق وقوله تعالى (وقرآن الفجر) أى صلاة الفجر نصب عطفا على مفعول أقم أو على الاغراء قاله الزجاج وانما سميت قرآنا لانه ركنها كما تسمى ركوعا وسجودا واستدل به على

غيهم باختيارهم يعنى ان اغواءنا لهم ما ألجأهم الى الغواية بل كانوا مختارين بالاقدام على تلك العقائد والاعمال وهذا معنى ما حكاه الله عن الشيطان انه قال ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم فلا تلوموني ولوموا أنفسكم وقال تعالى لابليس ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين فقوله الا من اتبعك بدل على أن ذلك الاتباع لهم من قبل أنفسهم لا من قبل الجاء الشيطان الى ذلك ثم قال تبرأنا لك منهم ومن عقائدهم وأعمالهم ما كانوا ايانا يعبدون انما كانوا يعبدون أهواءهم والحاصل انهم يتبرؤن منهم كما قال تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وأيضا فلا يمتنع فى قوله تعالى أين شركائى ان يريد به هؤلاء الرؤساء والشياطين فانهم لما أطاعوهم فقد صيروهم لمكان الطاعة بمنزلة الشريك ثم تعالى راذا حمل الكلام على هذا الوجه كان جوابهم أن يقولوا الهتنا وآلهة آبائنا ما عبدونا انما عبدنا أهواءهم الفاسدة (وثانيها) قوله تعالى وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم والاقرب أن هذا على سبيل التقرير لانهم يعلمون أنه لا فائدة فى دعائهم لهم فالمراد انهم لو دعوهم لم يوجد منهم اجابة فى النصرة وأن العذاب ثابت فيهم وكل ذلك على وجه التوبيخ وفى ذكره ردع وزجر فى دار الدنيا فاما قوله تعالى لو أنهم كانوا يهتدون فكثير من المفسرين زعموا أن جواب لو محذوف وذكروا فيه وجوها (أحدها) قال الضحاك ومقاتل يعنى المتبوع والتابع يرون العذاب ولو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا لما أبصروه فى الآخرة (وثانيها) لو أنهم كانوا مهتدين فى الدنيا لعلموا أن العذاب حق (وثالثها) ولو أنهم رأوا العذاب لو كانوا فى الدنيا يهتدون (ورابعها) لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب (وخامسها) قد آن لهم أن يهتدوا لو أنهم كانوا يهتدون اذا رأوا العذاب ويؤكد ذلك قوله تعالى لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم وعندى أن الجواب غير محذوف وفى تقريره وجوه (أحدها) أن الله تعالى اذا خاطبهم بقوله ادعوا شركاءكم فههنا يشتد الخوف عليهم ويلحقهم شئ كالسدر والدوار ويصيرون بحيث لا يبصرون شيأ فقال تعالى ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون شيأ أما لما صاروا من شدة الخوف بحيث لا يبصرون شيأ لا جرم ما رأوا العذاب (وثانيها) انه تعالى لما ذكر عجز الشركاء وهى الاصنام أنهم لا يجيبون الذين دعوهم قال فى حقهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون أى هذه الاصنام كانوا يشاهدون العذاب لو كانوا من الاحياء المهتدين ولكنها ليست كذلك فلا جرم ما رأت العذاب فان قيل قوله ورأوا العذاب ضمير لا يليق الا بالعقلاء فكيف يصح عوده الى الاصنام قلنا هذا كقوله فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وانما ورد ذلك على حسب اعتقاد القوم فكذا ههنا (وثالثها) أن يكون المراد من الرؤية رؤية القلب أى والكفار لما حققنا هذا العذاب فى الدنيا لو كانوا يهتدون وهذه الوجوه عندى خير من الوجوه المبنية على أن جواب لو محذوف فان ذلك يقتضى تفكيك النظم من الآية (الامر الثالث) من الامور التى يسأل الله الكفار عنها قوله ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعميت عليهم الانباء أى فصارت الانباء كالمعمى عليهم جميعا لا تهتدى اليهم فهم لا يتساءلون لا يسأل بعضهم بعضا كما يتساءل الناس فى المشكلات لانهم يتساوون جميعا فى عمى الانباء عليهم والعجز عن الجواب وقد رئى فعميت اذا كانت الانباء بحيث لا يقدرون فى الجواب عن مثل هذا السؤال ويؤكد هذا ما روى عن على رضى الله عنه أنه قال فى تفسير هذه الآية تدل على بطلان القول بالجبر لان فعلهم لو كان خلقا من الله تعالى ويجب وقوعه بالقدرة

الركنية ولكن لا دلالة له على ذلك لجواز أن يكون مدار الفجرية تضمنه وبه قيم لهم أن تفسير القراءة فى صلاة الفجر يدل الامر بالقيام على الوجوب فيها وفيما عداها دلالة وجوز أن يكون وقرآن الفجر حثا على تطويل القراءة فى صلاة الفجر (ان قرآن الفجر) أتاه فى مقام الاضمار بانة تمزيدا لاهتمام به (كان مشهودا) يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار

أو شاهد القدرة من تبدل الضياء بالظلمة والانتباه بالنوم الذي هو أخو الموت أو يشهده كثير من المصلين أو من حقه أن يشهده الجم الغفير فالآية على تقدير سير الدلوك بالزوال جامعة للصلوات الخمس وعلى تفسيره بالغروب لما عدا الظهر والعصر (ومن الليل) قيل هو نصب على الاغراء أي الزم بعض ٤٩٠ الليل وقيل لا يكون المغرى به حرفا ولا يجدي نفعا كون معناها التبعيض فان واو مع

ليست اسما بالاجماع وان كانت بمعنى الاسم الصريح بل هو منصوب على الظرفية بمضمر أي قم بعض الليل (فتهجد به) أي ازل والق الهجود أي النوم فان صيغة التفعل تجيء للازالة كالتحرج والتحنث والتأثم ونظائرها والضمير المجرور للقرآن من حيث هو لا بقيد اضافته الى الفجر أو للبعض المفهوم من قوله تعالى ومن الليل أي تهجد في ذلك البعض على أن الباء بمعنى في وقيل منصوب بتهجد أي تهجد بالقرآن بعض الليل على طريقة وأيامى فارهبون (نافلة لك) فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة خاصة بك دون الامة ولعله هو الوجه في تأخيرها عن ذكر صلاة الفجر مع تقدم وقتها على وقتها أو نظرا لكون لا لكونها زيادة على الفرائض بل لكونها زيادة له صلى الله عليه وسلم في الدرجات على مقابل مجاهد والسدي فانه عليه السلام مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيكون تطوعه زيادة في درجاته بخلاف من عداه من الامة فان تطوعهم لتكفير ذنوبهم رتد ارك الخلل

تنبيه

الواقع في قراءتهم وانتصابها اما على المصدرية بتقدير تنفل أو بجعل تهجد بمعناه أو بجعل نافلة بمعنى تهجدا فان ذلك عبارة زائدة واما على الحالية من الضمير الراجع الى القرآن أي حال كونها صلاة نافلة واما على المفعولية لتهجد اذا جعل بمعنى صل وجعل الضمير المجرور

والارادة فلما عوتبت عليهم الانبياء وقالوا انما أتينا في تكذيب الرسل من جهة خلقك فينا تكذيبهم والقدرة الموجبة لذلك فكانت حجتهم على الله تعالى ظاهرة وكذلك القول فيما تقدم لان الشيطان كان له أن يقول انما أغويت بخلقك في الغواية وانما قبل من دعوته لمثل ذلك فتكون الحجة لهم في ذلك قوية والعذر ظاهرا (والجواب) ان القاضي لا يترك آية من الآيات المشتملة على المدح والذم والثواب والعقاب الا ويعتمد استدلالا بها وكأن وجه استدلاله في الكل هذا الحرف فكذا وجه جوابنا حرف واحد وهو أن علم الله تعالى بعدم الايمان مع وقوع الايمان متنافيان لذاتهم ما فيه العلم بعدم الايمان اذا أمر يراد حال الايمان في الوجود فقد أمر بالجمع بين الضدين والذي اعتمده القاضي عليه في دفع هذا الحرف في كتبه الكلامية قوله خطأ قول من يقول انه يمكن وخطأ قول من يقول انه لا يمكن بل الواجب السكوت ولو أورد الكافر هذا السؤال على ربه لما كان لربه عنه جواب الا السكوت فتكون حجة الكافر قوية وعذره ظاهرا فثبت أن الاشكال مشترك والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وهو الله لا اله الا هو له الحمد في الاولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون ﴿اعلم أنه تعالى لما بين حال المعذبين من الكفار وما يجري عليهم من التوبيخ اتبعه بذكر من يتوب منهم في الدنيا ترغيبا في التوبة وزجرا عن الثبات على الكفر قال فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين وفي عسى وجوه (أحدها) انه من الكرام تحقيق والله أكرم الاكرمين (وثانيها) أن يراد ترجي التائب وطمعه كأنه قال فليطمع في الفلاح (وثالثها) عسى أن يكونوا كذلك ان دام على التوبة والايمان لجواز أن لا يدوموا واعلم أن القوم كانوا يذكرون شبها أخرى ويقولون لو نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعنون الوليد بن المغيرة أو أبا مسعود الثقفي فأجاب الله تعالى عنه بقوله وربك يخلق ما يشاء ويختار والمراد انه المالك المطلق وهو منزه عن النفع والضر فله أن يخص من شاء بما شاء لا اعتراض عليه البتة وعلى طريقة المعتزلة لما ثبت أنه حكيم مطلق علم أن كل ما فعله كان حكمة وصوابا فليس لاحد أن يعترض عليه وقوله ما كان لهم الخيرة والخيرة اسم من الاختيار فاسم المصدر والخيرة أيضا اسم للمختار يقال محمد خيرة الله في خلقه اذا عرفت هذا فقد تقول في الآية وجهان (الاول) وهو الاحسن أن يكون تمام الوقف على قوله ويختار ويكون ما نافيا والمعنى وربك يخلق ما يشاء ويختار ليس لهم الخيرة اذ ليس لهم أن يختاروا على الله أن يفعل (والثاني) أن يكون ما بمعنى الذي فيكون الوقف عند قوله وربك يخلق ما يشاء ثم يقول ويختار ما كان لهم الخيرة (قال) أبو المناسم الانصاري وهذا مما تعلق به المعتزلة في ايجاب الصلاح والاصلح عليه وأي صلاح في تكليف من علم أنه لا يؤمن ولم يكلفه لاستحق الجنة والنعيم من فضل الله ﴿فان قيل لما كلفه استوجب على الله ما هو الافضل لان المستحق أفضل من المتفضل به ﴿قلنا اذا علم قطعا أنه لا يحصل ذلك الافضل فتقرير بطله في العقاب الابدي لا يكون رعاية للمصلحة ثم قولهم المستحق خير من المتفضل به جهل لان ذلك التفاوت انما يحصل في حق من يستحق من تفضله أما الذي ما حصل الذات والصفات الا بخلقه وبفضله واحسانه فكيف يستحق من تفضله ثم قال سبحان الله وتعالى عما يشركون والمقصود أن يعلم أن الخلق والاختيار والاعزاز والاذلال مفوض الى محض المشيئة لا حد فيه شركة ومنازعة ثم أكد ذلك بأنه يعلم ما تكن صدورهم من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يعلنون من مطاعنهم فيه وقولهم هلا اختير غيره في النبوة ولما بين علمهم بما هم عليه من الغل والحسد والسفاهة قال وهو الله لا اله الا هو وفيه

للبعض أى فصل فى ذلك البعض نافلة لك (عسى أن يبعثك ربك) الذى بلغك الى كمالك اللائق بك من بعد الموت الاكبر كما انبعثت من النوم الذى هو الموت الاصغر بالصلاة والعبادة (مقاما) نصب على الظرفية على اضمار فيقيمك أو تضمين البعث معنى الاقامة اذ لابد من أن يكون العامل فى مثل هذا الظرف فعلا فيه معنى الاستقرار ويجوز أن ٤٩١ يكون حالا بتقدير مضاف أى يبعثك ذا مقام (محمودا) عندك وعند جميع الناس وفيه تهويل لشفاعة قيام الليل وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المقام المحمود هو المقام الذى أشفع فيه لامتى وعن ابن عباس رضى الله عنهما مقاما يحمدك فيه الاولون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق تسأل فتعطى وتشفع فتشفع ليس أحد الا تحت لوائك وعن حذيفة رضى الله عنه يجمع الناس فى صعيد واحد فلا تتكلم نفس فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس اليك والمهدى من هديت وعبدك بين يديك وبك والبك لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت (وقل رب أدخلنى) أى القبر (مدخل صدق) أى ادخالا مرضيا (وأخرجنى) أى منه عند البعث (مخرج صدق) أى اخراجا

تنبيه على كونه قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات منزها عن النقائص والآفات يجازى المحسنين على طاعتهم ويعاقب العصاة على عصيانهم وفيه نهاية الزجر والردع للعصاة وتهييج لتقوية القلب للطيبين ويحتمل أيضا أنه لما بين فساد طريق المشركين من قوله ويوم يناديهم فيقول أين شركائى ختم الكلام فى ذلك باظهار هذا التوحيد وبيان ان الحمد والثناء لا يليق الا به أما قوله له الحمد فى الاولى والآخرة فهو ظاهر على قولنا لان الثواب غير واجب عليه بل هو سبحانه ومعطيه فضلا واحسانا فله الحمد فى الاولى والآخرة ويؤكد ذلك قول أهل الجنة الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن الحمد لله الذى صدقنا وعده وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين أما المعتزلة فعندهم الثواب مستحق فلا يستحق الحمد بفعله من أهل الجنة وأما أهل النار فما أنعم عليهم حتى يستحق الحمد منهم قال القاضى انه يستحق الحمد والشكر من أهل النار ايصالا لما فعله بهم فى الدنيا من التمكين والتيسير والالطاف وسائر النعم لانهم بأسباب تهم لا يخرج ما أنعم الله عليهم من أن يوجب الشكر وهذا ضعيف نظرا لان أهل الآخرة مضطرون الى معرفة الحق فاذا علموا بالضرورة أن التوبة عن القبائح يجب على الله قبولها وعلموا بالضرورة أن الاشتغال بالشكر الواجب عليهم يوجب على الله الثواب وهم قادرون على ذلك وعالمون بأن ذلك مما يخلصهم عن العذاب ويدخلهم فى استحقاق الثواب أفترى أن الانسان مع العلم بذلك والقدرة عليه يترك هذه التوبة كلا بل لابد أن يتوبوا وأن يشتغلوا بالشكر وحتى فعلوا ذلك فقد بطل العقاب أما قوله وله الحكم فهو اما فى الدنيا أو فى الآخرة فاما فى الدنيا فحكم كل أحد سواه انما نفذ بحكمه فلولا حكمه لما نفذ حكم العبد على العبد حكم سيده ولا على الزوجة حكم زوجها ولا على الابن حكم أبيه ولا على الرعية حكم سلطانهم ولا على الامة حكم الرسول فهو الحاكم فى الحقيقة وأما فى الآخرة فلا شك أنه هو الحاكم لانه الذى يتولى الحكم بين العباد فى الآخرة فينتصف للمظلومين من الظالمين أما قوله واليه ترجعون فالمعنى والى محل حكمه وقضائه ترجعون فان كلهم الى لا نتهاء الغاية وهو تعالى منزه عن المكان والجهة ﴿ قوله تعالى ﴾ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من الله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من الله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ اعلم أنه تعالى لما بين من قبل استحقاقه للحمد على وجه الاجمال بقوله وهو الله لا اله الا هو له الحمد فى الاولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون فصل عقيب ذلك بعض ما يجب أن يحمد عليه مما لا يقدر عليه سواه فقال لرسوله قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة فنبه على أن الوجه فى كون الليل والنهار زمانين يتعاقبان على الزمان لان المرء فى الدنيا وفى حال التكليف مدفوع الى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج اليه ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ولاجل يحصل الاجتماع فيمكن المعاملات وصح علوم أن ذلك لا يتم لولا الراحة والسكون بالليل فلابد منهما والحال هذه فاما فى الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجة بهم الى الليل فلذلك يدوم لهم الضياء وللذات فبين تعالى أنه لا قادر على ذلك الا الله تعالى ولما قال أفلا تسمعون أفلا تبصرون لان الغرض من ذلك الانتفاع بما يسمعون ويبصرون من جهة التدبر فلما لم يتفكروا نزلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر قال الكلبى قوله أفلا تسمعون معناه أفلا تطيعون من يفعل ذلك وقوله أفلا تبصرون معناه أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطإ والضلال قال صاحب الكشاف السرمد الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة ومنه قولهم فى الاشهر الحرم ثلاثة سرد وواحد فرد فان قيل هلا قال بنهار تتصرفون فيه كما قيل بليل تسكنون فيه قلنا ذكر الضياء وهو

مرضيا ملائقا بالكرامة فهو لتعيين الدعاء بما وعد من البعث المقرون بالاقامة المعهودة التى لا كرامة فوقها وقيل المراد ادخال المدينة والاخراج من مكة وتغيير ترتيب الوجود لكون الادخال هو المقصود وقيل ادخالا علمه السلام مكة ظاهرا عليهم واخراجهم منها آمنا من المشركين وقيل ادخاله الغار واخراجه منه سالما وقيل ادخل فيما حملته من أعباء الرسالة واخرجنى منه مؤديا حقه وقيل ادخالا فى كل

مايلابسه من مكان أو أمر واخراجه منه وقرئ مدخل ومخرج بالفتح على معنى أدخلني فأدخل دخولا وأخرجني فأخرج خروجا كقوله
وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع * من المال الا مسحت أو مجلف أى لم تدع فلم يبق (واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) حجة
تنصرنى على من يحالفنى أو ٤٩٢ ملكا وعزا ناصرا للاسلام مظهرا له على الكفر فأجيبت دعوته عليه السلام بقوله عز وعلا والله

يعصمك من الناس الا
ان حزب الله هم الغالبون
ليظهره على الدين كله
ليستخلفنهم فى الارض
(وقل جاء الحق) أى
الاسلام والوحى الثابت
الراسخ (وزهق الباطل)
أى ذهب وهلك الشرك
والكفر وتسويلات
الشيطان من زهق
روحه اذا خرج (ان
الباطل) كائنا ما كان
(كان زهوقا) أى شأنه
أن يكون مضمحلا غير
ثابت وهو عدة كريمة
باجابة الدعاء بالسلطان
النصير الذى لقنه
عن ابن مسعود رضى
الله عنه انه عليه السلام
دخل مكة يوم الفتح
وحول البيت ثلثمائة
وستون صنما فجعل
ينكت بمخصرة كانت
بيده فى عين واحد واحد
ويقول جاء الحق وزهق
الباطل فينكب لوجهه
حتى ألقى جميعها وبقى
صنم خزاعة فوق
الكعبة وكان من صفر
فقال ياعلى أرم به فصعد
فرمى به فكسره (وننزل
من القرآن) وقرئ
نزل من الانزال (ما هو
شفاء) لما فى الصدور من أدواء الريب واسقام الاوهام (ورحمة للمؤمنين) به العاملين بما فى تضاعيفه أى ما هو
نفسه

ضوء الشمس لان المنافع التى تتعلق به متكاثرة ليس التصرف فى المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة
واعلقرن يا نساء أفلا تسمعون لان السمع يدرك مالا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده وقرن
بالليل أفلا تبصرون لان غير يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه ومن رحمته
زاوج بين الليل والنهار لاغراض ثلاثة تسكنوا فى أحدهما وهو الليل ولتبتغوا من فضله فى الآخر وهو
النهار ولداء الشكر على النعمتين معا واعلم أنه وان كان السكون فى النهار ممكنا وابتغاء فضل الله بالليل ممكنا
الا أن الأليق بكل واحد منهما ماذكره الله تعالى به فلهذا خصه به ﴿ قوله تعالى ﴾ ويوم ينادى هم فيقول
أين شركائى الذين كنتم تزعمون ونزعنا من كل أمة شهيدا قلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم
ما كانوا يفترون ﴿ اعلم أنه سبحانه لما ختم ذكر طريقة المشركين أولا ثم ذكر التوحيد ردلا ثانيا عاد الى
تحسين طريقتهم مرة أخرى وشرح حالهم فى الآخرة فقال ويوم ينادى هم أى فى القيامة فيقول أين
شركائى الذين كنتم تزعمون والمعنى أين الذين ادعيتم الهيتهم لتنفعكم أو أين قولكم تقربنا الى الله زلفى
وقد علموا أن لا اله الا الله فيكون ذلك زائدا فى غمهم اذا خوطبوا بهذا القول أما قوله تعالى ونزعنا من كل
أمة شهيدا فالمراد ميز واحد الشهيد عليهم ثم قال بعضهم هم الانبياء يشهدون بأنهم بلغوا القوم الدلائل
وبالغوا فى ايضاحها كل غاية ليعلم أن التقصير منهم فيكون ذلك زائدا فى غمهم وقال آخرون بل هم الشهداء
الذين يشهدون على الناس فى كل زمان ويدخل فى جملتهم الانبياء وهذا أقرب لانه تعالى عم كل أمة وكل
جماعة أن ينزع منهم الشهيد فيدخل فيه الاحوال التى لم يوجد فيها النبى وهى أزمنة الفترات والازمنة
التى حصلت بعد محمد صلى الله عليه وسلم فعلموا حينئذ أن الحق لله ولرسله وضل عنهم غاب عنهم غيبة
الشئ الضائع ما كانوا يفترون من الباطل والكذب ﴿ قوله تعالى ﴾ ان قارون كان من قوم موسى فبغى
عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب
الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا
تبغ الفساد فى الارض ان الله لا يحب المفسدين قال انما أوتيته على علم عندى أولم يعلم أن الله قد أهلك من
قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون ﴿ اعلم أن نص القرآن يدل
على أن قارون كان من قوم موسى عليه السلام وظاهر ذلك يدل على أنه كان من قد آمن به ولا يبعد أيضا
حمله على القرابة قال الكلبى انه كان ابن عم موسى عليه السلام لانه كان قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى
وموسى بن عمران بن قاهث بن لاوى وقال محمد بن اسحق انه كان عم موسى عليه السلام لان موسى ابن
عمران بن يصهر بن قاهث وقارون ابن يصهر بن قاهث وعن ابن عباس انه كان ابن خالته ثم قيل انه كان
يسمى المنور لحسن صورته وكان اقرأ بنى اسرائيل للتوراة الا أنه نافق كما نافق السامرى أما قوله فبغى عليهم
ففيه وجوه (أحدها) انه بغى بسبب ماله وتعنيه أنه استخف بالفقراء ولم يرع لهم حق الايمان ولا عظمهم مع
كثرة أموالهم (والثانى) انه من الظلم قيل ما ملكه فرعون على بنى اسرائيل فظلمهم (الثالث) قال القفال بغى
عليهم أى طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده (الرابع) قال الضحاك طغى عليهم واستطال عليهم فلم
يوافقهم فى أمر (الخامس) قال ابن عباس تجبر وتكبر عليهم وسخط عليهم (السادس) قال شهر بن حوشب
بغيه عليهم انه زاد عليهم فى الثياب شبرا وهذا يعود الى التكبر (السابع) قال الكلبى بغيه عليهم انه حسد
هرون على الحبورة * يروى ان موسى عليه السلام لما قطع البحر وأغرق الله تعالى فرعون جعل الحبورة لهرون
فحسدته النبوة والحبورة وكان صاحب القربان والمذبح وكان لموسى الرسالة فوجد قارون من ذلك فى
نفسه

فى قلوبهم ونور لصدورهم كالدواء الشافى للمرضى ومن بيانية قدمت على المبين اعتناء فان كل القرآن كذلك وعن النبى عليه
السلام من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله أو تبعيضية لكن لا بعضى ان بعضه ليس كذلك بل بمعنى انا نزل منه فى كل نوبة ما تستدعى

الحكمة نزوله حينئذ فيقع ذلك ممن نزل عليهم بسببه وافقته لاحوالهم الداعية الى نزوله موقع الدواء الشافي المصادف لا بأنه من المرضى المحتاجين اليه بحسب المال من غير تقديم ولا تأخير فكل بعض منه متصف بالشفاء لكن لا في كل حين بل عند تنزيله وتحقيق التبعيض باعتبار الشفاء الجسماني كما في الفاتحة وآيات أشفاء لايساعده قوله سبحانه ٤٩٣ (ولا يزيد الظالمين الا خسارا)

أي لا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الكافرين المكذبين الواضعين للاشياء في غير مواضعها مع كونه في نفسه شفاء من الاسقام الاخسارا أي هلاكا بكفرهم وتكذيبهم لانتفاعا بكل قبيل فان ما بهم من داء الكفر والضلال حقيق بان يعبر عنه بالهلاك لا بالنقصان المنبئ عن حصول بعض مبادي الاسقام فيهم وزيادتهم في مراتب الهلاك من حيث انهم كلما جددوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة تدريجا ازدادوا بذلك هلاكا وفيه ايماء الى أن ما بالمؤمنين من الشبه والشكوك المعتريه لهم في أثناء الاهتداء والاسترشاد بمنزلة الامراض وما بالكفرة من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك واسناد الزيادة المذكوره الى القرآن مع انهم هم المزدادون في ذلك بسوء صنعهم باعتبار كونه سببا لذلك وفيه تعجيب من أمره حيث يكون مدارا للشفاء والهلاك (واذا

نفسه فقال يا موسى لك الرسالة ولهرون الحبورة واسكت في تيه ولا أصبر انا على هذا فقال موسى عليه السلام والله ما صنعت ذلك لهرون ولكن الله سبحانه فعال والله لا أصدقك أبدا حتى تأتيني بآية أعرف بها أن الله جعل ذلك لهرون قال فأمر موسى عليه السلام رؤساء بني اسرائيل أن يجيء كل رجل منهم بعصاه فجاؤا بها فألقاها موسى عليه السلام في قبته وكان ذلك بأمر الله تعالى فدعا ربه أن يريهم بيان ذلك فباتوا يحرسون عصيهم فأصبحت عصا هرون تهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى يا قارون أما ترى ما صنع الله لهرون فقال والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر فاعتزل قارون ومعه ناس كثير وولي هرون الحبورة والمذبح والقربان فكان بنو اسرائيل يأتون بهداياهم الى هرون فيضعها في المذبح وتنزل النار من السماء فتأكلها فاعتزل قارون باتباعه وكان كثير المال واتبع من بني اسرائيل فكان يأتي موسى عليه السلام ولا يجالسه وروى أبو امامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كان قارون من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى * أما قوله وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ففيه بحثان (الاول) قال الكعبي ألستم تقولون ان الله لا يعطي الحرام فكيف أضاف الله مال قارون الى نفسه بقوله وآتيناه وأجاب بأنه لا حجة في أنه كان حراما وجوز أن من تقدمه من الملوك جمعوا وتركوا كنزا وافظفر قارون بذلك وكان هذا الظفر طريق التملك أو وصل اليه بالارث من جهات ثم بالتكسب من جهة المضاربات وغيرها وكان المال محتملا (البحث الثاني) المفاتح جمع مفتح بكسر الميم وهو ما يفتح به وقيل هي الخزائن وقياس واحدها مفتح بفتح الميم ويقال ناء به الحمل اذا أثقله حتى أماله والعصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها والعشرة عصبة بدليل قوله تعالى في اخوة يوسف عليه السلام ونحن عصبة وكانوا عشرة لان يوسف وأخاه لم يكونا معهم اذا عرفت معنى الالفاظ فنقول ههنا قولان (أحدهما) ان المراد بالمفاتح المفاتيح وهي التي يفتح بها الباب قالوا كانت مفاتيحه من جلود الابل وكل مفتاح مثل اصبع وكان لكل خزانة مفتاح وكان اذا ركب قارون حملت المفاتيح على ستين بغلا ومن الناس من طعن في هذا القول من وجهين (الاول) ان مال الرجل الواحد لا يبلغ هذا المبلغ ولو انا قدرنا المدة تملوا من الذهب والجواهر ما يكفاها أعداد قليلة من المفاتيح فأي حاجة الى تكثير هذه المفاتيح (الثاني) أن الكنوز هي الاموال المدخرة في الارض فلا يجوز أن يكون لها مفاتيح * والجواب عن الاول ان المال اذا كان من جنس العروض لا من جنس النقد جاز أن يبلغ في الكثرة الى هذا الحد وأضف اليه الذي يقال ان تلك المفاتيح بلغت ستين حملا ليس مذكورا في القرآن فلا تقبل هذه الرواية وتفسير القرآن أن تلك المفاتيح كانت كثيرة وكان كل واحد منها معينا الشيء آخر فكان يثقل على العصبة ضبطها ومعرفتها بسبب كثرتها وعلى هذا الوجه يزول الاستبعاد * وعن الثاني أن ظاهر الكنوز وان كان من جهة العرف ما تقدم يقع على المال المجموع في المواضع التي عليها أغلاق (القول الثاني) وهو اختيار ابن عباس والحسن أن تحمل المفاتح على نفس المال وهذا أيضا وعن الشعبي أنه قال ابن عباس كانت خزائنه يحملها أربعون رجلا أقوياء وكانت خزائنه أربعمائة ألف فيحمل كل رجل عشرة آلاف (القول الثالث) وهو اختيار أبي مسلم أن المراد من المفاتح العلم والاحاطة كقوله وعنده مفاتح الغيب والمراد اتيانه من الكنوز ما ان حفظها والاطلاع عليها الثقل على العصبة أولي القوة والهداية أي هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها تتعب حفظتها والقائمين عليها أن يحفظوها ثم انه تعالى بين أنه كان في قومه من وعظه بأمور (أحدها) قوله لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين والمراد أن لا يلهيه عن أمر الآخرة فصلا وقال

أنعمنا على الانسان) بالصحة والنعمة (أعرض) عن ذكرنا فضلا عن القيام بموجب الشكر (ونأى) بناءه عن طاعتنا (بجانبه) النأي بالجانب أن يلوي عن الشيء عطفه ويوليه عرض وجهه فهو تأكيد للاعراض أو عبارة عن الاستكبار لانه من دين المستكبرين (واذا مسه الشر) من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل وفي اسناد المساس الى الشر بعد اسناد الانعام الى ضمير الجلالة ايذان بان الخير مراد

بالذات والشرايس كذلك (كان يؤسا) شديد اليأس من روحها هذا وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة ولا ينافيه قوله تعالى واذا مسه الشر فذو دعاء عريض ونظائره فان ذلك شأن بعض آخرين منهم وقيل أريد به الوليد بن المغيرة وقرئ ئاءا ما على القلب كما يقال راء في رأى ٤٩٤ واما على انه بمعنى نهض (قل كل) أى كل أحد منكم ومن هو على خلافكم (يعمل) عمله (على شاكلته) طريقته التى تشاكل حاله في الهدى والضلالة أو وجوه برره وأحواله التابعة لمزاج بدنه (فربكم) الذى يراكم على هذه الطبائع المختلفة (أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أى أسد طريقا وأبين منها جاوقد فسرت الشاكلة بالطبيعة والعادة والدين (ويسألونك عن الروح) الظاهر ان السؤال كان عن حقيقة الروح الذى هو مدبر البدن الانسانى ومبدأ حياته روى أن اليهود قالوا لقريش سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فان أجاب عنها جميعا أو سكت فليس بنبى وان أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى فيبين لهم الفصلين وأيهم أمر الروح وهو بينهم فى التوراة (قل الروح) أظهر فى مقام الاضمار اظهارا لكمال الاعتناء بشأنه (من أمر ربى) كلمة من بيانية والامر بمعنى الشأن والاضافة للاختصاص العلمى لا الايجادى لاشتراك الكل فيه وفيما من تشريف المضاف مالا يخفى كما فى الاضافة الثانية من تشريف المضاف اليه أى هو من جنس ما استأثر الله به علمه من الامور الخفية التى لا يكاد يحوم حولها عقول البشر (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) لا يمكن تعلقه أصلا لذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب قال عليه الصلاة والسلام بل نحن وأنتم فقالوا ما الأمر عجب شأنك

نعم منهم انه لا يفرح بالدنيا الا من رضى بها واطمأن اليها فاما من يعلم انه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح بها وما أحسن ما قال المتنبى

أشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

وأحسن وأوجز منه ما قال تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم قال ابن عباس كان فرحه ذلك شركا لانه ما كان يخاف معه عقوبة الله تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) والظاهر انه كان مقترنا بالآخرة والمراد أن يصرف المال الى ما يؤدى الى الجنة ويسلك طريقة التواضع (ولا تنس نصيبك من الدنيا) وفيه وجوه (أحدها) لعله كان مستغرق الهم فى طلب الدنيا فلاجل ذلك ما كان يتفرغ للتنعم والانتفاع فنهاه الواعظ عن ذلك (وثانيها) لما أمره الواعظ بصرف المال الى الآخرة بين له بهذا الكلام انه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة (وثالثها) المراد منه الانفاق فى طاعة الله فان ذلك هو نصيب المرء من الدنيا دون الذى يأكل ويشرب قال عليه الصلاة والسلام فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة والنار (ورابعها) قوله وأحسن كما أحسن الله اليك لما أمره بالاحسان بالمال أمره بالاحسان مطلقا ويدخل فيه الاعانة بالمال والجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وحسن الذكر وانما قال كما أحسن الله اليك تنبيها على قوله ولئن شكرتم لأزيدنكم (وخامسها) قوله ولا تبغ الفساد فى الارض والمراد ما كان عليه من الظلم والبغى وقيل ان هذا القائل هرمس وهو نبى عليه السلام وقال آخرون بل هو مؤمن قومه وكيف كان فقد جمع فى هذا الوعظ ما لو قبل لم يكن عليه مزيد لكنه أبى أن يقبل بل زاد عليه بكفر النعمة فقال انما أوتيته على علم عندى وفيه وجوه (أحدها) قال قتادة ومقاتل والكلبى كان قارون اقرأ بنى اسرائيل للتوراة فقال انما أوتيته لفضل علمى واستحقاقى لذلك (وثانيها) قال سعيد بن المسيب والضحاك كان موسى عليه السلام أنزل عليه علم الكيمياء من السماء فعلم قارون ثلث العلم ويوشع ثلثه وكالب ثلثه فخدع موسى قارون حتى أضاف علمه الى علمه فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضة والنحاس فيجعله ذهبا (وثالثها) أراد به علمه بوجوه المكاسب والتجارات (ورابعها) أن يكون قوله انما أوتيته على علم عندى أى الله أعطانى ذلك مع كونه عالما بى وبأحوالى فلو لم يكن ذلك مصلحة لما فعل وقوله عندى أى عندى أن الامر كذلك كما يقول المفتى عندى ان الامر كذلك أى مذهبى واعتقادى ذلك * ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا وفيه وجوه (الاول) يجوز أن يكون هذا ثابتا بالعلم بأن الله تعالى قد أهلك قبله من القرون من هو أقوى منه وأغنى لانه قد قرأ فى التوراة وأخبر به موسى عليه السلام وجمعه من حفاظ التواريخ كانه قيل له أولم يعلم فى جملة ما عنده من العلم عندك حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته (الثانى) يجوز أن يكون نفيا للعلم بذلك كأنه لما قال أوتيته على علم عندى تضعف بالعلو وتعظم بما قبل أعنده من ذلك العلم الذى ادعاه ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين * أما قوله وأكثر جمعا فالمعنى أكثر جمعا للمال أو أكثر جماعة وعددا وحاصل الجواب أن اغتراره بماله وقوته وجموعه من الخطأ العظيم والله تعالى اذا أراد اهلاك لم ينفعه ذلك ولا مانع يدفعه اضافا فاما قوله ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون فالمراد ان الله تعالى اذا عاقب المجرمين فلا حاجة به الى أن يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكيتها لانه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة به الى السؤال فان قيل كيف الجمع بينه وبين قوله فوربك

ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وساعة تقول هذا فتزلت ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام الآية وانما قالوا ذلك لركاكة عقولهم فان الحكمة الانسانية أن يعلم من الخير ما تسعه الطاقة البشرية بل ما يحيط به المعاش والمعاد وذلك بالاضافة الى ما لا نهاية له من معلوماته سبحانه قليل بل لا يحيط بخير كثير في نفسه أو بالنسبة الى الانسان أو هو

أنسأ لهم أجمعين قلنا يحمل ذلك على وقتين على ما قررناه وذكر أبو مسلم وجها آخر فقال السؤال قد يكون للعناد وقد يكون للتقرير والتكميت وقد يكون للاستعتاب وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب لقوله ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿قوله تعالى﴾ فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحيوة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴿أما قوله فخرج على قومه في زينته فمعلوم على ان خرج بأظهر زينة وأكملها وليس في القرآن ما يحدد القدر الذي خرج به وان الناس ذكروا وجوها مختلفة في كيفية تلك الزينة قال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب معه أربعة آلاف فارس على الخيول وعليهم الثياب الاحمرية ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلي والثياب الحمر على البغال الشهب وقال بعضهم بل خرج في تسعين ألفا هكذا وقال آخرون بل على ثلثمائة والاولى ترك هذه التقديرات لانها مضمار عرضة ثم ان الناس لما رأوه على تلك الزينة قال من كان منهم يرغب في الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون من هذه الامور والاموال والرأي عون محتمل أن يكون رأي الكفار وأن يكون رأي المسلمين الذين يحبون الدنيا وأما العلماء وأهل الدين فقد قالوا للذين تمنوا هذا ويلكم ثواب الله خير من هذه النعم لان الثواب منافع عظيمة ونعالسية عن شوائب المضار ودائمة وهذه النعم العاجلة على النقيض من هذه الصفات الثلاثة قال صاحب الكشاف ويلك أصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى ﴿أما قوله ولا يلقاها الا الصابرون فقال المفسرون لا يوفق لها والضمير يرجع إلى ما والى ما يعود فيه وجهان (أحدهما) الى ما دل عليه قوله امن وعمل صالحا يعني هذه الاعمال لا يؤتاها الا الصابرون (والثاني) قال الزجاج يعني ولا يلقى هذه الكلمة وهي قولهم ثواب الله خير الا الصابرون على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات وعلى الرضا بقضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار ﴿وأما قوله فخسفنا به وبداره الارض ففيه وجهان (أحدهما) أنا بأسنا أشبه وبطر وعتا حسف الله به وبداره الارض جزاء على عتوه وبطره والفاء تدل على ذلك لان الفاء تفسر بالعلية (والثاني) قيل ان قارون كان يؤذي نبي الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما حتى نزلت الزكاة فعد له عن كل ألف دينار على دينار وعن كل الف درهم على درهم فحسبت نفسه فاستكثره فجمع بني اسرائيل وقال انه موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا أنت سيدنا وكبيرنا فمرنا بما شئت قال نعرطل فلانة البغي حتى تشهد على نفسها بما قرفته فجعل لها طشت من ذهب مملوء دراهم فلما كان يوم عيد قام موسى فقال يا بني اسرائيل من سرق قطعنا يده ومن زنى وهو غير محصن رجمناه وان أحصن رجمناه فقال قارون وان كنت أنت قال وان كنت أنا قال فان بني اسرائيل يقولون انك فجرت بفلانة فجيء بها فناشدها موسى بالله الذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتدارأوا فقالت كذبوا بل جعل لي قارون جعلا على أن أقذفك بنفسي فخر موسى ساجدا يبكي وقال يا رب ان كنت رسولك فاغضب لي فأوحى الله عز وجل اليه أن مر الارض بما شئت فانها مطيعة لك فقال يا بني اسرائيل ان الله بعثني الى قارون كما بعثني الى فرعون فمن كان معه فلم يزل مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم الى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاوساط ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاعناق وقارون وأصحابه يتضرعون الى موسى عليه السلام ويناشدونه بالله والرحم وموسى لا يلتفت اليهم لشدة غضبه ثم قال خذيهم فتابعت الارض عليهم

التكويني من غير تحصل من مادة وتولد من أصل كالاعضاء الجسدية حتى يمكن تعريفه ببعض مباديه وما له انه من عالم الامر لا من عالم الخلق وليس هذا من قبيل قوله سبحانه انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون فان ذلك عبارة عن سرعة التكوين سواء كان الكائن من عالم الامر أو من عالم الخلق وفيه تنبيه على انه مما لا يحيط بكنهه دائرة ادراك البشر وانما الممكن هذا القدر الاجمالي المندرج تحت ما استثنى بقوله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا أي الا علما قليلا تستطيعونه من طرق الحواس فان تعلق المعارف النظرية انما هو من احساس الجزئيات ولذلك قيل من فقد حسا فقد فقد علما ولعل أكثر الاشياء لا يدركه الحس ولا شيأ من أحواله التي يدور عليها معرفة ذاته وأما حمل ما ذكر على السؤال عن قدمه وحدوثه وجعل الجواب اخبارا

بحدوثه أي كائن يتكون به حادث باحداثه بالامر التكويني لم يعدم ولا يعدمه مثل السائلين لا يساعده التعرض لبيان قلة علمهم فان ما سألوا عنه مما فيه علمهم حينئذ وقد أخبر عنه وقيل المراد بالروح خلق عظيم روحاني أعظم من الملك وقيل جبريل عليه السلام وقيل القرآن ومعنى من أمر ربي من وحيه وكلامه لا من كلام البشر (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك) من القرآن الذي هو

شفاء ورحمة للؤمنين ومنبع للعلوم التي أودعتموها وثبتناك عليه حين كدت ترکن اليهم شيأ قليلا وانما عبر عنه بالوصول تفخيما لشأنه ووصفه بما في سياق الصلة للدلالة على أن أول الامر وبأنه ليس من قبيل كلام المخلوق والملائ موطئة للقسم والذمين جوابه النائب ٤٩٦ مناب جزاء الشرط وذلك حسن حذف مفعول المشيئة والمراد من الذهاب به

المحو من المصاحف والصدور وهو أبلغ من الاذهاب عن ابن مسعود رضي الله عنه ان أول ما تفقدون من دينكم الامانة وآخر ما تفقدون الصلاة وليصلين قوم ولا دين لهم وان هذا القرآن تصبحون يوما وما فيكم منه شيء فقال رجل كيف ذلك وقد أثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا فعلمنا أنها وبعلمه أبناؤنا أبناءهم فقال يسري عليه ليلا فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف وينتزع ما في القلوب (ثم لا تجد لك به) أي بالقرآن (علينا وكيلا) من يتركل علينا لاسترداده مسطورا محفوظا (الا رحمة من ربك) فانها ان تالك لعلها تسترده عليك ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا بمعنى ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به فيكون امتنانا بابقائه بعد المنة بتيسير حفظه وترغيبا في المحافظة على أداء حقوقه وتحذيرا من أن لا يقدر قدره الجليل ويفرط في القيام بشكره وهو أجل النعم وأعظمها (ان فضله كان عليك كبيرا) كار سالك وانزال الكتاب عليك وابقائه في حفظك وغير ذلك

فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ما أفظك استغاثوا بك مرارا فلم ترحمهم اما وعزتي لو دعوني مرة واحدة لوجدوني قريبا مجيبا فأصبحت بنو اسرائيل يتباحثون بينهم اغماد عامة موسى على قارون ليستبدادره وكنوزه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله ثم ان قارون يخسف به كل يوم مائة قامة قال القاضي اذا هلك بالخسف فسواء نزل عن ظاهر الارض الى الارض السابعة أو دون ذلك فانه لا يمتنع مما روى على وجه المبالغة في الزجر واما قوله تعالى قال لو استقالني لاغثته فان صح حمل على استغاثة مقرونة بالتوبة فأما وهو ثابت على ما هو عليه مع انه تعالى هو الذي حكم بذلك الخسف لان موسى عليه السلام ما فعله الا عن أمره فبعيد وقولهم انه يتحلل في الارض أبدا فبعيد لانه لا بد له من نهاية وكذا القول فيما ذكر من عدد القامات والذي عندي في أمثال هذه الحكايات انها قليلة الفائدة لانها من باب أخبار الآحاد فلا تفيد اليقين وليست المسئلة مسئلة عملية حتى يكتفى فيها بالظن ثم انها في أكثر الامر معتارضة معتضة طرية فالاولى طرحها والا كتفاء بما دل عليه نص القرآن وتفويض سائر التفاصيل الى عالم الغيب اما قوله وما كان من المنتصرين فالمراد من المتقدمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب الله تعالى يقال نصره من عدوه فانتصر أي منعه منه فامتنع ﴿قوله تعالى﴾ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴿اعلم أن القوم الذين شاهدوا قارون في زينته لما شاهدوا وانزل به من الخسف صار ذلك زاجرا لهم عن حب الدنيا ومحالفة موسى عليه السلام وداعيا الى الرضا بقضاء الله تعالى وقسمته والى اظهار الطاعة والانقياد لانبياء الله ورسله اما قوله ويكأن الله فاعلم ان روى كلمة مفصولة عن كأن وهي كلمة مستعملة عند التنبيه للخطأ واظهار الندم فلما قالوا بالامس ما أوتي قارون ثم شاهدوا الخسف تنبهوا للخطأ فيما رأوا ثم قالوا ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده بحسب مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه ويضيق على من يشاء لا لهوانه من يضيق عليه بل لحكمته وقضائه ابتلاء وفتنة قال سيبويه سألت الخليل عن هذا الحرف فقال ان روى مفصولة من كأن وان القوم تنبهوا وقالوا معتمدين على ما سلف منهم وي وذكر الفراء وجهين (أحدهما) ان المعنى ويلك فحذف اللام وانما جاز هذا الحذف لكثرتها في الكلام وحمل أن مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال ويلك اعلم أن الله يبسط الرزق (وهذا قول قطرب حكاه عن يونس (والثاني) وي منفصلة من كأن وهو للتعجب يقول الرجل لغيره وي أما ترى ما بين يديك فقال الله وي ثم استأنف كأن الله يبسط فالله تعالى انما ذكرها تعجبا لطلقه قال الواحدي وهذا وجه مستقيم غير أن العرب لم تكتبها منفصلة ولو كان على ما قالوه لكتبوها منفصلة وأجاب الاولون بان خط المصحف لا يؤنس عليه ثم قالوا ولولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون وهذا تأكيد لما قبله أما قوله تلك الدار الآخرة فتعظيم لها وتفخيم لشأنها يعني تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها ولم يعاق الوعد بترك الغلو والفساد ولكن بشرائط اراد تفهيمها وصيل القلب اليها وعن علي عليه السلام ان الرجل ليحبب أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها قال صاحب الكشاف ومن الطماع من يجعل النعلوا فرعون لقوله ان فرعون عال في الارض والفساد لقارون لقوله ولا تبغ الفساد في الارض ويقول من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ولا يتدبر قوله والعاقبة للمتقين كما تدبره علي بن أبي طالب عليه السلام ﴿قوله تعالى﴾ من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد

قل

(قل) للذين لا يعرفون جلالة قدرك تنزيلا ولا يفهمون خامة شأنك الجليل بل يزعمون أنه من كلام البشر (لئن اجتمعت الانس والجن) أي اتفقوا (على أن يأتوا بمثل هذا القرآن) المعهود بما تدركه العقول من النعوت الجليلة في البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى

وخصص المتقلين بالذكر لانكرتهم من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما قادر على المعارضة (لا يأتون بمثله) أو ثر الاظهار على ايراد الضمير الراجع الى المثل المذكور استقرارا على أن يتوهم أن له مثلا لمعنا وابدا بأن المراد نفي الاتيان بمثل ما أتى لا يأتون بكلام مماثل له فيما ذكر من الصفات الذميمة وفيهم الزيف العارية ٤٩٧ آراب القراءة والبيان وهو جواب للقسم الذي يدل عليه اللام المرطئة وساد مسد جزاء الشرط ولولاها لكان جوابا له بغير جزم لكون الشرط ماضيا كما في قول زهير

وان أتاه خليل يوم مسئلة ... يقول لا غائب مالي ولا حرم

وحيث كان المراد بالاجتماع على الاتيان بمثل القرآن مطلق الاتفاق على ذلك سواء كان التصدي للمعارضة من كل واحد منهم على الانفراد أو من المجموع بأن يتألبوا على تأليف كلام واحد يتلاحق الافكار وتعاضد الانظار قيل (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) أي في تحقيق ما يتوخونه من الاتيان بمثله وهو عطف على مقدر أي لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيرا لبعض ولو كان الخ وقد حذف المعطوف عليه حذفا مطردا لدلالة المعطوف عليه دلالة واضحة فان الاتيان بمثله حيث انتفى عند التظاهر فلأن ينتفي عند عدمه أولى وعلى هذا التكلة يدور ما قيل ان ولو الوصلية بين من التأكيد كما مر غير مرة

قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ أنزلت اليك وادع الى ربك ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله الها آخر لا اله الا هو كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون قل اعلم الله تعالى لما بين ان الدار الآخرة ليست لمن يريد علوا في الارض ولا فسادا بل هي للمتقين بين بعد ذلك ما يحصل لهم فقال من جاء بالحسنة فله خير منها وفيه وجوه (أحدها) المعنى من جاء بالحسنة فحصل له من تلك الكلمة خير (وثانيها) حصل له شيء هو أفضل من تلك الحسنة ومعناه أنهم يزادون على ثوابهم وقد مر تفسيره في آخر النمل وأما قوله ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون فظاهره أن لا يزاد واعلى ما يستحقون وذا صريح ذلك في السيئات دل على أن المراد في الحسنات بما هو خير منها ما ذكرناه من تزايد الفضل على الثواب قال صاحب الكشاف تقدير الآية ومن جاء بالسيئة فلا يجزون الا ما كانوا يعملون لكنه كرر ذلك لان في اسناد عمل السيئة اليهم مكررا فضل تهجين لحالهم وزيادة تبغيض للسيئة الى قلوب السامعين وهذا من فضله العظيم أنه لا يجزي بالسيئة الا مثلها ويجزي بالحسنة عشر أمثالها وههنا سؤالان (السؤال الاول) قال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها كرر ذلك الاحسان واكتفى بذكر الاساءة مرة واحدة وفي هذه الآية كرر ذكر الاساءة مرتين واتفق في ذكر الاحسان مرة واحدة فما السبب (الجواب) لان هذا المقام مقام الترغيب في الدار الآخرة فكانت المبالغة في الزجر عن المعصية لائقة بهذا الباب لان المبالغة في الزجر عن المعصية مبالغة في الدعوة الى الآخرة وأما الآية الاخرى فهي شرح حالهم فكانت المبالغة في ذكر محاسنهم أولى (السؤال الثاني) كيف قال لا تجزى السيئة الا مثلها مع أن المتكلم بكلمة الكفر اذا مات في الحال عذب أبد الآباد (والجواب) لانه كان على عزم انه لو عاش أبد الآباد لكفر فهو على مقتضى عزمه قال الجبائي وهذا يدل على بطلان مذهب من يجوز على الله تعالى أن يعذب الاطفال عذابا دائما لغير جرم منهم قلنا لا يجوز أن يفعله وليس في الآية ما يدل عليه ثم انه سبحانه لما شرح لرسوله أمر القيامة وأسسه قفى في ذلك شرح له ما يتصل بأحواله فقال ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قال أبو علي الذي فرض عليك أحكامه وفرائضه لرادك بعد الموت الى معاد وتذكير المعاد لتعظيمه كأنه قال الى معاد وأي معاد أي ليس لغيرك من البشر مثله وقيل المراد به مكة ووجه أن يراد به اليوم الفتح ووجه تذكير أنها كانت في ذلك اليوم معادا له شأن عظيم لاستيلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهلها وقهره لاهلها واظهاره عز الاسلام وذلال حزب الكفر والشرك بمكة فكان الله تعالى وعده برجوعه بكلاءته في أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر منها ويعده الى أن اظاهرا ظافرا وقال مقاتل الله عليه السلام خرج من الغار وسار في غير الطريق مخافة الطلب فلما أمن رجع الى الطريق ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة فعرف الطريق الى مكة واشتاق اليها وذكر مولده ومولد أبيه فنزل جبريل عليه السلام وقال تشتاق الى بلدك ومولدك فقال عليه السلام نعم فقال جبريل عليه السلام فان الله تعالى يقول ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد يعني الى مكة ظاهرا على عدوها أقرب لان ظاهر المعاد انه كان قبله وفارقه وحصل الخوف وذلك لا يليق الا بمكة وان كان سائر الوجوه محتملا لكن ذلك أقرب قال أهل التحقيق وهذا أحد ما يدل على نبوته لانه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر فيكون معجزا ثم قال قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين ووجه تعلقه بما قبله ان الله تعالى لما وعد رسوله الرد الى معاد قال قل للمشركين ربي أعلم من جاء بالهدى يعني نفسه وما

(٦٣ - فخر - س) وعمله النصب على الحالية حسبما عطف عليه أي لا يأتون بمثله على كل حال مفروض ولو في هذه الحال المنافية لعدم الاتيان به فضلا عن غيرها وفيه حسم لاطماعهم الفارغة في روم تبديل بعض آياته ببعض ولا مساغ لكون الآية تقريرا لما قبلها من قوله تعالى ثم لا تجدوا به علينا وكيلا كما قيل لكن لا لما قيل من أن الاتيان بمثله أصعب من استرداد عينه ونفي الشيء انما

يشرده تفي مادونه لانفي مافوقه فان أصعبية الاسترداد بغير أمره تعالى من الاتيان بمثله مما لاشبهة فيه بل لان اجلة التسمية ليست مسوقة الى النبي صلى الله عليه وسلم بل الى المكابرين من قبله عليه السلام (ولقد صرفنا) كررنا ورددنا على أنحاء مختلفة توجب زيادة تقرير وبيان وبكاد تسوح واطمئنان ٤٩٨ (للناس في هذا القرآن) المتموت ماذكر من النعوت الفاضلة (من كل مثل) من

يستحقه من الثواب في المعاد والاعزاز بالاعادة الى مكة ومن هو في ضلال مبين بعنهم وما يستحقون من العقاب في معادهم ثم قال لرسوله وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك ففي كلمة الا وجهان (أحدهما) انها للاستثناء ثم قال صاحب الكشاف هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل وما ألقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك ويمكن أيضا اجراؤه على ظاهره أي وما كنت ترجو الا أن يرحمك الله برحمة فتلقى عليك ذلك أي ما كنت ترجو الا على هذا (والوجه الثاني) ان الا بمعنى لكن للاستدراك أي ولكن رحمة من ربك ألقى اليك وتقديره قوله وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك خصصناك به ثم انه كفاه بأمور (أحدها) كفاه بأن لا يكون مظاهرا للكافرة قال قلا تكونن ظهيرا للكافرين (وثانيها) ان قال ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ أنزلت اليك المبل الى المشركين قال الضحاك وذلك حين دعوه الى دين آبائه لترجو وبقاسموه مشطر مامالهم أي لا تلتفت الى هؤلاء ولا تركن الى قولهم فيصدوك عن اتباع آيات الله (وثالثها) قوله وادع الى ربك أي الى دين ربك وأراد التشديد في دعاء الكفار والمشركين فلذلك قال ولا تكونن من المشركين لان من رضي بطريقتهم أوما لهم كان منهم (ورابعها) قوله ولا تدع مع الله الها آخر وهذا وان كان واجبا على الكل الا أنه تعالى خاطبه بهذا الخصوص لاجل التعظيم * فان قيل الرسول كان معلوما منه أن لا يفعل شيأ من ذلك البتة فما فائدة هذا النهي * قلنا المراد الخطاب معه ولكن المراد غيره وهو جواز أن يكون المعنى لا تعتمد على غير الله ولا تتخذ غيره وكيلا في أمورك فان من وثق بغير الله تعالى فكأنه لم يكمل طريقه في التوحيد ثم بين أنه لا اله الا هو أي لا نافع ولا ضار ولا معطي ولا مانع الا هو كقوله رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا فلا يجوز اتخاذ الله سواه ثم قال كل شيء هالك الا وجهه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا في قوله كل شيء هالك فمن الناس من فسر الهلاك بالعدم والمعنى ان الله تعالى يعدم كل شيء سواه ومنهم من قال فسر الهلاك باخراجه عن كونه منتفعا بما بالاماتة أو بتفريق الاجزاء وان كانت أجزاؤه باقية فانه يقال هلك الثوب وهلك الطعام ولا يريدون به فناء أجزائه بل خروجه عن كونه منتفعا به ومنهم من قال معنى كون هالكا كونه قابلا للهلاك في ذاته فان كل ما عداه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكن الوجود كان قابلا للعدم فكان قابلا للهلاك فلا جل هذا المعنى صح اطلاق اسم الهلاك نظرا الى هذا الوجه * واعلم أن المتكلمين لما أقاموا الدلالة على أن كل شيء سوى الله تعالى يقبل العدم والهلاك قالوا ثبت ان العالم محدث وكل ما كان محدثا فانه حصلت فيه قابلية للعدم والوجود وكل ما كان كذلك وجب أن يبقى على هذه الحالة أبدا الان الامكان من لوازم الماهية ولازم الماهية لا يزول قط الا أنا لما نظرنا في هذه الدلالة فما وجدنا ها راقية بهذا الغرض لانهم انما أقاموا الدلالة على حدوث الاجسام والاعراض فلو قدروا على اقامة الدلالة على أن ما سوى الله تعالى اما متحيز أو قائم بالمتحيز لتم غرضهم الا أن الجسم بهذه الموجودات لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز فالدليل الذي يبين حدوث المتحيز والقائم بالمتحيز لا يبين حدوث كل ما سوى الله تعالى الا بعد قيام الدلالة على نفي ذلك القسم الثالث ولم نر في نفي هذا القسم الثالث طريقا في هذه الدلالة (أحدهما) قرر لهم الدليل عليه فوجب تلقيه وهذه طريقة ركيكة بينا سقوطها في الكتب الكلامية (والثاني) فولهم لو وجد هو وجود هذا المكان مشاركا لله تعالى في نفي المكان والزمان والامكان ولو كان كذلك لما أمره الله تعالى وهو رضيع لاحتمال أن يقال انهما وان اشتركا في هذا السلب الا أنه يتميز كل واحد منهما عن الآخر بماهية وحقيقة واذا كان كذلك ظهر أن دليلهم العقلي لا يفي باثبات ان كل شيء هالك الا وجهه والذي يعتمد عليه في هذا الباب أن نقول ثبت ان صانع العالم واجب الوجود لذاته

كل معنى بديع هو في الحسن والغرابة واستجلاب النفس كالمثل استلفوه بالقبول (فأبى أكثر الناس) أو أكثر الاظهار على الاضمار تأكيدا وتوضيحا (الا كفورا) أي الا جحودا وانما صح الاستثناء من الموجب مع أنه لا يصح ضربت الا زيدا لانه متأول بالنفي كأنه قيل ماقبل أكثرهم الا كفورا وفيه من المبالغة مالیس في أبوا الايمان لان فيه دلالة على أنهم لم يرضوا بخصلة سوى الكفور من الايمان والتوقف في الامر ونحو ذلك وأنهم بالغوا في عدم الرضا حتى بلغوا مرتبة الاباء (وقالوا) عند ظهور عجزهم ووضوح مغلوبيتهم بالاعجاز التنزيلي وغيره من المعجزات الباهرة متعللين بما لا يمكن في العادة وجوده ولا تقتضي الحكمة وقوعه من الامور كلها هو دين الهبوت المحجوج (أن تؤمن لك حتى تفجر) وقرئ بالتشديد (لنا من الارض) أرض مكة (ينبوعا) عينا لا ينضب ماؤها يفعول من نبع الماء كيعوب من عبب الماء اذا زخر (أو تكون لك جنة) أي بستان تستر أشجاره فيستظل

ماؤهم امن العرصة (من نخيل وعنب فتفجر الانهار) أي تجريها بقوة (خلالها تفجيرا) كثيرا وأراد اما اجراء الانهار خلالها عند سقيها أراد اما اجراءها كما ينبغي عنه الماء اذا بدا وه (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) جمع كسفة كقطعة وقطع لفظا ومعنى وقرئ

بالسكون كسد رفوسدر وهي حال من السماء والكاف في كما في محل النصب على أنه صفة مصدر محذوف أي استقاما استقامة مثل استقامتها حالا مازعمت بعنوف بذلك قوله تعالى أو تسقط عليهم كسفا من السماء (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) أي مقابلا كالمعاشر والعشائر أي كما يشهد بصحة ما تدعيه وهو حال من الجلالة وحال الملائكة محذوفة لدلالتها عليها أي والملائكة ٤٩٩ قبيلا كما حذف الخبر في قوله

يسقط جبريل وجوه موجودا خبرا بحسب الله والاشتراك في الوجوب وامتناع كل واحد منهما عن الآخر بخصوصيته وهو باب الشركة خبرها بالمغايرة فيكون كل واحد منهما مشتركا عما به الاشتراك وممتازا عما به الممايزة وكل مركب يمكن مفتقرا إلى جزئه ثم ان الجزأين ان كانا واجبين كانا مشتركين في الوجوب وقد مايزين باعتبار آخر فيلزم تركب كل واحد منهما أيضا ويلزم التسلسل وهو محال وان لم يكونا واجبين فالمركب عنهما مفتقر إليهما أولى أن لا يكون واجبا فثبت أن واجب الوجود واحد وان كل ما عداه فهو ممكن وكل ممكن فلا بد له من مرجح وافتقاره إلى المرجح اما حال حدوثه أو حال بقائه والثاني باطل لانه يلزم ايجاد الموجود وهو محال فثبت أن الافتقار لا يحصل الا حال الحدوث وثبت أن كل ما سوى الله تعالى محدث سواء كان مقترنا أو فاعلا بالمختار أو لا فاعلا بالمختار فان نقضت هذه الدلالة بذات الله وصفاته فاعلم أن هذا الفقر فقر ما واذا ثبت حدوث كل ما سوى الله ثبت أن كل ما كان محدثا كان قابلا للعدم ثبت بهذا البرهان الباهر أن كل شئ هالك الا وجهه يعني كونه قابلا للهلاك والعدم ثم ان الذين فسروا الآية بذلك قالوا هذا أولى وذلك لانه سبحانه حكم بكونها هالكة في المآل وعلى ما قلناه فهي هالكة في المآل وعلى ما قلتموه انها ستهلك لأنها هالكة في المآل فكان قولنا أولى وأيضا فلا يمكن اذا وجد من حيث هو لم يكن مستحقا للا للوجود ولا للعدم من ذاته فهذه الاستحقاقية مستحقة له من ذاته أما الوجود فوارد عليه من الخارج فالوجود له كالثوب المستعار له وهو من حيث هو هو كالانسان فانه غير الثوب استعار ثوبا من رجل غني فان الفقير لا يخرج بسبب ذلك عن كونه فقيرا كذا الممكنات عارية عن الوجود من حيث هي هي واما الوجود ثوب حصل لها بالعارية فصح انها أبدا هالكة من حيث هي هي أما الذين حملوه على انها ستعدم فقد اختاروا بان قالوا الهلاك في اللغة له معنيان (أحدهما) خروج الشئ عن أن يكون منتفعا به (والثاني) الفناء والعدم لا حائز حمل اللفظ على الاول لان هذا كما يعني خروجها عن حد الانتفاع محال لانها وان تفرقت أجزاؤها فانها منتفع بها لان النفع المطلوب كونها بحيث يمكن أن يستدل بها على وجود الصانع القديم وهذه المنفعة باقية سواء بقيت متفرقة أو تجمعت وسواء بقيت موجودة أو صارت معدومة واذا تعذر حمل الهلاك على هذا الوجه وجب حمله على الفناء أجاب من حمل الهلاك على التفرق قال هلاك الشئ خروجه عن المنفعة التي يكون الشئ مطلوبا لاجلها فاما ما لا انسان قيل هلك لان الصفة المطلوبة منه حياته وعقله واذا تفرق الثوب قيل هلك لان المقصود منه صلاحيته للبس فاذا تفرقت أجزاء العالم خرجت السموات والكواكب والجبال والبحار عن صفاتها التي لاجلها كانت منتفعا بها انتفاعا خاصا فلا جرم صح اطلاق اسم الهالك عليها كما صحة الاستدلال بها على الصانع سبحانه فهذه المنفعة ليست منفعة خاصة بالشمس من حيث هي شمس والقدر من حيث هو قمر فلم يلزم من بقائها أن لا يطلق عليها اسم الهالك ثم احتجوا على بقاء اجزاء العالم بقوله يوم تبدل الارض غير الارض وهذا صريح بأن تلك الاجزاء باقية الا أنها صارت متصفة بصفة أخرى فهذا ما في هذا الموضع (المسئلة الثانية) احتج أهل التوحيد بهذه الآية على أن الله تعالى شئ قالوا لانه استثنى من قوله كل شئ استثناء مفرغ والاستثناء لا بد وأن يصح أن يدخل تحت اللفظ فوجب كونه شيئا بقي كذا مما ذكرناه في سورة الانعام وهو قوله قل أي شئ أكبر شهادة قل الله واحتجوا بهم على انه ليس كل شئ والكاف في سمعنا المثل فتقدير الآية ليس مثل مثله شئ ومثل مثل الله هو الله فوجب أن لا يكون الله شيأ جوابان الكاف صلة زائدة (المسئلة الثالثة)

مثل هذا الاقتراحات الشنيعة التي تكاد السموات يتفطرن منها أو عن طلبك ذلك وتنبيها على بطلان ما قالوه (سبحان ربي) وقرئ فعال سبحان ربي (هل كنت الا بشرا) لا ملكا كما يقترحون علي الرقي في السماء ونحوه (رسولا) مأمورا من قبل ربي بتبليغ الرسالة من غير أن يكون لي خيرة في الامر كسائر الرسل وكانوا لا يأتون قومهم الا بما يظهره الله على أيديهم حسبما يلائم حال قومهم ولم يكن أمر الآيات

* يعافي وقار بها للغريب *
أو جماعة فيكون حالا من الملائكة (أو يكون لك بيت من زخرف) من ذهب وقد قرئ به وأصله الزينة (أو ترقى في السماء) أي في معارجها فحذف المضاف بقال رقي في السلم وفي الدرجة (وان نؤمن لرقيك) أي لاجل رقيك فيها وحدها أو ان نصدق رقيك فيها (حتى تنزل) منها (علينا كتابا) فيه تصديقك (نقرؤه) نحن من غير أن يتلقى من قبلك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال عبد الله بن أبي أمية لن نؤمن لك حتى تتخذ الى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول وما كانوا يقترحون بها تلك الاقتراحات الباطلة الا العناد واللجاج ولو أنهم أوتوا أضعاف ما اقترحوا من الآيات لازدادهم ذلك الامكابرة والاقتدكان يكفيهم بعض ما شاهدوا من المعجزات التي تخر لها صم الجبال (قل) تبيها على ذلك (سبحان ربي) وتقريرا لما سبق من عجز الخلق عن الاتيان بما يقترحونه من الآيات (هل كنت الا بشرا رسولا) أي لم أك فيما سبق الا بشرا رسولا مثل سائر الرسل فما بالي أقترح عليكم ما ليس في وسعي وقدرتي وما بالكم تقترحون علي ما لا يليق بي وبكم (وما منع الناس) أي أهل مكة (أن يؤمنوا) بالقرآن (اذ جاءهم الهدى) على لسان الرسول (الا أن قالوا) استبعادا أن يرسل الله بشرا (أبعث الله بشرا رسولا) وهو حكاية لما قالوه بعد مجئ الرسول وقيل هو حكاية لما قالوه في أنفسهم قبل مجيئه وهو الأظهر (قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين) ساكنين فيها كما يمشي بنو آدم (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) أي لبعثنا اليهم ملكا رسولا من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته ومشاهدته والاستفادة منه وأما أنا فلما كنت مبعوثا إلى الثقلين لم يكن بد من أن أكون بشرا لتتأتى مخاطبتي ومشاهدتي والاستفادة مني (وكفى بالله شهيدا بيني وبينكم) على أني بلغت ما أرسلت به اليكم وأنكم كذبتموني وعلى أني لا أقترح عليه ما لا يليق بي وبكم (انه كان بعباده خبيرا بصيرا) يعلم سرائرهم وظواهرهم فيعلم أني لا أقترح عليه ما لا يليق بي وبكم (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه) يهدونهم الى الحق ويخلصونهم من الضلال (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) أي مكبين على وجوههم أو مسحوبين عليها (عميا وبكما وصما) لا يبصرون شيأ ولا ينطقون بشئ ولا يسمعون شيأ وهو حال من الضمير المنصوب أو مفعول ثان لنحشر (مأواهم جهنم كلما خبت) سكن لهبها (زدناهم سعيرا) توقدا (ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) استبعادا لما لا يستبعد بالنظر الى القدرة الكاملة (أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والارض قادر على أن يخلق مثلهم) أي على أن يعيدهم بعد الموت لان اعادة الشئ مثل ابتدائه (وجعل لهم أجلا لا ريب فيه) هو الموت أو القيامة (فأبى الظالمون الا كفورا) جحودا لذلك (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي) التي من جملتها الرزق (اذا لأمسكتم خشية الانفاق) مخافة الفقر (وكان الانسان قتورا) بخيلا مضيقا على غيره خوف الفاقة على نفسه

اليهم ولا لهم أن يحكموا على الله سبحانه بشيء منها وقوله بشرا خبر لكنت ورسولا صفته (وما منع الناس) أى الذين حكيت أباطيلهم (أن يؤمنوا) مفعول ثان لمنع وقوله (اذ جاءهم الهدى) أى الوحى ظرف لمنع أو يؤمنوا أى وما منعهم وقت مجيء الوحى المقرون بالمعجزات المستدعية للاذعان ... أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك أو ما منعهم أن يؤمنوا بذلك وقت مجيء ما ذكر (الا أن قالوا) فى محل الرفع على أنه فاعل منع أى الا قولهم (أبعث الله بشرا رسولا) منكرين أن يكون رسول الله تعالى من جنس البشر وليس المراد أن هذا القول صدر عن بعضهم فمنع بعضا آخر منهم بل المانع هو الاعتقاد الشامل للكل المستتبع لهذا القول منهم وانما عبر عنه بالقول اذ انما يأتى بمجرد قول يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهوم ومصداق وحصر المانع من الايمان فيما ذكر مع أن لهم موانع شتى لما أنه معظمها أو لانه هو والمانع بحسب الحال أعنى عند سماع الجواب بقوله تعالى هل كنت الا بشرا رسولا اذ هو الذى يتشبثون به حينئذ من غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى من شبههم الواهية وفيه ايذان بكمال عنادهم حيث يشير الى أن الجواب المذكور مع كونه حاسما لمواد شبههم ملجئا الى الايمان يحكمون الامر ويجعلونه مانعا منه (قل) لهم أولا من قبلنا تبيينا للحكمة وتحقيقا للحق المزيح للريب (لو كان) أى لو وجد واستقر (فى الارض) بدل البشر (ملائكة يمشون مطمئنين) قارين فيها من غير أن يعرجوا الى السماء ويعلوا ليجب أن ينزل اليهم من السماء ملكا رسولا) يهديهم الى الحق ويرشدهم الى الخير لتمكنهم على

استدلت الجسمية بهذه الآية على أن الله تعالى جسم من وجهين (الاول) قالوا الآية صريحة فى اثبات الوجه وذلك يقتضى الجسمية (والثانى) قوله واليه ترجعون وكلمة الى لانتهاء الغاية وذلك لا يعقل الا فى الاجسام (والجواب) لو صح هذا الكلام يلزم أن يفنى جميع أعضائه وأن لا يبقى منه الا الوجه وقد التزم ذلك بعض المشبهة من الرافضة وهو بيان بن سمعان وذلك لا يقول به عاقل ثم من الناس من قال الوجه هو الوجود والحقيقة يقال وجه هذا الامر كذا أى حقيقته ومنهم من قال الوجه صلة والمراد كل شىء هالك الا هو وأما كلمة الى فالمعنى والى موضع حكمه وقضائه ترجعون (المسئلة الرابعة) استدلت المعتزلة به على أن الجنة والنار غير مخلوقتين قالوا لان الآية تقتضى فناء الكل فلو كانتا مخلوقتين لفنيتا وهذا ينافض قوله تعالى فى صفة الجنة أكلها دائم (والجواب) هذا معارض بقوله تعالى فى صفة الجنة أعدت للمتقين وفى صفة النار وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ثم اما أن يحمل قوله كل شىء هالك على الاكثر كقوله وأوتيت من كل شىء أو يحمل قوله أكلها دائم على أن زمان فنائهم لما كان قليلا بالنسبة الى زمان بقائهما لا جرم أطلق لفظ الدوام عليه (المسئلة الخامسة) قوله كل شىء هالك يدل على أن الذات ذات بالفعل لانه حكم بالهلاك على الشىء فدل على أن الشىء فى كونه شيأ قابل للهلاك فوجب أن لا يكون المعدوم شيأ والله أعلم والحمد لله رب العالمين

﴿سورة العنكبوت مكية وقيل مدنية وقيل نزلت من أولها الى رأس عشر بمكة وباقيها بالمدينة أو نزل الى آخر العشر بالمدينة وباقيها بمكة بالعكس وهى سبعون أو تسع وستون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ فى تفسير الآية وفيما يتعلق بالتفسير مسائل (المسئلة الاولى) فى تعلق أول هذه السورة بما قبلها وفيه وجوه (الاول) لما قال الله تعالى قبل هذه السورة ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد وكان المراد منه أن يرده الى مكة ظاهرا غالبا على الكفار ظافرا طالما الثار وكان فيه احتمال مشاق القتال صعب على البعض ذلك فقال الله تعالى الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ولا يؤمروا بالجهاد (الوجه الثانى) هو أنه تعالى لما قال فى أواخر السورة المتقدمة وادع الى ربك وكان فى الدعاء اليه الطعان والحراب والضراب لان النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد لم يؤمن الكفار بمجرد الدعاء فشق ذلك على البعض فقال أحسب الناس أن يتركوا (الوجه الثالث) هو أنه تعالى لما قال فى آخر السورة المتقدمة كل شىء هالك الا وجهه ذكر بعده ما يبطل قول المنكرين للحشر فقال له الحكم واليه ترجعون يعنى ليس كل شىء هالكا فمن غير رجوع بل كل هالك ولابد رجوع الى الله اذا تبين هذا فاعلم أن منكرى الحشر يقولون لا فائدة فى التكاليف فانها مشاق فى المال ولا فائدة للمال اذ لا مآل ولا مرجع بعد الهلاك والزوال فلا فائدة فيها فبين الله انهم اليه يرجعون بين أن الامر ليس على ما حسبوه بل حسن التكاليف لترتيب الثواب والعقاب وقبح الكفر لترتيب العذاب فقال أحسب الناس أن يتركوا غير مكلفين من غير عمل يرجعون به الى ربهم (المسئلة الثانية) فى حكمة افتتاح هذه السورة بحرف من الهجى والمقدم عليه كلاما كليا فى افتتاح السور بالحروف فنقول الحكيم اذا خاطب من يكون محل الغفلة أو من يكون مشغول البال بشغل من الاشغال يقدم على الكلام المقصود شيأ غيره ليلتفت المخاطب بسببه اليه ويقبل بقلبه عليه ثم يشرع فى المقصود اذا ثبت هذا فنقول ذلك المقدم

من الاجتماع والتلقي منه وأما عامة البشر فهم يعزل من استحقاق المفاوضة الملكية كما ف لاوهي منوطة بالتناسب والتجانس فيمتنع الملك اليهم مزاحم للحكمة التي عليها مبنى التكوين والتشريع وانما بعث الملك من بينهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحاني والجسماني لتتلقوا من جانب ٥٠١ ويلقوا الى جانب وقوله تعالى ملكا يحتمل أن يكون حالا من رسول وان يكون موصوفا به وكذلك شفاء في قوله تعالى ايت الله شفاء لسوء والاول أولى (قل) لهم تاييا عن جهتك بعد ما عاينت لهم من قبلنا ما قلت وبينت لهم ما تقتضيه الحكمة في البعثة ولم يرفعوا اليه رأسا (كفى بالله) وحده (شهيدا) على اني أديت ما علي من مواجب الرسالة كل أداء وانكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد وتوجيه الشهادة الى كونه عليه السلام رسولا باظهار المعجزة على وفق دعواه كما اختير لايساعده قوله تعالى (بيني وبينكم) وما بعده من التعليل وانما لم يقل بيننا تحقيقا للمفارقة وايانا للمباينة وشهيدا اما حال أو تمييز (انه كان بعباده) من الرسل والمرسل اليهم (خبيرا بصيرا) محيطا ظواهر أحوالهم وبواطنها فيجازيهم على ذلك وهو تعليل للكفاية ووعد بنصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد للكفار (ومن يهد الله) كلام مبتدأ يفصل ما أشار اليه

على المقصود قد يكون كلاما له معنى مفهوم كقول القائل اسمع واحمل بالثاني وكن لي وقد يكون شيأ هو في معنى الكلام المفهوم كقول القائل أزيد وازيد والا يازيد وقد يكون ذلك لتقدم على المفهوم صوتا غير مفهوم كمن يصفر خلف انسان ليلتفت اليه وقد يكون ذلك الصوت غير الذي يسوق الانسان بيده ليتمثل السامع عليه ثم ان مرقع الغفلة كلما كان أتم والكلام المقصود كان أتم ان لم يتقدم على المقصود أكثر ولهذا ينادى القريب بالهمزة فيقال أزيد والبعيد بما فيقال يازيد والغافل بنه أو لا فيقال الا يازيد اذا ثبت هذا فنقول ان النبي صلى الله عليه وسلم وان كان يقظان ايمان لكنه انسان يشغله شأن عن شأن فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفا هي كالمنبهات ثم ان تلك الحروف اذا لم تكن صوتا يفهم معناها تكون أتم في افادة المقصود الذي هو التنبيه ممن تقديم الحروف التي لها معنى لان تقديم الحروف اذا كان لاقبال السامع على المتكلم لسماع ما بعد ذلك فاذا كان ذلك المقدم كلاما منظوما ومقولا مفهوما فاذا سمعه السامع ربما يظن أنه كل المقصود ولا كلام له بعد ذلك فيقطع الالتفات عنه أما اذا سمع منه صوتا لا معنى يعقل عليه ولا يقطع نظره عنه علم أنه لم يسمع غيره بل يتوقع بأن ما سمعه ليس هو المقصود فان تقديم الحروف التي لا معنى لها في الوضع على الكلام المقصود به حكمة بالغة فان قائل فما الحكمة في اختصاص بعض السور بهذه الحروف فنقول عقل البشر عن ادراك الاشياء الجزئية على تفاصيلها عاجز والله أعلم بجميع الاشياء لكن نذكر ما روي فيها والله له فنقول كل سورة في أوائلها حروف التهجي فان في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كقوله تعالى الم ذلك الكتاب الم الله لا اله الا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب المص كتاب أنزل اليك يس والقرآن ص والقرآن ق والقرآن الم تنزيل الكتاب حم تنزيل الكتاب الا لا ثلاث سور كهيعص الم أحسب الناس الم غلبت الروم والحكمة في افتتاح السور التي فيها القرآن أو التنزيل أو الكتاب بالحروف هي ان القرآن عظيم والانزال له ثقل والكتاب له عيب كما قال تعالى انا سنلقي عليك قولا ثقيلا وكل سورة في أوائلها ذكر القرآن والكتاب والتنزيل قدم عليها تنبيه يوجب ثبات الخاطب لاستماعه لا تتالي كل سورة قرآن واستماعه استماع القرآن سواء كان فيها ذكر القرآن العظيم أو لم يكن فكان الواجب أن يكون في أوائل كل سورة منه وابتدائها قد وردت سور فيها ذكر الانزال والكتاب ولم يذكر قبلها حروف كقوله تعالى الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب وقوله سورة أنزلناها وقوله تبارك الذي نزل الفرقان وقوله انا أنزلناه في ليلة القدر لا نقول جوابا عن الاول لا ريب في ان كل سورة من القرآن لكن السورة التي فيها ذكر القرآن والكتاب مع أنها من القرآن تنبيه على كل القرآن فان قوله تعالى طه ما أنزلنا عليك القرآن مع انها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن فصير مثاله مثال كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما وكتاب آخر يرد منه عليه فيه انا كتبنا اليك كتبا فيها أوامر نافامتثالها لاشك أن عبء الكتاب الآخر أكثر من ثقل الاول وعن الثاني ان قوله الحمد لله وتبارك الذي تسبيحات مقصودة وتسبيح الله لا ينقل عنه العبد فلا يحتاج الى منبه بخلاف الاوامر والنواهي وأما ذكر الكتاب فيها فلبيان وصف عظيم من له التسبيح وسورة أنزلناها قد بينا انها بعض من القرآن فيما ذكر انزالها وفي السورة التي ذكرنا انها ذكر جميع القرآن فهو أعظم في النفس وأثقل وأما قوله تعالى انا أنزلناه فنقول هذا ليس وارد اعلى مشغول القلب بشيء غيره بدليل انه ذكر الكناية فيها وهي ترجع الى مذكور سابق أو معلوم وقوله انا أنزلناها انها راجع الى معلوم عند النبي صلى الله عليه وسلم فكان منتبها له فلم ينبه واعلم أن التنبيه قد حصل في القرآن بغير الحروف التي لا يفهم معناها كما في قوله تعالى يا أيها

الكلام السابق من مجازاة العباد اشارة اجمالية أي من يهده الله الى الحق بما جاء من عنده (فهو المهتد) البتة والى ما يؤدي اليه من الثواب أو المهتد الى كل مطلوب (ومن يضلل) أي يخلق فيه الضلال سوء اختياره كهؤلاء المعاندين (فلن تجد لهم) أو ثر ضمير الجماعة اعتبارا لمعنى من غب ما أو ثر في مقابله الافراد نظرا الى لفظها ثم لن يجد له طريق الحق وقوله تعالى لكفيه وتعديد سبل الضلال

وكثرة الضلال (أولياء من دونه) من دون الله تعالى أى انصارا يدعونهم الى طريق الحق أو الى طريق يوصلهم الى مطالبهم الدنيوية والاخروية أو الى طريق النجاة من العذاب الذى يستدعيه ضلالهم على معنى ان تجد لاحد منهم وليا على ما تقتضيه قضية مقابلة الجمع بالجمع من انقسام الآحاد الى الآحاد ٥٠٢ (ونحشرهم) التفات من الغيبة الى التكلم ايذانا بكمال الاعتناء بأمر الحشر (يوم

القيامة على وجوههم) حال من الضمير المنصوب أى كائنين عليها سحبا كقوله تعالى يوم يسحبون فى النار على وجوههم أو مشيا فقد روى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (عميا) حال من الضمير المجرور فى الحال السابقة (وبكما وصما) لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا ينطقون ما يقبل منهم ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم لما قد كانوا فى الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر ولا ينطقون بالحق ولا يستمعونه ويجوز أن يحشروا بعد الحساب من الموقف الى النار وفى القوى والحواس وان يحشروا كذلك ثم يعاد اليهم قواهم وحواسهم فان ادراكاتهم بهذه المشاعر فى بعض المواطن مما لا ريب فيه (مأواهم جهنم) اما حال أو استئناف وكذا قوله تعالى (كلما خبت زدناهم سعيرا) أى كلما سكن لهبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ولم يبق فيهم ما يتعلق به النار وخمدت فرد ناهم توقدا بأن بدلنا هم جلودا غير هاعادت ملتهبة

ومستعرة ولعل ذلك عقوبة لهم على انكارهم الاعادة بعد الفناء تكرر مرارا بسبب أخرى لم نرها عيانا حيث لم يعلموها وانما كان يفصح عنه قوله تعالى (ذلك) أى ذلك العذاب (جزاؤهم بأنهم) أى بسبب أنهم (كفروا بآياتنا) العقلية والنقلية الدالة على صحة الاعادة دلالة

الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم وقوله يا أيها النبى اتق الله ويا أيها النبى لم تحرم لانها أشياء هائلة عظيمة فان تهوى الله سبحانه تعالى أمر عظيم فقدم على النداء الذى يكون للبعد الغافل عنها تنبيها وأما هذه السورة فافتتحت بالحروف وليس فيها الا بتداء بالكتاب والقرآن وذلك لان القرآن ثقلها وعمادها من التكاليف والمعانى وهذه السورة فيها ذكر جميع التكاليف حيث قال أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا يعنى لا يتركون بمجرد ذلك بل يؤمرون بأنواع من التكاليف فوجد المعنى الذى فى السورة التى فيها ذكر القرآن المشتمل على الاوامر والنواهى فان قيل مثل هذا الكلام وفى معناه ورد فى سورة التوبة وهو قوله تعالى أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يقدم عليه حروف التهجى فنقول الجواب عنه فى بقية الظهور وهو أن هذا ابتداء كلام ولهذا وقع الاستفهام بالهمزة فقال أحسب وذلك وسط كلام بدليل وقوع الاستفهام بأم والمتقدم يكون فى أول الكلام لا فى أثنائه وأما لم غلبت الروم فسيجئ فى موضعه ان شاء الله تعالى هذا تمام الكلام فى الحروف (المسئلة الثالثة) فى اعراب الم وقد ذكرنا تمام ذلك فى سورة البقرة مع الوجوه المنقولة فى تفسيره ونزيد ههنا على ما ذكرنا ان الحروف لا اعراب لها لانها جارية مجرى الاصوات المنبهة (المسئلة الرابعة) فى سبب نزول هذه الآيات وفيه أقوال (الاول) انها نزلت فى عمار بن ياسر وعياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وكانوا هاجروا بمكة (الثانى) انها نزلت فى أقوام بمكة هاجروا وتبعهم الكفار فاستشهد بعضهم ونجا الباقون (الثالث) انها نزلت فى مهجع بن عبد الله قتل يوم بدر (المسئلة الخامسة) فى التفسير قوله أحسب الناس أن يتركوا يعنى أظنوا انهم يتركون بمجرد قولهم آمنا وهم لا يفتنون لا يبتلون بالفرائض البدنية والمالية واختلف أئمة النحو فى قوله أن يقولوا فقال بعضهم أن يتركوا بأن يقولوا وقال بعضهم أن يتركوا يقولون آمنا وهو مقتضى ظاهر هذا انهم ممنوعون من قولهم آمنا كأنه فهم من قول القائل تظن انك تترك أن تضرب زيدا الى منع من ذلك وهذا بعيد فان الله لا يمنع أحدا من أن يقول آمنت ولكن مراد هذا المفسر هو أنهم لا يتركون يقولون آمنا من غير ابتلاء فيمنعون من هذا المجموع بايجاب الفرائض عليهم (المسئلة السادسة) فى الفوائد المعنوية وهى أن المقصود الاقصى من الخلق العبادة والمقصد الاعلى فى العبادة حصول محبة الله كما ورد فى الخبر لا يزال العبد يتقرب الى بالعبادة حتى أحبه وكل من كان قلبه أشد امتلاء من محبة الله فهو أعظم درجة عند الله لكن للقلب ترجمان وهو اللسان وللسان مصدقات تهى الاعضاء ولهذه المصدقات مراكبان فاذا قال الانسان آمنت بالله بلسان فقد ادعى محبة الله فى الجنان فلا بد له من شهود فاذا استعمل الاركان فى الاتيان بما عليه بنيان الايمان حصل له على دعواه شهود مصدقات فاذا بذل فى سبيل الله نفسه وماله وزكى بترك ما وراءها فحينئذ زكى شهوده الذين صدقوه فيما قاله فيحرر فى جرائد المحبين اسمه ويقرر فى أقسام المقربين قسمه والبه الاشارة بقوله أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا يعنى أظنوا أن تقبل منهم دعواهم بلا شهود وشهودهم بلا تركين بل لا بد من ذلك حتى يتركوا من المحبين (فائدة ثانية) وهى ان أدنى درجات العبد أن يكون مسلما فان مادونه درکات الكفر فالاسلام أول درجة تحصل للعبد فاذا حصل له هذه المرتبة كتب اسمه وأثبت قسمه لكن المستخدمين عند الملوك على أقسام منهم من يكون ناهضا فى شغله ماضيا فى فعله فينقل من خدمة الى خدمة أعلى ومنهم مرتبة ومنهم من يكون كسلانا متخلفا فينقل من خدمة الى خدمة أدنى منها وهو منهم من يترك على شغله من غير تغيير ومنهم من يقطع رسمه ويمحى عن الجرائد اسمه فكذلك عباد الله قد يكون المسلم عابدا منقلا على العبادة قد ملا العبادة قد ينقل من مرتبة المؤمنين الى

واضحة فذلك مبتدأ وحزائهم خبره ويجوز أن يكون مبتدأ أنانيا وبأنهم خبره والجملة خبر الذلك وأن يكون حزاؤهم بدلا من ذلك أو بيانا له والخبر هو الظرف (وقالوا) منكرين أشد الانكار (أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) أما مصدر مؤكد من غير لفظه أي لمبعوثون بعثا جديدا وإما حال أي مخلوقين مستأنفين (أولم يروا) أي ألم يتفكروا ٥٠٣ ولم يعلموا (أن الله الذي خلق السموات والارض) من غير مادة مع عظمهم (قادر على أن يخلق مثلهم) في الصغر على أن المثل مقحم والمراد بالخلق الاعادة كما عبر عنها بذلك حيث قيل خلقا جديدا (وجعل لهم أجلا لاريب فيه) عطف على أولم يروا لانه في قوة قد رأوا لان المعنى قد علموا أن من قدر على خلق السموات والارض فهو قادر على خلق أمثالهم من الانس وجعل لهم وليبعثهم أجلا تحقيقا لاريب فيه هو يوم القيامة (فأبى الظالمون) وضع موضع الضمير تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوزا لحد بالمرة (الا كفورا) أي جحودا (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي) خزائن رزقه التي أفاضها على كافة الموجودات وأنتم مرتفع بفعل يفسره المذكور كقول حاتم لو ذات سوار لطمتني وفائدة ذلك المبالغة والدلالة على الاختصاص (إذا لأمسكتم) لبخلتم (خشية الانفاق) مخافة النفاد بالانفاق أي لبخلتم في الدنيا أحد الا وهو مختار النفع لنفسه ولو آثر غيره شيئا فإنما يؤثر المعوض دون العوض فإذن هو بخيل بالاضافة إلى جود الله سبحانه (وكان الانسان قتورا) مبالغا في البخل لان مبنى أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج إليه ومع الحظة العوض بما يبذله (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) واضحات الدلالة على نبوته وصحة ما جاء به من عند الله وهي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والطوفان والسنون ونقص الثمرات وقيل انفجار الماء من الحجر ونتق الطور



درجة الموقنين وهي درجة المقربين وهم من يكون قليل الطاعة مشتغلا بالطاعة فيقبل الى مرتبة دونه وهي مرتبة العباد ومنزلة القناعة وقد يستصغر الذنوب فيخرج من العباد محمودا وما يلحق بأهل العناد مرجوما ومنهم من يبقى في أول درجة الجنة وهم البله فقال الله إشارة للطيع الناهض أحسب الناس أن يتركوا يعني أظنوا انهم يتركون في أول المقامات لابل ينقلون الى أعلى الدرجات كما قال تعالى والذين آووا ونصروا هم درجات فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة وقال صلى الله عليه وسلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا يعني اذا قال آمنت ويتخلص بالتسليم ويترك ويرضى منه لابل ينقل الى مقام أدنى وهو مقام العاصي أو الكافر ﴿ثم﴾ قال تعالى ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ ذكر الله سابق حبب تسليتهم فقال كذلك فعل الله بمن قبلكم ولم يتركهم بمجرد قولهم آمنا بل فرض عليهم الطاعات وأوجب عليهم العبادات وفي قوله فليعلمن الله الذين صدقوا وجوه (الاول) قول مقاتل فليرين الله (الثاني) وليظهرن الله (الثالث) فليميزن الله فالحاصل على هذا هو أن المفسرين ظنوا أن حمل الآية على ظاهرها يوجب تجدد علم الله والله عالم بالصادق والكاذب قبل الامتحان فكيف يمكن أن يقال يعلمه عند الامتحان فنقول الآية محمولة على ظاهرها وذلك أن علم الله صفة يظهر فيها كل ما هو واقع كما هو واقع فقبل التكليف كان الله يعلم ان زيدا مثلا سيطيع وعمرا سيعصي ثم وقت التكليف والاتيان يعلم أنه مطيع والآخر عاص وبعد الاتيان يعلم أنه أطاع والآخر عصى ولا يتغير علمه في شيء من الاحوال وانما المتغير المعلوم وبين هذا بمثال من الحسيات ولله المثل الاعلى وهو ان المرآة الصافية اذا علقت من موضع وقوبل وجهها جهة ولم تحرك ثم عبر عليها بدلا سوادا بالايمن ظهر في يمنى ثوب أيمن واذا عبر عليها عمرو في لباس أصفر يظهر فيها كذلك فهل يقع في ذهن أحد ان المرآة في كونها حديدا تغيرت أو يقع لها انها في نفسها تبدلت أو يذهب فهمه الى أنها في صقالتها اختلفت أو يخطر بباله انها لو كان مكانها التفاتت لا يقع لاحد شيء من هذه الاشياء ويقطع بأن المتغير المغايرات فافهم علم الله من هذا المثال بل أعلى من هذا المثال فان المرآة ممكنة التغير وعلم الله غير ممكن عليه ذلك فنقول فليعلمن الله الذين صدقوا يعني يقع من يعلم الله أن يطيع الطاعة فيعلم أنه مطيع بذلك العلم وليعلمن الكاذبين يعني من قال أنا مؤمن وكان صادقا عند فرض العبادات وظهر منه ذلك ويعلم ومن قال ذلك وكان منافقا كذلك بين وفي قوله الذين صدقوا سبقة الفعل وقوله الكاذبين باسم الفاعل فائدة مع ان الاشتقاق في اللفظ أدل على المغايرة وهي ان اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المبدر في الفاعل ورشوشه فيه والفعل الماضي لا يدل عليه كما يقال فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر وفلان نفذ أمره وفلان نافذ الامر فانه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ومن اسم الفاعل يفهم ذلك اذا ثبت هذا فنقول وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبي العهد بالاسلام في أوائل إصابة التكاليف وعن قوم مستمرين على الكفر مستقرين عليه فقال في حق المؤمنين الذين صدقوا بصيغة الفعل أي وجد منهم الصدق وقال في حق الكافر الكاذبين بالصيغة المبنية عن الثبات والدوام ولهذا قال يوم ينفع الصادقين صدقهم بلفظ اسم الفاعل وذلك لان في اليوم المذكور الصدق قد رسخ في قلب المؤمن وهو اليوم الآخر ولا كذلك في أوائل الاسلام ﴿ثم﴾ قال تعالى ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون﴾ لما بين حسن التكليف بقوله أحسب الناس أن يتركوا بين أن من كاسب شيئا ولم يأت به يعذب وان لم يعذب في الحال فسيعذب في الاستقبال ولا يفوت الله

على بني اسرائيل وانفلاق البحر بدل الثلاث الاخيرة ويأباه أن هذه الثلاث لم تكن منزلة اذ ذاك وأن الاوامر لا تعلق لهما بفرعون واعما أوتيهما بنو اسرائيل وعن صفوان بن عسال ان يهوديا سأل النبي عليه الصلاة والسلام عنها فقال أن لا تشركوا به شيأ ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ٥٠٤ ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببرىء الى ذي سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة

ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت فقبل اليهود بدي يده ورجله عليه السلام ولا يسعه أيضا ذكر ولعل جوابه عليه السلام بذلك لما أنه المهم للسائل وقبوله لما أنه كان في التوراة مسطورا وقد علم أنه ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم الا من جهة الوحي (فأسأل بني اسرائيل) وقرئ فسل أي فقلنا له سلهم عن فرعون وقل له أرسل معي بني اسرائيل أو سلهم عن أيمانهم أو عن حالهم معي هم أو سلهم أن يعاضدوك ويؤيدوه قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم على صيغة الماضي وقيل خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام أي قاسأله عن ذلك الآيات لتزداد يقينا وطمأنينة أو ليظهر صدقك (اذ جاءهم) متعلق بقلنا وبسأل على القراءة المذكورة وبآتينا أو بمضمر هو خبر وك أو اذكر على تقدير كون الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام (فقال له فرعون) الفاء فصيحة أي فأظهر عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات وبلغه ما أرسل به فقال له فرعون صدق (انى لاظنك يا موسى مسحورا) سحرت فتخبط عقلك (قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء) يعني الآيات التي أظهرها (الا رب السموات والارض) خالقهما ومدبرهما والمتعرض لربوبيته تعالى لهما للايذان بأنه لا يقدر على اتيان مثل هاتيك الآيات العظام الا خالقهما

شيء في الحال ولا في المآل وهذا ابطال مذهب من يقول التكاليف ارشادات والايعاد عليه ترغيب وترهيب ولا يوجد من الله تعذيب ولو كان يعذب ما كان عاجزا عن العذاب عاجلا فلم كان يؤخر العقاب فقال تعالى أم حسب الذين يعملون السيآت أن يسبقونا يعني ليس كما قالوا بل يعذب من يعذب ويثيب من يثيب بحكم الوعد والايعاد والله لا يخلف الميعاد وأما الامهال فلا يفضي الى الاهمال والتعجيل في جزاء الاعمال شغل من يخاف الفوت فلولا الاستحالة ثم قال تعالى ساء ما يحكمون يعني حكمهم بأنهم يعصون ويخالفون أمر الله ولا يعاقبون حكم سيء فان الحكم الحسن لا يكون الا حكم العقل أو حكم الشرع والعقل تحكم على الله بذلك فان الله له أن يفعل ما يريد والشرع حكمه بخلاف ما قالوه فحكمهم سيء في غاية السوء والرداءة ثم قال تعالى ﴿من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت وهو السميع العليم﴾ لما بين بقوله أحسب الناس أن العبد لا يترك في الدنيا سدى وبين في قوله أم حسب الذين يعملون السيآت أن من ترك ما كلف به يعذب كذا بين أن من يعترف بالآخرة ويعمل لها لا يضيع عمله ولا يخيب أمله وفي الآية مسائل (المسألة الاولى) اذا ذكرنا في مواضع أن الاصول الثلاثة وهي الاول والله تعالى ووحدانيته والاصل الآخر وهو اليوم الآخر والاصل المتوسط وهو النبي المرسل من الاول المرسل الى الآخر لا يكاد ينفصل في الذكر الالهي بعضها عن بعض فقوله أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا فيه اشارة الى الاصل الاول يعني أظنوا أنه يكفي الاصل الاول وقوله وهم لا يفتنون وقد فتنا الذين من قبلهم يعني بارسال الرسل وايضاح السبل فيه اشارة الى الاصل الثاني وقوله أم حسب الذين يعملون السيآت مع قوله من كان يرجو لقاء الله فيه أشارة الى الاصل الثالث وهو الآخر ﴿المسألة الثانية﴾ ذكر بعض المفسرين في تفسير لقاء الله انه الرؤية وهو ضعيف فان اللقاء والملاقاة بمعنى وهو في اللغة بمعنى الوصول حتى ان بعضهم اذا تواصلا فقد لاقى أحدهما الآخر ﴿المسألة الثالثة﴾ قال بعض المفسرين المراد من الرجاء الخوف والمعنى من قوله من كان يرجو لقاء الله من كان يخاف الله وهو أيضا ضعيف فان الشعر في الرجاء هو توقع الخير لا غير ولا نأخذ بما جاء على أن الرجاء ورد بهذا المعنى يقال أرجو فضل الله ولا يفهم منه أخاف فضل الله واذا كان وارد الله لا يكون لغيره دفعا للاشتراك ﴿المسألة الرابعة﴾ يمكن أن يكون المراد بأجل الله الموت ويمكن أن يكون هو والحياة الثانية بما حشر فان كان هو الموت فهذا يغني عن بقاء النفوس بعد الموت كما ورد في الاخبار وذلك لان القائل اذا قال من كان يرجو الخير فان السلطان واصل يفهم منه أن متصلا بوصول السلطان يكون هو الخير حتى انه لو وصل هو وتأخر الخير يصح أن يقال للقائل أما قلت ما قلت ووصل السلطان ولم يظهر الخير فقول لم يحصل اللقاء عند الموت لما حسن ذلك كما ذكرنا في المثال واذا تبين هذا فلولا البقاء لما حصل اللقاء ﴿المسألة الخامسة﴾ قوله من كان يرجو شرط وجزاؤه فان أجل الله لآت والمعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فمن لا يرجو لقاء الله لا يكون أجل الله آتيا له وهذا باطل فما الجواب عنه؟ نقول المراد من ذكرنا ان الاجل وعدا لمطيع عامله عند من الثواب يعني من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت بثواب الله يثاب على طاعته عنده ولا شك ان من لا يرجوه لا يكون أجل الله آتيا على وجه يثاب هو ﴿المسألة السادسة﴾ قال وهو السميع العليم ولم يذكر صفة غيرهما كالعزيز الحكيم وغيرهما رد ذلك لانه سبق القول في قوله أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا وسبق القول يقرله وهم لا يفتنون وقوله فليعلمن الله الذين صدقوا وقوله أم حسب الذين يعملون السيآت ولا شك أن القول يدرك بالسمع والعمل منه ما لا يدرك بالبصر ومنه ما يدرك به كما لمسوه وا علم شملهما فقال وهو السميع سمع ما قالوه وهو العليم يعلم من

ومدبرهما (بصائر) حال من الآيات أي بينات مكاشوفات تبصر لك صدق ولكنك تعاند وتكابر نحو وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ومن ضرورة ذلك العلم بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال رصانة العقل فضلا عن نوهم السحورية وقرئ علمت على صيغة التكلم أي لقد علمت يقين أن هذه الآيات الباهرة أنزلها الله عز اسطانه فكيف يتوهم ٥٠٥ أن يحوم حولي سحر (وإني لأظنك يا فرعون مثبورا) مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر من قولهم ما ثبرك عن هذا أي ما صرفك أو هالكا والظن قارع عليه السلام ظنه بظنه وشتان بينهما كيف لا وظن فرعون اقك مبين وظنه عليه الصلاة والسلام يقاتم اليقين (فأراد أي ففـــرعون (أن يستفزهم) أي يستخفهم ويزعجهم (من الارض) أي أرض مصر أرمن الارض مطلقا بالقتل كقوله سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم (فأغرقناه ومن معه جميعا) فعكسنا عليه مكره واستفززناه وقومه بالاغراق (وقلنا من بعده) من بعد أغراقهم (لبني اسرائيل اسكنوا الارض) التي أرادان يستفزكم منها (فاذا جاء وعد الآخرة) الكرة الآخرة أو الساعة أو القيامة أو الساعة والدار الآخرة أي قيام القيامة (جئنا بكم لفيفا) مختلطين أنا بكم وأنتم بهم ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم والفيف الجماعات من قبائل شتى

صدق فيما قال من كذب وأيضا عليم بعلم ما يعمل فيثيب ويعاقب * وههنا لطيفة وهي أن العبد له ثلاثة أمور هي أصناف حسناته أحدها عمل قلبه وهو التصديق وهو لا يرى ولا يسمع وإنما يعلم وعمل لسانه وهو يسمع وعمل أعضائه وجوارحه وهو يرى فإذا أتى بهذه الأشياء يجعل الله اسمه وعمله مالا أذن سمعت ولا رأيته مالا عين رأت ولا عمل قلبه مالا خطر على قلب أحد كما وصف في الخبر في وصف الجنة ﴿ثم قال تعالى﴾ ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغني عن العالمين ﴿لما بين ان التكليف حسن واقع وان عليه وعدا وايعادا ليس لهما دافع بين ان طالب الله ذلك من المكلف ليس لتنفيعه وما اليه فانه غني مطلقا ليس شيء غيره يتوقف كماله عليه ومثل هذا كثير في القرآن كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه وقوله تعالى ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ الآية السابقة مع هذه الآية يوجبان اكثار العبد من العمل الصالح واتقانه له وذلك لان من يفعل فعلا لاجل ملك ويعلم أن الملك يراه ويبصره يحسن العمل ويتقنه واذا علم أن نفعه له ومقدر قد يعمل بكثير منه فاذا قال الله انه سميع عليم فالعبد يتقن عمله ويخلصه له واذا قال بأن جهاده لنفسه يكثر منه ﴿المسئلة الثانية﴾ لقائل أن يقول هذا يدل على أن الجزاء على العمل لان الله تعالى لما قال من جاهد فانما يجاهد لنفسه فهم منه أن من جاهد يرجع جهاده ما وإلا فما رجح فتقول هو كذلك ولكن حكم الوعد لا بالاستحقاق وبيانه هو أن الله تعالى لما بين ان المكلف اذا جاهد يثيبه فاذا لقي يثيبه ويكون جهادا فاعمالها ولا نزاع فيه وانما النزاع في أن الله يجب عليه أن يثيب على العمل لولا الوعد ولا يجوز أن يحسن الى أحد الا بالعمل ولا دلالة للآية عليه ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله فانما يجاهد يقتضي الحصر فينبغي أن يكون جهاد المرء لنفسه فحسب ولا ينتفع به غيره ليس كذلك فان من جاهد ينتفع به ومن يريد هو نفعه حتى ان الوالد والولد يركبان الجهاد ويجاهد ينتفعان فتقول ذلك نفع له فان انتفاع الولد انتفاع للاب والحصر ههنا معناه ان جهاده لا يصل الى الله منه نفع ويدل عليه قوله تعالى ان الله لغني عن العالمين وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ تدل الآية على ان رعاية الاصلح لا يجب على الله لانه بالاصلح لا يستفيد فائدة والا لكان مستكملا بتلك الفائدة وهي غيره وهي من العالم فيكون مستكملا بغيره فيكون محتاجا اليه وهو غني عن العالمين وأيضا أفعاله غير معللة بالاغراض ﴿المسئلة الثانية﴾ تدل الآية على أنه ليس في مكان وليس على العرش على الخصوص فانه من العالم والله غني عنه والمستغني عن المكان لا يمكن دخوله في مكان لان الداخل في المكان يشار اليه بأنه ههنا أو هناك على سبيل الاستقلال وما يشار اليه بانه ههنا أو هناك يستحيل أن لا يوجد لا ههنا ولا هناك والا لجوز العقل ادراك الجسم لا في مكان وانه محال ﴿المسئلة الثالثة﴾ لو قال قائل ليست قادريته مقدورة لا علميته يعلم والا لكان هو في قادريته محتاجا الى قدرة هي غيره وكل ما هو غيره فهو من العالم فيكون محتاجا وهو غني * نقول لم قلتم ان قدرته من العالم وهذا لان العالم كل موجود سوى الله بصفاته أي كل موجود هو خارج عن مفهوم الالهية الحي القادر المريد العالم السميع البصير المتكلم والقدرة ليست خارجة عن مفهوم القادر والعلم ليس خارجا عن مفهوم العالم ﴿المسئلة الرابعة﴾ الآية فيها إشارة وهي أنا نذر أما لا نذر فلان الله اذا كان غنيا عن العالمين فلو أهلك عباده بعذابه فلا شيء عليه لغناه عنهم وهذا يوجب الخوف العظيم وأما البشارة فلانه اذا كان غنيا فلو أعطى جميع ما خلقه لعبيده من عباده لا شيء عليه لاستغنائه عنه وهذا يوجب الرجاء التام ﴿ثم قال تعالى﴾ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾ لما بين اجمالا أن من يعمل صالحا فلنفسه بين مفصلا بعض التفصيل أن جزاء المطيع الصالح عمله فقال

(وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) أي وما أنزلنا القرآن الا ملتبسا بالحق المقتضي لانزاله وما نزل الا ملتبسا بالحق الذي اشتمل عليه أو ما أنزلناه من السماء الا محفوظا وما نزل على الرسول الا محفوظا من تخليط الشياطين ولعل المراد بيان عدم اعتراء البطلان له أول الامر وآخره (وما أرسلناك الا مبشرا) للمطيع بالثواب (ونذيرا) للعاصي من العقاب وهو تحقيق لحقيقة بعثته

عليه الصلاة والسلام اثر تحقيق حقية انزال القرآن (وقرآنا) منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (فرقناه) وقرئ بالتشديد دلالة على كثرة نجومه (لتقرأه على الناس على مكث) على مهل وتثبت فانه أيسر للحفظ وأعون على الفهم وقرئ بالفتح وهو لغة فيه (ونزلناه تنزيلا) حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ٥٠٦ ويقع من الحوادث والواقعات (قل) للذين كفروا (آمنوا به أو لا تؤمنوا) فان ايمانكم به

والذين آمنوا وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) انها تدل على أن الاعمال مغايرة للايمان لان العطف يوجب التغاير (المسئلة الثانية) انها تدل على أن الاعمال داخلة فيما هو المقصود من الايمان لان تكفير السيئات والجزاء بالاحسن معلق عليها وهي ثمرة الايمان ومثال هذا شجرة مثمرة لاشك في أن عروقها وأغصانها منها والماء الذي يجري عليها والتراب الذي حولها غير داخل فيها لكن الثمرة لا تحصل الا بذلك الماء والتراب الخارج فكذلك العمل الصالح مع الايمان وأيضا الشجرة لو احتفت بها الحشائش المفسدة والاشواك المضرة ينقص ثمرة الشجرة وان غلبتها عدمت الثمرة بالكلية وفسدت فكذلك الذنوب تفعل بالايمان (المسئلة الثالثة) الايمان هو التصديق كما قال وما أنت بمؤمن لنا أي بمصدق واختص في استعمال الشرع بالتصديق بجميع ما قال الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التفصيل ان علم مفصلا انه قول الله أو قول الرسول أو على سبيل الاجمال فيما لم يعلم والعمل الصالح عندنا كل ما أمر الله به صار صالحا بأمره ولو نهى عنه لما كان صالحا فليس الصلاح والفساد من لوازم الفعل في نفسه وقالت المعتزلة ذلك من صفات الفعل ويترتب عليه الامر والنهي فالصدق عمل صالح في نفسه وبأمر الله به لذلك فعندنا الصلاح والفساد والحسن والقبح يترتب على الامر والنهي وعندهم الامر والنهي يترتب على الحسن والقبح والمسئلة مبطولة في الاصول (المسئلة الرابعة) العمل الصالح باق لان الصالح في مقابلة الفاسد والفاسد هو الهالك التالف يقال فسدت الزروع اذا هلكت أو خرجت عن درجة الانتفاع ويقال هي بعد صالحة أي باقية على ما ينبغي اذا علم هذا فنقول العمل الصالح لا يبقى بنفسه لانه عرض ولا يبقى بالعامل أيضا لانه يهلك كما قال تعالى كل شئ هالك فيتأوه لابد من أن يكون شئ باق لكن الباقي هو وجه الله لقوله كل شئ هالك الا وجهه فينبغي أن يكون العمل لوجه الله حتى يبقى فيكون صالحا وما لا يكون لوجهه لا يبقى لا بنفسه ولا بالعامل ولا بالمعمول له فلا يكون صالحا فالعمل الصالح هو الذي أتى به المكلف خالصا لله (المسئلة الخامسة) هذا يقتضي أن تكون النية شرطا في الطاعات من الاعمال وهي قصد الايقاع لله ويندرج فيها النية في الصوم خلافا للزيدية في الوضوء خلافا لابي حنيفة رحمه الله (المسئلة السادسة) العمل الصالح مرفوع لقوله تعالى والعمل الصالح يرفعه لكنه لا يرتفع الا بالكلم الطيب فانه يصعد بنفسه كما قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب وهو يرفع العمل فالعمل من غير المؤمن لا يقبل ولهذا قدم الايمان على العمل (وجهة لطيفة) وهي ان أعمال المكلف ثلاثة عمل قلبه وهو فكره واعتقاده وتصديقه وعمل لسانه وهو ذكره ومناجاته وعمل جوارحه وهو طاعته وعبادته فالعبادة البدنية لا ترتفع بنفسها واعتبار رفع غيرها والقول الصادق يرتفع بنفسه كما بين في الآية وعمل القلب وهو الفكر ينزل اليه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله ينزل الى السماء الدنيا ويقول هل من تائب والتائب النادم بقلبه وكذلك قوله عليه السلام يقول الله عز وجل أنا عند المنكسرة قلوبهم يعني بالفكرة في عجزه وقدرتي وحقارته وعظمتي ومن حيث العقل من تفكر في الآلاء الله وجد الله وحضر في ذهنه فعلم ان لعمل القلب يأتي الله وعمل اللسان يذهب الى الله وعمل الاعضاء يوصل الى الله وهذا تنبيه على فضل عمل القلب (المسئلة السابعة) ذكر الله من أعمال المؤمنين الايمان والعمل الصالح وذكر في مقابلتهم ما من أفعال الله أمرين تكفير السيئات والجزاء بالاحسن حيث قال لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن فتكفير السيئات في مقابلة الايمان والجزاء بالاحسن في مقابلة العمل الصالح وهذا يقتضي أمورا (الاول) المؤمن لا يخلد في النار لان باءه تكفر سيئاته فلا يخلد في العذاب (الثاني) الجزاء الاحسن المذكور هو ما غير الجنة

لا يزيده كما لا واستنباء عكم لا يورثه نقصا (ان الذين أوتوا العلم من قبله) أي العلماء الذين قرؤا الكتب السالفة من قبل تنزيله وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل والمحق والمبطل ورأوا فيها نعتك ونعت ما أنزل اليك (اذا يتلى) أي القرآن (عليهم يخرون للاذقان) أي يسقطون على وجوههم (سجدا) تعظيما لامر الله تعالى أو شكرا لانجاز ما وعد به في تلك الكتب من بعثتك وتخصيص الاذقان بالذكر للدلالة على كمال التذلل اذ حينئذ يتحقق الخرور عليها وايثار اللام للدلالة على اختصاص الخرور بها كما في قوله

* يخرون صرعى للذين وللفم *

وهو دليل لما يقوله من قوله تعالى آمنوا به أو لا تؤمنوا من عدم المبالاة بذلك أي ان لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسن ايمان من هو خير منكم ويجوز أن يكون تعليلا لقل على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل تسل بايمان العلماء عن ايمان الجهلة ولا تكترث بايمانهم واعراضهم (ويقولون) في سجودهم وذلك (سبحان ربنا) عما يقول الكفرة من التكذيب أو عن خلف وعده (ان كان وعد ربنا لمفعولا) ان مخففة من المثقلة واللام فارقة أي ان الشأن هذا (ويخرون للاذقان يبكون) كرر الخرور للاذقان لاختلاف السبب فان الاول لتعظيم أمر الله تعالى أو الشكر لانجاز الوعد

والثانى لما أرفهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله (ويزيدهم) أى القرآن إسماعهم (خشوعا) كما يزيدهم علما ويقينا بالله تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) نزل حين سمع المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا الله يا رحمن فقالوا إنه ينهانا عن عبادة إلهين وهو يدعو إلها آخر وقالت اليهود ذلك لقلة ذكر الرحمن ٥٠٧ وقد أكثر الله تعالى فى التوراة والمراد على الأول هو التسوية بين اللفظين بأنهما عبارتان عن ذات واحدة وإن اختلف الاعتبار والتوحيد إنما هو للذات الذى هو المعبود وعلى الثانى إنهما سيان فى حسن الاطلاق والإضافة إلى المقصود وهو أوفق لقوله تعالى (أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) والدعاء بمعنى التسمية وهو يتعدى إلى مفعولين حذف أولهما استغناء عنه وأو للتخيير والتنوين فى أيا عوض عن المضاف إليه وما مزيدة لتأكيد ما فى أى من الإبهام والضمير فى له للمسمى لأن التسمية له لا للاسم وكان أصل الكلام أيا ما تدعو فهو حسن توضع موضعه فله الأسماء الحسنى لما بينا فى اللغة والدلالة على ما هو الدليل عليه إذ حسن جميع أسمائه يستدعى حسن ذينك الأمرين وكونها حسنى لدلالتها على صفات الكمال من الجلال والجمال والإكرام (ولا تجهر بصلاتك) أى بقراءة صلاتك يسمع المشركين فإن ذلك يحملهم على السب واللغو فيها (ولا تخافت بها) أى بقراءتها بحيث لا تسمع من خلفك من المأمومين (وابتغ بين ذلك) أى بين الجهر والمخافتة على الوجه المذكور (سبيلا) أمرا وسطا قصدا فإن خير الأمور أوساطها والتعبير عن ذلك بالسبيل باعتبار أنه أمر يتوجه إليه المتوجهون ويؤمه المقتدون ويوصلهم إلى المطلوب وروى أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه كان يخفت ويقول أناجى ربى وقد علم

وذلك لأن المؤمن يأمن أنه يدخل الجنة إذا تكفر سيئاته ومن كفرت سيئاته أدخل الجنة فالجزاء الأحسن يكون غير الجنة وهو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولا يبعد أن يكون هو الرؤية (الأمر الثالث) هو أن الإيمان يستر قبح الذنوب فى الدنيا فيستر الله عيوبه فى الآخرة والعمل الصالح يحسن حال العامل فى الدنيا فيجزيه الله الجزاء الأحسن فى العقبى فالإيمان إذن لا يبطله المعاصى بل هو يغلب المعاصى ويستر ها ويحمل صاحبها على الندم والله أعلم (المسئلة الثامنة) قوله لنكفرن عنهم سيئاتهم يستدعى وجود السيئات حتى تكفر والذين آمنوا وعملوا الصالحات باسرها من أين يكون لهم سيئة فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن وعد الله جميع أشياء لا يستدعى وعد كل واحد كل واحد من تلك الأشياء مثاله إذا قال الملك لأهل بلد إذا أطعتمونى أكرم آباءكم وأحترم أبناءكم وأنعم عليكم وأحسن إليكم لا يقتضى هذا أن يكرم آباء من توفى أبوه وأحترم ابن من لم يولد له ولد بل مفهومه أن يكرم أب من له أب ويحترم ابن من له ابن فكذلك يكفر سيئة من له سيئة (الجواب الثانى) ما من مكلف إلا وله سيئة أما غير الأنبياء فظاهر وأما الأنبياء فلان ترك الأفضل منهم كالسيئة من غيرهم ولهذا قال تعالى عفا الله عنك لم أذنت لهم (المسئلة التاسعة) قوله ولنجزينهم أحسن يحتمل وجهين (أحدهما) لنجزينهم بأحسن أعمالهم (وثانيهما) لنجزينهم أحسن من أعمالهم بل على الوجه الأول معناه نقدر أعمالهم أحسن ما تكون ونجزيهم عليها لا أنه يختار منها أحسنها ويجزى عليه ويترك الباقى وعلى الوجه الثانى معناه قريب من معنى قوله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وقوله فله خير منها (المسئلة العاشرة) ذكر حال المسىء مجملا بقوله أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا إشارة إلى التعذيب مجملا وذكر حال المحسن مجملا بقوله ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ومفصلا بهذه الآية لتكون ذلك إشارة إلى أن رحمته أتم من غضبه وفضله أعم من عدله ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ وفى الآية مسائل (المسئلة الأولى) ما وجه تعلق الآية بما قبلها نقول لما بين الله حسن التكاليف ووقوعها وبين ثواب من حقق التكاليف أصولها وفروعها تحريضا للمكلف على الطاعة ذكر المانع وضمنه من أن يختار اتباعه فقال الانسان إن انقاد لأحد فينبغى أن ينقاد لأبويه ومع هذا لو أمراه بالمعصية لا يجوز اتباعهما فضلا عن غيرهما فلا يتمنى أحدكم شيئا من طاعة الله ولا يتمنى أحد من يأمر بمعصية الله (المسئلة الثانية) فى القراءة قرئ حسنا وحسنا وحسنا وأظهر وهنا ومن قرأ حسنا فمن قوله تعالى وبالوالدين إحسانا والتفسير على القراءة المشهورة هو أن الله تعالى وصى الانسان بأن يفعل مع والديه حسن الثانى بالفعل والقول ونكر حسنا ليدل على الكمال كما يقال إن لزيد مالا (المسئلة الثالثة) فى قوله ووصينا الانسان بوالديه حسنا دليل على أن متابعتهم فى الكفر لا تجوز وذلك لان الاحسان بالوالدين وجب بأمر الله تعالى فلو ترك العبد عبادة الله تعالى بقول الوالدين لترك طاعة الله تعالى فلا ينقاد لما رضاه به فلا يحسن إلى الوالدين فأتباع العبد أبويه لا يحل الاحسان إليهما يفضى إلى ترك الاحسان إليهما وما يفضى وجوده إلى عدمه باطل فالاتباع باطل وأما إذا امتنع من الشرك بقى على الطاعة والاحسان إليهما ما لم تفض الطاعة فيأتى به فترك هذا الاحسان صورة يفضى إلى الاحسان حقيقة (المسئلة الرابعة) الاحسان بالوالدين مأمور به لأنهما سبب وجود الولد بالولادة وسبب بقائه بالتربية المعتادة فهما سبب مجازا والله تعالى سببه فى الحقيقة بالايراد وسبب بقائه بالاعادة للسعادة فهو أولى أن يحسن العبد حاله معه ثم قال تعالى وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما فقوله ما ليس لك

حاجتي وعمر رضي الله عنه كان يجهر بها ويقول أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان فلما نزلت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع قليلا وعمر أن يخفض قليلا وقيل المعنى لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها بأسرها وابتغ بين ذلك سبيلا بالمخافتة نهارا والجهر ليلا وقيل بصلاتك بدعائك وذهب قوم الى أنها منسوخة بقوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا)

كما زعم اليهود والنصارى وبنو مليح حيث قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا (ولم يكن له شريك في الملك) أي الالوهية كما قاله الثنوية القائلون بتعدد الآلهة (ولم يكن له ولي من الذل) ناصر ومانع منه لاعتزازه به أو لم يوال أحدا من أجل مذلة لحقته فيحابيه وفي التعرض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة ايذان بأن المستحق للحمد من هذه وبتعذر وغيره اذ بذلك يتم الكمال والقدرة التامة على الايجاد وما يتفرع عليه من افاضة أنواع النعم وما عداه ناقص مملوك نعمة أو منعم عليه ولذلك عطف عليه قوله تعالى (وكبره تكبيرا) وفيه تنبيه على أن العبد وان بالغ في التنزيه والتمجيد واجتهد في الطاعة والتعبد ينبغي أن يعترف بالقصور في ذلك * روي أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية الكريمة وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة بني اسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار في الجنة والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية والحمد لله سبحانه وله الكبرياء والعظمة والجبروت

﴿سورة الكهف مكية وقيل الا قوله تعالى واصبر نفسك الآية وهي مائة واحدى عشرة آية﴾

به علم بني التقليد في الايمان ليس بحيد فضلا عن التقليد في الكفر فاذا امتنع الانسان من التقليد فيه ولا يطبع بغير العلم لا يطبع به ما أصلا لان العلم بحقة قوله مما محال الحصول فاذا لم يشرك تقليدا ويستحيل الشرك مع العلم فالشرك لا يحصل منه قط ثم قال تعالى الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون بمعنى عاقبتكم وما آلكم الى وان كان اليوم محال طاعتكم ومجالستكم مع الآباء والاولاد والاقارب والمشاهير ولا شك ان من يعلم أن مجالسته مع واحد خالية منقطعة وحضوره بين يدي غيره دائم غير منقطع لا يترك مراضي من تدوم معه صحبته لو شاء ان يتركه في زمان آخر ثم قوله تعالى فأنبئكم فيه لطيفة وهي أن الله تعالى يقول لا تظنوا اني غائب عنكم وأنا أراكم حاضرون فتوافقون الحاضرين في الحال اعتمادا على غيبتي وعدم علمي بحالكم فانبئكم اياي فاني حاضر معكم أعلم ما تفعلون ولا أنسى فأنبئكم بجميعه ﴿ثم قال تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين﴾ وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة في اعادة الذين آمنوا وعملوا الصالحات مرة أخرى * نقول الله تعالى ذكر من المكلفين قسمين مهتدا وضالا بقوله فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وذكر حال الضال مجملا وحال المهتدي مفصلا بقوله والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولما تم ذلك ذكر قسمين آخرين هاد وما هو ضلالة فقوله ووصينا الانسان بوالديه حسنا يقتضي أن يهتدي بهما وقوله وان جاهداك لتشرك بيان اضلالهما وقوله الى مرجعكم فأنبئكم بطريق الاجمال تهديد للضال وقوله والذين آمنوا على سبيل التفصيل وعد الهادي فذكر الذين آمنوا وعملوا الصالحات مرة لبيان حال المهتدي ومرة أخرى لبيان حال الهادي والذي يدل عليه هو أنه قال أولا لنكفرن عنهم سيئاتهم وقال ثانيا لندخلنهم في الصالحين والصالحون هم الهداة لانه مرتبة الانبياء ولهذا قال كثير من الانبياء ألحقني بالصالحين (المسئلة الثانية) قد ذكرنا أن الصالحين والذي الصالحون باقون وبقاؤهم ليس بأنفسهم بل بأعمالهم الباقية أعمالهم باقية والمعمول له وهو وجه الاعمال باق والعاملون باقون ببقاء أعمالهم وهذا على خلاف الامور الدنيوية فان في الدنيا بقاء الفعل بالفاعل دون بقاء الفاعل بالفعل (المسئلة الثانية) قيل في معنى قوله لندخلنهم في الصالحين لندخلنهم في الطيب الصالحين أو في دار الصالحين والاولى أن يقال لا حاجة الى الاضمار بل يدخلهم في الصالحين أي يجعل منهم ويدخلهم في عدادهم كما يقال الفقيه داخل في العلماء (المسئلة الرابعة) قال الحكماء عالم العناصر عالم الكون والفساد وما فيه يتطرق اليه الفساد فان الماء يخرج عن كونه ماء ويفسد ويتكون منه بخار هواء وعالم السموات لا كون فيه ولا فساد بل يوجد من عدم ولا يعدم ولا يصير الملك ترابا بخلاف الانسان فانه يصير ترابا أو شيئا آخر وعلى هذا فالعالم العلوي ليس بفاسد فهو صالح فقوله تعالى لندخلنهم في الصالحين أي في المجردين الذين لا فساد لهم ﴿ثم قال تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ نقول أقسام المكلفين ثلاثة * مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده * وكافر مجاهر بكفره وعناده * ومذبذب بينهما يظهر الايمان بلسانه ويضمر الكفر في فؤاده * والله تعالى لما بين القسمين بقوله تعالى فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وبين أحوالهما بقوله أم حسب الذين يعملون السيئات الى قوله والذين آمنوا وعملوا الصالحات بين القسم الثالث وقال ومن الناس من يقول آمنا بالله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ومن الناس من يقول آمنا ولم يقل آمنا وقد مع انه واحد

(بسم الله الرحمن الرحيم) (الحمد لله الذى أنزل على عبده) محمد صلى الله عليه وسلم (الكتاب) أى الكتاب الكامل الغنى عن الوصف بالكمال المعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به وهو عبارة عن جميع القرآن أو عن جميع المنزل حينئذ كما مر مرارا وفى وصفه تعالى بالموصول اشعار بعلية ٥٠٩ ما فى حيز الصلة لاستحقاق الحمد وايذان

بعظم شأن التنزيل الجليل كيف لا وعليه يدور فلك سعادة الدارين وفى التعبير عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالعبد مضافا الى ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه عليه الصلاة والسلام الى أعلى معارج العبادة وتشريفه له أى تشريف واشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبدا للرسل لا كما زعمت النصارى فى حق عيسى عليه السلام وتأخير المفعول الصريح عن الجار والمجرور مع أن حقه التقديم عليه ليتصل به قوله تعالى (ولم يجعل له عوجا) أى شيئا من العوج بنوع من أنواع الاختلال فى النظم وتناف فى المعنى أو انحراف عن الدعوة الى الحق وهو فى المعانى كالعوج فى الاعيان وأما قوله تعالى لا ترى فيها عوجا ولا أمتا فمع كون الجبال من الاعيان فللدلالة على انتفاء ما يدرك من العوج بحاسة البصر بل أبلغ وقف عليه بالبصيرة بواسطة استعمال المقاييس الهندسية ولما كان ذلك مما لا يشعر به بالشاعر الظاهرة عد من قبيل ما فى المعانى وقيل الفرق فى اعوجاج المنتصب كالعود والحائط والكبر فى اعوجاج غيره عينا كان أو معنى (قيما) بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد على نحو ينبئ عنه ما بعده من الانذار والتبشير فيكون وصفا له بالتكميل

الافعال التى بعده كقوله تعالى فاذا أوذى فى الله وقوله جعل فتنة الناس وذلك لان المنافق كان يشعر نفسه بالمؤمن ويقول بلسانه كما يقال آمنا يعنى أنا والمؤمن حقا آمنا اشعارا بأن ايمانه كايمانه وهذا كما أن الجبان الضعيف اذا خرج مع الابطال فى القتال وهزموا خصومهم يقول لهم جبان خرجنا وقاتلنا وهزمنا هم فيصح من السامع لكلامه أن يقول وماذا كنت أنت فيهم حتى تقول خرجنا وقاتلنا وهذا الرد يدل على أنه يفهم من كلامهم ان خروجهم وقتالهم لا يصح الانكار عليه فى دعوى نفس الخروج والقتال وكذا قول القائل أنا والملك أقتلنا فلانا وأنا استقبلناه منكر لان المفهوم منه المساواة فهم لما أرادوا اظهار كونهم ايمانهم كايمان المحقين كان الواجد يقول آمنا أى أنا والمحق

(المسئلة الثانية) قوله فاذا أوذى فى الله عرف معنى قوله وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى فاعلم أن المراد بتلك الآية الصابرون على أذية الكافرين والمراد ههنا الذين لم يصبروا واعلم أن قتال هناك أذوا فى سبيلى وقال ههنا أوذى فى الله ولم يقل فى سبيل الله واللطيفة فيه أن الله أراد بيان شرف المؤمن السابق وخسة المنافق الكافر فقال هناك أذوى المؤمن فى سبيل الله لم يترك سبيله ولم يتركه وأوذى المنافق الكافر فترك الله نفسه وكان غرضه أن يظاهروا فقتلهم ان بلغ الامر الى حد الاكراه يكون قلبه مطمئنا بالايمان فلا يترك الله ومع هذا لم يفعل به بل ترك الله بالكلية والمؤمن أوذى ولم يترك سبيل الله بل أظهر كلمتى الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة (المسئلة الثالثة) قوله يجعل فتنة الناس كعذاب الله قال الزمخشرى جعل فتنة الناس صارفة عن الايمان كما أن عذاب الله صارف عن الكفر وقيل جعزوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله وبالجملة معناه انهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب الله الأليم الدائم حتى تردد وا فى الامر وقالوا ان آمنا تعرض للأذى من الناس وان تركنا الايمان تعرض من عذابه محمد عليه الصلاة والسلام واختاروا الاستمرار على الأذى العاجل ولا يكون التردد الا عند تطاهى ومن أين الى أين تعذيب الناس لا يكون شديدا ولا يكون مديدا الا ان العذاب ان كان شديدا عاقب النار وغيره وان الانسان فى الحال فلا يدوم التعذيب وان كان مديدا كالحبس والحصر لا يكون شديدا وعذاب الله شديد ومديد وأيضا عذاب الناس لهم دافع وعذاب الله مالهم من يمنع وأيضا عذاب الناس عليه ثواب عظيم وعذاب الله بعد عذاب أليم والمشقة اذا كانت مرتبة على الراحة العظيمة أيسر ولا تعد عذابا كما تقطع الساعة المؤذية ولا تعد عذابا (المسئلة الرابعة) قال فتنة الناس ولم يقل بدأب الناس لان فعل العباد ابتلاء وامتحان من الله وفتنته تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الايمان ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكاليف ابتلاء وامتحانا وهذه الشارة الى أن الصبر على البلية السابقة ابتلاء وامتحانا من الانسان كالصبر على العبادات (المسئلة الخامسة) لو قال قائل هذا يقتضى منع المؤمن من اظهار كلمة الكفر بالاكراه لان من أظهر كلمة الكفر بالاكراه يكون قلبه مطمئنا بالايمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله فنقول ليس كذلك لان من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالايمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله لان عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهرا وباطنا وهذا المؤمن المكره لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله بحيث يترك ما يعذب عليه ظاهرا وباطنا بل هو ثابت فى باطنه الايمان ثم قال تعالى ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم يعنى دأب المنافق انه ان رأى البلد للكافر أظهر ما أضمر وأظهر المعية وادعى النسبة وفيه فوائد تذكرها فى مسائل (الاولى) قال ولئن جاء نصر من ربك ولم يقل من الله مع أن ما تقدم كان كله ذكر الله كقوله أوذى فى الله وقوله كعذاب الله وذلك لان الرب اسم مدلوله

بعد وصفه بالكمال أو على ما قبله من الكتب السماوية شاهدا بصحتها ومهيمنا عليها أو متناهيا في الاستقامة فيكون تأكيدا لما دل عليه نفي العوج مع افادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له حسبما تقتضيه عنه الصيغة لا انه نفي عنه العوج مع كونه من شأنه وانتصابه على تقدير كون الجملة المتقدمة معطوفة على الصلة مصمر ينبئ عنه نفي العوج تقديره جعله قيما وأما على تقدير كونها حالية فهو عطف على الحال السابقة من الكتاب اذ لا فصل حينئذ بين أعراض المعطوف عليه بالمعطوف وقرئ قيما (لينذر) متعلق بأنزل والفاعل ضمير الجلالة كما في القولين المعطوفين عليه والاطلاق عن ذكر المفعول الاول للايذان بأن ما سيق له الكلام هو المفعول الثاني وأن الاول ظاهر لا حاجة الى ذكره أي أنزل الكتاب لينذر عباده الذين كفروا به (بأسا) أي عذابا (شديدا من لدنه) أي صادرا من عنده نازلا من قبله بمقابلة كفرهم وتكذيبهم وقرئ من لدنه بسكون الدال مع اشمام الضم وكسر النون للالتقاء الساكنين وكسر الهاء للاتباع (ويبشر) بالتشديد وقرئ بالتخفيف (المؤمنين) أي المصدقين به (الذين يعملون الصالحات) الاعمال الصالحة التي يبنى عليها سائر الاعمال الصالحة واشتهارها واجراء الموصول على موصوفه المذكور بما ذكر لما أن مدار قبول الاعمال هو الايمان (أن لهم) أي بأن لهم بمقابلة أعمالهم المذكورة من (أجرا حسنا) هو الجنة وما فيها من المثوبات الحسنى (ماكثين) حال من الضمير المجرور في لهم (فيه) أي في ذلك الاجر (أبدا) من غير انتهاء أي خالدين فيه وهو مؤيد لما قبله من الدلالة على التبشير لا ظهار كمال العناية بزجر الكفار وحملهم عليه مع مراعاة

الخاص به الشفقة والرحمة والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة فعند التصدر كرر اللفظ الدال على الرحمة والعظمة وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة ﴿المسئلة الثانية﴾ لم يقل وان جاءكم أو جاءك بل قال وان جاء نصر من ربك والنصر لو جاء هؤلاء ولو انا كنا معكم وهذا يقتضي ان يكونوا قائلين انا معكم اذا جاء نصر سواء جاء هم أو جاء المؤمنين فنقول هذا الكلام يقتضي أن يكونوا قائلين انا معكم اذا جاء النصر لكن النصر لا يجيء الا للمؤمن كما قال تعالى وكان حقا علينا نصر المؤمنين ولان غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر لان النصر ما يكون عاقبته سلمية والدليل ان أحد الجيشين ان انهزم في المال ثم كر انهزم كرة أخرى وهزموا الغالبين لا يطلق اسم النصر الا على من كان له العاقبة فكذلك المسلم وان كسر المال فالعاقبة للمتقين فالنصر لهم في الحقيقة ﴿المسئلة الثالثة﴾ في ليقولن قراءتان (احداهما) الفتح حملا على قوله من يقول أعاني من يقول أعطاذا أوذي يترك ذلك القول واذا جاء النصر يقول انا كنا معكم (وثانيتهما) الضم على الجمع اسنادا للقول الى الجميع الذين دل عليهم المفهوم فان المتافقين كانوا جماعة ثم بين الله تعالى انهم أرادوا التلبيس ولا يصح ذلك لهم لان التلبيس انما يكون عند مخالفة القول القلب فالساهي يجري الامر على قوله ولا يدري ما في قلبه فيلتبس الامر عليه وأما الله تعالى فهو عليم بذات الصدور وهو أعلم بما في صدر الانسان من الانسان فلا يلتبس عليه الامر وهذا اشارة الى أن الاعتبار بما في القلب فالمنافق الذي يظهر الايمان ويضمر الكفر كافر والمؤمن المكره الذي يظهر الكفر ويضمر الايمان مؤمن والله أعلم بما في صدور العالمين وبين أنه أعلم بما في قلوب العالمين بين انه يعلم المؤمن الحق وان لم يتكلم والمنافق وان تكلم فقال وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين وقد سبق تفسيره لكن فيه مسئلة واحدة وهي ان الله قال هناك فليعلمن الذين صدقوا وقال ههنا وليعلمن الله الذين آمنوا فنقول لما كان الذكر هناك للمؤمن والكافر والكافر في قوله كاذب فانه يقول الله أكثر من واحد والمؤمن في قوله صادق فانه كان يقول الله واحد ولم يكن هناك ذكر من يضمر خلاف ما يظهر فكان الحاصل هناك قسمين صادق وكاذب وكان ههنا المنافق صادقا في قوله فانه كان يقول الله واحد فاعتبر أمر القلب في المنافق فقال وليعلمن المنافقين واعتبر أمر القلب في المؤمن وهو التصديق فقال وليعلمن الله الذين آمنوا ﴿ثم قال تعالى﴾ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شئ انهم لكاذبون ﴿لما بين الله تعالى الفرق الدلائلية وأحوالهم وذكر أن الكافر يدعي من يقول آمنت بالله الى الكفر بالمتنع وبين أن عذاب الله فوقها وكان الكافر يقول للمؤمن تصبر في الذل وعلى الايذاء لاي شئ ولم لا تدفع عن نفسك الذل والعذاب بموافقتنا فكان جواب المؤمن أن يقول خوفا من عذاب الله بقي خطيئة هذا فعليك خطيئة ذاك فيه وان كان فيه خطيئة فعلينا وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ولنحمل صيغة أمر والمأمور غير الآمر فكيف يصح أمر النفس من الشخص ﴿فنقول﴾ الصيغة أمر والمعنى شرط وجزاء أي ان اتبعونا نحمل خطايا كم قال صاحب الكشاف هو في معنى قول من يريد اجتماع أمرين في الوجود فيقول ليكن مالك العطاء وليكن مني الدعاء فقوله ولنحمل أي ليكن منا الحمل وليس هو في الحقيقة أمر طالب وايجاب ﴿المسئلة الثانية﴾ قال وما هم بحاملين من خطاياهم وقال بعد هذا وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم فهذا نفي الحمل ثم وههنا اثبت الحمل فكيف الجمع بينهما فنقول قول القائل فلان حمل عن فلان فيه ان حمل فلان خف واذا لم يخف حمله فلا يكون قد حمل عنه شيأ فكذلك ههنا ما هم حاملين من خطاياهم بمعنى لا يرفعون عنهم خطيئة وهم يحملون أوزارا بسبب اضلالهم وهم لم يزر أحد وزر أحد بل كل أحد يحمل أوزار نفسه كما قال النبي عليه الصلاة والسلام

تقديم التخلية على التحلية وتكرير الانذار بقوله تعالى (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) متعلقا بفرقة خاصة من عموم الانذار السابق من مستحقي البأس الشديد للايذان بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وضلالهم أي وينذر من بين سائر الكفرة هؤلاء المتفوهين بمثل هاتيك العظيمة خاصة وهم كفار العرب الذين يقولون الملائكة بنات الله تعالى ٥١١ واليهود القائلون عزير ابن الله والنصارى القائلون المسيح ابن الله وترك اجراء الموصول على الموصوف كما فصل في قوله تعالى ويبشر المؤمنين للايذان بكمال بينونة ما بين حيز الصلة في الكفر على أقبح الوجوه وانكار صيغة الماضي في الصلة للدلالة على تحقق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق وجعل المفعول المحذوف فيما سلف عبارة عن هذه الطائفة يؤدي الى خروج سائر أصناف الكفرة عن الانذار والوعيد وتعميم الانذار هناك للمؤمنين ايضا بحمله على معنى تبشير الاخيار بالخير الدائر من غير اعتبار حلول البشير به على المنذر كما في قوله تعالى أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا يقتضي الى خلو النظم الكريم عن الدلالة على حلول البأس الشديد على من عداهذه الفرقة وتجويز أن يكون الفاعل في الافعال الثلاثة ضمير الكتاب أو ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام (ما لهم به) أي باتخاذه سبحانه وتعالى ولدا (من علم) مرفوع على الابتداء والظاهر عليه لاعتماد الظرف ومن مزيدة لتأكيد النفي والجملة حالية أو مستأنفة لبيان حالهم في مقالهم أي مالهم بذلك شئ من علم أصلا لا لانه لا طريق به مع تحقق المعلوم أو امكانه بل لاستحالته في نفسه (ولا لآبائهم) الذين قلدوهم فيما وجميعا تيه الجهالة والضلالة أو لهم لم يقولوا قولة أهو صواب أم خطأ بل انما قالوه رميا عن عمى وجهالة من غير فكر ورويه كما في قوله تعالى وخرقوا له

من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شئ (المسئلة الثالثة) الصيغة أمر والامر لا يدخله التصديق والتكذيب فكيف يفهم قولها نهم لكاذبون فيه تبين ان معناه شرط وجزاء فكأنهم قالوا ان تنبهوا تعلموا خطأ يا كم وهم كذبوا في هذا فانهم لا يعلمون شيأ ﴿ثم قال تعالى﴾ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴿في الذي كانوا يفترونه يحتمل الامرين وجهه (أحدهما) كان قولهم وانحمل خطايا كم صادرا عن اعتقادهم أن لا خطيئة في الكفر ثم يوم القيامة يظهر لهم خلاف ذلك فيسئلون عن ذلك الافتراء (وثانيهما) ان قولهم وانحمل خطايا كم كان عن اعتقاد أن لا حشر فاذا جاء يوم القيامة ظهر لهم خلاف ذلك فيسئلون ويقال لهم أما علمتم أن لا حشر (وثالثهما) انهم لما قالوا ان تتبعونا نحمل يوم القيامة خطايا كم يقال لهم فاحملوا خطاياهم فلا يحملون فيسئلون ويقال لهم لم افتريتم ﴿ثم قال تعالى﴾ ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما ﴿وجه تعلق الآية بما قبلها وأن الله تعالى لما بين التكاليف وذكر أقسام المكلفين ووعد المؤمن الصادق بالثواب العظيم وأوعد الكافر والمنافق بالعذاب الاليم وكان قد ذكر أن هذا التكليف ليس مختصا بالنبي وأمته حتى صعب عليهم ذلك بل قبله كان كذلك كما قال تعالى ولقد فتنا الذين من قبلهم ذكر من جملة من كلف جماعة منهم نوح النبي عليه السلام وقومه ومنهم ابراهيم عليه السلام وغيرهما ثم قال تعالى فليمتحن فيهم ألف سنة الا خمسين عاما وفي الآية مسائل ﴿الاولى﴾ ما الفائدة في ذكر مدة لبثه يقول كان النبي عليه الصلاة والسلام يشتكي صدره بسبب عدم قبول الكفار في الاسلام واصرارهم على الكفر فقال ان نوحا لبث ألف سنة تقريبا في الدعاء لقومه لم يؤمن من قومه الا القليل وما يرد ما تحبه فأنت أولى بالصبر قلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك وأيضا كان الكفار يقترحون تأخير العذاب عنهم اكثر مع ما ذكرنا فبين بهذا المقدار من التأخير لا ينفي أن يقترحوا فان العذاب يخصهم ﴿المسئلة الثانية﴾ قال بعض العلماء الاستثناء في العدد تكلم بالباقي فاذا قال القائل اطلان على عشرة الا ثلاثة فكأنه قال على سبعة اذا علم هذا فقوله ألف سنة الا خمسين عاما كقوله تسعمائة وخمسين سنة فلما العدول عن هذه العبارة الى غيرها ﴿وقول قال الزمخشري فيه فائدتان (احداهما) أن الاستثناء يدل على الشفقي وتركه قد يظن به التقرير فقال من قال عاش قلان ألف سنة يمكن أن يتوهم أن يقول ألف سنة تقريبا لا تحقيقا فاذا قال الا شهرا أو الا سنة زال ذلك التوهم ويفهم منه التحقيق (الثانية) هي اذا ذكرت توجيه عليه السلام في قومه كان لبثه ألف سنة صبر كثيرا فالذي عاينه السلام أولى بالصبر مع قصر مدة عنائه وان كان كذلك فقد ذكر العدد الذي في أعلى مراتب الاعداد التي لها اسم مفرد موضوع فان مراتب الاعداد هي الآحاد ثم العشرة والعشرات الى المائة والمائات الى الالف ثم بعد ذلك يكون التكثير بالتكرير فيقال عشرة آلاف ومائة ألف وألف ألف ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال بعض الاطباء العمر الانساني لا يزيد على مائة وعشرين سنة والآية تدل على خلاف قولهم والعقل يوافقها فان البقاء على التركيب الذي في الانسان ممكن لذاته والا لما بقي ودوام تأثير المؤثر فيه ممكن لان المؤثر فيه ان كان واجب الوجود فظاهر الدوام وان كان غيره فلا مؤثر ويتم حتى الى الواجب وهو دائم فتأثيره يجوز أن يكون دائما فالبقاء ممكن في ذاته فلم يكن ذلك لعارض لكن العارض ممكن العدم والا لما بقي هذا المقدار لوجوب رجحان العارض المانع فظهر أن كلامهم على خلاف العقل والعقل (ثم نقول) لانزاع بيننا وبينهم لانهم يقولون العمر الطبيعي لا يكون أكثر من مائة وعشرين سنة ونحن نقول هذا العمر ليس طبيعيا بل هو عطاء الهي وأما العمر الطبيعي فلا يدوم عندنا ولا لحظة فضلا عن

بنين وبنات بغير علم أو بحقيقة ماقالوه وبعظم رتبته فى الشناعة كما فى قوله تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيأ ادا تكاد السموات يتفطرن منه الآيات وهو الانسب بقوله تعالى (كبرت كلمة) أى عظمت مقالتهم هذه فى الكفر والافتراء لما فيها من نسبته سبحانه الى مالا يكاد يليق بجناب كبريائه ٥١٤ والفاعل فى كبرت اما ضمير المقالة المدلول عليها بقولوا وكلمة نصب على التمييز أو ضمير مبهم مفسر بما بعده من النكرة المنصوبة تمييزا كبئس رجلا والمخصوص بالذم محذوف تقديره كبرت هى كلمة خارجة من أفواههم وقرئ كبرت بإسكان الباء مع اشمام الضم وقرئ كلمة بالرفع (تخرج من أفواههم) صفة للكلمة مفيدة لاستعظام اجترائهم على التفوه بها واستادالخروج اليهم أن الخارج هو الهواء المتكيف بكيفية الصوت الملابسة بها (ان يقولون) مايقولون فى ذلك الشأن (الا كذبا) أى الا قولا كذبا لا يكاد يدخل تحت امكان الصدق أصلا والضمير ان لهم ولآبائهم مثل حاله عليه الصلاة والسلام فى شدة الوجد على اعراض القوم وتوليهم عن الايمان بالقرآن وكمال التحسر عليهم بحيث يوقع منه اهلاك نفسه اثر فوت مايحمله عند مفارقته أحبته تأسفا على مفارقتهم وتلهفا على مهاجرتهم فقيل على طريقة التمثيل حملا له عليه الصلاة والسلام على الحذر والاشفاق من ذلك (فلعلك باخع) أى مهلك (نفسك على آثارهم) غما ووجدا على فراقهم وقرئ بالاضافة تخصيصة (ان لم يؤمنوا بهذا الحديث) أى القرآن الذى عبر عنه فى صدر السورة بالكتاب وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ماسبق عليه وقرئ بأن المفتوحة أى لأن لم يؤمنوا فعمال باخع بحمله على حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة كما فى قوله عز وجل باسط ذراعيه (أسفا)

مائة أو أكثر ﴿ قوله تعالى ﴿ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ فيه اشارة الى لطيفة وهى ان الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم والا لعذب من ظلم وتاب فان الظلم وجد منه وانما يعذب على الاصرار على الظلم فقوله وهم ظالمون يعنى أهلكهم وهم على ظلمهم ولو كانوا تركوه لما أهلكهم ﴿ قوله تعالى ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾ فى الراجع اليه الهاء فى قوله جعلناها وجهان ﴿ أحدهما ﴾ انها راجعة الى السفينة المذكورة وعلى هذا ففى كونها آية وجوه ﴿ أحدها ﴾ انها انتصفت قبل ظهور الماء ولولا اعلام الله نوحا وأنباؤه اياه بما لما اشتغل بها لاتحصل لهم النجاة ﴿ وثانيها ﴾ ان نوحا أمر بأخذ قوم معه ورفع قدر من القوت والبحر العظيم لا يتوقع أحد نضوبه ثم ان الماء غيض قبل نفاد الزاد ولولا ذلك لما حصل النجاة فهو بفضل الله لا بجمرة السفينة ﴿ وثالثها ﴾ ان الله تعالى كتب سلامة السفينة عن الرياح المرجفة والحيوانات المؤذية ولولا ذلك لما حصلت النجاة ﴿ والثانى ﴾ انها راجعة الى الواقعة أو الى النجاة أى جعلنا الواقعة أو النجاة آية للعالمين ﴿ ثم قال تعالى ﴿ وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ﴾ لما فرغ من الاشارة الى حكاية نوح ذكر حكاية ابراهيم وفى ابراهيم وجهان من القراءة ﴿ أحدهما ﴾ النصب وهو المشهور ﴿ والثانى ﴾ الرفع على معنى ومن المرسلين ابراهيم والاول فيه وجهان ﴿ أحدهما ﴾ انه منصوب بفعل غير مذكور وهو معنى اذكر ابراهيم ﴿ والثانى ﴾ انه منصوب بمذكور وهو قوله ولقد أرسلنا فيكون كالتفسير لقال وأرسلنا ابراهيم وعلى هذا ففى الآية مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ قوله اذ قال لقومه ظرف أرسلنا أى أرسلنا ابراهيم اذ قال لقومه لكن قوله لقومه اعبدوا الله دعوة والارسال يكون قبل الدعوة فكيف يفهم قوله وأرسلنا ابراهيم حين قال لقومه مع أنه يكون مرسلا قبله ؟ نقول الجواب عنه من وجهين ﴿ أحدهما ﴾ ان الارسال امر معتد فهو حال قوله لقومه اعبدوا الله كان مرسلا وهذا كما يقول القائل وقفنا للامير اذ خرج من الدار وقد يكون الوقوف قبل الخروج لكن لما كان الوقوف ممتدا الى ذلك الوقت صح ذلك ﴿ الوجه الثانى ﴾ هو ان ابراهيم بمجرد هدايته الله بالدليل كان يعلم فساد قول المشركين وكان يهديهم الى الرشاد قبل الارسال ولما كان هو مشتغلا بالدعاء الى الاسلام أرسله الله تعالى وقوله اعبدوا الله واتقوه اشارة الى التوحيد لان التوحيد اثبات الاله ونفى غيره فقوله اعبدوا الله اشارة الى الاثبات وقوله واتقوه اشارة الى نفى الغير لان من يشرك مع الملك غيره فى ملكه يكون قد أتى بأعظم الجرائم ويمكن ان يقال اعبدوا الله اشارة الى الاتيان بالواجبات وقوله واتقوه اشارة الى الامتناع عن المحرمات ويدخل فى الاول الاعتراف بالله وفى الثانى الامتناع من الشرك ثم قوله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يعنى عبادة الله وتقواه خير والامر كذلك لان خلاف عبادة الله تعالى تعطيل وخلاف تقواه تسليط وكلاهما شر عقلا واعتبارا أما عقلا فلان المكن لابد له من مؤثر لا يكون ممكنا فعلما للتسلسل وهو واجب الوجود فلا تعطيل اذ لنا اله واما التشريك فيبطل لانه عقلا لو كون خلافه غير أهوان شريك الواجب ان لم يكن واجبا فكيف يكون شريكا وان كان واجبا لزم وجود واجبين فيشتركان فى الوجوب ويتباينان فى الالهية وهو بديهى الاشتراك غير مايه الامتياز فيلزم التركيب فيهما فلا يكونان واجبين لكونهما مركبين فيلزم التعطيل واما اعتبارا فلان الشرف لمن يكون ملكا أوفر بمعنى ملك لكن الانسان لا يكون ملكا للسموات والارض فأعلى درجاته أن يكون قريب الملك لكن القربة بالعبادة كما قال تعالى واسجد واقترب وقال لن يتقرب المقربون الى بمثل أداء ما افترضت عليهم وقال لا يزال العبد يتقرب بالعبادة الى فالمعطل لا ملك ولا قرب بمعنى ملك لعدم اعتقاده ملك فلا مرتبة له أصلا واما المشرك فلان من يكون سيده لا نظير له يكون أعلى رتبة ممن يكون سيده له شركاء

مفعول له لما فهم أي افرط الحزن والتحسر أو حال مما قبله من الضمير أو منه أي قاتلها عليهم ويجوز حمل النظم لكم على الاستعارة التبعية بجعل التشبيه بين أحوالهم الطارئة لا بين الهيئتين المنتزعتين منهما كما في التمثيل وقد مر تحقيقه في تفسير قوله تعالى ختم الله على قلوبهم (انا جعلنا ما على الارض) استئناف وتعليل لما في لعل من معنى الاشفاق أي أنا جعلنا ٥١٣ ما عليها من عدد أمن وجه اليه التكالف من الزخارف حيوانا كان أو نباتا أو معدنا كقوله تعالى هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا (زينة) مفعول ثان للجعل ان حمل على معنى التصيير أو حال ان حمل على معنى الايجاد واللام في (لها) اما متعلقة بزينة أو بمحذوف هو صفة لها أي كائنة لها أي ليتمتع بها الناظرون من المكلفين ويتخذ قولها نظرا واستدلالا لانفاق الحيوانات والمعادن من حيث تذكيرهما اعدادا لها الآخرة من قبيل المنافع بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالته على وجود الصانع ووحدته فان الازواج والاولاد أعظم من زينة الحياة الدنيا بل أعظمها ولا يمنع ذلك كونهم من حيث المكلفين فانهم من جهة انتسابهم الى أصحابهم واختلون تحت الزينة ومن جهة كونهم مكلفين (لنبلوهم) متعلق بجعلنا أي جعلنا ما جعلنا لمعاملتهم معاملة من يختبرهم (أيهم أحسن

خسيسة فاذن من يقول ان ربي لا يمانله شيء أعلى مرتبة ممن يقول سيدي صنم مقهور عاجز مثله فثبت أن عباد الله وثقاته وخيرة الله أي خيار الناس أن كانوا يعلمون ما ذكرناه من الدلائل والاعتبارات ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا﴾ ذكر بطلان مذهبهم بالغ الوجوه وذلك لان المعبود اما يعبد لاحد أمورا ما لكونه مستحقا للعبادة لذاته كالعبد يخدم سيده الذي اشتراه سواء أطعمه من الجوع أو منعه من الجوع وأما لكونه نافعا في الحال كمن يخدم غيره لغير يوصله اليه كالمستخدم باجرة وأما لكونه نافعا في الاستقبل كمن يخدم غيره متوقعا منه أمرا في المستقبل وأما لكونه خائفا منه فقال ابراهيم انما تعبدون من دون الله أوثانا اشارة الى أنها لا تستحق العبادة لذاتها لكونها أوثانا لا شرف لها ﴿قوله تعالى﴾ ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون﴾ اشارة الى عدم المنفعة في الحال وفي المآل وبعدم الامرين انتفى امكان الوجود رأسا في البقاء لكن ليس منهم نفع في الوجود لان وجودهم منكم حيث تخلقونهم وانتم توجدونهم ولو لم توجدوهم في البقاء لان ذلك بالرزق وليس منهم ذلك ثم بين ان ذلك كله حاصل من الله فقال فابتغوا عند الله الرزق فقوله الله اشارة الى استحقاق عبوديته لذاته وقوله الرزق اشارة الى حصول النفع منه عاجلا وآجلا وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال لا يملكون لكم رزقا ثم قال فابتغوا عند الله الرزق ممن فائدة الفاء فصول قال الزمخشري قال لا يملكون رزقا لكم في معرض النفي أي لا رزق عندهم أصلا وقال ممن عرفه عند الاثبات عند الله أي كل الرزق عنده فاطلبوه منه وفيه وجه آخر وهو أن الرزق من الله معروف بقوله ومن دابة في الارض الا على الله رزقها والرزق من الاوثان غير معلوم فقال لا يملكون لكم رزقا لعدم حصول العلم به وقال فابتغوا عند الله الرزق لامر معلوم ثم قال فاعبدوه أي اعبدوه لكم مستحقا للعبادة لذاته واشكروا له أي لكونه سابق النعم بالخلق وأصلها بالرزق واليه ترجعون أي اعبدوه لكونه مرجعا منه يتوقع الخير لا غير ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول الا البلاغ المبين﴾ لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال وان تكذبوا وفي المخاطب في هذه الآية وجهان (أحدهما) أنه قوم ابراهيم والآية حكاية من قوم ابراهيم كأن ابراهيم قال لقومه ان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وأنا أتيت بما علي من التبليغ فان الرسول ليس عليه الا البلاغ والبيان (والثاني) انه خطاب مع قوم محمد عليه السلام ووجهان الحكايات أكثرها انما تكون انما قد لكم ذكرنا تسلي اطلب المكذبين وأذكر لهم ما يقول الطالب لاي شيء حكيت هذه الحكاية فاني عليه السلام كان مقصودة ذكر قومه بحال من مضى بني يستعمون التكذيب ويرتدعون فان من التعجيب فقال في أثناء كلامهم يا قوم ان تكذبوا فقد كذب قبلكم أقوام وأهلكوا فان كذبتم أخاف عليكم ما جاء على غيركم وعلى الوجه الاول في الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ان قوله فقد كذب أمم كيف يفهم مع أن ابراهيم لم يسمع الا قوم نمرود وهم أمة واحدة وجوابه من وجهين (أحدهما) ان قبل نوح كان أقوام كقوم ادريس وقوم شيث وآدم (والثاني) ان نوحا عاش ألفا وأكثر وكان القرن موت وبعثي أولاده والآباء يوصون الابناء بالامتناع عن الاتباع فكذبي قوم نوح أعما ﴿المسئلة الثانية﴾ ما البلاغ والمبين فنقول البلاغ هو ذكر الدلائل والاتيان بما هي اقامة البرهان عليه ﴿المسئلة الثالثة﴾ الآية تدل على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز لان الرسول اذا بلغ شيئا ولم يبينه فانه لم يأت بالبلاغ المبين فلا يكون آتيا بما عليه ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير﴾ لما بين الاصل الاول وهو التوحيد وأشار الى الاصل الثاني وهو الرسالة

والمفاز ولذلك أجرى مجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعية وأعاد موصولة بمعنى الذى وأحسن خبر مبتدأ مضمر والجملة صلة لها وهى فى حيز النصب بدل من مفعول لنبلوهم والتقدير لنبلو الذى هو أحسن عملا فحينئذ يحتمل أن تكون الضمة فى أيهم للبناء كما فى قوله عز وجل ثم لننزعن من كل شيعة أيهم ٥١٤ أشد على الرحمن عتيا على أحد الاقوال لتحقق شرط البناء الذى هو الاضافة لفظا وحذف صدر الصلة وأن تكون للاعراب لان ما ذكر شرط لجواز البناء لا لوجوبه وحسن العمل الزهد فيها وعدم الاغترار بها والقناعة بما تيسر منها وصرفها على ما ينبغى والتأمل فى شأنها وجعلها ذريعة الى معرفة خالقها والتمتع بها حسبما أذن له الشرع وأداء حقوقها والشكر لها لا لانفاذها وسيلة الى الشهوات والاغراض الفاسدة كما يفعله الكفرة وأصحاب الاهواء وايراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح أيضا لالى الحسن والاحسن فقط للاشعار بأن الغاية الاصلية للعمل المذكور انما هو ظهور كمال احسان المحسنين على ما حققنى فى تفسير قوله تعالى (وانا لجاعلون) فيما سيأتى عند تناهى عمر الدنيا (ما عليها) من المخلوقات فاطمة بافنائها بالكلية وانما أظهر فى مقام الاضمار زيادة التقرير أو لادراج الممكنين فيه (صعيدا) مفعول ثان للجعل والصعيد التراب أو وجه الارض قال أبو عبيدة هو المستوى من الارض وقال الزجاج هو الطريق الذى لا نبات فيه (جرزا) ترابا لا نبات فيه بعد ما كان يتعجب من بهجة النظار وتشرف بمشاهدته الابصار يقال أرض جرز لا نبات فيها وسنة جرز لا مطر فيها قال الفراء جرزت الارض فهى مجروزة أى ذهب نباتها بالقحط أو جراد ويقال

وقوله وما على الرسول الا البلاغ المبين شروع فى بيان الاصل الثالث وهو الحشر وقد ذكرنا مرارا ان الاصول الثلاثة لا يكاد يخلو عنها فصل من فصول القرآن الكريم فلا حاجة الى أن ينبه على ذكر الالهى فلا نطيل بذكرها ثانيا فنقول الآية مسائل (المسئلة الاولى) الانسان متى رأى بدء الخلق حتى يقال أولم يروا كيف يبدئ الله فنقول المراد العلم الواضح الذى كالرؤية والعاقل يعلم أن البدء من الله لان الخالق الاول لا يكون من مخلوق والا لكان الخالق الاول خلقا أول فهو من الله هذا ان قلنا ان المراد اثبات نفس الخلق وان قلنا ان المراد بالبدء بخلق الآدمى أولا وبالاعادة خلقه ثانيا فنقول العاقل لا يخفى عليه ان خالق نفسه ليس الا فادرا حكيما يصور الاولاد فى الارحام ويخلقه من نطفة فى غاية الاتقان والاحكام فذلك الذى خلق أولا معلوم ظاهر فاطلق على ذلك العلم النظر الرؤية وقال أولم يروا أى ألم يعلموا علما ظاهرا واضحا كيف يبدئ الله الخلق يخلقه من تراب جسمه فكذلك يجمع أجزاءه من التراب يلتئم فيه روحه بل هو أسهل بالنسبة الى الحكم فان من نحت حجارات ووضع شيأ بجنب شئ فرقه أمر ما فانه يقول ووضعه شيأ بجنب شئ فى هذه النوبة أسهل على لان الحجارات مختلفة ومعلوم ان آية واحدة منها تصلح لان تكون بجنب الاخرى وعلى هذا المخرج خرج كلام الله فى قوله وهو أهون وانما الاشارة بقوله ان ذلك على الله يسير (المسئلة الثانية) قال أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق على الرؤية بالكيفية لا بالخلق وما قال أولم يروا أن الله خالق أو بدأ الخلق والكيفية غير معلومة فنقول هذا التقدير من الكيفية معلوم وهو أنه خلقه ولم يكن شيأ مذكورا وأنه خلقه من نطفة هى من غذاء هو من ماء وتراب وهذا القدر كاف فى حصول العلم بامكان الاعادة فان الاعادة مثله (المسئلة الثالثة) لم قال ثم يعيده ان ذلك على الله يسير فأبرز اسمه مرة أخرى ولم يقل ان ذلك عليه يسير كما قال ثم يعيده من غير ابراز نقول مع اقامة البرهان على أنه يسير فاكده باظهار اسمه فانه يوجب المعرفة أيضا يكون ذلك سببا فان الانسان اذا سمع لفظ الله وفهم معناه انه الحى القادر بقدرة كاملة لا يعجزه شئ العالم بعلم محيط بذرات كل جسم نافذ الارادة لارادتنا أراده ينقطع بجواز الاعادة ثم قال تعالى (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ان الله على كل شئ قدير) الآية المتقدمة كانت اشارة الى العلم الحدسى وهو الحاصل عن غير طلب فقال أولم يروا على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه وقال فى هذه الآية قل لتحصل لكم هذا العلم فتفكروا فى أقطار الارض لتعلموا بالعلم الفكرى وهذا لان الانسان له مرآة فى الادراك بعضهم يدرك شيأ من غير تعلم واقامة برهان له وبعضهم لا يفهم الا بالبرهان وبعضهم لا يفهمه أصلا فقال ان كنتم لستم من القبيل الاول فسيروا فى الارض أى سيروا أفكاركم فى الارض وأحضروا فى أفكاركم فى الحوادث الماضية عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال فى الآية الاولى بلفظ الرؤية وفى هذه بلفظ النظر ما الحكمة فيه؟ نقول العلم الحدسى أتم من العلم الفكرى كما بين والرؤية أتم من النظر لان النظر يفضى الى الرؤية يقال نظرت فرأيت والمفضى الى الشئ دون ذلك الشئ فقال فى الاولى أما حصلت لكم الرؤية فانظروا فى الارض لتحصل لكم الرؤية (المسئلة الثانية) ذكر هذه الآية تصبيرة الامر فى الآية الاولى بسبب الاستفهام لان العلم الحدسى ان حصل فالامر به تحصيل الحاصل وان لم يحصل فلا يحصل الا بالطلب لان بالطلب يصير الحاصل فكرا فيكون الامر به تكليفا مالا يطاق وأما العلم الفكرى فهو مقدور فورد الامر به (المسئلة الثالثة) أبرز اسم الله فى الآية الاولى عند البدء حيث قال كيف يبدئ الله وأضمره عند الاعادة وفى هذه الآية أضمره عند البدء وأبرزه عند الاعادة حيث قال ثم الله ينشئ لان فى الآية الاولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند اليه البدء فقال

جزءها الجراد والشاة والابل اذا أكلت ما عليها وهذه الجملة لتكميل ما فى السابقة من التعليل والمعنى لا تحزن على ما عاينت من القوم من تكذيبهم ما أنزلنا عليك من الكتاب فانا قد جعلنا ما على الارض من فنون الاشياء زينة لها لنختبر أعمالهم فنجازيهم حسبها وانا لقادرون جميع ذلك عن قريب ونجازون اسهم بحسب أعمالهم (أم حسبت) الخطاب ٥١٥ لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد انكار

كيف يسدى الله ثم قال ثم بعده كما يقول القائل ضرب زيد عمرا ثم ضرب بكرا ولا يحتاج الى اظهار اسم زيد اكتفاء بالاول وفى الآية الثانية كان ذكر المبدء مستدعى الى اظهاره عند الاعادة ثانيا فلهذا لم يقل ثم أعادها كيف خرج زيد اسم متى كيف خرج ولا نظهر اسم زيد وانما اظهره عند الاعادة ثانيا حيث قال ثم الله ينشئ مع انه كان يكفى أن يقول ثم ينشئ النشأة الآخرة فلحكمة بالغة وهى ما ذكرنا ان مع اقامة البرهان على امكان الاعادة أظهر اسما من يفهم المسمى به بصفات كماله ونعوت جلاله يقطع بجواز الاعادة فقال الله مظهرا سبر زالبقع فى ذهن الانسان من اسمه كامل قدرته ومعول عليه ونفوذ ارادته ويستعرف بوقوع مبدئه وجواز اعادته فان قيل فلم يقل ثم الله يبدء ه الاية وما ذكرت من الحكمة والفائدة تقول نوجهين (أحدهما) ان الله كان مظهرا مبرزا يقرب منه وهو فى قوله كيف يسدى الله لفظ الخلق ولم يكن بينهما الا لفظ الخلق وأما هنا فلم يكن مذكورا عند البدء فظهر (وثانيهما) ان الدليل ههنا تم على جواز الاعادة لان الدلائل مقصورة فى الآفاق وفى الانفس كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم وفى الآية الاولى أشار الى الدليل النفسى الحاصل لهذا الانسان من نفسه وفى الآية الثانية أشار الى الدليل الحاصل من الآفاق بقوله قل سيروا فى الارض وعند هما تم الدليلان فاكده باظهار اسمه وأما الدليل الاول فاكده بالدليل الثانى فلم يقل ثم الله يبدءه (المسئلة الرابعة) فى الآية الاولى ذكر لفظ المستقبل فقال أولم يروا كيف يبدئ وههنا قال بلفظ الماضى فقال فانظروا كيف بدأ ولم يقل كيف يبدئ فنقول الدليل الاول هو الدليل النفسى الموجب للعلم الحدسى وهو فى كل حال يوجب العلم بما لا قى فقال ان كان ليس لكم علم بان الله فى كل حال يبدأ خلقا فانظروا الى الاشياء المخلوقة لتحصل لكم العلم بان الله بدأ خلقها وتحصل المطلوب من هذا القدر فلا يشتى كما يبدأ ذلك (المسئلة الخامسة) قال فى هذه الآية ان الله على كل شئ قدير وقال فى الآية الاولى ان ذلك على الله يسير وفيه فائدتان (احداهما) ان الدليل الاول والدليل النفسى وهو ان كان موجبه العلم الحدسى التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق اليه تحصل العلم العام لانا بالنظر فى نفسه علم نفسه وحاجته الى الله وجوده ممنوعا بالنظر الى الآفاق علم حاجة غيره اليه ووجوده منه فتم علمه بان كل شئ من الله فقال عند تمام ذكر الدليلين ان الله على كل شئ قدير وقال عند الدليل الواحد ان ذلك وهو اعادته على الله يسير (الثانية) هى انا بينا ان العلم الاول أتم وان كان الثانى أيضا موجبا كون الامر يسيرا على الفاعل أتم من كونه مقدورا لان الدليل يقرر فى حق من يحمل ما تعنى انه قادر عليه ولا يقول انه سهل عليه فاذا سئل عن سهله عشرة أمثال يقول ان ذلك على يسير فنقول قال الله تعالى ان لم تحصل لكم العلم التام بأن هذه الامور عند الله سهل يسير فقرروا فى الارض انها والله مقدور وبنفس كونه مقدورا كان فى امكان الاعادة ثم قال تعالى (ويعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون وما أنتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) لما ذكر النشأة الآخرة ذكر ما يكون فيه وهو تعذيب أهل التكذيب بعد ذكر آيات أهل الآيات فضلا ورحمة وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قدم التعذيب فى الذكر على الرحمة مع ان رحمته سابقة كما قال عليه السلام حكاية عنه سبقت رحمتى غضبى فنقول ذلك لوجهين (أحدهما) أن السابق ذكر الكفار فقدم ذكر المذاب السبق ذكره ولسبقه حكم الانبياء دوعقبه بالرحمة وكأنه ذكر بعد اثبات الاصل الاول وهو الوحيد الثانى بدئه ثم قال ان تكذبوا فقد كذب أمم وأهلكوا بالتكذيب كذلك ذكر بعد اثبات الاصل الآخر الثانى بدئه ذكر المذاب وذكر الرحمة وقع تماما لئلا يكون المذاب مذكورا برحمه وهذا يحقق قوله سبقت رحمتى غضبى وذلك لان الله حيث كان

وصيدهم والقوم فى الكهف هم وقيل هو لوح رصاصى أو حجرى رقمت فيه أسماؤهم وجعل على باب الكهف وقيل هو الوادى الذى فيه الكهف فهو من رقمة الوادى أى جانبه وقيل الجبل وقيل قريتهم وقيل مكانهم بين عمان وايلة دون فلسطين وقيل أصحاب الرقيم آخرون وكانوا لاثة انطبق عليهم الغار فتوابذكر كل منهم أحسن عمله على ما فصل فى الصحيحين (اذ أوى) ظرف لعجبا لا لحسبت أو

حسبان أمنه وأم منقطعة عقدرة بل التى هى للانتقال من حديث الى حديث لا للابطال وهمزة الاستفهام عند الجمهور وبل وحدها عند غيرهم أى بل أحسبت (أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا) من بين آياتنا التى من جملتها ما ذكرناه من جعل ما على الارض زينة لها للحكمة المشار اليها من جعل ذلك كله صعيدا جرزا كأن لم تغن بالامس (عجبا) أى آية ذات عجب وضعا له موضع المضاف أو وصفا للذات بالمصدر مبالغة وهو خبر كانوا ومن آياتنا حال منه والمعنى ان قصتهم وان كانت خارقة للعادات ليست بعجيبة بالنسبة الى سائر الآيات التى من جملتها ما ذكر من تعاجيب خلق الله تعالى بل هى عندها كالقتر الحقير والكهف الغار الواسع فى الجبل والرقيم كلهم قال أمية بن أبى الصلت

وليس بها الا الرقيم مجاورا له

مفعول لاذكر أى حين القوا (الفتية) أى أصحاب الكهف أوثر الاظهار على الاضمار لتحقيق ما كانوا عليه فى أنفسهم من حال الفتوة فانهم كانوا فتية من أشراف الروم أرادهم دقيانوس على الشرك فهربوا منه بدينهم ولان صاحبى الكهف من فروع التجائهم الى الكهف ذلا يناسب اعتبارهما معهم ٥١٦ قيل بإذنه (الى الكهف) يحيلهم للبلوس واتخذوه مأوى (فقالوا ربنا آتنا من لدنك)

من خزائن رحمتك الخاصة المكنونة عن عيون أهل العادات فمن اثداثية متعلقة بآتنا أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله الثانى قدمت عليه لكونه نكرة ولو تأخرت لكانت صفة له أى آتنا كائنة من لدنك (رحمة) خاصة تستوجب المغفرة والرزق والامن من الاعداء (وهيئ لنا من أمرنا) الذى نحن عليه من مهاجرة الكفار والمثابرة على طاعتك وأصل التهيئة احداث هيئة الشئ أى أصلح ورتب وأتم لنا من أمرنا (رشدا) اضافة للطريق الموصل الى المطلوب واهتدائنا اليه وكلا الجارين متعلق بهيئ لاختلافهما فى المعنى وتقديم المجرورين على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بهما وابراز الرغبة فى المؤخر بتقديم أحوالهما فان تأخير ما حقه التقديم عما هو من أحواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع الى ورود مبنى عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لاسيما وكذا الكلام فى تقديم قوله تعالى من لدنك على تقدير تعلقه بآتنا وتقديم لنا على من أمرنا للايذان من أول الامر بين

المقصود ذكر العذاب لم يحمه فى الذكر بل ذكر الرحمة معه (المسئلة الثانية) اذا كان ذكر هذا التخويف العاصى وتقريرها المؤمن فلو قال يعذب الكافر ويرحم المؤمن لكان أدخل فى تحصيل المقصود وقوله يعذب من يشاء لا يزيح الكافر فلم لا يقول لعلى لا أكون ممن يشاء الله عذابه فنقول هذا أبلغ فى التخويف وذلك لان الله أثبت بهذا النفاذ مشيئته اذا أراد تعذيب شخص فلا عنه منه مانع ثم كان من المعلوم للعباد بحكم الوعد والايعاد انه شاء تعذيب أهل العناد فلزم منه الخوف التام بخلاف ما لو قال يعذب العاصى فانه لا يدل على كمال مشيئته لانه لا يفيد انه لو شاء عذاب المؤمن لعذبه فاذا لم يفد هذا فيقول الكافر اذا لم يحصل مراد فى تلك الصورة يمكن أن يحصل فى صورة أخرى وانضرب له مثلا فنقول اذا قيل ان الملك يقتدر على ضرب كل من فى بلاده وقال من خالفنى أضربه يحصل الخوف التام لمن يخالفه واذا قيل انه قادر على ضرب المخالفين ولا يقتدر على ضرب المطيعين فاذا قال من خالفنى أضربه يقع فى وهم المخالف أنه لا يقتدر على ضرب فلان المطيع فلا يقتدر على أيضا الكونى مثله وفى هذا فائدة أخرى وهو الخوف العام والرجاء العام لان الامن الكلى من الله يوجب الجراءة فيفضى الى صيرورة المطيع عاصيا (المسئلة الثالثة) قال ثم انه تقولون مع أن هذه المسئلة قد سبق اثباتها وتقريرها فلم أعادها فنقول لما ذكر الله التعذيب والرحمة وهما قد يكونان عاجلين فقال تعالى فان تأخر عنكم ذلك فلا تظنوا انه فات فان الينا مآبكم وعلينا حسابكم وعندنا يدخر ثوابكم وعقابكم ولهذا قال بعدها وما أنتم بمعجزين يعنى لا تفوتون الله بل الآ تنقلبون اليه ولا يمكن الانقلاب منه * وفى تفسير هذه الآية لطائف (احداها) هى اعجاز المعذب عن التعذيب اما بالهرب منه أو بالثبات له والقاء معه للدفع وذكر الله القسمين فقال وما أنتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء يعنى بالهرب لو صعدتم الى محل السماك فى السماء أو هبطتم الى موضع السمك فى الماء لا تخرجون من قبضة قدرة الله فلا مطمع فى الاعجاز بالهرب وأما بالثبات فكذلك لان الاعجاز اما ان يكون بالاستناد الى ركن شديد يشفع ولا يمكن للعذب مخالفته فيفوته العذاب ويعجزه أو بالانتصار بقوم يقومه بالدفع وكلاهما محال فانكم مالكم من دون الله ولى يشفع ولا نصير يدفع فلا اعجاز لا بالهروب ولا بالثبات (الثانية) قال ما أنتم بمعجزين ولم يقل لا تعجزون بصيغة الفعل وذلك لان نفى الفعل لا يدل على نفى الصلاحية فان من قال ان فلانا لا يخيط لا يدل على ما يدل عليه قوله انه ليس بخياط (الثالثة) قدم الارض على السماء والولى على النصير لان هربهم الممكن فى الارض فان كان يقع منهم هرب يكون فى الارض ثم ان قدرنا لهم قدرة غير ذلك فيكون لهم صعود فى السماء وأما الدفع فان العاقل ما أمكنه الدفع بأجل الطرق فلا يرتقى الى غيره والشفاعة أجل ولان ما من أحد فى الشاهد الا ويكون له شفيع يكلم فى حقه عند ملك ولا يكون كل أحد له ناصر يعادى الملك لاجله ﴿ثم قال تعالى ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم﴾ لما بين الاصلين التوحيد والاعادة وقررهما بالبرهان وهدد من خالفه على سبيل التفصيل فقال والذين كفروا بآيات الله ولقائه اشارة الى الكفار بالله فان لله فى كل شئ آية دالة على وحدانيته فاذا أشرك كفر بآيات الله واشارة الى المنكر للحشر فان من أنكره كفر بلقاء الله فقال أولئك يئسوا من رحمتى لما أشركوا أخبروا أنفسهم عن محل الرحمة لان من يكون له جهة واحدة تدفع حاجته لا غير يرجو واذا كان له جهات متعددة لا يبقى محلا للرحمة فاذا جعلوا لهم آلهة لم يعترفوا بالحاجة الى طريق متعين فيأسوا من رحمة الله ولما أنكروا الحشر قالوا للاعذاب فناسب تعذيبهم تحقيقا للامر عليهم وهذا كما ان الملك اذا قال أعذب من يخالفنى فأنكره بعيد عنه وقال هو لا يصل الى فاذا أحضره

يكون المسؤل مرغوبا فيه لديهم أو اجعل أمرنا رشدا كله على أن من تجريدية مثلها فى قولك رأيت منك أسدا (فضربنا على آذانهم) أى أنمناهم على طريقة التمثيل المبنى على تشبيه الانامة الثقيلة المانعة عن وصول الاصوات الى الآذان بضرب الحجاب عليها وتخصيص

الاذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر فيها في الحج عن الشعور عند النوم لما أنها المحتاج الى الحج عادة اذهى الطريقة للتيقظ غالبا لاسيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق وقيل الضرب على الاذان كناية عن الامامة الثقيلة وحمله على تعطيلها كما في قولهم ضرب الامير على يد الرعية أي منعهم من التصرف مع عدم ملاءمته لما سيأتي من البعث لا يدل ٥١٧ على النوم مع أنه المراد قطعا والفاء في فضربنا كما في قوله عز وجل فاستجبنا له بعد قوله تعالى اذ نادى فان الضرب المذكور وما ترتب عليه من التقليب ذات اليمين وذات الشمال والبعث وغير ذلك آيات رحمة للذين خافوه تعالى ممن أصاروا المتمسكين بالاسباب العادية استقامة له عوضهم (في الكهف) ظرف مكان لضربنا (سنين) ظرف زمان له باعتبار مدلوله لا ابتدائه (عددا) أي ذوات عدد أو ذات عدد على انه مصدر أو معدودة على أنه بمعنى المفعول ووصف السنين بذلك أما للتكثير وهو الانسب باظهار كمال اقدرة أو للتقليل وهو الاليق بمقام انكار كون القصة عجبا من بين سائر الآيات العجيبة فان مدة لبثهم كبعض يوم عنده عز وجل (ثم بعثناهم) أي أيقظناهم من تلك النومة الثقيلة الشبيهة بالموت (لنعلم) بتون العظمة وقرئ بالياء مبنيا للفاعل على طريق الالتفات وأيا ما كان فهو غاية للبعث بين يديه يحسن منه أن يعذبه ويقول هل عذبت أم لا فائدتين تبين أن عدم الرحمة بناسب الاشراك والعذاب الاليم يناسب انكار الحشر ثم ان في الآية فوائد (احداها) قوله أولئك يئسوا حتى يكون منبئا عن حسرة الناس فيهم وقال أيئسوا أولئك لهم عذاب أليم لذلك ولو قال أولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه يئسوا من رحمتي ولهم عذاب أليم ما كان يحصل هذه الفائدة فان قال قائل لو اكتفى بقوله أولئك مرة واحدة كان يكفي في افادة ماذكرتم قلنا الاولى ذلك لانه لو قال أولئك يئسوا ولهم عذاب كان يذهب وهم أحد الى أن هذا المجموع منحصر فيهم فلا يوجد المجموع الا فيهم ولكن واحدة منهما وحدها يمكن ان يوجد في غيرهم فاذا قال أولئك يئسوا وأولئك لهم عذاب أفاد ان كلا منهما لا يوجد الا فيهم (الثانية) عند ذكر الرحمة اضافها الى نفسه فقال رحمتي وعند العذاب لم يضفه لسبق رحمته واعلامه لعباده بعمومها لهم ولزومها له (الثالثة) أضاف اليأس اليهم بقوله أولئك يئسوا لعرفهم ما عليهم ولوطهم ولا باحتهم فلو قال قائل ماذكرت من مقابلة الامرين وهما اليأس والعذاب بأمرين وهما الكفر بالآيات والكفر باللقاء يقتضي أن لا يكون العذاب الاليم بان كفر بالله واعترف بالحشر أولا يكون اليأس لمن كفر بالحشر وآمن بالله فنقول معنى الآية انهم يئسوا ولهم عذاب أليم زائد بسبب كفرهم بالحشر ولا شك أن التعذيب بسبب الكفر بالحشر لا يكون الا للكافر بالحشر واما الآخر فالكافر بالحشر لا يكون مؤمنا بالله لان الايمان به لا يصح الا اذا صدقه فيما قاله والحشر من جملة ذلك ﴿ ثم قال تعالى ﴾ (فما كان جواب قومه الا ان قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) لما أتى ابراهيم عليه السلام ببيان الاصول الثلاثة وأقام البرهان عليه بقي الامر من جانبهم اما الاجابة أو الاتيان بما يصلح أن يكون جوابه فلم يأتوا الا بقولهم اقتلوه أو حرقوه وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) كيف سمي قولهم اقتلوه جوابا مع انه ليس بجواب * فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) انه خرج منهم مخرج كلام المتكبر كما يقول الملك لرسول خصمه جوابكم السيف مع أن السيف ليس بجواب وانما معناه لا أقابله بالجواب وانما أقابله بالسيف فكذلك قالوا لا جواب عن براهينه واقتلوه أو حرقوه (الثاني) هو ان الله أراد بيان ضلالهم وهو انهم ذكروا في معرض الجواب هذا مع انه ليس بجواب فتبين انهم لم يكن لهم جواب أصلا وذلك لان من لا جواب غيره ويسكت لا يملم أنه لا يقدر على الجواب وانما أن يكون سكوته عدم الالتفات اما اذا أتى بجواب فاسد علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه (المسئلة الثانية) القائلون الذين قالوا اقتلوه هم قومه والمأمورون بقولهم اقتلوه أيضا هم فيكون الآمر نفس المأمور فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان كل واحد منهم قال لمن عداه اقتلوه فجعل الامر من كل واحد وصار المأمور كل واحد ولا اتحاد لان كل واحد أمر غيره (وثانيهما) هو ان الجواب لا يكون الا من الاكابر والرؤساء فاذا قال اصيبان بالكلا ما يقال اتفق أهل البلدة على هذا ولا يلتفت الى عدم قول العبيد والارذال فكان جواب قومه وهم الرؤساء ان قالوا اتباعهم وأعوانهم اقتلوه لان الجواب لا يباشره الا الاكابر والفعل لا يباشره الا الاتباع (المسئلة الثالثة) أو ما ذكر بين أمرين الثاني منهما ينفك عن الاول كما يقال زوج أو فرد ويقال هذا انسان أو حيوان يعني ان لم يكن انسانا فهو حيوان ولا يصح ان يقال هذا حيوان أو انسان اذ يفهم منه أنه يقول هو حيوان فان لم يكن حيوانا فهو انسان وهو محال لكن التفريق مستعمل على النقل فقوله اقتلوه أو حرقوه كقول القائل حيوان أو انسان الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان الاستعمال على خلاف ماذكرتم شائع ويكون أوسع له في موضع بل كما يقول القائل أعطيته دينارين وكما يقول القائل اعطه دينارا بل دينارين قال الله تعالى ﴿ ولا تطع منهم آثما أو كفورا ﴾ ولم يقل آثما وكفورا ﴿ وقال تعالى ﴾

الثابت على الايمان والمتزلزل فيه وتعلق بكل من الفريقين العلم الخالي والاظهار والتمييز وأما ما مات مؤلاء فلم يترتب عليه تفرقهم الى المحق وغيره حتى يتعلق بهما العلم أو الاظهار والتمييز وبقي شيء من ذلك في سلك الغاية وانما الذي ترتب عليه تفرقهم الى مقدر تقديرا غير مصيب ومفوض ٥١٨ الى العلم الرباني وليس شيء منهما من الاحصاء في شيء بل يحمل النظم الكريم على التمثيل المبني على جعل العلم عبارة عن الاختبار مجازا بطريق اطلاق اسم المسبب على السبب وليس من ضرورة الاختبار صدور الفعل المختبر به عن المختبر قطعا بل قد يكون لاظهار عجزه عنه على سبيل التكاليف التعجيزية كقوله تعالى فأتت بها من المغرب وهو المراد ههنا فالمعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم (أي الحزبين) أي الفريقين المختلفين في مدة لبثهم بالتقدير والتفسير هي كما سيأتي (أحصى) أي أضبط (لما لبثوا) أي للبثهم (أمدا) أي غاية فيظهر لهم عجزهم وفوض ذلك الى العليم الخبير وتضرعوا الى ربهم ومالكهم وما صنع الله تعالى بهم من حفظ أبدانهم وأديانهم فيزداد ايقانا بكمال قدرته وعلمه وتستصغر عنده أمر البعث ويكون ذلك لطفا لمن رضي زمانهم وآية بينة لكفارهم وقد اقتصر ههنا من تلك الغايات الجليلة على ذكر مبدئها الصادر عنه عز وجل وفيما سيأتي على ما صدر عنهم من التساؤل المؤدي اليها وهذا أولى من تصوير التمثيل بأن يقال بعثناهم بموتهم من يريد وهدايته أن يعلم الخ حسبما وقع في تفسير قوله تعالى وليعلم الله الذين آمنوا على أحد الوجوه حيث حمل على معنى فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الايمان من غير الثابت اذ بريء توهم منه استلزام الارادة لتحقق المراد فيعود المحذور فيصار الى حمل ارادة العلم عبارة عن

تعالى قدم القليل الاقليل نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه فكذلك ههنا قالوا ولو يريد وا على القتل وحرقوه (الجواب الثاني) هو انا نسلم ما ذكرتم والامر هنا كذلك لان التحريق فعل مفض الى القتل وقد يتخلف عنه القتل فان من ألقى غيره في النار حتى احترق جلده بأسره وأخرج منها حيا يصح أن يقال احترق فلان وأحرقه فلان وما مات فكذلك ههنا قالوا القتلوه أولا تجعلوا قتله وعذبوه بالنار وان تركتم مقالته فخلوا سبيله وان أصر فخلوا في النار مثله ثم قال تعالى فأنجاه الله من النار اختلف العقلاء في كيفية الانجاء بعضهم قال برد النار وهو الاصح الموافق لقوله تعالى يا نار كوني بردا وبعضهم قال خلق في ابراهيم كيفية استبرد بها النار وقال بعضهم تركه ابراهيم على ما هو عليه والنار على ما كانت عليه ومنع اذى النار عنه والكل ممكن والله قادر عليه وأنكر بعض الاطباء الكل أما سلب الحرارة عن النار فلان الحرارة في النار ذاتية كالزوجية في الاربعة لا يمكن أن تفارقها وأما خلق كيفية تستبرد النار فلان المزاج الانساني له طرفا تفريط وافراط فلو خرج عنهما لا يبقى انسانا أو لا يبقى مثلا المزاج ان كان البارد فيه عشرة أجزاء مكون انسانا فان صار أحد عشر لا يكون انسانا وان صارت الاجزاء الباردة خمسة يبقى انسانا فاذا صارت أربعة لا يبقى انسانا لكن البرودة التي يستبردها النار مزاج المعتدل فلو جعل في الانسان لمات أو لكان ذلك فان النفس تابعة للمزاج وأما الثالث فمحال أن تكون القطنة في النار والنار كاشي والقطنة كاشي ولا تحترق فنقول الآية رد عليهم والمعقول موافق للنقل (اما الاول) فلوجهين (أحدهما) أن الحرارة في النار تقبل الاشتداد والضعف فان النار في التنور انما تبقى نارا بسبب شدتها بحيث يذيب الحديد وان لم يبق لا يشتد لكن الضعف هو عدم بعض من الحرارة كانت في النار فاذا أمكن عدم البعض جاز عدم كل بعض آخر من ذلك عليها الى أن ينتهي الى حد لا يؤذي الانسان ولا كذلك الزوجية فانها لا تشتد ولا تضعف (والثاني) وهو ان في أصول الطب ذكر ان النار لها كيفية مبارة كما أن الماء له كيفية مبارة لكن رأينا ان الماء تزول عنه البرودة وهو ماء فكذلك النار تزول عنها الحرارة وتبقى نارا وهو ظاهر غير محترق (وأما الثاني) فأيضا ممكن وقولهم مدفوع من وجهين (أحدهما) منع أصلهم من كون النفس تابعة للمزاج بل الله قادر على أن يخلق النفس الانسانية في المزاج الذي مثل مزاج الجمد (وثانيهما) ان نقول على أصلكم لا يلزم المحال لان الكيفية التي ذكرناها تكون في ظاهر الجلد كالاجزاء الرشية عليه ولا يتأدى الى القلب والاعضاء الرئيسة الا ترى ان الانسان اذا مس الجمد زمانا ثم مس جمرة نار لا تؤثر النار في يده مثل ما تؤثر في الحواني يده من أخرج يده من جيبه ولم تحترق يده تقول يده فلان اذا لم يوجد كيفية في ظاهر جلد الانسان تمنع تأثير النار فيه بالاحراق زمانا فيجوز أن تتجدد تلك الكيفية لحظة فلحظة حتى لا تحترق (وأما الثالث) فمجرد استبعاد بيان عدم الاعتياد ولكن نسلم ان ذلك غير معتاد لانه معجز والمعجز ينبغي أن يكون خارقا للعادة ثم قال تعالى ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون يعني في انجائه من النار لآيات وهذا مسائل (المسئلة الاولى) قال في انجاء نوح وأصحاب السفينة جعلناها آية وقال ههنا الآيات بالجمع لان الانجاء بالسفينة شيء تسع له العقول فلم يكن فيه من الآية الا بسبب اعلام الله اياه بالاقدار وقت الحاجة فان لولا ما أخذه لعدم حصول علمه بما في الغيب وبسبب ان الله صان السفينة عن الهلكات كالرياح العاصفة وأما الانجاء من النار فعجيب فقال فيه آيات (المسئلة الثانية) قال هناك آية للعالمين وقال ههنا لقوم يؤمنون خص الآيات بالمؤمنين لان السفينة بقيت أعواما حتى مر عليها الناس ورأوها فحصل العلم بها لكل أحد وأما تبريد النار لم يبق فلم يظهر لمن بعده الا بطريق الايمان به والتصديق وفيه لطيفة وهي أن الله لما برد النار على ابراهيم بسبب اقتداء في نفسه

الاختيار فاختبر واعتبر هذا وقد قرئ ليعلم مبنيا للمفعول ومبنيا للفاعل من الاعلام على أن المفعول الاول محذوف والجملة المصدرة بأي في موقع المفعول الثاني فقط ان جعل العلم عرفانيا وفي موقع المفعولين ان جعل يقينيا أي ليعلم الله الناس أي الحزبين أحصى الخ وروى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ان أحد الحزبين الفئة والآخر الملوك الذين تداولوا ٥١٩ المدينة ملكا بعد ملك وقيل كلاهما

وهدايته لابنائه حسنه وقد قال الله للؤمنين بأن لهم اسوة حسنة في ابراهيم فهل لؤمن بشارة بأن الله يبرد عليهم النار يوم القيامة فقال ان في ذلك لآيات اقوم يؤمنون (المسئلة الثالثة) قال هناك جعلناها وقال ههنا جعلنا لان السفينة صارت آية في نفسها ولولا خلق الله الطوفان لبقي فعل نوح سفينة فالله تعالى جعل السفينة بعد وجودها آية وأما تبرد النار فهو في نفسه آية اذا وجد لا يحتاج الى أمر آخر كخلق الطوفان حتى يصير آية ﴿ثم قال تعالى﴾ وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا وماواكم النار وما لكم من ناصرين ﴿ لما خرج ابراهيم من النار عاد الى عدل الكفار وبيان فسادها هم عليه وقال اذا رأيت لكم فسادا مذهبكم وما كان لكم جواب ولا ترجعون عنه فليس هذا الا لتقليد فان بين بعضكم وبعض مودة فلا يريد أحدكم ان يفارقه صاحبه في السيرة والطريقة أو بينكم وبين آبائكم مودة فهو يتبعهم وهو أخذتم مقالتهم ولزمتم طريقتهم فلا لهم وجهها ثم فقوله انما اتخذتم مودة بينكم يعني ليس بدليل أصلا وفيه وجه آخر وهو تحقيق دقيق وهو ان يقال قوله انما اتخذتم مودة بينكم أي مودة بين الاوثان وبين عبدتها وتلك المودة هي ان الانسان مشتمل على جسم وعقل وجسمه للذات جسمانية وعقله لذات عقلية ثم ان من غلب فيه الجسمية لا يلتفت الى اللذات العقلية ومن غلبت عليه العقلية لا يلتفت الى اللذات الجسمانية كالمجنون اذا احتاج الى قضاء حاجة من أكل أو شرب أو اراقة الماء وهو بين قوم من الاكابر في مجمع يحصل ما فيه لذة حسية من الاكل واراقة الماء وغيرهما ولا يلتفت الى اللذة العقلية من حسن السيرة وحسن الاوصاف ومكارم الاخلاق والعاقل يحمل الالم الجسماني ويحصل اللذة العقلية حتى لو غلبت قوته الدافعة على قوته الماسكة وخرج منعرج أو قطارة ماء يكاد يموت من العطش ثم لا يلتفت عقله الى الماء لان هذا فعل من غلبت الجسمية عليه ثم قلبي اذا أثبت هذا فهم كانوا يقولون ان الاصنام تشفع لعابديها يوم القيامة فقال تعالى انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم أي ان الاصنام مشتملة

الى السنين فهو مجموع ثلثمائة وتسع سنين وفي السورة الاخيرة منتهى ذلك المدة المنقسمة اليها أعني السنة التاسعة بعد الثلثمائة وتعلق الاحصاء بالامد بالمعنى الاول ظاهر وأما تعلقه به بالمعنى الثاني فباعتبار انتظامه لما تحته من مراتب العدد واشتماله عليها هذا على تقدير كون ما في قوله تعالى لما لبثوا ٥٢٠ مصدرية ويجوز أن تكون موصولة حذف عائدها من الصلة أي للذي لبثوا فيه من الزمان الذي عبر عنه فيما قبل بسنين عددا فالامد بمعناه الوضعي على ما تحققته وقيل اللام مزيدة والموصول مفعول وأمدا نصب على التمييز وأما ما قيل من أن أحصى أسم تفضيل لانه الموافق لما وقع في سائر الآيات الكريمة نحو أيهم أحسن عملا أيهم أقرب لكم نفعا الى غير ذلك مما لا يحصى ولان كونه فعلا ماضيا يشعر بازغاية البعث هو العلم بالاحصاء المتقدم على البعث لا بالاحصاء المتأخر عنه وليس كذلك وادعاء أن مجيء أفعل التفضيل من المزيد عليه غير قياسي مدفوع بأنه عند سيبويه قياس مطلقا وعند ابن عصفور فيما ليست همزته للنقل ولا ريب في أن ما نحن فيه من ذلك القبيل وامتناع عمل افعل فيما هو في غير التمييز من المعمولات وأما أن التمييز يجب كونه فاعلا في المعنى فلا مانع أن يتنزه عنه بصحة أن يقال أيهم احفظ لهذا الشعر وزنا أو نقطعا أو يقال ان العامل في أمدا فعل محذوف يدل عليه المذكور أي يحصى لما لبثوا أمدا كما في قوله * واضرب منا بالسيوف القوانسا * وحديث القريبة الوقوع في المحذور بلا فائدة مدفوع بما أشير اليه من فائدة المواقفة للنظائر فع ما فيه من الاعتساف والاخلال بمعزل من السداد لان مرادنا أن يكون المقصود بالاختبار اظهار أفضل الحزبين وتمييزه عن الادنى مع تحقق أصل الاحصاء فيهما ومن البين أن لا تحقق له

لا عبرة فهم به واما هناك فكان الكلام معهم وهم كانوا يدعون ان لا نفسهم شفعاء فقيل ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال هناك ما لكم من دون الله فذكر على معنى الاستثناء فيفهم أن لهم ناصرا ووليا هو الله وليس لهم غيره ولي وناصر وقال ههنا ما لكم من ناصرين من غير استثناء فنقول كان ذلك واردا على انهم في الدنيا فقال لهم في الدنيا ألا تظنون انكم تعجزون الله فما لكم أحد ينصركم بل الله تعالى ينصركم ان تبتم فهو ناصركم معد لكم متى أردتم استنصرتموه بالتوبة وهذا يوم القيامة كما قال تعالى ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض وعدم الناصر عام لان التوبة في ذلك اليوم لا تقبل فسواء تابوا أو لم يتوبوا لا ينصرهم الله ولا ناصر لهم غيره فلا ناصر لهم مطلقا ﴿ثم قال تعالى ﴿فآمن له لوط﴾ يعني بما رأى لوط من معجزته آمن ﴿وقال﴾ أبراهيم ﴿اني مهاجر الى ربي﴾ أي الى حيث أمرني بالتوجه اليه ﴿انه هو العزيز الحكيم﴾ عزيز يمنع أعدائي عن ايذائي بمعجزته وحكيم لا يأمرني الا بما وافق لكمال حكمته وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله آمن له لوط أي بعد ما رأى منه المعجز القاهر درجة لوط كانت عالية وبقاؤه الى هذا الوقت مما ينقص من الدرجة ألا ترى ان أبا بكر لما قبل دين محمد صلى الله عليه وسلم وكان نير القلب قبله قبل الكل من غير سماع تكلم الحصى ولا رؤية انشقاق القمر فنقول ان لوطا لما رأى معجزته آمن برسالته وأما بالوحدانية فآمن حيث سمع حسن مقالته والله أشار بقوله فآمن له لوط وما قال فآمن لوط ﴿المسئلة الثانية﴾ ما تعلق قوله وقال اني مهاجر الى ربي بما تقدم فنقول لما بالغ ابراهيم في الارشاد ولم يهتد قومه وحصل اليأس الكلي حيث رأى القوم الآية الكبرى ولم يؤمنوا وجبت المهاجرة لان الهادي اذا هدى قومه ولم ينتفعوا بقاؤه فيهم مفسدة لانه ان دأم على الارشاد كان اشتغالا بما لا ينتفع به مع علمه فيصير كمن يقول للحجر صدقني وهو عبث أو يسكت والسكوت دليل الرضا فيقال بأنه صار منا ورضي بأفعالنا وأذا لم يبق للاقامة وجه وجبت المهاجرة ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال مهاجر الى ربي ولم يقل مهاجرا الى حيث أمرني ربي مع أن المهاجرة الى الرب توهم الجهة فنقول قوله مهاجر الى حيث أمرني ربي ليس في الاخلاص كقوله الى ربي لان الملك اذا صدر منه أمر برواح الاجناد الى الموضع الفلاني ثم ان واحدا منهم سافر اليه لغرض نفسه يصح أن يقال سافر الى حيث أمره الملك ولكن لا على الوجه الذي يقال مهاجر الى ربي يعني توجهي الى الجهة المأمور بالهجرة اليها ليس طلبا للجهة انما هو طلبا لله تعالى ﴿ثم قال تعالى ﴿ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين﴾ قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم ان أثر رحمة الله في أمرين في الامان من سوء العذاب والامتنان بحسن الثواب وهو واصل الى المؤمن في الدار الآخرة قطعا بحكم وعد الله بنفي العذاب عنه لنفيه الشرك وانبات الثواب لاثباته الواحد ولكن هذا ليس بواجب الحصول في الدنيا فان كثيرا ما يكون الكافر في رغد والمؤمن جائع في يومه متفكر في أمر غده لتكفيه ما طلوبا في الدنيا أما دفع العذاب العاجل فلانه ورد في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم قوله وقنا عذاب القبر وقنا عذاب النار فعذاب القبر اشارة الى دفع العذاب العاجل وأما الثواب العاجل ففي قوله ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة اذا علم هذا فنقول ان ابراهيم عليه السلام لما أتى ببيان التوحيد أولا دفع الله عنه عذاب الدنيا وهو عذاب النار وما آتى به مرة بعد مرة مع اصرار القوم على التكذيب واضرارهم به بالتعذيب أعطاه الجزاء الآخروي والثواب العاجل وعده عليه بقوله ووهبنا له اسحق ويعقوب وفي الآية لطيفة وهي ان الله بدل جميع أحوال ابراهيم في الدنيا باضدادها لما أراد القوم تبديله بالنار وكان وحيدا فرد فبدل وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته وما كان أولا قومه وأقاربه

أصلا وأن المقصود بالاختبار اظهار عجز الكل عنه رأسا فهو فعل ماض قطعا وتوهم ابن انه بان غاية البعث هو العلم بالاحصاء المتقدم عليه مردود بان صيغة الماضي باعتبار حال الحكاية والله تعالى أعلم (نحن نقص عليك) شروع في تفصيل ما أجمل فيما سلف من قوله تعالى اذ أوى الفتية الخ اى نحن نخبرك بتفاصيل أخبارهم وقد مر بيان اشتقاقه ٥٢١ في مطالع سورة يوسف عليه السلام

القرية ضالين مضلين من جملتهم آزر بدل الله أقاربه بالاقارب مهتدين عادلين وهم ذريته الذين جعل فيهم النبوة والكتاب وكان أولا لاجاله ولآل وهما غاية اللذة الدنيوية آتاه الله أجوده من المال والجاه فكثر ماله حتى كان له من المواشي ما علم الله عدده حتى قيل انه كان له اثنا عشر ألف كاب يحارس بأطواق ذهب وأما الجاه فصار بحيث يقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الانبياء الى يوم القيامة فصار معروفا بشيخ المرسلين بعد ان كان خاملا حتى قال قائلهم مناقبي يذكرهم يقال له ابراهيم وهذا الكلام لا يقال الا في مجهول بين الناس ثم ان الله تعالى قال وانه في الآخرة لمن الصالحين يعني ليس له هذا في الدنيا فحسب كما يكون لمن قدم له ثواب حسناته أولا ثم له استدراجا لكثرة من سيأتيه بل هذا له عجالة وقوله في الآخرة ثواب الدلالة والرسالة وهو كونه من الصالحين فان كون العبد صالحا أعلى مراتبه اما بأن يأتي أن الصالح هو الباقي على ما ينبغي يقال الطعام بعد صالح اى هو باق على ما ينبغي ومن بقي على ما ينبغي لا يكون في عذاب ويكون له كل ما يريد من حسن ثواب وفي الآية مسئلتان (احداهما) ان اسمعيل كان من أولاده الصالحين وكان قد أسلم لامر الله بالذبح وانقاد لحكم الله فلم يذكر فيقال هو مذكور في قوله وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب لم يصرح باسمه لانه كان غرضه تبيين فضله عليه بمهمة الاولاد والاحفاد فذكر من الاولاد واحدا وهو الاكبر ومن الاحفاد واحدا وهو الاظهر كما يقول القائل ان السلطان في خدمته الملوك والامراء الملك الفلاني والامير الفلاني ولا يعدد الكل لان ذكر ذلك الواحد لسان الجنس لانقطاعه وعليه ولو ذكر غيره لتوهم منه التعديد واستيعاب الكل بالذكر فيظن ان ليس معه غيره الثاني الكوري ﴿المسئلة الثانية﴾ أن الله تعالى جعل في ذريته النبوة اجابة لدعائه والولد يستحب منه أن يسعى بين ولديه فكيف صارت النبوة في أولاد اسحق أكثر من النبوة في أولاد اسمعيل ﴿فنقول الله تعالى قسم الزمان من وقت ابراهيم الى القيامة قسمين والناس جمعين فالقسم الاول من الزمان بعث الله فيه أنبياء فيهم فضائل جمة وجارا تترى واحد بعد واحد ومجتمعين في عصر واحد كلهم من ورثة اسحق عليه السلام ثم في القسم الثاني من الزمان أخرج من ذريته ولده الآخر وهو اسمعيل وأهدى فيه ما كان قيم وأرسله الى كافة الخلق وهو محمد صلى الله عليه وسلم وجعله خاتم النبيين وقدر دام الخلق على دين أولاد اسحق أكثر من أربعة آلاف سنة فلا بعد أن يبقى الخلق على دين ذرية اسمعيل مثل ذلك المقدار ﴿ثم قال تعالى ﴿ولوطا﴾ اذ قال لقومه أئنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه الا ان قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين قال رب انصرني على القوم المفسدين ﴿الاعراب في لوط والتفسير كما ذكرنا في قوله وابراهيم اذ قال لقومه وههنا مسائل (الاولى) قال ابراهيم لقومه اعبدوا الله وقال عن لوط ههنا انه قال لقومه لتأتون الفاحشة ﴿فنقول لما ذكر الله لوطا عند ذكر ابراهيم وكان لوط في زمان ابراهيم لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالتوحيد مع ان الرسول لا بد من أن يقول ذلك فنقول حكاية لوط وغيرها هنا ذكره الله على سبيل الاختصار فاقتصر على ما اختص به لوط وهو المنع من الفاحشة ولم يذكر عنه الامر بالتوحيد وان كان قائما في موضع آخر حيث قال اعبدوا الله مالكم من اله غيره لان ذلك كان قد أتى به ابراهيم وسبقه فصار كالمختص به ولوط يبلغ ذلك عن ابراهيم وأما المنع من عمل قوم لوط فكان مختصا بلوط فان ابراهيم لم يظهر ذلك ولم يمنعهم منه فذكر كل واحد بما اختص به وسبق به غيره ﴿المسئلة الثانية﴾ لم سمى ذلك الفعل فاحشة ﴿فنقول الفاحشة هو الشيع الظاهر قبحه من ان الشهوة والغضب صفتان قبيحتان لو لا مصلحة ما كان يخلقهما الله في الانسان فمصلحة الشهوة الفريضة هي بقاء

(٦٦ - غرائب) وكانوا عظماء أهل مدينتهم وقيل كانوا ثمانمائة ألف وكانوا خمسمائة ألف مقاتل فاستعانوا على الله عز وجل واستغاثوا بالصلاة والدعاء فبينما هم كذلك اذ دخل عليهم أعوان الجبار فاحضروهم بين يديه فقال لهم ما قال وخيرهم بين القتل وبين عبادة الاوثان فقالوا ان لنا الها ملأ السموات والارض عظمته وجبروته ان ندعو من دونه أحدا ولئن نقر لما تدعونا اليه أبدا فاقض ما أنت

(يأهم) النبأ الخبر الذي له شأن وخطر (بالحق) اما صفة لمصدر محذوف أو حال من ضمير نقص أو من نبأهم أو صفة له على رأى من يرى حذف الموصول مع بعض صلته أى نقص قصصا ملتبسا بالحق أو نقصه ملتبسين به أو نقص نبأهم ملتبسا به أو نبأهم الملتبس به ونبأوهم حسبما ذكره مجد بن اسحق بن يسار أنه قد سرح أهل الانجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم فعبدوا الاصنام وذبحوا للطواغيت وكان ممن بالغ في ذلك وعتا عتوا كبيرا دقيانوس فانه خلا فيهم طولا شديدا خلس خلال الديار وأتى البلاد بالعيث والفساد وقتل من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام وكان يتبع الناس فيجبرهم بين القتل وعبادة الاوثان فمن رغب في الحياة الدنيا الدنسة يصنع ما يصنع ومن آثر عليها الحياة الابدية قتله وقطع آرابه وعلقها في سور المدينة وأوليها فلما رأى الفتية ذلك

قاض فأمر بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة وأخرجهم من عنده وشرع هو والى مدينة ينوى ليمضي شأنه وأمهاهم الى رجوعه ليتأملوا في أمرهم فان تعهدوا الافعل بهم ما فعل بسائر المسلمين فأزعجت الفتنة على القرار بالدين والاتجاه الى الكهف الحصين فأخذ كل منهم من بيت أبيه شيأ فتصيدوا وأعدوه ٥٢٢ وتزودوا بالباقي فأووا الى الكهف فجعلوا يصلون فيه آناء الليل وأطراف النهار

ويتضرعون الى الله سبحانه بالانين والجؤار رفوضوا أمرهم فقتهم الى ما يخافه فكان اذا أصبح يضع عنه شأبه الحسان ويلبس لباس المساكين ويدخل المدينة ويشتري ما يهمهم ويتجسس ما فيها من الاخبار ويعود الى أصحابه فليطوا على ذلك الى أن قدم الجبار المدينة فطلبهم وأحضر آباءهم فاعتذروا بانهم عصوهم ونهبوا أموالهم وبذروها في الاسواق وفروا الى الجبل فلما رأى ما بهم رجع الى أصحابه وهو يبكي ومعه قليل من الزاد فأخبرهم بما شاهده من الهول فتضرعوا الى الله عز وجل وخروا له سجدا ثم رفعوا رؤسهم وجلسوا يتحدثون في أمرهم فبينما هم كذلك اذ ضرب الله تعالى على آذانهم فناموا ونفقهم عن ذكره وسمم بخصر فيما نرس في قلوبهم بفضله ورحمته فوجدوهم قد دخلوا الكهف فأمر باخراجهم فلم يطق أحد أن يدخله فلما ضاق بهم ذرعا قال قائل منهم ألسنا لو كنا قدرت عليهم قتلناهم قال بلى قال فان عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعا وعطشا ولكن

كهفهم قبرهم ففعل ثم كان من شأنهم ما قص الله عز وجل عنهم (اسم فتية) استئناف تحقيق مبني على تقدير السؤال من قبل المخاطب والفتية جمع الفتى كالصبية الصبي (آمنوا بربهم) أوثر الالتفات للاشعار بعلية وصف الربوبية لايمانهم ولمراعاة ما صدر عنهم من

النوع بتوليد التعفن ومنه المصلحة لاتصال الابوة بالولد وبقائه بعد الاب فانه لو وجد ومات قبل الاب كان يفضي النوع بفناء القرن الاول لكن الزنا لضلاعته هو ولا يفضي الى بقاء النوع لانا بينا ان البقاء بالوجود وبقاء الولد بعد الاب لكن الزنا وان كان يفضي الى وجود الولد ولكن لا يفضي الى بقائه لان الماء اذا انتشت لا يعرف الوالد ولده فلا يقوم بتربيته والانفاق عليه فيضيع ويهلك فلا يحصل مصلحة البقاء فاذا لزنا شهوة قبيحة خالية عن المصلحة التي لاجلها خلقت فهو قبيح ظاهر قبحه حيث لا تستمر المصلحة فهو فاحشة واذا كان الزنا فاحشة مع انه يفضي الى وجود الولد ولكن لا يفضي الى بقائه فاللواطة التي لا تفضي الى وجوده أولى بان تكون فاحشة (المسئلة الثانية) الآيات دالة على وجوب الحد في اللواطة لانها مع الزنا اشتركت في كونها فاحشة حيث قال الله تعالى ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة واشترا كهما في الفاحشة يناسب الزجر عنه فالشرع زاد واهناك وشرع زاجرا هنا وهذا وان كان قياسا الا أن جامعه مستفاد من الآية ووجه آخر وهو أن الله جعل عذاب من أتى بها امطار الحجارة حيث أمطر عليهم حجارة عاجلا فوجب أن يعذب من أتى بباطار الحجارة به عاجلا وهو الرجم بقوله ما سبقكم بها من أحد يحتمل وجهين (أحدهما) أن قبلهم لم يأت أحد بهذا القبيح وهذا ظاهر (والثاني) ان قبلهم ربما أتى به واحد في الندرة لكنهم بالغوا فيه فقال لهم ما سبقكم بها من أحد كما يقال ان فلانا ما مشى الحفاء في الحل وسوق الاثام في اللؤم اذا زاد عليهم ثم قال تعالى أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل بيانا لما ذكرنا بمعنى تقضون الشهوة بالرجال مع قطع السبيل المتعارف النساء المستقل على المصلحة التي هي بقاء النوع حتى ظهر انه قبيح لم يستمر فيه مصلحة وحينئذ فسر هذا كقوله تعالى أتأتون الرجال شهوة من دون النساء بمعنى اتيان النساء شهوة قبيحة مستمرة بالمصلحة فلكم داع في جنسكم لا فاحشة فيه وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم فاحشة وقوله وتأتون في ناديكم المنكر بمعنى ما كان فعلكم حتى تضمون اليه قبيح الاظهار وقوله فما كان جواب قومه في التفسير كقوله في قصة ابراهيم وما كان جواب قومه وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال قوم ابراهيم اقتلوه أو حرقوه وقال قوم لوط ائتنا بعذاب الله وما اتحد قولهم مع أن ابراهيم كان أعظم من لوط فان لوطا كان من قومه فنقول ان ابراهيم كان يمدح في دينهم ويشتم آلهتهم بتعديد صفات تقصهم بقوله لا يسمع ولا يبصر ولا يغني والقدح في الدين صعب عندهم لما جزاءه القتل والتحريق ولوط كان ينكر عليهم فعلهم ويسبهم الى ارتكاب المحرم وهم ما كانوا يقولون ان هذا واجب عليهم من الدين فلم يصعب عليهم مثل ما صعب على قوم ابراهيم قول ابراهيم فقالوا ائتنا نقول ان هذا حرام والله يعذب عليه وضمن نقول لا يعذب فان كنت صادقا فأتنا بالعذاب فان قيل ان الله تعالى قال في موضع آخر فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم وقال ههنا فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا فكيف الجمع فنقول لوط كان ثابتا على الارشاد مكررا عليهم التعيير والنهي وتوعيد فقالوا أولا ائتنا لما كثر منه ذلك ولم يمكنوا عنهم قالوا أخرجوا آل لوط لانهم ليس منهم طالب النصرة من الله وذكرهم بما لا يحب الله فقال انصرني على القوم المفسدين فان الله لا يحب المفسدين حتى يحترز النصرة واعلم ان نبيا من الانبياء عليهم السلام لما طلب ملائكة قوم لا ذا علم ان عدمهم خير من وجودهم كما قال نوح حاكيا ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا يعني المصلحة اما فيهم حالا أو بهم مآلا ولا مصلحة فيهم فانهم يضلون في الحال وفي المآل فانهم يرصون الاولاد من صغرهم بالامتناع من الاتباع فكذلك لوط لما رأى انهم يفسدون في الحال واشتغلوا بما لا يرجى معه منهم ولد صالح يعبد الله بطلت المصلحة

المقالة حسما يحكى عنهم (وزدناهم هدى) بأن ثبتناهم على ما كانوا عليه من الدين وأظهرنا لهم مكنونات محاسنه وقبه النفات من الغيبة الى ما عليه سلك النظم سياقا وسياقا من الشكام (وربطنا على قلوبهم) أى قويناها حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الاهل والاوطان والتعيم والاخوان واستمرؤا على الصدع بالحق من غير خوف وحذار والرد على دقيانوس الجبار (اذ قاموا) حالا وما بعده لهم صار خبرا فاطلب العذاب ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين ﴾ لما دعا لوط على قومه بقوله رب انصرنى استجاب الله دعاءه وأمر ملائكته باهلاكهم وأرسلهم ببشير ومنذر بن بشروا ابراهيم وبشروه بذرية طيبة فقالوا انا مهلكو أهل هذه القرية يعنى أهل سدوم وفى الآية اطيفتان (احداهما) ان الله جعلهم مبشرين ومنذرين لكن البشارة أثر الرحمة والانذار بالاهلاك أثر الغضب ورحمته سبقت غضبه فقدم البشارة على الانذار وقال جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ثم قال انا مهلكو (الثانية) حين ذكروا البشرى ما علموا وقال انا مهلكو لانك رسول أولائك مؤمن أولائك عادل وحين ذكروا الاهلاك علموا وقالوا ان أهلها كانوا ظالمين لان ذا الفضل لا يكون فضله بعوض والعدل لا يكون عذابه الا على جرم وفيه مسئلتان (احداهما) لو قال قائل أى تعلق لهذه البشرى بهذا الانذار ﴿ نقول تعلقا أن الله أهلاك قوم وكان قد علم خلاء الارض عن العباد قدم على ذلك اعلام ابراهيم بانه تعالى علأ الارض من العباد انصالحين حتى لا يتأسف على اهلاك قوم من أبنائه جنسه (والثانية) قال فى قوم نوح فأخذهم الطوفان وقد قلنا ان ذلك اشارة الى أنهم كانوا على ظلم حين أخذهم ولم يقل فأخذهم وكانوا ظالمين وههنا قال ان أهلها كانوا ظالمين ولم يقل وانهم لظالمون فنقول لا فرق فى الموضعين فى كونهم هالكين وهم مصرون على الظلم لكن هناك الاخبار من الله وعن الماضى حيث قال فأخذتهم وكانوا ظالمين فقال أخذهم وهم مصرون على الوقوع فى العذاب ظالمون وههنا الاخبار من الملائكة وعن المستقبل حيث قالوا انا مهلكو فقالوا انا مهلكو ذلك رواما صحتا جون اليه فى اباتة حسن الامر من الله بالاهلاك فقالوا انا مهلكو لانه أمرنا وحال ما أمرنا به كانوا ظالمين فحسن أمر الله عندكل أحد وأما نحن فلا نفهم بعمل الا حاجة لنا اليه فان الكلام عن الملك يغير اذنه سوء أدب فنحن ما تحجنا الا الى هذا القدر وهو انهم كانوا ظالمين حيث أمرنا الله باهلاكهم بيانا لان الامر وأما انهم ظالمون فى وقتنا هذا أو يعرون كذلك فلا حاجة لنا اليه ثم ان ابراهيم لما سمع قولهم قال ان فيها لوطا اشفاقا على لوط يعلم حاله أولان الملائكة لما قالوا انا مهلكو وكان ابراهيم يعلم ان الله لا يهلك قوما وفيهم رسوله فقال تجيبا ان فيهم لوطا فكيف يهلكون فقالت الملائكة نحن أعلم عن فيها يعنى نعلم أن فيهم لوطا فننجيه وأهله ونهلك الباقين (وههنا اطيفة) وهو ان الجماعة كانوا أهل الخير أعنى ابراهيم والملائكة وكل واحد كان يريد على صاحبه فى كونه خيرا أما ابراهيم فلما سمع قول الملائكة انا مهلكو أظهر الاشفاق على لوط ونسى نفسه وما بشروه ولم يظهر منه فرحا وقال ان فيها لوطا ثم ان الملائكة لما رأوا ذلك منه زادوا على قوله وقالوا انك ذكرت لوطا وحده ونحن ننجيه ونجعى معه أهله ثم استثنوا من الاهل امرأته وقالوا الا امرأته كانت من الغابرين أى من الهالكين ﴿ وفرق استعمال الغابر فى الهالك وجهان وذلك لان الغابر لفظ مشترك فى الماضى وفى الباقى قال فيما غبر من الزمان أى فيما مضى ويقال للعمل ماض وغابر أى باق وعلى الوجه الاول نقول ان ذكر القالبين سبق فى قولهم انا مهلكو أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين ثم بين ذكر لوط عند كبير ابراهيم وجواب الملائكة فقالت الملائكة انها من الغابرين أى الماضى ذكرهم لامر الذين نجعى منهم أو نقول انها الهالك يفنى ويمضى زمانه والناجى هو الباقى فقالوا انها مر الغابرين أى من الراشرين الماضين لان الباقين المستمرين وأما على الوجه الثانى فنقول لما قضى الله على القوم بالاهلاك كان التكمل فى انها الاهلاك الامن تنجى منه فقالوا انا ننجى لوطا وأهله وأما امرأته فهى من الباقين فى الهلاك ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء

تعالى بطريق الالوهية لا بطريق الملائكة المجازية (لقد قلنا اذا شططا) أى قولا ذا شطط أى تجاوز عن الحد أو قولا هو عين الشطط على ان الوصف بالمصدر مبالغة ثم اقتصر على الوصف مبالغة على مبالغة وحيث كانت العباد مسلمة ما قول لنا أنها لا تعرى عن الاعتراف بالوهية المعبود والتضرع اليه قيل لقد قلنا ذا جواب وجواه أى لو دعونا من دونه الها والمعنى لقد قلنا قولا خطأ جاء عن حد الاعتدال عظيما

منصوب بربطنا والمراد بقيامهم انتصابهم لاظهار شعار الدين قال مجاهد خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد فقال أكبرهم انى لاجد فى نفسى شيأ ان ربى رب السموات والارض فقالوا نحن أيضا كذلك فقاموا جميعا (فقالوا ربنا رب السموات والارض) ضمنوا دعوتهم ما يحقق دعواهم ويقتضى عقتضاها فان ربوبيته عز وجل لما تقتضى ربوبيته لما فيها أى اقتضاء وقيل المراد قيامهم بين يدى الجبار من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام فحينئذ يكون ماسيأتى من قوله تعالى هؤلاء قومنا الخ منقطعا عما قبله صادرا عنهم بعد خروجهم من عنده (لن ندعو) لن نعبد أبدا (من دونه الها) معبودا آخر لاستقلالا ولا اشتراكا والعدول عن أن يقال ربنا للتنبيه على رد المخالفين حيث كانوا يسمون أصنامهم آلهة وللاشعار بان مدار العبادة وصف الالوهية وللايذان بان ربوبيته

في الظلم (هؤلاء) هو مبتدأ وفي اسم الاشارة تحقير لهم (قومنا) عطف بيان له (اتخذوا من دونه آلهة) خبره وفيه معنى الانكار (لولا يأتون) تحضيض فيه معنى الانكار والتعجيز أي هلا يأتون (عليهم) على ألوهيتهم أو على صحة اتخاذهم لها آلهة (بسلطان بين) بحجة ظاهرة الدلالة على مدعاهم وهو ٥٢٤ تسكيت لهم والقاء حجر (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بنسبة الشريك اليه تعالى عن

ذلك علوا كبيرا والمعنى انه أظلم من كل ظالم وان كان سبك النظم على انكار الاظلمية من غير تعرض لانكار المساواة كما مر تحقيقه في سورة هود (واذا اعتزلتموهم) أي فارقتموهم في الاعتقاد أو أردتم الاعتزال الجسماني (وما يعبدون الا الله) عطف على الضمير المنصوب وما موصولة أو مصدرية أي اذا اعتزلتموهم ومعبوديهم الا الله أو وعبادتهم الا عبادة الله وعلى التقديرين فالاستثناء متصل على تقدير كونهم مشركين كأهل مكة ومنقطع على تقدير خلوهم عن عبادة الاوثان ويجوز كونه منافقة على انه اخبار من الله تعالى عن الفئة بالتوحيد معترض بين اذ وجوابه (فأووا) أي التجؤا (الى الكهف) قال الفراء هو جواب اذ كما تقول اذ فعلت فافعل كذا وقيل هو دليل على جوابه أي اذ اعتزلتموهم اعتزالا اعتقاديا فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا أو اذ أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء الى الكهف (ينشر لكم ربكم) يبسط لكم ويوسع عليكم (رحمته) من رزقه المقدر لكل أحد (ويهيئ لكم من أمركم) الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين (مرفقا) ما ترتفقون وتنتفعون به وقرئ بفتح الميم وكسر الفاء مصدرا كالمرجع وتقديم لكم في الموضعين

تهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾ ثم انهم جاؤا من عند ابراهيم الى لوط على صورة البشر فظنهم بشرا فخاف عليهم من قومه لانهم كانوا على أحسن صورة خلق الله والقوم كما عرف حالهم فمسي بهم أي جاءه ماساءه وخاف ثم عجز عن تدبيرهم فحزن وضاق بهم ذرعا كناية عن العجز عن تدبيرهم قال الزمخشري يقال طال ذرعه وذراعه للقادر وضاق للعاجز وذلك لان من طال ذراعه يصل الى ما لا يصل اليه قصير الذراع والاستعمال يحتمل وجها مقبولا غير ذلك وهو أن الخوف والحزن لوجدان انقباض الروح وينعكس فيحصل القلب بما فيه فينقبض هو أيضا والقلب هو المعتبر من الانسان فكان الانسان انقبض وانجمع وربما يكون كذلك يقل ذرعه وصاحبه فيضيق ويقال في الحزين ضاق ذرعه والغضب والفرح يوجبان انبساط الروح فينبسط ﴿ وجاءه ﴾ وهو القلب وينبسط فيقال اتسع ذرعهم ان الملائكة لما رأوا خوفه في أول الامر وحزنه بسبب تدبيرهم في تأتي الامر قالوا لا تخف علينا ولا تحزن بسبب التفكر في أمرنا ثم ذكروا ما يوجب زوال خوفه وحزنه فان مجرد قول القائل لا تخف لا يوجب زوال الخوف فقالوا انا مهلكو من حولك وأولئك وانا منزلون عليهم العذاب حتى يتبين لك انهم ملائكة فيطول ذرعه وينزول روعه وفي الآية مسائل (احداها) أنه تعالى قال من قبل ولما جاءت رسلنا ابراهيم وقال ههنا ولما أن جاءت رسلنا لوطا الحكمة في ﴿ قوله ﴾ فنقول ﴿ حكمة ﴾ بالغة وهي أن الواقع في وقت المجيء هناك قول الملائكة انا مهلكو وهو لم يكن متصلا بمجيئهم لانهم بشروا أولا وليتوا ثم قالوا انا مهلكو وأيضا فالتأني والليث بعد المجيء مع الانبار بالاهلاك حسن فان من جاء وسمه خبر هائل يحسن منه أن لا يفاجئ به والواقع ههنا هو خوف لوط عليهم والمؤمن حيث ما يشعر بضرر يفصل بريئا من الجناية ينبغي أن يحزن ويهتم عليه من غير تأخير اذا علم هذا فقوله ههنا ولما أن جاءت رسلنا يفيد الاتصال يعني خاف المجيء فان قلت هذا باطل بما أن هذه الحكاية جاءت في سورة هود وقال ولما جاءت رسلنا لوطا ظاهر من خبر أن فنقول هناك جاءت حكاية ابراهيم بصيغة أخرى حيث قال هناك ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى فقوله هناك ولقد جاءت لا يدل على ان قوله هم انا أرسلنا كان في وقت المجيء وقوله ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم دل على ان حزنه كان وقت المجيء واذا علم هذا فقوله هناك قد سبق ما ذكرنا من المقصود بقوله في حكاية ابراهيم ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ثم سرى أمور من الكلام وتقديم الطعام ثم قالوا لا تخف ولا تحزن انا أرسلنا الى قوم لوط فحصل تأخير الانذار بقوله في حكاية لوط ولما جاءت رسلنا حصل بيان تعجيل الحزن وأما هنا لما قال في قصة ابراهيم ولما جاءت قال في حكاية لوط ولما أن جاءت لما ذكرنا من الفائدة ﴿ (المسئلة الثانية) ﴾ قال هنا انا منجوك وأهلك وقال لابراهيم لننجينه وصيغة الفعل أقل فعل فيه فائدة ﴿ قلنا ما من حرف ولا حركة في القرآن الا وفيه فائدة ثم ان المعقول البشري لا تدرك بعضها ولا أصل الى أكثرها وما أوتي البشر من العلم الا قليلا والذي يظهر لعقلي الضعيف ان هناك لما قال لهم ابراهيم ان فيها لوطا وعده بالنجاة ووعد الكريم حتم وههنا لما قالوا للوط وكان ذلك قد سبق الوعد مرة أخرى قالوا انا منجوك أي ذلك واقع منا كقوله تعالى انك ميت لضرورة وقوعه ﴿ (المسئلة الثالثة) ﴾ قولهم لا تخف ولا تحزن لا يناسبه انا منجوك لان خوفه ما كان على نفسه ﴿ نقول ﴾ بينهم ما مناسبة في غاية الحسن وهي ان لوطا لما خاف عليهم وحزن لاجلهم قالوا له لا تخف علينا ولا تحزن لاجلنا فانا ملائكة ثم قالوا له بالوط خفت علينا وحزنت لاجلنا في مقابلة خوفك وقت الخوف نزيل خوفك ونجيك وفي مقابلة حزنك نزيل حزنك ولا نترك ذلك تنفجع في أهلك فقالوا انا منجوك

لما مر مرارا من الايذان من أول الامر بكون المؤخر من منافعهم والتشويق الى وروده (وترى الشمس) بيان لحالهم عند ما أووا الى الكهف ولم يصرح به ايذانا بعدم الحاجة اليه لظهور جريانهم على موجب الامر به لكونه صادرا عن رأى صائب وهو بلاعلى مأسلف من قوله سبحانه اذ أوى الفتية الى الكهف وما تفرق من اضافة الكهف اليهم وكونهم ٥٢٥ في خوفه منه والخطاب للرسول عليه

وأملك ﴿المسئلة الرابعة﴾ القوم عذبوا بسبب ما صدر منهم من الفاحشة وامرأته لم يصدر منها تلك فكيف كانت من الغابرين معهم فنقول الدال على الشرك له نسبب كفاعل الشرك ان الدال على الخير كفاعله وهي كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم فبالدلالة صارت واحدة منهم ثم انهم بعد مشاركة لوط بالقضية ذكروا انهم مترلون على أهل هذه القرية العذاب فقالوا انا مترلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء واختلفوا في ذلك فقال بعضهم حجارة وقيل نار وقيل خسف وعلى هذا فلا يكون عينه من السماء وانما يكون الامر بالخسف من السماء أو القضاء به من السماء ثم اعلم ان كلام الملائكة مع لوط جرى على غط كلامهم مع ابراهيم فذكروا البشارة على الانذار حيث قالوا انا مهلكوا ثم قالوا انا مترلون على أهل هذه القرية ولم يقولوا المقضية فانا قالوا انا مهلكوا لانك نبي أوعابد وعلموا الاهلاك بقولهم عما كانوا يفسقون وقالوا انما كانوا كافرا هذلك ان أهلها كانوا فاسقين ثم قال تعالى ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون أي من القرية فان القرية معلومة وفيها الماء الاسود وهي بين القدس والكرك وفيها مسائل ﴿احداها﴾ جعل الله الآية في نوح وابراهيم بالنجاة حيث قال ذا أنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية وقال فأنجاه الله من النار ان في ذلك لآيات وجعل ههنا الهلاك آية فهل عندك فيه شئ ﴿قلت﴾ نعم أما ابراهيم فلان الآية كانت في النجاة لان في ذلك الوقت لم يكن اهلاك وأما في نوح فلان الانجاء من الطوفان الذي علا الجبال بأسرها أمر عجيب الهي ومايه النجاة وهو السفينة كان باقيا والغرق لم يبق لمن بعده أثره فجعل الباقي آية وأما ههنا فالنجاة لوط لم يكن بأمر يبقى أثره للحس والهلاك أثره محسوس في البلاد فجعل الآية الامر الباقي وهو ههنا البلاد ومثل السفينة هو ههنا الطينة وفي ان الله تعالى آية قدرته موجودة في الانجاء والاهلاك فذكر من كل باب آية وقدم آيات الانجاء لانها آثار الرحمة وأخر آيات الاهلاك لانها آثار الغضب ورحمته سابقة ﴿المسئلة الثانية﴾ قال في السفينة وجعلناها آية ولم يقل بينة وقال ههنا آية بينة نقول لان الانجاء بالسفينة أمر يسع له كل عقل وقد يقع في وهم جاهل ان الانجاء بالسفينة لان يفتقر الى أمر آخر وأما الآية ههنا الخسف وجعل ديار معمورة عاليها سافلها وهو ليس بمعتاد وانما ذلك بأرادة قادر مختص به فكان دون مكان وفي زمان دون زمان فهي بينة لا يمكن لجاهل أن يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له أن يقول في السفينة النجاة بها أمر يكون كذلك الى أن يقال له من أين علم انه يحتاج اليها ولو لم الماء حتى يتفقد زادهم كيف كان يحصل لهم النجاة ولو سلط الله عليهم الريح العاصف كيف يكون أحوالهم ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال هناك للعالمين وقال ههنا للقوم يعقلون قلنا لان السفينة موجودة في جميع أقطار العالم فعند كل قوم مثال لسفينة نوح يتفكرون بها حاله واذا رأوها يطلبون من الله النجاة ولا يبقى أحد غير راد السفينة بل يكون داعيا سر نحو القلب متضرعا الى الله تعالى طالبا للنجاة وأما آثار الهلاك في بلاد لوط ففي موضع مخصوص لا يطلع عليه الى من يمر بها ويصل اليها ولا يكون له عقل يعلم ان ذلك من الله المزيد بسبب اختصاصه بمكان دون مكان ووجوده في زمان بعد زمان ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿والى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الارض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ لما أتم المكاية الثانية على وجه الاختصار لفائدة الاعتبار شرع في الثالثة وقال والى مدين أخاهم واختلف المفسرون في مدين فقال بعضهم انه اسم رجل في الاصل وجعل له ذرية فأتم في القبيلة كلهم وقيس وغيرهما وقال بعضهم اسم ماء نسب القوم اليه والاشتهر في القوم والاول كأنه أصح وذلك لان الله أضاف الماء الى مدين حيث قال ولما ورد ماء مدين ولو كان اسما للماء لكانت الاضافة غير صحيحة أو غير حقيقة والاصل

عنهم بمينا وشمالا ولا تحوم حولهم مع انهم في متسع من الكهف ممر عن لاصابتها لولا أن صرفتها عنهم بالتقدير (ذلك) أي ما صنع الله بهم من تزاور الشمس وقرضها اياهم الطلوع والغروب مع كونهم في موقع شعاعها (من آيات الله) العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته وحقية التوحيد وكرامة أهله عنده سبحانه وتعالى وهذا قول أن سدد فيانوس باب الكهف بقيل كان باب الكهف شمالي المستقبل

لما مر مرارا من الايذان من أول الامر بكون المؤخر من منافعهم والتشويق الى وروده (وترى الشمس) بيان لحالهم عند ما أووا الى الكهف ولم يصرح به ايذانا بعدم الحاجة اليه لظهور جريانهم على موجب الامر به لكونه صادرا عن رأى صائب وهو بلاعلى مأسلف من قوله سبحانه اذ أوى الفتية الى الكهف وما تفرق من اضافة الكهف اليهم وكونهم ٥٢٥ في خوفه منه والخطاب للرسول عليه

السلاة والسلام أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب وليس المراد به الاخبار بوقوع الرؤية تحقيقا بل الاعلام بكون الكهف بحيث لو رآه انسان ترى الشمس (اذا طلعت تزاور) أي تتزاور وتنحني بحذف احدى التاءين وقرئ بادغام التاء في الزاي وتزور كتحمر وتزوار كتحمار وتزور وكلاهما من الزور وهو الميل (عن كهفهم) الذي أووا اليه بالاضافة لادنى ملابسة (ذات اليمين) أي جهة ذات يمين الكهف عند توجه الداخل الى قعره أي جانبه الذي يلي المغرب فلا يقع عليهم شعاعها فيؤذيهم (واذا غربت) أي تراها عند غروبها (تقرضهم) أي تقطعهم من القطيعة والصرم ولا تقربهم (ذات الشمال) أي جهة ذات شمال الكهف أي جانبه الذي يلي المشرق وكان ذلك بتصريف الله سبحانه على منهاج خرق العادة كرامة لهم وقوله تعالى (وهم في فجوة منه) جملة حالية مبينة لكون ذلك أمرا بديعا أي تراها تميل

بنات نعش وأقرب المشارق والمغارب الى محاذاته رأس مشرق السرطان ومغربه والشمس اذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة بجانبه الايمن وهو الذي يلي المغرب وتغرب مائلة بجانبه الايسر فيقع شعاعها على جنبيه وتحال عفونته وتعدل هواءه ولا يقع عليهم فيؤذي أجسادهم ويبلى ثيابهم ٥٢٦ ولعل ممثل الباب الى جانب المغرب كان أكثر ولذلك أوقع التزاور على كيفهم والقرض

في الاضافة للغاير حقيقة وقوله أنهاهم قيل لان شعيبا كان منهم نسبا وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال الله تعالى في نوح ولقد أرسلنا نوحا الى قومه قدم نوحا في الذكر وعرف القوم بالاضافة اليه وكذلك في ابراهيم ولوط وهود ثم اذا ذكر القوم أولا وأضاف اليهم أنباءهم شعيبا * فنقول الاصل في جميع المواضع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لان المرسل لا يبعث رسولا الى غير معين وانما يعين قوم أو شخص يختارون الى النبأ من المرسل فيرسل اليهم من يختاره غير أن قوم نوح وابراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها فعرفوا بالنبي فقيل قوم نوح وقوم لوط وأما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أسلوبه وقال الله والى مدين أخاهم شعيبا وقال والى عاد أخاهم هودا ﴿المسئلة الثانية﴾ لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالعبادة والتوحيد وذكر عن شعيب ذلك فلما قد ذكرنا ان لوطا كان له قوم وهو كان من قوم ابراهيم وفي زمانه وابراهيم سبقه بذلك وابتدأ فيه حتى اشتهر الامر بالتوحيد عند المتلقي من ابراهيم فلم يذكره عن لوط وانما ذكر عنه ما احتدى به من المنع عن الفاحشة وغيرها وان كان هو أيضا يأمر بالتوحيد أذ ما من رسول الا ويكون أكثر كلامه في التوحيد وأما شعيب فلكون بعد انقراض القوم فكان هو أصلا أيضا في التوحيد فبدأ به وقال اعبدوا الله ﴿المسئلة الثالثة﴾ الايمان لا يتم الا بالتوحيد والامر بالعبادة لا يفيده لان من يعبد الله ويعبد غيره فهو مشرك فكيف اقتصر على قوله اعبدوا الله فنقول هذا الامر يفيد التوحيد وذلك لان من يرى غيره يخدم زيدا وعمرو هناك وهو أكبر أو هو سيد زيد اذا قال له اخدم عمرا فهم منه انه يأمره بصرف الخدمة اليه وكذا اذا كان لزيد دينار واحد وهو يريد أن يعطيه زيدا اذا قيل له أعطه عمرا يفهم منه لا تعطه زيدا * فنقول هم كانوا مشتغلين بعبادة غير الله والله ما قال ذلك الا لغير فقال لهم شعيب اعبدوا الله ففهموا منه ترك عبادة غيره أو نقول لكل واحد نفس واحدة وهو يريد بعضها في عبادة غير الله فقال لهم شعيب خصوها في عبادة الله وعبادة الله ففهم منه التوحيد ثم قال وارجوا اليوم الآخر قال الزمخشري معناه افعلوا ما ترجون به العاقبة اذ قد يقول القائل لغيره كن عاقلا ويكون معناه افعل فعل من يكون عاقلا * وقوله وارجوا اليوم الآخر فيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ هذا يدل على صحة مذهبنا ان عند نا من عبد الله طول عمره يثيبه الله تفضلا ولا يجب عليه ذلك لان العابد قد وصل اليه من النعم ما لو زاده على ما آتى به لما خرج عن عهدة الشكر ومن شكر المنعم على نعم سبقت لا يلزم المنعم أن يزيده وان زاده يكون احسانا منه اليه وانما علقه * فنقول قوله وارجوا اليوم الآخر بعد قوله اعبدوا الله يدل على التفضل لا على الوجوب فان الفضل يرجى والواجب من العامل يقطع به ﴿المسئلة الثانية﴾ قال وارجوا اليوم الآخر ولم يقل وخافوه مع ان ذلك اليوم مخوف عند الكل وغير مرجو عند كثير من الناس لفسقه وكفره وجحوده الدنيا ولا يرجوه الا قليل من عباده * فنقول لما ذكر التوحيد بطريق الاثبات وقال اعبدوا ولم يذكره بطريق النفي وما قال ولا تعبدوا وغيره قال بلفظ الرجاء لان عباد الله يرجى منهم الخير في الدارين * وفيه وجه آخر وهو ان الله سبحانه وتعالى في حكاية ابراهيم أنه قال انكم اتخذتم الاوثان مودة بينكم في الحياة الدنيا أما في الآخرة فتكفرون بها قال ههنا لا تكونوا كالذين سبق ذكرهم لم يرجوا اليوم الآخر فانتصروا على مودة الحياة الدنيا وارجوا اليوم الآخر واعملوا له ثم قال ولا تعثوا في الارض مفسدين يمكن أن يقال نصب مفسدين على المصدر كأنه قال قم قائما أي قياما ويكون قوله ولا تعثوا في الارض مفسدين كقول القائل أباسلمى فعودا الان العبث والفساد بمعنى وجمع الاوامر والنواهي في قوله اعبدوا الله وقوله ولا تعثوا ثم اراد قومه كذبوه بعد ما بلغ وبين فحكى الله عنهم ذلك بقوله

فكذبوه

(ايقاظا) جمع يقظ بكسر القاف وفتحها وهو اليقظان ومدار الحسبان انفتاح عيونهم على هيئة الناظر وقيل كثرة تقلبهم ولا يلائمه قوله تعالى وتقلبهم (وهم رقود) أي نيام وهو تقرير لما لم يذكر فيما سلف اعتمادا على ذكره السابق من التقليب على آذانهم (وتقلبهم) في رقدتهم (ذات اليمين) نصب على الظرفية أي جهة تلي أيمانهم (وذات

المعمل) أي جعله تلي ثمانيهم كي لا تأكل الارض ما يليهم لمن أبدانهم قال ابن عباس رضي الله عنهما ولم يقلعوا الا كلهم الارض قبيل لهم تقليبتان في السنة وقيل تقليبة واحدة يوم عاشوراء وقيل في كل تسع سنين وقرئ بقلبهم على الاسناد الى ضمير الجلالة وتقليبهم على المصدر منصوبا بمضمر يتبع منه وتحسبهم أي وترى تقلبهم (وكلبهم) قيل هو كلب مر واسمه قطمير وهرارا فلم يرجع جميع

فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) ما حكي عن شعيب أمر ونهي والامر لا يصدق ولا يكذب فان من قال لغيره قم لا يصح أن يقول له كذبت * فنقول كان شعيب يقول الله واحد فاعبدوه والحشر كائن فاربحوه والفساد محرم فلا تقربوه وهذه الاشياء فيها اخبارات فكذبوه فيما أخبر به (المسئلة الثانية) قال ههنا فأخذتهم الرجفة وقال في هود فأخذتهم الصيحة والحكاية واحدة * نقول لا تعارض بينهما فان الصيحة كانت سببا للرجفة أما الرجفة الارض اذ قيل ان جبريل صاح فتزلزلت الارض من صيحته وأما الرجفة الاشد فانه لما زلزلت لهم ارجحنت منها والاضافة الى السبب لا تنافي الاضافة الى سبب السبب اذ يصح أن يقال روى فقري وأن يقال شرب فقوي في صورة واحدة (المسئلة الثالثة) حيث قال فأخذتهم الصيحة قال في دارهم وحيث قال فأخذتهم الرجفة قال في دارهم * فنقول المراد من الدار هو الدار والاضافة الى الجميع يجوز أن تكون بلفظ الجمع وأن تكون بلفظ الواحد اذا أمن الالتباس وانما اختلف اللفظ لطيفة وهي ان الرجفة هائلة في نفسها فلم يحتج الى معمول وأما الصيحة فغير هائلة في نفسها لكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى أحدثت الزلزلة في الارض ذكر الديار بلفظ الجمع حتى تعلم هيبتها والرجفة يعني الزلزلة عظيمة عند كل أحد فلم يحتج الى معظم لامرها وقيل ان الصيحة كانت أعم حيث عمت الارض والحمو لزلزلة لم تكن الا في الارض فذكر الديار هناك غير ان هذا ضعيف لان الديار والديار موضع الجثوم لا موضع الصيحة والرجفة فهم ما صيحوا جاثمين الا في ديارهم

﴿ ثم قال تعالى ﴿ وعادا وثمود ﴾ أي وأهلكنا عادا وثمود لان قوله تعالى فأخذتهم الرجفة دل على الاهلاك ﴿ وقد تبين لكم من مساكنهم ﴾ الامر وما تعتبرون منه ﴿ ثم بين سبب ما جرى عليهم فقال ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ﴾ فقوله وزين لهم الشيطان أعمالهم يعني عبادتهم الحجر الله وصدهم عن السبيل يعني عبادة الله ﴿ وكانوا مستبصرين ﴾ يعني بواسطة الرسل يعني فلم يكن لهم في ذلك عذر فان الرسل أوضحوا السبيل ثم قال تعالى ﴿ وقارون وفرعون وهامان ﴾ عطفا على عادا وثمود أي وأهلكنا قارون وفرعون وهامان ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ولقد جاءهم موسى بالبينات ﴾ كما قال في عادا وثمود وكانوا مستبصرين أي بالرسل ﴿ ثم قال تعالى ﴿ فاستكبروا ﴾ أي عن عبادة الله وقوله ﴿ في الارض ﴾ اشارة الى ما يرجع ذلك عقابه في استكبارهم وذلك لان من في الارض أضعف انقيادا من المكلفين ومن في السماء وأنهم ثم ان من في السماء لا يستكبرون عن عبادة الله وعن عبادته فكيف من في الارض ﴿ ثم قال تعالى ﴿ وما كانوا سابقين ﴾ أي ما كانوا يفوتون الله لانا بينا في قوله تعالى وما أنتم بمعجزين في الارض ان المراد أن أقطار الارض في قبضة قدرة الله ﴿ ثم قال تعالى ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ذكر الله أربعة أشياء فالعذاب بالحاصب وقيل الله كان يرسل عليهم حجارة تجيء على واحد منهم ويرتفع من الجانب الآخر وقيل هي الملائكة والعذاب بالصيحة وهو هواء متموج فان الصوت قيل سببه تموج الهواء وصوت لي الغشاء الذي على مقعر الاذن وهو الصماخ فيقرعه فيحس والعذاب بالخسف وهو الغور في التراب والعذاب بالاغراق وهو بالماء فحصل العذاب بالعناصر الاربعة والانسان مركب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه فاذا أراد الله هلاك الانسان جعل ما منه وجوده سببا لعدمه وما به بقاؤه سببا لفنائه * ثم قال تعالى وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون يعني لم يظلمهم بالهلاك وانما هم ظلموا أنفسهم بالاشراك وفيه وجه آخر أطف وهو ان الله

وقرئ بضم الواو (لواسبغ نعمهم زارا) هو بما شاهدت منهم وهو اما نصب على المصدر من معنى ما قبله اذ تقوله والفرار من زاد واحد واما على الحالية بجعل المصدر بمعنى الفاعل أي فارا أو بجعل الفاعل مصدرا مبالغة كأني قولها * فانما هي اقبال وادبار * واما على انه مفعول له (وانثنوا نعمهم رعبا) وقرئ بضم العين أي خوفا على الصدور وهو ما فعول لان أو تميز وذلك لما أنسمهم الله عز وجل

فانطقه الله تعالى فقال لا تخشوا جانبي فاني أحب أحباء الله تعالى فقاموا حتى أحرسكم وقيل هو كليب راع قد تبعهم على دينهم ويئر بئره فمراعاة كالبهم اذا ظاهر فحرقه بهم وقيل هو كليب صيد أحدهم أو زرعه أو غنمه واختلف في لونه فقيل كان أغبر وقيل أصفر وقيل أصهب وقيل غير ذلك وقيل كان اسمه قطمير وقيل ربان وقيل نتوه وقيل قطمور وقيل قور قال تاج الدين معناه ليس في الجنة من الدواب الا كلب أصحاب الكهف وحمار بلعم وقيل لم يكن ذلك من جنس الكلاب بل كان أسدا (باسط ذراعيه) حكاية حال ماضية ولذلك أعمل اسم الفاعل وعند الكسائي وهشام وأبي جعفر من البصريين يجوز اعماله مطلقا والذراع من المرفق الى رأس الاصبع الوسطى (بالوصيد) أي موضع الباب * الكهف * لواطلعت عليهم * أي لو عاينتهم وشاهدتهم وأصل الاطلاع الاشراف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة

من الهيبة والهيئة كانت أعينهم مفتحة كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم وقيل لطول أظفارهم وشعورهم ولايساعده قولهم لبثنا يوما أو بعض يوم وقوله ولا يشعرن بكم أحدا فان الظاهر من ذلك عدم اختلاف أحوالهم في أنفسهم وقيل لعظم أجرامهم ولعل تأخير هذا عن ذكر التولية للايذان باستقلال ٥٢٨ كل منهما في الترتب على الاطلاع اذ لو وجي ترتيب الوجود لتبادر الى الفهم ترتب

ما كان يظلمهم أي ما كان يضعهم في غير موضعهم فان موضعهم الكرامة كما قال تعالى ولقد كرمنا بني آدم لكنهم ظلموا أنفسهم حيث وضعوها مع شرفهم في عبادة الوثن مع خسته ﴿ ثم قال تعالى ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ﴾ لما بين الله تعالى انه أهلك من أشرك عاجلا وعذب من كذب آجلا ولم ينفعه في الدارين معبوده ولم يدفع ذلك عنه وركوعه وسجوده مثل اتخاذه ذلك معبودا باتخاذ العنكبوت بيتا لا يحير آويا ولا يرجع ثاويا وفي الآية طائف نذكرها في مسائل ﴿ (المسئلة الاولى) ﴾ ما الحكمة في اختيار هذا المثل من بين سائر الامثال ﴿ فنقول فيه وجوه (الاول) ان البيت ينبغي أن يكون له أمور حائط مسائل وسقف مظل وباب يلقى وأمور يرتفق بها وترتفق وان لم يكن كذلك فلابد من أحد أمرين اما حائط مسائل يمنع من البرد واما سقف مظل يدفع عنا الحر فان لم يحصل منها شئ فهو كالبيت الذي ليس بيت لكن بيت العنكبوت لا يحميها ولا يكنهم أو كذلك المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع ويدفع المضار فان لم يجتمع هذه الامور فلا أقل من دفع ضر أو جر نفع فان من لا يكون كذلك ذهو والمعدوم بالنسبة اليه سواء فاذا كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معاني البيت شئ كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الاوثان أولياء من معاني الاولياء شئ ﴿ (الثاني) هو أن أقل درجات البيت أن يكون للظل فان البيت من الحجر يفيد الاستظلال ويدفع أيضا الهواء والماء والنار والتراب والبيت من الخشب يفيد الاستظلال ويدفع المطر والبرد ولا يدفع الهواء القوي ولا الماء ولا النار والحباء الذي هو بيت من الشعر أو الخيمة التي هي من ثوب ان كان لا يدفع شيأ يظل ويدفع حر الشمس لكن بيت العنكبوت لا يظل فان الشمس بشعاعها تخرقه فيه كذلك المعبود أعلى درجاته أن يكون ناقد الامر في الغير فان لم يكن كذلك فيكون ناقد الامر في العابد فان لم يكن فلا أقل من أن لا ينفذ أمر العابد فيه لكن معبودهم تحت قهرهم ان أرادوا أحيوه وان أحبوا أذلوه ﴿ (الثالث) أدنى مراتب البيت انه أن لم يكن سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق لكن بيت العنكبوت يصير سببا لتزعج العنكبوت فان العنكبوت لو دام في زاويته مدة لا يفتقر ولا يخرج منها فاذا نسج على نفسه واتخذ بيتا يفتقر صاحب الملك بتنظيف البيت منه والمسح بالمسح الخشن المؤذي لجسم العنكبوت فكذلك العابد بسبب العبادة ينبغي أن يستحق الثواب فان لم يستحقه فلا أقل من أن لا يستحق بسببها العذاب والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب ﴿ (المسئلة الثانية) ﴾ مثل الله اتخاذهم الاوثان أولياء باتخاذ العنكبوت لنسجه بيتا ولم يمثله بنسجه وذلك لوجهين (أحدهما) أن نسجه فيه فائدة لولا ما يحصل وهو اصطياد الذباب به من غير أن يقوته ما هو أعظم منه واتخاذهم الاوثان وان كان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا لكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو الدار الآخرة التي هي خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت ﴿ (الوجه الثاني) هو أن نسجه مفيد لكن اتخاذهم ذلك بيتا أمر باطل فكذلك هم لو اتخذوا الاوثان دلائل على وجود الله وصفاته كماله وبراهين على نبوت اكرامه وأوصافه حلاله لكان حكمة لكنهم اتخذوها أولياء كنسج العنكبوت النسج بيتا وكما هو باطل ﴿ (المسئلة الثالثة) ﴾ كان هذا المثل صحيحا في الاول فهو صحيح في الآخر فان بيت العنكبوت اذا هبت ريح لا يرى منه عين ولا أثر بل يصير هباء منثورا وكذلك أعمالهم للاوثان كما قال تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴿ (المسئلة الرابعة) ﴾ قال مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ولم يقل آلهة اشارة الى ابطال الشرك الخفي أيضا فان من عبد الله رياء لغيره فقد

المجموع من حيث هو هو عليه وللاشعار بعدم زوال الرعب بالفرار كما هو المعتاد وعن معاوية لما خر الروم بالكهف قال لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم فقال له ابن عباس رضي الله عنهما ليس لك ذلك قد منع الله تعالى من هو خير منك حيث قال لو اطلعت عليهم الآية قال معاوية لا أنتهي حتى أعلم علمهم فبعث رجلا وقال لهم ادهبوا فانظروا فقعلوا فلما دخلوا الكهف بعثهم الله تعالى ريحا فأوقعتهم وقرئ بتشديد اللام على التكثير وبابدال الهمزة ياء مع التخفيف والتشديد ﴿ (وكذلك بعثناهم) ﴾ أي كما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البلى والتغير آية دالة على كمال قدرتنا بعثناهم من النوم ﴿ (ليتساءلوا بينهم) ﴾ أي ليسأل بعضهم بعضا فيترتب عليه ما فعل من الحكم البالغة وجعله غاية للبعث لما فيه من السببية بالاختيار من حيث انه من أحكامه المترتبة عليه والاقتصار على ذكره لاستتباعه لسائر آثاره ﴿ (قال) استئناف لبيان تساءلهم ﴿ (قائل منهم) هو رئيسهم واسمه مكسلمينا ﴿ (كم لبثتم) اتخذ

في مناسكهم له قاله لما رأى من مخالفة حالهم لما هو المعتاد في الجملة ﴿ (قالوا) أي بعضهم (لبثنا يوما أو بعض يوم) قيل انما قالوا ما أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم آخر النهار فقالوا لبثنا يوما فلما رأوا أن الشمس لم تغرب بعد قالوا أو بعض يوم وكان ذلك بناء على

الظن الغالب فلم يعزموا الى الكذب (قالوا) أى بعض آخرهم بعد سنح لهم من الادلة أو بالهام من الله سبحانه (ربكم أعلم بما لبثتم) أى أنتم لا تعلمون مدة لبثكم وانما يعلمها الله سبحانه ومقاديرهم على الاوقات بما جعل ما يكون من مراعاة حسن الادب وبه يتحقق التعزب الى الحزبين المعهودين فيما سبق وقد قيل القائلون جميعهم ولكن فى حالتين ٥٢٩ ولا يساعده النظم الكريم فان الاستئناف

اتخذوا بها غيره مثله مثل العنكبوت يتخذ نسجه بيتا ﴿ ثم انه تعالى قال ﴿ وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ اشارة الى ما بينا ان كل بيت فمعه اما فائدة الاستظلال أو غير ذلك وبيته يضعف عن افادة ذلك لانه يخرب بأدنى شئ ولا يبقى منه عين ولا أثر فكذلك عابدهم لو كانوا يعلمون ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شئ وهو العزيز الحكيم ﴾ قال الزمخشرى هذا زيادة توكيد على التمثيل حيث انهم لا يدعون من دونه من شئ يعنى ما يدعون لبس شئ وهو عزيز حكيم فكيف يجوز للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة ما ليس بشئ أصلا وهذا يفهم منه انه جعل ما نافية وهو صحيح والعلم يتعلق بالجملة كما يقول القائل انى أعلم أن الله ولسوف يسئلنى عما أعلم هذا على الجملة وان كنا نجعل ما خبرية فيكون معناه ما يدعون من شئ فالله يعلمه وهو العزيز الحكيم قادر على اعدامه واهلاكهم لكنه حكيم يمهلهم ليكون الهلاك عن بينة والحياة عن بينة ومن ههنا يكون الخطاب مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا الوقال قائل ما وجه تعلق هذه الآية بالتمثيل السابق فنقول لما قال ان مثلهم كمثل العنكبوت فكان للكافر أن يقول أنا لا أعبد هذه الاوثان التى أتخذها وهى تصيرى وانما هى صورة كركب أنا نحت تصويره ومنه تفتى وضرى وضيرى وشرى وسوء ودوائى فله معبودى واعطانى فقال الله تعالى ان الله يعلم ان كل ما يعبدون من دون الله هو مثل بيت العنكبوت لان العنكبوت والملك وكل ما عبد الله لا ينفع ولا يضر الا باذن الله فعبادتكم كعبادتكم للغائب كعبادتكم للحاضر ولا معبود الا الله ولا الله سواه ﴿ ثم قال تعالى ﴿ وتلك الامثال نضربها للناس ﴾ قال الكافرون كيف يضرب خالق الارض والسموات الامثال بالهوام والحشرات كالبعوض والذباب والعنكبوت فنقول الامثال تضرب للناس ان لم تكونوا كالانعام يحصل لكم منه ادراك ما يوجب نفرتكم عما أنتم فيه وذلك لان التشبيه يؤثر فى النفس تأثيرا مثل تأثير الدليل فاذا قال الحكيم ان يغتاب انك بالغيبة كآكل لحم ميت لانك تأكل وقمت فى هذا الرجل وهو غائب لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجب ان يقع فى ميت يأكل منه وهو لا يعلم ما يفعله ولا يقدر على دفعه ان كان يعلمه فيتقرر طبعه منه كما يتقرر اذا قال له انه يوجب العقاب ويورث العتاب ﴿ ثم قال تعالى ﴿ وما يعقلها الا العالمون ﴾ يعنى حقيقتها وكون الامر كذلك لا يعلمه الا من حصل له العلم بطلان ما سوى الله وفساد عبادة ما عداه وقد سبق حكمى وهو ان العلم الحقيقى يعلمه العقل والعلم النقلى الدقيق يعقله العالم اذا عرض عليه أمر ظاهر أدركه كما هو بكنهه لتكون المدرك ظاهرا وكون المدرك عاقلا ولا يحتاج الى كونه عالما بأشياء قبله وأما الدقيق فيحتاج الى علم سابق فلا تدمن عالم انه قد يكون دقيقا فى غاية الدقة فيدركه ولا يدركه بتمامه ويعقله اذا كان عالما اذا علم هذا فقوله وما يعقلها الا العالمون يعنى هو ضرب للناس أمثالا وحقيقتها وما فيها من الفوائد بأسرها فلا يدركها الا العلماء ﴿ ثم انه تعالى لما أمر الخلق بالايمان وأظهر الحق بالبرهان ولم يأت الكفار بما أمرهم به وقص عليهم قصصا فيها عبر وأنذرهم على كفرهم بالهلاك من غير وبين ضعف دليلهم بالتمثيل ولم يهتد وا بذلك الى سواء السبيل وصل يأس النبى عنهم بسلى المؤمنين بقوله ﴿ خلق الله السموات والارض بالحق ان فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ يعنى ان لم يؤمنوا هم لا يورث كفرهم شكا فى صحة دينكم ولا يؤثر شكهم فى قوة يقينكم فان خلق الله السموات والارض بالحق للمؤمنين بيان ظاهر وبرهان باهر وان لم يؤمن به على وجه الارض كافر ﴿ وفى الآية مسئلة يتبين بها تفسير الآية وهى أن الله تعالى كيف خص الآية فى خلق السموات والارض بالمؤمنين مع ان فى خلقهما آية لكل عاقل كما قال الله تعالى وان سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقال

(٦٧ - تفسير س) المدينة فانه يستدعى شيوع أخباركم أى لا يتعلمن ما يؤدى الى ذلك فالنهى على الاول تأسيس وعلى الثانى تأكيد للامر بالتلطف (انهم) تعليل لما سبق من الامر والنهى أى لما لهم فى التلطف وعدم الاشعار لانهم (ان يظهروا عليكم) أى يطلعوا عليكم أو يظفروا بكم والضمير للاهل المقدر فى أيها (يرجموكم) ان ثبتم على ما أنتم عليه (أو يعيدوكم فى ملتهم) أى يصيروكم اليها

في الحكاية والخطاب في المحكى يقضى بان الكلام جار على منهاج المحاورة والمعاونة والالتفات ثم قالوا ابنا أعلم بما لبثتم (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة) قالوه اعراضا عن التعمق في البحث وايقاعا على ما يهمهم بحسب الحال كما ينبئ عنه الفاء والورق الفضة مضروبة أو غير مضروبة ووصفها باسم الاشارة يشعر بأن القائل ناولها بعض أصحابه ليشترى بها قوت يومهم ذلك وقرئ بسكون الراء وبادغام القاف فى الكاف وبكسر الواو وبسكون الراء مع الادغام وحلهم لها دليل على أن التزود لا ينافى التوكل على الله تعالى (فلينظر أيها) أى أهلها (أزكى) أحل وأطيب أو أكثر وأرخص (طعاما فليأتكم برزق منه) أى من ذلك الازكى طعاما (وليتلطف) وليتكلف اللطف فى المعاملة كى لا يفين أوفى الاستخفاء لئلا يعرف (ولا يشعرن بكم أحدا) من أهل

يدخلوكم فيها كرهاء من العود بمعنى الصيرورة كقوله تعالى أو لتعودن في ملتنا وقل كانوا أولا على دينهم وإيثار كلمة في على كلمة الى للدلالة على الاستقرار الذي هو أشد شيء عندهم كراهة وتقديم احتمال الرجم على احتمال الاعادة لان الظاهر من حالهم هو الاثبات على الدين المؤدى اليه وضمير الخطاب في المواضع الاربعة للمبالغة في حمل المنعوت على الاستخفاء وحث الباقين على الاهتمام بالتوصية فان اعتماض النصح أدخل في القبول واهتمام الانسان بشأن نفسه أكثر وأوفر (ولن تفلحوا اذا) أي ان دخلتم فيها ولو بالكره والاجاء لن تفوزوا بخير (أبدا) لا في الدنيا ولا في الآخرة وفيه من التشديد في التحذير ما لا يخفى (وكذلك) أي وكما أغفلناهم وبعثناهم لما مر من ازديادهم في مراتب اليقين (أعثرنا) أي أطلعنا الناس (عليهم ليعلموا) أي الذين أعثرناهم عليهم بما عاينوا من أحوالهم العجيبة (أن وعد الله) أي وعده بالبعث أو موعوده الذي هو البعث أو أن كل وعد وكل موعود فيدخل فيه وعده بالبعث أو البعث الموعود دخولا أوليا (حق) صادق لا خلف فيه أو ثابت لا مرد له لان نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يبعث (وأن الساعة) أي القيامة التي هي عبارة عن وقت بعث الخلائق جميعا للحساب والجزاء (لا ريب فيها) لا شك في قيامها فان من شاهد أنه جل وعلا توفى نفوسهم وأمسكها الف سنة وأكثر حافظا أبدانها من التحلل والتفتت ثم أرسلها فاذا

الله تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار الى أن قال لآيات لقوم يعقلون فتقول خلق السموات والارض آية لكل عاقل وخلقهما بالحق آية للمؤمنين خسب وبيانه من حيث العقل والعقل أما النقل فقوله تعالى ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون أخرج أكثر الناس عن العلم بكون خلقهما بالحق مع انه أثبت علم الكل بانه خلقهما حيث قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وأما العقل فهو ان العاقل أول ما ينظر الى خلق السموات والارض ويعلم أن لهما خالقا وهو الله ثم من يهديه الله لا يقطع النظر عنهما عند مجرد ذلك بل يقول انه خلقهما متقنا محكما وهو المراد بقوله بالحق لان ما لا يكون على وجه الاحكام يفسد ويبطل فيكون باطلا واذا علم أن الله خلقهما متقنا يقول انه قادر كامل حيث خلق وعالم علمه شامل حيث أتقن فيقول لا يعزب عن علمه أجزاء الموجودات في الارض ولا في السموات ولا يعجز عن جمعها كما جمع اجزاء الكائنات والمبدعات فيجوز بعث من في القبور وبعثة الرسول ويعلم وحدانية الله لانه لو كان أكثر من واحد لفسدتا أو لبطلتا وهما بالحق موجودان فيحصل له الايمان بتمامه من خلقه ما خلقه على أحسن نظامه ﴿ثم ان الله تعالى لما سلى المؤمنين بهذه الآية سلى رسوله بقوله تعالى﴾ (اتل ما أوحي اليك من الكتاب وأقم الصلوة ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر) يعني ان كنت تأسف على كفرهم فاتل ما أوحي اليك لتعلم أن نوحا ولوطا وغيرهما كانوا على ما أنت عليه بلغوا الرسالة وبالغوا في اقامة الدلالة ولم ينفعوا قومهم من الضلالة والجهالة وهذا قاله قائل وما قال عليهم لان التلاوة ما كانت بعد اليأس منهم الا تسلية قلب محمد عليه الصلاة والسلام وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ان الرسول اذا كان معه كتاب وقرأ كتابه مرة ولم يسمع لم يبق له فائدة في قراءته لنفسه فتقول الكتاب المنزل مع النبي المرسل ليس كذلك فان الكتب السيرة مع الرسل على قسمين قسم يكون فيه سلام وكلام مع واحد يحصل بقراءته مرة تمام المرام وقسم يكون فيه قانون كلي يحتاج اليه الرعية في جميع الاوقات كما اذا كتب الملك كتابا فيه انا رفعنا عنكم البدعة الفلانية ووضعنا فيكم السنة الفلانية ويعتنا لكم هذا الكتاب فيه جميع ذلك فلكل من ذلك كتوال يسمع عليه والى يعتوال فعلى هذا الكتاب لا يقرأ ويترك بل يعلق من مكان عال وكثيرا ما تكتب نسخته على لوح ويثبت فوق المحاريب ويكون نصب الاعين فكذلك كتاب الله مع رسوله محمد قانون كلي فيه شفاء للعالمين فوجب تلاوته مرة بعد مرة ليبلغ الى حد التواتر وينقله قرن الى قرن وليأخذه قوم من قوم ويثبت في الصدور على مرور الدهور ﴿الوجه الثاني﴾ هو ان الكتب على ثلاثة أقسام كتاب لا تتكرر قراءته الا للغير كالقصص فان من قرأ حكاية مرة لا يقرؤها مرة أخرى الا لغيره ثم اذا سمعه ذلك الغير لا يقرؤها الا لاحد آخر ليسمعه ولو قرأه على نفسه لم يكرر عليه الا للنفس كالنحو والفقه وغيرهما وكتاب يتلى مرة بعد مرة للنفس وللغير كالمواعظ الحسنة فانها تتكرر لا غير وكلما سمعها يلتذ بها ويرق لها قلبه ويستعيدها وكلما تدخل السمع يخرج الوسواس مع الدمع وتتكرر أيضا بالنفس المتكلم فان كثيرا ما يلتذ المتكلم بكلمة طيبة وكلما يعيدها يكون أطيب والذوات في القلب وأنفذ حتى يكاد يسكى من رقته دما ولو أورثه البكاء عمى اذا علم هذا فالقرآن من القبيل الثالث مع أن فيه القصص والفقه والنحو فكان في تلاوته في كل زمان فائدة ﴿المسئلة الثانية﴾ لم خص من الامر هذين الشيئين تلاوة الكتاب واقامة الصلاة فتقول لوجهين (أحدهما) ان الله لما أراد تسلية قلب محمد عليه السلام قال له الرسول واسطة بين طرفين من الله الى الخلق فاذا الم يتصل به الطرف الواحد ولم يقبله فالطرف الآخر متصل الا ترى ان الرسول اذا لم تقبل رسالته توجه نحو مرسله

اليها لا يبقى له شائبة شك في أن وعده تعالى حق وانه يبعث من في القبور فيرد اليهم أرواحهم فيحاسبهم ويجزيهم بحسب أعمالهم (اذ يتنازعون) ظرف لقوله أعثرنا قدم عليه الغاية اظهارا لكمال العناية بذكرها لا لقوله ليعلموا كما قيل لدلالته على أن التنازع يحدث

بعد الاعثار وليس كذلك أي أعثرنا هم عليهم حين يتنازعون (بينهم أمرهم) ليرتفع الخلاف ويتبين الحق قبل المتنازع فيه أمر بينهم حيث كانوا مختلفين في البعث فمن مقر له وجاحد به وقائل يقول يبعث الارواح دون الاجساد وآخر يقول يبعثها معا قيل كان ملك المدينة حينئذ رجلا صالحا مؤمنا وقد اختلف أهل مملكته في البعث حسبما فصل ٥٣١ فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحا وجلس على رماد وسأل ربه أن يظهر الحق فأتى الله عز وجل في نفس رجل من رعيانهم فهدم ما عنده دقيانوس باب الكهف لخشيته حظيرة غنمه فعند ذلك بعثهم الله تعالى فجرى بينهم من التقاول ما جرى روى أن المبعوث لما دخل المدينة أخرج الدرهم ليشتري به الطعام وكان على ضرب دقيانوس فأتاه ووجد كنزا قد هب وابه الى الملك فقص عليه القصة فقال بعضهم ان آباءنا أخبرونا بان فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء فانطلق الملك وأهل المدينة معه من مسلم وكافر ليبصروهم وكلموهم ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الانس والجن ثم رجعوا الى مضاجعهم فماتوا فألقى الملك عليهم ثيابه وجعل لكل منهم تابوتا من ذهب فرآهم في المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجدا وقيل لما انتهوا الى

فاذا تلوت كتابك ولم يقلوك فوجه وجهك الى وأقم الصلاة لوجهي (الوجه الثاني) هو ان العبادات المختصة بالبعد ثلاثة قلبية وهي الاعتقاد الحق ولسانية وهي الذكر الحسن وبدنية خارجية وهي العمل الصالح لكن الاعتقاد لا يتكرر فان من اعتقد شيئا لا يمكنه أن يعتقده مرة أخرى بل ذلك يدوم مستمرا والنبي عليه السلام كان ذلك حاصلا له عن عيان أكمل مما يحصل عن بيان فلم يؤمر به لعدم امكان تكراره لكن الذكر يمكن التكرار وكذلك العبادة البدنية كذلك فأمرهما فقال (أتل الكتاب وأقم الصلاة) (المسئلة الثانية) كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر * نقول قال بعض المفسرين المراد من الصلاة القرآن وهو ينهى أي فيه النهي عنهما وهو بعيد لان ارادة القرآن من الصلاة في هذا الموضع الذي قال فيه اتل ما أوحي اليك بعيد من الفهم وقال بعضهم أراد به نفس الصلاة وهي تنهى عنهما فما فعل آت العبد في الصلاة لا يمكنه الاشتغال بشئ منهما * فنقول هذا كذلك لكن ليس المراد هذا والا لاكثر وصدحا كاملا لان الصلاة لان غيرها من الاشغال كثيرا ما يكون كذلك كالنوم في وقته وغيره * فنقول المراد ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر مطلقا وعلى هذا قال بعض المفسرين الصلاة هي التي تكون مع الخوف وهي تنهى حتى نقول عنه صلى الله عليه وسلم من لم تنهه صلاته عن المعاصي لم يزدد الا بعدا ونحن نقول الصلاة الصحيحة شرعا تنهى عن الامرين مطلقا وهي التي أتى بها المكلف لله حتى لو قصد بها الرياء لا تصير صلاته شرعا وتصير عليه الاعادة وهذا ظاهر فان من نوى وضوء الصلاة والتبرد قبل الوجه فكيف من نوى بصلاته الله وغيره اذا ثبت هذا فنقول الصلاة تنهى من وجود (الاول) هو ان من كان يخدم ملكا عظيم الشان كثير الاحسان ويكون عنده بمنزلة وبرى عبيدا من عباده قد طردوا طرد الايصور قبوله * وفاتوا الطير يحمل الا برجي حصوله يستحيل من ذلك المقرب عرفا ان يترك خدمة الملك ويدخل في طاعة ذلك الطارد وكذلك العبد اذا صلى لله صار عبدا لله وحصل له منزلة الصلى يناجي ربه فيستحيل منه أن يترك عبادة الله ويدخل تحت طاعة الشيطان الطارد لكن مرتكب الفحشاء والمنكر تحت طاعة الشيطان فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (الثاني) هو أن من يلتمس القاذورات كالزبال والكناسين يكون له لباس نظيف اذا لبسه لا يباشر معه القاذورات وكلما كان ثوبه أرفع يكون امتناعه وهو لابسه من القاذورات أكثر فاذا لبس واحد منهم ثوب ديباج مذهب يستحيل منه مباشرة تلك الاشياء عرفا فكذلك العبد اذا صلى ليس لباس التقوى لانه واقف بين يدي الله واضع جبهته على سماله على هيئة من يقف بمرأى ملك ذي هيبة ولباس التقوى خير لباس يكون نسبته الى القلب أعلى من نسبة الديباج المذهب الى الجسم فاذن من لبس هذا اللباس يستحيل منه مباشرة القاذورات الفحشاء والمنكر ثم ان الصلوات متكررة واحدة بعد واحدة فيدوم هذا اللبس فيدوم الامتناع (الثالث) من يكون أمير نفسه يجالس حيث يريد فاذا دخل في خدمة ملك وأعطاه منصبا له مقام خاص لا يجالس صاحب ذلك المنصب الا في ذلك الموضع فلو أراد أن يجلس في صف النعال لا يترك فكذلك العبد اذا صلى ودخل في طاعة الله ولم يبق يحكم نفسه وصار له مقام معين ادصار من أصحاب اليمين فلو أراد أن يقف في غير موضعه وهو موقف أصحاب الشمال لا يترك لكن مرتكب الفحشاء والمنكر من أصحاب الشمال وهذا الوجه اشارة الى عصمة الله نبيه من صلى عنه صلاته عن الفحشاء والمنكر (الرابع) وهو موافق لما ورد به الاخبار وهو ان من يكون بعيدا عن الملك كالسوقي والنادي والمتعيش لا يبالي بما يفعل من الافعال يأكل في دكان الفراس والرواس ويجالس مع أجناس الناس فاذا صارت له قرية يسيرة من الملك كما اذا صار واحدا من الجندارية والقواد والسواس عند الملك لا تقنعه تلك القرية بل من

الكهف قال لهم الذي مكانكم حتى أدخل أولا لئلا يفزعكم فدخل فمضى عليهم المدخل فمضوا نحوه سجدا وقيل المتنازع فيه أمر الفتية قبل بعثهم أي أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم وما جرى بينهم وبين دقيانوس من الاحوال والاهوال ويتلقون ذلك من الاساطير أفواه الرجال وعلى التقديرين فالفاء في قوله عز وجل (فقالوا) فصيحة أي أعثرناهم عليهم فرأوا ما رأوا هما تراقفوا أي قال بعضهم

(أنوا علمهم) أي على باب كهفهم (بنيانا) لئلا يتطرق اليهم الناس فتنابتربهم ومحافظة عليها وقوله تعالى (ربهم أعلم بهم) من كلام المتنازعين كأنهم لما رأوا عدم اهتدائهم الى حقيقة حالهم من حيث النسب ومن حيث العدد ومن حيث اللبث في الكهف قالوا ذلك تفويضا للأمر الى علام الغيوب ٥٣٣ أو من كلام الله تعالى رد القول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين وقيل هو

تعالى ما كان يفعله فاذا زادت قربته وارتفعت منزلته حتى صار أميرا حينئذ تمنعه هذه المنزلة عن الاكل في ذلك المكان والجلوس مع أولئك الخلان كذلك العبد اذا صار له قربة تا لقوله تعالى واسجد واقترب فاذا كان ذلك القدر من القربة يمنعه من المعاصي والمناهي فيتكرر الصلاة والسجود تزداد مكانته حتى يرى على نفسه من آثار الكرامة ما يستقذر معه من نفسه الصغائر فضلا عن الكبائر وفي الآية وجه آخر معقول يؤكده المنقول وهو ان المراد من قوله ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر هو انها تنهى عن التعطيل والاشراك والتعطيل هو انكار وجود الله والاشراك اثبات آلهة مع الله فنقول التعطيل عقيدة فحشاء لان الفاحش هو القبيح الظاهر القبح لكن وجود الله أظهر من الشمس ومامن شئ الا وفيه آية على الله ظاهرة وانكارها الظاهر ظاهر الانكار فالقول بان لا اله قبيح والاشراك منكر وذلك لان الله تعالى لما أطلق اسم المنكر على من نسب نفسه الى غير الوالد مع جواز ان يكون له ولد حيث قال ان أمهاتهم الا اللائي ولدنهم وانهم ليقولون منكرا من القول فالمشرك الذي يقول الملائكة بنات الله وينسب الى من لم يلد ولا يجوز ان يكون له ولد ولدا كيف لا يكون قوله منكرا فالصلاة تنهى عن هذه الفحشاء وهذا المنكر وذلك لان العبد أول ما يشرع في الصلاة يقول الله أكبر فيقول الله ينفي التعطيل ويقول أكبر ينفي التشريك لان الشريك لا يكون أكبر من الشريك الآخر فيما فيه الاشتراك فاذا قال بسم الله نفى التعطيل واذا قال الرحمن الرحيم نفى الاشراك لان الرحمن من يعطي الوجود بالخلق بالرحمة والرحيم من يعطي البقاء بالرزق بالرحمة فاذا قال الحمد لله رب العالمين أثبت بقوله الحمد لله خلاف التعطيل وبقوله رب العالمين خلاف الاشراك فاذا قال اياك نعبد بتقديم اياك نفى التعطيل والاشراك وكذا بقوله واياك نستعين فاذا قال اهدنا الصراط نفى التعطيل لان طالب الصراط لم يقصد ولا ممتنع لا يقصد له وبقوله المستقيم نفى الاشراك لان المستقيم هو الاقرب والمشرك سبيله الاستقام حتى يعبد صورة صورها له العالمين ويظنون أنهم شفعاؤهم وعبادة الله من غير واسطة أقرب وعلى هذا الى آخر الصلاة يقول فيها أشهد أن لا اله الا الله فينفي الاشراك والتعطيل (وههنا لطيفة) وهي ان الصلاة أولها لفظة الله وآخرها لفظة الله في قوله أشهد أن لا اله الا الله لعل المصلي انه من أول الصلاة الى آخرها مع الله فان قال قائل فقد نهى من الصلاة قوله وأشهد أن محمدا رسول الله والصلاة على الرسول والتسليم فنقول هذه الاشياء في آخرها خلت لمعنى خارج عن ذات الصلاة وذلك لان الصلاة ذكر الله لا غير لكن العبد اذا وصل بالصلاة الى الله وحصل مع الله لا يقع في قلبه الله استقل واستبد واستغنى عن الرسول كان تقرب من السلطان فبعث بذلك ولا يلتفت الى النواب والحجاب فقال أنت في هذه المنزلة الرفيعة بهداية محمد صلى الله عليه وسلم وغير مستغن عنه فقل مع ذكري محمد رسول الله ثم اذا علمت أن هذا كله ببركة هدايته فاذكر احسانه بالصلاة عليه ثم اذا رجعت من معراجك وانتهيت الى اخوانك فسلم عليهم وبلغهم سلامي كما هو ترتيب المسافرين * واعلم أن هيئة الصلاة هيئة فخم اهيبة فان أولها وقوف بين يدي الله كوقوف المملوك بين يدي السلطان ثم ان آخرها جلوس بين يدي الله كما يجلس بين يدي السلطان من أكرمه بالاجلاس كان العبد لما وقف وأثنى على الله أكرمه الله وأجلسه فخاف في هذا المقام والطمأنينة وهي ان من جناف الدنيا بين يدي ربه هذا الجثو ولا يكون له حظ في الآخرة ولا يكون من الذين قال الله في حقهم ونذر الظالمين فيها جثيا ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾ لما ذكر أمرين وهما الاوفاء بالكتاب واقامة الصلاة بين ما يوجب أن يكون الاتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم فقال ولذكر الله أكبر وأنتم اذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة

أمرهم وتدبيرهم عند وفاتهم وشأنهم في الموت والنوم حيث اختلفوا في أنهم ماتوا أو ناموا كما في أول مرة فاذ حينئذ متعلق بقوله تعالى (قال الذين غلبوا على أمرهم) وهو الملك وا لمسلمون (لنتخذن عليهم مسجدا) وقوله تعالى فقالوا معطوف على يتنازعون وايثار صيغة الماضي للدلالة على أن هذا القول ليس مما يستمر و يتجدد كالتنازع وقيل متعلق باذكر مضمرا وأما تعلقه بأعثرنا فيأباه أن اعثارهم ليس في زمان تنازعهم فيما ذكر بل قبله وجعل وقت التنازع ممتدا يقع في بعضه الاعثار وفي بعضه التنازع تعسف لا يخفى مع أنه لا يخصص لاضافته الى التنازع وهو مؤخر في الوقوع (سيقولون) الضمير في الافعال الثلاثة للخائضين في قصتهم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب والمسلمين لكن لا على وجه اسناد كل منها الى كلهم بل الى بعضهم (ثلاثة رابعهم كلبهم) أي هم ثلاثة أشخاص رابعهم أي جاعلهم أربعة بانضمامه اليهم كلبهم قيل تنشوا

قالته اليهود وقيل قاله السيد من نصارى نجران وكان يعقوبيا وقرئ ثلاثا بادغام التاء في التاء (ويقولون خمسة سادسهم كلبهم) قيل قالته النصارى أو العاقب منهم وكان نسطوريا (رجما بالغيب) رميا بالظن الخفي الذي لا مطلع عليه أو ظنا بالغيب من قولهم رجم بالظن اذا

ظن واتصابه على الحالية من الضمير في للفعلين جميعا أي راجين أو على المصدرية منهما فان الرجم والقول واحد أي من محذوف مستأنف واقع موقع الحال من ضمير الفعلين معا أي يرجمون رجما وعدم ايراد السين للاكتفاء بعطفه على ما فيه ذلك (ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) هو ما يقوله المسلمون بطريق التلقي من هذا الوحي وما فيه مما يرشدهم ٥٣٣ الى ذلك من عدم نظمه في سلك

تنبيه والذال وتذكروهم جملة أفواهكم وقلوبكم لكن ذكر الله أكبر فينبغي أن يكون على أبلغ وجوه التعظيم وأما الصلاة فكذلك لان الله يعلم ما تصنعون وهذا أحسن صنعكم فينبغي أن يكون على وجه التعظيم وفي قوله ولذكر الله أكبر مع حذف بيان ما هو أكبر منه لطيفة وهي ان الله لم يقل أكبر من ذكر فلان لان ما نسب الى غيره بالكبر فلا نسبة اذ لا يقال الجبل أكبر من خردلة وانما يقال هذا الجبل أكبر من ذلك الجبل فأسقط المنسوب كأنه قال ولذكر الله الكبر لا لغيره وهذا كما يقال في الصلاة الله أكبر أي له الكبر لا لغيره ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا الا الكافرون﴾ لما بين الله طريقة ارشاد المشركين ونفع من انتفع وحصل اليأس من امتناع بين طريقة ارشاد أهل الكتاب فقال ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن قال بعض المفسرين المراد منه لا تجادلوهم بالسيف وان لم يؤمنوا الا اذا ظلموا وحاربوا أي اذا ظلموا زائدا على كفرهم وفيه معنى أظلم منه وهو ان المشرك جاء بالمنكر على ما بيناه فكان اللائق أن يجادل بالاخشن وبما لم تحسن منهجه وقبح من شبهه ولهذا قال تعالى في حقهم صم بكم عمي وقال لهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها الى غير ذلك وأما أهل الكتاب فاوتوا بكل حسن الا الاعتراف بالنبي عليه السلام فوحدوا وآمنوا بانزال الكتب وارسال الرسل والحشر فلمقابلة احسانهم يجادلون أولا بالاحسن ولا تستخف آراؤهم ولا ينسب الى الضلال آباؤهم بخلاف المشرك ثم على هذا فقوله الا الذين ظلموا تبيين لحسن آخر وهو ان يكون المراد الا الذين أشركوا منهم باثبات الولد لله والقول بالتثليث فانهم ضاهوا هم في القول المنكر فهم الظالمون لان الشرك ظلم عظيم فيجادلون بالاخشن من تحسين مقالتهم وتبيين جهالتهم ثم انه تعالى بين ذلك الاحسن فقدم مجادلتهم بقوله وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون فبارضا اتباع ما قاله لكنه بين رسالتي في كتبكم فهو دليل صدقي عندكم بعد ذلك ذكر دليلا قياسيا فقال وكذلك أنزلنا اليك الكتاب يعني كما أنزلنا على من تقدمك أنزلنا عليك وهذا قياس ثم قال فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به لوجود النص ومن هؤلاء كذلك واختلف المفسرون فقال بعضهم المراد بالذين آتيناهم الكتاب من آمن بنبينا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره وبقوله ومن هؤلاء أي من أهل مكة وقال بعضهم المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الذين سبقوا محمدا صلى الله عليه وسلم زمانا من أهل الكتاب ومن هؤلاء الذين هم في زمان محمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب وهذا أقرب فان قوله هؤلاء صرفه الى أهل الكتاب أولى لان الكلام فيهم ولا ذكر للمشركين ههنا وقيل وجه آخر أولى وأقرب الى العقل والنقل وأقرب الى الاحسن من الجدال المأمور به وهو أن نقول المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الانبياء بقوله ومن هؤلاء أي من أهل الكتاب وهو أقرب لان الذين آتاهم الكتاب في الحقيقة هم الانبياء فان الله ما آتى الكتاب الا للانبياء كما قال تعالى أولئك الذين آتيناهم الكتاب وقال وآتينا داود زبورا وقال وآتاني الكتاب واذا حملنا الكلام على هذا لا بد حينئذ من التخصيص لان كل الانبياء آمنوا بكل الانبياء واذا قلنا بما قالوا به يكون المراد من الذين آتيناهم الكتاب عبد الله بن سلام والذين آمنوا معه وعند ذلك لا يبقى المراد بقوله ومن هؤلاء غير المذكورين وعلى ما ذكرنا يكون مخرج الكلام كأنه قسم القوم قسمين أحدهما المشركون وتكلم فيهم وفرغ منهم والثاني

هو برهامن ملكهم دقيانوس واسمه كفيشطيطموش (فلا تمار) الفاء لتفريع النهي على ما قبله أي اذ قد عرفت جهل أصحاب القولين الاولين فلا تجادلهم (فيهم) في شأن القصة (الا مراء ظاهرا) قدر ما تعرض له الوحي من وصفهم بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه الاجمالي وتفويض العلم الى الله سبحانه من غير تصريح بجهلهم وتقبيح لهم فانه مما يخل بمكارم الاخلاق (ولا تستفت فيهم) في شأنهم

الرجم بالغيب وتغيير سبكه بزيادة الواو والمقيدة لزيادة وكادة النسبة فيما بين طرفيهم الا بوحي آخر كما قيل (قل) تحقيقا للحق ورد أعلى الاولين (ربي أعلم) أي أقوى علما (بعدتهم) بعددهم (ما يعلمهم) أي ما يعلم عدتهم أو ما يعلمهم فضلا عن العلم بعدتهم (الا قليل) من الناس قد وفقهم الله تعالى للا ستشهاد بتلك الشواهد قال ابن عباس رضي الله عنهما حين وقعت الواو انقطعت العدة وعليه مدار قوله رضي الله عنه أنا من ذلك القليل ولو كان في ذلك وحي آخر لما خفي عليه ولما احتاج الى الاستشهاد بالواو ولكان المسلمون أسوة له في العلم بذلك وعن علي كرم الله وجهه أنهم سبعة نفر أسماؤهم عليخا ومكسلمينا ومسلمينا هؤلاء أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان يستشيرهؤلاء الستة في أمره والسابع الراعي الذي وافقهم حين

(منهم) من الخائضين (أحدا) فان فيما قص عليك لمندوحة عن ذلك مع انه لا علم لهم بذلك وقال عطاء الاقليل من أهل الكتاب فالضمائر الثلاثة في الافعال الثلاثة لهم وماذكر من الشواهد لارشادنا مؤمنين الى صحة القول الثالث وفيه محيص عما في الاول من التكلف في جعل أحد الاقوال المحكية ٥٣٤ المتفاوتة في نمط واحد تاشئا عن الحكاية مع كون الاخبرين بخلافه ووضوح في سبب

حذف المفعول في الاعمار والمعنى حينئذ واذ قد وقفت على أن كلهم ليسوا على خطا في ذلك فلا تعاد لهم الاجد الاظاهرا قطع به الوحي المبين من غير تمهيل لجيههم فان قبيحهم مصيبا وان قبل والنهي عن الاستفتاء لدفع ما عسى يتوهم من احتمال جوازه واحتمال وقوعه بناء على اصابة بعضهم فالمعنى لا تراجع أيهم في شأن الفتية ولا تقصد في القول الثالث من حيث صدوره عنهم بل من حيث التلقي من الوحي (ولا تقولن لشئ) أي لاجل شئ تعزم عليه (اني فاعل ذلك) الشئ (غدا) أي فيما يستقبل من الزمان فطلقا فيدخل فيه الغد دخولا أوليا فانه نزل حين قالت اليهود لقريش سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذي القرنين فسألوه عليه الصلاة والسلام فقال ائتوني غدا أخبركم ولم يستثن فاربطا عليه الوحي حتى شق عليه وكذبته قريش وما قبل من أن المدلول بالعبارة هو الغد وما بعده ذلك مفهوم بطريق دلالة النص يرده أن ما بعده ليس بمعناه في مناط النهي فان وسعة المجال

من

دليل القدرة فظيعا مأمل (الا أن يشاء الله) استثناء مفرغ من النهي أي لا تقولن ذلك في حال من الاحوال الا حال ملابسته بمشيئة الله تعالى على الوجه المعتاد وهو أن يقال ان شاء الله أو في وقت من الاوقات الا وقت أن يشاء الله أن تقول لا مطلقا بل مشيئة اذن فان النسيان

أهل الكتاب وهو بعد في بيان أمرهم والوقت وقت جريان ذكرهم فاذا قال هؤلاء يكون منصرفا الى أهل الكتاب الذين هو في وصفهم واذا قال أولئك يكون منصرفا الى المشركين الذين سبق ذكرهم وتحقق أمرهم وعلى هذا التفسير يكون الجدال على أحسن الوجوه وذلك لان الخلاف في الانبياء والائمة قريب من الخلاف في فضيلة الرؤساء والملوك فاذا اختلف مرتبان في فضيلة ملكين أو رئيسين وأدى الاختلاف الى الاقتتال يكون أقوى كلام يصلح رميهم أن يقال لهم هذان الملكان متواليان متصادقان فلا معنى لنزاعكم فكذلك ههنا قال النبي صلى الله عليه وسلم نحن آمنا بالانبياء كلهم آمنا بموالي فلا معنى لتعصبكم لهم وكذلك أكابركم وعلماؤكم آمنوا ثم قال تعالى رادا عليهم بأنا نقول الا الكافرون بتغيير الحكم عما هو عليه يعني انكم آمنتم بكل شئ وامتريتم عن المشركين بكل فضيلة الا بهذه المسئلة الواحدة وبانكارها تلحقون بهم وتطلون مزايا كم فان الجاحد بآية يكون كافرا ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ هذه درجة أخرى بعد ما تقدم على الترتيب وذلك لان الجاحد اذا ذكر مسئلة مختلفا فيها كقول القائل الزكاة تجب في مال الصغير فاذا قيل له لم فيقول كما تجب النفقة في ماله ولا يذكر أولا الجامع بينهما فان قنع الطالب بمجرد التشبيه ويدرك من نفسه الجامع فذاك وان لم يدرك أو لم يقنع يبدي الجامع فيقول كلاهما مال فضل عن الحاجة فيجب فكذلك ههنا ذكر أولا التمثيل بقوله وكذلك أنزلنا اليك ثم ذكر الجامع وهو المعجزة فقال ما علم كون تلك الكتب منزلة الا بالمعجز وهذا القرآن من لم يكتب ولم يقرأ عين المعجزة فيعرف كونه منزلا ﴿وقوله تعالى ﴿اذا لارتاب المبطلون﴾ فيه معنى لطيف وهو ان النبي اذا كان تاليا كاتبا ما كان يوجب كون هذا الكلام كلامه فان جميع كتبة الارض وقراءها لا يقدرون عليه لكن على ذلك التقدير يكون للمبطل وجه ارتياب وعلى ما هو عليه لا وجه لارتيابه فهو أدخل في الابطال وهذا كقوله تعالى وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله أي من مثل محمد عليه السلام وكقوله لهم ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴿ثم قال تعالى ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ قوله في صدور الذين أوتوا العلم اشارة الى أنه ليس من مخترعات الآدميين لان من يكون له كلام مخترع يقول هذا من قلبي وخاطري واذا سمعه غيره من غيره يقول الله في قلبي وصدري فاذا قال في صدور الذين أوتوا العلم لا يكون من صدر أحد منهم والجاهل يستحيل منه ذلك فلا بد وله من الصدور والمتحققون عند هذه الآية بأن المشركين قطعوه من الله ﴿ثم قال تعالى ﴿وما يجحد بآياتنا الا الظالمون﴾ قال ههنا الظالمون ومن قبل قال الكافرون مع ان الكافر ظالم ولا تنافي بين الكلامين وفيه فائدة وهي انهم قبل بيان المعجزة قبل لهم ان الكلام الذي ادعاه لا تظلموا بانكاره محمد فتكونوا كافرين فلفظ الكافر هناك كان بليغا فمنعهم من ذلك لاستمساكهم عن الكفر ثم بعد بيان المعجزة قال لهم ان جحدتم هذه الآية فلزمكم انكار ارسال الرسل فتلحقون في أول الامر بالمشركين حكما وتحققون عند هذه الآية بالمشركين حقيقة فنكروا ظالمين أي مشركين كما يفهم من الشرك ظلم عظيم فهذا اللفظ ههنا أبلغ وذلك اللفظ هناك أبلغ ﴿ثم قال تعالى ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين﴾ لما فرغ من ذكر دليل من جانب النبي عليه السلام ذكر شبههم وهي بذكر الفرق بين المقيس عليه والمقيس فقالوا لانك تقول انه أنزل اليك كتاب كما أنزل الى موسى وعيسى وليس كذلك لان موسى أوتي تسع آيات علم بها كون الكتاب من عند الله وأنت ما أوتيت شيأ منها فان الله تعالى أرشد نبيه الى أجوبة هذه الشبه منها قوله انما الآيات عند الله وجوابه ان النبي صلى الله عليه وسلم ادعى الرسالة وليس

أيضا بمشيئته تعالى ولا مساغ لتعليقه بفاعل لعدم سداد استثناء اقتران المشيئة بالفعل ومنافاة استثناء اعتراضها النهي وقيل الاستثناء جار مجرى التأبيد كأنه قيل لا تقولنه أبدا كقوله تعالى وما كان لهم ان نعود فيها الا أن يشاء الله (واذكر ربك) بقولك ان شاء الله متدارکا لما (اذا نسيت) اذا فرط منك نسيان ثم ذكرته وعن ابن عباس رضي الله عنهما ٥٢٥ وليو بعد سنة ما لم يحنث ولذلك جوزت تأخير الاستثناء وعامة الفقهاء على خلافه اذ لو صح ذلك لما تقرر اقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يعلم صدق ولا كذب قال القرطبي هذا في تدارك الدرك والتخلص عن الاثم وأما الاستثناء المغير للحكم فلا يكون الا متصلا ويجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار اذا نسيت الاستثناء مبالغة في الحث عليه أو اذكر ربك وعقابه اذا تركت بعض ما أمرك به ليمنعك ذلك على التدارك أو اذكره اذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسي وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها (وقل عسى أن يهدين ربي) أي يرقيني (لأقرب من هذا) أي شيء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي (رشدا) أي ارشادا للناس ودلالة على ذلك وقد فعل عز وجل ذلك حيث آتاه من البينات ما هو أعظم من ذلك وأبين كقصص الأنبياء المتقادم أيامهم والحوادث النازلة في الاعصار المستقبلة الى قيام الساعة أو لأقرب رشدا وأدنى خيرا من النبي (ولبثوا في كهفهم) أحياء ضربوا على آذانهم (ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا) وهي جملة مستأنفة مبينة لما أجمل فيما سلف وأشير الى عزة مثاله وقيل انه حكاية كلام أهل الكتاب فانهم اختلفوا في مدة لبثهم كما اختلفوا في عددهم فقال بعضهم هكذا وبعضهم ثلثمائة وروى عن علي رضي الله تعالى عنه انه قال عند أهل الكتاب انهم لبثوا

من شرط الرسالة الا آتية المعجزة لان الرسول يرسل أولا ويدعو الى الله ثم ان توقف الخلق في قبوله أوطلبوا منه دليلا فالله أعلم رسولهم بين رسالته وان لم يرسم لا يبين فقال انا الساعة رسول وأما الآية فالله ان أراد ينزلها وان لم يرد لا ينزلها وهذا لان معجزات الانبياء من ضرورات الشيء اذ خلق الله الشيء لا بد من أن يخلقه كما يمكن من ضرورات الانسان فلا يخلق الله انسانا الا ويكون قد خلق مكانا أو يخلقه معه لكن الرسالة والمعجزة ليستا كذلك فالله اذا خلق رسولا وجعله رسولا ليس من ضرورته ان تعلم له معجزة ولهذا علم وجود رسل كثيرة كشيث وادريس وشعيب ولم تعلم لهم معجزة فان قيل علم رسالتهم بقول من ثبتت رسالته بلا معجزة فنبينا كذلك لا حاجة له الى معجزة لان رسالته علمت بقول موسى وعيسى فنقول بطلان قولهم لم ينزل عليه آية وهذا لانهم طلبوا سوى الآية وليست شرطا لمن تثبت بها بل ان كان لهم مجال نظر بقولهم ان يقولوا يا أيها المدعي نحن لا نكذبك ولا نصدقك لكن نريد أن يبين الله لنا آية فحينئذ نعلم انه من تصديق المتنبي وتكذيب النبي ونعلم بها كونك نبيا وتؤمن بك فبعد ذلك ما كان يعلمه من رحمة الله ان نزل آية ثم قوله وانما أنا نذير مبين معناه ان الآية عند الله ينزلها أو لا ينزلها لا تتعلق بي ما أنا الا نذير وليس لي عليه حكم يتبع ثم انه بعد بيان فساد شبههم من وجه بين فسادها من وجه آخر فقال هب ان انزال الآية شرط لكنه وجد وهو في نفس الكتاب ﴿فقال تعالى ﴿أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ يعني ان كان انزال الآية شرطا فلا يشترط الانزال آية وقد أنزل وهو القرآن فانه معجزة ظاهرة باقية وقوله أولم يكفهم عبارة تنبئ عن كون القرآن آية فوق الكفاية وذلك لان القائل اذا قال أما يكفي المرء ان لا يضرب حتى يقع الاكرام ينبئ عن ان ترك الضرب في حقه كثير وكذلك قوله أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب وهذا لان القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمه من الوجوه (أحدها) ان تلك المعجزات وجدت وما دامت قلب العصا ثعبانا واحياء الميت لم يبق لمامنه أثر فلم يكن واحد يؤمن بكتاب الله ويكذب بوجود هذه الاشياء لا يمكن اثباتها معه دون الكتاب وأما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فحقول له فأت بآية من مثله (الثاني) هو أن قلب العصى ثعبانا كان في مكان واحد ولم يره من لم يكن في ذلك المكان وأما القرآن فقد وصل الى المشرق والمغرب وعمه كل واحد وههنا لطيفة وهي ان آيات النبي عليه السلام كانت أشياء لا تختص بمكان دون مكان لان من جملتها انشقاق القمر وهو يعم الأرض لان المنصرف اذا وقع عم وذلك لان نبوته كانت عامة لا تختص بقطر دون قطر وكانت بحيث يسير ساره في كل قطر وسمعه ابوان كسرى في قطر وانهدمت الكنيسة بالروم في قطر آخر اعلاما بانه يكبر أمرها عم (الثالث) وان تغير هذه المعجزة الكافر المعاند يقول انه سحر عمل بدواعي القرآن لا يمكن هذا القول فيه ﴿ثم ان تعالى قال ﴿ان في ذلك لرحمة﴾ اشارة الى انا جعلناه معجزة رحمة على العباد لعلمنا بها الصادق وهذا لانا بينا أن اظهار المعجزة على يد الصادق رحمة من الله وكان له أن لا يظهر وفيه بقي الخلق في ورطة تكذيب الصادق أو تصديق الكذب لان النبي لا يتميز عن المتنبي ولولا المعجزة لكن الله له ذلك بقول ما يشاء وتركهم ما يريدون قوله ﴿وذكرى﴾ اشارة الى انه معجزة باقية لقوم يتذكرون بها كل من يكون ما بقي الزمان ﴿ثم قال تعالى ﴿لقوم يؤمنون﴾ يعني هذا الرحمة مختصة بالمؤمنين لان المعجزة كانت غصة على الكافرين لانها طمست أعدادهم وغلبت انكارهم ﴿ثم قال تعالى ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا﴾ لما ظهرت رسالته وبهرت دلالته ولم يؤمن به المعاندون من أهل الكتاب قال كما يقول الصادق اذا كذب وأذى بكل ما يدل على صدقه ولم يصدق الله يعلم صدقي وتكذيبكم أيها المعاند وهو على ما أقول شهيد بيني وبينكم كل ذلك اذا رأوه يدعيه تقريرا وتأكيدا ﴿ثم بين

ثلثمائة سنة شمسية والله تعالى ذكر السنة القمرية والفارق بينهما في كل مائة سنة ثلاث سنين فيكون ثلثمائة وتسع سنين وسنين عطف بيان لثلثمائة وقيل بدل وقرئ على الاضافة وضعا للجمع موضع المفرد ومما يحسنه ههنا أن علامة الجمع فيه جبر ما حذف في الواحد وأن الاصل في العدد اضافته الى الجمع ٥٣٦ (قل الله أعلم بما لبثوا) أي بالزمان الذي لبثوا فيه (له غيب السموات والارض) أي

كونه كائنا فيما يكون عالما بجميع الاشياء فقال ﴿ له ما في السموات والارض ﴾ وههنا مسئلة وهي ان الله تعالى قال في آخر العدد يقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب فأخبر شهادة أهل الكتاب وفي هذه السورة قد مدحهم حيث قال فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به أي من أهل الكتاب فنقول الكلام هناك مع المشركين فاستدل عليهم بشهادة غيرهم ثم ان شهادة الله أقوى في الزامهم من شهادة غير الله وههنا الكلام مع أهل الكتاب وشهادة المرء على نفسه وافراره وهو أقوى الحجج عليه فقدم ما هو ألزم عليهم ﴿ ثم الله تعالى لما بين الظاهرين في ارشاد الفريقين المشركين وأهل الكتاب عاد الى الكلام الشامل لهما وانذار العام فقال تعالى ﴿ والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾ أي الذين آمنوا بما سوى الله لان ما سوى الله باطل لانه هالك بتمرله كل شئ هالك الا وجهه وكل ما هالك فقد بطل فكل هالك باطل وكل ما سوى الله باطل فمن آمن بما سوى الله فقد آمن بالباطل وفيه مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ قوله أولئك هم الخاسرون يقتضي الحصر أي من أتى بالايمان بالباطل وانكفر بالله فهو خاسر فمن يأتي بأحدهما دون الآخر ينبغي أن لا يكون خاسرا فنقول يحتمل أن يكون الآتي بأحدهما لا يكون آتيا بالآخر أما الآتي بالايمان بما سوى الله فلانه أشرك بالله بجعل غير الله مثل الله بجعل غيره عاجزا جاهلا ممكنا باطل فيكون الله كذلك فيكون انكارا لله وكفرا به وأما من كفر به وأنكره فيكون قائلا بان العالم ليس له اله موجد فهو جحود العالم من نفسه فيكون قائلا بان العالم واجب والواجب اله فيكون قائلا بان غير الله اله فيكون اتيانا بانكار الله واعترافا به ﴿ المسئلة الثانية ﴾ اذا كان الايمان بما سوى الله كفرا به فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله قيل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذي هو في قول القائل قم ولا تقعد وأقرب مني ولا تبعد ﴿ نقول نعم فيه فائدة غير هذا وهو أنه ذكر الثاني لبيان قبح الاول كقول القائل أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول بالباطل قبيح ﴿ المسئلة الثالثة ﴾ هل يتقاول هذا أهل الكتاب أي هل هم آمنوا بالباطل وكفروا بالله ﴿ نقول نعم لانهم لما سمع عندهم أن معجزات النبي من عند الله وقطعوا بها وعاندوا وقالوا انها من عند غير الله يكون كمن رأى شخصا يرمي حجارة فقال ان رامي الحجارة زيد قطع بأنه قائل بأن هذا الشخص زيد حتى لو سئل عن دين ذلك الشخص وقيل له من هذا الرجل يقول زيد فكذلك هم لما قطعوا بان مظهر المعجزة هو الله وقالوا بان محمدا مظهر هذا لزمهم أن يقولوا انه محمد هو الله تعالى فيكون اتيانا بالباطل واذا قالوا بان من اظهر المعجزة ليس بالله مع انهم قطعوا بخصوص مظهر المعجزة كانوا قائلين بان ذلك الخصوص الذي هو ليس بالله فيكون كفرا به وهذا لا يرد علينا فمن يقول فعل العبد مخلوق الله تعالى أو مخلوق العبد فانه أيضا ينسب فعل الله الى الغير كما أن المعجزة فعل الله وهم نسبوها الى غير الله لان هذا القائل جعل النسبة كمن يرى حجارة رميت ولم ير عين رامي بها فيظن أن رامي زيد هو رامي هذه الحجارة ثم اذا رأى رامي بها بعينه فيكون غير زيد لا يقطع بان يقول هو زيد وأما اذا رأى عينه ورميه للحجارة وقال راعي الحجارة زيد يقطع بانه يقول هذا الرجل زيد فظاهر الفرق من حيث انهم كانوا معاندين عالمين بان الله مظهر تلك المعجزة ويقولون بانها من عند غير الله ثم قوله هم الخاسرون كذلك بأنهم وجوه الخسران وهذا لان من يخسر رأس المال ولا تركيبه دين يطالب بها دون من يخسر رأس المال وتركيبه تلك الديون فهم الساعد واغير الله أفنوا العمر ولم يحصل لهم في مقابلته شئ ما أصلا من المنافع واجتمع عليهم ديون ترك

ما غاب فيهم وما وخفي من أحوال أهلها والام للاختصاص العلمي دون التكويني فانه غير مختص بالغيب (أبصر به وأسمع) دل بصيغة التعجب على أن شأن علمه سبحانه بالمبصرات والمسموعات خارج عما علمه ادراك المدركين لا يخفى عليه شئ ولا يحول دونه حائل ولا يتفاوت بالنسبة اليه اللطيف والكثيف والصغير والكبير والخفي والجلي والاشياء كلها بمرأى منه وتحت قدرته الرفع على الفاعلية والباء مزيدة عند سيبويه وكان أصله أبصر أي صار ذا بصر ثم نقل الى صيغة الامر للانشاء فبرز الضمير بعد ما لم يبرز وزيادة الباء في الصيغة أولى وزيادة الباء كافي كفى به والنصب على المفعولية عند الاخفش والفاعل ضمير الامر ورد هو كل أحد والباء مزيدة ان كانت الهمزة للتعدية ومعدية ان كانت للصيرورة وللدلالة على تسليم أمر ابصاره تعالى لما أن الذي نحن بصدده من قبيل المبصرات (مالهم) لاهل السموات والارض (من دونه) تعالى (من ولي) يتولى أمورهم وينصرهم استقلالا (ولا يشرك في حكمه) في قضائه أو في علم الغيب (أحدا) منهم ولا

الواجبات

يجعل له فيه مدخلا وهو كالتوى أبلغ في نفي الشريك من أن يقال من ولي ولا شريك وقرئ على صيغة نهي الحاضر على أن الخطاب لكل أحد ولدلائل انتظام القرآن الكريم لقصة أصحاب الكهف من حيث انها بالنسبة الى النبي صلى الله عليه وسلم من المغيبات على انه وحي

مجزأ مره عليه الصلاة والسلام بالمداومة على دراسته فقال (واتل ما أوحي اليك من كتاب ربك) ولا تسمع لقولهم ائت بقرآن غير هذا أو بدله (لا مبدل لكلماته) لا قادر على تبديله وتغييره غيره (وان تجد) أيها الرسول بالغت في الطلب (من دونه ملتحدا) ملجأ تعدل اليه عند المهم مهلة (واصبر نفسك) احبسها وتمم امصاحبة (مع الذين يدعون ربهم

الواجبات بطالبون بها حيث لا طاقة لهم بها ﴿ ثم قال تعالى ﴾ ويستعجلونك بالعذاب وليولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴿ لما أنذرهم الله بالخسران وهو أتم وجوه الانذار لان من خسر لا يحصل له في مقابلة قدر الخسران شيء من المنافع والالما كان الخسران ذلك القدر بل دونه مثاله اذا خسروا عشرة دراهم لا ينبغي أن يكون حاصل له في مقابلة الدرهم ما يساوي نصف درهم والا لا يكون الخسران درهما بل نصف درهم فاذن هم لما خسروا أعمارهم لم تحصل لهم منفعة تخفف عذاب والا لكون ذلك القدر من العمر له منفعة فيكون للخاسر عذاب ألم فقوله وأوائلهم انما خسرون تهديد عظيم فقالوا ان كان علينا عذاب فأتنا به اظهارا لقلة خوفهم بعدم العذاب ثم انه أجاب بان العذاب لا يأتيكم بسؤالكم ولا يعجل باستعجالكم لانه أجله الله بحكمة ورحمة فلا يكون حكيما لا يكون متغيرا مستعجلا ولا كونه رحيما لا يكون غضوبا منتقما ولولا ذلك الاجل المسمى الذي اقتضته حكمته وارتسته رحمته لما كان لا رحمته وحكمته فيكون غضوبا منتقما فيتأثر باستعجالكم وينتقم من سؤالكم فيعجل وليس كذلك فلا يأتيكم بالعذاب وانتم تسألونه ولا يدفع عنكم العذاب حين تبتهلون به منه كما قال تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴿ ثم قال تعالى ﴾ وليأتينهم بغتة ﴿ اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم لياتينهم العذاب بغتة لان العذاب أقرب الامور وان سؤلهم كان العذاب فقال انه لياتينهم وقال بعضهم لياتينهم بغتة أي الاجل لان الاجل الآتي بغتة هو الاجل وأما العذاب بعد الاجل يكون معاينة وقد ذكرنا أن في كون العذاب أو الاجل آتيا بغتة حكمة وهي أنه لو كان وقته معلوما لكان كل أحد يتحرز كل حين بعده وتلهو وقته فيفسق ويفجر معتمدا على التوبة قبل الموت ﴿ وقوله تعالى ﴾ وهم لا يشعرون ﴿ يحتمل وجهين (أحدهما) تأكيد معنى قوله بغتة كما يقول القائل أتيته على غفلة منه بحيث لم يدر فقوله بحيث لم يدر تأكيد معنى الغفلة (والثاني) هو كلام يفيد فائدة مستقلة وهي أن العذاب يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون هذا الامر ويظنون أن العذاب لا يأتيهم أصلا ﴿ ثم قال تعالى ﴾ يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين ﴿ ذكر هذا التعجب وهذا الان من تعداد امر فظيع يسير كلمة أو كلمة فيرى من نفسه الجلد والقول باسم الله ساعات وأما من تعداد عذاب أو اغراق أو قطع بان المتعدد قادر لا يخاف الميعاد لا يخطر بباله العاقل أن يقول له هات ما تتوعدني به فقال ههنا يستعجلونك بالعذاب والعذاب نار جهنم المحيطة بهم فقوله ويستعجلونك أولا اخبار عنهم مرتبا على تعجب منهم ﴿ ثم ذكر كيفية احاطتها بهم فقال تعالى ﴾ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿ وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لم خص الجانبين بالذكر ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدام فنقول لان المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ونار الدنيا تحيط بالجوانب الاربع فان من دخلها تكون الشعلة خلفه وقدامه يمينه ويساره وأما النار من فوق فلا تنزل وانما تصعد من أسفل في العادة العاجلة وتحت الاقدام لا تبقى الشعلة بل تنطفئ الشعلة التي تحت القدم ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفئ بالدوس وموضع القدم ﴿ (المسئلة الثانية) ﴾ قال من فوقهم ومن تحت أرجلهم ولم يقل من فوق رؤسهم ولا قال من فوقهم ومن تحتهم بل ذكر الاسفل اليه عند ذكر تحت ولم يذكره عند ذكر فوق فنقول لان تنزل النار من فوق سواء كان من سمت الرأس وسواء كان من موضع آخر عجيب فانها لم تخلق بالرأس وأما بقاء النار تحت القدم فحسب عجيب والامن جوانب القدم في الدنيا يكون شعل وهي تحت فذكر العجيب وهو ما تحت الارجل حيث لم تنطف بالدوس وما فوق على الاطلاق ﴿ ثم قال تعالى ﴾ ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴿ لما بين عذاب أجسامهم

(٦٨ - خازن س)

عدو بنفسه من الامر أي صرفته عنه على أن المفعول محذوف اظهوره وترى ولا تعد عينيك من الاعداء والتعدية والمراد نهيه عليه السلام عن الازدراء بهم لرثاثة زيهم طموحا الى زي الاغنياء (تريد زينة الحياة الدنيا) أي تطلب مجالسة الاشراف والاغنياء وأصحاب الدنيا وهي حال من الكاف على الوجه الازل من القراءة المشهورة ومن الفاعل على الوجه الثاني

الدعاء في جميع الاوقات وقيل في طرفي النهار وقرئ بالغدوة على أن ادخال اللام عليها وهي علم في الاغلب على تأويل النكرة والمراد بهم فقراء المؤمنين مثل مهيب وعمار وخباب وغيرهم رضي الله عنهم وقيل أصحاب الصفة وكانوا نحو سبعمائة رجل قيل انه قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم نحن لا نجالس هؤلاء الموالي الذين كأن ريحهم ريح السنان حتى نجالسك كانك قوم نوح عليه السلام أنؤمن لك واتبعك الارذلون فنزلت والتعبير عنهم بالموصول لتعليل الامر بما في حيز الصلة من الخصلة الداعية الى ادامة الصحبة (يريدون) بدعائهم ذلك (وجهه) حال من المستكن في يدعون أي مريدين رضاه تعالى وطاعته (ولا تعد عيناك عنهم) أي لا تجاوزهم نظرك الى غيرهم من عداه اذا جاوزه واستعماله بعن لتضمينه معنى النبو أو لا تصرف عيناك النظر عنهم الى غيرهم من

سهاو شهير للعنين تريد واسناد الارادة اليه مجازو توحيده للملازم كما في قوله لمن زحلوقه زل * بها العينان تهل ومن المستكن في الفعل على القراءتين الاخيرتين (ولا تطع) في تخمية الفقراء عن مجالسك (من أغفلنا قلبه) أي جعلناه غافلا لبطلان استعداده للذكر بالمرة أووجدناه غافلا كقولك أحمدته وأبخلته اذا وجدته كذلك أوهو من أغفل ابله أي لم نسمه بالذكر (عن ذكرنا)

كأولئك الذين يدعونك الى طرد الفقراء عن مجالسك فانهم غافلون عن ذكرنا على خلاف ماعليه المؤمنون من الدعاء في مجامع الاوقات وفيه تنبيه على أن الباعث له على ذلك الدعاء غفلة قلبه عن جناب الله سبحانه وجهته وانهما كالمتباينين حتى خفي عليه أن الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد وقرئ أغفلنا قلبه على اسناد الفعل الى القلب أي صيرنا قلبه غافلا عن ذكرنا باياه بالمنع أحدته من أغفلته اذا وجدته غافلا (واتبع هواه وكان أمره فرطا) متجاوزا حدا وهلاكا أومتقدما للحق والصواب نابذا له وراء ظهره من قولهم فرس فرط أي متقدم للخيل أوهو بمعنى الافراط والتفريط فان الغفلة عن ذكره سبحانه تؤدي الى اتباع الهوى المؤدي الى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب والتعبير عنهم بالموصول للايذان بعلية ما في حيز الصلة للنهي عن الاطاعة

(وقل) لاولئك الغافلين المتبعين هواهم (الحق من ربكم) أي ما وحي الحق لا غير كائنا من ربكم أو الحق المقتضى المعهود من جهة ربكم لا من جهة حتى يتصرف فيه التبديل أو يمكن التردد في اتباعه وقوله تعالى (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) الما من تمام القول المأمور به والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها بطريق التهديد لا للتفريع عليه كما في قوله تعالى هذا عطاؤنا فامنن

أو أمسك بغير حساب وقوله تعالى الحق من ربك فلا تكونن من الممترين أى عقيب تحقق أن ما أوحى الى حق لا ريب فيه وأن ذلك الحق من جهة ربكم فمن شاء أن يؤمن به فليؤمن كسائر المؤمنين ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل ومن شاء أن يكفر به فليفعل وفيه من التهديد والاظهار الاستغناء عن متابعتهم وعدم المبالاة بهم وبإعانتهم وجودا وعدما ٥٢٩ ما ينبغى وأما تهديد من جهة الله تعالى وإلقاء لترتيب ما بعدها من التهديد على الامر للاعلى مضمون الامور به والمعنى قل لهم ذلك وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدق فيه فليؤمن ومن شاء أن يكفر به أو يكذبك فيه فليفعل فقوله تعالى (انا أعتدنا) وعيد شديد وتأكيد للتهديد وتعليل لما يفيده من الزجر عن الكفر أو لما يفهم من ظاهر التخيير من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بزجرهم عنه فان اعداد جزائه من دواعى الامتثال والامهال وعلى الوجه الاول هو تعليل للامر بعاذكر من التخيير التهديدى أى قل لهم ذلك انا أعتدنا (للظالمين) أى هيأنا للكافرين بالحق بعد ما جاءهم من الله سبحانه والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على أن مبنى الكفر واختياره تجاوز عن الحد ووضع للشئ فى غير موضعه (نارا) عظيمة عجيبة (أحاط بهم) أى يحيط بهم وإيراد صيغة الماضى للدلالة على التحقق (سرادقها) أى

فسطاطها شبه به ما يحيط بهم من النار وقيل السرادق الحجرة التى تكون حول الفسطاط وقيل سرادقها دخانها وقيل حائط من نار (وان يستغيثوا) من العطش (يغاثوا بماء كالمهل) كالحديد المذاب وقيل كدردى الزيت سخن وعلى طريقة قولك فأعشوا بالسلم (يشوى الوجوه) اذا قدم ليشرب اشتوى الوجه عن النبى عليه الصلاة والسلام هو كعكر الزيت فاذا قرب ليسقط فروة رأسه (بئس

الثواب) ذلك (وساءت) النار (مرتفقا) متكأ وأصل الارتفاق نصب المرفق تمت الحمد وأفى ذلك فى النار وانما هو بمقابلة قوله تعالى حسنت مرتفقا (ان الذين آمنوا) فى محل التعليل للحث على الايمان المفهم من التخيير كانه قيل وللذين آمنوا ولعل تغيير سبكه للايذان بكمال تنافى ما بين الفريقين أى ٥٤٠ ان الذين آمنوا بالحق الذى أوحى اليك (وعملوا الصالحات) حسبما بين فى تضاعيفه

التعلق بعد فان من قال لاجيرهخذ أجرتك فهم منه ان بذلك ينقطع تعلقه عنه واما اذا قال ما أنا أجرتك عندى أو نحو مالك من الاجر فهم منه ان ذلك عنده ولم يقل ههنا خذوا أجرتكم أيها العاملون وقال هناك ذوقوا ما كنتم تعملون فان قال قائل ذوقوا اذا كان بفهم منه الانقطاع فعذاب الكافر ينقطع قلنا ليس كذلك لان الله اذا قال ذوقوا دل على انه أعطاهم جزاءهم وانقطع ما بينه وبينهم لكن يبقى عليهم ذلك دائما ولا ينقص ولا يزداد وأما المؤمن اذا أعطاه شيأ فلا يترك معه ما أعطاه بل يزيده كل يوم فى النعم والبه الاشارة بقوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة أى الذى يصل الى الكافر يدوم من غير زيادة والذى يصل الى المؤمن يزداد على الدوام وأما الخلود وان لم يذكره فى حق الكافر لكن ذلك معلوم بغيره من النصوص ﴿ ثم قال تعالى ﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ ذكر أمرين الصبر والتوكل لان الزمان ماض وحاضر ومستقبل لكن الماضى لا تدارك له ولا يؤمر العبد فيه بشئ بقى الحاضر والذى يأتى به الصبر والمستقبل والذى فيه التوكل فيصبر على ما يصيبه من الاذى فى الحال ويتوكل فيما يحتاج اليه فى الاستقبال واعلم أن الصبر والتوكل صفتان لا يحصلان الا مع العلم بالله والعلم بأن سوى الله فمن علم ما سواه علم انه زائل فيهون عليه الصبر اذا الصبر على الزائل هين واذا علم الله علم انه باق يأتيه بأرزاق فان فاته شئ فانه يتوكل على حى باق وذكر الصبر والتوكل ههنا مناسب فان قوله يا عبادى كان ليبين أنه لا مانع من العبادة ومن يتأذى فى بقعة فليخرج منها فحصل للناس على قسمين قادر على الخروج وهو متوكل على ربه بترك الاوطان ومفارقة الاخوان وعاجز وهو صابر على تحمل الاذى وهو اطلب على عبادة الله تعالى ﴿ ثم قال تعالى ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم﴾ لما ذكر الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ذكر ما يعين على التوكل وهو بيان حال الدواب التى لا تدخر شيأ للغد ويأتيها كل يوم بمرزق رغد وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ فى كأين لغات أربع بيع غير هذه كائن على وزن راع وكأين على وزن بيع وكى على وزن رع ولم يقرأ الا كأين وكائن قراءة ابن كثير ﴿المسئلة الثانية﴾ كأين كلمة مركبة من كاف التشبيه وأى التى تستعمل استعمال من ومار كبتا وجعل المركب بمعنى كم ولم تكتب الا بالنون ليفصل بين المركب وغير المركب لان كأى يستعمل غير مركب كما يقول القائل رأيت رجلا لا كأى رجل يكون فقد حذف المضاف اليه ويقال رأيت رجلا لا كأى رجل وحينئذ لا يكون كأى مركبا فاذا كان كأى ههنا مركبا كتبت بالنون للتمييز كما تكتب معد يكرب وبعلبك موصولا للفرق وكما تكتب ثمة بالهاء تمييزا بينها وبين ثمت ﴿المسئلة الثالثة﴾ كأين بمعنى كم لم تستعمل مع من الا نادرا وكم يستعمل كثيرا من غير من يقال كم رجلا وكم من رجل وذلك لما بينا من الفرق بين كأين بمعنى كم وكأى التى ليست مركبة وذلك لان كأى اذا لم تكن مركبة لا يجوز ادخال من بعدها اذ لا يقال رأيت رجلا لا كأى من رجل والمركبة بمعنى كم يجوز ذلك فيها فالتزم للفرق * قوله تعالى لا تحمل رزقها قيل لا تحمل لضعفها وقيل هى كالنمل والبرغوث والدود وغيرها وقيل لا تدخر الله يرزقها واياكم بطريق القياس أى لا شك فى أن رزقها ليس الا بالله فكذلك رزقكم فتوكلوا فان قال قائل من قال بأن الله يرزق الدواب بل النبات فى الصحراء سبب والحيوان يسعى اليه ويرعى فيقول الدليل عليه من ثلاثة أوجه نظرا الى الرزق والى المرتزق والى مجموع الرزق والمرتزق أما بالنظر الى الرزق فلان الله تعالى لو لم يخلق النبات لم يكن للحيوان رزق وأما بالنظر الى المرتزق فلان الاغتذاء ليس بمجرد الابتلاع بل لابد من تشبيه بالاعضاء حتى يصير الخشيش عظما ولحما ونحوهما وما ذاك الا بحكمة الله تعالى حيث خلق الله فيه جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة وغيرها من القوى وبمحض قدرة الله وارادته فهو الذى يرزقها وأما بالنظر

(انا لا نضيع أجر من أحسن عملا) خبر ان الاولى هى الثانية مع ما فى حيزها والراجع محذوف أى من أحسن منهم عملا أو مستغنى عنه كما فى قولك نعم الرجل زيد أو واقع موقعه الظاهر فان من أحسن عملا فى الحقيقة هو الذى آمن وعمل الصالحات (أولئك) المتصفون بالنعوت الجليلة (لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الانهار) استئناف لبيان الاجر وهو الخبر وما بينهما اعتراض أو هو خبر بعد خبر (يحلون فيها من أساور من ذهب) من الاولى ابتدائية والثانية بيانية صفة لاساور والتنكير للتفخيم وهو جمع أسورة أو اسوار جمع سوار (ويلبسون ثيابا خضرا) خصت الخضرة بثيابهم لانها أحسن الالوان وأكثرها طراوة (من سندس واستبرق) أى مما رق من الديباج وما غلظ جمع بين النوعين للدلالة على أن فيهما ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين (متكئين فيها على الارائك) على السرر على ما هو شأن المتنعمين (نعم الثواب) ذلك (وحسنت) أى الارائك (مرتفقا) أى متكأ (واضرب لهم) أى للكافرين والمؤمنين (مثلا رجلين) مفعولان لاضرب أولهما ثانيهما لانه المحتاج الى التفصيل والبيان أى اضرب للكافرين والمؤمنين لائق حيث رأى حوالهما المستفادة مما ذكر انفا من أن للاولين فى الآخرة كذا وللآخرين كذا بل الى

من حيث عصيان الاولين مع تقلبهم فى نعم الله تعالى وطاعة الآخرين مع مكابدتهم مشاق الفقر مثلا حال رجلين معقدرين أو محنة عين هما اخوان من بنى اسرائيل أو شريكان كافر اسمه قطروس ومؤمن اسمه يهوذا اقتسما ثلثمائة آلاف دينار فاشترى الكافر بنصيبه ضياعا وعقارا وصرف المؤمن نصيبه الى وجوه البر فآل أمرهما الى ماحكاه الله تعالى ٥٤١ وقيل هما اخوان من بنى مخزوم كافر هو الاسود بن عبد الاسد ومسلم هو ابو سلمة عبد الله بن عبد الاسد زوج أم سلمة رضى الله عنها أولا (جعلنا لاحدهما) وهو الكافر (جنتين) بستانين (من أعناب) من كروم متنوعة والجملة تتمامها بيان للتمثيل أو صفة لرجلين (وحففناهما بنخل) أى جعلنا النخل محيطا بهما أو زرابيها كرومهما يقال حفه القوم اذا أطافوا به وحففته بهم جعلتهم حافين حوله فيزيده الباء مفعولا آخر كقولك غشيته به (وجعلنا بينهما) وسطهما (زرعا) ليكون كل منهما جامعا للاقوات والفواكه متواصل العمارة على الهيئة الرائقة والوضع الانيق (كلتا الجنتين آتت أكلها) ثمرها بلغت ممكنا صالحا للاكل وقرئ بسكون الكاف وقرئ كل الجنتين آتى أكله (ولم تظلم منه) لم تنقص من أكلها (شيئا) كما يعهد ذلك فى سائر البساتين فان الثمار غالبا تكثر فى عام وتقل فى آخر وكذا بعض الاشجار يأتى بالثمر فى بعض الاعوام دون بعض (وفجرنا خلالهما) فيما بين كل من الجنتين (نهرا) على حدة فلدوام ثمرتهما وبر يدبهما وصفا وقرئ بالتخفيف ولعل تأخير ذكر تفجير النهر عن ذكر ايتاء الاكل مع ان الترتيب الخارجى على العكس للايذان باستقلال كل من ايتاء الاكل وتفجير النهر فى تكميل حاسن الجنتين كأنهما جنة واحدة ولو عكس لافهم ان المجموع

الى الارتزق والرزق فلأن الله لو لم يهد الحيوان الى الغذاء ليعرفه من الشىء ما كان يحصل له اغتذاء ألا ترى أن من الحيوان ما لا يعرف نوعا من أنواع الغذاء حتى يوضع فى فمه بالشدة فيذوق فيأكله بعد ذلك فان كثيرا ما يكون البعير لا يعرف الخبز ولا الشعير حتى يلقم مرتين أو ثلاثة فيعرفه فيأكله بعد ذلك فان قال قائل كيف يصح قياس الانسان على الحيوان فيما يوجب التوكل والحيوان رزقه لا يتعرض اليه اذا أكل منه اليوم شبأ وترك بقية يجد هاعند امامد اليه أحد يدا والانسان ان لم يأخذ اليوم لا يبقى له غدا شىء وأيضا حاجات الانسان كثيرة فانه يحتاج الى أجناس الملابس وأنواع الاطعمة ولا كذلك الحيوان وأيضا قوت الحيوان مهيأ وقوت الانسان يحتاج الى كلف كالزرع والحصاد والطحن والخبز فلم لم يجعلوه قيل الحاجة ما كان يجده وقت الحاجة فيقول نحن لا نقول ان الجميع يقدح فى التوكل بل قد يكون الزارع الحاصد متوكلا والراكع الساجد غير متوكل لان من يزرع يكون اعتماده على الله واعتقاده فى الله انه ان كان يريد يرزق من غير زرع وان كان يريد لا يرزق مع عمل وقلبه مع الله هو متوكل حق التوكل ومن يصلى وقلبه مع ما فى بيدر وعمرو هو غير متوكل وأما قوله حاجات الانسان كثيرة فنقول مكاسبه كثيرة أيضا فانه يكتسب بيده كالخياط والنساج وبرجله كالساعى وغير هو بعينه كالناظر وبلسانه كالحادى والمنادى وبفهمه كالمهندس والتاجر وبعلمه كالطبيب والفقيه وبقوة جسمه كالعتال والحمال والحيوان لا مكاسب له فالرغيف الذى يحتاج اليه الانسان غدا أو بعد غد بعيد أن لا يرزقه الله مع هذه المكاسب فهو أولى بالتوكل وأيضا الله تعالى خلق الانسان بحيث يأتيه الرزق وأسبابه فان الله ملك الانسان عبائر الدنيا وجعلها بحيث تدخل فى ملكه شاء أم أبى حتى ان نتاج الانعام وثمار الاشجار تدخل فى الملك وان لم يرده مالك النعم والشجر واذا مات قرن بنتقل ذلك الى قرن آخر فهو شاء أم أبى وأيس كذلك حال الحيوان أصلا فان الحيوان ان لم يأت الرزق لا يأتيه رزقه فاذن الانسان لو توكل كان أقرب الى العقل من توكل الحيوان ثم قال وهو السميع العليم اذا طلبتم الرزق يسمع مرجيب علم ان سكتم لا تخفى عليه حاجتكم ومقدار حاجتكم ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ومخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ يقول لما بين الله الامر للشرك خاطبا معه ولم ينتفع به وأعرض عنه وخاطب المؤمن بقوله يا عبادى الذين آمنوا وأتم الكلام معه ذكر معه ما يكون ارشادا للشرك بحيث يسمعه وهذا طريق فى غاية الحسن فان السيد اذا كان له عبدان أو ابنان أو ولدان وأحدهما رشيد والآخر مفسد ينصح أولا المفسد فان لم يسمع يقول معرضا عنه ملتفتا الى الرشيد ان هذا لا يستحق انا طلاب فاسمع أنت ولا تكن مثل هذا المفسد فيتضمن هذا الكلام نصيحة المصلح وزجر المفسد فان قوله هذا لا يستحق الخطاب يوجب نكاية فى قلبه ثم اذا ذكر مع المصلح فى أثناء الكلام والمفسد يسمعه ان هذا الجاهل العجب منه أنه يعلم قبح فعله ويعرف الفساد من الصلاح وسبيل الرشاد والفلاح ويشتغل بضده يكون هذا الكلام أيضا داعيا له الى سبيل الرشاد مانعا له من ذلك المفسد فكذلك الله تعالى قال مع المؤمن العجب منهم انهم ان سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ثم لا يؤمنون وفى الآية لطائف (احداها) ذكر فى السموات والارض الخالق وفى الشمس والقمر التسخير وذلك لان مجرد خلق الشمس والقمر ليس بحكمة فان الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون فى موضع واحد لا تتحرك ما حصل الليل والنهار ولا الصيف ولا الشتاء فاذا الحكمة فى تحريكهما وتسخيرهما (الثانية) فى لفظ التسخير وذلك لان التحريك يدل على مجرد الحركة وليس مجرد الحركة كافية لانها لو كانت تتحرك مثل حركتنا ما كانت تقطع الفلك بألوف من السنين

فالملكمة في تسخيرهما تصريفهما في قدر ما يتقسم الانسان آلافا من الفراسخ ثم لم يجعل لهما حركة واحدة بل حركات احداهما غير حركتها من المشرق الى المغرب في كل يوم وليلة مرة والاخرى حركتها من المغرب الى المشرق والدليل عليهما ان الهلال يرى في جانب الغرب على بعد مخصوص من الشمس ثم يبعد منه الى جانب الشرق حتى يرى القمر في نصف الشهر في مقابلة الشمس والشمس على أفق المغرب والقمر على أفق المشرق وحركة أخرى حركة الاوج وحركة المائل والعقد وبها يرى القمر ولولا الحركة التي من المغرب الى المشرق لما حصلت الفصول ثم اعلم أن أصحاب الهيئة قالوا الشمس في الفلك مركوزة والفلك يدورانها وأنكره المفسرون الظاهريون ونحن نقول لا بعد في ذلك ان لم يقولوا بالطبيعة فان الله تعالى فاعل مختار ان أراد أن يحركها ما في الفلك والفلك ساكن يجوز وان أراد أن يحركها حركة الفلك وهما ساكنان يجوز ولم يرد فيه نص قاطع أو ظاهر وسنذكر تمام البحث في قوله تعالى وكل في فلك يسبحون (الثالثة) ذكر أمرين أحدهما خلق السموات والارض والآخر تسخير الشمس والقمر لان الايجاد قد يكون للذوات وقد يكون للصفات تنقلي السموات والارض اشارة الى ايجاد الذوات وتسخير الشمس والقمر اشارة الى ايجاد الصفات وهي الحركة وغيرها فكأنه ذكر من القبيلين مثالين ثم قال تعالى فأنى يؤفكون يعني هم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله مع أن من علمت عظمته وحيرت خسدمته ولا عظمة فوق عظمة خالق السموات والارض ولا حقارة فوق حقارة الجماد لان الجماد دون الحيوان والحيوان دون الانسان والانسان دون سكان السموات والارض فكيف يتركون عبادة أعظم الموجودات ويشتغلون بعبادات أخس الموجودات ﴿ثم قال تعالى ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده﴾ لما بين الخلق ذكر الرزق لان كمال الخلق ببقاء الانسان بالرزق فقال المعبود اما أن يعبد لاستحقاقه العبادة وهذه الاصنام ليست كذلك والله مستحق لها واما لكونه على الشأن والله الذي خلق السموات على الشان جلي البرهان فله العبادة واما لكونه ولي الاحسان والله يرزق اما لخلق فله الطول والاحسان والفضل والامتنان فله العبادة من هذا الوجه أيضا وقوله لمن يشاء اشارة الى كمال الاحسان وذلك لان الملك اذا أمر انسانا بأعطاء شخص شيأ فاذا أعطاه يكون له منة ما يسيرة حقيرة لان الآخذ يقول هذا ليس بارادته وانما هو بأمر الملك وأما ان كان مختارا بأن يقال له الملك ان شئت فاعطه وان شئت فلا تعطه فان أعطاه يكون له منة جليلة لاقليلة فقال الله تعالى الرزق منه وعشيئته فهو احسان تام يستوجب شكرا تاما ﴿قوله تعالى ﴿ويقدر له﴾ أي يضيق لمن أراد ﴿ثم قال تعالى ﴿ان الله بكل شئ عليم﴾ أي يعلم مقادير الحاجات ومقادير الارزاق وفي اثبات العلم ههنا لطائف (احداها) أن الرازق الذي هو كامل المشيئة اذا رأى عبده محتاجا وعلم جوعه لا يؤخر عنه الرزق ولا يؤخر الرازق الرزق الا لنقصان في تفويض مشيئة كالملك اذا رأى الاطعام والطعام لا يحصلون بعد فاستوى أو لعدم علمه بجوع العبيد (الثانية) وهي أن الله باثبات العلم استوعب ذكر الصفات التي هي صفات الاله ومن أنكرها كفر وهي أربعة اثباتها والقدرة والارادة والعلم وأما السمع والبصر والكلام القائم به من ينكرها يكون مبتدعا لا كافرا وقد استوفى الاربع لان قوله خالق السموات والارض اشارة الى كمال القدرة وقوله يبسط الرزق لمن يشاء اشارة الى نفوذ مشيئته وارادته وقوله ان الله بكل شئ عليم اشارة الى شمول علمه والقادر المريد العالم لا يتصور الا حيا ﴿ثم انه تعالى لما قال الله يبسط الرزق ذكر اعترافهم بذلك فقال ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله﴾ يعني هذا سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب فالرزق من الله ﴿ثم قال تعالى ﴿قل الحمد لله﴾ وهو

فقال لصاحبه) المؤمن (وهو) أي القائل (يحاوره) أي صاحبه المؤمن وان جاز العكس أي يراجعه في الكلام من حار اذا رجع (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) حشما وأعوانا أو أولادا ذكورا لانهم الذين ينفرون معه (ودخل جنته) التي شرحت أحوالها وعددها وصفاتها وهيأتها وتوحيدها اما لعدم تعلق الغرض بتعددها واما لاتصال احداهما بالاخرى واما لان الدخول يكون في واحدة فواحدة (وهو ظالم لنفسه) شاركها بجحوده وكفره (قال) استئناف مبني على سؤال تأمن ذكر دخول جنته حال ظلمه لنفسه كأنه قيل فماذا قال اذ ذاك فقيل قال (ما أظن أن تبيد هذه) الجنة أي تفنى (أبدا) لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بمهلته ولعله انما قاله بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره بفناء جنته ونهيه عن الاغترار بها وأمره بتحصيل الباقيات الصالحات (وما أظن الساعة قائمة) كائنة فيما يأتي (ولئن رددت) بالبعث عند قيامها كما تقول (الى ربي لاجدن) يومئذ (خيرا منها) أي من هذه الجنة وقرئ منهما أي من الجنتين (منقلبا) مرجعا وعاقبة ومدارهذا الظلم والعين الفاجرة اعتقاده تعالى انما أولاها ولامن الذي لا استحقاق للذاتي وكراهته عليه سبحانه ولم يدر أن ذلك استدراج (قال له صاحبه) استئناف كما سبق (وهو

يحتمل

يحاوره) جملة حالية كما مر فائدتها التنبيه من أول الامر على أن ما يتلوه كلام معتنى بشأنه مسوق للمحاورة (أكفرت) حمزة قلت ما أظن الساعة قائمة (بالذي خلقك) في ضمن خلق أصلك (من تراب) فان خلق آدم عليه السلام منه متضمن لخلقه منه لما أن خلق كل فرد من افراد البشر لم يحظ من خلقه عليه السلام اذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على قطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب خلقا للكل منه وقيل خلقك منه لانه أصل مادتك اذ به يحصل به الغذاء الذي منه تحصل النطفة فتدبر (ثم من نطفة) هي مادتك القريبة فالمخلوق واحد والمدة متعددة (ثم سواك رجلا) أي عدلك وكملك انسانا ذكرا أو صيرك رجلا والتعبير عنه تعالى بالموصول للاشعار بعلة ما في حيز الصلة لانكار الكفر والتوبيخ عليه لدليل البعث الذي نطق به قوله عز من قائل يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب الخ (لكنا هو الله ربي) أصله لكن أنا وقد قرئ كذلك حذفت الهمزة فألقيت النون فكان الادغام وهو ضمير الشأن وهو مبتدأ خبره الله ربي وتلك الجملة خبر أنا والعائد منها اليه الضمير وقرئ بإثبات ألف أنا في الوصل والوقف جميعا وفي الوقف خاصة وقرئ لكنه بالهاء ولكن أنا لا إله إلا هو ربي وعلى هذا الاستدراك قوله تعالى أكفرت كأنه قال أنت كافر لكني مؤمن موحد (ولا أشرك بربي أحدا) فيه ايذان بأن كفره كان بطريق الاشراك (ولولا اذ دخلت جنتك قلت) أي هلا قلت عند ما دخلتها وتقديم الظرف على المحضض عليه للايذان بتحتم القول في أن الدخول من غير مريث لا للقصر (ما شاء الله) أي الامر ما شاء الله كائن على أن

يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون كلاما معترضا في أثناء كلام كأنه قال فأحياها الارض من بعد موتها ﴿بل أكثرهم لا يعقلون﴾ فذكرني أثناء هذا الكلام الحمد لله ذكر النعمة كما قال القائل

ان الثمانين وبلغتها * قد أحوجت سمعي الى ترجمان

(الثاني) أن يكون المراد منه كلاما معتدلا وهو انهم يعرفون بأن ذلك من الله ويترفرون ولا يعملون بما يعلمون وأنت تعلم وتعمل فكذلك المؤمنون بك قل الحمد لله وأكثرهم لا يعقلون أن الحمد كله لله فيحمدون غير الله على نعمه فهي من الله (الثالث) أن يكون المراد انهم يقولون ان من الله ويقولون بالهة غير الله فيظهر تناقض كلامهم وتهافت مذهبهم فقل الحمد لله على ظهور تناقضهم وأكثرهم لا يعقلون هذا التناقض أو فساد هذا التناقض ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿وما هذه الحيوة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ لما بين انهم يعترفون بكون الله هو الخالق وكونهم هو الرزاق وهم يتركون عبادته ولا يتركونها الا لزينة الحياة الدنيا بين أن ما يميلون اليه ليس بشيء بقوله وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ما الفرق بين اللهو واللعب حتى يصح عطف أحدهما على الآخر فنقول الفرق من وجهين (أحدهما) ان كل شغل يفرض فان المكلف اذا أقبل عليه لزمه الاعراض عن غيره ومن لا يشغله شأن عن شأن هو الله تعالى فالذي يقبل على الباطل للذة يسيرة نزالة فيه يلزمه الاعراض عن الحق فالاقبال على الباطل لعب والاعراض عن الحق لهو فالدنيا لعب أي اقبال على الباطل ولهو أي اعراض عن الحق (الثاني) هو أن المشتغل بشيء يرجع ذلك الشيء على غيره لا محالة حتى يشتغل به فاما أن يكون ذلك الترجيح على وجه التقديم بأن يقول أقدم هذا وذلك الآخر آتي به بعده أو يكون على وجه الاستغراق فيه والاعراض عن غيره بالكلية فالاول لعب والثاني لهو والدليل عليه هو أن الشطرنج والحمام وغيرهما مما يقرب منهما لا تسمى آلات الملاهي في العرف والعود وغيره من الاوتار تسمى آلات الملاهي لانها تلهي الانسان عن غيرها لما فيها من اللذة فالدنيا تلهي للبعض لعب يشتغل به ويقول بعد هذا الشغل أشتغل بالعبادة والآخرة وللبعض لهو يشتغل به ويتمنى الآخرة بالكلية ﴿المسئلة الثانية﴾ قال الله تعالى في سورة الانعام وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وما هذه الحياة وقال ههنا وما هذه فنقول لان الذي ذكر من قبل ههنا أمر الدنيا حيث قال تعالى فأحيا به الارض من بعد موتها فقبل هذه وما الذي ذكر فيما هناك الآخرة حيث قال ياحسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم فلم تكن الدنيا في ذلك الوقت في خاطرهم فقال وما الحياة الدنيا ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال هناك الا لعب ولهو ولعب ههنا فنقول لما كان المذكور ههنا من قبل الآخرة واظهارهم للحسرة ففي ذلك الوقت بعد الاستغراق في الدنيا بل نفس الاشتغال بها فاخر الامر وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهي خداعة تدعو النفوس الى الاقبال عليها والاستغراق فيها اللهم الا لمانع منعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها ولما سلم بعضهم فلا يشتغل بها أصلا فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو ﴿المسئلة الرابعة﴾ قال هناك ولدار الآخرة خير وقال ههنا وان الدار الآخرة لهي الحيوان فنقول لما كان الحال هناك حال اظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج الى رادع قوي فقال الآخرة خير ولما كان ههنا الحال حال الاشتغال بالدنيا احتاج الى رادع قوي فقال لاحياة الا حياة الآخرة وهذا كأن العاقل اذا عرض عليه شيآن فقال في أحدهما هذا خير من ذلك يكون هذا ترجيحا حسب ولو قال هذا جد وهذا الآخر ليس بشيء يكون ترجيحا مع المبالغة فكذلك ههنا بالغ لكون المكلف مشغولا فيها ﴿المسئلة الخامسة﴾ قال

ما هو صولة مرفوعة المحل أو أي شيء شاء الله كان على أنها شرطية منصوبة والجواب محذوف والمراد تخصيصه على الاعتراف بأنها واقعة بمشيئة الله تعالى ان شاء أبقاها وان شاء أفناها (لا قوة الا بالله) أي هذا قلت ذلك اعترافا بعجزك وبأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها انما هو بمعونته تعالى واقداره ٥٤٤ عن النبي صلى الله عليه وسلم من رأى شيأ فأعجبه فقال ما شاء الله لا قوة الا بالله لم يضره

هناك خير للذين يتقون ولم يقل ههنا الا لهم الحيوان لان الآخرة خير للمتقي بحسب أي المتقي عن الشرك وأما الكافر فالدنيا جنته فهي خير له من الآخرة وأما كون الآخرة باقية فيها الحياة الدائمة فلا يختص بقوم دون قوم ﴿المسئلة السادسة﴾ كيف أطلق الحيوان على الدار الآخرة مع أن الحيوان نام مدرك فتقول الحيوان مصدر حي كالحياة لكن فيهما مبالغة ليست في الحياة والمراد بالدار الآخرة هي الحياة الثانية فكأنه قال الحياة الثانية هي الحياة المعتبرة أو نقول لما كانت الآخرة فيها الزيادة والنمو كما قال تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وكانت هي محل الادراك التام الحق كما قال تعالى يوم تبلى السرائر أطلق عليها الاسم المستعمل في المنامي المدرك ﴿المسئلة السابعة﴾ قال في سورة الانعام أفلا تعقلون وقال ههنا لو كانوا يعلمون وذلك لان المثبت هناك كون الآخرة خيرا وانه ظاهر لا يتوقف الا على العقل والمثبت ههنا أن لا حياة الا الحياة الآخرة وهذا دقيق لا يعرف الا بعلم نافع ﴿ثم قال تعالى﴾ فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون ﴿اشارة الى أن الموانع من التوحيد هو الحياة الدنيا وبيان ذلك هو انهم اذا انقطع رجاؤهم عن الدنيا رجعوا الى الفطرة الشاهدة بالتوحيد وحدوا وأخلصوا فاذا أنجاهم وأرجاهم عادوا الى ما كانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا ﴿ثم قال تعالى﴾ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون ﴿وفيه وجهان (أحدهما) أن اللام لام كي أي يشركون ليكون الثمرة كفرهم بنعمة الانجاء وليتمتعوا بسبب الشرك فسوف يعلمون بوبال عملهم حين زوال أملهم (والثاني) أن تكون اللام لام الامر ويكون المعنى ليكفروا وعلى التهديد كما قال تعالى اعملوا ما شئتم وكما قال اعملوا على مكانتكم اني عامل فسوف تعلمون فساد ما تعملون ﴿ثم قال تعالى﴾ أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله يكفرون ﴿التفسير ظاهر وانما الدقيق وجه تعلق الآية بما قبلها ﴿فنقول الانسان في البحر يكون على أخوف ما يكون وفي بيته يكون على آمن ما يكون لا سيما اذا كان بيته في بلد حصين فلما ذكر الله المشركين حالهم عند الخوف الشديد وأراد أن يفسهم في ثلاث الحالة الرابعة الى الله تعالى ذكرهم حالهم عند الامن العظيم وهي كونهم في مكة فانها مدينتهم وبلدهم وقيم استكانهم ومولدهم وهي حصين بحصن الله حيث كل من حولها متتبع من قتال من يحصل فيها والحصول فيها يدفع الشرور عن النفوس ويكفها يعني انكم في أخوف ما كنتم دعوتم الله وفي آمن ما صاحبتم عليه كفرتم بالله وهذا متناقض لان دعاءكم في ذلك الوقت على سبيل الاخلاص ما كان الا لقطعكم بأن النعمة من الله لا غير فهذه النعمة العظيمة التي حصلت وقد اعترفتم بأنها لا تكون الا من الله كيف تكفرون بها والاصنام التي قطعتم في حال الخوف أن لا أمن منها كيف آمنتم بها في حال الامن ﴿ثم قال تعالى﴾ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴿لما بين الله الامور على الوجه المذكور ولم يؤمن به أحد بين انهم أظلم من يكون لان الظلم على ما بين وضع الشيء في غير موضعه فاذا وضع واحد شيأ في موضع ليس هو موضعه يكون ظالما فاذا وضعه في موضع لا يمكن أن يكون ذلك موضعه يكون أظلم لان عدم الامكان أقوى من عدم الحصول لان كل ما لا يمكن لا يحصل وليس كل ما لا يحصل لا يمكن فالله تعالى لا يمكن أن يكون له شريك وجعلوا له شريكا فكفروا كان ذلك في حق ملك مستقل في الملك لكان ظلما يستحق من أجله العقاب الأليم فكيف اذا جعل الشريك لمن لا يمكن أن يكون له شريك وأيضا من كذب صادقا يجوز عليه الكذب يكون ظالما فمن يكذب صادقا لا يجوز عليه الكذب كيف يكون حاله فاذا ليس أظلم ممن يكذب على الله بالشرك ويكذب الله في تصديق نبيه والذي

(ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا) أنا ما مؤكد لما وولدا المتكلم أو ضمير فصل بين مفعولي الرؤية ان جعلت علمية وأقل ثانيهما وحال ان جعلت بصرية فيكون اناحينئذ تأكيدا لا ضمير لان شرط كونه ضمير فصل توسطه بين المبتدا والخبر أو ما أصله المبتدا والخبر وقرئ أقل بالرفع خبر الانا والجملة مفعول ثان للرؤية أو حال وفي قوله تعالى وولدا نصرة لمن فسر النفر بالولد (فعسى ربي أن يؤتيني خيرا من جنتك) هو جواب الشرط والمعنى ان ترن أقتر منك فانا أرقع من صنع الله سبحانه أن يقلب حالي وحالك من الفقر والغنى فيرزقني لايماني جنة خيرا من جنتك ويسلبك لكفرك فعسى ربي يرغب جنتك (ويرسل عليها حسبانا) هو مصدر بمعنى الحساب كالبطلان والغفران أي مقدارا قدره الله تعالى وحسبه وهو الحكم بتخريبها وقيل عذاب حسبان وهو حساب ما كسبت يداه وقيل مرامي جمع حسبانة وهي الصواعق ومساعدة النظم الكريم فيما سيأتي للاولين أكثر (من السماء فتصبح صعيدا زلقا) مصدر في أريد به المفعول مبالغة أي أرضا ملساء يزلق عليها لاستئصال ما عليها من البناء والشجر والنبات (أو يصبح) عطف على قوله تعالى فتصبح وعلى الوجه الثالث على يرسل (ماؤها غورا) أي غائرا في الارض أطلق عليه المصدر مبالغة (فلن تستطيع) أبدا (له) أي للماء الغائر

(طالبا) فضلا عن وجدانه وردده (وأحيط بثمره) أهلك أمواله المعهودة من جنته ومافيها مأواصله من احاطة العدو وهو عطف على مقدر كأنه قيل فوقع بعض ماتوقع من المحذور وأهلك أمواله وانما حذف لدلالة السياق والسباق عليه ككافي المعطوف عليه بالفاء الفصيحة (فأصبح يقلب كفيه) ظهرا لبطن وهو كناية عن الندم كانه قيل فندم ٥٤٥ ندم (على ما انفق فيها) أي في عمارتها من المال ولعل تخصيص الندم به دون ماهلك الآن من الجنة لما انه انما يكون على الافعال الاختيارية ولان ما انفق في عمارتها كان مما يمكن صيانته عن طوارق الحدثان وقد صرفه الى مصالحها رجاء أن يتمتع بها أكثر مما يتمتع به وكان يرى ان لاتالها أيدي الردى ولذلك قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا فلما ظهر له انها مما يعتريه الهلاك ندم على ماصنع بناء على الزعم الفاسد من انفاق ماكان ادخاره في مثل هذا الشئ السريع الزوال (وهي) أي الجنة من الاعناب المحفوفة بنخل (خاوية) ساقطة (على عروشها) أي دعائمها المسنوعة للكروم لسقوطها قبل سقوطها ونخصص حالها بالذكر دون النخل والزرع اما لانها العمدة وهما من متمماتها واما لان ذكر هلاكها مغن عن ذكر هلاك الباقي لانها حيث هلكت وهي مشيدة بعروشها فهلاك ماعداها بالطريق الاولى (ويقول) عطف على يقلب أحوال من ضميره أي وهو يقول (ياليتني لم أشرك بربي أحدا) كانه تذكر موعظة أخيه وعلم أنه انما أتى من قبل شركه فتمنى لو لم يكن مشركا فلم يصبه ما أصابه بقيل ويحتمل أن يكون ذلك توبة من الشرك وندما على ما فرط منه (ولم تكن له) وقرئ بالياء التحتانية

في رسالته ربه والقرآن المنزل من الله الى الرسول والعجب من المشركين انهم قبلوا المتخذ من خشب منحوت بالالهية ولم يقبلوا ذا لحم حسب منعوت بالرسالة والآية تحتمل وجها آخر وهو ان الله تعالى لما بين التوحيد والرسالة والحشر وقررهم ووعظ وزجر قال لنبيه ائتقول للناس ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أي انى جئت بالرسالة وقلت انها من الله وهذا كلام الله وأنتم كذبتموني فالحال دائرة بين أمرين اما انا مفتر متنبئ ان كان هذا من عند غير الله أو أنتم مكذبون بالحق ان كان من عنده ولكني معترف بالعذاب الدائم عارف به فلا أقدم على الافتراء لان جهنم مثوى للكافرين والمتنبي كافر وأنتم كذبتموني فجهنم مثواكم اذهي مثوى للكافرين وهذا حينئذ يكون كقوله تعالى وانا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴿ثم قال تعالى﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾ لما فرغ من التقرير والتقريع ولم يؤمن الكفار لي قلوب أتبعه بقوله والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا أي من جاهد بالطاعة هداه سبيل الجنة وان الله لمع المحسنين اشارة الى ماقال للذين أحسنوا الحسنى وزيادة فقوله لنهدينهم اشارة الى الحسنى وقوله وان الله لمع المحسنين اشارة الى المعية والقربة التي تكون للحسنى زيادة على حسناته وفيه وجه آخر حكمي وهو أن يكون المعنى والذين جاهدوا فينا أي الذين نظروا في دلائلنا لنهدينهم سبلنا أي لنحصل فيهم العلم بنا ولنبين هذا فنقول بيان ذلك أصحابنا المتكلمون قالوا ان النظر كما شرط للعلم الاستدلالي والله خلق في الناظر علما عقيب نظره ووافقهم الفلاسفة على ذلك في المعنى وقالوا النظر معد للنفس لقبول الصورة المعقولة واذا استعدت النفس حصل لها العلم من فيض واهب الصور الجسمانية والعقلية وعلى هذا يكون الترتيب حسنا أيضا وذلك لان الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تفدهم العلم والايمان قال انهم لم ينظروا فلم يهتدوا وانما هو هدى للمتقين الذين يتقون التعصب والعناد فينظرون فيهدون بهم وقوله وان الله لمع المحسنين اشارة الى درجة أعلى من الاستدلال كانه تعالى قال من الناس من يكون بعيدا لا يتقرب وهم الكفار ومنهم من يتقرب بالنظر والسلوك فيهديهم ويقربهم ومنهم من يكون الله معه ويكون قريبا منه يعلم الاشياء منه ولا يعلمه من الاشياء ومن يكون مع الشئ كيف يطلبه فقوله ومن أظلم اشارة الى الاول وقوله والذين جاهدوا فينا اشارة الى الثاني وقوله وان الله لمع المحسنين اشارة الى الثالث والله أعلم وبأسرار كتابه والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين

﴿سورة الروم مكية وآياتها ستون﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾ وجه تعلق أول هذه السورة بما قبلها يتبين من سبب النزول فنقول لما قال الله تعالى في السورة المتقدمة ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن وكان يجادل المشركين بنسبتهم الى عدم العقل كما في قوله بل أكثرهم لا يعقلون وكان أهل الكتاب يوافقون النبي في الاله كما قال والهنا وإلهكم واحد وكانوا يؤمنون بكثير مما يقوله بل كثير منهم كانوا مؤمنين به كما قال والذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به أنفس المشركين أهل الكتاب وتركوا مراجعتهم وكانوا من قبل يراجعونهم في الامور فلما وقعت الكرة عليهم حين قاتلهم الفرس المجوس فرح المشركون بذلك فانزل الله تعالى هذه الآيات لبيان أن الغلبة لا تدل على الحق بل الله تعالى قد يريد مزيد ثواب في المحب فيبتليه ويسلط عليه الاعادي وقد يختار تعجيل العذاب الادنى دون العذاب الاكبر فقيل

(فمَن ينصرونه) يقدرون على نصره بدفع الاهلاك أو على رد المهلك أو الاتيان بمثله وجمع الضمير باعتبار المعنى كما فى قوله عز وعلا يرونهم مثليهم (من دون الله) غايته القادر على ذلك وحده (وما كان) فى نفسه (منتصرا) ممتنعا بقوته عن انتقامه سبحانه (هنالك) فى ذلك المقام وفى تلك الحال (الولاية لله الحق) ٥٤٦ أى النصرة له وحده لا يقدر عليها أحد فهو ينصر لما قبله أو ينصر فيها أولياءه

يوم المعاد للمبادى وفى الآية مسائل ﴿الاولى﴾ ما الحكمة فى افتتاح هذه السورة بحروف التهجى فنقول قد سبق منا أن كل سورة افتتحت بحروف التهجى فان فى أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كما فى قوله تعالى الم ذلك الكتاب المص كتاب طه ما أنزلنا عليك القرآن الم تنزيل الكتاب حم تنزيل من الرحمن الرحيم يس والقرآن ص والقرآن الا هذه السورة وسورتين أخريين ذكرناهما فى العنكبوت وقد ذكرنا ما الحكمة فيهما فى موضعهما فنقول ما يتعلق بهذه السور وهو أن السورة التى فى أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن فى أوائلها ذكر ما هو معجزة فقدمت عليها الحروف على ما تقدم بيانه فى العنكبوت وهذه ذكر فى أولها ما هو معجز وهو الاخبار عن الغيب فقدمت الحروف التى لا يعلم معناها المتلو السامع فيقبل بقلبه على الاستماع ثم ترد عليه المعجزة فتقرع الاسماع ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله تعالى فى أدنى الأرض أى أرض العرب لان الالف واللام للتعريف والمعهود عندهم أرضهم وقوله تعالى وهم من بعد غلبهم أية فائدة فى ذكره مع أن قوله سيغلبون بعد قوله غلبت الروم لا يكون الا من بعد الغلبة فنقول الفائدة فيه اظهار القدرة وبيان أن ذلك بأمر الله لان من غلب بعد غلبه لا يكون الا ضعيفا فلو كان غلبهم لشوكتهم لكان الواجب أن يغلبوا قبل غلبهم واذا غلبوا بعد ما غلبوا دل على أن ذلك بأمر الله فذكر من بعد غلبهم ليتفكروا فى ضعفهم ويتذكروا أن ليس بزحفهم وانما ذلك بأمر الله تعالى وقوله فى أدنى الارض ليمان شدة ضعفهم أى انهم مع ضعفهم الى أن وصل عدوهم الى طريق الحجاز وكسروهم وهم فى بلادهم ثم غلبوا حتى وصلوا الى المدائن وبنواهناك الرومية لبيان أن هذه الغلبة العظيمة بعد ذلك الضعف العظيم بأذن الله ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال تعالى فى بضع سنين قيل هى ما بين الثلاثة والعشرة أيهم الوقت مع أن المجزة فى تعيين الوقت أتم فنقول السنة والشهر واليوم والساعة كلها معلومة عند الله تعالى وبينها للنبى وما أذن له فى اظهارها لان الكفار كانوا معاندين والامور التى تقع فى البلاد النائية تكون معلومة لوقوع بحيث لا يمكن انكارها لكن وقتها يمكن الاختلاف فيه فالمعاند كان يمكنه من أن يرجف بوقوع الواقعة قبل الوقوع ليحصل الخلف فى كلامه ولما وردت الآية ذكر أبو بكر رضى الله عنه أن الروم ستغلب وأنكره أبى بن خلف وغيره وناحبوا أبا بكر أى خاطروه على عشرة قلائص الى ثلاث سنين فقال عليه الصلاة والسلام لابى بكر الضبع ما بين الثلاثة والعشرة فزايده فى الابل وزايده فى الاجل فجعلا القلائص مائة والاجل سبعا وهذا يدل على علم النبى عليه الصلاة والسلام بوقت الغلبة ﴿ثم قال تعالى﴾ لله الامر من قبل ومن بعد﴾ أى من قبل الغلبة ومن بعدها أو من قبل هذه المدة ومن بعدها يعنى ان أراد غلبهم قبل بضع سنين وان أراد غلبهم بعد هذه المدة لعجز فانما هى ارادة تابعة لارادة الله تعالى الضم لما قطعا عن الاضافة لان غير الضمة من الفتحة والكسرة يشتبه بما يدخل عليهما وهو النصب والجر اما النصب ففى قولك جئت قبله أو بعده وأما الجر ففى قولك من قبل ومن بعده فبنيا على الضم لعدم دخول مثلهما عليه فى الاعراب وهو الرفع ﴿و يومئذ يفرح المؤمنون﴾ قيل يفرحون بغلبة الروم على الفرس كما فرح المشركون بغلبة الفرس على الروم والاصح انهم يفرحون بغلبتهم المشركين وذلك لان غلبة الروم كانت يوم غلبة المسلمين المشركين بدر ولو كان المراد ما ذكروه لما صح لان فى ذلك اليوم بعينه لم يصل اليهم خبر النكسر فلا يكون فرحهم يومئذ لذلك الفرح بحصل بعده ﴿ثم قال تعالى﴾ ينصر الله ينصر من يشاء﴾ قدم المصدر على الفعل حيث قال ينصر الله ينصر وقدم الفعل على المصدر فى قوله وأيدك ينصره وذلك لان المقصود هناك بيان أن النصرة بيد الله ان أراد نصر وان لم يرد لا ينصر وليس المقصود النصرة ووقوعها والمقصود هناك اظهار النعمة عليه بأنه نصره فالمقصود هناك الفعل ووقوعه فقدم هناك الفعل ثم بين ان

ذلك

المؤمنين على الكفرة كما نصر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن ويعضده قوله تعالى (هو خير ثوابا وخير عقبا) أى لاوليائه وقرئ الولاية بكسر الواو وضمها أى الملك والسلطان أى هنالك السلطان لله عز وجل لا يغلب ولا يمتنع منه أو لا يعبد غيره كقوله تعالى واذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فيكون تنبيها على أن قوله يا ليتنى لم أشرك الخ كان عن اضطرار وجزع مما دهاه على أسلوب قوله تعالى الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين وقيل هنالك اشارة الى الآخرة كقوله تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقرئ برفع الحق على انه صفة للولاية وبنصبه على انه مصدر مؤكد وقرئ عقبا بضم القاف وعقبى كرجعى والكل بمعنى العاقبة (واضرب لهم مثل الحيوة الدنيا) أى واذكر لهم ما يشبهها فى زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها ﴿الآية﴾ لا يطمئنوا بها ولا يعكفوا عليها ولا يضروا عن الآخرة صفحا بالمرة أو بين لهم صفتها العجيبة التى هى فى الغرابة كالمثل (كماء) استئناف لبيان المثل أى هى كماء (أنزلناه من السماء) ويجوز كونه مفعولا ثانيا لاضرب على انه بمعنى صير (فاختلط به) اشتبك بسببه نبات الارض) فالتف وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه أو نجع الماء فى النبات حتى روى ورف فمقتضى الظاهر حينئذ فاختلط بنبات

الارض وايثارما علمه النظم الكريم علته للمبالغة فى الكثرة فان كلا من المختلطين موصوف بصفة صاحبه (فاضبح) ذلك النبات الملتف اثر هيجه اورفيفها (هشيما) مهشوما مكسورا (تذروه الرياح) تفرقه وقرئ تذريه من أذرا موتذروه الريح وليس المشبه به نفس الماء بل هو الهيئة المنتزعة من الجملة وهى حال النبات المنبت بالماء كون أخضر وارفا ٥٤٧ ثم هشيما تطيره الرياح كان لم يغن بالامس (وكان الله على كل شئ) من الاشياء التى من جملتها الانشاء والافناء (مقتدرا) قادرا على الكمال (المال والبنون زينة الحموة الدنيا) بيان لشأن ما كانوا يفتخرون به من محسنات الحياة الدنيا كما قال الاخ الكافر أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا اثر بيان شأن نفسها عامر من المثل وتقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه كما فى الآية الحكية آنفا وقوله تعالى وأمددناكم بأموال وبنين وغير ذلك من الآيات الكريمة لعراقته فيما ينيط به من الزينة والامداد وغير ذلك وعوده بالنسبة الى الافراد والاوقات فانه زينة وممد لكل أحد من الآباء والبنين فى كل وقت وحين وأما البنون فزينتهم وامدادهم انما يكون بالنسبة الى من بلغ مبلغ الابوة ولان المال منا ط لبقاء النفس والبنين لبقاء النوع ولان الحاجة اليه أمس من الحاجة اليهم ولانه أقدم منهم فى الوجود ولانه زينة بدونهم من غير عكس فان من له بنون بلا مال فهو فى ضيق حال وتكمل وافراد الزينة مع انها مسندة الى الاثنين لما أنها مسندة فى الاصل اطلق على المفعول مبالغة كأنها نفس الزينة والمعنى أن ما يفتخرون به من المال والبنين شئ يتزين به فى الحياة الدنيا وقد علم شأنها فى سرعة الزوال وقرب الاضمحلال فكيف بما هو من

ذلك الفعل مصدره عند الله والمقصود ههنا كون المصدر عند الله ان أراد فعل فقدم المصدر ﴿ ثم قال تعالى تعالى ﴿ وهو العزيز الرحيم ﴾ ذكر من أسمائه هذين الاسمين لانه ان لم ينصر المحب بل ساط العدو عليه فذلك لعزته وعدم اقتداره وان نصر المحب فذلك لرحمته عليه أو نقول ان نصر الله المحب فلعزته واستغنائه عن العدو ورحمته على المحب وان لم ينصر المحب فلعزته واستغنائه عن المحب ورحمته فى الآخرة واصلة اليه ﴿ ثم قال تعالى ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ﴾ يعنى سيغلبون وعدهم الله وعدا وعد الله لا خلف فيه ﴿ قوله تعالى ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أى لا يعلمون وعده وانه لا خلف فى وعده ﴿ ثم قال تعالى ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ﴾ يعنى علمهم منحصر فى الدنيا وأضدادها لا يعلمون الدنيا كما هى وانما يعلمون ظاهرها وهى ملاذها وملاعبها ولا يعلمون باطنها وهى مضارها ومتاعبها ويعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها ﴿ وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ والمعنى هم عن الآخرة غافلون وذكرت هم الثانية لتفيد أن الغفلة منهم والا فأسباب التذكر حاصلة وهذا كما يقول القائل لغيره غفلت عن أمرى فاذا قال هو شغلنى فلان فيقول ما شغلك ولكن أنت اشتغلت ﴿ ثم قال تعالى ﴿ أولم يتفكروا فى أنفسهم ﴾ لما صدر من الكفار الانكار بالله عند انكار وعد الله وعدم الخلف فيه كما قال تعالى ولكن أكثر الناس لا يعلمون والانكار بالشرك قال تعالى وهم عن الآخرة هم غافلون بين أن الغفلة وعدم العلم منهم بتقدير الله والا فأسباب التذكر حاصلة وهو أنفسهم لو تفكروا فيها العلموا وحدانية الله وصدقوا بالحشر اما الوحدانية فلان الله خلقهم على أحسن تقويم ولتذكر من حسن خلقتهم جوأمن ألف ألف جزء وهو ان الله تعالى خلق للانسان معدة فيها ينضم غداؤه وامتلوى به أعضاؤه ومولجا منفذان أحدهما للدخول الطعام فيه والآخر لخروج الطعام منه فاذا دخل الطعام فيها انطبق المنفذ الآخر بعضه على بعض بحيث لا يخرج منه ذرة ولا بالرشح وتمسكه الماسكة الى أن ينضج نضجا صالحا ثم يخرج من المنفذ الآخر وخلق تحت المعدة عروقا دقاقا طولا بالمسافة التى يصفى بها الشئ فينزل منها السافل الى الكبد وينصب الثفل الى مجرى خلق تحت المعدة مستقيم متوجها الى الخروج ومايدخل فى الكبد من العروق المذكورة يسمى المسارية بالعبرية والعبرية عربية مفسودة فى الاكثر يقال فسر موسى ميشا واللام فيه الى غير ذلك فالمسارية هما سماها مسارين اشتمل عليه الكبد وانضم نضجا آخر ويكون مع الفذاء المتوجه من المعدة الى الكبد فضل ماء مشروب ليرقق وينتشر فى العروق الدقاق المذكورة وفى الكبد ينتفى عن ذلك الماء فيتميز عنه ذلك الماء وينصب من جانب حدبة الكبد الى الكلية ومعه دم يسير تنتذى به الكلية وغيرها ويخرج الدم الخالص من الكبد فى عرق عريق كبير ثم يتشعب ذلك النهر الى جداول والجداول الى السواقى والسواقى الى البراضع ويصل فيها الى جميع البدن فهذه مكنة واحدة فى خلق الانسان وهذه كفاية فى معرفة كون الله فاعلا مختارا قادرا كاملا عالما شاملا علمه ومن يكون كذلك يكون واحدا والا لكان عاجزا عند ارادة شريكه ضد ما أراده واما دلالة الانسان على الحشر فذلك لانه اذا تفكر فى نفسه رأى قواه صائرة الى الزوال واجزاءه مائلة الى الاضمحلال ذله فناء ضروري فلو لم يكن له سمة أخرى لكان خلقه على هذا الوجه للفناء عبثا والله أشار بقوله أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وهذا ظاهر لان من يفعل شيأ للعبث فلو بالغ فى احكامه وأتقانه يفتضح منه فاذا خلقه للبقاء ولا بقاء دون الفناء فالآخرة لا بد منها ﴿ ثم انه تعالى ذكر بعد دليل الانفس دليل الآفاق فقال ﴿ ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى ﴾ فقوله الا بالحق اشارة الى وجه دلالتها على الوحدانية وقد بينا ذلك فى قوله خلق الله السموات والارض بالحق ان فى ذلك لآية للمؤمنين ونعيده

أوصافها التي شأنها أن تزول قيل زوالها (والباقيات الصالحات) هي أعمال الخير وقيل هي الصلوات الخمس وقيل سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وقيل كل ما أريد به وجه الله تعالى وعلى كل تقدير يدخل فيه أعمال فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون ٥٤٨ وجهه دخولا أوليا أما صلاحها فظاهر وأما بقاؤها فبقاء عوائدها عند فناء كل ما تطمع

فان التكبر في الذهن يفسد التقرير لذي الذهن فنقول اذا كان بالحق لا يكون فيها بطلان فلا يكون فيها فساد لان كل فساد باطل واذا لم يكن فيها فساد لا تكون آلهة والا لكان فيها فساد كما قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقوله وأجل مسمى يذكر بالاصل الآخر الذي أنكروه ﴿ثم قال تعالى ﴿وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾ يعني لا يعلمون أنه لا بد بعد هذه الحياة من لقاء وبقاء أما في اسعاد أو اشقاء وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قدم ههنا دلائل الانفس على دلائل الآفاق وفي قوله تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم قدم دلائل الآفاق وذلك لان المفيد اذا أفاد فائدة بدأ بذكرها على وجه جيد يختاره فان فهمه السامع المستفيد فذاك والا يذكرها على وجه أبين منه وينزل درجة فدرجة وأما المستفيد فانه يفهم أولا الابين ثم يرتقي الى فهم ذلك الاشفى الذي لم يكن فهمه فيفهمه بعد فهم الابين المذكور آخرا فلهذا ذكر ومن المفيد آخر افمفهوم عند السامع أولا اذا علم هذا فنقول ههنا الفعل كان منسوبا الى السامع حيث قال أولم يتفكروا في أنفسهم يعني فيما فهموه أولا ولم يرتقوا الى ما فهموه ثانيا وأما في قوله سنريهم الامر منسوب الى المفيد السمع فتذكروا ولا الآفاق فان لم يفهموه فالانفس لان دلائل الانفس لا ذهول للانسان عنها وهذا الترتيب مراعي في قوله تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم أي يعلمون الله بدلائل الانفس في سائر الاحوال ويتفكرون في خلق السموات والارض بدلائل الآفاق ﴿المسئلة الثالثة﴾ وجه دلالة الخلق بالحق على الوحدانية ظاهر وأما وجه دلالته على الحشر فكيف هو فنقول وقوع تخريب السموات وعدمها لا يعلم بالعقل الا امكانه وأما وقوعه فلا يعلم الا بالسمع لان الله قادر على ابقاء الحادث أبدا كما أنه يبقي الجنة والنار بعد احداثهما أبدا والخلق دليل امكان العدم لان المخلوق لم يصح له القدم فجاز عليه العدم فاذا أخبر الصادق عن أمر له امكان وجب على العاقل التصديق والاذعان ولان العالم لما كان خلقه بالحق فينبغي أن يكون بعد هذه الحياة حياة أخرى باقية لان هذه الحياة ليست الا لعبا ولهوا كما بين بقوله تعالى وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وخلق السموات والارض للهو واللعب عبث والعبث ليس بحق وخلق السموات والارض بالحق فلا بد من حياة بعد هذه ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال ههنا كثير من الناس وقال من قبل ولكن أكثر الناس وذلك لان من قبل لم يرد كرد ليدل على الاصلين وههنا قد ذكر الدلائل الواضحة والبراهين اللائحة ولا شك في أن الاذعان بعد الدليل أكثر من الاذعان قبل الدليل فبعد الدلائل لا بد من أن يؤمن من ذلك الا الاكثر جمع فلا يبقى الا الكثر كما هو فقال بعد اقامة الدليل وان كان كثيرا وقليلا ولكن أكثرهم بعد الدليل الذي لا يمكن الذهول عنه والدليل الذي لا يقع الذهول عنه وان أمكن هو السموات والارض لان من الناس من يذهل الانسان عن السماء التي فوقه والارض التي تحته فذكر ما يقع الذهول عنه وهو أحوالهم وحكاية اشكالهم فقال تعالى ﴿أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ وقال في الدليلين المتقدمين أولم يروا ولم يقل أولم يسيروا الا لحاجة هناك الى السير بحضور النفس والسماء والارض وقال ههنا أولم يسيروا فينظروا ذكرهم بحال أمثالهم وبال أشكالهم ثم ذكرأنهم أولى بالهلاك لان من تقدم من عاد وثمود كانوا أشد منهم قوة ولم ينفعهم قواهم وكانوا أكثر مالا وعمارة ولم يمنع عنهم الهلاك أموالهم وحصونهم واعلم أن اعتماد الانسان على ثلاثة أشياء قوة جسمية أو في أعوانه أذيها المباشرة وقوة مالية أذيها التأهب للمباشرة وقوة ظهرية يستند اليها عند الضعف والفتور وهي بالحصون والعساكر فقال تعالى كانوا أشد منهم قوة في

آيه النفس من حظوظ الدنيا (خير) أي مما نعت شأنه من المال والبنين واخراج بقاء تلك الاعمال وصلاحها لتخريج الصفات المفروغ عنها مع أن حقهما أن يكونا مقصودي الافادة لاسيما في مقابلة اثبات الفناء لما يقابلها من المال والبنين على طريقة قوله تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق للايذان بان بقاءها أمر محقق لا حاجة الى بيانه بل لفظ الباقيات أسم لها لا وصف ولذلك لم يذكر الموصوف وانما الذي يحتاج الى التعرض له خيريتها (عند ربك) أي في الآخرة وهو بيان لما يظهر فيه آثار خيريتها بمنزلة اضافة الرزق الى الحياة الدنيا لا فضليتها فيها من المال والبنين مع مشاركة الكل في الاصل اذ لا مشاركة لهما في الخيرية في الآخرة (ثوابا) عائدة نفعه الى صاحبها (وخير أملا) حيث ينال بها صاحبها في الآخرة كل ما كان يؤمله في الدنيا وأما ما من المال والبنين فليس لصاحبه أمل بنيله

وتكرير خير للاشعار باختلاف حظيتي الخيرية والمبالغة فيها (ويوم نسير الجبال) منصوب بمضمر أي اذكر الجسم حين نقلعها من أماكنها ونسيرها في الجو على هيأتها كما ينبئ عنه قوله تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب أو نسير أجزاءها بعد أن نجعلها هباء منبثا والمراد بيان كبره تحذير المشركين مما فيه من الدواهي وقيل هو معطوف على ما قبله من قوله تعالى عند

ربك أى الباقيات الصالحات خير عند الله ويوم القيامة وقرئ تسير على صيغة البناء للمفعول من التفعيل جريا على سنن الكبرياء وايذانا بالاستغناء عن الاسناد الى الفاعل لتعينه وقرئ تسير (وترى الارض) أى جميع جوانبها والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد من يتأتى منه الرؤية وقرئ ترى على صيغة البناء للمفعول (بارزة) ٥٤٩ أما بروزها تحت الجبال فظاهر وأما على تقدير كونها تحت الجبال تحول بينه وبين الناظر قبل ذلك فالآن أضحى قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا (وحشرناهم) جمعناهم الى الموقف من كل أوب وايثار صيغة الماضى بعد تسير وترى للدلالة على تحقق الحشر المتفرع على البعث الذى ينكره المنكرون وعليه يدور أمر الجزاء وكذا الكلام فيما عطف عليه منفيا وموجبا وقيل هو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الاهوال كائنة قبل وحشرناهم قبل ذلك (فلم نغادر) أى لم نترك (منهم أحدا) يقال غادره وأغدره اذا تركه ومنه الغدر الذى هو ترك الوفاء والغدير الذى هو ماء يترك السيل فى الارض الغائرة وقرئ بالياء وبالفوقانية على اسناد الفعل الى ضمير الارض كما فى قوله تعالى واقت ما فيها وتخلت (وعرضوا على ربك) شبهت حالهم بحال جند عرضوا على السلطان ليأمر فيهم بما يأمر وفى الالتفات الى الغيبة وبناء الفعل للمفعول مع التعرض لعنوان الربوبية والاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تربية المهابة والجرى على سنن الكبرياء واظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى (صفا) أى غير متفرقين ولا مختلطين فلا تعرض فيه لوحدة الصف وتعدده وقد ورد فى الحديث الصحيح يجمع الله الاولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفا (لقد جئتمونا) على اضمار القول على وجه يكون حالا من ضمير

الجسم وأكثرهم مالا لانهم أثاروا الارض أى حرثوها ومنه بقرة تثير الارض وقيل منه سمى ثورا وأنتم لاحرانة لكم فيها لهم كان أكثر وعمارتهم كانت أكثر لان أبنيتهم كانت رفيعة وحصونهم منيعة وعمارة أهل مكة كانت يسيرة ثم هؤلاء جاءتهم رسلهم بالبينات وأمروهم ونهوهم فلما كذبوا أهلكوا فكيف أنتم وقوله فما كان الله ليظلمهم يعنى لم يظلمهم بالتكليف فان التكليف شريف لا يؤثر له الاخلال شريف ولكن هم ظلموا أنفسهم بوضعها فى موضع خسيس وهو عبادة الاصنام واتباع ابليس فكان الله بالتكليف وضعهم فيما خلقوا له وهو الربح لانه تعالى قال خلقتكم لتربحوا على لا لاربح عليكم والوضع فى موضع كان الخلق له ليس بظلم وأما هم فوضعوا أنفسهم فى مواضع الخسران ولم يكونوا خلقوا الا للربح فهم كانوا ظالمين وهذا الكلام سنا وان كان فى الظاهر يشبه كلام المعتزلة لكن العاقل يعلم كيف يقوله أهل السنة وهو ان هذا الوضع كان بمشيئة الله وارادته لكنه كان منهم وصفا لهم ﴿ثم قال تعالى﴾ ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن ﴿كما قال للذين أحسنوا الحسنى وقوله تعالى ان كذبوا قيل معناه بأن كذبوا أى كان عاقبتهم ذلك بسبب انهم كذبوا وقيل معناه أساؤا وكذبوا فكذبوا يكون تفسيرا لاساؤا وفى هذه الآية لطائف (أحدها) قال فى حق الذين أحسنوا للذين أحسنوا الحسنى وقال فى حق من أساء ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى اشارة الى أن الجنة لهم من ابتداء الامر فان الحسنى اسم الجنة والسوأى اسم النار فاذا كانت الجنة لهم من الابتداء وصن له شئ كلما يزداد وتموقيه فهو له لان ملك الاصل يوجب ملك الثمرة فالجنة من حيث خلقت تربو وتنمو للمحسنين وأما الذين أساؤا فالسوأى وهى جهنم فى العاقبة مصيرهم اليها (الثانية) ذكر الزيادة فى حق المحسن ولم يذكر الزيادة فى حق المسيء لان جزاء سيئة سيئة مثلها (الثالثة) لم يذكر فى المحسن أن له الحسنى بأنه صدق وذكر فى المسيء أن له السوأى بأنه كذب لان الحسنى للمحسنين فضل والتفضل لو لم يكن تفضلا بسبب يكون أبلغ وأما السوأى للمسيء عدل والعادل اذا لم يكن تعذيبه لسبب لا يكون عدلا فذكر السبب فى التعذيب وهو الاصرار على التكذيب ولم يذكر السبب فى الثواب ﴿ثم قال تعالى﴾ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون ﴿لما ذكر أن عاقبتهم الى الجحيم وكان فى ذلك اشارة الى الاعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة فقال يبدأ الخلق يعنى من خلق بالقدرة والارادة لا يعجز عن الرجعة والاعادة فلم يبق ما يكون وقت الرجوع اليه فقال تعالى ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين ﴿فى ذلك اليوم يتبين افلاسهم ويتحقق ابلاسهم والابلاس يأس مع حيرة يعنى يوم تقوم الساعة يكون للمجرم يأس محير لا يأس هو احدى الراحتين وهذا لان الطمع اذا انقطع بالكلية يأس فاذا كان المرجو أمرا غير ضرورى يستريح الطامع من الانتظار وان كان ضروريا لا بقاء له بد ونه يتقطر فؤاده أشد انقطار ومثل هذا اليأس هو الابلاس ولتبين حال المجرم وابلاسه مثال وهو ان نقول مثله مثل من يكون فى بستان وحوله الملاعب واللاهى ولديه ما يفتخر به ويباهى فيخبره صادق يجيء عدو لا يرده راد ولا يصده صاد اذا جاءه لا يلبث هربا ولا يترك له الى الخلاص طريقا فيحتم عليه لا شتغال بسلوك طريق الخلاص فيقول له طفل أو مجنون ان هذه الشجرة التى أنت تحتها الهامن الحواص دفع الاعادى عمن يكون تحتها فعند ذلك الغافل على استيفاء ملاذه معتمد على الشجرة بقول ذلك الصبى فجيئة العدو يحيط به فأول ما يريه من الاهوال قلع تلك الشجرة فيبقى متحيرا آيسا مفتقرا بائسا فكذلك المجرم فى دار الدنيا أقبل على استيفاء اللذات وأخبره النبى الصادق بان الله يجزيه ويأتيه عذاب يخزيه فقال له الشيطان والنفس

عرضوا أى عقولا لهم أو وقلنا لهم وأما كونه عاملا فى يوم نسير كما قيل فبعيد من جزالة التنزيل الجليل كيف لا ويلزم منه أن هذا القول هو المقصود بالاصالة دون سائر التوارع مع انه خاص التعلق بما قبله من العرض والحشر دون تسيير الجبال وبروز الارض (كما خلقناكم) فعلت اصله وهو مقدر أى مجيئا كائنا كمجيئكم ٥٥٥ عند خلقتنا لكم (أول مرة) أو حال من ضمير جئتمونا أى كائنين كما خلقناكم أول مرة حفاة عراة غرلا أو أى شىء مما تفتخرون به من الاموال والانصار كقوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) انتراب وانتقال من كلام الى كلام كلاهما للتوبيخ والتقريع أى زعمتم فى الدنيا انا لن نجعل لكم إبدا وقتا نخلفه وما وعدناه من البعث وما تبعه وأن مخففة من الثقيلة فصل بحرف النفى بينها وبين خبرها لكونه جملة فعلية متصرفة غير دعاء والظرف اما مفعول ثان للجعل وهو بمعنى التصيير والاول هو موعدا أو حال من موعدا وهو بمعنى الخلق والايداع (ووضع الكتاب) عطف على عرضوا داخل تحت الامور المسألة التى أريد تذكيرها شذ كير وقتها أورد فيه ما أورد فى أمثاله من صيغة الماضى دلالة على التقرر أيضا أى وضع صحائف الاعمال وايثار الافراد للاكتفاء بالجنس والمراد بوضعها اما وضعها فى أيدى أصحابها يمينا وشمالا واما فى الميزان (فترى المجرمين) فاطية فيدخل فيهم الكفرة المنكرون يتضمن البعث حتما أولا (مشفقين) خائفين (مما فيه) من الجرائم والذنوب (ويقولون) عند وقوفهم على ما فى تضاعيفه تقريرا وتقطيرا (يا ويلتنا) منادين لهلاكهم الى هلم فهذا اوانك فاحضرى فهذا

الاشارة بالسوءات هذه الاحشاء التى هى الاوثان داقعة عند كل باس وشافعة لك عند خمود الحواس فاشتغل بما هو فيه واستمر على غيه حتى اذا حاقت به الطامة الكبرى فأول ما أراته القاء الاصنام فى النار فلا يجد الى الخلاص من طريق ويحيق عليه عذاب الحريق فيأس حينئذ أى ايأس ويبلس أشد ابلاس واليه الاشارة بقوله تعالى ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين يعنى يكفرون بهم ذلك اليوم ﴿ثم قال تعالى ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾ ثم بين أمرا آخر يكون فى ذلك اليوم وهو الافتراق كما قال تعالى فى آية أخرى وامتازوا اليوم أيها المجرمون فكأن هذه الحالة مترتبة على الابلاس فكأنه أولا يبلس ثم يميز ويجعل فريق فى الجنة وفريق فى السعير وأعاد قوله ويوم تقوم الساعة لان قيام الساعة أمر هائل فكرره تأكيدا للتهويف ومنه اعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة فى الخطب لشد ما أهاله ﴿ثم بين كيفية التفرق فقال تعالى ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون﴾ أى فى جنة يسرون بكل مسرة ﴿وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون﴾ يعنى لا غيبة لهم عنه ولا فتور له عنهم كما قال تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقال لا يفتر عنهم العذاب وفى الآيتين مسائل فيهم الطائف ﴿المسألة الاولى﴾ بدأ ذكر حال الذين آمنوا مع أن الموضع موضع ذكر المجرمين وذلك لان المؤمن يوصل اليه الثواب قبل أن يوصل الى الكافر العقاب حتى يرى ويتحقق أن المؤمن وصل الى الثواب فيكون أتم لو أدخل الكافر النار أولا لكان يظن أن الكل فى العذاب مشتركون فقدم ذلك ليزداد فى أيلامهم ﴿المسألة الثانية﴾ ذكر فى المؤمن العمل الصالح ولم يذكر فى الكافر العمل السيئ لان العمل الصالح معتبر مع الايمان فان الايمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ولا يبلغ المؤمن الدرجة العالية الا بايمانه وعمله الصالح وأما الكافر فهو فى الدركات بمجرد كفره فلو قال والذين كفروا وعملوا السيئات فى العذاب محضرون لكان العذاب لمن يصدر منه المجموع فان قيل فمن يؤمن ويعمل السيئات غير مبعد كررفى القسمين فنقول له منزلتين المنزلتين لا على ما يقوله المعتزلة بل هو فى الاول فى العذاب ولكن ليس من المحضرين دوام الحضور وفى الآخرة هو فى الرياض ولكنه ليس من المحبورين غاية السرور كل ذلك بحكم الوعد ﴿المسألة الثالثة﴾ قال فى الاول فى روضة على التنكير وقال فى الآخر فى العذاب على التعريف لتعظيم الروضة بالتنكير كما يقال لفلان مال وجاه أى كثير وعظيم ﴿المسألة الرابعة﴾ قال فى الاول يحبرون بصيغة الفعل ولم يقل محبورون وقال فى الآخر محضرون بصيغة الاسم ولم يقل يحضرون لان الفعل ينبئ عن التجدد والاسم لا يدل عليه فقوله يحبرون يعنى يأتيهم كل ساعة أمر يسرون به وأما الكفار فهم اذا دخلوا العذاب يبقون فيه محضرين ﴿ثم قال تعالى ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والارض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾ لما بين الله تعالى عظمته فى الابتداء بقوله ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وعظمته فى الانتهاء بقوله وحين تقوم الساعة يفترق الناس فريقين ويحكم على البعض بأن هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى أمر بتنزيهه عن كل سوء وبحمده على كل حال فقال فسبحان الله أى سبحوا الله تسبيحا وفى الآية مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ فى معنى سبحان الله ولفظه أما لفظه فنقول ان اسم المسدر الذى هو التسبيح سبحان وجعل علما له وأما المعنى فقال بعض المفسرين المراد منه الصلاة أى صلوا وذكروا الله أشار الى الصلوات الخمس وقال بعضهم أراد به التنزيه أى نزهوه عن صفات النقص وصفوه بصفات الكمال وهذا أقوى والمصير اليه أولى لانه

أوان حضورك (مال هذا الكتاب) أتى أى شئ له وقوله تعالى (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها) أى حواها وضبطها جملة حالية محققة لما فى الجملة الاستفهامية من التعجب أو استئنافية مبينة على سؤال نشأ من التعجب كأنه قيل ما شأنه حتى يتعجب منه فقيل لا يغادر سيئة صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها (ووجدوا ما عملوا) فى الدنيا من السيئات ٥٥١ أو جزاء ما عملوا (حاضرا) مسطورا عتيدا

يتضمن الاول وذلك لان التسبيح المأمور به يتناول التنزيه بالقلب وهو الاعتقاد الجازم وباللسان مع ذلك وهو الذكر الحسن وبالاركان ومعها جميعا وهو العمل الصالح والاول هو الاصل والثانى ثمرة الاول والثالث ثمرة الثانى وذلك لان الانسان اذا اعتقد شيأ ظهر من قلبه على لسانه واذا قال ظهر صدقه فى مقاله من أحواله وأفعاله واللسان ترجمان الجنان والاركان برهان اللسان لكن الصلاة أفضل أعمال الاركان وهى مشتملة على الذكر باللسان والقصد بالجنان وهو تنزيه فى التحقيق فاذا قال نزهونى وهذا نوع من أنواع التنزيه والامر المطلق لا يختص بنوع دون نوع فيجب حمله على كل ما هو تنزيه فيكون أبلغ فى هذا الامر بالصلاة ثم ان قولنا بناسب ما تقدم وذلك لان الله تعالى لما بين أن المقام الاعلى والجزاء الاوفى لمن آمن وعمل الصالحات حيث قال فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون قال اذا علمتم أن ذلك المقام لمن آمن وعمل الصالحات والايمان تنزيه بالجنان وتوحيد باللسان والعمل الصالح استعمال الاركان والكل تنزيهات وتمجيدات فسبحان الله أى فأوجدوا ذلك الذى هو الموصل الى الحبور فى الرياض والمحبور على الحياض (المسئلة الثانية) خص بعض الاوقات بالامر بالتسبيح وذلك لان أفضل الاعمال أدومها لكن أفضل الملائكة ملازمون للتسبيح على الدوام كما قال تعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون والانسان ما دام فى الدنيا لا يمكنه أن يصرف جميع أوقاته الى التسبيح لكونه محتاجا الى أكل وشرب وتحصيل مأكول ومشروب وملبوس ومركوب فاشار الله تعالى الى أوقات اذا أتى العبد بتسبيح الله فيها يكون كأنه لم يفتر وهى الاول والاخير والوسط أول النهار وآخره ووسطه فأمر بالتسبيح فى أول الليل ووسطه ولم يأمر بالتسبيح فى آخر الليل لان النوم فيه غالب والله من على عباده بالاستراحة بالنوم كما قال ومن آياته منامكم بالليل فاذا صلى فى أول النهار تسبيحتين وهو ركعتان حسب له صرف ساعتين الى التسبيح ثم اذا صلى أربع ركعات وقت الظهر حسب له صرف أربع ساعات أخر فصارت ست ساعات واذا صلى أربعا فى آخر النهار وهو العصر حسب له أربعا أخرى فصارت عشر ساعات فاذا صلى المغرب والعشاء سبع ركعات أخر حصل له صرف سبع عشرة ساعة الى التسبيح وبقى من الليل والنهار سبع ساعات وهى ما بين نصف الليل وثلثيه لان ثلثيه ثمان ساعات ونصف ست ساعات وما بينهما السبع وهذا القدر لو نام الانسان فيه لكان كثيرا والية أشار تعالى بقوله قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه الركعات فانقسم من كون الانسان يقظانا فى نصف سبع ساعات مصروفا فى النوم والنائم مرفوع عنه القلم فيقول الله عبدى صرف جميع أوقاتك بتكلمه فى تسبيحى فليبق لكم أيها الملائكة علم المزية التى ادعيتم بقولكم نحن نسبح بحمدك ونقدس لك على سبيل الاضمار بل هم مثلكم فقاموا مثل مقامكم فى أعلى عليين ﴿واعلم ان فى وضع الصلاة فى أوقاتها وعدد ركعاتها واختلافها هيئاتها حكمة بالغة أما فى عدد الركعات فما تقدم من كون الانسان يقظانا فى سبع عشرة ساعة فرض عليه سبع عشرة ركعة وأما على مذهب أبى حنيفة حيث قال بوجوب الوتر ثلاث ركعات وهو أقرب للتقوى فتقول هو مأخوذ من أن الانسان ينبغى أن يقلل نومه فلا ينام الثلث الاسفل ما أمكنه من قوله تعالى ان ربك يعلم انك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وبقوم من هذا ان قيام ثلثى الليل مستحسن مستحب مؤكد باستحباب ولهذا قال عقيبه علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ذكر بلفظ التوبة واذا كان كذلك يكون الانسان يقظانا فى عشرين ساعة فأمر بعشرين ركعة وأما النبى عليه الصلاة والسلام فلما كان من شأنه ان لا ينام أصلا كما قال تنام عيناى ولا ينام قلبى جعل له كل الليل كالنهار فريضة التهجد فأمر به والى

(ولا يظلم ربك أحدا) فيكتب عالم بعمل من السيئات أو يزيد فى عقابه المستحق فيكون اظهارا لعدالة القلم الازلى (واذ قلنا للملائكة) أى اذكر وقت قولنا لهم (اسجدوا لآدم) سجود تحية وتكريم وقد مر تفصيله (فسجدوا) جميعا امتثالا بالامر (الا ابليس) فانه لم يسجد بل أبى واستكبر وقوله تعالى (كان من الجن) كلام مستأنف سيق مساق التعليل لما يفيده استثناء اللعين من الساجدين كأنه قيل مالك لم تسجد فقيل كان أصله جنيا (ففسق عن أمر ربه) أى خرج عن طاعته كما ينبئ عنه الفاء أو صار فاسقا كافرا بسبب أمر الله تعالى اذ لولا ما أبى والتعرض لوصف الربوبية المنافية للفسق لبيان كمال قبح ما فعله والمراد بتذكير قصته تشديد التكبير على المتكبرين المتخسرين بانسابهم وأموالهم المستنكفين عن الانتظام فى سلك فقراء المؤمنين

ببيان أن ذلك من صنيع ابليس وانهم فى ذلك تابعون لتسويله كما ينبئ عنه قوله تعالى (أفتتخذونه) الهمزة للانكار والتعجيب والفاء للتعقيب أى أعقيب علمكم بصدور تلك القبائح عنه تتخذونه (وذريته) أى أولاده وأتباعه جعلوا ذرية مجازا كما قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل يدخل ذنبه فى دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين (أولياء من دونى) فتستبدلونهم

في فتطيعونهم بدل طاعتي (وهم) أي والحال أن ابليس وذريته (لكم عدو) أي أعداء كما في قوله تعالى فانهم عدو لي الارب العالمين وقوله تعالى هم العدو وانما فعل به ذلك تشنيعا له بالمصادرة والقبول والولوع وتقييد الاتخاذ بالجملة الحالية تأكيد الانكار وتشديده فان مضمونها مانع من وقوع الاتخاذ ٥٥٢ ومناف له قطعا (بئس للظالمين) أي الواضعين الشيء في غير موضعه (بدلا) من الله سبحانه ابليس وذريته وفي الالتفات الى الغيبة مع وضع الظالمين موضع الضمير من الابذان بكمال السخط والاشارة الى ان ماقعلوه ظلم قبيح مالا يخفى (ماأشهدتهم) أستئناف مسوق لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور في أنفسهم بعد بيان الصوارف عن ذلك من خيانة المحتد والفسق والعداوة أي ماأحضرت ابليس وذريته (خلق السموات والارض) حين خلقتهما قبل خلقهم (ولا خلق أنفسهم) أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم هذا ما أجمع عليه الجمهور حذارا من تفكيك الضمير ومحافظة على ظاهر لفظ الانفس وذلك أن ترجع الضمير الثاني الى الظالمين ويلتزم التفكيك بناء على قود المعنى اليه فان نفي اشهاد الشياطين خلق الذين يتولونهم هو الذي يدور عليه انكار اتخاذهم أولياء بناء على ان أدنى مايصح التولي حضور الولي خلق المتولى وحيث لا حضور لامصح للمتولى قطعا وأما نفي اشهاد بعض الشياطين خلق بعض منهم فليس من مدار به الانكار المذكور يقول

هذا أشار تعالى في قوله ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا أي كل الليل للتسبيح قصاره وهي أربع وعشرين ساعة سبحانه قصار من الذين لا يفترون طرفة عين وأما في أوقاته فما تقدم أيضا ان الاول والاخير والوسط هو المعتبر فشرع التسبيح في أول النهار وآخره وأما الليل فاعتبر أوله ووسطه كما اعتبر أول النهار ووسطه وذلك لان الظهر وقته نصف النهار والعشاء وقته نصف الليل لانا بينا أن الليل المعتبر هو المقدار الذي يكون الانسان فيه يقظان وهو مقدار خمس ساعات فجعل وقته في نصف هذا المقدار وهو الثلاثة من الليل وأما أبو حنيفة فلما رأى وجوب الوتر كان زمان النوم عنده أربع ساعات وزمان اليقظة بالليل ثمان ساعات وأخر وقت العشاء الاخيرة الى الرابعة والخامسة ليكون في وسط الليل المعتبر كما أن الظهر في وسط النهار وأما النبي صلى الله عليه وسلم لما كان ليله نهارا ونومه انتباها قال لولا أن أشق على أمتي لاخرتهم بالسواك وتأخير العشاء الى نصف الليل ليكون الاربع في نصف الليل كما ان الاربع في نصف النهار وأما التفصيل فالذي يتبين لي أن النهار اثنتا عشرة ساعة زمانية والصلاة المؤداة فيها عشر ركعات فبقي على المكلف ركعتان يؤديهما في أول الليل ويبتدئ ركعة من صلاة الليل ليكون ابتداء الليل بالتسبيح كما كان ابتداء النهار بالتسبيح ولما كان المؤدى من تسبيح النهار في أوله ركعتين كان المؤدى من تسبيح الليل في أوله ركعة لان سبح النهار طويل مثل ضعف سبح الليل لان المؤدى في النهار عشرة والمؤدى في الليل من تسبيح الليل خمس (المسألة الثالثة) في فضيلة السبحلة والحمدلة في المساء والصباح ولنذكرها من حيث النقل والعقل * أما النقل فأخبرني الشيخ الورع الحافظ الاستاذ عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بحلب مسندا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لبعض أصحابه أتعجز عن أن تأتي وقت النوم بألف حسنة فتوقف فقال النبي عليه الصلاة والسلام قل سبحان الله والحمد لله والله أكبر مائة مرة يكتب لك بها ألف حسنة وسمعته يقول رحم الله مسندا من قال خلف كل صلاة مكتوبة عشر مرات سبحان الله وعشر مرات الحمد لله وعشر مرات الله أكبر أدخل الجنة * وأما العقل فهو ان الله تعالى له صفات لازمة لا من فعله وصفات ثابتة له من فعله * أما الاولى فهي صفات كمال وجلال خلافها نقص فاذا أدرك المكلف الله بانه لا يجوز أن يخفى عليه شيء لكونه عالما بكل شيء فقد نزهه عن الجهل ووصفه بضده واذا عرفه بانه لا يعجزه شيء لكونه قادرا على كل شيء فقد نزهه عن العجز واذا علم انه لا يجري في ملكه الا ما يشاء لكونه مريدا للكل كائن فقد وصفه ونزهه واذا ظهر له انه لا يجوز عليه الفناء لكونه واجب البقاء فقد نزهه واذا بان له انه لا يسبقه العدم لا تصافه بالقدم فقد نزهه واذا لاح له انه لا يجوز أن يكون عرضا أو جسما أو في مكان لكونه واجبا بريئا عن جهات الامكان فقد نزهه لكن صفاته السلبية والاضافية لا يعدها عادولو اشتغل بها واحدا لا فنى فيها عمره ولا يدرك كنهها فاذا قال قائل مستعضرا بقلبه سبحان الله منزها لما يقوله من كونه منزها له عن كل نقص فاتيانه بالتسبيح على هذا الوجه من الاجمال يقوم مقام اتيانه به على سبيل التفصيل لكن لا ريب في أن من أتى بالتسبيح عن كل واحد على حدة مما لا يجوز على الله يكون قد أتى بما لا تفي به الاعمار فيقول هذا العبد أتى بتسبيحي طول عمره ومدة بقائه فأجازه بأن أطهره عن كل ذنب وأوتيه خلع الكرامة وأنزله بدار المقامة مدة لا انتهاء لها وكما أن العبد نزه الله في أول النهار وآخره ووسطه فان الله تعالى يطهره في أوله ووديناه وفي آخره وهو عشاء وفي وسطه وهو حالة كونه في قبره الذي يحويه الى أوان حشره وهو معناه * وأما الثانية وهي صفات الفعل فالانسان اذا نظر الى خلق الله السموات يعلم انها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله فاذا رأى الشمس فيها بازغة فيعلم انها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله وكذلك القمر وكل كوكب والارض وكل نبات وكل حيوان

يقول الحمد لله لكن الانسان لو حمد الله على كل شئ على حدة لا يفي عمره به فاذا استحضر في ذهنه النعم التي لا تعد كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها او يقول الحمد لله على ذلك فهذا الحمد على وجه الاجمال يقوم منه مقام الحمد على سبيل التفصيل ويقول عبدي استغرق عمره في حمدي وأنا وعدت الشاكر بالزيادة فله على حسنة التسبيح الحسنى وله على حمده الزيادة ثم ان الانسان اذا استغرق في صفات الله قد يدعوه عقله الى التفكر في الله تعالى بعد التفكر في آلاء الله فكل ما يقع في عقله من حقيقته فينبغي ان يقول الله أكبر مما أدركه لان المدركات وجهات الادراكات لا نهاية لها فان اراد أن يقول على سبيل التفصيل الله أكبر مما أدركه من هذا الذي أدركته من هذا الوجه وأكبر مما أدركه من وجه آخر يفتى عمره ولا يفي بادراك جميع الوجوه التي يظن الظان انه مدرك لله بذلك الوجه فاذا قال مع نفسه الله أكبر أي من كل ما أتصوره بقوة عقلي وطاقة ادراكي يكون مرتفعا لي العنوان والبه الاشارة بقوله العجز عن درك الادراك ادراك فقول القائل المستهتر سبحان الله والحمد لله والله أكبر مفيد لهذه الفوائد لكن شرطه أن يكون كلاما معتبرا وهو الذي يكون من صميم القلب لا الذي يكون من طرف اللسان ﴿ المسئلة الرابعة ﴾ قوله وعشيا عطف على حين أي سبحوه حين تمسون وحين تصبحون وعشيا وقوله وله الحمد في السموات والارض كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه وفيه لطيفة وهو ان الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كانه بين لهم أن تسبيحهم الله لنفعهم لا لنفع يعود على الله فعليهم أن يحمدوا الله اذا سبحوه وهذا كما في قوله تعالى يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ﴿ المسئلة الخامسة ﴾ قدم الامساء على الاصباح ههنا وأخره في قوله وسبحوه بكرة وأصيلا وذلك لان ههنا أول الكلام ذكر الحشر والاعادة من قوله الله يبدأ الخلق ثم يعيده الى قوله فأولئك في العذاب محضرون وآخر هذه الآية أيضا ذكر الحشر والاعادة بقوله وكذلك تخرجون والامساء آخر فذكر الآخر لائق كما الآخرة ﴿ المسئلة السادسة ﴾ في تعلق اخراج الحي من الميت والميت من الحي بما تقدم عليه وهو ان عند الاصباح يخرج الانسان من شبه الموت وهو النوم الى شبه الوجود وهو اليقظة وعند المساء يخرج الانسان من اليقظة الى النوم واختلف المفسرون في قوله يخرج الحي من الميت فقال أكثرهم يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة وكذلك الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان وقال بعضهم المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ويمكن أن يقال المراد يخرج الحي من الميت أي اليقظان من النائم والنائم من اليقظان وهذا يكون قد ذكره لتمثيل أي احياء الميت عنده وامانته الحي كتنبيه النائم وتنويم المتنبه ثم قال تعالى ويحيي الارض بعد موتها وكذلك تخرجون وفي هذا معنى لطيف وهو ان الانسان بالموت يبطل حيوانيته وأما نفسه الناطقة فتفارقه وتبقى بعد كما قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء لكن الحيوان نام متحرك حساس لكن النائم لا يتحرك ولا يحس والارض الميتة لا يكون فيها شئ فان النائم بالانتباه يتحرك ويحس والارض الميتة تعاد موتها ثم بنباتها فكما أن تحريك ذلك الساكن وانماء هذا الواقف سهل على الله تعالى كذلك احياء الميت سهل عليه والى هذا أشار بقوله وكذلك تخرجون ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ لما أمر الله تعالى بالتسبيح عن الاسواء وذكر ان الحمد له على خلق جميع الاشياء وعن قدرته على الاماتة والاحياء بقوله فسبحان الله الى قوله وكذلك تخرجون ذكر ما هو حجة ظاهرة وآية باهرة على ذلك ومن جملتها خلق الانسان من تراب وتقريره هو أن التراب أبعد الاشياء عن درجة الاحياء وذلك من حيث كيفيته فانه بارد يابس والحياة بالحرارة والرطوبة

الجلي الذي لا يكاد يشتبه على البله والصبيان فيحتاجون الى التصريح بما يأبى نفي الشهادة على نفي شهودهم وفي اتخاذهم أعوانا على نفي كونهم كذلك للاشعار بأنهم مقهورون تحت قدرته تعالى نافذون في مشيئته وارادته فيهم وانهم بمعزل من استحقاق الشهود والمعونة من تلقاء أنفسهم من غير احضار واتخاذ وانما قصارى مأيتوهم في شأنهم ان يبلغوا ذلك المبلغ بامر الله عز وجل ولم يكد ذلك يكون وقيل الضمير للمشركين والمعنى ما أشهدتهم خلق ذلك وما اطلعتهم على اسرار التكوين وما خصصتهم بفضائل لا يحوم بها غيرهم حتى يكونوا قدوة للناس فيؤمنوا بامانتهم كما يزعمون فلا يلتفت الى قولهم لضعف نصرتهم للدين فانه لا ينبغي لي أن اعتضد بالمضلين ويعضده القراءة بفتح التاء خطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى ما صح لك الاعتضاد بهم

وصفهم بالاضلال للتعليل نفي الاتخاذ وقرئ متخذ المضلين على الاصل وقرئ عضدا بهم النعين وسكون الضاد وفتح وسكون بالتخفيف وضمتين بالاتباع وبفتحتين على انه جمع عاضد كخادم وخدم وراصد (ويوم يقول) أي الله عز وجل للكافرين توبيخا وتعييرا وقرئ يقول بنون العظمة (نادوا شركائي الذين زعمتم) انهم شفعاؤكم ليشفعوا لكم والمراد

بهم كل ما عبد من دونه تعالى وقيل ابليس وذريته (فدعوهم) أى نادوهم للاغاثة وفيه بيان اكمال اعتنائهم باعانتهم على طريقة الشفاعة اذ معلوم أن لا طريق الى المدافعة (فلم يستجيبوا لهم) فلم يغيثوهم اذ لا امكان لذلك وفى ايراده مع ظهوره تهكمهم وايذان بأنهم فى الحماقة بحيث لا يفهمون الا ٥٥٤ بالتصريح به (وجعلنا بينهم) بين الداعين والمدعوين (موبقا) اسم مكان أو مصدر من

وبق وبوقا كوثب وثوبا أو وبق وبقا كفرح فرحا اذا هلك أى مهلكا يشتركون فيه وهو النار أو عداوة وهى فى الشدة نفس الهلاك كقول عمر رضى الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا وقيل البين الوصل أى وجعلنا تواصلهم فى الدنيا هلاكا فى الآخرة ويجوز أن يكون المراد بالشركاء الملائكة وعزيرا وعيسى عليهم السلام ومريم وبالموبق البرزخ البعيد أى جعلنا بينهم أمدا بعيدا يهلك فيه الاشواط لفرط بعده لأنهم فى قعر جهنم وهم فى أعلى الجنان (ورأى المجرمون النار) وضع المظهر مقام المضمر تصريحا بأجرامهم وذما لهم بذلك (فظنوا) أى فأيقنوا (أنهم مواقعوها) مخالطوها واقعون فيها أو ظنوا انهم رأوها من مكان بعيد أنهم مواقعوها الساعة (ولم يجدوا عنها مصرفا) انصرافا أو معدلا ينصرفون اليه (ولقد صرفنا) أى كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم (فى هذا القرآن للناس) لصلحتهم وصفقتهم (من كل مثل) من جملته ما مر من مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا أو من كل نوع من انواع المعانى فالامر

ومن حيث لونه فانه كدر والروح نير ومن حيث فعله فانه ثقيل والارواح التى بها الحياة خفيفة ومن حيث السكوت فانه يعد من الحركة والحيوان يتحرك يمنة ويسرة والى خلف والى قدام والى فوق والى أسفل وفى الجملة فالتراب أبعد من قبول الحياة عن سائر الاجسام لان العناصر أبعدها من المركبات لان المركب بالتركيب أقرب درجة من الحيوان والعناصر أبعدها التراب لان الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلها على طبائع الارواح والنار أقرب لانها كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة ثم المركبات وأول مراتبها المعدن فانه ممتزج وله مراتب أعلاها الذهب وهو قريب من أدنى مراتب النبات وهى مرتبة النبات التى ينبت فى الارض ولا يبرز ولا يرتفع ثم النبات وأعلى مراتبها وهى مرتبة الاشجار التى تقبل التعظيم ويكون لاثمرها خاصية تؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة ثم بسيطة من أدنى مراتب الحيوانات وهى مرتبة الحشرات التى ليس لها مدارك شائلة ولا هى التى المنافع الجليلة وسائل كالنباتات ثم الحيوان وأعلى مراتبها قريبة من مرتبة الانسان فان الانعام ولا سيما الفرس تشبه العقال والجمال والسباعى ثم الانسان وأعلى مراتب الانسان قريبة من مرتبة الملائكة المسبحين لله الحامدين له فالله الذى خلق من أبعد الاشياء عن مرتبة الاحياء حيا هو فى أعلى المراتب لا يكون الا منزها عن العجز والجهل ويكون له الحمد على انعام الحياة ويكون له كمال القدرة ونفوذ الارادة فيجوز منه الابداء والاعادة وفى الآية لطيفتان (احداهما) قوله اذا هى للفاجأة يقال خرجت فاذا أسد بالباب وهو اشارة الى أن الله تعالى خلقه من تراب لكن فكان لا الى صار معدنا ثم نباتا ثم حيوانا ثم انسانا وهذه الاشارة الى مسئلة حكمية وهى ان الله تعالى يخلق أولا انسانا ثم يميته ثم يحييه انسانا وتاما وغير ذلك لا انه خلق أولا حيوانا ثم يجعله انسانا خلق الانواع هو المراد الاول ثم تكون الانواع فيها الاجناس بتلك الارادة الاولى فالله تعالى جعل المرتبة الاخيرة فى الشئ البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة الى مرتبة من المراتب التى ذكرناها (واللطيفة الثانية) قوله بشر اشارة الى القوة المدركة لان البشر بشر لا بحركته فان غير من الحيوانات أيضا كذلك وقوله تنتشرون اشارة الى القوة المحركة وكلاهما من التراب بتجبيب أما الادراك فلتكامله وجوده وأما الحركة فلطلب القوت ونحوه وقوله تنتشرون اشارة الى أن الجمعية غير مختص بخلق الانسان من التراب بل خلق الحيوان المنتشر من التراب السالكين يجب ذكره لان خلق البشر وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) وهى ان الله خلق آدم من تراب وخلقنا منه فكيف قال خلقكم من تراب * نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ما قيل ان المراد من قوله خلقكم انه خلق أصلكم (والثانى) أن نقول ان كل بشر مخلوق من التراب أما آدم فظاهر وأما نحن فلانا خلقنا من نطفة والنطفة من مصالح الغذاء الذى هو بالقوة بعض من الاعضاء والغذاء اما من لحوم الحيوانات وألبانها وأسمنها واما من النبات والحيوان أيضا لغذائه والنبات لكن النبات من التراب فان الحبة من الحنطة والتراب من القرية لا يتصور شجرة الا بالتراب وينضم اليها أجزاء مائية ليصير ذلك النبات بحيث يغذو (المسئلة الثانية) قال تعالى فى موضع آخر وخلق من الماء بشرا وقال من ماء مهين وههنا قال من تراب فكيف الجمع * قلنا اما على الجواب الاول فلا سؤال زائل فان المراد منه آدم وأما على الثانى فنقول ههنا قال ما هو أصل أول وفى ذلك الموضع قال ما هو أصل ثان لان ذلك التراب الذى صار غذاء صار مائعا وهو المنى ثم يتعقد ويتكون خلق الله منه انسانا أو نقول الانسان له أصلان ظاهران الماء والتراب فان التراب لا ينبت الا بالماء ففى النبات الذى هو أصل غذاء الانسان تراب وماء فان جعل التراب أصلا والماء لجمع أجزائه المتفتة فالامر كذلك وان جعل الاصل هو الماء والتراب لتثبيت أجزائه الرطبة من السيلان

ولكن (أكثر شئ جدلا) أى أكثر الاشياء التى يتأتى منها الجدل وهو هنا شدة الخصومة بالباطل والمماراة من الجدل الذى هو الفتل

(وما منع الناس) أى شئ منعهم (أن يؤمنوا) أى من الايمان (اذ جاءهم الهدى) أى الرسول والقرآن (ويستغفروا ربهم) أى من الكفر والمعاصى (الا أن تأتيهم سنة الاولين) أى الا طلب أن تأتيهم سنتنا فى الاولين وهى الاستئصال (أو يأتيهم العذاب قبلا) أى عيانا أو جمع قبيل أى أنواعا (وما نرسل المرسلين الا مبشرين) من آمن (ومنذرين) من كفر (ويجادل الذين كفروا بالباطل) أى بما لا حجة لهم فيه (ليدحضوا به الحق) أى ليزيلوه (واتخذوا آياتى) أى القرآن (وما أنذروا) أى خوفوا به من العقاب (هزوا) أى مهزوءا به (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها) أى لا أحد أظلم منه (ونسى ما قدمت يداه) أى ما اكتسبه من الكفر والمعاصى (انا جعلنا على قلوبهم أكنة) أى أغطية (أن يفقهوه) أى كراهة أن يفقهوه (وفى آذانهم وقرا) أى ثقلا عن سماعه (وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا أبدا) أى لا يقبلون الهدى أبدا (وربك الغفور) أى الستار لذنوب المؤمنين (ذو الرحمة) أى الواسعة لهم (لو يؤاخذهم بما كسبوا) أى بسبب ما كسبوا من المعاصى (لعجل لهم العذاب) أى فى الدنيا (بل لهم موعد) أى وقت معين للعذاب (لن يجدوا من دونه موئلا) أى ملجأ يلجأون اليه (وتلك القرى) أى أهلها (أهلكناهم لما ظلموا) أى بالكفر والمعاصى (وجعلنا لمهلكهم موعدا) أى وقتا معينا لاهلاكهم (واذ قال موسى لفتاه) أى يوشع بن نون (لا أبرح) أى لا أزال أسير (حتى أبلغ مجمع البحرين) أى ملتقاهما وهو عند طنجة (أو أمضى حقبا) أى دهرا طويلا (فلما بلغا مجمع بينهما) أى بين البحرين (نسيا حوتهما) أى نسى يوشع أن يتعاهده وموسى أن يسأله عنه (فاتخذ سبيله فى البحر سربا) أى مسلكا (فلما جاوزا) أى مجمع البحرين (قال لفتاه آتنا غداءنا) أى ما نتغدى به (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) أى تعبا (قال أرأيت اذ أوينا الى الصخرة) أى نزلنا عندها (فانى نسيت الحوت) أى فقدته (وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره) أى بدل من الهاء أو بتقدير بأن أذكره (واتخذ سبيله فى البحر عجبا) أى مسلكا عجبا (قال ذلك ما كنا نبغ) أى نطلب من العجب (فارتدا على آثارهما قصصا) أى رجعا يقصان آثارهما رجوعا (فوجدا عبدا من عبادنا) هو الخضر (آتيناه رحمة من عندنا) أى النبوة أو الولاية (وعلمناه من لدنا علما) أى علم الغيب بالالهام (قال له موسى هل أتبعك) أى أتبعك تبعية المتعلم (على أن تعلمن مما علمت رشدا) أى علما ذا رشد أو أرشد به (قال انك لن تستطيع معى صبرا) أى لا تطيق الصبر معى (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) أى علما (قال ستجدنى ان شاء الله صابرا) أى على ما أرى منك (ولا أعصى لك أمرا) أى ولا أخالفك فى شئ (قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ) أى من أفعالى التى تراها (حتى أحدث لك منه ذكرا) أى حتى أبتدئ أنا ببيانه لك (فانطلقا) أى على الساحل (حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها) أى قلعها (قال أخرقتها لتغرق أهلها) أى بسببه (لقد جئت شيئا امرا) أى عظيما منكرا (قال ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا) أى زيادة على ما قلت أولا (قال لا تؤاخذنى بما نسيت) أى بسبب ما نسيت (ولا ترهقنى من أمرى عسرا) أى لا تغشنى من أمرى عسرا بالمؤاخذة (فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله) أى بالسيف (قال أقتلت نفسا زاكية) أى طاهرة من الذنوب (بغير نفس) أى بغير قصاص (لقد جئت شيئا نكرا) أى منكرا (قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا) أى زيادة على ما قلت أولا وثانيا (قال ان سألتك عن شئ بعدها) أى بعد هذه المرة (فلا تصاحبنى) أى لا تكن صاحبى (قد بلغت من لدنى عذرا) أى قد أعذرت الى فى مفارقتى (فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية) هى انطاكية (استطعما أهلها) أى طلبا منهم الطعام (فأبوا أن يضيفوهما) أى يطعموهما (فوجدا فيها جدارا) أى حائطا (يريد أن ينقض) أى يسقط (فأقامه) أى بيده (قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا) أى جعلا تأخذه على اقامته (قال هذا فراق بينى وبينك) أى وقت فراق (سأنبئك) أى أخبرك (بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) أى ما لم تطق الصبر عليه (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر) أى يؤاجرونها فى البحر (فأردت أن أعيبها) أى بالخرق (وكان وراءهم) أى أمامهم (ملك يأخذ كل سفينة غصبا) أى ظلما (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين) أى فى علم الله (فخشينا أن يرهقهما) أى يغشاهما (طغيانا وكفرا) أى بسبب طغيانه وكفره (فأردنا أن يبدلهما ربهما) أى بدل الغلام (خيرا منه زكاة) أى طهارة من الذنوب (وأقرب رحما) أى أكثر رحمة بوالديه (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة) أى مدينة انطاكية (وكان تحته كنز لهما) أى مدفون تحته (وكان أبوهما صالحا) أى فى علم الله (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) أى يكملا قوتهما (ويستخرجا كنزهما) أى بعد كبرهما (رحمة من ربك) أى فعلت ذلك رحمة من ربك (وما فعلته عن أمرى) أى بل عن أمر ربى (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) أى ما لم تطق الصبر عليه (ويسألونك عن ذى القرنين) أى عن خبره وسببه (قل سأتلو عليكم منه ذكرا) أى خبرا عظيما (انا مكنا له فى الارض) أى ملكناه فيها (وآتيناه من كل شئ سببا) أى علما يتوصل به الى ما يريد (فأتبع سببا) أى طريقا يوصله الى مغرب الشمس (حتى اذا بلغ مغرب الشمس) أى منتهى العمارة (وجدها تغرب فى عين حمئة) أى ذات حمأة وهى الطين الاسود (ووجد عندها قوما) أى كفارا (قلنا يا ذا القرنين اما أن تعذب) أى بالقتل (واما أن تتخذ فيهم حسنا) أى بالاسر (قال أما من ظلم) أى بالكفر (فسوف نعذبه) أى بالقتل (ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا) أى منكرا (وأما من آمن) أى بالله (وعمل صالحا فله جزاء الحسنى) أى الجنة (وسنقول له من أمرنا يسرا) أى ذا يسر (ثم أتبع سببا) أى طريقا يوصله الى مطلع الشمس (حتى اذا بلغ مطلع الشمس) أى منتهى العمارة (وجدها تطلع على قوم) أى كفار (لم نجعل لهم من دونها سترا) أى بناء يسترهم من الشمس (كذلك) أى أمرنا كذلك (وقد أحطنا بما لديه) أى علما (خبرا) أى علما (ثم أتبع سببا) أى طريقا يوصله الى ما بين السدين (حتى اذا بلغ بين السدين) أى بين الجبلين (وجد من دونهما) أى أمامهما (قوما لا يكادون يفقهون قولا) أى لا يفهمون كلام غيرهم الا بعد جهد (قالوا يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج) أى قبيلتان من الترك (مفسدون فى الارض) أى بالقتل والنهب (فهل نجعل لك خرجا) أى جعلا (على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) أى حاجزا يمنعهم من الوصول الينا (قال ما مكنى فيه ربى) أى ما جعلنى فيه متمكنا من المال (خير) أى مما تبذلونه لى (فأعينونى بقوة) أى بآلة (أجعل بينكم وبينهم ردما) أى حاجزا حصينا (آتونى زبر الحديد) أى قطعه واحدتها زبرة (حتى اذا ساوى بين الصدفين) أى جانبى الجبلين (قال انفخوا) أى بالكير (حتى اذا جعله نارا) أى كالنار فى الحمرة (قال آتونى أفرغ عليه قطرا) أى نحاسا مذابا (فما اسطاعوا) أى يأجوج ومأجوج (أن يظهروه) أى يعلوه (وما استطاعوا له نقبا) أى لصلابته وارتفاعه (قال هذا رحمة من ربى) أى نعمة منه على عباده (فاذا جاء وعد ربى) أى وقت خروجهم (جعله دكاء) أى مدكوكا مسويا بالارض (وكان وعد ربى حقا) أى كائنا لا محالة (وتركنا بعضهم يومئذ) أى يوم خروجهم (يموج فى بعض) أى يختلط الانس والجن فى بعض يوم القيامة (ونفخ فى الصور) أى نفخة البعث (فجمعناهم جمعا) أى للحساب (وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا) أى اظهرناها لهم ليعاينوها (الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى) أى عن القرآن (وكانوا لا يستطيعون سمعا) أى لا يطيقون سماع الحق لبغضهم له (أفحسب الذين كفروا) أى أفظنوا (أن يتخذوا عبادى) أى الملائكة وعزيرا وعيسى ومريم (من دونى أولياء) أى أربابا (انا أعتدنا) أى هيأنا (جهنم للكافرين نزلا) أى منزلا (قل هل ننبئكم) أى نخبركم (بالاخسرين أعمالا) أى بالخاسرين أعمالا (الذين ضل سعيهم) أى ذهب (فى الحياة الدنيا) أى بالكفر والمعاصى (وهم يحسبون) أى فى الآخرة (أنهم يحسنون صنعا) أى عملا (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم) أى بالقرآن (ولقائه) أى بالبعث (فحبطت أعمالهم) أى بطلت (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) أى لا نعطيهم ثوابا لان الوزن لا يكون الا لذى حسنة (ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا) أى بسبب ما كفروا (واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) أى مهزوءا بها (ان الذين آمنوا) أى بالله (وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) أى منزلا (خالدين فيها) أى فى الجنات (لا يبغون عنها حولا) أى لا يطلبون عنها تحولا (قل لو كان البحر مدادا) أى ماء يكتب به (لكلمات ربى) أى لكتابة كلماته (لنفد البحر) أى فرغ (قبل أن تنفد كلمات ربى) أى لكتابتها (ولو جئنا بمثله مددا) أى زيادة (قل انما أنا بشر مثلكم) أى فى البشرية (يوحى الى) أى بالقرآن (أنما الهكم اله واحد) أى فى الالهية (فمن كان يرجو لقاء ربه) أى بالبعث (فليعمل عملا صالحا) أى خالصا لوجه الله (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) أى فى عبادته

(سورة مريم مكية وهى ثمان وتسعون آية وست مائة وست وثلاثون كلمة وألفان وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون حرفا) (كهيعص) أى هذا كاف هاد يصدق أولياءه يوم القاف وهو يعلى أعداءه يوم العين وصاد صادق الوعد والوعيد (ذكر رحمة ربك عبده زكريا) أى هذا ذكر رحمة ربك عبده زكريا (اذ نادى ربه نداء خفيا) أى دعاه سرا من قومه خوفا من مواليه (قال رب انى وهن العظم منى) أى ضعف وانحنى (واشتعل الرأس شيبا) أى انتشر فيه الشيب انتشار النار فى الحطب (ولم أكن بدعائك رب شقيا) أى لم أكن خائبا فيما سألتك قط (وانى خفت الموالى من ورائى) أى بنى عمى الذين يلونى فى النسب (وكانت امرأتى عاقرا) أى لا تلد (فهب لى من لدنك وليا) أى ولدا ذكرا (يرثنى) أى علمى (ويرث من آل يعقوب) أى مالى (واجعله رب رضيا) أى مرضيا عندك وعند الناس (يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى) أى سميناه بهذا الاسم (لم نجعل له من قبل سميا) أى مسمى باسمه (قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا) أى لا تلد (وقد بلغت من العتى عتيا) أى يبسا وانحناء (قال كذلك) أى الامر كذلك (قال ربك هو على هين) أى سهل (وقد خلقتك من قبل) أى من قبل ولادتك (ولم تك شيئا) أى موجودا (قال رب اجعل لى آية) أى علامة على حبل امرأتى (قال آيتك ألا تكلم الناس) أى بلا خرس (ثلاث ليال سويا) أى حال كونك سويا أى سليما من الخرس (فخرج على قومه من المحراب) أى من مصلاه (فأوحى اليهم) أى أشار اليهم (أن سبحوا) أى صلوا (بكرة وعشيا) أى غدوة وعشية (يا يحيى خذ الكتاب) أى التوراة (بقوة) أى بجد واجتهاد (وآتيناه الحكم) أى الفهم (صبيا) أى وهو ابن ثلاث سنين (وحنانا من لدنا) أى رحمة منا له (وزكاة) أى طهارة من الذنوب (وكان تقيا) أى مجتنبا للمعاصى (وبرا بوالديه) أى محسنا اليهما (ولم يكن جبارا) أى متكبرا (عصيا) أى عاصيا لربه (وسلام عليه) أى من الله (يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) أى يوم القيامة (واذكر فى الكتاب مريم) أى خبرها (اذ انتبذت) أى اعتزلت (من أهلها مكانا شرقيا) أى من جهة الشرق (فاتخذت من دونهم حجابا) أى ستارا (فأرسلنا اليها روحنا) أى جبريل (فتمثل لها بشرا سويا) أى فى صورة بشر سوى الخلق (قالت انى أعوذ بالرحمن منك) أى ألتجئ اليه منك (ان كنت تقيا) أى ممن يتقى الله (قال انما أنا رسول ربك) أى اليك (لاهب لك غلاما زكيا) أى طاهرا من الذنوب (قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر) أى بنكاح (ولم أك بغيا) أى زانية (قال كذلك) أى الامر كذلك (قال ربك هو على هين) أى سهل (ولنجعله آية للناس) أى علامة على قدرتنا (ورحمة منا) أى على من آمن به (وكان أمرا مقضيا) أى كائنا لا محالة (فحملته) أى فى بطنها (فانتبذت به مكانا قصيا) أى بعيدا (فأجاءها المخاض) أى ألجأها الطلق (الى جذع النخلة) أى ساقها (قالت يا ليتنى مت قبل هذا) أى قبل الحمل (وكنت نسيا منسيا) أى شيئا حقيرا لا يعرف ولا يذكر (فناداها من تحتها) أى جبريل أو عيسى (ألا تحزنى) أى لا تحزنى (قد جعل ربك تحتك سريا) أى نهرا صغيرا (وهزى اليك بجذع النخلة) أى حركيه (تساقط عليك رطبا جنيا) أى طريا (فكلى) أى من الرطب (واشربى) أى من الماء (وقرى عينا) أى طيبى نفسا (فاما ترين من البشر أحدا) أى يسألك عن ولدك (فقولى انى نذرت للرحمن صوما) أى صمتا (فلن أكلم اليوم انسيا) أى فلن أكلم أحدا من الانس (فأتت به قومها تحمله) أى فى حجرها (قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا) أى عظيما منكرا (يا أخت هارون) أى فى العبادة أو فى الصلاح (ما كان أبوك امرأ سوء) أى رجل زنا (وما كانت أمك بغيا) أى زانية (فأشارت اليه) أى أشارت اليه أن كلموه (قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) أى فى حجر أمه (قال انى عبد الله) أى خلقا وملكا (آتانى الكتاب) أى الانجيل (وجعلنى نبيا) أى فى علم الله (وجعلنى مباركا) أى معلما للخير (أينما كنت) أى فى أى مكان كنت (وأوصانى بالصلاة) أى المفروضة (والزكاة) أى المفروضة (ما دمت حيا) أى مدة حياتى (وبرا بوالدتى) أى محسنا اليها (ولم يجعلنى جبارا) أى متكبرا (شقيا) أى عاصيا لربه (والسلام على) أى من الله (يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) أى يوم القيامة (ذلك) أى الذى قاله عيسى (عيسى ابن مريم) أى لا ما يقوله النصارى (قول الحق) أى الصدق (الذى فيه يمترون) أى يشكون (ما كان لله أن يتخذ من ولد) أى لتنزهه عن الولد (سبحانه) أى تنزيها له عن ذلك (اذا قضى أمرا) أى أراد شيئا (فانما يقول له كن فيكون) أى فهو يكون (وان الله ربى وربكم) أى خالقنا ومالكنا (فاعبدوه) أى وحدوه (هذا صراط مستقيم) أى طريق موصل الى الجنة (فاختلف الاحزاب) أى الفرق (من بينهم) أى فى عيسى فقال اليعقوبية هو الله وقال النسطورية هو ابن الله وقال الملكانية هو ثالث ثلاثة (فويل للذين كفروا) أى فالعذاب للذين كفروا (من مشهد يوم عظيم) أى من حضور يوم القيامة (أسمع بهم وأبصر) أى ما أسمعهم وأبصرهم (يوم يأتوننا) أى للحساب (لكن الظالمون اليوم) أى فى الدنيا (فى ضلال مبين) أى بين (وأنذرهم) أى خوفهم (يوم الحسرة) أى يوم القيامة (اذ قضى الامر) أى فرغ من الحساب (وهم فى غفلة) أى عما يكون يوم القيامة (وهم لا يؤمنون) أى فى الدنيا (انا نحن نرث الارض) أى بعد موت أهلها (ومن عليها) أى من الخلق (واذكر فى الكتاب ابراهيم) أى خبره (انه كان صديقا) أى كثير الصدق (نبيا) أى فى علم الله (اذ قال لابيه) أى آزر (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع) أى صوت الداعى (ولا يبصر) أى ما يتقرب به اليه (ولا يغنى عنك شيئا) أى من الاغناء (يا أبت انى قد جاءنى من العلم) أى بالله (ما لم يأتك) أى من الوحى (فاتبعنى) أى فى الدين (أهدك صراطا سويا) أى طريقا مستقيما (يا أبت لا تعبد الشيطان) أى بطاعته فى عبادة الاصنام (ان الشيطان كان للرحمن عصيا) أى عاصيا (يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) أى بسبب موتك على الكفر (فتكون للشيطان وليا) أى قرينا فى النار (قال أراغب أنت عن آلهتى) أى أتاركها (يا ابراهيم لئن لم تنته) أى عن سبها (لارجمنك) أى بالحجارة (واهجرنى مليا) أى طويلا (قال سلام عليك) أى أمنة منى لك (سأستغفر لك ربى) أى أطلب له أن يغفر لك (انه كان بى حفيا) أى بارا لطيفا (وأعتزلكم) أى أتباعد عنكم (وما تدعون من دون الله) أى وأعتزل ما تدعونه من دون الله (وأدعو ربى) أى وحده (عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا) أى خائبا (فلما اعتزلهم) أى بالهجرة (وما يعبدون من دون الله) أى من الاصنام (وهبنا له اسحاق ويعقوب) أى ولدا وولد ولد (وكلا) أى منهما (جعلنا نبيا) أى فى علم الله (ووهبنا لهم من رحمتنا) أى النبوة (وجعلنا لهم لسان صدق) أى ثناء حسنا (عليا) أى رفيعا (واذكر فى الكتاب موسى) أى خبره (انه كان مخلصا) أى لله (وكان رسولا نبيا) أى فى علم الله (وناديناه من جانب الطور الايمن) أى من جهة يمين موسى (وقربناه نجيا) أى مناجيا (ووهبنا له من رحمتنا) أى النبوة (أخاه هارون نبيا) أى فى علم الله (واذكر فى الكتاب اسماعيل) أى خبره (انه كان صادق الوعد) أى لا يعد شيئا الا وفى به (وكان رسولا نبيا) أى فى علم الله (وكان يأمر أهله) أى قومه (بالصلاة والزكاة) أى المفروضة (وكان عند ربه مرضيا) أى عند الناس (واذكر فى الكتاب ادريس) أى خبره (انه كان صديقا) أى كثير الصدق (نبيا) أى فى علم الله (ورفعناه مكانا عليا) أى رفيعا (أولئك) أى المذكورون (الذين أنعم الله عليهم) أى بالنبوة (من النبيين من ذرية آدم) أى كادريس (وممن حملنا) أى فى السفينة (مع نوح) أى كابراهيم (ومن ذرية ابراهيم) أى كاسماعيل واسحاق ويعقوب (واسرائيل) أى كموسى وهارون (وممن هدينا) أى للايمان (واجتبينا) أى اخترنا (اذا تتلى عليهم آيات الرحمن) أى القرآن (خروا سجدا) أى ساجدين (وبكيا) أى باكين (فخلف من بعدهم) أى من بعد النبيين (خلف) أى قوم سوء (أضاعوا الصلاة) أى بتركها (واتبعوا الشهوات) أى بالزنا وشرب الخمر (فسوف يلقون غيا) أى شرا (الا من تاب) أى من الكفر (وآمن) أى بالله (وعمل صالحا) أى خالصا لوجه الله (فأولئك يدخلون الجنة) أى بفضل الله (ولا يظلمون شيئا) أى من الظلم (جنات عدن) أى بساتين اقامة (التى وعد الرحمن عباده بالغيب) أى بما غاب عنهم (انه كان وعده مأتيا) أى كائنا لا محالة (لا يسمعون فيها لغوا) أى كلاما ساقطا (الا سلاما) أى الا كلاما يسلم قائله من الاثم (ولهم رزقهم فيها) أى فى الجنة (بكرة وعشيا) أى غدوة وعشية (تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا) أى مجتنبا للمعاصى (وما نتنزل) أى يا جبريل (الا بأمر ربك) أى بوحيه وارادته (له ما بين أيدينا) أى من الجهات والاماكن (وما خلفنا) أى من الجهات والاماكن (وما بين ذلك) أى ما بين الجهات والاماكن (وما كان ربك نسيا) أى تاركا لك (رب السموات والارض) أى خالقهما ومالكهما (وما بينهما) أى من الخلق (فاعبده) أى وحده (واصطبر لعبادته) أى اصبر عليها (هل تعلم له سميا) أى مسمى باسمه (ويقول الانسان) أى أبى بن خلف (أئذا ما مت لسوف أخرج حيا) أى من القبر (أولا يذكر الانسان) أى أبى بن خلف (أنا خلقناه من قبل) أى من قبل قوله (ولم يك شيئا) أى موجودا (فوربك) أى يا محمد (لنحشرنهم) أى للحساب (والشياطين) أى قرناءهم (ثم لنحضرنهم) أى بعد الحشر (حول جهنم جثيا) أى جاثين على ركبهم (ثم لننزعن من كل شيعة) أى فرقة (أيهم) أى الذى (أشد على الرحمن عتيا) أى عصيانا وتمردا (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) أى أحق بها صليا (وان منكم) أى أيها الناس (الا واردها) أى الا داخلها (كان على ربك) أى فى علمه (حتما مقضيا) أى كائنا لا محالة (ثم ننجى الذين اتقوا) أى الشرك والمعاصى (ونذر الظالمين) أى الكافرين (فيها) أى فى جهنم (جثيا) أى جاثين على ركبهم (واذا تتلى عليهم آياتنا) أى القرآن (بينات) أى واضحات (قال الذين كفروا) أى منكرين (للذين آمنوا) أى مفتخرين عليهم (أى الفريقين) أى منا ومنكم (خير مقاما) أى منزلا (وأحسن نديا) أى مجلسا (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) أى من أمة (هم أحسن أثاثا) أى متاعا (ورئيا) أى منظرا (قل من كان فى الضلالة) أى الكفر (فليمدد له الرحمن مدا) أى استدراجا (حتى اذا رأوا ما يوعدون) أى فى الآخرة (اما العذاب) أى فى الدنيا (واما الساعة) أى القيامة (فسيعلمون من هو شر مكانا) أى منزلا (وأضعف جندا) أى أعوانا (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) أى بالايمان (والباقيات الصالحات) أى الطاعات (خير عند ربك ثوابا) أى فى الآخرة (وخير مردا) أى مرجعا (أفرأيت الذى كفر بآياتنا) أى القرآن (وقال لاوتين) أى فى الآخرة (مالا وولدا) أى فأعطى ذلك فى الدنيا (أطلع الغيب) أى فعلم ما يكون فى الآخرة (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) أى بالجنة (كلا) أى لم يكن شئ من ذلك (سنكتب ما يقول) أى سنحفظه عليه (ونمد له من العذاب مدا) أى نطيل له من العذاب ما شئنا (ونرثه ما يقول) أى نسلبه ما عنده من المال والولد (ويأتينا فردا) أى لا مال له ولا ولد (واتخذوا من دون الله آلهة) أى أصناما (ليكونوا لهم عزا) أى ليعتزوا بها (كلا) أى لم يكن ما ظنوا (سيكفرون بعبادتهم) أى يجحدونها يوم القيامة (ويكونون عليهم ضدا) أى أعداء (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) أى سلطناهم عليهم (تؤزهم أزا) أى تغريهم على المعاصى (فلا تعجل عليهم) أى بالعذاب (انما نعد لهم عدا) أى أيام آجالهم (يوم نحشر المتقين) أى بنوقهم (الى الرحمن وفدا) أى ركبانا (ونسوق المجرمين) أى الكافرين (الى جهنم وردا) أى عطاشا (لا يملكون الشفاعة) أى لا يشفع لهم أحد (الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) أى بالايمان (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) أى تعالى عن ذلك (لقد جئتم شيئا ادا) أى منكرا (تكاد السموات يتفطرن منه) أى تنشق (وتنشق الارض) أى تنفرج (وتخر الجبال هدا) أى تسقط (أن دعوا للرحمن ولدا) أى بسبب دعواهم (وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا) أى لتنزهه عن الولد (ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا) أى ذليلا (لقد أحصاهم) أى علم عددهم (وعدهم عدا) أى عد أنفاسهم (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) أى لا مال له ولا ولد (ان الذين آمنوا) أى بالله (وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) أى محبة فى قلوب المؤمنين (فانما يسرناه) أى القرآن (بلسانك) أى بلغتك (لتبشر به المتقين) أى الكافرين (وتنذر به قوما لدا) أى شديدى الخصومة بالباطل (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) أى من أمة (هل تحس منهم من أحد) أى هل ترى منهم من أحد (أو تسمع لهم ركزا) أى صوتا خفيا

(سورة طه مكية وهى مائة وخمس وثلاثون آية وخمس مائة وثلاث وثلاثون كلمة وألفان وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون حرفا) (طه) أى يا طاهر القلب واللسان (ما أنزلنا عليك القرآن) أى ما أنزلناه عليك (لتشقى) أى لتتعب بالاسف على تركهم الايمان (الا تذكرة) أى لكن أنزلناه تذكرة (لمن يخشى) أى لمن يخاف الله (تنزيلا) أى نزل تنزيلا (ممن خلق الارض والسموات العلى) أى الرفيعة (الرحمن على العرش استوى) أى استولى (له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما) أى من الخلق (وما تحت الثرى) أى التراب الندى (وان تجهر بالقول) أى بالدعاء (فانه يعلم السر) أى ما أسررته فى نفسك (وأخفى) أى ما خفى عليك مما يكون منك فى غد (الله لا اله الا هو) أى فى الالهية (له الاسماء الحسنى) أى الصفات العليا (وهل أتاك) أى يا محمد (حديث موسى) أى خبره (اذ رأى نارا) أى فى الطريق (فقال لاهله) أى زوجته (امكثوا) أى أقيموا مكانكم (انى آنست نارا) أى أبصرت (لعلى آتيكم منها بقبس) أى شعلة (أو أجد على النار هدى) أى من يهدينى الطريق (فلما أتاها) أى النار (نودى يا موسى انى أنا ربك) أى خالقك ومالكك (فاخلع نعليك) أى لتباشر الوادى المقدس بقدميك (انك بالواد المقدس) أى المطهر (طوى) أى اسم الوادى (وأنا اخترتك) أى للرسالة (فاستمع لما يوحى) أى لما أوحيه اليك (انى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى) أى وحدنى (وأقم الصلاة لذكرى) أى لتذكرنى فيها (ان الساعة آتية) أى كائنة لا محالة (أكاد أخفيها) أى من نفسى فكيف يطلع عليها غيرى (لتجزى كل نفس) أى بره وفاجره (بما تسعى) أى بما عملته من خير وشر (فلا يصدنك عنها) أى عن الايمان بها (من لا يؤمن بها) أى من الكفار (واتبع هواه) أى فى عبادة الاصنام (فتردى) أى فتهلك (وما تلك بيمينك يا موسى) أى ما الذى فى يمينك (قال هى عصاى أتوكأ عليها) أى أعتمد عليها عند الوقوف (وأهش بها على غنمى) أى أخبط بها ورق الشجر لتأكله غنمى (ولى فيها مآرب أخرى) أى حوائج أخر (قال ألقها يا موسى) أى من يدك (فألقاها فاذا هى حية تسعى) أى تمشى على رجليها (قال خذها ولا تخف) أى من أذاها (سنعيدها

والمجادلة الملاواة لان كلا من المجادلين يلتوى على صاحبه وانتصابه على التمييز والمعنى ان جدله أكثر من جدل كل مجادل (وما منع الناس) أى أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم (أن يؤمنوا) من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا ما هم فيه من الاشراك (اذ جاءهم الهدى) أى القرآن العظيم الهادى الى الايمان بما فيه من فنون المعانى الموجبة له ○○○ (ويستغفروا ربهم) عما فرط منهم من أنواع الذنوب التى من جملتها مجادلتهم للحق بالباطل (الا أن تأتيهم سنة الاولين) أى الاطلب اتيان سنتهم أو الا وانتظار اتيانها أو الا تقديره بحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه وسنتهم الاستئصال (أو يأتيهم العذاب) أى عذاب الآخرة (قبلا) أى أنواعا جمع قبيل أو عيانا كما فى قراءة قبلا بكسر القاف وفتح الباء وقرئ بفتحتين أى مستقبلا يقال لقيته قبلا وقبلا وقبلا وانتصابه على الحالية من الضمير أو العذاب والمعنى ان ما تضمنه القرآن الكريم من الامور المستوجبة للايمان بحيث لو لم يكن مثل هذه الحكمة القوية لما امتنع الناس من الايمان وان كانوا مجبولين على الجدل المفرط (وما نرسل المرسلين) الى الامم ملتبسين بحال من الاحوال (الا) حال كونهم (مبشرين) للمؤمنين بالثواب (ومنذرين) للكفرة والعصاة بالعقاب

فالامر كذلك (فان قال قائل) الله تعالى يعلم كل شئ فهو يعلم ان الاصل ماذا هو فلما ذا عدل عن الامر عند نامشتبه يجوز هذا وذاك فان كان الاصل هو التراب فكيف قال من الماء بشرا وان كان الماء فكيف قال خلقكم من تراب وان كانا هما أصلين فلم يقل خلقكم منهما فنقول فيه لطيفة وهى أن كون التراب أصلا والماء أصلا ليس لذاتيهما والما هو بجعل الله تعالى فان الله نظر الى قدرته كان له أن يخلق أول ما يخلق الانسان ثم يفنيه ويحصل منه التراب ثم يذوبه ويحصل منه الماء لكن الحكمة اقتضت أن يكون الناقص وسيلة الى الكامل لا الكامل يكون وسيلة الى الناقص فخلق التراب والماء أولا وجعلهما أصلين لمن هو أكمل منهما بل الذى هو أكمل من كل كائن وهو الانسان فان كونهما أصلين ليس لذاتيهما بل بجعل جاعل فتارة يجعل الاصل التراب وتارة الماء لسبق انه بارادته واختياره فان شاء جعل هذا أصلا وان شاء جعل ذلك أصلا وان شاء جعلهما أصلين ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال بعضهم ان الانسان مركب من العناصر الاربعة وهى التراب والماء والهواء والنار وقالوا التراب فيه لثباته والماء لاستمساكه فان التراب يتفتت بسرعة والهواء لاستقلاله كالروح المنفوخ يقوم بالهواء ولولاه لما كان فيه استقلال ولا انتصاب والنار للنضج والالتئام بين هذه الاشياء فهل هذا صحيح أم لا فان كان صحيحا فكيف اعتبار الامر فى حسب ولم يذكر فى موضع آخر انه خلقكم من نار ولا من ريح فنقول أما قولهم فلا مفسدة فيه من حيث الشرع فلا ننازعهم فيه الا اذا قالوا ان بالطبيعة كذلك واما ان قالوا بأن الله بحكمته خلق الانسان من هذه الاشياء فلا ننازعهم فيه وأما الآيات فنقول ما ذكرتم لا يخالف هذا لان الهواء جعلتموه للاستقلال والنار للنضج فهما يكونان بمداومة امتزاج الماء بالتراب فالاصل الموجود أولا هما لا غير فلذلك خصهما ولان المحسوس من العناصر فى الغالب هو التراب والماء ولاسيما كونهما فى الانسان ظاهر لكل أحد فخص الظاهر المحسوس بالذكر ﴿ثم قال تعالى﴾ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴿لما بين الله خلق الانسان بين أصله الذى خلق الانسان ولم يكن من الاشياء التى تبقى وتدوم سنين متطاولة أتى بنوعه بالاشخاص وجعله بحيث يتوالد فاذا مات الاب يقوم الابن مقامه لئلا يجب فقد الواحد ثلمة فى العمارة لانه تنسد وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله خلق لكم دليل على أن النساء خلقن كخلق الدواب والنبات وغيرذلك من المنافع كما قال تعالى خلق لكم ما فى الارض وهذا يقتضى أن لا تكون محلوقة للعبادة والتكليف فنقول خلق النساء من النعم علينا وخلقهن لنا وتكليفهن لاتمام النعمة علينا لا لتوجيه التكليف عليهن هذا ترجيح البناء وذلك من حيث النقل والحكم والمعنى أما النقل فهذا وغيره وأما الحكم فلان المرأة لم تكلف بتكاليف كثيرة كما كلف الرجل بها وأما المعنى فلان المرأة ضعيفة الخلق خفيفة فشابهت الصبى لكن الصبى لم يكلف فكان يناسب أن لا تؤهل المرأة للتكليف لكن النعمة علينا ما كانت تتم الا بتكليفهن لتخاف كل واحدة منهن العذاب فتنقاد للزوج وتمتنع عن المحرم ولولا ذلك لظهر الفساد ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله من أنفسكم يعضهم قال المراد منه ان حواء خلقت من جسم آدم والصحيح أن المراد منه من جنسكم كما قال تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم ويدل عليه قوله لتسكنوا اليها يعنى ان الجنسين المختلفين لا يمكن أحدهما الى الآخر أى لا يثبت نفسه معه ولا يعمل قلبه اليه ﴿المسئلة الثالثة﴾ يقال سكن اليه للسكون التام ويقال سكن عنده للسكون الحسى فى الآن كله عند جاءت لظرف المكان وذلك للاجسام والى للغاية وهى للقلوب ﴿المسئلة الرابعة﴾ قوله وجعل بينكم مودة ورحمة فيه أقوال قال بعضهم مودة بالمجامعة ورحمة بالولد تمسكا بقوله تعالى ذكر رحمة ربك عبده زكريا

(وجادل الذين كفروا بالباطل) باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات والسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنتا (ليدحضوا به) أى بالجدال (الحق) أى يزلوه عن مركزه ويبطلوه من ادحاض القدم وهو ازلاقها ومنه قولهم للرسل عليهم الصلاة والسلام ما أنتم الا بشر مثلنا ولو شاء الله لانزل ملائكة ونحوه ﴿واتخذوا آياتى﴾ التى تحير لها صم الجبال ﴿وما أنذروا﴾ أى أنذروه من القوارع الساعية

عليهم العقاب والعذاب أو انذارهم (هزوا) استهزاء وقرئ بسكون الزاى وهو ما يستهزأ به (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه) وهو القرآن العظيم (فأعرض عنها) ولم يتدبرها ولم يتذكر بها وهذا السبك وان كان مدلوله الوضعى نفى الاظلمية من غير تعرض لنفى المساواة فى الظلم الا أن مفهومه العرفى انه أظلم من ٥٥٦ كل ظالم وبناء الاظلمية على ما فى حيز اصلة من الاعراض عن القرآن للاشعار بأن

ظلم من يجادل فيه ويتخذه هزوا خارج عن الحد (ونسى ما قدمت يداه) أى عمله من الكفر والمعاصى التى من جملتها ما ذكر من المجادلة بالباطل والاستهزاء بالحق ولم يتفكر فى عاقبتها (انا جعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية كثيرة جمع كنان وهو تعليل لاعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم أن يفقهوه) مفعول لما دل عليه الكلام أى منعناهم أن يفقهوا على كنهه أو مفعول له أى كراهة أن يفقهوه (وفى آذانهم) أى جعلنا فيها (وقرا) ثقلا عن سماعهم استماعه (وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا أبدا) أى فلن يكون منهم اهتداء البتة مدة التكليف واذن جزاء للشرط وجواب عن سؤال النبى عليه الصلاة والسلام المدلول عليه بكمال عنايته بإسلامهم كأنه قال عليه الصلاة والسلام مالى لا أدعوهم فقيل ان تدعهم الخ وجمع الضمير الراجع الى الموصول فى هذه المواضع الخمسة باعتبار معناه كما أن افراده فى المواطن الخمسة المتقدمة باعتبار لفظه

وقال بعضهم محبة حالة تعاجة نفسه ورحمة حالة حاجة صاحبه اليه وهذا لان الانسان يحب مثل ولده فاذا رأى عدوه فى شدة من جوع وألم قد يأخذ من ولده ويصلح به حال ذلك وما ذلك لسبب المحبة وانما هو لسبب الرحمة ويمكن أن يقال ذكر من قبل أمرين أحدهما كون الزوج من جنسه والثانى ما تفضى اليه الجنسية وهو السكون اليه فالجنسية توجب السكون وذكر ههنا أمرين أحدهما يفضى الى الآخر فالمودة تكون أولا ثم انها تفضى الى الرحمة وهذا فان الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض ويبقى قيام الزوج بها وبالعكس وقوله ان فى ذلك يحتمل أن يقال المرادات فى خلق الازواج لآيات ويحتمل أن يقال فى جعل المودة بينهم آيات ﴿أما الاول﴾ فلا بد له من فكر لان خلق الانسان من الوالدين يدل على كمال القدرة ونفوذ الارادة وشمول العلم لمن يتفكر ولو فى خروج الولد من بطن الام فان دون ذلك لو كان من غير الله لافضى الى هلاك الام وهلاك الولد أيضا لان الولد لو سل من موضع ضيق بغير اعانة الله لمات ﴿وأما الثانى﴾ فكذلك لان الانسان يجد بين القريبين من التراحم مالا يجده بين ذوى الارحام وليس ذلك بمجرد الشهوة فانها قد تنتفى وتبقى الرحمة فهو من الله ولو كان بينهما مجرد الشهوة والغضب كثير الوقوع وهو مبطل للشهوة والشهوة غير دائمة فى نفسها لكان كل ساعة بينهما افراق وطلاق فالرحمة التى بها يدفع الانسان المكاره عن حريمه هى من عند الله ولا سبيل لذلك الا التفكر ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين﴾ لما بين دلائل الانفس ذكر دلائل الآفاق وأظهرها خلق السموات والارض فان بعض الكفار يقول فى خلق البشر وغيره من المركبات انه بسبب ما فى العناصر من الكيفيات وما فى السموات من الحركات وما فيها من الاتصالات فاذا قيل له فالسماء والارض لم تكن لامتزاج العناصر واتصالات الكواكب فلا بد بدا من أن يقول ذلك بقدرة الله وارادته ثم لما أشار الى دلائل الانفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الانفس بالاختلاف الذى بين ألوان الانسان فان واحدا منهم مع كثرة عددهم وصغر جثتهم خديعود هم وقدودهم لا يشتبه بغيره والسموات مع كبرها وقلة عددها مشتبهات فى الصورة والثانى اختلاف كلامهم فان عربيين هما أخوان اذا تكلما بلغة واحدة يعرف أحدهما من الآخر حتى أن من يكون مخمورا بأعينهما لا يبصرهما يقول هذا صوت فلان وهذا صوت فلان الآخر وفيه حكمة بالغة وذلك لان الانسان يحتاج الى التمييز بين الاشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو اليه وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الاقبال عليه وذلك قد يكون بالبصر بخلق اختلاف الصور وقد يكون بالسمع بخلق اختلاف الاصوات وأما اللمس والشم والذوق فلا يفيد فائدة فى معرفة العدو والصديق فلا يقع بها التمييز ومن الناس من قال المراد اختلاف اللغة كالعربية والفارسية والرومية وغيرها والاول أصح ثم قال تعالى لآيات العالمين لما كان خلق السموات والارض لم يحتمل الا احتمالات البعيدة التى يقولها أصحاب الطبائع واختلاف الألوان كذلك واختلاف الاصوات كذلك قال للعالمين لعموم العلم بذلك ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ لما ذكر بعض المرضيات اللازمة وهو الاختلاف ذكر الاعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة طلبا للرزق بالنهار فذكر من اللوازم أمرين ومن المفارقة أمرين وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله منامكم بالليل والنهار قيل أراد به النوم بالليل والنوم بالنهار وهى القيلولة ثم قال وابتغاؤكم أى فيهما فان كثيرا ما يكتسب الانسان بالليل وقيل أراد منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فخالف البعض بالبعض ويدل عليه آيات أخر منها قوله تعالى وجعلنا آية النهار

مبصرة

(وربك) مبتدأ وقوله تعالى (الغفور) خبره وقوله تعالى (ذو الرحمة) أى الموصوف بهما خبر بعد خبر وايراد المغفرة على صيغة المبالغة للايذان بكثرة الذنوب ولان المغفرة ترك المضار وهو سبحانه قادر على ترك ما لا يتناهى من العذاب وأما الرحمة فهى فعل وايجاد

ولا يدخل تحت الوجود الا ما يتناهى وتقديم الوصف الاول لان التخلية قبل التحلية أولانه أهم بحسب الحال اذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها كما يعرب عنه قوله عز وجل (لو يؤاخذهم) أي لو يريد مؤاخذتهم (بما كسبوا) من المعاصي التي من جملتها ما حكى عنهم من مجادلتهم بالباطل واعراضهم عن آياته بهم ٥٥٧ وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات (لعجل لهم العذاب) لاستعجاب أعمالهم لذلك وايثار المؤاخذة المنبئة عن شدة الاخذ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوهما للايذان بأن الشيء المستفاد من مقدم الشرطية متعلق بوصف السرعة كما ينبئ عنه تاليها وايثار صيغة الاستقبال وان كان المعنى على المضي لافادة أن استفاء فعيل العذاب لهم بسبب استمرار عدم ارادة المؤاخذة فان المضارع الواقع موقع الماضي يفيد استمرار انتفاء الفعل فيما مضى كما حقق في موضعه (بل لهم موعد) اسم زمان هو يوم بدر أو يوم القيامة والجملة معطوفة على مقدر كأنه قيل لكنهم ليسوا بمؤاخذين بغتة (لن يجدوا) البتة (من دونه موئلا) ملجأ أو ملجأ يقال وأل أي نجا ووأل اليه أي لجأ اليه (وتلك القرى) أي قرى عاد وثمود وأضرابهما وهي مبتدأ على تقدير المضاف أي وأهل تلك القرى خبره قوله تعالى (أهلكناهم) أو مفعول مضمر مفسر به (لما ظلموا) أي وقت ظلمهم كما فعلت قريش بما حكي عنهم من القبائح وترك المفعول اما لتعميم الظلم أو لتنزيله منزلة اللازم أي لما فعلوا الظلم ولما الما حوف كما قال ابن عصفور واما ظرف استعمل للتقليل وليس المراد به الوقت المعين الذي عملوا فيه الظلم بل زمان ممتد من ابتداء الظلم الى آخره (وجعلنا لمهلكهم) أي عنا لهلاكهم (موعدا) أي وقتا معينا لاهلاكهم عن ذلك وهذا

مبصرة لتبتغوا فضلا وقوله وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا ويكون التقدير هكذا ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله فأخر الابتغاء وقدره في اللفظ بالفعل اشارة الى أن العبد ينبغي أن لا يرى الرزق من كسبه وبحذقه بل يرى كل ذلك من فضل ربه ولهذا قرن الابتغاء بالفضل في كثير من المواضع منها قوله تعالى فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله وقوله ولتبتغوا من فضله ﴿المسئلة الثانية﴾ قدم المنام بالليل على الابتغاء بالنهار في الذكر لان الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لا يكون الا لحاجة فلا يتعقب الاحتياج في الحال أو خائف من المآل ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال آيات لقوم يسمعون وقال من قبل لقوم يتفكرون وقال للعالمين ﴿فقول المنام بالليل والابتغاء من فضله يظن الجاهل أو الغافل انهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله فلم يقل آيات للعالمين ولان الامرين الاولين وهو اختلاف الالسنة والالوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الامور المفارقة فالنظر اليهما لا يدوم لزوالهما في بعض الاوقات ولا كذلك اختلاف الالسنة والالوان فانهما يدومان بدوام الانسان فخصهما آيات عامة وأما قوله لقوم يتفكرون فاعلم أن من الاشياء ما يعلم من غير تفكر ومنها ما يكفي فيه مجرد الفكر وهو انما لا يخرج بالفكر بل يحتاج الى موقف يرقف عليه ومرشد يرشد اليه فيفهمه اذا سمعه من ذلك المرشد ومنها ما يحتاج الى بعض التأمل في تفهمه الى أمثلة حسية كالاشكال الهندسية لكن خلق الازواج لا يقع لاحد أنه بالطبع الا اذا كان جامدا لفكر جامدا للذكر فاذا تفكر علم أن كون ذلك الخلق آية وأما المنام والابتغاء فقد يقع لاكثر الناس من أفعل العباد وقد يحتاج الى مرشد غير مفكرة فقال لقوم يسمعون ويحملون بالهم الى كلام المرشد ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ لما ذكر العرضيات التي للانفس اللازمة والمفارقة ذكر العرضيات التي للآفاق وقال يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء وفي الآية مسائل ﴿احداها﴾ لما قدم دلائل الانفس ههنا قدم العرضيات التي للانفس وأخر العرضيات التي للآفاق كما أخر دلائل الآفاق بقوله ومن آياته خلق السموات والارض ﴿المسئلة الثانية﴾ قدم لوازم الانفس على العوارض المفارقة حيث ذكر أولا اختلاف الالسنة والالوان ثم المنام والابتغاء وقدم في الآفاق العوارض المفارقة على اللوازم حيث قال يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل وذلك لان الانسان متغير الحال والعوارض لا تغير بعيدة وأما اللوازم فيه فقريبة وأما السموات والارض فقليلة التغير فالعوارض فيها أغرب من اللوازم فقدم ما هو أعجب لكونه أدخل في كونه آية ونبه بذلك على أن كل ما يتغير حاله بالكبر والصغر والصحة والسقم وله صوت يعرف به لا يتغير وليكون تمييز به عن غيره وهو يتغير في الاحوال وذلك لا يتغير وهو آية عجيبة والسماء والارض ثابتان لا يتغيران تغيرا في بعض الاحوال أمطارها طلا وبروقها هائلة والسماء كما كانت والارض كذلك فهو آية دالة على فاعل مختار يدبر أمر امع تغير الفصل ويزيل أمرا مع ثبات الفصل ﴿المسئلة الثالثة﴾ كما قدم السماء على الارض قدم على ما هو من السماء وهو البرق والمطر على ما هو من الارض وهو الانبات والاحياء ﴿المسئلة الرابعة﴾ كان في انزال المطر وانبات الشجر منافع كذلك في تقدم البرق والرعد على المطر منفعة وذلك لان البرق اذا لاح فالذي لا يكون تحت سكن يخاف الابتلال فيستعد له والذي له صرير أو مصنع يحتاج الى الماء أو زرع يسوي مجاري الماء وأيضا العرب من أهل البوادي فلا يعلمون البلاد المعشبة ان لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب دون جانب واعلم أن

استشهاد على ما فعل بقريش من تعيين الموعد لنبيهم والذلك ولا يتأخروا بأخر العذاب وقرئ بضم الميم وفتح اللام أي اهلاكهم و بفتحهما (واذ قال موسى) نصب باضمار فعل أي اذكر وقت قوله عليه الصلاة والسلام (لفتاه) وهو يوشع بن نون بن افرايم بن يوسف عليه السلام سمي فتاه اذا كان خادمه ٥٥٨ و يتبعه وقيل كان يتعلم منه و يسمى التلميذ فتى وان كان شيخا والمراد بتذكيره تعظيم

فوائد البرق وان لم تظهر للقبين بالبلاد فهي ظاهرة للبادين ولهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة وآية وأما كونه آية فظاهر فان في السحاب ليس الا ماء وهواء وخروج النار منهما بحيث تحرق الجبال في غاية البعد فلابد له من خالق هو الله قالت الفلاسفة السحاب فيه كثافة واطافة بالنسبة الى الهواء والماء فالهواء الغالب منه والماء أكثف فاذا هبت ريح قوية تخرق السحاب بعنف فيحدث صوت الرعد ويخرج منه النار كما بين جسم جسما بعنف وهذا كان النار تخرج من وقوع الحجر على الحديد فان قال قائل الحجر والحديد جسمان صلبان والسحاب والريح جسمان رطبان فيقولون لكن حركة الانسان ضعيفة وحركة الريح قوية تقلع الاشجار فنقول لهم البرق والرعد أمران حادثان لابد لهما من سبب وقد علم بالبرهان كون كل حادث من الله فهو ما من الله ثم انا نقول هب ان الامر كما تقولون فهو سوب تلك الريح القوية من الامور الحادثة العجيبة لابد له من سبب وينتهي الى واجب الوجود فهو آية للعاقل على قدرته الله كيف ما فرضتم ذلك ﴿المسئلة الخامسة﴾ قال ههنا قوم يعقلون لما كان حدوث البرق من الوالد أمرا عاديا مطردا قليل الاختلاف كان يتطرق الى الاوهام الخامسة أن ذلك بالطبيعة لان المطرد أقرب الى الطبيعة من المختلف لكن البرق والمطر ليس أمرا مطردا غير متخلف اذ يقع ببلدة دون بلدة وفي وقت دون وقت وتارة تكون قوية وتارة تكون ضعيفة فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار فقال هو آية لمن له عقل اذ لم يتفكر تفكرا تاما ﴿ثم قال تعالى﴾ ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون ﴿لما ذكر من العوارض التي للسماء والارض بعضها ذكر من لوازمها البعض وهي قيامها فان الارض انما يتجه الانسان من وقوفها وعدم نزولها ركون السماء يتجه من علوها ونباتها من غير عمد وهذا من اللوازم فان الارض لا تخرج عن مكانها الذي هي فيه والسماء كذلك لا تخرج عن مكانها الذي هي فيه ﴿فان قيل﴾ انها تتحرك في مكانها كالرحى ولكن اتفق العقلاء على انها في مكانها لا تخرج عنه وهذه آية تظاهره لان كونها في الموضع الذي هما فيه وعلى الموضع الذي هما عليه من الامور الممكنة وكونهما في غير ذلك الموضع جائز فكان عدم ان يخرجا منه فلما لم يخرجا كان ذلك ترجيحا للجائز على غيره وذلك لا يكون الا بفاعل مختار والفلاسفة قالوا لا يكون الارض في المكان الذي هي فيه طبيعي لها لانها أثقل الاشياء والثقيل يطلب المركز والخفيف يطلب الهبوط والسماء كونها في مكانها ان كانت ذات مكان فلذاتها فقيامهما في مكانهما طبيعي لهما ﴿فنقول﴾ قد تقدم مرارا ان القول بالطبيعة باطل والذي نزيده ههنا انكم وافقتمونا بأن ما جاز على أحد المثلين جائز على المثل الآخر لكن متمركز الفلك لا يخالف تحديبه في الطبع فيجوز حصول متمركزه في موضع تحديبه وذلك بالخروج والزوال فاذن الزوال عن المكان ممكن للسماء على السماء الدنيا فانها تحديدة الجهات على مذهبكم أيضا والارض كانت تجوز عليها الحركة الدورية كما تقولون على السماء فعدمها وسكونها ليس الا بفاعل مختار وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ذكر الله من كل باب أمرين أما من الانفس فقوله خلق لكم استدل بخلق الزوجين ومن الآفاق السماء والارض في قوله خلق السموات والارض ومن لوازم الانسان اختلاف اللسان واختلاف الالوان ومن عوارضه المنام والابتغاء ومن عوارض الآفاق البرق والامطار ومن لوازمها قيام السماء وقيام الارض لان الواحد يكفي للاقرار بالحق والثاني يفيد الاستقرار بالحق ومن هذا اعتبر شهادة شاهدين فان قول أحدهما يفيد الظن وقول الآخر يفيد تأكيده ولهذا قال ابراهيم عليه السلام بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله بأمره أي بقوله قوما أو ارادته قيامها وذلك لان الامر عند المعتزلة موافق للارادة

والمقب الدهر أو ثمانون سنة وكان منشأ هذه المزعة أن موسى عليه السلام لما ظهر على مصر مع بني اسرائيل واستقر بها بعد هلاك القبط أمره الله عز وجل أن يذكر قومه النعمة فقام فيهم خطيبا بخطبة بديعة رقت بها القلوب وذرفت العيون فقال له رجل أي الناس قال أنا فعتب الله تعالى عليه ان لم يرد العلم اليه عز وجل فأوحى اليه بل أعلم منك عبدلي عند مجمع البحرين

وعندنا

وهو الخضر عليه السلام وكان في أيام افريدون قبل موسى عليه السلام وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر وبقي الى أيام موسى وقيل ان موسى عليه السلام سأل ربه أي عبادك أحب اليك قال الذي يذكرني ولا ينساني قال فأي عبادك أقضى قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى قال فأي عبادك أعلم قال الذي يبتغي علم الناس الى علمه عسى أن يصيب ٥٥٥ كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى

وعندنا ليس كذلك ولكن النزاع في الامر الذي للتكليف لا في الامر الذي للتكوين فانا لا ننازعهم في أن قوله كن وكونوا وما نأمر كوني موافق للارادة (المسئلة الثالثة) قال ههنا ومن آياته أن تقوم وقال قبله ومن آياته يريكم ولم يقل أن يريكم وان قال بعض المفسرين ان أن مضمرة هناك معناه ومن آياته ان يريكم ليصير كالمصدر بأن ودلك لان القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل وجعله مصدرا الان المستقبل ينبئ عن التجدد وفي البرق لما كان ذلك من الامور التي تتجدد في زمان دون زمان ذكر بلفظ المستقبل ولم يذكر معه شيأ من الحروف المصدرية (المسئلة الرابعة) ذكر سبحانه دلائل وذكر في أربعة منها ان في ذلك لآيات ولم يذكر في الاول وهو قوله ومن آياته أن خلقكم من تراب ولا في الآخر وهو قوله ومن آياته أن تقوم السماء والارض أما في الاول فلان قوله بعده ومن آياته أن خلق لكم أيضا دليل الانفس خلق الانفس وخلق الازواج من باب واحد على ما بينا غير انه تعالى ذكر من كل باب أمرين للتقرير بالتكرير فاذا قال ان في ذلك لآيات كان عائدا اليهما وأما في قيام السماء والارض فنقول في الآيات السماوية تذكرانها آيات للعالمين والقوم يعقلون لظهورها فلما كان في أول الامر ظاهرا في آخر الامر بعد سرد الدلائل يكون أظهر فلم يحز أحدا عن أحد في ذلك وذكرها وحدها وهو قدرته على الاعادة * وقال ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون وفيه مسائل (المسئلة الاول) ما وجه العطف بثم وثم تعلق ثم * فنقول معناه والله أعلم انه تعالى اذا بين لكم كمال قدرته بهذه الآيات بعد ذلك يخبركم ويعلمكم انه اذا قال للعظام الرميمة اخرجوا من الاجداث تخرجون أحياء (المسئلة الثانية) نقول القائل دعا فلان فلانا من الجبل يحتمل أن يكون الداعي من الجبل كما يقول القائل يا فلان انزل من الجبل فيقال دعاه من الجبل ويحتمل أن يكون المدعو يدعى من الجبل كما يقول القائل يا فلان اصعد الى الجبل فيقال دعاه من الجبل ولا يخفى على العاقل أن الداعاة لا يكون من الارض اذا كان الداعي هو الله فالمدعو يدعى من الارض يعني أنتم تكونون في الارض فيدعوكم منها فتخرجون (المسئلة الثالثة) قوله تعالى اذا أنتم قد بينا انه للفاجاة يعني يكون ذلك بكن فيكون * (المسئلة الرابعة) قال ههنا اذا أنتم تخرجون وقال في خلق الانسان أولا ثم اذا أنتم بشر تنتشرون فنقول هناك يكون خلق وتقدير وترجيح وتراخ حتى يصير التراب قابلا للحياة فينفخ فيصير وحسبه اذا هو بشر وأما في الاعادة لا يكون تقدير ترجيح وتراخ بل يكون نداء وخروج فلهم يقل ههنا ثم * ثم قال تعالى * (وله من في السموات والارض كل له قانتون) لما ذكر الآيات وكان دليلها القدرة على الحشر التي هي الاصل الآخر والوحدانية التي هي الاصل الاول أشار اليهما بقوله وله من في السموات والارض يعني لا شريك له أصلا لان كل من في السموات وكل من في الارض ونفس السموات والارض له وملكه فكل له منقادون قانتون والشريك يكون منازعا مالا فلا شريك له أصلا * ثم ذكر الدليل الآخر فقال تعالى * (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) أي في نظركم الاعادة أهون من الابداء لان من يفعل فعلا أولا يسهل عليه ثم اذا فعل بعد ذلك مثله يكون أهون وقيل المراد هو هين عليه كما قيل في قول القائل الله أكبر أي كبير وقيل المراد هو له هين عليه أي الاعادة أهون على الخلائق من الابداء لان في البدء يكون علقة ثم مضغة ثم لحما ثم عظاما ثم خلق بشرا ثم يخرج طفلا يترعرع الى غير ذلك فيصعب عليه ذلك كله وأما في الاعادة فيخرج بشرا سويا بل يكون فيكون أهون عليه والوجه الاول أصح وعلمه نتكلم فنقول هو أهون يحتمل أن يكون ذلك لان في البدء خلق الاجزاء وتأليفها والاعادة تأليف ولا شك أن الامر الواحد أهون من أمرين ولا يلزم من هذا أن يكون غيره فيه صعوبة ولنبين هذا

وقيل رضي عليه الصلاة والسلام من ذلك العير فانضح الماء على الحمر فعاش فوقع في الماء (فاتخذ سبيله في البحر سربا) مسلكا كالسرب وهو النفق قيل أمسك الله عز وجل جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه معجزة لموسى أو للخضر عليهما السلام وانتصاب سربا على أنه مفعول ثان لاتخذ وفي البحر حال منه أو من السبيل ويجوز أن يتعلق باتخذ (فلما جاوزا) أي مجمع البحرين الذي

فقال ان كان في عبادك من هو أعلم مني فدلني عليه قال أعلم منك الخضر قال أين أطلبه قال على ساحل البحر عند الصخرة قال يارب كيف لي به قال تأخذ حوتا في مكتل فحيثما فقدته فهو هناك فأخذ حوتا فجعله في مكتل فقال لفتاه اذا فقدت الحوت فأخبرني فذهبا يمشيان (فلما بلغا) الفاء فصيحة كأشير اليه (مجمع بينهما) أي مجمع البحرين وبينهما ظرف أضيف اليه اتساعا أو بمعنى الوصل (نسيا حوتهما) الذي جعل فقدانه أمارة وجدان المطلوب أي نسيا تفقد أمره وما يكون منه وقيل نسي يوشع أن يقدمه وموسى عليه السلام أن يأمره فيه بشيء روي أنهما لما بلغا مجمع البحرين وفيه الصخرة وعين الحياة التي لا يصيب ماؤها ميتا الا حي وضعا رؤسهما على الصخرة فناما فقاما فسأب الحوت برد الماء ورجعه عائشا وقد كانا أكلا منه وكان ذلك بعد ما استيقظ يوشع عليه السلام

بجعل موعد اللقاء قبل أن يجاوز الليلة والغد الى الظهر وألقى على موسى عليه السلام الجوع فعند ذلك (قال لفتاه آتنا غداءنا) أى ما نتغدى به وهو الحوت كما يفيد عنه الجواب (لقد لقينا من سفرنا هذا) اشارة الى ما سيأتى ذكره مما جاوز الموعد (نصبا) تعبا واعياء قيل لم ينصب ولم يجع قبل ذلك والجمل فى محل ٥٦٠ التعليل للأمر بإيتاء الغداء اما باعتبار أن النصب انما يعترى بسبب الضعف

فقول المهين هو ما لا يتعب فيه الفاعل والأهون ما لا يتعب فيه الفاعل بالطريق الاولى فاذا قال قائل ان الرجل القوى لا يتعب من نقل شعير من موضع الى موضع وسلم السامع له ذلك فاذا قال فكونه لا يتعب من نقل خردلة يكون أولى يكون ذلك كلاما مستقيما لا مبقى على حقيقته ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿وله المثل الاعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم﴾ أى قولنا هو أهون عليه يفهم منه أمران (أحدهما) هو ما يكون فى الآخر تعب كما يقال ان نقل الخفيف أهون من نقل الثقيل (والآخر) هو ما ذكرنا من الاولوية من غير لزوم تعب فى الآخر فقوله وله المثل الاعلى اشارة الى أن كونه أهون بالمعنى الثانى لا يفهم منه الاول ﴿وههنا فائدة﴾ ذكرها صاحب الكشاف وهى ان الله تعالى قال فى موضع آخر وهو على هين وقال ههنا وهو أهون عليه فقدم هناك كلمة على وأخرها ههنا وذلك لان المعنى الذى قال هناك انه هين هو خلق الولد من العجوز وانه صعب على غيره وليس بهين الا عليه فقال هو على هين يعنى لا على غيرى وأما ههنا المعنى الذى ذكرنا انه أهون هو الاعادة والاعادة على كل مبتدئ أهون فقال وهو أهون عليه لا على سبيل الحصر فالتقديم هناك كان للحصر وقوله تعالى وله المثل الاعلى فى السموات والارض على الوجه الاول وهو قولنا أهون عليه بالنسبة اليكم له معنى وعلى الوجه الذى ذكرنا له معنى اما على الوجه الاول فلما قال وله المثل الاعلى وكان ذلك ممثلا مضروبا بالمن فى الارض من الناس فيفيد ذلك أن له المثل الاعلى من أمثلة الناس وهم أهل الارض ولا يفيد أن له المثل الاعلى من أمثلة الملائكة فقال وله المثل الاعلى فى السموات والارض يعنى هذا مثل مضروب لكم وله المثل الاعلى من هذا المثل ومن كل مثل يضرب فى السموات واما على الوجه الثانى فمعناه أن له المثل الاعلى أى فعله وان شبهه بفعلكم ومثل به لكن ذاته ليس كمثله شئ فله المثل الاعلى وهو مقول عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقيل المثل الاعلى أى الصفة العليا وهى لا اله الا الله وقوله تعالى وهو العزيز الحكيم أى كامل القدرة على الممكنات شامل العلم بجميع الموجودات فيعلم الاجزاء فى الامكنة ويقدر على جمعها وتاليفها ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾ لما بين الاعادة والقدرة عليها بالمثل بعد الدليل بين الوحدانية أيضا بالمثل بعد الدليل ومعناه أن من يكون له مملوك لا يكون شريكا له فى ماله ولا يكون له حر مثل حره مثل سيده فكيف يجوز أن يكون عباد الله شركاء له وكيف لا يجوز أن يكون لهم عظمة مثل عظمة الله تعالى حتى يعبدوا وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ينبغى أن يكون بين المثل والممثل به مشابهة ثم ان كان بينهما مخالفة فقد يكون مؤكدا لمعنى المثل وقد يكون موهنا له وههنا وجه المشابهة معلوم وأما المخالفة فهو وجوده أيضا وهى مؤكدة وذلك من وجوه (أحدها) قوله من أنفسكم يعنى ضرب لكم مثلا من أنفسكم مع حقارتها ونقصانها وعجزها وتماس نقيه عليكم مع عظمها وكمالها وقدرتها (وثانيها) قوله مما ملكت أيمانكم يعنى عبيدكم لكم عليهم ملك اليد وهو ظاهر قابل للنقل والزوال أما النقل فبالبيع وغيره والزوال بالعتق ومملوك الله لا خروج له من ملك الله بوجه من الوجوه فاذا لم يجز أن يكون مملوك عبدكم شريكا لكم مع انه يجوز أن يصير مملوكم من جميع الوجوه بل هو فى الحال مملوكم فى الآدمية حتى انكم ليس لكم تصرف فى رقبته وآدميته بنقل وقطع وليس لكم منعهم من العبادة وقضاء الحاجة فكيف يجوز أن يكون مملوك الله الذى هو مملوكه من جميع الوجوه شريكا له (وثالثها) قوله من شركاء فيما رزقناكم يعنى الذى لكم وهو فى الحقيقة ليس لكم بل هو من الله ومن رزقه والذى من الله فهو فى الحقيقة له فاذا لم يجز أن يكون لكم شريك فى مالكم من حيث الاسم

فيكيف

بل هو من حيث الحقيقة فكيف يجوز أن يكون شريكا له فى ملكه وسلطانه ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين﴾ أى ليس لهم حجة على ما يقولون بل هم متبعون أهواءهم بغير علم ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ لما بين الدلائل والتوحيد والنبوة والمعاد أمر بالاقبال على الدين والاستقامة فيه وقد تقدم تفسير مثله مرارا ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون﴾ أى راجعين اليه بالتوبة والانابة ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾ لما بين الدلائل والتوحيد والنبوة والمعاد أمر بالاقبال على الدين والاستقامة فيه وقد تقدم تفسير مثله مرارا ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون﴾ أى راجعين اليه بالتوبة والانابة ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾

الناشئ عن الجوع باعتبار ما فى أثناء التغدى من استراحة ما (قال) أى فتاه عليه السلام (أرأيت اذ أوينا الى الصخرة) أى التجأنا اليها وأقمنا عندها وذكر الاواء اليها مع أن المذكور فيما سبق مرتين بلوغ مجمع البحرين لزيادة تعيين محل الحادثة فان المجمع محل متسع لا يمكن تحقيق المراد المذكور بنسبته الحادثة اليه ولتمهيد العذر فان الاواء اليها والنوم عندها مما يؤدى الى النسيان عادة والرؤية مستعارة للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملة ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ما شاهده من العظائم التى لا تكاد تنسى وقد جعل فقده آنه علامة لوجدان المطلوب وهذا أسلوب معتاد فيما بين الناس يقول أحدهم لصاحبه اذا نابه خطب أرأيت ما نابنى يريد بذلك تهويله وتعجيب صاحبه منه وانه مما لا يعهد وقوعه لا استخباره عن ذلك كما قيل وألفعول محذوف اعتمادا على ما يدل عليه من قوله عز وجل (فانى نسيت الحوت) وفيه تأكيد للتعجيب وتربية لاستعظام المنسى واتباع النسيان على اسم الحوت دون ضمير الغداء مع أنه المأمور باتيانه لتنبيه من أول الامر على أنه ليس من قبيل نسيان المسافر زاده فى المنزل وان ما شاهده ليس من قبيل الاحوال المتعلقة بالغداء من حيث هو غداء وطعام بل

من نحيت هرسوت كساثرا المتيان مع زيادة أي نسيت أن أذكرك أمره وما شاهدت منه من الامور العجيبة (وما أنسانيه الا الشيطان) بوسوسته الشاغلة عن ذلك وقوله تعالى (أن أذكره) بدل اشتمال من الضمير أي ما أنساني أن أذكره لك وفي تعليق الانساء بضمير الحوت أولا وبذكره له ثانيا على طريق الابدال المنبئ عن تغيبة المبدل منه اشارة ٥٦١ الى أن متعلق النسيان أيضا ليس نفس الحوت بل ذكر أمره وقرئ أن أذكره وايثار أن أذكره على المصدر للمالغة فان مدلوله نفس الحدث عند وقوعه والحال وان كانت عربية لا يعهد نسيانها لكنه لما تعود بمشاهدة أمثالها عند موسى عليه السلام وأفهاقبل اهتمامه بالمحافظة عليها (واتخذ سبيله في البحر عجبا) بيان لطرف من أمر الحوت منبئ عن طرف آخر منه وما بينهما اعتراض قدم عليه للاعتناء بالاعتذار كأنه قيل حتى واضطرب ووقع في البحر واتخذ سبيله فيه سبيلا عجبا فهما ثانيا مفعولي اتخذ والظرف حال من أولهما أو ثانيهما أو هو المفعول الثاني وعجبا صفة مصدر محذوف أي اتخاذا عجبا وهو كون مسلكه كالطاق والسرب أو مصدر فعل محذوف أي أعجب منه عجبا وقد قيل انه من كلام موسى عليه الصلاة والسلام وليس بذاك (قال) أي موسى عليه الصلاة والسلام (ذلك) الذي ذكرت من أمر الحوت (ما كنا نبغ) وقرئ باثبات الياء والضمير العائد الى الموصول محذوف أصله نبغيه أي نطلبه لكونه أمارة للفوز بالمرام (فارتدا) أي رجعا (على آثارهما) طريقهما الذي جاءا منه (قصصا) يقصان قصصا أي يتبعان آثارهما اتباعا أو مقتصين حتى أتيا الصخرة (فوجدا عبدا من عبادنا) التنكير لتفخيم والاضافة للتشريف والجمهور على أنه الخضر واسمه بليا بن

فكيف يجوز أن يكون له شريك فيما له من حيث الحقيقة وقوله فانتم فيه سواء أي هل أنتم وما ملكتكم في شيء مما ملكتموه سواء ليس كذلك فلا يكون لله شريك في شيء مما ملكه لكن كل شيء فهو لله فما تدعون الهيته لاملك شيأ أصلا ولا مثقال ذرة من خردل فلا بعد لعظمته ولا لمنفعته تصل اليكم منه وأما قولكم هؤلاء شفعاؤنا فليس كذلك لان المملوك هل له عندكم حرمة كحرمة الاحرار واذا لم يكن للملوك مع مساواته اياكم في الحقيقة والصفة عندكم حرمة فكيف يكون حال المالك الذي لا مساواة بينهم وبين المالك بوجه من الوجوه والى هذا أشار بقوله تخافونهم كخيفتكم أنفسكم (المسئلة الثانية) هم ذاتي جميع وجوه حسن العبادة عن الغير لان الاغيار اذا لم يصلحوا للتمرك فليس لهم ملك ولا ملك فلا عظمة لهم حتى يعبدوا لعظمتهم ولا يرتجى منهم منفعة لعدم ملكهم حتى يعبدوا للنفع وليس لهم قوة ولا قدرة لانهم عبيد والعبد المملوك لا يقدر على شيء فلا تخافوهم كما تخافون أنفسكم فكيف تخافونهم خوفا أكثر من خوفكم بعضا من بعض حتى تعبدوهم للخوف ثم قال تعالى كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون أي نبينها بالدلائل والبراهين القطعية والامثلة والحكايات الاقناعية لقوم يعقلون يعني لا يخفى الامر بعد ذلك الا على من لا يكون له عقل ﴿ ثم قال تعالى ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين ﴾ أي لا يجوز أن يشرك بالمالك مملوك ولكن الذين أشركوا اتبعوا أهواءهم من غير علم وأثبتوا شركاء من غير دليل ثم بين أن ذلك بارادة الله بقوله فمن يهدي من أضل الله أي هؤلاء أضلهم الله فلا هادي لهم فينبغي أن لا يحزنك قولهم * وههنا لطيفة وهي ان قوله فمن يهدي من أضل الله سبق ولما تقدم وذلك لانه لما قال لان الله لا شريك له بوجه ما ثم قال تعالى بل المشركون يشركون من غير علم يقال فيه أنت أثبت لهم تصرفا على خلاف رضاه والسيد العزيز هو الذي لا يقدر عبده على تصرف يخالف رضاه فقال ان ذلك ليس باستقلاله بل بارادة الله وما لهم من ناصرين لما تركوا الله تركهم الله ومن أخذوه لا يغني عنهم شيأ فلا ناصر لهم ﴿ ثم قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ أي اذا تبين الامر بما ظهرت الوحدانية ولم يبق للشرك فلا تلتفت أيها الرجل وأقم وجهك للدين وقوله فأقم وجهك للدين أي أقبل بكلك على الدين عبر عن الذات بالوجه كما قال تعالى كل شيء هالك الا وجهه أي ذاته بصفة الله وقوله حنيفا أي مائلا عن كل ما عداه أي أقبل على الدين وصل عن كل شيء أي لا يكن في قلبك شيء آخر فتعرد اليه وهذا قريب من معنى قوله ولا تكونوا من المشركين ثم قال تعالى فطرت الله أي الزم فطرة الله وهي التوحيد فان الله فطر الناس عليه حيث أخذ منهم من ظهر آدم وسألهم ألست بربكم فقالوا بلى وقوله تعالى لا تبديل لخلق الله فيه وجوه قال بعض المفسرين هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن حيث لم يؤمن قومه فقال هم خلقوا للشقاوة ومن كتب شقيا لا يسعد وقيل لا تبديل لخلق الله أي الوحدانية مترسخة فيهم لا تغير لما سبق ان سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله لكن الايمان العارض غير كاف ويحتمل أن يقال خلق الله اخلق لعبادته وهم كلهم عبيده لا تبديل لخلق الله أي ليس كونهم عبيدا مثل كون المملوك عبد الانسان فانه ينتقل عنه الى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لا خروج للخلق عن العبادة والعبودية وهذا البيان فساد قول من يقول العبادة لتحصيل الكمال والعبد يكمل بالعبادة فلا حق عليه تكليف وقول المشركين ان الناقص لا يصلح لعبادة الله وانما الانسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله وقول النصارى أن عيسى كان يحل الله فيه وصارا لها فقال لا تبديل لخلق الله بل كلهم عبيد لا خروج لهم عن ذلك ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ الذي لا عوج فيه ﴿ ولكن أكثر الناس

ملكان وقيل الياس عليهم الصلاة والسلام (آتيناه رحمة من عندنا) هي الوحي والنبوة كما يشعر به تنكير الرحمة واختصاصها بجناب الكبرياء (وعلمناه من لدنا علما) خاصا لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره وهو علم الغيوب (قال له موسى) استئناف مبني على سؤال نشأ من السياق كأنه قيل فماذا جرى بينهما من الكلام فقيل قال له موسى (هل أتبعك على أن تعلمن)

لا يعلمون ﴿ أن ذلك هو الدين المستقيم ﴾ ثم قال تعالى ﴿ منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلوة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ لما قال حنيفا أي مائلا عن غيره قال منيبين اليه أي مقبلين عليه والخطاب في قوله فأقم وجهك مع النبي والمراد جميع المؤمنين وقوله واتقوه يعني إذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا فلا تأمنوا فتركوا عبادته بل خافوه وداوموا على العبادة وأقيموا الصلاة أي كونوا عابدين عند حصول القربة كما كنتم قبل ذلك ثم انه تعالى قال ولا تكونوا من المشركين قال المفسرون يعني ولا تشركوا بعد الايمان أي ولا تقصدوا بذلك غير الله وههنا وجه آخر وهو ان الله بقوله منيبين أثبت التوحيد الذي هو مخ العبادة وبقوله واتقوه نفى الاشراك الظاهر وبقوله ولا تكونوا من المشركين أراد اخراج العبد عن الشرك الخفي أي لا تقصدوا بعملكم الا وجه الله ولا تطلبوا به الا رضاء الله فان الدنيا والآخرة تحصل وان لم تطلبوها اذا حصل رضا الله وعلى ما ذكرنا قوله من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا يعني لم يجتمعوا على الاسلام وذهب كل أحد الى مذهب ويحتمل أن يقالوا وكانوا شيعا يعني بعضهم يعبد الله للدنيا وبعضهم للجنة وبعضهم للخلاص من النار وكل واحد مما في نظره فرح وأما المخلص فلا يفرح بما يكون لديه وانما يكون فرحه بأن يحصل عند الله ويتقرب بين يديه وذلك لان كل ما لدينا فاذا قد لقوله تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق فلا مطلوب لكم فيما لديكم حتى تفرحوا به وانما المطلوب ما لدى الله وبه الفرح كما قال تعالى بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله جعلهم فرحين بكونهم عند ربهم وبكون ما أوتوا من فضله الذي لا نفاد له ولذلك قال تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا لا بما عندهم فان كل ما عند العبد فهو نافد أما في الدنيا فظاهر وأما في الآخرة فلان ما وصل الى العبد من الالتذاذ بالمأكول والمشروب فهو زوال ولكن الله يجدد له مثله الى الابد من فضله الذي لا نفاد له فالذي لا نفاد له هو فضله ﴿ ثم قال تعالى ﴿ واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه ثم اذا أذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾ لما بين التوحيد بالدليل وبالمثل بين ان لهم حالة يعرفون بها وان كانوا يشركون وهي انهم في حالة الشدة فان عند انقطاع رجائه عن التكل يرجع الى الله ويجد نفسه محتاجة الى شئ ليس كهذه الاشياء طالبة به الصلاح ثم اذا أذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون يعني اذا خلصناه بشرك به ويقول تخلصت بسبب اتصال الكوكب الفلاني بفلان وبسبب السمن الفلاني لا بل ينبغي ان لا يعتقد انه تخلص بسبب فلان اذا كان ظاهرا فانه شرك خفي مثاله رجل في بحر أدركه الغرق فهيئ الله له لوحا يوقعه اليه ريح فيتعلق به ويخوف قوله تخلصت بلوح أو برجل أقبل عليه سبع فيرسل الله اليه رجلا فيعينه فيقول تخلصت بزيد فهذا اذا كان عن اعتقاد فهو شرك خفي وان كان يعني ان الله خلصني على يد زيد فهو أخفى وفيه مسائل ﴿ (الاولى) ﴾ قوله تعالى أذاقهم فيه لطيفة وذلك لان الذوق يقال في القليل فان في العرف من أكل ما كولا كثيرا لا يقول ذقت ويقال في النفي ما ذقت في بيته طعاما نفيا للقليل ليلزم نفي الكثير بالاولى ثم ان تلك الرحمة لما كانت حالة منقطعة ولم تكن مستمرة في الآخرة ذاقهم في الآخرة عذاب قال أذاقهم ولما قال في العذاب ذوقوا مفسا ذوقوا وأما كنتم تعملون ذوقوا انك أنت العزيز الكريم لان عذاب الله الواصل الى العبد بالنسبة الى الرحمة الواصلة الى عبيد آخرين في غاية القلة ﴿ (المسئلة الثانية) ﴾ قوله تعالى منه أي من الضر في هذا التخصيص ما ذكرنا من الفائدة وهي ان الرحمة غير مطلقة لم انها هي عن ذلك الضر وحده وأما الضر المؤخر فلا يذوقون منه رحمة ﴿ (المسئلة الثالثة) ﴾ قال ههنا اذا فريق منهم وقال في العنكبوت فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون ولم يقل فريق وذلك لان المذكور هناك ضمير معين وهو ما يكون من هول

استئنافا منه في اتباعه له على وجه التعلم (مما علمت رشدا) أي علما ذا رشد أرشد به في ديني والرشد اصابة الخير وقرئ بفتحتين وهو مفعول تعلمن ومفعول علمت محذوف وكلاهما منقول من علم المتعدي الى مفعول واحد ويجوز كونه علة لاتبعك أو مصدرا باضمار فعله ولا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة أن يتعلم من نبي آخر مما لا تعلق له بأحكام شريعته من أسرار العلوم اللدنية ولقد راعى في سوق الكلام غاية التواضع منه عليه السلام (قال) أي الخضر (انك لن تستطيع معي صبرا) نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد كأنه مما لا يصلح ولا يستقيم وعلله بقوله (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) أيذانا بأنه يتولى أمورا خفية المدارك منكرة الظواهر والرجل الصالح لاسيما صاحب الشريعة لا يتمالك أن يثور عند مشاهدتها وفي صحيح البخاري قال الخضر يا موسى اني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه وخبرا تميز أي لم يحط به خبرك (قال) موسى عليه الصلاة والسلام (ستجدني ان شاء الله صابرا) معلقا غير معترض عليك وتوسيط الاستثناء بين مفعولي الوجدان لكمال الاعتناء بالتيمن والتأدب وهو معطوف على صابرا أي ستجدني صابرا وغير عاص وفي وعد هذا الوجدان

من المبالغة مالبس فى الوعد بنفس أن يبر وترك العصيان أو على سنجدنى فلا محل له من الاعراب والاول هو الاولى لما عرفته ولظهور تعلقه بالاستثناء حينئذ وفيه دليل على أن أفعال العباد بمشيئة الله سبحانه وتعالى (قال فان اتبعتنى) أذن له فى الاتباع بعد التولى والقفا تفريع الشرطية على ما مر من التزام موسى عليه الصلاة والسلام للصبر ٥٦٣ والطاعة (فلا تسألنى عن شئ) تشاهد منى

أفعالى أى لا تفاتحنى بالسؤال عن حكمتها فضلا عن المناقشة والاعتراض (حتى أحدث لك منه ذكرا) أى حتى أبتدئ ببيانه وفيه ايذان بأن كل ما صدر عنه فله حكمة وغاية جميلة البتة وهذا من أدب المتعلم مع العالم والتابع مع المتبوع وقرئ فلا تسألنى بالنون المثقلة (فانطلقا) أى موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام على الساحل يطلبان السفينة وأما يوشع فقد صرفه موسى عليه الصلاة والسلام الى بنى اسرائيل قيل انهما مرا بسفينة فكلما أهلها فعرفوا الخضر حملوهما بغير نول (حتى اذا ركبا فى السفينة) استئناف كالكلام فى أمثال هذه المواقع بكلمة فى مع تحريره عنها فى مثل قوله عز وجل اتركبوها وزينة على ما يقتضيه تعديته بنفسه لما أشرنا اليه بقوله تعالى وقال اركبوا فيها الا ما قيل من أن فى ركوبها معنى الدخول

البحر والتخلص منه بالنسبة الى الخلق قليل والذى لا يشرك به بعد الخلاص فرقة منهم فى غاية القلة فلم يحمل المشركين فريقا قليلة من خرج من المشركين وأما المذكور ههنا الضر مطلقا فيتناول ضر البر والبحر والامراض والاهوال والمخاوف من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس يكونون قد وقعوا فى ضر ما وتخلصوا منه والذى لا يبقى بعد الخلاص مشركا من جميع الانواع اذا جمع فهو خلق عظيم وهو جميع المسلمين فانهم تخلصوا من ضر ولم يبق واحد منهم مشركين وأما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر بأجمعهم فلما كان الناجى من الضر من المؤمنين جمعا كثيرا جعل الباقى فريقا ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ قد تقدم تفسيره فى العنكبوت بقى بيان فائدة الخطاب ههنا فى قوله فتمتعوا وعدمه هناك فى قوله وليتمتعوا فسوف يعلمون فنقول لما كان الضر المذكور هناك ضرا واحدا جاز أن لا يكون فى ذلك الموضع من المخلصين من ذلك الضر أحد فلم يخاطب ولما كان المذكور ههنا مطلق الضر ولا يخلو موضع من المخلصين عن الضر فالحاضر يصح خطابه بأنه منهم فخاطب ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون﴾ لما سبق قوله تعالى بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم أى المشركون يقولون ما لا علم لهم به بل هم ما علموا من حلاله فلم سم وقت الضر يرجعون الى الله حقق ذلك بالاستفهام بمعنى الانكار أى ما أنزلنا عليهم سلطانا بما يقولون سلطانا وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ أم للاستفهام ولا يقع الا متوسطا كما قال قائلهم

أ ظبية الوعساء بين جلائل * وبين النقا آنت أم أم سالم

فما الاستفهام الذى قبله فنقول تقديره اذا ظهرت هذه الحجج على عنادهم فماذا نقول أهم يتبعون الاهواء من غير علم أم لهم دليل على ما يقولون وليس الثانى فيتعين الاول ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله فهو يتكلم مجاز كما يقال ان كتابه لينطق بكذا وفيه معنى لطيف وهو ان المتكلم من غير دليل كأنه لا كلام له لان الكلام هو المسموع والا يقبل فكأنه لم يسمع فكان المتكلم لم يتكلم به وما لا دليل عليه لا يقبل فاذا جاز سلب الكلام عن المتكلم عند عدم الدليل وحسن جاز اثبات المتكلم للدليل وحسن ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها﴾ لما بين حال المشرك الظاهر شركه بين حال المشرك الذى دونه وهو من تكون عبادته الله لدنيا فاذا آتاه رضى واذا منعه سخط وقنط ولا ينبغى أن يكون العبد كذلك بل ينبغى أن يعبد الله فى الشدة والرخاء فمن الناس من يعبد الله فى الشدة كما قال تعالى واذا مس الناس ضر دعوا ربهم ومن الناس من يعبده اذا آتاه نعمة كما قال تعالى واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها والاول كالذى يخدم مكرما مخافة العذاب والثانى كالذى يخدم أجيرا ليوقع الاجر وكلاهما لا يكون من المتقين فى ديوان المرتبين فى الجرائد الذين يأخذون رزقهم سواء كان هناك شغل أو لم يكن فكذلك القسمان لا يكونان من المؤمنين الذين لهم رزق عند ربهم ﴿وفيه مسئلة﴾ وهى أن قوله تعالى فرحوا بها اشارة الى دنو همتهم وقصور نظرهم فان فرحهم يكون بما وصل اليهم لا بمن وصل منه اليهم ﴿فان قال قائل الفتح بالرحمة مأمور به فى قوله تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا وههنا ذمهم على الفرح بالرحمة فكيف ذلك ﴿فنقول هناك قال فرحوا برحمة الله من حيث أنها هى فقال الله تعالى وههنا فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم بما اذا كان من الله وهو كما ان الملك لو سخط عند أمير غيما على السماط أو أمر الغلمان بان يحطوا عنده مائدة طعام يفرح ذلك الامير به ولو أعطى الملك فقيرا غير ملتفت اليه رغيفا أو زبدية طعام أيضا يفرح لكن فرح الامير يكون ذلك من الملك وفرح الفقير يكون ذلك رغيفا وزبدية ﴿ثم

(خرقها) قيل خرقها بعد ما لجوا حيث أخذ فأس فقلع من ألواحها لوحين مما يلى الماء فعند ذلك (قال) موسى عليه السلام (أخرقتها لتغرق أهلها) من الاغراق وقرئ بالتشديد من التغريق وليغرق أهلها من الثلاثى (لقد جئت) أتيت وفعلت (شيئا امرا) أى عظيما هائلا من أمر الامر اذا عظم قيل الاصل امر الخفف (قال) أى الخضر عليه السلام (ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا) تذكيرا لما

قال تعالى ﴿وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم﴾ لم يذكر عند النعيم أو أخرج الكلام فى معرض النهى عن

سببا لان الاول يزيد فى الاحسان والثانى يحقق العدل ﴿قوله تعالى سيئتهم التفضل بها وذكر عند العذاب لا يصبرون على ذلك قليلا لعل الله يفرج عنهم وانه يذكرهم به﴾ ثم قال تعالى ﴿اذا هم يقنطون﴾ اذا للفاجأة أى لمن يشاء ويقدر ان فى ذلك لآيات تقوم يؤمنون﴾ أى ألم يعلموا أن الكل من ﴿أولم يروا أن الله يبسط الرزق نظره على ما يوجد بل الى من يوجد وهو الله فلا يكون له تبدل حال وانما يكون عنده فالمحقق ينبغى أن لا يكون ذلك مرتبة أو من الموجد المحقق ولذلك قال ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴿ثم هذه الفرح الدائم ولكن ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم نزل تعالى ﴿فآت تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين أن العبادة لا ينبغى أن تكون مقصورة على حظ النفس ﴿وجه واذا مس الناس ضر دعوا ربهم ولا أن تكون مقصورة على حالة أخذ شئ من الدنيا كما هو ينبغى الشدة بقوله المتسلس بعد الله اذا كان فى الطوائف والرياضات للرغيف والزبدية واذا خلا نفسه لا يذكر الا التى عادة المذكر أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وبين أنه ينبغى أن يكون فى حالة بسط الرزق وقدره عليه نظره نيابة بقوله واذا الخالق الرازق ليحصل الارشاد الى تعظم الله والايمان قسمان تعظم لامر الله وشفقة على خلق الله ذلك بعد ذلك فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل وفيه وجه آخر هو أن الله تعالى لما بين أن الله يبسط الرزق ويقدر فلا ينبغى أن يتوقف الانسان فى الاحسان فان الله اذا بسط الرزق لا ينقص بالمال فعان الله واذا قدر لا يزداد بالامساك وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ فى تخصيص الاقسام الثلاثة بالذكر دون هم مع أن الله ذكر الاصناف الثمانية فى الصدقات ﴿فنقول أراد ههنا بيان من يجب الاحسان اليه على عمدهم من غيرهم له مال سواء كان زكويا أو لم يكن وسواء كان بعد الحول أو قبله لان المقصود ههنا الشفقة العامة وأما الثلاثة تجب الاحسان اليهم وان لم يكن للمحسن مال زائد أما القريب فتجب نفقته وان كان لم تجب عليه ﴿هؤلاء زكاة كمقدار مال لم يحل عليه الحول والمسكين كذلك فان من لا شئ له اذا بقى فى ورطة الحاجة حتى يلزمهم الشفقة عليه من له مقدرة دفع حاجته وان لم يكن عليه زكاة وكذلك من انقطع فى مفازة وسع آخر ثم وهى يمكنه بها ايصاله الى مأمن يلزمه ذلك وان لم تكن عليه زكاة والفقير داخل فى المسكين لان من أوصى بشئ لمسكين كان شاملا يصرف الى الفقراء أيضا واذا نظرت الى الباقين من الاصناف رأيتهم لا تجب صرف المال اليهم الاعلى الذين وجبت الزكاة عليهم واعتبر ذلك فى العامل والمكاتب والمؤلفة والمديون ثم اعلم أن على مذهب أبى حنيفة رحمه الله حيث قال المسكين من لا شئ له فانه يقول وان كان الامر كذلك لكن لا نزاع فى أن اطلاق المسكين على من لا شئ له جائز فيكون الاطلاق ههنا بذلك الوجه والتغيير يدخل فى ذلك بالطريق الاولى ﴿المسئلة الثانية﴾ فى تقدم البعض على البعض فنقول لما كان دفع حاجة القريب واجبا سواء كان فى شدة وخصومة أو لم يكن كان مقدما على من لا يجب دفع حاجته من غير مال الزكاة الا اذا كان فى شدة ولما كان المسكين حاجته ليست مختصة بموضع كان مقدما على من حاجته مختصة بموضع دون موضع ﴿المسئلة الثالثة﴾ ذكر الاقارب فى جميع المواضع كذا اللفظ وهو ذو القربى ولم يذكر المسكين بلفظ ذى المسكنة وذلك لان القرابة لا تتعدد فهى شئ ثابت وذو كذا لا يقال الا فى الثابت فان من صدر منه رأى صائب مرة أو حصل له جاه يوما واحدا أو وجد منه فضل فى وقت لا يقال ذو رأى وذو جاه وذو فضل واذا دام ذلك له أو وجد منه ذلك كثيرا يقال له ذو الرأى وذو الفضل فقال ذا القربى اشارة الى أن هذا حق ثابت وأما المسكنة فتغار وتزول ولهذا المعنى قال مسكينا ما مترب فان المسكين يدوم له كونه ذا مترب

ما

المضمر عليه الصلاة والسلام ههنا من جملة الشرط وابراز ما مضمرا عن موسى عليه الصلاة والسلام فى معرض الجزاء المقصود افادته مع أن ذلك مما يعلم

المؤاخذة بالنسيان يوهمه انه قد نسى ليبسط عذره فى الانكار وهو من معارض الكلام التى يتوقى بها الكذب مع التوصل الى الغرض أو أراد بالنسيان الترك أى لا تؤاخذنى بما تركت من وصيتك أول مرة (ولا ترهقنى) أى لا تغشنى ولا تحملنى (من أمرى) وهو اتباعه اياه (عسرا) أى لا تعسر على متابعتك ويسرها على بالاغضاء وترك المناقشة وقرئ عسرا بضمتين (فانطلقا) الفاء فصيحة أى فقبل عذره فخرجا من السفينة فانطلقا (حتى اذا لقيا غلاما فقتله) قيل كان الغلام يلعب مع الغلمان فقتل عنقه وقيل ضرب برأسه الحائط وقيل أضجعه فذبحه بالسكين (قال) أى موسى عليه الصلاة والسلام (أقتلت نفسا زكية) طاهرة من الذنوب وقرئ زاكية (بغير نفس) أى بغير قتل نفس محرمة وتخصيص نفى هذا المبيح بالذكر من بين سائر المبيحات من الكفر بعد الايمان والزنا بعد الاحصان لان الاقرب الى الوقوع نظرا الى حال الغلام ولعل تغيير النظم الكريم بجعل ما صدر عن

نفس الامر وندرة وصول خبرها الى الاذهان ولذلك روعيت تلك النكتة فى الشرطية الاولى لما أن صدور الحوارق منه عليه الصلاة والسلام خرج بروقوعه مخرج العادة فانصرفت النفس عن ترقبه الى ترقب أحوال موسى عليه الصلاة والسلام بل يحافظ على مراعاة شرطه بتوجيه وعده الاكيد عند مشاهدة خارق آخر أو يسارع الى المناقشة كما مر ٥٦٥ فى المرة الاولى فكان المقصود افادة ما صدر

ما داهت مسكينه أو يكون كذلك فى أكثر الامر (المسئلة الرابعة) قال فاتت ذا القربى حقهم عطف المسكين وابن السبيل ولم يقل فاتت ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم لان العبارة الثانية أيكون صدورا للكلام أولا للتشريك • والاولى لكون التشريك واردا على الكلام كانه يقول أعط ذا القربى حقهم بذكر المسكين وابن السبيل بالتبعية ولهذا المعنى اذا قال الملك خسل فلانا يدخل وفلانا أيضا يكون فى التعظيم فوق ما اذا قال خسل فلانا وفلانا يدخلان والى هذا أشار النبى عليه الصلاة والسلام بقوله بئس خطيب القوم أنت حيث قال الرجل من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى ومن عصاهما فقد غوى ولم يقل ومن عصى الله ورسوله (المسئلة الخامسة) قوله ذلك خير يمكن أن يكون معناه ذلك خير من غيره ويمكن أن يقال ذلك خير فى نفسه وان لم يقس الى غيره لقوله تعالى واقصدوا للخير فانه ثمة والخيرات والثانى أولى لعدم احتياجه الى اضمار ولكونه أكثر فائدة لان الخلق من العفريت يكون نازل الدرجة عند نزول درجة ما يقاس اليه كما يقال السكوت خير من الكذب وما هو خير فى نفسه فهو حسن ينفع وفعل صالح يرفع (المسئلة السادسة) قوله تعالى للذين يريدون وجه الله اشارة الى أن الاعتبار بالقصد لا بنفس الفعل فان من أنفق جميع أمواله رياء الناس لا ينال درجة من يتصدق بزغيف لله وقوله وجه الله أى يكون عطاؤه لله لا غيره فان أعطى للجنة أو ليحمده وجه الله وانما أراد مخلوق الله (المسئلة السابعة) كيف قال وأولئك هم المفلحون مع أن للافلاح شرائط أخر وهى المذكورة فى قوله قد أفلح المؤمنون فنقول كل وصف مذكور هناك يفيد الافلاح فقوله والذين هم للزكاة فاعلون وقوله والذين هم لامانا تهم وعهدهم راعون الى غير ذلك عطف على المقام أى هذا مقام وذاك الآخر مقام لا يقال لا يصح الافلاح لمن يتصدق ولا يصلى فنقول هذا كقول القائل العالم حكيم أى نظرا الى علمه ثم اذا حسد فى الزنا على سبيل النكال قطعت يده فى السرقة لا يبطل ذلك القول حتى يقول القائل انما كان ذلك لانه أتى بالفسق فكذلك انساء المال لو جد الله يفيد الافلاح اللهم الا اذا وجد مانع من ارتكاب محظور أو ترك واجب (المسئلة الثامنة) لم لم يذكر غيره من الافعال كالصلاة وغيرها فنقول الصلاة مذكورة من قبل لان الخطاب ههنا مع قوله فآت مع النبى صلى الله عليه وسلم وغيره تبع وقد قال له من قبل أقم الصلاة لدلوك الشمس وجهك للذين حنيفا وقال منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة (المسئلة التاسعة) قوله تعالى وأولئك هم المفلحون يفهم منه الحصر وقد قال فى أول سورة البقرة وأولئك هم المفلحون اشارة الى من [illegible] فكيف يكون مفلحا فنقول أقام الصلاة وآتى الزكاة وآمن بما أنزل على رسوله وبما أنزل من قبله وبالآخرة فلو كان المقام مقام حصر فى أولئك المذكورين فى سورة البقرة فهذا خارج عنهم [illegible] أن الله عند ما استدرك هذا هو ذاك لانا بينا أن قوله فأقم وجهك للدين متصل بهذا الكلام فاذا أتى بالصلاة وآتى المال وأراد وجه الله فقد ثبت أنه مؤمن يقيم الصلاة مثبت للزكاة معترف بالآخرة فصار مثل المذكور فى البقرة ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله﴾ ذكر هذا تحضيضا لنبى أنكم اذا طلبتم منكم واحدا باثنين ترغبون فيه وتؤثرونه وذلك لا يربو عند الله والزكاة تنمو عند الله كما أخبر النبى عليه الصلاة والسلام ان الصدقة تقع فى يد الرحمن فيربيها حتى تصير مثل الجبل فينبغى أن يكون اقدامكم على الزكاة أكثر ﴿وقوله تعالى﴾ ﴿وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾ أى أولئك ذوو الاضعاف كما ومر لذى اليسار وأقل ذلك عشرة أضعاف كل مثل لما آتى فى كرمه حسنة لا فى المقدار فلا يفهم أن من أعطى رغيفا يعطيه الله عشرة أرغفة بل معناه أن ما يقتضيه فضله من الثواب على وجه الرحمة يضاعفه الله عشر مرات على وجه التفضل فما الرغيف الواحد يكون له

والاستكثار ولم يرو بالذكير حتى زاد فى التكبير فى المرة الثانى (قال) أى موسى عليه الصلاة والسلام (ان سألتك عن شئ بعدها) أى بعد هذه المرة (فلا تصاحبنى) وقرئ من الافعال أى لا تصاحبنى صاحبك (قد بلغت من لدنى عذرا) أى قد أعذرت ووجدت من قبلى عذرا بمصاحبتك اياى فى الثالثة مرات * عن النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله أخى موسى لو صبر لرأى من صاحبه العجب

الاعاجيب وقرئ لدنى بتخفيف النون وقرئ بسكون الدال كعضد فى عضد (فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية) هى انطاكية وقيل أبلة وهى أبعد أرض الله من السماء وقيل هى برقة وقيل هى بلدة أندلس * عن النبى صلى الله عليه وسلم كانوا أهل قرية لئاما وقيل شر القرى التى لا يضاف فيها الضيف ولا يعرف ٥٦٦ لابن السبيل حقه وقوله تعالى (استطعما أهلها) فى محل الجر على انه صفة لقرية

قصر فى الجنة فيه من كل شئ ثوابا نظرا الى الرحمة وعشر قصور مثله نظرا الى الفضل مثاله فى الشاهد ملك عظيم قبل من عبده هدية قيمتها درهم لو عرضه بعشرة دراهم لا يكون كرما بل اذا جرت عادته بانه يعطى على مثل ذلك ألفا فاذا أعطى له عشرة آلاف فقد ضاعف له الثواب ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿الله الذى خلقكم﴾ أى أوجدكم ﴿ثم رزقكم﴾ أى أبقاكم فان العرض محسوق وابس يبقى ﴿ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ﴾ جمع فى هذه الآية بين اثبات الاصلين الحشر والتوحيد أما الحشر فبقوله ثم يحييكم والدليل قدرته على الخلق ابتداء وأما التوحيد فبقوله هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ فقوله سبحانه أى سبحوه تسبيحا أى نزهوه ولا تصفوه بالاشراك وقوله وتعالى أى لا يجوز عليه ذلك وهذا الان من لا يتصف بشئ قد يجوز عليه فاذا قال سبحوه أى لا تصفوه بالاشراك واذا قال وتعالى فكأنه قال ولا يجوز عليه ذلك ﴿ثم انه تعالى قال﴾ ﴿ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون﴾ وجه تعلق هذه الآية بما قبلها هو أن الشرك سبب الفساد كما قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا واذا كان الشرك سببه جعل الله اظهارهم الشرك مجوزا لظهور الفساد ولو فعل بهم ما يقتضيه قولهم لفسدت السموات والارض كما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا والى هذا أشار بقوله تعالى ليذيقهم بعض الذى عملوا واختلفت الاقوال فى قوله فى البر والبحر فقال بعض المفسرين المراد خوف الطوفان فى البر والبحر وقال بعضهم عدم انبات بعض الاراضى وملوحة مياه البحار وقال آخرون المراد من البحر المدن فان العرب تسمى المدائن بحورا لكون مبنى عمارتها على الماء ويمكن أن يقال ان ظهور الفساد فى البحر قلة مياهه المعون فانها من البحار واعلم أن كل فساد يكون فهو بسبب الشرك لكن الشرك قد يكون فى العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقا وعصيانا وذلك لان المعصية فعل لا يكون لله بل يكون للنفس فالفاسق مشرك بالله بفعله غاية ما فى الباب ان الشرك بالفعل لا يوجب الخلود لان أصل المرء قلبه ولسانه فاذا لم يوجد منهما الا الاثر وجد يزول الشرك البدنى بسببهما وقوله تعالى ليذيقهم بعض الذى عملوا قد ذكرنا ان ذلك ليس تمام جزائهم وعلى هذا موجب افترائهم وقوله لعلهم يرجعون يعنى كى يفعله المتوقع رجوعهم مع أن الله يعلم أن من أصله لا يرجع لكن الناس يظنون أنه لو فعل بهم شئ من ذلك لكان يوجد منهم الرجوع كما أن السيد اذا علم من عبده أنه لا يرتدع بكلامه اللين ويظهر له صدق كلام السيد ويطمئن قال لا ينفع رعايتى فى وجهه أنه لا يسعد عن نفع فاذا زجره ولم يرتدع علم تحلف من قبل ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين﴾ يحتمل وجوها ثلاثة (أحدها) أن الهلاك فى الاكثر كان بسبب الشرك الظاهر وان

واهل العدول عن استطعماهم على أن يكون صفة للاهل لزيادة تقبيحهم على سوء صنيعهم فان الاباء عن الضيافة وهم أهلها قاطنون بها أقبح وأشنع روى أنهما طافا فى القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم (فأبوا أن يضيفوهما) بالتشديد وقرئ بالتخفيف من الاضافة يقال ضافه اذا كان له ضيفا وأضافه وضيفه أنزله وجعله ضيفا له وحقيقة ضاف مال اليه ومن ضاف السهم عن الغرض وتظيره زاره من الازوار (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض) أى يدانى أن يسقط فاستعيرت الارادة لشارفة الدلالة على المقاربة فى ذلك والانقضاض الاسراع فى السقوط وهو انفعال من القض يقال قضضته فانقض ومنه انقضاض الطير والكوكب لسقوطه بسرعة وقيل هو افعلال من النقض كاحمر من الحمرة وقرئ أن ينقض من النقض وأن ينقاض من انقاضت السن اذا انشقت طولا (فأقامه) قيل مسحه بيده فقام وقيل

نقضه وبناه وقيل أقامه بعمود عمده به قيل كان سمكه مائة ذراع (قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا) تحريضا له على أخذ الجعل ليتعشا به أو تعريضا بأنه فضول لما فى لو من النفى كأنه لما رأى الحرمان ومماس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك الصبر واتخذ

كان

افتعل من تخذ بمعنى اخذ كاتبع من تبع وليس من الاخذ عند البصريين وقرئ اتخذت اى لا خذت وقرئ بادغام الذال فى التاء (قال) أى الخضر عليه الصلاة والسلام (هذا فراق بينى وبينك) على اضافة المصدر الى الظرف اتساعا وقد قرئ على الاصل والمشار اليه اما نفس الفراق كما فى هذا أخوك أو الوقت الحاضر أى هذا الوقت ٥٦٧ وقت فراق بينى وبينك أو السؤال الثالث أى هذا سبب ذلك الفراق حسبما هو الموعود (سأنبئك) السين للتأكيد لعدم تراخى التنبئة (بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) التأويل رجوع الشئ الى ما أوّله والمراد به ههنا المآل والعاقبة اذ هو المنبأ به دون التأويل وهو خلاص السفينة من السد العادية وخلاص أبوى الغلام من شره مع الفوز بالبدل الاحسن واستخراج اليتيمين للكنز وفى جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر دون أن يقال بتأويل مافعلت أو بتأويل مارأيت وخوهما نوع تعريض به عليه الصلاة والسلام وعتاب (أما السفينة) التى خرقتها (فكانت لمساكين) لضعفاء لايقدرون على مدافعة الظلمة وقيل كانت لعشرة اخوة خمسة منهم زمنى وخمسة (يعملون فى البحر) واسناد العمل الى الكل حيث كان لبعضهم اما هو بطريق التغليب أولان عمل الوكلاء بمنزلة عمل الموكلين (فاردت أن أعيبها) أى

كان بغيره أيضا كالاهلاك بالفسق والمخالفة كما كان على أصحاب السبت (الثانى) أن كل كافر أهلك لم يكن مشركا بل منهم من كان معطلا نافيا للكنهم قليلون وأكثر الكفار مشركون (الثالث) ان العذاب العاجل لم يختص بالمشركين لحين أتى كما قال تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة بل كان على الصغار والجبانين ولكن أكثرهم كانوا مشركين ﴿ ثم قال تعالى ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ لما نهى الكافر عما هو عليه أمر المؤمن بما هو عليه وخاطب النبى عليه السلام ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلف به فانه أمر به أشرف الانبياء وللمؤمنين فى التكليف مقام الانبياء كما قال عليه السلام والسلام ان الله أمر عباده المؤمنين بما أمر به عباده المرسلين وقد ذكرنا معناه. ﴿ وقوله تعالى ﴿من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله﴾ يحتمل وجهين (الاول) أن يكون قوله من الله متعلقا بقوله يأتى (والثانى) أن يكون المراد لامرد له من الله أى الله لا يرده غيره عاجز عن رده فلابد من وقوعه ﴿يومئذ يصدعون﴾ أى يتفرقون ﴿ثم أشار الى التفرق بقوله ﴿من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون﴾ وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا ولم يقل ومن آمن وذلك لان العمل الصالح به يكمل الايمان فذكره تحريضا للمكلف عليه وأما الكفر اذا جاء لا فلازمة للعمل معه ووجه آخر وهو ان الكفر قسمان (أحدهما) فعل وهو الاشراك والقول به (والثانى) ترك وهو عدم النظر والايمان فالعاقل البالغ اذا كان فى مدينة الرسول ولم يأت بالايمان فهو كافر سواء قال بالشرك أو لم يقل لكن الايمان لابد له من العمل الصالح فان الاعتقاد الحق عمل القلب وقول لا اله الا الله عمل اللسان وشئ منه لابد منه ﴿المسئلة الثانية﴾ قال فعليه فوحد الكناية وقال فلانفسهم جمعها اشارة الى أن الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته اما الغضب فسيوق بالرحمة لازم لمن أساء ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال فعليه كفره ولم يبين وقال فى المؤمن فلانفسهم يمهدون تحقيقا لكمال الرحمة فانه عند الخيرين وفصل يشارو عند غيره أشار اليه اشارة ﴿ ثم قال تعالى ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله﴾ ذكر زيادة تفضل لما يمهدونه المؤمن لفعله الخير وعمله الصالح وهو الجزاء الذى يجازيه به الله والملك اذا كان كبيرا كريما ووعد عبدا من عباده بأنى أجازيك بأصل اليه صنعه أكثر مما يتوقعه ثم أكده بقوله من فضله يعنى أنا المجازى فكيف يكون الجزاء منى لا أجازيك من العدل وانما أجازيك من الفضل فيزداد الرجاء ﴿ ثم قال تعالى ﴿انه لايحب الكافرين﴾ أوعدهم بوعيد ولم يفصله لما بينا ان كان عند المحقق هذا الاجمال فيه كالتفصيل فان عدم المحبة من الله غاية العذاب وافهمهم ذلك من يكون له معشوق فانه اذا أخبر العاشق بانه وعدك بالدراهم والدنانير كيف تكون مسرته واذا قيل له انه قال انى أحب فلانا كيف يكون سروره وفيه لطيفة وهى أن الله عند ما أسند الكفر والايمان الى العبد قدم الكافر فقال من كفر فعليه كفره وعند ما أسند الجزاء الى نفسه قدم المؤمن فقال ليجزى الذين آمنوا ثم قال تعالى انه لايحب الكافرين لان قوله من كفر فى الحقيقة لمنع الكافرين الكفر بالوعيد ونهيهم عن فعله بالتهديد وقوله من عمل صالحا لتحريض المؤمن فالنهى كالابعاد والتحريض كالتقريب والابعاد مقدم عند الحكيم الرحيم. وأما عند ما ذكر الجزاء بدأ بالاحسان اظهارا للكرم والرحمة فان قال قائل هذا انما يصح أن لو كان الذكر فى كل موضع كذلك وليس كذلك فان الله فى كثير من المواضع قدم ايمان المؤمن على كفر الكافر وقدم التعذيب على الاثابة فنقول ان كان الله يوفقنا لبيان ذلك نبين ما اقتضى تقديمه ونحن نقول بأن كل كلمة وردت فى القرآن فهى لمعنى وكل ترتيب وجدفهو لحكمة وقد ذكر على خلافه لايكون فى درجة ما ورد به القرآن فلنبين من جملته مثالا

أجعلها ذات عيب (وكان وراءهم ملك) أى امامهم وقد قرئ به أو خلفهم وكان رجوعهم عليه لا محالة واسمه جلندى بن كركر وقيل منولة ابن جلندى الازدى (يأخذ كل سفينة) أى صالحة وقد قرئ كذلك (غصبا) من أصحابها وانتصابه على أنه مصدر مبين لنوع الاخذ ولعل تقريب ارادة تعييب السفينة على مسكنة أصحابها قبيل بيان خوف الغصب مع أن مدارها كلا الامرين للاعتناء بشأنها فهى المحتاجة

الى التأويل وللايذان بان الاقوى فى المدار بقه هو الامر الاول ولذلك لا يعالى بخلد من سفن سائر الناس مع تحقق خوف الغضب فى حقهم أيضا ولان فى التأخير فصلا بين السفينة وضميرها مع توهم رجوعه الى الاقرب (وأما الغلام) الذى قتله (فكان أبواه مؤمنين) لم يصرح بكفرانه أو بكفره اشعارا ٥٦٨ بعدم الحاجة الى الذكر لظهوره (فخشينا أن يرهقهما) فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين (طغيانا) عليهما (وكفرا) لنعمتهما بما يقوقه وسوء صنيعه ويلحق بهما شرا وبلاء أو يقرن بايمانهما طغيانه وكفره فيجتمع فى بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر أو يعديهما بدائه ويضلهما استدلاله فيرتدا بسببه وانما خشى الخضر عليه الصلاة والسلام منه ذلك لان الله سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره وقرئ فخاف ربك أى كره سبحانه كراهة من خاف سوء عاقبة الامر فغيره ويجوز أن تكون القراءة المشهورة على الحكاية بمعنى فكرهنا كقوله تعالى لا أعبد الذى (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا) منه بان يرزقهما بدله ولدا خيرا (منه) وفى التعرض لعنوان الربوبية والاضافة اليهما ما لا يخفى من الدلالة على ارادة وصول الخير اليهما (زكاة) طهارة من الذنوب والاخلاق الرديئة (وأقرب رحما) أمس رحمة وعطفا قيل ولدت لهما جارية تزوجها نبى فولدت نبيا هدى الله تعالى على يديه أمة من الامم وقيل ولدت سبعين نبيا وقيل أبدلهما بابنة ولدت لهما سبعين نبيا وانتصابه على التمييز مثل زكوة (وأما الجدار) المعهود (فكان لغلامين يتيمين فى المدينة) هى القرية المذكورة فيما سبق ولعل التعبير بها بالمدينة لاظهارتوجه اجتيادهما فيها من اليتيمين وابهم ما الصالح قيل اسمهما أصرم وصريم واسم القرية جيسور (وكان

وهو قوله تعالى يومئذ يتفرقون فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة فقدم المؤمن على الكافر وههنا ذكر مثل ذلك المعنى فى قوله يومئذ يصدعون أى يتفرقون فقدم الكافر على المؤمن فنقول هناك أيضا قدم الكافر فى الذكر لانه قال من قبل ويوم تقوم الساعة يبأس المجرمون فذكر الكافر وابلاسه ثم قال تعالى ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فكان ذكر المؤمن وحده لا يدعنه لبيان كيفية التفرق بجميع قوله يبلس المجرمون وقوله فى حق المؤمن فى روضة يحبرون لكن الله تعالى أعاد ذكر المجرمين مرة أخرى للتفصيل فقال وأما الذين كفروا ثم قال تعالى ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾ لما ذكر أن ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر انه بسبب الفعل الصالح لما ذكرنا غير مرة ان الكريم لا يذكر لاحسانه عوضا ولم يذكر لاخراره سببا لئلا يتوهم به الظلم فقال يرسل الرياح مبشرات قبل بالمطر كما قال تعالى نشرا بين يدى رحمته أى قبل المطر ويمكن أن يقال مبشرات بصلاح الاهوية والاحوال فان الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد ﴿ثم قال تعالى ﴿وليذيقكم من رحمته﴾ عطف على ما ذكرنا أى ليبشركم بصلاح الهواء وصحة الابدان وليذيقكم من رحمته بالمطر وقد ذكرنا أن الاذاقة تقال فى القليل ولما كان أمر الدنيا قليلا وراحتها نزرا قال وليذيقكم وأما فى الآخرة فيرزقهم ويوسع عليهم ويديم لهم ﴿ولتجرى الفلك بأمره وليبتغوا من فضله﴾ بالتجارة ﴿لعلكم تشكرون﴾ لما أسند الفعل الى الفلك عقبه بقوله بأمره أى الفعل ظاهر عليه ولكنه بامر الله ولذلك لما قال ولتجرى مسندا الى العامل ذكر بعده من فضله أى لا استقلال لشئ بشئ وفى الآية مسائل ﴿الاولى﴾ فى الترتيب فنقول فى الرياح فوائد منها اصلاح الهواء ومنها اثارة السحاب ومنها جريان الفلك بها فقال مبشرات باصلاح الهواء فان اصلاح الهواء يوجد من نفس الهبوب ثم الامطار بعده ثم جريان الفلك فانه موقوف على اختيار من الآدمى باصلاح السفن والقائم على الصريح استغناء الفضل بركوبها ﴿المسئلة الثانية﴾ قال فى قوله تعالى ظهر الفساد ليذيقهم بعض الذى عملوا وقال ههنا وليذيقكم من رحمته خاطب ههنا تشريفا ولان رحمته قريب من المحسنين فالمحسن قريب فيخاطب والمسىء بعيد فلم يخاطبهم وأيضا قال هناك بعض الذى عملوا وقال ههنا من رحمته فاضاف ما أصابهم الى أنفسهم وأضاف ما أصاب المؤمن الى رحمته وفيه معنيان (أحدهما) ما ذكرنا أن الكريم لا يذكر لاحسانه ورحمته عوضا وان وجد فلا يقول أعطيتك لانك فعلت كذا بل يقول هذا لك هنى وأما ما فعلت من المسكنة خزاؤه بعندى (وثانيهما) ان ما يكون بسبب فعل العبد قليل فلو قال أرسلت الرياح بسبب فعلكم لا يكون بشارة عظيمة وأما اذا قال من رحمته كان غاية البشارة ومعنى ثالث وهو أنه لو قال بما فعلتم لكان ذلك موهما النقصان فى ثوابهم فى الآخرة وأما فى حق الكفار فاذا قال بما فعلتم ينبئ عن نقصان عقابهم وهو كذلك ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال هناك لعلهم يرجعون وقال ههنا ولعلكم تشكرون فالواو اشارة الى أن توفيقهم للشكر من النعم فعطف على النعم ﴿المسئلة الرابعة﴾ انما أخر هذه الآية لان فى الآيات التى قد سبق ذكرها قلنا انه ذكر من كل باب آيتين فذكر من المفردات بريكم البرق والحادث فى الجو فى أكثر الامر تارة مع خذ كر الرياح ههنا ذكر تارة للدلائل ولما كانت الريح فيها فائدة غير المطر وليس فى البرق فائدة ان لم يكن مطر ذكر هناك خوفا وطمعا أى قد يكون وقد لا يكون وذكره ههنا مبشرات لان تعديل الهواء أو تصفيته بالريح أمر لازم وحكمه به حكم جازم ﴿ثم قال تعالى ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ لما بين الاصلين براهين ذكر الاصل الثالث وهو النبوة فقال ولقد أرسلنا من

قبلك

ضمته كنزهما) من فضة وذهب كما روى مرفوعا والدم على كنزهما في قوله عز وجل والذين يكنزون الذهب والفضة لان لا يؤدى زكاتهما وسائر حقوقهما وقيل كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يعمل ٥٦٩ وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله وقيل صحف فيها علم (وكان أبوهما صالحا) تنبيه على أن سعيه في ذلك كان لصلاحه قيل كان بينهما وبين الاب الذي حفظا فيه سبعة آباء (فأراد ربك) أي مالك ومدبر أمورك ففي اضافة الرب الى ضمير موسى عليه السلام والسلام دون ضميرهما تنبيه له عليه الصلاة والسلام على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لارادته سبحانه ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبهما من الامور المذكورة (أن يبلغا أشدهما) أي حلمهما وكمال رأيهما (ويستخرجا كنزهما) من تحت الجدار ولولا أني أقتله لانقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع بالكلية (رحمة من ربك) مصدر لفعل محذوف أي رحمهما ربك رحمة عظيمة (وما فعلته عن أمري) أي عن رأيي واجتهادي تأكيدا لذلك (ذلك) اشارة الى العواقب المنظومة في سلك البيان وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتها في الفخامة (تأويل ما لم تسطع

قبلك رسلا أي ارسالهم دليل رسالتك فانهم لم يكن لهم شمل غير شملك ولم يظاهر عليهم غير ما ظهر عليك ومن كذبهم أصابهم البوار ومن آمن بهم كان لهم الانتصار وله وجه آخر بين تعلق الآية بما قبلها وهو ان الله لما بين ابراهين ولم ينتفع بها الكفار سلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم وقال حال من تقدمك كان كذلك وجاؤا أيضا بالبينات وكان في قومهم كافر ومؤمن كما في قومك فانتقمنا من الكافرين ونصرنا المؤمنين وفي قوله تعالى وكان حقا وجهان (أحدهما) فانتقمنا وكان الانتقام حقا واستأنف وقال علينا نصر المؤمنين وعلى هذا يكون هذا اشارة للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم أي علينا نصركم أيها المؤمنون (والوجه الثاني) وكان حقا علينا أي نصر المؤمنين كان حقا علينا وعلى الاول لطيفة وعلى الآخر أخرى * أما على الاول فهو أنه لما قال فانتقمنا بين انه لم يكن ظلما وانما كان عدلا حقا وذلك لان الانتقام لم يكن الا بعد كون بقائهم غير مفيد الا بزيادة الاثم وولادة الكافر الفاجر وكان عدمهم خيرا من وجودهم الخبيث * وعلى الثاني تأكيد البشارة لان كلمة على تفيد معنى اللزوم يقال علي فلان كذا أبتغي عن اللزوم فاذا قال حقا أكد ذلك المعنى وقد ذكرنا أن النصر هو الغلبة التي لا تكون عاقبتها وخيمة فان احدى الطائفتين اذا انهزمت أولا ثم عادت آخرا لا يكون النصر الا لانهزم وكذلك موسى وقومه لما انهزموا من فرعون ثم أدركه الغرق لم يكن انهزامهم الا نصرة فالكافر ان هزم المسلم في بعض الاوقات لا يكون ذلك نصرة اذ لا عاقبة له * ثم قال تعالى * (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى آثار رحمت الله كيف يحيي الارض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شئ قدير) * بين دلائل الرياح على التفصيل الاول في ارسالها قدرة وحكمة أما القدرة فظاهرة فان الهواء اللطيف الذي يشقه البق يصير بحيث يقلع الشجر وهو ليس بذاته كذلك فهو بفعل فاعل مختار وأما الحكمة ففي نفس الهبوب فيما يقضي اليه من اثارة السحب ثم ذكر أنواع السحب فقد ما يكون متصلا ومنه ما يكون منقطعا ثم المطر يخرج منه والماء في الهواء أعجب علامة للقدرة وما يقضي اليه من انبات الزرع وادرار الضرع حكمة بالغة ثم الله لا يرسل ليخلص به قوما دون قوم وهو علامة المشيئة وقوله تعالى وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله احتلف المفسرون فيه فقال بعضهم هو تأكيد كالذي في قوله تعالى فكان عاقبتهما انهما في النار خالدين فيها وقال بعضهم من قبل التنزيل من قبل المطر والاولى أن يقال من قبل أن ينزل عليهم ثم من قبله أي من قبل ارسال الرياح وذلك لان بعد الارسال يعرف الخبير أن الريح قيم السحاب أو ليس فقبل المطر اذا هبت الريح لا يكون مبلسا فلما قال من قبل أن ينزل عليهم لم يقل انهم كانوا مبلسين لان من قبله قد يكون راجيا لما على ظنه المطر برؤية السحب وهبوب الرياح فقال من قبله أي من قبل ما ذكرنا من ارسال الريح وبسط السحاب ثم لما فصل قال فانظر الى آثار رحمت الله كيف يحيي الارض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى لما ذكر الدلائل قال لمحيي باللام المؤكدة وباسم الفاعل فان الانسان اذا قال ان الملك يعطيك لا يفيد ما يفيده قوله انه معطيك لان الثاني يفيد أنه أعطاك فكان وهو معط متصفا بالعطاء والاول يفيد انه سيتصف به ويتبين هذا بقوله انك ميت فانه آكد من قوله انك تموت وهو على كل شئ قدير تأكيدا لما يفيده الاعتراف * ثم قال تعالى * (ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم * ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) لما بين انهم عند وقوف الخير يكونون

فان أراد فالخير رحمة وقيل متعلق بمضمر أي فعلت ما فعلت من الامور التي شاهدتها رحمة من ربك وبعضده اضافة الرب الى ضمير المخاطب دون ضميرهما فيكون قوله عز وعلا (وما فعلته عن أمري) أي عن رأيي واجتهادي تأكيدا لذلك (ذلك) اشارة الى العواقب المنظومة في سلك البيان وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتها في الفخامة (تأويل ما لم تسطع

أي لم تستطع حذف التاء للتخفيف (عليه صبرا) من الامور التي رأيتها أي ما له وعاقبته فيكون انجز اللتنبئة الموعودة أوالى البيان نفسه فيكون التأويل بمعناه وعلى كل حال فهو وذلك لما تقدم وفي جعل الصلة عين ما مر تكرير للنكير وتشديد للعتاب (تنبيه) اختلفوا في حياة الخضر عليه الصلاة والسلام ٥٧٠ فقيل انه حي وسببه انه كان على مقدمة ذي القرنين فلما دخل الظلمات أصاب الخضر عين الحياة فشرب منها واغتسل وقيل انه حي لقوله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفائن مت فهم الخالدون وقيل انه ميت لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح ما من نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة وهي حية يومئذ على ظهر الارض أحد ولو كان الخضر حيا لكان حيا في عهده صلى الله عليه وسلم ولوجب عليه أن يأتيه ويؤمن به وينصره ويجاهد معه ولم يعرج على غيره وقيل انه حي لما روي أن موسى عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يفارقه قال له أوصني قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به (ويسألونك عن ذي القرنين) هم اليهود سألوه على وجه الامتحان أو سأله قريش بتلقينهم وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك الى ورود الجواب وهو ذو القرنين الاكبر واسمه الاسكندر بن فيلقوس اليوناني وقال ابن اسحق اسمه مرزبان بن مردوبه من ولد يافث بن نوح عليه الصلاة والسلام وكان أسود وقيل اسمه عبد الله بن الضحاك وقيل مصعب بن عبد الله بن فينان بن منصور بن عبد الله بن الازرر بن عون بن زيد بن كهلان بن سبا بن يعرب بن قحطان وقال السهيلي قيل ان اسمه مرزبان بن مدركة ذكره ابن هشام وهو أول التبابعة وقيل انه افريذون بن النعمان الذي قتل الضحاك وذكر أبو الريحان البيروني في كتابه المسمى بالآثار الباقية عن القرون

مبلسين آيسين وعند ظهوره يكونون مستبشرين بان تلك الحالة أيضا لا يدومون عليها بل لو أصاب زرعهم ريح مصفرا لكفروا فهم منقلبون غير ثابتين لنظرهم الى الحال لا الى المآل وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال في الآية الاولى يرسل الرياح على طريقة الاخبار عن الارسال وقال ههنا ولئن أرسلنا على طريقة الاخبار عن الارسال لان الرياح من رحمته وهي متواترة والريح من عذابه وهو تعالى رؤف بالعباد يمسكها ولذلك ترى الرياح النافعة تهب في الليالي والايام في البراري والآكام وريح السموم لا تهب الا في بعض الازمنة وفي بعض الامكنة (المسئلة الثانية) سمي النافعة رياحا والضارة ريحا لوجوه (احدها) النافعة كثيرة الانواع كثيرة الإفراد فجمعها فان كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ولا تهب الريح الضارة في أعوام بل الضارة في الغالب لا تهب في الدهور (الثاني) هو ان النافعة لا تكون الا رياحا فان ما يهب مرة واحدة لا يصلح الهواء ولا ينشئ السحاب ولا يجري السفن وأما الضارة بنفخة واحدة تقتل كريح السموم (الثالث) هو ان الريح المضرة اما ان تضر بكيفيتها أو بكميتها أما الكيفية فهي اذا كانت حارة أو مشتملة بكيفية سمية وهذا لا يكون للريح في هبوبها وانما يكون بسبب ان الهواء الساكن في بقعة فيها حشائش رديئة أو في موضع غائر وهو حار جدا أو تكون متكونة في أول تكوينها كذلك وكيفما كان فتكون واحدة لان ذلك الهواء الساكن اذا سخن ثم ورد عليه ريح تحركه وتخرجه من ذلك المكان فتهب على مواضع كالهبب ثم ما يخرج بعد ذلك من ذلك المكان لا يكون حارا ولا مشتعلا لان المكث الطويل شرط التسخين ألا ترى انك لو أدخلت اصبعك في نار وأخرجتها بسرعة لا تتأثر والحديد اذا مكث فيها يذوب فاذا تحرك ذلك الساكن وتفرق لا يوجد في ذلك الوقت غيره من جنسه وأما المتولدة كذلك فنادرة وموضع ندرتها واحد وأما الكمية فالرياح اذا اجتمعت وصارت واحدة صارت كالطوفان وماء العيون اذا اجتمعت تصير نهرا عظيما لا تسده السدود ولا يرده الجلمود ولا شك أن في ذلك تكون واحدة مجتمعة من كثير فلهذا قال في المضرة ريح وفي النافعة رياح ثم انه تعالى لما علم رسوله أنواع الادلة وأصناف الامثلة ووعدا وعد ولم يزدهم دعاؤه الا فرارا وانباؤه الا كفرا وأصرارا قال له فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في الترتيب فنقول ارشاد الميت محال والمحال أبعد من الممكن ثم ارشاد الاصم صعب فانه لا يسمع الكلام وانما يفهم ما يفهمه بالاشارة لا غير والافهام بالاشارة صعب ثم ارشاد الاعمى أيضا صعب فانك اذا قلت له الطريق على يمينك يدور الى يمينه لكنه لا يبقى عليه بل يحيد عن قريب وارشاد الاصم أصعب فلهذا تكون المباشرة مع الاعمى أسهل من المباشرة مع الاصم الذي لا يسمع شيئا لان عامة الافهام بالكلام فان ما لا يفهم بالاشارة يفهم بالكلام وليس كل ما يفهم بالكلام يفهم بالاشارة فان المعدوم والغائب لا اشارة اليهما فقال أولا لا تسمع الموتى ثم قال ولا الاصم ولا تهدي الاعمى الذي دون الاصم (المسئلة الثانية) قال في الاصم اذا ولوا مدبرين ليكون أدخل في الامتناع وذلك لان الاصم وان كان يفهم فانما يفهم بالاشارة فاذا ولى ولا يكون نظره الى المشير فانه يسمع ولا يفهم (المسئلة الثالثة) قال في الاصم لا تسمع الصم الدعاء ولم يقل في الموتى ذلك لان الاصم قد يسمع الصوت الهائل كصوت الرعد القوي ولكن صوت الداعي لا يبلغ ذلك الحد فقال انك داع لست تبلغ الى الايمان والداعي لا يسمع الاصم الدعاء (المسئلة الرابعة) قال وما أنت بهادي العمي أي ليس شغلك هداية العميان كما يقول القائل فلان ليس بشاعر وانما ينظم يمتاز بين أي ليس شغله ذلك فقوله انك لا تسمع الموتى نفي ذلك عنه وقوله وما أنت بهادي العمي يعني ليس شغلك ذلك وما أرسلت له ۞ ثم

الطالبة ان ذا القرنين هو ابو كرب سمى ابن عبرين بن افريقيس الحميرى وأن ملكه بلغ مشارق الارض ومغاربها وهو الذى افتخر به التبع اليمانى حيث قال

قد كان ذو القرنين جدى مسلما * ملكا علا فى الارض غير مفند
بلغ المشارق والمغارب يبتغى * أسباب أمر من حكيم مرشد

وجعل هذا القول أقرب لان الاذواء كانوا من اليمن كذى المنار وذى نواس وذى النون وذى رعين وذى يزن وذى جدن قال الامام الرازى والاول هو الاظهر لان من بلغ ملكه من السعة والقوة الى الغاية التى نطق بها التنزيل الجليل انما هو الاسكندر اليونانى كما تشهد به كتب التواريخ يروى أنه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعدان كان طوائف ثم قصد ملوك العرب وقهرهم ثم أمعن حتى انتهى الى البصر الاخضر ثم عاد الى مصر فبنى الاسكندرية وسماها باسمه ثم دخل الشام وقصد بنى اسرائيل وورد بيت المقدس وذبح فى مذبحه ثم انعطف الى ارمينية وباب أبواب ودان له العراقيون والقبط والبربر ثم توجه نحو دارا بن دارا وهزمه مرارا الى أن قتله صاحب جيشه واستولى على ممالك الفرس وقصد الهند وفتحها وبنى مدينة سرنديب وغيرها من المدن العظام ثم قصد الصين وغزا الامم البعيدة ورجع الى خراسان وبنى بها مدائن كثيرة ورجع الى العراق ومرض بشهرزور ومات انتهى كلام الامام وروى أن أهل النجوم قالوا له انك لا تموت الا على أرض من حديد وتحت سماء من خشب وكان يدفن كنز كل بلد فيها ويكتب ذلك بصفته وموضعه فبلغ بابل فرعف وسقط عن دابته فبسطت له دروع فنام عليها فاذا تلك الشمس فاظلوه بترس فنظر فقال هذه أرض

قال تعالى ﴿ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ لما نفى اسماع الميت والاصم وأثبت اسماع المؤمن بآياته لزم ان يكون المؤمن حيا سميعا وهو كذلك لان المؤمن تردد على قلبه أمطار البراهين فتنيرت قلبه العقائد الحقة ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الافعال الحسنة وهذا يدل على خلاف مذهب المعتزلة فانهم قالوا الله يريد من الكل الايمان غير ان بعضهم يخالف ارادة الله وقوله ان تسمع الا من يؤمن دليل على أنه يؤمن فيسمعه النبى صلى الله عليه وسلم ما يجب أن يفعل فهم مسلمون مطيعون كما قال تعالى عنهم قالوا سمعنا وأطعنا ﴿ثم قال تعالى ﴿الله الذى خلقكم من ضعف﴾ لما أعاد من الدلائل التى هى مثبت دليل الامن دلائل الآفاق وهو قوله الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا وذكر أحوال الريح من أوله الى آخره أعاد دليلا من دلائل الانفس وهو خلق الآدمى وذكر أحواله فقال خلقكم من ضعف أى منيا كم على الضعف كما قال تعالى خلق الانسان من علق ومن ههنا كما تكون فى قول القائل فلان زين فلانا بأمن فقره وجعله غنيا أى من حالة فقره ﴿ثم قال تعالى ﴿ثم جعل من بعد ضعف قوة﴾ فقوله من ضعف اشارة الى حالة كان فيها جنينا وطفلا مولودا ورضيعا مغطوما فهذه أحوال غاية الضعف وقوله ثم جعل من بعد ضعف قوة اشارة الى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتماله وقوله ﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ اشارة الى ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان والشيبة هى تمام الضعف ثم بين بقوله يخلق ما يشاء أن هذا ليس طبعا بل هو بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى فى دلائل الآفاق فيسلمه فى السماء كيف يشاء وقوله وهو العليم القدير لم قدم العلم على القدرة وقال من قبل وهو العزيز الحكيم فالعزة اشارة الى تمام القدرة والحكمة الى العلم فقدم القدرة هناك وقدم العلم على القدرة ههنا فنقول هناك المذكور الاعادة بقوله وهو أهون عليه وله المثل الاعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم لان الاعادة تكون بكن فيكون فالقدرة هناك أظهر وههنا المذكور الابداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر ثم ان قوله تعالى وهو العليم القدير تبشير وانذار لانه اذا كان عالما بأعمال الخلق كان عالما بأحوال المخلوقات فان عمل خيرا علم وان عمل شرا علم فان كان قادرا فاذا علم الخير أثاب واذا علم الشر عاقب ولما كان العلم بالاحوال قبل الاثابة والعقاب اللذين هما بالقدرة قدم العلم وأما فى الآخرة فالعلم بتلك الاحوال مع العقاب فقال وهو العليم الحكيم والى مثل هذا أشار فى قوله فتبارك الله أحسن الخالقين عقيب خلق الانسان فنقول أحسن اشارة الى العلم لان حسن الخلق بالعلم والخلق المفهوم من قوله الخالقين اشارة الى القدرة ثم ما بين ذكر الابداء والاعادة كالابداء ذكر بعد ذكر أحوالها وأوقاتها ﴿فقال تعالى ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ قيل ما لبثوا فى الدنيا غير ساعة وقيل ما لبثوا فى القبور وقيل ما لبثوا من وقت فناء الدنيا الى وقت النشور ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾ يصرفون من الحق الى الباطل ومن الصدق الى الكذب ﴿وقال الذين أوتوا العلم والايمان﴾ من الملائكة وغيرهم ﴿لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث﴾ ونحن بين ما هو المعنى اللطيف فى هاتين الآيتين فنقول الموعود يوعد اذا ضرب له أجل يستكثر الاجل ويريد تعجيله والموعد يوعد اذا ضرب له أجل يستقل المدة ويريد تأخيرها لكن المجرم اذا حشر علم ان مصيره الى النار فيستقل مدة اللبث ويختار تأخير الحشر والابقاء فى القبر والمؤمن اذا حشر علم ان مصيره الى الجنة فيستكثر المدة ولا يريد التأخير فيختلف الفريقان ويقول أحدهما ان مدة لبثنا قليل والبه الاشارة بقوله يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ويقول الآخر لبثنا مدة والبه الاشارة بقوله تعالى وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث يعنى

من حديد وسماه من خشب فأيقن بالموت فمات وهو ابن ألف وستمائة سنة وقيل ثلاثة آلاف سنة قال ابن كثير وهذا غريب وأغرب منه ما قاله ابن عساكر من أنه بلغني أنه عاش ستا وثلاثين سنة أو ثنتين وثلاثين سنة وأنه كان بعد داود وسليمان عليهما السلام فان ذلك لا يطابق الاعلى ذي القرنين الثاني ٥٧٣ كما سنذكره ﴿قلت﴾ وكذا ما ذكره الامام من قصة بني اسرائيل وورود بيت المقدس والذبح في مدينه فانه مما لا يكاد يتأتى نسبته الى الاول واختلاف في سوقه بعد الاتفاق على اسلامه وولايته فقيل كان نبيا لقوله تعالى انا مكنا له في الارض وظاهر أنه متناول للتمكين في الدين وكماله بالنبوة ولقوله تعالى وآتيناه من كل شئ سببا ومن جملة الاشياء النبوة ولقوله تعالى قلنا ياذا القرنين ونحو ذلك وقيل كان ملكا لما روى أن عمر رضي الله عنه سمع رجلا يقول لآخر ياذا القرنين فقال اللهم غفرا ما رضيتم أن تسموا بأسماء الانبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة قال ابن كثير والصحيح انه ما كان نبيا ولا ملكا وانما كان ملكا عادلا عاد ملك الاقاليم وقهر أهلها من الملوك وغيرهم ودانت له البلاد وانه كان داعيا الى الله تعالى سائرا في الخلق بالعدالة التامة والسلطان المؤيد المنصور وكان الخضر على مقدمة جيشه بمنزلة المستشار الذي هو من الملك بمنزلة الوزير وقد ذكر الازرقي وغيره انه أسلم على يدي ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فطاف معه بالكعبة هو واسمعيل عليهم السلام وروى أنه حج ماشيا فلما سمع ابراهيم عليه الصلاة والسلام بقدومه تلقاه ودعا له وأوصاه برصايا وقال انه أتى بفرس ليركب فقال لا أركب في بلد فيه الخليل فعند ذلك سخر له السحاب وطوى له الامصار وبشره ابراهيم عليه الصلاة والسلام بذلك فكانت السحاب تحمله وعساكره

كان في كتاب الله ضرب الاجل الى يوم البعث ونحن صيرنا الى يوم البعث ﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ يعني طلبكم التأخير لانكم كنتم لا تعلمون البعث ولا تعرفون به فصار مصيركم الى النار فتطلبون التأخير ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿فيومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾ أي لا يطلب منهم الاعتاب وهو ازالة العتب يعني التوبة التي تزيل آثار الجريمة لا تطلب منهم لانها لا تقبل منهم ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ اشارة الى ازالة الاعذار والاتيان بما فوق الكفاية من الانذار والى انه لم يبق من جانب الرسول تقصير فان طلبوا شيأ آخر فذلك عناد ومن هان عليه تكذيب دليل لا يصعب عليه تكذيب الدلائل بل لا يجوز للمستدل أن يشرع في دليل آخر بعد ما ذكر دليلا جيدا مستقيما ظاهر الاغبار عليه وعاند الخصم لانه اما أن يعترف بورود سؤال الخصم عليه أو لا يعترف فان اعترف يكون انقطاعا وهو يقدح في الدليل أو المستدل اما بأن الدليل فاسد واما بان المستدل جاهل بوجه الدلالة والاستدلال وكلاهما لا يجوز الاعتراف به من العالم فكيف من النبي عليه الصلاة والسلام وان لم يعترف يكون الشروع في غيره موهما ان الخصم ليس معاندا فيكون اجتراؤه على العناد في الثاني أكثر لانه يقول العناد أفاد في الاول حيث التزم ذكر دليل آخر فان قيل فالانبياء عليهم السلام ذكروا أنواعا من الدلائل نقول بل وردوها سردا ثم قرروها فردا فردا لكن يقول الدليل عليه من وجوه الاول كذا والثاني كذا والثالث كذا وفي مثل هذا الواجب عدم الالتفات الى عناد المعاند لانه يريد بعناده حتى يضيع الوقت فلا يمكن المستدل من الاتيان بجميع ما وعد من الدلائل فتضطرجته فاذن لكل مكان مقال ﴿والى هذا وقعت الاشارة بقوله تعالى﴾ ﴿ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان أنتم الا مبطلون﴾ وفي توحيد الخطاب بقوله ولئن جئتهم والجمع في قوله ان أنتم لطيفة وهي أن الله تعالى قال ولئن جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل وبكل ان يجاريهما يقولون أنتم كلكم أيها المدعون للرسالة مبطلون ﴿ثم بين تعالى ان ذلك بطبع الله على قلوبهم بقوله﴾ ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾ فان قيل من لا يعلم شيأ أية فائدة في الاخبار عن الطبع على قلبه نقول المعنى هو أن من لا يعلم الآن فقد طبع الله على قلبه من قبل ﴿ثم انه تعالى سلى قلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله﴾ ﴿فاصبر ان وعد الله حق﴾ أي ان صدقك ببين وقوله ﴿ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾ اشارة الى وجوب مداومة النبي عليه الصلاة والسلام على الدعاء الى الايمان فانه لو سكت لقال الكافر انه متقاعس الرأي لا ثبات له والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين

﴿سورة لقمان عليه السلام مكية كلها الا الآيتين نزلتا بالمدينة وهما ولو أن ما في الارض من شجرة الآيتين أو الآية نزلت بالمدينة وهي الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة لان الصلاة والزكاة فرضتا بالمدينة وهي ثلاث وقيل أربع وثلاثون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الم تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر ما قبلها هو أن الله تعالى لما قال ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل اشار الى كونه معجزة وقال ولئن جئتهم بآية اشارة الى أنهم يكفرون بالآيات بين ذلك بقوله الم تلك آيات الكتاب الحكيم أي هذه آيات ولم يؤمنوا بها والى هذا أشار بعد هذا بقوله وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا ﴿وقوله﴾ ﴿هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلوة ويؤتون

وجميع الآلهة اذا أرادوا غزو قوم وقال أبو الطفيل سئل عنه على كرم الله وجهه أكان نبيا أم ملكا فقال لم يكن نبيا ولا ملكا لكن كان عبدا أحب الله فأحبه وناصح الله فناصحه فحمله السحاب ومد له الاسباب واختلف في وجه تسميته بذي القرنين فقيل لانه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها وقيل لانه ملك الروم وفارس وقيل الروم والترك وقيل لانه ٥٧٣ كان في رأسه أعوذ تاجه ما يشبه القرنين وقيل لانه كان له ذؤابتان وقيل لانه كانت صفيحتا رأسه من النحاس وقيل لانه دعا الناس الى الله عز وجل فضربوه على قرنه الايمن فمات ثم بعثه الله فضربوه على قرنه الايسر فمات ثم بعثه الله تعالى وقيل لانه رأى في منامه أنه صعد الفلك فأخذ بقرني الشمس وقيل لانه انفرد في عهده قرنان وقيل لانه سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهتدي به النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه وقيل لقبه بذلك شجاعته هذا ما وجدناه في أخبار ذي القرنين الثاني فقد قال ابن كثير انه الاسكندر بن فيلبس بن مصر يم بن هرمس بن مطيطون بن روى بن ليطى بن يونان بن يافث ابن نوح بن شرخون بن روميه بن نرنط بن توفيل ابن روحى بن الاصفر بن العنز بن العيص بن اسحاق بن ابراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام كذا نسبه ابن عساكر المقدوني اليوناني المصري باني الاسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم وكان متأخرا عن الاول بدهر طويل أكثر من ألفي سنة كان هذا قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة وكان وزيره ارسطاطاليس الفيلسوف وهو الذي قتل دارا بن دارا وأزال ملوك الفرس ووطئ أرضهم ثم قال ابن كثير وانما سميناه هذا الان كثيرا من الناس يعتقدانهما واحد وان المذكور في القرآن العظيم هو هذا المتأخر فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير كيف لا والاول كان عبدا صالحا مؤمنا وملكا عادلا وزيره الخضر

﴿ ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ فقوله هدى أي بيان وفرقان وأما التفسير فمثل تفسير قوله تعالى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى وكما قيل هناك ان المعنى بذلك هذا كذلك قيل بأن المراد بتلك هذه ويمكن ان يقال كما قلنا هناك ان تلك اشارة الى الغائب معناه آيات القرآن آيات الكتاب الحكيم وعند انزال هذه الآيات التي نزلت مع الم تلك آيات الكتاب الحكيم لم تكن جميع الآيات نزلت فقال تلك اشارة الى الكل أي آيات القرآن تلك آيات وفيه مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ قال في سورة البقرة ذلك الكتاب ولم يقل الحكيم وههنا قال الحكيم فلما ذكر وصف الكتاب زاد ذكر أمر في أحواله فقال هدى ورحمة وقال هناك هدى للتقين فقوله هدى في مقابلة قوله الكتاب وقوله رحمة في مقابلة قوله الحكيم ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذي الحكمة كقوله تعالى في عيشة راضية أي ذات رضا ﴿ المسئلة الثانية ﴾ قال هناك للتقين وقال ههنا للمحسنين لانه لما ذكر انه هدى ولم يذكر شيأ آخر قال للتقين أي يهتدي به من يتقي الشرك والعناد والتعصب وينظر فيه من غير عناد ولما زاد ههنا رحمة قال للمحسنين أي المتقين الشرك والعنادين بكلمة الاحسان فالمحسن هو الآتي بالايمان والمتقي هو التارك للكفر كما قال تعالى ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ومن جانب الكفر كان متقبلا وله الجنة ومن أتى بحقيقة الايمان كان محسنا وله الزيادة اقوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولانه لما ذكر انه رحمة قال للمحسنين لان رحمة الله قريب من المحسنين ﴿ المسئلة الثالثة ﴾ قال هناك الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وقال ههنا الذين يقيمون الصلاة ولم يقل يؤمنون لما بينا أن المتقي هو التارك للكفر ويلزمه أن يكون مؤمنا والمحسن هو الآتي بحق الايمان ويلزمه أن لا يكون كافرا فلما كان المتقي دالا على المؤمن في الالتزام صرح بالايمان هناك تعميما ولما كان المحسن دالا على الايمان بالتفصيص لم يصرح بالايمان وقوله تعالى الذين يقيمون الصلاة قد ذكرنا ما في الصلاة وأقامتها مرارا وما في الزكاة والقيام بها وذكرنا في تفسير الانفال في أوائلها أن الصلاة ترك التشبه بالسيد فانها عبادة صورة وحقيقة والله تعالى يجب له العبادة ولا يجوز عليه العبادة وترك التشبه لازم على العبد أيضا في أمور فلا يجلس عند جلوسه ولا يتكئ عند اتكائه والزكاة تشبه بالسيد فانها دفع حاجة الغير والله دافع الحاجات والتشبه لازم على العبد أيضا في أمور كما أن عبد العالم لا يتلبس بلباس الاجناد وعبد الجندي لا يتلبس بلباس الزهاد وبهما تتم العبودية ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ﴾ لما بين أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات محكمة بين من حال الكفار انهم يتركون ذلك ويشتغلون بغيره ثم ان فيه ما يسوء صنيعهم من وجوه (الاول) ان ترك المحكمة والاشتغال بحديث آخر قبيح (الثاني) هو ان الحديث اذا كان لهوا ولا فائدة فيه كان أقبح (الثالث) هو ان اللهو قد يقصد به الاحماض كما ينقل عن ابن عباس انه قال أحضروا ونقل عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال روحوا القلوب ساعة فساعة رواه الديلمي عن أنس مرفوعا وينشد له ما في مسلم باحنظلة ساعة وساعة والعوام يفهمون منه الامر بما يجوز من المطايبة والخواص يقولون هو أمر بالنظر الى حاجة الحق فان الترويح به لا غير فلما لم يكن قصدهم الا الاضلال لقوله ليضل عن سبيل الله كان فعله أدخل في القبح ثم قوله تعالى بغير علم عائد الى الشراء أي يشتري بغير علم ويتخذها أي يتخذ السبيل هزوا أولئك لهم عذاب مهين قوله مهين اشارة الى أمر يفهم منه الدوام وذلك لان الملك اذا أمر بتعذيب عبد من عبيده فالبلد ان علم انه من بعد الى خدمة الملك ولا يتركه الملك في الحبس بكرمه ويخفف من تعذيبه وان

عليه الصلاة والسلام وقد قيل انه كان نبيا وأما الثاني فقد كان كافرا وزير ارسطاطاليس الفيلسوف وقد كان مابينهما من الزمان أكثر من ألفي سنة فأين هذا من ذاك انتهى (قلت) المقدوني نسبة الى بلدة من بلاد الروم غربي دار السلطنة السنية قسطنطينية المحمية لازالت مشحونة بالشعائر الدينية بينهما ٥٧٤ من المسافة مسيرة خمسة عشر يوما أو نحو ذلك عند مدينة سيروز اسمها بلغة اليونانيين

علم الله لا يعود الى ما كان عليه وأمره قد انقضى فانه لا يكرمه فقد رآه عذاب مهين اشارة الى هذا وبه يفرق بين عذاب المؤمن وعذاب الكافر فان عذاب المؤمن ليطهره فهو غير مهين ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا﴾ أي يشتري الحديث الباطل والحق الصراح بأتمه مجانا ويعرض عنه واذا نظرت فيه فهمت حسن هذا الكلام من حيث ان المشتري يطلب المشتري مع أنه يطلبه ببذل الثمن ومن يأتيه الشيء لا يطلبه ولا يبذل شيأ فمن الواجب أن يطلب العاقل الحكمة أي شيء تجده و يشتريها وهم ما كانوا يطلبونها واذا جاءتهم مجانا ما كانوا يسمعونها ثم ان فيه أيضا مراتب (الاولى) القراية عن الحكمة وهو قبيح (والثاني) الاستكبار ومن يشتري حكاية رستم و بهرام و يحتاج اليها كيف يكون مستغنيا عن الحكمة حتى يستكبر عنها وانما يستكبر الشخص عن الكلام اذا كان يقول أنا أقول مثله فمن لا يقدر على صنع مثل تلك الحكايات الباطلة كيف يستكبر على الحكمة البالغة التي من عند الله (الثالث) قوله تعالى كأن لم يسمعها شغل المستكبر الذي لا يلتفت الى الكلام و يجعل نفسه كأنها غافلة (الرابع) قوله كأن في أذنيه وقرا أدخل في الاعراض ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿فبشره بعذاب أليم﴾ أي له عذاب مهين فبشره أنت به وأوعده أو يقال اذا كان حاله هذا فبشره بعذاب أليم ﴿وقوله تعالى﴾ ﴿ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم﴾ لما بين حال من أذا تتلى عليه الآيات ولى بين حال من يقبل على تلك الآيات و يقبلها وكما أن ذلك له مراتب من التولية والاستكبار فهذا له مراتب من الاقبال والقبول والعمل به فان من سمع شيأ وقبله قد لا يعمل به فلا تكون درجته مثل من يسمع و يطيع ثم ان هذا له جنات النعيم ولذلك عذاب مهين وفيه لطائف (احداها) توحيد العذاب و جمع الجنات اشارة الى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب (الثانية) تنكير العذاب وتعريف الجنة بالاضافة الى المعرف اشارة الى أن الرحيم يبين النعمة و يعرفها الصالا للراحة الى القلب ولا يبين النقمة وانما يبينها عليها تنبيها (الثالثة) قال عذاب ولم يصرح بأنهم فيه خالدون وانما أشار الى الخلود بقوله مهين وصرح في الثواب بالخلود بقوله خالدين فيها (الرابعة) أكد ذلك بقوله وعد الله حقا ولم يذكر وعدا لك (الخامسة) قال هناك لغيره فبشره بعذاب وقال ههنا بنفسه وعد الله ثم لم يقل أبشركم به لان البشارة لا تكون الا بأعظم مما يكون لكن الجنة دون ما يكون للصالحين بشارة من الله وانما تكون بشارتهم منه برحمته ورضوانه كما قال تعالى يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان و جنات لهم فيها نعيم مقيم ولو لا قوله منه لما علمت البشارة ولو كانت منه مقرونة بأمر دون الجنة لكان ذلك فوق الجنة من غير اضافة فان قيل فقد بشر بنفس الجنة بقوله وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون يقول البشارة هناك لم تكن بالجنة وحدها بل بها وبما ذكر بعدها الى قوله تعالى نزلا من غفور رحيم والنزل ما يهيأ عند النزول والاكرام العظيم بعده وهو العزيز الحكيم كامل القدرة يعذب المعرض و يثيب المقبل كامل العلم يفصل الافعال كما ينبغي فلا يعذب من يؤمن ولا يثيب من يكفر ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿خلق السموات بغير عمد ترونها﴾ بين عزته وحكمته بقوله خلق السموات بغير عمد اختلف قول العلماء في السموات فمنهم من قال انها بسيطة كصفيحة مستوية وهو قول أكثر المفسرين ومنهم من قال انها مسدرة وهو قول جميع المهندسين والغزالي رحمه الله قال نحن نوافقهم في ذلك فان لهم علما دليلا من المحسوسات ومخالفة الحس لا تجوز وان كان في الباب خبر نؤوله بما يحتمله فضلا عن أن ليس في القرآن والخبر ما يدل على ذلك صريحا بل فيه ما يدل على الاستدارة كما قال تعالى كل في فلك يسبحون والفلك اسم لشيء مستدير بل الواجب أن

يقال

علمه وعن الروح وعن أصحاب الكهف فقال لهم عليه الصلاة والسلام ائتوني غدا أخبركم فأبطأ عليه الوحي خمسة عشر يوما أو أربعين كما ذكر فيما سلف وقوله عز وجل (انا مكناله في الارض) شروع في تلاوة الذكر المعهود حسبما هو المعهود التمكين ههنا الاقدار وتمهيد

الاسباب يقال مكنه ومكن له ومعنى التمكين جعله قادرا وقويا ومعنى الثانى جعل له قدرة وقوة ولتلازمهما فى الوجود وتقاربهما فى المعنى يستعمل كل منهما فى محل الآخر كما فى قوله عز وعلا مكناهم فى الارض مالم نمكن لكم أى جعلناهم قادرين من حيث القوى والاسباب والآلات على أنواع التصرفات فيها مالم نجعله لكم من القوة والسعة فى المال والاستظهار بالعدد والاسباب فكأنه قيل مالم نمكنكم فيها أى مالم نجعله لكم قادرين على ذلك فيها أو مكناهم فى الارض مالم نمكن لكم وهكذا اذا كان التمكين مأخوذا من المكان بناء على توهم ميمه أصلية كما أشير اليه فى سورة يوسف عليه الصلاة والسلام والمعنى انا جعلناهم بمكنة وقدرة على التصرف فى الارض من حيث التدبير والرأى والاسباب حيث سخرنا لهم السحاب ومددناه فى الاسباب وبسطنا له النور وكان الليل والنهار عليه سواء وسهل عليه السير فى الارض وذللت له طرقها (وآتيناهم من كل شئ) أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه (سببا) أى طريقا يوصله اليه وهو كل ما يتوصل به الى المقصود من علم أو قدرة أو آلة (فأتبع) بالقطع أى فاراد بلوغ المغرب فاتبع (سببا) يوصله اليه ولما قصد بلوغ المغرب ابتدأ باراءة الحركة الشمسية وقرئ فاتبع من الافتعال والفرق أن الاول فيه معنى الادراك والاسراع دون الثانى (حتى اذا بلغ مغرب الشمس) أى منتهى الارض من جهة المغرب بحيث لا يتمكن أحد من مجاوزته ووقف على حافة البحر المحيط الغربى الذى يقال له أوقيانوس الذى فيه الجزائر المسماة بالخالدات التى هى مبدأ الاطوال على أحد القولين (وجدها) أى الشمس (تغرب فى عين حمئة) أى ذات حمأة وهى الطين الاسود من حمئت البئر اذا كثرت

يقال بأن السموات سواء كانت مستديرة أو مصمتة فهى مخلوقة بقدرة الله لا موجودة بأسباب وطبع اذا علمت هذا فنقول السماء فى مكان وهو فضاء والفضاء لا نهاية له وكون السماء فى بعضه دون بعض ليس الا بقدرة مختار واليه الاشارة بقوله بغير عمد أى ليس على شئ يمنعها الزوال من موضعها وهى لا تزول الا بقدرة الله تعالى وقال بعضهم المعنى ان السموات بأسرها وبجموعها لا مكان لها لان المكان ما يعتمد عليه ما فيه فيكون متمكنا والحيز ما يشار الى ما فيه بسببه يقال ههنا وهناك وعلى هذا قالوا ان من يقع من شاهق جبل فهوفى الهواء فى حيز اذ يقال له هو ههنا وهناك وليس فى مكان اذ لا يعتمد على شئ فلا حصل على الارض حصل فى مكان اذا علم هذا فالسموات ليست فى مكان تعتمد عليه فلا عمد لها وقوله ترونها فيه وجهان (أحدهما) انه راجع الى السموات أى ليست هى بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد (والثانى) أنه راجع الى العمد أى بغير عمد مرئية وان كان هناك عمد غير مرئية فهى قدرة الله وارادته ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ أى جبالا راسية ثابتة أن تميد أى كراهية أن تميد وقيل المعنى أن لا تميد واعلم أن الارض ثباتها بسبب ثقلها والا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح ولو خلقها مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة كما ترى الاراضى الرملة ينتقل الرمل الذى فيها من موضع الى موضع ثم قال تعالى وبث فيها من كل دابة أى سكون الارض فيه مصلحة حركة الدواب فأسكنها الارض وحركنا الدواب ولو كانت الارض متزلزلة وبعض الاراضى يناسب بعض الحيوانات لكانت الدابة التى لا تعيش فى موضع تقع فى ذلك الموضع فيكون فيه هلاك الدواب أما اذا كانت الارض ساكنة والحيوانات متحركة تتحرك فى المواضع التى تناسبها وتعيش فيها وتعيش فيها ثم قال تعالى وأنزلنا من السماء ماء هذه نعمة أخرى أنعم الله على عباده وتمامها بسكون الارض لان البذر اذا لم يثبت الى أن ينبت لم يكن يحصل الزرع ولو كانت أجزاء الارض متحركة كالرمل لما حصل الثبات والمأكل النبات والعدول من الغيبة الى التفسير فيه فصاحة وحكمة أما الفصاحة فقد ذكروها فى باب الالتفات من أن السامع اذا سمع كلاما طويلا من غط واحد ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه ألا ترى أنك اذا قلت قال زيد كذا وكذا وقال خالد كذا وكذا وقال عمرو كذا ثم أن تكرر القول مرارا واما الحكمة فمن وجهين (أحدهما) أن خلق الارض ثقيلا والسماء فى غير مكان قد يقع لجاهل انه بالطبع وبث الدواب يقع لبعضهم انه باختيار الدابة لان لها اختيارا فتقول الاول طبيعى والآخر اختيارى للحيوان ولكن لا شك أحد فى أن الماء فى الهواء من جهة فوق ليس طبعا فان الماء لا يكون بطبعه فوقى ولا اختيارا اذ الماء لا اختيار له فهو بارادة الله تعالى فقال وأنزلنا من السماء (الثانى) هو أن انزال الماء نعمة ظاهرة متكررة فى كل زمان متكثرة فى كل مكان فأسنده الى نفسه صريحا لينبه الانسان لشكر نعمته فيزيد له من رحمته وقوله تعالى فأنبتنا فيها من كل زوج أى من كل جنس وكل جنس فحتمه زوجان لان النبات اما أن يكون شجرا واما أن يكون غير شجر والذى هو الشجر اما أن يكون مثمرا واما أن يكون غير مثمر والمثمر كذلك ينقسم قسمين وقوله تعالى كريم أى ذى كرم لانه يأتى كثيرا من غير حساب أو مكرم مثل بغيض للبغض ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ يعنى الله خالق وغيره ليس بخالق فكيف تتركون عبادة الخالق وتشتغلون بعبادة المخلوق ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿بل الظالمون فى ضلال مبين﴾ أى بين أو مبين للعاقل انه ضلال وهذا لان ترك الطريق والحيد عنه ضلال ثم ان كان الحيد عنه أو يسيرة فهو لا يسمى عن الطريق

حماتها وقرئ حامية أي حارة وروى أن معاوية رضي الله عنه قرأ حامية وعنده ابن عباس رضي الله عنهما فقال جئة فقال معاوية لعبد الله بن عمرو بن العاص كيف تقرأ قال كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه إلى كعب الاحبار كيف تجد الشمس تغرب قال في ماء وطين وروى في ثأط فوافق قول ابن عباس ٥٧٦ رضي الله عنهما وليس بينهما مناقاة قطعية لجواز كون العين جامعة بين الوصفين وكون الماء

المستقيم مثل ما يكون المقصد الى وراء فانه يكون غاية الضلال فالمقصد هو الله تعالى فمن بطلبه ويلتفت الى غيره من الدنيا وغيرها فهو ضال لكن من وجه الى الله قد يصل الى المقصود ولكن بعد تعب وطول مدة ومن يطلبه ولا يلتفت الى ما سواه يكون كالذي على الطريق المستقيم يصل عن قريب من غير تعب وأما الذي تولى لا يصل الى المقصود أصلا وان دام في السفر والمراد بالظالمين المشركون الواضعون لعبادتهم في غير موضعها أو الواضعون أنفسهم في عبادة غير الله ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله﴾ لما بين الله فساد اعتقادهم بسبب عنادهم باشراك من لا يخلق شيأ من خلق كل شئ بقوله هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه وبين أن المشرك ظالم الضال ذكر ما يدل على ان ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة وان لم يكن هناك نبوة وهذا اشارة الى معنى وهو ان اتباع النبي عليه السلام لازم فيما لا يعقل معناه اظهارا للتعبد فكيف ما لا يختص بالنبوة بل يدرك بالعقل معناه وما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام مدرك بالحكمة وذكر حكاية لقمان وانه أدرك بالحكمة وقوله ولقد آتينا لقمان الحكمة عبارة عن توفيق العمل بالعلم فكل من أوتي توفيق العمل بالعلم فقد أوتي الحكمة وان أردنا تحديدها يدخل فيه حكمة الله تعالى فنقول حصول العمل على وفق المعلوم والذي يدل على ما ذكرنا ان من تعلم شيأ ولا يعلم مصالحه ومفاسده لا يسمى حكيما وانما يكون محظوظا ألا ترى ان من يلقي نفسه من مكان عال ووقع على موضع فانخسف به وظهر له كنز وسلم لا يقال انه حكيم وان ظهر له مصلحة وخلوعن مفسدة لعدم علمه به أولا ومن يعلم ان الالقاء فيه اهلاك النفس ويلقي نفسه من ذلك المكان وتنكسر أعضاؤه لا يقال انه حكيم وان علم ما يكون في فعله ثم الذي يدل على ما ذكرنا قوله تعالى أن اشكر لله فان أن في مثل هذا تسمى المفسرة ففسر الله ابتاء الحكمة بقوله أن اشكر لله وهو كذلك لان من جملة ما يقال ان العمل موافق للعلم لان الانسان اذا علم أمرين أحدهما أهم من الآخر فان اشتغل بالاهم كان موافقا للعلم وكان حكيما وان أهمل الاهم كان مخالفا للعلم ولم يكن من الحكمة في شئ لكن شكر الله أهم الاشياء فالحكمة أولى ما تقتضي ذلك ﴿ثم ان الله تعالى بين أن بالشكر لا ينتفع الا الشاكر بقوله﴾ ﴿ومن يشكر فانما يشكر لنفسه﴾ وبين أن بالكفران لا يتضرر غير الكافر بقوله ﴿ومن كفر فان الله غني حميد﴾ أي الله غير محتاج الى شكر حتى يتضرر بكفران الكافر وهو في نفسه محمود سواء شكره الناس أو لم يشكروه وفي الآية مسائل ولطائف (الاولى) فسر الله ابتاء الحكمة بالامر بالشكر لكن الكافر والجاهل مأموران بالشكر فمن يكون قد أوتي الحكمة والجواب ان قوله تعالى أن اشكر لله أمر تكوين معناه آتيناه الحكمة بأن جعلناه من الشاكرين وفي الكافر الامر بالشكر أمر تكليف ﴿المسئلة الثانية﴾ قال في الشكر ومن يشكر بصيغة المستقبل وفي الكفران ومن كفر فان الله غني وان كان الشرط يجعل الماضي والمستقبل في معنى واحد كقول القائل من دخل داري فهو حر ومن يدخل داري فهو حر فنقول فيه اشارة الى معنى وارشاد الى أمر وهو أن الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت لتكرر النعمة فمن شكر ينبغي أن يكرر والكفر ينبغي ان ينقطع فمن كفر ينبغي ان يترك الكفران ولان الشكر من الشاكر لا يقع بكماله بل أبدا يكون منه شئ في العدم يريد الشاكر ادخاله في الوجود كما قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك وكما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فأشار اليه بصيغة المستقبل تفهيما على ان الشكر بكماله لم يوجد وأما الكفران فكل جزء يقع منه تام فقال بصيغة الماضي ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال تعالى هنا ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر بتقديم الشكر على الكفران وقال في سورة الروم ومن كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون فنقول

في الثانية منقلبة عن الهمزة لانكسار ما قبلها وأمار جوع معاوية الى قول ابن عباس رضي الله عنهم بما سمعه من كعب مع أن قراءته أيضا مسموعة قطعا فلكون قراءة ابن عباس رضي الله عنهما قطعية في مدلولها وقراءته محتملة لعله لما بلغ ساحل المحيط رآها كذلك اذ ليس في مطمح بصره غير الماء كما يلوح به قوله تعالى وجدها تغرب (ووجد عندها) عند تلك العين (قوما) قيل كان لباسهم جلود الوحوش وطعامهم ما لفظه البحر وكانوا كفارا تخييره الله جل ذكره بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم الى الايمان وذلك قوله تعالى (قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب) بالقتل من أول الامر (واما أن تتخذ فيهم حسنا) أي أمرا ذا حسن على حذف المضاف أو على طريقة اطلاق المصدر على موصوفه مبالغة وذلك بالدعوة الى الاسلام والارشاد الى الشرائع وقيل أن مع صلته أما الرفع على الابتداء أو الجر بإضمار الخافض والنصب على المفعولية

هنالك

أي اما تعذيبك واقع أو أمرك تعذيبك أو اما تفعل تعذيبا لكن هذا هو الحال في الاتخاذ ومن لم يقل بنبوته قال كان ذلك الخطاب بواسطة نبي ثم ذلك الامر أو كان ذلك الها ما الوحي بعد أن كان ذلك التخيير موافقا لشريعة ذلك النبي (قال) أي ذو القرنين لذلك النبي

هنالك كان الذكر للترهيب لقوله تعالى من قبل فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون وهنا الذكر للترغيب لان وعظ الاب للابن يكون بطريق اللطف والوعد وقوله ومن عمل صالحا يحقق ماذكرنا أولا لان المذكور في سورة الروم لما كان هو اليوم الذي لا مرد له تكون الاعمال قد سبقت فقال بلفظ الماضي ومن عمل وههنا لما كان المذكور في الابتداء قال ومن يشكر بلفظ المستقبل وقوله ومن كفر فان الله غني عن عبده الحامد من حمده في ذاته من غير حمدهم وانما الحامد نرتفع مرتبته بكونه حامدا لله تعالى ﴿ ثم قال تعالى ﴿ واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم ﴾ عطف على معنى ما سبق وتقديره آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرا لي في نفسه وحين جعلناه واعظا لغيره وهذا لان علو مرتبة الانسان بان يكون كاملا في نفسه وبان يكمل لغيره فقوله أن اشكر اشارة الى الكمال وقوله واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه اشارة الى التكميل وفي هذه الطريقة وهي ان الله تعالى ذكر لقمان وشكر سعيه حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبي عليه السلام الذي أرشد الاجانب والاقارب فان ارشاد الولد أمر معتاد وأما تحمل المشقة في تعليم الاباعد فلا ثم انه في الوعظ بدأ بالاهم وهو المنع من الاشراك وقال ان الشرك لظلم عظيم أما انه ظلم فلانه وضع للنقص التحريف المذكور بقوله تعالى ولقد كرمنا بني آدم في عبادة الخسيس أولانه وضع العبادة في غير موضعها وهي غير وجه الله وسبيله وأما انه عظيم فلانه وضع في موضع ليس موضعه ولا يجوز أن يكون موضعه وهذا لان من يأخذ مال زيد ويعطي عمرا يكون ظلما من حيث انه وضع مال زيد في يد عمرو ولكن جائز أن يكون ذلك ملك عمرو أو بتسبير ملكه ببيع سابق أو بتمليك لاحق وأما الاشراك فوضع المعبودية في غير الله تعالى ولا يجوز أن يكون غير معبود أصلا ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك الي المصير ﴾ لما نهاه عن العبادة لغير الله والخدمة قريبة منها في الصورة بين انها غير ممتنعة بل هي واجبة لغير الله في بعض الصور ومثل خدمة الابوين ثم بين السبب فقال حملته أمه يعني لله على العبد نعمة الايجاد ابتداء بالخلق ونعمة الابقاء بالرزق ويجعل بفضله للام ما لها من صورة ذلك وان لم يكن لها حقيقة فان الحمل به يظهر الوجود وبالرضاع تحصل التربية والبقاء فقال حملته أمه أي صارت بقدرة الله سببا لوجوده ووقفه الله في عامين أي صارت بقدرته أيضا سببا لبقائه فاذا كان منها ما له صورة الوجود والبقاء وجب عليه ما لا تشبهه العبادة من الخدمة فان الخدمة لها صورة العبادة فان قال قائل وصى الله بالوالدين وذكر السبب في حق الام فنزول حمل الام بالذكر وفي الاب ما وجد في الام فان الاب حمله في صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو أبلغ وقوله أن اشكر لي ولوالديك لما كان الله تعالى بفضله جعل من الوالدين صورة ما من الله فان الوجود في الحقيقة من الله وفي الصورة يظهر من الوالدين جعل الشكر بينهما فقال أن اشكر لي ولوالديك ثم بين الفرق وقال الى المصير يعني نعمتي مختصة بالدنيا ونعمتي في الدنيا والآخرة فان الى المصير أو نقول لما أمر بالشكر لنفسه وللوالدين قال الجزاء على وقت المصير الي ﴿ ثم قال تعالى ﴿ وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الي ثم الي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ يعني ان خدمتهم واجبة وطاعتهم لازمة ما لم يكن فيها ترك طاعة الله أما اذا أفضى اليه فلا تطعهما وقد ذكرنا تفسير الآية في العنكبوت وقال ههنا واتبع سبيل من أناب الي يعني صاحبهما بجسمك فان حقهما على جسمك واتبع سبيل النبي عليه الصلاة والسلام بعقلك فانه مربي عقلك كما ان الوالد مربي جسمك ﴿ ثم قال تعالى ﴿ يابني انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الارض يأت

بطريق الوحي اليه وان معاونته كانت مع النبي أو مع من عنده من أهل مشورته (وأما من آمن) بوجب دعوتي (وعمل) عملا (صالحا) حسبما يقتضيه الايمان (فله) في الدارين (جزاء الحسنى) أي فله المثوبة الحسنى أو الفعلة الحسنى أو الجنة جزاء على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة قدم على المبتدا اعتناء به أو منصوب بمضمر أي نجزي بها جزاء والجملة حالية أو معترضة بين المبتدا والخبر المتقدم عليه أو حال أي يجزيانها أو تمييز وقرئ منصوبا بغير منون على أنه سقط تنوينه لالتقاء الساكنين أو مرفوعا منونا على أنه المبتدأ والحسنى بدله والخبر الجار والمجرور وقيل خبر بين القتل والامر والجواب محذوف من باب الاسلوب الحكيم لان الظاهر التخيير بينهما وهم كفار فقال أما الكافر فيراعى في حقه قوة الاسلام وأما المؤمن فلا يتعرض له الا بما يجب ويجوز ان تكون أما واما للتوزيع دون التخيير

(٧٣ - خازن) أي وليكن شأنك أما التعذيب وأما الاحسان فالاول لمن بقي على حاله والثاني لمن تاب (وسنقول له من أمرنا) أي مما نأمر به (يسرا) أي سهلا متيسرا غير شاق وتقديره ذا يسر أو أطلق عليه المصدر مبالغة وقرئ بضمتين (ثم أتبع سببا) أي طريقا راجعا من مغرب الشمس موصلا الى مشرقها (حتى اذا بلغ مطلع الشمس) يعني الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولا من معمورة الارض

وقرئ بفتح اللام على تقدير مضاف أى مكان طلوع الشمس فانه مصدر قيل بالغ فى اثنتى عشرة سنة وقيل فى أقل من ذلك بناء على ما ذكر من أنه سخر له السحاب وطوى له الاسباب (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستترا) من اللباس والبناء قيل هم الزنج وعن كعب ان أرضهم لا تعمل الا بنية وبها أسراب ٥٧٨ فاذا طلعت الشمس دخلوا الاسراب أو البحر فاذا ارتفع النهار خرجوا الى معايشهم

وعن بعضهم خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء فقالوا بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فاذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الاخرى وهى صاحب يعرف لسانهم فقالوا له حتما انتظر كيف تطلع الشمس قال فبينما نحن كذلك اذ سمعنا كهيئة الصاعقة فخشى على نفسى أفقت وهم يصيحون بالدهس فلما طلعت الشمس على الماء اذا هى فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سربا لهم فلما ارتفع النهار خرجوا الى البحر يصطادون السمك ويطرحونه فى الشمس فينضج لهم وعن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الارض (كذلك) أى أمرنى القرنين كما وصفناه لك فى رفعة المحل وبسطة الملك أو أمره فيهم كأمره فى أهل المغرب من التخيير والاختيار ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف لوجد أو نجعل أو صفة قوم أى على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم الشمس فى الكفر والحكم أو ستراً مثل ستركم من اللباس

كل

بها الله ان الله لطيف خبير ﴿ لما قال فانبئكم بما كنتم تعملون وقع لا بنيه ان ما يفعل فى خفية يخفى فقال يا بنى انها أى الحسنة والسيئة ان كانت فى الصغر مثل حبة خردل وتكون مع ذلك الصغر فى موضع حرز كالصخرة لا تخفى على الله وفيه مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ قوله فتكن بالفاء لافادة الاجتماع يعنى ان كانت صغيرة ومع صغرها تكون خفية فى موضع حريز كالصخرة لا تخفى على الله لان الفاء للاتصال بالتعقيب ﴿ المسئلة الثانية ﴾ لو قيل الصخرة لا بد من أن تكون فى السموات أو فى الارض فما الفائدة فى ذكرها ولان القائل لو قال لا شك رجل أو امرأة أو ابن عمر ولا يصح هذا الكلام لكون ابن عمر ودا خلا فى أحد القسمين فكيف يفهم هذا ﴿ فنقول الجواب عنه من أوجه ﴿ أحدها ﴾ ما قاله بعض المفسرين وهو ان المراد بالصخرة صخرة عليها الثور وهى لا فى الارض ولا فى السماء ﴿ والثانى ﴾ ما قاله الزمخشرى وهو ان فيه اضمارا تقديره فتكن فى صخرة أو فى موضع آخر فى السموات أو فى الارض ﴿ والثالث ﴾ أن نقول تقديم الخاص وتأخير العام فى مثل هذا التقسيم جائز وتقديم العام وتأخير الخاص غير جائز أما الثانى فلما بينتم أن من قال هذا فى دار زيد أو فى غيرها أو فى دار عمر ودا خلة فى قوله أو فى غيرها وأما الاول فلان قول القائل هذا فى دار زيد أو فى دار عمرو أو فى غيرها يصح غير قبيح فكذلك ههنا قدم الاخص أو نقول خفاء الشئ يكون بطرق منها أن يكون فى غاية الصغر ومنها أن يكون بعيدا ومنها أن يكون فى ظلمة ومنها أن يكون من وراء حجاب فان أتقنت الامور بأسرها بأن يكون كبيرا قريبا فى ضوء من غير حجاب فلا يخفى فى العادة فأثبت الله الزيوبة والعلم مع انتفاء الشرائط فقوله انها ان تك مثقال حبة اشارة الى الصغر وقوله فتكن فى صخرة اشارة الى الحجاب وقوله أو فى السموات اشارة الى البعد فانها أبعد الابعاد وقوله أو فى الارض اشارة الى الظلمات فان جوف الارض أظلم الاماكن وقوله يأت بها الله أبلغ من قول القائل يعلمها الله لان من يظهر له الشئ ولا يقدر على اظهاره لغيره يكون حاله فى العلم دون حال من يظهر له الشئ ويظهره لغيره فقوله يأت بها الله أى يظهرها الله للشهاد وقوله ان الله لطيف أى نافذ القدرة خبير أى عالم بواطن الامور ﴿ ثم قال تعالى ﴿ يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور ﴾ لما منعه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته أمره بما يلزم من التوحيد وهو الصلاة وهى العبادة لوجه الله مخلصا وبهذا يعلم أن الصلاة كانت فى سائر الملل غير أن هيئتها اختلفت ﴿ ثم قال تعالى وأمر بالمعروف وانه عن المنكر أى اذا كملت أنت فى نفسك بعبادة الله فكمل غيرك فان شغل الانبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا فى أنفسهم ويكملوا غيرهم ﴿ فان قال قائل كيف قدم فى وصيته لابنه الامر بالمعروف على النهى عن المنكر وقبل قدم النهى عن المنكر على الامر بالمعروف فانه أول ما قال يا بنى لا تشرك بالله ثم قال يا بنى أقم الصلاة ﴿ فنقول هو كان يعلم من ابنه أنه معترف بوجود الله فما أمره بهذا المعروف ونهاه عن المنكر الذى يترتب على هذا المعروف فان المشرك بالله لا يكون نافيا لله فى الاعتقاد وان كان يلزمه نفيه بالدليل فكان كل معروف فى مقابلته منكر والمعروف فى معرفة الله اعتقاد وجوده والمنكر اعتقاد وجود غيره معه فلم يأمره بذلك المعروف لحصوله ونهاه عن المنكر لانه ورد فى التفسير أن ابنه كان مشركا فوعظه ولم ينزل بعظته حتى أسلم وأما ههنا فأمره أمرا مطلقا والمعروف مقدم على المنكر ثم قال تعالى واصبر على ما أصابك يعنى ان من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذى فأمره بالصبر عليه وقوله ان ذلك من عزم الامور أى من الامور الواجبة المعزومة أى المقطوعة ويكون المصدر بمعنى المفعول كما تقول أكلى فى النهار وغيف خبرا أى مأكولى ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الارض مرحا ان الله لا يحب

كل مختال فخور ﴿ لما أمره بالصبر على ما يناله من الناس أمره بالتواضع وترك الكبر والصعر الاعراض بالوجه عن الناس كبرا والصعر داء يأخذ الابل فى أعناقها فتلوى أعناقها والمرح شدة الفرح والبطر والاختيال والفخر التكبر على الناس بما أوتى من مال أو جاه أو علم ﴿ ثم قال تعالى ﴿ واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الاصوات لصوت الحمير ﴾ القصد التوسط بين الاسراع والابطاء والغض النقص يقال غض من صوته وطرفه أى نقص والمعنى لا ترفع صوتك فى كلامك فان رفع الصوت لا يزيد فى المروءة شيئا وقد يكون رفع الصوت سببا للمكروه كما قال تعالى ﴿ ان أنكر الاصوات لصوت الحمير ﴾ أى أوحشها وأقبحها وأبعدها عن الفهم وعن الحسن أن رجلا قال له انك رجل صالح فلم لا يجيبك ربك فقال لانى عصيته فى ثلاث آيات فى قوله ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ دعوته فلم يستجب لى وقوله ﴿ وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه ﴾ فلم أجد خلفا وقوله ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ﴾ فلم أدع تضرعا ولا خفية

سورة السجدة

مكية وهى ثلاثون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ ﴿ الم ﴾ قد تقدم الكلام فى أمثاله ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ لا ريب فيه ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف أى هو تنزيل الكتاب ﴿ من رب العالمين ﴾ متعلق بتنزيل أو بمحذوف هو حال من الضمير فى فيه أو من الكتاب أو خبر ثان ﴿ أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾ أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها الانكار والتوبيخ أى بل أيقولون افتراه محمد ﴿ بل هو الحق من ربك ﴾ أضرب عن قولهم وأثبت أنه الحق من ربه ﴿ لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ وهم العرب وما أتاهم نذير من قبله فى زمن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ بانذارك ﴿ الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ ﴿ الله ﴾ مبتدأ ﴿ الذى خلق السموات والارض ﴾ خبره ﴿ ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع ﴾ استئناف ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ بادغام التاء فى الذال ﴿ يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ ﴿ يدبر الامر ﴾ يقضى أمر الخلق ﴿ من السماء الى الارض ﴾ ينزل به ﴿ ثم يعرج اليه ﴾ ثم يصعد اليه ما دبر فيه ﴿ فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ من سنى الدنيا لان مسافة ما بين السماء والارض مسيرة خمسمائة عام نزولا وخمسمائة عام صعودا وقيل يدبر أمر الدنيا الى انقضائها ثم يعرج اليه أمرها يوم القيامة فيكون ذلك اليوم مقداره ألف سنة من أيامكم هذه

سببا) أى طريقا تالتا معترضا بين المشرق والمغرب آخذا من الجنوب الى الشمال (حتى اذا بلغ بين السدين) بين الجبلين اللذين سد مابينهما وهو منقطع أرض الترك مما يلى المشرق لا جبلا أرمينية واذربيجان كما توهم وقرئ بالضم قيل ما كان من خلق الله تعالى فهو مضموم وما كان من عمل الخلق فهو مفتوح وانتصاب بين على المفعولية لانه مبلوغ ٥٧٩ وهو من الظروف التى تستعمل

كل مختال فخور ﴿ لما أمره بأن يكون كاملا فى نفسه مكملا لغيره وكان يخشى بعد هما من أمرين (أحدهما) التكبر على الغير بسبب كونه مكملا له (والثانى) التجبر فى النفس بسبب كونه كاملا فى نفسه فقال ولا تصعر خدك للناس تكبرا ولا تمش فى الارض مرحا تجبرا ان الله لا يحب كل مختال يعنى من يكون مفتخرا بنفسه وهو الذى يرى الناس عظمة نفسه وهو التكبر فخور يعنى من يكون مفتخرا بنفسه وهو الذى يرى عظمة لنفسه فى عينه وفى الآية لطيفة وهو أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال أقم الصلاة ثم قال وأمر بالمعروف وفى النهى قدم ما يورثه التكميل على ما يورثه الكمال حيث قال ولا تصعر خدك ثم قال ولا تمش فى الارض مرحا لان فى طرف الاثبات من لا يكون كاملا لا يمكن أن يصير مكملا فقدم الكمال وفى طرف النفى من يكون متكبرا على غيره يكون صيحتبرا لانه لا يتكبر على الغير الا عند اعتقاده أنه أكبر منه من وجه وأما من يكون متجبرا فى نفسه فقد لا يتكبر و يتواضع للناس فقدم نفى التكبر ثم نفى التجبر لانه لو قدم نفى التجبر لازم منه نفى التكبر فلا يحتاج الى النهى عنه ومثاله أنه لا يجوز أن يقال لا تفطر ولا تأكل لان من لا يفطر لا يأكل و يجوز أن يقال لا تأكل ولا تفطر لان من لا يأكل قد يفطر بغير الاكل ولقائل أن يقول ان مثل هذا الكلام يكون للتفسير فيقول لا تفطر ولا تأكل أى لا تفطر بأن تأكل ولا يكون نهيين بل واحدا ﴿ ثم قال تعالى ﴾ واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الاصوات لصوت الحمير ﴿ لما قال ولا تمش فى الارض مرحا وعدم ذلك قد يكون بعده وهو الذى يخالف غاية الاختلاف وهو مشى المتماوت الذى يرى من نفسه الضعف تزهدا فقال واقصد فى مشيك أى كن وسطا بين الطرفين المذمومين وفى الآية مسائل (الاولى) هل للامر بالغض من الصوت مناسبة مع الامر بالقصد فى المشى فنقول نعم سواء علمنا ما نحن أولم نعلمها وفى كلام الله من الفوائد ما لا يحصره حد ولا يحصيه عد ولا يعلمه واحد والذى يظهر وجوه (الاول) هو أن الانسان لما كان شريفا تكون مطالبه شريفة فيكون فواتها خطرا فاقدر الله الانسان على تحصيلها بالمشى فان عجز عن ادراك مقصوده ينادى مطلوبه فيقف له أو يأتيه مشيا اليه فان عجز عن ابلاغ كلامه اليه يكتب اليه و بعض الحيوانات يشارك الانسان فى تحصيل المطلوب بالصوت كما أن الغنم تطلب السخلة والبقرة الجعل والناقة الفصيل بالثغاء والخوار والرغاء ولكن لا تتعدى الى غيرها والانسان يميز البعض عن البعض فاذا كان المشى والصوت مفضيين الى مقصود واحد لما أرشده الى أحدهما أرشده الى الآخر (الثانى) هو أن الانسان له آلة أشياء عمل بالجوارح يشاركه فيه الحيوانات فانه حركة وسكون وقول بالسان ولا يشاركه فيه غيره وعزم بالقلب وهو لا اطلاع عليه الا الله وقد أشار اليه بقوله انها ان تك مثقال حبة من خردل أى أصلح شيء برك فان الله خبير بنى الامر ان فقال واقصد فى مشيك واغضض من صوتك أشار الى التوسط فى الافعال والاقوال (الثالث) هو أن لقمان أراد ارشاد ابنه الى السداد فى الاوصاف الانسانية والاوصاف التى هى للملك الذى هو أعلى مرتبة منه والاوصاف التى للحيوان الذى هو أدنى مرتبة منه فقوله وأمر بالمعروف وانه عن المنكر اشارة الى المكارم المختصة بالانسان فان الملك لا أمر له ملكا آخر بشيء ولا نهاه عن شيء وقوله ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الارض مرحا الذى هو اشارة الى عدم التكبر والتجبر اشارة الى المكارم التى هى صفة الملائكة فان عدم التكبر والتجبر صفتهم وقوله واقصد فى مشيك واغضض من صوتك اشارة الى المكارم التى هى صفة الحيوان * ثم قال تعالى ان أنكر الاصوات لصوت الحمير وفيه مسائل (الاولى) لم ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشى نقول اما على قولنا ان المشى والصوت كلاهما موصلان الى شخص

والصقالبة وياجوج ومأجوج (قالوا) أى بواسطة مترجمهم أو بالذات على أن يكون فهم ذى القرنين كلاما مهم وافهامه كلاما ياهم من جملة ما آتاه الله تعالى من الاسباب (يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج) قد ذكرنا أنهما من أولاد يافث بن نوح عليه السلام وقيل ياجوج من الترك ومأجوج من الجيل واختلف فى صفاتهم فقيل فى غاية صغر الجثة وقصر القامة لا يزيد قدهم على شبر واحد

أسماء أيضا كما ارتفع فى قوله تعالى لقد تقطع بينكم وانجر فى قوله تعالى هذا فراق بينى و بينك (وجد من دونهما) أى من ورائهما بحاوزا عنهما (قوما) أى أمة من الناس (لا يكادون يفقهون قولا) لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم وقرئ من باب الافعال أى لا يفهمون السامع كلامهم واختلفوا فى أنهم من أى الاقوام فقال الضحاك هم جيل من الترك وقال السدى الترك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجة فجميع الترك منهم وعن قتادة أنهم اثنتان وعشرون قبيلة سد ذو القرنين على احدى وعشرين قبيلة منهم و بقيت واحدة فسموا الترك لانهم تركوا خارجين قال أهل التاريخ أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام و يافث قسم أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة و يافث أبو الترك والخزر

وقيل في نهاية عظم الجسم وطول القامة تسلع قدودهم ستون مائة وعشرين ذراعا وفيهم من عرضه كذلك وقيل لهم مخالب وأضراس كالسباع وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف وقيل عربيان من أج الظليم اذا أسرع وأصلهما الهمز كما قرأ عاصم وقد قرئ بغير همز ومنع صرفهما للتعريف ٥٨٠ والتأنيث (مفسدون في الارض) أي في أرضنا بالقتل والتخريب واتلاف الزروع قيل

اعطاكموه ان أدركه بالمشي اليه ذلك والافهو وقفه بالنداء فقيل رفع الصوت يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوة وربما يخرق الغشاء الذي داخل الاذن وأما السرعة في المشي فلا تؤذي أو ان كانت تؤذي فلا تؤذي غير من في طريقه والصوت بلغ من على اليمين واليسار ولان المشي يؤذي آلة المشي والصوت يؤذي آلة السمع وآلة السمع على باب القلب فان الكلام ينتقل من السمع الى القلب ولا كذلك المشي وأما على قولنا الاشارة بالمشي والصوت الى الافعال والاقوال فلان القول قبيحه أقبح من قبيح الفعل وحسنه أحسن لان اللسان ترجمان القلب والاعتبار يصحح الدعوى ﴿المسئلة الثانية﴾ كيف يفهم كونه أنكر مع أن مس المنشار بالمبرد وحت الضاس بالمدية أشد تنفيرا ونقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان المراد ان أنكر أصوات الحيوانات صوت الحمير فلأجل ذكر تم وما ذكرتم في أكثر الامر لمصلحة وعمارة فلا ينكر بخلاف صوت الحمير وهذا هو الجواب الثاني ﴿المسئلة الثالثة﴾ أنكر هو أفعل التفضيل فمن أي باب هو نقول يحتمل أن يكون من باب أطوع له من بنانه بمعنى أشد طاعة فان أفعل لا يبنى الا من فعل ولا في مفعول ولا في باب العيوب الا ما شذ كقولهم أطوع من كذا للتفضيل على المطيع وأشغل من ذات النحيين للتفضيل على المشغول وأحمق من فلان من باب العيوب وعلى هذا فهو في باب أفعل كأشغل في باب مفعول فيكون للتفضيل على المنكر أو نقول هو من باب اشغل ما أخوذا من نكر الشيء فهو منكر وهذا أنكر منه وعلى هذا فلا معنى لطف وهو أن كل حيوان قد يفهم من صوته بأنه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير أو غيره ذلك والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح ولو قتل لا يصيح وفي بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وبينهما فصوته منكور ويمكن أن يقال هو من نكير كالجدير من جدير ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ لما استدل بقوله تعالى خلق السموات بغير عمد على الوحدانية وبين بحكاية لقمان ان معرفة ذلك غير مختصة بالنبوة بل ذلك موافق للحكمة وما جاء به النبي عليه السلام من التوحيد والصلاة ومكارم الاخلاق كلها حكمة بالغة ولو كان تعبدا محضا لالزم قبوله فضلا عن انه على وفق الحكمة استدل على الوحدانية بالنعمة لانا بينا مرارا ان الملك يخدم لمظلمته وان لم ينعم ويخدم لنعمته أيضا فلما بين انها المعبود لعظمته بخلقه السموات بلا عمد والقائه في الارض الرواسي وذكر بعض النعم بقوله وأنزلنا من السماء ماء ذكر بعده عامة النعم فقال سخر لكم ما في السموات أي سخر لاجلكم ما في السموات فان الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله وفيها فوائد لعباده وسخر ما في الارض لاجل عباده وقوله وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وهي ما في الاعضاء من السلامة وباطنة وهي ما في القوى فان المضر ظاهر وفيه قوة باطنة لا ترى أن العين والاذن تضعف وتضر وف ظاهر واللسان والانف لهم وعظم ظاهر وفي كل واحد معنى باطن من الابصار والسمع والذوق والشم وكذلك كل عضو وقد تبطل القوة وتبقى المضرة فاما وهذا أحسن عما قيل فان على هذا الوجه يكون الاستدلال بنعمة الآفاق وبنعمة الانفس فقوله ما في السموات وما في الارض يكون اشارة الى النعم الآفاقية وقوله وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة يكون اشارة الى النعم الانفسية وفيهما أقوال كثيرة مذكورة في جميع كتب التفاسير ولا بعد أن يكون ما ذكرنا مقولا وان لم يكن فلا يخرج من أن يكون مأثما عظيما ثم قال تعالى ومن الناس من يجادل في الله بمعنى لما ثبتت الواحدانية بالخلق والانعام فمن الناس من يجادل في الله ويثبت غيرا أما لها أو منعما بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير هذه أمور ثلاثة مرتبة العلم والهدى والكتاب والعلم أعلى من الهدى والهدى من الكتاب

قيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون أخضر الا أكلوه ولا يابسا الا احتملوه وقيل كانوا يأكلون الناس أيضا (فهل نجعل لك خرجا) أي جعلا من أموالنا والفاء لتفريع العرض على افسادهم في الارض وقرئ خراجا وكلاهما واحد كالنول والنوال وقيل الخراج ما على الارض والذمة والخرج المصدر وقيل الخرج ما كان على رأس والخراج ما كان على البلد وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك أداؤه (على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) وقرئ بالضم (قال ما مكني) بالادغام وقرئ با لفك أي ما مكنني (فيه ربي) وجعلني فيه مكينا قادرا من الملك والمال وسائر الاسباب (خير) أي مما تريدون أن تبذلوه لي من الخرج فلا حاجة بي اليه (فأعينوني بقوة) أي بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل وبآلات لابد منها في البناء والفاء لتفريع الامر بالاعانة على خير به ما مكنه الله تعالى فيه من مالهم أو على عدم قبول خرجهم (أجعل) جواب للامر (بينكم وبينهم) تقديم اضافة الظرف الى ضمير المخاطبين على اضافته الى ضمير الغيبة للايجاز والاحتراز لاظهار كمال العناية بمصالحهم كما راعوه في قولهم بيننا وبينهم (ردما) أي حاجزا حصينا وبرزخا متينا وهو أكبر من السد وأوثق يقال ثوب مردم أي فيه رقاع فوق رقاع وهذا السد الذي بناه

فوق ما يرجونه (آتوني زبر الحديد) جمع زبرة كغرفة في غرفة وهي القطعة الكبيرة وهذا الإيتاء في ردم خراجهم لان المأمور به الايتاء بالثمن أو المناولة كما ينبئ عنه القراءة بوصل الهمزة أي جيئوني بزبر الحديد على حذف الباء كما في أمرتك الخير ولان ايتاءه الآلة من قبيل الاعانة بالقوة دون الخراج على العمل ولعل تخصيص الامر بالايتاء ٥٨١ بهادون سائر الآلات من الصفور والحطب

و بيانه هو ان العلم تدخل فيه الاشياء الواضحة اللائحة التي تعلم من غير هداية هادية ثم الهدى يدخل فيه الذي يكون في كتاب والذي يكون من الهام و وحي فقال تعالى يجادل ذلك الجادل لا من علم واضح ولا من هدى أتاه من هاد ولا من كتاب وكأن الاول اشارة الى من أوتي من لدنه علما كما قال تعالى وعلمك ما لم تكن تعلم والثاني اشارة الى مرتبة من هدى الى صراط مستقيم بواسطة كما قال تعالى علمه شديد القوى والثالث اشارة الى مرتبة من اهتدى بواسطتين ولهذا قال تعالى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين وقال في هذه السورة هدى ورحمة للمحسنين وقال في السجدة ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل فالكتاب هدى لقوم النبي عليه السلام والنبي هداه من الله تعالى من غير واسطة أو بواسطة الروح الامين فقال تعالى يجادل من يجادل لا بعلم آتيناه من لدنا كشقاق لا يهدى أرسلنا ما اليه وحيا ولا بكتاب ينتمي عليه وعظائم فيه لطيفة أخرى وهو انه تعالى قال في الكتاب ولا كتاب منير لان الجادل منه من كان يجادل عن كتاب ولكن محرف مثل التوراة بعد التحريف فلو قال ولا كتاب لكان اقائل أن يقول لا يجادل من غير كتاب فان بعض ما يقولون فهو في كتابهم ولان المجوس والنصارى يقولون بالتثنية والتثليث عن كتابهم فقال ولا كتاب منير فان ذلك الكتاب مظلم ولم يحتمل في المرتبة الاولى والثانية التحريف والتبديل لم يقل بغير علم ولا بهدى منير أو حق أو غير ذلك ﴿ ثم قال تعالى ﴿ واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ بين أن مجادلتهم مع كونها من غير علم فهي في غاية القبح فان النبي عليه السلام يدعوهم الى كلام الله وهم يأخذون بكلام آبائهم وبين كلام الله تعالى وكلام العلماء بون عظيم فكيف ما بين كلام الله وكلام الجهلاء ثم ان ههنا شيئا آخر وهو أنهم قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا يعني نترك القول النازل من الله ونتبع الفعل والقول أدل من الفعل لان الفعل يحتمل أن يكون جائزا ويحتمل أن يكون حراما وهم تعاطوه ويحتمل أن يكون واجبا في اعتقادهم والقول بين الدلالة فلو سمعنا قول قائل افعل ورأينا فعله يدل على خلاف قوله لكان الواجب الاخذ بالقول فكيف والقول من الله والفعل من الجهال ﴿ ثم قال تعالى ﴿ أولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير ﴾ استفهما على سبيل التعجب في الانكار يعني الشيطان يدعوهم الى العذاب والله يدعوهم الى الثواب وهم مع هذا يتبعون الشيطان ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور ﴾ لما بين حال المشرك والجادل في الله بين حال المسلم المستسلم لامر الله فقوله ومن يسلم وجهه الى الله اشارة الى الايمان وقوله وهو محسن اشارة الى العمل الصالح فتكون الآية في معنى قوله تعالى من آمن وعمل صالحا وقوله فقد استمسك بالعروة الوثقى أي تمسك بحبل لا انقطاع له وترقى بسببه الى أعلى المقامات وفي الآية مسائل ﴿ (الاولى) ﴾ قال ههنا ومن يسلم وجهه الى الله وقال في سورة البقرة بلى من أسلم وجهه لله فمعنى ههنا بالى وهناك باللام قال الزمخشري معنى قوله أسلم لله أي جعل نفسه سلما أي خالصا والوجه يعني النفس والذات ومعنى قوله يسلم وجهه الى الله يسلم نفسه في الله كما يسلم واحد متاعا الى غيره ولم يزد على هذا ويمكن ان يزاد عليه ويقال من أسلم لله أعلى درجة ممن يسلم الى الله لان الى للغاية واللام للاختصاص يقول القائل أسلمت وجهي اليك أي توجهت نحوك وينبئ هذا عن عدم الوصول لان التوجه الى الشيء قبل الوصول وقوله أسلمت وجهي لك يفيد الاختصاص ولا ينبئ عن الغاية التي تدل على المسافة وقطعها للوصول اذا علم هذا فنقول في البقرة قالت اليهود والنصارى لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى فقال الله ردا عليهم تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ثم بين فساد قولهم بقوله تعالى بلى من أسلم وجهه لله أي

وبنحوهما لما أن الحاجة اليهما أمس اذهي الركن في السند ووجودها أعز قيل حفر للاساس حتى بلغ الماء وجعل الاساس من الصخر والخساس الخشب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين الى أعلاهما وكان مائة فرسخ وذلك قوله عز قائلا (حتى اذا ساوى بين الصدفين) أي آتوه اياها فأخذ يبني شيأ فشيأ حتى اذا جعل ما بين ناحيتي الجبلين من البنيان مساويا لما في السمك على التفح المحكي قيل كان ارتفاعه مائتي ذراع وعرضه خمسين ذراعا وقرئ سوى من التسوية وسوى على البناء للمفعول (قال) للعملة (انفخوا) أي بالكيران في الحديد المبني ففعلوا (حتى اذا جعله) أي المنفوخ فيه (نارا) أي كالنار في الحرارة والهيئة واسناد الجعل المذكور الى ذي القرنين مع انه فعل الفعلة للتنبيه على انه العمدة في ذلك وهم بمنزلة الآلة (قال) للذين يتولون أمر

النحاس من الاذابة ونحوها (آتوني أفرغ عليه قطرا) أي آتوني قطرا أي نحاسا مذابا أفرغ عليه قطرا فحذف الاول لدلالة الثاني عليه وقرئ بالوصل أي جيئوني كأنه يستدعيهم للاعانة باليد عند الافراغ واسناد الافراغ الى نفسه للسر الذي وقفت عليه آنفا وكذا الكلام في قوله تعالى ساوى وقوله تعالى أجعل (فما اسطاعوا) حذف تاء الافتعال تخفيفا وحذرا عن تلاقي المتقاربين وقرئ بالادغام

وفيه جمع بين الساكنين على غير حده وقرئ بقلب السين صادا وبالفاء قصيعة أي فعلوا ما أمروا به من ابتناء القطر أو الاتيان فأفرغه عليه فاخلط والتصق بعضه ببعض فصار جبلا صلدا فغاروا بأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه ويثقبوه فما استطاعوا (أن يظهروه) أي يعلوه ويرقوا فيه لارتفاعه وملاسته (وما استطاعوا له نقبا) لصلابته وثخانته وهذه معجزة عظيمة لان تلك الزبر الكثيرة اذا أثرت فيها حرارة النار لا يقدر الحيوان على أن يحوم حولها فضلا عن النفخ فيها الى أن تكون كالنار أو عن افراغ القطر عليها فكأنه سبحانه وتعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك الملايين بل الاعمال فكان ما كان والله على كل شئ قدير وقيل بناه من الصخور مرتبطا بعضها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذاب في تجاويفها بحيث لم يبق هناك فرجة أصلا (قال) أي ذو القرنين لمن عنده من أهل تلك الديار وغيرهم (هذا) اشارة الى السد وقيل الى تمكينه من بنائه والفضل للمتقدم أي هذا الذي ظهر على يدي وحصل بمباشرتي من السد الذي شأنه ماذكر من الاعانة وصعوبة المنال (رحمة) أي أثر رحمة عظيمة عبر عنه بها مبالغة (من ربي) على كافة العباد لاسيما على مجاوريه وفيه ايذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة بل هو احسان الهي محض وأن ظهر بمباشرتي والتعرض لوصف الربوبية لتربية معنى الرحمة (فاذا جاء وعد ربي) مصدر بمعنى المفعول وهو يوم القيامة لا خروج يأجوج ومأجوج كما قيل اذ لا يساعده النظم الكريم والمراد بمجيئه ما ينظم مجيء عباده من خروجهم وخروج الدجال ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام ونحو ذلك لا دنو وقوعه فقط كما قيل فان بعض الامور التي ستحكى يقع بعد مجيئه حقا (جعله) دون

أنتم مع أنكم تتركون الله للدنيا وتولون عنه للباطل وتشترون بآياته ثمنا قليلا لتدخلون ومن كان بكلمته لا بد خلها هذا كلام باطل فأورد عليهم من أسلم الله ولا شك أن النقض بالصورة التي هي ألزم أولى فأورد عليهم الخاص الذي ليس له أمر الا الله وقال أنتم تدخلون الجنة وهذا لا بد خلها ثم بين كذبهم وقال بلى وبين أن له فوق الجنة درجة وهي العندية بقوله فله أجره عند ربه وأما ههنا أراد وعد المحسن بالثواب والوصول الى الدرجة العالية فوعده من هو دونه ليدخل فيه من هو فوقه بالطريق الاولى وبيع الوعد وهذا من الفوائد الجليلة ﴿ثم قال﴾ تعالى ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أوثق العرى جانب الله لان كل ما عداه هالك منقطع وهو باق لا انقطاع له ﴿ثم قال تعالى ﴿والى الله عاقبة الامور﴾ يعني استمسك بعروة توصله الى الله وكل شئ عاقبته اليه فاذا حصل في الحال ما الله عاقبته تكون عاقبته في غاية الحسن وذلك لان من يعلم أن عاقبة الامور الى واحد تم يقدم اليه الهدايا قبل الوصول اليه يجد فائدته عند القدوم عليه والى هذا وقعت الاشارة بقوله وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله ﴿ثم قال تعالى ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليم بذات الصدور نقتصهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ﴾ لما بين حال المسلم رجع الى بيان حال الكافر فقال ومن كفر فلا يحزنك أي لا تحزن اذا كفر كافر فان من يكذب وهو قاطع بأن صدقه يتبين عن قريب لا يحزن بل قد يوثب المكذب على الزيادة في التكذيب اذا لم يكن من الهداة أو يكون المكذب من العداة فيجعله غاية التجميل وأما اذا كان لامر جوطهور صدقه بتألم من التكذيب فقال فلا يحزنك كفره فان المرجع الينا فأنبئهم بما عملوا فيجعلون وقوله ان الله عليم بذات الصدور أي لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم فننبئهم بما أضمرته صدورهم وذات الصدور هي المهلك ثم ان الله تعالى فصل ما ذكر زيادة وقال نمتعهم قليلا أي نتأوهم مدة قليلة ثم بين لهم وبال تكذيبهم وكفرهم بقوله ثم نضطرهم أي نسلط عليهم أغلظ عذاب حتى يدخلوا بأنفسهم عذابا غليظا فيضطرون الى عذاب النار فرارا من الملائكة الغلاظ الشداد الذين يسلطونهم بمقامع من نار وفيه وجه آخر لطيف وهو أنهم لما كذبوا الرسل ثم بين لهم الامر وقع عليهم من الخجالة ما يدخلون النار ولا يختارون الوقوف بين يدي ربهم بمعضرة الانبياء وهو يتحقق بقوله تعالى فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ﴿ثم قال تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ الآية متعلقة بما قبلها من وجهين (أحدهما) انه تعالى لما استدل بخلق السموات بغير عمد ونعمها الظاهرة والباطنة بين انهم معترفون بذلك غير منكرين له وهذا يقتضي أن يكون الحمد كله لله لان خالق السموات والارض يحتاج اليه كل ما في السموات والارض وكون الحمد كله لله يقتضي أن لا يعبد غيره لكنهم لا يعلمون هذا (والثاني) ان الله تعالى لما سلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم أي لا تحزن على تكذيبهم فان صدقك وكذبهم يتبين عن قريب عند رجوعهم الينا قال وليس لا يتبين الا ذلك اليوم بل هو يتبين قبل يوم القيامة لانهم معترفون بأن خالق السموات والارض من الله وهذا يصدقك في دعوى الوحدانية ويبين كذبهم في الاشراك فقل الحمد لله على ظهور صدقك وكذب مكذبك بل أكثرهم لا يعلمون أي ليس لهم علم عندهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك وعلى هذا يكون لا يعلمون استئنافا لا فاصلا مع القطع عن المفعول بالكلية كما يقول القائل فلان يعطي ويمنع ولا يكون في ضميره من يعطي بل يريد ان له عطاء ومنعا فكذلك ههنا قال لا يعلمون أي ليس لهم علم وعلى الاول يكون لا يعلمون له مفعول مفهوم وهو أنهم لا يعلمون ان الحمد كله لله والثاني أبلغ لان قول القائل فلان لا علم له بكذا

أي السد المشار اليه مع متانته ورصانته وفيه من الدلالة ما ليس في توجيه الاشارة السابقة الى التمكين المذكور (دكاء) أي أرضا مستوية وقرئ دكا أي مدكوكا مسوى بالارض وكل ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندك ومنه الجمل الادك أي المنبسط السنام وهذا الجعل وقت مجيء الوعد يجعي ببعض مباديه وفيه بيان لعظم قدرته عز وجل بعد بيان سعة رحمته ٥٨٣ (وكان وعد ربي) أي وعده المعهود أو كل ما وعد به فيدخل فيه ذلك دخولا أوليا (حقا) ثابتا لا محالة واقعا البتة وهذه الجملة تذييل من ذي القرنين لما ذكره من الجملة الشرطية ومقرر مؤكد لمضمونها وهو آخر ما حكي من قصته وقوله عز وجل (وتركنا بعضهم) كلام مسوق من جنابه تعالى معطوف على قوله تعالى جعله دكا وموحقق لمضمونه أي جعلنا بعض الخلائق (يومئذ) أي يوم اذ جاء الوعد يجعي ببعض مباديه (يموج في بعض) آخر منهم يضطربون اضطراب أمواج البحر ويختلط انسهم وجنهم حيارى من شدة الهول ولعل ذلك قبل النفخة الاولى أو تركنا بعض يأجوج ومأجوج يموج في بعض آخر منهم حين يخرجون من السد مزدحمين في البلاد روى انهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ومن ظفر وابه من لم يتحصن منهم من الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ثم يبعث الله عز وجل نغفا في أقفائهم فيدخل آذانهم فيموتون موت نفس واحدة فيرسل الله تعالى عليهم طيرا فتلقيهم في البحر ثم يرسل مطرا يغسل الارض ويطهرها من زهمهم حتى يتركها كالزلفة ثم يوضع فيها البركة وذلك بعد نزول عيسى عليه الصلاة والسلام وقتل الدجال (ونفخ في الصور) هي النفخة الثانية بقضية الفاء في قوله تعالى (فجمعناهم) ولعل عدم التعرض لذكر النفخة الاولى لانها داهية عامة ليس فيها الا تختصة

دون قوله فلان لا علم له وكذا قوله فلان لا ينفع زيدا ولا يضره دون قوله فلان لا يضر ولا ينفع ﴿ثم قال تعالى ﴿لله ما في السموات والارض ان الله هو الغني الحميد﴾ ذكر بما يلزم منه وهو أنه يكون له ما فيهما والامر كذلك عقلا وشرعا أما عقلا فلان ما في السموات المخلوقة مخلوق واضافة خلقه الى من منه خلق السموات والارض لازم عقلا لانها ممكنة والممكن لا يقع ولا يوجد الا بواجب من غير واسطة كما هو مذهب أهل السنة أو بواسطة كما يقوله غيرهم وكيفما فرض فكله من الله لان سبب السبب سبب وأما شرعا فلان من يملك أرضا وحصل منها شيء مما يكون ذلك المالك الارض فكذلك كل ما في السموات والارض حاصل فيهما ومنهما وهو لمالك السموات والارض واذا كان الامر كذلك تحقق ان الحمد كله لله ثم قوله تعالى بيان الله هو الغني الحميد فيه معان لطيفة (أحدها) ان الكل لله وهو غير محتاج اليه غير منتفع به وفيه امتنان فهي لكم خلقها وهو غني لعدم حاجته حميد مشكور لدفعه محوائجكم بها (وثانيها) أن بعد ذكر الدلائل على ان الحمد كله لله ولا تصح العبادة الا لله افترق الكافرون فريقين مؤمن وكافر والكافر لم يحمد الله والمؤمن حمده فقال انه غني عن حمد الحامدين فلا يلحقه نقص بسبب كفر الكافرين وحميد في نفسه فيثيب به اصابة المؤمنين وتكمل بحمده الحامدون (وثالثها) هو أن السموات وما فيها والارض وما فيها اذا كانت لله ومخلوقة له فالكل محتاجون فلا غني الا الله فهو الغني المطلق وكل محتاج فهو حامد لاحتياجه الى من يدفع حاجته فلا يكون الحميد المطلق الا الغني المطلق فهو الحميد وعلى هذا الحميد بمعنى المحمود والله اذا قيل له الحمد لا يكون معناه الا الواصف أي وصف نفسه أو عباده بأوصاف حميدة وان قيل له احمد يحتمل ذلك المعنى ويحتمل كونه عابدا شاكرا له ﴿ثم قال تعالى ﴿ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ لما قال تعالى لله ما في السموات والارض وكان ذلك موهما لتناهي ملكه لانحصار ما في السموات وما في الارض فيهما وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين أن في قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها فقال ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام ويكتب بها والابحر مداد لا تفنى عجائب صنع الله وعلى هذا فالكلمة مفسرة بالهيئة ووجهها ان العجائب بقوله كن وكن كلمة واطلاق اسم السبب على المسبب جائز بقول الشجاع لمن يمارزه أنا مرتطك ويقال للواعظ حق المريض هذا شفاؤك ودليل صحة هذا هو أن الله تعالى سمى المسيح كلمة لانه كان أمرا عجيبا وصنعا غريبا لوجوده من غير أب فان قال قائل الآية واردة في اليهود حيث قالوا لله أكثر كل شيء في التوراة ولم يبق شيء لم يذكره فقال الذي في التوراة بالنسبة الى كلام الله تعالى ليس الا قطرة من بحار وأنزل هذه الآية وقيل أيضا انها نزلت في واحد قال للنبي عليه السلام انك تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا وهو تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا فنزلت الآية دالة على انه خير كثير بالنسبة الى العباد وبالنسبة الى الله وعلومه قليل وقيل أيضا انها نزلت ردا على الكفار حيث قالوا ان ما ورد محمد سينفد فقال انه كلام الله وهو لا ينفد وما ذكر من أسباب النزول ينافي ما ذكرتم من التفسير لانها تدل على أن المراد الكلام فنقول ما ذكرتم من اختلاف الاقوال فيه يدل على جواز ما ذكرنا لانه اذا صلح بعضها لهذه الاشياء التي ذكرتموها فهو لمتناهية علم انها عامة وما ذكرنا لا ينافي هذا لان كلام الله عجيب معجز لا يقدر أحد على الاتيان بمثله واذا قلنا بأن عجائب الله لا نهاية لها دخل فيها كلامه لا يقال انك جعلت الكلام مخلوقا لانا نقول المخلوق هو الحرف والتركيب وهو عجيب وأما الكلمات فهي من صفات الله تعالى واعلم ان الآية وان كانت نازلة على ترتيب غير الذي هو مكتوب ولكن الترتيب المكتوب عليه القرآن بأمر الله فانه بأمر الرسول كتب كذا وأمر الرسول من أمر

بالكفار والمثلا يقع الفصل بين ما يقع في النشأة الاولى من الاحوال والاهوال وبين ما يقع منها في النشأة الآخرة أي جمعنا الخلائق بعد ما تفرقت أوصالهم وتمزقت أجسادهم في صعيد واحد للحساب والجزاء (جمعا) أي جمعا عجيبا لا يكتنه كنهه (وعرضنا جهنم) أي أظهرناها وأبرزناها (يومئذ) أي يوم اذ جمعنا الخلائق كافة (للكافرين) منهم حيث جعلناها بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظا وزفيرا (عرضا) أي عرضا فظيعا هائلا لا يقادر قدره وتخصيص العرض بهم مع أنها يراى من أهل الجمع قاطبة لان ذلك لاجلهم خاصة (الذين كانت أعينهم) وهم في الدنيا (في غطاء) كثيف وغشاوة غليظة مما طة بذلك من جميع الجوانب (عن ذكري) عن الآيات المؤدية لاولى الابصار المتدبرين فيها الاذكرى بالتوحيد والتمجيد أو كانت أعين بصائرهم في غطاء عن ذكري على وجه يليق بشأني أو عن القرآن الكريم (وكانوا) مع ذلك (لا يستطيعون) لفرط تصامهم عن الحق وكمال عداوتهم للرسول عليه الصلاة والسلام (سمعا) استئنافا كالذكري وكلامي الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهذا تمثيل لاعراضهم عن الادلة السمعية كما أن الاول قصور بليغ لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالابصار والموصول نعت للكافرين أو بدل منه

بيان جي به لتنهيم عما في حيز الصلة وللاشعار بعلية ما أصابهم من عرض جهنم لهم فان ذلك انما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم في الدنيا من الآيات واعراضهم عنها مع كونها أسبابا موجبة عما ابتلوا به في الآخرة (أفحسب الذين كفروا) أي كفروا بي كما يؤمر به عنه قوله

الله وذلك محقق متيقن من سنن الترتيب الذي فيه سم ان الآية فيها الطائف (الاولى) قال ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام وحد الشجرة وجمع الاقلام ولم يقل ولو أن ما في الارض من الاشجار أقلام ولا قال ولو أن ما في الارض من شجرة قلم اشارة الى التكثير يعني ولو أن بعدد كل شجرة أقلاما (الثانية) قوله والبحر عمده تعريف البحر باللام لاستغراق الجنس وكل بحر مداد ثم قوله يمده من بعده سبعة أبحر اشارة الى بحار غير موجودة يعني لو مدت البحار الموجودة بسبعة أبحر أخر وقوله سبعة ليس لانحصارها في سبعة وانما الاشارة الى المدد والكثرة ولو بألف بحر والسبعة خصصت بالذكر من بين الاعداد لانها عدد كثير يحصر المعدودات في العادة والذي يدل عليه وجوه (الاول) هو ان ما هو معلوم عند كل أحد لما حتة البيه هو الزمان والمكان لان المكان فيه الاجسام والزمان فيه الافعال لكن المكان محصور في سبعة أقاليم والزمان في سبعة أيام ولان الكواكب السيارة سبعة وكان المنجمون ينسبون اليها الامور فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثرات الواقعة في العادة فاستعملت في كل كثير (الثاني) هو أن الآحاد الى العشرة وهي العقد الاول وما بعده مبتدأ من الآحاد مرة أخرى فيقال أحد عشر واثنا عشر ثم المئات من العشرات والالوف من المئات اذا علم هذا فنقول أقل ما يتم منه أكثر المعدودات هو الثلاثة لانه يحتاج الى طرفين مبتدء ومنتهى ووسط ولهذا يقال أقل ما يكون الاسم والفعل منه هو ثلاثة أحرف فاذا كانت الثلاثة هو القسم الاول من العشرة التي هو العدد الاصلي تبقى السبعة القسم الاكثر فاذا أريد بيان الكثرة ذكرت السبعة ولهذا فان المعدودات في العبادات من التسبيحات في الانتقالات في الصلوات ثلاثة والمرارف الوضوء ثلاثة تيسيرا للامر على المكلف اكتفاء بالقسم الاول اذا ثبت هذا فنقول قوله عليه الصلاة والسلام المؤمن يأكل في معى والكافر يأكل في سبعة امعاء اشارة الى قلة الاكل وكثرته من غير ارادة السبعة بخصوصها ويحتمل أن يقال ان لجهنم سبعة أبواب بهذا التفسير ثم على هذا فقولنا للجنة ثمانية أبواب اشارة الى زيادتها فان فيها الحسنى وزيادة فلها أبواب كثيرة وزائدة على كثرة غيرها والذي يدل على ما ذكرنا في السبعة ان العرب عند الثامن يتركون واوا يقول القراء انها واو الثمانية وليس ذلك الا للاستئناف لان العدد بالسبعة يتم في العرف ثم بالثامن استؤنف جديد (اللطيفة الثالثة) لم يقل في الاقلام المدد لوجهين (أحدهما) هو ان قوله ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام يفيد أن المراد منه هو أن يكون بعدد كل شجرة موجودة أقلام فتكون الاقلام أكثر من الاشجار الموجودة وقوله في البحر وبحر عمده سبعة أبحر اشارة الى ان البحر لو كان أكثر من الموجود لاستوى القليل والبحر في المعنى (والثاني) هو ان الفصحاء بالكتابة يلحق المداد أكثر فانه هو النافذ والقلم الواحد يمكن ان يكتب به كتب كثيرة فذكر المدد في البحر الذي هو كالمداد ﴿ثم قال تعالى ﴿ان الله عزيز حكيم﴾ لما ذكر ان ملكوته كثير أشار الى ما يحقق ذلك فقال انه عزيز حكيم أي كامل القدرة فيكون له مقدورات لا نهاية لها لانا لا ننتهي القدرة الى حيث لا تصلح للايجاد وهو حكيم كامل العلم في علمه ما لا نهاية له فتحقق أن البحر لو كان مداد ما في علمه وقدرته ﴿ثم قال تعالى ﴿ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة﴾ لما بين كمال قدرته وعلمه ذكر ما يبطل استبعادهم للحشر وقال ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ومن لا نفاد لكلماته يقول للموتى كونوا فيكونوا ﴿ثم قال تعالى ﴿ان الله سميع بصير﴾ سميع لما يقولون بصير بما يعملون فاذا كونه قادرا على البعث محيطا بالاقوال والافعال يوجب ذلك الاجتناب التام والاحتراز الكامل ﴿ثم قال تعالى ﴿ألم تر ان الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري الى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير﴾ يحتمل أن يقال ان وجه الترتيب

تعالى عبادى والحسبان بمعنى الظن وقد قرئ أفظن والهمزة للانكار والتوبيخ على معنى انكار الواقع واستقباحه كما فى قولك أشربت أبالك لانكار الوقوع كما فى قولك أضربت أبى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه عتمة الصلة على توجيه الانكار والتوبيخ الى المعطوفين جميعا كما اذا قدر المعطوف عليه فى قوله تعالى فلا تعقلون منفيا أى ألا تسمعون فلا تعقلون ٥٨٥ لا الى المعطوف فقط كما اذا قدر مثبتا

هو ان الله تعالى لما قال ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض على وجه العموم ذكر منها بعض ما هو فيهم ما على وجه الخصوص بقوله يولج الليل فى النهار وقوله وسخر الشمس والقمر اشارة الى ما فى السموات وقوله بعد هذا ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله اشارة الى ما فى الارض ويحتمل أن يقال ان وجهه هو أن الله تعالى لما ذكر البعث وكان من الناس من يقول وما يهلكنا الا الدهر والدهر هو الليالى والايام قال الله تعالى هذه الليالى والايام التى تسمونها ألم الموت والحياة هى بقدرة الله تعالى فقال ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ثم ان قائلا لو قال ان ذلك لاختلاف مسير الشمس تارة تكون القوس التى هى فوق الارض أكثر من التى تحت الارض فيكون الليل أقصر والنهار أطول وتارة تكون بالعكس فيكون بالعكس وتارة يتساويان فيتساويان فقال تعالى وسخر الشمس والقمر يعنى ان كنتم لا تعترفون بأن هذه الاشياء كلها فى أوائلها من الله فلا بد من الاعتراف بأنها بأسرها عائدة الى الله تعالى فالآجال ان كانت بالمدد والمدد يسير الكواكب فسيروا الكواكب ليس الا بالله وقدرته وفى الآية مسائل

(الاولى) ايلاج الليل فى النهار يحتمل وجهين (أحدهما) ان يقال المراد ايلاج الليل فى زمان النهار أى يجعل فى الزمان الذى كان فيه النهار الليل وذلك لان الليل اذا كان مثلا اثنتى عشرة ساعة ثم يطول يصير الليل موجودا فى زمان كان فيه النهار (وثانيهما) أن يقال المراد ايلاج زمان الليل فى النهار أى يجعل زمان الليل فى النهار وذلك لان الليل اذا كان كما ذكرنا اثنتى عشرة ساعة اذا قصر صار زمان الليل موجودا فى النهار ولا يمكن غير هذا الا ايلاج الليل فى النهار محال الوجود فاذكرنا من الاضمار لا بد منه لكن الاول أولى لان الليل والنهار أفعال والافعال فى الازمنة لان الزمان ظرف فقولنا الليل فى زمان النهار أقرب من قولنا زمان الليل فى النهار لان الثانى يجعل الظرف مظروفا اذا ثبت هذا فنقول قوله تعالى يولج الليل فى النهار أى يوجده فى وقت كان فيه النهار والله تعالى قدم ايجاد الليل على ايجاد النهار فى كثير من المواضع كما فى قوله تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين وقوله وجعل الظلمات والنور وقوله واختلاف الليل والنهار ومن جنسه قوله خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهذا اشارة الى مسئلة حكمية وهى أن الظلمة قد يظن بها انها عدم النور والليل عدم النهار والحياة عدم الموت وليس كذلك اذ فى الازل لم يكن نهار ولا نور ولا حياة لم يمكن ولا يمكن أن يقال كان فيه موت أو ظلمة أو ليل فهذه الامور كالاعمى والاصم فالاعمى والصمم ليس مجرد عدم البصر وعدم السمع اذ الحجر والشجر لا يبصر ولا يسمع ولا يقال لشئ منهما انه أصم أو أعمى اذا علم هذا فنقول ما يتحقق فيه العمى والصمم لا بد من أن يكون فيه اقتضاء لهما وأما الانسان فكان يقال له أعمى وأصم وما يكون فيه اقتضاء شئ ويترتب عليه مقتضاه لا تطلب النفس لسببه الا ان من يرى المتعيش فى السوق لا يقول لم دخل السوق وما يثبت على خلاف المقتضى تطلب النفس لسببها كمن يرى ملكا فى السوق يقول لم دخل السوق فاذن سبب العمى والصمم يطلبه كل واحد فيقول لم صار فلان أعمى ولا يقول لم صار فلان بصيرا واذا كان كذلك قدم الله تعالى ما تطلب النفس سببه وهو الليل الذى هو على وزان العمى والظلمة والموت لكون كل واحد طالبا سببه ثم ذكر بعده الامر الآخر (المسئلة الثانية) قال يولج بصيغة المستقبل وقال فى الشمس والقمر سخر بصيغة الماضى لان ايلاج الليل فى النهار أمر يتجدد كل فصل بل كل يوم وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر كما قال تعالى حتى عاد كالعرجون القديم (المسئلة الثالثة) قدم الشمس على القمر مع تقدم الليل الذى فيه سلطان القمر على النهار الذى فيه سلطان الشمس لما بينا ان تقديم الليل كان لان الانفس تطلب سببه أكثر مما تطلب سبب النهار وههنا كذلك لان الشمس لما كانت أكبر

أى أتسمعون فلا تعقلون والمعنى أكفروا بى مع جلالة شانى فحسبوا (أن يتخذوا عبادى من دونى) من الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام وهم تحت سلطانى وملكوتى (أولياء) معبودين ينصرونهم من بأسى ومما قضيت عليهم انهم للعطف على ما قبلها من قوله تعالى كانت الخ وكانوا الخ دلالة على أن الحسبان شئ من التعامى والتصام وأدخل عليها همزة الانكار ذما على ذم وقطعها عن المعطوف عليه مع الفظا لمعنى للايذان بالاستقلال المؤكد للذم بأنها مع تلك الاضمار والتعرض لوصف آخر غير التعامى والتصام على أنهما أحريا بخروج الاحوال الجليلة لهم ولم يذكرا من حيث انهما من أفعالهم الاختيارية الحادثة كحسبانهم ليحسن تفريعه عليهما وأضافهما فانه دين قديم لهم لا يمكن جعله ناشئا عن تصامهم عن كلام الله عز وجل وتخصيص الانكار بحسبانهم المتأخر عن

(٧٤ - خازن س) ذلك تعسف لا يخفى وما فى حيز صلة ان سادّ مسد مفعولى حسب كما فى قوله تعالى وحسبوا أن لا تكون فتنة أى أحسبوا أنهم يتخذونهم أولياء على معنى أن ذلك ليس من الاتخاذ فى شئ لما انه انما يكون من الجانبين وهم عليهم الصلاة والسلام منزهون عن ولاية غيرهم بالمرة لقولهم سبحانك أنت ولينا من دونهم وقيل مفعوله الثانى محذوف أى أحسبوا اتخاذهم نافعا لهم والوجه هو الاول لان فى

هذا تسليما لنفس الاتخاذ واعتدادا به فى الجملة وقرئ أعتدنا أى أعددنا وكأنهم أن يتخذوهم أولياء على الابتداء والخبر أو الفعل والفاعل فان النعت اذا اعتمد الهمزة تحمل معنى الفعل فالهمزة حينئذ يمنى انكار الوقوع (أنا أعتدنا جهنم) أى هيأناها (للكافرين) المعهودين عدل ٥٨٦ عن الاضمار ذما لهم واشعارا بأن ذلك الاعتداد بسبب كفرهم المتضمن لحسبانهم الباطل

(نزلا) أى شيأ يعتمون به عند ورودهم وهو ما يقام للنزيل أى الضيف مما حضر من الطعام وفيه تخطئة لهم فى حسبانهم وتهكم بهم حيث كان اتخاذهم اياهم أولياء من قبيل اعتداد العتاد واعداد الزاد ليوم المعاد فكأنه قيل أنا اعتدنا لهم مكان ما أعدوا لانفسهم من العدد والذخر جهنم عدة وفى ايراد النزل اياء الى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو أفظع منه وقيل النزل موضع النزول ولذلك فسره ابن عباس رضى الله عنهما بالمنوى (قل هل ننبئكم) الخطاب الشائع للكفرة على وجه التوبيخ والجمع فى صيغة المتكلم لتعميمه من أول الامر وللايذان بعلو مرتبة النبأ المؤتمن أيضا (بالاخسرين أعمالا) نصب على التمييز والجمع للايذان بتنوعها وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ما صدر عنهم من الاعمال الخسيسة فى أنفسها وفى حسبانهم أيضا حيث كانوا مجبرين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها عاجلا بيان حالهم باعتبار

نقمة

أعمالهم السيئة فى أنفسها مع كونها حسنة فى حسبانهم (الذين ضل سعيهم) فى اقامة تلك الاعمال أى ضاع وبطل بالكلية (فى الحيوة الدنيا) متعلق بالسعى لا بالضلال لان بطلان سعيهم غير مختص بالدنيا قيل المراد بهم أهل الكتابين قاله ابن عباس وسعد بن أبى وقاص

وأعظم كانت أعجب والنفس تطلب سبب الامر العجيب أكثر مما تطلب سبب الامر الذى لا يكون عجيبا (المسئلة الرابعة) ما تعلق قوله تعالى وان الله يما تعملون خبير بما تقدم * تقول لما كان الليل والنهار محل الافعال بين ان ما يقع فى هذين الزمانين اللذين هما يتصرف الله لا يخفى على الله (المسئلة الخامسة) قوله تعالى ألم تر يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم وعليه الاكثرون وكأنه ترك الخطاب مع غيره لان من هو غيره من الكفار لا فائدة للخطاب معهم لاصرارهم ومن هو غيره من المؤمنين فهم مؤتمرون بأمر النبى عليه الصلاة والسلام ناظرون اليه (الوجه الثانى) أن يقال المراد منه الوعظ والواعظ يخاطب ولا يعين أحدا فيقول لجميع عظيم يا مسكين الى الله مصيرك فمن نصيرك ولماذا تقصر فى ذلك فقوله ألم تر يكون خطابا مع ذلك القبيل أى يا أيها الغافل ألم تر هذا الامر الواضح * ثم قال تعالى * (ذلك بان الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير) * ولما ذكر تعالى أوصاف الكمال بقوله ان الله هو الغنى الحميد وقوله ان الله عزيز حكيم وقوله ان الله سميع بصير وأشار الى الارادة والكمال بقوله ما نفدت كلمات الله وبقوله يولج الليل فى النهار على الجملة فقوله هو الغنى اشارة الى كل صفة سلبية فانه اذا كان غنيا لا يكون عرضا محتاجا الى الجوهر فى القوام ولا جسما محتاجا الى الحيز فى الدوام ولا شيأ من الممكنات المحتاجة الى الموجود ذكر بعده جميع الاوصاف الثبوتية صريحا وتضمنا فان الحميد فى ضمن العلم والقدرة قال ذلك بان الله هو الحق أى ذلك الاتصاف بانه هو الحق والحق هو الثبوت والثابت الله وهو الثابت المطلق الذى لا زوال له وهو الثبوت فان المذهب الصحيح ان وجوده غير حقيقته فكل ما عداه فله زوال نظرا اليه والله له الثبوت والوجود نظرا اليه فهو الحق وما عداه الباطل لان الباطل هو الزائل يقال بطل ظله اذا زال واذا كان له الثبوت من كل وجه يكون تاما لا نقص فيه ثم اعلم أن الحكماء قالوا الله تام وفوق التمام وجعلوا الاشياء على أربعة أقسام ناقص ومكتف وتام وفوق التمام (فالناقص) ما ليس له ما ينبغى أن يكون له كالصبى والمريض والاعمى (والمكتفى) وهو الذى أعطى ما يدفع به حاجته فى وقته كالانسان والحيوان الذى له من الآلات ما يدفع به حاجته فى وقتها الكنها فى التحلل والزوال (والتام) ما حصل له كل ما جاز له وان لم يحتج اليه كالملائكة المقربين لهم درجات لا تزداد ولا ينقص الله منها لهم شيأ كما قال جبريل عليه السلام لو دنوت أنملة لاحترقت لقوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم (وفوق التمام) هو الذى حصل له ما جاز له وحصل لما عداه ما جاز له أو احتاج اليه لكن الله تعالى حاصل له كل ما يجوز له من صفات الكمال ونعوت الجلال فهو تام وحصل لغيره كل ما جاز له أو احتاج اليه فهو فوق التمام اذا ثبت هذا فنقول قوله هو الحق اشارة الى التمام وقوله وأن الله هو العلى الكبير أى فوق التمام وقوله وهو العلى أى فى صفاته وقوله الكبير أى فى ذاته وذلك ينافى أن يكون جسما فى مكان لانه يكون حينئذ جسما مقدرا بمقدار فيمكن فرض ما هو أكبر منه فيكون صغيرا بالنسبة الى المفروض لكنه كبير مطلقا أكبر من كل ما يتصور * ثم قال تعالى * (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله ليريكم من آياته) * لما ذكر آية سماوية بقوله ألم تر ان الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر وأشار الى السبب والمسبب ذكر آية أرضية وأشار الى السبب والمسبب فقوله والفلك تجرى اشارة الى السبب وقوله بنعمت الله اشارة الى السبب أى الى الريح التى هى بأمر الله ليريكم من آياته يعنى يريكم باجرائها نعمته من آياته أى بعض آياته * ثم قال تعالى * (ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) * صبار فى الشدة شكور فى الرخاء وذلك لان المؤمن متذكر عند الشدة والبلاء وعند النعم والآلاء فيصبر اذا أصابته

ومجاهد رضي الله عنهم و يدخل في الأعمال حينئذ ما عملوه من الاحكام المنسوخة المتعلقة بالعبادات وقيل الرهبانية الذين يحبسون أنفسهم في الصوامع و يحملونها على الرياضات الشاقة وله لما يبعهم وغيرهم من الكفرة ومحل الموصول الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف لانه جواب للسؤال كأنه قيل من هم فقيل الذين الخ وجملة يحرورا ٥٨٧ على أنه نعت للاخسرين أو بدل منه أو منصوب باعني الذم على أن الجواب ماسيأتي من قوله تعالى أولئك الآية يأباه أن صدره ليس منبئا عن خسران الاعمال وضلال السعي كما يستدعيه مقام الجواب والتفريع الاول وان دل على حبوطها لكنه ساكت عن أنباء ما هو العمدة في تحقيق معنى الخسران من الوثوق بترتب الربح واعتقاد النفع فيما صنعوا على أن التفريع الثاني مما يقطع ذلك الاحتمال رأسا اذ لا مجال لادراجه تحت الامر بقضية قولهم العظمة (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) الاحسان الاتيان بالاعمال على الوجه اللائق وهو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي أي يحسبون أنهم يعملون ذلك على الوجه اللائق وذلك لاعجابهم بأعمالهم التي سعوا في اقامتها وكابدوا في تحصيلها والجملة حال من فاعل ضل أي تضل سعيهم المذكور والحال أنهم يحسبون أنهم يحسنون في ذلك وينتفعون باثاره

نقمة و بشكرا ذا أتته نعمة وورد في كلام النبي صلى الله عليه وسلم الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر اشارة الى أن التكاليف أفعال وتروك والترك صبر عن المألوف كما قال عليه الصلاة والسلام الصوم صبر والافعال شكر على المعروف ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور﴾ لما ذكر الله ان في ذلك لآيات ذكر ان الكل معترفون به غير ان البصير يدركه أولا ومن في بصيرته ضعف لا يدركه أولا فاذا غشيه موج ووقع في شدة اعترف بان الكل من الله ودعاه مخلصا أي بترك كل من عداه وينسى جميع من سواه فاذا نجاه من تلك الشدة قد يبقى على تلك الحالة وهو المراد بقوله فمنهم مقتصد وقد يعود الى الشرك وهو المراد بقوله وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله موج كالظلل وجد الموج وجمع الظلل وقيل في معناه كالجبال وقيل كالسحاب اشارة الى عظم الموج ويمكن أن يقال الموج الواحد العظيم يرى في طلوع ونزول واذا نظرت في الجزيرة الواحدة من النهر العظيم تبين لك ذلك فيكون ذلك كالجبال المتلاصقة ﴿المسئلة الثانية﴾ قال في الكشاف فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله ثم قال فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون وقال ههنا فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد فنقول لما ذكر ههنا أمرا عظيما وهو الموج الذي كالجبال بقي أثر ذلك في قلوبهم فخرج منهم مقتصد أي في الكفر وهو الذي انزجر بعض الانزجار أو مقتصد في الاخلاص فبقي معه شيء منه ولم يبق على ما كان عليه من الاخلاص وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الامر فذكر اشراكهم حيث لم يبق عنده أثر ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله وما يجحد بآياتنا في مقابلة قوله تعالى ان في ذلك لآيات يعني يعترف بها الصبار الشكور و يجحدها الختار الكفور والصبار في موازنة الختار لفظا ومعنى والكفور في موازنة الشكور أما لفظا فظاهر وأما معنى فلان الختار هو الغدار الكثير الغدر أو الشديد الغدر والغدر لا يكون الا من قلة الصبر لان الصبور ان لم يعهد مع أحد لا يعهد منه الاضرار فانه يصبر و يفوض الامر الى الله وأما الغدار فيعهد ولا يصبر على العهد فينقضه وأما أن الكفور في مقابلة الشكور بمعنى ظلوم ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا﴾ لما ذكر الدلائل من أول السورة الى آخرها وعظ بالتقوى لانه تعالى لما كان واحدا أوجب التقوى الباقة فان من يعلم ان الامر بيد اثنين لا يخاف أحدهما مثل ما يخاف لو كان الامر بيد أحدهما لا غير ثم أكد الخوف بذكر اليوم الذي يحكم الله فيه بين العباد وذلك لان الملك اذا كان واحدا و يعهد منه أنه لا يعلم شيأ ولا يستعرض عباده لا يخاف منه مثل ما يخاف اذا علم أن له يوم استعراض واستكشاف ثم أكده بقوله لا يجزي والد عن ولده وذلك لان المجرم اذا علم أن له عند الملك من يتكلم في حقه و يقضي ما يخرج عليه ربما فقد من كسبه لا يخاف مثل ما يخاف اذا علم أنه ليس له من يقضي عنه ما يخرج عليه ثم ذكر شيئين في غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد ليستدل بالادنى على الاعلى وذكر الولد والوالد جميعا فبدأ لطيفة وهي ان من الامور ما يبادر الاب الى التحمل عن الولد كدفع المال وتحمل الآلام والولد لا يبادر الى تحمله عن الوالد مثل ما يبادر الوالد الى تحمله عن الولد ومنها ما يبادر الولد الى تحمله عن الوالد ولا يبادر الوالد الى تحمله عن الولد كالاهانة فان من يريد احضار والد أحد عند وال أو قاض يهون على الابن أن يدفع الاهانة عن والده و يحضر هو بدله فاذا انتهى الامر الى الايلام يهون على الاب أن يدفع الايلام عن ابنه و يتحمله هو بنفسه فقوله لا يجزي والد عن ولده في دفع الآلام ولا مولود هو جاز عن والده شيأ في دفع الاهانة وفي قوله لا يجزي وقوله

أو المضاف اليه لكونه في محل الرفع نحو قوله تعالى اليه مرجعكم جميعا أي بطل سعيهم والحال انهم الخ والفرق بينهما أن المقارن لحال حسبانهم المذكور في الاول ضلال سعيهم وفي الثاني نفس سعيهم والاول أدخل في بيان خطئهم (أولئك) كلام مستأنف من جنابه تعالى مسوق لتكميل تعريف الاخسرين وتبيين سوء حسرانهم وضلال سعيهم وتعيينهم بحيث ينطبق التعريف على المخاطبين بغير

داخل تحت الامر أى أولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعى مع الحسبان المزبور (الذين كفروا بآيات ربهم) بدلائله الداعية الى التوحيد عقلا ونقلا والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم فى الكفر المذكور (ولقائه) بالبعث وما يتبعه من أمور الآخرة على ما هى عليه (فحبطت) لذلك ٥٨٨ (أعمالهم) المعهودة محبوطا كليا (فلا نقيم لهم) أى لاولئك الموصوفين بعامر من حبوط الاعمال وقدرئ بالمد (يوم القيامة وزنا) أى فنقدر بهم ولنجعل لهم مقدارا واعتبارا لان مداره الاعمال الصالحة وقد حبطت بالمرة وحيث كان هذا الازدراء من عواقب حبوط الاعمال عطف عليه بطريق التفريع وأما هو من أن جزية الكفر قسيمى بعد ذلك أو لانضع لاجل وزن أعمالهم ميزانا لانه انما يوضع لاهل الحسنات والسيئات من الموحدين ليتميز به مقادير الطاعات والمعاصى ليترتب عليه التكفير أو عدمه لان ذلك فى الموحدين بطريق التكميمة وأما الكفر فاحباطه للحسنات بحسب الكيفية دون الكمية فلا يوضع لهم الميزان قطعا (ذلك) بيان لما ثل كفرهم وسائر معاصيهم اثر بيان ما ثل أعمالهم المحبطة بذلك أى الامر ذلك وقوله عز وجل (جزاؤهم جهنم) جملة مبينة له أو ذلك مبتدأ والجملة خبره والعائد محذوف أى جزاؤهم به أو جزاؤهم بدله وجهنم خبره أو جزاؤهم خبر وجهنم عطف بيان للخبر (بما كفروا) تصريح بأن ماذكر جزاء لكفرهم المتضمن لسائر القبائح التى أشير عنها بما فى قوله تعالى (واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) أى مهزوا بها فانهم لم يقتصروا بمجرد الكفر بالآيات والرسل بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة أيضا (ان الذين آمنوا) بيان لطريق الوعد لما ان الذين اتصفوا باضداد ما اتصف به الكفرة اثر بيان ما آلهم بطريق الوعيد أى آمنوا

ولا مولودا هو جاز لطيفة أخرى وهى انا ذكرنا أن الفعل يأتى وان كان ممن لا ينبغى ولا يكون من شأنه لان الملك اذا كان يخيط شيأ يقال الله يخيط ولا يقال هو خياط وكذلك من يحيك شيأ ولا يكون ذلك صنعته يقال هو يحيك ولا يقال هو حائك اذا علمت هذا فنقول الابن من شأنه أن يكون جازيا عن والده لما له عليه من الحقوق والوالد يجزى لما فيه من الشفقة وليس بواجب عليه ذلك فقال فى الوالد لا يجزى وقال فى الولد ولا مولود هو جاز ﴿ثم قال تعالى ﴿إن وعد الله حق﴾ وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تحقيقا للقيام يعنى اخشوا يوما هذا شأنه وهو كائن لوعد الله به ووعده حق (والثانى) أن يكون تحقيقا لعدم الجزاء يعنى لا يجزى والد عن ولده لان وعد الله حق فلا يجزئ والاول أحسن وأظهر ﴿ثم قال تعالى ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ يعنى اذا كان الامر كذلك فلا تغتروا بالدنيا فانها زائلة لوقوع اليوم المذكور والوعد الحق ﴿ثم قال تعالى ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ يعنى الدنيا لا ينبغى أن تغركم بنفسها ولا ينبغى أن تغتروا وان حملكم على محبتها اغار من نفس أمارة وشيطان فكان الناس على أقسام منهم من تدعوه الدنيا الى نفسها فيميل اليها ومنهم من يوسوس فى صدره الشيطان ويزين فى عينه الدنيا ويؤمله ويقول انك تحصل بها الآخرة أو تلتذ بها هنا تتوب فتجتمع لك الدنيا والآخرة فنهاهم عن الامرين وقال كونوا قسما ثالثا وهم الذين لا يلتفتون الى الدنيا ولا الى من يحسن الدنيا فى الاعين ﴿ثم قال تعالى ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت أن الله عليم خبير﴾ يقول بعض المفسرين ان الله تعالى نفى علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره وهو كذلك لكن المقصود ليس ذلك لان الله يعلم الجمهور الغفير الذى كان فى كثيب رمل فى زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق الى المغرب كم مرة ويعلم انه أين هو ولا يعلمه غيره ولانه يعلم أنه يوجد بعد هذه السنين ذرة فى برية لا يسلكها أحد ولا يعلمه غيره فلا وجه لاختصاص هذه الاشياء بالذكر وانما الحق فيه أن نقول لما قال الله انحث وايوما لا يجزى والد عن ولده وذكر انه كان يقول ان وعد الله حق كأن قائلا قال انى يكون هذا اليوم فأجيب بان هذا العلم مما لم يحصل لغير الله ولكن هو كائن ثم ذكر الدليلين اللذين ذكرنا هما مرارا على البعث (أحدهما) احياء الارض بعد موتها كما قال تعالى وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى آثار رحمت الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى وقال تعالى ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون وقال ههنا يا أيها السائل انك لا تعلم وقتها ولكنها كائنة والله قادر عليها كما هو قادر على احياء الارض حيث قال وهو الذى ينزل الغيث وقال ويحيى الارض (وثانيهما) الخلق ابتداء كما قال وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وقال تعالى قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة الى غير ذلك فقال ههنا ويعلم ما فى الارحام اشارة الى أن الساعة وان كنت لا تعلمها لكنها كائنة والله قادر عليها وكما هو قادر على الخلق فى الارحام كذلك يقدر على الخلق من العدم ثم قال لذلك الطالب علمه يا أيها السائل انك تسأل عن الساعة أيان مرساها فلك أشياء أهم منها لا تعلمها فانك لا تعلم معاشك ومعادك ولا تعلم ماذا تكسب غدا مع انه قريب منك وزمانك ولا تعلم أين تموت مع أنه شغلك وممكانك فكيف تعلم قيام الساعة متى تكون فانه ما أعلمك كسب غدك مع أن لك فيه فوائد تبنى عليها الامور من يومك ولا أعلمك أين تموت مع ان لك فيه اغراضا تهمك أمورك بسبب ذلك العلم وانما لم يعلمك لكى تكون فى كل وقت بسبب الرزق راجعا الى الله تعالى متوكلا على الله ولا أعلمك الارض التى تموت فيها كى لا تأمن الموت وأنت فى غيرها فاذا لم يعلمك

ما تحتاج اليه كيف يعلمك ما لا حاجة لك اليه وهي الساعة وانما الحاجة الى العلم بانها تكون وقد أعلمك الله على لسان أنبيائه ثم قال تعالى ان الله علم خبير لما خص أولا علمه بالاشياء المذكورة بقوله ان الله عنده علم الساعة ذكر أن علمه غير مختص بها بل هو علیم مطلقا بكل شئ وليس علمه علما بظاهر الاشياء فحسب بل هو خبير علمه واصل الى بواطن الاشياء والله أعلم بالصواب

﴿سورة السجدة وتسمى سورة المضاجع مكية عند أكثرهم
وهي تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ لما ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة دليل الوحدانية وذكر الاصل الآخر وهو الحشر وختم السورة بها عاد أيضا ببيان الرسالة في هذه السورة فقال الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه وقد علم مافي قوله الم وفي قوله لا ريب فيه من سورة البقرة وغيرها غير أن ههنا قال من رب العالمين وقال من قبل هدى ورحمة للمحسنين وقال في البقرة هدى للمتقين وذلك لان من يرى كتابا عند غيره فأول ما تصير النفس طالبة تطلب ما في الكتاب فيقول لها هذا الكتاب فاذا قيل هذا فقد أوتفسير فيقول بعد ذلك تصنيف حسن هو ولا يقول أولا هذا الكتاب تصنيف حسن ثم يقول فيعاد هو اذا علم هذا فقال أولا هذا الكتاب هدى ورحمة ثم قال ههنا هو كتاب الله تعالى وذكره بلفظ رب العالمين لان كتاب من يكون رب العالمين يكون فيه عجائب العالمين فتدعو النفس الى مطالعته ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون﴾ يعني أتعترفون به أم تقولون هو مفترى ثم أجاب وبين أن الحق أنه حق من ربه ثم بين فائدة التنزيل وهو الانذار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كيف قال لتنذر قوما ما أتاهم من نذير مع أن النذر سبقوه الجواب من وجهين (أحدهما) معقول والآخر منقول أما المنقول فهو أن قريشا كانت أمة أمية لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم وهو بعيد فانهم كانوا من أولاد ابراهيم وجميع أنبياء بني اسرائيل من أولاد أعمامهم وكيف كان الله يترك قوما من وقت آدم الى زمان محمد بلا دين ولا شرع وان كنت تقول بانهم ما جاءهم رسول يخصوصهم يعني ذلك القرن فلم يكن ذلك مختصا بالعرب بل أهل الكتاب أيضا لم يكن ذلك القرن قد أتاهم رسول وانما أتى الرسل آباءهم وكذلك العرب أتى الرسل آباءهم كيف والذي عليه الاكثرون ان آباء محمد عليه السلام والسلام كانوا كفارا ولان النبي أوعدهم وأوعد آباءهم بأنواع العذاب وقال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وأما المعقول وهو أن الله تعالى أجرى عادته على ان أهل عصر اذا ضلوا ضلالا بالكلية ولم يبق فيهم من يهديهم بلطف بعباده ويرسل رسولا ثم انه اذا أراد طهرتهم بازالة الشرك والكفر من قلوبهم وان أراد طهر وجه الارض باهلاكهم ثم أهل العصر ضلوا بعد الرسل حتى لم يبق على وجه الارض عالم هادٍ ينتفع بهدايته قوم وبقوا على ذلك سنين متطاولة فلم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام فقال لتنذر قوما ما أتاهم أي بعد الضلال الذي كان بعدا لدراية لم يأتهم نذير (المسئلة الثانية) لو قال قائل التخصيص بالذكر يدل على نفي ما عداه فقوله لتنذر قوما ما أتاهم يوجب أن يكون انذاره مختصا بمن لم يأته نذير لكن أهل الكتاب قد أتاهم نذير فلا يكون الكتاب منزلا الى الرسول لينذر أهل الكتاب فلا يكون رسولا الى هؤلاء نقول هذا فاسد من وجوه (أحدها) ان التخصيص لا يوجب نفي ما عداه (والثاني) انه وان قال به

هي الجنة التي تنبت ضروبا من النبات وقيل هي الجنة من الكرم خاصة وقيل ما كان غالبه كرما وقال المبرد هو فيما سمعت من العرب الشجر الملتف والاغلب عليه أن يكون من العنب وعن كعب أنه ليس في الجنان أعلى من جنة الفردوس وفيها الآخرون بالمعروف والعاصون عن المنكر وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مسيرة مائة عام والفردوس أعلاها وفيها الانهار الاربعة فاذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فان فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة ﴿نزلا﴾ خبر كانت والجار والمجرور متعلق بمحذوف على أنه حال من نزلا أو على أنه بيان أو حال من جنات الفردوس والخبر هو الجار والمجرور فان جعل النزل بمعنى ما يهيأ للنازل فالامر كذلك لهم وان جعل النزل نفس الجنات نزلا أو جعلت نفس الجنات نزلا مبالغة في الاكرام وفيه ايذان بأنها عند ما أعد الله لهم على ما جرى على لسان النبوة من قوله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بمنزلة النزل بالنسبة الى الضيافة وان جعل بمعنى المنزل فالمعنى ظاهر ﴿خالدين فيها﴾ نصب على الحالية ﴿لا يبغون عنها حولا﴾ مصدر كالعوج والصاغ أي لا يطلبون تحولا عنها الا لا يتصور أن يكون شئ أعز عندهم وارفع منها حتى تتنازعهم اليه

أنفسهم وتطمح نحوه أبصارهم ويجوز أن يراد نفي التحول وتأكيد الخلود والجملة حال من صاحب خالدين أو ضمير فيه فيكون حالا متداخلة (قل لو كان البحر) أي جنس البحر (مدادا) وهو ما تمد به الدواة من الحبر (لكلمات ربي) لتحرير كلمات علمه وحكمته التي من جملتها ماذكر من الآيات الداعية ٥٩٠ الى التوحيد المحذرة من الاشراك (لنفد البحر) مع كثرته ولم يبق منه شئ لتناهيه (قبل أن

تنفد) وقرئ بالياء والمعنى من غير أن تنفد (كلمات ربي) لعدم تناهيها فلا دلالة للكلام على نفاد ها بعد نفاد البحر وفي اضافة الكلمات الى اسم الرب المضاف الى ضميره صلى الله عليه وسلم في الموضعين من تفخيم المضاف وتشريف المضاف اليه ما لا يخفى واظهار البحر والكلمات في موضع الاضمار لزيادة التقرير (ولو جئنا) كلام من جهته تعالى غير داخل في الكلام الملقن حي به لتحقيق مضمون ما قبله وتصديق مدلوله مع زيادة مبالغة وتأكيد والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة أي لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى ولو لم نجئ بمثله مددا ولو جئنا بقدره مددا (بمثله مددا) عونا وزيادة لان مجموع المتناهيين متناه بل مجموع ما يدخل تحت الوجود من الاجسام لا يكون الا متناهيا لقيام الادلة الناطقة على تناهي الابعاد وقرئ مددا جمع مدة وهي ما يستمد به الكاتب وقرئ مداد (قل) لهم بعد ما بينت لهم شأن كلماته الحاجة

قائل لكنه وافق غيره في أن التخصيص ان كان له سبب غير نفي ما عداه لا يوجب نفي ما عداه وههنا وجد ذلك لان انذارهم كان أولى ألا ترى أنه تعالى قال وأنذر عشيرتك الاقربين ولم يفهم منه أنه لا ينذر غيرهم أو لم يؤمر بانذار غيرهم وانذار المشركين كان أولى لان انذارهم كان بالتوحيد والحشر وأهل الكتاب لم ينذروا الا بسبب انكارهم الرسالة فكانوا أولى بالذكر فوقع التخصيص لاجل ذلك (الثالث) هو ان على ما ذكرنا لا يرد ما ذكره أصلا لان أهل الكتاب كانوا قد ضلوا ولم يأتهم نذير من قبل محمد بعد ضلالهم فلزم أن يكون مرسلا الى الكل على درجة سواء وبهذا يتبين حسن ما اختر ناه وقوله لعلهم يهتدون يعني تنذرهم رجاء أن تهتدوا بهم ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿الله الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام﴾ لما ذكر الرسالة بين ما على الرسول من الدعاء الى التوحيد وإقامة الدليل فقال الله الذي خلق السموات والارض الله مبتدأ وخبره الذي خلق يعني الله هو الذي خلق السموات والارض ولم يخلقهما الا واحد فلا اله الا واحد وقد ذكرنا أن قوله تعالى في ستة أيام إشارة الى ستة أحوال في نظر الناظرين وذلك لان السموات والارض وما بينهما ثلاثة أشياء ولكل واحد منها ذات وصفة فنظرا الى خلق ذات السموات حالة ونظرا الى خلقه صفاتها أخرى ونظرا الى ذات الارض والى صفاتها كذلك ونظرا الى ذوات ما بينهما والى صفاتها كذلك فهي ستة أشياء في ستة أحوال واغا ذكر الايام لان الانسان اذا نظر الى الخلق رآه فعلا والفعل ظرفه الزمان والايام أشهر الازمنة والا قبل السموات ثم يكن ليل ولا نهار وهذا أصل ما يقول القائل لغيره

ان يوما ولدت فيه ✽ كان يوما مباركا

وقد يجوز أن يكون ذلك قد ولد ليلا ولا يخرج عن مراده لان المراد هو الزمان الذي هو ظرف ولادته ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ثم استوى على العرش﴾ اعلم أن مذهب العلماء في هذه الآية وأمثالها على وجهين (أحدهما) ترك التعرض الى بيان المراد (وثانيهما) التعرض اليه والاول أسلم والى الحكمة أقرب أما انه أسلم فذلك لان من قال أنا لا أتعرض الى بيان هذا ولا أعرف المراد من هذا لا يكون حاله الا كحال من لا يتكلم عند عدم وجوب الكلام أولا يعلم شيأ لم يجب عليه أن يعلمه وذلك لان الاصول الثلاثة التوحيد والعدل بالحشر والاعتراف بالرسل لكن الحشر أجمعنا واتفقنا أن العلم به واجب والعلم بتفصيله انه متى يكون غير واجب ولهذا قال تعالى في آخر السورة المتقدمة ان الله عنده علم الساعة فهذا يجب ان يعلم معرفة وجوده ووحدانيته واتصافه بصفات الجلال ونعوت الكمال على سبيل الاجمال وتعاليه عن وصمات الامكان وصفات النقصان ولا يجب أن يعلم جميع صفاته كما هي وضعفة الاستواء مما لا يجب العلم بها فمن ترك التعرض لهذا لم يترك واجبا وأما من يتعرض اليه فقد يخطئ فيه فيعتقد خلاف ما هو عليه فالاول غاية ما يلزمه أنه لا يعلم والثاني يكاد أن يقع في أن يكون جاهلا مركبا وعدم العلم والجهل المركب كالكفر والتكذيب ولا يشك أحد في أن السكوت خير من الكفر وأما انه أقرب الى الحكمة فذلك لان من يطالع كتابا مصنفه انسان وكتب له شراحا والشارح دون المصنف فالظاهر أنه لا يأتي على جميع ما أتى عليه المصنف ولهذا كثيرا ما ترى ان الانسان يورد الاشكالات على المصنف المتقدم ثم يحيى عن ينصر كلامه ويقول لم يرد المصنف هذا وانما أراد كذا وكذا واذا كان حال الكتب المأذونة التي تكتب عن علام الغيوب كذلك فما ظنك بالكتاب العزيز الذي فيه كل حكمة يجوز أن يدعي جاهل أني علمت كل سر في هذا الكتاب وكيف ولو ادعى عالم اني علمت كل سر وكل فائدة يشتمل عليه الكتاب الفلاني يستقبح منه ذلك فكيف من يدعي انه علم كل ما في كتاب الله ثم ليس لقائل أن يقول بأن الله تعالى بين كل ما أنزله لان تأخير البيان الى وقت

كراهته وادخال الماضي على المستقبل للدلالة على أن اللائق بحال المؤمن الاستمرار والاستدامة على رجاء لقاء أي فمن استمر على رجاء كرامته تعالى (فليعمل) لتحصيل تلك الطلبة العزيزة (عملا صالحا) في نفسه لائقا بذلك المرجو كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) اشراكا جليا كما فعله الذين كفروا يا آيات ٥٩١ ربهم ولقائه ولا اشراكا خفيا كما يفعله

أهل الرياء ومن يطلب به أجرا وإنما روضع المظهر موضع المضمر في الموضعين مع التعرض لعنوان الربوبية لزيادة التقرير وللاشعار بعلية العنوان للامر والنهي ووجوب الامتثال فعلا وتركا روى أن جندب بن زهير رضي الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إني لاعمل العمل لله تعالى فاذا اطلع عليه سرني فقال عليه الصلاة والسلام ان الله لا يقبل ما شورك فيه فنزلت تصديقا له وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لذلك أجران أجر السر وأجر العلانية وذلك اذا قصد أن يقتدى به وعنه عليه الصلاة والسلام اتقوا الشرك الاصغر قيل وما الشرك الاصغر قال الرياء ﴿عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نورا من قرنه الى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من السماء الى الارض وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ عند مضجعه قل انما أنا بشر

الحاجة جائز وامل في القرآن ما لا يحتاج اليه أحد غير نبيه فبين له لا لغيره اذ ائت هذا علم أن في القرآن ما لا يعلم وهذا أقرب الى ذلك الذي لا يعلم للتشابه البالغ الذي فيه لكن هذا المذهب له شرط وهو أن ينفي بعض ما يعلمه قطعا أنه ليس بمراد وهذا لان قائلا اذا قال ان هذه الايام أيام قره فلانة يعلم انه لا يريد أن هذه الايام أيام موت فلانة ولا يريد أن هذه الايام أيام سفر فلانة وانما المراد قصر في الطهر أو الحيض فكذلك هنا يعلم أن المراد ليس ما توجب نقصا في ذاته لاستحالة ذلك والجلوس والاستقرار المكاني من ذلك الباب فيجب القطع بنفي ذلك التوقف فيما يجوز بعده (والمذهب الثاني) نظر ومن ينسب اليه فرقتان (أحدهما) من يقول المراد ظاهره وهو القيام والانتصاب أو الاستقرار المكاني (وثانيهما) من يقول المراد الاستيلاء والاول جهل محض والثاني يجوز أن يكون جهلا والاول مع كونه جهلا هو بدعة وكاد يكون كفرا والثاني وان كان جهلا فليس بجهل يورث بدعة وهذا كما أنا واحد اذا اعتقد أن الله يرحم الكفار ولا يعاقب أحدا منهم يكون جهلا وبدعة وكفرا واذا اعتقد انه يرحم زيدا الذي هو مستور الحال لا يكون بدعة غاية ما يكون انه اعتقد غير مطابق ﴿ومما قيل فيه﴾ أن المراد منه استوى على ملكه والعرش يعبر به عن الملك يقال الملك قعد على سرير المملكة بالبلدة الفلانية وان لم يدخلها وهذا مثل قوله تعالى وقالت اليهود يد الله مغلولة اشارة الى البخل مع انهم لم يقولوا بأن على يد الله غلا على طريق الحقيقة ولو كان مرادا لله ذلك لكان كذبا جل كلام الله عنه ثم لهذا فضل تقرير وهو أن الملوك على درجات فمن ملك مدينة صغيرة أو بلادا يسيرة ما جرت العادة بأن يجلس أول ما يجلس على سرير ومن يكون سلطانا على البلاد الشاسعة والديار الواسعة وتكون الملوك في خدمته يكون له سرير يجلس عليه وقد أقام كرسيا يجلس عليه وزيره فالعرش والكرسي في العادة لا يكون الا عند عظمة المملكة فلما كان ملك السموات والارض في غاية العظمة عبر عما يتبع في العرف عن العظمة ومما ينبهك لهذا قوله تعالى انا خلقنا وانا لنحن ونحن أقرب ونحن نزلنا أيظن أو يشك مسلم في أن المراد ظاهره من القرب ونحو ذلك مما يحدله جلالا غير ان العظيم في العرف لا يكون واحدا وانما يكون معه غيره فكذلك الملك العظيم في العرف لا يكون الا اذا سرير يستوي عليه فاستعمل ذلك مريدا للعظمة ومما يؤيد هذا ان المقهور المغلوب المهزوم يقال له ضاقت به الارض حتى لم يكن له مكان أي لم يدروا به أنه صار لا مكان له وكيف يتصور الجسم بلا مكان ولا سيما من يقول بأن الله في مكان كيف يخرج الانسان عن المكان فكما يقال للمقهور الهارب لم يبق له مكان مع أن المكان واجب له يقال للقادر القاهر هو متمكن وله عرش وان كان التنزه عن المكان واجبا له وعلى هذا كلمة ثم معناها خلق السموات والارض ثم أفضت انه استوى على الملك وهذا كما يقول القائل فلان أكرمني وأنعم علي مرارا ويحكي عنه أشياء ثم يقول انه ما كان يعرفني ولا كنت فعلت معه ما يجازيني بهذا فتقول ثم للحكاية لا للحكي (الوجه الآخر) قيل استوى جاء معنى استولى على العرش واستوى جاء بمعنى استولى نقلا واستعمالا أما النقل فكثير هذ كر في كتب اللغة منها ديوان الادب وغيره مما يعتبر النقل عنه وأما الاستعمال فقول القائل

قد استوى بشر على العراق ﴿ من غير سيف ودم مهراق

وعلى هذا فكلمة ثم معناها ما ذكرنا كأنه قال خلق السموات والارض ثم هو هنا ما هو أعظم منه استوى على العرش فانه أعظم من الكرسي والكرسي وسع السموات والارض (والوجه الثالث) قيل ان المراد الاستقرار وهذا القول ظاهر ولا يفيد انه في مكان وذلك لان الانسان يقول استقر رأي فلان على الخروج

مثلكم يوحى الي الخ كان له من مضجعه نورا يتلألأ الى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم وان كان مضجعه بمكة كان له نورا يتلألأ من مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ الحمد لله سبحانه على نعمه العظام

﴿سورة مريم عليها السلام مكية الا آية السجدة وهي ثمان أو تسع وتسعون آية﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) (كهيعص) بإمالة الهاء والياء واظهار الدال وقرئ بفتح الهاء وامالة الياء وبتفخيمهما وباخفاء النون قبل الصاد لتقاربهما وقد سلف أن ما لا يكون من هذه الفواتح مفردة ولا موازنة لمفرد فطريق التلفظ به الحكاية فقط ساكنة الاعجاز على الوقف سواء جعلت

ولا يشك أحد أنه لا يريد ان الرأى فى مكان وهو الخروج لما أن الرأى لا يجوز فيه أن يقال انه متمكن أو هو مما يدخل فى مكان اذا علم هذا فنقول فهم التمكن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكن حتى اذا قال قائل استقر زيد على الفلك أو على التخت يفهم منه التمكن وكونه فى مكان واذا قال قائل استقر الملك على فلان لا يفهم أن الملك فى فلان فقول القائل الله استقر على العرش لا ينبغى أن يفهم كونه فى مكان مالم يعلم أنه مما يجوز عليه أن يكون فى مكان أولا يجوز فان فهم كونه فى مكان من هذا اللفظة مشروط بجواز أن يكون فى مكان فجواز كونه فى مكان ان استفيد من هذه اللفظة يلزم تقدم الشئ على نفسه وهو محال ثم الذى يدل على انه لا يجوز أن يكون على العرش بمعنى كون العرش مكانا له وجوه من القرآن (أحدها) قوله تعالى وان الله لهو الغنى وهذا يقتضى أن يكون غنيا على الاطلاق وكل ما هو فى مكان فهو فى بقائه محتاج الى مكان لان بديهة العقل حاكمة بان الحيز اما أن لم يكن لا يكون المتحيز باقيا فالمتحيز ينتفى عند انتفاء الحيز وكل ما ينتفى عند انتفاء غيره فهو محتاج اليه فى استمراره فالقول باستقراره يوجب احتياجه فى استمراره وهو غنى بالنص (الثانى) قوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه فالعرش يهلك وكذلك كل مكان فلا يبقى وهو يبقى فاذن لا يكون فى ذلك الوقت فى مكان فجائز عليه أن لا يكون فى مكان وما جاز له من الصفات وجب له فيجب أن لا يكون فى مكان (الثالث) قوله تعالى وهو معكم ووجه التمسك به هو ان على اذا استعمل فى المكان يفهم كونه عليه بالذات كقولنا فلان على السطح وكذا مع اذا استعملت فى متمكنين يفهم منها اقترانهما بالذات كقولنا زيد مع عمرو اذا استعمل هذا فان كان الله فى مكان ونحن متمكنون فقوله ان الله معنا وقوله وهو معكم كان ينبغى أن يكون للاقتران وليس كذلك فان قيل كلمة مع تستعمل لكون الشئ مصاحبا له وعلمه معه أو نصرته يقال الملك الفلانى مع الملك الفلانى أى بالاعانة والنصر فنقول كلمة على تستعمل لكون حكمه على الغير يقول القائل لولا فلان على فلان لاشرف فى الهلاك ولاشرف على الهلاك وكذلك يقال لولا فلان على املاك فلان أو على أرضه لما حصل له شئ منها ولا أكل حاصلها يعنى الاشراف والنظر فكيف لا نقول فى استوى على العرش انه استوى عليه بحكمه كما نقول هو معنا بعلمه (الرابع) قوله تعالى لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار ولو كان فى مكان لاحاط به المكان وحينئذ فاما أن يرى واما أن لا يرى لا سبيل الى الثانى بالاتفاق لان القول بانه فى مكان ولا يرى باطل بالاجماع وان كان يرى فحيزى فى مكان أحاط به فتدركه الابصار وأما اذا لم يكن فى مكان فسواء يرى أولا يرى لا يلزم أن تدركه الابصار أما اذا لم يرفظاهر وأما اذا رؤى فلان البصر لا يحيط به فلا يدركه وانما قلنا ان البصر لا يحيط به لان كل ما أحاط به البصر فله مكان يكون فيه وقد فرضنا عدم المكان ولو تدبر الانسان القرآن لوجده مملوأ من عدم جواز كونه فى مكان كيف وهذا الذى يتمسك به هذا القائل يدل على انه ليس على العرش بمعنى كونه فى المكان وذلك لان كلمة ثم للتراخى فلو كان عليه بمعنى المكان لكان قد حصل عليه بعد ما لم يكن عليه فتقول اما أن يكون فى مكان أولا يكون فان كان يلزم محالان (أحدهما) كون المكان أزليا ثم ان هذا القائل يدعى مضادة الفلسفى فحيث فلسفيا يقول بقدم جسم من السموات. (والثانى) جواز الحركة والانتقال على الله تعالى وهو يفضى الى حدوث البارى أو يبطل دلائل حدوث الاجسام وان لم يكن مكان وما حصل فى مكان يحيل العقل وجوده بلا مكان ولو جاز لما أمكن أن يقال بان الجسم لو كان أزليا فاما أن يكون فى الازل ساكنا أو متحركا لانهما فرعا الحصول فى مكان واذا كان كذلك فيلزمه القول بحدوث الله أو عدم القول بحدوث العالم لانه ان سلم انه قبل المكان لا يكون فهو القول بحدوث الله تعالى وان لم يسلم فيجوز أن يكون الجسم

الوقف قطعا لحق هذه الفاتحة الكريمة أن يوقف عليها جريا على الاصل وقرئ بادغام الدال فيما بعدها لتقاربهما فى المخرج فان جعلت اسما للسورة على ما عليه اطباق الاكثر فمحله الرفع اما على انه خبر لمبتدا محذوف والتقدير هذا كهيعص أى مسمى به واغا صحت الاشارة اليه مع عدم جريان ذكره لانه باعتبار كونه على جناح الذكر صار فى حكم الحاضر المشاهد كما يقال هذا ما اشتريه فلان أو على انه مبتدأ خبره (ذكر رحمة ربك) أى المسمى به ذكر رحمة الخ فان ذكرها لما كان مطلع السورة الكريمة ومعظم ما انطوت هى عليه جعلت كأنها نفس ذكرها والاول هو الاولى لان ما يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون معلوم الانتساب اليه عند المخاطب واذ لا علم بالتسمية من قبل فحقها الاخبار بها كما فى الوجه الاول وان جعلت مسرودة على نمط التعديد حسبما جنح اليه أهل التحقيق فذكر الخ خبر لمبتدا محذوف هو مما ينبئ عنه تعديد الحروف كأنه قيل المؤلف

فى من جنس هذه الحروف المبسوطة مراد به السورة ذكر رحمة الخ او اسم اشارة أشير به اليه تنزيلا لحضور المادة منزلة حضور المؤلف منها أى هذا ذكر رحمة الخ وقيل هو مبتدأ قدم خبره أى فيما يتلى عليك ذكرها وقرئ ذكر رحمة ربك على صيغة الماضى من التذكير

أى هذا المتلو ذكرها وقرئ ذكر على صيغة الامر والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميره عليه السلام للايذان بأن تنزيل السورة عليه عليه الصلاة والسلام تكميل له عليه السلام وقوله تعالى (عبده) مفعول لرحمربك على أنها مفعول لما أضيف اليها وقيل للذكر على أنه مصدر أضيف الى فاعله على الاتساع ٥٩٣ ومعنى ذكر الرحمة بلوغها واصابتها كما يقال ذكرنى معروف فلان أى بلغنى وقوله عز وعلا (زكريا) بدل منه أو عطف بيان له (اذ نادى ربه نداء خفيا) ظرف لرحمربك وقيل لذكر على أنه مضاف الى فاعله اتساعا لا على الوجه الاول لفساد المعنى وقيل هو بدل اشتمال من زكريا كما فى قوله واذكر فى الكتاب مريم اذا انتبذت ولقد راعى عليه الصلاة والسلام حسن الادب فى اخفاء دعائه فانه مع كونه بالنسبة اليه عز وجل كالجهر أدخل فى الاخلاص وأبعد من الرياء وأقرب الى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولد لثوقفه على مبادلا يليق به تعاطيها فى أوان الكبر والشيخوخة وعن غائلة موالية الذين كان يخافهم وقيل كان ذلك منه عليه السلام لضعف الهرم قالوا كان سنه حينئذ ستين وقيل خمسا وستين وقيل سبعين وقيل خمسا وسبعين وقيل ثمانين وقيل أكثر منها كما مر فى تفسير

فى الازل لم يكن فى مكان ثم حصل فى مكان فلا بد له من دليل فى حدوث العالم فيلزمه أن لا يقول بحدوثه ثم ان هذا القائل يقول ان الله تعالى عالم بالمعلومات فاما ليس فى مكان ولا يعلم الله جملة معدوماته وما حيث أسوجه الى مكان وكل محتاج نظرا الى عدم ما يحتاج اليه معدوم ولو كتبنا ما فيها الطال الكلام ﴿ ثم قال تعالى ﴿ مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ لما ذكر أن الله خالق السموات والارض قال بعضهم نحن معترفون بأن خالق السموات والارض واحد هو الذى السموات وهذه الاصنام صورالكواكب منها نصرتنا وقوتنا وقال آخرون هذه صور الملائكة عند الله هم شفعاؤنا فقال الله تعالى لا الله غير الله ولا نصره من غير الله ولا شفاعة لاحد الا باذن الله فعبادتكم لهذه الاصنام باطلة ضائعة لانهم خالقوكم ولا نافعوكم ولا شافعوكم ثم قال تعالى أفلا تتذكرون ما علمتموه من أنه خالق السموات والارض وخلق هذه الاجسام العظام لا يقدر عليه مثل هذه الاصنام حتى تنصركم والملك العظيم لا يكون عنده لهذه الاشياء الحقيرة احترام وعظمة حتى تكون لها شفاعة ﴿ ثم قال تعالى ﴿ يدبر الامر من السماء الى الارض ﴾ لما بين الله تعالى الخلق بين الامر كما قال تعالى ألا له الخلق والامر والعظمة تتبين بهما فان من يملك ملكا لذى كثيرين عظماء تكون له عظمة ثم اذا كان أمره نافذا فيهم يزداد فى أعين الخلق وان لم يكن له نفاذ أمر ينقص من عظمته ﴿ وقوله تعالى ﴿ ثم يعرج اليه ﴾ معناه والله أعلم أن أمره ينزل من السماء على عباده ويعرج اليه أعمالهم الصالحة الصادرة على موافقة ذلك الامر فان العمل اثر الامر ﴿ وقوله تعالى ﴿ فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ فيه وجوه (أحدها) أن نزول الامر وعروج العمل فى مسافة ألف سنة مما تعدون وهو فى يوم فان بين السماء والارض مسيرة خمسمائة سنة فينزل فى مسيرة خمسمائة سنة ويعرج فى مسيرة خمسمائة سنة فهو مقدار ألف سنة . (ثانيها) هو أن ذلك اشارة الى امتداد نفاذ الامر وذلك لان من نفذ أمره غاية النفاذ فى يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره فى سنين متطاولة فقوله تعالى فى يوم كان مقداره ألف سنة يعنى يدبر الامر فى زمان يوم منه ألف سنة فكم يكون شهر منه وكم تكون سنة منه وكم يكون دهر منه وعلى هذا الوجه لا فرق بين هذا وبين قوله مقداره خمسين ألف سنة لان تلك اذا كانت اشارة الى دوام نفاذ الامر فسواء يعبر بالالف أو بالخمسين ألفا لا يتفاوت الا أن المبالغة تكون فى الخمسين أكثر وبين فائدة تهافى موضعها ان شاء الله تعالى (وفى هذه لطيفة) وهو أن الله تعالى ذكر فى الآية المتقدمة عالم الاجسام والخلق وأشار الى عظمة الملك وذكر فى هذه الآية عالم الارواح والامر بقوله يدبر الامر والروح من عالم الامر كما قال تعالى ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وأشار الى دوامه بالنظر بوم الزمان والمراد دوام البقاء كما تقال فى العرف طال زمان فلان والزمان لا يطول وانما الواقع فى الزمان يمتد فيوجد فى أزمنة كثيرة فيطول ذلك فما أحذ أزمنة كثيرة فأشار هناك الى عظمة الملك بالمكان وأشار الى دوامه منهنا بالزمان فالمكان من خلقه وملكه والزمان بحكمه وأمره (واعلم) أن ظاهر قوله يدبر الامر فى يوم يقتضى أن يكون أمره فى يوم واليوم له ابتداء وانتهاء فيكون أمره فى زمان حادث فيكون حادثا بل بعض من يقول بأن الله تعالى على العرش استوى يقول بأن أمره قديم حتى المعروف وكلامه كذلك فهم من كلمة على كونه فى مكان ولم يفهم من كلمة فى كون أمره فى زمان ثم بين أن هذا الملك العظيم النافذ الامر غير غافل فان الملك اذا كان آمرا ناميا يطاع فى أمره ونهيه ولكن يكون غافلا لا يكون مهيبا عظيما كما يكون مع ذلك خبيرا يتفقد الاخفى عليه أمور الملك والمالك فقال ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة ﴾ واما ذكر من قبل عالم الاشباح بقوله خلق السموات وعالم الارواح بقوله يدبر الامر من السماء الى الارض قال عالم الغيب يعلم ما فى الارواح والشهادة يعلم ما فى الاجسام أو

 سورة آل عمران (قال) جملة مفسرة لنادى لا محل لها من الاعراب (رب انى وهن العظم منى) استعار الوهن الى العظم لما أن عماد البدن وقوام الجسد فاذا أصابه الضعف والرخاوة أصاب كله أولانه أشد أجزائه صلابة وقواما وأقلها تأثرا من الملل فاذا وهن كان ما وراءه أوهن وافراده للقصد الى الجنس المنبئ عن شمول الوهن لكل فرد من أفراده ومعنى متعلق بمحذوف هو

حال من العظم وقرئ وهن بكسر الهاء وضمها أيضا وتأكيد الجملة للابراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونها (واشتعل الرأس شيبا) شبه عليه الصلاة والسلام الشيب في البياض والانارة بشواظ النار وانتشاره في الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعال الهاء اخرجه مخرج الاستعارة ثم أسند الاشتعال ٥٩٤ الى محل الشعر ومنبته وأخرجه مخرج التمييز وأطلق الرأس اكتفاء بما قيد به العظم

نقول قال عالم الغيب اشارة الى ما لم يكن بعد والشهادة اشارة الى ما وجد وكان وقدم العلم بالغيب لانه أقوى وأشد اتباعا عن كمال العلم ﴿ثم قال تعالى﴾ العزيز الرحيم ﴿لما بين أنه عالم ذكر أنه عزيز قادر على الانتقام من الكفرة رحيم واسع الرحمة على البررة ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿الذي أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين﴾ لما بين الدليل الدال على الوحدانية من الآفاق يقول خلق السموات والارض وما بينهما وأتقنه بتواليه وهكذا لتة ذكر الدليل الدال عليهما من الانفس بقوله الذي أحسن كل شئ يعني أحسن كل شئ مما ذكره وبين أن الذي بين السموات والارض خلقه وهو كذلك لانك اذا نظرت الى الاشياء رأيتها على ما ينبغي صلابة الارض للنبات والنبات وسلاسة الماء للاستسقاء وقبول الانشقاق لسهولة الاستطراق وسيلان الماء فانقدر عليه في كل موضع وحركة النار الى فوق لانها لو كانت مثل الماء تتحرك بسرعة وبسيرة لاحترق العالم فخلقت طائفة فوق حد ثم لا شئ هناك يقبل الاحتراق وقوله وبدأ خلق الانسان من طين قيل المراد آدم عليه السلام فانه خلق من طين ويمكن أن يقال بأن الطين ماء وتراب مجتمعان والآدمي أصله مني والمني أصله غذاء والاغذية اما حيوانية وأما نباتية والحيوانية بالآخرة ترجع الى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذي هو طين ﴿وقوله تعالى﴾ ﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ على التفسير الاول ظاهر لان آدم كان من طين ونسله من سلالة من ماء مهين هو النطفة وعلى التفسير الثاني هو أن أصله من الطين ثم يوجد من ذلك الاصل سلالة هي من ماء مهين فان قال قائل التفسير الثاني غير صحيح لان قوله بدأ خلق الانسان ثم جعل نسله دليل على أن جعل النسل بعد خلق الانسان من طين فنقول لا بل التفسير الثاني أقرب الى الترتيب اللفظي فانه تعالى بدأ بذكر الامر من الابتداء في خلق الانسان فقال بدأ من طين ثم جعله سلالة ثم سواه ونفخ فيه من روحه وعلى ما ذكرتم يبعد أن يقال ﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾ عائد الى آدم أيضا لان كلمة ثم للتراخي فتكون التسوية بعد جعل النسل من سلالة وذلك بعد خلق آدم واعلم أن دلائل الآفاق أدل على كمال القدرة كما قال تعالى لخلق السموات والارض أكبر ودلائل الانفس أدل على نفاذ الارادة فان التغيرات فيها كثيرة والمشار اليه بالاشارة بقوله ثم جعل نسله ثم سواه أي كان طينا فجعله منيا ثم سواه بأن قوله تعالى ونفخ فيه من روحه اضافة الروح الى نفسه كاضافة البيت اليه للتشريف وأعلم أن النصارى يفترون على الله الكذب ويقولون بأن عيسى كان روح الله فهو ابن ولا يقولون أن كل أحد روحه روح الله بقوله ونفخ فيه من روحه أي الروح التي هي ملكه كما يقول القائل داري وعبدي ولم يقل أعطاه من جسمه لان الشرف بالروح فأضاف الروح دون الجسم على ما ترتب على نفخ الروح من السمع والبصر والعلم فقال تعالى ﴿وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون﴾ وفيه مسائل (الاولى) قال وجعل لكم بخطاب الواحد ولم يخاطب من قبل وذلك لان الخطاب يكون مع الحي فلما قال ونفخ فيه من روحه خاطبه من بعده وقال جعل لكم فان قيل الخطاب واقع قبل ذلك كما في قوله تعالى ومن آياته أن خلقكم من تراب فنقول هناك لم يذكر الامور المرتبة وانما أشار الى تمام الخلق وهو ناذكر الامور المرتبة وهي كون الانسان طينا ثم ما هو هناك خلقا سويا بأنواع القوى فتوى الخطاب في بعض المراتب دون البعض (المسئلة الثانية) الترتيب في السمع والابصار بالافئدة على مقتضى الحكمة وذلك لان الانسان يسمع أولا من الابوين أو الناس أمورا فيفهمها ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة فيبصر الامور ويجربها ثم يحصل له بسبب ذلك ادراك تام وذهن كامل فيستخرج الاشياء من قلبه ومثاله المخلص يسمع من أستاذ شيأ ثم يصير له أهلية مطالعة الكتب وفهم معانيها ثم يصير له أهلية التصنيف

وفيه من فنون البلاغة وكمال الجزالة ما لا يخفى حيث كان الاصل اشتعل شيب رأسي فأسند الاشتعال الى الرأس كما ذكر لافادة شمول اشتعاله فان وزانه بالنسبة الى الاصل وزان اشتعل بيته نارا بالنسبة الى اشتعل النار في بيته مع زيادة تقريره بالاجمال أولا والتفصيل ثانيا وتزيد تفخيمه بالتنكير وقرئ بادغام السين في الشين (ولم أكن بدعائك رب شقيا) أي ولم أكن بدعائي اياك خائبا في وقت من أوقات هذا العمر الطويل بل كلما دعوتك استجبت لي وأجبتني معطوفة على ما قبلها أو حال من ضمير المتكلم اذا لمعنى واشتعل رأسي شيبا ولم أتوسل منه عليه السلام والسلام بما سلف منه من الاستجابة عند كل دعوة أثر تهيد ما يستدعي الرحمة ويستجلب الرأفة من كبر السن وضعف الحال فانه تعالى يعد ما عوده عبده بالاجابة دهرا طويلا لا يكاد يخيبه أبدا لا سيما عند اضطراره وشدة افتقاره والتعرض في الموضعين لوصف الربوبية المنبئة عن اضافة ما فيه صلاح المربوب مع

فليكتب

الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام لا سيما توسطه بين كاف وضمير هما لتربيك سلسلة الاجابة بالمبالغة في التضرع ولذلك قيل اذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدع الله تعالى بما يناسبه من أسمائه وصفاته (راني خدمت الموالي) عطف على قوله تعالى اني وهن العظم مني

فيكتب من قلمه كتابا فكذلك الانسان يسمع ثم يطالع صحائف الموجودات ثم يعلم الامر الخفية (المسئلة الثالثة) ذكر في السمع المصدر وفي البصر والفؤاد الاسم ولهذا جمع الابصار والافئدة ولم يجمع السمع لان المصدر لا يجمع وذلك لحكمة وهو أن السمع قوة واحدة ولها محل واحد فان الانسان لا يضبط في زمان واحد كلامين والاذن محله ولا اختيار لها فيه فان الصوت من أي جانب كان يصل اليه ولا قدرة لها على تخصيص القوة بادراك البعض دون البعض وأما الابصار فمحله العين ولها فيه مشية اختيارية فانها تتحرك الى جانب مرئي دون آخر وكذلك الفؤاد محل الادراك وله نوع اختيار يلتفت الى ما يريد دون غيره واذا كان كذلك فلم يكن للمحل في السمع تأثير والقوة مستمدة فذكر القوة في الاذن وفي العين والفؤاد للمحل نوع اختيار فذكر المحل لان الفعل يسند الى المختار ألا ترى أنك تقول سمع زيد ورأى عمرو ولا تقول سمع أذن زيد ولا رأى عين عمرو والنادر المبين المختار هو الاصل وغيره آلته فالسمع أصل دون محله لعدم الاختيار له والعين كالاصل وقوة الابصار آلتها والفؤاد كذلك وقوة الفهم آلته فذكر في السمع المصدر الذي هو القوة وفي الابصار والافئدة الاسم الذي هو محل القوة ولان السمع له قوة واحدة وله فعل واحد ولهذا لا يسمع الانسان في زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويدرك في زمان واحد صورتين وأكثر ويستبينهما (المسئلة الرابعة) لم قدم السمع ههنا والقلب في قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم فنقول ذلك يحقق ما ذكرنا وذلك لان عند الاعطاء ذكر الادنى وارتقى الى الاعلى فقال أعطاكم السمع ثم أعطاكم ما هو أشرف منه وهو القلب وعند السلب قال ليس لهم قلب يدركون به ولا ما هو دونه وهو السمع الذي يسمعون به ممن له قلب يفهم الحقائق ويستخرجها وقد ذكرنا هناك ما هو السبب في تأخير الابصار مع أنها في الوسط فيما ذكرنا من الترتيب وهو أن القلب والسمع سلب قوتهما بالطبع فجمع بينهما وسلب قوة البصر بجعل الغشاوة عليه فذكرهما معا آخرة ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿وقالوا أئذا ضللنا في الارض﴾ لما قال قلما تشكرون بين عدم شكرهم بإتيانهم بضده وهو تكفيرهم وانكارهم قدرته على احياء الموتى وقد ذكرنا أن الله تعالى في كلامه القديم كما ذكر أصلين من الاصول الثلاثة لم يترك الاصل الثالث وههنا كذلك لما ذكر الرسالة بقوله تنزيل الكتاب الى قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك وذكر الوحدانية بقوله الله الذي خلق الى قوله وجعل لكم السمع والابصار ذكر الاصل الثالث وهو الحشر بقوله تعالى وقالوا أئذا ضللنا في الارض وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الواو للعطف على ما سبق منهم فانهم قالوا لمحمد ليس برسول والله ليس بواحد وقالوا للمشر ليس بممكن (المسئلة الثانية) ان الله تعالى قال في تكذيبهم الرسول في الرسالة أم يقولون بلفظ المستقبل وقال في تكذيبهم اياه في الحشر وقالوا بلفظ الماضي وذلك لان تكذيبهم اياه في رسالته لم يكن قبل وجوده واما كان ذلك حالة وجوده فقال يقولون يعني هم فيه وأما انكارهم للحشر كان سابقا صادرا منهم ومن آبائهم فقال وقالوا (المسئلة الثالثة) انه تعالى صرح بذكر قولهم في الرسالة حيث قال أم يقولون وفي الحشر حيث قال وقالوا أئذا ولم يصرح بذكر قولهم في الوحدانية وذلك لانهم كانوا مصرين في جميع الاحوال على انكار المشر والرسول وأما الوحدانية فكانوا يعترفون بها في المعنى الا ترى أن الله تعالى قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله فلم يقل قالوا ان الله ليس بواحد وان كانوا قالوه في الظاهر (المسئلة الرابعة) لو قال قائل لما ذكر الرسالة الذكر من قبل دليلها وهو انتقرير الذي لا ريب فيه ولما ذكر الوحدانية ذكر دليلها وهو خلق السموات والارض وخلق الانسان من طين ولما ذكر انكارهم الحشر لم يذكر الدليل نقول في الجواب ذكر دليله أيضا وذلك لان خلق

العادية (وليا) أي ولدا من صلبي وتأخيره عن الجارين لاظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع على ما فيه من التشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مستشرفة له فعند وروده لها يتمكن عندها فضل تمكن ولان فيه نوع طول بما ورد من الوصف فتأخيرها عن الكل أوتوسيطها بين الوصفين والصفة مما لا يليق بجزالة النظم الكريم والفاء الترتيب ما بعدها

على ماقبلها فان ماذكره عليه الصلاة والسلام من كبر السن وضعف القوى وعقر امرأته موجب لانقطاع رجائه عليه الصلاة والسلام عن حصول الولد بتوسط الاسباب العادية واتيانه على الوجه الخارق للعادة ولا يقدح فى ذلك أن يكون هناك داع آخر الى الاقبال على الدعاء المذكور من مشاهدته عليه ٥٩٦ الصلاة والسلام للخوارق الظاهرة فى حق مريم كما يعرب عنه قوله تعالى هنالك دعا

ذكريا ربه الآية وعدم ذكره ههنا للتعويل على ذكره هناك كما أن عدم ذكر مقدمة الدعاء هناك للاكتفاء بذكره ههنا فان الاكتفاء بما ذكر فى موطن عما ترك فى موطن آخر من النكت التنزيلية وقوله تعالى (يرثنى) صفة لوليا وقرئ هو ومابعطف عليه بالجزم جوابا للدعاء أى يرثنى من حيث العلم والدين والنبوة فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام لا يورثون المال قال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الانبياء لا نورث ماتركناه صدقة وقيل يرثنى الخلافة وكان عليه الصلاة والسلام حبرا (ويرث من آل يعقوب) يقال ورثه وورث منه لغتان وآل الرجل خاصته الذين يؤل اليه أمرهم لقرابة أو لصحبة أو لموافقة فى الدين وكانت زوجة زكريا أخت أم مريم أى ويرث منهم الملك قيل هو يعقوب بن إسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام وقال الكلبى ومقاتل هو يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان من نسل سليمان عليه السلام وكان آل يعقوب أخوال يحيى بن زكريا قال الكلبى كان يوماثان رؤس بنى اسرائيل وملوكهم وكان زكريا رئيس الاحبار يومئذ فأراد أن يرثه ولده ونبوته ويرث من بنى ماثان ملكهم وقرئ ويرث وليرث آل يعقوب على أنه سأل من المستكن فى يرث وقرئ أو يرث آل يعقوب بالنصب فيهما عطفا على وراثته عليه الصلاة والسلام لما

الانسان استدلال على قدرته على اعادته ولهذا استدل الله على امكان الحشر بالخلق الاول كما قال ثم يعيده وهو أهون عليه وقوله قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وكذلك خلق السموات كما قال تعالى أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى ﴿وقوله تعالى ﴿أئنا لفى خلق جديد﴾ أى أئنا كائنون فى خلق جديد أوواقعون فيه ﴿بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾ اضراب عن الاول يعنى ليس انكارهم لمجرد الخلق ثانيا بل هم كافرون بجميع أحوال الآخرة حتى ليصيدقوا بانه خلق الثانى لما اعتقدوا بالعذاب والثواب أوتقول معناه لم ينكروا البعث لنفسه بل لكفرهم فانهم أنكروه فأنكروا المفضى اليه ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم﴾ يعنى لا يدعن الموت ثم من الحياة بعده والسه الاشارة بقوله ﴿ثم الى ربكم ترجعون﴾ وقوله الذى وكل بكم اشارة الى أنه لا يغفل عنكم واذا جاء أجلكم لا يؤخركم اذ لا شغل له الا هذا وقوله يتوفاكم ملك الموت ينبئ عن بقاء الارواح فان التوفى الاستيفاء والقبض هو الاخذ والاعدام المحض ليس بأخذ ثم ان الروح الزكى الطاهر يبقى عند الملائكة مثل الشخص بين أهله المناسبين له والخبيث الفاجر يبقى عندهم كأسير بين قوم لا يعرفهم ولا يعرف لسانهم والاول يغمرو يزيد ويزداد صفاؤه وقوته والآخر يذبل ويضعف ويزداد شقاؤه وكدورته والمتكلمون يقولون ان الارواح الطاهرة تتعلق بجسم سماوى خير من بدنها وتكمل به والارواح الفاجرة لا كمال لها بعد التعلق الثانى فان أرادوا ماذكرنا فقد وافقونا والا فهو تغيير النظر فى ذلك بحسب ارادتهم فقد يكون قولهم حقا وقد يكون غير حق فان قيل هم أنكروا الاحياء والله ذكر الموت وبينهما مباينة نقول فيه وجهان (أحدهما) أن ذلك دليل الاحياء ودفع استبعاد ذلك فانهم قالوا اما عدم بالكلية كيف يكون الموجود عين ذلك فقال الملك يقبض الروح والاجزاء تتفرق فجمع الاجزاء لا بعد فيه وأمر الملك بردها جسمه لا صعوبة فيه أيضا فقوله قل يتوفاكم ملك الموت أى الارواح معلومة فتبرد الى أجسادها ﴿ثم قال تعالى ﴿ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون﴾ لما ذكر أنهم يرجعون الى ربهم بين ما يكون عند الرجوع على سبيل الاجمال بقوله ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤسهم يعنى لو ترى حالهم وتشاهد استخجالهم لترى عجبا وقوله لترى يحتمل أن يكون خطابا مع الرسول صلى الله عليه وسلم تشفيا لصدره فانهم كانوا يؤذونه بالتكذيب ويحتمل أن يكون عاما مع كل أحد كما يقول القائل ان فلانا كريم ان خدمته ولو لحظة يحسن اليك طول عمرك ولا يريد به خاصا وقوله عند ربهم لبيان شدة الخجالة لان الرب انما يسأل عبده المريوب ثم وقف بين يديه يكون فى غاية الخجالة ﴿ثم قال تعالى ربنا أبصرنا وسمعنا يعنى يقولون أوقات لا تنفعهم أبصرنا وحذف يقولون اشارة الى غاية خجالتهم لان الخجل العظيم الخجالة لا يتكلم وقوله ربنا أبصرنا وسمعنا أى أبصرنا المحشر وسمعنا قول الرسول فارجعنا الى الدنيا نعمل صالحا وقولهم انا موقنون معناه انا فى الحال آمنا ولكن النافع الايمان والعمل الصالح ولكن العمل الصالح لا يكون الا عند التكليف به وهيهات الدنيا فارجعنا نعمل وهذا باطل منهم فان الايمان لا يقبل فى الآخرة كالعمل الصالح أو نقول لما رد منهم انكارهم الشرك كما قالوا والله ربنا ما كنا مشركين فقالوا ان هذا الذى جرى علينا ما جرى الا بسبب ترك العمل الصالح وأما الايمان فانا موقنون وما أنكرنا ﴿ثم قال تعالى ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ جوابا عن قولهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا وبيانه هو أنه تعالى قال انى لو أردت بسوقكم الى الايمان لهديتكم فى الدنيا ولما لم أهدكم تبين انى ما أردت وما شئت ايمانكم فلا أرادكم وقوله ولو شئنا الآتينا صريح فى ان هذا هنا صحيح حيث نقول ان الله ما أراد الايمان

برثه فى حالة صغره وقرئ وارث من آل يعقوب على أنه فاعل يرثنى على طريقة الخبر بد أى يرثنى به وارث وقيل من للتبعيض اذ لم يكن كل آل يعقوب عليه السلام أنبياء ولا علماء (واجعله رب رضيا) مرضيا عندك قولا وفعلا وتوسيط رب بين مفعولى اجعل لما فيه من الاعتناء بشأن ما يسند عنه (يا زكريا) على ارادة القول أى قال تعالى يا زكريا ٥٩٧ (انا نبشرك بغلام اسمه يحيى) لكن لا بأن يخاطبه

عليه الصلاة والسلام بذلك بالذات بل بواسطة الملك على أن يحكى له عليه الصلاة والسلام هذه العبارة عنه عز وجل على نهج قوله تعالى قل يا عبادى الذين أسرفوا الآية وقد مر تحقيقه فى سورة آل عمران وهذا جواب لندائه عليه الصلاة والسلام ووعد باجابة دعائه لكن لا كلا كما هو المتبادر من قوله تعالى فاستجبنا له ووهبنا له يحيى الخ بل بعد احسبما تقتضيه المشيئة الالهية المبنية على الحكم البالغة فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام وان كانوا مستجابى الدعوة لكنهم ليسوا كذلك فى جميع الدعوات الا ترى الى دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام فى حق أبيه والى دعوة النبى عليه الصلاة والسلام حيث قال وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها وقد كان من قضائه عز وعلا أن يهلك يحيى نبيا مرضيا ولا يزيد فاستجيب دعاؤه فى الاول دون الثانى حيث قتل قتل موت أيضا عليه الصلاة والسلام

الايمان من الكافر وما شاء منه الا الكفر ﴿ ثم قال تعالى ﴾ ﴿ ولكن حق القول منى لاملأن جهنم ﴾ أى وقع القول وهو قوله تعالى لابليس لاملأن جهنم منك ومن تبعك منهم اجمعين وهذا من حيث النقل وله وجه فى العقل وهو ان الله تعالى لم يفعل فعلا خاليا عن حكمة وهذا متفق عليه والخلاف فى انه هل قصد الفعل للحكمة أو فعل الفعل ولزمته الحكمة لا بحيث تحمله تلك الحكمة على الفعل واذا علم ان فعله لا يخلو عن الحكمة فقال المتكلمون حكمة افعاله بأسرها لا تدرك على سبيل التفصيل لكن تدرك على سبيل الاجمال فكل ضرب يكون فى العالم وفساد فحكمته تخرج من تقسيم عقلى وهو ان الفعل اما أن يكون خيرا محضا أو شرا محضا أو خيرا وشرا وهذا التقسيم على ثلاثة أقسام قسم خيره غالب وقسم شره غالب وقسم خيره وشره مثلان اذا علم هذا خلق الله عالما فيه الخير المحض وهو عالم الملائكة وهو العالم العلوى وخلق عالما فيه خير وشر وهو عالمنا وهو العالم السفلى ولم يخلق عالما فيه شر محض ثم ان العالم السفلى الذى نحن فيه وعالمنا وان كان الخير والشر موجودين فيه لكنه من القسم الاول الذى خيره غالب فانك اذا قابلت المنافع بالاضرار والمنافع بالاضرار تجد المنافع اكثر واذا قابلت الشر بالخير تجدها الخير اكثر وكيف لا والمؤمن يقابله الكافر ولكن المؤمن قد يكون وجوده بحيث لا يكون فيه شر أصلا من أول عمره الى آخره كالانبياء عليهم الصلاة والسلام والاولياء والكافر لا يكون وجوده بحيث لا يكون فيه خير أصلا غاية ما فى الباب ان الكفر يحبط خيره ولا ينفعه اغاية تحيل نظرا الى الملة أن يوجد كافر لا يسقى المطشان شربة ماء ولا يطعم الجائع لقمة خبز ولا يذكر ربه فى عمره وكيف لا وهو فى زمن صباه كان مجبولا على الفطرة المقتضية للخيرات اذا ثبت هذا فنقول قالوا لولا الشر فى هذا العالم لكانت مخلوقات الله تعالى منحصرة فى الخير المحض ولا يكون قد خلق القسم الذى فيه الخير الغالب والشر القليل ثم ان ترك خلق هذا القسم ان كان لما فيه من الشر فترك الخير الكثير لاجل الشر القليل لا يناسب الحكمة ألا ترى أن التاجر اذا طلب منه درهم بدينار فلو امتنع وقال فى هذا شر وهو زوال الدرهم عن ملكى فيقال له لكن فى مقابلته خير كثير وهو حصول الدينار فى ملكك وكذلك الانسان لو ترك الحركة البتة لما فيها من المشقة مع علمه بأنه تحصل له راحة مستمرة ينسب الى مخالفة الحكمة اذا نظر الى الحكمة كان وقوع الخير الكثير المشوب بالشر القليل من الالطاف بخلق العالم الذى يقع فيه الشر والى هذا أشار بقوله انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك فقال الله تعالى فى جوابهم انى أعلم ما لا تعلمون أى أعلم أن هذا القسم يناسب الحكمة لان الخير فيه كثير ثم بين لهم خيره بالتعليم كما قال تعالى وعلم آدم الاسماء كلها يعنى أيها الملائكة خلق الشر المحض والشر الغالب والشر المساوى لا يناسب الحكمة وأما الخير الكثير المشوب بالشر القليل فمناسب فقوله تعالى أتجعل فيها من يفسد فيها اشارة الى الشر وأجابهم الله بما فيه من الخير بقوله وعلم آدم الاسماء فان قال قائل فالله تعالى قادر على تخليص هذا القسم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر فيقال له ما قاله الله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها يعنى لو شئنا لخلصنا الخير من الشر لكن حينئذ لا يكون الله تعالى خلق الخير الكثير المشوب بالشر القليل وهو قسم معقول فما كان يجوز تركه لكثير القليل وهو لا يناسب الحكمة لان ترك الخير الكثير لشر القليل غير مناسب للحكمة وان كان لا كذلك فلا مانع من خلقه فخلقه لما فيه من الخير الكثير وهذا الكلام يعبر عنه من يقول برعاية المصالح ان الخير فى القضاء والشر فى القدر فالله قضى بالخير ووقع الشر فى القدر بفعله المتزه عن القبح والجهل ﴿ وقوله ﴿ من الجنة والناس ﴾ لانه تعالى قال لابليس لاملأن جهنم منك ومن تبعك وهذا اشارة الى أن النار لمن فى العالم السفلى والذين فى العالم

على ما هو المشهور وقيل بقى بعد مدة فلا اشكال حينئذ وفى تعيين اسمه عليه الصلاة والسلام تأكيد للوعد وتشريف له عليه الصلاة والسلام وفى تخصيصه به عليه السلام حسبما يعرب عنه قوله تعالى (لم نجعل له من قبل سميا) أى شريكا له فى الاسم حيث لم يسم أحد قبله يحيى مزيد تشريف وتفخيم له عليه الصلاة والسلام فان التسمية بالاسامى البعيدة الامتازة عن أسماء سائر الناس تجرى بالمعنى لا محالة

وقيل سماشيهما في الفضل والكمال كما في قوله تعالى هل تعلم له سميا فان المتشاركين في الوصف بمنزلة المتشاركين في الاسم قالوا ولم يكن له عليه الصلاة والسلام مثل في أنه لم يعص الله تعالى ولم يهم بمعصية قط وأنه ولد من شيخ فان وعجوز عاقر وأنه كان حصورا فيكون هذا الجا لا لما نزل بعده من قوله تعالى وعصى آدم ربه فغوى كلمة ٥٩٨ من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين والاظهر انه اسم أعجمي وان كان عربيا فهو منقول عن الفعل كيعمر ويعيش قيل سمي به لانه حي بعد رحم أمه أو حي بدين الله تعالى بعد موته (قال) استئناف مبني على السؤال كانه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام حينئذ فقيل قال (رب) ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعالى اليه بتوسط الملك للمبالغة في التضرع والمناجاة والجد في التبتل اليه تعالى والاحتراز عما عسى يوهم خطابه تعالى من توهم أن حمله تعالى عما صدر عنه متوقف على توسط كما أن عزل البشر عما هو عرضة له مما يتوقف على ذلك في عامة الاوقات (أنى يكون لي غلام) كلمة أنى بمعنى كيف أو من أين وكان اما تامة وأنى والام متعلقان بها وتقديم الجار على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما أخر أي كيف أو من أين يحدث لي غلام ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من غلام اذ لو تأخر لكان صفة له أي أنى يحدث كائنا لي غلام أو لانه صفة اسمها الظاهر وخبرها اما أني ولي متعلق بمحذوف كما مر أو هو والخبر أني نصب على الظرفية وقوله تعالى (وكانت امرأتي عاقرا) حال من ضمير المتكلم بتقدير وقد وكذا قوله تعالى (وقد بلغت من الكبر عتيا) حال من ضمير المخاطب بتقدير قد وهي كلمة للاستعداد ترتا كيدا أي كانت امرأتي عاقرا لم تلد في شبابها وشبابي فكيف وهي الآن عجوز وقد بلغت أنا من أجل كبر السن جساوة وقحولا في المفاصل

العلوي ممنوعون عن دخول النار وهم الملائكة وهذا يقتضي أن لا يكون ابليس من الملائكة وهو الصحيح ﴿ وقوله ﴿ أجمعين ﴾ يحتمل وجوبين (أحدهما) أن يكون تأكيدا وهو الظاهر (والثاني) أن يكون حالا أي مجموعين فان قيل كيف جعل جميع الانس والجن مما لأيهم النار نقول هذا لبيان الجنس أي جهنم ملأى من الجن والانس لا غير أما الملائكة ولا يقتضي ذلك دخول الكل كما يقول القائل ملأت الكيس من الدراهم لا يلزم أن لا يبقى درهم خارج الكيس فان قيل فهذا يقتضي أن تكون جهنم ضيقة تتمائى بعض الخلق نقول هو كذلك واما الواسع الجنة التي هي من الرحمة الواسعة والله أعلم ﴿ ولما بين الله تعالى بقوله ولو شئنا لآتينا أنهم لا يرجوع لهم قال لهم اذا علمتم انكم لا ترجوع لكم ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ وفي تفسير الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله فذوقوا بما نسيتم لقاء يحتمل أن يكون منصوبا بأذقوا أي ذوقوا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم وعلى هذا يحتمل أن يكون المنسي هو الميثاق الذي أخذ منهم بقوله ألست بربكم قالوا بلى أو بما في الفطرة من الوحدانية فنسي بالاقبال على الدنيا والاشتغال بها ويحتمل أن يكون منصوبا بقوله نسيتم أي بما نسيتم لقاء هذا اليوم ذوقوا وعلى هذا لو قال قائل النسيان لا يكون الا في المعلوم أولا ثم اجهل آخرا نقول لما ظهرت براهينه فكأنه ظهر وعلم ولما تركوه بعد الظهور ذكر بلفظ النسيان اشارة الى كونهم منكرين لا مرظاهر كمن ينكر أمرا كان تحقه عليه ﴿ (المسئلة الثانية) ﴾ قوله تعالى هذا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون اشارة الى اليوم أي فذوقوا بما نسيتم لقاء هذا اليوم (وثانيها) أن يكون اشارة الى لقاء اليوم أي فذوقوا بما نسيتم هذا اللقاء (وثالثها) أن يكون اشارة الى العذاب أي ذقوا هذا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم قال انا نسيناكم أي تركناكم بالكلية غير ملتفت اليكم كما يفعله الناسي قطعا لكم ثم ذكر ما يلزم من تركهم اياهم كما تترك الناسي وهو خلود العذاب لان من لا يخلصه الله فلا خلاص له فقال وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴿ ثم قال تعالى ﴿ انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ﴾ اشارة الى أن الايمان بالآيات كلها اصل وانما ينساه البعض فاذا ذكر بها خر ساجدا له يعني انقادت أعضاؤه له وسبح بحمد ربه يعني ويحرك لسانه بتنزيهه عن الشرك وهم لا يستكبرون يعني وكان قلبه خاشعا لا يتكبر ومن لا يستكبر عن عبادته فهو المؤمن حقا ﴿ ثم قال تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ﴾ يعني بالليل قليلا ما يهجعون وقوله يدعون ربهم أي يصلون فان الدعاء والصلاة من باب واحد في المعنى أو يطلبونه وهذا لا ينافي الاول لان الطلب قد يكون بالصلاة والحمل على الاول أولى لانه قال بعده ومما رزقناهم ينفقون وفي أكثر المواضع التي ذكر فيها الزكاة ذكر الصلاة قبلها كقوله تعالى ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون وقوله خوفا وطمعا يحتمل أن يكون مفعولا له ويحتمل أن يكون حالا أي تتجافى جنوبهم خائفين طامعين كقولك جاؤني زورا أي زائرين وكان في الآية الاولى اشارة الى المرتبة العالية وهي العبادة لوجه الله تعالى مع الذهول عن الخوف والطمع بدليل قوله تعالى اذا ذكروا بها خروا فانه يدل على ان هذه مجرد الذكر بوجه منهم الا يجرد وان لم يكن خوف وطمع وفي الآية الثانية اشارة الى المرتبتين الاخيرتين وهي العبادة خوفا كمن يخدم الملك لمهابته مخافة مقته أو يخدمه الملك الجواد طامعا في بره ﴿ ثم بين ما يكون لهم من جزاء خدمهم فقال ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ يعني مما تقر أعين عند رؤيته ولا تلتفت الى غيره يقال ان هذا لا يدخل في عيني يعني تطلع الى غيره فاذا لم يبق تطلع للعين الى شئ آخر لم يبق للعين مسرح الى غيره فتقر جزاء بحكم الوعد وهذا فيه لطيفة

والعظام أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتيا من عتا يعتو وعتوكنه عود فاستثقل توالي الضمتين والواوين فكسرت التاء فانقلبت الاولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ثم قلبت الثانية أيضا لاجتماع الواو والياء وسبق احدهما بالسكون وكسرت العين اتباعا لما بعدها وقرئ بضمها ولعل البداءة ههنا بذكر حال امرأته على ٥٩٩ عكس ما في سورة آل عمران لما أنه قد ذكر

وهي ان من العبد شيأ وهو العمل الصالح ومن الله أشياء سابقة من الخلق والرزق وغيرهما وأشياء لاحقة من الثواب والاكرام فانه تعالى أن يقول جزاء الاحسان احسان وانا احسنت أولا والعبد أحسن في مقابلته فالثواب تفضل ومنحة من غير عوض ولك أن يقول جعلت الاول تفضلا لا أطلب عليه جزاء فاذا أتى العبد بالعمل الصالح فليس عليه شيء لانى امرأته مما عليه من النعم فكان هو آتيا بالحسنة ابتداء وجزاء الاحسان احسان فاجعل الثواب جزاء كما هو حاصل لكن غايته الكرم أن يجعل الاول هبة ويجعل الثاني مقابلا لا وعوضا لان العبد ضعيف لو قيل له بأن فعلك جزاء فلا تستحق جزاء وانما الله يتفضل بثق ولكن لا يطمئن قلبه واذا قيل له الاول غير محسوب عليك والذي أتيت به أنت به بادوك عليه استحقاق ثواب يثق ويطمئن ثم اذا عرف ان هذا من فضل الله فالواجب من جانب العبد أن يقول فعلى جزاء نعم الله السابقة ولا استحق به جزاء فاذا أتاه الله تعالى يقول الذي أتيت به كان جزاء وهذا اشتد اذا احسان من الله تعالى يستحق به حمدا وشكرا فاذا أتى بحسنة فيقول الله انى أحسنت اليه جزاء فعله الاول وما فعلت أولا لاطلب له جزاء فيجازيه ثانيا فيشكر العبد ثانيا فيجازيه رابعا وعلى هذا لا تنقطع المعاملة بين العبد والرب ومثله في المشاهد اثنان تحابا فاهدى أحدهما الى الآخر هدية ونسيها والمهدي اليه يتذكرها فاهدى الى المهدي عوضا فرآه المهدي الاول ابتداء لنسيانه ما أهداه اليه فجازاه بهدية فقال المحب الآخر ما أهديته كان جزاء لهديته السابقة وهذه هديه مبتدأة عوضتها فيعوض ويعوض عنه المحب الآخر ويتسلسل الامر بينهما ولا ينقطع التهادي والتحاب بخلاف من أرسل الى واحد هدية وهو يتذكرها فانه لم يهد اليه المهدى اليه عوضا يقول المهدي هذا عوض ما أهديت اليه فسكت وترك الاهداء فينقطع واعلم أن التكاليف يوم القيامة وان ارتفعت لكن الذكر والشكر والعبادة لا ترتفع بل العبد يعبد ربه في الجنة أكثر مما يعبده في الدنيا وكيف لا وقد صار حاله مثل حال الملائكة الذين قال في حقهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون غاية ما في الباب ان العباد ذليت عليهم التكاليف بل هي بمقتضى الطبع ومن جملة الاسباب الموجبة لدوام نعيم الجنة هذا وكيف لا وخدمة المولى لذة وشرف فلا تترك وان قرب العبد منه بل تزداد لذتها ﴿ ثم قال تعالى ﴾ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴿ لما بين حال المجرم والمؤمن قال للعاقل هل يستوي الفريقان ثم بين انهما لا يستويان ثم بين عدم الاستواء على سبيل التفصيل فقال أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى اشارة الى ما ذكرنا ان الله أحسن ابتداء لا لغرض أو غرض فلما آمن العبد وعمل صالحا قال له منه كما انه ابتدأه بالجنة ثم قال تعالى نزلا اشارة الى أن بعدها أشياء لان النزل ما يعطى الملك النازل وقت نزوله قبل أن يجعل له رتبة أو يكتب له خبزا وقوله تعالى بما كانوا يعملون يحقق ما ذكرنا وقوله تعالى وأما الذين فسقوا فأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها اشارة الى جزاء الكافر وقد ذكرنا مرارا ان العمل الصالح له مع الايمان أثر أما الكافر اذا جاء فلا التفات الى الاعمال فلهم يقل وأما الذين فسقوا وعملوا السيآت لان المراد من فسقوا كفروا وتوحيد العقاب في مقابلة الكفر والعمل لئلا ان يتوهم أن مجرد الكفر لا عتاب عليه وقوله في حق المؤمنين لهم بلام التمليك زيادة اكرام لان من قال لغيره اسكن هذه الدار يكون ذلك محمولا على العارية وله استرداده واذا قال هذه الدار لك يكون ذلك محمولا على نسبة الملكية اليه وليس له استرداده فحكم قوله وكذلك في قوله لهم جنات الا ترى ان الله تعالى لما أسكن آدم الجنة وكان في علمه انه يخرجه منها قال اسكن

حاله في تضاعيف دعائه وانما المذكور ههنا بلوغه أقصى مراتب الكبر تتمة لما ذكر قبل وأما هناك فلما سبق في الدعاء ذكر حاله فلذلك قدمه على ذكر حال امرأته لما أن المسارعة الى بيان قصور شأنه أنسب وانما قاله عليه الصلاة والسلام مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله لاسيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آل عمران استغفارا لقدرة الله تعالى وتعجبا منها واعتدادا بنعمة الله تعالى عليه في ذلك باظهار انه من محض لطف الله عز وعلا وفضله مع كونه في نفسه من الامور المستحيلة عادة لا استبعادا له وقيل انما قاله ليجابه بما أجيب به قيد داود المؤمنون ايمانا ويرتدع المطلعون وقيل كان ذلك منه عليه الصلاة والسلام استفهاما عن كيفية حدوثه وقيل بل كان ذلك بطريق الاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة وكان قد نسي دعاءه وهو بعيد (قال) استئناف

كأنه مبني على سؤال نشأ مما سلف والكاف في قوله تعالى (كذلك قال ربك) مقحمة كما في مثلك لا يبخل محلها أما النصب على انه مصدر تشبيهي لقال الثاني وذلك اشارة الى مصدره الذي هو عبارة عن الوعد السابق لا الى قول آخر شبهه هذا به وقدر تحقيقه في تفسير قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا وقوله تعالى (هو علي هين) جملة مقررة للوعد المذكور داخلة في حيز قال الاول كأنه قيل

قال الله عز وجل مثل ذلك القول البديع قلت أي مثل ذلك الوعد الخارق للعادة وعدت هو على خاصة بين وان كان في العادة مستقبلا وقرئ وهو على بين فالجملة حينئذ حال من ربك والضمير عبارة عن ضميره كما تعرفه أو اعتراض وعلى كل حال فهي مؤكدة ومقررة لما قبلها ثم أخرج القول الثاني مخرج ٦٠٠ الالتفات جريا على سنن الكبرياء تربية المهابة وادخال الروعة كقول الخلفاء أمير

المؤمنين يرسم لك مكان أنا أرسم ثم أسند الى اسم الرب المضاف الى ضميره عليه السلام تشريفا له واشعارا بعلة الحكم فان تذكير برهان أحكام ربوبيته تعالى عليه عليه الصلاة والسلام من أبلغ وسائل تصريفه في أطوار الخلق من حال الى حال شيأ فشيأ الى أن يبلغ كماله اللائق به مما يقلع أساس استبعاده عليه الصلاة والسلام لحصول الموعود وبروزه عليه الصلاة والسلام الاطمئنان بانجازه لامحالة ثم التفت من ضمير الغائب العائد الى الرب الى ياء العظمة ايذانا بأن مدار كونه هينا عليه سبحانه هو القدرة الذاتية لا ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام خاصة وتمهيدا لما يليقه وقيل ذلك اشارة الى مبهم يفسره قوله تعالى هو علي هين على طريقة قوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ولا يخرج هذا الوجه على القراءة بالواو لانها لا تدخل بين المفسر والمفسر وأما الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف

أنت وزوجك الجنة ولم يقل لكما الجنة وفي الآخرة لما لم يكن للمؤمنين خروج منها قال لكم الجنة ولهم جنات وقوله كلا أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا اشارة الى معنى حكمي وهو ان المؤلم اذا تمكن والالم اذا امتد لم يبق به شعور تام ولهذا قال الاطباء ان حرارة حمى الدق بالنسبة الى حرارة الحمى البلغمية نسبة النار الى الماء المسخن ثم ان المدقوق لا يحس من الحرارة بما يحس به من به الحمى البلغمية لتمكن الدق وقرب العهد بظهور حرارة الحمى البلغمية وكذلك الانسان اذا وضع يده في ماء بارد يتألم من البرد فاذا صبر زمانا طويلا لا يتألم بذلك عنه ذلك الالم الشديد مع فساد مزاجه اذا علمت هذا فقوله كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها اشارة الى أن الالم لا يسكن عنهم بل يزداد عليهم في كل حال أمر مؤلم يجدد وقوله ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون تقرير لما ذكرنا ومعناه انهم في الدنيا كانوا يكذبون بعذاب النار فلما ذاقوه كان أشد ايلاما لان من لا يتوقع شيأ فجيئه يكون أشد تأثيرا منه ثم انهم في الآخرة كانوا في الدنيا يجزمون أن لا عذاب الا وقد وصل اليهم ولا يتوقعون شيأ آخر من العذاب فيرد عليهم عذاب أشد من الاول وكانوا يكذبون به بقولهم لا عذاب فوق ما نحن فيه فاذن معنى قوله تعالى ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ليس مقتصرا على تكذيبهم الذي كان في الدنيا بل كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذابا كنتم به تكذبون من قبل أما في الدنيا فقولوا لكم لا عذاب في الآخرة وأما في الآخرة فقولوا لكم لا عذاب فوق ما نحن فيه ﴿ثم انما هددهم قال تعالى﴾ ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر لعلهم يرجعون ﴿يعني قبل عذاب الآخرة﴾ نذيقهم عذاب الدنيا فان عذاب الدنيا بالنسبة الى عذاب الآخرة لان عذاب الدنيا لا يكون شديدا ولا يكون مديدا فان العذاب الشديد في الدنيا يهلك فيموت المعذب ويستريح منه فلا عتد وان أراد المعذب أن يعتد عذاب المعذب لا يمد به بل يعذب في غاية الشدة وأما عذاب الآخرة فشديد يدوم به ويدوم في الآخرة مسئلتان ﴿احداهما﴾ قوله تعالى ولنذيقنهم من العذاب الادنى العذاب الادنى في مقابلته العذاب الاقصى والعذاب الاكبر في مقابلته العذاب الاصغر فالحكمة في مقابله الادنى بالاكبر فنقول حصل في عذاب الدنيا أمران ﴿أحدهما﴾ انه قريب والآخر انه قليل صغير وحصل في عذاب الآخرة أيضا أمران أحدهما انه بعيد والآخر انه عظيم كثير لكن القريب في عذاب الدنيا هو الذي يصلح للتخويف به فان العذاب العاجل وان كان قليلا قد يحترز منه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد اذا كان آجلا وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل وأما في عذاب الآخرة الذي يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير لا البعيد لما بينا قبل في عذاب الدنيا العذاب الادنى ليحترز العاقل عنه ولو قال لنذيقنهم من العذاب الاصغر لما كان يحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلا ولو قال في عذاب الآخرة الاكبر لذلك المعنى ولو قال دون العذاب الابعد الاقصى لما حصل التخويف بمثل ما يحصل برصفه بالكبر وبالجملة فقد اختار الله تعالى في الدنيا بين الوصف الذي هو أصلح للتخويف من الوصفين الآخرين فيهما لحكمة بالغة ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله تعالى لعلهم يرجعون لعل هذه للترجي والله تعالى محال ذلك عليه فما الحكمة فيه فنقول فيه وجهان ﴿أحدهما﴾ معناه لنذيقنهم اذاقة الراجين كقوله تعالى اتانيكم يعني تركناكم كما يترك الناس سدى لا يلتفت اليهم أصلا فكذلك ههنا نذيقهم على الوجه الذي يفعل بالراجي من التدريج ﴿وثانيهما﴾ معناه نذيقهم العذاب اذاقة يقول القائل لعلهم يرجعون بسببه ونزيد بها آخر من عندنا وهو ان كل فعل يتلوه أمر مطلوب من ذلك الفعل يصح تعليل ذلك الفعل بذلك الامر كما قال فلان اختبر ليرجح ثم ان هذا التعليل ان كان في موضع

لا وعدت وهو واقع لامحالة وقوله تعالى قال ربك الخ استئناف مقرر لمضمونه والجملة المحكية على القراءة الثانية معطوفة على المحكية الاولى أو حال من المستكن في الجار والمجرور وأيا ما كان فتوسيط قال بينهما لمزيد الاعتناء بكل منهما وادراج الكلام في اسناد القول الى الرب

ثم الالتفات الى التكلم كالذي مر آنفا وقيل ذلك اشارة الى ما قاله زكريا عليه الصلاة والسلام أي قال تعالى الامر كما قالت تصديقا له فيما حكاه من الحالة المباينة للولادة في نفسه وفي امرأته وقوله تعالى قال ربك الخ استئناف مسوق لازالة استبعاده بعد تقريره أي قال تعالى هو مع مدة في نفسه على شيخين والقراءة الثانية أدخل في افادة هذا المعنى على أن الواو للعطف ٦٠١ وأما جعلها للحال فيحمل بسداد

لا يحصل الا بما يلزم بحصول الامر من الفعل نظرا الى نفس الفعل وان حصل الجزم والعلم بناء على أمر من خارج فانه يصح أن يقال يفعل كذا وجاء يقال يتجرد رجلا أن يرجم وان حصل للقائل بوجوم بالرجم لا يصح ذلك في صحة قولنا يرجوا أن لا يلزم غير حاصل نظرا الى الخارج وان كان الجزم حاصلا نظرا الى الفعل لا يصح أن يقال يرجو وان كان ذلك الجازم يحتمل خلافه كقول القائل فلان يخرج غدا وجاء أن يموت لا يصح لحصول الجزم بالموت عقيب الخروج نظرا اليه وان أمكن أن لا يموت نظرا الى قدرة الله تعالى وصح قولنا قوله تعالى في حق ابراهيم والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين كان عالما بالمغفرة لكن لما لم يكن الجزم حاصلا من نفس الفعل أطلق عليه الطمع وكذلك قوله تعالى وارجوا اليوم الآخر مع أن الجزم به لازم اذا علم مما ذكر نافلة ورد في كل صورة قال الله تعالى لعلهم فان نظرت الى الفعل لا يلزم لما يلزم فان من التعليب لا يلزم الرجوع لزوما بينا فصح وان ما يرجوان كان علة حاصلا بما يكون غاية لشاق الباب ان الرجاء في أكثر الامر انما تعمل فيما لا يكون الامر معلوما وأيضا فانهم أن لا يجوزوا الاطلاق في حق الله تعالى وليس كذلك بل انه يجوز في حق الله تعالى ولا يلزم منه عدم العلم وانما يلزم عدم الجزم بناء على ذلك الفعل وعلم الله ليس مستفادا من الفعل فيصح حقيقة الترجي في حقه على ما ذكرنا من المعنى ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ يعني لتذبيههم ولا يرجعون فيكونون قد ذكروا بآيات الله من النعم أولا والنقم ثانيا ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم أحد لان من يكفر بالله ظالم فان الله لذوي البصائر ظاهر لا يحتاج المستبصر الباطن الى شاهد يشهد عليه بل هو شاهد على كل شئ كما قال تعالى أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد أي دليلك الله لا تحتاج يا نير الباطن الى دليل على الله ولهذا قال بعض العارفين رأيت الله قبل كل شئ فمن لم يكفه الله فما أرى الموجودات سواه كان فيها نافع أو ضر كاف في معرفة الله كما قال تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم فان لم يكفهم ذلك فيسفه عليهم نعمه ظاهرة وباطنة فالاول الذي لا يحتاج الى غير الله هو عدل والثاني الذي يحتاج الى ما يدل فهو متوسط والثالث الذي لم تكفه الآفاق ظالم والرابع الذي لم تقنعه النعم أظلم من ذلك الظالم وقد يكون أظلم منه آخر وهو الذي اذا أذيق العذاب لا يرجع عن ضلاله فان الاكثر كان من همتهم اذا أنعمنا عليهم شرد عوا وان مسهم شر فهذا لما عذب ولم يرجع فلا أظلم منه أصلا فقال ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴿ ثم قال تعالى ﴿ انا من المجرمين منتقمون ﴾ كما لم ينفعهم العذاب الادنى فانا نعذبهم بالعذاب الاكبر ﴿ ثم قال تعالى ﴿ واذكر في الكتاب ﴾ لما قرر الاصول الثلاثة على ما بيناه عاد الى الاصل الذي بدأ به وهو الرسالة المذكورة في قوله لنتلو قرقوما أتاهم من نذير وقال ما كنت بدعا من الرسل بل كان قبلك رسل ملأت واختار من بينهم موسى لقربه من النبي صلى الله عليه وسلم ووجود من كان على دينه الزاما لهم واقناعا حتى يقتدوا عيسى عليه السلام لمذكر والاستدلال لان اليهود كانوا يوافقون على نبوته وأما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام فتمسك بالمجمع عليه ﴿ وقوله ﴿ فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ قيل معناه فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب فانه لقيه ليلة المعراج وقيل معناه فلا تكن في شك من لقاء الكتاب فانك تلقاه كما تلقى موسى الكتاب ويحتمل أن تكون الآية واردة لا للتقرير بل لتسلية النبي عليه الصلاة والسلام فانه لما أتى بكل آية وذكر بها وأعرض عنها قومه حزن عليهم فقيل لهم تذكر حال موسى ولا تحزن فانه لقي ما لقيت وأوذي كما أوذيت وعلى هذا فاختيار موسى عليه السلام لحكمة وهي ان أحدا من الانبياء لم يؤذ قومه الا الذين لم يؤمنوا به وأما الذين آمنوا به فلم يحاربوا قومه وغير قوم موسى فان من لم يؤمن به آذاه

(٧٦ تفسير) الكل فكان ابداعه عليه الصلاة والسلام على ذلك الوجه مبدأ عاما لكل أحد من ذريته كذلك

ولما كان خلقه عليه الصلاة والسلام على هذا النمط السامي الى جميع أفراد ذريته أشرع من أن يكون ذلك مقصورا على نفسه كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور اليه وأدل على عظم المرتبة تعالى وكمال علمه وحكمته وكان عدم ذكر باحيفئذ أظهر عنده وأجلى وكان حاله

أولى بان يكون معيارا لحال ما يشبهه بسبب الخلق المذكور اليه كالمناسب الخالق والتصوير الى المخاطبين فى قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم توفية لمقام الامتنان حقه فكانه قيل وقد خلقتك من قبل فى نضاعيف خلق آدم ولم تكن اذ ذاك شيأ أصلا بل عدما صرفا فانظر بعين بصيرتك هذا وأما حمل الشئ على المعتاد به ٦٠٣ أى ولم تكن شيأ معتادا به فيأباه المقام ويرده نظم الكلام وترى خلقتك (قال

مثل فرعون وغيره ومن آمن به من بنى اسرائيل أيضا آذاه بالمخالفة وطلب أشياء منه مثل طلب رؤية الله جهرة ومثل قولهم اذهب أنت وربك فقاتلا ﴿ثم بين له ان هدايته غير خالية عن المنفعة كما أنه لم تخل هداية موسى فقال ﴿وجعلناه هدى لبنى اسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بامرنا﴾ فحيث جعل الله كتاب موسى هدى وجعل منهم أئمة يهدون كذلك يجعل كتابك هدى ويجعل من أمتك صحابة يهدون كما قال عليه الصلاة والسلام أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ﴿ثم بين ان ذلك يحصل بالصبر فقال ﴿لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ فكذلك اصبروا وآمنوا بأن وعد الله حق ﴿ثم قال تعالى ﴿ان ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ هذا يصلح جوابا للسؤال وهو انه لما قال تعالى وجعلنا منهم أئمة يهدون كان لقائل أن يقول كيف كانوا يهدون وبهم اختلفوا وصاروا فرقا وسبيل الحق واحد فقال فيهم هذا والله بين المبتدع من المتبع كما بين المؤمن من الكافر يوم القيامة وفيه وجه آخر وهو ان الله تعالى بين انه يفصل بين المختلفين من أمة واحدة كما يفصل بين المختلفين من الامم فينبغى أن لا يأمن من آمن وان لم يجتهد فان المبتدع معذب كالكافر غاية ما فى الباب ان عذاب الكافر أشد وآلم وأدوم ﴿ثم قال تعالى ﴿أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون﴾ قد ذكرنا ان قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب تقرير لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم واعادة لبيان ما سبق فى قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك وانما أعاد ذكر الرسالة لأعاد ذكر التوحيد فقال تعالى أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم ﴿وقوله تعالى ﴿يمشون فى مساكنهم﴾ زيادة بانة أى مساكن المهلكين دالة على حالهم وأنتم تمشون فيها وتبصرونها ﴿وقوله تعالى ﴿ان فى ذلك لآيات أفلا يسمعون﴾ اعتبر فيه السمع لانهم ما كان لهم قوة الادراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم فقال أفلا يسمعون يعنى ليس لهم درجة المتعلم الذى يسمع الشئ ويفهمه ﴿ثم قال تعالى ﴿أولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز﴾ لما بين الاهلاك وهو الاماتة بين الاحياء ليكون اشارة الى أن الضر والنفع بيد الله والجرز الارض اليابسة التى لا نبات فيها والجرز هو القطع وكأنها المقطوع عنها الماء والنبات ﴿ثم قال تعالى ﴿فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم﴾ قدم الانعام على الانفس فى الاكل لوجوه (أحدها) ان الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للانسان (والثانى) وهو ان الزرع غذاء الدواب وهو لا بد منه وأما غذاء الانسان فقد يحصل من الحيوان فكان الحيوان يأكل الزرع ثم الانسان يأكل من الحيوان (الثالث) اشارة الى أن الاكل من ذوات الدواب والانسان يأكل بحيوانيته أو بما فيه من القوة العقلية فكأنه لا دابة ﴿ثم قال تعالى ﴿أفلا يبصرون﴾ لان الامر يرى بخلاف حال الماضين فانها كانت مسموعة ﴿ثم لما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر بقوله تعالى ﴿ويقولون متى هذا الفتح ان كنتم صادقين﴾ الى آخر السورة فصار ترتيب آخر السورة كترتيب أولها حيث ذكر الرسالة فى أولها بقوله لتنذر قوما وفى آخرها بقوله ولقد آتينا موسى الكتاب وذكر التوحيد بقوله الذى خلق السموات والارض وقوله الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين وفى آخر السورة ذكره بقوله أولم يهد لهم وقوله أولم يروا أنا نسوق وذكر الحشر فى أولها بقوله وقالوا أئذا ضللنا فى الارض وفى آخرها بقوله ويقولون متى هذا الفتح ﴿وقوله تعالى ﴿قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا ايمانهم ولا هم ينظرون﴾ أى لا يقبل ايمانهم فى تلك الحالة لان الايمان المقبول هو الذى يكون فى دار الدنيا ولا ينظرون أى لا يمهلون بالاعادة الى الدنيا ليؤمنوا فيقبل ايمانهم ﴿ثم لما بين المسائل واتقن الدلائل ولم ينفعهم قال تعالى ﴿فأعرض عنهم﴾ أى لا تتعرض لهم بعد ذلك وانما الطريق بعد هذا القتال ﴿وقوله

رب اجعل لى آية) أى علامة تدلنى على تحقق المسؤل ووقوع الحبل ولم يكن هذا السؤال منه عليه الصلاة والسلام لانه كان يعلم ذلك بالاشارة وتحقيقها كما قيل فان ذلك مما لا يليق بمنصب الرسالة وانما كان ذلك لتعريف وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه وهو أمر خفى لا يوقف عليه فاراد أن يطلعه الله تعالى عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر من حين حدوثها ولا يؤخره الى أن تظهر طهورا معتادا وقد مرت الاشارة فى تفسير سورة آل عمران الى أن هذا السؤال ينبغى أن يكون بعد ما مضى بعد البشارة برهة من الزمان لما روى أن يحيى كان أكبر من عيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر أو بثلاث سنين ولا ريب فى أن دعاء زكريا عليه الصلاة والسلام كان فى صغر مريم لقوله تعالى هنالك دعا زكريا ربه وهى انما ولدت عيسى عليه الصلاة والسلام وهى بنت عشر سنين أو بنت ثلاث عشرة سنة والجمل اداعى واللام متعلقة به وقد مها على المفعول به لما مر مرارا من

وانتظر

الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر أو بمحذوف وقع حالا من آية اذ لو تأخر لكان صفة لها وقيل بمعنى التصيير المستدعى لمفعولين أولهما آية وثانيهما الظرف وتقديمه لانه لا مسوغ لكون آية مبتدأ عند اشتمال الجملة التى هى بعده او خبرا سوى تقديم الظرف فلا يتغير

﴿وانتظارهم منتظرون﴾ يحتمل وجوها (أحدها) وانتظرهـ لاكهم فانهم ينتظرون هلاكك وعلى هذا فرق بين الانتظار من الان انتظار النبي صلى الله عليه وسلم بأمر الله تعالى بعد وعده وانتظارهم بتسويل أنفسهم والتعويل على الشيطان (وثانيها) وانتظار النصر من الله فانهم ينتظرون المنتظرين آلهتهم وفرق بين الانتظارين (وثالثها) وانتظر عذابهم بنفسك فانهم ينتظرونه بلقائهم استهزاء كما قالوا فأتنا بما تعدنا وقالوا متى هذا الوعد ان كنتم صادقين الى غير ذلك والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيد المرسلين محمد النبي وآل وصحبه أجمعين وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين

﴿سورة الاحزاب سبعون وثلاث آيات وهي مدنية بأجماع﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿قوله تعالى ﴿يا أيها النبي اتق الله﴾ في تفسير الآية مسائل ﴿الاولى﴾ في الفرق بين النداء والمنادى بقوله يا رجل و يا أيها الرجل وقد قيل فيه ما قيل ونحن نقول قول القائل يا رجل يدل على النداء وقوله يا أيها الرجل يدل على ذلك أيضا ويشير عن خطر خطب المنادى لبا وغفلة المنادى أما الثاني فذكور وأما الاول فلان قوله تعالى حمل المنادى غيره مهما لوم أولا فيكون كل سامع متطلعا الى المنادى فاذا خص واحدا كان في ذلك تنبيها على كمال تطلعهم اليه واذا قال يا زيد أو يا رجل لا يلتفت الى جانب المنادى الا المذكور واذا علم هذا فنقول يا أيها المزمل رجحه على غفلة النبي لان قوله النبي ينافي الغفلة لان النبي عليه السلام خبير فلا يكون غافلا فيجب حمله على خطر الخطب ﴿المسئلة الثانية﴾ الامر بالشيء لا يكون الا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به اذ لا يصح أن يقال للجالس اجلس وللساكت اسكت والنبي عليه السلام كان متقيا فالوجه فيه أن نقول فيه وجهان (أحدهما) منقول وهو أنه أخذ بالدوام فانه يصح أن يقول القائل للجالس اجلس هنا الى أن أجيئك ويقول القائل للساكت قد أصبت فاسكت تسلم أي دم على ما أنت عليه (والثاني) وهو معقول لطيف وهو أن الملك يتقي منه عباده على ثلاثة أوجه بعضهم يخاف من عقابه وبعضهم يخاف من قطع ثوابه وثالث يخاف من احتجابه فالنبي لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الاول ولا بالمعنى الثاني وأما الثالث فالخواص لا يأمنه مادام في الدنيا وكيف والامور الدنيوية شاغلة والآدمي في الدنيا تارة مع الله وأخرى مقبل على ما لابد منه وان كان معه الله والى هذا أشار بقوله انما أنا بشر مثلكم يوحى الي يعني برفع الحجاب عني وقت الوحي ثم أعود اليكم كأحدكم فلا أمر بالتقوى يوجب استدامة الحضور (الوجه الثاني) ٢ هو ان النبي عليه الصلاة والسلام كل لحظة كان يزداد علما ومرتبة حتى كان حاله فيما مضى بالنسبة الى ما هو فيه تركا للافضل فكان له في كل ساعة تقوى متجددة فقوله اتق الله على هذا أمر بما ليس فيه والى هذا أشار عليه الصلاة والسلام بقوله من أسمى يرماه فهو معنون ولانه طلب من ربه بأمر الله اياه بزيادة العلم حيث قال وقل رب زدني علما وأيضا الى هذه الوقعة الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام انه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة يعني بتجدد له مقام بقول الذي أتيت به من الشكر والعبادة لم يكن شيئا اذا علم هذا فالنبي صلى الله عليه وسلم بحكم اعلاء أمر شوكتكم كان قد وقع له خوف ما بسبب من جهة ألسنة الكفار والمنافقين ومن أيديهم بدليل قوله تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فأمره الله بتقوى أخرى فوق ما يتقيه بحيث تنسيه الخلق ولا يريد الا الحق وزاد الله به درجته وفهم التوراة والفقه في الدين روى انه دعاه الصبيان الى اللعب فقال ما للعب خلقنا (وحنانا من لدنا) عطف على الحكم وتنوينه للتفخيم وهو الحنين والاشتياق ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أي وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنة من جنابنا أو رحمة في قلبه رقة على أبويه وغيرهما (وزكوة) أي طهارة من الذنوب أو صدقة تصدق بها على

قومه من المحراب) أي من المصلى أو من الغرفة وكانوا من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب قد خلوه وصلوا اذ خرج عليهم متغيرا لونه فأنكروه وقالوا ما لك (فأوحى اليهم) أي أومأ اليهم لقوله تعالى الا رمزا وقيل كتب على الارض وأن في قوله تعالى (أن سبحوا) اما مفسرة لأوحى أو مصدرية والمعنى أي صلوا أو بأن صلوا (بكرة وعشيا) هما ظرفا زمان للتسبيح عن أبي العالية أن المراد بهما صلاة الفجر وصلاة العصر أو نزهوا ربكم طرفي النهار ولعله كان مأمورا بأن يسبح شكرا و يأمر قومه بذلك (يا يحيى) استئناف طوي قبله جمل كثيرة مسارعة الى الانباء بانجاز الوعد الكريم أي قلنا يا يحيى (خذ الكتاب) أي التوراة (بقوة) أي بجد واستظهار بالتوفيق (وآتيناه الحكم صبيا) قال ابن عباس رضي الله عنهما الحكم النبوة أي استنبأه وهو ابن ثلاث سنين وقيل الحكم الحكمة وفهم التوراة والفقه في الدين روى انه دعاه الصبيان الى اللعب فقال ما للعب خلقنا (وحنانا من لدنا) عطف على الحكم وتنوينه للتفخيم وهو التعطف والاشتياق ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أي وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنة من جنابنا أو رحمة في قلبه رقة على أبويه وغيرهما (وزكوة) أي طهارة من الذنوب أو صدقة تصدق بها على

أبويه أو وفقناه للتصدق على الناس (وكان تقيا) مطيعا متجنبا عن المعاصي (وبرا بوالديه) عطف على تقيا أي بارا بهما الطيف بهما محسنا اليهما (ولم يكن جبارا عاصيا) متكبرا عاقا لهما أو عاصيا لربه (وسلام عليه) من الله عز وجل (يوم ولد) من أن يناله الشيطان بما ينال به بني آدم (ويوم يموت) من عذاب ٦٠٤ القبر (ويوم يبعث حيا) من هول القيامة وعذاب النار (واذكر في الكتاب) كلام مستأنف خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام وأمر بذكر قصة مريم اثر قصة زكريا لما بينهما من كمال الاشتباك والمراد بالكتاب السورة الكريمة لا القرآن اذ هي التي صدرت بقصة زكريا المستتبعة لذكر قصتها وقد مر الانبياء المذكورين فيها أي واذكر للناس (مريم) أي نبأها فان الذكر لا يتعلق بالاعيان وقوله تعالى (اذ انتبذت) ظرف لذلك المضاف لكن لا على أن يكون المأمور به ذكر نبئها عند انتباذها فقط بل كل ما عطف عليه وحكي بعده بطريق الاستئناف داخل في حيز الظرف متمم للتبار قيل بدل اشتمال من مريم على أن المراد بها نبؤها فان الظروف مشتملة على ما فيها وقيل بدل الكل على أن المراد بالظرف ما وقع فيه وقيل اذ بمعنى أن المصدر به كما في قولك أكرمتك اذ لم تكرمني أي لان لم تكرمني فهو بدل الاشتمال لاشعاله لزوله تعالى (من أهلها) متعلق بانتبذت وقوله (مكانا شرقيا) مفعول له باعتبار ما في ضمنه من معنى الاتيان المترتب وجودا واعتبارا على أصل معناه العامل في الجار والمجرور وهو السير في مثل تأخيره عنه أي اعتزلت لاجل تفردت عنهم وأتت مكانا شرقيا من بيت المقدس أو من دارها المتخلى هنالك للعبادة وقيل قعدت في مشرفة المنزل من الدهليز تختص بها أو بيتي يليه ما وذلك قوله تعالى (فاتخذت من دونهم حجابا) وكان موضعها المسجد فاذا طهرت

فكان ذلك بشارة له أي يا أيها النبي أنت ما بقيت في الدرجة التي يقنع منك بتقوى مثل تقوى الآحاد أو تقوى الاوتاد بل لا يقنع منك الا بتقوى تنسيك نفسك ألا ترى ان الانسان اذا كان يخاف فوت مال ان هجم عليه غاشم يقصد قتله يذهل عن المال ويهرب ويتركه فكذلك النبي عليه الصلاة والسلام أمر بمثل هذه التقوى ومع هذه التقوى لا يبقى الخوف من أحد غير الله وخرج هذا مخرج قول القائل لمن يخيف زيدا وعمرا اخف عمرا فان زيدا لا يقدر عليك اذا كان عمرو معك فلا يكون ذلك أمرا بالخوف من عمرو فانه يخافه وانما يكون ذلك نهيا عن الخوف من زيد في ضمن الامر بزيادة الخوف من عمرو حتى ينسى زيدا ﴿ثم قوله تعالى ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ يقرر قولنا أي اتق الله تقوى تمنعك من طاعتهم (المسئلة الثالثة) لم خص الكافرين والمنافقين بالذكر مع ان النبي صلى الله عليه وسلم ينبغي أن لا يطيع أحدا غير الله نقول لوجهين (أحدهما) ان ذكر الغير لا حاجة اليه لان غيرهم لا يطلب من النبي عليه الصلاة والسلام الاتباع ولا يتوقع أن يصير النبي عليه الصلاة والسلام مطيعا له بل يقصد اتباعه ولا يكون عنده الا مطاعا (والثاني) هو انه تعالى لما قال ولا تطع الكافرين والمنافقين منعه من طاعة الكل لان كل من طلب من النبي عليه الصلاة والسلام طاعته فهو كافر أو منافق لان من يأمر النبي عليه الصلاة والسلام بأمر أمر اجتهاد فاما أن يعتقد في انه لو لم يفعله يعاقبه يحق يكون كافرا ﴿ثم قال تعالى ﴿ان الله كان عليما حكيما﴾ اشارة الى أن التقوى ينبغي أن تكون عن صميم قلبك لا تخفي في نفسك تقوى غير الله كما يفعله الذي يرى من نفسه الشجاعة حيث يخاف في نفسه ويتجلد فان التقوى من الله وهو عليم وقوله حكيما اشارة الى دفع وهم منوهم وهو أن منوهما لو قال اذا قال الله شيأ وقال جميع الكافرين والمنافقين مع انهم أقارب النبي عليه الصلاة والسلام شيأ آخر وراوا المصلحة فيه وذكروا وجها معقولا فاتباعهم لا يكون الا مصلحة فقال الله تعالى انه حكيم ولا تكون المصلحة الا في قول الحكيم فاذا أمرك الله بشيء فاتبعه وترك متابعة أهل العالم عنه ﴿وقوله تعالى ﴿واتبع ما يوحى اليك من ربك﴾ يقرر ما ذكرنا من انه حكيم فاتباعه هو الواجب ﴿ثم قال تعالى ﴿ان الله كان بما تعملون خبيرا﴾ اما قال انه عليم بما في قلوب العباد بين انه عالم خبير بأعمالكم فسروا لوجه لو كم وأصلحوا أعمالكم ﴿ثم قال تعالى ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾ يعني اتق الله وان تردست من أحد فتوكل على الله فانه كفى به دافعا نفع ولا يضر معه شيء وان ضر لا ينفع معه شيء ﴿ثم قال تعالى ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ قال بعض المفسرين الآية نزلت في أبي معمر كان يقول لي قلبان أعلم وأفهم بأحدهما أكثر مما ينهم محمد فرد الله عليه بقوله ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴿وقال الزمخشري قوله ﴿وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم﴾ أي ما جعل لرجل قلبين كلم يجعل لرجل أمين ولا لابن أبوين وكلاهما ضعيف بل الحق أن يقال ان الله تعالى لما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله يا أيها النبي اتق الله فكان ذلك أمرا لأمته بالتقوى لا يكون فوقها تقوى ومن يتقي ويخاف شيأ آخر فاشد بل لا يدخل في قلبه شيء آخر ألا ترى أن الخائف الشديد الخوف ينسى مهماته حالة الخوف فكان الله تعالى قال يا أيها النبي اتق الله حق تقاته ومن حقها أن لا يكون في قلبك تقوى غير الله فان المرء ليس له قلبان حتى يتقي أحدهما الله وبالآخر غيره فان اتقى غيره فلا يكون ذلك الا بصرف القلب عن جهة الله الى غيره وذلك لا يليق بالمتقي الذي يدعي انه يتقي الله حق تقاته ثم ذكر النبي عليه الصلاة والسلام انه لا ينبغي أن يتقي أحدا ولا مثل ما اتقيت في حكاية زينب وجعل زيد حيث قال الله تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه يعني

تحولت الى بيت خالتها واذا طهرت عادت الى المسجد فبيناهي في منتقلها أتاها الملك عليه الصلاة والسلام في صورة آدمي شاب أمرد وضيء الوجه بعد الشعر وذلك قوله تعالى (فأرسلنا اليها روحنا) أي جبريل عليه الصلاة والسلام عبر عنه بذلك توقية للقام حقه وقرئ بفتح الراء لكونه سببا لما فيه روح العباد الذي هو عدة المقربين في قوله تعالى فأما ٦٠٥ ان كان من المقربين فروح وريحان

مثل تلك التقوى لا ينبغي أن تدخل في قلبك ﴿ثم لما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام تلك الحالة ذكر ما يدفع عنه السوء فقال﴾ ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾ أي وما جعل الله دعي المرء ابنه ثم قدم عليه ما هو دليل قوي على انه فاع النفي وهو قوله وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم أي انكم اذا قلتم لازواجكم أنت علي كظهر أمي فلا تصيرهن أمهاتكم كما لا تصير أدعياءكم أبناءكم فلا يحرم الوطء وأما في الجاهلية فلانه كان طلاقا حتى كان يجوز للزوج أن يتزوج بها من حينه فاذا كان قول القائل لزوجته أنت أمي او كظهر أمي لا يوجب صيرورة الزوجة أما كذلك قول القائل لمدعي أنت ابني لا يوجب كونه ابنا فلا تصير زوجته زوجة الابن فلم يكن لاحد أن يقول في ذلك شيأ فلم يكن خوفك من الناس له وجه كيف ولو كان أمر اخفوفا ما كان يجوز أن تخشى غير الله أوليس لك قلبان وقلما لك مشغول بتقوى الله فما كان ينبغي أن تخاف أحدا ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ فيه لطيفة وهو أن الكلام المعتبر على قسمين (أحدهما) كلام يكون عن شئ كأن قيل قال (والثاني) كلام يقال فيكون كالفصل والاول كلام الفاسدين الذين يقولون ما يكون والآخر كلام السديدين الذين اذا قالوا شيأ جعله الله كما قالوه وكلاهما صادر عن قلب والكلام الذي يكون بالفم حسب ومثل تهتيق الحمار أو صياح الكلب لان الكلام المعتبر هو الذي يعتمد عليه والذي لا يكون عن قلب ورويته لا اعتماد عليه والله تعالى لما كرم ابن آدم وفضله على سائر الحيوانات ينبغي أن يحترز عن التخلق بأخلاقها فقول القائل هذا ابن فلان مع أنه ليس ابنه ليس كلاما فان الكلام في الفؤاد وهذا في الفم لا غير واللطيفة هي أن الله تعالى ههنا قال ذلكم قولكم بأفواهكم وقال في قوله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يعني نسبة الشخص الى غير الاب قول لا حقيقة له ولا يخرج من قلب ولا يدخل أيضا في قلب فهو قول بالفم مثل أصوات البهائم ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿والله يقول الحق﴾ اشارة الى معنى لطيف وهو أن العاقل ينبغي أن يكون قوله اما عن عقل أو عن شرع فاذا قال فلان ابن فلان ينبغي أن يكون عن حقيقة أو يكون عن شرع بأن يكون ابنه شرعا وان لم يعلم الحقيقة كما ان تزوج بامرأة قولت لستة أشهر ولدا ركانت الزوجة ممن قبل زوجة شخص آخر يحتمل أن يكون الولد منه فالحقه بالزوج الثاني لقيام الفراش ويقول انها ابنه وفي الدعي لم تو جد الحقيقة ولا ورد الشرع به لا يقول الا الحق وهذا خلاف الحق لان أباه مشهور ونظام وجهه آخر فيه وهو أنهم قالوا محمد زوجة الابن فتحرم وقال الله تعالى هي لك حلال وقولهم لا اعتبار به فانه بأفواههم كأصوات البهائم وقول الله حق فيجب اتباعه وقوله وهو يهدي السبيل يؤكد قوله والله يقول الحق ينبغي يجب اتباعه لكونه حقا ولكونه هاديا وقول تعالى ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق فيه لطيفة وهو ان الكلام الذي بالفم حسب يشبه صوت البهائم الذي يوجد لا عن قلب ثم ان الكلام الذي بالقلب قد يكون حقا وقد يكون باطلا ان من يقول شيأ عن اعتقاد قد يكون مخطأ فيكون حقا وقد لا يكون فيكون باطلا فالقول الذي بالقلب وهو المعتبر من أقوالكم قد يكون حقا وقد يكون باطلا لانه يتبع الوجود وقول الله حق لانه يتبعه الوجود فانه يقول عما كان أو يقول فيكون فاذن قول الله خبر من أقوالكم التي عن قلوبكم فكيف تكون نسبته الى أدعيائكم التي بأفواهكم فاذن لا يجوز أن تأخذوا بقولكم الكاذب اللاغي وتتركوا قول الله الحق فمن يقول بأن تزوج النبي عليه الصلاة والسلام بزينب لم يكن حسنا يكون قد ترك قول الله الحق وأخذ بقول خرج عن الفم ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿وهو يهدي السبيل﴾ اشارة الى أن اتباع ما أنزل الله خير من الاخذ بقول الغير ﴿ثم بين الهداية وقال﴾ ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ أرشد وقال ﴿هو أقسط عند

(فتمثل لها بشرا سويا) سوى الخلق كامل البنية لم يفقد من حسان نعوت الآدميين شيأ وقيل تمثل في صورة يوسف لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس وذلك لتستأنس بكلامه وتتلقى منه ما يلقى اليها من كلام الله تعالى ابتداء لوبدأها على السورة الملكية لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته وأما ما قيل من أن ذلك لتهيج شهوتها فتعدد نطفها الى رحمها فمع مخالفته لمقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة يكذبه قوله تعالى (قالت اني أعوذ بالرحمن منك) فانه شاهد عدل بانه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما اليه فضلا عما ذكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة نعم كان تمثله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لا بتلائها وسيرعنها ولقطع ظهر منها من الزرع والعفاف ما لا غاية وراءه وذكره تعالى ممنوان الرحمان مسئلة للقوى العاندة تعالى واستجلاب آثار الرحمة الباعثة التي هي العصمة مما دهمها وقوله

تعالى (ان كنت تقيا) أي تتقي الله تعالى وتبالي بالاستعاذة به وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السياق عليه أي فاني عائذة به أو فتعوذ بتعوذي أو فلا تتهمني (قال انما أنا رسول ربك) يريد عليه الصلاة والسلام أني لست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر وانما أنا رسول ربك الذي استعذت به (لاهب لك غلاما) أي لاكون سببا في حصوله بالنفخ في الدرع وجوز أن يكون ذلك كناية عن أمره

تعالى ويؤيده القراءة بالياء والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرها المتضمن لوعدها وتسليتها والاشعار بعلة الحكم فان هبة الغلام لها من أحكام تربيتهم وفي بعض المصاحف أمرني أن أهب لك غلاما (زكيا) طاهرا من الذنوب أو ناميا على الخير أي مترقيا من سن الى سن على الخير والصلاح (قالت أنى ٦٠٦ يكون لي غلام) كما وصفت (ولم يمسسني بشر) أي والحال أنه لم يباشرني بالنكاح رجل

الله ﴾ أي أعدل قائله وضع الشئ في موضعه وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون ترك الاضافة للعموم أي أعدل كل كلام كقول القائل الله أكبر (وثانيهما) أن يكون ما تقدم منويا كأنه قال ذلك أقسط من قولكم هو ابن فلان ﴿ ثم تمم الارشاد وقال ﴿ فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم ﴾ يعني قولوا لهم اخوانا وأخو فلان فان كانوا محررين فقولوا مولى فلان ﴿ ثم قال تعالى ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾ يعني قول القائل لغيره يا بني بطريق الشفقة وقول القائل لغيره يا أبي بطريق التعظيم فانه مثل الخطأ ألا ترى أن اللغو في اليمين مثل الخطأ وسبق اللسان فكذلك سبق اللسان في قول القائل ابني والسهو في قوله لابني من غير قصد الى اثبات النسب سواء ﴿ وقوله ﴿ ولكن ما تعمدت به قلوبكم ﴾ مبتدأ خبره محذوف يدل عليه ما سبق وهو ولكن ما تعمدت قلوبكم فيه جناح ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ يغفر الذنوب ويرحم المذنب وقد ذكرنا كلاما شافيا في المغفرة والرحمة في مواضع ونعيد بعضها ههنا فنقول المغفرة هو أن يستر القادر القبيح الصادر ممن شملت قدرته حتى ان العبد اذا ستر عيب سيده مخافة عقابه لا يقال انه غفر له والرحمة هو أن يعمل المرء بالاحسان العاجز المرحوم اليه لا لغرض فان من مال الى انسان قادر كالسلطان لا يقال رحمه وكذا من أحسن الى غيره مراعاة في خيره أو غرضا عاد منه آتفا من الاحسان لا يقال رحمه اذا علم هذا فالمغفرة اذا ذكرت قبل الرحمة يكون معناها انه ستر عيبه ثم رآه مفلسا عاجزا فرحمه وأعطاه ما كفاه واذا ذكرت المغفرة بعد الرحمة وهو قليل يكون معناه أنه مال اليه لعجزه فستر عقابه ولم يقتصر عليه بل سترذنوبه ﴿ ثم قال تعالى ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ تقرير الصحة ما صدر منه عليه الصلاة والسلام من الترجيح بغير وكأن هذا جواب عن سؤال وهو ان قائلا لو قال هب ان الادعياء ليسوا أبناء كما قلت لكن من حماه غيره بتبنا اذا كان لغيره شئ حسن لا يليق بمروأته أن يأخذه منه ويطعن فيه عرفا فقال الله تعالى للنبي أولى بالمؤمنين جوابا عن ذلك السؤال وتقريره هو أن دفع الحاجات على مراتب دفع حاجة الاجانب ثم دفع حاجة الاقارب الذين على حواشي النسب ثم دفع حاجة الاصول والفصول ثم دفع حاجة النفس والاول عن فلذون الثاني وكذلك شرعا فان العاقلة تتحمل الدية عنهم ولا تتحملها عن الاجانب والثاني دون الثالث أيضا وهو ظاهر بدليل النفقة والثالث دون الرابع فان النفس تقدم على الغير والبه أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله ابدأ بنفسك ثم بمن تعول اذا علمت هذا فالانسان اذا كان معه شيء يعطي به لاحدى الرجلين أو يدفع به حاجة عن أحد شق بدنه فلو أحد الغطاء من أحدهما وغطى به الآخر لا يكون لاحد أن يقول له لم فعلت فضلا عن أن يقول بأس ما فعلت اللهم الا أن يكون أحد العضوين أشرف من الآخر لعنق ما اذا وقى الانسان عينه بيده ودفع البرد عن رأسه الذي هو معدن حواسه ويترك رجله تبرد فانه الواجب عقلا فمن يعكس الامر يقال له لم فعلت واذا تبين هذا فالنبي صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمن من نفسه فلو دفع المؤمن حاجة نفسه دون حاجة نبيه يكون مثله مثل من يدهن شعره ويكشف رأسه في برد مفرط قاصدا بتربية شعره ولا يعلم أنه يؤذي رأسه الذي لا شعر له الا من شعره فكذلك دفع حاجة النفس افراغ الى عباد الله تعالى ولا علم بكيفية العبادة الا من الرسول عليه الصلاة والسلام فلو دفع الانسان حاجته لا للعبادة فهو ليس بدفعها للحاجة لان دفع الحاجة ما هو فوق تحصيل المصلحة وهذا ليس فيه مصلحة فضلا عن أن يكون حاجة واذا كان للعبادة يترك النبي الذي منه يتعلم كيفية العبادة في الحاجة ودفع حاجة النفس مثل تربية الشعر مع اهمال أمر الرأس فتبين أن النبي صلى الله عليه وسلم اذا أراد شيأ حرم على الامة التعرض اليه في الحكمة الواضحة ﴿ ثم قال تعالى ﴿ وأزواجه

واما قيل بشر مبالغة في بيان تنزهها من مبادي الولادة (ولم أك بغيا) عطف على لم يمسسني داخل معه في حكم الحالية مفصح عن كون المساس عبارة عن المباشرة بالنكاح أي ولم أكن فاجرة تبغي الرجال وهي فعول بمعنى الفاعل أصلها بغوى فأدغمت الواو بعد قلبها ياء في الياء وكسرت الغين للياء وقيل هي فعيل بمعنى الفاعل والالتفات بغوكما يقال فلان نهوم عن المنكر وانما لم تلحقها التاء لانه من باب النسب كطالق أو بمعنى المفعول أي سميم الرجال للفجور بها (قال) أي الملك تقريرا لقالته وتحقيقا لها (كذلك) أي الامر كما قلت لك وقوله تعالى (قال ربك) الخ استئناف مقرر له أي قال ربك الذي أرسلني اليك (هو) أي ما ذكرت لك من هبة الغلام من غير أن يمسك بشر أصلا (علي) خاصة (هين) وان كان مستحيلا عادة لما أني لا أحتاج الى الاسباب والوسائط وقوله تعالى (ولنجعله آية للناس) اما علة لمحذوف أي ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك أو معطوف على علة أخرى مضمرة أي لنبين به عظم قدرتنا ولنجعله آية الخ والواو على الاول اعتراضية والالتفات الى نون العظمة لاظهار كمال الجلالة (ورحمة) عظيمة كائنة (منا) عليهم يهتدون بهدايته ويسترشدون بارشاده (وكان) ذلك (أمرا مقضيا) محكما قد تعلق به قضاؤنا الازلي أو

قدر وسط طرفي اللوح لابد من جريانه على البنية أو كان أمرا حقيقيا أن يتشبث ويتأمل فتضمنه حكما بالقوة (فحملته) بأن نفخ جبريل عليه الصلاة والسلام في درعها فدخلت النفخة في جوفها فقيل الله عليها الصلاة والسلام رفع درعها فنفخ في جيبها فحملت وقيل نفخ عن بعد فوصل الريح إليها فحملت في الحال وقيل إن النفخة كانت في فيها وكانت مدة حملها ٦٠٧ سبعة أشهر وقيل ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية أشهر غيره وقيل تسعة أشهر وقيل ثلاث ساعات وقيل ساعة كما حملت وضعته وبها حينئذ ثلاث عشرة سنة وقيل عشرين وقد حاضت حيضتين (فانبثذت به) أي فاعتزلت وهو في بطنها كما في قوله

* تدوس بنا الجماجم والتريبا *

فالباء والجار ورفي حيز النصب على الحالية أي أي فانبثذت ملتبسة به (مكانا قصيا) بعيدا من أهلها وراء الجبل وقيل أقصى الدار وهو الانسب بقصر مدة الحمل (فأجاءها المخاض) أي فألجأها وهو في الاصل مستقبل من جاءت كنه لم يستعمل في غيره كما في أعطى وقرئ المخاض بكسر الميم وكلاهما مصدر مخضت المرأة اذا تحرك الولد في بطنها للخروج (الى جذع النخلة) تستريح وتعتمد عليه عند الولادة وهو بين العرق والغصن وكانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا خضرة وكان الوقت شتاء والتعريف اما للجنس

أمهاتهم﴾ تقرير آخر وذلك لان زوجة النبي صلى الله عليه وسلم ما سماها الله تعالى في حكم الام الا لقطع نظر الامة عما تعلق به غرض النبي عليه الصلاة والسلام فاذا تعلق خاطره بامر أشارت الزوجات في التعلق فحرمت مثل ما حرمت أزواجه على غيره فلو قال قائل كيف قال وأزواجه أمهاتهم وقال من قبل وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم اشارة الى أن غير من ولدت لا تصير أما لزوجه ولذلك قال تعالى في موضع آخر ان أمهاتهم الا اللائي ولدنهم فنقول قوله تعالى في الآية المتقدمة والله يقول الحق وهو يهدي السبيل جواب عن هذا معناه أن الشرع مثل الحقيقة ولهذا يرجع العاقل عند تعارضهما الى الحقيقة الى الشريعة كما أن امرأتين اذا ادعت كل واحدة ولدا بينة ولم يكن لهما بينة وحلفت احداهما دون الاخرى حكم لها بالولد وان تبين أن التي حلفت دون النكول ظالم أو بكر بينة لا يحكم لها بالولد فعلم ان عند عدم الوصول الى الحقيقة يرجع الى الشرع لان في بعض المواضع على التدريج تغلب الشريعة الحقيقة فان الزاني لا يجعل أبا للولد لانا اذا أثبتنا هذا فانا شارع له الحكم فقول القائل هذه أمي قول يفهم لا عن حقيقة ولا يترتب عليه حقيقة وأما قول الشارع حق والذي يؤيده هو أن الشارع به الحقائق حقائق فله أن يتصرف فيها ألا ترى أن الام ما صارت أما الا بخلق الله الولد في رحمها ولو خلقه في جوف غيرها لكانت الام غيرها فاذا كان هو الذي جعل الام الحقيقية أما فله أن يسمي امرأة أما ويعطيها حكم الامومة والمعقول في جعل أزواجه صلى الله عليه وسلم أمهاتنا هو أن الله تعالى جعل زوجة الاب محرمة على الابن لان الزوجة محل الغيرة والتنازع فيها فان تزوج الابن بمن كانت تحت الاب يفضي ذلك الى قطع الرحم والعقوق لكن النبي عليه الصلاة والسلام أشرف وأعلى درجة من الاب وأولى بالاربة فان الاب يرتجى في الدنيا نصيبه والنبي عليه الصلاة والسلام يرتجى في الدنيا والآخرة فوجب أن تكون زوجاته مثل زوجات الآباء فان قال قائل فلم لم يقل ان النبي أبو كم وبجعل هذا المعنى أولم يقل ان أزواجه أزواج أمهاتكم فنقول لحكمة وهي ان النبي لما بينا أنه اذا أراد زوجة واحد من الامة وجب عليه تركها ليتزوج بها النبي عليه الصلاة والسلام فلو قال أنت أبوهم لحرم عليه زوجات المؤمنين على العابيد ولا تملك جعله أولى بهم من أنفسهم والنفس مقدم على الاب لقوله عليه الصلاة والسلام ابدأ بنفسك ثم بمن تعول ولذلك فان المحتاج الى القوت لا يجب عليه صرفه الى الاب ويجب عليه صرفه الى النبي عليه الصلاة والسلام ثم ان أزواجه لما حكم بزوجات الاب حتى لا تحرم أولاد من على المؤمنين ولا اخواتهن ولا أمهاتهن وان كان النكول يحرم من في الام الحقيقية والرضاعة﴿ ثم قال تعالى ﴿وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين الا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا كان ذلك في الكتاب مسطورا﴾ اشارة الى الميراث وقوله الا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا اشارة الى الوصية يعني ان أوصيتم لغير الوارثين أولى وان لم توصوا فالوارثون أولى بميراثكم وبما تركتم فان قيل فعلى هذا أي تعلق للميراث والوصية بما ذكرت نقول تعلق قوي حتى لا يتبين الا من هذا والله يأمره وهو ان غيرا لنبي عليه الصلاة والسلام في حال حياته لا يصير له مال الغير وبعد وفاته لا يصير ماله لغيره ورثته والنبي عليه الصلاة والسلام في حال حياته كان يصير له مال الغير اذا اراده ولا يصير ماله لورثته بعد وفاته كأن الله تعالى عوض النبي عليه الصلاة والسلام عن قطع ميراثه بقدرته على ذلك مال الغير وعوض المؤمنين بأن ماتركه يرجع اليهم حتى لا يكون حرج على المؤمنين في أن النبي صلى الله عليه وسلم اذا أراد شيأ يصير له ثم يموت ويبقى لورثته فيفوت عليهم ولا يرجع اليهم فقال تعالى وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض يعني بينكم التوارث فمصير مال أحدكم لغيره بالارث والنبي لا توارث بينه وبين أقاربه فبين أن

أولاده هذا لم يكن ثم غيرها وكانت كالمتعالم عند الناس والله تعالى ألهمها ذلك ليريهم من آياته ما يسكن روعتها ويطعمها الرطب الذي هو خرسة النفساء الموافقة لها (قالت ياليتني مت) بكسر الميم من مات يمات كخفت وقرئ بضمها من مات يموت (قبل هذا) أي هذا الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت وانما قالته مع أنها كانت تعلم ما يجري بينها وبين جبريل عليه السلام من الوعد الكريم استحياء من

الناس وخوفه من لاتهتم أو حذارا من وقوع الناس في المعصية عما تكلموا فيهم أو جريا على سنن الصالحين عند اشتداد الامر علم كما روى عن عمر رضي الله عنه انه أخذ تبنة من الارض فقال يا ليتني هذه التبنة ولم أك شيأ وعن بلال انه قال لمت بلالا لم تلده أمه (وكنت نسيا) أي شيأ تافها شأنه أن ينسى ٦٠٨ ولا يعتد به أصلا وقرئ بالكسر قيل هما لغتان في ذلك كالوتر والوتر وقيل هو بالكسر اسم لما ينسى كالنقض اسم لما ينقض وبالفتح مصدر سمي به المفعول مبالغة وقرئ بهما وهموزا من نسأت اللبن اذا صببت عليه الماء فصار مستهلكا فيه وقرئ نسأ كعصا (منسيا) لا يخطر ببال أحد من الناس وهو نعت للمبالغة وقرئ بكسر الميم اتباعا له بالسين (فناداها) أي جبريل عليه السلام (من تحتها) قيل انه كان يقبل الولد وقيل من تحتها أي من مكان أسفل منها تحت الاكمة وقيل من تحت النخلة وقيل ناداها عيسى عليه السلام وقرئ فناداها من تحتها بفتح الميم (أن لا تحزني) أي لا تحزني على ان أن مفسرة أو بان لا تحزني على أنها مصدرية قد حذف عنها الجار (قد جعل ربك تحتك) أي بمكان أسفل منك وقيل تحت أمرك ان أمرت بالجري جرى وان أمرت بالامساك أمسك (سريا) أي نهرا صغيرا حسبما روي مرفوعا قال ابن عباس رضي الله عنه ان جبريل عليه السلام ضرب برجله الارض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولا وقيل قعد عيسى عليه السلام وقيل كان تحتك هناك نهر بأمر أجرى الله عز وجل فيه الماء حينئذ كما فعل مثله بالنخلة فانها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ورق فصار عن التمر كان الوقت شتاء فجعل الله لها ذذالك رأسا وخوصا وورقا وتمرا وكان هناك ماء جار والاول هو الواقع لمقام بيان ظهور الخوارق والمتبادر

ان يكون له بدل هذا أنه أولى في حياته بما في أيديكم (الثاني) هو أن الله تعالى ذكر دليلا على أن النبي عليه السلام أولى بالمؤمنين وهو ان أولى الارحام بعضهم أولى ببعض ثم اذا أراد أحد برا مع صديق فوصى له بشيء فيصير أولى من قريبه وكأنه بالوصية قطع الارث وقال هذا مالي لا ينتقل عني الا الى من أريد فكذلك الله تعالى جعل لصديقنا من الدنيا ما أراده ثم ما يفضل منه يكون لغيره وقوله كان ذلك في الكتاب مسطورا يحتمل وجهين (أحدهما) في القرآن وهو آية المواريث والوصية (والثاني) في اللوح المحفوظ ﴿ ثم قال تعالى ﴿ واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾ وجه تعالى الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله يا أيها النبي اتق الله وأكده بالحكاية التي خص فيها الناس لكي لا يخشى فيها أحدا غيره وبين انه لم يرتكب أمرا يوجب الخشية بقوله النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم أكده بوجه آخر وقال واذ أخذنا من النبيين كأنه قال اتق الله ولا تخف أحدا واذكر ان الله أخذ ميثاق النبيين في أنهم يبلغون رسالات الله ولا يخافون منهم من ذلك خوف ولا طمع وفيه مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ المراد من الميثاق المأخوذ من النبيين ارسالهم وأمرهم بالتبليغ ﴿ المسئلة الثانية ﴾ خص بالذكر أربعة من الانبياء وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى لان موسى وعيسى كان لهما في زمان نبينا قوم وأمة فذكرهما احتجاجا على قومهما وأما ابراهيم كان العرب يقولون بفضله وكانوا يتبعونه في الشعائر بعضها ونوحا لانه كان أصلا ثانيا للناس حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان وعلى هذا القول قائل فالاظهر كان أولى بالذكر من نوح فنقول خلق آدم كان للعمارة ونبوته كانت مثل الارشاد للاولاد ولما لم يكن في زمانه اهلاك قوم ولا تعذيب وأما نوح فكان مخلوقا للنبوة وأرسل للانذار ولما أهلك قومه وأغرقوا ﴿ المسئلة الثالثة ﴾ في كثير من المواضع يقول الله عيسى بن مريم والصحيح بن مريم اشارة الى أنه لا أب له اذ لو كان لوقع التعريف به وقوله وأخذنا منهم ميثاقا غليظا غلظ الميثاق هو شدائدهم عما حملوا في الارسال كما قال تعالى والمسئلون المرسلين وهذا لان الملك اذا أرسل رسولا وأمره بشيء وقبله فهو ميثاق فاذا أعلمه أنه يسئل عن حاله في أفعاله وأقواله يكون ذلك تغليظا للميثاق عليه حتى لا يرتد ولا ينقض في الرسالة وعلى هذا يمكن أن يقال بأن المراد من قوله تعالى وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا هو الاخبار بأنهم مسئولون عنها كما قال النبي عليه الصلاة والسلام كلكم راع وكلكم مسئول وكما ان الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء بجعل الانبياء قائمين بأمورهم وارشادهم الى سبيل الرشاد ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ليسئل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما ﴾ يعني أرسل الرسل وعاقبة المكلفين اما حساب واما عذاب لان الصادق يحاسب والكافر يعذب وهذا كما قال على عليه السلام الدنيا حلال لها حساب وحرام لها عذاب وهذا مما يوجب الخوف للعالم فيبتدأ كد قوله يا أيها النبي اتق الله ﴿ ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ﴾ تحقيقا للسابق من الامر بتقوى الله بحيث لا يبقى معه خوف من أحد وذلك لان في واقعة اجتماع الاحزاب واشتداد الامر على الاصحاب حيث اجتمع المشركون بأسرهم واليهود بأجمعهم ونزلوا على المدينة وعمل النبي عليه السلام الخندق كان الامر في غاية الشدة والخوف بالغا الى الغاية والله دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف فينبغي أن لا يخاف العبد غير ربه فانه كاف أمره ولا يأمن مكره فانه قادر على كل .

النظم الكريم وقيل سر يا أبى سيد النبيلا رفيع الشأن جليلا وهو عيسى عليه السلام فالتنوين للتفخيم والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى عنه والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرها لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية (وهزى) هز الشئ تحريكه الى الجهات المتقابلة تحريكا عنيفا مقتدارا كما والمراد ههنا ما كان منه بطريق الجذب ٦٠٩ والدفع لقوله تعالى (اليك) أى الى جهتك والباء فى قوله عز وعلا (بجذع النخلة) صلة للتأكيد كما فى قوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الخ قال القراء تقول العرب هزه وهزبه وأخذ الخطام وأخذ بالخطام أولا لتساق الفعل بعد دخولها أى اقعلى الهز بجذعها أو هزى الجذع بهزه وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول الهزأى هزى اليك الرطب كائنا بجذعها (تساقط) أى تسقط النخلة (عليك) اسقاطا متواترا حسب تواتر الهز وقرئ تسقط وتسقط من الاسقاط والتاء والياء وتتساقط باظهار التاءين وتساقط بطرح الثانية وتساقط بادغامها فى السين وبساقط بالياء كذلك وتسقط وتسقط من السقوط على أن التاء فى الكل للنخلة والياء للجذع وقوله تعالى (رطبا) على القرآن الثلاث الاول مفعول وعلى الست الباقى غير وقوله تعالى (جنيا) صفته وهو ما قطع قبل يبسه فعيل بمعنى مفعول أى رطبا مجتنيا أى صالحا للاجتناء وقيل

كل ممكن فكان قادرا على أن يقهر المسلمين بالكفار مع انهم كانوا اضعافا كما قهر الكافرين بالمؤمنين مع قوتهم وشوكتهم وقوله فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها اشارة الى ما فعل الله بهم من ارسال ريح باردة عليهم فى ليلة شاتية وارسال الملائكة وقذف الرعب فى قلوبهم حتى كان البعض يلتزق بالبعض من خوف الخيل فى جوف الليل والحكاية مشهورة وقوله وكان الله بما تعملون بصيرا اشارة الى أن الله علم التجاءكم اليه ورجاءكم فضل فنصركم على الاعداء عند الاستعداء وهذا تقرير لوجوب الخوف وعدم جواز الخوف من غير الله فان قوله فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها أى الله يقضى حاجتكم وأنتم لا ترون فان كان لا يظهر لكم وجه الامن فلا تلتفتوا الى عدم ظهوره لكم لانكم لا ترون الاشياء فلا تخافوا من غير الله والله بصير بما تعملون فلا تتولوا ايانا تفعل شيأ وهو لا يبصره فانه بكل شئ بصير وقوله اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم بيان لشدة الامر وعاية الخوف وقيل من فوقكم أى من جانب الشرق ومن أسفل منكم من جانب الغرب وهم أهل مكة وزاغت الابصار أى مالت عن سننها فلم تلتفت الى المعدو لكثرته وبلغت القلوب الحناجر كناية عن غاية الشدة وذلك لان القلب عند الغضب يندفع وعند الخوف يجمع فينقلص فيلتصق بالحنجرة وقد يفضى الى أن يسد مجرى النفس فلا يقدر المرء يتنفس ويموت من الخوف ومثله قوله تعالى حتى اذا بلغت الحلقوم وقوله وتظنون بالله الظنونا الالف واللام يمكن أن يكونا بمعنى الاستغراق مبالغة يعنى تظنون كل ظن لان عند الامر العظيم كل أحد يظن شيأ ويمكن أن يكون المراد ظنونهم المعهودة لأن المعهود من المؤمن ظن الخير بالله كما قال عليه السلام ظنوا بالله خيرا ومن الكافر اظن السوء كما قال تعالى ذلك ظن الذين كفروا وقوله ان يتبعون الا الظن فان قال قائل المصدر لا يجمع فما الفائدة فى جمع الظنون فنقول لا شك فى انه منصوب على المصدر ولكن الاسم قد يجعل مصدرا كما يقال ضربته سياطا وأدبته مرارا فكأنه قال ظننتم ظن بعد ظن أى ما بنيتم على ظن فالفائدة هى ان الله تعالى لو قال تظنون ظنا جاز أن يكونوا مصيبين فاذا قال ظنونا تبين أن فيهم من كان ظنه كاذبا لان الظنون قد تكذب كلها وقد يكذب بعضها اذا كانت فى أمر واحد مثاله اذا رأى جمع من بعيد جسما وظن بعضهم أنه زيد وآخرون أنه عمرو وقوم ثالث انه بكر ثم ظهر لهم الحق قد يكون الكل مخطئين والمرئى شيأ آخر وقد يكون أحدهم مصيبا ولا يمكن أن يكونوا كلهم مصيبين فقوله الظنونا أفاد أن فيهم من أخطأ الظن ولو قال تظنون بالله ظنا ما كان بعيدا هنالك ثم قال تعالى ﴿هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا﴾ أى عند ذلك امتحن الله المؤمنين فتميز الصادق عن المنافق والامتحان من الله ليس لاستبانة الامر له بل لحكمة أخرى وهى ان الله تعالى عالم بما هم عليه لكنه أراد اظهار الامر لغيره من الملائكة والانبياء كان السيد اذا علم من عبده المخالفة وعزم على معاقبته على مخالفته وعند غيره من العبيد وغيرهم فيأمره بأمر عالما بأنه يخالفه فيبين الامر عند الغير فتقع المعاقبة على أحسن الوجوه بحيث لا يقع لاحد أنه يظلم أو من قلة حلم وقوله وزلزلوا أى أزعجوا وحركوا فمن ثبت منهم كان من الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ولم يذكر الله فطمئن مرة أخرى وهم المؤمنون حقا ﴿ثم قال تعالى ﴿واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا﴾ فسر الظنون وبينها فظن المنافقون ان ما قال الله ورسوله كان زورا وعدهما كان غرورا حيث قطعوا بأن القلة واقعة وقوله واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم أى لا وجه لاقامتكم مع محمد كما يقال لا اقامة على الدل والهوان أى لا وجه لهما ويثرب اسم للبقعة التى هى المدينة

وماء السرى أمن الرطب وعصيره (وقرى عينا) وطيبى نفسا وارفضى عنها ما أحزنك وأهمك فانه تعالى قد نزه ساحتك عما تخيلى فى صدور المتعبدين بالاحكام العادية بأن أظهر لهم من البسائط العنصرية والمركبات النباتية ما يخرق العادات التكوينية ويرشدهم الى

الوقوف على سريرة أمرك وقرئ وقرى بكسر القاف وهى لغة تحدوا شتقاقه من القرار فان العين اذا رأت ما يسر النفس سكنت اليه من النظر الى غيره أو من القر فان دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة ولذلك يقال قرة العين وسخنة العين للمحبوب والمكروه (فامار بن من البشر أحدا) أى آدميا كائنا ٦١٠ من كان وقرئ ترئن على لغة من يقول لبأت بالحج لما بين الهمزة والياء من التباعد

فار جعوا أى عن محمد واتفقوا مع الاحزاب تخبر حوا من الاحزان ثم السامعون عزموا على الرجوع واستأذنوه وتعللوا بان بيوتنا عورة أى فيها خلل لا يأمن صاحبها السارق على متاعه والعدو على أتباعه ثم بين الله كذبهم بقوله وما هى بعورة وبين قصدهم وما تكسن صدورهم وهو الفرار وزوال القرار بسبب الخوف ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها الا يسيرا ﴾ اشارة الى أن ذلك الفرار والرجوع ليس لحفظ البيوت لان من يفعل فعلا لغرض فاذا فاته الغرض لا يفعله كمن يبذل المال لكى لا يؤخذ منه بيته فاذا أخذ منه البيت لا يبذله فقال الله تعالى هم قالوا بأن رجوعنا عنك لحفظ بيوتنا ولو دخلها الاحزاب وأخذوها منهم لرجعوا أيضا وليس رجوعهم عنك لاجل كفرهم وحبهم الفتنة وقوله ولو دخلت عليهم احتمل أن يكون المراد المدينة واحتمل أن يكون البيوت قوله وما تلبثوا بها يحتمل أن يكون المراد الفتنة الا يسيرا فانها تزول ويكون العاقبة للمتقين ويحتمل أن يكون المراد المدينة أو البيوت أى ما تلبثوا بالمدينة الا يسيرا فان المؤمنين يخرجونهم ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار وكان عهد الله مسؤلا قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل ﴾ بيانا لفساد سيرتهم وقبح سيرتهم لنقضهم العهود فانهم قبل ذلك تخلفوا وأظهروا عذرا واذ ساوذكروا أن القتال لا يليق لهم وقد ما تم هددهم بقوله وكان عهد الله مسؤلا وقوله قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل اشارة الى أن الامور مقدرة لا يمكن الفرار مما وقع عليه القرار وما قدره الله كائن فمن أمر بشئ اذا خافه سبق فى ورطة العقاب آجلا ولا ينتفع بالمخافة عاجلا ﴿ ثم قال تعالى ﴿ واذا لا تمتعون الا قليلا ﴾ كأنه يقول ولو فررتم منه فى زعمكم لما دمتم بل لا تمتعون الا قليلا فالعاقل لا يرغب فى شئ قليل مع انه يفوت عليه شيأ كثيرا فلا فرار لكم ولو كان لما متعتم بعد الفرار الا قليلا ﴿ ثم قال تعالى ﴿ قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ بيانا لما تقدم من قوله ان ينفعكم الفرار وقوله ولا يجدون لهم من دون الله تقرير لقوله من ذا الذى يعصمكم أى ليس لكم ولى يشفع لحمية اياكم ولا نصير ينصركم ويدفع عنكم السوء اذا أتاكم ﴿ ثم قال تعالى ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا أشحة عليكم ﴾ أى الذين يثبطون المسلمين ويقولون تعالوا الينا ولا تقاتلوا مع محمد صلى الله عليه وسلم وفيهم وجهان (أحدهما) أنهم المنافقون الذين كانوا يقولون للانصار لا تقاتلوا وأسلموا محمدا الى قريش (وثانيهما) اليهود الذين كانوا يقولون لاهل المدينة تعالوا الينا وكونوا معنا وهم بمعنى قبال أو احضروا ولا تجمع فى لغة الحجاز وتجمع فى غيرها فيقال للجماعة هلموا وللنساء هلممن وقوله ولا يأتون البأس الا قليلا يريد الوجه الاول وهو ان المراد منهم المنافقون وهو يحتمل وجهين (أحدهما) لا يأتون البأس بمعنى يتخلفون عنكم ولا يخرجون معكم وحينئذ قوله تعالى أشحة عليكم أى بخلاء حيث لا ينفقون فى سبيل الله شيأ (وثانيهما) لا يأتون البأس بمعنى لا يقاتلون معكم ويتعللون عن الاشتغال بالقتال وقت الخيور معكم وقوله أشحة عليكم أى بأنفسهم وأبدانهم ﴿ ثم قال تعالى ﴿ فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير ﴾ اشارة الى غاية جبنهم ونهاية رزعهم واعلم أن الجبل شبه الجبن قيل ما ذكر الجمل بين سمه وهو الجبن والذى يدل عليه هو ان الجبان يبخل بماله ولا يجتهد فى سبيل الله لانه لا يتوقع الظفر فلا يرجو الغنيمة فبقول هذا النفاق لا يبذل له فيتوقف فيه وأما الشجاع فيتيقن الظفر والاغتنام فيهون عليه اخراج المال فى القتال طمعا فيما هو اضعاف ذلك وأما بالنفس والبدن فكذلك

فان

هارون عن أخيه هارون الذى عليه السلام وكانت من أعقاب من كان معه

فى طبقة الاخوة وقيل كانت من نسله وكان بينهما ألف سنة وقيل هو رجل صالح أو طالح كان فى زمانهم شبهوها به أى كنت عندنا مثله فى الصلاح أو شتموها به (ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) تقرير لما كرن ما جاءت به فريا منكرا وتنبيه على أن ارتكاب الفواحش

من أولاد الصالحين أخش (فأشارت اليه) أي الى عيسى عليه السلام أن كلموه لظاهر أنها حينئذ نذرها وأنها عزل من محاورة الانس حسبما أمرت ففيه دلالة على أن المأمور به بيان نذرها بالاشارة لا بالعبارة والجمع بينهما مما لا عهد به (قالوا) منكرين لجوابها (كيف نكلم من كان في المهد صبيا) ولم نعهد فيما سلف صبيا يكلمه عاقل وقيل كان ٦١١ لا يقاع مضمون الجملة في زمان ماض

مبهم صالح لقريبه وبعيده وهو ههنا لقريبه خاصة بدليل انه مسوق للتعجب وقيل هي زائدة والظرف صلة من وصبيا حال من المستكن فيه أو هي تامة أو دائمة كما في قوله تعالى وكان الله عليما حكيما (قال) استئناف مبني على سؤال نشأ من سياق النظم الكريم كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال عيسى عليه السلام (اني عبد الله) أنطقه الله عز وجل بذلك أو أذن في أن يحققها للحق ورد على من يزعم ربوبيته قيل كان المستنطق لعيسى زكريا عليهما الصلاة والسلام وعن السدي رضي الله عنه لما أشارت اليه غضبوا وقالوا السخرية بنا أشد علينا مما فعلت وروى أنه عليه السلام كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار اليهم بسبابته فقال ما قال الخ وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان (آتاني الكتاب) أي الانجيل (وجعلني نبيا

فان الجبان يخاف قرنه ويتصور القتل فيجبن ويترك الاقدام وأما الشجاع فيحكم بالغلبة والنصر فيقدم وقوله تعالى فاذا ذهب الخوف سلقوكم أي غلبوكم بالسنة وآذوكم بكلامهم يقولون نحن الذين قاتلنا معكم وانتصرتم وكسرتم العدو وقهرتم ويطالبونكم بالقسم الاوفر من الغنيمة وكانوا من قبل راضين من الغنيمة بالاياب وقوله أشحة على الخير قيل الخير المال وقيل أن يقال معنا نافهم قليلو الخير في الحالتين كثيرو الشر في الوقتين في الاول يبخلون وفي الآخر كذلك ﴿ثم قال تعالى﴾ أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ﴿يعني لم يؤمنوا حقيقة وان أظهروا الايمان لفظا فأحبط الله أعمالهم التي كانوا يأتون بها مع المسلمين وقوله وكان ذلك على الله يسيرا اشارة الى ما يكون في نظر الناظر كما في قوله تعالى وهو أهون عليه وذلك لان الاحباط اعدام واهدار واعدام الاجسام اذا نظر الناظر يقول الجسم اعدامه بتفريق أجزائه فان من أحرق شيأ يبقى منه رماد وذلك لان الرماد ان فرقته الريح يبقى منه ذرات وهذا مذهب بعض الناس والحق هو ان الله يعدم الاجسام ويعيد ما يشاء منها وأما العمل فهو في العين معدوم ان كان يبقى بحكمه وآثاره فاذا لم يكن له فائدة واعتبار فهو معدوم حقيقة وحكما والعمل اذا لم يعتبر فهو معدوم في الحقيقة بخلاف الجسم ﴿ثم قال تعالى﴾ يحسبون الاحزاب لم يذهبوا وان يأت الاحزاب يودوا لو انهم بادون في الاعراب يسئلون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴿أي من غاية تلبين عندهم انهم كانوا يخافون وهم وعند جميعهم كانوا يودون لو كانوا في البوادي ولا يكونون بين المقاتلين مع انهم عند حضورهم كأنهم غائبون حيث لا يقاتلون كما قال تعالى ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا ﴿ثم قال تعالى﴾ ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما ﴿لما بين حال المنافقين ذكر حال المؤمنين وهو انهم قالوا ما قالوا هذا ما وعدنا الله من الابتلاء ثم قالوا وصدق الله ورسوله في مقابلة قولهم ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا وقولهم وصدق الله ورسوله ليس اشارة الى ما وقع فانهم كانوا يعرفون صدق الله قبل الوقوع وانما هي اشارة الى بشارة وهو انهم قالوا هذا ما وعدنا الله وقد وقع وصدق الله في جميع ما وعد فيقع الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس وقوله ما زادهم الا ايمانا بوقوعه وتسليما عند وجوده ﴿ثم قال تعالى﴾ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ﴿اشارة الى وفائهم بعهدهم الذي عاهدوا الله انهم لا يفارقون نبيه الا بالموت فمنهم من قضى نحبه أي قاتل حتى قتل فوفى بنذره والنحب النذر ومنهم من هو بعد في القتال ينتظر الشهادة وفاء بالعهد وما بدلوا تبديلا بخلاف المنافقين فانهم قالوا لا تولي الادبار فبدلوا قولهم وولوا أدبارهم وقوله ليجزي الله الصادقين بصدقهم أي بصدقي ما وعدهم في الدنيا والآخرة كما صدقوا مواعيدهم ويعذب المنافقين الذين كذبوا وأخلفوا وقيل ان شاء ذلك فيهم من الايمان أو يتوب عليهم ان أرادوا وانما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل يأس النبي عليه السلام عن ايمانهم وآمن بعد ذلك ناس منهم وقوله وكان الله غفورا حيث ستر ذنوبهم ورحيما حيث رحمهم ورزقهم الايمان فيكون خطاب المؤمنين بعد أو نقول ويعذب المنافقين مع انه كان غفورا رحيما لكثرة ذنوبهم وقوة جرمهم ولو كان دون ذلك لغفر لهم ثم بين بعض ما جازاهم الله به على صدقهم فقال ورد الله الذين كفروا بغيظهم أي مع غيظهم لم يشفوا صدورا ولم يحققوا أمرا وكفى الله المؤمنين القتال أي لم يحوجهم الى قتال

وجعلني) مع ذلك (مباركا) نفاعا معلما للخير والتعبير بلفظ الماضي في الافعال الثلاثة اما باعتبار ما سبق في القضاء المحتوم أو بجعل ما في شرف الوقوع لامحالة واقعا وقيل أكله الله عقلا واستنبأه طفلا (أينما كنت) أي حيثما كنت (وأوصاني بالصلوة) أي أمرني بها أمر ايجاب مؤكدا (والزكوة) زكاة المال ان ملكته أو بتطهير النفس عن الرذائل (ما دمت حيا) في الدنيا (وبرا بوالدتي) عطف على مباركا

أي جعلني بارا بها وقرئ بالكسر على أنه مصدر وصف به مبالغة أو منصوب بمضمر دل عليه أوصاني أي وكلفني بر او بوئ يده القراءة بالكسر والجر عطفا على الصلاة والزكاة والتنكير للتفخيم (ولم يجعلني جبارا شقيا) عنيد الله تعالى لفرط تكبره (والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) كما هو على ٦١٢ يحيى على أن التعريف للعهد والاظهر أنه للجنس والتعريض باللعن على أعدائه فان اثبات جنس السلام لنفسه تعريض باثبات ضده لاضداده كما في قوله تعالى والسلام على من اتبع الهدى فانه تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى (ذلك) اشارة الى من فصلت نعوته الجليلة وما فيه من معنى البعد للدلالة على علو مرتبته وبعد منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ونزوله منزلة المشاهد المحسوس (عيسى ابن مريم) لاما يصفه النصارى وهو تكذيب لهم فيما يزعمونه على الوجه الابلغ والمنهاج البرهاني حيث جعله موصوفا باضداد ما يصفونه (قول الحق) بالنصب على أنه مصدر مؤكد لمضمون ما قبله وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أي هو قول الحق الذي لا ريب فيه والاضافة للتبيان والضمير للكلام السابق أو لتمام القصة وقيل صفة عيسى أو بدله أو خبر ثان ومعناه كلمة الله وقرئ قال الحق وقول الحق والقال في معنى واحد (الذي فيه يمترون) أي يشكون أو يتنازعون فيقول قولا اليم ردا لما حرفه النصارى ابن الله وقرئ بتاء الخطاب (ما كان لله) أي ما صح وما استقام له تعالى (أن يتخذ من ولد سبحانه) تكذيب للنصارى وتنزيه له تعالى عما يجانبه وقوله تعالى (اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) تبكيت لهم ببيان أن شأنه تعالى اذا قضى

وكان الله قويا غير محتاج الى قتالهم عزيزا قادرا على استئصال الكفار واذلالهم ﴿ ثم قال تعالى ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ﴾ أي عاونوهم من أهل الكتاب وهم بنو قريظة من صياصيهم من قلاعهم وقذف في قلوبهم الرعب حتى سلموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونساءهم للسبي فريقا تقتلون وهم الرجال وتأسرون فريقا وهم الصبيان والنسوان فان قيل هل في تقديم المفعول حيث قال فريقا تقتلون وتأخيره حيث قال وتأسرون فريقا فائدة قلت قد أجبنا ان ما من شئ من القرآن الا وله فوائد منها ما يظهر ومنها ما لا يظهر والذي يظهر من هذا والله أعلم ان القائل يبدأ بالاهم فالاهم والاعرف فالاعرف والاقرب فالاقرب والرجال كانوا مشهورين فكان القتل وارد ا عليهم والاسرى كانوا هم النساء والصغار ولم يكونوا مشهورين والسبي والاسر أظهر من القتل لانه يبقى فيظهر لكل أحد انه أسر فقدم من المحلين ما هو أشهر على الفعل القائم به وما هو أشهر من الفعلين قدمه على المحل الاخفى وان شئت قلت بعبارة توافق المسائل النحوية فنقول قوله فريقا تقتلون فعل ومفعول والاصل في الجمل الفعلية تقديم الفعل على المفعول والفاعل أما انها جملة فعلية فلانها لو كانت اسمية لكان الواجب في فريق الرفع وكان يقول فريق منهم تقتلونهم فلما نصب كان ذلك بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره تقتلون فريقا تقتلون والحامل على مثل هذا الكلام شدة الاهتمام ببيان المفعول وههنا كذلك لانه تعالى لما ذكر حال الذين ظاهروهم وانه قذف في قلوبهم الرعب قبل ان يقال تقتلون الى أن يسمع السامع مفعول تقتلون يكمن زمان وقد يتمنه مانع فيفوته فلا يعلم انهم المقتولون فأما اذا قال فريقا مع سبق في قلوبهم الرعب الى سمعه يستمع الى اتمام الكلام واذا كان الاول فعلا ومفعولا قدم المفعول لفائدة عطف الجملة الثانية عليها على الاصل فعدم تقديم الفعل لزوال موجب التقديم اذا عرف حالهم وما يجيء بعده يكون مصروفا اليهم ولو قال بعد ذلك وفريقا تأسرون فمن سمع فريقا ربما يظن ان يقال فيهم يطلقون أولا يقدرون عليهم فكان تقديم القتل ههنا أولى وكذلك الكلام في قوله وأنزل الذين ظاهروهم وقوله وقذف فان قذف الرعب قبل الانزال لان الرعب صار سببا للانزال ولكن لما كان القرح في انزالهم أكثر قدم الانزال على قذف الرعب والله أعلم ﴿ ثم قال تعالى ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها وكان الله على كل شئ قديرا ﴾ فيه ترتيب على ما كان فان المؤمنين أولا ملكوا أرضهم بالنزول فيها والاستيلاء عليها ثم ملكوا ديارهم بالدخول عليهم وأخذ قلاعهم ثم أموالهم التي كانت في بيوتهم وقوله وأرضا لم تطؤها قال المراد القلاع وقيل المراد الروم وأرض فارس وقيل كل ما يؤخذ الى يوم القيامة وكان الله على كل شئ قديرا هذا يؤكد قول من قال ان المراد من قوله وأرضا لم تطؤها وما سيؤخذ بعد بني قريظة ووجهه هو ان الله تعالى لما ملكهم تلك البلاد ورعد عدهم بغيرها دفع استبعاد من لا يكون قوي الاتكال على الله تعالى وقال ألبس الله بملكه هذه فهو على كل شئ قدير يملككم غيرها ﴿ ثم قال تعالى ﴿ يا أيها النبي قل لازواجك ان كنتن تردن الحيوة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ﴾ وجه التعلق هو ان مكارم الاخلاق ومحاسنها منحصرة في شيئين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله ولما هذا أشار عليه الصلاة والسلام بقوله الصلاة وما ملكت أيمانكم ثم ان الله تعالى لما أرشد نبيه الى ما يتعلق بجانب التعظيم لقوله يا أيها النبي اتق الله ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة وبدأ بالزوجات فانهن أولى الناس بالشفقة ولهذا قدمهن في النفقة وفي الآية مسائل فقهية منها أن التخيير هل كان واجبا على النبي عليه الصلاة والسلام أم لا فنقول التخيير

كلمة الله وقرئ قال الحق وقول الحق والقال في معنى واحد (الذي فيه يمترون) أي يشكون أو يتنازعون فيقول قولا

أمرا من الامور أن يتعلق به ارادته فيكون حينئذ لا تأخير فى هذا شأنه كيف بتوهم أن يكون له ولد وقرئ فيكون بالنصب على الجواب وقوله تعالى (وان الله ربى وربكم فاعبدوه) من تمام كلام عيسى عليه السلام قبل هو عطف على قوله انى عبد الله داخل تحت القول وقد قرئ بغير واو وقرئ بفتح الهمزة على حذف اللام أى ولانه تعالى ربى وربكم ٦١٣ فاعبدوه كقوله تعالى وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا وقيل معطوف على الصلاة (هذا) أى الذى ذكرته من التوحيد (صراط مستقيم) لا يضل سالكه والفاء فى قوله تعالى (فاختلف الاحزاب من بينهم) لترتيب ما بعدها على ما قبلها تنبيها على سوء صنيعهم بجعلهم ما يوجب الاتفاق منشأ للاختلاف فان ما حكى من مقالات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصا قاطعة فى كونه عبده تعالى ورسوله قد اختلفت اليهود والنصارى بالتفريط والافراط أو فرق النصارى فقالت النسطورية هو ابن الله وقالت اليعقوبية هو الله هبط الى الارض ثم صعد الى السماء تعالى عن ذلك علوا كبيرا وقالت الملكانية هو عبد الله ونبيه (فويل للذين كفروا) وهم المختلفون عبر عنهم بالموصول ايذانا بكفرهم جميعا واشعارا بعلة الحكم (من مشهد يوم عظيم) أى من شهود يوم عظيم الهول والحساب والجزاء وهو يوم القيامة أو من وقت شهوده أو من مكان الشهود فيه أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أن تشهد عليهم الملائكة والانبياء عليهم السلام وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم وسائر آرابهم بالكفر والفسوق أو من وقت الشهادة أو من مكانها وقيل هو ما شهد به على حق عيسى وأمه عليهما السلام (أسمع بهم وأبصر) تعجب من حدة سمعهم وابصارهم يومئذ ومعناه ان أسماعهم وأبصارهم (يوم يأتوننا) للحساب

قولا كان واجبا من غير شك لانه ابلاغ الرسالة لان الله تعالى لما قال له قل لهم صار من الرسالة وأما التخيير معنى فبنى على ان الامر للوجوب أم لا والظاهر انه للوجوب ومنها ان واحدة منهن لو اختارت الفراق هل كان يصير اختيارها فراقا والظاهر انه لا يصير فراقا وانما تبين المختارة نفسها بابانة من جهة النبى صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا * ومنها ان واحدة منهن لو اختارت نفسها وقلنا بانها لا تبين الا بابانة من جهة النبى عليه الصلاة والسلام فهل كان يجب على النبى عليه السلام الطلاق أم لا والظاهر نظرا الى منصب النبى عليه الصلاة والسلام أنه كان يجب لان التخلف فى الوعد من النبى غير جائز بخلاف واحد منا فانه لا يلزمه شرعا الوفاء بما يعد * ومنها ان المختارة بعد البينونة هل كانت تحرم على غيره أم لا والظاهر انها لا تحرم والا لما يكون التخيير تكملة لما من التمتع بزينة الدنيا * ومنها ان من اختارت الله ورسوله كان يحرم على النبى عليه الصلاة والسلام طلاقها أم لا والظاهر الحرمة نظرا الى منصب الرسول عليه الصلاة والسلام على معنى ان النبى عليه السلام لا يباشره اضلاعا منى انه وأتى به اهو وقب أو عوتب * وفيها لطائف لفظية * منها تقديم اختيار الدنيا اشارة الى أن النبى عليه الصلاة والسلام غير ملتفت الى جانبهن غاية الالتفات وكيف وهو مشغول بعبادة ربه * ومنها قوله عليه السلام أسرحكن سراحا جميلا اشارة الى ما ذكرنا فان السراح الجميل مع التأدى القوى لا يجتمع فى العادة فلم أن النبى عليه الصلاة والسلام ما كان يتأثر من اختيارهن * فرقه بدليل ان التسريح الجميل منه * ومنها قوله وان كنتن تردن الله اعلاما لهن بأن فى اختيار النبى عليه السلام اختيار الله ورسوله والدار الآخرة وهذه الثلاثة هى الذين قوله أعد للمحسنات منكن أى ان عمل صالحا منكن وقوله تردن الله ورسوله والدار الآخرة فيه معنى الايمان وقوله للمحسنات لبيان الاحسان حتى تكون الآية فى المعنى كقوله تعالى ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن وقوله تعالى من آمن وعمل صالحا وقوله الذين آمنوا وعملوا الصالحات والاجر العظيم الكبير فى الذات الحسن فى الصفات الباقى فى الاوقات وذلك لان العظيم فى الاجسام لا يطلق الا على الزائد فى الطول وفى العرض وفى العمق حتى لو كان زائدا فى الطول يقال له طويل ولو كان زائدا فى العرض يقال له عريض وكذلك العميق فاذا وجدت الامور الثلاثة قيل عظيم فيقال جبل عظيم اذا كان عاليا ممتدا فى الجهات وان كان مرتفعا حسب يقال جبل عال اذا عرفت هذا أجر الدنيا فى ذاته قليل وفى صفاته غير خال عن جهة قبح لما فى ما كوله من الضرر والثقل وكذلك فى مشروبه وغيره من اللذات وغير دائم وأجر الآخرة كثير خال عن جهات القبح دائم فهو عظيم * ثم قال تعالى * يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا * لما خيرهن النبى صلى الله عليه وسلم واخترن الله ورسوله أدبهن الله وهددهن للتوقى عما يسوء النبى عليه السلام ويقبح بهن من الفاحشة التى هى أصعب على الزوج من كل ما يأتى به زوجته وأوعدهن بتضعيف العذاب وفيه حكمتان (أحداهما) ان زوجة الغير تعذب على الزنا بسبب ما فى الزنا من المفاسد وزوجة النبى تعذب ان أتت بذلك ولا بداء قبله والازراء يقتضيه وعلى هذا نسبات النبى عليه السلام كذلك ولان امرأة لو كانت تحت النبى صلى الله عليه وسلم وأتت بفاحشة تكون قد اختارت غير النبى عليه السلام ويكون ذلك القدر خيرا عندها من النبى وأولى والنبى أولى من النفس التى هى أولى من الغير فقد نزلت منصب النبى مرتبتين فتعذب من العذاب ضعفين (ثانيهما) ان هذه الاشارة الى شرفهن لان الحرة عذابها ضعف عذاب الامة لظهار الشرف بها ونسبة النبى الى غيره من الرجال نسبة السادات الى العبيد لكونه أولى بهم من أنفسهم فكذلك زوجاته وقرائبه اللاتى هن أمهات المؤمنين وأم

والجزاء أي يوم القيامة جدير بان يتعجب منهما بعد أن كانوا في الدنيا صما عميا أو تهديد بما سيسمعون ويبصرون يومئذ وقيل أمر بأن يسمعهم ويبصرهم مواعيد ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه والجار والمجرور على الاول في موقع الرفع وعلى الثاني في حيز النصب (لكن الظالمون اليوم) أي في الدنيا ٦١٤ (في ضلال مبين) لا تدرك غايته حيث أغفلوا الاستماع والنظر بالكلية ووضع الظالمين موضع الضمير للايذان بأنهم في ذلك ظالمون لانفسهم (وأنذرهم يوم الحسرة) أي يوم يتحسر الناس فاطبة أما المسيء فعلى اساءته وأما المحسن فعلى قلة احسانه (اذ قضي الامر) أي فرغ من الحساب وتصادر الفريقان الى الجنة والنار روي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح فيذبح والفريقان ينظرون فينادي المنادي يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت فيزداد أهل الجنة فرحا الى فرحهم وأهل النار غما الى غمهم واندفال من يوم الحسرة أو ظرف للحسرة فان المصدر المعرف باللام يعمل في المفعول الصريح عند بعضهم فكيف بالظرف (وهم في غفلة) أي عما يفعل بهم في الآخرة (وهم لا يؤمنون) وهما جملتان حاليتان من الضمير المستتر في قوله تعالى في ضلال مبين أي مستقرون في ذلك وهم في تينك الحالتين وما بينهما اعتراض أو من مفعول أنذرهم أي أنذرهم غافلين غير مؤمنين فيكون وجهان

حالا متضمنة معنى التعليل (انا نحن نرث الارض ومن عليها) لا يبقى لاحد غيرنا عليها وعليهم ملك ولا ملك أو نتوفى الارض ومن عليها بالافناء والاهلاك ترثى الوارث لارثه (واليناير جعون) أي يردون للجزاء لا الى غيرنا استقلالا أو اشتراكا (واذكر) عطف على أنذرهم

النخص امرأة حاكمة عليه واجبة الطاعة وزوجته مأمورة محكومة له وتحت طاعته فصارت زوجة الغير بالنسبة الى زوجة النبي عليه السلام كالامة بالنسبة الى الحرة واعلم أن قول القائل من يفعل ذلك في قوة قوله ائن أشركت ليحبطن عملك من حيث ان ذلك ممكن الوقوع في أول النظر ولا يقع في بعض الصور جزما وفي بعض يقع جزما ممن مات فقد استراح وفي البعض يتردد السامع في الامرين فقوله تعالى من يأت منكن بفاحشة عندنا من القبيل الاول فان الانبياء صان الله زوجاتهم عن الفاحشة وقوله تعالى وكان ذلك على الله يسيرا أي ليس كونكن تحت النبي عليه السلام وكونكن شريفات جليلات مما يدفع العذاب عنكن وليس أمر الله كأمر الخلق حيث يتعذر عليهم تعذيب الاعزة بسبب كثرة أوليائهم وأعوانهم أو شفعائهم وأحبائهم ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا ﴾ بيانا لزيادة ثوابهن كما بين زيادة عقابهن ﴿ نؤتها أجرها مرتين ﴾ في مقابلة قوله تعالى يضاعف لها العذاب ضعفين مع لطيفة وهي ان عند ايتاء الاجر ذكر المؤتي وهو الله وعند العذاب لم يصرح بالمعذب فقال يضاعف اشارة الى كمال الرحمة والكرم كما أن الكريم الملي عند النفع يظهر نفسه وفعله وعند الضر لا يذكر نفسه ﴿ وقوله تعالى ﴿ وأعتدنا لها رزقا كريما ﴾ وصف رزق الآخرة بكونه كريما مع أن الكريم لا يكون الا وصفا للرازق اشارة الى معنى لطيف وهو ان الرزق في الدنيا مما قد رعلى أيدي الناس التاجر يسترزق من السوقة والعاملين والصناع من المستعملين والملوك من الرعية والرعية منهم فالرزق في الدنيا لا يأتي بنفسه وانما هو مسخر للغير يمسكه ويرسله الى الاغيار وما في الآخرة فلا يكون له مرسل ومسلك في الظاهر فهو الذي يأتي بنفسه فلاجل هذا لا يوصف في الدنيا بالكريم الا الرازق وفي الآخرة يوصف بالكريم نفس الرزق ﴿ ثم قال تعالى ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ﴾ لما ذكر أن عذابهن ضعف عذاب غيرهن واجرهن مثلا أجر غيرهن صرن كالعرائر بالنسبة الى الاماء فقال لستن كأحد ومعنى قول القائل ليس فلان كالناس يعني ليس فيه مجرد كونه انسانا بل وصف أخص موجود فيه وهو كونه عالما أو عاملا أو نسيبا أو حسيبا فان الوصف الاخص اذا وجد لا يبقى التعريف بالاعم فان من عرف رجلا ولم يعرف منه غير كونه رجلا يقول رأيت رجلا فان عرف علمه يقول رأيت زيدا أو عمرا فكذلك قوله تعالى لستن كأحد من النساء يعني فيكن غير ذلك أمر لا يوجد في غيركن وهو كونكن أمهات جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين وكما أن محمدا عليه السلام ليس كأحد من الرجال كما قال عليه السلام لست كأحدكم كذلك قرائنه اللاتي يشرفن به وبين الزوجين نوع من الكفاءة ثم قوله تعالى ﴿ ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول ﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون متعلقا بما قبله على معنى لستن كأحد ان اتقيتن فان الاكرم عند الله هو الاتقى (وثانيهما) أن يكون متعلقا بما بعده على معنى ان اتقيتن فلا تخضعن والله تعالى لما منعهن من الفاحشة وهي الفعل القبيح منعهن من مقدماتها وهي المحادثة مع الرجال والانقياد في الكلام للفاسق ﴿ وقوله تعالى ﴿ فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾ أي فسق ﴿ وقوله تعالى ﴿ وقلن قولا معروفا ﴾ أي ذكر الله وما يحق أن يقلن من الكلام والله تعالى لما قال فلا تخضعن بالقول ذكر بعده وقلن اشارة الى أن ذلك ليس أمرا بالابداء والمنكر بل القول المعروف عند الحاجة هو المأمور به لا غيره ﴿ ثم قال تعالى ﴿ وقرن في بيوتكن ﴾ من القرار واسقاط أحد حرفي التضعيف كما قال تعالى فظلتم تفكهون وقيل بأنه من الوقار كما يقال وعد يعد عد ﴿ وقوله ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى ﴾ قيل معناه لا تتكسرن ولا تتغنجن ويحتمل أن يكون المراد لا تظهرن زينتكن وقوله تعالى الجاهلية الاولى فيه

(فى الكتاب) أى فى السورة أوفى القرآن (ابراهيم) أى اتل على الناس قصته وبلغها اياهم كقوله تعالى واتل عليهم نبأ ابراهيم فانهم ينقون اليه عليه السلام فحاسبهم بأسمع قصته بقاءوز عماءهم فيه من القبائح (انه كان صديقا) ملازما للصدق فى كل ما يأتى ويذر أو كثير التصديق لكثرة ماصدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله والجملة ٦١٥ استئناف مسوق لتعليل موجب الامر فان وصفه عليه السلام بذلك من دواعى ذكره (نبيا) خبرا آخر لكان مفيد للاول مخصص له كما ينبئ عنه قوله تعالى من النبيين والصديقين الآية أى كان جامعا بين الصديقية والنبوة ولعل هذا الترتيب للايذان بغاية الاحتراز عن توهم تخصيص الصديقية بالنبوة فان كل نبى صديق (اذقال) بدل اشتمال من ابراهيم وما بينهما اعتراض مقرر لما قبله أومتعلق بكان أو بنبيا وتعليق الذكر بالاوقات مع أن المقصود تذكير ماوقع فيها من الحوادث قد مر سره مرارا أى كان جامعا بين الامرين حين قال (لابيه) آزر منلطفا فى الدعوة مسهلا له (ياابت) أى ياأبى فان التاء عوض عن ياء الاضافة ولذلك لايجتمعان وقد قيل ياأبتا لكون الالف بدلا من الياء (لم تعبد مالا يسمع) ثناءك عليه عند عبادتك له وجوابه انه (ولايبصر) خضوعك وخشوعك بين يديه أولا يسمع ولايبصر شيأ

وجهان (أحدهما) أن المراد من كان فى زمن نوح والجاهلية الاخرى من كان بعده (وثانيهما) ان هذه ليست أولى تقتضى أخرى بل معناه تبرج الجاهلية القديمة كقول القائل أين الاكاسرة الجبابرة الاولى ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ولقمان الصلوة وآتين الزكوة وأطعن الله ورسوله ﴾ يعنى ليس التكليف فى النهى فقط حتى يحصل بقوله تعالى لاتخضعن ولاتبرجن بل فيه وفى الاوامر فأقمن الصلاة التى هى ترك التشبه بالجبار المتكبر وآتين الزكاة التى هى تشبه بالكريم الرحيم وأطعن الله أى ليس التكاليف مختصرا فى المذكور بل كل ما أمر الله به فأتين به وكل مانهى الله عنه فانتهين عنه ﴿ ثم قال تعالى ﴿ انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ يعنى ليس المنتفع بتكليفكن هو الله ولاتنفعن الله فيما تأتين به وانما نفعه لكن وأمره تعالى اياكن لمصلحتكن وقوله تعالى ليذهب عنكم الرجس ويطهركم فيه لطيفة وهى ان الرجس قد يزول عينا ولايطهر المحل فقوله تعالى ليذهب عنكم الرجس أى يزيل عنكم الذنوب ويطهركم أى يلبسكم خلع الكرامة. ثم ان الله تعالى ترك خطاب المؤنثات وخاطب بخطاب المذكرين بقوله ليذهب عنكم الرجس ليدخل فيه نساء أهل بيته وورجالهم واختلف الاقوال فى أهل البيت والاولى أن يقال هم أولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعلى منهم لانه كان من أهل بيته بسبب معاشرته بمنع النبى عليه السلام وملازمته للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ ثم قال تعالى ﴿ واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله ﴾ أى القرآن ﴿ والحكمة ﴾ أى كلمات النبى عليه الصلاة والسلام اشارة الى ماذكرنا من أن التكاليف غير منحصرة فى الصلاة والزكاة وماذكر الله فى هذه الآية فقال واذكرن مايتلى ليعلمن الواجبات كلها فيأتين بها والمحرمات بأسرها فينتهين عنها. ﴿ ان الله كان لطيفا خبيرا ﴾ اشارة الى أنه خبير بالبواطن لطيف فعله يصل الى كل شئ ومنه اللطيف الذى يدخل فى المسام الضيقة ويخرج من المسالك المسدودة ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ لما أمرهن ونهاهن بين مايكون لهن وذكر لهن عشر مراتب (الاولى) الاسلام والانقياد لامر الله (والثانية) الايمان بما يريده أمر الله فان المكلف أولا يقول كل مايقوله أقبله فهذا اسلام فاذا قال الله شيأ وقبله صدق مقالته وصحح اعتقاده فهو ايمان ثم اعتقاده يدعوه الى الفعل الحسن والعمل الصالح فيقنت ويعبد وهو المرتبة الثالثة المذكورة بقوله ﴿ والقانتين والقانتات ﴾ ثم اذا آمن وعمل صالحا كمل فيكمل غيره ويأمر بالمعروف وينصح أخاه فيصدق فى كلامه عند النصيحة وهو المراد بقوله ﴿ والصادقين والصادقات ﴾ ثم ان من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يصيبه أذى فيصبر عليه كما قال تعالى ﴿ والصابرين والصابرات ﴾ ثم انه اذا أكل وكل قد يتخشع بقلبه ويخبت بعبادته فنبه عليه بقوله ﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾ أو نقول لما ذكر هذه الحسنات أشار الى ماينعم منها وهو اما حب الجاه أو حب المال من الامور الخارجية أو الشهوة من الامور الداخلة والغضب منها يكون لانه يكون بسبب نقص جاه أو فوت مال أو منع من أمر مشتهى فقوله والخاشعين والخاشعات أى المتواضعين الذين لا يميلهم الجاه عن العبادة ﴿ ثم قال تعالى ﴿ والمتصدقين والمتصدقات ﴾ أى البادلين الاموال الذين لا يكنزونها بالشدة محبتهم اياها ﴿ ثم قال تعالى ﴿ والصائمين والصائمات ﴾ اشارة الى الذين لا تمنعهم الشهوة البطنية من عبادة الله ثم قال تعالى ﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ أى الذين لا تمنعهم الشهوة الفرجية ﴿ ثم قال تعالى ﴿ والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ﴾ يعنى هم فى جميع هذه الاحوال يذكرون الله ويكون اسلامهم وايمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله ﴿ واعلم أن الله تعالى فى أكثر المواضع حيث ذكر

من المسموعات والمبصرات فيدخل فى ذلك ماذكر دخولا أوليا (ولايغنى) أى لايقدر على أن يغنى (عنك شيأ) فى جلب نفع أو دفع ضر ولقد سلك عليه السلام فى دعوته أحسن مناهج وأقوم سبيل واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل لائلا تركب متن المكابرة والعناد ولاينكب بالكلية عن محجة الرشاد حيث طلب منه علة عبادته لما يستقبح به عقل كل عاقل من عالم وجاهل وبأبى

الركون اليه فضلا عن عبادته التي هي الغاية القاصية من التعظيم مع أنها لا تحق الا لمن له الاستغناء التام والانعام العام الخالق الرازق المحيي المميت المثيب المعاقب ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل لداعية صحيحة وغرض صحيح والشيء لو كان حيا مميزا سميعا بصيرا قادرا على النفع والضر مطيقا ٦١٦ باتصال الخير والشر لكن كان ممكنا لاستنكاف العقل السليم عن عبادته وان كان

أشرف الخلائق لما يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر ثم دعا الى أن يتبعه بهديه الى الحق المبين لما أنه لم يكن محفوظا من العلم الالهي مستقلا بالنظر السوي مصدرا للدعوة عما مر من الاستمالة والاستعطاف حيث قال (يا أبت اني قد جاءني من العلم ما لم يأتك) ولم يسم أباه بالجهل المفرط وان كان في أقصاه ولا نفسه بالعلم الفائق وان كان كذلك بل أبرز نفسه في صورة رفيق له أعرف بأحوال ما سلكاه من الطريق فاستماله برفق حيث قال (فاتبعني أهدك صراطا سويا) أي مستقيما موصلا الى أسنى المطالب فضيا عن الضلال المؤدي الى مهاوي الردى والمعاطب ثم شرطه بما كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرة مستجلب لضرر عظيم فانه في الحقيقة عبادة الشيطان لما أنه الآمر به فقال (يا أبت لا تعبد الشيطان) فان عبادتك

الذكر قربه بالكثرة ههنا وفي قوله بعد هذا يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وقال من قبل لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا الآن الاكثار من الافعال البدنية غير ممكن أو عسر فان الانسان أكله وشربه وتحصيل ما كوله ومشروبه يمنعه من أن يشتغل دائما بالصلاة ولكن لا مانع له من أن يذكر الله تعالى وهو آكل ويذكره وهو شارب أو ماش أو بائع أو شار والى هذا أشار بقوله تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ولان جميع الاعمال صحتها بذكر الله تعالى وهي النية ﴿ثم قال تعالى ﴿أعد الله لهم مغفرة﴾ تمحو ذنوبهم وقوله ﴿وأجرا عظيما﴾ ذكرناه فيما تقدم ﴿ثم قال تعالى ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا﴾ قيل بان الآية نزلت في زينب حيث أراد النبي صلى الله عليه وسلم تزويجها من زيد بن حارثة فكرهت الا النبي عليه السلام وكذلك أخوها امتنع فنزلت الآية فرضيا به والوجه أن يقال ان الله تعالى لما أمر نبيه بان يقول لزوجاته ان كن تخترن مخيرات فهم منه ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يريد ضرر الغير فمن كان ميله الى شيء يمكنه النبي عليه السلام من ذلك ويترك النبي عليه السلام حق نفسه لحظ غيره فقال في هذه الآية لا ينبغي أن يظن ظانّ ان هوى نفسه متبع وان زمام الاختيار بيد الانسان كما في الزوجات بل ليس لمؤمن ولا مؤمنة أن يكون له اختيار عند حكم الله ورسوله فما أمر الله هو المتبع وما اراد النبي هو الحق ومن خالفهما في شيء فقد ضل ضلالا مبينا لان الله هو المقصد والنبي هو الهادي الموصل فمن ترك المقصد ولم يسمع قول الهادي فهو ضال قطعا ﴿ثم قال تعالى ﴿واذ تقول للذي أنعم الله عليه﴾ وهو زيد أنعم الله عليه بالاسلام ﴿وأنعمت عليه﴾ بالتحرير والاعتاق ﴿أمسك عليك زوجك﴾ هم زيد بطلاق زينب فقال له النبي أمسك أي لا تطلقها ﴿واتق الله﴾ قيل في الطلاق وقيل في الشكوى من زينب فان زيدا قال فيها انها تتكبر علي بسبب النسب وعدم الكفاءة ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ من أنك تريد التزوج بزينب ﴿وتخشى الناس﴾ من أن يقولوا أخذ زوجة الغير أو الابن ﴿والله أحق أن تخشاه﴾ ليس اشارة الى أن النبي خشي الناس ولم يخش الله بل المعنى الله أحق أن تخشاه وحده ولا تخش أحدا معه وأنت تخشاه وتخشى الناس أيضا فجعل الخشية له وحده كما قال تعالى الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله ﴿ثم قال تعالى ﴿فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها﴾ أي لما طلقها زيد وانقضت عدتها وذلك لان الزوجة ما دامت في نكاح الزوج فهي تدفع حاجته وهو محتاج اليها فلم يقض منها الوطر بالكلية ولم يستغن وكذلك اذا كان في العدة له بها تعلق لامكان شغل الرحم فلم يقض منها بعد وطره وأما اذا طلق وانقضت عدتها استغنى عنها ولم يبق له معها تعلق فحينئذ قضى منها الوطر وهذا موافق لما في الشرع لان التزوج بزوجة الغير أو بمعتدته لا يجوز فلهذا قال فلما قضى وكذلك قوله ﴿لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا﴾ أي اذا طلقوهن وانقضت عدتهن وفيه اشارة الى أن التزويج من النبي عليه السلام لم يكن لقضاء شهوة النبي عليه السلام بل لبيان الشريعة بفعله فان الشرع يستفاد من فعل النبي ﴿وقوله ﴿وكان أمر الله مفعولا﴾ أي مقضيا ما قضاه كائن ﴿ثم بين أن تزوجه عليه السلام بها لم كان مبينا الشرع مشتملا على فائدة كان خاليا عن المفاسد فقال ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ يعني كان شرع من تقدمه كذلك كان يتزوج الانبياء بنسوة كثيرة أبكارا ومطلقات الغير ﴿وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾ أي كل شيء بقضاء وقدر والقدر والتقدير بين المفعول والمقدور فرق مقول بين القضاء والقدر

فالقضاء للاصنام عبادة له اذ هو الذي يستولها لك ويغريك عليها وقوله (ان الشيطان كان للرحمن عصيا) تعليل لموجب النهي وتأكيد له ببيان انه مستعص على ربك الذي أنعم عليك بفنون النعم ولا ريب في أن المطيع للعاصي عاص وكل من هو عاص حقيق بأن يسترد منه

النعم ويتقدم منه والاظهار في موضع الاضمار لزيادة التقرير والاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته لانه ملاكها ولانه نتيجة معاداته لآدم عليه السلام وذريته فتذكيره داع لابيه الى الاحتراز عن موالاته وطاعته والتعرض لعنوان الرحمانية لاظهار كمال شناعة عصيانه وقوله (يا أبت اني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) تحذير من سوء عاقبة ٦١٧ ما كان عليه من عبادة الشيطان وهو

فالقضاء ما كان مقصودا في الاصل والقدر ما يكون تابعا له مثاله من كان يقصد مدينة فنزل بطريق تلك المدينة بخان أو قرية يصح منه في العرف أن يقول في جواب من يقول لم جئت الى هذه القرية اني ما جئت الى هذه القرية وانما قصدت المدينة الفلانية وهذه وقعت في طريقي وان كان قد جاءها وعاد دخلها اذا عرفت هذا فان الخير كله بقضاء ومافي العالم من الضرر بقدر فالله تعالى خلق المكلف بحيث يشتهي ويغضب ليكون احتمال دعاء في تغليب العقل والدين عليهما شاقا بالغ وجه فاقتضى ذلك في البعض الى أن زنى وقتل فالله لم يخلقه ما قصده منه القتل والزنا وان كان ذلك بقدر الله اذا علمت هذا ففي قوله تعالى أولا وكان أمر الله مفعولا وقوله ثانيا وكان أمر الله قدرا مقدورا لطيفة وهي انه تعالى لما قال زوجناكها قال وكان أمر الله مفعولا أي تزويجها زينب بالك كان مقصودا متبوعا مقتضيا مراعي ولما قال سنة الله في الذين خلوا اشارة الى قصة داود عليه السلام حيث افتتن بامرأة أوريا قال وكان أمر الله قدرا مقدورا أي كان ذلك حكما تبعيا فلو قال قائل هذا قول المعتزلة بالتوليد والفلاسفة بوجوب كون الاشياء على وجوه مثل كون النار تحرق حيث قالوا الله تعالى اذا أراد أن يخلق ما يتضح الاشياء وهو لا يكون الا محرقا بالطبع خلق النار للنفع فوقع اتفاق أسباب أوجبت احتراق دار زيد أو دار عمرو فنقول معاذ الله أن نقول بأن الله غير مختار في أفعاله أو يقع شئ لا باختياره ولكن أهل السنة يقولون أجرى الله عادته بكذا أي وله أن يخلق النار بحيث عند حاجة انضاج اللحم تنضج وعند مساس ثوب العجوز لا تحرق ألا ترى انها لم تحرق ابراهيم عليه السلام مع قوتها وكثرتها لكن خلقها على غير ذلك الوجه بخواص ارادته أو لحكمة خفية ولا يسئل عما يفعل فنقول ما كان في مجرى عادته تعالى على وجه تدركه العقول البشرية نقول بقضاء وما يكون على وجه يقع بمقتضى العقل قاصر أن يقول لم كان ولماذا لم يكن على خلافه نقول بقدر ﴿ ثم بين الذين خلوا بقوله ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ﴾ يعني كانوا هم أيضا مثلك رسلا ﴿ ثم ذكر بعض أحوالهم انهم جردوا الخشية ووحدوها بقوله ﴿ ولا يخشون أحدا الا الله ﴾ فصار كقوله فبهداهم اقتده ﴿ وقوله ﴿ وكفى بالله حسيبا ﴾ أي محاسبا فلا تخش غيره أو محسوبا فلا تلتفت الى غيره ولا تجعله في حسابك ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ لما بين الله ما في تزوج النبي عليه السلام بزينب من الفوائد بين انه كان خاليا من وجوه المفاسد وذلك لان ما كان يتوهم من المفسدة كان مختصا في التزوج بزوجة الابن فانه غير جائز فقال الله تعالى ان زيدا لم يكن ابنا له لانه لا أحد من الرجال لم يكن ابن محمد ﴿ فان قال قائل النبي كان أبا أحد من الرجال لان الرجل اسم الذكر من أولاد آدم قال تعالى وان كانوا أخوة رجالا ونساء والصبي داخل فيه ﴿ فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الرجل في الاستعمال يدخل في مفهومه الكبر والبلوغ ولم يكن للنبي عليه السلام ابن كبير يقال انه رجل (والثاني) هو انه تعالى قال من رجالكم ووقت الخطاب لم يكن له ولد ذكر ﴿ ثم انه تعالى لما نفى كونه أبا عقبه بما يدل على ثبوت ما هو في حكم الابوة من بعض الوجوه فقال ﴿ ولكن رسول الله ﴾ فمن رسول الله كالاب للامة في الشفقة من جانبه وفي التعظيم من طرفهم بل أقوى فان النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم والاب ليس كذلك ﴿ ثم بين ما يفيد زيادة الشفقة من جانبه والتعظيم من جهتهم بقوله ﴿ وخاتم النبيين ﴾ وذلك لان النبي الذي يكون بعده نبي ان ترك شيئا من النصيحة والبيان يستدركه من يأتي بعده وأما من لا نبي بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم وأحدى اذهو كالوالد الذي ليس له غيره من أحد ﴿ وقوله تعالى ﴿ وكان الله بكل شئ عليما ﴾ يعني عليه بكل شئ دخل فيه أن لا نبي بعده فعلم أن من الحكمة ما كمل شرع محمد صلى الله عليه وسلم

عليه من المظلة والتذكير أي والله لئن لم تنته عما كنت عليه من النهي عن عبادتها لارجمنك بالحجارة وقيل باللسان (واهجرني) أي فاحذرني واتركني (مليا) أي زمانا طويلا أو مليا بالذهاب مطيقا به (قال) استئناف كما سلف (سلام عليك) توديع ومتاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة أي لا أصيبك بمكروه بعد ولا أشافهك بما يؤذيك ولكن

ابتلاؤه بما يتلى به معبود من العذاب الفظيع وكلمة من متعلقة بمضمر وقع صفة للعذاب مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية واظهار الرحمن للاشعار بان وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب كما في قوله عز وجل ما غرك بربك الكريم (فتكون للشيطان وليا) أي قرينا له في اللعن المخلد وذكر الخوف للحيلولة وابراز الاعتناء بامره (قال) استئناف مبني على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل فماذا قال أبوه عند ما سمع منه عليه السلام هذه النصائح الواجبة القبول فقيل قال مصرا على عناده (أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم) أي أمعرض ومنصرف أنت عنها بتوجيه الانكار الى نفس الرغبة مع ضرب من التعجب كان الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل فضلا عن ترغيب الغير عنها وقوله (لئن لم تنته لارجمنك) تهديد وتحذير عما كان

(سأستغفر لك ربي) أي أستدعيه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة ويهديك الى الايمان كما يلوح به تعليل قوله تعالى واغفر لابي بقوله تعالى انه كان من الضالين والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبين أنه يموت على الكفر مما لا ريب في جوازه وانما المحظور استدعاء

بتزوجه بزوجة دعيه تكميلا للشرع وذلك من حيث ان قول النبي صلى الله عليه وسلم يفيد شرعا انه كان اذا امتنع هو عنه يبقى في بعض النفوس نفرة الا ترى انه ذكر بقوله ما فهم منه حل أكل الضب ثم لما لم يأكله بقي في النفوس شيء ولما أكل لحم الجمل طاب أكله مع انه في بعض المحل لا يؤكل وكذلك الارنب ﴿ ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴾ وجه تعلق الآية بما قبلها وان السورة أصلها ومبناها على تأديب النبي صلى الله عليه وسلم وقد ذكرنا أن الله تعالى بدأ بذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي عليه السلام مع الله وهو التقوى وذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي عليه السلام مع أهله وأتاز به بقوله يا أيها النبي قل لازواجك والله تعالى يأمر عباده المؤمنين بما يأمر به أنبياءه المرسلين فارشد عباده كما أدب نبيه وبدأ بما يتعلق بجانبه من التعظيم فقال يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا كما قال لنبيه يا أيها النبي اتق الله ﴿ ثم نبههنا الطيفة ﴾ وهي ان المؤمن قد ينسى ذكر الله فأمر بدوام الذكر كما ان النبي لكونه من المقربين لا ينسى ولكن قد يغتر المقرب من الملك بقربه منه فيقل خوفه فقال اتق الله فان الخلاص على خطر عظيم وحسنة الابرار سيئة المقربين وقوله ذكرا كثيرا قد ذكرنا ان الله في كثير من المواضع لما ذكر الذكر وصفه بالكثرة اذ لا مانع من الذكر على ما ينبغي ﴿ وقوله تعالى ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ أي اذا ذكرتموه فينبغي أن يكون ذكركم اياه على وجه التعظيم والتنزيه عن كل سوء وهو المراد بالتسبيح وقيل المراد منه الصلاة وقيل للصلاة تسبيحه بكرة وأصيلا اشارة الى المداومة وذلك لان مريد العموم قد يذكر الطرفين ويفهم منهما الوسط كقوله عليه السلام لوأن أولكم وآخركم ولم يذكر وسطكم ففهم منه المبالغة في العموم ﴿ ثم قال تعالى ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ يعني هو يصلي عليكم ويرحمكم وأنتم لا تذكرونه فذكر صلاته تحريضا للمؤمنين على الذكر والتسبيح ليخرجكم من الظلمات الى النور يعني يهديكم برحمته واصلاة من الله رحمة ومن الملائكة استغفار فقيل بان اللفظ المشترك يجوز استعماله في معنييه معا وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ جائز وينسب هذا القول الى الشافعي رضي الله عنه وهو غير بعيد فان أريد تقريبه بحيث يصير في غاية القرب نقول الرحمة والاستغفار يشتركان في العناية بحال المرحوم والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمنية لتكون العناية جزأ منهما وكان بالمؤمنين رحيما تشارة لجميع المؤمنين واشارة الى أن قوله يصلي عليكم غير مختص بالسامعين وقت الوحي * ثم قال تعالى ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ لما بين الله عنايته في الاولى بين عنايته في الآخرة وذكر السلام لانه هو الدليل على الخيرات فان من أتى غيره وسلم عليه دل على المصافاة بينهما وان لم يسلم دل على المنافاة وقوله يوم يلقونه أي يوم القيامة وذلك لان الانسان في دنياه غير مقبل بكليته على الله وكيف وهو حال نومه غافل عنه وفي أكثر أوقاته مشغول بتحصيل رزقه وأما في الآخرة فلا شغل لاحد يلهيه عن ذكر الله فهو حقيقة اللقاء * ثم قال تعالى ﴿ وأعدلهم أجرا كريما ﴾ لو قال قائل الاعداد انما يكون ممن لا يقدر عند الحاجة الى الشيء على أما الله تعالى فلا حاجة ولا عجز فخبث بلقاه الله يؤتيه ما يرضى به وزيادة فما معنى الاعداد من قبل فنقول الاعداد للاكرام لا للحاجة وهذا كما أن الملك اذا قيل له فلان واصل فاذا أراد اكرامه يهيئ له بيتا وأنواعا من الاكرام ولا يقول بأنه اذا وصل نفتح باب الخزانة ونؤتيه ما يرضيه فكذلك الله لكمال الاكرام أعد للذاكرين أجرا كريما وانما وكرمه قد كرمناه في الرزق أي أعددنا أجرا يأتيه من غير طلبه بخلاف الدنيا فانه يطلب الرزق ألف مرة ولا يأتيه الا بقدر وقوله تحيتهم يوم يلقونه سلام مناسب لما لهم لانهم لما ذكروا الله في دنياهم حصل لهم معرفة ولما سبحوه تأكدت المعرفة

يؤتيني به ما يجب الانثناء به حتما لورود الوعيد على الاعراض عنه بقوله تعالى لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغني الحميد فاستثناؤه عن ذلك انما يفيد عدم وجوب امتداء الايمان للكافر المرجو ايمانه لا سيما وقد انقطع ذلك عند ورود الاستثناء وذلك مما لا يتردد فيه أحد من العقلاء وأما عدم جوازه قبل تبين الامر

فلا دلالة للاستثناء عليه قطعا وتوجيهه الاستثناء الى العدة بالاستغفار لا الى نفس الاستغفار بقوله واغفر لابي الا يهلا يناسبه
الحاملة له عليه السلام عليه وتخصيص تلك العدة بالذكر دون ما وقع هنا للورودها على نهج التأكيد القسمي وأما جعل الاستغفار اثرا
عليها وترتب الخبر وعلى تبين الامر فقد مر تحقيقه في تفسير سورة التوبة وقوله ٦١٩ (انه كان بي حفيا) أي بليغا في البر والالطاف
تعليل لمضمون ماقبله (وأعتزلكم) أي أتباعد عنك وعن قومك (وما تدعون من دون الله) بالمهاجرة بديني حيث لم تؤثر فيكم نصائحي (وأدعو ربي) أعبده وحده وقد جوز أن يراد به دعاؤه المذكور في تفسير سورة الشعراء ولا يبعد أن يراد به استدعاء الولد أيضا بقوله رب هب لي من الصالحين حسبما يساعده السياق والسياق (عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا) أي خائبا ضائع السعي وفيه تعريض بشقائهم في عبادة آلهتهم وفي تصدير الكلام بعسى من اظهار التواضع ومراعاة حسن الادب والتنبيه على حقيقة الحق من أن الاجابة والاثابة بطريق التفضل منه عز وجل لا بطريق الوجوب وأن العبرة بالخاتمة وذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير مالا يخفى (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله) بالمهاجرة الى الشام (وهبنا له اسحق ويعقوب) بدل من فارقهم من أقربائه الكفرة لكن لا عقيب المهاجرة فان المشهور أن الموهوب حينئذ اسمعيل عليه السلام لقوله تعالى فبشرناه بغلام حليم اثر دعائه بقوله رب هب لي من الصالحين ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله ههنا لبيان كمال عظم النعم التي أعطاها الله تعالى اياه عقابلة من اعتزلهم من الأهل والاقرباء فانهما شجرتا الانبياء لهما أولاد وأحفاد أولو شأن خطير وذوو عدد كثير هذا وقد روي انه عليه

حيث عرفوه وكما ينبغي بصفات الجلال ونعوت الكمال والله يعلم حالهم في الدنيا فاحسن اليهم بالرحمة كما قال تعالى هو الذي يصلي عليكم وقال وكان بالمؤمنين رحيما والمتعارفان اذا اتقيا وكان أحدهما شقيا بالآخر والآخر معظما له غاية التعظيم لا يتحقق بينهما الا السلام وأنواع الاكرام * ثم قال تعالى ﴿ يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ﴾ قد ذكرنا أن السورة فيها تأديب للنبي عليه السلام من ربه فقوله في ابتدائها يا أيها النبي اتق الله اشارة الى ما ينبغي أن يكون عليه مع ربه وقوله يا أيها النبي قل لازواجك اشارة الى ما ينبغي أن يكون عليه مع أهله وقوله يا أيها النبي انا أرسلناك اشارة الى ما ينبغي أن يكون عليه مع عامة الخلق * وقوله تعالى شاهدا يحتمل وجوها (أحدها) انه شاهد على الخلق يوم القيامة كما قال تعالى ويكون الرسول عليكم شهيدا وعلى هذا فالنبي بعث شاهدا أي متحملا للشهادة ويكون في الآخرة شهيدا أي مؤديا لما تحمله (ثانيها) انه شاهد أن لا اله الا الله (وعلى هذا الطيفي) وهو ان الله جعل النبي شاهد أعلى الوحدانية والشاهد لا يكون مدعيا فالله تعالى لم يجعل النبي في مسئلة الوحدانية مدعيا لها لان المدعي من يقول شيأ على خلاف الظاهر والوحدانية أظهر من الشمس والنبي عليه السلام كان ادعى النبوة جعل الله نفسه شاهدا له في مجازاة كونه شاهدا لله فقال تعالى والله يشهد انك لرسوله (وثالثها) انه شاهد في الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط وشاهد في الآخرة بأحوال الدنيا بالطاعة والمعصية والصلاح والفساد وقوله ومبشرا ونذيرا وداعيا فيه ترتيب حسن وذلك من حيث ان النبي عليه السلام أرسل شاهدا يقول لا اله الا الله ويرغب في ذلك بالبشارة فان لم يكف ذلك يرهب بالانذار ثم لا يكتفي بقولهم لا اله الا الله بل يدعوهم الى سبيل الله كما قال تعالى ادع الى سبيل ربك وقوله وسراجا منيرا أي مبرهنا على ما يقول مظهرا له باوضح الحجج وهو المراد بقوله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿ وفيه لطائف * احداها ﴾ قوله تعالى وداعيا الى الله باذنه حيث لم يقل وشاهدا باذنه ومبشرا باذنه وعند الدعاء قال وداعيا باذنه وذلك لان من يقول عن ملك انه ملك الدنيا لا غير لا يحتاج فيه الى اذن منه فانه وصفه بما فيه وكذلك اذا قال من يطيعه يسعد ومن يعصيه يشقى يكون مبشرا ونذيرا ولا يحتاج الى اذن من الملك في ذلك وأما اذا قال تعالوا الى سماطه واحضروا على خوانه يحتاج فيه الى اذنه فقال تعالى وداعيا الى الله باذنه ووجه آخر وهو أن النبي يقول اني أدعو الى الله والولي يدعو الى الله والاول لا اذن له فيه من أحد والثاني مأذون من جهة النبي عليه السلام كما قال تعالى قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وقال عليه الصلاة والسلام رحم الله عبدا سمع مقالتي فأداها كما سمعها والنبي عليه السلام هو المأذون من الله في الدعاء اليه من غير واسطة ﴿ الليفة الثانية ﴾ قال في حق النبي عليه السلام سراجا ولم يقل انه شمس مع انها أشد اضاءة من السراج لفوائد منها أن الشمس نورها لا يؤخذ منه شئ والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة فاذا انطفأ الاول يبقى الذي أخذ منه وكذلك ان غاب والنبي عليه السلام كان كذلك اذ كل صحابي أخذ منه نورا للهداية كما قال عليه السلام أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم * وفي الخبر لطيفة وان كانت ليست من التفسير ولكن الكلام يجر الكلام وهي ان النبي عليه السلام لم يجعل أصحابه كالسرج وجعلهم كالنجوم لان النجم لا يؤخذ منه نور بل له في نفسه نور اذا خرب هو لا يبقى نور مستفاد منه وكذلك الصحابي اذا مات فالتابعي يستنير بنور النبي عليه السلام ولا يأخذ منه الا قول النبي عليه السلام وفعله فانوار المجتهدين كلهم من النبي عليه السلام ولو جعلهم كالسرج والنبي عليه السلام أيضا سراج كان للمجتهد أن يستنير من اراد منهم و يأخذ النور من اختار وليس كذلك فان مع نص النبي عليه السلام لا يعمل بقول الصحابي فيترك خذ

السلام لما قصد الشام أتى أولا حران وتزوج سارة وولدت له اسحق وولد لاسحق يعقوب والاول هو الاقرب الاظهر (وكلا) أى كل واحد منهما أو منهم وهو مفعول أول لقوله تعالى (جعلنا نبيا) قدم عليه للتخصيص لكن لا بالنسبة الى من عداهم بل بالنسبة الى بعضهم أى كل واحد منهم جعلناه نبيا الا بعضهم ٦٢٠ دون بعض (ووهبنا لهم من رحمتنا) هى النبوة وذكرها بعد ذكر جعلهم نبيا للايذان

من النبي النور ولا يؤخذ من الصحابي فلم يجعله سراجا وهذا بين بحمد الله ضعفا في حديث سراج الامة والمحدثون ذكروه * وفي تفسير السراج بوجه آخر وهو ان المراد منه القرآن وتقديره انا أرسلناك وسراجا منيرا عطفا على محل الكاف أي أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وعلى قولنا انه عطف على مبشرا ونذيرا يكون معناه وذا سراج لان الحال لا يكون الا وصفا للفاعل أو المفعول والسراج ليس وصفا للنبي عليه السلام يكون سراجا حقيقة أو يكون كقول القائل رأيته أسدا أي شجاعا فقوله سراجا أي هاديا مبينا كالسراج يرى الطريق وبين الامر ﴿وقوله تعالى ﴿وبشر المؤمنين﴾ عطف على مفهوم تقديره انا أرسلناك شاهدا ومبشرا فاشهد وبشر ولم يذكر فاشهد للاستغناء عنه وأما البشارة فانها ذكرت بانها للكرم ولانها غير واجبة لولا الامر ﴿وقوله تعالى ﴿بأن لهم من الله فضلا كبيرا﴾ هو مثل قوله وأعدلهم أجرا عظيما فالعظيم والكبير متقاربان وكونه من الله كبير فكيف اذا كان مع ذلك كبارة أخرى ﴿وقوله تعالى ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ اشارة الى الانذار بمعنى خالفهم ورد عليهم وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ودع أذاهم﴾ أى دعهم في أذاهم ﴿وقوله تعالى ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ أى الله كاف عبده قال بعض المعتزلة لا يجوز تسمية الله بالوكيل لان الوكيل أدون من الموكل وقوله تعالى وكفى بالله وكيلا حجة عليه وشبهته واهية من حيث ان الوكيل قد يتوكل للدفع وقد يوكل للعجز والله وكيل عباده لعجزهم عن التصرف وقوله تعالى وكفى بالله وكيلا يتبين اذا نظرت في الامور التي لا حيلة الا بكفى الوكيل الواحد منها أن لا يكون قويا قادرا على العمل كالملك الكثير الاشغال يحتاج الى وكلاء لعجز الواحد عن القيام بجميع أشغاله ومنها أن لا يكون عالما فيه التوكيل ومنها أن لا يكون غنيا والله تعالى عالم قادر غير محتاج فيكفى وكيلا ﴿ثم قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا﴾ وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان الله تعالى في هذه السورة ذكر مكارم الاخلاق وأدب نبيه على ما ذكرناه لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر به نبيه المرسل فكما اذ كر النبي مكرمة وعلمه أدبا ذكر للمؤمنين ما يناسبه فكما بدأ الله في تأديب النبي عليه الصلاة والسلام بذكر ما يتعلق بجانب الله بقوله يا أيها النبي اتق الله وثنى بما يتعلق بجانب من تحت يده من أزواجه بقوله بعد يا أيها النبي قل لأزواجك وثلث بما يتعلق بجانب العامة بقوله يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا كذلك بدأ في ارشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ثم ثنى بما يتعلق بجانب من تحت أيديهم بقوله يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم كما ثلث في تأديب النبي بجانب الامة ثلث في حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيهم فقال بعد هذا يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي وبقوله يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وفي الآية مسائل ﴿احداها﴾ اذا كان الامر على ما ذكرت من أن هذا ارشاد الى ما يتعلق بجانب من هو من خواص المرء فلم خص المطلقات اللاتي طلقن قبل المسيس بالذكر فنقول هذا ارشاد الى أعلى درجات المكرمات ليعلم منها ما دونها وبيانه هو ان المرأة اذا طلقت قبل المسيس لم يحصل بينهما تأكد العهد بدليل انه قال الله تعالى في حق المدخول بها وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا واذا أمر الله بالتمتع والاحسان مع من لا مودة بينه وبينها فما ظنك بمن حصلت المودة بالنسبة اليها بالاقضاء وحصل تأكدها بحصول الولد بينهما والقرآن في الحجم صغير ولكن لو استنبطت معانيه لاتى بها الاقلام ولا تكفي لها الاوراق وهذا مثل قوله تعالى فلا تقل لهما أف لو قال لا تضربهما أو لا تشتمهما ظن أنه حرام لمعنى مختص بالضرب أو الشتم اما

بانها من باب الرحمة وقيل هي المال والاولاد وما بسط لهم من سعة الرزق وقيل هو الكتاب والاظهر انها عامة لكل خير ديني ودنيوي أوتوه عالم يؤته أحد من العالمين (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) يفتخر بهم الناس ويثنون عليهم استجابة لدعوته بقوله واجعل لي لسان صدق في الآخرين والمراد باللسان ما يوجد به من الكلام ولسان العرب لغتهم واضافته الى الصدق ووصفه بالعلو للدلالة على انهم أحقاء بما يثنون عليهم وأن محامدهم لا تخفى على تعاقب الاعصار وتبدل الدول وتحول الملل والنحل (واذكر في الكتاب موسى) قدم ذكره على ذكر اسمعيل لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب عليهما السلام (انه كان مخلصا) موحدا أخلص عبادته عن الشرك والرياء أو أسلم وجهه لله تعالى وأخلص نفسه عما سواه وقرئ مخلص اعلى ان الله تعالى أخلصه (وكان رسولا نبيا) أرسله الله تعالى الى الملق فأنبأهم عنه ولذلك قدم رسولا مع كونه أخص وأعلى (وناديناه من جانب الطور الايمن) الطور اذا جبل بين مصر ومدين والايمن صفة للجانب أي ناديناه من ناحيته اليمنى من اليمين وهي التي تلي يمين موسى عليه السلام أو من جانبه الميمون من اليمن ومعنى ندائه منه انه تمثل له الكلام من تلك الجهة (وقربناه نجيا) تقريب تشريف مثل حاله عليه السلام بحال من

قربه الملك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته ونجيا أي مناجيا حال من أحد الضميرين في ناديناه أو قربناه وقيل مرتفعا لما روي أنه عاش بعد السلام رفع فوق السموات حتى سمع صريف القلم (ووهبنا له من رحمتنا) أي من أجل رحمتنا وأفضالنا أو بعض رحمتنا (أخاه) أي معاضدة أخيه وموازرته اجابة لدعوته بقوله واجعل لي وزيرا من أهلي هرون أخي لانه كان أكبر منه عليهما السلام

اذا قال لا تقل لها أف علم منه معان كثيرة وكذلك ههنا لما أمر بالاحسان مع لا مودة مع ما علم منه الاحسان مع المسوسة ومن لم تطلق بعد ومن ولدت عنده منه وقوله اذا نكحتم المؤمنات التخصيص بالذكر ارشاد الى ان المؤمن ينبغي أن ينكح المؤمنة فانها أشد تحصنا لدينه وقوله ثم طلقتموهن عكس التمسك به في ان تعليق الطلاق بالنكاح لا يصح لان التطليق حينئذ لا يكون الا بعد النكاح والله تعالى ذكره وكلمة ثم وهي لتراخي قوله فما لكم عليهن من عدة بين ان العدة حق الزوج فيها غالب وان كان لا يسقط باسقاطها لما فيه من حق الله تعالى وقوله تعتدونها أي تستوفون أنتم عددها فتعتدوهن من قبل بأنه مختص بالمفوضة التي لم يسم لها اذ طلقت قبل المسيس وجب لها المتعة وقيل بانه عام وعلى هذا فهو أمر وجوب أو أمر ندب اختلف العلماء فيه فمنهم من قال للوجوب فيجب مع نصف المهر المتعة أيضا ومنهم من قال للاستحباب فيستحب أن يمتعها مع الصداق بشيء وقوله تعالى وسرحوهن سراحا جميلا الجمال في التسريح أن لا يطالبها بما آتاها ﴿ ثم قال تعالى ﴿ يا أيها النبي انا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي ان أراد النبي ان يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما ﴾ ذكر للنبي عليه السلام ما هو الاولى فان الزوجة التي أوتيت مهورها أطيب قلبا من التي لم تؤت والمفوضة التي سباها الرجل بنفسه أطهر من التي اشتراها الرجل لانها لا يدري كيف حالها ومن هاجرت من أقارب النبي عليه السلام معه أشرف ممن لم تهاجر ومن الناس من قال بان النبي عليه الصلاة السلام كان يجب عليه اعطاء المهر أولا وذلك لان المرأة لها الامتناع الى أن تأخذ مهرها والنبي عليه السلام ما كان يستوفي مالا يجب له والوطء قبل إيتاء الصداق غير مستحق وان كان حلالا لنا وكيف والنبي عليه السلام اذا طاب شيأ حرم الامتناع على المطلب والظاهر أن الطالب في المرة الاولى انما يكون هو الرجل لحياء المرأة فلو طلب النبي عليه السلام من المرأة التمكين قبل المهر لزم أن يجب وأن لا يجب وهذا محال ولا كذلك أحدنا وقال ويؤكد هذا قوله تعالى وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي يعني حينئذ لا يبقى لها صداق فتصير كالمستوفية مهرها وقوله تعالى ان أراد النبي أن يستنكحها اشارة الى أن هبتها نفسها لا بد منها من قبول وقوله تعالى خالصة لك من دون المؤمنين قال الشافعي رضي الله عنه معناه باحة الوطء بالهبة وحصول التزوج بلفظها من خواصك وقال أبو حنيفة تلك المرأة صارت خالصة لك زوجة ومن أمهات المؤمنين لا تحل لغيرك أبدا والترجيح يمكن ان يقال بأن على هذا التخصيص بالوامهة لا فائدة فيه فان أزواجه كلهن خالصات له وعلى ما ذكرنا يتبين للتخصيص فائدة وقوله قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم معناه ان ما ذكرنا فرضناه وحكمنا مع نسائك وأما حكم أمتك فعندنا علمه ونبينه لهم وانما ذكر هذا للا يحمل واحد من المؤمنين نفسه على ما كان للنبي عليه الصلاة والسلام فان له في النكاح خصائص ليست لغيره وكذلك في السراري وقوله تعالى لكيلا يكون عليك حرج أي تكون في فسحة من الامر فلا يبقى لك شغل قلب فينزل الروح الامين بالآيات على قلبك الفارغ وتبلغ رسالات ربك بجدك واجتهادك وقوله تعالى وكان الله غفورا رحيما يغفر الذنوب جميعا ويرحم العبيد ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ترجي من تشاء منهن وتؤوي اليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾ لما بين انه أحل له ما ذكر من الازواج بين أنه أحل له وجوه المعاشرة بهن حتى يجتمع كيف يشاء ولا يجب عليه القسم وذلك لان النبي عليه السلام بالنسبة الى أمته نسبة

وهو على الاول مفعول لهبنا وعلى الثاني بدل وقوله تعالى (هرون) عطف بيان له وقوله تعالى (نبيا) حال منه (واذكر في الكتاب اسمعيل) فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه لابراز كمال الاعتناء بأمره بايراده مستقلا وقوله تعالى (انه كان صادق الوعد) تعليل لموجب الامر وايراده عليه السلام بهذا الوصف لكمال شهرته به وناهيك انه وعد السبر على الذبح بقوله ستجدني ان شاء الله من الصابرين فوفى (وكان رسولا نبيا) فيه دلالة على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة فان أولاد ابراهيم عليه السلام كانوا على شريعته (وكان يأمر أهله بالصلوة والزكوة) أشتغالا بالاهم وهو أن يقبل الرجل بالتكميل على نفسه ومن هو أقرب الناس اليه قال تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين وأمر أهلك بالصلوة قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقصد الى تكميل الكل بتكميلهم

لانهم قدوة يؤتسى بهم وقيل أهل أمته فان الانبياء عليهم السلام آباء الامم (وكان عند ربه مرضيا) لاتصافه بالنعوت الجليلة التي من جملتها ما ذكره من خصاله الحميدة (واذكر في الكتاب ادريس) وهو سبط شيث وجد أبي نوح فانه نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو ادريس عليه السلام واشتقاقه من الدرس يرده منع صرفه نعم لا يبعد أن يكون معنا في تلك اللغة قريبا مما ذلك فاقرب به الكثرة

كراسته روى انه تعالى انزل عليه ثلاثين صحيفة وانه أول من خط بالقلم ونظر فى علم النجوم والحساب (انه كان صديقا) ملازما للصدق فى جميع أحواله (نبيا) خبيرا آخر لكان مخصص للاول اذ ليس كل صديق نبيا (ورفعناه مكانا عليا) هو شرف النبوة والزلفى عند الله عز وجل وقيل علو الرتبة بالذكر الجميل ٦٢٢ فى الدنيا كما فى قوله تعالى ورفعنا لك ذكرك وقيل الجنة وقيل السماء السادسة أو الرابعة

السيد المطاع والرجل وان لم يملك نبيا فالزوجة فى ملك نكاحه والنكاح عليها رق فكيف زوجات النبى عليه السلام بالنسبة اليه فاذن من كالمملوكات له ولا يحسب القسم بين المملوكات والارجاء التأخير والايواء الضم ومن ابتغيت ممن عزلت يعنى اذا طلبت من كنت تركتهن فلا جناح عليك فى شئ من ذلك ومن قال بان القسم كان واجبا فمع انه ضعيف بالنسبة الى المفهوم من الآية قال المراد ترجى من تشاء أى تؤخر هن اذا شئت اذ لا يجب القسم فى الاول والزوج أن لا ينام عند أحد منهن وان ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك فايواء أيهن شئت وضم الدور والاول أقوى ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن﴾ يعنى اذا لم يجب عليك القسم وأنت لا تترك القسم تقر أعينهن بتسويتك بينهن ولا يحزن بخلاف ما لو وجب عليك ذلك فلربما تكون عند أحدهن تقول ما جاءنى لهوى قلبه انما جاءنى لامر الله واجابته عليه ويرضين بما آتيته من الارجاء والايواء اذ ليس لهن عليك شئ حتى لا يرضين ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليما حليما﴾ أى ان أضمرن خلاف ما أظهرن فالله يعلم ضمائر القلوب فانه عليم فان لم يعاجلهن فى الحال فلا يغترون فانه حليم لا يعجل ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿لا تحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن﴾ لما لم يوجب الله على نبيه القسم وأمره بتخييرهن فاخترن الله ورسوله ذكر لهن ما جازاهن به من تحريم غيرهن على النبى عليه السلام ومنعه من طلاقهن بقوله ولا أن تبدل بهن وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله لا تحل لك النساء من بعد قال المفسرون من بعدهن والاولى ان يقال لا تحل لك النساء من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما يؤتيهن من الوصل والهجران والنقص والحرمان ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله ولا أن تبدل بهن يفيد حرمة طلاقهن اذ لو كان جائزا لجاز أن يطلق الكل ويعدهن اما أن يتزوج بغيرهن أو لا يتزوج فان لم يتزوج يدخل فى زمرة العزاب والنكاح فضيلة لا يتركها النبى وكيف وهو يقول النكاح سنتى وان تزوج بغيرهن يكون قد تبدل بهن وهو ممنوع من التبدل ﴿المسئلة الثالثة﴾ من المفسرين من قال بان الآية ليس فيها تحريم غيرهن ولا المنع من طلاقهن بل المعنى أن لا يحل لك النساء غير اللاتى ذكرناك من المؤمنات المهاجرات من بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك وأما غيرهن من الكتابيات فلا يحل لك التزوج بهن وقوله ولا أن تبدل بهن تمنع من شغل الجاهلية فانهم كانوا يبادلون زوجة بزوجة فينزل أحدهم عن زوجته ويأخذ زوجة صديقه ويعطيه زوجته وعلى التفسيرين وقع خلاف فى مسئلتين احداهما حرمة طلاق زوجاته والثانية حرمة تزوجه بالكتابيات فمن فسر على الاول حرم الطلاق ومن فسر على الثانى حرم التزوج بالكتابيات ﴿المسئلة الرابعة﴾ قوله ولو أعجبك حسنهن أى حسن النساء قال الزمخشرى قوله ولو أعجبك فى معنى المحال ولا يجوز أن يكون ذو المحال قوله من أزواج لغاية التنكير فيه ولكون ذى المحال لا يحسن أن يكون نكرة فاذن هو النبى عليه السلام يعنى لا تحل لك النساء ولا أن تبدل بهن من أزواج وأنت معجب بحسنهن ﴿المسئلة الخامسة﴾ ظاهر هذه الآية كان قد ثبت له عليه السلام من انه اذا رأى واحدة فوقعت فى قلبه موقعا كانت تحرم على الزوج ويجب عليه طلاقها وهذه المسئلة حكمية وهى ان النبى عليه السلام وسائر الانبياء فى أول النبوة تشتد عليهم ارجاء الوحى ثم يستأنسون به فينزل عليهم وهم يتحدثون مع أصحابهم لا يمنعهم من ذلك مانع ففى أول الامر أحل الله من وقع فى قلبه تفريغا لقلبه وتوسيعا لصدره لئلا يكون مشغول القلب بغير الله ثم لما استأنس بالوحى وبمن على لسانه الوحى نسخ ذلك اما لقوته عليه السلام للجمع بين الامرين واما انه بدوام الانزال لم يبق له مألوف من أمور الدنيا فلم يبق له التفات الى غير

الله (ومن حملنا مع نوح) أى ومن ذرية من حملنا معه خصوصا وهم من عدا ادريس عليه السلام فان ابراهيم كان من ذرية سام بن نوح (ومن ذرية ابراهيم) وهم الباقون (واسرائيل) عطف على ابراهيم أى ومن ذرية اسرائيل وكان منهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى

وروى عن كعب وغيره فى سبب رفعه ادريس عليه السلام انه سئل ذات يوم فى حاجة فأصابه وهج الشمس فقال يارب انى قد مشيت فيها يوما وقد أصابنى منها ما أصابنى فكيف من يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف فقال يارب ما الذى تغيرت فيه قال ان عبدى ادريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرها فاجبته قال يارب اجعل بينى وبينه خلة فاذن الله تعالى له فرفعه الى السماء

عليهم السلام وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية (ومن هدينا واجتبينا) أي ومن جملة من هديناهم الى الحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة وقوله تعالى (اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) خبر لأولئك ويجوز أن يكون الخبر هو والموصول وهذا استئناف مسوق لبيان خيبتهم من الله تعالى واخباتهم له مع مالهم من علو الرتبة وسمو الطبقة في شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله عز سلطانه وسجدا وبكيا حالان من ضمير خروا أي ساجدين باكين عن النبي صلى الله عليه وسلم اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا والبكي جمع باك كالسجد جمع ساجد وأصله بكوى فاجتمعت الواو والياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء وحركت الكاف بالكسر لمجانسة الياء وقرئ بتبكى بالفوقانية لان التأنيث غير حقيقي وقرئ بكيا بكسر الباء للاتباع قالوا ينبغي أن يدعو الساجد في سجدته بما يليق بآيتها فههنا يقول اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهديين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك وفي آية الاسراء يقول اللهم اجعلني من الباكين لك الخاشعين لك وفي آية تنزيل السجدة يقول اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك من أن أكون من المستكبرين عن أمرك (خلف من بعدهم خلف) يقال لمقب الخير خلف بفتح اللام ولعقب الشر خلف بالسكون أي فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء (أضاعوا الصلاة) وقرئ الصلوات أي تركوها أو أخروها عن وقتها (واتبعوا الشهوات) من شرب الخمر واستحلال نكاح الأخت من الأب والانهماك في فنون المعاصي وعن علي رضي الله عنه هم من بني المشيد وركب المنظور ولبس المشهور (فسوف يلقون غيا) أي شرا فان كل شر عند العرب

الله فلم يبق له حاجة الى احلال الترويج بمن وقع بصره عليها ﴿المسئلة السادسة﴾ اختلف العلماء في أن تحريم النساء عليه هل نسخ أم لا فقال الشافعي نسخ وقد قالت عائشة ما مات النبي الا وأحل له النساء وعلى هذا فالناسخ قوله يا أيها النبي انا أحللنا لك أزواجك الى أن قال وبنات عمك وقال وامرأة مؤمنة على قول من يقول لا يجوز نسخ الكتاب بخبر الواحد اذا لناسخ غير متواتر ان كان خبرا ﴿ثم قال تعالى ﴿الا ما ملكت يمينك﴾ لم يحرم عليه المملوكات لان الابداء لا يحصل بالمملوكة ولهذا لم يجز للرجل أن يجمع بين ضرتين في بيت لحصول التسوية بينهما وامكان المخاصمة ويجوز أن يجمع الزوجة وجماعة من المملوكات لعدم تساوي بينهن ولهذا أقسم لهن على أحد ﴿ثم قال تعالى ﴿وكان الله على كل شئ رقيبا﴾ أي حافظا عالما بكل شئ قادرا عليه لان الحفظ لا يحصل الا بهما ﴿ثم قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه﴾ لما ذكر الله تعالى في المسئلة الثالث يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا بينا الحال له مع أمته العامة قال للمؤمنين في هذا النداء لا تدخلوا لارشادهم وبيانا لحالهم مع النبي عليه السلام من الاحترام ثم ان حال الامة مع النبي على وجهين (أحدهما) في حال الخلوة والواجب هناك عدم ازعاجه وبين ذلك بقوله لا تدخلوا بيوت النبي (وثانيهما) في الملا والواجب هناك اظهار التعظيم كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما وقوله الى طعام غير ناظرين اناه أي لا تدخلوا بيوت النبي الى طعام الا أن يؤذن لكم ﴿ثم قال تعالى ﴿ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ان ذلكم كان عند الله عظيما﴾ لما بين من حال النبي الداعي الى الله بقوله وداعيا الى الله قال ههنا لا تدخلوا الا اذا دعيتم يعني كما انكم ما دخلتم الدين الا بدعائه فكذلك لا تدخلوا عليه الا بعد دعائه وقوله غير ناظرين منصوب على الحال والعامل فيه على ما قاله الزمخشري لا تدخلوا قال وتقديره لا تدخلوا بيوت النبي الا مأذونين غير ناظرين وفي الآية مسائل ﴿الاولى﴾ قوله الا أن يؤذن لكم الى طعام أما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره ولا تدخلوا الى طعام الا أن يؤذن لكم فلا يكون منعا من الدخول في غير وقت الطعام بغير الاذن واما أن لا يكون فيه تقديم وتأخير فيكون معناه ولا تدخلوا الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين الاذن مشروطا بكونه الى الطعام فان لم يؤذن لكم الى طعام فلا يجوز الدخول فلو أذن لواحد في الدخول لا ستماع كلام لا لأكل طعام لا يجوز نقول المراد هو الثاني لسبق النهي عن الدخول، وأما قوله فلا يجوز الا باذن الذي الى طعام نقول قال الزمخشري الخطاب مع قوم كانوا يجيئون حين الطعام ويدخلون من غير اذن فنهوا عن الدخول في وقته بغير اذن والاولى أن يقال المراد هو الثاني لان التقديم والتأخير خلاف الاصل وقوله الى طعام من باب التخصيص بالذكر فلا يدل على نفي ما عداه لا سيما اذا علم أن غير ممتنع فان من جاز يتحول بيته بأدنى الى طعامه جاز دخوله الى غير طعامه بأدنى فان غير الطعام ممكن وجوده مع الطعام فان من الجائز أن يتكلم معه وقت ما يدعوه الى طعام ويستقضيه في حوائجه ولم يعلم ما عنده من العلوم مع زيادة الاطعام فاذا رضي بالكل فرضاه بالبعض أقرب الى الفعل فيصير من باب لا تقل لهما أف وقوله غير ناظرين يعني أنتم لا تنتظرون وقت الطعام فانه ربما لا يتهيأ ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله تعالى ولكن اذا دعيتم فادخلوا فيه لطيفة وهي أن في العادة اذا قيل لمن كان يعتاد دخول داره من غير اذن لا تدخلها الا باذن يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلا ولا بالدعاء فقال

غي وكل خير رشاد كقوله فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ومن يغو لا يعدم على الغي لائما وعن الضلال جزاء غي كقوله تعالى يلق أثاما أي جزاء أثام أو غيا عن طريق الجنة وقيل غي وادٍ في جهنم تستعيذ منه أودية جهنم أو قوله تعالى (الا من تاب وآمن وعمل صالحا) يدل على أن الآية في حق الكفرة ٦٢٤ (فأولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا أي فأولئك الممنوعون بالتوبة والايمان والعمل الصالح (يدخلون الجنة) بموجب الوعد المحتوم وقرئ يدخلون على البناء للمفعول (ولا يظلمون شيئا) أي لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيأ ولا ينقصون شيأ من النفس وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لا يضرهم ولا ينقص أجورهم (جنات عدن) بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها وما بينهما اعتراض أو نصب على المدح وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أي هي أو تلك جنات الخ أو مبتدأ أخبره الاتي وعدن الخ وقرئ جنة عدن نصبا ورفعا وعدن علم لمعنى العدن وهو الاقامة كأن فيئة وسحر وأمس فيمن لم يصرفها أعلام لمعاني الفيئة وهي الساعة التي أنت فيها والسحر والامس يجري لذلك مجرى العدن أو هو علم لارض الجنة خاصة ولو لا ذلك لما ساغ ابدال ما أضيف اليه من الجنة بلا وصف عن غير البشر بين ولا وصفه بقوله تعالى (التي وعد الرحمن عباده) وجعله بدلا منه خلاف على الظاهر فان الموصول في حكم المشتق وقد نصوا على أن البدل بالمشتق ضعيف والتعرض لعنوان الرحمة للايذان بأن وعدها انجاز لكمال سعة رحمته تعالى والباء في قوله تعالى (بالغيب) متعلقة بمضمر هو حال من الضمير العائد الى الجنات أو من عباده أي وعدها اياهم

لا تفعلوا مثل ما يفعله المستكفون بل كونوا طائفين سامعين اذا قيل لكم لا تدخلوا الا تدخلوا واذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا * روى انا قيل وقته وقيل استواؤه وقوله الا أن يؤذن بقيد الجواز وقوله ولكن اذا دعيتم فادخلوا يفيد الوجوب فقوله ولكن اذا دعيتم ليس تأكيدا بل هو يفيد فائدة جديدة (المسئلة الثالثة) لا يشترط في الاذن النصريح به بل اذا حصل العلم بالرضا جاز الدخول ولهذا قال الا أن يؤذن من غير بيان فاعلم فالاذن ان كان الله أو النبي أو العقل المؤيد بالدليل جاز والنقل دال عليه حيث قال تعالى أو صديقكم وجد الصداقة لما ذكرنا فلو جاء أبو بكر وعلم أن لا مانع في بيت عائشة من بيوت النبي عليه الصلاة والسلام من تكشف أو حضور غير محرم عندها وأعلم خلو الدار من الاهل أو هي محتاجة الى اطفاء حريق فيها أو غير ذلك جاز الدخول (المسئلة الرابعة) قوله فاذا طعمتم فانتشروا كان بعض الصحابة أطال المكث يوما عند النبي عليه الصلاة والسلام في عرس زينب والنبي عليه الصلاة والسلام لم يقل له شيأ فوردت الآية جامعة لآداب منع المنع من اطالة المكث في بيوت الناس وفي معنى البيت موضع مباح اختاره شخص لعبادته أو اشتغاله بشغل فيأتيه أحد ويطيل المكث عنده وقوله ولا مستأنسين لحديث قال الزمخشري هو عطف على غير ناظرين مجرور ويحتمل أن يكون منصوبا عطفا على المعنى فان معنى قوله تعالى لا تدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم لا تدخلوها جامعين فعطف عليه ولا مستأنسين ثم ان الله تعالى بين كون ذلك أدبا وكون النبي حليما بقوله ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق (اشارة الى أن ذلك حق وأدب وقوله كان اشارة الى تحمل النبي عليه الصلاة والسلام ثم ذكر الله أدبا آخر وهو قوله واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب لما منع الله الناس من دخول بيوت النبي عليه الصلاة والسلام وكان في ذلك تعذر الوصول الى الماعون بين ان ذلك غير ممنوع منه فليسأل وليطلب من وراء حجاب وقوله ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن يعني العير ونزوا لقلب فاذا لم ترالعين لا يشتهي القلب اما ان رأت العين فقد يشتهي القلب وقد لا يشتهي فان قلب عند عدم الرؤية أطهر وعدم الفتنة حينئذ أظهر ثم ان الله تعالى لما علم المؤمنين الادب أكده بما يحملهم على مخالفته فقال وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله وكل ما منعتم عنه مؤذ فامتنعوا عنه وقوله تعالى ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا قيل سبب نزوله ان بعض الناس قيل هو طلحة ابن عبيد الله قال لئن مات محمد لا تزوجن عائشة وقد ذكرنا ان اللفظ العام لا يغيره عناء سبب النزول فان المراد ان ايذاء الرسول حرام والتعرض لنسائه في حياته ايذاء فلا يجوز ثم قال لا بل ذلك غير جائز مطلقا ثم أكده بقوله ان ذلكم كان عند الله عظيما أي ايذاء الرسول ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ان تبدوا شيأ أو تخفوه فان الله كان بكل شئ عليما﴾ يعني ان كنتم لا تؤذون ولا تعزمون على ايذائه أو نكاح أزواجه بعده فالله عليم بذات الصدور ﴿ثم ان الله تعالى لما أنزل الحجاب استثنى المحارم بقوله﴾ ﴿لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا ابناء اخوانهن ولا أبناء اخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن﴾ وفي الآية مسائل (الاولى) في الحجاب أوجب السؤال من وراء الحجاب على الرجال فلم يستثن الرجال عن الجناح ولم يقل لا جناح على آبائهن ونحوه فنقول قوله تعالى فاسألوهن من وراء حجاب أمر يسدل الستر عليهن وذلك لا يكون الا بكونهن مستورات محجوبات وكان الحجاب يوجب عليهن ثم أمر غير الرجال بتركهن كذلك ونهوا عن مثل أستارهن فاستثنين عند الآباء والابناء ﴿وفيه لطيفة﴾ وهي ان عند الحجاب أمر الله الرجل بالسؤال من وراء حجاب وبفهم منه كون المرأة محجوبة عن الرجل بالطريق الاولى وعند الاستثناء قال تعالى لا جناح عليهن عند رفع الحجاب عنهن فالرجال أولى بذلك ﴿المسئلة الثانية﴾ قدم الآباء لان اطلاعهم

ملتبسة أوملتبسين بالغيب أى غائبة عنهم غير حاضرة أوغائبين عنها لايرونها واغما آمنوا بها بمجرد الاخبار أو بعضهم وسبب للوعد أى وعدها اياهم بسبب ايمانهم (انه كان وعده) أى موعوده كائنا ما كان فيدخل فيه الجنات الموعود دخولا أوليا ولما كانت هى مشاية يرجع اليها قيل (مأتيا) أى يأتيه من وعده لامحالة بغير خلف وقيل هو مفعول ٦٢٥ بمعنى فاعل وقيل مأتيا أى مفعولا منجزا

من أتى اليه احسانا أى فعله (لايسمعون فيها لغوا) أى فضول كلام لاطائل تحته وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها وفيه تنبيه على أن اللغو مما ينبغى أن يجتنب عنه فى هذه الدار ما أمكن (الاسلاما) استثناء منقطع أى لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم أوتسليم بعضهم على بعض أومتصل بطريق التعليق بالمحال أى لايسمعون لغوا ما الاسلاما غيث استحال كون السلام لغوا استحال سماعهم له بالكلية كما فى قوله

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب

أوعلى أن معناه الدعاء بالسلامة وهم أغنياء عنه فهو من باب اللغو ظاهرا وانما فائدته الاكرام وقوله تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) وارد على عادة المتنعمين فى هذه الدار وقيل المراد دوام رزقهم ودوره والافليس فيها بكرة ولاعشى (تلك الجنة) مبتدأ وخبر جىء به

على بناتهم أكثر وكيف وهم قد رأوا جميع بنات البنات فى حال صغرهن ثم الابناء ثم الاخوة وذلك ظاهر انما الكلام فى بنى الاخوة حيث قدمهم الله تعالى على بنى الاخوات لان بنى الاخوات آباؤهم ليسوا بمحارم انما هم أزواج خالات أبنائهم وبنى الاخوة آباؤهم محارم أضافى بنى الاخوات مفسدة ما وهى ان الابن ربما يحكى خالته عند أبيه وهو وليس بمحرم ولا كذلك بنو الاخوة ﴿المسئلة الثالثة﴾ لم يذكر الله من المحارم الاعمام والاخوال فلم يقل ولا اعمامهن ولا اخوالهن لوجهين (أحدهما) ان ذلك علم من بنى الاخوة وبنى الاخوات لان من علم ان بنى الاخ للعمات محارم علم ان بنات الاخ للاعمام محارم وكذلك الحال فى أمر الخال (ثانيهما) ان الاعمام ربما يذكرون بنات الاخ عند أبنائهم وهم غير محارم وكذلك الحال فى ابن الخال ﴿المسئلة الرابعة﴾ ولا نسائهن مضافة الى المؤمنات حتى لايجوز التكشف للكافرات فى وجه ﴿المسئلة الخامسة﴾ ولا ماملكت أعمانهن هذا بعيد لان الكل فان المفسدة فى التكشف لهم ظاهرة ومن الائمة من قال المراد من كان دون البلوغ ثم قوله تعالى ﴿واتقين الله﴾ عند المالك دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور وقوله ﴿ان الله كان على كل شئ شهيدا﴾ فى غاية الحسن فى هذا الموضع وذلك لان ما سبق اشارة الى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم فقال ان الله شاهد عند اختلاء بعضكم ببعض فخلوتكم مثل ملائكم شهادة الله تعالى فاتقوا الله ثم قال تعالى ﴿ان الله وملائكته يصلون على النبى﴾ لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر الى وجوه نسائه اخبارا ما كان بيان حرمته وذلك لان حالته متصورة فى اثنتين حالة خلوته وذكر مايدل على احترامه فى تلك الحالة بقوله لاتدخلوا بيوت النبى وحالة يكون فى ملاوالملأ اما الملأ الاعلى واما الملأ الادنى أما فى الملأ الاعلى فهو محترم فان الله وملائكته يصلون عليه وأما فى الملأ الادنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾ وفى الآية مسائل ﴿الاولى﴾ الصلاة الدعاء يقال فى اللغة صلى عليه أى دعا له وهذا المعنى غير معقول فى حق الله تعالى فانه لايدعو له لان الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث فقال الشافعى رضى الله عنه استعمل اللفظ بمعان وقد تقدم فى تفسير قوله هو الذى يصلى عليكم وملائكته والذى نزيده ههنا هو أن الله تعالى قال هناك هو الذى يصلى عليكم وملائكته بصيغة الجمع وعطف الملائكة على الله وههنا جمع نفسه وملائكته وأسند الصلاة اليهم فقال يصلون وفيه تعظيم النبى عليه الصلاة والسلام وهذا الأن أفراد الواحد بالذكر وعطف الخبر عليه يوجب تفضيلا للذكور على المعطوف كما ان الملك اذا قال يدخل فلان وفلان أيضا فهم منه تقديم لايفهم لوقال فلان وفلان يدخلان اذا علمت هذا فقال فى حق النبى عليه السلام انهم يصلون اشارة الى انه فى الصلاة على النبى عليه السلام كالاصل وفى الصلاة على المؤمنين الله يرحمهم ثم ان الملائكة توافقونهم فى الصلاة على النبى عليه السلام يصلون بالاضافة كأنها واجبة عليهم أومندوبة سواء صلى الله عليه أولم يصل وفى المؤمنين ليس كذلك ﴿المسئلة الثانية﴾ هذا دليل على مذهب الشافعى لان الامر للوجوب فيجب الصلاة على النبى عليه السلام ولايجب فى غير التشهد فيجب فى التشهد ﴿المسئلة الثالثة﴾ سئل النبى عليه السلام كيف نصلى عليك يارسول الله فقال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد ﴿المسئلة الرابعة﴾ اذا صلى الله وملائكته عليه فما حاجة الى صلاتنا نقول الصلاة عليه ليس لحاجته اليها ولا لاحاجة الى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه وانما هو لاظهار تعظيمه كما ان الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ولاحاجة له اليه وانما هو لاظهار تعظيمه منا شفقة علينا لانتفاعنا عليه ولهذا قال عليه السلام

(٧٩ - خازن س)

لتعظيم شأن الجنة وتعيين أهلها فان ما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها وعلو رتبتها (التى نورث) أى نورثها (من عبادنا من كان تقيا) أى نبقيها عليهم بتقواهم وتمنعهم بها كما نبقى على الوارث مال مورثه وتمنعه به والوراثة أقوى ما يستعمل فى التملك والاستحقاق من الالفاظ من حيث انها لاتعقب بفسخ ولا باسترجاع ولا ابطال وقيل يورث المتقون من الجنة

المساكن التي كانت لاهل النار لو آمنوا واطاعوا زيادة في كرامتهم وقرئ نورث بالتشديد (وما نتنزل الا بأمر ربك) حكاية لقول جبريل حين استبطأه رسول الله عليهما الصلاة والسلام لما سئل عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح فلم يدر كيف يجيب وجزما أن يوحى اليه فيه فأبطأ عليه اربعين يوما ٦٦ أو خمسة عشر فشق ذلك عليه مشقة شديدة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه ثم نزل ببيان

من صلى علي صلى الله عليه عشرا ﴿المسئلة الخامسة﴾ لم يترك الله النبي عليه السلام تحت منة أمته بالصلاة حتى عوضهم منه بأمره بالصلاة على الامة حيث قال وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم وقوله وسلموا تسليما أمر فيجب ولم يجب في غير الصلاة فيجب فيها وهو قولنا سلام عليك أيها النبي في التشهد وهو حجة على من قال بعدم وجوبه وذكر المصدر للتأكيد لكمال السلام عليه ولم يؤكد الصلاة بهذا التأكيد لانها كانت مؤكدة بقوله ان الله وملائكته يصلون على النبي ﷺ ثم قال تعالى ﴿ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا﴾ فصل الاشياء يتبين بعض اضدادها فبين حال مؤذي النبي (مبين فضيلة المسلم عليه واللعن أشد المحذورات لان البعد من الله لا يرجى معه خير بخلاف التعذيب بالنار وغيره ألا ترى ان الملك اذا تغيظ على مملوك ان كان تأديبه غير قوي يزجره ولا يطرده ولو خيرا لمجرم أن يضرب أو يطرد عند ما يكون الملك في غاية العظمة والكرم يختارا لضرب على الطرد ولا سيما اذا لم يكن في الدنيا ملك غير سيده وقوله في الدنيا والآخرة اشارة الى بعد الرجاء للقرب معه لان المبعد في الدنيا يرجو القربة في الآخرة فاذا أبعد في الآخرة فقد خاب وخسر لان الله اذا أبعده وطرده فمن الذي يقربه يوم القيامة ثم الله تعالى لم يحصر جزاءه في الابعاد بل أوعده بالعذاب بقوله وأعد لهم عذابا مهينا وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ذكر ايذاء الله وايذاء الرسول وذكر عقيبه أمرين اللعن والتعذيب فالمعنى جزاء ايذاء الله لان من آذى الملك يبعده عن بابه اذا كان لا يأمر بعذابه والتعذيب جزاء ايذاء الرسول لان الملك اذا آذى بعض عبيده كمبرسنوفي منه قصاصه لا يقال ذكر على هذا من يؤذي الله ولا يؤذي الرسول لا يعذب لانا نقول انفكاك أحدهما على هذا الوجه عن الآخر محال لان من آذى الله فقد آذى الرسول وأما على الوجه الآخر وهو ان من يؤذي النبي عليه السلام ولا يؤذي الله كمن عصى من غير اشراك كمن فسق أو فجر من غير ارتداد وكفر فقد آذى النبي عليه السلام غير ان الله تعالى صبور غفور رحيم فيجوز به بالعذاب ولا يلعنه بكونه يبعده عن الباب ﴿المسئلة الثانية﴾ أكد العذاب بكونه مهينا لان من تأذى من عبده وأمر بحبسه وضربه فان أمر بحبسه في موضع مميز أو أمر بضربه رجلا كبيرا يدل على أن الامرين وان أمر بضربه على ملاء وحبسه بين المفسدين ينفي عن شدة الامر فمن آذى الله ورسوله من المخلدين في النار فيعذب عذابا مهينا وقوله أعد لهم للتأكيد لان السيد اذا عذب عبده حالة الغضب من غير اعداد يكون دون ما اذا أعده قبل وقت فان الاول يمكن أن يقال هذا أثر الغضب فاذا سكت الغضب يزول ولا كذلك الثاني ثم قال تعالى ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا﴾ لما كان الله تعالى مصليا على نبيه لم ينفك ايذاء الله عن ايذائه فان من آذى الله فقد آذى الرسول فبين الله للمؤمنين انكم ان أتيتم بما أمرتكم وصليتم على النبي كما صليت عليه لا ينفك ايذاؤكم عن ايذاء الرسول فمأثم من يؤذيكم لكون ايذائكم ايذاء الرسول كمأثم ايذائي ايذاؤه وبالجملة لما حصلت الصلاة من الله والملائكة والرسول والمؤمنين صار لا يكاد ينفك ايذاء أحدهم عن ايذاء الآخر كما يكون حال الاصدقاء الصادقين في الصداقة وقوله بغير ما اكتسبوا احتراز عن الامر بالمعروف من غير عنف زائد فان من جلد مائة على شرب الخمر أو حد أربعين على لعب النرد آذى بغير ما كتسب أيضا ومن جلد على الزنا أو حد على الشرب لم يؤذ بغير ما اكتسب ويمكن ان يقال لم يؤذ أصلا لان ذلك اصلاح حال المضروب وقوله فقد احتملوا بهتانا الى هنا لزور وهو لا يكون الا في القول والايذاء قد يكون بغير القول فمن آذى مؤمنا بالضرب أو أخذ ماله لا يكون قد احتمل بهتانا فنقول المراد والذين يؤذون المؤمنين بالقول وهذا لان الله تعالى أراد اظهار شرف المؤمن فلما ذكر أن من

يعذب بطريق التصحيح والاستهجان ومانتنزل الجنة الا بأمر الله تعالى ولطفه وهو مالك الامور كلها سالفها ومترقبها وحاضرها فاوجدناه ومانجده من لطفه وفضله وقوله تعالى وما كان ربك نسيا تقرير لقولهم من جهة الله تعالى أي وما كان ناسيا لاعمال العاملين وما وعد هم من الثواب عليها وقوله تعالى (رب السموات والارض وما بينهما) بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى فان من

بيده ملكوت السموات والارض وما بينهما كيف يتصور أن يحوم حول ساحة سبحانه الغفلة والنسيان وهو خبير مبتدأ محذوف أو بدل من ربك والفاء في قوله تعالى (فاعبده واصطبر لعبادته) لترتيب ما بعدها من موجب الامرين على ما قبلها من كونه تعالى رب السموات والارض وما بينهما وقيل من كونه تعالى غير تارك له عليه الصلاة والسلام أو غير ناس ٦٢٧ لاعمال العاملين والمعنى حين عرفته تعالى بما ذكر من الربوبية الكاملة فاعبده الخ فان ايجاب معرفته تعالى كذلك لعبادته مما لا ريب فيه أو حين عرفت انه تعالى لا ينساك أولا ينسى اعمال العاملين كائنا من كان فأقبل على عبادته واصطبر على مشاقها ولا تحزن بابطاء الوحى وهزء الكفرة فانه يراقبك ويراعيك ويلطف بك في الدنيا والآخرة وتعديه الاصطبار باللام لا يحرف الاستعلاء كما في قوله تعالى واصطبر عليها لتضمنه معنى الثبات للعبادة فما ورد عليه من الشدائد والمشاق كقولك للمبارز اصطبر لقرنك أى اثبت له فما يورد عليك من شدائده (هل له تعلم له سميا) السمى هو الشريك في الاسم والظاهر ان مراده ههنا الشريك في اسم خاص قد عبر عنه تعالى بذلك وهو رب السموات والارض وما بينهما والمراد بانكار العلم ونفيه انكار المعلوم ونفيه على ابلغ وجه وآكده فالجملة تقرير لما أفاده الفاء من علية ربوبيته العامة لوجوب عبادته بل لوجوب تخصيصها به تعالى ببيان استقلاله عز وجل بذلك الاسم وانتفاء اطلاقه على الغير بالكلية حقا أو باطلا وقيل المراد هو الشريك في الاسم الجليل فان المشركين مع غلوهم في المكابرة لم يسموا الصنم بالجلالة أصلا وقيل هو الشريك في اسم الاله والمراد بالتسمية التسمية على الحق فالمعنى هل تعلم شيأ يسمى بالاستحقاق الها وأما التسمية على الباطل فهى كلا تسمية فتقرير

آذى الله ورسوله لعن وايذاء الله بان ينكر وجود الله بعد معرفة دلائل وجوده أو يشرك به من لا يبصر ولا يسمع أو من لا يقدر ولا يعلم أو من هو محتاج في وجوده الى موجده وهو قول ذكر ايذاء المؤمن بالقول وعلى هذا خص الايذاء القولى بالذكر لانه أعم وأتم وذلك لان الانسان لا يقدر ان يؤذى الله بما يؤلمه من ضرب أو أخذ مما يحتاج اليه فيؤذيه بالقول ولان الفقير الغائب لا يمكن ايذاؤه بالفعل ويمكن ايذاؤه بالقول بان يقول فيه ما يصل اليه فيتأذى (والوجه الثاني في الجواب) هو أن نقول قوله بعد ذلك وانما مبينا مستدرك فكأنه قال احتمل بهتانا ان كان بالقول وانما مبينا كيفما كان الايذاء وكيفما كان فان الله خص الايذاء القولى بالذكر لما بينا انه أعم ولانه أتم لانه يصل الى القلب فان الكلام يخرج من القلب واللسان دليله ويدخل في القلب والآذان سبيله ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿يا أيها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ لما ذكر أن من يؤذى المؤمنين يحتمل بهتانا وكان فيه منع المكلف عن ايذاء المؤمن أمرا المؤمن باجتناب المواضع التي فيها التهم الموجبة للتأذى لئلا يحصل الايذاء الممنوع منه ولما كان الايذاء القولى محتصا بالذكر ما هو سبب الايذاء القولى وهو النساء فان ذكرهن بالسوء يؤذى الرجال والنساء بخلاف ذكر الرجال فان من ذكر امرأته بالسوء تأذت وتأذى أقاربها اكثر من تأذيها ومن ذكر رجلا بالسوء تأذى ولا يتأذى نساؤه وكان في الجاهلية تخرج الحرة والامة تمكشوفات يتبعهن الزناة وتقع التهم فأمر الله الحرائر بالتجليب ﴿وقوله﴾ ﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ قيل يعرفن أنهن حرائر فلا يتعين ويمكن ان يقال المراد يعرفن انهن لا يزنين لان من تستر وجهها مع أنه ليس بعورة لا يطمع فيها انها تكشف عورتها فيعرفن انهن مستورات لا يمكن طلب الزنا منهن ﴿وقوله﴾ ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ يغفر لكم ما قد سلف برحمته وينهيكم على ما تأتون به راحما عليكم ﴿وقوله تعالى﴾ ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا﴾ لما ذكر حال المشرك الذي يؤذى الله ورسوله والمجاهر الذي يؤذى المؤمنين ذكر حال المسر الذي يظهر الحق ويضمر الباطل وهو المنافق ولما كان المذكور من قبل أقواما ثلاثة نظرا الى اعتبار أمور ثلاثة وهم المؤذون الله والمؤذون الرسول والمؤذون المؤمنين ذكر من المسرين ثلاثة نظرا الى اعتبار أمور ثلاثة (أحدها) المنافق الذي يؤذى الله سرا (والثاني) الذي في قلبه مرض الذي يؤذى المؤمن باتباع نسائه (والثالث) المرجف الذي يؤذى النبي عليه السلام بالارجاف بقوله غلب محمد وسيخرج من المدينة وسيؤخذ وهؤلاء وان كانوا قوما واحدا الا أن لهم ثلاث اعتبارات وهذا في مقابلة قوله تعالى ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات حيث ذكر أصنافا عشرة وكأنهم يوجد في واحد فهم واحد بالشخص كثير بالاعتبار وقوله لنغرينك بهم أى لنسلطنك عليهم لتخرجنهم من المدينة ثم لا يجاورونك وتخلو المدينة منهم بالموت أو الاخراج ويحتمل أن يكون المراد لنغرينك بهم فاذا أخرتهاك لا يجاورونك والا ول كقول القائل لن يخرج فلان ويقرأ اشارة الى أمرين والثاني كقوله يخرج فلان ويدخل السوق، في الاول يقرأ وان لم يخرج وفي الثاني لا يدخل الا اذا خرج والاستثناء فيه لطيفة وهي أن الله تعالى وعد النبي عليه السلام انه يخرج أعداءه من المدينة وينفيهم على بدء اظهارا لشوكته ولو كان أتنى بازادة الله من غير واسطة النبي لاخلى المدينة عنهم في لطف آن كن فيكون ولكن لما أراد الله أن يكون على يد النبي لا يقع ذلك الا بزمان وان لطف فقال ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا وهو أن يتم يؤاخيوا للخروج ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ملعونين اينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا﴾ أى في ذلك القليل الذي يجاورونك فيه يكونون ملعونين مطرودين من باب الله وبابك واذا خرجوا لا يتفكون

الجملة لوجوب العبادة حينئذ باعتبار ما في الاسمين الكريمين من الاشعار باستحقاق العبادة فتدبر (و يقول الانسان) المراد به اما الجنس بأسره واسناد القول الى الكل لوجود القول فيما بينهم وان لم يقله الجميع كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم واما البعض المعهود منهم وهم الكفرة أو أبي بن خلف فانه أخذ عظاما بالية ففتها وقال يزعم محمد أنا نبعث بعد ما نموت ونصير الى هذه

عن المذلة ولا يجدون ملجأ بل ايفاء كونون يطلبون و يؤخذون و يقتلون ﴿ ثم قال تعالى ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ يعني هذا ليس بدعا منكم بل هو سنة جارية وعادة مستمرة تفعل بالمكذبين ولن تجد لسنة الله تبديلا أي ليست هذه السنة مثل الحكم الذي يتبدل و ينسخ فان النسخ يكون في الاحكام أما الافعال والاخبار فلا تنسخ ﴿ ثم قال تعالى ﴿ يسئلك الناس عن الساعة قل انما علمها عند الله ﴾ لما بين حالهم في الدنيا أنهم يلعنون و يهانون و يقتلون أراد أن يبين حالهم في الآخرة فذكرهم بالقيامة وذكر ما يكون لهم فيها فقال يسئلك الناس عن الساعة أي عن وقت القيامة قل انما علمها عند الله لا يتبين لكم فان الله أخفاها لحكمة هي امتناع المكلف عن الاجتراء وخوفهم منها في كل وقت ﴿ ثم قال تعالى ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ اشارة الى التخويف وذلك لان قول القائل الله يعلم متى يكون الامر الفلاني يتبع عن ابطاء الامر الا ترى أن من يطالب مديونا بحقه فان استمهله شهرا أو شهرين ربما يصبر ذلك وان قال له اصبر الى أن يقدم فلان من سفره يقول الله يعلم متى يجيء فلان و يمكن أن يكون مجيء فلان قبل انقضاء تلك المدة فقال ههنا وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا يعني هي في علم الله فلا تستبطؤها فربما تقع عن قريب والقريب فعيل يستوي فيه المذكر والمؤنث قال تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين وله هذا لم يقل لعل الساعة تكون قريبة ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا ﴾ يعني كما انهم ملعونون في الدنيا عندكم فكذلك ملعونون عند الله وأعد لهم سعيرا كما قال تعالى لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا خالدين فيها أبدا مطيلين المكث فيها مستمرين لا أمد لتمرد وجهم ﴿ وقوله ﴿ لا يجدون وليا ولا نصيرا ﴾ لما ذكر خلودهم بين تحقيقه وذلك لان المعذب لا يخلصه من العذاب الا صديق يشفع له أو ناصر يدفع عنه ولا ولي لهم يشفع ولا نصير يدفع ﴿ ثم قال تعالى ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كثيرا ﴾ لما بين أنه لا شفيع لهم يدفع عنهم العذاب بين ان بعض أعضائهم أيضا لا يدفع العذاب عن البعض بخلاف عذاب الدنيا فان الانسان يدفع عن وجهه الضربة اتقاء بيده فان من يقصد رأسه ووجهه تجعل يده جنة أو يطأطئ رأسه كي لا يصيب وجهه وفي الآخرة تقلب وجوههم في النار فاظنك بسائر أعضائهم التي تجعل جنة للوجه وقايته يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا فيتحسرون و يندمون حيث لا تغنيهم الندامة والحسرة لحصول علمهم بأن الخلاص ليس الا لمطيع ثم يقولون انا أطعنا سادتنا وكبراءنا يعني بدل طاعة الله تعالى أطعنا السادة وبدل طاعة الرسول أطعنا الكبراء وتركنا طاعة سيد السادات وأكبر الاكابر فبدلنا الخير بالشر فلا جرم فاتنا خير الجنان وأوتينا شر النيران ثم انهم يطلبون بعض التشفي بتعذيب المضلين و يقولون ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كثيرا أي بسبب ضلالهم واضلالهم * وفي قوله تعالى ضعفين ولعنا كثيرا مع أن طلب مثل هو ان الدعاء لا يكون الا عند عدم حصول الامر المدعو به والعذاب كان حاصلا لهم واللعن كذلك فطلبوا ما ليس بحاصل وهو زيادة العذاب بقولهم ضعفين وزيادة اللعن بقولهم لعنا كثيرا ﴿ ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ﴾ لما بين الله تعالى ان من يؤذي الله ورسوله يلعن و يعذب وكان ذلك اشارة الى ايذاء هو كفار رشدا المؤمنين الى الامتناع من ايذاء هود ونه وهو لا يورث كفرا وذلك مثل من لم يرض

الحال أي يقول بطريق الانكار والاستبعاد (أئذا مامت لسوف أخرج حيا) أي أبعث من الارض أو من حال الموت وتقديم الظرف وايلاؤه حرف الانكار لما أن المنكر كون ما بعد الموت وقت الحياة وانتصابه بفعل دل عليه أخرج لا به فان ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها وهي ههنا مخلصة للتوكيد مجردة عن معنى الحال كما خلصت الهمزة واللام للتعويض في يا الله فساغ اقترانها بحرف الاستقبال وقرئ اذا ما مت بهمزة واحدة مكسورة على النظر (أولا يذكر الانسان) من الذكر الذي يراد به التفكر والاظهار في موقع الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بان الانسانية من دواعي التفكر فيما يجري عليه من شؤن التكوين المخبة بالقلع عن القول المذكور وهو السرفي اسناده الى الجنس أو الى الفرد بذلك العنوان والهمزة للانكار التوبيخي والواو لعطف الجملة المنفية على مقدر يدل عليه يقول أي أيقول ذلك ولا يذكر (أنا خلقناه من قبل) أي من قبل الحالة التي هو فيها وهي حالة بقائه (ولم يك شيئا) أي والحال انه لم يكن حينئذ شيئا أصلا فحيث خلقناه وهو في تلك الحالة المنافية للخلق بالكلية مع كونه أبعد من الوقوع فلان نعيده بجميع المواد المتفرقة وايجاده مثل ما كان فيها من الاعراض أولى وأظهر فحاله لا يذكر فيقع فيما يقع

فهم من التنكير وقرئ بذكر ويتذكر على الاصل (فوربك) اقسامه باسمه عزت أسمائه مضافا الى ضميره عليه السلام لتحقيق الامر بالاشعار بعليته وتفخيم شأنه عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته (لنحشرنهم) لنجمعن القائلين بالسوق الى المحشر بعد ما أخرجناهم من الارض أحياء ففيه اثبات للبعث بالطريق البرهاني على أبلغ وجه وآكده كأنه أمر واضح غني عن التصريح به وانما المحتاج الى البيان ما بعد ذلك من الاهوال (والشياطين) معطوف على الضمير المنصوب أو مفعول معه وروي ان الكفرة يحشرون مع قرنائهم من الشياطين التي كانت تغويهم كل منهم مع شيطانه في سلسلة وهذا وان كان مختصا بهم لكن ساغ نسبته الى الجنس باعتبار أنهم لما حشروا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حشروا معهم جميعا كما ساغ نسبة القول المحكي اليهم مع كون القائل بعض أفراده (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) لمرى السعداء ما نجاهم الله تعالى منه فيزدادوا غبطة وسرورا ويسأل الاشقياء ما ادخروا لهادهم عدة ويزدادوا غيظا من رجوع السعداء عنهم الى دار الثواب وشماتتهم بهم والجثي جمع جاث من جثا اذا قعد على ركبتيه وأصله جثوو بواو بين فاستثقل اجتماعهما بعد ضمتين فكسرت الثاء للتخفيف فانقلبت الواو الاولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها فاجتمعت واو وياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت فيها الياء الاولى وكسرت لتصح لتباعا لما بعدها وقرئ بضمها ونصبه على الحالية من الضمير البارز أي لنحضرنهم حول جهنم جاثين على ركبهم لما يدهمهم من هول المطلع أو لانه من توابع التواقف للحساب قيل التواصل الى الثواب والعقاب فان أهل الموقف جاثون كما ينطق به قوله

بقسمة النبي عليه الصلاة والسلام وبحكمه بالفيء لبعض وغيره ذلك فقال يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى وحديث ايذاء موسى مختلف فيه قال بعضهم وايذاؤهم اياه بنسبته الى عيب في بدنه وقال بعضهم قارون قرر مع امرأة فاحشة حتى تقول عند بني اسرائيل ان موسى زنى بي فلما جمع قارون القوم والمرأة حاضرة ألقى الله في قلبها انها صدقت ولم تقبل ما قلت وبالجملة الايذاء المذكور في القرآن كاف وهو أنهم قالوا للذهب أنت وربك فقاتلا وقولهم ان نؤمن لك حتى نرى الله جهرة وقولهم ان نصبر على طعام واحد الى غير ذلك فقال لمؤمنين لا تكونوا أمثالهم اذا طلبكم الرسول الى القتال أي لا تقولوا اذهب أنت وربك فقاتلا ولا تسألوا ما لم يؤذن لكم فيه وما آتاكم الرسول بشيء فأتوا منه ما استطعتم وقوله فبرأه الله مما قالوا على الاول ظاهر لانه أبرز جسمه لقومه فرأوه وعلموا فساد اعتقادهم ونطقت المرأة بالحق وأمر الملائكة حتى عيروا بهم وعلى الثاني فبرأه من عيب يجرح فعلموا براءة موسى عليه السلام عن قتله الذي رموه به وعلى ما ذكرنا فبرأه الله مما قالوا أي أخرجه عن عهدة ما طلبوا باعطائه البعض اياهم واظهار عدم جواز البعض وبالجملة قطع الله حجتهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة وغضب عليهم ﴿ وقوله ﴿ وكان عند الله وجيها ﴾ أي ذا وجاهة ومعرفة والوجيه هو الرجل الذي يكون له وجه أي يكون معروفا بالخير وكل أحد وان كان عند الله معروفا لكن المعرفة المجردة لا تكفي في الوجاهة فان من عرف غيره لكونه خادما له وأجيرا عنده لا يقال هو وجيه عند فلان وانما الوجيه من يكون له خصال جميلة تحمل من شأنه أن يعرف ولا ينكر وكان كذلك ﴿ ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ أرشدهم الى ما ينبغي أن يصدر منهم من الافعال والاقوال اما الافعال فالخير واما الاقوال فالحق لان من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى الله ومن قال الصدق قال قولا سديدا ثم وعدهم على الامرين بامرين على الخيرات باصلاح الاعمال فان يتقوى الله يصلح العمل والعمل الصالح يرفع ويبقى فيبقى فاعله خالدا في الجنة وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ فطاعة الله هي طاعة الرسول ولكن جمع بينهما للبيان شرف فعل المطيع فانه بفعله الواحد تضمن عند الله عهدا وعند الرسول بداوقوله فقد فاز فوزا عظيما جعله عظيما من وجهين (أحدهما) انه نجاه من عذاب عظيم والنجاة من العذاب تعظم بعظم العذاب حتى ان من أراد أن يضرب غيره سوطا ثم نجاه منه لا يقال فاز فوزا عظيما لان العذاب الذي نجا منه لو وقع بها كان يتفاوت الامر تفاوتا كثيرا (والثاني) انه وصل الى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الابدي ﴿ ثم قال تعالى ﴿ انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا ﴾ لما أرشد الله المؤمنين الى مكارم الاخلاق وأدب النبي عليه الصلاة والسلام باحسن الآداب بين أن التكليف الذي وجهه الله الى الانسان أمر عظيم فقال انا عرضنا الامانة أي التكليف وهو الامر بخلاف ما في الطبيعة واعلم أن هذا النوع من التكليف ليس في السموات ولا في الارض لان الارض والجبل والسماء كلها على ما خلقت عليه الجبل لا يطلب منه السير والارض لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ولا في الملائكة لان الملائكة وان كانوا مأمورين منهيين عن أشياء لكن ذلك لهم كالاكل والشرب لما فيه يصومون الليل والنهار لا يفترون كما يشتغل الانسان بأمر موافق لطبعه وفي الآية مسائل ﴿ المسألة الاولى ﴾ في الامانة وهو كثيرة منهم من قال هو التكليف وسمي أمانة لان من قصر فيه فعليه الغرامة ومن وفر فله الكرامة ومنهم من قال هو قول لا اله الا

ه الى وترى كل أمة جاثية على ما هو المعتاد في مواقف التقاول وان كان المراد بالانسان الكفرة فلعلهم يساقون من الموقف الى شاطئ جهنم جثاة اهانة بهم أو لعجزهم عن القيام لما اعتراهم من الشدة (ثم لننزعن من كل شيعة) أي من كل أمة شاعت دينا من الاديان (أيهم أشد على الرحمن عتيا) أي من كان ٦٣٠ منهم أعصى وأعتى فنطرحهم فيها وفي ذكر الاشد تنبيه على انه تعالى يعفو عن بعض من أهل

الله وهو بعيد فان السموات والارض والجبال باستنطاقه بأن الله واحد لا اله الا هو ومنهم من قال الاعضاء فالعين أمانة بتقبي أن يحفظها والاذن كذلك واليد كذلك والرجل والفرج واللسان ومنهم من قال معرفة الله بما فيها والله أعلم (المسئلة الثانية) في العرض وجوه منهم من قال المراد العرض ومنهم من قال الحشر ومنهم من قال المقابلة أي قابلنا الامانة على السموات فرجحت الامانة على أهل السموات والارض (المسئلة الثالثة) في السموات والارض وجهان (أحدهما) أن المراد هو بأعيانها (والثاني) المراد أهلوها ففيه اضمار تقديره انا عرضنا الامانة على أهل السموات والارض (المسئلة الرابعة) قوله فأبين أن يحملنها لم يكن اباؤهن كاباء ابليس في قوله تعالى فأبى أن يكون مع الساجدين من وجهين (أحدهما) ان هناك السجود كان فرضا وههنا الامانة كانت عرضا (وثانيهما) ان الاباء كان هناك استكبارا وههنا استصغارا استصغرن أنفسهن بدليل قوله وأشفقن منها (المسئلة الخامسة) ما سبب الاشفاق نقول الامانة لا تقبل لوجوه (أحدها) أن يكون عزيزا صعب الحفظ كالاواني من الجواهر التي تكون عزيزة سريعة الانكسار فان العاقل يمتنع عن قبولها ولو كانت من الذهب والفضة لقبلها ولو كانت من الزجاج لقبلها في الاول لامانه من هلاكها وفي الثاني لكونها غير عزيزة الوجود والتكليف كذلك (والثاني) أن يكون الوقت زمان نهب وغارة فلا يقبل العاقل في ذلك الوقت الودائع والامر كذلك لان الشيطان وجنوده كانوا في قصد المكلفين إذا لم يكن في الارض كان بعد خروج آدم من الجنة (الثالث) مراعاة الامانة والاتيان بما يجب كايداع الحيوانات التي تحتاج الى العلف والسقي وموضع مخصوص يكون برسمها فان العاقل يمتنع من قبولها بخلاف متاع يوضع في صندوق أو في زاوية بيت والتكليف كذلك فانه يحتاج الى تربية وتتمة (المسئلة السادسة) كيف حملها الانسان ولم تحملها هذه الاشياء فيه جوابان (أحدهما) بسبب جهله بما فيها وعلمهن ولهذا قال تعالى انه كان ظلوما جهولا (والثاني) ان الاشياء نظرت الى أنفسهن فرأين ضعفهن فامتنعن والانسان نظر الى جانب المكلف وقال المودع عالم قادر لا يعرض الامانة الا على أهلها واذا أودع لا يترك كما بل يحفظها بعينه وعرفه فقبلها وقال الهالك نعبدوا يالك نستعين (المسئلة السابعة) قوله تعالى انه كان ظلوما جهولا فيه وجوه (أحدها) ان المراد منه آدم ظلم نفسه بالمخالفة ولم يعلم ما يعاقب عليه من الاخراج من الجنة (ثانيها) المراد الانسان يظلم بالعصيان ويجهل ما عليه من العقاب (ثالثها) انه كان ظلوما جهولا أي كان من شأنه الظلم والجهل يقال فرس شموس ودابة جموع ورماح وروأى من شأنه ذلك فكذلك الانسان من شأنه الظلم والجهل فلما أودع الامانة بقي بعضهم على ما كان عليه وبعضهم ترك الظلم كما قال تعالى الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم وترك الجهل كما قال تعالى في حق آدم عليه الصلاة والسلام وعلم آدم الاسماء كلها وقال في حق المؤمنين عامة والراسخون في العلم يقولون آمنا به وقال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء (رابعها) انه كان ظلوما جهولا في ظن الملائكة حيث قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها وبين علمه عند هم حيث قال تعالى أنبئوني بأسماء هؤلاء وقال بعضهم في تفسير الآيتان الخلوق على قسمين مدرك وغير مدرك والمدرك منه من يدرك الكلي والجزئي مثل الآدمي ومنه من يدرك الجزئي كالبهائم تدرك الشعير الذي تأكله ولا تتفكر في عواقب الامور ولا تتفطن في الدلائل والبراهين ومنه من يدرك الكلي ولا يدرك الجزئي كالملك يدرك الكليات ولا يدرك لذة الجماع والاكل قالوا والى هذا أشار الله تعالى بقوله ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات والتكليف

العصيان وعلى تقدير تفسير الانسان بالكفرة فالمعنى انا نميز من كل طائفة منهم أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم فنطرحهم في النار على الترتيب أو تدخل كلا منهم طبقتها اللائقة به وأيهم مبنى على الضم عند سيبويه لان حقه أن يبنى كسائر الموصولات لكنه أعرب حملا على كل وبعض لزوم الاضافة واذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد الى حقه ومنصوب المحل بننزعن ولذلك قرئ منصوبا ومرفوع عند غيره بالابتداء على انه استفهامي وخبره أشد والجملة محكية والتقدير لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم أيهم أشد أو معلق عنها لننزعن لتضمنه معنى التمييز اللازم للعلم أو مستأنفة والفعل واقع على كل شيعة على زيادة من أو على معنى لننزعن بعض كل شيعة كقوله تعالى ووهبنا لهم من رحمتنا وعلى للبيان فيتعلق بمحذوف كان سائلا قال على من عتوا فقيل على الرحمن أو متعلق بافعل وكذا الباء في قوله تعالى (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) أي هم أولى بصليها أو صليهم أولى بالنار لم وهم المتنزعون ويجوز أن يراد بهم وبأشدهم عتيا رؤساء الشيع فان عذابهم مضاعف لضلالهم واضلالهم والصلى كالعتي صيغة وأعلالا وقرئ بضم الصاد (وان منكم) التفات لاظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام وقيل هو خطاب للناس من غير التفات الى المذكور

ويؤيد الاول انه قرئ وان منهم أى مأمنتكم أيها الانسان (الأواردها) أى واصلها واحاضرو نها مع المؤمنين وهى خامدة ونهارغيرهم وعن جابر انه صلى الله عليه وسلم سئل عنه فقال اذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار فيقال لهم قد وردتموها وهى خامدة وأما قوله تعالى أولئك عنها مبعدون فالمراد به الابعاد عن عذابها ٦٣١ وقيل ورودها الجواز على الصراط

لم يكن الا على مدرك الامرين اذ له لذات بأمور جزئية فنع منها التحصيل لذات حقيقة هى مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته واما غيره فان كان مكلفا يكون مكلفا بما يعنى الامر بما فيه علهم كلفة ومشقة بل بمعنى الخطاب فان المخاطب يسمى مكلفا لما ان المكلف مخاطب فسمى المخاطب مكلفا وفى الآية لطائف (الاولى) الامانة كان عرضها على آدم فقبلها فكان أمينا عليها والقول قول الامين فهو فائز فى أولاده أخذ والامانة منه والا أخذ من الامين ليس بمؤتمن ولهذا وارث المودع لا يكون الا قوله ولم يكن له بد من تجديد عهد وائتمان فالمؤمن اتخذ عند الله عهدا فصار أمينا من الله فصار القول قوله فكان له ما كان لآدم من الفوز ولهذا قال تعالى ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات أى كتاب على آدم فى قوله تعالى فتاب عليه والكافر صار آخذا للامانة من المؤتمن فبقى فى ضمانه ثم ان المؤمن اذا أصاب الامانة فى يده شئ بقضاء الله وقدره كان ذلك من غير تقصير منه والامين لا يضمن ما فات بغير تقصير والكافر اذا أصاب الامانة فى يده شئ ضمن وان كان بقضاء الله وقدره لانه يضمن ما فات وان لم يكن بتقصير (اللطيفة الثانية) خص الاشياء الثلاثة بالذكر لانها اشد الامور وأحملها للاثقال اما السموات فلقوله تعالى وخلقنا فوقكم سبعا شدادا والارض والجبال لا تخفى شدتها وصلابتها ثم ان هذه الاشياء لما كانت لها شدة وصلابة عرض الله تعالى الامانة عليها لما كفى بشدتهن وقوتهن قائمتين لانهن وان كن اقوى باء الا أن أمانة الله تعالى قوة تقهر تهن وحملها الانسان مع ضعفه الذى قال الله تعالى فيه وخلق الانسان ضعيفا ولكن وعده بالاعانة على حفظ الامانة بقوله ومن يتوكل على الله فهو حسبه فان قيل فالذى يعينه الله تعالى كيف يعذب الكافر نقول قال الله تعالى انا أعين من يستعين بى ويتوكل على والكافر لم يرجع الى الله تعالى فتركه مع نفسه فبقى فى عهدة الامانة (اللطيفة الثالثة) قوله تعالى فابين أن يحملنها وقوله تعالى وحملها الانسان اشارة الى أن فيه مشقة بخلاف ما لو قال فأبين أن يقبلنها وقبلها الانسان ومن قال لغيره افعل هذا الفعل فان لم يكن فى الفعل تعب يقابل بأجرة فاذا فعله لا يستحق أجرة فقال تعالى وحملها اشارة الى انه مما يستحق الاجر عليه أى على مجرد حمل الامانة واما على رعايتها حق الرعاية فيستحق المزيد فان قيل فالكل حملوها غاية ما فى الباب ان الكافر لم يأت بشئ زائد على الحمل فينبغى أن يستحق الاجر على الحمل فنقول الفعل اذا كان على وفق الاذن من المالك الامر يستحق الفاعل الاجر ألا ترى انه لو قال احمل هذا الى الضيعة التى على الشمال فحمل وتعدى الضيعة التى على اليمين لا يستحق الاجر ويلزمه رد ما الى الموضع الذى كان فيه كذلك الكافر حملها على غير وجه الاذن فعليه وزر السيئات حسنات التى عملها بسببه ﴿ ثم قال تعالى ﴾ (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) ﴿ أى حملها الانسان ليقع تعذيب المنافق والمشرك فان قال قائل لم قدم التعذيب على التوبة نقول لما سمى التكليف امانة والامانة من حكمها اللازم ان الخيانة يتضمن وليس من حكمها اللازم أن الامين الباذل جهده يستفيد أجرة فكان التعذيب على الخيانة كاللازم والاجر على الحفظ احسان والعدل قبل الاحسان وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ﴿ لم عطف المشرك على المنافق ولم يعد اسمه تعالى فلم يقل ويعذب الله المشركين وعند التوبة أعاد اسمه وقال يتوب الله ولو قال ويتوب على المؤمنين كان المعنى محصلا نقول أراد تفضيل المؤمن على المنافق بجعله كالمكلام المستأنف ويجب هناك ذكر الفاعل فقال ويتوب الله ويحقق هذا قراءة من قرأ وتوب الله بالرفع (المسئلة الثانية) ذكر الله فى الانسان وصفين الظلوم والجهول وذكر من أوصافه

(بينات) أى مرتلات الالفاظ مبينات المعانى بنفسها أو ببيان الرسول عليه الصلاة والسلام أو ببينات الاعجاز حال مؤكدة من آياتنا (قال الذين كفروا) أى قالوا ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على انهم قالوا ما قالوا لكافرين بداية لى عليهم رادين له أو قال الذين مردوا منهم على الكفر ومرنوا على العتو والعناد وهم المتصدرون الجرث وأتباعه الفجرة واللام فى قول تعالى (للذين آمنوا) للتبليغ كما فى مثل قوله تعالى

المدود عليها (كان) أى ورودهم اياها (على ربك حتما مقضيا) أى أمرا محتوما أوجبه الله عز وجل على ذاته وقضى أنه لابد من وقوعه البتة وقيل اقسم عليه (ثم ننجى الذين اتقوا) الكفر والمعاصى مما كانوا عليه من حال الجثو على الركب على الوجه الذى سلف فيساقون الى الجنة وقرئ ننجى بالتخفيف وينجى وينجى على البناء للفعول وقرئ ثم ننجى بفتح النون أى هناك نجيهم (ونذر الظالمين) بالكفر والمعاصى (فيها جثيا) منها رابهم كما كانوا قيل فيه دليل على أن المراد بالورود الجثو حولها وان المؤمنين يفارقون النعرة بعد تجاثيهم حولها ويلقى النعرة فيقيم على ما هم وقوله تعالى (واذا تتلى عليهم) الآية الى آخرها حكاية لما قالوا عند سماع الآيات الناعية عليهم قطاعة جاهلهم ووخامة ما آل لهم أى واذا تتلى على المشركين (آياتنا) التى من جملتها هاتيك الآيات الفاطقة بحسن حال المؤمنين وسوء حال الكفرة وقوله تعالى

وقال لهم نبيهم وقيل لام الاجل كما في قوله تعالى وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه أي قالوا لاجلهم وفي حقهم والاول هو الاولى لان قولهم ليس في حق المؤمنين فقط كما ينطق به قوله تعالى (أي الفريقين) أي المؤمنين والكافرين كأنهم قالوا أينا (خير) نحن أو أنتم (مقاما) أي مكانا وقرئ بضم الميم أي موضع اقامة ومتزلا (وأحسن نديا) أي مجلسا ومتحدثا يروى انهم كانوا يرجلون شعورهم و يدهنونها و يتطيبون و يتزينون ٦٣٢ بالزين الفاخرة ثم يقولون ذلك الفقراء المؤمنين يريدون بذلك أن خير يتهم حالا وأحسنيتهم

وصفين ﴿فقال﴾ ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ أي كان غفورا للظلوم رحيما على الجهول وذلك لان الله تعالى وعد عباده بانه يغفر الظلم جميعا الا الظلم العظيم الذي هو الشرك كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم واما الوعد فقوله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء واما الرحمة على الجهل فلان الجهل محل الرحمة ولذلك يعتذر المسيء بقوله ما علمت ﴿وههنا لطيفة﴾ وهي ان الله تعالى اعلم عبده بأنه غفور رحيم وبصره بنفسه فرآه ظلوما جهولا ثم عرض عليه الامانة فقبلها مع ظلمه وجهله لعلمه فيما يجبرها من الغفران والرحمة والله أعلم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي وعلى آله وصحبه وسلم

﴿تم الجزء السادس ويليه الجزء السابع أوله سورة سبا﴾

منا لا يمكن الانكار وأن ذلك لكرامتهم على الله سبحانه وزلفاهم عنده اذ هو الايثار على الفضل والنقصان والرفعة والضعة وأن من ضرورته هو ان المؤمنين عليه تعالى قصور حظهم العاجل وما هذا القياس العقيم والرأى السقيم الا لكونهم جهلة لا يعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا وذلك مبلغهم من العلم فرد عليهم ذلك من جهته تعالى بقوله (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا) أي كثيرا من القرون التي كانت أفضل منهم فيما يفتخرون به من الحظوظ الدنيوية كعاد وثمود وأضرابهم من الامم الماضية قبل هؤلاء أهلكناهم بفنون العذاب ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا لما فعلنا بهم ما فعلنا وفيه من التهديد والوعيد ما لا يخفى كأنه قيل فليتفكر هؤلاء أيضا مثل ذلك لكم فكم مفعول أهلكنا ومن قرن بيان لابهامها وأهل كل عصر قرن لمن بعدهم لانهم يتقدمونهم مأخوذ من قرن الدابة

ونصب مقدما وقوله تعالى هم أحسن أثاثا في حيز النصب على أنه صفة لكم وأثاثا تمييز النسبة وهو متاع البيت وقيل هو ما رؤى منه والمرئى ما يبس منه وزنا والرئى المنظر فعل من الرؤية لما يرى كالطحن لما يطحن وقرئ ريا على قلب الهمزة ياء وادغامها أو على انه من الرى وهو النعمة والترفه وقرئ ريشا على القلب وريا بحذف الهمزة وزيا بالزاى المعجمة من الزاى وهو الجمع فانه عبارة عن المحاسن المجموعة